

نجيب محفوظ

# المؤلفات الكاملة

1

همسُ الجنون      كفاحُ طيبة  
عبثُ الأقدار      القاهرةُ الجديدة  
رادوبيس      خانُ الخليلي  
زقاق المدق

مكتبة لبنان

# المحتويات

ص ٣	.....	- همس الجنون
ص ١٤١	.....	- عبث الأقدار
ص ٢٢٧	.....	- رادوبيس
ص ٣١٩	.....	- كفاح طيبة
ص ٤٢٩	.....	- القاهرة الجديدة
ص ٥٢١	.....	- خان الخليلى
ص ٦٣٩	.....	- زقاق المدق

فمنه والجنون

## هَمْسُ الْجُنُونِ

ما الجنون؟؟

ويلبث ساعات متتابعات جامدًا صامتًا، يشاهد الرائحين والغادين بطرف ناعس وجفنين ثقيلين، لا يمل ولا يتعب ولا يجزع، فعلى كرسیه من الطوار كانت حياته ولذته. ولكن وراء ذلك المظهر البليد الساكن حرارة أو حركة في قرارة النفس أو الخيال، كان هدوءه شامل الظاهر والباطن، الجسم والعقل، الخواس والخيال، كان تمثالًا من لحم ودم يلوح كأنما يشاهد الناس، وهو بمعزل عن الحياة جميعًا.

ثم ماذا؟

حدث في الماء الأسن حركة غريبة فجائية كأنما ألقى فيه بحجر.

كيف؟!.

رأى يومًا - إذ هو مطمئن إلى كرسیه على الطوار - عمالًا يملئون الطريق، يرشون رملاً أصفر فاقعًا يسر الناظرين، بين يدي موكب خطير. ولأول مرة في حياته يستثير دهشته شيء فيتساءل لماذا يرشون الرمل؟ ثم قال لنفسه إنه يثور فيملاً الخياشيم ويؤذي الناس، وهم أنفسهم يرجعون سريعًا فيكنسونه ويلمونه، فلماذا يرشونه إذًا؟! وربما كان الأمر أتفه من أن يوجب التساؤل أو الحيرة، ولكن تساؤله بدا له كأخطر حقيقة في حياته وقتذاك، فخال أنه بصدد مسألة من مسائل الكون الكبرى، ووجد في عملية الرش أولًا والكنس أخيرًا والأذى فيما بين هذا وذاك حيرة أي حيرة، بل أحسن ميلًا إلى الضحك، ونادرًا ما كان يفعل، فضحك ضحكًا متواصلًا حتى دمعت عيناه. ولم يكن ضحكه هذا محض انفعال طارئ، فالواقع أنه كان نذير تغيير شامل، خرج به من صمته الرهيب إلى حال جديدة، ومضى يومه حائرًا أو ضاحكًا، يحدث نفسه

إنه فيما يبدو حالة غامضة كالحياة والموت، تستطيع أن تعرف الشيء الكثير عنها إذا أنت نظرت إليها من الخارج، أما الباطن، أما الجوهر، فسر مغلق. وصاحبنا يعرف الآن أنه نزل ضيقًا بعض الوقت بالخانكة، ويذكر - الآن أيضًا - ماضي حياته كما يذكره العقلاء جميعًا، وكما يعرف حاضره، أما تلك الفترة القصيرة - قصيرة كانت والحمد الله - فيقف وعيه حيال ذكرياتها ذاهلاً حائرًا لا يدري من أمرها شيئًا تطمئن إليه النفس. كانت رحلة إلى عالم أثيري عجيب، مليء بالضباب، تتخيل لعينيه منه وجوه لا تتضح ملامحها، كأنها حاول أن يسלט عليها بصيصًا من نور الذاكرة، ولت هاربة فابتلعها الظلمة. ويجيء أذنيه منه أحيانًا ما يشبه المهمة. وما إن يرهف السمع ليميز مواقعها حتى تفر متراجعة تاركة صمتًا وحيرة. ضاعت تلك الفترة السحرية بما حفلت من لذة وألم، حتى الذين عاصروا عهدها العجيب قد أسدلوا عليها ستارًا كثيفًا من الصمت والتجاهل لحكمة لا تخفى، فاندثرت دون أن يتاح لها مؤرخ أمين يحدث بأعاجيبها. ترى كيف حدثت؟! متى وقعت؟ كيف درك الناس أن هذا العقل غدا شيئًا غير العقل؟ وأن صاحبه أمسى فردًا شاذًا يجب عزله بعيدًا عن الناس كأنه الحيوان المفترس؟!.

كان إنسانًا هادئًا أخص ما يوصف به الهدوء المطلق. ولعله ذاك ما حجب إليه الجمود والكسل، وزهده في الناس والنشاط. ولذلك عدل عن مرحلة التعليم في وقت باكر، وأبى أن يعمل مكتفياً بدخل لا بأس به. وكانت لذته الكبرى أن يطمئن إلى مجلس منعزل على طوار القهوة فيشربك راحتيه على ركبته،

ونظر فيما حوله في ثوانٍ ثمّ تساءل أيستطيع أن يرفع يديه إلى رأسه؟ أجل يستطيع، وها هو ذا يرفع يديه غير مكترث لأحد من الناس. ثمّ تساءل مرّة أخرى هل تؤاتيه الشجاعة على أن يقف على قدم واحدة؟ وقال لنفسه: فلم لا أستطيع وما عسى أن يعتاق حرّيتي؟! وراح يرفع يسراه كأنه يقوم بحركة رياضية في أناة وعدم مبالاة كأنه وحده في الطريق بلا رقيب. وغمرت فؤاده طمأنينة سعيدة وملاته ثقة بالنفس لا حدّ لها، فمضى يتأسّف على ما فاتته - طوال عمره - من فرص كانت حرّية بأن تتمّعه بحرّيته وتسعده، واستأنف مسيره وكأنه يستقبل الحياة من جديد.

ومرّ في طريقه إلى القهوة بمطعم كان يتناول به عشاءه في بعض الأحيان، فرأى على طواره مائدة ملأى بما لذّ وطاب. يجلس إليها رجل وامرأة متقابلين يأكلان مريئاً ويشربان هنيئاً، وعلى بُعد يسير جلس جماعة من غلمان السبل، عرايا إلا من أسبال بالية، تغشى وجوههم وبشرتهم طبقة غليظة من غبار وقذارة، فلم يرتج لما بين المنظرين من تنافر، وشاركته حرّيته عدم ارتياحه فأبت عليه أن يمرّ بالمطعم مرّ الكرام. ولكنّ ما عسى أن يصنع؟ قال له فؤاده بعزم ويقين: «بنبغي أن يأكل الغلمان مع الآخرين». ولكنّ الأكلين لا يتنازلان عن شيء من هذه الدجاجة أمامهما بسلام، هذا حقّ لا ريب فيه، أمّا إذا رمى بها إلى الأرض فتلوتت بالتراب فها من قوّة تستطيع أن تحرمها الغلمان، فهل ثمة مانع يمنع من تحقيق رغبته؟. . . هيهات، وربّما كان التردّد ممكناً في زمن مضى، أمّا الآن. . . واقترب من المائدة بهدوء، ومدّ يده إلى الطبق فتناول الدجاجة، ثمّ رمى بها عند أقدام العرايا، وتحول عن المائدة وسار إلى حال سبيله كأنما لم يأت أمراً نكراً، غير عابئ بالزئير الذي يلاحقه مفعماً بأقذع السباب والشتائم، بل غلبه الضحك على أمره، فاسترسل ضاحكاً حتى دمعت عيناه. وتنهّد بارتياح من الأعماق، وعاوده شعوره العميق بالطمأنينة والثقة والسعادة.

وبلغ القهوة فمضى إلى كرسيه واطمأن إليه كعادته، بيد أنّه لم يستطع هذه المرّة أن يشبك راحتيه حول

فيقول كالذاهل: يرشون فيؤذون ثمّ يكنسون . . . ها ها ها!

وفي صباح اليوم الثاني لم يكن أفاق من حيرته بعد. ووقف أمام المرأة يهيم من شأنه، ف وقعت عيناه على ربطة رقبته وسرعان ما أدركته حيرة جديدة، فتساءل لماذا يربط رقبته على هذا النحو؟ ما فائدة هذه الربطة؟ لماذا نشقّ على أنفسنا في اختيار لونها وانتقاء مادتها؟ وما يدرى إلاّ وهو يضحك كما ضحك بالأمس، وجعل يرنو إلى ربطة الرقبة بحيرة ودهشة، ومضى يقلّب عينيه في أجزاء من ملابسه جيئاً بإنكار وغرابة. ما حكمة تكفين أنفسنا على هذا الحال المضحك؟ لماذا لا نخلع هذه الثياب ونطرحها أرضاً؟ لماذا لا نبدو كما سوانا الله؟. بيد أنّه لم يتوقّف عن ارتداء ملابسه حتى انتهى منها، وغادر البيت كعادته.

ولم يعد يذوق هدوءه الكثيف الذي عاش في إهابه دهرًا طويلًا قانئًا مطمئنًا. كيف له بالهدوء وهذه الثياب الثقيلة تأخذ بخناقته على رغبته؟! أجل على رغبته. وقد اجتاحت موجة غضب وهو يحثّ خطاه، وكبر عليه أن يرضى بقيد على رغبته. أليس الإنسان حرّاً؟ وتفكّر ملياً ثمّ أجاب بحماس: بلى أنا حرّ. وملاه بغتة الشعور بالحرّية، وأضاء نور الحرّية جوانب روحه حتى استخفه الطرب. أجل هو حرّ. نزلت عليه الحرّية كالوحي فملاه يقيناً لا سبيل إلى الشكّ فيه، أنّه حرّ يفعل ما يشاء كيف شاء حين يشاء، غير مدعٍ لقوّة أو خاضع لعلّة لسبب خارجي أو باعث باطني. حلّ مسألة الإرادة في ثانية واحدة، وأنقذها بحماس فائق من وطأة العلل، وداخله شعور بالسعادة والتفوق عجيب، فالقى نظرة ازدراء على الخلق الذين يضربون في جوانب السبل مسيرين مصفّدين لا يملكون لأنفسهم ضميراً ولا نفعا، إذا ساروا لم يملكوا أن يقفوا، وإذا وقفوا لم يملكوا أن يسيروا، أمّا هو فيسير إذا أراد ويقف حين يريد، مزدرياً كلّ قوّة أو قانون أو غريزة. وأهاب به شعوره الباهر أن يجرب قوّة الخارقة فلم يستطع أن يعرض عن نداء الحرّية. توقّف عن مسيره بغتة وهو يقول لنفسه: «هأنذا أقف لغير ما سبب»،

## همس الجنون ٧

اللكمات والسباب، فحطمت نظارته ومزق زرّ طربوشه وتهتك قميصه، ونغضت ثنيتاه، ولكنّه لا ارتدع ولا ازدجر ولا انثنى عن سبيله المحفوف بالمخاطر، ولا فارق الابتسام شفثيه، ولا خمدت نشوة فؤاده الثمل، ولو اعترض الموت طريقه لاقتحمه غير هيّاب.

ولمّا أذنت الشمس بالمغيب عثرت عيناه المتجولتان بحسناة مقبلة متأبّطة ذراع رجل أنيق المنظر، ترفل في ثوب رقيق شفاف، تكاد حلمة ثديها تنقب أعلى فستانها الحريريّ، وجذب صدرها الناهد عينيه فزادت اتساعاً ودهشة، وهاله المنظر، وكانت تقترب خطوة فخطوة حتّى باتت على قيد ذراع.

وكان عقله - أو جنونه - يفكر بسرعة خياليّة، فخطر له أن يغمز هذه الحلمة الشاردة!، إنّ رجلاً ما فعل ذلك على أيّة حال، فليكن هذا الرجل، واعترض سيلهما، ومدّ يده بسرعة البرق، وقرص! آه لقد انهالت عليه اللطحات واللكمات، وأحاط به كثيرون. ولكنّهم في النهاية تركوه! لعلّ ضحكته الجنونيّة أخافتهم، ولعلّ نظرة عينيه المحمّلتين أفرزتهم. تركوه على أيّة حال. ونجا ولم تكد تزداد حالته سوءة!! وكان لا يزال به طموح إلى مزيد من المغامرات، ولكن لاحظت منه نظرة إلى ملابسه فهاله ما يرى من تمزّقها وتهتكها. وبدلاً من أن يأسى على نفسه راح يذكر ما دار بخلدّه صباح اليوم أمام المرأة، فلاحت في عينيه نظرة غائبة، وعاد يتساءل لماذا يدع نفسه سجيناً في هذه اللفائف تشدّ على صدره ويطنه وساقيه؟! وناء بثقلها، وشعر لوطاتها باختناق، فغلّبت مراجله، ولم يستطع معها صبراً، وأخذت يده تنزعانها قطعة قطعة، بلا تمهل ولا إبطاء، حتّى تخلّص منها جميعاً، فبدأ عارياً كما خلقه الله، وعابته ضحكته الغريبة، ففقهه ضاحكاً، واندفع في سبيله..

ركبته ويستسلم لسكوته المعهود، لم تطاوعه نفسه، فقدت قدرتها على الجمود، أو برئت من عجزها عن الحركة فنيا به مجلسه، حتّى همّ بالنهوض، إلّا أنّه رأى - في تلك اللحظة - شخصاً غير غريب عن ناظره وإن لم يتصله به أسباب التعارف. كان من رواد المقهى مثله. وكان جسماً ضخماً وأوداجاً متنفخة، يسير مرفوع الرأس في خيّلاء، ملقياً على ما حوله نظرة ترفع وازدراء، تنطق كلّ حركة من حركاته وكلّ سكتة من سكناته بالزهو كأنّما يثير الخلق في نفسه ما تثيره الديدان في نفس رقيقة مرهفة الحسّ، وكأنّه يراه لأول مرة. بدا له قبحة وشذوذه عارياً، فغالبته هذه الضحكة الغريبة التي ما انفكت هذين اليومين تعابته، ولم تفارقه عيناه، وثبتت خاصّة على قفاه يبرز من البنيقة عريضاً ممتلئاً مغرّباً. وتساءل أيتركه يترّ بسلام؟؟ معاذ الله، لقد ألف داعي الحرّيّة، وعاهده ألاّ يخالف له أمراً، وهزّ منكبّيه استهانة واقترب من الرجل فكاد يلاصقه، ورفع يده، وهوى بكفّه على الفقا بكلّ ما أوتي من قوّة، فرنت الصفحة رنيناً عاليّاً، ولم يتمالك نفسه فأغرب ضاحكاً، ولكن لم تنته هذه التجربة بسلام كأختها السابقة، فالتفت الرجل نحوه في غضب جنونيّ، وأمسك بتلابيبه وانهال عليه ضرباً وركلاً حتّى خلّص بينها بعض الجلوس. وفارق القهوة لاهثاً، ومن عجب أنّه لم يستشعر الغضب ولا الندم، وعلى العكس من ذلك ألمت بحواسّه لذة عجيبة لا عهد له بها من قبل، وافترّ ثغره عن ابتسامه لا تزييله، وفاضت نفسه بحيويّة وسرور يغشيان أيّ ألم، ولم يعد يكثرث لشيء غير حرّيّته التي فاز بها في لحظة من الزمان وأب أن يغيب عنها ثانية واحدة من حياته، ومن ثمّ ألقى بنفسه في تيار زاخر من التجارب الخطيرة بإرادة لا تنثني وقوّة لا تُقهر. صفع أفضية وبصق على وجوهه وركل بطوناً وظهوراً، ولم ينج في كلّ حال من

## الزيف

الأنوثة، يزين وجهها العاجي حسن تركي تمصّر،  
ويدلّ على طبقتها العالية ثوبها الأنيق ونظرتها الرفيعة  
وحليها الثمينة، وقد بُهر الرجل أمام روعة الحسن  
وانحنى باحترام وهو يقول في إشفاق: «وأسفاه ستعلم  
السيدة بالخطأ وسرعان ما تنتهي المقابلة!» ولكنّ خاب  
ظنه لأنّ السيدة ابتسمت إليه تحييه كأنه هو المعنيّ،  
وقالت برقة تعرّفه بنفسها:

- أرجوك ألاّ يسوءك إقلاقي لراحتك.. أنا أرملة  
المغفور له عليّ باشا عاصم!

يسوءه! ينبغي أن يعدّ نفسه من المحظوظين في هذه  
الدنيا لأنّ سيّدة كتلك السيّدة تقول له مثل ذلك  
الكلام بتلك اللهجة الرقيقة! ترى لماذا دعته لبنوارها؟  
فهو لا يذكر أنّه رآها من قبل وإن كان يعلم علم  
اليقين أنّه قرأ اسمها في بعض الأخبار الخاصّة  
بالجمعيّات النسائيّة، وخيل إليه غروره أنّها ربّما رآته  
من حيث لم يرها وأنّها ربّما وقع في نفسها منه - كما  
حدث لغيرها وإن كُنّ لسن من نوعها - ما علّقها به،  
فإذا صدق حدسه - والدلائل تجمع على صدقه - فهي  
تدعوه كما دعت قديماً امرأة العزيز فتاها!!

وأحسنّ بنشوة فرح وزهو وقال للمرأة بكلّ رقة وهو  
ينظر إليها كما ينظر الإنسان إلى شيء ثمين يملكه:

- العفو يا صاحبة السعادة.. خادمك..

وهمّ أن يقدّم لها شخصه العزيز، واستدلّت السيّدة  
من لهجته على ذلك فأشارت إليه بيدها البضة وقالت  
بسرعة وهي تبسم عن درّ نصيد:

- وهل أنت في حاجة إلى تعريف يا أستاذ...  
تفضّل.

وجلس كما أرادت. ولكنّ عبارتها الأخيرة قلبت ما

كان التياترو مكتظاً بالنظارة، حيث كانت تمثّل  
رواية البخيل لموليير، وكان جمهوره كالمعتاد خليطاً من  
طلّاب التسلية ومحبّي الظهور ومدعي الفنّ وعشاق  
الخيال، وكان عليّ أفندي جبر المترجم بوزارة الزراعة  
بين الجالسين في الصفوف الأماميّة، وكان يتتبع التمثيل  
بين اليقظة والنوم، واضعاً خده على يده، ومستنداً  
مرفقه إلى مسند المقعد، وكان قد طالع في بعض  
المجالات عن الرواية ما جعله يظنّها آية من آيات  
الكوميديّ فجاء التياترو بنفس تواقّة إلى الضحك  
والسرور، وسرعان ما خاب رجاؤه وفترت حماسه وكاد  
يستسلم للنعاس، ولكنّ الأقدار أرادت أن تسبّح  
بتعويضه عن خيبته؛ ففي أثناء الاستراحة دنا منه  
النادل وانحنى على أذنه وقال باحترام وتأدّب:

- هل لللبك أن تفضّل بالذهاب إلى البنوار رقم  
واحد؟

ثمّ ذهب إلى حال سبيله. ونظر عليّ أفندي إلى  
البنوار رقم واحد فرأى الستار الأبيض مسدلاً عليه  
فأدرك أنّ به «حريماً»، وقام من توه وغادر الصالة  
وقصد إلى البنوار وهو يضرب أخماساً في أسداس،  
وطرق الباب مستأذناً فسمع صوتاً رخيماً لا يعرفه  
يقول:

- تفضّل.

فتردّد لحظة سريعة لأنّه أدرك - لدى سماعه الصوت  
الغريب - أنّ في الأمر خطأ، ولكنّه كان من الرجال  
الذين تغلبهم على نفوسهم في محضر النساء جسارة غير  
محدودة وحبّ للمجازفات وثقة بالنفس وطيدة،  
فاقتحم الباب غير هيّاب وصار وجهها لوجه أمام السيّدة  
الجالسة. وكانت في الأربعين ممتلئة الجسم ناضجة

## همس الجنون ٩

فتوَّردت وجنتا المرأة ورنت إليه بعينين ناعستين،  
وقرأت في عينيه ما حملها على تجنُّب حديث العواطف  
وإن كانت تضرر الرجوع إليه في المستقبل! فقالت:

- هل أعجبتك الرواية؟

الرواية التي صدعت رأسه وفرَّ منها إلى النعاس!!  
إنه كان حكيمًا فلم يسارع إلى مصارحتها برأيه، ولم  
تنتظر السيِّدة جوابه فقالت بثقة:

- لا شك أنك تعجب بها أيما إعجاب، لأنَّها من  
تلك الفكاهة العالية التي كتبت عنها فصلًا رائعًا في  
كتابك الخالد «فلسفة الجمال» وقد كان هذا الفصل  
سيبلي إلى تذوق مولير وتوين وشو.

فحمد الله أن لم يذكر رأيه الحقيقي، وهزَّ رأسه  
باسمًا وقال باطمئنان عجيب:

- البخيل آية فنيَّة رائعة، وهي من الآيات التي لا  
تمنح كنوزها مرَّة واحدة، ولقد قرأتها مرَّة وأخرى،  
وهأنذا أشاهدها للمرَّة الثالثة، وفي كلِّ مرَّة أفوز  
بحسن جديدًا.

فابتسمت السيِّدة وقالت:

- إذا أصاب ظني!

فقال عليُّ أفندي:

- إنك يا سيِّدتي آية في الذكاء.

ولم يأذن الوقت بالاسترسال في الأحاديث إذ دقَّ  
الجرس معلنًا انتهاء الاستراحة، فاضطرَّ عليُّ أفندي أن  
يستأذن في طلب الانصراف، وقالت السيِّدة وهي  
تودِّعه:

- أرجو أن تشرفَّ قصري بزيارتك.

فقال وهو ينحني على يدها:

- لي عظيم الشرف يا سيِّدتي.

- يوم الأربعاء الساعة السابعة مساءً. . شارع  
خاروية رقم ١٠ بالزمالك. .

وتنهَّدت المرأة ارتياحًا وظنَّت أنَّها نالت أمنية من أعزَّ  
أمانيها، وكانت مخلوقة سعيدة الحظَّ كأنَّ الأقدار  
توتخي راحتها، تزوجت من رجل من رجال مصر  
القانونيين المبدوعين. فتمتعت برجولته وكفاها الموت  
شرَّ شيخوخته، وترك لها مالاَ وجاهاَ واسمًا عظيمًا،

بنفسه رأسًا على عقب، فعلاه الوجوم، وأطفأ الكدر  
نور السرور في عينيه، لأنَّه من المحتمل أن يكون فاتنًا  
محبوبًا من النساء، وأن تقع في غرامه حرم عاصم  
باشا، ولكنَّ مما لا ريب فيه أنَّه في حاجة إلى تعريف  
ككلِّ إنسان وأنَّه لم يكن أبدًا في غنى عن التعريف،  
فماذا تعني السيِّدة الجميلة بقولها هذا؟ إنَّه يكاد يهتدي  
إلى وجه الحقِّ، وقد ساعده على ذلك قولها له «يا  
أستاذ» فهل تظنُّ السيِّدة أنَّه شاعر مصر الأكبر بل  
شاعر الشرق العربيِّ جميعًا الأستاذ محمَّد نور الدين؟

والحقُّ أنَّ المشابهة التي بينه وبين سيِّد الشعراء  
معروفة مشهورة، يعلم بها جميع أصحابه، وطالما  
جعلوا منها موضوعًا للتنكيت والقفش، فكلاهما له هذا  
الوجه المستطيل الذي يحدُّ من أعلى ببجبهة عالية ومن  
أسفل بدقن عريضة، وكلاهما له هذا الأنف الرومانيِّ  
العظيم والشارب الشركسيِّ الغزير ولا اختلاف بينهما  
إلاَّ أنَّه أطول من الشاعر وأعظم امتلاء، وهذا يدلُّ  
على أنَّ السيِّدة - فيما لو صدق ظنُّه - لم تر الشاعر إلاَّ في  
أحدى صورته التي تظهر أحيانًا في المجلَّات والصحف.

وأسفاه، ذاق حلاوة الفوز ومرارة الهزيمة في لحظة  
واحدة، فهل يتراجع ويرضى بالغنيمة بالإياب؟ ولكنَّ  
مثل هذا التردُّد لم يكن ليخالجه إلاَّ لحظات قصيرة  
العمر، لأنَّه - كما قلنا - يفقد رشاده في حضرة النساء،  
ولا يفكر إلاَّ في انتهاب اللذة واقتناص الفرصة،  
فجلس مبتسمًا على ما به من خيبة مريرة مطمئنًا كما  
ينبغي لشاعر مصر العظيم.

وقالت السيِّدة:

- سيِّدي الأستاذ، إنَّ معرفتي بك قديمة جدًّا لا كما  
تظنُّ، وإنَّ أفضالك على روحي لا تقدر بثمان ولا  
يحصيها عدُّ، وطالما منيت نفسي بالتحدُّث إليك، وكم  
كان فرحي عظيمًا حين عثر بصري بك فلم أتردد عن  
دعوتك، وإني أرجو يا سيِّدي أن تغفر لي تطفلي. .

فقال عليُّ أفندي وقلبه يلعن الشاعر:

- ما أسعدني بعطفك يا سيِّدتي! إننا معشر الشعراء  
لنحرق أرواحنا في سبيل الخلود والشهرة، ومثل  
إعجابك يا سيِّدتي أئمن لدي من الخلود والشهرة! .



أما عليّ أفندي جبر فقد رجع إلى مقعده وهو يلقي على الحاضرين نظرة فاحصة خشية أن يكون الشاعر الأصليّ بين النظارة! وقد ساءل نفسه: «ألا يجدر بي أن أفر؟» ولكنّه لم يكن جاداً في سؤاله، لأنّه لم يعتد الفرار من ميدان النساء.

ولم يألُ جهداً في التآهب والاستعداد ليتقن تمثيل شخصيّة الجديدة، فطبع بطاقات باسم محمّد نور الدين، ورأى عن حكمة أن يلقي نظرة سطحيّة على مؤلّفات الشاعر فذهب إلى مكتبة وطلب مؤلّفاته، فسأله الكتيبيّ:

- كلّها؟

فقال:

نعم.

فقال الرجل:

- الطلب غير ممكن الآن يا أستاذ لأنّ بعضها نفذ والبعض غير موجود في المكتبة. فإذا انتظرت إلى الغد...

ولكنّه قاطعه متسائلاً:

- ما الحاضر بين يديك؟

فقال الرجل:

- دواوينه الأربعة: النور والظلام، والجحيم، والرحلة الروحيّة، والساء السابعة، وكتاب فلسفة الجمال، والرحلة الشريقيّة، والجزء الثاني من كتاب الغدا!

وهاله الأمر وأسقط في يده، ولم ير بدأً من ابتاعها جميعاً، وكانت المرّة الأولى في حياته التي يشتري فيها ديوان شعر؛ لأنّه بطبعه لا يحبّ الشعر ولا يهضمه، ولا يجد مسوّغاً مطلقاً للقوافي التي يضمّن معناها، فلماذا لا يرسل الكلام على سجيّته؟ وإنّه لينفث في اذان النساء غزلاً يعتقد أنّه أرقّ الكلام وأمتع، ومع هذا لم يشعر بالحاجة إلى تنسيقه في بيت من الشعر، ولم يقرأ من الشعر طوال حياته سوى المحفوظات المدرسيّة وهو كاره، فما كان يخطر له على بال أن يشتري ديواناً من الشعر فضلاً عن أربعة دواوين كاملة، ولكنّ قدر فكان!

ولكنّ ضايقتها ظهور منافسة خطيرة لها هي أرملة الدكتور إبراهيم باشا رشدي، يجري ذكر جمالها - مثلها - على الألسن، وتحدّث بثرانها المجتمعات، وقد وضعت المصادفات في حيّ واحد وأغرّت بينهما العداوة والبغضاء، فكلتاها تتمتع بأنوثة ناضجة وجمال فتان وثروة طائلة، وتملك قصرًا فخماً يتيه على قصور الأمراء، وكانت كلّ منهما تعترّ بنفسها وتودّ لو يغلب نورها نور الأخرى فتناستا في اقتناء السيارات الثمينة والتحف النادرة والثياب الأنيقة، وتسابقتا في ميدان الظهور تعرضان حسنها وتثران حديثهما، واتخذت كلّ منهما بطانة من كرائم الأسر والأنسات المثقّفات. وقد علمت حرم عاصم باشا يوماً أنّ منافستها دعت إلى تأليف جمعيّة المرأة الحديثة فلم يرتح لها جانب حتّى كوّنت جمعيّة تعليم الأمّيات، وسمعت يوماً بأنّ الأخرى تبرّعت بمبلغ كبير من المال مساهمة في إنشاء مدرسة كبيرة وأنّ الصحف أنت عليها جميل الثناء، فأمرت بتشيد جامع كبير في عزبتها ودعت لالتقاط صوره مصوّر أكبر مجلّة في مصر، وطلبت إليه أن يثني على ورعها وتقواها..!

وكان آخر ما نمتي إلى مسامعها من أخبار منافستها ما لاكته الألسن من أنّ الموسيقار المعروف الأستاذ الشربيني قد شغف بها حباً، وأنّه لا يفتأ يتردّد على قصرها، وأنّ الدور الذائع الصيت «حبّيت با قلبي» الذي يتغنّى به المصريون جميعاً وهفوا إليه نفوسهم لحن بوحى جمالها! وما علمت بهذه الأخبار حتّى التهبت نفسها التهاّباً واحترق قلبها احتراقاً: وتلفّت بمنة ويسرة تبحث عن عاشق «شهير» تصير بحبه حديثاً ممتعاً وتغدو له وحياً ملههاً، فذكرت شاعر مصر محمّد نور الدين، فهو المصريّ الوحيد الذي له ما للشربيني من الشهرة والمكانة، وهو أجدر الناس بتخليدها في قصيدة كما خلّد الشربيني منافستها في أسطوانة، وفي تلك الأثناء رأت الشاعر مصادفة في التياترو وكانت تفكّر في وسيلة تصل بها إليه، فهل كنّا مغالين إذ قلنا إنّها نالت أمنية من أعزّ أمانيتها؟..

\*\*\*

## همس الجنون ١١

فأحتمد الغيظ في قلبه ولعن الشعر والشاعر، وتذكر قراءته لبعض المعاني «الخالدة» التي لم يفقه لها معنى وعجب كيف تؤثرها هذه السيدة العجيبة على عبارته البسيطة التي طالما نصبت الشراك وغزت الحصون، وأراد أن يلتبس لعجزه عن خلق المعاني «الخالدة» عذراً فلسفياً فقال:

- معذرة يا سيدي، إن إذا غشيتي للاء الحسن السامي تركت نفسي على فطرتها، وهجرت إلى حين المعاني التي يبدعها التفكير والتكلف!

فأتسعت عينا السيدة الجميلتان وقالت بإنكار:  
- يا عجباً! ألسنت القائل يا أستاذ في مقدمة ديوانك إن شعرك شعر الفطرة والطبع؟ أو لست الأخذ على شعراء المدرسة القديمة تكلفهم!؟

فأسقط في يده ووجد أن الحذر لم ينفعه، وخشي أن يفقد ثقته بنفسه فقال بلهجة العالم الذي يعني ما يقول:

- إن الشعر يا سيدي مزيج من الفطرة والتفكير، والتفكير غير التكلف، وما أردت قوله هو أن الشاعر في حضرة الحسن يستبد به الشعور الخالص!

وأشفق من أن تسأله مثلاً عن الفرق بين التفكير والتكلف أو معنى الشعور الخالص ولكن السيدة قالت بإعجاب:

- صدقت يا أستاذ، ولعل هذا يفسر قولك إن الشعر لا يعبر عن عاطفة إلا بعد أن تسكت ثورتها ويهدأ انفعالها.

فهز رأسه مبتسماً وهو يتنهد ارتياحاً:

- وهو الحق المبين ياسيدي، أرى أن رأسك متوج بتاجي الحسن والأدب!

فتورد خذاها وقالت بحماس:

- إنني واحدة من قرائك المعجبين... وقد قرأت مؤلفاتك بإمعان وشغف.

فقال:

- أين لي قرأء مثلك يا سيدي العزيزة؟.. إن البلد لا يقدر الكاتين.

- هذا حق وأسفاه على وجه العموم، ولكن يقال

وقال لنفسه متبرماً وهو يحملها إلى بيته: «أعقل أن يكلفني الحب مألأ أو مطاردة خطيرة أو صبراً طويلاً أو شجاراً عنيفاً أما الذي لا أعقله أن يتقاضاني قراءة هذه الكتب؛ فهل أنا عاشق أم تلميذ؟».

وأخذ يقلب صفحات الكتب فغصّ بالشعر كما توقع ولم يفقه له معنى؛ ولو كان يسيراً مثل «إذا نام غرّ في دجى الليل فأسهر» لهان الأمر، ولكنّه كان من نوع عجيب سهل الألفاظ مغلق المعاني!! وهذا غزل نور الدين فما بالك لو تطاول إلى الأغراض الأخرى التي يحفل قلبه من مجرد تلاوة عنواناتها! والأدهى من ذلك وذاك أن نثره ليس بخير من شعره، فقد قرأ صفحات من كتاب فلسفة الجمال ما كان يظن أن إنساناً عاقلاً ينشرها على الملأ، وضاق صدره بنور الدين شعره ونثره فرمى بالكتب جميعاً ولكنّه قال بإصرار وعناد: «سأذهب يوم الأربعاء».

وفي الموعد المسمى ذهب إلى قصر السيدة الجليلة بشارع خماروية، وكان بادي الوجاهة والأناقة، وأرسل بطاقة إلى ربّة القصر، فقاده الخادم إلى صالون رائع لم ير أجمل منه على كثرة ما غشي من الصالونات الفخمة، ولكنّه لم يدهش لأنّ منظر الحديقة والقصر الخارجي سلبه كلّ دهشة، وكان يكره الانتظار لأنّ أمثاله من المغامرين تواتبهم النجدة بداهة وارتجالاً، وتشحذ أسلحتهم في أثناء المعمعة، مثله في ذلك مثل الخطيب المطبوع الذي يلهمه الجمهور المعاني فيتدفق، ولذلك أحسّ بارتياح عجيب حين رآها تشرق عليه من باب الصالون في فستان أبيض غير كتوم، يعلن عن جمال كلّ ثنية من ثنيات جسمها اللدن، ويبين خاصّة عن الخصر الدقيق الذي يتعلّق به كفلاها الثقيلان، فطرد بقوة إرادته بقية قلق كانت عالقة بنفسه وانحنى باحترام، فأعطته يدها فضغط عليها بحنو، ثمّ قال وهما يجلسان:

- لقد حسبت الأيام ساعة فساعة!

فابتسمت السيدة وقالت بلهجة لم تخل من عتاب:

- هذا معنى مبتذل لا قرابة بينه وبين معانيك

الشعرية الخالدة.

وخشي إن تردّد أن يخسر كلّ شيء بعد أن أوفى على  
الفوز، فقال بقوة:

- اعفيني يا سيّدي!

فسألته دهشة:

- ولم؟ هل يبرم الشاعر بشعره أحياناً؟

- ليس الأمر كذلك، ولكن قد يسمو الشاعر حيناً  
على شعره فيخاله بعض مظاهر العالم الماديّ!، وإني  
الآن في نشوة روحية من تلك النشوات التي تخلق  
الشعر فكيف أنزل إلى الشرح والتفسير؟..

فغمرتها موجة فرح وسعادة وسألت نفسها: «ترى  
هل أكون غداً بطلة قصيدة رائعة خالدة؟» سألته في  
لهفة:

- أحقّ ما تقول يا سيّدي؟

- كيف يداخلك شكّ في هذا؟ تالله إذا لم تخلق  
هذه الساعة شعراً فلا خلق الشعر أبداً!  
فامتلاً قلب المرأة فرحاً ومنّت نفسها بأسعد  
الأماني.

وفي تلك اللحظة دخلت خادم تعلن قدوم زائرات،  
ولم تفاجأ السيّدة - كما فوجئ الأستاذ - بقدومهنّ كأنها  
كانت على موعد معهنّ، وأمرت الخادمة بإدخالهنّ،  
وبعد لحظة قصيرة دخل ثلاث آנסات حسان يحنّار ماء  
الشباب في وجوههنّ وتلقتهنّ بترحاب وقدمت إليهنّ  
الشاعر بلهجة فخار قائلة:

- الأستاذ مجمّد نور الدين سيّد شعراء الشرق!

وقدّمتهنّ إليه واحدة واحدة قائلة إنهنّ من عضوات  
جمعية تعليم الأمّيات التي تشرف برئاستها، ثمّ قالت:  
- إنهنّ أدبيات مثقّفات، ولكن والأسفاه فإنّ ثقافتهنّ  
قاصرة على الأدب الفرنسيّ الذي يتعشّقنّه إلى درجة أن  
جعلنّ الفرنسيّة لغة حوارهنّ، وإني أرجو أن يكون  
تعرفك بهنّ يا سيّدي سبباً لتوجيههنّ إلى الثقافة  
العصرية.

فعجب عليّ أفندي وتساءل دهشاً: ترى هل يعلمن  
الفلاحات الأمّيات مبادئ اللغة الفرنسيّة؟!

استطردت السيّدة تقول للآنسات:

- ستجدن في صديقي الشاعر محدثاً جليلاً، ولكنّي

إنّ لك جمهوراً تحسد عليه يا سيّدي الأستاذ.

فأشار بيده إشارة تدلّ على الأسف وقال:

- لو أتيح لي أن أكتب باللغة الإنجليزيّة مثلاً.

فسألته السيّدة بقلق:

- أو ليس لك الجمهور الذي تحسد عليه؟

فقال باطمئنان:

- جمهور قرائي يربو على ضعفيّ جمهور أيّ كاتب  
آخر في الشرق الإسلاميّ!

- يا لها من مكانة سامية!

فهزّ رأسه أسفاً وقال:

- لقد دفعت شبابي وقوّي ثمنًا لها!

- آسف أنت على هذا؟

- لا أدري.

- لقد خلّدت شبابك في آثارك الباقية.

- أيّهما أفضل أن يخلّد شبابي كي يتمتّع به غيري أم  
يفنى وأتمتّع به وحدي؟

- لا تناقض بين الاثنين، فإنّك تستطيع أن  
تستهلكه في متعتك ثمّ تخلّده في شعرك، أتسألني وأنت  
أستاذي؟!.

- هذه سعادة لا تتاح لغير المجدودين.

- وإنّك لمن المجدودين!.

فنظر إليها نظرة لو تحوّلت إلى كلمة لوقع قائلها  
تحت طائلة قانون العقوبات، وكان يجيد هذه اللغة ثمّ  
قال بخبث:

- إنّك يا سيّدي تتحدّثين عن حظّي كما لو كان  
مصيره بين يديك.

فتخضّب خدّاهما باحمرار طبيعيّ غلب أحمرهما  
الصناعيّ الخفيف، وما كانت تكره أن يكون مصير  
سعادته بين يديها، ولكنّها ادّخرت هذا الحديث إلى  
وقت آخر فعّيرت مجراه وقالت فجأة:

- ينبغي أن أنتهز فرصة وجودك معي لأسألك عن

معنى بعض الأبيات الشعرية التي استغلقت عليّ.

فخفق قلبه خفقة شديدة أبقتته من غيبوبة الغرام،  
وذعر ذعرًا شديدًا، إذ كيف له بشرح معاني شعر نور  
الدين المغلقة وهو الذي لا يفهم أيسر الشعر وأسلسه؟

## ممس الجنون ١٣

مشبعة بالماء والساقين المكورين والبشرة العجيبة ذات الرائحة الزكية، ذكر ذاك الحسن الذي رمى به الحظ بين يديه قضاء وقدرًا. . أي ليلة جميلة كأنها حلم لذيذ، لا يجود بمثلها عالم الحقائق، وكأنه أراد أن يتأكد أنه حقيقة لا حلم فأخرج مذكرته وقرأ فيها الموعد المنتظر الذي كتبه بيدها الرخصة. . !

وكأنما المصادفة لم تقنع بما أتت من عجب عجاب، فإنه لفي تأمله وتذكره إذ أحس بيد توضع على كتفه، فالتفت إلى الوراء فرأى صاحبه الجميلة واقفة بين جماعة من السيدات الأرستقراطيات، واستولت عليه الدهشة وعلاه الارتباك، أما السيدة فقد التفتت إلى صواحبها وقالت بته:

- ائذن لي أن أقدم إليك صديقي الأستاذ محمد نور الدين سيد شعراء الشرق!

فابتسمن إليه بترحيب إلا واحدة رددت النظر بينه وبين الأرملة، وقالت ضاحكة:

- يا لها من نكتة بارعة يا سيدتي! .

فسألته السيدة:

- أي نكتة تعنين يا سيدتي؟ .

فلم تحفل السيدة بإنكار الأرملة الجميلة، وقالت وهي تحدج علي أفندي بنظرة استغراب:

- رحماك يا ربي. . الآن صدقت قول القائل: يخلق من الشبه أربعين! .

فاحتدمت الأرملة غيظًا وقالت:

- إني لا أفقه لما تقولين معنى. .

- بل تفقهين كل المعنى وتريدين أن تضاحكينا، والحق أن الشبه الذي بين شاعرنا المجيد وحضرة البك شبه عجيب. .

فاشدت الغيظ بالأرملة والتفتت إلى علي أفندي وقالت:

- تكلم يا أستاذ لتعلم عصمتها أي لا أهزل! .

وكان علي أفندي في حالة يرثى لها، وقد خانته جسارته تلقاء نظرات السيدة الجريئة التي لا شك تعرف الشاعر الأصلي تمام المعرفة، فلم يجد مناصًا من الهرب، فتظاهر بالدهشة، وابتسم إلى الأرملة البائسة وقال:

ما لهذا دعوتك الليلة، فقد حجزت البنوار الأول في تياترو رمسيس لنشاهد معًا رواية البخيل، ولا بأس أن يشاهدها الأستاذ للمرة الرابعة إكرامًا لي! .

والحقيقة أن السيدة ما قصدت بدعوتهن إلا أن تذيع بينهن نبأ صداقتها للشاعر لكي يذعنها بدورهن في الصالونات الراقية فيتصل خبرها حتى يعلم منافستها الخطيرة، وما ذهابها بهن إلى تياترو رمسيس إلا لهذا الغرض نفسه.

وقد تضايق علي أفندي من حضور الزائرات، وتضايق أكثر من دعوته إلى التياترو، وكان يرجو أن تطول خلوته بها ولكنه كان يبالغ في التشاؤم ولا يدري بالسعادة التي تحببها له الأقدار، ففي الاستراحة انتهزت السيدة فرصة خروج الأنسات من البنوار وقالت له في خفر:

- ستعود معي إلى القصر.

ولم يكن للدعوة إلا معنى واحد، فتساءل علي أفندي ترى كيف يتخلص من الأنسات؟ ولكن السيدة لم تعمل لذلك حسابًا، فعند انتهاء التمثيل عادت السيارة بهم جميعًا، وودعها الفتيات عند مبتدأ شارع خماروية ثم سارت بهما السيارة وحدهما إلى القصر السعيد، فأيقن أنه رغم طول تجاربه جاهل بالنساء وأنه لم يعرف قبل الآن امرأة مغرمة بالفضائح! وكانت ليلة. .

\*\*\*

وبعد يومين ذهب علي أفندي جبر إلى زيارة المعرض الرابع عشر للفنون الجميلة، ولم يكن من الهواة ولكنه كان من محبي الظهور والادعاء وكان حبه للنساء يدفعه إلى ارتياد الأماكن التي يحتمل وجودهن بها، فمضى يسير في الحجرات الأنيقة وينظر بعينين فاترتين إلى اللوحات، حتى استرعت انتباهه من بينها صورة فلأحة عارية تستحم في النيل، وقد أجادت الريشة تصوير قدها النحيف وتديبها الناهدين وأضفت على سمرة بشرتها سحرًا شهويًا عجيبًا، فوقف أمامها طويلًا لغير وجه الفن، وذكر - لرؤيتها - ذلك الجسد البض المكتنز والردفين المكورين كأنها إسفنجة هائلة

- معذرة يا سيدي . . يخلق من الشبه أربعين! .  
 وكان يتكلم بلهجة جدية لا تترك أثراً للشك في  
 نفس السامع، فحفظت عينا السيدة دهشة وانزعاجاً.  
 وعلا ضحك صاحباتها، وتأملنه يامعان وهي تكاد تجنّ  
 من الدهشة، وسألته:  
 - ألسنت أنت الشاعر؟  
 فأجاب بهدوء:  
 - كلاً يا سيدي . . أنا موظف بوزارة الزراعة.  
 - ألم تقابلني قبل الآن؟  
 - لم يحصل لي هذا الشرف يا سيدي.  
 قال عليّ أفندي ذلك وأحى رأسه تحية وذهب تاركاً  
 السيدة لصديقاتها الضاحكات، وقالت السيدة  
 الأخرى:
- إني أعجب كيف يخدعك بصرك إلى هذا الحد،  
 ألا ترين أنني فطنت إلى الحقيقة من النظرة الأولى!  
 فقالت الأرملة الذاهلة تداري خجلها:  
 - ما أعجب الشبه بينهما!! .  
 فقالت الأخرى:  
 - ولكن شتان ما بين قامتيهما.  
 وقالت أخرى ساخرة:  
 - سيغضب «صديقك» الشاعر حين يعلم بهذا  
 الخطأ الغريب.  
 وغادر عليّ أفندي المعرض مضطرباً: ولما تنسّم  
 الهواء الطلق انفجر ضاحكاً حتى دمعت عيناه، على أنّ  
 الموقف لم يكن يخلو من دواعي الأسف ما دام قد خسر  
 الموعد المنتظر وكان يمّي نفسه بأكثر من ليلة واحدة . .

## الشَّريفة

فنظرت إليها بغرابة وقلت لها:  
 - من هي؟ ..  
 - زينب هانم زوج اليوزباشي عمّد راضي جارنا.  
 فاستولت عليّ الدهشة وقلت:  
 - لكنّها ما زالت عروسًا في شهر العسل.. اليس  
 كذلك؟  
 - هو ذلك يا بنيّ، والظاهر أنّها تعسة الحظّ لأنّها  
 اضطرتّ إلى هجر بيتها والالتجاء إليّ في الصباح  
 الباكر، وزوجها ولا شكّ رجل غليظ فظّ لا تسهل  
 معاشرته، وإلاّ ما تركها تميم على وجهها وهو يعلم أن  
 لا أقارب لها في القاهرة.  
 وكانت والدتي شديدة التأثير فقلت:  
 - مسكينة..  
 فقالت بانفعال:  
 - كانت أمّ هذه الشابة صديقة صباي، وإنّ أرجو  
 صادقة أن تعيش بيننا سعيدة..  
 ثمّ أردفت بلهجة ذات مغزى:  
 - وأن تكون لها يا حسونة أختًا كريمًا..  
 وبادرت قائلاً:  
 - طبعًا.. طبعًا.. يا أمّاه.  
 وذهبت إلى المدرسة وأنا أتذكر كلمة والدتي الأخيرة  
 واللهجة التي قالتها بها، وأحسست بمزيج من الحنجل  
 والغضب. ترى هل تشفق والدتي من سلوكي على  
 ضيفتنا؟ ثمّ خطر لي أن أتساءل: «هل هي جميلة إلى  
 حدّ تبرير مخاوف والدتي؟».. حامت أفكارني حول  
 ذلك طول الطريق من مصر الجديدة إلى الجيزة. والحقّ  
 أنّ كلمة والدتي البريئة أوجدت في نفسي منذ البداية  
 الاستعداد الذي كانت تشفق منه أيّما إشفاق.

الغالب على أحاديث الشبان في هذه الأيام أن تتّجه  
 نحو غرضين: النساء والسياسة، وحول هذين  
 الموضوعين دار الحديث في مجتمع من الأصدقاء كان  
 من حظّي المشاركة فيه محدثًا ومنصتًا. وقد بدأ الحديث  
 فاترًا مبتذلًا فلم يستطع أن يجذب إلاّ بعض انتباهي،  
 حتّى تكلمّ ذلك الصديق البارِع وتدفّقت الذكريات  
 على لسانه الدّرب فألقيت إليه بانتباهي كلّهُ، لأنّ  
 حديثه كان قصّة مستوفاة العناصر، ومثل هذا الحديث  
 يستبدّ بمشاعري استبداد المال بقلب اليهوديّ  
 الشحيح، وإليك ما قصّه صاحبي - قال:  
 لا يكاد يخلو تاريخ شابّ من امرأة، ولكنّه قد يخلو  
 من المرأة المؤثّرة التي تترك وراءها شاهدًا عميقًا لا ينال  
 منه طمس السنين كالوشم في اليد أو الصدر. وقد  
 عرفت نساء كثيرات لا أذكر منهنّ إلاّ أثرًا ذاهبًا من  
 اللذّة أو الألم، أو أطيبًا في الظلام والنسيان، إلاّ  
 امرأة، بدت في فترة من حياتي كالكوكب الدريّ ينير  
 أبدًا ويضيء ما حوله فلا أنا أنساها ولا يغمر النسيان  
 حياتي التي غمرتها بروحها الرقيق.. لماذا.. لأنّها  
 كانت أجمل من عرفت؟.. أو أحيهنّ إلى قلبي؟.. لا  
 أعتقد هذا ولكنّ ربّما لأنّها كانت أتعسهنّ جميعًا ولأنّ  
 تعاستها هذه كانت السبب الخفيّ في سعادتي بها زمنًا  
 طويلاً لن يعود أبدًا.  
 ويرجع عهد معرفتي بها إلى يوم من أيام عام ١٩٢٠  
 وكنت آنشد طالبًا في السنة الأولى بمدرسة الزراعة  
 العليا، استيقظت ذلك اليوم في الصباح المبكر كعادتي،  
 فجاءتني والدتي وقالت لي:  
 - حسونة.. أرى أن أخبرك أنّ ضيفتنا نزلت ببيتنا،  
 وأنّها ربّما أقامت بيننا إلى أجل غير مسمّى..

عليّ بالسؤال لأنّ تلوّث نفسي أفقدني صراحة الأبرياء، وظننت السؤال فاضحي، ولم تدعني والدتي فريسة العذاب فقالت لي:

- شكراً لله فقد جاء جارنا الضابط واعتذر لزوجي وعاد بها لأنّه نقل إلى أسيوط، وقد كلّفنتي أن أهدي إليك تحيّاتها.

وأحسست في الحال إحساس الطالب الذي يمّتي بالسقوط في الامتحان وهو يحلم باختيار الوظيفة اللائقة به. وضاق صدري ذلك اليوم بالبيت ففكرت إلى الخارج لأخلو إلى نفسي بعيداً عن عيني والدتي. على أنّ الصبا دائماً قادر على جرف الأحزان والمهموم فاستطعت أن أبرأ في مدّة وجيزة ونسيت في غمرة الحياة والأمال تلك الحسرة التي عصرت قلبي أياماً فكانت مثل «الزكام» الذي يُفقد الإنسان طعم الحياة حينما يزول سريعاً فكأنّه لم يكن..

ودارت الأيام وانتهيت من الدراسة وحصلت على الدبلوم، ووظّفت في وزارة الزراعة سنة ١٩٢٥. ثمّ انتقلت إلى تفتيش الإسكندرية بعد ذلك بخمس سنوات. وفي الأيام الأولى لهبوطي إلى الإسكندرية أثرت أن أنزل بفندق لأستريح من وعشاء السفر وأبحث في هدوء عن مسكن مناسب، ووقع اختياري على فندق «ريش» لحسن موقعه من البحر لأننا كنّا في سبتمبر، وهو من الشهور المحبوبة في الإسكندرية يطيب فيه الجوّ ويهدأ البحر ويصفو؛ فحملت حقيبي ونزلت في حجرة من حجرات الطابق الثاني، وأذكر أنّه لم يكد يتركني الخادم ويغلق وراءه الباب حتّى سمعت طرّقاً فدلّفت إلى الباب وفتحته، ورأيت لدهشتي صديقنا الدكتور أحمد شليبي واستقبلته بشوق وأجلسته إلى جانبي وكان يقول لي:

- أحقاً هو أنت؟..

ثمّ أردف:

- كنت تاركاً باب حجرتي مفتوحاً فلمحتك وأنت تتبع الخادم وعرفتك في الحال..

- هذه فرصة سعيدة.

- يا حظّك.

كان جوّ بيتنا غاية في الهدوء، فوالدي كان حينذاك قاضياً بمحكمة طنطا الأهلية، وكان يقيم نصف الأسبوع في القاهرة ونصفه الثاني في محلّ عمله، وكان أخي عليّ في المدرسة الحربية، وأخي عادل في بعثة مدرسة الطبّ بالنمسا. وفي ذلك الجوّ المغمور بالهدوء والسكينة عرفتُ زينب هانم العروس التعسة.. وقد خيل إليّ وأنا ألقى عليها النظرة الأولى أنّي أرى صبيّة صغيرة. نعم كانت بضّة ممتلئة بادية الأنوثة، ولكنّي قرأت في عينيها العسليّتين نظرة براءة وسذاجة، بل طفولة كاملة لولا ما يلوح فيهما بين الحين والحين من الحزن العميق الذي لا تعرفه الطفولة الحقّة..

وكان الشباب في ذلك العهد غيرهم الآن، كانوا أعظم استقامة وأدى إلى العفة والطهر، وأرعى عهداً للتقاليد، وكانت المرأة المصونة تبدو دائماً وكأنتها محاطة بسياج من الأسلاك الشائكة، وكان الحبّ بعيداً نسيباً عن التهنّك والابتذال اللذين صرعاه أخيراً وأورده الإباحية والجنون، فكانت العواطف تزدهر في القلب وتنبت الآمال والأمان، وتنصهر في العقل وتخلق الأخيلة والأحلام، وتكتسي بحليّ نادرة من صنع الأوهام والأطياف..

فكان يقنعني من زينب نظرة أختلسها من وجهها الحسن أو جسمها البصّ، لتكون زادي في النهار والليل وفي اليقظة والنوم، وأصبحت وأمست في عالم أثيريّ جميل بثّ في وجداني حياة ناضرة كالحياة التي ينشرها الربيع في الحقول والبساتين. على أنّ الأمر لم يقتصر على ذلك فجرى الحديث بيننا مرّات، ولعبنا الورق مرّة والنرد أخرى. وغالبتي عواظي فوسوست إلى نفسي أن أتشجّع وتساءلت بخبث لماذا لا أجرب حظّي. لماذا لا ألمس أناملها في أثناء اللعب مثلاً؟ أو أهدي إليها مجدولين فتكون فاتحة حديث لا يعلم ختامه إلا الله.. ولكنّي لقيت من التردّد الشيء الكثير، ولم تسعفني الجرأة التي تعلّمتها فيما بعد، وضاع الوقت هباء حتّى رجعت يوماً إلى البيت، فوجدت والدتي وحدها.. وكنت تعودت أن أراها إلى جانبها، وأحسست بوحشة وضيق، وكنمت رغبة تلحّ

## همس الجنون ١٧

إلى يميني، فتذكرت ما قال صديقي الدكتور، وأدمنت النظر إليها باهتمام وشغف؛ ولكنني استرددت نظري بسرعة لأنني سمعت صرير بابها وهو يفتح، ونظرت أمامي، ولحظت بروز شخص، وخيل لي أنه امرأة، وتأكد ظني عندما عطست، وحافظت على جمودي وتظاهرت بعدم الاكتراث.. وغالبًا ما يفيد البرود وهو إن لم يفد يعزّي عن الحيبة..

ولكنني لم أثبت طويلًا، ونازعني شغف إلى النظر فألقيت ببصري إلى جاري. ورأيت امرأة أول ما رايتي منها شعور بعدم الغرابة سرعان ما تحوّل إلى يقين بأنني رأيتها من قبل وأنا أتمتع بذاكرة لا تخيب قط في حفظ الصور فلم ألبث أن ذكرت.. ذكرت جارتنا القديمة.. التي عاشت معي في بيت واحد بضعة أيام كانت كافية لإنضاج وجداني.. وتملكتني الدهشة والاهتمام.

ولاحظت منها نظرة إليّ فالتفت عينانا وتوقّعت بقلب خافق أن أطلع في وجهها آية التذكّر، وتحفّزت للسلام ولكن خاب رجائي، لأنّ نظرتها كانت جامدة لا حياة فيها، ولم تلبث أن ولّنتني ظهرها وعادت من حيث أتت. وأسفاه نسييتي بغير شك.. وما من شك في أنّها هي جارتنا القديمة وهي ما تزال تحافظ على جمالها وأنوثتها، ولكن ما لها تعيش وحدها في هذا الفندق.. وما الذي يحملها على هذه الوحدة الغريبة.. وأين زوجها يا ترى؟

وطال تفكيري في شأنها حتى قمت لارتداء ثيابي وغادرت حجرتي، وشاءت المصادفات أن يفتح باب حجرتي على أثر خروجي مباشرة، فتباطأت في خطاي حتى حاذتني وهبطنا الأدراج معًا، ووجدت في نفسي رغبة شديدة في محادثتها ولم أكن أحجم في مثل ذلك الموقف فقلت لها بهدوء غريب:

- سعيدة يا هانم.. لعلك تذكريني..

فحدجتني بنظرة إنكار، ولعلها ظنّت أنّي أتذرع بالحيلة لاستدراجها إلى محادثتي، وأسرع الخطأ فلحقتُ بها عند باب الفندق وقلت لها:

- أهكذا تسين جيرانك بسرعة.. ألا تذكرين حرم

- أيّ حظّ تعني.. أنت تعلم أنّ موظفي الزراعة لاحظّ لهم يُجسدون عليه.

فقال ضاحكًا:

- أنا لا أتكلّم عن الكادر.. ولكن عن فوزك بهذه الحجرة.. فيا حظك..

- وما الداعي إلى هذا الحسد.. هي حجرة دون حجرات الصفّ المقابل التي تطلّ نوافذها على البحر..

- هذا حقّ، ولكن شرفتها تمسّ شرفة الحجرة رقم ٢٤ التي إلى يمينك وحسبك هذا..

- وما شأن الحجرة رقم ٢٤..؟

فقال وهو يتتهد:

- تقيم بها امرأة حسناء وحيدة.

- وحيدة..!

- نعم.. وإلى هذا يعود السبب في أنّ حجرات هذا الطابق مأهولة كلّها.

- لعلها ممثلة أو راقصة.

- هو ما يظنّه الرقم ٢٧.

فقلت مستهفها:

- الرقم ٢٧..؟

- أعني زميلي الدكتور الصوّاف المقيم في الحجرة رقم ٢٧، ولكنني لم أواقفه على ظنّه، لأنّي خبير بالصالات والمراقص جميعًا، والأعجب من هذا أنّها تبدو محترمة ولا ينقصها إلا زوج لتكون من المصونات حقًا.

فابتسمت وقلت:

- عند الامتحان يُكرم المرء أو يهان.

- أوه.. كلّ الأرقام تطاردها مطاردة عنيفة.

- ألم يفز أيّ رقم بطائل..؟

- في الظاهر لا، والله أعلم بالسرائر.

- وجالسن صديقي ربع ساعة، تحدّث فيها ما شاء له الحديث، ثمّ ودّعني وانصرف إلى حجرتي، وكنت تبعًا منهوك القوى فتمت ساعة نومًا عميقًا واستيقظت عند العصر، وفتحت شرفتي وجلست فيها أستروح هواء البحر المنعش، ولاحظت منّي نظرة إلى الشرفة التي



فضحكت ضحكة رقيقة وقالت:  
 - لا ينقصك إلا أن تفتح محضراً للتحقيق وتطالبني بالشهود.  
 - فخلت من فضولي، وضحكت أداري خجلي، ولم تكن عواطفني تكفّ عن الطغيان فقلت:  
 - ألا يحسن بنا أن نبحث عن مكان صالح للجلوس..  
 فهزّت رأسها وقالت بعناد ظريف:  
 - كلاً أنا أفضل المشي لأنّي أريد أن أنحف.  
 فنظرت إلى جسمها البضّ الممتلئ نظرة معذب ووجدت في كلامها فرصة ذهبية لا ينبغي أن تفلت منّي فقلت بإعجاب:  
 - وما جدوى هذا التعب.. إنّ جسمك كامل الفتنة..  
 فألقت عليّ نظرة جمعت بين الانتقاد والدلال وقالت وهي تشير إلى جسمها:  
 - هذه موضة قديمة.  
 فقلت بحماس:  
 - هذا جميل وكفى.. وما عدا ذلك فلا وزن له عندي.  
 - وعند الناس..  
 - نعم وعند الناس..  
 كدت أنسى هذا، إذ خيل إليّ الوهم الساحر أنّي صاحب الشأن الأوحى، وعلى أنّها قالت ما قالت وهي تبسم إليّ بإغراء. فاستحققتي الوهم مرةً أخرى واشتدّ بي الطمع فقلت:  
 - أنت لم تتغيري في هذه الفترة الطويلة وكأنّ التي أراها الآن هي السيّدة الجميلة التي أشرقت بغتة في بيتنا بمصر الجديدة منذ عشرة أعوام، وغربت بغتة كذلك فتركتني أحلم بها أياماً وشهوراً.  
 فنظرت إليّ بخبث وقالت:  
 - يا لك من ماكر..  
 فقلت ضاحكاً:  
 - ما وجه الغرابة في ذلك... من يرى هذا الحسن ولا يتهمناه؟

حسن بك همّام القاضي؟..  
 فألقت عليّ نظرة غريبة ولاحت في عينيها الأحلام وسمعتها تتمتم:  
 - عدالات هانم.. شارع الزقازيق..  
 فقلت بفرح:  
 - نعم، هذه هي والدتي.. وهذا شارعنا..  
 فهشّت لي وسارت إلى جانبي وهي تقول:  
 - أنت ابنتها؟.. تذكّرت.. كيف حال عدالات هانم؟..  
 فقلت بسرور وقد أيقظ صوتها وجددي القديم بها:  
 - والدتي بخير.. كيف حالك أنت يا هانم؟  
 - عال، ولكن أين عدالات هانم؟.. هل أنت وحدك؟  
 - نعم، الأسرة في رأس البر لأنّ والدي يحبها ويفضّلها على الإسكندرية، وأنا هنا بحكم عملي.  
 - نسيت اسمك.  
 - حسونة..  
 وكنت نسيت اسمها كذلك ولكنّي نفرت بطبعي من سؤالها عنه، فمشيت إلى جانبها صامتاً وكان وجداني في يقظة قوية وأصارحكم القول بأنّي من الذين لا يملكون عواطفهم إذا خلوا إلى امرأة أياً كان جاهلها، وأنّ رغبتني في النساء عامّة لا تعرف التخصص، وقد كنت قبل نحو عشرين عاماً ذا استعداد للحب، ولكنّي فقدت بمرور الزمن وأطراد التجارب وكثرة الأهواء تلك الموهبة الجميلة ودنوت كثيراً من الحيوانات الراقية، وكنت في ذلك الوقت خاطباً، وكنت اخترت خطيبتي من بين عشرات الفتيات ولكنّ ذلك لم يمنع قلبي - ذلك اليوم، من التعلّق السريع بتلك المرأة ومعاناة الرغبة والطمع، قلت لها:  
 - أنت وحدك هنا؟  
 فقالت بلا اكتراث:  
 - نعم!  
 - وزوجك..  
 - في السلموم.  
 - ولماذا تعيشين وحدك..؟

## همس الجنون ١٩

الحياة ويستقبل أفق الأبدية والأحلام .  
وعشت أيامًا أذكرها دائمًا كما يذكر السقيم عهد  
الصحة والعافية؛ كان الحب فيها الحاكم القاهر المستبد  
الطاغي الذي لا يترك لشيء مكانًا من عقولنا أو  
نفوسنا، وكنت أعلم أنها أيام وإن طالت قصار، وإن  
صفت فيلإى انتهاء سريع؛ فأقبلت عليها بنهم وجشع  
أملًا من حسنها قلبي وحواسي؛ كيلا أدع زيادة  
لمستزيد، غير مؤجل متعة إلى غد أو مُبَق على لذة إلى  
حين، أو تارك ثمرة بلا قطف والتهام... وكانت  
شريكتي سعيدة راضية يسكرها الحب وتستخفها آيات  
العطف، فتستزيد منها كما يستزيد منها الثمل من  
الطرب.

وتبين لي بغير كبير عناء أن آمالنا متباينة، فكنت لا  
أفكر إلا في حاضري، وأود لو أمتص ما فيه من حلاوة  
في رشفة واحدة... أما هي فكانت تنظر إلى بعيد ولا  
تفتأ تذكر المستقبل وترغب رغبة صادقة في أن تطمئن  
إلى دوام السعادة والحب. وقد عجبت لذلك وعلمت  
أنني لم أفهم بعد تلك المرأة؛ وقد ظننتها حينًا امرأة  
مستهترّة متقلّبة الأهواء، تجوب البلاد بعيدًا عن زوجها  
طلبًا للحب الأثم وانتهابًا للذات... ولكنني وجدتها  
هادئة الطبع، عظيمة المودة، لا تسيطر عليها النزوات  
العمياء التي تورّد أصحابها مهالك الفتن...  
وكانت أيامنا الأولى أيام حب خالص، فلم يكدر  
صفوي مكدر، إلا أن إفراطي الشديد ردني إلى شيء  
من اليقظة والانتباه فاستطاع فكري أن يتناول أمورًا  
غير الحب...

فكرت في أنني اعتدي لأول مرة على حرمة الزوجية،  
ولم يكن سبق لي أن اقترفت هذا الإثم المنكر فوخزتني  
شكة الألم وأحسست بخوف غامض، وزاد من ألمي أنني  
كنت على عتبة الحياة الزوجية، وساءلت نفسي في  
رعب: ألا يجوز أن يقتص الله مني ويصيبني يومًا في  
المقتل الذي طعنت فيه الآخرين.

وهنا قاطعه أحد المستمعين قائلاً:

- وهل صدقت مخاوفك فيما بعد..؟

وضحك البعض ونظر محدثنا إلى مقاطعه شزراً ثم

- الظاهر أنني سأجد من الواجب أن أفارقك لأنجو  
من أمانيك..

- حاشا أن تفعل.. بل حاشاي أن أتركك  
تفعلين. إن فوزي بلقائك بعد هذا الغياب الطويل  
نعمة من البطر الشرير الكفر بها...

- إنك تحدّثني كما لو كنا عاشقين افترقا ثم  
تلاقيا...

- هذا شعورك...

- هو أدنى إلى الوهم.

- أما من ناحيتي فلا...

- وأما من ناحيتي فنعم...

ولكنها قالت ذلك بدلال ورقة، وهي تبسم  
ابتسامة عذبة تسيل إغراء، ولم أدهش لما تبدي من  
استسلام لأن حالتها في الواقع كانت تدعو إلى الريبة،  
وتذكرت ما قال صديقي الدكتور شلبي فقلت:

- إنني أعجب لماذا تقيمين وحدك في هذا الفندق؟

- أراك تعود إلى التحقيق...

- كلاً لا داعي للتحقيق.. ولكنني علمت أن

المقيمين بالطابق الثاني يضايقونك...

- أبداً لعلهم يضايقونك أنت...

فتنهت وتعمدت أن أسمعها تنهدي ثم قلت:

- فليكن... ألا ترين من الحكمة أن (ترك) فندق

ريش...؟

- نترك...

- نعم... أنا أعني ما أقول، وأعرف فندقاً هادئاً

في لوران، فما رأيك؟

ولم تجبني، ولازمت الصمت حيناً، وبدا على وجهها  
الاهتمام والتفكير فحقق قلبي وساورني الخوف والقلق؛  
ولكنني أحسست فجأة بذراعها تلتف بذراعي وسرنا  
مستبكين كالعشاق أو الأزواج؛ فأثلج صدري وغمرني  
الفرح والفوز، وقنعت بذلك جواباً...

وفي مساء ذلك اليوم افتتحنا معاً مأدبة الحب،  
فعدنا إلى ريش وأخذنا حقائبنا ورحلنا إلى لوران ونزلنا  
في فندق أكس لاشابل، وهو فندق هادئ منعزل يقوم  
على شاطئ البحر كزاهد عازف يولي ظهره ضجيج

استأنف حديثه قائلاً:

- ثم فكرت في أمر آخر لا يقل عن سابقه خطورة .  
فكرت في أمر الزوج الغريب الذي يترك لزوجته الحيل  
على الغارب. ما الذي عساه يفرق بينهما؟ . . وكيف  
يرضى عن هذه الحياة الغريبة؟ . . والا يمكن أن يظهر  
بغته في أفقنا الهادئ فتكون الطامة التي لا تدفع .

وكانت هذه الأفكار تساورني خارج الفندق بعيداً  
عن ظلها الخفيف ولكّني وجدت نفسي مسوقاً إلى  
مفاتيحتها بهذا الحديث وقد فعلت، فسألته يوماً:

- أما من أخبار عن زوجك . . .؟

فاكفهر وجهها وأظلمت عيناها وقالت:

- دع هذا الحديث جانباً . . .

فاضطرت ساعتئذ إلى السكوت، وفي نيتي أن  
أعيد الكرة مهما كلّفني ذلك. وكانت تتحاشى هذا  
الحديث وتتهرب منه، ولكّني قلت لها يوماً بإخلاص  
وحزم:

- ينبغي أن تعلمي أنه ليس الفضول الذي يدفعني  
إلى معاودة السؤال، ولكنّه اهتمام بشخص أعزّه وأحبّه  
وأرجو دائماً أن يفتح لي صدره وقلبه . . .

كم فرحت لكلامي هذا . . . لقد التصقت بي بوجود  
وحنان وتهدت بسعادة وقالت:

- يا للسعادة . . . طالما ضرعت إلى الله أن يهبني  
قلباً حنوناً محبباً . . .

فدأبت خصلة من شعرها الأسود بيدي وقلت:

- إذا هيّا وصارحيني بكلّ شيء .

- ولكنّه حديث مؤلم كربه .

فقلت:

- أنا لا أدري شيئاً، لأنك لم تريدي أن تطلعي  
على شيء. ولكّني كنت أرجح دائماً أنّ حياتك الزوجية  
غير سليمة، ومهما يكن من أمر فينبغي أن أعلم كيف  
يتركك زوجك هكذا . . .

فهزّت منكبها باستهانة وقالت:

- إنه لا يعرف مقرّي على وجه التحقيق . . .

- ما أعجب هذا! . . . أستطيع أن أفهم أنّكما غير  
متحابين، ولكنّ الذي لا أستطيع فهمه هو أن تبغيا

زوجين بعد ذلك .

- إنه لا يطلّقني لأنّه لا يستطيع الاستغناء عن  
مالي . . . وسوى ذلك فلم يكن زوجاً قطّ وهو لا يطيق  
أن يكون زوجاً في يوم من الأيام . . . على أنّي في  
الواقع لا أرغب في الطلاق .

فحدّثت في وجهها دهشاً وقلت:

- هذا أعجب!

- لا تعجب لشيء. ألا ترى أنّي هكذا مالكة  
لحريّتي؟ ولو كنت مطلّقة ما استطعت أن أذهب إلى  
حيث أشاء. ولو كان لي من يهّمه أمرى ويحنو عليّ  
بصدق لتغيّر مصيري من بادئ الأمر، ولكّني وحيدة،  
وحيدة في هذه الدنيا الواسعة، أنت لا تدري ما  
الوحدة . . . أما أنا فقد تجرّعت مذاقها طوال هذه  
السنين . . . مات أبواي والتحق أخي الأوحد بوظيفة في  
قنصليّة اليونان، ونبذني زوجي . . . فليس لي مكان  
أوي إليه أو قلب يعطف عليّ. أنا منبوذة في هذه  
الدنيا . . .

فوجت صامتاً وغلبنني التأثر الشديد، ورأيت وجهها  
الجميل محتقناً كقطعة من الجمر ولحت دموعه حبيسة في  
عينيها فقلت:

- إنك جميلة وغنيّة، فإذا كان يريد هذا الأحمق؟

- إنه وحش ضارٍ وقاسٍ جحود، لم أستطع أن  
أعاشره كزوجة إلاّ أياماً معدودات ثمّ اضطررتني إلى  
حياة التشرد والهيام . . . ولو وهبني الله طفلاً لاستعنت  
به على الصبر والرضا، ولكّني حرمت حتىّ من هذا  
العزاء .

وكانت تتكلّم بتأثر شديد فخيّل إليّ أنّي سأتابعها إلى  
البكاء، وثررت في نفسي على الحظّ التعس الذي ضيّق  
عليها الخناق، وخطرت لي فكرة فقلت لها:

- ألم يكن في وسعك إصلاح ما أفسد الحظّ؟

فضحكت ضحكة مريرة وقالت:

- الحظّ التعس لا يصلحه شيء وأنا ما قصّرت قطّ،  
وأصارحك القول بأنّي كنت أحبّه وما وافقت على  
الزواج منه إلاّ لأنّي أحببته يوماً، ولكنّه مضى بعد  
الأسبوع الأوّل من زواجنا يقضي الليل خارج البيت

## همس الجنون ٢١

تفاصيلها... وقد كانت فاصله في حياتي بين عهدين...

إني أذكر تلك الأيام بلا ريب... ولكن كم كنت أجهل ما تخفي من التعاسة والبؤس...

واحترمت فترة الصمت التي تلت ذلك ثم سألتها:

- كيف عدت إليه بعد ذلك؟..

فهزت رأسها باشمئزاز وقالت:

- في تلك الليلة انتهت حياتي الزوجية في الواقع،

ولكني كنت بلا مأوى وبلا معين، فإذا أصنع؟..

عرض عليّ اتفاقية قبلتها، وهي أن أعطيه من مالي

على أن يعطيني حرّيتي. وقد كان... وغدوت حرّة

أقيم حيث أشاء وأفعل ما أشاء لا أسأل عمّا أفعل... وهالني الأمر فقلت:

- وهل عشت سعيدة؟..

فتنهّدت وقالت:

- ليت ذلك كان ممكنًا... ما تمّنت على الله من

شيء مثلما تمّنت أن يسلبني حرّيتي هذه في لقاء أن

أحظى بالسعادة التي أحلم بها والعطف الذي أتمرّق

إليه، وأنا مستعدّة دائميًا أن أتنازل عن حرّيتي بائنة لمن

يبيني قلبه وإخلاصه.. كم تعبت وكم بحثت.. وكم

ضقت بحرّيتي..

الآن علمت كلّ شيء... لقد صرفت هذه المرأة

التعسة عشرة أعوام في البحث عن العبودية السعيدة،

فهل يا ترى وفّقت إلى ما تريد؟.. كلاً. هي لم توفّق

ولا ريب ولو أنّها وفّقت إلى الحبيب الصادق ما ارتمت

بين أحضانها أنا بهذه السهولة. لقد انصرمت السنوات

العشر في خيبة مريرة وجذع أليمة. وما من شك في أنّ

الكثيرين تلقّفوها بشراهة وجشع كما أفعل الآن، ثمّ

ردّوها قهراً بعد شبع إلى حرّيتها البغيضة. وهكذا

فالحرّية نفسها تهون وترخص أحياناً وتعي في طلب

المستبدّ الغاصب.

ولمّا انتهت من سرد قصّتها نظرت إليّ بطمأنينة

واستسلام، ثمّ ألصقت جبهتها بجبهتي وسمعتها

تهمس في أذني قائلة:

- وأخيراً...

ولا يعود إلّا قبيل الفجر، وكنت إذا انبريت لإصلاحه

ومدافعة الشقاء الذي يهدّني به سخر منّي وهزأ

بمحاولاتي، ولمّا ضاق بي، ترك السخرية والهزاء وعمد

إلى الخشونة والفظاظة...

وسكنت عن الحديث دقائق وهي مستسلمة إلى

الشعور الأليم الذي أحدثته الذكريات. ثمّ أردفت

بصوت أعمق ووجه اشدّ اكفهرارًا:

- وأدركني اليأس منه، ولمّا أتمّ شهرًا كاملًا في بيتي

الجديد، وكان ذلك لحادثة همجية لا يمكن أن تمحى

من ذاكرتي أيّاستني من الخير ودمّرت كلّ فضيلة في

نفسي؛ ففي ليلة من ليالي شهر العسل كنت مستغرقة

في النوم بعد سهاد حزين، وإذا بهزة عنيفة توقظني من

نومي، فاستيقظت فرعة صارخة ونظرت بعينين

مرتعبتين فرأيته جالسًا إلى حافة الفراش، وهممت

بتعنيفه، ولكنّ لساني لم يتحرّك في فمي لأنّه كان في

حالة سكر شديد كما تبّينت ذلك من نظراته الذاهلة

ووجهه المحترق والرائحة التي تنبعث من فمه، وكان

هناك ما هو أدهى من ذلك، كانت تقف قريبة منه

امرأة غريبة في مثل حالته من السكر الشديد، كانت

تتنظر بلا ريب أن أوسع لها مكاني من فراش العرس،

ولم يمهلي حتّى أفيق من فزعني ودهشتي، فقال لي

بلسانه الثقيل الملتوي: (تفضّلي خارجًا) ولم تنتظر

صاحبه، فدنت من الفراش وارتمت إلى جانبي، ولم

أتمالك نفسي ففزعت من مكاني إلى أرض الغرفة

وفقدت رشدي، فانفجرت غاضبة وانهلّت عليه سبًا

ولعنًا؛ ولكنّه هزّ كتفيه استهانة واستلقى إلى جانبها

فغادرت الحجرة في حالة جنونية، وأحسست برغبة لا

تقاوم في هجر البيت، وكانت ثيابي في الدولاب داخل

الحجرة، فأخذت غطاء المائدة القطيفة وتلقّعت به

وفتحت الباب وولّيت خارجًا، والديوك تصبح معلنة

طلوع الفجر، وهرولت في الطريق الموحش لا ألوي

على شيء حتّى انتهت قدمي إلى البيت الوحيد الذي

تعودنا الذهاب إليه.. بيت والدتك.. ولعلّك تذكر

الأيام القلائل التي قضيتها عندكم... إني لا أنسى

تلك الليلة أبدًا... ولا تزال قائمة في نفسي بجميع

حياتي دون أن تترك وراءها أثراً لحزن أو ألم أو تأنيب ضمير. وانقلبت حياتنا تمثيلاً ثقيلاً، وكان كل منا يعلم بما يشعر به صاحبه نحوه، ولكننا كنا نتجاهل كل شيء.. لماذا لم تصارحني بشعورها؟.. ولماذا لم تهب للدفاع عن سعادتها الموهومة؟ لم يحدث شيء من هذا. وقد عدت ظهر يوم من عملي بالتفتيش فوجدت حجرتنا خالية، وبحثت عيناى عن آثارها اللطيفة التي تعودت رؤيتها كالفلساتين التي كانت تعلقها على المشجب أو الحقيبة التي كانت تضعها على المائدة فلم أر لها أثراً، وأسرت إلى الدولاب وفتحته على مصراعيه فلم أجد سوى ثيابي، وناديت الخادم وسألته عنها؟ فأخبرني أن الهانم تركت الفندق الساعة العاشرة صباحاً وأنه أحضر لها بنفسه التاكسي.

وبحثت هنا وهناك عن خطاب أو ورقة لأنني كنت أتوقع أن تترك لي كلمة، ولكني لم أعر على شيء. لقد تركتني دون كلمة، وانتهى كل شيء!

وجلست صامتاً واجماً تتنازعني العواطف، ولم أشعر براحة للخلاص الذي جاني بدون مشقة وأحسست بخجل وألم ووحشة ثقيلة، ولم أجد رغبة في الطعام فقممت من فوري أبحث عن مسكن جديد، لأنه كان يتعدّر عليّ أن أبيت ليلتي في تلك الحجرة المهجورة. وسكت الراوي لحظة ثم أردف:

- ومضت سنوات لم أرها فيها، ثم رأيتها منذ عهد قريب تسير شاباً أبيضاً في ميدان المحطة؛ ولكني لا أدري إن كانت ما تزال تبحث عن الحب والعطف أم أنها استسلمت إلى القنوط؟!

وفهمت مدلول تلك الكلمة وعلمت أنّي ألعب في روايتها البائسة دور الأمل الأخير، فيما أن أقوم به كما تتمنى أحلامها وإما أن أشفي بها على اليأس القاتل. وأحسست بثقل تبعتي ورائاً على صدري همّ عظيم وتساءلت حيران ترى ما هي أحلامها؟.. أن تدوم هذه العشرة.. وكيف لي بدوامها وأنا على قاب قوسين أو أدنى من الزواج؟.. ومضى تأثري الشديد لتعاستها يهدأ نوعاً، وأخذت أفكر في نفسي وأنظر إلى علاقتي بها بعين متشائمة، وأساءل في قسوة وأسف عن طريقة للخلاص.. وكانت تأتي عليّ أوقات أعجب فيها من أنانيتي وأتساءل في اشمزاز- إذن كيف كان شأن من لم يشعر نحوها بغير الشهوة والطمع؟ الحق أنّ علمنا الإنسان عالم شديد القسوة، وما أضيع الفلسفة التي تعب أصحابها في الدعوة إلى القسوة وتحقيق تنازع البقاء، فهي في الحقّ تحصيل حاصل وجهد ما كان أخرى باذليّه بالضنّ به.

على أنّ الذي أزعجني هو أنّ زينب فطنت لمشارعي الخفية من غير أن أصرحها بها. وبدا لي ذلك في وجومها وبرودها وقنوطها. ولم أدهش فإني من الذين لا يدرون كيف يخفون ما بنفوسهم، وتفضحهم أعينهم وإيماءاتهم. ولم أكن يبيّ قطة نية مصارحتها بعاطفة مما يعتلج في صدري أو بفكر مما يجترق في رأسي، وقد كنت أفكر في حالتها بعطف ومودة، ولكنّ العطف شيء والحبّ شيء.

وكنّت أتوقع في خوف وإشفاق أن تفتحنني بما يقوم في نفسها من الوسوس، وكان ذلك بضاعف آلامي النفسية، ورجوت أن تنقش تلك السحابة من سماء

## خِيَانَةٌ فِي رَسَائِلِ

- من تواتره فرص التعبير فيخفف من مراجل عاطفته .

وهنا ظللت وجهه سحابة كدر، وسألها بعد تردّد:  
- هل لك أبناء عمّ؟ ..

فابتسمت ابتسامة دلّت على أنّها سرّت للقلق الذي بعثه هذا السؤال وأجابته:

- نعم لي .. ولكنهم لم يجاوزوا عهد الطفولة، ولو كان الأمر كما توهّم ما أوجب أدنى خوف أيّما الرعديد الغيور .. والآن هاتِ فمك أوّدعك .. وهيا نقول معًا هذه الكلمة المروعة التي تفزع لها القلوب:  
«أستودعك الله ..»

من الغد يصبح لنا في قنا حبيبان عزيزان: حبيبة القلب عائدة، وصديق الصبا وزميل عهد الدراسة الأستاذ أحمد مرزوق المدرّس بمدرسة قنا، ولكنّه بيننا يتّصل بصديقه بالكتابة فهو محروم بحكم الظروف من تمام هذا الاتّصال الروحيّ بحبيته، لأنّ حبهما ما يزال سرًّا خفيًّا لما يدرّ بأمره الأهل ..

وانقضت أربعة أيام على سفر عائدة، ثمّ وصله منها كتاب جاء فيه:

حبيبي حسني:

وأعجب لهذه الوحشة كيف تجثم على صدري وأنت معي .. نعم أنت معي لم تفارقتي لحظة سواء في ضجيج النهار أو في سكون الليل؛ معي وأنا أرسل الطرف من نافذة القطار أشاهد الحقول الممتدة وأشجار النخيل المبعثرة؛ معي وأنا بين أهل عمّي أتلقّى الأحاديث وأردّ عليها، وأضحك هذا وأسمع لذلك؛ معي في كلّ مكان وكلّ حين، فلا عجب لنفسي بعد ذلك أن هزّها الحنين إليك أو استشعرت وحشة وضيقًا

- هذه أوّل أزمة تصيب حبّنا! نعم طالما آلمني الفراق المهيّن، وأجهدني الشوق إلى اللقاء: وعدّني الدلال؛ أمّا الوداع . أمّا الرحيل إلى قنا فذا أمر جديد، يدفع إلى نفسي شعورًا بالحزن لا عهد لها به فهلّا عدلت عن السفر .؟

- لو كان الأمر إليّ ما رغبت نفسي أدنى رغبة في السفر، فما أحفل بقضاء الشتاء في أعالي الصعيد بعض احتفالي بالقرب منك كيما أوصل هذا اللقاء السعيد! ولكن ما حيلتي ولهذا ما يريد أبي ويفعله منذ أحييل إلى المعاش . ولقد اعتاد أن يمضي شهرًا أو شهرين من الشتاء في قنا عند عمّي الدكتور ..

- يستطيع عقلي أن يتصوّر المعجزات، ولكن لا أستطيع أن أتصوّر ما عسى أن تكون عليه حياتي في هذين الشهرين، فهذا الحبّ غدا حياة لشعوري، وهذا اللقاء أمسى ألفة لنفسي، أجد فيها راحة بعد تعب، وعزاء عن شوق دائم، فما عسى أن أصنع؟ بل ما يكون زادي وسلوتي؟ .

فوضعت يدًا خمرية ناعمة على كتفه، وداعبت بأطراف أناملها خدّه، وهمست في أذنه:

- هذا شعوري وهذا حزني، ولولا كراهيتي للعزاء لنصحت لك بالتعزّي والتلهّي فليس أمامنا سوى الصبر الجميل حتّى ينطوي دهر الفراق ويتّصل حبل اللقاء .. ومع هذا فما أسعدك وما أبأسني! .  
- كيف ..؟

- لن أسعد بقراءة كلمة طوال مدّة غيابي، لأنك لا تستطيع أن تكتب إليّ، أمّا أنت فتستطيع أن تتّلع على همسات روحي كلّما مكّنتني الفرص من اختلاص الكتابة إليك .. فأينا أسعد خطأ؟ ..

في البعد عنك، أو ألهبها الشوق عذاباً وجوى». وأرجو ألا تتهمني بالتكاسل عن الكتابة إليك، فبيت عمي عامر بالأطفال وهم لا يتركوني لحظة أخلو إلى أنفسي؛ وقد انبعثت كلمات هذا الكتاب من شعوري وامتلاء بها عقلي وتمثلت في حواشي وحفظتها عن ظهر قلب قبل أن تواتيني الفرص فأسطرها لك خلسة على ضوء القمر المتسلل من نافذة حجرتي والعيون قد أغمضها عني المنام.. فاعذرن إن تأخرت عنك رسائلني وارجع إن شئت إلى قلبك فاعتقادي أنه يلي عليك عن لساني ما أحب أن أقوله لك دائماً.

أما عن قنا؛ فجزها دافئ جميل، وخلا ذلك فنحن في منفى، ولولا ما يربحه أبي فيها من صحة وعافية ما تركته يسكن إليها لحظة من الزمان». فأخذ من الكتاب كل ما استطاع أن يمنحه من العزاء والسلاوة والسعادة.

وكان صديقه مرزوق لا يتقطع عن مراسلته وإن خلت كتابته من الطرافة والجدّة، فهي التحيات المحفوظة وبتّ الأشواق والتلهف على إدبار العام الدراسي وإقبال العطلة الصيفية إلا أنه أضاف إلى هذه المحفوظات في آخر خطاب ما نصّه:

«طلما قلت لك إنّي أعيش في قنا كما عاش أبونا آدم قبل أن يخلق الله منه أمنا حواء. لا يقع بصري على وجه امرأة قط، وإن كنت أرى أحياناً بعض الأصدقاء يشيرون إلى كتلة من الثياب السوداء الملفوفة تسير كعمود من الدخان الكثيف وأسمعهم يقولون: انظر إلى هذه المرأة..»

ولكن وقع بالأمس ما يعدّ حدثاً تاريخياً في حياة قنا؛ إذ حضر الدكتور سامي حسني مفتش الصحة إلى البستان العمومي وفي صحبته غادة جميلة سافرة الوجه فهزّ البلد وزلزل كيانه. إنه رجل جسور لا يعبأ بأراء المتزمتين، وتجنده دائماً على استعداد للردّ على تطفّل المتطفّلين بما يجعله مثلاً وعبرة، ولم يلبث أن شاع الخبر وملاً الأسباع فهرع الموظفون من مدرّسين ومهندسين وكتبة إلى البستان وهم يسوّون أربطة الرقبة ويحكمون أوضاع الطربوش على رؤوسهم، فلو رأيت البستان

حينذاك لحسبته حديقة غناء في مصر الجديدة أو قصر النيل.

إنّها شابة جميلة تحمل في طياتها عطر القاهرة المعبّ، فليهنأ ففر قنا بهذا العطر العذب..».

فخفق قلبه لدى مطالعة الكتاب ولم يداخله أدنى شكّ في معرفة صاحبة الشخصية الجميلة التي أثارت لوعة الشباب في قنا.

يا له من كلام يحمل فرحاً وألماً، والألم فيه أكثر! أيجوز أن تسعد قنا ومن فيها بحبيبته وبقية هو في القاهرة تسيل نفسه حشرات عليها؟

وهمّ أن يكتب لصديقه كتاباً يعلن فيه بأنّ الفتاة التي هزّ مقدمها قنا هي حبيبته اليوم، ثمّ خطيبته غداً، ولكنّه جفل من هذا الإعلان ووجد رغبة خفية أن يكتبه إياه وأن يطلب منه أن يوافيه بأخبارها التي تستحقّ الرواية والحديث.

لقد تردّد لحظة وطرح على نفسه هذا السؤال: ألا يُعدّ هذا تجسّساً منه على حبيبته؟

وهل يجوز هذا في شرع المحيّين؟ أو ليس الأفضل أن يربأ بنفسه عن أن يضع صاحبه موضع الاتهام والظنّة!

ولكنّ عاطفة الندم هذه لم تستطع أن تقهر عواطف قلبه الجياشة السوداء فطردها من نفسه وكتب إلى صديقه بما أملت عليه شكوكه من بادئ الأمر. وبعد حين وصله كتاب ثانٍ من صديقه جاء فيه عن عائدة ما يلي:

«تغيّر كلّ شيء في قنا وكلّ شيء في حياتي. ولم تعد قنا قبراً موحشاً فاغراً فاه مكشّراً عن أنيابه، ولم تعد حياتي سأمًا ثقيلاً متصلاً. كيف لا يكون هذا وأنا مطمئنّ إلى أنّي سأحظى أصيل كلّ يوم برؤية ذلك الوجه السافر المبتسم الذي يُجّمي موات النفوس، ويبعث مصفّر الأمل.. ما أجملها، وما أعذبها!».

علمت الآن أنّها ابنة أخي مفتش الصحة، أو هذا ما علمته قنا عامّة وعلمه شبابها خاصّة. إنّ جميع العيون تلتهمها التهام الجوع، فلعلّ هذه الضجّة تثير الغيرة في نفوس الآباء الموظّفين، فتشجّعهم على

## مس الجنون ٢٥

استجابات خفية لرسائل الصامته الملتهية، وأستشفت أحياناً على فمها ابتسامة خفيفة، ولعلها تخاطب عمها أو أحد أبنائه الصغار بصوت مسموع وهي تعنني. لا تدهش لأقوالي فإني أطاردها في اصرار، وأتبعها في عناء، وأخاطبها بصوت مكتوم تنني به عنه شفاتي المتحرّكتان، وأبعث إليها بإشارات الشكوى والرجاء، وقد اقتربت مني مرة وهي تلاعب طفلاً من أبناء عمها وسمعتها تقول له أو لي إن شئت: «دائماً في أعقابي، فماذا تصنع لو رجعت إلى مصر؟...» فقلت لها بصوت مسموع «لعلك لا تعودين...»، إنها كلمة ذات مغزى خاص إذا قالها شاب أعزب موظف مثلي. وقد كان لها الأثر الجميل. والآن أفيني فأنتك خبير طيب عالم بأحوالي، هل أقدم أم حسي ما ذقت من لذة بريئة وأولي ظهري ودأ لن ينتهي بالتنام... إن ثمرة الحب ناضجة دانية تنتظر من يقطفها. ما رأيك؟...»

يا للظلام... يا للألم الساحر... عبثاً يحاول دفع هذه الآيات بالشك والتكذيب، فعائدة بلا رب هي التي لا تستطيع مغالبة الشوق بالتستر وعدم الاكتراث المفتعل، وهي التي تحدث الغير وتعني المجدود من الرجال، هي التي تحجب عنها الإجابات الخفية... وهي تسكرها سير الزواج...

فيا للظلام ويا للخيبة القاتلة... والأدهى أنه يريد منه أن يكون مستشاراً في مأساة قلبه... لعله يرجو أن يشير بما يقطع خيط العنكبوت الذي يمسك بكفه أحلامه وسعادته... فيا للسخرية! من المستطاع أن يحاول إنقاذ سعادته فيعلن صديقه بالحقيقة السافرة ويضع آماله بين يدي شهامته وما يعهد فيه من الإخلاص والمروءة، ولكن كبرياءه تأي عليه أن يكون في حبه من المسترحمين السائلين، وهو يندفع برغبة جنونية نحو جحيم العذاب كأنما يستطيع النار الموقدة؛ وأبى إلا أن يعرض حبه لأقصى امتحان. فإما إلى نعيم الطمأنينة، وإما إلى أهوال العذاب، وعليه فقد تمالك وكتب إلى صديقه:

«إذا كانت ثمرة الحب ناضجة فاقطفها بلا تردد،

الاستهتار بتقاليد الصعيد وأهليه، وإبراز بناتهم للعيان، ومهما يكن من الأمر فنحن الراحون.

لا تخش على أخيك من قهر، فهو بطل صنديد، وشخصية لا يشق لها غبار، وإن عيني لتنفذان من بين العيون جميعاً وتجذبان عينيها إليّ، فصبراً ولتعلمن بعد حين في أيّ نجبا من مخابئ القدر كانت تنتظره هذه المفاجآت!.

ما هذا الذي يقوله مرزوق من أن عيني تجذبان إليه عينيها؟. إن لعيني مرزوق أن تجذبا كيف تشاءان... أما عينا صاحبه فما بالهما تنجذبان وتستجيبان؟.. هلاً يكون ذلك مجرد نظر بريء فسره صديقه على ما يهوى غروره ومحب؟.. إنه لا يشك أبداً في إخلاص عائده، ولكن ينبغي ألا ينسى أن لصاحبه عينين جميلتين يحس الناظر إليهما سخونة في أعصابه ولذعة في قلبه، وهو- إلى ذلك- مدرس محترم من حملة الدبلومات العالية، ومن ذوي المستقبل السعيد. أما هو فلم يزد على أن يكون موظفاً صغيراً، كل مؤهلاته شهادة البكالوريا، ومستقبله مظلم محدود، أفلا يكون لكل هذه الفوارق أثر في الحب؟..

إنه يشعر بحزن عميق يخيم على نفسه فيجعلها من الكتابة كنفس هرم متشائم، ويحس بسم الغيرة ينطلق من قلبه ويلوث دمه... أواه... إن أحلامه وآماله تتأرجح على كف رجيم..

وفي ذلك الوقت أتاه كتاب من عائده، فانكب عليه بلهفة، وتلاه مرة بعد أخرى، ولم يكن يخرج في معناه عن رسالتها الأولى، فترعزت شكوكه، وعادته الثقة، وذاق بعض الطمأنينة والشفاء، وحل غرور صديقه إثم ما جنى عليه كتابه من الشك والعذاب، ولكنّه تسلّم رسالة من صديقه بعد ذلك بأسبوع، جاء فيها:

«كن على يقين من أن العاطفة النامية لم تعد قاصرة على جانب واحد، فعينا الفتاة- واسمها عائده- تقتحان الحاضرين من الشبان وتستقران عليّ أنا. إنني أطالع في وجهها عند حضوري سيمي الشوق والتطلع تحاول أن تخفيها بعدم اكتراث مفتعل، وأقرأ في عينيها



فإنَّ حكمة الدنيا لتذوب حسرة على ثمرة حبٍ ناضجة يزهدها فيها الإنسان، أقدم ولا تُبالِ بالتناجج البعيدة، وتمتّع بالحبِّ في منفى قنا ولا تحمّلن نفسك هموم التفكير في الغد، ولا تغفل عن تزويدي بكلّ جديد فأني أصبحت من تتبّع حبك على حبّ شديد.

وانتظر ردّ صاحبه بصبر نافذ وجزع لحوح، حتّى وافاه منه كتاب جاء فيه ما يلي:

«بوركت من حكيم سديد الرأي! لقد أتبت نصحك أيّما الأخ، وضربت لها موعدًا همسًا، ووافيت إليه صباح اليوم الثاني وأنا حائر بين الشكّ واليقين، بين اليأس والأمل، ولكن لشدّ ما كان فرحي عندما رأيته قادمة، والحقيقة أنّها كانت مترددة مذعورة على رغم خلوّ المكان الذي يوحى بالطمأنينة في خفية عن أعين الرقباء، وبلغ بها الذعر أنّها مرّت بي غير ملتفتة إلى يدي الممتدة كأنّها جاءت لغير موعدى. فتتبعتها وحيّتها وطمأننتها حتّى قالت لي مضطربة:

- لا أدري كيف جئت.. كيف أعطتك.. إنّي مضطربة..

فهدأت من خاطرها وسكنت اضطرابها ولاطفتها بما أوتيت من بيان ومران وحماس حتّى أفرخ روعها واطمأنت.

لقد تحدّثنا طويلًا، بل طويلًا جدًّا، ولو أردت أن أسطر لك ما دار بيننا ما انتهيت وما وسعتني الأسطر؛ فحسبك أن تعلم أنّها فتاة جميلة رشيقة حلوة المعشر، مهذّبة الطباع، وإن كانت تغلب عليها حدّة الإحساس وتوقّد العاطفة والذهاب مع الخيال. وقد حامت بمهارة حول موضوع الزواج فجارتها بخفّة ولباقة لا تهويان بها إلى قرار اليأس ولا تعلقان بها إلى عهد الميثاق، وعند الافتراق تناولت منها قبلة خلّت لحلاوة جدّتها أنّها أوّل قبلة تناولها شفتاي...»

انتهى الأمر، وتبدّدت الأحلام وخابت الأمال وقضت على قلبه الذي انتهى طويلًا بأفراح الحبّ أن يتجرّع آلام اليأس والحنية.

وانقطعت عنه رسائلها ولكنّه كان على علم متّصل بأحوالها من رسائل صديقه التي جاءته تترى.

وقد كتب إليه في إحداها: «أنا - باختصار - سعيد جدًّا، فحياتي مليئة بالبهجة والمسرّة، وعائدة خير عزاء عن الوحدة والوحشة في هذا المنفى السحيق، وإني كلّما أذكر أنّي سأحرم هذه المتعة بعد شهر يشيب شعري من الهول، وأضّمها إلى صدري بشغف، وألّتهم منها قبيلات ملتبهة كأنّي اخترت منها ما أعود إليه عند الفراق. أمّا هي فتعتقد أنّها لن تعود إلى القاهرة أو أنّها تعود لكي ترجع إلى الأبد، فمن يديرها أنّ لي خطيبة تنتظرن في القاهرة من سنوات طويلة...»

وهذه المناسبة أقول لك إنّ عائدة من اللاتي وهبهنّ الله دلالة وفتنة ولكنّها على قدر غير هيّ من الاستهتار والنزق؛ أمّا خطيبي فتشابّه حديّة هادئة الطبع وعلى خلق عظيم، وإني أدخرها للزواج وأنا سعيد.

وكتب إليه في رسالة أخرى: «معذرة أيّما الصديق عن تأخير غير مقصود؛ والحقّ ماذا أقول لك؟ فالحياة الجميلة هي... لقاء فأحاديث، فمداعبات فتقيل وعناق فوداع ولقاء. إنّها غدت مجنونة بي، وكلّما مرّت ساعة اشتدّ بها الجزع وتكاد تنطق جوارحها: أن أذهب إلى والدي وخطبته في حيننا لأكون لك طول العمر. إنّها أمنية طبيعيّة ولكن ما كلّ ما يتمنى المرء يدركه...»

ثمّ كتب إليه بعد حين. «قومت الألفة تلعثم الحياء وصيرت التلميح تصرّيجًا وأمست عائدة تلحّ على أن أكلم أباه لتتخذ علاقتنا الصيغة الشرعيّة المقدّسة، وكانت حياتي تكون السعادة نفسها لولا هذه المنعصات.

والحقّ أنّي أجد بين يديها سعادة صافية جعلتني شديد العطف عليها، وبعثت في الضمير ألمًا مبرّحًا. وإنّه ليسوءني ما أبيت لها من نيّة الغدر والهجر لأنّي في الحقيقة لم أر فيها أكثر من ملهاة ممتعة أسكن إليها في هذا المنفى القصي. وما أشبه غرامي هذا بغرام الرخالة الجوّاب تتعدّد وعوده تعدّد ما يجوبه من البلدان. وما يثير النفس يا صديقي أنّي أوّل أمس على

## مس الجنون ٢٧

موضوعاً ينبغي أن يتقرر فيه المصير، فإما إلى يمين وإما إلى شمال، وما كان ينبغي لي أن أختار من جديد، وما أحببت ذلك قط فإن خطيبي تنتظر أوبتي بفارغ الصبر وهي أكرم على نفسي من هذه الفتاة النافهة الثرثارة التي لم يميّزها الله إلا بمظاهر الجمال المتذل لا يلبث أن يتبخر أثره في الهواء. ومهما يكن من أمر فلن ينقضي أسبوع حتى تكون الأنسة عائدة في طريقها إلى حيث ألفت.

\*\*\*

قرأ جميع هذه الرسائل - رسائل صديقه وقاتله - بإمعان شديد.

وكانت تسلط على نفسه في ذلك الوقت عاطفتان: عاطفة حزن عميق وشعور حاد بالخيبة والغيرة وانهار الأمل جعلته لا يذوق لذة في اليقظة ولا راحة في السهاد، وعاطفة تشفٍ وانتقام أن تنتهي بها الخيانة إلى مثل ما انتهت به الحال من خيبة أمل وانهار صرح سعادة...

ولم يفرط في واحدة من هذه الرسائل التي سجلت تاريخ أكبر هزة عنيفة امتحن بها شبابه فجمعها في رزمة وحفظها في حَقِّ عاجي جميل ووضعها في مكان أمين وانتظر...

جاءته رسالة مقتضبة من عائدة نفسها تعلنه بقدمها وترجو أن يذهب للقائها في موعدهما المعهود عند العصر...

وفكر في أمره طويلاً، تفكير من تسيطر عليه عاطفة مسمومة ونفس جريئة حتى انتهى من أمره إلى تدبير، فذهب إلى الموعد في الساعة المعهودة، ولم ينتظر هذه المرة لأنه وجدها في انتظاره، واستقبلته بيدين مفتوحتين وابتسامة مشرقة، فضمها بين ذراعيه ولثم شفيتها وهو يتسم ابتسامة كلفته غالباً من الجهد وضبط النفس.

وجلسا إلى نفسيهما كما كانا يفعلان في الأيام الخوالي السعيدة، وسمعها تقول بفرح فائض:  
- وأخيراً.

فردد قولها: «وأخيراً». ثم نظر إليها بعينين

أثر عودتي من لقائها - جلست إلى مكثي شاردًا أقلب بعض الكتب فما راغني إلا ديوان شوقي تنشق صفحاته عن صورة حفظتها فيه وكدت أنساها، هي صورة خطيبي بوجهها الصبيح الجميل وقد سطر على ظهرها بخط جميل «تذكار الوفاء» فكأنه سوط عذاب أهني نارًا، ألا فليغفر الله ما تقدم من ذنبي وما تأخر آيتها الخبيبة! والحق لقد اضطرب فؤادي وألقيت على الصورة نظرة دعر سريعة ثم أخفيت عن عيني أو أخفيت عيني عنها لأنه وقع في نفسي أنها تعلم بخيبي وأنها تصوب نحوي نظرة لا تعيش أمامها الخيانة.

وكتب إليه في رسالة أخرى يقول:

«لست فتىً عصرياً كما كنت أعتقد، ولو آني كنت كذلك لما هالي الغدر ولأكبرت على نفسي الخيانة ولسهل عليّ اصطناع الوداد للفتيات اصطناع تحيات الصباح والمساء، ولهذا تجدني معدباً موزع القلب فلا أنا بالراضي على نفسي لأنني نكثت ميثاق خطيبي ولا أنا بالسعيد بما ألقى من حبّ عائدة الذي رماني تفانيها في هاوية من الندم.

ولا يخفى عليك أنّ الملل عرف طريقه إلى نفسي وأني بتّ منه في سقام وقد كان ذلك مقدورًا ولكن ما الذي عجل به!... لعله ذكرى خطيبي أو لعله آني أقبلت على عائدة إقبال منهوم جائع فامتصت حلاوتها أو ربّما كان ذلك لأنّ جمالها طلاء لا يخفى من ورائه شخصية ذات بهاء وجلال».

ثم كتب:

«أمسى اللقاء غير ذي متعة، لأنني من ناحية بتّ أعاني من السأم وإرهاق الضمير، ومن ناحية أخرى فالفتاة تصرّ على مخاطبتي في شأن الزواج ولا تكاد تصبر عن هذا الموضوع فرمت بي في الحرج والحيرة، وينتهي موعد اللقاء ونحن لم نفرغ من الجدل العقيم والتضييق السقيم والاعتذار والتهرّب المفضوحين».

وأخيراً كتب إليه يقول:

«لأوّل مرّة أخلف الميعاد، وإنّي لأعذر نفسي وأغبطها، وأرجو أن تفهم الفتاة أنّ هذا منّي إعلان بالقطعية، ولم يكن من هذا بدّ بعد أن بلغنا في علاقتنا

أنه لدينا ما يلدُّ لنا حديثه أكثر من هذا . .  
 - طبعًا . . . طبعًا . . ولكن وأسفاه قد قُدِّرَ عليّ أن  
 أحرم هذه اللذة الليلة . . . لأنّ أُمِّي مريضة وبنبغي  
 أن أكون إلى جانبها سريعًا، فلنؤجِّل هذا الحديث  
 الممتع إلى المرّة القادمة.  
 فنظرت إليه قلقة وسألت:

- ما لك؟ لست كعهدي بك! تقول إنّ أمك  
 مريضة؟ لا بأس عليها . . أمضطرّ أنت إلى الذهاب  
 إليها حالًا؟

إنه يحسّ برغبة شديدة تدفعه إلى الانفجار لينفَس  
 عن صدره بعض غليانه المكتوم وحقد المدفون، ويودّ  
 لو يجبه هذا الرياء بما يمزق قناعه ويهتك ستره ويفضح  
 شناعته، ولو فعل ما جنى على الرحمة والعدالة، فمن  
 حقّه أن يصبّ جام غضبه ويثار لآلام قلبه ويمحق  
 الحياة والمكر السيء.

ولكنّه كان قد انتهى من أمره إلى مرفأ لا يريم  
 عنه، وكان بطبعه هادئًا رزينًا كتومًا يبدّ فيه العقل  
 الهوى وتتغلب لديه الحكمة على الثورة، فغالب دواعي  
 الغضب في نفسه حتّى أسكنها وقال بهدوء غريب:

- إنّي تعب مهموم مكدود الذهن، ولولا شدّة  
 شوقي لرؤيتك، ما هان عليّ أن أغادر أُمِّي، وهي  
 طريحة الفراش . . فلنفرغ من هذا اللقاء ولو على  
 مضض . . والآن اسمحي لي أن أقدم إليك هديّة  
 جميلة. هذا الحُقّ العاجي . . . رجائي ألاّ تمسيه إلاّ  
 حين خلوتك إلى نفسك في غرفتك لتحظّي بالمفاجأة  
 السعيدة في غيبة عن أعين الرقباء . . . وإلى اللقاء  
 القريب آيتها الحبيبة . . .

مبتهجتين تخفيان دهشة وقال لنفسه: يا عجيبًا! ما  
 أقدركنّ أيها النساء على إخفاء مشاعركنّ وتكلف ما  
 ليس بكنّ!  
 وانطلقت هي تقول:

- أستطيع أن أخبرك كم ثانية غبتها عني طوال هذه  
 المدة الثقيلة لا أرجعها الله .

- الذي يبدو لي أن استغراقك في حساب الزمن  
 شغلك عن الكتابة إليّ.

- أتسخر مني؟ . . آه لو تعلم كم كانت تكلفني  
 الرسالة التي أكتبها إليك! كنت أتسلّل إلى مكان قصيّ  
 بالبيت كي أخفي نفسي عن أعين أبناء عمّي . . .  
 فيجدّون في أثري ويبعدون عزّلي ويفزعون أخيلتي  
 المنسجمة وعواظفي الحارّة، فإذا انتهت منها احترت  
 كيف أسلمها إلى صندوق البريد.

- ألم يكن الخروج هيئًا عليك . .

- أحيانًا مع عمّي .

- لم تمّ تخرجي في الصباح وعمك في عمله والجو  
 خالٍ!

- لو فعلت لكان أمرًا مثيرًا . . . والشبان هناك  
 جائعون أرذال عديمو الشرف .

- يا سلام . . .!

- نعم يا عزيزي . .

- أرى عذرهم بيئًا . . . فمن يطالع هذا الوجه  
 الجميل ولا يقهر على الحبّ قلبه؟ ولكن ماذا صنعوا  
 معك حتّى استحقّوا عندك هذا الحكم القاسي؟

فصمت لحظة ثم قالت:

- إنّها صغائر مألوفة لا يني عنها الشبان . . ولكنّها  
 ليست بذات بال . . . فلندع هذا الآن . . . فاعتقادي

## من مُذَكِّراتِ شَابٍ

ذهبت إلى حديقة صولت لمقابلة صديق من السعداء (أي الموظفين) فجلسنا نتحدّث في السياسة والرياضة والزواج - وصديقي من المتزوجين أيضًا - ثمّ لفت ناظريّ إلى مائدة غير بعيدة جلس إليها كهل وفتاة في مقتبل العمر ثمّ قال لي إنّ الرجل هو: ح. و. بك من كبار موظفي المعارف وأنّ الفتاة كريمته، ثمّ قال لي مبتسمًا: «هذه الفتاة تعدّ بحقّ جسرًا مميّزًا لوظيفة محترمة» وأنّجه بصريّ مرّة أخرى إلى البك وإلى الفتاة خاصّة. لم تكن تمنّ حبتهم الطيبة بنعمة الجمال ولكنها رشيقة معتدلة القوام.. لم أشعر بنفور منها ولا ميل إليها.. ليست جميلة ولكنها ليست قبيحة.. وهناك الروح والعقل والترية والأصل الطيب.. وهناك الوظيفة..

وعدت إلى منزلي وأنا أفكّر..

٢٥ يوليو:

جذبني حديقة صولت فأخذت منها مجلسًا مختارًا كلّ مساء، وغالبًا ما أقضي سهرة طويلة منفردًا. من التجاوز أن أقول منفردًا فعن يميني أو يساري أو أمامي يجلس البك وكريمته، والحقّ أنّي لم أخترع هذا المجلس مدفوعًا برأي رأيتُه ولكنّ بمشاعر غامضة، لم تتمخض بعد عن فكرة واضحة، تاركًا توضيحها لمعترك التجربة نفسه، فلم يخفّ أمري عن عيني الفتاة وإن بدا والدها كأنه لم يبصرني قطّ، والتقت أعيننا مرارًا، وللأعين لغة معجمها الغرائز والأحاسيس، فباتت هذه المغازلة الصامتة عادة جميلة، وإخالها أمست مشغولة بي، أما أنا فأحسّ نشوة ظفر واهتمامًا مشوشًا بحبّ الاستطلاع.. ترى هل يمكن أن أحبّ هذه الفتاة؟.. لا أجد جوابًا، فالحبّ كما يعرف أحيانًا من أوّل نظرة

٢ يونيو:

هذا يوم طيّب، حصلت على البكالوريوس وتوجّ كفاحي الأوّل بالنجاح فتنفّست الصعداء، لأنّه من الحقّ أن أقول إنّ حياتي المدرسيّة كانت شاقّة غير مأمونة العثار، وإني تحمّلتها على مضض متعوّدًا بالصبر وقليل من أقراني من يصدّق أنّ رئيس فرقة كرة القدم بالخدويّة وبطل السباحة والغلام الشاطر نال البكالوريا فضلًا عن البكالوريوس.

٥ يوليو:

عدنا اليوم - أنا ووالدي - من الإسكندريّة بعد قضاء شهر في ضيافة عمّي، وانتقل بي الفكر إلى قريبي سعادة ش. ع. بك ففي جاهه وفي منصبه سحر يفتح لي أبواب الحكومة.

٦ يوليو:

زرت قريبي في قصره..

هتّاني وتحدّث معي مليًا ثمّ بغتني بهذا السؤال: وما هو بكالوريوس اللغة الإنجليزيّة هذا؟ وأجبتُه عمّا يسأل عنه متذكّرًا قول القائل: إنّ أصعب التعريفات ما خصّ المسائل البسيطة. على أنّه هزّ رأسه استهانةً وقال لي: «كان أوّل بك أن تدرس علمًا من العلوم فعصرنا عصر علم وعمل، إني لأتساءل كيف يمكنني مساعدتك؟»

وقلت وأنا لا أدري: «أيّ وظيفة يا سعادة البك» فضحك الرجل وقال: «لو كنت مهندسًا مثلًا ما وجدت مشقّة في وضعك في المكان اللائق بك. ولكن ماذا تفعل الحكومة بالأدب والتاريخ؟»

٢١ يوليو:

هل يصبح هذا اليوم من الأيام التي أوّرخ بها؟

قد لا يعرف ولا يكتسب إلا بطول العشرة . .  
٢٨ يوليو:

بننا صديقين صامتين . وقد حرثت الأرض  
وسمّدتها . فما إن تلقى المودة حتى تنبت شجرة الحب  
المورقة . وامتلأت نفسي ثقة فصحت عزمي على السير  
في الطريق حتى نهايته، أي حتى أخطبها إلى والدها .  
ولكن ينبغي أن أظفر بقلها حتى إذا لم أرق في عيني  
البك وجدت في عاطفتها عوناً لا ينبد له إرادة .  
ولكن هل يعدّ عملي هذا ندالة؟ . . هل . . من الحسنة  
أن أخطب فتاة لأجد وظيفة؟ . . ما وجه الاختلاف  
بين هذا وبين أن أخطبها لأقضي وطراً أو أنجب  
ذرية؟ . . فهذه الغايات جميعها وسائل في ذاتها لإرضاء  
غرائز ثابتة، تشبع الوظيفة واحدة منها ليست بأخطبها  
على الإطلاق . . ترى هل يقوم تفكيري على أساس  
صحيح من الحق أم إن عاطفتي تستخدم العقل  
والمنطق في تبرير هنتاتها؟ . .

٦ أغسطس:

ذهبت اليوم لمقابلة حضرة صاحب العزة ح . و  
بك فادخلني خادم نوري إلى فراندا تشرف على حديقة  
الفيلا الغناء .

وجاء البك بعد دقائق في ثوب حريري فاخر فسلم  
عليّ سلاماً حاراً أذهب عني الارتباك وردّ إليّ جناني .  
وقدم لي سيجارة . ثم تفحصني بنظرة ثابتة : وأخذنا في  
الحديث فسألني عن مؤهلاتي وعمّا أنتويه لمستقبلي؟  
فقلت له : إنني أروم الاشتغال بالتدريس ، فسألني عمّا  
إذا كنت حاصلاً على دبلوم التربية؟ فأجبت بالنفي . .  
ولكنني أكّدت له أنّ كثيرين من أقراني اشتغلوا  
بالتدريس بغير هذا الدبلوم ولكن بالوصايا التي لا  
تردّ ، فهزّ رأسه هزّة لها معناها وقال : «إنّي أرجو لك  
كلّ خير» ثم أرسل في طلب ابنته ، فلم أتمالك أن  
خفق قلبي وشعرت بحرارة الاضطراب تلفح وجهي .  
وجاءت الشابة ، مرتدية ثوباً أبيض يكشف عن  
ذراعيها ناشرة في الجوّ رائحة طيبة مخدّرة فراعني جمال  
جسمها وحيويتها . وقدمها إليّ قائلاً : «آنسة سعاد . .  
ابنتي» وقدمني إليها وأخبرني أنّها متخرّجة من الجامعة

الأمريكية وأتمها أستاذة في الأدب الإنجليزي مثلي ، وأنّ  
أمّها متوقّاة ، ثم اقترح ضاحكاً أن يكون حديثنا  
بالإنجليزية - وهو من خريجي جامعة إكسترا - فتحدّثنا  
طويلاً ، حديثاً قريب التناول ولكنّه لذيد تمتع . والواقع  
أنّ سحر النساء يتجلّى فيما يفتن في الحديث التافه من  
لذّة . . وقد طببت نفساً .

١٠ أغسطس:

عدت إلى مقابلة البك مرة أخرى فقال لي بلهجة  
دلّت على الأسف : «لا توجد وظائف خالية لتدريس  
اللغة الإنجليزية» وترث قليلاً ثم استدرك : «ولكن  
توجد وظيفة مدرّس لغة فرنسيّة . . هل تميد اللغة  
الفرنسيّة؟» والواقع أنّ معلوماتي في الفرنسيّة تعادل  
معلومات طالب البكالوريا أو هي كانت كذلك قبل  
أربع سنوات . ولكنني وجدت نفسي حيال وظيفة محترمة  
درجة سادسة وربما بعثة أيضاً ، فأجبت بجسارتي  
الطبيعيّة : «إنّي أجيد الفرنسيّة يا سيدي» ، فقال الرجل  
بسرور . «انتهينا يا بطل» .

١٤ أغسطس:

يوم جميل اصطحبت «سعاد» للنزهة فتمشينا في  
جزيرة الروضة جنباً إلى جنب . وهذه أوّل مرّة أخذ  
فيها حذري في محادثة فتاة ، فلا يخفى أنّها مثقفة ذكيّة  
ذات تجارب ، كثيرة الاختلاط بأفاضل الرجال من  
اصدقاء والدها . فقلت لنفسي إنّه يحسن ألاّ أتملقها  
تملقاً رخيصاً مبتذلاً . وجرى الحديث بيننا فقلت لها إنّي  
سعيد بمعرفتها معجب بتقافتها وذكائها . ثم شعرت  
بأنّي لم أقل كلّ ما ينبغي أن يقال وألح عليّ شعوري  
فقلت إنّ لها حسناً يروقي . ولكنّها حدجتني بنظرة  
ذات معنى وقالت لي مبتسمة : «كلّاً لست جميلة البتّة»  
فقلت لها مستعياً بالجدل على مداراة عواطفي :  
«سنظّل نختلف في الجمال كما اختلف الذين من  
قبلنا . . ولكن حسبي ما تقول النظرية الذاتية ، فجمال  
امرأة هو ما يطيب لي منها . . وأهمّ الأشياء جميعاً أن  
تلقى حياتنا المشتركة قناعة وسعادة» . فضحكت  
ضحكة رقيقة وسألني كالمتهكّمة : «أقصيد غزل أم  
رثاء!» فقلت بلهجة دلّت على الإخلاص والصدق :

## مس الجنون ٣١

الحياة. وما يخفى شيء عن عيني زوجي فهي تعلم بمتاعبي جميعاً. وقد أقنعتها بضرورة سفري في بعثة فاقنعت ووعدت بدورها بإقناع والدها فكلانا لا يمكن أن يتذوق طعم الحياة الحلو إذا استغرقني ذاك التيار العنيف من العمل والقلق وعدم الثقة بالنفس. ومع هذا فلشد ما يحسدني أناس على زيجتي وعلى الدرجة السادسة!

٧ نوفمبر:

حضر درسي اليوم مسيو روبير مفتش اللغة الفرنسية.

وكنت أتوقع حضوره بين يوم وآخر أستفز حنانه القلق، لقد أمكنني أن ألزم التلميذ طاهر- ابن الفرنسية- حد الصمت ولكن كيف أنجو من مخالب هذا المفتش. وجاء الرجل واختار موقفه في نهاية الفصل وجعلت أشرح الدرس بعناية فائقة مختلساً- بين حين وآخر- النظرات من وجهه المعتصم بلحيته السوداء المجللة بالمشيب، فلم أستطع أن أنفذ من عينيه الجامدتين إلى حقيقة مشاعره، ورايته يتحرك متمهلاً ويفحص بعض الكراسيات فمضى قلبي يروح معه ويحيي ثم نظر نحوي وقال بصوت مرتفع «مسيو» فأمسكت وأتجه نظري نحوه وقد تملكني الارتباك، فطلب إلي أن أوجه إلى التلاميذ أسئلة عن الموضوع فصدعت بالأمر حامداً الله على أنه لم يدعني إلى محادثته علانية، ثم وجهت عدة أسئلة في لهجة مضطربة، خصصت التلميذ طاهر بأكثرها.

وفي نهاية الدرس خلا الرجل بي، وحدجني بنظرة ثاقبة ثم سألني عن مؤهلاتي، فأهاج سؤاله دمي وأجبتة بالحقيقة، فلم يخف دهشته، واعتذرت عن الواقع بأني لا ينقصني إلا التمرين على الكلام فقال لي بلهجة باردة. «ولكن يا سيدي ليس المدرس إلا معلّم كلام» فغصصت بقوله وسكت.

وفي هذه الساعة التي أكتب فيها تجلس زوجي إلى أيتها تلح عليه في وجوب سفري بالبعثة.

١٥ يونية:

أما هذا فيوم عصب ساذكره ما حييت، ففي

«لا استحققت الرثاء أبداً!» ثم صارحتها بما زعمت أنه رأيي في الحب والزواج وأسهب في ذلك إسهاباً وتعمدت أن تدل لهجتي على البساطة والإخلاص. وأصغت إلي بكل جوارحها، ولم تواصل الصمت فاشتركت في الحديث، وكأنا تعبنا بعد ذلك فرنا صامتين وكلانا مغرق في أفكاره، وعلى حين غرة ضغطت على يدها وقلت لها همساً بالإنجليزية «أحبك» فتورد وجهها واضطرب جفناها.

والآن- وأنا مفرد في حجرتي- أذكر حذري بسخرية واستهزاء.

١٥ أكتوبر:

نزلت الميدان ولا سلاح لي إلا جرأتي والثقة المكتسبة من نفوذ صهري وقد داخلني شيء من الطمأنينة حين أيقنت أنني سأدرّس مبادئ بسيطة سهلة. أما العقبة الحقيقية ففي النطق والكتابة ولا أدري شيئاً عما يجتبه المستقبل لي من الصعوبات. بدأت الدرس بتوجيهات عملية كما هو مقرر في برنامج الدراسة فجعلت أقول لهم بعض العبارات التي حفظتها عن ظهر قلب مستعيناً بتفهمها بالإشارة مثل: قوموا، اجلسوا، افتحوا الشباك، أغلقوا الشباك، وقد لاحظت أن تلميذاً- من الجالسين في الصف الأول- يحسن الفهم، فأثبت عليه فما راعني إلا أن وقف وقال لي جملة بالفرنسية في وضوح وسرعة، فلم أفهم شيئاً وبهت، ولكن لا أظن أنه بدا على وجهي شيء مما يقوم في نفسي، وتطوع تلميذ ساءه ما نال قرينه من الظفر بإخباري بأن أمه فرنسية، وساءني الخبر، وأسفت له في نفسي وأردت أن أتقي شره فنهرته قائلاً: إنه لا يجوز أن يتكلم قبل أن يؤذن له.

هذا رقيب لم أكن أتوقعه يذكرني وجوده بالمثل القائل «في كل خرابة لنا عفريت».

٢٧ أكتوبر:

الحياة شاقبة لا لذة فيها. إني أدرّس وأنا قلق، وأصحح مئات الكراسيات، ثم أذاكر كأنني تلميذ من التلاميذ، فمن يصدق بعد هذا أنني أوشك أن أختم شهر العسل. وكيف أطمع في أن تطيب لي

بلطف وابتسمت إليه ما وسعني اللطف والتودد، ولم يداخطني شكٌ في عجزني عن لعب هذا الدور الجديد فرأيت أن أظفر بوسائل أخرى.. جالست الشاب وقدمت له سيجارة فاخرة، وطالعتة بنظرة منكسرة حزينة، فسألني عما بي فأخبرته بأنّي متعب مريض. وهكذا فعلت كما يفعل التلاميذ الكسالى استدراراً لرحمة المتحجّين وتساؤلهم. ولما بدأ الامتحان قدمت له سيجارة أخرى وطلبت إليه أن يعفني من امتحان المناقشات رحمة برأسي مكتفياً بأن أمتحن التلاميذ في المطالعة، وقبل الشاب بسرور، وأخرجت علبة السجائر الفاخرة، ووضعتها على حافة القمطر مفتوحة ثم دعوت فرأشاً وطلبت القهوة.

ولا أدري كيف انتهى هذا اليوم العصيب، وبه أختتم أشقّ عام في حياتي...  
١٥ يوليو:

علمت أنّي اخترت بين أعضاء البعثة وعمّاً قليل تعلن أسماؤنا في الصحف بالشكر والحمد لله وسأعود من فرنسا بعد عامين مستردّاً ثقتي بنفسي فلا يضطرب قلبي للقاء مفتش أو امتحان شفويّ، وحسبت أوّل وهلة أنّي مسافر وحدي ولكنّ صهري أخبرني بأنّ زوجي ستسافر معي.

فليكن، لست على آية حال شقيّاً، وهبني تزوّجت من أجل فتاة في مصر فهل كان جاهلاً بقادر على أن يحتفظ بسحره وأسراره أبد الدهر.. إنّ للعادة سلطاناً لا يقاوم فهي تجعل من الغريب الذي ينقُرنا شدوده شيئاً مألوفاً وربّما محبوباً، كما تهبط بالجمال من عرشه وتُفقدته جدّته وفتوته، السعيد السعيد من راضٍ نفسه على الواقع والتمس أسباب الرضا والقناعة حيثما كان!

صباحه كان امتحان الإملاء للغة الفرنسيّة وفي مساءه كان الامتحان الشفويّ وكان عليّ أن أقف على منصّة أنا ونفر من المدرّسين الفرنسيّين لنملي على المتحجّين، فأخذت مكاني مضطرب النفس خافق القلب لا أدري كيف يعلو صوتي بنطق كلمات لا أحسن نطقها على مسمع من المدرّسين الفرنسيّين والمراقبين ورئيس اللجنة. وشعرت بحرارة تلمح وجهي ورأسي وأوشكت جسارتي أن تحونني، وكان ترتيبني في الإلقاء الثاني، بعد مسيو بوايه مباشرة، فقسست المسافة التي تفصل بيننا بعيني وأرهفت سمعي وألقيت به إليه لألتقط حركاته الصوتيّة التقاطاً دقيقاً. وبدأت الإملاء فاستجمعت انتباهي في أذني اليمنى متناسياً ما حولي، وأملى الرجل عبارته الأولى فحاكيتّه تحرجاً مخرجاً، ولكنّ الظاهر أنّ صوتي لم يرتفع للدرجة المطلوبة ولم يتضح كما ينبغي لأنّي سمعت ضجّة من حولي وأصواتاً تهتف بي: «مرّة ثانية من فضلك». فتميّزت من الغيظ والحلق لأنّه لم يبق في رأسي من النطق الصحيح إلّا أصداء واضطرتت إلى الاعادة مخاطراً.

وتكرّر الاملاء فالإصغاء فالترديد فالعذاب وما لبثت أن أدركت أنّ أنظار بعض المراقبين متّجهة صوبي فتضاعف اضطرابي وحرّجي، ولمحت واحداً منهم يتسم ابتسامة تدلّ على الهزء والسخرية، فعلا دمي، وتركت المنصّة أخيراً في حالة إعياء وألم شديدين.

ولم يمضِ على عذابي هذا بضع ساعات حتّى عدت مرّة أخرى إلى المدرسة لأمتحن الشفويّ، وكان المتحجّون مقسمين إلى لجان، تتكوّن كلّ لجنة من مدرّسين. وعرفت أنّي في لجنة (ج) ووجدت زميلي ينتظرنني بها وهو شابّ فرنسيّ في مقتبل العمر، فحيّيته

## الهذيان

كان سيء الحظ، فما كاد يستدير عام ويستقبل طفلة حتى أصيبت زوجه بحمى النفاس فزلزل بيته الهادئ المطمئن وارتجت حياته السعيدة. وقد عرف منذ اليوم الأول للمرض ما الخوف وما الإشفاق وما الجزع، واندفع إلى استدعاء أعظم الأخصائيين من الأطباء من حملة الباشوية والبكوية غير مُبقي على مال أو ضآن بشمين، حتى اضطر إلى بيع الراديو وساعته الذهبية، ولو طلب إليه أن ينقل دمه إليها لآذاه إلى آخر قطرة... وبالغ في ذلك، فطلب من مصلحته إجازة كيلا يفارق المريضة. وكان يرقب أعين الفاحصين من الأطباء ويسألهم، ويطلع وجه زوجه ساعة بعد ساعة ويسأل العرافين، ويزور أضرحة الأولياء ويفسر الأحلام، ملتصقا الطمأنينة في مظانها جميعا.

وهل ينسى الليالي التي قضاها مسهدا قلقا لا يغمض له جفن ينظر ببصر حائر إلى الوجه الشاحب على ضوء المصباح الأحمر الخافت؟... وكانت هي مسكينة تستحق الرثاء، تضطرب بين النوم والقلق واليقظة الحائرة، وبين النزاع والهذيان، وما هذا الهذيان!... إنه ظاهرة عجيبة تدل على أن الإنسان قد يخون نفسه كما يخون الآخرين. كان يصغي إليها وهي تذكر بلسان متقطع أساءة أناس وأماكن وحوادث كثيرة، وكان شاركها شهود بعضها، فجرى الابتسام على فيه، وترطب التهاب عينيه المحمرتين بنظرة حنان. وفي ذات ليلة سمعها تناديه بصوت واضح قائلة: «صابر» فهرع إليها متسائلا: «نعيمة.. هل تحتاجين إلى شيء؟» ولكنّه أدرك أنّه خدع لأنّها كانت مغمضة العينين يابسة الفم كما يبدو من ازرداد ريقها بصعوبة، فعلم أنّها ماضية في هذيانها الذي لا يتهي،

أوشك الفجر أن يطلع، وتصايحت الديكة إيذانا بطلائع النور، فأخذت الحجر إلى السكون والصمت، كأنما أسلمها أنين المرض الموجع وتأوه الإشفاق الأليم إلى الهمود. كانت ترقد على الفراش امرأة شابة يبدو من اصفرار وجهها وذبول خديها وشفيتها وتضعض كيانها أنّها تعاني وبال مرض يهتصر شبابها. وعلى فراش قريب رقد شاب في مقتبل العمر يتقل جفنيه السهاد. وبأى القلق أن تلتقي أهدابها، يطلع وجه المريضة في حزن ثم يعطف رأسه إلى مهد جديد فيجري الحنان في عينيه الذابلتين ويتمتم في رجاء صادق: «اللهم صن حياة الأم المسكينة... وطفلتنا البريئة».

وكان الشاب من ذوي القلوب الرقيقة والنفوس الندية بالرحمة والعطف. وكان على عهد صباه يلذ لرفاقه أن يدعوه «رجل البيت»، لما طبع عليه من النفور من المجتمعات والأندية، والاشترار في المظاهرات التي تستهوي أقرانه، والانجذاب نحو البيت بسبب وبغير سبب: فكان يقضي نهاره في الحديقة يسقي أشجار البرتقال والليمون، أو في السطح بين الدجاج والحمام؛ فإذا كان الخميس أعطى ذراعه لشقيقته ومضيا معاً إلى السينما. ولذلك أخذ يفكر في الزواج تفكيراً جدياً منذ اليوم الذي عين فيه مهندساً بمصلحة الأشغال العسكرية. وراح يقتصد من مرتبه ما يقوم بنفقات الزواج من مهر وشبكة وهدايا وفرح، كما كان يفعل شباب الجيل الماضي. فلم يكد يمضي عليه عامان خارج المدرسة حتى تزوج، ولم يدعش أحد أن تنعطف هكذا سريعاً إلى الزواج هذه النفس المطمئنة إلى الحياة البيئية منذ نعومة الصبا ولكنّه



صدره بحالة عصبية كأنما يضرع إلى شيء مجهول أن يمنع كارثة على وشك الوقوع، وذهل بصره من طول الجمود على وجهها، فغاب عنه ما حوله، وكبر الوجه في وهمه حتى ملأ الفراغ الذي أمامه فثقل عليه وسمع، ودوى صدى صوتها في أذنيه، فصار كطين لا ينقطع، وثقل تنفسه وبس حلقه... ما هذا الذي تتكلم عنه؟! وما هذه الخيانة التي أطلق الهذيان عقدة كتمانها فانطلقت خبيثة منكرة أنكى من الحمى؟! هل يكذب الهذيان؟ كيف يكذب الهذيان!! ولكن كيف يصدق أذنيه وما بذل زوج لزوجه عشر ما بذل من الرقة والمودة، وما بذلت زوجة لزوجها عشر ما كانت تبذله من الصفاء والإخلاص! فكيف انطوى هذا على أقدر ما تبلى به الضائير والنفوس؟ رباه... إنها تقول أن الخيانة شيء قدر، وإنها لكذلك، ولكن لا يفزع في هذيانه من قدرتها إلا من انغمس في بؤرتها. رباه... لقد ظن أن ما ابتلى به من مرض زوجته أقصى ما ابتلى به إنسان، فإذا به بلاء هيئ عابر، لا يقاس بما هتك الهذيان أستاره. وأحسن اليأس يحبس أنفاسه، وكان صابر دمث الأخلاق، لين الجانب، رقيق الحاشية، لا يدفعه الغضب إلى الانفعال الشديد والعدوان ولكنّه يشل حركته، ويعطف اندفاع أعصابه إلى صميم نفسه. فيجعله كسيارة يدفعها محرّكها، وتقيد الفرملة عجلايتها، ولكنّه بالرغم من هذا، تحوّل رأسه بحركة عصبية إلى سرير الطفلة، وبرح فراشه في سكون، ودنا منه وأزاح ستاره، وألقى نظرة غريبة على الوجه الصغير المدمج القسما وأدام إليه النظر، والشكّ والألم يأكلان قلبه بقسوة، ثم تحوّل عنه إلى وجه زوجته كأنه يسألها ويستوضحها، ودنا من فراشها كالسائر في نومه حتى التصق به وكانت مغمضة العينين بادية الاصفراء والخور تقلّب رأسها ذات اليمين وذات الشمال، فألقى عليها نظرة جامدة، جرى فيها بريق القسوة جريان البرق في السحاب الداكن وكان قبل لحظات إذا وقف موقفه هذا اضطرب جسمه من الحنان والرحمة، ودمعت عيناه، ولكن قلبه تحجّر هذه المرة فمال عليها حتى نسمت عليها أنفاسه وسألها:

فعداد إلى سريريه، وما كاد يرقد مرّة أخرى حتى سمعها تقول وكأنتا تحادثه: «صابر... أنا متألّة خجلة» فهزّ رأسه المثقل المتعب وقال لنفسه: «أنت متألّة بغير شكّ، أعانك الله على ما أنت فيه، ولكن ممّ تخجلين؟ إن هذا الابتلاء لا يُججل أحدًا وإن كان يجزنا جميعًا» وظنّ أنها متألّة لما يتكلّفه من حولها من العناء والسهر، فرمقها بنظرة حنان ورجا أن يكون هذا الشعور من آي اليقظة والشفاء، واستدركت المرأة تقول:

«زوجي أحسن الأزواج؛ أما أنا فشقيّة.. لست أهلاً لوفائه».

فتهدّ الشاب حزناً وتمتم قائلاً بصوت غير مسموع: «أنتِ أهل لكلّ خير». وأراد أن يناديها لعلّه ينتشلها من تيار أفكارها المحمومة، ولكنّها حرّكت رأسها بعنف على الوسادة وقالت بحنق: «راشد... كفى وابتعد عني... ابتعد ودعني...» وكان همّ بمناداتها فاحتبس الكلام في فيه. وحلقت عيناه المسهّدتان، وبدا على وجهه الذهول والإنكار وجلس في فراشه وهو يتساءل: «راشد! من راشد هذا؟» وكان يشعر شعورًا باطنيًا بأنّه لا يسمع هذا الاسم لأول مرّة، وكأنما سبق أن آذى مشاعره. وأسند جبينه إلى كفّه وأغمض عينيه، وكان صاحب هذا الاسم يعيش في الظلام، فقد رآه وعرفه، وأحسن لذلك رجفة تسري في مفاصله... راشد أمين أو أمين راشد- لا يذكر- شابّ نافسه في طلب يدها على عهد خطبته لها، ولولا أن والدها فضله هو واختاره لكان قد تزوّج منها. وقد تذكّر أنّه رآه مرّة وإن كان لا يحفظ من صورته أيّ أثر؛ ورفع رأسه مرّة أخرى ونظر إليها بعينين مرتابتين لا تصدّقان؛ ورجب رغبة حارة في أن يستزيدها ويستوضحها. ولكنّه لم يدّر كيف يجنّها على الكلام، ورأى شفتيها تتحرّكان في ضعف؛ فدنا من حافة سريرها وأرهف السمع وكنم أنفاسه وهو يعاني جزعًا مجنونًا فسمع صوتها يقول فيها يشبه الأنين:

«من يقول هذا.. أف.. والخيانة.. راشد.. صابر.. الخيانة شيء قدر.. فشبك كفّيه وشدهما على

## ٣٥ همس الجنون

ظهور جدتها؟ الحقيقة أتى ضعيف.. ضعيف.. دائماً يندى قلبي بالحنان والعطف، فما كان أجدر بي أن أكون ممرضة.. أما رجلاً فلا.. لست رجلاً ولست زوجاً.. فأمثالي نساء كاملات، أو رجال مغفلون.. ومع هذا هل أنا في حاجة إلى دليل جديد؟ دمّرت حياتي وانتهى كلّ شيء».

وقضى النهار ضالاً لا يقتر، يتردد الألم في صدره مع أنفاسه، وعاد مع الأصيل إلى البيت فوجدها أسوأ حالاً وأشدّ هزالاً. وأقبلت عليه حماته تسأله أين كان، وتقصّ عليه ما قاله الطبيب. فلم ينفذ شيء من قولها إلى صدره وعاف الردّ عليها بتأتاً، بل لَدَّ له أن تقول إنّ الحالة سيّئة، فلتألّم كما يتألّم، ولكن كيف يفهمها أنّه يعلم كلّ شيء؟ كيف يحدثها في هذا الموضوع الخطير وأمها لا ترضى بمفارتها في مثل تلك الحال الخطيرة؟. واشتدّ به الحنق، فاعتزم أن يمنع عنها الدواء ليعاودها الهذيان سريعاً فيسمع منه ما امتنع منه ساعه في اليقظة؟ وملاً الفنجان ماء خالصاً ووضعه على فم المريضة فازدردته بامتعاض.. وعاد إلى فراشه يرقب الفرصة، ولكنّ زوجه لم تنم في تلك الليلة ولم تهذ واشتدّ عليها الألم فباتت تننّ وتشكو وتضطرب. واستدعى الطبيب عند الليل فعابها ولكنّه لم ينصح بشيء، وهمس في أذنه بأنّ الحالة جدّ خطيرة.. وبعد هذا التصريح بنصف ساعة احتضرت المريضة وفاضت روحها.

وخلا إلى نفسه، وكان الدهول مطبّقاً على حواسه جميعاً؛ لأنّ الموت والخيانة الزوجية انتظما تجاربه الشخصية معاً في ساعة واحدة دون عهد سابق بهما. وماتت نعيمة ولم يحزن لومتها، ولكنّ حادثة الموت أذهلت نفسه الرقيقة المرهفة؛ على أنّ الحقيقة لم تغب عنه فقال: لم تمت كما يظنون.. أنا قتلتها.. قتلتها لأنّي منعت عنها الدواء ليلتين متواليتين هما أشدّ ليالي المرض.. «فأنا قتلتها..» وجعل يردد. «أنا قتلتها». فكان يشعر لها بوقع غريب في نفسه يمتزج فيه الخوف بالارتياح.

ثمّ قال مرّة أخرى. «وقتلني هي حيّاً، وألصقت

«نعيمة.. نعيمة.. ماذا فعل راشد؟» فلم تنتبه إليه ولم تَصْحُ، فرفع صوته ونادها وهو لا يدري: «نعيمة» فبلغ صوته مسمعيّ أمها في الحجرة القريبة وقامت المرأة من فراشها مضطربة وهي تظنّ الظنون وهرعت إليه متسائلة: ما لها.. هل أعطيتها الدواء؟ ولم يكن أعطاها شيئاً وكان يريد استبقاء حالة الهذيان التي تعانيها ليستنطقها ما يريد فكذب عليها قائلاً في استهانة وقسوة: «نعم هي بخير والحمد لله» وعاد إلى فراشه وأسند رأسه المثخن بالجراح إلى الوسادة ليتخلّص منها، وليث حماته قليلاً: وفي أثناء ذلك أخذت المريضة إلى الهدوء والسكينة كأنما راحت في نوم عميق فبرحت المرأة الغرفة وكان يتشوّق إلى إيقاظها ولكنّه خشي التي في الخارج فمضى بقيّة الليل مفتوح العينين محموم الرأس بالأخيلة الشيطانية وعيناه زائغتان ما بين فراش المريضة ومهد الطفلة.

وحين سفور الصباح عاودت اليقظة المريضة وبدا عليها أنّها لا تحسّ شيئاً حتّى اهدت عينها إليه فدبت فيها حياة ضعيفة وقالت بصوت غدا من وهنه كالصغير «ما الذي أيقظك؟ لماذا ترهق نفسك هكذا؟» فردّ عليها بنظرة جامدة وكانت تبدو ذاك الصباح أشدّ هزالاً وشحوباً، ولاحت في عينيها نظرة الوداع المخيفة، وكان يشغل باله شيء واحد أسهده الليل ولم يجهل أنّ إثارته خطر يهدّد بالقضاء عليها، ولكنّه لم يحسّ سواه ولم يُبالِ غيره. وكان يشعر نحوها ساعته بحنق وكراهية ورغبة في الانتقام فقال بلهجة جافّة: «تكلّمت الليلة الماضية كثيراً، فشرّقت وغرّبت، وأجرى الهذيان على لسانك كلاماً يحتاج إلى إيضاح» فلم تفهم شيئاً ونظرت إليه بعينين لا تعبران عن شيء سوى الدهول المطلق، وأراد أن يسترسل ولكنّه منعه عن الاسترسال صراخ الطفلة فجأة، فما لبثت أن هرعت إلى الحجرة حماته والمرضعة فنكص على عقبه مغضباً وهو يقول لنفسه: «الطفلة الملعونة تداري فضيحة أمها وأبيها!» وغادر البيت بهيم على وجهه ومضى يحدث نفسه: كان ينبغي أن أعلم كلّ شيء وقد أتحت لي فرص، لماذا أفرّ من صراخ الطفلة؟ أو من

وظفلته . ومضى إلى الإسكندرية واستقل سفينة،  
والظاهر أن نفسه الرقيقة تعرّضت في البحر لأزمة  
عنيفة هدّت كيانه وأتلفت أعصابه، فاستشعر اليأس  
من الدنيا جميعاً وألقى بنفسه في اليمّ خلاصاً من عذابه  
وآلامه، محتفظاً بأسراره لقلبه ولبطون الأسماك .

وكان يترحم عليه المترحمون فيقولون: «ما رأينا  
إنساناً يحبّ زوجته كالمرحوم صابر، فلا هو صبر على  
فقدانها ولا احتمل الدنيا بعدها، فقضى على نفسه بعد  
موتها بأيام . . رحمها الله» .

اسمي قسراً بطفلة إنسان سواي . . ولكنّي قاتل فلست  
إذن مغفلاً» .

وأسند رأسه إلى يده وراح في تأمل طويل وقد سرى  
في جسده قشعريرة البرد والخوف .

\*\*\*

كيف انقضت تلك الأيام التي أعقبت الوفاة؟ . .  
انقضت في ألم وقلق ومخاوف لا يمكن أن تتمثّل لعقل  
إنسان، ثم أعلن عن رغبته فجأة في السفر إلى لبنان  
انتجاعاً للصحة والراحة، وكان في الحقّ يفرّ من أفكاره

## يَقْظَةُ المومياء

نحية العبقريّة الحديثة إلى ذكرى عبقرية الفراعين الخالدة تحت أطلال الوادي، يتوهج نورها خلل ظلمات السنين مثل سنا النجوم المتألقة في السماء، الساري في تضاعيف الليل البهيم..

وكان المغفور له من أغنى أغنياء المصريين وأوسعهم ثقافة وأساهم خلقاً وقد قال عنه مرّة صديقنا الأستاذ لامبير: إنّه ثلاث شخصيات تَمَصّت رجلاً، فهو تركي الجنس مصريّ الوطن فرنسيّ القلب والعقل، فأدى تعريفه أتمّ أداء. والحقّ أنه كان أكبر صديق لفرنسا في الشرق، وكان يعدّها وطنه الثاني، وكان أسعد أيامه تلك التي قضاهها تحت سائها، وأنخذ أصدقاءه جميعاً من أبنائها سواء منهم من يعيش على ضفاف النيل أو في جنّات السين. وكنت أخال نفسي وأنا في (صالونه) أنّي انتقلت فجأة إلى باريس؛ فالأثاث فرنسيّ والجالسون فرنسيّون ولغة الكلام فرنسيّة والطعام فرنسيّ. وإنّ كثيراً من الفرنسيّين المثقفين لا يعرفونه إلّا كهواٍ فدّ من هواة الفنون الجميلة أو كشاعر يقرض الشعر الوجدانيّ الجميل بالفرنسيّة، أمّا أنا فقد عرفته - إلى هذا - محبّاً لفرنسا متعصباً لثقافتها وداعية لسياستها..

أخذت مجلسي في ذلك اليوم إلى جانب الباشا وكان المسيو سارو يقول وهو يتأمل بعينيه الواسعتين الجاحظتين تمثالاً نصفياً برنزيّاً لأنشتين:

- إنّ قصرك يا صاحب السعادة يحتاج إلى تغيير طفيف لكي يصير متحقناً كاملاً.

وقال الدكتور مؤمناً على كلامه وهو يتخلّل لحيته بأنامله:

- صدقت فهو معرض دائم لجميع العبقريّات

أجد حرجاً كبيراً في رواية هذه القصّة، لأنّ بعض حوادثها يخرق قوانين العقل والطبيعة جميعاً؛ ولو كان مردّها إلى الخيال ما تحرّجت، ولكنّها وقعت في عالم الحقيقة وكان ضحيتها رجل من رجال مصر الأفاض المعروفين في الأوساط السياسيّة والأرستقراطيّة. وراويتها الذي أنقل عنه أستاذ كبير بالجامعة، لا يجوز أن يرتقي الشكّ إلى عقله وخلقه، ولم يعرف عنه قطّ ميل إلى الأوهام والخرافات، ولكنّي - والحقّ يقال - لا أدري كيف أصدّقها فضلاً عن أن أحمل الآخرين على تصديقها؛ وليس ذلك لندرة المعجزات في عصرنا، فمبّا لا جدال فيه أنّ عصرنا عصر المعجزات والحواروق، ولكنّ العقلاء في أيامنا هذه لا يقبلون أمراً بغير تعليل، كما أنه لا يستعصي شيء على إيمانهم مع التعليل المعقول. وإنيّ حيال قصّة عجيبة لها من دواعي التصديق رواية حكيم وشواهد ملموسة، ولكنّ التعليل العلميّ ما يزال يتأبّى عليها، فهلاً أعذر عليّ شعوريّ بالحرج في تقديمها؟

ومها يكن من أمر فأليك ما رواه جناب البروفيسر دريان «أستاذ الآثار المصريّة القديمة» بجامعة فؤاد الأوّل، قال: في ذلك اليوم الأسيف الذي خفق فيه قلب مصر خفقة الحزن والألم ذهبت إلى زيارة المغفور له محمود باشا الأرنؤوطي في قصره العظيم بصعيد مصر، وأذكر أنّي وجدت عنده جماعة من الأصدقاء الذين كانوا يتردّدون عليه كلّما أسعدتهم الظروف، منهم المسيو سارو ناظر مدرسة الفنون الجميلة العليا. والدكتور ببير طبيب الأمراض العقليّة. واحتوانا جميعاً (صالونه) الأنيق البديع الحافل بآيات الفنّ الجميل من لوحات وتمائيل كأنّها احتشدت في تلك البقعة لتؤدّي

وردّد الرجل عينيه الزرقاوين بيننا وقد لاحت فيها  
نظرة ساخرة وسألنا متجاهلاً:  
- ولّه؟ ..

فقلت بلا تردّد:

- ستجد الصحافة في ذلك موضوعاً أيّ موضوع!  
وقال الدكتور بيير:

- وما من شكّ في أنّ الصحافة الوطنيّة عدوّ لك  
قديم... وهل نسيت يا صاحب المعالي حملاتها  
المغرصة عليك واتهاماتها إيّاك بأنك تبعثر أموال الفلاح  
في فرنسا بلا حساب؟!!

فصاح الباشا بإنكار:

- أموال الفلاح!

فبادر الدكتور يقول معتذراً:

- معذرة يا باشا... هذا قولهم!

فهزّ سعاده منكيه استهانة وزمّ شفّته احتقاراً وقال  
وهو يثبّت نظارته الذهبيّة على عينيه:

- أنا لا آبه لهذه الأصوات المنكرة الوضيعة، وما دام  
ضميري الفتيّ لا يرتاح لبقاء مثل هذه الآيات وسط  
هذا الشعب الحيوانيّ، فلن تقبر هنا أبداً.

وكنت أعرف رأي صديقي الباشا عن المصريّين  
واحتقاره لهم؛ ومما يُحكى في هذا الصدد أنّه تقدّم له  
منذ عام طبيب مصريّ نابغة حاصل على رتبة البكويّة  
طالباً يد ابنته، فطرده شرّ طرد لأنّه فلاح ابن فلاح.  
على أنّي - مع موافقتي على كثير من التهم التي يكبلها  
الباشا لبني وطنه - لم أكن أتبعه رأيه إلى النهاية، ولما  
قلت له:

- سعادتك شديد النقد.

فقهقه الباشا ضاحكاً وقال:

- أنت يا عزيزي دريان رجل وهبت حياتك الثمينة  
للماضي البعيد، وربّما لاحت لك في غياهبه لمع عبقرية  
خلفها القدماء لا تفتأ توظف عطفك وحنينك على  
أحفادهم. ولكنّ شتان بين الفراعين والفلاحين، لا  
يجوز أن تنسى يا صديقي أنّ المصريّين شعب فول...  
فضحكت وقلت له:

- عفواً يا صاحب السعادة، ألا تعلم أنّ السير

والمدارس على السواء مع ميل ظاهر للفئتين  
الفرنسيّين.

فقال الباشا:

- الفضل في ذلك يرجع إلى ذوقي المعتدل الذي  
يساوي بين النزعات المختلفة ويعدل بين أهواء  
المدارس، ويهوي تذوّق الجمال سواء أكان بديعه  
براكستليس أو رفائيل أو سيزان. مع استثناء البدع  
الحديثة المتطرّفة.

فقلت ناظراً بطرف خفيّ إلى المسيو سارو وكان يحلّو  
لي دائماً أن أداعبه:

- لو استطاعت وزارة المعارف أن تنقل هذا  
الصالون إلى مدرسة الفنون الجميلة العليا لاستغنت  
عن إرسال بعثات إلى فرنسا وإيطاليا..

فضحك المسيو سارو وقال موجّها الخطاب إليّ:

- بل لعلّها تستغني عن ناظر المدرسة الفرنسيّ  
أيضاً..

ولكنّ الباشا قال جاداً:

- اطمئنّ يا عزيزي سارو، فإنّه إذا قدّر على هذا  
المتحف أن يترك الصعيد فسيأخذ طريقه رأساً إلى  
باريس.

فنظرنا إليه نظرة استفهام ودهشة وكأنا لا نصدّق  
أذانتنا.

فالواقع أنّ مجموعة الباشا الفنيّة كانت تقدّر بمئات  
الألوف من الجنيهات، وقد تسرّبت جميعها إلى جيوب  
الفرنسيّين، فكان غريباً أن يفكر في إهدائها إلى  
فرنسا، وكان يحقّ لنا أن نفرح ونبتهج ولكيّ لم أمالك  
أن أسأله متعجباً:

- أحقّ ما تقول يا إكسلنس؟

فقال الباشا بهدوء:

- نعم يا صديقي دوريان... ولم لا...؟

فقال المسيو سارو:

- يا له من حظّ سعيد حقيق باغتباطنا نحن  
الفرنسيّين، ولكيّ أقول لسعادتك مخلصاً إنّني أخشى أن  
يسبّب لك متاعب كثيرة..

وأمنت على رأي المسيو سارو.

## همس الجنون ٣٩

أدري كيف رضخت وأذعنت؛ ولكن لا داعي للأسف فقليل من الخرافة يريح العقل الكلف بالحقائق والعلوم. ومجمل الحكاية أنه جاء قصري منذ يومين رجل معروف في هذا البلد يدعى الشيخ جاد الله، يحترمه العامة ويقدمونه، وكم ذا بمصر من المقدسين، وألح في طلبي وأذنت له وأنا أعجب لسانه، وحياتي الرجل على طريقته، وبشرني بأنه استدل بعلمه الروحاني وبكتبه القديمة عن وجود كنز ثمين في باطن حديقتي، وطلب إليّ بتوسّل أن أذن له في الكشف عنه تحت إشرافي، ومثاني بالذهب واللاؤلّ في مقابل أن أعده بالحلوان. وضقت به وهممت بطرده ولكنّه ضرع إليّ وتوسّل حتّى استعبر وقال لي: لا تنهأ بعلم الله ولا تستهن بعباده المقربين. فضحكت طويلاً، ثمّ خطر لي خاطر سريع فقلت لنفسي لماذا لا أجاري الرجل في وهمه وأسأله على اعتقاده؟! لن أخسر شيئاً وسأفوز حتّى بنوع من التسلية، وقد فعلت يا أصدقائي، وأذنت للرجل، وأنا أظاهر بالجدّ، وها هو ذا يحفر في حديقتي ويعاونه في عمله الشاقّ اثنان من خدمي المؤمنين، فما رأيكم؟

قال الباشا ذلك وضحك عاليًا، فضحك الجميع، أمّا أنا فكّرت بي الذاكرة إلى الماضي إلى حادثة مشابهة فقلت:

- طبعي أنكم لا تؤمنون بعلم الشيخ جاد الله، ولا أنا أستطيع أن أومن به وأسأله، ولكنّي لا أستطيع كذلك أن أنسى أنّي اكتشفت قبر الكاهن «قمناء» بفضل خرافة كهذه!

فبدت الدهشة على وجوه الحاضرين وسألني الباشا:  
- أحقّ ما تقول يا سيدي الأستاذ؟  
فقلت:

- نعم يا باشا، لقد دلّني يوماً شيخ مثل الشيخ جاد الله على بقعة من الأرض في وادي الملوك وقال لي: إنّه استدلّ بكتبه وعلمه على وجود كنز فيها، فضرينا فيها بمعاولنا ولم نلبث أيّاماً حتّى اكتشفنا مقبرة «قمناء»... وهذا بلا شكّ من عبقریات المصادفات.  
فضحك الدكتور بيير وقال متهكّماً:

ماكنزي أستاذ آداب اللغة الإنجليزيّة بكلّيّة الآداب صرّح أخيراً بأنّه أصبح يفضّل الفول على البودنج؟  
فضحك الباشا، وضحك الحاضرون جميعاً وقال  
سعادته:

- أنت تفهم ما أعني ولكنك تحبّ المزاح، المصريّون حيوانات أليفة طبعها الذلّ، وخلقها التذللّ، وقد عاشوا عبداً على فتات موائد الحاكمين منذ آلاف السنين، ومثل هؤلاء لا يحقّ لهم أن يأسفوا على إهداء هذا المتحف إلى باريس...  
فقال المسيو سارو:

- نحن لا نتكلّم عمّا يحقّ أو لا يحقّ، ولكن عن الواقع والواقع أنهم سيأسفون (ثمّ قال بلهجة ذات مغزى) وستأسف معهم صحافتهم...

ولكن لم يبد على الباشا أدنى اكتراث، وكان بطبعه يتعالى على ضجيج الجماهير وصرخات الصحف المفتعلة، وربما كان لأصله التركيّ دخل كبير في تشبّته بأرائه وعناده واحتقاره للمصريّين. ولم يرد أن نسترسل في ذلك الحديث فأغلق بلباقته النادرة بابه، وانشغلنا ساعة باحتساء القهوة الفرنسيّة اللذيذة التي لم أذق مثلها في مصر، ثمّ نظر الباشا إليّ باهتمام وقال:

- ألم تعلم يا مسيو دريان أنّي بدأت أنافسك في اكتشاف الكنوز؟

فنظرت إليه مستفهياً وسألته:

- ماذا تعني يا إكسلنس؟

فضحك الباشا وقال وهو يشير إلى حديقة القصر من نافذة الصالون:

- على بُعد أذرع متّا تجري عمليّة حفر جلييلة الشأن في حديقة قصري.

فبدا علينا الاهتمام جميعاً، وتوقّعت سماع خبر مثير، وكان لكلمة حفر تأثير خاصّ في نفسي، لأنّي قضيت شطراً كبيراً من عمري - قبل أن أشتغل في الجامعة - أحفر وأنقب في أرض مصر الغنيّة الساحرة.

وقال الباشا وهو ما يزال يتسم:

- أرجو ألاّ تسخروا منّي يا سادة فقد فعلت ما كان يفعله الملوك الأقدمون مع السحرة والمشعوذين ولا

بالحلم المسلوق...  
ثم التفت مرة أخرى إلى السارق ورفع عصاه  
وضربه على كتفه بشدة، وشده وصاح بالحلم:  
- خذوه إلى الخفير.

وضحك الدكتور بدير وهو يسلم وقال للبasha:  
- ماذا تفعل غداً إذا شتم الصعايدة رائحة الذهب  
المكذس في كنز الشيخ جاد الله؟  
فقال البasha فوراً:

- سأحيطه بسياج من الخفراء كخط ماجينو.  
وعُدنا - أنا والبasha - وتبعته صامتاً إلى حيث يشتغل  
الشيخ جاد الله الذي يوشك أن يصير أثرياً عظيماً،  
وكان الرجل منهمكاً في عمله هو ومعاوناه. يضرّبون  
الأرض بفؤوسهم ويرفعون الأتربة في المقاطف ويلقونها  
جانباً، وكان الشيخ جاد الله، تلمع عيناه ببريق حادّ  
يدلّ على العزم والأمل، وتنبعث في ساعديه النحيلتين  
قوة غير طبيعية، كان يدنو حقاً من هدفه الذي هداه  
إلى سبيله عمله الإلهي، فتمثّل لي في شخصه العجيب  
الإنسان بنشاطه، وإيمانه وأوهامه، والحقّ أننا نخلق  
لأنفسنا آلهة وأوهاماً ولكننا نؤمن بها إيماناً عجيباً،  
فيخلق لنا إيماننا عوالم غاية في البداعة والجمال، ألم  
يخلق أجداد الشيخ جاد الله - الذي يذكّرني وجهه  
بتمثال الكاتب المعروف - الحضارة الأولى للإنسان؟ .  
ألم يبدعوا الجمال على سطح الأرض وفي بطنها على  
السواء؟... أو لم يستوحوا في عملهم وتفكيرهم  
أوزوريس وأمون؟ وما أوزوريس وأمون؟ لا شيء في  
الغالب. أما حضارتهم فكانت شيئاً أي شيء... بل  
هي حضارتنا الراهنة... .

وقفنا نشاهد الشيخ المؤمن، أما البasha فبيتسم  
ابتسامة ساخرة، وأما أنا فأستغرق في أحلامي، وكلانا  
لا يدري بما يجتبه له القدر تحت آكام ذلك التراب،  
وكان العمل يبدو عقيماً فتململ البasha واقترح على أن  
نجلس في الفراندة فاتبعته صامتاً، ولكننا لم نكد نصعد  
السلام الأولى حتى لحق بنا الشيخ جاد الله عدواً  
وصاح بفمه المُترّم:  
- مولاي.. مولاي.. تعال انظر..

- ولماذا تعلّل ذلك بالمصادفات فتجحد العلم  
القديم؟... ألا يجوز أنّ الفراعنة يورثون أحفادهم  
أسرارهم الخفية كما يورثونهم سحتهم وكثيراً من  
تقاليدهم؟

ومضينا نتفكّه بأمثال هذا الحديث وطرقنا غيره  
أحاديث كثيرة ومضى الوقت لذيذاً ممتعاً، وعند الأصيل  
استأذن الضيوف في الانصراف، وأما أنا فأعلنت عن  
رغبتني في مشاهدة عملية الحفر التي يجريها الشيخ جاد  
الله، وغادرنا جميعاً الصالون إلى الحديقة وسرنا إلى  
الباب الخارجي لتوديع الأصدقاء، ولم نكد نقطع  
خطوات حتى وصلت إلى مسامعنا ضجة عظيمة  
واعترضت طريقنا جماعة من الخدم رأيناهم يسكون  
بتلابيب صعيديّ ويوسعونه ضرباً ولكيماً، ثم ساقوه  
بشدة إلى سعادة البasha وقال له أحدهم:

- يا صاحب السعادة ضبطننا هذا اللصّ وهو يسرق  
طعام ييميش.

وكنت أعرف ييميش حقّ المعرفة، فهو كلب البasha  
العزيز وأثر مخلوقات الله بقلبه بعد زوجه وأولاده،  
وهو يعيش في قصر البasha منعماً مكرّماً، يقوم على  
خدمته خدم وحشم، ويكشف عليه طبيب بيطريّ مرة  
كلّ شهر، ويقدم له كلّ يوم لحم وعظام ولبن وثريد،  
ولم تكن هذه أول مرة يسطو فيها الصعايدة على غذاء  
ييميش... وكان السارق صعيدياً قحاً، يتمييز  
بالسحنة المصرية العتيقة، وبدو على هيئته البؤس  
والفقر. وقد حدّجه البasha بنظرة قاسية وقال له بعنف:

- كيف سوّلت لك نفسك انتهاك حرمة بيتي؟  
فقال الرجل بتوسّل وهو يلهث من أثر الجهد الذي  
بذله في مقاومة الخدم:

- كنت جائعاً يا صاحب السعادة ورأيت اللحم  
المسلوق مبعثراً على الحشائش فخانتني قوّتي ولم أكن  
ذقت اللحم منذ عيد الأضحى!  
فالتفت البasha إليّ وقال هازئاً:

- رأيت الفرق بين بائسنا وبائسكم؟.. إن  
بائسكم دفعه الجوع إلى سرقة رغيف، أما بائسنا  
فالرغيف ليس عسيراً عليه، ولكنّه لا يرضى إلا

## مس الجنون ٤١

- فتح الكنز عمل يسير، فهذا الباب لا يطيع ويرضخ إلا بقراءة طويلة أبدأها الآن وأستغرق حتى مطلع الفجر... هل أنتم مطهرون؟ وتأثر بأقواله الخادمان ونظرا إلى مولاها بارتباك لأنهما اعتقدا أتهما على وشك المثول في حضرة القسوة الخفية، ولم يكن في الوقت متسع للتطهر والقراءة فقلت للشيخ بحزم:

- إننا لم نبلغ هذا الباب بقراءة فينبغي أن نفتحه بمثل ما اقتحمنا الذي قبله.

وهم الشيخ أن يعترض ولكن لم يُجده اعتراضه وانتهره الباشا فصمت وهو يرمقني شزراً، واستأنفوا العمل من جديد، وتيقظت غريزتي فعملت معهم، حتى أزحت العقبة الكؤود، ووجدنا أماننا منفذاً إلى مشى حور الأبدى...

وكنت خبيراً بتلك الأعمال، فأمرتهم أن يترشوا في أماكنهم وقتاً قصيراً ريثما يتجدد الهواء، وكانت ساعة انتظار شديدة الوقع علينا جميعاً. وكان الباشا صامتاً ذاهلاً كمن هو في حلم عجيب، وكان الخادمان ينظران بعينين ساهمتين إلى الرجل الذي يؤمنان به، وكان الشيخ يحملي تبعه ما قد يحدث لاستهانتني برأيه، أما أنا فكنت أحلم بما عسى أن يقع عليه بصري. وساءلت نفسي ترى هل من المستطاع أن أفوز بتحفة أثرية أزين بها عقد متحفنا الخالد في باريس...؟

ثم دخلت، ودخل خلفي الأرنأؤوطي باشا ثم الشيخ جاد الله وأثر الخادمان أن يلبثا في الدهليز الخارجي. فلما اختفى عنها نور المصباح وأظلم المكان اندفعا إلى الداخل وانكمشا في ركن، وكانت حجرة تابوت كما يدل مظهرها، وقد شاهدت أمثالها مرات عديدة، وكان التابوت موضوعاً في مكانه وعلى غطائه صورة ذهبية لصاحبه، وإلى جانبه تقوم ثلاثة تماثيل بالحجم الطبيعي أحدها لرجل - من المرجح أنه حور نفسه - والآخر امرأة يستدل من وضعها إلى جانبه أنها زوجته، وأمامها تماثيل صغير لغلام، وفي الناحية المقابلة وضعت صناديق مغلقة وآنية ملونة ومقاعد ومناضد وعدد حربية، وكانت الجدران ملأى بالرسوم والنقوش

فالتفتنا إليه بحركة أتوماتيكية، وكان قلبي يخفق خفقاناً غريباً على أثر نداء الشيخ وذكري بشبه له قديم كان يفصل في حياتي بين الفشل والنجاح واليأس والأمل وهبطنا السلم دون إبطاء لأن الرجل كان قد عاد أدراجه، وتبعناه وكلانا يغالب رغبة في العدو...

ووجدنا الرجال الثلاثة يزحزون صخرة كبيرة، مساحتها متر مربع على وجه التقريب، فدنونا منهم فرأينا الصخرة تكشف عن فوهة في مثل اتساعها، فنظرت إلى الباشا، ونظر إلي بعينين تنطقان بالدهشة والذهول، ثم نظرنا إلى داخل الفوهة فرأينا سلماً صغيراً ينتهي إلى دهليز يتجه إلى الداخل موازياً لسطح الأرض، وكانت الشمس تؤذن بالمغيب فقلت للباشا «إلينا بمصباح» فأرسل الباشا أحد الخادمين لإحضار مصباح، وعاد الرجل بالمصباح فأمرته أن يتقدمنا، ولكنّه تردّد وانكمش فهممت بأخذه منه، ولكن كان الشيخ جاد الله أسرع مني إليه فأمسك به بيده ومضى يتلو من القرآن وتعاويد غريبة ثم نزل بقدمين ثابتتين فبعته وتبعني الخادمان المضطربان...

ووجدنا أنفسنا في دهليز مستطيل لا يتجاوز طوله عشرة أمتار، ويعلو سقفه عن هامتنا بعدة أمتار، وكانت أرضه مترية أما جدرانها فمن الجرانيت، وتقدمنا جميعاً في خطوات بطيئة حتى اعتراض سبيلنا باب حجري يأخذ على المقتحمين طريقهم، ولم يكن منظره غريباً علي ولا الرموز المحفورة في وسطه، فجرى بصري عليها، ثم التفت إلى الباشا وقلت بصوت مهتج:

- لقد اكتشفت يا صاحب السعادة مقبرة أثرية...  
فها هنا يرقد القائد حور من عظام الأسرة الشامنة عشرة.

ولكن الشيخ جاد الله قال بعنف وغضب:  
- بل وراء هذا الباب كنز... هكذا يقول الكتاب الذي لا يكذب.

- فهزنت كفتي قائلاً:

- سمّه كيف شئت، المهم أن نفتحه...

فعاد الشيخ يقول:



شاهدتها في حالة غريبة من الرعب، التصق كلّ منها بصاحبه، واتسعت عيناهما وجحظتا وأرسلتا نظرة صلبة جامدة ميتة إلى ناحية التابوت، وتصلّب الشيخ جاد الله في وقفته ويده قابضة على المصباح وعينه لا تتحوّلان عن الهدف نفسه. فنظرت إلى التابوت وقد نسيت غضبي. فرأيت غطاءه مرفوعًا والمومياء ممدّدة أمامنا في لفائفها.؟

ما هذا... كيف فُتح التابوت؟.. هل أُنرت في إقامتي الطويلة في الشرق فغدت عيني تتأبّر إلى هذا الحدّ المضحك بأوهامه وسحره؟..

ولكن أيّ سحر هناك!.. إني أرى المومياء أمامي، ولست الوحيد الذي يراها، فها هو ذا الباشا قد تحوّل إلى تمثال، وها هم الرجال الثلاثة يكادون يموتون من فرط الهلع والذعر. فأيّ وهم هذا؟

والحق أنني أحسّ بالخجل كلّما اضطرتني الظروف إلى سرد ما حدث بعد ذلك، لأني أحدثت في العادة أناسًا عقلاء مثقّفين درسوا تيلور وليفي برول ودركيم ولكن ما حيلتي؟.. إنّ ديكارت نفسه لو كان في مكاني تلك الساعة ما أته الشجاعة على الهزء بحواشيه..

ماذا رأيت؟

رأيت المومياء تتحرّك وتقعّد في التابوت في حركة خفيفة لا يقدر عليها المخمور أو المثقل بالنوم فضلًا عن المبعوث من عالم الأموات، ثمّ قفزت قفزة غاية في الرشاقة انتصبت قبالتنا أمام التابوت..

وكنت موليًا ظهري الخادمين والشيخ جاد الله فلم أزم حلّ بهم ولكن ارتعاش النور الذي يضيء الحجرة دلّ على كهربة اليد التي تمسك به، وكنيت في حالة يتعذّر وصفها. وأعترف أنّ مفاصلي تفكّكت من الرعب الذي لا يوصف، وذعرت ذعرًا لم أحسّ بمثله في حياتي على الإطلاق ولا تكاد تذكر إلى جانبه أهوال الأيام الشديدة التي قضيتها في الجبهة الشرقيّة ومعركة المارن..

يا للعجب!.. ألم يكن حيال مومياء؟.. أو حيال جثة رُدت إليها الحياة بطريقة خفيّة؟.. أو أمام قائد مصريّ كان يرتحف هولًا وخشوعًا إذا اجتاز عتبة

والرموز.

ألقيت نظرة سريعة مفعمة بالروعة على ذلك العالم المبعوث، ولكنّ الباشا لم يدعني لتأمّلاتي فقال لي ولم أكن أعلم أنّها آخر أقواله في هذه الدنيا:  
- الأوقى يا أستاذ دريان أن نبليغ الأمر إلى الحكومة في الحال..

فأحسست بخيبة أمل وقلت:

- انتظر قليلًا يا باشا ريثما ألقى نظرة عجل..

ودنوت من الصناديق والأثاث والباشا إلى يميني ومضيت أفحصها بعين خبيرة مشوّقة، ونفسي تحدّثني بفتحها ومشاهدة ما بداخلها، وكنت أوّمن بأنّها تحوي طعامًا وثيابًا وحليًا ولكنّ أتّي لمثلي أن يملك إرادته حيال تلك المخلفات الجليلية التي تستحوذ على منبض التأثير من قلبي ووجداني.. ثمّ لا تنس التابوت والتماثيل والمومياء.. يا لها من مفاتن!..

وقطع عليّ تأمّلاتي أن سمعت صوت الشيخ جاد القبيح وهو يهتف «هش» فالتفتّ إليه منزعجًا مغضبًا لأنّ آية همسة آنذت تثير أعصابي، ولكنّ الشيخ قال ببلهة «عصفورا».

فانتهرت قائلاً:

- أيّ عصفور هذا يا شيخ.. أهذا وقت هزل؟

فقال الرجل:

- رأيت عصفورًا يرفّ بجناحيه فوق التابوت.

فالتفتنا إلى التابوت ولكنّا لم نر شيئًا، وكان من العيب أن نسأل الخادمين فقلت للشيخ:

- دعنا من أوهامك يا شيخ جاد الله.

ثمّ ضحكت وقلت للباشا بالفرنسيّة:

- عسى أن يكون العصفور روح الميت (كا) جاء

لزيارته معنا..

ثمّ عدت إلى مطالعة الصناديق والجدران التي تحادث قلبي بلغة صامتة لا يعيها سواي. ولكنّي لم أستطع التأمّل بتاتًا لأنّنا سمعنا الخادمين يصيحان بدعور:

- يا سعادة الباشا!

فالتفتنا إليها بسرعة وقد امتلأت غيظًا وحنقًا ولكنّي

### همس الجنون ٤٣

سَعَيْتَ إِلَيَّ بِقَدَمَيْكَ.. وَإِنِّي لِأَعْجَبُ كَيْفَ سَوَّلْتَ لَكَ نَفْسَكَ هَذَا الْفِعْلَ الْأَحْمَقَ.. أْبْلَغُ بِكَ الْبَطْرَ الْجَنُونَ.. ؟ أَلَا تَحْمَدُ الْأَلْهَةَ أَنْ حَالَتْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بِالْمَوْتِ؟ مَاذَا جِئْتَ تَفْعَلُ أَيُّهَا الْعَبْدُ.. أَلَمْ يَقْنَعَكَ أَنْ تَنْهَبَ أَبْنَائِي فَاتَيْتَ تَنْهَبَ قَبْرِي.. ؟ تَكَلِّمُ أَيُّهَا الْعَبْدُ.. وَلَكِنْ أَنِّي لِلْمَسْكِينِ أَنْ يَتَكَلَّمُوا.. إِنَّهُ لَا يَفْقَهُ شَيْئًا.. وَلَا يَبْذُرُ حِرَاكًا.. لَقَدْ دَبَّتْ الْحَيَاةُ فِي الْمَوْتِ.. وَفَارَقَتْ قَلْبَ الْبَاشَا الْحَيِّ.

أَمَّا الْمَوْتِ فَعَادَتْ تَقُولُ:

- مَا لَكَ لَا تَتَكَلَّمُ؟.. أَلَسْتُ حُورًا؟.. أَلَسْتُ عَبْدِي شَتَقًا؟.. أَلَا تَذَكُرُ أَنِّي جِئْتُ بِكَ مِنَ الشَّمَالِ فِي إِحْدَى الْغَزَوَاتِ الظَّافِرَةِ؟.. أَتَجَاهِلُنِي أَيُّهَا الْعَبْدُ؟.. إِنَّ جِلْدَكَ الْأَبْيَضَ الَّذِي يَرْمِزُ إِلَى الْعِبُودِيَّةِ يَفْضَحُ مَهْمًا تَنْكَرَتْ.. مَا هَذِهِ الْمَلَابِسُ الْمَضْحَكَةُ الَّتِي تَرْتَدِيهَا؟.. وَمَا هَذِهِ الْأَهْبَةُ الْكَاذِبَةُ الَّتِي تُخْتَفِي وَرَاءَهَا؟..

وظَنَّ حُورٌ أَنَّ الْبَاشَا لَا يَرِيدُ أَنْ يَتَكَلَّمَ فَانْتَفَخَتْ أَوْدَاجُهُ وَتَقَطَّبَ جَبِينُهُ وَصَاحَ غَاضِبًا:

- مَا الَّذِي دَهَاكَ؟ مَا الَّذِي دَهَى الْأَرْضَ فَجَعَلَ أَعْرَظَهَا أَذَلَّةً وَأَذَلَّتْهَا أَعْرَظَةً، وَخَفَضَ السَّادَةَ عَيْدًا وَرَفَعَ الْعَبِيدَ سَادَةً؟ كَيْفَ تَمْلِكُ أَيُّهَا الْعَبْدُ هَذَا الْقَصْرَ وَيَعْمَلُ أَبْنَائِي فِيهِ خِدْمًا؟ أَيْنَ التَّقَالِيدُ الْمُتَوَارِثَةُ؟ وَالْقَوَائِنُ الْمُقَدَّسَةُ؟ مَا هَذَا الْعَبَثُ؟

وَاشْتَدَّ الْغَضَبُ بِحُورٍ فَاسْتَحَالَتْ عَيْنَاهُ جَهْرَتَيْنِ يَتَطَايَرُ مِنْهَا الشَّرُّ وَصَاحَ بِصَوْتِ كَالرَّعْدِ:

- كَيْفَ تَنْجَاسِرُ عَلَى ابْنِي أَيُّهَا الْعَبْدُ؟ لَقَدْ سَمِعْتَهُ الذَّلَّ بِفَسَاوَةِ دَلَّتْ عَلَى الْعِبُودِيَّةِ الَّتِي تَنْضَحُ بِهَا نَفْسُكَ، ضَرْبَتُهُ بِعَصَاكَ لِأَنَّهُ جَائِعٌ وَدَفَعْتَ إِخْوَتَهُ إِلَى ضَرْبِهِ، أَيْجُوعٌ فِي مِصْرَ أَبْنَاؤُهَا؟ الْوَيْلُ لَكَ أَيُّهَا الْعَبْدُ..

وَلَمْ يَكُنْ يَتَمَّ كَلَامَهُ حَتَّى تَقَدَّمَ نَحْوَ الْبَاشَا مَزْجِرًا كَأَسَدٍ هَاصِرٍ يَهْمُ بِفَرِيستِهِ.

وَلَكِنَّ الْبَاشَا التَّعَسُّ لَمْ يَنْتَظِرْهُ، لِأَنَّهُ كَانَ قَدْ فَتَقَدَّ قُوَّةَ الْإِحْتِمَالِ، فَسَقَطَ عَلَى الْأَرْضِ لَا حِرَاكَ لَهُ، وَكَأَنَّ تَهْدِيدَ حُورٍ قَدْ أَشَاعَ فِي الْحِجْرَةِ رَعْبًا جَدِيدًا أَتَى عَلَى الْبَقِيَّةِ الْبَاقِيَةِ مِنَ التَّهَاسُكِ فِي النَفُوسِ، فَهَا لَبِثَ الشَّيْخُ

الْقَصْرَ الْفَرَعُونِيَّ؟.. وَلَكِنْ هَلْ كَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يَجْتَالِجَ نَفْسِي فِي تِلْكَ السَّاعَةِ فَكَّرَ مِنْ هَذِهِ الْأَفْكَارِ؟.. بَلْ هَبَّ أَنَّهُ خَالَجَهَا فَهَلْ كَانَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَهْدِيَ مِنْ رَعْبِهَا شَيْئًا؟.. فَزَعَتْ فَرْعًا قَاتِلًا.. عَلَى أَنَّ عَيْنِي اسْتَطَاعَتْ أَنْ تَرِيَا كَمَا اسْتَطَاعَتْ ذَاكِرَتِي أَنْ تَحْفَظَ مَا رَأَتْ عَيْنَايَ..

وَلَمْ أَجِدْ أَمَامِي مَوْتِيَاءَ بَلْ رَجُلًا حَيًّا كَامِلَ الرَّجُولَةِ وَالْحَيَاةِ، وَكَانَتْ هَيْئَتُهُ تَذَكُرُ بِتِلْكَ الصُّورِ الَّتِي تُرَى بِكَثْرَةٍ عَلَى جُدُرَانِ الْمَعَابِدِ، فَكَانَ يَرْتَدِي تَوْبًا أَيْضًا وَوِزْرَةً قَصِيرَةً وَيَغْطِي رَأْسَهُ الْكَبِيرَ بِقَلَنْسُوءَةٍ أُنِيفَةٍ، وَيَحْيَلِي صَدْرُهُ الْعَرِيضَ بِنِيَّاشِينَ كَثِيرَةٍ زَاهِيَةٍ، وَكَانَ مَهِيَّبًا رَهِيْبًا مُتَعَالِيًّا، وَلَكِنِّي بِالرَّغْمِ مِنْ جَلَالِهِ خَيَّلَ إِلَيَّ أَنِّي رَأَيْتُهُ مِنْ قَبْلِ، وَذَكَرْتُ بِالْفِعْلِ الصَّعِيدِيِّ الَّذِي سَاقَهُ الْحَدْمُ إِلَى الْبَاشَا وَاتَّهَمُوهُ بِسَرْقَةِ غِذَاءِ الْكَلْبِ بِمِمْشٍ، كَانَ شَبِيهَا غَرِيبًا وَلَكِنَّهُ اقْتَصَرَ عَلَى الطُّوْلِ وَاللُّوْنِ وَالْقَسَمَاتِ دُونَ الرُّوحِ وَالْحَيَاةِ، وَلَوْلَا مَا كَانَ يَبْذُرُ الْمَائِلَ أَمَامِي مِنَ النَّبْلِ وَالتَّعَالِي لَرَبَّمَا خَالَجْتَنِي شُكُوكًا..

وَكَانَ يَجْدُجُ الْبَاشَا بِنَظَرَةٍ قَاسِيَةٍ لَا يَجُوهَا عَنْهُ كَأَنَّهُ لَا يَرِي سِوَاهُ..

مَاذَا أَقُولُ يَا سَادَةَ؟.. لَقَدْ سَمِعْتَهُ يَتَكَلَّمُ.. أَيُّ وَاللَّهِ لَقَدْ تَكَلَّمَ حُورٌ بَعْدَ أَنْ صَمَّتْ ثَلَاثَةُ آلَافٍ مِنَ السَّنِينَ، وَتَكَلَّمَ بِتِلْكَ اللُّغَةِ الْقَدِيمَةِ الَّتِي طَوَّاهَا الْمَوْتُ مِنْذُ آلَافِ السَّنِينَ. وَسَوْفَ أَنْسَى كُلَّ شَيْءٍ فِي دُنْيَايَ قَبْلَ أَنْ أَنْسَى كَلِمَةً وَاحِدَةً مِمَّا نَطَقَ بِهِ لِسَانُهُ..

قَالَ لِصَدِيقِي الْبَاشَا السَّيِّئِ الْحِظِّ بِصَوْتٍ لَمْ أَسْمَعْ مِثْلَهُ جَلَالًا لِأَنِّي لَمْ أَتَشَرَّفْ بَعْدَ بِمُخَاطَبَةِ الْمَلُوكِ.

- أَلَا تَعْرِفُنِي أَيُّهَا الْعَبْدُ.. ؟ لِمَاذَا لَا تَجْثُو سَاجِدًا بَيْنَ يَدَيْ؟..

وَلَمْ أَسْمَعْ لِلْبَاشَا صَوْتًا وَلَا اسْتَطَاعَ بَصْرِي أَنْ يَتَحَوَّلَ إِلَيْهِ، وَلَكِنِّي سَمِعْتُ الْعَظِيمَ ذَا الصَّوْتِ الْعَظِيمِ يَقُولُ مَرَّةً أُخْرَى:

- لَمْ أَشْعُرْ بِقَهْرِ أَسْرِ الْمَوْتِ إِلَّا حِينَ شَاهَدْتُ رُوحِي هَذِهِ الْعَجَائِبَ الَّتِي تَحْدُثُ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا مُقَيَّدٌ بِأَصْفَادِ الْإِبْدِيَّةِ لَا اسْتَطِيعُ حِرَاكًا، وَلَمْ أَقْدِرْ أَنْ أَذْهَبَ إِلَيْكَ لِأَنَّ حَيَاتِي انْتَهَتْ كَمَا قَضَى أَوْزُورِيْسُ.. وَلَكِنَّكَ

رأيت أم كان وهماً؟ . . وربما ملئتُ أحياناً إلى تكذيب نفسي، ولكن كلِّما أميل إلى الشكِّ تصدمني حقائق لا قبل لي بها. . . فما قولكم مثلاً في شهادة الشيخ جاد الله وهو حيٌّ يرزق ويستطيع أن يعيد لكم ما حكيت. . . وما قولكم في جنون الخادمين التعمسين. . . ومقبرة حور. . . والقصر المهجور؟ . . بل ما قولكم في حادثة موت المغفور له محمود باشا الأرنؤوطي التي ما يزال يذكرها جميع قراء الصحف ويعجبون لها أشدَّ العجب. . .؟

جاد الله أن سقط على وجهه وسقط معه المصباح فانطفأ نوره وساد الظلام. وانكششت بغتة كأني أتقي ضربة قاتلة لا أدري من أين تقع على رأسي، وحملت في الظلام وأنا أنتفض فرقاً وذعرًا، ثمَّ خارت قواي، وشاء حظي الحسن أن أفقد شعوري وأغيب عن العالمين. . .

\* \* \*

سادتي. . . إنه لتأتي عليَّ أوقات يصيبني فيها ذهول وتخامرنى شكوك فأسائل نفسي مرتاباً: هل كان حقاً ما

## كَيْدُهُنَّ

تَسَنَّم ذرّوة الكهولة؟ .  
 ووجد نفسه يفكّر في مسألة الزواج تفكير شاب  
 يهدف للثلاثين، ويكاد الزواج أن يكون كالموت نهاية  
 كلّ رجل، وإلّا فلمن يترك هذه الثروة الطائلة التي  
 يمتلكها؟ ومن يؤنس وحشته إذا احتجزه البيت يوماً؟  
 ومن يعينه على متاعب الشيخوخة وأهوال الكبر إذا  
 تألّبت عليه عوامل الفناء؟

ولكنّه لم يغفل عن أنّه مغامر عشاق، ومثله يستطيع  
 أن يقرأ قلب المرأة كما يقرأ الكتاب المفتوح، ويعرف  
 طبيعتها معرفته لبدهيّات الحساب، ليذّلك رأى أنّ  
 الحكمة تملي عليه ألاّ يختار زوجة شابة تفصل بينها  
 وبينه عشرات الأعوام، وصحّت عزيمته على الزواج  
 من أرمل أو مطلّقة في الثلاثين على أدنى تقدير، حدراً  
 من أن يقضى عليه بما قضى به على ضحاياه  
 الكثيرين . .

ولكنّه شاء غير ما شاءت الأقدار، وما حيلته في  
 ذلك؟ لم يكن هو الذي يرم الأقدار حين دُعِيَ يوماً إلى  
 حفل زفاف فراح مالكاً لفؤاده وعاد مسلوب الفؤاد  
 والإرادة، ولم يكن هو الذي يخلق الأعمار إذ كانت التي  
 سلّبت فؤاده في العشرين من عمرها، ربّما قلت إنّ  
 ينبغي له أن يغلب الحكمة والعقل على الهوى، ولكن  
 وأسفاه فإنّ هذا القول وأمثاله لا يجدي فيمن تسيطر  
 عليهم الشهوات، فجميعهم - أيّا كانت الشهوة التي  
 تتحكّم فيهم - لا يرون في العقل سوى وسيلة لتحقيق  
 شهواتهم، يستوي في ذلك منهم من يعبد الله أو يعبد  
 المال أو يعبد النساء، فلم يتردّد جمال بك عن سلوك  
 سبيله المحتوم وخطب الأنسة حياة إلى والدها الأستاذ  
 محمّد عويس الخبير بالمجلس الحسيني وتمّت الزيجة

هل يتمنّى الإنسان على الله أكثر من أن يهبه زوجة  
 حسناء وثروة طائلة، ويمتعه بصحّة سابعة وبينين،  
 ويؤنّه مركزاً اجتماعياً فذاً؟ وقد فاز حضرة صاحب  
 العزّة جمال بك ذهني بأولئك جميعاً؛ كانت له زوجة  
 شابة حسناء يعزّي وجهها الحسن عن أحزان الدنيا  
 جميعاً، ووهبه الله أربعة من الأبناء كالورود صحّة  
 وجمالاً، وترقى في مراتب الدولة حتّى ولي كرسيّ  
 الاستشارة في أكبر هيئة قضائيّة، وورث عن والديه  
 ثروة طائلة ما بين عقار ومزارع، ومع ذلك فمن كان  
 يطلّع على وجهه ذلك اليوم إذ هو جالس في شرفة  
 قصره المطلّة على شارع السرايات يأخذ العجب لهذا  
 الكهفرار الذي يطلّه وتلك النظرة القلقة التي تحار في  
 عينيه منذرة بالشقاء!

ولا سبيل إلى إبطال هذا العجب ما لم نلّم بماضيه  
 لأنّ حاضر الإنسان يقع غالباً من ماضيه موقع النتيجة  
 من المقدمات، وإن كانت لا تدعم العلاقة بينهما في  
 الحياة بما تدعم به في المنطق من الضرورة والأحكام،  
 ومهما يكن من الأمر فقد كان ماضي صاحب العزّة  
 حافلاً بالشباب المرح السعيد والعقل النزيه والذكاء  
 الوقاد والمغامرات التي تجعل من الشباب ديوان شعر  
 غنيّاً بالذكريات العذبة، لأنّه كان من الرجال القليلين  
 الذين يصادفهم أجمل التوفيق وأسعد في دنيا النساء،  
 فعشق عددًا وافراً من الممثلات والراقصات وربّات  
 القصور المصنونات غير متردّد ولا حرج، ورشف من  
 كؤوس الهوى خمراً صافية، أعمته نشوتها عن طي  
 الأعوام، فما يدري يوماً إلّا وهو يصحو على عادل  
 يقول: «أتبلغ الخامسة والأربعين ولما تتزوج؟» الخامسة  
 والأربعون . . أحقّ ذهب الشباب الناضر وولّى؟ أحقّ

شاب إلى مثل زوجه الحسنة نظرة بريئة لا يشوبها طمع.

وضاق بصمته المرهق فأشار يوماً إلى شرفة الضابط وسألها:

- من يقيم في هذه الفيلا؟

فقال:

- جار جديد، أظنه مفتشاً في الداخلية.

فسألها بلا اكتراث في الظاهر:

- ومن الضابط الذي يظهر أحياناً كثيرة في هذه الشرفة؟

- أيّ ضابط؟ .. لا أدري لعله ابن المفتش.

فوقع تجاهلها من نفسه موقعاً أليماً؛ واشتد غضبه اشتداداً لا يستند إلى أسباب معقولة فقال:

- لا أشك في أنه ضابط أحمق وقح.

فبدت الدهشة على وجهها وسألته:

- ما الذي يغضبك عليه؟

فقال بحدة:

- رأيت مراراً ينظر إليك نظرات وقحة سافلة، جعلتني أفكر جدّياً في نقل حجرة النوم إلى الجهة الأخرى.

فقالت بلهجة استياء:

- ولكنه تعب لا مبرر له، وأرى أنه يتضمّن إهانة قاسية لي يا بك.

- كلاً يا هانم، ما أردت هذا قط ولكنّي أحبّ أن تتمتع بحريّتك بعيداً عن تطفّل العيون.

فهزّت منكبيها استهانة وقالت:

- افعل ما بدا لك.

وتحققت مشيئته، ولكن ألمته استهانتها واعتقد أنه تسرع تسرعاً معيياً ورّطه فيه الغضب، وأحس من تصرفه بخزي أليم وكبر عليه أن يمتلئ رعباً من نظرة يرسلها هذا الشاب المغرور، وما عسى أن يفيدته نقل حجرة من مكان إلى مكان؟ وهل يعني هذا زحزحة الحب من موضعه إذا كان أنشَبَ أظافره في لحم قلبها الطري؟ .. هيهات ..

ولم تهانده شكوكه وخوافه. وقد ثقلت عليه وطأتها

وأثمرت على الأيام أربعة من الأبناء أكبرهم في المدرسة الثانوية وأصغرهم في الروضة ..

ولكنّ للزمن حكمه الصارم كذلك، فقد أحيل المستشار في هذا الأسبوع إلى المعاش وأذن النذير بحجيء الخامسة والسّتين بكوارثها المعهودة من نضوب الأعصاب وبرودة الاضمحلال وتنكّر معالم الدنيا وتألّب أمراضها، وما كان به من ظمأ ولا جوع فقد ارتوت نفسه من لذائذ الدنيا وأخذ نصيبه كاملاً من متاعها الغرور، ولكن دبّ بقلبه ديب القلق الذي تعود بواعثه إلى تلك الزوجة الحسنة التي يعطيها الزمن - الأخذ منه - نضجاً وكمالاً ويزيدها كلّ يوم حسناً على حسن، وما كانت مخاوفه أوهاماً ولا محض حذر تلمية مغامراته الماضية، ولكنه شاهد هذا الصباح في شرفة الفيلا التي تواجه قصره ضابط بوليس شاباً، يتألّق جماله في بذلته الرسمية المزداقة بالنجوم الذهبية، وتنفخ صدره قوّة الشباب وغروره، وتعبث أنامله بشاربه الأنيق الصغير، فانقبض صدره لمرآه وتوجّس منه خيفة لغير سبب يبيّن. عجب كيف أنه لم يره قبل اليوم، وهل يقيم في هذه الفيلا يا ترى منذ زمن بعيد؟ وهل هو متزوّج أو أعزب؟ وكان يستطيع أن يسأل زوجه عما يجتره ولكنه نفر من هذا نفوراً عجبياً وآثر عليه الجهل والحيرة.

وكان قلقة غريباً لدرجة أنه ودّ لو يستطيع أن يحمل زوجه على نقل حجرة النوم إلى الجهة الأخرى من القصر المطلّة على شارع القشلاق وإحلال المكتبة محلّها، ولكنه لم يدر كيف يعلّل طلبه وأبت كبرياؤه عليه أن يفتحها بشأنه.

ووجد في حياة الفراغ الجديدة فرصة طيبة لمراقبة «غريمه» في صمت وحذر، فلاحظ أنه يتناول الشاي كلّ صباح في شرفته، وأنه يعود فيجلس بها عند الأصيل ساعة أو نحو ذلك، وفي تلك الأثناء يصادف أن تدخل زوجه إلى الشرفة فيديم الشاب النظر إليها، وخيّل إليه أنّ بصرها يتّجه أحياناً إلى شرفته، نعم يحتمل ألا يكون وراء هذه النظرات أيّ معنى سوء. ولكن يتعذر عليه أن يتصوّر أنه من الممكن أن ينظر

## ممس الجنون ٤٧

الغدرة؟ .. وما يضيرك ظهوري بكل مكان إذا انطوى  
قلبي على الإخلاص والأمانة؟  
فقال بذهول:

- الإخلاص .. الأمانة .. ما عدت أفقه معنى لهذه  
الكلمات لأنّ عقلي تسمّم فينبغي أن تفهمي ذلك  
جيداً، قد يكون المرض لعلّة وقد يكون لغير العلة إلا  
الوهم، فاعلمي على إعادة الطمأنينة إلى نفسي، ودعي  
الوعيد جانباً .. فأنا رجل لا يمكن أن تتغفله امرأة مهما  
أوتيت من المكر والدهاء .

- أهكذا تتغير بعد العشرة الطويلة وتتقلب إنساناً  
غير الإنسان لأنك رأيت شاباً ينظر إليّ من بعيد؟  
وأبي امرأة لا تلتهمها العيون كلّها بدت للناظرين؟  
نظرة من بعيد . كلّاً ليس الأمر كذلك، إنّها تكذب  
وتجذّ في الكذب وهي تعلم بما يعذب ويشقيه، إنّها  
تجاهل الحقيقة وليس لتجاهلها إلا معنى واحد، إنّها  
تتغفله ولكتّها لن تفوز بطائل ..

- أصغي إليّ يا هانم لا بدّ من وضع حدّ لكلّ  
هذا .

فنظرت إليه بارتياح وقالت:

- يا له من قول خطير .

فقال:

- لا خطورة هنالك، إنّني أقرّ بأنّي أخطأت فيما  
صنعت من تغيير ترتيب بيتنا، وأقرّ بأنه ليس لي الحقّ  
في الحجر عليك لأنّه ينبغي أن أكون أرفع من العوامّ،  
فاذهبي إلى حيث تشاءين وتقلّي كما تشتهين ولكتّي لن  
أفارقك وأظنّ أنّ هذا من حقّي أيضاً .

فلم تتالك نفسها من الضحك وسألته:

- أبداً؟

فقال بهدوء:

- سألازمك كظلك .

- يا له من أسر مرهق .

- لك؟

- كلّاً .. فإنّه يسعدني ولا شكّ أن يظلّ زوجي إلى  
جانبي، ولكن كيف لك أنت بالصبر على هجر  
لونابارك وسنت جيمس؟

يوماً وكان يجلس في قهوة لونابارك مع محام كبير  
فاستأذن بغتة وقام إلى سيّارته التي انطلقت به إلى  
قصره وبلغت شارع السرايات وكان الوقت أصيلاً  
ونظر خلل زجاج النافذة فرأى زوجته في شرفة المكتبة  
ونظر الناحية الأخرى فرأى الشيطان ..

وكان يعهد في زوجه البرود والرزانة والسيطرة على  
الأعصاب وكانت كعدهه بها فلم تفاجأ بحضوره  
وسألته بإنكار:

- خير .. ما الذي أتى بك قبل ميعادك؟

فانفجر غاضباً وسألها بغیظ وحنق:

- قولي لي أنت ما الذي أتى بك إلى هذه الشرفة؟

فقلت بغضب وإباء:

- إنّك تهينني يا بك إهانة لا تحتمل .

فاشتدّ به الغیظ وقال بعنف:

- أنت تحاولين تضليلي باصطناع هذا الإباء  
الكاذب .

- عهدي بك أعظم أدباً من هذا .

- ما شاء الله وددت لو يستمع إليك أبناؤنا إذ  
تعلّمين أباهم الأدب .

- أمّا أنا فلا أودّ أن يستمعوا إلى أبيهم وهو يكيل

التهم لشرف أمهم .

فنظر إليها نظرة عميقة وهو يضرع إلى الله أن يطلعه  
على خبيثة نفسها وجعل يتساءل في حيرة: ترى هل  
هي صداقة في غضبها؟ هل هي حقاً بريئة ممّا رماها  
به، وتهدّ حزناً شقياً وقال وكأنّه يحدث نفسه:

- حقاً إنّ الشكّ مسّ من الجنون .

فقلت باستياء:

- ألا ترى أنّك تعترف بأنك شككت في؟

فعاوده الغضب وقال لها بمرارة:

- لماذا تعودين إلى الظهور بهذه الشرفة؟ وفي هذه

الساعة المعهودة؟ أصغي إليّ يا هانم، أنا لا أسمح  
لامرأة بأن تتغلّني أبداً .

- هذا كلام لا يليق برجل له مكانتك وأخلاقك،  
ويجدر بك أن تنادي عقلك الذي غرب به الغضب،  
فهاذا ينفعك إغلاق الأبواب والنوافذ إذا أنا بيّت

وانتظرها ساعة أو يزيد، ثم حضرت يتبعها غلام  
يحمل المشتريات فسألها البك:

- هل انتهيت والحمد لله؟

فقالت بهدوء:

- هذه كسوة حسني.

فقال الرجل دهشًا:

- حسني فقط؟ .. وإخوته .. وأنت؟

فقالت:

- لِسَه يا بك .. لِسَه .. أرجو ألا تنكر عليّ تباطئي  
فهذه طريقي في الشراء وإن كنت تطلع عليها لأول  
مرة.

وجاء معًا في اليوم التالي ودخلت الزوجة إلى المحلّ  
وانتظر البك في السيّارة وفات على دخولها ساعة ثم  
ساعة أخرى فتململ البك في جلسته وأحس برغبته في  
الحركة فغادر السيّارة ودخل إلى المحلّ، وبحث عن  
زوجته بعينه، ومضى يسير هنا وهناك ولكنّ الظاهر  
أنّها كانت بالطابق العلويّ فصعد الأدراج على مهل  
وقطع المكان ذهابًا وإيابًا ولكنّه لم يعثر لها على أثر،  
فعاد أدراجه وهمّ بالبحث مرّة أخرى في الطابق الأوّل  
ولكنّه رآها مقبلة من أقصى المحلّ والغلام يتبعها يحمل  
المشتريات فلم يرد أن يظهر لها نفسه وسبقها إلى  
السيّارة .. وتساءل في صمته كيف لم يعثر بها مع أنّ  
المحلّ لم يكن مزدحمًا؟ هل لأنّه لم يحسن البحث يا  
تري؟ .. ولذعه الشكّ .. هل من الممكن .. ولكن  
هذا بعيد عن التصوّر.

وجاءت معه في غداة اليوم التالي ودخلت المحلّ  
ولبت هو في السيّارة كما فعل بالأمس ولكنّه لم يهلها  
إلا دقيقة واحدة ثمّ تبعها على الأثر ورآها تسرع الخطا  
منعطفة إلى يمين الداخل فظنّ أنّها قاصدة إلى المصعد  
ولكنّها واصلت السير إلى باب المحلّ الجانيّ وخرجت  
منه، فحقق قلبه بشدّة وتبعها بخطى سريعة، وبلغ  
الباب، ثمّ نظر إلى الطريق فرآها تدخل «لاكليير»  
المواجهة لباب المحلّ وشاهدها تدخل إلى المصعد ثمّ  
صعد بها، فاجتاز الطريق ودخل العمارة وانتظر هبوط  
المصعد وسأل البواب عن الطابق الذي صعد إليه

- هذا شأن يعنيني وحدي.

فلم تزد على أن قالت:

- افعل ما فيه راحتك.

ومضى البك يحمق وعيده دون إسهال، فخلع ثيابه  
وارتدى البيجاما والروب دي شامبر وجلس إلى  
جانبها، وتسلسلت الأيام على منوال واحد، فكانا  
يقطعان النهار معًا يتحدّثان حينًا ويطالعان حينًا آخر،  
فإذا سئمت من جلستها وقامت إلى الشرفة أخذ مقعدًا  
إلى جانبها، أو نزلت إلى حديقة القصر تترىض في  
ممشيتها رافقها حتى إذا ولى النهار وجاء الليل وحانت  
ساعة النوم أوبا معًا إلى مخدعها فنام ملء جفنيه ..

وكانا يخرجان كثيرًا لزيارة الأصدقاء والأقارب  
ويغشيان الملاعب والملاهي والسينيات فلا يفترقان  
دقيقة: وثابر على حياته الجديدة مشابرة الصابرين  
ولازمها حقًا كظّلها، وحافظ على كلمته أن يتركها  
تفعل ما تشاء على أن تتركه يفعل ما يشاء كذلك، ولم  
تظهر السيّدة أيّ تذمّر وقضت أيامها مرحة ضاحكة  
كأنّها أسعد الأزواج حقًا. وفي يوم من الأيام اقترحت  
عليه أن يذهب إلى شيكورييل لشراء حاجاتها وحاجات  
الأولاد، فذهب معًا ودخلا المحلّ الشهير، ودارت به  
على الأقسام المختلفة تشاهد البضائع وتسال البائعين،  
وصعدا إلى الطابق الثاني وجالا هنا وهناك، وهو يتبعها  
صامتًا يقف حيث تقف ويسير حيث تسير، فمرّ على  
تجوّالهما ساعتان أو يزيد لم يسترح الشيخ فيها دقيقة  
واحدة حتى هت من شدّة التعب، وعلا صدره  
وانخفض، وسال عرقه باردًا، واشترت ذلك اليوم  
شريطًا من الدانتلا!

ثمّ عادا إلى السيّارة فارتقى الرجل على مقعده منهوك  
القوى وقال لها:

- لم تشتري شيئًا ذا بال.

فقالت:

- ينبغي التريث في الشراء، سنعود غدًا.

وعادا في الغد ودارت به كما فعلت بالأمس ولكنّه لم  
يحتمل المشي والوقوف ولحقه الإعياء فقال لها:

- سأنتظرك في السيّارة.

## ممس الجنون ٤٩

- جمال ذهني .

صاحت بصوت عالٍ لدرجة مزعجة :

- مدام جمال ذهني .

ولكن سيّدة من الموجودات لم تلبّ النداء، فقالت:

- المدام غير موجودة بلا شك .

قالت ذلك بلهجة من ترى وجوب انتهاء المقابلة عند هذا الحدّ، فلم يربداً من الخروج، وأغلق الباب خلفه، ولكنّه لم يتحرّك من مكانه ولبث يرمق الباب بعين متّقدة، ترى هل أخطأ البوّاب حسابه؟ أم إنّ الشيطانة موجودة بداخل شقّة الخياطة؟؟ ولماذا صرخت الفتاة الملعونة بهذا الصوت المزعج وهي تنادي مدام جمال ذهني! ألا يجوز أنّها فعلت ذلك لتحذّر الغافلين؟ وهل يجوز أن يبقى في مكانه لا يحرك ساكناً وزوجه في داخل الشقّة في خلوة غرامية؟ فما عسى أن يفعل وكيف يضبط الآئمة متلبّسة بجريعتها؟ . . .

وعند ذاك فتح الباب، فتقهقر خطوتين، وخرجت سيّدة، وأوصلتها الفتاة الإفرنجيّة وقد رآته ولكنّها لم تبأله، وأغلقت الباب مرّة أخرى .

فمضى يروح ويحيى في حيرة شديدة . من المؤكّد أنّها في هذه العمارة فقد رآها وهي تدخل ورآها وهي تندسّ في المصعد، وأكّد البوّاب أنّها صعدت إلى الطابق الرابع وها هو ذا الطابق الرابع، ولا مكان يصحّ افتراض دخولها إليه إلا شقّة الخياطة، فالشيطانة لا شكّ في الداخل، ولكن ما عسى أن يفعل؟ هل يظنّ يروح ويحيى؟ أم ينتظر إلى ما شاء الله؟ ومما يزيد ارتباكاً أنّ وقوفه هكذا قد يريب الصاعدين والهابطين وتيارهم لا ينقطع . ومرّت عليه ساعة كاملة كانت أفسى ساعات حياته جميعاً . ونال منه التعب والقهر كلّ منال . فاضطرّ إلى مغادرة مكانه وفي نيّته أن ينتظرها لدى الباب الخارجي، ولكن خطر له خاطر أزعجه فسأل البوّاب:

- هل للعمارة مدخل آخر؟

فأجابه الرجل بلهجته البربريّة بأنّ للعمارة ثلاثة أبواب فأحسّ باليأس وذاق مرارة الخيبة وعصّ شفّته من الحنق والغیظ، وكبر عليه أن تتغلّله الشيطانة وتمثّل

فرفع الرجل بصره وقال: «الطابق الرابع» فدخل المصعد وضغط الزرّ رقم ٤ وخرج منه فوجد نفسه في ردهة تواجهه ثلاثة أبواب فألقى عليها نظرة هائلة وهو يقول: ترى في أيّها دخلت، واقترّب من أولها فقرأ عليه المسيو فالديمير كراوس المحامي بالمحكمة المختلطة، وقرأ على الباب الثاني اسم هـ . ليفي متعهد راديو تلفنك، وكتب على الثالث «مدموازيل فلورا خياطة للسيدات»، ووقف أمام الباب الأخير لا يريم، وقد انحصر فيه ارتياحه، وضغط على الجرس ففتح الباب، ودخل قبل أن يؤذّن له بالدخول فتراجعت أمامه التي فتحت الباب دهشة مستاءة، وألقى نفسه في ردهة متوسطة الحجم تحيط بها حجرات أربع، منها ثلاث مغلقة الأبواب وواحدة مفتوح بابها على مصراعيه ويرى بداخلها بعض السيّدات والأوانس منهنّ من تطمئنّ إلى مقعدها ومنهنّ من تقف أمام المرآة لتلقي النظرة الأولى على فستانها الجديد . وانتبه إلى الفتاة الواقعة أمامه يبدو على وجهها الإنكار وسمعها تسأله:

- هل المدام مع البك؟

فالتفت إلى مغزى السؤال وتحير كيف يجيب أو كيف يعتذر عن وجوده، لأنّه اندفع تحت تأثير الغضب والحنق اندفاعاً لم يتدبّر أمره، وألقى على الأبواب المغلقة نظرة ارتياح وقهر، وودّ لو يستطيع أن يقتحمها ليرى ما بداخلها . ولكنّه لم يفعل شيئاً لأنّه لم يكن فقد عقله . ولأنّه هو رجل القانون - لم تكن تخفي عليه مغبة عمله فيها لو أخطأ تقديره وحسابته: وكانّه أراد أن يقامر بما تبقى لديه فسألها:

- أليست هذه شقّة مدموازيل فلورا!

فقالت الخبيثة:

- بلى، ألم تقرأ اللافتة يا مسيو؟

فقال:

- إنّ زوجتي سبقتني إلى هنا

فسألته .

- ما اسمك يا سيّدي؟

فقال:



تركها أو هي اضطرتّه إلى ذلك، ولكن لم يخطر له على بال أن تتخذ من زيارتها لشيكوريل سبيلاً إلى مقابلة عشيقها.

واستسلم للتفكير الحزين، وذكر طريقة عامّة الشعب في الانتقام من الخائنات فوجد نفسه - في محتته - يقرّها، وهل تستحقّ الأفعى إلاّ تمهيم رأسها... أمّا هو البك الوجيه المثقّف فيجلس إلى جانب معذبته يعانى آلامه في صبر، ويشبع كبرياءه إلى القبر وهو كظيم. وكيف يفعل غير ذلك وهو القاضي الذي قضى حياته في خدمة القانون؟

ولاحث منه التفاتة إلى الطريق فرأى بعض المارّة يمدجون السيّارة بنظراتهم المتطفّلة، فسأل نفسه ترى هل ينفسون عليه السيّارة الفخمة والزوجة الحسنة؟ حقاً إنّه يستحقّ الرثاء، وسيكون أحقّ بالرثاء في مستقبله حين يجليّ يده منها - وهو ما صدقت نيته عليه - فكيف تكون حياته بلا زوجة؟ وكيف تكون حياة أبنائه بلا أمّ؟ وهل تزوّج يوم تزوّج إلاّ إشفاقاً من أن يلحقه الكبر وهو وحيد فيعاني مرارة الشيخوخة ووحشة الوحدة..

به هذا التمثيل المزري، وكان ما عاناه عقله وجسمه فوق ما يحتمله شيخ في سنّه، فعاد خائر القوى إلى سيّارته، وكم كانت دهشته عظيمة حين همّ بالدخول فرأى زوجه جالسة آمنة مطمئنة تنتظر أوبته منذ زمن غير يسير وقد نظرت إليه بإنكار وسألته:

- أين كنت يا بك؟

فأنعم في وجهها النظر فرآها تبسم ابتسامتها المألوفة، ولكن لم يخف على عينه الثاقبة شحوب لونها ونظرتها الدالّة على الإثم بقدر دلالتها على الطهارة المصطنعة، فهي شيطانة بلا ريب ولكتّها لم تتعود الإجرام بعد.

وجلس إلى جانبها صامتاً وانطلقت بها السيّارة. وكان مقهوراً مغلوباً على أمره، يعانى مرارة الهزيمة ويحسّ كأنّ يدًا تخنق كبرياءه خنقاً. وكان يسوؤه أن يجلس هكذا إلى جانب المرأة التي تغفلته وهزأت بكرامته ولوّثت عرضه.. ولم يرتب قطّ أنّها تعلم بأمر مطاردته الفاشلة لها. ومن يعلم؟ فلعلّها تضحك في سرّها الآن من خيبته وهزيمته. يا له من تصوّر لا يحتمل!

لقد أنذرنا بأنّه لن يتركها لحظة، ثمّ اضطّر إلى

## روض الفرج

قامتهم ويبدو الطربوش غريباً على رؤوسهم. أما الأسطى فقد وقف أمام المرأة في دلّ وتبه وارتدى قفطانة الزاهي وجبته البنية الأنيقة، وأمال الطربوش حتى مسّ حاجبه الأيمن، وأمسك بعصاه المذهبة اليد، وتقدّم قريبه يختال في مشيته كالطاووس.

والأسطى شلبي هذا بدأ حياته كصبيّ حلاق بسيط ثم استقلّ بصالون جميل أتاه منه رزقه رغداً، ثم اشتغل بالسمررة وصادفه فيها توفيق كبير فتمت أرباحه واستطاع أن ينفق عن سعة على عشيقاته العديداً من نجوم روض الفرج.

أما عبد المعزّ فهو ابن أحد أقرباء الأسطى شلبي المدعوّ الشيخ طه، شيخ كتاب وواعظ بالعريش؛ وقد جاء فتح مدرسة العريش الابتدائية متأخراً بما دعا ولاية الأمور إلى التجاوز عن شروط سنّ القبول فالتحق بها عبد المعزّ وهو ابن ثلاثة عشر عاماً، وبعد انتهائه من تعليمه الابتدائيّ أرسله أبوه إلى قريبه شلبي ليتمّ تعليمه الثانويّ، مؤثراً بُعد القاهرة، مع الاطمئنان عليه في بيت قريبه، على قرب الزقازيق مع إقامته وحده.

على أنّ الأسطى شلبي لم يكن عند حسن ظنّ الشيخ طه فكان يدعو أحياناً عبد المعزّ إلى المقهى، واقترح عليه مرّة أن يعلمه النرد ليستعينا به على تزجية أوقات الفراغ. وكان الشابّ حكيمًا مجتهدًا فلم يستسلم لإغراء قريبه، وكانت هذه هي المرّة الأولى التي يسلمه فيها زمامه فذهب معه إلى روض الفرج ودخلا كازينو البسفور لمشاهدة رواية «اشمعي». وبدا الشابّ بطيئاً في فهم النكت و«القفشات» وأخذ يقلّب عينيه بين الضاحكين في استغراب وحيرة، ولكن

اعتدل الأسطى شلبي في جلسته وجعل يفتل شاربه الغزير ويرفع حاجبيه الكثيفين ويقول للشابّ الجالس إلى يمينه على الكنبه:

- وما الداعي إلى التعجيل بالسفر؟

فقال له صاحبه وهو شابّ في الثالثة عشرة من عمره تدلّ قوة بنيته وسداجة نظراته على ريفيته القحة:

- وما الداعي إلى البقاء وقد انتهيت من أداء امتحاني؟

فقال الأسطى شلبي يتفلسف:

- وهل الغاية من الدنيا تنتهي بانتهاء امتحان النقل من السنة الأولى إلى السنة الثانية الثانوية؟ ينبغي أن تروّج عن نفسك قليلاً فما العيشة التي أنت ذاهب إليها إلا قطعة من البادية القاسية لا أثر فيها للهو والمرح..

فقال الشابّ:

- أخشى أن يقلق والدي لتأخري.

- وماذا يضيره لو تأخرت يوماً آخر وقد غبت عنه عاماً مدرسيّاً كاملاً؟ تعال نذهب معاً هذا المساء إلى روض الفرج والعشاق لمشاهدة رواية «اشمعي» وهي كوميديا في غاية الإضحك والبهجة.. ما رأيك؟

وضحك الأسطى شلبي وهو ينظر إلى عبد المعزّ

بإغراء فابتسم الشابّ وقال بتسليم:

- فليكن.. سأؤجل السفر إلى غد.

فابتسم الأسطى مسروراً وقال له بخيلاء:

- نعم الرأي، وسترى بعد قليل عشيقتي تقوم

بتمثيل الدور الأوّل في رواية «اشمعي».

وارتدى عبد المعزّ ثيابه وكانت تبدو عليه هيئة

الطلبة الريفيّين الذين يندر أن تنسجم (البدلة) مع

فأحسَّ نحوها بانجذاب عجيب، والظاهر أنَّ المرأة لم تهمله لأنَّها عادت تداعبه فسألته:

- كم عشقت من النساء يا غلام؟

وكان عبد المعزَّ يشعر بميل إلى التحدُّث إليها فأغضى من سخريتها وسألها بدوره:

- وهل يهَمُّك أن تعرفي ذلك؟

- كيف لا؟

- وله؟

- الأسباب كثيرة أقلُّها أن أعرف عمرك.

- وما علاقة العمر بالعشق؟

فغمزت بعينها وقالت:

- نحن معشر أهل الهوى نقدِّر الأعمار بحساب الحبِّ، مثلنا مثل العرَّافة التي تهتدي إلى معرفة الأعمار بالرمل والنجوم.

فضحك الأسطى شلبي وقال:

- إذا فعبد المعزَّ لم يولد بعد على تقديرِكَ.

فضربت المرأة صدرها بيدها وقالت بإنكار:

- رباه.. ولم تحرم نفسك من الحبِّ يا بني؟.. ألا ترى الأسطى شلبي لا يفيق من الهوى وإن ردَّ إلى أرذل العمر؟

فتغاضب شلبي وقال محتجًّا:

- أيقال عنيَّ أنا مثل هذا الكلام (وقتل شاربه واستمرَّ قائلًا) أهذا شارب رجل ردَّ إلى أرذل العمر؟

فعبثت أناملها المخضبة بالحناء بشاربه وقالت:

- أقسم أنك سرقت هذا الشارب من زبون شارد الفكرة!

ولم يكن لدى الممثلة متسع من الوقت لتسترسل في مداعباتها، فشربت كأسها وحيَّت الأسطى وقرصت عبد المعزَّ مرَّةً أخرى وسارت ترقص على نغم موسيقاها الباطنة.

واختتم التمثيل عند منتصف الليل، وانتظر الأسطى شلبي السيِّدة نور الحياة حتَّى انتهت من تغيير ملابسها وعادت إليه، وركب ثلاثتهم تاكسي انطلق بهم صوب المدينة. وفي أثناء الطريق كان عبد المعزَّ يختلس من الوجه الممتلئ الجميل نظرات جائعة،

جذب عينيه إلى المسرح ظهور ممثلة قابلها الجمهور بعاصفة من التصفيق والتهليل، وكانت امرأة فارعة طولًا وعرضًا مزججة الحاجبين مكحلة العينين محمَّرة الخدين والشفتين، تنوء بحمل ردفين ثقلين ولا ريب يرهقانها ثقلاً، بل ما أحراهما أن يميدا بها لولا أن وازنتها العناية بشديين كبطيختين وإن كانا - بقدره قادر - ناهضين، وكانت تتشَّى وتتهائل وتتخثَّت في كلامها وتتكسَّر وكأَنَّها تتأوه وتتوجع والنظارة لا يكفون عن إبداء الإعجاب يرقونها من أعين الحساد. وقتل الأسطى شلبي شاربيه بقوة وزهو ومال على أذن صاحبه وهمس قائلًا:

- هذه عشيقتي نور الحياة.. انظرا!

وكان عبد المعزَّ ينظر بعينين جشعتين فزاد ذلك مسرَّة الرجل فعاد يقول:

- إنَّ بعض الظرفاء تمنَّ يعرفون أيَّ المالك لقلب هذه المرأة يقولون لي: «حقًّا إنَّك لمن كبار ذوي الأملاك».

وقهقه الرجل ضاحكًا تبيَّها فخورًا.

وفي أثناء فترة الاستراحة رأى عبد المعزَّ الممثلة الحسنة آتية صوب الركن المتعزل الذي يجلسان فيه، تتبختر كأنَّها ترقص، وتوزع النظرات الناعسة بلا عدل ولا رحمة؛ ثمَّ رآها تسلَّم على الأسطى شلبي وتقول له ضاحكة:

- كيف حالك يا رجل؟

وسمع قريبه يجيبها قائلًا:

- وما جدوى سؤالك عن حالي ما دمت تلتهمين مالي وصحتي بلا رأفة؟

فضحكت ضحكة مثيرة وجلست تشارب الرجل كأسًا من الويسكي، وكبر على عبد المعزَّ أنَّها لم تباه؛ ورأت المرأة ارتباكها، فمدَّت يدها المكتنزة وقرصته في خده وهي تقول:

- وكيف حالك يا نونو؟

فاحمرَّ وجه عبد المعزَّ استحياء، وأحسَّ باستياء، وشغل بشعوره عمَّا حوله فلم ينتبه إلى ما دار بين المرأة وقريبه، وجعل يختلس النظرات إلى وجهها الممتلئ

## همس الجنون ٥٣

حقًا أم نور الحياة؟ على أنه لم يبال هيامه واعتقد أنه عبث طفولة لا يقابل بغير الهزء والسخرية. فاصطحبه معه إلى روض الفرج. وكان تعلق الغلام بنور الحياة يئنًا لا يحتاج إلى دليل، أما الذي لم يدر بخلد إنسان أبدًا ولا كان محلّ احتمال قطّ فهو أن تعلق المرأة بالغلام، ولو أنه من المسلم به دائمًا أنّ عالم الحب حافل بالمفاجآت غنيّ بالغرائب والعجائب.

وكانت الظواهر تجمع على حبّ تلك المرأة الهائلة لذلك الغلام الغرير فكانت تانس به وتخفّ إلى محضره وتعاطيه نظرات حنان وعطف ومودة، وكان لسان حالها ينطق بالرغبة الحارّة في الانفراد به، وكانا يطلبان غفلة من الأسطى شلبي ليتناجيا بغمزة عين أو يتفّسا عن صدرهما بلمسة يد، وفي أثناء ذلك لا تكفّ ركبتة عن تحمّس فخذها المكتنز.

وحاول الأسطى شلبي أن يهزأ به في حضرتها أكثر من مرّة، فكانت تغضب وتنهزه حتى ضاق صدره وجعل يقتل شاربه بعنف ويقول لنفسه بغيط: «أغلب هذا الشارب الذي يقف عليه الصقر؟ هيهات ثم هيهات».

وفي أثناء ذلك استبطن الشيخ حضور ابنه فأرسل إليه خطابًا يحثّه فيه على العودة بلا إبطاء؛ وانتهز الأسطى الفرصة الذهبية فنصح الشاب بإطاعة والده، ولكنّه أجاب - أو قلبه أجاب «لا أستطيع». وانفجر حقد الأسطى شلبي في كتاب حرّره للشيخ طه كاشفه فيه بتدهور ابنه إلى الخضيض والفساد وصارحه بهيامه بإحدى غانيات روض الفرج، وأهاب به أن يدركه أو يتردّى في الهاوية إلى الأبد.

وجنّ جنون الشيخ الواعظ فشدّ رحاله إلى القاهرة فبلغها عصرًا، واستقبله الأسطى شلبي استقبالاً يدلّ على الإخلاص والمحبة، ولم يتردّد فمضى به إلى روض الفرج وكان يوسوس في صدره بما يزيد مخاوفه ويبيح بلبله، وانتهيا إلى كازينو البوسفور وكان الركن الأيمن الذي يجلس به عبد المعزّ يشاهد التمثيل في الظاهر ويتنظر نور الحياة في الحقيقة، ومال الأسطى على أذن

وكانت المرأة بعينين نصف مفتوحتين لا تخفى عليها خافية، وقد وجدت لذّة غريبة في مشاهدة قلقه وتخيّره، وأرادت أن تغضي عنه استهانة فلم يطاوعها وجدانها، وأخيرًا أحسّت نحوه بعطف غريب لم تحاول إخفاءه. وبلغ التاكسي ميدان المحطة فأمر الأسطى السائق بالتوقّف ريثما يودّعها عبد المعزّ الذي قدر له أن يعود إلى البيت وحده تلك الليلة. وأرادت نور الحياة أن تحسن توديعه فقالت:

- يا عيني.. أعود إلى البيت وحدك.. خذ هذه القبلة لتؤنس وحشتك.

ومالت نحوه بسرعة وقبّلت فمه قبلة فاضحة ذات رنين عجيب.

ووقف الشابّ ينظر إلى التاكسي الذي ابتعد بها في جوف الليل إلى حيث لا يعلم، وكان ذاهلاً محمومًا يتصاعد الدم إلى رأسه كما يتصاعد الزيتيق إلى الترمومتر، ويحسّ بالقبلة على شفّته ويدويّ رنينها في أذنيه ويشمّ رائحة الفم المعطر بالقرنفل، واهتاجت أعصابه تلك الليلة الفريدة في حياته فجعلت تخلق له الأحلام وتدني إليه الأمانى، وأنامت بين ذراعيه نور الحياة بشحمها ولحمها لتروي اشتهاه بفنون الحبّ جميعًا.

ولدى ضحى اليوم الثاني رجع الأسطى شلبي إلى بيته، وقد أدهشه أن يرى عبد المعزّ ما يزال قابلاً به لم يسافر ولا تبدو عليه هيئة المسافرين، فقال له:

- ظننت أنك سافرت إلى العريش.

فسأله الشابّ بقلق:

- أيضاًفك أن أبقي مدّة أخرى؟

- كلاً وألف مرّة كلاً.. على الرحب والسعة

دائمًا.. ولكن قل لي بالله ما الذي حملك على تغيير رأيك؟

فقال الشابّ مبتسمًا مرتبكًا وهو ينظر بعينيه إلى الأرض:

- روض الفرج دون غيره: ليتني أستطيع أن أشبع

من ملاهيه!

وقال الأسطى شلبي لنفسه: ترى هو روض الفرج

الشيخ وقال هامساً:

- ستوافيه إلى هذه المائدة بعد قليل.

فضرب الرجل حجره بيده في حالة عصبية وقال بتأثر:

- ألا يكفيك أن يغشى هذه البؤرة الفاسدة؟

فقال الأسطى شلبي بلهجة دلت على الحزن والأسف:

- إن ما ينظر له القلب حقاً أن عبد المعز كان شاباً طاهر الخلق.

فتهد الرجل بحسرة وقال كالداهش:

- ولكن من أين له المال الذي ينفقه على ممثلة؟

- أظن أن العلاقة بينهما لم تتجاوز خطى التعارف الأولى، ولهذا أهبت بك أن تدركه ولماً يهو.

فقال الشيخ بلوم وحزن:

- لقد سكت عنه يا شيخ شلبي أكثر مما ينبغي، كان يجب أن تحذرنى من بادئ الأمر...

فقال الأسطى بيقين:

- أقسم بالله أتى ما علمت بسقطته حتى بادرت إلى الكتابة إليك.

وعند ذلك نزل الستار فوجه الرجلان انتباههما إلى الشاب الموليتها ظهره. وما لبثا أن رأيا نور الحياة تسير إليه في مشية الأوزة العصرية وتجلس قبالته، ونظر الأسطى شلبي إلى الشيخ طه فرأه ينظر إلى المرأة نظرة فاحصة، وسمعه يصرخ صرخة مكتومة ويهتف بصوت مبحوح مرتجف:

- يا رحمة الله!

ورآه يقف مرتعش الأوصال زائع البصر، فأشفق من عاقبة التهور وقال له بتوسل:

- هدى من روعك يا شيخ طه.

ولكن الشيخ طه لم يستطع أن يهدئ روعه، وسار كالمترنج حتى وقف خلف ابنه الذي لا يحس به وألقى على الممثلة نظرات وحش مفترس، وألقت عليه نور الحياة نظرة احتقار عاجلة من النظرات التي تدخرها للمتطفلين، ولكنها علفت بوجهه ولم تبرح، وعبثاً حاولت أن تحوّل عينيها عنه كالمستهوي، وعجب

الأسطى شلبي لما رآها تتلبسها حالة دهشة وفزع كتلك التي تلبست الشيخ طه حين وقوع نظره عليها، فحار لأمرها وقال لنفسه بقلق «ليست هذه مسألة عبد المعز».

وفي تلك الأثناء التفت عبد المعز إلى الورا فوقعت عيناه على أبيه فجمد في مكانه كالصنم، ولكن أباه لم يباليه كما توقع واكتفى أن أمسك يده بقسوة ووضعها في يد شلبي وقال بشدة لا تحتمل المراجعة:

- اسبقاني إلى البيت.

فمضى الأسطى شلبي مع الشاب المرتعب وهو يتمتم:

«خلصنا من الابن طلع لنا الأب».

ولما خلا الشيخ والممثلة قال الرجل باحتقار:

- السلام عليك أيتها الفاجرة التي ما كنت أظن أن

الله سيبتليني برويتها مرة أخرى.

ولم تردّ عليه المرأة الهائلة بل استكانت وبدا عليها الدهول والقلق، وتعلق عقلها بالشاب الذي ذهب فعاد الرجل يقول باللهجة نفسها:

- حقاً هذه البؤرة التي أعدت لأمثالك، لقد كنت يوماً ريفيّة بسيطة ولكن نفسك كانت ملوثة تبرأ منها نفوس الريفيات جميعاً. كنت فاجرة بالطبيعة والفطرة فكان من المحتم أن ينتهي بك المطاف إلى روض الفرج أو إلى هاوية أشدّ وعورة، أيتها الفاجرة.

وكانت نور الحياة تفكر في أمور أخرى أهدتها عن الإصغاء إليه، فسألته بخوف وإشفاق وهي تشير إلى الناحية التي ذهب إليها الأسطى شلبي وعبد المعز:

- هل هو...؟

ولم تقو على إتمام سؤالها فقال الرجل بوحشية:

- نعم.. نعم.. هو ابني.. بل هو الطفل الذي تركته في القهاط وفررت مع ذلك القصاب المنحوس غير آبهة بالأمومة ولا بالزوجية.. هو ابنك أيتها الفاجرة فقولي ماذا صنعت به...

وابيض وجه المرأة وعلاه الكرّم وزاغ بصرها فقال الرجل بقسوة:

- هل وقعت الجريمة النكراء! هل حدث الإثم

## همس الجنون ٥٥

مستدير حلو الابتسامة جمّ المحبّة والحنان يراه في النور والظلام ويراه حين ينظر وحين يغمض جفنيه فهو لا يبرح مخيلته ولا يدع له فرصة للراحة أو الاطمئنان، ولم يفكر قط في النسيان أو التعزّي ولكنّه كان يبتغي الوسيلة إلى الفرار إلى القاهرة مهما كلفه الأمر.

ولاحت الفرصة المطلوبة بعد أسبوع من وصوله إلى العريش حين اضطرّ أبوه إلى سفر يقتضيه التعيّب بضعة أيام، ولم يدع الفرصة تفلت لأنّه كان عازماً عزماً أكيداً أمات ضميره وهزم نوازع الخير في نفسه، ففتح صوان والده وبعثر ما فيه من الثياب فعثر - كما قدر - على خمسة جنيهاً دسّها في جيبه وفرّ من البيت.

وبلغ القاهرة ظهراً، وكان مضطرباً متعباً فاستراح في مقهى حتّى العصر، ثمّ ركب إلى روض الفرج فألى كازينو البوسفور وقصد إلى الركن المعهود، ولكنّه لمح عن بعد الأسطى شلبي جالساً إلى المائدة في اطمئنان ودعة ينتظر الحبيبة، فغلى الدم في عروقه، وودّ لو يخسف به الأرض، وحرار لحظة قصيرة ثمّ لم يتردد، فقصد رأساً إلى حجرات الممثلات وبحث عن حجرة نور الحياة ولم يصبر حتّى يؤذن له فاقتحم بابها.

وكانت مفاجأة غير متوقّعة، فقامت نور الحياة واقفة تاركة أدوات المكياج والتواليت تسقط من يديها، ويبدو على أسارير وجهها فرح قهريّ وكادت تفتح له ذراعيها وتضمّه إلى صدرها الخفاق وتعاطيه قبل الحنان والأومة. ولكنّها تنبّهت إلى نفسها فتصلّبت في وقتها وجمدت أسارير وجهها وبدت عليها الحيرة والذهول، ولم يكن لديها متسع للتفكير والتقدير، ولكنّها أحسّت بأنّ الطريق التي تدفعها عواطفها إليه ليس الطريق الذي ينبغي لها سلوكه.

ولم ترد عيناه أن ترى في وجهها سوى الفرح الذي كساه لأول وهلة، فأقبل عليها مفتوح الذراعين ولكنّها أغضت عنه وسألته بلهجة غريبة:

- عد المعزّ... ما الذي أتى بك إلى هنا؟

فقال بلهجة المستغيث وهو يشفق من تغييرها إشفاقاً:

الأكبر؟ هل سفلت يا فاجرة إلى مرتبة الحشرات والكلاب؟ والله ما كنت أحبّ أن يشارك ابني في هذه الجريمة الشنعاء ولكنّه الانتقام الإلهي الصارم أعمى بصرك وطبع على بصيرتك ليذيقك علقم الندامة ويضرب عليك المذلة والهوان إلى أبد الأبدين.

وكانت المرأة في حالة ذهول شديد حجب من حواسها إدراك العالم المحيط بها ومنه الشيخ طه، فغلبت هواجس ضميرها صوت الرجل المرغي المزيد وجعلت تحدّث نفسها.

- ابني.. ربّاه.. أهذا إذا سرّ حبيّ له وعطفي عليه؟.. ابني.. لكأنه حلم بعيد التحقيق.

فقال الرجل الغاضب:

- فلتموتي كمدًا جزاء إثمك الشنيع.

فأشارت المرأة إليه بيدها إشارة غضب واحتقار وقالت:

- كفى هذياناً، فإنّه لم يقع بيني وبين ابني ما ينجل منه أحدنا أو كلانا.

فاشتدّ غضب الرجل للهجتها وصاح بصوت انفجاري:

- إياك وأن تقولي ابنك. لقد ماتت أمّه حين ولادته. أفأهمة أنت؟

ودوى صوته فالتفت النظارة إلى ناحيتها من كلّ صوب، وكادت تفقد المثلة صوابها، ولم تر بدءاً من الانسحاب السريع، وغادر الشيخ مكانه ورجع إلى بيت الأسطى شلبي، ولم يطمئنّ به المكان فأخذ ابنه ومضيا إلى محطة مصر، وفي أثناء الطريق قال له:

- لن ترى القاهرة مرّة أخرى إن شاء الله.. وسأحوّلك إلى مدرسة الزقازيق والله المستعان.

وضمت عبد المعزّ فلم تنفرج شفّته عن كلمة، وظلّ جامداً كالتمثال حتّى أوى إلى حجرته وكان في قرارة نفسه غاضباً على أبيه، ولعلّه لو رأى الشيخ وهو يجتم صلاته ذاك المساء فيسقط يديه، ويدعو ويتوسّل ويذرف الدموع الساخنة لربّما سكت عنه الغضب وأجبرته حناياه على الذهاب إليه ليستغفره ويسترحمه ولكنّه كان لا يرى من الدنيا جميعاً سوى وجه ممتلئ

فقال بإصرار:  
- لن أفارقك أبداً.  
وخشيت إن هي لانت له وطاوعت قلبها أن تقضي  
عليه فقالت بصرامة:

- ينبغي يا هذا أن تذهب سريعاً وإلا وجَّهت إليّ  
تهمة تحريضك على السرقة.

فبغت الشابّ وأحسّ بخيبة مريرة وسألها:

- أهذا كلّ ما يهَمُّك من أمر عودتي؟

- طبعاً..

- أتجدّين في القول؟

- وهل هذا وقت هزل؟!

- وفيَمَ كانت مودّتك لي؟

- وأي مودّة هذه التي تهون على النفس ما تهدّني به

جريمتك؟

فقال الشابّ بانفعال شديد:

- ولكنّي ارتكبت هذه الجريمة من أجلك أنت!

- لقد جئتُ أمراً نكراً، وإنّ عشّاقِي الكثيرين

ليتودّدون إليّ بغير ارتكاب الجرائم.

فتنهّد عبد المعزّ تنهّد اليائس المغيظ وقال:

- وإذا كنت تكذّبين؟

فقالت وكانت في حالة من الإعياء شديدة:

- أنت الذي أخطأت فهمي... نعم إنّي لا أنكر

أنّي ذكرت في حديثي معك الحبّ ولكنّه كان حبّاً بريئاً

كحبّ أمك مثلاً.

وكان دم عبد المعزّ يغلي في عروقه غلياناً، وكان

الغضب يفور في قلبه وينفث أمام عينيه سحائب من

دخان كثيف فصاح بصوت مرتعش النبرات:

- لا تشبّهي نفسك الأثمة بأمي الطاهرة فتقلقي

رقدتها الآمنة أيّتها العاهرة... .

ولم يشف الكلام غليله فلطمها على وجهها - في

غيبوبة الغضب - وبعث عليها... .

ثمّ ولّى الأدبار فلم يقدر له أن يرى بشاعة الألم

الذي قلّص أساريها ولا الحزن الذي طفر

بالشيخوخة على وجهها، ولا رآها تمسح بصمته بيدها

ودمعها ينهمل.. .

- أنت تعلمين بما أتى بي؛ فكيف تتجاهلينه!  
ونفذت لهجته التوسّلية إلى سويداء قلبها فحفق  
بشدة وكاد يطير من بين يديها، ولكنّها ضغطت عليه  
بقسوة لم تعهدا في نفسها من قبل، وسكنت هنيهة  
لتضبط عواطفها كي لا يظهر اضطراب وجدانها في  
نبرات صوتها ثمّ قالت:  
- لا أفقه لما تقول معنى.

فتنهّد الشابّ بحرقة وترك ذراعيه تسقطان إلى جانبه  
وقال:

- أتيت لأني لا أحتمل البعد عنك، وليس بي من  
قوة أستطيع بها التصبّر أو التعزّي، فعبثاً حاولت أن  
أقيم لرجاء والسدي وزناً، وعبثاً حاولت أن أصرف  
نفسي عن التفكير فيك، وانهزت فرصة سفر والدي  
لألود بالفرار، ولم أحسن التدبير إذ كانت ظروفِي في  
غاية القسوة فأخذت نقود أبي.

وأسكنه عن إتمام حديثه صرخة فرّت من فم المرأة  
الخائفة المشفقة، وسمعها تسأله بالَم:

- هل سرت؟

فلم يحسن فهم الباعث لها على سؤالها وقال بتأثر  
شديد:

- نعم سرت ولست أسفأ على ما فعلت لأنّه كان  
سبيل الوحيد إليك، ولن أتردّد عن أيّ تضحية في  
سبيل أن أحظى بقربك؛ وها هي ذي نقودي فاعلمي  
بها ما تشاءين.

ولكنّها أشارت إليه بيدها فأسكنته، وسألته بجفاء  
يعلم الله كم كلّفها من جهد وعذاب.

- هل يعود أبوك من سفره سريعاً؟

- بعد يومين أو ثلاثة.

فتنهّدت المرأة ارتياحاً وقالت:

- ينبغي أن ترجع في الحال إلى بلدك لتردّ النقود إلى  
مكانها فلا يعلم أبوك بجريمتك.

ولكنّه قال بجزع وخوف:

- هذا مستحيل. أنا لا أستطيع مفارقتك أبداً.

- لهذا كلام فارغ وعبث طائش والحبّ سريع

الزوال، أمّا أثر الجريمة فلا يزول.

## همس الجنون ٥٧

وفتها، أم لأنها أشفقت على نفسها من عواقب جرمي! فهذا ما ينتظر من أي إنسان مهما كان أدبه وكان تهديبه. وربما كان من الطبيعي أن أغضب بعد أن منيت بالخيبة وذهبت تضحيتي هباء، ولكن لم يكن طبيعياً قط أن أصب عليها جام غضبي، وماذا فعلت هي تلقاء ذلك؟ لا شيء، لقد لطمتها وبصقت عليها،

فماذا فعلت وهي القادرة على «البهذلة»؟

ومضت الأيام تلو الأيام وانتظر على رجاء أن يمحو الزمن من نفسه تلك الذكرى المؤلمة. وكان يجد في أعماقه عاطفة غريبة لم يعترف بها قط وطالما غالط نفسه فيها، ولكن ربما غلبته على أمره أحياناً فيتهدد حزناً ويقول لنفسه أسفاً محسوراً: «ليتني لم أمدد لها يدي بسوء»!

ومضى في طريقه لا يلوي على شيء، هائجاً، نائراً كالزوبعة، وركب الترام ونزل منه واستقلّ القطار وهو يجذث نفسه ويتهدد ويتوعد ويتجرع غصص الندم والأسف.

وأراد الله ستره فأعاد النقود إلى مكانها ومحا أنثر الجريمة بيديه ونجا من شرّ عظيم.

وقد ظن أنّ الدرس القاسي الذي تعلّمه كفيل بأن يجتث من نفسه كل ما كان من ميل أو عاطفة نحو نور الحياة وأمثالها جميعاً، ولكنّه حين عاودته طمأنينته وسكونه وجد عقله ينزع به إلى روض الفرج، وقد غالط نفسه وقاوم نزوعه ولكنّه وجد عقله مجبراً على التفكير والتذكّر. فساءل نفسه ماذا فعلت نور الحياة مما استحق من غضبي؟ ألاّتها توّددت إليّ؟ فهذه صناعتها



## هَذَا الْقَرْن

- انتصف الليل، وخيم السكون، وشمل الصمت الدور والطرق، وانتشرت أنوار المصابيح الباهتة كأنها تؤنس وحشة الأشجار المغروسة في الأفاريز.
- وقد مزق السكون الأمن بوق سيارة أتت بسرعة من مبتدأ شارع العباس، ثم وقفت أمام الباب الحديدي المغلق لفيلاً آية في الأناقة والجمال. ونفخ السائق في البوق مرّات، فخرج البواب من كوخه الخشبي وفتح الباب، واندفعت السيارة إلى داخل الحديقة التي لا يبدو منها إلا أشباح الأشجار، ودارت دورة غير كاملة، وصعدت منحدرًا ثم وقفت أمام الباب الداخلي للقصر، ونزل السائق مسرعًا وضغط على مفتاح كهربائي على كنب من الباب فأضاء مصباحًا وأرسل نورًا أزرق هادئًا، ثم فتح باب السيارة ووقف كالتمثال..
- وانتظر لحظات وثواني ودقائق، ثم أخذه العجب فأرسل نظريه إلى داخل السيارة، فرأى الباشا وزوجه مستغرقين في نوم ثقيل، وكانت السيدة ملقمة برأسها إلى الركن، وجسمها الضخم الهائل ممدودًا، يبدو في الفستان اللامع الملتصق به، كفرس البحر، وكان الباشا مسندًا رأسه إلى كتفها يحسبه من رآه لضالة جسمه ونحافته وقصر قامته - غلامًا صغيرًا. لولا شاربه الغليظ الطويل الذي يرسم مع جسمه الدقيق صورة صليب متساوي الأطراف على وجه التقريب..
- ولم ير السائق بدءًا من إيقاف سيده فقال بصوت خافت:
- سعادة الباشا.. سعادة الباشا..
- فلم يبعث نداؤه فيها أي أثر للحياة، فرفع الرجل صوته قائلاً:
- سعادة الباشا..
- واستطاع نداؤه في هذه المرّة أن يوقظه فتحرّك رأسه، واضطرب شاربه كأنه جناحا نسر يخفقان، قال بلسان ثقيل متلعثم:
- من..؟
- وصلنا يا صاحب السعادة..
- وماذا تريد؟
- عفوا يا صاحب السعادة.. تفضّل بالنزول لتصعد إلى مخدعك.
- فتفتح الباشا عينيه المحمرّتين وكأنّ النور اللطيف الذي ينير المكان أذاهما، فأعمضهما بسرعة وتحسّس بيده ذراع زوجته العاري كأنه قربن مملوءة بالمياه وقال بصوته الثقيل:
- يا هانم.. زينب هانم..
- فشهقت المرأة شهقة قويّة لو أصاب تيارها الباشا لابتلعته، وقالت بتبرّم وسخط:
- من..
- وصلنا..
- وماذا تريد يا باشا؟
- تفضّلي لتصعد إلى مخدعنا.
- أصعد؟!.. أنا لا أستطيع أن أتحرّك فكيف لي بالصعود!
- ما العمل.. هل نقضي الليل في السيارة؟
- ولم لا؟!.. المقعد وثير ليّن كالفراش، وهالك ضجعة مريحة فيما معنى التعب؟
- فقال الباشا للسائق وهو ما يزال مغمض الجفنين:
- يا حسن.. اذهب أنت.. سننام هنا.
- فارتبك السائق وقال بتحرّج:

- كيف ذلك؟ . . . هذا مستحيل .  
 - مستحيل! ألا تذكر ساعة خروجنا من البوفيه؟ . . . كنت تسير ورائي فنظرت إلينا عديلة هانم تلك المرأة الراقحة وقالت: «كان الله في عون إبراهيم باشا فهو زوج ومرؤض» وضحك جميع المدعوين وضحكت أنت أيضًا!  
 - أنا لا أذكر هذا .  
 - طبعًا لأنك لم تكن في وعيك، ومع ذلك فأنت تزعم أنك تستطيع أن تشرب حانة في ليلة واحدة . . . أليس كذلك؟ ولكنني انتقم منك فضحكت منك مع الضاحكين بعد ذلك مباشرة .  
 - وكيف كان ذلك؟  
 - كان جماعة من الحاضرين يتعجبون لنحافة فذلك فاعتذر الأمير الاي فتحي بك عن صغر حجمك بقوله: «إن شاربك الثقيل يعوق جسمك عن النمو» فضحكت مع الضاحكات والضاحكين . . . وواحدة بواحدة .  
 - يا له من ضابط وقح!  
 - أنت المسئول عن جعلنا أضحوكة في كل مكان . . . لماذا لا تقصّ شاربك؟  
 - أقصّ شاربى هل جنتت يا هانم؟!  
 - وما وجه الجنون في هذا؟! . . . إنه حمل ثقيل على جسمك الرقيق .  
 - أياكون الرجل رجلًا بجسمه!  
 - أياكون رجلًا بشاربه؟  
 - معلوم، انظري إلى مثلك، فأنت امرأة ولك جسم فيل . . . ولكن هل توجد امرأة بشارب؟  
 - الحق أقول لك إنني هممت مرّة بقصّ شاربك في أثناء نومك . . . لولا الخوف!  
 - وما الذي أخافك؟  
 - أشفقت من أن يصبح زواجنا لاغيًا .  
 - وله؟ هل أنت زوجي أم زوج شاربى؟  
 - الحقيقة أنك بغير هذا الشارب، تغدو غلامًا لم يبلغ السنّ القانونيّة للزواج!  
 - هذا هذر سكارى، والأولى بك أن تنحفي

- العفو يا صاحب السعادة . . . هذا غير طبيعي .  
 وسيرى البوّاب في الصباح ويرى الخدم . . .  
 فانتنى إلى زوجه قائلاً:  
 - يا هانم هذا غير طبيعي وسيرى البوّاب في الصباح ويرى الخدم!  
 - ومن الذي يكلمك؟  
 - السائق .  
 - أف . . . لا تضايقني . . . ماذا يهمننا من البوّاب أو الخدم أو السائق .  
 فقال الباشا للسائق بنفس اللهجة:  
 - أف . . . لا تضايقني . . . ماذا يهمننا من البوّاب أو الخدم أو السائق .  
 فسكت الرجل ولكن لم تطاوعه نفسه على الذهاب فوقف ينتظر، أما الباشا فأخرج منديله وجفّف عرقه، وقال وهو يفكّ ربطة عنقه:  
 - الدنيا شديدة الحرارة . . .  
 فاعتدلت المرأة في جلستها، ولم تلبث أن صاحت:  
 - يا لطيف!  
 - مالك . . . ؟  
 - المقعد عيب بي كآني في أرجوحة!  
 وأرادت أن تمسك بشيء، فوقعت يدها المتخبطّة على شارب الباشا فتألم الرجل ونزع شاربته من كفّها وهو يقول ضاحكًا:  
 - دعني شاربى . . . وهل تحسبينه جبل الأرجوحة؟  
 - أنا في غاية التعب .  
 - شربت كثيرًا يا زينب هانم . . . شربت أكثر مما ينبغي لك!  
 - وماذا كنت أستطيع أن أفعل سوى ذلك؟ الكلّ كان يشرب رجالًا ونساء . . . أنت نفسك شربت كثيرًا يا باشا .  
 - أنا متعود على الشرب يا هانم . . . أنا أستطيع أن أشرب حانة كاملة في ليلة واحدة!  
 - ومع ذلك لم تسالك أعصابك الليلة . . . وعلا صوتك بالضحك على غير عادتك، بل وضحكت منّي أنا يا ناقص!

- يا ابن الملعون! أحسب البلد بلا حكومة؟  
وكان المقبوض عليه أفنديًا، أنيق الملبس، كشف  
نور المصباح الخافت في وجهه عن ملامح وديعة ونظرة  
أذن إلى الرقّة والجبين منها إلى الشرّ أو التحدي،  
ففحصه الشرطيّ بنظرة شديدة وهو يتحسّن جيوبه  
وقال له متهكّمًا:

- أخالك لم تسرق سوى هذه البذلة!  
فقال الشابّ وهو يلهث من الاضطراب والخوف.  
- أتركتني يا حضرة الشاويش أنا لست لصلًا كما  
تتوهم.

- عفارم عليك.. فمن تكون يا مولانا؟  
- أقسم بالله العظيم أنّي لست لصلًا.. ولم أسرق في  
حياتي قطّ وهاك جيوبيّ فتشها كما تشاء.  
- آه... هل كنت في القصر زائرًا إذا؟  
- أنا... من أهل القصر؟

- فهمت يا سيّدي فهمت.. أنت ابن الباشا بلا  
شكّ، وما قفزك من السور إلا رياضة بدنيّة كنت تقوم  
بها في هذه الساعة المتأخّرة من الليل!  
- بل أردت أن أخرج بسرعة.  
- وما الذي يدعوك إلى الخروج بعد منتصف الليل؟  
- سفر لا يقبل التأجيل.  
- أو ليس للقصر باب؟  
- لم أجد وقتًا لإيقاظ البوّاب.

- يا مغيث.. هذا حقًا عصر السرعة.. وليس  
ببعيد أن أرى غداً من يقفز من نافذة الطابق الثالث أو  
الرابع لأنّه ليس لديه متسع من الوقت يهبط فيه  
السلم.. عوفيت يا سيّدي عوفيت..

- أراك لا تصدّقني يا حضرة الشاويش.. أوكد لك  
أنّي من أهل القصر.. غير أنّي استسهلت أن أقفز على  
هذا السور الصغير.

- معلوم.. معلوم.. وليس الذنب ذنبك.. ولكن  
ذنب من يحتمّ تعليم الألعاب الرياضيّة والتدريب  
العسكريّ.. على أنّي أجد نفسي مضطّرًا إلى تأخيرك  
يومًا أو عدّة أيام وربما عدّة أشهر.  
قال ذلك ودفعه أمامه.. ولكنّ الشابّ ألصق

جسمك الهائل، فضخامته الشاذّة هي المدعاة الحقيقيّة  
إلى السخرية.. ألم ترى صديقاتك الليلة؟.. كلهنّ  
نحيفات اللّهمّ إلا راضية هانم وهي على كلّ حال لا  
تزن نصف وزنك.  
- أنت المسئول عن وزني.

- أنا!

- نعم.. لأنك كنت دائمًا تؤكّد لي أنّك تحبّ  
اللحم العجاليّ والبقرّي.. وأنك تحتقر الوزن  
(الهائيف)!.. وها أنت ذا تتملّص من تبعاتك كما  
كنت تفعل وأنت وزير!

- ما شاء الله!.. هذا قول أعدائي السياسيّين،  
وأرى أنّي أجدد في بيتي كما جحدت من قبل في ميدان  
السياسة الملعون وأنّي خسرت الدنيا جميعًا.  
- بل ربحت شيئًا مؤكّدًا..  
- وما هو؟

- أنّك صاحب مقام رفيع!  
- يا هانم أنت في سكر كالحشاشين، والحق أنّك  
تستاهلين رتبة.. ولكن لا أدري أيّ رتبة تناسبك..  
فلا أفكر قليلًا.. ما رأيك في لقب الصدر الأعظم؟!  
.. وهنا قطع حديث الزوجين طرق عنيف على  
باب القصر الخارجيّ، وثقّ الصمت المخيم صوت  
منكر يصيح:

- يا بوّاب... يا عمّ محمّد..

فسكت الزوجان دهشة واعتدلا قليلًا في جلستها  
وأرهما السمع، وخفّ السائق مسرعًا إلى الباب ليرى  
ما هناك..

\*\*\*

كان الشرطيّ المكلف بالحراسة الليلة يسير الهويني  
في شارع العباس، ولمّا بلغ قصر الباشا سار بحدائه  
وعرّج ملازمًا للسور إلى شارع الإلهامي واتّبه من  
سهوه إلى حركة في أعلى السور فنظر إلى مصدرها فرأى  
رجلًا يقفز من الحائط ويسقط على بعد ذراع منه، وقد  
تولّاه الذعر لظهور الشرطيّ المفاجئ فنسّرت قدماه  
بالأرض.. وأسرع الحارس إليه وقبض على ذراعه  
بقسوة وهو يصيح به:

## همس الجنون ٦١

الأبيض الشفاف، أشرقت في الظلماء كالشمس ناشرة  
في الجو عطراً يفعل في الأعصاب فعل الموسيقى  
العذبة، فصاح الوالدان:

- الحمد لله . . هل أنت بخير يا لولو؟

فأجابت بصوت له في الأذن وقع العطر في الأنف:

- نعم يا ماما ماذا حدث؟

فقال الباشا:

- قبضوا على لصّ يقفز من سور القصر.

فخفق قلب الفتاة وقالت بصوت متهدج:

- لصّ!

- ألم تسمعي حركة؟

- كلاً . .

- الحمد لله . .

وسار الباشا إلى حيث يوجد اللصّ والشرطيّ  
والسائق والبيّات وتبعته زوجته ولولو، ورأت الفتاة  
وجه المقبوض عليه على ضوء المصباح الهاديّ فاشتدّت  
خفقان قلبها، وزاغت عيناها، وخفضت بصرها ذاهلة  
مضطربة.

وقال الشرطيّ:

- يدعي هذا المجرم أنّه من أهل البيت يا صاحب  
السعادة.

فأنعمت زينب هانم النظر في وجه الشابّ بعينين  
أطفأت الخمر نورهما وقالت:

- كذب . . هذا لصّ جريء.

ولكن ساورها الشكّ في صحّة بصرها فمالت إلى  
زوجها وسألته بصوت خافت:

- أليس كذلك يا باشا؟

فنظر الباشا إلى الشابّ بعينين ذاهلتين كعيني زوجته  
وقال:

- بلى . . بلى . . هذا لصّ ولا شكّ.

ثمّ مال على أذن لولو وسألها:

- أليس كذلك يا لولو؟

ولم تجب الفتاة أو على الأصحّ لم تسمع السؤال.

فسأل الباشا السائق:

- هل تعرف هذا الشابّ يا حسن . . هل هو من

قدميه بالأرض وقال يتوسّل:

- لست لُصّاً . . لست لُصّاً والله . . أنا من أهل  
القصر.

- إذا كان ما تقوله حقّاً فما عليك إلّا أن تدخل  
القصر مرّة ثانية فأصدّقك.

- حسن اترك ذراعي وسترى . .

- أدخل البيت من بابه . . تعال.

وساقه إلى باب القصر وطرقه. وهو ينادي  
البيّات . .

وأق السائق على صوته مسرعاً وأيقظ البيّات فقام  
الرجل ساخطاً وفتح الباب، وأحدث ظهور الشرطيّ  
والمقبوض عليه دهشتها، ونظرا إليهما متسائلين، فقال  
الشرطيّ:

- قبضت على هذا الشابّ وهو يقفز من سور

القصر، فادّعى أنّه من أهل الدار فهل تعرفانه؟

فأضاء البيّات المصباح الكهربائيّ، ونظر السائق  
إلى وجه الشابّ الشاحب وقال مسرعاً:

- هذه هي المرّة الأولى التي تقع عليه عيني .

وسأل البيّات الشرطيّ:

- هل وجدت معه شيئاً؟

- سيفتّش في القسم.

وفي تلك اللحظة سمع صوت الباشا الثمل يصيح  
في سكون الليل:

- يا حسن، من عندك؟

فهرع السائق إلى الباشا، وطمع الشرطيّ في سماع  
كلمة ثناء من صاحب السعادة فساق الشابّ أمامه  
وتبع السائق، وقال حسن لسيدّه:

- قبضوا يا صاحب السعادة على لصّ يقفز من سور  
القصر.

فقام الباشا واقفاً وغادر السيّارة، وهو يقول:

- كيف؟ دي لولو كانت في البيت وحدها.

وهرع نحو الباب الداخليّ وتبعته زوجته في تعثّر  
ظاهر وكان الباشا يصيح:

- لولو . . لولو!

وفتح الباب وظهرت غادة جميلة في لباس النوم

أهلنا؟!!

وكان السائق يختلس من لولو نظرات ملتبهة ويراقبها بارتياح، فقال بانفعال:

- هذا لصّ مجرم يا صاحب السعادة.

فقال الباشا للشابّ بلسان متلعثم ثقيل:

- كيف تسوّل لك نفسك ادّعاء قرابتي!

- لست لصّاً يا صاحب السعادة.

- فما كنت تفعل هنا؟

- لا أدري يا صاحب السعادة.

- ما شاء الله.. هل سقطت من طائرة في حديقتي؟

- كلّاً يا سعادة الباشا.. ولكنّي وجدت نفسي بغتة

في الحديقة.. لا أدري كيف ساقنتي قدمي إلى هنا!!

فقال الشرطي:

- ستجد نفسك في السجن إن شاء الله.

وغضب الباشا لمقاطعة الشرطي وقال له بعنف:

- يا عسكري.. لا تقطع عليّ التحقيق..

فقال الشرطي بسرعة:

- حاضر يا أفندم.

وسأل الباشا الشاب:

- ما الذي جاء بك إلى هنا؟

- أنا آسف يا صاحب السعادة، كنت سكران

وقادتني قدمي إلى هنا من غير أن يراني أحد، ونمت

على الحشائش بضع ساعات، ثمّ اسنقظت في حالة

أدنى إلى الوعي والانتباه، فأدركت خطئي، وحاولت

إصلاحه بالهروب فوقعت في يدي الشرطي.. لست

لصّاً.. فتشوني فلن تعثروا على شيء.

- وماذا شربت؟

وكان السائق في حالة سيئة من الغيظ والحنق فقال:

- هذا لصّ كذاب يا صاحب السعادة وينبغي أن

نسوقه إلى القسم.

ولكنّ الباشا انتهره قائلاً:

- لا تقاطع التحقيق.

وسأل الباشا وهو يهزّ رأسه بدهاء:

- ماذا شربت؟

- ويسكي يا صاحب السعادة.

فسألته زينب هانم:

- بالصودا؟

- نعم.

فمالت المرأة على زوجها وهمست:

- أنظر إلى فعل الويسكي بالصودا.

فردّ عليها بصوت خافت:

- نعم.. الويسكي بالصودا شراب ملعون.

ثم دنا من الشاب وهو يقول:

- دعنا نفتشك أولاً..

فاستسلم الشاب إليه، ودمسّ الباشا يديه في جيوبه

ولم يجد سوى حافظته فأراد تفتيشها، ولكنّ الشاب لم

يملكه منها، وأثارت مقاومته شكوك الحاضرين، فقبض

الشرطي على يديه بقسوة وأخذ الباشا الحافظة، وكانت

لحقت به زوجته وابنته، وأخرج محتوياتها وكان بها ورقة

من ذات الجنيه، وعدّة بطاقات وصور صغيرة،

ولاحت منه نظرة عارضة إلى الصور، فأيقظت انتباهه

وشحذت بصره فنظر إليها بإمعان فرأى صورة لولو،

ولولو بذاتها، هل يصدّق عينيه؟.. أم إنّها الخمر؟..

ونظر إلى زوجته يستعين بعينها فرأى بها دهشة

وإنكاراً، والتفت إلى لولو فرأها تنسحب بخفة وتعود

إلى القصر تسير بخطوات متتدة غير مبالية بشيء..

وسمع الشرطي يسأل بصوته الغليظ:

- هل وجدت بها مسروقات يا صاحب السعادة؟

فردّ محتويات الحافظة إلى موضعها وأعادها إلى

صاحبها وهو يقول بلسانه المتلعثم:

- كلّاً ما بها يخصّه دون غيره..

وكان السائق على بعد قريب من مولاه فاستطاعت

عيناها الحادثان أن تريا، فارتدّ إلى حالة جنونيّة من

الغضب والغيظ وقال لسبده بصوت متهدج:

- إنّ عدم العثور على شيء معه لا يبرّئه بحال وهو

ولا شكّ قد حاول السرقة فلم يفلح.

فقال الباشا:

- سأتحقّق ممّا إذا كان سكران..

ومال على فم الشاب يشمه ثمّ قال:

- الآن حصحص الحقّ.. هذا الشابّ سكران بغير

- شك . . .
- فكاد السائق يحنّ وقال بغضب:
- العفو يا صاحب السعادة، العادة أنّ الإنسان إذا كان شارباً لا يشتمّ الخمر في أفواه الآخرين!
- فانتفخ الباشا غضباً، وقتل شاربه بغطسة وصاح بالسائق:
- أنا شارب يا كلب!
- العفو يا صاحب السعادة . . أنا أعني . .
- لا أقبل منك كلاماً يا سفيه، لقد قضت سفاهتك على أسباب رزقك في هذا البيت. يا عسكريّ دع هذا الشاب لي الآن وخذ هذا الوقح خارجاً .
- وصدع الشرطيّ بما أمر، وخلا المكان إلّا من الباشا وزوجته والشابّ.
- قال الباشا للشابّ بلهجة تنمّ عن التهديد والوعيد:
- ألا تعرف من أنا؟
- أعرف طبعاً يا صاحب السعادة . .
- فكيف إذا تسوّّل لك نفسك انتهاك حرمة بيتي؟
- أنا غايبي شريفة يا صاحب السعادة . .
- وهل يوجد شرف بعد منتصف الليل؟
- وسألته السيّدة:
- ما صناعتك؟
- موظّف . .
- هذا يعني أنّك صعلوك.
- صعلوك!
- نعم . . إنّ الكاتب الحقيّر الذي لا يجد له وظيفة تشرفه يطبع على بطاقته كلمة موظّف، وهي لا تعني في الواقع إلّا أنّه كاتب حقير . . أليس كذلك! . .
- ... ؟
- في أيّ وزارة؟
- المساحة . .
- ما شاء الله؟ . . وما هي مؤهلاتك!
- ... !
- ما هي مؤهلاتك؟ . . أجيني!؟
- البكالوريا . .
- بس يا خير أسود . . وماهيّتك؟
- ... !
- وماهيّتك . . أتوسّل إليك أن تحييبي؟
- ستّة جنيهاً !
- عال . . ولماذا تحبّ ابنة الباشا؟
- سيّدي . .
- لماذا لم تحبّ ابنة كلب من طبقتك؟
- وتنهّد الباشا من قلب مكلوم وقال للشابّ:
- تفضّل مع السلامة . .
- وصعد الزوجان إلى مخدعهما وقد نال التعب منها
- كلّ منال فارقمى الباشا على «الشيزلنج» واستلقت السيّدة على الفراش وكانا واجمين حزينين . .
- وتنهّد الباشا وقال لها:
- أيعجبك هذا؟
- أنت دائماً تلقي عليّ تبعة كلّ شيء . .
- أنا رجل ينوء بعبء ثقيل سواء في الوزارة أو مجلس الشيوخ أو الشركات، فأنت وحدك المسئولة عن فساد أخلاق بناتك!
- لا تتكلّم يا سيّدي عن بناتي بهذه اللهجة التي لا أقبلها بحال . . إني أعلم أنّهنّ أشرف النساء جميعاً!
- إذا أنت ترضين عن هذه الأفعال الشائنة؟ . .
- ألا ترين أنّ مأساة الأخت الكبرى تتكرّر؟ تلك الفتاة البائسة التي أردت أن أزوجهها من طبيب كبير فوقعت في غرام صعلوك متشرّد ممن يسمّونهم بالموسيقّين؟
- لا تتكلّم عن صهرك بمثل هذه الألفاظ فليس هو الآن بالصعلوك ولا المتشرّد، ولكنّه مفتش موسيقى محترم بوزارة المعارف!
- أنا الذي عيّنته في هذه الوظيفة التي هو غير أهل لها بحال . . أنا الذي خلقتة .
- اخلق هذا أيضاً من أجل لولو.
- ولكنّه غير قابل للمخلوق . . لقد كان الأوّل مغنياً فاستطعت أن أصنع منه مفتشاً للموسيقى وإن كان لا يفقه شيئاً في الموسيقى، ولكن ما عسى أن أصنع بهذا وكلّ مؤهلاته البكالوريا؟ . الأوفق أن نظرده!

- ليت ذلك ممكن!.. ولكنك تعلم أن لولو عنيدة صلبة الإرادة، فلنوار سواتنا ونصنع منه شيئاً..  
- مهها فعلت فلن يكون أكثر من كاتب.  
- حنانيك يا باشا، هل شخّ الزمان حتى تتزوج ابنة واحد باشا مثلك ووزير سابق (ووزير لاحق إن شاء الله) من كاتب؟!  
- وما ذنب الزمان إذا كانت ابنة الباشا مجنونة مثل لولو؟  
- دع أحاديث الغضب جانباً، وقل لي ألا يمكن إلحاقه بأيّ وظيفة في مفوضية أو قنصلية؟  
- مفوضية أو قنصلية؟.. أهذا كلام يقال على واحد كلّ مؤهلاته البكالوريا؟  
- أف.. أنا أعلم جيّداً أنك متعب، ومهها يكن من أمر فينبغي ألا تكون درجته أقلّ من السادسة وألا تقلّ ماهيته عن خمسة عشر جنيهاً.. وأمامك أصدقاؤك الوزراء فليختره أيّ واحد منهم سكرتيراً له.  
- ليس الأمر سهلاً يا هانم كما يبدو لك، فالصحف تقف بالمرصاد للمحسوبيات والاستثناءات.  
- وهل يرضي الصحف أن تتزوج ابنة واحد باشا من كاتب بستة جنيهاً؟  
- إنّ للصحافة هموماً لا تدع لها وقتاً للتفكير في مسألة زواج لولو!  
- وإنّ مستقبل لولو لوفوق الصحافة وهمومها، فينبغي أن تخلق لهذا الشاب من جديد.  
- هل كتب عليّ أن أخلق كلّ يوم شاباً من جديد؟
- أرجو أن تذكر أنك كنت موظفاً بائساً حين تزوّجتك وأنه لولا المغفور له والذي..  
- إنّ أباك لم يخلقني ولكنّه أتاح الظروف المناسبة لعظمتي الكامنة!  
- صه.. لولا أبي لكنت الآن موظفاً بالدرجة السابعة على أكثر تقدير.  
- أبهذا الكلام تدافعين عن ذوق بناتك القدر؟  
- مغلّش يا باشا، إنهنّ ورثن عنيّ ذلك الذوق الذي حلني فيما مضى على الزواج منك.  
\*\*\*  
وكان السائق هائجاً غاضباً، يلعن ويتوعّد، والشرطيّ يهدئ روعه ويعزّيه عن «قطع عيشه» بكلمات لا تغني، وقد قال له:  
- أنت مخطئ يا حسن.. لماذا تدخل فيما لا يعنيك؟  
فقال محتدماً:  
- أهذا رجل؟  
- وما الذي يغضبك أنت؟.. إنّا ابنته لا ابنتك! ثمّ غمز بعينه وتساءل:  
- أم هناك سبب آخر لهذا الغضب؟.. أهو غضب أم غيره يا شيطان؟!  
فلما لم يردّ عليه الجواب قال له وهو يودّعه:  
- مغلّش يا حسن. فالحقّ أن الباشا لم يعرف يربّي غير شنبه.

## الجوع

جنونية وأدركه في اللحظة الفاصلة، فأمسك بيسراه وجذبه إلى الخلف بشدة فسقط على الإفريز عوضاً عن أن يسقط في النهر، وبلغ منه الانفعال وتدافعت أنفاسه وتفرّس وجه الرجل الذي هانت عليه الحياة فرآه يمدّجه بنظرة جامدة ووجه مكفهر، وقد لاح لعينه هزاله وراثته وشدة اصفرار وجهه، فصاح به:

- ماذا كنت فاعلاً بنفسك؟

فلم ينس بكلمة وظلّ على جموده واكفهراره، وتمالك الوجيه عواطفه فعجب لما يدفع مثل ذلك الرجل إلى الانتحار وهو لا يعلم على الحيوان - والحيوان في العادة لا يتحرر - فسأله:

- هل كنت حقاً تروم الانتحار؟ لماذا؟ .. دعني أشمّ فمك، هل أنت ثمل أم مجنون؟ .. تكلم يا حيوان.

فقال الرجل بصوت مبجوح دلّ على الحقد والاستهانة:

- أنا جائع .

فنظر إليه كالمرتاب وقال:

- كذبت. .. إنّ الكلاب الضالّة تجد قوتها. .. ولن أصدّق أنّ إنساناً يموت جوعاً في هذا البلد. .. ولكن هل تدمن الحشيش أو المتزول؟

فقال بنفس اللهجة:

- لك عذرك. .. فأنتك لم تعرف الجوع. .. هل ذقت الجوع؟ .. هل بت ليلة بعد ليلة تتلوى من عضّ أنيابه؟ هل ثقب أذنيك عويل أطفالك من نهشة أمدعتهم؟ .. هل رأيت صغارك يوماً يمضغون عيدان الحصيرة ويأكلون طين الأرض! .. تكلم يا إنسان. .. وإذا لم يكن لديك ما تقوله فلماذا تحول بينهم وبين

انتصف الليل ولمّا يصادف حظّ الوجيه عمّد عبد القويّ غير العبوس، وما انفكّت خسارته تنمو وتتضاعف حتّى بلغت نيّماً وأربعين جنيهاً في أقلّ من ثلاث ساعات، وكان هذا دأبه في أكثر لياليه، فلم تعد الخسارة تهزّ أعصابه أو تكرب نفسه. كان يتعاطاها بغير مبالاة بين رشف الكؤوس وقذف الدعابات. ثمّ ينساها بمجرد الانفصال عن المائدة الخضراء. ولكنّه كفت تلك الليلة عن اللعب بغير إرادته لخسار دار برأسه، فرغب في تنسّم هواء الخريف الرطيب في الخارج ومرادة نشاطه بالمشي والحركة، فنهض معتذراً، وغادر النادي، وكان الطريق كالمقفر والجوّ لطيفاً منعشاً، فسرت منه إلى رأسه الساخن الدائر قرةً وسكينة، فجدّ في السير مصقراً صغيراً خافتاً وأحياناً مترنماً، لغير غاية، وانحرف إلى الطريق المؤدّي إلى قنطرة قصر النيل، وبصر بها في نهايته فانشرح صدره وحثّ خطاه، فلما بلغها مضى يسير الهوينا التماساً لمزيد من الراحة والانتعاش، ولم يكن يقطعها في تلك الساعة إلا السيّارات المنطلقة في فترات متقطّعة، إلا أنّه حين بلغ ثلثها الأخير لاحظ منه التفاتة إلى الجانب الأيسر منها فرأى رجلاً رتّ الهيئة في جلباب قدر ينحني متقوّساً على سور القنطرة ملقياً برأسه إلى النهر فلم يلق إليه بالآ، ومضى إلى نهاية القنطرة، ولم يجد رغبة للتوغّل فيها وراءها فتحوّل إلى الجانب الأيسر ليعود من حيث أتى، وكان الرجل ما زال في تقوّسه واستغراقه إن لم تكن أسكرته نسائم الهواء الرطيب فتسلّل النوم إلى جفنيه. .. ولمّا صار منه على بعد قريب رآه يقفز بحركة مباغتة إلى أعلى السور ثمّ توثّب كأنّما ليلقي بنفسه إلى النيل، فاندفع نحوه بسرعة



الخلاص من غائلة الجوع؟

فامتعضت نفسه وسأله بلهجة لم تخلُ من شك:

- اتعني حقًا أنّ لك زوجًا وأطفالًا؟

ففظن الرجل إلى بواعث شكّه وعبس وجهه امتعاضًا وقال:

- كنت يومًا قادرًا على الزواج والإنفاق.. كنت

عاملًا بمصانع عبد القويّ شاكراً.

وأحدث الاسم في نفس الوجيه هزة عنيفة لأنه اسم والده، وكان يوشك أن يسأم ويضجر فاسترجع اهتمامه وسأل الرجل:

- هل حقًا كنت عاملًا مرتزقًا؟!

- نعم.. وبلغت يوميّتي ستّة قروش.. وكنت

محرّمًا ومحبوبًا. وكفّلت الحياة لزوجي وأمّي وأطفالي

الستّة. بل كنت أعظم جلدًا من البك صاحب

المصانع العظيمة لأني تعوّدت الرضا والقناعة حيث

جعل يتدمّر ويشكو سوء الحال ويعتّل بالعلل لقطع

رزق البعض والتقتير على البعض الآخر.. لم تكن

الحياة رغدًا ولا يسرًا.. ولكنّها كانت مشقّة بالرجاء

والأمل.

وأمسك الرجل عن الكلام كأنّ استرجاع الذكريات

الحلوة استنفذ البقيّة الباقية من حيويّته وقواه فجزع

الوجيه وقال له:

- هيه.. وكيف انقلب بك الحال إلى هذا المصير؟

فرفع يمينه إلى أعلى فتدلّى كم الجلباب الممزّق كأنّه

لا يوجد فيه ما يمسك به، وبرز من أحد خروقه بقيّة

عضده كأنّه رجُل أريكة تداعت وأكلها التقادم، وأشار

إليها بيسراه وقال:

- أرايت إلى هذا.. لقد هوت الآلة الجبّارة على

ذراعي وأنا منشغل عنها بما بين يديّ فلم تبق منه إلّا

على ما ترى وأطاحت بالجزء النافع الذي أكسب به

قوتي فجعلتني في ثانية شيئًا نافعًا عن الحاجة.. ولما

تمائلت للشفاء مضيت إلى البك صاحب المصنع منكسر

الفؤاد مفعم النفس بالقنوط فتلقّاني أسفًا وأعلن أنّي

قطعت ذراعي من جرّاء إهمالي، فقلت له إنّه القضاء

الذي لا يردّ فهزّ رأسه أسفًا وتصدّق عليّ بمبلغ يسير.

فقلت له إنّ هذا المبلغ لا بدّ نافذ عاجلاً أو آجلاً،

وإني وأسرتي سنموت جوعًا إذا لم تدركنا رحمته..

فوعدني أن يتصدّق عليّ بثلاثين قرشًا كلّ شهر..

وكان هذا أقصى ما ظفرت به منه. وأدركت أنّ حياتي

دمّرت تدميرًا، وأنّي وأمّي وزوجي وأطفالي الستّة قد

ألقي بنا إلى الفقر والجوع.. ولشّد ما وجدت الحياة

قاسية لا رحمة فيها.. فتجرّعت مرارتها قطرة فقطرة

وهمت على وجهي في الطرقات أسائل السابلة مستدّرًا

رحمتهم بعرض بقيّة عضدي على أنظارهم، متلهّفًا على

الملايم وكسر الخبز، وعلم الله أنّي كنت ذا حياء وأئفة

وأنّ إماتة هذه العاطفة النبيلة كلّفني ما لا أطيق من

الأم والحجل، واشتدّت وطأة العيش فبعت الضروريّ

من أثاث حجرتنا بثمن بخس. وتمزّقت ثيابنا وتعرّى

الأطفال.. وتهاكنا من الجوع.. وكان أفسى ما في

حياتنا صراخ الأطفال وعويلهم وشكواهم، فجوع دهر

طويل أنفّت على نفسي من قول طفلي وهو يتطلّع إليّ

كالمستغيث ودموعه منهمرة «أبي.. أنا جائع».

ولاحقتني هذه الآلام فجعلت صدري جحيمًا وبغضت

لي الدنيا وولدت في قلبي شعور المقت والحقد.

وتضاعف إحساسي بعجزتي وهواني حتّى قال صاحب

بمن جمعنا الجوع في ميدان واحد: «ما لك تكلف

نفسك ما لا تطيق من الهمّ كأنك امرأة مترفة تاكل كلّ

يوم رطل لحمة.. سيتحجّر قلبك ويصبح الجوع

مستملحًا فتجيب ابنك إذا شكّا اليك الجوع كما أجيب

ابني.. بلطمة تنسيه الجوع».

وسكت الرجل وقد بلغ منه الإعياء والتأثر، وبدأ

الوجيه يضجر مرّة أخرى ويفكّر في حلّ للعقبة التي

اعترضت سبيله ليتخلّص منها على وجه مُرضٍ فسأل

الرجل:

- أهذا ما دفعك إلى محاولة الانتحار؟

فقال الرجل وهو يهزّ رأسه كأنّه يقول له بل أكثر

وأكثر:

- في مساء هذا اليوم رجعت إلى الفناء الذي ناوي

إليه صفر اليدين عجزًا وإعياء. فلقيت الأطفال نائمين

هادئين فاستولت عليّ الدهشة كيف نزلت عليهم

## همس الجنون ٦٧

فكرة الموت واستبدت بي. وتفكرت في عجزتي وضعفي وجوعي. وفي عذاب أطفالي وشقائهم. فحمدت الله على أنني لم أطع غضبي وأقتل زوجي. وقلت لنفسي إنني إذا اختفيت من حياتها فلن يعيها إطعام الأطفال. ليكن عم سليمان أو غيره أما أنا فلا. وما عليّ إلا أن أوجه غضبي إلى نفسي فتكون الضحية. وألقيت بناظري إلى النهر طويلاً واستسلمت لليأس. ثم توّبت لألقي بنفسي. ولكنك حلت بيني وبين ما أريد. هذا كل ما هنالك. فهل أدركت الآن أيّ شرّ فعلت؟

وكان الوجه يصغي إلى الرجل مصطبراً ويعمل فكره فسأله:

- هل إذا تركتك الآن تعود؟

فقال الرجل بهدوء وتصميم:

- إن شاء الله.

فضحك الوجه وكان قد بتّ في المسألة برأي قاطع، وبحث في جيوبه عن نقود فضّية فعثر بقطعة ذات عشرة قروش فدفسها في يد الرجل وقال:

- استعن بهذه على إصلاح أمرك، وإذا طلع عليك صباح الغد فتوجه من فورك إلى المصنع الذي كنت تعمل فيه وستجدني هنالك في انتظارك، وهاك بطاقة تقدّمها لمن يعترض سبيلك.

وأعطاه البطاقة ودفعه عن السور وهو يقول:

- أجل عزمك فما يزال لديك متسع من الأمل وسأجد لك عملاً كبواب أو خادماً أو ما شاكل ذلك.. . تقدّم وعد إلى رشدك.. . ولكن خبرني قبل أن أنسى ما اسمك؟.

وجعل الرجل ينظر إليه بعينين ذاهلتين كأنه لا يصدّق أذنيه، ولما سأله عن اسمه قال بصوت غريب «إبراهيم حنفي» فدفعه الشاب مرّة أخرى:

- افعل ما أمرتك به يا إبراهيم.. . سلام عليك.

وتحوّل عنه ومضى في طريقه متفكراً.. . يعجب كيف أنه أتى في الوقت المناسب ليعفي أباه من وزر ثقيل: وكان ينطوي في قرارة نفسه على سداجة فأيقن أنّ ما ساقه إلى الرجل في الوقت المناسب شيء أكبر من

السكينة؟ هل تعودوا الجوع فما عاد يقرصهم!؟.. . وكانت زوجي وأمي نائميتين أيضاً. فأيقظت أكبر الأطفال.. . وأدنيته متي، وما إن أفاق من ذهول النوم حتى اندفع يقول لي فرحاً: «أكلنا عيشاً ساخناً». فسألته: «من أتى به؟» فقال: «عم سليمان الفران» فنفذ الاسم إلى صدري المتهالك كالرصاصة، وشدت قبضة يدي على ساعده وسألته وقد طالعت في وجهه أثر ما لاح في وجهي من التغيير «وهل الرجل دعا أمك إلى الفرن أم أتى بنفسه إلى هنا؟» فقال: «أرسلها مع غلامه» فلم أرتح إلى جوابه على الرغم أنّه لم يحقّق شكوكي ودفعت ساخطاً غاضباً، واستقرّ بصري على وجه زوجي وقد تملّكني الحنق وتخاليت لعينيّ أشباح مخيفة. لقد امتلأت عيناها بالنوم بعد أن امتلأ بطنها.. . بعد أن ملأها الوغد الذي خطب ودها فيها مضى وراجع هواه فسعى بحذق إلى استغلال ما تعاني من الشقاء والجوع. إنّي أدرك كلّ شيء. وأدركه بمشاعري التي نشأت عليها ولم يظفر الجوع بإماتها بعد.. . إنها ما تزال حيّة في صدري تبعث في نفسي الغيرة وفي قلبي الغضب.. . وتشبعت أفكار يروح الجريمة والعدوان.. . هل أنقضّ على المرأة النائمة فأكتم أنفاسها؟ كانت رغبتني في الفتك عظيمة جبارة. ولكن لاحظت منّي التفاتة إلى الأطفال فترددت. من لهم بعد أمهم وأبيهم؟. وتحاذلت وتداعت إرادتي.. . ونفست عن غضبي فركلتها بعنف وغادرت الفناء وصراخها الفرع يلاحقني. ثمّ همت على وجهي في الطرق التي أتسوّل فيها.. . وجعلت أتخبّط على غير هدى.. . وعاودتني أفكار العدوان.. . هل أرجع إلى الفرن وأتب على عمّ سليمان وثبة الهلاك؟ أم أرصد عبد القويّ بك وأطعنه طعنة قاتلة؟.. . ولكن ما أعجزني.. . فقدت يميني ودبّ الإعياء في جسمي وأطرافي وتضعضت حواسي. ثمّ بلغت بي قدماي هذا المكان ورأيت النهر الجاري في وحشة الليل فانجابت عنيّ الوسواس: وأدركت للحال كيف ينبغي أن أنهي الحياة وخلت أنّ النيل ضالّتي المنشودة. وكان قضاء إلهياً هداني إليه ليدلّني على سبيل الخلاص والراحة. واستولت عليّ

## ٦٨ همس الجنون

المصادفة، فأثلج صدره وشعر بارتياح وطمأنينة .  
 ولكنّ فكرة خطرت له بباله فقطّب جبينه وتساءل  
 كالحالم وهو يجذّ في السير.  
 «ترى كم أسرة من الأمر التي يشقى بها أمثال  
 إبراهيم حنفي يمكن أن تسعدها النقود التي أخسرها  
 كلّ ليلة في النادي؟!» .

## بذلة الأسير

وتمتأه.. على أن آماله لم تقطعه عن مهنته، فتأبر على كده قانعا من آلامه بالأحلام. وقصد في ذلك الأصل إلى محطة الزقازيق يحمل صندوقه وينظر القادم. ونظر إلى الأفق فرأى القطار قادما من بعد كأنه سحابة دخان، وما زال يدنو ويقرب وتتميز أجزاءه ويتصاعد ضجيجها حتى وقف على إفريز المحطة. وهرع «جحشة» إلى العربات المترصعة، فرأى - لدهشته - على الأبواب حراسا مسلحين ووجوها غريبة تطل من النوافذ بأعين ذاهلة منكسرة. وتساءل الخلق: فقيل لهم بأن هؤلاء أسرى الإيطاليين الذي تساقطوا بين أيدي عدوهم بغير حساب، وأتهم يساقون الآن إلى المعتقلات.

فوقف «جحشة» متحيرا يقلب عينيه في الوجوه المغربة؛ ثم أدركته الكآبة لأنه أيقن أن تلك الوجوه الشاحبة الغارقة في البؤس والفقر لن يكون في وسعها إشباع نهمها من سجائره.. ووجدتهم يلتهمون صندوقه بشراهة وجوع؛ فألقى عليهم نظرة سخط واحتقار، وهم أن يوليهم ظهره ويعود من حيث أتى. ولكنهم سمع صوتا يصيح به بالعربية بلهجة إفرنجية قائلا:

- سجائر.

فحدجه بنظرة دهشة وريبة ثم فرك سبابته بإبهامه: أي نقود. ففهم الجندي وأوما برأسه، فاقترب محاذرا ووقف على بعد لا تبلغه يد الجندي. فخلع الجندي جاكته بهدوء وقال له وهو يلوح بها:

- هذه نقودي.

فتعجب «جحشة» وتفرد في الجاكتة الرمادية ذات الأزرار الصفراء بين الدهشة والطمع. ووجب قلبه،

كان «جحشة» بائع السجائر أول السابقين إلى محطة الزقازيق حين اقترب ميعاد قدوم القطار. وكان يعد المحطة بحق سوقه النافقة، فيمضي على الإفريز في نشاط منقطع النظر يتصيد الزبائن بعينه الصغيرتين الخبيرتين. ولعل «جحشة» لو سئل عن مهنته للعبها شرا لعتة، لأنه كغالبية الناس برم بحياته، ساخط على حفظه. ولعله لو ملك حرية الاختيار لآثر أن يكون سائق سيارة أحد الأغنياء فيرتدي لباس الأفندية ويأكل من طعام البك، ويرافقه إلى الأماكن المختارة في الصيف والشتاء مؤثرا من أعمال الكفاح في سبيل القوت ما هو أدنى إلى التسلية والملهامة. على أنه كانت له أسبابه الخاصة ودواعيه الخفية لإيثار هذا العمل وتمتية من يوم أن رأى «الغرة» - سائق أحد الأعيان يتعرض للفتاة نبوية خادم المأمور في الطريق ويغازلها بجسارة وثقة. بل سمعه مرة يقول لها وهو يفرك يديه حورا: «سأني قريبا ومعني الخاتم» ورأى الفتاة تبسم في دلال وترفع طرف الملاءة عن رأسها كأنها تسويها، والحقيقة أنها أرادت أن تبدي عن شعرها الفاحم المدهون بالزيت.. رأى ذلك فالتهب قلبه وأحسن الغيرة تنهشه نهسا موجعا: وكان به من عينها السوداوين أوجاع وأمراض. وكان يتبعها عن كثب ويقطع عليها السبيل في الذهاب والإياب، حتى إذا خلاها في عطفة أعاد على أذنيها ما قال لها الغرة: «سأني قريبا ومعني الخاتم»، ولكنها لوت عنه رأسها وقطبت جبينها وقالت باحتقار: «هات لك قبقاب أحسن». فنظر إلى قدميه الغليظتين كأنها بطننا بخفي جمل، وجلبابه القدر، وطاقيته المعقرة وقال: «هذا سبب شقائي وأقول نجمي». ونفس على «الغرة» عمله

البتلون؟ وفكر ملياً. وألقى على رءوس الأسرى المظلة من نوافذ القطار نظرة ذات معنى. ولعب الطمع قلبه من جديد فاضطربت نفسه بعد أن أوشكت أن تستقر. ودلف إلى القطار ونادى بجرأة:

- سجاثر. سجاثر. العلبة بمنطلون لمن ليس معه نقود.. العلبة بمنطلون.

وأعاد نداءه مثنى وثلاثاً، وخشي أن يغيب عن الأفهام مقصده فمضى يوماً إلى الجاكتة التي يرتديها ويلوح بعلبة سجاثر. وأحدثت إيماءته الأثر المرجو، فلم يتردد جندي أن يهّم بخلع جاكته ولكنه سارع نحوه وأما إليه أن يتمهل، ثم أشار إلى بنطلونه يعني أن ذلك بعينه، وهزّ الجندي منكبيه باستهانة وخلع البنطلون وتمّ التبادل. وقبضت يد «جحشة» على البنطلون بقوة يكاد يطير من الفرح، وتقهرق إلى مكانه الأول وأخذ يرتدي البنطلون. وانتهى في أقلّ من دقيقة فصار جندياً إيطالياً كاملاً.. ترى هل ينقصه شيء؟.. المؤسف حقاً أن هؤلاء الأسرى لا يغطون رءوسهم بالطرايش.. ولكنهم يضعون أقدامهم في أحذية. ولا غنى عن حذاء ليتساوى بالغرّ الذي يكرب حياته. وحمل صندوقه وهرع إلى القطار وهو يصرخ:

- سجاثر.. العلبة بحذاء.. العلبة بحذاء.

واسنعان على التفاهم بالإشارة كما فعل في المرة الأولى. ولكنه قبل أن يظفر بزبون جديد آذنت صفارة القطار بالمسير فتمخّضت عن موجة نشاط شملت الحراس جميعاً. وكانت سحائب الظلام تغشى جوانب المحطة، وطائر الليل يجلق في الفضاء، فتوقّف جحشة وفي نفسه لوعة. وفي عينيه حسرة وغيظ. ولما أخذ القطار يتحرّك لمح حارس في عربة أمامية فبدا على وجهه الغضب وصاح بالإنجليزية ثم بالإيطالية:

- إصعد بسرعة. إصعد أيها الأسير.

فلم يفهم «جحشة» ما يقول وأراد أن ينفس عن صدره فجعل يقلده في حركاته مستهزئاً مطمئناً إلى بعده عن تناول يده. فصاح به الحارس مرّة أخرى والقطار يتعد رويداً رويداً:

- اصعد.. إني أحذرك.. اصعد.

ولكنه لم يكن ساذجاً أو مغفلاً فأخفى ما قام بنفسه أن يقع فريسة جشع الإيطالي، وأبرز في هدوء ظاهريّ علبة سجاثر، ومدّ يده ليأخذ الجاكتة. فقطب الجندي جبينه وصاح به:

- علبة واحدة بجاكتة؟. هات عشرًا

فذعر جحشة وتراجع إلى الوراء وقد غاض طمعه، وأوشك أن يأخذ في غير السبيل. فصاح به الجندي:

- أعطني عددًا مناسبًا.. تسعًا.. أو ثمانية.

فهزّ الشاب رأسه بعناد. فقال الجندي:

- إذا سبعًا.

ولكنه هزّ رأسه كما فعل في الأولى، وتظاهر بأنه يعترم المسير ففتح الجندي بست ثم هبط إلى خمس؛ فلوح جحشة بيده متظاهرًا باليأس، وتراجع إلى المقعد وجلس فصاح به الجندي المجنون:

- تعال. رضيت بأربع.

فلم يلق إليه بالألأ، وليلده على عدم اكتراته أشعل سيجارة ومضى يدخن في تلذذ وهدوء. فثارت نائفة الجندي وأهاجه الغضب، وبدا وكأنه ليس له غاية في الوجود سوى الاستيلاء على سجاثر، فهبط بطلبه إلى ثلاث ثم إلى اثنتين ولبت «جحشة» جالسًا يغالب اضطرام عواطفه وأوجاع طمعه ولما نزل الجندي إلى اثنتين أبدى حركة بغير إرادة رآها الجندي فقال له وهو يمدّ يده بالجاكتة:

- هات.

فلم يرّ بدأ من التهوض ودنا من القطار حتى أخذ الجاكتة، وأعطى الجندي العلبتين. وتفوّس الجاكتة بعين جذلة راضية، وقد لاحت على شفّته ابتسامة ظفر. ووضع الصندوق على المقعد وارتدى الجاكتة، وزرّها، فبدت فضفاضة ولكنه لم يعن بذلك وتاه عجبًا وسرورًا واستردّ صندوقه، وأخذ يقطع الإفريز فخورًا طروبًا. وارتسمت لعينه صورة نبوية في ملاءتها اللفّ فقال متمنّيًا: لو ترائي الآن! نعم لن تتجافاني بعد اليوم ولن تلوي وجهها عني احتقارًا، ولن يجد «الغرّ» ما يفخر به عليّ. ولكنه ذكر أنّ الغرّ يرتدي بذلة كاملة لا جاكتة مفردة فكيف السبيل إلى

## همس الجنون ٧١

فزمّ جحشة شفّتيه احتقارًا وولاه ظهره وهمّ بالمسير  
فكوّر الحارس قبضة يسراه مهدّدًا وصوّب بندقيّته نحو  
الشابّ الغافل... وأطلق النار. ودوى عزيف  
الرصاصة يصمّ الأذان وأعقبها صرخة ألم وفزع.  
وتصلّب جسم «جحشة» في مكانه فسقط الصندوق من  
يده، وتناثرت علب السجائر والكبريت. تمّ انقلب  
على وجهه جثة هامدة.

## نحرجال

كان في الحقيقة عائدًا من السجن، وليس عليه في ذلك من بأس فما من فتى من فتيان عطفة شنكل إلا وقد زار السجن مرّة أو أكثر ولكنّ جمعة وحده الذي شقّ سبيله إلى الجاه والثروة، فإذا كانت شنكل قد أنجبت شطّارًا وفتوات عديدين فلم تنجب في الواقع إلا غنيًا واحدًا هو جمعة.

كان قبل الحرب بائع بطاطة يسوق عربته الصغيرة حاسرًا جلّابيته الزرقاء إلى ما فوق ركبته، ولم يكن يملك من حطام الدنيا شيئًا حتى عربته كان يكثرها بقرش في اليوم، فلما كانت الحرب وجد له عملاً في المعسكر البريطانيّ بالعباسية، وسرعان ما خلع جلّابيته وارتدى قميصًا وبنطلونًا كاكين وحذاء أسود أنيقًا واستطاع في مدّة وجيزة أن يتقن السباب باللغة الإنجليزيّة وباللهجة الإسكتلنديّة. . وتنقّل في عمله بين معسكرات عديدة حتى رمت به النوى إلى التلّ الكبير، وهناك ابتسم له الحظّ فترامت الأخبار بأنّه يتاجر في المهتمّات والأغذية. بل قيل إنّه تعهدّ بالغسل في المعسكر جميعه، وتناثرت عنه حكايات كالأساطير مؤدّاه أنّه أثرى ثراءً فاحشًا، وأنّه أمسى يلعب بالجنه لعب عابث مقتدر. . ثمّ قال الرواة يومًا إنّه ضبط متلبسًا بالأتجار في أغذية الجيش، وقضي عليه بالسجن عامًا ولكنّه على آية حال دخل السجن من المئتين وكذلك فارقه. وقد زفّ شقيقه إلى الأهل والأحباب خبر الإفراج عنه وأقام الزينات وأنّى بالزمار والمنشدين وأقسم ليجعلنّ من يوم أخيه يومًا مشهودًا. وهكذا عاد جمعة إلى عطفته كالعرسان واستقبل بالزغاريد والدفوف والمزامير، ومضوا به إلى منظره بالفناء حيث كان يبيت وعربة البطاطا قبل أربعة أعوام - فرشت

كانت عطفة شنكل من زينتها في حلّة باهرة، فسأوها أعلام خضراء وثرّيات حمراء وبيضاء، وأرضها رمال صفراء وعلى مدخلها أقيم قوس من سعف النخل والورد والرياحين، وقد راحت جماعات الغلمان الحفاة تعدو لاهية عابثة بين قوس الاستقبال وباب آخر بيت في العطفة أسبغت الزينات على جدرانه الباهتة المتداعية بهاء وجدّة، فدلّ الحال على أنّ القوم يحتفلون بعرس أو ختان أو عودة حاج. وقبيل الغروب بدت عند منعطف الطريق طلائع موكب مكّون من عربات ثلاث عقدت على مقدّم أولاهها هالات الورود والأزهار وطوّقت أعناق جيادها بأهله من الرياحين، واقترب الموكب يتهدى حاملة عرباته الرجال الأشداء ذوي العمام البيض والجلابيب الفضفاضة والعصيّ الغليظة حتى وقف أمام العطفة، وكان يتوسّط القعود في العربة الأولى شابّ في مقتبل العمر غزير الشارب يرتدي جلّابية حريريّة بيضاء ويعصب رأسه بلاسة وقطائم، فنهض في خيلاء وغادر العربة معتمدًا على عصا عجرا فاقبل نحوه المنتظرون محتفين يسلمون عليه ويقولون بلسان واحد:

- مبارك يا معلّم جمعة. . ربّنا يزيد ويبارك يا معلّم.

وانطلق الغلمان يهتفون منشدين: «يا ابن عطفنا يا جمعة. .» وقد تعالت الزغاريد من أبواب البيوت المتداعية ومن وراء خصاص النوافذ وتلقّى القادم التحيّات بابتسام وزهو وسار في شبه دائرة من الصحاب متبخترًا مرّحًا لا تسعه الدنيا من السرور والغبطة.

لم يكن المعلّم جمعة عريسًا ولا مختونًا ولا حاجًا،

### ممس الجنون ٧٣

ورفع الكوب إلى فمه فأفرغه دفعة واحدة، والتفت إلى الزمار وأوماً له برأسه فنفض الرجل في مزماره ونقروا على الدفوف وبقدرة عجيبة انتقل الإيقاع من المزمار والدفء إلى وسط جعدة ورقبته وسيفانه وعصاه فحال إلى موجة مترنحة تذهب وتجيء وتجيء وتذهب، والإخوان يرجعون النقر بأكفهم هاتفين مع الإيقاع «يعيش الوفاء.. يعيش الوفاء». وشعر جعدة وهو يتمايل ذات اليمين وذات الشمال بأنه ينبعث من جوفه لسان لهب ثم ينطلق في عروقه نافخاً ناراً وطرباً وجنوناً وما زال في رقص وخيلاء حتى اكتفى، فلوح بعصاه للزمار فأمسك. ووقف جعدة لاهثاً حتى تمالك أنفاسه ثم مدّ يده إلى شقيقه فأعطاه كوباً آخر، وقلب وجهه في القعود، كما فعل أول مرة، ثم استدرك قائلاً:

- نحن رجال، والبيوت للنسوان، القابض خاسر والجسور فائز، انطلق يا جعدة، إلى العباسية يا جعدة، إلى الأهرام يا جعدة، إلى حلوان يا جعدة، إلى التل الكبير يا جعدة، اشتغل يا جعدة، الخدق والشطارة يا جعدة، عاد القرش يا جعدة.. يعيش القرش يا جعدة.

وأفرغ الكوب في فيه كسائل الجحيم وغمز للزمار بعينه فدقت الطبول وأسلم نفسه لشيطان الرقص يذرع به الدائرة في رشاقة القيان، والإخوان يهتفون مع الدفوف «يعيش القرش.. يعيش القرش» وقد تصاعدت أبخرة الخمر إلى رأسه فخال في رقصه أنه يسبح في عباب مصطفق أو يطير على جناحي ريح مجنونة، وما زال يرقص ويرقص حتى أعياه الرقص فتوقفت وقد احمرت عيناه وتشتت شاربه، ولبث برهة يستريح ثم مدّ يده ناحية شقيقه وتناول الكوب الثالث بعنف وشره وصاح بإخوانه:

- نحن رجال.. هل توجد جسارة بغير ثمن؟ هل الزناتي سليم؟ هل عنتر سلم؟ زلت بنا القدم وما يقع إلا الشاطر، ودفعوننا إلى السجن.. السجن للرجال.. ما عيب إلا العيب، يعيش السجن للرجال.

وصب الكوب في جوفه وقد فقد إحساس الذوق

بالحصر ورضت إلى جوانبها أرائك، فجلس في الصدر يحيط به الإخوان الأقربون، ومدت المقاعد في الفناء وتصدر المكان الزمار وأعوانه، وزمرت المزامير وأنشد المنشدون واستبق الفتيان إلى الرقص ودارت أكواب الشربات والجوزة والبوري، وشمل الفرحة البيت والناس جميعاً، أما في المنظرة فقد جيء بزجاجات الكونياك حيث جمع الصفاء بين الأحباب فأتزعت الأكواب ودارت على الأفواه النهمة المشتاقة، وجرى اسم جعدة على الألسنة وتعالى له الدعاء، ومال الشاب على أذن شقيقه وقد ألحت عليه شهوة الظهور والإعلان عن النعمة وقال له: ابسط يدك حتى تروي العطاش وتشبع الجياع وتسر القلوب: هذا يوم أخيك».

ومضى يشارب الجالسين ويضاحكهم ممتلئ النفس ثقة وطمأنينة وسعادة، وكان بين ساعة وأخرى يبرز حافظته الكبيرة ويستخرج منها ورقة ويرمي بها إلى حجر أخيه قائلاً: «هات الشيء الفلاني.. هات الشيء الفلاني.. أنا خادم الإخوان.. لا بد أن ينسبط الإخوان».

ومضت ساعات الليل الأولى في رقص وزمر وأكل وشرب، وقد شرب جعدة حتى سكر وانبعثت النشوة في دمه فاهتز طرباً وقهقه ضاحكاً وداخلته رقة فملأت نسائم الأريحية فؤاده، ولم يلبث أن نازعه شوقه القديم إلى الرقص وكان في زمانه الأول يهوى الرقص ويحبّه وربما تقدم الزفة شارعاً بعد شارع بشغف لا يعرف التعب والملل. فلم يعص شوقه ونهض بجسمه الفارع ودعا الزمار فجاءه الرجل وتبعه رفاقه وأقاموا على عتبة المنظرة متأهبين، ووقف جعدة وسط الحجرة قابضاً على عصاه يميناه ومدّ يسراه إلى شقيقه فأعطاه كوباً ممتلئاً إلى نصفه ولكنّه صاح به في خيلاء وقد سرت بأطرافه حمية الخمر «املاء حتى آخره».. وأخذ الكوب المترع وهو يكفي أربعة أشخاص ثم ردّد عينيه في الجمع المحيط به وأنشأ يقول:

- نحن رجال، نحن إخوان، نذل من يتنكر لإخوانه، نذل من ينسى أصله، يعيش الوفاء.



وأفرغه حتىّ الشّالة ورمى به إلى الأرض فتحطّم  
عند قدميه، ونظر في وجوه السكارى بعينين لا تريان  
شيئاً وقال بلسان ثقيل ملتوٍ لا يكاد يبين:  
- نحن.. رجال.. افرحوا ابتسمت لكم الدنيا..  
مالي وما أملك لكم.. حظي حظكم.. لن أنسى  
الإخوان.. يعيش الحظّ.

ونقروا على الدفوف وأنشدوا مهلّلين: «يعيش  
الحظّ.. يعيش الحظّ» وأراد أن يرقص، أن يخطو إلى  
الأمام، ولكنّه كان قد فقد كلّ قوّة يمك بها نفسه  
فاندفع مترنّحاً وسقط على وجهه فاصطدم رأسه  
بالأرض في عنف وشدّة. وأمسك المنشدون ونهض  
القوم فزعين ورفعوه بأيديهم وحملوه إلى الأريكة التي  
كان يجلس عليها، ومال عنقه على مسند الأريكة  
وانحلّت مفاصله جميعاً، وجاء قوم ونضحوه على  
وجهه، فرفع جفنيه الثقيلين لحظات ولما رأى العين  
المحدّقة به همس بصوت ثقيل متعترّ:

- دعوني... نحن رجال.. افرحوا. الحظّ!  
ثمّ شعر في رأسه بدويّ هائل وكانّ مائة مطرقة تدقّ  
نحّه، وفقد الحركة والإرادة والكلام.  
وكان المعلّم بيومي في الحاضرين. كان إذا سكر  
حمله أصحابه إلى بيته وطرحوه على لحافه فيروح في نوم  
عميق لا يفيق منه إلّا ضحى اليوم الثاني. فقال للقوم  
ناصحاً:

- دعوه ينم، فالنوم دواؤه وسوف يصحو غداً  
صحيحاً معافى، وبادروا إلى حمله وأرقدوه على فراش  
أخيه وتركوه في سلام.. وعاد القوم إلى لهوهم يشربون  
ويسمرون.

وراح جعدة في نوم عميق كما قدّر المعلّم بيومي،  
ولكن حدث ما لم يقدر أحد من السكارى ولا دار لهم  
بخلد، انفجر شريان ونزف دمه وتسَلّت الحياة من  
جسمه نقطة فنقطة حتى تركته جثة هامدة، فنام نوماً  
عميقاً ثقيلاً لا يقظة بعده ولا إفاقة، وكان ذلك قبيل  
انبثاق الفجر وقد تصايحت الديكة، فاختلط صياحها  
بهتاف الهاتفين وإنشاد المنشدين..

وانقلب وحشاً لو أفرغوا فيه حانة لابتلعها، وزمّر  
الزامر، وصفقت الأيدي وتعالى الإنشاد: «يعيش  
السجن للرجال» واندفع يرقص بغير وعي وكانّ نبض  
قلبه يرسل موجات كهربائية إلى أطرافه، وتركّزت في  
رأسه أوهام غريبة بثّت في نفسه خيلاء الخالفين، وطال  
به المطال حتىّ أمسك الزمّار رحمة به فكفّ مترنّحاً  
ثملاً، وجعل يبتسم ابتسامة بلهاء وينظر ببصر زائف،  
وعلى حين غرّة طالعت عينيه من عالم الذاكرة صورة  
ذات حسن وبهاء فأهاجت قلبه كوحش رأى فريسة  
شهيّة، وخال أنّه يسمع فرقة قبقاها وتمطّقتها باللبان  
فدغدغت قلبه لسعات الهيام، ومدّ يده نحو أخيه في  
ثورة فائرة، ولكنّ الرجل اقترب منه مشفقاً ومال على  
أذنه وهمس له: «أسرفت يا معلّم» فتولاه الغضب  
وصاح به «نحن رجال هات» وأخذ الكوب المترع وقال  
بلسان ملتوٍ وقد عاودته الصورة الجميلة:

- نحن رجال.. الرجل بغير زواج ناقص..  
الزواج فرض وسنة، شليّة المصونة بنت عمّ طلبة  
جارنا وعمّنا.. يا عمّ طلبة اقرأ الفاتحة..  
وأنشد الرجال «يعيش الحبّ.. يعيش الحبّ»  
واشترك معهم عمّ طلبة نفسه وقد لعبت الخمر.  
وشرب جعدة الكوب فاستولى عليه السكر والذهول  
وما عاد يدري أقاتئاً أم قاعدًا، راقصاً أم واقفًا، في  
البيت أم في الخلاء، وصار رقصه أشبه بالترنّج وثقلت  
جفونه واحتقن الدم في وجهه. وأمر أخوه الزمّار أن  
يكفّ فحمد جعدة في مكانه معتمداً على عصاه،  
وتحوّل نحو أخيه ومدّ إليه يسراه كعادته ولكنّه لم  
يستطع أن يحمل ذراعه هذه المرّة فردّت إلى جنبه وقال  
له شقيقه:

- أسرفت على نفسك يا معلّم.. هلمّ معي إلى  
الخارج تنشقّ الهواء الرطيب.  
ولكنّه هزّ رأسه غاضباً، وسار مترنّحاً إلى المائدة  
وملأ الكوب حتىّ فاض منه الكحول وسال، ورفع  
إلى فيه بيد مرتشّة وهو يتمتم بلسان ثقيل:  
- نحن رجال..

## الشَّرُّ المَعْبُود

السادة والنبلاء، ويكلم الخدم والعبيد، ويترك خلفه أثرًا عميقًا قويًا يهيج في النفوس ثورة جامحة يشتد من حولها الجدل والخصام.

وأثارت حياة الغريب مخاوف «رام» حارس الأمن فأتبعه كالظلّ وراقبه عن كثب وارتاب في أمره فقبض عليه وقدمه إلى القاضي لينظر في شأنه العجيب. وكان القاضي سومر رجلًا طاعنًا في السنّ عظيم التجارب؛ قضى أربعين عامًا من حياته الجليلة يجهاد جهاد الأبطال تحت راية العدل والحقيقة. فأنفذ القضاء في حيوات المئين من المتمردين، وملأ السجون بالآلاف من الأشرار والمجرمين، وكان يعمل صادقًا مخلصًا على تطهير المقاطعة من أعداء السلام والطمأنينة..

ولمّا مثل بين يديه الرجل الغريب أخذه العجب واستولت عليه الحيرة، وسأله نفسه عمّا يرتكبه هذا الشيخ الفاني. ثمّ سأله بصوته المتّزن وهو يلقي عليه نظرة فاحصة:

- ما اسمك أيها الشيخ؟

فصمت الرجل ولم يجب، وهزّ رأسه كأنه لا يريد أن يتكلّم أو لا يدري ما يقول.

واستاء القاضي من لياذه بالصمت بغير سبب معقول وسأله بلهجة خشنة:

- لماذا لا تجيب؟.. قل ما اسمك؟

فقال الرجل بصوت خافت وعلى فمه ابتسامة خفيفة غامضة:

- لا أدري يا سيدي..

فتضاعف استياء القاضي وقال منتهرًا:

- ألا تدري ما اسمك حقًا؟

- بلى يا سيدي.. نسيت.

قبل أن يستولي أول ملك على عرش مصر، كان الوادي مقاطعات مستقلة لكلّ واحدة إله ودين وحاكم، وقد اشتهرت من بينها مقاطعة (خنوم) لما توفّر لها من خصوبة الأرض واعتدال الجوّ وكثرة السكّان، ولكنها كانت تدفع نصيبها كاملاً من ضريبة الشقاء والأحزان، ففسق بها المترفون وتضوّر الفلاحون جوعًا وعات الأشرار في الأرض فسادًا، وفتكت الأمراض والأوبئة بالضعاف والبائسين، وشتم للإصلاح رجال المقاطعة المسئولون وعلى رأسهم القاضي «سومر» وحارس الأمن «رام» والطبيب «تجب» وكافحوا الجريمة والعيوب مكافحة شديدة صارت مضرب الأمثال على الجهاد والصدق والعزم.

وفي أحد الأجيال التي مرّت على تلك المقاطعة ظهر بها رجل غريب، كان شيخًا طاعنًا في السنّ حليق الرأس والذقن كعادة الكهنة المصريين؛ وطويل القامة نحيل الجسم، تلوح في عينيه نظرة حادة تهزأ من فعل السنين يشعّ منها نور الفطنة والحكمة. وكان رجلًا غريبًا حقًا، فما لمست قدماه بلدًا حتّى تساءل أهله عجبًا.. من الرجل؟.. وأيّ بلد قذفه؟ وما الذي يريد؟ وكيف يضرب في الأرض حين ينبغي أن يخلد إلى السكينة والراحة في انتظار الانتقال إلى عالم أوزوريس؟.

ولم يقف به شذوذه عند حدّ. كان يثير وراءه عواصف الضجيج وزوابع الفتنة أينما حلّ وحيثما يتّجه. فكان يغشي الأسواق ويزور المعابد ويدعو نفسه إلى الحفلات على غير معرفة بأصحابها، ويضع نفسه فيها لا يعنيه. فكان يحدث الأزواج عن زوجاتهم والزوجات عن أزواجهن، والآباء عن أبنائهم ويبادل

الأمراض ويضمّدون الجراح . . أما أنا فسيبلي أن أقضي على الداء . إنّ الداء كمين في غيبه آمنًا؛ وهم لا يكثرثون إلّا لأثاره . وقد أنعمت النظر فوجدت أنّ المعدة أصلًا بلاء هذه المقاطعة . وجدت كثيرين لا يستطيعون أن يملأوا منها فراغًا فيعيوا جوعًا، وآخرين لا يتركون بها فراغًا قطّ فيهلكوا نهبًا، ومن التجاذب والتنافر بين هاتين المعدتين يحدث السلب والنهب والقتل . فالداء بينّ والدواء بينّ .

فقال القاضي:

- على العكس ممّا ترى هذا داء لا دواء له!

- هذا قولهم يا سيّدي . وما يقولونه إلّا لأنّه ينقصهم شيء معني الربّ به : هو الإيمان بالخير . إنهم لا يؤمنون بالخير حقّ الإيمان، ويجاهدون في سبيله جهاد الآلات الصمّاء التي لا تحسّ، ويعملون بالأجر وللجاه والمجد . . فإذا خلوا إلى أنفسهم تهاكوا على ما يجاهرون بمقتته من الإثم . هذا شأنهم يا سيّدي، أمّا أنا فمؤمن حقًا بالخير، فدعني أعمل على طريقي وأمهلي رويدًا . .!

وأهاج كلام الرجل الغضب في نفس حارس الأمن، إذ حسبه يلّمزه من قريب، ولكنّ القاضي كان أوسع صدرًا وألين قلبًا، فأغضى عن قول الرجل . ولمّا لم يجد في عمله ما يستحقّ عقوبة أطلق سراحه بعد أن أسدى إليه النصّح . .

وغادر الرجل المحكمة وهو يحسّ بنشوة الظفر، وكان على وجه اليقين مؤيدًا بروح سامٍ لأنّه كان يسير في الأرض بقوة مارد، ويتدفّق في الحديث بحماسة شابّ، ويفيض عليه قلبه بتفاؤل نبيّ، وكان لسانه ينفض سحرًا حلالًا وحيّة تلزم المتكبرين، فاستطاع في مدّة وجيزة أن يستأثر بأذان القوم ويسحر قلوبهم ويبيح عاطفة الخير في نفوسهم ويوجههم إلى حيث يريد، فاتّبعه الفقير وخضع له الغنيّ وذلّ له المتمرد العاصي . وكان أساس دعوته الجمال والاعتدال اللذان يعيش في ظلّهما الفقير بالقناعة والغنيّ بما فيه الكفاية . ووجد فيه ذلك المجتمع المريض طبيبًا صادقًا بارعًا فتعلّق بمنّله واعتنق مبادئه . وجاءت النتائج باهرة يخطف نورها

- أتقول أنّك نسيت اسمك . . بمّ يدعوك الناس؟  
- لا أحد يدعوني، لقد مات أهلي وذويّ، وليت في الدنيا دهرًا طويلًا لا يدعوني أحد، ولا يناديني إنسان، وكان رأسي مفعمًا بالأفكار والأحلام فنسيت اسمي .

واتهم القاضي الشيخ بالبله والخرف، وتحوّل عنه يائسًا إلى حارس الأمن وسأله:

- ما الذي حملك على سؤق هذا الرجل إلى المحكمة؟

فقال «رام»:

- إنّه يا سيّدي رجل لا يستريح ولا يريح، يتطفّل على الناس ويمادهم في الخير والشرّ، ولا يدعهم إلّا وقد فرقت بينهم الفتنة والشقاق .

فالتفت إليه القاضي وسأله:

- ما الذي تريده من وراء ذلك؟

فحدّجه الشيخ بنظرة حادّة، وقال بصوت قويّ النبرات يهزّ بالسنين التي عاشها في هذه الدنيا:

- أريد أن أصلح هذه الدنيا البشعة يا سيّدي .

فابتسم القاضي وسأله:

- أليس يوجد من يهب حياته لهذا العمل النبيل وهو قادر عليه؟ ماذا يفعل القاضي وحارس الأمن والطبيب؟ اطمننّ أيّها الشيخ وأرح نفسك ولا تحمّل شيخوختك ما لا طاقة لها به من بلوغ هذا المطلب العسير، وغريك عليه أقدر .

فهزّ الرجل رأسه بعناد وقال:

- جميع من ذكرت قد وجدوا منذ الأزل . ولكنهم لم يقدرُوا بعد على تغيير هذه البشاعة التي تشوّه وجه الدنيا . ولا نزال نرى في كل بقعة من الأرض نذر الشر وآثار الجريمة .

- وهل تنجح أنت إذا أخفقت جميع هذه القوى المؤتلفة؟

- نعم يا سيّدي . . أمهلي وسوف ترى . .

فابتسم القاضي في استخفاف وسأله:

- وماذا تدخر من الوسائل ممّا ليس لديهم؟

- إنهم يا سيّدي يطاردون الأشرار ويعالجون

## همس الجنون ٧٧

وكأنه بقوله هذا رفع صماماً عن مرجل يغلي ففاض  
كلُّ بما في قلبه، فقال واحد منهم:  
- هذه حال لا يمكن السكوت عليها.  
وقال آخر وهو يهز قبضة يده:  
- لقد أفسد الشيخ الحرفُ المقاطعة.  
وقال ثالث:

- إته يحطم القوى الإنسانيّة العالية بهذه الدعوة  
الفاسدة التي تعوق التقدّم وتقتل الهمم.  
وسرت النجوى من لسان إلى لسان، وأبان كلَّ عمّا  
بنفسه إلا القاضي فإنه لزم الصمت، وسها إلى الأفق  
البعيد كأنه لا يسمع ممّا يدور حوله شيئاً، وكاد مظهره  
يجلب اليأس إلى قلوب الكثيرين من أعوانه إلا أنّ رام  
همس لهم خارجاً:  
- لا تخشوا القاضي فقلبه معنا، ولكنّ لسانه الذي  
مرن على الكلام عن العدالة لا يطاوعه على ما نحن  
بسيّله.

وأتفقت كلمتهم..  
وأشرقت الشمس ذات صباح فإذا بالرجل الغريب  
قد اختفى، وبحث عنه مریدوه في كلِّ مكان وقتشوا  
عنه في كلِّ بقعة من الإقليم فلم يعثروا له على أثر.  
وأحدث اختفاؤه دهشة وانزعاجاً، وأثار أقاويل  
متباينة، فمن قائل إنه هجر المقاطعة إلى غيرها بعد أن  
اطمأن إلى ثبات عقيدته؛ ومن قائل إنه صعد إلى  
السماء بعد أن أدى رسالته. وشمل الحزن المقاطعة  
كلّها ووجفت القلوب جميعاً..  
وتنفس السادة الصعداء وانتظروا على أمل سعيد  
وكلّهم يحلم بالوجد الأفل والنعيم الداهب ويمتني نفسه  
ويستنظرها..

ولكنّ النفس يلحقها الجزع كلّها دنت من الأمل  
المرتقب، فباتت أعصاب القوم ثائرة وقلوبهم حائرة،  
وكان يقضّ مضاجعهم أن يروا عامّة الناس ما تزال  
متمسكة بالدعوة، مخلصّة لذكرى الشيخ الغريب.

واهتاج الغضب حارس الأمن فصاح:  
- ينبغي ألاّ تدوم هذه الحال.  
ونظرت إليه أعين أحيائها الطمع، وأضناها الأمل،

الأبصار ويذهل عقول العقلاء، فسحقت الجريمة وهزم  
الشرّ وأدبرت الأمراض، وأظلت السعادة بجناحيها  
المقاطعة، فهلّل الحكّام وكبروا وآمنوا بالرجل الذي  
كانوا فيه يمترون. وسعدوا جميعاً لبلوغ الغاية النبيلة  
التي أنفقوا أعمارهم عبثاً في سبيل بلوغها.

وتقدّم الزمان بخطأ هادئة في جوّ صافٍ وطريق  
معبد، وتحوّلت الأمور إلى غير ما عهد الناس.  
وكان الحكّام أول من أحسّ بالعهد الجديد، والحقّ  
أنهم وجدوا أنفسهم عاطلين، والراحة لئمة لا يدوقها  
إلا العاملون، فنقل الفراغ على ظهورهم، وشاهدوا  
بأعين جزعة مجدهم ينهار ويرجمهم تذهب ونورهم  
ينقلب ظلاماً.  
كان حارس الأمن قوّة ترهب أينما يجمل، فردّ إلى  
شيء تقتحمه العيون وتستهيّن به القلوب، وأضحى تمرّ  
به العامّة وكأنتا تمرّ بصنم محطّم.

وكان القاضي قوّة قدسيّة ومهابة إلهيّة، فأصبح  
يقلب كفيه أسفاً حزيناً لا يسمع تحية ولا رجاء، ولا  
يساق إلى رحابه من يبابه. فأحسّ بعزلة ووحشة،  
وبات كمعبد مهجور في الصحراء. وأنّ الطيب  
بشكوى مكتومة، وحبس نفسه في داره لا يزوره إنسان  
ولا يزور إنساناً، وكان يكتز المال في القدور فأصبح  
ينفق ممّا جمع وقلبه واجف.

اطمأن الإقليم جميعاً إلى الخير إلا أولئك الذين  
وهبوا أنفسهم «صناعة الخير». كانوا حيارى يائسين  
يتلقّون يميناً وشمالاً فلا يجيدون لأنفسهم مخرجاً ممّا هم  
فيه، وكان حارس الأمن أشدهم عذاباً، لأنه كان  
أعظمهم جراءة، ولكنّه كان يخشى أن يقدم على  
التصريح بمخاوفه فيجد أذاناً صمّاء وقلوباً مطمئنة إلى  
الخير. ولمّا نفذ صبره انتهاز فرصة اجتماعه بإخوانه  
وأقرانه وقال بشيء من التهيّب متسائلاً:

- ماذا نفعل لو استغنى الحاكم عن خدماتنا غداً؟  
فاصفرّت الوجوه وسأله سائل بلسان ملعثم:  
- أمن المحتمل أن يستغني عنّا حقاً؟  
فقال رام وهو يهز كتفيه استهانة:  
- وماذا نفعل حتّى نستحقّ البقاء؟

## ٧٨ همس الجنون

فاستدرك قائلاً همساً:

- أعرف في مقاطعة «بتاح» راقصة فاتنة أولتها الآلهة حسناً لا يقاوم. فلماذا لا نستعيرها أشهراً؟ وإني أعلم أنّ حاكم الإقليم راغب في نفيها لما يبيح جمالها من الفتنة والملاحاة. فليكن إقليم خنوم منفاها إلى حين؛ وهي بغير شك حقيقة بأن تفرق ما بين الأخ وأخيه والزوج وزوجه، وبأن تغري الأغنياء بالانقراض على السلاسل التي وضعوها في أعناقهم طائعين.. انتظروا خيراً قريباً..

وحقق ذلك العبقري فكرته الخطيرة.

وشاهدوا جميعاً بأعين مشرقة بنور الفرح ذلك النظام يتقوّض بنيانه ويتهاوى حجراً على حجر، وردّت المعدة إلى عرشها تتحكّم في الرقاب والعقول، وعادت الحياة الشيطانية تملأ جو «خنوم» الهادئ، وتعصف بالسلام المخيم على ربوعه. واستأنفت عصبية الحكم جهادها، ووجدت نفسها مرّة أخرى تكافح وتناضل عن الخير والعدالة والسلام..

## الورقة المهلكة

الحسبان منذ أمد قريب. وما دفعه إليها تلك المرة إلا الملل الراكد على نفسه التي شبت من أهواء الدنيا وعانت من الفراغ مرّ العناء. وتركته يتخبط حائرًا ما بين الميادين والأزقة لا يهتدي إلى مستقر. وما عاد به إليها هذه المرة إلا ما طالع خياله من أطيايف الذكريات الحلوة..

وجلس يلقي على المكان نظرة تذكّر وحنين، ولم يكن يرى منظرًا غريبًا، فإنه يذكر ولا شك تلك الأبنية العالية التي يتصاعد الدخان من أعاليها ويدوي قرع الآلات في داخلها، وهذه الصحراء المترامية التي تنتهي شطآنها البعيدة إلى مآذن القاهرة المعزية، ولكن ما له يلتفت بمنة ويسرة، هل يفقد منظرًا يذكره ولا يجده؟..

نعم إن الصورة التي انتزعها رأسه من المكان في تلك الليلة القمرية ناقصة.. ولا تنقص شيئًا تافهًا، بل تنقص مدينة كاملة.. مدينة الصفائح الغريبة.. كانت تقع أمام القهوة مباشرة على بعد عشرة أمتار من مدخلها، وكانت مبانيها أكواخًا من الصفائح التي علاها الصدأ، تأوي رجالًا ونساء وأطفالًا، وترعى في عرصاتها المعز والكلاب.. أين يا ترى هذه المدينة، أم تراه اشتبه عليه الأمر؟

ولكي يقطع الشك باليقين نادى النادل وسأله وهو يشير بيده إلى الموضع الخلاء الذي أحدث ارتياحه:

- ألم تكن توجد هنا أكواخ من الصفائح؟

فهزّ الغلام رأسه علامة الإيجاب وقال:

- بلى، يا بك.

- فأين ذهبت؟

- هدمتها الحكومة.

انتهى المطاف بالشمس إلى الأفق الغربي، وقد شملها الهدوء والوجوم والأسى بعد أن ولّى عنها تيه الفتوة وزهو الشباب، ومضى شعاعها الشاحب يوغل شرقًا مودعًا رمال الصحراء المتاخمة للعباسية موسعًا وراءه للسمر الزاحفة.

ولم يكن في الطريق الذي يخترق الصحراء - في تلك الساعة - سوى سيارة بيضاء صغيرة تسير على مهل، كأنه لا غاية لها سوى المسير؛ ويسوقها شاب تدلّ نظرة عينيه المظلمتين على الملل وعدم الاكتراث.

وتقدّمت السيارة في الطريق حتى حاذت أبنية المصانع الجديدة التي تشغل مساحة واسعة من فضاء تلك الصحراء، تمّ وقفت أمام بناء صغير كتب على لوحة في أعلى واجهته «مطعم وقهوة الزملاء» وكان البناء مكونًا من قسمين: واحد مسقّف رصّت به موائد الطعام الخشبية التي يتناول عليها الطعام عمّال المصانع القريبة، والآخر مكشوف معشوشب الأرض، وضعت به الكراسي حول نافورة من ماء آسن، أقيمت حولها عمد خشبية علقت برءوسها الكلبّيات.

ألقي الشاب نظرة على البناء وقد لاحت في عينيه الأحلام وارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتيه الممتلئين، وغادر السيارة فددت قامته الرشيقية وبذلته الأنيقة، ودخل إلى القهوة واختار ركنًا قصيًّا، وكان المكان خاليًا ساكنًا، لأنه لا تدبّ فيه الحياة عادة إلا بعد انصراف العمّال في المساء فجلس يجتسي فنجانًا من القهوة والنادل على بعد منه يرمقه بنظرة ملؤها الإنكار والدهشة.

ولم تكن هذه أول مرة يهبط فيها إلى هذه القهوة التائهة في الصحراء فقد زارها زيارة سعيدة لم تكن في

كان في مساء تلك الليلة جالسًا في سانت جيمس  
يشارب جماعة من صحبه كما هي عادته كل مساء، وقد  
تركوا الحانة في الساعة العاشرة، ورأى بعضهم أن  
يمضوا الليل في صالة رقص أو غناء أو نساء، ولكنّه لم  
يجد من حواسه ميلاً إلى تلك المتع.

كان ضيق الصدر من طول ما فعل به الملل  
والفراغ، وكان يعاني شبعًا ثقيلًا صرف هواه عن الدنيا  
جميعًا، فأسمى الرقص والغناء والنساء ألفاظًا لا معنى  
لها؛ وانقلب جسد الأهواء الفاتن في عينيه جثة  
هامدة، فودّع صحبه وتركهم يذهبون.

وتلفت بمنة وسرة في حيرة.. إلى أين يذهب؟ ولم  
ينقذه من حيرته إغراء.. فترك للملل ووجدته وسكره.

ثم استقل سيارته الصغيرة وانطلق بها على غير  
هدى، وساقه التخطيط إلى العباسية، ودفعته العباسية  
إلى صحرائها الشرقية، ولفتت ناظره - في الطريق  
الصحراوي المتلوي - أنوار خافتة تنبعث من القهوة  
المنعزلة، فهذا من سرعة السيارة ونظر صوبها فسرّه  
منظر الجالسين يتسامرون ويلعبون النرد والورق، وحمل  
الهواء إلى أنفه رائحة «التمباك المعسل» فتسربت إلى  
نحوه وأطربت أعصاب رأسه، فانقشع عنه كابوس  
السقم، وأدار السيارة إلى أمام مدينة الصفائح ووقف،  
وحسب أن جلسة في هذه القهوة ونفسًا من هذه  
«الجوزة» يساويان نعم الدنيا الذي أنك قواه وأضنى  
قلبه.

ولفت شخصه الغريب أنظار الجالسين، ولكنّه لم  
يجد حرجًا ولم يستشعر خجلًا، إذ أخفت الخمر عن  
عينيه نظرات الآخرين، وقصد إلى ركن خالٍ واطمأن  
إلى كرمي، وطلب جوزة.. وكان القمر بدرًا والسما  
صافية، كأنها تعرت تستحيم في نوره البهي، فبهره  
سحر النور وجمال الليل وفتنة الصحراء القائمة وكأنه  
يرى القمر لأول مرة، بل لعله كان يراه لأول مرة  
حقًا، لأنه كان في العادة يمر على محاسن الكون ومفاته  
بعيني أعمى وأذني أصم. أمّا تلك الليلة - والخمر في  
رأسه و«الجوزة» في فمه - فقد نظر، وقلب وجهه  
الذاهل في أقطار السماء والفضاء. وخال الأنوار الهادئة

قطب الشاب جبينه وسأله:

- متى.. ولأي سبب؟

- منذ ثلاثة أشهر، بعد أن تأكّد البوليس من أن  
ساكنيها من اللصوص والقتلة.

لم يكن في الخبر ما يشير الدهشة، ولكنّه ذكر  
شخصية عزيزة فقال:

- كان يوجد هنا رجل مغرّ يدعى أبو لبة.. أو أبو  
رنة لا أذكر.. ألا تعلم أين هو؟

فتفكر الغلام دقيقة ثم قال:

- لعله أبو ستة يا بك.

- أظنه هو، كان يغني غناء جميلًا وينشد إنشادًا  
ساحرًا..

- نعم هو يا بك. ولكنّه شتى وأسفاه!

وانزعج الشاب وسأله:

- أتقول إنه شتى؟

- نعم شتى بغير شك.

- ولماذا شتى؟

- لسبب تافه جدًا.

فاستولت الدهشة على الشاب وسأله:

- كيف يشقى لسبب تافه.. ماذا فعل؟

فقال الغلام بهدوء:

- قتل..

فابتسم الشاب بالرغم من انزعاجه وقال:

.. ولكن ليس هذا بالسبب التافه.

- قتل بغيًا..

ولم يستطع الغلام أن يتم حديثه، لأنه قطعه عليه  
دخول جماعة من العمّال ونداء المعلم له فحيا الشاب  
وانصرف إلى عمله..

لقد وقعت أحداث غريبة منذ زيارته الأولى لهذه  
القهوة..

دمرت مدينة، وتشتت أهلها، وشتى رجل كانت  
حنجرته تنفث سحرًا وبهجة، فما أتعب مجيئه هذه

الليلة! جاء يطلب لهُواً ومسرّة فوجد خرابًا وموتًا!

ولبت كئيبيًا، وراح يفكر في زيارته الأولى تلك  
الليلة القمر السعيدة..

## مس الجنون ٨١

متوالية يسلك حنجرته، ثم أسند رأسه إلى كفه ومضى  
بغني «ليالي» في صوت جميل ظنّ دانس في نشوته أنه  
أجمل من أصوات الحور في الجنان، ثم أنشد:

بكره وبعده وبعده اللي وراه بعده  
وإن غاب حبيك ما لكش في البلد بعده

وكان رأسه يهتزّ وجسمه يتمايل، وكان جميعه في  
حركة وجدانية تمثيلية غريبة. وكان صوته يتهدج  
ويتوجع، يعلو تارة حتى يملأ الفضاء، ويخفت أخرى  
حتى ينفذ إلى أعماق القلب، وما إن انتهى من إنشاده  
حتى صعدت آهات الإعجاب من كلّ فم، وكان  
الشابّ أول المعجبين، وغلبته النشوة والطرب فطلب  
لكلّ واحد من الجالسين «جوزة» وصاح بالمغنيّ:

- لا أسكت الله لك صوتاً. . أسمعنا موالاً آخر. .  
فهزّ الرجل رأسه مختالاً فخوراً ووضع يسراه على  
أذنه، ويمناه على الجوزة، وأنشد:

بيني وبين الحبايب جبل عال وتلّ حشيش

ويحرّ خمرة ونفسي في النيذ ولا فيش  
ولما انتهى المغنيّ من إنشاده بلغ الفرح بنفس دانس  
مبلغاً ظنّ أنّه لن يذوق الملل بعده أبداً، وأحسّ  
بالرضى والغبطة، وأفعم قلبه بعاطفة سعادة وخير. فودّ  
لو يستطيع أن يخمر كلّ محزون بفيض من سعادته،  
ومال بقوة قاهرة إلى مكافأة الرجل الذي مسّ روحه  
بنفثة من سحر صوته، فدمسّ يده إلى محفظته ووجد بها  
بضعة قروش وورقة من ذات العشرة جنيهاً،  
فأعطى القروش إلى صاحب القهوة، ثمّ نظر إلى المغنيّ  
ملياً ووضع الورقة في يده وهو يقول:

- هذه لك. .

لم يداخله التردّد مطلقاً، وما كانت ثمة قوّة في  
الوجود تستطيع أن تمنعه من المنح والعطاء تلك  
الساعة، أمّا الرجل فسهم ووجم وأدن الورقة من نور  
المصباح وتأملها بإنكار، ولمح الورقة في يده أحد  
الجالسين فاقترّب منه ونظر إليها لحظة ثمّ قال بلهجة  
خبير:

- ورقة قديمة من ذات العشرة قروش، كانت  
متداولة أيام السلطان.

ترقص طرباً والقمر الساطع ينشد نشيداً ترتله  
السموات والأرض، وأحسّ كأنه متعلّق بأطراف النور  
الفضيّ كمن يتقلّب على بركة من الزئبق. أيّ  
حسن. . وأيّ شعور. . في تلك الساعة السعيدة نسي  
مرضه العضال وحزنه الثقيل والملل الجاثم على صدره،  
وذهب عنه شبعه الزمن، وأحسّ بجدة وبعث ومتعة  
وحبّ. فأنشد الصامت في أذنيه، وابتسم العايس  
لعينه، ولولا الحياء لاندفع يرقص ويغني وينشد طرباً  
وفرحاً. وبالغ صاحب القهوة في إكرامه والترحيب به،  
وأحضر له «الجوزة» بنفسه وهو يقول بتودّد:

- آنست وشرقت.

وكان شيخاً في الستين، قصير القامة، بطيئاً،  
ضخم الوجه والرقبة، فلم يسع دانس - اسم الشابّ -  
إلا أن يشكره.

وأراد الرجل أن يبالغ في إكرامه فقال:

- أحبّ يا بك أن تسمع غناء بلدياً؟

فسرّ دانس وقال لنفسه: ليلة قمراء وخمر وجوزة  
وغناء بلديّ! يا لها من ليلة سعيدة حقاً. . وقال  
بحماس للرجل:

- نعم. . نعم. . أين المغنيّ؟

فنادى الرجل:

- أبا سنة. . تعال.

وتقدّم من بين صفوف الجالسين شابّ طويل القامة  
عريض المنكين، لم يجلب نور القمر الشاحب قسماً  
وجبه، وأسدل ظلاً على أسأله البالية.

دنا من صاحب القهوة وقال:

- نعم؟

فقال له الرجل:

- أقعد يا عمّ. . يريد البك أن يسمع غناءك.

وقال دانس:

- نعم. . أسمعنا. . أسمعنا.

ثمّ التفت إلى صاحب القهوة وقال:

- يا معلّم. . هات «للأستاذ» جوزة.

وانبسّط أسارير الشابّ ورفع يده إلى رأسه تحيةً  
وتربّع جالساً على الأرض أمام البك، وسعل مرّات



يقرأ فيها الدهشة والترحاب، ولكنّه وجدها جامدة ثقيلة . .

- ألا تذكر يا معلّم؟ . .  
- فهزّ الرجل رأسه وقال:  
- بل أذكر يا بك.  
- سمعت خيرًا عجيبًا مزعجًا . . هل حقًا شئ أبو سنة؟

- نعم شئ الرجل التعس.  
- وكيف شئ؟  
- أحبّ أن تعرف يا بك؟  
- طبعًا يا معلّم.  
فقال الرجل بصوت غليظ:  
- ألا تذكر الثروة التي رميته بها في تلك الليلة؟  
فهزّ الشاب رأسه بالإيجاب وقد داخله قلق للهجة الرجل، أمّا المعلم فاستطرد قائلاً:

- في تلك الليلة شاهدت وشاهد جميع الزبائن منظرًا عجيبًا، فعلى أثر ذهابك انتبذ أبو سنة مكانًا خاليًا وجلس ويده تمسك بالورقة الثمينة، ولم تكن عادته أن يجلس صامتًا فهو إمّا أن يضاحك القوم أو يغتنيهم وينشدهم. أمّا في تلك الساعة الرهيبة فقد انكمش مضطربًا وجعل يختلس من الجالسين نظرات الريبة والقلق، ويمعن في الورقة نظرًا يتنازع الشكّ واليقين والذعر والأمل ودنوت منه وطلبت إليه أن يطلعني على الورقة، فأطلعني عليها وهو قابض على طرفها، فعرفتها، وأمّنت على قولك له دهشًا متعجبًا، وقلت له: لقد أنتك ثروة واسعة. وكان محطّ الأنظار ومثار الاهتمام والهمس، وكنت أتوقّع أن يغادر المكان سريعًا ولكنّه ظلّ ذاهلاً يتناوب على عينيه نور فرح مخيف والتعجب ذعر مريب؛ ولعلّه كان في حيرة من أمره لا يدري أين يذهب، فهو آمن وسط الجميع ولكن أتى له الأمان إذا انفرد في الطريق أو أوى إلى كوخه في مدينة الصفائح؟ ومدينة الصفائح لا يعرف أهلها من العملة سوى الملاليم ولا يغمض لها جفن إذا علمت أن بين حدودها ورقة من ذات العشرة جنيهاً، فما العمل؟ بات خائفًا مذعورًا وأمسى الجميع أعداءه.

فتضاحك دانث وقال للرجل بصوت سمعه كثيرون تمنّ حوله:

- جزاك الله على ما أسعدتني خيرًا . . هذه ورقة من ذات العشرة جنيهاً قد تراها بين يديك ثروة عظيمة وأراها أنا شيئًا تافهًا إلى ما أحسست به من سعادة . . السلام عليكم يا سادة . .

على أنه رأى منظرًا عجيبًا - زاد من مسرّته - قبل أن يغادر القهوة: رأى أبا سنة يهبط واقفًا فرغًا، وسمع همسًا تتناقله الشفاه، ثمّ علا ضجيج، ثمّ ساد صمت ثقبلي، وقد كفت كلّ يد عن اللعب وكلّ فم عن التدخين والتقت الأبصار جميعًا عند المغني السعيد. ولبس طربوشه وسار إلى سيّارته وقلبه يكاد يطير من الفرح بعد أن نفّض عنه راكد السقم والملل، وعاد إلى المدينة، ثمّ ألهته الحياة عن الصحراء وقهوة الصحراء وأبى سنة حتّى وجد نفسه فيها هُدا المساء.

فما أشدّ ما نزل بالدنيا من تغير! اندثرت مدينة الصفائح العامرة . . وفكّ الحبل بعنق أبي سنة الجميل وحنجرته الذهبية . . يا للعجب! كان أبو سنة مطربًا فكيف صار قائلًا؟ ووجد رغبة صادقة في السؤال والتحرّي عنه، وكان صاحب القهوة جالسًا بمكانه المعهود عند مدخل المطعم. فأشار إليه وناداه قائلاً:  
«يا معلّم» وحلّق الرجل في مصدر الصوت وهو يضيق عينيه، ثمّ سار إليه، فلما دنا من صاحبه ورأى هيئته المميّزة ابتسمت أساريره وارتفعت يده إلى جبينه بالسلام. ولكن لم يبد عليه أنّه عرفه أو تذكّره، وطلب إليه دانث أن يجلس ثمّ قال له:  
- أراك لا تذكرني يا معلّم.

فحدجده الرجل بنظرة إمعان وارتباك وتمتم وعلى فمه العريض ابتسامة حائرة:  
- أهلاً وسهلاً . .

فأردف دانث:  
- ألا تذكر تلك الليلة القمراء! . . والمغني أبا سنة؟ . . وموآل بكره وبعده! كم مضى على تلك الليلة؟ . . ثمانية أشهر أو يزيد ألا تذكر؟  
ونظر الرجل إليه نظرة غريبة، كان الشاب يتوقّع أن

### همس الجنون ٨٣

بلدية بالأحياء الميوءة، وأخذ الكثيرون يتحدثون عنه بلغة الأساطير والخرافات، فقالوا: إن الدنيا تبسم له، وإنها في إقبال عليه يتزايد يوماً بعد يوم، فالأموال تتقاطر عليه من كل يد والنساء يتهافتن عليه من كل باب، وإنه بطر وطمعى وفرض السطوة وجبى الأتاوة ونشر الرعب..

وكانت أخباراً غريبة يعزّ تصديقها، ولكنها فتنت شباب مدينة الصفائح وأثارت الطمع في قلوبهم، فلحق به نفر منهم إلى مهاوي الفجور، ومدّوا إليه يد الأخوة، وقاسموه الخير والشر، فكانوا سواعده إلى الإثم والفجور والإرهاب.

ولبت تلك الحياة ما لبثت، ثم انقطعت على أسوأ حال، وقيل في ذلك إن الرجل رجع يوماً إلى مخدع عشيقه له على غير موعد، فوجدها بين يدي أحد أتباعه، فكبر عليه الأمر وأعماه الغضب فاستلّ خنجره وقتل به الاثنين، وقبض عليه وعلى عصابته، وامتدت يد القانون إلى مدينة الصفائح منبت ذلك الشر، وانتهى الأمر فشنق أبو سنة، وسجن أتباعه، وهدمت المدينة المظلومة.. وسبحان من له الدوام يا بك..!

كان دانش يصغي إلى محدّته في ذهول، وسمعه يختم حديثه بلهجة مريرة ساخطة، فسرت في جسمه هزة عنيفة، ولم تعد أعصابه تحتمل الجلوس فقام منزعجاً، وغادر القهوة دون أن يلقي عليها نظرة وداع..

كان كثيباً منقبض الصدر.

وكان يتذكّر تلك الليلة السعيدة حين غلبته نشوة الفرح فغمر بفيضه بعض القلوب، ويتعجب! كان ليبتها سعيداً فرحاً ينشد السعادة للجميع، فكيف انقلب غرضه عليه؟.. كيف خانته الهدف فدّمّر مدينة وشرّد أهلها؟ وأسفاه!

وسكت الرجل دقيقة ثم رمق الشاب بعينين أحرق الاحمرار أشفارهما واستطرد:

- وأغلب الظن أن القلق أثار أعصابه وحرّضه على الاستهتار، فما كان منه إلا أن قام بغتة، وقال بصوت مبسوح: «السلام عليكم يا إخوان» وغادر القهوة على عجل، ولكنّه بدلاً من أن يسير إلى مدينة الصفائح حيث زوجته وأسرته انحرف إلى اليمين وأوسع الخطى حتى ابتلعتة الظلمة. وأحدث انحرافه دهشة فتبعه أحد الرفاق وغاب زمناً يسيراً ثم كرّ راجعاً وهو يصيح ضاحكاً: «ألا تعلمون.. إن الرجل المعتوه يعدو بقوة كأنما يطارده مطارد عنيف» وأحدثت عبارة الرجل عاصفة من الضحك والسحر واللعن، وهكذا غادرنا أبو سنة..

وذاع الخبر حتى بلغ مدينة الصفائح، فجاءت أسرة المغني على عجل، وتبعها قوم كثيرون ممن يشغلون بجمع الأعقاب ولم الورق القذر وسألوا عن جلية الأمر. فلما أن صحّ بينهم الخبر انعقدت ألسنتهم من الدهشة، وظنّوا أن المغني ذهب ليدفن كنزه في مكان أمين فعدوا ينتظرون، وطال بهم الانتظار على غير جدوى، فجزع الأكثرون وتفرّقوا ولم يبق إلا أفراد أسرته، ولبثوا طويلاً يترقبون ولكنّ أبا سنة لم يعد.

وهنا غلب السعال على «المعلم» فمنعه عن إتمام حديثه، وانتظر دانش حتى ردّ إليه النفس واستحّته بنظرة عينيه القلقتين فاستطرد الرجل:

- كلاً لم يعد أبو سنة.. وما كان ليعود.. لقد هجر أسرته ومدينته وصحبه إلى الأبد. باعهم جميعاً بتلك الورقة السحرية، ولما طالت غيبته رثى بعض إخوانه لحال أسرته، فخرج في طلبه والبحث عنه. ومن ذلك اليوم ترامت إلينا أخبار عجيبة، فقيل إن المغني التائه قاده قدماء إلى الأزبكية، وإنّ بغياً وقعت في هواه وأوقعته في شراكها، ثم قيل إنّه اشتغل بالغناء في قهوة

## شَمَن السَّعَادَةِ

والسبب. وأصغى المدرّس إلى تلميذه بغير اهتمام ظاهر، وواساه بكلمة تافهة، ثم تناول الكراسي وبدأ عمله، ولم يطرّقا الحديث مرّة أخرى ولا عادا إليه فيما أعقب ذلك من الأيام، حتّى كانت ساعة درس فاقتحمت عليها الغرفة بغير استئذان شابّة حسناء في ريعان الشباب فوضع الأستاذ الكتاب على المكتب وقام واقفاً في تأدّب واحترام. وألقى على الزائرة نظرة حيّية، فراعته ما رأى - لا من حسنها وشبابها فحسب - ولكن من انطلاقتها على سجيّتها وعدم تكلفها، الأمر الذي أخرجها - بغير قصد طبعا - عن الاحتشام، فكانت ترتدي (روب دي شامبر) من نسج حرير رقيق يكشف عن ذراعيها ونصفي ساقها وأعلى الصدر، وكان الأستاذ يظنّ أنّه لا يجوز لشابّة أن تبدو هكذا لعيني رجل غريب ولذلك غلبه الارتباك والاستحياء، وحس أنّها إحدى أخوات تلميذه المتزوّجات، وتأكد حدسه حين رآها تمدّ يدها في رفق إلى ذقن توتو تداعبه، ثمّ جلست باطمئنان تجاه المدرّس وهي تخاطبه قائلة:

- تفضّل بالجلوس... هل يعجبك عمل توتو؟  
فجلس أنيس وهو يقول:

- توتو مجتهد، وقد تقدّم في هذين الأسبوعين في الأجرومية والمطالعة، ولا ينقصه إلا المثابرة على حفظ الكلمات.

فابتسمت ابتسامة حلوة وطلبت إليه أن يستمرّ في عمله، فعلم أنّها ترغب في أن تشهد درسه، فلم ير بدأ من متاعبة الدرس متلعثنا برّما، واختلس منها نظرة فوجدها تنظر إليه بإمعان، فاعتقد أنّها تتابع كلامه. فوجّه انتباهه إلى ما يقول ليخرج صحيحا عذبا، ومرّة

دخل الأستاذ الحجرة التي قاده إليها الخادم فلم يلق تلميذه الصغير في انتظاره كمألوف عادته، فجلس على كرسيه يقلّب عينيه في الصور المعلقة على حيطان الحجرة، وكانت المرّة الأولى التي ينتظر فيها تلميذه منذ جيء به له لعشرة أيام خلت، وأوشك أن يدعو الخادم حين سمع وقع أقدام خفيفة، ورأى الغلام مقبلا عليه يتأبط كتبه وكراسته، فحدّجه بنظرة تعنيف ولكن راعه أن يرى عينيه حمزتين من البكاء وذقنه الصغير يرتعش من التأثر، فسأله باهتمام:

- مالك؟.

وكأنّ السؤال أثار مكظوم شجون الغلام فاندفعت الدموع إلى مآقيه قال وهو يتحب:

- تيزة... ضربتني. وتشاجرت مع بابا وما زال يتشاجران.

فسأله باقتضاب:

- من تيزة هذه؟

- امرأة بابا.

فدلّته هاتان الكلمتان على معانٍ كثيرة بغير حاجة إلى مزيد من السؤال، على أنّ الغلام تطوّع من نفسه فسرد قصّته الصغيرة الحزينة على مدرّسه، قال: إنّ والدته ماتت لعهد ولادته، وإنّ أباه تزوّج من تيزة بعد ذلك بعام أو عامين، وإنّه يعيش بمفرده تحت رعايتها بعد أن تزوّج أخواته الأربع في الأعوام الثمانية التي أعقبت وفاة الأم، وإنّ أسباب الخلاف لا تنتهي بين تيزة وأبيه، فلن يزالا يصطدمان ويشتجران، وأقسم أنّ الحق دائما مع أبيه، وأنّه لا يشتبك معها حتّى يضطرّ إلى ذلك اضطرارا، ثمّ لا يلبث أن يكفّ عنها يائسا قانطا، فلا تسكت هي عن الغضب والحنق

أخري وقع نظره على جيب الروب وقد انفرج عن أعلى الصدر فراغ بصره وارتد في اضطراب وذعر. ولم تمكث الشابة طويلاً فحيته وانصرفت، فشيّعها بنظرة غريبة وقال لتوتو مستفهماً:  
- أهي أختك؟؟  
فهزّ الغلام رأسه سلماً وقال بجفاء:  
- تيزة.  
فتملكت الشاب الدهشة وتساءل متعجباً:  
- تيزة؟!  
فنظر الغلام إليه بإنكار وقال:  
- نعم.

فتمالك أعصابه ولم ينس بكلمة، ولكنّه لبث مشغولاً دائم التفكير، وفي أثناء عودته إلى مسكنه بشارع ماهر بالجيزة استدعى صورة والد توتو- كما رآه يوم قدّم إليه - بيدنه المترهل وكرشه الكبير ورأسه الصغير المستدير الأصلع قد علا المشيب قذاله وقلق المنظار على أنفه الغليظ المجذور. ثمّ تتمم قائلاً: «الآن فهمت كل شيء... فرضوان بك حكمدار في المعاش جاوز الستين وزوجته لا تعدو الرابعة والعشرين، وتوتو غلام بائس تضافت عليه أسباب التنغيص الظاهرة والخفيّة.. ولكن لماذا تلطّفت بالغلام أمامي؟!» ولم يعتور أفكاره سوء، لأنّ أنيس كان طالباً - وإن كان أستاذاً لتوتو- طاهر النفس، على أنّه تأثر بحسنها وشبابها وخلاعتها غاية التأثير.

وفي الدرس التالي لم يكده يطمئنّ إلى مقعده أمام تلميذه حتّى كانت (تيزة) ثالثهما، وكانت كما رآها أول مرة، جميلة خليعة مبتدلة في ثوبها ولم تلازم مكانها طول الوقت، فكانت تخرج لبعض الشئون ثمّ تعود إلى جلستها. وفي مرة عادت فجلست إلى جانبه دون أن يبدو عليها أنّها تعمّدت ذلك، فخال أنيس أنّ ساقها - لدنوها - تلامس ساقه. وعند انصرافه سلّمت عليه باليد، فراح يضوع من كفه أريج معطر، ومضى مبليبل الفكر تضطرم في وجدانه يقظة عاطفيّة حارّة، وما زال مشغول البال يحاول أن يتفهّم محاضراته عبثاً حتّى ضرب مكتبه بقبضة يده وصاح جزعاً مكروباً: «لا

أحسبني إلّا مجنوناً أو مسحوراً».

وفيما أعقب ذلك من أيام كان يذهب إلى بيت رضوان بك شغفاً بها قبل كلّ شيء، وأحس أنّ تفضّلها بحضور درسه هو السعادة الحقيقيّة التي تبذلها له الدنيا جميعاً، فاستلذّها واستطابها وحنّ بها جنوناً. وجعلت الشابة الفاتنة تتودّد إليه، وتعرض لعينيه المشغوفتين محاسنها العارية، وتداعبه بنظرات من عينها حلوة فاتنة، أو لفتات من لحظها قاتلة فاتكة.. والشابّ يذهل عمّا حوله بسرعة جنونيّة. وذهب يوماً إلى بيت الحكمدار فوجد الشابة في الحجرة دون الغلام، فسأل عنه لا يحفل به في باطنه. فقالت له المرأة: «ذهب مع والده إلى شقيقته في الزمالك لأنّها مريضة» فأحسّ خيبة وحنقاً لأنّه سيضطر إلى مغادرة البيت وقام واقفاً كئيباً فسألته: «إلى أين؟» فأشار إلى الباب وقال: «سأعود من حيث أتيت» فصوّبت إلى عينيه نظرة ملتبهة وتمتمت بجرأة وهي تهزّ رأسها الصغير «كلّا..» فحنق قلبه وتدافعت أنفاسه ووقف حياها كالسحور المذهول، ثمّ تبعها على الأثر لا يلوي على شيء.

وتخلّفت بعد ذلك عن حضور دروسه، ولكنّها سمّت له الأيام التي يستطيع أن يلقاها فيها في أمن من الرقباء. فاندفع في سبيله كميّاه الشلال الجارفة في فورة عاطفة مشبوبة تصمّ الأذان وتعمي البصر وتغرق هواجس النفس، مستكيناً لنوازع شهوته وجنونه. وإنّه ليغادر بيتها ذات أصيل من أصائل الحبّ إذ لاحت منه التفاتة بغير قصد إلى شرفة البيت المطلّة على الطريق، فرأى مشهداً تجمّد له الدم في عروقه، وتصلّب شعر رأسه من الهول، فتعزّز وأوشك أن يقع على وجهه، وهرع إلى الإفريز تحت الشرفة كأنّما يداري نفسه؛ وتقدّم في خطى مضطربة لاهثاً حتّى بلغ منعطف الطريق وأراد أن يستوثق ممّا رأى فصوّب بصره في خوف وإشفاق نحو الشرفة، فرأى عند مدخلها رضوان بك برأسه الأصلع المستدير يجلس مطمئناً إلى كرسيه في جلباب فضفاض يطالع جريدة ويهشّ الذباب عن وجهه بمذبّة.. فأيس من تكذيب عينيه،

اليأس والقنوط وصعد في وجه الرجل نظرة ارتياح ليقرأ ما تدلّ عليه أمارات وجهه وما يندر به حضوره، فرآه هادئاً مبتسماً كأنه جاء لسلام لا لقتال. ومدّ يده بالسلام، فمدّ الشابّ يده، ولما يفق من دهشته.. ثمّ تنحّى عن الباب وهو يقول مزدرئاً ريقه: تفضّل بالدخول يا سيّدي.. فدخل البك وهو يتحدّث قائلاً: إنّه لا داعي للجلوس لأنّه على عجل، وأنّه جاء ليسأل عن صحّته وعمّا اعتاقه عن متابعة دروسه.. واعتذر أنيس بأنّ موعد امتحانه اقترب وأنّه في حاجة إلى كلّ دقيقة من وقته.. ولكنّ البك لم يقتنع بحجّته ورفض أن يقبل عذره، وطلب إليه برقة ألاّ يجرم توتو من دروسه. فعاود الشابّ الاعتذار، وكرّر الرجل إلى الإلحاح، ثمّ أدنى رأسه من أنيس وقال له: لا بدّ من حضورك، فهذا ضروريّ جدّاً لتوتو.. تعال حينها تشاء وكيفما تشاء.. لا بدّ من حضورك، فهذا ضروريّ جدّاً.. وكان لا يحوّل بصره عن الشابّ، فوجد في نظرتة ونبرات صوته ما أثار فضوله ودهشته.. أمّا الشيخ، فصمت لحظة متردّداً، ثمّ استدرك قائلاً: هذا ضروريّ لتوتو ولسعادتي ولسعادة الأسرة.. بل لسعادتنا جميعاً.. فأصغ لي، لا بدّ من حضورك..»

واحتقن وجهه بالدم، وارتعشت شفته السفلى وذقنه كالطفل إذا أوشك أن يفحم بالبكاء، ثمّ تحوّل عنه.. ومضى دون أن ينتظر موافقة الشابّ، ولبث في مكانه متفكراً مذهولاً تتجاذبه شتى العواطف..

وكان الأسبوع الذي اعقب هذه الزيارة معترك أزمة نفسية عنيفة أخذت بتلابيب أنيس، فتقاذفته الغرائز والشهوات، وتجاذبه نوازع اللذة ومغريات السلامة والطمأنينة، وكان ذا عزيمة وسريّة طاهرة وقلب نقّي، فأثر السلامة. فلما استدار الأسبوع أحسن قواه تتناسك وتشتدّ، فأطرى إرادته وجعل يتناسى بيت رضوان بك السيّء الحظّ وزوجته الحسنة القلقة الغضوب، ويودع ذلك العهد زاوية من زوايا الذكريات الغربية المنسية.. وانتصف مايو، فقصّد أنيس يوماً إلى الكليّة ليسأل عن موعد ظهور نتيجة الامتحان، ولما بلغت

ولهت قائلاً بفزع لا يوصف «ربّاه إنّه هو هو.. نعم في جلباب البيت فكيف كان ذلك..؟ هل عاد إلى البيت أثناء وجوده مع زوجته؟ فكيف لم يشعر به؟ ولماذا لم يقصد إلى حجرة نومه ليبدّل ثيابه؟ أم إنّه كان في البيت قبل ذهابه هو إليه؟ فكيف استقبلته المرأة باطمئنان؟ وكيف لا تعلم بوجود زوجها في البيت؟ بل كيف لم يشعر به ربّ البيت مع أنّه غادر المخدع في خطيئ مطمئنة غير محاذر؟ ربّاه..! لقد نجا من شرّ فادح.. ودخله إحساس الذي يستيقظ بغتة فيجد أنّه قد اجتاز سوراً شاقّ العلوّ في نومه.. وتحايلت لعينيه أشباح الإثم والجريمة والسجن، فعزم على أن يضرب بفرامه عرض الحائط متعمّلاً بالهاوية التي أوشك أن يتردى فيها. ولكنّه لبث يذهب لإعطاء دروسه للغلام توتو، وكان يعاني آلام قلبه وجروح عواطفه ولكنّ المرأة لم تمهله حتّى يتناسى ويتعرّى، فعادت إلى اقتحام حجرة المدرس عليه وسألته بعينها في عتاب وكدر.. وحين انتهاء الدرس تبعته إلى الباب الخارجي وسألته بحدة: «لماذا لا تأتي؟» فقصّ عليها همّسا ما رأته عيناه آخر مرّة، ونظر في وجهها ليمتحن أثر كلامه، فهاله ألاّ يرى الانزعاج الذي كان يتوقّع. وسمعها تقول بلهجتها الغاضبة: «كذبتك عينك..» فأكد لها أنّ ما رآه حقّ بغير ريب، فاستهانت بتأكيده وقالت له: إنّها ستتنتظه وترى ما هو فاعل.. فأبدى لها مخاوفه.. فقالت وقد نفذ صبرها: «أنت مخطئ واهم، فتعال ولا تتعب نفسك بالنظر إلى الشرفة.. تعال ولا تخف» فوعدها بالعودة لكي يتخلّص من إلحاحها، ثمّ انطلق على نية ألاّ يعاود ذلك البيت إلى الأبد..

ولبث على ذلك أسبوعاً كاملاً. وفي مساء يوم الجمعة، وكان في الشقّة - التي كان يشاركه فيها بعض الأقران - بمفرده، سمع طرقاً على الباب، فمضى إليه وفتحه، فرأى أمامه رضوان بك بجسمه المترهل متوكّئاً على عصاه ذات المقبض العاجي. فسرت في جسده رعدة شديدة زلزلت قلبه زلزلاً عنيفاً، ووثب إلى ذهنه خاطر سريع: إنّ المرأة ربّما وشت به كذباً عند زوجها لتكيد له، وإنّه جاء للتأديب والانتقام.. فاستولى عليه

## همس الجنون ٨٧

بالبؤساء، فأنت تجهل الدور الذي تعدّه لك الأقدار  
غداً. واذكر أنّ أغرب تصرّفات الإنسان لا تعوزها  
أسباب تبرّرها: فصن لسانك عن الأذى وحاول ما  
استطعت أن تتعظ بما يصادفك من العبر- كتب الله  
لك حظًا سعيدًا .

ورفع يده بالسلام وسار في طريقه منتصب القامة  
بدلّ مظهره على أنّه رجل عسكريّ بغير جدال .

قدماه باب مقهى المثلث شعر بإنسان يعترض سبيله  
بعصاه كالمداعب، فرفع رأسه إليه، فرأى رضوان بك  
يغادر المقهى يسبقه أحد أصدقائه إلى سيّارة تنتظر عن  
كثب، فارتبك ورفع يده بالتحية، وابتسم البك ثمّ  
سأله عن حاله، وتحدّث معه قليلاً دون أن يعرّج إلى  
الذكريات القديمة. وحين همّ بمفارقتة غير لهجته وقال  
بصوت دلّ على الضراعة والمضض:

- أيّها الشاب . . إيّاك والسخرية من الناس أو الهزء

## حلم ساعة

أفكاره وتأملاته في لذة ويسر، وصادف بلوغه مدخل المكتبة الفرنسية بروز فتاة منها تندفع فيها يشبه العدو، فتوقّف بحذر ووجل وتراجع خطوة على عجل وتوقّفت مثله وتراجعت، والتفت نحوها فراها ترمقه بنظرة ارتباك واعتذار، ثم مضت في سبيلها حتى إذا ما حاذته عطفت رأسها إليه بغتة وقد بدا على وجهها التساؤل والحيرة، وكأنّها تحاول تذكّره ولا تدري كيف، ثم أدركت بأنّ نظرها إليه هكذا من الغرابة فأدارت رأسها عنه وما روت غلّة، وقصدت إلى سيّارة تنتظر إلى جانب الإفريز، فأدرك من وهلة أنّ صورته اشتبهت عليها، وعلت لذلك فمه ابتسامة. وأراد أن يستوثق من رأيه فألقى بنظرة إلى السيّارة - وكان جاوزها بأمتار - فراها تتابعه بنظرة تعلق وجهها أي الحيرة والغرابة، فغمرته موجة انفعال مضطرب للذيد، وتعرّ بأذيال الارتباك والحيرة، ثم تحركت السيّارة مندفعة في الاتجاه الذي يسير فيه وما تزال صاحبها ترنو إليه خلل زجاج النافذة بنظرة تحيّر بماذا يصفها. . . ودّية؟ . . . حنونة؟ . . . حتى باعدت بينها المسافة. . .

وعجب الأستاذ أيّما عجب، على أنّ عجبه كان شيئاً يسيراً إلى ما أحسّ به ساعتئذٍ من ثورة الوجدان، وكانت الفتاة شابة حسناء مدججة الخلق، مرتوية الساقين، فاتنة القسيات، يزيّن وجهها عينان زرقاوان لنظرتها وقع السحر في الحواسّ والقلب والأعصاب. فانبعث في قلبه خفقان واضطراب، وشعر بنشوة رائعة. ثمّ لسعته حسرة أليمة، حسرة محروم طال عهده بالحرمان. وكانت حياته في الواقع خالية من الحبّ مثل كهف رطب لا تزوره الشمس لأنّ تغايه في طلب العلم لم يدعّ له وقتاً لشيء سواه، ولعيين

من عجيب الأمور أننا قد نحيا حياة سعيدة نخالها طويلة في حلم قصير الأجل، وما نعتّم أن تطرق اليقظة مغلق الأجفان فينتقل النائم من عالم الأحلام المخدّرة إلى دنيا حقائق شديدة الجفاء، وما يجد يده قابضة إلا على هواء. على هذا المثال مضى ذلك اليوم من حياته، كان يوماً أو بضع يوم ولكنّ قلبه ذاق فيه سعادة وغبطة وحلّق في آفاق بعيدة من أحلام المنى وخفق خفقة فرح سهاويّ جاوز به عالم الزمان والمكان، ثمّ أدركته يقظة منكرة اغتصبته من عالمه الجنون السعيد على نحو البالغ في القسوة والوحشة. . . كيف كان ذلك؟ . . .

كان اليوم السعيد الخميس، وكان الأستاذ بهاء الدين علماً عائداً من سماع محاضرة علمية في الجمعية الجغرافية الملكية عن الغدد الصماء، وكان يسير في ميدان الإسماعيلية متفكّراً في تلك الأدوات الإنسانيّة العجيبة، المسيطرة على الفرد أيّما تسيطر، وكيف يزعم العلماء أنّهم بالتحكّم في إفرازاتها يستطيعون أن يحولوا الطيب إلى شرّير والشرّير إلى طيب، والشاعر إلى رياضيّ والرياضيّ إلى شاعر. وكيف يفسّرون أخيلة جيتة وأحلام شيلي بعصاراتها المتدفّقة في الدم! . . . وكان رأسه لا يكاد يخلو من أمثال هذه الأفكار فهي مادة عمله ومادة حياته معاً، وفي الواقع يندر أن نجد بين شباب المعيدين بكلّيّة العلوم من يناظر الأستاذ بهاء الدين في حبّه العلم وحرصه على تحصيله.

وكأنّما أرقه القعود والسكون - في أثناء إلقاء المحاضرة - فأحسّ بارتياح إلى المشي، واعتزم السير على الأقدام إلى شارع فؤاد الأوّل، وأنجبه إلى شارع قصر النيل في خطى وثيلة يدخّن لفاقة من التبغ ويجرّ

السينما، وفتح بابها ونزلت منها سيّدة بدينة بادية النعمة والثراء تبعتها على الأثر فتاة حسناء انخلع لرؤيتها قلبه في صدره، وأحسّ بفرح عجيب تمازجه دهشة فلم تتحوّل عنها عيناه، وفاته في ذهوله أن يرى ضابط بوليس شابًا يبرز من الباب الثاني للسيارة ويدور بسرعة ويلحق بالسيّدة والفتاة، وانعطف رأس الفتاة إليه، وكانت فتاته دون سواها كأنما جذبتها قوّة بصره المشوق، والتقت عيناهما، ولاح على محيّاها الجميل الاهتمام والدهشة، ورقت نظرتها بالحنان الذي حيرته وفتنه منذ حين، فتبعهم في خطى مضطربة ملييًا نداء قوّة عاتية، وصعدت الفتاة مع الصاعدين إلى الطابق الثاني، فوقف في الردهة يتابعها بعينه، وراها قبل أن يغيبها عن ناظره منعطف السلم تلقي عليه نظرة أخرى.. يا لها من نظرة!.. فاستخفّه طرب جنونيّ عذب لا يتأتّى لغير الموسيقى وصفه. واندفع إلى الداخل لا يلوي على شيء، فلمّا اطمأنّ به مقعده مضى يصعد نظره في الألواح والبنائير باحثًا عن الوجه الحبيب ذي النظرة الفاتنة الحنون، حتّى وجد ضالّته في البنوار رقم ٣، وكانت تتقدّم السيّدة بقامتها الهيفاء، والتقت نظرتها بوجهه هذه المرّة أيضًا، وكأنّها تتوقّع أن تجده مجدًا في العثور عليها فارتسمت على شفيتها القرمزيّتين شبه ابتسامة أضواء لها وجهها بنور بهي، وجلست وهي ترنو إليه بعينها فبدت وهي تنحني قليلًا وكأنّها تحنو عليه، وأنقذه من سعادته التي لا تحتمل انطفاء الأنوار وانهاك الشاشة في عرض أخبار الدنيا..

كان قلقًا مجنونًا إلى غير حدّ، فرحًا سعيدًا بغير حساب، يشعر برغبة عنيفة لا يدري ما كنهها إلى القتال أو الرقص أو الصياح أو البكاء، وتندّت أهدابه بدمعة أحسّ بتفجرها من أضلعه. كان بمعنى آخر عاشقًا يتلقّى قلبه لأول مرّة أمواج الحبّ الكهربائيّة الغامضة غموض الأثير، وأغمض عينيه في الظلام وهو يتنهد في ارتياح وغبطة مستسلّمًا للذة الأحلام، وتساءل في استسلامه السعيد ترى ما الذي ساقه هذا المساء إلى السينما ولم يكن أعدّ نفسه لذلك؟!.. إنّ كلّ شيء

طبيعيّين كبرا في وهمه واشتدّا على نفسه، إذ كان يترامى إلى أذنيه أنّه «ثقيل الدم»، وكان إلى هذا عيبًا حصورًا لا يكاد يبين، فلم يكن في وسعه قطّ أن يحسن خطاب فتاة فضلًا عن أن يغازلها، ودعاه هذا وذاك إلى النفور من الحسان وإلى ما يشبه الخوف منهنّ، وحزّ لذلك الألم في نفسه، وسكب في قلبه امتعاضًا ومرارة، فتبدّى عليه الجفاء والوحشة، واضطرب عهدًا طويلًا بائسًا بين الرغبة في الحبّ والخوف من المرأة، والتشوّق إلى النساء والحقد عليهنّ، فكانت تلك النظرة الحلوة أوّل نسمة تهبّ عليه من دنيا الوجدان فترتوي بها نفسه الظمآن ويندى بها قلبه الجاف، ولكنّه ارتواء كالظمآن وندى أشدّ حرقة من الجفاف، فتحيّر وتعجّب وتساءل وهو يقلب كفيّه ترى ما خطب هذه الفتاة؟!.. وما معنى هذه النظرة الفاتنة التي أذابت الوجد والهيام والحنو المتجمّد في قرارة نفسه؟!.. إنّها لا يعرفها على وجه اليقين ولا يذكر أنّه رآها من قبل، وهي بغير ريب لا تعرفه أيضًا فلا هي قريبة ولا جارة ولا طالبة بكلّيّة العلوم. لعله التبس عليها شبهه، ولكن كيف طال بها الشكّ تلك المدة السعيدة التي أدامت فيها النظر إليه؟!.. ومضى يتفكّر تنقله الحيرة من فرض إلى فرض وقد انشغل عن الغدد والكيمياء جميعًا.

وكان في عزمه أوّل الأمر أن يعود إلى بيته، فيستمع إلى المذياع ساعة ويطالع ساعة قبل النوم، ولكن عافت نفسه ذلك. ومضى يضرب في الأرض على غير هدّى تاركًا محرّك خياله للخواطر السعيدة والأحلام اللذيذة والأوهام المخدّرة حتّى أعياه التعب وتعبناه المشي، وكان سرى عنه بعض الشيء وأخذ يفتيق من أثر النظر فأتمّجه إلى قهوة روجينا. وجالس بعض صحبه حتّى شارفت الساعة التاسعة، ثمّ خطر له أن يقضي سهرة المساء في سينما رويال - وكان قليلًا ما يجذبه مزاجه إلى ذلك - فسار بلا تردّد إلى السينما وقطع التذكرة، وكان يكره الانتظار جالسًا فدخل إلى الصور المعلقة بالردهة الخارجية وقلّب فيها عينيه، ثمّ أدارها ظهره ملالًا وأرسل بناظره إلى مدخل السينما يشاهد جمهور الداخلين، فرأى سيّارة فخمة تقف أمام مدخل



لماذا تدلّ أمها عليه؟! . . على أن عجبه ازداد إلى غير حدّ لأنه رآها تعطف رأسها إلى الورا وتحدث شخصاً لا يرى سوى أعلى طربوشه . ومال هذا الشخص إلى الامام ونظر صوبه وكان ضابط البوليس .

فلم يستطع أن يديم النظر إلى أعلى وأدار رأسه إلى الامام، ولكنّه تذكّر هذا الضابط وذكر أنّه كان من زملاء فرقة في الخديويّة وأنّه يدعى عليّ سالم وأنّه كان مبرّزاً في الألعاب الرياضيّة . وظنّ أنّه أخو الفتاة ولكنّه تحير في فهم الدواعي التي بعثتها إلى توجيه الانتباه إليه بكلّ جسارة وفيما عسى أن حلّت بينهما به عنه ! . . وغلبه الشوق وحبّ الاستطلاع فرفع بصره إلى البنوار مرّة أخرى فرأى الوجوه الثلاثة محدّقة فيه . وخيّل إليه أن زميله القديم يحييه فلم يصدّق بصره وظلّ جامداً ولا يتحرّك، فأعاد الضابط تحيّه برفع يده إلى رأسه وردّ عليه الأستاذ التحيّة مرتبّكاً، وشاهده يدعو أن يصعد إليه فخفق قلبه خفقة عنيقة، وقام واقفاً وقد لفته الدهشة والارتباك وغادر المكان في ذهول شديد .

وصعد السلم والتقى بصاحبه عند مدخل البنوار واستقبله هذا استقبالاً ودّيّاً وشدّ على يده بحرارة - ولعلّه فعل ذلك ليطرد عنه الدهشة والارتباك - ثمّ أوسع له وهو يقول هامساً :

- تعال أقدمك إلى أهلي .

ووجد نفسه في البنوار أمام السيّدة والفتاة الجميلة، وقال هو يقدّمهما له وهو يشير بيده :

- حرم الأمير الاي محمّد بك جبر، الأنسة زينب كريمةها وخطيبي!

ثمّ التفت إليه وقدمه لها مكتفياً بذكر اسمه وزمالتة القديمة لأنه كان يجهل حاضره، ودوّت كلمة «خطيبي» في أذنيه دوياً مزعجاً أطفأ نشوة الفرح في حواسه جميعاً وسكب مكانها خيبة مرّة، فجلس كما طلب إليه ذاهلاً مرتبّكاً قانطاً عاجزاً العجز كلّه عن حصر انتباهه فيها حوله، وكانت السيّدة ترحبّ به وتشارك الضابط في التودّد إليه ومجاملته، ولكنّه لم يدر ممّا قالا شيئاً، واكتفى قهراً بانتزاع ابتسامة مغتصبة من شفقيه يرّد بها عليها ردّاً صامتاً كثيباً، وكان يتخبّط في حيرة عمياء لا

يدو وكأنه يؤكّد أنّ القدر يرسم خطّة رائعة بدأها في شارع قصر النيل وما زال ينسج فصولها في سينما رويال، نعم إنّه لم يرها عبثاً، ولم تلتق عيناها مصادفة كلاً ولم يأت إلى السينما اتّفاقاً، ولكنّ الحبّ يخلق الحوادث والظروف، وإلاّ فما معنى هذه الحلقة المتقنة؟ وما معنى هذه النظرة الخنونة العذبة الذي دلّ تكرارها على أنّها مغرضة، أليس هذا الذي يسمّونه الحبّ من أوّل نظرة؟! . . بلى هو هو . . ويشهد عليه قلبه ومشاعره ونظرتها الفاتنة النافذة التي لن ينمحي أثرها من نفسه . كيف حدث هذا؟! . . هل كان القدر في قسوته عليه وازوراره عنه يدخّر له هذه المفاجأة السعيدة وهو لا يدري؟! . . وهل وجدت أخيراً من لا تستقلّ دمه كما يستقله كثير من الناس؟! . . ومن تتعرّف نفسه بالنظرة الملهمة لا بتغريير الألفاظ وسحر البيان؟! . . كم سخط على الدنيا ظلماً، وكم أدان القدر جهلاً . . والساعة الساعة ينتهي الجفاء وتبتدّد الوحشة، ويندى قلبه المحروم ويرطب حلقة اليباس، وفكّر الأستاذ بهاء الدين إلى هذا في أمور غاية في الأهميّة والجدّد . تناولت حاضره ومستقبله، ولم يفته أن يحسب حساب الوسيلة إلى التعرّف والخطبة، ولا فاته - في تلك الساعة - أن يقدر المهر ويحدّد تاريخاً للزواج السعيد .؟! . .

ولم يحسّ بالوقت كالسعداء . وجعل يتأمّل بعين مخيّلته الوجه النضير والنظرة المضلّة للقلوب، مستسلماً للأحلام استسلام الحرّان إلى برد النسيم، حتّى ظنّ أنّ أشهى الأمانى دائياً لا يكلفه جنيتها أن يمدّ يده فيقطفها في يسر واطمئنان .

وانتهت الشاشة من عرض فصولها الأولى وأضيئت الأنوار، ففتح عينيه وكأنّه يصحو من نوم سعيد، وصعد رأسه إلى البنوار رقم ٣ فرأى فتاة في أجمل صورة ترشقه بنظراتها الفاتنة كأنما كانت تنتظر انقشاع الظلمة مثله، ورآها تميل برأسها نحو السيّدة البدينة - التي تدلّ الظواهر على أنّها أمها - وتهمس في أذنها، ثمّ شاهد السيّدة تنظر إلى أسفل باحثة بعينها عن ضالّة حتّى استقرّتا عليه! . . فارتبك وتعجّب وتساءل ترى

## همس الجنون ٩١

صاحبه وكان يدرك ما يقوم بنفسه من الدهشة والانزعاج فقال له وهو يشدّ على يده مودّعًا:  
 - أنا آسف جدًا على ما أحدثته دعوتي لك من الارتباك والإزعاج، وحقيقة المسألة أنك تشبه شبهًا عجيبًا ابنًا شابًا كان، فقدته الأسرة منذ عامين، ولعلّ هذا يفسّر لك كلّ شيء أيها الصديق...  
 وهبط السلم في خطى بطيئة جدًا، وكان يتوقّف كلّ درجتين ويتأمل فيما أمامه بعينين لا تريان شيئًا، وعلت شفّته الشاحبتين ابتسامة هازئة مريرة، وقد بدا له كلّ شيء كريمًا كثيرًا تعافه النفس..

يدري لماذا دلّت الفتاة عليه، ولا كيف دعاه زميله، ولا لأيّ سبب عرفه بها وعرفها به.. ولاحظت منه نظرة إلى الفتاة فوجدها تبسم إليه ابتسامة حزينة فشعر بامتعاض، ووجه عينيه إلى أمها كأنما يفرّ منها فرارًا فرأى المرأة ترنو إليه بعينين مغرورقتين بالدموع، فازدادت دهشته وبدا عليه الانزعاج والتفت الى صاحبه متسائلًا متحيرًا، ودقّ الجرس في تلك اللحظة منذرًا بإطفاء الأنوار فقام الشاب واقفًا وأحنى رأسه تحية، ودعته السيدة إلى زيارة البيت فوعدها قائلاً:  
 - إن شاء الله.

وهو لا يعني ما يقول. وغادر البنوار، ولحق به

## الثَمَن

الحسنة . سارت رأساً إلى صدارة المتجر الأنيق، وأقبل نحوها البائع بترحيب، فطلبت إليه حاجتها، وساعدها البضة تشير إلى الرف البلوري رصت عليه الزجاجات الفاخرة، فأدركتها ووقفت إلى جانبها ومضت تقلب عينيها في الرفوف اللألاء، وأتى البائع بزجاجة زرقاء بديعة الصورة فتناولتها الحسنة ورنّت إليه بعينين متسائلتين، فقال الرجل بأدب وإجلال «عشرون جنيهاً يا هانم» فأومات برأسها دلالة على الارتياح الموافقة، فاستردّ الرجل الزجاجه، وكتب لها قائمة بثمانها وقدمها لها، فأخذتها ومضت بها إلى صندوق الدفع . وخفت قلب الأخرى بعنف لسع الرقم، فكانت كمن يسمع اسماً قديماً رهيباً يثير في النفس كوامن الشجن ويستدعي ذكرى قائمة موجعة الصدى . . ربّاه! . . أيّ دور لعبه في حياتها هذا الرقم المشؤوم الذي لا تعرف الحسنة عنه إلاّ أنّه ثمن زجاجة رائحة عطريّة فريدة! . . لو وجد يوماً في يدها لكان الحال غير الحال والحياة غير الحياة ولكفها شراً فظيماً، وهو ليس بالطلب العزيز يشتري بالمهيج، ألم تر كيف يُبذل عن طيب خاطر ثمناً لرائحة زكية يتبخّر معها من ثنايا المناديل ومفارق الشعور؟! . . ومع ذلك فأه لو وجدته قبل عشرة أعوام؟ . . ولكنّه لم يوجد وخاب مسعاها وردّت راحتها الممدودة، سدّت في وجهها السبل وضيق عليها الخناق، فتجرّعت غصص القنوط ثمّ هوت وقذفت بها إلى دنيا أخرى منكّرة . وهكذا الدنيا قاسية لا قلب لها، والناس لا يرحمون، والحياة أشدّ وحشيّة من البحر الهائج والنار المضرمة، فقد لا يعدم الإنسان إذا أشرف على الغرق أن يسبح وراءه السابحون، أو إذا اشتعلت النار في أطرافه أن يهرع

أخذت زيتتها وسارت على غير هدى، كيفما سافتها قدماها وغيرها من النساء لا يتصدّين للمرأة حتّى يفرغن من المهام والواجبات، وغيرها من البشر لا يسير على غير هدى عادة إلاّ إذا ركنّ إلى اللهو والعبث واستقبل الراحة والفراغ .

هي بخلاف هؤلاء وأولئك، إذا توثبت للعمل وانبرت للواجب أخذت زيتتها وسارت على غير هدى! . . وقريباً من الطوار الذي تسير عليه رأت بمؤخر عينها سيّارة تدنو ثمّ تقف على بعد أذرع إلى الأمام، سيّارة كبيرة بحجم الحجره التي تنام فيها إذا رقدت بمفردها، وقد غادرها سائق زنجيّ مارد وفتح الباب ووقف جانباً كالتمثال، فبرزت حسنة هي الجمال وهي الجلال، فما يمنع من الاندفاع نحوها إلاّ أنّ نورها يغشي العيون، كلسان من لهب بهيّ المغان ساحر الألوان ولكن هيهات أن يمرّ إنسان على لمسه، فخطفت بصرها، وسرعان ما دبّت اليقظة في عينيها الساهمتين ولاحت فيهما نظرة تفحص واهتمام، وفي لمح البصر أقرّت لها قهراً بالتفوق المطلق وغلبها الإعجاب على أمرها، ثمّ تحفّزت للنفد بغلّ فما عتمت أن باءت بمראה الخيبة والسخط . وتمادت الحسنة إلى المحلّ الذي وقفت تجاهه السيّارة فخطر لها أن تتبعها، ولم تر في ذلك من بأس، فسيّان أن تمضي إلى الأمام أو أن تعرج إلى اليسار، فوجدت نفسها في محلّ رائع أنيق تطالعها من جوانبه وأركانها زجاجات الروائح العطريّة مختلفة ألوانها وأشكالها، فسارت على مهل في جراءة وثبات فمند أمد بعيد تناست أنّ في الدنيا شيئاً يخاف غير الشرطيّ، وتظاهرت بأنّها تتفحص المعروضات النفيسة في أقسام المحلّ، وتبعّت في الحقيقة الفتانة

## همس الجنون ٩٣

جاءها الخاطر مبالغتاً بغير إصرار سابق ولا نية مبيتة، فسرعان ما تملكها بقوة شيطانية واستولى على عقلها وإرادتها، فكأنتها ما تبعت المرأة إلا لتحقيقه مها كلفها ذلك من ثمن، ولم تدر لذلك سبباً واضحاً ولا هدفت إلى غاية ظاهرة ولكنتها كانت كثيراً ما تأتي بأفعال صبيانية وأحياناً جنونية بغير مقاومة ولا فطنة لبواعثها، وكان الاستهتار من سجايها الراسخة التي اكتسبتها في أعوامها العشرة الأخيرة، فلم يكن شيء يوقفها عند حدّ أو يعطف بها عن شهوة، فاندفعت إلى جانب السيدة المتجهة نحو الباب كأنما تريد أن تسبقها إليه واحتكت بها وهي تلوح بذراعها فصدمت يد الأخرى فأفلتت اللفة الثمينة وسقطت على الأرض. ولم تلتفت الحسنة إليها ولكنتها انحنت على عجل نحو الزجاجية، والأخرى تنظر إليها متسائلة هل نالت المرام؟! . . وجاءها الجواب سريعاً، أو جاء أنفها على الأصح، قبل أن تلمس أنامل الحسنة حملها النفيس، فتصاعد شذاً طيب، جماله لا يوصف، عطر الجوز، ونفذ إلى الحواس والروح، فانتشت ثملة، كأنه بثّ فيها غراماً ووفاءً وسحر هوى! . واعتدلت السيدة وقد تضرّج وجهها بالاحمرار وصوّبت نحو الأخرى نظرة ثابتة، ولبثت هذه في مكانها جامدة الملامح ولكنتها راضية النفس مستسلمة كأنها تقول بأفصح لسان «افعلوا بي ما شئتم»، وانتظرت السيدة أن ترتبك الأخرى أو تعتذر، ولكنتها ثابتة على جهودها وصمتها ورنت إليها بعينين هادئتين مستسلمتين، ومرّت لحظة دقيقة فتساءلت ترى هل تساق إلى القسم؟ . . هل تشبك في شجار مع السيدة أو سائق سيارتها أو باعة المتجر؟! . . ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث، فقد تغير وجه الحسنة، فانبسطت أساريرها، ثم أغرقت في الضحك. . إن أفدح المواقف أدعاها للضحك، فقد أضحكها أن تخسر الزجاجية النفيسة في غمضة عين، وأن ترى تلك المرأة البلهاء وقد أذهلتها جريرتها ورباطة جأشها، وكان صاحب المتجر يهول نحوها بلوح في وجهه الاهتمام، فهزّت منكبها استهانة وتحولت عن البلهاء وعادت القهقري إلى صدارة المحل

إليه ذور النجدة، أما في معترك الحياة فالضحايا لا عداد لهم، تعركهم الرحي وإخوانهم سكارى بأطباعهم ومشاعلهم، فلکم استصرخت بغير طائل، بل كانت ملهاة للنظارة، ثم بعد ذلك متعة للمتمتعين، والدنيا تضيق بمن يشدون صيدهم بين الضحايا البائسة شردها الجوع والحرامان والأمراض. فوجدت نفسها في دنيا الشذوذ والعناد حيث تقتتل الضحايا من كل نوع، ضحايا الطموح الكاذب والشهوات البهيمية والفقير المذلّ للأعناق، عالم البؤس حيث لا عودة لمن مضى إليه ولا إفاقة لمن نهل من سمّه، قدراته لا تمحى فليس على القدر إلا المزيد من القذارة والتمرغ في التراب. وكيف صارت بعد ذلك؟! . . وارحمتا. . فؤاداً قاسياً وقلباً كافراً ولساناً دنساً ونفساً تنضج بالخبث واللؤم والكراهية، على وجهها الطلاء وفي جسمها المرض وملء روحها الشر ومن مراتعها السجون. .

مرّت صور الذكريات بمخيلتها مرّاً سريعاً مضطرباً. لم يستغرق زمناً يذكر، فاختلط في وعيها أشتاتاً من ذكريات متناثرة ومشاعر مهوشة أسبغت على خيالها لوناً أسود، فشعرت بامتعاض وانكسار. وكانت عيناها لا تزالان عالقتين بالحسنة فأنجحت نحوها في خطى متناقلة غير ملقية بالأل إلى البائع وقد وقف قبالتها ينتظر أوامرها! . . اندفعت نحوها برغبة قوية وجعلت تحدّث نفسها كالهاذية «عشرون جنيهاً. . كم كان مقداراً جسيماً. . وكم علمت فيها بعد أنه شيء زهيد في متناول يدي، وها أنا ذا أراه ولا قيمة له. أما هي فامرأة حسنة. . ولكن لا يجوز أن توردها نفسها المهالك؟ . . كما أوردتني نفسي أنا وقطيع البائسات؟ . . هذا جائز. . ولكن ما هو سمّ لأناس قد يكون غداء لآخرين، وما يوجب علينا الشقاء قد يتيح ألواناً من اللذات والسعادة؟ . . وأوشكت أن تلتصقها، وتحولت الحسنة إلى شبّاك التسليم فتأثرت، وأعطاهما الرجل الزجاجية ملفوفة، ورأت الأخرى اللفة فثارت نائرتها وخطر لها أن ترمي بها إلى الأرض مهشمة.

## ٩٤ همس الجنون

مقطبة الجيين زائغة البصر، إلا أنها لم تدم على ذلك  
 طويلاً فما لبثت أن عادت إلى رشدها، خافت أن تبدو  
 في هيئة قبيحة تنفر الأعين، فطاردت همومها الطارئة،  
 وألقت نظرة على ما حولها، ثم أخذت تسير الهوينى  
 مثنية الأعطاف وقد ابتسمت أساريرها . . .

دون أن تنبس بكلمة، واندفعت المرأة نحو الباب كأنما  
 تفر من المكان، ولما بلغت الطريق نظرت ورائها فرأت  
 الأخرى بمكانها الذي أدركتها فيه حين تبعها أول  
 مرة، فتساءلت ذاهلة «رباه هل تتباع زجاجة  
 أخرى؟!» ولكنها لم تقف بل أسلمت قيادها لقدميها،  
 وكانت فريسة انفعال طاغٍ تولأها بغتة، فمضت

## نكت الأمومة

- عندما دخل قطار الصعيد يهتئ من سرعته كان نور  
الفجر الأزرق الحالم قد اكتسى بحلّة فضيّة من ضوء  
الصباح المنير، وقد فتحت السيّدة روحية هانم عينيها  
مع بزوغ أول شعاع من أشعة الشمس، ولبثت لحظة  
مستسلمة لتراخي النوم، ثمّ اعتدلت في جلستها في  
الصالون وأدارت عينيها الزرقاوين الفانتين في أنحاء  
الصالون حتّى استقرّتا على وجه الأستاذ عاصم الذي  
كان يغطّ في نوم عميق، فلاحت فيها نظرة حبّ  
وحنان، وكان من الضروريّ إيقاظه لدنو القطار من  
محطة مصر إلّا أنّها لم توقظه قبل أن تقوم إلى المرآة  
الصغيرة الموضوعّة بين صورة الكرنك وأجا ممنون،  
فتسوّي شعر رأسها وتمسح خديها وجيدها بالبودرة  
المعطرة. وتنبّه النائم على لمس أناملها ذات الأضافر  
الأهرامية الحمراء.. وكان أول ما مسّ إحساسه في  
عالم اليقظة رائحة أنفاسها الذكيّة وهي تطبع على  
شفتيه قبة شهية.. وفتحت النافذة وأطلّت منها  
برأسها الذهبيّ كأنّها شمس تشرق من الأرض فرأت  
بناء المحطة يدنو من بُعد فالفتفت إلى الأستاذ وقالت  
وهي تتنهد:
- وأسفاه انتهت سفرتنا.  
فقال لها وهو يتمطى:  
- هذه نهاية كلّ رحلة. أمّا الحبّ فلا نهاية له.  
فقالت بصوت جعله الشوق والوجد كلحن من  
الموسيقى الخافتة:  
- أين أسوان أين؟.. أين خلوة الصحراء تحتونا  
معا؟ أين جدران المعابد تستر علينا؟ أين زورق النيل  
يجري بنا على سطح الماء؟ أين أنا وأنت لا نفرق  
ونشهد معا وجوه اليوم من الفجر والصباح فالضحى
- والأصيل ثمّ المساء.. واه..  
فتنهد الشاب تنهدة هادئة لا كتهدتها الحارّة وقال:  
- سنعود إلى أسوان في الشتاء القادم. أمّا الغد فيلّى  
عشّ غرامنا المعهود في شارع سليمان باشا.  
- هيهات أن تعوّضنا هذه الساعات التي ننتهبها  
انتهابًا من ذلك الشهر السعيد الذي كنّا فيه جسماً  
واحدًا وروحًا واحدة.  
وحاول أن يجيها بمثل حماسها، ولكن خذلته نفسه  
المهادئة الملولة فقعن بقوله:  
- صدقت يا عزيزي.  
ثمّ قام إلى النافذة الأخرى ففتحها، وكان القطار  
قد بلغ المحطة وأخذ يرسل صفيره المدويّ في جوفها  
العظيم، فأرسل بناظرهما إلى إفريز الاستقبال. وكان  
مزدحمًا بالجمهور. وسمعت الأستاذ يقول:  
- ها هم أولاء.. زوجك وحيّة ومدحت.  
فقلقت عيناها بين الرءوس المشرّبة حتّى اطمأنتا إلى  
رأس حياة الذهبيّ فرق قلبها حنانًا وتحوّلت عن النافذة  
وانطلقت تعدو خارجه والأستاذ في أثرها، وعلى  
الإفريز هرع إليها مدحت وحيّة وهما يصيحان: «ماما»  
فتعانقوا عناقًا حارًا، ولما تخلّصت منها رأت زوجها  
الشيخ وهو في عباءته الفاخرة، وطربوشه مائل إلى  
الخلف بيدي عن شعره الخفيف، فجمدت عيناها  
وتقدّمت إليه ومدّت يدها فسلم عليها واجمًا ووضع يده  
أيضًا في يد الأستاذ عاصم.. وساروا جميعًا إلى  
الخارج، الزوج في المقدّمة وخلفه الزوجة بين مدحت  
وحيّة ومن وراء الجميع الأستاذ.. واستقلّوا السيّارة  
التي انطلقت بهم في طريق الزمالك..  
وجلس الزوج وزوجه وحيّة في ناحية وجلس في

الحاضرين، وانتهت السيارة إلى الفيلا ودخلوا جميعاً ومعهم الأستاذ عاصم.

ولكنه استأذن بعد قليل وانصرف إلى بيته القريب. كان السيد محمد بك طلبة من كبار تجار الشاي المعروفين بمصر وقد ربح من تجارته ثروة عظيمة تقدر بمئات الألوف من الجنيهات؛ وكان في أخلاقه صورة من رجال طائفته الناجحين في حسن التدبير وعلو الهمة والحرص؛ وبالرغم مما تحفل به حياته من التجارب والمخاطر، وبالرغم مما صادفه فيها من ويلات المحن وفرص النجاح، فإنه ما يزال يعدّ زواجه أخطر حادث في حياته، وهذا هو اعتقاده الدفين وإن لم يصرح به؛ وقد وقع هذا الحادث الخطير منذ عشرين عامًا - وهو في الخامسة والأربعين - إذ كان يقوم بإحدى رحلاته التجارية بسوريا، وقد التقى هناك بأسرة زوجته وتعرّف إلى والديها، وكان الأب سوريًا والأم أمريكية. ورأى ابنتها الشابة الفاتنة ساعة وقوع في حبها وجنّ جنونًا وتحركت في أعماق غريزته التجارية غريزة الامتلاك فخطبها إلى والديها، ولم يستدر ذلك الشهر حتى تمّ زواجه منها، وعاد إلى مصر «بأعظم ربح وأجل امرأة في الوجود» كما قال لنفسه حينذاك.

وبدأت الحياة الزوجية بنجاح لا بأس به. وأثمرت على مرّ الأيام طفلين جميلين مدحت وحياء. فبشر مقدمهما الأسرة بدوام السعادة والعشرة... ودارت السنون دورة سريعة فوجد البك أنه أخذ يجتاز الحلقة السابعة، ويقنع من الدنيا بمشاهدة مدحت وحياء، ويكتفي من الحبّ بتذكّر أحلامه المنطوية... وأما المرأة فألفت نفسها في مكتمل الأنوثة ونضوج الشباب، فلم تجمل نفسها القناعة من الدنيا بالأبناء والأحلام، إذ كان شبابها عنيدًا جبّارًا دائب الثورة على الزمن... فتصدّع ائتلاف الزوجين، وعجزت شيخوخة الرجل عن كبح هذه الحيوية الثائرة فانكششت أمام سيلها العارم، وخلّت لها المنحدر وانزوت مطعونة باليأس مذعنة بالتسليم.

وأتفق أن كان الأستاذ عاصم المحامي - صديق الزوج وجاره - السبب المباشر في انفجار هذه الثورة

الناحية الأخرى المقابلة الأستاذ ومدحت، واستطاع عاصم أن يرى حياة عن كذب لأول مرة، إذ إنّه تقابله في زيارته المتكررة لوالديها، يا للعجب للشبه العظيم الذي بين الأمّ وابتها فلم يكن يفارق بينهما إلا ما يفارق بين نضارة الشباب الأولى ونضوج الأنوثة الكاملة فكانت الفتاة كالياسمين العبق في الغصن، وأما الأمّ فكالوردة الناضرة في الزهرية..

وظلوا جميعًا حتى قال الزوج:

- كيف كانت الرحلة؟ لعلّ صحتك تحسّنت يا هانم؟

فأحنت المرأة رأسها وتمت «الحمد لله» وقال الأستاذ:

- قل أن تغيب الشمس في أسوان، وهي أنجع دواء للهانم...

فابتسم الرجل عن أسنان ذهبية صناعية وقال:

- يسرني أن أسمع هذا، وعسى أن تسرًا بدوركما لأبنائنا، فتهنئا حياة بخطوبتها القريبة.

واحمرّ وجه الفتاة وخفضت عينيها حياء، والتهمت عينا الأمّ وبدا عليها الاهتمام، وردّدت نظرها بين حياة وزوجها وسألت بلهفة ودهشة:

- وهل تمّت الخطوبة؟

فقال الرجل:

- لا يجوز أن تتمّ خطوبة فتاة في غياب أمّها... ولكنّها ستتمّ قريبًا بإذن الله...

ونظر الأستاذ إلى الفتاة وقال مبتسمًا، «مبروك». أما الأمّ فسألت:

- من هو؟

وأجابها الرجل:

- طلعت، ابن شريكى.

وسأل المحامي:

- هل هو موظّف؟

فقال الرجل بزهو:

- نعم وكيل نيابة!

وأطبقت روحية هانم شفيتها فلم تفه بكلمة أخرى، واستسلمت لأفكار غامضة فغابت عن

## همس الجتون ٩٧

بلغت السادسة عشرة من عمرها وهي تخطو إلى النضوج بخطى سريعة تدلّ عليها معاني العينين ونهوض الثديين، وأما مدحت فتعذبه لها أشدّ إذ إنّ هذا الشابّ - الذي لم يجاوز الثامنة عشرة ينمو نمواً خطيراً، فهو فارغ الطول جاهر الفتوة عريض المنكبين والأدهى من هذا كلّه غرامه بشاربه ومطاطعة الشارب له، فالشابّ يحبّ الرجولة ويستزيد منها حبّ أمه للشباب واستزادتها منه . . . وقد كانت حريصة على استصحابه كلّما خرجت حتّى قالت لها مرّة امرأة من صاحباتها: «ما أحرى الذي يراكما بأن يقول ما أسعدهما زوجين!» ولم تدر ما إذا كانت المرأة تثني على شبابها أو تغمزها، وعلى كلّ حال لم تستصحب فتاها بعد ذلك أبداً . . .

على أنّه لاح في أفقها الآن ما يستخفّ بجميع همومها السابقة إذ ما مدحت وما شاربه إلى زواج حياة المنتظر؟!

لقد بغتها الخبر، وكانت البغثة من الشدّة بحيث لم تدع لها فرصة للتدبير ولا التفكير ولا حتّى للتظاهر بالفرح أمام ابنتها إذ هم بالسيارة . . . فلما ذهبوا إلى الفيلا خلّت إلى نفسها بحجرتها معتذرة بتعب السفر، وفي عزلتها عاودت التفكير في هدوء وإمعان فتوالّت عليها الفروض والتصورات، فهي لا تشكّ في أنّه لولا الحياء لغنّت حياة فرحاً وسروراً، وأيّ فتاة لا تفرح للزواج؟ وخاصّة إذا كان الشابّ في عصفوان شبابه وجيهاً في بحبوحة من الغنى والجاه سيّداً في وظيفة تتيه على جميع الوظائف، فلعلّها بانت تغرّد في قلبها أطيّار الحبّ وتخلّق في جوّها الطاهر أحلامه العذبة، فهي جدّ سعيدة بحاضرها، جدّ آملّة في مستقبلها، ولا شكّ أنّها تنتظر الآن أن تستعيد أمّها راحتها من وعشاء السفر وأن تذهب إليها لتطبع على خدّها الورديّ قبله التهتة فتعلن رضاها وموافقتها فتسمّ الخطوبة وتكمل السعادة . . . ولكتّها إذا فعلت فستغدو الابنة زوجة وتمسي أمّاً

فتسمع عن قريب من يناديها بقوله «جدّتي، جدّتي!» لقد نطقت بهذه الكلمة الشنعاء فدوّت في أذنيها دويّ التصويت والنواح فارتجّ لها جسمها البصّ وخفق هُجُوها

الحويّة العنيفة، وقد تحيّرت (صالونات) الزمالك في تحديد علاقته بروحيّة هانم، فمن قائلة إنّ هذا المحامي الجميل ليس إلّا صديقاً للأسرة، ومن هامية بأنّه عشيق الزوجة ومتغفّل الزوج، ومن مؤكّدة أنّه عشيق الزوجة على علم وتسليم أو - على الأقلّ - تغاض من الزوج، وظلّ كلّ فريق على رأيه حتّى ذاع خبر تلك الرحلة الشتويّة إلى أسوان التي قيل في تعليلها إنّ الأطباء نصحوا للهانم بانتجاع الصحّة في مصر العليا، وإنّ الزوج - الذي تمنعه أعماله في مثل هذا الوقت من السفر - عهد بالزوجة إلى صديقه المخلص المحامي الذي يسافر عادة في يناير كلّ عام إلى أسوان . . . هنالك قطع الشكّ باليقين وارتفعت الآراء . . .

وكانت رويّة هانم لا تهتمّ بشيء اهتمامها بشبابها، فكانت لا تني عن العناية به والتفكير فيه حتى غدا ذلك وسواساً ومرضاً ينغصان حياتها بالمخاوف والأوهام، وكانت كلّما تقدّم بها العمر يوماً تزايدت مخاوفها، ذلك أنّها كانت تحسّ في أعماقها ببلوغ قمة الشباب التي لا يعقبها إلّا الانحدار، وكانت تعلم أنّ شبابها هو سعادتها لأنّها بدونه لا تستطيع أن تجذب إليها الرجل الذي تحبّه والذي تعلم - مع الألم الشديد - أنّها تكبره بما لا يقلّ عن عشرة أعوام . . .

ولطالما تذكر ما قالت مرّة امرأة - تعلن لها الودّ وتكتم العداوة - في مجلس لأخرى وهي تعنيها بالذات من أنّ النساء اللاتي يحافظن على شباهنّ بعد فوات عهدهن يهرمن مرّة واحدة بلا تدرّج . . . واه . . . كم سخرت من رأي هذه المرأة وكم أرجعته إلى الحسد الذي تحمله لها، ولكن لا سخريتها ولا تظاهرها بالاستهانة أفاد شيئاً في مغالبة الذعر الذي استولى عليها والرجفة التي استحوذت على أعصابها . . . فغدّت كالمنجونة يخفق قلبها جزعاً وإشفاقاً كلّما طرقت أذنيها دقات الساعة . . .

وجعلها ذلك في حيرة بين حبّها لمدحت وحياة وبين الخوف منها، فهي بلا شكّ لذّة الأمومة التي تحفق في صدرها ولكنّها آيتان على كذب شبابها، أمّا حياة فقد



- لقد تزوّجت يا هانم في مثل سنّها ومع هذا فإنّ كلّ من يراك يشهد لك بالصحة والنضارة...  
فضربت الأرض بقدميها وقالت مخنقة مغيظة:  
- أنا دائماً أشكو من أعصابي...  
فضيّق عينيه ورفع حاجبيه وقال في تهكم:  
- ربّما كان ذلك لعلّة غير الزواج...  
فغلبها الغضب واشتدّ بها الانفعال وقالت بصوت مهتدّج:

- باختصار لن تتمّ هذه الخطوبة...  
ولكنّ الزوج صرّ على أسنانه الصناعيّة وقال:  
- لقد أطلقت لك الحبل على غاربه وملكتك حرّيتك الكاملة وقلت لك منذ عامين وأنت وشأنك... ولكني لم أتنازل عن حقوقي كوالد ولا أفكر في التنازل عنها، وإني لأشفق من أن تضيع على ابنتي مثل هذه الفرصة الذهبية، ولذا فإنّي أعلمك - وإني أعني ما أقول - بأنّي سأعقد هذه الخطوبة...  
فقالت غاضبة وأشارت إليه بيد مرتجفة وصاحت:  
- وأنا أوّكد لك بأنّها لن تتمّ...  
فهزّ الرجل كتفيه استهانة وغادر المكان وهو يقول:  
- سنرى.

وصبرت الهانم حتّى عاودها شيء من هدوئها ثمّ دعت إليها ابنتها، وحدّثتها حديثاً طويلاً عن حبّها لها وحدها عليها وتوحيها ما ينفعها وإشفاقها ممّا يضرّها، ثمّ خلصت إلى ما دعته - في الحقيقة - من أجله، فأعلنتها بأنّها لا توافق على زواجها وأنها ترغب في تأجيله بضع سنين خوفاً على صحتها، ورجتها رجاء حارّاً أن ترفض يد ذلك الشاب ولا تدعن لإرادة والدها...  
وصممت الفتاة صمماً بليغاً، ولاذت به من الرفض أو القبول، وعبثاً حاولت المرأة أن تخرجها من صمتها ولكنّها فهمت منه، وممّا طالعت في وجهها من الحزن والاستياء ما أشقى بها على اليأس والقنوط...  
ولبثت الفتاة في حضرتها ما لبثت ثمّ غادرت الغرفة ولم تنفرج شفاتها عن غير التحيّتين... تحية اللقاء التي نطقت بها في مسرة وفرح، وتحية الوداع التي قالتها

قلبها العاشق... وأحسّت ببرودة الخوف تسري في أعصابها سريان الجفاف في الغصن الرطيب... وخيل إليها الوهم أنّها تجلس إلى مقعد وثير وإلى جانبها ابنتها وعلى حجرها غلام كأنّها تسمعه بأذنيها يهتف بها: «يا جدّتي» ورأت نفسها وقد ذوى جمالها وتغصّن جبينها وغارت عيناها ورقّ خدّها وبيضّ شعرها فانفضت واقفة وكنمت صرخة رعب كادت تفلت من شفيتها، وهزّت رأسها بعنف لتطرد عن خيالها الأطياف المرعبة، حتّى إذا عاودها اطمئنانها صاحت «أبدًا... أبدًا... لن يكون هذا» ولبثت ملازمة لحجرتها غير عابئة بما عسى أن يحدثه غيابها في نفس ابنتها العزيزة، حتّى نقل الأمر على البك فاستأذن عليها ودخل، وجلس قبالتها وجعل يرمقها بعينه الحادّتين وهو يرجو أن تفاحمه بالحديث، ولمّا لم يدع له إصرارها أملاً قال:  
- أرجو أن تكون أسوان قد شفت أعصابك.

وأغضبها قوله. وظنّت أنّه يتهمّها عليها فنظرت إليه نظرة حمراء، ولمّا شاهدت عينيه الحادّتين وقرّ في نفسها أنّه هو الذي سعى إلى هذه الخطوبة وأنّه سعى إليها تأديباً لها وانتقاماً منها، فهو أعرف الناس بها وأعرفهم على وجه الخصوص - بما يسرّها وما يسوؤها، واشتدّ بها - عند ذلك - الغضب، فعصّبت على شفيتها السفلى، وأهملت الردّ عليه، فقال كالدهاش:

- ما لك؟ لست كعادتك... والأعجب من هذا أنّك لم تفرحي لما بشرتك به؟

فاهتاجها الغيظ وقالت مخنقة غاضبة:

- لن تتمّ هذه الخطوبة...  
فبدا على وجه البك الانزعاج وقال:

- ما تقولين يا هانم؟

وأجابته بصوت صارم:

- أقول إنّ لن تتمّ هذه الخطوبة...  
- كيف؟.. وله؟..

- إنّ (حياة) ما زالت صغيرة السنّ.

- ولكنّها بلغت سنّ الزواج القانونيّة.

- ماذا يفيد القانون إذا كان الزواج المبكّر يؤدي

صحتها؟

## مس الجنون ٩٩

لا شكّ تقدّر رأيك حقّ قدره وتنزله من نفسها منزلة سامية .

فتورّد وجه الشابّ وذكر وجه الفتاة الجميل الذي سعد برؤيته ساعة في السيّارة صباح العودة من أسوان، فلم يستطع أن يرفض ولكنّه قال متسائلاً: - فكيف لي بمقابلتها على انفراد لأحادثها في هذا الشأن الخطير؟ وإذا قابلتها فكيف أفتاحها به؟ .

فتنهّدت المرأة ارتياحاً وقالت:

- لقد دبرّت كلّ شيء، سأصحبها يوم الأحد القادم لشراء بعض الحاجات، وعليك أن تقابلنا - مصادفة طبعاً - في شارع سليمان باشا الساعة الخامسة مساءً، وتفتح علينا التنزّه قليلاً على جسر قصر النيل فأتركها معك وأعدك بأن ألحق بكما بعد دقائق، وتنتظراني ساعة على الأكثر فإن لم أعدت أت بها إلى شيكوريل حيث نجداني، وفي أثناء ذلك تستطيع أن تطرق الموضوع بلباقة المحامي وتفضي إليها برأيك في الزواج المبكر.. ما رأيك الآن؟ .

وقبل الشابّ بسرور خفيّ، فتركته المرأة وذهبت إلى الفيلاً على عجل وأغلقت على نفسها حجرتها وأحضرت ورقة وقلماً وكتبت ما يلي بيد مضطربة ويخطّ جهدت أن تخرج به عن مألوف خطّها:

«سيدي الأستاذ..

أنت شارع في الزواج من كريمة محمّد بك طلبه ولكن ينبغي قبل ذلك أن تذهب بنفسك كلّ يوم إلى جسر قصر النيل الساعة الخامسة مساءً وخصوصاً أيام الأحاد.

ثمّ كتبت على الغلاف عنوان الخطيب ووضعت الخطاب فيه، وتردّدت لحظة رهيبية ثمّ ناديت خادماً وأمرته بوضع الخطاب في صندوق البريد..

وجاء يوم الأحد وخرجت الأمّ وابنتها وحدثت المقابلة مع الأستاذ، وتمّ لها ما أرادت من تركها معه، وذهبت بمفردها إلى شيكوريل وابتاعت حاجاتها ولبثت تنتظر حتّى حضر الأستاذ وحيّاة وقد اعتذرت إليهما قائلة:

- أوه.. لقد تأخّرت عليكما لأنّ المحلّ مزدحم كما

في صوت خافت بارد... وجنّ جنون الأمّ وازدادت تشبّثاً وعناداً، ووقفت من الزواج موقف المقاطعة والتحدّي.. فلمّا جاء الشابّ الخطيب لزيارتها أبت أن تقابله كما رفضت مقابلة أهله من بعد. واضطرّ البك إلى انتحال الأعذار الكاذبة لها، وبذل الرجل ما في وسعه لإقناعها بالتحوّل عن عنادها وتوسّل إليها باسم ابنتها، ولكنّها ركبت رأسها وأبت أن تصغي إليه حتّى انفجر مرجل الرجل وأقدم على الإفشاء بالحقيقة إلى شريكه - والد الخطيب - وشكا إليه قسوة امرأته التي تضخّي بسعادة ابنتها في سبيل شبابها الكاذب.. وطلب إليه أن يعاونه على إتمام الزواج - رغم إرادة الأمّ - إنقاداً للفتاة من أنانيّة أمّها المتوحّشة..

وذاعت هذه الكلمة التي قيلت سراً في جميع الأوساط الراقية. وتحدّثت بها (الصالونات) حتّى بلغت أذني الأستاذ عاصم المحامي الذي بلغها بدوره إلى روحية هانم نفسها، ولكن لم يكن هذا - ولا ما أصبح بيديه مدحت وحيّة من الاستياء والنفور إلّا ليزيدها عناداً وإصراراً... ووجدت المرأة أنّ كل ما قيل وذاع لم يغن شيئاً في عرقلة الساعين إلى إتمام الزواج، وكانت ترى في نجاح مساعهم القضاء الأخير على سعادتها وشبابها وغرامها، فانبرت للدفاع عن نفسها دفاع اليائس المستميت واهتدت - في قنوطها - إلى فكرة جهنميّة شريرة لا تخطر على قلب أمّ أبداً، وسارعت إلى تنفيذها بقلب أعماه الخوف والجنون عن البصر بالعواقب، فقصّدت يوماً إلى عشيقها وطلبت إليه أن يقنع ابنتها بالعدول عن الزواج، وقد دهش الرجل وحقّ له أن يدهش وقال لها:

- وما أنا ولهذا؟... ثمّ إنّه لم تسبق لي معرفة وثيقة بالأنسة حياة فلا أدري والحالة هذه كيف يجوز لي أن أحادثها فيها هو من صميم حياتها الخاصّة؟...

ولكنّ المرأة استهانت باعتراضاته وكذبت عليه فقالت:

- حقيقة أنّك لم تسبق لك بها معرفة وثيقة كما تقول ولكنّها تعلم أنّك صديق والديها، وقد سمعت في بعض المجالس ثناء كثيراً على نبوغك في المحاماة فهي

المحامي ذلك اليوم، فما عسى أن يجرد الرجل؟  
أواه! قد لا تكترث لغضب زوجها ولكتها على  
وشك أن تفقد حبة ابنتها إلى الأبد، بل ابنا وابنتها  
معاً لأنه لا مدحت ولا أي ابن في الوجود يستطيع أن  
يبرّ بمثل هذه الأمومة المتوحشة، وأحست عند ذلك  
بقشعريرة تسري في جسدها واستولى عليها ذعر لم  
تشعر بمثله من قبل وبانت فريسة الآلام والمخاوف..  
ولأول مرة منذ أن سمعت بنياً خطوبة حياة أنجه  
تفكيرها نحو الخير فودت لو تستطيع أن تكفر عن  
خطيئتها ببذل التضحية الغالية، وظلت تفكر صادقة  
مخلصة حتى قطعت عليها تفكيرها الحوادث. فعند  
أصيل يوم من الأيام رأت المرأة ابنتها ترتدي معطفها  
وتأهب للخروج، فسألتها بركة:

- إلى أين؟

وأجابت الفتاة قائلة:

- إلى السينما.

فسألتها بتعجب:

- بمفردك؟

فأجابتها ببرود قائلة:

- مع الأستاذ عاصم.

وأصاب الجواب منها مقتلاً فاستولى عليها ذهول  
شديد، وقالت دهشة:

- ولكتك لم تستأذني أحداً؟

فقال الفتاة بشيء من الجفاء:

- استأذنت بابا وأذن لي.

- وهل طلب الأستاذ إليك أن تذهبي معه إلى  
السينما؟

- نعم.

- متى.. وأين؟

- على جسر قصر النيل ذلك اليوم...

وغشيت عينها سحابة ظلماء فجمدت في مكانها لا  
ترى شيئاً. ولما أفاقَت كانت حياة قد غادرت البيت.

وتيقظت غريزتها مرة أخرى، فطغت على عواطف  
الخير التي تحركت في قلبها منذ حين قليل، وخنقتها كما  
يخنق الماء الأجاج الورد اليبانغ، فذهبت ترواً إلى زوجها

تريان. لا بأس، أظن أنه ينبغي أن نذهب الآن،  
نستودعك الله يا أستاذ..

وفي الطريق لازمت المرأة الصمت وقد انتظرت  
طويلاً أن تفتحها الفتاة بالكلام، ولكنها ظلت واجمة  
كأنها تجهل اللغة التي تتكلمها أمها واختلست المرأة  
منها نظرة فألفيتها جامدة باردة لا تعبر وجودها أدنى  
اهتمام فانقبض صدرها وتذكرت - أسفة حزينة - كيف  
كانت في حضرتها لا تمل الحديث والضحك والمداعبة،  
وضاق صدرها بصمت الفتاة فقالت تحملها على  
الكلام:

- كيف كان التنزه..؟ وماذا قال لك الأستاذ؟

فأجابتها بإيجاز قائلة:

- تحدثنا أحاديث عامة تافهة لا تستحق الإعادة.

- وما رأيك فيه؟

- هو جنتلمان.

وكانت ترجو أن تعرف من إجابة الفتاة الأثر الذي  
تركه حديث الأستاذ في نفسها، ولكنها لم تستطع أن  
تدرك شيئاً..

ولما خلت إلى نفسها ذلك المساء تنهدت وقالت:  
«إن (حياة) لا تحاول إخفاء نفورها مني».

نفورها! وما النفور إلى جانب ما صنعت هي؟ أي  
فعلة شنعاء! أي منكرة إنها تعرف نفسها أكثر مما  
يعرف الناس، وهي تعلم أنها سيئة التصرف، كثيرة  
الأخطاء متسرعة هوجاء، ولكن لم يسبق لها أن  
أخطأت خطأ منكرًا كهذا الخطأ، وما لها تسميه خطأ؟  
ولماذا لا تسميه باسمه الحقيقي فتقول إثم وجريمة؟ فهو  
جريمة شنعاء لأنه ليس أقل من محاولة تلويث شرف  
ابنتها والقضاء على مستقبلها في سبيل شهواتها هي، يا  
للفظاعة! لو أمكن فقط أن يبقى هذا سرًا مكتومًا،  
ولكنه لن يبقى كذلك لأنها في الحقيقة وإن كانت  
فكرت تفكير شيطان إلا أنها دبّرت تدبير أطفال؛  
فالرسالة التي كتبت قد تكفل لها فسخ الخطوبة، ولكن  
من يضمن لها ألا يتصل خبرها بزوجها؟ ومن يضمن  
لها ألا يسأل الرجل ابنته عما جاء فيها وإذا صارحت  
الفتاة أباهاً بأنها هي - أي أمها - التي تركتها مع

## همس الجنون ١٠١

- وقالت له غاضبة:  
- لم أذنت لحياة بالذهاب مع الأستاذ؟  
فقال الرجل بلهجة تهكمية:  
- ولم لا؟ أليس هو الصديق الصدوق لأمها وأبيها؟  
فاحتاجها الغضب لتهكمه وقالت وهي تنظر إلى  
وجهه نظرة غيظ وكراهية:  
- إني أعجب من تصرفك هذا، أيجوز أن تأذن لها  
باصطحاب الأستاذ وأنت تسعى إلى تزويجها من رجل  
آخر؟  
فهزّ الرجل كتفيه وقال:  
- فسح الرجل الآخر خطوبته.  
فخفق قلبها واصفرّ وجهها وتساءلت: ترى هل  
علم شيئاً عن الرسالة؟  
واستطرد الرجل قائلاً:  
- عليك تقع تبعة ذلك يا هانم، فرفضك - وما ذاع  
عنه - زهد الشاب في الفتاة.  
ترى هل اكتفى الشاب بالانسحاب دون أن يطلع  
زوجها على الخطاب؟ ليت ذلك يكون!!  
وعاد زوجها يقول بقسوة لم يستطع إخفاءها:  
- وقد أخبرني حياة بأنك تركتها مع الأستاذ عاصم  
ساعة في قصر النيل فظننت أنك تفضّلينه على الشاب  
الأخر، فلما استأذنتني في الذهاب معه أذنت لها وقلت  
لنفسى لا عليّ من هذا فعاصم شابّ جميل ونابغ في  
فته.  
عند ذلك لم تستطع صبراً فولّت مدبرة تترنّح في  
مشيتها كالصاب في مقتل..  
وتذكّرت المثل القائل: «على الباغي تدور الدوائر»  
فقد فعلت ما فعلت وارتكبت ما ارتكبت وفقدت ما  
فقدت لتحافظ على حبّ الرجل وما هي ذي توشك  
أن تفقد - بمسماها هي دون غيرها - الرجل وجبه.  
يا له من ألم ساخر! ليتها أبقت على الخطيب الأول  
أو ليتها تستطيع أن تسترده بأيّ ثمن.  
ولم تنم من ليلتها ساعة واحدة. وعند الصباح  
حدّثت المحامي بالتليفون وقالت كما تعودت أن تقول  
دائماً:

- مساء اليوم في عشنا.. هه.  
فأجابها بغير ما تعودت أن يجيبها به قال:  
- آسف جداً يا عزيزتي.. أنا مشغول جداً هذه  
الأيام.  
وقد صدمها اعتذاره صدمة شديدة وخيب آمالها،  
ولم يفنتها مغزى قوله «هذه الأيام» ولكتها لم ترض  
بالهزيمة فقالت بسخرية مريرة:  
- ومع هذا فأعمالك الكثيرة لا تمنعك من الذهاب  
إلى السينما؟  
ماذا يستطيع أن يقول؟ قال إنّه بالأمس فقط كان  
لديه متسع من الوقت أما الآن فلا..  
ورأت أنّه لا يكلف نفسه حتى الاعتذار المقبول.  
ولم يكلف نفسه؟ إنّما يهتم بانتحال الأعذار من يمه  
شخص المعتذر.. وقد غدت عنده شيئاً رخيصاً أو لا  
شيء مطلقاً. أواه! أهكذا تتقلب القلوب؟ أهكذا  
ينسى الإنسان؟ أمّن الممكن أن يضحى حبّ كحبّها  
ذكرى وحلمًا في لحظة سريعة؟ ألا من تدرج؟ ألا من  
رحمة؟  
ولم تنقطع منذ ذلك اليوم المقابلات بين حياة  
والأستاذ عاصم، وشاهدتها معاً متنزهات القاهرة  
وخلواتها وملاهيها حتى توقّعت الأيام يوماً بعد يوم أن  
يتقدّم الشابّ لطلب يد الفتاة، ولكتّه كان أحزم من  
أن يرتكب مثل هذه الهفوة لأنّه كان خبيراً بأخلاق  
روحية هانم عليّاً بطباعها وعنادها وغرامها به، فرسم  
في عقله خطة محكمة وعزم على تنفيذها بإرادة لا يشنيه  
عنها شيء: ولبثت روحية هانم في حيرة من أمرها  
تعاني أشدّ الآلام النفسية والقلبية، وتأسى بكراهية  
ابنتها لها وتحديها لعواطفها وتمزّق إرادتها نهب الأمومة  
المحتضرة والأهواء العنيفة، حتى كان مساء لا يُنسى إذ  
دخل عليها زوجها يهزّ خطاباً في يده ثمّ يرميه في  
حجرها وهو يقول في لهجة الغاضب:  
- اقراي وانظري.. أي جراءة؟..  
فتناولت الكتاب بقلب مذعور متطير. وقلقت  
عينها بين الأسطر الآتية:  
سيدي المبجل:

وقالت له غاضبة:  
- لم أذنت لحياة بالذهاب مع الأستاذ؟  
فقال الرجل بلهجة تهكمية:  
- ولم لا؟ أليس هو الصديق الصدوق لأمها وأبيها؟  
فاحتاجها الغضب لتهكمه وقالت وهي تنظر إلى  
وجهه نظرة غيظ وكراهية:  
- إني أعجب من تصرفك هذا، أيجوز أن تأذن لها  
باصطحاب الأستاذ وأنت تسعى إلى تزويجها من رجل  
آخر؟  
فهزّ الرجل كتفيه وقال:  
- فسح الرجل الآخر خطوبته.  
فخفق قلبها واصفرّ وجهها وتساءلت: ترى هل  
علم شيئاً عن الرسالة؟  
واستطرد الرجل قائلاً:  
- عليك تقع تبعة ذلك يا هانم، فرفضك - وما ذاع  
عنه - زهد الشاب في الفتاة.  
ترى هل اكتفى الشاب بالانسحاب دون أن يطلع  
زوجها على الخطاب؟ ليت ذلك يكون!!  
وعاد زوجها يقول بقسوة لم يستطع إخفاءها:  
- وقد أخبرني حياة بأنك تركتها مع الأستاذ عاصم  
ساعة في قصر النيل فظننت أنك تفضّلينه على الشاب  
الأخر، فلما استأذنتني في الذهاب معه أذنت لها وقلت  
لنفسى لا عليّ من هذا فعاصم شابّ جميل ونابغ في  
فته.  
عند ذلك لم تستطع صبراً فولّت مدبرة تترنّح في  
مشيتها كالصاب في مقتل..  
وتذكّرت المثل القائل: «على الباغي تدور الدوائر»  
فقد فعلت ما فعلت وارتكبت ما ارتكبت وفقدت ما  
فقدت لتحافظ على حبّ الرجل وما هي ذي توشك  
أن تفقد - بمسماها هي دون غيرها - الرجل وجبه.  
يا له من ألم ساخر! ليتها أبقت على الخطيب الأول  
أو ليتها تستطيع أن تسترده بأيّ ثمن.  
ولم تنم من ليلتها ساعة واحدة. وعند الصباح  
حدّثت المحامي بالتليفون وقالت كما تعودت أن تقول  
دائماً:

زاغت عيناها وحجبت غاشية الغضب الكلمات عن  
بصرها فظلت منكسة الرأس لا ترى شيئاً ولا تعي  
شيئاً والقنوط يتسرب إلى قلبها كالغاز السام، ولم تحاول  
قط أن تقاوم نفسها المنهارة أمام زوجها كأنها نسيت  
وجوده نسيًا تامًا، وكان الشيخ يحدها بنظرة قاسية  
متشفية، فلما وجدها تنهّم وتضمحلّ ولأها ظهره  
وذهب.

ولبثت في غيبوبة حينًا طويلًا ثم رفعت رأسها المثقل  
فوقع بصرها على صورتها في المرآة فارتاعت وجفلت،  
لأنه خيل إليها أنها ترى جمالها يدوي وينضب وتغشاهما  
سيما الهرم . .

يصلك هذا الكتاب ونحن نستقلّ القطار الذاهب  
إلى بور سعيد حيث نبحر إلى أوروبا أنا وعروسي -  
كريمتكم - لقضاء شهر العسل، وإني أقرّ أسفًا بأنه لم  
تجر العادة بأن تعقد الزيجات على هذا المثل الغريب،  
ولكن الظروف الدقيقة التي لا تجهلونها لم تدع لي  
فرصة للاختيار، وإني كبير الأمل أن تقدروا سلوكي  
تقديرًا عادلاً، ولست أقلّ أملًا في نيل عفوكم  
القريب.

ودمت للمخلص  
عاصم عادل

## حياة للغير

الصبيح وقدّها المشوق براءة الصبا وأنوثة الشباب .  
وأشار إلى كلبها وسألها:  
- كيف هو اليوم؟  
- تمّ شفاؤه . . الحمد لله . .  
فضحك قائلاً:  
- لعلّ هواء الإسكندرية لم يوافق مزاجه؟!  
- على العكس كان يعدو على الشاطئ والدنيا لا  
تسعه من الفرح . . فنظر إلى وجهها الذي كسا  
الشاطئ بياضه حمرة كأنه غمسه في الشفق وقال برقة:  
- لقد اكتسبت بشرة جديدة يا سارا!  
فاستضحكت، وعدا الكلب في تلك اللحظة فولّته  
ظهرها وعدت وراءه . .

وبدا عليه تغير ظاهر، فغاضت من عينيه نظرة الجذّ  
والرزانة وخلفتها نظرة حنان وأحلام. وطاب له أن  
يختلس منها نظرات طويلة سعيدة، فشاهاها وهي  
تجلس على الكرسي، وتنحني لتلاعب كلبها الصغير.  
وجعلت أناملها تتخلّل شعره الأبيض الطويل، ومضى  
الكلب يلحق يدها مسروراً ويثب على ركبتيها وذنبه  
يرقص طرباً، وفي أثناء ذلك تدلّت خصلات شعرها  
الحريريّ وحامت حول عنقها وخديها، وكان في  
مشاهدته سعيداً مبتهجاً، ولكن انقبض صدره فجأة،  
فلوى رأسه ونظر إلى الأمام بعينين لا تريان شيئاً، لأنّه  
تذكّر أنّ سلوكها نحوه لم يتغير منذ كانت تدرج في  
الطفولة والصبا، وأنها ما تزال تناديه بقولها «عمّي» كما  
كانت تفعل وهي صغيرة تلعب بالعرائس، وكان فيما  
مضى يفرح بهذا النداء ويعدّه آية على ما له في نفسها  
ونفس أبيها من المودة والصدقة، أمّا الآن فهو يضيق  
به ويتأذى منه ولا يكاد يسمعه حتّى يتقبض صدره

ساعة الأصيل هي الساعة المختارة التي يهبط فيها  
عبد الرحمن أفندي إلى حديقة البيت الصغير، وهي  
عادته التي يلازمها أو التي تلازمه أغلب شهور السنة،  
لأنّه من القلّة النادرة التي لا ترتاح إلى ترك البيت إلّا  
لعمل أو ضرورة. وقد نزل إلى الحديقة ذلك اليوم من  
أيام سبتمبر المعتدلة، وألقى عليها النظرة المعهودة،  
وغمّى بين طرفاتها الملتوية يسرّح بصره بين شجرات  
الورد وأصص الزهور، ثمّ جلس على أريكة على كنب  
من السور المقام من الأسلاك الشائكة الذي يفصل بين  
حديقة بيته وحديقة البيت المجاور، وبسط جريدة من  
جرائد المساء كانت مطوية تحت إبطه ومضى يطالع .

وكان في مشيته كما كان في جلسته آية للرزانة، فمن  
كان يراه لا يشك لحظة في أنّه بإزاء ربّ بيت وعاهل  
أسرة، فحركاته وإيماءاته تفرن دائماً بالهدوء والاتزان،  
ونظرة عينيه تلوح فيها الرزانة والرجولة والمسؤوليّة،  
ورأسه الكبير وشاربه الغزير يدلّان على أنّه ابن أربعين  
وإن كان في الحقيقة لم يجاوز الخامسة والثلاثين إلّا  
بشهور قلائل. وكان مستغرقاً في مطالعته حين استيقظ  
فجأة على صوت رفيق يهتف به قائلاً:

- سعيدة يا عمّي . .

فأزاح الجريدة عن وجهه ونظر إلى حديقة البيت  
المجاور نظرة التمتع فيها الابتهاج، فرأى وجهها مشرقاً  
يرنو بعينين سوداوين صافيتين يطالعانه بالبراءة،  
فأحسّ إحساس الحرّان هبّ عليه نسيم بارد معطر  
بالياسمين، وردّ تحيتها قائلاً:

- أهلاً بالآنسة سارا.

فابتسمت إليه ووقفت لتلاعب كلبها الأبيض  
الصغير. كانت في السادسة عشرة. يتجاذب وجهها

وتتولّى عنه المسرة.

وأعجبه بصره إليها مرّة أخرى وتساءل - ولم يكن يفعل ذلك للمرّة الأولى - أمن المستحيل أن تصير سيارا زوجي يوماً من الأيام؟

وهزّ رأسه في إنكار واستغراب كأنّ الفرض من المستحيلات حقاً، ولكنّه لم يسلم بلا جدال فتساءل مرّة أخرى: ما وجه الاستحالة؟.. العمر... فهو ابن ستّة وثلاثين وهي بنت ستّة عشر، فعشرون عامًا تفصل بينهما وهو عمر طويل يبرز «عمومته» لها فكيف يتأتّى للعمّ أن يصير زوجًا وحبیبًا! حقًا إنّ الكثيرين لا يعترفون بعقبة العمر، ولا ينزلون عند حكمها ويذلّونها بغير مبالاة، ولكن كلّ تضحية من هذا القبيل بثمان، فما عسى أن يكون الثمن الذي يبذله لمثل هذه التضحية الغالية؟. هو في الواقع ليس إلّا موظفًا منسيًا في وزارة الداخلية لا يتجاوز مرتبته الخمسة عشر جنيهاً فلا مكانة له يعتدّ بها، ولا مال له يسدل به على نقائصه سترًا من الرواء والجلال! ومع ذلك فهو يحبّها ويبدو له أن لم يكن من حبّها بدّ، وكيف كانت تتاح له النجاة منه وقد كانت تنمو تحت بصره يوماً بعد يوم ستّة عشر عاماً؟.. وكانت إلى ذلك الإنسانية الوحيدة من الجنس الثاني التي رمته بها الأقدار في عزلتها القاسية.. فتسرّب الحبّ إلى قلبه خفية، في أناة وهدهد، وبلا قصد أو حذر، تسرّب الكرى إلى أجفان حالم مستسلم إلى هبات النسيم اللطيفة في جلسة طويلة هادئة على شاطئ النيل...

وكان في أوّل عهده بها يتمتّع بطفولتها السعيدة ويجد فيها منفذًا لحنان صدره المكتوم، فلمّا أن انقلب عاشقًا أنشبت فيه الحيرة أظافرهما، وحرم القناعة السعيدة وصار يعدّبه كلّ شيء حتّى عطفها عليه وحديثها، لأنّها كانت تقبل عليه براءة، ولم تشعر حياله شعور امرأة بإزاء رجل، وقد حدجها مرّات بنظرات نفذ منها لبيب الهوى قهراً فلم تستجب له ولم تحسّ به وأصرّت على أنّه «عمّها العزيز» لا أقلّ ولا أكثر. ما عسى أن يكون ردّها لو طلب يدها؟... كيف يكون شعورها؟... وكيف تكون دهشتها؟...

وماذا تقول لأبيها؟.. وماذا تقول لنفسها؟.. وهل يمكن أن يراها بعد ذلك كما يراها الآن في حديثها وأن يتمتّع برؤيتها مقبلة مدبرة محدثة مداعبة أم ينقطع عهده بها إلى الأبد؟

وهب أنّه وجد من نفسه الشجاعة الكافية لأن يفتح أباها - صديقه العزيز - في هذا الشأن الخطير؛ فما عسى أن يقول له؟. يا له من قول عسيرا.. وفكر طويلًا، ثمّ أغمض عينيه وحذث نفسه وكأنّه يحدث صديقه: «صديقي العزيز لقد جئت أحدثك في أمر خطير لم تكن تتوقّع أن أحدثك فيه أبدًا، وربّما لم أكن أتوقّع ذلك أنا أيضًا، ولست واثقًا من موافقتك ولا من أهليّ للطلب الذي أتقدّم به، ولكنّي لم أرد أن أضيع فرصة ذهبيّة لمجرد توهمي الإخفاق.. سيدي.. وصديقي..».

ولم يتمّ حديثه لأنّ صوتًا عذبًا أيقظه من حلمه قائلاً:

- أنا تم أنت؟

فانتبه خافق القلب وقد تولّاه ما يشبه الرعب، وقال:

- كلاً..

- معذرة.. رأيتك مغمض العينين...

- كنت أفكّر؟

- وفيّ تفكّر؟

حدّق في وجهها بعينين حائرتين وتساءل بماذا يجب؟.. أيقول لها فيك أنت؟.. ولكنّها مجازفة سابقة لأوانها، فلازم الصمت، وأحسّ رغم ارتباكها بلذعة سخرية لا يضطرا به أمام هذه الطفلة، وكان ينعم النظر في عينها السوداوين، ومرّت دقيقة على جموده، فشعر بسريان تحدير لذيد، ولم يعد يرى إلّا سوادًا جميلًا، ثمّ لاحظ تغيرًا فجائيًا يطرأ عليها، فرأى وجنتيها تتورّدان وشفتيها تفلقان، وعينيها تتحولان إلى هدف وراءه.. وشاهدها تفرّ نائرة إلى داخل البيت، ونظر خلفه دهشًا فرأى أخاه نور يقف مبتسمًا ويمدّ له يده للسلام. وأحسّ بكآبة لم يدر ما سببها، وخفق قلبه خفقان الخوف والحيرة، ولكنّه سلّم عليه مبتسمًا وقال له:

يمكن أن يحبّ هذه الصبيّة الجميلة .  
 وكان الدكتور الشاب يفكر في تلك اللحظة من  
 حياته السعيدة في أمور هامة فقال لأخيه:  
 - لديّ أمور هامة أريد أن أفضي إليك بها .  
 ولم يدعه قلبه القلق يرتاح إلى هذه الرغبة فقال:  
 - اخلع ملابسك أولاً وارتح قليلاً . . .  
 ولكنّ الشاب قال بإصرار:  
 - استمع لي أولاً يا أخي فإنّ حياتي في مفترق  
 الطرق . . . فسكت الرجل وأردف الشاب:  
 - سنتهي بعد أشهر مدّة تمريني كطبيب امتياز في  
 القصر، وقد أخبرني أستاذي الدكتور براون بأنّ النية  
 متّجهة إلى اختياري عضواً في بعثة كليّة الطبّ .  
 فأحسّ الرجل بارتياح غير منتظر وقال بفرح:  
 - مبارك . مبارك . أنت أهل لذلك بغير شكّ .  
 والظاهر أنّه كان لدى الشاب ما يقوله غير ذلك لأنّه  
 قال بارتباك بصوت خافت:  
 - ولكنّي . . أعني . . أريد أن أقول . . إنّي إذا  
 سافرت فلن أسافر منفرداً .  
 - لا أفهم شيئاً . .  
 في الواقع إنّه يفهم كثيراً، أو يفهم على الأقلّ ما  
 جعل قلبه يرتدّ إلى الجفول، وكان الشاب قد تغلّب  
 على ارتبائه فقال:  
 - سأسافر زوجاً إن شاء الله .  
 - يا لها من مفاجأة! . . إنّهُ لم يسبق لك التحدّث  
 إلى أحد في هذا الموضوع . . أليس كذلك؟  
 - كلاً .  
 - هل نبت في رأسك على حين غرة؟  
 - كلاً ولكنّي أوثر الصمت حتّى أخرجني عنه السفر  
 المنتظر!  
 وسكت الأخ لحظة يغالب عواطفه ثمّ قال:  
 - هل أفهم من ذلك أنّك وقّفت إلى الاختيار؟  
 فأحنى الشاب رأسه وأشار بذقنه إلى بيت الجار  
 وقال:  
 - سمارا . .  
 وساد الصمت، وقلق الشاب لسكوت أخيه، فسأله

- أهلاً كيف حالك يا دكتور؟  
 فضحك الشاب وقال بصراحة:  
 - كم أنت سعيد يا أخي!  
 وأدرك ما يعني من أنّها بصره ولهجته، وآله ذلك  
 غاية الألم، ولكنّه تجاهل الأمر وقال بإنكار:  
 - سعيد؟!  
 - طبعاً، من محدّث سمارا ينبغي أن يكون سعيداً .  
 فابتسم ابتسامة صفراء وقال لنفسه: إمّا أنّ هذا  
 الشاب خبيث ماكر وإمّا أنّه غيبي لا يفقه لما يقول  
 معني . ليس السعيد حقاً من تحدّثه سمارا ولكنّه من  
 تحجّل من محادثته ومن يتورّد وجهها حين رؤيته فلا  
 تملك إلا أن تفرّ هاربة . . . هذا هو السعيد حقاً . .  
 أفلا يفهم ذلك هذا الشاب أم إنّهُ يتغاي ويكر؟!  
 على أنّه كان يحرص على ألا يبدو عليه شيء مما في  
 نفسه . فقال يغير مجرى الحديث:  
 - كيف كانت ليلتك بالأمس؟  
 فجلس الشاب إلى جانبه وقال:  
 - كان قصر العمبي أمس حافلاً بالحوادث المزعجة  
 ومضيت أغلب الليل أستقبل صرعى القضاء والقدر .  
 وكان عبد الرحمن يرمق شقيقه وهو يتكلّم بعينين  
 ساهمتين وعقله دائب على التفكير . . كان ذا قلب كبير  
 يفيض حنانه، فهو يحبّ شقيقه وقد أمّته هذا الحبّ  
 الأخويّ بالعون والصبر فربّاه ورعاه كما ربّيّ أخوين له  
 من قبل، ولكن يداخله أحياناً من ناحيته خوف  
 وجفول وربما أكثر من ذلك . نعم هي الحقيقة فهو  
 يكرهه أحياناً، وهو أشدّ ما يكون كراهية له إذا جرى  
 ذكر سمارا على لسانه، فيمجرد نطقه لذلك الاسم  
 الحبيب يؤذيه ويعذّبه؛ وتستحيل هذه الكراهية المؤقتة  
 مقتاً إذا وقعت عينا الفتى عليها أو عيناها عليه كما  
 حدث منذ حين قليل . . . على أنّ هذا لا يعني أنّ هذه  
 الكراهية عاطفة ثابتة فهي مجرد انفعال عنيف، وغير  
 ذلك فهو يحبّه، وينظر إلى مستقبله كشيء جميل من  
 صنع قلبه وكده، فأبى حيرة وأبى عذاب . . ترى هل  
 يظن الشاب إلى ما يجدّه في نفس شقيقه الأكبر من  
 الشقاء . . كلاً . . هو بلا شكّ لا يتصوّر أنّ مثله



بلهفة:

- ما رأيك يا أخي؟ .. ألا تعجبك؟

فقال الآخر بسرعة:

- نعم الاختيار.. نعم الاختيار..

فابتهج الشاب وقال:

- أشكرك يا أخي.. وأرجو ألا نتوان، فعندي أن

نذهب غذا إلى مقابلة والدها ولعلّي لا أصدّم هناك بما يجتئب أملي.

- حسن.. ولكن ما الداعي إلى هذه السرعة؟

- لا بدّ من السرعة، فليس أمامي سوى شهرين قلائل ينبغي أن يتمّ في أثنائها الاتفاق، والاستعداد للسفر إلى إنجلترا.

ثمّ ضحك الشاب وقال وهو يهيم بالوقوف:

- ألا ترى أنّي سأمضي شهر العسل خارج القطر

كالوجهاء؟ فابتسم الرجل، وحيّاه الشاب وذهب إلى داخل البيت..

وتبعته عيناه حتّى غيَّبه الباب ثمّ عادتا تنظران إلى الدنيا المحيطة نظرة ذاهلة لا تعي التفاصيل، فأحسّ إحساساً غامضاً بالسمرّة التي أخذت تشوب الكون والسكون الساري في مفاصله، وضاق بجلسته فقام يتمشّى في الحديقة الصغيرة بائساً محزوناً مختنقاً، ودار دورتين ثمّ رجع إلى الأريكة وارتقى عليها بشيء من العنف كأنّه يسلم إليها حظّه التعسّ لا جسمه المنهوك.

ووجد في تلك اللحظة رغبة خفيّة قاهرة في الفرار إلى الماضي.. فطار خياله في الزمان عشرين عاماً في غمضة عين، إلى تلك الفترة من العمر التي تبدو فيها الحياة كقطعة من العجين في يد الخيال يعبث بها كما يشاء ويصنع منها ما يملّي عليه هواه بعيداً عن قساوة الواقع. في ذلك الوقت البعيد كان هذا الرجل الممتلئ رءانة وهماً وحزناً صبيّاً مرخاً مدللاً يفيض قلبه بالأفراح والآمال؛ وقد ميّزته الطبيعة منذ رأى النور، فكان أوّل من خفق له قلب والديه بالأبوة والأمومة من الأبناء.

ثمّ كان من بعد ذلك غلاماً مجتهداً تضيء حياته المدرسيّة استعدادات عالية ومواهب نامية تبشّر بالنبوغ والتفوق والمستقبل البسام، ولكنّ الحقيقة أنّ ما خفي

من فضائله كان أعظم، وأنّه كان ينتظر الفرصة فقط للظهور في أبهى الحلل، وقد جاءت هذه الفرصة ولكتّها لم تكن والأسفاه سوى وفاة والده..

ترك الوالد المتوفّى أسرة بائسة مكوّنة من أرملة وأربعة أبناء أكبرهم - عبد الرحمن - في مستهلّ الشباب، وأربعة جنيهاً معاشاً، وهكذا تصدّت الحياة للشابّ السعيد الواسع الآمال بوجه عبوس، استأدته الواجبات، وحتّمت عليه أن يخلع رداء الطفولة ليحمل على عاتقه اللدن أثقل التبعات.. وكان عليه قبل كلّ شيء أن يتناسى أطعمه، ويدرج في الأكفان آماله، ويقرّ مواهبه لكي يهيئ للأسرة حياة سعيدة، ويوليها بعض العناية التي كان يوليها إياها الأب الراحل، ورضي كارهاً بوظيفة بائسة لم يتصوّر قطّ أن تنتهي إليها آماله..

كانت تلك الأيام في بدئها مؤلّة شديدة المرارة تبعث في النفس الأسى والحسرة والياس؛ ولكتّها لم تبلغ به قطّ حدّ الثورة أو الغضب الهائل. لماذا؟ كان قلبه كبيراً ينضج بالحنان والأخوة. فوهبه أمّه وإخوته، وهانت لذلك تعاسته، وخففت الأيام من وقع الحمية في نفسه، وتحدّدت في قلبه آمال أخرى لا تتعلّق بمستقبله هو، ولكن بسعادة إخوته ومستقبلهم، وذاق سعادة جديدة: هي السعادة التي يجتهد بها بذلّ النفس والعمل من أجل سعادة الغير، وبذلك شغل الشابّ مكان أبيه، ودخل في طور الرجولة الحقّ قبل الأوان..

وذكر هنا كيف أنّه كان يشعر بالفراغ الأليم رغم امتلاء حياته بالآمال والأعمال، ولكتّه كان ينجح دائماً في إبعاد فكرة الزواج عن قلبه حباً في أسرته وإيثاراً لإخوته، واستوصى بالصبر، ولكن أثبتت له الأيام أنّ إخوته أقلّ صبراً وأعنى بنفوسهم منه، وربّما كان للزمن في ذلك شأن وأيّ شأن، فما كاد أكبرهم يتخرّج ضابطاً في مدرسة البوليس حتّى تزوّج وترك العباء له وحده. وتبعه بعد قليل أخوه الثاني المهندس فاضطرّ إلى البقاء أعزب حتّى هذه السنّ..

ثمّ ذكر كيف أنّه كاد يختار أخيراً ما يكمل به حياته، وكيف جاء الاختيار بعيداً عن التوفيق. وكيف

## ممس الجنون ١٠٧

- أنته الطعنه النجلاء من يد طالما أثرها بالحَبِّ  
والعطف، وفد طعنه وهو يضحك ضحكة مشرقة  
بالأمل والسعادة كأنه ذاك الحكيم الذي يترنم بأنشودة  
السلام وقدمه تقتل عشرات الأحياء التي لا تراها  
العين . .
- نعم . .  
- ما رأيك؟  
- اختيار جميل يا أمّاه، سأذهب غدًا لمقابلة جارنا  
وطلب يد ابنته الجميلة لابنتنا النابه!  
فقال بحنان:  
- لم يبق إلا أنت!  
ولازم الصمت هذه المرة . .
- من يعلم؟ . . ليس الذي يلقي الآن بأشدّ قسوة مما  
لقي في ماضيه، وما هذه بأول كارثة يمّتحن بها قلبه  
الكبير، وقد علّمته الحياة فضيلة الصبر كما علّمته  
حقيقةً أجلاً: هي أنه يستطيع أن يسعد وهو يحقّق  
السعادة للآخرين . .
- وفيا هو في أحلامه إذ سمع صوتًا ينادي قائلاً:  
- عبده لماذا تبقى في الظلام؟  
هذا صوت أمّة الحبيب . . ربّاه . . لقد لفّه الليل  
وهو لا يدري .  
وقام من جلسته متثاقلاً، وسار ببطء إلى الداخل  
وبادرت أمّة قائلة:  
- هل حدّثك أنور؟  
فقال:

## مُفْتَرِقُ الطَّرِيقِ

زماننا عائر الحظّ أو نحن به عاثرو الحظّ، فأينما تَوَلَّى وجهك تسمع تهنّد شكوى أو ترّ تجهم كدر. ولن تعدم قائلاً إنّ هَذَا الزمان أضيّق رزقًا وأنضب حياء وأفسد خلقًا وأقلّ سعادة وأنسا من الزمان الماضي، ويجوز أن نكون لزماننا ظالمين، وأننا نتحامل عليه لا لعب اختصّ به دون غيره من الأزمنة، ولكن تبرّمًا بقساوة الحياة وفرارًا من جفاف الواقع وليأذاً بظلام الماضي الذي يشبه ظلام المستقبل: بعث أمل وطبّ الآم. ومهما يكن من هذا السخط فما من شكّ في أنّ لجلال أفندي رغبة كان على حقّ في شكواه التي يردّها بغير انقطاع. كان مُراجع حسابات في وزارة المعارف وفي السادسة والأربعين من عمره، وقد وسّع الله في إحدى زيني الحياة الدنيا وقترّ عليه في الأخرى. فرزق سنّة أبناء يسعون ما بين حجر الأمّ والسنة الرابعة الثانويّة. وأمّا مرتبه فسبعة عشر جنيهاً، فناءً بأثقال العيش ومتاعب الحياة. وقصمت ظهره المصاريف المدرسيّة. وكان كثيرًا ما يقول متبرّمًا حانقًا كلّما آن موعد قسط أو اقترّب موسم من المواسم «رجل مثلي - أب لسنّة ذكور، اثنين في المدرسة الثانويّة، واثنين في المدرسة الابتدائيّة، وواحد في المدرسة الأوليّة، وواحد في البيت، غير زوجة وأمّ، ولا تراه الوزارة حقيقًا بإعفاء واحد من أبنائه من المصاريف، فمتى إذا تجوز المجانيّة! .. ولن تجوز؟». وكان كغالبية أهل هذا البلد يائسًا من العدالة قانطًا من الخير، يعتقد اعتقادًا كالإيمان الراسخ أنّها لا يصيبان إلاّ المجدودين من ذوي القربى والأصهار والأصدقاء فرأى أن ليس أمامه سوى الكفاح الشاقّ، ومعاناة الشدّة عامًا بعد عام، والتصبر على مرارة الحياة.

وليث على حاله لا يطمع في رجاء حتى تولى وزارة المعارف معالي حامد بك شامل، فطرق أذنيه اسم الوزير الجديد، وجذبت عينيه صورته المنشورة في الصحف، فومض في أفقه المظلم بارق أمل جديد، وانتعشت نفسه برجاء لا عهد له به، وقال لنفسه: «ينبغي أن أقابله.. وأن أشكو إليه.. هل يرفض رجائي؟.. لا أظنّ»، وقصد يومًا إلى سكرتير الوزير وكتب حاجته على ورقة ليوصلها إليه، فمضى الشابّ بها وتركه في حالة من القلق والإشفاق لا توصف. وعاد مسرعًا يقول لجلال أفندي:

- معالي الباشا مشغول جدًّا اليوم فلتفضّل بالمجيء ضحى الغد. فعاد إلى حجرته مسرعًا واجدًا متألّمًا، وكان ألف طول مدّة خدمته خيلاء الرؤساء وانتهاز المديرين، ولكن انشغال الوزير آله أكثر من أي شيء، وجعل يتساءل ترى هل يذكرني؟.. ولم يكن شيء ليصدّه عن هذا الباب، فذهب ضحى الغد كما قال له السكرتير وانتظر طويلًا حتى قال له الشابّ:

- تفضّل.

فقام مسرعًا خافق الفؤاد، وفتح له الباب المحروس فاجتازه إلى الحجرة ذات السجاجيد والزخارف، ونظر إلى صدر المكان فرأى معالي الباشا كما يدعونه يطالع في شيء بين يديه، فلما أن شعر بوجوده رفع إليه عينيه ومدّ له يده وعلى فمه شبه ابتسامة وقال:

- أهو أنت!.. لقد اشتبه عليّ الاسم.. أو ما تزال حيًّا؟

فسرّ جلال للمداعبة الأخيرة واطمأنت نفسه وقال بخضوع وإجلال:

- نعم يا صاحب المعالي ما أزال أكابد حظّي في

## همس الجنون ١٠٩

فارق جوهرى . . وكان التلميذ «حامد شامل» يلفت الأنظار إليه ببياض بشرته واحمرار وجهه . ويلزمه عبد متهدم طويل يرتدي بذلة سوداء في الطريق إلى المدرسة وفي طريق العودة، يتبعه كالظل إذا مشى. ويطمئن إلى مكانه إلى جانب حوزي العربية إذا ركب ولذلك كان يجلو لرفاقه أن يداعبوه فدعوه «حامد آغا»، على أنه عجب غاية العجب كيف كانت المنافسة تحتدم بينه وبين وزير اليوم وتلميذ الأمس كأتهما أخوا حظ واحد . . والأعجب من هذا أنها جريا معاً وراء تلك العاطفة - التي تهبّج الجذّ والنشاط ولا تتسامى عن المرارة والألم - منذ أول عهد تجاوزهما! وكانا في كفاحهما كأنهما يعيشان منفردين في فصل واحد، فكانت الغاية التي يهدف إليها كل منهما أن يتفوق على قرينه بخير مبالاة الآخرين، وعلى الرغم من استعانة حامد بالدروس الخصوصية يتلقاها على أبنه مدرسي المدرسة، فقد كانت الغلبة بينها سجالاتاً، وكانت كفة جلال الراجحة . . وكانا في ملعب كرة القدم مثلهما في الفصل لا يريحان ولا يستريحان. وكان كلاهما يزعم أنه أحق من صاحبه بقلب الدفاع، فكان مدرّس الألعاب يعاقب بينهما فيه، حتى بدا تفوق جلال للجميع فاستأثر به، فكان آخر عهد الآخر بلعب الكرة . . يا لها . . كانا يستبقان كأنما الدنيا تضيق عنهما معاً، وكأنما كان مستقبلهما ينذر بحرب مستمرة تشمل ميادينها الجذّ واللعب والإدارة والوزارة. فكيف شالت كفته بعد ذلك؟؟ كيف سقط من عيون الغربال وضاع في الحثالة؟؟ كيف صار رفيقاً المقعد الواحد أحدهما وزيراً والآخر مراجعاً للحسابات ينوء صدره بالأم الحاضر ووساوس المستقبل.

ثم تتم قائلًا وهو يطفئ سيجارته ويرمي بالعقب إلى المنفضة: تالله ما يستحق أن يكون وزيراً ولا وكيل وزارة ولا شيئاً من هذا، وخشي أن يكون متجنياً عليه أو مائلاً مع عواطفه القديّة فسأله باهتمام وجدّ كأنما يزعم كتابة ترجمة له كيف اعتلى كرسيّ الوزارة؟؟ لقد انفصلا في نهاية الدراسة الثانوية فاضطرّ هو لأسباب إذا ذكرها جرت المرارة في فمه إلى الانقطاع عن

الدنيا.

فنظر إليه نظرة استفهام، ومال إلى الوراء قليلاً وهو يتمتم:

- أفندم.

فقال جلال:

- يا معالي الباشا قصدت إلى معاليك لأشكو إليك ما أشكوه من عنت الدهر وشقاء الأيام. لي أسرة كبيرة وأبناء كثيرون وموتبي صغير، ولست طامعاً في علاوة أو درجة، ولكنني أضرع إلى معاليكم أن تعفي ابنين لي في مدرسة شبرا الثانوية من المصروفات.

- الاثنين معاً؟!

- نعم يا معالي الوزير إن آمالي مشرقة بمعاليكم، لقد جاورت معاليكم عهداً طويلاً من سنيّ الدراسة، وينبغي لمن حظي بذاك الجوار أن يربو حفظه على حظوظ الناس جميعاً، خاصة إذا علمتم أن لي غيرهما أربعة آخرين.

فقال الوزير باقتضاب:

- قدم لي مذكرة.

وكان الرجل محتاطاً لذلك، فأخرج من جيبه التماساً أعدّه لهذه الساعة وقدمه إلى الوزير، فجرت عليه عيناه بسرعة، ثم أمسك قلمه ووقع عليه بكلمة وقال للرجل:

- اطمنن . . .

فانحنى جلال أفندي تحية، فتكرّم الآخر بمدّ يده له، ثم غادر الحجرة مغتبطاً مثلج الصدر. ولكنّه ما كاد يعود إلى مكتبه بالوزارة، حتى قال لنفسه متعجباً: لم يتغيّر «حامد شامل» البتّة، ولا تقدّم به العمر، وكأنّه في ريعان الشباب . . . هل يصدق إنسان أن كلينا ابن خمس وأربعين؟ . . . تالله إني لأبدو لعين الناظر في سنّ والده . . . وقضى وقته يفكر في الوزير، في حاضره وماضيه، وفي صلته القديمة به . . . ثم اضطجع بعد غدائه في بيته، وأشعل سيجارة، واستسلم إلى أحلام الذكريات . . . فألوت به إلى عهود الماضي المنطوي . . إلى الوقت الذي كان يجلس فيه إلى يسار التلميذ «حامد شامل» على مقعد واحد، لا يكاد يفرّق بينهما

المدّخر؛ ورنا إلى الصورة بعينين حالمتين فهامت روحه في آفاق الماضي حتّى شعر بأنّ روح الطفولة تحلّ فيه مرّة أخرى، وأنّ شعيرات قداله البيضاء تسود، وتجاويد جبينه وما حول فمه تلين، ونظرة عينيه تصفو وترقّ، ويمسح على ما فيها من همّ وبلبال.. أحسن قلبه يخفق مرّة أخرى بالأمل والطمأنينة، وجرى بصره على الوجوه الصغيرة وهو يتساءل: ترى كيف صار هؤلاء جميعاً؟.. وعين أوّل صورة في الصفّ الأخير فعرف صاحبها بوضوح غريب، وذكر اسمه (عبد الملك حتّام)، وذكر كيف كانت تتابه نوبات الصرع في الفصل حتى انقطع عن المدرسة.. أما بقية الصفّ فتذكّر وجوههم وغابت عنه أسماؤهم ومصائرهم، وعرف في الصفّ الثاني وجهًا كأنما تركه بالأمس. كان ابنًا لأحد كبار المستشارين، فكان يتمنّع لذلك بنفوذ وصوّلته فيحييه الناظر إذا بصر به، ويلطفه المدرّسون، وقد علم فيما بعد أنّه عين وكيلًا للنياحة وترقى قاضيًا، ولعلّه يتأثر الآن خطى أبيه الكبير. أمّا من يليه من الصغار فجلبهم من المغمورين وبعضهم معه في المعارف وهو يعرفهم حقّ المعرفة. وأمّا آخر هذا الصفّ - الذي ينظر إلى المصوّر بتحدّ غريب ويشبك ذراعيه على صدره - فكان من أشقياء التلاميذ المولعين بالشجار والتصادم، وقد طرد من المدرسة لاعتدائه على أحد المدرّسين. ومن العجيب أنّه احترف فيما بعد «البلطجة». وطاف بالسجن مرّات.

وألقى نظرة أخيرة على الوجوه الأخرى فلم يعرف عنها شيئًا إلاّ الدكتور المعروف (حنّا عبد السيّد)، وإلاّ هذا الذي يتوسّط الصفّ الأوّل، كان من أنبغ التلاميذ جميعًا، وكان أوّل الابتدائية ثمّ أوّل البكالوريا والتحق بمدرسة الحقوق كبير الهمة سخيّ المواهب، ولكنّه أصيب أوّل عهده بها بداء الصدر فاضطرّ إلى ترك المدرسة والكفّ عن التحصيل، واشتغل بعد ذلك بعامين كاتبًا في الصّحة.. فلا يقلّ حظّه شذوذًا عن حظّ الوزير نفسه.

نال كلّ منهم نصيبه وخضع لحكم حظّه وسعيه. كانت تجمع بينهم جدران واحدة، لا يكاد يتميّز

الدراسة، والتحق صاحبه بمدرسة الحقوق، ثمّ حصل على الليسانس، وكان أبوه محمّد باشا شامل وزيرًا للحقانيّة فعينه سكرتيرًا له في الدرجة الخامسة فكانت القفزة الموفّقة الأولى. وقرأ بعد ذلك في الصحف أنّه اختير لبعثة في فرنسا لا يعلم كم أمضى بها وما حصل عليه فيها من الإجازات، ولكنّ كثيرين يعلمون بزواجه بعد ذلك بسنوات من كريمة المرحوم حامد باشا حامد الذي تولّى الوزارة مرّات فارتقى فجأة إلى الدرجة الثالثة مديرًا لإدارة التشريع، وانقطعت عنه أخباره فترة وجيزة حتّى علم بتوليته مديرية أسوان، ثمّ بترقيته محافظًا للقنال بعد ذلك بقليل، ثمّ باختياره وزيرًا للمعارف، ومضى على توليته الوزارة أسابيع والمجلّات لا تكفّ عن الاشادة بمواهبه القانونيّة ومقدرته الإداريّة ومشروعاته عن إصلاح التعليم، وكاد جلال أفندي أن يصدّق ما يقال لولا أنّه قرأ مقالًا عن تفوق الوزير في عهد الدراسة - في العلم والرياضة البدنيّة معًا - وكيف أنّ مفتشًا من مفتشي الوزارة تنبأ على أثر مناقشته بأنّه سيكون يومًا وزيرًا، فأغرق الرجل في الضحك وقال ساخرًا: «الآن فهمت سرّ المواهب القانونيّة والإداريّة!».

وتهدّد جلال أفندي رغب وتمتم قائلاً: «دنيا!» وأراد أن يريح نفسه من أفكاره فتناول مجلّة يقلم صفحاتها المصوّرة، والظاهر أنّ ذكريات الوزير كانت تأتي أن تفارقه فرأى صفحة من المجلّة مخصّصة للوزير تتوسطها صورة كبيرة، ما إن بصر بها حتى صاح في دهشة وغرابة: ربّاه هذه صورة فصلنا القديم.

وألقى عليها نظرة سريعة فثبت بصره على صورته وكان يقف في الصفّ الأوّل وراء المدرّسين مباشرة إلى يمين الوزير ينظر إلى عدسة المصوّر في ابتسام وثقة؛ وكان الوزير كالعابس وعلى حاجبه الأيمن ذبابة، فضحك جلال طويلًا وذكر قصّة الذبابة، وكانت في الأصل من نصيبه هو وتنبّه لها والمصوّر يهّم بالتقاط الصورة فهشها بسرعة فطارت عنه إلى حاجب قرينه وحطّت عليه؛ وقد أحسن أسفًا لذبة الذبابة فلعلّها كانت ذبابة الحظّ السعيد سكنت إلى وجه الوزير

## ممس الجنون ١١١

وأثهم عمًا قليل يملأون البيت حياة وقلبه نورًا، فرمى  
 المجلة بعيدًا وطرد من عقله الوسواس ليستقبلهم أجمل  
 استقبال، وقال لنفسه متعزياً:  
 - من الخطأ أن يفكر الإنسان في شئون الناس ما  
 دام هذا لا يورث إلا الضيق، وحسبي أن معاليه قال  
 لي: «اطمئن».

وراءها إنسان إلا بجده وخلقه، ففرقت بينهم الحياة،  
 رفعت وخفضت، وأحبت وأماتت، وأذاقت الفقر،  
 ومتعت بكرسي الوزارة، وكل بما قسم له غير راضٍ  
 ولا قانع.  
 ونظر جلال أفندي عند ذلك في الساعة فوجدها  
 تدور في الرابعة، فعلم أن موعد الصغار آن واقترب،

## إصلاح القبور

وعلاه البلى فتهدم «شاهده» وتشقق بنيانه . . وأسفاه كان المرحوم في نضرة الشباب فلم يعن يوماً بهذا القبر الذي لم تمد له يد بإصلاح ما يقرب من نصف قرن من الزمان، حتى توارى بين ركامه شبيبة ناضرة في حفرة شائخة . . فكانت إذا رأت الفناء المعفر و«الشاهد» المهتم راحت زائغة البصر مكلومة الفؤاد، وأفحمت في البكاء. ووجدها التري يوماً تندب القبر المهتم وتبكي بكاء مرّاً فانتظر حتى رآها تمّ بالانصراف فدنا منها وقال لها برقة ولباقة:

- ألا ترين يا سيدي أن هذا الفناء مترامي الأطراف! . فهلاً بعث نصفه أو بعته كله وجددت بجاله القبر وأصلحت حجرته? . .

واستهواها قوله فأصغت إليه برغبة ولهفة وقد تفتحت لها سبل الأمل، ولكنها ذكرت أن مكافأة زوجها لم تصرف بعد فما الداعي إلى التفريط في الفناء? . . كلاً لتبقى المقبرة على ما هي عليه، وحين تأخذ المكافأة - ولو بعد ستة أشهر كما قيل لها - تجدد القبر وتصلح الفناء وتغرس في أرضه شجيرات يانعة تستدر الرحمة وتطرد الوحشة، وعادت يومئذ وقد تحايل لعينيها في الأفق حلم من أحلام العزاء. فغداً عندما يجدد القبر وتطل الجدران ويفوح المكان بشذا الريحان ينتسم قلبها المحزون نسائم العزاء البارد وتجد في الأنس بالوفاء سلوى عن وحشة الوجود.

ومضى يوم ويوم وأسبوع وأسبوع وشهر ثم شهر والقبر غايتها وسلوتها وأجل موعد يتحبه لها الزمان، إلا أنها كانت تتغير - بطبيعة الحال - ككل شيء في الحياة في بادئ الأمر كانت تبكي ليلاً ونهاراً، ثم مضت تبكي سحابة النهار وتهدأ بالليل، ثم صارت تبكي كلما

قضى من بيده القضاء أن يكون ليل ١٦ أغسطس تاريخاً فاصلاً تهتز له جوانحها وتتصدع به فؤادها، فلم يعد مجرد وحدة من الزمان الذي لا ينتهي ولكن شيئاً من ذكريات سود يجمع بينها غشاء من الحزن واللوعة، وشاهد ذلك الليل صدرًا ضعيفًا يعلو وينخفض ورأس صاحبه مستندًا إلى صدرها، وسمع حشرجة ما يزال صداها يمزق مسمعيها، وفي لحظة رهيبية كأنما جفت فيها ينابيع الرحمة في السماوات والأرض صارت أرملة في نضارة الصبا وشرخ الشباب، فأغمضت عينان ألفت أن تطالع في نظرتها الحنان والمودة، وسكت لسان جعل يناغيها عامًا ويضع عام المناغاة الحلوة السعيدة، ويدلّها فيناديها نغومة مرة ونعمات أخرى، وجد الساعدان اللذان كانا يضمّانها إلى مرتع الوداد والهوى. انتهى تاريخ وبدأ تاريخ على عجز منها ورغم؛ لأنه كان قد قدر لها أن تلقى نصيبها الكثيف من الحزن والبكاء والحسرة، وأن تجلّ شبابها النضير بسواد الحداد أو سواد اليأس. ثم هجرت البيت الذي كانت سيّده ورثته فأخليت لها حجرة وعاشت عيشة لا تجد فيها أسباب الترحيب إلا ما تقضي به تقاليد المجاملة الظاهرية . . .

استوحشت دنيا الأحياء ولاحت لها معالمها غارقة في ظلال الكآبة والقنوط، فأغلقت دوتها نفسها، وولت عنها بقلب يأبى حبّه أن يستسلم للموت. ورمت بناظرها بعيداً إلى حيث ترقد القبور في سكون الأبدية ووحشة الفناء، فعند ذلك القبر سحت عينها دمعاً غزيراً ساخناً فروت جفاف قلبها ورطبت حرارته. ولكن أي قبر كان ذلك القبر? . .

قبراً قديماً انتبد ركنًا من فناء واسع موحش خال،

## همس الجنون ١١٣

وكانت توعدت وجوده بما شاءت من السخط المكتوم.. فلما لم تجده لم تر بداً من الارتياح والسرور.. لكتها تساءلت ترى هل اختفى لأن شاغلاً قطعه عن رؤيتها أم إنه عدل عن سيرته الأولى؟! وجاءها شقيقها وزوجه يوماً، وكان مضى على تاريخ الوفاة - ١٦ أغسطس - خمسة أشهر، وقال لها الرجل برقة:

- أرى أنه ينبغي أن ينتهي هذا الحزن بمشيئة الله! فنظرت إليه بعينها الصافيتين متسائلة حيرى، فقال لها الرجل باقتضاب مقيد:

- جاءك رجل يطلب يدك! وذكرت لتوها رجل الفيلا، ودق قلبها بعنف ولاحظت في عينها نظرة ارتياح فهتفت به منكرة:

- يا خبر!.. كيف تفاتحني بهذا يا أخي؟! فقال الرجل بهدوء ووقار وحزم:

- ولم لا.. أصغي إلي.. أين أبونا وأين أمتنا؟ الحزن إذا زاد عن حده صار معصية لإرادة الله، فلينظر الأحياء إلى حياتهم، أما الأموات فلهم رحمة الله عوض عن الدنيا وما فيها. فليس هو في حاجة إلى حزنك. كلاً ولن يغني عنه وفاؤك فتدبري أمرك بعين الحكمة.

وضمت زوج شقيقها صوتها إلى صوته وتكلمت بمثل حماسه وأكثر فقالت نعيمة لنفسها: لقد تحالفا معاً، ولعلها يرحبان بالرجل كي يريحهما منها فما من شك في أنها عالية ثقيلة عليها وأنها ضيقت عليهما البيت، فاستمسكت بهذا الخاطر وادارته في نفسها حتى ملأها، وكانت في الحقيقة اقتنعت بكل ما قاله أخوها من أنها لن تقيم على الحزن إلى الأبد، وأن حياتها أولى بالرعاية من موت الآخرين، ولكنها أبت أن تفكر في غير هذا الخاطر الذي توهمته توهمًا أو فرضته فرضًا وأمنت به بعناد، بل جعلت - فيما بينها وبين نفسها - تلوم أحباها على برمه بها، الأمر الذي ربما أجبرها على اختيار ما لا تود، أما شقيقها فاستدرك يقول:

- ولا تخشي لومة لائم فالرجل على استعداد تام لتأجيل الزواج حتى ينتهي العام.

خطرت ذكراه على فؤادها الحزين، ثم انشغلت بالحياة طوال الأسبوع واستأثر بها الحزن كل صباح جمعة. وكانت أول عهدا تمضي إلى المقبرة لا تلوي على شيء فلا ترى من الدنيا شيئاً، أما بعد الأشهر الأولى فلم يمنعها الحزن من أن تسير كبقية الخلق بعينين مفتوحتين، وفي ذلك الهدوء النسبي استطاعت أن ترى - في ذهابها إلى المقبرة وعودتها منها - رجلاً يجلس عادة كل صباح جمعة أمام الفيلا التي تشرف على مبدأ الطريق الصاعد إلى المقابر يرتدي جلباباً ومعطفاً، ويقطع الوقت بقراءة الجريدة وتدخين غليونه، كانت تراه دائماً بمجلسه هذا، فإذا مرت به صعد إليها عينين ثابتتين وحدجها بنظرة يلوح فيها الاهتمام الشديد. هكذا يستقبلها وهكذا يودعها ولعله كان يطاردها بنظراته منذ أول عهدا بهذا الطريق الموحش، وعلى أية حال لم يغير من عادته ولا وهنت مثابرتة، وبرمت بعينيه، وكرهت تفحصه لها.. لماذا ينظر إليها هكذا؟!.. وهل هو يتابع كل زائرة لهذا الطريق بهذا النظر العنيد؟!.. أيتسلى الرجل بهذا النظر الوقح إلى الثاكلات والأرامل؟!.. إلا أنها وجدت نفسها - بمضي الأيام - كلما شارفت مبدأ الطريق مضطرة إلى تذكره وتمثل نظراته العابرة التي سيلقاها بها.. بل جعلت تذكره بعد ذلك صباح كل جمعة وهي تتلفع بسوادها وتأخذ أهبتها لمغادرة البيت فقد صار هذا الرجل العنيد وكأنه جزء لا يتجزأ من طريق القبر، ولم ينفعها الغضب ولا أغنى عنها السخط ولا وجدت عن سبيله حولاً، ويوماً رآته مرتدياً بذلته فحسبت أنه مزعم المسير إلى بعض شأنه، وأملت ألا تجده عند إيابها، ولكنه كان يجلسه حين عودتها كأنه ينتظر في صبر وأناة، وما كادت تجاوزه بخطوات حتى نهض قائماً وتبعها متمهلاً!.. وحسبت أنها أخطأت الظن ولكنه انعطف وراءها إلى شارع البراد.. ثم إلى شارع الجميل.. ودخلت البيت مضطربة لاهثة فمر به في خطاه الوثيدة وألقى عليه نظرة جامعة!.. تبأ له؟!.. ماذا يبغي من وقاحته هذه؟!.. أما يحترم السواد الحزين الذي يجلل وجهها، وفي الزيارة التالية لم تجده بمكانه المعهود!



انشغالها عجز أخيها عن مساعدتها المساعدة الجديّة التي تريدها فناءت بحمل ثقيل رفعت المكافأة عن كاهلها بعضه لا كلّه. حتّى ذكرت يوماً فناء المقبرة الذي اقترح الدافن عليها مرّة أن تبيعه أو تبيع نصفه.

... وغلبها الوجوم للذكرى العابسة إلا أن الوجوم ذهب لحال سيّله، ولبثت تفكّر في ذلك الاقتراح القديم، وتمنّت لو تستطيع أن تسرق خطاها إلى الدافن وتحذّثه بأمره!.. ولكنه كان تفكيراً عقيماً لأن المدفن لم يعد ملكاً لها فلا تستطيع التصرف في قرش من ثمنه.. ولعلّ هذا ما ملأ نفسها أسفاً إلا أنّها التمسّت أسباباً أخرى لهذا الأسف فجعلت تلوم نفسها على قسوة أفكارها وتلعن الحياة التي تقضي سنّتها بأن يكون موت الوفاء عين الحكمة أحياناً!

وقبل أن ينتهي العام بأربعة أشهر قال لها الرجل الصبور وقد اطمأنّ إلى ظفره بقلبيها:

- ما جدوى الانتظار هذه الأشهر الأربعة؟! ألا ترين أنّنا في أواسط الصيف وأنه يحسن بنا أن نمضي شهر العسل في رأس البر؟

فخفضت عينيها كي لا يقرأ فيها ما أرادت كتّانها، وصمّت لحظات كأنّها مغرقة في تفكير عميق ثمّ تمتمت بصوت خافت:

- ليكن ما تشاء!

وتركها بلباقة إلى أفكارها ثمّ كرّ عليها مرّة أخرى صباح اليوم الثاني وسألها عمّا ترى؟.. ورأت نعيمة أن تلوذ بالصمت فطاب أخوها نفساً وأدرك أنّها وافقت، وسارت الأمور في مجراها الطبيعي. ولما جاء أول يوم جمعة بعد الخطوبة ذكرت القبر والزيارة المعتادة وتساءلت حيرى: هل يجوز أن يراها في الطريق الذي تعود أن يراها فيه؟!.. أليس الوفاء للقبر خيانة له؟!.. لشدّ ما يشقّ على الإنسان قطع عادة عزيزة ولكن ما جدوى الزيارة الآن؟.. لقد رضيت باستقبال حياة جديدة فأولئها أن تأخذ نفسها بالرضاء والقبول، نعم حسبت يوماً أنّ ذلك القبر سيكون قبليتها إلى الأبد ولكتّها لم تعمل حساباً للزمن. الزمن الذي يذيب الصخور ويفتت الصروح ويغيّر وجه البسيطة، أليس بقادر أن يمسخ عن قلبها شجونها؟ وقرأت هذه المرّة الفاتحة على البعد وقالت لنفسها إنّ البعد لن يمنع رحمة الله من أن تؤنس الثاوي في قبره، ومضت الحياة في يسر فانتصف العام وتوجّه قلبها وجهة جديدة فاطرح الحزن وأشرق بنور أمل جديد وتطلّع للغد بعين ملؤها الرجاء والحبّ. وجاءتها المكافأة وهي على تلك الحال فلم تفكّر في تجديد القبر المهتمّ ولا في غرس الفناء المعفّر ولا عاتبته نفسها على إهمالها. والحقّ أنّها كانت عن ذلك في شغل من أمر جهازها الجديد وإعداد ثياب الحياة الزوجية الجديدة، وزاد من

## المرض المتبادل

الطبيب قائلاً:

- وأسفاه، إنَّ الشهوات تعمي الرجال حتَّى المتزوّجين منهم! ومهما يكن من شيء فالواجب يحتمّ عليك أن تجاهي زوجك بالحقيقة وقد كان الواجب عليه أن يصونك من عواقب مغامراته. أمّا وقد وقع المحذور فلا محيد من تنيبه واصطحابه إليّ وإلاّ ذهبت محاولة علاجك سدى.

ولكن خرجت من المرأة صرخة مبسوطة وقالت بسرعة وهي تلهث:

- كلاً.. كلاً.. لا يمكن أن يكون ذلك.. بادر إلى علاجي ودع أمر زوجي.

- ولكن...

- بالله لا تجادلني.. لا ينبغي أن يعلم زوجي من الأمر شيئاً.. أذّ واجبك وسينتهي الأمر إلى خير إن شاء الله..

فاستولت الدهشة على الطبيب وأنعم النظر في السوجه القلق الذي طغت آلام نفسه على آلام جوارحه. فطالع فيه الألم والرعب والإثم.. يا للهول! أيمن أن يكون ما لم يقع له في حسابان أبداً.. أيمن أن تكون هي الجانية على نفسها، وربّما على زوجها أيضاً.؟

وما من شكّ في أنّ الزوج مهتدّ بخطر عظيم، إن لم يكن أدركه بالفعل فهو على وشك أن يدركه، وربّما وقع في متناول الأذى أطفال أبرياء يجنون.. فما العمل؟ وكيف يتأتّى له أن ينقذ هذه النفوس ممّا يوشك أن يجيق بها من غير أن يهتك ستر هذه المرأة الآثمة الهلعة المتألّمة..؟

وأحاط به همّ التبليل والحيرة حتّى ضاق صدره

فرغ الطبيب من الكشف على الزائر الخامس في صباح ذلك اليوم، ولبث ينتظر المريض السادس، فدخلت سيّدة مقنّعة رشيقة القامة وسفرت عن وجه غاب جماله البهيّ خلف مجعدات الألم كوردة بيضاء سفا عليها عجاج الخمسين، وقد بادرت هاتفة:

- الغوث أيها الطبيب!

فدنا منها وعلى وجهه ابتسامة تبعث الطمأنينة وسألها:

- ما بك يا سيّدي؟..

فارتمت على مقعد بين يديه وراحت تروي له قصة ذلك المرض الويل الذي فاجأها لدى الصباح فاضطرّها إلى أن تقصد إليه دون أن تترتّب لحين أوبة زوجها من الوزارة. واستمع الطبيب إليها في دهشة وحيرة وهو يحاول عبثاً أن يوفّق بين ما يروى له، وبين هيئة السيّدة المتزوّجة التي تنطق بالحشمة والصون.

ثمّ أتى واجبه الدقيق بعناية فثبت لديه ما كان منه في ريب واكفهرّ وجهه وهو يقول:

- سيّدي.. إنّه لأمر مؤثّر.. لقد أصبت بمرض خبيث.. بمرض سريّ..

فانقبضت المرأة قائمة وجحظت عيناها من الملح والذعر، وقد ضاع ألمها المبرّح في تيّار الخوف الجديد وصاحت به:

- مرض؟..

- نعم يا سيّدي.. إني أعني ما أقول، ولكن هدّني من روعك واملكي زمام نفسك حتّى لا تجرّ هذه الكارثة وراءها كوارث أخرى أشدّ إبلاماً. أفلت إنك متزوّجة؟

فأحنت رأسها أن نعم وهي لا تدري، فاستطرد

فحدّث نفسه: لماذا أزعج نفسي في شئون الناس وآلامهم..؟ إني طبيب وما ينبغي لي أن أجاوز حدود مهنتي.. وبين يدي امرأة ملوّثة فلاشروع في معالجتها والأمر من بعد ذلك لله.

واطمأنت نفسه إلى هذا الرأي وهمّ مباشرة عمله، ولكن سرعان ما عاودته أفكاره وقسرتة نفسه على مراجعة التفكير في أمر هذه الأسرة المهذّدة فرأى أن يتخذ طريقاً وسطاً فقال:

- سيدي. ينبغي أن تعلمي أنّ زوجك في خطر عظيم.. وأن إخفاءك الأمر حيناً لن يمنع الحقيقة من الظهور.

فاختلجت عيناها كالزئبق المترجرج وقالت:

- كم يقتضي العلاج من الزمن..؟

- أسبوعين على أقلّ تقدير ومع أكبر عناية.

- أوآه.. إنه الدمار.

- فإصابة زوجك محتومة..

- من اليسور أن أدعي توقعك المزاج هذه الفترة وأن أباعد ما بيني وبينه حتى أبرأ.

- فإن كان قد سبق السيف العذل..؟

- أوآه يا سيدي.. لا يمكن أن أنتحر مختارة، ثم إن زوجي رجل مستقيم يصعب عليّ صكّه بالحقيقة المروعة.. فذبح الأمور تجري على مشيئة الله فلعلّ الله حفظه من الأذى، وعسى أن يجعل من بعد عسر يسراً.

وساد سكون عميق مؤلم.. وكأنّ المرأة تذكّرت شيئاً فجأة فنظرت إلى الطبيب جزعة وسألته:

- سيدي. هل يبقى هذا سرّاً مكتوماً..؟

- طبعا.. طبعا.. اطمئي إليّ كلّ الاطمئنان،

فصدر الطبيب مقبرة للأسرار لا تنبش أبداً.

فتنهّدت من قلب مقروح وقالت:

- إذن فلنبداً من الساعة.. وسأوالي الحضور إلى

هنا كلّ صباح إلّا يوم الجمعة.. ولأنظر ما قدر لي.

ولما انتهى من عمله وهمّت بالخروج استمهلها لحظة

وجلس إلى مكتبه وسألها:

- ما اسم السيّدة..!

فبدا على وجهها الرعب وسألته:

- ولم هذا..؟

فقال يطمئنها:

- لا تخافي ولا تحزني.. إنّها تقاليد متّبعة.. انظري

إلى هذا الدفتر تجديده مزدحماً بأسماء المرضى وعناوينهم.. لا تخشئي شيئاً واذكري أنّي طبيب لا أكثر ولا أقلّ..

فقالته وهي تتنهّد:

- حرم محمّد عبّاس أفندي موظّف بوزارة الأشغال.

\* \* \*

وفي صباح اليوم الثاني جاءت السيّدة وقد قالت للطبيب إنّ ما يبدو على وجه زوجها من الهدوء والصحة ينعش الأمل المحتضر في صدرها. فلما أن كان المساء دخل على الطبيب زائر جديد في الثلاثين، مليح القسّات طويل القامة، تسم وجهه آيات الذكاء والجرأة، فحبّبا الطبيب قائلاً:

- مساء الخير.

- مساء الخير.

فضحك ضحكة جهد نفسه أن تكون مرحة طبيعية، ولكنّها لم تستطع أن تخفي القلق المساور لنفسه وقال:

- أصبت يا دكتور.

- بيمه..؟

- بالذي يصاب به من يقصدونك.

- وأسفاه.

- أتأسّف حقاً يا دكتور.. أيرضيك أن يزدجر

الناس عن الهوى وأن تحسر جمهور المترددين عليك..؟

- لا أظنك قد جئت إلى هنا لتتفلسف.. اتبعني إلى

هذه الحجرة.. ولكن انتظر لحظة، أرجو أن تملي عليّ

الاسم الكريم.

- محمّد عبّاس.. أنا جارك يا دكتور. وإن شئت أن

تعرف صناعتي فأنا مهندس بوزارة الأشغال.

يا للمفاجأة! كادت تفلت من بين شفّته آهة دهشة

وانزعاج، وهمّ أن يرفع رأسه عن الدفتر بحالة عصبيّة

## مس الجنون ١١٧

خير العواقب. فحاول أن تصحبها إليّ من غير أن تثير شكوكها.

فبدت على وجه الرجل الحيرة وقال وهو ذاهل عن نفسه:

- أحاول.

وحدّث الطبيب نفسه بعد أن غاب المهندس عن ناظره: إن الله يريد الخير بهذه المرأة. وكأنّ الأمور تسير وفق مشيئتها، فسيأتي بها إليّ، وأكشف عليها وأعلنه بإصابتها. فيوقن في نفسه أنّها ضحيته دون سواه، ويبرأ على يدي ويعود الرجل بزوجه رافعاً يديه حمدًا لله وطلبًا لغفرانه. وهو يجهل أنّ زوجه فرطت في حقّه أضعاف ما فرط في حقّها. فيا لرحمة الله..

ولكنّ ليس من الظلم أن يغشى الله بستره خبيثة هذه المرأة الآثمة؟  
فيا لحكمة الله.

\*\*\*

وحان موعد مجيء المرأة ولم تحضر، فترجّح لدى الطبيب مجيئها مع زوجها عند المساء، ولكنّ المهندس أتى وحده وكان بادي التغيّر، منكفئ الوجه، مصفرّ اللون، منطفئ البصر كأنّه تقدّم في الكبر أعوامًا، فتوقّع الطبيب مفاجأة وبلاء وسأله:

- ما بك..؟

فهزّ رأسه بحزن وقال:

- ماذا تحدثس...

- لعلّك راودتها على المجيء فأبت وعصت...

- كان يهون..

- آه.. إذا قد انفضح أمرك ولم تتقن تمثيل دورك... ونلت جزاءك على يديها.

فسها الرجل لحظة ثمّ قال بصوت تقطعه حشرة اليأس:

- يا بؤس هذه الدنيا..

فهزّ الطبيب كتفيه استهانة وقال:

- كثيرًا ما أسمع هجاء مريّرًا يصبّ على رأس الدنيا، ولكنّي أعتقد أنّ الإنسان هو الخالق الأوّل لهذه

نتمّ عمّا يضطرب في صدره، ولكنّه ذكر تمجّج الموقف واشتعاله على ما يهدّد بالويل، فصرّ بأسنانه وأحنى رأسه حتّى كاد يلمس الصفحة المبسوطة أمامه ليخفي معالم وجهه عن القاعد تجاهه.

إذن هذا هو الزوج المنكوب، وقد أصيب بما كانت تشفق زوجته عليه وعليها منه.. ترى كيف كان وقع البلاء على نفسيهما.. كيف اكتشف المرض وكيف تحسّس مصدره..؟ وماذا جرّ ذلك على حياتهما الزوجية؟ وأين يا ترى المرأة الآن..؟ وكيف قرعتها الفضيحة وكيف تتجرّع عواقبها. ليتّه يعرف كلّ شيء..

أما الآن فما عليه إلا أن يؤدّي واجبه. وخطا بالفعل نحو الحجرة الداخلية ولكنّه سمع المهندس يقول له بلهجة حزينة:

- إنّي أخشى يا دكتور أن تعقب هذا المرض مأساة أليمة.

فسأله وهو ما يزال شاردا لللبّ.

- وله؟

- لأتّى زوج.. وربّ أسرة.

فقطبّ الطبيب جبينه وبدت عليه آيات الدهشة، وفهم الرجل دهشته على غير حقيقتها فقال:

- هكذا ترى أنّه ليس العزّاب فقط هم الذين يأثمون..

- أتعني أنّ زوجك مهتدة؟..

- طبعي يا دكتور.. إنّ موقفني غاية في الحرج.. والذي يضاعف لي الآلام أنّها سيّدة طيبة لا تستحقّ أن تجزى هذا الجزاء السيّء... فما العمل؟..

يا عجبًا!.. لقد وضح وبرح الخفاء: كلا الزوجين آثم، وكلّ منهما ينحى باللائمة على نفسه. وكاد يستسلم لتيار أفكاره لولا أن سمع الرجل يلبّخ عليه في السؤال ويكرّر قائلاً:

- ما العمل يا سيّدي الطبيب؟..

فقال له:

- بالحكمة تستطيع أن تصرف الأمور المعقّدة إلى

بكل شيء: يجب أن تصغي إلي.. تعالي معي إلى الطبيب لأنني مصاب وأريد أن أعرف.. ولم أتم كلامي لأنها انتفضت قائمة متصلبة كالأفعى المتوتبة للاقتراس وجحظت عيناها ولم تتمالك نفسها فسرت في جسدها رعشة شديدة فأدهشني ذلك وسألت نفسي: ما لها..؟ وهممت أن أعاود الكلام في ملاطفة مصطنعة ولكنها قطعت علي الطريق بهزة عصبية ما زالت تكررها بعنف جنوني حتى تلبست صورتها هيئة غريبة تنذر بالويل، فازدادت بي الحيرة وسألتها: (ما الذي يربك؟ لم تحشين الطبيب؟) فصاحت بصوت ملتو لا تكاد تميز نبراته: (الرحمة.. الرحمة) ولكن عاودني الغضب بحالة لم تأذن للرحمة أن تأوي إلى مستقرها في قلبي: فخطوت نحوها أهدر غاضبا ساخظاً فصرخت: (محمد... الرحمة.. الرحمة.. لقد كشف الله خبيتي.. أنا الجانية على نفسي وعليك.. أنا أعرف أنك تعلم ذلك ولكنني استحلفك الله بالألأ تمسني... طلقني ولا تمسني) ثم ارتمت بين قدمي مغمى عليها.

ما معنى هذا..؟ لقد تسابقت الظنون إلى قلبي. وانصبت الشكوك في عقلي، واكتظ بها رأسي فانصهر من الحرارة والالتهاب، وخلت أن شعر رأسي يقف ويتصلب كشعر القنفذ.

إن المرأة لتبهظ الرجل وتتقل كاهله وهي تؤمن بأنها لم تجاوز بعض حقوقها، أما إذا اعترفت بأنها جانية وسألت الرحمة ووقعت مغشياً عليها فلن يكون ذلك إلا لأمر واحد.

يا عجباً... فقد ذهبت جانياً أثماً فإذا بي مجنى عليه. رحمت أكفر عن ذنبي فإذا بي ضحية تعسة! ماذا يمكن أن يفعل رجل في مكاني؟..

نعم لقد قارفت من الذنب ما قارفت، وسقطت في الهاوية التي ابتلعها فهل من المستطاع أن أسدل ستاراً كثيفاً على تاريخ الإثم كله! وأن أحمّل عقاب الله الصارم في صبر، وأروض نفسي على العفو والصفاء؟..

الآلام التي يتملص من تبعثها ويلقيها على عاتق الدنيا...

- كما تشاء... اعلم يا سيدي الطبيب أنني في الفترة القصيرة التي تغيبها عنك أحدثت في حياتي حدثاً هائلاً، فقد فصل الطلاق بيني وبين زوجي، وحرمني نور أطفالي حيناً سأخاله دهرًا مديدًا...

يا للهول... ترى ما الذي حدث؟.. وكيف حدث؟.. فإن قلبه يهمس له بفحواه، ولكنّه لا يدري تفاصيله ولا يستطيع أن يرجم بما قلب منطلق الحوادث وجعل عاليها سافلها...

واستولت عليه الدهشة وباتت عيناه تلحان بالسؤال بأفصح مما بين اللسان... فقال المهندس:

- إليك قصتي بكل إيجاز: غادرتك ليلة الأمس وقد صدقت نيتي على دعوة زوجي إلى زيارتك كي يطمئن قلبي، ولكنني كنت مضطرباً لا أدري كيف أبدأ باقتراح الأمر عليها ولا علم لي إن أنا اقترحت بما أبرره به، فأنخذت مكاني على مقربة منها بادى الهمة والفكر. وللحال لاحظت طوارئ الهمة والاضطراب تزحف عليها زحفاً، فظننته صدى لاضطرابي وهمي واستجابة لها. وتلبت أنتظر أن تبدأ بسؤالي عما يساورني فلم تفعل، فضقت بالأمر ضيقاً استفزني إلى طرح هذا السؤال: «ألا تشكين من شيء..؟ ألا تحسّين بألم ما..؟» فحملت في وجهي بعينين هالعتين وقالت باضطراب: (كلأ... كلأ... والحمد لله) فتمالك نفسي وقلت كاذباً: (ألاحظ عليك هذه الأيام بعض الاضطرار والتغيير، وقد رأيت أن اقترح عليك زيارة طبيب.. فما رأيك..؟) فردت بحدة وبلهجة من يتحمس لدفع خطر مروع: (كلأ... كلأ... أنت واهم ولا لزوم لذلك ألبتة.. إني أكره الأطباء وسبج وساوسي الاستماع لنصائحهم).

فطال طلاي وطال رفضها، فألححت عليها فأصرت، فرجوت وتوسلت فعندت وازدادت تشبثاً، وعبثاً حاولت أن أثنيها على رأيها حتى دهشت لإصرارها وضقت صدرًا بها، وبفسي، فاهتاجني المرض والغضب وصحت بها بجنون جعلني أستهرت

## همس الجنون ١١٩

إنه حلّ روائيٍ قد يستحسنه غيري ويعطف عليه  
 نفر قليل من الناس، أمّا أنا فقد انسقت مع طبيعتي  
 بالطلاق على رابطة الزوجيّة: فخرّب بيتي وانتزعت  
 الحضانة منّي أطفالاً أعزّة، كانوا نور حياتي المشرق،  
 فأصخت إلى صوت الغضب في قلبي، فهويت  
 فسبحان الله أحكم الحاكمين.

## حياة مهزج

الضحك حتى دمت أعينهم. ولم يقنع بهذا الفوز فتقدمهم في الحارة وتبعوه وهم يصفقون تصفيقاً توقيعياً وهو يرقص ويقفز ثملاً بخمر الفوز والفرح.

كان يستلهم الأعيه غريزة حيّة توحى إليه. وكان قلبه الصغير لا يذوق السعادة إلا حين يضحك ويهيج ضحك الآخرين ولو من نفسه بل إن نفسه ليجود بها في سبيل الضحك.

هكذا تفتقت موهبته الخارقة في حارة جعيصة. ثم لم تقف من بعد ذلك عند حد. فمن آياته في ذلك العهد البعيد أيضاً أنه كان يحاكي بمهارة فائقة أصوات الكلاب والقطط والبقر والحمير والجران. وأنه حفظ على حدائث سنة أغلب القفشات والنكات البلدية التي تلقى جزافاً في القهاوي و«الغرز»؛ بل كان إذا أعوزه سبب لإثارة الضحك يمدّ قفاه للرفاق فيصفعونه ويضحكون.

وكان يندفع في سبيله بقوة غريزة مستحكمة قهارة كأنه فتان صادق أمين. ولم يقصد قط أن يتقاضى عن فته أجراً. ولكنّ المجد أتاه طوعاً بجرّ أذياله. وإذا به يشغل مكاناً عالياً بين الرفاق الصغار. وإذا به قطب يهدفون إليه ويطوفون به ويبدلون في سبيل مرضاته الدوم وأبو النوم وغزل البنات.

ولكنّ للطفولة نهاية ككل شيء في هذه الدنيا. وقد ودّع عهدها الجميل واستقبل عهد الشباب واشتغل في حانوت والده في أول شارع الخرنفش ببيع الخردوات. وأراد أبوه أن يزوجه فتزوج وكانت زيجة سعيدة وصلت ما بين آل شلضم الكرام وآل الأعمش معلّم العربات الكارو الشهير وسيّد موقف النحاسين. وعمرت بيت شلضم الفتاة المهذّبة حميدة ربيبة

توفّي بالأمس السيّد حسن شلضم بمنزله الكائن في حارة جعيصة بالخرنفش وانتقل من مقرّه الدنيوي إلى مثواه الأبدّي في جناز متواضع اقتصر على أبنائه الثلاثة وشرذمة من الأصحاب عدا عربة كارو حملت بناته الثلاث وأمهنّ وامرأتين أو ثلاث أخريات.

لم يكن السيّد المتوفّي إلا مهزّجاً. أو كان أشهر المهزّجين الذين جمعت حياتهم بين الربع الأخير من القرن التاسع عشر والنصف الأوّل من القرن العشرين. ومن حسن الحظّ أنّ الفنّ لا يأخذ بمقاييس المجتمع في تاريخ الرجال وإلا ما كان للمتوفّي حظّ من الذكر. وما أجل الفنّ في شموله هذا، فقد كانت حياة السيّد حسن ينبوعاً دافقاً من ينابيع اللذات والشهوات، كان قطب حياة كاملة من الأفرح والمسرات، ومعيناً فياضاً للضحك والبهجة والخبور، وعزاء لنفوس لا عداد لها.

ولد في عام ١٨٧٩ واستقبل الشعاع الأوّل في الحياة في حارة جعيصة ثمّ في فناء بيت آل شلضم وأخيراً في كتاب الشيخ هريدي.

كان منذ صغره ميّالاً إلى المزاح نزاعاً إلى العبث ولكنّ توجد حادثة في تاريخه يصحّ أن نعتبرها مبدأ لحياته التي عُرف بها فيما بعد: إذ كان يمرّ في طريقه إلى الكتاب بقهوة خضراء الباب والنوافذ فراقه لونها وجذبه إليه وما يدري إلا وهو يمسك بحاشية جلبابه ويبلّها بقليل من الماء ويمسح بها رقعة من باب القهوة حتى امتصّت لونها. ثمّ لطح به وجهه ورقبته وقفاه. ويداه الصغيرتان ترتجفان من الفرح. ثمّ هرع إلى رفاقه الصغار لا يلوي على شيء وصاح بهم: «إي... إي... انظروا! والتفوا حوله دهشين وأغرقوا في

## همس الجنون ١٢١

بالمبدئين الصالحين لعبقرته الفذة، وأنه ينبغي أن يهاجر إلى شارع الأنس والطرب ومجمع العشاق وأهل الهوى. وأصاخ الشاب إلى إغراء الهمس وأسلم قياده لمن دله على الطريق وهناك اطلع لأول مرة على ذلك العالم الفائر الذي تتجاوب فيه الأنوار ما بين المصابيح والكؤوس وتمترج به أهات الدلال وأهات المواويل وتتصل حركات البطون بقفزات السكارى وتلويح العصي. ولم يعدم في تلك الدنيا العامرة صديقاً لأنها كانت مبيت عدد عديد من أثرياء الجمالية، فتلقوه بترحاب وأوسعوا له حول موائدهم. وإلى هنا اختتم الشاب حياة واستقبل حياة. اختتم حياة ساذجة طاهرة قوامها الفن واستقبل حياة ترف وعردة أساسها الاحتراف. وقد أكرمه أهل الهوى فترعوا عنه الجلباب والعمامة والمركوب وخلعوا عليه جبة وقفظاناً وحذاء أصفر لامعاً وطربوشاً أنيقاً. وأكل مما يأكلون لحماً مشويّاً وعصافير محمرة ونقلًا لذيذاً وشرب مما يشربون خمراً معتقة ونبيداً أحمر وأبيض. وفي مقابل ذلك كان يقطع لياليهم الهائلة بالنكات الممتعة والملح النادرة والقفشات البارعة. وتنقل من حانة إلى حانة ومن ملهى إلى ملهى وهو يكتسب في كل مكان أصدقاء ومعجبين ومريدين. وامتدت شهرته من ذاك الشارع المنير إلى جميع حلقات الغناء والسمر والطرب في القاهرة الخالدة الحاملة وعلا نجمه وشع نوراً بهيجاً، وطغت عبقريته واستحكم ظرفه حتى أصبح حبيباً إلى كل نفس عزيزاً على كل قلب. تشتهيه الأنفس، وتلهف عليه المهج، كان لكل داء دواء طارداً للهمم. كاشفاً للكرب، أو كان روح كل مجلس أنيس، ينقلب إذا غاب عنه كئيباً واجماً.

كانت غاية حياته أن يضحك ويُضحك الآخرين ولو من نفسه، ولم تكن هذه الغاية فلسفة حياة ولكنها طبع وغريزة يندفع في سبيلها كالأعمى وكأنتها صادرة من أعماقه لا يمكن أن يوقفها شيء. وكان ظاهر حياته يدل على أنه يربح من وراء هذه الموهبة جاهاً عريضاً وسعادة متصلة وطعاماً وشراباً. ولكنّه كان في الحقيق يدفع الثمن غالياً وبذله من كرامته وكبريائه، لأنّ همه

الحجرات المغلقة، التي لم تقع على وجهها عين غريب أو لم تر نور الدنيا إلا خلل خمار كثيف ألقى على وجهها ساعة انتقالها في الزفة من العطوف إلى حارة جعيصة. وقد وجد فيها حسن أول شخص يحترمه ويباهه على ظهر البسيطة. كانت تدعوه «سيدي» ولا تقعد في حضرته إلا إذا أذن لها، فإذا أذن جلست عند قدميه على شلثة واستلقى هو على الكنبه في كبرياء. ولكن مع الأيام بعد أن صارت أما لحسونة ومتوتى وأبو سريع وزينب وخديجة ونبوية طمعت في مجالسته في طمأنينة وثقة.

صار السيد حسن شاباً عاملاً وزوجاً. ولكنّه لم يقلع عن لوه وعبئه. كان يقضي نهاره في الحانوت، أما ليله فكان يلاحق أصحابه في قهاوي الخرنفش ومرجوش والغورية ويساهرهم الليل يشربون الزنجبيل والقرفة ويدخنون الجوزة ويتسامرون ويتضحكون. كان يجلس على أريكة مرتباً ويضع إلى جانبه مركوبه وعلى المركوب عمته ويقذف بنكاته وقفشاته ذات اليمين وذات الشمال غير مُبقي على إنسان، والجمع من حوله يضحك ويقهقه ويسعل. وشهدت تلك الفترة من شبابه أبداع وأكبر مجموعة من النكات البلدية التي سارت مع الزمن سير الأمثال وصارت من محفوظات أهل البلد وأداهم التقليدية يلوذون بها في مناظراتهم اللطيفة ويستعيرون منها في معاركهم الهزلية ويستشهدون بها كلما لجح بهم الشوق إلى الفكاهة والمرح. فكان فتاناً إلى درجة ما. وكان من الفنانين المغمورين. ولكن من حسن الحظ أنه لم يكن يفهم من معاني الخمول ما يمكن أن تذهب نفسه معه حسرات على خموله النسبي. والحق أن آيات السيد حسن شلضم التي ألقها في تلك الفترة البعيدة لا تزال جارية على الألسن وممتظلة محتفظة بفكاهتها إلى أن تتغير العقلية البلدية أو أن يضعها مكتب الآداب في قائمة المحرمات.

ولبت الشاب يجي السهرات الساذجة في ذاك الحيّ بضع سنين، ثم ولّى وجهه وجهة أخرى. كان كثير من رفاقه لا يفتأ يذكره بأنّ المرجوش والخرنفش ليسا



المزاح كالسيد حسن ولكن على طريقته الخاصة الجديدة، فما كان يفحش في القول ولا يقذف بالسباب والهجر، ولا يحاكي الأصوات والأشكال ولكته كان يفتن ويتفوق في إرسال النكتة الخاصة الأدبية والملاحظة الساخرة والتهكم اللاذع.

وكان يصف نكاته فيقول إنها ملح أدبية وفكاهة عالية، ويغمز السيد حسن فيقول عن الفكاهة القديمة إنها سباب وفحش، ويحمل على «قافية أهل البلده» فيقول إنها أقوال مكررة مبتذلة ونوادير محفوظة وجناس سخيف لا روح فيه. . وكان السيد حسن يصغي إلى هذه الأقوال في عدم اكتراث وهزه وربما نال من قائلها على طريقته باستهانة، ثم لم يلبث أن حقد عليه وكرهه لأنه كان إذا قال نكتة ظريفة بادر الشاب إلى تعكير الصفو بسعال أو حمحة أو بطرحه فجأة سؤالاً جدياً عسى أن يهيج اهتمام القوم ويلهيه عن أثر النكتة. ورأى فيه عدواً حقيقياً فشمّر للكفاح والمنافسة في ميدان المزاح واللهو، وانقضّ على الزنفل وانقضّ الزنفل عليه واشتبكا في معارك حامية واستعمل كل ما وهبه الله من الذكاء والبداهة والفكاهة وصنع المستحيل ليربح الأنصار والمعجبين والمصدقين.

فإذا صاححت الديكة مذكرة اللاهين بأن الفجر انبثق انفضّ القوم فرحين وعاد العدوان مهمومين مفكرين يحصي كل منها ما أثاره من ضحك وما أهاج من مسرة وما ابتدع من فكاهة ويذكر أسيفاً حزيناً ما ظفر به عدوه من آي النصر والتفوق ومن ضحك له من الرفاق. وظل كبار التجار وأهل البلد على ولائهم القديم للسيد حسن شلضم أما الزنفل فقد اكتسب الكثيرين من الأفندية والبكوات. وكان لذلك وقع شديد في نفس السيد حسن فقد كانت الدنيا جميعاً له يرح فيها كيف شاء ففتح مضطراً مقهوراً بنصفها.

ولكن غلام الأسف والحزن؟ إن هذا العالم الجديد لا يستحق أسفاً ولا حزناً. أين السادة الكرام الأجلاء؟ مات أكثرهم وانزوى من بقي منهم على قيد الحياة، إما لمرض أو فقر. . أين السيد جلال الشابوري رحمه الله الذي كان يتقده جنيهاً ذهبياً للنكتة

الأول كان في التجبب إلى الناس وإدخال السرور على قلوبهم، وقد علم بغريزته أنه ينبغي لذلك أن يكون خفيفاً لطيفاً فلا يجوز أن يعارض رأياً ولو خالفه بقلبه. ولا أن يغضب ولو مُتت كرامته، ولا أن يقاوم وإن هوجم وضيق الخناق عليه، فنال ما يشتهي من الحب وفق ما يشتهي ولكته خسر الاحترام إلى الأبد.

ومهما يكن من أمر فقد تسّم السيد حسن شلضم ذروة المجد للحب. ويسلّط سوط الإرهاب على رءوس آله جميعاً ولا يتكلم إلا أمراً أو متتهراً أو ساباً، وكانت حميدة ترتجف رعباً في محضره، وكان أبناؤه إذا سمعوا صوته فزوا إلى ركن قصي وانكمشوا فيه.

ومهما يكن من أمر فقد تسّم السيد حسين شلضم ذروة المجد ونال من الشهرة قسطاً لم ينله أحد ممن سبقوه ولن يتأق لمحدث أو مهرج بعده أن يناله، ومضت ليليه سعيدة هائلة راضية، يجيها أكلاً شارباً ضاحكاً.

واصطدم وجه الأرض بأحداث مروعة فوقعت الحرب وتوالت النكبات على الدنيا ثم قامت الثورة في مصر. وطفت بين من طفت بهم إلى السطح بالزنفل أفندي الذي ظهر في أفق السيد حسن وإخوانه بعد عهد الانقلاب فأضافه السيد حسن إلى أعاجيب الثورة كيداً وحقداً، وقد أتى به ذات مساء أحمد بك فائق وقدمه إلى جماعة السيد حسن قائلاً: إنه شاب مثقف ومن أطرف الظرفاء، وما كان يسوء السيد حسن أن تزيد جماعته واحداً، فما كاد يطمئن به المجلس حتى جرت النكت على لسانه كالسيل، ومضى يعلق على آراء القوم وأحاديثهم بما تخترعه نفسه الذكيّة من الصور الساخرة والنوادير الأخاذة فتبعث تعليقاته وراءها عواصف من الضحك والفقهة. ولبت السيد حسن صامتاً لا يتكلم يرمق صاحبه بعين فاحصة ويقول لنفسه: ترى هل هو زائر عابر أم قضي علي أن ينافسني طفل على آخر الزمن.

والظاهر أنه فضي عليه حقاً أن ينافس الأطفال في النهاية؛ لأنّ الزنفل لم يكن زائراً عابراً، لكنه أصبح بسرعة عجيبة عضواً لا يبر من الجماعة، وكان يتهن

## همس الجتون ١٢٣

مكانة خاصّة في جماعات الهوى فقد ابتذلت صناعته وبات كلّ يهرّج لحسابه الخاصّ.

وفي ذات مساء، وكان السيّد حسن يجتسي كأسًا من الكونياك في حانة بسوق الخضار سقط بغتة فاقد النطق.

ورقد أخيرًا على الفراش، مسلّمًا جسمه الهائل إلى قبضة المرض الجبار، وقد تمرّدت أعضاؤه جميعًا على إرادته وبات عاجزًا عن تحريكها إلاّ عينيه يقلّبها ذاهلاً في سقف الحجرة ذي العمد الخشبيّة العتيقة يبرز من شقوقها ذيل البرص أو رأسه ويغشي ما بينها نسيج العنكبوت.

إنّ تلك الحياة العامرة بألوان اللذات والسرور والأفراح قد اختتمت بهذا الرقاد الأليم. وإنّ النور والغبطة والرفقاء قد تفانوا في هذه الظلمة الموحشة. وانتهى كلّ شيء كما ينتهي الحلم الحلو وانتهى في لحظة قصيرة كأنه لم يدم سنين وسنين، وجاءت الساعة الرهيبة التي يتساءل فيها الإنسان في حسرة مريرة.. أحقًا كان هذا الجسم سليماً؟.. أحقًا كان هذا القلب حيّاً؟.. أحقًا كانت الدنيا حلوة سعيدة لذينة الطعم؟.. أحقًا ذهب كلّ هذا إلى غير رجعة؟

وقاوم جسمه المرض بضعة أشهر. قضاها في وحدة ووحشة وقنوط. لم يزره فيها سوى أبنائه وبناته، ذلك الرجل الذي كان يومًا قلب القاهرة السعيد وثغرها الضاحك، حتّى وافاه الأجل بالأمس القريب في ذلك البيت العتيق بحارة جعيسة الذي شاهد مولده وعرسه ومجده وأخيراً.. مماته.

الحلوة؟ أين الشيخ طلعت الإسلامبولي الذي كان يهديه كلّ ثلاثة شهور جبة وقفطانًا لا يقدران بثمن؟. هذا إلى الفواكه المختلفة في إبان نضوجها؟ ذهب الجميع، ذهب دنياهم الحلوة وبقيت هذه الدنيا العجيبة التي يخطب فيها النساء في المحافل العامّة ويهدّد التلاميذ معلّمهم بالإهانة والضرب. ويغنيها عبد الوهّاب بعد عبده الحامولي ومحمّد عثمان، ويبيع فيها قطار القطن بريالين، فهل هذه دنيا يأسف السيّد حسن شلضم على أنّه ليس فارمس ميدانها؟

وكان يداعبه بعض معارفه أحيانًا فيقولون له «راحت عليك يا سيّد شلضم». فكانت تقع من نفسه موقع السّم الزعاف وكان يصرّ على أسنانه المترّمة ويتصنّع الاستهانة ويقول:

- ساعحك الله يا غلام، أنحسب أنّ شلضم من الهوان بحيث يرضى أن يهرّج في هذا الزمان البائس المازوم؟ أو أن يمازح هذا الجيل الذي لا يتذوق النكتة! فشرّ وألف فشر! إنّ مثلي ومثل الزنفلى فكالحمولي في الزمن القديم، وهؤلاء المغنّين النائحين الذين يتسترون على عيوب حناجرهم بالإكثار من الآلات والموسيقين.

والحقيقة أنّ ظلّه أخذ يتقلّص بسرعة ومضى الموت يقتنص رفاقه أو المعجبين به واحدًا بعد واحد، وتزايد على الأيام شعوره بالوحشة والغربة.

تغيّر كلّ شيء. حتى موطن اللهو القديم الذي كان ملهى الكبراء والأثرياء أصبح مباءة السوء وسوق الأوباش واللصوص والبلطجيّة، ولم يعد للمهرّج

## عَبَثُ ارِسْتُقْرَاطِي

الوجه نور الدين فكان يتوسط حلقة أخرى يروي فيها ما اتفق من قصص مغامراته الغرامية في العواصم العالمية ذوات الشهرة في الحب والجمال؛ وفي ركن منعزل امتاز بوفرة من حوى من الشابات والشبان أقيمت مسابقة سرّية لاختيار أقبح امرأة بين المدعوات. وأتجهت أبصار المحكمات والمحكمين إلى امرأة اتّخذت مكانها تحت صورة الفنانة وابنتها ولفيجيه لوبرين» وكانت عمجوزاً إلا أنّها تتصابى وتستعير من ألوان الجمال ما تظنّ أنّه يغني عما استرته الدهر من حياة شبابها. فبدت تحت طلاء الأصباغ في هيئة مضحكة، وكانت تتجنّب الناس وتقنع بالجلوس منفردة حتّى تعود إلى مجالستها ربّة الدار أنجي هانم كلّما تاقت نفسها إلى الراحة. أمّا اسمها فدوّلت هانم وقد راضت نفسها على العزوبة بعد تجربة أربع زيجات غير موفّقة، وكادت تياس من الرجال والحبّ، وقنعت من متاع الدنيا بمضغ الأعراض والخوض فيما تعلم وما لا تعلم من أسرار الناس، فصارت معجماً لتواريخ السوء. وكانت في تلك اللحظة التي اختيرت فيها سرّاً ملكة للقيح. تجالس أنجي هانم، وكانت تلوذ بالصمت قسراً بعد أن لم تبقّ على أحد من الحاضرات والحاضرين، حتّى أتاحت لها فرصة جديدة للكلام بحضور الوجه الأستاذ محمّد جلال المحامي وزوجه الحسنة صفيّة هانم جلال. وكانا يلتفتان الأنظار حيثما سارا لثراء الزوج المالك لأربعة آلاف فدّان في الصعيد، وجمال الزوجة ورشاققتها، وقد استقبلتها أنجي هانم بمودة ظاهرة وباطنة، ولمّا عادت إلى جوار دوّلت هانم مالت هذه على أذنها وقالت بصوتها الخافت المبحوح:

في ذلك المساء من شهر مارس أزين قصر الوجهي حامد بك عرفان بحلّة لألاءة من الأنوار المتموجة ذات الألوان. مدّت أسلاكها الكهربائية على سور الحديقة فتعانقت مع الياسمين والبنفسج. وتعلقت بأفرع الأشجار والنخيل، وتوجت بها شجيرات الورود المنتثرة على هيئة أهلة ونجوم. وكان أعجب ما في القصر هو ذلك البهو المتسع الأنيق الذي فرش بفاخر الأثاث وحلّيت جدرانته وأركانه برائع الفنّ من صور وتحف، وترك في وسطه مكان رحب للراقصات والراقصين، أمّا في صدر المكان فقد امتدّت ردهة إلى منتصف مقصف حافل، وإلى يمينها فيما يلي الشرفة المطلّة على الحديقة احتلت فرقة الموسيقى الإيطالية مكاناً جميلاً. وانتشر فيها بين البهو والشرفة والمقصف والحديقة المدعوات والمدعّون الذين لبّوا الدعوة للاحتفال بعيد ميلاد كوكو الصغيرة ابنة الوجهي عرفان بك وزوجه أنجي هانم عرفان. . . وكانوا يجلسون أزواجاً وجماعات يتجادبون أطراف الأحاديث حيناً بالعربية وأحياناً بالفرنسية ويتضاحكون بأصوات عالية رقيقة وخشنة. وإذا دعت الأنغام قاموا للرقص والعناق. وقد شاع في الجو عطر وأنس وحرارة كأنّها أنفاس المودة نفتتها الأعين والشفاه والصدور والأمانى الهامسة. وكانت الأحاديث متنوّعة، ولكنّها تدور في الغالب حول موضوع واحد يتجادبها كما يتجادب النور الفراشة، وهو المرأة، ولا يستثنى من ذلك الجماعة التي كان محدّثها الأول الأستاذ عليّ الجميل الصحافيّ المعروف والنائب المحترم، فما خرج الحديث فيها عن الزواج واختيار المرأة الصالحة وكان النقاش يمتد بين المتجادلين من الجنسين بصورة عنيفة مضحكة، أمّا

وفيه جلست كوكو متكئة على يديها الصغيرتين في قميص أبيض كآتيا وردة بيضاء يانعة، وكانت ترمق الناظرين بعينين دهشتين صغيرتين ينعكس النور على زرقتهما الصافية! فصقّ الجميع تصفيقًا رقيقًا وهتفوا باسمها، وقبّل الأنسات يدها الصغيرة، ثمّ قدّمت الهدايا النفيسة حول مهدها الجميل، وشمل القوم سرور عظيم فاستأنفوا لهوهم بإرادة أشدّ نزوعًا للصبا والمسرّة. على أنّ فترة الظلام القصيرة لم تمرّ بسلام كما توهم الجميع. فقبّلها بدقائق كان الأستاذ عمّد جلال يجالس هدى هانم في المقصف وقد دلّ عبثها المرح على أنّها ثملان، فلمّا أطفئت الأنوار لم يتردّد الشابّ فدنا برأسه منها حتّى كادت تمسّ شفثاه أذنها وهمس قائلاً: «هدى» وارتحفت المرأة كالمدعورة ولم تردّ عليه، فقال لها همسًا وهي تمسّ بلمس شفثيه لأذنيها: «هذه فرصة طيبة. قومي واتبعيني».

وكان بودّها لو تتبّاله كما يقضي الدلال ولكتّها خشيت أن يضاء النور بسرعة، فقالت همسًا:  
- إلى أين؟  
- إلى حجرة التدخين في الطابق العلوي؟  
- قد يفتقدوننا.

- وماذا يهيم؟ .. سيظنّون أنّنا في الشرفة أو في الحديقة أو في المقصف أو هنا أو هناك وسنعود من طريقين متباعدين ..

وأمسك بكفّها وقام واقفًا فقامت بدورها، وأنجبه نحو السلم وهي تتبعه وارتقياه بسرعة، فوجدنا نفسيهما في ردهة مضاءة بنور بنفسجي هادئ تطلّ عليها أبواب متباعدة، فسارا إلى هدفهما ودخلا معًا، ثمّ ردا الباب في سكون، وكان الجوّ مظلمًا شديد الظلمة، ولكنّه كان يعرف المكان فانعطفا إلى اليمين وتقدّما خطوات حتّى عثرت يده بكنية كبيرة وثيرة، فجلس وجلس، وتهدّ من أعماق صدره وقبض على كفّها فوجدتها ترتعش كالمقرورة، فسرت رعشتها إلى قلبه ووجد به غمزًا لم يبرأ منه حتّى ضمّها إلى صدره بعنف وانهاه على وجهها يقبله بشغف وجنون، كم لبثا منفردين إنّ لا يدري، ولكنّ المحقّق أنّ تلك الخلوّة السعيدة لم تخلّ تمسا

- يا لها من زوجين سعيدين جميلين!

فقالت السيّد بحماس:

- الأستاذ جلال شابّ يندر أن يوجد نظيره بين الشباب الناجح الثري.. ألا تعلمين أنّه مرشّح لكبرىّ النيابة؟.. وأما صفيّة فهي آية للجمال والصفاء.

فابتسمت المرأة ابتسامة باهتة وقالت:

- نعم، نعم، .. لا شيء يعنيه إلّا أنّه يقال إنّه قد يتبارز من أجل راقصة، أمّا إذا استثيرت غيرته الزوجيّة فقد يغضي ..

وضاقت أنجي هانم ذرعًا بحديث صاحبها، فلم تسألها إيضاحًا وتشاغلّت عنها بمشاهدة بعض الراقصين، ثمّ استأذنت لاستقبال بعض صواحبها.

وسلم الأستاذ عمّد جلال وزوجه على عدد عديد من الأصدقاء والصدقات، ثمّ اختاروا أن يجلسا إلى زوجين جميلين مثلها هما الوجيه طه بك العارف وزوجه الحسنة هدى هانم العارف، وكان الأستاذ جلال يبدي إعجابًا خاصًا نحو السيّد هدى. فلمّا عزفت الموسيقى دعاها إلى الرقص معه، وقبلت بسرور ورقصت زوجه مع طه بك ..

وطرب الجميع طويلًا وشربوا كثيرًا، فدارت رعوس وثرثرت السنة كتومة، وفاضت الأحاديث، وامتلاّ الجوّ برنين الضحكات وميض الابتسامات وإيماءات الغزل، والتقت أعين وتماسّت أنامل وارتعشت شفاه. حتّى جاءت تلك الساعة المختارة من الليل فتوسّطت المدعوّين السيّد أنجي هانم، وقالت بصوتها الرخيم:  
- اسمحوا لي سيداتي سادتي أن أقدم إليكم مفاجأة العيد السعيد.

تطلّعت الوجوه إليها من كلّ صوب، وتجمّع حولها المبعثرون ما بين الشرفة والمقصف ينتظرون فرحين. وبغثة أطفئت الأنوار بغير نذير وساد المكان ظلام دامس دام خمس دقائق ما كان يسمع خلالها سوى همس خافت أو ضحكات مكتومة، ثمّ أضيئت الأنوار مرّة أخرى فرأى القوم منظرًا بديعًا: مهدًا على قوائم أربع طويلة، مسقّفًا بستار من حرير على هيئة هرميّة،

ينتصها فقد خيل إليها أن أقدامًا خفيفة كالمحادرة تدنو من باب الحجر، فتباعدوا واقفين وأرهفا السمع واتجهت أعينها في الظلام ناحية الباب، وخالا أكثر من هذا بأن يدًا تعالج الباب بلطف.. ترى أحق هو أم وهم؟! ولكن الباب تحرك ونفذ إلى الحجر شعاع هادئ كروح محتضرة فاشتد بها الرعب وودا لو تبتلعها الأرض. وما لبث أن تسلل شبح في حذر وتبعه آخر، ثم رد الباب إلى ما كان عليه فساد الظلام مرة أخرى، وكان الداخلان شديدي الحذر فلم يبديا حركة ولم يصدرا أصواتًا وكأتهما ذابا في الظلمة الجاثمة.. فسكن زعر الآخرين وأحسوا بشيء من الارتياح بل والطمأنينة، وخطرت لهما فكرة معًا هي أن الضيفين الجديدين مثلها وأن لا خطر عليهما منها، وتأكد هذا الظن حين شعرا بهزة تصيب الكنية فعلما أن صاحبيهما اختارا كنيتهما مقعدًا لهما أيضًا، وتريرًا في قلق صار بعد حين ضيقًا وكدرًا لأنها لم يستطيعا أن يأتيا حركة خشية أن يتنبه الآخرين فيفزعوا وربما حدث ما لا تحمد عقباه! أما الجديدان فكانا يظنان نفسيهما في أمان وخلوة فلم يجاذرا إلا بمقدار، واستطاع العاشقان أن يسمعا همسًا وهممة وأن يسمعا الرجل يعانق صاحبه وهي تعانفه، ولم يكتفيا بذلك بل قال بصوت استطاع الآخرين أن يميزاه:

- حبيبي... صفيّة.

وارتجف محمد بك جلال كأنما قطعة من الثلج ألقيت على ظهره؛ وأحسّ بارتجاج يد صاحبه في يده.. كان الصوت صوت طه بك العارف. ومن هذي؟ أليست زوجه هو؟.. أي كارثة تجمعت في هذه الحجر المظلمة! ودق قلبه بعنف وغلى دمه غليانًا كاد يفجر الشرايين في دماغه، ولكنّه لبث ساكنًا صامتًا وزوجه على قيد ذراع منه في أحضان خليلها! ولم يكن يأسف على عجزه عن تحطيم رأس الرجل - فمثل هذا العمل يثير فضيحة حرّية بالأساء على مستقبله السياسي ومعركة الانتخابات على الأبواب - ولكنّه كان مغرظًا محنقًا لأنّ غريمه لا يدرك في تلك اللحظة أنّ

زوجه بين يديه هو أيضًا. وانتظر دقائق كالأجيال؛ وشعر أخيرًا بحركة استدلت بها على قيام الرجل وسمعه يقبل زوجه بحرّة ويقول لها:

- لو تعدل الدنيا.. زوجك الغيبى ليس أهلاً لك وزوجتي ليست أهلاً لي، ولكن، ولكن، ما العمل؟! ثمّ تسلّلا خارجين كما أتيا..

وكان الغضب قد أفسد على جلال بك مزاجه فقام هائجًا، ويحث عن سترته حتى عثر عليها وأخذ بيد صاحبه وخرجا في حذر ثمّ افترقا في الردهة. ولبت ضيق الصدر شديد الكدر ساعة طويلة، يلعن طه بك ويلعن زوجه المستهتره، ولم تكن هذه أولى خياناتها، ولكنّها وقعت على كذب منه بحال بشعة لا يمكن أن تمحى من الذاكرة.. فسحقًا لهما!.. وقام يتمسّى في الحديقة فأرأ بوجهه المتمتع من الأعين جميعًا. ولفحه هواء الليل البارد فرطب جبينه الساخن وأنعش فؤاده المضطرب، وصحّ عزمه في تلك اللحظة على أن يسلم قياده لمغامرات الغرام الجنونية غير مُبقي على شيء، ولو أدى الجنون إلى الظهور مع هدى في المجتمعات العامّة وميادين السباق. وتملّفته هذه الخواطر فأحسّ بارتياح ومضى يفيق من همومه ويتنبّه إلى نفسه. فاستطاع عند ذلك أن يشعر بتغيّر غريب. فعجب لشأنه وتناسى انشغاله، وبحث عن أسباب هذا التغيّر فوجد يديه تجسّان السترة وكأتهما أوسع ممّا كانت.. ماذا حدث لها! يا للعجب.. إنها أوسع ممّا يتصوّر. وخطر له خاطر غريب اضطرب له فؤاده، ولكي يتحقّق من وساوسه وضع يده في جيب السترة وأخرج حافظة، لم تكن حافظته، ووجد بها بطاقة مكتوبًا عليها «طه بك العارف».

ووضح الأمر، وعاوده القلق والحنق، ولم يكن ثمة خوف من الفضيحة فسترات بدل السهرة متشابهة، لكنّه كان يشعر بحيرة شديدة ويسائل نفسه: «كيف يمكن أن تُتبادل السترتان؟!».

## مَرَضٌ طَبِيبٌ

بسيارة فخمة فحرق قلبه مرة أخرى، وتربث حتى فتح الرجل الباب وقال له:  
- تفضل.

وجلسا جنباً إلى جنب وانطلقت بهما السيارة، وحافظ على هدوئه ورزاقته وصرّ بأسنانه ليترد ابتسامة خفيفة تحاول أن تعطي شفقيته؛ وكأنه أراد أن يداري عواطفه فسأل الرجل عن مريضه وتكلم الرجل في إسهاب فقال إنّ المريض ابنه وإنه لم يجاوز العشرين من عمره، وإنه أحس منذ أيام بتوعك وخور ورغبة عن تناول الطعام، ثم ارتفعت حرارته واستسلم للرقاد؛ فسأله:

- هل حقن بالمصل الواقعي؟

فأجاب الرجل بالنفي، وأعلن عن رجائه الحارّ ألا يكون الشاب أصيب بالحمى الخبيثة، فصمت الطبيب ملياً يفكر في هذه الأعراض ويزنها بميزان اختباراته وعلمه، وكانت السيارة في أثناء ذلك تحترق الطريق الزراعيّ بسرعة البرق حتى بلغت العامرية وانعطفت إلى حاراتها الضيقة ثم وقفت أمام دار كبيرة، فدخلا معاً واستقبلتهما أوجه كثيرة بأعين يقتتل بها الخوف والأمل، فساوره القلق وتلبسه شعوره حين تعرّض لأول مريض بدأ به حياته التمرينية في قصر العيني منذ ثلاثة أعوام، فاستصرخ قوة إرادته ليضبط بها وجدانه ويمتاز هذه التجربة الجديدة بالنجاح، وأغضى عمن حوله وسدّد انتباهه إلى الشاب الراقد بين يديه، وكشف عليه بعناية فائقة وفحصه فحصاً دقيقاً فترجّح لديه أنه مصاب بالتيفود، وأبدى رأيه في تحفظ وقال إنه ينبغي أن يفحص المريض في اليوم التالي ليستوثق من رأيه، فلا آمنهم من خوف ولا أفقدهم الأمل، وظنّ

قبل عامين تفشى وباء التيفود في مديرية الغربية تفشياً مخيفاً فتك بنفوس الكثيرين، وصادف ذلك انقضاء بضعة أشهر على تعيين الدكتور زكي أنيس طبيباً بمستشفى طنطا وفتح عيادته الخاصة، وكان في تلك الأيام يلاقي الشدائد المفضي على كل مبتدىء في فته أن يلقاها أول عهده بالحياة العملية؛ فكان ينتظر طويلاً وعبثاً توارد الزوار والمرضى مستوصياً بالصبر والتجلّد حتى كاد يلحقه الجزع. فلما تفشى ذلك الوباء الخبيث تضاعف عمله بالمستشفى وشحذ نشاطه ومضى يراقب حركة السيارات التي تطوف بالبيوت وتعود محمّلة بالضحايا بعينين كثيتين وعزيمة متوّبة، وأحس بالرغم من كلّ شيء بسرور خفيّ وأحيا قلبه الأمل في أن يدعى يوماً لعلاج مصاب من الذين تثقل بهم جيوبهم عن الانتقال إلى المستشفيات العامة، ولم يشه تقاطر الناس على كبير الأطباء وبعض الأطباء القدماء بالمدينة وأصغى إلى هاتف تهاوّل ما انفك يهمس لقلبه بأن دوره لا محالة آتٍ.

وصدق أمه، وإنه ليجلس إلى مكتبه يوماً يقلّب صفحات كتاب وتجري عيناه على أسطره جريان الشرود والملل إذ طرق بابه كهل يدلّ منظره الوجيه وزيه الريفية الثمين على أنه من الأعيان؛ ولعلّه قصده بعد أن يش من العثور على سواه، فطلب إليه بلهجة تنم على القلق أن يصحبه إلى العامرية على مسير ربع ساعة بالسيارة. وكان الشاب يعدّ العدة لمثل هذا اللقاء فلم يبد على وجهه أثر ممّا اضطرب في صدره من الفرح والظفر فألقى على القادم نظرة رزينة وقام من فورهِ فخلع معطفه الأبيض وارتدى الجاكتة والطربوش وأخذ حقيبته وتقدّمه إلى الطريق. والتقى أمام الباب

دمه؟! ولقّه الذعر، وكان في الحقيقة جباناً رعديدًا شديد الهواجس سرعان ما يستسلم للتشاؤم ويقع فريسة سهلة للمخاوف، فعاد يحسّ خدّيه وجبينه فوجدتها ساخنة وأحسّ بجسمه يكاد يلتهب التهابًا فاستولى عليه الفزع وارتعدت فرائصه وقال بذهول «يا للويل... لقد أصبت وانتهيت...».

وقطعت السيّارة مرحلتها وانتهت إلى عيادة الطبيب الشابّ - وكانت عيادته ومنامه في شقّة واحدة - فتركها على عجل وصعد إلى حجرة نومه واستدعى التمرجي وقال له: «نادِ الدكتور سامي بهجت بسرعة وقل له إنّي أصبت بالتيفود» فجرى الرجل مرتعبًا وأخذ الدكتور يخلع ثيابه بيدين مضطربتين وارتدى البيجامة وارتمى على الفراش في حالة يأس ورعب وغمّ شديد وقد خيل إليه أنّ شرايينه ستنفجر من الحرارة وكان يستحضر في ذاكرته أعراض المرض فلم يعد لديه ثمّة شكّ في أنّه مريض؛ وثبت في وهمه بقوة أنّ هذا المرض سيختتم حياته، وكان شديد الجبن متهاافت الأعصاب فلم يستطع أن يأمل قطّ في النجاة وبات في يأس عظيم، وظلّ يعدّ الدقائق الثقيلة المرهقة ويصيح غاضبًا: «هيهات أن يجد الدكتور في عيادته. وسأجنّ هنا وحدي...».

وفي أثناء الانتظار فزعت أفكاره المجنونة إلى القاهرة، إلى أمّه، ووجد حاجة شديدة إليها، وإلى وجودها إلى جانبه لتسهر عليه، وفكّر فعلاً في أن يبعث إليها برفيّة، ولكنّه لم يقبل هذه الفكرة بسهولة، وأشفق من إرهابها وإزعاج حياة والده وإخوته الصغار وربّما عرضها للخطر أيضًا - وكان هذا أوّل شعور طيّب يخالط قلبه منذ قديمٍ طنطا - فصدقت نيّته على أن يطلب إلى الدكتور بهجت نقله إلى المستشفى. وربّما تمكّن من رؤيتها هناك ليودّعها إذا اشتدّ عليه الحال. وقد حنّ إليها في تلك الساعة حينًا موجعًا... وأغمض جفنيه هنيهة يلتمس الجمام ويطرد عن قلبه الوسوس والهواجس، ولكنّ وجدانه الثائر أبى أن يدعه في راحة أو طمأنينة، أو أن يصرفه عن الانشغال الأليم بمرضه؛ ولم يكن دار له بخلد أنّ الطبيب بآمن

أنّه ضمن لنفسه أن يتردّد على المريض حتّى يبلغ به الشفاء بفنّه أو يودعه القبر بأمر الله. ثمّ أخذ حقييته وأنجّه نحو الباب بخطى وثيدة كأنه يريد شيئًا، فلحق به والد المريض وهمس في أذنه قائلاً:  
- تفضّل.

فخفق قلبه لثالث مرّة ذلك اليوم ومدّ يده وهو يقول:  
- شكرًا.

فأحسّ بثلاث قطع من ذات العشرة القروش توضع بها، ثمّ جلس في السيّارة منفرّدًا هذه المرّة، وانطلقت به في طريق العودة، وكانت هذه أوّل مرّة يدعى فيها إلى زيارة مريض في بيته، فاغتبط ورضي وأشعل غليونه وراح يدخن بحالة من السرور ولم تخل من اضطراب عصبيّ فأخذ «أنفاسًا» سريعة فتوهّج التبغ وسخن الغليون، ولم يستمرّ في التدخين طويلًا فوضعه في جيب الجاكتة الأعلى وأرسل بناظره يخلل زجاج النافذة يشاهد الحقول الممتدة على جانب الطريق الغارقة في الأفق البعيد، وكانت تنتهي عند الطريق الزراعيّ بجدول من الماء ينساب صافيًا تستحمّ فيه أشعة الشمس المائلة للغروب وتغشاه بنور لآلاء بهيج يخطف الأبصار؛ فاستسلم لسحر الرؤية، وشعر بتخدير لذيذ حتّى انتبه إلى تغير غريب يسري في صدره وجسمه فتحوّلت أفكاره من الخارج إلى الداخل فأحسّ بسخونة تنتشر في أعضائه جميعًا كأنّ حرارته ارتفعت بغتة، فتململ في جلسته وحرك رقبته بعنف، ثمّ لم يحتمل شدّتها فخلع طربوشه وفكّ أزرار الجاكتة وأخرج منديلًا يروّح به على وجهه وهو يعجب أشدّ العجب لأنّ الجوّ كان معتدلًا لطيفًا، واشتدّت وطأة السخونة والتهب جسمه بالحرارة، فحسّ خدّيه وجبينه وشعر بثقل في جفنيه ورأسه وضيق في التنفّس، وتساءل في حيرة عمّا أصابه، وخطر له خاطر مخيف: هل يكون مريضًا؟!.. وذكر لتوهّ الحمى الشيطانية التي تفتك بأهل المديرية فتكًا جهنميًا.

وكان قد حقن نفسه بالمصل الواقى، فكيف انتقلت إليه العدوى؟!.. هل سبقت الميكروبات المصل إلى

كبعل القديم، حتى سقط هو أخيراً قرباناً له، فأني حياة هذه؟.. وذكر أيضاً في هذيانه وتشاؤمه قروياً بسيطاً عرض له في العيادة الخارجية بالقصر العيني، وكان يريد أن يكشف على حلقه، فأمره أن يفتح فمه... وكان كلما أدنى منه المجهر يرتجف الرجل الساذج ويغلق فمه، وتكرّر ذلك منه حتى اشتدّ به الضيق، وكان مرهق الأعصاب من كثرة العمل، فضرب جين القروي بالمجهر، فشجّه وأسال دمه... وقد أسف لذلك حقاً ولكن أسفه لم يخفّف عن الرجل شيئاً... وذكرته هذه الحادثة بما يقع خلف جدران القصر العيني من أعمال القسوة التي تفرّج من هولها النفوس البشرية، فذكر أنه تكاسل مرّة عن إجراء عملية لمريض، لأنه كان أجرى هذه العملية مرّات عديدة بنجاح، فلم يشعر بحاجة إلى تمرين جديد، واسودت الدنيا في عينيه، وعافت نفسه كل شيء في تلك الساعة الخبيثة.

ثمّ سمع وقع أقدام في الردهة وصوت التمرجي يحدث الدكتور، فتمشّت في أعصابه موجة نشاط ونسي وسأوسه، وفرغ إلى القادم بأمل جديد، ودعا ربه بصوت متهدّج قائلاً:

«أه يا ربّ. خذ بيدي! هبني حياتي مرّة ثانية، أهب الناس أشرف ما في نفسي حتى الموت».

وما انتهى من دعائه حتى برز الدكتور بهجت من باب الحجرة وهو يقول بصوت مرتفع:

- مساء الخير يا دكتور. مالك؟

فقال الشابّ بهدوء وإن كان في الحقّ يستغيث:

- أصبت.

فحصه الدكتور بعينين نافذتين وأصابه نفتح الحقيقة ثمّ قال:

- لعلها الإنفلونزا.

فقال بيأس:

- كلاً... لا أشكو زكاماً ولا صداعاً...

- ولكنك لم تشكّ تعباً أو فقدان شهية في هذه الأيام

اليس كذلك؟!

وتفكّر الشابّ قليلاً متحيراً ثمّ تمتم قائلاً:

من الأمراض، ومع ذلك أحسّ بمرارة وسخط وحنق وساءه أن يفتضح مرضه الغادر في أثناء عودته من زورة مريض. أما كان الأجل أن يجزى غير هذا الجزء... وقرّ في نفسه أنّ العدوى انتقلت إليه في أثناء قيامه بواجبه في المستشفى بالرغم من حذره ويقظته فتضاعف سخطه وحنقه، وأسى على حياته التي لم يتح له التمتع بها وكان يدفع إلى فكرة الموت دفعاً عنيقاً؟ ويقسر على الاستغراق فيها بقوّة شيطانية...

وحذّته قلبه الرعديد بأنّ نهايته حتمت، فعطف رأسه إلى المرأة وأدام النظر إلى وجهه. فخيل إليه أنه محتقن بالدم الفاسد؛ ولكن كان ما يزال محتفظاً بنضارة الحياة وأثر الصحة الآخذة في الانحلال، فألقى عليه نظرة أسيفة حزينة، كأنما يوّدع آخر صورة للحياة والصحة عالقة به.. ثمّ أدار رأسه قانطاً، وأسلمه القنوط إلى الاستسلام، وأسلمه الاستسلام إلى الاستهانة، ولاذ بها من مخاوفه، وقال لنفسه علام الخوف والذعر؟

الموت آتٍ لا ريب فيه، إن لم يكن اليوم فغداً... هو النهاية المحتومة على آية حال لمهزلة الحياة... وماذا يضيره أن يقصّر دوره في هذه المهزلة؟ فلعلّ في قصره اختزاً لآلام مرّوعة. على أنّ تعزية لم يدم طويلاً..

والحتّ على قلبه الآلام مرّة أخرى... فذكر أماله وأطماعه في المجد والثروة وارتسمت على شفّته لهذه الذكرى ابتسامة مريرة ساخرة... وشعر بامتعاض يفوق الوصف... وذكر الثلاثين قرشاً التي طرب لها

فرحاً قبل حين قصير: فازداد امتعاضه، ولعن رزقه الذي يناله من أيدٍ شحيحة. لا تفرط فيه حتى يهزها المرض، فتراخي عن الضنّ به ولعلّ النظام الذي يجعل سعادة القوم منوطة بيؤساء آخرين... يا لها من

مهنة مخيفة، يستمدّ رجالها حياتهم من النفوس المريضة كالجراثيم سواء بسواء... وسخر في ذعره وتشاؤمه من الإنسانية والتضحية والرحمة، تلك الألفاظ الصّماء التي حفظها عن ظهر قلب ولم تختلج له في شعور

قط... فهو لم يشمّر أبداً لغير المجد والثروة، ولم يتصوّر ساعة أنّه يبلغها بغير معونة المرض... فعبده وهو لا يدري، ونصبه إلهاً يقدم له القرابين البشرية



الفراش وأتجه نحوها ووضع يده في جيب الجاكتة الأعلى متناولاً غليونه، وفحص الجيب بعينه فرأى آثار التبغ الذي أكل البطانة وحرق القميص وأثر هذا التأثير في الفانلأ، ووقف مرتبكاً ينظر إلى الدكتور بعينين تسألان الصفح، وقد أحس بحرارة جديدة هي حرارة الخجل والارتباك.

وبعد دقائق وجد الشاب نفسه وحيداً مرةً أخرى، وكان ما تزال تعلو شفثيه ابتسامة الارتباك والخجل، ولكنّه كان يحسّ بغبطة وسلام، وكان قلبه يشكر الله الذي وهبه حياته مرةً أخرى.

وبرّ الشاب بوعده واعتزم أن يكون إنساناً قبل كلّ شيء. وعاد إلى عمله تنبض في قلبه أشرف العواطف وأنبهها، وكان يظنّ أنّه سيصمد للتجارب لا ينكص على عقبيه مهما امتدّ به الزمن، ولكن وأسفاه إنّ انقضاء الليل والنهار يُنسي، ومن ينغمر في الدنيا يذهل على نفسه، وللحياة جلبة تبتلع همسات الضمير. فقد أخذ يتناسى محتته ودعائه ووعده حتّى نسي ولم يعد يذكر إلّا عمله ومستقبله وآماله وأطماعه، ثم ارتدّ إلى ما كان عليه، وكانت تلك الأيام القلائل في حياته كهدهو البحر الذي يصفو ويرقّ حتّى يشفّ عن باطنه ثم لا يلبث أن تهيجه الرياح والعواصف فيرغي ويزيد وتعلو أمواجه كالجبال. ولعلّه لا يذكر هذه الحادثة الآن إلّا كدعابة يتندرّ بها ويقصّها على صحبه إذا دعى داعي الحديث أو السمرا

- حرارتي فظيعة... إني أشعر بالمرض شعوراً مخيفاً...

- هل قست الحرارة؟!

فعجب كيف فاته ذلك، وهزّ رأسه نفياً ولاذ بالصمت؛ فابتسم الدكتور بهجت ابتسامة ساخرة، ودنا منه والترمومتر في يده. ثم وضعه في فمه وانتظر هنيهة، أخذه ثانية ورفعته إلى مستوى عينيه، ونظر إلى وجه الشاب رافعاً حاجبيه وقال ببساطة:

- حرارتك طبيعيّة... انظر!

وقرأ الشاب الترمومتر وهو لا يصلّق عينيه، وحسّ خذه ثم قال:

- هذا عجيب! خذني ما زال ملتهباً. كيف هبطت الحرارة؟

وأقن الدكتور بسّاعة وطلب إليه أن يفلّك أزرار الجاكتة ففعل.

ووقع بصر الرجل على الفانلأ فبدت على وجهه الدهشة وصاح بسرعة وهو يشير إليها:

- انظر!

فأحنى الشاب رأسه ناظراً إلى الفانلأ فرأى فوق القلب دائرة مسوّدة من أثر احتراق خفيف، فاستولت عليه الدهشة وجلس في فراشه وهو يتساءل:

- ما الذي صنع بي هذا!.

فضحك الدكتور بصوت عال وقال:

- ها أنت ذا تكتشف حمّى جديدة يا دكتور!

وخطر للشاب فكرة فالتفت إلى المشجب وقفز من

## فلفل

بعضهم القباقيب. فإذا اجتمع شملهم وفرغوا من احتساء الشاي والزنجبيل قرأ أحدهم جريدة من جرائد المساء وأنصت له الآخرون ثم يندفعون إلى المناقشة والتعليق فيحتمد الجدل وتستمر المناقشة. وجاء مساء فاستطاع أن يفهم ما يقولون لأول مرة، بل سرّ به سرورًا لا مزيد عليه، في ذلك المساء قرأ قارئهم - فيما يقرأ - خبر قضية رشوة موظف كبير ثم أخذ الصحاب كعادتهم في النقاش والتعليق فقال واحد منهم متحمسًا:

- هذا واحد أمكن يد العدالة أن تصل إليه مصادفة، ويوجد غيره كثيرون لا يتأى بهم عن غيابات السجون، إلا أن العدالة ما تزال ضالة عنهم. وقال آخر أشدّ تطرفًا وأبعد عن وزن كلامه:

- ليس الداء قاصرًا على الموظفين، فغيرهم - وأنتم تعلمون من أعني - أفضح وأضلّ سيلاً. هذا بلد لو أقيم به ميزان العدالة كما ينبغي لامتلات السجون وخلت القصورا

واستبق الناقدون وتناولوا أسماء كثيرة فمزقوها إربًا ولوثوها بكل منكر بأصوات مرتفعة لا تبالي شيئًا فقال بعضهم:

- أضرب لكم مثلًا بفلان... أتدرون كيف جمع ثروته الطائلة؟!.

ثم جعل يعدّد وسائل الإجرام التي ابتزّها أموال الناس كأنه كان كاتم سرّه أو مرجع رأيه، ثم تتابع النقاد والمشرّحون واختار كل شخصيّة من الشخصيات الكبيرة يروي تاريخها كما يشاء ويكشف عن مثالبها مفتتحًا كلامه بهذه العبارة المثيرة: «وفلان هل تدرون كيف جمع ثروته الطائلة؟!»، وما زالوا في حملتهم حتى

في قهوة السعادة أشياء كثيرة تستثير الاهتمام. منها فلفل وهو غلام في الثانية عشرة أو جاوزها بقليل اسمه الحقيقي طه سنقر ولكنّه اشتهر بفلفل، وهو يسعى بجمرات النار إلى مدخني النارجيلة والجوزة من طلوع الصباح حتى انتصاف الليل. على أن الاصطلاحات لا تخلق اعتبارًا فللغلام من اسمه الجديد نصيب. كان خفيف الحركة متحفّز النشاط فما إن يدعى حتى يندفع نحو داعيه كالنحلة ويقطع النهار كلّه ونصف الليل لا يقرّ له قرار أو يسكت له صوت وقد اشتغل في القهوة منذ عام نظير قرش في اليوم غير جوزة وفنجان شاي يقدّمان له في الصباح ومثلها بعد الغداء وكان بذلك جدّ سعيد، يتيه فخارًا كلّما ذكر أنّه صار قوامًا على نفسه وصاحب قرش وأخا «كيف ومزاج». وفوق ذلك لم تكن حياته منحصرة في الحاضر، كان يرمق بعين الطموح ذلك اليوم حين يأذن له «المعلم» بتقديم النارجيلة والجوزة أسوة بالنار والماء فينتقل من درجة غلام إلى درجة صبيّ ومن يعلم بعد ذلك أين يقف به الترقّي؟! وهو في سبيل طموحه لا يكفّ عن تمرين حنجرته بالهتاف والنداء على الطلبات لأنّ أهميّة الحنجرة في القهوة البلدي تضاهي أهميتها في نادي الموسيقى...

ومن أعجب ما رأى فلفل في قهوة السعادة جماعة من طلاب العلم، تجذبهم القهوة في أماسيّ العطل والإجازات فيأوون إلى ركن منها يسمرون ويلعبون النرد ويحسسون الشاي والزنجبيل، وكانوا كبقية رواد القهوة من جمهور الشعب الفقير، ولكنّ المدرسة سمت بهم إلى طبقة معنويّة عالية، فانتبذت الكبرياء بهم ركنًا منعزلًا وإن كانوا يرتدون عادة الجلابيب بل ويتنعل

وتولاه الخوف ورأته أمه فقالت له قبل أن يسألها «أخذ الشرطي أباك» فأدرك الغلام ما هنالك وتحول إلى أخته الكبرى فقالت له إنهم اتهموه بسرقة بعض الثياب وساقوه إلى القسم، ثم استدركت بعد لحظة سكوت قائلة: إنهم لن يردوه قبل أشهر أو أعوام؛ وكان لفلن في العادة لا يلتقي بأبيه إلا نادراً؛ لأنه كان ينام قبل أن يرجع من تجواله، ويخرج إلى القهوة صباحاً قبل أن يصحو. ولكنّه على رغم ذلك تأثر بالجور الحزين فداخله الحزن وبكى، ثم ذكر ما سمعه في المساء فجعل يقول لأمه إن البلد كله لصوص وإن السرقة فيه حلال، وقصّ عليها نحواً مما بلغ مسمعيه. فلم ترتح المرأة إلى ثرثرته وأعرضت عنه ونهرته أن يسكت. ثم لطمته على وجهه. في صباح اليوم الثاني استيقظ لفلن وقد نسي أمس كله، وكأنه ولد من جديد فانطلق إلى القهوة بخطاه الواسعة لا يحمل بين جنبيه همماً، والواقع أنها لم تكن أول مرة يساق فيها أبوه إلى السجن.

صاح أحدهم غاضباً:

- هذا بلد السرقة فيه حلال!

فهم لفلن هذا الحديث فلم يعقه عن فهمه لفظ غريب أو تعبير معقد، وكان بما يتقن من أنواع القذف والسباب أشبه؛ فطرب أيما طرب ووافق منه هوى دفيناً؛ فما أجمل أن يقال إن هذا بلد لصوص! ما أجمل أن يقال إن السرقة في هذا البلد حلال! فهو لص بحكم نشأته تربى بين أحضان السرقة فعرفها في المهد: فأمه - وهي بائعة دوم - تنفق أوقات الفراغ في اصطلياد الدجاج الضال، أما أبوه عم سنقر بائع الفول السوداني فمولع باختلاس القمصان والسراويل من أسطح البيوت وله في ذلك حيل يخططها الحصر ولكن ماذا أفادت أسرته من جهادها؟

وانتهت تلك الليلة بغير ما يجب لفلن، فحين عودته إلى بيته، أو إلى الحجرة التي يبيت بها أبواه وأخواته، وجد أمه لا تزال مستيقظة يعلوها الوجوم والانكسار، وأخواته من حولها باكيات، فانزعج الغلام

## صَوْتٌ مِنَ الْعَالَمِ الْآخِرِ

- ١ -

الجنوبيّ حيث يقوم بيتي الجميل .

يا آمون المعبود، ما هذا الألم في العظام والمفاصل؟ ليس ما بي أثر من جهد العمل، فلطالما واصلت العمل بلا انقطاع، ولطالما تابرت وصبرت فغلبت الإعياء بالقوة والعزم. أما هذا الألم المضيئي، أما هذه الرعشة المنزلزة، فطارئ جديد، امتلأت منه رعباً. أليكون ذلك الخبيث الذي لا ينزل بجسم حتى يورده التهلكة؟ انطوي يا طريق القرية بحسبك فما في جوارحي قوة تقبس من جمالك. واغرب يا طير السماء فما في صدر توتي المسكين حنان يناديك. وأخذت في الطريق قلماً متأوهاً. وعند عتبة البيت طالعني وجه زوجي رفيقة شبابي وأمّ أبنائي. فهتفت بي: «توتي أمّها المسكين. مالك تنتفض. ما لعينيك مظلمتين.. ١٩» فقلت لها محزوناً مكتئباً «يا أختاه.. وقع المحظور.. وحلّ الخبيث بجسم زوجك. هبّي الفراش ودثريني. ونادي الحكيم والأبناء والأحباب. قولي لهم إن توتي على فراشه يضرع إلى ربّه. فاضرعوا معه. واسألوا له الشفاء!» وحملتني التي تهواني على صدرها، وجاء الحكيم يجرّعني الدواء وأشار بإصبعه إلى السماء وقال لي: «توتي.. أيها الكاتب الكبير! ياخادم الأمير الجليل! أنت في حاجة لرحمة الربّ، فادعه من أعماق قلبك». ووقدت لا حول لي ولا قوة. يا آمون المعبود جلّت حكمتك! ألم أصحب سيدي الأمير إلى الشمال في جيوش فرعون؟ ألم أشهد القتال في صحارى زاهي؟ ألم أحضر قادش مع الغزاة البواسل؟ بلى أيها الربّ ونجوت من الرماة والعجلات والمعارك. فكيف يتهلّدي الموت في قريتي المحبوبة الأمانة بين أحضان زوجي وأمّي وأبنائي؟! وغرقت في أبخرة الحمى،

يا إلهي ماذا يعوز هذا القبر من طبيبات الحياة الفانية؟! إنّه قطعة من صميم الحياة حافلة بما لذّ وطاب. لقد حليت جدرانه بصور الجوّاري والخدم، وفرش بأفخر الأثاث، وأجل الرياش. وبه ما أشاء من أدوات الزينة والعطور والحلى؛ وفيه مخزن مفعم بالحبوب والبقول والفاكهة، وها هي ذي مكتبي حملت إليه بمجلّداتها الحكميّة، وما يحتاجه الكاتب من الأوراق والأقلام. هي الدنيا كما عهدتها. ولكن هل ثمة طعم للدنيا في حوائبي الآن؟! ألي حاجة إلى متعة من متعتها؟! جهد ضائع ذلك الذي بذله الذين هيأوا هذه المقبرة. بيد أنّي لا أستطيع أن أنكر أمراً غريباً هو أنّه ما فتئت نفسي تنازعني إلى القلم. يا عجيباً؟ ما لهذه الأوراق تناديني بسحرها المحبوب؟! ألا يزال بي موضع لم يمخ منه الموت منازع الضعف والهوى؟ أفضي علينا - معشر الكتّاب - أن تشقى بضاعتنا في الحياتين؟! على أية حال لا يزال أمامي فترة انتظار أبداً بعدها رحلتي الأبدية. فلاشغل هذا الفراغ بالقلم. فلطالما زان القلم الفراغ الجميل.

ربّاه! ألا زلت أذكر ذلك اليوم الذي فصل بين الحياة والموت من عمري؟! بلى. في ذلك اليوم غادرت قصر الأمير قبل الغروب، بعد عمل شاقّ، تعتاني فيه الجهد، حتى قال لي الأمير: «توتي... كفت عن العمل ولا تشقّ على نفسك». وكانت الشمس قد مالت نحو الأفق الغربيّ في سياحتها الأبدية إلى عالم الظلام، ولألى من أشعتها المودعة تنتفض انتفاضة الاحتضار على صفحة النيل المعبود. فأخذت في طريقي المعهود متسمّناً شجرة الجميز في طرف القرية

أستطع جواباً. لاشك أن أمرًا استثار جزعها. ترى ماذا يكون؟ هل لاح في وجهي النذير؟ وتحولت عيناى على غير إرادة مني نحو مدخل الحجرة. كان الباب مغلقاً بيد أن الرسول دخل. دخل دون حاجة إلى فتح الباب. فعرفته دون سابق معرفة فهو رسول الفناء دون سواه. واقترب مني في خطي غير مسموعة. كان مهيباً صامتاً مبتسماً ذا جمال لا يقاوم سحره فلم تتحول عنه عيناى، ولم أعد أرى من شيء سواه. وأردت أن أضرع إليه ولكن لم يطاوعني اللسان. وكأني به قد أدرك نيتي الخفية. فازدادت ابتسامته اتساعاً. فأنست منه رفقاً. ولم أعد أبالي شيئاً. انجابت عني وساوس الليل وأحزانه وحسراته. وغفلت عن دموع من حولي، ووجدت نفسي في حال من الاستهانة والطمأنينة لم أعدها من قبل. سلمت في محبة لا نهائية وتركت جسمي في المعركة وحيداً رأيت - دون مبالاة البتة - دمي يقاوم في عروقي. وقلبي يدق ما وسعه الجهد، وعضلاتي تنقبض وتنبسط وأنفاسي تتردد من الأعماق، وصدري يعلو وينخفض. وشعرت بالأيدي الجنون تسند ظهري وتحيط بي. رأيت ظاهري وباطني رؤية العين بغير مبالاة ولا تكرات. وقد تحول الرسول عني إلى جسمي وأخذ في مباشرة مهمته في ثقة وطمأنينة والابتسامة لا تفارق شفثيه الجميلتين. وشاهدت نسمة الحياة المقدسة تدعن لمشيئته فتفارق القدمين والساقين والفخذين والبطن والصدر، والدم من ورائها يجمد والأعضاء تهمد والقلب يسكت، حتى غادرت الفم المفخور في زفرة عميقة. سكن جسمي وصمت إلى الأبد وذهب الرسول كما جاء دون أن يشعر به أحد. وغمرني شعور عجيب بأنني فارقت الحياة، وأني لم أعد من أهل الدنيا.

- ٢ -

غمرني شعور عجيب بأنني فارقت الحياة، وأني لم أعد من أهل الدنيا، ماذا حدث؟! وما الذي تغير في؟! ما زلت في الحجرة، والحجرة كما كانت؛ فأمي وزوجي تحنون على جسمي، ولكن حدث شيء بلا ريب، بل أخطر الأشياء جميعاً، لم أؤخذ على غرة. ولو

واشتد الدورار برأسي، وسال بلساني الهذيان، وشعرت بيد الموت تتراد قلبي. وما أقساك أيها الموت! أراك تتقدم إلى هدفك بقدمين ثابتتين وقلب صخري، لا تتعب ولا تسأم ولا ترحم، لا تهزك الدموع، ولا تستعطفك الآمال. تدوس حبات القلوب، وتتخطى الأمانى والأحلام. ثم لا تبدل ستك ولو كان الفريسة في ربيع العمر الزاهر. توتي في السادسة والعشرين ذو بنين وبنات، ألا تسمع؟ ماذا يضريك لو تركت أنفاسي تتردد في صدري؟ دعني ريشاً أشبع من هذه الحياة الجميلة المحبوبة. إنها لم تسوءني قط ولم أزهد فيها أبداً. أحببتها من أعماق الفؤاد ولا أزال على العهد. كانت الصحة طيبة والمال موفوراً والآمال كباراً. ألم تحط بكل أولئك خبراً؟ ومن حولي قلوب محبة ونفوس وأهله، أفلا تنظر إلى الأعين الدامعة؟ كأني لم أعش ساعة واحدة في هذه الحياة الجميلة المحبوبة. ماذا رأيت من مشاهدتها؟ ماذا سمعت من أصواتها؟ ماذا أدركت من معارفها؟ ماذا ذقت من فنونها؟ ماذا جرّبت من ألوانها؟ أيّ فرص ستضيع غداً؟ أيّ نشوات ستخدم؟ أيّ عواطف ستهمد؟ أيّ المسرات ستبيد! ذكرت ذلك جميعه. ودارت بخلدي أشياء أخرى لا حصر لها ولا حد، ما بين مفاتن الماضي وسحر الحاضر وأمانى المستقبل. وجرت أمام حواسي الورود والحقول والمياه والسحاب والمآكل والمشارب والألحان والأفكار والحبّ والأبناء وقصر الأمير وحفلات فرعون والرتب والنياشين والألقاب والفخر والجاه. وتساءلت: أيضي كل هذا إلى الفناء؟ وانقبض صدري أيما انقباض، وامتلات حزناً وكمدًا وهتفت كل جارحة بي: «لا أريد أن أموت». وتتابعت جحافل الليل. فغلب النوم الصغار. ولبثت زوجي عند رأسي وأمي عند قدمي، وانتصف الليل ونحن على حالنا ثم استدار وأوغل في الرحيل، ثم بهت ذوابه بزرقة الفجر. هنالك داخلني شعور غريب بالرهبة وتولاني إحساس بالخوف. وأطبق السكون وأندر بشي خطير، ثم شعرت بيد أمي تدلك قدمي وتقول بصوت متهدج: «بني.. بني!» وهتفت زوجي المحبوب: «توتي.. ماذا تجدد؟» ولكتني لم

## همس الجنون ١٣٥

وأسفاه، إن بقية من حرّيتي لم تزل عزيزة عليّ، أسيرة إلى حين فلاأخذ نفسي بالصبر وإن شق عليّ. وجاءت أمي بملاءة وسجّت الجثة ثم أخرجت العيال والخدم. وأخذت زوجي من يدها، وغادرتا الحجر وأغلقتنا الباب. لم يغيبا عن ناظري لأنّ الجدران لم تعد حائلًا يججب شيئًا عن بصري، فأريتها وهما تغيران ملابسهما وترتديان السواد، ثم اتجهتا نحو فناء الدار وهما تحلان صفائهما وتحثوان التراب على رأسيهما، وخلعتا التعال وهرعنا إلى باب الدار، وانطلقتا تصوّتان وتلدمان، ومضت أمي تصرخ «وابسناه» فتصرخ زوجي «وازوجاه» ثم تهتفان معًا: «يا رحمتا لك يا توتي المسكين! خطفك الموت ولم يرحم شبابك» وتركنا الدار على تلك الحال من العويل والنواح، وأخذنا في طريقهما، حتى إذا مرّنا بأول دار تليها برزت لهما ربة الدار في ارتياح وصاحت بهما: «ما لكم يا أختي!» فأجابت المرأتان: «خربت الدار، تيمّم الصغار، وثكلت الأم، وترملت الزوج، يا رحمة لك يا توتي...» فصوّتت المرأة من أعماق صدرها وصاحت: «واحرّ قلباه... يا خسارة الشباب... يا ضيعة الآمال...» وتبعن المرأتين وهي تحثو التراب على رأسها وتلطم خديها، وكلّما مررن بدار برزت ربتها وانضمّت إليهنّ، حتى انتظم الحشد نساء القرية جميعًا، وتقدّمتهن امرأة دربة بالنياحة، فجعلت تردّد اسمي وتعدّد فضائلي، وذهبن يقطعن طرقات القرية باعثات الحزن والأسى في كلّ مكان. هذا اسمي تردّده النائحات، ما له لا يجركني؟!!

أجل، لقد صار الاسم غريبًا غرابة هذه الجثة المسجاة، وبتّ أتساءل متى ينتهي هذا كلّ؟ متى ينتهي هذا كلّ؟ وعندما أت المساء جاء الرجال وحلوا الجثة إلى بيت التحنيط والصراخ يطبق علينا، ووضعوها على السرير بالحجرة المقدّسة، وكانت الحجره مستطيلة ذات اتّساع كبير، وليس بها من نافذة إلا كوة تتوسّط السقف، وفي الصدر قام السرير وعلى الجانبين رفعت رفوف رصّت عليها أدوات الكيمياء، وفي الوسط - تحت الكوة - حوض كبير ملئ بالوسائل

كان بي قدرة على الكلام لأجبت زوجي - حين سألتني: «توتي ماذا تجد؟» بأني أموت. ولكنّي فقدت قدرتي على الكلام وغيره فلم أؤخذ على غرة كما قلت، وشعرت بزورة الموت كما يشعر المضطجع ببديب الكرى ونخدير العاس ثم رأيت جهره. والذي لا شكّ فيه أنّ الموت ليس مؤلمًا ولا مفزعًا كما يتوهم البشر، ولو عرف حقيقته الحيّ لنشده كما ينشد الخمر المعتقة، وفضلًا عن هذا وذاك فلا يخامر المحتضر أسف ولا حزن بل الحياة تبدو شيئًا نافعًا حقيرًا إذا ما تخاليل في الأفق ذاك النور الإلهيّ البهيج. كنت مكبلًا بالأغلال فانفكت أغلالي. كنت حبيسًا في قمقم فانطلق سراحي. كنت ثقيلًا مشدودًا إلى الأرض فخلصت من ثقلي وأرسلت وثاقي. كنت محدودًا فصرت بغير حدود. كنت حواسّ قصيرة المدى فانقلبت حسًا شاملًا كلّه بصر وكلّهُ سمع وكلّهُ عقل، فاستطعت أن أدرك في وقت واحد ما فوقّي وما تحتي وما يجيطني بي، كأنما هجرت الجسم الراقد أمامي لأتخذ من الكون جميعًا جسمًا جديدًا. حدث هذا التغيير الشامل الذي يجلّ عن الوصف في لحظة من الزمان، بيد أنّي ما برحت أشعر بأنّي لم أغادر الحجره التي شهدت أسعد أيام حياتي السابقة. كأنّ العناية وكلّنتي بجسمي القديم حتى ينتهي إلى مستقرّه الأخير، فجعلت أتأمل ما حولي في سكون وعدم اكتراث. وقد غشي جوّ الحجره حزن وكآبة، وأخذت أمي وزوجي تتعاونان على إنامة جسمي - صاحبي القديم - بملاحه المعهودة راقدا لا حراك به، وقد ابيضّ لونه وشابته زرقة وتراخت أعضاؤه وأطبق جفناه، ونادنا أبنائي والخدم... وراحوا جميعًا يعولون ويتنحبون. ومضى الحاضرون يسكبون عليه الدمع الغزير يكادون يهلكون كمدًا وحزنًا وغمًا. ومضيت أنظر إليهم بعدم اكتراث غريب كأنه لم تربطني بهم يومًا أصرة قربى! ما هذا الجسم الميت؟ لماذا تصرخ هذه المخلوقات؟ ما هذا الأسى الذي جعل من سحنهم دمامة شوهاء! كلًّا لم أعد من أهل هذه الدنيا، ولم يردني إليها صراخ أو بكاء، ووددت لو تنقطع أسبابي بها لأخلّق في عالمي الجديد. ولكن

وأجزاء ملتتهبة دامية من أثر ذلك الطمع العنيف الذي بعثني للكفاح بلا رحمة حتى ضمنت إلى أرض أسرتي قطعة أرض تجاورها نازعني عليها جار بضع سنين. رأيت فيه جلّ حياتي وما عانيت من الأهواء، أما الرجل فمضى في عمله يحدوه الهدوء، والمران، فأق بكلاب دقيق وأولجه في أنفي باحتراس حتى تمكّن من هدفه، ثم وجهه بدراية وعنف وجذبه بسرعة، فسأل نخي الكبير من منخري مائة رخوة تذرو في الهواء ما تجمع فيها من لوامع الفكر ولاي الأمل ودخان الأحلام. هذه أفكارى منقوشة أمام عيني، فإذا قارنتها بنور الحق الذي يتخايل لروحي بدت تافهة مشوهة، لقد قاتلها المثلوى الذي أوت إليه: رأسي ونخي. ها أنذا أقرأ القصيدة التي صغتها في وصف قادش! وها هي ذي الخطب التي ألقيتها بين يدي الأمير في المناسبات المختلفة، وهذه آرائى في آداب السلوك، وهذه الحكم التي حفظتها عن حقائق النجوم كما جاءت في كتب قاقمنا! كل أولئك أزاحه الرجل مع فتات المخ فاستقرّ بين الأمعاء والمعدة في الطست الدامي، غير ما تناثر على الأرض فداسته الأقدام. قال الحكيم وهو يعيد الكلاب إلى موضعه: «الآن صارت الجئة نظيفة!» فقال صاحبه ضاحكاً: «ليتك تجد بعد موتك يداً ماهرة كيدك!» وحمل الحكيمان ما تبقى من جسمي إلى الحوض الكبير، وأناماه فيه، فامتلاً بالسائل الساحر وغرق فيه، ثم غسل أيديها وغادرا المكان، وقد أدركت أنّ الحجرة لن يعاد فتحها قبل كرور سبعين يوماً - مدة التحنيط - فمستني الجزع. وقع في نفسي خاطر أن أنطلق بروحي إلى العالم لألقي عليه نظرة الوداع.

- ٣ -

استرق إلى نفسي خاطر أن أنطلق بروحي إلى العالم فانطلقت، لم تحدث حركة في الواقع. وإنما كان يكفي أن يتجه فكري إلى شيء حتى أجده مائلاً أمامي، بل الواقع أعظم من ذلك؛ فقد صار بصري شيئاً عجيباً، لا يعصي أمره شيء، صار قوة خارقة تشقّ الحجب

العجيب، وخرج الرجال فلم يبق إلا رجلاان، وكان الرجلان حكيمين من المشهود لهما في فئها فأخذنا في عملها دون إبطاء، وقد جاء أحدهما بطست، ووضعها على كذب من السرير، وتعاوننا معاً على تجريد الجئة من ملابسها حتى بدت عارية لا يحجبها شيء. فعلا ذلك في هدوء وعدم اكتراث، ثم قال الذي جاء بالطست وهو يغمز عضلات صدري وذراعي: «كان رجلاً قوياً. انظروا!» فقال الآخر: «كان توتي من رجال الأمير، يؤاكله ويشاربه، وفضلاً عن ذلك، فقد خاض غمار الحروب!» فقال الذي جاء بالطست متحسراً: «لو أنّ الأجسام تُعار!»؛ فأجابه الآخر ضاحكاً: «أيها العجوز، ما جدوى جسد ميت؟!» فقال وهو يهز رأسه: «وكان قوياً حقاً».

فقال الآخر ضاحكاً وهو يتناول خنجرًا طويلًا حادًا من أحد الرفوف: «فلنختبر قوته!» وطعن الجانب الأيسر فيما يلي الصدر بخنجره. حتى غاب نصله، وشقّه حتى أعلى الفخذ، وأعمل في الداخل يده بمهارة ودربة، ثم استخرج الأمعاء والمعدة، وأودعها الطست، وقفاهما بالكبد والقلب، فسرعان ما رأيت باطني جميعاً، ولم يستغرق ذلك إلا دقائق معدودة، فالرجل من مهرة المحنطين الذين أتقنوا عملهم أيما إتقان، ورحت أنظر إلى باطني بعناية، وبخاصة إلى معدتي التي عرفت بقوتها ونشاطها، ولم يحلّ غلافها دون رؤية ما بداخلها بفضل تلك القوة السحرية التي اكتسبها بصري، فرأيت فيها مضغ الأوزة والتين وبقايا النيذ التي تناولتها على مائدة الأمير مساء أمس، وذكرت قوله حين عزم عليّ بالطعام: «كلّ يا توتي واشرب، وتمتّع بالحياة أيها الرجل الأمين!». رأيت وذكرت دون أن يعروني أي أثر أو انفعال، ودون أن يزايلني عدم الاكتراث العجيب، ثم حوّلت بصري إلى قلبي فرأيت عالماً حافلاً بالعجائب، رأيت بشغافه آثار الحب والحزن والسرور والغضب، وصور الأجنة والرفاق والأعداء، وقد ترك الهيام بالمدج به فجوة عمقها ما خضت من معارك في بلاد زاهي والنوبة، ولاحت على رقعة مشاهد مروعة لميادين القتال،

العرش العظيم الملك والرسول والكهنة والنبلاء والقواد. هؤلاء هم سادة الدنيا قد جمعهم مكان واحد. وهذا فرعون المظفر يحدث رسول الحِيثيين الجبابرة في جوار بالموثة عامر. أما صدر الملك فقد امتلأ احتقاراً، وترددت بأعماقه هذه العبارة: «لا بدّ مما ليس منه بدّ» وأما صدر الرسول فقد بضّ كراهية، وتحيّرت به هذه الفكرة: «صبراً حتى يموت هذا الملك القوي». ونشطت عيناى، قرأيت الوجوه والملابس والقلوب والعقول والبطون. رأيت عالمي الظاهر والباطن بغير حجاب. وتسلّيت زمناً بتفحص ما في البطون من طعام فاخر وشراب معتق، حتى عثرت بمعدة كاهن على بصل وثوم! وهما محرمان على الكهنة. وتساءلت: ترى كيف غافل هذا الرجل الورع أقرانه ودسّ هذا الطعام في جوفه؟! ولمحت في ناحية من معدة أحد النبلاء ديبب المرض الذي أودى بحياتي، وكان الرجل يحاور قائداً في سرور وانسراح فقلت له في نفسي: «على الرحب والسعة!». ثم وقع بصري على الحاكم تيتي الذي اشتهر بالقسوة والبطش حتى ليوالي فرعون النصيح له بالاعتدال مع رعايا إقليمه، فنظرت إليه بإمعان وسرعان ما تكشّف لي عن جسم مهزول، مريض الأعضاء، لا يفتأ يشكو مرّ الشكوى أسنانه ومفاصله. وكلّما ألحّ عليه الألم تمّنى لو يستطيع بتر الفاسد من جسمه. ولذلك تمكّنته فكرة البتر بقسوة فلا يتردّد عن بتر المعوجّ من رعاياه بعنف لا يعرف الرحمة. وإلى جانب تيتي شاهدت الوزير مينا، ذلك الرجل العنيد الذي حارب فكرة الصلح بكلّ قواه، وطالما حرّض على القتال، وتساءلت: ترى ما يبرّ عناد هذا الوزير الخطير؟! رأيت عقله نيرًا ولكنّ أمعاءه ضعيفة فستبقى فضلات الطعام طويلاً فتلوّث دمه في دورته فيذهب إلى عقله فاسداً ويغشى نور أفكاره، حتى إذا خرجت من فمه كانت ذات شرّ كبير! والرجل مقتنع برأيه يراه واضحاً مستقيماً كما أرى مخّ مسوداً ملوّثاً! ثمّ دار بصري بالصدور يستقرّنها خفاياها الكامنة وراء بساط الثغور. هذا صدر ثقل عليه الملل فهمس صاحبه: «متى العودة إلى القصر حيث السماع

وتتخطى السدود، وتنفذ إلى الضمائر والأعماق. بيد أنّي - وقد حمّ الوداع - نازعتني الفكر إلى أهلي فوجدت نفسي في داري. أما الصغار فقد راحوا في نوم عميق لا يزعجه مكدر. وأما زوجي وأمّي فقد افترشتا الأرض، ولاح في وجهيهما الهمّ والغمّ. لشدّ ما أعيهما الحزن والبكاء! وغداً يتضاعف حزنهما عند تشييع التابوت إلى مشواه الأبدى. وقد تغلغل روعي في فؤاديهما فتحرك رأساها وتمثّلت لها في الأحلام، ورأيت القليلين المحزونين يخفقان في كمد وألم، فيم كان كلّ هذا الكدر؟! بيد أنّ شيئاً استرعى بصري! رأيت في سويداء القليلين نقطة بيضاء. فعرفتها - فما عاد يخفى عليّ علم شيء - فهي بذرة النسيان! آه... ستكبر هذه النقطة وتنتشر حتى تشمل القلب كلّهُ. أجل أدركت هذا حقّ الإدراك، ولكن بغير مبالاة فلم أعد أكثرث لشيء، وتساءلت مسوقاً بلذّة المعرفة متى يمكن أن يحدث هذا؟ فأرتيتي عيناى العجيبتان صورة من المستقبل: رأيت أمّي تمسك غلاماً بيمنها وتشقّ طريقها وسط زحام شديد ملوّحة بزهره اللوتس. فعلمت أنّها خرجت - أو أنّها ستخرج - للمشاركة في أسعد أعياد قريتنا، عيد الإلهة إيزيس، كان وجهها متهللاً وكان ابني يتفّ ضاحكاً. ورأيت زوجي تيمّ مائدة - والطعام خير ما تصنع في دنياها - وتدعو إليها رجلاً أعرفه، فهو ابن خالها ساو، ونعم الزوج هو. ولو أنّ ميتاً يُنرّ لسررت لها، لأنّ ساو رجل فاضل، وهو خير من يسعد زوجي ويرعى أبنائي. وانصرفت روعي عن داري، فمرّت في سبيلها بقصر أميري المحبوب، فشاهدت عقل الأمير ووجدته متأسّفاً لفقدني وهو الذي قدّرتني أجمل التقدير وجازاني خير الجزاء. ووجدته مشغولاً باختيار خلف لي، فقرأت في ذاكرته اسم المرشّح الجديد «آب رع» وكان من مرؤسيّ الناهين وإن لم تتصل بيننا أسباب الموثّة.

كلّ هذا جميل. ولكن إلّام أبقى في قريتي واليوم يستقبل فرعون رسول الحِيثيين لتوقيع معاهدة الصلح والسلام. رأيت منف - في لمح البصر - تعجّ بجمهورها الحاشد، والقصر في أروع منظر. وقد اجتمع في بهو



الفوارق. فصاروا كتلة واحدة. ساكنة صامتة. لا حياة فيها ولا حركة. رحت ألقى البصر في دهشة وحيرة حتى ألفت المنظر. فتكشّف لي عن جانب جديد كان من قبل خافياً.

رأيت ذاك الظلام الساكن يشع نوراً شاملاً؛ فإنّ الأنوار الخافتة المتهافئة التي تخفق في كلّ معخّ - على حدة - ضعيفة خافية، أتصلت في المجموع الملتحم المتمايك ولاحت نوراً قوياً باهراً. رأيت في لمعتها حقاً باهراً وخيراً صافياً وجمالاً متألقاً فازدت دهشة وحيرة. ربّاه لشدّ ما تعاني الروح وتتعدّب ولكتها تبدع وتخلق على رغم كلّ شيء. ربّاه لقد رأى توتى أموراً جلييلة وليرين أموراً أجمل وأخطر. وأيقنت أنّ ذلك النور الذي بهرنى إنّ هو إلا نقطة من السماء التي سأعرج إليها. وغضضت البصر وولّيت الدنيا ظهري فوجدت نفسي في حجرة التحنيط المقدّسة، وقد ملأ روحي سرور إلهي لا يوصف..

وانتهت أيام التحنيط السبعون. فجاء الرجال مرّة أخرى، واستخرجوا الجثة من الحوض وأدرجوها في الأكفان، وأتوا بالتابوت وقد زانوا غطاءه بصورة جميلة لتوتى الشاب ووضعوا فيه الجثة، ثم رفعوه إلى أعناقهم وساروا به إلى الخارج، فتلقاه المشيعون من الأهل والجيران بالعويل واللطم، وعاد النواح كأفطع مما كان يوم النعي، وذهبوا إلى شاطئ النيل وهبطوا إلى سفينة كبيرة أقلت بهم صوب مدينة الأبدية على الشاطئ الغربي، والتّقوا بالتابوت يصوّتون وينوحون: قالت أمّي: «لا جفّ لي دمع، ولا اطمأنّ لي قلب من بعدك يا توتى!». وصاحت زوجي: «لماذا قضي عليّ بأن أعيش بعدك يا زوجي!».

وقال حاجب الأمير: «توتى أيها الكاتب المجيد. لقد تركت مكانك شاغراً!».

ولبت أنظر بهاتين العينين اللتين تنكّرتا لماضيها، وكأنّ سبباً لم يصلني بهذه الدنيا، ولا بهؤلاء الناس، ورسّ السفينة إلى الشاطئ فرفعوا التابوت مرّة أخرى، ومضوا به إلى المقبرة التي أنفقت في تشييدها

والقيان؟» وهذا صدر يتوجّع قائلاً: «لومات الرجل بمرضه لكنك الآن قائداً على فرقة الرماح!» وذلك صدر يقول في جزع متسائلاً: «متى يقوم الأحمق برحلته التفتيشية فأهرع إلى زوجه الحسنة المحبوبة... آه..» وقال صدر لصاحبه من الأعماق: «لا يدري إنسان متى يجين الأجل. فلا يجوز بعد اليوم أن أوخر بناء مقبرتي. أو فما فائدة المال إذن؟!» وتولّت الحيرة صدرًا كبيرًا فجعل يقول لصاحبه: «قال أختاتون إنّ الربّ هو آتون. وقال حار محبّ إنه آمون. وهناك قوم يعبدون رع فلماذا يتركنا الربّ في شقاق؟» ولم أوصل الاستطلاع طويلاً في هذا الحفل الفرعونيّ الجليل إذ سرعان ما أدركني الملل. فتحوّلت عنه ووجدت نفسي مرّة أخرى في الدنيا الواسعة.

ومرّت أمام ناظريّ مشاهد كثيرة من الأرض والسماء، لمست حقائقتها جهرة، ونفذت إلى صميمها. حتى وقع البصر على جنين يتكوّن في رحم، فرأيت يكتسي لحمًا وعظماً. وشهدت مولده. وجرى البصر معه في المستقبل فرآه طفلاً وصيباً وغلماً وشاباً وكهلاً وشيخاً وميتاً. وشاهد ما اعتوره من حادثات وحالات سرور وحزن ورضا وغضب وأمل وبأس وصحة ومرض وحبّ وملل. رأيت ذلك جميعه في دقيقة من الزمان. حتى يختلط في أذنيّ بكاء الميلاد وشهقة الموت! وغلبتني على أمري رغبة جامحة في اللعب فسأيرت حيوات أفراد كثيرين من الميلاد إلى المات. واستلذت كثيراً ووقوع الحالات المتنافرة لا يكاد يفصل بينها زمن! فهذا وجه يضحك ويقطب ثم يضحك ويقطب عشرات المرات في جزء من الثانية! وهذه امرأة تتيه حسناً وتعشق وتزوّج وتحبل وتلد وتهرم وتقبح وتسمح في لحظة من الزمان! ووفاء وخيانة لا يفصل بينها زمن. هذا وغيره ممّا لا يحيط به حصر جعل الحياة مهزلة. فلو أنّ ميتاً يضحك لأغرقت في الضحك، وبدا لي كأنه لا حقيقة في العالم إلاّ التغيّر! رغبت نفسي عن مطالعة الأفراد وحيواتهم المجنونة فغابوا عن بصري. ورنوت إليهم من بعيد جمعاً غفيراً لا يحده شيء. تضاءلت الهجوم وطمست المعالم وانعدمت

## همس الجنون ١٣٩

ملاحظة: هنا انقطعت الكتابة في المخطوط  
المسيروغليفي، ولعلّ فترة الانتظار التي أشار إليها  
الكاتب في أول كتابته كانت قد انتهت. ولعلّ رحلته  
الأبدية كانت قد بدأت، فشغل بها عن قلمه  
المحبوب، وعن كلّ شيء.

جلّ ثروتي، وأحلّوه موضعه من الحجرة. وفي أثناء  
ذلك كان جماعة من الكهنة يتلون بعض الآيات من  
كتاب الموق يلقّونني التعاليم الهادية من أقوم سبيل؟  
ثمّ جعلوا ينسحبون تبعاً حتى خلا القبر، ولم يعد  
يسمع من شيء إلاّ العويل الآتي من بعيد. وأغلقت  
الأبواب وهملت عليها الرمال، فانقطعت كلّ صلة بين  
العالم الذي ودّعت، والدنيا التي أستقبل..

\* \* \*

عَبْدُ الْقَدْر

الحديث بالهرم الذي شاء خوفو أن يقيمه مثوى لخلده ومستقرًا لجثمانه. وكان ميرابو، المعمار النابغة الذي تسّمت به مصر ذروة المجد الفنيّ، يتولّى شرح عمله المجيد لمولاه الملك فأسهب في تبيان دلائل العظمة المرجوة لذيك العمل الخالد الذي يشرف على بنائه وابتكار خططه. ومضى الملك يستمع إلى صديقه الفنان، ثمّ ذكر السنوات العشر التي تقضت على البدء في العمل فلم يخف تملله، وقال للفنان:

- أيّ ميرابو العزيز، إني مؤمن بنبوغك، ولكن حتّام تستنظرنني؟ إنك لا تفنأ تحدّثني عن عظمة الهرم الذي لم أر من بنيانه مدرجًا واحدًا، وقد مضت على بدء العمل عشرة أعوام طوال حشدت لك فيها الملايين من الرجال الأشداء وعبأت لك خير الكفائيات الفنيّة من شعبي العظيم، ومع ذلك فلا أرى لذلك الهرم الموعود أثرًا على ظهر الأرض، وكأني بهاتيك المصاطب التي تحفظ أجساد أصحابها، ولم تكلفهم عشر معشار ما نكلّف أنفسنا، تسخر من جهدنا الضائع وعملنا العابت.

فبدا الجزع على وجه ميرابو الأسمر الأقم، وارتسمت تجاعيد الارتباك على جبهته العريضة، وقال بصوته الرفيع الناعم:

- مولاي! حاشى أن أصرف الوقت عبثًا أو أضيع الجهد لعبًا، فإني لمقدّر التبعة التي تحمّلتها حين أخذت على نفسي موثّقًا أن أشيّد لفرعون مثوى لخلده، وأن أجعله آية للناس تنسيهم ما تقدّم من آيات مصر وعجائبها. ونحن لم نُضع الأعوام العشرة عبثًا بل صنعنا فيها ما تعجز عن صنعه الجبابرة والشياطين، فشققنا في الصخر الجلمود مجرى ماء يصل ما بين النيل وهضبة الهرم، وقطعنا من الجبل صخورًا شاهقة

جلس صاحب العظمة الإلهيّة والهبة الرّبانيّة «خوفو بن خنوم» على أريكته الذهبية، بشفرة مخدعه التي تطلّ على حديقة قصره المترامية الغنّاء - جنة منف الخالدة ذات الأسوار البيضاء - بين رهط من أبنائه وخاصّته المقربين، وكانت عباءته الحريرية تلمع حاشيتها الذهبية تحت أشعة الشمس التي بدأت برحلتها نحو الغرب، وكانت جلسته هادئة وديعة، فكان يسلم ظهره إلى وسادة محشوة بريش النعام، ويتكىء عرقه على تمّرة ذات غطاء من الحرير المنمّم بالذهب، وقد تجلّت آي عظمته في جبهته العالية ونظرته الرفيعة، ونبذت قوته الخارقة في صدره الواسع وساعديه المفتولين وأنفه الأشمّ، فأحاطت به مهابة من سنّ الأربعين، وهالة من مجد الفراغة.

وكان يقلب عينيه الثابتين بين أبنائه وصحابته، ويرسل بناظريه إلى الأمام حيث يغيب الأفق خلف رءوس النخيل والأشجار، أو ينحرف بها ذات اليمين فيشهد عن بعد تلك الهضبة الخالدة التي يرقب مشرقها أبو الهول العظيم، ويسكن جوفها رفات الآباء والأجداد، ويملأ سطحها مئات الألوف من الخلق يزيلون كتبها ويشقّون صخورها، ويحفرون الأساس الهائل لهرم فرعون، الذي أراد أن يجعله آية للناس على كّر الأيام وتوالي الأزمان.

وكان فرعون يحبّ تلك الجلسات العائليّة التي تعفيه من أثقال الرسميّات، وترفع عن كاهله أعباء التقاليد، فيغدو فيها أبًا رفيقًا وصيديقًا ودودًا، ويخلص وصحبه إلى النجوى والحديث، ويطلقون تافه المواضيع وهامها، فتلوك ألسنتهم الفكاهات وتبرم الأمور وتقرّر المصائر. . في ذلك اليوم المدرج في طوايا الزمان - الذي أرادت الآلهة أن تجعله مبدأ لقصتنا - بدأ

فضحك فرعون وسأله:

- هذا ما يقول قاقمنا وزير الملك حوتي. . فما عسى أن يقول خوميني وزير الملك خوفو؟  
فبدا التفكير على وجه الوزير الخطير وتأهب للكلام. ولكنَّ الأمير رعخعوف لم يمهل حتى يتكلم، وقال بحماس أمير في العشرين من عمره:  
- مولاي إنَّ الصبر فضيلة كما قال الفيلسوف قاقمنا، ولكنه فضيلة لا تليق بالملك، لأنَّ الصبر تحمُّل للأرزاء وإذعان للشدائد، وعظمة الملوك في التغلُّب لا في التصبُّر، وقد عوَّضتهم الآلهة عن الصبر فضيلة القوة.

فاعتدل فرعون في جلسته، ولعت عيناه لمعانا خاطفًا لولا الابتسامة المرسومة على شفثيه لكان قضاء مبرمًا، ومضى يتذكر ماضي حياته على ضوء هذه الفضيلة مليًا، ثمَّ قال بصوت حماسيَّ كرَّ به من الأربعين إلى ذروة العشرين:

- ما أجمل قولك يابني، وما أسعدني بك! حقًا إنَّ القوَّة فضيلة الملوك بل فضيلة الناس كافة لو يعلمون. . لقد كنت أمير ولاية صغيرة ثمَّ خلقت ملكًا من ملوك مصر، وما سما بي من الإمارة إلى العرش إلاَّ القوَّة، وكان الطامعون والمتمردون والحاقدون لا يفتأون يتربِّصون بي الدوائر ويتحفزون للقضاء عليّ، فما أشلَّ ألسنتهم وقطع أيديهم وأذهب ربحهم إلاَّ القوَّة. وهمَّ النوبيون مرَّة بشقِّ عصا الطاعة، وزين لهم الجهل التمرد والعصيان، فهل كسر شوكتهم وألزمهم الطاعة إلاَّ القوَّة؟ بل ما الذي رفعتني إلى مرتبة القداسة فجعل كلمتي قانونًا نافذًا ورأيي حكمة إلهية وطاعتي عبادة؟ أليست هي القوَّة؟

هنا بادر الفنَّان ميرابو يقول كأنه يكمل حديث الملك.

- والألوهية يامولاي؟

فهزَّ فرعون رأسه استهانة وسأله:

- وما الألوهية ياميرابو؟ إنَّ هي إلاَّ قوَّة.

قال المعمار بثقة وطمأنينة:

- ورحمة وحبَّة يامولاي.

كالثلال وسويناها فكانت في أيدينا أطوع من العجين. . ونقلناها من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال، فانظر يامولاي إلى السفن كيف تمخر النهر حاملة أكوام الصخور كأنها جبال عالية تسيرها تعاويد ساحر جبار. . وانظر إلى العمال المنهمكين كيف يكبون على أرض الهضبة كأن ظاهرها انشوق عمَّن يحتويهم منذ آلاف السنين!

فابتسم الملك وقال متهكمًا:

- يا عجبًا. . أمرناك أن تشيد لنا هرمًا فشقت نهرًا. فهل تظنَّ مولاك ملكًا على الأسماك؟  
وضحك الملك وابتسم الصحابة، إلاَّ الأمير رعخعوف وليَّ العهد، فقد جدَّ في الأمر، وكان على حدائه سنَّه جبارًا صارمًا شديد القسوة ورث عن أبيه جبروته دون رقته، فقال يسأل الفنَّان:

- الحقَّ آني أعجب لتلك السنين التي ذهبت في التمهيد والتحضير، وقد علمت أنَّ هرم المقدسة روحه الملك سنفرو بلغ كماله في أقلَّ من هذا العهد الطويل. .

فوضع ميرابو يده على جبهته وقال بأدب جم:

- ها هنا يا صاحب السمو الملكي يسكن عقل عجيب دائب على الثورة، نزاع إلى الكمال، خلاق للمثل العليا، وقد أبدع لي بعد جهد جهيد خيالًا جبارًا أنا باذل روحي لتجسيمه وتحقيقه، فصبرًا يا صاحب الجلالة. . وصبرًا يا صاحب السمو!

وساد الصمت لحظة لثمَّ اشاع في الجوّ نغم موسيقا الحرس الفرعوني، التي كانت تتقدَّم فريقًا من الحرس إلى أماكن حراستهم وتعود بإخوانهم إلى الثكنات، وكان فرعون يفكر في كلام ميرابو، فلمَّا خفتت أصوات الموسيقى نظر إلى وزيره خوميني كاهن المعبود بتاح ربَّ منف، وسأله والابتسامة الجلييلة لا تفارق شفثيه:

- هل الصبر من شيم الملوك يا خوميني؟

. فتخلَّل الرجل لحيته بأنامله وقال بصوته الهادي:

- مولاي، يقول فيلسوفنا الخالد قاقمنا وزير الملك

حوتي: إنَّ الصبر ملاذ الإنسان من القنوط ودرعه ضدَّ الشدائد.

## عبث الأقدار ١٤٥

ومشهدهم الرائع . أيّ مجد وأيّ جلال! أيّ عذاب وأيّ جهاد في سبيله هو! هل ينبغي أن تشقى ملايين النفوس الشريفة من أجل مجده! هل ينبغي أن يولي ذلك الشعب النبيل وجهه قبلة واحدة هي سعادته هو؟ كان ذلك الوسواس هو القلق الوحيد الذي يضطرب أحياناً في ذلك الصدر المليء بالقوة والإيمان، مثله كمثل قطعة من السحاب التائه في سماء زرقاء صافية، وكان يعدّبه - إذا اضطرب - فيضيق به صدره وينعّص عليه صفوه وسعادته . وقد اشتدّ به العذاب فوئى الهضبة ظهره وطلّح صحابته بوجهه غاضب دهبوا له، وطرح عليهم هذا السؤال:

- من الذي ينبغي أن تبذل حياته لصاحبه؟  
الشعب لفرعون أم فرعون للشعب!؟

فوجهوا جميعاً واستولى عليهم الارتباك، وكان القائد أربو أربطهم جأشاً، فقال بصوته القويّ الثبرات:  
- إننا جميعاً - شعباً وقادة وكهنة، فداء لفرعون!  
وقال الأمير حرسادف أحد أبناء الملك بحماس شديد:  
- والأمراء أيضاً .

فابتسم الملك في غموض ولبث القلق واضحاً على وجهه الجليل، فقال وزيره خوميني .  
- مولاي صاحب الجلالة الربانية! لماذا تفرّقون بين ذاتكم العالية وبين شعب مصر وأنتم منه كالرأس من القلب والروح من الجسد؟ إنكم يامولاي عنوان مجده وأي فخاره وحصن عزّته ووحى قوّته، ولئن وهبكم حياته فإنما يبها لمجده وعزّته وسعادته، وما في هذه المحبة ذلّ أو عبوديّة، إنّ هي إلّا وفاء جميل وحبّ عتيد ووطنية سامية .

فابتسم الملك ارتياحاً، وعاد بخطى واسعة إلى الأريكة الذهبية وجلس فجلس القوم، ولم يكن الأمير رعخوف وليّ العهد بمرتاح إلى وساوس والده فقال له:

- لماذا تكذّرون صفوكم يامولاي بأمثال هذه الوسواس؟ لقد وليت الحكم بمشيئة الآلهة لا بإرادة

فقال الملك وهو يشير بسبابته إلى الفنّان:

- هكذا أنتم أيّها الفنانون! تروّضون الصخور العاتيات وقلوبكم أندى من نسيم الصباح . وما أحبّ أن أجادللك، ولكني ألقى عليك سؤالاً ستجد في الجواب عليه فصل الخطاب: إنك ياميرابو تخالط - منذ عشرة أعوام - جيوش هؤلاء العمّال الأشداء، وإنك لذلك حقيق بأن تتّلع على خبايا ضلوعهم وما تحتلج به نفوسهم في السرّ والتجوى . فما الذي تظنّ أنّه يلزمهم طاعتي ويصبرهم على أهوال العمل؟ قل الحقّ صراحة ياميرابو . .

فصمت المعمار ساعة يُعمل فكره ويدعو الذكريات . وقد أمّجّحت إليه الأنظار في اهتمام شديد، ثمّ قال بتؤدة بلهجته الطبيعيّة المفعمّة حماساً و يقيناً:

- العمّال يامولاي طائفتان: طائفة الأسرى والمستوطنين، وهؤلاء لا يدرون ماذا يفعلون، ويروحون ويغدون بلا شعور سام كما يدور الثور حول الساقية، ولولا قسوة العصا ويقظة الجند ما وقفنا لهم على أثر .  
أما طائفة المصريين، وأغليبتهم من مصر العليا، فهم أناس ذوو عزّة وكبرياء وجلّد وإيمان، تحمّلهم للعذاب عجيب وصبرهم على الشدائد صارم، وهم يعلمون ماذا يفعلون، وتؤمن قلوبهم بأنّ العمل الشاقّ الذي يببونه حياتهم واجب دينيّ جليل وزلفى للربّ المعبود، وطاعة لعنوان مجدهم الجالس على العرش، فمنحتهم عبادة، وعذابهم لذّة، وتضحياتهم الجبارة فرض لإرادة الإنسان السامي على الزمان الخالد . .  
تراهم يامولاي في وهج الظهيرة وتحت نيران الشمس المحرقة يضربون الصخر بسواعد كالصواعق وعزائم كالأقدار، وهم ينشدون الأغاني وترتمون بالأشعار .

فانبسطت أسارير السامعين وسرت في دمائهم نشوة الفرح والفخار، وتبدّى الرضا على قسّمات فرعون البارزة القويّة، وقام عن أريكته - وقد بعث قيامه الجالسين قياماً - وسار في الشرفة الواسعة على مهل وأتران حتّى بلغ حافتها الجنوبيّة، وألقى النظر بعيداً إلى تلك الهضبة الخالدة التي ترسم على رقعتها المقدّسة خطوط العمّال الطويلة، وتأمّل منظرها الجليل

إنسان، ولك أن تحكم الناس كيف تشاء لا تُسأل عما تفعل وهم يُسألون!

فقال خوفو:

- أيها الأمير، إنَّ أباك إذا تفاخرت الملوك يقول «أنا فرعون مصر».

ثم تنهَّد بصوت مسموع وقال وكأنه يحدث نفسه:  
- إنَّ كلام رعخوف حريّ بأن يوجّه إلى حاكم ضعيف لا إلى خوفو الجبار.. خوفو فرعون مصر..  
وما مصر إلا عمل عظيم لا تقام لبناته إلا على تضحيات الأفراد، وما قيمة حياة الفرد؟ إنها لا تساوي دمة جافة لمن ينظر إلى المستقبل البعيد والعمل المجيد.. لهذا أقسو دون تردّد، وأضرب بيد من حديد، وأسوق مئات الألوف إلى الشدائد لا لبلادة طبع أو تحكّم أثره، وكأنَّ عينيّ تنفذان خلل سجف الأفق فتطلعان على مجد هذا الوطن المنتظر. لقد اتهمتني الملكة مرة بالقسوة والظلم. كلاً، ما خوفو إلا حكيم بعيد النظر، يرتدي جلد غر مفترس ويخفق في صدره قلب ملاك كريم.

وساد صمت طويل. وكان الصحابة يمتّون أنفسهم بسمر طريف ينسيهم أثقال تبعاتهم الجسام، وكانوا جميعاً يرجون أن يقترح عليهم الملك رياضة جميلة أو يدعّوهم إلى مجلس شراب وغناء بعد أن شبعوا من أحاديث الأعمال والمهام، ولكنَّ الملك كان في تلك الأيام يشكو من ملل أوقات الفراغ على قصرها وندرتها، فلما علم أنه قد آن له أن يستريح وأن يلهو ران على قلبه السأم، ونظر إلى صحبه في حيرة، وقد قال له خوميني:

- هل أملاً لمولاي كأساً من الشراب؟

فهزّ فرعون رأسه وقال:

- شربت اليوم وشربت بالأمس..

فقال أربو:

- هل ندعو العازفات يامولاي؟

فقال بلبل:

- إنّي أستمع إلى موسيقاهنّ صباح مساء.

فقال ميرابو:

- ما رأي مولاي في الخروج إلى الصيد؟

فقال الملك بنفس اللهجة:

- شبعنا من صيد البر والبحر.

- إذأ فهل من سَيْر بين الأشجار والأزهار؟

فقال:

- وهل في الوادي مشهد جميل لم أره؟

وساءت شكوى الملك خلصائه وتكدّرت نفوسهم،

إلا الأمير هورداديف فإنه كان يدخر لوالده مفاجأة ساّرة لا عهد له بها، فقال:

- أي الملك، إنّي أستطيع أن أقدم بين يديك لو تشاء ساحراً عجيباً يعلم الغيب ويميت ويحيي، ويقول للشيء كن فيكون.

فصمت فرعون ولم يسارع هذه المرة إلى الرفض والتلمل، ونظر إلى ابنه باهتمام. وكان الملك يسمع كثيراً عن أخبار السحرة ومعجزاتهم، ويتسلّى بما يروى عن نوادرهم، فسرّه أن يوعد برؤية واحد منهم محضراً بين يديه، وسأل ابنه:

- ومن هو هذا الساحر أيها الأمير هورداديف؟

فقال الأمير:

- هو الساحر ديدي يامولاي، وقد بلغ من العمر مائة عام وعشرة ولا يزال محتفظاً بقوة الشباب وقوة الصبا، وله قدرة عجيبة يتسلّط بها على الإنسان والحَيوان، وبصيرة نافذة تهتك حجب الغيب.

فازداد اهتمام الملك وسرى عنه الضيق والملل وقال:

- هل تستطيع أن تأتي به الآن؟

فقال الأمير بفرح:

- أمهلني دقائق يامولاي.

ثمّ قام واقفاً وحياً والده بانحناءة طويلة، وذهب

ليحضّر الساحر العجيب..

- ٢ -

وبعد حين قليل رجع الأمير هورداديف يسير بين

يدي رجل طويل القامة عريض المنكبين، حادّ البصر

نافذ النظرات، يكَلّل رأسه شعر أبيض هشّ وتغطّي

## عبث الأقدار ١٤٧

وهزَّ القائد أربو منكبيه استهانة، وتقدّم بين يدي الملك وقال:

- مولاي، إني لا أومن بالأعيب السحر. وأرى أنّها نوع من المهارة بمخذه المتفرغون له.  
فقال الملك:

- ما جدوى الكلام وأماننا الرجل؟ هاتوا له أسدًا مفترسًا نطلقه عليه، ولنر كيف يروضه بسحره ويدعنه لإرادته.

ولكنَّ القائد لم يقنع وقال لمولاه:

- عفواً يا مولاي لا شأن لي بالأسود، وهأنذا واقف بين يديه فليجرب في سحره وفنّه، وله إن شاء - وشاء أن يجعلني أومن به - أن يخضعني لإرادته ويتسلط على قوتي..

وساد صمت ثقيل، واعتلى الوجوم وجوهاً، وتبدت الغبطة وحبّ الاستطلاع على وجهه أخرى. ونظر كلا الفريقين إلى الساحر ليروا ما فعل به تحدي القائد العنيد، فألفوه هادئاً ساكناً لا تفارق ابتسامة الثقة شفنيه الرقيقتين الحادثتين.

وضحك الملك ضحكة عالية وقال لأربو بلهجة لم تخل من السخرية:

- أهانت عليك نفسك يا أربو؟

فقال القائد بثبات عجيب:

- إن نفسي يا مولاي عزيزة على عزة عقلي الذي يهزأ بالأعيب السحر.

وتجلى الغضب على وجه الأمير هوردايدف، فوجه كلامه للقائد قائلاً بلهجة حادة:

- فليكن ما تريد. وليفضّل مولاي الملك ويأذن لديدي بالردّ على هذا التحدي.

ونظر الملك لابنه الغاضب، ثمّ إلى الساحر وقال:  
- هيّا أربو كيف يقاوم سحر جبروت صديقنا أربو.

ولحظ القائد أربو الساحر بعين متعالية، وأراد أن يوئي عنه وجهه باحتقار، ولكنّه أحسّ بقوة تجذبه من عينيه إلى الرجل. ولفحه الغضب وشدّ بقوة على رقبته، وحاول أن ينتزع عينيه من القسوة الهائلة التي

صدره لحية كثة، وقد تلعّع بعباءة فضفاضة وتوتكاً على عصاً طويلة غليظة، وانحنى الأمير وقال:

- مولاي! أقدم بين يديك عبدك القانت الساحر ديدي.

فسجد الساحر بين يدي الملك وقبّل الأرض بين قدميه، ثمّ قال بصوت ذي نبرات مؤثّرة خفقت لوقعه القلوب:

- مولاي ابن خنوم، نور الشمس المشرقة وربّ العالمين، دام له المجد وحلّت به السعادة!

فرعاه الملك بالعطف وأجلسه على كرسيّ قريب منه، وقال له:

- كيف لم أرك من قبل وقد سبقتني إلى نور هذه الدنيا بسبعين عاماً؟

فأجاب الساحر المعمرّ بامتنان قائلاً:

- وهبك الربّ الحياة والصحة والقوة، إن مثلي لا يحظى بالمثل بين يديك إلا إذا دعوته.

فابتسم الملك، ثمّ نظر إليه باهتمام وسأله:

- أحقاً أنّ لك معجزات يا ديدي؟ أحقاً أنّك تستطيع أن تدعن لإرادتك الإنسان والحيوان، وأن تجلّو عن وجه الزمان غشاوة الغيب؟

فأحنى الرجل رأسه حتّى ائنتت لحيته على صدره، وقال:

- هذا حقّ وصدق. يا مولاي.

فقال الملك:

- أريد أن أشهد بعض هذه المعجزات يا ديدي. وجاءت الساعة الرهيبة، فأتسعت العيون وبدأ الاهتمام على الوجوه، ولم يبادر ديدي إلى عمله ولكنّه جمد ملياً كأنما تحوّل إلى تمثال، ثمّ ابتسم عن أنياب حادة وألقى نظرة سريعة على الوجوه.  
وقال للملك:

- عن يميني يخفق قلب لا يؤمن بي.

فدهش الصحابة وتبادلوا نظرات الحيرة، وسرّ الملك لفراسة الساحر وسأل رجاله قائلاً:

- هل من بينكم من ينكر على ديدي معجزاته؟



فقال الرجل بثقة واطمئنان:

- نعم يا مولاي.

وفكّر الملك ملياً، وساءل نفسه عمّا عسى يطرح عليه من الأسئلة، وأضاء وجهه بنور الهدى فقال للساحر:

- تستطيع أن تقول لي حتّامَ يجلس على عرش مصر ملوك من ذرّيتي؟

وبدا على الرجل القلق والتهيب، ففطن فرعون إلى ما يختلج في صدره فقال:

- إني أطلق لك حرّية القول، وأمنك من عاقبة ما تقول.

فألقي الرجل بنظرة عميقة على وجه مولاه، ثمّ صعد رأسه إلى السماء واستغرق في صلاة حازة ولبث ساعة لا يتحرّك ولا يتكلّم، فلما عاد بوجهه إلى الملك وصحابته كان شاحب اللون يمتقع الشفتين حائر النظر، فجفلت قلوب القوم وأحسّوا بدنوّ شرّ مستطير، ونقد صبر الأمير رعخعوف فقال له:

- ما لك لا تتكلّم وقد أمنك فرعون؟

فكتم الرجل أنفاسه اللاهثة وقال للملك:

- مولاي، لن يجلس على عرش مصر من بعدك أحد من ذرّيتك!

وأحدث قوله في النفوس اضطراباً كأنه هبة ريح مباغثة أصابت دوخاً ساكناً، فحذجوه بنظرات قاسية كأنها عيون حمئة يتطاير منها الشهب، وقطب فرعون جبينه واربّد وجهه فحاكى وجه أسد ضارٍ أجته الغضب، واصفرّ وجه الأمير رعخعوف وأطبق شفّتيه القاسيتين فأندرت هيئته بالويل والهلاك.

وكأنّ الساحر أراد أن يخفّف من وقع نبوءته فقال:

- سوف تحكم يا مولاي آمناً مطمئناً حتّى نهاية عمرك الطويل السعيد.

فهزّ فرعون كنفه استهانة وقال بصوت رهيب:

- إنّ من يعمل لنفسه فكأنّما يعمل للفناء، فدع عنك تعزيتي وخبرتي: هل تعرف من تدخره الآلهة ليخلفها على عرش مصر؟

تجذبها فأب بالخية والعجز، وثبتت عيناه على عيني ديدني الجاحظتين البراقطين اللتين كانتا تلتمعان وتلتهان كبلورتين تعكسان أشعة الشمس.

كسف نورهما عيني أربو فأظلمتا وغاب عنهما نور الدنيا، وخارت قوى الرجل الجبار فألقى السلم والإذعان.

ولما اطمأنّ ديدني إلى فعل قوّته الخارقة، قام واقفاً وأشار إلى مقعده وصاح بالقائد بلهجة أمرة شديدة «اجلس». . . وصدع القائد بالأمر في خنوع فسار يترنّج كالثلج وارتمى على الكرسيّ في استسلام المشفي على الهلاك. فصدرت من أفواه الناظرين آهة دهشة، وابتسم الأمير هوردايف ابتسامة ارتياح وتشفّف، أمّا ديدني فقد نظر إلى فرعون باحترام وقال بأدب جمّ:

- مولاي أستطيع أن أمره بما أشاء ولن يخالف لي أمراً، ولكنني أشفق من أن أمثل بقائد من قواد الوطن العظام وحواريّ من حواريّ فرعون، فهل يقنع مولاي بما رأي؟

وهزّ فرعون رأسه دلالة الموافقة.

فبادر الساحر إلى القائد المذهول وجرى على جبهته بأصابعه الخفيفة، وقرأ بصوت خافت تعويذة غريبة، فأخذ الرجل يفيق رويداً رويداً، ومضت الحياة تدبّ في حواسّه حتّى استعاد وعيه، ولبث زمناً كالحائر ينظر فيما حوله وكأنّه لا يدرك ممّا يرى شيئاً، ثمّ استقرّت عيناه على وجه ديدني فتذكّر والتهب جبينه وخذاه بالاحمرار، وتحمّش النظر إلى الرجل الرهيب، وقام إلى مقعده يرسم على أرض الشرفة خطى الارتباك والقهر المتعترّة.

وابتسم الملك إليه وقال برقة:

- ما صاحبك بكاذب!

فأحنى القائد رأسه وقال بصوت خافت:

- جلّت قدرة الآلهة، وتعالّت معجزاتها في

السموات والأرض!

ثمّ قال الملك للساحر:

- أحسنت أيّها الرجل القادر. ولكن هل لك على الغيب سلطان كالذي لك على الخلق؟

## عبث الأقدار ١٤٩

وما كان خوميني جباناً ولا مدهاشاً، ولكنه كان  
مخلصاً للملك ووليّ عهده ويشفق من إيلاهما، فلما لم  
ير بدأ من القول قال بصوت خافت:  
- مولاي! لقد أتفتت كلمة الحكمة المصرية التي  
لقتها الأرياب للسلف وأذاعها قاقنا على الخلف، بأن  
الحذر لا يغني عن القدر.  
فنظر خوفو إلى وليّ عهده وسأله:  
- وأنت أيها الأمير ما رأيك في القدر؟  
فنظر الأمير إلى والده بعينين متقدتين كأسد في  
شرك، فابتسم فرعون وقال:  
- أيها السادة، لو كان القدر كما تقولون، لسخف  
معنى الخلق، واندثرت حكمة الحياة، وهانت كرامة  
الإنسان، وسوى الاجتهاد الاقتداء، والعمل الكسل،  
واليقظة النوم، والقوة الضعف، والثورة الخنوع. كلاً  
أيها السادة، إن القدر اعتقاد فاسد لا يخلق بالأقوياء  
التسليم به..

فاشتعل الحماس بقلب القائد أربو وصاح:  
- تعالت حكمتك يا مولاي..  
فابتسم فرعون وقال باطمئنان:  
- أمامنا طفل رضيع على بعد مئتي سير، فيا أيها  
القائد أربو أعد حملة من العربات الحربية سأقودها إلى  
أون، لأشهد بنفسني مخلوق الأقدار الصغير.  
فقال خوميني دهشاً:  
- هل يذهب فرعون بذاته؟  
فضحك الملك وقال:  
- إذا لم أذهب للدفاع عن عرشي فمتى يحق لي  
الذهاب؟.. هيا أيها السادة.. إني أدعوكم إلى ركابي  
لتشهدوا معركة هائلة بين خوفو والأقدار..

- ٣ -

وخرجت الحملة الفرعونية في مائة عربة حربية،  
عليها مائتا فارس من فرسان الحرس الفرعوني  
الأشداء، يتقدم صفوفهم الملك وسط هالة من الأمراء  
والصحابة، وإلى يمينه الأمير رعخعوف وإلى يساره  
القائد أربو.

فقال الساحر:  
- نعم يا مولاي، هو طفل حديث العهد بالوجود،  
لم ير نور الدنيا إلا صباح اليوم.  
- فمن أبواه؟  
- أما أبوه فهو «من رع» الكاهن الأكبر لرع معبود  
أون، وأما أمه فالسيدة الشابة رده ديديت التي تزوجها  
الكاهن على كبر لتلد له هذا الطفل الذي كُتب في  
سجل الأقدار من الحاكمين.  
فقام فرعون هائجاً كالأسد المتوئب وقام لقيامه  
القاعدون، ودنا من الساحر خطوتين فراغ بصر الرجل  
وكتمت أنفاسه، وقال له:  
- أوأثق أنت مما تقول يا ديدي؟  
فردّ الساحر قائلاً بصوت مبحوح:  
- لقد كاشفتك يا مولاي بما طالعتني به صفحة  
الغيب!

فقال له الملك:  
- لا تخف ولا تحزن، فلقد بلغت رسالتك وستنال  
ما تستحق من الجزاء الحسن.  
ونودي على حاجب من حجاب القصر، وأمر أن  
يكرم الساحر ديدي ويعطيه خمسين قطعة من الذهب،  
فاصطحبه الرجل ومضيا معاً..  
وكان الأمير رعخعوف في حالة من البلاء شديدة،  
وقد طفحت عيناه بقسوة قلبه وبدأ وجهه الحديديّ  
كرسول للموت. وأما فرعون فلم تتبدد غضبته  
انفعالات وزئيراً، ولكنها كُتمت وصُبت في دفين إرادته  
فتحوّلت إلى وثبة عزيمة تدكّ الجبال دكاً وتحرك  
الأهوال، وقد تحوّل إلى وزيره خوميني وسأله بصوت  
عظيم:

- ما رأيك أيها الحكيم خوميني، هل يغني الحذر  
عن القدر؟

فرفع خوميني حاجبيه في تأمل ولكن شففيه  
المنطقتين لم تنفرجا حيرة وحزناً، فقال الملك معاتباً:  
- أرى أنك تخشى في قولة الحق وتهم بإنكار  
الحكمة لترضي، كلاً يا خوميني، إن مولاك أجل من  
أن يضيق بقول الحق..

وكان الركب الفرعوني قد اضطّر إلى تهدئة عدوه تفادياً للصدام، ولم يحفل فرعون ولا أحد من رجاله بالمطاردين والمطاردة، وظنوا أنهم شرطة يؤدون واجباً من واجباتهم، وكادوا يمرون بهم مرّ الكرام لولا أن صاحبت بهم المرأة قائلة:

- الغوث أيها الجنود.. الغوث! إن هؤلاء يقطعون عليّ الطريق إلى فرعون..

هنا توقّف فرعون فتوقّفت العربات من ورائه، ونظر إلى الرجال المحيطين بالمرأة وصاح بهم بصوته الأمر:

- دعوا هذه المرأة.

ولكنّهم لم يصدعوا بالأمر الذي جهلوا أمره، وتقدّم فارس منهم برتبة ضابط إليه وقال بخشونة:

- نحن قوّة من حرس أون جئنا ننفذ أمر كاهنها الأعظم فمن أيّ مدينة أنتم، وماذا تريدون؟

وتبدّى الغضب على الوجوه لحماقة الضابط، وهمّ أربو بانتهازه وتحذيره، ولكنّ فرعون أشار إليه إشارة خفية فسكت وهو كظيم، وصرف ذكر كاهن رع فرعون عن الغضب إلى التفكير والتأمل، وأراد أن يستدرج الضابط إلى الكلام فسأله قائلاً:

- ولماذا تطاردون هذه المرأة؟

فقال الضابط بصلف:

- أنا لا أوّدي حساباً عن مهمّتي إلاّ أمام رئيسي.

فصاح فرعون غاضباً بصوت كالرعد:

- أطلقوا سراح هذه المرأة.

وذعر الجنود وأيقنوا أنّهم أمام رئيس خطير، فتركوا التي هرولت إلى عربة الملك وارتمت تحتها في خوف ووجل وهي تصيح:

- الغوث.. يا سيّدي الغوث..

وترجّل القائد أربو عن عربته وتقدّم من ضابط القوّة، فلما رأى هذا علامة النسر والشارة الفرعونية على كتفه تولّاه الرعب، ووقف وقفة نظامية وسلّ سيفه وأدّى عليه التحية العسكرية، وصاح بجنده:

- حيّوا قائد الحرس الفرعوني.

فسلّ الجنود سيوفهم ووقفوا كالتماثيل.

وقد انطلقت تعدو شمالاً شرقيّ فرع النيل الأيمن صوب مدينة أون، تنهب الأرض نهباً وتزلزل الوادي زلزلاً، وتبعث من صلصلة عجلاتها ما يشبه الرعد، وتثير من خلفها جبلاً من الغبار تحجب عن عيني منف الجميلة العربات المنطلقة والجياد المطهّمة والراكبين الجبابرة الذين ينتصبون كالتماثيل متقلّدين سيوفهم، مدججين بقسيّهم ونبالهم، مدرّعين بتروسهم، يذكرون نائم الأرض بجنود مينا الذين أثاروا غبارها منذ مئتين من السنين، حاملين إلى الشمال نصرًا مبيّنًا ووحدة عزيزة وتاريخًا مجيدًا.

ساروا بقصّهم وقضيضهم يقودهم الجبار الذي تخشع القلوب لذكر اسمه وتنكّس الأبصار، لا لغزو بلد ولا لقتال جيش، ولكن لحصار طفل رضيع ما يزال طاهرًا قياطه، وتحفل عيناه من رؤية نور الدنيا، وقد غدا بكلمة ساحر يهدّد أكبر عروش الدنيا ويلزّل أشدّ قلوب الخليقة..

وكانوا يقطعون أرض الوادي بسرعة جبّارة، ويمرّون بالقري والدساكر، مرّ السهم الخاطف، ويرسلون بأبصارهم إلى الأفق الزهيب المنطبق على الطفل الرضيع الذي اصطنعته الأقدار لتمثيل دور خطير..

وتبدّى لهم في الأفق البعيد غبار نائر لم تستطع أعينهم رؤية ما يظنّه من الخلائق، ومضت المسافة بينه وبينهم تقصر رويدًا رويدًا فاستطاعوا أن يروا شرذمة من الفرسان تعدو في أنّجهم فلم يشكّوا في أنّها فرقة من مقاطعة رع.

وازدادوا منهم قريبًا، فوضح لأعينهم أنّهم فوارس يعدون خلف واحد منهم، إمّا أنّه يتقدّمهم وإمّا أنّهم يطاردونه. فلما أن دنا من هدفهم صحصح لهم ما كانوا منه في شكّ مريب، فإذا بالمتقدّم امرأة على ظهر جواد عارٍ، وقد انحلت ضفائرها وبعثرت وطارت خلفها مع الهواء كآتها أعلام في رأس شراع، وقد أنهكها التعب فخارت قواها، ولحق بها العادون خلفها وأحاطوا بها من كلّ جانب..

وتصادف حدوث ذلك مع وصول فرعون وجنوده،

## عبث الأقدار ١٥١

- لقد أمرنا صاحب القداسة بالقبض على امرأة  
فارة على ظهر جواد في طريق منف، فصدعنا بما أمرنا  
دون أن نعلم من أمره ولا أمرها شيئاً.  
فقال أربو لسرجا:  
- إنك تكادين أن تتهمي كاهن رع بالخيانة!  
فقالت المرأة:  
- دعني يا سيدي أصل إلى أعتاب فرعون كي  
أبوح له بما يضيق عنه صدري.  
ونفذ صبر فرعون وأشفق من ضياع الوقت الثمين،  
فقال للمرأة فوراً:  
- هل رزق الكاهن بطفل هذا الصباح؟  
فتحوّلت إليه المرأة مدهوشة ذاهلة وتمتمت:  
- ومن أدراكم بهذا يا سيدي وقد تكتموا الخبر؟  
حقاً إن هذا عجيب!  
وبدا الاهتمام على حاشية الملك وتبادلوا النظر في  
صمت، أما الملك فسألها بصوته المهيب:  
- هل هذا هو السرّ الذي تريدان إبلاغه لفرعون؟  
فهزّت المرأة رأسها قائلة ولم يفارقها ذهولها:  
- نعم يا سيدي، ولكن ليس هذا جميع ما أريد  
قوله.  
فقال لها فرعون بحدة وبلهجة أمرة شديدة الوقع لا  
تبقي على التردّد:  
- فما الذي ينبغي أن يقال؟ تكلمي.  
فاندفعت المرأة إلى الكلام بخوف قائلة:  
- لقد أحست مولاتي السيّدة رده ديدبت بدبيب  
آلام الوضع منذ الفجر، وكنت ضمن الوصيفات  
اللائي أحطن بفراشها يخفّفن عنها العذاب بالحديث  
تارة وبالعقاير أخرى، وقبيل الوضع بزمن يسير دخل  
علينا الكاهن الأكبر، وبارك سيدي وصلّى للربّ رع  
صلاة حارة، وكأنه أراد أن يشرح صدر سيدي المعذب  
ويخفّف عنها ويلات الساعة، فبشرها بأنّها ستلد طفلاً  
دكراً، وأنه سوف يرث عرش مصر المكين، ويحكم  
وادي النيل خليفة للإله رع أتوم.  
وقال لها وهو لا يملك نفسه من الفرح حتّى لكأنه  
نسي وجودي، أنا التي لا تحظى مثلي غيرها بثقتي، إنّ

ولمّا سمعت المرأة قول الضابط علمت أنّها أمام  
رئيس حرس فرعون، فقامت إليه وقالت له بتوسّل:  
- سيدي.. أأنت حقاً رئيس حرس مولانا الملك؟  
بحقّ الأرباب ألا قدتني إليه، لقد فررت يا سيدي  
مولية وجهي نحو القصر الفرعوني.. إلى أعتاب  
فرعون التي لا يعجز عطفه شفّتي أيّ مصريّ أو  
مصريّة لثمها - فسألها أربو:  
- ألك حاجة يا سيدي تريدان قضاءها؟  
فقالت المرأة وهي تلهث:  
- نعم يا سيدي، في صدري سرّ خطير أريد أن  
أبوح به لذاته المعبودة.  
فأرهف فرعون السمع، وسألها أربو:  
- وما هذا السرّ الخطير يا سيدي؟  
فقالت بتوسّل:  
- سأبوح به إلى ذاته المقدّسة.  
- إنّي خادمة المخلص الأمين على سرّه.  
فتردّدت المرأة وقلق بصرها بين الحاضرين، وكانت  
شاحبة اللون زائغة العينين مضطربة الصدر، فرأى  
القائد أن يستدرجها بالتي هي أحسن فسألها:  
- ما اسمك؟ وأين تقيمين؟  
- أدعى سرجا يا سيدي، وكنت إلى صباح اليوم  
خادمة في قصر كاهن رع الأكبر.  
- ولماذا كانوا يطاردونك؟ هل وجّه مولاك لك  
إحدى التهم؟  
- إنّي امرأة شريفة يا سيدي، ولكن كان سيدي  
يسيء معاملتي..  
- وهل هربت فراراً من معاملته لك؟ هل تلتسبن  
رفع شكواك إلى فرعون؟  
- كلاً يا سيدي، إنّ الأمر لأعظم خطورة ممّا تظنّ،  
لقد وقفت على سرّ خطير فيه ما ينذر مولاي الملك  
بالخطر، فهربت لأحذر ذاته المعبودة كما يقضي الواجب  
عليّ، فأرسل سيدي هؤلاء الجنود ورائي ليقبضوا عليّ  
ويحولوا بيني وبين واجبي المقدّس!  
فارتعدت فرائص الضابط وقال بسرعة يدفع عن  
نفسه التهمة:

والوجود بَعْدُ ماءً جارٍ في فضاء محيط يجم ثم عليه ظلام ثقيل، فخلقت أيها الرب بقدرتك كوناً جليلاً جميلاً، شملته بنظام فاتن يسري حكمه الواحد على الأفلاك الدائرة في السماوات، وعلى ذرات الثرى المنتثرة على وجه البسيطة، وجعلت من الماء كل شيء حي: فالطير يملأ في السماء، والسماك يسبح في الماء، والإنسان يضرب في الأرض، والنخل ينبت في جوف الصحراء الساحلة، وبثت في الظلمات نوراً بهياً يتجلى فيه وجهك ذو الجلال والإكرام، يبعث الدفء وينشر الحياة. أيها الرب الخالق أبث إليك همّي وحزني، وأضرع إليك أن تكشف عني الضرّ والبلوى، أنا عبدك المؤمن خادمك الأمين. اللهم إني ضعيف فهبني من لدنك قوّة، اللهم إني خائف على الطمأنينة والسلام، اللهم إني مهّد بشرّ عظيم فاشملي برعايتك ورحمتك. اللهم إنك وهبتي على الكبر طفلاً باركته وكتبت له في سجلّ الأقدار ملكاً وحكماً، فادفع عنه السوء وقه شرّ العدا.

نطق من رع بهذا الدعاء بصوت متهدج، وقد سحّت عيناه دمعاً ساخناً انحدر على خديه الناحلين وبلّل لحيته البيضاء، ثم رفع رأسه الكبير ونظر بعطف إلى وجه زوجته النفساء الشاحب اللون، ثم نظر إلى الطفل الصغير وكان ساكناً هادئاً يرفع جفنيه عن عينين صغيرتين سوداوين، ويسبلهما جفولاً من ذلك العالم الغريب.

ولمّا أحسّت زوجته رده ديدبت بفراغه من الصلاة قالت له بصوت ضعيف خافت:

- أما من خبر عن سرجا؟

فتنهّد الرجل وقال:

- سيلحق بها الجنود بأمر الرب.

فقالت بقلق:

- أوّاه يا مولاي! أتعلّق خيط حياة طفلنا باحتمال

قد يصيب وقد يجيب؟

- كيف تقولين هذا يا رده ديدبت؟ إني لم أنفكّ -

مذ هربت سرجا - أفكّر في وسيلة تقيكما السوء، وقد

تمثال الربّ المقدّس زفّ إليه هذه البشرى بصوته الرّبانيّ. ولمّا وقع بصر سيّدي عليّ انقبض صدره وارتسم القلق على وجهه، ولكي يأمن شرّ الوسواس قبض عليّ وحسني في مخزن الجيوب، ولكنيّ تمكّنت من الفرار، وامتطيت جواداً وانطلقت به في الطريق إلى منف لأبلغ الملك ما سمعت. والظاهر أنّ سيّدي أحسّ بفراري، فأرسل في طلبي هؤلاء الجنود الذين لولاكم لقادوني إلى حتفي.

وكان الملك وصحابته يستمعون إلى قصّة سرجا بانتباه وإمعان ودهشة، فتحققت لديهم نبوءة الساحر ديدبي العجبية، وكان الأمير رغزعوف شديد الجزع فقال لفرعون:

- لن يذهب تحذيرنا سدى!

فقال فرعون:

- نعم يا بنيّ... ولكن ينبغي ألا نضيع الوقت.

والنفت إلى المرأة وقال لها:

- سوف يجزيك فرعون عن إخلاصك خير الجزاء، وما عليك الآن إلّا أن تقولي لنا عن الوجهة التي تولينها؟

فقالت سرجا:

- أرجو يا سيّدي أن أذهب آمنة إلى قرية قونا حيث يقيم والدي.

فقال فرعون للضابط:

- أنت مسئول عن حياة هذه المرأة حتّى تبلغ دارها.

فأحنى الضابط هامته طاعةً، وأشار فرعون إلى القائد أربو فصعد إلى عربته، ثمّ أمر الملك قائد عربته بالسير فانطلقت كالقضاء ومن ورائها العربات إلى أون، التي بدا للعين سورها المحيط ورءوس أعمدة معبدها الكبير: معبد رع أنوم.

- ٤ -

كان كاهن رع في تلك الأثناء يبحث إلى جانب سرير زوجته ويصليّ صلاة حارة، ويقول:

- رع، أيها الربّ الخالق الموجود منذ الأزل،

## عبث الأقدار ١٥٣

فقالت الخادمة بإخلاص:

- إني فداء لمولاتي وطفلها المبارك.

وطلب منها الكاهن أن تعينه على حمل سيّدتها إلى مخزن الحبوب، ودهشت الخادمة لذلك الطلب، ولكنها صدعت بما أمرت، ووضع الرجل زوجه على اللحاف الوثير، ووضع يده تحت منكبها ورأسها، ورفعها زايا من تحت ظهرها وفخذها، وسارا بها إلى البهو الخارجي، وهبط الدرج إلى الفناء ودخلا إلى المخزن وأرقداها في المكان الذي أعدّه لها الرجل في العربة، ثمّ صعد الكاهن وأتى بطفله وكان يعول ويصرخ، فقبّله قبلة حارة ووضعها في حضن أمه، وأطلّ عليها هنيهة من جدار العربة، ورأى رده ديدبت تنتحب وتضطرب فقال لها وقلبه يتقطع:

- ثبتي قلبك من أجل طفلنا العزيز ولا تدعي للخوف إلى نفسك سيلاً.

فقالت المرأة وهي تبكي:

- إنك لم تسمه بعد.

فقال وهو يتسم:

- ادعه باسم أبي الراقد إلى جوار أوزوريس..  
ددف.. ددف رع.. ددف بن من رع، اللهم اجعل اسمه مباركاً وادفع عنه كيد الكائدين.

وأتى الرجل بالصوان ووضعها على العزيزين، وأعد زايا مقعد السائق ووضع زمام الثورين بين يديها، وقال لها: سيري على بركة الربّ الحافظ.

وما إن تحرّكت العربة حركتها البطيئة حتّى فاضت عيناه بالدمع الغزير، وجعل يرقبها خلال دموعه وهي تقطع أرض الفناء حتّى غيّبها الباب عن ناظره، وهرول إلى السلم وصعد به بقوة شاب، وذهب إلى النافذة التي تطلّ على الطريق وراقب العربة التي تحمل قلبه ووجدانه..

ويغته باغت مخيف لم يكن يتوقّع حدوثه بمثل السرعة التي حدث بها، فلمّا أن نفذ قضاؤه ملأه رعباً يعجز البيان والتعبير، فتسي حزن الفراق وجوى الوداع وحزن الأبوة، واحترق رعباً وخوفاً حتّى فقد الشعور والإدراك، فشبك كفّيه وجعل يضرب بها صدره وهو

هداني الربّ إلى حيلة، ولكني أخشى عليك وأنت نساء لا تحملين الشدة.

فمدّت إليه يدًا ضارعة وقالت بتوسّل:

- افعل يا زوجي ما فيه نجاة طفلنا، ولا يهولتك ضعفي فإني أستمّد من أمومي قوّة دونها قوّة الأصحاء..

فقال الكاهن المتألّم:

- اعلمي يا رده ديدبت أني أعددت عربة وملأتها بالحنطة، وجعلت لك في ركن منها مكاناً ترقدين فيه مع الطفل، وجّهزت صوتاً من الخشب ونزعت قعره، فإذا وضع عليكما أخفاكما عن الأنظار، وستسير بها وصيفتك الأمانة كاتا إلى عمك في قرية سنكا..

- ناد الخادمة زايا لأنّ كاتا نساء كسيّدتها، وقد ولدت طفلاً ضحى اليوم..

فدهش الرجل وقال:

- أولدت كاتا؟ وعلى كلّ حال فزايا لا تقلّ إخلاصاً عن كاتا..

- وأنت يا زوجي؟! هب أنّ الحظّ عثر وباء، وأنّ سرّ طفلنا بلغ فرعون فأرسل إليك بجنده، فيهمّ تجيهم لو سألوك عن الطفل وأمّه؟

ولم يكن الكاهن قد أعدّ العدة لنفسه فيما لو وقع المحذور، ولكنّه لم يقدّر لذلك وزناً لأنّ همّه كان محصوراً في إنقاذ الطفل وأمّه. ولذلك كذب على زوجه قائلاً:

- اطمئني يا رده ديدبت فلن تفلت سرجا من رسلي، وما تهريبي لك خفية إلّا حذرًا وحيطة، ومهما يكن من أمر فلن تباغتني الطوارئ ولسوف تصلك أخباري عمّا قريب.

وخشي أن تزداد مخاوفها فأراد أن يصرفها عن التفكير، فقام واقفاً ونادى بصوته الجهوريّ على زايا، فأنت الخادمة سريعاً وانحنت له في احترام، فقال لها:  
- سأعهد لك بسيّدتك والطفل المولود لتسير بهما إلى قرية سنكا.. وعليك بالحذر فأنت تعلمين بالخطر الذي يتهدّدهما.

وسكت الكاهن فجأة، واتسعت عيناه وصاح ولكن  
بفرح شديد في هذه المرة:  
- الحمد لرع.. إنهم يتقدمون والعربة تسير في  
طريقها آمنة من غير سوء.. باسم رع مسيرها  
وخطها.. الحمد لك أيها الرب الرحيم..

- ٥ -

تنفس الكاهن الصعداء وأحس - لفرحه - بحنين  
إلى البكاء لولا أن تذكر ما ينتظره من الأهوال  
والشدائد، فلم ينعم بالطمأنينة إلا لحظات سريعة،  
ودلف إلى منضدة عليها إبريق من الفضة صب منه من  
الماء القراح ما روى به غلته.

وما لبث أن صكت أذنيه جلجلة القوة التي صارت  
بقضاء قصره، والتي جاءت خصيصاً للقضاء على المولود  
الذي كان خطر الموت منه قاب قوسين أو أدنى.

وجاء خادم يسعى مضطرباً خائفاً، وأخبره بأن قوة  
من حرس الملك تحلّ القصر وترقب منافذه، وجاء  
آخر يبلغه أن رئيس القوة أرسله في طلبه سريعاً،  
فتظاهر الكاهن بالثبات ورباطة الجأش، ووضع العباءة  
المقدسة على منكبيه والقلنسوة الكهنوتية على رأسه، ثم  
غادر حجراته في خطوات وثيدة تحفّ به المهابة والجلال  
الحقيقان بشخصية أون الدينية الكبرى. ولم يتهاون  
الكاهن في حق هيئته فوقف على عتبة هو الاستقبال  
ووجهه إلى الفناء، وألقى نظرة سطحية على جنود القوة  
الواقفين في أماكنهم لا يبدوون حراكاً كأنهم تماثيل  
منصوبة من العهد القديم، ثم رفع يده تحية وقال  
بصوته الجليل دون أن يقرّ نظره على وجه بذاته:

- يا بني.. حللتم أهلاً وسهلاً. وليبارككم رع  
المعبود باري الكون وخالق الحياة.

فسمع صوتاً مهيباً يردّ عليه قائلاً:

- الشكر لك يا كاهن رع المعبود.

فانتفض جسمه لدى سماعه كما ينتفض الحمل لزئير  
الأسد، وذهبت عيناه زائغتين تبحثن عن صاحب  
الصوت العظيم حتى استقرتا على قلب القوة، فتولاه  
العجب والرعب أن يأتي فرعون بذاته إلى بيته. ولم

يقول بذهول: «أيها الرب رع. أيها الرب رع»  
ويكرّرها بلا وعي وعيناه تنظران إلى كتية العربات  
الفرعونية التي ظهرت فجأة من منحرج طريق المعبد،  
وتقدّمت إلى قصره وهي تقوم بحركة حصار بديعة في  
سرعة ونظام دقيقين، حالا بين العربة وبين التقدم  
خطوة أخرى.

يا ربّ السماء، لقد جاءت جنود فرعون بأسرع مما  
دار له بخلد، ينبئ مجيئها عن توفيق سرجا في مهمتها  
وهربها من جنوده، وإلا ما استطاعت أن ترسل رسل  
الموت الزؤام بمثل هذه السرعة.

وجاء جند فرعون كالمردة الجبابرة تصهل جيادهم  
وتصلصل عجلاتهم وتتوهج خوذاتهم في شعاع  
الشمس المائل. ماذا جاءوا يفعلون؟ جاءوا ليقتلوا  
الطفل البريء والابن الحبيب الذي شرح الربّ به  
صدره على الكبر واليأس.

وكان من رع ما يزال يضرب صدره بكفيه  
المشتبكين وهزّ رأسه هزات الذهول والبله، ويقول  
بلهجة الثكل التي تندب ولدها: «أيها الرب.. إن  
جماعة منهم تحيط بالعربة، وواحدًا منهم يطرح الأسئلة  
الصارمة على زايا البائسة. ترى عمّ يسألها وبمّ تحببه؟  
وما عسى أن تكون عقبي هذا التحقيق؟ وإن حياة  
طفلي وزوجي لرهن بكلمة واحدة تنطق بها زايا.  
ربّاه! يا رع المعبودا.. ثبت قلبها وطمئن نفسها وأجر  
على لسانها كلمة الحياة لا الموت، وأنقذ طفلك الحبيب  
لتقضي قضاءك الذي قضيت به وبشرت..»

وجنّ جنونه من الجزع، وخيل إليه أن ساعات  
طويلة تمرّ ثقيلة متباطئة على هذا الجندي وهو لا يفتأ  
يسأل زايا ويسدّ عليها المنافذ. أواه لو يحرك واحد منهم  
الصوان أو يداخله شكّ فيها يشتمل عليه؟ بل أواه لو  
يعلو صوت الطفل بأهة أو صراخ.

- صه يا بني.. اللهم ألهم أمه أن تضع ثديها في  
فمه.. صه يا بني.. إن آهة تخرج من فمك كفيفة  
بالقضاء عليك.. ربّاه إن قلبي يتفتت وروحي تصعد  
في السماء..

## عبث الأقدار ١٥٥

وأجاب من رع بشجاعة فائقة:  
- إن ما ينبغي لفرعون نحو عرشه هو ما ينبغي  
للإنسان الأمين نحو وديعة الألهة المكرمين بين يديه،  
أن يقوم بواجباته ويؤدّي له حقوقه ويحافظ عليه محافظته  
على شرفه.

فهزّ فرعون رأسه راضياً وقال:  
- أحسنت أيها الكاهن الفاضل، والآن خبّرني،  
ماذا ينبغي أن يفعل فرعون لو هدّد عرشه مهدّد؟

فخفق قلب الكاهن الشجاع وأيقن أنّه يحكم على  
نفسه بجوابه، ولكنّه - وهو رجل الدين والتقوى  
والعزّة - أبى إلا أن يقول الحقّ، فقال:  
- ينبغي لجلالته أن يبىد الطامعين.

فابتسم فرعون والتمعت عينا الأمير رعخعوف  
ببريق قاس، وقال للملك:  
- أحسنت.. أحسنت.. لأنّه إن لم يفعل، خان  
عهد الربّ وفرط في وديعته الإلهية وأضاع حقوق  
العباد.

ثمّ تصلّب وجه الملك وبدا عليه عزم يمدّ الجبال،  
وقال بصوت رهيب:  
- أيها الكاهن، لقد وُجد الذي يهدّد العرش.

فنكّس الكاهن عينيه وغلبه الصمت، فاستطرد  
فرعون:  
- وهزأت الأقدار كعادتها فجعلته طفلاً.

فتساءل الكاهن بصوت خافت:  
- طفلاً يامولاي؟

فطفر الغضب من عيني فرعون شرراً وصاح:  
- كيف تتجاهل أيها الكاهن؟ لقد حرصت على  
الصراحة والصدق في حديثك فلم تترك الكذب يتسلّل  
إلى قلبك في حضرة مولاك؟ وإنّك لتعلم علم اليقين  
أنّك أبو الطفل ونبيّه!

فتدفّق الدم إلى وجه الكاهن وعصر الألم قلبه  
الكبير، وقال بتسليم وحزن:  
- ابني رضيع لم يجاوز عمره بضع ساعات.

يتردّد عن أداء واجبه، فهرع إلى سدّته لا يلوي على  
شيء، فلما بلغ عربته سجد بين يديه وقال بصوت  
متهلّج:

- مولاي فرعون ابن الربّ خنوم، نور الشمس  
المشرقة وواهب الحياة والقوّة، إنّي يامولاي أضرع إلى  
الربّ أن يوحى إلى قلبك الكبير بالإغضاء عن سهوي  
وجهلي، كي أفوز بعفوك ورضاك.

فقال له الملك:

- إنّي أعفو عن هفوات الصادقين.

فخفق قلب الكاهن وقال:

- أمّا وقد تفضّل مولاي بزيارة قصري الوضيع  
فليتفضّل ويحلّ أشرفه.

فابتسم فرعون وترجّل عن عربته، وتبعه الأمير  
رعخعوف وإخوته الأمراء وخوميني وأربو وميرابو،  
وسار الكاهن بظهره يتبعه الملك ويتبعه الأمراء  
والصحبة حتّى حلّوا بهو الاستقبال وجلس الملك في  
الصدر وحوله حاشيته، واستأذن من رع في الذهاب  
لإعداد ما يجب إكراماً لهم، ولكنّ فرعون قال له:  
- نحن نعفيك من واجب ضيافتنا لأننا جئنا في أمر  
خطير لا يجتمل الأناة.

فانحنى الرجل وقال:

- إنّي رهن إشارة مولاي.

اعتدل الملك في جلسته وسأل الكاهن بصوته النفاذ  
المهيب:

- أنت رجل من صفوة رجال المملكة ومقدّم عليهم  
بالعلم والحكمة، فهل تستطيع أن تقول لي لماذا تولّي  
الألهة الفراعنة على عرش مصر؟

فقال الرجل بثبات وإيمان:

- إنّها تختارهم من بين أبنائها وتبعث فيهم روحها  
الإلهية ليصلحوا البلاد ويسعدوا العباد.

- أحسنت أيها الكاهن، فكلّ مصريّ يسعى في  
الحياة لنفسه أو لأسرته، أمّا فرعون فينهض بحمل  
أعباء الملايين ويسأل عنها جميعاً أمام الربّ، فهل  
تستطيع أن تقول لي عمّا ينبغي لفرعون نحو عرشه؟



فقال فرعون:

- لكِنَّ آتة في يد الأقدار، والأقدار إذا أرادت أن تفعل استوى لديها الطفل والرشيد..

وساد الصمت والسكون هنيهة، وتولَّى الجميع رهبة غريبة فكنموا الأنفاس في انتظار الكلمة التي ستطلق سهم الموت إلى الطفل البائس. ونفد صبر الأمير رعخعوف فقَطَب جبينه وازدادت قساوة وجهه الطبيعيَّة شدَّة وصلابة..

ثمَّ قال فرعون:

- أيُّها الكاهن، لقد أقررت منذ لحظة بأنَّه ينبغي لفرعون أن يُهلك من يهدد عرشه، أليس كذلك؟

فقال الكاهن بقنوط:

- بلى يامولاي.

- ولا شكَّ أنَّ الآلهة قست عليك بخلقها هذا الطفل. ولكنَّ القسوة عليك أخفَّ من القسوة على مصر وعرشها.

فقال الكاهن:

- هذا حقَّ يامولاي.

فقال فرعون:

- إذا فأدِّ واجبك أيُّها الكاهن!

فوجم من رع وأرتج عليه القول، أمَّا فرعون فقد استطرد:

- إنَّ لنا - معشر الفراعنة - تقاليد موروثه في احترام الكهنوت ورعايته. لا أحبُّ أن تضطرَّني إلى خرقها.

ياعجباً! ماذا يريد فرعون بقوله هذا؟ أيريد أن يفهم الكاهن أنَّه يحترمه ولا يجب أن يقتل ابنه، وأنَّه لذلك ينبغي أن يقوم هو بالمهمَّة التي يجفل منها الملك؟ وكيف يتأتَّى له أن يذبح طفله بيده؟ حقًّا إنَّ الإخلاص الذي يكتنه لفرعون يقضي عليه بتحقيق رغبته الربانيَّة دون أدنى تردّد، وإنَّه ليعلم علم اليقين أنَّ أيَّ فرد من شعب مصر لا يتوانى عن إزهاق روحه لو أحسَّ بأنَّ موته يلقي رضاء فرعونياً سامياً، فهل يلحق بطفله العزيز ويغمد خنجره في قلبه؟

ولكن من الذي قضى أن يكون ابنه خليفة خوفاً على عرش مصر؟ أليس هو الربُّ رع؟ أو ليس يعدُّ

سعيه لقتل الابن البريء تحدّيًا لإرادة الربِّ الخالق؟ ومن إذن يجب أن يؤثر بطاعته خوفاً أم رع؟ لا يحتاج الجواب إلى رويّة. ولكن ما عسى أن يفعل وفرعون وزملاؤه ينتظرون كلمته؟ ماذا ينبغي أن يفعل وقد بدأوا يتململون ويغضبون؟

وتراءى له خاطر سريع وسط لجّة الخيرة والارتباك كما يلتمع البرق في السحاب المظلم المكفهر، تذكر كاتا وطفلها الذي ولدته في الصباح!! وتذكر أنّها نائمة في الغرفة التي تواجه غرفة سيّدها على كنب منه، حقًّا إنّها فكرة جهنميّة شيطانيّة يبرأ منها قلب كاهن مثله، ولكنَّ القلب لا يتيقظ إذا تسلّط عليه ما يتسلّط على قلبه من الانفعالات والاضطرابات، وهيئات أن يصحو ضمير أمام رهبة فرعون ورجاله، كلاً لا يستطيع أن يتردّد. وأحنى الكاهن رأسه المثقل احتراماً، وذهب ليرتكب أشنع جريمة، فتبعه فرعون، وتبع فرعون الأمراء والكبراء، وصعدوا خلفه إلى الطابق الأعلى، ولكنَّهم حين رأوا الكاهن يهَمّ بولوج باب الحجرة وقفوا في الردهة وهم سكوت، وتردّد من رع لحظة ثمَّ التفت إلى مولاه وقال:

- مولاي، ليس لي سلاح أقاتل به. فأعزني خنجراً..

ونظر إليه فرعون دون أن يبدي حراكاً.. وضاق صدر الأمير رعخعوف، فاستلَّ خنجره وأعطاه الكاهن بعنف، فأخذه الرجل بيد مرتجفة وأخفاه في عبائه ودخل الحجرة لانكاد تحمله قدمه.. وانتهت إليه كاتا فابتسمت ابتسامة امتنان وشكران، واعتقدت أنَّ سيّدها جاءها بباركها، فكشفت عن وجه الطفل البريء، وقالت له بصوت ضعيف:

- اشكُر الربَّ بقلبك الصغير، الذي عوضك عن موت أهلك حناناً مقدّساً..

فجفل الكاهن مدعوراً وخذلته نفسه فانقلب مدحوراً، وفاضت عواطف قلبه فجرف سيلها زبد الإثم.. ولكن أين المفرّ؟ وكيف الخلاص؟ إنَّ فرعون واقف بالباب وليس لديه مهلة للتفكير والرويّة،

## عبث الأقدار ١٥٧

فتركوها تسير بسلام، وآه لو أنتم علموا بما تحمل  
عربتها!

وإنها لتذكر أنهم جنود أشداء، ولن تنسى ما حبيت  
عظمة ذلك الرجل الذي يتقدمهم ولا هيئته ولا  
جلاله، حتى لكأنه تمثال إله ودبت فيه حياة إنسانية.

ولكن يا للعجب! لقد أتى ذلك الرجل الجليل  
لقتال طفل لم ير نور الدنيا إلا هذا الصباح!

وهناك نظرت إلى الورا ل ترى سيدتها، ولكنها  
وجدتها كما أنامها سيدها الكاهن تحت الصوان. . يا  
ها من امرأة بائسة لم يدر بخلد إنسان أن تنام هذه  
النومة الشنعاء وهي نساء! وما كان زوجها العظيم  
يحمل بتلك المتاعب التي ساقتها الأقدار بين يدي  
طفله، ولو تكتشف له الغيب ما تمتى الأبوة، ولا تزوج  
من السيدة رده ديديت التي تصغره بعشرين عامًا!

ولكنها أحست بحسرة وحزن، وتنهتت قائلة: ليت  
الرب يب لي غلاماً ولو يحمل إلي مولده يؤس الدنيا  
جميعاً!

كانت زايا زوجاً عاقراً تذهب نفسها حشرات على  
طفل تتمناه على الآلهة، كما يتمنى الأعمى رؤية النور،  
وكم استشارت من أطباء وكم سألت من سحرة، وكم  
لجأت إلى الحشائش والعقاقير دون جدوى أو أمل،  
وكانت إلى ذلك تشفق من بأس زوجها كاردا، الذي  
يجزئه أشد الحزن أن يرى العمر يتقدم به عاماً بعد عام  
دون أن يوهب غلاماً يجبو في داره ويلدق صدره  
بالأمل والخلود، وقد ودعها آحر مرة وهو يشد الرحال  
إلى منف حيث يشتغل في بناء الأهرام - وهو ينذرهما  
بالزواج مرة أخرى إذا هي لم تلد. وانقضى على سفره  
شهر وشهران وعشرة أشهر وهي ترقب نفسها  
وتتحسس آيات الحمل ساعة بعد ساعة ويوماً بعد يوم  
دون جدوى وبلا أدنى أمل، رباه! لماذا تحرمها الآلهة  
من الأمومة! ما حكمة خلقها امرأة إذا؟ إذ ما امرأة بلا  
أمومة؟ إن امرأة بلا أمومة كخمر بلا نشوة، أو وردة  
بلا رائحة، أو عبادة بلا إيمان فواياساه!

وعند ذاك سمعت صوتاً ضعيفاً ينادي «زايا»  
فأسرعت إلى الصوان ورفعته ووضعته جانباً، ورأت

واشتدت به الحيرة حتى أذهلته عن وعيه، فزار زئيراً  
خفيفاً، ونفس عن صدره بتنهة عميقة، واستل الخنجر  
يائساً فنوطاً وطعن به نفسه فاستقر في قلبه، وانتفض  
جسمه انتفاضة هائلة، وسقط على أرض الحجر جثة  
هامدة. .

ودخل الملك الحجره غاضباً وتبعه رجاله، وجعلوا  
ينظرون إلى جثة الكاهن والنساء المرتعبة بعيون من  
زجاج. . إلا الأمير رعخعوف فلم يلهه شيء عن  
هدفه، وأشفق من ضياع الفرصة السانحة فاستل  
سيفه من غمده ورفعته بقوة في الهواء، وهوى به على  
الطفل. . إلا أن الأم أدركت بغريزتها غرضه. فألقت  
بسرعة البرق نفسها على طفلها. . ولكنها لم تمنع  
القضاء، فأطاح السيف رأسها ورأس الطفل بضربة  
جبارة واحدة. .

ونظر الأب إلى ابنه ونظر الابن إلى أبيه، وغلبها  
وجوم شديد، لم ينقذهما منه إلا الوزير خوميني إذ  
قال:

- فليفضل مولاي بمغادرة هذا المكان الدامي.

خرجوا جميعاً وهم سكوت.

واقترح الوزير على مولاه أن يشدوا الرحال إلى منف  
ليبلغوها قبل جثوم الليل، ولكن الملك قال:

- إني لا أفر كالمجرمين، ولكن سأدعو كهنة رع  
وأقص عليهم قصة الأقدار التي ختمت بفاجعة  
رئيسهم البائس، ولن أعود قبل ذلك إلى منف.

- ٦ -

سارت العربية على خطى الثورين البطيئة تقودها  
زايا، فقطعت طريق أون في ساعة من الزمان، ثم  
اجتازت باب المدينة الشرقي وانحرفت إلى الطريق  
الصحراوي الذي يؤدي إلى قرية سنكا، حيث يقيم  
أصهار سيدها الكاهن.

وما كانت زايا تستطيع أن تنسى تلك الساعة  
الرهيبية التي أحاط بها الجند فيها يسألونها ويمعنون النظر  
في وجهها، ولكنها تشعر - فخوراً - بأنها حافظت على  
رباطة جأشها رغم هول الموقف، وأنها أفتنتهم بثباتها

الأيمن، وأمسكت زمام الثورين بيد ووضعت رأسها على الأخرى واسترسلت في عالم الأحلام، وجرت - في غفلة منها - أنامل النوم على عينيها بخفة ورشاقة فحجبت عنها نور اليقظة، كما أخذ أفق الغرب يحجب نور الشمس عن الدنيا . .

ولمّا عادت زايا إلى عالم الشعور ظنّت أنّها نائمة على سريرها بقصر سيدها كاهن رع تستقبل الصباح، ومدّت يدها لتسحب اللحاف عليها لأنّها أحست بتيّار هواء بارد، فانخرست يدها فيها يشبه الرمل، ففتحت عينيها دهشة فرأت كوناً مظلمًا وساء مزدانة بالنجوم . وأحسّت بجسمها يهتزّ اهتزازًا غريبًا . فتذكرت العربة والسيدة رده ديديت وطفلها الصغير الهارب وجميع الذكريات التي انتزعها منها سلطان النوم القاهر . .

ولكن أين هنّ؟ وفي أية ساعة من الليل؟ ونظرت فيما حولها فرأت فضاء مظلمًا محيطًا يطبق عليها من ثلاث نواح، وتراءى في الناحية الرابعة نور خافت عن بعد سحيق لم تشكّ في أنّه يشعّ من القرى المشورة على شاطئ النيل . . وسوى ذلك فليس بالمكان الذي ضلّ فيه الثوران ما يدلّ على حياة . . وتسرّبت وحشة الكون إلى نفسها ونفذت ظلمته إلى قلبها، فانكششت مرتجفة مذعورة، واصطككت أسنانها من الخوف وجعلت تنظر إلى الظلام بعينين تتوقّعان المخاوف فتخلقها خلقًا مزعجًا .

وقد خيل إليها أنّها ترى في أفق الظلام أشباح قافلة من البدو، وكانت تذكر اشتاتًا ممّا يروى عن قبائل سيناء وسطوهم على القرى وخطفهم للتائهين والضالّين وقطعهم الطريق على القوافل . وكانت لا تشكّ في أنّ العربة التي تقودها على غير هدى تعدّ غنيسة ثمينة بما فيها من حنطة . وبالثورين اللذين تشدّ إليهما، وبالمرأتين اللتين بحقّ للعاب رئيس القبيلة أن يسيل عليها . فاشتدّ بها الخوف وجرّ جنونها، فقفزت على رمل الصحراء، وأنجد نظرها إلى المرأة النائمة وطفلها وكانت ترى وجهيهما على ضوء النجوم الخافت، فمدّت يديها بلا وعي ولا تدبّر إلى الطفل ورفعته بخفة، وأحكمت لفّ القمّاط حوله، وأطلقت ساقها

سيّدتها والطفل في حضنها نائمًا، وكانت متعبة مجهدة والاصفرار يعلو وجهها الأسمر الجميل فسألته: «كيف حالك يا سيّدي؟ فأجابته بصوتها الضعيف:

- بخير بفضل الأرباب . . أما من خطر يتهدّدنا الآن يا زايا؟

فقالته الخادمة:

- اطمئنّي يامولاتي لقد يعد الخطر عنك وعن مولاي الصغير .

فتنهّدت المرأة تنهّدًا عميقًا وسألته:

- هل يبقى أمامنا سفر طويل؟

فقالته زايا برقة:

- يبقى أمامنا مسير ساعة على أقلّ تقدير . .

والأولى لك ياسيّدي أن تنامي في حمى الربّ رع .

فتنهّدت المرأة والتفتت إلى الطفل النائم وقد اكتسى وجهها الشاحب الفتان بالمحبة والحنان، ثمّ أغمضت عينيها طلبًا للنوم . ومضت زايا تنظر إليها وإلى الطفل، تنظر إلى صورة الأمومة الحلوة السعيدة رغم الآلام والمخاوف . . ما أجمل منظرهما! ألا ليتها تذوق الأمومة ولو مرّة واحدة ولو تدفع حياتها ثمنا لها!

ربّاه! لا الربّ يرحم ولا الطبّ ينفع ولا كاردا يعذر . . ولعلّه لا يفوت وقت طويل قبل أن تضحي مطلقة شريدة تعاني آلام الوحدة وعذاب العزوبة! وحوّلت زايا نظرها عن الأمّ السعيدة إلى الثورين وتنهّدت قائلة:

- لو كان لي مثل هذا الطفل؟ لو أخذ هذا الطفل وأصطنعه ابنًا بعد أن أبت عليّ الألهة ابنًا طبيعيًا! ولم تكن تضمّر بقولها سوءًا ولكنّها تمنّت، والنفس تمنّى المستحيل، وتمنّى ما تمتنع عن فعله خوفًا أو رهبة أو إشفاقًا .

وقد تمنّت زايا وحلّقت في سهاوات السعادة بجناحي الأحلام، ورأت نفسها تسير بهذا الطفل الجميل إلى كاردا وتقول له: «لقد ولدت لك هذا الطفل الجميل إلى الحميل»، ورأت زوجها يتهلّل ويطيّر من الفرح ويقبل عليها وعلى ددف الصغير يحتضنها ويقبلها معًا! وانتشت بنشوة السعادة الخياليّة فتمدّدت على جنبها

## عبث الأقدار ١٥٩

فسألها صاحب الصوت الأول:  
 - وإلى أين تقصدين؟  
 فقالت زايا وقد بدأت تطمئنن إلى أنها في حضرة جنود مصريين.  
 - أقصد ياسيدي إلى منف.  
 فضحك الرجل وقال متعجباً:  
 - إلى منف ياسيدة؟! ألا تعلمين أن الراكب يقطع هذا الطريق في ساعتين؟  
 فقالت زايا بذلة ويؤس:  
 - إني أسير ياسيدي منذ العصر، وقد اضطررتني أسباب انقطاع الزاد إلى الهجرة، فتوهمت أنني أستطيع أن أبلغ منف قبل جثوم الليل.  
 - ومن لك في منف؟  
 - زوجي كاردا الذي يشتغل في بناء هرم مولانا فرعون.  
 ومال الرجل إلى رجل في العربة التي إلى يساره وأسر إليه بكلمات، فقال الرجل:  
 - الأوفق أن يعود بها جندي إلى بلدتها.  
 فقال الأول:  
 - كلاً ياخوميني فلن تلقى في بلدتها إلا الجوع والمهانة. فلنحملها معنا إلى منف.  
 وصعد خوميني بأمر مولاه، فترجل عن عربته وذهب إلى السيدة وعاونها على القيام، وسار إلى أقرب عربة وأركبها وطفلها ووضى عليها جندي العربة.  
 أما فرعون فقد التفت إلى المعمار ميرابو وقال له:  
 - لقد شق على قلبك الرقيق ياميرابو أن ترى طفلاً بريئاً وأمه يذبحان بلا ذنب ولا جريرة، فيأتك أن تتهم مولاك بالقسوة. انظر إلي كيف أرضى أن أحمل امرأة جائعة وطفلها الرضيع لأقيهما شرّ البرد والجوع، وأبلغهما بلداً ما كانا بالغيه إلا بشق الأنفس، فصرعون رحيم بعباده. ولم أك أقل رحمة حين خرجت للقضاء على ذلك الطفل السيء الحظ، ذلك أن فعال الملوك كفعال الآلهة قد تلبس رداء الوحشية، ولكنها في جوهرها حكمة سامية.

للريح صوب أنوار المدينة، وخيل إليها وهي تعدو أنها سمعت صوتاً ينادي عليها بفرع، فظنت أن البدو أحاطوا بسيدتها، فزاد بها الرعب وضاعفت سرعة عدوها، لا يعوقها الرمل المكّس ولا الحمل العزيز ولا التعب الشديد، فكانت كالمتردّي في هاوية يهوي بحكم ثقله دون أن يستطيع لنفسه إمساكاً. ولعلها لم تكن قد توغلت في الصحراء توغلاً بعيداً، أو لعلها قطعت بعدوها شوطاً يجاوز تقدير المقدّرين وتصور المتصورين، لأنها أحست تحت قدميها بأرض ممهدة كأرض الطريق الصحراوي، ونظرت خلفها فلم تر إلا ظلاماً، وكانت عند ذلك قد استهلكت قوتها الجنونية فهذأت من سرعتها وثقلت خطاها، ثم ارتجت على ركبتيها وهي تلهث بعنف وشدة مخيفين، وكانت ما تزال مدعورة مجنونة ولكنها لم تستطع حراكاً، مثل فريسة الكابوس الذي تطارده الأخطار ولا تطيعه قدمه، فجعلت تتلقت بمنه ويسرة لا تدري عن أيّ طريق يأتي الفرج، ولا في أية ناحية يجثم الهلاك.  
 وخيل إليها أنها تسمع وقع عجلات وصهيل خيل! ترى هي عجلات عربات وخيل فرسان أم نبض الدم بأذنيها ورأسها؟ ولكن الأصوات وضحت فتأكدت وبدت في الظلمة أشباح الراكبين العادين الآتين من الشمال، ولم تدر إن كانوا يحملون لها سلاماً أم هلاكاً، ولم تستطع اختفاء لأنّ ددف علاصوته بالصراخ والعيول، ولم تكن تأمن في ركعتها وسط الطريق أن تلتهمها عجلات العربات المندفعة فرفعت عقيرتها صائحة: «أيها الراكبون».  
 واندفعت تكزرها بصوت المستغيث وقد أسلمت نفسها للمقادير، وأتى الراكب سريعاً ووقف على بعد منها قريب، وسمعت صوتاً يسأل عن الصارخ، خيل إليها أنه ليس غريباً عنها. فشددت يديها على الطفل وتنبه بها الحذر، فقالت بلهجة ريفية قحة غيرت بها نبرات صوتها:  
 - أنا امرأة هلكى، قصّر بي الجهد عن متابعة الطريق وغشيني الظلام، وهذا طفلي، يكاد يقتله هواء الليل الرطيب.

وقال الأمير رعخعوف:

- الأولى لك أيها المعيار ميرابو أن تعجب بقوة  
الإرادة الهائلة التي هزمت الأقدار، وقضت على قضاء  
القضاء.  
وعاد خوميني إلى العربية، وأمر الملك قائد عربته  
بالمسير، فانطلق الركب صوب منف يشقّ أمواج  
الظلماء.

- ٧ -

وصلت زايا إلى منف قبيل منتصف الليل بزمن  
قليل مع الركب الفرعوني، وقد نفعها الملك بقطعتين  
من الذهب فسجدت بين يديه شاكرة ممتنة، وقد  
اعتقدت أنه قائد من القواد العظام وودّعته في ظلمة  
الليل دون أن ترى وجهه أو يرى وجهها.

وكانت زايا في حالة بائسة من الخور الجسماني  
والفرع النفسي، فتاقت نفسها إلى حجرة تخلو فيها إلى  
نفسها، واستلدت بشرطي على فندق متواضع تبيت  
فيه بقية ليلها. ولما وجدت نفسها والطفل لا ثالث لهما  
تنهدت تنهدة عميقة وارتمت على السرير.

وكأنما أطلقت - باستلقائها - العنان لأم جسمها  
ومخاوف قلبها، ولكن مخاوف القلب طغت على آلام  
الجسم واستبدت بشعورها. كانت ذاهبة الفؤاد  
مذعورة النفس لا تبرح مخيلتها صورة سيدها النفساء  
التي خطفت طفلها وتركتها على عربة ضالّة وسط  
الصحراء، تغشاها الظلمات وتحيط بها الوحشة ويطبق  
عليها رجال سلب ونهب لا تعرف قلوبهم الرحمة ولا  
الشفقة، ولعلها الآن أسيرة بين أيديهم يسومونها سوء  
العذاب ويفرضون عليها الرق والعبودية، وهي تبت  
الآلهة شجوها وذلمًا وتشكو إليها ما لاقت من غدر  
ويأس وما تلقى من عذاب.

وزدادت زايا عذابًا وخوفًا ومضت تتقلب على  
فراشها ذات اليمين وذات الشمال، وأشباح فعلتها  
النكراء تطاردها مطاردة عنيفة وتنهال عليها بالوخز  
والألم والرعب، واستصرخت النوم العزيز لينقذها من  
ويل ليلتها الويل ولكنها تقلبت كثيرًا وسهدت طويلًا،

وذاقت مرّ العذاب والخوف قبل أن يرفق النوم بجفניה  
وينزعها من الجحيم الذي أصلاها نار العذاب،  
فنامت متعبة منهوكة القوة مقلقلة النفس.

واستيقظت على عويل الطفل، وكانت أشعة  
الشمس تنفذ من كوة الحجرة وتفرش أرضها بساطًا  
من الأنوار، فحنت على الطفل وهزته بلطف وقبّلت  
فمه بحنان، وكان النوم قد شفى أسقامها وطمان  
نفسها وإن لم يخل قلبها من قلق ونفسها من عذاب.  
ولكنّ الطفل استطاع أن يحول شعورها إليه فأنقذها  
من عذاب الليل وويله، وحاولت ملاحظته لكنه زاد في  
العويل وواجهت مشكلة تغذيته وتحيرت من أمرها،  
ولكنها فطنت إلى الحلّ الواحد، فقامت إلى باب  
حجرتها وصمّقت بيديها فجاءتها امرأة عجوز تسألها عما  
تريد، فطلبت منها نصف رطل من لبن الماعز.

وحملت ددف بين ذراعيها وذرعت به الحجرة ذهابًا  
وجيئة، ووضعت حلمة نديها في فمه تلهيه وتصبره،  
ثم نظرت إلى وجهه الجميل وصاحت بنشوة فرح  
مفاجيء كأنه تسلل إلى قلبها خلصة في غفلة عن  
المهجوم: تبسم يا ددف.. تبسم وقر عينًا فسترى  
والدك بعد حين قليل.

وسرعان ما تنهدت وقالت لنفسها بخوف: ترى هل  
أفوز به رغم كل شيء؟

لقد انتهى أمر أمه الحقيقية وكذا أمر أبيه!

أما أمه فقد أخذها البدو أسيرة وما كانت تستطيع  
هي - أي زايا - أن تفعل شيئًا لإنقاذها. ولو ترددت  
لحظة أخرى عن الهرب لوقعت معها غنيمة باردة في  
أيدي البدو المعتدين، فلا يجوز أن تحمل نفسها وزر  
جريمة لم ترتكبها ولم تُعِن على ارتكابها. وأما أبوه فلا  
شك أن قتله جنود فرعون انتقامًا منه لتهريبه زوجه  
وطفله.

وارتاحت إلى تفكيرها هذا فعادته مرة أخرى  
لترضي نفسها وضميرها وتقضي على أشباح الخوف  
ونحس الآلام، فرجعت تحدّثت نفسها بأنها أحسنت  
صنعًا بالهروب وخطف الطفل، ولو أنها لبثت إلى  
جانب سيدها ما استطاعت أن تدفع عنها شرّ العدا

## عبث الأقدار ١٦١

تلقاه وعلى يديها أجل ما حملت الأمهات؟! ولا ريب  
أنه سينظر إليها كالذاهل فتلين عضلات وجهه الصلبة  
وتمتلى عيناه البرأقتان بنظرة حنان تدوب رقة وعطفًا،  
وهتف بها وهو لا يمتلك نفسه من الفرح: «وأخيرًا  
ولدت يا زايا! أحقًا هذا طفلي؟ تعالي إليّ.. تعالي  
إليّ..» فتقول له وهي ترفع رأسها بكبرياء وأنفة:  
«خذ طفلك يا كاردا وقبل قدمه الصغيرة.. واسجد  
شكرًا للربّ رع.. إنه ذكر وقد سمّيته ددف».

وأقسمت لتحملن زوجها على العودة إلى طيبة  
مسقط رأسه. لأن قلبها بات يوجس خيفة - لا تدري  
ما كنهها - من الشيال وأهله، وفي طيبة الجميلة وتحت  
رعاية الربّ آمون تربيّ ابنها وتحب زوجها، وتعيش  
الحياة التي حُرمتها دهرًا طويلًا..

وأيقظتها من أحلامها جلبة أصوات وضجيج حياة،  
فنظرت إلى الطريق ورأت العربة تصعد طريقًا ملتويًا  
والرجل يلهب الخيل بسوطه، ولم تستطع في جلستها  
أن ترى ما على سطح الهضبة، ولكن طرقت أذنيها  
أصوات أحياء ودويّ آلات وأناشيد العمّال، وعرفت  
من بينها نشيدًا كان كاردا يترنّم به في أوقات الصفاء  
وهو:

نحن رجال الجنوب نأتي مع مياه النيل،  
من تلك الأرض التي اختارتها الآلهة سكنًا  
والفراعين،

نسوق بين أيدينا الخصب العميم والعمران.  
انظر إلى المدن العامرة والمعابد ذات العمدان،  
كانت - قبلنا - خرائب تأوي إليها الأوابد  
والغربان،

إن الصخر لنا يلين ويدعن، وكذا الماء الجبار.  
سَلْ عن بأسنا قبائل النوبة وطور سيناء.  
سَلْ عن جهادنا زوجات ينتظرن في وحدة وعفاف.  
وسمعت المئين يرددونها بقوة وحنان معًا، فهفت  
نفسها إليهم كما يهفو الحمام إلى صغير صاحبه، وأنشد  
قلبها مع المنشدين.

وبلغت العربة سطح الهضبة بعد أن اجتازت  
الطريق المسّمي وادي الموت، ونزلت منها زايا وسارت

ولهلكت معها، وما كان في مقدورها أن تحملها وتدبّ  
بها. ولم يكن من الرحمة أن تترك الطفل بين أحضانها  
حتى يقتله رجال سيناء. فقد أحسنت صنعًا بالهرب  
وأحسنت صنعًا بخطط ددف ولا خوف عليها ولا  
ينبغي أن تحزن!

ما أعذب هذا التفكير، بل ما أجل أن ينتهي بها  
إلى أمّها أم ددف دون شريك!

هي أمّ دون شريك وكاردا أبوه، وكأنما أرادت أن  
تطمئن إلى هذه الحقيقة فجعلت تناديه نداء منغومًا  
قائلة: «ددف رع ابن كاردا.. ددف رع بن زايا»..  
وجاءت العجوز بلبن الماعز، وبدأت الأمّ الصناعيّة  
ترضع الطفل رضاعًا صناعيًا.. حتى ظنّت أنه شبع،  
ولم يبق أمامها إلا أن تتأهب للخروج إلى كاردا..  
فاستحمت ومشطت شعرها ووضعت خمارها على  
منكبيها، وحملت ددف بين يديها وغادرت الفندق.

وكانت شوارع منف مزدحمة كعادتها بالملازين،  
راجلين وراكبين، ذكورًا وإنسًا، من وطنيين  
ومستوطنين وأجانب. ولم تكن زايا تعرف الطريق إلى  
الهضبة المقدّسة، فسألت شرطيًا، فأجابها بأن الهضبة  
«جنوب شرقيّ سور منف يقطعها الراجل في ساعتين  
أو يزيد، والراكب في نصف ساعة»، وكانت يداها  
مملوءتين بالقطع الفضّية فاكرت عربة ذات جوادين،  
وجلست باطمئنان وسعادة.

وسرعان ما انترعتها أحلامها من الدنيا وحلقت بها  
في سماء السعادة والغبطة، فسبق خيالها العربة إلى  
كاردا زوجها الحبيب المفتول الذراعين الأسمر الوجه،  
فما أجمله في وزرته القصيرة التي تكشف عن ساقيه  
الحديديتين، وما أحب وجهه المستطيل بجهته الضيقة  
وأنفه الكبير وعينيّه الواسعتين وصوته الخشن العريض  
ذي اللهجة الطيبة القحة. وكم ذا تشتاقت إلى ضمّ  
ساعديه وتقبيل فمه وسماع صوته.

وكان في أمثال هذه المقابلات التي يسبقها غياب  
طويل يقبل عليها بشوق ويقول لها مداعبًا: «تعالي يا  
امراة.. كآتي بك أرض صخرية تشرب الماء ولا تنبت  
شيئًا». أمّا هذه المرّة فلن يقولها، وكيف يقولها وهي

وأثمن أثاثًا، وكان يجلس في ركن منها - خلف مكتب فخم - رجل ربعة القوام بدين الجسم، يميّزه رأس كبير وأنف ضخمة قصير في وجه ممتلئ، عظيم الشدقين، متنفخ الخدين كقربتين صغيرتين، وكانت عيناه جاحظتين وجفناه ثقيلين، وقد جلس جلسة كبرياء وعظمة، وانكبّ على ما بين يديه في تيه وسلطان .

وقد أحسّ بالداخل ولكّته لم يرفع عينيه ولم يتبدّد عليه اهتمام حتّى فرغ ممّا بين يديه، فنظر إلى زايا نظرة شوس وتيه وسألها بصوت تيّاه فخور:

- ماذا تريدان يا امرأة؟

فاستولى الارتباك والخوف على زايا وقالت بصوت مضطرب ضعيف:

- جئت أبحث عن زوجي يا سيدي .

فسألها بنفس اللهجة:

- ومن زوجك؟

- عامل يا سيدي .

فضرب المكتب بقبضة يده وقال بلهجة حادة وبصوت كأنه يرنّ في قبر:

- وما الداعي إلى تعطيله عن عمله وإقلاقنا؟

فذعرت زايا وتفرّق منطقتها شعاعًا ولم تُجِرْ جوابًا . فآدام إليها النظر وشاهد وجهها الحمريّ المستدير وعينيها العسلّيتين الساختين وشبابها الغضّ، فعزّ عليه أن يجثم الخوف على مثل ذلك الوجه الصبيح، ولم يكن له من السلطان إلّا ظاهر وزهو. أمّا قلبه فطيّب، وأمّا عواطفه فرفيقة، فعطف على المرأة وقال بصوته الأجوف ولكن بلهجة رقيقة ما استطاع:

- لماذا تبحثين عن زوجك يا سيّدة؟

فتنهّدت زايا ارتياحًا وزال عنها الرعب وقالت بامتنان:

- إني آتية من أون بعد أن ضاقت بي سبل العيش، وأرجو يا سيدي أن يعلم بوجودي .

فنظر المقتش إلى الطفل الذي تحمله على ذراعيها وقال كالمرتاب:

- أمن أجل هذا جئت حقًا . أم جئت تبشّرينه بهذا المولود؟

صوب الخلق المحشود المنتشر على رقعة الهضبة كأنه جيش عارم في ميدان . ومرّت في طريقها بمعبّد أوزوريس وتمثال أبي الهول ومصاطب الآباء والأجداد الذين أهلتهم أعماهم في الدنيا للرقاد في بطن تلك الأرض الطاهرة، وشاهدت النهر الطويل الذي شقّه العمّال ليصل الهضبة بالنيل . وكانت تجتازه المراكب الضخمة تباغًا محمّلة بالصخور الجبّارة حيث ينتظرها عند المرسى جماهير العمّال بالعربات الزاحفة . ورأت عن بعد أساس الهرم الذي لا يحيط بحدوده بصر والعمّال على سطحه كالنجوم المنتثرة في رقعة السماء . وكانت تختلط أصوات الأناشيد بصياح الرؤساء وأوامر الحرس وطققة الآلات، فوفقت زايا خيريّ وطفلها على يديها تتلقّت يمنة ويسرة لا تدري أين المستقرّ، وترى عبث النداء في ذلك المحيط اللجّي، وقد تعبت عينها قلقلًا وترددًا بين الوجوه .

ومرّ بها أحد الحراس فاستغرب وقفها، ودنا منها وسألها بصوت أجشّ:

- ماذا جئت تفعلين هنا يا سيّدة؟

فأجبت له بسداجة:

- أبحث يا سيدي عن زوجي كاردا .

فسألها الجنديّ وهو يقطب جبينه متذكّرًا:

- كاردا؟ هل هو معمار أم حارس؟

فأجبت في استحياء:

- هو عامل يا سيدي .

فضحك الرجل ساخرًا وقال لها وهو يشير إلى بناية على بعد قريب:

- أسألي عنه في مكتب المفتش .

فسارت زايا إلى هدفها، وكانت البناية متوسطة الحجم، جميلة المشهد، ويقف على بابها حارس من الجند، وقد اعترض طريق زايا، ولكنها أخبرته بما جاءت من أجله فأوسع لها، فدخلت حجرة واسعة تصطفّ في جوانبها المكاتب ويجلس خلفها الموظفون، وكانت جدرانها ملأى بالرفوف المكدّسة بأوراق البرديّ، وفي اتجاه الداخل يرى باب موارب دلّمها الجنديّ عليه بعضاه، فاجتازته إلى حجرة أصغر حجماً وأجمل منظراً

## عبث الأقدار ١٦٣

فانظفأ نور الأمل الخافت وأجهشت زايا في البكاء،  
فطلب المفتش لها كرسياً ومضى يقول لها:

- تشجعي يا سيّدة.. تشجعي.. هذه إرادة  
الآلهة.

ولكنّ زايا كان يلوح لها الأمل كما يلوح السراب  
للظّهان في المفاوز، فسألته:

- ألا يجوز يا سيّدي أن يكون الميت واحداً غريباً  
يحمل اسم زوجي؟

فقال لها المفتش بلهجة اليقين:

- كاردا بن عن هو العامل الوحيد الذي استشهد  
من عمّال أون.

فصاحت المرأة بذلّ وألم:

- يا لسوء حظي يا سيّدي.. ألم تجد الأقدار هدفاً  
لسهمها غير صدري الضعيف؟

- هدثني روعك..

- ليس لي رجل سواه يا سيّدي.

وكانّ المفتش طيّب القلب أراد أن يطمئنها، فقال  
لها:

- إنّ فرعون لا ينسى عباده المخلصين، وتسع

رحمته الضحايا والمستشهدين جميعاً.. اصغِ إليّ: لقد

أمر مولانا الملك ببناء بيوت لأسر العمّال الذين قضوا

في أثناء العمل، وقد شيّدت البيوت عند سفح الهضبة

وأوى إليها العشرات من النساء والأطفال، وقد أجرى

عليهم الملك إعانات شهرية، كما اقتضت إرادته اختيار

الرجل من ذوي قرباهم للمعاونة في الحراسة.. فهل

لك قريب تريدين تعيينه مراقباً للعمّال؟

فقالت زايا وهي تتحب:

- ليس لي في الدنيا غير هذا الطفل.

فقال الرجل:

- ستأويان إلى حجرة نظيفة ولن تعرفا ذلّ السؤال.

وهكذا غادرت زايا مكتب مفتش الهرم أرملة

بائسة، تندب زوجها السنيّ الحظّ وطالعتها المنكود.

فتورّد خدًا زايا وعلا الحياء وجهها، ونظر إليها  
الرجل هنيهة ملتدًا ثمّ سأها:

- حسن.. من أيّ بلد زوجك؟

- من أون يا سيّدي ومسقط رأسه طيبة.

- وما اسمه يا سيّدة؟

- كاردا بن عن يا مولاي.

فنادى المفتش كاتبًا وقال له بلهجة الأمر والخيلاء،  
التي تنازل عنها من أجل عيني زايا:

- كاردا بن عن من أون.

فذهب الكاتب وبحث بين الدفاتر واستخرج  
واحدًا منها وقلّب في أوراقه باحثًا عن حرف الكاف

وعن اسم كاردا، ثمّ عاد إلى رئيسه ومال على أذنه  
وهمس بصوت خافت ورجع إلى عمله.

وأجدّ المفتش في مظهره ونظر إلى وجه المرأة طويلًا،  
ثمّ قال بصوت هادئ خافت:

- أسف يا سيّدي أن أنعي إليك زوجك، فقد

مات في ميدان العمل والواجب!

وصكّت كلمة الموت أذني المرأة ففرّت من صدرها  
صرخة رعب وفرع، ولبثت لحظة كالذاهلة، ثمّ سألت

المفتش بتوسّل أليم:

- أحقًا مات زوجي كاردا بن عن؟

فأجابها بوجوم:

- نعم يا سيّدي.. استوصي بالصبر.

- ولكن.. كيف عرفت ذلك يا سيّدي؟

- هذا ما أنبأني به الكاتب بعد أن فحص أسماء  
عمّال أون.

- ومَن أدراك يا سيّدي فقد يخدع البصر وتشابه

الأسماء.

وطلب المفتش الدفتر إلى مكتبه ونظر فيه بنفسه ثمّ  
هز رأسه أسفًا، ونظر إلى وجه المرأة الذي لوّن الرعب

صفحته بصفرة الموت، ورسم الأمل في عينيه نظرة

تضرّع وتوسّل ورجاء، وقال:

- استوصي بالصبر يا سيّدي، وأذعني لإرادة

الآلهة.



يزيد، ولكنّه طيّب القلب عظيم المودة..! وكانت تلحظ بعين نافذة خفية أنّه إذا وقع بصره على جسمها اللدن اضطرب جفناه الثقيلان وانفرجت شفاه الغليظتان. وحلّ الهوان في طلعتة محلّ الخيلاء والكبرياء فتعاطيه تثنياً رقيقاً يسمره في مكانه ثواني كأنّه خنزير محاصر. وتولّدت المطامع في قلب زايا فسَلت سلاحها للاستيلاء على المفتش العظيم، وقد انتهزت مرّة فرصة حضوره فشكت إليه سوء ما تلقى من الوحشة والكآبة في مقامها البائس، وقالت له:

- لعلّي أكون ذات نفع يا سيدي في غير هذا المكان، فإنّي خدمت طويلاً في قصر أحد سراً أون، ولي خبرة عظيمة بأعمال الوصيفات.

فارتجّ جفنا الرجل الغليظان، ونظر إلى الأرملة الحسنة بعين طامعة وقال:

- فهمت يا زايا، فليس ما تشكين هو العطلة أو الخمول، ولكنّ نفسك ألفت نعيم القصور فلا يتأق لها الصبر على مثل هذه الحياة البائسة. فابتسمت الماكرة في رقة ودلال، وكشفت عن وجه ددف الجميل وقالت:

- هل يليق هذا المكان بمثل هذا الوجه الحسن؟ فقال المفتش:

- كلاً.. ولا بك يا زايا.

فاحرّ وجهها وأسبلت جفنيها حتّى مسّت أهدابها نقرتي خديها، فقال الرجل:

- إنّ لي ذلك القصر الذي تريدن، ولعلّه يريدك أيضاً.

- إني رهينة إشارة مولاي.

- لقد ماتت زوجتي تاركة لي ابنين، وعندني من الجوارى أربع، فهل تكوينن الخامسة يا زايا؟

ومنذ ذلك اليوم انتقلت زايا وطفلها ددف من حيّ البائسات إلى حريم مفتش الهرم بشارو بقصره الجميل الذي تمتدّ حديقته حتّى تبلغ مجرى النيل المقدّس، وانتقلت إليه كجارية ذات حظوة ليست لغيرها. ووجدت الجوّ خالياً لمكرها وسحرها، لأنّ القصر كان بدون ربة مسيطرة، ولأنّ ابني المفتش كانا حبيبين

المستشهدين تقع خارج أسوار منف البيضاء شرفي الهضبة المقدّسة، كانت بيوتاً متوسطة الحجم يتكوّن كلّ منها من طابقين، وكلّ طابق من أربع حجرات متّسعة، وقد أقامت زايا في حجرة هي وطفلها، وألفت نفسها تعيش بين أولئك الخلق من الأراامل والثكليات والأطفال، منهمّن من لا تفتأ تندب قتلها ومنهنّ من اندمل جرحها وعفا الزمان على أحزانها. وكانوا جماعة من ذوي همّة ونشاط، فاشتغل الصبيان بتوزيع الماء على العتال، وأنجرت النسوة بالأطعمة والجمعة، وتحوّل الحيّ البائس إلى سوق ناشئة رخيصة دبّت بها حركة العمران والعمل، وبشّرت بأن تكون جنين قرية يافعة.

وقد أمضت زايا أيامها الأولى بسكنها الجديد في حزن متّصل وبكاء أليم على الزوج الفقيد، وعذّبتها الحزن عذاباً لم يخفّف بلواه عنها ما تلقى من توفّر الرزق وما تنعم به من عطف بشارو مفتش الهرم العامّ، ولكنّ وأسفاه! فلو ذكر المصابون في قلوبهم أنّ الموت فناء يطمس الذكرى ويذهب الأحزان في قلب الحيّ بنفس السرعة التي يفنى بها وجود الميت، لو فرّوا على أنفسهم جهداً ضائعاً وعذاباً مريراً، فقد تعزّت وأنستّها متاعب الحياة مرارة الموت، لأنّها أحسّت بتأقّف في مقامها الجديد وضاقّت به ولما تمض به سوى شهور قلائل، واقتنعت بأنّه ليس المكان اللائق بها ولا بابنها، ولكنّها لم ترّ عن الصبر محيذاً فسكتت على الحزن والضيق.

وفي أثناء تلك الشهور زارها المفتش بشارو عدّة مرّات، لأنّه كان يميّتها كلّما ذهب للتفتيش على المساكن وتفقد أحوالها، حقيقة أنّه كان يزور كثيرات من الأراامل ولكنّ زيارته لزايا امتازت برحمة ومودة، وما من شكّ في أنّ الأخريات لم يكنّ أقلّ بؤساً من زايا ومنهنّ من يفقنها شقاء، ولكن لم يكن لواحدة منهمّن عينان عسليتان ساختان كعيني زايا، ولا جسم ممشوق لدن كجسمها. وقالت زايا لنفسها وهي مستغرقة في لجج التأمّل والتفكير: ما أطيبه من رجل، إنّه بدين قصير، غليظ القسايت، في الأربعين من عمره أو

## عبث الأقدار ١٦٥

حجرة أمه، أو يسير متوكِّئًا على المقاعد والدواوين ما بين البهو والحجرات، ودلته غريزة الاستطلاع على نقوش الوسائد وزخرفة المناضد ورسوم الجدران والتحف المنشورة والمصاييح المدلاة، فعبثت يده بما استطاعت الوصول إليه ومدَّ قبضته للعزير المتنع حتى إذا أعياه القصد صاح «رع»، أو نفس عن صدره الصغير بأهة عميقة واستأنف السير وأخذ في البحث والاستكشاف، ثم أتاه المفتش بشارو بثروة عظيمة من اللعب: كالحصان الخشبي، والتمساح الفاغر فاه، والعربة الحربية الصغيرة. فكان يعيش معها في دنيا غير الدنيا، دنيا يخلق فيها الحياة ويسيطر على المصائر ويقول للشيء كُنْ فيكون، فكان للحصان الخشبي حياته وآماله، ولتمساح القاغر فاه حياته وأطعمه، بل كان للعربة نفسها حياتها ومطالبها، وكان يجادتها فتحدته، ويأمرها فتطيعه وتكشف له في كل حين من أسرار الجهاد ما تحفيه عادة عن الراشدين.

وعلى ذلك العهد ولد جاموركا من أبوين عريقين من سلالة أرمنت، وقد استقبله ددف رع استقبالاً حفيماً، ووهبه حجره يأوى إليه، وتوثقت عرا المودة بينهما منذ ذلك العهد المبكر. وقد قضت محبة ددف لصديقه أن ينشأ هذا نشأته الأولى في حضنه وأن يتبعه في أثناء نموه كظله. وأن يلقن اسمه «جاموركا» بلسانه الحلو، وأن يكون أول نباحه نداء عليه، وأول تحريك ذيله القصير حفاوة به، ولكن وأسفاه لم تحل طفولة جاموركا من عذاب، فكان التمساح القاغر فاه واقفاً له بالمرصاد ينغص عليه سعاده ويكدر صفوه، وكان إذا رآه نبح وبرقت عيناه وتصلب جسمه وكثر وفر، ولا يهدأ حتى يخفي ددف تمساحه المخيف.

وكان لا يكادان يفترقان، فإذا أوى ددف إلى سريريه رقد جاموركا إلى جانبه، وإذا قعد ساكناً - وقليلًا ما يفعل - جلس قبالة وسط ذراعيه، أو مضى يلحق خديه ويديه كيف شاء حنانه واقتضت مودته، وكان يتبعه إلى ممشي الحديقة ويركب معه القارب إذا حملتها زايا إليه للتريض في بركة القصر، فكانا يطلآن برأسيهما من حافة القارب وينظران إلى صورتيهما في

صغيرين، فعملت على أسر لب سيدها. ونجحت في مسعاها حتى حملته على الزواج منها، وسرعان ما صارت زوج المفتش بشارو وربّة قصره والمشرقة على تنشئة ابنه خنى ونافا، ولم تكن زايا يجونها المكر أبداً، فمنذ تسّمت مكانتها العالية أقسمت فيما بينها وبين نفسها لتحسنّ معاملة الصبيّين، وتكوننّ لهما نعم أمّ الحنون.

وهكذا ابتسم الحظّ لزايا بعد تقطيب، وأقبلت عليها الدنيا بعد إدبار.

## - ٩ -

ذلك هو القصر الذي قضت الأقدار بأن يكون مرتع طفولة ددف رع. وقد تمتع الطفل بطفولة خالصة ثلاث سنوات كاملة - كما جرت العادة بمصر على أيامه - لم يفارق فيها حضن أمه إلا حين النوم، وقد ترك - في تلك السنوات الثلاث - أثراً على صدر زايا لم يمح منه طيلة العمر، فملاه أمومة ورضع منه حناناً ومحبة، ولا نستطيع أن نحدّث عن طفولة ددف الأولى بأكثر من مسّ ظواهرها، لأنّها - ككلّ طفولة - سرّ مغلق وسعادة في مقم لا يعرف كتبها إلا الآلهة التي تحوطه بالعناية وتلهمه النجوى، وقصارى ما يقال إنه كان ينمو سريعاً كما تنمو أشجار مصر تحت أشعة شمسها المشرقة. وإنّ نفسه كانت تفتّح كاشفة عن حسنها كما تفتّح الوردة إذا سرى في عودها دفء الحياة وانبعث فيها روح الجمال. وإنه كان سعادة زايا ونور عينها كما كان لعبة نافا وخنى الثمينة المفضلة، يتخاطفانه ويقبلانه ويعلمانه الأسماء والنطق والمشي. وإنه ختم طفولته الأولى بعلم لا يستهان به فتعلّم كيف يقول لزايا «أماه»، وعلمته المرأة أن يقول لبشارو «أبتاه» وكان الرجل يتقبلها منه بحبور، وكان يتفاءل بوجهه الصبيح الجميل الذي يكتسب رونقه من بهاء اللوتس. وما زالت أمه به حتى تعلّم كيف ينطق رع، وكانت تطلب إليه النطق بها قبيل النوم وعقب الاستيقاظ لتستدرّ عطف الربّ على ابنه الحبيب.

وحين بلوغ الثالثة هجر حضن زايا ومضى محبوب في

إلى أن بلغ الخامسة من عمره وبدأت الحياة تكشف له عن بعض خبيثتها.

وفي ذلك الوقت بلغ خنى الحادية عشرة ونافا العاشرة واختتبا تعليمهما الأولي، واختار خنى أن يلتحق بجامعة بتاح ليرقى مدارج علمها المتتابعة ويتفقه في الدين والأخلاق والعلوم والسياسة، إذ كان الغلام ميلاً للعلم شغوفاً بالحكمة وكان يرغب في شغل وظيفة دينية أو قضائية، أما نانا فلم يتردد في الالتحاق بمعهد خوفو للفنون الجميلة، لأنه كان يهوى الرسم والتصوير.

وجاء الدور على ددف ليلتحق بالمدرسة الأوليّة، وليقضى عليه بهجر زايا وجاموركا وعالم الأحلام كل يوم أربع ساعات كاملة، يصرفها مع الأطفال والأغراب في تعلّم القراءة والكتابة ومبادئ الحساب والهندسة والدين والأخلاق والتربية الوطنية.

وكان أول ما قيل له ولهم في اليوم الأول: «عليكم بالإصغاء التام، ومن ياب ذلك منكم فاعلموا أن أذني الطفل فوق خديه وهو يرهف السمع كلما ضرب».

ولأول مرة في حياة ددف اشتركت العصا في التفاهم معه. على أنه أبدى استعداداً طيباً للتعلّم، وأقبل بشوق عظيم على درس اللغة الهيروغليفية الجميلة، وبرع في فهم مسائل الجمع والطرح.

وكان لمدرس الأخلاق أثر عظيم في نفسه، لأنه كان ذا شخصية قوية محبوبة، وكان يتسم ابتسامه حلوة تبت في أنفوس التلاميذ المودة والاطمئنان، وزاد من حبّ ددف له أن وجد شبيهاً بينه وبين أبيه بشارو في بدانة الجسم وانتفاخ الشدقين وجهارة الصوت وغلظه، فكان يصغي إليه بمجامع وجدانه وهو يقول: «انظروا ماذا يقول حكيمنا قاقمنا، إنه يقول - تقدّست روحه في السهوات -: «احذر أن تكون عنيداً في الخصام فتستوجب عقاب الرب، ويقول: إن قلّة الأدب بلاذة ومذمة، ويقول أيضاً: إذا دعيت إلى وليمة وقدم لك من أطياب الطعام ما تشتهي فلا تبادر إلى تناوله لئلاّ يحسبك الناس شرهاً. فإن جرة ماء تروي الظمأ، ولقمة خبز تغذي الجسم». ثم يأخذ

الماء، أما جاموركا فلا يسكت عن النباح، وأما ددف فيعجب لذلك الصغير الجميل الذي يشبهه ويعيش في باطن البركة.

وكانوا إذا أتى الربيع وصدحت السهوات بأناشيد الطير، وانشقت أردية الشتاء الكثيفة عن نور الشمس البهيج، واحتفى الكون بعيد الشباب، فلبست الأشجار حلاً من سندس، وأزّنت الشجيرات بألوان الورد والرياحين، وتدقّ الحبّ في القلوب، كانوا يكثر من رياضة الزورق على سطح الماء، وكانوا يتركون الأطفال عرايا إلاّ نماً يستر، فكان خنى ونانا يقفزان إلى الماء ويسبحان ويتقاذفان بالكرة. ويقف ددف إلى جانب جاموركا يشاهدهما بسرور وغيره، وربما طلب إلى أمه أن يفعل مثلها فترفعه من تحت إبطيه وتغطّسه في الماء إلى الوسط فيلعب بقدميه ويصيح فرحاً مسروراً.

فإذا ارتوت نفوسهم لهواً ولعباً عادوا جميعاً إلى حجرة الحديقة الصيفية. وجلست زايا على الديوان وجلس بين يديها ددف وخنى ونانا وأمامهم جاموركا باسطاً ذراعيه، فتقصّ عليهم قصة البحار الذي تحطمت سفينته وقذفت به الأمواج على لوح من الخشب إلى جزيرة مهجورة، وتروي لهم كيف ظهر له الثعبان الهائل صاحب الجزيرة وكيف كاد يفتك به. لولا أنه علم أنه رجل مؤمن محمود السيرة وأنه من رعاية فرعون، فطمأنه وهب له سفينة من عنده محملة بالنفيس من الكنوز عاد بها سالماً آمناً إلى وطنه.

وما كان ددف يسمع بأذنيه ولكنّه كان يرى بعينه السوداوين الجميلتين.

كان سعيداً محبوباً، ومثداً الذي كان يستطيع ألاّ يحبّ ددف ذا العينين السوداوين الدعجاوين والأنف الطويل المستقيم والروح الخفيف الضاحك؟ كان يحبّ إذا تكلم وإذا سكت، يحبّ إذا لعب وإذا سكن، يحبّ إذا رضي وإذا غضب. وقد تمتع بنعمة الحبّ واللهم في حياة قوامها الحبّ واللهم والخيال، يعيش كالخالدين دون أن يسأل عن غد.

## عبث الأقدار ١٦٧

وانتهت المرحلة السعيدة الممتعة: وأوفى منها ددف على الغاية وأكثر، بل فاق عقله عمره: فكان مثله مثل شجرة الورد التي تنبت الزهر الجميل ولم تُعَلَّ عن الأرض أشباراً.

## - ١٠ -

واها! إنَّ الزمان يتقدّم غير ملتفت إلى الوراء، ويُنزَل - كلّما تقدّم - قضاءه بالخلّاتق، ويُفدّ فيها مشيئته التي تهوى التغير والتبديل، لأنّه ملهاته الوحيدة التي يستعين بها على ملل الخلود، فعنها ما يبيل ومنها ما يتجدّد، ومنها ما يموت ومنها ما يحيا، ومنها ما يتسم شبابيه، ومنها ما يرد إلى أرذل العمر، ومنها ما يهتف للجمال والعرفان، ومنها ما يتأوّه لديبب اليأس والفناء. وقد فعل الزمان فعله بأسرة بشارو.

فقد بلغ الرجل الخمسين من عمره، ودبّ الترهّل في بدانته، وخطّ المشيب رأسه، وأخذ يودّع شيئاً فشيئاً القوّة والشباب والفتوّة، وازداد جهازه العصبيّ حساسيّة فكثر صياحه وصخبه وانتهاره الحراس وزجره الكتبة، ولكنّه كان كالثور المصريّ عظيم الخوار عديم الأذى، لأنّ طبيعته تمسكت بصفتين لا تتنازل عنها ولا تخضع فيهما لحكم زمان: فخاره وطيبه قلبه، فهو مفتش عامّ هرم خوفو وويل لمن يخاطبه فلا يقرن باسمه وظيفته وألقابه، وهو لا يملّ الحديث عن نفسه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ولا يسره حديث كحديث الملق والإطراء.

وكان إذا دعي إلى المثل بين يدي فرعون بحكم وظيفته، نشر الخبر في كلّ مكان تصل إليه دعايته، فيعلم به أهل بيته صغيراً وكبيراً وأصحابه ومرءوسوه، ولا يكتفي بذلك فيقول لنافا وخنى وددف: «هلموا أذيعوا النبأ المجيد بين إخوانكم، وتنافسوا أيّها الصغار لتبلغوا الذروة التي تسّمها أبوكم بالإخلاص والعمل والمواهب العالية»، ولكنّه ظلّ كما كان الرجل الطيّب الذي ينفر قلبه من الأذى ولا يجاوز غضبه طرف اللسان.

وقد بلغت زايا الأربعين ولم تنل منها السنون إلّا

بعد ذلك في التفسير وضرب الأمثال وقصّ القصص، وكان كثيراً ما يقول لهم: «يجدر بالطفل منكم ألا ينسى ما تكلفته أمّه من المتاعب من أجل راحته، فقد حملته في بطنها تسعة أشهر، وحضنته ثلاث سنوات وغذته بلبنها. احذر أن تغضبها، فالربّ يستمع إلى شكواها ويستجيب دعاءها».

كان ددف يصغي إلى مدرّسه بوعيه الكامل، ويتلذذ بأمثاله وقصصه ويتأثر بقوله غاية التأثر. وأمضى في تعليمه الأوّل سبع سنوات أتمّ فيها مبادئ العلوم وأتقن الكتابة والقراءة.

وفي أثناء تلك الفترة توفّقت أواصر الودّ بينه وبين أخيه نافا، فكان يجلس إلى جانبه وهو يرسم أو يصوّر، يتتبع بعينه الفاتنتين هاتيك الخطوط التي يخلّق تلاحها أجمل الأشكال وأبدع المعاني. على أنّ نافا كان يملك قلبه بضحكه الذي لا ينقطع، وبروحه المرحّة وبنكاته اللطيفة.

وكان لخنى أثر بين في عقله، جعل علمه الناشئ يجاوز المبادئ ويتصل بالإلميات والعلوم العالية في تلك السنّ المبكّرة، وذلك أنّ خنى كان يعجبه خطّ ددف، فكان يمي عليه مذكراته ومحاضراته فأضاء عقله الصغير قس من نور قاقمنا ووحى من كتاب الموت ونفثات من أشعار تايا، وكانت تنساب إلى عقله في لطف، ولكن في هالات من الغموض والإيهام أيقظته من سباته وبيّت فيه القلق والحيرة والحياة.

وقد أحبّ خنى أيضاً - رغم رزاقته وتجهّمه - وكان إذا شبع جرياً ولعباً هو وجاموركا أوى إلى حجراته ليكتب له محاضراته أو ليقبّ في الكتب المحلّة بالصوّر، فتأمل من صغره صورة بتاح ربّ منف وصولجانته ذي العلامات الثلاث الدالّة على القوّة والحياة والخلود، وصورة العجل أبيس المقدّس الذي تحلّ به روح بتاح المعبود، وكان يطرّ خنى بالأسئلة فيجيبه الشاب عنها بصبر، ويروي له الأساطير وما أعظم ما كانت تستولي عليه!.. كان يجلس القرفصاء مصغيّاً إلى أخيه وجاموركا أمامه يوليه وجهه، ويولي الأستاذ وأساطيره الدينيّة ظهره!

جاموركا من فعل الزمن فنا وضخم وقصر شعره الأسود الذي كان مسبلاً، وتبدت على وجهه أي القوة والشدة، وعلى أنيابه بينات القسوة والويل، وأجشّ صوته واخشوشن، فكان إذا نبج دوى نباحه دويًا وبعث الرعب في أفئدة القسطنطينية والثعالب والذئاب، وأعلن للملأ أن حارس قصر المفتش ساهر، وكان على صلابته وشدته أرق من النسيم على صاحبه وحبيبه ددف، الذي زادت الأيام ما بينهما توثقًا ومودةً، فكان إذا ناداه لبي وإذا أمره أطاع وإذا انتهره ذل وسكن، بل إنهما استغنيا بنجوى السرائر عن لغة الظاهر، فكان جاموركا يحس بمجيء ددف إلى البيت إحساسًا خفيًا، فيهرع إلى لقائه ولما يره. وكان يتعارف على باطنه بقدرة عجيبة قد تحون أقرب الناس إليه، فكان يعرف حالات رضاه فيقبل عليه ملاحظًا ويقفز واضعًا يديه على منطقة وزرته، كما كان يحس بحالات تعبه أو ضيقه فيسكن بين قدميه مكتفيًا بتحريك ذنبه.

أما ددف فقد بلغ الاثني عشر عامًا من عمره، وجاء الوقت الذي ينبغي أن يختار فيه وجهته التي يوليها في الحياة. والحق أنه إلى ما قبل ذلك بقليل لم يجز تفكيره في تلك المسألة الخطيرة، وكان الغلام يبدي نشاطًا عامًا محمودًا، وقد خدع خنى بتشوقه إلى الفلسفة حتى حسبه كاهنًا وحسب الكهنوت مستقبله دون غيره. ولكن نانا - وكان يحكمه فنه أنفذ بصرا - كان يشاهده وهو يسبح وهو يجري وهو يرقص، وكان يرى جسمه النامي وقده المشوق فيقول لنفسه وهو يكسوه بخياله اللباس الحريري: «يا له من جندي!» وكان نانا عظيم التأثير في ددف للحب المتبادل بينهما، فوجهه ذلك التوجيه الذي باركته زايا وتمحست له، ومنذ ذلك اليوم ولا شيء يجذب عيني زايا في الأعياد مثلما يجذبها منظر الجنود والفرسان وفصائل الجيش.

ولم يكن بشارو ليحفل بما يختار ددف من فنون الحياة فهو لم يتدخل مطلقًا في اختيار خنى أو نانا لمستقبلها، ولكنّه وجد ميلًا إلى التأمل فقال لددف - وكانوا جيمًا جلوسًا في الحجرة الصيفية - وهو يُربّت بلطف على كرشه العظيم:

قليلاً، فاحتفظت بمعالم جمالها وكمال نضجها، وصارت السيادة والكرامة من طباعها الثابتة. فمن يرها تقوم على قصر بشارو لا تجر لها على بال أنها تلك التي كانت زوجًا للعامل كاردا وخادمًا للسيدة رده ديديت. بل هي نفسها أدرجت ذكريات الماضي في أكفان النسيان، ومنعت الذاكرة من التسلّل إلى زوايا التاريخ المنظوي، لتتمتع بسعادتها الأولى - أمومتها لددف - متعة خالصة، والحق أن حناياها كانت تهفو إليه كأنه سكنها تسعة أشهر، كما أن أعزّ آمالها أن تراه رجلًا مجيدًا سعيدًا.

وفي ذلك الوقت كان خنى قد قطع مرحلة طويلة في تعليمه العالي، ولم يبق أمامه سوى ثلاث سنوات للتخصّص، ولما كان الشاب بطبعه ميالًا إلى الدراسة والتعمق في أسرار الكون فقد اختار اللاهوت وأثر الانخراط في سلك الكهنوت، ولم يكن الأمر متوقّفًا على محض اختياره، لأن الكهنوت علم عزيز لا يلج أبوابه إلا من يجتاز - بعد إتمامه الدراسة العالية بما فيها التخصّص - اختبارات نظرية وعلمية شاقة عدّة سنوات في أحد المعابد، ولكن قبول طلب خنى بالعطف لما أبداه في أثناء حياته الدارسية من الذكاء والفتنة والأخلاق النبيلة، وكأنه لم يرث من والده إلا صوته الأجشّ الأجوف، وفيما عدا ذلك كان نحيفًا دقيق القسما هادئ الملامح، تُذكر صورته بصورة أمه التي اتّصفت بالورع والتدين.

وكان في ذلك على النقيض من شقيقه نانا الذي ورث عن والده جسمه البدين ووجهه الممتلئ والكثير من أعماق روحه، فكان طيبًا مرحًا، وكان من حسن حظّه أن خرجت قسامته أدق من قسامات والده الغليظة الثقيلة، وقد حاز الشاب أعلى شهادة في فنّ الرسم والتصوير، واكترى بمعونة والده - بيتًا صغيرًا في شارع سنفرو - وهو أهمّ شوارع منف التجارة - وجعله محلًا لعمله ومقامًا لعرض آياته الفنية، وكتب على لافتة بالخط الهيروغليفي الجميل: «نانا بن بشارو. إجازة معهد خوفو للفنون الجميلة»، ومضى يعمل ويعلم ويتنظر صابرًا جمهور الطالبين والمعجبين. ولم ينجح

## عبث الأقدار ١٦٩

وهزّ بشارو منكبيه استهانة وقال:

- سواء لديّ اخترت الجنديّة أم الكهنوت، وعلى كلّ حال أمامك عدّة أشهر فيها متّسع للتفكير والروية. . إيه لكم أيها الأبناء! يخيّل إليّ أنّه لن يخلف أحدكم أباه، وأنّ واحدًا منكم لن يعيد تمثيل الدور الخطير الذي قمت به في الحياة.

وفاتت الشهور دون أن تغتير من رأي دداف، فقرّر رأي الأسرة على إلحاقه بالمدرسة الحربية.

وفي تلك الأثناء واجهت بشارو أزمة فكرية مرّة، هيأت أسبابها أبوته المزعومة لدداف، وقد تساءل الرجل في حيرة: هل ينبغي أن يحافظ على ادّعاء هذه الأبوة، أم أنّه آن الأوان لإعلان حقيقتها وفصم عراها؟ وكان خني ونافا يعرفان حقيقة المسألة، ولكنّها لم يشيرا إليها بتاتًا لا في السرّ ولا في العلانية حبًّا في الغلام وضنًّا به.

وكان بشارو يقدر وقع الصدمة على نفس الغلام البريئة السعيدة فيقشعرّ بدنه، ويذكر زايا وما يحتمل من غضبها وسخطها فيحجم إشفاقًا، وهو ما فكّر في ذلك عن سوء قصد أو عن زهد في دداف ولكنه كان يعتقد أنّ هذه الحقيقة ستعلن عن نفسها إذا لم تجد لسانًا يعلن عنها، وأنّ الخير كلّ الخير أن تكشف له الآن ليخلص من محتتها لا أن تدّخر له حتّى يكبر فيضاعف له عذابها، وتردّد الرجل الطيّب فلم ينته إلى عزم، ولما كان ينبغي أن ينتهي إلى رأي قبل إلحاق دداف بالمدرسة الحربية، فقد أسرّ الرجل بذات نفسه إلى ابنه خني، ولكنّ الشابّ هاله الأمر وقال لأبيه بألم وحزن عميقين:

- إنّ دداف أخونا، بل إنّ ما يربطنا به من الحبّ لأقوى من الأخوة الطبيعيّة. وما الذي يضريك يا أبتّي لو أنّك تركت الأمور على ما هي عليه ولم تفاجيء الغلام العزيز بضربة الدلّ والمسكنة؟

وكان الشأن الوحيد الذي يعمل له حساب في أبوته هو الميراث، ولكنّ بشارو لم يكن له من حطام الدنيا سوى راتب كبير وقصر ضخم فلن تؤذي أبوته لدداف

- دداف، دداف الذي كان يجب بالأمس القريب!، دداف أضحى يجهد رأسه الصغير في التفكير في اختيار سبيل له في الحياة ينهجه كرجل مسئول! لقد دار الزمان دورة غادرة، حنك أيها الزمان بشارو أو رفقًا به حتّى يكتمل بناء الهرم فإنّك لن تجد له خلفًا صالحًا. وقالت زايا تعلن رغبتها:

- لا داعي لكثرة الأسئلة، فإنّ من ينظر إلى وجه دداف الجميل وقامته الفارعة وقوامه المعتدل لا يرتاب لحظة في أنّه يرى ضابطًا من ضبّاط العجلات الفرعونية.

وابتسم دداف إلى أمّه التي وافق حديثها هواه، وذكر فرقة العجلات التي رآها تشقّ طرق منف - يوم عيد بتاح - في صفوف متحاذية منتظمة لا تشدّ عنها يمينًا أو شمالًا ولا إلى الأمام ولا إلى الخلف، والفرسان على العربات منتصبون لا يميلون ولا يضطربون كأتهم مسلات مشيدة، ترمقهم الأبصار وترنو إليهم عيون الحسان.

ولكن خني لم يرض عن اختيار زايا وقال بصوته الغليظ الذي يشبه صوت أبيه:

- كلًّا يا أمّاه إنّ دداف كاهن بالفطرة، وطالما وضع لي استعداداه للتعلّم وميله للعلم والمعرفة، وطالما ألحت عليّ أسئلته الكثيرة الدالّة على الفطنة والذكاء، فمكانه المختار جامعة بتاح لا المدرسة الحربية. ما رأيك يادداف؟

وكان دداف شجاعًا صريحًا لا يتردّد عن إبداء رأيه فقال:

- يؤسفني أن أخيب رجاءك هذه المرّة أيها الأخ، ولكنّ الحقّ أنّي راغب في الجنديّة.

فوجم خني، أمّا نافا فقد ضحك ضحكة عالية وقال لدداف:

- أحسنت الاختيار يادداف. فما صورتك إلّا صورة جنديّ، هكذا أقتعني خيالي. . ولو أنّك اخترت في الحياة فنًا آخر لذقت مرّ الخيبة وتزعزعت ثقتي بنفسي.

إليها مهللاً وجرى نحوها كطائر يستقبل نور الصباح  
وتعلّق بعنقها ورفع إليها فمه، فقبلته بحنان، وقبلت  
خديّه ورفعته بين ذراعيها فقبلت ساقيه، ثم حملته إلى  
الخارج وهي تقول:  
- تعال ودّع أباك.

ووجد بشارو ما يزال يغطّ في نومه ويصعد أنفاساً  
ناشئة من شخيره ونخيره، فهزّته بيدها فانفضّ مرتعباً  
وصاح: من؟ من؟ من؟ زايا!  
فضحكت وصاحت به:  
- ألا تريد أن تودّع ددف؟

فجلس في فراشه وفرك عينيه ثمّ نظر إلى الغلام  
على ضوء المصباح الخافت، وقال:  
- ددف.. أذهب أنت؟ تعال أقبلك.. والآن  
اذهب محوطاً برعاية بتاح!

وقبله بشفتيه الغليظتين مرّة أخرى واستطرد:  
- أنت الآن طفل ياددف ولكنتك ستغدو جندياً  
ماهرًا.. إني أتنبأ بهذا، ونبوءة بشارو خادم فرعون لا  
تخبى.. اذهب يابنيّ آمنا وسأصليّ من أجلك في  
المحراب..

وقبل ددف يدي والده وخرج مع والدته، وفي  
الردهة الخارجيّة لقيا خنى ونافا متأهين، وضحك نافا  
وقال:

- هيّا أيّها الجنديّ الباسل، إنّ العربة في الانتظار.  
وحتت عليه زايا بوجه غيرّه التائر، فرفع إليها وجهها  
يطفح بالفرح والحبّ.

وأها.. لقد مرّت الشهور سراعاً وحتت ساعة  
السوداع، فلا الحظن يشفي ولا القبلة تعزّي ولا  
الدموع تخفّف البلوى. لقد هبط ددف في السّلم بين  
أخويه واطمأنّ إلى مكانه من العربة جانبيها، وابتعدت  
العربة بالحمل العزيز وهي ترنو إليها من خلل  
دموعها، حتّى بلعتها زرقة الفجر.

- ١٢ -

وبلغت العربة «مرعى أبيس» أجمل ضواحي منف  
حيث تقع المدرسة الحربيّة ولما تشرق الشمس، ولكّتهم

أحدًا، ولذلك أشفق الرجل من لهجة خنى الغاضبة  
وقال يدفع عن نفسه:

- كلاً يا بنيّ لن تقع ضربة الذلّ أبداً، لقد دعوته  
يابنيّ وسأظلّ أدعوه بها، ولسوف يكتب اسمه بين طلبة  
المدرسة الحربيّة: ددف بن بشارو.

ثمّ ضحك الرجل كعادته وقال وهو يفرك يديه:  
- ربحت ابناً جندياً.

فقال خنى وهو يمسخ دموعه سألت على خنّه:  
- بل ربحت رضا الربّ وغفرانه.

- ١١ -

أوشك شهر توت على الفوات، ولم يبق منه إلاّ عدّة  
أيام هي كلّ ما تبقى لددف من الزمان في بيت بشارو  
ثمّ يغادره بعدها إلى المدرسة الحربيّة. وكانت تلك  
الأيام أشدّ أيام زايا العصبية، غلب عليها فيها الشرود  
والذهول والتفكير بمرارة في الشهرين الطويلين اللذين  
سيحتجبهما ددف داخل المدرسة.. والأعوام الطويلة  
التي لن تتاح لها رؤيته فيها سوى مرّة كلّ شهر، فتحرم  
من رؤية وجهه الجميل وسماع صوته الحبيب، ويغيب  
عن قلبها الاطمئنان الذي يقرّ فيه لقربه والهناء الذي  
يشمله لوجوده.. فما أقسى الحياة! وقد غشّى الحزن  
قلبها قبل حدوث أسبابه، وظلّت حياتها غشاوات من  
الأمّ مثل هاتيك السحابّ المنتثرة ساقتها الرياح بين  
يدي غيم هاتور وكيهك الداكن المكفهر.

وحين صاححت الديكة عند الفجر معلنة قدوم اليوم  
الأوّل من بابه، استيقظت زايا على صياحها وقعدت في  
سريرها مضطربة حزينة، وتنهدت تنهدة حارة كانت  
أوّل ما استقبل اليوم من عالم الأحزان، ثمّ تركت  
فراشها وسارت في خفّة إلى مخدع ددف لتوقظه  
وتودّعه. ودخلت الحجرّة على أطراف أصابعها كيلا  
تزعجه فاستقبلها جاموركا وهو يتمطّى، وخاب ظنّها  
لأنّها وجدت الغلام قد استيقظ دون مساعدة، وكان  
يغنيّ بصوت خافت نشيد «نحن أبناء مصر انحدرنا  
من سلالة الألهة». استيقظ الغلام وحده يلبيّ أوّل  
نداء للجنديّة، وقد نادته من قلبها «ددف». فاتنبه

## عبث الأقدار ١٧١

لواحد عليهم بها غير متعصب لإحداها . . وهيئات أن يوجد هذا القاضي .

ولم يطل الانتظار بددف فسمع المنادي يصيح : «ددف ابن بشارو» فحقق قلبه، وسمع نافا يقول له : - ودعنا ياددف فلا احتفال لعودتك معنا اليوم .

فعاثق الغلام أخويه وسار إلى الباب الرهيب، ثم أدخل إلى حجرة على يمين الداخل حيث تلقاه جندي فأمره بأن يخلع ملابسه، فخلع الغلام ثيابه وتقدم إلى طبيب مسنّ ذي لحية بيضاء فحصه عضوًا عضوًا وألقى على هيئته نظرة عامّة، ثم قال للجندي «مقبول»، فارتدى الغلام ثيابه فرحًا مسرورًا، وقاده الجندي إلى فناء المدرسة وتركه يلحق بمن سبقه من المقبولين .

وكان الفناء عظيم الاتساع تربو مساحته على قرية كبيرة، ومحوط من ثلاث جهات بسور ضخّم مزخرف بالنقوش الحربية ومحلى بصور الجنود والمواقع والأسرى، وفي الجهة الرابعة تقام الثكنات ومخازن الذخيرة والأسلحة ومكاتب القواد والضباط وإصطبلات الخيل وحظائر العربات، فهو أشبه بحصن منبع .

وقد ألقى الغلام على المكان نظرة دهشة، وسار إلى حيث لحق بزملاته المتجمّعين، ووجدهم يتفاحرون بالأنساب ويتنافرون بالأباء والأجداد، وقد سأل أحدهم ددف قائلاً :

- هل أبوك من رجال الحرب؟

فتضايق الغلام وهزّ رأسه سلبيًا، ولكنّه قال بلهجة ملئت كبرياء :

- أبي بشارو مفتش هرم الملك .

ولكنّه لم يبد على وجه محدّته أنّه اقتنع بعظمة المفتش وقال :

- أبي ساكا قائد فرقة الصقر من حاملي الرماح .

فامتعضت نفس ددف ولم يشترك في أحاديثهم، وتوعّدتهم نفسه الفتية بالظفر والتفوق، واستمرت عمليّة الكشف والاختبار ثلاث ساعات متوالية، وظلّ الناجحون ينتظرون حتّى أتاهم ضابط من ناحية الثكنات ألقى عليهم نظرة صارمة وصاح بهم :

وجدوا الميدان الممتد أمام المدرسة مزدحمًا بالراغبين في الالتحاق بها وفي صحبة كلّ منهم واحد أو أكثر من أقربائه، وكان كلّ منهم ينتظر دوره في النداء عليه والذهاب للكشف، وبعدها إمّا يبقى داخل المدرسة أو يعود من حيث أتى .

وكأنّ الميدان - ذلك الصباح - كان مَعْرُضًا للجياد المطهّمة والعربات الفخمة، لأنّه لم يكن يتقدّم إلى المدرسة الحربية إلاّ أبناء الطبقة الحربية والصفوة من أبناء الأثرياء، وتلقّت ددف يمّة ويسرة فرأى وجوهها ليست غريبة عليه لأنّه زاملها أعوامًا في المدرسة الأولى، فانتعشت نفسه وملئت مسرة وشجاعة .

وكان صوت المنادي لا ينقطع عن النداء وسيل التلاميذ لا يتوقّف عن الدخول من باب المدرسة الكبير، منهم من يبقى في الداخل ومنهم من يخرج مرّة أخرى بوجه كاسف ونفس أسيفة .

وكان خنى ينظر إلى هاتيك الجموع بوجه جامد، فلم يرتح ددف إلى مظهره وسأله بقلق :

- أواجد عليّ يا أخي؟

فربت الشابّ على منكبيه وقال :

- معاذ الربّ ياعزيزي ددف، إنّ الجنديّة حياة سامية على شرط أن تكون واجبًا عامًّا يؤدّي كلّ قسطه منه إلى حين، ثمّ يعود بعده إلى حياته الإنسانيّة، فلا يهمل موهبة من مواهبه السامية ويصون روحه عن التلف، وإني مطمئنّ ياددف إلى أنّك لن تطمس التثوّف الذي أثار روحك في حجرتي . أمّا الانغمار في الجنديّة والتفرّغ لها فمعناه النزول عن الإنسانيّة وتدمير الحياة العقليّة والرجوع القهقري إلى مراتب الحيوان . فضحك نافا كعادته وقال :

- الحقّ أنّك يا أخي تنشُد الحياة الطاهرة الحكيمة

حياة الكهنوت، أمّا أمثالي فينشدون الجمال والمتعة، ويوجد غيرنا آخرون - هم هؤلاء الجنود - يمتعضون من التأمل ويعبدون القوّة . وحمداً للأّم إيزيس فإنّها وهبتني عقلاً يستطيع أن يرى جمالاً لكلّ لون من ألوان هاته الحيوانات، ولكنّي لا أملك إلاّ أن أوثر في النهاية حياتي . والحقّ أنّ الفصل بين هذه الحيوانات لا يتأتّى إلاّ



آلهة احفظي ابنك المعبود، وملكه السعيد، من منيع النيل إلى مصبه». وامتلاً جوّ الفناء الواسع بأصوات العصفير، تغنيّ في حماس دافق وجمال رائع، وتجمع بين الأرباب وفرعون ومصر في نعمة واحدة.

وفي ذلك المساء حين رقد ددف لأوّل مرّة على فراش غريب في جوّ جديد، مسّه السهاد وجثمت على قلبه الوحشة، فتهدّ من أعماق نفسه، ونادت مخيلته إلى ظلمة العنبر أطياً سعيده من بيت بشارو، فكأنه رأى زايا وهي تحنو عليه ونافا وهو يضحك ضحكته المرحّة وخنى وهو يحدث حديثه المنطقيّ المتدفق. . . وخال جاموركا العزيز يلحق خده ويحييه بذنبه، ولما ارتوت نفسه من الأحلام زتقّ النوم بجفنيه فنام نوماً عميقاً لم يستيقظ منه إلا على النفير عند مطلع الفجر، فقعد في سريره دون تريث، ونظر فيها حوله دهشاً، فرأى أقرانه يستيقظون ويغالون سلطان النوم بصعوبة، وعلت في المكان أصوات الثاؤب والتذمر واختلط بها الضحك أيضاً. . .

لا راحة بعد اليوم، فقد بدأت حياة النشاط والجلاد.

### - ١٣ -

وفي ذلك الوقت طلب المعمار ميرابو الحظوة بالمثل بين يدي فرعون، واستقبله الملك في بهو الاستقبال الرسمي. وقد جلس جلالته على عرش مصر الذي ترتب عليه خمسة وعشرين عامًا حافلة بجلال الأعمال، وكان مهيباً قوياً صارماً يرتدّ البصر عن جلاله وهو كليل، كما ارتدتّ خمسون عامًا تنفّس فيها الحياة، عن أن تؤثّر في صلابة بنيانه أو تدفّق حيويته، فأبقت على حدّة بصره وسواد شعره وحكمة عقله.

وقد سجد ميرابو بين يديه وقبّل حاشية ثوبه الملكيّ، فقال الملك بعطف:

- السلام عليك يا ميرابو، قم وتكلّم فيما جئت من أجله.

فوقف المعمار أمام ربّ العرش وكان وجهه يتلألأ بأنوار الفرّح، ثمّ قال:

- منذ هذه الساعة ينبغي لكلّ منكم أن يودّع الفوضى وداعاً أبدياً ويروض نفسه على النظام والطاعة، كلّ شيء من الآن فصاعداً يخضع للنظام الصارم ولا أستثني الأكل والشرب والنوم. ورتبهم الضابط صفّاً واحداً وسار بهم صوب الككنات، وأمروا بالدخول واحداً فواحداً، وكان كلّ منهم يمرّ على كوة مخزن كبير فيعطى صندلاً ووزرة وحلّة يضاوين ثمّ يتفرّقون إلى عنابر كلّ عنبر يجوي عشرين سريراً في صفّين متقابلين، وخلف كلّ سرير صوان متوسط الحجم على سقفه لوح من الورق في إطار خشبيّ، طلب إلى كلّ منهم أن يكتب اسمه عليه بالخطّ المقدّس.

وأحسوا جميعاً بجوّ غريب يخضع للنظام الصارم وتبتت فيه روح الصرامة والخشونة، فقد لحق بهم الضابط وأمرهم بأن يخلعوا ملابسهم المعتادة ويرتدوا الملابس الحربيّة، وتبّه عليهم بأن يخرجوا إلى الفناء إذا سمعوا صوت النفير. . . فصدعوا جميعاً بالأمر، ودبت في العنابر حركة سريعة كانت أوّل ما أبدى أولئك الصغار من النشاط العسكريّ. . . وقد فرحوا باللباس الحربيّ الأبيض وهلّلوا له، وحين نفخ في النفير هرعوا خفاً إلى الفناء حيث رتب الضباط جمعهم في صفّين مستقيمين.

وحضر على الأثر مدير المدرسة، وهو ضابط كبير برتبة قائد، في لباسه الرسميّ المحلّى بالنياشين والأوسمة، يحيط به كبار ضباط المدرسة، واستعرضهم بعناية ثمّ وقف أمامهم وخطب فيهم قائلاً:

- كنتم إلى أمس أطفالاً أحراراً، وأنتم اليوم تبدءون حياة الرجولة الحقّة الممتلئة في الجهاد العسكريّ، وكانت أنفسكم ملكاً لكم ولأبائكم وأمّهاتكم، أمّا اليوم فهي ملك الوطن وفرعون. واعلموا أنّ حياة الجنديّة هي القوّة والتضحية، فعليكم بالنظام والطاعة لتقوموا بواجبكم المقدّس نحو مصر وفرعون.

ثمّ هتف المدير باسم خوفو فرعون مصر وردّد الجنود الصغار هتافه، ثمّ أمرهم أن ينشدوا نشيد: «يا

## عبث الأقدار ١٧٣

وكان المعمار يحني الرأس وينصت إلى ثناء فرعون كأنما ينصت إلى لحن إلهي.

واحتفل فرعون بالهرم احتفالاً رسمياً شعبياً مهيباً، شهدت فيه الهضبة المقدسة من الخلق أضعاف ما شهدت من جميع العمال الأشداء، ولكنهم لم يحملوا إليها هذه المرة الفئوس والعُدَد، ولكن حملوا الأعلام وأغصان الزيتون وسعف النخل والرياحين، وتغنوا بالأناشيد المقدسة الطاهرة. وصنع الخند بين تلك الجموع طريقاً عظيماً يمتد من وادي الأبدية، ويميل شرقاً ثم يدور حول الهرم، ويعرج غرباً حتى يصب في وادي الأبدية مرة أخرى. وفي ذلك الطريق سارت الهيئات الرسمية للطواف بالبناء الكبير، تقدمها جموع الكهنة بطبقاتهم المختلفة والتبلاء والسراة، ثم اخترقت الطريق فرق الجيش المُعسِّكِر في منف من ركبان ومشاة، ثم بدا للعيان موكب فرعون والأمراء، فولى العباد وجوههم شطره، وهتفوا له من أعماق القلوب. وانحنوا انحناءً واحدة كأنهم في صلاة هو قبلتها.

وحياً فرعون الهرم بكلمة موجزة، وباركه الرئيس خوميني. ثم عاد الركب الفرعوني وانفضت الهيئات الرسمية، أما جموع الشعب فجعلت تطوف بالبناء الكبير مهللة مكبرة هانفة منشدة، ولم تفرق جموعها إلا حين سكب الفجر بهاءه وبث روحه الهادئ السحري في أرض الوادي الزبرجدية.

وفي ذلك المساء دعا فرعون الأمراء والصحابة المقربين إلى جناحه الخاص، وكان الجو ميلاً إلى البرودة فاستقبلهم في بهو استقباله العظيم، حيث جلسوا على مقاعد من الذهب الخالص.

وكان فرعون على صلابته ومتانة بنيانه يبدو على نظرة عينيه شعوره بالتبعات العظيمة الملقاة على عاتقه. وكان ظاهر الملك لم يتغير حقاً، أما باطنه فقد طرأ عليه من طوارئ الزمان ما لم يخف عن أعين المقربين أمثال رعخعوف وخوميني وميرابو وأريو، فلاحظوا مثلاً أن الملك يزهد قليلاً قليلاً في الرياضة غير مستثنٍ ما كان منها أحبها إلى قلبه كالصيد والطرْد، وأنه يميل إلى التشاؤم والتفكير والقراءة، فكان ربما طلع عليه الفجر

- مولاي واهب الحياة ومنبع النور؟ اليوم أشجع إخلاصي لذاتكم العليا بالعمل المجيد، وأتوج حياتي في خدمتكم بالأثر الخالد، فأنال في ساعة سعيدة واحدة ما يتمناه المخلص من إخلاصه والفنان من فنه. فلقد شاءت الآلهة التي يتعلق كل خلق بمشيتها أن أزف اليوم إلى ذاتكم المعبودة بشرى الانتهاء من أعظم أثر أقيم على أرض النيل منذ عصر الآلهة، وأكبر بناء أشرقت عليه شمس مصر منذ أشرقت على الوادي. ويقيني يا مولاي أنه سيظل باقياً على الأجيال مقروناً باسمكم المقدس، منسوباً لعهدكم المجيد، حافظاً لروحكم الإلهية، معلناً عن جهاد الملايين من أيدي مصر العاملة وعبقريّة العشرات من رعوسها النابهة، إنه اليوم لعمل مجيد لا نظير له، وغداً هو المثوى لأجل روح حكمت أرض مصر، وبعد غد وإلى أبد الأبدان هو المعبد الذي تأتلف في ساحته قلوب الملايين من عبادك، يسعون إليه من الجنوب ومن الشمال.

وسكت الفنان الخالد لحظة رثماً شجعتة ابتسامة الملك، ثم استطرذ:

- لقد شيّد اليوم يا مولاي شعار مصر الخالد وعنوانها الصادق، فهو ابن القوّة التي تربط شالها بجنوبها، وهو وليد الصبر الذي يغمر صدور بنينا جميعاً من الضارب الأرض بفأسه إلى الكاتب على الطرس بقلمه، وهو وحي الدين الذي تخفق به قلوب أهلها، وهو مثال العبقريّة التي جعلت من وطننا سيّداً على الأرض التي تسبح الشمس حولها في السفينة المقدسة، وسيظلّ أبداً الوحي الخالد الذي يهبط على قلوب المصرّيين فيؤيّد بها بالقوّة، ويلهمها الصبر، ويحّنها على الدين ويدفعها إلى الإبداع.

وكان الملك يصغي إلى الفنان وعلى فمه ابتسامة رضى، ويرنو بعينه النافذتين إلى وجهه المكتسي ببهاء الحماس والفرح. فلما انتهى قال له:

- إنّي أهنئك أيها المعمار على نبوغك المنعدم النظير، وأشكرك على العمل المجيد الذي شيّدت للملك ووطنك ممّا يوجب لك التقدير والحمد، ولسوف أحتفل بأياتك الكبرى احتفالاً مهيباً يليق بعظمتها وخلودها.

عملك المجيد من معاني الخلد، ولكنّ الخلد موت  
لحياتنا الفانية العزيزة.

فقال خوميني برزانه وتأمّل وإيمان:

- مولاي، إنّ اللحد عتبه الحياة الأبدية..  
فقال الملك:

- صدقت يا خوميني، ولكنّ المُقبل على سَفَرٍ كثير  
التدبير، وهذا أحرى بمن يولي وجهه تلك الرحلة  
الأبدية. وإيّاك أن تظنّ أنّ فرعون خائف أو آسف..

كلّاً.. كلّاً.. كلّاً، إني أتعبّج فقط لتلك الرحي  
التي تدور وتدور وتطحن كلّ يوم ملوكًا وسُوقة..

وتضايق الأمير رعخعوف من تفلسف الملك وقال:

- إنّ مولاي الملك يكثر من التأمل.

وكان فرعون يفهم ذات ابنه فقال:

- لعلّ هذا لا يرضيك أيها الأمير.

فقال الأمير:

- العفو يا مولاي، ولكنّ الحق أنّ التأمل وظيفة  
الحكماء، أما الذين عهدت الآلهة إليهم بتبعات  
الحكم، فما أحرى أن يتفرّغوا لشئونه الصعاب.

فسأله فرعون بسخرية:

- أفترى أيها الأمير أنّي أتردّي في هاوية العجز؟

فارتاع الأصدقاء، وكان الأمير أعظمهم ارتياحاً  
فقال:

- معاذ الربّ يا أبتّي!

فقال الملك ساخرًا، ولكنّ بلهجة قويّة:

- لا تقلق يا رعخعوف، واعلم أنّ أباك لن يزال

قابضًا على السلطان بيد من حديد.

فقال الأمير:

- يحقّ لي يا مولاي أن أهتّي نفسي ولو آتي لم أسمع  
جديدًا.

- أم أنّك ترى أنّ الملك لا يكون ملكًا إلا إذا  
أعلن حربًا؟

وكان الأمير رعخعوف يشير على أبيه دائمًا بأنّ يجرد  
جيشًا لتأديب قبائل سيناء، ففطن إلى تلمييح الملك  
فصمت وهلة يفكّر، وفي أثناء ذلك قال خوميني:

وهو جالس في مخدعه يقرأ كتب اللاهوت وفلسفة  
قائمتنا، وتطوّرت فكاهته الأولى إلى سخرية لا تخلو من  
سوء الظنّ والريبة.

كان أعجب ما في ذلك المساء - وهو ما أعجز  
الحسبان - أن يبدو على الملك أي من الهمّ والقلق،  
ذاك المساء الذي احتفل فيه بأعظم عمل في التاريخ.  
وكان أشدّ الناس قلقًا لذلك المعمار ميرابو، ولم يتمالك  
أن سأل مولاه:

- ما بال مولاي يادي الانشغال؟

فنظر إليه الملك بشيء من السخرية وقال له  
متسائلًا:

- وهل عرف التاريخ ملكًا خالي البال؟

ولم يتعزّ الفئان بجواب الملك فقال:

- ولكنّ ينبغي لمولاي أن يفرح هذا المساء فرحًا  
خالصًا.

- ولماذا ينبغي لمولاك أن يفرح؟

فوجم الفئان، وكاد ينسيه تساؤل الملك الساخر  
جميل ثنائه وعظيم احتفاله، ولكنّ الأمير رعخعوف  
الذي لم يرض عن تطوّر الملك النفسي قال:  
- لأنّ مولانا احتفل اليوم بتبريك أعظم آية فتيّة في  
تاريخ مصر الطويل.

فضحك الملك وقال:

- اتعني قبوري أيها الأمير؟ وهل ينبغي للإنسان أن  
يفرح لبناء قبره؟

فقال الأمير:

- أطال الربّ بقاء الملك، إنّ العمل المجيد حقيق  
بالفرح والتكريم.

- نعم. نعم. ولكن إذا ذكر بالموت ألا يوجب  
شيئًا من التأني؟

فقال ميرابو بحماس:

- إنّه يذكرّ بالخلود يا مولاي.

فابتسم فرعون وقال:

- لا تنسى أنّي معجب بفنك يا ميرابو، ولكنّ نذير  
الموت يملأ النفس شجنًا، نعم لا أذكر ما يوحي به

## عبث الأقدار ١٧٥

والإنصاف، وإتهم ليؤذون كثيرين وإن حرصوا على النفع والخير، وما من عمل سوى عمل الخير الخالد يكفر عن السيئات ويمحو الهفوات؛ وقد هداني الألم إلى عمل نافع عظيم.

ونظر إليه الملائمتان، فقال:

- إني أفكر أيها السادة في تأليف كتاب عظيم أضمنه تجارب الحكمة وأسرار الطب الذي ولعت به منذ صباي، فأترك من بعدي إرثاً عظيماً لشعب مصر يهدي أرواحهم ويصون أجسامهم.

فصاح ميرابو بفرح عظيم:

- يا له من عمل مجيد يا مولاي ستحكم به شعب مصر إلى الأبد.

فابتسم فرعون إلى المعيار، وقال هذا مرة أخرى:

- ستزيد كتبنا المقدسة كتاباً جديداً.

وكان الأمير رعخعوف يزن ما ينوي الملك صنعه في عقله فقال:

- ولأنت يا مولاي عمل يقتضي أعواماً طويلة.

وقال القائد أربو:

- لقد كتب قاقمنا كتابه في عشرين عاماً!

ولكن الملك هز منكبته العريضين وقال:

- سأهبه ما تبقى من حياتي.

صمت الملك لحظة ثم قال:

- أتعلمون أيها السادة أين هو المكان الذي اخترته

لأنشئ فيه كتابي ليلة بعد ليلة؟

ونظر فرعون إلى الوجوه المتسائلة وقال:

- حجرة التابوت بالهرم الذي احتفلنا به اليوم.

وبدت على الوجوه الدهشة والإنكار، فقال

فرعون:

- إن قصور الدنيا تغلب عليها جلبة الحياة الفانية،

فلا تصلح لإنتاج عمل خالد!

وانتهى الاجتماع عند ذلك، لأن الملك لم يكن يحب

المناقشة فيما بت فيه برأي نهائي، فانصرف الأصدقاء،

وحين ركب ولي العهد عربته مال على رئيس حجابه

وقال بامتعاض شديد:

- إن فرعون يؤثر الشُّعر على الحكم!

- إن السُّلم أشدَّ حاجة من الحرب إلى الملك القويِّ الصالح.

فقال الأمير بلهجة قوية حاكت ما ارتسم على وجهه من الصلابة والقسوة:

- ولكن ينبغي ألا تعوق سياسة السلم الملك عن

خوض غمار الحرب إذا جدَّ الجد!

فقال الملك:

- أراك تحوم حول موضوع قديم.

- نعم يا مولاي، ولن أكف عنه حتى تذهب

بواعثه، فإن قبائل سينا تفسد في الأرض وتهدد هيبة الحكومة.

- قبائل سينا!.. قبائل سينا!.. إن قوات الشرطة

تكفي الآن لتأديب شرادهم، أما تجريد جيش لغزو

حصونهم فينيّة في صدري لم تهباً الظروف بعد

لتحقيقها، نظراً لأنّ الوطن ينوء بالجهد الجهد الذي

بذله عن طيب خاطر من أجل تشييد هرم ميرابو

الخالد.. وسيأتي يوم قريب أقضي فيه على شرهم

وأكفي الوطن عدوانهم.

وساد صمت مقدار دقائق، ثم ردّد الملك بصره

الحادّ بين الحاضرين وقال:

- أيها السادة إنّي دعوتكم هذه الليلة لأكشفكم

برغبة عظيمة تحقّق في صدري.

فنظر إليه الملائم باهتمام، فقال:

- ساءلت نفسي صباح اليوم: ماذا صنعت من

أجل مصر، وماذا صنعت مصر من أجلي؟ ولا أكتمكم

الحقّ أيها الأصدقاء، فقد وجدت أنّ ما صنعه الشعب

لي أضعاف ما صنعه له، فأحسست بشيء من الألم-

وكثيراً ما أتألم هذه الأيام- وذكرت المولى المعبود مينا

الذي وهب الوطن وحدته المقدّسة فلم يهبه الوطن

بعض ما وهبني، فاستصغرت نفسي وأقسمت لأجزين

شعبي إحساناً بإحسان وجميلاً بجميل.

فقال القائد أربو بحماس:

- لقد قسا جلالة الملك على نفسه في الحساب.

فقال خوفو دون أن يعير حديث قائده اهتماماً:

- إنّ الملوك ليلظلمون كثيرين وإن توحّوا العدل

جانبا، واستقبله المفتش استقبالا عاطفيا وقبل خده، ونظر إليه مليا بعينه البارزين اللتين تدعيان الفراسة وقال:

- تغيرت يابني في هذين الشهرين وبدت عليك الرجولة حقًا. وقد فاتك الاحتفال بالهرم العظيم، ولكن لا تأسف على هذا فسأخذك لمشاهدته بنفسى. فإني ما زلت ولن أزال مفتشًا على منطقتي حتى أحال على المعاش. ولكن لماذا أنت متعب يابني؟

فضحك ددف وقال ويده تعبت برأس جاموركا: - الحياة العسكرية شديدة قاسية. . . وسحابة النهار في المدرسة تضي عادة بين الجري والسباحة وركوب الخيل. . . وإني الآن فارس ماهر!

فقال الأم:

- فلتحفظك الالهة يابني.

وسأله نافا:

- وهل ترمي الرمح وتطلق السهام؟

فقال ددف يشرح لأخيه نظام المدرسة بإسهاب التلميذ المفتون:

- كلاً. . . إننا نتدرب في السنة الأولى على الألعاب وركوب الخيل والسباحة، وفي السنة الثانية نتعلم المبارزة بالسيف والخناجر والمزاريق، وفي السنة الثالثة نتمرن بالرمح وتلقى علينا دروس نظرية، والسنة الرابعة للقسى والعلوم التاريخية، والسنة الخامسة للتدريب على العجلات الحربية، أما العام السادس فللعلوم الحربية وزيارة القلاع والحصون.

فقال نافا:

- إن قلبي يحدني بأنني سأراك قائدا كبيرا ياددف. . . إن وجهك يثير في النفس الحماس، لا ريب في هذا فإن صناعتي استيحاء السجايا من ملامح الوجه. . . وكان ددف تذكر أمرا هاما فتساءل باهتمام: - أين نحن؟

فقال بشارو:

- ألا تعلم أنه انخرط في سلك الكهنوت؟ وأتهم يحتفظون به الآن خلف جدران معبد بتاح، ويلقنونه العلوم الدينية ويفقهونه في الأخلاق والفلسفة في عزلة

أما الملك فقد ذهب إلى قصر الملكة ميريتنس، ووجدها في مخدعها مع الأميرة الصغيرة مري سي عنخ، شقيقة رعخخوف التي لم تتجاوز العاشرة، وقد جرت الأميرة إليه كالحمامة، والفرح يلمع في عينيها السوداوين الجميلتين. . .

مري سي عنخ ذات الوجه البدرى واللون الخمرى والعينين اللتين تشفيان بصفتها من السقام. ولم يتالك فرعون من أن يتسم ابتسامة الحب، ويزيح عن صدره الهموم والأحزان، ويتلقاها بذراعين مفتوحتين.

- ١٤ -

هبت نسمة من الفرع على قصر بشارو ذلك اليوم، تبدت آثارها في وجه زايا الضاحك ونافا والمفتش نفسه، وكان جاموركا قد استبشر خيرا وأحس إحساسا باطنا بأنه ينبغي له أن يفرح، فتمطى ونيح وعدا في ممرات الحديقة كالسهم الطائش. . .

وكانوا جميعا ينتظرون، فسمعوا جلبة في الحديقة وعلا صوت خادم يقول بفرح: «سيدي الصغير»، فهبت زايا واقفة وجرت نحو السلم وهبطت الأدراج لا تلوي على شيء، وفي نهاية الردهة رأت ددف، في بذلته البيضاء وقلنسوته الفرعونية، بهيا كشعاع الشمس: ففتحت ذراعها، إلا أن جاموركا كان أسرع إليه منها، فهجم على سيده بعنف واحتضنه بيديه وعلا نباحه يشكو إليه ما لقي من عذاب الشوق وآلام الحنين، فأزاحت الكلب جانبا وضمت الابن العزيز إلى قلبها وأشبعته لثما وتقبيلا وهي تقول له:

- ردت الروح إلي يابني. . . كم أوحشتني عيناك وكم هزني الشوق إلى اجتلاء وجهك الجميل. . . عزيزي، أنت أنحف كثيرا مما كنت وقد لفحت الشمس وجهك، وأنت متعب ياددف!

وأنى نافا مع جلته وضحكه، وقال يحمي أخاه:

- أهلا بالضابط العظيم.

فابتسم ددف وسار بين أمه وأخيه، وجاموركا يرقص أمامه طربا ويقطع عليه الطريق من كل

## عبث الأقدار ١٧٧

والجمود، ولعلّه لم يحسّ بوحشة لغياب خني لما عرف به من الرزاة والجفاء، ولكنّه أنكر على نفسه مخاوفها وقال: إنّ ددف ما يزال حديث عهد بالحياة العسكرية. وإنّه لذلك لن يتمّ له هضمها في وقت قصير، فلن تزال بنفسه جفوة منها وألم حتّى يألّفها ويتطبّع بطباعها، وحينذاك تنجاب عن قلبه الوحشة وترتدّ إليه طبيعة المرح والسرور. وظنّ أنّه لو صحبه إلى معرض فته، قريباً استطاع أن يعيد إليه انشراحه، فقال له:

- أيّها الضابط، ما رأيك في زيارة معرض صوري؟

ولكنّ زايا قالت بغيط:

- لا تفتأ تحاول سلبه منّي! كلّاً ياسيدي لن يبرح

اليوم البيت.

فتنهّد نافا وسكت، وخطرت له فكرة، فأحضر لوحة وقلماً وقال لأخيه:

- سأرسم صورتك في هذا الرداء الأبيض الجميل، وسأحتفظ بالصورة ذكرى جميلة تنظر إليها بعيني الحنان والشوق حين تزين منكبيك بوشاح القيادة!

ويأشر عمله بهمة ونشاط. وقضت الأسرة يوماً سعيداً في سمر وأحاديث.

وكانت أمثال تلك الزيارة تقع كلّ شهر مرّة وتفوت كلمح البصر، وقد انجابت وساوس نافا، وفارق الجفاء ددف ورجع سريعاً إلى طبيعته المرحّة الجسور، استعاد جسمه القوّة والفتوة وسار قُدماً في طريق النمو والقوّة والجمال.

وكان الصيف - حين تغلق المدرسة أبوابها - أسعد أيام زايا وجاموركا، وكانت تعاود البيت فيه جلبة الحياة ومرح النشاط اللذان سكنا به منذ تفرّق شمل الأخوة كلّ إلى حال سبيله، وكانت الأسرة كثيراً ما ترنحل إلى الريف أو شمال الدلتا للصيد والقنص، فكانوا يشغلون قاربهم ويمخرون به عباب البحيرات التي تظّلها نباتات البردي وأشجار اللوتس، ويقف بشارو بين ابنيّه نافا وددف وكلّ ممسك بعضا الصيد المعقوفة، حتّى إذا حلّقت بطّة لا تدري بما يجنّبها لها

بعيدة عن جلبة الدنيا وضوضائها. إنّه ليتدرب على حياة هي أقرب الحيوانات شبهاً بحياة الجنديّة، فهو يغتسل في النهار مرّتين وفي الليل مرّتين، ويخلق شعر رأسه ويدنه، ويلبس الصوف ويصرف عن أكل السمك ولحم الخنزير والبصل والثوم.. إنّه يابنيّ يجوز أشدّ الامتحانات قسوة ويُلقن أسرار العلم المحرّمة على غيره من البشر، فلندعُ له جميعاً أن تُثبت الآلهة قدمه لتخلق منه خادماً مخلصاً لها ولعبادها المؤمنين.

فقالوا جميعاً في نفس واحد:

- آمين!

وسأل ددف:

- ومتى يسعدني الحظّ برؤيته؟

فقال نافا بلهجة أسيفة:

- لن تراه قبل أربع سنوات وهي سنوّ التجربة العظيمة.

فاكتهّر وجه ددف حزناً وشوقاً إلى معلّمه الأوّل، أمّا زايا فسألته:

- وكيف نراك بعد ذلك؟

- في أوّل كلّ شهر.

فقطبت جبينها ولكنّ نافا ضحك وقال:

- لا تستحني الحزن يا أمّاه.. ولننظر كيف نقضي

يومنا هذا.. ما رأيكم في نزهة نيلية؟

فصاحت زايا منكرة:

- في كيهك؟!

فقال نافا ساخراً:

- وهل يهاب الجنديّ قساوة الأنواء؟

فقال زايا بحدّة:

- ولكنّي لا أقدر على جوّ كيهك ولا على مفارقة

ددف دقيقة واحدة هذا اليوم. فلنبق جميعاً في البيت..

وإني مذبذبة له حديثاً طويلاً لا قبّل لي بحفظه في

صدري بعد الآن.

ولاحظوا جميعاً أنّ ددف فتر مرحه وندر حديثه

وغشيتته حالة جديدة من الرزاة والجمود، وقد نظر

إليه نافا قلماً بطرف خفيّ وساءل نفسه: ترى هل

يتشبّه ددف بطبيعته الجديدة أبداً؟ إنّه ينفر من الرزاة

بشارو في طريقها المقدر: الأب إلى الشيخوخة، والأم إلى الكهولة، وخنى إلى التفقه في الدين، ونافا إلى إتقان فنه الجميل.

وأوسع ددف خطاه نحو التفوق والنبوغ وإتقان الفنون الحربية، فاكتسب شهرة في المدرسة الحربية لم يفز بها تلميذ من قبل.

- ١٥ -

سار ددف في شارع سنفرو الذي لا ينقطع تيار المازين به يلفت الأنظار ببذلة الحربية البيضاء وجسمه الفارع وجماله الجاهر. حتى انتهى به المسير إلى مدخل بيت «نافا بن بشارو» - إجازة معهد خوفو للرسم والتصوير» وقرأ اللافتة باهتمام كأنما يراها للمرة الأولى وقد ارتسمت على فمه الجميل ابتسامة حلوة مشرقة، ثم اجتاز الباب، وفي الداخل رأى أخاه مكبًا على عمله غير شاعر بما حوله، فصاح به ضاحكًا:

- السلام عليك أيها المصور العظيم.

فالتفت إليه نانا بوجهه الحالم الدهش، فلما عرف القادم، قام واقفًا وأقبل عليه مرحبًا وهو يقول:

- ددف!.. يا للحظ السعيد. كيف حالك يا رجل؟ هل زرت البيت؟

وتعانق الأخوان مليًا، وقال ددف وهو يجلس إلى كرسيّ قدّمه إليه الفتان:

- نعم زرته ثم أتيت إليك رأسًا، فأنت تعلم أنّ بيتك هذا جنّتي المختارة!

فضحك نانا بصوته العالي وطفح وجهه بالسرور، وقال:

- ما أسعدني بك يا ددف! وإن كنت أعجب كيف تهوى نفس ضابط مثلك إلى هذا الرسم الهادئ الحالم الجميل! أين هو يا ددف من ميدان القتال وقلاع بوسيروس وبريس!

فقال ددف:

- لا تعجب يا نانا فأنا جنديّ حقًا، ولكن حبّ إليّ الفنّ الجميل كما بثّ في خنى الحكمة والمعرفة.

القدر أحكم كلّ منهم تسديد الهدف وقذف بها بما يستطيع من القوة والمهارة.

وكان بشارو صيادًا ماهرًا. وكان صيده أضعاف صيد ابنه معًا، وكان يمدح ددف بنظرة متعالية ويقول بصوته الأجش، ألا ترى أيها الجنديّ كيف يُحكّم أبوك الرماية؟ لا تعجب، فقد كان والدك ضابطًا في جيش الملك سنفرو، وكانت قوّته كافية لتشتيت قبيلة من الهمج بغير قتال.

وكانت رحلات الصيد تنطوي في متعة وفرح ورياضة لا نظير لها في الأيام الأخرى، ولكن لم يهدأ بال بشارو حتى اصطحبه معه إلى زيارة الأهرام، وكان غرضه الأول من الزيارة أن يطلعه على نفوذه وسلطانه ويريه استقبال الجند والموظفين له.

ودعا نانا لزيارة معرضه وأطلعه على صورته ذات الألوان ورسوماته الجميلة وكان الشاب ما يزال يعمل جاهدًا بلا طائل على رجاء أن يدعى يومًا للاشتراك في عمل فنيّ له قيمته في أحد قصور الأغنياء أو الهواة أو أن يشتري أحد الزوّار بعض معروضاته. وكان ددف يحبّ نانا، فأحبّ آثاره وأعجب خاصة بالصورة التي رسمها له في بذلته الحربية البيضاء. فجاءت آية على ملاحظه ونظرة عينيه.

وكان نانا في ذلك الوقت يرسم صورة للمعمار الخالد ميرابو الذي صنع أكبر معجزة فنية في الوجود. وقد قال لددف وهو يريه الرسم التخطيطي للصورة:

- لم أبذل من قبل في صورة نصف ما بذلت في هذه، ذلك أنّ بطلها ينزل من نفسي منزلة الألهة.

فسأله ددف:

- هل ترسمها من الذاكرة يا أخي؟

فقال:

- نعم يا ددف، لأني لا أرى الفتان الأعظم إلّا في الأعياد والحفلات الرسمية التي يظهر فيها ركاب فرعون، ولكتّها تكفي لحفر صورته في قلبي وعقلي! واستدار العام وذهب ددف مرة أخرى إلى المدرسة، ودارت عجلة الزمان. وتقدّمت حياة أسرة

## عبث الأقدار ١٧٩

الشيء الذي يجعل منه ومن بقية المخلوقات وحدة ذات انسجام . .

فضحك ددف وقال:

- أتظن أنك بتفلسفك هذا قادر على إقناعي بأنك رجل؟

فحدج نافا بنظرة تحد وقال:

- أما تزال محتاجًا إلى دليل؟. إذا فاعلم أنني سأترزوج .

فبدت الدهشة على وجه ددف وسأله:

- أحققًا ما تقول؟

فأغرق في الضحك وقال:

- أبلغ بك إنكار الزواج علي؟

- كلاً يا نافا . . ولكني أذكر أنك أغضبت والدنا عليك لزهديك في الزواج .

فوضع نافا يده على قلبه وقد تبدت على وجهه آيات الجلد وقال:

- أحببت يا ددف . . أحببت بغتة!

فتجمّع وجدان ددف في انتباه واحد وسأله في لهفة:

- بغتة؟! .

- نعم، كنت كالطائر الذي يملق في السماء أمناً وما يشعر إلا وسهم يستقر في قلبه فيهبوي!

- متى وأين؟

- ددف، إذا قيل حبّ فلا تسئل عن الزمان والمكان!

- من هي؟

فقال بإجلال كأنه ينطق باسم إيزيس:

- ماتا ابنة كامادي بوزارة المالّة .

- وماذا أنت فاعل؟

- سأترزوج منها .

فقال ددف بصوت الحالم:

أهكذا تتغير الأمور؟

- وبأسرع من هذا، سهم وأصاب، فهاذا يصنع الطائر؟

حقًا إنّ الحبّ شيء عظيم، عرف ددف الفنّ والحكمة والسيّف . أما الحبّ فهذا لغز جديد . وكيف

فرغ نافا حاجبيه إعجابًا وقال:

- لكأنك وليّ عهد المملكة! ألا ترى أنهم يهينونه للعرش بتعليمه الحكمة والفنّ والحرب؟ وإنتها لسياسة سامية جعلت من ملوك مصر آلهة، وستجعل منك قائدًا عديم النظر .

فتصاعد الدم إلى وجه ددف وقال مبتسمًا:

- أنت يا نافا - كأني - لا تراني حتّى تنعني بسجاي الخير جميعًا .

فضحك نافا ضحكًا عاليًا متواصلًا، واسترسل في الضحك حتّى أشفى على التهلكة وأثار دهشة ددف . فسأله:

- ما لك؟ ما الذي يضحكك هكذا؟

فردّ عليه الشابّ وهو ما يزال يضحك:

- إني أضحك يا ددف، لأنك شبهتني بأملك .

- وماذا يضحك في هذا؟. إني أعني . .

- لا تكلف نفسك مشقة الشرح أو الاعتذار فإنّي أعلم بما تعني، ولكنّ المسألة أنّ هذه هي المرّة الثالثة التي أشبه فيها اليوم بامرأة . فقال لي والدي صباح اليوم واجدًا: «أنت كالفتاة سريع التقلب» . وقال لي الكاهن شلبا منذ ساعة، وكان يحدثني في شأن صورة له: «أنت يا سيّد نافا يتغلب عليك الوجدان كالنساء» . وها أنت ذا تقول إني كأملك! فهل يا ترى رجل أنا أم امرأة؟؟ .

فضحك ددف بدوره وقال:

- أنت رجل يا نافا، ولكنك رقيق النفس حسّاس الوجدان، ألا تذكر أنّ خني قال مرّة: إنّ الفنّانين جنس بين الرجال والنساء؟

فقال نافا:

- إنّ خني يعتقد أنّ الفنّ يقتضي إعارة من الأنوثة، ولكنّي أعتقد أنّ وجدانيّة المرأة تناقض وجدانيّة الفنّان في الغاية، لأنّ المرأة بطبعها نفعيّة تتوخى ما يحقق غايتها الحيويّة على أكمل الوجوه، أمّا الفنّان فلا غاية له إلاّ استكناه ذوات الأشياء .

وهذا هو الجمال، لأنّ الجمال هو استجلاء ذات



- إنها حياة يا نافا. إني أكاد أسمع غمغمتها..  
كيف تعيش معها يا نافا تحت سقف واحد؟  
ففرح يديه حبورًا وقال:  
- رفضت في سبيلها عشر قطع من الذهب  
الخالص.

- لن تباع هذه الصورة أبدًا.  
- وله؟  
- هي صورتني ولو دفعت لها حياتي!  
فضحك نافا وقال:  
- واها يا سنّ السابعة عشرة! إنك نار تضطرم..  
ولهب يندلع. إنك تبين الحياة والأنوثة في الأحجار  
والمياه والألوان. إنك لتعشقين الأوهام والأخيلة وتخالين  
الأحلام حقائق واقعة.. وتصلين ابنك عذاب  
الجحيم!..

فالتهب وجه الشاب دما وسكت عن الكلام،  
فأشفق نافا من إغضابه فقال:  
- لبيك أيها الجندي.  
فقال ددف بتضرّع:  
- لا تفرط في هذه الصورة يا نافا.  
فقام نافا إلى الصورة ورفعها من مكانها وقدمها إلى  
أخيه وهو يقول:  
- هي لك يا ددف العزيز.  
فوضعتها ددف بين يديه برفق كأنه يمسك بقلبه،  
وقال بصوت الممتنّ الشكور:  
- شكراً لك يا نافا!

وجلس نافا راضيًا، وأما ددف فلازم وقفته لا  
يريم.. واستغرق في تأمل الفلاحة الإلهية ثم قال:  
- كم يفتن الخيال المبتدع!  
فقال نافا بهدوء:  
- ليست من خلق الخيال.  
فزلزل قلب الشاب وسأل برجاء:  
- تعني أنّ صاحبها من الأحياء؟  
- نعم..  
- وهل.. وهل هي كصورتها؟  
- ربّما فاقتها حسناً..

لا يكون لغزًا وقد فعل في ساعة ما عجز عنه بشارو في  
سنين! وأحسّ بوجوده يفور وروحه تهيم في وديان  
بعيدة الآفاق.

أما نافا فقد استطرد يقول:  
- ويشاء الحظّ السعيد أن أوفّق في حياتي الفتيّة،  
فقد دعاني السيد فاني إلى زخرقة بهو استقباله، وغدوت  
تثنّ بعض صوري بعشر قطع من الذهب فأبي أن  
أبيعها. انظر إلى هذه الصورة الصغيرة!  
فحوّل ددف وجهه الهائم إلى حيث يشير أخوه،  
فرأى صورة صغيرة تمثل فلاحه صبيّة على شاطئ النيل  
عند الغروب وقد خضب الشفق أفق السماء، وكأنّه  
ارتاع لجمال الصورة التي جذبتّه من وديان الأحلام  
فدلف إليها حتّى صار منها على بعد ذراع، وشاهد نافا  
إعجابه فسّر سرورًا لا مزيد عليه، وقال:  
- ألا ترى أنّها صورة غنيّة بالألوان والظلال؟ انظر  
إلى النيل والأفق!

فقال ددف بصوت الحالم:  
- بل دعني أنظر إلى الفلاحة.  
وكان نافا يتأمل صورته فقال:  
- إنّ الريشة تحلّد مشية النيل ذات الإجلال.  
فقال ددف بلا اكترات لما يقول الفنان:  
- يا للأرباب.. إنّه جسم لادن.. له استقامة  
الرمح.  
- انظر إلى الحقول وإلى الزرع المائل، علام يدلّ  
ميله؟

فقال ددف وكأنّه لا يسمع ما يقول صاحبه:  
- ما أجمل الوجه الحمريّ البدريّ!  
- إنّه يدلّ على ريح الجنوب.  
- ما أجمل العينين السوداوين.. إنّ لهما نظرة  
إلهية.  
- ليست الفلاحة كلّ شيء في الصورة، انظر إلى  
الشفق فالألّه وحدها تعلم كم أجهدني في تصويره  
وتلويته.

فنظر ددف إليه وقال بحماس جنونيّ:

- ١٦ -

كان اليوم يحمل طابع الأحلام، فلدى عصره وضع  
ددف الصورة على صدره، وذهب إلى شاطئ النيل  
واكترى قاربًا أنجبه به صوب الشمال..

ولم يكن يعي ما يفعل ولا يقدر عاقبة تصرفه، وكلّ  
ما يمكن قوله إنه مسّه سحر الافتتان فأطاع وحيه  
وأصاخ إلى نداءه، فانطلق يعدو إلى غايته المجهولة  
مدفوعًا بعاطفة قهّارة لا تقاوم، فقد أصابه مسّ من  
الافتتان، واستقرّ الافتتان في قلب شجاع لا يهاب  
الموت، جسور لا يلوي على المخاطر، فكان من  
الطبيعي أن ينطلق لأنّه ليس من عادته أن ينكمش،  
وليكن ما يكون.

وراح القارب يشقّ الماء مدفوعًا بقوة التيار وشدة  
الساعدين الفتيين، وجعل ددف يرسل بناظره إلى  
الشاطئ يبحثان عن ضالته، فما رأتا أول الأمر إلا  
حدائق قصور أغنياء منف التي تهبط إلى سطح النيل  
بدرجات رخامية. وسار فراسخ لا يرى سوى الحقول  
المنبسطة حتى لمح عن بعد حديقة القصر الفرعوني،  
فمال بقاربه إلى وسط النهر يبتعد عن منطقة الحرس  
النيلي، ثمّ عرج مرّة أخرى إلى الشاطئ عند معبد  
أبيس، ثمّ أوغل شمالًا محاذيًا للبقعة التي لا ترى  
الناس إلا في المواسم والأعياد. وكاد يشفي على اليأس  
والقنوط لولا أن رأى على بعد قريب قطيعًا من  
الفلاحات يجلسن على الشاطئ تاركات سيقانهنّ في  
الماء الجاري، فحقق قلبه خفقة شديدة طردت القنوط  
طرْدًا، والتمعت عيناه بنور الأمل البهيج، فاشتدّ  
ساعده وحول القارب إلى الشاطئ، وكان كلّما قطع  
ذراعًا التفت إليهنّ وأمعن النظر، فلما أن دنا منهنّ  
واستطاع أن يرى وجوههنّ فرّت من فمه صيحة  
خافتة، كصيحة الأعمى الذي تردّ إليه نعمة الإبصار  
على حين فجأة. وذاق غبطة الغريق الذي صادفت  
قدماه صخرة ناتئة وقد أشفى على الغرق، فقد رأى  
الفلاحة المنشودة، صاحبة الصورة التي على قلبه،  
جالسة على الشاطئ وسط هالة من أنرابها، وكان كلّ  
شيء - كما قلنا - موسومًا بروح الأحلام، فرسا القارب

- نافا!

فابتسم الفنان، وسأله الشابّ المفتون:

- أتعرفها؟

- رأيتها مرّات على شاطئ النيل.

- أين؟

- شمال منف.

- هل تذهب دائميًا إلى هناك؟

- كانت تذهب كلّ أصيل هي وأخوات لها

فيجلسن ويلعبن ويختفين مع اختفاء الشمس.. وكنت

أأخذ مكاني خفية خلف شجرة الجَمِيز وانتظر حضورهنّ

بفارغ الصبر!

- وهل يواظبن على حضورهنّ؟

- لا أدري، فقد انتهت متابعتي لهنّ بانتهازي من

الصورة.

فنظر إليه بارتياح وسأله بخوف:

- وكيف استطعت؟

فابتسم نافا وقال:

- هذا جمال أعبده ولكني لا أحبه.

فلم يعبا ددف بكلامه وسأله:

- في أيّ بقعة كانت ترى؟

- شمال معبد أبيس.

- ترى هل ما تزال تذهب إلى هناك؟

- وما الداعي إلى تساؤلِكَ أيّها الضابط؟

فحيرت في عينيّ ددف نظرة ملتبهة، فقال نافا:

- هل قضي أن يصيب السهم الأخوين في أسبوع

واحد؟

فقطّب ددف جبينه وعاد إلى تأمل الصورة فقال

نافا:

- لا تنس أنّها فلاحه.

فتمتم ددف قائلاً:

- بل ربة جميلة.

فقال نافا ضاحكًا:

- واها يا ددف العزيز، لقد أصابني السهم فترديت

في قصر كامادي، وأخشى إن كان أصابك أن تقع على

كوخ متهتمّ!..

- أتفتري عليّ كذباً!!  
فقال الشاب:  
- أبداً وحقّ الربّ، قد عرفتكَ منذ زمن طويل وما  
جددت في طلبك إلّا بعد أن خانني الصبر ولجّ بي  
الشوق.

فقالَت الجميلة العاضبة:  
- كيف تزعم هذا وما رأيتك عياني قبل الآن؟  
قالت إحدى صويجاتها:  
- ولا تحبّ أن تراك بعد الآن؟  
وقالت أخرى بلهجة مرّة:  
- ما أقبح أن يهاجم الجنود الفتيات!  
ولكنّه لم يبالهنّ، وقال للتي لا تتحوّل عن وجهها  
عيناه:

- طالما رأيتك وطالما امتلأت بك نفسي.  
- كاذب.. عديم الحياء.  
- حاشاي أن أكذب، ولكنّي أحتمل كلامك  
القاسي بشغف إكراماً للضم الجميل الذي ينثره.  
- بل أنت كاذب مدّعٍ يبغي طريقة عرجاء!  
- قلت حاشاي أن أكذب. وإليك الدليل.  
قال ذلك ودسّ يده في صدره وأخرج الصورة  
وواجهها بها وهو يقول:  
- هل أستطيع أن أرسّم هذه الصورة دون أن تمتلئ  
عياني بسناك؟

ونظرت الصبيّة إلى الصورة، فلم تتمالك أن تصيح  
بإنكار وسخط وخوف، وامتلات نفوس البنات  
سخطاً، وهجمت عليه إحداهنّ بغتة تريد أن تنزعها  
منه، ولكنّه رفع بها ذراعه بسرعة البرق وابتسم ظافراً  
وقال:

- أرايت كيف أنك ملء خيالي ونفسي؟  
فقالَت بغضب شديد:  
- هذه حسّة وندالة.  
- ولم؟ لأنّه راقني حسن فصورتته؟  
فقالَت بحدّة لم تحلّ من توّسل:  
- ردّ إليّ هذه الصورة.

قريباً منهم، ووقف فيه ددّف بقامته الفارعة وبرّته  
البيضاء الأنيفة، يته بجسم كأنّه تمثال القوّة المعبودة،  
وجمال فاتن كأنّه إله النيل انحسرت عنه أمواجه  
القدسيّة، وجعل يرنو إلى ذات الوجه الملائكيّ بوجه  
شفّه الهيام والافتتان، فتولّت الحيرة الفلّاحة ومضت  
تقلّب عينيها في وجوه صويجاتها. ومضين يقلّبن  
أعينهنّ في وجهها المشرق، وكنّ يظنّته عبّراً، فلما رأينه  
واقفاً سحبن سيقانهنّ من النيل وارتدين صنادهنّ  
وتولّاهنّ الإنكار.

فقفز ددّف من القارب فصار على بعد ذراعٍ منهم،  
وقال للفلّاحة بصوت رقيق:

- طيّب الربّ مساءك أيّها الفلّاحة الجميلة.  
فرمقته بنظرة إنكار وكبرياء، وقال له أكثر من  
صوت من أصوات العصافير المحيطة بها:  
- ماذا تريد منا يا سيّدي؟!.. سيرٌ في حال  
سيبك! فوجّه إليها نظرة عتاب وقال:

- ألا تردّين تمحيّي؟  
فولّت عنه برأسها المتوجّج بتاج الليل غضباً،  
وصاحت به الكثيرات:  
- سر في سبيك أيّها الشاب، نحن لا نكلّم من لا  
نعرفه!

فقال ددّف:  
- ترى هل عادة البلد الطيّب الذي أتبتكّن أن  
يلقى الغريب بمثل هذا الجفاء؟  
فقالَت واحدة بحدّة:

- الذي يبدو على وجهك الاستهتار لا الغربية!  
- كم تقسينّ عليّ!  
- إن كنت غريباً حقّاً، فليس هذا المكان بغاية  
الغرباء، عد جنوباً إلى منف أو سيرٌ شمالاً إلى حيث  
شئت ودعنا في سلام، فنحن لا نكلّم من لا نعرفه!  
فهزّ ددّف كتفيه استهانة وقال وهو يشير إلى الفلّاحة  
الجميلة:

- إن مولاتي تعرفني حقّ المعرفة.  
فتولّاهنّ الإنكار ونظرن إلى الفتاة الجميلة فألفينها  
غاضبة، وسمعنها تقول له:

## عبث الأقدار ١٨٣

فقال وعلى فمه ابتسامة حلوة:

- لن أفرط فيها ما حبيت .  
- أرى أنك من جنود المدرسة الحربية، فاعلم أن  
سوء أدبك هذا يعرّضك إلى أقسى العقوبات .  
قال بهدوء:

- إني أعرض نفسي بالنظر إليك إلى ما هو أشدّ  
قسوة .  
- يا عجباً لقد ابتليت بك ابتلاء .  
- وابتليت أنا ابتلاء أحقّ بالرحمة .  
- ماذا أردت بهذه الصورة؟ وماذا تريد مني الآن؟  
- أردت بالصورة أن تشفيني ممّا فعلته بي عينك،  
وأريد منك الآن أن تشفيني ممّا فعلته بي الصورة .  
- لم أكن أحلم قطّ أن يتعرّض لي إنسان بمثل  
سفاهتك .  
- وهل كنت أحلم أن أسلب عقلي وقلبي في لحظة  
عابرة؟  
وهنا صاحبت به فلاحه أخرى:

فاحتقن الدم بوجه ددف الجميل وقال:  
- ساحك الربّ . . أنا جنديّ صادق الجندية،  
وسيحالفني النصر على قلبك كما حالفتني في جميع  
الميادين!

فقالت بلهجة أشدّ سخرية:  
- أيّ ميادين هُده التي تتكلّم عنها؟ إنّ الوطن  
يتمتع بالسلام من قبل أن تتشرّف بك الجندية، فيا  
لك من جنديّ يعقد له النصر في ميادين السلام  
والطمأنينة .  
فاعتلاه الارتباك وقال:

- ألا تعلمين يا جميلة أنّ حياة التلميذ في المدرسة  
الحربية كحياة الجنديّ في الميدان؟ ولكن لا عليك من  
هذا سيغفر قلبي لك سخريتك مني . .  
فقالت بغیظ:

- حقّاً إني أستحقّ اللوم، لأنّي صبرت على  
سفاهتك .  
وهمت بالسير، ولكنّه حال بينها وبينه وقال مبتسماً:  
- لا أدري كيف أكتسب موذتك؟ أنا سيّئ  
الحظّ . . هل لك في نزهة نيلية في القارب؟  
وارتاع البنات لتعرّضه لصاحبتهنّ وأحظنّ بها .  
وصاحبت به إحداهنّ:

- دعنا نذهب فقد لحقنا المغيب .

ولكنّه لم يدعهنّ يذهبن، وكانت واحدة منهنّ  
تطلب منه غفلة، فلمّا لاحت فرصة انفضت عليه  
كاللبؤة وارتمت على ساقه وتعلّقت بها وعصّته في  
فخذها، وارتمت عليه الفتيات جميعاً منهنّ من تعلّقت  
بساقه الأخرى ومنهنّ من احتضنته بقوة، وجعل  
يقاومهنّ بالصبر دون المدافعة، ولكنّه عجز عن الحركة  
ورأى - وهو يكاد يجنّ - الفلاحة الجميلة مجري ناحية  
الحقول كالغزال النافر، فناداها وتوسّل إليها وقد اختلّ

فقال وعلى فمه ابتسامة حلوة:  
- لن أفرط فيها ما حبيت .  
- أرى أنك من جنود المدرسة الحربية، فاعلم أن  
سوء أدبك هذا يعرّضك إلى أقسى العقوبات .  
قال بهدوء:

- إني أعرض نفسي بالنظر إليك إلى ما هو أشدّ  
قسوة .  
- يا عجباً لقد ابتليت بك ابتلاء .  
- وابتليت أنا ابتلاء أحقّ بالرحمة .  
- ماذا أردت بهذه الصورة؟ وماذا تريد مني الآن؟  
- أردت بالصورة أن تشفيني ممّا فعلته بي عينك،  
وأريد منك الآن أن تشفيني ممّا فعلته بي الصورة .  
- لم أكن أحلم قطّ أن يتعرّض لي إنسان بمثل  
سفاهتك .  
- وهل كنت أحلم أن أسلب عقلي وقلبي في لحظة  
عابرة؟  
وهنا صاحبت به فلاحه أخرى:

فقالت بلهجة أشدّ سخرية:  
- أيّ ميادين هُده التي تتكلّم عنها؟ إنّ الوطن  
يتمتع بالسلام من قبل أن تتشرّف بك الجندية، فيا  
لك من جنديّ يعقد له النصر في ميادين السلام  
والطمأنينة .  
فاعتلاه الارتباك وقال:

- ألا تعلمين يا جميلة أنّ حياة التلميذ في المدرسة  
الحربية كحياة الجنديّ في الميدان؟ ولكن لا عليك من  
هذا سيغفر قلبي لك سخريتك مني . .  
فقالت بغیظ:

- حقّاً إني أستحقّ اللوم، لأنّي صبرت على  
سفاهتك .  
وهمت بالسير، ولكنّه حال بينها وبينه وقال مبتسماً:  
- لا أدري كيف أكتسب موذتك؟ أنا سيّئ  
الحظّ . . هل لك في نزهة نيلية في القارب؟  
وارتاع البنات لتعرّضه لصاحبتهنّ وأحظنّ بها .  
وصاحبت به إحداهنّ:

- دعنا نذهب فقد لحقنا المغيب .

ولكنّه لم يدعهنّ يذهبن، وكانت واحدة منهنّ  
تطلب منه غفلة، فلمّا لاحت فرصة انفضت عليه  
كاللبؤة وارتمت على ساقه وتعلّقت بها وعصّته في  
فخذها، وارتمت عليه الفتيات جميعاً منهنّ من تعلّقت  
بساقه الأخرى ومنهنّ من احتضنته بقوة، وجعل  
يقاومهنّ بالصبر دون المدافعة، ولكنّه عجز عن الحركة  
ورأى - وهو يكاد يجنّ - الفلاحة الجميلة مجري ناحية  
الحقول كالغزال النافر، فناداها وتوسّل إليها وقد اختلّ  
نفس حارّ ذابت وتدفّقت ماء نيراً . .

ترى من هي تلك الجبارة الفاتنة؟ فلاحه صغيرة؟ هذا عجيب، وأين أعين الفلاحات من عينها النيرتين الساحرتين، وأين بساطة الفلاحات من كبرياتها وعنادها؟ وأين سداجة الفلاحات من سخرتها المريرة وتهكمها المتعالي؟ لو أنه باغت فلاحه بما باغتها به لربما فرّت هاربة أو استسلمت راضية ولكن هيهات! وهل يستطيع أن ينسى جلستها وسط صويحباتها كالأميرة بين أفراد حاشيتها ووصيفاتها؟ وهل ينسى كيف دافعت عنها مدافعة المستميت؟ وهل ينسى كيف لبث بين يديه - بعد فرارها - لا يبرحن حذرًا أن يتبعهن إليها، صابرات على البرد والظلمة؟ فهل يفعلن كل هذا من أجل فلاحه مثلهن؟! كلاً وكلاً، ولعلها ريفية نبيلة بل عسى أن تكون كذلك حتى لا يقول نفا مرة أخرى إنه وقع على كوخ متهدم؟ ولكن هل وفق معها لكي يقول ذلك لنفا مرة أخرى؟ وأسفاه..!!

ومهما يكن فقد انتهى الشهر الذي خاله لا ينتهي أبداً، وغادر المدرسة كمن يغادر سجنًا رهيبًا، وذهب إلى البيت بشوق مدّخر لغير أهله، وقابلهم بفرح ليس هم الباعث عليه، وجلس بينهم بقلب غائب، فلم يلاحظ ما طرأ على جاموركا من الجمود والفتور، وانتظر بصبر فارغ، ذلك العصر الذي عدّ الدقائق إليه شهرًا كاملاً، ثم انطلق إلى بقعة أبيس الطاهرة تنشده عيناه الوجه الحبيب..!

وكان الشهر برمودة والجو معتدلاً رطبًا، آخذًا من البرد بقبضة تنعش، وآخذًا من الدفء بنفس حيّ يغري باللهو والهوى، وكانت السماء بيضاء، رقيقة البياض، يشفّ بياضها الرقيق عن زرقة باهته.

وألقي على المكان العزيز نظرة ملؤها الحنو، وسأل نفسه المشوّقة: أين الفلاح ذات العينين الفاتنتين؟ ترى هل تذكره؟ أم هل لا تزال تجدّ عليه؟ وهل ما يزال رجاؤه لديها عسيرًا؟ أيستحيل أن يلقي حبه صدّي في قلبها؟ ولكن أين هي؟

إنّ البقعة خلاء لا تجيب، صمّاء لا تلبّي نداء، فما من معين على البلوى أو صارخ على الشكوى، والقلب

توازنه فسقط على الحشائش الخضراء، وما زلن يتشبّث به ولم يتركه حتى اطمأنن إلى اختفاء صاحبتهم. وقام مهتاجًا غاضبًا وجرى في الطريق الذي ذهبت فيه ولكنّه لم يرى إلا فضاء، فعاد قانطًا وقد رجا أن يبتدي إليها بواسطة صاحباتها، ولكنهنّ كنّ دهاة فقعدن هادئات لا يبرحن أماكنهنّ.

وقالت له واحدة بسخرية:

- ابق الآن أو اذهب كما تشاء.

وقالت أخرى بخبث:

- عسى أن تكون هذه أوّل مرّة تهزم فيها أيها

الجنديّ.

فقال بغضب شديد:

- لم تنته المعركة بعد.. وسأتبعكن ولو رحلتن إلى طيبة!

فقال التي عضّته:

- سنبيت ليلنا هنا..

#### - ١٧ -

وكان الشهر الذي قضاه في المدرسة بعد ذاك المساء الجميل أطول الشهور وأشدّها قسوة، وكان في أوّل الأمر كثير التألم لكرامته وكبرياته يسائل نفسه مغيبًا محنقًا: كيف أخيب هذه الخيبة وما ينقصني الجمال ولا الشباب ولا القوّة ولا الغنى؟! وكان يديم النظر إلى المرأة ويحدّث نفسه ما الذي يعيبه؟ ما الذي ينفّر الحسن منه؟ لماذا أصلته إهانة تلو إهانة وسخرية بعد سخرية! لماذا فرّت منه كما يفرّ السليم من الأجرّب؟ ثم يجد رغبة شديدة إلى معاودتها وملاحقتها، ولكنّه يذكر الشهر الطويل الذي تحجزه فيه المدرسة بين جدرانها فتذهب نفسه حشرات وتسيل جوى ولوعة، فقد يستطيع لو ثابر على مغازلتها يومًا بعد يوم أن يكبح جماحها ويلين عريكتها ويكتسب مودتها، وأيّ فتاة تقسو إلى الأبد؟ ولكن أتى له هذا وهو حبيس هذه الجدران الضخمة التي ترتدّ عنها القسيّ والنبال؟!!

وبالرغم من كلّ شيء ظلّ مفتونًا بها، لا تفارق صورتها صدره، كي يخلو إليها كلّما خلا إلى نفسه،

## عبث الأقدار ١٨٥

والصبيان، وأخذ يعلو الحديث والهتاف وما وجد  
لضالته أثرًا، فتحاشى أهل القرية وغادرها سريعًا،  
وأسرع الخطى نحو النيل في ظلمة من النفس وظلمة  
من الكون.

كان حزينًا، يائسًا، تحرق اللوعة صدره، وتمزق  
الحسرة قلبه، وقد ذكّرت حاله بمأساة الربّة إيزيس حين  
ذهبت تبحث عن أشلاء زوجها أوزوريس التي نثرها  
ست في تضاعيف الرياح، وقد كانت الأمّ إيزيس  
أسعد حطًا منه، أما هو فلو كانت حبيبته طيفًا من  
أطياف الأحلام، لكان الأمل في العثور عليه أدنى إلى  
قلبه.

أحبّ ددف الجميل، ولكنّه كان حبًّا غريبًا، بلا  
حبيبة، حبًّا ليس عذابه الصّد أو الخيانة أو ويلات  
الزمن وكيد الناس، لكنّ عذابه أنّه بلا حبيبة. كانت  
حبيبته كنسمة هائمة حملتها ريح هوجاء وذهبت بها إلى  
حيث لا يعلم إنسان. فقلبه ضائع لا يعرف له  
مستقرًّا، لا يدري إن كان قريبًا أم بعيدًا، لا يدري إن  
كان بمنف أم في أقصى بلاد النوبة. فيا لها من أقدار  
قاسية تلك التي حولت عينيه إلى تلك الصورة التي  
يحتفظ بها على قلبه، كانت أقدارًا قاسية تعرفها الأرواح  
الشريرة التي يطيب لها عذاب البشر.

\*\*\*

وعاد إلى البيت والتقى بأخيه نافا في الحديقة، فقال  
الفنان:

- أين كنت يا ددف؟ لقد طال غيبتك. ألم تعلم  
أنّ خني في حجرته؟

فقال ددف بدهشة:

- خني!.. أحقًا ما تقول؟ ولكنّي لم أجده حين  
مجيئي.

فقال نافا:

- جاء منذ ساعتين وهو ينتظرك.

فهرع إلى حجرة الكاهن الذي لم تقع عليه عيناه  
منذ سنوات، وراه جالسًا كما تعود أن يراه في الأيام  
الخوالي والكتاب في يده، فلمّا رآه قام إليه وهو يقول  
بفرح:

يستشعر وحشة ويحسّ بدبيب الحية ويحتم عليه روح  
تشاؤم وقنوط.

والوقت - إذا غرّه الأمل لا يزال أمامه متسع  
لمجيئها - يمرّ ثقيلًا بطيئًا، وإذا خيل إليه القنوط أنّ  
موعداها انقضى أحسّ بالزمن ينطلق انطلاق السهم،  
وكأنّ الشمس تركب عربة سريعة تعدو بها إلى الأفق  
الغربيّ.

ومضى يحوم حول المكان الذي رآها فيه أول مرّة،  
وجعل ينظر إلى الحشائش الخضراء طمعًا أن يرى أثرًا  
لصندلها أو سحّب ذيلها، ولكنّ الحشائش لم تحفظ من  
جسمها اللدن أكثر مما حفظ الماء من ساقيتها!

ترى هل تواظب على زيارة هذا المكان كما كانت  
تفعل من قبل أم أنّها زهدت في نزهتها زهدًا في رؤيته؟  
أين هي؟ وكيف السبيل إليها؟ هل ينادي بغير اسم؟  
هل يصرخ في الفضاء؟ وجعل يدور حول المكان  
الحبيب حائرًا، نافد الصبر، يتقاذفه القنوط والأمل..  
ولاحت منه التفاتة إلى السماء فرأى الشمس تميل إلى  
الأفق، ورأى توهجها يجت فتقدر العين على النظر  
إليه كأنّها جبار مارد أذنته الشيوخوخة وأطمعت فيه  
الضعفاء، فذوى أمله وغرق في لجة اليأس، واعتلاه  
حزن شديد، وولى وجهه شطر الحقول فرأى هيكل  
قرية، فشخص إليها وما يدري ما يفعل، وفي منتصف  
الطريق التقى بفلاح آتب بعد جهد النهار الواصب،  
فسأله عن القرية؟ فقال الرجل وهو ينظر إلى بذلته  
باحترام: «هي قرية آثر يا سيدي». فكاد من اليأس  
أن يريه الصورة الساكنة على صدره ويسأله عن  
صاحبها.

واستأنف رحلته ولم تكن له غاية محدودة، ولكنّه  
وجد في السير راحة لم يجدها في الوقوف والدوران،  
وكانّ الأمل الخلب الذي غرّر به ساعة على شاطئ  
النيل طار إلى ربوع تلك القرية فاتّبع أثره.. وكان  
مساءً لا يُسى، فقد اخترق طرقات القرية يقرأ الوجوه  
ويسائل الدير، فأنار منظره الفضول ولفت جماله  
الأنظار، وانجهمت إليه العيون من كلّ صوب، وما لبث  
أن وجد نفسه يسير وسط أمة من الفتيات والغلمان

لي بأنه لن تمضي عشر سنوات حتى أنتخب قاضياً من  
قضاة منف العشرة.

فقال ددف بحماس:

- إني أومن بأن نبوءة قداسته ستتحقق قبل ذلك..  
أنت رجل عظيم يا خني.

فابتسم خني ابتسامته الهادئة وقال:

- اشكرك يا عزيزي ددف، والآن قل لي هل تقراً  
شيئاً مفيداً؟

فضحك ددف قائلاً:

- إذا حسبت خطط القتال وتاريخ الجيش المصري  
قراءة مفيدة فأنا أقرأ أشياء مفيدة!

فسأله بإشفاق:

- والحكمة يا ددف؟!.. لقد كنت تصغي إلى  
أقوال الحكماء بشغف وشوق في هذا المكان قبل عشر

سنوات!

- الحق أنك زرعت حب الحكمة في قلبي، ولكن  
حياتي العسكرية لا تترك لي فراغاً للمطالعة التي  
أهواها، ومهما يكن فقد قصرت الشقة بيني وبين  
الحرية.

فقال خني بامتعاض:

- إن العقل الفاضل لا يستغني عن الحكمة يوماً،  
كما إن المعدة السليمة لا تزهد في الطعام بعض يوم.

ينبغي أن تعوض ما فاتك يا ددف، لا تنس هذا  
مطلقاً، إن فضيلة علم الحرب أنه يؤهل الجندي لخدمة  
وطنه ومولاه بالقوة، ولكن الروح لا تفيد منه شيئاً،  
والجندي الذي يجهل الحكمة، كالحيوان الأمين ليس  
إلا، وقد ينفع بوحى غيره، فإذا ترك لنفسه عجز عن  
إفادة نفسه فضلاً عن الآخرين، وقد ميزتنا الآلهة عن  
الحيوان بالروح، وإذا لم تتغذى الروح بالحكمة هوت  
إلى حضيض الحيوانات. لا تغفل عن هذا يا ددف،  
لأني أشعر من أعماق قلبي بأن روحك سامية، وأقرأ  
على جبينك الجميل أسطرًا باهرة من المجد والجلال،  
باركك الرب في روحاتك وغدواتك..

وتسلل الحديث بينها عذباً شهياً لقلبيها، وكان آخر  
ما تحدثا به زواج نافا، وعلم به خني من ددف لأول

- ددف! كيف أنت أيها الضابط الهام؟

وتعانقا طويلاً، وقبله خني في خديه وباركه باسم  
الرب بتاح وقال له:

- كم تمر الأعوام سريعاً يا ددف! إن وجهك هو  
هو الوجه الجميل.. ولكنك تنمو نمواً عظيماً، وكأني  
أرى فيك صورة جنديّ باسل من الجنود الذين  
يباركهم الملك عقب المواقع الكبرى وتخلد بطولاتهم  
جدران المعابد.. يا عزيزي ددف، كم أنا سعيد  
برؤيتك بعد هذه الأعوام الطوال!

فقال ددف والفرح يغمره:

- وأنا سعيد جداً يا أخي العزيز، تالله لقد غدوت  
صورة صادقة من رجال الكهنوت في نحافة جسمك  
وهيبة محضرك ونفاذ عينيك، هل انتهيت من الدراسة  
أيها الأخ العزيز؟

فابتسم خني وهو يجلس ويفسح له مكاناً إلى  
جانبه:

- إن الكاهن لا ينتهي من العلم أبداً، لأنه لا  
نهاية للعلم. وقد قال قاقمنا: إن العالم يطلب العلم  
من المهد إلى اللحد ويموت جاهلاً. ولكنني أتممت  
الدراسات التعليمية الأولى.

- وكيف كانت حياتك في المعبد؟

فنظر إليه الشاب بعينين حالمتين وقال:

- واه لك أيها الزمان، كأني أستمع إليك قبل  
عشر سنوات وأنت تطرح عليّ السؤال تلو السؤال،  
أتذكر يا عزيزي ددف؟.. لا داعي للعجب فحياة  
الكاهن تمضي بين سؤال وجواب أو سؤال ومحاولة  
الجواب، إن السؤال خلاصة الحياة الروحية. معذرة يا  
ددف، ما الذي يهّمك من حياة المعابد؟ ليس كل ما  
يعرف يقال، وحسبك أن تعلم أنها حياة الجهاد  
والطهر، إنهم يعوّدوننا أن نجعل الجسم طاهراً مطيعاً  
لإرادتنا ثم يلقوننا العلم الإلهي، وهل ينثر الحب  
الطيب إلا في أرض طيبة؟

- وماذا أنت فاعل أيها الأخ؟

- سأعمل قريباً خادماً لقرابين الرب بتاح تعالى  
اسمه المبارك، ولقد حزت عطف الكاهن الأكبر، وتنبأ

## عبث الأقدار ١٨٧

- كيف حدث هذا؟ لقد لاقاني في الصباح كعادته.

- لم يكن كعادته يا عزيزي. إلا إذا كان فرحه بك محا آلامه ساعتئذ، لقد طعن في العمر يا ددف وبدا عليه في الأيام الأخيرة وهن الوداع. .  
فاشتمد الألم بددف وتحول إلى الصديق الأمين وهمس في أذنه بحزن عميق:

- جاموركا. . ألا تسمعي؟ جاموركا!

فرغ الكلب الأمين رأسه بصعوبة، ونظر إلى مولاه بعينين لا تريان شيئاً كأنه يوَدِّعه الوداع الأخير، ثم عاد إلى نومه الثقيل. وجعل يئن بصوت مبجوح، فناداه مرة بعد أخرى ولكن نداءه لم يحرك به ساكناً، وخيل إليه أن وطأة الموت تشتد على الصديق الأمين. ورآه يلهث ويفتح فاه ويغلقه. ثم رآه ينتفض انتفاضة ضعيفة ويسكن إلى الأبد. وناداه من أعماق قلبه قائلاً «جاموركا» فضاع النداء سدى. . ولأول مرة في حياته العسكرية ذرفت الدموع من عينيه، وانتحب باكياً يوَدِّع رفيق الطفولة وحبيب الصبا وصديق الشباب. . واحتضنته أمه بين يديها وجففت دموعه بشفتيها، وأجلسته إلى جانبها على فراشها وعزته بكلمات رقيقة، ولكنّه لم يسمع إليها ولم تنفرج شفاته في تلك الليلة إلا عن قوله: أمّاه أريد أن يحطّ ويحفظ في تابوت في الحديقة في البقعة التي كنّا نلعب فيها معاً، حتّى ينقل إلى قبري حين يدعوني الربّ. وهكذا اختتم ذلك اليوم الحزين.

- ١٨ -

مضى العام السادس والأخير لددف في المدرسة الحربيّة.

وأقامت المدرسة حفلتها التقليديّة السنويّة التي يتبارى فيها المتخرّجون قبل توزيعهم على فرق الجيش المختلفة. وأشرقت حياة الفرح - ذلك اليوم - على المدرسة العظيمة وأزينت أسوارها بأعلام الفرق الحربيّة، وصدح جوّها بأنغام الموسيقى الحماسيّة. وفتحت أبوابها تستقبل المدعوّين نساءً ورجالاً الذين

مرّة، فبارك الزوج والزوجة، وهنا خطر لددف خاطر فسأله:

- ألا تتزوّج يا أخي؟

فقال الكاهن للشابّ:

- كيف لا يا ددف؟ إنّ الكاهن لا يستطيع أن يخلد إلى طمأنينة الحكمة ما لم يتزوّج، وهل يستطيع المرء أن يتطلّع إلى السماء وفي النفس نزوع إلى الأرض. إنّ فضيلة الزواج أنه يخلّص من الشهوات ويطهّر الجسد.

\* \* \*

وغادر ددف حجرة أخيه عند منتصف الليل، وآوى إلى حجرته وأخذ يخلع ثيابه ويستعيد حديث الكاهن، ثم أخذت تعاوده أحزانه ويتذكّر عذاب يومه وخيبته فيه، وقبل أن يضطجع على فراشه سمع طرقاً خفيفاً، فأذن للطارق بالدخول، فدخلت زايا يبدو على هيئتها الوجوم وسألته:

- هل أيقظتلك؟

فقال وقلبه يتوجّس خيفة:

- كلاً يا أمّاه لم أتم بعد، خيراً؟

وتردّدت المرأة وهمت بالكلام فلم يطاوعها لسانها، فأشارت إليه أن يتبعها، فتبعها قلقاً حتّى انتهيا إلى مخدعها، وأشارت إلى الأرض، فنظر فرأى جاموركا ممّداً كأنه أصيب بسهم قاتل، فلم يتمالك نفسه أن صاح بدعر:

- جاموركا. . جاموركا. . ما له يا أمّاه؟!

فقال المرأة بصوت مختنق:

- تشجّع يا ددف. . تشجّع يا عزيزي.

فانخلع قلبه في صدره وركع إلى جانب الكلب العزيز الذي لم يلقه كعادته بالقفز والفرح، وربّت على جسمه فلم يبد حراكاً، فنظر إلى أمه بعينين كئيبتين وسألها:

- ما له يا أمّاه؟

فقال المرأة:

- تشجّع يا ددف إنّه يحضّر!

فارتاع الشاب لتلك الكلمة المرعبة وقال محتجّاً:



صاروا بإزاء العرش الجالس عليه صاحب السموّ، سلّوا سيوفهم ومدّوا بها أذرعهم وهي عمودية أدبّتها إلى السماء، فردّ التحية واقفاً.

وابتدأت بعد ذلك المباراة العظيمة بسباق الخيل، فامتطى الضباط الجياد المطهّمة ووقفوا صفّاً، ثمّ نفخ في الصور فاندفعوا كالسهام المنطلقة عن أقواس مرّدة، وزلزلت أرجل الخيل الأرض زلزلاً شديداً، وكادت لشدة عدوها تغيب عن الأبصار، وثبت البواسل عليها كأنهم سمّروا في ظهورها تسميراً. وكانوا صفّاً، ثمّ فرّق بينهم العدو الشديد، ثمّ شدّ عنهم فارس كان لسرعته كأنما يركب ريحاً مجنونة. وكان أسبقهم في العودة إلى المبتدأ. . وقد أذاع المدرب اسم الفارس الفائز «دفع بن بشار» فاستقبل بهتاف شقّ عنان السماء، ولو أتيح للشاب أن يسمع أباه وهو يهتف «لابن بشار» بصوت كالرعد لما تمالك نفسه من الضحك!

وبعد مدّة وجيزة بدأ سباق العربات، فركب الضباط وانتظروا صفّاً، ثمّ نفخ في الصور فانطلقوا كالعالمقة يبعثون بين أيديهم رهبة ويتركون خلفهم دوياً كشقّ الصخور وانهار الجبال. وكانوا على ظهور العربات يتهايلون ولا يتزحزون، كأنهم سيقان نخل راسخة هبت عليها ريح عاصفة تريد اقتلاعها فارتدّت عنها خائبة مولولة. . ثمّ انطلق من بين صفوف العادين راكب سبقهم بقوّة مارد فبدا وبدوا كأنه عادٍ وهم وقوف، وتوجّه الفوز حتّى النهاية، وأعلن المدرب اسم الفائز «دفع بن بشار» وتعالى باسمه الهتاف واشتدّ له التصفيق. .

ثمّ أعلن النادي عن سباق القفز على الحواجز، فامتطى الضباط جيادهم، وأقيم في وسط الفناء الطويل المصاطب من الخشب يزداد مع التقدّم ارتفاعها رويداً رويداً، ونفخ في الصور فعدت الخيل بعنف وطارت فوق الحاجز الأوّل كأنها نسور منقضة، وقفزت على الثاني كأنها أمواج الشلال الكاسرة، وتقدّموا بكلّ هاماتهم النصر المين، ولكن خان الحظّ البعض فعجزت الجياد غير صائخة إلى صراخ فرسانها

يتكوّن جمهورهم من أسر الضباط والقوّاد والمتخرّجين وكبار الموظّفين.

وبعد أن انتصف النهار، حضر كبار رجال الدولة يتقدّمهم الكهنة والوزراء وعلى رأسهم صاحب القداسة خوميني. وقوّاد الجيش العظام وعلى رأسهم القائد أربو، وكثير غيرهم من خاصّة الموظّفين والكتاب والفنانين ليكونوا جميعاً في استقبال حضرة صاحب السموّ الفرعونيّ الأمير رعخعوف وليّ عهد المملكة، الذي أنابه صاحب الجلالة الملك عن ذاته في ترؤس الحفلة.

ولما أزقّ موعد الأمير هرع كبار رجال الدولة إلى مدخل المدرسة ووقفوا ينتظرون بين صفوف من الجنود، وما لبث أن ظهر في الميدان الفسيح المنبسط أمام المدرسة موكب وليّ العهد تتقدّمه كوكبة من عربات الحرس الفرعونيّ، فصلحت الموسيقى بالتحية، ووقف الجمهور إجلالاً وتعالى هتافه لفرعون ووليّ العهد.

ووصل موكب الأمير إلى مدخل المدرسة، فتقدّم مديرها حاملاً بين يديه غمرقة من الحرير المحشوّ بريش النعام ترجل عليها صاحب السموّ الفرعونيّ، وكان في صحبة الأمير شقيقته صاحبة السموّ الأميرة مري سي عنخ، وإخوته الأمراء رعباوف وحردف وحرسادف وكاعب وسددف وخوفو خعف وهتا ومراب. .

وانحنى الكبراء بين يدي الأمير، وسار سموّه بقامته الربعة ووجهه الصلب الذي زادته الكهولة صلابة وصلفاً، وسارت إلى يمينه الأميرة مري سي عنخ، واتخذ مجلسه في الوسط، وجلست إلى يمينه الأميرة والأمراء، وإلى يساره خوميني والوزراء والقوّاد وكبار الموظّفين. وبعد وصول الأمير سكت الهتاف وجلس المدعوّون، وابتدأت الحفلة، ونفخ في الصور فصلحت الموسيقى وظهرت فرقة الضباط المتخرّجين من ناحية الثكنات تسير أربعة أربعة، يتقدّمها قائد المدرّبين حاملاً علّم المدرسة، وقد ارتدوا للمرّة الأولى ملابس الضباط ذات الوزرة الخضراء والقميص الأخضر والسترة المصنوعة من جلد النمر، فلمّا أن

الدهول أشدته عمًا حوله، لا يرجع تفسيرها إلى نشوة الفوز ولكنّه إلى أمر أعظم رهبة في نفسه وأمعن أثرًا. إذ كان يسمع مع زملائه إلى خطاب الأمير، وتحركت عيناه إلى الخطيب فعثرنا في طريقهما بوجه الأميرة مري سي عنخ، فرأى منظرًا عجبًا انخلع له قلبه في صدره. وكاد لقوة المباغته أن يصعق صعقًا ويخرّ على وجهه خرًا. يا آلهة السموات ما هذا الذي يرى! إنّه وجه الفلاحة التي يحمل صورتها على قلبه! وودّ لو يستطيع أن يديم النظر إليه ولكنّه خشي أن يفتضح أمره، فنظر إلى الأمام لا يلوي على شيء. وانتهت الحفلة ولمّا يفق من وقع المفاجأة والدهشة. فعاد إلى الثكنات كمن به مس.

ترى هل يمكن أن تكون فلاحته الجميلة هي صاحبة السموّ الأميرة مري سي عنخ؟ يا له من أمر بعيد عن التصديق، عسير على تصوّر الخيال!

ومع هذا هل من الميسور أن يصدّق بوجود وجهين بهذا الجمال الفتان؟ هل ينسى ما لاقته به صاحبة الصورة من كبرياء، لم يكن قطّ من أخلاق الفلاحات؟ ولكنّ جميع هذا لا يسوّغ له قبول هذا الفرض الغريب، فليته استطاع أن يتحقّق من قسّات وجهها!

أما لو كانت هي الأميرة! فقد أتى أمرًا كبيرًا لا يستطيع أن يتنبأ بعواقبه، لم يتمالك عند ذاك من أن يضحك ضحكة ساخرة مريرة ويقول لنفسه يا للغرابة! إنّ ددف بن بشارو يحبّ الأميرة مري سي عنخ! ثمّ نظر إلى الصورة طويلاً بعينين حزيتين، وتنهّد قائلاً:

- هل حقًا أنت الأميرة الجليلة! كوني فلاحًا بسيطة، فربّ فلاحه مفقودة أقرب إلى القلب من أميرة موجودة!

- ١٩ -

وتأهبّ ددف لمغادرة قصر بشارو - لأول مرة - كرجل مستقلّ، تاركًا في النفوس حزنًا ممزوجًا هذه المرّة - بالفخر والإعجاب - وقد قبلته زايا حتّى بلّلت خدّه بدمعها، وباركه خنى ودعا له - وكان يأخذ أهبتها أيضًا لترك البيت إلى المعبّد، وشدّ نافا على يده بحرارة

البواسل، وسقط آخرون بين أصوات الإشفاق، إلّا فارسًا قفز الحواجز جميعًا كأنه قدر محتوم أو فوز مجسم، وأعلن المنادي اسمه «ددف بن بشارو» بين التهليل والتكبير.

وحالقه الفوز في جميع المباريات فكان المبرز في إصابة الأهداف بالرمح والقوس، وكان المنتصر في المباراة بالسيف والضرب بالزاريق، وآتته الآلهة نصرًا مبيّنًا جعله بطل اليوم دون شريك، ونابغة المدرسة العديم النظر، وأحلّه مكانة الإعجاب والتقدير في كلّ قلب.

وكان على الفائزين أن يذهبوا إلى وليّ العهد ليهنئهم على نبوغهم، فذهب ددف - ذلك اليوم - وحده، وأدّى للأمير التحيّة العسكريّة، فوضع الأمير يده في يده وقال له:

- إنّي أهتسك أيّها الضابط الباسل: أوّلًا على تفوّك. وثانيًا على اختياري لك ضابطًا في حرسى الخاصّ.

ففتح وجه الشابّ بالفرح، وأدّى التحيّة للأمير وعاد مثلج الصدر سعيدًا، وسمع في أثناء مسيره المنادي يعلن للحاضرين تهنئة الأمير واختياره له في حرسه، فخفق قلبه وذكر بالفرح أسرته: بشارو وزايا وخنّى ونافا الذين يسمعون خطاب المنادي ويفرحون له الفرح الذي يجيّل عن الوصف.

وسارت بعد ذلك فرقة الضباط الجدد إلى عرش الأمير ليخطب فيهم، وقام الأمير وخطب فيهم قائلاً بصوته الشديد النبرات:

أيّها الضباط البواسل:

إنّي أعلن على الملأ إعجابي العظيم بشجاعتكم ومهارتكم وحماسكم وتميّزكم بسجايا الجنديّة الجليلة، ورجائي أن تظلّوا كمن سبقكم من إخوانكم عنوان مجد للوطن ولقرعون ربّ العالمين.

وهتف الضباط للوطن ولقرعون، وبذلك أعلن انتهاء الحفلة، وغادر الأمير المدرسة وعاد موكبه الرسميّ إلى القصر الفرعونيّ، وانصرف المدعوّون.

وكان ددف في تلك الأثناء في حالة غريبة من

فبدت الدهشة على وجه ددف وسأله:

- ماذا تعني؟

- إني أنصحك أيها الأخ بدافع الأخوة لتكون على بينة من الأمر ولتأخذ حذرک، فإن خدمة الأمير شدة لا مثيل لها.

- كيف؟

- إن سموه شديد القسوة، له قلب كالحجر أو أشد صلابة، المهفوة عنده خطأ مبین، والخطأ جريمة لا تغتفر. وستجد فيه مصر حاكمًا صارمًا لا يداوي الجرح بالبلسم كما يفعل جلالة والده أحيانًا. ولكنه لا يتوان عن بتر العضو لأهون خلل يعثره!

- إن الملك الحازم يحتاج إلى شيء من القسوة.

- شيء من القسوة. . لا القسوة كلها، سترى كل شيء في حينه، فلا يكاد يفوت يوم لا يصدر فيه عقوبات عدّة يصيب بعضها الخدم وبعضها الجنود وبعضها الوكلاء وربما انصبّت على الضباط، وإن الأيام لتزيده صلفاً وخشونة!

فقال ددف:

- العادة أن تلين عريكة الرجل بتقدم العمر، هكذا يقول قاقمنا.

فضحك سنفر ضحكًا عاليًا وقال:

- لا يجمل بالجندي أن يستشهد في كلامه بقول حكيم. هكذا يقول صاحب السموا. وإن حياة سموه لتشدّ عن رأي قاقمنا، لماذا؟. إنّه في الأربعين. . ولي عهد في الأربعين من عمره، تأمل!

فنظر إليه الشاب بعينين متسائلتين، فاستطرد سنفر بصوت خافت:

- يودّ أولياء العهد لو يحكمون شبانًا، فإذا قست عليهم الأقدار انقلبوا قساة! - ليس سموه متزوجًا؟ - وله بنون وبنات. - فالعرش مضمون لنسله. - هذا لا يغني عن الأسف شيئًا. . وليس هذا ما ينجشاه الأمير.

وقال له: «إن نبوءتي تحقّقها الأيام يا ددف». وودّعه كذلك عضو جديد في أسرة بشارو هي مانا ابنة كامادي زوج نانا. أما بشارو العجوز فقد وضع كفه الغليظة على كتفه وقال له بخيلاء: «إني سعيد يا ددف لأنك تخطو الخطوات الأولى في طريق والدك العظيم». ولم ينس ددف أن يضع زهرة لوتس على تابوت جاموركا قبل أن يودّع بيته في طريقه إلى قصر صاحب السموا الفرعوني الأمير رعخعوف. .

ومن المصادفات السعيدة أنه وجد أن زميله بمخدهه بشكنات قصر الأمير صديق قديم ترجع صداقتها إلى زمالة الصبا، وكان شابًا ودودًا مخلص القلب، صريحًا ثرثارًا، وفرح بقدوم صديقه القديم واستقبله استقبالًا ودّيًا، وقال له ضاحكًا:

- أداثًا في أثري؟

فابتسم ددف وقال:

- ما دمت في طريق المجد.

- المجد لك يا ددف، لقد كنت الفائز في سباق العربات، أما أنت فجندي لم يسبق بمثله، إني أهنتك من صميم قلبي.

فشكره ددف، وفي المساء أحضر سنفر من صوان ثيابه زجاجة من خمر مريوط وكأسين من الفضة، وقال:

- اعتدت أن أشرب كأسًا من خمر مريوط العذبة قبل النوم، هي عادة مفيدة. . ألا تشرب؟ - إني أشرب الجمعة، ولكني لم أذق الخمر؟

فقال سنفر مقهقهة:

- اشرب. . إن الخمر داء الجنود.

وعلى حين فجأة قال له بلهجة جدية:

- أيها الأخ ددف، إنك مقبل على حياة صارمة.

فابتسم ددف بشيء من الاستهانة وقال:

- لقد ألقت نفسي حياة الجندي.

فقال سنفر:

- جميعنا يألف حياة الجندي، ولكن صاحب السموا شيء آخر.

## عبث الأقدار ١٩١

ورأى صورة إلهية تتخفى في ثياب الأميرات تنزل  
من السفينة وتصعد أدراج السلم في عظمة فرعونية  
ورشاقة خيالية، كأن ثقلها يجذب إلى أعلى لا إلى  
أسفل. رأى صاحبة السمو الأميرة مري سي عنخ!  
واستل سيفه الطويل وأدى عليه التحية العسكرية،  
ومرت به الأميرة كالحلم الجميل، وسرعان ما غيبتها  
متعرجات الحديقة.

كيف لا تكون هي هي ؟

إن البصر يخدع، والسمع يخدع، أما القلب فلا  
يخدع أبدًا. ولو لم تكن هي ذاتها ما خفق هذه الحففة  
الشديدة التي كاد لها ينخلع، ولما تركه من النشوة  
كالسكران المترنح. ولكن ما بالها لا تحس به ولا  
تذكره، وقد جرى بينها من الأمر ما يستحق التذكر؟  
هل يمكن أن تنسى هكذا سريعًا تلك المقابلة الغربية؟  
أم أنها تناساها ترفعًا عن ذكرها؟

وما الفائدة من أن تذكره أو لا تذكره؟ وما الفرق  
بين أن تكون الأميرة هي صاحبة الصورة أو تكون  
أخرى تشابهها؟ فالقلب ما خفق بالحسب إلا لهذه  
الصورة البهية، وسيظل يخفق لها سواء أحلت بجسم  
أميرة من البيت الفرعوني أم بجسم فلأحة من قرى  
منف، وسيظل على يأس منها في الحالين، فما من  
الحسب بد، وما من اليأس بد.

وألقي بنظرة إلى الأشجار المتفرعة، وشاهد الأطيوار  
تتجاذبها أغصانها وهي لا تكف عن التغريد وينيئ  
مظهرها الفرح عن الهيام والوداد، فأحسن نحوها  
بعاطفة لم تزر قلبه من قبل. أحسن نحوها بالحسد أن  
تلهو بغير حساب وأن تعشق بلا عذاب وأن تسمو  
بفطرتها عن الأوهام والشكوك، ثم نظر إلى حسامه  
وإلى بذلته ذات الألوان وإلى قلنسوته ذات الكبرياء،  
فأحسن بصغار ووجد رغبة إلى الضحك المرير والهزء  
الأليم.

لقد أتقن الرماية وبرع في ركوب الخيل وتفوق في  
المبارزة ونال كل ما يتمناه شاب طموح، ولكن ما  
أعجزه عن إسعاد قلبه! وقد كان نافا أسعد حطًا  
فتزوج من مانا ذات الجيد الطويل والعينين العسلتين،

- فما الذي يخشاه؟ إن إخوته مخلصون لقوانين  
المملكة.

- ما في هذا شك، ولعلمهم لا يطمعون في شيء،  
لأن أمهاتهم من الحريم، وجمالة الملكة لم تلد سوى  
ولي العهد وشقيقته مري سي عنخ، فالعرش من حق  
هذين الاثنين قبل أي إنسان، ولكن الذي يقلق له  
الأمير هو.. قوة بنية جلالته!

- إن فرعون معبود مصر جميعًا.

فنظر الضابط إليه وقال:

- بلا جدال.. إني يخيل إلي أني أستشف أمني  
النفوس التي تعيش في الأعماق دون أن يسمح لها  
الضمير الحي بأن تطفو، معاذ الرب أن يوجد خائن في  
مصر.. كلاً أيها الأخ، والآن قل ما رأيك في خمر  
مربوط؟.. إني طيب ولكتي غير متعصب.

فقال ددف:

- هي خير ما قدمت ياسنفر.

واكتفى سنفر بهذا المقدار من الحديث وقام للنوم،  
أما ددف فلم يذق جفنه المنام، لأن ذكر مري سي عنخ  
على لسان صاحبه أثار شجونه ولواعجه كما يثير الطعم  
الملقى على سطح الماء خافي السمك، فهاجت نفسه  
وتبلبل فكره وقضى سواد الليل يناجي قلبه المحزون.

- ٢٠ -

وكان في قصر ولي العهد يحس من الأعماق بأنه  
قريب من ذلك السر الغامض، وأنه يعيش في الأفق  
الذي يشرق فيه، وأن لابد أن يشع عليه شعاع من  
أشعته الوهاجة، وكان ينتظر على أمل وخوف ولذة.  
وإنه ليتجول في مروج القصر المطلة على النيل،  
والوقت يسير بين العصر والأصيل، وشمس هاتور  
تنسكب أنوارًا بهيجة ترد الزمان الهرم إلى عنفوان  
الشباب وبهاء الفتوة، وإذا به يرى سفينة ملكية ترسو  
إلى سلم الحديقة ولم يكن في استقبالها أحد من  
الحجاب، فأسرع - كما يقضي واجبه - إلى استقبال  
الرسول الكريم، ووقف تلقاء السفينة كالتمثال  
الجميل.

كبرياتها - الدهشة، ولكنها سرعان ما تماثلت نفسها ومدت يدها البضة وأخذت الصورة.  
سارت في طريقها إلى السفينة يحوطها الجلال والعظمة.

- ٢١ -

وظلت حياة ددف في قصر الأمير لا يشرق في أفقها جديد، حتى كان يوم عرف فيه قلبه مشرباً للألم جديداً.

وفي ذلك اليوم خرج صاحب السمو الأمير رجعخوف في بذلة التشريفة الكبرى، تتقدمه كوكبة من الحرس كان بين ضباطها صديقه سنفر، وعاد الأمير لدى المساء، ورجع سنفر إلى مخدعه في الوقت الذي رجع فيه ددف إليه بعد قيامه بواجب الحراسة وتفقد الحراس، وكان من الطبيعي أن يسأل صاحبه عن دواعي خروج الأمير بتلك الحال التي لا تأتي إلا في الأعياد، ولكنه كان يعلم بطبعه الذي لا يستطيع السكوت على سر، وفي الواقع ما استراح سنفر قليلاً حتى قال وهو يرتدي منامته:

- أتعلم إلى أين ذهبنا اليوم؟

فقال ددف بهدوء:

- كلاً.

فقال سنفر باهتمام:

- حضر اليوم إلى منف صاحب السمو الأمير أبوور حاكم مقاطعة أرسينة، وكان ولي العهد في استقباله! فسأله ددف:

- أليس سموه ابن خال جلالة الملك؟

- بلى؟ ويقال إن سموه جاء يحمل تقريراً عن قبائل سيناء التي تعددت حوادثها في ربوع الدلتا الشرقية.

- إذا فسموه رسول حرب؟

- نعم يا ددف، والذي علمته يدل على أن ولي العهد كان يميل منذ زمن طويل إلى تأديب قبائل سيناء، وأن القائد أربو كان يؤيده في رأيه، ولكن الملك كان يفضل التريث ريثما تستعيد البلاد قواها بعد الجهد الجهد الذي بذله في أوجه العمران وأخصها

وسوف يتزوج خنى في هدوء وبساطة لأنه يرى الزواج واجباً دينياً، أما هو فيلبث حاملاً بين أضلعه حباً يائساً مكتوماً، يذوي به قلبه كما تذوي الشجرة الفارعة إذا منعت نور الشمس وماء النيل.

وظل ملازماً لموقفه يعلل النفس برؤيتها مرة أخرى، ولم يكن يشك في أن الزيارة غير رسمية وإلا لعلم بها كل من في القصر، ولاستقبلت الأميرة استقبالاً يليق بمكانها في الأسرة الملكية وعلى هذا لا يبعد مطلقاً أن تعود إلى السفينة بمفردها. وصلق بعض ظنه، فعادت الأميرة بعد أن ودعها صاحب السمو الملكي عند مدخل القصر.

وكان ددف بمكانه عند سلم الحديقة فوقف مستعداً، حتى إذا صارت بإزائه سل سيفه وأدى التحية، وعلى حين فجأة توقفت الأميرة والتفتت إليه في نبل وكبرياء، وقالت بلهجة ساخرة:

- هل تعرف واجباتك أيها الضابط؟

فقال ددف وقد زلزلت نفسه:

- نعم يا صاحبة السمو.

فسألته بلهجة مرة:

- هل من الواجب أن تخطف الفتيات في غير زمن الحرب؟

فاستولى الارتباك عليه، وتلبثت لحظة تمدجه بنظرة قاسية ثم قالت:

- وهل من واجب الجندي أن يغدر؟

فلم تحتمل نفسه الألم وقال:

- يا مولاتي.. إن الجندي الشجاع لا يغدر!

فسألته بسخرية:

- فما قولك فيمن يتربص بالأمناث خلف الشجر ويصورهن خلسة؟

وغيرت لهجتها فقالت بصلف:

- يجدر بك أن تعلم أي أريد تلك الصورة.

وأطاع ددف كما تعود أن يطيع، فدرس يده في صدره وأخرج الصورة من مخبئها الدفين وقدمها إلى الأميرة.

ولم تكن تتوقع هذا، فبدت على وجهها بالرغم من

## عبث الأقدار ١٩٣

فقال ددف بحلّة أملتها عليه أحزان قلبه:

- أنت واهم يا سنفر!

- أواهم أنا! أشباب وجمال وقوّة وجفاف؟! مستحيل!

مستحيل!

- هو الحقّ يا سنفر!

- كما تشاء يا ددف فلن ألحف عليك بالسؤال،

ويمناسبة حديث الغرام هذا أقول إنّي سمعت همساً في أروقة القصر الفرعونيّ، يدور حول ذكر أسباب أخرى لمجيء الأمير أبوور غير سبب الحرب الذي حدّثك عنه.

- ماذا تعني؟

- يقولون إنّه ستتاح للأمير فرصة مشاهدة صغرى الأميرات عن كثب، وهي تمّن يضرب بجهاظنّ المثل، فربّما زفّ إلى الشعب المصريّ قريباً بشرى خطبة الأمير أبوور للأميرة مري سي عنخ.

وكان هذه المرّة شديد الخور، فتباسك وكنم عواطفه وتلقّى الضربة بصبر عجيب، ولم يعلن وجهه عن شيء ممّا يعترّك في قلبه، وأمن خطر عيني صاحبه الناقدتين ولسانه الثرثار الأليم، وحاذر أن يعلّق على كلام صاحبه بكلمة أو أن يستزيده من الإيضاح خشية أن تفضحه نبرات صوته، فصمت صمّماً ثقيلاً رهيباً كأنّه جبل شامخ أقيم على فوهة بركان.

ولم يكن يدري سنفر ما بصاحبه، فاستلقى على فراشه وقال وهو يتشاءب:

فراشه وقال وهو يتشاءب:

- إنّ الأميرة مري سي عنخ على جمال عظيم. ألم ترها؟! إنّها أجمل الأميرات، وهي كسقيها وليّ العهد شديدة الكبرياء ذات إرادة من حديد، يقولون إنّها تتمتع بحبّ لا نظير له في قلب فرعون، فمن جاملها سيكون عاليّاً بلا ريب. . . حقّاً إنّ الجهال يذلّ أعناق الرجال.

وتشاءب سنفر مرّة أخرى وأغمض عينيه، وكان ددف يرمقه على ضوء المصباح الخافت بعينين كدرهما الحزن والأسى فلّمّا أن اطمأنّ إلى استسلامه للنوم أطلق لنفسه عنان التأمّن والحزن، ونبا به الفراش وأحسّ بضيق شديد يزهد النفوس، فترك الفراش على أطراف

بناء هرم الملك. ولمّا مضت فترة الاستجمام استنجز الأمير فرعون ما وعد، ولكن يقال إنّ جلالة الملك منهمك هذه الأيام في تأليف كتاب عظيم يرجو أن يجعل منه للمصريّين أكبر مرشد للدين والدنيا، فلم يُبدِ جلالته استعداداً للتفكير جدّياً في مسألة الحرب، فاستعان الأمير رعخعوف بقريبه الأمير أبوور، واتّفق معه على أن يحضر بنفسه ليطلع الملك على حقيقة عبث القبائل واستنهارها بهيبة الحكومة، وما يخشى من تمادياها إذا طال السكوت عليها، فلا يبعد وقد أتى الأمير أن تسير فرقة من الجيش إلى الشمال الشرقيّ في القريب العاجل.

وساد الصمت فترة وجيزة، ثمّ قال سنفر بدافع من حبّ الكلام:

- وقد أولم جلالة الملك وليمة عشاء للأمير حضرها جميع أعضاء البيت الفرعونيّ، وعلى رأسهم جلالة الملك والأميرات.

فخفق قلب ددف لدى ذكر الأميرات، وذكر الأميرة الفاتنة ذات البهاء والكبرياء، فتنهّد وهو لا يدري تنهّداً جذب إليه سمع سنفر، فنظر الشابّ إليه منكرّاً وصاح:

- وحقّ بتاح إنك لا تصغي لما أقول!

فانزعج ددف وقال:

- كيف تقسم على هذا؟! كيف

- لأنك تتنهّد تنهّداً من أعجزه فكره وفرّ إلى حبيبه.

فاشتدّ خفقان قلبه وحاول أن يقول شيئاً ولكن سنفر لم يمكّنه من غايته فضحك عاليّاً وقال باهتمام:

- من هي؟! من هي يا ددف؟! آه. . . إنك تنظر إليّ نظرة إنكار؟! لن ألحّ عليك الآن فسأعرفها يوماً وهي أمّ أبنائك، يا للذكرى! أتدري يا ددف؟! . . . لقد تنهّدت في هذا المخدع منذ عامين كنتهّدك هذا، وبتّ ليبي أناجي أطيف الأحلام، وفي العام الثاني صارت زوجي المحبوبة وهي الآن أمّ ابني فانا. فيا لها من حجرة موبوءة بالغرام! . . . ولكن ألا تقول لي من هي؟

فضاء وأفقاً رحباً يعزّ بلوغه على الإنسان مهما طال به المسير، كأنه ظلّه الممدود أمامه يتقدّمه كلّما تقدّم. وكان صباحاً ندياً. وكانت الشمس طالعة يفرش سناها أرض الصحراء ببساط من أنوار، ولكن جعلها النسيم البارد الساري في تضاعيف الهواء برّداً وسلاماً عليهم، فكانوا تحت أشعتها كأشبال بين أنياب اللبؤة..

وتقدّمت القافلة في طريقها تتبع المرشدين.. وكان ددف إذا أرسل الطرف يرى عن بُعد الأميرة الصغيرة، التي استبدّت بقلبه وأصلّته جوّى أليماً، تمتطي صهوة جوادها المطهّم وتتايل على منته كالغصن الرطيب، وكان يبدو على سيمها الجلال والكبرياء، ألا أنّها كانت تنظر إلى شقيقها أحياناً تحادثه أو تستمع إليه فيلوح نصف رأسها الأيسر كصورة الأمّ إيزيس على جدران المعابد، وشاهد الشابّ الأمير أبوور يميل بقامته المتينة البنيان ويحادثها ويتسم، وشاهدها تحادثه وتبتسم، وكانت المرّة الأولى التي يرى فيها ذاك الكبرياء والبهاء يجود بابتسامة كأنّها سماء مصر صفاء وحسناً وجمالاً وندرة غيث.

ودبّت الغيرة السامة في قلبه الطاهر النبيل، وأرسل إلى الأمير السعيد نظرة ملتبهة، ذلك الأمير المجدود الذي جاء رسولاً للحرب فالتقى في طريقه برسول السلام والحبّ.. وعانى قلبه انفعالات مريرة لم تعهدها نفسه الصافية من قبل، ومضى يحدث نفسه حديثاً نائراً غاضباً..

أيجوز أن يهوى قلبه ويدوب بهواه في برودة القنوط ويحسر الدنيا جميعاً؟.. أيعقل أن يصلي نار الحبّ وعذابه ومن يهوى يسير على بعد قفزة جواد منه؟ فما قيمة الحياة؟ وما قيمة الآمال التي تمدّ نفسه بالقوّة والجلاد؟ بل ما أشبه حياته بحياة وردة غضة لم تنشقّ عنها أكمامها، عاجلتها ريح صيف عاصف فاقتلعتها من غصنها الخنون ودفتتها في رمال الصحراء الملتبهة.. من ذاك العبد الذي يسمّونه بالطاعة؟ ومن ذلك الظالم العاتي الذي يدعونه بالواجب؟ ما الإمارة وما العبوديّة: كيف تهصر هذه الأسماء قلبه وترمي به في

أصابه وانسلّ إلى خارج الحجرّة وكان الجوّ رطباً والنسيم بارداً والليل حالك الجلباب، تلوح أشجار النخيل في ظلمته كأشباح نائمة أو أرواح تعسة أضناها الخلود.

## - ٢٢ -

وبعد انقضاء بضعة أيام علم كلّ من في القصر أنّ سموّ وليّ العهد دعا الأمير أبوور، وصاحبة السموّ الأميرة مري سي عنخ، وشتيتاً من الأمراء والأصدقاء، إلى رحلة صيد بالصحراء الشرفيّة.

وفي صباح اليوم الموعود جاءت الأميرة مري سي عنخ، وكان وجهها كهالة من بهاء ونور يشرق سناه على القلوب فيغمرها بحياة الأفراح، وجاء على أثرها سموّ الأمير أبوور مصحوباً بالحاشية، وكان في الخامسة والثلاثين قويّ البنيان مهيب الطلعة يدلّ مظهره على النبل والشرف والبسالة.

وكان كبير حجّاب القصر يشرف بنفسه على إعداد قافلة الصيد وتزويدها بما يلزمها من الماء والزاد والسلاح والشباك. واختار رئيس الحرس لمرافقتها مائة جنديّ من جنود الحرس جعل على قيادتها عشرة ضباط من بينهم ددف، وهؤلاء غير الخدم ومساعدتي الصائدين. ولدى نزول وليّ العهد إلى حديقة القصر تحرّكت القافلة العظيمة، وكانت تتقدّمها كوكبة من الفرسان الخبيرين بطريق الصيد، وسار خلفهم صاحب السموّ الفرعونيّ الأمير رعخعوف، وإلى يمينه الأميرة الفاتنة مري سي عنخ، وإلى يساره الأمير أبوور، تحيط بهم هالة من الأمراء والتبلاء، وتبع ذلك الموكب الجليل عربية تحمل قُرب المياه، وأخرى تحمل الزاد وأدوات الطهي والحياض، تليها ثلاثة ورابعة وخامسة تحمل أدوات الصيد والقسيّ والسهام، تسير جميعاً بين صفّين من الفرسان، وتتبع العربات القوّة الباقية من فرسان الحرس المرافق للرحلة يتقدّمها ضباطها الذين كان منهم ددف. وسارت القافلة صوب الشرق تاركة خلفها المدينة العامرة والنيل المعبود تولّي وجهها شطر الصحراء، لا ترى حيثما تلقى الطّرف إلا

## عبث الأقدار ١٩٥

ونشاط، فما هي إلا دقائق حتى تهباً معسكر كامل من خيام ومرابط للخيل ومطبخ ميدان، وأخذ الحرس أماكنهم وآوى الأمراء إلى الخيمة الكبرى المرفوعة على عمد من الخشب المكفت بالذهب الخالص.. واستراح الأمراء ساعة فاستعادوا نشاطهم وقوتهم، ثم قاموا للصيد.

ونصب الخدم شبكة صيد عظيمة عند مقرب التلّين، وتفرّق الجند على أضلاع المثلث الذي يرسمه جبل ست والتلّان الملتقيان بالشبكة العظيمة، وعدا آخرون إلى سفح الجبل ليثيروا الحيوانات المطمئنة، في حين امتطى الأمراء جيادهم، وتفقدوا أسلحتهم، وتوزّعوا في الميدان الفسيح وكلّ على أهبة الاستعداد. وامتطت الأميرة مري سي عنخ جوادها الكريم، ووقفت به أمام الخيمة الكبرى تشاهد الصراع المرتقب حيناً بعد حين بين الإنسان والحيوان.. وكانت ترتقب حركات الأمراء بعينين عظيمي الاهتمام، والظاهر أنّها استبطأت الصيد والطرود، فسألت بصوت مسموع الضباط الذين يقفون وراءها دون أن تلتفت إليهم:

- ما لي لا أرى صيداً؟

فأجابها صوت تعرفه حق المعرفة:

- ذهب الجنود ينفرونها، وعمّا قليل ترينها يا صاحبة السموّ إذ تهبط من سفح الجبل وهي تعوي وتخور وتزأر.

وامتدّ نظرها إلى سفح جبل ست. وصدق الضابط في قوله فما لبثت أن رأته فصائل من الغزلان والأرانب والأيل تنحدر في مشياتها المختلفة جاهلة بما تحبّه لها المقادير. وتحفّز الأمراء على ظهور الجياد، ثم انطلق كلٌّ إلى هدفه وابتدأت المعركة، وكانت همّة الصائدين موجّهة إلى مطاردة الوحوش وتوجيهها إلى مضيق التلّين، حيث تنتظرها الشبكة فاغرة فاها.

وكان الأمير رعخعوف أمهر الصائدين قاطبة. وقد تبدّت للعيان خفته ورشاقتة، وكامل تسلّطه على جواده وحسن توجيهه له، وبراعته في محاوره الوحش وحصاره وسوقه أمامه إلى غايته المنشودة.. فلم يكن يفشل

هوّة اليأس الأليم؟ لماذا لا يسأل حسامه ويهجم بجواده البرق على تلك المتعالية القاسية ويحملها قوّة واقتداراً ويغيب بها في بطن الصحراء، ويقول لها بصوت جهير: انظري إليّ، ها أنا رجل جبار وأنت امرأة ضعيفة، ابسطي هذه التقطية التي رسمتها على جبينك تقاليد القصر الفرعونيّ، ونكسي هذا الذقن الذي رفعته عادات الإمارة والسّيادة، وتطهّري من هذه النظرة العالية التي تعودت أن تلقىها من علّ على الرُّكع السّجود، وتعالّي جاثية بين يديّ، فإن شئت حبّاً رويتك بالحبّ، وإن أبيت إلا استكباراً..

يا له من هذيان كغليان الرجل المكتوم! ويا لها من غضبة مخنفة عديمة الأثر! وها هي القافلة تسير، وها هو الهوى يلعب بالقلوب فتهايل لسحره القدود وتفتّر الشفاه، وها هي الصحراء الواسعة تشهد في صمتها الأبديّ.. يا لها من صحراء! وقد تأمل الخلاء ملياً فانتشلته الرهبة من لجة أحلامه وآلامه، وأفرغت في قلبه الإعجاب والإجلال، وكانّ القافلة في ذلك المحيط الجليل قبضة من مياه في بحر خضمّ لا ترى له شيطان، وما أحرى الحدأة المحلّقة أن تراها كتلة من الكتاكيت.. واهما ما حبّه؟ وما آلامه! من يحسّ بها في ذلك الفضاء الفسيح؟ كم يضيع النداء في ذلك الكون اللانهاي: فما ددف وما حبّه؟!

وانتبه بغتة على سهيل جواده إلى ما حوله، وكانت القافلة تتقدّم تقدّماً مطرداً حتى بلغت مقدّمتها بقعة الريّان وأناخت عندها، وكانت بقعة الريّان من أصلح نواحي الصحراء للصيد. وكان يمتدّ بها جبل ست من الشمال إلى الجنوب، وهي مأوى للحيوانات المختلفة التي يغرم الهاوون بصيدها، ويمتدّ من سفح جبلها إلى ما يليه شرقاً تلّان عظيمان يحصران بينها رقعة واسعة من الصحراء ثم يضيّقان كلّما امتدّا شرقاً حتى لا يفصل بينهما إلا عشرون ذراعاً في مكان نادر المثال، أعدته الطبيعة للصيد والقنص والطرود.

وكان السادة يحسّون ببعض التعب، فسارع الخدم والجنود إلى نصب الخيام، وعني آخرون بتهيئة أدوات الطهي وأوقدوا النيران، وكان العمل يسير بهمة



ولحق به الأمراء والجنود وأحاطوا بالأمير، وأطلقوا سهامهم على الأسد المحتضر فقتلوه عليه. وحضرت الأميرة مري سي عنخ على ظهر جوادها، وكانت مرتاعة مذعورة يكسو وجهها الجميل لباس الخوف والرعب، فلما رأت شقيقها واقفاً معاقاً سليماً ترجلت عن جوادها وهرعت إليه وعانقته، وهي تقول بامتنان صادر من أعماق قلبها:

- حمدًا للرب الرحيم بتاح.

وأقبل الأمراء على ولي العهد يهتفون بالنجاة، وصلوا جميعاً للرب بتاح شكرًا وامتنانًا.

وكان الأمير رعخعوف ينظر إلى جواده القليل بأسف ظاهر، وسار إلى جثة الأسد الذي كاد يورده حتفه فرأها والسهام تغشاها كشمع القنفذ، ثم نظر إلى الفارس الواقف إلى جانبها كالمثال الجميل، وسرعان ما تذكره وعرف فيه البطل الذي اختاره بنفسه ليكون بين ضباط حرسه الخاص. فكأن الألهة اختارته بيده لهذه الساعة العصبية. وأحس الأمير نحوه بإعجاب وامتنان، فاقترب منه ووضع يده على كتفه وقال:

- أيها الضابط الباسل، لقد أنقذت حياتي من الموت المحقق، وسأجزيك عن بطولتك العديمة المثال بما أنت أهله من الخير.

وتقدم الأمير أبوور من ددف، وكانت تمز نفسه النبيلة أعمال البسالة، فشده على يده بحرارة وقال:

- أيها الجندي الشجاع، لقد أدبت للوطن والملك خدمة فوق منال التقدير.

ثم عادوا جميعاً إلى المعسكر، يخيم عليهم صمت ثقيل، وشتت نفوسهم الدهول الذي يعقب النجاة من خطر داهم، وفي أثناء الطريق قال أحد رجال حاشية الأمير أبوور له:

- لم ترض الألهة أن تفجع قلب الملك الكبير الذي يجس ذاته العالية في حجرة التابوت الموحشة، يكتب للشعب الذي يحبه رسالة النجاة من الشر والأمراض.

وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟!

واستراح السادة الأجلاء. ثم قدمت لهم مائدة الطعام ودارت عليهم كئوس مترعة بخمر مريوط.

طراده ولا يخيب تصويبه، فأهلك كلابه تعباً في طلاب ضحاياه العديدة.

وأظهر الأمير أبوور كذلك مهارة نادرة المثال، فأثار الإعجاب بسرعة انقضاضه ودقة إصابته الأهداف وخفة حركاته، وكان فارساً لا يشق له غبار.

ومضى الأمراء في لوهوم العنيف والوقت ينطوي خلسة ساعة بعد ساعة، وكاد الصيد يتهي في سرور لا مزيد عليه، لولا وقوع حادث كدر الصفو وأفزح القلوب. إذ كان الأمير رعخعوف يطارد غزالاً نافراً تحت سفح الجبل، وإنه ليمرّ في عدوه - بريوة عالية، إذ اعترض سبيله وراءها أسد هائل الهيكل كاشر الأنياب، فصرخ جند كثيرون يحدرون مولاهم، ولم يكن الأمير متأهباً لمثل هذا اللقاء الخطر المفاجئ.

ولكنه كان ثابت القلب صلب العزيمة فوضع يده على رمح يريد أن يستله من قرابه، ولكن الأسد لم يمهله فوثب وثبة عظيمة وضرب الجواد بيده الجبارة على وجهه، وكان يريد فارس الجواد بنفسه فلم يبلغ إليه، وسرعان ما ثقلت أقدام الجواد وخارت قواه وترنح كالثلج وأوشك على السقوط. وكان الأسد ينكمش استعداداً لوثبة أشد من الأولى. وتتابع الحوادث سراعاً فتمكّن الأمير من إشهار رمح وصوبه نحو الأسد المتوثب وقذفه بقوة، وفي تلك اللحظة سقط الجواد فاقد الحياة من أثر ضربة الأسد، فأخطأ الرمح مرماه ونجا منه الأسد، ووقع الأمير الجليل على ظهره فغدا تحت رحمة الأسد الكاسر، أعزل من كل سلاح.

وفي تلك الأثناء كان الأمراء والجنود والضباط يطلقون لجيادهم العنان نحو الأمير المهذد، كل يود لو يفتديه بروحه، وكان ددف يطير بجواده في الهواء طيراً، فكان يطوي المسافة التي تفصله عن الأمير طياً سريعاً، وقد سبق الجميع إليه، وصادف وصوله وثوب الأسد وثبته القاضية، فلم يضع لبه، وسل رمح الطويل وأمسكه بيديه، ووثب من ظهر جواده المنطلق كالسهم شاهراً رمح، فسقط كشهاب نارٍ على الأسد الغاضب، وانغرس رمح في فم الوحش ونفذ منه إلى الأرض الرملية، وصاحبه معلق به لا تدعه يده.

## عبث الأقدار ١٩٧

صرفها عن حدة الفتوة والجبروت إلى تأمل الحكمة والعرفان.

وقبل الأمير يد والده العظيم وقال:

- هو ذا يامولاي الضابط الشجاع ددف بن بشارو الذي أنقذ بشجاعته الفائقة حياتي من بين براثن الموت المحقق، يمثل بين يدي جلالتك كما اقتضت مشيئكم المقدسة.

فتعطف الملك ومدّ إليه يده، فقبلها الشاب جاثياً باحترام ديني عميق، وقال له الملك:

- لقد استأهلت أيها الضابط بشجاعتك رضائي عنك.

فقال ددف بصوت متهدج:

- مولاي صاحب الجلالة، إني كجندي من جنود الملك لا أعرف لنفسي غاية أسمى من أن أبذل حياتي في سبيل العرش والوطن.

وهنا قال الأمير روعخعوف:

- إني أتمس من مولاي الملك الموافقة على تعيين هذا الضابط رئيساً لحرسي.

واتسعت عينا الشاب الذي لم يكن يتوقع هذه المفاجأة؛ وكان جواب الملك أن سألته:

- ما عمرك أيها الضابط؟

فقال ددف:

- عشرون عاماً يا صاحب الجلالة.

فقطن الأمير إلى مغزى سؤال الملك وقال:

- إن العمر الطويل والحكمة والعرفان فضائل تؤهل للكهنوت يامولاي. أما الجندي الباسل فتخطى به شجاعته عوائق السن.

فابتسم فرعون وقال:

- لك ما تشاء ياروعخعوف.. أنت وليّ عهدي ورغبتك عندي لا تردّ.

فسجد ددف عند أقدام العرش وقبل الصولجان، فقال له الملك:

- إني أهتلك بثقة صاحب السموّ الفرعونيّ الأمير روعخعوف أيها القائد ددف بن بشارو.

وأقسم ددف بمين الإخلاص للملك، وانتهت عند

وأمر الأمير الخدم أن يوزعوا على الجند كتوساً من خمر مربوط ابتهاجاً بنجاته، فشرب الجند وصلّوا للرب صلاة الشكر، ثمّ أنشدوا جميعاً نشيد فرعون بأصوات كهزيم الرعد دوت في فضاء الصحراء، ولبثوا ما لبثوا ثمّ تأقّبوا للرحيل، فرفعت الخيام والأثقال وغنائم الصيد، وسارت القافلة على نفس الترتيب الذي أتت به. إلا أنّ الأمير أمر الضابط ددف أن يسير في معيته. فأعان بذلك عن نيته في جعله من الخاصة المقرّبين.

فحفق قلب الشاب الشجاع بنشوة المجد والفرح، لأنّه لا يحظى بهذا الشرف العظيم إلاّ الأمراء ورجال الدولة المبرزين، وأحسّ بسعادة لا توصف إذ يسير في جناح هالة تتوسطها الأميرة مري سي عنخ، وخالها تسمع دقات قلبه العنيفة الخافقة بالحبّ والهيام.. وما يستطيع أن يعطف رأسه إليها، ولكنّه كان يرى وجهها الجميل رؤية العين، يراه في الفضاء الممتدّ أمامه، ويشاهد سناه بالرغم من السمرة التي شابته الأفق إيذاناً بالمغيب.

لو أنّها جادت عليه بكلمة شكر مع الشاكرين، لكانت حسّبه من المجد ومن الدنيا جميعاً!

## - ٢٣ -

وكان وليّ العهد جاداً فيما نوى من مكافأة ددف بما هو أهله، كأنّما الأقدار اختارته من بين الخلق ليمهد للشابّ السعيد طريق المجد. فلم تمض أيام قلائل على حادث الصيد حتّى استقبل فرعون مصر وليّ عهده وفي معيته الضابط ددف بن بشارو، وكانت مفاجأة سارة للشابّ أكثر ممّا تهدف له أحلامه وآماله، ولكنّه سار خلف الأمير روعخعوف بقلب تثبته شجاعة فائقة. واجتازا معاً الردهات الطويلة ذات الأعمدة الشاهقة والحراس الجبابرة، إلى أن مثلا بين يدي من يحجب جلاله وجهه عن الأبصار.

وكان الملك رايضاً على العرش، لا يدلّ على السنين التي بلغها سوى شعيرات بيضاء تتلألأ تحت تاج مصر المزدوج وذبول خفيف في خديه، وتعبير في نظرة عينيه

بشراً فأدى التحية العسكرية وقال:  
 - أيها القائد الرئيس، لم يقنع قلبي بالتهنئة  
 الرسمية فسعيت إليك لأصرح لك على انفراد بما يكفه  
 قلبي لك من الإعجاب والمحبة.  
 فابتسم ددف ابتسامة مودة وقال بلطف:  
 - إني أقدر هذا الشعور النبيل حتى قدره يا سنفر،  
 ولا أجد نفسي في حاجة إلى شكرك عليه.  
 فقال سنفر بتأثر:  
 - لعل هذا ما يعزيني عن خسارتي في زوال  
 صحبتك الجميلة.  
 فقال له القائد الشاب مبتسماً:  
 - لن تزول صحبتنا ياسنفر، لأني انتويت من  
 اللحظة الأولى اختيارك أميناً لي.  
 ففرح سنفر وقال:  
 - لن أبرح جانبك أيها القائد في السراء  
 والضراء.  
 وبعد بضعة أيام دعي ددف إلى مقابلة ولي العهد -  
 لأول مرة - كقائد حرسه، وكانت المرة الأولى كذلك  
 التي ينفرد به فيها الأمير، فطالع عن قرب جدّة  
 أساريه وقسوة ملامحه، وكان من عادة الأمير أن  
 يخلص إلى غرضه رأساً فقال باهتمام:  
 - أعلنك أيها القائد بأنك مدعو مع قواد الجيش  
 وحكام الأقاليم إلى الاجتماع بصاحب الجلالة الملك  
 للتشاور في مسألة طور سيناء، وتلقني الأمر بقتال  
 القبائل. إذ توّطد العزم على خوض غمار الحرب بعد  
 طول التردد، وستشهد مصر مرة أخرى أبناءها  
 يحشدون لا لبناء هرم آخر، ولكن للانقضاض على بدو  
 الصحراء الذين يهددون أمن الوادي السعيد.

وقال ددف بحماس:

- اسمح لي يا صاحب السمو أن أرفع إلى مقامكم  
 العالي التهنئة لنجاح سياستكم.  
 فابتسمت الأسارير الحديدية وقال:  
 - إني أثق في بسالتك يا ددف ثقة كبرى، وإني  
 أدخر لك مفاجأة سارة أبشرك بها بعد إعلان الحرب.  
 وعاد ددف من مقابلة الأمير سعيداً مغتبطاً، وكان

ذاك المقابلة، وغادر ددف القصر الفرعوني قائداً من  
 قواد الجيش المصري.

وكان يوم فرح عظيم في بيت بشارو لا نظير له في  
 الأيام. وقد قال نافا للقائد الشاب:

- إن نبوءتي تتحقق أيها القائد، دعني أصورك في  
 رداء القيادة.

ولكن بشارو صاح بصوته الأجش الذي زاده غرابة  
 ضياع أربع أسنان من فمه:

- ليست نبوءتك التي خلقت ددف أيها المصور،  
 ولكن حزم والده، إذ قضت الآلهة أن يكون الابن  
 كأيه من المقرين إلى فرعون.

ولم تعرف زايا يوماً من الأيام ضحكت فيه وبكت  
 مثل ذلك اليوم السعيد، وقد كثر بها الفكر إلى غياهب  
 الماضي البعيد المنطوي منذ عشرين عاماً، وذكرت  
 الطفل الصغير الذي أحدث مولده تنبؤات خطيرة،  
 وأثار حرباً صغيرة ذهب والده طعمة لها.. فيا  
 للذكرى!..

ولما خلا ددف إلى نفسه ذلك المساء ارتد إلى حالة  
 غريبة من الحزن والوجوم، كأنها رد فعل للفرح  
 العظيم الذي غمره طوال يومه، ولكن كانت لها  
 أسباب أخرى ما تفتأ تأكل قلبه كما تأكل النار الهشيم.  
 وقد رنا إلى نجوم السماء من خلل نافذته وقال وهو  
 يتهد:

- أنت وحدك أيها النجوم التي تعلمين أن قلب  
 ددف القائد السعيد، أشد حلكة من الظلام الذي  
 تعيشين في لجته الخالدة.

- ٢٤ -

وفي اليوم الثاني تقلد ددف بن بشارو منصبه الجليل  
 رئيساً لحرس ولي العهد، وقد أحسن الأمير صنفاً فنقل  
 كبار ضباط حرسه إلى فرق الجيش المختلفة وأحل  
 محلهم غيرهم. واستقبل الضباط الرئيس الجديد  
 بالترحيب والاحترام والإعجاب، ولم يكذب يطمئن به  
 كرسي القيادة بحجرته الجديدة حتى استأذن الضابط  
 سنفر في الدخول فأذن له، ودخل الضابط يفتح وجهه

## عبث الأقدار ١٩٩

وتأديب التمردين، لدفع شرهم عن الشعب الآمن، وإعلاء كلمة الحكومة الفرعونية.

وكان القوم ينصتون إلى مولاهم في صمت رهيب واتباه شديد، فوضح الاهتمام على وجوههم، وتبدى التحفز على انضمام شفاهم ويريق أعينهم، والتفت الملك إلى القائد أربو وسأله:

- أيها القائد، هل الجيش على استعداد للقيام بواجبه؟

فقام القائد الخطير واقفاً وقال:

- صاحب الجلالة ملك مصر العليا والسفلى ومنيع القوة والحياة، إن مائة ألف جندي بين الجنوب والشمال على كامل الأهبة للقتال، تشد أزهرهم عدد حربية لا تعد ولا تحصى ويسد خطاهم قواد مدرّيون، ومن الميسور تجنيد أضعاف هذا العدد في زمن قصير. فاعتدل فرعون على عرشه وقال:

- نحن فرعون مصر العليا والسفلى: خوفو بن الربّ خنوم، حامي النيل وسيد بلاد النوبة، نعلن الحرب على قبائل طور سيناء، ونأمر بهدم حصونها وتأديب رجالها وسي نساها، وإني أمرمك أيها الحكام أن تعودوا إلى مقاطعاتكم، وأن يرسل كل حاكم فرقة من حامية إقليمه.

وأشار فرعون إلى القائد أربو، فاقترب القائد من مولا، وقال له الملك:

- أعلم أنني لا أريد أن يزيد عدد الجيش المقاتل على عشرين ألفاً.

وقام فرعون على الأثر، فقام الجميع وهتفوا باسمه بحماس عظيم وانتهى بذلك الاجتماع الخطير.

وعاد ددف في ركاب وليّ العهد، وكان الأمير مسروراً مبتهجاً على غير عادته، فلم يشك الشاب في أنه يفرح لنجاح سياسته ويفوز بالغاية التي طال تربصه بها، وتذكر ما وعده فحقق قلبه خفقان الحيرة والفرح وودّ لو يستطيع استنجاهه وعده، على أن الأمير لم يمدّ له حبل القلق والحيرة فقال له وهو يدخل إلى القصر:

- وعدتك بمفاجأة سارة، فاعلم أنني نلت موافقة

يسائل نفسه عما عسى أن تكون المفاجأة السارة التي يعده بها الأمير. والحق لقد رفعه الأمير في غمضة عين من ضابط صغير إلى قائد عظيم، فما الذي يجتبه له من بشرى المجد والسعادة؟ فهل يدخر له حظّ السعيد أسباباً جديدة للعلا والأفراح؟

وجاء يوم الاجتماع العظيم، وأتى القواد والحكام من مصر العليا والسفلى، وشهد البهو الفرعوني رعوس مصر مجتمعة في صعيد واحد كحبات العقد الفريد، عن يمين العرش المكين وعن يساره، فجلس الحكام صفّاً وجلس القواد صفّاً، واتخذ الأمراء والوزراء أماكنهم خلف العرش، وكان وليّ العهد يتوسط الأمراء، وكان الكاهن خوميني يتوسط الوزراء، وجلس على رأس الحكام سموّ الأمير أبوور، وجلس في مقابله على رعوس القواد القائد العامّ أربو الذي كلل المشيب هامته.

وأعلن كبير حجاب القصر قدوم صاحب الجلالة الملك، فقام الجمع المحتشد واقفاً، وأدى القواد التحية العسكرية، وأحى الحكام والوزراء الهامات إجلالاً، وجلس الملك وأذن للأه فجلسوا، وكان الملك واضعاً على منكبيه وشاحاً من جلد الأسد، فعلم من لم يكن يعلم أن فرعون دعاهم من أجل الحرب.

واستغرق الاجتماع زمناً يسيراً، ولكنه كان على قصره رهيباً حاسماً، وبدا الملك فيه قوياً نشيطاً، واستعادت عيناه بريقهما المعروف، وقد قال لكبراء مملكته بصوته العظيم الذي يملأ القلوب إجلالاً وإكباراً:

- أيها الحكام والقواد، لقد دعوتكم لأمر جلل تتعلق به سلامة الوطن وطمأنينة شعبنا الأمين، فقد أبلغني صاحب السموّ الأمير أبوور حاكم أرسينه أن قبائل طور سيناء لا تنفك عن السطو على القرى النائية وتهديد قوافل التجارة، وقد دلت التجارب على أن قوات الشرطة لا تستطيع القضاء عليها يكفي البلاد شرها، وأنها لا تملك الوسيلة لغزو الحصون التي يمتنع بها رجالها، وقد آن الأوان لذلك هذه الحصون

والذي الملك على اختيارك قائداً للحملة الموجهة إلى سيناء .

- ٢٥ -

وشملت مصر من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال حركة نشاط عظيم واسعة النطاق، وكان الجنود يُحشدون في كل مكان، وكانت السفن الكبيرة تمخر عباب النيل آتية من الشمال والجنوب محملة بالجنود والأسلحة والمؤن قاصدة إلى منف العظيمة ذات الأسوار البيضاء، فازدحمت بهم ثكنات العاصمة وأسواقها، وضجّ جوها بصلصلة أسلحتهم الثقيلة وأنغام أناشيدهم الحماسية، فعلم القاضي والداني بأن حرباً على الأبواب، وأن أبناء النيل ينشطون للذود عن سلامة وطنهم .

وفي فترة الاستعداد سافر الأمير أبوور إلى مقاطعته لأمر تتعلق بالحرب والاستعداد لها، وتلقى القائد ددف خبر سفره بقلب لم تنسه هموم الواجب أشجانه وهواجسه، فسأل نفسه ترى هل فاز الأمير السعيد بأمانيه الخاصة فوزه في مهمته السياسية العامة، وهل عاد إلى مقاطعته سعيداً بإعلان الحرب وإبرام ميثاق الهوى؟ ترى ما الذي حدث بينه وبين الأميرة الجميلة ذات الدلّ والكبرياء؟ ماذا شهدت خاتل حديقة القصر الفرعوني من مناظر الهوى؟ وماذا سمعت أطياره من مناجاة الحبّ وهمساته؟ هل رأت الأميرة المتكبرة إذ تذلّ للناموس الذي لا يعرف الرحمة ولا يترفق بالكبرياء؟ وهل سمعتها إذ تبوح بأنات الجوى باللسان الذي تعود الأمر والنهي؟

ولكن صبراً فغداً يذهب للقتال، وإنه ليذهب بقلب لا يهاب الموت ونفس تهوى المخاطر وروح تنوق إلى المغامرات والأهوال، ليته يحقق النصر لوطنه ويدفع حياته ثمناً للنصر والمجد، فيقوم بواجبه كجنديّ ويخلد إلى الراحة التي ينشدها قلبه المعذب . يا له من خاطر جميل حريّ بأن تنزع إليه النفس الباسلة إذ غررت بها أمانى الحبّ الغرور، ولكن كيف يودع الوطن وداعاً لا رجعة منه دون أن يحظى منها بنظرة أخيرة؟ وهل كان

حبّه هراً ولعباً؟ إن قلبه ليشتاق إلى رؤية قلبها اشتياقاً ألياً وإن نظرة من وجهها لأعزّ عنده من نور البصر ونعمة السمع وطيب الحياة، وهل أحسن بأفراح الدنيا وبهجة الحياة إلا على ضوء وجهها الحبيب؟ فلا بدّ من رؤيتها ومحدثتها، وهو طلب يعزّ على الأحياء جميعاً ولكن ما يسره على طالب الموت .

ولم يدر القائد الشاب كيف يحقق أمنيته المنشودة، ومرت أيام الاستعداد القلائل سراعاً حتى جاء اليوم الذي تقرّر أن يسير الجيش غداة غده، وأرادت الآلهة أن تهبه بعد عسره يسراً، وأن تدني إليه ما أرهقه طلبه يأساً، فجاءت الأميرة تزور شقيقها زيارة من زيارات المفاجأة، وكان الأمير قد ذهب لتفتيش الثكنات الحربية . وعلم رئيس الحرس بمقدم الأميرة فحفّت طائراً إلى انتظارها، ولم تغب الأميرة طويلاً داخل القصر فظهرت بوجهها الفتان وكان في توديعها كبير الحجاب، وأقبل عليها الشاب بجسارة لم تؤاتيه في محضرها إلا مرة واحدة على شاطئ النيل، وأدى لها التحية العسكرية، ثم سار في معيتها بمفرده بعد أن تخلف كبير الحجاب عند مدخل القصر، وكان يتأخر عنها مقدار خطوتين، فاستطاع أن يملي عينيه من حسن قامتها ورشاقة قدها وفتنة حركاتها، والتهب صدره عطقاً ووجداً، وتمنى لو يفرش لها قلبه تطاه بقدميها، ليحسّ في سويدائه بوقع خطاها ولمس أناملها وتردد أنفاسها . يا عجباً! إن حكمة الطبيعة لا تخلو من فكاهة ممتعة . انظر إليها كيف توطنى الفوز لهذا الفارس على جميع القوى الجبارة، وانظر إليها كيف تذلّ عنقه لهذا المخلوق الدقيق البديع الذي لم يخلق لطمعان!

وكانا يقطعان المشى الطويل - المزدان جانباه بالورود والرياحين والتنايل والمسلات - بخطى وثيدة . وكانت السفينة الفرعونية ترى عن بعد راسية إلى أدراج الحديقة، فتولّى الجزع قلب الشاب وكبر عليه أن تذهب من بين يديه دون كلمة وداع، وكان قلبه يضيق بكلمة يوّد أن يلقيها إلى مسمعيها المحبوبين، ولكن جمودها لم يدع له فرصة للكلام ورأى المسافة

## عبث الأقدار ٢٠١

الشجاعة على البوح بها لسموك لولا قوتها الخارقة في نفسي.. عفوًا يا صاحبة السموم.

- أهدا ما تسميه كلمة واحدة؟ ومع هذا فما كان أغناك عن قولها، لأنني سمعتها يومًا قهراً على شاطئ النيل.

فاهتاجته الذكرى وهزته قولتها «شاطئ النيل» فقال:

- لا أمل قولها دقيقة من حياتي يا مولاتي. فهي أجل ما نطق به لساني، وأجل ما سمعت أذناي.

وكانا قد بلغنا الأدرج الرخامية فتولاه الجزع وقال بتوسل:

- أما من كلمة وداع؟

فالتفتت إليه وقالت:

- أستودعك الآلهة أيها القائد، سادعو بتاح العظيم أن يحقق على يدك النصر لوطننا المحبوب..

ثم هبطت أدرج السلم إلى السفينة في تودة ومهابة.

وتركت ددف يرنو إليها بعينين حزينتين، وشهد بقلب خفّاق السفينة إذ تبعد عن الشاطئ رويدًا رويدًا.. وليت الأميرة على سطحها لا تدخل مقصورتها فعلقت بها عيناه، وما زال يرسل ناظريه حتى غيّبها عنه منعطف الماء..

وسار بخطى ثقيلة مهيبض الجناح تتجمع في صدره ثورة جامحة وغضبة كاسرة، على أنه كان للدفع فضيلة لا تخونه في الملّات، وهي أنه لا يخضع لانفعال خصوصًا يضلّ به الصواب ويتنكبّ به عن السداد، وعلمه أخوه خنى كيف يراجع نفسه ويلزمها الحق والإنصاف، فانتحل للأميرة العذر عن قسوتها وجودها، قائلًا إنها إذا لم تصغ جوارحها إلى شكاته، فما ذلك إلا لأنها لا تحبّه، ليست هي ملزمة بحبّه، ولا تقع على عاتقها خيبته المريرة، بل ما أحراه أن يقرّ لها باللطف والرحمة، ألم يقل لها ما لا يقال لأميرة من البيت الفرعوني؟ فإذا صنعت هي؟ لا شيء إلا أن أصغت إليه وعفت العفو الجميل، ولو شاءت لقصت عليه بالهوان وردّته أسفل سافلين! فصرفت مراجعته

تقصر والسفينة تقترب، فاشتدّ به الجزع وطغت عليه موجة من الاستهتار حلت عقدة لسانه، فقال لها بصوت متهدج:

- كم أنا سعيد يا صاحبة السموم لأنّي رأيتك قبل الرحيل غدًا.

فبدا عليها كأنها بوغتت بقوله، وحدجته بنظرة استغراب قاسية وقالت:

- لقد بلغت أيها القائد مكانة رفيعة.. فما لي أراك تقامر بمجدك ومستقبلك!

فقال باستهانة:

- المجد والمستقبل يا صاحبة السموم؟! إنّ الموت يردهما إلى الهوان.

فقالت باحتقار:

- أرى أنّ والدي جعل على رأس جيشه قائدًا يستحوذ على روحه فنوط الموت لا النصر والظفر!

فاندفع الدم إلى وجهه الجميل وقال يباب:

- إنّي أعرف واجبي يا صاحبة السموم وسأقوم به كما ينبغي لقائد مصريّ شرفته الآلهة بنيل ثقة مولاه، وسأبدل حياتي ثمنًا له.

فهزّت منكبها وقالت:

- إنّ الرجل الشجاع لا ينسى ماضيه ولا يخرق تقاليدته لراذًا بالموت.

وكانت روح الاستهتار تستأثر به في تلك اللحظة فقال:

- هذا حقّ يا صاحبة السموم، ولكن ما حياتي إذا كانت هذه التقاليد تعقل لساني عن البوح بما يضطرم في فؤادي؟ أنا ذاهب غدًا، وقد تمتّيت على الآلهة أن أراك قبل ذهابي.. فأدنت إليّ أمينيّ، وما كان ينبغي لي أن أجد العطف الإلهي بالصمت والجبن.

- يحسن بك أن تتعلّم فضيلة الصمت!

- بعد أن أقول كلمة واحدة.

- ماذا تريد أن تقول؟

فتبدى على وجهه الجميل الهيام وقال:

- إنّي أحبك يا مولاتي. قد أحببتك حين وقع نظري عليك، وهي حقيقة رهيبية ما كانت تؤاتيني

لظاها في الحاضرين سواه، وكان نافا أمعنهم في الجهل والسذاجة، فقد دنا من ددف وهمس في أذنه:

- أبشر خيرًا أيها القائد، بالأمس ظفرت في الحب وستظفر غدًا في الحرب.

فاستولى الدهول على ددف وقال:

- ما معنى قولك هذا؟

فابتسم المصور ابتسامة ماكرة وقال:

- أتظن أني نسيت صورة الفلاحة الجميلة؟ .. آه

ما أجمل فلاحات النيل .. إن الواحدة منهن لتمتني أن

ترقد بين يدي ضابط جميل على الحشائش الخضراء التي

تكسو شاطئ النيل .. فما بالك لو كان هذا الضابط

ددف الجميل الفاتن؟!

فقال له باستياء:

- صه يا نافا .. أنت لا تدري شيئًا.

واهتاجه حديث نافا كما اهتاجه غناء مانا وأحسن

برغبة في الفرار، وهم بتنفيذ رغبته لولا تذكّر أمه،

ولاحث منه التفاتة إليها فرأها تديم النظر إليه، فخشى

أن تقرأ صفحة قلبه بعينها الملهمتين فيصيبها من ذلك

حزن كبير، فابتسم إليها، وأقبل نحوها يجتال في حبور

وفرحة.

- ٢٦ -

وانبثق نور فجر الغد.

وكان القائد ددف جالسًا في خيمته وسط معسكر

الجيش خارج أسوار منف، يطلع على خريطة شبه

جزيرة سيناء وسورها الكبير والطرق الصحراوية المؤدية

إليها، وكانت تشمل المعسكر حركة حياة صاحبة،

فالخيل تصهل والعجلات تصلصل والجند تذهب

وتجي، ويغشى الجميع نور الفجر الأزرق الهادئ .

وقد دخل الضابط سنفر على القائد وحيّاه باحترام

وقال:

- أتى رسول من لدن صاحب السمو الفرعوني

الأمير رعنعوف، ويطلب الإذن بالدخول على

سعادتكم.

لنفسه الثورة عن قلبه ولكنتها لم تعزه عن خيبته شيئًا، فانطوى على ألم حزين صامت .

\*\*\*

وأضى مساء ذلك اليوم في بيت بشارو ليودع

أهله، وحاول ما استطاع أن يظهر بمظهر الفرح والمرح

الذي عهدوه فيه، واجتمعوا جميعًا حول مائدة العشاء:

بشارو وزايا وخنى ونافا وزوجه مانا، وتوسط المائدة

القائد الشاب، وتناولوا طعامًا شهيا وشربوا الجعة .

ومضى بشارو يتحدث في أثناء الأكل بلا انقطاع، غير

مبال بالفتن الذي يتطاير من فمه الأهتم، وقص

عليهم كثيرا من قصص الحروب وخاصة الحروب التي

خاض غمارها في شبابه . وكأنما أراد أن يطمن زايا التي

دلّ شحوب لونها على ما يعتلج في صدرها من

المخاوف، فقال:

- إن أوزار الحرب تلقي في الأغلب على عاتق

الجنود، وأما القواد فيحتلون مكاننا آمنًا يفكرون

ويرسمون الخطط.

وفطن ددف إلى مرماه، فقال:

- صدقت يا والدي . ولكن ترى هل أبلت بلاءك

الحسن في حرب النوبة ضابطًا صغيرًا أم قائدًا كبيرًا؟

فاستقام جسم الشيخ فخارًا وقال:

- كنت حينذاك ضابطًا صغيرًا في فرقة الرماح . .

وكانت سيرتي في الحرب إحدى المزايا التي رشحتني فيما

بعد لمنصب مفتش عام الهرم الفرعوني .

ولم تنقطع ثرثرة بشارو، وكان ددف ينصت إليه

حينًا ويشرد أحيانًا، وربما غلبه الألم فتبدو في عينيه

نظرة حزينة، وكأن زايا كانت تلهم أحزانه إلهامًا لأنها

كانت صامته ثقيلة القلب، فلم تتناول طعامًا وقتعت

من الوليمة بكوب من الجعة .

وأحب نافا أن تحتتم تلك الليلة ختامًا سعيدًا،

فدعا زوجه مانا إلى العزف على القيثارة وإنشاد الأغنية

الجميلة: «ظفرت في الحب والحرب» وكانت مانا ذات

صوت رخيم، وكانت عازفة ماهرة، فمالت جوف

الغرفة نغمًا فاتنًا وصوتًا عذبًا . .

واضطربت في قلب الشاب نار موقدة لم يصل.

## عبث الأقدار ٢٠٣

تلمع عيناه بنور فرح بهيج لم يسلس قط لبيان، وجعل يقول:

- أحقًا هذا يامولاني؟ أحقًا ما أسمع؟ وما أرى؟  
فرت إليه بنظرة استسلام كأنها تقول له: «غلبت على أمري فجئت إليك، فقال الشاب:  
- إن آلهة الأفراح جميعًا تشدو في قلبي هذه الساعة، وقد أنساني شذوها عذاب الشهور وتسويد الليالي، ورَحَصَتْ أنغامها قلبي من مرارة القنوط وظلمات اليأس، رباه! من يقول إنّي أنا الذي هانت عليه الحياة بالأمس؟!  
فبدأ على وجهها التأثر وقالت بصوت خافت كتغريد

البيام:

- أهانت عليك الحياة حقًا؟

فقال وعيناه تلتهمان الشفتين اللتين تنثران الحديث:  
- نعم هانت وعمّيت الموت صادقًا، والموت تشتيه النفس التي خسرت آمالها، ولم أك جبانًا قط يامولاني فلبثت أؤدّي واجبي، ولكن كان يعذبني إحساس بتفاهة الغاية وعبث الجهد. وكانت تثقل عليّ وحشة تجثم على صدري وتغشى عيني بالظلمات.

فتنهّدت وقالت:

- وكنت أنا أكافح كبريائي وأجاهد نفسي وألقى منها عذابًا واصلًا.

- كم كنت قاسية عليّ!

- وكنت على نفسي أشدّ قسوة، أتذكر ذلك اليوم على شاطئ النيل، لقد عدت يومها يدبّ في أعماق قلبي قلق غريب، وعلمت فيما بعد أنه قدر لقلبي أن يستيقظ على صوتك من سباته العميق، واكتشفت هذه الحقيقة تنقاسمني لذّة المجازفة والخوف من المجهول، ثم ذكرت فخارك واعتدادك بنفسك فثرت وتمردت، وكنت كلّما وقع نظري عليك قسوت على نفسي وقسوت عليك.

فتنهّدت وقال بلهفة أسيفة:

- كم عدّبتني غروري! أتذكرين ثاني لقاء لنا في قصر صاحب السمو؟ لقد انتهرتني في شدّة وعقفتني تعنيفًا قاسيًا، وبالأمس لم تسمعي لشكائي وتركتني دون

فبدأ الاهتمام على وجه ددف وقال:

- دعه يدخل.

فغاب سنفر لحظة ثم عاد يتقدّم الرسول ثم غادر الخيمة، وكان الرسول يرتدي ثياب الكهنوت الفضفاضة التي تغطّي الجسم من المنكبين إلى رسغي القدمين، ويضع على رأسه قلنسوة سوداء، ويرسل لحيته الكتّة إلى ثغرة صدره، فعجب ددف لمراه، لأنّه كان يتوقّع أن يلقي وجهًا مألوفًا لديه من الوجوه التي يراها عادةً في قصر وليّ العهد، وسمع صوتًا - خيّل إليه رغم خوفه أنّه لا يسمعه لأول مرة - يقول:

- جئت يا صاحب السعادة في أمر خطير، فأرجو أن تأمر بإسدال الستار على الباب ومنع الدخول إلى الخيمة بغير إذن.

فنظر ددف إلى الرسول نظرة فاحصة وكان يخالجه التردد، ولكنّه هزّ منكبيه العريضين استخفافًا واستهانته، ونادى سنفر وأمره بإسدال الستار على مدخل الخيمة وبعدهم السماح لإنسان بالدنو منها، وصدع سنفر بما أمر، وحين خلا المكان نظر ددف إلى الرسول وقال له:

- هات ما عندك.

ولمّا اطمان الرسول إلى خلوّ الخيمة رفع عن رأسه قلنسوته السوداء، فبدأ شعر أسود غزير هفت خصلاته فسقطت على المنكبين في ترنّح ورسمت هالة حول رأس بديع، ثم امتدت يد الرسول إلى لحيته فأزالها برشاقة، وفتح عينيه اللتين كان يضيّقهما بمشيشه، فسطع وجه مشرق تلالاً نورًا في جوّ الخيمة مع أول شعاع أرسلته الشمس في فضاء الصحراء.

وطار قلب ددف في صدره، وهتف بصوت متهلّج:

- مولاتي مري سي عنخ!

خفت إليها كالطير المدعور، وجثا عند قدميها ولثم أهداب ثوبها الفضفاض. وكانت الأميرة ترسل بناظرها إلى الأمام في خفر واستحياء، ويتنفض جسمها اللدن كلّما أحسّت بأنفاس الشاب الحازة تتسلّل من نسج سروالها وتهبّ على ساقها المعطرة.. ثم لمست رأسه بأناملها وهمست بصوت خافت: «قُم». فقام الشاب



فظنرت إليه بعينين يلتعم فيهما نور الحب والأمل،  
ولكن خيّل إليها أنّ وجهه يكفهّرّ وصدوره ينقبض  
وتظلل جبينه سحابة مظلمة، فساورها القلق وسألته:

- فيم تفكّر؟

فقال باقتضاب:

- الأمير أبوورا!

فضحكت قائلة:

- هل بلغك ما تناقلته الألسن حيناً من الزمن؟ يا  
عجباً. لا يخفى شيء في مصر وإن كان من أسرار  
القصر الفرعونيّ، ولكنك علمت شيئاً وغابت عنك  
أشياء، فالأمير إنسان نبيل سامي الخلق، وقد حادثني  
يوماً - ونحن منفردان - في الموضوع الذي أذيع،  
فاتذرت وقلت له: إني أؤثر أن أبقى صديقه، ولا  
أشكّ أنّه أحسنّ بخيبة، ولكنّه ابتسم ابتسامة نبيلة  
وقال لي: إني أحبّ الصدق والحرّيّة، وتكره نفسي أن  
تستذلّ نفساً نبيلة..

فقال ددف بفرح:

- ياله من إنسان نبيل!

- نعم، إنّه كريم..

- ألا يوجد في أفقنا ما يدعو إلى التشاؤم؟ أعني..

أخشي فرعون!!

فخفضت عينها خفراً وقالت:

- لن يكون أبي أول فرعون يصاهر أحد أفراد

شعبه المقربين!

فأطربه جواها وأسكره خفرها، وحتت ضلوعه إليها  
حينئذٍ موجعاً، وامتدّت يده إلى يدها - وكانت تهمّ  
بلصق اللحية بوجهها - إشفاقاً من مغيب هذا الوجه  
الحسن المشرق، فأسلمت يدها إلى يده، وكان  
استسلامها عذباً ساحراً، فجثا الشاب أمامها ولثم  
يدها هيان مفتوناً، وقالت له:

- أستودعك الآلهة جميعاً.

ثمّ ألصقت اللحية المستعارة بوجهها، وضغطت  
على القلنسوة حتّى مسّت حافتها حاجبيها، فردّت إلى  
هيئة رسول الأمير وليّ العهد، وقبل أن توليه ظهرها  
وضعت يدها في صدرها وأخرجت الصورة الصغيرة

كلمة وداع، فهل تعلمين كم تعذّبت وكم تألّمت؟  
هيهات.. فليتني أطلعت على الغيب! كانت أشدّ  
أوقاتي عبوساً أحقّها بالسعادة. وكنت أشكو إلى الآلهة  
عذابي فتضحك من جهلي!

فابتسمت وقالت:

- وكانت تشهد الآلهة كبريائي فتضحك من

هواني، فهل رأيت مثلنا العوبة من قبل؟

- ولما نزل العوبة تستحقّ الرثاء، فإني كلّما أذكر ما

أضعنا من وقت ثمين!

وتهدّ أسفاً حزيناً، فقالت:

- على رأسي يقع وزر ذلك.

فنظر إليها بحنوّ وقال:

- فدتك نفسي من كلّ شرّ.

فابتسمت ابتسامة حلوة وقالت:

- أظنّ أنّ الوقت يقسو علينا هذه المرّة.

فتهدّ أسفاً ونظر إليها بعينين مكتئبتين، فقالت تبثّ

فيه روح الأمل:

- أمامنا مستقبل طويل مشرق بالأمل.. فتصنّ

الحياة كما تمنّيت الموت.

فقال بسعادة وابتهاج:

- لن يقدر الموت على قلبي..

فوضعت إصبعها على فمه وقالت:

- لا تقل هذا.

ولكنه قال بحماس جنونيّ:

- ماذا يصنع الموت بقلب جعله الحبّ من

الخالدين؟

فقالت:

- سألبث بالقصر، لا أبرحه، حتّى أسمع الأبواق

تزفّ بشرى النصر والعودة!

- فلندعّ الأرباب أن تقصّر فراقنا.

- نعم سأصليّ إلى بتاح، ولكن في القصر لا هنا

لأنّه ليس لدينا متسع من الوقت.

ووضعت القلنسوة على رأسها، فتالم لاختفاء الشعر

الأسود الخالك عن عينيه وقال:

- أهون عليّ أن أفارق عضواً عزيزاً من جسمي!

## عبث الأقدار ٢٠٥

وقد طلعت عليهم شمس الضحى ولفحهم وهج الظهيرة. وهب عليهم نسيم المغيب وهم يضربون في الأرض كالمردة، تكاد الأرض تشكو من حمل أثقالهم ولا يشكون من شيء.

## - ٢٧ -

ورؤيت عربية استكشاف تنهب الأرض صوبهم، فتطلّعوا إليها باهتمام شديد، وتقدّم قائدها من القائد وأخبره بأنّ عيونهم عثرت على جماعات من البدو منتشرين حول تلّ الدوما، وكان من رأي الضباط أن يسيروا إليها فرقة من الجيش لقتالهم، وبسط ددف خريطة الصحراء أمامه وبحث باهتمام عن تلّ الدوما، ثمّ قال:

- إنّ تلّ الدوما يقع جنوب طريقنا، والمعروف عن أولئك البدو أنّهم يسرون جماعات صغيرة للنهب والفرار، وأنّهم لا يخطر لهم على بال مهاجمة جيش جرّار كجيشنا، فلا خلاف علينا من مواجهة حركة التفاف. فقال له أحد الضباط:

- أظنّ يا صاحب السعادة أنّه ليس من الحكمة تركهم..

ولكنّ الشاب قال:

- لا شك أنّنا سنصادف في طريقنا كثيرًا من أمثال هذه الجماعات، فلو أنّنا سيرنا إلى كلّ جماعة منها كوكبة من جنودنا لتشتت قوتنا، فلنضع نصب أعيننا الهدف الأوّل، وهو اختراق سورهم الحصين وضربهم في عقر دارهم والقبض على زعيمهم خانو.

ولكنّه رأى عن حكمة أن يعزّز القوّة التي تحرس عربات المؤن والأسلحة.

وتقدّم الجيش في طريقه، ولم يروا في أثناء سيرهم أثرًا لرجال القبائل، وأنّتهم الأخبار بأنّ كلّ من يضرب في الصحراء منهم ولّى الأدبار، حين سمع بأخبار الجيش الزاحف صوب شبه الجزيرة، فشقوا طريقًا آمنًا خاليًا حتّى بلغوا أرسينة، فألقوا عصا الترحال ليأخذوا قسطهم من الراحة وحاجتهم من المؤن، وبادر الأمير

العريضة التي اتخذتها الطبيعة علّة لهذا الغرام الجميل، وأعطته إيّاها بغير كلام، فأخذها بحنوّ وهيام ولثمها بفمه ثمّ دفنها في صدره في مكانها الأوّل المعهود وألقت عليه ابتسامة وداع، وكأنّما أرادت أن تضاحكه، فأدّت له التحية العسكريّة، وسارت في مشية الجنود إلى الخارج.

ولم يكن الفتى الذي تركته ذاهلاً من الفرح مشرق الوجه بنور الأمل هو الذي رأته حين مقدمها كاسف البال شارد الخاطر متهافت النفس، فقد بعث الحبّ في نفسه بعثًا جديدًا وأحيّاها بعد موات، وزارته مخيلته - في تلك اللحظة السعيدة، أطيف من ماضي قلبه، من معرض نافا الجميل، وشاطئ النيل الأخضر الفسيح، وقطيع الفتيات الحسان، ثمّ ذكر حزنه ويأسه وتلف نفسه الجلدة الصبور، ثمّ ذكر الأمل المشرق الذي أدركه في غمرات القنوط والأحزان، فتمثّلت له حقيقة الحبّ والحياة كنهر يسقي بستانًا ناضرًا تتألّق أزهاره وتغرّد أطياره ما جرى ماؤها عذبًا، فإذا نصب معينه خوى البستان على عروشه وذوى حسنه وتجرد كفلاة مهجورة.

وأعادته إلى اليقظة دخول سنفر، وأخبره الضابط بأنّ كلّ شيء على قدم الاستعداد، فأمره بالنفخ في الصور إيذانًا بالرحيل، فانبثت على الأثر في المعسكر حركة هائلة، وعزفت الموسيقى، وتحركت طليعة الجيش.

وركب ددف عربية القيادة التي يتولّى قيادتها سنفر، وركب كبار الضباط وسارت جماعتهم إلى قلب فرقة العجلات، ثمّ نفخ في الصور مرّة أخرى، فتحرّكت عربية ددف في الطليعة بين جناحين من عربات الضباط العظام، وتبعتهم في صفوف متوازية فرقة العربات المكوّنة من ثلاثة آلاف عربية حربيّة مثقلة بالأسلحة، وسارت خلفها فرق المشاة، تحمل كلّ علمها، تتقدّمها فرقة القسيّ وتليها فرقة الرماح ثمّ فرقة السيوف، وتبع الجيش عربات المهتمّات الكبيرة محمّلة بالأسلحة والمؤن والعقاقير الطبيّة، تحيط بها قوّة من الفرسان.

اخترق ذلك الجيش الصحراء، يهدف إلى السور المنيع الذي اتخذته القبائل وكرا آمنًا.

الفريقين، وكانت السهام تنطلق جماعات كثيفة كسحب الجراد، ولكن كان أكثرها يضيع هباءً بعد المسافة.

وكان ددف يرقب المعركة باهتمام شديد، ويشاهد يكبار مهارة الجنود المصرية في الرماية التي أكسبتهم شهرة تقليدية لا مثيل لها، ورأى فيها رأى باب السور الكبير، فقال لسنفر:

- يا له من باب عظيم كأنه باب معبد بتاح!  
فقال له الضابط المتحمس:

- عسى أن يتسع لعرباتنا التي ستخرقه بعد حين! ولم تذهب المناوشة سدى، فقد لاحظ ددف أن رجال القبائل لم يبنوا على السور أبراجاً تقي رماتهم سهام المهاجمين، فلا يستطيعون أن يرموا عن قسيهم إلا إذا تعرّضوا لخطر القتال، فوضحت له فائدة الهجوم بالدرع الكبيرة المعروفة بالقباب.. وكان الدرع من هذه الدرع أشبه ما يكون بالمحراب المجوف في حيطان المعابد، وهو لكبر حجمه يمكن أن يخفي الجندي من الرأس إلى القدم، ولسمك جسمه يستطيع أن يردّ السهام، فلا تنفذ منه إلا إذا أصابت منافذ صغيرة في أعلاه يصوب منها حامله.

وقد أصدر ددف أمره بأن يتقدم بضع مئات بهذه الدرع لقتال حرس السور، فاصطقوا جميعاً خلف دروعهم في شبه نصف دائرة واسعة، ثم تقدّموا نحو السور لا يبالون وإبل السهام المتساقط عليهم، ثم وضعوا القباب على الأرض وراشوا سهامهم، وبدأت بينهم وبين عدوّهم معركة عنيفة دموية تطايرت فيها رسل الموت من الجانبين، وكان رجال القبائل يتساقطون بكثرة، ولكنهم أبدوا جليلاً وغريماً وشجاعة نادرة المثال، فكانوا كلما سقطت منهم طائفة حلت محلّها أخرى، وكانوا رغم امتناع المصريين بدروعهم الغربية يصيبونهم خلل المنافذ الصغيرة، فسقط من المصريين قتلى وجرحى كثيرون.

وما زالوا في قتال عنيف حتى تخضب الأفق الغربي بدم الشفق، وصدرت الأوامر إلى المصريين بالتقهقر فرجعوا القهقري وقد نال منهم التعب كلّ نال.

أبوور إلى زيارتهم. واستقبل استقبالاً رسمياً يليق بمكانته السامية، وتفقد الأمير وحدات الجيش، ومكث مع القائد وكبار معاونيه يتحدث إليهم في شؤون الحملة، وقد اقترح عليهم أن يوجّدوا حلقة اتصال بينهم وبين أرسينة ليطلع على أخبارهم، وليمدّهم أولاً بأول بما يحتاجون إليه، وقال لهم في ذلك:

- واعلموا أنّ جميع قوّات أرسينة مشمّرة للقتال، وأنّ قوّات عظيمة من سرايوم وذقعة ومندس في طريقها إلى أرسينة.

فقال ددف:

- ندعو الآلهة يا صاحب السموّ ألا نحتاج إلى قوّات جديدة، احتراماً لرغبة صاحب الجلالة الذي يحرص على أرواح العباد.

ونام الجيش تلك الليلة نومًا عميقًا هادئًا، ثم استيقظ على نفخ الأبواق عند صراخ الديكة.

واستأنف مسيره شرق أرسينة في جلبة وعظمة، وما زالوا في حلّ وترحال حتى لاح لهم عن بعد السور الكبير الذي يبتدئ جنوبًا من خليج هيروبوليس. وينعطف شرقًا راسمًا قومًا عظيمًا، فانعطف الجيش ناحية الشمال، ومال قليلاً نحو الشرق، ثم ألقى أثقاله وعسكر في موضع لا تصل إليه سهام المحاصرين.

واستطاعوا - من معسكرهم - أن يشاهدوا متانة بنيان السور، وأن يروا الخراس الذين يعتلونه والقسي في أيديهم، استعدادًا للذود عن حياضهم ضدّ الجيش المغير.

واتفق رأي ددف والضباط على أنّ الانتظار لا يجدي في حالتهم كما قد يجدي في حصار مدينة بتجويج سگانها، واجتمعت كلمتهم على وجوب البدء بمناوشات خفيفة ليختبروا بها قوّة عدوّهم.

وكان من الخطر أن تهجم العربات في أوّل المعركة خشية أن يخسروا جيادهم المطهّمة، فتقدّم بضع مئات من الجنود المدرّعين حاملي القسي في شبه نصف دائرة، يفرّق بين الواحد ورفيقه عشرات الأذرع من الخلاء، حتى إذا بلغوا موضعًا ظنّ العدو أنّه صائبهم فيه أطلق عليهم سهامه فقابلوه بمثلهما، وابتدأت أوّل معركة بين

الملك، حتى قال لها مرةً بلهجة الغضب:

- إنَّ والدنا يهرم سريعاً.

فنظرت إليه نظرة إنكار، فاستطرد يقول:

- حقاً إنَّه ما يزال يحافظ على سلامة بنيته ووحدة ذهنه، ولكن قلبه يشيخ ويهرم. ألا ترين أنَّه يولي ظهره سياسة الحكم ويميل بقلبه وعقله إلى التأمل والرحمة، ويصرف وقته الثمين في الكتابة؟ أين هذا من واجب الحاكم القوي؟

فقال له الأميرة بامتعاض:

- الرحمة كالقوة من فضائل الحاكم الكامل.

فقال بسخرية:

- لم يلهمني والذي هذه الحكمة يا مري سي عنخ، ولكنَّه ضرب لي الأمثال الخالدة بأثار القوة الخالقة لجلال الأعمال، فسخر أمة لبناء الهرم وزحزحة الجبال وترويض الصخور العاتية، وكان يزأر كالأسد المصور فتخرَّ القلوب فرقاً ورعباً وتأتية النفوس طوعاً أو كرهاً. فيقتل من يشاء ويغفر لمن يشاء، ذلك هو والذي الذي أفقده ولا أجده، ولا أرى سوى ذلك الشيخ الذي يمضي الليل إلا قليله في حجرة التابوت يفكر ويملي، ذلك الشيخ الذي ينفر من الحرب ويشفق على الجنود كأنهم خلقوا لغير القتال.

فقال مري سي عنخ:

- لا تتكلم عن فرعون بهذه اللهجة أيها الأمير، لقد خدم والدنا الوطن يوماً بقوته، وسيخدمه أضعافاً بحكمته.

على أنَّ زيارتها لقصر الأمير لم تكن تقطع جميعاً بأمثال هذا الحديث المضي، ففي يوم من الأيام المدودة في العمر - وكان قد مضى على رحيل الجيش المصري عشرون يوماً - وجدت الأمير مغتبطاً راضياً، ورأت وجهه الصلب يلين عن ابتسامة قليلاً ما تُرى عليه، فخفق قلبها وطار خاطرها إلى الحبيب البعيد.

فسألت شقيقها:

- ما وراءك يا صاحب السموم؟

وكانت منف تنتظر أبناء القتال في هدوء المطمئن، للثقة العظيمة التي توليها جيشها والاستهانة البالغة التي تشعر بها نحو قبائل البدو الناهية، ولكنَّ قلوبنا كبيرة كانت تخفق خفقان المشفق، ويخلق لها الحنان والأوهام ويصوّر لها المخاوف، منها قلب عاهل النيل العظيم الذي تحوّل على الكبر إلى الحكمة ومضى يكتب بمداد قلبه رسالته الخالدة إلى شعبه الحبيب، ومنها قلب زايا الذي أضناه الألم وعذبه الخوف وأزقه السهاد، وقلب آخر لم يعرف من قبل معنى الألم ولا ذاق طعم الخوف، وهو قلب الأميرة مري سي عنخ التي وهبتها الآلهة أبهى ما لديها من حسن وهيئات على الأرض لها أمتع ما فيها من الترف والنعيم، وسخرت لحبها أعظم قلوب البشر طراً، وأزلت لها قوى الطبيعة فلا يقرصها برد الشتاء ولا يلفحها حر الصيف ولا تهب عليها رياح الجنوب ولا ينفذ إليها مطر الشمال، فما زالت تمرح وتلعب حتى مس قلبها الحب كما تمس أنامل الطفل الطليق السنة اللهب، فاكوت بناره وفتحت صدرها لعذابه وهوانه..

ولم تحف حالتها على وصيفاتها، وعلى وصيفتها ناي على وجه الخصوص، وقد قالت لها يوماً وهي ترقبها بعين الريبة والإشفاق:

- أنتنهد مولاتي؟ فما يفعل من لا تحنو عليه الآلهة والفراعين؟ أمجثين ضارعة متوسلة؟ فمن الذي نتوسل به ونضرع إليه؟ أمخفضين عينيك يا مولاتي؟ فلمن خلقت الكبرياء؟

ولكنَّ حلم الأميرة لم يتسع لمداعبات وصيفتها، فكانت تؤثر في تلك الأيام الشديدة الخلوة إلى نفسها، وكانت تودّ لو تستطيع أن تحافظ على قولها لحبيبها: إنها لن تغادر القصر حتى تسمع أبواق العودة الظافرة، ولكنَّها وجدت حينئذٍ إلى زيارة قصر شقيقها ولي العهد لتلقي تحيةً قلبيةً على المكان الذي كان يلقاها فيه كلَّها ذهبت لزيارة أخيها.

وكان ولي العهد يستقبلها ويتحدّث إليها، ولم يخف عنها عاطفة كانت تجهلها فيه وهي تلملمه من سياسة

فقال:

- بلغتني أنباء سارة تقول إن جيشنا حاز انتصارات باهرة، وإنه عما قليل يقتحم حصن العدو.

فصاحت به:

- زدني من هذا النبأ السعيد!

- يقول الرسول إن جنودنا تتقدم مدرعة بالقباب حتى صارت على قيد أذرع من السور، واستحال على رجال القبائل الظهور على السور، ومن تحدّثه نفسه منهم بالمجازفة ترديه نبالنا قتيلاً.

وكان هذا النبأ أسعد ما سمعت من شقيقها في حياتها. وقد تركت قصر الأمير قاصدة إلى معبد بتاح، وصلت إلى الرب العظيم ودعت للجيش بالنصر ولحبيبها بالسلامة، واستغرقت في صلاتها استغراقاً عميقاً لا يعرفه إلا المحبون، وعادت إلى القصر الفرعوني يدب في قلبها الجزع، الذي يقل صبره كلما دنا من غايته.

- ٢٩ -

وكانت الجنود المصرية قد دنت من السور الحصين واستطاعت أن تمسه بأسنة رماحها، وأحاط به الرماة من كل جانب مسددين قسيهم كلما ظهر رجل أردوه قتيلاً، ولم يجد العدو من حيلة إلا أن يلقي عليهم الأحجار، وأن يسدّد نباله ليصيد بها من يعتلي السور منهم، وظلّوا على تلك الحال زمناً سيراً وكلّ فريق يتربص لغريمه، وفي فجر اليوم الخامس والعشرين للحصار أصدر ددف أمره للرماة بالهجوم العام، فانقسموا طائفتين: واحدة لمراقبة السور وأخرى تقدّمت مستظلة بحماها يحمل رجالها السلام الخشبية والدروع الطويلة والقسيّ والسهام، وأسندوا السلام إلى السور وصعدوا أدراجها ناشرين أمامهم الدروع كآتها الأعلام، ثم أثبتوا الدروع على السور فبدأ كحائط الحصون المصرية المدرع بالقباب، وتلقوا بها آلاف السهام التي ترامت عليهم من كلّ حذب وصوب، وتساقط منهم عدد غير يسير، وأجابوا عدوهم بسهام لا تبيض ملأت الجو أزيزاً خفيفاً. وعلا

الصياح يشقّ عنان السماء، واختلط هتاف الفوز بأنات الألم وصراخ الرعب، وفي أثناء القتال المستعر هجم فريق من المشاة يحملون جذوع النخل صوب الباب الكبير، وصكّوه صكاً شديداً دوى دويّاً مرعباً.

وكان ددف يقف على ظهر عربته الحربية يرقب القتال بعينين قلقتين وقلب متحفّز للقتال وكان يقبّل وجهه بين الجنود المعتلية للسور والمتوتبة لاعتلائه وبين الهاجمين على الباب الضخم الذي بدأت تززع أركانه ويضطرب بنيانه.

وبعد زمن ليس باليسير رأى الرماة يقفزون داخل السور، ورأى المشاة من حاملي الرماح يصعدون السلام ورماحهم مجردة ودروعهم مشهّرة فلم أنّ العدو أخذ يخلي مواقعه خلف السور ويتقهقر داخل شبه الجزيرة.

ومرّت ساعة على قتال عنيف وانتظار جزوع، وكانت فرقة العربات - وعلى رأسها القائد الشاب - تنتظر صفوفاً، ولم يلبث أن فتح الباب على مصراعيه بعد أن رفع الجنود المصريون بداخل السور مزلاجهم، وأمر ددف سنفر بالهجوم، فترك للجوادين العنان، وانطلقت خلفه العربات تجلجل جلبة الجبل المنهار، وتثير خلفها ريحاً من النقع والرمال، واجتازت الباب عربة عربية، وكانت تنعطف واحدة إلى اليمين والأخرى إلى اليسار، فرسمت جناحين مديدين يلتقيان في عربة القائد، وهاجمت العدو كقبضة يد هائلة تمصر عصفوراً هزياً، وفي أثناء ذلك احتلّ الرماة الأماكن الحصينة والتلال العالية، وتقدّمت فرقة الرماح لتحمي مؤخّرة العربات، وتقاتل من يلتفت للإحداق بها.

وكان سنفر يقود عربة القائد ببسالة وثبات، وكان ددف يطلق سهامه التي لا تحيب فتعرف مستقرها في الرقاب والقلوب، وقد ولى العدو الأدبار، ومن تخلف منهم انفضّ عليه الجنود الزاحفون برماحهم، فلم ينج من الموت إلا هارب أو أسير أو جريح.

وانتهت المعركة الفاصلة في ساعات قلائل، وباتت قرى القبائل تحت رحمة الجنود المحتلة، وامتلاً الميدان بجثث القتلى أو الجرحى من الفريقين، وانتشر الجند

## عبث الأقدار ٢٠٩

- سوف تهلّل مناجم قفط - التي تشكو قحطاً في عمّالها فرحاً بهؤلاء الرجال الأشداء .

انتقل ومن معه إلى منطقة صاحبة هي منطقة السبايا اللاتي لم يستطعن هروباً، وكانت أطفالهن تصرخ وتعلو، وكنّ يلطمن وجوههن ويندبن حظهن ورجالهن القتلى أو الجرحى أو الأسرى أو المشردين، ولم يكن ددف يعلم بلغتهن فألقى عليهن نظرة غريبة لم تخل من إشفاق، ووقع بصره على طائفة منهن تبدو عليها آي النعيم، فسأل الضابط الذي يشرف على حراستهن:

- من هؤلاء النسوة؟

فقال الضابط:

- هنّ حريم زعيم القبائل .

وتأملهنّ القائد وعلى فمه ابتسامة، وكنّ ينظرن إليه بأعين جامدة لا شك تخفي خلفها ناراً مضطربة يؤدّدن لو يسألنّها على القائد الظافر الذي أسر سيدهنّ واستنهنّ وسامهنّ من بعد عزة هواناً .

شدّت واحدة منهنّ عن نطاق أترابها وأرادت أن تتقدّم من القائد، فحال بينها وبين بغيتها جنديّ وأشار إليها مهدّداً منذراً، ولكنّها صاحت بالقائد باللغة المصرية المبيّنة:

- أيّها القائد دعني أقرب منك وليباركك الربّ رع .

فدهش ددف ودهش من معه جميعاً لطلاقة لسانها وحسن نطقها المصريّ كأحد الناطقين بها، وأمر القائد الجنديّ أن يتركها تتقدّم منه، فتقدّمت بخطى وثيدة حتى دنت من الشابّ وانحنت أمامه في احترام وإجلال، وكانت امرأة في الخمسين من عمرها وقور الطلعة في وجهها أثر لحسن قديم عفا عليه الزمان والشقاء، وفي قساستها شبه عجيب من بنات النيل، فقال لها ددف:

- أراك تعرفين لغتنا أيّتها السيّدة .

فتأثرت السيّدة تأثراً شديداً حتى اغرورقت عيناها بالدموع، وقالت:

هنا وهناك بغير نظام، وأقبل الجنود المصريون يبحثون بين الجثث عن إخوانهم الأبطال الذين سقطوا في ميدان القتال، ومضوا يحملونهم إلى المعسكر خارج السور، وأخذ غيرهم يجمعون جثث العدو ليحسوها عدداً، وجعل آخرون يقيدون الأسرى بالحبال ويستولون على أسلحتهم ويجمعونهم صفوفًا صفوفًا. ثمّ أخلت القرى الصغيرة من النساء والأطفال وأحضرن جماعات جماعات وهنّ يصرخن ويعولن إلى جانب الأسرى، وأحاط الحرس بالجميع من كلّ جانب، ثمّ عاد الجنود كلّ طائفة إلى حيث نشر علم فرقتها، ووقفوا صفوفًا كلّ فرقة على رأسها ضباطها الذين نجوا من شرّ القتال.

وأى القائد يتبعه قواد الفرق، فاستعرض الجيش المنتصر الذي أدى له التحيّة بحماس عظيم، وسلّم على الضباط البواسل وهنّاهم بالفوز والنجاة، وحيّا ذكرى من سقط منهم شهيداً، ثمّ سار مع أركان حربه إلى البقعة التي أقيت فيها جثث الأعداء، وكانت الجثث ممدّدة بعضها إلى جانب البعض وقد سالت دماؤها أنهاراً، ووجد على حراستها ثلّة من الجنود على رأسها ضابط، فسأله ددف:

- كم عدد القتلى والجرحى؟

فأجاب الرجل:

- قتل من العدو ثلاثة آلاف رجل وجرح خمسة آلاف .

فسأله:

- وكم عدد ضحايانا؟

فقال:

- قتل منّا ألف وجرح ثلاثة آلاف .

فاكفهر وجه الشابّ وقال:

- كلّفتنا فبائل البدو غالباً .

وسار القائد إلى حيث يوجد الأسرى، وكانوا جمعاً كبيراً تنتظمه الحبال الطويلة جماعات، وتقيد أذرعهم إلى الخلف، وقد نكست رءوسهم حتى مسّت لحاهم صدورهم، وألقى ددف نظرة عليهم وقال لمن حوله:

وأراد أن يُدخل الطمأنينة على نفسها المغدبة، فأرسلها إلى المعسكر معززة مكرمة.

وعندما أتى مساء ذلك اليوم كان الجيش قد انتهى من دفن قتلاه وتضميد جراح جرحاه، وأوت الجنود إلى الخيام تأخذ قسطها من الراحة بعد نصب اليوم المهق، وجلس ددف أمام مدخل خيمته يصطلي ناراً ويتأمل ما حوله بعينين حالمتين، وكان أعظم ما يستولي على مشاعره على الأرض تلك الأعلام المصرية الخفاقة المنشورة على السور الحصين، وفي السماء هاتيك النجوم التي كانت عيون تتألق أبداً إعجاباً بقدرة الخالق وجمال المخلوق.. وكانت تخلق بساء خياله أطياف جميلة - مثل النجوم - تمثل لقلبه ذكريات منف السعيدة وأحلامها وآمالها، ولم ينس في أحلامه تلك الساعة الرهية المقبل عليها حين يقف بين يدي فرعون، ويطلب إليه قلب أعز مخلوق إلى نفسه في مصر. يالها من ساعة رهيبة!! ولكن ما أجل الحياة إذا اطردت من نصر إلى نصر، وتنقلت من سعادة إلى سعادة! ليتها تسير كذلك أبداً، وليت الأقدار ترحم الإنسان! ولكن الظاهر أن السعادة نادرة الوجود في هذه الدنيا، وهل يستطيع أن ينسى صورة تلك المرأة البائسة التي اختطفها البدو من بين يدي سعادتها واهتصروا شبابها وساموها الذلّ عشرين عاماً! ياللمسكينة!

نعم لم يستطع ددف أن ينسى في سعادته وفوزه بؤس تلك المرأة..

- ٣٠ -

وأشرقت الشمس على منف ذات الأسوار البيضاء وكأنتها تستقبل عيداً من أعياد الربّ بتاح، فالأعلام ترفرف على أسطح البيوت والقصور، والطرق والميادين تموج بجموع الشعب كأنتها عباب النيل إبان الفيضان، والجوّ يضيح بالأناشيد تحية لفرعون والجيش الظافر والجنود البواسل.

وسعف النخل وأغصان الزيتون تلوح في الفضاء كأنتها أجنحة طير أليف تداعب هامات كللها الظفر وأطربها الفرح، وبين تلك النفوس السعيدة المعتبطة

- كيف لا أعرفها وقد نشأت لا أعرف لغة سواها؟ أنا مصرية يامولاي!

فزاد العجب بالشاب وأحسّ نحوها بعطف شديد، وسألها:

- أحقاً أنت مصرية ياسيدتي؟

فقلت له بيقين وحزن:

- نعم يامولاي، مصرية بنت مصريين.

- وما الذي جاء بك إلى هنا؟

- جاء بي حظي التعس إذ خطفني على أيام شبابي هؤلاء الرجال الغلاظ الأكباد الذين نالوا جزاءهم على أيديكم الباسلة، وساموني سوء العذاب حتى أنقذني زعيمهم من شرهم ليتليني بشره، فضمني إلى حريمه حيث عانيت ذلّ الأسر وحسرتة عشرين عاماً..

فاشددت تأثر ددف، وقال للمرأة البائسة:

- اليوم ينتهي أسرك أيتها السيّدة التي تربطني بها أخوة الجنس والوطن، فقرّري عيناً.

فتنهت المرأة التي قسا عليها الدهر عشرين عاماً طويلة، وأرادت أن تجثو عند قدمي القائد، ولكنّه أمسك بيدها برقة وقال لها:

- هدئي من روعك ياسيدتي.. من أيّ البلاد أنت؟

- من أون يامولاي، مقرّ الربّ رع.

- لا تخزني لقد ابتلاك الربّ بشرّ عظيم لحكمة يعلمها هو، ولكنّه لم يتسك. وسوف أقضّ على مولاي الملك قصّتك وأضرع إليه أن يفكّ رقبتك فتعودي إلى مسقط رأسك راضية سعيدة..

فساور المرأة القلق، وقالت للقائد بتوسّل:

- أضرع إليك يامولاي أن ترسلني إلى بلدي توأ، عسى أن تمرّ عليّ الآلهة بالعثور على أهلي.

ولكنّ الشاب هزّ رأسه وقال:

- ليس قبل أن أرفع أمرك إلى فرعون، لأنك الآن - شأنك شأن جميع هؤلاء الأسرى - ملك للملك ولا بدّ من تسليم الوديعة إلى صاحبها، ولكن اطمئني ولا تخشي شيئاً، فرعون ربّ المصريين لا أسرهم ولا مذلّمهم.

## عبث الأقدار ٢١١

دفع من الشرفة الملكية جرد سيفه ومدّ يده تحيةً ولفّت وجهه إلى الملكين، وكانت الأميرات حنوتس ونفر حتيس وحتب حرس ومري سي عنخ واقفات خلف الملك والملكة، فانجذبت عيناه إلى عينين فاتنتين لها عليه سلطان ليس لشيء في الوجود، وتبادلت العين رسالة نارية خفق لها القلبان، حملت شوقاً مضى وجوى، فلو أنّها مسّت في سبيلها حاشية علم من الأعلام لأشعلت نارا موقدة.

\* \* \*

ودُعي القائد ددف للمثول بين يدي فرعون، فذهب بقلب ثابت ونفس مطمئنة، ومثل في الحضرة الجليلة مرةً أخرى، وقد تعطف الملك وقدم له الصولجان، فلثمه ساجداً، ثم وضع على أعتاب العرش مزلاج باب السور الحصين الذي اقتحمه جيشه ظافراً ثم قال:

- مولاي صاحب الجلالة فرعون مصر العليا والسفلى، سيد الصحراء الشرقية والصحراء الغربية وصاحب بلاد النوبة، مولاي! لقد أيدتنا الآلهة على عمل عظيم وفتح مين، فضمت إلى ملككم السعيد ملكاً جديداً، وأدخلت في طاعتكم أفواجا كانوا إلى أمس عصاة طاغين، وطوت تحت جناحي ربوبيتكم قلوباً خاشعة أقسمت في ذلّ الأسر يمين الإخلاص لعرشكم العتيد.

فقال له فرعون الذي كلّل هامته المشيب:

- إن فرعون يهشك أيها القائد الظافر على إخلاصك وبسالتك، ويرجو أن تمدّ الآلهة في عمرك ليتفع الوطن بمواهبك.

وتعطف فرعون ومدّ يده إلى القائد الشاب الذي لثعها باحترام عميق وقلبه يدقّ دقاً عنيفاً، وسأله الملك:

- ما عدد جنودي الذين استشهدوا في سبيل الوطن

وفرعون؟

فقال ددف بصوت خافت:

- استشهد من الأبطال ألف يا مولاي.

- وما عدد الجرحى؟

شقت مواكب الأمراء والوزراء والكهنة طريقها إلى باب المدينة الشمالي، لاستقبال الجيش المظفر وقائده الباسل.

وفي الموعد الموعود حمل النسيم أنغام موسيقى الجيش الظافر، وبدت طلائعه في الأفق ترفرف عليها الأعلام، فتعالى الهتاف ودوى التصفيق ولوّحت الأيدي بالأغصان، وغمر القوم موجة من الحماس الدافق جعلتها كالبحر الخضمّ المتعارك الأمواج.

وتقدّم الجيش بنظامه المعهود تتقدّمه جموع الأسرى مكتوفة الأذرع منكسة الذقون، تتبعها عربات كبيرة تحمل السبي من النساء والأطفال والمغانم، ثمّ بدت فرقة العربات يتقدّمها القائد الشابّ يحيط به السادة المستقبلون من كبار رجال المملكة، وتتبعه صفوف العربات الحربية المهية يشملها نظام دقيق رائع، وتأتي على الأثر فرق الجيش من الرماة وحاملي الرماح إلى حاملي الأسلحة الخفيفة، تتقدّم صفوفاً تسير كلّ على أنغام موسيقاها، وقد تركت أماكن من سقطوا في المعركة الظافرة شاغرة تحيةً لذكراهم وذكرى لاستشهادهم النبيل في سبيل الوطن وفرعون.

وكان ددف سعيداً فخوراً ينظر إلى جموع الشعب المتحمّس بعينين لامعتين. ويردّ التحيات الحارة بالتلويح بسيفه العظيم، وقد فتشت عيناه في الجموع عن الوجوه الحبيبة التي لم يداخله ارتياب في أنّها تراه وتهتف باسمه، حتّى خال هنيهة أنّه يسمع صوت أمه زايا وحوار والده بشارو المختال الفخور، ثمّ خفق قلبه خفقة شديدة اهتزّت لها حناياه وتساءل ترى هل تشاهده الآن هاتان العينان السوداوان اللتان أهماهته الحبّ كما أهمت الشمس البازغة قلوب المصريين عبادة الله؟ هل تراه في مجده؟ وتسمع اسمه تهتف به الألوف المحتشدة؟ هل ترى وجهه الذي أضناه الشوق والبعاد؟

وتقدّم الجيش في مسيره إلى القصر الفرعوني، وبرز الملك والملكة إلى الشرفة المطلّة على الفناء الواسع المعروف بساحة الشعب، ومرّت أمامها جموع الأسرى وأنقال المغانم والسبايا وفصائل الجيش، ولدى اقتراب



- ثلاثة آلاف يا مولاي .

فصمت قليلاً ثم قال :

- إن الحياة العظيمة توجب تضحيات عظيمة ، فسبحان الرب الذي يخلق الحياة من الموت .

ونظر الملك إلى ددف طويلاً ثم قال :

- لقد أدت لي خدمتين جليلتين ، فأنقذت بالأولى حياة وليّ عهدي ، وأنقذت بالثانية طمأنينة شعبي ، فماذا تطلب؟

ريّاه! جاءت الساعة الرهيبة التي طالما منى نفسه بها وطالما صوّرت لقلبه في الأحلام السعيدة ، وكان ددف شجاعاً لا يفقد جنانه في المواقف العظيمة فقال :

- مولاي ، ما فعلت في الاثنتين إلا ما يفرضه الواجب على الجنديّ فلا أطلب لقاءهما ثمناً ، ولكن لي أمنية أتقدّم بها تقدّم الطامع في رحمة مولاه .

فقال الملك :

- وما هي أمّيتك أيها القائد؟

فقال ددف :

- إن الآلهة يا مولاي لحكمة تعلمها سمت بقلبي البشريّ إلى سهاوات مولاي الملك ، فتعلّقت بأقدام مولاي الأميرة مري سي عنخ .

فنظر إليه فرعون نظرة غريبة وسأله :

- لكن ماذا صنعت الآلهة بقلب الأميرة؟

فارتبك ددف وخيم عليه صمت ثقيل ، فابتسم فرعون وقال :

- يقولون إنّه لا يدخل إلى قدس الرب عبداً إلا كان مطمئناً إلى رضاه ، وسنرى ما إذا كان هذا حقاً .!

وكان فرعون راضياً ، وكأنّما أراد أن يلهو قليلاً ، فأرسل في طلب الأميرة مري سي عنخ ، ولبت الأميرة نداء والدها وجاءت تسعى في جلال الحسن ، ولما رأت المائل بين يديه خفق قلبها وتولّأها الحياء والارتباك ، وتردّدت كغزال رأى رجلاً . فنظر إليها فرعون بحنان وقال بلهجة رقيقة لم تخل من سخرية :

- أيّتها الأميرة! يزعم هذا القائد أنّه غزا حصنين :

سور سيناء وقلبك!

فقال ددف بتوسّل :

- مولاي . . !؟

وأعياه الكلام فسكت مهووراً مرتبكاً ، ورأى فرعون قائده وقد خانته شجاعته ، ورأى ابنته وقد تولّى عنها الكبرياء وأضناها الحياء والارتباك ، فهوى قلبه إليها ، وناداهما إلى جانبه ، ثم نادى ددف ، فاقترب الشاب في تهيّب شديد ، ووضع الملك يد الأميرة على يده في تؤدة ، وقال بصوته الجليل الذي تقشعر له القلوب :

- إنّي أبارككما باسم الآلهة جميعاً .

- ٣١ -

واستقبل ددف على أثر انتهاء المقابلة الفرعونية السعيدة فترة من الزمن مقدارها اثنتا عشرة ساعة . توالّت فيها الحوادث الجسام الغربية التي تنزل النفوس وتحطم العقول ، فكانت في عمره السعيد الهادئ مثل مسقط الشلال في مجرى النيل الرزّين الجليل . .

ماذا فعل ددف في تلك الفترة القصيرة الحافلة بالعجائب؟

خرج من الحضرة الفرعونية فطلب مقابلة الوزير خوميني ، وعرض عليه موضوع مظلمة المرأة المصرية الأسيرة التي لا تكاد تغيب عن خاطره ، وأخلى الوزير سبيلها وأحضرها إلى القائد :

وقال لها ددف :

- أهنتك يا سيّدي باستردادك لحزيتك بعد طول الأسر . ولما كان الوقت متأخراً فستزلين ضيفة عليّ إلى الغد ، ثم تولّين وجهك شطر أون مصحوبة برعاية الآلهة .

فكان جوابها أن أمسكت بيده ولثمتها بامتنان عظيم ، ولما رفعت وجهها ، انحدر دمعها على خديها وعنقها ، واصطحب السيّدة معه إلى عربته ورأى سنفر ينتظره على مقربة منها فأدّى التحية له وقال :

- كلّفني صاحب السموّ الفرعونيّ الأمير رعخعوف أن أبلغ القائد رغبته في محادثته في الحال .

## عبث الأقدار ٢١٣

عصيان يهدد الأمن، وكلّ مصري يتخذ وجهته الطبيعية تحت رعاية فرعون وحكومته، فما وجه الحاجة إلى الجيش؟

وعاد قلماً إلى العربة التي انطلقت به والسيدة التي تصحبه، وكان كلما اقتربت به العربة من بيت بشارو تخفّ حيرته وتذهب وساوسه ويتحوّل عقله إلى أهله الذين يتظرونه على الجوى بعد أن طال الشوق به وبهم، ووصلت العربة إلى البيت فأدخل السيدة حجرة الضيوف، وصعد إلى الأعرّة المشوقين، فتلقته أمه زايا بذراعين مفتوحتين، وانهالت عليه بالقبل وضمته إلى صدرها بشدة ولم تتركه إلا حين انتزع من يديها بشارو وهو يقول:

- أهلاً بالابن الظافر، والقائد الباسل!

وقبله في خده وجهته. ثم عانق ددف أخويه خني ونافا، وسلم على زوج الأخير وكانت تحمل على ذراعها طفلاً رضيعاً، فقدمته إليه وهي تقول:

- انظر إلى سميك ددف الصغير!.. سمّيته باسمك عسى أن توفقه الآلهة للمجد كعمه العظيم.

فنظر ددف إلى نافا وحمل الصغير بين ذراعيه وقبل شفّته الرقيقتين، وقال لأخيه:

- يا له من صورة جميلة!

فابتسم نافا الذي كان سعيداً بابنه سعادته بفتنه، وأخذ الطفل بين يديه.

ووجد ددف الفرصة سانحة لإعلان خطبته السعيدة، فقال نافا:

- لن تكون أباً وحدك يا نافا.

فانتبه الجميع إلى قوله، وصاح نافا بفرح:

- هل اخترت شريكك أيها القائد؟

فأحنى ددف رأسه قائلاً:

- نعم.

فنظرت أمه إليه بعينين يتألق فيهما الفرح وقالت:

- أحقاً يا بني ما تقول؟

فقال بهدوء:

- نعم يا أمّاه.

فسأله ددف:

- أين يوجد سموه الآن؟

- في قصره.

فاستقل العربة وركب معه الضابط والسيدة، وحملهم إلى قصر وليّ العهد، وطلب إلى السيدة أن تنتظره في مكانها، ودخل القصر يتبعه الضابط. وطلب مقابلة الأمير، فدعي إلى حجرته، ووجده الشاب على غير عادته مضطرباً وإن حاول أن يمكس زمام نفسه، ولم يعن هذه المرة بردّ تحيته وابتدره قائلاً:

- أيها القائد ددف، إنّي أذكر دائماً إخلاصك الذي أنقذ حياتي من موت محقق، وأرجو أن تذكر نعمتي عليك إذ كنت جندياً صغيراً فجعلتلك قائداً كبيراً، وكللت هامتك بالمجد والخلود.

فقال ددف بحماس:

- إنّي أذكر هذا ولا أنساه، وهيئات أن أنسى آلاء

مولاي الأمير.

فقال الأمير:

- إنّي أحتاج إلى إخلاصك هذه الساعة، فاصدع بما تؤمر واتبع وصاياي بعناية لا تدع للتردد سبيلاً إلى قلبك. أيها القائد، لا تسرح جيشك، بل استبقه حيث هو معسكرًا خارج أسوار منف، وانتظر أوامري التي تأتيك عند مطلع الفجر، وإياك أن تتردد عن تنفيذها مهما كانت غريبة، واذكر دائماً أنّ الجندي الباسل ينطلق كالسهم إلى هدفه دون أن يسأل مطلقه.

فقال ددف:

- سمعاً وطاعة يا صاحب السمّو.

- انتظر رسلي في المعسكر عند الفجر ولا تغفل عن

ذكر وصاياي.

قال الأمير ذاك ثم وقف معلناً انتهاء المقابلة، فأنحنى ددف لسمّو وغادر الحجرة متعجباً شارداً الخاطر متحيراً من أمره، يقول لنفسه: ترى ما هي الأسباب التي دعت الأمير إلى أمره بإبقاء الجيش في معسكره؟ وما عسى أن تكون الأوامر الغريبة التي ستأتيهاها الرسل عند الفجر؟ ما من عدوّ يهدد الوطن، وما من

نسيئا ما كانتا فيه من تبادل التحايا، ونظرنا كلّ منهما إلى الأخرى بغرابة وكأنا نجهد أنفسنا لاختراق الحجب الكثيفة التي وضعها الزمان على وجه الماضي البعيد، واتسعت عينا المرأة الغربية وصاحت في دهشة جنونيّة: - زايا..!

فتولّى الذعر زايا وجعلت تنظر إليها بذهول شديد، وجعل ددف يقَلّب وجهه بينهما في حيرة وهو يعجب للمرأة التي عرفت أمّه مع أنّها قضت عشرين عامًا من حياتها في منفاها، وسألها دهشًا:

- كيف عرفت أمّي ياسيدتي؟  
ولكنّ المرأة لم تأبه لقوله، ولعلّها لم تسمعه قطّ:  
لأنّها كانت متنبهة إلى زايا بكلّ وجدانها، وقد ضاقت بخرسها فصاحت بها:

- زايا..! زايا..! ألسنت زايا.. مال لك لا تتكلمين؟.. تكلمي.. آيتها الخادمة الخائنة..  
تكلمي.. وقولي ماذا فعلت بابني!.. أين ابني آيتها المرأة؟..

ولم تتكلم زايا ولا تحوّلت عيناها عن المرأة الغاضبة، ولكن أعيابها الاضطراب ومزّقها الخوف فجعلت ترتجف وحاكى وجهها وجوه الموق، فأمسك ددف بيدها الباردة وأجلسها إلى أقرب مقعد، ثمّ تحوّل إلى المرأة في غضب وقال بحفاء:

- كيف تواتيك الجرأة على توجيه مثل هذا الكلام إلى أمّي آيتها السيّدة التي أكرمتها وأنقذتها من عذاب الأسر؟

وكانت المرأة تلهث بشدّة كالمحتضر، فتأثرت لكلام القائد الذي أنقذها. وأرادت أن تتكلم، فأعيابها الحصر، فما استطاعت إلّا أن تشير إلى أمّه كأنما تقول له: سلّها هي.

فانحنى الشابّ إلى أمّه بحنوّ وسألها برقة:

- أمّاه.. هل تعرفين هذه المرأة؟

فلم تقل زايا شيئًا، ولم تطلق المرأة سكوتها فقالت وقد عاودها غضبها:

- سلّها: هل تعرفين رده ديديت زوج رع؟  
سلّها: هل تذكر المرأة التي هربت معها حاملًا طفلها

فصاحت به:

- من هي؟

وسألت مانا باهتمام شديد:

- من هي؟

وقال نانا ضاحكًا:

- أنت قادم من ميدان القتال، فهل عشقت إحدى السبايا؟

فقال الشابّ بهدوء وفخار:

- هي صاحبة السموّ مري سي عنخ.

فصاح الجميع:

- مري سي عنخ!.. ابنة فرعون!!

فقال:

- هي دون غيرها.

وملكت الجميع دهشة عظيمة، واهتزّت قلوبهم بسعادة طاغية جعلت الكلام عسيرًا، وقصّ عليهم ددف قصّته وذكر نعمة فرعون عليه ودموع الفرح تشرق بعينيه الجميلتين، ولم تتمالك زايا نفسها فبكت، وكانت تصليّ للربّ بتاح الواهب النان، واهتزّ بشارو طربًا فجعل يروح ويحيء بجسمه المتفخخ المتهدّل، أمّا نانا فقد قبل الشابّ السعيد واسترسل يضحك ضحك الفرح والابتهاج، وباركه خني وأكد له أنّ الآلهة لا تقضي بهذه الأمور الجليلة إلّا وهي ترسم له غاية مجيدة لم يفز بها إنسان من قبل! ومضى كلّ منهم يعبرّ عبّا يختلج في ضميره من الفرح والسعادة.

وذكر ددف السيّدة التي تركها في حجرة الضيوف،

فقام من فوره وذكر لهم بسرعة قصّتها، وقال لأمّه:

- أرجو أن تكرمي مئاها يا أمّاه حتّى ترك بيتنا.

فقال أمّه:

- سأنزل يا بنيّ للترحيب بها.

وصحب ددف أمّه ودخلا إلى حجرة الضيوف معًا،

وهي تقول:

- أهلاً بك ياسيدتي.. لقد حللت في بيتك..

ونفضت السيّدة من جلستها وأحنت قامتها المثقلة بهوان السنين وذلّ الأيام، ثمّ مدّت يدها إلى مضيفتها الكريمة، فالتقت عينا المرأتين لأوّل مرّة، وبسرعة البرق

## عبث الأقدار ٢١٥

كادت تستوي حتى انهارت إلى الحضيض مخلفة قلبي  
خراباً تنعق فيه الغربان .  
واشتد التأثر بالشاب وتحول غاضباً إلى المرأة، ولكن  
هذه لم تلن وما انفكت تسأل زايا قائلة :  
- قولي لي أين ابني؟ أين ابني؟  
وبهتت زايا هنيهة، ثم وقفت بحالة عصبية  
وصاحت بالمرأة:

- أتظنين أنني غادرة يا رده ديديت؟ كلاً لم أك  
غادرة قط. لقد سهوت عليك ذلك اليوم العصب،  
ولكن هاجنا البدو فلم أر مناصاً من الهرب، وأشفقت  
على طفلك من أذاهم فحملته على ذراعي وعدوت به  
كالمجنونة، فكان فراري ضرورة طبيعية، وكان وقوعك  
بين أيديهم قضاءً محتوماً. ثم عنيت بطفلك ووهبته  
حياتي، ونفعمه حيي فنشأ رجلاً تفخر به الأمم، وما هو

ذا يقف أمامك، فهل رأيت مثله إنساناً من قبل؟  
وتحولت رده ديديت إلى ابني وأرادت أن تتكلم،  
فلم يطاوعها لسانها، ولم تستطع إلا أن فتحت ذراعيها  
وهرعت إليه وشبكتها حول عنقه وشفتها وترتشان  
بهذه الكلمة. «ابني.. ابني». وكان الشاب ذاهلاً كأنه  
يرى حلماً عجيبياً، فبقي ساكناً ينظر تارة إلى زايا التي  
غدا وجهها بجياكي وجوه الموق، وأخرى إلى المرأة  
المتعلقة به التي تعاطيه قبل الأمومة وتحتويه بصدرها  
الحفاق، ورأت زايا استسلامه، وشاهدت في عينيه  
نظرة حنو وعطف، فأنت يائسة ولتتها ظهرها، ثم  
فرت من الحجرة كالدجاجة المذبوحة.

وأق دد حركه، ولكن ازداد تعلق المرأة به  
وتوسلت إليه قائلة:

- ابني.. ابني.. هل ترك أمك؟

فجمد الشاب في مكانه وألقى على وجهها نظرة  
طويلة، فرأى الوجه الذي حرك قلبه من النظرة  
الأولى، ورآه هذه المرة أعظم طهرًا وجمالًا وبؤسًا،  
فخفق قلبه وفاضت نفسه حنائًا، ومال رأسه نحوها  
بغير شعور حتى ضغطت شفثاه على خدها. وتهدت  
المرأة بارتياح واغرورقت عيناها بالدموع، ثم انتحبت  
باكية، فأخذ يهدىء من روعها، وأجلسها على ديوان

الصغير من عشرين عامًا فرارًا من الطغاة؟.. تكلمي  
يا زايا، قولي له كيف فررت تحت جناح الظلام،  
وكيف خطفت ابني الرضيع، وكيف تركتني في مجاهل  
الصحراء نساء يائسة لا تملك لنفسها ضرًا ولا نفعًا،  
حتى عثر بي الوحوش وأخذوني أسيرة وساموني سوء  
العذاب وذل الأسر عشرين عامًا.. تكلمي يا زايا..  
وقولي ماذا فعلت بطفلي؟.. تكلمي..

فاشتدت الحيرة بددف وهمس في أذن أمه متألمًا:  
- أماه.. سامحيني، أنا الذي أحدثت لك هذا  
العذاب، أنا الذي جئت بهذه المرأة التي أفقدها الحزن  
رشادها، سامحيني يا أماه.. سأطرد هذه المرأة.  
ولكنها أمسكت بيده تمنعه، فسألها بتوسل:  
- لماذا لا تتكلمين يا أماه؟.. هل تعرفين هذه  
المرأة؟

فأنت زايا أنيئًا مؤلمًا، وقالت لأول مرة بعد أن  
غشيتها الذهول:

- لا فائدة.. تحطمت حياتي..

فصاح الشاب بصوت كزثير الأساد:

- أماه لا تقولي هذا. فدتك نفسي يا أماه!

فتهدت بحرقة وقالت:

- أوه يا ددف العزيز، بالله لم أقترف سوءًا ولم أتعمد  
شرًا، ولكن كان القدر يقضي بما ليس في مقدور إنسان  
دفعه رباه! كيف تنهار حياتي دفعة واحدة!

فكاد الشاب يجن من الألم وقال:

- أماه! لا تنسي أنني إلى جانبك أدفع عنك كل  
سوء، ما الذي يؤلك؟ ما الذي يجزتك؟ سواء لدي ما  
يطويه ماضيك من خير أو شر، وما يهمني أن أعلم  
شيئًا إلا أنك أمي وأبي ابنك الذي ينصرك ظالمة  
ومظلومة، شريرة وخيرة. أتوسل إليك ألا تبكي وأنا  
إلى جانبك.

- هيهات أن تستطيع معونتي!

- محض أوهام يا أماه!.. أي خطب هذا؟

- لن تستطيع معونتي ياددف العزيز.. رباه! كم  
بنيت من الآمال ولكني أقمته على شفا جرف هاو، فما

- بشاروا. أيها الشيخ البائس. إنَّ الألهة تبتيك  
بمحنة شديدة.

وأبي محنة!

ددف الجميل العزيز الذي احتضنه طفلاً رضيعاً  
فأنقذه من الجوع والفقر، ورعاه بعين الأبوة الرحيمة  
حائباً وصيباً وغلماً يافعاً، ورباه تربية أبناء النبلاء  
ومهد له سبيل النجاح فكان رجلاً يزن أمة من  
الرجال، ومنحه عطف الأب وقلبه. وتقبل منه محبة  
الابن وبه. ددف العزيز الجميل تظهره الأقدار على  
حقيقته فإذا به عدو لفرعون! إذا به الوسيلة التي  
أدخرها الرب رع لقلقلة العرش المكين وطعن ربه  
الجليل وسلب حق وبيعه عهد النيل، وتأبى الأقدار إلا  
أن تطلعه - وهو خادم فرعون الأمين - على هذه  
الحقائق الهائلة في ساعة من ساعات القضاء التي  
يدبرها من وراء الغيب ويلبسها هيئة المصادفات. فأبي  
محنة، وأبي ابتلاء!

وصاح بشارو مرة أخرى يحدث نفسه قائلاً:

- بشاروا. أيها الشيخ البائس. إنَّ الألهة تبتيك  
بمحنة شديدة.

واشتد الكرب بالرجل وثقل على صدره القلق،  
فمضى يحدث نفسه بحزن وألم قائلاً:

- ددف أيها العزيز، لتكن ابن العامل الشهيد أو  
وريث كاهن رع الأعظم، فلتحقق أني أحبك حتى خنى  
ونافا، وأنت لم تعرف أباً سواي..

ولهذا منحتك اسمي رحمة ومحبة. والله إنك لشاب  
يفيض الإخلاص من طبعه فيض الشعاع من  
الشمس، ولكن يا أسفاً لقد أذخرتك الألهة وأنت  
الأمين لأكبر خيانة عرفها التاريخ، خيانة رب العرش  
المكين، خيانة عهد خوفو مولانا العظيم، خوفو الذي  
نعلم أبناءنا التسييح باسمه قبل أن نلقنهم حروف  
الهجاء. وها أيها الأقدار! لماذا تلتذنين بتعذيبنا؟ لماذا  
ترميننا بالمحن والويلات في أوقات سعودنا؟ وماذا كان  
يضيرك لو ختمت حياتي كما بدأت هيئة سعيدة  
راضية؟!

وازدادت حالته سوءاً وأحس بدنو أجله، فذلف إلى

وجلس إلى جانبها، وكفكت دموعها، وكان لا يزال  
موزعاً بين الذهول وبين هذا الحب الجديد.

ونظرت إليه المرأة وقالت:

- قل لي: يا أمه.

فقال لها بصوت خافت:

- أمه..

ثم قال بحيرة:

- ولكني لا أكاد أفهم شيئاً..

فقال له:

- ستعلم كل شيء يابني..

قالت ذلك ثم سردت عليه قصتها الطويلة،  
وحديثه عن ولادته وما أحاطه بها من التنبؤات الخطيرة  
وما أعقبها من الحوادث الجسام، حتى الساعة السعيدة  
التي ردت روحها إلى صدرها برؤيته حياً سعيداً  
جليلاً.

### - ٣٢ -

وساقت الأقدار بشارو إلى سماع قصة رده ديديت  
عن غير قصد، فإنه أراد أن يبالغ في إكرام ضيفة ددف  
فنزل لاستقبالها بنفسه، وصادف وصوله خروج زوجته  
زايا جرياً كالمجنونة، فأخذ العجب واستولت عليه  
الحيرة ودنا من باب الحجر في حذر فوصل إلى  
مسمعه صوت رده ديديت التي كانت تفيض بالحديث  
في حالة عصبية أنستها أن تخفت من صوتها، فاسترق  
السمع، وأنصت مع ددف إلى قصة المرأة من مبتدأها  
إلى منتهاها!

ثم انسحب من مكانه في خفة وحذر وقصد إلى  
حجرته لا يلوي على شيء، وقد اكتسى وجهه بهيئة جد  
ورزانة واهتمام ندر أن عرفها وجهه إلا في الملهمات، ونبا  
به مقعده فجعل يروح ويجيء مضطرب النفس مشتت  
البال مهتاج الخاطر، وكان يفكر فيما سمع ويدبره في  
عقله المبلبل ويقلبه على وجوهه المختلفة، حتى أضنى  
التفكير المحموم رأسه وجعله كقطعة الحديد المنصهرة  
وقال لنفسه بصوت مسموع كأنه يحدث شخصاً غريباً:

## عبث الأقدار ٢١٧

- عرفت الواجب ذا مشقة ولذة، وها أنا أنجرعه  
مرًا لا لذة فيه كالسّم الزعاف.

- ٣٣ -

قصت رده ديديت قصتها الحزينة وعيناها لا تكفان  
عن البكاء، وكان ددف يجلس إلى جانبها يستمع إلى  
صوتها المتهدج ويحس بأنفاسها الحارة تتردد على وجهه،  
ويديم النظر إلى عينيها الدامعتين الحبيبتين وقلبه أخذ  
في الخفقان يكاد يتمزق من الألم والحنان والإشفاق.

وحين انتهت من سرد مأساتها سألت ابنها:

- من كاهن رع يا بني؟

- شودا رع!

فقالت:

- يا أسفاً قضى أبوك ضحية لا ريب في هذا.

فقال ددف بصوت الدهاش الداهل:

- إن الدهشة تذهلني عن نفسي يا أمّاه! .. بالأمس

القريب كنت ددف بن بشارو وأنا اليوم شخص جديد  
يحفل ماضيه بالفواجع، ولد الساعة من أب قتييل وأمّ  
بائسة عانت ذلّ الأسر عشرين عامًا! يا للعجب..

كان مولدي شؤماً، فمعذرة يا أمّاه!

- لا تقل هذا يا بني الحبيب ولا تحمّل نفسك  
الطاهرة وزر الشيطان الرجيم.

- يا للتعاسة! أيقتل أبي وتلاقين العذاب عشرين  
عامًا؟

- فلترحمنا الآلهة يا بني.. إنس أحزانك وفكر في

الخلاص.. إن قلبي لا يطمئن.

- ماذا تعنين يا أمّاه؟

- الخطر ما يزال محققاً بنا يا بني. ويهددك اليوم من

أنعم عليك بالأمس.

- يا للعجب! أكون ددف عدوًا لفرعون؟ - أكون

فرعون الذي هبني كل يوم من نعمائه ويضفي عليّ من  
أفضاله قاتل أبي ومعذب أمي؟.

- هيهات أن يسكت العجب عمّن يراقب الناس

والدنيا.. فهيا يا بني إلى الخلاص، لأنّي لا أريد أن

أفقدك اليوم وما وجدتك إلا بعد عذاب السنين.

المرأة وألقى نظرة على وجهه الحزين الأسيف، وقال  
يخاطب صورته:

- بشارو!.. أيها الرجل الذي لم يؤذ إنسانًا في  
حياته، هل يكون ددف العزيز أول ضحية تمتد لها  
يدك بالأذى؟. يا للعجب!. ولماذا كلّ هذا العذاب؟.

لماذا لا تطبق شفيتك وكأنك لم تسمع شيئًا؟. رباه. إنّ  
الجواب حاضر. إنّ قلبك لا يستريح لأنّه قلب بشارو  
مفتش الأهرام وخادم الملك، بشارو الذي يعبد

واجبه عبادة. هنا الداء. أنت تؤمن بالواجب. حقًا  
أنت لم تؤذ إنسانًا ولكنك لم تحمّد عن الواجب قط..

والآن أيها ترى أولى بالاتباع؟. الواجب أم تحبّ  
الأذى؟. يستطيع أيّ تلميذ في مدرسة منف الأوليّة أن  
يبتدئ الجواب ابتدائها. إنّ بشارو لن يختم حياته

بالخيانة، كلاً لن يبيع مولاه.. فرعون أولاً.. وددف  
ثانيًا.. وتهد من قلب محزون أليم، ونفس طعنتها  
الحسرة بخنجر مسموم.. وأبعد عن مخيلته أطياف

ددف وزايا وأخذ يرتدي ثيابه الرسميّة بعزم ثابت.

ثمّ غادر حجرته بخطوات ثقيلة وهبط إلى حديقة  
البيت، ومرّ في طريقه بحجرة الضيوف، ورأى ددف  
واقفاً ببابها يدلّ مظهره على التأمل العميق والاهتمام،

فخفق قلبه لرؤياه خفقاناً غريباً، واضطرب كلّ شيء  
فيه، اضطربت نفسه وصدرة وجفناه، وتحاشى النظر  
إلى عينيّه وأشفق من أن يجادته فتنمّ لهجته على ثورة

قلبه، ونظر الشاب إلى ثياب أبيه الرسميّة نظرة غريبة،  
وسأله بصوت ضعيف:

- إلى أين أنت ذاهب الآن يا.. أبي؟

فقال بشارو وهو يسرع في خطاه:

- إلى واجب لا يؤجل يا بني.

ثمّ ركب عربته وقال للسائق:

- إلى القصر الفرعوني..

وانطلقت العربة في طريقها، وكانت جيوش الليل

تتجمّع في الأفاق للانقضاض على النهار المحضّر الذي

غاب عنه حارسه فتأمل بشارو الجوّ بعينين حزيتين

ونفس منقبضة وقلب مظلم كالليل الزاحف، وقال

لنفسه وهو يتهدّ أسفاً محزوناً:

فقال الضابط بلهجة مضطربة :

- دخلت أصيل اليوم إلى مخزن الخمر لأنتقي زجاجة نبيذ جيّد، وفيما أنا أفتش عن ضالتي - وكنت واقفاً إلى جانب الكوة المطلّة على الحديقة - إذ وصل إلى مسمعي صوت رئيس حجاب وليّ العهد يحدث شخصاً غريباً هامساً فلم أتيت حديثه، ولكنّي سمعت جيّداً ما ختمه به من الدعاء للأمير رعمخوف الذي سيصبح فرعون مصر عند الفجر! فانفض جسمي هولاً ورعباً، وأيقنت أنّ جلالة الملك انتقل إلى جوار أوزوريس، ونسيت ما أنا فيه من التفثيش وهرعت خارجاً إلى ثكنات الجند، فوجدت الضباط يقصفون ويتسامرون كعادتهم حين الراحة، فظننت أنّ الخبر المشوم لم يبلغهم بعد. ولم أحبّ لنفسي أن أكون نذير الشرّ فانسلت إلى الخارج واستقلت عربتي وتوجّهت بها إلى القصر الفرعونيّ فلعلّي أقف على حقيقة الخبر، فوجدت القصر هادئاً، وأنواره تتلألأ كالكواكب الزاهرة، والحراس يروحون ويحيثون في طمأنينة ودعة، فلم أرتب في أنّ ربّ القصر يتمتّع بالحياة والصحة. ففجيت لما سمعت بأذنيّ في مخزن الخمر، وفكرت فيه طويلاً فساورتني المخاوف وتوزّعتني الهواجس، ولاح لخطاري شخصك مصادفة فكان لي ما تكون المنارة لسفينة ضالّة تكالبت عليها الأمواج الهوج والرياح العاصفة والظلمات المحيطة فولّيت وجهي نحوك وجئت على عجل أروم عندك حسن التدبير.

فسأله دد فاضطراب وقد نسي همومه الشخصية وما صادفه في يومه من العجائب:

- أواثق أنت من أنّ أذنك لم تحدّك؟

- ثقني بوجودي أمامك الآن.

- أكنت ثملاً؟

- لم أذقها في يومي هذا.

فنظر إليه الشابّ نظرة جامدة وسأله بصوت خيل إليه أنّه صوت غريب:

- وما الذي فهمته من هذا؟

فصمت الضابط صمتاً رهيباً كأنّه يتحامي بصمته الجواب ويدعه للقائد نفسه، وفهم دد صمته على

- إلى أين يا أمّاه؟

- بلاد الربّ واسعة.

- كيف أفرّ فرار الجنّة وما اقترفت ذنباً؟

- وهل كان اقترف والدك ذنباً؟

- إنّ طبعي يأبى عليّ الفرار.

- أشفق على قلبي الذي يمزقه الخوف.

- لا تخافي يا أمّاه، إنّ إخلاصي وخدماتي للعرش يشفعان لي عند الملك.

- لن يشفع لك شيء إذا علم أنّك غريمه القديم الذي خلقته الآلهة ليرث عرشه.

فأسمعت عينا الشابّ دهشة وقال:

- أرت عرشه؟! يا لها من نبوءة ضالّة.

- أضرع إليك يا بنيّ أن تطيعني ليطمئنّ قلبي.

فأخذها بين يديه وضغط عليها بحنوّ وقال:

- عشت عشرين عامّاً لا يعلم أحد بسرّي، ولا أنا نفسي. قد طواه النسيان ولن يُبعث مرّة أخرى.

- لا أدري يا بنيّ لماذا أفرق وأتطرّ. لربّما زايا.

- زايا! لقد دعوتها أمّي عشرين عامّاً طويلة، وإذا كانت الأمومة رحمة ومحبة وبذل نفس فهي أمّي أيضاً يا أمّاه، لن تشي بنا زايا أبداً. إنّها امرأة بائسة كملكة

مخلصة فقدت عرشها على حين فجأة.

وقبل أن تفتح فها دخل خادم مسرعاً وأخبر القائد بأنّ أمينه سنفر يرجو لقاءه في الحال وبدون أدنى إبطاء، فعجب الشابّ لأنّ سنفر كان معه منذ زمن قصير، وهذا روع أمّه واستأذن منها وخرج لمقابلة سنفر في الحديقة، ووجد الضابط قلقاً نافد الصبر مضطرباً،

وحين رآه سنفر أقبل عليه مسرعاً وقال له بسرعة دون تحية أو سلام:

- سيّدي القائد. لقد أطلعتني المصادفات على حقائق خطيرة الشأن تنذر بشرّ مستطير!

فخفق قلب دد والتفت دون إرادة إلى حجرة الضيوف وهو يسائل نفسه: ترى ما الذي تجبّه الأقدار

من الحدثنان الجديدة؟

ثمّ التفت إلى أمينه وسأله:

- ماذا ورايك يا سنفر؟

- ماذا ورايك يا سنفر؟

## عبث الأقدار ٢١٩

- ولو كانوا من الأمراء؟  
- ولو كان بينهم وليّ العهد نفسه!  
- سيدي القائد، ينبغي ألا نعتمد على حرس وليّ العهد.

- نطقت بالحكمة يا سنفر، ولا حاجة بنا إليه،  
فلديّ جيش باسل لا يتردد جنديّ من جنودي عن  
بذل حياته في سبيل مولاه.  
فأضاء وجه الضابط وقال:  
- فلندعُ الجيش بلا إبطاء.

ولكنّ القائد الشابّ وضع يده على كتف أمينه  
المحمّس وقال:

- الجيش لا يدعى إلا لقتال جيش مثله، وعدوّنا -  
إذا صدقت ظنوننا - نفر قليل يلوذ بالظلام ويدبّر غدره  
ليليل، فينبغي أن نترتّب له ونضربه بالضربة القاضية  
قبل أن يسدّد إلينا ضربته.

- ألا يرى سيدي القائد أنّه يحسن بنا أن نحذّر  
فرعون؟

- بسّ الرأي يا سنفر، إنّنا لا نملك دليلاً على هذه  
الخيانة المروعة سوى شكوكنا، وقد تكون محض أوهام  
فلا نستطيع أن نقيم العذر لفرعون عن آتھامنا الخطير  
لوليّ عهده.

- فما العمل يا سيدي القائد؟

- العمل الحكيم أن أختار بضع عشرات من  
الضباط الذين أثق في شجاعتهنّ، وستكون من بينهم  
يا سنفر، ثمّ نقصد فرادى خفية إلى وادي الموت،  
ونوزّع أنفسنا على جانبيه في حذر وعناية وننتظر.  
ينبغي ألاّ نضيع الوقت سدّي إذ يجب أن نسبق عدوّنا  
إلى كمينه فنراه ولا يرانا.

ولم يضع الشابّ وقتاً، ولكنّه لم يستطع بالرغم ممّا  
هو بسببه من أمر خطير أن ينسى أمّه، فذهب بها إلى  
جناح نافا وعهد بها إلى زوجة مانا، وعاد إلى سنفر  
وركب معه عربته وانطلقا بها إلى معسكر الجند خارج  
أسوار منف، وكان يحدث نفسه قائلاً: فهمت الآن  
لماذا أمرني الأمير أن أنتظر أوامره عند الفجر فهو يدبّر  
حيلة لقتل والده، وفي نيّته إذا تحققت غايته أن يأمرني

حقيقته فحقيق قلبه وسها إليه، وذكر في تلك اللحظة  
وصايا الأمير رعخعوف الغربية وأمره إتيه بعدم تسريح  
الجيش وانتظاره أوامره عند الفجر وأتباعها معها كانت  
غريبة، ورجعت به الذاكرة القهقري فذكر ما حدثه به  
سنفر هذا الواقف أمامه يوم التفائهما الأوّل في حرس  
الأمير عن أخلاق وليّ العهد ونفاد صبره وتبرّمه. ذكر  
هذا كلّه بسرعة وارتياح. ربّاه! ماذا وراءك أيّها  
الغيب؟ هل فرعون في خطر؟ هل هنالك  
خيانة؟!

وسمع سنفر يقول بحماسة:

- نحن جنود رعخعوف ولكنّنا أقسمنا بمين  
الإخلاص للملك. والجنود جميعاً جنود فرعون إلا  
خائناً.

فعلم أنّ وساوس سنفر تلتقي بوساوسه، فقال:

- أخشى أن يكون الملك في خطر!

- أنا لا أرتاب في ذلك، وينبغي أن نفعل شيئاً أيّها  
القائد.

- إنّ الملك يلبث عادة أغلب ليله في جوف الهرم  
مع وزيره خوميني يمل عليه كتابه العظيم، فينبغي أن  
يوجّه انتباهنا إلى الهرم. أخشى أن يغدروا به في حجرة  
التابوت.

- دون هذا والمستحيل، ففتح باب الهرم سرّاً  
يعلمه إلا ثلاثة: الملك وخوميني وميرابو، والهضبة  
المحيطة بالهرم عامرة ليل نهار بالحراس وكهنة المعبود  
أوزوريس.

- هل يسير في ركاب الملك أحد من حرسه؟

- كلاً، إنّ العاهل الكبير الذي وهب حياته مصر  
لا يشعر بحاجة إلى حرس في وطنه وبين رعاياه،  
واعتماداً على سنفر - إذا صدقت شكوكنا - أنّ الخطر  
يبحث في وادي الموت، فهو طريق طويل خالٍ من  
الآدميين تغري وحشته الغادر بالترتّب لفريسته.

فسأل سنفر وهو يلهث:

- وما الذي ينبغي عمله؟

- إنّ مهمّتنا مزدوجة يا سنفر: أن ندرأ الخطر عن  
الملك ونقبض على الخائنين.



أبواب منف، وكانت الظلمة ما تزال حالكة والسماء  
ملاى بالنجوم يخالها المتأمل لشدة توهجها هابطة إلى  
فلك أدنى، وقد شملها جلال ساحر تجتبت له القلوب  
وتفتتن الأفئدة.

وتوسّطت العربية وادي الأبدية، وكان الملك ووزيره  
يجلسان هادئين متأملين، وسمعا بغتة أحد الجوادين  
يصهل بشدة ويقفز عاليًا ثم يسقط على الأرض،  
وأعاق سقوطه العربية عن المسير فتوقف الجواد الثاني،  
وعجب الرجلان وهمّ الوزير بالنزول ليرى ما أصاب  
الجواد، ولكنّه قبل أن يتحرك صرخ بألم وصاح:

- الحذار يا مولاي.. لقد أصبت.

فأدرك فرعون أنّ مخلوقًا أصاب الجواد وأردف  
بوزيره، وظنه من قطاع الطرق فصاح بصوت شديد:  
- إلى الورا أيها الجبان، من يريد أن يغتال  
فرعون؟

ولكنّه سمع صوتًا كالوعد يصيح: «إليّ يا سفر». فنظر  
إلى مصدره - وهو يسند خوميّني إلى صدره - فرأى  
شبحًا قادمًا من جانب الوادي الأيمن كالسهم المنطلق،  
وسمعه يصيح مرّة أخرى:

- اختبئ يا مولاي خلف سور العربية.

ثمّ رآه يقف في طريق شبح آخر أتت من الجهة  
اليسرى، واشتبك الاثنان في قتال عنيف، وتبادلا  
طعنات قاتلة بسيفيهما، ثمّ صاح أحدهما وسقط على  
الأرض قتيلاً بغير شك.. ترى من الذي سقط:  
الصديق أم العدو؟ ولم تطل الحيرة بالملك لأنّه سمع  
صوت المنقذ يقول:

- هل مولاي بخير؟

فأجاب:

- نعم أيها الشجاع، ولكن أصيب وزيري.

سمع الملك مرّة أخرى صلصلة سلاح وراء  
العربية، فالتفت بسرعة فرأى ثلثة من الجنود تلتحم في  
قتال عنيف، ورأى الرجل الشجاع الذي قتل عدوّه  
ينضمّ إليهم وينصر فريقًا على فريق، فوقف الملك  
الأعزل يشاهد المعركة وهو كظيم.

ورجحت كفّه رجال الملك وتساقت أعداؤهم واحدًا

بالزحف بالجيش على العاصمة للقضاء على قوّة الحرس  
الفرعونيّ ورجال الملك المخلصين أمثال خوميّني وميرابو  
وأربو وغيرهم من بطانة الملك، فيخلو له الجوّ ويعلن  
نفسه الجزوع ملكًا على مصر.. يا للخيانة السافلة!  
لا شك أنّ صبر الأمير نغد، ولكنّ طمعه سيقضي  
على آماله وهي قاب قوسين أو أدنى.. فهل تصدق  
شكوكنا يا ترى أم أننا نتخبّط في ضلال الأوهام!

- ٣٤ -

وطلع الفجر فدبّت الحياة مرّة أخرى في هضبة الهرم  
المقدّسة، وتجاوبت في السماء نداءات الحراس ونفخ  
الأبواق وترتيلات الكهنة، وعند ذلك فتح باب الهرم  
وخرج منه شبحان ثمّ أغلق مرّة أخرى، وكان كلّ  
منها يتلفّح بدثار سميك أشبه بعباءة الكهنة التي  
يرتدونها في حفلات القربان، قال أقصر الرجلين قامة:  
- إنك يا مولاي تمهد ذاتك العلية إجهادًا قاسيًا.  
فقال الملك:

- الظاهر يا خوميّني أننا كلّما تقدّم بنا العمر نردّ إلى  
الطفولة مرّة أخرى، فما أشبه ولعي بهذا العمل المجيد  
بانكبابي في زمن مضى على القنص وركوب الخيل.  
ينبغي أن أضاعف مجهودي يا خوميّني، فما تبقى من  
العمر إلّا أقصره..

فقال الوزير الأمير ويدها مبسوطتان:

- أطالت الأرباب بقاء الملك.

- فلتستجب الآلهة دعائك حتى أنّم رسالتني.

- لست متاعًا للخير ولكن أتمنى أن يخلد مولاي إلى

الراحة والدعة.

- كلاً يا خوميّني. لقد شيّدت لي مصر مشوى

روحي وما أهبها إلّا حياتي الفانية!

وكفّ الرجلان عن الحديث، وصعد الملك إلى  
العربية الملكيّة، وركب بعده الوزير وقبض على اللجام  
وسارت الجياد خبيًا، وكانت العربية كلّما مرّت بجماعة  
من الكهنة أو الجنود سجدوا تحية واحترامًا، وما  
برحت الجياد تمجّد في السير حتى قطعت أرض الهضبة  
واجتازت حدودها إلى وادي الموت الذي يؤدّي إلى

## عبث الأقدار ٢٢١

أنيبًا أليًا، فاضطرب الملك لسباع أنينه وسارع إليه وأماله على ظهره وألقى نظرة قلقة، ولمّا تبيّن وجهه صرخ بقوة:

- رعخعوف.. ابني..!

ونسي فرعون جلاله ونظر فيمن حوله كأنه يستغيث بهم على دفع بلاء لا مردّ له، وأمعن النظر ثانية في وجهه الملقى تحت قدميه، وقال بحزن وفزع:

- أنت الذي حاولت الفتك بي؟

ولكنّ الأمير كان يعاني ألم النزاع الأخير وبتيه في غيبوبة الاحتضار، فلم ينتبه إلى العيون المرتاعة المحدقة به، وجعل يئنّ أنينًا موجعًا وصدرة يعلو وينخفض بشدة، فتملّك ددف الرعب والألم وكأنّ تلك الفاجعة تبغته بغير نذير، وساد الجميع وجوم ثقيل نسي فيه خوميبي آلام ذراعه وجعل يحنّس نظرات الإشفاق من وجه الملك وهو يدعو الربّ أن يكفيه شرّ تلك الساعة: وكان فرعون ينحني على ابنه المحتضر وينظر إليه بعينين جامدتين جعلها الحزن كبحيرتين راكنتين.. وكانت نفسه جيّاشة مضطربة تعترك فيها العواطف المتناقضة والأفكار المتنافرة، وهو بين هذه وتلك مستسلم للجمود. ولبت يديم النظر إلى وجه ابنه المعذب الذي ذهب عنه الجلال وسكنت حركة جسمه إلى الأبد.

وظلّ الملك ملازمًا لجموده الغريب زمنا ليس بالقصير، ثمّ استعاد جلاله وثباته، فاعتدلت قامته، والتفت إلى ددف وسأله بصوت غريب:

- أخبرني أيّها القائد بما تعلم من تفاصيل هذه

المأساة.

وأخبر ددف مولاه بصوت متهدج حزين بما قصّه عليه الضابط سنفر، وصارحه بالشكوك التي وسوست في صدرها وما دبّرا من حيلة لإنقاذ مولاها.

يا للآلهة!

كان يروح ويحيّ مطمئنًا ففاجأه الغدر من حيث لم يحتسب، من ولده الأعزّ ووليّ عهده، وأنقذته الآلهة من الشرّ العظيم، ولكن اقتضت مشيئتها لذلك ثمنا غاليا هو الروح التي صعدت الآن ملوثة بأشنع إثم

فواحدًا، وألقى الرعب في قلوبهم أن شاهدوا عن بعد كوكبة من الفرسان قادمة تعدو من ناحية الهضبة المقدسة حاملة المشاعل هاتفة باسم الملك الجليل، فزلزلوا زلزالًا شديدًا وركنوا إلى الفرار. ولكن كان الذين يقاتلونهم أشداء جبابرة فأمعنوا فيهم قتلاً ولم يبقوا منهم على أحد.

وأحاط الفرسان بعربة الملك، وألقت مشاعلهم ضوءًا على الوادي فظهرت جثث القتلى، وبدت وجوه الرجال الذين دافعوا عن الملك وقد سالت الدماء الزكية من جباههم وأعناقهم.

وتقدّم رئيس الفرسان من عربة الملك، ولمّا شاهد مولاه واقفًا حمد الربّ وقال وهو يجثو راکعًا:

- كيف حال مولانا الملك؟

فترجّل فرعون وهو يسند وزيره وقال:

- فرعون بخير بفضل الأرباب وشجاعة هؤلاء

الرجال.. ولكن كيف أنت يا خوميبي؟

فقال الرجل بصوت ضعيف:

- بخير يا مولاي.. إصابتي في ساعدي وليست

بذات خطر.. فلنصلّ جميعًا شكرًا لبتاح الذي أنقذ حياة الملك..

ونظر الملك فيما حوله فرأى القائد ددف، فقال له:

- أهنا أنت أيّها القائد ددف؟ كأنك تأتي إلّا أن

تدين الأسرة الفرعونية جميعًا؟

فانحنى الشاب في احترام عظيم وقال:

- حياتنا جميعًا فداء لمولاي.

فسأل الملك:

- ولكن كيف حدث هذا؟.. يبدو لي أنّ ما وقع لم

يكن حادثًا تافهًا وليد المصادفات، وأكاد ألمح في الظلام

خيانة أحببت بإخلاصكم وشجاعتكم.. ولكن دعونا

نرى وجوه القتلى أولًا. وليبدأ بهذا الذي سدّد إلينا

سهما طائشًا..

وسار في أنجاء العربة وددف وسنفر ورئيس الفرسان

يسرون بين يديه بالمشاعل وخوميبي يتبعه في خطوات

بطيئة، فعدّوا بالجنّة على بعد قريب، وكان صاحبها

منبطحًا على وجهه والسهم القاتل في جنبه الأيسر ويئنّ

فهز رأسه هزّات عنيفة جنونية وقال:  
- أراك تترحمين عليه!  
- يحقّ لنا أن نبكيه يا مولاي. ألم يخسر الدنيا والأبدية؟

فأمسك الملك رأسه وقال بذهول:

- ربّاه.. ما هذا الجنون الذي يدور في رأسي؟  
ما هذه الضربات التي تتوالى على رأس فرعون؟ كيف لهذا الرأس بحمل تاج المصريين بعد الآن وهو ينوء بالشعيرات البيضاء التي أبقاها الدهر له. آيتها الملكة، إن فرعون يعاني عهدًا جديدًا بالحياة ولن ينفعك توجّعك، فإليّ بأبنائي وبناتي.. إليّ بأصدقائي جميعًا.. نادي خوميني وميرابو وأربو وودد. هيا.. وغادرت الملكة التعمسة مخدع فرعون وأرسلت في طلب الأمراء والأميرات والأصدقاء، ودعت من نفسها طبيب الملك الخاصّ كاري.

ولّى الجميع النداء وحضروا سراعًا واجمين، ينوءون بصمت مرهق كأنهم يقصدون إلى مآتم رهيب، ودخلوا مخدع الملك فلم يلبث فراشه أن صار بين صقّين من آل بيته وأصدقائه المقربين، وكان الملك ما يزال مهتاجًا عنيفًا زائف البصر فنظر إلى طبيبه كاري وقال بعنف:

- لماذا أتيت أيّها الطبيب ولم أدعك؟ لقد لازمتني أربعين عامًا طوالاً لم أشكّ إليك في أثنائها مرّة، وأحرّ بمن يستغني عن الطبيب في حياته أن يستغني عنه في مماته.

فاضطربت النفوس لذكري الموت، وهالها ما ترى من هياج الملك واختلاط أعصابه. أمّا الطبيب كاري فقد ابتسم برقة وقال:

- مولاي يحتاج لجرعة..

وقاطعه الملك صائحًا:

- دع مولاك واغرب عن وجهي.

فبانّ الحزن على وجه الطبيب وقال بصوت خافت:  
- مولاي، قد لا يمثل الطبيب لأمر مولاة أحيانًا.  
فاشتدّ الغضب بالملك وقَلب عينيه الزائغتين في وجوه الواقفين الواجحين، وصاح بهم:

حمل وزره إنسان.. فنجا من الهلاك ولكنّه لم يهنا بالفرح، وقتل وليّ عهده ولم يدر كيف يحزن.. وطالعت الدنيا بأنكد وجوهها وهو في نهاية الطريق..!

- ٣٥ -

وعاد الملك وصحبه إلى القصر الفرعونيّ، وكان الصباح قد زان الكون بشمس مشرقة، وأحسّ العاهل الكبير بتعب وخور فأوى إلى مخدعه سريعًا واستلقى على فراشه، وانتشر الخبر الأسيف في رحاب القصر فخفقت له القلوب خفقان الأسمى والحزن والهلع، وزلزل له فؤاد الملكة ميرتيتفس واضطربت فيه نار موقدة لا تقوى مياه النيل بأسرها على إطفاء جذوة منها، ولحقت المرأة بزوجها العظيم تستغيث بقربه من ويل هذا الشرّ وتطلب في محضره العزاء والطمأنينة. فوجدته نائمًا أو كالتائم، فلمست بأناملها الباردة جبينه ووجدته ساخنًا كأنه كتلة من النار يتصاعد منها حمم، فهمست بصوت خافت:

- مولاي!

وانتبه الملك إلى صوتها وفتح عينيه بحالة هياج مستعر، وجلس في فراشه بعنف غريب. ونظر إليها بعينين يتطاير منها الشرر، وقال بصوت جنونيّ لم تعهد سماعه من قبل:

- أتبكين آيتها الملكة القاتل الأثيم؟

فقالت بذلّة ودموعها ذوارف:

- إني أبكي حظّي التعمس يا مولاي.

فصاح بها بغضب جنونيّ:

- لقد ولدت لي مجرمًا آيتها المرأة.

- مولاي.

- واقتضت الحكمة الإلهية أن تورده حتفه لأنّ

العرش لم يخلق ليجلس عليه المجرمون!

فصاحت المرأة مولولة:

- الرحمة يا مولاي! رحمة بقلبي وقلبك! لا تحدّثني

بهذه اللهجة التي ترعيني. إني بحاجة إلى العزاء، فهلّا تناسيت تلك الذكريّ الأليمة، كان ابننا وما أحقّه بالرتاء الآن!

## عبث الأقدار ٢٢٣

فقال الجميع برجاء:

- أطل الله بقاء الملك.

فرفع الملك يده فساد سكوت وعاد يقول:

- أيها السادة لقد حُتَّت النهاية، وقد دعوتكم

لتسمعوا كلمتي الأخيرة، فهل أنتم مستعدون؟

فأشرق خوميني بالدمع وقال:

- مولاي.. لا تذكر الموت.. سنكتشف هذه

الغمة وتعيش طويلاً لمصر ولنا.

فابتسم فرعون وقال:

- لا تحزن أيها الصديق خوميني، فلو كان الموت

شراً يُدفع لخلد مينا على عرش مصر، ولذلك فخوفو

لا يجزن للموت ولا يخشاه، وإن الموت لأهون من

شور كثيرة تشوّه وجه الحياة. لكن أريد أن أطمئن

على تركتي العظيمة..

ثم التفت إلى أبنائه ينظر إليهم واحداً فواحداً كأنه

حاول أن يقرأ ما يُظهرون وما يُبطنون، ثم قال:

- أراكم تكاثمون قلماً خفياً ولهفة مستترة، ويرمق

الواحد منكم أخاه بعين الريبة والحنق. كيف لا وقد

مات وليّ العهد، واحتضر الملك وكلّكم طامع في

العرش راغب فيه، وما أنكر أنكم فنية نبلاء وعلى

خلق عظيم ولكن أريد أن أطمئن على تركتي وعلى

إخوتكم..

فقال الأمير رعباوف وكان أكبر الأمراء سناً:

- أبتى ومولاي، مهما فرقت قلوبنا الأهواء فهي

تألف على طاعتك، وإنّ مشيتك لدينا هي الشريعة

المقدسة التي تلزمنا طاعتها بغير قسَم.

فابتسم الملك ابتسامة حزينة، وسها إليهم بعينيه

اللتين جرى بمحجريهما الذبول وقال:

- أحسنت القول يا رعباوف، والحق أقول لكم إنّي

في هذه الساعة الرهيبية أجد من نفسي قوّة عظيمة على

السموّ على العواطف البشرية، وأحسّ بأبوتي للعباد

تغلب على أبوتي للأبناء، فأعينوني على قول الحقّ

وفعله.

وعاد إلى تفرّس وجوههم ثمّ استطرّد:

- يظهر لي أنّ كلامي لا يقع منكم موقّع

- ألا تسمعون ما يقول هذا الرجل؟. ألا تحركون

سأكتأ؟. يا للعجب!. هل لوئت الخيانة القلوب

جميعاً؟! هل هان فرعون على جميع أبنائه

وأصدقائه؟. أيها الوزير خوميني قل ما جزاء من يعصي

فرعون؟

فتقدّم خوميني في إعياء ظاهر من الطبيب وهمس في

أذنه فانحنى الرجل لمولاه وتقهقر إلى الوراء حتّى غادر

المخدع، ودنا خوميني من فراش مولاه وقال:

- هدىّ روعك يا مولاي، فما يريد الرجل إلّا

الخير، أريد مولاي أن أحضر له كأساً من الماء؟

وخرج الوزير من الحجرة قبل أن يؤذّن له، وأعطاه

الطبيب كاري كأساً ذهبية من الماء المذاب فيه دواء

مسكّن، فحمله الوزير إلى مولاه. وتقبّله الملك من يد

وزيره وشربه حتّى الثمالة، وجاء أثره سريعاً فهدأت

حركات الملك العنيفة وعاودت عينيه نظراتها المألوفة،

وردّ إلى وجهه المحقن لونه الطبيعي، ولكن بدا عليه

هزال وخور بالغان.

وتنهّد الملك تنهّداً عميقاً وقال:

- ويل للإنسان من الشيخوخة والضعف!.. إنهما

يهزّان بأشدّ الجبابة!

ونظر إلى الجمع الملتف بفراشه وقال:

- أيها السادة.. لقد كنت حاكماً جبّاراً، أشهر في

بمناي الفاصل بين الحياة والموت، وأنطق بالقوانين

والشرائع، وألهم الطاعة والعبادة. ولم أغفل في حياتي

لحظة عن توخّي الخير والإصلاح، وأردت ألاّ ينتهي

انتفاع العباد بي بانتهاء حياتي على الأرض فكتبت

رسالة مطوّلة في الطبّ والحكمة سيدوم الانتفاع بها ما

دامت الأمراض لا ترحم الإنسان وما دام الإنسان لا

يرحم نفسه.. وامتدّ بي العمر كما ترون. وأرادت

الآلهة أن تبتليني ببلاء شديد لحكمة أجهلها، واختارت

ابني آله لها وجردت جيوش الشرّ في قلبه فانقلب عدواً

لي وتربّص بي في الظلام يريد اغتيالِي، ولكن كتبت لي

النجاة ودفع الابن التعس حياته ثمناً لبضع ساعات

يمتدّها عمري..

وسجد بين يدي فرعون، وأمره الملك بالقيام وأذن له بالكلام.

فقال الرجل بصوت خافت:

- مولاي، أردت المثل بين يدي جلالتكم ليلة أمس لأمر هام، ولكن أتى مجيئي بعد ذهاب مولاي إلى الهرم، فاضطرت إلى الانتظار على جزع حتى الصباح.

فسأل فرعون:

- وماذا وراءك يا أبا ددف الباسل؟

فقال الرجل بصوت أشد خفوتاً وهو ينظر إلى الأرض:

- مولاي لست أباً لددف ولا ددف ابناً لي.

فعجب فرعون لإنكار بشارو، وقال بتهكم:

- بالأمس أنكروا ابن أباه واليوم ينكر أب ابنه!

فقال بشارو بتأم وحزن:

- مولاي! تعلم الألهة جميعاً أتى أحب هذا الشاب محبة الأب لابنه، وما كنت أقول هذه الكلمة لولا أن إخلاصي للعرش أكبر في نفسي من شتى العواطف الإنسانية.

فزاد عجب الملك وبدا الاهتمام على وجوه الحاضرين جميعاً، وخاصة الأمراء الذين تمثّلوا للشباب شراً ينقذهم من قضاء الملك، وردّد الجميع أنظاره بين المفتش بشارو وبين ددف الذي امتنع لونه وجمد بصره.

وسأل الملك مفتش أهرامه:

- ماذا تعني أيها المفتش؟

فقال بشارو وعيناه إلى أرض الحجر:

- مولاي.. إن ددف هذا ابن كاهن رع السابق «من رع».

فنظر إليه فرعون نظرة غريبة تلوح فيها الأحلام. وازداد اهتمام الجمع المنصت، وقلقت أعين خوميني وميراو وأربو، أما فرعون فتمتم بذهول وروحه تسبح في ظلمات الماضي البعيد وهو يتحدث نفسه:

- رع! .. من رع كاهن رع! ..!

الإعجاب، والحق أتى لا أجد أبوتي لكم ولكني أجد بين يدي من هو أحق بالعرش منكم ومن توليه للملك خري بأن يصون لكم أخوتكم طاهرة. هو شاب علت به همته إلى القيادة قبل الأوان، وحققت له شجاعته نصراً عزيزاً للوطن، وأنقذت بطولته حياة الملك من الحيانة، وإياكم أن تقولوا كيف يتولى العرش من ليس يجري في عروقه دم الفراعين، فهو زوج الأميرة مري سي عنخ التي يجري في عروقتها دم الملك والملكة معاً.

فبدت الدهشة على وجه ددف وتبادل ومري سي عنخ نظرات الدهول، وبوغت الأمراء ورجال الدولة مباغته أجمت ألسنتهم وحيرت أعينهم. واتجهوا جميعاً بأنظارهم إلى ددف.

وكان الأمير رعبوف أول من خاطر بتمزيق هذا السكون فقال:

- مولاي إن إنقاذ حياة الملك واجب على كل إنسان، وليس هو بالعمل الذي يتردد عنه مخلوق، فكيف يكون جزاؤه العرش؟ فقال الملك بلهجة صارمة:

- أراك تقدر شرر العصيان بعد أن تغنيت بأناشيد الطاعة منذ حين، أيها الأبناء إنكم أمراء المملكة وسادتها، وسيكون لكم الجاه والنفوذ والثراء، وسيكون العرش لددف. هذه وصية فرعون يلقيها على أبنائه بحق ما له عليهم من واجب الطاعة، فليستمع إليها الوزير ليتعهدوا بسلطانته وكلمته، وليستمع إليها القائد ليسهر على تنفيذها بقوة جيشه، هذه وصية خوفو الأخيرة يتركها بين يدي من أحبهم وأحبوه وعاشروهم بالحسنى فعاشروه بالمحبة والاخلاص.

وساد صمت رهيب لم يجرؤ أحد على تعكيره، وخلا كل إلى أفكاره، حتى دخل رئيس الحجاب وسجد للملك ثم قال:

- مولاي، إن مفتش الأهرام بشارو يضرع إلى جلالتكم أن تسمحوا له بالمثل بين يديكم، فقال الملك:

- دعه يدخل فهو منذ الساعة من آل بيتي. ودخل بشارو بقامته القصيرة وجسمه المهذّل

## عبث الأقدار ٢٢٥

وألقى الأمير رعباوف على ددف نظرة نارئة وقال  
بتشف:

- الآن حصحص الحق!

ولكن فرعون لم ينتبه إلى قول ابنه واستطرد يقول  
بصوت حالم خافت:

- حدث منذ ثيف وعشرين عامًا أن أعلنت عليّ  
الأقدار حربًا شعواء تحدت بها إرادة الآلهة، فجردت  
جيشًا صغيرًا سرت على رأسه بنفسه لقتال طفل  
رضيع، وكان كل شيء يبدو لي كأنه يسير وفق مشيئتي  
فلم يزعجني داعٍ من دواعي الشك قط، وظننت أنني  
نقدت إرادتي وأعليت كلمتي، وإذا بالحقيقة اليوم تها  
بطمانيتي، وإذا بالرب يصنع كبريائي، وها أنتم أولاء  
ترون كيف أنني أجزي طفل رع على قتله وليّ عهدي  
باختياره خلقًا لي على عرش مصر. فما أعجب هذا أيها  
الناس!

وأخى فرعون رأسه حتى استند ذقنه على أعلى  
صدره وراح في تأمل عميق. وعلم الجميع أنّ الملك  
يرم قضاء لن يردّ فساد صمت رهيب، وانتظر الأمراء  
على جزع، والخوف والأمل يصطرعان في قلوبهم  
اصطراعًا عنيفًا، ورتت الأميرة مري سي عنخ إلى  
والدها بعينين محمقتين أطلّ منها ملاك حسن يتضرع  
ويتوسل، وترددت العين اللامعة ببريق الاهتمام بين  
رأس الملك المنكس وبين الشاب الباسل الذي وقف في  
ثبات عظيم مستسلمًا للأقدار. ونفذ صبر الأمير  
رعباوف فقال لوالده بقلق:

- مولاي، إنك تستطيع بكلمة واحدة أن تحقّق  
قضاءك وتنصر إرادتك!

فرفع فرعون رأسه كمن يستيقظ من نوم ثقيل ونظر  
إلى ابنه طويلًا، وأدار عينيه في وجوه الحاضرين ثم قال  
بهدهوء:

- أيها السادة، إن فرعون تربة صالحة كأرض  
مملكته يزدهر فيها العلم النافع، ولولا جهل الفتوة  
وعماية الشباب ما قتلت نفوسًا بريئة بغير ذنب.

وساد الصمت مرّة أخرى، ومنيت نفوس بالحنية  
المريرة وطعنت بخنجر اليأس المسموم. أما الأميرة

وكان المعمار ميرابو أشدّ ذكرًا لذلك اليوم الهائل  
الذي حفرت حوادثه في وجدانه، فقال بغرابة:

- ابن من رع؟! هذا بعيد عن التصديق  
يامولاي، لقد مات من رع وقتل طفله في ساعة  
واحدة.

وأنت الذكرى فرعون في هالة من النيران، فارتجفت  
قلبه الضعيف المتهالك وقال:

- نعم، لقد ذبح ابن من رع على فراش ولادته،  
فما هذا الذي تقوله أيها الرجل؟  
فقال بشارو:

- مولاي، لا علم لي بالطفل الذي ذبح، كل ما  
أعلمه تاريخ قديم. أثنى خبره مصادفة أو عن حكمة  
يعلمها الرب، فكان ابتلاء لقلبي الذي يتعلّق بهذا  
الشاب أيما تعلّق، ولكن إخلاصي للعرش يهيب بي إلى  
روايته.

ثم قصّ بشارو على مولاه - وعيناه تذرّبان الدمع  
الغزير - قصته مع زايا وطفلها الرضيع من مبتدأها إلى  
الساعة الرهيبة التي وقف يسترق فيها السمع إلى قصّة  
رده ديديت الغريبة. ولما انتهى الرجل الحزين أخى  
رأسه على صدره ولازم الصمت.

واستولت الدهشة على الحاضرين، ولمعت أعين  
الأمراء ببريق أمل خاطف، أما الأميرة مري سي عنخ  
فقد اتسعت عينها هلعًا ورعبًا واصطرع في قلبها  
الخوف والأمل والألم. وركزت بصرها على وجه  
أبيها. أو على فمه كأنها تريد أن تمنع بروحها كلمة  
قد يكون فيها القضاء على سعادتها وآمالها.

والفتت الملك بوجهه الشاحب إلى ددف وسأله:

- أصحيح ما يقول هذا الرجل أيها القائد؟

فقال ددف بشجاعته المعهودة:

- مولاي! إن ما قاله السيد بشارو حق لا ريب  
فيه.

فنظر فرعون إلى خوميني ثم إلى أربو ثم إلى ميرابو  
يستغيث بهم من هول هذه العجائب، ثم قال:

- ما أعجب هذا!

- تمت رسالة خوفو إلى شعبه الحبيب.

ومضى فرعون يتنهّد تنهّدًا عميقًا ثقيلًا، ولكنه قبل أن يستسلم إلى الراحة نظر إلى ددف وأشار إليه، فاقترّب الشابّ من فراش الملك ووقف كالتمثال، فأخذ فرعون يده ووضعها على يد مري سي عنخ ووضع يده النحيلّة على يديها ونظر إلى القوم وقال:  
- أيها الأمراء والوزراء والأصدقاء، حيّوا جميعًا مَلِكِي الغد.

فلم يتردّد إنسان، وأنجّهبوا جميعًا بأنظارهم إلى مري سي عنخ وددف وأحنوا الهامات.  
ونظر فرعون إلى سناء الحجره وسها إليها لا يحرك ساكنًا. فقلقت الملكة ومالت عليه قليلاً فرأت وجهه وقد اكتسى بنور سهاويّ كأنما يرى بعين بصيرته وجه أوزوريس العظيم يرنو إليه من العلا.

الجميلة مري سي عنخ فتنهّدت، تنهّدت من أعماق صدرها بصوت مسموع وصل إلى أذن الملك فعرف مصدره، ونظر إليها بعطف وحنان، وأشار لها بيده فهرعت إليه كحامة تتعلّم الطيران، وانكبّت على يده. ونظر الملك إلى وزيره خوميني وقال:

- إلى أيها الوزير بأوراق البرديّ لأختم حكمتي بأبلغ عظة تعلّمتها في حياتي. أسرع فما بقي من العمر إلا لحظات..

وأحضر الوزير ملفّات البرديّ فوضعها فرعون على حجره، وأمسك بالقلم ومضى يكتب حكمته الأخيرة، وكانت مري سي عنخ جاثية إلى جانب فراشه وإلى جانبها الملكة الحزينة، وكتمت الأنفاس، فما كان يسمع إلا صرير القلم.

وانتهى فرعون فرمى القلم في إعياء شديد، وقال وهو يسلم رأسه إلى الوسادة:

رَأْفَتِي



## عِيدُ النَّيْلِ

والبرسيم. ونشرت فيه الكروم والمراعي، والجنان تجري من تحتها الأنهار، وترعاها القطعان، يطير في سائها الحمام والطير، ويتصوّع نسيمها بشذا العطر والأزهار، وتتجاوب في جَوْها أغاريد البلابل والأطيار.

فما هي إلا أيام معدودات، حتّى ضاقت أبو وجزيرتاها: بيجة وبيلاق، بالتازحين، فامتلات البيوت بالتازلين، وازدحمت الميادين بالخيام، وغصّت الطرق بالغادين والرائحين، وانتشرت حلقات اللاعبين والمغنين والراقصين، وزخرت الأسواق بالعارضين والبائعين، وازدانت واجهات البيوت بالأعلام وأغصان الزيتون، وبهرت الأنظار جماعات من حرس جزيرة بيلاق بثيابها المزركشة وسيوفها الطويلة، وهرعت جموع القانتين المؤمنين إلى معبدي سوتيس والنيل، يوفون بالنذر، ويقدمون القرابين، واختلط غناء المنشدين بصياح السكارى الثملين. . وشاع في جَوْ أبو الرزين فرح راقص، وطرب حارّ بهيج. .

وجاء يوم العيد الموعود، وقصدت هاتيك الخلائق جميعًا إلى هدف واحد، هو الطريق الطويل الممتد ما بين القصر الفرعوني والهضبة القائم عليها معبد النيل، فسخن الهواء بأنفاسهم الحارّة، وناءت الأرض بحملهم، ويش قوم لا عداد لهم من الأرض، فهبطوا إلى السفن، وأطلقوا الشرع، وطافوا بهضبة المعبد ينشدون أغاني النيل على أنغام المزمار والقيثار، ويرقصون على توقيع الدفوف. .

ووقف الجنود صفّين على جانبي الطريق العظيم شاهري الرماح، وقد نصبت على مسافات متباعدة تماثيل بالحجم الطبيعي للملوك الأسرة السادسة، آباء فرعون وأجداده، فرأى الأقربون تماثيل الفراعين، أسر

لاحت في الأفق الشرقيّ تباشير ذلك اليوم من شهر شنس، المنطوي في أثناء الزمان منذ أربعة آلاف سنة. وكان الكاهن الأكبر لمعبد الربّ سوتيس يتطلّع إلى صفحة السماء بعينين ذابلتين، أضناها التعب طوال الليل.

وإنّه لفي تطلّعه إذ عثر بصره بالشعري اليسائيّة، يتألّق نورها في كبد السماء، فتهلّل وجهه بالبشر، وخفق قلبه بالفرح، وسجد على أرض المعبد الطاهرة شكرًا وزلفى، وصاح بأعلى صوته أن قد بدت صورة الربّ سوتيس في أفق السماء، تحمل إلى الوادي بشرى فيضان النيل المعبود، وتسير بين يدي رحمة. وأيقظ صوته الجميل النّيام. فهبوا من نومهم فرحين، وقبّوا وجوههم في السماء، حتّى قرّت أعينهم على النجم المعبود، فردّوا ترتيلة الكاهن، وأفعمت قلوبهم غبطة وامتنانًا، ثمّ تركوا ديارهم مهطعين صوب شاطئ النيل، يشهدون أوّل موجة حاملة للخير والبركة. وردّد جَوْ مصر الهادئ صوت كاهن الربّ سوتيس، وأذاع البشرى السعيدة في الآفاق، فعلم الناس أن قد آن أوان الهجرة إلى الجنوب، للاحتفال بعيد النيل المقدّس. فحزموا أمتعتهم، ونشطوا خفّاقًا وثقالًا من طيبة ومنف وهرمونت وسوت وخنونو، يولّون وجوههم شطر أبو العاصمة، فنهبت العجلات الوادي، ونحرت السفن عباب الماء. .

كانت أبو عاصمة مصر، يقوم بنايتها الشامخ على دعائم من الصوّان، تؤلّف بينها الكثبان الرملية، وقد غشّاه النيل بطبقات من طميه الساحر، بثّت فيها الخصب والخير العميم، وأنبتت أرضها السنط والتوت والنخيل والدوم، وكست سطحها البقول والخضروات

كري، وتبي الأول، ويبي الأول، ومحتماووف الأول، ويبي الثاني..

وكان الجوّ يضحّ بأصوات القوم المختلفة، فيضج تميزها كما تضج الأمواج في المحيط المصطخب، ولا يبقى منها إلا دويّ هائل شامل. ولكن كانت تعلق أحياناً أصوات جهيرة، تخترق الضوضاء، وتبلغ الآذان، يهتف بعضها قائلاً: «مجدوا الربّ سوتيس الذي بشرنا بالخبر». ويصبح صوت آخر: «مجدوا النيل الربّ المقدّس الذي يجلب إلى أرضنا الحياة والخصب». وبين هذا وذاك، ترتفع أصوات منادية على خمر مريوط، وأنبذة أبو، داعية إلى السرور والنسيان..

وكان جماعة من المشاهدين يتجاورون ويخلصون نجياً، تبدو على وجوههم آي النيل والنعيم، فقال أحدهم وهو يرفع حاجبيه متأملاً متعجباً.

- كم من فرعون أطلع على هذه الجموع الحاشدة، وشاهد هذا اليوم العظيم!.. ثم ذهبوا جميعاً كأنهم لم يكونوا ملء الصدور، ملء الأبصار والأفتدة!.

فقال آخر:

- نعم ذهبوا ليحكموا عالماً أجلاً من هذا العالم، كما سندهب جميعاً.. انظر إلى هذا المكان الذي أشغل.. كم من البشر سوف يشغله في الأجيال المقبلة، ويجتد الآمال والأفراح التي تحفق في صدورنا الآن.. ترى هل يذكروننا كما نذكرهم؟

- إننا أكثر من أن يذكرونا مذكر.. ألا ليت الموت لم يكن..

- وهل كان يمكن أن يسع الوادي تلك الأجيال التي ذهبت؟ إن الموت طبيعي كالحياة.. وما قيمة الخلود ما دمنا نشبع بعد الجوع، ونشيخ بعد الشباب، ونسأم بعد المسرة؟..

- فكيف يعيشون في عالم أوزوريس؟..

- انتظر ستعلم ذلك بعد حين..

وقال آخر باهتمام:

- هذه أول مرة يسعدني الربّ برؤية فرعون.

فقال له صاحبه:

- أما أنا فقد رأيت يوم التتويج العظيم منذ أشهر في نفس المكان.

- انظر إلى تماثيل أجداده الأماجد.

- ستري أنه قريب الشبه بجده محتماووف الأول..

- ما أجل هذا!

- أجل.. أجل.. إن فرعون شابّ جميل، لا نظير له في طول الفارع، وحسنه الجاهر..

وتساءل أحد المتحدثين قائلاً:

- ترى ماذا يخلف حكمه؟.. أمسلات ومعابد، أم

ذكريات غزو في الشمال والجنوب؟

- إن صدق حدسي فهي الثانية..

- وله؟

- إنه شابّ عظيم البأس.

فهزّ الآخر رأسه بحذر وقال:

- يقال إن شبابه من نوع جامع، وإن جلالة ذو أهواء عنيفة، يغرّم بالحبّ، ويهوى الإسراف والبذخ، ويندفع في سبيله كالريح العاصفة..

فضحك المستمع ضحكة خافتة، وهمس قائلاً:

- وهل في ذلك ما يدعو إلى العجب؟.. ما أكثر

المصريين الذين يغرمون بالحبّ ويهون الإسراف والبذخ.. فما بالك بفرعون.

- صه.. صه.. أنت لا تدري من الأمر شيئاً،

ألم تعلم بأنه اصطدم برجال الكهنوت منذ اليوم الأول لتوليته العرش؟.. إنه يريد المال لينفقه في

تشيد القصور، وغرس البساتين، والكهنة يطالبون بنصيب الآلهة والمعابد كاملاً. لقد منحهم آباء الملك نفوذاً وثراء، والملك الشابّ ينظر إلى هذا بعين

الطمع.

- حقاً إنه لأمر مخزن أن يبدأ الملك حكمه بالاصطدام.

- أجل.. ولا تنس أنّ خنوم حتب، رئيس الوزراء

والكاهن الأكبر، رجل حديديّ الإرادة، شديد

المراس. وهناك أيضاً كاهن منف، تلك المدينة المجيدة

التي لحقها الأبول على عهد هذه الأسرة الجليلة.

- رادوبيس.. رادوبيس الفاتنة، ملكة النفوس والأهواء جميعًا.

وأشار الرجل بيده نحو جزيرة بيجة، واستدرك:  
- وهي تقيم هناك في قصرها الأبيض الساحر..  
هدف العشاق والمعجبين، حيث يستبقون إلى نيل عطفها، واستدرار رحمتها.. وعسى أن يسعفكم الحظ برؤيتها، صانت الأرباب قليكما عن التلف..

وانجهت أنظار الرجلين وسواهما من الواقفين إلى السفينة مرّة أخرى، وقد بدا على الوجوه الاهتمام الشديد. وكانت السفينة تدنو من الشاطئ، رويدًا رويدًا، والزوارق توسع لها طريقها على عجل، وكلما عبرت ذراعًا اختفت شيئًا فشيئًا وراء الهضبة المقام عليها معبد النيل، ومضى يغيب عن الأبصار مقدمها، ثم مقصورتها، فلما أن اطمأنت إلى الرفأ لم يكن يرى منها سوى أعلى صاريها وقمة شراعها المتموج، كأنه علم الحب يظلّ القلوب والنفوس..

ومضت فترة وجيزة، ثم رُئي أربعة من النوبيين قادمين من الشاطئ يوسعون في البحر المتلاطم طريقًا، يسير في أثرهم أربعة آخرون يحملون على الأكتاف هودجًا جميلًا فاخرًا، لا يجوزه إلا الأمراء والنبلاء، جلست فيه عادة حسناء، تستند في طرأة إلى وسادة، وتكئ على مُرَقَّه، بساعد بض، وتمسك في يمانها بمروحة من ريش النعام، تلوح في عينيها الجميلتين نظرة ناعسة حاملة، تصوّبها إلى الأفق البعيد في كبرياء سامية، تقتحم الخلق أجمعين.

وكان الركب الصغير يسير على مهل، ترمقه العيون من كلّ صوب، حتى بلغ الصفّ الأوّل من المشاهدين، وهناك مالت المرأة إلى الأمام قليلًا بجيد كالغزال، ونثرت من فمها الوردية كلمات ناقت نفوس إلى سماعها: فتوقّف العبيد عن السير، ولزموا أماكنهم كأنهم تماثيل من البرنز، وارتدت المرأة إلى جلستها الأولى، واستغرقت فيما كانت فيه من الأحلام، ولبثت تنتظر الموكب الفرعوني الذي لا شكّ جاءت لمشاهدته. وكان ما يرى منها نصفها الأعلى. فاستطاع المجدودون أن يشاهدوا شعرها الأسود الخالك السواد،

فارتاع الرجل لهذه الأخبار التي تصكّ أذنيه لأوّل مرّة، وقال:

- إذا فلندعُ الأرباب جميعًا أن تلهم الرجال الحكمة والأناة والرأي السديد.

فقال الآخرون بإخلاص صادر من الأعماق:

- آمين.. آمين.

ولاحت من أحد الواقفين التفاتة إلى النيل، فلكر صاحبه بمرفقه قائلاً:

- انظر أيها الصديق إلى النهر.. لمن يا ترى هذه السفينة الجميلة الآتية من جزيرة بيجة، كأنها الشمس صاعدة من الأفق الشرقي؟..

فعطف صاحبه رأسه نحو النهر، فرأى سفينة عجيبة، لا بالكبيرة ولا بالصغيرة، خضراء اللون كأنها جزيرة معشوشبة تطفو على سطح الماء، تبدو مقصورتها على البعد متعالية، وإن قصّرت العين عن رؤية ما بداخلها، ولاح في أعلى صاريها شراع متموج عظيم، وانتظمت جانبيها حركة مجاديف بديعة تنبعث من مئات الأيدي.. فاستولت الحيرة على الرجل، وقال:

- عسى أن تكون لموسر من أهل بيجة..

وأصغى إلى حوارهما رجل قريب، فحدجها بنظرة إنكار، وقال لها:

- أراهن أيها السيّدان أنّكما ضيفان.

فضحك الرجلان معًا. وقال ثانيهما:

- صدقت يا سيّدي المحترم، فنحن من طيبة، واثان من الآلاف التي ناداها العيد المجيد فلّبت هارعة إلى العاصمة من جميع البلدان.. هل تكون هذه السفينة الجميلة لكبير من رجالكم البارزين؟

فابتسم الرجل ابتسامة غامضة، وقال وهو يشير لها بأصبعه محدّرًا:

- طبّتها نفسًا أيها السيّدان الكرمان، ليست هذه السفينة لرجل من رجالنا، ولكنّها امرأة.. أجل هي سفينة غانية حسناء يعرفها حقّ المعرفة جميع أهل أبو، وجزيرتها بيجة وبيلاق..

- ومن عسى أن تكون هذه الحسنة؟..

- نعم، وأهدى تحفه الثمينة القائد طاهو، رئيس الحرس الفرعوني.

- إذا كان جميع هؤلاء يتنافسون في حبها فمن السعيد الذي تستخلصه لنفسها؟.

- سل عن السعيد في هذه المدينة الشقية . .

- لا أظنّ أنّ هذه المرأة تعشق أبداً.

- من أدراك؟ . . عسى أن تعشق عبداً أو حيواناً.

- كلاً . . إنّ جمالها هو القوّة الجبّارة . . وما حاجة

القوّة إلى الحبّ؟.

- انظر إلى نظرة عينها الرفيعة القاسية . . إنّها لم

تذق الحبّ بعد.

وكانت امرأة تصغي إلى هذا الحديث، فضاق

صدرها. وقالت بجفاء:

- ما هي إلا راقصة . . تربّت في بؤر الفساد

والمجون، ووهبت نفسها منذ الطفولة للخلاعة

والغواية، وأجادت فنّ المساحيق، فتبدّت في هذا

المظهر الخلاب الكاذب.

فكبر هذا الكلام على أحد الرجال المفتونين فقال:

- معاذ الربّ يا سيّدتي، ألم تعلمي بعد أنّ جمالها

الرائع ليس كلّ ما وهبتها الآلهة من ثراء؟ . . وأنّ توت

لم تبخل عليها بنور الحكمة والعرفان؟.

- بخ . . بخ . . من أين لها بالحكمة والعرفان،

وهي تنفق عمرها في إغواء الرجال؟.

- قصرها يستقبل كلّ مساء جماعة ممتازة من الساسة

والحكّماء والفنّانين، فلا عجب أن تكون كما يشاع عنها

من أعمق الناس فهماً للحكمة، وأدراهم بالسياسة

وأذوقهم للفنّ.

وسأل سائل:

- كم عمرها؟ . .

- يقولون إنّها بنت ثلاثين.

- لا يمكن أن تجاوز الخامسة والعشرين.

- ليكن عمرها ما تشاء، فهذا الحسن يانع قاهر،

يقسم أن لن يلحقه الذبول أبداً . .

وعاد السائل يسأل باهتمام:

- ما منشؤها، وما أصلها؟.

ينتظم على رأسها الصغير في أسلاك من الحرير اللامع، ويهبط على كتفيها في هالة من الليل كأنه تاج إلهي، ينبلج في وسطه وجه مشرق مستدير، عانقت فيه أشعة خدين كالورد اليبان، وفي رقيقاً مفترّاً كأنه زهرة من الياسمين في الشمس في خاتم من القرنفل، وعينين دعجاوين صافيتين ناعستين، تلوح فيها نظرة يعرفها الحبّ معرفة المخلوق لخالقه، فما رئي وجه قبل هذا اختاره الجمال سكناً ومستقرّاً.

وقد فتن الناس منظرها كافة، وحرك قلوب الشيوخ الفانية، فصوّبت إليها من جميع الجهات نظرات نارية، لو عثرت في طريقها بصوّان لأذابته. ورمقتها أعين النساء شزراً ومقتاً، وسرى الهمس بين المحيطين بها، وانتقل الحوار من فم إلى فم.

- يا لها من امرأة فاتنة . .

- رادوبيس . . يسمونها ربة الجزيرة!

- هذا جمال قهار، لا يمكن أن يعصاه قلب.

- هو اليأس لمن يرى.

- صدقت، فما وقعت عليها عيناى حتّى قامت في

نفسى ثورة جامحة، ونوّت بأعباء ظلم فادح،

وأحسست بتمرد شيطانيّ، وصدّت نفسي عمّا بين

يديّ، وغلّيني على أمرى الخذلان والحزى الأبدى.

- هذا أمر محزن . . لكأنّي بها صورة للسعادة حقيقة

بالعبادة.

- هي شرّ وبيل!

- نحن أضعف من أن نحتمل مثل هذا الحسن

القاهر.

- ألا رحمة للعاشقين . .

- ألا تعلم أنّ عشاقها هم صفوة رجال المملكة؟.

- حقاً؟ . .

- إنّ حبّها فرض على علية القوم، كأنه واجب

وطنيّ.

- لقد شيّد المعمار النابغة هني قصرها الأبيض.

- وأثنه بآيات منف وطيبة أنى حاكم جزيرة بيجة.

- مرحى . . مرحى . .

- وصنع تماثيله، ونحت جدرانها، المثال النابغة هنفر.

رادوييس ٢٢٣

فتوقفت بإزائه، وصاحت تحدّث صاحبه وهي تبسم  
ابتسامة كريمة:

- أيتها السيّدة المحروسة بالعبادة! هل أقرأ لك  
الطالع؟.

ولم يبد على الغانية أنّها سمعت صوت الساحرة،  
فصرخت العجوز:

- مولاتي!

وانتهت إليها رادوييس فيما يشبه الذعر، ثمّ  
عظفت عنها رأسها سريعاً وقد لمسها الغضب، وقالت  
لها العجوز:

- صدّقيني ما من إنسان في هذا الجمع الحاشد  
يحتاج إليّ اليوم حاجتك!.

فتقدّم منها أحد العبيد، وحال بينها وبين الهودج  
وكاد الحادث على تفاهته يثير اهتمام القريبين، ولكنّ  
سُمع صوت بوق شديد يخترق الفضاء، ووضع على  
أثره الجند المصطفون على جانبي الطريق الأبواق في  
أفواههم، ونفخوا فيها نفخاً طويلاً متصلاً، فعلم  
الناس جميعاً أنّ الركب الفرعونيّ بدأ تحرّكه، وأنّه عمّا  
قليل يغادر فرعون القصر في طريقه إلى معبد النيل،  
فنسي الجميع ما كانوا فيه وشخصوا إلى الطريق بأعناق  
مشرّبة، وحواسّ مرهفة.

ومضت دقائق طويلة ثمّ بدأت طلائع الجيش تسير  
صوفواً متراصّة على أنغام الموسيقى الحريّة تتقدّمها  
حامية ببلاق بعدها المتنوّعة، تسير وراء علمها المتّوجّ  
بصورة الباز، فكانت الجنود تقابل في كلّ مكان  
بالهتاف والتصفيق..

وقفتها بعد حين قليل فرقة المشاة حاملي الرماح  
والتروس، تتأثّر موسيقاها، وعلمها المزدان بصورة  
الربّ حورس، وقد استقامت الرماح في صورة  
هندسيّة دقيقة، فرسمت في الهواء خطوطاً متوازية طولاً  
وعرضاً.

وجاءت فرقة الرماة الكبرى حاملي القسيّ والسهام.  
واستغرق سيرها فترة طويلة من الزمن، يتقدّمها  
علمها الموسوم بصولجان العرش.

ثمّ سمع من بعيد دويّ وصلصلة وصهيل خيل،

- علم هذا عند الأرياب.. وكأنيّ بها وُجدت منذ  
الأزل في قصرها الأبيض بجزيرة بيحة!

\*\*\*

وشقّت الصفوف المترابطة بغتة امرأة غريبة، كانت  
منحنية الظهر كالكوس، تتوكأ على عصا غليظة،  
منفوشة الشعر بيضاء، طويلة الأنياب صفراءها،  
مقوّسة الأنف، حاذة البصر، يشعّ من عينيها نور  
خفيف يرسل من تحت حاجبين كثيفين أشبيين، وكانت  
ترتدي جلباباً واسعاً طويلاً، يضيق عند وسطها بمنطقة  
من الكتّان.. وصاح الذين رأوها:

- ضام.. الساحرة ضام..

فلم تبالهم، وسارت بقدميها المزيّلتين. كانت  
تدعيّ الاطلاع على الغيب، وكشّفت الستار عن  
المستقبل، وكانت تسخر قوتها الخارقة لقاء قطعة من  
الفضة، وكان المحيطون بها بين خائف منها ومتهكّم  
بها. والتقت الساحرة في طريقها بشابّ حدث،  
فعرضت عليه أن تقرأ له صفحة الغيب، ولم يمانع  
الشابّ، وكان في الحقيقة ثملاً يترنّج في سيره، لا تكاد  
تحمله ساقيه، فدفع لها بقطعة من الفضة، وهو يرنو  
إليها بعينين نصف نائميتين، وسألته بصوتها الأجش:

- كم عمرك يا غلام؟

فأجابها، وهو لا يعي ما يقول:

- اثنتا عشرة كأساً..

وعلا ضحك الساخرين، فاهتاجت المرأة غضباً،  
ورمته بالقطعة التي نفحها بها، واستأنفت مسيرها  
الذي لا ينتهي. واعترض سبيلها شابّ ساخر وسألها  
بقحة:

- ماذا يتظنني من الحادثات يا امرأة؟

فنظرت إليه ملياً، وهي مغيظة محنّقة، ثمّ قالت له:

- أبشر.. ستخونك امرأتك للمرّة الثالثة.

وضحك الناس وصفقوا لها، وانزوى الشابّ  
خجلاً، وقد ردّ السهم إلى صدره. وسارت الساحرة  
حتّى بلغت هودج الغانية، وطمعت في سخائها

من فرعون الشاب، والجماعة التي ناصرت هذا التحدي العجيب!..

ولم يترك الهتاف أثرًا ظاهرًا، ولم يبدُ على أحد من حاشية الملك أدنى تأثر، وتابع الموكب سيره حتى بلغ هضبة المعبد، فتوقفت العجلات جميعًا، وتقدم إلى عجلة فرعون أميران يميلان وسادة من ريش النعام مكللة بغطاء من نسيج ذهبي، فترجل الملك عليها. ونفخ في الصور، فأدى الجند التحية العسكرية، وصدحت موسيقى الحرس بنشيد النيل المعبود، وصدت فرعون درجات الهضبة في تودة وجلال، يتبعه وجوه مملكته من الأمراء والوزراء والحكام. ولدى باب المعبد العظيم وجد الكهنة في استقباله سجدًا. ولما أعلن كبير الحجاب سوفخاتب وصول الملك، وقف رئيس كهنة المعبد وأحنى ظهره، وأخفى عينيه بيديه، وقال في صوت خافت:

- يتشرف خادم الرب المعبود النيل، بإزجاء تحية العبودية والإخلاص إلى مولاي سيد القطرين، ابن رع ورب المشرقين.

فأعطاه فرعون العصا المعقوفة، فقبلها الكاهن في إجلال عميق، وقام الكهنة واصطفوا صقنين موسعين لفرعون، فسار تتبعه حاشيته إلى ساحة المذبح المحاطة بالأعمدة الشاهقة من كل جانب، وطافوا بالمذبح، وكان الكهنة يحرقون البخور، فينتشر أريجهم في جو المعبد، وتتففسه الرؤوس المنعكسة إجلالًا وقنوتًا. وأحضر بعض الحجاب ثورًا ذبيحًا، ووضعوه على المذبح قريبًا وزلفى، ثم تلا فرعون هذه الكلمات التقليدية:

مثلت في رحابك أيها الإله المقدس بعد أن طهرت نفسي. وقدمت القربان زلفى إليك، فامنن بالخير على أرض هذا الوادي الطيب، وأهله الأمنين.

وردت الكهنة الدعاء في صوت عال مؤثر، يفيض بالإيمان والتقوى، رافعين رؤوسهم إلى السماء، باسطين أيديهم في الهواء. وردت الحاضرون جميعًا الدعاء، وسرى الصوت إلى خارج المعبد، فسارع الناس في ترديده، وما هي إلا هنيهة حتى لم يبق لسان لم يلهج

ولاحت للأنظار فرقة العجلات تنطلق عشرة عشرة في صفوف متوازية دقيقة كأنما رسمت بالقلم، يجري العجلة جوادان مطهّان، ويقوم على ظهرها فارسان، سائق مزود بالسيف والمزراق، ورام مدرع يمسك قوسه بيد ويحمل جعبته بيد، فذكر المشاهدون لمرآها غزور النوبة وطور سيناء، وخالسوا أنهم يرونها تنتشر في السهول والوديان كالنسور المنقضة، والعدو يتشتت أمامها، وقد أذهله الرعب، واحاط به الهلاك، فاشتعل الحماس في عروقهم نازًا، وشق هتافهم السماوات.

وبدا للناظرين الموكب الفرعوني المهيب، تتقدمه العجلة الفرعونية، وتتبعها مباشرة أهلة من العجلات خماسي خماسي، تحمل الأمراء والوزراء وكبار رجال الكهنوت والقضاة الثلاثين وقواد الجيش وحكام الأقاليم، واختتم الموكب بذيل من الحرس الفرعوني على رأسه القائد طاهو..

ووقف فرعون في عجلته منتصب القامة، مهيب الطلعة كأنه تمثال من الجرانيت لا يميل يمينا ولا يسرة، ويصوب بصره إلى الأفق البعيد غير ملتفت إلى الخلق جميعًا، ولا إلى هتافهم الصاعد من أعماق القلوب.

وكان يضع على رأسه تاج مصر المزدوج، ويقبض بيد على السوط الملكي، وبالأخرى على العصا المعقوفة، وقد ارتدى فوق لباسه الملكي كساء من جلد النمر احتفالًا بالعيد الديني.

وأفعمت القلوب حماسة وسعادة، فتعالى الهتاف، فكاد لشدة أن يفزع الطير المحلق في السماء. وأثار الحماس رادوبيس نفسها فدبت بها حياة فجائية، وأضاء وجهها بنور بهيج، وصدقّت يداها الرخصتان..

وأقلت من بين الأصوات الهاتفة صوت يصيح على عجل: «ليحيى صاحب القداسة خنوم حتب»، فردت هتافه عشرات الأصوات، وأحدث هتافه انزعاجًا وأهاج ضجة شديدة، وتلفت الناس يبحثون عن الجسور الذي هتف باسم رئيس الوزراء على مسمع

«السلام عليك أيها النيل، يا من يعمّ فيضه الوادي  
مبشراً بالحياة والسعادة. إنك لتسكن الغياهب أشهراً،  
فإذا أصحخت إلى توسلات عبادك، ولان قلبك الكبير  
رحمة بهم، خرجت من الظلمات إلى النور، وانسبت في  
بطن الوادي زاخراً، فتبعث في الأرض الحياة،  
وسرعان ما تهرّ النباتات طرباً، وتفضّ الصحراء تحت  
بساط سندسيّ، وتزدهر البساتين، وتغني المغارس،  
وتصدح الطير، وتهف القلوب بنشوة الفرح، فيكسى  
العاري، ويطعم الجائع، ويروي الصديان، ويتزوج  
الأعزب، وتتلفع أرض مصر بالسعادة والمجد..  
تعاليت والمجد لك.. تعاليت والمجد لك..

ورتل كهنة المعبد أنشودة النيل على نغم القيثارة  
والمزمار والناي، وعلى توقيع الدفوف في ألحان عذبة  
وأنغام شجيّة.

ولمّا أن ضاعت الأنغام في تضاعيف الفضاء، تقدّم  
الأمير ناي من فرعون وأسلم إليه قرطاساً مخطوماً من  
البرديّ، يشتمل على دعاء النيل المعبود، فأخذه الملك  
ورفعه إلى جبينه، ثم تركه يهوي إلى النيل فحملته  
أمواجه المتدافعة في صخب صوب الشمال..  
وهبط فرعون أدراج الهضبة، وركب عجلته،  
ورجع الموكب كما أتى تحفّ به العظمة ويحوطه المجد،  
وتهف له قلوب الملايين من الرعايا المخلصين، وقد  
أهاجهم الحماس، وأسكرتهم نشوة الطرب.

## الصنَدَل

عاد الموكب الملكيّ إلى السراي الفرعونية، وظلّ  
الملك يحافظ على جلاله وهدوئه، إلى أن خلا إلى  
نفسه، فتبدّى الغضب على وجهه الجميل بصورة  
وحشيّة، وجبت لها قلوب الجوّاري اللاتي يخلعن  
ثيابه، فانتفخت أوداجه وتصلّبت عضلات جسمه،  
وكان سريع الانفعال شديد الغضب، لا تظمئنّ نفسه  
حتى تنزل العقاب الصارم بمن أثارها، وكان يدويّ في  
أذنيه الهتاف الأخرق، فيظنّه إنذاراً جريئاً موجّهاً إلى  
رغبته، فيشتدّ به الغضب وينذر بالويل والثبور..

بدعاء النيل المقدّس. ثمّ سار الملك وفي معيته كاهن  
المعبد، ويتبعها رجال المملكة إلى بهو الأعمدة ذي  
الصحون الثلاثة المتوازية، ووقفوا صفين بينها الملك  
وخادم الربّ، ثمّ رتلوا نشيد النيل المعبود بأصوات  
متهدّجة، تخرج بخفقات القلوب، فيرنّ صداها في  
جوّ المكان القاتم المهيب.

وصعد الكاهن الدرجات المؤدّية إلى البهو الخالد،  
واقترب من باب قدس الأقداس، وأبرز المفتاح  
المقدّس. وفتح الباب العظيم وانتحى جانباً، وركع  
ساجداً يصليّ. وتبعه الملك ودخل الحجر المقدّسة  
حيث يرقد تمثال النيل في السفينة الإلهية، وأغلق  
الباب، وكان المكان واسعاً: شاهق السقف، شديد  
الظلمة، قويّ الأثر، وعلى مقربة من الستار المسدل  
على تمثال الآلهة أقيدت الشموع على مناظد من  
الذهب الوهاج. ونفذت هيئة المكان إلى قلب الملك  
الكبير، فوهنت حواسه، وتقدّم في إجلال إلى الستار  
المقدّس وأزاحه بيده، وأحنى ظهره الذي لا ينحني  
أبدًا، وسجد على ركبتيه اليمنى ولثم قدم التمثال.  
وكان ما يزال مهيباً، ولكن غابت عن وجهه أي مجد  
الدنيا وكبرياتها، واكتست صفحته بلون باهت من  
الخشوع والتقوى.. وصلّى فرعون صلاة طويلة،  
واستغرق في العبادة ناسياً مجده التالد وعظّمته  
الدينيّة.

ولمّا بلغ النهاية لثم القدم المقدّسة مرّة أخرى، وقام  
واقفاً وأسدل الستار الكريم، وانسحب إلى الباب  
ووجهه إلى الربّ، حتى تنفّس هواء البهو الخارجيّ ثمّ  
أغلق الباب.

وحياّ القوم فرعون بالدعاء، وساروا وراءه إلى بهو  
المذبح، وتبعوه إلى خارج المعبد، وعرجوا جميعاً إلى  
حافة الهضبة المطلّة على النيل. ورآهم الأهلون  
المتجمّعون فوق أسطح السفن، فتعالت أصواتهم  
بالهتاف، ولوّحوا بالأعلام والغصون.

ودعى رئيس الكهنة إلى إلقاء الخطبة التقليديّة،  
فنشر بين يديه ورقة طويلة من أوراق البرديّ، وتلا  
بصوت قويّ الثبرات:

كانت منحا تنازل عنها أجدادنا ولكنها اكتسبت صفة الحقوق الكاملة، وأنت تريد يا مولاي أن تستردّها، فمن الطبيعي أن يقلقوا..

قال الملك الشاب بحدة:

- أريد أن أشيد قصورًا ومقابر، وأن أتمتع بحياة سعيدة عالية، ولا يقف في سبيل رغباتي إلا أن نصف أراضي المملكة في أيدي أولئك الكهنة.. أيجوز أن تعذبني رغباتي كالفقراء؟. ألا سحقًا لهذه الحكمة الفارغة، أو تعلمين ماذا حدث اليوم؟.. لقد هتف نفر منهم في أثناء سير الموكب باسم ذلك الرجل خنوم حتب.. أرايت آيتها الملكة؟.. إنهم يتحدثون فرعون عينًا لعين!

فاستولت الدهشة على الملكة، واصفر وجهها الوديع، وتمتمت بكلمات غير مسموعة، فقال الملك بلهجة ساخرة مريرة:

- ماذا دهاك آيتها الملكة؟

أحسّت بلا شك بانزعاج واستياء، ولولا أن الملك غاضب إلى حدّ الثورة لما حاولت أن تحفي غضبها، ولكنها تسلّطت على انفعالها بإرادة من حديد، وقالت بهدوء:

- دع هذا الحديث إلى وقت آخر، فإنك على وشك استقبال رجال مملكتك وعلى رأسهم خنوم حتب، وينبغي أن تقابلهم المقابلة الرسمية الكاملة.. فنظر فرعون إليها نظرة غامضة، وقال بسكينة مخيفة:

- إنّي أعرف ما أريد، وما ينبغي أن أفعل.

وفي الوقت المحدد، استقبل الملك رجال مملكته في البهو الرسمي العظيم، واستمع إلى خطب الكهنة، وآراء حكام الأقاليم، ولاحظ كثيرون أن الملك لم يكن راضيًا، وحين تفرّق الجمع استبقى الملك رئيس وزرائه وحده واختل به زمناً غير يسير، وملكت الحيرة النفوس، ولكن لم يجرؤ أحد على التساؤل، ثم ظهر رئيس الوزراء، وحاول كثيرون أن يقرءوا صفحة وجهه، لعلمهم يعثرون على بيّنة، ولكن وجهه كان جامداً كالصخر لا يبين.

وكان عليه أن ينتظر ساعة كاملة، قبل أن يستقبل رجال مملكته الرسميين، الذين جاءوا من أقصى البلاد للاشتراك في عيد النيل، ولكنه لم يستطع صبراً، فهرع كالريح الهوج إلى جناح الملكة، واقترح بابها بعنف. وكانت الملكة نيتوقريس جالسة بين وصيفاتها، تلوح في عينيها الصافيتين أي السلام والطمأنينة، فلما رأى الوصيفات الملك، وشاهدن الغضب يصرخ في وجهه، وقفن مرتبكات مضطربات، وانحنين له وللملكة، وانسحبن مسرعات لا يلوين على شيء.. ولبثت الملكة جالسة هنيهة، ترمقه بعينين هادئتين، ثم قامت في جلال، ودنت منه، ثم شبت على أطراف قدميها وقبّلت كتفه وقالت:

- أغاضب أيضاً يا مولاي؟

كان يحسّ بالحاجة القصوى إلى إنسان يطلعه على النار الموقدة في دماثة، فارتاح إلى سؤالها وقال بشدة:

- كما ترين يا نيتوقريس!

وكانت الملكة تشعر شعوراً قوياً بعد درايتها بأخلاقه، بأن واجبها الأول هو أن تذهب عنه حدة الغضب إذا أهاجه، فقالت بهدوء وهي تبتسم إليه:

- الحلم أحرى بالملك.

ولكنه هز كتفيه العريضين استخفافاً وقال:

- أتوصيني بالحلم آيتها الملكة؟ إنّه لثوب زائف يتقنّع به الضعفاء.

فقالت الملكة في تألم ظاهر..

- مولاي.. لماذا تضيق بالفضائل ذرعاً؟

- أحقّ أنا فرعون؟.. وهل حقاً أتمتع بشبابي وقوتي؟.. فكيف إذا أريد، ولا أستطيع نيل ما أريد؟.. كيف تنظر عيناى إلى أراضي مملكتي فيتصدى لي عبد ويقول: لن يكون هذا لك؟.

فوضعت يدها على ذراعه، وأرادت أن تجذبه إلى الديوان، ولكنه تخلّص منها، ومضى يذرع الحجره جيئة وذهاباً، غاضباً ساخطاً، فقالت بلهجة تنمّ على الأسف العميق:

- لا تصوّر الأمور لنفسك على هذا النحو.. واذكر دائماً أن الكهنة رعاياك المخلصون، وأن أراضي المعابد



وقال طاهو بقوة:

- لا يجوز أن يألم مولاي وفي المملكة سلاح لا ينلهم، ورجال يفتدونه بالأرواح، حقًا إن هؤلاء الكهنة على علمهم وخبرتهم، ينتخبون سبيل الرشاد، ويركبون رعوهم، ويعرضون أنفسهم إلى تهلكة لا قبل لهم بها..

فأحنى الملك رأسه ناظرًا إلى ما تحت قدميه، وقال:  
- إنّي أتساءل، هل قويل أحد من آبائي وأجدادي طوال عهد حكمه يمثل ما قويلت به اليوم من هتاف، وما مضى على جلوسي سوى بضعة أشهر؟..  
فالتمعت عينا طاهو بنور خاطف خفيف، وقال بيقين:

- القوّة يا مولاي.. القوّة يا مولاي.. كان أجدادك المقدّسون أقوياء، يحقّقون إرادتهم بعزيمة كالجبال، وسيف كالقضاء، كن مثلهم يا مولاي، لا تتردّد ولا تركز إلى الحلم، واضرب إذا ضربت ضربة شديدة لا تعرف الرحمة، تذهل الجبار عن نفسه، وتحنق في صدره أوهى الأمل.

ولم يرق هذا الكلام في عيني الشيخ الحكيم سوفخاتب، وذعر من حماس قائله، وأشفق من عواقبه، فقال:

- مولاي.. إنّ الكهنة منبثون في أقطار المملكة كالدم في الجسم، منهم: الولاة والقضاة والكتّاب والمرّبون، وسلطانهم على القلوب مبارك بيد الأرباب منذ القدم، وليس لدينا من قوّة حريّة سوى الحرس الفرعونيّ وحامية بلاق، فالضربة القاسية قد تأتي بعواقب غير محمودة..

ولم يكن طاهو يؤمن بغير القوّة، فقال:

- وما عسى أن نفعل أيّها المشير الحكيم؟..  
أنستوصي بالصبر حتّى يقتحمنا عدونا، ونردّ في عينيه إلى الهوان؟

- ليس الكهنة بأعداء لفرعون، ومعاذ الربّ أن يوجد لفرعون من شعبه عدوّ، فالكهنة طائفة مخلصّة أمينة، وما نأخذ عليهم إلّا أنّ امتيازاتهم أكثر ممّا يقتضي الحال، وأقسم أنّي ما يشست يومًا من إيجاد الحلّ

وأمر الملك مستشاريه المقربين، سوفخاتب كبير الحجاب وطاهو رئيس الحرس، أن يسبقاه إلى موضع سمرهم على شاطئ بركة الحديقة، ودار في الممرّات المعشوشبة، يبدو على وجهه الأسمر ارتياح، كأنّه أرضى الغضب العنيف الذي طال به بالتأّر منذ حين قليل، فمشى الهويني يستروح الشذا الطيب الذي تبعث إليه به الأشجار تحيّة وسلامًا، ويتقلّ ناظره بين الأزهار والثمار، ثمّ اتخذ سبيله إلى البركة الغنّاء، فوجد رجله في انتظاره: سوفخاتب بجسمه النحيل الطويل، ورأسه الأشيب، وطاهو بجسمه القويّ الفولاذيّ الذي تربّى على متون الخيل والعجلات.

وحاول كلا الرجلين أن يقرأ صفحة وجه الملك بإمعان ليستكّنه باطنه ويطمئنّ على السياسة التي يشير باتباعها نحو الكهنة، وكانا سمعا الهتاف الجريء الذي عدّ في جميع الدوائر تحديًا لسلطة فرعون، وكانا يتوقّعان له رجعًا شديدًا في نفس الملك الشابّ، وعلمًا بعد ذلك باستبقاء فرعون لرئيس وزرائه بعد انتهاء التشريعات، فحقق قلباهما، وأشفق سوفخاتب من عواقب غضبة الملك، لأنّه كان ينصح دائميًا بالتؤدّة والأناة والصبر، وبمعالجة مشكلة الأراضي بمتهمي الاعتدال، أمّا طاهو فكان يرجو أن يدفع غضب الملك إلى الانضمام إلى رأيه، فيصدر أمره بتزع أملاك المعابد وينذر الكهنة إنذارًا نهائيًا..

وجعل الرجلان المخلصان ينظران إلى وجه مولاهما، يرجوان، ويكابدان قلقًا أليماً، ولكنّ فرعون كتم عوطفه، وطالعها بوجه كأبي الهول. وكان يعلم بما تضطرم به نفساهما، وكأنّه رغب في أن يمدّ لهما حبل الوسواس، فجلس على أريكة في هدوء، وأمرهما بالجلوس، وسرعان ما عاودت وجهه هيئة الجدّ والاهتمام، فقال:

- يحقّ لي اليوم أن أغضب وأن أتألم.

وفهم الرجلان ما يعني، وردّ في أذنيها الهتاف الجريء مرّة أخرى. فرفع سوفخاتب يديه تألّمًا وإشفاقًا، وقال بصوت متهدّج:

- تعالی مولاي عن دواعي الألم والغضب!

في الغالب إلى الشعب والفقراء، وينفق في وجوه التعليم والتربية الخلقية، وحاول أن يفيض، ولكني أوقفته بإشارة من يدي، وقلت له: إن هذه هي إرادتي، وإن عليه تنفيذها دون إبطاء، وأذنته بانتهاه المقابلة.

فلم يتمالك طاهو أن صاح فرحاً:  
- باركتك الأرباب جميعاً يا مولاي!

فابتسم الملك ارتياحاً، ولاحظ منه نظرة إلى وجه سوفخاتب في ساعة خذلانه، فأحسن نحوه بعطف وقال:

- أنت رجل مخلص يا سوفخاتب، ومشير نصح.. فلا يحزنك أن خولف رأيك.

فقال الراجل:

- لست يا مولاي من قوم مغرورين، يغضبون أشد الغضب إذا خولفت نصيحتهم، لا خوفاً من العواقب، ولكن ذوداً عن كرامتهم، حتى ليلبغ الغرور بأحدهم أن يتمنى لو يقع شرّ كان أنذر به، ليعرف من لا يعرف قدره.. أعوذ بالربّ من شرّ الغرور، فما يدفعني إلى محض النصيحة سوى الإخلاص وما يحزني حين مخالفتها سوى الإشفاق من صدق حدسي، وما أتمنى على الربّ من شيء إلا أن يكذب رأيي، ليطمئن قلبي..

وكأنّ فرعون أراد أن يطمئنه، فقال:

- لقد نلت بغيتي، ولن ينالوا شيئاً مني، فمصر تعبد فرعون، ولا ترضى عنه بدلاً..

فأمّن الرجلان على قول مولاها بإخلاص، ولكن كان سوفخاتب مضطرباً، يحاول عبثاً أن يقلل من خطورة الأمر الذي أصدره فرعون، ويذكر في ضيق صدر أنّ الكهنة سيتلقون الأمر الشديد وهم مجتمعون في أبو، فيتسع لهم المقام لتبادل الرأي، وتبيات الشكوى، فيعودون إلى ولاياتهم وقد أطبقت أفواههم على التذمر والحزن، وإنه ليعلم علم اليقين من هم الكهنة وما هو نفوذهم على القلوب والعقول.. ولكنه لم يبن عن آرائه، لأنه وجد الملك فرحاً راضياً ضاحك

الموفق الذي يحقق رغبة مولاي، ويحفظ للكهنة حقوقهم.

وكان الملك يستمع إليهما في هدوء، وعلى فمه العريض ابتسامة غامضة، فلما أتمّ سوفخاتب كلامه، قال بهدوء وهو يرمقهما بعينين ساخرتين:

- أريحا نفسيكما أيها الرجلان المخلصان، فقد أطلقت سهمي.

واستولت الدهشة على الرجلين، ونظرا إلى الملك في إشفاق وأمل وخوف. وكان طاهو أذن إلى الأمل، أما سوفخاتب فامتقع وجهه وعضّ على شفتيه، وانتظر صامتاً سماع الكلمة الفاصلة. وقال الملك بلهجة نمت عن الزهو والتشفي:

- تعلقان آتي استبقيت الرجل بعد انصراف الناس جميعاً، ولما أن خلا المكان ابتدرته قائلاً: إنّ الهتاف باسمه تحت سمعي وبصري عمل حقير خئون، وأكدت له أنّي لا أعدم الهاتفين من شعبي النبيل الأمين، فرأيته يضطرب ويبهت، ويحني رأسه الكبير على صدره الضيق، وفتح فمه ليتكلم، ولعله كان يريد أن يعتذر بصوته الهادئ البارد..

وقطبّ الملك جبينه، وصمت لحظة، ثم استطرد قائلاً بعنف:

- ولم أتركه يعتذر فقطعت عليه بإشارة من يدي، وصارحته بكلام صارم، مؤكّداً له أنّه من تفاهة العقل أن يظنّ مثل ذاك الهتاف يرّدني عن رأي اعترمته، ثم أخبرته بأنّ نيتي انتهت إلى ضمّ أملاك المعابد إلى أراضي التاج، وأنّه لن يترك للمعابد منذ اليوم إلا ما يقوم بحاجتها من الأراضي والنذور..

وكان الرجلان يصغيان بكلّ حواسهما إلى حديث الملك، أما سوفخاتب فكان ممتقع اللون، منكفئ الوجه، يعاني مرارة الخيبة؛ وأما طاهو فكان متهللاً فرحاً، كأنه يستمع إلى لحن جميل، يتغنى بمجده وعظمته، واستدرك الملك قائلاً:

- لا شك أنّ قراري أذهل خنوم حتب، وأخرجه عن طوره، فبدا عليه الجزع، وتوسّل إليّ قائلاً: إنّ أراضي المعابد هي أراضي الأرباب، وأنّ خيراتها تعود

فابتسم الملك قائلاً:

- لا يوجد في حديقتي شجر يتساقط منه نبت طيب كهذا.

وقال سوفخاتب:

- يعتقد العامة يا مولاي أن النسر يتعشق الحسان، وأنه يحظف من العذارى من تهوى إليها نفسه، ويطير بها إلى قمم الجبال، فلعل هذا النسر عاشق هبط منف وابتاع الصندل لحبيته، ثم خانه الحظ فأقلت من بين مغالبه، وسقط عند قدمي مولاي.

وجعل الملك يتأمله مسروراً منفعلاً، ويقول:

- ترى كيف خطفه؟.. أخشى أن يكون لإحدى ساكنات السماء..

فعاد سوفخاتب يقول باهتمام:

- أو لإحدى ساكنات الأرض يا مولاي، خلعت مع ثيابها على شاطئ بركة، وتعرّت تستحم، فجاء النسر وخطفه.

- ورمى به إلى حجري.. يا للعجب، لكأني به يعلم مجيئي للحسان!..

فابتسم سوفخاتب ابتسامة ذات معنى، وقال:

- أسعدت الآلهة أيامك يا مولاي.

وتبدت الأحلام في عيني الملك، وابتسمت أساريره، ولان جبينه، وتوردت وجنتاه، وكان ينظر إلى الصندل لا تفارقه عيناه، ويسائل نفسه ترى من صاحبه؟ وما صورتها؟ وهل هي جميلة كصندلها؟ وكيف لا تدري أن صندلها سقط في حجر الملك وما شأن الأقدار التي نصبته هدفاً له؟. وعثر بصره بصورة منقوشة على باطنه، فقال وهو يشير إليها:

- ما أجمل هذه الصورة.. إنه فارس وسيم، يقدم قلبه هدية على يده المسوطة.

ووقعت هذه العبارة من قلب الرجلين موقع الانتباه الشديد فالتمعت أعينها بنور خاطف، وتطلعا إلى الصندل باهتمام عظيم، وقال سوفخاتب:

- هل يتنازل مولاي عن الصندل لحظة؟

فأعطاه، ونظر إليه كبير الحجاب، كما نظر إليه طاهو، ثم رده الرجل إلى الملك وهو يقول:

الثغر، فأشفق من تعكير صفوه، وبسط صفحة وجهه، ورسم على شفثيه ابتسامة راضية.

وقال الملك بسرور:

- لم أشعر بمثل نشوة الظفر هذه منذ اليوم الذي انتصرت فيه على قبائل المعصايو جنوب النوبة في حياة أبي، فلنشرب نخب هذا الفوز السعيد.

وجاءت الجوارى بإبريق من خمر مريوط وكثوس ذهبية، وصبين الخمر، وقدمن كثوساً مترعات إلى الملك والرجلين المخلصين، فشربوا في صفاء وهناء، وعلّوا في نشوة، وجعل سوفخاتب يذبّ عن قلبه الخواطر المقلقة، ليركّز حواسه في رحيق مريوط، ويشارك الملك والقائد سعادتها، وكانوا جلوساً صامتين تبادل أعينهم المودة والصفاء، والبركة من تحتمهم يستحمّ في مائها الطرب شعاع الشمس المائل، والأشجار من حولهم ترقص أغصانها على شدو الأغاريد، وتنبثق الأزهار من بين أوراقها انبثاق الخواطر السعيدة من غيابات النفوس.. واستسلموا إلى يقظة ناعسة زمناً غير يسير حتى انتهوا على حادثة غريبة انترعتهم من أحلامهم بعنف، إذ سقط شيء في حجر الملك من عل، فانتفض واقفاً، وتبعه الرجلان، فسقط الشيء عند قدميه، وإذا به صندل ذهبي، ونظروا إلى أعلى دهشين، فأروا نسرًا هائلاً يحلق في سماء الحديقة فوق رؤوسهم ويبعث في الفضاء صرصره مخيفة، ويصليهم نظرات ملتهبة من عيين متقدتين، ثم ضرب بجناحيه الهواء ضربة عنيفة حلّق بها في أفاق بعيدة..

وعادوا بالنظر إلى الصندل، والتقطه الملك بيده. وجلس يتأمله بعينين مبتسمتين تلوح فيهما أي الدهشة. ونظر الرجلان إلى الصندل بغرابة، وتبادلا نظرات الإنكار والدهشة والارتباب.

ومضى الملك في تأمله، ثم غمغم قائلاً:

- هذا صندل امرأة بلا ريب، ما أجمله وما أتمنه!

وتساءل طاهو وعيناه تلتهمان الصندل:

- ترى هل خطفه النسر؟

فضحك الملك بصوت عال، وقال:  
- كلاكما يغريني وصفه.  
فقال سوفخاتب:  
- ألا فلتروك سماء مصر بأجل ما تظن من السعادة  
يا مولاي.

ونزع خيال الملك به إلى النسر، فتولاه عجب  
ساحر، أضفى عليه ما سمعه نسيجا رقيقا من الفتنة  
والأحلام. فتساءل وكأنه يحدث نفسه:

- ترى أحسن النسر في اختيارنا هدفاً له أم أساء؟  
واختلس طاهو نظرة عاجلة من وجه مولاه المكب  
على ما بين يديه، وقال في حيرة:

- ما هي إلا مصادفة يا مولاي. وما يؤسفني إلا أن  
أرى هذا الصندل الملوّث بين يدي مولاي العبودتين.  
ولحظ سوفخاتب صاحبه بنظرة ساخرة متشقة،  
وقال بهدوء:

- مصادفة؟.. إن هذه الكلمة يا مولاي مهضومة  
الحق، يظنّ بها التخبط والعمى، ومع هذا فهي  
المرجع الوحيد لأغلب السعادات وأجل الكوارث، فلم  
يبق للألهة إلا القليل النادر من حادثات المنطق، كلاً  
يا مولاي، إن كلّ حادثة في هذا العالم لا شك موكلة  
بإرادة ربّ من الأرباب، ولا يجوز أن تخلق الآلهة  
الحادثات - جلّت أو تفهت - عبثاً أو لهواً.

فجنّ جنون طاهو، وكظم بقوة تيار غضب جنوني  
كساد أن يجرف هدوءه في حضرة الملك، وقال  
لسوفخاتب بلهجة تنمّ على اللوم والتعنيف:

- أتريد أيها المعظم سوفخاتب أن تشغل بال  
مولاي، في هذه الساعة الجليلة، بأمثال هذه الأوهام؟  
فقال سوفخاتب بهدوء:

- إن الحياة جدّ وهو، كما إن اليوم نهار وليل،  
والرجل الحكيم من لا يذكر في أوقات جدّه أسباب  
لهو، ولا يعكّر صفو لهو بأمور جدّه. فمن أدراك أيها  
القائد، فلعلّ الآلهة لسابق علمها بحبّ مولانا الجمال،  
أرسلت إليه هذا الصندل على يد النسر العجيب.

وقلّب الملك عينيه في وجهيهما واستضحك قائلاً:  
- أداثاً على اختلاف أيها الرجلان؟ كما تشاءان.

- صدق حدسي يا مولاي.. هذا صندل رادوبيس  
غانية ببيجة الشهيرة.

فتساءل الملك قائلاً:  
- رادوبيس.. يا له من اسم جميل.. من عسى أن  
تكون صاحبه؟!..

وساور القلق قلب طاهو واختلجت عيناه فقال:  
- هي راقصة يا مولاي يعرفها أهل الجنوب جميعاً.  
فابتسم فرعون وقال:

- ألسنا من أهل الجنوب؟. حقاً إن الملوك قد  
تحترق أعينها سجف الألق القصي، وتعمى عما يقع  
عليه ظلّها.

واشتدّ القلق بطاهو، فقال وقد امتقع لونه:  
- إننا امرأة يامولاي قد طرق بابها رجال أبو  
وبيجة وبلاق.

وكان سوفخاتب يعلم بما يساور قلب صاحبه من  
المخاوف، فقال وهو يبتسم ابتسامة غامضة مآكرة:  
- على أية حال هي صورة أنثوية يا مولاي،  
جعلتها الآلهة آية على قدرتها وإعجازها.

فردّد الملك ناظره بين الرجلين وقال مبتسماً:  
- وحقّ الربّ سوتيس إنكما لأخبر أهل الجنوب بها.  
فقال سوفخاتب بهدوء:

- إنّ هو استقبأها يا مولاي ملتقى أهل الرأي  
والفنّ والسياسة.

- حقاً إنّ الجمال عالم ساحر، يطالعنا كلّ يوم  
بالمعجزات، هل هي أجمل من رأيت؟

فقال سوفخاتب باطمئنان:  
- هي الجمال عينه يا مولاي، هي فتنة قهارة،  
وعاطفة لا تقاوم. لقد صدق الفيلسوف هوف وهو من

أصدقائها المقربين إذ قال يوماً: إنّه من أخطر الأمور في  
حياة الرجل أن تقع عيناه على وجه رادوبيس.

وتهدّ طاهو يائساً، وحجج كبير الحجاب بنظرة  
خاطفة فهم معناها، ثمّ قال:

- إنّ جمالها يا مولاي جمال شيطانيّ رخيص، لا  
تضنّ به على طالب!

رادوبيس ٢٤١

- أما كان يجمل بك ألا تفتن خيال مولانا بحسنا  
إكراماً لي ؟  
فبدت الدهشة على سوفخاتب، وقال باهتمام  
وأسف صادق:  
- أحقاً أنك تجد في الأمر جدًّا؟ .. أم أنك ضقت  
بدعابتي ذرعاً؟ ..  
فقال طاهو بسرعة:  
- لا هذا ولا ذلك أيها المعظم، ولكن يسوعي فقط  
أن نختلف دائماً.  
فابتسم كبير الحجاب، وقال بهدوئه الطبيعي:  
- لن يزال يجمعنا رباط وثيق هو الإخلاص  
لصاحب العرش !

## قَصْر بِيَجَة

غاب الموكب الفرعوني عن الأنظار، ورفعت تماثيل  
ملوك الأسرة السادسة، فاندفع الناس من جانبي  
الطريق، فتلاطمت أصواتهم، واختلطت أنفاسهم،  
كأنهم بحر موسى الذي انشق له طوعاً، وانقضَّ على  
أعدائه كاسراً. فأمرت رادوبيس عبيدها بالعودة إلى  
السفينة. وكانت نشوة الحماس التي انبعثت في قلبها  
لدى ظهور فرعون ما تزال تلتهب في قلبها ناراً وتندفع  
إلى أطرافها دماً حاراً. وكانت صورته لا تفارق مخيلتها.  
لشبابه الغض، ونظراته المتعالية، وقده الرشيق،  
وعضلاته المفتولة.

وكانت رآته قبل ذلك في يوم التتويج العظيم منذ  
شهور قلائل، وكان يقف في عجلته كما وقف اليوم  
فارع الطول جاهر الجمال، مرسلًا بناظره إلى الأفق  
البعيد، وقد تمتت يوم ذاك كما تمتت اليوم لو عطف  
إليها عينيه.

ترى لماذا؟ .. ألا تظن أن يفوز جمالها بما هو  
أهله من التكريم؟ أم لأنها تودُّ في أعماقها لو تراه في  
هيئة البشر بعد أن رآته في قداسة الأرباب المعبودة؟  
كيف السبيل إلى فهم هذا التمتي؟ .. على أنه مهما

ولكن كان ينبغي أن أجد في طاهو الرجل مغرباً  
باهوى، وفي سوفخاتب الشيخ زاجراً عنه، وعلى آية  
حال لا مندوحة لي من الميل مع رأي سوفخاتب في  
الحب، كما ملت إلى رأي طاهو في السياسة.

وقام الملك واقفاً، فقام الرجلان، وألقى نظرة  
على الحديقة الواسعة وهي تودِّع الشمس المائلة نحو  
الأفق الغربي، وقال وهو يهيم بالسير:  
- أمامنا ليلة عمل شاقّة. فإلى الغد، ولسوف نرى.

وذهب فرعون والصندل في يده، فانحنى الرجلان  
في إجلال.

ووجدا نفسيهما منفردين مرة أخرى فوق كل منها  
بإزاء صاحبه: طاهو بجسمه الطويل وصدرة العريض  
وعضلاته الفولاذية، وسوفخاتب بجسمه الدقيق  
التحيل وعينه الصافيتين العميقتين وابتسامته الجميلة  
العظيمة.

وكان كلٌّ منهما يحسّ بما اختلج في صدر صاحبه،  
فيتسم سوفخاتب، ويقطب طاهو جبينه. ولم يستطع  
القائد أن يودِّع الحاجب بغير قول ينقّس به عن صدره  
الكظيم، فقال:  
- غدرت بي أيها الصديق سوفخاتب، بعد أن لم  
تطق منازلتي وجهاً لوجه . .

فرفع سوفخاتب حاجبيه إنكاراً، وقال:  
- يا له من كلام بعيد عن الحقّ أيها القائد، مالي أنا  
والحبّ؟ ألم تعلم بأنّي شيخ فان، وأنّ حفيدي سنب  
طالب في جامعة أون؟

- ما أسهل تزوير الكلام عليك أيها الصديق،  
ولكنّ الحقيقة تهزأ بلسانك اللبق الحكيم . . ألم يمل  
قلبك الفتى يوماً إلى رادوبيس؟ ألم يسؤك أن تهني  
عطفاً لم تظفر به أنت؟

فرفع الشيخ يديه يستعيز من كلام القائد، وقال:  
- إنّ خيالك لا يقلّ عن عضلات ساعدك الأيمن،  
والحقّ أنّه إذا كان قلبي مال إلى هذه الغانية يوماً،  
فعل طريقة الحكماء المبرّة من الطمع !

كانت حقيقته، فقد تمتت صادقة، وتمتت مخلصه مشوقة.

لبثت الغانية مستغرقة في غمرات أحلامها، فلم تمنع بالالتفات إلى الطريق المزدحم الذي يجتازه ركبها الصغير بشق الأنف، ولم تلق أدنى انتباه إلى الآلاف من الخلق الذين يكادون أن يلتهموها، بنهم وشراهة. وصعد بها إلى السفينة ونزلت من الهودج في المقصورة، واطمأنت إلى عرشها الصغير، وهي في شبه غيبوبة تسمع ولا تعي، وتنتظر ولا ترى. . وانسابت بها تشق وجه النيل الرزين، حتى رست إلى سلم حديقة قصرها الأبيض، عروس جزيرة بيحة. وكان القصر يرى عن بعد في نهاية الحديقة البانعة التي تنتهي معارجها إلى سيف النيل، تحوط به أشجار الجميز، ويحنو عليه النخيل، كأنه زهرة بيضاء نبتت في أحضان تلك الجنة الوارفة. فهبطت أدراج السفينة، ووضعت قدمها على أولى درجات الحديقة، وصعدت سلمًا من المرمر المصقول، يمتد بين سورين من الجرانيت تنتصب على الجانبين مسلات عالية نقشت عليها أشعار رقيقة لرامون حتب، إلى أن بلغت أرض الحديقة السندسية.

واجتازت بوابة من الحجر الجيري نقش اسمها على واجهتها باللغة المقدسة، وقام في وسطها تمثال لها بالحجم الطبيعي، نحته هنفر، وأفنى فيه دهرًا جميلًا من أسعد أيام حياته، يُثلها جالسة على عرشها الجميل الذي تستقبل عليه المقربين، ويكشف في روعه فتية رائعة عن جمال الوجه، وتكعب الثدين، ورشاقة القدمين. ثم خلصت إلى ممر وسيط اصطفت على جانبيه الأشجار تعانقت أعالي أغصانها، فظللت عليه سققًا من الأزهار والأوراق الخضراء، وفرشت أرضه بالحشائش والأعشاب، وكانت توازيه عرضًا من اليمين والشمال ممرات جانبية قدت على نفس الصورة، تنتهي ذات اليمين إلى سور الحديقة الجنوبي، وذات الشمال إلى سورها الشمالي. وكان هذا الممر ينتهي إلى الكرمة المتفرعة المتسلقة على أعراش من عمد رخامية، تنبسط إلى يمينها غابة من الجميز، وتمتد إلى يسارها غابة من

النخيل أقيمت فيها هنا وهناك بيوت القردة والغزال، وانتشرت في جنباتها المترامية التهايل والمسلات.

وانتهت بها قدماها إلى بركة واسعة من ماء غير آسن، ينطلق على شطآنها نبات اللوتس، ويسبح على سطحها الأوز والبطة وتغني في جوها الأطيوار، وقد انتشر شذى العطر وأريج الزهر وغردت البلابل.

ودارت حول البركة نصف دورة كاملة، فصارت أمام الحجر الصيفية، ووجدت في استقبالها جماعة من الجوارى انحنين لها إجلالًا، ثم وقفن ينتظرن أوامرها، وأسلمت الغانية نفسها إلى أريكة مظلمة تستريح. . ولم يطل بها المقام فانتفضت واقفة، وقالت لجوارياها:

- كم ضايقتني أنفاس القوم الحارة. . وكم أرهقني الحر. . اخلعن ثيابي، فقد تقى إلى مياه البركة الباردة.

فدنت الجارية الأولى من سيدتها، ورفعت بخفة خاها الموشى بالذهب نسيج منف الخالدة.

ثم تقدمت اثنتان فخلعتا العباءة الحريرية، فكشفتا عن قميص شفاف انحسر عما فوق التهدين وما تحت الركبتين، ثم تبعتهما جارتان فسحبتا بيدين رقيقتين القميص السعيد، ورؤعتا الدنيا بجسد طليق، خلقتة الآلهة جميعًا، وأدعه كل لقدرته وقتها!

واقتربت جارية أخرى وحلت عقدة شعرها الفاحم، فانساب على جسدها، وغشاها من الجيد إلى الرسغين، وانحنت على قدميها وخلعت صندلها الذهبي ووضعت على حافة البركة. ومشت الغانية تتهادى، وهبطت درجات البركة المرمرية على مهل، ومضى الماء يغمر القدمين، فالساقين، فالفخذين، ثم ألفت بجسمها في الماء الهادئ يأخذ منه عطرًا ويعطيه بردًا وسلامًا. واستسلمت لمداعبة الماء في رخاوة، ولعبت فيه ما شاء لها الهوى والمرح، وسبحت طويلًا تارة على بطنها، وتارة على ظهرها، وثالثة على أحد جانبيها.

وما كانت لتعير شيئًا اهتمامًا لولا أن صك أذنيها صراخ فزع يرسله جوارياها، فتوقفت عن السباحة،

رادوبيس ٢٤٣

سنّ الفيل، وقاعدته من الذهب الخالص المحلّى بالزمرّد والياقوت، وقد أهدها إياها حاكم جزيرة ببيجة.

ولم يطل انتظار الغانية، فدخل عبد من عبيدها، وأعلن قدوم السيّد عانن تاجر سنّ الفيل. ودخل الرجل على الأثر يهرول في ثيابه الفضفاضة، ويزهو بشعره المستعار، يتبعه عبد يحمل صندوقًا من العاج المطعم بالذهب، وضعه على كتف من كرسيّ الغانية، ورجع من حيث أتى. وانحنى التاجر على يد رادوبيس، ولثم أناملها، فابتسمت له، وقالت بصوتها الخلو:

- أهلاً بك أيّها السيّد عانن. كيف حالك؟  
أهكذا لا تراك إلّا كلّ دهر طويل!

فضحك الرجل سعيدًا مسرورًا، وقال:  
- ماذا أصنع يا مولائي!.. هي حياتي التي اخترتها أو التي فرضتها الأقدار عليّ، أن أكون أخا سفر، جوّاب أرض، تتقاذفي البلدان، فأقضي نصف عامي في بلاد النوبة، ونصفه الثاني ما بين الجنوب والشمال، أشتري وأبيع، وأبيع وأشتري، لا أعرف لحياتي مستقرًا!!

فنظرت إلى الصندوق العاجي وهي لا تزال تبتسم وسألته:  
- وما هذا الصندوق الجميل؟ أخال أنّه هديّة من هداياك النفيسة!

- ليس الصندوق بالذات، ولكن ما فيه.. هو سنّ فيل مفترس، أقسم التاجر النوبي الذي ابتعته منه أنّ صيده كلّفه أربعة من رجاله الأشداء، فحفظته في مكان أمين، ولم أعرضه على الطالبيين. ولما أقيت عصا الترحال في تنيس، دفعت به إلى أيدي صانعيها المهرة، فبطّنوه بقشرة من خالص الذهب، وطلوه من الخارج، فصار كأسًا لا يشرب منها إلّا الملوك.. وقلت لنفسي: أحرى بتلك الكأس التي كلّفت نفوسًا غالية، أن تهدي إلى من تبذل في سبيلها النفوس العزيزة رخيصة، وهي راضية.

والتفتت إليهنّ، فراعها أن رأت نسرًا هائلًا يحلّق من علّو قريب من شاطئ البركة، ويرفّ بجناحيه، ففرت من بين شفيتها صرخة فرع، وغاصت في الماء تنتفض فرغًا ورعبًا، وتصبّرت بجهد جهيد، وحبست أنفاسها طويلاً حتّى أحست بالاختناق، ونفدت قدرتها فرفعت رأسها في خوف وحذر، ونظرت فيما حولها وهي تخشى، فلم تر شيئًا. فنظرت إلى السماء فوجدت النسر يوتي بعيدًا يوشك أن يلج باب الأفق، فسبحت إلى الشاطئ على عجل، وصعدت الأدراج مسرعة مضطربة، ووضعت قدمها في إحدى زوجي صندلها، ولكتّها لم تجد الأخرى، وبحث عنها طويلاً ثمّ سألت:

- أين الأخرى؟

فأجابها الجوّاري في قلق:

- خطفها النسرا

وتبدّى الأسف على وجهها، ولكتّها لم تجد متسّمًا من الوقت لإعلان سخطها، فدلفت إلى الحجر الصفيّة، والجوّاري من حولها وبين يديها يجفّفن جسدها الغضّ، تنحدر عليه نقط الماء كأنّها لؤلؤ يتشتر على أديم عاج.

\*\*\*

ولدى الغروب تأهّبت لاستقبال الضيوف، وما أكثرهم في أيام العيد التي تجذب الناس إلى الجنوب من كلّ صوب، فارتدت أجمل ثيابها، وأزيّنت بأفخر حلّيها، ثمّ تركت المرأة إلى بهو الاستقبال، تنتظر القادمين وقد آن موعدهم.

وكان البهو آية من آيات الفنّ والعمارة، بناه المعمار هني، وجعل صورته على هيئة بيضاوية، وشيّد جدرانها من الجرانيت كيبوت الأرياب، وكساه بطبقة من الصوّان ذات ألوان تسرّ الناظرين، وكان سقفه مقببًا تزيّنه الصور والتماويل، وتتدلّى منه المصابيح الكفّنة بالذهب والفضّة.

وزخرف الجدران المثل هنفر، وتنافس العسّاق في تأثيثه بإهداء المقاعد الوثيرة والدواوين الفاخرة، والرياش الجميلة. وكان عرش الغانية أبدع هذه التحف جميعًا، فهو من العاج الثمين على قوائم من

مريضة، وقد بعثت إليّ رسولا يبلغني رغبتها في رؤيتي، فلم أبدأ من السفر.  
- خفقت الأرباب عنها وعنك.  
فشكرها هنفر وقال:

- لا تظنيّ أنّي نسيت الحجرة الصيفية، ففي الغد يأتيك أنبغ تلاميذي بنامون بن بسار، ويقوم بزخرفتها على أكمل الوجوه، إنّني أتق به تقنيّ بنفسي، ولعلّك ترخّين به وتشجّعينه.  
فشكرته على عنايته بها، ووعدته خيرا.

واطرّد تيار القادمين، فجاء المعمار هني، وقفاه آني حاكم الجزيرة، وتبعها بعد حين قليل الشاعر رامون حتب. وكان آخر من أتى الفيلسوف هوف، الذي كان في يوم من الأيام أستاذ جامعة أون الأكبر. وقد عاد أخيرا إلى أبو مسقط رأسه، بعد أن نيف على السبعين من عمره، وكانت رادوبيس لا تفتأ تداعبه، فقالت له وهي تستقبله:

- ما لي إذا رأيتك أشتهي أن أقبلك؟  
فقال الرجل بهدوء:

- لعلّك يا مولاتي من هواة التحف القديمة.

\*\*\*

ودخلت جماعة من الجوّاري يحملن أواني من الفضة ملكت طيبا، وباقات من أزهار اللوتس، فدهنّ رعوس الحاضرين وأيديهم وصدورهم بالطيب، وأهدين إلى كلّ منهم زهرة من اللوتس.

وقالت رادوبيس بصوت عالٍ:

- ألم تعلموا بما حدث لي اليوم؟

فتطلّع إليها الجميع بانتباه، وساد الصمت، فقالت باسمّة:

- نزلت أستحمّ ظهر اليوم في البركة، فهبط نسر بغتة وخطف فردة صندلي الذهبيّ، وطار بها.

فبدت الدهشة والابتسامّة على الوجوه، وقال الشاعر رامون حتب:

- إنّ رؤيتك في الماء عارية تهبّح الطيور الكاسرة!

فضحكت رادوبيس ضحكة رقيقة، وقالت:  
- شكرا لك أيها السيّد عانن.. إنّ هديّتك على نفاستها لا تعدل بجبال حديثك!  
فطرب آيما طرب، ورنّا إليها بعين ناطقة بالإعجاب والتوسّل، وقال بصوت خافت:  
- ما أجملك!.. ما أفتنك!.. كلّما عدت من سفر طويل أجلك أجل وأفتن ممّا تركتك، وكأنيّ بالزمان ولا عمل له إلاّ السموّ بحسبك الفاتن.  
وكانت تصغي إلى إطرأ حسنها، كمن يصغي إلى نعمة معادة، فطاب لها أن تهكّم به فسألته:  
- كيف حال أبنائك؟!.

فأحسّ بشيء من الخيبة، وصمت لحظة، ثمّ انحنى على الصندوق ورفع غطاءه، فبدأ الكأس نائما على جانبه، ثمّ قال وهو يرفع رأسه إليها:  
- ما ألدع سخريتك يا سيّدي! ومع هذا فلن تجدي شعرة بيضاء برأسي، وهل يستطيع من تقع عيناه على وجهك أن يحتفظ في قلبه بأذن حرارة لامرأة سواك!.

فلم تجبه، وما تزال تبسم، ثمّ دعت للجلوس فجلس قريبا منها. واستقبلت على أثر ذلك جماعة من التجّار وكبار المزارعين، منهم من يتردّد على قصرها كلّ مساء، ومنهم من لا تراه إلاّ في الأعياد والمناسبات، فرحبت بهم بابتسامتها الفاتنة، ثمّ رأت المثال هنفر يلج باب البهو بقامته الرشيقّة، وحنجرته النائنة، وشعره المفلفل، وأنفه الأفطس، وكان من الرجال الذين تستخفّ ظلّهم، فأعطته يدها، ولثمها الرجل في حبّ عميق. وقالت تداعبه:

- أيها الفتان الكسول.

ولم يرض هنفر عن هذا الوصف فقال:

- لقد انتهيت من عملي في زمن قصير.

- والحجرة الصيفية؟

- هي الباقية بلا زخرف، وإنّه ليؤسفني أن أقول

لك بأنّي لن أزخرفها بنفسي.

فبدأ التساؤل على وجه رادوبيس، فقال الرجل:

- سأرحل بعد غد إلى بلاد النوبة، لأنّ أمي



رادوبيس ٢٤٥

فأمن الرجل على قوله، وتنبه عند ذاك الحاكم أي إلى وجود السيد عانن، وكان يعرفه، ويعلم بأنه كان في رحلة في الجنوب، فقال له:  
- عود سعيد يا عانن، كيف كانت سفرتك هذه المرة؟

فأخى الرجل رأسه احتراماً، وقال:  
- حفظتك الآلهة من كل سوء أيها الحاكم الجليل، لم أتوغل هذه المرة فيما وراء إقليم الواويو، وكانت رحلة موفقة موفورة الخيرات مأمونة العواقب.  
- وكيف حال صاحب السموّ كارفرنرو حاكم الجنوب؟

- الحق أن سموه يلقي متاعب جمّة بسبب تمرد قبائل المعصايو، فهم يضمرون الكراهية للمصريين، ويترتبون لهم، فإذا وقعوا على قافلة هاجوها بلا رحمة، وقتلوا رجالها، ونهبوا تجارتها، ولاذوا بالفرار قبل أن تبلغهم القوات المصرية.  
فبدا الاستياء على وجه الحاكم، وسأل التاجر باهتمام:

- ولماذا لا يسير سموه إليهم بقوة تأديبية؟  
- إن سموه لا ينفك يرسل قواته في أعقابهم، ولكنهم لا يواجهون القوات الحربية، ويفرون في الصحارى والغابات. فتضطرّ القوات إلى العودة بعد نفاذ المؤن. ويستأنف العصاة غاراتهم على طرق القوافل.

وكان الفيلسوف هوف يصغي بانتباه إلى كلام عانن، وكانت له خبرة ببلاد النوبة، وكان على علم وافٍ بقضية المعصايو، فسأل التاجر قائلاً:

- لماذا يصرّ المعصايو دائماً على العصيان! .. إن البلاد المشمولة بحكم مصر تتمتع في ظلّه بالطمأنينة والرفاهية، ونحن لا نتعرض لعقائد غيرنا، فلماذا يناصبوننا العداوة؟

ولم يكن عانن يعنى بمعرفة الأسباب، وظنّ أنّ نفاسة التجارة هي التي تغري القوم بالانقضاض عليها، ولكنّ الحاكم أي كان متبحراً في هذه المسائل، فقال للفيلسوف:

وقال عانن بحماس:  
- أقسم بالربّ سوتيس على أنّ النسر كان يتمنى لو يخطف صاحبة الصندوق.  
فقالت رادوبيس آسفة:  
- كم كان عزيزاً لديّ.  
فقال هنفر المثل:

- من المحزن حقاً أن يضيع شيء تتمتع بلمسك أياً ما وأسابيع، وما مصيره في النهاية إلا السقوط، وقد يسقط في حقل ناء فتطوّه قدم ريفيّة بسيطة!  
فقالت رادوبيس بحزن:

- مهما يكن مصيره، فلن يعود إليّ..  
وكان الفيلسوف هوف يعجب لحزن رادوبيس على صندوق تافه، فقال يعزّيها:  
- على آية حال إنّ خطف النسر لصندوقك فأل حسن، فلا تحزني.  
فسأله أحد الأعيان المرّزين:

- وماذا ينقص رادوبيس من السعادة، وجميع هذه الوجوه من عشاقها؟  
فردّ عليه الفيلسوف قائلاً، وهو يحدّجه بنظرة ساخرة:

- ينقصها أن تتخلّص من بعضهم!  
ودخلت جماعة أخرى من الجوّاري يحملن أباريق الخمر وكثوس الشراب الذهبية، ودرنّ بها على الحاضرين كلّها لاح العطش على واحد منهم روينه بكأس مترعة، تظفي الظما في الفم، وتوقد النار في القلوب. وقامت رادوبيس على مهل، وسارت إلى الصندوق العاجي، ورفعت الكأس العجيبة، ومدّت بها يديها إلى الساقية وهي تقول:  
- لنشرب نخب السيد عانن لهديته الجميلة، وعودته السالمة.

فشربوا جميعاً هنيئاً، وشرب عانن كأسه حتّى الثمالة، وأرسل إلى الغانية نظرة امتنان وشكران، ثمّ التفت إلى صاحب له وقال:

- أليس من كبريات النعم أن يجري ذكر اسمي على لسان رادوبيس؟

وتناول المعمار هني جرعة من كأسه، وقال وهو ينظر إلى وجه رادوييس الجميل:

- إته هتاف جريء لم يسمع بمثله من قبل في وادي النيل.

فقال هنفري:

- نعم ولا شك في أنه كان مفاجأة محزنة لفرعون الشاب في أول عهده بالحكم.

وقال هوف بهدوء:

- لم تجر العادة قط بأن يهتف باسم إنسان ما مهما كانت مكانته، في حضرة فرعون!

فقالت رادوييس بلهجة دلّت نبراتها على الغضب:

- ولكنهم خرقوا هذه العادة بمتهى الوقاحة.. لماذا أقدموا على ذلك أيها السيد آني؟

فرفع الرجل حاجبيه الكثيفين، وقال:

- أراك تسألين عما يتحدث عنه الناس في الطرقات.. فكثير من العامة يعلم الآن أن فرعون يرغب في أن يضمّ كثيرًا من أملاك المعابد إلى أملاك التاج، وأن يستردّ المنح الواسعة التي أسبغها آباؤه وأجداده على رجال الكهنوت.

وقال الشاعر رامون حتب بلهجة لم تخل من عنف:

- كان الكهنة دائمًا موضع عطف الفراعنة، يقطعونهم الأراضي، ويهبونهم الأموال، حتى صاروا يملكون ثلث الأراضي المنزرعة، وتغلغل نفوذهم في الأقاليم، ووسط على الرقاب، ولا شك أن هناك وجوهاً من المنافع أحقّ بالمال من المعابد..

فقال هوف:

- يزعم الكهنة أنهم يصرفون ريع الأراضي على أعمال الإحسان والبر، ويصرّحون دائمًا بأنهم يتنازلون عن أملاكهم عن طيب خاطر إذا دعت الضرورة إلى ذلك.

- وما هذه الضرورة؟

- أن تشتبك المملكة في حرب مثلًا تحتاج للإنفاق الكثير.

ففكرت الغانية قليلاً، ثم قالت:

- لا يجوز على أيّ حال أن يناهضوا رغبة الملك.

- الحقّ يا سيدي الأستاذ أن المعصايو لا يرجع إلى أسباب سياسيّة أو دينيّة. وحقيقة المسألة أن القوم قبائل رحالة، يعيشون في أرض جدباء، ويهدّهم الجوع في كلّ حين، وبين أيديهم كنوز من الذهب والفضة لا تغني ولا تشبع من جوع. فإذا انبرى المصريون لاستثمارها، هاجمهم ونهبوا قوافلهم.

فقال هوف:

- إذا كان الأمر كذلك، فالحملات التأديبية عديمة الجدوى، وإني أذكر يا سيدي الحاكم أن الوزير أونا - تقدّمت روحه في عالم أوزوريس - متى نفسه يوماً بعقد معاهدة معهم على أساس المنفعة المتبادلة، فيمدّهم بالغذاء في مقابل أن يؤمّنوا له طرق القوافل.. هي فكرة ثابتة أليس كذلك؟

فهزّ الحاكم رأسه دلالة على الموافقة، وقال:

- لقد أحيا رئيس الوزراء خنوم حتب مشروع الوزير أونا، وعقد المعاهدة قبل عيد النيل بأيام، ولن نعرف نتيجة سياسته قبل زمن طويل، والمتفائلون كثيرون..

وكان الحاضرون ملّوا سريعًا حديث السياسة، فانقسموا حلقات، ومنهم عانن، وشتمهم شجون الحديث، وحاولت كلّ حلقة أن تجذب رادوييس إليها، ولكنّ الغانية جذبها اسم خنوم حتب، وذكر الهتاف الذي دوى باسمه في أثناء سير الركب الفرعونيّ، فعاودها استياء غمرها وقتذاك وأحسّت بلفحة غضب، فدلّفت إلى حيث يجلس آني، وهوف، وهنفري، وهني، ورامون حتب، وقالت بصوت خافت:

- ألم تسمعوا ذلك الهتاف العجيب؟

وكان زوّار القصر الأبيض أخوة، لا تقوم بينهم كلفة، ولا يعقل ألسنتهم خوف، وكانت أحاديثهم تتناول كلّ شيء في حرّية مطلقة، وطمأنينة كاملة. وقد سُمع هوف مرّات ينتقد سياسة الوزراء، كما سُمع رامون حتب وهو يبدي شكوكه ومخاوفه من تعاليم اللاهوت، ويعلن عن إيمانه باللذّة ويدعو إلى متاع الدنيا.

رادوبيس ٢٤٧

أن يكسو بلاده حلّة من البهاء، ولن يأتي ذلك إلا بالاستعانة بجانب من موارد الكهنة.

فتساءل رامون حتب في حيرة شديدة:

- فمن المخطئ إذا؟!

فقال هوف:

- عسى أن يختلف اثنان وكلاهما على حق!

ولكن رادوبيس لم تترحم إلى تفسير الفيلسوف، ولم ترض عن الموازنة التي يجريها بين فرعون ووزيره، كأنها نذان. وكانت تؤمن بحقيقة ثابتة، وهي أنّ فرعون سيّد البلاد دون منازع، وأنه لا تجوز مخالفته بأيّ حال ولأيّ سبب، ونفر قلبها من كلّ رأي يخالف عقيدتها هذه، وصرّحت برأيها لأصحابها، وختمت كلامها بقولها:

- إنّي أعجب متى آمنت بهذا الرأي؟!

فقال رامون حتب مداعبًا:

- حين وقعت عينك على فرعون لأول مرة.. لا تفرطي في العجب فالجمال مقنع كالحقّ سواء بسواء. وضاق صدر المثال هنفر فصاح بصوت مسموع:

- أدرنّ الكئوس آيتها الجواربي.. وهلمّي آيتها الغانية رادوبيس أسمعينا لحنا شجيًا، أو متعي أعيننا بحركة من الرقص الرشيق، فإنّ نفوسنا التي أسكرتها خر مربوط، وهيأها العيد للفرح والمسرّة، لتتوق إلى نشوة الطرب ولذعة المجون.

فضربت عنه صفحًا، وأرادت أن تسترسل في حديثها، ولكن لاحت منها التفاتة إلى التاجر عاتن، فرأته كالنائم، وكان منفردًا بعيدًا عن الجماعات فتذكرت أنّها أطالت المكث في حلقة آني، فانسحبت من بينهم وسارت إلى التاجر، وصرخت في وجهه: «اصحّ» فانتبه الرجل فزعًا، ولكن سرعان ما أشرق وجهه لرؤيتها، فجلست إلى جانبه وسألته:

- أكنت نائماً؟

- بل كنت أحلم.

- آه.. فيمن؟

- في ليالي بيجة السعيدة، وكنت أسائل نفسي

فقال الحاكم آني:

- لقد تورّطوا في خطأ بالغ، وفوق ذلك فهم يبتون دعائهم في الأقاليم، ويدخلون في روع الفلاحين أنّهم يدافعون عن أملاك الأرباب المعبودة..

فتساءلت رادوبيس دهشة:

- كيف تواتيهم شجاعتهم؟!

فقال آني:

- البلاد في سلام، والحرس الفرعونيّ هو القوّة المسلّحة الوحيدة التي يعتدّ بها، والكهنة تواتيهم شجاعتهم إذا أيقنوا أنّ قوّة فرعون غير كافية! فتضايقت رادوبيس وقالت بحقن:

- يا لهم من أوغادا!

فابتسم الفيلسوف هوف، ولم يكن يرضى أن يجبس رأيًا فقال:

- إذا أردت الحقّ فالكهنة طائفة مطهّرة، تسهر على دين هذه الأمة وآدابها وتقاليد الخالدة، أمّا الطمع في السلطان فداء قديم. فحججه الشاعر رامون حتب بنظرة تحذّر، وكان مغرمًا بإثارة الزوابع، وسأله في اقتضاب:

- وخنوم حتب؟!.

فهزّ هوف كتفيه استهانة وقال بهدوئه الغريب:

- هو كاهن كما ينبغي، وسياسيّ نافع، وليس من ينكر عليه قوّة الإرادة، ونفاذ البصيرة.

وتلملم الحاكم آني. وهزّ رأسه بشيء من العنف، وقال:

- لم يثبت إلى الآن إخلاصه للعرش!

فقال رادوبيس بحلّة:

- بل أعلن غير ذلك!

ولم يكن الفيلسوف يوافقها، فقال:

- أنا أعرف خنوم حتب جيّدًا، وهو بلا شكّ مخلص لمولاه ولوطنه.

فقال آني بغرابة:

- لم يبق إلا أن تصرّح بأنّ فرعون مخطئ..

- كلا.. إنّ فرعون شابّ سامي الآمال، يرغب في

حقد طال حفظه أو لمجرد الثثرة والإعلان عن النفس، فقال أحد الكبار يدعى رام:

- من الذي يحكم ويسوس الناس؟ .. من الذي يفتح البلدان ويغزو المعازل؟ .. من الذي يجلب الثروة والخيرات؟ .. أناس غير الفنانين بلا ريب ..

وقال عانن وكان سريع التلبية للخمر:

- إن الرجال يهيمنون بحب النساء، ويهدون بذكرهن في خلواتهن، أما الشعراء فيسبون هذيانهم في كلام موزون، وإلى هنا لا يجد العاقل ما يؤاخذهم عليه إلا أنهم يضيعون وقتهم فيما لا طائل تحته، ولكن السخافة والحماقة أن يطلبوا لهذيانهم ثمنًا من المجد والخلود.

وقال شامة مرة أخرى:

- ويكذب آخرون كذبًا طويلًا منظمًا، ويهيمنون وديان بعيدة ويستوحون الأشباح والأوهام، يزعمون أنهم رسل وحي كريم .. والأطفال تكذب كذبهم، وكثير من العاقبة، ولكنهم لا يزعمون شيئًا.

فضحكت رادوبيس طويلًا، وانتقلت من مجلسها إلى قريب من هنفر، وقالت هازئة:

- ويحك أيها الرجل .. لماذا إذا تسير مختلًا فخورًا كأنك بلغت الجبال طولًا؟

فابتسم المثل ابتسامة صفراء، ولكنه لازم الصمت كصاحبه تعاليًا منهم عن الرد على «المتهجمين بغير علم»، وإن انطوى كل منهم على غضب شديد، وكرهت رادوبيس أن تنتهي المعركة عند ذلك، فالتفت

إلى الفيلسوف هوف ووجهت إليه هذا السؤال:

- وما رأيك أنت أيها الفيلسوف في الفن والفنانين؟

- الفن لهو ولعب، والفنانون لاعبون مهرة.

ولم يستطع الفنانون أن يخفوا غضبهم، فلم يملك الحاكم أي نفسه من الضحك. وتصايح التجار والملاك فرحين.

وصاح رامون حتب بغضب:

- أتريد أيها الفيلسوف أن تكون الحياة جدًا خالصًا؟

فهز الشيخ رأسه في هدوء، وقال والابتسامة لا

تفارق شفثته:

حيران ترى- هل أفوز اليوم بإحدى هاتيك الليالي الخالدات؟! أيمن أن أظفر الآن بمجرد وعد!

فهزت رأسها أن لا، فجزع، وسألها بخوف وإشفاق:

- له؟

- قد تطلبك نفسي، وقد تطلب غيرك، فلم أقدها بوعد خائن؟!!

وتركته إلى جماعة أخرى كانت منهكة في الحديث والشراب، فرحبوا بها فيما يتببه الصباح، وأحاطوا بها من كل جانب، وقال واحد منهم يدعى شامة:

- ألا تشتركين معنا في الحديث؟

- وفيم تتحدثون؟

- يتساءل بعضنا عما إذا كان الفنانون أهلًا للتكريم الذي يجوبهم به الفراغة والوزراء.

- وهل أجمعتم على رأي؟

- نعم يا مولاتي. على أنهم لا يستحقون شيئًا.

وكان شامة يتكلم بصوت مرتفع لا يبالي شيئًا، فنظرت رادوبيس إلى حيث يجلس الفنانون: رامون حتب، وهنفر، وهني، وضحكت ضحكة ساخرة ذات

جرس فاتن ساحر، وقالت بصوت يبلغ آذان الفنانين:

- ينبغي أن يكون هذا الحديث عامًا، ألا تسمعون أيها السادة ما يقال عنكم .. يقال هنا إن الفن عرض

تافه، وإن الفنانين غير أهل للتكريم .. فما رأيكم؟! وعلت فم الفيلسوف الشيخ ابتسامة ساخرة، أما

الفنانون فقد نظروا إلى الجماعة التي تستهين بهم نظرة متعالية، وابتسم هنفر ابتسامة هزء، أما رامون حتب

فاصفر وجهه غضبًا، لأنه كان شديد التأثر، وكان شامة معجبًا بما يقول لأصحابه فأعاد قوله بصوت عالٍ

قائلًا:

- إنني رجل عمل وجد، أضرب الأرض بيد من حديد، فتذلّ وتبدل لي خيراتي من الأنعم السابعة،

فأفيد ويفيد معي الآلاف من المحتاجين، كل هذا دون حاجة إلى قول موزون أو لون براق ..

وأدلى كل من الرجال بدلوه، إمّا للتنفيس عن

وطرب هنفر لقول رفيقه، وأخذته نشوة حماس،  
فقال برأسه ناحية أذن الغانية، وقال:  
- صدق وحقّ جالك يا رادوبيس، إنّ الحياة تمضي  
كحلم سريع الزوال، فأنا أذكر مثلاً أنّي حزنت لموت  
أبي حزناً بالغاً وبكيتته مرّ البكاء، ولكنّي الآن إذا  
عاودتني ذكراه أسائل نفسي: أحقاً عاش ذلك الإنسان  
على الأرض؟ أم أنّه وهم خادع يترأى لي في غبش  
الظلام؟! هكذا الحياة. فماذا أفاد الأقوياء بما أحدثوا  
فيها من قوّة؟ وماذا نال العاملون ممّا أنتجوا من مال  
وثراء؟ وماذا اكتسب الحاكمون بما حكموا. وما  
ساسوا؟! هباء في هباء. . قد تكون القوّة حماقة،  
والحكمة خطأ، والثروة غروراً. أمّا اللذة فهي لذّة،  
ولا يمكن أن تكون غير ذلك. فكلّ ما خلا الجمال  
باطل!

فبدا الجدّ على وجه رادوبيس الفاتن، وقالت له وقد  
لاحت في عينها الأحلام:

- ومن يدريك يا هنفر، فلعلّ الجمال واللذّة من  
الأباطيل أيضاً؟ ألا تراني أمضي العمر في دعة  
وانتهاب لذّة، وتملّي الحسن والجمال؟. ومع هذا فكّم  
يطاردني الملل والسأم! . .

ووجدت رادوبيس أنّ رامون حتب في حالة سيّئة،  
وطالعت الاستياء في وجه هنفر، وصمت هني،  
فأشفتت من إيلاهم، وعدّت نفسها مسئولة عمّا  
أصابهم، فقالت تغير مجرى الحديث:

- حسبكم أيّها السادة. . فمهما قلت فلن تنفكّوا  
تطلبون الفنّ والفنانين، كم تحبّون يا هؤلاء الخصام.  
إنّكم لتجعلون السعادة نفسها موضوعاً للجدل  
والخصام! . .

ضاق الحاكم آني بالحديث ذرعاً، فقال لها بتوسّل:  
- اطردني الخصام بلحن من أغانيك السعيدة.

وكان الجميع يتوقون للسماح والطرب، فضمّوا  
توسلاتهم إلى الحاكم، ووافقت رادوبيس، وكانت  
شبتت من الكلام، واستولى عليها قلق غريب تردّد  
عليها مرّات في يومها، وظنّت أنّ الغناء أو الرقص  
يزيله، فقامت إلى عرشها وأمرت بالعازفات فجئن

- كلاً، ما إلى هذا قصدت، فاللعب ضرورة،  
ولكن ينبغي أن تذكر أنّه لعب.

فسأله هنفر بتحدّ:

- هل الإبداع الملهم لعب؟

فقال الفيلسوف باستهانة:

- أنت تسمّيه الإلهام والإبداع، أمّا أنا فأعلم أنّه  
لعب الخيال.

ونظرت رادوبيس إلى المعمار هني تحمّته على خوض  
المعركة، وتحاول أن تخرجه عن صمته الطبيعي. ولكنّ  
الرجل لم يلبّ إغراءها، لا استهانة منه بالموضوع  
الذي يثير النقاش، ولكن اعتقاداً منه - إن حقاً كان أو  
وهماً - أنّ هوف لا يعني ما يقول وأنّه يداعب هنفر  
ورامون حتب - على الأخصّ - بأسلوبه القاسي. أمّا  
الشاعر فاشتدّ به الغضب، ونسي أنّه في قصر بيحة،  
وسأل الفيلسوف بلهجة حاكمة:

- إذا كان الفنّ لعب خيال، فلماذا يكلف أهله ما  
لا طاقة لهم به؟

- لأنّه يتقاضاهم إغفال ما تعودوا عليه من الفكر  
والمنطق، واللياذ بعالم الطفولة والخيال!  
فهزّ الشاعر كتفيه استهانة، وقال:  
- إنّ هذا الكلام لا يستحقّ الردّ عليه. .

وأمن على قوله هنفر، وابتسم هني موافقاً، ولكن  
رامون حتب لم يستطع صبراً، ولم يطق غضبه  
السكوت، فجال بناظره في الوجوه الساخرة، وقال  
بحدّة:

- أليس يخلق الفنّ لكم لذّة وجمالاً؟

فقال له عانن، وهو لا يكاد يدري ما يقول لأنّ  
الخمر كانت لعبت برأسه:  
- ما أتفه هذا.

فاحتدّ الشاعر، وترك زهرة اللوتس تقع من يده  
وقال في عنف:

- ما بال هؤلاء الناس لا يفقهون لما يقولون معني.  
أجوز أن أذكر اللذّة والجمال، فيقال لي إنّها شيء  
تافه. . وهل توجد غاية في الدنيا وراء الجمال  
واللذّة؟! .

بالدفوف والقيثارة والناي والوَنَج والصفارة ووقفن وراءها صغًا.

ثم أشارت بيدها العاجية، فأخذن جميعًا في التوقيع الجميل والنقر الرشيق، يهين لصوتها الرخيم جواً فاتناً من الموسيقى والطرب. ثم مضت تخفت أنغام آلاتهن حتى صارت كهمس العاشقين الذاهلين، وأنشأت رادوبيس تغني قصيدة رامون حتب:

يا من تسمعون إلى وعظ الحكماء، أعيروني آذانكم لقد شهدت الدنيا منذ الأزل زوال أسلافكم الذين عبروا ساحتها عبور الخواطر في رأس الحالم وقد شبت ضحكاً من وعدهم ووعدهم، فأين الفراعنة، أين الساسة، أين الغزاة، هل حقاً القبر عتية الخلود، ولكن لم يأت من القبر رسول يطمن قلبونا، فلا يفوتكم طرب، ولا تفوتكم لذّة. لصوت الساقى أبلغ حكمة من صراخ الواعظ. أنشدت الغانية اللحن بصوت إلهي حنون، أطلق الأرواح من قيود الأجسام، فهامت في سماوات الجمال والسعادة، وذهلت عن متاعب الأرض وهموم الدنيا، وشاركت في التجلي الأعلى، وظلّ القوم بعد إمساكها نشاوى يتهدون فرحاً وحزناً ولذّةً وألماً.

وطرد الحب من صدورهم كل عاطفة إله، فاستبقوا إلى الشراب، وهدفوا بأعينهم إلى الغانية تنتقل بين الجالسين، وتسداعبهم، وتماجنهم، وتشاربهم، ولما دنت من أي همس في أذنها:

- أسعدتك الأرباب يا رادوبيس.. جئتك شبحاً مثقلاً بالتعبات وأحال نفسي الآن طيراً يملق في السماء.

فابتسمت إليه وانتقلت إلى جانب رامون حتب، وأهدته زهرة لوتس عوضاً عما فقد، فقال لها:  
- يقول هذا الشيخ إن الفن لعب خيال، ألا سحقاً لرأيه.. إنه ومضة إلهية تشع من عينيك، وتدور مع وجيب قلبي، ثم تأتي بالأعاجيب..

فقلت له ضاحكة:

- أخرج مني شيء يأتي بالأعاجيب، وأنا أعجز من الرضيع؟

ثم هرعرت إلى حيث يجلس هوف، وجلست إلى جانبه، ولم يكن ذاق خمراً، فحدجته بنظرة فاتنة، فضحك الرجل، وقال متهكماً:

- يا سوء ما اخترت جليشاً.

- ألا تحبني كهؤلاء؟

- ليتني أستطيع.. ولكني أجد فيك ما يجده المورور في المدفأة.

- إذا انصحني ماذا أصنع بحياتي لأني اليوم أشكو؟

- أتشكين حقاً.. أنعيم وثرأ وشكوى؟

- كيف غاب عنك هذا أيها الحكيم؟

- الجميع يشكو يا رادوبيس، طالما استمعت إلى شكاة الفقراء والبائسين الذين يتلهفون على كسرة خبز، وطالما استمعت إلى شكاة السادة وهم يتنون تحت عبء التبعات الجسام، وطالما استمعت إلى شكاة الأغنياء السادرين وقد برموا بالدعة والسعادة فالجميع يشكو، وما من فائدة ترجى من التغيير، فاقنعي بما قسم لك.

- وهل يشكو الناس في عالم أوزوريس؟

فابتسم الشيخ وقال:

- آه.. إن صاحك رامون حتب يهزأ بهذا العالم

الخطير. أما الكهنة العالمون فيقولون إنه عالم الأبدية، فصبراً أيها الحسنة، إنك ما زلت قليلة التجارب.

فعاودتها موجة المجون والسخرية، وأرادت أن تداعب الفيلسوف، فقالت بلهجة جدية متصنعة:

- أحقاً آني قليلة التجارب.. إنك لم تر نما رأيت

شيئاً؟

- وماذا رأيت نما لم أرى؟

فأشارت ببنانها إلى القوم اللاهين وقالت ضاحكة:

- رأيت هؤلاء الرجال المبرزين، وصفوة مصر سيّدة

الدنيا، يسجدون عند قدمي، وقد ردّوا إلى الوحشية، ونسوا حكمتهم ووقارهم، كأنهم كلاب أو كأنهم قردة!

ثم ضحكت ضحكة رقيقة، وجرت في خفة الغزلان إلى وسط البهو، وأشارت إلى العازفات فلبعت أناملهن بالأوتار، ورقصت الغانية رقصة من رقصاتها

في الفرار والانفراد. وضجرت من الصراخ، فأشارت لهم بيدها فكفوا وهم بين الأمل والخوف، فقالت: - لا تتعبوا أنفسكم أيها السادة، فلن أكون الليلة لإنسان!

وجمدت أفواههم ونظروا إليها منكرين، لا يصدّقون آذانهم، ثم لم يلبثوا أن ضجّوا بالاحتجاج، وجأروا بالشكوى. فوجدت ألا فائدة ترجى من توجيه الكلام إليهم، فقامت واقفة، وقد بدا على وجهها التصميم والعزم وقالت:

- إني تعبة.. دعوني أستريح!..

ولوّحت لهم بيدها البضة وولّتهم ظهرها، وغادرت المكان على عجل..

وصعدت إلى مخدعها مسرورة لما فعلت، سعيدة بخلاصها تلك الليلة، وما تزال تظنّ بأذنيها تأوهات القوم الحازة.. وشخصت إلى النافذة رأساً وأزاحت عنها الستارة، ونظرت إلى الطريق المظلم، فرأت على البعد أشباح عجلات وهوادج تحمل النشاوى البائين بالحسرة والخذلان، فلذّ لها منظرهم وارتسمت على شفيتها ابتسامة ساخرة قاسية.

كيف فعلت ما فعلت؟.. لا تدري! ولكنّها تشعر باضطراب وقلق..

واها.. ماذا وراء هذه الحياة الراتبة؟ لقد حارها الجواب، ولم يرو غلّتها الحكيم هوف نفسه، ثم استلقت على سريرها الوثير، واستسلمت للأحلام، فمرّت بصفحة خيالها حوادث اليوم العجيبة واحدة في أثر الأخرى: فرأت جموع المصريين المحتشدة.. وراّت عيني الساحرة المتقدّتين اللتين جذبتاهما إليها بقوة قاهرة، وسمعت صوتها البشع الذي يبعث الرعدة في المفاصل.. ثم شاهدت فرعون الشاب في حالة المجد والجمال، ثم ذلك النسر المصور الذي انقضّ على فرقة صندلها وطار بها إلى السماء. حقاً كان يوماً حافلاً. ولعلّ هذا أيقظ عواطفها، وشرّد خيالها، وورّع نفسها أشتاتاً، ممّا ذهب ضحيّة له العشاق البائسون، إن قلبها يخفق خفقاناً شديداً، ونفسها تضطرم بلهيب غامض، وخيالها يتيه بها في وديان غريبة. وكأّنها تؤدّ أن تتقل

المختارة التي يبدع فيها جسمها اللدن، ويأتي بالمعجز من الخفة والتثني، وغلب الطرب القوم على أنفسهم، فاشتركوا بكفهم مع الدفوف، واتقدت في الأعين أنوار خاطفة، وختمت رقصتها، ثم طارت كالحمامة إلى عرشها، وجالت بعينها في أوجه القوم الجشعة، فرأت ما أضحكها قهراً، وقالت:

- لكأني بين الذئباب.

وأعجب عانن الثمل بالتشبيه، وتمنّى لو كان ذئباً ليقتنص الشاة الجميلة، وحققت له الخمر ما تمنّى، وظنّ نفسه ذئباً حقاً، فعوى بصوت عالٍ ضجّ له السادة ضحكاً، ولكنّه ثابر على العواء، وانكبّ على أربع وزحف صوب الغانية بين ضحك القوم العاصف، حتّى صار منها على قيد شبر، ثمّ قال لها:

- اجعلي هذه الليلة من نصيبي..

ولكنّها لم تردّ عليه، والتفتت إلى الحاكم آني، وقد جاء يجيئها تحية الوداع، فأعطته يدها، ثم تلاه الفيلسوف هوف، وقد سأله ضاحكة:

- ألا ترغب في أن أجعل هذه الليلة من نصيبك؟ فهزّ رأسه ضاحكاً وقال:

- أيسر عليّ أن أسخر مع الأسرى في مناجم فقط! ورجا كلّ أن تكون الليلة له، وألحف في الرجاء، وتنافسوا في ذلك تنافساً شديداً حتّى خرج الأمر. وانبرى هنفر لإيجاد حلّ له فقال:

- ليكتب كلّ منكم اسمه في ورقة، ولتضع الأسماء جميعاً في صندوق عانن العاجي، ثمّ تمدّ رادوبيس يدها فتأخذ اسم السعيد الحظّ..

واضطرّ الجميع إلى الموافقة وبادروا إلى كتابة أسمائهم، إلّا عانن خشي أن تفلت الليلة من بين يديه فقال بتضرّع:

- مولاتي.. أنا رجل سفر، اليوم بين يديك، وغداً في بلد بعيد لا أبلغه إلّا بشقّ الأنفس، وإن فاتتني الليلة فقد أخسرها إلى الأبد..

ولكن آثار دفاعه نائرة القوم، وردوا عليه هازئين، وكانت رادوبيس صامتة. تشاهد عشاقها بعينين جامدتين، وقد عاودها القلق الغريب، فأحسّت برغبة

غامضة مجهولة. فكيف نجد الراحة والقناعة؟ إنها تحمل بحالة تبطل فيها الشكوى، ولكنها جزعة برمة بكل شيء.

ولم تُترك لأفكارها وأحلامها، إذ سمعت طرقًا خفيًا على باب مخدعها، فأرهفت أذنيها دهشة، ونادت قائلة وهي ترفع رأسها:

- من؟

فأجاب صوت تعرفه حق المعرفة:

- أنا يا مولاتي.. أسمحين لي بالدخول؟.

فقالت:

- تعالي يا شيت..

ودخلت الجارية على أطراف أصابعها، ودهشت لوقوف سيّدتها، وأن سريرها لم يمّس، وعاجلتها الغانية قائلة:

- ماذا وراءك يا شيت؟

- ورائي رجل ينتظر الإذن بالدخول.

فقطبت جبينها، وقالت بصوت ينطوي على الغضب:

- أيّ رجل!.. اطرديه دون تردّد.

- كيف يا مولاتي.. إنه رجل لا يغلّق دونه باب هذا القصر.

- طاهو.

- هو بعينه.

- وما الذي جاء به في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟

فلاحت في عيني الجارية نظرة ماكرة، وقالت:

- هذا ما سوف تعلمينه بعد حين يا مولاتي.

فأشارت لها بيدها أن تدعوه، وغابت الجارية لحظات، ثم لم يلبث أن ملأ فراغ الباب جسم القائد ذو الطول والعرض. وحيّاها بانحناء من رأسه ووقف أمامها ينظر إلى وجهها بارتباك. ولم يخف عليها شحوب لونه، وتحدّ جبينه، وظلمة عينيه، فأنكرته، وسارت إلى الديوان، وجلست عليه وسألته:

- أراك متعبًا.. هل أجهدك العمل؟

من حال إلى حال، ولكن أيّ حال هذه؟! إنها حيرى لا تدري شيئًا، فهل يكون ما بها نفثة سحر أصابتها بها تلك الساحرة الملعونة؟!!

إنّ ما بها لسحرًا مبيّنًا، فإن لم يكن سحر ساحر، فهو سحر الأقدار المسيطرة على المصائر.

## طاهو

كانت قلقة مبلبلّة موزّعة النفس، فيست من النوم. وغادرت السرير مرّة أخرى، ودلقت إلى نافذة تطلّ على الحديقة، وفتحتها على مصراعها ووقفت وراءها كالتمثال، ثمّ حلّت عقدة شعرها، فانساب في خصلات مرتعشة على عنقها ومنكبيها، ولفح جلبابها الأبيض بسواد عميق، وملأت رثيها بهواء الليل الرطب، ثمّ وضعت مرفقيها على حافة النافذة، وأسندت ذقنها إلى كفيها. وتاهت عيناها في الفضاء الشامل للحديقة. والنيل الجاري وراءها. كانت ليلة ظلماء معتدلة الجو، يهبّ نسيمها متقطعًا خفيًا ضعيفًا فيراقص الغصون والأوراق رقصًا رحيًا رقيقًا، وكان النيل يرى عن بعد كقطعة من الظلماء. أما السماء فمزداة بالنجوم اللوامع، ترسل شعاعًا باهتًا ما إن يقترب من الأرض حتى يغرق في بحار الظلمة.

هل يستطيع الليل المظلم والسكون المطبق أن يلقيًا على رأسها القلق ظلًا من السكينة والطمأنينة؟ هيهات.. وبلغ بها اليأس من الطمأنينة منتهاها، فأتت بوسادة ووضعتها على حافة النافذة، وأسلمت إليها خدّها الأيمن، وأغمضت عينيها.

وطرقت ذاكرتها بغتة عبارة الفيلسوف هوف: «فالجميع يشكو، وما من فائدة ترجى من التغيير، فاقنعي بما قسم لك». وتهدّت من أعماق قلبها، وتساءلت في حزن.. أما من فائدة ترجى من التغيير حقًا؟.. أحقًا أنّ الشكوى تلاحق الإنسان أبدًا؟.. ولكن كيف تستطيع أن تؤمن بهذا إيمانًا صادقًا يصرف قلبها عن طلب التغيير؟ إنّ ما بقلبها ثورة جامحة، تودّ لو تدمر بها حاضرها وماضيها، وتفرّ خالصة إلى آفاق



رادوبيس ٢٥٣

- أجنث في هذه الساعة من الليل يا طاهو لتعيد  
على أذنيّ هذا الحديث؟

- كلاً لم أجنّ من أجل هذا الحديث.. ولكنني  
جنث من أجل أمر خطير.. إن لم يسعفني الحبّ فيه،  
فلتسعفني حرّيتك التي تحرصين عليها.

فنظرت إليه في اهتمام شديد، وانتظرت أن يتكلّم،  
وبلغ به الضيق أشدّه، فعزم على أن يخلص إلى غرضه  
بلا لفت ولا دوران، فقال لها بهدوء وحزم وهو يصوّب  
عينيه إلى عينيها:

- ينبغي أن تهجري قصر بيعة، وأن تفرّي من  
الجزيرة فرازاً في أقرب وقت.. قبل أن ينبلع الصباح.  
فارتاعت المرأة لقوله، ونظرت إليه بعينين لا  
تصدّقانه وسألته:

- ما هذا الذي تقوله يا طاهو؟

- أقول إنّه ينبغي أن تختفي.. أو تفقدي حرّيتك.

- وماذا يهدّد حرّيتي في بيعة؟

فأصرّ على أسنانه، وسألها بدوره:

- ألم تفقدي شيئاً ثميناً؟

فقالت داهشة:

- بلى. فقدت فردة صندلي الذهبيّ الذي أهديتني به.

- كيف؟

- خطفه النسر وأنا أستحمّ في بركة الحديقة..

ولكنّي لا أدري أيّ علاقة توجد بين حرّيتي المهذّدة  
وصندلي المفقود؟

- مهلاً يا رادوبيس.. لقد خطفه النسر حقاً،

ولكن ألا تدرين أين سقط؟

وجدته يتكلّم بلهجة العارف، فاستولى عليها  
العجب وتمتمت قائلة:

- من أين لي بهذا يا طاهو؟

فتنهّد قائلاً:

- سقط في حجر فرعون.

وقرعت هذه الكلمة أذنيها في هالة من دويّ هائل،  
ملاً حواسّها جميعاً، وأذهلها عن كلّ شيء. فنظرت  
إلى طاهو بعينين حائرتين، ولم تستطع أن تخرج عن  
صمتها، وكان القائد يتفرّس بعينين قلقتين مرتابتين،

فهزّ رأسه بالنفي، وقال باقتضاب:

- كلا.

- لست كعهدي بك.

- حقاً!.

- لا شك أنّك تعلم هذا.. ماذا بك؟

هو يعلم كلّ شيء بلا ريب، وستعلمه بعد حين  
سواء أذاه إليها بنفسه أم لم يؤدّه. وهو يشفق من  
الإقدام على الكلام لأنّه يغامر بسعادته، ويخشى أن  
تفلت من يده إلى الأبد. ولو أنّه كان يستطيع أن  
يتسلّط على إرادتها لكان كلّ شيء، ولكنّه يكاد أن  
يئأس من هذا، فاستولى عليه ألم محض وقال لها:

- آه يا رادوبيس! لو كنت تبادليني الحبّ لأمكن أن  
أتوسّل إليك باسم حبّنا.

ترى ما حاجته إلى التوسّل؟.. عهدتها به رجلاً  
عنيفاً يكره التوسّل والرجاء، وطالما قنع بفتنة جسمها،  
فما الذي أفزعه؟! وخفضت عينيها وقالت:

- هذا حديث قديم مُعاد.

فأغضبه قولها على صدقه، واحتدّ قائلاً:

- أعلم ذلك.. ولكنّي أعيده لدواعٍ حاضرة..

آه.. لكأنّ قلبك غار أجوف في قاع نهر بارد..

كانت ألفت أمثال هذا المقال، ولكنّها قالت  
متململة:

- هل منعتك شيئاً تشتهي؟

- كلاً يا رادوبيس. لقد وهبتي جسمك الفاتن  
الذي خلق عذاباً للبشر. ولكن طالما طمعت في  
قلبك. يا له من قلب يا رادوبيس.. إنّه يقف وسط  
زوابع الشهوات جامداً كأنّه ليس منك، ولطالما  
ساءلت نفسي متحيراً مغيظاً، ماذا يعيبي؟. ألسنت  
رجلاً بل أنا رجولة كاملة. والحقيقة أنّك بدون  
قلب..

وازداد إنكارها له، ليست هذه المرّة الأولى التي  
تسمع فيها هذا الكلام؛ ولكنّه كان يقوله ساخراً أو  
غاضباً غضباً خفيفاً.. أمّا في هذه الساعة المتأخّرة من  
الليل، فإنّه يتكلّم بصوت مهتدج ويتميّز غيظاً وحنقاً.  
فما الذي أهاجه؟ وكأنّها أرادت أن تستحقّه فسألته:

عواطف مضطربة، وجثم الكابوس على صدر الرجل، واشتد به الحرق لصمتها، ولأنها لم تفزع ولم ترتعب، فقال لها بغیظ:

- ألا ترين أن حريتك مهددة بالأسر؟ حريتك يا رادوبيس التي تحرصين عليها، ولا تفرطين فيها. حريتك التي دمّرت قلوبنا وأهلكت نفوسنا، وجعلت اللوعة والحسرة واليأس أوبئة فتك بأهل بيعة جميعاً، لماذا لا تفزعين إلى الفرار بها؟

واستاءت لوصفه هذا لحريتها، وقالت له بسخط:  
- أتقذفني بهذا الوصف الذي تقشعر منه الأبدان، وكلّ ذنبي آتي لم أستبح نفسي للرياء، وأقول لإنسان كذباً إنّي أحبّه؟

- ولماذا لا تحيين يا رادوبيس؟ لقد أحبّ طاهو الجنديّ الجبار الذي خاض غمار الحرب في الجنوب والشمال، وتربّى على ظهور العجلات. فلماذا لا تحيين أنت..؟!

فابتسمت ابتسامة غامضة، وتساءلت:

- ترى هل أملك جواباً على سؤالك؟

- لست أبالي هذا الآن، فما لهذا جئت.. أسألك ماذا أنت فاعلة؟.

فقالته بهدوء واستسلام عجيب:

- لست أدري.

فاضطربت عيناه كجمرتين، والتهمتها بحق، وأحسّ برغبة جنونية في تحطيم رأسها. وحدث أن نظرت إليه فتنفّس تنفّساً عميقاً، وقال:

- حسبك أشدّ حماساً لحريتك.

- وما عسى أن أفعل؟

فضرب بدا بيد، وقال:

- نفرّين يا رادوبيس! نفرّين قبل أن تحملي إلى قصر الحاكم جارية من الجوارى، وتودعين حجرة من حجراته التي لا عداد لها، ثمّ تعيشين هنالك في وحدة وعبودية، تنتظرين نوبتك مرّة كل عام، تعيشين ما بقي من حياتك في جنّة حزينة يطوف بها سجن كتيب.. هل خلفت رادوبيس لمثل هذه الحياة؟! واثارت ثائرتها غضباً لكرامتها وكبريائها. ترى من

ويتساءل: ترى ما وقع الخبر في نفسها؟ وما الإحساس الذي يعتلج في صدرها؟. وضاق ذرعاً. فسألها بصوت خافت:

- ألم أكن محقاً في طلبي؟

ولكنّها لم تردّ عليه، ولم يبد عليها أنّها كانت تصغي إليه. كانت غارقة في لجج تلتطم في قلبها الحائر، فهاله جمودها، وكبرت عليه حيرتها، ورأى في ذلك آية نفر منها قلبه، فذهب صبره، واستنفره الغضب، فغشّى بصره، وصاح بها بصوت أجشّ شديد:

- في أيّ واد تبهين يا هذه؟.. ألم يفزعك هذا الخبر الهائل؟

فارتجف جسمها من شدّة صوته.. والتهب الغضب بقلها، وحدجته بنظرة حقد شديدة، ولكنّها كظمت ما بنفسها لتحصل منه على ما تريد، وسألته ببرود:

- أترى أنّه كذلك؟

- أرى أنّك تتغايين يا رادوبيس.

- كم إنك ظالم.. هبّ أنّ الصندل سقط في حجر

فرعون، فهل تراه قاتلي لذلك؟

- كلاً، ولكنّه قلب الصندل بين يديه، وتساءل

عمّن عسى أن تكون صاحبه؟

فخفق قلب الغانية بشدّة وسألته:

- وهل وجد الجواب؟

فأظلمت عيناه، وقال بصوت متهدّج:

- كان هناك إنسان يتربّص بي، جعلته الأقدار صديقاً عدواً وعدواً صديقاً، فانتهاز الفرصة السانحة، وطعني طعنة نجلاء، فذكرك عند فرعون ذكراً جميلاً مغرباً، قدح الرغبة في قلبه، وأهاج الشهوة في صدره. - سوفخاتب؟!

- هو بعينه ذاك الصديق العدو، وقد عبث الإغراء

بقلب الملك الشاب.

- وماذا يريد؟

فعدّد طاهو ذراعيه على صدره، وقال شدّة:

- ليس فرعون بالإنسان الذي يرغب في شيء، ويعزّ عليه، وهو إذا هوى شيئاً يعرف كيف يستأثر به. وساد الصمت مرّة أخرى، ووقعت المرأة فريسة

فقلت، وعلى فمها ابتسامة:

- لن تدوق رادوبيس الذلّ أبداً.

فاستشاط غضباً، وقال:

- آه لقد فهمت. تحرّك شيطانك القديم، شيطان الغرور والكبر والقوّة، ذلك الشيطان يحتمي ببرودة قلبك الأبدية، ويلتذّ بمشاهدة عذاب الآخرين والتحكّم في المصائر، لقد لاح له اسم فرعون فتمرد، وأراد أن يجرب قوته وسطوته، ويمتحن سلطان هذا الجبال اللعين، غير عابئ بما يدوس في سبيله الشيطانيّ من أشلاء القلوب، وذوب النفوس، وأنقاص الآمال.. آه.. لماذا لا أقضي على هذا الشرّ بطعنة من هذا الخنجر؟

فنظرت إليه بعين مطمئنة، وقالت:

- لم أمنعك شيئاً، وطالما حدّرتك من الإغراء!

- إنّ هذا الخنجر كفيل بتهدئة نفسي.. كم تكون

نهاية طبيعته لرادوبيس؟

فقلت بهدوء:

- وكم تكون نهاية أسيفة للقائد الوطنيّ طاهوا!

فنظر إليها طويلاً بعينين جامدتين، وكان يشعر في تلك اللحظة الفاصلة بيأس ميمت وقنوط خانق، ولكنّ غضبه لم ينفجر، وقال بلهفة باردة قاسية:

- ما أقبحك يا رادوبيس!.. أنت صورة بشعة

مشوهة، ومن يحسبك جميلة أعمى لا يبصر. إنّ

صورتك قبيحة لأنّها صورة مميّمة، ولا جمال بلا حياة،

لم تنبض الحياة بصدرك قطّ، ولم تدقّ قلبك أبداً..

أنت جثةٌ وسيمة القسمات، ولكتّها جثةٌ. لم يبد الخنان

في عينيك، ولا انفرجت شفقتك عن ألم، ولا خفق

قلبك بالعطف. نظرتك جامدة وقلبك قدّ من حجر..

أنت جثةٌ ملعونة، وينبغي أن أكرهك، وأن أكرهك ما

حييت.. وأنا أعلم أنّك ستطغين كيف شاء لك

شيطانك، ولكنّك ستصرعين يوماً محطّمة النفس،

وهذه نهاية كلّ شرّ.. لماذا أقتلك إذاً.. لماذا أحمل تبعه

قتل جثةٌ ميتة؟

نطق طاهو بهذه الكلمات ثمّ ذهب.

الممكن أن يكون حظّها ونصيبها مثل هذه الحياة البائسة؟

أيقدر لها في النهاية - هي التي يستبق إلى رضاها

صفوة الرجال - أن تقاسم الجوّاري قلب فرعون

الشابّ، وأن تقنع من الدنيا بحجرة في الحريم

الفرعونيّ؟ أتوهي إلى الظلمات بعد النور، وتتلّفح

بأهوان بعد العزّة، وتقنع بالعبودية بعد السيادة الجبّارة

الكاملة؟.. أواه.. ما أبشع التصوّر وأغرب

الخيال.. ولكن هل تفرّ كما يريد طاهو؟.. أترضى

بالفرار؟ رادوبيس المعبودة التي لم يحظ بحسنا وجه،

ولم يشحن بسحرها جسم، تفرّ من العبودية؟.. فمن

إذا التي تطمع في السيادة والاستئثار بالقلوب؟!..

ودنا منها خطوة، وقال لها بتوسّل:

- رادوبيس.. ماذا تقولين؟

فعاودها الغضب، وقالت بسخرية:

- ألا يسوءك أيّها القائد أن تغريني بالهرب من وجه

مولاك؟

وأصابته سخريتها في صميم قلبه، فترنّح من هول

الصدمة، وقال بسرعة، وقد أحسّ بمرارة في فمه:

- لم يرك مولاي بعد يا رادوبيس. أما أنا فمسلوب

القلب منذ أمد بعيد. أنا أسير لهوىّ جامع لا يعرف

الرحمة، يوردني موارد الهلاك، ويطوّني بقدم الذلّ

والعذاب، إنّ صدري أتون من عذاب ملتهب، وقد

اشتدّ لهيبه اندلاغاً حين أشفق من فقدك إلى الأبد.

فأنا إن أغريتك بالهرب أدافع عن حبيّ، ولا أخون

مولاي المعبود قطّ.

لم تلق بالألى شكواه، ولا إلى دفاعه عن إخلاصه

لمولاه، كانت ما تزال تثور لكبرياتها، ولذلك حين

سألها الرجل عمّا تنوي عمله، هزّت رأسها بعنف كأنّما

تريد أن تنفض عنها الوسواس الحقيرة وقالت بصوت

بارد مليء بالثقة:

- لن أفرّ يا طاهو.

وسهم الرجل في ذهول ويأس، وسألها:

- هل رضيت بأهوان وأسلمت للذلّ؟

تمّ ذكرت ما قال طاهو عن فرعون الشاب من أنّه يرغب في رؤية صاحبة الصندل، وأنّه سيدعوها حتّى إلى حرمة العامر.. آه.. إنّ فرعون شابّ ملتهب الدماء، جنونيّ الشباب. كما قيل لها، فليس عجيباً أن يقول طاهو ما قال، ولا مستحيلاً أن تصدق أقواله، ولكن عسى أن تأخذ الحوادث مجرىً جديداً، إنّ ثقتها بنفسها لا حدّ لها.

وسمعت طرّقاً على الباب، فقالت بصوت متكاسل:

- شيث.. ادخلي.

وفتحت الجارية الباب، ودخلت تسير في خفتها المعهودة وهي تقول:

- حمداً للربّ الذي يسّر لك النوم بعد طول السهاد. وارحمته لك يا مولاتي، لا بدّ أنّ الجوع نال منك كلّ منال.

وفتحت النافذة، فانبعث منها نور مكملّ بسمرة، وقالت ضاحكة:

- غابت شمس اليوم دون أن تراك، فباءت من زيارتها للأرض بالخسران.

وسألته رادوبيس وهي تتمطى وتشاءب:  
- أأتى المساء؟

- نعم يا مولاتي، والآن هل تذهبين إلى الماء المعطر أم تتناولين الطعام؟.. وأسفاه أنا أعلم بما سهد جفنيك بالأمس!

فسألته باهتمام:

- ما هو يا شيث؟

- أنك لم تدقّي الفراش برجل.

- خسنت يا ماهرة.

فقالت الجارية وهي تعمز بعينها:

- الرجال عادة مستبّدة يا مولاتي، ولولا هذا ما احتملت غرورهم.

- حسبك ثرثرة يا شيث.

وشكت من ثقل رأسها، فقالت لها الجارية:

- هلمّي بنا إلى الحمام.. فالعشاق يتقاطرون على بهو الاستقبال، ويؤلّمهم أن يروه خاليًا منك.

ولبث رادوبيس تنصت إلى وقع قدميه الثقيلتين، حتّى غمرها سكون الليل..

ثمّ رجعت إلى النافذة. كان الظلام شاملاً، والنجوم ساهرة في مآدبها الأبدية، والسكون مخيماً رهيباً، فخالّت أنّها تستطيع أن تسمع خلجات قلبها الدفينة.

كان ما بها قويّاً عنيّاً بالحرارة والقلق، يقسم أن جسمها جسم نابض بالحياة، لا جثة هامدة..

## فِرْعَوْنُ

وفتحت عينها فرأت ظلمة. ترى أما يزال الليل جاثماً، وكم ساعة استطاعت أن تخلد فيها إلى السكينة والنوم؟. ولبث دقائق لا تعي شيئاً مطلقاً ولا تذكر شيئاً، كأنّها جهلت الماضي كما تجهل المستقبل، وكأنّها ابتلعت شخصيتها ظلمة الليل الحالكة. وأحسّت هنيهة بذهول وضيق، ثمّ ألقت عيناها الظلمة فهتت وخفّت وطأتها، واستطاعت أن ترى ضوءاً خفيفاً يشعّ من خصائص النوافذ فتبيّنت أثاث المخدع، ورأت المصباح المدلّى المكلّف بالذهب، وولج الشعور حواسها، فذكرت أنّها ظلّت يقظة لا يدوق جفنيها نوم حتّى غمرها الفجر بموجه الأزرق الهادي، وأنّها ارتمت عند ذاك على السرير، فاختلسها النوم من عواطفها وأفكارها، وعلى ذلك تكون في نهار اليوم الثاني، أو في مسائه.

وذكرت حوادث الليلة الماضية، وعادت إلى مخيلتها صورة طاهو وهو يرغى ويزيد، ويثّ من اليأس ويتوقّد بالقت، يا له من رجل عنيف! إنّهُ لرجل جبار شديد الغضب، وحشيّ الغرام، ولا عيب فيه إلّا أنّ حبه عنيد متابر، شديد التغلغل. وتمنّت صادقة لو ينساها أو يمقتها، إنّها لا تحبي من الحبّ سوى المشقة. الكلّ يتلهّف على قلبها، وقلبها زاهد نافر، كحيوان غير أليف. وكم اضطرت إلى خوض مواقف مؤثّرة ومآسي أليمة، وهي كارهة. ولكنّ المآسي كانت تتبعها كظللها، وتحوم حولها كخواطرها، فلوّثت حياتها بالقسوة والآلام.

بعنف «مَرْقِيه إربًا»، وخشيت الجارية أن تثير غضب مولاتها عليها، فذهبت تتعثر في الارتباك. وغادرت رادوبيس الحثام إلى مخدعها في أجمل صورة وأكمل هيئة، وتناولت الطعام وشربت كأسًا مترعة من خمر مريوط. ولم تكد تطمئن إلى الديوان حتى دخلت عليها شيث مهرولة بلا استئذان، فتلقتها بنظرة تحذير ووعيد، وقالت الجارية في خوف:

- في البهو رجل غريب يلح في مقابلتك.

فاستولى الغضب على الغانية، وصاحت بها:

- هل أصابك مس من الجنون يا شيث؟ أمخالفين

أولئك القوم المزعجين علي؟!.

فقال الجارية وهي تلهث:

- صبرًا يا مولاتي.. لقد دفعت الزوار جميعًا، أما

هذا الرجل فغريب لم تره عيني من قبل.. التقيت به

بغته في الردهة المؤدية إلى البهو، ولا أدري من أين

أتى.. وحاولت أن أعترض مسيله، ولكنه سار بغير

مبالاة، وأمرني أن أبلغك رجاءه.

فسهمت الغانية إلى الجارية هنيهة، وسألتها

باهتمام:

- هل هو من ضباط الحرس الفرعوني؟

- كلاً يا سيدي.. إنه لا يرتدي زي الضباط.. وقد

سألته أن يعلن لي عن شخصيته، فهز منكبته

باستخفاف، فأكدت له أنك لا تقابلين أحدا اليوم..

ولكنه استهان بكلامي، وأمرني أن أذنك بانتظاره..

أواه يا مولاتي.. إني أحرص على رضاك، ولكني لم أجد

وسيلة إلى دفع هذا الثقل الجريء.

وتساءلت أكون هو رسول الملك؟ وخفق قلبها

لهذه الفكرة خفقة شديدة ارتج لها صدرها.. وجرت

إلى المرأة، وألقت على صورتها نظرة فاحصة، ثم

دارت دورة كاملة على أطراف أصابعها ووجهها ثابت

في المرأة، وسألت الجارية:

- ماذا ترين يا شيث؟

فقال الجارية، وهي تدهس لتبدل حال مولاتها:

- أرى رادوبيس يا مولاتي!

وغادرت الغانية المخدع، تاركة جاريته في دهشتها

- هل جاءوا حقًا؟.

- وهل خلا بهو استقبالك منهم قط في هذه الساعة؟

- لن أرى منهم أحدًا.

فبهت شيث، ونظرت إلى سيدها بارتياح،

وقالت:

- خيبت بالأمس آمالهم.. فماذا تقولين اليوم؟..

آه. لو تعلمين يا مولاتي كم جزعوا لتأخر حضورك.

- آذنيهم بأني تعبة.

وترددت الجارية، وهمت بالاعتراض، ولكنها

صاحت بها بعنف:

- اصدعي بما أمرت.

فغادرت المرأة المخدع مرتبكة لا تدري بما غير

مولاتها.

وارتاحت الغانية لما فعلت، وقالت إن هذا ليس

وقتهم، فهي لا تستطيع أن تجمع شتيت أفكارها

لتصغي إلى إنسان، ولا أن تحصر خواطرها في حديث

فضلاً عن أن ترقص أو تغني.. فليذهبوا جميعًا..

وخشيت أن تعود شيث بتوسلات القوم، فقامت من

السريير وهولت إلى الحثام..

وتساءلت في وحدتها: ترى هل يرسل فرعون في

طلبها هذا المساء؟. آه أهي لهذا تضطرب وتقلق؟.

أهي تخشى؟. كلاً.. إن هذا الحسن الذي لم تحظ

بمثله امرأة من قبل حقيق بأن يملأها ثقة بنفسها لا حد

لها، وإتيا لذلك.. ولن يقاوم جمالها إنسان، ولن

يدل حسنها لمخلوق، ولو كان فرعون نفسه، ولكن

لماذا إذا هي مضطربة قلقة! لقد عاودها ذلك الشعور

الغريب الذي تلبسها مساء الأمس، والذي نبض

بقلبها أول ما نبض حين وقع بصرها على الملك الشاب

الواقف على ظهر عجلته كالتمثال. يا عجبًا.. أتراها

حائرة لأتيا حيال لغز غامض! واسم جبار هائل! ورب

معبود! أترى أتيها تود لو تراه في نشوة البشر بعد أن

رأته في جلال الآلهة؟! أتراها قلقة لأتيا تريد أن

تطمئن إلى قوتها بإزاء هذا الحصن المنيع!.

وطرقت شيث باب الحثام، وقالت إن السيد عان

أرسل معها كتاباً إلى مولاتها، فغضبت الغانية، وقالت

فقلت بصوتها العذب الموسيقي:

- نعم يا مولاي.. هكذا شاء حظي السعيد أمس.  
وكان لا يشع من النظر إلى وجهها. وأخذ يحس  
بتخدير عامّ يعرّ حواسه وعقله، فلم يعد يأبه  
لإرادته، واندفع قائلاً:

- إن الملوك قوامون على الناس، يسهرون على  
أرواحهم، وعلى أموالهم، ولهذا جئت إليك لأردّ لك  
أمانة ثمينة.

ولم يبال الملك أن يدسّ يده تحت وشاحه، فيخرج  
فردة الصندل ويقدمها لها وهو يقول:

- أليس هذا صندلك؟

وتبعت عيناها يد فرعون، وشاهدت فردة الصندل  
تبرز من تحت وشاحه بعينين مرتاعيتين لا تكادان  
تصدقان ممّا تريان شيئاً، وتمتمت بانفعال شديد:

- صندلي!

فضحك الملك ضحكة عذبة، وقال وعيناها لا  
تتحولان عنها:

- بعينه يا رادوبيس، أليس هذا اسمك؟

فأحنت رأسها، وتمتمت قائلة «نعم يا مولاي»  
وكانت مضطربة فلم تزد، أما الملك فاستدرك:

- إنّه لصندل جميل، وأعجب ما فيه هذه الصورة  
المقوشة على باطنه، وكنت أحسبها زخرفاً جميلاً حتّى  
وقعت عليك عيناها، فعلمت أنّها حقيقة رهيبة،  
وعلمت حقيقة أجلّ، وهي أنّ الجمال كالقضاء يباغت  
الإنسان بما لا يقع له في حسابان.

فشبكت كفّها، وقالت:

- مولاي.. ما كنت أحلم قطّ أن تشرف قصرني  
بذاتك، أمّا أن تحمل صندلي.. ربّاه ماذا أقول؟..  
لقد فقدت جناني. غفرانك يا مولاي! ويحي نسيت  
نفسي يا مولاي، وتركتك واقفاً.

وهرعت إلى عرشها وأشارت إليه، ثمّ انحنى  
باحترام. ولكنّه اختار ديواناً وثيراً، وجلس عليه، وقال  
لها:

- ادني منّي يا رادوبيس. اجلسي ها هنا..

فدننت الغانية حتّى صارت على بعد قريب، ووقفت

وحيرتها، وانتقلت كالهامّة من حجرة إلى حجرة، ثمّ  
هبطت أدراج السلم المفروشة بفاخر السجاد، وتربّثت  
قليلاً عند مدخل البهو.. رأت رجلاً يوليها ظهره،  
ووجهه إلى جدار البهو يطالع شعراً لرامون حنّيب..  
ترى من هو؟ كان في مثل طول طاهو ولكنّه أميل إلى  
النحافة والدقّة، عريض المنكبين، جميل الساقين، على  
ظهره وشاح مرصّع بالجواهر يصل ما بين منكبّيه  
ومنطقة وزرته، وعلى رأسه قلنسوة جميلة ذات شكل  
هرميّ لا تشبه قلنسوات الكهنة، ترى من يكون؟.  
إنّه لا يشعر بها لأنّها تتقدّم بخفّة على سجاد غليظ..  
ولمّا صارت منه على قيد خطوات قالت بصوت  
خفيض:

- سيدي

فالتفت الرجل الغريب إليها.

ربّاه!. وجدت نفسها وجهاً لوجه أمام فرعون.  
فرعون نفسه بعزّة وجلاله، مرتنع الثاني دون غيره من  
الخلق!

رباه لقد زعزعت المفاجأة كيائها، فأخذت قهراً،  
وغلبت على أمرها. ترى أهى في حلم من الأحلام!  
ولكنّها تعرف حقّ المعرفة هذا الوجه الأسمر، والأنف  
الأشمّ الطويل. إنّها لا يمكن أن تنساه أبداً، لقد رآته  
مرّتين، فنفذ إلى ذاكرتها بقوة، وحفر صفحتها حفراً  
عميقاً لا يزول. ولكنّها لم تحسب حساب هذا اللقاء،  
ولا أخذت أهبتها له، لم ترسم له خطّة من خططها  
البارعة. وهل كانت رادوبيس تلقى فرعون لقاء  
ارتجالياً، وهي التي تعدّ العدة للقاء تجار النوبة؟!.  
أخذت على غرّة، فقهرت قهراً! ومنيت بالهزيمة  
الساحقة، وبأدركت تنحني لأول مرّة في حياتها، وتقول  
بصوت متهدّج: «مولاي».

وكانت عيناها ترسلان نظرة عميقة، فتستقرّ على  
وجهها الجميل، وكان يلاحظ ارتباكها واضطرابها بلذّة  
غريبة، ويشاهد السحر الذي تنفثه قسامتها بنشوة  
فاتنة، فلمّا حيّته قال لها بصوته ذي النبرات الواضحة  
واللهجة العالية:

- أنعرفيني؟

## رادوبيس ٢٥٩

على النسر ألا أعرفك وأنت على قيد ذراع متي، فرماني  
بالصندل لأنتبه من غفلتي.

فقال كالداهشة:

- هل رمى النسر بالصندل بين يديك يا مولاي؟

- نعم يا رادوبيس.. هذه هي القصة الفاتنة.

- يا لها من مصادفة كالسحر!

- أتقولين مصادفة يا رادوبيس.. وما المصادفة؟..

إنها قضاء مقنع!

فتنهت وقالت:

- صدقت يا مولاي.. إنها كالعامل المتغابي.

- سأعلن رغبتني على الملأ ألا يعرض إنسان من

شعبي للنسر بسوء!

فابتسمت ابتسامة سعيدة فاتنة، ومضت في ثغرها

كتعويذة سحرية. وأحس الملك بهيام يملك قلبه، ولم

يكن من عادته أن يقاوم عاطفة فاستسلم في وجد بين،

وقال وهو يتنهّد:

- إنه هو المخلوق الوحيد الذي أدين له بأثمن ما في

حياتي.. رادوبيس! كم أنت جميلة! هذا حسن يزري

بأحلامي جميعًا.

وسرت المرأة لقوله، كأنها تسمعه لأول مرة في

حياتها، فرنت إليه بنظرة صافية حلوة زادت هيامًا،

فقال وكأنه يضرع ويشكو:

- كأنّ سوطًا تشتعل به النيران يلهب قلبي.

ثم أدنى وجهه من وجهها المشرق، وهمس:

- رادوبيس.. أريد أن أنغمر في أنفاسك.

فبسطت له وجهها، وأسبلت جفنيها. وجعل يهوي

بوجهه حتى مسّ أنفه أنفها الرقيق، وداعب أهدابها

الطويلة بأنامله، وسها إلى عينيها السوداوين حتى

صارت الدنيا ظلامًا، وأذهله الهوى، فاستولى عليه

تخدير ساحر، حتى تنبه على تنهدها العميق، فاعتدل

قليلاً، وهمس في أذنها قائلاً:

- رادوبيس! إنّي أقرأ أحيانًا مصيري، سيكون

الجنون منذ الساعة شعاري.

وأسندت رأسها إلى كفّها إعياء، وكان قلبها يخفق،

فجلسا ساعة صامتين يسعد كلاهما بحديث نفسه، وما

تغالب اضطرابها وذهو لها. فأجلسها بيده، وأمسك

بمعصمها. وكانت أول لمسة - وأجلسها إلى جانبه..

وكان قلبها يخفق بشدة، فوضعت الصندل جانبًا،

وخفضت عينيها، ونسيت أنّها رادوبيس المعبودة، التي

تعبت بالقلوب والرجال كيف شاء لها العبث. غلبتها

المفاجأة، وهزّ نفسها الشخص المعبود، كأنه ضوء

متوهج سلط على عينيها بغتة، فانكشفت كعذراء

تتصدى لرجلها أول مرة.. إلا أنّ جماها الرائع خاض

المعركة - بغير علم منها - ثابت الجنان، عظيم الثقة،

وسلط شعاعه السحري على عيني الملك الداهشتين كما

تسلط الشمس شعاعها الفضي على نائم النبات،

فيصحو ويرق رقيقًا فاتنًا. كان جمال رادوبيس قاهرًا

نقّاذًا، يجرق من يدنو منه، ويبعث في نفسه الجنون،

وميل صدره برغبة لا تروى ولا تشبع..

كانا في تلك الليلة الخالدة - رادوبيس المتعثرة في

ارتباكها والملك التائه في الحسن - أحوج بشرين إلى

رحمة الآلهة.

وأحبّ الملك أن يسمع صوتها فسألها:

- كيف لا تسأليني عن وقوع صندلك بين يدي؟

فساورها القلق، وقالت:

- نسيت أمرًا أجلّ يا مولاي.

فابتسم وسألها:

- كيف ضاع منك؟

وهدأت رقة صوته من انفعالها، فقالت:

- خطفه النسر، وأنا أستحّم.

وتنهّد الملك ورفع رأسه كأنه ينظر إلى تهاويل

السقف، وأغمض عينيه يتخيّل ذلك المنظر الفاتن، إذ

رادوبيس تلعب في الماء بجسمها العاري، والنسر

يهوي من عل فيخطف صندلها. وسمعت الغانية

رفيف أنفاسه، وأحست بها تلفح خدها، وعاد إلى

النظر إلى وجهها، وقال بوجد:

- خطفه النسر وطار به إليّ. يا للقصة الفاتنة!

ولكنّي أتساءل منكرًا: أكنت أحرم من رؤيتك لولم

يقبض إليّ الربّ هذا النسر الكريم؟.. يا له من

فرض محزن! ومع هذا فإنّي أحسّ في أعماقي بأنّه كبر

## الحب

ارتدّ بصرها عن الباب الذي غيَّبه، فقالت وهي تتنهد: «ذهب..»، ولكنَّه في الحقيقة لم يذهب، لو كان ذهب حقًّا لما استولى عليها ذاك التخدير الغريب الذي جعلها بين النوم واليقظة، تذكر وتحلم، والصور تمرّ أمام مخيلتها في تزاخم وتسايق وجنون.

حقّ لها أن تسعد، لأنّها بلغت منتهى المجد، وتستمت ذروة البهاء وتدوّقت من آي العظمة ما لم تحلم به امرأة على الأرض. زارها فرعون بذاته المعبودة وسحرتة بأنفاسها الزكيّة، وصاح بين يديها أنّ سوطًا من اللهب يلهب قلبه الفتّي، فتوجت بهيامه ملكة على عرشى المجد والجمال. وحقّ لها أن تسعد.. على أنّها كانت تسعد سعادة المجد! ومال رأسها قليلاً، فوقع بصرها على فردة الصندل فخفق قلبها وأدنت رأسها حتى مسّت شفتها فارسه..

ولم تنفرد بأحلامها طويلاً إذ دخلت شيث. وقالت:  
- مولاي.. أتتوّن أن تنامي هنا؟  
ولم تردّ عليها.. وحملت الصندل، وقامت في كسل وسارت تتهدى صوب مخدعها. وتشجعت شيث بسكوّتها، فقالت بلهجة حزينة:

- وأسفاه يا مولاي.. إنّ هذا البهو الجميل الذي ألف الطرب واللهو، يقفر الليلة لأول مرّة من السّمار والعشاق.. ولعلّه يتحير مثلي سائلاً: «أين الغناء؟ أين الرقص؟ أين الحبّ.. هي مشيتك يا مولاي..»  
ولم تبالها الغانية، وصعدت أدراج السّلم في صمت وسكون، فظنّت شيث أنّ حديثها ظفر باهتمام سيّدتها، فقالت بحماس:

- لشدّ ما وجموا وأسفوا لما آذنتهم باعتذارك.. وتبادلوا نظرات الحسرة والحزن العميق، وتراجعوا في ثقل يسحبون وراءهم ذيول اليأس.  
ولازمت المرأة الصمت، ودخلت إلى مخدعها الجميل، وهرعت إلى مرآتها وألقت نظرة على صورتها، ثمّ ابتسمت بارتياح وغبطة وقالت لنفسها: «إذا كان ما حدث الليلة معجزة، فهذه الصورة معجزة أيضاً» وغمرتها نشوة سعادة، فالتفتت إلى شيث وسألته:

يحدث - وهو لا يدري - إلاّ صاحبه، وعلى حين فجأة قامت رادوبيس واقفة، وقالت له:

- هلّا أتبعني يا مولاي لتشاهد قصرى؟

كانت دعوة سعيدة.. ولكنّها ذكّرته بأمر كاد أن ينساها، فوجد نفسه مضطراً إلى الاعتذار.. وما يضيره لو أجل اللقاء ساعة. والقصر وما فيه ملك يمينه.. فقال بأسف:

- ليس الليلة يا رادوبيس.

ونظرت إليه بإنكار، وسألته:

- ولم يا مولاي؟

- هناك قوم ينتظرونني منذ ساعات في القصر.

- أيّ قوم يا مولاي؟

فضحك الملك، وقال باستهانة:

- كان ينبغي أن أكون مجتمعاً برئيس الوزراء الآن، والحقّ يا رادوبيس أنّي منذ حادثة النسر فريسة للعمل الشاقّ، وكنت أبيت نية زيارة قصرك، ولكن لا أجد فرصة مؤاتية، ولما رأيت هذا المساء يكاد يلحق بالذي سبقه، أجملت اجتماعاً هاماً ريثما أشاهد صاحبة الصندل الذهبي.

واستولت الدهشة على رادوبيس، وتمتمت قائلة «مولاي». وكانت تعجب من استهتاره الذي دفعه إلى تأجيل اجتماع هامّ من الاجتماعات التي تبرم فيها مصائر المملكة، لكي يشاهد امرأة شغل قلبه بها ساعة.. ووجدت عمله جميلاً ساحراً لا نظير له بين أعمال العشاق ولا شعر الشعراء.

أما الملك فقام بدوره وقال لها:

- أنا ذاهب الآن يا رادوبيس.. وأها.. إنّ القصر خائق.. إنّه سجن مسور بالتقاليد، ولكنني أمرق منها مروق السهم.. سأترك الآن وجهها حبيياً لألقى وجهها بغضباً، فهل رأيت أغرب من هذا؟.. إلى الغد يا رادوبيس الحبيبة.. بل إلى الأبد.

نطق بهذه الكلمات ثمّ ذهب بروعته، وشبابه، وجنونه.



رادوبيس ٢٦١

أنتها سلّمت لإنسان بداعي قلبها سواه، وشهدت شواطئ بيجة مشهداً لم تسعد بمثله في الأرض. ودعاها إلى سفينة فلّبت دعاءه، وحملتها الأمواج من بيجة إلى أقصى الجنوب، وانقطعت من يومها صلاتها بالريف وأهلها جميعاً. واختفى النور من حياتها فجأة، ولم تدر إن كان ضلّ، أو فرّ، أو مات، ووجدت نفسها وحيدة. كلّاً لم تكن وحيدة، كان معها جمالها فلم تشترّد، والتقطها كهل ذو لحية طويلة، وقلب ضعيف. وطابت لها الحياة وأثرت بموته، وتوهّج نورها فخطفت الأبصار، فانجذبوا إليها كالفراش المجنون، وألقوا تحت قدميها الصغيرتين قلوباً فتية، وأموراً لا تعدّ، ويبيعونها ملكة للقلوب في قصر بيجة، فكانت رادوبيس.. يا للذكريات!

كيف مات قلبها بعد ذلك؟.. هل أماته الحزن، أم الغرور، أم المجد؟.. كانت تصغي إلى حديث الحبّ بأذن صمّاء، وقلب مغلق، فكان منتهى ما يطعم فيه عاشق مدله مثل طاهو أن تهبه جسدها البارد. استسلمت للذكريات طويلاً، وكأثما استدعتها لتربطها بأعجب أيام حياتها، وأسعد أيامها!

ومضى الوقت وهي لا تحسّ به إن كانت ساعات أم دقائق، حتّى انتهت على وقع أقدام، فالتفت مزعجة، فرأت بابها يفتح، ودخلت شيت لاهثة وقالت:

- مولاتي.. إنّه يتبعني.. ها هوذا.

ورأته يدخل مطمئناً كأنه يدخل مخدعه الخاص، فغمرتها دهشة ممزوجة بفرح وصاحت:

- مولاتي..

وانسلت شيت خارجاً، وأغلقت الباب، وألقى الملك نظرة على المخدع الجميل، وقال ضاحكاً:

- هل أطلب المغفرة لتهجّمي هذا؟.

فابتسمت ابتسامة سعيدة، وقالت:

- المخدع وصاحبته لك يا مولاتي.

فضحك ضحكته الفاتنة. كانت ضحكة رنانة فتية تنبض بالحياة الدافقة، وأمسك بمرفقها، وسار بها إلى الديوان وأجلسها، وجلس إلى جانبها، وقال:

- من حسبت الرجل الذي جاء لمقابلتي؟.

- من هو يا مولاتي؟. إنني لم أره قبل اليوم. هو شابّ غريب، ولكن لا جدال أنّه من النبلاء، مليح رهيب جسور، يندفع كالرياح مجلجلاً، ولقدميه وقع شديد، ولصوته لهجة الأمر، ولولا خوفي لقلت: إنّه لا يخلو من..

- من ماذا؟.

- من جنون..

- حذار..

- مولاتي.. مهما يكن ثراؤه فلا يمكن أن يرجح العشاق جميعاً الذين طردتهم اليوم.

- حاذري أن تندي حيث لا ينفع الندم.

فقال شيت داهشة:

- هل يفوق غناه القائد طاهو أو الحاكم آني؟

فقال بزهو:

- إنّه فرعون يا حمقاء..

وحملت المرأة في وجه مولاتها. وتدلت شفيتها السفلى، ولم تنطق.

فقال الغانية ضاحكة:

- هو فرعون يا شيت.. فرعون، فرعون بذاته دون سواه، إتيك والثثرة.. اذهبي الآن، اغربي عن وجهي، فإني أريد أن أخلو بنفسني..

وأغلقت الباب ودلفت إلى النافذة المطلّة على الحديقة، وكان الليل جثم في مجثمه وأرخى على الكون جناحيه، وبدت طلائع النجوم في كبد السماء، وأنوار المصابيح المعلقة بأغصان الأشجار في الحديقة، وتبدى الليل فاتئناً، فتدوّقت جماله وأحسّت لأول مرة بأنّ انفرادها فيه عذب بل أعذب من اجتماعها بالعشاق جميعاً.. وأصغت في سكونه إلى ذات نفسها وهمسات قلبها.. وبعثت الذكريات الذكريات، فرجع خيالها إلى عهد منطو بعيد، خفق فيه قلبها خفقة طائشة، قبل أن تتوّج ملكة للقلوب على عرش بيجة، وتغدو للأنفس قضاء لا يردّ. كانت ريفية حسنة، برزت من بين أوراق الريف المخضلة، كما تبرز الوردة اللبنة، وكان نوتياً عذب الصوت نحاسي الساقين، ولا تذكر

إنّما تبادلها هذا الشعور، وتحسّ بصدقه، فقد تكلم ليصف قلباً، فوصف قلبين، إنّها تسمع مثله الأنشودة الإلهية، وتشاهد صورته في آيات الدنيا والنفس، وكان جفناها يتقلان بالأحلام والنشوة، فما عتم أن تماسّت أهدابها، فسألها برقة:

- لماذا لا تتكلمين يا رادوبيس؟

وفتحت عينها الجميلتين، ونظرت إليه بوجد وحنان، وقالت:

- ما حاجتي إلى الكلام يا مولاي؟ فطلما كان الكلام يتدفق على لساني، وقلبي ميت، أما الآن، فقلبي يبعث حيّاً، ويمتصّ كلامك كما تمتصّ الأرض حرارة الشمس، ونحيا بها.

فابتسم إليها سعيداً، وقال:

- اختطفني هذا الحبّ من وسط دنيا عامرة بالنساء.

فقال وهي تبادلها الابتسام:

- واختطفني من وسط دنيا عامرة بالرجال.

- كنت أتحبّط في دنياي كالحائر، وأنت منّي على بعد

ذراع، وأسفاه.. كان ينبغي أن أعرفك من أعوام.

- كان كلانا ينتظر النسر ليسفر بيننا.

فشدّ على قبضة يده بحماس، وقال:

- نعم يا رادوبيس، كانت الأقدار تنتظر ظهور

النسر بأفئتنا لتسطر في لوحها أجل قصّة حبّ، وما

أشكّ في أنّه كبر على النسر أن يؤخّر حبّنا لأجل بعيد،

وما ينبغي لنا بعد اليوم أن نفرق. فأجمل ما في الدنيا

أن نرى معاً.

فتنهّدت من أعناق قلبها، وقالت:

- نعم يا مولاي، فلا ينبغي أن نفرق بعد اليوم،

وهاك صدري حقلًا ناضرًا ارتع فيه أتّ شئت.

فبسط كفّها بين يديه، وضغط عليها بحنوّ، وقال:

- تعالي إليّ يا رادوبيس، ليخلق هذا القصر على

الماضي الغادر، فإني أحسّ بأنّ كلّ يوم ضاع من حياتي

قبل أن أعرفك طعنة غادرة صوّبت إلى سعادتني.

كانت كالمخمورة، ولكن ساورها القلق، فسألته:

- أيريدني مولاي على أن أنتقل إلى حريمه؟

- كنت أخشى أن يسبقني النوم إليك.

- النوم.. النوم لا يهتدي إلى أمثال هذه الليلة،

يحسبها من فرط نور السعادة نهارًا.

فتبدّى الجذّ على وجهه وقال:

- إذا احترقنا معاً..

لم تحسّ بهذه السعادة من قبل، ولم تعهد قلبها في

مثل هذه اليقظة والحياة، ولم تشعر بلذّة الاستسلام إلا

أمام هذا الإنسان البديع، فقد صدق، إنّها تحترق،

ولكنّها لم تقل شيئاً، وقنعت بأن رفعت إليه عينين

ناطقتين يجري فيها الصفاء والمودة.. ثمّ قالت:

- لم يدر بخلدي أنّك تعود هذه الليلة..

- ولا دار لي بخلد، ولكنني رأيت الاجتماع ثقيلًا

مرهقًا، وأعياني تركيز فكري، واستخفني الجزع،

وعرض عليّ الرجل مراسيم كثيرة، فأمضيت عددًا

يسيرًا، وأصغيت إليه بعقل مشتّت، ثمّ ضقت بكلّ

شيء ذرعًا، فقلت له إلى الغد، ولم أكن أفكر في

العودة، ولكنني رغبت في أن أخلو بنفسني للحديث

والمناجاة.. فلمّا خلوت إلى نفسي وجدت الوحدة

ثقيلة، والليل موحشًا لا يجتمل. هنالك لمت نفسي

قائلًا: لماذا أصبر إلى الغد؟.. وليس من عادتي أن

أقوم عاطفة، فما عتمت أن وجدتيها هنا بين

يديك..

يا لها من عادة سعيدة.. إنّها تحبني أشهى ثمارها،

وتحسّ جوارها بفرح عجيب، وكان يضطرب حياة

ونشوة، فقال:

- رادوبيس.. ما أجمل هذا الاسم، فإنّ له وقع

الموسيقى في أذني ومعنى الحبّ في قلبي. وهذا الحبّ

شيء عجب، كيف يصرع رجلًا تعمر ليلاليه الحسان

من كلّ لون وطعم؟.. إنّهُ حقًا عجيب، ترى ما هو

هذا الحبّ؟ إنّهُ قلق معذب يسكن في قلبي، وأنشودة

إلهية ترتل في أسمى مكان من روحي. إنّهُ حنين

موجع، إنّهُ أنت. أنتِ حالة في كلّ آية من آيات الدنيا

والنفس، انظري إلى هيكل هذا الشديد، إنّهُ يشعر

بالحاجة إليك شعور الغريق بالحاجة إلى التنفّس

والهواء..

رادوبيس ٢٦٣

وطبع على شفيتها قبله رطبت شفتيه برحيق عذب،  
وقال لها:

- رادوبيس.. أيتها الحبّ المتزج بروحي.. لن  
يغلق هذا القصر أبوابه ولن تظلم حجراته، سيبقى ما  
بقينا مهذا للحبّ، وجنة للهوى، وحديقة ناضرة  
تغرس فيها بذور الذكريات، سأجعل منه محرّبا  
للحبّ، وأصير أرضه وجدرانه ذهباً مصفى.

فأشرق وجهها بابتسامة سعيدة، وقالت تناجيه:

- لتكن مشيتك يا مولاي، وإني أقسم بحبي  
لأذهبن الغداة إلى معبد الربّ سوتيس، وأغسل  
جسدي بالزيت المقدّس، لأزخض نفسي من الماضي  
الشقي، وأعود إلى المحراب بقلب طاهر جديد، بزهرة  
تشقّ الأكام وتتصدى لشعاع الشمس.

فوضع يدها على قلبه، ونظر إلى عينيها وقال:

- رادوبيس أنا اليوم سعيد، وأشهد الدنيا والآلهة  
على سعادتني، حياتي وحسي بها من حياة.. انظري  
إليّ، فسواد عينيك أشهى لقلبي من نور الدنيا..  
في تلك الليلة نامت جزيرة بيبجة، وسهر الحبّ  
بقصرها الأبيض، حتّى انحسر في ظلمة الليل الحالكة  
عن زرقة الفجر الحاملة..

## ظلمة الحب

استيقظت في الضحى، وكان الجوّ حارّاً، والشمس  
ترسل أشعتها المتوهّجة، فبتت في الدنيا نوراً ونازراً،  
وكان قميصها الرقيق يلتصق بجسدها اللدن، وشعرها  
مبعثراً، منه خصلات نائمة على صدرها، وخصلات  
ملقاة على الوسادة.

طوى ليقظة تبيح في القلب أجمل الذكريات.. كان  
قلبه مرتعاً للغبطة، والجوّ من حولها معطرّاً بأريج  
الأزهار، والدنيا تبسم عن السعادة والأفراح، فأحسّت  
لتجدّد مشاعرها كأنّها تكشف عالماً جديداً جميلاً، أو  
كأنّها تبعث خلقاً جديداً..

ومالت في نومتها إلى جانبها، ولاحت منها نظرة إلى  
الوسادة، فرأت آثار رأسه عليها واضحاً، فاستلّت من

فهزّ رأسه قائلاً:

- سنتزلين بأعزّ مكان به..

فخفضت عينيها ووجعت، ولم تدر ما تقول فأنكر  
سكوتها، ووضع أنامل يمينه تحت ذقتها الصغير، ورفع  
وجهها إليه وسألها:

- ما لك؟

فسألته بعد تردّد:

- أمر هو يا مولاي؟

فانقبض صدره لذكر الأمر، وقال:

- أمر؟.. كلاً يا رادوبيس، إنّ لغة الأمر لا تجدي  
مع الحبّ، وإني ما تمثيت قبل اليوم لو أجرد من  
شخصيتي!.. وأعود واحداً من البشر يشقّ طريقه بلا  
عون، ويلقى حظّه بغير محابة، انسي فرعون ملياً،  
وأخبريني ألا ترغيبين في اللحاق بي؟

وخشيت أن يسيء فهم وجومها وترددها، فقالت  
بلهجة صادقة:

- أرغب فيك يا مولاي رغبتني في الحياة، بل  
الحقيقة أجل من هذا. الحقيقة أنّي لم أحبّ الحياة حبّاً  
صادقاً إلّا منذ أحببتك، وأنّ قيمتها في نظري أنّها  
تشعرنني بحبكّ، وتسعد حواسني بوجودك، أليس  
للمحبّين غريزة تصدقهم القول؟.. سلها عن قلب  
رادوبيس يا مولاي تُعذّ على أذنيك ما جرى على  
لساني، ولكنّي أتساءل حيرى: لماذا أهجر هذا القصر،  
ولماذا أغلق أبوابه الى الأبد؟.. إنّهُ أنا بالذات يا  
مولاي، فينبغي أن تحبّه كما تحبّني. لا يوجد فيه موضع  
يخلو من أثر لي، إمّا صورتي أو اسمي أو تمثال لي..  
كيف لي بهجره وقد هبط فيه النسر الذي طار إليك  
برسالة الحبّ الخالدة؟.. كيف لي بهجره وقد خفق  
قلبي فيه بالحبّ لأول مرّة؟.. كيف لي بهجره يا  
مولاي وقد زرتني فيه بذاتك العالية؟.. حريّ بأيّ  
مكان تطوّه قدماك أن يصير.. كقلبي - لك وحدك، ولا  
يغلق أبوابه أبداً.

كان يصغي إليها بحواسّه المرهفة، وقلبه المشبوب  
الجامح، فتؤمن نفسه بكلّ كلمة من كلماتها. ثمّ لمس  
بحنوّ جدائل شعرها الفاحم، واحتواها بين ذراعيه،

وقاسوا ارتفاع النوافذ والجدران تمهيداً لصنع أثاث جديد.

- حقاً..

- نعم يا مولاتي، وسيغدو هذا القصر عمًا قليل أعجوبة الزمان، فيا لها من صفقة رابحة!..

وتحيرت رادوبيس فيما تعنيه المرأة، ثم خطر لها خاطر، فقظبت جبينها وسألته:

- أي صفقة تعين يا شيث؟

فغمزت المرأة بعينيها، وقالت:

- صفقة الغرام الجديد، وحق الأرباب أن مولاي ليزن أمة من الأغنياء، ولن آسف بعد اليوم على ضياع تجار منف وقواد الجنوب..

وغضبت رادوبيس حتى تخضب وجهها بالاحمرار، وصاحت بها:

- خسئت يا امرأة.. أنا لا أنجر الآن..

- ويل لي.. لو كانت لدي شجاعة يا مولاتي لسألتك عمًا تفعلين إذا؟

فتنهت رادوبيس وقالت:

- أمسكي عن هذرك، ألا ترين أنني أجد في الأمر جدًا؟

فحملت الجارية في وجه مولاتها الجميل، وصمتت دقيقة ثم قالت:

- باركتك الآلهة يا مولاتي.. إنني حائرة وأسائل نفسي: لماذا تجد مولاتي جدًا؟..

فتنهت رادوبيس مرة أخرى، واستلقت على الديوان الوثير، وقالت بصوت خافت:

- أحببت يا شيث..

فضربت الجارية على صدرها بيدها، وقالت بفزع ودهشة:

- أحببت يا مولاتي!..

- نعم أحببت، ما لك تدهشين؟

- معذرة يا مولاتي، هذا زائر جديد لم أسمع باسمه يجري لك على لسان من قبل.. فكيف جاء؟

عينيها متهي العطف والحنان، وأدنت رأسها منه ولثمته، وقد تمتت بفرح: ما أجمل كل شيء.. وما أسعدني بكل شيء..

ثم جلست في فراشها هنيهة وغادرته - كما كانت تغادره كل صباح - نشطة مرحة كملحة بارعة في نفس عامرة بالفكاهة، واستحمت بالماء البارد، وتعطرت بماء الزهر، وارتدت ثيابها البخرية ثم عادت إلى مائدة الطعام، وتناولت إفطارها المكون من بيض وفطير، وشربت كوبًا من اللبن الحليب، وكأسًا من الجعة..

واستقلت سفينتها إلى أبو، وقصدت إلى معبد الرب سوتيس، وولجت بابه العظيم بقلب خاشع، ونفس مفعمة بالرجاء والأمل، وطافت بأرجائه، وتبركت بجدرانته وعمده ذات النقوش المقدسة، وأودعت صندوق النذور ما جادت به يداها، وزارت حجرة الكاهنة الكبرى، وسألته أن تغسلها بالزيت المقدس لتطهرها من شوائب الحياة وأحزانها، وتزخض قلبها من الغي والعمى. وقد أحست، وهي بين يدي الكاهنات المطهرات، أنها تودع، بلا رحمة، قبر الفناء جسد رادوبيس الغانية للعبوب، التي كانت تعبت بالرجال وتملك النفوس، وتسرقت على أشلاء الضحايا، وذوب القلوب، وأن دمًا جديدًا يجري في عروقها، فينبض في قلبها وحواسها الطمأنينة، والسعادة، والطهر، ثم صلت صلاة حارة، جانية على ركبتيها مغرورة العينين، وضرعت في الختام إلى الرب أن يبارك حبها وحياتها الجديدة. وعادت إلى قصرها من فرط سعادتها كأنها طائر يرف بجناحيه في سماء صافية، واستقبلتها شيث فرحة متهللة، تكاد تطير من الفرح، وقالت:

- مبارك هذا اليوم السعيد يا مولاتي. ألا تعلمين من أتى قصرك في غيبتك..؟

فخفق قلبها باضطراب فرح، وصاحت:

- من؟..

فقال الجارية:

- أتى رجال من أمهر الصنّاع بمصر مبعوثين من قبل فرعون، فشاهدوا الحجرات والأرواق والردهات،

به من الحبِّ، إنَّ الحبَّ كالجوع، والرجل كالطعام ..  
وإني أحبُّ من الرجال قدر ما أحبُّ من الأطعمة دون  
حيرة .. وحسبي هذا ..

فضحكت رادوبيس ضحكة رقيقة كرنين الوتر، ثمَّ  
قامت واقفة، وذهبت إلى شرفة تطلُّ على الحديقة،  
وأمرت شيث أن تأتي لها بقيثارة، فأحسَّت برغبة إلى  
اللعب بالأوتار والغناء، كيف لا والدنيا جميعاً تنشد  
لحنًا بهيجًا ..

وغابت شيث برهة، ثمَّ عادت حاملة القيثارة،  
وأسلمتها بين يدي مولاتها، وهي تقول:  
- هل يزعجك أن تؤجِّل اللهو إلى حين ؟  
فسألته ببساطة، وهي تتناول القيثارة:  
- وله؟ ..

طلب إليَّ أحد العبيد أن أخبرك بأنَّ إنسانًا يطلب  
الإذن بمقابلتك.

فلاح الاستياء على وجهها، وسألته بحفاء:

- ألا يعرف من هو ؟ ..

- يقول إنَّه .. يزعم أنه مرسل من قبل الرسَّام  
هنفر.

وتذكَّرت ما قاله لها الرسَّام هنفر أوَّل أمس عن  
تلميذ أنابه عن نفسه لزخرفة الحجر الصيفيَّة، فقالت  
لشيث:

- إيتي به إليَّ ..

وأحسَّت بمضايقه واستياء، وأمسكت القيثارة  
بحدة، ولعبت أناملها بالأوتار في خفة وغضب، لعبًا  
لا وحدة بين أجزائه.

وعادت شيث يسير على أثرها شابَّ حديث العمر،  
وقد أحنى رأسه في إجلال، وقال بصوت رقيق:  
- أسعد الربُّ يومك يا سيدي ..

فوضعت القيثارة جانبًا ونظرت إليه من خلال  
أهدابها الطويلة؛ كان غلامًا معتدل القامة، نحيف  
القدِّ، أسمر الوجه، حسن القسما، واسع العينين  
إلى درجة تلفت النظر، تلوح فيهما أي الصفاء  
والسذاجة. فأخذتها حدائث سنه، وصفاء عينيه،  
وتساءلت متعجبة: هل يستطيع حقًا أن يتمَّ عمل

فابتسمت رادوبيس وقالت كالحالمة:

- ما الداعي إلى العجب؟ امرأة تحبُّ، يا لها من  
حقيقة مبتذلة.

فأشارت المرأة إلى قلب مولاتها، وقالت:

- أما هنا فلا، عهدي به حصنًا منيعًا، فكيف  
أخذ؟ .. ألا بالله قولي لي ..

وبدت في عينيها الأحلام، وبعثت الذكرى في  
نفسها شعورًا قياضًا، فقالت بصوت كالهمس:

- أحببت يا شيث، والحبُّ شيء عجيب، في أيِّ  
دقيقة من الزمان طرق الحبُّ قلبي؟ كيف تسأل إلى  
أعماق نفسي؟ لا علم لي بذلك، وإنَّه ليحيرني حيرة  
شديدة، ولكنِّي عرفت الحقيقة بقلبي، لقد خفق بشدَّة  
وعنف، خفق لرؤية وجهه، وخفق لسماع صوته، وما  
كان عهدي به أن يخفق لشيء من هذا، فوسوس لي  
صوت خفيِّ بأنَّ هذا الرجل صاحب هذا القلب دون  
منازع، فغمزني إحساس قويِّ عنيف عذب أليم،  
وشعرت شعورًا وثأبًا بأنَّه ينبغي أن يكون لي كقلبي،  
وأن أكون له كنفسه، ولم أعد أتصوّر أن تطيب حياة،  
ويلدَّ وجود بغير هذا الامتراج ..

فقالت شيث لاهثة:

- يا للغيرة يا مولاتي ..

- نعم يا شيث؟ طالما تمتمت بالحرية المطلقة، كنت  
أتمنّى مجلسي على ربوة عالية وأسرح ناظري في عالم  
واسع غريب، وأسامر عشرات الرجال، وأندوِّق متع  
الأحاديث، وأتملُّ آيات الفنِّ، وألهو بالمجون والغناء،  
ولكن كان يرين على صدري سام لا شفاء له، وتعشى  
نفسي وحشة لا طمأنينة معها. الآن يا شيث ضاقت  
أمالي، وانحصرت في رجل واحد هو مولاتي، وهو  
دنياي. ولكن دبت حياة دافقة طردت من طريق حياتي  
السأم والوحشة، وأفاضت عليه نورًا وبهجة، فقدت  
نفسي في الدنيا الواسعة، ووجدتها في رجلي الحبيب ..

أرأيت ما هو الحبُّ يا شيث؟

فهزَّت الجارية رأسها في حيرة، وقالت:

- يا له من أمر عجيب كما تقولين يا مولاتي .. ولعلَّه  
أعذب من الحياة نفسها! وإني أسائل نفسي عمَّا أحسن

فقلت:

- لقد ألقت نفسي أمثال هذه الواجبات.. هل  
تنحت لي صورة كاملة؟  
- أو نصفية، وربما اكتفيت بتصوير الوجه، وعلى  
آية حال هذا يتبع الصورة العامة للزخرف.  
قال ذلك، وأحنى رأسه، وسار على أثر شيث،  
وذكرت المرأة المثلال هنفر، وقالت لنفسها في سخرية:  
هل كان يدور له بخلد، أن القصر الذي سألها أن  
تفتحه لتلميذه سيحرم عليه هو دخوله؟..  
وأحست بارتياح إلى الأثر الذي تركه الشاب  
السادج في نفسها، ولعلّه أثار في قلبها عاطفة جديدة لم  
تدبّ بها الحياة من قبل، هي عاطفة الأمومة..  
وسرعان ما أشفقت عليه من عينها وسحرهما الذي لم  
ينج منه إنسان، ودعت الربّ مخلصاً أن يحفظ له  
طمأنينته وصفاءه، ويجعله بمنجاة من دواعي الألم  
والياس..

## بنامون

وبراً بوعدها قصدت لدى ضحى اليوم الثاني إلى  
الحجرة الصيفية بالحديقة، ووجدت بنامون جالساً إلى  
منضدة، باسطاً على سطحها ورقة من البردي، يرسم  
عليها أشكالاً مختلفة ويبدو عليه آي الانهك والتفكير.  
ولمّا أحسّ بوجودها، وضع قلمه وقام واقفاً وأحنى  
رأسه لها، فحيتته بابتسامة وقالت:  
- سأجعل لك هذه الساعة من الصباح، فهي التي  
أملكها من يومي الطويل..  
فقال الشاب بصوته الخافت الخجول:  
- شكراً يا سيدي، ولكننا لن نبدأ اليوم، لأنني ما  
أزال أضغ الفكرة العامة للزخرف.  
فقلت:  
- آه لقد غررت بي يا غلام..  
- حاشاي يا سيدي.. بل عنت لي فكرة رائعة.  
ف نظرت إلى عينيه الواسعتين الصافيتين بسخرية،  
وقالت:

المثال العظيم هنفر؟ وقد أحست بارتياح إلى رؤيته،  
أذهب عنها موجة الاستياء التي اجتاحتها، وسألته:  
- أنت تلميذ المثال هنفر الذي اختارك لزخرفة  
الحجرة الصيفية؟  
- فقال الشاب بارتباك ظاهر، وكان بصره يتردد بين  
وجه رادوبيس وأرض الشرفة:  
- نعم يا سيدي.  
- حسن، وما اسمك؟..  
- بنامون.. بنامون بن بسار.  
- بنامون.. كم تبلغ من العمر يا بنامون، فأني أراك  
صغيراً؟

فتورد خذاه وقال:

- أبلغ الثامنة عشرة في مسرى القادم.  
- أراك تبالغ في التقدير.  
فقال الشاب بإخلاص:  
- كلاً يا سيدي إن ما أقول هو الحق.  
- يا لك من طفل يا بنامون..  
واختلجت عيناه الواسعتان العسلتان قلقاً، وكأنه  
خشى أن تعرض عنه لحدائث سنه. وقرأت مخاوفه،  
فقالت مبتسمة:  
- لا تقلق فأني أعلم أن هبة المثال في يده لا في  
عمره.

فقال بحماس:

- لقد شهد لي أستاذي الفنان الكبير هنفر.  
- هل سبق أن قمت بعمل هام؟  
- نعم يا سيدي، زخرفت جانباً من الحجرة الصيفية  
بقصر السيد آني حاكم بيجة.

فقلت:

- أنت طفل نابغ يا بنامون.

فتورد خذاه، ولعت عيناه بنور الفرح، وغمرته  
سعادة دافقة، ونادت رادوبيس شيث، وأمرتها أن  
تذهب به إلى الحجرة الصيفية.. وتردد الشاب قليلاً  
قبل أن يتبع الجارية، وقال:  
- ينبغي أن نفرغي لي كل يوم.. في أي وقت  
تشائين.

فقال الشاب بلهجة حزينة:  
- كان يستعملها كأدوية ناجعة، ويأخذها الأطباء  
عنه، ولكنها وأسفاه كانت السبب في القضاء على  
حياته.

فسألته باهتمام شديد:  
- كيف كان ذلك يا بنامون؟  
- أذكر يا سيدي أن والدي ركب سماً عجيباً، وكان  
يفخر دائماً بقوله: «إنه أفتك السموم جميعاً، وأنه  
يقضي على ضحيته في ثوان معدودة» وسماه لذلك «السم  
السعيد». وفي ليلة أسيفة قضى الليل كله في معمله  
يشغل بلا انقطاع، وفي الصباح وجد ممدداً على مقعده  
فاقد الروح، وإلى جانبه قارورة سم من ذلك السم  
الفاتك مفضوضة السداد.

- يا للغرابة.. هل انتحرت؟  
- من المحقق أنه تناول جرعة من السم الفاتك،  
ولكن ما الذي دفعه إلى الهلاك؟.. لقد دفن سره  
معه، واعتقدنا جميعاً أن روحاً شيطانياً تلبسه، فأصلته  
الحكمة فأتى فعلته في حالة إعياء وذهول وفجع أسرنا  
جميعاً..

واكتسى وجهه بحزن عميق وانحنى رأسه على  
صدره. فأسفت رادوبيس على إثارتها هذا الموضوع  
الأييم وسألته:

- وهل أمك على قيد الحياة؟  
- نعم يا سيدي، وهي تعيش بقصرنا في أمبوس؛  
أما معمل والدي فلم يلج باب إنسان منذ تلك  
الليلة..

وعادت المرأة، وهي تفكر في موت الطبيب بسار  
الغريب وفي سمومه المودعة المعمل المغلق..

وكان بنامون الإنسان الوحيد الغريب الذي يلوح  
في أفقها الهادئ المنطوي على الحب والطمأنينة؛ وكان  
الوحيد كذلك الذي ينتهب من وقتها الموهوب للحب  
ساعة كل صباح. على أنه لم يضايقها قط لأنه كان أرق  
من الطيف. ومضت الأيام وهي مغرقة في الهوى وهو  
منكب على عمله، وحياة الفن العالية تدب في جدران  
الحجرة الصيفية.

- ترى هل يستطيع حقاً هذا الرأس الصغير، أن  
يبدع فكرة رائعة؟..  
فتخضب وجهه بالاحمرار، وقال بارتباك وهو يشير  
إلى الجدار الأيمن:

- سأملأ هذا الفراغ بصورة وجهك وعنقك.  
- يا للهول.. أخشى أن يأتي بشعاً خيفاً..  
- سيبدو جميلاً كما هو.

نطق الشاب بهذه العبارة ببساطة وسذاجة،  
فحدجته بنظرة فاحصة، فسارع الارتباك إليه، وتحيرت  
عيناه الصافيتان، وأشفقت عليه فنظرت إلى الأمام حتى  
استقر بصرها على البركة خلل الباب الشرقي  
للحجرة.. يا له من شاب رقيق كالعدراء الساذجة،  
إنه يهيج في صدرها حناناً غريباً، ويوقظ الأمومة  
النائمة في سراديب نفسها، والتفتت إليه، فرأته منكباً  
على عمله، ولكنّه لم يكن متفرغاً له، وآية ذلك أنه  
كان ظاهر الارتباك مورّد الخدين، أليس ينبغي أن  
تركه وتذهب إلى حال سبيلها؟، ولكنها أحست برغبة  
في التحدث معه، فأطاعت رغبتها وسألته:

- أمن أهل الجنوب أنت؟  
فرفع الشاب رأسه، وقد اكتسى وجهه بنور فرح  
بهيج، وقال:  
- أنا من أمبوس يا سيدي.

- أمبوس؟.. أنت من شمال الجنوب إذًا، ولكن ما  
الذي جمع بينك وبين المثال هنفر، وهو من أهل بلاق؟  
- كان والدي من أصدقاء المثال هنفر، ولما رأى  
تعلقني بالفن أرسلني إليه ووضاه بي.  
- وهل والدك من طائفة الفنانين؟  
فصمت الشاب هنيهة، ثم قال:

- كلاً.. كان والدي كبير أطباء أمبوس، وكان  
نابغة في الكيمياء والتحنيط، وقد تعددت اكتشافاته في  
طرائق التحنيط وتركيبات السموم..  
ففهمت المرأة من سياق حديثه أن والده مات،  
ولكنها عجبت لاكتشافه تركيبات السموم، وسألت  
الشاب:

- ولماذا كان يصنع السموم؟..

وكانت تظنه ينهمك في عمله كعادته، ولكنها وجدته يجثو على ركبتيه، ويداه مشبكتان على صدره، ورأسه متجه إلى أعلى كأنه مستغرق في صلاة، إلا أن رأسه كان متجهًا إلى ما تمّ نحتته من رأسها وجبينها.

ودفعها غريزتها إلى الاختفاء وراء فرع شجرة ومضت تراقبه خلصة دهشة مذعورة، ورأته يقوم واقفًا كأنه يفتل من صلاته، ورأته يمسح عينيه بطرف كفه الواسع. فخفق قلبها، ولبثت برهة لا تبدي حراكًا، والسكون مطبق من حولها. لا يسمع بين آونة وأخرى سوى رفرقة البظ السابح على سطح الماء أو طنينه، ثمّ التفتت إلى الوراء وانحدرت مسرعة في طريقها إلى القصر.

وقع ما طالما أشفقت من وقوعه رحمةً به، وكانت تطالع معناه في عينيه الصافيتين كأنها رنا بهما إليها، وما كانت تستطيع دفع الشرّ، فهل تباعد بينه وبينها؟ هل تغلق باب القصر في وجهه بأية علة تعتلّ بها عليه. . . لكتها أشفقت من تعذيب نفسه الرفيعة وبانت في حيرة من أمرها.

على أنّ حيرتها لم تطل بها، ولم يكن شيء في الوجود يقادر على أن يستبدّ بوجودها أكثر من ساعة عابرة، لأنّ عواطفها وإحساساتها جميعًا كانت نهب الحبّ، وملك يدي حبيب طموح لا يقنع من الحبّ بشيء. . . كان يطير إلى قصرها الحالم هاجرًا قصره ودنياه، غير آسف ولا متردد، فكانا يفران معًا من الوجود ويلوذان بنفسيهما العامرتين بالحبّ، ويستسلمان لسحر الهوى وقتونه، ويصليان ناره، ويشهدان الحجرات والحديقة والأطيار على روعته وجبروته. وكان أقصى ما يلقيان من أسباب الهموم في أيامها تلك أن تكتشف رادوبيس في الضحى بعد توديعه لها، أنّها لم تسأله أعينها يؤثر بالشوق أم شفتيها، أو أن يذكر وهو في طريقه إلى قصره أنّه لم يقبل ساقها اليمنى مثلما فعل قبل اليسرى، وربما حمله أسفه على أن يكرّر راجعًا لينفي عن حياته أنفه أسباب الهموم.

كانت أيامًا لا نظير لها في الأيام.

وكان يسرها أن ترقب يده وهي تبتّ في الحجرة روحيًا من جمالها الرائع. وقد اقتنعت بمقدرته الفائقة، ووقر في نفسها أنّه سيخلف المثال هنفر في مستقبل قريب. وقد سألته يومًا وهي تهتمّ بمغادرة الغرفة بعد جلسة ساعة:

- ألا يلحقك التعب أو السأم؟

فابتسم الغلام بفخار وقال:

- هيهات. . .

- كأنك تندفع بقوة شيطان. . .

فأشرق وجهه الأسمر بابتسامة وامضة، وقال بهدوء وسذاجة:

- بل بقوة الحب. . .

وارتجف قلبها لوقع هذه الكلمة التي توقظ في قلبها أشهى الذكريات، وتنادى إلى مخيلتها صورة حبيبة محاطة بالبهاء والجلال، ولم يكن يدرك شيئًا مما يقوم في نفسها فاستدرك قائلاً:

- ألا تعلمين يا سيدي أنّ الفنّ هوّى؟

- حقًا؟! . . .

فأشار إلى أعلى جبينها الذي وضح رسمه على الجدران، وقال:

- هاك نفسي خالصة. . .

وكانت قد ملكت عواطفها، فقالت بسخرية:

- يا لها من حجر أصمّ.

- كانت حجرًا قبل أن تلمسها يداي، أمّا اليوم فهي نفسي.

فضحكت قائلة:

- يا لك من مغرق في حبّ نفسه. . .

هكذا قالت وهي توليه ظهرها: ولكن وضح على أثر ذلك اليوم أنّ نفسه ليست الشيء الوحيد الذي يحبه، وكانت تسير في الحديقة على غير هدّى كخاطر حائر في دماغ حالم سعيد، فأشرفت بغتة على الحجرة الصيفية، وساقها ميل إلى التسلية إلى اعتلاء ربوة عالية في غابة الجَمَيز، وإرسال النظر خلل نافذة الحجرة وكان وجهها الآخذ في الاستواء والاكتمال يواجهها على الجدار المقابل، ورأت الفنّان الشابّ في أسفل الجدار،



## خنوم حنوب

وكان الزمن الذي يمنح قوماً الصفاء والسعادة، يتجهّم لوجه رئيس الوزراء وكبير الكهنة خنوم حنوب. كان الرجل يقبع في دار الحكومة يرقب الأمور بعينين متشائميتين، ويستمع إلى ما يقال بأذان مرفهة وقلب حزين، ثمّ يستوصي بالصبر ما أمكن الصبر.

وكان الأمر الذي أصدره الملك بنزع أراضي المعابد ينغص عليه صفو حياته، ويضع في سبيل حكمه عراقيل من الأزمات النفسية، لأنّ جمهور الكهنة قابلوه بفسزع وألم، ونشط أكثرهم إلى كتابة العرائض والالتماسات وتوجيهها إلى رئيس الوزراء وكبير الحجاب.

ولاحظ الرئيس أنّ الملك لا يمنحه من وقته عشر معشار ما كان يمنحه من قبل، وأنّه نادراً ما يحظى بمقابلته والتحدّث إليه في أمور المملكة. وذاع على أثر ذلك أنّ فرعون يهوى غانية القصر الأبيض ببيجة، وأنّه يبيت ليلاليه في قصرها. ثمّ شوهد الصنّاع يساقون إلى قصرها جماعات جماعات، ورثيت زرافات العبيد حاملة فاخر الأثاث وشمين الجواهر. وتهامس الكبراء بأنّ قصر رادوبيس يتحوّل إلى مشوى من الذهب والفضّة والمرجان، وأنّ أركانه تشهد هوىً جامعاً يتقاضى مصر أموالاً لا تعدّ ولا تحصى.

وكان خنوم حنوب رأساً كبيراً وعينين عميقتين، وقد نفذ صبره، وضاق بجموده، ففكّر في الأمر طويلاً، وعزم على أن يبذل ما في وسعه ليحوّل الأمور عن السبيل التي تندفع فيه؛ فأرسل رسولاً من قبله برسالة إلى كبير الحجاب سوفخاتب رجاء فيها إلى موافاته بدار الحكومة. وسارع كبير الحجاب إلى مقابلته، وصافحه الوزير، وقال له:

- إني أشكرك أيّها الميجل سوفخاتب على تلبيتك لرجائي.

فأخى كبير الحجاب رأسه وقال:

- إني لا أتوان عن القيام بواجبي المقدّس في خدمة مولاي.

وجلس الرجلان وجهاً لوجه، وكان خنوم حنوب

صلب الإرادة حديديّ الأعصاب، فظلّ وجهه هادئاً رغم ما يجيش بصدرة من الأحزان. وقد استمع إلى قول كبير الحجاب في سكون، ثمّ قال:

- أيّها الميجل سوفخاتب، كلنا نخدم فرعون ومصر بإخلاص.

- هذا حقّ يا صاحب القداسة.

ورأى خنوم حنوب أن يطرق موضوعه الخطير، فقال:

- ولكنّ ضميري لا يرتاح إلى سير الأمور في هذه الأيام، وبتّ أتعزّب بالمتاعب والمشكلات. وقد رأيت - وأحسبني في رأيي من الصادقين - أنّ مقابلة بيني وبينك لا شك تأتي بخير كثير.

فقال سوفخاتب:

- إنّه ليسعدني وحقّ الأرباب أن تصدق في فراستك يا صاحب القداسة.

فهزّ الرجل رأسه الكبير دلالةً على الرضا، وقال بلهجة تنمّ على الحكمة:

- يجدر بنا أن نستوصي بالصراحة؛ فالصراحة كما يقول فيلسوفنا قاقمنا آية الصدق والإخلاص.

فأمّن سوفخاتب على قوله قائلاً:

- صدق فيلسوفنا قاقمنا.

فصمت خنوم حنوب دقيقة يجمع أفكاره. ثمّ قال بصوت ينمّ على الحزن:

- يسندر أن أحظى بمقابلة جلالة الملك في هذه الأيام.

وانتظر الوزير أن يعقّب الرجل على كلامه، ولكنّه لازم الصمت، فاستطرد قائلاً:

- وأنت تعلم أيّها الميجل أنّي كثيراً ما أطلب تحديد وقت لمقابلته، فيقال لي إنّ ذاته المعبودة خارج القصر.

فبادره سوفخاتب قائلاً:

- ليس لإنسان أن يحسب على فرعون حركاته وسكناته.

فقال الوزير:

- ما قصدت إلى هذا أيّها الميجل، ولكنّي أعتقد أنّ

حقّي كوزير يخوّل لي المثول بين يدي جلالته بين آونة وأخرى، لأقوم بواجباتي على الوجه الكامل.

- معذرة يا صاحب القداسة، ولكنك تحظى بالمثول بين يدي فرعون.

- نادراً ما تتاح لي الفرصة. وتجدني لا أدري ما الحيلة لأعرض على ذاته العليا التماسات تزدهم بها حجرات الحكومة.

فحدجده الحاجب بنظرة فاحصة، وقال:

- لعلها تمسّ موضوع أراضى المعابد.

فالتمعت عينا الوزير بنور خاطف، وقال:

- هو ذلك يا سيدي.

فقال سوفخاتب بسرعة:

- إنّ فرعون لا يريد أن يسمع جديداً حول هذا الموضوع. لأنّ جلالته قال فيه كلمته الأخيرة.

- إنّ السياسة لا تعرف كلمة أخيرة.

قال سوفخاتب بلهجة لم تخل من حدة:

- هذا رأيك يا صاحب القداسة وعسى ألا أشاركك فيه.

- أليست أملاك المعابد تراثاً تقليدياً؟

واستاء سوفخاتب لأنّه شعر بأنّ الوزير يستدرجه إلى حديث ياباه، بعد أن أعلن له إباءه، فقال بلهجة لا تدع له أيّ احتمال للشك:

- سأقف عند كلمة مولاي لا أتعدّها.

- إنّ أخلص الناس لمولاه من يصدقه النصيحة.

واشتدّ استياء الحاجب الأكبر لبقاء القول، وثارت كرامته ثورة مكتومة، فقال بشدة:

- إنّني أعرف واجبي يا صاحب القداسة، ولكنّي لا أسأل عنه إلا أمام ضميري.

فتنهّد خنوم حتب يائساً، ثمّ قال في هدوء وتسليم:

- إنّ ضميرك فوق الشبهات أيها المبيجل، وما داخلي شكّ قطّ في إخلاصك أو حكمتك، ولعلّ هذا ما دعاني إلى الاسترشاد برأيك. أمّا وأنت ترى أنّ هذا لا يتفق وإخلاصك فلا يسعني إلا العدول عنك أسقاً، وليس لديّ الآن إلا رجاء واحد.

فقال سوفخاتب:

- تفضّل يا صاحب القداسة.

- إنّني أرجو أن ترفع إلى مسامح صاحب الجلالة الملكة، رجائي بالتشرف بين يديها اليوم.

وأخذ سوفخاتب، ونظر إلى محدّته نظرة دالّة على الدهشة، لأنّه وإن كان الوزير لم يجاوز حدوده بهذا الرجاء إلا أنّه لم يكن متوقّعه، فاستولى الارتباك على الحاجب، أمّا خنوم حتب فقال بلهجة دلّت على العزم:

- إنّني أقدم هذا الرجاء بصفتي رئيس وزراء المملكة المصريّة.

فقال سوفخاتب بقلق:

- ألا انتظرت إلى الغد لأحيط الملك علماً برغبتك؟  
- كلّاً أيها المبيجل، إنّني أرجو أن أستعين بجلالة الملكة على تذليل العقبات التي تعترض سبيلي، فلا تضيّع فرصة ذهبيّة، عسى أن أخدم بها ملكي ووطني.

فلم يسع سوفخاتب إلا أن يقول:

- سأرفع رجاءك إلى جلالته في الحال.

وقال خنوم حتب، وهو يمدّ له يده للمصافحة:

- سأنتظر رسولك.

فقال الحاجب الأكبر وهو يودّعه:

- كما تشاء يا صاحب القداسة.

ولمّا خلا خنوم حتب بنفسه قطّب جبينه، وأصرّ على أسنانه بشدّة، فبدا ذقنه العريض كقبضة من الجرانيت، ومضى يذرع الحجره ويُعمل فكره. وكان لا يشكّ في إخلاص سوفخاتب، ولكنّه كان قليل الثقة في شجاعته وعزمته. وقد دعاه وهو يائس منه، ولكنّه لم يرد أن يترك وسيلة بلا تجربة، ثمّ تساءل قلماً: هل تقبل الملكة رجاءه وتدعوه لمقابلتها! وما عساه يصنع لو رفضت مقابلته؟ إنّ الملكة لا يستهان بها، وعسى أن تحلّ العقدة المستحكمة بذكائها، فتتقدّم ما بين الملك والكهنة من الانهيار والتفكك. ولا شكّ أنّ الملكة تدرك سوء تصرّف الملك الشاب، وتألّم له أشدّ الألم، فهي ملكة مشهود لها بالفطنة، وهي زوجة تشارك

رادوبيس ٢٧١

واستقامت قامة الوزير، وإن ظلّ رأسه منكسًا،  
وقال بخشوع:

- إنَّ عبدك المطيع يعجز لسانه عن أداء الشكر  
لذاتك العالية، على تفضلك الكريم باستقباله.

فقالت الملكة بصوتها المتّرن النبرات:

- إني أعتقد أنك لا ترجو مقابلي إلا لأمر خطير؛  
فلم أتوان عن استقبالك.

- تعالت حكمة مولاتي، فالأمر جدّ خطير، وما هو  
إلا صميم السياسة العليا.

وانتظرت الملكة صامته، فاستجمع الرجل قواه  
الذاتية، وقال:

- إني يا صاحبة الجلالة أصطدم بعقبات شديدة،  
حتىّ بتّ أخشى ألا أقوم بواجبي بما يرضي ضميري  
ومولاي فرعون.

وسكت لحظة، واختطف من وجه الملكة الهادئ  
نظرة سريعة كأنه يمتحن أثر كلامه فيها، أو ينتظر كلمة  
تشجّعه على الاسترسال، وأدركت الملكة معنى تردّده  
فقالت:

- تكلم أيها الوزير فإني مصغية إليك.

فقال خنوم حتب:

- اصطدمت بهذه العقبات على أثر صدور الأمر  
الملكّي بنزع أكثر أملاك المعابد، فقد اضطرب الكهنة  
وفزعوا إلى الالتجاءات يرفعونها إلى أعتاب فرعون،  
فهم يعلمون أنّ أراضي المعابد منح وهبتها الفرعنة  
عطفًا، فأشفقوا من أن يكون استردادها سخطًا.

ولاذ الوزير بالصمت هنيهة، ثم استدرك قائلاً:

- الكهنة يا مولاتي جنود الملك في وقت السلم،  
والسلم ينشد رجالاً أصلب عودًا من رجال الحرب،  
فمنهم المعلمون والحكماء والوعاظ، ومنهم حكام  
وزراء. وما كانوا ليتوانوا عن التنازل عن أملاكهم  
حبًا لو دعت إلى ذلك شدة حرب أو قحط، ولكنهم..

وتردّد الرجل عن الكلام لحظة، ثم استطرد بصوت  
أشدّ خفوتًا:

- ولكن يحزنهم أن يروا هذه الأموال تنفق في غير  
هذه الوجوه..

الزوجات أفراحهنّ وأحزانهنّ. أليس من المحزن أن  
تُنزع أملاك المعابد ليُبدل ريعها رخيصًا تحت أقدام  
راقصة؟

إنّ الذهب يتدفّق إلى قصر بيجة من أبوابه  
ونوافذه، ومهّرة الصنّاع يتقاطرون عليه ويعملون ليل  
نهار في صنع أثائه وحليّ ربّته وأثوابها. وأين.. أين  
فرعون.. هجر زوجه وحريمه ووزراءه وقنع من الدنيا  
بقصر الراقصة الساحرة!

وتنهّد الرجل في حزن عميق، وتمتم قائلاً:

- ما ينبغي لمن يجلس على عرش مصر أن يلهو..

وراح في تفكيره العميق، ولكن لم يطل به  
الانتظار، إذ دخل عليه حاجبه، واستأذن لرسول آتٍ  
من القصر فأذن. وانتظر الرجل في لهفة، وقد  
اضطربت شفّته في تلك اللحظة الفاصلة على قوّة  
إرادته وصلابة أعصابه، ودخل الرسول، وأحنى رأسه  
محيّياً، وقال باقتضاب:

- إنّ حضرة صاحبة الجلالة تنتظركم يا صاحب  
القداسة.

وحمل من فوره إضمامة الالتجاءات، وذهب إلى  
عجلته التي طارت به إلى القصر، وما دار له بخلد أن  
يأتيه الرسول بهذه السرعة، فلا شك أنّ الملكة تكابد  
حزناً وقلقًا، وتعاني من الآلام في وحدتها الموحشة، ولا  
شك أنّها تنصّب على الإهانة والحرمان قابعة في سجاج  
قاسٍ من الكبرياء والصمت، إنّه يحسّ أنّها من رأيها،  
وأنها ترى الأمور بالعين التي يراها الكهنة والعقلاء  
جميعًا. وعلى آية حال فسيؤدّي واجبه، ولتقضّ الآلهة  
أمرًا كان مفعولًا.

وبلغ القصر: وقصد توجًا إلى جناح الملكة، ولم يلبث  
أن دعي إلى مقابلة جلالته في بهو استقبالها الرسمي.  
وأدخل البهو فاتّجه نحو العرش، وأحنى هامته حتىّ  
مسّت جبهته حاشية ثوبها الملكّي، وقال بإجلال  
عميق:

- السلام على مولاتي نور الشمس وبهاء القمر.

فقالت الملكة بصوت هادئ:

- السلام عليك أيها الرئيس خنوم حتب.

الحزينة سجيناً خلف الستائر. وهكذا خسرت المعركة، وخرجت منها مهيضة الجناح، وما رمت عن قوسها سهماً واحداً.

وكان الذي يدعو إلى السخرية، أتمها ما زال يعدان عروسين. على أن تلك الفترة القصيرة كانت كافية لإظهار ما انطوت عليه نفسه من الجموح العنيف والهوى الطائش، فما عتم أن ملأ الحرير بعدد لا يحصى من الجوارى والمحظيات من مصر والنوبة وبلاد الشمال. ولم تكن تأبه لهن، لأنهن جميعاً لم يصرفنه عنها، وليت ملكته وملكة فؤاده. إلى أن ظهرت في أفقه هذه المرأة الساحرة فجذبته إليها بعنف، وملكته عواطفه وعقله جميعاً، واستأثرت به دون زوجه وحرمة ورجاله المخلصين، ولعب بها الأمل الخادع حيناً، ثم أسلمها إلى اليأس، يأس مكفّن بكبرياء فأحسّت بقلبها يتجرّع سكرات الموت.

وكانت تأتي عليها أحياناً يثب الجنون في دماغها، وتشتع عينها نوراً خاطفاً، فتهتم بالوثب والبطش والمنافحة عن قلبها الكسير، ثم سرعان ما تقول لنفسها باحتقار شديد: كيف يصحّ لنيوتوقريس أن تنازل امرأة تبع جسدها بقطع الذهب؟ فتبرد دماغها، ويتجمّد الحزن في قلبها كالسّم الفاتك في المعدة.

ولكن ثبت لها اليوم أن هناك قلباً غير قلبها تعاني الآلام بسبب تهوّر الملك، وها هوذا خنوم حتب يشكو إليها بثه ويقول لها بعبارة بيّنة: إنّه لا يجوز أن تنزع أملاك المعابد لتلهو بها رادوبيس الراقصة، ويؤمن بقولها المثلون من صفوة الحكماء. أفلا ينبغي أن تخرج عن صمتها؟ وإذا لم تتكلم الآن فمتى ينبغي لها أن تعالج جنونه بحكمتها. وقد ألمها أن يرتقي الهمس إلى العرش المكين، وأحسّت بأن واجبها يقضي عليها بإزالة الهواجس وإعادة الطمأنينة، وهان عليها أن تدوس على كبرياتها، وتوطد العزم على أن تتقدم بخطى ثابتة في سبيلها السويّ مستعينة بالأرباب.

وارتاحت الملكة لتفكيرها الذي أملت عليها الحكمة والدواعي الباطنة، انهار عنادها الأوّل بعد أن ثابر

ولم يُرد أن يجاوز هذا الحدّ من التلميح، ولم يداخله شكّ في أتمها تفهم كلّ شيء وتعلم كلّ شيء. ولكنّها لم تعقب على كلامه بكلمة. فلم يرَ بدأ من أن يتقدّم إليها بالالتباسات، ثمّ قال:

- هذه الالتباسات يا صاحبة الجلالة تعبر عن إحساس رؤساء المعابد، وقد رفض مولاي الملك أن ينظر فيها، فهل لمولاي أن تطلع عليها، فالشاكسون طائفة من شعبيكم المخلص تستحقّ الرعاية.

وقبلت الملكة الالتباسات، فوضعها الوزير على منضدة كبيرة، ووقف في سكون منكس الرأس. ولم تعده الملكة بشيء، وما طمع في هذا قطّ، ولكنّه تفاءل خيراً بقبول الالتباسات. ثمّ أذنت له بالانصراف، فراجع ويداه على عينيه.

وفي طريق العودة حدث الوزير نفسه: إنّ الملكة شديدة الحزن، وعسى أن ينفع حزنها قضيتنا العادلة.

## نيوتوقريس

غيب الباب الوزير، ووجدت الملكة نفسها وحيدة في البهو الكبير، فأسندت رأسها المتوجّج إلى ظهر العرش، وأغلقت جفنيها، وتهدّت تنهداً عميقاً، صعد أنفاساً حارةً مكتوبة بصورة الحزن والألم، فلشدّ ما تنصّب وتجلّد، حتّى إنّ أدنى الناس إليها لا يدري بالسنة اللهب التي تحترق بها أحشاؤها بغير رحمة. وقد ظلّت تطالع الناس بوجه هادئ يكتنفه الصمت كأبي الهول.

وما كانت تجهل من الأمر شيئاً، فقد شاهدت المأساة من بدء فصولها، ورأت الملك يتردّى في الهاوية، ويذهب فريسة لهواه الجامح، ويهرع إلى تلك المرأة - التي شاد بحسنها كلّ لسان - لا يلوي على شيء. وأصابها سهم سامّ في عزة نفسها وسويداء عواطفها، ولكنّها لم تُبد حراكاً، ونشب في صدرها صراع عنيف بين المرأة ذات القلب، والملكة ذات التاج، وأثبتت التجربة أنّها كأبيها قويّة الشكيمة، فصهر التاج القلب، وخنقت الكبرياء الحبّ، فانطوت على نفسها

رادوييس ٢٧٣

وكان أرق المس يببجه، ويرته من حال إلى حال،  
فعض على شفته وقال:

- آيتها الأخت، إن الإنسان هدف لأهواء طاغية.  
وقد يهوي لإحداها فريسة.

وطعنها اعترافه بقسوة في كبريائها وعواطفها،  
فسيئت حلمها وقالت بصراحة:

- يحزنني وحق الرب، وأنت فرعون أن تشكو  
الأهواء الطاغية.

وأحس الملك الغضوب بوخز كلامها، فأهاجه  
الغضب، واندفع الدم إلى رأسه، فانتفض واقفاً ينذر  
وجهه بالشر. وخشيت الملكة أن يفسد غضبه عليها  
الغضب الذي جاءت من أجله، فندمت على قولها،  
وقالت له برجاء:

- أنت الذي سقتني إلى هذا الحديث أيها الأخ، وما  
لهذا جئت، وعسى أن يفرخ غضبك، أن تعلم أنني  
قصدت إليك لأحدثك في شئون هامة تمس سياسة  
المملكة التي نجلس على عرشها سوياً.

فكظم حنقه، وسألها بلهجة كالهاتئة:  
- ما حديثك آيتها الملكة؟

وأسفت الملكة على أن مساق الحديث لم يؤد إلى جو  
صالح لغرضها ولكتها لم تر بدأ من الكلام، فقالت  
باقتضاب:

- أراضي المعابد.

فعبس وجه الملك. وقال بامتعاض شديد:

- أتقولين أراضي المعابد؟ .. إنني أسميها أراضي  
الكهنة!

- لتكن مشيتك يا مولاي. فإن تغيير الاسم لا يغير  
من الأمر شيئاً.

- ألا تعلمين أنني أكره أن يعاد عليّ هذا الاسم؟

- إنني أحاول ما لا يستطيعه غيري، وهدفي الخير  
والإصلاح.

فهز الملك منكبيه بامتعاض وقال:

- وما الذي تريدني قوله آيتها الملكة؟

مثابرة المستميت، وصدقت عزيمتها على مواجهة الملك  
بقوة وإخلاص.

وغادرت البهو إلى مخدعها الملكي، وقطعت بقية  
نهارها في التفكير والتأمل، ونامت ليلها نوماً متقطعاً  
شديد العذاب، وانتظرت الضحى على لهفة، وهو  
الوقت الذي يصحو فيه الملك بعد سهر الليل. . ولم  
يدخلها التردد، فانتقلت بخطى ثابتة إلى جناح  
الملك، وقد أحدث انتقالها الغريب حركة بين  
الحراس، فأدوا لها التحية، وسألت واحداً منهم قائلة:  
- أين جلالة الملك؟

فأجابها الرجل بإجلال قائلاً:

- في منواه الخاص يا صاحبة الجلالة.

وسارت بتؤدة إلى حجرة الملك التي يخلو فيها  
بنفسه، واجتازت بابها الكبير. وكان فرعون يجلس في  
الصدر يفصله عن الباب أربعون ذراعاً، حملت من  
أي البهنية والفرن ما لا تصدقه العيون. ولم يكن الملك  
يتوقع رؤيتها، وكانت مضت أيام عديدة على آخر  
لقاء، فقام واقفاً دهشاً، واستقبلها بابتسامة دلت على  
الارتباك، وقال وهو يشير إليها بالجلوس:

- أسعدتك الآلهة يا نيتوقريس. . لو علمت  
برغبتك في مقابلي لبادرت إليك!

فجلست الملكة في هدوء وهي تحاطب نفسها  
قائلة. .

من أدراه أنني لم أرغب في لقائه طوال هذه الفترة!  
ثم وجهت إليه الخطاب قائلة:

- لا داعي لإزعاجك أيها الأخ، فلنني لا أجد  
غضاضة في الانتقال إليك ما دام الذي يحركني  
واجب.

ولم يلق الملك إلى كلامها بالاً، لأنه كان يحس  
بحرج شديد، وقد تأثر لمجيئها وجمود وجهها، فقال:

- إنني خجل يا نيتوقريس.

وعجبت لطرقة هذا الموضوع، وكان ألمها ألماً خفياً  
أن تراه في منتهى السعادة والصحة، كالزهرة الناضرة،  
فقال بانفعال رغم ضبط عواطفها:

- يهون لدي كل شيء إلا أن تخجل!

- يسيء كلّ عاقل أن تنزع أراضي قوم حكماء لينفق ريعها في اللهو العابت.

فاشتمد هياج الملك. وقال وهو يشير بيده مهدداً:  
- ويل للرجل الماكر.. إنه يغري بالشقاق بيننا؟  
فقال بتألم وحزن:

- إنك تصوّري لنفسك كطفلة غريرة.  
- ويل له.. لقد طلب مقابلة الملكة ليحدث المرأة المسترة في ثوبها الملكي.

فصاحت به حزينة متألة قائلة:  
- مولاي!

ولكنه استطرد يقول مدفوعاً بغضبه الشيطاني:  
- لقد جئت يا نيتوقريس مسوقاً بالغيرة لا بالرغبة في الوثام.

وأحست بطعنة نجلاء تصيب كبريائها. فأظلمت عيناها، ودوى النبض في أذنيها، وارتجفت أطرافها. ولبت هنيهة لا تستطيع قولاً. ثم قالت:

- أيها الملك! لا يعرف خنوم حتب عنك شيئاً أجهله فيسعى به إليّ، وما دمت تظنّ هذا، فاعلم بأنّي، أعلم، كما يعلم الجميع، أنك غارق في أحضان راقصة بجزيرة بيجة منذ أشهر. فهل رأيتني طوال هذه الفترة طاردتك، أو ضيّقت عليك، أو توسّلت إليك؟.. واعلم أنّ الذي يريد أن يخاطب في المرأة يرتدّ خائباً، ولا يلقي أمامه سوى الملكة نيتوقريس..  
فاحتدّ قائلاً بعناد:

- ما تزالين تقدفين بحمم الغيرة.  
فضربت الملكة بقدمها الصغيرة، وقامت واقفة يائسة، وقالت بحنق شديد:

- أيها الملك.. ليس ممّا تُعيّر به ملكة أن تغار على زوجها، ولكن ممّا يعيّر به ملك حقاً أن يبذل ذهب بلاده تحت قدمي راقصة، ويعرّض عرشه الطاهر لخوض الخائضين.

قالت الملكة ذلك، وذهبت لا تلوي على شيء.

\*\*\*

واستبدّ الغضب بالملك، وأخرجه عن طوره وكان يعدّ خنوم حتب مسئولاً عن جميع متاعبه، فاستدعى

فقالته يهدوء:

- لقد دعوت خنوم حتب إلى مقابلتي إجابة لرجائه واستمعت..

ولكنّه لم يدعها تتم حديثها، وقال بغضب:  
- أهكذا فعل الرجل؟

فقالته بارتياح:

- نعم.. هل تجد في سلوكه ما يستأهل غضبك؟  
فقال وكأنّه يزار:

- بغير شك.. بغير شك.. إنه رجل عنيد، وبأي أن ينزل عند إرادتي، وأنا أعلم أنّه نفذ أمري كارهاً، وأنّه يتربص بي لعلّه ينجح في إلغائه مستعيناً تارة بالرجاء، وقد رفضت أن أصغي إليه، وتارة بدفع الكهنة إلى تقديم الالتماسات كما دفعهم من قبل إلى الهتاف باسمه الحقير.. إنّ الرجل الماكر يندفع كالأعمى في طريق خصامي.

فهاهما ظنّه وقالت:

- أنت تسيء الظنّ بالرجل، أما أنا فأعتقد أنّه من أعظم الرجال إخلاصاً للعرش، وأنه حكيم يتوخى الوثام.. أليس من الطبيعي أن يمزق الرجل لفقدان امتيازات كسبتها طائفته في ظلّ عطف أجدادنا؟

واحتدم الغيظ في قلب الملك، لأنه لم يكن يجد عذراً لإنسان ألاّ يصدع بأمره في السرّ والعلانية، ولا يحتمل بأية حال أن يرى إنسان غير ما يرى.

فقال متمعضاً بلهجة تشفّ عن السخرية المريرة:

- أرى أنّ هذا الداهية استطاع أن يغيّر رأيك أيّتها الملكة.

فقالته باستياء:

- لم يتّجه رأيي قطّ إلى نزع أملاك المعابد، ولا أجد ضرورة لذلك.

فعاود الغضب الملك وقال لها بعنف:

- أيسيتك أن تزداد ثروتنا؟

كيف يقبول هذا، وهو يعلم أين تنفق هذه الأموال؟

وأثار قوله غيظها الدفين وحنقها المختنق، فانتفضت غضباً وتغلّبت عليها مشاعرها فقالت بانفعال:

فقال سوفخاتب:  
 - إنه لأمر خطير يا مولاي .  
 - أترأه خطيرًا يا سوفخاتب! .. وأنت يا طاهو؟  
 وكان طاهو جامدًا ميت الإحساس، لا رجوع  
 للحوادث في قلبه، ولُكنه قال:  
 - إنه عمل يا مولاي من وحي القوة المعبودة.  
 فابتسم الملك، وكان سوفخاتب يقلب الأمر على  
 جميع وجوهه، فقال:  
 - سيجد خنوم حتب نفسه منذ اليوم أكثر حرّية.  
 فهزّ فرعون كتفيه باستهانة، وقال:  
 - لا أظنّ أنه سيلقي بنفسه إلى التهلكة.  
 واستدرك وقد غير لهجته:  
 - والآن بماذا تشيران عليّ فيمن يخلفه؟  
 وساد الصمت مئة، ومضى الرجلان يفكران.  
 وابتسم الملك قائلاً:  
 - إنّي اخترت سوفخاتب فما رأيكما؟  
 فقال طاهو بصدق:  
 - إنّ من اخترت يا مولاي هو القويّ الأمين.  
 أمّا سوفخاتب، فبدأ على وجهه الانزعاج وهمّ  
 بالكلام، ولكن سبقه فرعون قائلاً:  
 - هل تتخلّى عن مولاك وقت الحاجة إليك؟  
 فقال سوفخاتب وهو يتنهّد:  
 - ستجدني يا مولاي من المخلصين.

## الرئيس الجديد

وأحسّ فرعون في العهد الجديد بطمأنينة، فسكن  
 غضبه، وترك الأمور بين يدي الرجل الذي يثق به،  
 ووثق وجهه نحو المرأة التي استولت على نفسه وقلبه  
 وحواسه، ففي جوارها كان يشعر بطيب الحياة وبهجة  
 الدنيا وأفراح النفس.  
 أمّا سوفخاتب فكان ينوء بالتبعة على عاتقه، ويعلم  
 علم اليقين أنّ مصر تستقبل توليته بحذر وتجهّم،  
 وسخط مكتوم. وقد أحسّ بالوحشة منذ اللحظة  
 الأولى التي وطئت فيها قدماه دار الحكومة، فالملك

سوفخاتب وأمره دون أن يمهله بأن يبلغ رئيس الوزراء  
 بأنّه ينتظره. وخرج الحاجب الأكبر ينقذ أمر مولاه  
 حائرًا. وجاء الوزير الأكبر موزّع النفس بين اليأس  
 والأمل. وأدخل على الملك الغاضب الحائق، ونطق  
 الرجل بالتحية - التقليدية، ولكنّ فرعون لم يكن  
 يصغي إليه، وقد قاطعه بصوت خشن شديد قائلاً:  
 - ألم أملك أيها الوزير بآلًا تعود إلى مناقشة مسألة  
 أراضي المعابد؟.

وأخذ الرجل باللهجة الشديدة التي يسمعاها لأول  
 مرّة، وأحسّ بآماله تنهار دفعة واحدة، فقال يائسًا:  
 - مولاي .. رأيت من واجبي أن أرفع على  
 مسامعكم العالية شكاوي طائفة من شعبكم الأمين.  
 فقال الملك بلهجة قاسية:  
 - بل أحببت أن تشير غبارًا ببني وبين الملكة،  
 لتصيب تحت ستاره غرضك.  
 فرفع الرجل يديه بتوسّل، وأراد أن يتكلّم فأرتج  
 عليه القول سوى هاتين الكلمتين:  
 - مولاي .. مولاي.

فقال الملك الغاضب المهتاج:  
 - يا خنوم حتب .. أنت تأبى الانصياع لأمرى، فلن  
 امنحك ثقتي بعد اليوم.  
 ووجم الكاهن، واستولى عليه الجمود، ثمّ مال  
 رأسه على صدره في حزن، وقال باستسلام:  
 - مولاي، يجزني وحقّ الأرباب جميعًا أن انسحب  
 من ميدان خدمتكم المجيد، وسأعود كما كنت من قبل  
 عبدًا صغيرًا من عبيدكم المخلصين ..

\*\*\*

وأحسّ الملك بارتياح بعد أن أرضى غضبه الكاسر،  
 وأرسل في طلب سوفخاتب وطاهو، وجاء الرجلان  
 على عجل يتساءلان، فقال لهما الملك في هدوء:  
 - انتهيت من خنوم حتب.

وساد السكون العميق، وبدت الدهشة على وجه  
 سوفخاتب، أمّا طاهو فبقي جامدًا .. وكان الملك  
 يقلب ناظره في وجهيهما فسألها:  
 - ما لكما لا تتكلّمان؟

فرعون إعادة النظر في مسألة أراضي المعابد. فكان إجماعاً خطير الشأن، زاد من متاعب سوفخاتب. وفي يوم من الأيام دعا سوفخاتب طاهو إلى دار الحكومة، وجاءه القائد يسعى، فأشار الوزير إلى كرسي الوزارة، وهو يتهدد، وقال:

- يكاد هذا الكرسي أن يميد بي.

فقال طاهو:

- إن رأسك أكبر من أن يميد به هذا الكرسي.

فتهد الرجل حزناً، وقال:

- أغرقوني بسيل من الالتباسات.

فسأله القائد باهتمام:

- هل عرضتها على فرعون؟

- كلاً أيها القائد، إن فرعون لا يأذن لإنسان بمفاجئته في هذا الموضوع، وأنا لا أحظى بالمثل بين يديه إلا في فترات متباعدة جداً. . . إنني أشعر بالارتباك والوحدة.

وصمت الرجلان برهة، فخلا كلٌ منهما إلى أفكاره، ثم هز سوفخاتب رأسه متعجباً، وقال وكأنه يتحدث نفسه:

- إنه للسحر بعينه.

ونظر طاهو إلى الوزير نظرة غريبة، وبغته المعنى الذي يقصده الرجل، فسرت في جسده قشعريرة وامتقع لونه، ولكنه كبح جماح نفسه، وكان تعود ذلك في المدة الجافة الأخيرة من حياته، وسأله ببساطة كلفته جهداً جهيداً:

- أي سحر تعني يا صاحب القداسة؟

فقال سوفخاتب:

- رادوبيس، أليست تنفت في فرعون سحراً، بل وحق الأرباب، إن ما بجلالته لسحراً ميبناً. .

واهترت نفس طاهو لذكر هذا الاسم، وخال أنه يسمع شيئاً عجبياً يلمس بوقعه السحري جميع الحواس والعواطف، وكان يزيل الصمام الذي أحكمه بقسوة على فوهة وجدانه، فأصر على أسنانه بشدة وقال:

- يقول الناس إن الحب سحر، والسحرة يقولون

إن السحر حب.

يرضى من الدنيا بالحب، ويولي كشحهم المهموم والواجبات جميعاً، وحكام الأقاليم يوالونه بوجوههم، وقلوبهم تتبع كهنتهم في كل مكان. وتلفت الوزير حوله، فلم يجد سوى القائد طاهو عوناً ومشيراً، وهما رجلان مختلفان في أمور كثيرة. ولكنها ياتلفان على حب فرعون والإخلاص له. فلقى القائد نداءه، ومد يده إليه، وشاركه في وحشته وجل متاعبه، وكافحاً معاً لإنقاذ سفينة يطوف بها موج صاحب، وتتجمع في أفقها السحب والزواجر. على أن سوفخاتب كانت تنقصه مزايا القبطان المحنك، كان مخلصاً ينضح قلبه بالأمانة والوفاء، حكياً تنجلي له حقائق الأمور، ولكن كانت تعوزه صفات الشجاعة والحزم، فرأى الخطأ منذ البدء، ولكنه لم يحاول إصلاحه بقدر ما مضى في مداراته وتهوين عقابه خشية غضب مولاه أو إيلامه، وهكذا أظردت الأمور في السيل الذي شقه الغضب. .

وجاءت عيون طاهو الساهرة بخبر هام. قالوا إن خنوم حنبت ارتحل بغتة إلى منف، العاصمة الدينية، فأحدث الخبر دهشة لدى الوزير والقائد. واختارا في السبب الذي من أجله رضي الرجل بمشقة الانتقال من الجنوب إلى الشمال، وتوقع سوفخاتب شراً، ولم يشك في أن خنوم حنبت سيتصل بكبار رجال الكهنوت، وجميعهم ساخطون لما حل بهم من ضنك، ولعلمهم بأن الأموال التي ضن بها عليهم تبعث تحت قدمي راقصة بيجة بغير حساب، فما من أحد منهم يجهد هذه الحقيقة الآن، ومن يجهد سيعلم بها بغير ريب، وسيلقى الكاهن فيهم تربة صالحة لبذر تعاليمه وترديد شكواه. .

وظهرت النذر الأولى لسخط الكهنة، فقد عاد الرسل الذين أذاعوا نبأ اختيار سوفخاتب وزيراً في أنحاء القطر، بالتهاني الرسمية من الأقاليم، أما الكهنة فقد انطوا على صمت رهيب، حتى قال طاهو: «لقد بدأنا بالتحدي».

ثم حملت الرسائل ترى من جميع المعابد، وعليها توقيع جميع الكهنة من جميع الطبقات تلتمس من



فتشوه مسعاي لدى فرعون.. كلاً يا صاحب القداسة..

وتهيب سوفخاتب مواجهة فرعون بالحقيقة.  
ولم يستطع طاهو ملازمة مكانه لأن أعصابه ثارت،  
وزعزعت أركان نفسه عاطفة هوجاء شديدة الاغبرار،  
فاستأذن من الوزير وانطلق لا يلوي على شيء، تاركاً  
وراءه سوفخاتب غارقاً في لجّة عميقة من الأفكار  
والأحزان.

## الملكات

ولم يكن سوفخاتب وحده الذي تثقل رأسه الهموم.  
كانت الملكة تقع في جناحها، تنطوي على حزن  
دفين، وألم بارح، ويأس محروم من الشكوى، تراجع  
مأساة حياتها بقلب كسير، وتشاهد الأمور التي تقع في  
الوادي بعينين حزينتين، ولم تكن سوى امرأة خسرت  
قلبها، أو ملكة يتقلقل بها عرشها، وقد انتهت  
العلائق بينها وبين الملك إلى انقطاع لا يرجى له  
اتصال، ما دام الملك يغرق في هواه، وما دامت هي  
تلوذ بصمت الكبرياء.

وساءها أن تعلم أنّ الملك يزهد في النظر في واجباته  
العليا، وأنّ الحبّ أنساه كلّ شيء حتى تركّزت السلطة  
في يد سوفخاتب. ولم يكن يداخلها شك في إخلاص  
الوزير للعرش، ولكنّها غضبت من استهتار الملك  
وذوله، وصدقت عزيمتها على العمل مهما كلفها  
الأمر، ولم تتردد عن غايتها، فدعت يوماً سوفخاتب  
وطلبت إليه أن يرجع إليها في الشئون التي تحتاج إلى  
رأي الملك. وقد أرضت بذلك غضبها بعض الشيء،  
وأرضت معه الوزير وهي لا تدري، الذي تنفّس  
الصعداء، وأحسّ بأنّ حملاً ثقيلاً رفع عن صدره  
الضعيف.

وعلى أثر اتصال الوزير بها، علمت بالالتباسات  
التي بعثت بها الكهنة من جميع أنحاء الوادي، وقرأتها  
بصبر وجلّد، فقرأت الكلمة التي أجمع عليها رأي  
الصفوة من افاذاذ المملكة، وأحسّت بالخطورة المسترة

فقال الوزير الحزين:

- بتّ اعتقد أنّ جمال رادوبيس سحر ملعون.

فحدجه طاهو بنظرة قاسية وقال:

- ألم تتلّ الرقية التي مكّنت لهذا السحر؟

فأحسّ الرجل بلوم القائد وامتعق لونه، وقال  
بسرعة كأنّما يدفع تهمة:

- لم تكن أوّل امرأة..

- ولكنّها كانت رادوبيس!

- رجوت لمولاي سعادة.

- فقدّمت له سحرًا وأسفاه!

- نعم أيّها القائد، إنّني أشعر بأنّي أخطأت خطأ بليغاً  
.. ولكن ينبغي عمل شيء.

فقال طاهو وكان لا يزال يحسّ بمرارة:

- هذا واجبك يا صاحب القداسة.

- إنّني أطلب مشورتك.

- إنّ الإخلاص يبلغ غايته في النصيحة الصادقة.  
- إنّ فرعون لا يقبل أن يطرق إنسان بين يديه  
مسألة الكهنة.

- ألا تفضي برأيك إلى جلالة الملكة؟

- هذا سبيل أودي بخنوم حتب إلى التعرّض إلى  
غضب جلالة الملك.

فلم يجذّ طاهو ما يقوله، وخطر لسوفخاتب خاطر  
فقال بصوت خافت:

- ألا يمكن أن ترجى فائدة من تدبير اجتماع بينك  
وبين رادوبيس؟

فسرت القشعريرة إلى جسده مرّة أخرى، وانخلع  
قلبه في صدره، وكادت العواطف التي يبالغ في كتبانها  
تنفجر، وقال لنفسه: إنّ الشيخ لا يدري ماذا يقول،  
ويظنّ أنّ مولاه هو المسحور وحده.. ثمّ قال له:

- لماذا لا تجتمع بها أنت؟

فقال سوفخاتب:

- لعلّك أقدر منّي على التفاهم معها.

فقال طاهو ببرود:

- أخشى أن تجد عليّ رادوبيس، وتسيء بي الظنّ

فلو سَدَّت هذه الفوهة التي تبتلع أموال الملك، لربّما هان عليه أن يفكر في ردّ أراضي المعابد إلى الكهنة. ولم تكن تطمح في صرف الملك عن غانية بيعة، ولا فُكّرت في ذلك، ولكنّها كانت ترجو لإسرافه حدًّا. وتهدّدت عند ذلك وقالت لنفسها: الآن وضح غرضي، فينبغي أن نجد وسيلة لإقناع الملك، بالتحوّل عن الإسراف الشديد، ثمّ نقنعه بعد ذلك بردّ الأراضي إلى أصحابها، ولكن كيف نقنع الملك؟.. لقد أسقطته من حسابها. ولكنّها تجده وراء كلّ حساب.. لقد فشلت في إقناعه، ولن يكون سوفخاتب ولا طاهو بأسعد منها حظًّا، فالملك يحكمه الهوى ولا سبيل إليه، وقد أفلت منها هذا السؤال: «من القادر على إقناع الملك؟» فسرت في جسدها قشعريرة أليمة، إذ حضرها الجواب سريعًا، ولكنّه كان مروّعًا أليًّا، ولم تكن تجهله. ولكنّه كان من الحقائق التي يتجدّد الألم بها كلّما عاودتها الذاكرة، فقد قضت الأقدار أن يكون هذا الإنسان المتحكّم في الملك، المسير له، غريمته راقصة بيعة، التي حكمت عليها بالعزلة إلى الأبد.. هذه هي الحقيقة المؤلّة التي تسأم التسليم بها كما يسلم الإنسان بحقائق الموت والشيوخوخة والمرض العضال..

وكانت الملكة امرأة حزينة، ولكنّها كانت ملكة عظيمة بعيدة الآفاق. وكانت تتناسى أنّها امرأة، وإن لم تستطع أن تنسى ذلك، فظلّ قلبها يحوم حول زوجها الملك، والمرأة التي خطفته من بين يديها. ولكنّها لم تتناسَ قطّ أنّها الملكة، ولم تغفل لحظة عن واجباتها، وصدقت عزيمتها على إنقاذ العرش والاحتفاظ به في مرتقاه فوق منال الهمس والتذمّر، ترى هل انتهت إلى هذا العزم بدافع واجبها فحسب..؟ أم كانت هنالك دوافع أخرى؟. إنّ أفكارنا مسوقة دائميًا للطواف بمن نحبّ ومن نكره، فنجذب إليهم بقوة خفيّة كما تجذب الفراشة إلى نور المصباح. ولقد أحسّت من بادئ الأمر برغبة في رؤية رادوبيس التي ترامت إليها أخبارها، ولكن ما معنى هذا؟.. أتذهب إليها لتحدّثها في شئون مصر؟. أتذهب الملكة نيتوقريس إلى الراقصة التي

خلف أسطرها المتّزنة الحازمة.. وتساءلت في حيرة وألم، ما عسى أن يكون الحال لو أيقن الكهنة أنّ فرعون يضرب برجواتهم عرض الحائط؟.. فالكهنة قوّة عظيمة، وهم يتسلّطون على عقول الشعب وقلوبه، وهو يستمع إليهم في المعابد والمدارس والجامعات، ويطمئنّ إلى أخلاقهم وتعاليمهم إطمئنثانه إلى مثله العليا.. فكيف تطرد الأمور إذا يش هؤلاء القوم من عطف فرعون؟.. وقنطوا من إصلاح الأمور التي لم يروها قطّ تسير في طريقها التي تسير فيه في أيّ عهد من العهود المجيدة الفخور التي طواها الماضي الخالد؟.

وما من شكّ في أنّ الأمور تتعقّد تعقّدًا خطيرًا، ويندفع نهر الشقاق، فيفرّق بين الملك النائم الحالم بجزيرة بيعة، وبين شعبه المخلص الأمين، ويقف سوفخاتب منه موقف الحائر لا يبغي عنه إخلاصه ولا حكمته شيئًا..

وأحسّت الملكة بأنّه ينبغي عمل شيء، وأنّ ترك الأمور تسير إلى غايتها ينذر بمتاعب، فينبغي أن تمحو عن وجه مصر الهادئ الجميل التقلّص الذي يعتوره، وأن تعيد إليه هدوءه وجماله.. فما عسى أن تصنع؟.. كانت بالأمس ترجو أن تفوز بإقناع زوجها بالحقّ، ولكنّها اليوم لا يعاودها إليه أمل، ولم تنسَ بعد ما وُجّه إلى كبرياتها من طعنة نجلاء، فنفضت على الأثر منه يديها يائسة حزينة. وفُتشت عن سبيل جديد تصل منه إلى غرضها. لكن ما غرضها؟.. لقد فُكّرت في ذلك مليًّا، ثمّ قالت لنفسها: «غاية ما أمل أن أفوز به، أن يردّ فرعون إلى الكهنة الأراضي التي انتزعها منهم..» ولكن ما السبيل إلى ذلك؟.. إنّ الملك غضوب ذو كبرياء عنيف، ولا يمكن أن يتقهقر أمام إنسان، ولقد أمر بنزع الأراضي في ساعة غضب خطير، ولكن ما من شكّ في أنّ أشياء غير الغضب تدعوه إلى الاحتفاظ بالأراضي في حوزته، ومن يعرف قصر بيعة وما ينفق الملك عليه من ذهب يدرك ماهيّة هذه الأشياء، لقد سمّوه بحقّ قصر بيعة الذهبي، لكثرة ما به من التحف الذهبية والأثاث المصنوع من خالص الذهب،

## رادوبيس ٢٧٩

رادوبيس. كانت رادوبيس بغير ريب. وقد أحسّت بلذعة ألم ويأس، ونسيت لحظة همومها وما جاءت من أجله أمام الحسن الملوّك. وبغيت رادوبيس نفسها أمام جمال الملكة الرزين وجلالها المجيد.

وسلّمتا باليد وجلست رادوبيس إلى جانب ضيفتها الجليلة المجهولة، ولما وجدتها تلوذ بالصمت قالت بصوتها الموسيقيّ:

- نزلت قصرك.

فردّت الضيفة بصوت بالغ في جلاله قائلة باقتضاب:

- شكراً..

فابتسمت الغانية وقالت:

- ليت ضيفتنا تؤذنا بشخصها الجليل.

وكان السؤال طبيعياً ولكنّ الملكة ضاقت به كأنّها لم تكن تتوقّعه. ولم تجد بداً من إعلان نفسها، وقالت بهدوء:

- أنا الملكة..

ونظرت إلى المرأة لترى تأثير تصرّيحها في نفسها، فشاهدت ابتسامة تغيّض، وعينيها تلمعان دهشة، وصدرها يمتلئ ويتصلّب كالأفعى إذا هوجمت.. ولم تكن الملكة هادئة كما تبدو، فقد تغيّر قلبها لدى رؤية غريميتها، وأحسّت بدمائها تلتهب وتمحرق عروقها جميعاً، وشعرت بالكراهية والبغضاء، وتواجهتا كغريميتين تتحفّزان للقتال.. واستولت عليها حالة مريرة ملوّنة بالغضب والحقد. ونسيت الملكة إلى حين كلّ شيء إلا أنّها بإزاء المرأة التي سلبتها سعادتها، ونسيت رادوبيس كلّ شيء إلا أنّها أمام المرأة التي تقاسم حبيبها اسمه وعرشه..

وتبدل الحديث بينهما بادئ الأمر في ذلك الجوّ المشع بالغضب والحقد فجرى مجرى عنيفاً محزناً، وكانت الملكة مستاءة لعدم اكتراث غريميتها، فقالت باستياء:

- ألا تدرين أنّها السيّدة كيف تحيّن الملكة؟..

فجمدت رادوبيس في مكانها ولفحت قلبها هبة من انفعال شديد، وكادت تنفجر لتنفّس عن صدرها

تعرض نفسها في سوق الهوى، وتخطبها باسم حبّها المزعوم للملك، أن تردّه عن الإسراف وتعيده إلى واجبه؟.. يا لها من صورة بشعة!..

وكانت الملكة ضاقت بانزوائها، وضغطت عليها عواطفها الخفيّة وواجبها المبين، لتخرج من صمتها وسجنها الطويل.. فلم تعد تستطيع صبراً، وأقنعت نفسها بأنّ واجبها يدعوها إلى عمل شيء ما، وإلى بذل محاولة أخرى.. وتساءلت في حيرتها: «أأذهب حقاً إلى هذه المرأة، وألفتها إلى واجبها، وأطلب إليها أن تنقذ الملك من الهاوية التي يندفع إليها..» وأسلمها تساؤها هذا إلى حيرة طويلة، وارتابك محزن، هوبا بها إلى الهوس والهديان، ولكنّها لم ترجع عن فكرتها. وما كانت تزداد إلاّ تصميمياً، كانت كسئيل يندفع في منحدر لا يستطيع عنه حولاً. ولكنه يندفع مضطرباً مزيداً كاسراً.. فقالت في نهاية المعركة الناشبة: «سأذهب...».

\* \* \*

وفي صباح اليوم الثاني لبثت تنتظر عودة الملك. واستقبلت الضحى في سفينة ملكيّة، أبحرت بها قاصدة إلى قصر ببيجة، الأبيض الذهبيّ. وكانت تشملها حالة ذهول محزن، ولم تكن ارتدت ثوباً ملكياً، فأحسّت لذلك بسخط واستياء، ورسّت السفينة على سلّم القصر، فهبطت إليه واستقبلها عبد من الرقيق، فقالت له: إنّها زائرة تطلب مقابلة ربّة القصر، فتقدّمها إلى بهو الاستقبال، وكان الجوّ بارداً، وريح الشتاء ترسل هبات قارسة خلل أغصان تعرّت كأذرع مخنّطة.. وجلست في البهو تنظر وحدها. وكانت تشعر بغرابة وحيرة، وتحاول تعزية نفسها بقولها إنّها يصحّ أن تحفض الملكة من كبرائها في سبيل واجبها الأسمى، ولكنّها أحسّت بالانتظار يطول وتساءلت قلقة: «هل تدعها تنتظر طويلاً كما تفعل مع الرجال». ولحقها جزع مؤلم، وندمت على تسرّعها بالحضور إلى قصر غريميتها..

وفاتت دقائق قلبا سمعت حفيف ثوب، فرفعت رأسها المثلّ، فوقعت عيناها لأول مرّة على وجه

وأما عواطفها جميعاً، ودفنتها في أعماق نفسها،  
وارتدت سريعاً إلى طبيعتها المتعالية، وجرى في عروقها  
مكان الغضب والحقد دم أزرق لا يدين بغير الكبرياء.  
فذكرت الغرض الذي جاءت من أجله، وصدقت  
عزيمتها على أن تكفر عما بدر منها.  
وطالعت المرأة بوجه هادئ ظاهراً وباطناً، وقالت  
لها:

- آيتها السيّدة، إنك لم تحسني لقاء الملكة، ولعلك  
أسأت فهم الغرض من زيارتي فثرت وغضبت، ولكن  
اعلمي علم اليقين أنني ما قصدت إلى قصرك لشأن  
يخصني أنا..

فسكنت رادوييس وحديثها بنظرة مليئة بالارتباب.  
ولم يسكت عنها الحقد أو الغضب. وتناسات  
الملكة، وقالت في هدوء:

- لقد جئتك آيتها السيّدة من أجل أمور أجلّ،  
أمور تتعلق بالعرش المجيد، والسلام الذي ينبغي أن  
يسود العلاقات بين صاحب العرش ورعاياه.

فقالت رادوييس بانفعال وسخرية:  
- يا للأمور الجليلة! وماذا أستطيع حيالها يا  
مولاتي؟! .. ما أنا إلا امرأة يلدّ الحب أن يجعلها شغله  
الشاغل..

فتنهت الملكة، وأغضت عن لهجتها، وقالت:  
- أنت تنظرين إلى أسفل، وأنا أنظر إلى أعلى..  
لقد حسبت أنك تغارين على مجد مولاك وسعادته،  
وإذا صدق حسباتي، فينبغي أن تهديه سواء السبيل.  
إنه يفني في قصرك تلاً من الذهب، وينتزع من  
صفوة رجاله أراضيههم حتى ضجّ الناس بالألم، وجأروا  
بالشكوى، وقالوا إن مولانا يبخل علينا بما يبعثه على  
امرأة يحبها بغير حساب. فواجبك إن كنت تغارين على  
مجده حقاً، بين كالمشمس في يوم صافٍ.. أن تصديه  
عن الإسراف، وتقنعه بردّ المال إلى أصحابه..

ولكن رادوييس لم يدعها الغضب تفهم ما تقوله  
الملكة حتى الفهم، وكان وجدانها ثائراً وحقدتها  
شديداً، فقالت بقسوة:

الكظيم، ولكنّها ملكت أعصابها، وكانت تعرف طريقة  
أخرى للانتقام فرسمت ابتسامة على وجهها وأحنت  
رأسها وهي جالسة، وقد أسندت رأسها إلى المقعد في  
تراخ واستهانة، وقالت بلهجة لم تخل من سخرية:  
- إنه ليوم عظيم يا صاحبة الجلالة سيذكر لقصري  
في التاريخ..

والتهب وجه الملكة غضباً، فقالت بانفعال:  
- لم تعدّي الحقيقة، فسيذكر قصرك هذه المرة ذكرًا  
جيداً لا كما تعود أن يذكره الناس.  
ف نظرت إليها بسخرية تستر غيظاً وحنقاً، وقالت:  
- ألا سحقاً للناس.. أذكرون بالسوء قصرًا يجعله  
مولاهم مرتعاً لقلبه وهواه!!..

وتلقت الملكة هذه الطعنة بجلد، ونظرت إلى  
الغانية نظرة ذات معنى، وقالت:  
- ليست الملكات كغيرهنّ من النساء يشغلن قلوبهنّ  
بالحب..

- أحقاً يا مولاتي.. كنت أحسب الملكة امرأة بعد  
كلّ شيء..

فقالت الملكة بلهجة مغيظة:  
- هذا لأنك لم تكوني ملكة في يوم من الأيام..  
فامتلاً صدر المرأة وتصلّب، وقالت:  
- عفواً يا مولاتي، إني ملكة حقاً.  
فحدثتها بنظرة غريبة، وقالت بسخرية:  
- يا للعجب، وعلى أيّ ملكة..!  
فقالت بزهو كبير:  
- على أوسع الممالك طراً.. قلب فرعون..

واحتست الملكة بوهن والم، وخجلت، وأيقنت أنّها  
انحدرت إلى مساجلة الراقصة في القتال، وأنها خلعت  
ثوب الجلال والوقار، وتبدت عارية في جلد المرأة  
الغيور التي تنافح لاسترداد رجلها، وتمسك بتلابيب  
غريميتها وتكيد لها كيداً. ونظرت لموقفها وموقف  
غريميتها، وهي تجلس منها جلسة متعجرفة، وتردّ  
سهمها إلى نحرها، وتديه عليها بحب زوجها  
وسلطانه، فشعرت بغرابة وذهول وحيرة، وتمتت لو  
تكون في حلم ثقيل سخيّف.

بأضلعها تحنو على حبيبها وتدرّ عطفًا وحبًا، وذكرت في غمرات حزنها الطارئ ما قال آني يومًا من أن الحرس الفرعونيّ هو القوّة الوحيدة التي يعتدّ بها الملك، فتساءلت في هلع: لماذا لا تجنّد الجنود؟ لماذا لا يعيّن معبودها جيشًا عرمرمًا؟ ..

وقضت سحابة نهارها في مخدعها كثيبة، ولم تذهب كعادتها إلى الحجر الصيفيّة لتجلس أمام المثل بنامون، لأنها لم تكن تطيق الاجتماع بإنسان. ولا القعود بلا حراك أمام عيني الشابّ النهومين. . فلبثت وحدها حتّى الأصيل، ولم تدقّ للراحة طعمًا حتّى رأت حبيبها المعبود يلج باب مخدعها، يرفل في ثيابه الفضاضة فتنهّدت من أعياق قلبها، وفتحت له ذراعها وضمّتها إلى صدره العريض كما يفعل كلّ مرّة، وطبع على وجهها قبلة اللقاء السعيد، ثمّ جلس إلى جانبها على الديوان الوثير، وكانت نفسه تفيض بذكريات جميلة أثارها في قلبه مشهد النيل الذي حمل سفينته منذ حين قليل، فقال لها:

- أين الصيف الجميل؟ .. أين لياليه الساحرة، إذ تشقّ بنا السفينة جبهته المتجمّدة الدكناء، وإذ نسلم في المقصورة أنفسنا للنسيم والهوى، ونستمع لعزف العازفات. ونشاهد بأعين حالة رقص الراقصات؟ ولم تكن تستطيع أن تجاربه في تذكّره، ولكنّها لم ترض أن يحسّ بالعزلة في عاطفة أو فكر، فقالت:

- مهلاً يا حبيبي، ليس الجمال في الصيف ولا في الشتاء، ولكنّه في حبّنا، وستجد الشتاء دفئًا حنونًا ما دام وقوده.

فضحك ضحكته العظيمة التي يضطرب لها وجهه وجسمه، وقال:

- ما أجمل حديثك. . إنه أشهى إلى قلبي من مجد الدنيا جميعًا. . ولكن ماذا تقولين في الصيد والقنص؟ .. سنذهب مع الغد إلى سفح الجبل، ونعدو في أعقاب الغزلان، ونلهو حتّى نشبع نفوسنا المنهومة. .

فقالت وقد غلبها الشرود:

- لتكن مشيتك يا حبيبي. .

- إنّ الذي يمزّنك حقًا هو أنّك ترين الذهب يتحوّل مع عطف فرعون إلى قصري. .

فانفضّ جسمها، وسرت فيه قشعريرة، وصاحت بها:

- يا للشاعة. .

فقالت رادوبيس بغضب وخيلاء:

- لن يفرّق شيء بيني وبين مولاي.

فغلب الصمت لسان الملكة، وأحسّت بآس شديد وجرح عميق في كبرياتها، ولم تطمع في فائدة من الانتظار، فقامت واقفة وولّت المرأة ظهرها، وسارت في طريقها متألمة حزينة غاضبة، لا تكاد ترى طريقها من شدّة الغضب.

وصعدت رادوبيس أنفاسًا مضطربة، وأسندت رأسها الساخن إلى كفّها، وراحت في تفكير قلق حزين. .

## قَبَسٌ مِنْ نُورٍ

وتنهّدت رادوبيس من قلب مقروح، وقالت لنفسها: «وأسفاه إنّي أتنامى العالم، ولكنّه يأب أن ينساني أو أن يدعني في طمأنينة بعد أن تطهّرت من الماضي وأوشابه. . ربّاه. . أحقًا أنّ الكهنة يتهمون قصرها بابتلاع أموالهم المغتصبة. . أحقًا أنّهم يسلقون جفّها بالسنة من لهب؟. لقد انكشمت في قصرها راضية، وانقطعت صلاتها بالناس جميعًا. وغاب عنها وجه الدنيا، فلم يدرّ لها بحسبان أن يجري اسمها بالسخط على السنة قوم أشداء، وأن يتخذوا منها سلّمًا يرتقون عليه إلى لمز حبيبها المعبود، وهي ما تظنّ أنّ الملكة تبالغ، وإن تنوّعت الدوافع التي تسوقها إلى الكلام، فقد ترامى إليها في زمن مضى أنّ الكهنة يشفقون من استرداد فرعون لأراضيهم، وقد سمعت بأذنيها في عيد النيل قومًا من أولئك المشفقين يهتفون باسم خنوم حتب. فلا شكّ أنّ وراء العالم الهادئ الجميل الذي تعيش فيه عالمًا صاخبًا تغلي مراجله بالأحزان والأحقاد. . وتكدّرت نفسها بعد صفاء دام أشهرًا طوألًا لم تذق مثلها في حياتها جميعًا، وأحسّت

فأحاطت يده بكفّيهما، وضغطت عليها بحنو، ونظرت إليه بعينين ضارعتين، وقالت:  
- أنا قلقة حزينة، ويؤلمني أن أكون سبباً لشكوى قوم منك.. وكأني أحسّ بخوف غامض لا أدري ما كنهه.. والمحّب يا مولاي شديد المخاوف.  
فقال باستياء وغضب:  
- كيف تخافين، وأنت بين يدي؟.

فقال بتوسّل:  
- مولاي.. إنهم يرمقون حنّنا بعين الحسد، وينفسون على هذا القصر والحبّ والطمأنينة والنعيم، ولقد قلت لنفسي في حزني وقلقي: ما للحبّ وهذا الذهب الذي ينثره مولاي عليّ؟ ولا أنكر عليك أنّي كرهت الذهب الذي يؤلب قوماً علينا. ألا ترى أنّ هذا القصر سيظلّ جتّنا ولو تعرّت أرضه ومسخت حوائطه؟.. إذا كان بريق الذهب يا مولاي يخطف أبصارهم فاملاً به أيديهم يعموا ويزددوا ألسنتهم..  
- وأسفاه يا رادوبيس، إنك تذكريني بحديث أكره سماعه.

فقال بتوسّل:  
- مولاي إنّه غشاوة في سماء سعادتنا، فاعمها بكلمة..  
- وما الكلمة هذه؟.

فقالت بفرح، وقد ظنّت أنّه يلين ويرضخ:  
- أن تردّ إليهم أراضيهم.  
فهزّ رأسه بعنف، وقال بلهجة شديدة:  
- أنت لا تدرين من الأمر شيئاً يا رادوبيس، لقد قلت كلمتي فلم تحترم، ونفّذت على كره، ولم يسكتوا عن الاحتجاج، وما انفكوا يتحدّونني، فالتسليم لهم هزيمة لا أرضاها، وأتمّى دونها الموت، أنت لا تدرين معنى الهزيمة في نفسي، إنّه الموت، ولو فازوا عليّ بنيل بغيتهم لوجدتني رجلاً غريباً حزيناً أسيفاً لا قدرة له على الحياة ولا الحبّ.  
ونفّذت كلماته إلى قلبها، فشدّت على يديه بقوة، وأحسّت برجفة تسرى في أوصالها. وقد هان عليها كلّ شيء، إلا أن يصبح لا قدرة له على الحياة والحبّ.

فحدجها بنظرة فاحصة، وأدرك لتوه أنّ لسانها يجادته وقلبها يتيه بعيداً، فقال:  
- رادوبيس.. أقسم لك بالنسر الذي ألف بين قلبينا أنّ فكرًا يسلبني اليوم عقلك..  
فنظرت إليه بعينين حزيتين وأعيها القول، فقال وقد بدا عليه الاهتمام:  
- صدق حدسي فعيناك لا تكذبانني، ولكن ماذا تمسكين عني؟.

فتنهّدت من أعماق قلبها، وعبثت يمينها بعباءته وهي لا تدري، ثمّ قالت بصوت خافت:  
- إنّي أعجب لحياتنا، فلشدّ ما ننسى ما حولنا كأننا نعيش في عالم قفر غير معمور.  
- نعمّ ما نصنع يا حبيبي، فماذا أفدنا من العالم غير الضجيج الفارغ والمجد الكاذب، ولبنا ضالّين حتّى هادنا الحبّ، فما لك تتذمّرين؟.

فتنهّدت مرّة أخرى وقالت بحزن:  
- ماذا ينفعنا النوم إذا كان من حولنا أيقاظاً لا يغمض لهم جفن؟  
وقطبّ جبينه، والتمعت عيناه بنور خاطف، وأدرك بقلبه وساوسها، فسألها بقلق:  
- ما الذي يحزنك يا رادوبيس؟.. صارحيني بأفكارك. فحسبنا ما أضعنا في غير حديث الحبّ.

فقالت:  
- لست اليوم كامس، فقد نقل إليّ بعض عبيدي الذين يمشون في الأسواق حديث قوم غاضبين يمزّ في نفوسهم أنّ مولاهاهم حرمهم من أراضيهم، ويضاعف من آلامهم أنّ أموالهم تنفق على قصري هذا..  
فتبدّى الغضب على وجه فرعون، ولاح له شبح خنوم حتب يطلّ على جتته المطمئنة، فيكدر صفوها، ويزعج أمنها. واشتدّ به الغضب فصبح وجهه بلون النيل في إبان فيضانه، وقال لها بصوت منهّدج:  
- أهذا الذي يحزنك يا رادوبيس؟.. الويل لأولئك المتمرّدين لا يمسون عن غيهم؛ ولكن لا تكذّري صفونا. ولا تبالي تباكيهم.. دعهم لشأنهم، وافرغي لي..

رادوبيس ٢٨٣

- إتهم بضلّون الأفكار، ويشعرون بغضبي عليهم. فإذا أمرت بالتجنيد لحقهم الذعر. وربما هبوا يائسين للدفاع عن أنفسهم..  
ففكرت ملياً، ثمّ قالت بصوت حالم، وكأنّها تحدّث نفسها:

- اخلق العلل واذعُ الجنود.

- إنّ العلل تخلق نفسها بنفسها.

فأحسّت بياس، وأحنت رأسها الحزين، وأغمضت عينيها. ولم تكن ترجو أملاً، ولكن لاح لها في الظلام الدامس خاطر سعيد كلمح البصر، فبهتت وذهلت، وفتحت عينيها، فإذا الفرح يتألّق فيها. ودهش الملك، ولكنّها لم تُبالِه، وقالت وهي لا تملك عواطفها:

- وجدت سيّاً!

فنظر إليها متسائلاً، فاستطردت:

- قبائل المعصايو.

فأدرك قصدها، وهزّ رأسه يائساً، وتمتم قائلاً:

- لقد عقد رئيسهم معنا معاهدة سلام.

ولكنّها لم تياس، وقالت:

- من يدري بما يجري وراء الحدود؟ إنّ لنا هنالك أميراً حاكماً من رجالنا. فلنبعث إليه برسالة سرّية مع رسول أمين يزعم وجود ثورة وقاتل، ويرسل في طلب النجدة، فتسمع صوته الملائ، وتدعو الجنود فتأتيك من الشمال والجنوب، حتّى إذا اجتمع لواءها إليك، وصلت بها جناحك، وأشهرتها سيّفاً في يدك تعلي به كلمتك وتفرض طاعتك.

واستمع لها فرعون في ذهول ودهشة، وقد عجب أيضاً لأنّها لم تخاطر له ببال. على أنّه لم يكن يفكر كثيراً في تكوين جيش قويّ لا تدعو إليه الحالة الحربيّة، واعتقد - وما زال يعتقد - أنّ تدمر الكهنة لا يمكن أن يبلغ من الخطورة حدّاً يستدعي معه جيشاً كبيراً لقمعه. ولكنّه بات يعتقد أنّ عدم وجود هذا الجيش هو ما يطمع القوم فيه ويغريهم برفع الالتباسات وإعلان الشكوى، ووجد فكرة رادوبيس السهلة فرصة سعيدة، ومال إليها بجامع قلبه. وكان إذا مال إلى

ونبذت رغبتها، وأسفت على توسّلاتها، وصاحت بصوت متهدّج:

لن تذلّ أبداً.. لن تذلّ أبداً.

فابتسم إليها بحتو، وقال:

- نعم لن أزل.. ولن تكوني القضاء الذي يسومني

الذلّ أبداً..

فقال وهي تلهث، وقد ارتعش جفناها فوق دمعة حارّة:

- لن تذلّ.. ولن تهزم.

وأسندت رأسها إلى صدره، واستنامت إلى خفقان قلبه. وأحسّت في غيبوتها بأنامله تعبت بخصلات شعرها وخديها، ولكنّها لم تطمئنّ طويلاً، فقد ازعجها خاطر من الخواطر التي كدّرت يومها، فرفعت إليه رأسها، ونظرت إليه بعينين قلقين، فقال لها:

- مالك؟

فقال بعد تردّد:

- يقولون إتهم فئة قويّة، ذات سلطان على قلوب الناس وعقولهم.

فابتسم قائلاً:

- ولكيّ الأقوى..

فتردّدت هنيهة ثمّ قالت:

- لماذا لا تعبئ جيشاً قويّاً يأتمر بأمرك؟

فابتسم الملك، وسألها:

- أرى الوسواس تعاودك.

فتهدّدت في غيظ، وقالت:

- ألم يبلغ أذني أنّ الناس تهمس فيما بينها بأنّ فرعون يأخذ أموال الآلهة وينفقها على راقصة؟ همّس الناس إذا تجمّع صار صراخاً.. إنّ كالشرّ يندلع لهيباً.

- يا لك من متطيّرة متشائمة..

فعدت تسأله بالحاف:

- لماذا لا تدعو الجنود؟

فنظر إليها نظرة طويلة، وقد بدا عليه التفكير، ثمّ قال:

- إنّ الجنود لا تُدعى بغير سبب.

وبدا على وجهه الغضب، فاستدرك:

وقلب عذراء طاهرة، ويخلص لي إخلاصًا لا مزيد عليه. ومزيتة الظاهرة أنه لا يثير الشبهات ولا علم له بشيء، وأنه خير لنا أن يحمل رسالتنا من لا يدري بأمرها الشديد الخطر.. فلو جهلنا الخوف لافتحمتنا المهالك آمين.

فهزّ الملك رأسه راضيًا. وكان يكره أن يقول لها لا. وظنّت رادوبيس أنّ السحابة انقشعت وإذا كان انقشاعها على وجه غير الوجه الذي قصدت إليه بادئ الأمر، ففرحت وأطلقت لفرحها العنان، وأيقنت أنّها ستستطيع عمّا قريب أن تذهل عن الدنيا في قصر الحبّ هذا، تاركة أمر حمايتها لجيش عرمرم لا يهاض له جناح.

وأحنت رأسها بالأحلام، فراق الملك جمال شعرها، وكان يحبّه، فعبث بأنامله في عقده فأنحلت وسال على كتفيها، فتشّقه وجمعه بين يديه، وغمر به رأسه ووجهه في دعابة حتى لم يبد منها شيء.

## الرسول

وأشرق صباح اليوم الثاني، وكان الجو باردًا والسماء متلّعة بأردية السحب، تبيضّ وتتوهج فوق منبع الشمس كوجه بريء يعلن ظاهره عن باطنه، وتظلم الآفاق البعيدة كأنّها ذبول ليل نسيها وراءه بعد إدباره..

وكان ينتظرها عمل عظيم لا يرتاح إليه قلبها، ولا يرضى عنه تطهرها يوم تطهّرت في المعبد، وأقسمت ليزول الماضي بشوائبه. كان الذي ينتظرها أن تخدع بنامون، وتعبث بعواطفه ليخدم حبّها ويحقّق غرضها. على أنّها لم تتردّد قطّ لأنّه كان ينبغي أن تسبق الزمن، وكانت تحنو على حبّها حنوًّا كبيرًا فلم تبال أن تقسو في سبيلها قساوة مرّة.. وغادرت مخدعها إلى الحجرة الصيفية عظيمة الثقة لأنّ التغرير بينامون كان أمرًا سهلًا لا يكلف مكرًا..

وسارت على أطراف أصابعها، فوجدت الشاب

شيء تعلقه، وانشغل به واندفع في سبيله برغبة جنونية لا يلوي على شيء. لهذا نظر إلى عيني رادوبيس بفرح وابتهاج، وصاح بصوت قويّ:

- نعمّ الفكرة يا رادوبيس! نعمّ الفكرة!

فقال بفرح غريب:

- هذا ما يحذّني به قلبي.. وإنيّ لسهلة التحقيق سهولة تناولي هذه القبلة من فيك الحبيب.. وما علينا إلّا الكتان.

- نعم يا حبيبي.. ألا ترين أنّ عقلك كقلبك كنز ثمين؟. وحقًا ما علينا إلّا الكتان، واختيار رسول أمين، فدعي هذا لي.

سألته:

- من عسى أن يكون رسولك إلى الأمير كارفرو؟ فأجابها ببساطة:

- سأختار حاجبًا من رجالي المخلصين.

وكانت لا تطمئنّ إلى قصره العظيم، لغير ما سبب معقول، ولكن بدافع من نفور قلبها من مكان تقيم فيه الملكة. ولم تستطع قطّ أن تعبّر عن هواجسها، وتحرّرت فيمن عسى أن يكون الرسول إذا لم يكن من رجال القصر.. وزاد من حيرتها أنّها أدركت أنّ افتضاح السرّ معناه شديد الخطر، حتىّ ليكبر ذكره على الخاطر. وهمت في لحظة يأس بالعدول عن مشروع حرج شديد الخطورة كهذا، ولكنّها ذكرت بغتة الشابّ الطفل ذا العينين الصافيتين الذي يعمل بالحجرة الصيفية، وأحسّت إلى ذكره بطمأنينة غريبة، فهو الصفاء وهو السداجة والطهارة، وقلبه معد تقدّم لها فيه طقوس العبادة صباح مساء.. فهو رسولها.. وهو الأمين. ولم تتردّد فقالت له بثقة:

- دعني أختار الرسول بنفسي.

فاستضحك الملك وقال:

- يا لك من رعديد اليوم.. لست كعهدي بك..

ومن عسى أن تختاري يا ترى؟.

فقال بخشوع:

- مولاي.. المحبّ شديد المخاوف، ورسولي فتان

يزخرّف الحجرة الصيفية، له سنّ الشباب ونفس طفل



أَنْ قلبي لا يشعر كهذا الحجر، أليس كذلك؟ لا تهم بالفرار فهذا هو اعتقادك. ولكن لماذا يا بنامون؟

ولم يدر ما يقول، فغلبه الصمت، وكانت توحى إليه بأفكارها، فيصدقها وينساق إليها ويشتد ارتبائه، واستدركت المرأة:

لماذا يا بنامون تحسني قاسية؟. إنك تؤمن بالظواهر، لأنك لا تقدر بطبعك على إخفاء ما يضطرب به صدرك، وقد قرأت وجهك كصفحة من كتاب مفتوح. أما نحن فلنا طبيعة أخرى، والصراحة تصبغ علينا لذة الفوز، وتفسد أجمل ما خلقت الآلهة لنا.

وساءل الشاب نفسه حائرًا: ماذا تعني يا ترى، وهل يستطيع أن يفهم من حديثها ما تدلّ عليه كلماتها. أما كانت تجلس أمامه تائهة القلب والعينين، لا تحسّ بالنار الملتهبة في كيانه، فما الذي غيرها؟ لماذا تحدّثه هذا الحديث الحلوى؟ لماذا تلجج إلى الأسرار الحلوة التي تحرق قلبه؟! هل تعني حقًا ما تقول! وهل تعني حقًا ما أفهمه؟! .

وخطت المرأة خطوة أخرى فقالت:

- آه يا بنامون إنك تقسو عليّ بدورك، وآية ذلك الصمت الذي تردّ به عليّ.

فحدجها بنظرة والهة، وكاد من الفرح تفرّ الدموع من عينيه، وقد أيقن صدق ظنونه، فقال بصوت متهدج:

- الدنيا لا تسعني كلامًا.

فتهدت ارتياحًا أن حلت عقدة لسانه، وقالت بصوت حالم:

- وما حاجتك إلى الكلام؟. فلن تقول شيئًا أجهله. آيتها الحجر لقد شاهدتنا أشهرًا، وتركنا في جسمك أثرًا من قلوبنا خالدًا. نعم ها هنا عرفت سرًا رهيبًا.

وتفرّست في وجهه زمنًا قصيرًا، ثم قالت:

- ألا تعرف يا بنامون كيف عرفت سرّ قلبي؟. على حين بغتة عجيبة كانت لديّ رسالة خاصّة أريد أن أبعث بها إلى إنسان في مكان قصي، وأن أبعث بها مع

يتطلّع إلى صورتها، ويترنم مغنّيًا أغنية كانت تغنيها في الأماسي الخوالي مطلعها:

إذا كان حسنك بصنع المعجزات  
فلماذا لا يقدر على شفائي  
وأخذت بغنائها، ولكنها انتهزت الفرصة، وغنت تتم أغنيته:

هل أعبث بما لا علم لي به  
والأفق مستتر خلف سحاب  
وعسى أن تكون المدّخر لقلبي  
فتحوّل الشاب إليها فرغًا مسحورًا، فتلقته بضحكة عذبة، وقالت له:

- إن لك صوتًا عذبًا، فكيف أخفيت عني طوال هذه الأيام؟

فتصاعد الدم إلى وجنتيه قانيًا، وارتجفت شفتاه ارتباكًا، وقابل تلعّفها بدهشة.

وأدركت المرأة ما يدور بخلده، فقالت تستدرجه:

- أراك تلهو بالغناء، وترك العمل.

فبدأ عليه الإنكار، وأشار إلى صورتها المحفورة. وتمتم: «انظري».

وكانت الصورة قد استوت وجهًا جميلًا لا تنقصه الحياة، فقالت بإعجاب:

- إنك لقادر يا بنامون.

فتهد الشاب ارتياحًا، وقال لها بامتنان:

- شكرًا لك يا سيّدي.

- فقالت تعطف الحديث إلى غايتها:

- ولكنك قسوت عليّ يا بنامون.

- أنا. كيف يا مولاتي؟

فقالت:

- خلقت لي نظرة جبّارة، وأنا أشتهي أن أكون كالجمامة.

فلزمه الصمت ولم يبين، ففسّرت صمته على هواها، وقالت:

- ألم أقل إنك تقسو عليّ. فكيف تراني يا بنامون. أجبارة قاسية جميلة كهذه الصورة؟ يا لها من صورة! إني أعجب كيف ينطق الحجر. ولكنك تحسب

- لن يشقّ عليّ منه إلا أنّي لا أراك كلّ صباح .  
- فليكن غيابًا إلى حين . سأعطيك رسالة تودعها  
صدرك، وتذهب إلى حاكم الجزيرة بكلمة مني،  
فيدلّك على الطريق، ويدلّل لك الصعاب . وستسافر  
مع قافلة لا ينبغي لأحد منها أن يطّلع على ما في  
صدرك حتّى تبلغ حاكم النوبة، فتسلّمها له يدًا بيد،  
ثمّ تعود إليّ .

وأحسّ بنامون بسعادة جديدة يمازجها شعور  
بالنخوة والخيلاء، وكانت يدها على كتب منه، فهوى  
بفمه عليها ولثمها بشوق ووجد، ورأته يرتجف بقوة  
حين لمست شفّته يدها .

وفي طريق العودة عاودها إحساس حزين، حتّى  
قالت لنفسها: أما كان أدنى إلى الرحمة أن أترك مولاي  
يختار رسوله، من أن أعبت بقلب هذا الشاب؟ . على  
أنه كان سعيدًا، أسعدته كلمة كاذبة، بل كان في حالة  
يخسد عليها السعداء حقًا، وليس لها أن تحزن ما دام  
لا يعرف الحقيقة، حتّى تياس من ليأذاها بالكذب!! .

## الرسالة

وفي مساء اليوم نفسه جاء فرعون يهزّ في يده رسالة  
مطوية، يشرق وجهه بنور السعادة، فحدجتها بنظرة  
غريبة وتساءلت: ترى هل يُكتب لفكرتها بالنجاح  
والتوفيق، وتسير الأمور وفق أحلامها! وبسط الملك  
الرسالة، وقرأتها بعينين مبهجتين، وكانت موجّهة إلى  
الأمير كارفرو حاكم النوبة من ابن عمّه فرعون مصر .  
وفد صارحه فيها بمتاعبه، وبرغبته في تعبئة جيش جرّار  
دون أن يثير مخاوف الكهنة أو يوقظ حذرهم، وطلب  
إليه أن يبعث إلى مصر برسالة استغاثته مع رسول أمين  
ذي صفة رسمية، يطلب فيها نجدة سريعة للدفاع عن  
حدود الأملاك الجنوبية، ولقمع ثورة وهمية يزعم أنّ  
قبائل المعصايو أشعلت نيرانها، واجتاحت بها البلدان  
والقرى .

وطوتها رادوبيس مرّة أخرى، ثمّ قالت:  
- إنّ الرسول على أهبة الاستعداد .

رسول ترتاح إليه نفسي، ويثق فيه قلبي . وكنت  
جالسة وحدي أستعرض أمام ناظري أقوامًا من الرجال  
والنساء، ومن العبيد والأحرار، وما أحسن في كلّ مرّة  
إلا بالجفاء والقلق . ثمّ لا أدري إلاّ وخيالي يتسلّل إلى  
هذه الحجرة، ووجدتني فجأة أذكرك يا بنامون، فترتاح  
نفسي ويطمئن قلبي، بل أحسست بما هو أعمق من  
هذا، وهكذا عرفت سرّ قلبي .

فغمر الفرح وجه الشاب، وأحسّ بالسعادة إلى حدّ  
الذهول، فجثا على ركبتيه أمامها، وهتف من أعماق  
قلبه:

- مولاتي!

فوضعت كفّها على رأسه، وقالت بحنان:

- هكذا عرفت سرّ قلبي، وإني لأعجب كيف لم  
أعرف هذا منذ أجل طويل .

فقال بنامون، وكان يتيه في غمرات الدهول:

- مولاتي، أقسم لقد شهدني الليل وأنا ذوب  
عذاب، وهاك الصبح يلقاني نسمة من سعادة معطرة .  
لقد أخرجتني كلمة نطقت بها من الظلمات إلى النور،  
ونقلتني من دياجير اليأس إلى سحر السعادة . لقد  
أحببت نفسي بعد أن أشفيت على الفناء . . أنت  
سعادتي وحلمي وأملّي .

وكانت تصغي إليه في صمت حزين، وقد شعرت  
بأنه يصلي صلاة حارة، وأنه يهيم في جهالة الأحلام  
الساذجة المقدّسة، فوجمت وعاودها شيء من الألم  
والندم . ولكنّها لم تستسلم طويلًا لعواطفها التي أثارها  
في قلبها بهيامه فقالت في دهاء:

- إني أعجب كيف لم أعرف قلبي منذ أجل طويل،  
بل إني أعجب للمصادفات التي توقّفتني إلى سرّه إلاّ  
حين حاجتني إلى إرسالك إلى مهمّة بعيدة، فكأنتها دلّتني  
عليك، وحرمتني منك في لحظة واحدة .

فقال الشابّ بلهجة العبادة:

- سأفعل ما تريدون بروحي وقلبي .

فسألته بعد تردّد:

- وإن كان ما أريد سفرًا إلى بلد لا تبلغه إلاّ بشقّ

الأنفس!؟

فقال ببساطة:

- نعم: إنَّ سوفخاتب وطاهو بمثابة عقلي وقلبي،  
فلا أكتنهما شيئاً.

ودوى اسم طاهو في أذنيها دويًا شديدًا، فتجهّم  
وجهها، وبدا القلق في عينيها، وسألته:

- وهل علم به الآخر؟

فقال الملك ضاحكًا:

- لشدّ ما تحاذرين يا رادوبيس، ولكن اعلمي أنّي  
لا آمن نفسي على شيء لا أمنها عليه.

فقالت:

- إنَّ حذري يا مولاي لا يرتقي لإنسان تثق فيه  
هذه الثقة.

ولكنّها ذكرت بالرغم منها طاهو في ساعة وداعه  
الأخير، ودوى في أذنيها صوته الأجرس، وهو يهدر  
غاضبًا حانقًا يائسًا، وتساءلت ترى هل ما يزال يعلق  
بنفسه شيء؟! .

ولكنّ الوسواس لم تجد فرصة للعبث بقلبها، لأنّها  
كانت تنسى نفسها بين يدي حبييها.

\* \* \*

وجاء في الصباح الرسول بنامون بن بسار متلفعًا  
بعباءته، غارقًا في القلنسوة حتّى الأذنين، وكان خذاه  
متوردين، وعيناه لامعتين بنور فرح سهاويّ.. فسجد  
بين يديها في صمت وخشوع، وقيل حاشية ثوبها في  
عبادة، فداعبت رأسه بأناملها، وقالت له بحنو:  
- لن أنسى يا بنامون أنّك لأجلي هجرت الراحة  
والسكينة.

فرفع إليها وجهه الجميل البريء، وقال بصوت  
متهدج:  
- في سبيك يهون كلّ شاقّ، فلتعني الآلهة على  
تحمل ألم الفراق.

فقالت له مبتسمة:

- ستعود سعيدًا ناضرًا، وستنسى في أفراح المستقبل  
أحزان الماضي جميعًا.

فقال الملك مبتسّمًا:

- والرسالة جاهزة.

وبدا على وجهها التأمل والأحلام، ثمّ سألت:  
- ترى كيف يقابلون رسالة كارفرو؟

فقال الملك بلهجة اليقين:

- ستهزّ القلوب جميعًا، وقلوب الكهنة أنفسهم،  
وسوف يدعو الحكّام إلى تجنيد الرجال من جميع أطراف  
البلاد، فلا يلبث الجيش الذي يناط به أملنا أن يأتينا  
بعده وعُدده.

واستخفّها الفرح وسألته بلهفة:

- وهل نتظر طويلًا؟

- أمانا شهر انتظار يقطعه الرسول في الذهاب  
والإياب.

ففكرت هنيهةً، ثمّ عدّت على أصابعها، وقالت:  
- إذا صدق حدسك تصادف عودته عيد النيل.

فضحك الملك وقال:

هذا فال حسن يا رادوبيس، فعيد النيل هو عيد  
حبّنا، وسيكون عيد الفوز والطمأنينة.

وتفاءلت هي خيرًا وكانت تؤمن بأنّه لا يمكن أن  
تفقد أملًا عزيزًا في ذلك اليوم الذي تعدّه بحقّ مولدًا  
لسعادتها وحبّها. وأيقنت أنّ اقتران عودة الرسول به  
ليس محض مصادفة، ولكنّه تدبير حكيم من يد آلهة  
تبارك حبّها وتعطف على أمالها.

ورمقها الملك بنظرة إعجاب وإكبار، ثمّ قبل رأسها  
وقال:

- لله هذا الرأس الثمين.. لشدّ ما أعجب به  
سوفخاتب، ولشدّ ما أعجب بالفكرة التي أبدعها،  
فلم يملك نفسه أن قال لي: يا له من حلّ يسير لمشكل  
عسير، كأنّه زهرة مونقة تخرج من ساقٍ ملتوية،  
وأغصان شديدة التعقيد.

وكانت نظرن أنّ كتم الخبر ولم يبح لإنسان، حتّى  
ذلك الوزير المخلص سوفخاتب، فسألته:

- هل علم الوزير بسرّنا؟

فتنهّد قائلاً:

- طوبى لمن يحمل في قلبه حلاً سعيدياً يؤنس وحدته، ويرطب جفاف طريقه.

فابتسمت له ابتسامة مشرقة، وأمسكت بيدها الرسالة المطوية وسلمتها إليه وقالت:

- لا أوصيك بالخذر.. أين تودعها؟

فقال:

- على قلبي يا مولاتي تحت منطقتي.

فسلمت إليه رسالة أخرى صغيرة، وهي تقول:

- هاك رسالة أخرى ادفع بها إلى الحاكم آني يمهد لك السبيل، وبدلك على أول قافلة تقوم.

ثم حتم الوداع، فازدرد ريقه واضطرب، وبدا عليه الارتباك والهيام، فمدت له يدها، فتردد لحظة، ثم وضعها بين يديه، وكفاه يرتعشان كأنما يلمس نازاً موقدة، ثم ضمها إلى صدره حتى سرت إليها حرارته وخفقاته. ثم مضى راجعاً فغيبه الباب، وقد شيعته بنظرة حائرة، ولسان يلهج بالدعاء الحاز.

كيف لا، وقد ربط على قلبه أملاً تتعلق به حياتها.

## طَاهُو يَهْذِي

وكان الانتظار مرّاً من أول عهدها به، لأنه كان لا يفتأ يهتف بها هاتف رجاء يقول بحسرة: ليت الملك لم يفش سرّ الرسالة لإنسان. كانت تتمنى هذا بحرقه لم يخفّف من لوعتها ما أبدى الملك من ثقة عظيمة برجليه المقرّبين. ولم تكن وساوسها ريبة صريحة، ولكنّ ثمة قلق دفعها إلى التساؤل: ترى ماذا يحدث لو سعى ساع بفحوى الرسالة إلى رجال الكهنوت؟ هل يتردّدون في الدفاع عن أنفسهم إزاء هذا الشرّ الميّت.. ربّاه.. إن إفشاء سرّ الرسالة أمر خطير.. لا يجرؤ على إدراك كنه خطورته عقل وطني. وأحسّت بقشعريرة تسري في جسمها الرقيق، وهزّت رأسها بعنف تطرد عن مخيلتها أوهام الوسواس، وهمست لضميرها تسكته قائلة: إن كلّ شيء يسير وفق الخطة التي رسمناها، وليس من داع إلى إثارة هذه المخاوف؛

وما هذه الأوهام المرتعبة إلا وساوس قلب مغرم لا يهدأ ولا ينام.

على أنّها كانت لا تكاد تطمئنّ حتى يحوم خيالها مرّة أخرى حول هاتيك المخاوف، وتخال أنّها ترى وجه طاهو الغاضب المتقلّب من الألم، وأنّها تسمع صوته الأَجَشُّ ذا النبرات المتألّفة المجرّوحة. وقد عانت من مخاوفها الآلام، ولكنّها لم تجسر على تفسيرها أو إزالة الغموض الذي يكتنفها.

ترى هل يحقّ لها أن تخشى طاهو أو أن تسيء به الظنّ؟.. إن كلّ الدلائل تدلّ على أنّه نسي. ولكن هل كان بوسعه أن يفعل شيئاً وامتنع عنه طواعية؟. فما كان يستطيع أن يطرق بابها بعد أن أصبح حرماً محرّماً، وما كان بوسعه إلا الإذعان والتسليم، ولا يعني هذا أنّه نسي أو برأ.

ترى هل يبقى شيء من زوايا الماضي عالقاً بقلبه؟.. إنّ طاهو جبار عنيد، وقد يستحيل الحبّ في قلبه حقداً موربياً، فيتحمّز عند سنوح الفرصة للانتقام.. على أنّها لم تنس في أحزانها أن تنصف طاهو، وأن تذكر له إخلاصه وتفانيه في حبّ مولاه، وأنّه رجل الواجب الذي لا يجيد به عن سبيله نزوع ولا مطمع.

كان كلّ شيء يدعو إلى الطمأنينة، ولكنّ وساوسها لم تدعها في طمأنيتها قطّ، وكان الرسول برح قصرها منذ ساعات قلائل فقط، فكيف لها بالانتظار شهراً أو يزيد؟.. لقد لحقها الفرع، وخطر لها خاطر غريب أن تدعو طاهو إلى مقابلتها. وكان خاطراً لا يخطر لها على بال قبل يوم، أمّا اليوم فقد وجدت به راحة وإليه رغبة. وكان يدفعها إليه ما يدفع الإنسان إلى احتضان خطر يتقيه ولا يجد سبيلاً إلى دفعه أو الإفلات منه، وفكرت في ذلك تفكيراً مضطرباً، وقالت لنفسها: فلاذّعهُ ولأحادثه لاستبطن ذاته، وعسى أن أفوز بدفع شرّه. إن كان هناك شرّ يدفع - فأنقذه من نفسه، وأنقذ مولاي من شرّه، وما لبثت رغبتها أن تحوّلت إلى عزيمة لا تقبل التردد، فاستمسكت بها بكلّ ما أوتيت من قوّة وقلق.. ودعت من فورها شيث وأمرتها

وتفكر الرجل لحظة، ثم تذكر فقال:  
 - لعلك يا سيدتي تعين الفكرة النيرة التي أوحى بها  
 عقلك الراجح؟  
 فهزت رأسها أن نعم، فاستطرد:  
 - إنها فكرة رائعة، جديرة بذكائك اللامع.  
 فقالت وهي لا تبدي السرور:  
 - إن تحقيقها يكفل لمولانا القوة والسيادة، وللوطن  
 السلام والطمأنينة.  
 فقال القائد:

- هذا حق لا ريب فيه، وهو ما جعلنا نهمل لها  
 ونكبر.

ف نظرت إليه نظرة عميقة وقالت:  
 - سيأتي يوم قريب تحتاج فكرتي إلى قوتك  
 لتحقيقها، وتتويجها بالنجاح والفوز.  
 فأحى الرجل رأسه وقال:  
 - شكراً لك على ثقتك الغالية.

وصمتت المرأة قليلاً. كان طاهو وقوراً رزيناً جاداً،  
 لا كما عهدته قديماً، ولم تكن تنتظر منه غير ذلك  
 واستشعرت نحوه بطمأنينة وثقة. وكانت تلح عليها  
 رغبة قوية في أن تفاتحه في الموضوع القديم، وأن تسأله  
 العفو والنسيان، ولكن خانها البيان ولم تدر ما تقول،  
 وغلبتها الحيرة فأشفقت من الزلل، وتركت هذا  
 الحديث كارهة حائرة، ورأت في اللحظة الأخيرة أن  
 تعلن له عواطفها الطيبة بطريقة أخرى، فمدت له  
 يدها وقالت وهي تبسم إليه:

- أيها القائد الجليل، إنني أمد لك يد التقدير  
 والصدقة.

فوضع الرجل يده الغليظة في يدها الرخصة  
 الرقيقة، وبدا عليه التأثر فلم يجر جواباً، وانتهت عند  
 ذلك المقابلة القصيرة الفاصلة.

وفي طريق العودة إلى السفينة تساءل محمومًا: «لماذا  
 دعيتي هذه المرأة؟». ترك العنان لعواطفه التي كبح  
 جماحها في حضرتهما فاختل توازنه، وانكفأ لونه،  
 وارتمت أوصاله، ومضى يفقد عقله ورشده بسرعة  
 فائقة. وضربت المجاديف جانب الماء وهو يترنح

بالذهاب إلى قصر القائد طاهو واستدعائه. وذهبت  
 شيث وانتظرت هي في بهو استقبالها على قلق؛ ولم يكن  
 يداخلها ريب في تلبسته لدعوتها. وذكرت في انتظارها.  
 اضطرابها، وقرنت به ما كانت عليه من القوة والبرود  
 في الأيام الخوالي. فأدركت أنها منذ الساعة التي نزل  
 فيها الحب بقلبها، انقلبت امرأة ضعيفة قلقه، يطرد  
 النوم عن عينيها وهم ساخر، أو قلق كاذب.

وجاء طاهو كما توقعت، وكان مرتدياً لباسه  
 الرسمي، فوجدت في ذلك معنى مطمئناً، فكأنه يقول  
 لها إنه نسي رادوبيس غانية القصر الأبيض، وإنه  
 يحظى الآن بمقابلة صديقة مولاه فرعون.

وأحى القائد رأسه باحترام وإجلال، وقال بهدوء  
 وبلا أدنى تأثر:

- أسعد الرب أيامك أيها السيدة الجليلة.  
 فقالت وهي تتفرس في وجهه:  
 - وآيامك أيها القائد الجليل، وإنني أشكرك على  
 قبول دعوتي.

فقال طاهو وهو يحني رأسه:  
 - إنني رهن إشارتك يا سيدتي.

رأته كما كان قوياً متين الأسر، دموياً البشرية،  
 ولكن لم يخف عن عينيها الفاحصتين أن ترى تغيراً  
 طارئاً لا يمكن لغير عينيها أن تراه. وجدت حول وجهه  
 هالة من ذبول أفقدت نظرة العينين بريقها، وأطفأت  
 روحاً شاملاً كان يشع من وجه الرجل. . . وأشفقت من  
 أن يكون ذلك بسبب ما حدث في تلك الليلة الغريبة  
 التي فصلت بينها منذ قريب من عام. . . وأسفاه كان  
 طاهو كجور عاصف، فأمسى كجور راكد. . . وقالت له:  
 - إنني دعوتك أيها القائد لأهنتك على الثقة العظيمة  
 التي يوليها إياها الملك.

فبدت الغرابة على وجه القائد وقال:  
 - شكراً لك يا سيدتي، هذه نعمة قديمة منّت بها  
 عليّ الأرباب.

فابتسمت ابتسامة متكلفة وقالت بدهاء:  
 - ولأشكرك على ما أسديت إلى فكرتي من جميل  
 الثناء.

كالثلج، كأنه عائد من معركة خاسرة أفقدته حكمته وشرفه. وخال النخيل المنطلق على الشاطئ يرقص رقصاً جنونياً، والجوّ يعقره غبار نائر خانق. وكان الدم يتدفق في عروقه ساخناً هائجاً مجنوناً مسموماً، ووجد إيريقاً من الخمر على خوان المقصورة، فصبه في فمه حتى أتى عليه في استهتار جنوني، وارتمى على الديوان في حالة يأس قاتل.

وفي الحقيقة لم يكن نسيها، ولكتها كانت تكمن في سرداب خفي من نفسه ما فئى يسده بالعزاء والصبر وشعوره القويّ بالواجب، فلما وقع نظره عليها بعد غياب عام، انفجر المستودع المختفي في نفسه، وتصاعد لهيبه حتى حرق روحه جميعاً، وأحسّ بالعذاب والهوان واليأس والكبرياء الذبيح، فذاق الهزيمة والعذاب مرّتين في معركة واحدة منتهية. وأحسّ بدوار في رأسه المختل، وجعل يحدث نفسه في غضب كاسر، إنه يعلم لماذا عنيت باستدعائه. دعت له لتستوثق من إخلاصه، ليطمئن قلبها على سيدها ومولاها الحبيب، وفي سبيل ذلك تكلفت مودته وتملقه، يا للغرابة إن رادوبيس العابثة القاسية تجذّ وتمجنو وتعلم ما الحب وما مخاوه وآلامه، وتشفق من خيانة طاهو، الذي كان يوماً يلتصق بنعلها كالتراب، ثم نفضته في حالة تفرّز وملل، الويل للساء والأرض، والويل للعالم جميعاً. إنه يشعر باليأس المميت والغضب القاتل، ويغيط خانق يطحن نفسه الجبارة. إنه يغضب غضباً جنونياً جارقاً، ويشعل دمه ناراً موقدة، يضغط على سمعه فلا يكاد يسمع شيئاً، ويخضب عينيه فيرى الدنيا شعلة حمراء.

وما إن رست السفينة إلى سلّم القصر الفرعوني، حتى غادرها مسرعاً، وسار يترنح في الحديقة لا يلتفت إلى تحيّات الجنود، متّجهاً إلى حجرة قائد الحرس بالثكنات، وفي أثناء سيره اعترض طريقه رئيس الوزراء سوفخاتب. وكان عائداً من جناح الملك. وقابله الوزير بابتسامة تحية، ولكنّه وقف حياله جامداً كأنه لا يعرفه. وعجب سوفخاتب لجموده، وقال له: كيف حالك أيها القائد طاهو؟

فقال طاهو بسرعة غريبة: أنا.. كأسد واقع في شرك.. أو كسلحفاة راقدة على ظهر فرن موقدة! فبدأ الإنكار على وجه سوفخاتب وقال: ما هذا الكلام؟.. أيّ شبه بين الأسد والسلحفاة، أو بين الشرك والفرن؟ فقال طاهو في ذهوله:

أما السلحفاة فتعمّر طويلاً، وتتحرك في بطن وتنوء بحمل ثقيل، وأما الأسد فينكمش ويزار ويشب في عنف فيقضي على فريسته.

فتفرّس الرجل في وجهه دهشاً وقال:

أغاضب أنت؟. لست كعهدي بك!

أنا غاضب.. كيف تنكرني أيها الجليل، أنا طاهو ربيب الحرب والقتال.. آه كيف يصبر العالم على هذا السلام الثقيل.. إن آلهة الموت عطشى ولا بدّ يوماً أن أروي غلتها.

فهزّ سوفخاتب رأسه متوهماً أنه عرف ما هنالك، ثم قال:

آه.. الآن فهمت أيها القائد، إنها خمر مربوط المعتقة.

فقال طاهو بحدّة:

كلّاء.. كلّاء.. الحقّ أتى شربت كأساً من الدم. ثمّ تبيّن أنّه دم إنسان شرّير، فتسمّم دمي، وزاد الأمر خطورة أتى صادفت في طريقي إلى هنا ربّ الخير نائماً في المرح، فأعمدت سيفي في قلبه.. هيّا إلى القتال.. فالدّم شراب الجنديّ الباسل.

فقال سوفخاتب ذاهلاً:

إنها الخمر ولا شك، ويمسّن بك أن تعود إلى قصرك في الحال.

ولكنّ طاهو هزّ رأسه استهانةً وقال:

الحذر الحذر أيها الرئيس، إيّاك والدم الفاسد، فهو السمّ بعينه، لقد انتهى صبر السلحفاة وسينقضّ الأسد.

قال ذلك ثمّ سار في طريقه لا يلوي على شيء، تاركاً سوفخاتب في ذهول وغرابة.

رادوبيس ٢٩١

## فترة الانتظار

ووجم الرئيس أسفًا وحرزًا، وغلب إخلاصه تردده هذه المرة أيضًا، فأحاط مولاه بهذه الأخبار بلباقة، وغضب الملك كعادته وقال أسفًا:

- إن حاكم طيبة يسمع ويرى ولا يستطيع شيئًا.

فقال سوفخاتب بحزن:

- ليس لديه يا مولاي إلا قوة الشرطة، وهي لا تجدي في مقاومة جموع غفيرة.

فقال الملك بغضب:

- وليس لدي إلا الانتظار على مضض، لقد أدميت

وحق الرب كبريائي!

وخيمت سحابة من الحزن على أبو المجيدة، شملت قصورها الشاخحة ودور الحكم فيها. وكانت الملكة نيتوقريس تقبع في جناحها رهينة حبس ووحشة، تعاني آلام قلبها المنفطر وكبرياتها الجريح، وترقب الحادثات بعينين حزيتين أسيفتين. وكان سوفخاتب يتلقى الأخبار بقلب حزين، ويقول أسفًا لطاهو الصامت الكئيب: «هل شهدت مصر قبل اليوم مثل هذا الغضب المتمرد؟! واحزنناه!».

واستحالت سعادة الملك غضبًا وغيطًا، وكان لا يذوق الراحة إلا حين يرتمي بين يدي المرأة التي أسلمها نفسه، وكانت تدرك ما به، فكانت تداعبه وتحنو عليه وتمس في أذنه: «صبرًا» فيتهد ويقول حانقًا «نعم.. حتى أقبض على ناصية القوة».

ولكن اشتد الحرج، فتعددت زيارات خنوم حتب للمقاطعات، واستقبل بالمظاهرات في كل مكان، وتعالى الهتاف باسمه في البلدان. وضاق بذلك كثير من الحكام، ورأوا فيه معنى لم يرتح إليه إخلاصهم لفرعون. فاجتمع حكام أمبوس، وفرمونتس، ولاتولس، وطيبة، وتشاوروا فيما بينهم، وقر رأيتهم على مقابلة الملك. وقصدوا إلى أبو وطلبوا المقابلة، فاستقبلهم فرعون استقبالاً رسمياً حضره سوفخاتب، وتقدم حاكم طيبة بين يديه وحياه تحية العبودية والإخلاص ثم قال:

- مولاي، الإخلاص الحق لا ينفع بأن يكون عاطفة في القلب، ولا بد أن يقرن بإسداء النصيح والعمل

وكان القصر الفرعوني، وقصر بيحة، ودار الحكومة تنتظر أوبة الرسول بفارغ الصبر، ولكن في طمأنينة وثقة بالمستقبل، وكان كل يوم يدنو يديها من الفوز، ويدق صدرها بحرارة الأمل. وما كان لينقطع هذا الشعور الطيب الجميل، لولا أن وصلت إلى رئيس الوزراء رسالة خطيرة من رجال الكهنوت، وكان سوفخاتب يهمل أمثال هذه الرسالة، أو يقنع مضطراً بعرضها على الملكة، ولكنه وجد فيها معنى جديداً خطيراً، لم يشأ أن يتحمل تبعه إخفائه عن مولاه، ولو لاقى في سبيل ذلك بعض غضبه، فقابل فرعون وتلا عليه الرسالة، وكانت التماساً خطيراً موقفاً عليه من جميع رجال الكهنوت، وعلى رأسهم كهنة رع وأمون وبتاح وأبيس، يرجون مولاهم أن يرد أراضى المعابد إلى أصحابها الآلهة المعبودة التي توليه عنايتها، ويؤكدون أنهم ما كانوا يتقدمون بالتماسهم لو وجدوا من الأسباب ما يدعو إلى وجوب نزع الأراضى.

كان الخطاب قوياً حازماً، فغضب الملك، ومزقه إرباً، ورمى به على أرض الحجره وصاح:

- سوف أجيبهم بعد حين قليل.

فقال سوفخاتب:

- إنهم يلتمسون جماعة، وكانوا يلتمسون فرادى.

فقال الملك الغاضب:

- وسأضربهم جميعاً، فليحتجوا كيف شاء لهم الجهل.

على أن الحوادث تجاوزت هذا الحد، فقد أرسل حاكم طيبة إلى رئيس الوزراء يقول إن خنوم حتب زار مقاطعته، وإنه استقبل استقبالاً شعبياً رائعاً اشترك فيه كهنة آمون وكاهناته وجموع غفيرة من الأهالي، وإن الهتافات تصاعدت باسمه، وهتف القوم أيضاً لحقور الآلهة التي ينبغي أن تصان وتخدم، وجاوز هذا القدر قوم، فصاحوا باكين: «واحسرتاه! إن أموال آمون تنفق على راقصة».

الحال، وانتهت بذلك أول مقابلة من نوعها تشهدها قصور الفراعنة.

واجتمع الملك على الأثر بوزيره وقائد حرسه في جناحه الخاص، وكان غاضباً مهتاجاً يتهدد ويتوعد، وقد قال للرجلين:

- إن هؤلاء الحكام مخلصون أمناء، ولكنهم ضعاف، ولو أخذت بنصائحهم لعرضت عرشي للهوان..

وسرعان ما أمن طاهو على رأي مولاه وقال:

- إن التراجع هزيمة يا مولاي!

كان سوفخاتب يفكر في احتمالات أخرى فقال:

- ينبغي أن نحسب حساب عيد النيل، وهو لا يفصل بيننا وبينه سوى أيام معدودات، والحق أن قلبي لا يرتاح إلى حشد الآلاف من الشعب الغاضب في أبو.

فبادر طاهو قائلاً:

- إننا نسيطر على أبو.

- لا ريب في هذا، ولكن لا يجوز أن ننسى أنه في العبد الماضي تصاعدت بضعة هتافات خائنة، ولم يكن مولانا الملك قد حقق إرادته، فينبغي أن نتوقع هتافات أخرى أشدّ صراخاً.

فقال الملك:

- إن الأمل معقود بعودة الرسول قبل العيد.

ولكن لم ينفك سوفخاتب يزن الأمور من وجهة نظره، فقال وكان يؤمن في قلبه باقتراح الحكام:

- سيأتي الرسول في القريب، وسيتلو رسالته على الملأ، ولا شك أن الكهنة الحائزين على عطف مولاهم، المتمتعين بما يعتقدون أنه حقهم، يكونون أعظم اطمئناناً إلى التعبئة وأشدّ حماسة، حتى إذا قبض مولاي على ناصية القوة، أمل إرادته، ولا راد لمشيئته. وضاق الملك ذرعاً برأي سوفخاتب، وأحسّ بوحشة في جناحه الخاص، فهرع إلى قصر ببيجة الذي لا تلاحقه الوحشة إليه قط. وكانت رادوبيس تجهل ما دار في الاجتماع الأخير، فكانت أدنى إلى الطمأنينة منه، ولكنها لم تلق صعوبة في قراءة صفحة وجهه

الصالح والافتداء إذا حزب الأمر، ونحن حيال أمر قد يعرضنا الصدق فيه إلى موجدة، ولكننا لا نأمن مع السكوت عليه من وخز ضائرتنا، فلا بد من قولة الحق.

فصمت فرعون هنيهة ثم قال للحاكم:

- تكلم أيها الحاكم فإني مصغٍ إليك.

فقال الرجل بشجاعة:

- مولاي. الكهنة غاضبون، وقد انتقلت عدوى غضبهم إلى نفوس الشعب المنصت إلى حديثهم في الصباح والمساء، وكان من جرّاء ذلك أن اتفقت كلمة الجميع على وجوب ردّ الأراضي إلى أصحابها..

فبدأ الغضب على وجه الملك وقال بحق:

- هل يصحّ أن يدعن فرعون لإرادة الناس؟

- فقال الرجل بصراحة وجسارة:

- مولاي. إن سعادة الشعب أمانة عهدت بها الآلهة إلى ذات فرعون، فلا إذعان، لكن تعطف من مولى قادر على عبادة.

فضرب الملك الأرض بصولجانه وقال:

- لا أرى في التراجع سوى الخنوع.

فقال الرجل:

- معاذ الرب أن أشير إلى مولاي بالخنوع، ولكن السياسة بحر لجي، والحاكم كالريّان يتفادى الريح العاصفة، ويتتهز الفرصة السعيدة.

ولكنّ الملك لم يعجبه قوله، وهزّ رأسه باحتقار وعناد، واستأذن سوفخاتب طالباً الكلام، وسأل حاكم طيبة قائلاً:

- هل لديك دليل على أنّ الشعب يشاطر الكهنة عواطفهم؟

فقال الحاكم بثبات ويقين:

- نعم يا صاحب القداسة، لقد بثت عيون في الأقاليم، فشهدوا غضب الشعب عن كذب، وسمعوه يخوض فيها لا يجوز الخوض فيه.

وقال حاكم فرمونتنس:

- وهذا ما فعلته فجاءتني أنباء مؤسفة.

وأدلى كلّ حاكم بدلوه، ودلّت أقوالهم على خطورة



رادوبيس ٢٩٣

فبدا التأثر في عينيها السوداوين، وقالت في حزن عميق:

- فداؤك نفسي يا حبيبي، لن تذبل قطّ وصدري يرويك حبًا صافيًا.

- سأعيش منتصرًا في كلّ لحظة في حياتي، ولن أمكّن خنوم حتب من أن يقول يومًا إنه أذلني ساعة!

فابتسمت إليه ابتسامة حزينة وتساءلت:

- أتريد أن تسوس شعبًا بغير التجاء إلى الحيلة أحيانًا؟

- التسليم حيلة العاجز، سأظلّ ما حييت مستقيمًا كالسيف تتحطّم على أسنانه قوى الخائنين.

فتهدّت حزينةً آسفةً ولم تحاول معاودته، ورضيت بالهزيمة أمام غضبه وكبرياته، ومنذ تلك اللحظة وهي تتساءل جزعة متى يعود الرسول؟.. متى يعود الرسول؟.. متى يعود الرسول؟..

ما أشقّ الانتظار.. لو يعلم المتمتّون ما عذاب الانتظار لأثروا الزهد في الدنيا.. كم عدّت الدقائق والساعات وترقّبت شروق الشمس وانتظرت مغيبها، وذابت عينها من طول النظر إلى مجرى النيل الآتي من الجنوب. وكم حسبت الزمن بتردد أنفاسها وخفقان قلبها، وكم صاحت وقد نال منها القلق كلّ منال: أين أنت يا بنامون؟ حتى الحبّ نفسه ذاقته ذوق الشارد الحالم، فلا طمأنينة ولا سلام حتى يعود الرسول برسالته؟!

وتقضّت الأيام تجرّ ثقلها جرًا بطيئًا، حتى كان يوم تجلس فيه مستغرقة في أفكارها، وإذا بشيث تدخل عليها مهرولة، فرفعت رأسها وسألته:

- ما وراءك يا شيث؟

فقالت الجارية بلهفة تلهث:

- مولاي، جاء بنامون.

وغمرها الفرح، فانتفضت واقفة كطير فزع، وهي تصيح:

- بنامون!.

الحساس، والشعور بما يضطرم في قلبه من الغضب والسخط، واعتورها القلق ونظرت إليه متسائلة والكلام يضطرب خلف شفيتها مشفقًا من الظهور، فقال متذمّرًا:

- أما علمت يا رادوبيس؟ إنّ الحكّام والوزراء يشيرون عليّ بردّ الأراضي إلى الكهنة، والرضاء بالهزيمة؟

فتساءلت بانزعاج:

- ما الذي حتّم على إبداء هذه المشورة؟

فروى الملك ما قال الحكّام، وما نصحوه به، وكانت تزداد انزعاجًا وحزنًا، وما تمالكت نفسها أن قالت:

- إنّ الجورَ يغبرّ ويظلم وما حمل الحكّام على المكاشفة بأرائهم إلاّ خطر فادح.

فقال الملك بازدراء:

- إنّ شعبي غاضب.

- مولاي، إنّ الناس كالسفينة الضالّة بلا سكّان، تحملها الرياح كيفما تشاء.

فقال بوعيد مخيف:

- سأذهب رجمهم.

ومعاودتها المخاوف والشكوك، وخانها صبرها في تلك اللحظة فقالت:

- ينبغي أن نستوصي بالحكمة، وأن نتراجع زمنًا قصيرًا مختارين، وإنّ يوم النصر لقریب.

فنظر إليها بغرابة وقال:

- أتشيرين عليّ بالخضوع يا رادوبيس؟

فضمّته إلى صدرها وقد آلتها لهجته، ثمّ قالت وقد فاضت عينها بدمع سخين:

- أحرى بمن يتحقّر للوثبة الكبرى أن ينكمش أقدامًا، والنصر رهين بالنهاية.

فتأوّه الملك قائلاً:

- أه يا رادوبيس.. إذا كنت أنت تتجاهلين نفسي، فمندا الذي يمكن أن يعرفها؟ أنا من إذا نزل مرغماً على إرادة إنسان ذبل كمدًا كوردة سفّتها الرياح.

فقالت الجارية:

- نعم يا مولاتي، إنه ينتظر في البهو، وطلب إليّ أن أؤذّنك بقدمه. كم لوّح السفر!

وجرت تتخطى أدراج السلم إلى البهو، فألفته واقفاً ينتظر مقدمها وفي عينيه شوق صارخ، وكانت تبدو كشعلة من الفرح والأمل، فوقر في نفسه أن فرحها به، وله، فخرته سعادة إلهية وارتمى على قدميها كالعابد، ولقّ ذراعيه حول ساقها بحنان ووجد، وهوى بضمه إلى قدميها.. وقال:

- معبودتي، حلمت مائة مرّة أنّي أقبل هاتين القدمين، وهأنذا أحقق أحلامي.

فداعت شعره بأناملها وقالت برقة:

- بنامون العزيز.. بنامون.. أحقق عدت إليّ؟

فلمعت عيناه بنور الحياة، ودسّ يده في صدره فأخرج حُفّاً من العاج صغيراً وفتح، وإذا ما فيه تراب.. ثم قال:

- هذا تراب مما كانت تطأ قدمك في الحديقة، جمعته بيدي واحتفظت به في هذا الحق، وحملته معي في سفري، وكنت أقبّله كلّ مساء قبل استسلامي للكرى، ثمّ أحفظه على قلبي..

وأصغت إليه على جزع وتململ، وكان شعورها منصرفاً عن حديثه، ونقد صبرها، فسألته برقة تداري بها جزعها:

- ألا تحمل شيئاً!

فدسّ يده في صدره مرّة أخرى، وأخرج كتاباً مطويّاً ومدّ لها يده به، فتسلمته بيد مرتجفة وقد غمرها شعور سعيد، وأحسّت بتخدير في أعصابها وخور في قواها، وألقت على الرسالة نظرة طويلة، وشدّت عليها بيدها، وكادت تنسى بنامون ووجهه لولا أن وقع عليه بصرها فتذكرت أمراً هاماً وسألته:

- ألم يأت معك رسول من قبيل الأمير كارفندرو؟

فقال الشاب:

- بلى يا مولاتي، وهو الذي حمل الرسالة في أثناء العودة. وإنه لينتظر الآن في الحجرة الصيفية.

ولم تستطع أن تبقى في مكانها طويلاً، لأنّ الفرح

الذي غمر حواسها عدوّ للسكون والجمود فقالت:

- أستودعك الربّ إلى حين، وإنّ حجرة الصيف تنتظرك وستصفو لنا الأيام.

وجرت حاملة الرسالة، وكان قلبها ينادي حبيبها ومولاها من اعماقها، ولولا التجرّج، لطارت إليه في قصره كما فعل النسر من قبل، تزفّ إليه البشري السعيدة..

## الاجتماع

وجاء يوم عيد النيل، واستقبلت أبو المحتفلين من أقاصي الجنوب والشمال، وتعالّت في جوّها الأناشيد، وأزيّنت دورها بالأعلام والأزهار وأغصان الزيتون، واستقبل الرجال من الكهنة والحكام شروق الشمس في طريقهم إلى القصر الفرعوني، لينتظموا في الموكب الملكي العظيم الذي يغادر القصر حين الضحى.

وبينا كان السادة ينتظرون نزول الملك في إحدى الحجرات دخل عليهم أحد الحجاب، وحيّاهم باسم الملك، وقال بصوت جهوري:

- أيّها السادة الأجلّاء، إنّ فرعون يريد أن يجتمع بكم في الحال، ففضّلوا بالذهاب إلى البهو الفرعوني. وتلقّى الجميع تصريح الحاجب بدهشة غير خافية، لأنّ العادة جرت بأن يستقبل الملك رجال مملكته بعد الاحتفال بالعيد لا قبل ذلك، فبدت الحيرة على الوجوه وتساءل القوم: ترى أيّ أمر خطير دعا إلى هذا الاجتماع الخارق للتقاليد؟!

ولكنّهم لبّوا الدعوة طائعين، وذهبوا إلى بهو الاستقبال ذي الجلال والروعة. واحتلّ الكهنة مقاعد الجانب الأيمن، وجلس الحكام قبالتهم، وكان يتصدّر المكان العرش الفرعوني، وسط جناحين من الكراسي أعدت للأمراء والوزراء.

وما لبثوا قليلاً حتى دخل السوزراء يتقدّمهم سوفخاتب، وتبعهم بعد حين أمراء البيت المالكي، فجلسوا إلى يمين العرش وهم يردّون تحييات الرجال الذين وقفوا تحية لهم.

رادوبيس ٢٩٥

سيناء، وسيّد الصحراء الشرقية، والصحراء الغربية. مولاي.. يؤسفني أن أرفع إلى مسامح ذاتكم المقدّسة أنباء محزنة، عن حوادث غدر شائنة، وقعت في أملاك التاج المتاخمة لحدود النوبة الجنوبية، وكنت يا مولاي - اطمئنًا منّي إلى المعاهدة التي عقدت بين مصر وقبائل المعصايو، وما أعقب عقدها مباشرة من شمول الطمانينة وتوطيد الأمن - كنت أمرت بسحب كثير من الحاميات الموزعة في الصحراء إلى قواعدها الأصليّة. وجاءني اليوم ضابط من رجال الحاميات وأخبرني بأنّ زعماء القبائل شكّوا عصا الطاعة وحثّوا بيمينهم، وانقضّوا خلسة ليل على ثكنات الحاميات، وأعملوا فيها التقتيل الوحشيّ. وقد قاوم الجنود مقاومة اليأس، قوّات تفوقهم مائة مرّة أو يزيد، حتّى سقطوا عن آخرهم في ميدان الاستبسال. واجتاحت القبائل البلاد جميعًا، واتّجهت نحو الشمال إلى بلاد النوبة، فرأيت من الحكمة ألاّ أفرط فيما لديّ من قوّات محدودة، وأن أوجه همّي إلى تحصين الاستحكامات والقلاع، للتمكّن من صدّ العدو الزاحف، ولن تصل مولاي رسالتي حتّى تكون جنودنا قد اشتبكت مع طلائع المهاجمين، وإني في انتظار أمر مولاي سأظل على رأس جنودي أقاتل في سبيل مولاي فرعون، ووطني مصر».

وانتهى الرسول من تلاوة الرسالة، وظلّ صوته يدويّ في كثير من القلوب، أمّا الحكّام فقد اتّقدت أعينهم، وتطايّر منها الشرر، وسرت في صفوفهم حركة اضطراب عنيف، وأمّا الكهنة فقد تقسّبت جباههم وجمدت نظراتهم، وانقلبوا ككتائبيل جامدة في معبد صامت.

وصمت فرعون هنيهة حتّى بلغ التأثير أشدّه، ثمّ قال:

- هذه هي الرسالة التي دعوتكم للمشاركة فيها. وكان حاكم طيبة على رأس المتحمّسين، فقام واقفًا وأخى رأسه تحيّة، وقال:

- مولاي.. إنّها رسالة خطيرة حقًّا، والجواب الواحد عليها هو الدعوة إلى التعبئة.

وساد الصمت وبدا الجذّ والاهتمام على الوجوه، وخلا كلّ إلى أفكاره يسائلها عن الأسباب التي دعت إلى هذا الاجتماع الهامّ، حتّى قطع عليهم أفكارهم دخول حامل الأختام، فتطلّعوا إليه في انتباه شامل، وقد صاح الرجل بصوت جهوري يعلن مجيء الملك: - فرعون مصر نور الشمس، وظلّ رع على الأرض، صاحب الجلالة مرزوع الثاني..

فهبّ الجميع وقوفًا وأحنوا الهامات، حتّى كادت تمسّ الأرض الجباه، وجاء الملك يسير في جلال ومهابة، يتبعه على الأثر قائد الحرس طاهو، وحامل الأختام، وكبير حجّاب الأمير كارفرو حاكم النوبة، وجلس على العرش، ثمّ قال بصوت مهيب: - أحييكم أيّها الكهنة والحكّام وأذن لكم بالجلوس.

فاعتدلت القامات المنحنية في رفق، وجلس الرجال وسط صمت شامل عميق يجعل من التنفّس مجازفة خطيرة، واتّجهت الأنظار إلى صاحب العرش تواقّة إلى استماع كلمته. واعتدل الملك في جلسته، ثمّ قال وهو يقَلّب عينيه في وجوه القوم دون أن تستقرّ على أحد: - أيّها الأمراء والوزراء والكهنة والحكّام، من صفوة رجال مصر العليا والسفلى، لقد دعوتكم لأشاوركم في أمر خطير يتعلّق بسلامة المملكة ومجد الآباء والأجداد. أيّها السادة: لقد جاء رسول من الجنوب هو هامانا كبير حجّاب الأمير كارفرو يحمل رسالة خطيرة من مولاه، فرأيت أنّ واجبي يقضي عليّ بأن أدعوكم دون إمهال، للاطلاع عليها، والمشاورة في محتوياتها الخطيرة. والتفت فرعون إلى الرسول وأشار إليه بصولجانه، فتقدّم الرجل خطوتين فصار في حذاء العرش، وقال له فرعون:

- «اتلّ عليهم الرسالة».

فبسط الرجل رسالة مطوية بين يديه، وقرأ بصوت جهوريّ مؤثّر:

- «من الأمير كارفرو حاكم بلاد النوبة إلى حضرة صاحب الجلالة فرعون مصر نور الشمس المشرقة، وظلّ الربّ رع، حامي النيل، وصاحب النوبة، وطور

ولاقَت كلمته ارتياحًا في نفوس الحُكَّام، فقام حاكم أمبوس وقال:

- نثمّ الرأي يا مولاي، فالجواب الأوحَد هو التبعيّة السريعة، كيف لا ووراء الحدود الجنوبيّة إخوان لنا بواسطة أوقعهم العَدوّ في ضيق. . وإتّهم لثابتون، فلا ينبغي أن نخذلهم، أو نبطئ عليهم. .

وكان آي يفكر في العواقب التي تمسّ واجباته، فقال:

- إذا اجتاحت أولئك الهمج بلاد النوبة هددوا الحدود بلا شكّ.

وكان حاكم طيبة على رأس المتحمسين، وقد ذكر رأيًا قديمًا له طالما تمّ تحقيقه يومًا، فقال:

- كان رأيي دائمًا يا مولاي أن تحتفظ المملكة بجيش دائم كبير، يكفل لفرعون القيام بتبعاته في الدفاع عن سلامة الوطن ويمتلكاته فيما وراء الحدود.

واشتدّ الحماس في جناح جميع القوّاد، ونادى كثير منهم بالتبعيّة، وهتف آخرون للأمير كارفرو والحامية بلاد النوبة. واشتدّ التأثير ببعض الحُكَّام، فقالوا للملك:

- مولانا. . لن يطيب لنا الاحتفال بالعيد، ووراءنا إخوان بواسطة يتهذّبهم الموت. إيذّن لنا في الرحيل لنحشد الجنود.

وكان فرعون ملازمًا الصمت لسمع ما عسى أن يقول الكهنة، وكان هؤلاء لائذين بالصمت ريثما تهدأ النفوس، فلما أن سكت الحُكَّام. . قام كاهن بتاح الأكبر وقال بهدوء غريب:

- هل يأذن لي مولاي في أن أوجّه إلى رسول سموّ الأمير كارفرو سؤالًا.

فقال الملك بغرابة:

- لك ما تريد أيها الكاهن الأكبر.

فالتفت كاهن بتاح إلى الرسول وقال:

- متى غادرت بلاد النوبة؟

فقال الرجل:

- منذ أسبوعين.

- ومتى بلغت أبو؟

- مساء أمس.

فأنجبه الكاهن نحو فرعون وقال:

- أيها الملك المعبود، إن الأمر يدعو إلى الحيرة الشديدة، فبالأمس جاء هذا الرسول المبجل من الجنوب بأنباء تمرد زعماء المعصايو، وبالأمس نفسه جاء وفد من زعماء المعصايو من أقصى الجنوب ليقدّموا فروض الطاعة لمولاهم فرعون، ويرفعون إلى أعتابه المقدّسة أي الشكر على ما أولاهم من نعمة وسلام، فما أشدّ حاجتنا إلى من يميّط اللثام عن هذه المعميات. فكان تصريحًا غريبًا لم يتوقّعه إنسان، فأحدث دهشة كبرى وعجبًا، فشملت الرؤوس حركة عنيفة، وتبادل الحُكَّام والكهنة نظرات التساؤل والحيرة، وتهامس الأمراء. أمّا سوفخاتب فقد انخلع صدره ونظر إلى مولاه في ارتياح، فرآه يقبض بيده على الصولجان بشدّة، وتشدّ عليه بقسوة حتّى انتفخت عروق ساعده وانكفأ لونه، فخشي الرجل من تسلّط الغضب على الملك، فسأل الكاهن قائلاً:

- ومن أنباك بهذا يا صاحب القداسة؟

فقال الرجل بهدوء:

- رأيتهم بعيني رأسي يا سيّدي الرئيس، فقد زرت أمس معبد سوتيس، وقدم كاهنه إليّ وفدًا من السود قالوا إنهم من زعماء المعصايو، وإنهم جاءوا يقدمون فروض الطاعة لفرعون، وقد باتوا ليلتهم ضيوفًا على رئيسه.

فقال سوفخاتب:

- ألا يصحّ أن يكونوا من النوبة؟

ولكنّ الرجل قال بيقين:

- قالوا إنهم من المعصايو، وعلى آية حال فهاننا

رجل - هو القائد طاهو - اشتبك مع المعصايو في حروب كثيرة، وعرف جميع زعمائهم، فهل يتفضّل جلالته الملك ويأمر بدعوة هؤلاء الزعماء إلى ساحته المقدّسة، وعسى أن تزيل أقوالهم عن أعيننا غشاوة الحيرة؟

وكان الملك في حالة شديدة من القهر والغضب، ولكنّه لم يدر كيف يمكن أن يرفض ما يقترحه الكاهن،

الوسط، وعلى رؤوسهم هالات من أوراق الشجر، وقد سجدوا جميعًا على الأرض، وتقدّموا زحفًا حتى بلغوا عتبة العرش، فقبلوا الأرض بين يدي فرعون، ومدّ لهم الملك صولجانه فلثموه في خشوع، وأذن لهم بالوقوف فوققوا في تهيّب، وقال رئيسهم باللهجة المصرية:

- أيها الربّ المعبود، فرعون مصر، وسيدّ الوادي، ومعبود القبائل، جئنا إلى رحابك لتقدّم لك أي الخضوع والذلّ والحمد على ما أوليتنا من آلاء ونعم. بفضل رحمتك تناولنا الطعام شهيا، وشربنا الماء حلوا سائغا.

فباركهم الملك برفع يده.

وكانت الوجوه متّجهة إليه كأنّها تضرع إليه أن يسألهم عمّا يقال عن بلادهم، فقال الملك المقهور:

- من أيّ العشائر أنتم؟

فقال الرجل:

- أيها البهاء المعبود، نحن زعماء قبائل المعصايو الداعية لبهاتك بالمجد.

وصمت الملك قليلا، وأبى أن يسألهم عن أتباعهم شيئا، وضاق بالمكان وعين فيه، فقال:

- إن فرعون يشكركم أيها العبيد المخلصون وبارككم.

وقدّم صولجانه فلثموه مرّة أخرى، وكروا راجعين، تكاد تمسّ الأرض جباههم.

والتهب الغضب في قلب الملك، وأحسّ إحساسا باطنيا أليما بأنّ الكهنة المائلين أمامه، وجّهوا إليه ضربة قاتلة في معركة خفيّة، لا يعلم بها سواه وسواهم؛ فاشتدّ عليه الخنق. وفاض به الغيظ، وثار على هزيمته وقال بصوت شديد النبرات:

- لديّ رسالة لا يرتقي الشكّ إليها، وسواء أكانت القبائل الثائرة تتبع هؤلاء الزعماء أم لا تتبعهم، فالأمر الذي لا شكّ فيه هو أنّه توجد ثورة ويوجد متمرّدون، وأنّ جنودنا الآن محاصرون!

فعاودت الحماسة الحكّام، وقال حاكم طيبة:

- مولاي.. لقد جرت الحكمة الإلهية على لسانك،

وأحسّ الوجوه تتطلّع إليه في لهفة ورغبة ورجاء، فقال لأحد الحجاب!

- اذهب إلى معبد سوتيس، وادعُ زعماء السود.

وصدع الحاجب بالأمر، وليث الجميع ينتظرون وكانّ على رؤوسهم الطير. وكان الذهول باديا على وجوه الجميع. وكانوا يكظمون ما بنفوسهم وإن ودّ كلّ منهم أن يسأل رفيقه ويستمع إليه. وليث سوفخاتب قلقا مهموما دائم التفكير يختلس من مولاه نظرات حائرة مشفقا عليه من هول الساعة، ومرّت عليهم الدقائق ثقيلة ومؤلة، كأنّما تنزع من جلودهم، والملك على عرشه يشاهد الحكّام القلقين والكهنة المطرقين، لا تكاد تخفي عيناه ما يعترك في نفسه من العواطف. ثمّ خال الجميع أنّهم يسمعون ضوضاء يحملها الهواء من بعيد، فخلصوا من نفوسهم، وأرهفوا السمع، فإذا بالضوضاء تقترب من ميدان القصر، وإذا بها أصوات تتصاعد بالهتاف، ومضت بالقرب تشتدّ وتقوى شيئا فشيئا حتى طبقت الآفاق. وكانت مختلطة غير متمايزة، ويفصل بينها وبين المجتمعين فناء القصر الطويل، فأمر الملك حاجبا بالذهاب إلى الشرفة ليرى ما هناك، فغاب الرجل برهة ثمّ عاد مسرعا، ومال على أذن فرعون وقال:

- إنّ جموع الشعب تملأ الميدان، تحيط بالعربات التي تحمل زعماء السود.

وما هتافهم؟

- يهتفون لأصدقاء الجنوب المخلصين، ومعاهدة السلام.

ثمّ تردّد الرجل لحظة واستدرك هامسا:

- ويهتفون يا مولاي لصاحب المعاهدة خنوم حتب! واصفرّ وجه الملك من الغضب، وأحسّ بالحنق والقهر، وتساءل كيف يدعو الشعب الذي يحبّي زعماء المعصايو ويهتف للسلام إلى محاربة المعصايو! وليث ينتظر القادمين غاضبا حزينا كئيبا.

وأعلن ضابط من الحرس قدوم الزعماء، وفتح الباب على مصراعيه، ودخل الوفد يتقدّمه رئيسه وكانوا عشرة، ضخام الأجسام، عرايا إلا من وزرة تستر

عمدًا ليقولوا سلامًا إذا ما قلت أنا حربًا، وهكذا وجّه  
إليّ عدويّ ضربة شديدة، وهو مائل بين يديّ يعلن  
الولاء..

فامتقع وجه طاهو ولاح في وجهه الحزن، ولم يكابر  
سوفخاتب فأطرق يائسًا وكأنّه يحدث نفسه:  
- إذا كانت خيانة فمن الخائن؟  
فقال الملك وهو يلوح بقبضته في الهواء:

- نعم.. من الخائن؟ هل هنالك معضلة لا  
تحلّ؟.. كلاً.. أنا لا أخون نفسي، ولا يخون عهدي  
سوفخاتب ولا طاهو، ولا تخونني رادوبيس، فلم يبق  
إلا هذا الرسول الشقيّ.. وا أسفاه لقد خُذعت  
رادوبيس.

فبرقت عينا طاهو وقال:

- سأسوقه إلى هنا وأنزع من فمه كلمة الحق.

فهزّ الملك رأسه وقال:

- رويدك يا طاهو رويدك.. إنّ المجرم لا ينتظر  
حتىّ تذهب للقبض عليه، ولعلّه الآن ينعم بثمان  
خيانته في مكان آمن لا يعلم به إلا الكهنة. كيف تمّت  
المكيدة؟ لا أدري كيف، ولكنّي أستطيع أن أقسم  
بالربّ سوتيس أنّهم علموا بالرسالة قبل تحرك الرسول  
فلم يتوانوا، وبعثوا برسول من لدنهم فجاء رسولي  
بالرسالة، وجاء رسولهم بالوفد.. خيانة.. نذالة، إنّي  
أعيش وسط شعبيّ كالأسير.. ألا لعنة الآلهة على  
الدنيا وعلى الناس.

ولاذ الرجلان بالصمت، حزناً وإشفاقاً، وكان  
طاهو يجتلس من مولاه نظرات حزينة، وأراد أن يحاول  
إعادة الأمل إلى ذلك الجوّ القاتم فقال:

- ليكن عزاؤنا أننا سنضرب بالضربة القاضية.

فاحتدّ الملك قائلاً:

- كيف لنا بتسديد هذه الضربة؟!.

- إنّ الحكّام في طريقهم إلى الأقاليم لحشد الجنود.  
- وهل تظنّ أنّ الكهنة يقفون مكتوفي الأيدي بإزاء  
الجيش الذي علموا أنّه يحشد لسحقهم؟!.

وكان سوفخاتب ينوء بهمّ ثقيل كان يؤمن بما يقول

إنّ إخواننا ينتظرون النجدة. فلا يجوز أن نضيع الوقت  
في مناقشات، والحقّ أبلج واضح.

فقال الملك بعنف:

- أيّها الحكّام، إنّي أعفيكم من الاشتراك اليوم في  
الاحتفال بعيد النيل، فأمامكم واجب أسمى. ارجعوا  
إلى أقاليمكم واحشدوا الجنود، فربّ دقيقة تضيع  
تكلفنا غالبًا.

قال الملك ذلك ثمّ قام واقفاً، معلناً انتهاء  
الاجتماع، فقام القوم من فورهم وأحنوا الهمامات  
إجلاًلاً.

## الهتاف

وقصد فرعون إلى جناحه الخاصّ، ودعا إليه رجله  
المخلصين سوفخاتب وطاهو. فلبّى الرجلان دعوته  
سريعاً، وكانا شديدَي التأثر، يقدران حرج الموقف  
حقّ قدره. ووجدوا الملك كما توقّعا مهتاجاً غاضباً،  
يذرع حجرته من جانب إلى جانب، ويهدر بوحشية  
جنونيّة، فلما انتبه إليهما حدجها بنظرة زائغة، وقال

والشرر يتطاير من عينيه:

- خيانة.. إنّي أشمّ رائحة خيانة خبيثة في هذا الجوّ  
الخائق.

فانكفأ طاهو وقال:

- مولاي.. لا أنفي عن نفسيّ التشاؤم وسوء الظنّ،  
ولكن لا يذهب بي الحدس إلى هذا الفرض الكبير.

فضرب الملك الأرض بقدمه وقال وهو يتميّن من  
الغيظ والحق:

- لماذا جاء هذا الوفد اللعين؟.. بل كيف جاء  
اليوم؟.. واليوم بالذات؟.

فقال سوفخاتب، وكان غارقاً في التفكير والأحزان:

- ترى هل هي مصادفة حزينة غريبة؟

فقال الملك في دهشة مروّعة:

- مصادفة.. كلاً.. كلاً. هي الخيانة اللثيمة،

أكاد ألمح وجهها يستتر بالإطراق والدهاء. كلاً أيّها

الوزير لم ييجئ القوم مصادفةً لكنّهم دُفعوا إلى هنا

رادوبيس ٢٩٩

هنيهة، ورجع لابسا جلد النمر شارة الكهنوت والتاج  
المزدوج. وتأهبوا جميعا للخروج، ولكن سبقهم  
بالدخول حاجب من حجاب القصر حيا مولاه وقال:  
- السيد طام رئيس شرطة أبو يستأذن في المثول بين  
يدي مولاه.

فأذن له الملك ومشيرا لما شاهدوه على وجهه من  
آي الاضطراب. وحيا الشرطي الكبير مولاه، وقال  
مبادرا بعجلة واضطراب:

- مولاي! لقد جئت الآن لأصرع إلى ذاتكم  
المقدسة أن تعدلوا عن الذهاب إلى معبد النيل!  
فخفق قلب الرجلين، وسأل الملك منزعجا:  
- وما الذي حملك على هذا؟

فقال الرجل وهو يلهث:

- قبضت في هذه الساعة على كثيرين كانوا يوجهون  
هتافات شريفة إلى شخصية نبيلة يكرمها مولاي  
وأخشى أن تكرر هذه الهتافات في أثناء الموكب.

فخفق قلب الملك وغلت مارجل الغضب في دمه،  
وسأله بصوت متهدج:  
- ماذا قالوا؟

فابتلع الرجل ريقه، وقال باضطراب وارتباك:  
- قالوا لتسقط العاهرة! لتسقط ناهية المعابد!!  
فاشتد الغضب بالملك، وصاح بصوت كالرعد:  
- يا للويل.. لا بد أن أضرب ضربة تنفس عن  
صدري أو ينفجر بنياني.

واستطرد الرجل مدعورا:

- وقد قاوم المجرمون رجالي، ف وقعت معارك بيننا  
وبينهم، وساد الاضطراب والهرج برهة، وفي أثناء  
ذلك تعالت هتافات أكبر شرا وأوغل غيا.

فسأل الملك قائلا وهو يصير على أسنانه غضبا  
ومقتا:

- وماذا قالوا أيضا؟

فأحنى الرجل رأسه، وقال بصوت خافت:

- تجاسر المجرمون على ما هو أجل.

فقال الملك في صوت ذاهل:

- أنا..؟!

الملك، ولكن أراد أن يتففس عن صدره، فقال وكأته  
يتمنى:

- عسى أن يكون ريبنا وهما، ويكون ما نظته خيانة  
محض مصادفة، فتنتشع هذه السحابة اللدكناه بأهون  
الأسباب.

ولكن فرعون ثار على العزاء وقال:

- لا أزال أذكر صورة أولئك الكهنة المطرقين، كانوا  
بلا شك ينطوون على سر رهيب، ولما قام رئيسهم  
ليتكلم، تحدى حماس الحكام باطمئنان، وألقى كلمته  
بنقطة لا حد لها، ولعله الآن يتكلم بعشرة ألسنة،  
آه.. الويل للخيانة.. لن يعيش مرنع الثاني تحت  
رحمة الكهنة.

وغضب طاهو لحزن مولاه فقال:

- مولاي.. تحت إمرتك حرس قوي يزن الرجل  
منه ألف رجل من رجالهم، ويجود بنفسه في سبيل  
مولاه عن طيب خاطر.

فأعرض فرعون عنه، وارتمى على مقعد وثير  
مستسلما لأفكار رأسه الساخن، ترى هل يمكن أن  
يتحقق أمله بالرغم من هذه الأحزان؟ أم يفشل  
مشروعه إلى الأبد؟. يا لها من ساعة فاصلة في  
حياته.. هي مفترق الطرق بين المجد والهوان، والقوة  
والانهباء، والحب والشقاء. لقد رفض مرة أن يتنازل  
عن الأراضي حيلة، فهل يجد نفسه يوما مضطرا إلى  
التنازل عنها محافظة على عرشه؟ آه.. لن يأتي هذا  
اليوم، وإن أتى فلن يسام الخسف أبدا. وسيبقى إلى  
آخر لحظة من حياته كريما مجيدا عزيزا. وتهد بالرغم  
منه حسرة، وقال لنفسه آسفا.. آه لو لم يعثر حظي  
بالخيانة. وقطع عليه صوت سوفخاتب وهو يقول:  
- مولاي دنا موعد الحفل.

فنظر إليه كمن يصحو من نوم عميق، وتمتم وحقا  
ثم قام واقفا وذهب إلى الشرفة وكانت تطل على فناء  
القصر العظيم - وقوة العجلات مترابطة به في  
الانتظار - وتراءى الميدان عن بعد تتلاطم فيه أمواج  
القوم المحتفلين، فألقى على تلك الدنيا الحافلة نظرة  
باهتة وعاد إلى مكانه، ثم دخل إلى مخدعه وغاب

- سأذهب إلى معبد النيل خلال الجموع الساخطة،  
وسنرى ما يكون.. عد يا طام إلى واجبك.

## الأمم والسم

وكانت رادوبيس في صباح ذلك اليوم مستسلمة إلى  
الديوان الوثير تحلم، كان يومًا يتيه على الزمان بما  
ينبض فيه من أفراح العيد وبما يدخر لها من فوز  
عظيم. فأَيَّ سعادة وأَيَّ فرح. كان صدرها في ذلك  
اليوم كبركة من ماء مصفى معطر، تبت على حفافها  
الأزهار وتغني في جَوْها البلايل شادية نشوى.. فيا  
لدينا الأفراح؛ ومتى تلتقى نأ الفوز؟.. حين  
الأصيل، حين تبدأ الشمس رحلتها إلى العالم الثاني  
ويشرع قلبها في رحلته إلى دنيا السعادة واستقبال  
الحبيب، فيا لساعة الأصيل! ساعة الأصيل هي ساعة  
الحبيب، حين يقبل عليها بقوامه الفارع وشبابه  
الغض، فيلفت ذراعيه المفتولتين حول خصرها الدقيق،  
يناجي اسمها العذب، يبشرها بالفوز فيقول انتهت  
الآلام، وتفترق الحُكَّام ليحشدوا الجنود، فهنيئًا لحبنا.  
آه ما أجل الأصيل!..

ولكن كيف تصدق أنّ هذا النهار ينقضي؟.. لقد  
انتظرت عودة الرسول شهرًا انطوى ثقبًا مرهقًا،  
ولكنها تحال هذه الساعات المعدودات أشد وطأة وأكبر  
كلفة، على أنه قلق يخالط طمأنينة، وخوف يمازج  
سعادة.. وكأنما أرادت أن تناسي الانتظار لتغفل  
الزمن، فعطفت أفكارها إلى هنا وإلى هناك حتى عثرت  
في شرودها بالعاشق الجاثي في معبده.. في الحجرة  
الصفية، بنامون بن بسار، ما أرقه وأخف ظله،  
كانت تساءلت مرّة خيري كيف تجزيه على ما أدى لها  
من خدمة جليّة، وقد طار على جناحي حمامة إلى  
أقصى الجنوب، وعاد بأسرع مما ذهب يحمله الشوق  
فيعبر به مشاق الطريق.. بل همست مرّة في ارتباك  
كيف تستطيع أن تتخلص منه؟. ولكنّه علمها بقناعته  
أنّ من الحب حبًا عجيبًا لا يعرف الأثرة ولا التملك  
ولا الطمع، ويرضى بالأحلام والأوهام. فيا له من

فلاذ الرجل بالصمت وقد امتنع وجهه، ولم يتمالك  
سوفخاتب نفسه فصاح:

- كيف يمكن أن أصلق أذني؟

وصاح طاهو بغضب:

- هذا جنون لا يعقل.

وضحك فرعون ضحكة عصبية، وقال بسخرية  
مريرة:

- كيف ذكرني شعبي يا طام؟. تكلم إنّي أمرك.

فقال الرجل:

- قال الأوغاد.. «ملكنا يلهو».. «نريد ملكًا  
جاذًا».

فضحك الملك ضحكة كالأولى، وقال متهكمًا:

- وأسفاه.. ما عاد مرنسرع يصلح لعرش

الكهنة!.. وماذا قالوا أيضًا يا طام؟..

فقال الرجل بصوت خافت لا يكاد يسمع:

- وهتفوا يا مولاي طويلًا بحياة حضرة صاحبة

الجلالة الملكة نيتوقريس!.

فلاح بریق خاطف بعيني الملك، وردّد اسم  
نيتوقريس بين شفثيه بصوت خافت كأنما يذكر شيئًا  
قديمًا طال به عهد النسيان، وتبادل المشيران نظرة  
الدهشة، وأحس فرعون بدهشة الرجلين وتخرّج رئيس  
الشرطة، فلم يرض أن يجعل من الملكة حديثًا مريًا،  
وإن سأل نفسه حيرة: ترى ما عسى أن يكون شعور  
الملكة حيال هذه الهتافات.. واشتد الضيق بصدره،  
وأحس بموجة عنيفة من الغضب والتمرد والاستهتار،  
فوجه كلامه إلى سوفخاتب قائلاً بخشونة:

- هل حان موعد الذهاب؟

فقال طام بدهول:

- ألن يعدل مولاي عن الذهاب؟

فقال الملك بعنف:

- ألا تسمعي أيها الوزير؟

فاضطرب سوفخاتب وقال بخشوع:

- بعد برهة قصيرة يا مولاي.. حسبت مولاي

سيعدل عن الذهاب؟

فقال الملك بهدوء كالذي يسبق العاصفة:



رادوبيس ٣٠١

إلى موطن همها فتساءلت: ترى ماذا حدث في الاجتماع الخطير الذي قال مولانا إنه سيدعو إليه ليقرا عليه الرسالة.. هل التأم ولّى النداء وأدناهما إلى أملها الفاتن؟. أوآه.. متى يأتي الأصيل..

وملّت الجلسة، فقامت تمشّي، ودلفت إلى النافذة المظلة على الحديقة تسرح الطرف في آفاقها المنفسحة. ولبثت ما لبثت حتى سمعت يذأ مضطربة تطرق الباب، فالتفتت متضايقة برمة، فرأت جاريتها شيث تقتحم الباب مهرولة لاهثة زائغة البصر يعلو صدرها وينخفض، وكان وجهها شاحباً كأنما تقوم ساعتها من فراش مَرَضٍ طويل، فوجب قلبها، وطالعتها نذير شؤم، وسألتها في إشفاق:

- ما لك يا شيث؟

وهمت الجارية أن تتكلم، فغلبها البكاء، فجثت على ركبتيها أمام مولانا، وشبكت يديها على صدرها، وأفحمت في البكاء بحالة عصبية شديدة، فاستولى الانزعاج على رادوبيس وصاحت بها:

- ما لك يا شيث؟.. بالله تكلمي، ولا تتركيه فريسة الحيرة، فإن لي آمالاً أخاف عليها الوسواس.

فتنهدت المرأة تنهداً عميقاً، وشهقت شهقة عنيفة، ثم قالت بصوت باك:

- مولاتي.. مولاتي.. إتهم هائجون ثائرون!

- من الهائجون الثائرون؟

- الناس يا مولاتي.. إتهم يصرخون في غضب جنوني، مزقت الأرباب ألسنتهم.

فخفق قلبها مفزوعاً وقالت بصوت متهدج:

- ماذا يقولون يا شيث؟

- آه يا مولاتي.. إتهم قوم مجانين تهذي ألسنتهم المسمومة هذياناً مخيفاً.

فكادت المرأة تجنّ فزعاً، وصاحت بحدة:

- لا تعذبيني يا شيث! صارحيني بما قالوا.. رباه.

- مولاتي إتهم يذكرونك ذكراً غير جميل.. ماذا

فعلت يا مولاتي حتى تستحقّي غضبهم؟

فضمّت رادوبيس يدها إلى صدرها، وقد اتسعت

عينها ذعراً، وقالت بصوت متقطع:

شابّ حالم بعيد عن الدنيا. ولو أنه طمع في قبلة مثلاً لما عرفت كيف تتحاماها، دون أن تمدّ له فمها، ولكنه لا يطمع في شيء، وكأنه يخشى لو لمسها أن يجترق بلهيب غامض. أو لعله لا يصدّق أنها شيء يلمس ويُقبّل. إنه لا يرمقها بعين إنسان فلا يستطيع أن يراها من بني الإنسان، ويقنع بأن يحيا على بهائها كما يحيا نبات الأرض بالشمس السابحة في السموات.

وتنهّدت وقالت: حقاً إنّ الحبّ عالم عجيب، أما حبّها فينبع متدفقاً من صميم الحياة، فالقوة التي تجذبها إلى مولانا هي قوة الحياة الكاملة الرهيبية، وأما حبّ بنامون فيكاد أن ينقطع له عن أسباب الحياة، ويضلّ في آفاق سامية، لا يعلن عن أثر محسوس إلا في يده الماهرة، وأحياناً في لسانه الملثم الحارّ.. فيا له من حبّ يرقّ من ناحية فيصير طيقاً من الأحلام، ويقوى من ناحية أخرى فيبيت في الصخر الأصم حياة.. فكيف تفكّر في التخلّص منه وهو لا يكلفها شيئاً، فلتكره في معبده آمناً، يصوّر في جدرانه الصامتة أجمل التهاويل التي تكتنف وجهها الجميل.

وعادت تهتف من أعماق صدرها: متى الأصيل؟

... حقاً لشيث لو لبثت إلى جانبها لسلّتها بثررتها وخبثها، ولكنها أبت إلا أن تذهب إلى أبو لمشاهدة عيد النيل..

يا ما أجل الذكريات! ذكرت العيد الماضي، يوم اعتلت هودجها الفاخر وشقت به الحشد الكبير لترى فرعون الشاب، ولما وقعت عينها عليه خفق قلبها وهي لا تدري، وأحسّت بدبيب الحبّ غريباً لطول عهداها بالجفاء، فحسبته قلقاً غاضباً أو نفثة ساحر، ذاك اليوم الخالد حين خطف النسر صندلها، ولم يكد يبدأ اليوم الثاني حتى زارها فرعون، ومن ثمّ زار قلبها الحبّ وتغيّرت حياتها وتغيّرت الدنيا جميعاً.

أما العام الثاني فما هي تقبع في قصرها، والدنيا تنصف وتلهو في الخارج، ولن يتاح لها الظهور إلا بحساب فلم تبق رادوبيس الغانية الراقصة، ولكنها منذ عام وإلى الأبد قلب فرعون الخافق، وكانت أفكارها تضلّ هنا وهناك فلا تلبث أن تنجذب بعنف

أغرقت آمالها الصارخة بغير رحمة. وجعلت تسائل نفسها المحزونة: ترى ماذا حدث في آيو؟ وكيف وقعت هذه الحوادث الخطيرة، وما الذي أثار الشعب وأخرجه عن وعيه، وهل يقدر للرسالة الفشل ويُقضى على أملها بالموت؟ الجوّ مغبرٌ كالبحر، تتطاير فيه نذر شرّ مستطير، ولن يتذوق قلبها الطمأنينة، إنّ الخوف القاتل يجثم عليه كقطعة من الزمهرير، وقد قالت بصوت كالبكاء:

- العون آيتها الأرباب.. هل يظهر مولاي لهذا الشعب الهائج؟

فقالت شيث تطمئنتها:

- كلاً يا مولاي.. لن يترك قصره قبل أن يُنزل عقابه بالثائرين.

- ربّاه.. أنت لا تعرفين من هو يا شيث.. إنّ سيدي غضوب لا يتقهقر أبداً، ولشدّ ما يخاف قلبي يا شيث. لا بدّ أن أراه الآن.

فارتجفت الجارية رعباً وقالت:

- هذا مستحيل.. فالسفن الغاصّة بالهائجين تغطّي سطح الماء، وحرس الجزيرة متجمّع على الشاطئ.

فشدّت على رأسها وصاحت:

- ما بال الدنيا تضيق في وجهي، والأبواب تسدّ عليّ؟ إني أتردّي في بئر ضيقة من اليأس، آه يا حبيبي.. كيف أنت الآن وكيف السبيل إليك؟..

فقالت شيث تخفّف عنها:

- صبراً يا مولاي، ستنقش هذه السحابة القاتمة.  
- بمزّق قلبي إرباً أن أشعر بأنّه يتألّم. آه يا سيدي

وحبيبي! ترى ماذا يقع الآن من الحادثات في آيو؟ وقهرتها الأحزان فانصهرت آلام قلبها وسالت دموعها ساخنة، وشدهت شيث لدى هذا المنظر الغريب إذ رأت رادوبيس ربيبة الحبّ والنعيم والترف تذرف الدمع وتتأوه من الألم واليأس، وفكّرت في غيبوبة الحزن التي غشيتها فيما آلت إليه آمالها التي كانت مشرقة منذ قليل، وأحسّ قلبها ببرود اليأس، وتساءلت خائفة مذعورة: هل يمكن أن يرغموا مولاي فيفقدوه سعادته وكبرياهه أو أن يجعلوا قصرها هدفاً

- أنا.. أیغضب الناس عليّ أنا.. ألم يجدوا في هذا اليوم المقدّس ما يشغلهم عني.. ربّاه.. ماذا قالوا يا شيث.. أصدقيني رحمةً بي..

فقالت المرأة وهي تبكي بكاءً مرّاً:

- تصايح المجانين يا مولاي بأنك تهبين مال الأرباب.

فتهدّت من صدر مكلم، وتمتت بحزن:

- أوّاه.. إنّ قلبي ينخلع ويتوجّس خيفة، وأخوف ما أخاف أن يضيع الفوز المرتقب وسط الصراخ وصيحات الغضب. أما كان الأجدر بهم أن يتغاضوا عني إكراماً لمولاهم؟

فصكّت الجارية صدرها بيدها، ولولت قائلة:

- إنّ مولانا نفسه لم يسلم من أذى ألسنتهم. وفرت صرخة فزع من فم المرأة الفزعة، وأحسّت برجفة تزلزل نفسها، وقالت:

- ماذا تقولين؟.. هل تجاسروا على مسّ فرعون؟  
فقالت المرأة الباكية:

- نعم يا مولاي وأسفاه.. قالوا فرعون يلهو. نريد ملكاً جاداً.

فرفعت رادوبيس يديها إلى رأسها كأنها تستغيث، وتلوى جسمها من شدة الألم، وارتمت بيأس على الديوان، وهي تقول:

- ربّاه.. أيّ هول هذا.. كيف لا تزلزل الأرض. وتندكّ الجبال! كيف لا تصبّ الشمس نيرانها على الدنيا!

فقالت الجارية:

- إنّها تزلزل يا مولاي زلزلاً شديداً. فالقوم مشتبكون في قتال عنيف مع الشرطة، والدماء تسيل وتنفجر..

وكادت تطوّني الأقدام، فصررت لا ألوي على شيء، وانحدرت في قارب إلى الجزيرة، وما كان أشدّ انزعاجي إذ وجدت النيل يموج بالسفن، والناس على ظهرها يهتفون كما يهتف الآخرون، وكأنتهم جميعاً على ميعاد.

وغشيتها خور، وطغت عليها موجة يأس خائق،

رادوبيس ٢٠٣

فقال الشاب بسرور، وكان يسعده أن تطلب إليه ما تشاء:

- ستكون محضرة بين يديك بعد ساعات قلائل.  
- كيف؟ ألا ينبغي أن ترحل إلى أمبوس لإحضارها؟  
- كلاً . . لديّ قارورة في مسكني بأبو.

فأثار تصريحه اهتمامها بالرغم من أحزانها، ورمقته بنظرة دهشة، فخفض عينيه وقد تخضب وجهه احمراراً وقال بصوت خافت:

- أحضرتها في تلك الأيام الأليمة، حين كدت أشفي من حبي على اليأس، ولولا ما أبدت نحوي بعد ذلك من عطف لكنت الآن إلى جوار أوزوريس! وذهب بنامون ليحضر لها القارورة؛ أما هي فهزّت كفيها استهانة وقالت وهي تمّ بالسير:  
- قد ألوذ بها ممّا هو شرّ منها!!

## سَهْمُ الشَّعْبِ

صدع طاهو بأمر مولاه، فأدى التحية وذهب يعلو وجهه الارتباك والخوف، وظلّ الرجلان واقفين تمتعي الوجه حتى خرج سوفخاتب عن صمته، فقال بتوسّل:  
- أضرع إليك يا مولاي أن تعدل عن الذهاب اليوم إلى المعبد.

ولكنّ فرعون لم يتسع صدره لهذه النصيحة، فقطّب جبينه غضباً وقال:

- أفرّ لدى أول هتاف؟

فقال الوزير:

- مولاي إنّ القوم هائجون غاضبون، فينبغي التروّي.

- يحدّثني قلبي بأنّ خطّتنا سائرة إلى الفشل المحتوم، فإذا تراجعت اليوم خسرت هيبتي إلى الأبد.

- وغضب الشعب يا مولاي؟

- سيهدأ ويسكن إذا رأني أشقّ صفوفه على عجلتي كالمسلّة للشاخنة، واقتحام الأهوال ولا التسليم والخنوع.

لغضبهم ومقتهم؟ إنّ الحياة لا تطاق مع تحقيق أيّ من هذه الوسوس، ولخير لها أن تفارق الحياة إذا فرغت من مجدها وسعادتها، فيما أن تعيش رادوبيس التي حالفها الحبّ والمجد وإمّا أن تموت. وفكرت في أمرها طويلاً حتى أحضرت لها ذاكرة الأحزان ما كانت أدرجته طوايا النسيان، فاستولى عليها اهتمام شديد، وقامت من فوريتها وغسلت وجهها بماء بارد لتمحو أثر البكاء من عينيها، وقالت لشيث: إنّها ستحدّث إلى بنامون في بعض الشئون. وكان الشابّ منهمكاً في عمله كعادته، غافلاً عمّا يكدر صفو الدنيا من خطير الحدّثان. ولمّا أحسّ بها أقبل نحوها فرحاً، ولكنّه سرعان ما وجم وقال:

- وحقّ هذا الحسن الإلهي إنّك حزينة اليوم.

فقالت وهي تخفض ناظرها:

- بل تعب فقط أو كالمريضة.

- الجوّ شديد الحرارة، لماذا لا تجلسين ساعة إلى شاطئ البركة؟

فقالت باقتصاب:

- جئتك برجاء يا بنامون.

فعمد ذراعيه إلى صدره كأنما يقول لها هأنذا طوع بنانك.

فقالت:

- أتذكر يا بنامون أنّك حدّثتني يوماً عن السموم العجيبة التي ركبها أبوك؟

فقال الشابّ وقد بدت على وجهه الدهشة:

- نعم أذكر ذلك بغير ريب!

- بنامون، أريد قارورة من هذا السمّ العجيب، الذي أطلق عليه أبوك السمّ السعيد.

فازداد الشابّ دهشة وتمتم متسائلاً:  
ولمّ؟

فقالت بلهجة هادئة ما استطاعت:

- لقد حدّث أحد الأطباء فأبدى اهتماماً بشأنه،

وطلب إليّ أن أوافيه بقارورة منه، عسى أن ينقذ بها

حياة أحد مرضاه، فوعدهت يا بنامون، فهل تعدني

بدورك أن تحضرها لي في أقرب وقت؟

وما هم أولاء يعلنون العداوة ويبدأوننا بالهجوم!  
ووقع الكلام من الأذان موقعًا غريبًا لا يصلق،  
وبدا على الوجوه كأنما تتساءل في دهشة وإنكار: أحقًا  
أن هذا فرعون؟ وهذا شعب مصر؟ . . ولم يطق طاهو  
صبرًا. فقال لمولاه:

- مولاي! هذا يوم كئيب كأنما دسه الشيطان خفية  
في دورة الزمان وكانت بدايته سفك دماء، والرب  
أعلم كيف يكون منتهاه، فمربي أن أقوم بواجبي.  
فسأله فرعون:

وماذا أنت فاعل يا طاهو؟

- سأوزع الجنود على أماكن الدفاع الحصينة، وأقود  
فرقة العجلات للملاقة الثائرين، قبل أن يتغلبوا على  
الشرطة ويقتحموا الميدان إلى القصر.

فابتسم فرعون ابتسامة غامضة وصمت مليًا، ثم  
قال بصوت رهيب:

- سأقودها بنفسي.

فانخلع قلب سوفخاتب في صدره، وصاح بالرغم  
منه.

- مولاي!

فضرب الملك صدره بيديه بعنف، وقال:

- ما زال هذا القصر حصنًا ومعبدًا منذ آلاف  
السنين، ولن يصير على عهدي هدفًا رخيصًا لكل  
متمرد.

خلع الملك جلد النمر ورماه بازدراء، وأسرع إلى  
مخدعه ليرتدي لباسه الحربي. وفقد سوفخاتب اتزانه،  
وتوجس خيفة وشرًا، فالتفت إلى طاهو، وقال بلهجة  
الأمر:

- أيها القائد لا وقت لدينا نضيقه، فاذهب وأعد  
الدفاع عن القصر، وانتظر ما يأتيك من الأوامر.

وخرج القائد يتبعه الشرطي، ولبت الوزير ينتظر  
الملك.

ولكن الحوادث لم تنتظر، فقد حملت الريح ضوضاء  
صاخبة، ما زالت تملو وتشتد حتى طبقت على الآفاق،  
فهرول سوفخاتب إلى الشرفة المطلّة على فناء القصر  
وألقي بناظره إلى الميدان، فرأى جموع الشعب تعدو

ومضى فرعون يذرع الحجرة جيئةً وذهابًا ساخطًا  
شديد التأثر، فسكت سوفخاتب وهو كظيم، وعطف  
ناظره إلى طاهو وكأنه يستغيث به. ولكن القائد كان  
غارقًا في الهموم كما بدا من امتقاع وجهه، وشرود  
نظرته، وثقل أجبانه. فشملهم صمت عميق، ولم  
يكن يسمع إلا وقع أقدام الملك. .

وقطع عليهم سكونهم أحد الحجاب، وكان متسرّعًا  
مضطربًا، فانحنى للملك، وقال:  
- ضابط من الشرطة يستأذن يا مولاي في المثول بين  
يديك.

فأذن له الملك، وحدهج رجليه بنظرة يفحص بها أثر  
قول الحاجب في نفسها. فوجدهما قلقين مضطربين.  
فعلت فمه ابتسامة ساخرة، وهز كتفيه العريضتين  
استهانةً. ودخل الضابط وكان يلهث من الجهد  
والاضطراب، وكانت ثيابه معقّرة وقلنسوته مضعضعة  
تندر بالشر، فأدى التحية، وقال قبل أن يؤذن له في  
الكلام:

- مولاي! إن الشعب مشتبك مع رجال الشرطة  
في قتال عنيف، وقد قُتل من الجانبين رجال كثيرون،  
ولكن سيقتحمنا القوم إذا لم تصلنا نجدات قوية من  
الحرس الفرعوني.

وارتاع سوفخاتب وطاهو ارتياحًا، ونظرا إلى فرعون  
فوجداه مرتعش الشفتين من الغضب، وقد صاح  
بصوت أجش:

- وحق الأرباب جميعًا ما أتى هذا الشعب للاحتفال  
بالعيد.

فاستدرك الضابط قائلاً:

- وقد أذنتنا العيون يا مولاي أنّ الكهنة يخطبون  
الناس في أطراف المدينة زاعمين لهم أنّ فرعون يتدرّع  
بوجود حرب وهمية في الجنوب ليحشد جيشًا يذلّ به  
الشعب، والناس تصدّقهم ويشتدّ بهم الغضب، ولولا  
وقوف الشرطة في وجههم لاقتحموا السبل إلى القصر  
المقدس.

فصاح فرعون كالرعد:

- قطع الشكّ باليقين، وافتضح الحيلة اللئيمة

رادوبيس ٣٠٥

يخُذ على جدران المعابد.. مرحى مرحى يا شعب مصر.

وكان الحراس يقاتلون بشدة وبسالة، ويطلقون السهام كالطر، فإذا سقط منهم قتيل حلّ مكانه غيره مستهيناً بالموت، والقواد على متون الجياد يطوفون بالأسوار ويديرون القتال.

وإنه ليشاهد هذه المناظر الأليمة، إذ سمع صوتاً يعرفه حقّ المعرفة يقول:  
- مولاي.

فالتفت إلى الورا مدهوشاً، فرأى الذي يناديه على قيد خطوتين، فقال بعجب:

- نيتوقريس!

فقالت الملكة بصوت حزين:

- نعم يا مولاي، لقد صكّ أذني صراخ بشع لم يسمع من قبل في هذا الوادي، فجئت ساعيةً إليك لأعلن ولائي، وأشاطرك المصير.

قالت ذلك، ثم ركعت على ركبتيها وأحنت رأسها، فتقهقر سوفخاتب إلى الخارج. وبادر الملك إلى معصمها ورفعها من ركعتها، ونظر إليها بعينين مرتبكتين. ولم يكن رآها من اليوم الذي جاءت فيه إلى جناحه وردّها أسوأ ردّ، فاشتدّ به الحرج والألم، على أنّ صياح القوم وصراخ المتقاتلين ردّاه إلى ما كان عليه، فقال لها:

- شكراً لك أيتها الأخت، تعالي انظري إلى شعبي، إنه يخبّي في يوم العيد.

فخفضت عينيها، وقالت في حزن عميق:

- كبرت كلمة تخرج من أفواههم.

واستحال تهكّم الملك غضباً وسخطاً وازدراءً، وقال بلهجة تنطوي على الاشمئزاز:

- بلد مجنون، جوّ خائق، قلوب ملوثة.. خيانة..

خيانة.. خيانة..

فارتعدت فرائص الملكة لذكر كلمة الخيانة، وجمدت عيناها من الذعر، وأحسّت بأنفاسها تحتبس في صدرها.

تري هل حمل هتاف القوم لها على بعض الظنّ؟..

قادمة من بعيد هاتفة ملوثة بالسيوف والخناجر والعصي. كأنها أمواج فيضان هائل جارف لا ترى العين منها إلّا رءوساً عارية وسلاحاً لامعاً. فأحسّ الوزير بالفرع ونظر إلى أسفل، فرأى العبيد في حركة سريعة يثبّتون المتاريس خلف الباب العظيم، وجرى المشاة كالنسور وارتقوا الأبراج المقامة على السور المحيط في الأمام على الجانبين الشمالي والجنوبي، واندفعت قوّات عظيمة منهم إلى عمّ الأعمدة الموصل إلى الحديقة يحملون الرماح والقسي، أما العجلات، فقد ارتدّت إلى الورا، واصطقت صفين طويلين تحت الشرفة استعداداً للانطلاق في الفناء إذا اقتحم الباب الخارجي.

وسمع سوفخاتب وقع قدمين خلفه، فالتفت إلى الورا، فرأى فرعون واقفاً على عتبة الشرفة في ثياب القيادة العليا، على رأسه تاج مصر المزدوج، وكانت عيناه ترسلان شرراً متطائراً، والغضب مرتسماً على وجهه كلسان من اللهب، ويقول حانقاً مغيظاً:

- حوصرنا قبل أن نبدي حراكاً!

فقال سوفخاتب:

- القصر يا مولاي قلعة لا تؤخذ، يدافع عنها جنود جبارة، وسيرتد الكهنة مهزومين.

وجمد الملك في مكانه، وتراجع الوزير وراه، وجعلا ينظران في صمت محزن إلى الجموع التي لا يحصيها العدّ، وهي تهدر كالوحوش، وتلوح مهتدة بسلاحها، وتهتف بأصوات كالرعد: «العرش لنيثوقريس»، «ليسقط الملك العايب». وكانت جنود الحرس تطلق السهام من خلف الأبراج، فتستقرّ في المقاتل، وردّ الثائرون بسيل عارم من الأحجار والأخشاب والسهام.

وهزّ فرعون رأسه، وقال:

- مرحى.. مرحى.. أيها الشعب الكاسر الذي جاء لخلق الملك العايب، ما هذا الغضب، ما هذه الثورة، لماذا تهتد بهذا السلاح، أتريد حقاً أن تغمدته في قلبي؟.. مرحى.. مرحى.. إنه لمنظر حقيق بأن

- لعلك وجدت في حياتي ما أخجلك، ولكتك لن  
تخجل من موتي أبدا!

والتفت إلى الملكة، وقال لها:

- هل تغفرين إساءتي يا نيتوقريس؟

وكان التأثر قد بلغ منها مبلغًا عظيمًا، فاغرورت  
عينها بالدموع، وقالت:  
- لقد نسيت همومي في هذه الساعة.

فقال بانفعال شديد:

- طالما أسأت إليك يا نيتوقريس، لقد تناولت على  
كبريائك، وظلمتك وجعلت حماقتي من سيرتك  
أسطورة حزينة تلقى بالإنكار والغرابة. كيف حدث  
هذا؟.. وهل كنت أستطيع أن أغير المجرى الذي  
تنصبّ فيه حياتي.. لقد غمرتني الحياة وتولاني جنون  
عجيب، ولا أستطيع حتى في هذه الساعة أن أعلن  
ندمي، وأسفاه إن العقل يستطيع أن يعرفنا بسخفنا  
وتفاهتنا، ولكن يبدو لي أنه لا يقدر على تلافئها. هل  
رأيت أفدح من هذه المأساة التي أرادها؟.. ومع هذا  
فلن يفيد الناس منها إلا بلاغة كلامية، وسيبقى  
الجنون ما بقيت حياة الناس. بل لو بدأت حياتي من  
جديد لما تجنبت الوقوع مرّة أخرى، أيتها الأخت..  
لقد ضاقت نفسي بكلّ شيء، وما من فائدة ترجى.  
فالحير أن أستحثّ النهاية.

وبدا على وجهه العزم والاستهتار، فسألته حائرة  
قلقة:

- أيّ نهاية يا مولاي؟

فقال بحدّة:

- لست نذلًا لثيماً، وأستطيع أن أذكر واجبي من  
بعد طول النسيان. ما جدوى القتال؟.. سيُصرع  
جميع رجالي المخلصين أمام عدوّ لا يحصى له عدد،  
وسأني دوري حتّى بعد إزهاق آلاف من الأرواح من  
جنودي وشعبي، ولست جبانًا رعديدًا يلوذ بأهداب  
الحياة قابضًا على خيطٍ وإه من الأمل، فلاحقن الدماء  
وأواجه الناس بنفسي.

وهل يكون جزاؤها الاتهام بعد أن طوت فؤادها على  
أسقامه، وجاءت طوعًا إلى من أهانها وأشقاها؟..  
وهاها الأمر، فقالت:

- وأسفاه يا مولاي، ليس في وسعي إلا أن  
أشاطرك المصير، ولكنّي أعجب من الخائن، وكيف  
كانت الخيانة؟!

- الخائن رسول ائتمته على رسالة، فسلمها إلى  
عدوّي؟!

فقال الملكة بلهجة استغراب:

- لا علم لي بالرسالة، ولا بالرسول، ولا أظنّ أنّ  
الوقت يتسع لإنبائي، وما أتمنى عليك من شيء إلا أن  
أظهر إلى جانبك أمام الشعب الذي يهتف لي ليعلم أنّي  
أوليك، وأنّي أعادي من يعاديك.  
- شكرًا لك يا أختاه، ليس من حيلة، وما عليّ إلا  
أن أستعدّ لموت شريف.

ثمّ أمسك بذراعها، وسار بها صوب حجرة  
اعتكافه، وأزاح الستار المسدل على بابها ودخلا معًا  
إلى الحجرة الفاخرة، وكان يطالع الداخل محراب  
منحوت في الجدار يقوم بداخله تمثالان للملك والملكة  
السابقين، فأتمّجه الملكان إلى تمثالي والديهما، ووقفا  
أمامهما خاشعين صامتين ينظران بعينين حزينتين  
كثيبتين، وقال الملك بصوت ثقيل، وهو ينظر إلى تمثالي  
والديه:

- ترى ما رأيكما في؟!

وسكت لحظة كأنه ينتظر أن يتلقّى الجواب، وعاوده  
انفعاله فغضب على نفسه، ثمّ ثبت عينيه على وجه  
أبيه، وقال:

- لقد أورتني ملكًا عظيمًا ومجدًا أثيلًا، فإذا صنعت  
بها؟ لم يكد يمضي عام على توليتي حتّى شارفت الدمار،  
وأسفاه لقد أذلت عرشي موطنًا للنعال، وجعلت  
اسمي مضغة للأفواه، واكتسبت لنفسي اسمًا جديدًا لم  
يطلق على فرعون من قبل، هو الملك العابت.

وانحنى رأس الملك الشابّ مثقلًا حزينًا، ولبث  
ينظر إلى الأرض بعينين مظلمتين، ثمّ رفعها إلى تمثال  
والده، وتمتم:

## رادوبيس ٣٠٧

- سيبت ظهور مولاي روح الحساس في قلوبهم  
الباسلة.

فلم يجبه الملك. وهبط الأدرج معاً إلى ممر  
الأعمدة الطويل الذي يصل ما بين الحديقة والفناء،  
وأرسل في طلب طاهو، وانتظر صامتاً. وفي تلك  
اللحظة نزعت نفسه إلى الناحية الجنوبية الشرقية، إلى  
بيجة.. وتهد من أعماق قلبه، لقد ودع كل شيء إلا  
أحب الأشياء إليه، فهل تحمّ النهاية قبل أن يلقي نظرة  
على وجه رادوبيس ويسمع صوتها لآخر مرة؟..  
وأحس قلبه بحنين أليم وحزن شديد، وصحا من  
غفوة همومه على صوت طاهو يجيئه، فاندفع بقوة  
لا تقهر إلى سؤاله عن طريق بيجة قائلاً:  
- هل النيل آمن؟

فأجابه القائد قائلاً، وكان ممتنع الوجه شديد  
الشحوب:

- كلاً يا مولاي. ولقد حاولوا أن يهاجمونا من الخلف  
بالقوارب المسلحة، ولكن أسطولنا الصغير ردهم بغير  
عناء، ولن يؤخذ القصر من هذه الناحية أبداً.  
ولم يكن القصر الذي يهيم الملك، لذلك أحنى  
رأسه، وقد أظلمت عيناه. سيموت قبل أن يلقي نظرة  
وداع على الوجه الذي باع الدنيا ومجدها من أجله.  
تري ماذا تفعل رادوبيس في هذه الساعة المفجعة..  
هل بلغها ما أصاب أمالها من الانهيار، أم إنها ما تزال  
تتبه في وديان السعادة، وتنتظر عودته بفارغ الصبر؟  
ولم يكن الوقت يسمح له بالاستسلام إلى أحزانه،  
فظوى آلامه في صدره، وقال لطاهو أمراً:  
- مَرَّ جنودك أن تحلي الأسوار، وتكفّ عن القتال،  
وتعود إلى ثكناتها.

فاستولت الدهشة على طاهو، ولم يصلق سوفخاتب  
أذنيه فقال بانزعاج:

- ولكن الشعب يفتحم الباب تراً!

ولبت طاهو واقفاً لا يبدي حراكاً، فصاح الملك  
بصوت كالرعد دوىً دويًا تخيفاً في ممر الأعمدة:

- اصدع بما أمرت.

وذهب طاهو ذاهلاً ينقذ أمر مولاه، وتقدم فرعون

فارتاعت الملكة وقالت:

- مولاي.. أحمّل ضمير رجالك وزر التخلي عن  
الدفاع عنك؟..

- بل لا أريد أن أضحي بهم عبثاً، وسألقي عدوي  
وحيداً لنصفي حسابنا معاً.

فأحست بامتعاض شديد، وكانت تعرف عناده،  
فيست من إقناعه، وقالت بهدوء وحزم:

- سأكون إلى جانبك.

ولكنه هلع، وأمسك بذراعيها، وقال بتوسل:

- نيتوقريس، إن الشعب يريدك، وحسناً أراد.  
فأنت جديرة بحكمه فابقي له. إنيك وأن تطهري إلى  
جانبي فيقولوا إن الملك يحمي بزوجه أمام شعبه  
الغاضب.

- وكيف أتخلى عنك؟

- افعلي هذا من أجلي، ولا تُقدمي على عمل  
يفقدني شرفي إلى الأبد.

فأحست المرأة بالحيرة والارتباك والضيق الشديد،  
فصاحت يائسة:

- يا للساعة الرهيبة!

فقال الملك:

- هذه رغبتني نقذها إكراماً لي، لا تقاومي وحق  
والدنيا، فإن كل دقيقة تمر يسقط جنود بواسل بغير  
ثمن. الوداع آيتها الأخت الكريمة، أنا ذاهب موقناً  
بأنك لن تلطخي بالعار في ساعتي الأخيرة، إن من  
يتمتع بالسلطان الكامل لا يستطيع أن يقنع بالأسر في  
قصر. فالوداع آيتها الدنيا، الوداع آيتها اللذات  
والآلام.. الوداع آيتها المجد الكاذب والمظاهر الجوفاء.  
لقد تجت نفسي كل شيء، فالوداع الوداع..

وهوى بفمه فقبّل رأسها، والنفت إلى تمثالي والديه،  
وانحنى لهما، ثم ذهب.

ووجد سوفخاتب ينتظر في الردهة الخارجية،  
جامداً كتمثال أحنى عليه القدم؛ فلما رأى مولاه دبّت  
فيه الحياة وتبعه في سكون، وفسر خروجه على هواه،  
فقال:

وسكت فرعون، ولم يقل شيئاً.  
وفي أثناء ذلك كانت توجّه إلى باب القصر الكبير  
ضربات شديدة قاصمة، ولم يتجاسر أحد على اعتلاء  
الأسوار كأنهم توجّسوا خيفة من انسحاب الحرس  
المفاجئ، وتوهّموا أنه ينصب لهم شراكاً قاتلاً، فوجّهوا  
كلّ قوّتهم إلى الباب، ولم يحمل الباب ضغطهم زمناً  
طويلاً فتزعزعت المناريس وارتجّ بنيانه وهوى بقوة  
عنيفة رجّت الأرض رجّاً، واندفعت الجموع متدفقة  
صاخبة، وانتشروا في الفناء كغبار ريح الصيف.  
وكانوا يتدافعون بعنف، وكأنتهم يتقاتلون، ويتباطأ  
المتقدّمون منهم ما استطاعوا خشية خطر غير منظور.  
وما زالوا في تقدّمهم حتّى شارفوا القصر الفرعوني،  
ولمحت أعينهم الواقف عند مدخل الممرّ، وعلى رأسه  
تاج مصر المزدوج فعرفوه، وأخذوا بمنظره ووقفته وحيداً  
لهم. وتشبّثت أقدام الذين على الرؤوس بالأرض،  
ونشروا أذرعهم يوقفون التيّار الجارف المنصبّ  
وراءهم، وصاحوا في الجموع:  
- مهلاً.. مهلاً.

ولعب أمل ضعيف بقلب سوفخاتب حين رأى  
الذهول يستولي على قادة الثائرين فيشلّ أعضاءهم،  
ويزيغ أبصارهم، وتوقّع قلبه المتهالك معجزة تخلف  
ظنّه الأسود. ولكن كان يوجد بين الثائرين دهاة  
يشفقون بما يرجو قلب سوفخاتب، وخشوا أن ينقلب  
فوزهم هزيمة، ويخسروا قضيتهم إلى الأبد، فامتدّت يد  
إلى قوسها، ووضعت سهماً في كبده، وسدّدته إلى  
فرعون وأطلقته، فانطلق السهم من وسط الجموع  
واستقرّ في أعلى صدر الملك دون أن تمنعه قوّة أو  
رجاء، وصرخ سوفخاتب كأنما هو الذي أصيب، ومدّ  
يديه يسند الملك فالتقتا مع يدي طاهو الباردتين.  
وأطبق الملك شفّته فلم يخرج منها أنين، ولا آهة،  
وتماسك بما بقي فيه من قوّة ليحفظ توازنه وقد تقطّب  
جبينه، وارتسم عليه الألم، وأحسنّ سريعاً بخور  
وضعف، وأظلمت عيناه فترك نفسه لأيدي رجلية  
المخلصين.

وساد الصفوف الأمامية سكون رهيب، وعقد

بخطى ثابتة نحو فناء القصر، فالتقى عند نهاية الممرّ  
بفرقة العجلات المصطفّة، وقد رآه الضباط والجنود،  
فسلّوا أسيافهم وأدّوا التحية، فنادى الملك قائد الفرقة  
وقال له:

- عد بفرقتك إلى الثكنات ولا تبرحها حتّى تأتيك  
أوامر أخرى.

فأدى القائد التحية وجرى نحو فرقتة، ونادى في  
الجند بصوت شديد فتحركت العجلات بسرعة  
وانتظام إلى ثكناتها في الجناح الجنوبيّ من القصر. وكان  
سوفخاتب ترتعد أوصاله، ولا تكاد تحمله قدماه  
الضعيفتان، وقد أدرك ما يريده مولاه، ولكنّه لم  
يستطع أن ينطق بكلمة.

ومضت الجند تخلي مواقعها الحصينة منقذة الأمر  
الرهيب، وتنزل عن الأسوار والأبراج وتنطوي في نظام  
إلى ألويتها، ثمّ تعدو بسرعة إلى الثكنات يتقدّمها  
ضباطها. وما لبثت أن خلت الأسوار، وخلا الفناء  
والممرّات حتّى من قوّة الحرس العاديّ المنوط بها  
واجب الحراسة في أوقات السلام.

وظلّ الملك واقفاً عند مدخل الممرّ وإلى يمينه  
سوفخاتب. وعاد طاهو لاهئاً، ووقف إلى يساره، وقد  
بدا وجهه كالشيخ المخيف. وكان كلا الرجلين يرغب  
في التوسّل إلى الملك برغبة حارة، ولكن ما بدا على  
وجهه من الجمود والصلابة والشدة، بدّد شجاعتهما،  
فلازما الصمت مرغمين. والتفت الملك إليهما، وقال  
بهدوء:

- لماذا تنتظران معي؟

فارتعب الرجلان أيّما ارتعاب، ولم يستطع طاهو إلا أن  
ينطق بهذه الكلمة بتوسّل وإشفاق:

- مولاي.

أما سوفخاتب فقال بهدوء غير عاديّ:

- إذا أمرني مولاي بالتخليّ عنه سأصعد بأمره لا  
محالة، ولكنّي سأزهق نفسي في الحال.

فتنهّد طاهو ارتياحاً كأنه ظفر بالحلّ الذي أعياه  
طلبه، وتمتم قائلاً:

- أحسنت أيّما الرئيس.



رادوبيس ٣٠٩

وأراد الطبيب أن ينتزع السهم، ولكنَّ الملك قال له:

- دعه لا فائدة ترجى من هذا العذاب.

واشتدَّ التأثر بسوفخاتب، فقال لظاهو بانفعال شديد غير نبرات صوته تغيرًا تامًا:

- ادعُ جنحك، وانتقم لمولاك من المجرمين.

وبدت على الملك المضايقة، فرفع يده بصعوبة،

وقال:

- لا تتحرَّك يا ظاهو، هل هانت عليك أوامري يا سوفخاتب في رقاذي هذا!! لا قتال بعد الآن، قولوا للكهنة إنهم بلغوا غايتهم، وإنَّ منزع الثاني على فراش الموت، فليرجعوا بسلام.

وسرت رعدة في جسم الملكة فهالت على أذنه، وقالت همسًا:

- مولاي! لا أحب أن أبكي أمام قاتلك، ولكن ليطمئن قلبك، فوحقَّ أبويننا، وحقَّ الدم الزكيَّ لأنتقم من عدوك انتقامًا تتحدَّث به الأزمان جيلًا بعد جيل.

فابتسم إليها ابتسامة خفيفة يعبرَ بها عن شكره ومودته، وغسل الطبيب الجرح وسقاه جرعة من دواء مسكِّن، ووضع بعض الأعشاب حول السهم، واستسلم الملك إلى يديه ولكنَّه كان يشعر بدنو أجله وباقتراب الساعة الفاصلة، ولم ينس في رقاذه الوجه الحبيب الذي تمنى لو يودَّعه قبل النهاية المحتومة فلاحت في عينيه نظرات حنين، وقال بصوت خافت بغير وعي منه إلى ما حوله:

- رادوبيس.. رادوبيس.

وكان وجه الملكة قريبًا من وجهه فسمعت، وأحسَّت بطعنة نجلاء تحترق شغاف قلبها، فرفعت رأسها وقد أحسَّت بدوار شديد. ولم يلق بالأل إلى شعور الآخرين، فأوماً إلى ظاهو، فبادر الرجل إليه. فقال له برجاء:

- رادوبيس.

فقال القائد:

- هل آتي بها يا مولاي؟

الأسنة صمت ثقيل: وهلعت الأعين، وأرسلت نظرات زائغة إلى الرجل العظيم الذي يعتمد على رجليه تتحسَّس يده موضع السهم في صدره فيلظَّخها الدم الساخن المتدفق بغزارة، وكأتم لا يصدِّقون أعينهم، أو كأتم هاجوا القصر لغير هذه الغاية.

ومزَّق السكون صوت من المؤخرة يسأل:

- ماذا هنالك؟

فقال آخر بصوت خافت:

قُتل الملك!!.

وتناقلتها الأسنة بسرعة جنونية، وتصايح بها الناس، وهم يتبادلون نظرات الحيرة والارتياح.

ونادى ظاهو عبدًا وأمره أن يحضر هودجًا، فجرى الرجل إلى داخل القصر، وعاد يحمل هودجًا هو وجماعة من العبيد، فوضعه على الأرض ورفعوا جميعًا فرعون وأناموه في رفق. وانتشر الخبر داخل القصر، فجاء طبيب الملك مسرعًا، وظهرت خلفه الملكة، وكانت تسرع الخطى في اضطراب بادٍ، ولما وقعت عينها على الهودج وعلى النائم جرت إليه فزعةً، وجثت على ركبتيها إلى جانب الطبيب، وهي تقول بصوت متهتج:

- يا للويل.. قد أصابوك يا مولاي كمشيئتك!

وشاهد القوم الملكة، فصاح واحد منهم:

- جلالة الملكة.

وانحنت هامات الشعب الواجم كأنه في صلاة جامعة. وأخذ الملك يفيق من أثر الصدمة الأولى، ففتح عينيه المغمضتين، ومضى يقلبها فيمن حوله في هدوء وضعف. وكان سوفخاتب يملق في وجهه في ذهول وصمت، وكان ظاهو جامدًا ووجهه كوجوه الموت، وكان الطبيب يفحص الجرح، يكشف عنه قميص الزرد. أما الملكة فقد اكتسى وجهها بالجزع والألم، وقالت للطبيب:

- أليس بخير؟. قل لي إنَّه بخير!

فأدرك الملك ما تقول، وقال ببساطة:

- كلاً يا نتيوقريس. إنَّه سهم قاتل.

فقال بصوته الخافت:

- كلاً . احملي إليها، في قلبي بقية حياة أريد أن تنفذ في بيعة .

ووجه طاهو نظرة إلى الملكة في ارتباك شديد، فقامت الملكة واقفة وقالت بهدوء:  
- نفذ مشيئة مولاي .

وسمع الملك صوتها، وأدرك قولها، فقال لها:  
- أيتها الأخت، طالما غفرت لي الذنوب، فاغفري لي هذه أيضاً . إنها رغبة ميت .

فابتسمت الملكة ابتسامة حزينة . وانحنى على جبينه ولثمته، ثم أوسعت للعيد .

## الوداع

انحدرت السفينة في هدوء متجهة صوب جزيرة بيعة، والهودج في مقصورتها بحمله الثمين، يقف الطيب عند رأسه، وطاهو وسوفخاتب عند قدميه . وكانت هذه أول مرة يجيم فيها الحزن على السفينة، فتحمل مولاهما نائماً مستسلماً، يغشى وجهه ظل الموت . وكان الرجلان يلازمان الصمت وعيناهما الحزبتان لا تفارقان وجه الملك الشاحب، وكان يرفع جفنيه الثقيلتين، وينظر إليهما نظرة ذابلة، ثم يعود فيغمضهما في تراخ . ومضت السفينة تدنو من الجزيرة رويداً، رويداً، حتى رست إلى سلم حديقة القصر الذهبي . ومال طاهو على أذن سوفخاتب، وهمس قائلاً:  
- أرى أن يسبق أحدنا الهودج حتى لا تؤخذ المرأة بغيره .

ولم يكن سوفخاتب في تلك الساعة الرهيبية يبالي شعور إنسان، فقال باقتضاب:

- افعل ما بدا لك .

ولكن طاهو لم يبرح مكانه، ولبسته حيرة التردد، فقال:

- يا له من نبال لا يدري الإنسان كيف يؤذيه إليها .

فقال سوفخاتب بحدة:

- ماذا تخشى أيها القائد؟! إن من يبتي بمثل ما ابتلينا به لا يعمل حساباً لمحدور .

قال سوفخاتب ذلك، وغادر المقصورة مسرعاً، وصعد درجات السلم إلى الحديقة، واخترق المشى مهرولاً حتى انتهى إلى البركة، فاعترضت سبيله الجارية شيث، وقد دهشت الجارية لمراه، وكانت تعرفه من تلك الأيام الخوالي . وفتحت فاهها لتكلمه، ولكنه قطع عليها السبيل قائلاً بسرعة:

- أين سيدتك؟

فقال شيث:

- مسكينة سيدي لا تعرف اليوم لنفسها مستقراً . وما زالت تدور بالحجرات، وتطوف بالحديقة حتى . . .

وفرغ صبر الرجل فقاطعها قائلاً بحدة:

- أين سيدتك؟

فقال مستاءة:

- في الحجرة الصيفية يا سيدي .

وأسرع الرجل إلى الحجرة . ودخل متنحنحاً، وكانت رادوبيس جالسة على كرسي مسندة رأسها إلى يدها، فلما أحست بالداخل التفتت إليه، وسرعان ما عرفته، فقامت واقفة وكأنتها تقفز قفزاً، وقالت باهتمام وقلق:

- الرئيس سوفخاتب . . أين مولاي؟ . .

فقال الرجل الغارق في حزنه بذهول:

- سيأتي عما قليل . .

فضمت يديها إلى صدرها فرحاً، وقالت بصوت بهيج:

- لشد ما عذبتني المخاوف على سيدي، لقد بلغني أنباء العصيان المحزنة، ثم انقطع عني كل شيء، فتركت وحدي إلى وساوس قلبي . . متى يأتي سيدي؟

وذكرت بسرعة خاطفة أنه لم يتعود أن يرسل رسولاً بين يديها فاعتورها القلق وقالت بسرعة قبل أن يبدأ سوفخاتب كلامه:

- ولكن لماذا بعثك إلي؟

رادوبيس ٣١١

- كيف تركوه في صدرك؟! هل أستدعي الطبيب؟! .

فاستجمع قواه الخائرة المشتتة، وقال بصوت ضعيف:  
- لا فائدة.

فلاححت في عينيها نظرة جنونية، وقالت بصوت العتاب:

- لا فائدة يا حبيبي.. كيف تقول هذا؟!.. هل هانت عليك حياتنا! .  
فمدّ يده في ضعف شديد حتى مسّت كفّها الباردة، وهمس قائلاً:

- هي الحقيقة يا رادوبيس، لقد جئت لأموت بين يديك في المكان الذي أحببته أكثر من أيّ مكان في الدنيا.. فلا تندي حظنا، وامنحيني صفاء.

- مولاي، أتعي إليّ نفسك؟!.. يا لساعة الأصيل هذه، كنت أنتظرها يا حبيبي بنفس أضناها الشوق وغرّرت بها الأمل، وكنت أرجو أن تجيء حاملاً إليّ بشرى الفوز، فجئت حاملاً إليّ هذا السهم.. كيف لي بالصفاء؟! .

فازدرد ريقه بصعوبة، وقال بتوسّل وبصوت كالأنين:

- رادوبيس تناسي هذا الألم وادني منّي، أريد أن أنظر إلى عينيك الصافيتين.

إنّه يريد أن يرى الوجه الصبيح المتألّق بالغبطة والسعادة ليختم بصورته الفاتنة حياته، أمّا هي فكانت تعاني آلاماً لا قيل لإنسان بها، وكانت تودّ لو تنفّس عن صدرها المضطرم بالصراخ والعيويل والهذيان، أو تلمس الشفاء في الجنون العنيف واصطلاء نيران الجحيم، فكيف تصفو وتهدأ وتطالعه بالوجه الذي أحبه وسكن إليه دون العالمين.. وكان يتابع النظر إليه برجاء، فقال بحزن:

- ليست هاتان العينان عينيك يا رادوبيس.

فقالت بأسى وحزن:

- هما عيناك يا مولاي، ولكن جفّ ما يمدّها بالنور والحياة.

فقال الوزير بجمود:

- صبراً يا سيّدتي، فلم يرسلني أحد، والحقيقة الأسيفة أنّ مولاي أصيب.

ووقعت هذه الكلمة الأخيرة من أذنيها موقعاً غريباً دائماً، فحملت في وجه الوزير الكتيب فزعة، وصدرت عن صدرها آهة زفرة حرّى مرتعشة، فقال سوفخاتب الذي أفقده الحزن شعوره:

- صبراً صبراً.. سيصل مولاي محمولاً على هودجه كمشيته. لقد أصيب بسهم في هذا اليوم المنكود الذي غدا عيداً وأضحى مأتماً مروّعاً.

ولم تحتمل المكوث في الحجرة، فجرت إلى الحديقة كالفرخة الذبيح، ولكتّتها لم تكند تجاوز العتبة حتى سمّرت قدمها في الأرض، وثبتت عينيها على الهودج يحمله العبيد متجهين صوب الحجرة، فأفسحت لهم الطريق، وهي تضع يديها على رأسها المضطرب من هول المنظر، ثمّ تبعتهم على الأثر. وقد وضعوا الهودج في حرص شديد وسط الحجرة وانسحبوا خارجاً، وخرج في ذيلهم سوفخاتب، وخلا المكان لها وله.. واندفعت إلى الركوع إلى جانبه، وشبكت أصابع يديها وشدّت عليها بقسوة وبحالة عصبيّة عنيفة، ونظرت إلى عينية الساهمتين الذابلتين، وقد انقطعت منها الأنفاس، وجرى بصرها الزائغ على صدره المضطرب، فرأت بقع الدم والسهم النافذ، فاقشعرّ بدنها بحالة ألم جنونيّ، وصاحت بصوت متقطع من العذاب والفرع:  
- أصابوك.. يا للهول!

وكان نائماً في تراخٍ وهمود، وقد أتت الرحلة الصغيرة على بقية قواه الآخذة في الانحلال السريع، ولكنه حين سمع صوتها ورأى وجهها الحبيب دبّت فيه نسمات حياة رقيقة، ولاح في عينية المظلمتين ظلّ ابتسامة خفيفة.

ولم تكن تراه إلا هائجاً مفعماً بالحياة كالعاصفة، فكادت تجنّ، وهي تشاهده كمن شاخ وذوى منذ دهر طويل، وألقت نظرة نارياً على السهم الذي أحدث كلّ هذا، وقالت بتألّم:

انقطع صوتها كأنما مُزقت مسالكه، وتصلب لسانها،  
والنحم فكأها بشدة، وحملت في وجه الذي كان  
إنساناً بعينين جامدتين، ثم لم تبد حراكاً.

وأذاعت صرختها الخبر الأليم، فهرع الرجال  
الثلاثة إلى الحجرة دون أن تحس بهم ووقفوا أمام  
الهودج، وألقى طاهو على وجه الملك نظرة ذاهلة،  
وعلت وجهه صفرة الموت ولم ينبس بكلمة، وتقدم  
سوفخاتب من الجئة، وانحنى في إجلال عظيم وقد  
أخفاها عنه دمع جرى على خديه وتساقط على  
الأرض، وقال بصوت متهدج مزقت نبراته الباكية  
الصمت المخيم:

- سيدي ومولاي، وابن سيدي ومولاي،  
نستودعك الآلهة العلية التي اقتضت مشيئتها أن يكون  
اليوم بدء رحلتك إلى عالم الأبدية. وددت لو أفندي  
شبابك الغضّ بشيخوختي الفانية، ولكنّها إرادة الربّ  
التي لا تُردّ. فالوداع يا مولاي الكريم.

ومدّ سوفخاتب يده الهزيلة إلى الغطاء، وسجى  
الجئة في أناة، وانحنى مرة أخرى، وعاد إلى مكانه  
بقدمين ثقيلتين.

وظلّت رادوبيس جاثية، في غفوة من الدهول لا  
تفيق ولا تتحوّل عيناها عن الجئة، وقد سرى في  
جسمها جهود غريب كالموت، فلم تُبدِ حراكاً، ولا  
بكت، ولا صرخت، وظلّ الرجال في وقفتهم منكسي  
الرهوس.. إلى أن دخل أحد العبيد الذين حملوا  
الهودج، وقال:

- وصيفة جلالة الملكة.

والفتت الرجال إلى الباب، فرأوا الوصيفة تدخل  
يبدو على وجهها أثر الحزن الشديد، فأنحوا لها تحية،  
فردت التحية بإيماء من رأسها، وألقت نظرة على الجئة  
المسجاة، ثم ردت ناظرها إلى سوفخاتب، فقال  
الرجل بصوت حزين:

- انتهى الأمر أيتها السيدة الجليلة.

فصمت المرأة برهة كالذاهلة، ثم قالت:

- ينبغي إذاً أن تحمل الجئة الكريمة إلى القصر  
الفرعوني، هذه إرادة جلالة الملكة أيها الوزير.

- آواه يا رادوبيس، ألا تريد أن تنسي الآمك  
هذه الساعة إكراماً لي.. أريد أن أرى وجه رادوبيس  
حبيبي، وأن أستمع إلى صوتها العذب.

ونفذ رجاؤه إلى قلبها، فكبر عليها أن تحرمه من  
شيء يريد في تلك الساعة السوداء، وقست على  
نفسها قسوة شديدة، فبسطت صفحة وجهها  
واغتصبت من شفيتها المرتعشتين ابتسامة وحتت عليه  
في سكون واطمئنان كأنما تحو عليه، وهو يرقد رقاد  
غرام، فتبدى على وجهه الشاحب الذابل الرضا،  
وانفرجت شفها الباهتان عن ابتسامه.

ولو أنّها تركت لعواطفها لما وسعتها الدنيا هذياناً  
وجنوناً، ولكنّها نزلت على إرادته العزيزة، وملأت  
عينها من وجهه، وهي لا تصدق أنّ هذا الوجه  
سيغيب عنها بعد لحظات قصيرة إلى الأبد، وأنّها لن  
تراه في هذه الدنيا مهما تألّت أو تأوّهت أو سكبت  
الدمع الحزين، وأنّ صورته وحياته وحبّه ستغدو  
ذكريات ماضٍ غريب، هيهات أن يصدق قلبها  
المكلم أنّه كان يوماً حاضرها واستقبالها. كلّ هذا لأنّ  
سهماً مجنوناً استقرّ في هذا الموضع من صدره.. كيف  
يستطيع هذا السهم الحقيّر أن يقضي على آمال ضاقت  
عنها الدنيا بأسرها!.. وتهدت المرأة تنهداً حازماً صعد  
فتات قلبها، وكان الملك يستفرغ بقية الحياة القلقة في  
صدره، المضطربة في أنفاسه، وقد خارت قواه ووهنت  
أعضاؤه، وماتت حواسه، وأظلمت عيناه، ولم يبق منه  
إلا صدر يضطرب اضطراباً عنيفاً، ويقتل به الموت  
والحياة اقتتال القهر واليأس. وتجلّ بغتة على وجهه الألم  
وفتح فاه كأنما يريد أن يصرخ أو يستغيث، وأمسك  
بيدها التي امتدّت إليه في فزع لا يوصف، وصاح  
بقوة:

- رادوبيس أسندي رأسي.. أسندي رأسي.

وأحاطت رأسه بيدها المرتجفتين وهمت أن تجلسه،  
ولكنّه شفق شهقة قوية، وأسقطت يده إلى جانبه،  
وانتهت عند ذلك المعركة الناشبة بين الحياة والموت.  
وأعدت رأسه إلى وضعه الأوّل بسرعة، وصرخت  
صرخة فزع شديدة عالية، ولكنّها كانت قصيرة، ثمّ

## رادوبيس ٣١٣

أن تخلّص ذراعها، ولكنّه لم يمكّنها من غايتها، فقالت له بعنف:

- دعني أذهب..

فهزّ رأسه بمنّة ويسرة ببطء كأنّه يقول لها: كلّاً كلّاً.. وكان وجهه رهيباً مخيفاً ونظرة عينيه جنونيّة، وتمتم قائلاً:

- إنهم ذاهبون إلى مكان لا يجوز أن تلحقهم إليه.

- دعني أذهب لقد خطفوا سيدي.

فارتدّ وجهه، وقال لها بلهجة عنيفة كأنّه يلقي أمراً عسكرياً:

- لا تقاومي رغبة الملكة الحاكمة.

فسكت عنها الغضب في خوف وكفّت عن المقاومة. واستسلمت استسلاماً غريباً، وقطبت جبينها، ثمّ هزّت رأسها في حيرة كأنّها تحاول أن تستجمع قوياً إدراكها المشتت الذاهل، وحدجته بنظرة غرابة وإنكار وقالت:

- ألا ترى أنّهم قتلوا مولاي.. قتلوا الملك!

وكانت عبارة «قتلوا الملك» تقع من أذنيه موقعاً غريباً مروّعاً فسكن هياجه، وقال:

- نعم يا رادوبيس، قتلوا الملك، وما كنت أحسب قبل اليوم أنّ سهما يمكن أن يقضي على حياة فرعون. فقالت ببساطة البله:

- فكيف تدعهم يخطفونه منّي بعد ذلك؟!.

فانفجر ضاحكاً ضحكة جنونيّة مخيفة، وقال:

- أتريدين أن تبعي أترهم؟.. يا لك من مجنونة يا رادوبيس، إنك تعمين عن العواقب، فقد أذهلك الحزن، اصحبي أيتها الفاتنة، فالجالسة على عرش مصر الآن امرأة قضيت عليها بالهوان، وانترعت زوجها من بين يديها، وأهويت بها من سامق المجد والسعادة إلى زوايا النسيان والشقاء.. إنّها سرعان ما تبعث إليك من يسوقك إليها مكبّلة بالسلاسل، ثمّ تدفع بك إلى أيدي جلاّدين لا يعرفون الرحمة يملقون شعرك الحريري، ويسملون عينيك السوداوين، ويجدعون أنفك اللدقيق، ويصلمون أذنيك الرقيقيتين، ثمّ يميلونك على ظهر عربة قطعة من البشاعة المشوّهة

وأنتجت الوصيفة نحو الباب، وأومات إلى العبيد، فهرعوا إليها مسرعين، فأمرتهم أن يرفعوا الهودج. وقصد العبيد إلى الهودج ومالوا إلى قوائمه ليرفعوه، فانتبهت رادوبيس مذعورة ولم تكن تحسّ بشيء ممّا يدور حولها، وتساءلت بصوت مبحوح غريب:

- إلى أين.. إلى أين؟.

وارتمت على الهودج، فتقدّم منها سوفخاتب وقال:

- إنّ القصر يريد أن يؤدّي واجبه نحو الجثّة المقدّسة.

فقالت المرأة الذاهلة:

- لا تأخذوه منّي.. انتظروا.. ساموت على

صدره. وكانت الوصيفة تتعالى بناظرها عن رادوبيس، فلمّا سمعت قولها قالت بخشونة:

- إنّ صدر الملك لم يخلق لكي يكون لحدّاً لإنسان.

وانحنى سوفخاتب على المرأة، وقبض على معصمها برقّة ورفعها بهدوء، وحمل العبيد الهودج، فنزعت رادوبيس يدها من بين يديه، وأدارت رأسها بعنف فيما حولها فلم يبد على وجهها التائه أنّها عرفت أحدًا من الحاضرين، وصاحت بصوت متقطع كالخشرجة:

- لماذا تأخذونه؟. هذا قصره.. وهذه حجرته..

كيف تسوموني القهر أمامه.. إنّ مولاي لا يرضى عمّن يسيء إلي.. أيتها القساة.. أيتها القساة.

ولم تبأها الوصيفة، فشقت طريقها إلى الحديدية، وتبعها العبيد يحملون الهودج. وغادر الرجال الحجرية في خشوع وصمت. وكادت المرأة تجنّ. وجددت في مكانها لحظة قصيرة، وهمت باندفاع وراءهم، ولكنّ يداً غليظة أمسكت بذراعها، فحاولت التخلّص منها، ولكن ضاعت محاولتها هباء.

فالتفتت إلى الورا بعنف وغيظ، فوجدت نفسها وجّها لوجه أمام طاهو..

## نهاية طاهو

وسهمت إليه بنظرة غريبة كأنّها لا تعرفه، وحاولت

وكان ينصت إليها في صمت، وعلى فمه ابتسامة شيطانية ساخرة، فلما انتهت ضحك ضحكته الجنونية المخيفة، ثم قال:  
- أخطأت يا رادوبيس، ليست الملكة خائنة ولا قاتلة.

وحملن في وجهها ودنا منها خطوة، وكانت تنظر إليه بدهشة وإنكار، ثم قال بصوت رهيب:  
- إن كان يهَمُّك أن تعرفي الخائن، فهذا هو ذا يقف أمامك.. أنا الخائن يا رادوبيس.. أنا..

ولم يهتَمَّا قوله كما كان يتوقَّع، ولا بدت عليها اليقظة. ولكنَّها هزَّت رأسها هزَّت خفيفة كأنَّما تريد أن تنفض عن نفسها الخمول والإعياء. فاستولى عليه الغضب، وأمسك بكتفها بغلظة، وهزَّها بعنف شديد، وصاح بها:

- اصحي، ألا تسمعين ما أقول.. أنا الخائن..  
طاهو الخائن.. أنا علَّة الكوارث جميعًا..

وارتعد جسمها بعنف، وانتفضت انتفاضًا شديدًا خلصت به من يديه وتقهرت خطوات، وهي تنظر إلى وجه الفزع بخوف وجنون، فسكت غضبه وهياجه، وأحسَّ بتخاذل جسمه ورأسه فأظلمت عيناه، وقال بهدوء وبلهجة حزينة:

- إني أنطق بكلمات هائلة بكلِّ بساطة، لآتي أشعر شعورًا صادقًا أنني لست من أهل الدنيا. لقد انقطع ما بيني وبين العالم جميعًا، ولا شكَّ فيما أحدثه اعترافي لك من الفزع، ولكنَّها الحقيقة يا رادوبيس، لقد تحطَّم قلبي بقسوة شنيعة، ومزَّق نفسي الألم البالغ في تلك الليلة الجنونية التي فقدتك فيها إلى الأبد.

وسكت القائد ريثما تهدأ أنفاسه المضطربة، ثم استطرد قائلاً:

- وانطويت على الألم، واستوصيت بالصبر والتجلُّد، واعتزمت صادقاً أن أؤدِّي واجبي إلى النهاية، حتَّى كان ذلك اليوم الذي دعوتني فيه إلى قصرِك لتستوفيني من إخلاصي. في ذلك اليوم جنَّ جنوني، واشتعلت النار في دماغي، فهذيت هذيانًا غريبًا، واستاقني الجنون إلى عدوِّ متربِّص، فأفضيت له

يعرضونك على أنظار الساخطين الشامتين ويسير بين يديك منادٍ يصيح بأعلى صوته أن انظروا إلى العاهرة المشثومة التي أتلفت على الملك نفسه، ثم أتلفتة على شعبه.

وكان طاهو يتكلَّم بلهجة تشفَّ عن غلِّ وعيناه تبرقان بنور مخيف؛ ولكنَّها لم تتأثر بكلامه كأنَّما حيل بينه وبين حواسِّها، وسهمت إلى شيء غير منظور في هدوء غريب، ثم هزَّت منكبَّها في استهانة وبساطة. فاحتمد في قلبه الغيظ والحنق لبرودها وذهولها، واندفع الغضب من قلبه إلى قبضة يده فشدَّ عليها، وشعر برغبة في أن يوجِّه إلى وجهها ضربة هائلة جنونية فيحطِّمها تحطيمًا، ويمتَّع ناظره بتشوُّهه، وتفجَّر الدم من مسامه ومنافذه، ولبث دقيقة يتفرَّس في وجهها الهادئ الذاهل، ويمجاور رغبته الشيطانية، ولكنَّها رفعت عينها إليه دون أن يلوح فيها معنى من معاني الحياة، فاضطرب وتخاذل وبدا عليه رعب من يضبط متلبِّسًا بجريمة، فتراخت أصابعه، وتنهَّد تنهَّدًا عميقًا ثقيلًا، ثم قال:

- أراك لا تكترئين لشيء.

وكانت لا تلقي إلى ما يقول بالألا، ولكن تصادف أن قالت وكأنَّها تحدث نفسها:  
- كان ينبغي أن نتبعهم.

فقال طاهو بغضب:

- كلاً.. كلاً.. ما عاد كلانا يصلح للدنيا.. ولن يفتقدنا بعد اليوم أحد.

فقالت ببساطة وهدوء:

- أخذته مَنِّي.. أخذته مَنِّي.

فعلم أنَّها تعني الملكة. وهزَّت منكبَّه قائلاً:

- لقد استوليت عليه حيًّا، واستردَّته ميتًا.

فحدجته بنظرة غريبة، وقالت له:

- يا أحمق يا جاهل ألا تعلم.. لقد قتلت الخائنة لتستردَّه.

- من الخائنة؟

- الملكة، هي التي أفشت سرِّنا وأثارت الشعب.

هي التي قتلت مولاي.

يحمل بنامون بن بسار إلى سلم الحديقة. وكان الشاب منهوك القوى شاحب اللون معقر الثياب، قد هدم أعصابه ما رأى من اضطراب المدينة وهياج الناس وثورة النفوس. وكان بلغ مسكنه بشق الأنفس ولاقى في طريق العودة ما هون عليه ما صادفه في الذهاب، وتنفس الصعداء حين وجد نفسه يسير في ممرات حديقة قصر بيجة الأبيض، والحجرة الصيفية تعترض سبيله عن بعد قريب، وانتهى به المسير إلى الحجرة، فاجتاز عتبتها، وهو يظن أنها خالية. ولكنه ما لبث أن أدرك خطأه. ورأى رادوبيس جالسة في استرخاء على ديوان تحت صورة وجهها الرائعة، وشيث متربعة عند قدميها يشملها سكون غريب فتردد هنيهة، وأحست شيث بمقدمه، والتفت إليه رادوبيس، ثم قامت الجارية وانحنت له تحية وغادرت الحجرة، وتقدم الشاب من المرأة، وقد لقه الفرح، فلما أن تبين وجهها عن كذب ركبت حركة نفسه، وأصابه الوجوم والغم، ولم يشك في أن أخبار الخارج المحزنة قد بلغت آذان معبودته، وأن أبناء الآلام التي تطحن الناس انعكست على وجهها الجميل، فألبسته هذا الرداء الغليظ المغبر من الكدر. وركع بين يديها، ثم مال على حاشية ثوبها فقبلها بحنان، ونظر إليها بعينيه الصافيتين نظرة إشفاق كأنه يقول لها:

«فداؤك نفسي»، ولم يغب عنه ما بدا على وجهها لدى رؤيته من الارتياح، ففحق قلبه خفقة السعادة، وتخضب وجهه بالاحمرار، وقالت له رادوبيس بصوت ضعيف:

- غبت طويلاً يا بنامون.

فقال الشاب:

- لقد شقت طريقي وسط بحر متلاطم من الخلق الغاضبين: إن أبو اليوم تغلي وتفور وتنثر الشظايا المحرقة، فتملاً الجوّ حمماً.

ثم دس الشاب يده في جيبه وأبرز لها قارورة صغيرة، فتناولتها بيدها وعقدت عليها كفها، وأحست ببرودتها تسري في جسمها وتستقر في قلبها. وسمعتة يقول لها:

بسرنا، وهكذا انقلب القائد الأمين خائناً غادراً يطعن من وراء الظهر.

وأهاجته الذكرى فتقلص وجهه ألماً وخزناً، ونظر إلى وجهها الفرع بقسوة، فعاوده الغضب والحنق، وصاح:

- آيتها المرأة الهلوك المدمرة. لقد كان جمالك لعنة على كل من رآه. لقد عدب قلباً بريئة، وخرب قصرًا عامراً، وزلزل عرشاً مكيناً، وأثار شعباً أميناً، ولوث قلباً شريفاً. إنه لشؤم ولعنة.

وسكت طاهو، وما زال الغضب يغلي في شرايينه، ورأها كصورة للعذاب والخوف، فأحس ارتياحاً ولذة، وتمم قائلاً:

- ذوق العذاب والهوان، وانظري الموت فما ينبغي لأحدنا أن يحيا، وقد مت منذ زمن بعيد، ولم يبق لي من طاهو إلا ثيابه المزركشة المجيدة، أما طاهو الذي اشترك في غزو النوبة، وأبلى بلاءً حسناً استحق به ثناء بيبي الثاني، طاهو قائد حرس مرزق الثاني، وصفية، ومشير، فلا وجود له.

وألقى الرجل نظرة سريعة على ما حوله. وبدا على وجهه الضيق والجزع الشديد، ولم يعد يجتمل السكون المطبق، ولا رؤية رادوبيس التي استحالت تمثالاً جامداً. فنفخ في الهواء بقوة وسخط واشمزاز، وقال:

- ينبغي أن ينتهي كل شيء، ولكي لن أحرم نفسي من العقاب الصارم، سأذهب إلى القصر، وأدعو كل من يحسن بي الظن، ثم أعلن جرمي للملأ، وأمزق الستار عن الخائن الذي طعن مولاه وهو يساره، وأنزع النياشين التي تحلي صدري الآثم، وأرمي بسيفي، ثم أظعن قلبي بهذا الخنجر. فالوداع يا رادوبيس، والوداع آيتها الحياة التي تستأدنا فوق ما تستحق. . . نطق طاهو بهذه الكلمات، ثم ذهب.

## النهاية

ولم يكذب طاهو يخادر القصر حتى رسا القارب الذي

- أرى أنك تحمّلين نفسك فوق ما تحتمل .

فقلت له :

- إنّ الأحزان تنتقل بالعدوى .

- ولكن رفقاً بنفسك، فما ينبغي لك أن تستسلمي كلّ الاستسلام إلى الحزن . . ليتك يا مولاتي تهاجرين إلى أمبوس ردحاً من الزمن ريثما يعود الهدوء إلى هذه البقاع .

وكانت تسمع إليه في اهتمام خادع، وتنظر إليه بغرابة، نظرتها إلى آخر حيّ من أهل هذه الدنيا تقع عليه عيناها لآخر مرّة، وكانت فكرة الموت قد استولت عليها استيلاء جعلها تشعر كأنّها غريبة عن هذه الدنيا . واختنقت عواطفها اختناقاً لم تحسّ معه بأيّ رحمة نحو الشابّ الراكع أمامها، الهائم في عالم الآمال بعينين مغمضتين عن المصير الذي ينتظره عن كسب . . وظنّ بنامون أنّها تدير فكرته في نفسها فلعب بقلبه الأمل واستفزّه الطمع، فقال بحماس :

- أمبوس يا مولاتي بلد السكينة والجمال، لا ترى العين فيها إلّا سماء صافية، وطيراً لاهياً، وبطاً سابحاً، وأخضر ناضراً . . وسيمحو جوّها المشرق السعيد الآلام التي أثارها في نفسك الرقيقة أبو الحزينة الغاضبة .

وسرعان ما سئمت حديثه، وأنجّته أفكارها إلى القارورة العجيبة، وأحسّت بشرق إلى النهاية . فبحثت عيناها الموضوع الذي شغله الهودج منذ حين، وصرخ قلبها أن هاهنا ينبغي أن تختم حياتها، واعترمت أن تتخلّص من بنامون، فقلت له :

- إنّ ما تعرضه عليّ جميل يا بنامون، فدعني أفكّر وحدي رويداً . .

فأضاء وجه الشابّ بالفرح والأمل، وسألها :

- هل يطول انتظاري ؟

فقلت :

- لن يطول انتظارك يا بنامون .

فلثم الشابّ يدها، وقام واقفاً، وغادر الحجرة .

ودخلت شيث على الأثر، وكانت رادوبيس تهتمّ

بترك مجلسها، فلما رأت الجارية ابتدرتها قائلة لتتخلّص منها :

- إليّ بلبريق من الجعة .

فذهبت الجارية إلى القصر، وكان بنامون قد اتّجه إلى البركة واطمأنّ إلى مقعد على حافتها، وكان في تلك الساعة يشعر بالسعادة والغبطة، ويديني إليه الأمل غايته في أن يذهب بمعبودته إلى أمبوس بعيداً عن الشقاء المخيم على أبو فتخلص له، ويسكن إليها، ودعا الآلهة أن تهبط إليها في وحدتها وتلهمها الرأي السديد والحلّ السعيد . .

ولم يطق الجلوس طويلاً، فقام يسير الهويني حول البركة، ولما أتته دورته رأى شيث تحمل إبريقاً، وتتجه بسرعة إلى الحجرة، فنبعها بعينيه حتّى غيّبها الباب، وأراد أن يعاود الجلوس مرّة أخرى، ولكنّه لم يكد يفعل حتّى سمع صرخة مدوية آتية من داخل الحجرة فانفض واقفاً، وقد انخلع قلبه في صدره، واندفع جرياً إلى مصدرها، فرأى في وسط الحجرة رادوبيس ملقاة على الأرض، والجارية تجثو على ركبتيها إلى جانبها وتكبّ عليها تنادياً، وتحمّس خذّبها وكفّيتها . . فهرع إليها بساقين مرتجفتين، وقد اتّسعت عيناه ولاح فيها الهلع والفرع، وجثا إلى جانب شيث وأمسك بكفّ رادوبيس بين كفّيه، فشعر ببرودتها، وكانت كالنائمة، إلّا أنّ وجهها شاحب تمازجه زرقة خفيفة، وقد انفرجت شفثاها الباهتان وبعثرت خصلات شعرها الأسود على صدرها ومنكبيها، وانسابت ضفائر منه على البساط، فأحسّ بجفاف حلقة واختناق أنفاسه، وسأل الجارية بصوت مبحوح :

- ماذا بها يا شيث . . لماذا لا تجيب؟

فأجابت المرأة بصوت كالعويل :

- لا أدري يا سيدي، فلقد وجدتها عند دخولي الحجرة كما تراها الآن، فناديتها فلم تجب، وأسرت إليها أهزها فلم تتبه، ولم تبد عليها اليقظة، أوّاه يا مولاتي . . ما لك ما الذي اعتورك فحوّلك إلى ما أرى؟ .

ولم ينبس بنامون بكلمة، وجعل يطيل النظر إلى



رادوبيس الساكن سكون الأبدية، وكان يعجب في  
ذهوله كيف يلحق العدم بمثل هذا الجمال الذي لم  
تشرق الشمس على مثله من قبل، وكيف تسكن  
الحيوية الفائضة الملتهية، وتكتسي بهذا الإهاب  
الشاحب الذابل الذي تهم به عوامل الخراب؟ تمتى لو  
أن يراها لحظة خاطفة وقد ردت إليها نسمة الحياة،  
فأبدت عن تشيها الرقيق، وأشرقت بوجهها ذي البهاء  
ابتسامة السعادة، وانبعثت من عينيها نظرة الحب  
والفتون، ثم يموت فتكون آخر عهده بالدنيا.

وأزعجه نحيب شيث أيما إزعاج، فانتهرها قائلاً:

- أمسكي عن هذا.

وأشار إلى قلبه، ثم استدرك:

- هنا حزن جليل، أجل من البكاء والنحيب.

وبقي في نفس الجارية أمل ضعيف يخفق، فنظرت  
إلى الشاب خلل دموعها، وقالت بتوسل:

- ألا يوجد رجاء ياسيدي؟. عسى أن يكون ما بها  
غيبوبة شديدة!

ولكنه قال بصوته الحزين:

- ما من رجاء ولا أمل، ماتت رادوبيس، ومات  
الحب، وتبددت الأوهام.. كم عبثت بي الأحلام  
والأوهام.. أما الآن فقد انتهى كل شيء، وأيقظني  
من غفوتي الموت الرهيب..

وانقصف آخر شعاع للشمس، وانغمس وجهها  
القاني في عين حثة، فزحفت الظلمة تغشى الكون في  
ثوب حداد. ولم تنس شيث في حزنها واجبها نحو جثة  
مولاتها، وأدركت أنها لن تستطيع أن توفيهما حقهما من  
الإجلال والصون في بيعة المحاطة بأعدائها والمترنصين  
للانتقام منها وأفضت بمخاوفها إلى الشاب الحزين  
الذي تحترق نفسه على كذب منها، وطلبت إليه أن  
يحملا الجثة إلى بلدة أمبوس، وهنالك يدفنان بها إلى  
أيدي المحنطين، ويودعانها مقبرة أسرة بسار، ووافق  
بنامون على رأيها بقلبه ولسانه، فنادت شيث بعض  
الجساري، وأتين بهودج، ووضع الجثة عليه  
وسجّنها.. ورفع العبيد الهودج إلى السفينة الخضراء  
التي انحدرت به نحو الشمال.

المرأة الملقاة في سكون رهيب، وإن عينيها لتدوران فيما  
حوها إذ عثرتا تحت مرفقها الأيمن بالقارورة الجهتية  
منزوعة السدادة، فشقق شهقة عنيفة، والتقطها  
بأصابعه المرتعدة، فلم يجد بها إلا آثاراً لاصقة  
يباطنها، وردد بصره بين القارورة ووجه المرأة فتبين له  
الحق، وسرت في جسمه النحيل رجفة مزقت  
جوارحه، فأن أنيناً موجعاً لفت إليه الجارية، وقال  
بصوت فزع:

- يا للهول.. يا للرب!

فصوّت إليه الجارية عينيها، وسألته بلهفة وذعر:  
- ماذا يهولك ويرعبك؟.. تكلم فيني أكاد أجنّ من

الحيرة!!

ولكنه لم يأبه لها، وقال يحادث رادوبيس، وكأنها  
تسمعه وتبصره:

- لماذا انتحرت.. لماذا انتحرت يا مولاتي؟

فصرخت شيث ودقت صدرها بيديها، وقالت:

- ماذا تقول، كيف علمت أنها انتحرت يا هذا؟

فرمى القارورة بعنف، فاصطدمت بالحائط  
وتحطمت، ثم قال بذهول وحيرة:

- لماذا أزهقت نفسك بهذا السم؟.. ألم تعديني بأن  
تفكرني جدياً في اصطحابي إلى أمبوس بعيداً عن  
أحزان الجنوب.. أكنت تحذعيني ريثما تزهبين  
روحك؟

فنظرت الجارية إلى حطام القارورة، وقالت  
بدهشة:

- من أين لمولاتي بالسم؟.

فهز منكيه يأساً، وقال:

- أتيت لها به بنفسي.

فتولأها الغيظ، وصاحت به:

- كيف تأتي به يا شقي؟!

- لم أكن أدري أنها تريده لتزهد به نفسها، لقد  
خدعتني كما فعلت بي الآن.

فتحوّلت عنه يائسة، وأفحمت في البكاء، وانكبّت  
على قدمي مولاتها تقبلها وتغسلها بدموعها، وغشي  
الشابّ ذهول، فتفجّرت عيناه، وثبت على وجه

عرضت آماله وأحلامه وما كابد من ألم ورجاء، وما  
ظنَّ يوماً أنه نصيبه من السعادة والهناء والعيش  
النضير. ثمَّ تنهَّد من أعماق قلبه المكلوم، وثبَّت عينيه  
على الجئنة المسجاة التي ارتطمت عليها آماله وأحلامه،  
فتحطمت وتناثرت، كأوهام بددتها اليقظة.

وجلس الشابُّ عند رأس الجئنة على مقربة من  
شيث، وقد شمل المقصورة سكون عميق. . في تلك  
الليلة الحزينة، والسفينة تنساب مع المياه المصطخبة  
صوب الشمال، تاءة بنامون في وديان قصية من  
الأحلام، ومرّت حياته أمام ناظره في صور متعاقبة،

کتاب طیبہ

## سيكنز

- ١ -

- لتكن حرب أيتها الحاجب الأكبر، ما دام هذا الرجل الذي ارتضاه مولانا حاكمًا على الجنوب يأبى إلا أن يضع على رأسه تاجًا كالملوك ويبني القصور كالفراعين، ويسير في طيبة مرحًا لا يبالي شيئًا. فجعل الحاجب يصرف بأنياه، وعبث بعصاه فيما بين قدميه بحركة تدلُّ على الخنق والغیظ وقال:

- لا يوجد حاكم مصري سوى حاكم إقليم طيبة هذا، فإذا تخلصنا منه خلص لنا حكم مصر إلى الأبد، ويات مولانا الملك على طمأنينة لا يخشى تمرد أحد عليه.

قال ثاني الرجلين بحماس، وكان لا يبش أبدًا من أن يصير يومًا حاكمًا لمدينة عظيمة:

- إن هؤلاء المصريين يكرهوننا.

فأمن الحاجب الأكبر على رأيه وقال بلهجة عنيفة:

- نعم.. نعم.. وأهل منف أنفسهم عاصمة مملكة مولانا الملك يُظهرون الطاعة ويضمرون الكراهية.. لقد نفدت الحيل ولا حيلة الآن سوى السوط والسيف..

فابتسم الرجلان أول مرة، وقال ثانيهما أيضًا:

- بورك رأيك أيتها الحاجب الحكيم، فإن السوط وسيلة التفاهم التي لا تجدي سواها مع المصريين.. ولاذ الرجال الثلاثة بالصمت برهة، فما يُسمع إلا وقع المجاديف على سطح الماء، ثم لاحت من أحدهم النضاعة إلى زورق صيد يقف في وسطه فتى مفتول الساعدين، عاري الجسد إلا من وزرة تغطي وسطه، وقد لفحت الشمس بشرته، فقال بتعجب:

- كأن هؤلاء الجنوبيين مشتقون من صميم أرضهم..

كانت السفينة تصعد في النهر المقدس، ويشقّ مقدمها المتوجّج بصورة اللوتس الأمواج الهادئة الجليّة، يحدّ بعضها بعضًا منذ القدم كأنها حادثات الدهر في قافلة الزمان، بين شاطئين انتثرت على أديمها القرى، وانطلق النخل جماعات ووحداً، وترامت الخضرة شرقًا وغربًا، وكانت الشمس تعطي كبد السماء ترسل أسلاكًا من النور إذا غمر النبات رفّ رقيقًا، وإذا مسّ الماء تلالًا للاء، وقد خلا سطح الماء إلا من بعض زوارق صيد جعل أصحابها يوسعون للسفينة الكبيرة وهم يرمقون صورة اللوتس - رمز الشمال - بعين التساؤل والإنكار.

وكان يتصدّر المقصورة رجل بدين قصير القامة، مستدير الوجه، طويل اللحية، أبيض البشرة، يرتدي معطفًا فضفاضًا ويقبض بيمنه على عصا غليظة ذات مقبض ذهبي، جلس بين يديه رجلان في مثل بدائنه وزيه، تداني بينهم جميعًا روح واحدة، وكان السيد يطيل النظر إلى الجنوب بعينين مظلمتين أضناهما الملل والتعب ويلقي على من يصادفه من الصيادين نظرة شذراء، وكأنه يرّم بالصمت فتحول إلى رجليه وتساءل قائلاً:

- ترى هل ينفخ غداً في الصور فيتبدد هذا السلام الثقيل المخيم على ربوع الجنوب، وتفزع هذه الدور المظلمة، ويحلّق نسر الحرب في هذا الجوّ الآمن؟.. آه.. ليت هؤلاء الرجال يعلمون أيّ نذير تحمل هذه السفينة لهم ولسيدهم..

فهزّ الرجلان رأسيهما موافقة على كلام السيد وقال أحدهما:

## ٣٢٢ كفاح طيبة

فقال الحاجب بسخرية:

- لا تعجب فإن من شعرائهم من يتغنى بسمرة اللون..

- حقًا.. إن لونهم ولوننا كالطين والشعاع السني..

قال الحاجب:

- حدثني بعض رجالنا عن هؤلاء الجنوبيين فقال: إنهم على لونهم وعريهم ذور صلف وكبرياء، وإنهم يزعمون أنهم منحدرون من أصلاب الآلهة، وأن بلادهم منبت الفراعنة الحقيقيين.. رباه.. إني أعرف الدواء لكل هذا.. لا ينقص إلا أن تمتد ذراعنا إلى حدود بلادهم.

وما انتهى الحاجب من كلامه حتى سمع أحد رجليه يقول، وهو يشير بأصبعه إلى الشرق:

- انظر.. أترى طيبة؟ هذه طيبة!..

فنظروا جميعًا إلى حيث يشير الرجل، فأروا مدينة كبيرة يحيط بها سور عظيم، بدت خلفه رعوس المسلات عالية كأنها عمد ترفع القبة السائوية، ورثيت في ناحيتها الشالية جدران معبد آمون الشاهقة، رب الجنود المعبود. فما وقعت العين فيها إلا على مارذ عظيم يتعالى إلى السماء، فأخذ الرجال، وقطب الحاجب الأكبر وتمتم قائلًا:

- نعم.. هذه طيبة.. وقد أتيت لي رؤيتها من قبل. وما أزداد على الأيام إلا رغبة في أن تعنو الهام لمولانا الملك، وأن أرى موكبه الظافر يشق شوارعها.

فقال أحد الرجلين:

- وأن يُعبد بها ربنا ست المعبود..

وحققت السفينة من سرعتها، ومضت تدنو من الشاطئ رويدًا رويدًا مجتازة الحدائق الغن، التي تنحدر مُدْرَجَاتُهَا المعشوشبة حتى تسقى من النهر المقدس. وقد لاحت وراءها قصور طيبة الشم، وأما غربي الشاطئ الآخر، فتجثم مدينة الأبدية، حيث يرقد الخالدون في الأهرام والمصاطب والمقابر، تغشاهم جميعًا وحشة الموت..

وتوجهت السفينة إلى ميناء طيبة، تشق سبيلها بين

زوارق الصيد والسفن التجارية، وتجذب نحوها الأنظار لضخامتها وجمالها، وصورة اللوتس التي تزين مقدمها، حتى حاذت الرصيف، فألقت كلابها الضخم، وقصد إليها بعض الحراس، وانتقل إليها ضابط يرتدي فوق وزرته سترة من الكتان الأبيض. وسأل أحد رجالها قائلًا:

- من أين انحدرت هذه السفينة؟.. وهل تحملون تجارة؟..

فحيّاه الرجل، وقال «اتبعني» واصطحبه إلى المقصورة، حيث أدرك الضابط أنه مائل بين يدي حاجب كبير من حجاب قصر الشمال، قصر ملك الرعاة كما يدعونه في الجنوب، فانحنى احترامًا وأدى التحية العسكرية. ورفع الحاجب يده ليرد التحية في صلف ظاهر وقال بلهجة متعالية:

- أنا رسول فرعون، ملك الشمال والجنوب، ابن الرب ست، مولانا أبوفيس، إلى حاكم طيبة الأمير سيكنرع، فأرجو أن تبلغ سيدك أنني أنتظر دعوتي إلى مقابلته لأؤدي إليه ما حملته من البلاغ. واصغى الضابط إلى الرسول في انتباه ثم أتى التحية مرة أخرى ومضى.

- ٢ -

ومضت ساعة من الزمان، ثم جاء السفينة رجل وقور، يميل إلى القصر، بادي النحافة، بارز الجبهة، فانحنى انحناء وقور الرسول، وقال بصوت هادئ التبرات:

- إن الذي يتشرف باستقبالك حور رئيس حجاب قصر الجنوب.

فحنى الرجل رأسه الضخم وقال بصوته الغليظ:

- وأنا خيان كبير حجاب القصر الفرعوني.

فقال حور:

- يسر مولاي أن يستقبلك في الحال.

فأبدى الرسول حركة وقال: «هلم بنا». وتقدمه الحاجب حور وتبعه الرجل يسير في خطا وثيدة، متوكئًا بجسمه البدين على عصاه وقد انحنى له الرجلان

## كفاح طيبة ٣٧٣

إجلالاً، وشعر خيان بغضاضة وساءل نفسه بحق: «أما كان ينبغي لسيكنرع أن يحضر بنفسه لاستقبال رسول أبوفيس . . .؟» وضايقه جدّ المضايقة أن يسلك الرجل في استقباله سلوك الملوك. وغادرا السفينة بين صقّين من الجند والضباط، ورأى خيان على الشاطئ ركبا ملكيا في انتظاره يتقدّمه عجلات حربية وتتأخر عنه عجلات أخرى، وأدى له الجند التحية، فردّها بكبرياء، وركب عجلته وركب إلى جانبه حور، ثم تحرّك الموكب الصغير في طريقه إلى قصر حاكم الجنوب، وتحركت عينا خيان في محجريها ذات اليمين وذات الشمال تشاهدان المعابد والمسلات والتماثيل والسبل والقصور والأسواق وتيارات القوم التي لا تنقطع من جميع الطبقات: فالعامة بأجسامهم شبه العارية، والضباط بمعاطفهم الأنيقة، والكهنة بأثوابهم الطويلة، والسراة بعباءتهم الفضفاضة، والنساء بأزيائهنّ الجميلة، فكان كلّ شيء يشهد لعظمة المدينة، وأنها تنافس منف نفسها عاصمة أبوفيس. وأدرك الرسول أوّل وهلة أنّ موكبه يلفت الأنظار بقوة وأنّ الناس تتجمّع على جوانب الطريق لمشاهدته ولكن في برود وجمود، وجعلت أعينهم السود تفحص وجهه الأبيض ولحيته الطويلة بغرابة وإنكار وامتعاض، فشر بثورة باطنية وغضب شديد لذلك الاستقبال البارد الذي مني به أبوفيس العظيم في شخص رسوله، وساءه أن يبدو غريبا في طيبة بعد انقضاء مائتي عام على هبوط قومه أرض مصر وتربّعهم على عرش ملكها. . . وغاظه وأحنقه أن يحكم قومه مائتي عام يحتفظ الجنوب خلالها بشخصيته وطابعه واستقلاله فلا يبقى به رجل واحد من الهكسوس.

ثمّ بلغ الموكب ميدان القصر، وكان ميداناً فسيحاً مترامي الأركان، تقام على جوانبه دور الحكومة والوزارات ومقرّ القيادة العليا للجيش، ويبدو في مكانه الوسيط القصر الجليل يبهّر الأنظار مشهده الرائع؛ كان قصرًا عظيمًا كقصر منف نفسه، وكان جنود الحرس يعتلون أسواره، ويصطفون صقّين لدى بابه الكبير، فلمّا اجتازه موكب الرسول صدحت الموسيقى وانحنى عند ذاك الرسول تحية، فردّ الملك تحيته وأشار إليه فجلس على كرسيّ أمام العرش، أمّا حور فقد وقف إلى يمين العرش. وأراد الملك أن يقدم إلى الرسول رجال مملكته فأوماً بصولجانه إلى الرجل الذي يلي يمينه وقال: «أوسر آمون رئيس الوزراء» ثمّ أشار إلى الذي يليه وقال: «نوفر آمون الكاهن الأكبر لآمون» ثمّ تحوّل إلى شماله وأوماً إلى من يليه قائلاً: «كاف قائد الأسطول» وأشار إلى من يليه قائلاً: «بيبي قائد الجيش». ولمّا تمّ التعارف وجّه الملك بصره إلى الرسول وقال بصوت تدلّ نبراته على السموّ والرفعة الطبيعيّتين:

- نزلت منزلاً يرحّب بشخصك وبمن أولاك ثقته .

فقال الرسول:

- حفظك الربّ أيّها الحاكم الجليل، وإني سعيد

إجلالاً، وشعر خيان بغضاضة وساءل نفسه بحق: «أما كان ينبغي لسيكنرع أن يحضر بنفسه لاستقبال رسول أبوفيس . . .؟» وضايقه جدّ المضايقة أن يسلك الرجل في استقباله سلوك الملوك. وغادرا السفينة بين صقّين من الجند والضباط، ورأى خيان على الشاطئ ركبا ملكيا في انتظاره يتقدّمه عجلات حربية وتتأخر عنه عجلات أخرى، وأدى له الجند التحية، فردّها بكبرياء، وركب عجلته وركب إلى جانبه حور، ثم تحرّك الموكب الصغير في طريقه إلى قصر حاكم الجنوب، وتحركت عينا خيان في محجريها ذات اليمين وذات الشمال تشاهدان المعابد والمسلات والتماثيل والسبل والقصور والأسواق وتيارات القوم التي لا تنقطع من جميع الطبقات: فالعامة بأجسامهم شبه العارية، والضباط بمعاطفهم الأنيقة، والكهنة بأثوابهم الطويلة، والسراة بعباءتهم الفضفاضة، والنساء بأزيائهنّ الجميلة، فكان كلّ شيء يشهد لعظمة المدينة، وأنها تنافس منف نفسها عاصمة أبوفيس. وأدرك الرسول أوّل وهلة أنّ موكبه يلفت الأنظار بقوة وأنّ الناس تتجمّع على جوانب الطريق لمشاهدته ولكن في برود وجمود، وجعلت أعينهم السود تفحص وجهه الأبيض ولحيته الطويلة بغرابة وإنكار وامتعاض، فشر بثورة باطنية وغضب شديد لذلك الاستقبال البارد الذي مني به أبوفيس العظيم في شخص رسوله، وساءه أن يبدو غريبا في طيبة بعد انقضاء مائتي عام على هبوط قومه أرض مصر وتربّعهم على عرش ملكها. . . وغاظه وأحنقه أن يحكم قومه مائتي عام يحتفظ الجنوب خلالها بشخصيته وطابعه واستقلاله فلا يبقى به رجل واحد من الهكسوس.

ثمّ بلغ الموكب ميدان القصر، وكان ميداناً فسيحاً مترامي الأركان، تقام على جوانبه دور الحكومة والوزارات ومقرّ القيادة العليا للجيش، ويبدو في مكانه الوسيط القصر الجليل يبهّر الأنظار مشهده الرائع؛ كان قصرًا عظيمًا كقصر منف نفسه، وكان جنود الحرس يعتلون أسواره، ويصطفون صقّين لدى بابه الكبير، فلمّا اجتازه موكب الرسول صدحت الموسيقى

## ٣٢٤ كفاح طيبة

يشس مولاي فرغ إلى نبيّ معبد ست، فأدرك الحكيم داءه، وقال له: إن مبعث آلامه جميعاً أنّ خوار أفراس البحر الحبيسة بالجنوب يتسرّب إلى قلبه، وأكد له ألاّ شفاء له إلاّ بقتلها.

وكان الرسول يعلم أنّ الأفراس الحبيسة في بركة طيبة مقدّسة، فاختلس نظرة إلى وجه الحاكم ليلبو أثر كلامه، ولكنّه وجده جامداً صلباً وإن تضرّج بالاحمرار، وانتظر أن يعلّق الرجل على كلامه، ولكنّه لم ينبس بكلمة وبدا عليه الإصغاء والانتظار، فقال الرسول:

- وفي أثناء مرض مولاي رأى فيما يرى النائم ربّنا المعبود ست يزوره بجلاله ونورانيته، وعتب عليه قائلاً: أيجوز أن يخلو الجنوب كلّه من معبد يذكر فيه اسمي؟ فأقسم مولاي أن يطلب إلى صديقه حاكم الجنوب أن يشيد في طيبة معبداً لست إلى جانب معبد آمون..

وسكت الرسول ولكن سيكنترع ثابر على الصمت وبدا عليه هذه المرّة أنّه على غرّة، وأنّه فوجئ بما لم يدرّ له في خلد، ولم يكن خيان ليعنيه كدر الملك ولعلّه كان مدفوعاً برغبة في إثارته، وأدرك الحاجب حور خطر المطالب، فانحنى على أذن مولاه وهمس قائلاً: «الأفضل ألاّ يناقش مولاي الرسول الآن». فهزّ الملك رأسه دلالة الموافقة وقد أدرك ما يرمي إليه حاجبه، وظنّ خيان أنّ الحاجب يقضي إلى مولاه بما يقوله فانتظر قليلاً، ولكنّ الملك قال:

- أعندك بلاغ آخر تفضي به؟

فقال خيان:

- أيها الحاكم الجليل، لقد بلغ مولاي أنّك تتوجّج رأسك بتاج مصر الأبيض، فراعته ذلك، ورأى أنّه لا يتفق وما يربط الأسرة الفرعونية بأسرتك التليدة من أسباب المودة والصداقة التقليدية.

فقال سيكنترع بدهشة:

- ولكنّ التاج الأبيض غطاء الرأس لحكّام الجنوب.

باختيارٍ لمهمّة السفارة في بلادكم الجميلة ذات الشهرة التاريخيّة.

ولم يغيب عن سمع الملك قوله: «الحاكم الجليل» ولا فاته مغزاها، ولكن لم يبد على وجهه أيّ أثر لما اضطرب في نفسه، وكان خيان في تلك اللحظة يلقي عليه نظرة سريعة فاحصة من عينيه الجاحظتين فرأى الحاكم المصريّ رجلاً مهيباً حقاً، طويل القامة، مستطيل الوجه جميله، شديد السمرة، يميّز ملامحه بروز في أسنانه العليا، وقد قدر له الحلقة الرابعة عمراً. وكان الملك يظنّ أنّ رسول أبوفيس جاء لما كانت تحييء به بعثات الشمال من أجله، أي طلب الأحجار والحبوب، وهو ما كان يعتبره ملوك الرعاة جزية، ورأه ملوك طيبة رشوة يكفّون بها شرّ الغزاة، فقال الملك بهدوئه وجلاله:

- يسرّني أن أستمع إليك يا رسول أبوفيس العظيم.

فاعتدل الرسول في جلسته كأنّما يتوتّب للنضال وقال بصوته الغليظ:

- منذ مائتي عام لا تنقطع رسل الشمال عن ارتياد الجنوب، وفي كلّ مرّة تعود راضية.

فقال الملك:

- أرجو أن تدوم هذه السنّة الجميلة.

فقال خيان:

- أيها الحاكم إني أحمل إليك ثلاث رغبات فرعونية: تتعلّق الأولى بشخص مولاي فرعون، والثانية برّب المعبود ست، والثالثة بروابط المودة بين الشمال والجنوب.

فألقي إليه الملك بانتباهه وقد بدا على وجهه الاهتمام، فاستدرك الرجل قائلاً:

- شكّا مولاي الملك في الأيام الأخيرة آلاماً مروعة تهزّ أعصابه في الليل، وأصواتاً منكرة تصكّ أذنيه الكرميتين ممّا أوقعه فريسة للسهاد والضنى، وقد دعا إليه أطباءه وقصّ عليهم ما يلقي بلبيله فتفحصوه بعناية، ولكنهم عادوا جميعاً من فحصه بالحيرة والجهل، وكان الملك في رأيهم جميعاً سلباً معاقباً. ولما

## كفاح طيبة ٣٢٥

بدا على محيائه الحسن الذي يشبه أباه في لون بشرته وقسماته وبروز أسنانه العليا، ثم أدار الملك عينيه في الحاضرين، وقال:

- فيها أنتم أولاء أيها السادة ترون أنه لكي نرضي أبوفيس ينبغي أن نخلع هذا التاج، ونذبح أفراس البحر المقدسة، ونشيد معبداً لست يعبد فيه إلى جانب معبد آمون، فأشيروا عليّ بما يجب عمله.

وكان الاستياء البادي على وجوههم جميعاً يدلّ على ما يعتلج في صدورهم من الهمّ، وكان الحاجب حور أول المتكلمين، فقال:

- مولاي، إنّ الذي أنكره أكثر من هذه الرغبات نفسها هو الروح الذي أملاها، فهو روح سيّد يمي على عبده، وملك يتجنّى على شعبه، وما أراها إلا صورة متجددة لذلك النزاع القديم بين طيبة ومنف، هذه تسعى لاستعباد تلك، وتلك تتشبّث باستقلالها ما وسعتها الحيلة، وما من شكّ في أنه يسوء الرعاة وملكهم أن تظّل مملكة طيبة مغلقة الأبواب دون حكامهم، ولعلمهم لا يقنعون بما يدعون من أن هذه المملكة ولاية مستقلة تابعة لتاجهم، فأرادوا أن يظلوا مظاهر استقلالها، ويتحكّموا في عقيدتها، فيسهل عليهم بعد ذلك تدميرها.

وكان حور في إلقائه قوياً صريحاً، فذكر الملك تاريخ تحرّش ملوك الرعاة بحكّام طيبة، وكيف كان هؤلاء يدفعون شرّهم بالردّ الجميل والهدايا والتظاهر بالخضوع لكي يحفظوا الجنوب من توغّلهم وشرّهم، وكان لأسرته في هذا السبيل فضل وأيّ فضل، حتى استطاع والده سينكنرع أن يدرّب قوّات عظيمة سرّاً ليصون بها استقلال مملكته، إذا لم تنفع الحيلة والتظاهر بالولاء في صونه... ثمّ قال القائد كاف:

- مولاي... أرى أنه لا يجوز التسليم بأيّ مطلب من هذه المطالب... كيف نرضى بأن يخلع مولانا تاجه من على رأسه؟... كيف نقتل الأفراس المقدسة إرضاء لعدوّ أذلّ قومنا!... وكيف نشيد معبداً لربّ الشرّ الذي يعبده أولئك الرعاة؟.

فقال الرسول بيقين وإصرار:

- بل كان تاج الملوك منهم، ولذلك لم يفكّر والدك المجيد في لبسه، لأنه يعلم أنه لا يوجد سوى ملك واحد في هذا الوادي يحقّ له التسويج، وأرجو أيها الحاكم الجليل ألا يغيب عنك ما تدلّ عليه ملاحظة مولاي من رغبة صادقة في توثيق الأواصر الطيبة بين أسرّي منف وطيبة...

وسكت خيان، فساد الصمت مرّة أخرى، وكان سينكنرع غارقاً في تأملات حزينة ينوء صدره بمطالب ملك الرعاة القاسية التي تهاجم مواطن الإيمان من قلبه وموضع العزّة من نفسه، وبدا أثر ذلك في امتقاعه وما ظهر من جمود على وجوه من حوله من رجال مملكته. وكان يقدر نصيحة حور فلم يرتجل جواباً وقال بصوت احتفظ بالرغم من كلّ شيء بهدوئه:

- أيها الرسول إنّ رسالتك تنطوي على خطب خطير يمسّ عقيدتنا وتقاليدنا، لذلك أرى أن أكاشفك برأيي فيها غداً.

فقال خيان:

- خير الرأي ما سبقته المشورة.

فالتفت سينكنرع إلى الحاجب حور وقال:

- تقدّم الرسول إلى الجناح المعدّ له.

فقام الرسول بجسمه القصير الضخم، وانحنى تحيّة، ثمّ ذهب يسير في خيلاء وعظمة.

### - ٣ -

وأرسل الملك في طلب وليّ عهده الأمير كاموس، وجاء الأمير على عجل دلّ على رغبته في معرفة رسالة حاجب أبوفيس. وحيّا الملك في إجلال واتّخذ مكانه إلى يمينه، والتفت إليه الملك وقال:

- لقد أرسلت في طلبك أيها الأمير لأطلعك على بلاغ رسول الشمال، لترى فيه معنا رأيك، وإنّ الأمر لجذّ خطير فأصغ إليّ...

ثمّ روى الملك لوليّ عهده ما قاله الرسول خيان بالتفصيل المبين، وأصغى الأمير لوالده باهتمام شديد



## ٣٢٦ كفاح طيبة

وقال الكاهن الأكبر نوفر آمون:

غضب الرعاة أو التعرض لقواتهم الهمجية لكي يتفرغ إلى إثماء ثروة الجنوب واستثمار موارد النوبة والصحراء الشرقية وتدريب جيش قوي لا يُغلب، وقد خشي مغبة اندفاع ولي العهد وقائد الجيش، فقال موجهاً كلامه إلى رجال المملكة:

- اذكروا يا سادة أن الرعاة قوم نهب وسلب. ولئن حكموا مصر مائتي عام فهم لا يزالون يحطف أبصارهم الذهب، ويستذل نفوسهم ويشغل همهم عن شريف المقاصد.

فهز القائد بيبي رأسه ذا الخوذة اللامعة وقال:

- يا صاحب العظمة، لقد عاصرنا القوم عهداً كافياً لنعرف نفوسهم، فهم أناس إذا رغبوا في شيء طلبوه بلسان صريح دون التوسط إليه بالحيلة والمدارة وقد كانوا يطلبون الذهب فيحمل إليهم، أما اليوم فهم يطلبون حرّيتنا...

فقال الوزير:

- ينبغي التريث الآن حتى يكمل جيشنا.

فقال القائد:

- إن جيشنا بحالته الراهنة قادر على صدّ العدو.

ونظر الأمير كاموس إلى أبيه فوجده ما يزال يطرق إلى أسفل فقال بحماس:

- ما جدوى الكلام؟... قد يعوز جيشنا بعض الرجال وبعض المعدات، ولكن أبوفيس لا ينتظر حتى تستكمل عدّتنا، وهو يعرض علينا مطالب لو ارتضيناها حكمنا على أنفسنا بالانهار والزوال، وليس في الجنوب رجل واحد يفضل التسليم على الموت، فلنرفض هذه المطالب بإباء ونرفع رءوسنا أمام أولئك الرعاة ذوي اللحى المسترسلة والبشرة البيضاء التي لم تطهرها الشمس...

وتأثر القوم بحماس الأمير الشاب، وبدأ على وجوههم التحقّز والغضب وكأنما سئموا الكلام ورغبوا في اتخاذ قرار حاسم، ورفع الملك رأسه ورنا إلى وليّ عهده، وسأل بلهجة الجلييلة السامية قائلاً:

- أترى أن نرفض مطالب أبوفيس أيها الأمير؟

- مولاي... إن الرب آمون لا يرضى أن يشيد إلى جانب معبده معبد لإله الشرّ ست، ولا أن ترتوي أرضه الطاهرة بدماء الأفراس المقدّسة، ولا أن ينزل حامي مملكته عن تاجه وهو أول حاكم للجنوب توجّ به رأسه بأمره... كلاً يا مولاي إن آمون لا يرضى بذلك أبداً، وإنه لينتظر من يخرج على رأس جيش من أبنائه لتحرير الشمال، وتحقيق وحدة الوطن، فيعود كما كان في عهود الملوك السالفين..

فجرى الحماس في عروق القائد بيبي مجرى الدماء، ووقف بقامته الفارعة ومنكبّيه العريضين، ثم قال بصوته الجمهوري:

- مولاي؛ صدق رجالنا العظام فيما قالوا، وإني لعلّ يقين من أنه لا يراد بهذه المطالب سوى عجم عودنا وترويضنا على الذلّ والخضوع. وهل من دليل وراء أن يطالب ذلك الهمجي الهابط وادينا من أقاصي الصحارى الماحلة إلى مليكتنا أن يخلع تاجه ويعبد ربّ الشرّ ويذبح الأفراس المقدّسة؟... لقد كان الرعاة فيما مضى يطلبون أموالاً فلم نبخل عليهم بأموالنا. أما الآن فإنهم يطعمون في حرّيتنا وشرفنا، ودون ذلك يهون علينا الموت ويطيّب، إن قومنا في الشمال عبيد يجرثون الأرض ويحترقون باللسنة الشياطين، ونحن نرجو أن نخلصهم يوماً تماماً يعانون من عذاب لا أن غضبي بإرادتنا إلى مثل مصيرهم التاعس.

لازم الملك الصمت، وكان يصغي باهتمام ويكتم عواطفه بالنظر إلى أسفل. وقد حاول الأمير كاموس استطلاع وجهه فلم يتمكّن، وكانت ميوله مع القائد بيبي فقال بعنف:

- مولاي... إن أبوفيس ينظر بجشع إلى عزّتنا القومية، ويأبى إلا أن يذلّ الجنوب كما أذلّ الشمال، ولكنّ الجنوب الذي لم يرض المذلة وعدوه في أوج قوّته لن يرضاها الآن... فمن يقول إننا نفرط فيما اشتدّ أسلافنا في صونه ورعايته؟..

وكان أوسر آمون رئيس الوزراء أدنى القوم إلى الاعتدال، وكانت سياسته موجّهة دائماً إلى تفادي

## كفاح طيبة ٣٢٧

سأرفض مطالب أبوفيس المهينة، وأنتظر ما يردّ به علينا إن سلّمًا فسلم وإن حربًا فحرب . . .  
وقام الملك واقفًا، فقام الرجال قومة واحدة وانحنوا إجلالًا، ثمّ غادر البهو على مهل يتبعه الأمير كاموس والحاجب الأكبر . . .

- ٤ -

وتوجّه الملك إلى جناح الملكة أحويتي، وأدركت المرأة حين رأته يقبل عليها في لباسه الرسمي أنّ رسول الشمال جاء بأمر جليل، فارتسم الاهتمام على وجهها الأسمر الجميل وقامت واقفة تلقاه بقامتها الطويلة الرشيقة، ورفعت إليه عينين متسائلتين فقال لها بهدوء:

- أحويتي . . . يبدو لي أنّ الحرب تطبق علينا مع الأفق . . .

فقلقت عيناها السوداوان وتمتمت قائلة بدهشة:

- أتقول الحرب يا مولاي؟

فحنى رأسه دلالة الإيجاب، وقصّ عليها ما قال الرسول خيان، ورأى رجاله فيه، وما استقرّ عليه عزمه، وكان يجذّثها وعيناه لا تتحوّلان عن وجهها فقرأ في صفحته ما اضطرم في نفسها من الإشفاق والأمل والاستسلام.

وقالت له:

- لقد اخترت السبيل التي ينبغي لمثلك أن تختارها.

فابتسم وربّت كتفها، ثمّ قال لها:

- هيّا بنا إلى أمّنا المقدّسة.

ثمّ سارا معًا جنبًا إلى جنب إلى جناح الملكة الوالدة توتيشيري زوج الملك السابق سينكنرع، وكانت في حجرة خلوتها تطالع كعادتها . . .

كانت الملكة توتيشيري في السّتين من عمرها تبدو على محيّاها آي النبل والمجد والمهابة، وكانت «حيويتها» دفاقة فغلب نشاطها الكبير، ولم يعترها من آثاره سوى شعيرات بيض تكلّل فوديتها، وذبول خفيف يعلو خديها، وظلّت عيناها على صفائها وجسمها على فتنته ورشاقته، وشاركت جميع أفراد أسرة طيبة في بروز

فقال كاموس بثقة وعنف:

- بكلّ حزم وإباء يا مولاي.

- وإذا جرّ الرفض إلى الحرب؟

فقال كاموس:

- نحارب يا مولاي . . .

وقال القائد بيبي بحماس لا يقلّ عن حماس الأمير:

- نحارب حتّى نصدّد العدو عن حدودنا، وإذا شاء

مولانا حاربنا حتّى نحرّر الشمال ونجلي عن أرض النيل

آخر رجل من السرعة البيض ذوي اللحى الطويلة القذرة.

فالتفت الملك إلى الكاهن الأكبر نوفر آمون وسأله:

- وأنت يا صاحب القداسة ماذا ترى؟

فقال الشيخ الوقور:

- أرى يا مولاي أنّ من يحاول إطفاء هذه الجذوة

المقدّسة كافر . . .

فابتسم الملك سينكنرع راضيًا ونحوّل إلى وزيره

أوسر آمون قائلاً:

- ولم يبق إلّا أنت أيّها الوزير.

فبادر الرجل يقول:

- مولاي، لم أنصح بالتريّث كراهية في الحرب أو

خوفًا منها، ولكن لنستكمل الجيش الذي أرجو أن

يحقق غاية أسرة مولاي المجيدة، وهي تحرير وادي

النيل من قبضة الرعاة الحديدية، وأمّا إذا كان أبوفيس

يطمع حقًا في حرّيتنا فأنا أوّل من يدعو إلى الحرب.

فنظر سينكنرع في وجوه رجاله، وقال بصوت دلّ

على العزم والقوّة:

- يا رجال الجنوب إنّي أشرككم في عواطفكم،

وأعتقد أنّ أبوفيس يتحرّش بنا ويطمع في أن يحكمنا

بالخوف أو بالحرب، ونحن قوم لا ندعن للخوف

ونرحّب بالحرب. إنّ الشمال فريسة الرعاة منذ مائتي

عام، امتصّوا خير أرضه وأذلّوا رجاله. أمّا الجنوب

فإنّه يكافح منذ مائتي عام غير غافل عن غايته العليا

وهي تحرير الوادي جميعه، فهل ينكص على عقبيه

لأوّل تهديد، ويفرط في حقّه، ويلقي بحرّيته ودعيّة بين

يدي الطامع النهم؟ . . . كلاً يا رجال الجنوب،

لها ذراعها النحيلتين فقَبَلَا يديها، وجلس الملك إلى يمينها والملكة إلى شمالها، فسألت ابنا وهي تبسم ابتسامة رقيقة:

- ماذا يريد أبوفيس؟ . . .

فقال بلهجة تنطوي على الحلق:

- يريد يا أمّاه طيبة وما عليها جميعًا. بل ما هو أجلّ من هذا، إنّه يساومنا هذه المرّة على شرفنا.

فردّدت رأسها بين الملكين وقد روّعت وقالت بصوت احتفظ بهدوئه على الرغم من كلّ شيء:

- كان أسلافه على جشعهم يقنعون بالجرانيت والذهب . . .

فقال الملكة أحوّتي:

- أمّا هو يا أمّاه فإنّه يريد منّا أن نقتل أفراس البحر التي يقلق صوتها رقادها، وأن نشيد معبدًا لرّبّه ست إلى جانب معبد آمون، وأن يخلع مولانا التاج الأبيض .

ووافق سيكنترع على قول أحوّتي، وقصّ على أمّه نبأ الرسول ورسالته .

فبدا الإنكار على وجهها الجليل، ودلّ التواء شفتيها على الامتناع والسخط وسألت الملك قائلة:

- وبماذا أجبته يا بني؟ . . .

- لم أبلغه جوابي بعد . . .

- وهل انتهيت إلى رأي؟ . . .

- نعم . . . أن أنبذ مطالبه جميعًا . . .

- إنّ من يطلب هذه المطالب لا يسكت على رفضها!

- ومن يقدر على رفضها جميعًا لا يخشى عواقب رفضه . . .

- فإذا شهر عليك حربًا؟

- شنت عليه حربًا بحرب . . .

ورنّت الحرب في أذنيها رنينًا عجيبيًا أيقظ بقلبها ذكريات قديمة، وذكرت أيّامًا مثل هذه حين كان زوجها يضيق صدره ويشكو إليها بثّه وهمّه ويتمنّى لو كان يملك جيشًا قويًا يدفع به طمع عدوّه، أمّا ابنا فيتكلّم عن الحرب بشجاعة وعزيمة وثقة، فقد تغيّر الزمن وتجدّد الأمل، واختلست من وجه الملكة نظرة

أسنانها العليا، ذلك البروز الذي افتتن به أهل الجنوب وعبدوه كافّة، وقد تخلّت الملكة على أثر وفاة زوجها عن الحكم كما يقضي القانون، تاركة مقاليد طيبة لابنا وزوجها، ولكنّها ظلّت الرأي الذي يرجع إليه في الملّات، والقلب الذي يلهم الأمل والكفاح، وقد أقبلت في فراغها على القراءة، وكانت تديم المطالعة في كتب خوفو وقاقمنا وكتب الموت وتاريخ العهود المجيدة التي خلّدها أمثال مينا وخوفو وأمنحيت، وكان للملكة الوالدة شهرة عظيمة في الجنوب جميعه، فما من رجل أو امرأة إلا يعرفها ومحّبها ويقسم باسمها المحبوب، وذلك أنّها بتت فيمن حولها وعلى رأسهم ابنا الملك سيكنترع وحفيدها كاموس حبّ مصر جنوبيها وشهاها وكراهية الرعاة المعتصبين الذين ختموا العهود الجليلة أسوأ ختام، ولقّنت الجميع أنّ غايتهم السامية التي يجب أن يعدّوا أنفسهم لتحقيقها تحرير وادي النيل من قبضة الرعاة المستبدّين، وأوصت الكهنة على اختلاف طبقاتهم من رجال المعابد ومدّرسي المدارس أن يذكروا الناس دائمًا بالشهال المغتصب والعدوّ الغاصب، وما ارتكبه من آثام أدلّ بها القوم واستعبدتهم وانتهب أرضهم واستأثر بخيراتهم وهبط بهم إلى مستوى البهائم التي تعمل في الحقول، فإذا كان في الجنوب جذوة نار مقدّسة تلهب القلوب وتحيي الأمل فالفضل في إذكائها لوطنيّتها وحكمتها، ولذلك قدّسها الجنوب جميعها ودعاها الناس الأمّ المقدّسة توتيشيري، كما يدعو المؤمنون الرّبّة إيزيس، وعادوا باسمها من شرّ اليأس والهزيمة .

هذه هي الأمّ قصدها سيكنترع وأحوّتي، وكانت هي تتوقّع تلك الزيارة بعد أن علمت بقدم رسول ملك الرعاة، وذكرت الرسل الذين كان يبعث بهم ملوك الرعاة إلى زوجها الراحل في طلب الذهب والغلّال والأحجار وكانوا يطلبونها جزية يدفعها التابع للمتبوع . . . وكان زوجها يبعث بالسفن محمّلة ليتقي قوّة القوم الهمجيّة، ويضعف نشاطه الخفيّ في تكوين الجيش الذي كان أعزّ ما أورثه سيكنترع ابنه وخلفه .

ذكرت ذلك وهي تنتظر الملك فلما جاء وزوجها بسطت

## كفاح طيبة ٣٢٩

والأسطول فقاموا لاستقباله وانحنوا بين يديه، وجلس على العرش وأذن لهم في الجلوس، ثم صاح حاجب الباب معلناً وصول الرسول خيان، ودخل الرجل بجسمه البدين القصير ولحيته الطويلة يمشي مشية الخيلاء، وكان يسائل نفسه: ترى ماذا وراء الشورى؟. أسلام أم حرب؟. ثم بلغ العرش فانحنى تحيةً للجالس عليه، وردّ عليه الملك التحية وأذن له في الجلوس وهو يقول:

- عسى أن تكون قضيت ليلة سعيدة.

- كانت ليلة سعيدة، شكرًا لضيافتك الكريمة.

ولاحت منه التفاتة إلى رأس الملك فرأى تاج مصر الأبيض يعلوه، فانقبض صدره واحتدم الغيظ في قلبه، وكبر عليه أن يتحدّاه كذلك حاكم الجنوب، وكان الملك لا يحرص من جهته على مجاملة الرسول لأنه كان لا يبجل ما يعنيه رفضه للمطالب، فأراد أن يقول رأيه صريحًا حازمًا قاسيًا فقال:

- أيها الرسول خيان: لقد درست المطالب التي تحملها إلينا بعناية، وشاورت فيها رجال مملكتي، فاتفق رأينا جميعًا على رفضها.

ولم يكن خيان يتوقّع هذا الرفض الصريح الحاسم، فأخذ واستولى عليه الدهول، ونظر إلى سيكنترع باستغراب وإنكار وقد صار وجهه كالجحان، واستدرك الملك قائلاً:

- لقد وجدت هذه المطالب تمسّ عقيدتنا وشرفنا، ونحن لا نسمح لأيّ إنسان أن يمسّ العقيدة والشرف منّا.

وأفاق خيان من دهشته فقال بهدوء وكبرياء وكأنه لم يسمع ما قال الملك:

- إذا سألتني مولاي: لماذا يرفض حاكم الجنوب أن يشيد معبدًا لست، فماذا أقول له؟

- قل له إنّ أهل الجنوب يعبدون آمون وحده..

- وإذا سألتني، لماذا لا يقتلون أفراس البحر التي

تقتض مضجعي..؟

- قل له إنّ أهل الجنوب يقدّسونها.

فوجدته شاحبًا، فأدركت أنها تكابد حيرة وأنّ أمل الملكة وإشفاق الزوجة يتقاذفانها بغير رحمة.. وهي نفسها ملكة وأمّ ولكنها لا تستطيع أن تقول إلا ما ينبغي لمعلمة القوم وأمهم المقدّسة أن تقوله. وقد سألته:

- وهل تقدر على الحرب يا مولاي؟

فقال بثبات:

- نعم يا أمّاه.. لديّ جيش باسل.

- هل يستطيع هذا الجيش أن يخلّص مصر من الأغلال؟

- يستطيع على الأقلّ أن يصدّ عن مملكة الجنوب عدوان الرعاة..

ثمّ هزّ منكبيه استهانة وقال بحنق وغيظ:

- أمّاه طالما دارينا أولئك الرعاة عامًا بعد عام فلم تفلح المدارة في إسكات جشعهم، وما برحوا يرمقون مملكتنا بعين الطمع والجشع، وقد حمّ القضاء وأرى أنّ الشجاعة أولى بنا من المطاولة والمدارة. سأخطو هذه الخطوة وأنظر ما بعدها.

فابتسمت توتيشيري وقالت بفخار:

- فليبارك آمون هذه النفس الأبية العالية.

- فماذا تقولين يا أمّاه؟

- أقول يا بنيّ: سيرُ في طريقك يرعاك الربّ وتبارك دعواتي، هذه غايتنا وهذا ما ينبغي للفتى الذي اختاره آمون ليحقّق آمال طيبة الخالدة.

وابتهج سيكنترع وتألّق بالنور وجهه، وهوى على رأس توتيشيري يقبل جبينها، وقبّلت خدّه الأيسر، وقبّلت خدّه الأيمن وباركتها معًا، فعادا من لدنها سعيدين مغتبطين..

- ٥ -

وأعلن الرسول خيان أنّ سيكنترع سيستقبله غداً غد، وفي الموعد المحدّد ذهب الملك إلى بهو الاستقبال يتبعه كبير حجّابه، وهناك وجد في انتظاره حول عرشه رئيس الوزراء والكاهن الأكبر وقائدي الجيش

## ٣٣٠ كفاح طيبة

- كما تشاء أيها الحاكم وما عليّ إلا البلاغ،  
وستحمل تبعه أقوالك .  
فحنى الملك رأسه ولم يتكلم . ثم قام واقفاً مؤذناً  
باتتهاء المجلس، فوقف الجميع إجلالاً حتى غيَّبه  
الباب عن أنظارهم . .

- ٦ -

وكان الملك يقدر خطر الحال، فأراد أن يزور معبد  
آمون، ليدعو الربَّ المعبود ويعلن الكفاح في الفناء  
المقدس، وأعلن إرادته لوزيره ورجاله، فقصدت  
جموعهم من وزراء وقواد وحجَّاب وكبار موظفين إلى  
معبد آمون لتكون في استقبال الملك . وتنبَّهت طيبة  
الغافلة إلى ما يدور وراء جدران قصورها الشِّمِّ،  
وتهاشم كثيرون بأنَّ رسول الشمال جاء متعالياً وآب  
غاضباً . وذاع بين الطيبين أنَّ سيكتنرع سيزور معبد  
آمون ليستلهمه الرأي ويسأله المعونة، فذهبت جموع  
غفيرة من الرجال والنساء إلى المعبد، وانضمَّ إليهم  
خلق كثيرون أحاطوا بالمعبد، وتدافعوا إلى السبل  
المؤدِّية إليه، وكان يبدو على وجوههم الجِدَّ والاهتمام  
والتطلُّع، فدار بينهم التساؤل وجرى على ألسنتهم  
الحديث كلِّ يفسر الأمر على ما يرى، وجاء الركب  
الفرعونيّ تتقدِّمه كوكبة من الحرس تتبعها عجلة الملك  
وعربات أخرى تحمل الملكة والأمراء والأميرات من  
البيت الملكيِّ، فسرت في نفوس القوم موجة من  
الحماس والفرح، ولوحوا لليكهم بأيديهم وهلَّلوا له  
وكبروا، فابتسم سيكتنرع إليهم ولوح لهم بصولجانه،  
ولم يغب عن أحد أنَّ الملك يرتدي لباس الحرب ذا  
الدرع اللامعة، فاشتدَّ تشوُّق الناس إلى سماع  
الأخبار، ودخل الملك فناء المعبد يسير وراءه آله نساءً  
ورجالاً، فاستقبلهم كهنة المعبد والوزراء والقواد  
بالسجود، وهنَّف نوفر آمون بصوت مرتفع قائلاً:  
«أدام الربُّ حياة الملك وحفظ مملكة طيبة»، ورَدَّ  
القوم هتافه بحماس وأعادوا ترديده، فحيَّاه الملك برفع  
يده إلى رأسه وابتسامة من فمه العريض، ثمَّ تقدَّم  
الجمع بأسره إلى بهو المذبح، وقَدَّم الجنود ثوراً ذبيحاً

- يا عجبا . . أليس فرعون أعظم قداسة من أفراس  
البحر؟ . .  
فأطرق سيكتنرع ملياً كأنه يفكر في الجواب، ثمَّ قال  
بلهجة حازمة:  
- إنَّ أبوفيس مقدس لديكم، وهذه الأفراس  
مقدسة لدينا .

وسرت موجة ارتياح في نفوس رجال الملك لهذا  
الجواب العتيف، أمَّا خيان فقد اشتدَّ به الغضب ولكنَّه  
لم يستسلم لسלטانه، وكبح جماح نفسه وقال بهدوء:  
- أيها الحاكم الجليل، كان أبوك حاكماً على الجنوب  
ولم يكن يلبس هذا التاج، فهل ترى لنفسك حقاً غير  
ما كان يرى أبوك لنفسه؟  
- لقد ورثت عنه الجنوب وهذا تاجه منذ القدم،  
ومن حقِّي أن أتوجَّ به رأسي .

- ولكن في منف رجل آخر يتوجَّ رأسه بتاج مصر  
الزدوج، ويسمِّي نفسه فرعون مصر، فهذا ترى فيما  
يدعيه لنفسه؟ . . .  
- أرى أنَّه اغتصب وأسلفه المملكة . . .

ونفذ صبر خيان فقال بحتق واحتقار:

- أيها الحاكم، لا تظنَّ أنَّ لبسك التاج يرفعك إلى  
مصاف الملوك، فالملك من بعد ومن قبل قوَّة وسلطان،  
ولست أرى في أقوالك إلا استهانة بالوشائج الطيبة  
التي ربطت آباءك وأجدادك بملوكنا، ونزوعاً إلى  
التحدِّي لا تؤمن عواقبه .

فتبدَّى الغضب على وجوه الحاشية، ولكنَّ الملك  
حافظ على هدوئه وقال مسترسلاً:

- أيها الرسول نحن لا نعتجِّل بالشرِّ، ولكن إذا  
تحرَّش بشرفنا متحرَّش؛ لا ننكص على أعقابنا ولا نوثر  
السلامة، ومن فضائلنا ألا نغالي في تقدير قوتنا فلا  
نتنظر أن نسمع مني مباهة وفخرًا . ولكن اعلم أنَّ  
آبائي وأجدادي حافظوا ما وسعهم الجهد على استقلال  
هذه المملكة . ولن أفرط أنا فيما عاهدوا الربَّ والناس  
على المحافظة عليه . . .

فعلت شفتي خيان الحادتين ابتسامة ساخرة تخفي  
حقداً مرّاً . وقال بلهجة ذات مغزى:

## كفاح طيبة ٣٣١

صَلَّيتَ لِلرَّبِّ وَسَأَلْتَهُ العونَ، وليسَ الرَّبُّ بِناسٍ وَطَنه وأبناءه..

فصاحَ الجميعُ بصوتِ اهتزازٍ له جدرانُ المعبدِ: «أَيَّدَ الرَّبُّ مَلِيكِنَا سِيكَنْتِرِعَ..» وهَمَّ المَلِكُ بِالمسيرِ فدنا منه كاهنُ آمونَ وقالَ:

- هلَ لمولاي أن ينتظرَ قليلاً لأقدمَ إليه هَدِيَّةَ مقدَّسةٍ..؟

فقالَ المَلِكُ مبتسِّماً:

- كما تشاءُ يا صاحبَ القداسةِ..

وأشارَ الكاهنُ إلى كاهنينِ إشارةً خاصَّةً؛ فمضيا إلى حجرةِ المخلَّفَاتِ، وعادا يحملانِ صندوقاً صغيراً من الذهبِ تطلَّعتَ إليه الأبصارُ جميعاً، واقتربَ منها نوفرُ آمونَ وفتحَ الصندوقَ في أنأةٍ ورفقٍ، فرأتِ الأعينُ بداخله تاجاً فرعونياً، تاجَ مصرِ المزدوجِ، فأتسعتِ الأعينُ دهشةً وتبودلتِ النظراتُ، وحتى نوفرُ آمونَ هامته لمولاه وقالَ بصوتِ متهدِّجٍ:

- مولاي هَذَا تاجُ المَلِكِ تِيهايوسَ..

فتصايحَ قومَ قائلينَ: «تاجُ المَلِكِ تِيهايوسَ...» فقالَ نوفرُ آمونَ بحماسٍ وقوَّةٍ:

- نعم يا مولاي، هَذَا تاجُ تِيهايوسَ آخرِ فرعونَ حكمَ مصرَ المَتحَدَّةَ وبلادَ النوبةِ قبلَ غزوِ الرعاةِ لوطننا. وقد شاءتِ حكمةُ الرَّبِّ أن تحلَّ نغمته ببلادنا في عهده، فسقطَ هَذَا التاجُ الكريمُ عن رأسه بعد أن أبلى في الدفاعِ أشدَّ البلاءِ، ففقدَ العرشَ وصاحبه واحتفظَ بشرفه، لذلكَ رفعه أسلافنا إلى هَذَا المعبدِ ليأخذَ مكانةً بينَ المخلَّفَاتِ المقدَّسةِ، ولقد ماتَ صاحبه بطلاً شهيداً فهو جديرُ برأسك الكبيرِ: وإني أتوجكُ به أيُّها المَلِكُ سِيكَنْتِرِعَ، يا ابنَ توتيشيريِ الأُمِّ المقدَّسةِ، وأنادي بكَ ملكاً على مصرِ العليا والسفلى وبلادِ النوبةِ، وأدعوكُ باسمِ الرَّبِّ آمونَ وذكرى تِيهايوسَ وأهلِ الجنوبِ أن تنفرَ إلى قتالِ عدوكَ وتحريرِ وادي النيلِ الطاهرِ المحبوبِ..

ودنا الكاهنُ الأكبرُ من المَلِكِ وخلعَ عن رأسه تاجَ مصرِ الأبيضِ وسلَّمه إلى أحدِ رجالِ الكهنوتِ، ثمَّ رفعَ تاجَ مصرِ المزدوجِ بينَ التهليلِ والتكبيرِ ووضعَه

للرَّبِّ، ثمَّ طافوا جميعاً بالمذبحِ وبهو الأعمدةِ، وهناك وقفوا صقَّينَ، وأعطى المَلِكُ صولجانَه لوليِّ عهده الأميرِ كاموسَ وسارَ إلى السَلَمِ المقدَّسِ فارتقاه إلى قدسِ الأقداسِ، واجتازَ العتبةَ المقدَّسةَ بخطى خاشعةٍ، وأغلقَ وراءه البابَ فكأنَّما أدركه الغسقُ، وحنى رأسه وخلعَ تاجه إجلالاً للمكانِ المطهَّرِ، وتقدَّمَ نحوَ المحرابِ الثاوي فيهِ الرَّبِّ المعبودِ بساقينِ متخاذلتينِ من الهيبةِ، ثمَّ سجدَ عند قدميه ولثمها وسكنَ لحظةً ريثما تهدأ أنفاسه المضطربةُ وقالَ بصوتِ خافتٍ كأنَّه النجوى:

- أيُّها الرَّبُّ المعبودِ، ربَّ طيبةِ المجيدةِ، وربَّ أربابِ النيلِ، هبني من لدنك رحمةً وقوَّةً، فإنِّي اليومَ أتعرضُ لتبعةٍ خطيرةٍ إن لم تشدِّدَ فيها أزرِي عييت دونها. هي الدفاعُ عن طيبةٍ وقتالِ عدوكَ وعدوِّنا الذي سقطَ علينا من صحراءِ الشمالِ في جموعٍ همجيةٍ خربت ديارنا وأذلتِ أعناقَ قومنا وأغلقتِ أبوابَ معابدك وَاغتصبتِ عرشنا، هبني معونتك أصدَّ جيوشهم وأطاردِ فلولهم وأطهِّرِ الوادي من قوتهم الغاشمةِ فلا يحكمه إلا أبنائكُ السمرِ ولا يذكرُ فيه إلا اسمك.

وسكتَ المَلِكُ، وانتظرَ برهةً، ثمَّ استغرقَ مرَّةً أخرى في صلاةٍ طويلةٍ حازةٍ مسنداً جبينه إلى قدمي التمثالِ، ثمَّ رفعَ رأسه في وجلٍ حتَّى بصرَ بالوجهِ النبيلِ المعبودِ يكتنفه الجلالُ والصمتُ كأنَّه ستارُ الغدِ يجيئُ وراءه أحداثُ القضاءِ.

★ ★ ★

وطلعَ المَلِكُ على قومه وقد وضعَ التاجَ الأبيضَ على جبينه المتفصَّدِ بالعرقِ فسجدوا له جميعاً، وتقدَّمَ منه الأميرُ كاموسُ بصولجانِه فأخذه بيمنه وقالَ بصوتِ جهوريٍّ:

- يا رجالَ طيبةِ المجيدةِ، لعلَّ عدوِّنا في هذه الساعةِ التي أحدثتكم فيها يحشدُ جيشه على حدودِ مملكتنا ليقتحمَ علينا ديارنا، فهلمَّوا جميعاً إلى الكفاحِ، وليكن شعارُ كلِّ واحدٍ منكم أن يبذلَ قصارى جهده في عمله، كي يقوى جيشنا على الثباتِ والقتالِ، ولقد

## ٣٣٢ كفاح طيبة

على رأسه المجعد، ثم صاح هاتفاً: «ليحيى سيكنترع فرعون مصر». فردد القوم هتافه، وهرع كاهن إلى خارج المعبد وهتف لفرعون مصر سيكنترع، فردد الطيبون الهتاف في حماسة مستعرة. ثم هتف بقتال الرعاة وأجابهم القوم بأصوات كالرعد، وقد أيقنوا بما كانوا منه في شك... .  
وحياً فرعون الكهنة، ثم أجه نحو باب المعبد تتبعه أسرته ورجال قصره ووجوه المملكة الجنوبية... .

### - ٧ -

وعلى أثر وصول فرعون إلى قصره دعا إلى الاجتماع به رئيس وزرائه وكبير الكهنة ورئيس حجاب القصر وقائدي الجيش والأسطول وقال لهم:  
- إن سفينة خيان تسبح به نحو الشمال سريعاً، ومستعرض للغزو على أثر اجتيازه حدود الجنوب، فينبغي ألا نضيع ساعة من وقتنا.  
والتفت إلى قائد الأسطول كاف وقال:  
- أرجو أن تجد مهمتك يسيرة على سطح الماء، فالرعاة تلاميذنا في القتال في السفن، هيئ سفنك للحرب وأبحر بها نحو الشمال... .  
فأدى القائد كاف التحية لمولاه وفارق المكان على عجل. وتحول الملك إلى القائد بيبي وقال:  
- أيها القائد بيبي، إن قوة جيشنا الأساسية معسكرة في طيبة، فيرّبها إلى الشمال، وسألحك بك على رأس قوة من حرسى الأشداء، وإني أدعو الرب أن يثبت جنودي أنهم جديرون بالمهمة الملقاة على عاتقهم، ولا تنس أيها القائد أن تبعث برسول إلى بانوبوليس على حدودنا الشمالية لينبه الحامية إلى الخطر المحدق بها حتى لا تؤخذ على غرة.

فأدى القائد التحية لمولاه ومضى، وجعل الملك يقبّ وجهه في وجوه رئيس الوزراء وكبير الكهنة ورئيس الحجاب ثم قال لهم:  
- سيلقى على كواهلكم أيها السادة واجب الدفاع عن مؤخرة جيشنا، فليقم كل منكم بواجبه بما أعهده فيكم من الكفاية والإخلاص.

فقالوا في صوت واحد:  
- كلنا فداء للملك ولطيبة.  
فقال سيكنترع:  
- يا نوفر آمون ابعث رجالك إلى القرى والبلدان يجمعون قومي على الجهاد، وأنت يا أوسر آمون ادع حكام الأقاليم وأوصهم أن يجتدوا الأشداء والقادرين من شعبي، أما أنت يا حور فإني أعهد إليك بآل بيتي ولتكن لابني كاموس كما كنت لي.

وحياً الملك رجاله وغادر المكان قاصداً إلى جناحه الخاص ليودع أسرته قبل الرحيل، وأرسل في طلبهم جميعاً فجاءت الملكة أحوتي والملكة توتيشيري والأمير كاموس وزوجه الأميرة ستكيموس وابنها الصغير أحمس وابنتها الصغيرة الأميرة نفرتاري، فاستقبلهم استقبالاً ودنياً وأجلسهم حوله وقد شعر بالحنان يتدقّق من بين أضلعه، ومضى يقبّ عينيه في أحب الوجوه إلى قلبه وكأنه يرى وجهها واحداً يتكرّر لا يفرق بينها سوى العمر، فتوتيشيري في الستين، وأحوتي مثل زوجها في الأربعين، أما كاموس وستكيموس ففي الخامسة والعشرين، وأما أحمس فلم يجاوز العاشرة، وأخته نفرتاري دون ذلك بعامين، ولكن ما من وجه فيهم إلا وتتألق فيه هاتان العينان السوداوان وذلك الفم الذي يميل إلى البروز أعلاه، وتلك السمرة الخمرية التي تضيء عليه صحة وحسناً، وارتسمت على فم الملك العريض ابتسامة وقال:

- تعالوا نجلس معاً ساعة قبيل الرحيل... .

فقلت توتيشيري:

- إني أدعو الرب يا بني أن يكون ذهاباً إلى النصر المين.

فقال سيكنترع:

- إني كبير الأمل في النصر يا أمه... .

ورأى الملك ولي العهد في لباس الحرب فأدرك أنه يظنّ نفسه خارجاً معه فسأله متجاهلاً:

- لماذا ترتدي هذا اللباس؟... .

فبدت الدهشة على وجه الشاب كأنه لم يكن يتوقع هذا السؤال، وقال باستغراب:

## كفاح طيبة ٣٣٣

سيكنترع وقال بلهجة لم تخلُ من عتاب: -  
- أتبيكين يا أحوتي.. انظري إلى شجاعة أمنا  
توتيشيري.

ثمّ نظر إلى أحس وكان يكلف به كلفاً عظيماً،  
وكان الغلام صورة صادقة من جدّه، فجذبه إليه  
وسأله مبتسماً:

- من العدو الذي يجب أن نحذره يا أحس؟.

فقال الغلام وهو لا يفقه معنى ما يقول:

- اليأس...

فتضاحك الملك وقبّله مرّة أخرى. ثمّ قام واقفاً  
وقال برقة:

- هلمّوا نتعاقق..

ثمّ عانقهم جميعاً مبتدئاً بتوتيشيري وزوجه أحوتي  
وستكيموس زوج ابنه ثمّ أحس ونيفرتاري: ثمّ  
انعطف نحو كاموس، وكان واقفاً في جمود واستسلام،  
فمدّ له يده فشدّ عليها بقوة، ثمّ انحنى عليها فقبّلها  
وقال بصوت خافت:

- فلتصحبك السلامة يا أبتاه..

ولوح لهم الملك بيده وبرح المكان بقدمين ثابتين  
وقد تجلّى على وجهه العزم والبأس...

★ ★ ★

وخرج الملك في رأس قوّة من حرسه والتقى في  
ميدان القصر بجموع شعب طيبة التحمّس، فخال  
أهل طيبة جميعاً رجالاً ونساء وأطفالاً قد انتقلوا إلى  
ميدان القصر يخيّون مليكهم ويهتفون لمن خرج باغيّاً  
تحرير الوادي، وشقّ سيكنترع طريقه بين موجهم  
المتلاطم قاصداً باب طيبة الشماليّ، وهناك وجد الكهنة  
والوزراء والحجاب والأعيان وكبار الموظفين في توديعه،  
فسجدوا لموكبه وهتفوا باسمه طويلاً، وكان آخر صوت  
سمعه الملك صوت نوفر وهو يقول له:

- سأستقبلك يا مولاي بعد حين ورأسك مكلّل

بالغار.. اللهمّ استجب.

واجتاز الملك باب طيبة العظيم في طريقه إلى  
الشمال تاركاً وراءه أسوار المدينة العظيمة، وكان عظيم  
التأثر لما رأى ولما سمع، وقد شعر بخطر العمل الكبير

- للسبب الذي من أجله ترتديه أنت يا مولاي.

- هل جاءك أمري بذلك؟

- ظننت المسألة لا تحتاج إلى أمر يا مولاي.

- أخطأت يا كاموس.

فبدا الفزع على وجه الشاب وقال:

- هل أحرم شرف خوض معركة طيبة يا مولاي؟

- إنّ ميادين القتال لا تستأثر بالشرف دون الميادين

الأخرى، وستبقى على عرشي يا كاموس لتسهّر على

سعادة مملكتنا وتمدّد جيشنا بالرجال والمثونة.

فامتقع وجه الشاب، وحتى رأسه كأنما أثقله أمر

الملك، وأرادت توتيشيري أن تحفّف عنه فقالت برقة:

- كاموس... إنّ القيام بأعباء الحكم ليس بالعمل

الهيّن الذي يجزي إنساناً وهو عمل جدير بمثلك.

وهنا وضع الملك يده على منكب وليّ عهده وقال:

- اصغ إليّ يا كاموس إنّنا مقبلون على حرب

ضروس نرجو أن نفوز فيها بعون الربّ، ونحرّر بلادنا

المحبوبة بما تقيد به من الأغلال، على أنّه من الحكمة

أن نقدر جميع العواقب، وقد قال حكيمنا قاقمنا: «لا

تضع كلّ أسهمك في جعبة واحدة».

وسكت الملك عن الكلام، فساد الصمت ولم ينبس

أحد بكلمة حتّى استأنف الملك قائلاً:

- فإذا شئت حكمة الربّ أن يبوء جهادنا بخذلان

فما ينبغي أن ينقطع جهادنا قطّ... اصغوا إليّ جميعاً،

إذا سقط سيكنترع فلا تيشسوا فسيخلف كاموس أباه،

وإذا سقط كاموس خلفه أحس الصغير، وإذا فني

جيشنا هذا فمصر ملأى بالرجال، وإن تسقط

بطلمائس فلتحارب كبتوس، وإن تفتحم طيبة فلتشب

أمبوس وسين وبيجة، أو يقع الجنوب في أيدي الرعاة

فهناك النوبة لنا فيها رجال أشداء مخلصون، وستولّى

توتيشيري الأبناء بما تولّت به الآباء والأجداد، فلا

أحذركم إلّا من عدوّ واحد هو اليأس..

وكان لكلام الملك وقع شديد في نفوس الجميع

حتّى أحس الصغير ونيفرتاري وجما وعلاهما الارتباك،

وعجبا كيف يحدّثها جدّها بهذه اللهجة الجدّيّة أوّل

مرّة، واغرورقت عينا الملكة أحوتي بالدموع، فتكدّر



## ٣٣٤ كفاح طيبة

فأوما برأسه دلالة على الموافقة وقال:  
- ينبغي أن نبلغ بانوبوليس ونعسكر في واديا قبل  
أن يعود خيان إلى منف...  
ثم دعا الملك قواده إلى الاجتماع به.

- ٨ -

وتحرك الجيش قبيل الفجر يسبقه إلى أهدافه قوة  
الكشافة، وتتقدمه فرقة العجلات المكونة من مائتي  
عجلة على رأسها فرعون، وتتبعها فرقة الرماح، ثم  
فرقة القسي والنبال، ثم فرقة الأسلحة الصغيرة،  
وعربات المؤن والسلاح والخيام. وأبحر الأسطول في  
الوقت نفسه إلى الشمال، وكان الظلام شديداً لا يخفف  
من سواده سوى شعاع النجوم الساهرة وأضواء  
المشاعل، فبلغوا مدينة قسي فهبت جميعاً لاستقبال  
فرعون وجيشه، وهرع الفلاحون من أقصى الحقول  
يحملون سعف النخل والرياحين ودنان الجعة، وساروا  
مع الجيش يهتفون له ويهدون إلى الجنود الأزهار  
وأكواب الجعة الشهية، ولم يتركوه حتى أوغل في  
المسير، وهبت ظلمة الليل وانسكب في الأفق الشرقي  
نور الفجر الأزرق الهادي يتقدم بشائر النور، ثم أسفر  
الصبح وغمر الضوء الدنيا والجيش يحد في السير حتى  
بلغ كسوت قبيل العصر، فاستراح فيها وقتاً بين  
المستقبلين من أهلها المتحمسين. ورأى الملك أن يكون  
مبيت الجيوش في تنثرا فأصدر أمره باستئناف المسير،  
وجدد الجيش حتى بلغ تنثرا عند سدول الظلام وهالك  
استسلم للنوم العميق..

وكان يستيقظ قبل الفجر ويضرب في الأرض حتى  
حلول الظلام يوماً بعد يوم حتى عسكر في أبيدوس،  
وكانت الكشافة تجول شمال المدينة فرأى ضابط من  
رجالها عن بعد سحيق أقواماً تضرب في الأرض، فعدا  
على رأس ثلثة من رجاله نحو القادمين، وكان كلهم هبط  
السوادبي تبيّن له الأمر فرأى خطوطاً متعرجة من  
الفلاحين يسرون جماعات يحملون ما خفّ من  
متاعهم، ومنهم من يسوق غنماً أو ثيراناً بدلّ منظرهم  
على البؤس والتشرد، فعجب الرجل واعترض سبيل

المقبل عليه، وكيف أنه ينطوي على إسعاد شعبه أو  
إشقائه إلى أمد طويل، لقد وضع مصير القوم في قبضة  
يده وواجه المخاطر المروعة التي وقف منها أبوه موقف  
التمهّل المترث، ولم يكن سيكتنزع من الحكام المترفين  
ولكن كان خلقه ينطوي على الصلابة والبسالة  
والتقشف والتدين، وكان عظيم الأمل قوي الثقة  
بقومه. وقد لحق جيشه بالمعسكر في بلدة سنهور شمال  
طيبة قبل المساء واستقبله القائد بيبي على رأس قواد  
الفرق، وكان مضعضع الخواص لما أصابه من إرهاق  
ووصب، ولم تغب حالته عن عيني الملك فقال له:  
- أراك متعباً أيها القائد.

فسر القائد بملاحظة مولاه وقال:

- استطعنا يا مولاي أن نجمع هنا حاميات  
هرمنسيس وهابو وطيبة، فكونت جيشاً يربو عدده على  
عشرين ألف مقاتل.

وسار الملك بعجلته بين خيام الجنود فسرت في  
نفوسهم موجة فرح وحماس، وتردد المتأف له في  
المعسكر شمال بلدة سنهور، ثم كثر راجعاً إلى الخيمة  
الملكية وفي صحبته القائد بيبي، وكان الملك مطمئناً  
إلى جيشه الذي بذل أجل عهود شبابه في تدريبه  
فقال:

- جيشنا باسل.. فكيف ترى شعور القواد؟

- كلهم متفائلون يا مولاي ومتحمسون للحرب،  
وما من واحد منهم إلا يبدي عظيم إعجاب به بفرقة  
القسي ذات الشهرة التاريخية.

فقال الملك:

- إني أشارككم هذا الإعجاب، والآن أصغ إلي،  
لا يجوز أن نضيع من الوقت إلا ما تستلزمه ضرورة  
إراحة هذا العدد من الجنود، فإنه ينبغي أن نلقى  
عدونا - إذا هاجنا حقاً - في الوادي المنحدر ما بين  
بانوبوليس وبطلوس، فهو وادٍ شديد الوعورة ضيق  
المسالك، والميزة الحربية فيه لمن يسيطر على عاليه،  
ومجرى النيل فيه ضيق فيمكن أن نساعد أسطولنا في  
أثناء اشتباكه مع العدو.

- سنشرع في المسير يا مولاي قبيل الفجر.

## كفاح طيبة ٣٣٥

- نعم وأسفاه يا مولاي، ولا يجدي في الدفاع عنها  
بسالة حاميتنا قليلة العدد.

فهزَّ الملك رأسه أسفًا وقال:

- خسرنا أوفق ميدان قتال لنا.

- لن يؤثر هذا في شجاعة جنودنا الفاتحة..

وفكر الملك مليًا ثم قال لقائد جيوشه:

- ينبغي أن نخلي أبيدوس وتثيرا إخلاء تامًا.

فبدا التساؤل على وجه بيبي فقال الملك:

- لن ندافع عن هذه المدن.

فأدرك بيبي ما يعنيه مولاه.

- أريد مولاي أن يلقي العدو في وادي كبتوس؟

- هذا ما أريده، فهناك تمكن مهاجمة العدو من

عدّة جهات. وتوجد في أنحاء الوادي حصون طبيعية،

وسأترك له في المدن التي نخليها عصابات تكّر عليه

دون أن تشتبك معه في قتال فتعطل تقدّمه حتّى نقوّي

مراكزنا، هيّا يا بيبي ابعث برسلك إلى المدن ليخلوها،

ومر القوادم بالتقهقر في الحال: ولا تضع وقتًا فإنّ حبل

الأرجوحة التي يترجّح فيها مصير قومنا أمسى أحد

طرفيه في يد أبوفيس.

- ٩ -

وصاح المناادي في أهالي أبيدوس وبرفا وتثيرا أن

احملوا متاعكم وأموالكم وسيروا إلى الجنوب، فقد

أمست دياركم ميدان قتال لا يعرف الرحمة، وكان

القوم يعرفون من الرعاة وما أعمالهم، فتولّاهم الخوف

ويادروا إلى أموالهم وأمتعتهم يكّدسون بها العربات

تجرّها الثيران، وإلى البقر والأغنام يسوقونها سوق

المتعجّل، ولمّوا شعثهم وهرعوا نحو الجنوب تاركين

أراضيهم وديارهم وكأنّما تقطع أوصالهم من الحزن

والأسف، وكان كلّما تقدّم بهم المسير ألقوا بأبصارهم

المظلمة إلى الوراء تنازعهم قلوبهم إلى أوطانهم، ثمّ

تفزّعهم المخاوف فيجدون سراعًا إلى المجاهل التي

تتظّروهم، ومروا في طريقهم ببعض فرق الجيش

فخفقت قلوبهم في صدورهم وداعب أحلامهم الأليمة

أمل، وافترّت ثغورهم عن ابتسامه فرح التمتع في جوّ

المتقدّمين منهم وهم بسؤالهم، ولكنّ رجلاً منهم صاح  
به:

- الغوث أيها الجنديّ... أدركونا فقد هلكنا..

فصاح الضابط منزعجًا:

- تطلبون الغوث؟.. ماذا يفزعكم؟

فأجاب كثيرون منهم في نفس واحد:

- الرعاة... الرعاة...

وقال الرجل الأوّل:

- نحن أهالي بانوبوليس وبطلمايس، جاءنا جنديّ

من جنود الحدود وقال لنا: إنّ جيش الرعاة يهاجم

الحدود بقوادم عظيمة لن تلبث أن تتدفّق إلى بلدتنا

ونصحننا بالهجرة إلى الشمال، فساد الفزع البلد

والحقول وهرعنا جميعًا إلى ديارنا ننادي النساء

والأطفال ونحمل ما يخفّ حمله، ثمّ تركنا البلاد وراءنا

فأزبن، فما ذقنا الراحة منذ صباح أمس..

وكان يبدو على وجوههم الإعياء والخور فقال لهم

الضابط:

- استريحوا قليلًا ثمّ جدّوا في السير، فعنّا قليل

ينقلب هذا الوادي الساكن ميدانًا للقتال.

ولوى الرجل عنان فرسه وانطلق به إلى خيمة القائد

في أبيدوس، وأبلغه الخبر، وقام بيبي من فوره إلى

الملك وقصّ عليه الخبر، فتلقاه بدهشة وانزعاج

وصاح:

- كيف وقع هذا.. هل بلغ خيان منف في هذا

الزمن اليسير؟..

فقال بيبي بحق:

- لا شك يا مولاي في أنّ عدوّنا حشد جيشه على

حدودنا قبل أن يبعث إلينا برسوله، فهو كان يتربّص

بنا، وما عرض علينا مطالبه إلّا وهو يرجو أن

ترفضها، فلمّا اجتاز خيان حدودنا عائداً أصدر أمره

للجيوش المحتشدة بالهجوم، هذا هو التفسير المعقول

لذلك الهجوم السريع العنيف..

فاصفرّ وجه الملك سيكنترع غضبًا وحنقًا وقال:

- إذن سقطت بانوبوليس وبطلمايس.

## ٣٣٦ كفاح طيبة

- حقاً إنه لمؤلم.. ولكن هل تنفع القسي في مقاومة سيل من العجلات؟  
إن جنودنا يا مولاي لا يخطئون أهدافهم، وسيرى أبوفيس غداً أنّ الغلبة لسواعدهم على كثرة عجلاته..

وفي ذلك المساء خلا فرعون إلى نفسه وكان يشعر بضيق وانقباض، وصلّى للرب صلاة حازة طويلة ضارعاً إليه أن يشرح صدره، ويثبت قلبه، ويكتب له ولجيشه النصر.

وأحسن الجميع دنو العدو؛ فضاءعوا من يقظتهم، وناموا ليلتهم جزعين يرجون أن يطلع الصبح ليلقوا بأنفسهم في معركة الموت.

- ١٠ -

واستيقظ الجيش قبل بزوغ الفجر بزمن غير يسير، وأخذ الرجال الأشداء من حملة القسي أماكنهم الحصينة في الميدان يؤيد كل جماعة منهم قوة صغيرة من العجلات، ووقف سيكنترع أمام خيمته مع قائده بيبي وسط هالة من رجال حرسه الأشداء، وكان يقول لهم: «ليس من الحكمة أن نقذف بفرقة العجلات لمواجهة قوات لا قبل لها بها. ولكن هذه العجلات المبعثرة ستعاون رمانتا المحصنين على إصابة فرسان العدو وجياده، وليس من شك في أنّ أبوفيس سيبدأ هجومه بالعجلات، لأن فرق الجيش الأخرى لا تلتقي حتى يفصل في معركة العجلات، فليكن همنا موجّهاً إلى إصابة عجلات الرعاة بالعجز، حتى نمكّن لفرق جيشنا التي لا تقاوم بخوض المعركة والقضاء على عدونا».

وكانت فكرة القضاء على عجلات العدو حلمه الذي يهيم به، وكان يدعو ربه آمون في صدق ورجاء قائلاً: أيها الرب المعبود، اقض لنا بالغلبة على هذه العقبة.. وانصر أبناءك المؤمنين، فلئن تخذلم اليوم لن يذكر اسمك في مشواك المكرم، وتغلق أبواب معبدك المطهر..»

وركب الملك عجلته، وفعل القائد بيبي مثله،

أحزانهم كما تضيء أشعة الشمس خلل ثغرة بين السحب انقشعت عنها لحظة في يوم أدكن السماء، ولوحوا بأيديهم وصاح الكثيرون: «أراضينا وديعة مسلوية... ردوها إلينا أيها البواسل...».

كان فرعون في تلك الأثناء يشرف على توزيع قواته في وادي كبتوس ويرمق بعينين أسيفتين جموع المهاجرين الذين لا يتقطع تيارهم المتدفق، وكان يشاركهم الأمل كأنه واحد منهم، ويضاعف في ألمه ما يحمله الهواء إلى أذنيه من هتافهم باسمه ودعائهم له.

وكان القائد بيبي على اتصال دائم برجال الكشافة فيتلقي الأخبار منهم ثم يرفعها إلى مولاه، فبلغه هجوم العدو على أيدوس ومقاومة حاميتها الصغيرة مقاومة عنيدة أتت على آخر رجل منهم. وغداة اليوم التالي حمل الرسول نبأ هجوم الهكسوس على مدينة برفا وما احتال به الرجال المدافعون عنها من فنون الدفاع والمشاكسة لكي يعطلوا زحف العدو ما وسعتهم الحيلة، أما تثيرا فقد ثبتت حاميتها العدو الزاحف ساعات طويلاً حتى اضطر أن يهاجمها بقوات كثيرة كأنما يهاجم جيشاً كامل العدد والعدة، ثم قرّر الكشافة وبعض الضباط الذين نجوا من حاميات المدن المغزوة أنّ قوات العدو يترجح عددها بين خمسين ألفاً وسبعين، أما فرقة العجلات فلا تقل عن ألف عجلة، وقد تلقى الملك النبأ الأخير بغرابة وجزع؛ لأنه لم يكن هو - ولا أحد من جيشه - يتوقع أن يملك جيش أبوفيس هذا العدد الضخم من العجلات، وقال لقائده: كيف تقاوم فرقة عجلاتنا هذا العدد الهائل من العجلات؟..

وكان بيبي في حيرة من أمره، وكان يلقي على نفسه هذا السؤال فقال لمولاه:

- ستنهض فرقة القسي بواجبها يا مولاي.

فهز الملك رأسه دهشة وقال:

- لم تكن العجلات من آلات الحرب لدى الرعاة، فكيف يكون لجيشهم أضعاف ما لجيشنا منها؟..

- والمؤلم يا مولاي أن تكون الأيدي التي صنعتها مصرية..

## كفاح طيبة ٣٣٧

وتنقض على ما يعترض لها من العجلات المصرية، وكان القتلى يسقطون من الجانبين سراعاً في استبسال وشجاعة، وبدت قوة الرماة وشدة بأسهم، فكانوا يثبتون للهاجمين ويصيدون فرسانهم وجيادهم ويفتكون بهم فتكاً ذريعاً، حتى صاح بيبي قائلاً:

- لو دام القتال على هذا النحو، فستفوق على فرقة العجلات في أيام قلائل.

على أن قوات الرعاة كانت تهجم وتقاتل، ثم ترتد إلى معسكرها وتنقض غيرها كي لا تنهك قواها، على حين كان المصريون يدافعون دون سكون أو راحة وهم ثابتون في مراكزهم، وكان سيكنرع كلما رأى فارساً من فرسانه يسقط أو عجلة من عجلاته تتعطل، يصبح غاضباً: وأسفاه، ويدرك أتم إدراك ما ينزل بجيشه من الخسارة، وأخذ عدد الوحدات التي يهجم بها الرعاة يتضاعف، كانوا يهجمون ثلاثاً ثلاثاً، ثم هجموا ستاً ستاً، ثم عشرًا عشرًا. واشتد القتال وحى وطيسه، وأطرد عدد عجلات الهكسوس في الزيادة، حتى ساور سيكنرع القلق، وقال لبيبي:

- لا بد من مواجهة زيادة قوات العدو بما يعيد إلى الميدان أترانه.

- ولكن يا مولاي ينبغي الاحتفاظ بعجلاتنا الاحتياطية حتى آخر الموقعة.

- ألا ترى أن العدو يكرّ علينا كل فترة بسيرة بقوات جديدة متحفزة للقتال؟..

- إني أدرك الخطأ يا مولاي، ولكننا لا يمكن أن نجاريه فيها لوفرة عجلاته الاحتياطية وقلة عجلاتنا..

فصرّ الملك بأسنانه وقال:

- لم نكن نتوقع قط أن تكون له هذه الغلبة في العجلات، ومهما يكن فلا يمكنني أن أترك الرماة بلا نجدة، فليس في جيبي رماة سواهم..

وأمر الملك بهجوم عشرين عجلة في خمس وحدات، فانقضت كالنسور الكواسر، وبعثت في الميدان حياة جديدة، ولكن أبوفيس راد أن يرد على حملة سيكنرع الجديدة رداً قاسياً، فأرسل إلى الميدان عشرين وحدة قوام كل وحدة خمس عجلات، فزلزلت

وأحاط بها الحرس الفرعوني، ووقف خلفها مائة عجلة حربية، ثم تقدّمت فرقة الرماح ورصّت صفوفها إلى يمين الملك وإلى شماله، وكان الجميع ينتظر أن يدعى إلى القتال بعد أن تقوم قوات الرماة والعجلات التي تؤيدها بواجبها الأول.

وحين أخذت تبدو بشائر النور، جاء رجل من الكشافة وأبلغ الملك أن الأسطول المصري اشتبك مع أسطول الرعاة في معركة حامية شمال كبسوس، فقال الملك لقائد جيشه:

- إن أبوفيس يدرك ولا شك أنه سيلقى مقاومة عنيفة، ولذلك أمر أسطوله بالهجوم ليتمكن من إنزال جنود وراء مواقعنا.

فقال القائد بيبي:

- إن الرعاة يا مولاي لا يتقنون فن القتال على سطوح السفن، وسيتلع النيل المقدس جثث جنودهم، وبيتلع أمل أبوفيس في حصارنا.

كانت ثقة سيكنرع في رجال أسطول طيبة عظيمة، ولكنّه أوصى قائد الكشافة أن يكون على اتصال دائم

بميدان المعركة البحرية وجعل الظلام ينقش والصبح يسفر. والميدان يتجلى للأعين الفاحصة؛ فرأى

سيكنرع جنوده الرماة والقسي في أيديهم، والعجلات المعدودة تتحفز إلى جانبهم للقتال، ورأى في الناحية

الأخرى جيش الرعاة ينتشر انتشار الغبار الثائر. وكان العدو ينتظر سفور الصبح، فما عتمت أن تحركت

قوات العجلات استعداداً للمعركة، ثم انقضت قوات منها على بعض الأماكن المحصنة الأمامية فتطارت

السهام وصهلت الخيل وصرخ المتقاتلون، وتدافعت قوات أخرى فاشتبكت مع الرماة المصريين وبعض

العجلات المصرية في قتال عنيف، فصاح سيكنرع:

- الآن تبدأ معركة طيبة.

فقال بيبي بصوت قويّ النبرات:

- نعم يا مولاي، وقد بدأ جنودنا بدءاً حسناً.

وصوبت الأبصار جميعاً إلى الميدان تشاهد سير المعركة، فأرأوا عجلات الرعاة تهاجم صفّاً ثم تتفرق جماعات شتى، وتهجم على الرماة بعنف وسرعة،

ساعة كأنه ربّ الموت يختار له من يشاء من عدوّه . واستمرّت المعركة حتّى الأصيل وهناك بدت الغلبة في صفّ الرعاة، فتحفّزوا ليضربوا الضربة القاضية، وهجمت عجلة كبيرة تحرسها قوّة عظيمة يقودها فارس شديد البأس طويل اللحية ناصع البياض، على عجلة سيكنترع، وشقّت إليه الصفوف ببسالة خارقة . وأدرك الملك غرض الفارس الجسور، فهرع نحوه حتّى تواجهها، ثمّ تبادل ضربتين هائلتين برمحيهما، فتلقّى كلّ منهما الضربة الموجهة إليه بترسه وتحفّز للقتال . ورأى سيكنترع غريمه يسلّ سيفه، فعلم أنّه لم يقنع بتجربة حظّه، فسلّ سيفه واندفع نحوه، وفي تلك اللحظة الرهيبه استقرّ سهم في ساعده، فارتعشت يده وسقط منها السيف . . وصاح كثير من حرس الملك: «حذار يا مولاي . . حذار» ولكنّ الغريم كان أسرع إليه من الحذر، فوجّه إلى عنقه ضربة هائلة بأقصى قوّته، فأصابت هدفها، وارتسم على الوجه الأسمر أبلغ الألم، وتوقّف مهوّرًا عن المقاومة . فقبض عدوّه يمينه على رمح ورشقه بقوّة، فاستقرّ في جانب الملك الأيسر، وترنّح على أثره ذاهلاً وسقط على الأرض . . وتعالى الصياح من كلّ جانب، فقال المصريون: «ربّاه . . لقد سقط الملك . . دافعوا عن مليككم . .» وصاح قائد العدو وهو يتسم ابتسامة الظافر: «أجهزوا على المتمرد العاصي، ولا تبقوا على أحد من رجاله» . فاشتدّ القتال حول جسد الملك الملقى، وانقضّ عليه فارس حقود . ورفع بلطة حادة، وهوى بها على رأسه فأطاح عنه تاج مصر المزدوج، وتفجّر منه الدم كالينبوع، وثقّت بضربة أخرى فوق العين اليمنى، فحطمت العظام وتناثر المخّ في حالة بشعة، وأراد كثيرون أن يصيبوا من تلك المأدبة الدموية ما يشفون به غلهم، فتكالبوا على الجثة ووجّهوا إليها طعنات مجنونة قاسية، أصابت العينين والفم والأنف والخدّين والصدر، فمزّقت الجثة وأغرقتها في بحر من الدماء . . وكان يبني يقاتل على رأس من بقي من جنوده، مدافعًا قوّة العدو المتدفقة على البقعة التي سقط فيها مولاه . واستيأس القوم في القتال، وهانت عليهم

الأرض بصلصلتها، وملأت الفراغ بجبال من غبار نائر، واستطارت المعركة وجرت الدماء كالنهر . . وتقدّم الوقت وهي لا تهدأ أو تحفّ وطأتها حتّى توسّطت الشمس كبد السماء . وجاء بعد ذلك رجال الكشافة وأذنوا الملك بارتداد أسطول الرعاة بعد أن فقد في الأسر سفينتين، وغرقت له سفينة أخرى، فجاء نيا النصر في وقته ليشدّ من عزيمة المصريين وثبّت قلوبهم، وأذاعه الضباط في الفرق المقاتلة والتي تنتظر أن يجيء دورها في الكفاح، فكان له صدى فرح في الصدور، وفورة حماس في القلوب، ولكن صكّ ذلك الخبر أذان أبوفيس كذلك فاستولى عليه الغضب، وغير خطته البطيئة في الحال، وأصدر أمره إلى قوّة العجلات بالهجوم والانتقام . . ورأى سيكنترع سيلاً عمرمًا من العجلات ينقضّ على رماته البواسل من كلّ مكان، وينشب فيهم أظافره الحادة . وارتاع الملك أيّما ارتياح، وصاح قائلاً بغضب شديد:

.. إنّ قوّاتنا التي نهكها النضال الدائم، لا يمكن أن تثبت وحدها لهذا السيل من العجلات . .

ثمّ التفت إلى قائد جيشه، وقال بعزم وإصرار:

.. سنخوض معركة فاصلة بالقوّة التي بين أيدينا، فمرّ ضباطنا البواسل بالهجوم بفرقهم، وبلعنهم رجائي أن يقوم كلّ بواجبه جندياً من جنود طيبة الخالدة .

وكان سيكنترع يدرك الهول الذي ينتظره وجيشه، ولكنّه كان رجلاً بأسلاً عظيم الإيمان، فلم يتردّد لحظة ونظر إلى السماء وقال بصوت صافي النبرات: «أيّها الربّ آمون لا تنس أبناءك المخلصين» . ثمّ أصدر أمره إلى قوّة العجلات المحيطة به بالهجوم، واندفع أمامها ليلقى عدوّه . .

وبدأت معركة من أشدّ المعارك هولاً، علا فيها الصراخ والصهيل وتطايرت الخوذ، وتساقطت الرؤوس . وجرت الدماء ولكن لم تُجدّ بسالة المصريين شيئاً في مقاومة العجلات السريعة المدرّعة، ففتكت بهم فتكًا ذريعًا، وحصدتهم حصداً كالهشيم، وقاتل سيكنترع قتالاً مجيداً غير يائس ولا متخاذل، وبدا

## كفاح طيبة ٣٣٩

سمع صوتًا يصيح قائلاً: «أيها الرفاق تعالوا.. هاكم جثة مولانا». فجرى صوبه والمشعل في يده. فزعت عيناه من الهول الذي ستراه، ولما بلغ مكان الجثة قرّت من فمه صرخة مدوية، امتزج فيها الألم بالغضب. رأى ملك طيبة كتلة مشوهة من لحم ممزق وعظام بارزة ودم مسفوح والتاج ملقى إلى جانبه، فصاح غاضبًا: «يا للغريان الدتية.. لقد فعلوا ما قد تفعل الذئاب بجثة الأسد الهصور، ولن يضيرك أن يمزقوا جسدك الطاهر، فقد حيت كما ينبغي للملك من ملوك طيبة أن يحيا، ومّت مية البطل الباسل..». وصاح فيمن حوله تمن أذهلهم الحزن: «أحضروا الهودج الملكتي.. هيا يا نيام» وأق بعض الضباط بالهودج، واشتركوا جميعًا في رفع الجثة ووضعوها عليه، ورفع بيبي تاج مصر المزودج ووضعها إلى جانب رأس الملك، ثم سجدى الجثة، وحملوا الهودج في صمت أليم، وساروا به نحو المعسكر المهيض الجناح، ووضعوه في الخيمة التي فقدت حاميتها وسيدها إلى الأبد.. وكان جميع القواد والضباط الذين نجوا من الموت يقفون حول الهودج منكمسي الأذقان، ترهقهم كآبة، ويغشى أبصارهم حزن عميق. فالتفت إليهم بيبي بصوت قويّ النبرات:

- أفيقوا أيها الرفاق ولا تستسلموا للحزن، فليس الحزن بمعيد سيكنزع إلينا، ولعلّه ينسينا واجبنا نحو جثته ونحو أسرته ونحو وطننا الذي قُتل من أجله، لقد وقعت الواقعة، ولكنّ المأساة لم تتمّ فصولها، فينبغي أن نثبت في مراكزنا حتى نؤدّي واجبنا كاملاً. فرجع الرجال رءوسهم، وأصرّوا بأسنانهم صرير العزم والقوة، ونظروا إلى قائدهم نظرة كأنما يعاهدونه بها على الموت، فقال بيبي:

- إنّ الشجاع الحقّ من لا تنسيه الكوارث واجبه، وقد يكون من الحقّ أن نقرّ بأننا خسرنا موقعة طيبة، ولكنّ واجبنا لم ينته بعد، وعلينا أن نثبت أنّنا أهل للمية الشريفة، كما كنّا للحياة الشريفة.

فصاحوا جميعًا قائلين:

- لقد ضرب لنا مليكننا المثل الأعلى، وسوف نتبع أثره.

الحياة، وعزموا جميعًا على الاستشهاد في المكان الذي ارتوى بدماء مليكنهم الباسل، فما زالوا يسقطون رجالًا إثر رجل حتى أدركهم المساء، ولبس الكون الحداد، فكفّ الفريقان عن القتال، وقد نهكهم التعب وأخذتهم الجراح..

- ١١ -

وخرج الجنود بالمشاعل يبحثون عن قتلاهم وجرحاهم، وكان القائد بيبي واقفًا إلى جوار عجلته بعد أن نال الإعياء منه كلّ منال، يتّجه قلبه إلى الجثة التي خضبت دماؤها الزكية الميدان، فسمع صوت قائد يقول:

- يا للعجب.. كيف انتهت الموقعة العظيمة بمثل هذه السرعة.. من يصدّق أنّنا فقدنا جلّ قوّاتنا في نهار واحد.. كيف أمكن التغلب على جنود طيبة الأشداء...!؟

فقال له صوت آخر كان من الإعياء كالحشرة: - إنّها العجلات التي لا تقاوم.. لقد حطمت آمال طيبة جميعًا..

فناداهم القائد بيبي قائلاً:

- أيها الجنود... هل أدّيتم ما عليكم نحو جثة سيكنزع؟... هلمّوا نبحث عنها بين الجثث..

فسرت شعيرية في نفوسهم المتهالكة، وأخذ كلّ منهم مشعلًا وتبعوا بيبي صامتين يعقد ألسنتهم حزن عميق، وتفرّقوا في البقعة التي سقط فيها الملك، تصكّ آذانهم أنّات الجرحى وهذيان المحمومين، وكان بيبي لا يكاد يرى ما بين يديه من الحزن والألم، ولا يكاد يصدّق أنّه يبحث حقًا عن جثة سيكنزع، ويكبر عليه أن يسلم بأنّ موقعة طيبة قد انتهت هذه النهاية الأسيفة، وكان يقول والدموع تطفّر من عينيه: «اشهدي يا أرض كتبوس واعجبي.. إنّنا نبحث عن جثة سيكنزع بين كئبانك.. ألا رفقًا بها، ولتكوني فرأشا وثيرًا لأضلعها المصابة، ألم تسقط فداءً لك ولأرض طيبة!.. وهاها يا سيدي.. من لطيبة بعدك؟.. من لنا غيرك؟.. وظلّ في حيرته قليلًا ثمّ

فتهلّل وجه بيبي وقال بسرور:

- حيثم من جنود بواسل، والآن أصغوا إليّ؛ لم يبق من جيشنا إلا أقله، ولكننا سنخوض المعركة غدًا على رءوسهم حتّى آخر رجل، وسيكون من جرّاء قتالنا أن نعوق تقدّم أبوفيس حتّى تنهتاً فرص النجاة لأسرة سيكنترع، فما دام أفراد هذه الأسرة على قيد الحياة، فالحرب بيننا وبين الرعاة لن تنتهي، وإن سكنت في الميادين إلى حين. سأفارقكم بعض يوم لأؤدّي واجبي نحو هذه الجثّة ونحو ذرّيّتها الباسلة، ثمّ أعود إليكم قبل مطلع الفجر، لنموت معاً في ميدان القتال.

طلب منهم أن يصلّوا جميعاً أمام جثّة سيكنترع، فجنّوا وجثا واستغرقوا في صلاة حارّة، وختم بيبي صلاته قائلاً:

- أيّها الربّ الرحيم، تغمّد مليكننا الباسل برحمتك في جوار أوزوريس، واكتب لنا مية سعيدة كميته. كي نلقاه في العالم الغربيّ بوجوه لا يجزّئها لقاؤه.

ثمّ نادى بعض الجنود وأمرهم بحمل الهودج إلى السفينة الفرعونية، والتفت نحو رفاقه وقال:

- أستودعكم الربّ وإلى اللقاء القريب.

سار خلف الهودج حتّى وضعوه في المقصورة، ثمّ قال لهم:

- حين تبلغ بكم السفينة طيبة، سيروا به إلى معبد آمون، وضعوه في البهو المقدّس، ولا تجيبوا من يسألكم عنه حتّى أوافيكم.

وعاد القائد إلى عجلته، وأمر السائق بالمسير إلى طيبة، فانطلقت بهما تنهب الأرض نهباً..

★ ★ ★

وكانت طيبة تسلم جفونها للنوم، تحت ستار الظلام الذي يغشى معابدها ومسلماتها وقصورها، في غفلة عمّا يقع خارج أسوارها من الأحداث الجسام، فاتخذ سبيله رأساً إلى القصر الفرعونيّ، وأعلن الحرس حضوره، فجاء رئيس الحجاب على عجل، وردّ تحيته، وسأله بقلق:

- ماذا وراءك أيّها القائد؟

فقال بيبي بلهجة دلّت على الجزع:

- ستعلم كلّ شيء في حينه أيّها الحاجب الأكبر، والآن استأذن لي في المشول بين يدي وليّ العهد..

فغادر الحاجب الحجره غير مرتاح البال، ثمّ عاد بعد زمن قصير وهو يقول: «إنّ صاحب السموّ ينتظرك في جناحه الخاصّ». فمضى القائد إلى جناح وليّ العهد وأدخل عليه في بهو الاستقبال. وسجد بين يديه، وقد أدهشت الزيارة غير المتوقّعة الأمير. فلمّا رفع بيبي رأسه ورأى الأمير وجهه الشاحب، وعينيه الذابلتين، وشفتيه الممتعتين، ساوره القلق، وسأل كما سأل حاجبه من قبل قائلاً:

- ماذا وراءك أيّها القائد بيبي؟... فلا بدّ من أمر جلل دعاك إلى مفارقة الميدان في هذا الوقت؟..

فقال القائد بصوت دلّت لهجته على الحزن والكآبة:

- مولاي، ما تزال الآلهة - لأمر تخفي عليّ حكمته - غاضبة على مصر وأهلها..!

فوقع هذا الكلام من نفس الأمير موقع اليد القابضة من العنق، وأدرك ما يدلّ عليه من الأخبار المحزنة فتساءل في قلق وجزع:

- هل أصيب جيشنا بكارثة؟... هل يطلب والدي مدداً؟.

فأطرق بيبي وقال بصوت خافت:

- وأسفاه يا مولاي، لقد فقدت مصر راعيها مساء هذا اليوم الكئيب.

ففرغ الأمير كاموس قائماً، وصاح به:

- هل أصيب والدي حقاً؟.

فقال بيبي بصوته الثقيل الحزين:

- سقط مليكننا سيكنترع وهو يقاتل على رأس جنوده قتال الأبطال الجبابرة. وانطوت تلك الصفحة النبيلة الخالدة من سجلّ أسرتكم العظيمة.

فقال كاموس وهو يرفع رأسه:

- ربّاه... كيف تمكّن لعدوك من ابنك المخلص... ربّاه ما هذه الكارثة التي تنزل بمصر.

ولكن ما جدوى التشكي؟ ليس هذا وقت البكاء. لقد سقط والدي فينبغي أن أحلّ محله... صبراً أيّها

## كفاح طيبة ٣٤١

فقال كاموس بصوت منتهج:

- جدّاته... إنّ قلبك لذكيّ الشعور، صادق  
الحدس... فليثبت الله قلوبك، ويعنك على تحمل  
الخبر الفاجع... لقد قتل أبي سيكنرع في الميدان،  
وخسرنا المعركة...

وعطف رأسه عنقه حتى لا يرى آلامه، وقال  
وكأنه يحدث نفسه المكلمة:

- قتل أبي وهزمت جيوشنا، وقضي على قومنا أن  
يعانوا الآلام جميعاً، من أدنى الجنوب إلى أقصى  
الشمال...

ولم تتالك توتيشيري فزفرت زفرة حرى كأنما تجت  
بها فئات كبدها، ووضعت يدها على قلبها وهي  
تقول:

- ما أشدّ جرح هذا القلب العجوز...

أما أحوطي وستكيموس فقد ثقل رأسهما، ووكفت  
أعينهما دمعاً ساخناً، ولولا وجود القائد بينهما لانتجتا  
انتحاباً عالياً.

ووقف بيبي وسط ذلك الحزن الشامل صامتاً،  
مجروح الصدر، مضعضع الحواس جميعاً، وكان يجزئه  
أن يضيع الوقت سدى، وخشي أن تفلت من أسرة  
مولاه فرصة الهرب فقال:

- يا ملكات أسرة مولاي كاموس، تجلّدن وتصبرن،  
فإنّه وإن كان الخطب أكبر من العزاء، فإنّ الساعة  
أولى بالحكمة وعدم الاستسلام للحزن، أستحلفكن  
بذكرى مولاي الشهيد أن تكفكن دموعكن، بالصبر،  
وتحزمن أمتعتكن، فليست طيبة بالشورى الأمين  
غداً...

فسألته توتيشيري قائلة:

- وجئت سيكنرع؟

- فلتطمئن نفسك يا مولاتي، سأؤدّي واجبي نحوها

كاملاً...

فسألته مرة أخرى:

- وإلى أين تريد أن نذهب؟

- مولاتي، ستقع مملكة طيبة بين يد الغزاة إلى

حين، ولكن لنا وطن آخر أمين في بلاد النوبة، ولن

القائد بيبي حتى أعود إليك في لباسي الحربيّ.

ولكنّ القائد بيبي قال بسرعة:

- لم أجيء إلى هنا يا مولاي لأدعوك إلى القتال، لقد  
قضى الأمر وأسفاه...

فحدجه بنظرة حادة قاسية، وسأله:

- ماذا تعني؟

- لا فائدة ترجى من القتال...

- هل قضي على جيشنا الباسل؟

فأطرق بيبي وقال بحزن شديد:

- خسرنا المعركة الفاصلة التي كنّا نرجو أن نحزّر

بها مصر، وتخطمت قوة جيشنا الأساسية، ولن ترجى

فائدة حقّة من القتال، ولن نقاتل إلا لكي نفسح

لأسرة مليكننا الشهيد وقتاً للنجاة...

- أتريد أن تقاتل حتى نفرّ فرار الجبناء، تاركين

جنودنا وبلادنا فريسة للعدوّ؟

- بل فرار الحكماء الذين يقدرّون العواقب وينظرون

إلى المستقبل البعيد، ويسلمون بالهزيمة إذا وقعت، ثمّ

ينسحبون من الميدان إلى حين، ثمّ لا يلبثون أن

يجمعوا قواهم المبعثرة ويحملوا على عدوّهم عدواً على

بدء... مولاي تفضّل وادع ملكات مصر، وليكن

الأمر شورى...

ودعا الأمير كاموس حاجباً، وأرسله في طلب

الملكات، ومضى يتمنّى جيئةً وذهاباً يتناوبه الحزن

والغضب، والقائد واقف بين يديه لا ينس بكلمة،

وجاءت الملكات: توتيشيري وأحوطي فستكيموس

مسرعات، وحين وقعت أبصارهنّ على القائد بيبي وقد

انحنى لهنّ تحيةً، ورأين الكدر مرتسماً على وجه كاموس

بالرغم من تظاهره بالهدوء، شعرن بخوف

واضطراب، وزاغت أبصارهنّ، وكان كاموس جزعاً

فدعاهنّ إلى الجلوس، وقال:

- سيّداتي... دعوتكنّ لأقصّ عليكم أنباء أسيفة...

وترثت لحظة كي لا يفاجئهنّ، ولكنهنّ فزعن،

وقالت توتيشيري بقلق:

- ماذا وراءك أيها القائد بيبي؟.. كيف حال مولانا

سيكنرع؟



فأحسن القائد البائس بندى الأمل، وانتعش فؤاده بالفرح، ووجم كاموس ولم ينبس بكلمة، فقال بيبي وكان يكذب أول مرة في حياته:

- أما أنا يا مولاي فسألتكم بكم بعد حين.. فأمامي واجبان مقدّسان: أن أعنى بجنته مولاي، وأن أشرف على تحصين أسوار طيبة، لعلها بالمقاومة الناجحة تسام على التسليم بأحسن الشروط.

ولم تتالك الملكات فأجهشن بالبكاء، وغلب التأثر بيبي فقال:

- ينبغي أن نواجه محتتنا بشجاعة، وليكن لنا في سيكننرغ أسوة حسنة، ولتذكر دائماً يا مولاي أنّ العجلات الحربية هي سبب هزيمتنا، فإذا كررت يوماً على العدو، فلتكن العجلات عتادك. والآن سأذهب لأدعو العبيد إلى حمل الثمين الغالي من ذهب القصر وسلاحه، ممّا لا غنى عنه..

نطق القائد بيبي بهذه الكلمات، ثم ذهب..

- ١٢ -

وانبعثت في القصر حركة نشاط شاملة، وأضيئت حجراته جميعاً، ومضى العبيد يحملون الثياب والسلاح وصناديق الذهب والفضة، ويذهبون بها إلى السفينة الفرعونية في سكون محزن، تحت رقابة رئيس الحجاب، وكانت الأسرة الفرعونية في أثناء ذلك تنتظر في حجرة الملك كاموس، تشملها الكتابة والصمت، ينكس أفرادها النبلاء رعوسهم، مظلمة أعينهم من اليأس والحزن، ولبثوا على حالهم ما لبثوا، حتى دخل عليهم الحاجب حور، وقال بصوت خافت:

- انتهى كلّ شيء يا مولاي.

ووقعت كلمة الحاجب من أذانهم موقع السهم من العنق، فخفقت قلوبهم، ورفعوا وجوههم ذاهلين، وتبادلوا نظرات القنوط والكمند. أحقاً انتهى كلّ شيء.. وهل أزلت ساعة الوداع؟.. أهذا آخر العهد بالقصر الفرعوني، وطيبة المجيدة، ومصر الخالدة؟.. وهل يحرم عليهم غداً أن يروا مسألة أمنمحت، ومعبد آمون، والسور ذا الأبواب المائة؟.. أتضيق بهم

يطمع الرعاة في النوبة لأن الحياة فيها جهاد يشقّ على نفوسهم المترفة، فلتكن لكم مهجراً أمناً، لكم فيه أنصار من قومنا وأتباع من جيراننا، وهنالك يعاودكم التفكير في هدوء، فترعون أمل المستقبل الجديد، وتتعهّدونه بالصبر والبسالة، حتى يأذن الربّ فيشقّ سنا النور البهيج ظلمات هذا الليل الدامس..

وكان كاموس يصغي إليه في هدوء وسكينة، فقال له:

- فلتهاجر الأسرة إلى بلاد النوبة، أما أنا فأوثر أن أسير على رأس جيشي أقاسمه حظّه في الحياة أو الموت. فساور القلق القائد، ونظر إلى مولاه بعين رجاء وتوسّل، وقال:

- مولاي، لن أستطيع أن أثنيك عن إرادة تريدها، فلأكل الأمر إلى حكمتك، ولا أسألك إلا أن تصغي إليّ قليلاً..

مولاي، إنّ القتال اليوم عبث ضائع، ومعناه الهلاك المين، ومصر لن تنتفع بموتك، ولا موتك بمخفف عنها بعض آلامها، ولكنّها بغير شكّ تخسر بفقدان حياتك خسارة لا تعوّض.. إنّ كلّ أمل في النجاة منوط بحياتك، فلا تحرم مصر الأمل بعد أن حرمت السعادة.. فاجعلوا «نباتا» هدقكم، وشدّوا إليها الرجال، وهناك يتسع لكم المجال للتفكير والتدبير وإعداد وسائل الدفاع والكفاح. لن تنتهي هذه الحرب كما يتمنى أبوفيس. فلا يتسنى لشعب كشمينا عاش سيّداً كريماً، أن يطرق على الدلّ طويلاً. ولسوف تحرّر طيبة يا مولاي في تاريخ قريب: ولن تقف بك الحماسة عند حدّ، فتطارد الرعاة القذرين حتى تطردهم من وطنك.. إنّ سنا ذلك اليوم الأغرّ يتخايل لعينيّ في ظلمات الحاضر الكثيب، فلا تتردد واعزم عزيمة الحكمة. والآن وقد بينت لك نهج الحقّ، فاقض بما أنت قاضٍ..

وكفّ بيبي عن الكلام، وما كفّت عيناه عن التوسّل والرجاء، وتحوّلت توتيشيري إلى كاموس، وقالت بصوت خافت:

- لقد نطق القائد بالحقّ فاتبع قوله.

## كفاح طيبة ٣٤٣

أحوتبي، ثم الملكة ستكيموس، ويتبع الجميع الحاجب حور. وهبطوا الأدراج إلى ممر الأعمدة، وانتهوا إلى الحديقة، فسأيرهم على الجانبين عبيد يحملون المشاعل ويضيئون لهم السبيل، فبلغوا السفينة، وانتقلوا إليها واحداً إثر واحد حتى شملتهم جميعاً. وحمّ الفراق، فألقوا نظرة الوداع، تاهت أعينهم في الظلام المخيم على طيبة كأنه يلفها في ثوب حداد، فتقطعت قلوبهم، وتصدعت صدورهم وعصر ألم الحنين قلوبهم الكسيرة وشملهم الصمت فكأنهم ذابوا في الظلام ووقف بيبي بين أيديهم لا ينبس بكلمة، ولا يجرؤ على خرق هذا الصمت الحزين، حتى تنبه الملك لوجوده، فتهد وقال له:

- أذفت ساعة الوداع.

فقال بيبي بصوت متهدج حزين، وهو يغالب عواطفه مغالبةً شديدة:

- مولاي، وددت لو أدركني الموت قبل أن أقف موقفي هذا، فليكن عزائي أنكم تسيرون في سبيل الربّ آمون وطيبة المجيدة، وأرى أنّ ساعة الوداع قد أذفت حقاً كما تقول يا مولاي، فسبروا يحفظكم الربّ برحمته، ويكلأكم بعين رعايته، وإني أرجو أن يمتدّ بي العمر حتى أشهد يوم عودتكم كما شهدت يوم هجرتكم، كي يسعد قلبي برؤية طيبة العزيزة مرة أخرى. . الوداع يا مولاي. . الوداع يا مولاي. .

- بل قل إلى الملتقى. .

- نعم إلى الملتقى يا مولاي. .

واقترب من مولاه وقبل يده، وكان ما يزال يغالب عواطفه كي لا يبيل يداً كريمة بدمعه. وقبل يد توتيشيري، والملكة أحوتبي، والملكة ستكيموس، ووليّ العهد أحس، وشقيقته الأميرة نيفرتاري، ثم شدّ على يد الحاجب حور بمودة، وحتى رأسه للجميع، وغادر السفينة في سكون وذهول. .

وعلى أدراج الحديقة وقف يشاهد بدء تحركها وقد ضربت المجاديف في الماء، وأخذت تتعد عن الشاطئ على مهل وتؤدة كأنها تحسّ وطأة حزن من عليها، وقد تجمّعوا على حائطها، تودّع أرواحهم الخافقة طيبة. .

طيبة اليوم، وتفتح أبوابها غداً لأبوفيس يعتلي عرشها ويتحكّم في الرقاب؟! كيف يغدو الهداة ضالّين، والسادة فارّين، وأصحاب الدار مهاجرين؟.

ورأهم كاموس لا يتحرّكون، فقام في تناقل وتمتم قائلاً بصوت خافت: «هلمّوا نودّع حجرة أبي». فقاموا قومه، وسارت الأسرة في خطى ثقيلة متخاذلة إلى حجرة الملك الراحل، ووقفوا أمام بابها المغلق متهيّبين لا يدرون كيف يقتحمونه دون إذن، ولا كيف يلقونها مهجورة. وتقدّم حور خطوة وفتح الباب، فدخلوا تسبقهم أنفاسهم المترددة وزفرائهم الحارّة، وعلقت أبصارهم في رفق وحنان بالديوان العظيم، والمقاعد الوثيرة، والمناضد الأنيقة، وهامت أرواحهم حول مصلى الملك، والمحراب الجميل الطاهر وقد نحتت عليه صورته جاثياً أمام الربّ آمون، فخالوه جميعاً جالساً على ديوانه، متكئاً على وسادته، يتسم إليهم ابتسامته الحلوة، ويدعوهم إلى الجلوس، وأحسوا جميعاً روحه تغمرهم وتطوف بهم، فحلقت أرواحهم الحزينة في سماء الذكريات، ذكريات الأمومة والزوجية والبنوة، اختلطت آثارها بتهدم العميق ودمعهم المسيل. .

ثمّ تنبه كاموس إلى القلوب المنصهرة من حوله، فدنا من صورة أبيه وانحنى لها بإجلال، ولثم جبينها، وتنحى جانباً، فتقدّمت توتيشيري ومالت على الصورة الحبيبة، وقبّلتها قبلة أودعتها آلام قلبها الشاكل المحزون، وودّعت الأسرة جميعاً صورة ربّها المفقود، ثمّ مضوا إلى الخارج في صمت حزين كما دخلوا. .

ورأى كاموس الحاجب حور في انتظارهم، فسأله قائلاً:

- وأنت يا حور؟. .

- إنّ واجبي يا مولاي أن أتبعكم كالكلب

الأمين. .

فوضع الملك يده على كتفه شاكرًا، وتقدّموا جميعاً في الرداهات ذات الأعمدة، يسير بين أيديهم القائد بيبي، ويمشي كاموس في طليعة أسرته، يتبعه الأميران الصغيران أحس ونيفرتاري، فتوتيشيري، فالملكة

كبيرة. وتقدّمهم القائد إلى معبد آمون، وهناك حملوا العرش مرةً أخرى، وساروا وراء قائدهم تسبقهم بعض الكهنة إلى البهو المقدّس. وفي المثوى المقدّس، قريباً من قدس الأقداس، رأوا الهودج الفرعونيّ محاطاً بالجنود والكهنة، فوضعوا العرش إلى جانبه، وقد علت الدهشة وجوه الكهنة الذين لم يعرفوا من الأمر شيئاً. وأمر بيبي الجنود بالانصراف، وطلب حضور الكاهن الأكبر، وغاب الكاهن زمناً يسيراً، ثمّ عاد يتبع كاهن آمون الذي قدّر خطر الزيارة الليلية فأتى مسرعاً ومدّ يده للقائد وهو يقول بصوته الهادئ:

- طاب مساؤك أيّها القائد.

فقال بيبي بلهجة دلّت على الاهتمام والجزع:

- وطابت لياليك يا صاحب القداسة. هل تأذن لي بالانفراد بقداستك؟ وسمع الكهنة قوله فانسحبوا سريعاً على تطلّهم وقلقهم حتّى خلا المكان. وتنبّه الكاهن الأكبر للهودج والعربة، فبدأ الانزعاج على وجهه، وقال للقائد:

- ما الذي أتى بالعربة إلى هنا؟.. وما هذا الهودج؟.. وكيف تركت الميدان في هذه الساعة من الليل؟..

فقال بيبي:

- أصغ إليّ يا صاحب القداسة، فما من فائدة ترجى من التأتّي، أو من تهوين شأن ما نحن فيه، ولكن ينبغي الإصغاء إليّ حتّى النهاية لأفصي إلى قداستكم بما عندي، وأمضي إلى واجبي:

لقد وقعت واقعة ستذكر إلى الأبد، مصحوبة بالألم والفخار معاً، ولا عجب فقد خسرتنا موقعة مصر، وقتل ملكنا وهو يدافع عن وطنه، ومزّقت الأيدي الغادرة جثته الطاهرة، واضطّرت أسرتنا الملكية إلى هجر طيبة، وسيصحو أهل طيبة فلا يجدون أثراً للملوكهم ولا لمجدهم..

مهلاً يا صاحب القداسة مهلاً.. لقد انتصف الليل أو كاد، وواجبي يهيب بي أن أعجل. إنّ هذا الهودج يحمل جثة ملكنا سيكتسرع وتاجه، وإليك عرشه. هذا تراثنا القوميّ أعهد به إليك يا كاهن

وأقلت منه زمام نفسه فبكى.. واستسلم للبكاء حتّى انتفض جسمه. وما زال يتبع السفينة العزيزة وهي تغوص في الظلمة حتّى ابتلعها الليل.. ثمّ تنهّد من أعماق صدره، وليث على حاله لا يدري كيف يبرح الشاطئ، وقد أحسّ وحشة كأنه هوى حياً إلى قبر عميق. ثمّ تحوّل عن موقفه ببطء وعاد إلى القصر بخطى بطيئة متناقلة، وكان يتمتم قائلاً: مولاي.. مولاي.. أين أنت؟ أين أنتم يا سادتي؟.. يا أهل طيبة، كيف تهجعون والموت يجلّتي فوق رقابكم؟.. هبّوا.. لقد قتل سيكتسرع وهاجرت أسرته إلى أقصى الأرض وأنتم نيام.. هبّوا.. لقد خلا القصر من سادته.. وودّع طيبة ملوكها.. وسيعتلي عرشكم غداً عدوّ لكم. كيف تنامون؟.. هبّوا.. إنّ الذلّ وراء الأسوار..

ثمّ أخذ القائد مشعلاً، وسار في ردهات القصر حزيناً واجماً يتنقل من جناح إلى جناح، فوجد نفسه أمام بهو العرش، واتّجه نحوه واجتاز عتبه وهو يقول:

«معدرة يا مولاي عن دخولي دون إذن» وتقدّم بخطى متخاذلة على ضوء مشعله بين صفّي المقاعد التي كانت تعقد عليها الأمور وتبرم، إلى أن انتهى إلى عرش طيبة، وجثا على ركبته، ثمّ سجد وقبّل الأرض بين يديه، ثمّ وقف أمامه حزيناً، وضوء المشعل ينعكس على وجهه أحمر مرتعشاً، وقال بصوت جهير:

- حقاً لقد انطوت صفحة جميلة خالدة، وستكون نحن الموقّ غداً أسعد أهل هذا الوادي الذي لم يعرف الليل أبداً، أيّها العرش.. يحزنني أن أبلغك أنّ صاحبك لن يعود إليك، وأنّ وريثك مضى إلى بلد بعيد، وأما أنا فلن أسمح بأن تكون منزل وحي الكلمات التي تشقي مصر غداً، فلن يجلس عليك أبوفيس، ولتطو كما انطوى سيّدك..

وكان بيبي قد اعتزم أن يدعو جنوداً من حرس القصر، ليحملوا العرش إلى حيث يريد.

## كفاح طيبة ٣٤٥

وقع من أحداث، وما صار إليه الجيش ومليكه. وأخبرها بهجرة الأسرة المالكة إلى مكان مجهول - ولم يذكر النوبة لحكمة يريدتها - ونصح لها أن تجمع ما تستطيع من ماله، وتفرّ وابنها ومن يتبعها من الأهل والجيران إلى خارج طيبة، أو إلى الأحياء الفقيرة، حيث يجتلبون بعامة الشعب ويشاركونهم مصائبهم. ثم باركها وبارك ابنه، وختم كتابه بقوله: «سنتقي حتياً يا أبانا هنا أو في العالم السفلي» وأعطى الكتاب سائقه، وكلفه أن يذهب به إلى قصره الريفيّ ويسلمه إلى زوجته، ثم قفز إلى عجلته وألقى نظرة أخيرة على معبد آمون والمدينة الهاجعة الغارقة في الظلام، وهتف من صميم قلبه: «رباه.. احفظ بلديك.. السوداع يا طيبة..».

ثم أرخى العنان لجواده، فانطلقا به يعدوان في طريق الشمال.

- ١٤ -

وبلغ القائد المعسكر بعد منتصف الليل، وكان الجيش الجريح نائماً، فمضى إلى خيمته وارتقى على سريره في إعياء وهو يقول: «فلنستجم قليلاً لنموت ميتة تليق بقائد قوات سيكننرع». وأغمض جفنيه. ولكنّ بعض أخيلة قامت غشاء كثيفاً بين رأسه وبين النوم، فتخايلت له أشباح الأهل التي ابتلي بها في نهاره وليله، فرأى الرماة وهم يلقون العجلات المنصبة عليهم كالسيل، ومولاه سيكننرع يسقط صريعاً والرمح في جانبه، وكاموس يثور غاضباً، ثم يسلم محزوناً، وتوتيشيري تتنّ من جرح قلبها العجوز، ووداع أبانا وأحمس الصغير، وتلك السحب المتلبدة التي تتجمع في أفق الجنوب.. ثم اختلطت الأخيلة فيما يشبه الموج، ورقّت وتهافتت بغير شعور منه، فانساب النوم إلى جفونه.

واستيقظ حين الفجر على صوت النفير، فقام يحسّ نشاطاً غريباً لا يتفق وما لاقاه من إرهاق ونصب ونوم خفيف، ويرح خيمته إلى الخارج، فسمع في سكون الفجر حركة تنتفض في أنحاء المعسكر، ورأى أشباح

آمون. لكي تحفظ الجثة وتودعها مكاناً أميناً، وتحفظ هذه المخلفات في مستقرّ حريز.. . والآن أستودعك الربّ يا كاهن طيبة، التي لن تموت وإن أئختتها الجراح.

وكان الكاهن قد همّ أن يقاطع القائد من فرط انزعاجه، ولكنّ القائد لم يمكّنه، فصمت صمماً ثقيلاً، وجد جوداً مطلقاً، فكأنه فقد حواسه جميعاً. وأدرك بيبي ما يعانيه الرجل من الدهول والألم، فقال: - إني أستودعك الربّ يا صاحب القداسة، مطمئناً إلى أنك ستقوم بواجبك كاملاً نحو المخلفات العزيزة المقدسة..

وتحوّل القائد عنه إلى الهودج. وانحنى إجلالاً حتى لثم غطاءه، وأدى له التحية العسكرية، ثم تقهقر إلى الوراء وقد حجبت مدامعه الهودج عن عينيه، حتى بلغ السلم المؤدي إلى هيو الأعمدة، فأدار ظهره وسار مسرعاً لا يلوي على شيء إلى خارج المعبد، وشعر بأنه قد آن له أن يلحق بضباطه وجنوده، ليهجم معهم الهجوم الأخير كما عاهدتهم.

على أنّ استغراقه في واجباته لم ينسه أمراً ما تخايل لذاكرته حتى أحسّ له غمراً على قلبه لا يسكن، ذكر أمرته، أبانا وزوجه وابنه الصغير أحسن، وأهله جميعاً الذين تضمّمهم مزرعته في ضواحي طيبة. ما أطول السفر.. . إنّه لا يستطيع قطع الطريق إلى مزرعته في الليل، ولو فعل ما استطاع أن يفي بعهده لجنوده ولظنّوه هارباً. فسيلقى حتفه دون أن يلقي نظرة وداع على وجه أبانا وأحمس.. . وكان هنالك ما هو أثقل على قلبه من هذا، وكان يتساءل محزوناً: هل يترك الرعاة صاحب أرض في أرضه، أو صاحب مال لماله؟، سيشرّد السادة غداً أو يقتلون في ديارهم، وستغدو أبانا وأحمس بلا نصير.. وضاق الرجل، ونازعه قلبه طويلاً إلى بيته وآله، ولكنّ قلبه كان في سبيل، وإرادته الحديدية في سبيل سواه.. . وتهدّ أسفاً وهو يقول: «فلاكتب لها كتاباً..» ويسط على عجلته ورقة وكتب إلى السيدة أبانا يقرئها السلام ويستودعها الربّ، ويدعو لابنه بالخلّاص والسعادة، ثم قصّ عليها ما

## ٣٤٦ كفاح طيبة

عدوه، فثبت على قلبه حيث يرفرف علم الهكسوس على أبوفيس وكبار قواده - وبينهم قاتل سيكنرع بغير شك - فجعله هدفه، وأمر حرسه أن يتبعه ليدافع عن ظهره. ثم أمر سائقه بالاندفاع، وكانت حركة مفاجئة لم يتوقعها العدو الحذر نفسه، وتفاوت عجلته مما تعرض لها من عجالات، وأرسلت سهامها إلى قلوب الرماة، ومضت تدنو من أبوفيس حتى فطن الآكثرون إلى غرضها، فتصايحوا غضباً وخوفاً، وقاتل بيبي ومن معه قتال من جنّ بحبّ الموت، فتدلّ عليهم الموت طويلاً حتى شقوا الصفوف إلى جبهة أبوفيس وقواده، وهناك وجد بيبي نفسه محاطاً بفرسان العدو من كلّ جانب، ورأى مئات من الرجال يحولون بين عجلته وبين الملك، فقاتل قتالاً عنيفاً والدماء تسيل من وجهه وعنقه وساقيه، حتى ظنّ عدوه أنه شيء لا يموت، وتكالت عليه السهام والرماح، والسيوف والخناجر، فسقط كما سقط سيكنرع لاحقاً بحرسه البواسل، وقد ضجّ الجيش من هجمته الهائلة. وكان القتال - في الميدان - في نهايته، والمصريون يلفظون آخر أنفاسهم. فأمر أبوفيس بالابتعاد عن جثة الرجل الذي انقضّ عليه خلال صفوفه المتراسة! ونزل من عجلته وترجل دانيًا منه، حتى وقف على رأس الجثة، وجعل يتأمل السهام المنخرسة في كلّ قطعة منه كشعر القنفذ؛ ثم هزّ رأسه الكبير ضاحكًا؛ وقال لمن حوله:

- لقد مات ميتة جديرة بأشجع رجالنا ..

- ١٥ -

واستيقظت هيئة كعادتها لا تدري عما سطر لها في لوح الأقدار شيئًا، وإذا بالقرويين يحملون الجرحى آتين من الميدان، فتجمع الناس حولهم، وتكاثروا بالأسئلة عليهم، وروى لهم هؤلاء الأنباء على حقيقتها فقالوا لهم إن الجيش هُزم وفرعون قُتل، وهاجرت أسرته إلى مكان مجهول، وذهل الناس وتبادلوا نظرات الإنكار والانزعاج، وذاع الخبر في المدينة فأشاع فيها الاضطراب والتقلقل، ففارق الناس ديارهم، وهرعوا إلى الطرق والأسواق، وتجمعوا في دور الحكومة ومعبد

رجال تقبل نحوه عرف من أصواتهم ضباطه البواسل المخلصين، فاستقبلهم استقبالاً حارًا، وكانوا قد قاموا في أثناء غيبته بعمل عظيم، فقال رجل منهم:

- أرسلنا الجرحى في قوارب إلى طيبة، وكذلك المصابين إصابات خفيفة، لكي ينضموا إلى قوات الدفاع عن أسوار طيبة. وما من شك في أن طيبة ستحسن الدفاع عن نفسها حتى تنال أحسن الشروط.

وقال له ضابط آخر شديد الحماسة:

- إننا - معشر أهل الجنوب - نهون علينا الحياة في أوقات المحن، فما من رجل منا إلا نفذ صبره في انتظار المعركة الأخيرة.

وقال ثالث:

- ما أشهى الاستشهاد إلى نفوسنا في هذه البقعة المقدسة، التي ارتوت بدماء مليكنا الزكية ..

فأثنى بيبي عليهم جميل الثناء، وقصّ عليهم ما وقع في طيبة من هجرة الأسرة الفرعونية، ولكنّه لم يذكر لأحد المكان الذي قصدت إليه. وقد بلغ التأثر بالضباط مبلغًا عظيمًا، وهتفوا لكاموس الملك، وأحس وليّ عهده، والأمّ المقدسة توتيشيري ..

وولّت ظلال الظلام، وانعكس الضياء الوضاح على سماء الأفق، فانتظمت صفوف الجنود تأهبًا لمعركة الموت، وكان ملك الرعاة يدرك ما حلّ بجيش المصريين بعد مقتل مليكهم، فأراد أن يصعقهم بقوات تشلّ فيهم كلّ مقاومة فتأهب على رأس قواته من العجلات والرماة، ليقضي بضربة واحدة على الجيش الصغير الذي يعترض سبيله ..

وحين تراءى الجمعان، بدأ القتال واتصل البحر المتلاطم بالجدول الصافي، وأطبق جيش أبوفيس على الجيش المصري، ودارت عجلة الموت، وبذل المصريون كلّ ما في طاقة البشرية من بسالة وبطولة، لكنّهم تساقطوا سريعًا بطلًا في إثر بطل، وداستهم أرجل الخيل بقساوة، وبدا لعيني بيبي أن المعركة تنتهي سريعًا، ولا سيبا لما شاهده من مصارع كثير من القواد والضباط، ورأى جناحه الأيمن يفنى فناء عاجلاً، والعدو يوشك أن يحيط بهم، فأراد أن يختم حياته أكرم الختام، وجمال بنظره في جيش

## كفاح طيبة ٣٤٧

على كل أمل في إطالة المقاومة، وهددت المدينة العظيمة بالمجاعة والظمأ؛ فلم يرَ الزعماء بدءاً من التسليم تفادياً من الكارثة العظمى، وأوفدوا ضابطاً يعلن وقف القتال، ويستأذن في قدوم رسول عن المدينة للتحدث في شروط التسليم النهائية. وعاد الضابط بالموافقة، فوقف القتال في جميع الأسوار، واختار الزعماء نوفر آمون كاهن آمون الأكبر ليكون رسولاً.

وقبل الكاهن على غضاضة، وركب عربته فسارت به نحو معسكر الرعاة مثقل الرأس كسير الفؤاد، ومرّ في طريقه بالفرق المختلفة متراصة الصفوف في قوّة وصلف وزهو، تحقّق عليها الأعلام من كلّ لون. ثمّ وقفت العربة فترجّل في سكّون، ووجد في استقباله بعض الضباط يتقدّمهم رجل قصير القامة بدين كثيف اللحية، عرفه من النظرة الأولى، فهو الرسول خيان نذير الشؤم الذي حلّ بحلوله الدمار بمملكة طيبة، وبدا يغيب عنه ما في استقباله من الشهامة المقصودة. وبدا الرجل صلفاً متعجرفاً مزهوّاً، فنظر إلى نوفر آمون بمؤخّر عينه، وقال دون تحيّة:

- أرايت أيها الكاهن إلى أيّ مصير انتهى بكم رأي أميركم؟... إنكم تتحمّسون كثيرًا وتحسنون الكلام، ولكن لا قيل لكم بالقتال... ولقد قضي على مملكتكم بالزوال إلى الأبد...

ولم ينتظر الحاجب كلاماً فسار أمامه نحو خيمة الملك، ورأى نوفر آمون الخيمة كالسرادق مسدلة عليها الستائر، يقف أمامها الحراس البيض الغلاظ ذوو اللحي الطويلة... ثمّ أذن له فدخل، ورأى في الصدر الملك أبوفيس في زيّ الفراعين وعلى رأسه تاج مصر المزدوج، وكان مهيب الطلعة حادّ البصر أبيض مُشرباً بحمرة، مسترسل اللحية جميلها، وسط هالة من قواده وحجابه ومستشاريه، فانحنى له الكاهن في إجلال، ووقف صامتاً ينتظر أمره، فقال الملك بلهجة ساخرة:

- أهلاً بكاهن آمون الذي لن يعبد بعد اليوم بأرض مصر.

آمون ليانسوا بالجماعة ويستمعوا إلى زعمائهم. أما أصحاب الضياع والقصور من النبلاء والأغنياء فقد هجروا ضياعهم وقصورهم مذعورين. وفرّوا جماعات إلى الجنوب أو اختفوا في ثنايا الأحياء الفقيرة..

وجاءت أخبار أسيفة أخرى عن سقوط قسي وشهور، وأن جيوش الرعاة تتقدّم نحو طيبة لضرب الحصار حولها، وإجبارها على التسليم. فاجتمع الوزراء والكهنة والقضاة الثلاثون في بهو الأعمدة بمعبد آمون، وتشاورا في الأمر، وكانوا جميعاً يدركون خطر الحال ويحسّون دنو النهاية وعبث المقاومة. ولكنهم لم يميلوا إلى التسليم دون شرط أو قيد، ورأوا أن يقوموا خلف أسوارهم المنيعه، حتّى ينالوا وعدًا بحقن دماء الأهلالي، إلا أوسر آمون فكان شديد الحماسة فائتر الغضب، فقال لهم:

- لا تسلّموا طيبة أبداً، ولنقاوم حتّى نموت كمليكنا سيكننرع، إن أسوار طيبة لا تقتحم، وإذا هُددت حقاً فلنخرب المدينة ونشعل فيها النيران، ولا نترك لأبوفيس شيئاً منها ينتفع به.

وكان أوسر آمون يهدر غاضباً، ويلوح بيديه كأنه يخطب، ولكنّ الرجال لم يتحمّسوا لفكرته، وقال نوفر آمون:

- نحن مسئولون عن حياة أهل طيبة، وتدميرها يعرض الآلاف منهم للتشرّد والجوع والبؤس، فليكن هدفنا وقد خسرنا الموقعة أن نخفّف الآلام ونحصر الدمار..

وفي أثناء ذلك كان الرعاة يهاجمون السور الشماليّ بغير هوادة، والحراس يقاتلون عنه بثبات وبساله، والقتلى تسقط من الجانبين. وتفقد الوزراء الأسوار فاطمأنوا إلى المقاومة، ولكنّ أسطول العدو هجم على الأسطول المصريّ بعد أن جاءه مدد جديد، ودارت معركة حامية انتهت بتحطيم الأسطول المصريّ. وحاصر أسطول الرعاة غرب طيبة، وأنزل جنوداً كثيرين في جنوبها، ف ضرب حصاره الكامل حول المدينة، وهجم عليها من الشمال والجنوب والشرق هجوماً عنيفاً، وجاءت هزيمة الأسطول ضربة قاضية

## ٣٤٨ كفاح طيبة

بلد كامل إذا امتدّت يد بسوء إلى أحد من رجالي .  
وإذا أردت أن أحقن دماء الناس - فيها عدا أسرة  
سيكترع - فليات إليّ سادتكم بمفاتيح طيبة سُجّداً . .  
أما أنتم أيّها الكهنة فعودوا إلى معبدكم وأغلقوا عليكم  
أبوابه إلى الأبد . . .

ولم يرد أبوفيس أن تمتدّ المقابلة إلى أكثر من هذا،  
فقام واقفاً إيداناً بانتهائها، فانحنى الكاهن مرّة أخرى  
وفارق المكان .

وشربت طيبة الكأس حتّى ثباتها، فحمل الوزراء  
والقضاة مفاتيحها وذهبوا إلى أبوفيس وسجدوا له . .  
وفتحت طيبة أبوابها ودخلها أبوفيس على رأس جيوشه  
الغازية الظافرة . .

وفي ذلك اليوم أهدر الملك دماء أسرة حاكم طيبة،  
وأمر بإغلاق الحدود بين مصر والنوبة، ثم احتفل  
بالنصر احتفالاً عظيماً اشتركت فيه الجيوش جميعاً،  
وقسم الأرض والأموال بين رجاله . فصار الجنوب  
ملك يده أرضاً ورجالاً .

فأغضى الكاهن ولم ينبس بكلمة، فضحك الملك  
ضحكة عالية وسأله بتهكّم:  
- أجيئت تملي علينا شروطاً؟

فقال نوفر آمون:

- بل جيئت أيّها الملك لأستمع إلى شروطك، كما  
ينبغي لزعيم قوم خسروا معركتهم وفقدوا مليكهم،  
وليس لي سوى رجاء واحد أن تحقنوا دماء شعب ما  
شهر سلاحه إلّا ذوداً عن كيانه . .

فهزّ الملك رأسه الكبير وقال:

- يحسن بك أيّها الكاهن أن تصغي إليّ، إنّ قانون  
الهكسوس لا يتغيّر على مدى الأيام والأجيال، وهو  
سنّة الحرب والقوّة إلى الأبد. نحن بيض وأنتم سمر،  
ونحن سادة وأنتم فلاحون، فالعرش والحكومة  
والإمارة لنا، فقل لقومك: من يعمل في أرضنا عبداً  
فله أجره، ومن تابّ عليه نفسه فليولّ نفسه وجهة  
يرضاها في غير هذه الأرض، وقل لهم: إنّي أهدر دم

## بَعْدَ عَشْرَةِ أَعْوَامٍ

- ١ -

رسولاً إلى الحدود، يتغني لنفسه سبيلاً يمهد به بقطع الذهب..

- إنَّ اعتمادنا كلُّه على ما عرف به القوم من طاعة الرشوة وتلبية نداء الذهب.. أمَّا لو خاب ظنُّنا.. وسكت الشاب عن الكلام وقد لاح في عينيه القلق، فقال الشيخ:

- ما دام الظنُّ سوءاً فإنَّه لا يجيب مع هؤلاء القوم...

وعدلت السفينة إلى الشاطئ، فتبعها القافلة وألقت مرساتها. واختار الشاب أن يكون هو مبعوث القافلة إلى الحدود، وكان عظيم الحماسة قوي التصميم، فلم يعترض الشيخ سبيله؛ وانتقل إلى قارب وجدف بساعديه المفتولين مفارقاً القافلة نحو الحدود، وتبعه الشيخ بعينه وهو يقول برجاء مؤثراً: «أيُّها الربُّ المعبود آمون.. هذا ابنك الصغير يسعى إلى وطنه وراء غرض نبيل؛ أن يعزَّ سلطانك، ويرفع ذكرك، ويمجِّر أبناءك، فأئده يا ربَّ وانصره واحفظه...»

ومضى الشاب يجدف في قوَّة، وظهره إلى هدفه، يستدير لينظر وراءه كلَّ هنيهة وقد اضطرم صدره بالحنين، وأحسَّ لهواء الوطن وهو يدنو من جوِّه لذة جديدة، خفق لها قلبه أيما خفقان، ثم رأى في إحدى التفاتاته سفينة حربية صغيرة تصعد نحوه معترضة سبيله، فأيقن أنَّ حراس الحدود تنهبوا له، وجاءوا يتحقِّقون من أمره. ودنا بقاربه من السفينة حتَّى سمع صوت الضابط الواقف في مقدمها يصيح به: «كيف تدنو يا هذا من المنطقة الحرام؟...»

انقضت سحب الظلام عن زرقة الفجر الناعسة، فتبدت صفحة النيل تتنفس نسائم الغسق، تنحدر عليها قافلة من السفن تولى وجهها شطر حدود مصر شمالاً. كان بحارتها نوبيين، أمَّا قائداها - اللذان جلسا بمقصورة السفينة المتقدمة - فكانا مصريين كما يدلُّ لون بشرتهما الأسمر، وقسماتهما الواضحة. وكان أولهما شاباً لا يكاد يبلغ العشرين من عمره، حبه الطبيعة طولاً فارغاً، وقدَّاً نحياً دقيقاً، وصدراً عريضاً متيناً، ينطق وجهه المستطيل بالنضارة والجمال الفائق، وعينه السوداوان بالصفاء والحسن، وأنفه المستقيم الأثم بالقوَّة والتناسق، فهو من الوجوه التي أودعتها الطبيعة جلالها وجمالها معاً، يرتدي لباس التجار الأثرياء، ويلف جسمه الرشيق في عباءة ثمينة، قدت على صورة جسمه. وكان صاحبه شيخاً في الستين، يميل إلى النحافة والقصر، بارز الجبهة في استواء وارتفاع، تدلُّ جلسته على الهدوء الذي يلازم الشيخوخة غالباً، وأمَّا نظرة عينيه فتنفذ إلى الأعماق.. وكان يبدو أنَّ همَّه منصرف إلى العناية بالشاب، أكثر ممَّا هو منصرف إلى التجارة التي تحملها السفن، فلمَّا دنت القافلة من منطقة الحدود، برحا المقصورة ومضيا إلى مقدمة السفينة، يتطلَّعان بعينين مشوقتين جرى فيهما الحنين، ثمَّ سأل الشاب بحماس وجزع:

- هل ترى تطأ أقدامنا أرض مصر؟. قل ماذا نحن فاعلون الآن؟..

فقال الشيخ:

- نرسي القافلة على هذا الشاطئ، ونبعث في قارب



ساويي، فحقق قلبه خفقاناً شديداً متواليًا، وجعل من شدة اضطرام عواطفه يذهل سريعًا. إنه في أرض مصر. مصر التي يحفظ لها أجل الذكريات، وأفتن الصور وأبهج الآثار. إنه يودّ لو يُترك وحيدًا فيملاً صدره من نسيمها العليل، ويمرغ خديه بثراها.. إنه في أرض مصر.

واستيقظ من حلمه على صوت الضابط الغريب وهو يقول له ثالث مرّة «اتبعني». فنظر فرأى قصرًا جميلًا يقف أمامه رجال مسلّحون، فأدرك أنه أمام قصر حاكم الجزيرة. ودخل الضابط، فتبعه غير مبال لنظرات القوم الحادة التي تصوّب نحوه من كلّ جانب.

- ٢ -

وأذن له بالدخول إلى بهو الاستقبال بعد أن سبقه الضابط إليه، كان الحاكم يستقبل فيه من لا يحتاج النظر في مظالمهم لغير الذهب، وألقى الشاب نظرة على الحاكم وهو يمضي، فلفتت نظره لحيته الطويلة الكثة، وعينه اللوزيتان الحادتان، وأنفه البارز الأقي كأنه شراع قارب. وكان الرجل يرمق الداخل بعين فاحصة، ونظرة تدلّ على الحذر والريبة، فانحنى الشاب بين يديه بإجلال عظيم، وقال بأدب بالغ:

- ندى الربّ صباحك أيها الحاكم الجليل.

وكان الضابط حدّثه عن القادم الغريب الذي يرمي في غير مبالاة بحافظة ملأى بقطع الذهب الوهاج، ويسوق قافلة محمّلة بالهدايا ليتقرّب بها من سادة مصر، فردّ تحيته بإشارة من يده، وسأله بصوت غليظ أجوف:

- من أنت ومن أيّ البلاد؟

- أدعى يا مولاي اسفينيس، من بلدة نباتا من بلاد النوبة.

فهزّ الرجل رأسه بارتياح، وقال:

- ولكنّي أرى أنك لست نوبيًا، وإن صدق نظري فأنت فلاح..

فحقق قلب اسفينيس لهذا الوصف الذي نطق به الحاكم بلهجة لم تخل من الاحتقار، وقال:

فصمت الشاب حتّى شارف القارب السفينة، ثمّ حيّا الضابط ذا اللحية تحية إجلال وتعظيم، وقال متباهًا:

- باركك الربّ ست أيها الضابط الباسل، إني قاصد وطنكم المجيد بتجارة ثمينة.

فقطّب الضابط جبينه وقال بفظاظة:

- خست أيها الأحمق، ألا تدري أنّ هذا الطريق مغلق منذ عشرة أعوام؟..

فأبدى الشابّ الجميل دهشة، وقال:

- وماذا يصنع إنسان مثلي جمع متاعًا ثمينا ليتقرّب به من فرعون مصر المعبود ورجال مملكته؟.. هلاّ أذنت لي بمقابلة حاكم جزيرة بيجة النيل؟.

فقال الضابط بوحشية:

- بل ستعود من حيث أتيت حيًّا، إن لم ترغب في أن تدفن حيث تثرثر..

فأخرج الشاب من صدره حافظة من الجلد ملأى بقطع الذهب، ورمى بها تحت قدمي الضابط قائلًا:

- نحن في بلادنا نحبيّ آلهتنا بتقديم الهدايا، فاقبل تحيتي ورجائي.

فتناول الضابط الحافظة وفتحها، وعبثت أنامله بقطع الذهب، فاختلفت أجمانه، وردّد بصره بينها وبين الشابّ بذهول. ثمّ هزّ رأسه كأنه لا يخفي حنقه على الفتى الذي ثناه عن رأيه قسرًا، وقال بصوت هادئ:

- إنّ دخول مصر ممنوع، ولكن قد تستحقّ رغبتك الشريفة استثناءك من أمر المنع، فاتبعني إلى حاكم الجزيرة.

وابتهج الشابّ، واتخذ مجلسه مرّة أخرى في القارب، وشدّ على المجذاف بقوة ونشاط، وانحدر متبّعًا السفينة صوب شاطئ بيجة: ورسّت السفينة ثمّ القارب، ووضع الشابّ قدميه على الأرض في حذر وإشفاق، كأنما يدوس شيئًا طاهرًا مقدّسًا. وقال له الضابط مرّة أخرى: «اتبعني». فتبعه على الأثر. وبالرغم من تشدّده في التسلّط على أعصابه، أفلت زمامه وتمشّت في حواسّه نشوة، وعصر قلبه حنين

## كفاح طيبة ٣٥١

وأهدى إليه اسفينيس صولجاناً من العاج ذا رأس من خالص الذهب المحلى بالزمرّد والياقوت فتقبّله بلا كلمة شكر، وأخذ بنفسه أساور وخواتيم وأقراطاً ثمينة، وأنشأ يقول لنفسه: لماذا لا أسمح لهذا التاجر بالدخول إلى مصر؟.. ليست هذه تجارة، ولكّتها هدايا تسمي العقول، وسيترخّب بها فرعون بغير جدال، فإن حقّق لصاحبها أمنيته نال ما تمنى؛ أو رفض مطلبه فلا شأن لي به.. وأمامي فرصة سانحة ينبغي أن أنتهزها، إنّ خنزير حاكم الجنوب مغرم بكلّ نفيس، فلأبعث بالتاجر إليه فيذكر لي صنيعي على ما أهديت إليه من كنز، وما أمحّت له من فرصة يزداد بها قرباً إلى مولاه.. فإذا أراد يوماً أن يختار لولاية من الولايات الكبرى حاكماً ذكرني بلا ريب:

وتحوّل نحو اسفينيس وقال:

- سأعطيك فرصة لتجرّب حظّك، فيسرّ توّاً إلى طيبة، وهاك كتاباً إلى حاكم الجنوب تذهب به إليه لتعرض نفائسك، وتساله الشفاعة في رجائك.. واستخفّ الفرّح اسفينيس، فانحنى للحاكم شكراً وارتياحاً.

- ٣ -

وكان أوّل كلمة نطق بها اسفينيس على أثر مبارحة الحاكم لسفينته، أن قال للشيخ الذي يلازمه:  
- منذ هذه الساعة لا أحس هناك ولا حور، ولكن اسفينيس التاجر ووكيله لاتو..  
فابتسم الشيخ وقال:  
- نطقت بالحكمة أيها التاجر اسفينيس.. ونشرت القافلة شراعها، وتحركت مجاديفها، فانحدرت مع الموج صوب حدود مصر واجتازتها في أمان وسلام. وكان اسفينيس ولاتو يقفان عند مقدّم السفينة يكابدان شوقاً واحداً. تكاد عيناهما تشرقان بالدمع. قال اسفينيس:  
- بدء حسن.

- صدقت فراسة مولاي، فأنا حقاً.. فلاح. من أسرة مصرية هاجرت إلى بلاد النوبة منذ أجيال، واشتغلت بالتجارة عهداً طويلاً حتى أغلقت الحدود بين مصر والنوبة، فانقطع رزقها.  
- وماذا تريد؟..

- لديّ قافلة محمّلة بخيرات البلاد التي قدمت منها، أرجو بها التقرب والزلفي من سادة مصر..  
فعبث الحاكم بلحيته، وحدهه بنظراته المرتابة، وقال:

- أتعني أنّك تجسّمت مشاق السفر، لمحض التقرب والزلفي من سادة مصر..

- سيدي الحاكم الجليل، نحن نعيش في بلاد ملأى بالوحوش والكنوز، الحياة فيها جدّ قاسية، والجوع والجذب ينشبان أظفارهما في الرقاب، نجيد صياغة الذهب، ونضني في الحصول على قلدح من الجيوب، فإذا تقبّل سادتي هداياي، وأذنوا لي بالمسير بالتجارة بين الجنوب والشمال، ملأت أسواقكم بالنفيس من الجواهر والحيوان، وبدلت بؤس قومي أنعماً..  
فضحك الحاكم ضحكة عالية، وقال:

- أرى الأحلام تطيح برأسك.. أو لست تبدأ بالسؤال والتضرّع؟ ولكنك ترجو أن يكلّل مسعاك بإصدار أوامر فرعونية لمصلحتك.. حسناً.. الحمقى كثيرون.. ولكن ماذا تحمل قافلتك من النفائس يا هذا؟..

فحنى اسفينيس رأسه إجلالاً، وقال بإغرار التاجر الأريب:

- هلّا تفضّل مولاي بزورة قافلتني ليطلع بنفسه على نفائسها، ويختار ما يعجبه من كرائم جواهرها؟  
وتحرّكت لواعج النهم والجشع في نفس الحاكم، فاستطاب الفكرة، فقال لاسفينيس وهو يهّم بالقيام للذهاب معه:  
- سامنحك هذا الشرف.

وتقدّمه إلى السفينة الحربيّة، ثمّ إلى القافلة، وعرضت لناظره الحليّ والجواهر والحيوان العجيب، فشاهد النفائس بعين يلتمع فيها نور الجشع الخاطف.

## ٣٥٢ كفاح طيبة

فقال لاتو:

- نعم فلنصل للربِّ آمون شكرًا، ونسأله أن يسدَّ  
خطانا ويكَلِّم مسعانا بالفوز المين.

وجثوا على سطح السفينة وصلبًا معًا، ثمَّ عادا إلى  
وقفتها. وقال اسفينيس:

- إذا ظفرنا بإعادة الروابط مع النوبة إلى سابق  
عهدنا، فقد ظفرنا بنصف النجاح، فنعطيهم ذهبًا  
ونأخذ رجالًا..

- اطمئنْ فهم لا قبل لهم بمقاومة إغراء الذهب. ألم  
يفتح لنا الحدود المغلقة منذ عشرة أعوام؟.. إنَّ الرجل  
من الرعاة عظيم العنجهية والصلف شديد البأس؛  
ولكنه كسلان يستخدم غيره، ويتعالى على التجارة،  
ولا يحتمل الحياة في النوبة؛ فلا سبيل إلى ذهبها إلَّا  
بمن يتطوَّع مثل التاجر اسفينيس بحمله إليه..

ومضيا معًا يلقيان ببصرهما إلى مجاهل الأفق البعيد  
الغارق في مجرى النيل، يقلبان الطرف في خضرة  
ناضرة تكتنف القرى والداكر، تملق فوقها الأطيوار،  
وترعاها الثيران والبقر نشاوى؛ والفلاحون يعملون هنا  
وهناك عراة لا يرفعون رؤوسهم عن الأرض، فأثار  
منظرهم في صدر الشاب الحب والغضب، واستعر قلبه  
حنانًا وحنقًا، فقال:

- انظر إلى جنود أمنمحيث، كيف يعملون عبيدًا  
للبيض الحمقى المتعجرفين ذوي اللحي القذرة..

وتقدَّم المسير بالقافلة، فمرَّت بأمبوس وسلسليس  
ومجنا ونخب وترت، فلم يبق دون طيبة سوى ساعة،  
وتساءل اسفينيس:

- أين ينبغي أن ترسو السفينة؟

فقال لاتو مبتسماً:

- في الجنوب من طيبة حيث توجد أحياء الفقراء  
والصيادين، وجميعهم مصريون خلص.

فأمَّن الشاب على قوله، ولاحت منه نظرة إلى الأمام  
فرأى على البعد سفينة تسير نحوهم فعلق بصره بها  
وهي تدنو رويدًا رويدًا، حتَّى استطاع أن يتنورها؛  
فرأى سفينة فخمة جميلة التركيب بادية الأناقة، تعلقو  
وسطها مقصورة حسناء يتألَّق في جوانبها الفنَّ الجميل،

فخال أنه رأى مثلها من قبل. ولكز لاتو في ذراعه  
متمتًا:

- انظر.

فنظر الرجل وقال بسرعة:

- ربَّاه هذه سفينة فرعونية، (ثمَّ استدرك) إنها  
تسير بغير حرس، فلعلَّ راكبها أحد رجال القصر، أو  
أمير يطلب الخلوة..

ودنت السفينة فكادت تلتقي بالقافلة: وأثار منظر  
القافلة الغريب تطلَّع أصحابها، فبرزت من المقصورة  
امرأة يتبعها سرب من الجوارى، تقدَّمتهم في أناة كأنها  
شعاع من النور الساطع يغشى العيون، شقراء يعث  
النسيم بحاشية ثوبها الأبيض، ويراقص ذواباتها الرقيقة  
الذهبية، فأيقنا أنَّ صاحبها أميرة من قصر طيبة تنتجع  
النسيم..

ورأيها تشير بأغمتها إلى سفينة متأخرة وقد فغرت  
من الدهشة فاهًا، وارتسم العجب كذلك على وجوه  
الجوارى الحسنان. فالتفت اسفينيس إلى الورا، فرأى  
قزمًا من الأقزام التي أتى بها يسير على ظهر السفينة،  
فأدرك سرَّ دهشة الأميرة الجميلة. ونظر إلى لاتو مبتسماً  
أن لاقت إحدى الهدايا ما تستحقُّ من التقدير. ولكنَّ  
لاتو كان يرمق المرأة بعينين جامدتين ووجه مكتئب.

ونادى النسوة نوتياً، فتقدَّم من حافة السفينة، وصاح  
موجَّهاً خطابه إلى لاتو بلهجة أمر لا يرد:

- قف أيها النويِّ وألِّقِ مرساتك..

وأذعن اسفينيس للأمر، وأصدر أمره إلى القافلة  
بالتوقُّف، ودنت السفينة الفرعونية من السفينة التي  
ظهر بسطحها القزم، وسأل النويِّ اسفينيس:

- ما هذه القافلة؟..

- قافلة تجارة يا سيدي.

فأشار بيده إلى القزم، وكان يفرُّ إلى باطن السفينة،  
وقال:

- هل يؤدِّي هذا المخلوق؟

- كلاً يا سيدي..

- إنَّ صاحبة السمِّ الفرعونيِّ ترغب في مشاهدة  
هذا المخلوق عن كثب.

## كفاح طيبة ٣٥٣

- أحويان هو أم إنسان؟  
 - هو إنسان يا صاحبة السمّ.  
 - ولماذا لا نعدّه حيواناً؟  
 - له لغته ودينه.  
 - يا عجباً، وهل يوجد مثله كثيرون؟  
 - نعم يا مولاتي، إنه ينتمي إلى شعب وافر العدد،  
 فيهم نساء ورجال وأطفال ولهم ملك وسهام مسمومة  
 يسدّدونها نحو الحيوان المفترس والإنسان المغير؛ ولكنّ  
 قوم زولو يأنسون إلى الناس سريعاً ويخلصون المودّة لمن  
 يصادقهم، ويتبعونه كالكلب الأمين.  
 فهزّت رأسها المكّمل بخصلات الذهب عجباً،  
 وافتّرتغرها عن درّ نضيد، وتساءلت:  
 - وأين يعيش قوم زولو؟  
 - في أقاصي غابات النوبة، حيث يرقد النيل  
 المعبود..  
 - دعه يحدّثني إن استطعت.  
 - إنه لا يستطيع أن يتكلّم لغتنا، وقصارى جهده  
 أن يفهم بعض الأوامر، ولكنّه سيحيي مولاته بلغته.  
 وقال اسفينيس للقرمز:  
 - ادعُ لمولاتك دعاءً طيباً.  
 فاهتّزّ رأس القرمز الكبير كأنّه يرعش، ثمّ نطق  
 بكلمات غريبة بصوت أدنى إلى الخوار، فلم تملك  
 الأميرة إلّا أن تضحك ضحكة عذبة، ثمّ قالت:  
 - حقّاً إنه غريب، ولكنّه قبيح لا يسرّي أن  
 أقنتيه..  
 فبدا الأسف على وجه الشابّ، وقال بلباقة التاجر  
 الماكر:  
 - ليس زولو يا صاحبة السمّ خير ما في قافلتني..  
 إليك درراً تفتن النفوس وتسلب الألباب.  
 فتحوّلت في استهانة عن زولو إلى المتباهي بنفائسه،  
 وألقت عليه نظرة فاحصة لأوّل مرّة، فهالها طولها  
 الفارع ونضارة شبابه، وعجبت أن يكون هذا المظهر  
 لتاجر من عامّة الشعب، وسألته:  
 - هل لديك حقّاً حلّيّ تستحقّ الإعجاب؟..  
 - نعم يا مولاتي..

فهمس لاتو قائلاً:  
 - هذا لقب ابنة فرعون..  
 أمّا اسفينيس فخفض رأسه باحترام وقال:  
 - حبّاً وكرامة..  
 وسارع إلى مفارقة السفينة إلى قارب سار به إلى  
 السفينة الأخرى، وصعد إلى سطحها ليكون في  
 استقبال الأميرة، وكانت الأميرة وحاشيتها يقتربن  
 بقاربهنّ من السفينة حتّى بلغنها، فصعدن إلى السطح  
 تتقدّمهنّ الأميرة، فانحنى الشابّ بين يديها في إجلال  
 ظاهر، وكان يقاوم شعوره بالاستهانة، ويتظاهر  
 بالارتباك والاضطراب، فقال بتلعثم:  
 - لقد أوليت قافلتني شرفاً رفيحاً يا صاحبة السمّ..  
 ثمّ رفع رأسه فشاهدها عن كثب بعين خاطقة،  
 رأى وجهها تجسّم فيه الحسن والكبرياء، ففيه من  
 دواعي الفتنة بقدر ما فيه من نوازع الهيبة، ورأى  
 عينين زرقاوين يتجلّى في صفائهما التعالي والإقدام.  
 فلم تلق إلى تحيته بالأى، ودارت بعينها في المكان تبحث  
 دون ريب عن القزم، وسألته بصوت رخيم يبعث  
 الطرب في آذان سامعيه:  
 - أين ذهب المخلوق العجيب الذي كان هنا؟  
 فقال الشابّ:  
 - سيكون بين يديك..  
 وذهب إلى كوة تطلّ على باطن السفينة، ونادى  
 قائلاً:  
 - زولو.  
 وما لبث أن ظهر رأس القزم من الكوة، وتبعه  
 جسمه، ثمّ أقبل على صاحبه، فأخذه من يده إلى  
 حيث تقف الأميرة وجوارها وكان يسير ملقياً بصدرة  
 إلى الأمام في خيلاء مضحكة، وبرأسه الكبير إلى  
 الوراء، ولا يزيد طولها على أربعة أشبار؛ أمّا لونه  
 فشديد السواد، وأمّا ساقاه فمقوّستان. قال له  
 اسفينيس:  
 - حيّ مولاتك يا زولو.  
 فانحنى القزم حتّى مسّ شعره المفلفل الأرض،  
 فاطمأنت الأميرة وسألته وعيناها لا تفارقان القزم:

- ترى هل هي حقاً ابنة أبوفيس؟

فقال لاتو بامتعاض:

- هي الشيطانة ابنة الشيطان.

وأيقظته لهجة لاتو الخشنة ونظراته الغاضبة من سباته، وأدرك أن التي أثارته إعجابه ابنة مذلّ شعبه وقاتل جدّه، وأنه لم يشعر في محضرها بما هي أهل له من المقت والكراهية. وتضايق وخشي أن تكون لهجته وهو يروي قولها نمت عن إعجاب ساء الشيخ الأمين، وقال لنفسه: ينبغي أن أكون أهلاً للواجب الذي جئت هنا من أجله. ولذلك لم يلتفت إلى سفينة الأميرة وأطال النظر إلى الأفق، وحاول أن يحقد على الأميرة، وأحس أنها قوة حقيقة بكلّ مقاومة. . . لقد ذهبت من سبيله إلى الأبد، ولكن. . . ربّاه. . . إنها جمال يجري في أعطافه السحر، ولا يسع من يتلي برؤيته إلا أن يغمض جفنيه من قوة نوره. . .

وذكر في تلك اللحظة زوجه الصغيرة نيفرتاري، بقوامها المعتدل، ووجهها الأسمر الخمرى، وعينها السوداوين الساحرتين، فلم يزد على أن تتمم قائلاً: «يا لها من صورتين متناقضتين جميلتين. . .»

- ٤ -

وبدا سور طيبة الجنويّ وأبوابها الرائعات تتصاعد من ورائه الهياكل والمسلات، فبدأ الجلال مجسماً يروع الناظرين. ورنا الرجلان إلى المدينة بعينين لاح فيهما الحنين والحزن، وقال لاتو:

- حيّاك الربّ يا طيبة المجيدة. . .

وقال اسفينيس:

- وأخيراً يا طيبة. . . بعد أعوام طوال في المنفى. . . وانعطفت السفينة نحو الشاطئ، تتبعها على الأثر سفن القافلة، وقد ضمتّ الشرع ورفعت المجاديف، فشقت طريقها بين عدد وافر من زوارق الصيد ملأى بالسماك، منه ما تزال تدبّ فيه الحياة، ويقف في أوساطها الصيادون بأجسادهم العارية النحاسية وعضلاتهم المقتولة؛ فانبعث في نفس اسفينيس نشوة طرب لرؤيتهم، وقال لرفيقه:

- إذا أرنى عيّته. . . أمثلة ممّا عندك.

وصفّق اسفينيس، فجاءه عبد فألقى إليه كلمات بصوت خافت، فغاب الرجل هنيهة، ثم عاد يحمل صندوقاً من العاج بمعاونة رجل آخر، فوضعه أمام الأميرة وفتحاه، وتنحّيا جانباً. ونظرت الأميرة في داخل الصندوق، واشراّبت أعناق الجوارى، فرأت ما يسرّ القلب من لآلئ لامعة، وأقراط وأساور. وتفحصتها بعين واعية، ثم مدّت يدها البضة الرخصة إلى عقد آية في السداجة والكمال، قلب من الزمرد في سلسلة من خالص الذهب، وأمسكت القلب بأناملها وتمتمت:

- من أين لك بهذا الحجر النفيس؟. . . ليس في مصر نظيره؟

فقال الشابّ بابتهاج:

- إنه درّة كنوز النبوة.

فتمتمت قائلة:

- النبوة. . . بلاد زولو. . . ما أجمله!

فابتسم اسفينيس وهو ينعم النظر إلى أناملها، وقال:

- أما وقد حاز إعجاب سموك، فلا يجوز أن يردّ إلى

صندوقه.

فقال في سهولة:

- نعم. . . ولكن ليس لديّ ثمنه. . . هل أنت ذاهب

إلى طيبة؟. . .

فقال:

- نعم يا مولاتي.

فقال:

- ما عليك إلا أن تقصد القصر فتقبض ثمنه.

فانحنى الشابّ إجلالاً، وألقت الأميرة نظرة وداع على زولو، ثم تحوّلت ماضية بقوامها اللدن الرشيق، يتبعها الجوارى. وتعلّقت بها عينا الشابّ حتّى غيّبها عنه حائط السفينة، ثمّ تنبّه إلى نفسه، فعاد إلى سفينته حيث كان لاتو ينتظره على جزع، وقد بادره:

- ما وراءك؟. . .

فأجمل له أقوال الأميرة، وتساءل ضاحكاً:

## كفاح طيبة ٣٥٥

- انظر يا لاتو إلى هذا الشاب، ألم يخلق ليكون فارساً في فرقة العجلات لولا أن خانه زمانه؟

واقترب الشاب منها، فرغب في الحديث إليه، وحيّاه بيده وقال:  
- حيّك الربّ أيها الشاب.. هل تدلّنا على مكان نستريح فيه ولك الشكر؟

فوقف الشاب عن المسير وهمّ بالردّ عليه، ولكنّه حين وقعت عيناه عليها أغلق فمه، وألقى عليها نظرة غريبة تفصح عن الغضب والاحتقار، ولأهما ظهره ومضى. فتبادل الرجلان نظرة دهشة وإنكار، وتبعه اسفينيس على الأثر واعترض سبيله قائلاً:

- أيها الأخ، ما الذي جعلك تزهد الرّد علينا وتولينا ظهرك غاضباً؟  
فصاح الشاب مزججراً:

- إليك عني يا عبد الرعاة.  
وابتعد غاضباً وهو يوسع الخطى، تاركاً الشاب في دھول وحيرة. ولحقه لاتو وهو يقول:

- إنه لمجنون بلا رب.  
- ليس مجنوناً يا لاتو... ولكن لماذا يدعوني عبد الرعاة؟  
- إنه لدعاء يثير الضحك.

- نعم... نعم... ولكن هبنا صنائع الرعاة، فكيف تؤايبه شجاعته فيتحدّانا؟... إنه لشابّ جسور حقاً يا لاتو، ويدلّ سلوكه معنا على أنّ عشرة أعوام من حكم الرعاة الخائق لم تستطع أن تتأصل الغضب من النفوس الكريمة.

واستأنفا المسير حتّى جذب انتباههما ضجيج عالٍ، فنظرا بمنة فرأيا بناء كبيراً ذا مدخل صغير في أعلى حائطه كوّات ضيقة، يدخل إليه جماعات ويخرج منه جماعات، فسأل الشاب صاحبه:

- ما هذا البناء؟

فقال لاتو:

- هذه حانة.

- هلّمّ نشاهدها.

- عجّل بنا، فيفسي مشوّقة إلى محادثة أيّ من المصريين..

وكانّ الجو معتدلاً لطيفاً، والسماء صافية الزرقة، والشمس مشرقة تغمر أشعتها النيل والشيطان والحقول والمدن، فنزلا إلى الشاطئ يلتفان في عباةتيهما، ويضعان على رأسيهما قلسوتين مصريتين ككبار التجار. وتقدّما خطوات نحو حيّ الصيادين، وكانت جماعات منهم تقف على الشاطئ، وأيديها آخذة بحبال الشباك التي ترميها الزوارق في جثة النيل، يغتنون وينشدون. وكان غيرهم يملأ العربات بالسمك، ويلهبون ظهور الثيران المشدودة إليها صوب الأسواق. وعلى مسير دقائق من الشاطئ أقيمت أكواخ صغيرة أو متوسّطة الحجم من الآجر، مسقوفة بجذوع النخيل، يدلّ مظهرها على السداجة والفقر..

وكان اسفينيس ينتقل من مكان إلى مكان، مرهف الحواسّ، مفتوح العينين، يتفحص الصيادين ويتبع حركاتهم ويصغي إلى أناشيدهم، وكان يشعر نحوهم بالحنان والحزن المقرونين بالإعجاب والإكبار. وخالط قلبه وهو يشقّ جموعهم إحساس ألفة وطمأنينة ومحبة، فتمنّى لو يستطيع أن يعترض سبيلهم ويضمّمهم إلى صدره ويقبل وجوههم السمر المعناة بالكفاح والفقر. وذكر ما حدّثه به عنهم توتيشيري؛ فقال لصاحبه:

- يا لهم من رجال أشدّاء صابرين..

فقال لاتو، وكان يشارك الشاب جلاً عواطفه:  
- أحسب هؤلاء الصيادين أسعد حالاً من الفلاحين. لأنّ الرعاة يترفعون عن النزول إلى حيّهم، فيعضونهم من غير قصد من صلف أخلاقهم وسوء صنيعهم.

وقطب الشاب غضباً وتألماً ولم يتكلّم، وجدّا في السير يلفتان الأنظار بوجاهة منظرهما وفخامة لباسهما. ورأى اسفينيس عن كذب شاباً يافعاً يتّجه نحوهما يحمل سلّة، وكان يرتدي وزرة قصيرة في خاصرته، أما بقية جسمه فعارٍ، وقد بدا طويلاً رشيقاً ووجهه حسناً، فقال اسفينيس:

فابتسم لاتو وقال:

- هلم.

وقَطَب الرجل مفكِّراً، وهرش رأسه متحيراً وقد  
تدلَّت شفته السفلى كقطعة كبد دامية، ثمَّ أضاءت  
عيناه المحمرتان كأنما وجد الحلَّ السعيد، وقال:

- أشرب خمرًا مهضومة...

- ٥ -

فضحك الرجال، وسرَّ اسفينيس لإجابته، وقال له  
متلطفًا:

- إني أعفيتك من النزول عن هذا الكرسي العظيم،  
الذي خلق ليكون زقَّ خمر لا مقعد جلوس..

ثمَّ نظر اسفينيس إلى الخمار وقال له:

- أيها الرجل الطيب املأ ثلاثة أقداح لنا وللظريف  
طونا..

وملأ الرجل الأقداح وقدمها إلى اسفينيس، فخطف  
طونا قدحه وأفرغه في فمه دفعة واحدة وهو لا يصلق،  
ثمَّ مسح فمه بكفِّه، وقال لاسفينيس:

- أنت غنيّ بلا شكَّ أيها السيد الكريم.

فقال اسفينيس مبتسمًا:

- حمدًا للربِّ على نعمائه.

فقال طونا:

- ولكنكما كما أرى من مشابه وجهيكما مصريان؟

- صدقت فراستك، وهل من تناقض بين أن نكون

مصريين وغنيتين؟

- نعم، إلا أن تكونا من المقربين إلى الحاكمين..

وهنا قال رجل آخر:

- وهؤلاء يقلِّدون سادتهم فلا ينزلون إلى مخالطتنا.

فتجهَّم وجه اسفينيس، وعاودته صورة الشاب  
الذي صاح به غاضبًا منذ حين قائلاً: «يا عبد  
الرعاة». ثمَّ قال:

- نحن من مصريي النوبة، وجئنا مصر حديثًا..

وساد الصمت، ودوت كلمة النوبة في الآذان دويًا  
غريبًا، ولكن كان القوم سكارى لا يملك هذيان الخمر  
ناصية عقولهم، فلا يقدرّون على جمع شتات  
أفكارهم، فنظر أحد الرجال إلى كأسَي الرجلين اللذين  
لم يقرباهما، وقال بلسان ثقيل:

- لماذا لا تشربان، سفاكما الربُّ أطيب خمر الجنان؟

ودخلا الحانة معًا، فوجدوا نفسيهما في مكان متسع  
حواطه عالية، يتدلَّى من سقفه مصباح يعلوه الغبار،  
وفي وسطه وضعت الدنان، يحيط بها سور طوله  
ذراعان وعرضه ذراع، اصطَلقت عليه أكواب الفخار  
وأحاط به الشاربون. ويقف في دائرته صاحب الحانة  
فيملأ الأقداح للملتفتين به، أو يرسلها مع ساقٍ يافع  
إلى الجلوس في الأركان على أرض الحان. وكان لا  
يكاد يرفع رأسه عن دنانه فإذا آذاه أحد الشاربين بنكتة  
أو دعابة انتهره بخشونة وسبِّ وقذف. فجال الرجلان  
بيصرهما في المكان، وأراد اسفينيس أن يزحم الوقوف  
حول الساق، فأخذ صاحبه من يده، وشقَّ بمنكبيه  
طريقًا إلى السور حتى ارتقاه وسط الأعين المحدقة فيهما  
دهشة وإنكارًا. وكان أحسنَّ شيئًا من التعب، فقال  
للخمار مسترسلًا:

- أيها الرجل الطيب هل نجد عندك مقعدين؟

فازداد إنكار من حوله للهجته وغرابة طلبه، أما  
الخمار فردَّ عليه دون أن يعيره التفاتًا:

- عفوا أيها الأمير.. إنَّ رواد حانتي ممن يقتنعون

باقتعاد الغبراء.

وضحك منه ومن صاحبه قوم السكارى، ودنا منها  
رجل قصير القامة غليظ الوجه والرقبة عظيم الكرش،  
فانحنى لها في هزء، وقال بتلعثم الثمل:

- أيها السيدان، إني أنزل لكما عن كرسي تقعدانه.

وأدرك اسفينيس خطأه الذي أساء به إلى نفسه وإلى

صاحبه، فقال يصلح منه:

- إننا نتقبَّل هديتك شاكرين، ولكن كيف يمكن أن

تشرّب خمرك المعتقة بغير هذا الكرسي؟

وسرَّ السكارى بسؤال الشاب، وصاح بعضهم

بالرجل الأكرش:

- أجب يا طونا.. أجب.. كيف تشرّب أقداحك

إذا نزلت للسيدان عن كرسيك؟

## كفاح طيبة ٣٥٧

السرقه، فهو يعاشرنا كأحدنا، ويمارس فته في أطراف  
طيبة، حيث المال موفور، والسعادة وارقة الظلال..

وكان اللص نفسه ثملاً، فقال بلهجة الاعتذار:

- لست لئساً يا سيدي، ولكنني سائح يضرب  
الأرض ويشرق ويعرب كما تسوقه قدماءه، فإذا عثرت  
في سبيلي بأوزة ضالّة أو دجاجة تائهة، هديتها إلى  
ماوى، وهو كوخى في الغالب..

- وهل تأكلها؟

- معاذ الربّ يا سيدي، إنّ الطعام الحسن يسمّم

بطني، ولكنّي أبيعها لمن يشتري.

- ألا تحشى الخفراء؟

- أخشاهم أكبر خشية يا سيدي، لأنّه غير مسموح  
بالسرقه في هذا البلد لغير الأغنياء والحكام..

فأمّن طونا على قول اللص قائلاً:

- القاعده المتبعة في مصر أن يسرق الأغنياء  
الفقراء، ولكن لا يجوز أن يسرق الفقراء الأغنياء.

وكان يتكلم وعيناه تحدقان في القدحين المترعين بنهم  
وجشع، فعبر مجرى الحديث وقال باستياء:

- لماذا تتركان قدحيكما فتنةً للشاربين؟

فابتسم اسفينيس وقال مسترسلاً:

- هما لك يا طونا.

فتحلّب ريقه وقبض على القدحين بيديه الغليظتين،  
مرسلاً لمن حوله نظرات وعيد، ثم أفرغهما في جوفه

قدحاً إثر قدح، وتنهّد بارتياح. وأدرك اسفينيس معنى  
الوعيد الذي يهدّد به، فطلب للقريبين منه جعةً ونيذراً

نمّا يشتهون، فشرب الجميع وضجوا فرحين، وانطلقوا  
في الأحاديث والغناء والضحك. وكان الشقاء والفقر

يرتسمان على وجوههم جميعاً، ولكنهم بدوا في تلك  
الساعة سعداء ضاحكين لا يحسبون حساباً للغد

واندمج اسفينيس في جوهم جذلاً مسروراً، تعتاده  
الكآبة بين الحين والحين. وقضى بينهم زمناً ليس

بالقصير، حتّى دخل الحانة رجل تدلّ هيئته على أنّه  
منهم، فحيّاهم بإيماءة وطلب قدحاً من الجعة، ثم قال

لمن حوله بلهجة لا تدلّ على شيء:

- قبضوا على السيّدة أبانا وساقوها إلى المحكمة..

فقال لاتو:

- قليلاً ما نشرب، وإذا ما شربنا فعلى مهل..

فقال طونا:

- نعم ما تفعّلان، فما جدوى الفرار من حياة  
سعيدة؟ أمّا أنا فشقائي بمهنتي جليل، وشقائي بأسرتي  
وأولادي أجّل، وشقائي بنفسى أفدح ومناي ألا أرفع  
القدح عن شفتي.

فصنّق ثمل مسروراً بقول طونا، وقال وهو يهزّ  
رأسه طرباً:

- هذه الحانة مهجر البائسين، مهجر من يقدّمون  
موائد الطعام الشهية وهم جياع، ومن ينسجون فاخر

اللباس وهم عراة، ومن يهزّجون في أفراح السادة وهم  
جرحي قلوب، صرعى نفوس..

فقال رجل غير هذين:

- اسمعا يا رجلى النوبة، لن تطيب الحياة لشارب  
حتّى تحذله ساقاه، فيهوي فاقد الوعي، ولأضرب لكما

مثلاً بنفسى، فما من ليلة أعود إلى كوخى إلا محمولاً..  
وانتفض اسفينيس، وأدرك أنّه بين جماعة من

مبتشي البشر، وسألهم:

- هل أنتم صيادون؟

فقال طونا:

- جلّنا صيادون.

وهزّ صاحب الحانة كتفيه استهانة، وقال دون أن  
يجول رأسه عن عمله:

- أمّا أنا فختار يا سيدي.

فقهقه طونا، ثم أشار بأصبع غليظة إلى رجل قصير  
القامة، نحيف القدّ، دفيق الأطراف، واسع العينين

براقهما، ثم قال:

- وإن أردت التدقيق فهذا الرجل لص..

فنظر اسفينيس إلى الرجل بغرابة، فارتبك، وأراد  
أن يطمئه فقال:

- لا يساورك القلق يا سيدي، فأنا لا أسرق في هذا  
الحيّ جميعه.

وعلق طونا على قول الرجل بقوله:

- يعني أنّه لما كان لا يوجد في حيّنا ما يستحقّ مشقة



## ٣٥٨ كفاح طبية

- إنهم يقلّدون أنظمتنا في ظاهرها.  
وتفرّسوا في الوجوه، فأدركوا أنّ أغلب الحاضرين من  
الهكسوس. وكان القضاة يستدعون المتهمين  
ويستجوبونهم على عجل، ويصدرون الأحكام بسرعة  
وبلا رحمة، وأصوات الشكوى والعيول تتصاعد من  
العرابة ذوي الأجسام النحاسية والوجوه السمرة. وجاء  
دور السيّدة المنشودة، فنادى النادي قائلاً:

- السيّدة أبانا.

وتطلّع الرجلان في لهفة، فرأيا سيّدة تقترب من  
المنصة في خطى متّزّنة، يدلّ مظهرها على الوقار  
والحزن، وتتجلّى قسايتها عن حسن بالرغم من بلوغها  
الأربعين. وتبعها رجل من الهكسوس يرتدي لباساً  
فخماً، فانحنى للقاضي باحترام وقال:

- سيّدي القاضي الجليل، أنا وكيل القائد رخ-  
الذي اعتدت عليه هذه المرأة - وأدعى خم، وسأنوب  
عن عظمتها أمام القضاء.  
فهزّ القاضي رأسه موافقاً، ثمّ أشار دهشة لآتو  
واسفينيس، ثمّ قال:

- بماذا يتّهم مولاك هذه المرأة؟

فقال الرجل بإنكار وامتناع:

- يقول مولاي إنّه التقى بهذه المرأة صباح اليوم،  
فرغب في أن يضمّمها إلى جواربه، فقابلت صنيعه  
بالإنكار والجحود، ودفعت بوقاحة عدّها اعتداء على  
شرفه العسكريّ..

فأثار حديث الرجل ضجّة بين الحاضرين واستياء،  
وتقاربت الرؤوس في همس واستنكار. وأشار القاضي  
للقوم بصولجانه، فساد السكون، ثمّ وجّه سؤاله إلى  
المرأة قائلاً:

- ما قولك يا امرأة؟

وكانت المرأة محافظة على هدوئها، كان اليأس من  
الإنصاف أكسبها أماناً من الخوف، فقالت بهدوء:  
- إنّ قول هذا الرجل لا ينطبق على الحقيقة..  
فغضب القاضي، وقال متهمّاً إيّاها:  
- حاذري أن تقولي قولاً ينال من مقام المشتكي  
العظيم فتضاعف جرميتك، قصّي ودعي الحكم لنا..

ولم يعره الأكترون التفاتاً لما أذهل الشراب من  
عقولهم، وسأله آخرون:  
- وله؟

- يقال إنّ ضابطاً كبيراً من الرعاة اعترض سبيلها  
على شاطئ النيل، ورغب في أن يضمّمها إلى نسائه،  
فقاومتها ودفعت عنها.

فزجر الكثيرون، وسأله اسفينيس:

- وما عسى أن تصنع بها المحكمة؟

فحدجه الرجل بنظرة إنكار، وقال:

- ستحكم عليها بدفع غرامة لا قبل لها بها حتّى  
تعجزها، فتأمر بجلدها بالسياط، والزجّ بها في  
السجن.

فتجهّم وجه اسفينيس وامتنع، وقال للرجل:

- هل لك أن تدلّنا على طريق المحكمة؟

فقال له طونا بتلثم:

- الشراب أولى بذهبك، لأنّ من يدفع عن هذه  
المرأة يغضب الضابط الكبير، ويعرّض نفسه لعاقبة غير  
مأمونة.

وسأله الرجل الذي أذاع الخبر:

- هل أنت غريب يا سيّدي؟

فقال اسفينيس:

- نعم، وأرغب في حضور هذه المحاكمة..

- أكون دليلك إلى المحكمة إذا شئت.

وفي أثناء مفارقتهم للحانة مال لآتو على أذنه، وقال  
هامساً:

- إيّاك والتورّط في أمر يفسد علينا مهمّتنا الخطيرة.

فلم يجب اسفينيس، واقتفى من فوره أثر الرجل.

- ٦ -

كانت المحكمة مكتظة بذوي الحاجات وأصحاب  
القضايا والشهود، وامتلات مقاعد القاعة بالحاضرين  
من جميع الطبقات، وفي الصدر جلس القضاة ذوو  
اللحي المرسلّة والوجوه البيض، وقد تدلّى على صدر  
رئيسهم تمثال صغير لرّبة العدالة ثمى. فأنخّذ الرفيقان  
مقعدين متقاربين، وقال لآتو لاسفينيس همساً:

## كفاح طيبة ٣٥٩

- آتيتها المرأة، لقد أراد بك القائد خيراً فجازيته  
أسوأ الجزاء، والمحكمة تحريك بين دفع خمسين قطعة من  
الذهب، أو السجن ثلاثة أعوام والجلد..

وأصغى الحاضرون إلى الحكم فبدا الرضى على  
الوجوه جميعاً، إلا واحداً صاح بصوت نائر كأنما أفلت  
منه الزمام:

- سيدي القاضي.. هذه السيدة مظلومة بريئة..  
فأطلق سراحها.. اعف عنها إنها مظلومة..

ولكن القاضي استولى عليه الغضب، وحذج  
الصارخ بنظرة أسكته، وتوجهت إليه الأنظار من كل  
صوب فعرفه اسفينيس، وقال لصاحبه دهشاً:

- إنه الشاب الذي أغضبه حديثنا معه، واتهمنا  
بأننا عبيد الرعاة..

وكان اسفينيس مغضباً متأثراً، فاستدرك يقول:  
- لن أدع هذا القاضي الأحمق يزج بهذه السيدة في  
السجن.

فقال لاتب بقلق:

- إن مهمتنا أكبر من نصرة امرأة مظلومة، فاحذر  
أن ينقلب علينا عملك..

ولكنه لم يصغ إلى صاحبه، وترث حتى سمع  
القاضي يسأل المرأة قائلاً:

- هل تدفعين ما يطلب إليك دفعه؟

فقام واقفاً، وقال بصوت جميل عذب النبرات:

- نعم يا سيدي القاضي..

وانعطفت نحوه الرءوس تتفحص الكريم الجسور  
الذي تقدم لإنقاذ المرأة في آخر لحظة، ونظرت إليه  
المرأة في ذهول، وكذلك الشاب الذي دافع عنها  
بالبكاء والاستعطاف. أما وكيل القائد فصوب نحوه  
نظرة نارية برق فيها الوعيد، ولكن الشاب لم يسأل  
أحدًا وسار نحو منصة القضاء بقامته الطويلة الرشيقة،  
ومحياه الجميل الفاتن، وأدى الغرم المطلوب إلى  
المحكمة..

وتفكر القاضي مرتبكاً، وهو يسائل نفسه من أين  
لهذا الفلاح بالذهب؟ ومن أين له هذه الشجاعة؟..  
ولم يجد بدأً مما ليس منه، فأقبل على المرأة قائلاً:

فاحمر وجه المرأة ارتباكاً، وقالت وهي ما تزال  
تحافظ على هدوئها:

- كنت أسير في طريقي إلى حي الصيادين، فإذا  
عربة تعترض سبيلي وينزل منها ضابط فيدعوني إلى  
الركوب دون إمهال ولا سابق معرفة. فارتعت وأردت  
أن أتحماه، ولكنه أمسك بيدي وقال لي إنه يشرفني  
بضمي إلى نسائه فقلت له إنني أرفض ما يعرضه علي.  
ولكنه سخر مني، وقال لي إن رفض المرأة الظاهري  
عين القبول..

وأشار إليها القاضي إشارة أسكتها، وكأنما ساءه أن  
تأتي على تفاصيل تخرج مقام الضابط، فسألها:

- أجيبي هل اعتديت عليه؟

- كلاً يا سيدي، لقد أصرت على رفضي،  
وحاولت التملص من يده، ولكني لم أعتد عليه لا  
بيدي ولا بلساني، ويشهد على قولي هذا جمع غفير من  
أهل الحي.

- أتعنين الصيادين؟

- نعم يا سيدي.

- هؤلاء لا تقبل شهادتهم في هذا المكان المقدس.  
فسكتت المرأة، ولاحت في عينيها نظرة حيرة  
وارتباك، فسألها القاضي:

- أليس لديك ما تقولينه غير ذلك؟

- كلاً يا سيدي، وأقسم أنني ما أذيت بقول أو  
فعل..

- إن المدعي عليك شخص كبير، وقائد من قواد  
الحرس الفرعوني، وقوله حق حتى تقيمي الدليل على  
نقضه.

- وكيف لي بنقضه، وقد رفضت المحكمة الإصغاء  
إلى شهودي؟

فقال القاضي بغضب:

- إن الصيادين لا يدخلون هذا المكان، إلا إذا  
سيقوا إليه متهمين..

وأعرض الرجل عنها، وعدل إلى رفاقه القضاة  
وتبادل معهم الرأي حيناً، ثم اعتدل في جلسته وقال  
موجهًا كلامه إلى السيدة أبانا:

## ٣٦٠ كفاح طيبة

- إتنا نقبل هذه الدعوة ببالغ السرور.  
وابتهج الشاب كما ابتهجت أمه، ولكنها قالت:  
- أرجو المعذرة لأنكما لن تجدوا كوخنا يليق بمقامكما  
الرفيع.

فقال لاتو بلباقة:  
- إن في صاحبي الكوخ غنى عن كل شيء، ومع  
هذا فنحن تجار متعودون شظف العيش ووعشاء  
الطريق.  
ثم ساروا جميعاً يشملهم شعور واحد بالموثة، كأنهم  
أصدقاء من عهد قديم. وفي أثناء الطريق قال  
اسفينيس لابن أبانا:

- كيف ندعوك يا صاحبي؟. أما أنا فاسفينيس،  
وأما صاحبي فيدعى لاتو.  
فحنى الشاب رأسه إكراماً، مبتسماً وقال:  
- ادعوني أحس.

فخيل إلى اسفينيس كأن أحداً يناديه، ونظر إلى  
الشاب نظرة غريبة..

وبلغوا الكوخ بعد مسير نصف ساعة، وكان ساذجاً  
كأكواخ الصيادين، يتكون من ردهة خارجية وحجرتين  
صغيرتين متداخلتين، ولكنه كان على سذاجة أثنائه  
وفقره الواضح نظيفاً حسن الترتيب. فجلس أحس  
وضيفاه في الردهة، وفتح الباب على مصراعيه  
ليخلص لهم نسيم النيل ومنظره؛ على حين ذهبت أبانا  
لتعدّ الشراب، ولبشوا هنيهة صامتين يتبادلون  
النظرات، ثم قال أحس بعد تردد:

- إته من العجب أن يجد الإنسان مصريين في مثل  
مظهركما الوجيه، فكيف ترككما الرعاة ثريان ولستما  
من صنائعهم؟

فقال اسفينيس:  
- نحن من مصريي النوبة، ودخلنا طيبة اليوم..  
فصقّ الشاب بيديه دهشةً وسروراً، وقال:  
- النوبة.. لقد فرّ إليها كثيرون في أثناء غزو الرعاة  
لبلادنا، فهل أنتما من المهاجرين؟..  
وكان لاتو بطبعه شديد الحذر، فقال بسرعة قبل أن  
يجيب اسفينيس:

- يا امرأة.. اذهبي طليقة.. وليكن لك مما كدت  
تتردّين فيه موعظة ودرسا.

## - ٧ -

وغادروا المحكمة جميعاً، لاتو واسفينيس والسيدة  
أبانا والشاب الغريب، وفي الطريق نظرت المرأة إلى  
اسفينيس، وقالت بصوت لا يكاد يسمع:  
- سيدي، لقد أنقذتني مروءتك من ظلمات  
السجون، فملكك عنقي بجميل صنيعك، وحمّلتني  
دينًا لا أستطيع الوفاء به.  
وخطف الشاب الغريب يده فقبلها وعيناه  
مغرورتان بالدمع، وقال بصوت متهدج:  
- فليعب الربّ عمّا سلف من سوء ظني، وليجزك  
أجمل الجزاء على ما أوليتنا بإنقاذك أمي من غيابات  
السجن وآلام الجلد.

فغلب التأثر اسفينيس وقال برقة:  
- لا عليكما من هذا، لقد ابتليت أيتها السيدة  
بظلم قبيح، والظلم وإن وقع على نفس بعينها يسيء  
إلى النفوس العادلة جميعاً، وما فعلت إلا أن غضبت  
نفست عن غضبي، فلا دين هناك ولا وفاء..  
ولم يُقنع هذا القول السيدة أبانا، فظلت على تأثرها  
تتعثر في ارتباكها وتقول:

- يا له من عمل نبيل.. يا له من عمل يجلّ عن  
الوصف ويعلو على المديح.  
وأما ابنها فكان لا يقلّ عنها تأثراً، ورأى اسفينيس  
ينظر إليه فقال كالمعتذر:

- ظننت حين التقينا أنكما من صنائع الرعاة، لما  
يبدو عليكما من مظاهر الثراء، فإذا بكما مصريان  
كريمان لا أدري من أين جئتما. وقد أقسمت ألا  
أفارقكما حتى تتفضّلا بزورة كوخنا الصغير، لنشرب  
معاً قدحاً من الجعة احتفالاً بتشرّفنا بمعرفتكما، فماذا  
تقولان؟..

وراحت الدعوة اسفينيس الذي كان يرغب في  
الاختلاط ببني جلدته، وكانت شهامة الشاب وجماله  
يجذبانه إليه، فقال:

## كفاح طيبة ٣٦١

لليبيض ذوي اللحى القذرة، والمصريون عبيد في الأراضي التي كانوا بالأمس أصحابها..

وكان اسفينيس يرمق أحس في أثناء تدفقه بالكلام بعينين يلوح فيهما الإعجاب والعطف، على حين ظلّ لاتو خافضاً عينيه ليخفي تأثره، وسأله اسفينيس:

- وهل يوجد كثيرون يغضبون لهذه المظالم؟

- نعم، ولكننا جميعاً نكظم الغضب ونحتمل الإساءة، شأن الضعيف الذي لا حيلة له. وإني لأتساءل أما لهذا الليل من آخر؟ فقد انقضت عشرة أعوام منذ رضي الرب الغاضب علينا أن يسقط التاج عن رأس مليكتنا سيكتزع..

وخفق قلب الرجلان خفقة عنيفة، وامتنع اسفينيس. ونظر لاتو إلى الشاب دهشاً ثم سأله:

- كيف تعرف هذا التاريخ على حدّثة سنك؟

- تحفظ ذاكرتي صوراً قليلة قائمة، ولكتها واضحة لا تزول، لأيام الشقاء الأولى. ولكني أدين لأمي بمعرفة تاريخ قصة طيبة الأسيفة التي لا تفتأ ترددها على سمعي...

فنظر لاتو إلى أبانا نظرة غريبة اضطربت لها المرأة، فأراد أن يسري عنها فقال لها:

- أنت سيّدة فاضلة وابنتك شابّ نبيل..

وقال لاتو لنفسه إن السيّدة ما تزال تحاذر بالرغم من كلّ شيء، وكان في نيته أن يسأل عن بعض أمور تهّمه، فعدل عن هذا إلى المستقبل. وغير الشيخ مجرى الحديث بلباقة وصرفه إلى وجوه تافهة، فأعاد الطمأنينة إلى النفوس، وشملهم الصفاء وتبادلوا جميعاً شعور المودة الخالصة، وحين همّ التاجران بمبارحة الدار قال أحس لاسفينيس:

- متى تذهب يا سيّدي إلى حاكم الجنوب؟

فقال اسفينيس وهو يعجب للسؤال:

- ربّما ذهبت غداً.

- لي رجاء.

- ما هو؟

- أن أصحبك إلى ضيعته.

- بل نحن من الذين هاجروا قبل ذلك للتجارة...

- وكيف استطعتما الدخول إلى مصر، وقد أغلق الرعاة الحدود؟

فأدرك الرجلان أنّ أحس على حدّثة سنّه يعرف أشياء كثيرة، وكان اسفينيس يشعر نحوه بمودة واطمئنان، فقصّ عليه قصّة دخولها مصر، وفي أثناء حديثه عادت أبانا تحمل أقذاح الجعة، وسمكاً مشويّاً، فوضعت الشراب والطعام أمامهم، وجلست تصغي إلى قصّة اسفينيس حتّى ختمها بقوله: «إنّ الذهب يذهل القوم عن نفوسهم ويغلب ألبابهم، وسوف نمضي إلى حاكم الجنوب ونعرض عليه نفائس ما نحمل، وأملنا أن يوافق أو ينال لنا الموافقة على تبادل التجارة بين مصر والنوبة، لنعود إلى سابق عملنا وتجارتنا..»

فقدمت لها أقذاح الجعة والسمك، وقالت:

- إذا وفقتنا إلى غرضكما فستقومان بأعباء عملكما منفردين، فلا الرعاة يرضون بالعمل في التجارة، ولا المصريون في حالتهم الراهنة من الفقر والبؤس بقادريّن على المشاركة فيها..

وكان لدى التاجرين ما يقولان في ذلك، ولكتها آثرا السكوت عليه. وأقبلا على السمك يأكلان وعلى الجعة ينهلان، وأثنيا على السيّدة أجل الثناء، وأطريا مائلتها الساذجة، فتورّد وجهها، ولهج لسانها بشكر الشاب على جميل صنيعه. وبلغ منها التأثير مبلغاً عظيماً فقالت:

- لقد مددت إليّ يدك الكريمة في الوقت المناسب، وكم من مصريّين بانسين تطحنهم رحى الظلم في الصباح والمساء دون أن يظفروا بمعين..

وبدا أحس سريع التأثر. فما كاد يسمع أمّه تقول هذا القول حتّى تضرّج وجهه باحمرار الغضب، وقال بحدّة:

- المصريون عبيد، يُلقى إليهم بالفتات ويُضربون بالسياط. أمّا الملك والوزراء والقواد والقضاة والموظفون والملاك جميعاً فمن الرعاة. السلطان اليوم

فسرَ اسفينيس لذلك، وقال للشاب:

- أتعرف الطريق إليها؟

- حق المعرفة.

وحاولت أبانا الاعتراض على ابنها، ولكنه أسكتها

بإشارة عصبية من يده، فابتسم اسفينيس وقال:

- إذا لم يكن عندك مانع، فستكون الدليل إليها..

- ٨ -

وانقضى النصف الأول من اليوم الثاني في الإعداد

لزورة الحاكم، وكان اسفينيس يقدر قيمة هذه الزورة

حق قدرها، ويعلم أنّ حياة أماله جميعاً رهينة ببعض

عواقبها، وكذلك آمال من خلفهم وراءه في نباتا يعترك

في نفوسهم الكبيرة اليأس والأمل. فشحن سفينته

بصناديق التحف والآلئ، وأقفاص الحيوان الغريب

والقزم زولو، وعدد كبير من العبيد. وقبيل الأصيل

وافاهما أحسن، فحيّاهما بفرح وقال:

- أنا منذ الساعة من عبيدكما..

فتأبط اسفينيس ذراعه، ومضوا ثلاثتهم إلى

المقصورة. ثم أبحرت السفينة صوب الشمال في جوّ

رائق وريح مؤاتية، وقد صمت من في المقصورة،

واستغرق كلّ منهم في تأملاته، مرسلاً بناظره إلى

شاطئ طيبة. وعبرت السفينة أحياء الفقراء، وأقبلت

على القصور الشمّ الغارقة بين أدواح النخيل وأشجار

الجميز، تنفو عليها الأطيّار من كلّ نوع ولون، وتفصل

بينها وتترامى وراءها الحقول ذات الخضرة النضرة،

تشقّها الجداول الفضّية والوديان والنخيل والكروم،

وترعاها الثيران والبقر، ويعكف عليها الفلاحون العراة

الصابرون. وعلى الشاطئ أقيمت المنازل تغرف من

النيل على أنغام الأناشيد الرقيقة. وكانت النسائم

تعابث الأشجار حاملة في حناياها هسيس النبات

وزقزقة العصافير وخوار الثيران، وشذا الأزهار

والرياحين، فأحسّ اسفينيس أنّ أنامل الذكريات

تداعب جيئه المحترق، وذكر أيام الربيع حين كان

يخرج إلى الحقول محمولاً على هودجه الملكيّ، يسير بين

يديه العبيد والحرس والفلاحون يخبّونه فرحين بطفولته

الطاهرة، نائرين الورد في طريقه السعيد.

وأيقظه صوت أحسن وهو يقول:

- ها هوذا قصر الحاكم.

فتنهّد اسفينيس ونظر إلى حيث يشير الشاب، ونظر

معهما لآتو وقد لاحت في عيني الشيخ نظرة دهشة

وإنكار.

وعرّجت السفينة نحو القصر وقد سكنت مجاديفها،

فاعترض سيلها زورق حرّبيّ غاصّ بالجنود، وصاح

بهم ضابط في عنف وعجرفة:

- ابتعد بسفينتك القذرة أيها الفلاح.

فقفز اسفينيس من المقصورة، ودنا من حائط

السفينة وحيّ الضابط باحترام وقال:

- معي رسالة خاصّة إلى صاحب العظمة حاكم

الجنوب.

فحدّجه الضابط بنظرة حادة وحشيّة، وقال:

- أعطنيها وانتظر.

فأخرج الشاب الكتاب من جيب عبائه وأعطاه

للضابط. وتفحصه هذا بأناة، ثمّ أمر رجاله فوجهوا

الزورق نحو درج الحديقة، ونادى حارساً فنأوله

الرسالة. فأخذها الحارس ومضى ناحية القصر، وغاب

زمنًا يسيراً وعاد مسرعاً إلى الضابط وأسرّ إليه كلمات،

فأشار الضابط إلى اسفينيس أن يدنو بسفينته، فأمر

الشابّ ملاحيه بالجذف حتّى رست السفينة في مرفأ

القصر، وقال له الضابط:

- إنّ صاحب العظمة ينتظرك، فاحمل إليه

بضاعتك..

وأصدر الشابّ أمره إلى النويّسين، فحملوا

الصناديق وبينهم أحسن، ورفع آخرون أقفاص الحيوان

وهودج زولو. وقال لآتو للشابّ وهو يودّعه:

- فليكتب الربّ لك التوفيق.

ولحق اسفينيس بالقافلة، يقطعون جميعاً أرض

الحديقة المعشوشبة في سكون شامل.

- ٩ -

مضى التاجر لمقابلة الحاكم، فقاده خادم إلى بهو

## كفاح طيبة ٣٦٣

الأحجار الكريمة في أقاصي أدغال النوبة، حيث تأوي  
الوحوش الضارية وتنتشر الأوبئة الفتاكة . .

ثم عرض على الحاكم صندوقاً من الزمرد، وثانياً  
من المرجان، وثالثاً من الذهب، ورابعاً من اللؤلؤ.  
وتفحصها الرجل على مهل مبهوراً حتى بدا في النهاية  
كالشمل النشوان، وعرض عليه بعد ذلك أقفاص  
الغزلان والزرائف والقرود وهو يقول:

- ما أجل هذا الحيوان في حديقة القصر!

فابتسم الحاكم وهو يقول لنفسه: «يا له من شاب  
كالشيطان لا يقاوم . .» وبلغت دهشة الحاكم نهايتها  
حين رفع الستار عن المودج، وبدا زولو بخلقه  
الغريب، فلم يتمالك الحاكم أن قام واقفاً، ودنا من  
المودج ودار حوله وهو يتساءل:

- يا للعجب . . أحيوان هو أم إنسان؟

فقال اسفينيس مبتسماً:

- بل إنسان يا مولاي من شعب جَمَّ العدد.

- هذا أعجب ما رأيت وما سمعت . .

ونادى الرجل عبداً وقال له:

- ادعُ الأميرة أمنريدس وزوجي وأخي.

- ١٠ -

وجاء الذين دعاهم الحاكم، ورأى اسفينيس أن  
يخفف بصره تأدياً، ولكنه سمع صوتاً رخيماً زلزلت له  
نفسه زلزلاً شديداً يقول:

- لماذا أزعجت مجلسنا أيها الحاكم؟ . .

فاختلس نظرة إلى الداخلين. فرأى في مقدمتهم  
الأميرة التي زارت بالأمس قافلته وانتقت القلب  
الزمردية، وكان منظرها كما عهدته يغشى العيون،  
ويفعل بها ما يفعله الوهج الشديد، فأيقن الشاب أن  
الحاكم خنزِر وزوجه من الأسرة الفرعونية لا محالة.

على أنه رأى وجهاً آخر ليس بالجديد عليه، وهو وجه  
الرجل الذي تبع الأميرة وزوج الحاكم، فقد كان  
القاضي الذي حكم على أبانا بالأمس، وقد وضع له  
ما بينه وبين الحاكم من شبه قريب وما من شك في أن

الاستقبال وتبعه عبيده بأثقالهم. ووجد الشاب نفسه  
في بهو فائق الترف عظيم الأناقة، يتجلى الفن في  
أرضه وحوائطه وسقفه، وفي الصدر منه جلس  
الحاكم على متكأ وثير، في جلباب فضفاض كأنه كتلة  
من ببيان متين. وكانت ملامح وجهه الكبير قوية  
واضحة، أما نظرة عينيه الحادتين فتدل على الشجاعة  
والبسالة والصفاء. فأشار اسفينيس إلى رجاله فوضعوا  
الصناديق والأقفاص أمامهم، واقترب من وسط البهو  
خطوات، ثم انحنى إجلالاً للحاكم وقال:

- حيّك الربّ المعبود ست أيها الحاكم الأجل.

فألقي عليه الحاكم نظرة من نظراته القوية النافذة،  
فراقه منظره النبيل وطوله الفارع، وبدا على وجهه  
الارتياح لرؤيته، وسأله:

- أقدم أنت حقاً من بلاد النوبة؟

- نعم يا مولاي.

- وماذا تبغي من وراء رحلتك هذه؟

- أطمع أن أهدي إلى سادة مصر تحفاً مما يوجد في  
بلاد النوبة، آملاً أن تروقهم فيطلبوا المزيد منها.

- وماذا تطلب أنت لقاء ذلك؟

- بعض ما يفيض عن حاجة مصر من الغلال.

فهزّ الحاكم رأسه الكبير، وقد لاحت في عينيه نظرة  
ساخرة، وقال بصراحة:

- أراك حديث السنّ ولكنك جسر مغامر، ومن  
حسن طالعك أي أحبّ المغامرين . . . والآن أرنى ما  
تحمل من التحف . .

ودعا اسفينيس أحسن فاقترّب الشاب من الحاكم  
ووضع عند موضع قدميه صندوقه، وفتح التاجر فبدا  
ما بداخله من البياقوت صيفج حلياً مختلفة أشكالها،  
فتفحصها الحاكم بعينين لاح فيها الجشع والطمع  
والإعجاب، ومضى يقلبها بين يديه، ثم سأل الشاب  
قائلاً:

- هل يوجد من هذه الحليّ كثير في النوبة؟

فأجاب اسفينيس بلباقة، وكان أعدّ الجواب من  
قبل أن يدخل مصر:

- إنّه لمن أعجب الأمور يا مولاي أن توجد هذه

رجل قتال لأقاتله، فقد صدئ سيفي من طول انزواته في غمده . .

فقالت الأميرة أمريريس بلهجتها الساخرة:

- كيف لا تأخذك به الرحمة أيها القاضي سنموت وهو يدينني؟  
- أتقولين يدينك يا صاحبة السموم؟ . . يا لها من كلمة . .

وضحكت من دهشة الحاكم، وقصت عليه كيف رأت القافلة، وكيف جذبها زولو إلى السفينة حيث انتقت العقد الجميل، وكانت تروي قصتها بلهجة دلّت على ما تتمتع به من حرية وجسارة، وميل إلى السخرية والفكاهة، فزالت دهشة الحاكم خنزراً، وقال لها مداعباً:

- لماذا اخترت قلباً أخضر يا صاحبة السموم؟ . . فإننا نعلم معنى القلب الأبيض والقلب الأسود، ولكن ما معنى القلب الأخضر؟

فقالت الأميرة ضاحكة:

- وجه سؤالك إلى بائع القلب.  
وكان اسفينيس صامتاً منصتاً تعلقه الكتابة؛ فقال:  
- القلب الأخضر يا صاحبة العظمة رمز الخصب والحنان . .

فقالت الأميرة:

- ما أشدّ حاجتي إلى هذا القلب، لأنّي أحسّ أحياناً أنّي قاسية حتىّ ليلدّ لي أن أقسو على نفسي . .  
وكان القاضي سنموت يطيل النظر في تلك الأثناء إلى زولو، وحاول أن يحوّل انتباه زوج شقيقه إليه، ولكنها أبت أن تنحوّل عن صنديق الأحجار الكريمة، فقال القاضي وقد تأفّف من منظر القزم:

- يا له من مخلوق قبيح .

فقال اسفينيس:

- إنه من شعب من الأقزام، لا تروقههم صورتنا، ويعتقدون أنّ الخالق شوّه ملامحها وقبح أطرافها . .  
فضحك الحاكم خنزراً ضحكة عظيمة، وقال:  
- إنّ قولك هذا أعجب من زولو نفسه، ومن كلّ ما تحمل من غريب الحيوان والنفائس .

الأميرة والقاضي عرفاه كذلك، لأنّها ألقتا عليه نظرة ذات معنى . وكان الحاكم يجهل ما يحدث حوله من التعارف الصامت، فانحنى للأميرة وقال:

- تعالي يا صاحبة السموم انظري إلى أنفك ما حوت بطون الأرض وأغرب ما حمل سطحها . ودار على الصناديق المحمّلة بالأحجار الكريمة وأقفاص الحيوان وهودج زولو، فأقبلوا عليها في شغف ودهشة وإعجاب . ونال القزم قسطه من الإنكار والغرابة، وكانت زوج الحاكم أكبرهم دهشة وإعجاباً، وكانت مغرمة بالجواهر غراماً يُضرب به المثل، فأقبلت على صنديق العاج أيّما إقبال . أمّا القاضي فتحوّل إلى اسفينيس وقال له:

- كنت بالأمس أسائل نفسي عن مصدر ثروتك، وقد عرفت اليوم كلّ شيء . .

فقلّب الحاكم وجهه فيها، وقال لشقيقه:

- ماذا تعني أيّها القاضي سنموت؟ . . هل عرفت هذا الشابّ قبل الآن؟

- نعم يا سيّدي الحاكم، رأيته بالأمس في المحكمة، والظاهر أنّه عظيم الاعتداد بنفسه وبثروته، فقد تبرّع بخمسين قطعة من الذهب لينقذ فلاحاً متهمه بإهانة القائد رخ من السّجن والجلد، فترى يا سيّدي أنّ القائد أصيب في يوم واحد بفلاحة تتناول عليه ويفلّاح يتحدّى غضبه . .

فضحكت الأميرة أمريريس ضحكة رقيقة ساخرة، وقالت وهي تلقي نظرة على وجه الشابّ:

- وما وجه العجب في ذلك أيّها القاضي سنموت؟ . . ليس من الطبيعيّ أن يشمرّ فلاح للدفاع عن فلاح؟ . .

- الحقّ يا مولاتي أنّ الفلاحين لا يقوون على شيء، ولكنّه الذهب وسحره . وقد صدق من قال إنّك إذا رغبت في أن تتفع بالفلاح فأفقره ثمّ اضربه بالسوط . أمّا الحاكم فكان بطبعه عظيم الإعجاب بأعمال الجسارة والبسالة، فقال:

- إنّ التاجر شابّ جسور، وما اقتحامه حدود بلادنا إلاّ آية من آي شجاعته . مرحى . . مرحى . . ليته كان

## كفاح طيبة ٣٦٥

- سيأتيك رسولي في يوم قريب .  
وانحنى الشاب في إجلال عظيم، وبرح المكان  
يتبعه عبيده . وكانت الأميرة تنظر في وجهه وهو يتحدث  
الحاكم عن آماله ويصغي إليه، وتبعته بنظرها وهو  
يبرح المكان، فعجبت لأي النبل والحسن البادية على  
وجهه وقامته، وأسفت أن يكون حظّه من الدنيا  
التجارة وحمل الأوزام . أواه . . كم تمنّت أن تجد هذه  
القامة في جسم واحد من قومها الميالين إلى البدانة  
والقصر، ولكنّها وجدتها في جسم مصريّ أسمر يتجر  
في الأوزام . . وأحسّت أنّ صورة هذا الفتى الجميل  
تحرك عاطفة في نفسها . . فبدت كالغاضبة، ووالت  
الحاكم وآله ظهرها وفارقت البهو . .

- ١١ -

وعاد اسفينيس والعييد في أثر مرشدهم إلى  
الحديقة، فنسّم نسمة من ريح طيبة هدأت من  
وجدانه الثائر، وتنفس تنفساً عميقة امتلأ بها صدره،  
وكان يعدّ نتيجة رحلته هذه توفيقاً عظيماً . ولكنّه كان  
يفكر في الأميرة أمنريدس ويتمثل وجهها النوراني  
وشعرها الذهبيّ وشفتيها القرمزيتين، والقلب الزمردّي  
المدلّي على صدرها الناهد . . ربّاه! . . ينبغي أن  
يتعامى عن المطالبة بثمنه ليظلّ قلبه وقلبها معاً . . وقال  
لنفسه: إنّها ربيبة النعيم والحبّ، تظنّ من غير شكّ  
أنّ الدنيا وما فيها رهن إشارة من أصبعها، جسوراً  
ضحوكتاً: ولكنّه ضحك مترف لا يخلو من القسوة،  
تضاجك الحاكم وتنهزأ بتاجر غريب ولما تبلغ الثامنة  
عشرة، ولو رأيتها غداً على متن جواد تريش سهماً ما  
حقّ لي العجب . .

ثمّ نصح نفسه ألاّ يستسلم للتفكير فيها، ولكي  
يعمل بنصيحته عاود التفكير في توفيقه فإثنى على  
الحاكم خنزر . . إنّ حاكم جبّار قويّ عظيم الشجاعة،  
ولكنّه طيب القلب، وربّما كان عظيم الغباوة أيضاً .  
وإنّ نزوعه إلى الذهب عظيم كعامة قومه، وقد  
هضمت معدته الهدايا الكثيرة من الذهب واللؤلؤ  
والزمرد والياقوت والحياوان والمسكين زولو بغير كلمة

وقال سموت وهو يحدج اسفينيس بنظرة ارتياب:  
- أرى هذا الشاب يدع أفكارنا تضطرب بأخيلته،  
فمن المؤكّد أنّ أولئك الأوزام لا يمكن أن يدركوا معنيّ  
للحسن أو القبيح . .  
ورزت الأميرة أمنريدس إلى القزم كالمعتدرة،  
وقالت:

- هل تستقيح النظر إلى وجهي يا زولو؟  
فعاد خنزر إلى قهقهته، واختلج قلب اسفينيس لما  
راه من روعة حسنهما وفتنة دلالهما، وقد تمّنى في تلك  
اللحظة أن يديم إليها النظر . وساد الصمت بعد  
ذلك، فأدرك الشاب أنّه قد آن وقت الانصراف وخشي  
أن يصرفه الحاكم دون أن يطرق الموضوع الذي يهّمه،  
فقال للحاكم:

- هل من الممكن أنّها الحاكم الجليل أن أطمع في  
تحقيق آمالي في ظلّ رعايتك الكريمة؟  
ففكر الحاكم وعبثت يده بلحيته الغزيرة السوداء،  
ثمّ قال:

- لقد ملّ قومنا الحرب والغزو ومالوا إلى الترف  
والنعيم، وإتهم ليرفّعون بطبعهم عن التجارة، فلا  
سبيل إلى هذه الدرر الثمينة إلاّ بالمغامرين من أمثالك .  
ولكنّي لا أحبّ أن أعطيك كلمتي الآن، فينبغي أن  
أحدث قبل ذلك مولاي الملك . وسأرفع إلى ذاته العليا  
أجل هذه النفائس عسى أن يوافقني على رأيي .

فانشرح صدر اسفينيس وقال:

- سيدي الحاكم، إنّي أحتفظ لمولانا فرعون بهديّة  
نفيسة صنعت خاصّة لذاته العليا .

ففرسّ الحاكم في وجهه ملياً، وخطرت له فكرة  
يتقرّب بها إلى مولاه فقال:

- في ختام هذا الشهر يحتفل فرعون بعيد النصر  
كعادته منذ عشرة أعوام ومن الممكن أن أجعل منك  
ومن أوزامك مفاجأة سارة للمليك، فتقدّم إليه هديّتك  
التي لا شكّ أنّها لائقة بالمقام الأعلى . . فأخبرني عن  
اسمك ومقامك . .

- أدعى يا مولاي اسفينيس، وأقيم حيث ترسو  
قافلتني على شاطئ حيّ الصيادين جنوب طيبة .



- آه يا سيدي اسفينيس، إن هذا القصر الذي دخلته خادماً من خدمك هو قصر والدي..

فبدت الدهشة على وجه اسفينيس، وتفَرَسَ لاتو في وجهه باهتمام شديد، أما الشاب فاستدرك قائلاً وهو في غيبوبة الحزن الشديد:

- هذا القصر الذي اغتصبه الحاكم خنزَر هو مهد طفولتي ومرتع صباي، وبين جدرانها العالية قضت أُمِّي البائسة عهد الشباب والنعيم في كنف والدي قبل أن تقع القارة في أرض مصر، وتطا أرض طيبة المقدسة أقدام الغزاة.

- ومن كان أبوك يا أحمس؟

- كان أبي قائد جيش مليكنا الشهيد سيكنرع.

فقال لاتو:

- القائد بيبي؟.. يا إلهي.. حقاً هذا قصر القائد الباسل.

فنظر أحمس إلى لاتو بدهشة وسأله:

- هل كنت تعرف أبي أيها السيد لاتو؟

- وهل وجد في جيلنا من يجمله؟

- إن قلبي يحدّثني بأنك من السادة الذين شرّدهم الغزو..

فسكت لاتو رغبة عن أن يكذب على ابن القائد بيبي وسأله:

- وكيف انتهت حياة القائد الباسل؟

- استشهد يا سيدي في الدفاع الأخير عن طيبة، أما والدي فعملت بوصيته وفرت بي في جمع من السادة إلى حيّ الفقراء حيث نعيش الآن، لقد تشبّت سادة طيبة الأقدمون. وتحفّي قوم منهم في أسبال بالية وهاجروا إلى حيّ الصيادين، وركبت أسرة مليكنا البحر إلى مكان مجهول، وأغلق معبد آمون أبوابه على كهنته فانقطع ما بينهم وبين العالم، وخلا الجوّ للبيض الغرباء ذوي اللحى يمشون في الأرض مرشّحاً، ويملكون كلّ شيء. وكان خنزَر أسعد القوم حظاً فزوجه الملك أخته، ووهبه ضيعة أبي وقصره، ونصّبه حاكماً على الجنوب جزاء ما اقترفت يده الأثيمتان..

شكر.. ولكن هذا الجشع هو الذي فتح له أبواب مصر، وبلغ به قصر الحاكم، وسيتهي به قريباً إلى قصر فرعون. وكان أحمس يسير على مقربة منه، فسمعه يمس بصوت لا يكاد يسمع قائلاً: «شارف» فظنّه يخاطبه. فالتفت إليه فوجده ينظر إلى شيخ هرم يحمل سلّة أزهار ويضرب في الحديقة بخطى واهنة، وسمع الشيخ الصوت الذي يناديه، فتلقت في حوله يبحث بصره الضعيف عمّن يناديه.. ولكن أحمس تخاماه وولّاه قفاه، فدهش اسفينيس وألقى عليه نظرة متسائلة، ولكنّ الفتى خفض نظره ولم ينبس بكلمة.

وبلغوا السفينة وصعدوا إليها فوجدوا لاتو في انتظارهم، يلوح على وجهه الذابل الاهتمام الشديد. فابتسم اسفينيس وقال له:

- وفقنا بفضل الربّ آمون.

ثم رفعت المرساة وتحركت المجاديف، فأقبل الشاب عليه يحدّثه حديث المبالغة، حتى قطع عليهما الحديث صوت بكاء. فالتفتا إلى مصدره فرأيا أحمس متكئاً على حائط السفينة يتحبب كالأطفال، فراعها منظره، وتذكّر اسفينيس ما غمض عليه من سلوكه في الحديقة، فدنا منه يتبعه لاتو، ووضع يده على منكبه وقال له:

- أحمس ما الذي يبكيك؟

ولكنّ الفتى لم يجبه ولم يعبّر ممّا قال شيئاً، واستسلم للبكاء في حزن عميق غلبه على أمره وأفقده وعيه فانزعج الرجلان وأحاطا به، وأخذاه إلى المقصورة وأجلساه بينهما، وأحضر اسفينيس له قدحاً من الماء وقال له:

- ما الذي يبكيك يا أحمس؟.. هل تعرف ذلك

الشيخ الهرم الذي دعوته شارف؟

فقال أحمس وهو يرتجف من حرارة البكاء:

- كيف لا أعرفه؟. كيف لا أعرفه؟.

فسأله في غرابة:

- من هو؟. ولماذا تبكي هذا البكاء؟.

وأخرجه الحزن عن صمته، فباح بما في صدره قائلاً:

## كفاح طيبة ٣٦٧

بجولاه من أنبل السبل، وإلى ابنه الشاب المتحمس  
أحمس..

فقلت أبانا:

- وإني لجد سعيدة أن تلقي إلي المصادفات السعيدة  
رجلين كريمين من رجال العهد القديم، فتذاكر معًا  
أيامنا الخوالي. ونشعر بحاضرنا شعورًا واحدًا. أما  
أحمس فهو شاب عظيم الحماة جدير باسمه، وقد  
دعا به أبوه تيمنا باسم أحمس حفيد ملكنا سيكنترع  
وابن ملكنا كاموس - وقد ولدا في يوم واحد - طيب  
الرب مساءه حيثما كان..

ويسط لاتو كفيه مؤمنا على قولها، وقال بصدق  
وإخلاص:

- ليحفظ الرب صديقنا أحمس، وليحفظ سميّه  
العظيم حيثما كان...

- ١٢ -

وتوطدت المودة بين التاجرين وأسرّة أبانا، فعاشوا  
جميعًا أسرة واحدة لا يفترقون إلا في الثلث الأول من  
الليل، وعلم الرجلان أنّ حيّ الصيادين مكتظّ بالسادة  
المتخفين من تجار طيبة وأصحاب ضياعها ومزارعها  
السابقين، فسّر لذلك الرجلان، وأرادا أن يتعرّفا إلى  
بعض البارزين منهم، وأفضيا برغبتها إلى أحمس بعد  
أن استوثقا من إخلاص القوم، ورحّب الفتى برغبتها،  
واختار أربعة من أقرب المقرّبين إلى والدته هم: سنب  
وهام وكوم وديب، وأسّر إليهم بحقيقة التاجرين،  
ودعاهم يومًا إلى داره حيث وافاهم لاتو واسفينييس.  
وكان الرجال يرتدون لباس الفقراء، وزرة وسترة من  
الكتان البالية، فرحبوا جميعًا بالتاجرين وتبادلوا التحيات  
بحرارة دلّت على الصدق والمودة. قال أحمس:

- إنّ من ترون مثلكما من سادة مصر الأقدمين،  
وجميعهم يعيشون عيشة الصيادين المنبوذة البائسة، على  
حين يستأثر بأرضهم الرعاة الملعونون..

وسأل هام التاجرين:

- هل أنتما من طيبة أيها السيدان؟

فسأله لاتو:

- وأيّ ذنب اقترفه الحاكم؟

وكان أحمس سكت عن البكاء، فقال بلهجة  
تنطوي على الغضب الشديد:  
- يده الأثيمة التي أردت ملكنا سيكنترع.

وانتفض اسفينييس كمن مسته نار حامية، ولم يطق  
قعودًا فانصب واقفًا متوعّدًا وقد ارتسم الغضب على  
وجهه بصورة مروعة تبعث الرعب في الأفتدة، في حين  
أغضى لاتو الطرف ممتقع الوجه لاهث الأنفاس، وردّد  
أحمس بصره بينهما فوجد أخيرًا من يشاركه عواطفه  
المضطربة، فرفع رأسه إلى السماء وتمتم قائلًا:  
- ألا فليبارك الرب هذا الغضب القدسي..

وبلغت السفينة مرفأها، وكانت الشمس تنغمس في  
النيل والشفق يخضب الأفق، فقصدوا إلى بيت أبانا،  
ووجدوا السيّدّة تشعل مصباحها. فلما شعرت بمقدمهم  
تحوّلت إليهم وعلى فمها ابتسامة ترحيب، فتقدّم منها  
لاتو واسفينييس وانحنيا لها في إجلال، وقال الشيخ في  
صوت رزين:

- طيب الرب مساء أرملة قائدنا العظيم بيبي..

ففاضت الابتسامة من شفيتها، واتسعت حلقها  
دهشة وانزعاجًا، وحدجت ابنها بنظرة لوم وتأنيب،  
وأرادت الكلام فامتنع عليها، فاغرورقت عيناها  
بالدموع فدنا منها أحمس ووضع يدها بين راحتيه،  
وقال لها بحنان:

- أمّاه لا تخافي ولا تحزني، وقد علمت ما أولاني  
هذان السيدان من الجميل، واعلمي إلى هذا أنّهما كما  
ظننت من سادة طيبة الأقدمين الذين شردهم  
الطغيان، نازعهما الشوق إلى اجتلاء وجه الوطن مرّة  
أخرى..

فسكنت نفس المرأة ومدّت لهما يدها فطالعاها  
بوجهين ينطقان بالصفاء والإخلاص، وجلسوا جميعًا  
متقاربين، وقال اسفينييس:

- إنّ فخرنا العظيم بالجلوس إلى أرملة قائدنا  
الباسل بيبي، الذي قضى في الدفاع عن طيبة ولحق

## ٣٦٨ كفاح طيبة

- أن أثير جشعه، فيأذن لي بالأثجار بين النوبة  
ومصر وتبادل الذهب بالحبوب...  
فسكت الرجال، وسكت اسفينيس ساعة يفكر،  
وبدا له أن يخطو خطوة جديدة في سبيل مشروعه،  
فقال باهتمام:

- اصغوا إليّ أيها السادة، ليس هدفنا الذي نرمي  
إليه التجارة، وما ينبغي أن تكون التجارة هدف قوم  
قدموا إليكم في بيت أرملة قائدنا العظيم بيبي، ولكننا  
نأمل أن تصل قافلتنا مصر بالنوبة، وأن نستعين بقوم  
منكم كعمال في الظاهر فنحملكم إلى إخواننا في  
الجنوب. سنحمل الذهب إلى مصر ونعود بالحبوب  
والرجال، وربما كررنا يوماً بالرجال فقط...

فاستمع الجميع في دهشة ممزوجة بفرح، وأشعث  
أعينهم نوراً خاطئاً، وصاحت أبانا قائلة:

- ربّاه!. ما هذا الصوت الجميل الذي يُجني في  
أنفسنا همد الأمل!

وصاح هام قائلاً:

- يا إلهي... إن الحياة تدبّ في مقبرة طيبة.

وهتف كوم:

- أيها الشاب الذي يبعث صوته القلوب الميتة، لقد  
كنّا نعيش حتّى الساعة بلا أمل ولا مستقبل، يثودنا  
شقاء حاضرنّا فلا نجد منه مهرباً إلّا في تذكّر الماضي  
المجيد والتحرّس عليه، وها أنت ذا تزيح الستار عن  
مستقبل باهر...

فانشرح صدر اسفينيس وأفعم قلبه أملاً، وقال  
بصوته الجميل المثير:

- لا ينفع البكاء يا أيها السادة، فإنّ الماضي يوغل  
في القدم والفناء ما دمتم تقنعون بالتحسّر عليه، وما  
يلبث مجده أن يصبح قريباً إذا توتّبتم للعمل له. فلا  
يحزنكم أن تكونوا اليوم تجاراً، فإنكم في القريب  
تصيرون جنوداً تضيق بهم الأرض وتذلّ لهم الحصون،  
ولكن أصدقوني هل تتقون بإخوانكم جميعاً؟

فقالوا في نفس واحد:

- نقتنا بأنفسنا.

- ألا تخشون العيون؟

فقال لاتو:

- كلاً يا سيدي. ولكننا كنّا يوماً من ملّاك  
أمبوس...

فقال سنب:

- وهل هاجر إلى النوبة كثيرون مثلكما؟...

فقال لاتو:

- نعم يا سيدي، وفي نباتا خاصّة يوجد مئات من  
المصريّين، ومن أمبوس وسين وهابو ومن طيبة  
نفسها...

فتبادل الرجال النظرات، ولم يكن يرتاب منهم أحد  
في التاجرّين بعدما قصّ عليهم أحسن ما صنع  
اسفينيس لأمه في المحكمة، فساءل هام:

- وكيف تعيشون في نباتا أيها السيّد لاتو؟

- عيشة الضنك كالنوبيّين أنفسهم، ففي النوبة تجود

الأرض بالذهب وتشخّ بالغلّال...

- ولكنكم سعداء ما دمتم لا تمتدّ إليكم أيدي  
الرعاة.

- دون شكّ، ولذلك لا نفتأ نذكر مصر وأهلها

الأسرى المستعبدين.

- ألا يوجد لنا في الجنوب قوّة حربيّة؟

- بلى، ولكنّها قوّة صغيرة يستعين بها رؤوم حاكم

الجنوب المصريّ على حفظ الأمن في البلاد.

- وما عسى أن يكون شعور النوبيّين نحونا بعد

الغزو؟

- إنّ النوبيّين يحبّوننا ويرضون بحكمنا طائعين،

ولذلك لا يلقى رؤوم أيّة مشقّة في حكم البلاد بقوّة

صغيرة لا يعتدّ بها، ولو شقّوا عصا الطاعة ما وجدوا

قوّة تؤدّبهم...

فلاحت الأحلام في أعين الرجال، وكان أحسن قد

قصّ عليهم كيف تمكّن التاجران من اجتياز الحدود

وزيارة الحاكم، وكيف أنّ اسفينيس سيقدم إلى

أبوفيس هديّة يوم الاحتفال بعيد النصر، فساءل هام

بامتعاض:

- وما تبغي من وراء تقديم هديّتك إلى أبوفيس؟

فقال اسفينيس:

## كفاح طيبة ٣٦٩

إلى مصر، وقد وقف أبوه كاموس قريباً منه يوصيه بصوته الجمهوري المؤثر، وذكر أمّه الملكة ستكيموس وهي تلثم جبينه، وزوجه نيفرتاري وهي تلقي عليه نظرة الوداع من خلال أهدائها المبتلة.. فلاحت في عينيه نظرة حنان كنور القمر في صفائه وحيائه.. ونفذت قطرات من الحسن المنبت ما بين السماء وماء النيل إلى قلبه. فانتعش وانتشى بخمر إلهية. ولكن طرقت مخيلته خلصة صورة من النور والبهاء، فاقشعر بدنه، وأغمض جفنيه كأنما يفرّ منها فراراً، وهمس لنفسه بامتعاض: «يا إلهي.. إني أذكرها أكثر مما ينبغي.. وما ينبغي لي أن أذكرها بتاتاً..».

## - ١٣ -

وجاء يوم العيد، فلبث اسفينيس في السفينة نهار اليوم؛ وعند المساء لبس أجمل ما عنده من الثياب، ورَجَل جُمَّته ومسّ طيباً، وبرح السفينة يتبعه عبيده يحملون صندوقاً من العاج، وهودجاً مسدل الساتر، وساروا في طريق القصر. وكانت طيبة ساهرة تضحج أجواؤها بنقر الدفوف وسجع الأغاني، وينير القمر منها سبلاً اكتظت بجماعات الجنود السكاري المشددين، وعربات الأعيان والنبلاء تقطع الطريق صوب القصر الفرعوني يتقدّمها الخدم حاملين المشاعل، فتولّت الشابّ كآبة ثقيلة، وقال لنفسه محزوناً: «قضي عليّ أن أشارك القوم عيدهم الذي يجيئون به ذكرى سقوط طيبة ومقتل سيكنرع». وصوّب نحو الجنود المتهافتين نظرة مغضبة، وذكر قول الحكيم قاقمنا: «الجنود إذا تعودوا الشراب، وهنت سواعدهم وعافوا القتال».

ثمّ تابع تيار الساترين حتّى شارف ميدان القصر، ولاحت لعينه أسواره ونوافذه نوراً فوق نور، فشقت عليه الرؤية وخفق قلبه بعنف، ونسّمت على رأسه المحموم ريح عبقة عاطرة من ذكريات الصبا، وجدت قلبه حزيناً ونفسه والهة. ومضى تزداد شجونه كلّما أدناه المسير من مهد الطفولة ومرتع الصبا.

واقترب الشابّ من أحد الحجاب وأبرز له كتاب خنزr. فنظر فيه بإمعان، ثمّ نادى أحد الخراس وأمره

- إنّ الرعاة جابرة بغير عقول، وقد اطمأنوا بقوتهم إلى استعبادنا عشر سنين فهم لا يجاذرون.

فصقّ اسفينيس بيديه فرحاً وقال:

- اذهبوا إلى إخوانكم المخلصين وبشّروا بالأمل الجديد، واجمعوا بيننا وبينهم في كلّ حين لتبادل الرأي والشورى ولنبلغهم رسالة الجنوب، وإذا كان مصريّو نباتا الآمنون غاضبين، فأولى بكم الغضب.

فأمّن الرجال على قوله متحمّسين، وقال نايب:

- نحن غاضبون أيّما الشابّ النبيل، سيثبت لك كفاحنا أنّنا أشدّ غضباً من إخوان نباتا..

وحياّ التاجرّين ومضوا وقد داخلتهم ثورة غضب وتحفّز لا تهدأ ولا تسكن، وسمع الرجلان أبانا تنتهد وتقول:

- ربّاه!.. من يدلّنا على أسرة مليكنا الشهيد؟..

وفي أيّ ركن من الأرض هو؟..

ومضت أسابيع وكان اسفينيس وزميله الشيخ لا يذوقان طعم الراحة. كانا يجتمعان برجال طيبة المتخفين في بيت أبانا، وكانا يكاشفانهم بأمال المصريّين المهاجرين فيثّان في نفوسهم الأمل والحياة، ويصبّان في عزائمهم القوّة والجلاد، حتّى بات حيّ الصيادين جميعه ينتظر على لهفة وجزع الساعة التي يدعى فيها اسفينيس إلى القصر الفرعونيّ.

وتوالى الأيام حتّى كان يوم جاء حيّ الصيادين أحد حجاب حاكم الجنوب يسأل عن قافلة المدعوّ اسفينيس، ثمّ سلّمه كتاباً من الحاكم يجيز له دخول القصر الفرعونيّ في ساعة سهاها من يوم العيد، ورأى كثيرون الرسول فابتهجوا وشملهم السرور، وأشرق في نفوسهم الأمل..

وفي ذلك المساء نامت القافلة، ولبت اسفينيس منفرداً على ظهر السفينة في هدأة وجمال الليل السكون، ينمره نور القمر ويسيل على وجهه النيل درراً ولؤلؤاً لامعاً متوهجاً، فدخلته رقة، وأثلج صدره الرضا، وطاب لخياله أن يتردّد بين الماضي القريب والحاضر الغريب. فتمثّل ساعة الوداع في نباتا، وجدّته توتيشيري تبشّره بأنّ روح آمون أوحى إليها أن ترسله

عنها بالسمر الرقيق ومطالعة الأشعار وأكل الفاكهة الناضجة. جلس اسفينيس فترة غير قصيرة من الليل يطالع ذكرياته على صفحات الحديقة والممرات والأروقة، فلم يتململ ولم يجزع، حتى جاءه الرسول وسأله:

- هل أنت مستعد؟..

فقام واقفاً وهو يقول:

- على تمام الاستعداد يا سيدي.

فقال وهو يهيم بالعودة:

- اتبعني.

فتبعه ورجاله على الأثر، وارتقوا أدراج السلم، وقطعوا الرواق الفرعوني حتى شارفوا باب البهو الملكي، فلبثوا ينتظرون أن يؤذن لهم بالدخول، وبلغ سمعيه أصوات ضحك عالية، ووقع الأقدام الراقصة، وسجع الموسيقى العنيف، وشاهد زرافات السقاة يحملون الأباريق والأقداح والأزهار، فأدرك أن القوم لا يتحرجون في لهوهم ولا يعتدلون في أعيادهم، وأن الملك يعفيهم من الرقار والتأدب ليعودوا إلى فطرتهم الوحشية الأولى. ثم نادى باسمه أحد العبيد، وتقدم بخطى متتدة، ورأى وسط البهو خالياً، والقوم جلوساً حوله في ثيابهم الرسمية الفاخرة يتطلعون إليه باهتمام، فدخله شيء من الارتباك، وأيقن أن الحاكم عرف كيف يثير اهتمام القوم بما حدثهم عنه وعن هذائاه لتعظم مآثره في عين الملك، واستبشر بذلك خيراً. ولما جاوز منتصف البهو أمر أتباعه بالوقوف، ودنا وحده من العرش وحتى هامته إجلالاً، وقال بصوت الخضوع والعبودية:

- مولاي الرب المعبود، سيد النيل، فرعون مصر

العليا والسفلى وأمير المشرقين.

فقال له الملك بصوت جهوري قوي النبرات:

- إني أمنحك السلام أيها العبد.

واعتدلت قامة اسفينيس، واستطاع أن يختلس نظرة سريعة إلى الرجل المتربع على عرش آبائه وأجداده، فعرف فيه صاحب تمثال الحديقة بلا شك.

ولكنه أدرك من شدة احمرار وجهه ونظرة عينيه

أن يقود التاجر وقافله إلى مكان الانتظار بالحديقة. فتبعه الشاب وعرج وراءه إلى أحد ممرات الفناء الجانبية لزدحام الممر الوسيط بالمدعوين والحجاب والحراس. وكان اسفينيس يذكر المكان جيد الذكرى، وكأنما فارقه أمس آخر مرة. وحين بلغوا ممر الأعمدة الكبير المؤدي إلى الحديقة، اشتد وجيب قلبه وعض على شفته السفلى من شدة التأثر، وذكر كيف كان يلعب في هذا الممر مع نيفرتاري، فيشد على عينيه حتى تخفي نفسها وراء أحد الأعمدة الهائلة، ثم يحل العصابة ويحد في البحث عنها حتى يظفر بها. وخال في اللحظة أنه يسمع وقع قدميها الصغيرتين، ويسمع رجوع ضحكاتها الحلوة. وكاننا يحضران اسميهما على بعض العمد، ترى هل تحتفظ بأثار اسميهما حتى الآن؟.. وقد ود لو يغافل حارسه ويعاين أثر الماضي الجميل، ولكن الرجل كان يوسع الخطى غير شاعر بالقلب المنصهر على قيد ذراع منه.. فبلغوا الحديقة، وأشار الحارس إلى أريكة وقال للشاب:

- انتظرها هنا حتى يأتيك الرسول.

وكانت الحديقة مضاءة بالمصابيح الوهاجة، والنسيم يهب من أنحائها بشذى الريحان ورياح الزهور، فبحث عيناه عن الموضع الذي كان يقوم فيه تمثال سيكننرع عند نهاية الممر المعشب الذي يشق الحديقة نصفين، فوجد مكانه تمثلاً جديداً لا روح فيه؛ يمثل شخصاً ربعة ضخم الهيكل كبير الرأس مقوس الأنف ذا لحية طويلة وعينين واسعتين جاحظتين، فلم يشك في أنه أمام أبوفيس ملك الرعاة. فأدام إليه النظر شزراً، ثم ألقى على الحراس نظرة قاسية يستعر فيها الغضب والحنق، وكان كل شيء من القصر والحديقة كعهده به. ولاحت لعينه الحجرة الصيفية على هضبة عالية، تحنو عليها أدواح النخيل بقاماتها الرشيق الطويلة، فذكر أيامها السعيدة، حين كانت تهرع إليها الأسرة جميعاً في فصلي الصيف والربيع، فينهمك جدّه وأبوه في لعب الشطرنج، وتجلس نيفرتاري بين الملكة ستكميوس وجذتها الملكة أحتوبي، أما هو فيقعده في حجر توتيشيري، ثم تمضي الساعات وهم في شغل

## كفاح طيبة ٣٧١

خطى ثابتة وثيدة، وسجدوا بين يدي فرعون ثلاثاً، ووقفوا ساكنين لا تبين وجوههم عن شيء. وهتف الملك قائلاً:

- أيها التاجر، ما عسى أن تكون هذه المخلوقات؟  
- هي أناس يا مولاي تعيش قبائلها في أقاصي النوبة الجنوبية، ولا يصدّقون أنّ العالم يشتمل على أقوام سواهم. فإذا رأوا واحداً منّا عقدت الدهشة ألسنتهم وتنادوا متعجبين. وقد ربّيت هؤلاء الثلاثة فأحسن تربيتهم، وسيجدهم مولاي مثلاً للطاعة والعبودية، ونوعاً من التسلية والتلهية.

فهزّ الملك رأسه الكبير، وضحك ضحكته العظيمة ثمّ قال:

- جهل من يدّعي العلم كلّه، أما أنت أيها الشاب فقد أدخلت السرور على قلوبنا، وإني أمتحك رضاي..

وحنى اسفينيس هامته، ثمّ ارتدّ بظهره راجعاً. وعند منتصف البهو اعترض سبيله إنسان ما، فقبض على ذراعه. والتفت اسفينيس إلى صاحب اليد الغليظة، فرأى رجلاً في الثياب العسكرية الفخمة، جميل العثون غليظ الشارين متفخ الأوداج. دلّ احتقان الدم بوجهه ويريق الجنون في نظرة عينيه على شدّة سكره، وقد حيّا مولاه وقال:

- إنه ليسرّ مولاي من غير شكّ أن يشاهد فنون القتال الباسل في الحفلات القومية، كما تقضي به تقاليدنا المقدّسة. وإني أدخر لذات مولاي المقدّسة مبارزة دموية تسرّ الناظرين.

فقال الملك وهو يرفع كأسه إلى شفّته الغليظتين:  
- ما أجل أن تراق دماء الفرسان على أرض هذا البهو لتنفّض عن النفوس ما ران عليها من سأم، ولكن من السعيد الذي شرفته بعداوتك أيها القائد رخ؟

فأشار القائد الشمل إلى اسفينيس وقال:

- هذا غريمي يا مولاي.

فعجب الملك وعجب كثيرون من النبلاء، وسأله الملك:

وكأس الخمر الموضوعة أمامه أنّه ثمل. وكانت الملكة تجلس إلى يمينه، والأميرة أمنريدس إلى شماله، وقد لحظها الشاب فرأها في لباسها الملكي كالكوكب المتألّق، وكانت تنظر إليه في هدوء وكبرياء..

والقى الملك عليه نظرة فاحصة فراقه منظره وابتسم قائلاً بصوته الغليظ:

- وحقّ الربّ إنّ هذا الوجه لجدير بأحد رجالنا النبلاء..

فأحنى اسفينيس رأسه وقال:

- شاء الربّ أن يجعله لمولى من موالي فرعون.

فقهقه الملك ضاحكاً وقال:

- أراك تحسن القول، وبالقول الحسن يستجلب قومك عطفنا ونقودنا. وهي حكمة ست أن يعطى السيف للسيد القويّ، وحسن البيان للعبد الضعيف. ولكن لا عليك من هذا فقد قال لي صديقنا خنزر إنك تحمل لنا هدية من بلاد النوبة.. أرنا هديتك.

فحنى الشاب رأسه واتحنى جانباً، ثمّ أشار إلى رجاله فتقدّم اثنان منهم بالصندوق العاجي ووضعاه أمام العرش، ودنا الشاب منه وفتح واستخرج منه تاجاً فرعونياً مزدوجاً من الذهب الخالص مرصّعاً بالياقوت والزمرد واللؤلؤ والمرجان، ورفع بين يديه فخطف الأبصار، وانبهر له القوم جميعاً وضجّوا بالدهشة والاستحسان، وأمّا أبوفيس فقد حملق فيه بعينين جاحظتين جشعتين، وخلع تاجه دون شعور منه، وتناول التاج الجديد بين يديه الكبيرتين ووضعه على رأسه الأصلع، فتبدّى صورة جديدة من الجلال. واغتنب الملك ولاح في وجهه الرضا، فقال للشاب:

- أيها التاجر، إنّ هديتك حازت القبول.

فانحنى اسفينيس إجلالاً، والتفت إلى رجاله وأشار إليهم إشارة خاصّة فأزاحوا الستار المسدل على المهدج، ورثي الأقرام الثلاثة جالسين متلاصقين. وقد أثار ظهورهم دهشة عظيمة في نفوس القوم جميعاً، فقام أكثرهم واقفين، واشربآبت الأعناق، وصاح بهم التاجر الشاب أن حيّوا مولاكم فرعون، فقفز الأقرام الثلاثة قفزة واحدة فصاروا صفّاً، ثمّ اقتربوا من العرش في

ولكن يظفر بغرضه الأسمى . وهنا سمع القائد يقول له :

- لقد تحدّيتني أيّها الفلاح، فهل تستطيع مواجهتي؟ فسكت اسفينيس شاعرًا بانبيار ونخاذل، وسمع صوتًا يقول: «دعوا الشابّ إنّه لا يعرف القتال». وقال صوت آخر: «دعوا الشابّ فإنّ الفارس يقاتل بنفسه لا بجسمه..» فدخله الحنق، وأحسّ يداً توضع على كتفه وصوتًا يقول له: «لست فارسًا ولا عار عليك إذا اعتذرت». فنظر فرأى خنزِر. فشرع بقشعريرة تسري في أعضائه من لمس اليد التي فتكت بجده. ولاحق منه نظرة في تلك اللحظة الراهبة نحو العرش فرأى الأميرة أمبريدس تنظر نحوه باهتِمام، فغلبه الغضب وفقد وعيه، فقال بصوت مسموع:

- إني أشكر القائد على نزوله لمبارزتي، وأقبل اليد التي يمدّها لي.

وسرى الفرح في النفوس، وضحك الملك وشرب كأسًا أخرى، وتطلّعت الرعوس من كلّ حدب وصوب للغريمين. وبدا الارتياح على وجه القائد وابتسم ابتسامة التشفّي والانتقام، ثمّ سأل اسفينيس:

- هل تضارب بالسيف؟

فحنى رأسه أن نعم، فأعطاه سيفًا. ثمّ خلع اسفينيس عباءته عن سترته وسرواله فبدا جسمه الطويل القويّ يجذب الأبصار برشاقتة واعتدال قامته وجمال وجهه. وأعطى ترسًا، فقبض على السيف بيمنه، ووضع الترس على يسراه، ووقف على بعد أذرع من القائد كأحد التناثيل التي أغلقت عليها أبواب المعابد..

وأذن الملك بالقتال، فشهّر كلّ منها سيفه. وبدا القائد الغاضب المهجوم فسدّد نحو خصمه ضربة قاتلة ظلّتها القاضية، ولكنّ الشابّ تفادى منها بخفّة عجيبة فضاعت في الهواء، ولم يمهله القائد فوجّه إلى رأسه ضربة أشدّ من الأولى بسرعة البرق، فتلقّاه الشابّ بترسه بحركة خاطفة، فتعالت أصوات الإعجاب من أنحاء البهو جميعًا، وأدرك القائد أنّه يقاتل رجلًا يجيد الطعان، فأخذ حذره، وعاود القتال متبعمًا خطة

- كيف استجلب غضبك هذا التاجر النويّ؟  
- أنقذ امرأة فلاحًا - تجاسرت على توجيه الإهانة إلى شخصي - من العقاب، بدفعه خمسين قطعة من الذهب بدلًا منها.  
فضحك الملك ضحكته العظيمة المجلجلة، وسأل القائد:

- ولكن أترضى أن يكون غريمك فلاحًا؟  
- أراه يا مولاي متين البنيان مفتول العضلات، فإذا لم يكن قلبه من قلوب الطير فإني أغضي عن وضاعة جنسه، مرضاة لمولاي ومشاركة في سرور العيد.  
ولكنّ الحاكم خنزِر لم يرض عن المبارزة، وقد رمق شقيقه القاضي سنموت بنظرة لوم، لأنّه أدرك أنّه هو الذي دلّ القائد على اسفينيس دون تقدير منه للموقف، وأشفق من أن يضيّع سيف رخ عليه كنوز النوبة الثمينة، فدنا من القائد رخ وقال له بحزم:  
- لا يجوز أن تخدش أوسمتك بمنازلة تاجر فلاح أيّها القائد.

فقال رخ يقطع على الحاكم سبيله:  
- إذا كان من العيب أن أقاتل فلاحًا، فمن العار أن أترك عبدًا يتحدّاني دون أن أنزل به العقاب الذي يستحقّه.. ولما رأيت فرعون يمنح هذا التاجر عطفه، آثرت أن أنصفه وأن أتيح له فرصة للدفاع عن نفسه..

وظنّ من سمع قول القائد أنّه حقّ وعدل، وتمنّوا صادقين أن يقبل التاجر النزال ليشهدوا المبارزة وليتمّوا سرورهم بالعيد. وكان اسفينيس يكابد حيرة شديدة لا يجد لنفسه منها مخرجًا، وكان يشعر بتلهّف القوم على استماع كلمته، ومحسّ نظرة التحدي والاحتقار التي يصوّبها نحوه القائد الثمل العنيد، فيغلي الدم في عروقه. ثمّ يذكر نصائح توتيشيري ولاتو، وكيف أنّ قتله هذا القائد الفظّ قد يضيّع من يديه الثمرة الدانية القطوف، ويفوّت على أسرته الفرصة السانحة، فيبرد دمه وتحدّله عزيمته. ربّاه.. لا محيد عن النكوص، ولا محيص عن الهرب، سيتهكّم به القائد، وترمقه الأعين بالاحتقار، ويفارق المكان منكس الذقن كسير الفؤاد،

## كفاح طيبة ٣٧٣

على قافلته إذا لم يعرف كيف يدافع عن نفسه ورفاقه .

فقال الملك :

- يا لها من بلاد . . وقد كُنَّا مقاتلين أشداء رجالاً ونساءً حين كُنَّا نجوب أطراف الصحراء الشالية الباردة، فلما أن احتوتنا القصور وتقلبنا في ظلال الترف والنعيم، وشربنا بدل الماء الخمر، طاب لنا السلام، ورأيت واحداً من قواد جيشي ينهزم في قتاله مع تاجر من الفلاحين . .

وكان الملك يتكلم متهلل الوجه ضاحك الفم، فدنا من عرشه الحاكم خنزr وانحنى له تحية وقال :  
- مولاي هذا الشاب باسل وحقيق بالأمان .  
فهز فرعون رأسه الثمل وقال :  
- صدقت يا خنزr، كان القتال عادلاً شريفاً، وإني أمنحه الأمان .

فوجد الحاكم الفرصة سانحة فقال :  
- مولاي . . إن هذا الشاب لعلى استعداد أن يؤدي للعرش أجلاً للخدمات، بأن يحمل إليه الثمين المعجب من كنوز النوبة لقاء ما يعود به من حبوب مصر .  
فنظر الملك إلى الحاكم ملياً . وذكر التاج الذي يتوج رأسه، فقال بلا تردد :  
- قد أذننا له في ذلك .

فانحنى خنزr شاكرًا، وسجد اسفينيس بين يدي فرعون، ومدَّ يده فلثم حاشية ثوبه الملكي . ثم وقف في خشوع وهو يقاوم رغبة في النظر إلى شمال العرش، ورجع القهقري حتى غيَّبه باب البهو الكبير . وكان مسرورًا مبتهجًا، ولكنه كان يسائل نفسه : « ترى ماذا يقول لآنو إذا علم بقصة المباراة؟ » .

وبلغ اسفينيس والعييد السفينة بعد منتصف الليل، فوجدوا لآنو ساهراً يترقب، فأقبل على الشاب قلقاً متشوقاً إلى سماع أخباره، فقص عليه اسفينيس ما صادفه في القصر من النجاح والمتاعب، فقال لآنو :

- لنحمد الرب آمون على ما أولانا من نجاح، ولكني أخون واجبي إذا لم أصارك بأئك اقترفت خطأ كبيراً باستسلامك للغضب والكبرياء، وما كان

جديدة، فتصاولوا، واشتبكا وانفصلا، وكراً وفرًا، القائد في غضب وعنف، والشاب في هدوء عجيب . وكان يصد هجمات عدوه بسهولة ويسر وثقة، وكان كلما أطاش ضربة بمهارته الرائعة زاد غضب عدوه اهتياجاً وجنوناً . وأدرك الجميع أن اسفينيس يكتفي بالدفاع ولا يكاد يهجم إلا إذا أراد بهجومه إفساد خطة أو تفويت ضربة، فتجلى فنه، وبرع على خصمه في الخفة والمهارة بدرجة أشعلت حماسة القوم الذين تنسهم لذة القتال فوارق الأجناس . فجن جنون رخ، ووالى هجاته عليه بشدة وعنف لا يبني ولا يتوانى، وصوب نحوه الضربة تلو الضربة، فصدد برسه ما صد، وتفادى بفنه ما تفادى منه، ولبث سليماً مطمئناً ذا ثقة لا حد لها، لا يغضب ولا يؤخذ، وكأنه حصن منيع . فأخذ اليأس يستولي على القائد الخائق، وشعر بدقة موقفه وشدة حرجه، وحثه اليأس على المغامرة، فرفع ذراعه بالسيف، وجمع كل ما أعطي من قوة وعزم ليضرب ضربة الموت الزوام، وكان مطمئناً إلى خطة عدوه المقصورة على الدفاع . فما هو إلا أن وجه إلى قبضة سيفه ضربة رائعة فجرح سنان السيف كفه، وارتحفت يده، ف ضرب الشاب السيف ضربة أخرى أطاحت به بعيداً، فسقط قريباً من عرش فرعون . ولبث رخ أعزل والدم يقطر من يده، لا يكف عن حنقه . فضج القوم مسرورين متعجبين من بسالة التاجر وجميل عفوه، ثم صاح به القائد :

- لماذا تبطئ في الإجهاز علي أيها الفلاح؟

فقال اسفينيس بهدوء :

- ليس لدي من الأسباب ما يحملني على ذلك . .  
فصر القائد بنواجذه وانحنى للملك تحية، ثم دار على عقبه وبرح البهو، وعلت ضحكة الملك طويلاً حتى اضطرب لها جسمه، ثم أشار إلى اسفينيس فأعطى الشاب سيفه وترسه إلى أحد الحجاب، واقترب من العرش وانحنى للملك، فقال له :

- إن قتالك لا يقل غرابة عن أقزامك . . كيف تعلمت القتال؟  
- أيها الملك المعبود، في بلاد النوبة لا يأمن التاجر



أن يشغل من أسطحها وبطونها. ثم واجهت اسفينيس مشكلة عسيرة وهي إرحال النساء والأطفال، وشغلهن أماكن أحقّ بها الرجال والشبان، أو تركهنّ وحدهنّ على ما في هذا من إيلام لهنّ ولذويهنّ. ورأى الشاب أن يثير المسألة فشاور فيها أصدقاءه الأقربين، وطال الأخذ والردّ، حتى انبرى أحسن بن أبانا فقال:

- أيها السيّد اسفينيس، نحن في حاجة إلى جيش عرمرم من الرجال، فلا يجوز أن يؤخّر النساء تجنيد هذا الجيش العظيم، وما يضيرهنّ أن يمكنن في طيبة حتى نعود إليهنّ عودة الظافرين، وإنه لأدعى إلى حماستنا أن نقاتل وفي البلاد نساؤنا، من أن نخلفهنّ وراءنا في النوبة، وإذا كان في هذا الرأي ألم لنا، فليؤدّ كلّ منّا نصيبه من ضريبة الألم والتفدية في سبيل غرضنا الأسمى.

وبلغ التأثر بأبانا مبلغًا عظيمًا فقالت:

- نعم الرأي الحكيم... إن مكاننا هنا، وسنقاسم أهل طيبة حظّهم: إن موت فموت، وإن حياة فحياة...

ولم يتردّد أحد عن القبول، ورضي النساء بفراق الأزواج والأبناء، وكان جنوب طيبة يذوب من حرارة الوداع وذرف الدموع واضطراب الدعاء والآمال..

وكان اسفينيس لا يذوق الراحة في تلك الأيام القلائل الخافلة بجلال الأعمال والتفديات الصامتة، كان يستقبل الرجال ويزور الأسر وينظّم الراحلين.

وكان إلى هذا يعلّل نفسه بالآمال، ويذكر الحاضر والمستقبل، ويعالج بالصبر فورة الغضب والرغبة في الانتقام. وكان إلى هذا وذاك يكتّم أشواقًا تضطرم في فؤاده. ويغالب لواعج الوجدان التي باتت تأكل صدره وكبدته، ويضني بما يعترّك في نفسه من أسباب البغضاء وقويّ المحبة.. فلشدّ ما جاهد وتحمل في الأيام القلائل، ولشدّ ما تجلّد وتصبر...

ينبغي لك أن تعرّض آمالنا الكبار لخطر الانهيار من أجل ثورة غضب. أمّا كان من الجائز أن يظفر القائد بك؟.. أو ما كان من المتوقّع أن يبسط الملك بك؟.. ينبغي أن تذكر دائيًا أننا هنا عبيد وهم سادة، وأننا طلاب فضل هم أصحابه وذووه، فليكن رائدك أن تتظاهر بالشكر والإخلاص لهم، وعلى رأسهم ذلك الحاكم الذي وجه إلى جدك العظيم والي مصر جميعًا الضريبة القاضية. افعل هذا من أجل مصر، ومن أجل من تركناهم وراءنا في نباتنا ينجشون ويرجون.

ولم يتمالك الرجل فأجهش في البكاء، ثم مضى إلى مخدعه فصلّى صلاة حازة..

وفي صباح اليوم التالي قصدا إلى كوخ السيّد أبانا كما وعدا أصحابها من قبل، فاستقبلتهما السيّد وابنها أحسن وبعض الأصدقاء، بينهم سنّب وهام وديب وكوم، وكانوا جميعًا قلقين متلهّفين على سماع الأخبار، فقال لها هام:

- إنّ قلوبنا قلقة يعدّها الخوف ويلهبها الأمل. وقد تركنا وراءنا في الأكواخ القريبة المئات من الأصدقاء ممن لم يغمض لهم جفن طوال الليلة الماضية.

فابتسم اسفينيس ابتسامة حلوة، وقال:

- أبشروا يا أصدقاء، لقد أذن لنا الملك في الأتجار بين مصر والنوبة.

فلاح البشر في وجوههم، وتألقت أعينهم بنور الرجاء، وقال لانتو بحزم:

- جاء وقت العمل فلا تضيّعوا الوقت هباء، واعلموا أنّ الطريق طويل فينبغي أن نحمل أكثر ما نستطيع من الرجال. لا تتوانوا عن إغراء العامة بالاشتراك في رحلتنا، ومثوهم بالريح الوفير دون أن تصارحهم بالحقيقة، حتى نبلغ هدفنا فيما وراء الحدود. وسنجدهم بغير شكّ من المخلصين كعهدنا برجال طيبة ومصر جميعًا.. هلمّوا جميعًا فاحزموا أمتعتكم..

وانشرت في الخفاء حركة واسعة النطاق يضطرم في جوانبها الحماسة والإيمان، وهرع الرجال المتخفّون في ثياب الصيادين إلى السفن، وشغلوا كلّ مكان يمكن

## كفاح طيبة ٣٧٥

فنظر الشابان إلى الوراء فرأيا قافلة من خمس سفن تشقّ عباب الماء بسرعة، ولم تستطع العين رؤية من فيها ولكنها أخذت تدنو بسرعة وتستبين أجزاؤها فعابن اسفينيس رجلاً يقف في مقدّمة القافلة فعرفه، وقال بقلق:

- هذا القائد رخ . . .

فامتقع وجه لاتو، وقال وقد تزايد اضطرابه:

- ترى هل ينبغي للحاق بنا؟

فلم يدر الآخر كيف يجيبه، وراقبوا القافلة باهتمام وحذر، وساور لاتو بعض المخاوف فقال بحنق:

- هل يجيء هذا الأحمق ليعوق مسيرنا؟

وأدرك اسفينيس أنّه لم يخلص بعد من عواقب خطئه، وأنّ الخطر يوشك أن يجيق بقافلته وقد شارفت برّ الأمان والسلامة. وصوّب بصره نحو قافلة رخ فرأها تقترب بسرعة حتّى جاوزت بعض سفن قافلته. وإذا بها خمس سفن حربية يقف على أسطحها فصائل من جند الحرس، ولم تحيئ لخير بلا شك. ثمّ اتّجهت سفينة القيادة نحو سفينته فحاذتها، ورأى القائد يحذره بنظرة قاسية، وسمعه يصيح به بصوته الغليظ:

- قف وألق مراسيك.

وغيّرت السفن اتّجاهها لتحاصر القافلة، فأمر اسفينيس بحارته أن يكفّوا عن التجديف وأن يلقبوا المراسي، فأذعنوا لما أمروا، وقد تولّاهم الخوف لما رأوا سفن الرعاة تحمل الجنود الشاكي السلاح كأنهم يتأهبون لمعركة حربية. واشتدّ القلق باسفينيس، وأشفق من أن يتكلّ القائد الحقود بقافلته فيشدّ أمل قومه جميعاً، وقال لرفيقه:

- إذا كان هذا الرجل يريد رأسي فلا بأس أن أكون أول صرعى الكفاح الجديد، وما عليك يا لاتو إذا قضيت إلّا أن تستأنف المسير، دون أن تمكّن للغضب من نفسك فتقضي على آمالنا جميعاً . . .

فشدّ الشيخ على يده وقد اسودّت الدنيا في عينيه، واستدرك اسفينيس قائلاً بحزم:

- إنّي أوصيك يا لاتو بما أوصيتني به بالأمس من تحبّب الغضب غير الحكيم. دعني أذفع ثمن خطئي.

وأعطاه جوازاً لعبور الحدود في أيّ وقت يشاء. ففرغت القافلة مراسيها وأبحرت مع الفجر الرطيب، وكان اسفينيس ولاتو وأحمس بن أبانا يأخذون مجالسهم في مقصورة السفينة الأولى وفي قلوبهم شوق وحنين، وفي عيني أحمس دموع هي آخر ما ودّع به أمّه. وكان اسفينيس يغرق في أحلامه، فذكر طيبة وأهل طيبة، طيبة أعظم مدن الأرض، المدينة ذات الأبواب المائة، والمسلات التي تناطح الجوزاء، والمعابد الهائلة والقصور الشّم، والسبل الطويلة والميادين العظيمة، والأسواق التي لا تهدأ ولا تسكن أثناء الليل وأطراف النهار، طيبة المجيدة، طيبة آمون الذي قضي أن تغلق أبوابه دون عباده عشرة أعوام من الأسر، طيبة التي حكمها الممّج أخيراً وجلسوا منها مجلس الوزراء والقضاة والقواد والنبلاء واستعبدوا أهلها فالدهر يمرّ وجوههم في ثرى من كان بالأمس لهم عبداً. وتهدّ الشاب من قلب مكلوم، ثمّ ذكر الرجال الجائمين في بطون سفنهم يمدوهم أمل واحد، ويدفعهم إلى الأهوال حبّ لمصر مكين توارثوه جيلاً بعد جيل. كم يعانون من ألم الفراق لمن خلّفوا وراءهم بين أيدي أعدائهم من زوجات وبنات وأطفال، وكأنتهم جميعاً هذا القتي الباسل أحمس الذي يكظم شواقه ويكتم حنينه ويبدو على وجهه العزم والقوّة. ثمّ طافت بذهنه في حشد الذكريات صورة ذات بهاء، فأطرق ليخفي عينيه عن لاتو الثاقب البصر، ولو علم الرجل فيها يفكر لغضب مرّة أخرى، ولكبر عليه أن يشغل قلبه بابنة الشيطان كما دعاها أول مرّة. وعجب لنفسه كيف تحوم حول صورتها، وكيف لا تنفك تنزع إليها. وتساءل متحيراً: هل يمكن أن يجتمع الحبّ والكراهية لشيء واحد؟ ولاحت في عينيه نظرة حزينة، وقال لنفسه: مهما يكن أمري فلن تقع عيناى عليها مرّة أخرى فلا داعي للقلق، وهل وجد في الدنيا شيء يعزّ على النسيان؟ وقطع عليه أحلامه لاتو وهو يقول بلهجة دلّت على القلق:

- انظر إلى الشمال . . . أرى قافلة قادمة على عجل . . .

## ٣٧٦ كفاح طيبة

وأحس يشاهدان المعركة ببصر زائغ... وتتابع  
ضربات القائد فصدها اسفينيس بمهارته الفائقة. ثم  
وجه إلى خصمه ضربة شديدة سقطت على ترسه  
فصكته بعنف بدا عليه أثره، فانتهاز الشاب الفرصة  
وبدأ هجومه عليه بشدة وحذق، فاضطر القائد إلى  
التقهقر، وجعل يدفع عن نفسه الضربات التي  
يسددها له خصمه المقتدر الذي لم يهين له فرصة  
يستريح فيها أو يعاود الهجوم، وتبدى الخلق على وجه  
الرجل وصر بنواجذه بغضب جنوني، فارتقى على  
خصمه يائساً. ولكن الشاب تضادى منه ووجه إليه  
ضربة رشيقة أصابت عنقه، فتخادلت يده، وكف عن  
القتال، وترنح كالثلثم ثم سقط على وجهه يتخبط في  
دمه. فصرخ الجنود صرخة غاضبة، وسلوا سيوفهم  
الطويلة وتحفزوا للانقضاض على الشاب لدى أول  
إشارة تصدر من الضابط الذي رءوسهم. فأيقن  
اسفينيس بالهلاك وأدرك عبث المقاومة ولاسيما أن  
كثيرين كانوا يسدّدون نحو قلبه قسيهم، فلبث يترقب  
مذاق الموت مستسلماً وعيناه لا تفارقان القائد الطريح  
أمامه. وفي تلك اللحظة المزعجة الراهنة سمع صوتاً  
قريباً يصيح بغضب:

- أيها الضابط مر جنودك أن يغمدوا سيوفهم...  
وحيل إليه أنه يعرف الصوت فانخلع قلبه في  
صدره، والتفت إلى مصدر الصوت فرأى سفينة  
فرعونية تكاد تلتصق بسفينة الموت وعلى حائطها تنكئ  
الأميرة أمزيريس، تلوح على وجهها الجميل آي  
الغضب.

\*\*\*

وأغمد الجنود سيوفهم وأدوا التحية، فحنى  
اسفينيس هامته إجلالاً قبل أن يفيق من دهشته  
ويصلق حقاً أنه نجا من الموت، وسألت الأميرة  
الضابط قائلة:

- هل قتل القائد رخ؟

فاقترب الضابط من القائد ووضع يده على قلبه  
وتفحص عنقه، ثم وقف قائلاً:

ولكن تعدد غداً إلى أبي فتعزّيه عن موتي وتمنّته بمن  
حملت إليه من جنود مصر، خير من أن تعود بي إليه  
وقد خسرنا أملنا إلى الأبد...

وسمع القائد رخ يصيح به قائلاً:

- اخرج إلى وسط السفينة أيها الفلاح.

فشدّ الشاب على يداه ومضى بقدمين ثابتين،  
فقال له القائد وكان يقف على سطح سفينته:

- لقد أطحت بسيفي أيها العبد المقتون وأنا نمل  
أترنح. وهأنذا أنتظرك وقلبي ثابت ومساعدتي غير  
مرتعش.

فأدرك أنّ القائد ذو طبيعة انتقامية، وأنه يريد أن  
ينازله ليغسل العار الذي لحقه منه، فقال له بهدوء وقد  
دخله شيء من الطمأنينة على قافلته:

- هل ترغب في أن تعيد الكرة أيها القائد؟

فقال بقحة:

- نعم أيها العبد، وسأقتلك بيدي هذه المرة شرّ قتلة.  
فسأله اسفينيس في هدوء:

- وأنا لا أخشى نزالك، ولكن هل تعد بألا تمسّ  
قافلتي بسوء مهما تكن عاقبة المباراة؟...

فقال القائد باحتقار:

- سأترك القافلة احتراماً لمشيئة مولاي فتسير دون  
جثتك.

- وأين تريد القتال؟

- على ظهر سفينتي.

فلم ينبس الشاب بكلمة، وقفز إلى قارب وجذف  
بساعديه القويين حتى بلغ سفينة القائد، ثم ارتقى  
السلم إلى سطحها ووقف أمام عدوه وجهها لوجه.  
فألقي عليه القائد نظرة قاسية وقد أغضبه ما يبدو على  
وجهه الجميل من الهدوء والثبات والاستهانة، وأشار  
إلى جندي من الجنود فأعطى الشاب سيفاً وترساً،  
وقال له القائد وهو يتحفّز للقتال:

- لا رحمة اليوم فدافع عن نفسك.

ثم هجم عليه كالوحش الضاري فاشتبك في قتال  
عنيف وسط دائرة واسعة من الجنود المدججين  
بالسلاح؛ وعلى مقدمة السفينة الأخرى وقف لاتو

## كفاح طيبة ٣٧٧

هذا فلست تمن يأخذهم الرياء بتصنع الكذب والتواضع، فلقد علمت صباح اليوم أن القائد أبحر بأسطول صغير ليتعرض لقافلتك، فلاحقت به في السفينة وشهدت جانباً من قتالكم، ثم تدخلت في الوقت المناسب لإنقاذ حياتك..

فوق هذا المن من قلبه موضع الماء من الصادي، ووجد في نظرة عينيها الناعستين وما أعلنت من رغبتها في إنقاذ حياته، ما جعله ينتشي بخمر السعادة، وسألها:

- هل أطمع في أن تصارحني مولاتي، بما أعهد فيه من كراهية للرياء والتصنع، بالسبب الذي جعلها تجسم نفسها تعب إنقاذ حياتي؟..

فقال في استرسال وكأنها تسخر مما ظن أنه أخرجها به:

- أن أجعلك تدين لي بحياتك..

- هو دين يسعدني ولا يفقرني..

فرفعت له عينيها الزرقاوين حتى أحسن أنه على وشك أن يترنح ويقع على قدميها، وقالت:

- يا لك من مراء كذوب.. أهذا كلام يقوله مدين لدائنه وهو يوليه ظهره لسفرة لا رجعة منها؟..

- كلاً يا مولاتي بل لسفرة لها معاد قريب..

فقالت وكأنها تحدث نفسها:

- إنني أسائل نفسي عما عسى أن يكون انتفاعي بهذا الدين؟..

ووجب قلبه، ونظر إلى زرقة عينيها فرأى نظرة استسلام وحنو أعذب من الحياة التي وهبته إياها، وأحسن أن ما بينها من هواء ينتفض بحرارة عميقة بسحر يجذب إليه روحها ليلتقيا ويمتزجا، ففقد لبه وهوى على قدميها..

ثم سأله وقد هفت ذؤابات من شعرها الذهبي على جبينها الأغر وأذنيها:

- هل تغيب طويلاً؟

فقال وهو يتهد:

- شهراً يا مولاتي.

فلاحت في عينيها نظرة حزن وقالت:

- أرى جرحه شديد الخطر يا صاحبة السمو، ولكن به نفس يتردد.

فسألته برود:

- وهل كان القتال عادلاً؟

- نعم يا صاحبة السمو.

فقالت الأميرة بغضب:

- كيف إذن سؤلت لكم نفوسكم الهمة بقتل رجل أعطاه الملك الأمان؟..

ولاح الارتباك في وجه الضابط ولم ينبس بكلمة، ففالت الأميرة بلهجة أمرة:

- أطلقوا سراح هذا التاجر وعودوا بالقائد الجريح إلى أطباء القصر..

وأذعن الضابط لما أمر فترك اسفينيس حراً، فهبط الشاب إلى قاربه ووجهه إلى السفينة الفرعونية، وهو يقول لنفسه بارتياح:

«كيف جاءت الأميرة في الوقت المناسب؟..» ثم صعد إلى سطحها فلم يمنعه أحد من الحراس، وصادف الأميرة قد عادت إلى مقصورتها فمضى إليها بقدمين ثابتتين، وطلب من جارية أن تستأذنه في الدخول..

فغابت في الداخل لحظة ثم جاءت بإذن، فدخل خافق القلب، ورأى الأميرة تجلس إلى متكأ وثير مسندة ظهرها في رخاوة إلى تمرة مشوة بالقز ووجهها يشع نوراً سنياً، فانحنى بين يديها في إجلال صادق، ورأى وهو يعتدل واقفاً عقده ذا القلب الزمردى حول عنقها، فتورّد وجهه. ولم يغب عنها شيء مما ينطق به وجهه وعيناه، ففالت بصوت رخيم عذب وهي تشير بأصبعها إلى العقد:

- أجنث تسألني ثمن هذا العقد؟

فاطمأن الشاب إلى لهجتها العذبة، وسرّ بدعابتها وقال بإخلاص:

- بل جئت يا صاحبة السمو لأشكر سموك مخلصاً على ما أوليتني من نعمة الحياة، التي سأظل مديناً لك بها ما حييت..

فابتسمت ابتسامة مشرقة لاحت في ثغرها كومضة البرق، وقالت:

- نعم أنت مدين لي بحياتك. ولا تعجب إذ أقول

- ولكنك تزمع العودة.. . أليس كذلك؟  
- نعم يا مولائي وحقّ حياتي التي هي لك.. . وحقّ  
هذه المقصورة المقدّسة.. .  
فمدّت إليه يدها وقالت:  
- إلى الملتقى.. .  
فلثم يدها وقال:  
- إلى الملتقى.. .

\*\*\*

واستقبله لاتو بذراعين مفتوحتين وعينين دامعتين  
وضمّه إلى صدره، وتعلّق أحسن بعنقه ولثم جبينه،  
ورفعت القافلة مراسيها وأطلقت لنفسها العنان،  
ووقفوا يودّعون سفينة الأميرة بأبصارهم وهي توغل في  
الشمال وهم يوغلون في الجنوب، حتّى ارتدّت عنها  
الأبصار وهي كليله.

وعادوا إلى المقصورة وأخذوا مجالسهم وكانّ شيئاً لم يقع.  
وجعل اسفينيس يعلّل نفسه بمشاهدة القرى  
ورجالها الأشداء ذوي الأجسام النحاسية، ولكنّ قلبه  
كان ينزع به إلى المقصورة، هل يداخل لاتو شكّ؟.. .  
إنّ لاتو رجل كريم شاخ قلبه وزهد كلّ شيء إلا حبّ  
مصر، وهو نفسه لا يجلو من همّ يساوره ولا يدري  
أخطأ أم أصاب، ولكن من منّ بني الإنسان يستطيع  
أن يبلغ هدفه كما قدّر له من قبل دون حسابان لما يجد  
من الأمور؟.. . فلربّ قاصد إلى جبل يجد نفسه  
منحدرًا في واد عميق، ولربّ مزعم صيد أراش له نبلًا  
يلقى الصيد منقضًا عليه ومطارده.

- ١٥ -

واجتازت القافلة حدود مصر في سلام، فصلى  
رجالها للربّ آمون صلاة جامعة حازّة، وشكروا ربّهم  
على ما هيا لهم من سبل النجاة، ودعوه أن يدي إليهم  
آمالهم ويحفظ نساءهم من كلّ سوء. وصعدت القافلة  
في النهر أيّامًا وليالي حتّى رست عند جزيرة صغيرة  
للراحة والاستجمام، فدعا لاتو الرجال إلى النزول إلى  
أرض الجزيرة، ووقف بينهم واسفينيس إلى يمينه ثمّ  
قال لهم:

- أيّها الإخوان، دعوني أصارحكم بسرّ أخفيته  
عنكم لحكمة لن تخفى عليكم؛ ألا فاعلموا أنّنا رسولا  
أسرة مليكنا الشهيد سيكنشع إليكم، وأنّ مليككم  
كاموس ينتظر مقدمكم الآن في نباتا.. .  
فلاحت الدهشة في وجوه الرجال، وسأل البعض  
وهم لا يملكون أنفسهم من الفرح:

- أحقّ أيّها السيّد لاتو أنّ أسرنا الفرعونية في نباتا؟  
فحنى رأسه بالإيجاب مبتسمًا، فسأله آخرون:  
- هل توجد هناك أمنا المقدّسة توتيشيري؟  
- نعم.. . وستبارككم في الغد القريب.  
- ومليكنا كاموس بن سيكنشع؟  
- نعم وسوف ترونه بأعينكم، وتسمعون إليه  
بأذانكم.  
- ووليّ العهد أحسن؟.. .

فابتسم لاتو وأشار إلى اسفينيس، ثمّ حنى هامته  
قائلًا:

- إليكم أيّها السادة وليّ عهد المملكة المصرية،  
حضرة صاحب السموّ الفرعونيّ الأمير أحسن.  
وتصايح كثيرون:

- التاجر اسفينيس وليّ عهد مصر الأمير أحسن؟.. .  
أما أحسن أبانا فقد سجد بين يدي الأمير وهو  
يبكي، فسجد الجميع وراءه، منهم من يبكي ومنهم  
من يهتف فيتصاعد الهتاف من أعماق قلبه.. .

واستأنفت القافلة رحلتها والفرح يشمل وحداتها  
جميعًا، يودّ رجالها لو تطير بهم طيرانًا إلى نباتا حيث  
يتظّرون مليكهم المعبود كاموس وأمهم المقدّسة  
توتيشيري.. . ومضت أيّام وليالٍ، ثمّ لاحت في الأفق  
نباتا بأكواخها الساذجة ومبانيها المتواضعة، وما زالت  
تقترب وتدنو وتظهر معالمها حتّى رست القافلة إلى قصر  
مرفقها. وشعر بالقافلة بعض الجنود فقصدوا إلى قصر  
الحاكم، وتجمّع حشد النوبيين على الشاطئ ليشاهدوا  
السفن والقادمين عليها. ونزل المصريون إلى الشاطئ  
يتقدّمهم الأمير أحسن والحاجب حور، ثمّ جاءت عربة  
مسرعة ونزل منها حاكم الجنوب رؤوم، فحيّا الأمير  
والقادمين معه، وأبلغهم تحية الملك وأسرته، وأخبرهم

## كفاح طيبة ٣٧٩

وأنى بكم، فمرحباً بكم جنود مصر وجنود كاموس،  
وسياتي غداً آخرون؛ فلنستوص بالصبر ولنعد إلى  
العمل؛ وليكن شعارنا الكفاح، وأملنا مصر، وإيماننا  
آمون..

فصاحوا جميعاً كرجل واحد: «الكفاح ومصر  
وآمون..»

ثم قامت توتيشيري واقفة وتقدمت خطوات متوكئة  
على صولجانها، ثم قالت للرجال بصوت قوي سليم  
النبرات:

- يا أبناء طيبة المجيدة الحزينة، تقبلوا تحيات أمكم  
الكبيرة، ودعوني أقدم لكم هدية صنعتها بيدي لكم  
لنعمل جميعاً تحت ظلها.

وأشارت إلى أحد الجنود بصولجانها، فاقترب من  
الرجال وقدم إليهم علماً كبيراً عليه صورة معبد آمون  
يحيط به سور طيبة ذو الأبواب المائة، فتلقفته الأيدي  
بحماسة، ودعوا لأمهم دعاءً حاراً وهنأوا لها ولطيبة  
المجيدة، فابتسمت توتيشيري وأضاء وجهها نور بهيج،  
وقالت:

- يا أبنائي الأعزاء، أصارحكم بأني لم أستسلم إلى  
اليأس أبداً، وقد أوصانا سيكئرنع يوم الوداع بأن  
نحذر اليأس. وما زلت أدعو الرب أن يمد في أجلي  
حتى أرى طيبة مرة أخرى ترفرف على قصرها أعلامنا،  
ويجلس على عرشها كاموس فرعون مصر العليا  
والسفلى، وقد أصبحت اليوم أدنى إلى أمني بعد أن  
ضمت إلي سواعدكم الفتية.

فتعالى هتاف القوم مرة أخرى، وجعل الملك يسأل  
عن رجال مصر وكاهن آمون ومعبد السرب،  
والحاجب يجيبه بما عرف، ثم قدم الأمير أحس إلى أبيه  
أحمس أبانا ابن القائد بيبي، فرحب به الملك وقال له:  
- أرجو أن تكون لي كما كان أبوك لأبي قائداً باسلاً،  
فعاش لواجبه ومات في سبيله..

ثم دعا الملك القادمين إلى وليمة غداء، فأكلوا هنيئاً  
وشربوا مريئاً، ثم مضوا جميعاً يفكرون في الغد  
القريب والغد البعيد، وباتت نباتا لأول مرة منذ عشرة  
أعوام فرحة مستبشرة يعمر قلبها الأمل..

أن جلالته ينتظرهم في القصر. وهتف الرجال للملك  
طويلاً، ثم ساروا في جموع غفيرة وراء أميرهم يتبعهم  
جمع غفير من النوبيين..

وكانت الأسرة الفرعونية تجلس تحت مظلة كبيرة في  
فناء قصر الحاكم، وقد غيرت تلك السنوات العشر  
منها ما غيرت، فترك الجذ والصرامة والحزن في  
نفوسهم جميعاً آثاراً لا تمحي أبد الدهر، وكان أكبرهم  
تأثراً بالدهر، الملكتان توتيشيري وأحوتبي، فجف عود  
الأم المقدسة ومالت قامتها إلى الانحناء قليلاً، وحفرت  
الآلام في جبينها الوضاء تجعداتاها، ولم يبق من  
توتيشيري القديمة سوى يريق عينيها ونظراتها الدالة  
على الحكمة والصبر، وأما أحوتبي فقد جلل رأسها  
المشيب، وارتسمت على وجهها الحسن مسحة حزن  
ووجوم.

ولما رأى الشعب مليكه، سجد له، ثم تقدم أحس  
من أبيه وقبل يد والدته الملكة ستكيموس وجدته  
أحوتبي وتوتيشيري، وقبل جبين زوجته الأميرة  
نيفرتاري، ثم وجه خطابه إلى الملك قائلاً:

- مولاي لقد تعهد آمون عملنا بالنجاح، فألي  
جلالتكم أقدم أول كتائب جيش الخلاص..

فلاح السرور في وجه الملك، وقام واقفاً ورفع  
الصولجان تحية لقومه، فهتفوا له طويلاً، ثم أقبلوا عليه  
يقبلون يده رجلاً رجلاً، ثم قال لهم كاموس:

- حياتكم الرب أيها الطيبون الشجعان الذين فرق  
البغي بيننا وبينهم، ففضى عليهم أن يساموا الخسف،  
كما قضى علينا أن ندوق مرارة الغربة عشرة أعوام  
كاملة. ولكن أراكم رجالاً تابون الضيم وتؤثرون  
مشقة الاغتراب وتعب الكفاح عن الرضى بالسلامة في  
ظلّ الذلّ، كما عهدتكم دائماً وكما عهدكم أبي من  
قبل، فجتتم تصيلون جناحي بعد أن تمزق أو كاد،  
وتثبتون قلبي وقد أروعته جفاء الدهر، وكان من رحمة  
الرب آمون أن جاء أظهرنا قلباً وأعظمتنا أملاً الأم  
توتيشيري في المنام، وأمرها أن تبعث بابني أحس إلى  
أرض الآباء والأجداد ليأتي بالجنود الذين يخلصون  
مصر من عدوها ومذلها، فبعثت بابني كما أمر الرب

## كفاح أحسن

- ١ -

نواة الفرق المختلفة ويختار الصالحين للأسطول، يعاونه  
وليّ العهد أحسن، وأبت الملكات الثلاث والأميرة  
الصغيرة إلا أن يعملن مع العاملين، فكُنْ يثَقِّن  
السهام ويرشها، أو يشتغلن بحياكة الثياب الحريرية،  
وكُنْ لا يفتأن يختلطن بالجنود والصنّاع ويؤاكلنهم  
ويشاربنهم ليشجّعنهم ويثبّتن قلوبهم. وما كان أروع  
منظر الأمّ توتيشيري وهي مكّبة على عملها بهمة لا  
تعرف الملل، أو سائرة بين الجنود تشاهد تدرّيبهم  
وتلقي عليهم كلمات الحفاصة والرجاء، وكان الرجال  
يرونها فينسون أنفسهم وينتفضون حماسة وإقبالاً،  
فتبتسم المرأة استبشاراً، وتقول لمن حولها:

- إنّ السفن والعجلات تنقلب مقابر لمن عليها إذا  
لم تدفعها قلوب أشدّ صلابة من حديدتها. . . انظروا  
إلى رجال طيبة كيف يعملون؟ سوف ينقضّ الواحد  
منهم على عشرة من الرعاة ذوي اللحي القدرة  
والبشرة البيضاء، فيطير أفتدتهم. . .

والحقّ قد انقلب الرجال بقوة الحفاصة والحبّ  
والبغضاء وحوشاً ضواري. . .

وانصرف الحاجب حور إلى إعداد القافلة الثانية،  
فضاعف لها السفن، وملأها بالذهب والفضة والأقزام  
وغريب الحيوان، وارتأت الأمّ توتيشيري أن يحمل معه  
جماعات من النوبيين المخلصين ليهديهم إلى سادة طيبة  
ليكونوا عبيداً في الظاهر وأعوأناً في الباطن، يطعنون  
العدوّ من الخلف إذا اشتغل يوماً باشتباك معهم، وقد  
راقت الفكرة الملك كما راقت الحاجب حور، وعمل  
على تحقيقها بغير تردّد. . .

وانتهى حور من الإعداد لقافلته واستأذن في  
السفن، وكان الأمير أحسن ينتظر تلك الساعة بقلب

لم تكن حياة الأسرة الفرعونية في المهجر حياة دعة  
وخمول، ولكتّها كانت حياة عمل وإعداد للمستقبل  
البعيد، ومدارها جميعاً قلب توتيشيري الذي لا يعرف  
اليأس أو الراحة. فطلبت منذ بدء قدومها إلى رؤوم  
حاكم الجنوب أن يدعو إلى نباتا مهرة الصنّاع النوبيين  
والفتيين المصريين المقيمين بالنوبة، فبعث الرجل  
برسله إلى أرقو وأطلال وغيرهما من بلاد النوبة،  
وجاءوه بالصنّاع والعَمال. وأوجبت الملكة الكبيرة على  
ابنها أن يعهد إليهم بصنع السلاح والخوذات والثياب  
الحربية، وبناء السفن وعجلات القتال، وقالت له  
تشجّعه: «ستعمد يوماً إلى الهجوم على العدو الذي  
اغتصب عرشك وامتلك بلادك، فينبغي إذا جاء هذا  
اليوم أن تهجم بأسطول كبير، وقوة عجلات لا تقهر  
كما فعل العدو مع أبيك».

وتحوّلت نباتا في أثناء السنوات العشر إلى مصنع  
كبير لصناعة السفن والعجلات والآلات الحربية  
بأنواعها جميعاً، ونمت ثمارها على مرّ الأيام فكانت  
دعائم الأمل الجديد. ولما جاء الرجال مع القافلة  
الأولى، وجدوا ما يحتاجون إليه من السلاح والعتاد  
راهناً موفوراً، فأقبلوا على التدريب بقلوب مملؤها  
الحفاصة والأمل الصادق، فانخرطوا جميعاً غداة  
وصولهم إلى نباتا في سلك الجندية، وتدرّبوا على فنون  
القتال واستعمال الأسلحة المتنوعة تحت إشراف ضباط  
الحامية المصرية، فلم تأخذهم في التدريب هواة،  
فكانوا يعملون من مطلع الفجر حتّى غروب الشمس.

كانوا يعملون جميعاً لا فرق بين كبير وصغير، فكان  
الملك كاموس يشرف بنفسه على تدريب الجند وتكوين

## كفاح طيبة ٣٨١

انقطاع، فإذا نسّمت عليهم ريح طيبة وهزّهم الشوق إلى من خلّفوهم وراء أسوارها، تنهّدوا حيناً ثمّ انكبوا على ما بين أيديهم بهمة أعظم وعزيمة أشدّ، ومرّت بهم الأيام لا يصدّقون أنّ في الدنيا شيئاً غير العمل، أو أنّ في الغد شيئاً سوى الأمل... ثمّ عادت القافلة برجال جدد يهتفون كما هتفوا يوم مجيئهم ويصيحون مثلهم فين مثلهم: أين مليكنا كاموس، وأين أمنا توتيشيري، وأين أميرنا أحس؟... ثمّ ينضمّون إلى المعسكر يعملون ويتدرّبون.

وجاء الحاجب حور الأمير أحس وحيّاه، ثمّ مدّ له يده برسالة وقال:

- عهد إليّ أن أحمل إلى سموّك هذه الرسالة..

فسأله أحس وهو يتناولها دهشاً:

- من مرسلها؟

ولكنّ حور لازم الصمت في وجوم، فخطر للأمير خاطر فخلق قلبه، وفضّ الرسالة وقرأ الإمضاء فارتعدت مفاصله واشتدّ وجيب قلبه، وجرت عيناه على الأسطر فإذا هي ما يأتي:

أيها التاجر اسفينيس:

يحزني أن أخبرك بأنّي اخترت قرماً من أقزامك ليعيش معي في جناحي الخاصّ، وأني عنيت به وأطعمته ألذّ الطعام وكسوته أجمل الكساء وعاملته أحسن المعاملة، حتّى أنس بي وأنست به، ثمّ افتقدته يوماً فلم أجده فأمرت الجوّاري أن يبحثن عنه فوجدته قد هرب إلى أخويه في الحديقة، فألني غدره وصددت عنه، فهل لك أن تبعث إليّ بقزم جديد يعرف الوفاء؟..

أمريديس

وأحسّ أحسّ لدى انتهائه من قراءة الرسالة طعنة نجلاء تصيب قلبه، وأنّ الأرض تميد تحت قدميه، ولاحظ منه نظرة إلى حور فرآه ينعم النظر كأنه يحاول أن يعرف الرسالة بمطالعة وجهه.

فتحوّل عنه وسار في سبيله محزوناً كسير الفؤاد، يقول لنفسه هيهات أن تدري بما يمنعه من العودة

أضناه الشوق وعناه الجوى، فاستأذن في الرحيل على رأس القافلة، ولكنّ الملك وقد علم بما وقع له من الأحداث وما تعرّض له من الأخطار، أبى أن يجازف بسفره مرّة أخرى بغير داعٍ، فقال له:

- أيها الأمير، إنّ واجبك الآن يدعوك إلى البقاء في نباتا..

فبغت الأمير بقول أبيه الذي ألقى على الأمل المضطرم في صدره كما يلقي الماء البارد على الجمرة المستعرة، وقال له برجاء صادق:

- إنّ رؤية مصر والاختلاط بأهلها شفاء من أدواء ابتلى بها قلبي..

فقال الملك:

- ستجد الشفاء التام يوم تدخلها غازياً على رأس جيش الخلاص..

فعاود الشاب الرجاء قائلاً:

- أبي، طالما علّمت نفسي برؤية طيبة قريباً.

فقال الملك بحزم:

- لن يطول انتظارنا، فاصبر حتّى تأذن ساعة الكفاح.

وأدرك الشاب من لهجة الملك أنّه قال كلمته الأخيرة، فأشفق من إغضابه إذا عاوده الرجاء، وحنى رأسه دلالة على التسليم والقبول وقد أحسّ الألم يقطع قلبه ويكتم أنفاسه، ولكنّه تماسك وتجلّد ومضى إلى المعسكر حيث يتدرّب الرجال والقلب حزين كئيب، وكان نهاره ينقضي في العمل الشاقّ فلم يظفر من يومه إلّا بساعة قصيرة قبيل النوم فينادي في خلوته حلّوا الذكريات، ويحوم بخياله حول المقصورة الجميلة في السفينة الفرعونية التي شاهدت ساعة الوداع أبدع الحسّن والطف الهوى، فيخال أنّه يسمع الصوت الرخيم يتمتم قائلاً: «إلى الملتقى». ثمّ يتنهّد من أعماق قلبه ويقول أسيفاً محزوناً: أين الملتقى؟... إنّ الوداع الذي لا لقاء بعده.

على أنّ نباتا في تلك الأيام كانت حقيقة بأن تنسي الرجل نفسه وهمّه، وتقصره على الاشتغال بما هو أجلّ وأخطر، وكان الرجال يعملون جادّين يكافحون بغير



## ٣٨٢ كفاح طيبة

اعتناق مصر جميعًا. وليكن شعاركم جميعًا أن نحيا حياة  
أمنمحيث أو تموتوا ميتة سيكننرع. وليبارككم الرب  
آمون وليثبت قلوبكم..  
فقبل الرجال يدها النحيلة، وقال لها الملك كاموس  
وهو يوّدعها:

- سيكون شعارنا جميعًا حياة أمنمحيث أو ميتة  
سيكننرع، وسيموت من يموت منّا أشرف ميتة، ويجيا  
من يبقى منّا أعزّ حياة.

وخرجت نباتا وعلى رأسها الأسرة الفرعونية والحاكم  
رؤوم توّدع الجيش اللجب. ودقّت الطبول وعزفت  
الموسيقى وتحرك الجيش متبعا نظامه التقليدي. فتقدّمته  
قوة الكشافة تحمل الأعلام، وسار الملك كاموس في  
طليعة الجيش وسط هالة من الحاشية والحجاب والقواد  
يتبعها الحرس الفرعوني في عجلاته الأنيقة، ثمّ تقدّمت  
فرقة العجلات الجبارة تسير صفوفًا صفوفًا لا يحدها  
البصر، تبعث عجلاتها في الجوّ صلصلة تصمّ الأذان  
وتصهال جيادها كزفزة الرياح، وتليها فرقة القسيّ  
الثقيلة بقسيّها ودروعها وجعبات السهام، تتأثرها فرقة  
الرماح المدربة برماحها وتروسها، ثمّ فرقة الأسلحة  
الخفيفة، تتبعها عربات السلاح والمؤن والخيام تمرسها  
الفرسان. وأبحر كذلك الأسطول بسفنه الجبارة وقد  
تهيا الجنود عليه بكامل معدّاتهم من القسيّ والرماح  
والسيوف..

وتقدّمت هذه القوّات على أنغام الموسيقى تستعر  
الحياسة في قلوبها الفتية الغاضبة، ويلقي منظرها  
الراهب الرعب في الأفئدة والنفوس، تقطع النهار  
ضاربة في الأرض وتهجع إذا ما خيم الظلام لا تكلّ  
ولا يصيبها الإعياء، مستعينة على مشاق الطريق وطول  
الرحلة بعزائم تزحزح الجبال، فمروا في سبيلهم  
بسمنة وبون وأبسخليس وفتريس ونافس، وما زالوا  
يضرّبون في الأرض حتى بلغوا دابسود آخر بلدان  
النوبة، ونسّمت على وجوههم ريح مصر الطيبة،  
فمسكروا وأقاموا الخيام ليستريحوا من وعشاء السفر  
ويأخذوا أهبتهم للنضال..

ودبرّ الملك ورجاله خطة الغزو الأولى فأحكموا

إليها، وهيهات أن يستطيع يومًا أن يبثها شجوه  
وعواطفه، وسترى فيه دائمًا القزم فاقد الوفاء.  
وانطوى على آلامه لا يحسّ ما يستعر في فؤاده سوى  
أقرب الأفئدة إليه: نيفرتاري، وقد تحيّر من أمره  
وعجبت لما يكمن وراء ذهوله وشروده، ونظرة الحزن  
التي تلوح في عينيه الجميلتين كلّما أرسل النظر غير  
قاصد شيئًا.

فقال له ذات مساء:

- لست كهدي بك يا أحس.

فاضطرب للملاحظتها، وداعب صفائرها بأنامله وقال  
مبتسما:

- إنّه التعب يا حبيبي، ألا ترين ما نحن فيه من  
كفاح يهدّ الجبال الرواسي؟...  
فهزّت رأسها ولم تقل شيئًا، وغدا الشاب أشدّ  
حدزًا..

على أنّ نباتا لم تكن لتترك إنسانًا يغرق في حزنه،  
لأنّ العمل قاهر الأحزان وقد شهدت من معجزاته ما  
لم تشهد من قبل ولا من بعد. فكانت تدرّب الرجال،  
وتصنع السفن والعجلات والسلاح، وترسل القوافل  
محمّلة بالذهب فتعود محمّلة بالرجال، ثمّ تردّها فترتدّ  
إليها. ومضت الأيام والشهور الطوال إلى أن جاء اليوم  
السعيد المرتقب، فقصد الملك كاموس إلى جدّته  
توتيشيري وهو لا يتمالك من الفرح، ولثمّ جبينها وقال  
بصوت متهدج:

- أبشري يا أمّاه، لقد تمّ إعداد جيش  
الخلاص...

## - ٢ -

ودقّت طبول الرحيل فانتظم الجيش فرقًا ورفع  
الأسطول مراسيه، ودعت توتيشيري إليها الملك ووليّ  
العهد وكبار القواد والضباط وقالت لهم:

- هذا يوم من الأيام السعيدة التي طال انتظارني  
لها، فأبلغوا جنودكم البواسل أنّ توتيشيري تضرع  
إليهم أن يفكّوا أسرها، ويحطّموا الأغلال التي تغلّ

## كفاح طيبة ٣٨٣

حامية بيجة إلى التقهقر إلى قلب الجزيرة بعيدًا من مرمى سهام الأسطول التي انهالت عليها من جميع الجهات.

وما هي إلا أن دخلت طلائع الجيش الحدود وانهالت على الجانب الشرقي، تتبعها الفرق ذات اللجب، فأدرك المحاصرون في بيجة أن القادمين غزاة لا قراصنة كما توهموا أول الأمر. ثم أصدر قائد الأسطول قمكاف أمره بالهجوم على الجزيرة، فانقضت عليها السفن من جميع الجهات، وأنزلت الجنود المدججين بالسلاح تحت حماية القسي، وزحف الجنود من جميع النواحي نحو الحامية المحاصرة في الوسط، وكان جنودها - إلى وقوعهم في مركز دقيق - قد رأوا تدفق القوات المصرية في البر والنيل فخذلتهم سواعدهم وخانتهم شجاعتهم، وألقوا السلاح وسلّموا أنفسهم وأخذوا أسرى. وكان أحس أبانا على رأس المهاجمين، فدخل قصر الحاكم دخول المنتصر، ورفع عليه الأعلام المصرية، وأمر بالقبض على الموظفين الرعاة والأعيان أسوة بالجنود.

ورأى أهل الجزيرة من الفلاحين والعمال والخدم الجنود المصريين فلم يصدّقوا أعينهم، وهرعوا نساءً ورجالاً إلى قصر الحاكم الجديد وتجمّعوا أمامه ليروا ما الخبر، تصطرع في نفوسهم الآمال والمخاوف، فخرج إليهم أحس أبانا، وقد تطلّعوا إليه صامتين، فقال لهم:

- حيّاكم الربّ آمون حامي المصريين وقاهر الرعاة. فوقعت كلمة آمون من أذانهم موقعًا جميلًا ساحرًا، وقد حرموا سماعها عشرة أعوام، وأضاء وجوههم الابتهاج فتساءل بعضهم:

- هل أتيتم حقًا لإنقاذنا؟

فقال أحس أبانا بصوت متهدج:

- لقد جئنا لإنقاذكم وإنقاذ مصر المستعبدة فأبشروا، ألا ترون هذه القوات الهائلة؟ إننا جيش الخلاص، جيش مولانا الملك كاموس ابن مليكنا الشهيد سيكنترع، الذي جاء لتحرير شعبه واستعادة عرشه.

التدبير. وعهد إلى أحس أبانا - وكان أمهر رجال الأسطول كافة - بقيادة جزء من الأسطول ليسير به إلى حدود مصر، باعتباره قافلة تها ألف الحراس اجتيازها للحدود في العهد الأخير. وعند فجر اليوم الرابع لوصول الجيش إلى دابود أبحر الأسطول الصغير فبلغ الحدود المصرية عند إسفار الصبح. وكان أحس أبانا يقف على ظهر السفينة في ثياب التجار الفضاضة، فأبرز جواز الدخول للحراس ودخل بأسطوله في سلام، وكان الضابط يعلم أن حرس الحدود مكوّن من سفن قلائل وحامية صغيرة، فكانت خطته ترمي إلى مفاجأة السفن الآمنة والاستيلاء عليها، ثم ضرب الحصار حول جزيرة بيجة حتى يدخل الجيش والأسطول أرض مصر، فيسهل عليه ضرب سين ولما تأخذ أهبتها. وتقدّمت القافلة في خط أفقي، فلما دنت من شاطئ بيجة الجنوبي حيث ترسو سفن الرعاة ظهر الجنود على سطحها وبأيديهم القسي، وخلع أحس عباءة التجار فبدأ في ثياب الضباط، وأمر بإطلاق سهام على حرس السفن، واقترب الأسطول من السفن الراسية بسرعة، وانقضّ عليها قبل أن يأتيها مدد من البر، وألقى عليها شباكه وقفز الجنود إلى سطحها ليستولوا عليها، فاشتبكوا مع من وجد فيها من الحراس القليلين، في معركة صغيرة فأبادوهم في زمن يسير. وفي أثناء هذه الحركة كانت سفينة أحس تطلق سهامها على حرس الشاطئ وتمنع الجنود من معاونة زملائهم في السفن، فتم الاستيلاء على السفن بسرعة دون أن يكلف المهاجمين ثمنًا غاليًا، وضرب الأسطول الحصار حول الجزيرة ليمنع الاتصال بالمدن الشاليّة، وتنبّته حامية بيجة إلى الحركة الخاطفة فجرت إلى الشاطئ، ولكتّها وجدت نفسها حبيسة محصورة، وأنّ أسطولها الصغير أسير. . .

ولم يمض إلا قليل وقت على انتهاء المعركة حتى بدت وحدات الأسطول المصري في الأفق تمخر عباب الماء متجهة صوب الحدود. ثم اجتازتها دون أن تجد مقاومة، وانضمت إلى أسطول أحس أبانا، فصارت الجزيرة وسط دائرة من السفن الضخمة، مما اضطّر

الظلماء والنجوم ساهرة يقظى تراقبه بأعين لامعة، والغضب يتأجج في الصدور فتتلهف على الانتقام والقتال. واقتربوا من سين وقد اختلطت ظلمة آخر الليل بنور الصباح الأزرق الخجول، وشفّ الأفق الشرقيّ عن طلائع الشمس، وأصدر كاموس أمره إلى قوّات العجلات بأن تزحف على المدينة من الجنوب والشرق تؤيّدتها قوّات من فرقتي القسيّ والرماح، وأمر أسطوله بضرب الحصار على الساحل الغربيّ للمدينة، وهجمت القوّات على المدينة من ثلاث جهات في وقت واحد، وكان يقود العجلات ضبّاط قدماء يعرفون المدينة ومواقعها، فوجّهوا العجلات نحو الثكنات ومراكز الشرطة. تبعتها قوّات المشاة شاكية السلاح فأوقعوا بالعدوّ مذبحه سالت فيها الدماء أنهارًا. واستطاع الرعاة أن يقاتلوا في بعض المواقع فدافعوا عن أنفسهم دفاع اليائس، وتساقطوا كأوراق الخريف اليابسة هبّت عليها ريح عاصفة. . . أما الأسطول فلم يلق مقاومة ولم يلتق في طريقه بسفن حربيّة فاستولى على الشاطئ وأنزل قوّات من جنوده فهجموا على القصور المشرفة على النيل وقبضوا على أصحابها، وكان بينهم حاكم المدينة وقضاتها وكبار الأعيان، ثمّ احترقت القوّات الحقول صوب المدينة. . .

وكانت المفاجأة عاملاً فاصلاً في المعركة قصر مدتها وكثّر صرعاها من الرعاة، فما ارتفعت الشمس في الأفق وأرسلت نورها إلى المدينة حتى رثيت جموع الغزاة وهي تحتلّ الثكنات والقصور وتسوق الأسرى، وشوهدت الجثث ملقاة في السبل وأفنية الثكنات وقد سالت دماؤها، وذاع في أرجاء المدينة والحقول القريبة أنّ كاموس ابن سيكنترع اقتحم سين بجيش جرّار واستولى عليها، فاستعرت على الأثر ثورة دمويّة، وهاجم الأهلون بيوت الرعاة وقتلهم في مخادعهم، ومثلوا بهم وضربهم بالسيّاط ضربًا مبرّحًا، فهم كثيرون على وجوههم فزعين كما فعل المصريّون حين زحف أبوفيس على الجنوب بمعجلاته ورجاله. . . ثمّ هدأت النفوس وقبض الجيش على ناصية الحال ودخل الملك كاموس على رأس جيشه تخفق على رأسه الأعلام

فنطق القوم باسم كاموس كالذاهلين، ثمّ غمرهم الفرح والحفاة فهتفوا له طويلاً، وجثا كثيرون يصلّون للربّ آمون المعبود، وسأل بعض الرجال أحسن أبانا قاتلين:

- هل انتهت عبوديتنا حقاً؟ وهل نردّ اليوم أحرارًا كما كنّا من قبل سنوات عشر؟ . . هل مضى زمن السوط والعصا وتعييرنا بأننا فلاحون؟ . .

فاحتاج أحسن أبانا غضبًا وقال بحتق:

- ثقوا أنّ عهد الظلم والعبوديّة والسوط قد مضى إلى غير رجعة، وأنكم ستعيشون منذ الساعة سادة أحرارًا في كنف مليكنا كاموس فرعون مصر الشرعيّ، وستردّ إليكم أرضكم وبيوتكم ويلقى بمن اغتصبوها هذا الدهر في غيابات السجون.

فشمل الفرح النفوس المعدّبة، وانتظمتهم صلاة جماعة تصاعد فيها الدعاء إلى آمون في السماء، وكاموس في الأرض. . .

### - ٣ -

وفي رونق الضحى نزل الملك كاموس ووليّ عهده أحسن والحاجب حور وأفراد الحاشية جميعًا إلى أرض الجزيرة فاستقبله الأهلون استقبالا حماسيًا، وخروا سجداً يقبلون الأرض بين يديه، وتعالى هتافهم لذكر سيكنترع ولتوتيشيري وللملك وللأمير أحسن، فحيّاهم كاموس بيديه، وتحدّث إلى جمع غفير من رجالهم ونسائهم وأطفالهم، وأكل ما قدّمه له من الدوم والفاكهة، وشرب وحاشيته وقواده أقداحًا مترعة بنبذ مريوط، ذهبوا جميعًا إلى قصر الحاكم، وأصدر الملك أمره بتعيين أحد رجاله المخلصين المدعوّ سمار حاكمًا على الجزيرة وعهد إليه في نشر العدالة وتطبيق القوانين المصريّة. وفي ذلك الاجتماع أجمع القواد على وجوب مفاجأة سين عند الفجر، لتضرب الضربة القاضية قبل أن تفيق من ذهولها. .

ونام الجيش مبكرًا واستيقظ قبيل الفجر. ثمّ زحف نحو الشمال ومعه الأسطول يسدّ منافذ النيل، فشقّ

## كفاح طيبة ٣٨٥

- لا أظنّ يا مولاي أنّ قوّة أمبوس تعدو بضعة آلاف . . .

فقال الملك كاموس:

- إئتوني بكلّ ضابط أو جنديّ من أمبوس . . .

وفطن الحاجب حور إلى ما يريد الملك فقال:

- عفواً يا مولاي، لقد تغيّر وجه أمبوس في عشرة الأعوام المنقضية، فأنشئت بها ثكنات لم تكن من قبل، رأيتها بعينيّ في بعض رحلاتي التجارية، ومن المرجح أنّ الرعاة جعلوا منها مركزاً للدفاع عن البلاد المتاخمة للحدود . . .

فقال القائد محب:

- على أيّ حال يا مولاي أرى أن نهجم بقوّة خفيفة، حتّى لا نتكبّد خسارة فادحة . . .

ولم يستحسن الأمير أحسن هذا الرأي، فقال لأبيه:

- مولاي أرى خلاف هذا الرأي، أرى أن نهجم بقوّة كثيفة لا تقاوم، وأن نقذف جملّ قوّاتنا في المعركة لنضرب العدوّ الضربة القاضية في أقصر وقت، فندهل القوّات التي تحشد في طيبة الآن لقتالنا، ونقاتل من الغد رجالاً يرون الموت ماثلاً في قتالنا. ولا خوف علينا من المخاطرة بجنودنا، فسيضعف جيشنا بما ينضمّ إليه من المتطوّعين في كلّ بلد نغزوه، ولن يجد عدوّنا لخسارته عوضاً . . .

وراق هذا الرأي الملك فقال:

- إنّ رجالي يجودون بأنفسهم عن طيب خاطر في سبيل طيبة . . .

وكان الملك يعلم بما لانتصار الأسطول من أثر حاسم في كسب الموقعة، للدور الخطير الذي يلعبه في ضرب الحصار على شواطئ المدن الغنيّة أو إنزال جنود في مؤخّرة العدوّ، فأصدر أمره إلى القائد قمكاف بالهجوم على سفن الرعاة الراسية غرب أمبوس . . .

وغدا الجيشان لا يفصل بينهما سوى ميدان فسيح، وكان الرعاة رجال حرب وجلاد، ذوي بأس ومقدرة، وكانوا يستهينون بالمصريّين استهانة متأصلة، فبدءوهم بالهجوم وهم مجهلون قوّتهم، وأرسلوا عليهم فرقة العجلات المكوّنة من مائة عجلة حربيّة. وأصدر

المصريّة وتسير بين يديه قوّات الحرس بموسيقاها، فهبّ الأهلون يستقبلونه، وكان يوماً مجيداً . . .

ونقل الضباط للملك أنّ عدداً غفيراً من الشبان - ومنهم من كانوا جنوداً في الجيش القديم - يقبلون على التطوّع في الجيش بحماسة فائقة، فسرّ كاموس وولّى على المدينة أحد رجاله المدعوّ شاو، وأمره بأن ينظّم المتطوّعين ويدربهم لينضمّوا إلى الجيش جنوداً متأهّبين، وأحصى القوّد للملك ما غنموه من العجلات والجياد، فإذا هو شيء عظيم.

واقترح الحاجب حور على الملك أن يتقدّموا دون توانٍ حتّى لا يدعوا للعدوّ مهلة للتأقّب وحشد الجيوش، وقال:

- سنخوض أوّل معركة حقيقيّة في أمبوس . . .

فقال كاموس:

- نعم يا حور، ولا يبعد أن يكون قد طرق أبواب أمبوس الآن عشرات الفارين، فلا مجال للمفاجأة بعد الآن، وسنلقى عدوّنا مستعدّاً، وربّما استطاع أبوفايس أن يلقانا بقوّاته الغاشمة في هيراكونبوليس . . . فهبّا إلى المسير . . .

وزحفت القوّات المصريّة - البريّة والنيليّة - صوب الشمال في طريق أمبوس، ودخلت في قرى كثيرة فلم تلق مقاومة البتّة، ولم تعثر برجل واحد من الرعاة، وعلم الملك أنّ رجال العدوّ يحملون متاعهم ويسوقون حيواناتهم فآزّين إلى أمبوس، وخرج الفلاحون يستقبلون جيش الخلاص ويحيّون مليكهم المسظفّر ويدعون له من قلوب أنعشها الفرح والأمل. وجدّ الجيش في المسير حتّى شارف أمبوس، وهناك جاءت طلائع الكشافة تقرّر أنّ العدوّ معسكر جنوب المدينة متأهباً للقتال، وأنّ أسطولاً متوسط العدد يرسو غرب أمبوس، فعلم كاموس أنّ أوّل معركة مهمّة باتت على الأبواب. ورغب الملك في أن يعرف عدد جنود عدوّه، ولكن تعذّر ذلك على جنود الكشف لأنّ العدوّ كان يعسكر في سهل منبسط لا تسهل مراقبته، فقال قائد شابّ يدعى محب:

انبجست الدماء منها فخصّبت جلدها الأبيض ومزّقتها  
السهام والرماح، ثمّ قال:

- لا تظنّوا هذه الدماء دماء أعدائنا، بل هي دماء  
قومنا التي امتصّوها وتركوهم يتضوّرون جوعاً.  
وامتقع وجه كاموس واكتسى بلون قاتم من الحزن،  
فرفع رأسه إلى السماء وتمتم قائلاً:

- لننعم روحك يا أبت بالسلام والغبطة..  
ثمّ نظر إلى من حوله وقال بصوت دلّت نبراته على  
القوّة والبأس:

- ستمتحن قوتنا في معركتين شديتين في طيبة  
وهواريس، فإذا آزرنا النصر فيها طهّرنا الوطن من  
الرعاة إلى الأبد، ورددنا مصر إلى عهد أمنمحيث  
المجيد، فمتى نقف موقفنا هذا على جثث المدافعين عن  
هواريس؟..

وتحوّل الملك ليرجع إلى عجلته، وفي تلك اللحظة  
انتصبت جثة من بين الجثث واقفة بسرعة البرق  
وسدّت قوساً نحو الملك وأطلقت.. ولم يكن في  
الوسع منع القضاء ولا ضرب القاتل قبل أن يطلق،  
فأصاب السهم صدر الملك، وقد صرخ الرجال  
صرخة الفزع وأطلقوا السهام على المكسوبي، وهرعوا  
إلى الملك بأقنعة يملؤها الرعب والإشفاق، وصعدت  
من صدر كاموس آهة عميقة، ثمّ ترنّح كالشمل وسقط  
بين يدي وليّ عهده، وصاح الأمير:

- أحضروا هودجاً وادعوا الطبيب.  
ومال برأسه على أبيه وقال بصوت مهتج:  
- أبتاه.. أبتاه ألا تستطيع أن تكلمنا..

وجاء الطبيب على عجل ومعه الهودج، فحملوا  
الملك وأناموه عليه في عناية فائقة. وركع الطبيب إلى  
جانبه، ومضى يخلع درع الملك وسرته ليكشف عن  
صدره، وأحاطت الحاشية بالهودج في سكون، يردّدون  
أعينهم بين وجه الملك الشاحب ويدي الطبيب. وذاع  
الخبر في الميدان ففشت الضوضاء، ثمّ ساد صمت  
ثقيل كأنما لحق الفناء بذاك الجيش العرمرم..

نزع الطبيب السهم وكان الدم يتدفّق من الجرح  
بغزارة، فتقلّص وجه الملك من الألم، فأظلمت عينا

كاموس أمره بالهجوم، فاندفعت قوّة من العجلات  
تزيد على ثلاثائة، وأطبقت على قوّة العدو فثار النقع  
وصهلت الخيل وعزفت القسي. ودار قتال عنيف،  
وعزم الأمير أحس على أن يقضي على العدو القضاء  
المبرم فاندفع بمائتي عجلة جديدة على قوّة المشاة التي  
تنتظر نتيجة معركة العجلات أمام أبواب أمبوس،  
وتبعته قوّة من فرقة القسي وأخرى من حملة الرماح.  
وانقضّت العجلات على المشاة فاخترقت صفوفهم  
وألقت فيها الاضطراب والفزع، وانهالت عليهم  
بالسهم كالطر فشتت شملهم بين جريح وقتيل  
وهارب فتلقّتهم قوّة المشاة المهاجمة في كثرة لا تقاوم  
وقضت عليهم القضاء الأخير. وذهل العدو الذي لم  
يكن يتوقّع أن يلاقي قوّة بهذا العدد، وانهارت قوّاته  
سريعاً، وتساقت فرسانه وحطّمت عجلاته. وسيطر  
المصريّون على الميدان في زمن يسير لا يصلّق، بعد أن  
قاتلوا بغضب وحنق، وضربوا بسواعد يشدّ أعصابها  
حقد مؤرّث وسخيمة مستعرة..

واقترحت قوّة مسلّحة أبواب أمبوس ودخلتها  
عنوة لتحتلّ الثكنات وتطهّرها من بقايا جنود العدو،  
ومضى الضبّاط في الميدان ينظّمون فرقهم ويحمّلون  
الجرحى والقتلى. ووقف الملك كاموس في وسط الميدان  
على عجلته يحيط به القوّد وإلى يمينه الأمير أحس وإلى  
يساره الحاجب حور، وكانت الأنباء جاءت به بأنّ أسطوله  
كرّ على سفن العدو وهجم عليها بشدّة، وأنها تقهقرت  
أمامه دون انتظام.. فسّر الملك وقال لمن حوله  
مبتسماً:

- بدء موفق..  
فقال الأمير أحس، وكان معقّر الشباب مغرّب الوجه  
متصبّب الجبين عرقاً:

- إني أتوق لخوض معارك أشدّ هولاً..  
فقال كاموس وهو يلقي على وجهه الجميل نظرة  
إعجاب:  
- لن يطول انتظارك..

ثمّ نزل الملك عن عجلته وتبعه رجاله، وسار خطى  
حتّى صار وسط جثث الرعاة، وألقى عليها نظرة وقد

## كفاح طيبة ٣٨٧

وفي سبيل مصر كما استشهد أبوه من قبل، وانتقل إلى جوار أوزوريس منتزعاً من صميم نفوسنا، بعد أن أوصانا بالألّا نكفّ عن الكفاح حتى تسقط هواريس ويجلو العدو عن ديارنا. وإني بوصفي حاجب هذه الأسرة الكريمة أعزّيكم في مصابنا الجلل، وأذنكم بتولية مليكنا الجديد وقائدنا المجيد أحسن بن كاموس بن سيكنرع حفظه الربّ وأيده بالنصر المين..

فحياً القوّاد جيئة كاموس وانحنوا لأحسن الملك الجديد، وأذن لهم الحاجب بالعودة إلى جنودهم لإعلان الوفاة والتولية..

وأمر حور الجنود أن يرفعوا الهودج الملكي على الأعناق وقد غلبه الحزن، فقال وهو يحفّف عينيه:

- لتنعن نفسك العالية بالغبطة والسلام في جوار أوزوريس، كنت على وشك أن تدخل أمبوس على رأس جيشك المظفر، ولكن قضى الربّ أن تدخلها محمولاً على نعشك، وإنك لأكرمنا على الحالين...

ودخل الجيش أمبوس في نظامه التقليدي يتقدّمه نعش الملك كاموس. وكان الخبر الفاجع قد شمل المدينة كلّها، فجرعت لئمة النصر ولوعة الحزن في شربة واحدة. وجاءت الجموع الغفيرة من كلّ مكان تستقبل جيش الخلاص وتودّع مليكها الراحل بقلوب تحيرت بين الفرح والحزن. ولما رأى الناس الملك الجديد أحسن سجدوا في سكون وخشوع، ولم يتعال في ذلك اليوم هتاف قط.. وتسلم كهنة أمبوس الجثمان العظيم، وخلوا أحسن إلى نفسه فكتب رسالة إلى توتيشيري كما أوصاه أبوه، وبعث بها مع رسول..

وجاءت رسل الاستطلاع بأخبار سارة ومؤسفة عن الأسطول، قالوا: إنّ الأسطول المصري هزم أسطول الرعاة وأسر بعض وحداته، ولكنّ القائد قمكاف سقط قتيلاً، وإنّ الضابط أحسن أدار دقة المعركة بعد سقوط القائد، وحاز النصر النهائي، وقتل قائد الرعاة بيده في معركة عنيفة. وأراد الملك أن يكافئ أحسن أبانا، فأصدر أمره بتوليته قيادة الأسطول..

وأتبع سياسة أبيه الحكيمة فولى صديقه هام حكم

الأمير أحسن من الحزن، وتمتم حور قائلاً:

- ربّاه.. إنّ الملك يتألّم..

وغسل الرجل الجرح ووضع عليه الحشائش، ولكنّ الملك لم يبدُ عليه أيّ تحسّن، وارتعشت أطرافه بصورة جلّية، ثمّ تنهّد تنهّدة عميقة، وفتح عينيه فلاحت فيهما نظرة قائمة لا تدلّ على الحياة، فازداد صدر أحسن انقباضاً، وقال لنفسه شاكياً: «لشدّ ما تغيّرت يا والدي..». وحرك الملك عينيه حتى استقرّتا على وجه أحسن، فلاحت فيهما ابتسامة، وقال بصوت ضعيف لا يكاد يسمع:

- ظننت قبل حين آني بالغ هواريس، ولكنّ الربّ يريد أن تنتهي رحلتي على أبواب أمبوس..

فصاح أحسن بصوته الحزين:

- فدتك نفسي يا أبتاه..

فقال الملك بصوته الضعيف:

- كلّا صن نفسك فما أكبر الحاجة إليها.. وكن أشدّ حذراً منّي، واذكر دائماً أنّه لا يجوز أن تكفّ عن الكفاح حتى تسقط هواريس حصن الرعاة الأخير، ويجلو القوم عن ديارنا جميعاً..

وخشي الطبيب على الملك من الجهد الذي يبذله في الكلام وأشار عليه بالسكوت، ولكنّ الملك كان يندمج في إحساس علويّ هو الفاصل بين الفناء والخلود، فقال بصوت تغيّرت نبراته وبدا غريب الوقع:

- قل لتوتيشيري إنّي لحقت بأبي بأسلاً مثله.

ومدّ يده لابنه، فجثا الأمير على ركبتيه وضمّها إلى صدره، وقبض الملك على منكبه حيناً يودّعه، ثمّ تراخت أصابعه وأسلم الروح..

- ٤ -

وسجّى الطبيب الجثة، وسجد الرجال حولها وصلّوا صلاة الوداع؛ ثمّ قاموا وكأثمّ من الحزن سكارى، واستدعى الحاجب حور قوّاد الفرق وكبار الضباط، فلما مثلوا بين يديه خاطبهم قائلاً:

- أيّها الرفاق، يؤسفني وحقّ الربّ أن أنعي إليكم مليكنا الباسل كاموس، فقد استشهد في ميدان الكفاح

أمبوس، وعهد إليه بتنظيمها وتجنيد القادرين من أهلها، وقال الملك لهور:

- ستتقدم بقواتنا سريعاً، لأنه إذا كان الرعاة يعدّون قومتنا في وقت السلام فإتهم سيضاعفون لهم العذاب في وقت الحرب، فينبغي أن نقصّر عهد العذاب ما وسعنا الجهد.

واستدعى الملك الحاكم هام، وقال له أمام حاشيته وقواده:

- اعلم أي آليت على نفسي منذ اليوم الذي سمعت فيه إلى أرض مصر في ثياب التجار أن أجعل مصر للمصريين؛ فليكن هذا شعارك في حكم هذا البلد؛ وليكن رائدك أن تطهره من البيض، فلن يحكم بعد اليوم إلا مصري، ولن يملك إلا مصري، والأرض أرض فرعون والفلاحون نوابه في استثمارها، لهم ما يكفيهم ويكفل لهم حياة رغبة، وله ما يفيض عن حاجتهم ينفقه في الصالح العام، والمصريون متساوون أمام القانون، لا يرفع الأخ منهم إلا فضله، ولا عبد في هذا البلد إلا الرعاة... وأوصيك أخيراً بجثة أبي فأد إليها واجبها المقدس...

- ٥ -

وغادر الجيش أمبوس عند الفجر، وأبحر الأسطول، ومضت الطلائع تدخل القرى، فتستقبل فيها أحرار استقبال وأجمله حتى شارفوا أبوليتوبوليس مجنا، فتأهبوا لخوض معركة جديدة. ولكن الطلائع لم تلق أية مقاومة ودخلت المدينة بسلام. وكانت وحدات الأسطول تنحدر مع مياه النيل في ربح مؤاتية فلا تجد أثراً لسفن العدو. فأشار حور الحذر بطبعه على الملك أن يرسل بعض قواته الكشافية إلى الحقول الشرقية خشية أن يقعوا في كمين. ويات الجيش والأسطول في أبوليتوبوليس مجنا، وفارقاها مع الفجر، وكان الملك وحرصه يسرون في مقدمة الجيش وراء القوات الاستطلاعية، وإلى يمين الملك عجلة الحاجب حور يحيط بها رجال الحاشية الخبراء بطبيعة البلاد، وسأل الملك حور:

- السنا سائرين الآن إلى هيراكونبوليس؟ فقال الحاجب:

- بلى يا مولاي، وهي مركز الدفاع الأمامي عن طيبة نفسها، وستنشب في واديهما أول معركة شديدة بين قوتين متعادلتين.

وحين الضحى جاءت أنباء كشفية بأن الأسطول المصري اشتبك مع أسطول للرعاة يظن لضخامته وكثرة وحداته أنه الأسطول الكامل للعدو، وأن المعركة تدور بقوة وعنف. فعطف الملك رأسه نحو الغرب وبدأ على وجهه الجميل الرجاء والأمل، وقال حور:

- إن الرعاة يا مولاي حديثو عهد بحرب الأساطيل...

فصمت الملك ولم يجب، ومضت الشمس ترتفع إلى كبد السماء والجيش يتقدم بفرقه ومعداته، فاستسلم أحس للتأمل والتفكير، وتمثلت له أسرته وهي تتلقى نبأ مقتل كاموس، وكيف تفزع أمه ستكيموس وتتفجع جدته أحوطي وتئن الأم الصابرة توتيشيري وتبكي زوجه نيفرتاري التي أصبحت ملكة مصر... رباه... لقد سقط كاموس غدرًا وخسر جيشه بسالته ودرايته وأورثه تركة مثقلة بجلائل الواجبات. ثم سرى خياله إلى الأمام، إلى طيبة حيث يملك أبوفيس ويعاني الشعب ألوان العذاب والذل، وذكر خنزير الحاكم الهائل الباسل الذي لن تهدأ نفسه حتى ينتقم لجده الشهيد منه ويرديه قتيلاً، ثم لاحت لحاطره الأميرة أمريديس وذكر المقصورة التي أصلاهما الهوى فيها نازًا مقدسة، وتساءل: أما تزال تتعلق بالتاجر الجميل اسفينيس وتأمل أن يبر لها بوعده؟

وهنا سئل حور فذكره بأنه لا ينبغي له أن يتشوق إلى أمريديس وهو على رأس الجيش الزاحف لتطهير مصر من قومها، فأراد أن يطرد الفكر: فألقى بصره على جيشه العرمم الذي ينطبق الأفق على الأرض دون مؤخرته، فسرى عنه وعاد إلى التفكير في المعركة الدائرة في النيل... وعند منتصف النهار جاءت رسل الاستطلاع يقولون: إن الأسطولين مشتبكان في قتال عنيف، وإن القتلى تسقط بكثرة من الجانبين، وإن

## كفاح طيبة ٣٨٩

تنظيمها، وأنّ القتال مستمرّ على أشده. فساور القلق الشابّ وأشفق من ضياع أسطوله العظيم، ولم يجد مهلة للتفكير إذ أُخبر أنّ جيش العدو بدأ هجومه. فحيّا حور والحاشية وتقدّم بحرسه وأمر فرقة العجلات بالهجوم؛ فهجم الجيش في قلب وجناحين اندفعوا صفرًا مترافّة في سرعة وجلبة زلزلت الأرض زلزالًا. وما لبثوا أن رؤوا جيش الرعاة يتقدّم منقضًا كالريح العاصفة في جموع كثيفة من العجلات، فعلموا أنّ عدوهم يلقاهم بقوّاته الوحشيّة التي طالما سامتهم الخسف، فثار الغضب في نفوسهم وصاحوا بصوت كهزيم الرعد،: «حياة أمنمحيث أو ميتة سيكنترع». وألقوا بأنفسهم في المعركة بقلوب تتعطش إلى القتال والانتقام، فقاتل الفريقان بقوّة وقسوة ووحشيّة. وخضبت الأرض بالدماء. واختلط صياح الجنود بصهيل الخيل وعزيف القسي. واستمرّ القتال قاسيًا عنيفًا حتّى مالت الشمس نحو الأفق وذابت في بحيرة من دماء. وحلقت في الفضاء أشباح الظلام، فكفّ الجيشان ورجع كلّ إلى معسكره، وكان أحس يسير وسط دائرة من حرسه الذي دافع عنه في أثناء كرهه وفزه، واستقبله رجاله وعلى رأسهم حور فقال لهم:

- كان قتالًا عنيفًا كلّفنا أبطالًا بواسل... .

ثمّ تساءل الملك:

- ألم نجد أخبار عن معركة النيل؟

فقال الحاجب:

- ما يزال الأسطولان يعتركان... .

- أما من جديد عن أسطولنا؟

فقال حور:

- قاتل في أثناء النهار وهو يرتدّ، ثمّ التحمت أكثرية السفن مع وحدات العدو بالسلام فلم تستطع انفصالاً حين خيم الظلام، والقتال ما يزال مستمرًا وإنّا لفي انتظار ما يجيّد من الأخبار.

فتجهّم وجه الملك التعب، وقال لمن حوله:

- لندعُ الربّ جميعًا أن ينصر إخواننا الذين يقاتلون

على متن النيل... .

القوتين ما تزالان متعادلتين بحيث يستحيل التكهّن بنتيجة المعركة. فلاح العبوس في وجه الملك ولم يخف قلبه، فقال حور:

- لا داعي للقلق يا مولاي فأسطول الرعاة قوّة لا يستهان بها، وأسطولنا يخوض الآن المعركة الفاصلة في النيل.

فقال أحس:

- إذا خسرتها خسرنا نصف الحرب.

فقال حور بيقين:

- وإذا كسبناها يا مولاي كما أتوقّع كسبنا الحرب كلّها.

وأمر الجيش على مسير بضعة ساعات من هيراكونبوليس فوجب التوقف للراحة والاستعداد، على أنّه ما كاد يمكث وقتًا قصيرًا حتّى جاءت الأخبار بأنّ الطلائع تقاتل قوّة متفرقة من جيش العدو، فقال أحس:

- إنّ الرعاة مستريحون، ولا شكّ أنّهم يرحّبون بالاشتباك معنا الآن.

وأمر الملك بإرسال قوّة من العجلات لتؤيّد قوّة الاستطلاع إذا هاجمتها قوّة تفوقها عددًا، واستدعى قواده وأمرهم بالاستعداد لخوض المعركة في أيّ وقت كان... .

وكان أحس يحسّ التبعة الخطيرة التي يتحمّلها بقيادته الجيش لأول مرّة في حياته، وشعر بأنّه حامي هذا الجيش العظيم والمسئول عن مصير مصر إلى الأبد، فقال لحور:

- ينبغي أن نوجّه قوتنا لتحطيم عجلات الرعاة.

فقال الحاجب:

- هذا ما سيحاوله كلا الجيشين. وإذا حطّمنا عجلات العدو وسيطرنا على الميدان، أصبح جيشه تحت رحمة قسيتنا... .

وفي تلك الساعة وأحس يتأهب لخوض غمار المعركة، جاء رسول من ناحية النيل وأخبر الملك أنّ الأسطول المصريّ تلقى ضربات شديدة، فرأى أحس أبانا أن يتقهقر بوحداته الأساسيّة ليعيد



وقاتل قتال الأبطال البواسل وحرسه برّد عنه هجمات العدو، فلم يلق فارسًا من القوم إلا جندله في غمضة عين، حتّى هابوا نزاله ويشوا من التغلب عليه. وطال أمد القتال، واندفعت إلى الميدان قوّات جديدة من الجانبين، فاستمرّ القتال على عنفه وشدّته حتّى أوشك النهار أن يزول. وفي تلك الساعة وقد نهكت قوى الطرفين انقضّت قوّة من عجلات الرعاة على جناح المصريين الأيسر بقيادة رجل شديد البأس، وضغطته ضغطًا شديدًا لم تفد معه المقاومة المهوكة القوى، ومضت تصنع لنفسها ثغرة تندفع منها لتطويق القوّة المحاربة أو للهجوم على المشاة؛ فأدرك أحسن أن ذاك القائد ذا البأس تحيّن في تعبهم فرصة مناسبة، وأنه أذخر قوّته ليضرب ضربة قاضية. وخشي أن يظفر الرجل بغرضه فيوقع الاضطراب في صفوف جيشه المترابطة، أو يوقع مذبحه في مشاته؛ فرأى أن يقتحم قلب العدو بقوّته ليضيق عليه، فيجد القائد الداهية نفسه شبه محاصر. ولم يتردّد لأن الموقف كان خطيرًا دقيقًا، فأمر جنوده بالهجوم وهجم على القلب بحركة فجائية قويّة، واشتدّ القتال إلى درجة مروعة مفرعة، واضطرّ العدو أن يتقهقر تحت الضغط الشديد. وحينذاك أرسل أحسن قوّة من العجلات لتطويق القوّة التي تشتدّ على جناحه الأيسر، ولكنّ القائد كان داهية بارعًا؛ فعدلّ خطّته بعد أن كاد يحدث الثغرة المطلوبة ورمى بقوّة صغيرة من عجلاته تهجم على العدو، وتقهقر هو وبقية القوّة بسرعة إلى جيشه. وفي أثناء هذه العمليّة الدقيقة استطاع أحسن أن يرى القائد الجسور وأن يعرف فيه خنزير حاكم الجنوب الجبار بنيانه المتين وعضلاته الفولاذيّة، وقد كلّفت هجمته الجبارة المصريين صرعى كثيرين من زهرة فرسان العجلات. وانتهى القتال بعد ذلك بقليل فعاد الملك وجيشه إلى معسكرهم، وكان أحسن يقول متوعّدًا غاضبًا: «لا بدّ أن نلتقي يا خنزير وجهًا لوجه...» واستقبله رجاله بالدعاء. ووجد بينهم شخصًا جديدًا هو أحسن أبانا، فتفاهل من وجوده في المعسكر وسأله: - ماذا وراءك أيها القائد؟

واستيقظ الجيش مع طلوع الفجر وأخذ في الاستعداد والتأهب، وجاءت العيون بأنباء مهمّة فقالوا: إنّ الحركة لم تسكن طوال الليل في معسكر العدو. وقرّر بعض من جازفوا بالتوغّل في الحقول المحيطة بميدان القتال أنّ قوّات جديدة من الرجال والعجلات جعلت تتدفّق على هيراكونبوليس طوال الليل وأنّ تدفّقها إلى ما قبل طلوع الفجر. وتفكّر حور مليًا ثمّ قال:

- إنّ العدو يا مولاي يجمع لنا جلّ قوّاته هنا ليلقانا بجيشه كاملًا، ولا أعجب لذلك لأننا إذا اقتحمنا أبواب هيراكونبوليس فلن يعوق تقدّمنا سوى أسوار طيبة المجيدة...

وجاءت أخبار سارة من جانب النيل، فعلم الملك أنّ أسطوله قاتل قتال المستيس فلم يتمكّن منه عدوّه كما اشتهى، وأنه على العكس طرد جنوده من كثير من سفنه بعد أن وطئتها أقدامهم فاضطرّ أسطول الرعاة أن ينفصل عنه وقد خسر ثلث قوّته. وكفّ الأسطولان عن القتال ساعات ثمّ اشتبكا في عراق جديد بعيد مطلع الفجر، وكان أسطول أحسن أبانا البادئ بالهجوم، فانشرح صدر الملك وتوتّب للقتال بقلب جدل...

وحين سفور الصبح تقدّم الجيشان للقتال، وبرزت صفوف العجلات وصاح المصريون صيحتهم المعروفة: حياة أمنمحيث أو مية سيكتنرع. ثمّ قدموا بأنفسهم في معترك الموت لا يلوون على شيء، فالتقوا بالعدوّ في صدمات قاتلة واشتدوا عليه كما اشتدّ عليهم، وقاتلوا بالقسي والرمح والسيوف. ولاحظ الملك أحسن بالرغم من اشتداد القتال أنّ قلب جيش العدو يدير المعركة بمهارة فائقة ويرسل القوّات هنا وهناك بانتظام ودقّة، فعابن القائد البارع فإذا به غير حاكم هيراكونبوليس، وإذا به الملك أبوفيس نفسه الذي أهدى إليه التاج المرصّع بالجواهر في قصر طيبة بجسمه البدين ولحيته الطويلة وبصره الحادّ فتحفّز أحسن لهجمات شديدة،

## كفاح طيبة ٣٩١

يديّ فرصة أواجه بها قاتل سيكتنرع، فدعني أقاتله حتى أقتله لأوفي ديناً في عتقي نحو روح كريم يراقبني من العالم الغريب: ولتنزل لعنة الربّ بالمرتددين الخائرين...

وأرسل الملك ضابطاً ليعرض على خصمه رغبته، فتوسّط الرجل الميدان وصاح:

- أيّها العدو، إنّ فرعون مصر يرغب في مبارزة القائد خنزر لتسوية حساب قديم.

فبرز له رجل من كتيبة خنزر:

- قل لمن تدعوه فرعون: إنّ القائد لا يحرم عدواً شرف الموت بسيفه...

فامتطى أحمس صهوة جواد كريم، ووضع السيف في حاملته والرمح في قرابه، ونخسه فعدا به إلى الميدان. ورأى عدوه ينطلق نحوه على جواد أشهب تيّاهاً فخوراً يبدو جسمه كأنه كتلة جبّارة من الجرانيت، فتدانيا رويداً رويداً حتى كاد رأسا جواديهما أن يتماسا، وعابن كلّ منهما خصمه فلم يتمالك خنزر أن بدت على وجهه الدهشة وصاح بغرابة:

- ربّاه... من أرى أمامي... أليس اسفينيس تاجر الأقرام واللآلئ؟ يا لها من دعابة، أين تجارتك أيّها التاجر اسفينيس؟

وكان أحمس ينظر إليه في هدوء وسكينة فقال له:

- انتهى اسفينيس أيّها القائد خنزر، وليس لي من تجارة الآن سوى هذا...

وأشار إلى سيفه. فملك خنزر عواطفه وسأله:

- فمن تكون إذًا؟

فقال أحمس ببساطة وهدوء:

- أحمس فرعون مصر.

فضحك خنزر ضحكة عالية دوّت في الميدان، وقال ساخراً:

- ومن الذي ولّاك مصر وهذا ملكها يحمل التاج المزدوج الذي أهديته إليه ساجداً؟...

فقال أحمس:

- ولآني الذي ولّى آبائي وأجدادي من قبل، فاعلم أيّها القائد أنّ الذي سيقاقتك هو حفيد سيكتنرع...

فقال أحمس أبانا:

- النصر يا مولاي، لقد أوقعنا بأسطول الرعاة الهزيمة وأسرنا أربع سفن كبيرة من وحداته وأغرقنا نصفه، وفرت سفن لا تغني ولا تعين.

فتهلّل وجه الملك، ووضع يده على منكب القائد وقال:

- لقد كسبت لمصر بهذا النصر نصف الحرب، وإنّي بك جدّ فخور.

فتورّد وجه أحمس أبانا وقال بسرور:

- ما من شكّ يا مولاي في أنّنا دفعنا ثمن النصر غالباً، ولكن أصبحت لنا السيادة المطلقة على النيل.

فقال الملك بلهجة رزينة:

- كبّدنا العدو خسارة كبيرة أخشى ألا نجد عوضاً منها، والفوز في هذه الحرب لمن يقضي على فرسان عدوه.

وسكت الملك هنيهة ثم استدرك:

- إنّ حكامنا في الجنوب يدربون الجند وبينون السفن والعجلات ولكنّ تدريب فرسان العجلات يتطلّب زمناً طويلاً، فلن ينفعنا في المعركة التي نخوض غمارها إلا استبسالنا حتى لا تواجه مشاتنا عجلات العدو مرّة أخرى...

## - ٧ -

استيقظ الجيش مرّة أخرى عند مطلع الفجر وأخذ في التأهب والاستعداد، وارتدى الملك لباسه الحربيّ واستقبل في خيمته رجاله وقال لهم:

- لقد صحّ عزمي على مبارزة خنزر...

فارتاع حور لهذا القول وقال برجاء عظيم:

- مولاي، ينبغي ألاّ تشلّ ضربة طائشة عملنا المجيد.

وتوسّل كلّ قائد إلى الملك أن يأذن له في قتال حاكم الجنوب، ولكنّ أحمس شكرهم وقال لحور:

- لن يشلّ عملنا خطب وإنّ جلّ، ولن يعوقه مصرعي إذا صرعت، فلا يفتقر جيشي إلى القواد ولا تعوز بلادي الرجال، وما كان لي أن أضيّع من بين

فبدا الجدّ على وجه الحاكم وقال بهدوء:

- سيكنزع... إني أذكر ذلك الرجل الذي قضى سوء حظّه يوماً أن يرغم على منازلتي، وإني أكاد أدرك كلّ شيء فاعذرني على بطء فهمي. فإننا معشر الهكسوس أبطل ميدان لا نحسن المكر ولا نعرف غير لغة السيف، أما أنتم معشر مدعي الملك من المصريين فتتخفون طويلاً في ثياب التجار قبل أن تؤاتكم شجاعتكم على ارتداء لباس الملوك... فليكن ما تريد، ولكن هل ترغب في مبارزتي يا اسفينيس؟

فقال أحس بحدّة:

- فلنرتد من الثياب ما نشاء فهي ثيابنا، أما أنتم فما تعلمتم ارتداء الثياب حتى أوتكم مصر. ولا تدعني اسفينيس ما دمت تعرف أنني أحس بن كاموس بن سيكنزع، أسرة عريقة في النبل والقدم انحدرت من صلب طيبة المجيدة، فلم تعرف التشرّد في الصحارى ولا رعي القطعان، وإني لأرغب حقاً في مبارزتك وإنه لشرف تكتسبه كي أؤدي ديناً في عنقي نحو أجلّ إنسان عرفته طيبة...

فصاح خنزور قائلاً:

- أرى الغرور يعميك عن معرفة قدر نفسك، فظننت أنّ انتصارك على القائد رخ مسوِّعاً للوقوف أمامي... فوارحمته لك أيها الشابّ الغرير... ماذا تختار أن يكون سلاحك؟

فقال أحس وقد ارتسعت على فمه ابتسامة ساخرة:

- السيف إذا شئت...

فقال خنزور وهو يهزّ منكبيه العريضين:

- هو أعزّ الأصدقاء.

ونزل خنزور عن ظهر جواده وأسلم قياده إلى تابعه، ثمّ سلّ سيفه وأمسك بترسه، ففعل أحس مثله ووقف صامتين يفصل بينهما مقدار ذراعين، ثمّ تساءل أحس:

- هل نبدأ؟

فقال خنزور ضاحكاً:

- ما أجلّ هذه المواقف التي تتكاشف فيها الحياة والموت، هلّم يا فتى...

فتوتّب الملك وهاجم خصمه الضخم بشجاعة ووجّه إليه ضربة شديدة تلقّاها الحاكم على ترسه. ثمّ ردّ عليه المهجوم وهو يتكلّم قائلاً:

- يا لها من ضربة صادقة يا اسفينيس، وما أظنّ إلا أنّ رنين سيفك على ترسي ينشد لحن الموت... مرحى... مرحى أنّ صدري يرحّب برُسل الموت، فطالما طمع الموت، وأنا ألعب بين مخالبه، ثمّ يرتدّ عني خائباً وقد أدرك آخر الأمر أنّه إنّما حضر لغيري.

وكان الرجل يقاتل دون أن يكفّ عن الكلام كأنه راقص ماهر يغني وهو يرقص، فأدرك أحس أنّ خصمه عنيد شديد البأس، فولاذي العضلات، واسع الحيلة، خفيف الحركة، جبار في الكرّ والفرّ؛ فبذل كلّ ما لديه من قوّة ودراية، وتفادى من الضربات الموجهة إليه وهو يعلم أنّها ضربات قاتلة لا نجاة منها إذا أصابت هدفها. ولكنّه تلقى ضربة بترسه أحسّ ثقلها، ورأى خصمه يبتسم في ثقة وطمأنينة فاهتاجه الغضب والحنق ووجّه إليه ضربة هائلة تلقّاها الرجل بدوره على ترسه وكان يسيطر على أعصابه وإرادته، فسأل أحس:

- أين صنع هذا السيف المتين؟

فقال له أحس وقد تماثل نفسه كذلك:

- في نباتا في أقصى الجنوب.

فقال الرُّجل وهو يتفادى من ضربة شديدة ووجّهت إليه بمهارة فائقة:

- أما سيفي فقد صنع في منف بأيدي صنّاع

مصريين... وما كان صانعه يعلم أنّه يقدم لي ما أقضي

به على مليكه الذي تاجرّ وقاتل في سبيله:

فقال أحس:

- ما أسعده غداً إذا علم أنّه كان شؤماً على عدوّ بلاده...

وكان أحس يتحين الفرصة لهجوم عنيف، فما كاد يتمّ كلامه حتى وجّه إلى خصمه الجبار ثلاث ضربات متوالية بسرعة خاطفة، فتحامها خنزور بدرعه وسيفه ولكنّه اضطرّ إلى أن يتفهقر خطوات، فقفز عليه الملك وهاجمه هجوماً قاسياً ووجّه الضربة تلو الضربة إلى

## كفاح طيبة ٣٩٣

أبدًا أن يضع صبر الأعرام وجهاد الأجيال في تحاذل ساعة واحدة...  
ثم حمل وحملوا ودار القتال عنيفًا حتى مغيب الشمس.  
وامتدَّ القتال على هذا النحو عشرة أيام كاملة.

## - ٨ -

وفي مساء اليوم العاشر من أيام القتال عاد الملك أحسن من الميدان متعبًا منهوك القوى، فاجتمع بحاشيته وقواده، وكان سقوط خنزr قد ألحق بجيش الرعاة خسارة لا تعوِّض، ولكن فرقة عجلاتهم لبثت تقاوم وتصدَّ هجمات المصريين وتوقع بهم الخسائر الفادحة. فساور الملك القلق، وخشي أن تتحطم فرقة العجلات الجبارة يومًا بعد يوم، وكان في ذلك المساء غاضبًا حزينًا لكثرة من سقط من فرسانه البواسل الذين يتصدون للموت بغير مبالاة، فقال وكأنه يتحدث نفسه:

- هيراكونبوليس... هيراكونبوليس... ترى هل يقترن اسمك بانتصارنا أم بهزيمتنا؟  
وكان المجتمعون لا يقلون عن الملك حزنًا أو غضبًا، ولكن راعهم ما يبدو على وجهه الجميل من التعب والانفعال، فقال الحاجب حور:  
- مولاي... إن فرساننا يقاثلون فرقة عجلات الرعاة بكامل عددها وعددها فلا تهولنا خسائرتنا، وغدا إذا ظهرنا على العدو وحطمنا عجلاته فلن يكون لمشاته قيل بنا، وسيلوذون بأسوار الحصون فرارًا من انقضاض عجلاتنا عليهم.

فقال الملك:

- كانت غايي الكبرى أن أقضي على عجلات العدو مع الاحتفاظ بقوة عظيمة من عجلاتنا لتسيطر على الميدان دائمًا، كما فعل الرعاة في هجومهم في طيبة. ولكني بت أخشى أن يقضي على قوتنا الراكبتين معًا، فتعرض لحرب طويلة الأمد لا تبقي على مدننا ولا نذر...

مقاتله. وأدرك خنزr خطر المصير، فكف عن مداعبة خصمه وأطبق فمه، وزال عنه الابتسام فقطب جبينه ودافع هجمات عدوه بقوة جبارة وبسالة هائلة، وأبدى من ضروب المهارة والشجاعة ما يفوق كل تصور. وأصاب ذباب سيفه خوذة أحسن، فظنَّ الرعاة أنه قضى على عدوهم العنيد فتعالى هتافهم حتى تساءل أحسن هنيهة: «ترى هل أصبت؟» ولكنه لم يحس تحاذلًا ولا وهنًا، فاستجمع وضرب عدوه ضربة قوية عنيفة عرض لها ترسه فصكته بقسوة فتركه يسقط من يده متضعضًا وقد ارتج ساعده. وتعالى الهتاف من الجانبين بين فرح وغضب، وتوقف أحسن عن القتال ونظر إلى خصمه مبتسمًا ابتسامة الظفر، وكان الآخر يشهر سيفه ويتأهب للقتال بغير ترس، فما كان من أحسن إلا أن خلع ترسه ورمى به جانبًا، فبدت الدهشة على وجه خنزr ونظر إليه نظرة غريبة وهو يقول:

- يا له من نبيل حقيق بأخلاق الملوك...

واستأنفا القتال في سكون فتبادلا ضربتين شديدتين، ولكن ضربة أحسن كانت أسرع إلى رقة خصمه الجبار فسرت فيه رجفة هائلة، وتراخت يده عن مقبض سيفه ثم سقط على الأرض كأنه بنيان تهدم، ودنا الملك منه في خطى بطيئة، ونظر إلى وجهه بعين ملؤها الاحترام وقال له:

- يا لك من جبار باسل أيها الحاكم خنزr...

فقال الرجل وهو يصعد أنفاس الحياة الأخيرة:

- بالحق نطقت أيها الملك... ولن يعترض سبيلك من بعدي مقاتل.

وتناول أحسن سيف خنزr ووضعه إلى جانب جثته، ثم امتطى جواده وعاد إلى معسكره، وكان يعلم أن الرعاة سيحاربون بحق ورجبة في الانتقام، فأقبل على فرسانه وصاح بهم:

- أيها الجنود، ردِّدوا شعارنا الخالد: «حياة أمنمحيث أو مينة سيكنترع». واذكروا أن مصيرنا إلى الأبد معلق بنتيجة هذه المعركة الدائرة، فلا ترضوا

أما أحس أبانا فقال بحماسة الذي لا يعرف اليأس :

- حسبنا شعارنا الذي لَقِّنْتَهُ الأمّ المقدّسة توتيشيري : «حياة أمنمحيث أو مية سيكننرع»، وأنّ فرساننا لا يغبون، وأنّ مشاتنا ليتحرّقون شوقًا إلى القتال، ولنذكر دائمًا أنّ الربّ الذي أرسلك إلى أرض مصر لم يرسلك عبثًا .

وأمن الرجال على قول القائد الشابّ وابتسم الملك ابتسامة مشرقة، وبات الجيش ليلته واستيقظ مع الفجر كعادته وتأهب للقتال . وعند سفور الصباح تقدّمت فرقة العجلات وفي قلبها الملك وحرسه، ونظر إلى الميدان فرآه خاليًا فعجب غاية العجب، ثمّ أمعن في النظر فرأى على البعد أسوار هيراكونبوليس لا يعترض سبيله إليها رجل من الرعاة . ولم تطل الدهشة بالملك فجاءه بعض رجال الاستطلاع وقرّروا بين يديه أنّ جيش أبوفيس انسحب من الميدان بجموعه الجرّارة وترك هيراكونبوليس في الليل وجدّ في السير نحو الشمال، ولم يتمالك القائد محب أن قال :

- الآن حصحص الحقّ . . . وما من شكّ في أنّ قوّة عجلات الرعاة تحطّمت، وأنّ أبوفيس أثر أن يفرّ إلى حصونه على أن يواجه فرساننا بمشاته . . . وقال القائد ديب فرحًا :

- مولاي . . . لقد كسبنا موقعة هيراكونبوليس الهائلة . . .

وكان الملك أحس يتساءل: ترى هل انكشفت الغنمة؟ . . . ترى هل حقًا زالت المخاوف؟ ثمّ التفت إلى ديب وقال :

- بل قل إنّنا حطّمتنا عجلات الرعاة وكفى . . .

وسرت الأخبار إلى الجيش فشاع الفرح في النفوس، وهرع رجال الحاشية يتقدّمهم حور إلى الملك وهنّأوه بالنصر المبين الذي فتح الربّ به عليه . ودخل أحس مدينة هيراكونبوليس على رأس جيشه، وهرع معه الأهالي إليها من الحقول، فرّوا إليها خوفًا من انتقام الرعاة، واستقبلوا ملكهم استقبالًا حارًا وهتفوا لجيش الخلاص هتافًا يشقّ عنان السماء . . .

وطلب الملك أن يطلّع على الإحصاء الأخير للخسائر، وجاء ضابط به فإذا فرقة العجلات المصرية قد خسرت ثلثي قوّتها من العجلات والفرسان .

فامتقع أحس ونظر في وجوه رجاله، فإذا بالوجوم يعلوها جميعًا . ثمّ قال :

- لم يبق لدينا سوى ألفي فارس . . . فكيف تقدرون خسائر العدو؟ فقال القائد ديب؟

- لا أتصوّر يا مولاي أنّها تقلّ عن خسارتنا . . . وأرجح أنّها تزيد عليها . . .

فحنى الملك رأسه ولبث يفكّر مليًا، ثمّ نظر إلى رجاله وقال :

- سيعلم كلّ شيء غدًا، فغدًا يوم الفصل دون شكّ، ولعلّ عدوّنا يعاني من الحيرة والقلق ما نعاني وأكثر، وعلى كلّ حال لن يلومنا أحد ولن نلوم أحدًا، والربّ يعلم أنّنا نقاتل بقلوب كارهة للحياة . . .

فقال ديب متسائلًا :

- إنّ أسطولنا لا يجارب الآن، فلماذا لا ينزل جنودًا وراء جيش العدو فيما بين هيراكونبوليس ونخب؟

فقال أحس أبانا :

- إنّ أسطولنا يسيطر الآن على النيل سيطرة كاملة، ولكنّا لا نستطيع أن نجازف بإنزال جنود وراء العدو إلّا إذا كان جيشه جميعًا مشتبكًا في القتال . والواقع أنّ القتال مقصور حتّى الآن على فرقتي العجلات، أما جيش العدو فرايض وراء الميدان مستريحًا يقظًا . . .

وسأل أحد كهنة أمبوس قائلاً :

- أليس لنا يا مولاي قوّة احتياطية من الفرسان؟

فقال أحس :

- لقد جئنا مصر بستّة آلاف فارس هم ثمرة جهاد شاقّ وصبر طويل، فخرنا منهم أربعة آلاف رجل في اثني عشر يومًا من أيام الجحيم . . .

فقال حور :

- مولاي . . . إنّ سين وأمبوس وأبولينوبوليس مجنا تبني العجلات وتدرّب الفرسان بلا توائن .

## كفاح طيبة ٣٩٥

منطقة طيبة. وكان الوادي ينحدر نحو جنوبها انحدارًا فجائئًا شديدًا، فذهبت الطلائع إلى المدينة ولكنها كانت كسابقاتها من المدن بغير حراس، فدخلها الجيش في سلام. هز دخول هابو قلوب الجنود جميعًا لأنها وطيبة كانتا كأعضاء الجسم الواحد، ولأن كثيرًا من جنود الجيش كانوا من بنيتها البواسل، فتعانقت في ساحاتها القلوب والأنفوس وهتفت الضائير بأناشيد الشوق والحنين. ثم تقدّم الجيش شمالًا بقلوب متحفرة وأنفوس متوقّبة، وهو يعلم أنه مقبل على العمل الفاصل في تاريخه والمعركة الخطيرة التي تقرّر مصير طيبة. وانحدر في الوادي العظيم الذي يطلق عليه الطيبيون «طريق آمون» وكان يتسع كلما أوغلوا فيه حتى بدا لهم السور العظيم ذو الأبواب المتعددة يقطع الطريق عليهم ويمتد شرقًا وغربًا، تنطلق من خلفه المسلات وجدران المعابد والأبنية الشاهقة يتمثل فيها جميعًا المجد والخلود وتطوف بها الذكريات العظيمة، فسرت منها إلى النفوس عاصفة من الحياسة والحنين زلزلت القلوب والضائير، فتصاحبت جنبات الوادي هاتفة: «طيبة... طيبة...». وجرى اسمها على كل لسان وهجت به الأفئدة المضطربة، وما زالوا يتفنون حتى جرف الدمع كبرياءهم فبكوا وبكى حور الشيخ...

وعسكر الجيش العظيم، ووقف أحس في قلبه يرفرف على رأسه علم طيبة الذي حاكته توتيشيري بيديها، يرسل ناظره إلى المدينة وقد لاحت فيهما الأحلام ويقول:

- طيبة... طيبة... يا أرض المجد... ومثوى الآباء والأجداد، أبشري فغدًا يطلع عليك صبح جديد...

- ١٠ -

واستدعى الملك القائد أحس أبانا وقال له:  
- سأكل إليك أيها القائد ساحل طيبة الغربي فهاجمه أو حاصره كما يتراءى لك، مستلهما خططك من الملابس المحيطة بك.

وكان أول شيء فعله الملك أن صلى للرب آمون الذي مدّ له يد المعونة بعد أن كاد يشفي على اليأس...

- ٩ -

واستراح الجيش في هيراكونبوليس بضعة أيام بعد قتال عنيف دام اثني عشر يومًا، وأشرف أحس بنفسه على تنظيم المدينة وإعادة مصريتها الأولى إلى حكومتها ومزارعها وأسواقها ومعابدها. وواسى الأهالي لما تعرّضوا له من ألوان الاضطهاد وما تعرّضت له مدينتهم في أثناء تفهقر الرعاة من النهب والسلب والتخريب.

ثم زحف الجيش نحو الشمال وأبحر معه الأسطول ودخل مدينة نخب في عصر اليوم نفسه دون مقاومة، وبات فيها حتى فجر اليوم الثاني. ثم استأنف مسيره دون أن يلتقي بآية قوات للعدو فاحتل القرى ورفع عليها الأعلام المصرية. وشارف وادي لاتوبوليس بعد ثلاثة أيام، وكان الملك ورجاله يظنون أن العدو سيدافع عنها فأرسل أحس طلائع جيشه إليها وحاصر أحس أبانا شطئانها الغربية ولكن الطلائع دخلت المدينة دون مقاومة فدخلها الجيش آمنًا. وقصّ عليهم الأهالي كيف مرّ بهم جيش أبوفيس يحمل جرحاه، وكيف حمل أصحاب الدور والمزارع من الرعاة أثارهم وأموالهم ولحقوا بجيش ملكهم في حالة شديدة من الفزع والفضحى...

وتقدّم الجيش بقواته المرهوبة يدخل القرى والمدن دون أدنى مقاومة حتى بلغ ترت، ثم بعدها هزمتيس، وكانوا يتوقون جميعًا إلى ملاقات عدوهم ليشفوا غلّ صدورهم. ولكن كان السرور يتألق في وجوههم كلما رفعوا العلم على بلدة أو قرية وشعروا أنهم حرّروا قطعة من الوطن الأثير. وكان خبر الهزيمة التي لحقت بفرقة عجلات الرعاة ينعش نفوس الجنود ويدكي في قلوبهم الأمل والحياسة، فمضوا ينشدون الأغاني الحياسية، ويضربون في أرض الوادي بسيقانهم النحاسية، حتى طالعتهم أسوار مدينة هابو المتوغلة في

تهاب الموت فدفَعوا ثمن جرأتهم غاليًا. وانتهى النهار بمذبحة هائلة، وقد رَوَع الملك بمنظر القتلى والجرحى فصاح غاضبًا:

- إن جنودي لا يباليون الموت، والموت يحصدهم حصداً.

فقال حور وهو يلقي على الميدان بصراً زائغاً:

- يا لها من معركة يا مولاي... أرى الجثث تملأ الميدان..

وكان القائد محب متجهّم الوجه معقر الثياب فقال:

- ألسنا نهاجم الموت سافراً؟

فقال أحس:

- لن أدفع بجيشي إلى الهلاك المحقق، ويحسن بي أن أرسل عدداً محدوداً من الرجال وراء القباب الواقية، حتى يملا الموت على العدو منافذ سوره.

ولبت الملك مهتاج النفس، ولم يخفف عنه ما حملته الرسل من أن الأسطول المصري استولى على بقية أسطول الرعاة وأصبح سيد النيل دون منازع... وفي ذلك المساء عاد الرسول الذي كان بعثه إلى أسرته في نباتا يحمل رسالة من توتيشيري، فبسط أحس الرسالة بين يديه وقرأ ما يأتي:

«من توتيشيري إلى حفيدي ومولاي فرعون مصر أحس ابن كاموس، من أدعو الرب الكريم أن يصون حياته الغالية، ويوفّق رأيه للسداد، وقلبه للإيمان، ويده إلى مقتل عدوّه.. جاءني رسولك ينعي إلينا فقيدنا الباسل كاموس وبلغني كلمته الأخيرة الموجهة إليّ، ويحسن بي - وأنت تقاتل عدوّنا - أن أضرب صفحاً عن ذكر ما تخفق به قلوبنا جميعاً، فقد قضى على قلبي أن يدوق الموت مرتين في حياة قصيرة واحدة؛ ولكن لا يعزّ العزاء على من يعيش في آتون معركة هائلة تبذل فيها النفوس رخيصة ويستبق الشجعان إلى الموت، ولا أكتمك - على المي وحزني - أن رسولا يسمي إليّ بموت كاموس ونصر جيشنا، أحبّ إليّ من أن يجيئني كاموس نبأ الهزيمة.. فير في سيبلك ترعاك عناية الرب الرحيم، ويحفظك دعاء قلبي والقلوب الرقيقة المجتمعة حولي، يتنازعها الحزن والتصبّر

وأنشأ الرجال يفكّرون في طريقة الهجوم على طيبة، فقال القائد محب:

- إن أسوار طيبة منيعة شديدة البأس تكلف المهاجمين أرواحاً غالية، ولكن ما من مهاجمتها بدّ، فأبوابها الجنوبية هي السبيل الوحيد إليها.

وقال القائد ديب:

- إن محاصرة المدن الحصينة وتجريعتها أجدى على المهاجمين من مهاجمتها، ولكننا لا نستطيع أن نفكّر لحظة واحدة في تجويع طيبة، فلم يبق لدينا سوى مهاجمة أسوارها. ونحن لا تعوزنا وسائل الهجوم على الأسوار من السلام والقباب الواقية؛ ولكننا ليست كافية كذلك، ونرجو أن تصلنا منها كميات وافرة. وعلى أية حال إذا كان ثمن طيبة غالياً فسنبدله عن طيب خاطر.

فقال أحس:

- هذا هو الرأي، فينبغي ألا نضيع وقتنا لأن قومنا محصورون داخل أسوار المدينة، ويحتمل أن يتعرضوا للانتقام عدوّنا الوحشي.

وفي ذلك اليوم تقدّم الأسطول المصري نحو شاطئ طيبة الغربي والتقى أمامه بأسطول للرعاة جمعه من السفن الفاخرة من هيراكوبوليس فأطبق عليه واشتبك الأسطولان في معركة عنيفة، ولكن كان تغلب المصريين في عدد الرجال والسفن كبيراً، فضيقوا الخناق على عدوّهم وأصلوه ناراً حامية.

وأرسل أحس طلائع من فرق القسي والرماح لاختبار القوّات المدافعة، فأطلقوا قسيهم على نقط متباعدة من السور العظيم، فإذا بالرعاة قد ملأوا السور بالحراس الأشداء وبأسلحة لا تنفذ. وكان القوادمصريون ينظّمون قوّاتهم، فلمّا صدر إليهم أمر الهجوم أرسلوا كتائب متسالية من رجالهم في أرجاء الوادي لتهاجم السور في نقط متباعدة، محتمية بدروعها الطويلة، فانهالت عليهم سهام العدو كالسيل. وصوّبوا قسيهم نحو منافذ السور المنيع، ودار القتال بلا رحمة، وكان العسكر لا يفتأ يرسل جماعات الجنود التحفزين للقتال، وكانوا يقاتلون بجسارة لا

## كفاح طيبة ٣٩٧

- ينبغي ألا نعطي العدو مهلة يستعيد فيها نظامه ويعيد بناء قوة جديدة من عجلاته.

ثم شدّ أحس على مقبض سيفه وقال:

- سأمر باستئناف الهجوم العنيف. وإذا لم يكن من بذل النفوس بدّ فلنقدّم أنفسنا كما ينبغي لرجال أقسموا أن يجزروا مصر من نير عدوها الثقيل. وسأوجه رسلي إلى حكام الجنوب ليحثوهم على صنع دروع الحصار والقبايا الواقية. . .

وأصدر الملك أمره بالهجوم. وأشرف بنفسه على توزيع فرق القسيّ والرماح في الميدان الفسيح على هيئة قلب وجناحين، وجعل القائد محب على اليمين، والقائد ديب على اليسرة. ومضى المصريون يتقدمون في موجات واسعة النطاق، لا تلحق الموجة بسابقتها حتى تكون هذه قد أخذت مكانها وطفقت تناجز العدو المحتمي بالسور المرهوب. فلما تقدّم النهار بالمقاتلة كان الميدان يزخر بالجنود الضاغطين سور طيبة، واستطاع المصريون أن يلحقوا بعدوهم خسارة فادحة كما خسروا عددًا كبيرًا من رجالهم؛ ولكنّ خسارتهم على أيّ حال كانت دون خسارة اليوم الأوّل ودار القتال على هذا بضعة أيّام أحرّ، وكثر عدد القتلى من الجانبين، واشتدّ ضغط جناح المصريين الأيمن للعدوّ حتى استطاع مرّة أن يسكت نقطة من نقط الدفاع المتعدّدة، وأن يهلك كلّ من يتصدّى لإطلاق السهام من منافذها. وانتهز بعض الضباط البواسل هذه الفرصة فهاجموا تلك الجهة بجنودهم، وأقاموا سلّم هجوم وصعدوا عليه مع قوة بأسلة، وسهام إخوانهم تغشاهم كالسحاب. وقد انتبه الرعاة إلى الناحية المهذّدة فتكاثروا عليها وأصلوا المهاجمين نارًا حامية حتى أبادوهم، وسرّ الملك لهذا الهجوم الذي ضرب مثلاً رائعًا لجيشه، وقال لمن حوله:

- لأوّل مرّة من بدء الحصار يقتل نفر من جنودي على سور طيبة.

والحقّ كان لهذا الخطوة مغزى عظيم، فقد تكرّرت في اليوم الثاني، ثم وقعت في غداته في نقطتين من السور. ومضى يتزايد ضغط المصريين للعدوّ حتى بات

والرجاء، واعلم يا مولاي أنّنا نشدّ الرحال إلى بلدة دابور على مقربة من حدود بلادنا، لنكون أدنى إلى رسلك، والسلام».

قرأ أحس الكتاب فاستشفّ ما يكمن وراء سطوره من ألم ممض ورجاء حارّ، وتمثّلت له الوجوه التي ودّعها في نباتات توتيشيري بوجهها الناحل المكلّل بالمشيب، وجدّته أحوطي بجلالها وحزنها وأمه ستكيموس بوداعتها، وزوجه نيفرتاري بعينيها الواسعتين وقدّها الرشيق، وتمتم قائلاً: «ربّاه! إنّ توتيشيري تتلقّى طعنات الألم القاتل بالجزاء والأمل، ولا ينسيها حزنها أم لنا المشود فلأذكر دائماً حكمتها ولأتبعها بعقلي وقلبي» . . .

## - ١١ -

وقام الأسطول بواجبه بعد أن أسر أسطول الرعاة؛ فحرب الحصار حول شاطئ المدينة الغربيّ، وبثّ الرعب في أنفس أصحاب القصور المطلّة على النيل، وتبادل إطلاق السهام مع حصون الشاطئ. ولكنّه لم يحاول مهاجمة هذه الحصون لمناعتها ولا ارتفاعها بسبب انخفاض النيل في فصل الحصاد، فاكتفى بمناوشتها وضرب الحصار حولها. وكان أحس أبانا تنازعه نفسه إلى شاطئ البلد الجنوبيّ حيث يقيم الصيادون، ويخفق بحبّه قلب حنون، وظنّ أنّ هذا المكان قد يكون منفذه إلى طيبة. ولكنّ الرعاة كانوا أكبر حذرًا مما ظنّ فأخذوا الشاطئ من المصريين، وشغلوا مساحته الممتدّة بالحراس المدرّعين. . .

أمّا الملك أحس فقد عدل عن الهجوم بجساعات كثيفة، وقدّم للميدان نخبة من رجاله المدرّبين وراء الدروع الطويلة، فاستبقوا مع المدافعين عن السور العظيم في حرب قوامها الفنّ ودقّة التصويب، ولم يتوانوا عن إظهار مهارتهم التقليديّة وكفاءتهم العالية. واستمرّت الحرب على هذا النحو بضعة أيّام دون أن تبشّر بأيّ نتيجة أو تنبئ بأيّة نهاية، فتملّم الملك وقال:



## ٣٩٨ كفاح طيبة

- يا للوحشية الهمجية .. إن الجبناء يحتمون بأجساد النساء والأطفال ..

وساد الصمت والوجوم حاشية الملك وقواده فلم ينبس أحدهم بكلمة. ووضح نور الصباح فرأوا على البعد سور طيبة تحميه أجساد النساء والأطفال، فاقشعرت أبدانهم هولاً، واصفرت وجوههم غضباً، وارتعشت أطرافهم، وحامت أرواحهم حول الأسرى المعذبين وأهليهم البواسل الذين وقفوا في الميدان أمامهم مكتوفي الأيدي، يعانون العذاب ويضيقون بالعجز، وصاح حور بصوت متهلج:

- يا للبائسات، سيقتلهن توالي الليل والنهار إذا لم تمزق قلوبهن السهام ..

ولقت الحيرة الملك، وجعل ينظر إلى الأسرى اللاتي يجمين بأجسادهن وأطفالهن عدوهن بعينين ذاهلتين كئيبتين. ما عسى أن يفعل؟ .. إن كفاح أشهر طوال ينذر بالضياع، وآمال عشرة أعوام تهدد بالخيبة واليأس. فما عسى أن يصنع؟ .. هل جاء لخلاص شعبه أم للتكيل به؟ .. وهل أرسل رحمة أم عذاباً؟ .. وجعل يتمتم في حزنه: «أمون .. أمون .. ربّي المعبود .. إن هذا الكفاح لوجهك وللمؤمنين بك، فألمني الصواب على أن أجد لنفسي مخرجاً .. وتنبه من صلته على صلصلة عجلة قادمة من ناحية النيل، عابن ومن حوله راكبها فإذا به قائد الأسطول أحسن أبانا، وترجل القائد وأدى للملك التحية ثم تساءل قائلاً:

- مولاي .. لماذا لا يهجم جيشنا على الرعاة المتداعين؟ .. أما كان ينبغي أن تكون جنودنا على سور طيبة الآن؟ ..

فقال الملك بصوت حزين ثقيل النبرات وهو يشير إلى ناحية السور:

- انظر لترى بنفسك أيها القائد ..

ولكن أحسن أبانا لم ينظر كما كانوا يتوقعون بهدوء: - أذنتي عيوني بالعمل الدنيء الوحشي، ولكن كيف نرضى أن ننساق إلى أشراك أبو فيس ونحن به عالمون؟ ..

الغزو أملاً مرجحاً قريباً. وفي تلك الأثناء جاء رسول من شاو حاكم سين على رأس قوة من الجنود المدججين بالسلاح الذين تم تدريبهم أخيراً، ومعهم سفينة محملة بدرع الحصار وسلاله وعدد من القباب الواقية. فاستقبل الملك الجنود بسرور، وقد تضاعف أمله في النصر، وأمر بتسييرهم في الميدان أمام معسكره لتحريض الجنود ويزدادوا بهم أملاً وقوة ..

ودار القتال مع الغداة مروّعا هائلاً، وتوالى هجمات المصريين الصادقة، ولاقوا الموت بقلوب لا تنابه، وأنزلوا بعدوهم خسائر جمة حتى بدا عليه الإعياء واليأس، واعتور سواعده النصب، فاستطاع القائد محب أن يقول لمولاه وهو عائد من الميدان:

- مولاي .. سنقتحم السور غداً ..

واجتمع رأي القواد جميعاً على هذا، فبعث أحسن برسول إلى أسرته يدعوها إلى هابو التي يرفض عليها العلم المصري، ليدخلوا جميعاً طيبة في الغد القريب .. وبات الملك ليلته شديد الإيمان كبير الأمل ..

## - ١٢ -

وطلع فجر اليوم الموعود، فاستيقظ المصريون نشاوي يتوثبون، توقع قلوبهم الخافقة لحن الحرب والنصر. ثم تقدمت جموعهم إلى أماكنها وراء الدروع والقباب، ونظروا إلى أهدافهم غاضبين، فرأوا منظرًا عجباً لم يتوقعوا رؤيته، فضجوا بالدهشة والانزعاج، وتبادلوا نظرات الحيرة والذهول. رأوا على السور المحيط أجساداً عارية قيدت إليه، رأوا نساء مصريات وأطفالهن الصغار اتخذ الرعاة منهم دروعاً تحميهم شرّ نبالهم وقذائفهم. ووقفوا خلفهن ضاحكين شامتين. وكان منظر النساء العاريات وقد حلت شعورهن وهتكت أعراضهن، والأطفال الصغار وثقت أيديهم وأرجلهم يفتت الأكياد جميعاً، فضلاً عن أكياد من هم أزواجهن وأبناؤهن. فأسقط في أيدي الرجال وشلّت سواعدهم، وسرى الانزعاج في النفوس حتى بلغ الملك فتلقاه كأنه صاعقة من السماء، وصاح غاضباً:

## كفاح طيبة ٣٩٩

سيكننرع». وبدأت في الحال أشبع معركة خاض غمارها الإنسان، وأطلق الرعاة سهام فرذ عليهم المصريون، وانطلقت نباهم تشقّ صدور نسائهم وتمزّق قلوب أطفالهم وتسيل الدماء غزيرة. ولوّحت النسوة برءوسهنّ للجنود وصحن بأصوات رفيعة مبحوحة:  
- اضربونا ينصركم الربّ وانتقموا لنا...

فجّر جنون المصريّين وهجموا هجمة وحوش كواسر قست قلوبها وتعطّشت إلى الدماء، ودوى صراخهم في جنبات الوادي كعزيف الرعد وزئير الأسود، واندفعوا لا يباليون الموت المنصبّ عليهم كأنّما فقدوا الشعور والإدراك وانقلبوا آلات جهنميّة. وحي وطيس القتال واشتدّ الطعان، وسالت الدماء كأنّها ينابيع تنفجر في الصدور والأعناق، وأحسّ كلّ هاجم أنّ في قلبه غمزًا جنونيًا لا يسكن حتى يدفن رجمه في قلب واحد من الرعاة. وتمكّن الجناح الأيمن قبل أن ينتصف النهار من أن يُسكت عدّة مواضع دفاعيّة، فبادر رجال إلى إقامة أدراج الحصار وصعدوا عليها بقلوب لا تخشى الموت، فنقلوا القتال من الميدان إلى أعلى السور الحصين، وقفز بعضهم إلى سطح السور الداخليّ واشتبكوا مع العدوّ بالرمح والسيوف وتوات الهجمات بعنف وبسالة، وكان الملك يرقب القتال بأعين يقظى، ويرسل النجيدات إلى المواقع التي يشتدّ عليها العدوّ. وقد شاهد جنوده تصعد إلى السور في مكان الوسط ومكانين في الميسرة وقد أخذت الشمس تتوسّط في كبد السماء، فقال:

- إنّ جنودي يبذلون جهد الجابرة، ولكنّي أخشى أن يلحقنا الظلام قبل أن نستولي على السور جميعه، فنستأنف غدًا من جديد..

وأصدر الملك أوامره إلى فيالق جديدة بالهجوم، فاشتدّ ضغط رجاله للمدافعين عن السور المنيع، وصنعوا لأنفسهم طرائق جديدة إلى أعلاه. والظاهر أنّ اليأس أخذ يستولي على الرعاة بعد أن أنزل المصريون بهم خسائر فادحة، وبعد أن رأوا سيلهم لا ينقطع وهم يصعدون أدراج الحصار كجماعات النمل الزاحفة على سيقان الأشجار، فانهارت مواضع دفاعيّة بسرعة

هل يجوز أن نكفّ عن الكفاح في سبيل طيبة ومصر إشفاقًا من أن تؤذي نبالنا بعض النساء والأطفال من قومنا!...

فقال الملك أحسن بمرارة:

- أترى أن أمر بتمزيق أجساد هؤلاء النسوة البائسات وأطفالهنّ؟...

فقال القائد بحماس وثقة:

- نعم يا مولاي، إنّهنّ قربان الكفاح، مثلهنّ مثل جنودنا البواسل الذين يتساقطون في كلّ حين، بل مثلهنّ مثل مليكنا الشهيد سيكننرع وفقيدنا الباسل كاموس. فلماذا نشفق من ذهابهنّ هذا الإشفاق المعطل لكفاحنا؟...

مولاي... إنّ قلبي يحدّثني بأنّ أمي أبانا بين هؤلاء الأسيرات البائسات. فإذا صدق شعوري فلا أشكّ في أنّها تدعو الربّ الآن أن يجعل حبّك طيبة فوق رحمتك بها وبأخواتها البائسات. ولست الجريح وحدي في جنودنا. فليضع كلّ منا حول قلبه درعًا من إيمانه وعزيمته ولنهجم...

ونظر الملك إلى قائد أسطوله طويلًا، ثمّ قلب وجهه في حاشيته وقوّاده، فقال الحاجب حور بهدوء وكان متجهّمًا ممتقعًا:

- صدق أحسن أبانا العظيم.

وتنفس الرجال من الأعماق وصاحوا جميعًا في نفس واحد:

- نعم... نعم... صدق قائد الأسطول ولنهجم...

فالتفت الملك إلى القوّاد وقال بعزم:

- أيّها القوّاد، اذهبوا إلى جنودكم وقولوا لهم إنّ مليكهم الذي فقد في سبيل مصر جدّه وأباه، ومن لا يتردّد عن الجود بنفسه في سبيلها، يأمرهم بالهجوم على سور طيبة المدرّع بأكبادنا والاستيلاء عليه مهما كلّنا ذلك من بذل...

وذهب القوّاد سرعًا ونفخ في الأبواق، فتقدّمت صفوف الجند شاكي السلاح مكفهريّ الوجوه. وصاح الضباط بأصوات مدويّة: «حياة أمنمحيث أو ميتة

## ٤٠٠ كفاح طيبة

فقال حور بصوت متهدج من الفرح:  
 - نعم يا مولاي، وعمًا قريب تفتح لك طيبة المجيدة أبوابها..  
 - ولكنَّ أبوفيس فرَّ بجيشه.  
 - لن نكفَّ عن الكفاح حتَّى تسقط هواريس ويجلو عن مصر آخر رجل من الرعاة.  
 وعاد الملك إلى مراقبة القتال فرأى جنوده تقاتل على أدراج الحصار وفي أعلى السور وتضغط على الرعاة المتقهقرين أمامها. وصعدت فيالق الجند من حملة الرماح والسيوف بكثرة وعلت السور من كلِّ جانب وأحاطت بالرعاة وأعملت فيهم القتل والذبح. وما لبث أن رأى جنوده تمزق علم الهكسوس وترفع علم طيبة الخفاق، ثمَّ شاهد أبواب طيبة العظيمة تفتح على مصراعها وجنوده تندفع إلى داخلها هاتفةً باسمه، فتمتم قائلاً بصوت خافت: «طيبة.. يا منبع دمي.. ومنبت جسدي.. ومرتع روحي.. افتحي ذراعيك وضمِّي إلى صدرك الحنون أبناءك البررة البواسل». ثمَّ حنى رأسه ليخفي دمعة منزعجة من ضلوعه، وكان حور إلى يمينه يصلي ويحفظ عينيه وقد تندى خداه النحيلان..

- ١٣ -

ومضت ساعات أخرى وأخذت الشمس تميل نحو المغرب، وأقبل الملك والقائدان محب وديب، ثمَّ تبعهما على الأثر أحسن أبانا فانحنوا لأحسن في إجلال وهناؤه بالنصر، فقال أحسن:

- ينبغي قبل أن يهتئ بعضنا بعضًا أن نؤذي الواجب نحو جنث الأبطال والجنود والنساء والأطفال الذين استشهدوا في سبيل طيبة فأتوني بها جميعًا..  
 وكانت الجثث ملقاة في جنبات الميدان وعلى سطح السور وخلف الأبواب، وقد عقرتها الأتربة وخضبَّتها الدماء، وسقطت من رءوسها الخوذ الحديدية، وشملها سكون الموت الرهيب. فرفعها الجنود باحترام وساروا بها إلى جانب من المعسكر وأرقدوها جنبًا إلى جنب،

لم يكن يتوقَّعها أحد، واحتلَّ جنود أحسن نطقًا كاملة من السور، وبدا سقوط السور أمرًا محققًا لا يحتاج إلَّا لوقت. وكان أحسن لا ينفكَّ عن إرسال الإمدادات القويَّة، وجاءه في المعسكر ضابط من قوَّة الاستطلاع المتوغَّلة في الحقول المحيطة بطيبة يطفر البشر من وجهه، فانحنى للملك وقال:

- أخبار جلييلة يا مولاي.. إنَّ أبوفيس وجيشه يغادرون أبواب طيبة الشالية كالفارين.

فعجب الملك وسأل الضابط قائلاً:

- أواثق أنت ممَّا تقول؟

فقال الرجل بثقة وإيمان:

- رأيت بعيني ركب ملك الرعاة وحرسه يتبعهم جموع الجيش المدججة بالسلاح.

فقال أحسن أبانا:

- لقد أدرك أبوفيس عبث الدفاع عن سور طيبة بعد ما رأى من هجمات جنودنا وجيشه في المدينة لا يحسن الدفاع عن نفسه، ففرَّ هاربًا.  
 فقال حور:

- والآن أدرك على غير شكَّ أنَّ الاحتفاء بنساء المحاربين وأطفالهم شرَّ وبيل.

وما كاد حور يتمُّ كلامه حتَّى جاء رسول جديد من الأسطول فحيًا الملك وقال:

- مولاي... لقد شبَّت نيران الثورة في طيبة، وشاهدنا من الأسطول عراقًا عتيقًا يقع بين الفلاحين والنوبيين من ناحية، وأصحاب القصور وحرس الشاطئ من الناحية الأخرى.

فبدا القلق على أحسن أبانا وسأل الضابط:

- وهل قام الأسطول بواجبه؟

- نعم يا سيدي، لقد دنت سفننا من الشاطئ وأطلقت السهام بكثرة على الحراس حتَّى لا تمكَّنهم من التفرغ لقتال الثائرين..

فلاح الارتياح في وجه القائد، واستأذن الملك في العودة إلى أسطوله ليهاجم على الشاطئ، فأذن له الملك وقال لحور مغتبطًا:

- لن يفلت أصحاب الضياع هذه المرَّة بأموالهم.

## كفاح طيبة ٤٠١

فقال الرجل:

- كلاً يا مولاي.

فبسط أحسن الرسالة وكانت موجهة من توتيشيري  
وقرأ:

«مولاي المؤيد بروح آمون وبركته، أسأل الرب أن  
يبلغك كتابي هذا وقد فتحت طيبة لك أبوابها فدخلتها  
على رأس جيش الخلاص لتضمّد جراحها، وتسعد  
روحي سيكتنزع وكاموس. أما نحن فلن نبرح دابور،  
وقد فكّرت في الأمر طويلاً فوجدت أنّ خير وسيلة  
نشارك بها شعبنا المعذب وآلامه، أن نبقي في منفانا  
حيث نحن الآن نعاني آلام الوحشة والغربة، حتّى  
نحطّم أغلاله وترفع عنه النقمة، فندخل مصر آمنين  
ونقاسمه السعادة والسلام. فسّر في طريقك مؤيداً  
بالعناية الربانية تحرّر البلدان وتقهّر الحصون. وطهر  
أرض مصر من عدوّها ولا تجعل له في أقطارها موضع  
قدم، ثم ادعنا نأت آمين».

ورفع أحسن رأسه وطوى الرسالة وهو يقول بتبرّم:  
- تقول توتيشيري إنّها لا تدخل مصر حتّى نجلي  
عنها آخر رجل من الرعاة..

فقال حور:

- إنّ أمنا المقدّسة تريد ألا نكفّ عن القتال حتّى  
نحرّر مصر.

فهزّ الملك رأسه بالموافقة، فساءل حور:

- ألا يدخل مولاي طيبة هذا المساء؟

فقال أحسن:

- كلاً يا حور، سيدخلها جيشي وحده، أما أنا  
فسأدخلها مع أسرتي بعد طرد الرعاة. ندخلها جميعاً  
كما فارقناها جميعاً منذ عشرة أعوام مضت.

- سيمنى أهلها بخيبة أمل...

- قل لمن يسأل عني إنّني أتعبّ الرعاة لأقذف بهم  
خارج حدودنا المقدّسة، وليتبعني من يجيئي..

- ١٤ -

ورجع الملك إلى الخيمة الفرعونية، وكان في نيّته أن  
يصدر أمره إلى قواده بأن يدخلوا المدينة في نظامهم

وأثوا بالنساء والأطفال اللاتي مرّتهنّ سهام جنودهم  
ووضعوهنّ في مكان منعزل. وتوجّه الملك إلى مرقد  
الشهداء يتبعه الحاجب حور والقواد الثلاثة والحاشية.  
ولما دنا من الجثث المترصّة انحنى في إجلال صامت  
حزين ففعل رجاله مثله. ثمّ سار في خطى بطيئة ماّراً  
بها كأنّما يستعرضها في حفل رسمي مشهود، ثمّ عدل  
إلى حيث يرقد النسوة والأطفال وقد سجّوا أجسادهنّ  
العارية بأغطية من الكتّان، فأظلمت وجه الملك سحابة  
حزن وأظلمت عيناه، وتنّبّه من كمدته على صوت  
القائد أحسن أبانا وهو يصيح بالرغم منه بصوت  
مرتعش النبرات قائلاً:

- أمّاه..

فالتفت الملك وراءه فرأى قائده يجثو متألماً متفجعاً  
أمام إحدى الجثث، فألقى عليها الملك نظرة فاحصة  
فعرف السيّد أبانا وقد ارتسم على محيّاها شبح الفناء  
المروع. فوقف الملك إلى جانب قائده الجاثي خاشعاً  
حزين الفؤاد، وكان يكنّ للسيّد احتراماً عظيماً ويعرف  
لها وطنيتها وشجاعتها وفضلها في تربية أحسن خير  
قواده بلا نزاع. ورفع الملك رأسه إلى السماء وقال  
بصوت متهلّج:

- أيها الربّ المعبود آمون، خالق الكون، وواهب  
الحياة ومنظّم كلّ شيء بسنته العالية، هذه ودائعك تردّ  
إليك تبعاً لمشيئتك، وقد كانوا في عالمنا يعيشون لغيرهم  
وكذلك ماتوا. إنهم قطع عزيزة تناثرت من قلبي،  
فتغمّدهم برحمتك، وعوضهم عمّا فقدوا من حياة فانية  
حياة سعيدة أبدية باقية.

والتفت الملك إلى الحاجب حور وقال:

- أيها الحاجب، أريد أن تحفظ هذه الجثث جميعاً  
وتودع مقابر طيبة الغربية، ولعمري أنّ أحقّ الناس  
بأرض طيبة من استشهدوا في سبيلها..

وعاد في تلك الأثناء الرسول الذي كان أرسله  
الملك إلى أسرته في دابور وقدم إلى مولاه رسالة،  
فعجب الملك وسأله:

- هل عادت أسرتي إلى هابو؟

## ٤٠٢ كفاح طيبة

فسجد الرجال دون أن ينبس أحدهم بكلمة، فقال الرجل:

- مولاي.. هؤلاء الرعاة من النفر الذين ملكوا الضياع بغير الحق، كأنما توارثوها عن آباءهم خلفاً عن خلف، واستذلوا المصريين وساموهم الخسف واستأدوهم أشقّ الأعمال بأزهد الأجور، وجعلوهم فريسة للفقر والجوع والمرض والجهل. ثم كانوا إذا دعوهم قالوا باحتقار فلأحون، ومثوا عليهم أن تركوهم أحياء.. هؤلاء طغاة الأمس وأسرى اليوم سقناهم إلى ذاتكم العلية عبيداً من أدلّ عبيدك... فابتسم الملك وقال:

- أشكر لكم يا قومي هديتكم، وأهنتكم على استرداد سيادتكم وحرّيتكم..

وسجد الرجال للميكهم مرّة أخرى وغادروا الخيمة، وساق الجنود الرعاة إلى معتقل الأسرى. ثم دخلت الجماعة الثانية يسير بين يديها رجل ضخم الهيكل ناصع البياض ممزّق الثياب، تركت السياط آثاراً واضحة بظهره وذراعيه، فسقط إعياء عند قدمي الملك دون أن يحفل به معذّبوه، وسجدوا للميكهم طويلاً وقال رجل منهم:

- مولانا فرعون مصر ابن الربّ آمون، هذا الشرير المؤرّر بلباس الذلّ كان كبير شرطة طيبة، وكان يلهب ظهورنا بسوطه القاسي لأنفه الأسباب، فمكّنا الربّ منه فألهبنا ظهره بسياطنا حتّى مرّق جلده، وأتينا به إلى معسكر الملك ليضّمّ إلى عبيده..

فأمر الملك بالرجل فأخذه الجند، وشكر لقومه صنيعهم.

وأذن الملك للجماعة الثالثة فأقبلت عليه تسوق رجلاً ما إن وقع عليه بصر الملك حتّى عرفه، فهو سنموت قاضي طيبة وشقيق خنزr، فألقى عليه الملك نظرة هادئة، ونظر سنموت إليه نظرة ذاهلة من عينين قلقتين دهشتين لا تكادان تصدّقان، وحيّا الرجال الملك وقال لسانهم:

- إليك يا فرعون نسوق من كان بالأمس قاضي طيبة، كان يقسم بالعدالة ويقضي بالظلم في كلّ حين،

التقليديّ على أنغام الموسيقى الحربيّة، ولكن جاء أحد ضبّاط الجيش وقال:

- مولاي كلّفني قوم من قادة الثورة أن أستأذن لهم في المثول بين يديك، ليقدموا لذاتك العلية هدايا ممّا غنموا في ثورتهم.

فابتسم أحس وسأل الضابط:

- أقدم أنت من المدينة؟

- نعم يا مولاي.

- هل فتحت أبواب معبد آمون؟

- فتحتها الثور يا مولاي.

- ولماذا لم يأت الكاهن الأكبر لتحيتنا؟

- يقولون يا مولاي إنّه أقسم ألا يبرح خلوته وفي

مصر رجل من الرعاة إلا عبداً أو أسيراً.

فابتسم الملك وقال:

- حسناً.. ادعُ قومي..

وبرح الرجل الخيمة ومضى إلى المدينة، وعاد يتبعه قوم كثيرون يسرون جماعات جماعات، تسوق كلّ جماعة هديتها. واستأذن للجماعة الأولى فدخل نفر من المصريين عراة إلا من أزر على أوساطهم، تنطق وجوههم باليؤس والفقر، ويدفعون بين أيديهم رجالاً من الرعاة تعرّت رؤوسهم وتلبّدت لحاهم وتعفّرت جباههم. ثمّ سجدوا للملك حتّى مسّت الأرض جباههم، ولما رفعوا وجوههم إليه رأى أعينهم فائضة بالدمع من الفرح والسرور، وقال كبير القوم:

- مولانا أحس بن كاموس بن سيكنترع بن فرعون مصر ومحرّرها وحاميها، والغصن السامق من تلك الدوحة الباسقة التي استشهدت أصولها في سبيل طيبة المجيدة، ومن كان مجيئه رحمة لنا وتكفيراً عن إساءة الأيام إلينا..

فقال أحس مبتسماً:

- أهلاً بقومي الأعزّة، من آمالمهم كامالي، وآلامهم

من منبع الآمي، ولون بشرتهم كلون بشرتي..

فأضاءت وجوه القوم بنور بهيج، ووجّه كبيرهم

الخطاب إلى الرعاة قائلاً:

- اسجدوا لفرعون يا أحقر عبيده.

## كفاح طيبة ٤٠٣

فقال رجل من القوم موتور:  
 - يا حامي المصريين، إنَّ شفاء صدورنا في إرسال  
 رأس هذه المرأة إلى أبوفيس.  
 فقال أحس:  
 - هل تحثون مليكم على أن يكون كأبوفيس  
 سفك دماء وقتل نساء؟.. كلوا الأمر لي وانصرفوا  
 بسلام.  
 فسجد القوم لفرعون وانصرفوا. ونادى الملك أحد  
 ضباط حرسه وأمره بصوت خافت أن يمضي بالأميرة إلى  
 سفينة الفرعونية، وأن يحوطها بالعناية.  
 وكان الملك يكابد ثورة في القلب والنفس فلم  
 يجتمل القعود، فأصدر أمره إلى قواده بدخول طيبة على  
 رأس الجيش دخول الظفر والنصر. ولما تحوّل إلى حور  
 وجده يرمقه بعينين قلقتين حائرتين مشفقتين..

- ١٥ -

وخلأ الميدان، فأعجبه الملك نحو النيل يتبعه حرسه،  
 وكان يحث سائقي عجلته على السرعة ويغرق في  
 الأحلام والأفكار، أيّ صدمة تعرّض لها قلبه  
 اليوم!.. أيّ مفاجأة كابدها وعانهاها؟.. ولم يكن  
 يدور بخلده أنّه سيلقى أمنريديس مرّة أخرى فمضي  
 باليأس منها، وتمثّلت له كحلم أضاء ليله ساعة ثمّ  
 ابتلعتة الظلماء. ولكنّه رآها مرّة أخرى على غير انتظار  
 أو حسابان، ألقت بها المقادير إلى رحمته فغدت بغتة في  
 ملكه الخاص، لشدّ ما اضطرب صدره وخفق قلبه،  
 لشدّ ما تيقّظت في نفسه عواطف حارة أحييت من  
 جديد ذكرياته الحلوة: فانغمر في تيارها الحنون ناسياً  
 كلّ شيء.

ولكن هي، هل عرفته يا ترى؟.. وإذا لم تكن  
 عرفته، فهل ما تزال تذكر التاجر السعيد  
 اسفينيس؟.. الذي أنقذت حياته من الموت المحقّق،  
 ومن قالت له والقلب خافق والدموع ذوارف «إلى  
 اللقاء؟» ومن حثّت إليه في منفاه فبعثت إليه برسالة  
 كمنّ الحبّ في سطورها كمون النار في الحجر؟.. أما  
 يزال قلبها يخفق خفقته الأولى في مقصورة السفينة

فأورد مشرب الظلم ليدوق ما كان يسقي الأبرياء.  
 فقال أحس موجّها خطابه للقاضي:  
 - يا سنموت، لقد كنت حياتك تحكم على  
 المصريين، فَرَضْ نَفْسَكَ هذه المرّة أن يحكموا عليك.  
 ودفع به إلى جنوده، وشكر رجاله المخلصين.  
 وجاءت الجماعة الأخيرة وكانت شديدة الحماسة تفور  
 بالغضب، وتحيط بشخص لفته في ستار من الكتّان  
 من ذؤابته إلى نعليه، فحيّوا الملك هاتفين، وقال  
 قائلهم:  
 - يا فرعون مصر وحامي المصريين والمنتقم لهم،  
 نحن بعض من أخذ الرعاة نساءهم وأطفالهم وأدّرعوا  
 بهنّ في موقعه طيبة. وأراد الربّ أن ينتقم لنا من  
 أبوفيس الظالم فهجمنا على حريمه في أثناء انسحابه،  
 وخطفنا دون علمه من هي أعزّ عليه من نفسه، وجثنا  
 بها إليك لتنتقم لانسائنا منها..

ودنا الرجل من الشخص المتخفي في دثار الكتّان  
 وأزاح عنه الستار، فبدت امرأة عارية إلا من غلالة  
 على وسطها، بيضاء صافية كالنور، يهفو حول هامتها  
 شعر كأسلاك الذهب، ويلوح في وجهها الفاتن الحق  
 والغضب والكبرياء، فبهت أحس، ونظر إليها ونظرت  
 إليه فبدا الانزعاج على وجهه، وبدت على وجهها  
 دهشة محت ما كان يلوح فيها من الغضب والحق  
 والكبرياء وتمتم بصوت غير مسموع وهو لا يفيق:  
 «الأميرة أمنريديس..»

وخلع حور عباءته ودنا من المرأة وألقاها عليها،  
 وصاح أحس برجاله:  
 - لماذا تمثّلون بهذه المرأة؟..

فقال زعيم القوم:  
 - إنها ابنة كبير السفّاكين أبوفيس.

وأدرك أحس حرج موقفه بين القوم الغاضبين  
 المتعطّشين للانتقام، فقال:

- لا تمكّنوا للغضب من أنفسكم أن يفسد عليكم  
 آدابكم المقدّسة، فالفاضل حقاً من يستمسك بفضيلته  
 حين ثورة الوجدان ونزوة الغضب، وأنتم قوم يحترمون  
 النساء ولا يقتلون الأسرى.

## ٤٠٤ كفاح طيبة

حيرة فخلع خوذته ووضعها على خوان وهو يقول  
لنفسه إنها لا تستطيع أن تصدق عينيها. وراها تنظر  
إلى شعره المجدد بغرابة، فقال كالداهش:

- ما لك تنظرين إليّ هكذا كأنك تعرفين لي شبيهاً؟  
فلم تدر ما تقول ولم تحر جواباً، واشتاق إلى سماع  
صوتها والتباس حنانها فقال لها:

- هبي أنني أجبتك آني أدعى اسفينيس، فهل  
تردّين عليّ؟

وما كادت تسمع اسم اسفينيس حتى قامت واقفة  
وصاحت به:

- إذن أنت اسفينيس!

فدنا منها خطوة وحدجها بنظرة حنان، وأمسك  
بمعصمها وهو يقول:

- أنا اسفينيس آيتها الأميرة أمريدس.

فجذبت معصمها بشدة وقالت:

- إني لا أفهم شيئاً.

فابتسم أحسن وقال برقة:

- ماذا تعني الأسماء؟.. كنت بالأمس أدعى

اسفينيس وأدعى اليوم أحسن، ولكنّي شخص واحد  
وقلب واحد...

- يا للغرابة... كيف تقول أنت شخص

واحد؟.. كنت تاجرًا تباع الحلّي والأقزام، وأنت اليوم  
تقاتل وترتدي ثياب الملوك.

- ولم لا؟.. كنت بالأمس أجوس خلال طيبة  
متخفيًا، وأنا اليوم أقود قومي لتحرير بلدي واسترداد  
عرشي المسلوب...

فنظرت إليه نظرة طويلة تحير في إدراك كنهها.

وحاول أن يدنو منها مرة أخرى، ولكنها صدته بإشارة

من يدها وجمدت قسامت وجهها وتبدت القساوة

والكبرياء في عينيها، فأحس خيبة أمل وبرودة تشتمل

آماله وتقتل بلابل الرجاء المغرّدة في صدره، وسمعها

تقول بشدة:

- ابتعد عني.

فقال لها برجاء:

- ألا تذكرين...

الفرعونية؟.. رباه.. ما له يحس أنه مقبل على سعادة  
لا حد لها؟.. هل يصدق قلبه أم يخدعه؟ وتمثل  
للملك منظرها البائس حين دفع بها الثائرون إليه،  
فانتفض جسمه القوي وسرت فيه قشعريرة، وتساءل  
حزينًا والقوم الغاضبون من حولها يبصقون عليها  
ويستونها ويلعنون أباهما؟.. وإنه ليذكر ما كان يلوح  
في وجهها من الغضب والحنق والكبرياء، فهل يسكت  
غضبها إذا علمت أنها أسيرة اسفينيس، وأحس قلقًا لم  
يساوره في أخرج المواقف، وكان ركبته بلغ الشاطئ  
فهبط إلى السفينة الفرعونية، ودعا إليه الضابط الذي  
عهد إليه بالأميرة وسأله:

- كيف حال الأميرة؟

- وضعت يا مولاي في مخدع خاص وجيء لها  
بثياب جديدة وقدم لها الطعام، ولكنها رفضت أن  
تمسه، وعاملت الجنود معاملة تنطوي على الاحتقار  
ودعتهم بالعبيد. ولكنها عوملت أحسن معاملة كأمر  
جلالة الملك..

فبدا على الملك عدم الارتياح، وسار بخطوات  
هادئة إلى المخدع، ففتح الباب أحد الحراس وردّه بعد  
دخول الملك. وكان المخدع صغيرًا أنيقًا يضيئه مصباح  
كبير يتدلّى من سقفه، وإلى يمين المدخل جلست الأميرة  
على أريكة وثيرة في ثوب بسيط من الكتان وقد مشطت  
شعرها الذي بعثره الثائرون وأرسلته ضفيرة كبيرة.  
فنظر إليها مبتسمًا فرأها تنظر إليه في دهشة وغرابة وهي  
لا تصدق عينيها، وبدت له كأنما هي في حيرة وشكّ،  
فحيّاها قائلاً:

- طاب مساؤك آيتها الأميرة.

فلم تجبه، ولكنها ازدادت بسام صوته حيرة وشكًا،

وكان الشاب يطيل النظر إليها في شغف وافتتان، فسألها:

- هل يعوزك شيء؟

فتفرّست في وجهه، ثم صعدت بصرها إلى خوذته

وخفضته إلى درعه وسألته:

- من أنت؟

- أدعى أحسن فرعون مصر.

فلاّح الإنكار في نظرة عينيها. وأراد أن يزيد

## كفاح طيبة ٤٠٥

- من العبيد ومن السادة؟ .. إنك لا تدركين شيئاً  
آيتها الفتاة المغرورة؛ لأنك ولدت بين أحضان هذا  
الوادي الذي يوحى بالمجد والعزة، ولو تأخر مولدك  
قرناً من الزمان لولدت في أقصى صحارى الشمال  
الباردة، ولما سمعت من يقول لك أميرة أو يدعو أباك  
ملكاً. من تلك الصحارى جاء قومك فاغتصبوا سيادة  
واديها وجعلوا أعزته أذلة، ثم قالوا جهلاً وغروراً إنهم  
أمراء وإنا فلأحون عبيد، وإنهم بيض وإنا سمر،  
اليوم يأخذ العدل مجراه فيرد إلى السيد سيادته،  
ويتقلب العبد إلى عبوديته، ويصير البياض سمة  
الضارين في الصحارى الباردة، والسمر شعار سادة  
مصر المطهرين بنور الشمس.

هذا الحق الذي لا مرأ فيه . . .

فاحتدم الغيظ في قلب الأميرة واندفع الدم إلى  
وجهها، وقالت باحتقار:

- أنا أعلم أن أجدادي هبطوا مصر من الصحراء  
الشمالية، ولكن كيف غاب عنك أنهم كانوا سادة  
الصحراء قبل أن يصيروا بقوتهم سادة هذا الوادي؟ ..  
كانوا وما يزالون سادة ذوي كبرياء ونخوة، لا يعرفون  
سوى السيف سيلاً إلى هدفهم، لا يتخفون في ثياب  
التجار كي يطعنوا اليوم من سجدوا له بالأمس  
القريب . . .

فحدها بنظرة قاسية متفحصة، فرأها ذات كبرياء  
وخياء وقسوة لا تلين ولا تخاف، وتمثل فيها صفات  
قومها الفظة المتعالية، فاشتد به الحق، وأحس رغبة  
حارة إلى إخضاعها وإذلالها ولاسيما بعد أن أذلت  
عواطفه بكبرياءها وصلفها، فقال بصوت هادئ  
متعال:

- لا أرى سبباً يدعوني إلى الاستمرار في مجادلتك،  
ولا يجوز أن أنسى أنني ملك وأنت أسيرة.  
- أسيرة كما تشاء، ولكنني لن أذل أبداً.  
- بل إنك تحتمين برحمتي فتؤاتيك هذه الشجاعة.  
- لم تفارقني شجاعتي قط . . . سل رجالك الذين  
خطفوني غدرًا ينبشوك عن شجاعتي واحتقاري لهم في  
أحرج الأوقات وأشدّها خطرًا عليّ.

ولكنها قاطعته قبل أن يتم كلامه قائلة وقد استولى  
عليها الغضب الذي اشتهر به قومها:

- أذكر وسأذكر دائماً أنك جاسوس وضيع . . .

فأحس صدمة مروعة جعلته يقطب، وقال بغضب:  
- آيتها الأميرة . . . ألا تدركين أنك تخاطبين ملكاً؟  
- أي ملك يا هذا؟

فاستولى عليه الغضب وقال بشدة:

- فرعون مصر.

فقالت بتهمك:

- وأبي أكون أحد ولاتك؟!

فاشتد الغضب بالملك وغلب كبرياؤه عواطفه  
جميعاً، فقال:

- ليس أبوك أهلاً لأن يكون والياً من ولاي، ولكنه  
مغتصب على عرش بلادي، وقد هزمت شر هزيمة  
وجعلته يفر من أبواب طيبة الشمالية تاركاً ابنته تقع  
أسيرة بين أيدي القوم الذي ظلمهم، وسوف أتبعه  
بجيوشي حتى يلود بالصحارى التي قذفته إلى  
واديها . . . ألا تدركين هذا؟ . . . أما أنا فملك هذا  
الوادي الشرعي لأنني من سلالة فراعنة طيبة المجيدة،  
ولأنني قائد مظفر أسترّد بلادي عنوة واقتداراً.

فقالت ببرود وسخرية:

- طبت من ملك يبرع قومه في مقاتلة النساء . . .

- يا للعجب ألا تعلمين أنك مدينة لقومي هؤلاء

بحياتك؟. لقد كنت تحت رحمتهم ولو أنهم قتلوك ما  
خالفوا السنة التي استنّها أبوك في تعريض النساء  
والأطفال لنبال المقاتلين . . .

- وهل تضعني على قدم المساواة مع أولئك النسوة؟

- ولم لا؟ . . .

- معذرة أيها الملك . . . فإنه كبر عليّ أن أتصور أنني

مثل إحدى نسائك أو أن أحداً من قومي مثل أحد من

قومكم إلا أن يتساوى السادة والعبيد . . . ألا تعلم أن

جيشنا غادر طيبة لا يحسّ ذلّ المغلوب، وكانوا يقولون

باستهانة ثار عبيدنا وسنكرّ عليهم . . .

وجنّ جنون الملك وغلبه الغضب على أمره، فصاح

بها:



من نوافله وحديقته، فعلم أن حور يشرف على تهيئته وتطهيره، وأنه عاد حقًا إلى أداء وظيفته الأولى في قصر سيكنترع وشاهد أحسن ميناء حديقة القصر فعاودته الذكرى الأليمة، ليلة حملت السفينة الفرعونية أسرته إلى أقاصي الجنوب والدعاء تتفجر من ورائها... .  
وعاود الملك السير جيئة وذهابًا على مقدم السفينة، وأتجه بصره مرّات إلى غدخ الأميرة المغلق ثم تساءل متبرّما ساخطًا: لماذا جاءوني بها؟... لماذا جاءوني بها؟...

- ١٦ -

وفي صباح اليوم الثاني بكّر حور والقوّاد والمستشارون إلى زيارة الملك في سفينة الراسية شمال طيبة، فاستقبلهم الملك في المقصورة وسجدوا بين يديه وقال حور بصوته الهادئ:

- أسعد الربّ صباحك أيها الملك المظفر، لقد خلّفنا وراءنا أبواب طيبة يخفق قلبها بالأفراح، وبهزّها الشوق إلى اجتلاء نور جبين مخّصّها ومحرّرها.

فقال أحسن:

- لتفرح طيبة، أمّا اللقاء فحين يقضي الربّ بالنصر.

فقال حور:

- وذاع بين الأهلين أنّ ملكهم في طريق الشمال وأنه يرحّب بمن يلحق به من القادرين، ولا تسل يا مولاي عن الحماسة التي فاضت بقلوب الشباب، ولا عن تهافتهم على الضبّاط ليضمّوهم إلى جيش أحسن المعبود.

فابتسم الملك وسأل رجاله:

- وهل زرتم معبد آمون؟

فقال حور:

- نعم يا مولاي زرنه جميعًا، وهرع إياه الجنود يتمسّحون بأركانه ويمرغون وجوههم في ترابه ويعانقون كهنته. وقد فاض المذبح بالقربان وأنشد الكهنة نشيد الربّ المعبود وتردّدت صلواتهم في جنبات المعبد،

فهزّ كتفيه العريضتين استهانة، وتحوّل إلى الخوان فأخذ خوذته ووضعها على رأسه، وقبل أن يخطو خطوة أخرى سمعها تقول:

- لقد قلت حقًا إنّي أسيرة، وليست سفيتك المكان الذي يصلح للأسرى، فألحقني بأسرى قومي... .

فتنظر إليها مغيظًا محنقًا وقال يغيظها ويخيفها:

- ليس الأمر كما تتصوّرين، فالعادة أنّ الأسرى الرجال يستخرون عبيدًا، أمّا النساء فيلحقن بحريم الملك الظافر... .

فقال وقد اتّسعت حدقتهاها:

- ولكني أميرة... .

- كنت أميرة... . ولست الآن سوى أسيرة.

- كلّمها ذكرت أنّي أنقذت حياتك يومًا يجنّ جنوني... .

فقال بهدوء:

- فلتحي هذه الذكرى... . فبفضلها أنقذت حياتك من أيدي الثائرين الذين يتمنون أن يرسلوا رأسك إلى أبوفيس.

وأدار لها ظهره وغادر المخدع غاضبًا حانقًا، وحيّاه الحراس فأمرهم بالإبحار إلى شمال طيبة، وسار إلى مقدّمة السفينة بخطى ثقيلة متباطئة مائلًا صدره بهواء الليل الرطيب، وما لبثت السفينة أن انحدرت مع تيار النيل المتدفّق منذ الأزل تشقّ الظلماء إلى شمال طيبة.

فارسل الملك بناظريه إلى المدينة فأرّأ إليها من هموم نفسه، وكان النور يشعّ من سفن الأسطول الراسية إلى شاطئ المدينة، أمّا القصور الشاهقة فكانت غارقة في الظلمة بعد أن هجرها أصحابها الفارّون، ولاحت على البعد من بين القصور والحدائق أضواء المشاعل التي يحملها الساهرون الفرحون، وحمل النسيم صدى أصواتهم المتصاعدة بالهتاف والأناشيد، فجرت على فمه العريض ابتسامة، وأدرك أنّ طيبة تستقبل جيش الخلاص كما تعودت أن تستقبل جيوشها المظفّرة وأعيادها الخالدة... .

ومضت السفينة تدنو من القصر الفرعوني حتّى حاذته في مسيرها، ورأى الملك القصر مضاءً يشعّ النور

## كفاح طيبة ٤٠٧

عنها. فقال له الرجل: إنَّها باتت ليلتها دون أن تذوق طعاماً. وكان يفكر في وضعها في سفينة أخرى ويعهد بها إلى حرّاس أمناء، ولكنّه لم ينته من تفكيره إلى عزم قاطع، ولم يشكّ في أنّ حور غير راض عن وجودها في سفينته، وأيقن أنّ الحاجب يكبر عليه أن تنال ابنة أبوفيس هذه الحظوة لديه، وكان يعرفه حقّ المعرفة، ويعلم أنّه لا يشغل قلبه سوى كفاح طيبة. أمّا هو فكانت عواطفه متعطّشة فائرة، وكان يعيا عن كفّ نفسه عن الحوم حول المخدع وصاحبته، أو في صرفها عن اللوع بها على ما به من سخط وغضب، فإنّ الغضب لا يقتل الحبّ ولكنّه يجبه حيناً من الزمن كما يكدر الضباب وجه المرأة المصقولة إلى حين، ثمّ ينقشع عنها فيعود إليها الصفاء. ولذلك لم يسلم لليأس، وجعل يقول لنفسه متعزّياً: لعلّ ما بها من آثار الكبرياء المغلوب على أمره والصلف الواقع في الأسر، ولعلّ غضبها أن يسكت فتجد أنّ ما تظهر من البغض دون ما تبطن من الحبّ فنلين وتدعن وتؤدّي للحبّ حقّه كما أدت للغضب حقوقه، أليست هي صاحبة المقصورة التي أنقذت حياته ومنحته العطف والمودة؟... أليست هي التي أقلقها غيابه فكتبت إليه رسالة عدل تضمّر أنين الحبّ المكتوم؟... فكيف تذوي عواطفها هذه من أجل ثورة كبرياء وغضب؟... وانتظر الأصيل ثمّ هزّ كتفيه العريضين استهانة وذهب إلى المخدع، وحيّاه الحرس وأوسعوا له فدخل كبير الرجاء. وراها تجلس في جمود وهدوء تلوح في عينيها الزرقاوين الكأبة والملل! فألمته كأبتها وقال لنفسه: كانت طيبة على رحابتها تضيق بها، فكيف وقد حبست في هذا المخدع الصغير؟... ووقف أمامها جامداً فاستوت في جلستها ورفعت إليه عينيّن باردتين، فقال لها برقة:

- كيف كانت ليلتك؟

فلم تجب وخفضت رأسها تنظر إلى الأرض، فألقى على رأسها ومنكبها وصدرها نظرة مشوّقة، وأعاد سؤاله قائلاً وقد ظنّ أنّ أمهه قريب:

- كيف كانت ليلتك؟

فصهر الحنين القلوب وانتظم الطيبون جميعاً في صلاة جامعة، أمّا نوفر آمون فلم يبرح عزلته...

فابتسم الملك، ولاحظ منه النفاثة فرأى القائد أحسن أبانا صامتاً مكتئباً فأشار إليه أن يقترب، فاقترب القائد من مولاه، ووضع الملك يده على منكبه وقال له:

- تحمّل نصيبك من الأذى يا أحسن، واذكر أنّ شعار أسرتك الشجاعة والبذل.

فحنى القائد رأسه شاكراً وقد دخلته رقة من عطف الملك عليه، ونظر أحسن إلى رجاله وقال:

- أشيروا عليّ فيمن اختاره حاكماً لطيبة، وأعهد إليه بجهة تنظيمها الشاقّة...

فقال القائد محب:

- إنّ خير من يصلح لهذا المنصب الخطير الرجل المخلص الحكيم حور...

ولكنّ حور بادر يقول:

- إنّ واجبي في السهر على خدمة مولاي لا في التخلف عنه.

فقال أحسن:

- صدقت... وأنا لا أستغني عنك.

فقال حور:

- يوجد رجل فاضل عظيم الدراية والخبرة معروف بالحكمة وأصالة الرأي هو توتي آمون وكيل معبد آمون، فإذا شاء مولاي فليعهد إليه بشئون طيبة.

فقال أحسن:

- قد وليناه طيبة.

ثمّ دعا الملك رجاله إلى تناول الفطور على مائدته.

- ١٧ -

ومضت ساعات النهار والجيش يضمّد جراحه ويأخذ قسطه من الراحة واللهو والغناء والشراب، استبق الجنود الطيبون إلى منازل أهلهم فتعانقت القلوب وامتزجت النفوس، وصارت طيبة من المودة والعطف كأنّها قلب الدنيا الخافق. أمّا أحسن فلم يبرح سفينته، ودعا الضابط المكلف بحراسة الأميرة وسأله

فوجدتها تتحدّاه بعينها القاسيتين لا تغضبيها،  
والغضب يسارع إليها إسراعه إلى بني قومها جميعاً،  
وقالت بحدّة:

- نحن قوم لا يعرف الخوف إلى قلوبنا سبيلاً، ولا  
يذلّ كبرياؤنا حتّى تطوي السهوات أيدي البشر.

وتساءل في غضبه هل يجرب إذلالها؟.. لماذا لا  
يذلّها ويدوس كبرياءها بقدمه؟. أليست هي أسيرته  
ويستطيع أن يجعلها جارية من جواريه؟.. ولكنه لم  
يرتح إلى هذا الهوى. كان يطمع فيها هو أعذب  
وأجمل. فلما أدركته الخيبة ثار كبرياؤه واحتدّ غضبه  
فزهّد في استدلالها، على أنّه أظهر غير ما يبطن فقال  
بلهجة كلهجتها كبرياء:

- إنّ مشيئتي لا تقتضي تعذيبك فلن تعذبني  
لذلك... وإنّه لمن أعجب الأمور أن يفكر إنسان في  
تعذيب جارية حسناء مثلك.

- بل أميرة ذات كبرياء.  
- كان هذا قبل أن تقعي أسيرة في يدي..  
أما أنا فأوثر أن أضمّك إلى حريري على أن  
أعذبك: ومشيئتي هي النافذة...

- ستعلم أنّ مشيئتك نافذة على نفسك وعلى قومك  
لا عليّ، وأنك لن تمسني حياة...  
فهزّ كتفيه استهانة، ولكنها استدركت قائلة:  
- من عاداتنا المتوارثة أنّه إذا وقع فرد منا في أشرار  
ذلّ ولم يستطع النجاة، امتنع عن الأكل حتّى يقضي  
كريمًا...

فقال متهكّماً:  
- حقاً؟... ولكنّي رأيت قضاة طيبة يساقون إليّ  
فيسجدون صاغرين سائلة أعينهم العفو والمغفرة...

فامتقع وجهها ولاذت بالصمت، وضاق الملك  
بحديثها ذرعاً وكان يعانى مرارة الخيبة فلم يطق البقاء،  
وقال وهو يهّم بمغادرة المخدع:  
- لن تجدي حاجة إلى الامتناع عن الطعام...

وغادر المخدع مغضباً ساخطاً وقد بيّت نيّته على أن  
ينقلها إلى سفينة أخرى، ولكن ما كاد غضبه يسكت

وبدا عليها كأنّها لا تريد أن تخرج عن الصمت،  
ولكنّها رفعت رأسها بحدّة وقالت:

- كانت أسوأ لياليّ...  
فأغضى عن لهجتها وسألها:  
- لماذا؟.. هل يعوزك شيء؟..  
فقالت دون أن تغرّ لهجتها:  
- يعوزني كلّ شيء.

- كيف؟.. لقد أمرت الضابط المكلف  
بحراستك...  
فقاطعه بتبرّم قائلة:

- لا تتعب نفسك في ذكر هذا.. فإنّه يعوزني كلّ  
شيء أحبّه، يعوزني أبي وقومي وحرّيتي. ولكنّ لديّ  
كلّ ما أكرهه... هذه الثياب وهذا الطعام وهذا  
المخدع وهؤلاء الحراس...

فمني بالخيبة مرّة ثانية وأحسّ انهيار آماله وذهاب  
رجائه، فجمدت أساريه وقال لها:

- أتريدين أن أفكّ أسرك وأرسلك إلى أبيك؟  
فهزّت رأسها بعنف وقالت بشدّة:  
- كلّاً...

فنظر إليها متعجباً متحيراً، ولكنها استدركت بمثل  
هذه اللهجة قائلة:

- كيلا يقال إنّ ابنة أبوفيس ضرعت إلى عدوّ أبيها  
العظيم أو أنّها استحقّت الرثاء يوماً..  
فهاججه الغضب وحنق على صلفها وكبريائها وقال  
لها:

- إنك لا تتحرّجين في إظهار صلفك اطمئناناً منك  
إلى رحمتي...  
- كذبت...

فامتقع وجهه وحدها بنظرة قاسية وقال:  
- يا لك من سادرة لا تعرفين ما الحزن وما الألم،  
هل تعلمين ما تستوجه إهانة الملك من عقاب؟ هل  
رأيت امرأة تجلد قبل اليوم؟.. أنا لو شئت لجعلتك  
تجشّين عند قدمي أصغر جنودي سائلة الصفح  
والتوبة...

أدام إليها النظر ليرى أثر تهديده في نفسها،

## كفاح طيبة ٤٠٩

فقال الزعيم:

- أيها القائد، خطف الفلاحون يوم الانسحاب من طيبة صاحبة السمو الفرعوني الأميرة أمنريديس كريمة مولانا الملك أبوفيس فرعون مصر وابن الرب ست. ومولانا يريد أن يعلم هل ابنته على قيد الحياة أو قتلها الفلاحون؟

- هل يذكر مولانا ما فعل بنسائنا وأطفالنا في حصار طيبة؟... ألم يذكر كيف عرضهنّ لسهام أبنائهنّ وأزواجهنّ تمزقهنّ شراً ممزقاً، وجنودكم الجبناء مدرعون بهنّ؟..

فقال الرجل بحدة:

- إن مولاي لا يتنصّل من تبعة عمله، والحرب كفاح للموت والهزيمة فلا يستعان عليها بالرحمة... فهزّ أحسن رأسه بنفور وقال:

- بل الحرب نزال بين الرجال، يفصل فيه الأقوياء ويعنوا له الضعفاء، وهي عندنا صراع لا ينبغي أن يطغى على ما بنفوسنا من المروءة والدين... على أيّ أعجب كيف يسأل الملك عن ابنته وذاك علمه وهذا رأيه في الحرب؟..

فقال الرسول بإباء:

- إن مولاي يستفهم لغاية في نفسه، فلا هو يسترحم ولا هو يشفق...

وتفكّر أحسن ملياً، ولم يغب عنه الباعث الذي حدا بعدوه إلى السؤال عن ابنته. ولذلك قال بوضوح وبلهجة تمتّ عن الاحتقار:

- عد إلى مولانا وقل له إنّ الفلاحين قوم شرفاء لا يقاتلون النساء، وإنّ الجنود المصريين يترفعون عن قتل أسراهم، وإنّ ابنته أسيرة تتمتع بنبل أسريها..

فبدا على الرجل الارتياح وقال:

- لقد أنقذت كلمتك هذه أرواح الآلاف من قومك نساء ورجالاً تمنّ أسراهم الملك، وجعل حياتهم رهينة بحياة سمو الأميرة.

فقال له أحسن:

- وحيات الأميرة رهينة بحياتهم.

حين خلا إلى نفسه في المقصورة حتّى عدل عن نيّته فلم يصدر أمره... .

- ١٨ -

ومثل الحاجب حور بين يدي الملك في مقصورته وقال:

- مولاي، جاء رسل من قبل أبوفيس يستأذنون في المثول بين يديك.

فحجب أحسن وسأله:

- ماذا يريدون؟

فقال الحاجب:

- قالوا إنهم يحملون رسالة لذاتك العليا...

فقال أحسن:

- ادعهم على عجل...

فنادر الحاجب المقصورة وبعث بضابط إلى الرسل، وعاد إلى مولاه ينتظران. ولم يلبث أن جاء الرسل مع شردمة من ضباط الحرس، وكانوا ثلاثة يتقدّم كبيرهم ويتبعه اثنان يحملان صندوقاً من العاج، وكانوا كما يبدو من ثيابهم الفضفاضة من الحجاب، بيض الوجوه، طوال اللحي، وقد رفعوا أيديهم بالتحية دون انحناء، ووقفوا في غطرسة ظاهرة، فردّ أحسن تحيتهم في كبرياء وسألهم:

- ماذا تريدون؟

فقال زعيمهم بلهجة أعجمية متخطرة:

- أيها القائد...

ولكنّ حور لم يمكّنه من إتمام عبارته، فقال له بهدوئه الطبيعي:

- إنك تحدّث فرعون مصر يا رسول أبوفيس...

فقال الزعيم:

- الحرب ما تزال مستعرة لم يفصل فيها بعد، وما دام لنا رجال وفي أيدينا سلاح، فأبوفيس فرعون مصر لا شريك له...

فأوماً أحسن إلى حاجبه بالسكوت وقال للرسول:

- تكلم فيما جئت من أجله...

## ٤١٠ كفاح طيبة

فصمت الرجل ملياً ثم قال :  
 - وقد أمرت ألا أعود حتى أراها بنفسى .  
 وبدا الإنكار على وجه حور، ولكن أحس بادر  
 الرسول قائلاً:  
 - سترها بنفسك .  
 فأشار الزعيم إلى الصندوق العاجي الذي يحمله  
 تابعه وقال:  
 - وهذا الصندوق يجوي بعض ثيابها، فهل تأذن لنا  
 في تركه في حجرتها؟ .  
 فسكت الملك هنيهة ثم قال:  
 - لك هذا .  
 ولكن حور مال إلى مولاه وهمس قائلاً:  
 - ينبغي أن تفحص الثياب أولاً .  
 فوافق الملك على رأي حاجبه، وأمر الحاجب بوضع  
 الصندوق بين يدي الملك، ثم فتحه بيديه وأخرج ما  
 به من الثياب ثوباً ثوباً، وعثر بحق صغير فأمسك به  
 وفتحته فإذا ما به عقد ذو قلب زمردى .  
 وارتعد قلب الملك لمرآه: وذكر كيف انتقت الأميرة  
 من بين لآله يوم كان يدعى اسفينيس ويبيع اللآلئ  
 فتورد وجهه، أما حور فقال:  
 - هل السجن مكان صالح للزينة؟!  
 فقال الرسول:  
 - هذا العقد حلية الأميرة المفضلة لديها، فإن شاء  
 القائد أبقيناه، وإلا أخذناه معنا .  
 فقال أحس:  
 - لا بأس بإبقائه .  
 ثم التفت الملك إلى الضباط وأمرهم باصطحاب  
 الرسل إلى مخدع الأميرة، ومضت الرسل ومضى  
 الضباط في أثرهم . . .  
 - يا للذكرى المؤلمة . . .

فقال حور بصوت متهدج وأنفاس لاهثة:

- كأني أستمع إلى أرواح الشهداء التي يعمر بها جو  
 هذا المكان المقدس . . .

فقال القائد محب:

- لشدة ما ارتوت هذه الأرض من دماء آبائنا . .

- ١٩ -

وفي ذات المساء لحقت بالجيش قوات آتية من  
 الجنوب من مدرّي أبولينوبوليس وهيراكونبوليس،  
 ورمست في ميناء طيبة سفن صغيرة محملة بالأسلحة  
 وقباب الحصار موجهة من أمبوس، وبشر ربانها الملك

## كفاح طيبة ٤١١

وكانت جالسة جلستها المعهودة على الأريكة ملتفة في ثوب من أثواب منف الرقيقة. وكأنها عرفت وقع خطاه فلم ترفع إليه رأسها وظلّت تنظر إلى ما بين قدميها. وجرى بصره المشغوف على مفرق شعرها وجبينها وجفنيها المسبلتين فأحس رعدة تصدع صدره، ونازعته الرغبة في أن يرتمي عليها ويضغطها بين ذراعيه بكل ما أوتي من قوة وعزم، ولكنها رفعت رأسها بغتة وحدجته بنظرة باردة، فلبث حيث هو جامداً، ثم سأله:

- هل زارك الرسل؟

فقال بلهجة لا تتم عن عاطفة:

- نعم.

فجال ببصره في الحجرة حتى استقرّ على الصندوق العاجي وقال:

- لقد أذنت لهم أن يوصلوا إليك هذا الصندوق!

فقال باقتضاب وبصوت لا يخلو من جفاء:

- شكراً لك..

فارتاح فزاده وقال:

- وكان بالصندوق العقد ذو القلب الزمردى..

فاضطربت شفتاها وأرادت أن تتكلم، ولكنها عدلت فجأة وأطبقت فمها بحالة تدلّ على الحيرة، فقال أحسن برقة:

- قال الرسل إنّ هذا العقد عزيز لديك..

فهزّت رأسها بعنف وكأنها تنفي عن نفسها تهمة وقالت:

- كنت أكثر من لسه حقاً لأنّ ساحرة القصر جعلته تعويذة نقي الضرّ والسوء..

ففظن إلى تهريبها، ولكنه لم ييأس وقال:

- ظننت أنّ ذلك لأسباب أخرى تشهد بها مقصورة السفينة الفرعونية.

فتضرّج وجهها بالاحمرار وقالت بغضب:

- لا أذكر اليوم نزوة الأمس، وبجمل بك أن تحدّثني كما ينبغي لعدوّ أن يحدث أسيرة.

ورأى وجهها قاسياً جامداً فتجرّع الحية مرة أخرى، ولكنه أراد أن يكتم عواطفه فقال:

وجفّف حور دمه وقال للملك:

- فلنصلّ جميعاً يا مولاي على روح مليكتنا الشهيد سيكنترع وجنوده البواسل.

وترجّل أحسن وقواده وحاشيته وصلّوا جميعاً صلاة حارة..

- ٢٠ -

ودخل الجيش مدينة كبتوس وخفق على سورها علم مصر، فهتف الجنود لذكرى سيكنترع طويلاً. ثم زحف الجيش إلى تتيرا دون أن يجد أذن مقاومة. وكذلك استردّ ديوس بوليس برفا. ثم سار في طريق أيدوس وهو يتوقّع أن يلقي الرعاة في واديها، ولكنه لم يعثر برجل من العدو، فعجب أحسن وتساءل قائلاً:

- أين أبوفيس وأين جيوشه الجرّارة؟

فقال حور:

- لعلّه لا يريد أن يلقي عجلاتنا بمشاته.

- وحتّام تدور هذه المطاردة؟

- من يعلم يا مولاي؟.. لعلّها تدوم حتى نواجه أسوار هواريس، حصن الرعاة الحصين الذي شيّدوا أسواره في قرن من الزمان، وسوف يدمي قلب مصر قبل أن تحترقه جنودنا.

وفتحت أيدوس أبوابها لجيش الخلاص، فدخلها دخول الجيش المظفر، واستراح بها يومه..

وكان أحسن يتعطّش للحرب لعلّه يلقي عدوّه في موقعة فاصلة، ولأنّه كان يتوقّ إلى أن ينخمر في القتال لينسى نوازع نفسه ويطمس أحزانه فزاده، ولكنّ أبوفيس أبي عليه هذه الراحة، فوجد أفكاره تموم حول

الأسيرة العنيدة، وقلبه ينازعه إليها على ما به من موجدة عليها. وذكر أحلامه حين ظنّ أن أسعد الأقدار هي التي دفعتها إلى أسره وحين طمع أن يجعل سفينة

الأسر جثة من جنان الحبّ. ثم ذكر ما فعل به إباؤها وغضبها، وكيف صيرته مريضاً محروماً من أشهى الثمار وهي ناضجة دائية، وكانت رغبته إلى الحبّ قويّة لا

تقاوم فجرفت بتيّارها الدافق عوائق التردّد والكبرياء، فذهب إلى السفينة وقصد إلى المخدع المسحور ودخل،

وبرح الرجل السفينة ضيق الصدر مكفهراً الوجه،  
وعاد في عجلته إلى المعسكر. .

- ٢١ -

وضاق الملك بالسكون فأمر قواده بالتأهب. وفي  
فجر اليوم الثاني زحف الجيش بجموعه الجزارة وأقلع  
الأسطول فبلغ بطلميس في يومين، ولم يظهر حولها أثر  
للعدو فدخلتها الطلائع في سلام وتبعها الجيش على  
الأثر. وأوغلت الطلائع شمالاً حتى بانوبوليس آخر  
بلدان طيبة الشمالية ودخلتها بلا مقاومة وزقت البشرية  
إلى الملك أحس أن بانوبوليس في أيدي مصرية، فصاح  
أحس:

- لقد أجلي الرعاة من مملكة طيبة.

فقال حور:

- وسيجلون عن مصر قريباً.

وتقدم الجيش نحو بانوبوليس ودخلها مزهواً ظافراً  
على أنغام الموسيقى الحماسية، ونفخ في الأبواق إعلاناً  
للنصر، ورفعت الأعلام المصرية على سور المدينة،  
وانتشر الجنود في الأسواق واختلطوا بالأهلين يهتفون  
وينشدون. وشمل المدينة فرح جنوني خفق في كل  
صدر وتردد مع كل نفس وأولم الملك لقواد الجيش  
والأسطول والحاشية وليمة فاخرة قدمت في ختامها  
كؤوس مترعة بأنبذة مريوط المعتقة مع أزهار اللوتس  
وقضب الريحان، وقال الملك لرجاله:

- غداً نخترق حدود المملكة الشمالية وترفع على  
أسوارها أعلام مصر لأول مرة منذ نيف ومائة عام.

فدعا الرجال له وهتفوا باسمه طويلاً. .

ولكن في أصيل ذلك اليوم رأى الخراس كوكبة من  
العجلات تعدو نحو المدينة من الشمال رافعة راية  
بيضاء، فأحاط بها الجند وسألوا عن مقصدها، فقال  
أحد رجالها إنهم رسل الملك أبوفيس إلى أحس،  
فمضى بهم الجنود إلى المدينة، وعلم أحس بأمر الرسل  
فذهب إلى قصر حاكم المدينة، ودعا إليه حور وقائد  
الأسطول والقائدين محب وديب، وجلس على كرسي  
الحاكم يحيط به قواده ومن حولهم الحرس في ثيابهم

- ألم تعلمي بأننا نضم نساء أعدائنا إلى حريم  
قصورنا؟

فقالت بحدة:

- إلا مثلي. .

- هل تعودين إلى التهديد بالصوم؟

- لا حاجة لي به بعد الآن. .

فتفحصها بنظرة مريبة وسألها متهكماً:

- فكيف تدافعين عن نفسك؟

فأرته في كفيها سلاحاً صغيراً لا يزيد طوله عن  
ظفر، وقالت باطمئنان:

- انظر؛ هذا خنجر مسموم، إذا خدشت به جلدي

سرى سمه في دمي ففضي علي في لحظات، دسه إلي

الرسول في غفلة من رقائك، فعلمت أن أبي يضع بين

يدي ما أفضي به على نفسي إذا مسني الضيم أو تحرش

بي إنسان.

فغضب أحس وعبس وجهه وقال:

- أهذا هو سر الصندوق؟. . سحقاً لمن يطمئن إلى

كلمة خنزير من الرعاة ذوي اللحى القذرة. إن الحياة

تسري في عروقكم مسرى الدم، ولكن أراك تخطئين

فهم رسالة أبيك، فقد دس إليك هذا الخنجر لتفضي

به علي. .

فهزت رأسها كالساخرة وقالت:

- أنت لا تفهم أبوفيس، إنه يأبى إلا أن أعيش

كرمية أو أموت كريمة، أما عدوه فسيقضي عليه بنفسه

كما تعود أن يقضي على أعدائه.

فضرب أحس الأرض بقدمه وقال بحنق شديد:

- لماذا كل هذا العناء؟. . فما أزهديني في جارية

مثلك أعماها الغرور والكبرياء والطبع الفاسد، لقد

توهمتك فيما مضى شيئاً ليس فيه من حقيقتك شيء،

فسحقاً للأوهام جميعاً. .

وتحول الملك عنها وغادر المخدع، وفي الخارج دعا

كبير حراسها وقال له:

- لننقل الأسيرة إلى سفينة أخرى تحت الحراسة

الشديدة. .

## كفاح طيبة ٤١٣

العبودية. أتعلمون لماذا؟ لأنكم غلبتم على أمركم. فأنتم يا هؤلاء وحوش ضوار إذا غلبتم، وشاء إذا غلبتم، أتسألونني لماذا أصرّ على الحرب؟.. فإليكم جوابي: إني ما أعلنتها عليكم لأستردّ طيبة، ولكنّي عاهدت ربّي وقومي على أن أحرّر مصر جميعاً من نير الظلم والاستبداد، وأن أعيد لها حرّيتها ومجدها؛ فإذا أراد الذي بعثكم السلام حقاً، فليترك مصر لأهلها وليرجع بقومه إلى صحارى الشمال.

فسأله الرسول بصوت غليظ:

- هذه هي الكلمة الأخيرة؟

فقال أحس بثقة وقوة:

- هي ما افتتحنا به الكفاح، وآخر ما نختمه به.

فقام الرسل واقفين، وقال رئيسهم:

- ما دمت تريد الحرب فستكون حرباً ضرورياً بيننا

وبينكم حتى يقضي الربّ فيها بمشيئته.

وانحنى الرجال للملك مرّة أخرى وغادروا المكان

في خطى ثقيلة.

## - ٢٢ -

ولبت أحس في بانوبوليس يومين كاملين، ثم أرسل الطلائع لاختراق حدود دولة أبوفيس، فتقدّمت جماعات قويّة شمال المدينة، والتحمت بقوات صغيرة للعدوّ فمزقت شملها، ومهدت السبيل للجيش المعسكر في بانوبوليس، فزحف أحس على رأس جيش لم تشهد مصر له مثيلاً من قبل من عدده أو عدده، وأقلع أسطول أحس أبانا الجبار بسفنه المظفرة. وفي طريق الزحف أبلغت العيون الملك أنّ جيش الرعاة معسكر في جنوب أفروديتوبوليس في جموع لا يحيط بها الحصر. ولم يكن يهّم الملك عدد الرعاة، ولكنّه سأل الحاجب حور قائلاً:

- ترى هل ما يزال لدى أبوفيس قوّة من العجلات

يلقانا بها؟

فقال حور:

- ما من شكّ يا مولاي في أنّ أبوفيس قد فقدت

الفخمة. وأذن للرسول بالدخول، وكان المصريون لا يدرون ما يحمله الرسل هذه المرّة فانتظروا مشوّقين. وجاء رسل ملك الرعاة وكانوا خليطاً من القوادم والحجاب في الثياب العسكرية والمدنيّة تسبقهم لحاهم المسترسلة، ولم يكن يبدو على وجوههم أي التحدي والغلظة كما توقع أحس، ولكنهم اقتربوا من مجلس الملك وانحنوا جميعاً في إجلال واحترام حتى كاد الملك أن يعلن دهشته، وقال كبيرهم:

- حيّك الربّ يا ملك طيبة، نحن رسل فرعون

مصر السفلى والوسطى إليك.

فألقي أحس عليهم نظرة لا تدلّ على شيء مما يثور

في نفسه، وقال بهدوء:

- حيّاكم الربّ يا رسل أبوفيس، ماذا تريدون؟

وبدا على الرسل الاستياء لإغفال الملك ألقاب

مليكتهم، ولكنّ زعيمهم قال:

- أيّها الملك نحن رجال حرب، في ميداننا نشأنا

وعلى سنّتها نعيش، شجعان بوسائل كما بلوتومونا،

نعجب بالبطل وإن كان لنا عدوّاً، وننزل عند حكم

السيف وإن كان علينا. ولقد انتصرت أيّها الملك

واسترددت عرش مملكتك فحقّ لك ملكها كما حقّ

علينا تسليمها، فهي مملكتك وأنت مليكتها. وإنّ

فرعون يقرّك السلام، ويعرض عليك حقن الدماء

وصلحاً شريفاً يحترم الحقوق ويوصل ما انقطع من

علاقات المودة بين مملكة الجنوب ومملكة الشمال.

وأصغى الملك إلى الرسل في هدوء ظاهر ودهشة

باطنة، ثمّ نظر إلى لسان القوم وسأله متعجباً:

- أجئتم حقاً تنشدون سلاماً؟

فقال الرجل:

- نعم أيّها الملك.

فقال أحس بصوت يدلّ على العزم والحزم:

- إني أرفض هذا السلام.

- ولماذا تصرّ على الحرب أيّها الملك؟

فقال أحس:

- يا قوم أبوفيس.. لأوّل مرّة تخاطبون مصرياً

باحترام، ولأوّل مرّة تنزلون مقهورين عن نعته بصفات



الأخرى. وانقضت العجلات على مواقع الرعاة غملاً الجوّ أمامها سهامًا طائرة، فاخترقت الصفوف في مواضع كثيرة والرماة وراءها يمحون ظهورها ويطاردون من يتفرّق من العدو فيقتلون ويأسرون. وقاتل الرعاة بما عرف عنهم من الشجاعة ولكنهم كانوا يتساقطون سقوط الأوراق الجافّة تعرّضت لرياح الخريف العاتية. وسيطر المصريون على الميدان، وخشي أحسن أن يفلت أبوفيس من يده؛ فهاجم أفروديتوبوليس كما هاجم الأسطول شطآنها، ولكنّه لم يجد أثرًا للرعاة داخل أسوارها ولا عثر بعدوّه اللدود. ثمّ وافته العيون بأنّ أبوفيس فارق المدينة مع قوّات من جيشه بعد جثوم ليلة الأمس، وأنّه ترك من ترك من رجاله ليعوقوا زحف المصريين، وقال حور للملك:

- لن تجدي المقاومة فتيلًا بعد اليوم، ولعلّ أبوفيس يجد الآن في طلب هواريس ليحتمي بأسوارها المنيعه. ولم يأسف أحسن طويلاً، وكان سروره بفتحه بلدًا من بلاد مصر التي حرم دخولها على قومه مائتي عام لا يعادله سرور، فاشتغل بتفقد أحوالها وأهلها عن كلّ شيء..

- ٢٣ -

وتقدّم الجيش في زحفه العظيم لا يجد مقاومة ولا أثرًا للعدوّ، يستقبله أهل القرى والبلدان ذاهلين من الفرح لا يصدّقون أنّ الآلهة رفعت عنهم غضبها بعد ذلك قرنين من الزمان، وأنّ الذي يفتح بلدانهم ويطرد عنها عدوّهم ملك منهم يبعث مجد الفراعين من جديد. ووجد أحسن أنّ الرعاة قد فرّوا عن المدن تاركين قصورهم وضيعاتهم، حاملين ما وسعهم حمله من متاعهم وأمواهم؛ وسمع في كلّ مكان طرّقه أنّ أبوفيس مجّد في الحرب بجيشه وقومه إلى الشبال، وهكذا استردّ الملك في شهر من الزمان: هبسيل، وليكوبوليس، وكوسي، ثمّ بلغ أخيرًا هرموبوليس، وكان لدخولهم فيها وقع عظيم في نفس أحسن وجنوده، لأنّ هرموبوليس مسقط رأس الأمّ المقدّسة توتيشيري، وكانت ولادتها قبل عهد الاحتلال في بيتها

العدد الأكبر من فرسانه، ولو كان لديه قوّة منهم تستطيع أن تفصل في هذا العراك ما طلب الصلح ولا سعى إلى السلام، على أنّ الرعاة قد فقدوا ما هو أئمن من الفرسان والعجلات، فقدوا الثقة والأمل.. واستمرّ تقدّم الجيش حتّى دنا من معسكر عدوّه، ولاحظ نذر المعركة في الأفق، وتأهّبت فرقة العجلات لخوض غمار المعركة بقيادة الملك. وصاح أحسن في القوّاد قائلاً:

- سنقاتل على أرض حرم علينا وطؤها مائة عام وثيق؛ فلنضرب ضربة هائلة تضع حدًا لآلام الملايين من إخواننا المستعبدين، ولنقدّم بقلوب شديدة البأس. فقد حيانا الربّ بالعدد والأمل، وخذّل عدوّنا بالانقراض والبأس. وإني لعلّ رأسكم كما كان سيكون، وكما كان كاموس.

وأمر الملك طلائعه بالهجوم؛ فانقضت كالنسور الكاسرة، وتحفّز للهجوم وهو يراقبها ليرى كيف يلقاها العدو، فشهد قوّة من العجلات تقدّر بمائتي عجلة تردّ عليها الهجوم محاولة الإحداق بها. وكان الملك شديد الرغبة في القضاء على عجلات العدو فهاجم على رأس فرقة العجلات وانقضّ على العدو من جميع الجهات، وأدرك الهكسوس أنّ فرسانهم لا يمكن أن يثبتوا لقوّات تفوقهم أضعافًا؛ فخذف أبوفيس بكتائب من الرماة وحمله الرماح لتؤيّد عجلاته المحدودة. ودارت معركة شديدة، ولكنّ الرعاة لم تنفعهم شجاعتهم وقضي على قوّتهم الراكبة..

وبات الجيش ليلته.. وكان أحسن لا يدري أيلقاه أبوفيس بمشاته مستيشًا أم يفرّ بجيشه مؤثرًا السلامة كما فعل في هيراكونبوليس. ووضح الأمر في الصباح حين رأى الملك جموع الرعاة تتقدّم لاحتلال مواقعها والقسيّ والرماح في أيديها، ورأهم حور فقال:

- الآن تدور الدائرة عليهم يا مولاي، ويتعرّض أبوفيس بمشاته لبأس عجلاتنا كما تعرّض له مليكنا سيكون في جنوب كبتوس من لدن عشرة أعوام.

فانشرح صدر الملك، وتبيّأ للهجوم بفرقة العجلات تؤيّد قوّات مختارة من الرماة وفرق الأسلحة

## كفاح طيبة ٤١٥

ذات الذكريات المجيدة وأخذت تلوح له أسوارها البيض السامقة؛ فظنَّ أحس أن الرعاة سيدافعون عن عاصمة ملكهم دفاع المستميت. ولكن أخطأ ظنه ودخلت طلائعه المدينة في سلام، وعلم أن أبوفيس تقهر بجيشه نحو الشمال الشرقي؛ فدخل أحس طيبة الشمال في حفل شعبي لم يشهد له مثيلاً من قبل، واستقبله الأهلون استقبلاً حماسياً مهيباً، وسجدوا له ودعوه ابن مفتاح. ومكث الملك في منف عدة أيام زار ربوعها وشاهد أسواقها وأحياءها الصناعية، وطاف بالأهرام الثلاثة، وصلّى في معبد أبي الهول، وقدم القرابين. فلم يكن سرور يعادل سرورهم بفتح منف إلا استرداد طيبة، وكان أحس يعجب كيف لا يدافع الرعاة عن منف، فقال له القائد محب:

- لن يتعرّضوا مختارين لبأس عجلتنا بعد ما بلوها في هيراكونبوليس وأفروديتوبوليس.

وقال الحاجب حور بثقة:

- إن السفن لا تنفأ تأتي إلينا محملة بالعجلات والخياد من مقاطعات الجنوب، وليس أمام أبوفيس إلا الاهتام بأسوار هواريس.

وتشاوروا جميعاً في الواجهة التي يولونها بعد أن انبسطت رقعة الغزو أمامهم، فقال القائد ديب:

- لا شك أن العدو جلا عن الشمال كله وانحصر في الشرق وراء أسوار هواريس، فينبغي أن نقصد إليه بقواتنا كاملة.

على أن أحس كان شديد الحذر؛ فأرسل جيشاً صغيراً إلى الغرب عن طريق لنوبوليس، وسير آخر شمالاً في اتجاه أتريس، وسار بقواته الرئيسية وأسطوله العظيم شرقاً في طريق أون. وانطوت الأيام وهم يضربون في الأرض تدفعهم الحماسة والأمل أن يضربوا الضربة الأخيرة بحماسة، ويكثّلوا كفاحهم الطويل بالنصر الحاسم، ودخلوا أون مدينة رع الخالدة ثم فاكوسة ثم فريتص وضربوا في الطريق المؤدي إلى هواريس وكانت أخبار أبوفيس تترامى إليهم فعلموا أن الرعاة ارتدوا من جميع الجهات إلى هواريس يسوقون آلافاً من البائسين. وقد أحدثت هذه الأخبار في نفس

العتيد، فاحتفل أحس بتحريرها، واشترك في الاحتفال العظيم رجال الحاشية وقواد البر والبحر والجنود جميعاً، ثم كتب الملك إلى جدته رسالة يهنئها باستقلال وطنها الأول هرموبوليس، ويضمّنها عواطفه وعواطف جنده وشعبه، وقد أمضاها الملك والقواد والحاشية وكبار الضباط.

ثم تقدّم الجيش في زحفه المظفر؛ فدخل تنسوى وسينوبولس وهبنن ثم أرسنوى، وانحدر بين الأهرام في طريق منف العظيمة غير عابئ بمشاق السفر وطول الطريق. وكان أحس في أثناء ذلك يحطم الأغلال التي يرسف فيها شعبه البائس، وينفخ فيه من روحه الكبيرة حياة جديدة، حتى قال له حور يوماً:

- إن عظمتك الحربية يا مولاي لا يضارعها شيء في الوجود سوى مقدرتك السياسية وحنكك الإدارية، لقد غيرت معالم البلدان فمحوت أنظمة وأنشأت أنظمة، ورسمت السبل التي ينبغي انتهاجها والسنن التي يجب اتباعها، ووليت الحكام الوطنيين، فديت الحياة مرة أخرى في شرايين الوادي، وشاهد الناس أول مرة منذ عهد غابر حكّاماً مصريين وقضاة مصريين، فارتفعت الرعوس المنكّسة، ولم يعد الرجل يعيا بسمرتة ويعير بها. بل صارت موثله ومفخرته. . .

ألا فليحفظك الربّ آمون يا حفيد سيكنرع. كان الملك يعمل مخلصاً مجاهدًا لا يعرف اليأس ولا التعب، وكانت غايته التي لا يتحوّل عنها أن يردّ إلى قومه الذين اهتصرهم الذلّ والجوع والفقر والجهل، العزة والشيع والرغد والعلم.

على أن قلبه لم ينجح على كده وانهاكه من همومه الخاصة، فعناه الهوى وأعيته الكبرياء، وكان كثيرًا ما يضرب الأرض بقدمه ويقول لنفسه: «لقد خدعت. . . وما هي إلا امرأة بلا قلب». وكان يرجو من العمل أن يغمره بالنسيان والعزاء ولكنّه وجد روحه تسري بالرغم منه إلى تلك السفينة التي يعابثها الموج في مؤخرة أسطوله. . .

وأطرد زحف الجيش ومضى يدنو من منف الخالدة

والانتظار في غير أمل، وأهوال الجوّ وتقلباته. وفيما كان يجول حول الحصن خطر له خاطر فدعا رجاله إلى خيمته ليشاورهم في الأمر. وقال لهم:

- أشيروا عليّ، فإنّي أرى الحصار ضياعًا للعمر وتبديدًا للقوى، وأرى الهجوم ضربًا من العبث وانتحارًا صريحًا، ولعلّ العدو يتمنى أن نكرّ عليه ليصيد رجالنا البواسل أو يوقعهم في خنادقه. . فما الرأي؟

فقال القائد ديب:

- الرأي يا مولاي أن نحاصر الحصن بجزء من قوّاتنا، ونعتبر الحرب منتهية عند ذلك؛ ثمّ تعلن استقلال الوادي وتباشر واجبك كفرعون مصر المتّحدة.

ولكنّ حور اعترض على الفكرة قائلاً:

- وكيف ترك أبوفيس آمنًا يدرّب رجاله ويجدّد عجلاته ليكرّ علينا فيما بعد؟

فقال القائد محب بحماسة:

- لقد دفعنا ثمن طيبة غاليًا، والكفاح بدل وفداء، فلماذا لا نؤدّي ثمن هواريس ونهجم كما هجمنا على حصون طيبة؟

فقال القائد ديب:

- نحن لا نضنّ بنفوسنا، ولكنّ الهجوم على أربعة أسوار ضخمة تفصل بينها خنادق ملأى بالماء، تهلكة لجنودنا بلا ثمن. . .

وكان الملك صامتًا متفكّرًا، فقال وهو يشير إلى النهر الجاري تحت سور المدينة الغربيّ:

- إنّ هواريس حصينة لا تؤخذ ولا تجوع، ولكنّها قد تنظّم. . .

فنظر الرجال إلى النهر وبدت على وجوههم الدهشة، وقال حور بذهول:

- كيف تنظّم هواريس يا مولاي؟

فقال أحمس بهدوء:

- بأن نحول عنها مياه النيل. . .

فنظر الرجال مرّة أخرى إلى النيل وهم لا يصدّقون

الملك حزنًا شديدًا، ورقّ لحال أولئك الأسرى المستدلّين الذين سقطوا في قبضة الرعاة القاسية.

وأخيرًا لاحت في الأفق أسوار هواريس الهائلة كالجبال الصخرية، فصاح أحمس:

- هذا آخر حصن للرعاة في مصر.

فقال له حور وهو ينظر إلى الحصن بعينيه الضعيفتين:

- حطّم أبوابه يا مولاي يخلص لك وجه مصر

الجميل. .

### - ٢٥ -

وكانت هواريس تقع شرق فرع النيل، ويمتدّ سورها شرقًا مسافة ينقطع دونها البصر. وكان كثير من الأهلين يعرفون المدينة المحصّنة ومنهم من عملوا داخلها أو في أسوارها، فقالوا للملكهم: إنّه يحيط بالمدينة أربعة أسوار ضخمة غليظة دائرية، يليها خندق محيط يجري فيه ماء النيل، وإنّ بالمدينة حقولًا شاسعة تكفي حاجة أهلها جميعًا، وجلّهم جنود ما عدا المزارعين المصريين، وتسقي المدينة جداول تأخذ من فروع النيل تحت السور الغربيّ وفي حمايته، وتتّجه شرقًا نحو المدينة.

وقد وقف أحمس ورجاله جنوب الحصن الهائل يقليبون وجوههم حيارى في الأسوار العظيمة المترامية، بدت الجنود في ذراها كالأقزام. وضرب الجيش خيامه، وامتدّت صفوف الجنود بحذاء السور الجنوبيّ، وتقدّم الأسطول في النهر غربيّ السور الغربيّ بعيدًا عن مرمى سهامه للمراقبة والحصار، وكان أحمس يستمع إلى أقوال الأهلين عن الحصن، ويفحص الأرض المحيطة به والنهر الجاري غربه وعقله لا يفي عن التفكير. وفي أثناء ذلك سير قوّات راکبة ومشاة إلى القرى المحيطة بالمدينة، فاستولت عليها دون عناء، وأضحى حصاره للحصن كاملًا في زمن يسير؛ ولكنّه كان ورجاله يعلمون أنّ الحصار عقيم، وأنّ المدينة مستغنية بنفسها عمّا عداها، وأنّ الحصار لو امتدّ أعوامًا لن يؤثّر فيها شيئًا؛ وسيبقى هو وجيشه يعانيان الملل

## كفاح طيبة ٤١٧

«مولاي ابن آمون. فرعون مصر العليا والسفلى، حفظه الربّ وأيده بالنصر والفوز. إنّ دابور الصغيرة اليوم جئته من جنان السعادة والأفراح بفضل ما حمّله إليها رسلك من أبناء النصر المين الذي فتح به الربّ عليك، وإنّ انتظارنا اليوم في دابور غير انتظارنا بالأمس؛ لأنه محفوف بالعزاء وأدنى إلى الرجاء والأمل، وما أسعدنا جميعاً أن نعلم أنّ مصر حرّرت من الهوان والعبودية، وأنّ عدوّها ومُذْهِبُها حبس نفسه بين جدران حصنه، ينتظر خانعاً القضاء الذي تقضي به عليه..

وقد شاء الربّ القدير أن يجوبك - أنت الذي أدلّلت عدوّه، وأعلّيت كلمته - بعطفه ورحمته، فرزقك بغلام نوراً لعينيك وولياً لمهدك، دعوته أمنتك تبرّكاً بالربّ المعبود، وقد تلقّيت بيدي كما تلقّيت أباه وجدّه وجدّ أبيه من قبل، وقلبي يحدّثني بأنّه سيكون وليّ عهد مملكة عظيمة متعدّدة الأجناس واللغات والأديان، يرعاها أبوه الحبيب..»

وخفق قلب أحس خفقان الأبوة ودرّت أضلعه الحنان، وفرح فرحاً عظيماً أنساه بعض ما يعاني من آلام الهوى المكبوت، وأذن رجاله بمولد وليّ عهده أمنتك فكان يوماً مشهوداً.

## - ٢٧ -

ومضت الأيام بطيئة ثقيلة ولُكّتها حافلة بجلائل الأعمال التي اشتركت في إنجازها أكبر العقول وأشدّ السواعد وأعلى الهمم؛ وكانوا جميعاً لا يبالون مشقة العمل ولا انقضاء الزمن ما دام يدنيهم إلى أملهم الأسمى وهدفهم الأعلى، ولُكن حدث ذات يوم وكان مضى على الحصار عدّة أشهر أن رأى الحراس عجلة قادمة ناحية الحصن وعلى مقدّمها يخفق علم أبيض، فاستقبلها بعض الحراس ووجدوا بها ثلاثة رجال من الحجاب؛ فسألوهم عن وجهتهم فقال كبيرهم: إنهم رسل الملك أبوفايس إلى الملك أحس. وطير الحراس النبأ إلى الملك؛ فعقد الملك مجلساً من حاشيته وقواده في سرادقه، وأمر بإدخال الرسل إليه. وجيء بالرجال

أنّه يمكن تحويل هذا النهر العظيم من مجراه، وتساءل حور:

- هل يمكن القيام بهذا العمل الجبار؟  
فقال أحس:

- لا يعوزنا المهندسون ولا العمال..

- وكم يقتضينا من الوقت يا مولاي؟

- عاماً أو عامين أو ثلاثة أعوام.. ماذا يهمّ الزمن ما دامت هذه هي الوسيلة الوحيدة. ينبغي أن يتحوّل النيل شمال فربتس إلى مجرى جديد يتجه غرباً نحو مندس، كي يختار أبوفايس بين الموت جوعاً وظماً أو الخروج لقتالنا. وسيغفر لي شعبي أنّي عرضت من في هواريس من المصريين للخطر والهلاك. كما غفر لي أنّي فعلت ذلك ببعض نساء طيبة..

## - ٢٦ -

وتهيأ أحس للعمل العظيم فاستدعى مهندسي طيبة المشهورين، وعرض عليهم فكرته فتوفّروا على دراستها باهتمام وشغف، ثمّ قالوا للملك: إنّ فكرته يمكن تنفيذها على شرط أن يفسح لهم من الزمن ويمدّهم بالآلاف العمال. وعلم أحس أنّ مشروعه لن يتحقّق قبل مضيّ عامين فلم يركن إلى اليأس، ولُكنّه بعث بالرسول إلى البلدان يحثّون على التطوّع في العمل العظيم المنوط تحرير الوطن وطرد عدوّه بتحقيقه. وجاء العمال جماعات من جميع الأنحاء حتّى اجتمع منهم عدد يكفي للبدء في العمل، وافتتح الملك المشروع العظيم فأمسك فأسأ وضربه في الأرض معلّناً ابتداء العمل. فتبعته السواعد المفتولة التي تكدّ على سجع الأناشيد والأغاني.

ولم يكن أمام الملك وجيشه سوى الانتظار الطويل، وكان الجنود يقومون بتدريبهم اليوميّ تحت إشراف الضباط والقواد، أمّا الملك فكان يزجي فراغه بالخروج إلى الصحراء الشرقية طلباً للصيد والطراد والسباق، وفراراً من نوازع قلبه ونزوات هواه، وفي فترة الانتظار هذه حمل إليه رسول رسالة من الأمّ المقدّسة توتيشيري قالت فيها:

## ٤١٨ كفاح طيبة

يكن الجواب حاضرًا ولا تَمَّا تسعف فيه البداة، فقال  
للرسول:  
- هَلَّا انتظرت حتى نقطع برأي؟ ..  
فقال الرسول:  
- كما تشاء أيها الملك، فقد أمهلني مولاي نهار  
اليوم.

- ٢٨ -

واجتمع الملك برجاله في مقصورة السفينة الفرعونية  
وقال لهم:  
- أشيروا عليّ برأيكم ..  
وكانوا جميعًا على رأي بغير تشاور ولا اتفاق. فقال  
حور:

- مولاي لقد انتصرت على الرعاة في مواقع كثيرة  
وأقروا لك بالنصر ولأنفسهم بالهزيمة، فمحوت بذلك  
آثار الهزائم التي ابتلينا بها في ماضينا الأسيف، وقتلت  
منهم خلقًا كثيرين فانتقمت لقتلى قومك البائسين. فلا  
تثريب علينا الآن أن نشترى حياة ثلاثين ألفًا من  
رجالنا، ونوفر على أنفسنا بدلًا للنفوس لا يدعو واجب  
إليه، ما دام عدونا سيجلو عن بلادنا مغلوبًا على  
أمره، وسيحرر وطننا إلى الأبد.

وقلب الملك عينيه في وجوه قومه فوجد منهم حماسة  
إجماعية لقبول الفكرة. وقال القائد ديب: لقد أدى كل  
جندي من جنودنا واجبه كاملاً، وإن ارتداد أبوفيس  
إلى الصحراء هو أشدّ نكالاً من ذوق الموت. . .

وقال القائد محب:

- إن هدفتنا الأسمى تحرير الوطن من حكم الرعاة  
واجلاؤهم عن ربوعه؛ وقد يسر لنا الربّ ذلك فلا  
يجوز أن نطيل عهد الذلّ باختيارنا.

وقال أحس أبانا:

- إننا نشترى حياة ثلاثين ألفًا من الأسرى بالأميرة  
الأسيرة وشرذمة من الرعاة.

واستمع الملك من رجاله باهتمام شديد وقال:

- نغم الرأي، ولكنّي أرى أن ينتظر رسول أبوفيس

يسبرون في تواضع وانكسار وقد ذهبت عنهم الخيلاء  
والكبر وبدوا كأنهم من غير قوم أبوفيس، وانحنوا بين  
يدي الملك وحيّاه كبيرهم قائلاً:  
- حيّاك الربّ أيها الملك.  
فردّ عليه أحس قائلاً:  
- وحيّاكم يا رسل أبوفيس. . . ماذا يريد ملككم؟  
فقال الرسول:

- أيها الملك، إن رجل السيف مغامر ينشد النصر  
ولكن قد يدركه الموت، ونحن رجال حرب وقد مكنتنا  
الحرب من وطنكم فحكمناه قرنين أو يزيد كُنّا فيها  
السادة المعبودين، ثمّ قضى علينا بالهزيمة فغلبنا على  
أمرنا وأجبرنا على الاعتصام بقلعتنا، ونحن أيها الملك  
رجال أشداء نقدر على تحمّل الهزيمة كما قدرنا على جني  
نهار النصر. . .

فقال أحس غاضبًا:

- أرى أنكم أدركتم ما يعنيه هذا المعجى الجديد  
الذي يحفره قومي فجتّم تستعطفون.

فهزّ الرجل رأسه الضخم وقال:

- كَلَّا أيها الملك، نحن لا نستعطف أحدًا ولكنّا نفرّ  
بالهزيمة، وقد أرسلني مولاي لأعرض عليك أمرين  
تختار منهما ما تشاء: فإمّا الحرب إلى النهاية، وفي هذا  
الحال لن نتظر وراء الأسوار حتى نموت جوعًا وعطشًا،  
ولكنّا سنقتل الأسرى من قومك وهم يزيدون على  
ثلاثين ألفًا، ثمّ نقتل نساءنا وأطفالنا بأيدينا ونحمل  
على جيشك في ثلاثمائة ألف مقاتل ما منهم إلّا كاره  
للحياة متعطّش للانتقام.

وسكت الرجل ريشًا يجمع أنفاسه ثمّ استدرك  
قائلًا:

- وإمّا أن تردّوا لنا الأميرة أمنريديس والأسرى من  
قومنا وتؤمنونا على أرواحنا وأموالنا ومتاعنا، فنردّ لكم  
رجالكم ونخلي هواريس، ونولي وجوهنا شطر  
الصحراء التي جئنا منها، تاركين لكم بلادكم كما  
تشاءون؛ وبذلك ينتهي الصراع الذي استمرّ قرنين  
من الزمان.

وسكت الرجل، فعلم الملك أنّه ينتظر جوابه، ولم

## كفاح طيبة ٤١٩

- أحقّ ما تقول؟ .. أحقّ ما تقول؟  
 - إنّ ما أقول حقّ واقع .  
 فأضاء وجهها وتورد خدّاهما، ثمّ تردّت هنيهة وتساءلت:  
 - ولكن كيف كان ذلك؟  
 - آه إنّني أقرأ في عينيك آمالك الطموح، ألسنتي تتمنّين أن يكون انتصار أبيك هو الذي ردّ إليك حرّيتك؟ .. إنّني أقرأ هذا، ولكنّها هزيمته وأسفاه التي أنهت عيوديتك .  
 فعقلت لسانها ولم تنبس بكلمة . فأخبرها باقتضاب بما عرض عليه رسول أبيها وما تمّ الاتفاق عليه، ثمّ قال: وعمّا قليل تُحملين إلى أبيك، وترحلين معه إلى حيث يرحل، فمبارك عليك هذا اليوم .  
 فاكتنفت وجهها ظلّال الحزن وجمدت أساريرها وغضّت طرفها، فسألها أحسن:  
 - أتجدين حزنك للهزيمة أكبر من فرحك لحرّيتك؟  
 فقالت:  
 - يجدر بك ألاّ تشمت بي، فسنگادر بلادكم كراماً كما عشنا فيها كراماً .  
 فقال أحسن بجزع ظاهر:  
 - لست أشمت بك أيّتها الأميرة، فقد ذقنا مرارة الهزيمة من قبل وعلمتنا الحروب الطويلة أن نشهد لكم بالشجاعة والبسالة .  
 فقالت بارتياح:  
 - شكراً لك أيّها الملك . . .  
 وسمعتها لأوّل مرّة تتكلّم بلهجة خالية من الغضب والكبرياء، فتأثّر وقال لها وهو يتبسّم ابتسامة حزينة:  
 - أراك تدعيني ملكاً أيّتها الأميرة؟  
 فقالت وهي تغضّ بصرها:  
 - لأنك ملك هذا الوادي دون شريك، أمّا أنا فلن ادعى أميرة بعد اليوم .  
 فازداد تأثّر الملك ولم يكن يتوقّع أن تلبس شكيمتها على هذا النحو . ظنّ أنّها تزداد بالهزيمة صلماً، فقال بحزن:  
 - أيّتها الأميرة، إنّ ذكريات الدنيا سجّل اللذة

فترة أخرى حتّى لا يظنّ إسراعنا إلى موافقته على الرأي السلميّ لضعف أو ملل الكفاح .  
 وغادر الرجال السفينة وخلا الملك إلى نفسه، وكان على توافر دواعي الابتهاج له كثيباً ضيق الصدر . لقد كلّل كفاحه بالفوز المين وجثا له عدوّه الجبار، ومن الغد يحمل أبوفيس متاعه ويفرّ إلى الصحراء التي جاء منها قومه خاضعاً لإرادة القضاء الذي لا يردّ . فما باله لا يفرح ولا يبتهج؟ أو ما بال فرحه ليس صافياً وابتهاجه ليس كاملاً؟ . . لقد حمت الساعة الخطيرة، ساعة الوداع إلى الأبد . كان قبل تلك الساعة الخطيرة يائساً حقّاً، ولكنّها كانت هناك في السفينة الصغيرة . فماذا يفعل غداً إذا رجع إلى قصر طيبة وحملت هي إلى بطن الصحراء المجهولة؟ أيتركها تذهب دون أن يتزوّد منها بنظرة وداع؟ . . وأجاب قلبه أن لا . وحطّم أغلال التجلّد والكبرياء، وقام واقفاً وفارق المقصورة، وأخذ زورقاً إلى سفينة الأميرة الأسيرة وهو يقول لنفسه: «مهما يكن من استقبالها فسأجد ما أقوله» . وصعد إلى السفينة ومضى إلى المخدع فتحياه الحرّاس وفتحوا له . واجتاز الباب خافق الفؤاد، وألقى نظرة على المخدع الصغير البسيط فرأى الأسيرة جالسة في الصدر على ديوان، والظاهر أنّها لم تكن تتوقّع عودته فبدت على محياها الجميل الدهشة والإنكار . وتفحصها أحسن بنظرة عميقة فوجدها جميلة كعهدتها، ورأى ملامحها كيوم حفرت في قلبه على ظهر السفينة الفرعونية، فعضّ شفته وقال لها:  
 - أنعمي صباحاً أيّتها الأميرة .  
 فرفعت إليه عينين لم تذهب منها الدهشة وكأنتها لا تدري بماذا تجيب . ولم يطل انتظار الملك فقال بصوت هادئ وبلهجة لا تدلّ على شيء:  
 - أنت منذ اليوم طليقة أيّتها الأميرة .  
 فلاح في وجهها أنّها لا تفهم شيئاً، فعاد يقول:  
 - ألا تسمعين ما أقول؟ أنت منذ هذه الساعة طليقة حرّة . انتهى أسرك أيّتها الأميرة وأصبحت الحرّية حقّاً لك .  
 فازدادت دهشتها ولاح الرجاء في عينيها . فقالت بلهفة:

## ٤٢٠ كفاح طيبة

بل كيف لا أكتشف سعادتي إلا حين وشك زوالها؟ ..  
كلّاً لن أدعك تذهيبين.

فرنت إليه بعطف وإشفاق وقالت له:

- وماذا أنت فاعل؟

- سأبقىك إلى جانبي ..

- ألا تدري بما يقتضيه بقائي إلى جانبك؟ .. هل  
تجود من أجلي بثلاثين ألف أسير من قومك وبأضعافهم  
من جنودك؟

فعبس وجهه وأظلمت عيناه وتمتم قائلاً وكأنه  
يحادث نفسه:

- لقد استشهد أبي وجدّي في سبيل قومي ووهبتهم  
حياتي، فهل يضمنون علي قلبي بالسعادة؟

فهزّت رأسها أسفاً وقالت برقة:

- أصغ إليّ يا اسفينيس، ودعني أدعك بهذا الاسم  
العزيز لأنه أول اسم أحبّه في دنياي، ما من الفراق  
بدّ .. سنفترق .. سنفترق .. فأنت لا ترضى بالوجود  
بثلاثين ألف أسير من قومك الذين تحبّهم، ولا أنا  
أرضى بتقتيل أبي وقومي . فليتحمّل كلّ منّا نصيبه من  
الأم.

فنظر إليها بدهول وكأنه يأل أن يكون كلّ نصيبه  
من الحبّ أن يرضى بالفراق وتحملّ الأم، وقال لها  
برجاء:

- أمريدس، لا تتعجّلي اليأس وأشفقي من ذكر  
الفراق. فإنّ جريه على لسانك في يسر يبعث الجنون  
في دمي .. أمريدس .. دعيني أطرق جميع الأبواب  
حتى باب أبيك، فما يكون لو طلبت إليه يدك؟ .

فابتسمت ابتسامة حزينة وقالت وهي تمسّ يده  
برفق:

- وأسفاه يا اسفينيس أنت لا تعي ما تقول، هل  
تظنّ أبي يقبل أن يزوّج ابنته من الملك المظفر الذي  
قهره وقضى عليه بالنفي من البلاد التي ولد فيها وترتّع  
على عرشها؟ .. أنا أعزّف بأبي منك فليس ثمة فائدة  
ترجى، وما من وسيلة سوى الصبر ..

وأصغى إليها ذاهلاً وكان يتساءل: «أحقّ أنّ التي  
تتكلم بهذا الصوت الخافت المنكسر الحزين هي الأميرة

والأم، وقد بلوتم الحياة حلوها ومرّها ولا يزال أمامكم  
غد.

فقال بطمأنينة عجيبة:

- نعم أمامنا غد وراء سراب الصحراء المجهولة،  
وسنلقى حظنا ببسالة ..

وساد الصمت، والتقت عيناها، فقرأ في عينيها  
الصفاء والرقة؛ فذكر صاحبة المقصورة التي أنقذت  
حياته من الموت وسقته رحيق المودة والحنان، وكأنه  
يراهما لأول مرّة بعد ذلك العهد الطويل، فزلزل فؤاده  
وقال بجذّ وجزع:

- عمّا قليل يفرّق بيننا الين ولن تبالي ذلك، ولكنّي  
سأذكر دائماً أنّك كنت معي فظة غليظة ..

فلاح في عينيها الحزن وافتّر ثغرها عن ابتسامة  
خفيفة وقالت:

- أيها الملك إنك لا تعرف عمّا إلا القليل .. نحن  
قوم الموت أرواح لنفوسهم من الهوان.  
- لم أرد بك الهوان قط .. ولكن غرّي الأمل إدلالاً  
بمزالة كنت أظنّها لي عندك.

فقال بصوت خافت:

- أليس من الهوان أن أفتح ذراعيّ لآسري وعدوّ  
أبي؟ ..

فقال بمرارة:

- إنّ الحبّ لا يعرف هذا المنطق ..

فلاذت بالصمت، وكأنّها أمّنت على قوله فتعمت  
بصوت خافت لم يسمعه: «لا ألومنّ إلا نفسي» .  
ورنت بعينيها رنواً نائهاً، وبحركة فجائية مدّت يدها  
إلى وسادة فراشها وأخرجت من تحتها العقد ذا القلب  
الزمرديّ ووضعتة حول عنقها بهدوء واستسلام.  
وتتبّعها بعينين لا تصدّقان، ثمّ ارتقى إلى جانبها غير  
متمالك، وأحاط عنقها بذراعه وضّمّها إلى صدره  
بجنون وعنف، ولم تقاومه ألبتة، ولكتّها قالت بحزن:  
- حذار .. لقد فات الأوان.

فاشدّد ضغط ذراعيه حولها وقال بصوت متهلّج:

- أمريدس .. كيف هان عليك أن تقولي هذا؟ ..

## كفاح طيبة ٤٢١

تبقي لي من حبي؟ . وكانت سلسلة العقد الزمردني هي التي تبقت له من حبه، أهدتها إليه الأميرة تذكاً واحفظت بالقلب لنفسها. وركب الملك عجلته ومضى إلى معسكر جيشه، واستقبله رجاله وعلى رأسهم الحاجب حور وكان يختلس من مولاة نظرات قلقة مشفقة، وقصد الملك إلى السراق ودعا برسول أبوفيس وقال له:

- أيها الرسول لقد درسنا بإمعان ما عرضته علينا. ولما كانت غايي أن أحرر وطني من سيطرتكم وهو ما رضيت به، فقد اخترت الحل السلمي حقناً للدماء. وستبادل الأسرى في الحال، ولكنني لن أمر بالكف عن العمل حتى يغادر آخر رجل منكم هواريس، بذلك تطوى هذه الصفحة السوداء في تاريخ بلادي.

فأخى الرسول رأسه وقال:

- نعم الرأي الذي رأيت أيها الملك، فإن الحرب إذا لم تكن لغاية تستوجبها صارت تقتيلاً وتذبيحاً. فقال أحس:

- الآن سأترككم لتبحثوا معاً في تفاصيل التبادل والإجلاء.

وقام الملك فقام الجميع وقوفاً وانحنوا له إجلالاً، فحيّاهم بيده وغادر المكان.

- ٣٠ -

وفي مساء ذلك اليوم تم تبادل الأسرى؛ ففتح باب من أبواب هواريس وخرجت منه جماعات الأسرى نساء ورجالاً، وكانوا يهتفون للميكهم مسرورين ويلوحون بأيديهم، وذهب الأسرى الرعاة وعلى رأسهم الأميرة أمريدس إلى المدينة في سكون ووجوم. وفي غداة اليوم الثاني بكر أحس وحاشيته إلى هضبة قريبة تشرف على أبواب هواريس الشرقية ليشهدوا خروج الرعاة من آخر مدينة مصرية، وكانوا لا يخفون جدهم، وتتألف وجوههم بنور الفرح والابتهاج، وكان القائد محب يقول:

- عمّا قليل يأتي حجاب أبوفيس بمفاتيح هواريس ليسلموها إلى جلاله الملك، كما سلمت مفاتيح طيبة إلى أبوفيس قبل أحد عشر عامًا.

أمريدس التي لم تكن الدنيا تسعها جنوناً واستهتاراً وكبراً؟ . وبدا لعينه كل شيء غريباً منكراً، فقال بغضب:

- إن أصغر جندي من جنودي لا يهمل قلبه ولا يسمح لإنسان بأن يفرق بينه وبين من يحب. .

- أنت ملك يا مولاي، والملوك أعظم الناس متعة وأثقلهم واجباً، كالشجرة الباسقة أوفى من الحشائش نصيباً من شعاع الشمس ونسائم الهواء، وأكثر تعرّضاً لثورة الريح واقتلاع الزوابع.

فأن أحس قائلاً:

- آه ما أشقائي. . لقد أحبيتك منذ أول لقاء في سفينتي. .

فخففت عينيها وقالت ببساطة وصدق:

- وطرق الحب قلبي في ذلك اليوم عينه، ولكنني لم أكتشفه إلا فيما بعد. وتيقظت عواظي ليلة أجبرك القائد رخ على مبارزته فدلني إشفاعي على دائي، وبت ليبي حائرة مضطربة لا أدري ماذا أصنع بهذا المولود الجديد. . حتى غمرني السحر بعد ذلك بأيام ففقدت وعيي.

- في المقصورة؟ . أليس كذلك؟

- نعم.

- أوّاه. . كيف تكون حياتي بدونك.

- تكون كحياتي بدونك يا اسفينيس.

فضمّتها إلى صدره وألصق خده بخدها كأنه يخال أن التصاقها ييش منها شبح الفراق المائل أمامها. وكان يكبر عليه أن يكتشف حبه ويودعه الوداع الأخير في ساعة واحدة. وطرق كل سبيل من الفكر يبغي حلاً فاعترضه اليأس والقهر، وكانت غاية سعيه أن يشد حولها ذراعيه. وأحس كل منها أنه أن أن ينفصلاً، ولكن لم يجرّك أحدهما ساكناً فلبثا كشيء واحد.

- ٢٩ -

وغادر أحس سفينة الأسيرة لا تكاد تحملها قدماء، وكان ينظر إلى شيء في كفه ويتمتم قائلاً: «أهذا كل ما



وجاء الحجاج كما قال القائد محب، وقدّموا إلى أحسن صندوقاً من خشب الأبنوس رصّت به مفاتيح هواريس، فتسلّمه الملك وأعطاه حاجبه الأكبر، وردّ تحية الرجال الذين عادوا من حيث أتوا في سكون وصمت.

ثمّ فتحت الأبواب الشرقية على مصاريعها فدوى صريرها في جنبات الوادي، فتطلّع أصحاب الهضبة صامتين. وبرزت أولى جماعات الخارجين، وكانت من الفرسان المدججين بالسلاح قدّمها أبوفيس لاستطلاع الطريق المجهول، وتبعها جماعات النساء والأطفال يمتطين منون البغال والحمير وبعضهنّ يُحملن في الهودج، وقد استغرق خروجهنّ ساعات طويلة. ثمّ بدا ركب عظيم تحيط به الفرسان من رجال الحرس تتبعه عربات كثيرة تجرّها الثيران، فعلم الناظرون أنّه أبوفيس وآل بيته، وقد خفق فؤاد أحسن لمرآه وقاوم دمة حزى أحسن انتزاعها من حناياه، وتساءل: ترى في أيّ مكان هي؟ وهل تجدّ في البحث عنه كما يجيّد في البحث عنها؟.. وهل تذكره بمثل ما يذكرها به؟.. وهل تكتّم دمعها كما يكتّم دمعها؟ وتابع الركب بناظره لا يلتفت إلى الجنود المتدفّقة على أثره من جميع الأبواب، وما زال يتبعهم ببصره وفؤاده ويحوم حولهم بروحه حتّى غيّبهم الأفق وابتلعهم الغيب..

واستيقظ الملك على صوت حور وهو يقول:

- في هذه الساعة الخالدة تسعد روح مليكنا سيكنترع ويطلنا المجيد كاموس، ويكلّل كفاح طيبة التي لا تعرف اليأس بالفوز المين.

ودخل جيش الخلاص هواريس الجبارة واحتلّ أسوارها المنيعه، وبات فيها حتّى فجر الغداة، وزحف أحسن بفرقة العجلات شرقاً تتقدّمه طلائعه فدخل تنيس ودفني، وهناك جاءته العيون وهنّأته بجلاء آخر رجل من الرعاة عن أرض مصر. فعاد الملك إلى هواريس، وأمر أن يصلي الجيش صلاة جامعة للربّ آمون؛ وانظمت الفرق المختلفة وعلى رأس كلّ فرقة ضباطها وقائدها، وعلى رأس الجميع الملك وحاشيته، ثمّ جنّوا جميعاً في خشوع وصلّوا للربّ صلاة حارة.

وختّم أحسن صلاته بأن دعا ربّه قائلاً:

- أحمدك وأشكر لك أيّها الربّ المعبود، فقد وصلت جناحي وثبتّ قلبي، وأكرمتني ببلوغ الغاية التي استشهد في سبيلها جدّي وأبي، فاللّهمّ الهمني الصواب وأيدني بالعزم والأمل لأضمّد جراح شعبي، وأجعله خير عابد لخير معبود..

ثمّ دعا أحسن رجاله إلى الاجتماع به فلبّوا سراعاً، فقال لهم:

- اليوم تنتهي الحرب فيجب أن نغمد سيوفنا، ولكنّ الكفاح لم ينته أبداً. وصدّقوني إنّ السلام أكبر من الحرب حاجةً إلى يقظة النفوس وتوثّب العزائم، فأعيروني قلوبكم لنبعث مصر بعثاً جديداً.

ونظر الملك في وجوه رجاله قليلاً ثمّ استطرّد:

- وقد رأيت أن أبداً كفاح السلام باختيار أعواني المخلصين؛ لذلك أعهد إلى حور بالوزارة.

وقام حور إلى مولاه وجثا أمامه وقبل يده، فقال الملك:

- وأرى أنّ سنب خير خلف لحور في قصرى. أما ديب فهو رئيس الحرس الفرعونيّ.

ونظر الملك إلى محب وقال:

- وأنت يا محب قائد جيشي العامّ.

ثمّ التفت إلى أحسن أبانا وقال:

- وأما أنت فقائد الأسطول، وسُردّ إليك ضياع أبيك القائد الباسل بيبي.

ووجه الملك كلامه إلى الجميع قائلاً:

- والآن عودوا إلى طيبة عاصمة ملكنا ليؤدّي كلّ واجبه.

وتساءل حور قلماً:

- ألا يعود فرعون على رأس جيشه إلى طيبة؟

فقال أحسن وهو يهيم قائماً:

- بل ستقلع بي سفيتي إلى دابور لأزف بشرى النصر إلى أسرتي ثمّ أعود معها إلى طيبة، فندخلها جميعاً كما تركناها جميعاً..

## كفاح طيبة ٤٢٣

فتهلل وجه توتيشيري وومضت عيناها الكليلتان  
وقالت بفرح:

- اليوم يفك أسرنا ونعود إلى طيبة فأجدها كعهدي  
بها مدينة المجد والسيادة، وأجد حفيدي على عرش  
سيكنترع يصل ما انقطع من حياة أمنمحيث المجيدة.  
وجاءت وصيفة الملكة السيّدة راي تحمل وليّ العهد  
بين ذراعيها، فانحنت للملك وقالت:

- مولاي قبّل طفلك الصغير ووليّ عهدك  
أمنحبت..

فلانت نظرة عينيه ودوّرت حناياه حناناً دقّاقاً، وأخذ  
الصغير بين ذراعيه وأدناه من فمه حتى التصقت به  
شفتاه المشوقتان، وابتسم أمنحبت إلى أبيه وعابته بيديه  
الصغيرتين...

ثمّ دخلت الأسرة الفرعونية الدار تشملها السعادة  
والطمأنينة، فخلصوا إلى أنفسهم يتسامرون  
ويتذكرون أيامهم..

## - ٣٢ -

وحل الجنود متاع الأسرة إلى السفينة الفرعونية، ثمّ  
انتقل الملك وآله إليها وخرج لوداعهم الحاكم رؤوم  
وأعضاء حكومته وأهالي دابور جميعاً. وقبل أن ترفع  
السفينة مراسيها، دعا أحسن رؤوم وقال له على مسمع  
من رجاله:

- أيّها الحاكم الأمين؛ أوصيك خيراً بالنوبة وأهل  
النوبة، فالنوبة كانت مهجرنا حين ضاقت بنا الدنيا،  
وطنتنا إذ لا وطن لنا، وماوانا حين عزّ النصير ومات  
الصديق، ومدّخر عتادنا وجنودنا لما دعا الداعي إلى  
الكفاح. فلا تنسّ صنيعها، ولتكن منذ اليوم مصر  
الجنوب لا نحرّمها شيئاً نتمناه لنفسنا ونذود عنها ما  
نكره لها..

ثمّ أقلعت السفينة وأقلعت وراءها سفن الحراسة  
تشقّ طريقها نحو الشمال تحمل قوماً تهفو نفوسهم إلى  
مصر وأهلها.. وبلغت السفينة حدود مصر بعد رحلة  
قصيرة، فاستقبلت استقبالاً رائعاً، وخرج إليها رجال  
الجنوب في سفينة الحاكم شاو، وأحاطت بها زوارق

## - ٣١ -

وأقلعت السفينة الفرعونية في حراسة ثلاث سفن  
حربية، وكان أحسن ملازمًا المقصورة ينظر إلى الأفق  
البعيد بوجه جامد وعينين غارقتين في الحزن  
والأسى... واستغرقت الرحلة أياماً ثمّ لاحت دابور  
الصغيرة بأكواخها المتناثرة، ورسا الأسطول على  
شاطئها عند الأصيل، وغادره الملك وحرصه في ثيابهم  
الجميلة فجدبوا الأنظار وهرع إليهم جمع من النوبيين،  
وساروا بين أيديهم إلى بيت الحاكم رؤوم. وذاع في  
المدينة أنّ رسولاً فرعونياً كبيراً جاء يزور أسرة  
سيكنترع، وسبق الخبر الملك إلى بيت الحاكم، فلما  
شارفه رأى الحاكم والأسرة الفرعونية في فناء القصر  
يتتظرون. وطلع الملك عليهم، فعقدت الدهشة  
والفرح ألسنتهم؛ وجثا رؤوم على ركبتيه، وصاح  
الجميع صيحة الفرح والسرور وهرعوا إليه. وكانت  
أسبقهم الملكة الصغيرة نيفرتاري؛ فقَبِلَ خديها  
وجبينها، ونظر فرأى أمه الملكة متكيموس مادة  
ذراعيها، فضمّها إلى صدره وأسلم لها خديها تقبّلها  
بحنان وكانت جدّته الملكة أحتوبي تنتظر دورها، فدنا  
منها وقَبِلَ يديها وجبينها. وأخيراً رأى توتيشيري...  
أخيرة القوم وأعزّهم، توتيشيري التي كلّلها الشيب  
وأذبل خديها الكبر، فحقق قلبه وأحاطها بذراعيه وهو  
يقول:

- أمّاه وأمّ الجميع...

فلثمته بشفتيها النحيلتين وقالت وهي ترفع إليه  
عينها:

- دعني أنظر إلى صورة سيكنترع الحية.

فقال أحسن:

- اخترت يا أمّاه أن أكون الرسول الذي يبشّرك  
بالفوز العظيم، فاعلمي يا أمّاه أنّ جيشنا الباسل نال  
النصر المبين وهزم أبوفيس وقومه وطردهم إلى  
الصحراء التي جاءوا منها وحرّر مصر جميعاً من  
عبوديتهم، فحقّ وعد آمون وطابت نفس سيكنترع  
وكاموس....

وأوما حور إلى الكاهن الجليل وقال:  
 - مولاي . . ائذن لي أن أقدم إلى جلالتك نوفر  
 آمون الكاهن الأكبر لمعبد آمون.  
 فنظر إليه أحس باهتمام، ومد له يده مبتسماً وقال  
 برقة:  
 - يسرني أن أراك أيها الكاهن الأكبر . .  
 فلمش الكاهن يده وقال:

- مولاي فرعون مصر وابن آمون، مجدّد حياة مصر  
 ومحبي سير الأعظمين من ملوكها. لقد كنت يا مولاي  
 آليت على نفسي ألا أبرح حجرتي مادام في مصر رجل  
 من الرعاة الأشائم الذين أذلّوا طيبة وقتلوا سيدها  
 المجيد، وأهملت نفسي فغزر شعر رأسي وجسدي،  
 وقنعت من الدنيا بلقعات أتبلّغ بها وجرعات من الماء  
 القراح كي أشارك قومنا فيما ابتلوا به من القذارة  
 والجوع، ومازلت حتّى قيض الله لمصر ابنه أحس،  
 فحمل على عدونا حملة صادقة ومزّق شمله وطرده من  
 بلادنا، فقفوت عن نفسي وأطلقت سراحي، لاستقبال  
 الملك المجيد وأدعوه . .

فابتسم الملك إليه، واستأذن الكاهن في السلام على  
 الأسرة فأذن له، فقصده إلى توتيشيري وسلّم عليها،  
 وعدل إلى الملكة أحتوبي وكان من المقرّبين إليها على  
 عهد سيكتنرع، ثمّ قبل ستكيموس ونيفرتاري، ثمّ قال  
 حور لمولاه:

- مولاي، إنّ طيبة تنتظر مولاه، والجيش مصطفّ  
 في الطرق، ولكنّ لكاهن آمون الأكبر رجاء.

فسأل أحس قائلاً:

- وما رجاء كاهننا الأكبر؟

فقال الكاهن باحترام:

- أن يتفضّل مولاي بزيارة معبد آمون قبل أن  
 يذهب إلى القصر الفرعونيّ.

فقال أحس مبتسماً:

- يا له من رجاء في تحقيقه الغنم والسعادة.

الأهالي يهتفون ويغنّون. وصعد إلى سطحها شاو وكهنة  
 بيجة وبلاق وسين وعمد القرى وشيوخ البلاد  
 فسجدوا للملك واستمعوا إلى نصائحه. ثمّ انحدرت  
 السفينة نحو الشمال يستقبلها الأهليون على الشطآن  
 وتطوف بها القوارب ويصعد إلى سطحها عند كلّ بلدة  
 الحكّام والقضاة والعمد والأعيان. وما زالت السفينة  
 تجدّ في السير حتّى انقضت ظلمة الفجر ذات صباح في  
 الأفق البعيد عن أسوار طيبة العالية وأبوابها الضخمة  
 وجلالها الخالد، وهرعت الأسرة من المخادع إلى مقدم  
 السفينة عالقة أبصارهم بالأفق، ويتجلّى في نظراتهم  
 الحنين والوجد، وتفيض أعينهم بدمع الشكران،  
 وتغمغم شفاههم في صوت خافت: «طيبة . . طيبة».  
 وقالت الملكة أحتوبي بصوت متهدّج:

- رياه . . ما كنت أتصوّر أن يقع بصري مرّة  
 أخرى على هذه الأسوار . .

وجعلت السفينة تقرب من جنوب طيبة في ربح  
 مؤاتية حتّى استطاعوا أن يروا جموعاً من الجنود وكبار  
 القوم على الشاطئ ينتظرون، فعلم أحس أن طيبة  
 تزجي أولى تميّاتها لمخلّصها، فعاد إلى المقصورة تتبعه  
 أسرته وجلس على العرش وجلسن حوله. وأدّى الجنود  
 التحيّة العسكريّة للسفينة الفرعونيّة، وصعد إلى  
 سطحها رجال طيبة، وعلى رأسهم رئيس الوزراء  
 حور، والقائدان محب وأحس أبانا، ورئيس الحرس  
 الفرعونيّ ديب، وكبير الحجاب سنّب، وحاكم طيبة  
 توتي آمون. ثمّ كاهن طاعن في السنّ محترق الشعر  
 شيباً يتوكّأ على صولجانه ويسير بخطى وثيدة منحني  
 القامة. وسجد الرجال جميعاً لفرعون وقال له حور:

- مولاي محرّر مصر ومخلّص طيبة وقاهر الرعاة،  
 فرعون مصر وسيّد الجنوب والشمال، إنّ طيبة جميعاً في  
 الأسواق تنتظر على شوق ولهفة مقدم أحس بن كاموس  
 بن سيكتنرع وأسرته المجيدة لتقرّتهم جميعاً أحرّ ما  
 جمعت عليه صدرها من التحيّة والسلام . . .

فابتسم أحس وقال:

- حيّاكم الربّ أيها الرجال المخلصون، وحيّا طيبة  
 المجيدة مبدئي وغايتي . .

## كفاح طيبة ٤٢٥

مخلّفات المملكة المقدّسة، عهد بها إلى لاثني عشر عامًا خلّت القائد الباسل الخالد الذكر بيبي لتكون في مأمن من أن تصل إليها يد العدو الجشع. أمّا التابوت فهو تابوت الملك الشهيد سيكننرع يحفظ جسّته المحنّطة التي اشتملت أكفانها على جروح بالغة سجّل كلّ جرح منها صفحة خالدة للبسالة والتضحية، وأمّا العرش فهو عرشه المجيد الذي أدّى حقّه وأعلن عليه كلمة طيبة الأيّبة التي آثرت الابتلاء بأهوال الكفاح على السكون إلى ذلّ السلامة. وأمّا هذا الصندوق الذهبيّ فيحتوي على تاج مصر المزدوج، تاج نيباوس آخر ملوكنا الذين حكموا مصر المتّحدة، وكنت أهديته لسيكننرع وهو خارج لقتال أبوفيس، فخاض غمار المعركة وهو على رأسه الكريم، ودافع عنه الدفاع الذي يعرفه جميع أهل الوادي.. هذه يا مولاي ودائع بيبي المقدّسة، أحمد الربّ أن مدّ في عمري حتّى رددتها إلى أصحابها، داموا للمجد ودام لهم..

وتحوّلت أبصار الجميع إلى التابوت الفرعونيّ، ثمّ سجدوا جميعًا وفي مقدّمهم الأسرة الفرعونيّة وصلّوا خاشعين..

ودنا الملك وأسرته من التابوت وأحاطوا به، وكان الصمت يشملهم جميعًا ولكنّ خاطبت التابوت قلوبهم وسرائرهم، وأحسّت توتيشيري لأول مرّة تخاذلاً وخوزًا، فاستندت إلى ذراع الملك وقد حجبت مدامعها عن ناظرها التابوت المحبوب، وعزم حور على أن يرقأ دمع الأمّ المقدّسة ويسكّن آلام قلبها، فقال لنوفر آمون:

- أيّها الكاهن الأكبر، احتفظ بهذا التابوت في قدس الأقداس حتّى يودع في مقبرته باحتفال مهيب يليق بمقام صاحبه..

فاستأذن الكاهن مولاه وأمر رجاله برفع التابوت إلى مشوى الربّ المعبود، وفتح الكاهن الصندوق واستخرج منه تاج مصر المزدوج، ودنا من أحس في إجلال وتوجّج به رأسه المجعّد، ورأى القوم ما فعل الكاهن فهتفوا جميعًا: «يعيش فرعون مصر»..

ودعا نوفر آمون الملك والملكات إلى زيارة المشوى

مملكته، فاستقبله ضباط وجنود تَمَنّ جاهدوا معه منذ اليوم الأوّل، فردّ الملك تحيّيهم. وصعد إلى هودج فرعونيّ جميل، واعتلت الملكات هودجهنّ، ورفعت الهودج وتقدّمتها فرقة من الحرس الملكيّ، وسارت وراءها عجلات الحاشية تتبعها فرقة أخرى من الحرس الملكيّ، وتقدّم الموكب الملكيّ نحو باب طيبة الجنوبيّ الوسيط، وكان مزينًا بالأعلام والأزهار، يصطف على جانبيه الجنود الأشداء الذين اقتحموه بالأمس القريب..

اجتازت الهودج الفرعونيّة باب المدينة بين صقّين من الرماح الشاكية، وقد نفخ في الأبواق حرس الأسوار، وتساقطت على الداخلين الأزهار والرياحين. ونظر أحس فيها حوله فرأى منظرًا عجبًا يذهل النفوس الرصينة، رأى أهل مصر جميعًا في نظرة واحدة، رأى أجسادًا تحجب السبل والجدران والمنازل، بل رأى أرواحًا خالصة من العبادة والحبّ والحماسة. وضجّ الجوّ بالهتاف المتصاعد من القلوب، وفتن الناس لرؤية الأمّ المقدّسة في مهابة الشيخوخة وجلال الكبر، وحفيدها الباسل في عنفوان القوّة والشباب. وشقّ الركب طريقه كأنّما يخوض بحرًا لجئيًا عبابًا، تتعلّقه الأنفوس والأبصار، فقطع السبيل إلى معبد آمون في ساعات..

وعلى باب المعبد استقبل الملك وأسرته كهنة آمون، ودعوا له طويلًا وساروا بين يديه إلى بهو الأعمدة، حيث قدّمت القرايين على المذبح. وأنشد الكهنة نشيد الربّ بأصوات رخيمة عذبة لبثت تتردّد في القلوب فترة طويلة، ثمّ قال الكاهن الأكبر للملك:

- مولاي ائذن لي في الذهاب إلى قدس الأقداس لإحضار أشياء ثمينة تهّم جلالتك.

فأذن له الملك، ومضى الرجل ومعه نفر من الكهنة وغابوا زمنا يسيرًا، ثمّ ظهر الكاهن مرّة أخرى يتبعه الكهنة يحملون تابوتًا وعرشًا وصندوقًا من الذهب، فوضعوها جميعًا أمام الأسرة الفرعونيّة باحترام وإجلال، وتقدّم نوفر آمون حتّى وقف أمام أحس، وقال بصوت ساحر نقاذ:

- مولاي، إنّ ما أعرض على أنظاركم هي أنفوس

منشحة الصدر، وانعطف الملك إليها مبتسماً فوقع  
بصرها على السلسلة في كفّه فتناولتها بدهشة وقالت:

- أهذا عقد؟.. ما أجله!... ولكنه مبتور.

فقال وهو يجمع أشنات فكره:

- نعم.. فقد قلبه.

- والأسفاه.. وأين فقد؟

فقال:

- لا أدري إلا أنه ضاع على غير إرادتي..

فنظرت إليه بمودة وسألته:

- أكنت تنوي أن تهديه إلي؟

فقال:

- إني أدخر لك ما هو أثمن منه وأجمل.

فقال:

- فكيف تأسف عليه إذن؟

فقال وهو يجهد أن يخرج صوته طبيعياً هادئاً:

- إنه يذكرني بأيام الكفاح الأولى، حين خرجت

أطلب طيبة متخفياً في ثياب التجار داعياً نفسي

اسفينيس، فكان فيما أعرض على الناس للشراء..

فيا للذكرى الجميلة.. نيفرتاري، أود أن تدعوني

اسفينيس، فهو اسم أحبه وأحبّ عهدته وأحبّ من

يحبه..

وأدار الملك وجهه ليخفي ما ارتسم عليه من التأثير

والحنين، فابتسمت الملكة بسرور، ولاحظت منها نظرة

إلى الأمام فرأت على البعد ضوء مشعل يتحرك في

بطء، فقالت وهي تشير بيدها:

- انظر إلى هذا المشعل..

فألقي أحس بصره إلى حيث تشير، ثم قال:

- هذا مشعل في قارب يسبح قريباً من الحديقة..

وكأنّ صاحب القارب تعمّد أن يدنو من حديقة

القصر ليسمع أهله القادمين جمال صوته، فيحييهم

وحده بعد أن حيّتهم طيبة جميعاً، فرفع عقيرته متغنياً

في سكون الليل يردّد سجعه مزمار:

«كم رقدت في غرفتي منذ سنين»

«أعاني ألم داء وجيع»

«فعداني الأهل والجيران»

المقدّس فساروا جميعاً، وكانت توتيشيري ما تزال تتوتّأ  
على ذراع أحس، واجتازوا العتبة المقدّسة التي تفصل  
بين الدنيا والآخرة، وسجدوا للربّ المقدّس ولثموا  
الستائر المسدلة على تمثاله، وصلّوا صلاة الشكر والحمد  
أن هيّا لهم الفوز وردّهم إلى وطنهم ظافرين..

وغادر الملك المعبد إلى هودجه وكذلك الملكات،  
وحمل العرش على عربة كبيرة، واستأنف الموكب سيره  
إلى القصر بين الجموع الهائفة الداعية، المهلّلة المكبّرة،  
الملوّحة بالأغصان النائرة الزهور، فبلغوا القصر القديم  
عند الأصيل، وكان التأثير قد بلغ من نفس توتيشيري  
مبلغاً كبيراً فاشتدّ خفقان قلبها واضطربت أنفاسها،  
فحملت في هودجها إلى جناحها الملكي، ولحقت بها  
الملكات والملك، وجلسوا بين يديها قلقين، ولكنّها  
استعادت هدوءها وعادت بقوة إرادتها وإيمانها فاستوت  
جالسة ونظرت في الوجوه الحبيبة بحنان وقالت بصوت  
ضعيف:

- معذرة يا ابنائي، لقد خانني قلبي لأول مرّة،  
ولشدّ ما تحمّل هذا القلب ولشدّ ما صبر، فدعوني  
أتبكّم جميعاً، ففي مثل سنيّ يعجّل بلوغ الأمل  
بالنهاية..

- ٣٤ -

وجاء المساء وخيم الليل وطيبة لا يعرف النوم إلى  
أجفانها سيلاً، فلبثت ساهرة تلوح المشاعل في طرقاتها  
وضواحيها، ويجمع الناس في ميادينها ينشدون  
ويصتفون، وتسجع ديارها بالأغاني والألحان. في تلك  
الليلة لم ينم أحس على ما به من تعب ونصب. ووبا به  
الفراش فخرج إلى الشرفة المطلّة على حديقة القصر  
الفيحاء، وجلس على أريكة وثيرة في ضوء مصباح  
خافت، وساحت روحه في الظلام الجاثم، وكانت  
أنامله تعبت بسلسلة ذهبيّة بحنوّ وإشفاق، ينظر إليها  
بين الغينة والغينة كأنّها يستمدّ منها أفكاره وأحلامه..

ولحقت به على غير انتظار الملكة الشابة نيفرتاري  
وكان الفرع ينفي الكرى عن عينيها، فظنّت أنّ  
زوجها في مثل سرورها، فجلست إلى جانبه جذلة

## كفاح طيبة ٤٢٧

«لأنك أنت تعرف سرّ دائي»  
 وكان صوته جميلاً يأخذ بالسمع، فأنصت أحس  
 ونيفرتاري، وكانت الملكة ترنو إلى ضوء المشعل بعطف  
 وحنان، وكان الملك ينظر إلى ما بين قدميه بعينين شبه  
 مغمضتين، تنوح في قلبه الذكريات...

«وزارني العرّافون والأطباء»  
 «فأعيا الداء أطبائي وحيروني»  
 «حتّى جئت أنت يا حبيبي»  
 «فبرع سحرك الطبّ والرقى»

# القائمة الجديرة

- ١ -

- ولكنَّ الله خلقهنَّ ليكنَّ سفيرات الهوى!  
فقهقه الأزل ضاحكًا وقال مدفوعًا بروح الاستهتار  
والادعاء:

- اذكر أننا في الجامعة، وأنَّ الجامعة مكان لا يجوز  
أن يذكر فيه لا الله ولا الهوى؟  
- منطقيَّ جدًا ألا يذكر الله، أمَّا الهوى..؟  
فقال أحدهم بلهجة تقريرية تنم عن أستاذية ليس  
وراءها مطمع لعالم:

- الجامعة عدوَّ الله لا للطبيعة..  
- نطقنا بالحق. ولا يؤسستكم قبح هؤلاء الفتيات.  
فهنَّ دفعة أولى للجنس اللطيف وسيتبعهنَّ أخريات.  
الجامعة موضة حديثة لا تلبث أن تنتشر، وإنَّ غدًا  
لناظره قريب..

- أحسب أنَّ فتياتنا يقبلن على الجامعة كما أقبلن  
على السينما مثلًا؟  
- وأكثر. وسترى هنا فتيات على غير هذا المثال  
السئ.

- وسيزحمن الشباب بلا رحمة.  
- الرحمة هنا رذيلة.  
- ولن يكلفن أنفسهنَّ مشاق الحشمة، فالقوي لا  
يحتشم!

- وربما استعرت بين الجنسين نار!  
- ما أجل هذا..!  
- وانظر إلى الأشجار والخمائل! إنَّ الحب يتولَّد فيها  
من تلقاء نفسه كما تتولَّد الديدان في قذور المش.

- رباه!. هل ندرك ذلك العصر السعيد؟!  
- بيدك أن تنتظره إذا شئت..؟

مالت الشمس عن كبد الساء قليلاً، ولاح قرصها  
من بعيد فوق القبة الجامعية الهائلة، كأنه منبثق منها  
إلى السماء؛ أو عائد إليها بعد طواف، يغمر رعوس  
الأشجار والأرض المخضرة وجدران الأبنية الفضية  
والطريق الكبير الذي يشقُّ حدائق الأورمان بأشعة  
لطيفة: امتصت برودة يناير لظاها، وبثت في حناياها  
وداعة ورحمة. وقد قامت القبة على رأس صقن من  
الأشجار الباسقة امتدت مع الطريق، فلاحت كإله  
يخو بين يديه كهنته العابدون ساعة العصر والساء  
متجلية في صفاء، مطرزة بعض نواحيها المترامية  
بسحاب رفاق: والهواء يتخبط بين الأشجار باردًا  
فترجع أوراقها أنينه ونحيبه.

في الساء دارت حدآت حيارى: وعلى الأرض  
انطلقت جماعات الطلبة. كانوا يغادرون الفناء  
الجامعي إلى الطريق مشتبكين في أحاديث شتى، ثم  
لاحت بينهم جماعة من الطالبات لا يتجاوزن الخمس،  
يسرن في خفر ويخلصن نجياً. وكان ظهور الفتيات في  
الجامعة لا يزال حدثًا طريفًا يستثير الاهتمام والفضول،  
خاصة للطلبة المبتدئين؛ فجعل هؤلاء يتبادلون  
النظرات ويتهامسون، وربما علت أصواتهم فبلغت  
أذان زملائهم. قال طالب:

- لا يوجد وجه واحد بينهنَّ يوحد الله؟  
فأجاب طالب آخر بلهجة لم تخلُ من تهكم:  
- إنهنَّ سفيرات العلم لا الهوى..  
فقال ثالث بحموية انتقادية، وهو يتفحص ظهور  
الفتيات المهزولات:



فقال الشاب:

- المرأة شريك الرجل في حياته كما يقولون، ولكنّها شركة دعامتها - في نظري - ينبغي أن تكون المساواة المطلقة في الحقوق والواجبات.

فالتفت أحمد بدير إلى محبوب عبد الدائم وسأله ضاحكًا:

- ورأي شيطاننا العزيز؟

فقال محبوب عبد الدائم باهتمام مسرحي:

- المرأة.. صهام الأمن في خزّان البخار..

فضحكوا كما تعودوا أن يضحكوا عقب سماع آرائه. ثمّ سألوا أحمد بدير:

- وأنت ما رأيك؟

فقال الشاب باستهانة:

- على الصحافي أن يسمع لا أن يتكلّم، خاصّة في عهدنا الحاضر.

- ٢ -

وانعطفوا مع أوّل طريق مقاطع لطريق الجامعة، وساروا في أنجاه المديرية. كان مأمون رضوان أطولهم قامه، ومحبوب عبد الدائم في مثل طوله تقريبًا. أمّا عليّ طه فريعة متين البنيان، وأمّا أحمد بدير فقصير جدًّا كبير الرأس جدًّا. وكان مأمون رضوان يريد أن يختم ساعات العمل أجل ختام قبل أن يستقبل يوم اللهب فقال بصوته المتهدّج الصاعد من قلبه:

- أنسانا حديث المرأة ما نحن بصدده، فما تعليقكم النهائيّ على المناظرة التي شهدناها..؟

دارت المناظرة حول «المبادئ» وهل هي ضرورية للإنسان أو الأولى أن يتحرّر منها؟

فقال عليّ طه مخاطبًا مأمون رضوان:

- نحن متفقان على ضرورة المبادئ للإنسان، هي البوصلة التي تهتدي بها السفينة وسط المحيط..

فقال محبوب عبد الدائم بهدوء وريانة:

- طظ..

ولكن عليّ طه لم يلق إليه بالأ واستدرك مخاطبًا مأمون:

- نحن في بدء الطريق والمستقبل باهر.

وانتهوا من الحديث العامّ: وتناولوا الفتيات - فتاة فتاة - بالتهكّم المرير، والسخرية اللاذعة..

\* \* \*

وكان أربعة سيرون معًا على مهل، يتحدّثون أيضًا وريًا أصغوا بانتباه إلى ما يبلغ آذانهم من هذر الشباب. كانوا من طلبة الليسانس، يشارفون الرابعة والعشرين: وتلوح في وجوههم عزة النضوج والعلم.. ولم تكن تخفى عليهم خطورة شأنهم، أو بالحريّ كانوا يشعرون بها أكثر ممّا ينبغي. قال مأمون رضوان بلهجة انتقادية:

- لا حديث للفتيان إلاّ الفتيات!

فقال عليّ طه معقبًا على انتقاد زميله:

- وماذا عليهم من ذلك؟ إنهما نصفان يطلب أحدهما الآخر منذ الأزل..

وقال محبوب عبد الدائم:

- اعذرهم يا أستاذ مأمون، فالיום الخميس، والخميس عند الطلبة يوم المرأة بلا منازع.

فابتسم أحمد بدير ابتسامة خفيفة - وهو طالب وصحافيّ معًا - وقال بنبرات خطابية:

- أدعوكم أيّها الإخوان إلى إعلان آرائكم في المرأة، على ألا يزيد البيان عن كلمات معدودات. ماذا تقول يا أستاذ مأمون رضوان؟!

فارتبك الشاب، ثمّ ابتسم قائلاً:

- أتريد أن تحملني على حديث أنتقد الغير على خوضه..؟

- لا تحاول الهرب، هلمّ، كلمات معدودات، أنا صحافيّ والصحافيّ لا يأس من حديث أبدًا..

وكان مأمون رضوان يعلم أنّ مراوغة أحمد بدير أمر عسير فاستسلم قائلاً:

- أقول ما قال ربيّ، فإن رغبت في معرفة أسلوب الخاصّ، فالمرأة طمأنينة الدنيا، وسبيل وطية لطمأنينة الآخرة.

وتحوّل أحمد بدير إلى عليّ طه ودعاه للكلام بإيماءة من رأسه.

٤٣٣ القاهرة الجديدة

فقال محجوب بهدوئه المصطنع:

- هي المثل الأعلى . .

والتفت مأمون رضوان إلى عليّ ظه وقال، وجلّ همّه  
أن يذكر رأيه لا أن يجذب أحدًا إلى عقيدته:  
- الله في السماء، والإسلام على الأرض، هاكم  
مبادئ . .

فابتسم عليّ ظه وقال بدوره كما قال محجوب عبد  
الدائم من قبل:  
- لشدّ ما يدهشني أن يؤمن إنسان مثلك  
بالأساطير . .

فقهقه محجوب قائلًا:

- طظ . .

وألقى عليهم نظرة سريعة وهم آخذون في سيرهم  
وقال:

- يا عجبًا! كيف تجمعنا دار واحدة؟ . . أنا رأسي  
هواء، والأستاذ مأمون قمقم مغلق على أساطير قديمة،  
وعليّ ظه معرض أساطير حديثة.  
ولم يلقيا بالأ إلى قوله، لأنه طالما أُعيتهما معرفة الحدّ  
بين جدّه وهزله ولأنّ مناقشته متعبة فهو يروغ من  
التطويق بالتهريج .

وكانوا شارفوا دار الطلبة على ناصية شارع رشاد  
باشا، فودّعهم أحمد بدير وذهب إلى الجريدة التي  
يعمل بها مساء، ومضوا ثلاثتهم إلى الدار، ليأخذوا  
أهبتهم لسهرة الخميس .

- ٣ -

تقع دار الطلبة على ناصية شارع رشاد باشا.  
هي قلعة هائلة ذات فناء مستدير واسع، يقوم بنيانها  
على محيطه في شكل دائرة، مكوّنة من طباق ثلاثة،  
يتركّب كلّ واحد منها من سلسلة دائرية من الغرف  
المتلاصقة، تفتح أبوابها على ردهة ضيقة تطلّ على  
الفناء. كان الأصدقاء الثلاثة يسكنون ثلاث حجرات  
متجاورة في الطابق الثاني. وقد صعد مأمون رضوان  
إلى حجرتة الصغيرة، وأخذ في تغيير ملبسه، وكانت  
الحجرة مؤثثة بفراش صغير، يقابله صوان، يتوسّطها

- يتدّ أننا مختلفان في ماهية المبادئ . .

فقال أحمد بدير وهو يهزّ كتفيه:

- كالعادة دائمًا . !

فقال مأمون وقد تألّقت عيناه بنور خاطف شأنه عند  
الاهتمام:

- حسبنا المبادئ التي أنشأها الله عزّ وجلّ.

فقال محجوب عبد الدائم كالمتعجب:

- لشدّ ما يدهشني أن يؤمن إنسان مثلك  
بالأساطير . .

فاستطرد عليّ ظه قائلًا:

- أومن بالمجتمع، الخليّة الحية للإنسانية، فلنترع  
مبادئه، على شرط ألا نقدّسها لأنه ينبغي أن تتجدّد  
جيلًا بعد جيل، بالعلماء والمريّين .

فسأله أحمد بدير:

- ماذا يحتاج جيلنا من مبادئ؟

فقال عليّ بحماس:

- الإيمان بالعلم بدل الغيب، والمجتمع بدل الجنّة،  
والاشتراكية بدل المنافسة . .

فعلّق محجوب عبد الدائم على كلامه قائلًا:

- طظ . . طظ . . طظ . .

فسأله أحمد بدير:

- وأنت يا أستاذ محجوب ما رأيك في المناظرة؟

فأجابه بهدوء:

- طظ . .

- هل المبادئ ضرورية؟

- طظ . .

- غير ضرورية إذا؟

- طظ . .

- الدين أم العلم؟؟

- طظ . .

- في أيّهما؟!

- طظ . .

- أليس لك رأي ما؟

- طظ . .

- وهل طظ هذه رأي يُرى؟

حياته أثرًا قويًا. ذلك أنه أصيب بمرض أقمعه عن اللحاق بالمدارس حتى الرابعة عشرة، فذاق مرارة العزلة، وعرف الألم، وانصهر في أتون تجربة قاسية، ولكنّه استطاع أن يدرس الدين على والده فتفقه فيه غلامًا يافعًا. ولمّا دخل المدرسة الابتدائية دخلها فتى مراهقًا وقلبًا كبيرًا وروحًا حيًا وذكاءً وقادًا. . على أنه لم يخلُ من تعصبٍ وحنّة، بل كانت تعتريه لحظات قسوة جنونية، تنضب فيها خصوبة نفسه، فينطلق كلسان من لهب يلقف ما يلقاه ويلتهم ما يتصدى له فيضاعف العمل إن كان يعمل، أو يستغرق في العبادة إن كان يعد، أو يجتد في النقاش إن كان يناقش، أو تعلقه الكآبة والانقباض إن كان يعتزل، وفي تلك الحياة البسيطة لم يجد الفتى سبيلًا إلى تحقيق ذاته إلا في العمل، فبز الأقران جميعًا. وكان في قدرته أن يتعبّد ساعات متتابعات لا يسكت لسانه عن ذكر الله، وكان يذاكر في الأيام الأخيرة من العام الدراسيّ عشرين ساعة في اليوم، فكان أول الناجحين في البكالوريا، كما ينتظر أن يكون أولهم في الليسانس، فصار التفوق من أحلامه العليا كالإسلام والعروبة والفضيلة، ولم يسمح لمخلوق أن يدايه في تفوقه، ولكن لم ترسب للمنافسة في صدره أبخرة خبيثة، بفضل قوته الخارقة، وثقته الكبيرة بنفسه، وإيمانه الراسخ بالله. فسما بإنسانيته إلى أعلى المراتب، ولذلك لم يجعل من إيمانه سبيلًا إلى الزهد العاجز أو الفناء في الغير، فكان يقول: إنّ الإيمان امتلاء بالقوة الربانية لتحقيق مثل الله العليا على الأرض. فكان شأبًا عظيمًا، وإن أخفق أن يكون محبوبًا، لأنّ تفوقه مثار لحسد الحاسدين، وسلوكه احتقار صامت لحياة الآخرين، ثمّ إنّ لم ينجح من ميل للوحدة تأصل في طبعه منذ عهد مرضه العصبي الطويل، لهذا إلى جهل بأصول اللباقة الاجتماعية، ونكران لروح الفكاهة، وولع بالصراحة جعلت من حديثه أحيانًا سوط عذاب، فسماه منتقدوه تارة بالجامعيّ الريفي، وتارة بالمهدي غير المنتظر. وقال عنه طالب مرّة: «الأستاذ مأمون رضوان إمام الإسلام في عصرنا هذا، وقديمًا أدخل عمرو بن العاص

وراء النافذة الصغيرة مكتب متوسط وضعت عليه الكتب والمراجع. وكان الشابّ تمنّ يحبّون الكتب حبًا بالغًا، فما إن وقعت عيناه على معجم «لاند» حتى لاحت على شفثيه ابتسامة خفيفة وشتت بحبه وولعه. بيد أنه لم يضع وقتًا، فتوضأ وصلى العصر، ثم ارتدى «ملابس العطلة» وغادر الحجر إلى الطريق، ومضى يرسم جسمه الرشيق هيئة عسكرية جذابة في مسيره، وكان ذا قوام ممشوق، نحيفًا في غير هزال، أبيض الوجه مشربًا بحمرة، أجمل ما فيه عينان سوداوان نجلاوان. تلوح فيهما نظرة لامعة، تذكى ضياءً وجمالًا وذكاء. وكان يتقدّم في مسيره لا يلوي على شيء، لقدميه وقع شديد، ولعينييه هدف لا تحيدان عنه، كان هدفه ذلك اليوم بيت خطيبته بمصر الجديدة. وكان مأمون يعالج أمور قلبه بنفس النزاهة والاستقامة اللتين يعالج بها جميع أمور حياته. . خطب الفتاة - وهي كريمة قريب له من ضباط الجيش العظام - بعد مشورة أبيه، وتمّ الاتفاق على أن يعقد عليها عقب الانتهاء من دراسته، وصار يتردد على بيتها كلّ خميس، فيجالس الأسرة مجتمعة، ومضى بضع ساعات في سمر لذيد. ولم يخطر له على بال قط أن يدعو فتاته إلى السينا، أو أن يدبر حيلة للانفراد بها، ذلك أنه كان من الكافرين بالبدع الحديثة - على حدّ تعبيره - الثائرين عليها، فلقى سلوكه من أسرة الفتاة - أسرة حافظت على تمسكها بالتقاليد القديمة - كلّ إعجاب وتقدير. بيد أنّ ذلك لم يمنح قلبه من الخفقان وهو آخذ في طريقه المعهود، فبلغ طريق الجيزة بعد دقائق واستقلّ الترام. وبدا في جلسته المعتادة، ونظرته الصافية، وقامته العالية، شخصية غنيّة بعناصر الجمال والجلال. فلو أراد أن يكون عمر بن أبي ربيعة لكان، ولكنّه كان ذا عفة واستقامة وطهر لم يجتمع مثلها لشاب. كان ضميرًا نفيًا، وسريرة صافية، كان قلبًا مخلصًا ينشد الدين الحقّ والإيمان الراسخ والمخلوق القويم، وقد نشأ في طنطا، وكان والده مدرّسًا بالمعاهد الدينية - رجل ذو دين وخلق - فشبّ في بيئة أقرب إلى البداوة بساطة ودينًا وخلقًا وقوة، وعرض له في صباه عارض ترك في

بين زملائه مؤمنين صادقين، فلم يشعر في إيمانه بعزلة، ولكنّه لم يظفر بواحد يشاركه حماسه في الدعوة إلى الإسلام والعروبة، فقد استغرقت الأذهان أموراً أخرى في ذلك الوقت كالقضية المصريّة ودستور سنة ١٩٢٣ ومقاطعة البضائع الأجنبية، ولكنّ الفتى لم ييأس في وحدته، ولا كان من الممكن أن يخالط اليأس قلباً كقلبه.

عاش مشغولاً بالأمال الكبار، إلا أنّ قلبه استطاع أيضاً أن يتنسّم الحياة، وأن يخفّ مسروراً إلى استقبالها... بل جعل ينظر من نافذة الترام إلى الخارج في شبه جزع، يودّ لو يطوي الترام في غمضة عين الطرق إلى مصر الجديدة...

#### - ٤ -

ولبت عليّ طه في حجرته حتّى مالت الشمس إلى المغرب، وكان يجلس إلى النافذة وعيناه إلى شرفة دار صغيرة قديمة، تقع عند مدخلها دكان سجاثر، تقوم على ناصية شارع العزبة - امتداد شارع رشاد باشا من ناحية عزبة الدقي - فيما يواجه دار الطلبة. كان مرتدياً ملابسها إلا طربوشه، متأثّقاً كعادته، بحسب الناظر إلى منكبّيه العريضين أنّه من هواة الرياضة البدنيّة، وكان فتىً جميلاً ذا عينين خضراوين، وشعر ضارب لصفرة ذهبيّة، ودلالة واضحة على النبيل، لبت ينظر إلى شرفة الدار الصغيرة القديمة بعينين تتحرّر فيهما نظرة انتظار ولهفة حتّى دبّت فيها حياة ويقظة بدخول فتاة إلى الشرفة، فهض ملوّحاً بيديه، فابتسمت إليه وأومات إلى الطريق، فلبس طربوشه وغادر الحجره ثمّ الدار، وانطلق إلى شارع رشاد باشا، ومضى يتمشّي متمهلاً في الشارع الكبير قامت على جانبيه الأشجار الباسقة تقبع وراءها القصور والفيلات، وجعل يرسل الطّرف فيما وراءه بين لحظة وأخرى، حتّى رأى - على ضوء الغروب الهادئ - صاحبة الشرفة قادمة تخطّط. فدار على عقبيه خافق الفؤاد من السرور، وألّجه نحوها مورّد الوجه، حتّى التقت أيديهما، فاشتبكت اليمنى في اليسرى، واليسرى في اليمنى وغمغم الفتى:

الإسلام في مصر بدهائه، وغدًا يخرج منه مأمون رضوان بثقل دمه». وظلّ الشابّ على ولائه للتفوق وإن خافه ومقته في أحيان كثيرة، أجل كان يخاف ذلك الشعور بالتعالي والتفوق ويستعيز بالله من شرّه، ولكنّه عجز عن قهره، ولذلك لم يرمق عظيمًا بعين الإعجاب الحقّ، وأعلن في صراحته يوم افتتح الملك الجامعة استهانتة برجال الدولة الذين حضروا الاحتفال، ولذلك أيضًا جعل يهزّ منكبّيه استهانة كلّما رأى الطلبة يتحمّسون لمن يدعوهم بالزعماء، وكان ينكر الأحزاب جميعًا، ويأبى الاعتراف «بالقضية المصريّة» ويقول بحماسة المعهود: إنّ هناك قضية واحدة هي قضية الإسلام عامّة والعروبة خاصّة. ومن عجب حقًا أنّه لم يتأثر بموضة الإلحاد التي كانت ذائعة بين طلبة الجامعة على عهده بها وإنّما مرّد ذلك إلى أنّه التحق بالجامعة في الثالثة والعشرين وقد آمن إيمانًا راسخًا بثلاثة أشياء لم ينكرها بعد ذلك طوال حياته: الله، الفضيلة، قضية الإسلام. فلم يزغ بصره حيال نور الجامعة الجديد، ولبت صخرة إيمانه القائمة تنكسر عليها أمواج السيكلوجي والسيولوجي والميتافيزيقا. تحدّى بإيمانه العلم والفلسفة جميعًا وجعلها من ذرائعه ومقوماته، وسرّه أيّما سرور أن يجد أعلام الفلاسفة في ظلّ الله دائميًا: أفلاطون وديكارت وبسكال وبرجسون. كما رحّب قلبه المخلص بالوفاق الذي بشر به القرن العشرون بين العلم والدين والفلسفة، فالיום تنحلّ المادّة إلى شحنات كهربية أشبه بالروح منها بالمادّة، واليوم تستردّ الروحيّة عرشها المسلوب، واليوم يشغل العلماء بالتفكير الدينيّ ويردّ رجال الدين شرائع العلم والفلسفة، فطوي للشبابّ الفيلسوف المؤمن! غير أنّ شابّ الجزيرة تغبّر عمّا كان عليه فتى طنطا المصاب، صار أوسع صدرًا وأرحب فهمًا، أمكنه أن يصغي إلى مجنون محجوب عبد الدائم مبتسمًا، وأن يناقش عليّ طه في قيمة الدين والإلحاد، وأن يتلقّى صابرًا سهام الناقدين والساخرين، إلا إذا احتدّ واتقدت عيناه وعزّته تلك اللحظة الرهيبة، فهناك يرتدّ عنه البصر وهو حسير! وكان الشابّ يجد

بيد أنها خافت مناقشته، لأنه كان يتوَّجَّب للمناقشة باهتمام، ويقف منها موقف المعلم، ولم تكن ترتاح إلى ذلك. والواقع أنه لم يكن يخلو من تناقض. كان كثيرًا ما يستهين بالملايس والمأكَل ونظام الطبقات، ولكنه كان يلبس فيتأتق، ويأكل لذيذ الطعام حتى يشبع، وينفق عن سعة. أما إحسان شحاتة فكان لديها ما تقوله، وما تعلم أنه ينتظر رأيها فيه، فقالت بصوتها الرخيم الذي يعابث الغرائز:

- كدْتُ أتم الكتاب الذي أعرّتيه.

فبدأ الاهتمام على وجهه، لأنه كان يرغب أن يحب عقلها كما يحب شخصها، وسألها:

- ورأيك؟

فقالت بصراحة:

- فهمت أقله، ولم أفز من هذا القليل بطائل.

فشعر بخيبة وسألها:

- ولِمَه؟

فابتسمت إليه لتخفّف من وقع كلامها واستدركت:

- محور الكتاب - الذي تسميه قصّة - أفكار وآراء، وأنا أرتاد في الكتب الحياة والعاطفة!

- ولكنّ الحياة فكر وعاطفة!

فلمّت أطراف شجاعتهما وقالت:

- لا تطوّقي بمنطقك، فربّما لا أستطيع دفعه، ولكنه

لن يغيّر من ذوقي، الموسيقى مقياس الفنّ الحقيقيّ في نظري، فما تجاوز مائة الموسيقى في الكتاب لا ينبغي أن يعدّ من الفنّ في شيء.

فهاه رأيها، وابتسم ابتسامة باهتة، وقال بأسف:

- إنك تحرّمين على نفسك أشهى ثمار الفنّ الحقيقيّ.

فقالت ضاحكة:

- مجدولين، آلام فتر، آلام رفايل، تلك آيات

الفنّ الذي أحبّه.

قالت ذلك بلهجة من يقول «لكم دينكم ولي

ديني». فأمسك الشاب عن الكلام، وتساءل هل يبأس

حقًا من تغيير رأيها؟.. إنه يريد صادقًا أن يتحابًا

بقلبيهما وعقليهما، وأن تكون شركة حياتهما تامة

- أهلاً..

فغمغمت ووجهها يشرق بابتسامة لطيفة:

- مساء الخير..

واستخلصت يديها برفق، وتأبطت ذراعه، واستأنفا السير إلى شارع الجزيرة بمشيان مثية المتمهل الذي ليس له وراء المشي من غاية. هي فتاة في الثامنة عشرة، تضيء عيّاها بشرة عاجية، وعينان سوداوان يجري السحر في حورهما والأهداب، أما شعرها الفاحم وما يحدثه تجاوب سواده مع بياض البشرة فيخطف الأبصار. وقد حوى معطفها الرماديّ جسمًا لدنًا ناضجًا ينتشر سحرًا ووهجًا. سارا متمهلين يبهج منظرهما الشباب والحياة. وجعل عليّ ظه يرقب أنحاء الطريق بطرف حذر كأنما يطلب غيرة، والفتاة تلحظه بطرف خفيّ منتظرة على شوق وسرور، حتى اطمأنّ الفتى إلى غفلة العيون، فضمّ أصابعه تحت ذقنها، وأدار وجهها إليه وألصق شفثيه بشفتيها حتى رطبنا برضاها، ثم رفع وجهه متهدًا من الأعياق وتتابع خطوهما صامتين، وأنه يلقي عليها نظرات فاحصة، فذكرت - على سحر الموقف وفتنته - معطفها الذي كاد يبلى، ففتر سرورها، وقالت بالرغم عنها:

- أيسووك أن ترى دائمًا هذا المعطف العتيق؟

فلاح الإنكار في وجه الشاب وقال مؤنّبًا:

- كيف تلقين بالأ إلى هذه الصغائر؟. إن في

المعطف كنزًا جعله الحظّ السعيد من نصيبي.!

ولم توافقه على أنّ المعطف من «الصغائر» بل كانت

تقول لنفسها مرّات متأسفة: إنّ العيش السعيد شباب

وثياب! ولحظت بذلته الصوفية الأنيقة فرغبت في

لومه. وقالت:

- يا لك من مُراءٍ!. أتعدّ اللباس من الصغائر وأنت

تتأتق مزهواً..

فتورّد وجهه حياء، وبدا كالطفل المرتبك، ثم قال

كالمعتذر:

- البدلة جديدة.. وليس من الممكن ابتياع بدلة

قديمة. ولكنّ الملابس أعراض نافهة. أليس كذلك يا

حبيبي؟

ومضيا في الطريق المقفر يستلهان آمالها الحديث،  
ويفصلان حديثهما بالقَبْل .

كانت إحسان شحاته عظيمة الشعور بأمرين: جمالها  
وفقرها. كان جمالها فائقًا. وقد استأسر سَكَّان دار  
الطلبة، وجعل سَكَّان الحجرات يرسلون شواظ  
أنفسهم فتلقتي جميعًا في شرفة الدار الصغيرة البالية،  
وترتمي عند قدم الفتاة الحسنة الفخور. ولكن لم توجد  
بالدار مرآة حقيقة بأن تعكس ذاك الجمال الصبيح،  
فالفقر حقيقة ماثلة كذلك، وقوى شعورها به إختوتها  
السبعة الصغار، وأن لا مورد لهم إلا دَكَّان سجائر  
مساحتها متر مربع وجلّ زبائنها من الطلبة! وطالما  
خافت على جمالها عوادي الفقر، وسوء التغذية.  
والواقع أنه لولا وصفات أمها - كانت الأم من قيان  
شارع محمد عليّ قبل أن يتزوجها المعلم شحاته تركي -  
فَهَزَل جسمها، ولَنَذِبَل رذفاها اللذان مدحها أحد  
شعراء كَلِيَّة الطبِّ بمعلّقة رنانة. وقد عرفت عليّ ظه،  
اختاره قلبها من دار الطلبة جميعًا، وحظي بإعجابها  
شبابه وجماله ونبله ومستقبله، بيد أن أمرين هاميين  
جعلتا يتنازعان قلبها من أوّل لحظة: حياة قلبها وحياة  
أسرتها، أو بمعنى آخر عليّ ظه والإخوة السبعة  
الصغار، وكانت عرفت - قبل عليّ ظه - شابًا موسرًا  
من طلاب القانون. وقد أدركت من سلوكه أنه يطمع  
فيها متعة لقلبه ولهُوًا لشبابه، فأخذت حذرهما. وكان  
والداها يطلعان على أسرار حياتها، فما راعها إلا إغراء  
أمها وطمع أبيها في مال الشاب! وتنبّهت إلى حقائق  
حياتها المرّة، وخوافيها المحزنة. والواقع أن والديها لم  
يضمرا للأخلاق احترامًا قطّ، وكانت شركتها عشقًا  
قبل أن تصير زواجًا، وظلّ أبوها يرتزق في سوق  
الجمال بجماله وصفاقته حتّى تزوّجته أمها ووهبته ما  
أدّخرت من مال ليتاجر به، فبدد ما بدد على المخدرات  
والقمار، وبقيت له دَكَّان السجائر الصغيرة. ولكنّه كان  
يقول لنفسه متعزّبًا: «ضاعت حياتي حقًا ولكن البركة  
في إحسان». فوجدت فيه الفتاة كما وجدت في أمها  
عونًا للشيطان والسقوط. ولكنّها لم تسارخ إلى  
السقوط، فقد تلقت إهانة عن غير قصد فثار كبرياؤها

منسّقة، وأن يجد فيها الحبيبة والزميلة والندّ المحترم.  
إنّه يحبّها حبًّا يملك عليه قلبه ونفسه، ولكنّه يرجو أن  
يجعل منها في المستقبل زوجًا غير الزوج التي تعرفها  
البيوت الشرقية. وانتهى بهما المسير إلى شارع الخيزة،  
فانعطفوا إلى يسارها، وتنهّد الشابّ بارتياح، فالشارع  
كالقفر، وجوّه كالمظلم، ورفع راحتها إلى فمه، ولشهما  
بشغف، ثمّ مال نحوها فأخذ قبلة مطمئنّة لذيذة  
الطعم، من شفتين ممتلئتين طريّتين. ولمحها تسبل  
جفنيها لوقع القبلة، فانتفض جسمه القويّ، وشاعت  
في روحه شرارة سرور مكهربة، وقال وهو يزدرد ريقه:  
- ما أطفك.. ما أجملك!

ومضت فترة سكون لذيذة ساحرة، ثمّ تنهّد وقال في  
شبه حسرة:

- بيني وبين الامتحان النهائي أشهر معدودات، أمّا  
أنت!

فقال:

- امتحان البكالوريا في يونيو. ماذا تختار لي؟

فقال الشابّ بحماس:

- كَلِيَّةي..

وهي، وإن كانت الضرورة تحتمّ عليها أن تتمّ  
دراستها، إلا أنّها ودّت لو قال لها مثلاً: «حسبك  
دراسة وهلمي إلى عشنا!» فشعرت بشيء من الاستياء  
وسألته:

- لماذا أختار كَلِيَّتكَ؟

- لتكون عقلًا واحدًا وفنًا واحدًا ومهنة واحدة..

- مهنة واحدة؟

فقال بحماسة الذي لا ينضب:

- أجل يا حبيبتي وظيفة المرأة أخطر شأنًا من عمل  
الجارية. محال أن أخون مبادئني، أو أن أرضى بحرمان  
المجتمع عضوًا جميلًا نافعًا مثلك!

وكانت مقتنعة برأيه على وجه آخر، لأنّ الضرورة  
تملي عليها أن تختار مهنة يومًا ما. بيد أنّه ضايقها - وإن  
لم تذر لها - حماسه لرأيه، وودّت لو كانت هي التي  
حملته على قبوله على تتمّع وتردّد منه.

وأنقذها، إذ رأت الشاب صديقها يجالس أباه يومًا في الدكان، فأدركت أنه يساومه على عرضها. وثار غضبها، وشعرت بالخزي والعار، ثم قطعت الشاب بقسوة لم تدع له أملًا! خرجت من التجربة ظافرة، ولكن بعد أن علمت أنها تعيش في بؤرة. ثم إنها شعرت في قرارة نفسها بأنها تخلصت فجأة من الرقابة والقيود، وأنها صارت حرة تفعل ما تشاء بغير حساب. وأحدث شعورها بتلك الحرية المطلقة في نفسها ثورة، لبث حينًا بغير هدف ولا وازع أيضًا. ولكن يقظة جنونية دبّت في عواطفها فتمطت تردادًا متنفّسًا، وإن عقلها الحياء والتردد، كان الجرح خانقًا والرتان سليمتين، فدلّت الظواهر على أنّ النهاية محتومة ما منها مناص. وجعل أبوها الفاجر يقول لها متأسفًا على ضياع الشاب الموسر: «إتلك مسئولة عنا جميعًا، وخصوصًا إخوتك السبعة». ربّاه، هل تستطيع أن تعتصم بإرادتها حيال تلك الدوافع الفاجرة؟ ألا يمكن أن يتواصوا بالصبر حتى تُتِمَّ تعلّمها بمعهد التربية ومجد مهنة شريفة ترزق منها؟! واستسلمت للمقادير في غير ثقة ولا إيمان شأن ضعاف الإرادة. . حتى جاء عليّ ظه. وجدّت في عليّ ودًا صادقًا، وإخلاصًا قويًا، ومقصدًا نبيلًا، فدعم إرادتها المزعزعة. وأنقذها من غمرة الخيرة والخوف، وأعاد إليها شعور الاحترام والكبرياء: فأحبته وناطت به آمالها. ورمق عمّ شحاته تركي الشاب الجديد باستياء وقال عنه: «إنه شاب فقير، حتى السجائر لا يدخنها!» وقال للفتاة مرّة ساخراً: «مبارك عليك الشاب الجميل الذي بعثه الله ليجوّعنا!» ولكنها عرضت عنه، ووضعت أملها في المستقبل: فهو كفيف بأن يهني لها مهنة محترمة وأن يحقق لها أحلام قلبها. . .

وبانتقاله إلى الجامعة ضاق ميدان نشاطه، ولكنّه عمق وارتفع، فصار «الأستاذ» عليّ رئيسًا لجماعة المناظرات، وتميّز على الأقران بقوّته الخطابية وثقافته العامة وحضور بديهته وكان يهتمّ بالمثّل العليا ويتحدّث بحماس وإيمان عن المدينة الفاضلة، فصدّقه عارفوه، ولكنّ بعض المغرمين بالنقد أشاعوا عنه أنّه داهية لا يشقّ له غبار، وأنه يغزو الأوساط جميعًا ملثّمًا بالفضيلة، فيصيد الحسان باسم العلم والفضيلة. وأنه يتحدّث عن الأخلاق كما تتحدّث الخاطبة عن عروس لم ترها؛ لكنهم غالبًا وكذبوا، والحقيقة أنّ الشاب كان صادقًا مخلصًا، وأنه إذا كان يحبّ الجمال فقد أحبّه بنزاهة وإخلاص. بيد أنّ حياته لم تخلّ من أزمات عنيفة، فقد ترعزعت عقيدته منذ مستهلّ حياته الجامعية، وتعرّض لآلام التحول الفتاكّة ولكنّه كان شجاعًا صادقًا. فاستقبل الحياة الجديدة بإرادة متوّبة وعقل شغوف بالحقّ. ولم يكن من الهازنين الماجنين، ولم يكن إعجابه بمأمون رضوان لصدقه وشجاعته، ولكنّه ارتقى بين أحضان الفلسفة المادّية: هيجل وستولد وماخ، وآمن بالتفسير المادّي للحياة، وارتاح أيما ارتياح للقول بأنّ الوجود مادة، وأنّ الحياة والروح تفاعلات مادّية معقّدة، وأنّ الشعور صفة ملازمة عديمة الأثر كصوت العجلة الذي يلازم دورانها دون أن يكون له فيه أيّ أثر. وطالما قال له مأمون رضوان: إنّ الفلسفة المادّية فلسفة سهلة ولكنها لا تحلّ مسألة واحدة حلًا مقبولًا. ولكن عليّ طه كان شابًا اجتماعيًا، لا يصبر على التأمل طويلًا، ويذاكر في أسبوع ما ربّما ذاكره مأمون في يومين، فإلى جانب وقت القراءة هناك وقت للرياضة وآخر للمناظرة وثالث للرحلة ورابع للحبّ إلخ. . . فحسبُه من الفلسفة هذا التفسير الجامع وليستأنف سيره في الحياة ولكن هنالك عقبة كداء تُنذر بأنّ تصير هاوية جارفة: الأخلاق! . . نهضت أخلاقه فيما مضى على دعامة من الدين، فعلام تنهض اليوم؟! . . ما الذي يمسك على الفضائل قيمتها بعد الله؟! أم تُراه يزدريها كما ازدري عقيدته من قبل، ثمّ يلقي بنفسه في تيار الحياة الجارف بلا وازع ولا ضمير؟! إنّ المنطق واضح، والنهاية

أما عليّ طه فكان شابًا ذا مزايا حسنة كثيرة. كان مثلاً طيبًا للروح الاجتماعية الحقّة، ففي عهد دراسته الأوّل كان عضوًا بارزًا في القسم المخصوص، وجمعية الرحلات المدرسية، وجماعة الخطابة والصحافة، يُجيد الحديث والخطابة وطهي الطعام والغناء، مع ميل محمود للاطلاع والثقافة واستمساك مخلص بالفضيلة.

- ٥ -

انتظر محبوب عبد الدائم في حجرته كذلك، ولكن دون أن يغيّر ملايسه لأنه لم يكن كصاحبه يملك بدلة خاصة ليوم الخميس وكان يرقب الطريق من نافذته، فرأى مأمون رضوان وهو يغادر الدار في مشيته العسكرية، ولاحظ إيحاءة الهوى بشرقة الدار الصغيرة القديمة، ثم رأى العاشقين الشابين يوافي أحدهما الآخر إلى شارع رشاد باشا. وشيخ كل واحد منهم جميعاً بـ«ظ» مفعمة سخرية وحقدًا. فسخرته تضرر دائماً حقدًا. وكان ينتظر ميعاده، إلا أنه يؤثر الظلمة ويحب الستر، فخلت الدار تقريباً إلا منه. كان محبوب عبد الدائم - كما مأمون رضوان - طويلاً ونحافة، إلا أنه شاحب مقلقل الشعر، يميّز وجهه جحوظ عينيه العسلتين وصعود شعيرات حاجبيه إلى أعلى، هذا إلى نظرة قلقة متقلبة يوحى بريقها بالتحدي والسخرية. ولم يكن به كصاحبه - جمال، ولكن لم يكن بقسباته كذلك قبح منقّر. ولا يخطئ الناظر إليه ما يدل عليه منظره من التحدي، فما ينفك في خوف من أن يقذفه بنكته أو دعابة أو ملاحظة لاذعة. وكان يرى حياته مليئة بالمشكلات، ويضع على رأسها جميعاً مشكلته الجنسية، ويصفها بأنها مشكلة عسيرة الحل كالقضية المصرية سواء بسواء! وقد رأى إحسان شحاته، وطالما أثارته بركان شهوته، رآها - كما يرى أي امرأة أخرى - صدرًا وعجزًا وساقين، وكانت إحدى مفاتها هذه كافية لإطلاق شرارة كهربائية في صدره، ولكن الفتاة - على حدّ قوله - أحسنت الاختيار، وآثرت الفتى الأشقر ذا العينين الخضراوين. ولبثت حياته مقفرة موحشة، فقلبه في ظلام وعقله في ثورة دائمة. كان صاحب فلسفة استعارها من عقول مختلفة كما شاء هواه، وفلسفته الحرّية كما يفهمها هو. ووظف أصدق شعار لها. هي التحرّر من كلّ شيء، من القيم والمثل والعقائد والمبادئ، من التراث الاجتماعي عاتمة! وهو القائل لنفسه ساخراً: «إنّ أسرتي لن تورثني شيئاً أسعد به فلا يجوز أن أرث عنها ما أشقى به!» وكان

محتومة، ولكنّه تردّد وتماسك وأتقى بقوة القصور الذائقي، وتساءل: ألا يمكن أن يجيأ كما حيي أبو العلاء؟ ولكنّ أبا العلاء كان ضريراً مجدوراً سوداويّاً، أما هو فشاب جميل مفتول العضلات، اجتماعي الزواج، فأنى يكون له الزهد والتقصّف؟! ووجد نفسه في مثل الحيرة التي وجدت فيها إحسان شحاته عقب تحرّرها من ظلّ والديها. وأخيراً ظفر بمنقذه كما ظفرت بمنقدها، التقى بأوجست كونت رجل المجتمع، وبشّره الفيلسوف بإله جديد هو المجتمع، ودين جديد هو العلم. آمن بالمجتمع البشري والعلم الإنساني، واعتقد أنّ للملحد - كما للمؤمن - مبادئ ومثلاً إذا شاء وشاءت له إرادته؛ وأنّ الخير أعمق أصولاً في الطبيعة البشرية من الدين، فهو الذي خلق الدين قديماً وليس الدين الذي أوجده كما كان يتوهم وجعل يقول عن نفسه: «كنت فاضلاً بدين وبغير عقل، وأنا اليوم فاضل بعقل وبلا خرافة!». وثاب إلى مثله العليا أمناً مطمئناً، ممتلئاً حماساً وقوة. وشغف بالإصلاح الاجتماعي، وحلم بالجنة الأرضية، فدرس المذاهب الاجتماعية، حتى طاب له أن يدعو نفسه اشتراكياً. وانتهى المطاف بروحه - التي بدأت رحلتها من مكة - إلى موسكو!. وطمع يوماً أن يجذب أصدقاءه المقرّبين إلى الاشتراكية ولكنّه لم يفلح. قال له أحمد بدير معتزلاً: «إني صحافي وفدي». والوفد حزب رأسمالي» وقال له مأمون رضوان بإيمانه المعروف: «للإسلام اشتراكيته المعقولة، فيه الزكاة التي تضمن - لو طبقت بدقة - العدالة الاجتماعية دون جور على الغرائز التي يستمدّ الإنسان منها العون في كضاحه، فإذا أردت للدنيا نظاماً يهيئ لها الأخوة الحقّة والسعادة والعدالة فدونك والإسلام». أما محبوب عبد الدائم فهزّ منكبيه استهانة وقال باقتضاب: «ظ». ومهما يكن من أمر فقد عرف لحياته هدفاً أنقذه من الحيرة والفوضى والفساد. وحقّ له أن يقول على نفسه مسروراً: «هاكم بطاقتي الشخصية وهي تغني عن كلّ تعريف: فقير واشتراكي، ملحد وشريف، عاشق عندي!».



من أشياء رذائل، وقد وقف على سرّه وبرع في سحره وسيجعل من الفضائل رذائل ومن الرذائل فضائل؟ وفرك يديه سرورًا، وذكر ماضيه أطيب الذكر، ورمق مستقبله بعين الاستبشار، وألقى عن عاتقه شعور الضعة. بيد أنه أدرك منذ اللحظة الأولى أنّ فلسفته سرّية، يجوز أن يدعو مأمون رضوان إلى الإسلام جهارًا، ويجوز أن يعلن عليّ طه اعتناقه لحرّية الفكر والاشتراكية، أمّا فلسفته فينبغي أن تظلّ سرّية - لا احترامًا للرأي العامّ فإنّ من مبادئها احتقار كلّ شيء - ولكن لأتّها لا تؤتي أكلها إلا إذا كفر الناس بها وآمن بها وحده! ألا ترى أنّه إذا آمن الناس جميعًا بالرديلة لم يتميّز بينهم بما يتيح له التفوّق عليهم؟ لذلك احتفظ بها لنفسه، ولم يعلن منها ما هو في حكم الموضة كالإلحاد وحرّية الفكر. إلا إذا ضاق صدره أو غلبه شعور الوحشة فإنّه ينقّس عن قلبه بالمزاج والسخرية، فبدا للقوم ماجنًا لا شيطانًا مجرمًا. ومضى في سبيله فقيرًا بلا خلق يرصد الفرص ويتوّب للانقضاض عليها بجراءة لا تعرف الحدود.

\*\*\*

لبث في حجرته ينتظر الظلام، فلقلبه أيضًا مغامرات ولكن حبّه كلفسته لا يجيا في النور، وما فتاته في الواقع إلاّ جامعة أعقاب سجناء. ولشدّ ما أغضبته حظّه من الحبّ، ولكن ما الحيلة ونقوده لا تكاد تفي بضرورات الحياة؟ وكثيرًا ما يهزأ بنفسه فيقول: «لست خيرًا منها فهي جامعة أعقاب سجناء، وأنا جامع أعقاب فلسفة، ثمّ إنّي في نظر المجتمع شرّ منها!» وقد رَمَتْ بها المصادفات بين يديه، فلم يدع الفرصة تفلت، وقال متعزّيًا: مَنْ تواضع لله رفعه. رآها ذات مساء - وكان يتمشّي في طريق العزبة المفقرة - وراء شجرة تين مع أحد بوابي شارع رشاد باشا. فتربّص بها حتّى رآها تسير بمفردها بعد أن عاد النوبيّ إلى الشارع الآخر، واقترب منها بجرائته ولمس منكبها وهو يقول مبتسّمًا:

- رأيت كلّ شيء.

فتوقّفت الفتاة عن المسير، ورمقته بعين داهشة، وتبيّنها على ضوء الطريق فوجدها شديدة السمرة كاعب

يقول أيضًا: إنّ أصدق معادلة في الدنيا هي: الدين + العلم + الفلسفة + الأخلاق = طظ. وكان يفسّر الفلسفات بمنطق ساخر يتسق مع هواه. فهو يعجب بقول ديكارت: «أنا أفكر فأنا موجود». ويتفق معه على أنّ النفس أساس الوجود، ثمّ يقول بعد ذلك إنّ نفسه أهمّ ما في الوجود وسعادتها هي كلّ ما يعنيه. ويعجب كذلك بما يقوله الاجتماعيّون من أنّ المجتمع خالق القيم الأخلاقية والدينية جميعًا، ولذلك يرى من الجهالة والحمق أن يقف مبدأ أو قيمة حجر عثرة في سبيل نفسه وسعادتها! وإذا كان العلم هو الذي هيأ له التحرّر من الأوهام، فليس يعني هذا أن يؤمن به أو أن يهبه حياته، ولكن حسبه أن يستغلّه وأن يفيد منه. فلم تكن سخريته من رجال العلم دون سخريته من رجال الدين، وإنّما غايته في دنياه: اللذة والقوة، بأيسر السبل والوسائل، ودون مراعاة لخلق أو دين أو فضيلة. لقد استعار هذه الفلسفة بإرشاد هواه، ولكن تهيّؤ لها نأمة منذ أمد بعيد. فهو مدين بنشأته للشارع والفطرة، كان والداه طيّبين جاهلين، ولظروفها الخاصّة، أتمّ تكوينه في طرق بلدة القناطر. وكان لداته صبية شطارًا يتطلقون على فطرتهم بلا وازع ولا تهذيب فسبّ وقذف واعتدى واعتدي عليه وتردّى إلى الهاوية. ولما انتقل إلى جوّ جديد - المدرسة - أخذ يدرك أنّه كان يجيا حياة قدرة، وعانت نفسه مرارة العار والخوف والقلق والتمرد. ثمّ وجد نفسه في بيئة جديدة، طالبًا من طلاب العلم بالجامعة، ورأى حوله شبانًا مهذّبين يطمحون إلى الأمال البعيدة والمثل العالية. ولكنّه عثر كذلك على نزعات وآراء لم تدّر له بخلد. عثر على موضة الإلحاد والتفسيرات التي يبشّر بها علماء النفس والاجتماع والأخلاق والظواهرات الاجتماعية الأخرى، وسرّ بها سرورًا شيطانًا، وجمع من نخالته فلسفة خاصّة اطمأنّ بها قلبه الذي نهكه الشعور بالضعّة، لقد كان وغدًا ساقطًا خاصّة اطمأنّ بها قلبه الذي نهكه الشعور بالضعّة، لقد كان وغدًا ساقطًا مضمحلًا فصار في غمضة عين فليسوفًا! المجتمع ساحر قديم، جعل من أشياء فضائل، وجعل

الظرف نظرة سريعة فرأى ختم القناطر، ثم لاحظ بسهولة أن الخط غير خط أبيه فمن عسى أن يكون كاتبه؟! إنه يرى ذلك الخط أول مرة .

- ٦ -

وفض الغلاف متعجبًا وقرأ ما يأتي:

حضرة الشاب الفاضل محبوب أفندي عبد الدائم:  
السلام عليكم ورحمة الله، وبعد فإنه يؤسفنا أن نخبركم بأن والدكم العزيز مريض وملازم الفراش، ونسال الله أن يجعل العواقب سالمة، ولكن لا بد من حضورك في أقرب وقت لتطمئن عليه بنفسك، وقد طلبوا إلي أن أكتب هذا إليك فلا تتأخر والسلام.

شلي العفش (صاحب بقالة القناطر الخيرية)  
هذا يعني أن أباه في حالة عجز تمنعه من أن يمك بالقلم فإذا أصابه؟ وقرأ الكتاب للمرة الثانية وقد لاح الوجوم في وجهه الشاحب وجعل يشد حاجبه الأيسر بأنامله. ومن عجب أنه لا يذكر أن أباه شكوا المرض يومًا ما، كان دائمًا متين البنيان ثقيل الخطوات، فلا شك أن مرضًا خطيرًا غدر به وأعجزه. ترى ما الذي يجتبه الغيب؟ . . وماذا يدخر له ولوالدته؟

ولكن لا يجوز أن يضيع الوقت سدى، أو أن يؤخر سفره دقيقة. وكتب كلمة لمأمون رضوان يشرح سبب سفره المفاجئ، ولف جلابيه في جريدة قديمة، ثم غادر الدار. لم يمض إلى شارع العزبة كما كان يرجو منذ دقائق، ولكنه أخذ في شارع رشاد باشا أو شارع علي وإحسان كما يدعوه ساخراً. ومضى يحدث نفسه قائلاً: «لو انتهى أجل الرجل لؤثدت آمالي جميعاً. . . رباه! أيمن أن يحدث هذا وما عاد بيني وبين الامتحان النهائي سوى أربعة أشهر!» وجد في الطريق المقفرة الغارقة قصورها في جلال الصمت لا يسمع إلا وقع قدميه، حتى بلغ الجيزة، واستقل الترام، تظلل الكأبة وجهه وعينيه، وفي جلسته المحزونة سرح به فكره إلى صاحبيه المقرئين: مأمون رضوان وعلي طه، فنفس عليها ما يتمتعان به من طمأنينة وثقة: مأمون رضوان أبوه مدرس بالمعاهد، ذو مرتب حسن فلا تعيش أسرته في ظل الخوف، وهو يعطي الشاب ما يكفيه

الشددين فاضطربت أنفاسه، وحدها بعين غمر مفرس. . وأفاقت الفتاة من دهشتها فسألته باستهانة:  
- ماذا رأيت؟

فأجاب محبوب وعيناه تقولان لها «برح الخفاء»:  
- شجرة التين. . البواب. .

فسألته بنفس اللهجة الدالة على الاستهانة:

- وماذا تريد؟

فقال بصوت مضطرب:

- مثله.

- أين؟

- ليكن نفس المكان.

فدارت على عقبيها، ولكنها قالت قبل أن تم بالمسير، وبصوت يدل على الإنذار:

- ثلاثة قروش!

فغمغم بارتياح:

- جميل.

ثم زهيد لا تنوء به ميزانيتها والفتاة لا تخلو من ندي كاعب. بيد أنه يرجو أن تكون سمرتها القائمة لونًا طبيعيًا لا ترابًا متلبدًا، وما عليه بعد ذلك إلا أن يتحمل الرائحة الكريهة المنبعثة من جسدها، لا بأس، فشيء خير من لا شيء، وهل ينسى أنه نفسه لم يكن يستحم - في القناطر - إلا في المواسم؟. بل إنه ليتساءل: ألا يسوي الظلام بين النساء جميعًا؟ وسألها وهما عائدان:

- ألك عهد طويل بالبواب؟

- كلاً. هذه أول ليلة.

- ألم تتواعدا مرة أخرى؟

- كلاً.

فقال محبوب بارتياح:

- ولكن لن تكون الليلة آخر ليالينا.

فتمتمت وهي تثبت الخمار على رأسها:

- وجب.

\* \* \*

وكان الظلام يتلع الكون، وما زال بموقفه من النافذة ينتظر موعد صاحبه، ثم سمع نقرًا على الباب، فذلف منه وفتحه، فرأى بواب الدار يلوح له بخطاب. وأخذ الخطاب ورد الباب، وألقى على

القصر والبدانة، مثلث الوجه كبيره، كثيف الحاجبين، حادّ البصر، مستدير العينين، يلقي على ما حوله نظرة متعالية كلّها ثقة وزهو، فعرفه، ودنا منه مادّا إليه يده باحترام هاتفاً:

- الأستاذ سالم الإخشيدى! .. السلام عليكم ..

فالتفت إليه دون أن تتغيّر ملامح وجهه، ونادراً ما يتغيّر وجهه، فهو لا يندهش ولا ينزعج ولا يبدو عليه سرور ولا حزن، فإذا أراد أن يعلن غضبه - وكثيراً ما يفعل - استعان بنبرات صوته الغليظ. التفت نحو محجوب وقال بهدوء ورزانة:

- كيف أنت يا محجوب؟

- شكراً لك والحمد لله .. ولكن ما الذي جاء بالأستاذ إلى المحطّة؟

فقال الإخشيدى بصوته الرزين:

- مسافر إلى بلدتنا القناطر لزيارة والدي، ولكن ما الذي جاء بك أنت وليس الوقت بموسم إجازات؟

فقال محجوب بأسف ظاهر:

- إلى القناطر أيضاً لعيادة والدي المريض.

- عبد الدائم أفندي مريض؟ .. كتب الله له السلامة. بلّغته تحيَّاتي.

ثمّ سارا جنباً لجنب في اتّجاه موقف القطار. وكانت أخبار الإخشيدى انقطعت عن محجوب فترة يسيرة، فسأله:

- ألا تزال يا أستاذ سكرتيراً لقاسم بك فهمي؟

فلاحت شبه ابتسامة في عيني الإخشيدى وقال:

- أنا مرشّح الآن لوظيفة مدير مكتبه. المذكّرة في المستخدمين.

فقال بسرور ظاهر لا ظلّ له في نفسه:

- مبارك .. مبارك يا أستاذ!

فرفع الرجل حاجبيه بزهو، وقال باقتضاب:

- درجة خامسة.

فهتف محجوب:

- مبارك .. مبارك، العقبى للرابعة.

فقال الإخشيدى متفلسفاً:

- بلدنا منهوب مسلوب، مسؤولياته بيد الضعفاء

الأغبياء، ومهما نرتق فلا نزال دون ما نستحقّوا

وأكثر ولولا تحقّق مأمون الذي جعله يوقف حياته على العلم والعبادة لكانت له لذات الحياة ولكنّه أحمق، والحمقى دائماً مجدودون. أمّا عليّ ظه فابوه مترجم ببلديّة الإسكندريّة ذو مرتّب ضخم، والشابّ يقبل على التمتعّ بالحياة في حدود مثله، فهو شابّ سعيد، وحشبه إحسان كي يكون سعيداً، ولعلّ إنساناً ما لم يثر حسده كما يثيره هذا الشابّ الجميل الموقّ، هو هو البائس! .. أبوه - تُرى ألا يزال أباه - كاتب بشركة الألبان اليونانيّة بالقناطر، خدمة خمسة وعشرين عامّاً ومرتبّ ثمانية جنيهاً. وإذا انقطع عن العمل فمكافأة أشهر معدودات. وكان الرجل يبذل له من مرتبه ثلاثة جنيهاً شهريّاً أثناء السنة الدراسيّة، فنهضت بالضرورات من مسكن ومأكل وملبس، ورضي بها الشابّ رضاء التمرد المغلوب على أمره وجعل يرمق ملاذّ القاهرة من بعيد، ويسترقّ السمع إلى أخبارها بنهم وألم. كان ينطوي على شهوة جامحة بقدر ما يضيّق بطموح جشع. تواردت عليه هذه الخواطر فساءته تلك الساعة أكثر من أيّ وقت مضى. ثمّ فكّر في العلاقة التي تربطه بهما، وفيما يسمّونه بالصدّاقة، غافلاً عن مشاهد الخقول والمياه التي يطويها الترام في جريه السريع. أله صديق حقّاً؟ كلاً، وما الصدّاقة إلّا إحدى الفضائل التي كفر بها؟! حقّاً إنّه يميل إليهما كثيراً، فنقاش مأمون يستهويه، وروح عليّ تجذبه إليه، ويلذّه أن يجتمع بهما يتحدّثون ويتحاورون ولكن ما شأن ذلك كلّ بما هو معروف عن الصدّاقة؟! إنّه مع ذلك يحسدهما ويمقتهما؟ ولا يتردّد عن إبادتهما لو وجد في ذلك نفعاً. ومضى يقول لنفسه بلهجة التحريض: «الحرّيّة المطلقة .. طظ المطلقة .. ليكن لي أسوة حسنة في إبليس .. الرمز الكامل للكمال المطلق .. هو التمرد الحقّ، والكبرياء الحقّ، والطموح الحقّ، والثورة على جميع المبادئ! وانتهى الترام إلى محطّة الإسعاف، فتركه واستقلّ تراماً آخر إلى ميدان المحطّة، ومن ثمّ إلى المحطّة نفسها، ثمّ انطلق إلى شبّاك تذاكر الدرجة الثالثة وابتاع تذكرة. ولما تحوّل عن الشبّاك وجد نفسه أمام شابّ في الثلاثين، متوسّط القامة مع ميل إلى

الحياة!.. ماذا يضيره إذا احتقره مأمون رضوان أو عليّ طه؟!.. طظ..

وكان القطار يطوي الأرض طياً، والبرودة تنفذ إلى الداخل على الرغم من إحكام غلق النوافذ، ولكنّه لم يشعر بالبرودة تماماً إلا حين كفّ عن التفكير فزّرع الجاكّة واعتدل في جلسته. سرعان ما عاد إلى تذكّر أبيه المريض، فأدرك أنّه يغرق في الأحلام متغافلاً عن الهاوية تحت قدميه. وعاد إلى وجومه، مرسلًا نظرة حزينه كثيبة، حتّى وقف القطار في القناطر، فأخذ لفافته وغادره. ثمّ ترك المحطّة إلى الطريق العامّ، وألقى على المدينة نظرة شاملة وهتف: «يا قناطر يا بلدنا.. وزّعي الحظّ بين أبنائك بالعدل!».

- ٧ -

ولم تمض سوى دقائق معدودات حتّى وجد نفسه أمام البيت الصغير الذي ولد فيه، بيت من طابق واحد، يتقدّمه فناء ترابيّ مسور بدرابزين خشبيّ، يدلّ مظهره على البساطة والتشّف. وكان يواجه المحطّة في الجانب الآخر من الطريق، ويطلّ سطحه على الحقول فيها وراء السكّة الحديدية. وبدا البيت مظلمًا غير بصيص نور يلوح من خصاص نافذة أبيه. فخفق قلبه خفقانًا متداركًا، وصرخ به الخوف والرجاء. واجتاز الفناء إلى المدخل وطرقه بخفّة، فسمع وقع قيقاب، وعرف صاحبه وفتح الباب، وبدا شبحها وراءه، فأقبل نحوها قائلاً:

- مساء الخير يا أمّاه.

فسمع صوتًا يقول متتهدًا: «أنت!» ثمّ أخذت يده بين يديها، وقالت بنفس الصوت المتعب:

- كيف أنت يا بنيّ؟ حدّثني قلبي بأنك الطارق.

وكان الدهليز مظلمًا فلم يتبيّن ملامح وجهها، فردّ الباب وهو يتساءل بلهفة:

- أمّاه.. ماذا حدث؟.. كيف حال أبيّ؟

فقالت المرأة بصوت محزون:

- ربّنا يأخذ بيده.

ووضع لفافة الجلباب على خوان، ودخل الحجره بقدمين محاذرتين، وسبقته عيناه إلى الراقد على

فأمّن محبوب على قوله قائلاً:

- صدقت يا أستاذ.

ثمّ استأذن الإخشيدى وأتمّجه نحو عربة الدرجة الأولى، وأتبعه الشابّ عينيه حتّى اختفى، ثمّ سار إلى الدرجة الثالثة تعلق وجهه الكأبة والأحلام. واتّخذ مجلسه من العربة ورأسه لا يني عن التفكير، والإخشيدى لا يبرح خياله. منذ عامين كان الإخشيدى طالب ليسانس مثله - محبوب - الآن، ولعلّه كان مثله أيضًا يكفر بالمبادئ ولكن دون جلبه أو ضوضاء.. وربما كانا لا يختلفان اختلافًا جوهريًا في شيء فهما في الذكاء سواء، وهما في الأخلاق - أو عدم الأخلاق - سواء. ولكنّهما جدّ مختلفين في الأعصاب: فسالم الإخشيدى يزن كلامه وزنًا دقيقًا، ولم يعرف عنه أنّه مسّ مبدأ من المبادئ أو خلقًا من الأخلاق بكلمة سوء، أمّا محبوب فعلى حذره سخر من كلّ شيء، ومما يذكره محبوب ولا ينساه أنّ صاحبه عرف آخر عهده بالكليّة كزعيم خطير من زعماء الطلبة، وكان من أبطال لجان المقاطعة وموزّعي المنشورات ضدّ الدستور الجديد. ومما يذكره ولا ينساه كذلك أنّ الإخشيدى دُعي يومًا لمقابلة الوزير، فداعت عن المقابلة الأفاويل، وتوقّع كثيرون أن يقع اضطرهاد أو بغي، ولكنّ الفتى انقلب فجأة وبغير تدرّج. انسحب من ميدان السياسة كلّه، وتوقّف نشاطه الذي لم يكن يعرف الحدود، ولم يعد يُرى إلا في حجرات المحاضرات. ولكن إذا واجهه أحد بسؤال عن سرّ انقلابه أجابه ببروده المعهود: «ميدان الجهاد الحقيقي للطلبة: العلم!» ثمّ حصل على الليسانس، وعيّن - قبل أوائل الطلبة - سكرتيرًا لقاسم بك فهمي، وكان واسطته الوزير نفسه. بل وُضع في السادسة - وهي وقتذاك فردوس مفقود - وها هو يرشّح للخامسة قبل أن يمضي على تعيينه سنتان، وبعد أن استقال بمدة كبيرة الوزير الذي عينه، ممّا يدلّ على أنّه حاز ثقة قاسم بك نفسه وأنّه يسير قُدّمًا. يا له من مثال يُحتذى! يا له من رجل يستحقّ من الإعجاب قدر ما يستوجب من الحسد!.. لكم يبدو عليه جاه المنصب، وإقبال

- هل وقع الأمر بغتة؟  
- كلاً يا بني، كان أبوك كعهدنا به صحّة وعافية،  
بيد أن ثقلاً اغتور ساقه اليمنى، وصداعاً شقّ عليه  
مساء الاثنين..

وساد الصمت، فأغمض المريض جفنيه، وليث بلا  
حرك، كأنما راح في سبات عميق. وعطف الشاب  
رأسه إلى أمه، فأيقن أوّل وهلة أنّها لم تذق للنوم طعماً  
منذ مساء الثلاثاء، عيناها محمرتان ذابلتان، تطوّقها  
هالتان زرقاوان، وبشرتها شديدة الصفرة، وامتلأ حزناً  
وكمداً ولاح والداه لعينيه مخلوقين بائسين مثله تماماً.  
وجلس على كرسيّ قريباً من الفراش ثمّ أطرق  
متفكراً: هذه أسرة يتعلّق مصيرها بحياة رجل مهتمّ،  
فماذا تحت الجفنين المطبقين؟.. أحياء أم موت؟..  
أنجاح أم تشرّد؟! لماذا لم يتأخّر هذا الشلل عامّاً  
آخر؟! وذكر شارع رشاد باشا الصامت الجليل،  
والقصور القائمة على جانبيه، والباشوات والبكوات  
تحميلهم السيارات منه وإليه، والنساء اللاتي يلحّن  
وراء ستائره وبين خمائله. فأين من أولئك والداه  
البائسان؟! وهذا البيت المتداعي!! وجعل يقول  
لنفسه: إنّه لو كان وريث أحد تلك العصور وأشفى  
أبوه - الباشا - على الموت لانتظر موته بفارغ الصبر.  
وتنهّد من قلب مكلوم وقد احتدم الغيظ في قلبه ثمّ  
تساءل وهو لا يتحوّل عن إطراره: ترى كيف تنتهي  
هذه المأساة؟! \*

\*\*\*

واسترق النظر إلى أمه، وكانت تجلس مطرقة عند  
قدميه، فراها غارقة في السواد الذي حلفت ألاّ تخلعه  
مدى الحياة منذ ماتت له أختان بالتيفود، ذابلة الوجه،  
تبدو أكبر من سنّها الذي جاوز الخمسين بقليل، تنوء  
بأنقال عمر أنفقته أمام هب الكانون ووهج الفرن،  
تعجن وتخبز وتغسل وتكنس، فتحتجرت أصابع يديها  
وبرزت عروق ظاهر كفيها، لم تجد في حياتها وقتاً  
لللثرة، كانت كالبتروال الذي يجرّك آلة كبيرة دون أن  
تدركه الحواس. وكانت تحبّ ابنها حبّ عبادة، وقد  
تضاعف هذا الحبّ بعد وفاة شقيقته في ميعة الصبا،

الفراش، واقترب منه، وكان رأس الرجل مائلاً نحو  
الجدار. غمغم بصوت خافت:

- مساء الخير يا أبي.. كيف حالك؟

ولم يبدُ على الأب أنّه سمع حسّاً أو أدرك شيئاً،  
فانحنت الأمّ على رأسه وقالت:

- محجوب يمسي عليك..

واعتدل رأس الرجل ببطء، وتحرك جفناه، ثمّ أبرز  
يسراه، فأخذها محجوب بين يديه وقبّلها، وبدا الرجل  
مريضاً جدّاً وبدت عيناه مظلمتين كأنّهما تقطران من  
ماء أسن، وفمه معوجّاً؛ قال محجوب:

- أبي.. كيف أنت؟.. لا حول ولا قوّة إلّا  
بالله..

وثبت الرجل عينيه عليه، وتكلّم بصوت  
متحشّج، متقطع المخارج قائلاً:

- لم يعاودني النطق إلّا ظهر اليوم!

فارتاع محجوب وسأل أمه:

- هل عجز وقتاً عن النطق؟

فألت المرأة المتعبّة:

- أجل يا بني. كان في عمله عصر الثلاثاء الماضي

كالعادة، فسقط فجأة فاقد النطق، وجاءوا به  
محمولاً، ودعوا بالطبيب. وأتى الطبيب فحجمه  
وحقنه، ولا يزال يعوده كلّ صباح، ولكن لم يعاوده  
النطق إلّا قبل ظهر اليوم.

- ماذا قال الطبيب؟

فلاحت في عينيها نظرة خيري، وتحركت شفتاها

دون أن يسمع لها صوت، فقال أبوه:

- قال إنّه شلّل.. شلّل.. جزئيّ..

وارتاع الشابّ لفظاعة الاسم، وإن كان يجهل

حقيقته كلّ الجهل.

وأرادت أمه أن تفرخ روعه فقالت:

- ولكنّه أكّد صباح اليوم زوال الخطر..

فاستطرد الأب بصوته المتقطع الغامض:

- إني.. أفهم.. ما يقال.. لن أعود كما كنت

أبداً..

فعضّ محجوب على شفتيه وسأل والدته:

- اصغر إلي يا بني، لن أعود إلى عملي بالشركة،  
لهذه هي الحقيقة فماذا ترى؟  
فازداد صدر محبوب انقباضاً، ولازم الصمت في  
انتظار النطق بالحكم، فاستدرك الرجل:  
- ربما منحتني الشركة مكافأة صغيرة، ستفقد بلا  
ريب قبل مضي أشهر قلائل، بل المؤكد أنه لن يبقى  
منها شيء بعد ثلاثة أو أربعة أشهر على الأكثر، ولكن  
لن أعزم نصيراً يجد لك وظيفة تهض بنا جميعاً..  
فقال محبوب بتوسل، وقد نطقت عيناه بالألم  
والقنوط:

- الامتحان يا أبي على الأبواب، نحن في يناير وهو  
في مايو، أما إذا وُظفت الآن فسأعدّ كحامل  
البكالوريا، وفي ذلك ضياع لمستقبلي عظيم..  
فقال الأب بحزن:

- أعلم ذلك، ولكن ما الحيلة؟ أخاف أن تتعرض  
للفضيحة أو نهلك جوعاً!  
فقال الشاب بتوسل حارّ، وبصوت مملأ حماساً  
وقوة:

- أربعة أشهر، أربعة أشهر فقط بيني وبين ثمرة كدّ  
خمسة عشر عاماً.. أمهلني قليلاً يا أبي، ستكفيني  
المكافأة حتى أنهض على قدمي، لن نجوع، ولن  
نتعرض للفضيحة بإذن الله.

- وماذا يكون من أمرنا إذا أخطأ تقديرك؟.. إذا  
خاب سعيك لا قدر الله؟ إن حياتنا بيدك؟!  
فقال محبوب وهو يعضّ بنواجذه على أهداب  
الأمل:

- أنت لا تدري يا أبي كيف سيكون اجتهادي! لن  
يحول بيني وبين النجاح حائل!  
وتردّد الشاب لحظة ثم قال:  
- وهناك قريب والدتي أحمد بك حمديس!  
ولكن والده رفع يراه محتججاً، وقطب استياء،  
فخاف الشاب أن يفقد عطفه، وأن يذهب ما بذل في  
إقناعه هباء، فقال بسرعة:  
- لا حاجة بنا إلى معونة أحد، وستسير الأمور بإذن  
الله وفق آمالي.

ولكنها لم تترك أثراً يذكر في تكوينه وتربيته، وكانت لا  
تجد في حياتها من تكلمه فعاشت كالكم في صمت  
وجهالة. وقد أقسرت الظروف أباه على الاختفاء من  
حياته كذلك، فكان يواصل العمل في الشركة من  
الصباح حتى ما بعد العشاء، ثم يهرع بعد ذلك إلى  
حلقات الأذكار حتى منتصف الليل، فكان لا يكاد  
يرى ابنه. وكان رجلاً مجتهداً دؤوباً، مخلصاً لبيته،  
وصورة منها، لا يشدّ عنها في شيء، يفاخر كثيراً  
بقرابته لأحد كبار الموظفين - قريب زوجه - وكان  
كزوجه لا يعرف الراحة، فلم يهنا بحياته الزوجية،  
واقصرت رعايته لابنه على إلزامه بالقيام ببعض  
فروض دينه مستعيناً بالعصا في أحيان كثيرة، لذلك  
جميعه، نشأ محبوب على خوف من أبيه، وانطلق إلى  
الشارع الذي أتمّ تربيته وتكوينه، ولذلك كانت صلته  
بوالديه واهية باهتة. كان يحبّ أمه أكثر من أبيه،  
ولكنه بات على استعداد دائم لأن يخضع صلته بهما  
لفلسفته المدمرة التي لا تبقى على شيء، فلم يكن  
حزنه حزناً على والده بقدر ما كان إشفافاً على الرجل  
الذي ينفق عليه ثلاثة جنيهات كلّ شهر.

- ٨ -

في صباح اليوم الثاني جاء الطبيب وفحص المريض  
وحقنه بالكافور، ثم صرح بارتياحه للحالة مؤكداً أنّ  
الخطر زال تماماً. وغادر الرجل الحجرة يتبعه محبوب  
حتى أدركه في الفناء، والتفت الطبيب إليه وقد أدرك  
الباعث الذي حمله على اللحاق به:

- الحقيقة ما قلت لأبيك، الإصابة جزئية وإلا  
كانت القاضية. بيد أنّي صارحته كذلك بأنه لن يعود  
إلى عمله، وسيلازم الفراش بضعة أشهر، ولكنّه  
سيحرّك جنبه المشلول. بل ربما عاود المشي.

ووقف انتباهه عند «لن يعود إلى عمله» فلم يدر  
شيئاً مما قال بعد ذلك، وأظلمت الدنيا في عينيه، وعاد  
إلى الحجرة ذاهلاً، وكان أبوه ذا طبيعة عملية، لا يدع  
أمراً معلقاً إذا أمكن أن يبت فيه برأي، فدعا ابنه إلى  
الاقتراب من الفراش، وقال بلسان ثقيل:

وسرعان ما تناسى البيت والأسرة فلم يعد يذكر إلا نفسه، تساءل وهو ينتفح حاجبه الأيسر: لماذا قُدِّر له أن يولد في ذلك البيت؟ وماذا ورث عن والديه سوى الهوان والفقر والدمامة؟ أليس من الظلم أن يرسف في هذه الأغلال قبل أن يرى النور؟ ولو كان ابن حمديس بك مثلاً لكان له جسم غير هذا الجسم ووجه غير هذا الوجه وحظ غير هذا الحظ، ولذاق الطمأنينة والسلام، ولاقتنى سياراً. وتفكّر محزوناً في الفقر الذي يترصّب به، فرآه يتسم إليه هازئاً كأنما يقول له: «ما استطعت دفعي بثلاثة جنيهات، فهل تدفعني غداً بجنيه واحداً!». أين يسكن؟.. كيف يأكل؟.. وهز رأسه في كمد، ولكنّه لم يشعر بخور أو تخاذل. كان عظيم الثقة بنفسه، جريئاً إلى أقصى حدّ، بيد أنّه تميّز غيظاً وحنقاً.

- ٩ -

وشارف شارع رشاد باشا والشمس تذوب في بحيرة الشفق الدامية، والسمرّة تلون حواشي الأفاق. ولاحت منه التفاتة وهو ينعطف إلى الشارع فرأى عليّ طه قادماً من ناحية الجامعة، فوقف ينتظره، وتصافحا ثم قال عليّ باهتمام:

- حدّثني الأستاذ مأمون عن مرض والدك، فأسفت لذلك غاية الأسف. وإنّه ليسرّي أن أستدلّ بسرعة عودتك على اطمئنانك!

وكره أن يطلع مخلوقاً على أحزانه، فقال باقتضاب ميسراً:

- شكراً لك..

- أليس هو بخير؟

- بلى.. شكراً.

وساراجنباً لجنب على مهل كأنها يتنزّهان، وتساءل محجوب تُرى آتٍ صاحبه من موعد غرام أم ذاهب إليه؟! هذا الشاب الذي يجد في محضره من دواعي السرور قدر ما يجد من دواعي الألم، واسترق إليه النظر فرآه يسير حالمًا يضيء الابتسام وجهه ويقبس جبينه من نور البشر والبشاشة، وهتّر طرفاً من نشوة

وأدرك أنّه أخطأ بذكر قريبهم العظيم الذي تناساهم واحقر صلته بهم منذ تبوّأ مركزه الرفيع. أجل إنّ والده يفاخر جهازاً - على مسمع من الغرباء - بقرابته، ولكن طالما أنحى عليه باللائمة أمام والدته، وطالما أضمر له الاستياء واللوم. أدرك محجوب ذلك نادماً، وعاد يقول:

- لا حاجة بنا إلى معونة أحد، ولكن ينبغي أن نستوصي بالصبر وأن نظمئن إلى رحمة الله، أربعة أشهر فحسب وبعدها الفرج!..

وكان أبوه يعلم أنّ المكافأة تكفيهم - مع التقدير - خمسة أشهر أو ستة، فتفكّر ملياً ثمّ سأله:

- تستطيع أن تعيش بجنيه واحد في الشهر؟

جنيه واحد! أو ما يساوي إيجار حجرة بدار الطلبة؟.. ربّاه! بالأمس ضاقت به الدنيا ونفقت ثلاثة جنيهات، فماذا هو صانع غداً بجنيه واحد! ولم يمهل الرجل طويلاً فاستدرك قائلاً:

- لا حيلة لي والخيار بين يديك!

هل يملك خياراً حقاً؟! كلا، إنّ أباه مُكره، وما عليه إلا الإذعان والتسليم، قال:

- لتكن مشيتك.

فقال الشيخ:

- لتكن مشيئة الله، والله مسئول أن يوفّقك لما فيه الخير، وأن يصل بك جناحنا المهيب.

واقترح الرجل على ابنه أن يرحل مساء حتى لا يضيّع وقتاً هو في أشدّ الحاجة إليه. وعند المساء ودّع الشاب والديه، فقبّل يد والده، واستسلم لأمّه تقبّله وتباركه. وحين همّ بمغادرة الحجرة سمع والده يقول له:

- الله معك اجتهد وتوكل على الله، ولا تنس أنّك

أملنا الوحيد..

ومضى إلى المحطّة، ومهما يكن من أمر فقد استفد من الحيرة التي نهكته عند مجيئه. وعلم الآن أنّ أمله لا يزال معلقاً بخيط لم يقطع بعد. أمّا ما يُنذر به المستقبل من متاعب فسيعرف كيف يعالجها مهما كلّفه الأمر. وودّع البلد وداعاً فاتراً. واتخذ مكانه بالقطار،

- أظنّ كمال هذا الامتزاز يوجب أن تكون فتاتك  
محيرة من الدّين، مؤمنة بالمجتمع والمثل العليا  
والاشتراكية!

فقال عليّ برزانه:

- حسّينا أن نحيا حياة وجدانية روحية واحدة،  
وسوف يتحد عقلانا بالاختلاط، فنكون أسرة سعيدة  
يوماً ما..

فقال محجوب باستغراب:

- أبلغتني هذا الحدّ؟

- نعم.

- هل تكاشفتها؟

- نعم. سأنتظر حتّى تنتهي من دراستها العليا..

- مبارك يا أستاذ.

وعزّ عليه أن يهتّى وهو أحقّ إنسان بالعزاء، وامتلأ  
شجناً وانقباضاً، فاز عليّ بأجل مليحة في القاهرة،  
وغدا الجسد اللّدين الطريّ من نصيبه واندفع إلى  
السؤال بغير روية:

- كيف عرفتتها.. في الطريق..؟

فقال عليّ بدهشة:

- كلاً.. من النافذة!

- ولكن غيرك نظر أيضاً؟

أقلت منه الجملة بغير روية أيضاً، فندم عليها أشدّ  
الندم، وخاف أن يفهمها صاحبه على حقيقتها  
فاستدرك بضلّله:

- جيراننا الطلبة ينظرون كذلك..

فصمت عليّ مبتسماً، وسكت محجوب أن يورده  
لسانه عثرة جديدة. وشارفا دار الطلبة: بدت كالثكنة  
العسكرية، بيتاتها الضخم ونوافذها العديدة الصغيرة،  
ورأيا في مقابلها - عند ناصية شارع العزبة - دار عمّ  
شحاته تركي، كان الرجل واقفاً أمام دكانه، كان في  
الخمسين، أبيض البشرة، حسن الوجه فقال محجوب  
لنفسه ساخراً: «نعم الصهر». ودخلا الدار الكبيرة،  
أسعد الناس وأشقاها.

الحبّ. أليس توفيق العاشق كظفر المحارب لذة  
وخلاء؟!.. وشعر برغبة لا تقاوم في استدراجه إلى  
هذا الحديث الجميل، فقال مشيراً إلى مغارس الشجر  
مبتسماً ابتساماً لها معناها:

- آه لو ينطق هذا الشجر!

فقطن عليّ طه إلى مرمى إشارته، وكان وجدانه من  
اليقظة بحيث ألحّت عليه الإبانة والحاجة إلى التعبير،  
فقال بتأثر:

- أستاذ محجوب، هو ما تظنّ، ولكن لا تنظر إلى  
الأمر بعين السخرية، كلاً، ما هو بالهزل. إنّ هزة  
قلب خطير له من المغزى في هذا الوجود ما لحركة  
الأفلاك في السموات؛ فلا تذكر أبداً خزّان البخار  
وصمام الأمن.

وشعر محجوب نحو محدّته باحتقار شديد، ضاعفه  
ما ثمت عليه نبراته من التأثر، وضاعفه أيضاً ما يكثّه له  
من الحسد، وقال في نفسه ساخراً: حتّى وظيفة  
التناسل يريد الأحق أن يجعل منها محرّاباً مقدّساً، ثمّ  
قال بهدوء وبرود:

- يا أيها العاشقون، لا أعبد ما تعبدون!

فابتسم عليّ قائلاً:

- ولا نحن عابدون ما تعبد.

وخاف محجوب أن تعيد سخريته الشابّ إلى  
رشاده، فندم على ما فرط منه وأراد أن يداريه، فغيّر  
لهجته وتساءل باهتمام ظاهريّ:  
- غريب أمر هذا الحبّ.. بيد أنّ فتاتك متفوّقة  
حقاً!

فقال عليّ بحماس:

- ليس الجمال فضيلتها الوحيدة: روحها لطيف،  
وفؤادها ذكيّ، ويعجزني وأيم الحقّ أن أعبرّ لك عن  
امتزاز روحينا. هذه إحسان!..

واضطربت نفس الآخر لدى سماع الاسم، فامتلاً  
حقناً فجأة. ترى أمهه هي الغيرة التي يقولون عنها؟..  
يا للعار! كيف يقع في ذلّ الغيرة من يطمح إلى تحطيم  
الأغلال جميعاً؟! وعاد يقول بلهجة جديدة يخفي بها  
سخرية جديدة:



فقال محجوب:

- الحكومة.. أي الأغنياء أو الأسر. والحكومة أسرة واحدة. الوزراء يعينون الوكلاء من الأقارب، الوكلاء يختارون المديرين من الأقارب، المديرين ينتخبون الرؤساء من الأقارب، الرؤساء يختارون الموظفين من الأقارب، حتى الخدم يُختارون من خدم البيوت الكبيرة. فالحكومة أسرة واحدة، أو طبقة واحدة متعدّدة الأسر، وهي حقيقة بأنّ تضخّي بمصلحة الشعب إذا تعارضت مع مصلحتها.

- والبرلمان؟

فقال محجوب مبتسماً بنخب:

- النائب الذي ينفق مئات الجنيهات قبل أن يُنتخب لا يمكن أن يمثّل الشعب الفقير، والبرلمان في ذلك شأنه شأن المؤسسات الأخرى، انظر إلى قصر العيني مثلاً، فبالاسم مستشفى الشعب الفقير، وبالفعل حقل تجارب لإجراء اختبارات الموت على الفقراء..

فقال عليّ طه بهدوء:

- السخط شعور مقدّس، أمّا اليأس فمرض، ومهما يكن من أمر فالبرلمان بحيرة تلتقي فيها جداول متباينة المصادر، لا محيد عن أن تمتزج أمواها، وينشأ عنها نبع جديد..

فابتسم محجوب ابتسامة مرّة وتمتم:

- تعجني هذه الأسماء: أحسن والهكسوس، منفتاح واليهود، عرابي والجراكسة!  
فقال مأمون رضوان ضاحكاً:  
- أعجب شيء أنّ طه شيوعيّ بنّاء بينما أنت مدّمر.. أنت أحقّ الناس بلقب فوضويّ.

ففقّه محجوب حتىّ سعل وقال:

- نحن نشقّ على أنفسنا أكثر ممّا ينبغي، كأنّ هذه الحجرة مسئولة عن رفاية الدنيا..

فقال عليّ طه:

- سوف تصغي جدرانها إلى آمال الأجيال المتعاقبة ما دامت حجرة للطلبة..

فقال مأمون رضوان باهتمام متسائلاً:

- هذه الحجرة معمل تفريخ، فما الخطوة التالية؟

واجتمع الأصدقاء الثلاثة في حجرة مأمون رضوان، وكانت النافذة مغلقة والمدفأة وسط الحجرة يعلوها غشاء من الرماد. وكان مأمون ينتقد خطبة الجمعة التي استمع إليها ظهرًا، وجعل يقول إنّ خُطْبَ الجمعة في حاجة ماسّة إلى التجديد، وإنّما بحالتها الراهنة دعوة صريحة للجهل والخرافة.

ولم تكن خطبة الجمعة ممّا يابه له صاحبا، بيّد أنّ عليّ طه قال:

- الحاجة ماسّة حقًا إلى وُعَاط من نوع جديد، من كآبتنا لا من الأزهر يبيّنون للشعب أنّه مسلوب الحقوق، ويدلّونه على سبيل الخلاص..

وكان من عادة محجوب عبد الدائم أن يشترك في أحاديث صاحبيه، لا عن إيمان برأي - فلم يكن له رأي يؤمن به - ولكنّ حبًا في الجدل والسخرية. ولكنّه شعر ذلك المساء - أكثر من ذي قبل - أنّه من الشعب البائس الذي يعنيه عليّ، فأراد أن ينقّس عن صدره المحزون بالكلام، ولم يكن الشعب شيئًا يهّمه، ولكنّه لم يستطع أن يطرق همومه الخاصّة إلّا عن سبيله، فقال:

- جميل.. إنّ علّتنا الفقر.

فقال عليّ طه بحماس:

- هو الحقّ، الفقر الذي يخبث في جوه الفساد، العلم والصحة والفضيلة، إنّ من يرضى بحال الفلاح حيوان أو شيطان!

فقال محجوب في نفسه: أو عاقل مثلي على شرط أن يكون غنيًا. ثمّ تساءل بصوت مسموع:

- عرفنا الداء، وهذا شيء ميسور، ولكن ما العلاج؟

فقال مأمون رضوان وهو يثبّت طاقيته:

- الدين، الإسلام بلسم لجميع الآلما..

ومدّ عليّ طه ساقيه حتىّ كادت تسان المدفأة، وقال دون مبالاة لما قال صاحب الحجرة:

- الحكومة والبرلمان..

لا محيص عنها - وليترك الكنس جانباً - ثم الحلاقة، أما فنجان القهوة فمن الكماليات المحرمة. وليس فيما بقي من أثنائه الحقير ما يمكن الاستغناء عنه أو ما يطمع أن يأتيه بثمن يذكر، فالفراش - وهو أهم ما لديه - لا يكاد يساوي نصف جنيه، ونفعه مع ذلك لا يقدر: فعليه يرقد وتحت حشيته يحفظ ثيابه. وهز رأسه ذا الشعر المفلفل وغمغم: «ستكر الأشهر الثلاثة كما يكر غيرها من الأيام، ولن أموت جوعاً على أي حال». وبات ليلته الأولى بالمسكن الجديد.

وفي صباح اليوم الثاني غادر الحجرة بعد أن أغلقها، وأراد البواب أن ينظفها له ولكنه رده مشكوراً، وكان في الحقيقة يهرب لأنه لا يستطيع أن يتنازل له عن ملّيم واحد. وبلغ ميدان الجزيرة، وجال ببصره حتى استقر على دكان فول مدّس فتوجّه إليه واجماً. ووجد جماعات العمّال يقتعدون الإفريز أمام الدكان يلتهمون طعامهم ويتحادثون ويتضاحكون فقال لنفسه: «أصبحت واحداً من هؤلاء العمّال الذين يرثي لهم عليّ طه...» وطلب نصف رغيف وانتحي جانباً يأكله بشهية، فانتهى ولما يشبع. وكان بطبعه عظيم الشهية يتناول في إفطاره صحفة فول ورغيفاً غير البصل والمخلل، ولكنه لا يستطيع أن يأكل أكثر من وجبتين صغيرتين في اليوم. وهز منكبته ومضى في سبيل الجامعة وهو يقول: «لشد ما أنا في حاجة إلى صفاء الذهن، فإما النجاح وإما الانتحار!» ومضى وقت الدراسة كالعادة، وقابل أصحابه جميعاً، وأنفقوا في حديقة الأورمان وقتاً غير يسير يتناقشون في المحاضرات. وعندما أذف وقت الغداء انفصل عنهم فذهبوا إلى المقصف، وعاد هو إلى ميدان الجزيرة، بالأمس فقط تناول غداءه بالمقصف مع عليّ، ومأمون، وأحمد بدير، وكان مكوّناً من صحفة سبانخ باللحم الضانيّ وأرز وبرتقالة، أما اليوم...!، وأقبل على دكان الفول وقد استقبله صاحبها بابتسامة وهو يقول: «أهلاً وسهلاً». فأذته تحيته ونالت من كبريائه. وكان إلى جانب دكان الفول دكان كباب فحمل الهواء دخان الشواء إلى أنفه. فسأل لعابه وتوجعت معدته، ثم أخذ

فقال محجوب بسرور شرير:

- السجن إن كنا من الصادقين!

ثم ذكر الهموم التي جاء بها من القناطر ففقد حماسه للحديث، ونهض مستأذناً في الانصراف بتعب السفر، ومضى إلى حجرته، وجلس إلى مكتبه الصغير محزوناً متفكراً: إذا انتهى يناير انتهت معه «رفاهية» حياته الراهنة! أجل بدت له هذه الحياة فيما مضى جحيماً، ولكنّها إلى ما ينتظره من حياة الغد نعيم مفقود! ولا شك أنّ الأشهر الثلاثة القادمة تحمل في طياتها ألواناً من الشقاء لم يحلم بها قط، فماذا هو صانع؟ ومضى يشدّ حاجبه الأيسر مقطّبا، يلوح في وجهه الشاحب العزم والتحدّي..

- ١١ -

ونشط في الأيام الباقية من يناير للبحث عن حجرة رخيصة ولم يظفر بحاجته بسهولة لأنّ الحيّ من الأحياء المأهولة، ولأنّه مكتنّظ بالطلبة، وهؤلاء يتقاتلون على الحجرات المنعزلة فوق الأسطح، ثمّ عثر في النهاية على حجرة سطحية بعارة جديدة بشارع جركس - على مقربة من ميدان الجزيرة - ولكنّ جدتها كانت طامة عليه لأنّ صاحب العمارة أبى أن يُكري الحجرة بأقلّ من أربعين قرشاً، فاضطرّ محجوب إلى القبول مغلوباً على أمره. وأخبر أصحابه بأنّه سينقل إلى حجرة بعارة جديدة، وقال لهم - وهو يغمز بعينه - إنّ أسباباً خاصّة دعت إلى ذلك. قال ذلك وهو يعلم أنّه سيعجزه غداً وصال جامعة الأعقاب، ولكنه أثر كذباً من هذا النوع على إذلال كبريائه. ووجد نفسه في حاجة إلى نفقات النقل وابتاع مصباح غازي، فنظر في أثنائه البسيط فلم يجد شيئاً يمكن الاستغناء عنه، سوى صوان الثياب الصغير - أشبه بصندوق منه بصوان - باعه سراً بمساعدة البواب بثلاثين قرشاً. وفي أول يوم من فبراير حزم متاعه وودّع صاحبه وانتقل إلى الحجرة الجديدة. وأتى الإيجار مقدّماً فلم يبق معه من نفقته الجديدة إلا ستون قرشاً هي جماع ما يملك طوال الشهر. قرشان لليوم الواحد، للغذاء والغاز، وهناك الغسل ضرورة

ذلك الصبر المرّ، ويمجدون في هذا وذاك لذّة عالية! . . ربّاه . . لشدّ ما احتارت هذه الكلمة البديعة «اللذّة» بين أمزجة البشر. أمّا هو فلذاته بيّنة، وحرمانه بيّن كذلك، حتّى جامعة الأعقاب أمست عزيزة المنال. وذهب إلى الكليّة، وحضر الدرس الأوّل، ثمّ مضى إلى الحديقة ينتظر الدرس الثاني الذي يبدأ بعد ساعتين وجلس على أريكة وسط جمع من الطلبة يستمتعون بأشعة الشمس اللطيفة التي يجود بها فبراير جود مقترّ شحيح. وكانوا يتحدّثون بحميّة الشباب ويتقلّبون من موضوع إلى موضوع كيفما شاءوا: تلك الأنسة البدينة التي تضطرب نبراتنا ويتهدّج صوتها إذا نهضت لقراءة نصّ من النصوص، ومستر أرفنج مدرّس اللاتيني ذو الشعر الذهبي . . ألم يكن من الإنصاف لو خلق أنثى، وخلقت آنسة دريّة ذكرًا؟! السينا وتهديدها للثقافة الحقّة والفرّ الرفيع، والويسكي والحشيش وأيّها أمتع، هل يعود دستور سنة ١٩٢٣؟، من صاحب الفضل الأكبر في إنشاء الجامعة؟ الملك أم المغفور له سعد زغلول؟ جماعة مصر الفتاة هل هم مخلصون أم دسيّة؟ من أحقّ بالفضل في نهضة المسرح يوسف وهبي أم فاطمة رشدي؟ أيّهما خير للوطن، أن يُتمّ الأمير فاروق دراسته في إيطاليا كما يريد والده، أم في إنجلترا كما يريد الإنجليز؟. امتلأ الجوّ آراء وملاحظات، وضجّ بالضحكات والضحك، واشترك محجوب في الكلام بقدر، وأصغى لما يقال بسخريته كالعادة، ثمّ نهض يتمشّى في أرجاء الحديقة الواسعة، حتّى أرف وقت الدرس فانطلق إلى الكليّة، وبعد انتهاء الدرس خرج متأبّطًا ذراع أحمد بدير، وقد قال له الشابّ الصحافي:

- مبارك عليك السكن الجديد.

فقال محجوب مبتسّمًا:

- بارك الله فيك.

فسأله الشابّ وعلى شفّيته ابتسامة ماكرة:

- من أسرة أم من بنات الهوى؟

فأدرك محجوب في الحال عمّا يتساءل صاحبه،

وارتاح لذلك، وأجابه بابتسامة غامضة قائلاً:

الرغيف - ومضى فأرّ من الرائحة الشهية. وعاد إلى حجرته وفتح بابها، فشَمّ رائحة هواء فاسد لأنّه كان قد ترك النافذة مغلقة، ورأى الغبار يعلو المكتب والكتب، والبطانيّة مكوّمة على الفراش، فأدرك أنّ عليه منذ الساعة أن يكون طالبًا وخادمًا وربّما «غسالة» أيضًا، وشرع في القيام بوظائفه الجديدة ممتعضًا نائزًا، الحياة الجديدة شاقّة متعبة، سيواصل دراسته بلا ريب، وسيواصلها بعزم وعناد، ولكن لن يسكت له جوع أو يطمئنّ له جانب، وسيسهر الليالي طاوياً، يجلس إلى مكتبه الساعات الطوال مثلج الأطراف مقوَس الظهر، وربّما فضحه مظهره وعرضه للهزة والسخرية، وربّما نال منه الجوع فأسقمه.

ولكن ليس له إلّا أن يكافح بصلاية وعناد، وأن يتحدّى الناس والحظّ والدنيا جميعًا وأن يغضب وأن يحقد وأن يحنّ جنونًا. استمرّ في عمله حتّى انتصف الليل، ثمّ ترك مكتبه إلى فراشه، وردد عليه منهوك القوى، وهو يغمغم:

- انتهت أولى ليالي محنتي! . .

- ١٢ -

وفي صباح اليوم الثاني استيقظ متعبًا موجع الرأس، ومن عجب أنّه لم يكن جائعًا، ولكنّه ذكر آلام جوع الليلة الماضية، فإنّ رغيف الفول لم يصمد بعد العشيّ، وتركه لجوع قاسٍ أليم، وقد خطر له أن يضرب عن طعام الإفطار على أن يتناول في غدائه رغيفًا ونصّفًا، فيضمن راحة الليل ويذاكر رخيّ البال، أمّا ساعات النصف الأوّل من النهار فالدروس كفيّلة بأن تشغله عن معدته في أثناءها. فكرة طيبة جدية حقًا برأس فقير معدم والعادة كفيّلة بأن تجعل الألم غير أليم، بيد أنّه ما كاد يكرع كسرعة رويّة ويستروح نسائم الصباح في الطريق حتّى تمطّى وحشّ معدته، فانهارت عزيمته، وهول إلى دكّان الفول لا يلوي على شيء. وراح - وهو يتناول طعامه - يذكر ما يقال عن سيرّ متصوِّفي الهنود، وعجب كيف يقاومون الجوع تلك المقاومة الخارقة، وكيف يصبرون على الألم

بك حمديس!.. أيجوز أن يقنط وله مثل هذا القريب الكبير؟! أجل إنَّ والده يجد عليه وجدًا عظيمًا، ويقول إنَّه رجل جحود، نسي أهله، وتنكَّر لهم. هذا هو الواقع حقًا، ولكنَّ والده مخطئ في غضبه وليس البك مخطئًا في سلوكه. إذا كان قريبه يتكبر فجميع أمثاله يتكبرون، ومن حقهم التكبر ولولا آداب الريف الحمقاء لما غضب والده. بيد أنَّ تكبر البك لن يمنعه من أن ينظر إلى مسألته بعين العطف، ويمدَّ له يد المعونة، فليقصد إليه آمنًا، وسوف يكفيه شرَّ اللجوء إلى البغضاء!

- ١٣ -

وغادر حجرته وقد صدقت نيته على زيارة قريبه وتجربة حظِّه، ولم يقتصد في تهيئة نفسه، فكوى طربوشه، ولعَّ حذائه بقرش كامل أو بثمان وجبة كاملة، ولكنه بدا رغم ذلك كالعليل شحوب وجهه وهزال جسمه، وبحث في دفتر التليفون عن عنوان قريبه: شارع الفسطاط بالزمالك، وحثَّ إليه الخطى..

وحلَّق به الخيال - في مسيره - في عالم الذكريات المنطوية، فأضاعت فترة بعيدة من الزمن إذ هو في الثامنة، وإذ قريبه لا يزال أحد أفندي حمديس المهندس بالقنطرة، وكانت أسرة المهندس مكوَّنة من زوجه الحسنة وتحية ابنتها - في الرابعة - وطفل في الثانية من عمره. كانت أسرة سعيدة تزينا ربته مفرطة في الحسن. وفي ذلك الوقت لم يكن آل حمديس يترفعون عن مخالطة آل عبد الدائم، ولم يألُ عبد الدائم أفندي جهداً في إكرام الأسرة العزيزة. ولكنكم جاب الأسواق بيتاع الدجاج والحمام يهتئ لهم مائدة شهية. ولقد فاز هو بعطف حرم حمديس بك فكانت تثني على ذكائه وتمعجج بشطارته، وترك له تحية يلاعبها في فناء الدار وفي الطريق. ترى كيف صارت تحية الآن؟.. وهل تذكره؟. لقد انطوى ذاك العهد منذ خمسة عشر عامًا، فسي واندرث وانتهى، وذهب بذكره الزمن والإهمال. ولو كانوا شيئًا ذا بال لرسبت

- هذا سرَّ لا يذاع!  
- هل تقيم معك في الحجر أم توافيك إليها الليلة بعد الليلة؟  
فقال محجوب بزهو:  
- الإقامة مجلِّبة للشبهات كما تعلم!  
فهزَّ الصحافي رأسه وهو يمصمص بفيه وقال:  
- يا حظك!..

وتتابعت أيام فرباير ومتاعب الحياة تصكَّه صكًا، ولاحقه شبح الجوع ليلاً نهارًا، فلم تطمئنَّ معدته إلا سويعات معدودات في اليوم الطويل. وكان إلى عمله الدراسي يكتس حجرته وينظف مكتبه ويرتب فراشه ويغسل مناديله وجواربه وقمصانه. ولم يدر كيف يقتني الحوائج التي يعدها غيره تافهة كابتياح قطعة من الصابون أو غاز المصباح أو حاجته من الورق، فاضطرَّ أياً ما أن يقتصر على وجبة واحدة. وطحنه الجوع طحنًا، واشتدَّ هزاله، وشحوب وجهه، حتَّى خاف على نفسه، نفسه التي يجيها أكثر من الدنيا جميعًا أو التي يجيها وحدها دون الدنيا جميعًا، لبث جائعًا وحيثًا في الحجر التي يحسب بعض صحبه أنها مهد غرام مستعر. لماذا لا يسأل إخوانه أن يطعموه؟ لو سأل عليّ طه ما تأخر أو تردَّد، ولو سأل مأمون رضوان لنزل له عن طعامه ولو كان كسرة خبز. فما الذي يمنعه؟ الكرامة؟!.. الكبرياء؟!.. تبا له! ألم يكفر بكلِّ شيء؟! ألم يستهزئ بالقيم؟ فما له يابسه للكرامة والكبرياء؟! تبا له. لا تزال فلسفته كلامًا وهراء، متى يصير رجلاً حقًا؟ متى يفرط في كرامته وعرضه كأنه ينفذ ترابًا عن حذائه؟!!

وبلغ الكرب ذروته حين طالبتة الكليَّة باقتناء كتاب في اللغة اللاتينية ثمنه خمسة وعشرون قرشًا، فأسقط في يده، ولم يجد من ثمنه ملبيًا واحدًا. وقد بات الامتحان قريبًا! ماذا يصنع؟ أما اللجوء إلى أحد من أصحابه فحلَّ بغيض مقيت، خصوصًا وهو يعلم أنَّه لن يقضي دينه إذا استدان، فماذا يصنع؟! ومضى يوم ويوم، واضطربت حياته أيما اضطراب، وأوشك أن يدركه القنوط لولا أن ذكر قريب والدته الكبير أحمد

وتقدّم عمره - قادمًا، فنهض قائمًا وتقدّم منه في أدب  
مأداً يده، فتصافحا والبك يعن فيه النظر، ثم قال  
مبتسماً:

- هو أنت إذا!.. . . بدا الاسم غريباً بادئ الأمر ثم  
أسعفتني الذاكرة، الآن صرت رجلاً، كيف حال  
والديك؟

بدا الاسم غريباً بادئ الأمر!.. . هو أنت إذا!.. .  
وتناسى محبوب ذلك كله وقال بإجلال:

- والذتي بخير، ولكن والدي مريض، بل في حالة  
خطرة!

وعند ذلك جلسا، وكان البك يرتدي معطفه يدلّ  
مظهره على أنه متأهب لمغادرة البيت، وقال الرجل وهو  
يسند ظهره إلى مقعده:

- لا بأس عليه، ماذا به؟

فقال محبوب بعناية وبصوت واضح:

- أصيب والدي بشلل ألزمه الفراش، فانقطع عن  
عمله، وساءت الحال.

وناط أمله بالعبارة الأخيرة «ساءت الحال» فاسترق  
إلى البك النظر على أثر النطق بها، ولكنّه لم يجد لها أثراً  
يذكر، وقال البك دون أن تتغير ملامح وجهه الباردة:

- أمر محزن، أرجو أن تبلغه تحيّي، وأنت يا  
محبوب هل انتهيت من الدراسة؟

وأحنقه تغير مجرى الحديث، وأثاره برود محدّته،  
ولكنّه لم يجد بداً من أن يجيبه قائلاً:

- امتحان اليسانس في مايو القادم.

- عظيم.. . مبارك مقدّمًا.. .

ثم نهض وهو يقول:

- أسف جداً أن أتركك الآن لأتي على موعد هام.

فنهض الشاب قانطاً حانقاً يلعن في سرّه المقابلة التي  
لم تستغرق دقيقتين بعد فراق خمسة عشر عاماً! ألم  
يدرك الباعث الذي رمى به إلى بيته؟ ألم تدلّه «ساءت  
الحال» على ما جاء من أجله؟! وتبعه إلى الخارج في  
حيرة شديدة، هل يسك بذراعه ويهتف به: «إني فقير  
معدم وفي شدّة الحاجة إلى معونتك فمدّ إليّ يدك!»  
وتوتّب للعمل مجازفاً بكلّ شيء، ولكنّه رأى على بعد

منهم آثار في باطن الذاكرة، ولكن آل حمديس كبروا  
وعظموا ولبثوا هم على ضآلتهم وتفاهتهم، فأثحت  
القناطر من سجلّ الحياة، وغاصت ذكرياتها في غياهب  
الماضي، ونبذ عبد الدائم أفندي موظفاً بالشركة  
اليونانية. تُرى كيف صارت تحية؟.. . ألا يمكن أن  
تذكره؟. ذلك الغلام الذي كان يحملها بين يديه  
ويجري بها ما بين البيت والمحطة!.. . أما حمديس بك  
فلا يمكن أن ينسى، وإن تناسى سيذكره بمجرد أن يقع  
عليه بصره، ولن يقبض دونه يده.

وبلغ الزمالك، واهتدى - بعد سؤال - إلى شارع  
الفسطاط. كان كشارع رشاد باشا ضخامة وسكوناً،  
وتحتشد على جانبيه الأشجار الباسقة، وتشتبك  
أغصانها من الجهتين، فتجعل فوق أديمه ظلّة من  
الأزهار الحمر. فرمق القصور بنظرة غريبة من عينيه  
الجاحظتين، نظرة يقول لسان حالها متسائلاً: «هل  
يمكن أن ينفذ الشقاء من هذه الجدران الغليظة؟ أحتقّ  
ما يقول مدّعو الحكمة أم أنّهم يحدّرون القلوب  
الملتاعة؟!» واقترب بقدمين ثابتتين من القيلآ رقم ١٤،  
وسأل البوّاب بلهجة رفيعة ونبرات رزينة عن البك،  
وأخبره أنّه قريبه وأنّه جاء لمقابلته، فدعاه النوبيّ إلى  
السلامك، ودخل حجرة كبيرة فاخرة الأثاث، لم  
يسبق له أن دخل بيتاً كهذا البيت، أو وُجد في حجرة  
كهذه الحجرة، فألقى على ما حوله نظرة متفحّصة  
مقرونة بالدهشة والإعجاب والحسرة؟ وتطلّع بناظره  
من نافذة قريبة فرأى ناحية من حديقة حافلة بأيّ  
الجمال المعطر. تُرى كيف يكون استقبال البك له؟ هل  
تدعوه حرمة لترى كيف صار الغلام شاباً يافعاً؟! هل  
يتذكرون عهد القناطر ويسألون بشوق عن عبد الدائم  
أفندي الصديق القديم؟.. . هل يتأثرون لمرضه  
ويدركون الباعث الذي حمله على طرق باهم فيمتدّون  
له يد المعونة عن طيب خاطر؟.. . يا لها من حجرة  
نفيسة!.. . ألا يمكن أن يملك يوماً قصرًا كهذا يقصد  
إليه ذوو الحاجات؟.. .

وسمع وقع أقدام، فأثجّه بصره نحو الباب ثم رأى  
البك - وقد عرفه من النظرة الأولى على تغير صورته

كان البك مهندسًا بالقناطر وكنا نلعب معًا في «حديقة» بيتنا .

فقال له الشاب بدهشة :

- لا أذكر شيئًا عن هذا العهد .

وقالت تحية بصوت مهذب كمنظرها سواء :

- ولا أنا تقريبًا . .

فأله ذلك ، وقال مداريًا عواطفه بالابتسام :

- كتبنا صغيرين ، أمّا أنا فكنت في الثامنة . .

فهزّ فاضل رأسه مبتسمًا وسأله :

- وهل انتهيت من الدراسة ؟

تُرى هذا السؤال من تقاليد الأسر الأرستقراطية؟!

وأجاب :

- سأنتهي في مايو .

- آية كَلِيَّة ؟

- الآداب . .

فقال فاضل بلهجته الرفيعة :

- نحن سعداء إذ وجدنا قريبًا مثلك .

فقال على الفور :

- وأنا أسعد لأني وجدت قريبين .

وكانت تحية تتفحصه بعينين أنثويتين ، فقالت لمجرد

الرغبة في الحديث كما يقضي الأدب :

- لم نزر القناطر منذ تركناها .

وارتبك محجوب على غير عادته ، هل يدعوها

لزيرة القناطر ومشاهدة البيت ذي «الحديقة» التي كانوا

يلعبون فيها؟! بيد أن فاضل أنفذه من ورطته بأن قال

موجّهًا خطابه لشقيقته بلهجة ساخرة :

- وهل زرت القاهرة التي تعيشين فيها؟ أنت لا

تعرفين إلا الصالونات والسيناتا؟

فابتسمت تحية وقد تورّدت وجهها وقالت :

- يا لك من مُغالٍٍ سخاير! ألا تعلم أنني أعرف

القاهرة جميعًا ، حتى دار الآثار والأهرام زرتها

كالسائحين . .؟!!

فخطر لمحجوب خاطر بديع فقال على الفور وقد

خلص من ارتبائه :

- دار الآثار والأهرام باتت مناظر مملولة ، هل زرت

الحفريات الجديدة؟!!

قريب فتاة شابة وفتى يافعًا يرقيان السلم في هدوء ،

فانهار توّبه وجد بصره على القادمين . عرف تحية من

النظرة الأولى على رغم التفاوت الكبير بين الصورة

المائلة للحسن والصورة الثابتة في الذاكرة ، وعرف من

أوجه الشبه بينها وبين الفتى أنه شقيقها . نسي عزمته ،

وانقلب إلى حالة من الجمود . . والكبرياء . ونظر البك

إلى ابنه مبتسمًا ، ثم أوماً إلى محجوب قائلاً :

- الأستاذ محجوب قريبي . . تحية ابنتي وشقيقها

فاضل .

وتصافحوا . وقال محجوب مبتسمًا :

- إنّي أذكرهما جيّدًا .

فقال البك وهو يتحرّك نحو السيارة التي تنتظره :

- إذا امكث معها بعض الوقت .

هل يمكث معها؟ . وتبادلوا النظرات في تطلّع

وابتسام . أمّا فاضل فشابت جميل نبيل المنظر فكّرهُ من

النظرة الأولى لأناقته وجماله ونبله ، وأمّا تحية فتاة

حسنة فائقة الحسن ، ربّما كانت إحسان شحاته أفترن

منها حسناً ، ولكن تحية مثال كامل للتعبير عن الأناقة

والكبرياء ، وأنموذج حيّ للأرستقراطية ، فسرعان ما

بهرت حواسه ، وسرعان ما وجد فيها الرمز الحيّ

للحياة العالية التي يتأكل قلبه حسرة عليها ، وقد

سعرت عواطفه وهيجت طموحه ، بيد أنها لم تُثر شهوته

كما فعلت إحسان ، ولا أيقظت بنفسه عاطفة سامية -

فلا عهد له بالعواطف السامية - ولكن حرّكت به

إعجابًا مقرونًا بالحق ، ورغبة ممتزجة بالتحدي ، فشر

في أعماقه بنزوع إلى السيطرة عليها والبطش بها! وقرّ

عزمه في الحال على أن يمكث معها! وجلس ثلاثتهم في

الثويّ الفخم ، وأيقن أنه لن تخفى عليها رثائه هيئته ،

ولكنه تلقى هذه الحقيقة بالاستهانة ، والواقع أنه كان

يتمتع بقدرة عجيبة على قهر الحياء والارتباك ، وعلى

الأدراع باستهانة لا تعرف الحدود! . وقال فاضل

مبتسمًا :

- هل تذكرنا حقًا يا أستاذ؟

فقال محجوب بهدوء :

- عشنا معًا في بلدة واحدة منذ خمسة عشر عامًا ،

فتساءلت تحية ملتفتة إلى المتكلم:

- الحفريات الجديدة؟! -

فأشار إلى صدره كأنه هو الذي اكتشفها وقال:

- حفريات الجامعة: بعد سير دقائق من الهرم

الأكبر، دنيا غريبة محاطة بالأسلاك الشائكة، وجميع مفتشيها من أصدقائي وزملائي فمتى نذهب معاً لمشاهدتها؟

فقلت بسرور:

- لا أدري، ولكنني سأذهب يوماً ما.. أليس

كذلك يا فاضل؟

فقال فاضل بلا وعي منه وقد أخذ يعتوره الفتور:

- طبعاً.. طبعاً..

وشعر محجوب عبد الدائم وهو يعبر حديقة الفيلا

بعد انتهاء الزيارة أنه من الممكن أن ينشأ بينه وبينها نوع مما يسميه الناس بالصدافة. وتَفَكَّرَ فيما يمكن أن يفيد من هذه الصدافة إذا حدثت، أم يخرج منها كما خرج من زيارة البك صفر اليمين..

#### - ١٤ -

ووجد نفسه في شارع الفسطاط مرة أخرى ولفحته ريح باردة عاتية لم يدر متى هبت، تهز الأغصان فيضج الطريق بحفيفها، وتصفر بين الجدران فيصم الآذان زفيفها. فسرت إلى جسمه التعب رعدة تمشت في مفاصله، فالشي أقسى من أن يحتمله ضعيف جائع. يتد أن أفكاره شغلته عما حوله فافتحم طريقه نصف شاعر بقساوة الجوّ. ذكر فاضل، وقارن بينه وبين نفسه، هنالك الصحة والجمال والغنى وهنا المرض والدمامة والفقر، ومع ذلك فهما قريبان! أما تحية ففتاة أرستقراطية، صورة حية للعالم التي يطمح إليها. ترى هل يذهب بها يوماً إلى الأهرام؟! إن فتاة مثلها لحقيقة بأن تكون مفتاحاً سحرياً يفتح الأبواب المغلقة ويصنع المعجزات. تفكّر في ذلك طويلاً، ولكن يا أسفا. أيجوز أن يغرق في تلك الأحلام وينسى همومه الراهنة؟ من أين له النقود لبيتاع كتاب اللاتيني؟ وكيف له بمقاومة الجوع الذي بات يهدّد جسده وعقله!.. يا

عجباً!.. هل من دليل على حقارة الإنسان أكبر من ضرورة الطعام لحياته؟! أليكون هذا الطعام الذي يقتلع من الطين ويسمّد بالقاذورات زبدة الحياة وقوامها؟ وعماد التفكير؟ والمبدع الحقّ للمثل العليا؟ أليس هذا دليلاً على أن جوهر الإنسان قذارة وحقارة؟!.. وحثّ خطاه. وكانت الرياح لا تزال تزجر كاسرة. والسياء تتلبد بالسحاب المظلم، ومياه النيل الزمردية تصطخب وتعربد، فألقى على ما حوله نظرة غاضبة، وبصق على الأرض باحتقار كأنما يناسب الدنيا العداة؟.. ألا يحسن به أن يقترض؟..

يمن؟.. وكيف يقضي دينه؟ لن يكون الشهر القادم بخير من سابقه، بل لعله أسوأ، فما العمل؟ لو كان يعرف فنّ النشل؟.. النشل فنّ سحري، والنشال يملك ما في جيوب الناس جميعاً، وقد عرف سادة هذا البلد مغزى هذه الحكمة. ولكن ما العمل؟ هل يعيد على حمديس بك الكرة؟ أيقابله في الوزارة ويسأله صراحة المعونة؟ واعترضت سبيل أفكاره صورة تحية. تحية بنبلها وأرستقراطيّتها. أيرضى أن تعلم أنه بائس شحاذ!.. هذه الفتاة تحرك مشاعره. ليس مجنوناً فيهندي كما هذى عليّ ظه، فهي شهوة جديدة كتلك التي علقت إحسان لا أفلاطون ولا هيام، ومن عجب أنه كان عظيم الثقة بنفسه لحدّ غير معقول، ربّما كان مبعث هذا ما طبع عليه من جسارة وجراءة، وفضلاً عن ذلك كان يشارك العامة اعتقادهم في التفوق الجنسيّ على الأغنياء، فاعتقد صادقاً أنّ تحية ليست بمنأى عن طموحه. كانت أحلامه لا توفقها السماوات، وزادها الجوع جنوناً، ذلك الجوع الذي جعل من دراسته كفاً مريراً ومن ليلته عذاباً أليماً. وكتاب اللاتيني؟ تبّاً له. كيف يحصل على النقود؟!

#### - ١٥ -

واستيقظ في صباح اليوم التالي أهدأ نفساً، فهمدت الأخيطة التي بعثها في عقله زيارة آل حمديس. ولذلك أمكنه أن ينوب إلى رأي، وأن يقرّر أن يقصد إلى حمديس بك في الوزارة ماداً يده بالسؤال، مضحياً

بصداقة تحية وفاضل. ولم يَزْ بدأ من العدول عن الذهاب إلى الكليّة، وامتنع عن تناول الإفطار ليوفّر ما يركب به الترام في الذهاب والإياب، ومضى إلى حال مسيله فبلغ وزارة الأشغال في تمام العاشرة وعرف السبيل إلى سكرتير قريبه، فوجده رجلاً في الأربعين، فحيّاه بأدب وقال له:

- أريد مقابلة سعادة البك.

- من حضرتك؟

- قريب البك.. محجوب عبد الدائم.

فاستنظره الرجل لحظة وغاب عن عينيه، ولبث محجوب يفكر فيما عسى أن يقوله البك، ويرتب الكلام ترتيباً مؤثراً. وعاد الرجل بعد قليل، وجلس إلى مكتبه وهو يقول:

- البك يرأس المجلس الاستشاري فيحسن أن تعود يوماً آخر.

وبغته ذاك الجواب، وكبر عليه، فشعر بضربة تهوي على أم رأسه، وقال برجاء:

- ولكني أريده لأمر هام جداً.

- لا شك في هذا، إن شاء الله، ولكن يوماً آخر.

- أستطيع أن أنتظر ساعة أو ساعتين.

فقال الرجل بلهجة من يريد أن يفرغ إلى شيء آخر:

- تعال مساء إذا شئت.

وغادر المكان مغيباً محنقاً، هل يتلع الترام ما تبقي من نقوده؟ ألا فليذهب البك ومجلسه الاستشاري إلى الجحيم. وأدرك أول وهلة أنه ينبغي أن ينتظر في المدينة حتى العصر - إذا أراد أن يقابل البك - توفيراً لنفقات الانتقال، ثم لم يعد يقاوم الجوع الذي ينهش معدته، فمضى إلى ميدان الأزهار باحثاً عن دكان فول! وتناول الطعام الذي داوم على تناوله لثلاثة أسابيع مضت وانطلق في طريق قصر النيل ليقضي وقت انتظاره الطويل في حدائقه. وكان الجو بارداً، والسياء ملبدة بالغيوم!. وكان يسير مطرقاً مردداً بحقد وغضب: «أهانني الرجل المجرم. أهانني المجرم!» ومع ذلك فهو مرغم على الجري وراءه مرة أخرى.. هو

- كيف حال الأسرة الكريمة؟

فقالت برقتها الطبيعية:

- بخير شكراً لك.

وأقنعه عقله من ارتبائه فذكره بحفريات الجامعة، فسّر لعثوره على موضوع للحديث وقال:

- هذه فرصة سعيدة تهيأت لي لأذكرك.. أنجز حراً ما وعدت؟ فقالت مقظبة دهشة:

بصداقة تحية وفاضل. ولم يَزْ بدأ من العدول عن الذهاب إلى الكليّة، وامتنع عن تناول الإفطار ليوفّر ما يركب به الترام في الذهاب والإياب، ومضى إلى حال مسيله فبلغ وزارة الأشغال في تمام العاشرة وعرف السبيل إلى سكرتير قريبه، فوجده رجلاً في الأربعين، فحيّاه بأدب وقال له:

- أريد مقابلة سعادة البك.

- من حضرتك؟

- قريب البك.. محجوب عبد الدائم.

فاستنظره الرجل لحظة وغاب عن عينيه، ولبث محجوب يفكر فيما عسى أن يقوله البك، ويرتب الكلام ترتيباً مؤثراً. وعاد الرجل بعد قليل، وجلس إلى مكتبه وهو يقول:

- البك يرأس المجلس الاستشاري فيحسن أن تعود يوماً آخر.

وبغته ذاك الجواب، وكبر عليه، فشعر بضربة تهوي على أم رأسه، وقال برجاء:

- ولكني أريده لأمر هام جداً.

- لا شك في هذا، إن شاء الله، ولكن يوماً آخر.

- أستطيع أن أنتظر ساعة أو ساعتين.

فقال الرجل بلهجة من يريد أن يفرغ إلى شيء آخر:

- تعال مساء إذا شئت.

وغادر المكان مغيباً محنقاً، هل يتلع الترام ما تبقي من نقوده؟ ألا فليذهب البك ومجلسه الاستشاري إلى الجحيم. وأدرك أول وهلة أنه ينبغي أن ينتظر في المدينة حتى العصر - إذا أراد أن يقابل البك - توفيراً لنفقات الانتقال، ثم لم يعد يقاوم الجوع الذي ينهش معدته، فمضى إلى ميدان الأزهار باحثاً عن دكان فول! وتناول الطعام الذي داوم على تناوله لثلاثة أسابيع مضت وانطلق في طريق قصر النيل ليقضي وقت انتظاره الطويل في حدائقه. وكان الجو بارداً، والسياء ملبدة بالغيوم!. وكان يسير مطرقاً مردداً بحقد وغضب: «أهانني الرجل المجرم. أهانني المجرم!» ومع ذلك فهو مرغم على الجري وراءه مرة أخرى.. هو

- أريد مقابلة سعادة البك.

- من حضرتك؟

- قريب البك.. محجوب عبد الدائم.

فاستنظره الرجل لحظة وغاب عن عينيه، ولبث محجوب يفكر فيما عسى أن يقوله البك، ويرتب الكلام ترتيباً مؤثراً. وعاد الرجل بعد قليل، وجلس إلى مكتبه وهو يقول:

- البك يرأس المجلس الاستشاري فيحسن أن تعود يوماً آخر.

وبغته ذاك الجواب، وكبر عليه، فشعر بضربة تهوي على أم رأسه، وقال برجاء:

- ولكني أريده لأمر هام جداً.

- لا شك في هذا، إن شاء الله، ولكن يوماً آخر.

- أستطيع أن أنتظر ساعة أو ساعتين.

فقال الرجل بلهجة من يريد أن يفرغ إلى شيء آخر:

- تعال مساء إذا شئت.

وغادر المكان مغيباً محنقاً، هل يتلع الترام ما تبقي من نقوده؟ ألا فليذهب البك ومجلسه الاستشاري إلى الجحيم. وأدرك أول وهلة أنه ينبغي أن ينتظر في المدينة حتى العصر - إذا أراد أن يقابل البك - توفيراً لنفقات الانتقال، ثم لم يعد يقاوم الجوع الذي ينهش معدته، فمضى إلى ميدان الأزهار باحثاً عن دكان فول! وتناول الطعام الذي داوم على تناوله لثلاثة أسابيع مضت وانطلق في طريق قصر النيل ليقضي وقت انتظاره الطويل في حدائقه. وكان الجو بارداً، والسياء ملبدة بالغيوم!. وكان يسير مطرقاً مردداً بحقد وغضب: «أهانني الرجل المجرم. أهانني المجرم!» ومع ذلك فهو مرغم على الجري وراءه مرة أخرى.. هو

- البك يرأس المجلس الاستشاري فيحسن أن تعود يوماً آخر.

وبغته ذاك الجواب، وكبر عليه، فشعر بضربة تهوي على أم رأسه، وقال برجاء:

- ولكني أريده لأمر هام جداً.

- لا شك في هذا، إن شاء الله، ولكن يوماً آخر.

- أستطيع أن أنتظر ساعة أو ساعتين.

فقال الرجل بلهجة من يريد أن يفرغ إلى شيء آخر:

- تعال مساء إذا شئت.

وغادر المكان مغيباً محنقاً، هل يتلع الترام ما تبقي من نقوده؟ ألا فليذهب البك ومجلسه الاستشاري إلى الجحيم. وأدرك أول وهلة أنه ينبغي أن ينتظر في المدينة حتى العصر - إذا أراد أن يقابل البك - توفيراً لنفقات الانتقال، ثم لم يعد يقاوم الجوع الذي ينهش معدته، فمضى إلى ميدان الأزهار باحثاً عن دكان فول! وتناول الطعام الذي داوم على تناوله لثلاثة أسابيع مضت وانطلق في طريق قصر النيل ليقضي وقت انتظاره الطويل في حدائقه. وكان الجو بارداً، والسياء ملبدة بالغيوم!. وكان يسير مطرقاً مردداً بحقد وغضب: «أهانني الرجل المجرم. أهانني المجرم!» ومع ذلك فهو مرغم على الجري وراءه مرة أخرى.. هو

- ولكني أريده لأمر هام جداً.

- لا شك في هذا، إن شاء الله، ولكن يوماً آخر.

- أستطيع أن أنتظر ساعة أو ساعتين.

فقال الرجل بلهجة من يريد أن يفرغ إلى شيء آخر:

- تعال مساء إذا شئت.

وغادر المكان مغيباً محنقاً، هل يتلع الترام ما تبقي من نقوده؟ ألا فليذهب البك ومجلسه الاستشاري إلى الجحيم. وأدرك أول وهلة أنه ينبغي أن ينتظر في المدينة حتى العصر - إذا أراد أن يقابل البك - توفيراً لنفقات الانتقال، ثم لم يعد يقاوم الجوع الذي ينهش معدته، فمضى إلى ميدان الأزهار باحثاً عن دكان فول! وتناول الطعام الذي داوم على تناوله لثلاثة أسابيع مضت وانطلق في طريق قصر النيل ليقضي وقت انتظاره الطويل في حدائقه. وكان الجو بارداً، والسياء ملبدة بالغيوم!. وكان يسير مطرقاً مردداً بحقد وغضب: «أهانني الرجل المجرم. أهانني المجرم!» ومع ذلك فهو مرغم على الجري وراءه مرة أخرى.. هو

- تعال مساء إذا شئت.

وغادر المكان مغيباً محنقاً، هل يتلع الترام ما تبقي من نقوده؟ ألا فليذهب البك ومجلسه الاستشاري إلى الجحيم. وأدرك أول وهلة أنه ينبغي أن ينتظر في المدينة حتى العصر - إذا أراد أن يقابل البك - توفيراً لنفقات الانتقال، ثم لم يعد يقاوم الجوع الذي ينهش معدته، فمضى إلى ميدان الأزهار باحثاً عن دكان فول! وتناول الطعام الذي داوم على تناوله لثلاثة أسابيع مضت وانطلق في طريق قصر النيل ليقضي وقت انتظاره الطويل في حدائقه. وكان الجو بارداً، والسياء ملبدة بالغيوم!. وكان يسير مطرقاً مردداً بحقد وغضب: «أهانني الرجل المجرم. أهانني المجرم!» ومع ذلك فهو مرغم على الجري وراءه مرة أخرى.. هو



ولمعت عيناه الجاحظتان فجأة!.. أجل، هذا جار قديم، وهو غير مأمون رضوان أو عليّ طه، ولن يجد غضاضة في أن يمدّ له يده، فلماذا لا يقصد إليه؟!.. يا لها من فكرة، واليوم لم يكد يتنصف بعد، وبينه وبين الوزارة مسير نصف ساعة على الأكثر، فليذهب بغير تردد. وقد ذهب.

- ١٦ -

وسأل عن مكتب الأستاذ سالم الإخشيدي سكرتير قاسم بك فهمي، فقيل له بل مدير مكتبه، ودلّوه عليه ووقف على الباب ساعٍ طويل القامة عريض المنكبين، غزير الشارب، فطلب أن يؤذن له عليه، فغاب الرجل لحظة وعاد يقول بصوت غليظ «تفضل». ووجد الحجرة مكتظة بالجالسين نساء ورجالاً، وغاب الإخشيدي ومكتبه وراء نصف دائرة من الموظفين يعرضون أوراقهم. ونظر الشاب فيما حوله وتساءل: متى ينفض هذا الحشد من الخلق؟!.. متى تهيباً له فرصة للكلام؟ وعلا صوت الإخشيدي في الحجرة، ورنت نبراته الدالة على الأمر والسلطان، تلاحظ وتتقد وتعتف، وأصوات الموظفين تثنّ بالشرح والتفسير والأعذار، وجعل الموظفون يحملون أوراقهم ويغادرون المكان واحداً إثر واحد حتى فرغ المدير منهم فانتبه إلى وجود الشاب، ومدّ يده ودعاه إلى الجلوس ثم التفت إلى الزوّار، وأشعل سيجارة وأخذ نفساً عميقاً ونفخ الدخان في لذة وارتياح، وقد لاح في وجهه السرور والخيلاء، واختلس محبوب إليه نظرات خاطفة: إنه شبعان وسعيد. ولا شك أنه أفطر زبدة وقشدة وعسلأ، تبدو عليه آي الصحة، والاطمئنان إلى كرسيه الكبير. وأحس نحوه مقتناً وتساءل في سره ساخراً، لماذا لا يعلّق في حجرته الكبيرة صورة صاحبة العصمة ستّ أمّ سالم بجلبابها الأسود الملوّث بالتبن؟!.. وكان الزوّار أصحاب حاجات كالعادة، فقدّم بعضهم طلبات إعفاء من المصروفات المدرسيّة، واستشفعته سيّدة في ترقية ابنتها إلى الدرجة الخامسة، ورجاه آخر أن ينقل له قريبه إلى القاهرة وقد قضى في

- لا أفهم شيئاً.

فقال بلهجة تنمّ عن العتاب:

- الحفريات.. حفريات الجامعة.

- آه.. كلاً لم أُنس.

- متى؟

- متى!

- نعم. لنكن عمليّين: ما رأيك في عصر الجمعة

القادم؟

فتردّت قليلاً ثمّ قالت وقد راق لها الاقتراح:

- حسن.

- وفاضل بك؟

- سأخبره..

- لتتفق على موعد.

- لا نريد أن نتعبك، فسّم موعدك.

- الساعة الرابعة مساءً، أمام محطة الأنوبيس بميدان

الجيزة.

وسلموا وافترقوا. واستأنف مسيره. نجاح باهر فاق كلّ ما تمّنى، فصار الحلم موعداً. أجل لاحظ أنّ صاحبها تفحصت منظره بدقّة، ولكن ماذا بهمّ المنظر، أليس أحقر رجل بامرأتين؟ فما بالك إذا كان الرجل محبوب عبد الدائم! إذاً محتمل جداً أن تسمي العلاقات وثيقة، وليس هذا بالأمر الهين، فتحية من ذرائع الحظّ التي يرفع بها المجدودين، وهي بعد شيء نفيس أنيق، ومن يعلم..؟!.. بيد أنه أدرك أنه لم يعد من الممكن استجداء حمديس بك، إذ ليس من المنطق في شيء أن يمدّ يده اليوم إلى الأب سائلاً، وأن يلقى كريمته غداً لقاء المودة والاحترام. ولو فعل لأبى الرجل عل كريمته أن تذهب إلى موعد فتى بائس مثله، ولأبّت ذلك عليها نفسها الغالية، فإمّا الاستجداء وإمّا اللقاء: ولكن لم يعد هناك اختيار، أو أنه اندفع إلى الاختيار وهو لا يدري، لقد سدّ هذا الباب في وجهه..!.. ووجد نفسه بعد كلّ ما بذل من جهد يتساءل متحيراً: ما العمل؟!.. كيف أحصل على النقود؟. وكان يحثّ الخطى مرتبّكاً مهموماً، ويعمل فكره دون توقّف، فذكر الأستاذ سالم الإخشيدي،

وتفحصه الإخشيدي بعينه المستديرتين، فأدرك أنه جائع! ولكنه لم يتعود على أن يعطي أبداً، ولا عهد له بفنّ الإحسان، ولا كان من «الضعفاء» الذين تليّن مظاهر البؤس من قلوبهم: فاعتبر الشابّ وحاجته عائناً سخيفاً اعتاق تيار أفكاره، فتوتّب كخوه، ولكن ماذا يجرى به أن يفعل؟ يعتذر له؟ ولكنه يكره الاعتذار خاصة لمن لا حول له. ثمّ تذكر أمراً فسأل الشابّ:

- هل تجيد الفرنسية والإنجليزية؟

وشعر محجوب بخيبة رجاء، لأنه كان يتوقّع شيئاً آخر غير هذا السؤال؟ ولم يدر ما حكمة توجيهه إليه! ولكنه أجاب قائلاً:

- نعم أجيدهما..

- حسناً.. أتعرف مجلّة النجمة؟.. صاحبها صديقي وزميلي وربما رحب بك إكراماً لي..

- هل أكلف بترجمة بعض الموضوعات؟

- نعم.. مقالات.. فكاهات.. خذ بطاقتي هذه واذهب إليه وسأحدثه عنك بالتليفون. ولا تؤاخذني فأنا ذاهب لمقابلة البك وعرض أوراقي عليه.. أليس هذا أكرم بك وأنفع!

ونفض الإخشيدي قائماً، وأخذ ملفاً في يسراه، ومدّ يده للشابّ، فمدّ له الشابّ البائس يده وهو يسأله:

- أيدّر هذا العمل ربحاً معقولاً؟

فضحك الإخشيدي - ولشّد ما بدا لعينه بغيضاً - وقال:

- لعلّك سمعت عن ثراء الصحفيين! على أنك ستجد ما أنت في ميسر الحاجة إليه.. وتقدّمه الإخشيدي نحو الباب، فجزع جزعاً شديداً وأوشك أن يهتف به سائلاً بضعة قروش، ولكنّ الباب فتح قبل ذلك، وبدا الساعي بجسمه الضخم الطويل، فغادر الحجرة حاملاً البطاقة. وغادر الوزارة واجماً متحيراً. ما زالت أزمته قائمة، ومجلّة النجمة على فرض نجاح مسعاه إليها علاج أجل فما العمل؟.. وكيف يحصل على النقود؟.. وكانت الساعة تدور في الثالثة. والجوّ بارد كما كان في الصباح فخطب في الطريق على غير هدئ، مثقل الرأس فانطأ، وضاعت الدنيا في وجهه، حتّى كور قبضته مهدداً، وقال حائفاً

الأرياف عشرين عاماً من سني خدمته، وسأل شابّ أن يؤذن له في مقابلة البك ليهدي إليه مؤلّفه عن حياة الطفل حتّى الخامسة، وسمع الجميع يدعونه بإجلال واحترام: «سعادة البك» وهو يجيبهم بتؤدة وكبرياء وغلطسة. وتصبّر محجوب في قلق وعذاب حتّى يفرغ البك المدير له. وحدثت المعجزة فخلت الحجرة. ونحوّل الإخشيدي إليه وقال:

- هكذا أفضي نهاري، ثمّ أستأنف ليلاً في قصر

البك!

وتساءل محجوب في سرّه حائفاً: هل تريدني أن أدعو الله أن يرحمك من عملك؟ ثمّ قال بملق مبتسماً:

- على قدر أهل العزم تأتي العزائم!

فهزّ الإخشيدي رأسه الكبير، وكان لا يني عن الإشادة بعظمته، والهزء بفضله الغير. وقد عرف بحدة اللسان ومهاجمة أعدائه وأصدقائه على السواء. وقد قيل عنه بحقّ إنه شيد حياته على العمل المتواصل، والدعاية لنفسه، والتشهير بمنافسيه. على أنّ أنانيته كانت تصوّر له أكثرية المتصلين به كمنافسين، ولذلك قلّ من نجا من شرّه. ولم يكن يأبه رأي الناس فيه، وكأنّه يؤثّر في باطنه أن يقال عنه ما أفضعه عن أن يقال ما أطيبه. وكان إذا بلغه قول سوء عنه يقول باحتقار «كلّ عاشق حقّ مكروه». هزّ رأسه الكبير وقال للشابّ:

- عمل متّصل. لكن هل كفاني شرّ الألسنة؟.. هيهات.. ولن يفتأ قوم قائلين زوّي الإخشيدي إلى الخامسة وما مضى في السادسة عامين!

فتظاهر محجوب بالإنكار وقال:

- وهل وُضع نظام الأقدمية لقتل الكفاءات؟!

- الظاهر أنّي في وزارة، والحقيقة أنّي في مزبلة. والآن يا عزيزي ما حاجتك؟

فازدرد محجوب ريقه، واعتدل في جلسته، ثمّ قال بلهجة تنمّ عن الرجاء:

- سالم بك، إنك جار قديم وزميل قديم، وملاذنا وقت الشدّة. يا سعادة البك والدي طريح الفراش، ونحن في بأساء، وأنا في أزمة مؤيسة، وقد نفدت نقودي: فدعني أسألك بعض المعونة..

تُرى هل يفيان بوعدهما؟.. وفي الموعد المضروب جاءت سيارة فخمة وقفت أمام المحطة، وأطل من نافذتها الوجه الجميل. فحقق فؤاده وهرع نحوها، وفتح له الباب وأخذ مكانه، ثم أدرك وقتئذ فقط أن تحية جاءت بمفردها. وعجب لذلك، ولكن لم يطل عجبه، وغمره سرور شامل، وإن سأل بإنكار متكلف:

- أين فاضل بك؟

فأمرت الفتاة السائق بالمسير، ثم التفتت إلى محبوب وقالت بلهجة انتقادية:

- ركبنا معاً، ثم رأى في الطريق «بعض الناس» فتخلف عن الرحلة وحملني اعتذاره إليك.

فأطرق محبوب ليخفي سروره، وسألها بأدب:

- وكيف الوالدان الكريمان؟

- الحمد لله.. وهما يشكران لك هذه الرحلة الجميلة.

- عفواً.. عفواً..

فقالت بصوت ينم عن الرجاء:

- سزى أشياء لذيذة.. أليس كذلك!

فقال بيقين وإن كان في الحقيقة يذهب إلى هنالك أول مرة:

- بكل تأكيد..

وساد الصمت. وراحت الفتاة ترسل بصرها من النافذة، وراح هو يسترق إليها النظر. هذه أول مرة يخلو فيها إلى أنثى تستحق أن توصف بالأنوثة حقاً. وأين؟.. في سيارة فخمة تحزن الحاسدين - فضل هذا التعبير عن تسر الناظرين - فأسكرت أنفه رائحة ذكية، لا رائحة العرق الملبّد بالتراب، فدخله شعور المختنق إذا حمل إلى حجرة مليئة بالأكسجين، ولم تكن به ذرة استعداد لخلق الصور السامية الطاهرة. فتركزت رغبته في تحيّل صورة واحدة: أن يلقي بنفسه عليها..

وشعر بدبيب الرغبة يسري في دمه. فألقى بصره إلى الخارج. وتساءل لماذا تخلف فاضل؟.. هل رأى فتاة حسناء فجرى وراءها؟. أم أنّ تحية نفسها عملت على التخلص منه؟ وداعبه غروره الجنسي فقال: إنَّها (هو

غاضباً بصوت أشبه بالنحيب: «سيدفع العالم ثمن هذه الآلام؟!». وقد أدرك أنه لم يبقَ إلاّ عليّ طه أو مأمون رضوان!.. لكم كره أن يمدّ لها يداً، ولكنّه لم يعد يملك حيلة، ولا بدّ ممّا ليس منه بدّ. ومضى إلى الترام متسائلاً: أيهما يفضّل؟! كلاهما شابّ نبيل، ولكنّه لا يحبّ عليّ، بينما لا يكره مأمون، وفضلاً عن ذلك فمأمون رجل دين وورع، فهو حقيق بأن يصون سرّه، ويحفظه بالغيب، جدير بأن يغضي عنه إذا تأخّر عن قضاء دينه.

ومضى إلى دار الطلبة، وقصد إلى حجرة مأمون رضوان، واستقبله الشابّ بسرور وسأله:

- لماذا تعيّت اليوم عن الكليّة؟

فقال محبوب:

- مُكره أخاك، لشدّ ما أعاني من الاضطراب؟

وتفرّس مأمون في وجهه بعينه النجلاوين السوداوين فهاله ما يرى من الهزال والقنوط، وسأله باهتمام وإشفاق:

- ما بك يا أستاذ محبوب!

فقال دون تردّد:

- ظروف قاسية، فقدت آخر مليم من نقودي، لا أملك من ثمن كتاب اللاتيني مليماً واحداً..

ونفض مأمون قائماً دون كلمة، واقترب من المشجب، ودمسّ يده في جيب جاكته، وأخرج ثلاث ورقات من ذات العشرة، وأتى بها إلى الشابّ، فأخذها محبوب وهو لا يصلّق، وفتح فمه ليشكر صاحبه، ولكنّ صاحبه سارع بوضع إصبعه على شفثيه متمتياً «هس».

وغادر دار الطلبة لا يلوي على شيء. حتّى دار إحسان لم يلق عليها نظرة عابرة. وكان راضياً وساخطاً معاً، راضياً لحصوله على النقود، ساخطاً لأنّه بات مديناً لمأمون رضوان.

- ١٧ -

وجاء يوم الجمعة الموعود، فذهب إلى محطة الأتوبيس قبيل الميعاد بزمن يسير ومضى يسأل نفسه:

فقال بمكر ودهاء:  
 - يعنيك أيضًا ما دام يعني قريبك .  
 فتورّد وجهها وقالت:  
 - السلك السياسي أجمل . .  
 وتمثّل له حمديس بك ذاهبًا إلى الخارجيّة للتوسّط في  
 تعيينه ثمّ قال:  
 - هذا رأيي . . ما أجمل أن تمضي الحياة كلّها ما بين  
 بروكسل وباريس وفيينا .  
 فاستضحكت قائلة:  
 - أو ما بين دمشق وأنقرة وأديس أبابا؟  
 فجاراها في ضحكها، ولكنّه قال بدهاء:  
 - هذه عواصم لا يذهب إليها من كان حمديس بك  
 قريبه!

وابتسما معًا. وقال لنفسه راضيًا إنّ اللبيب بالإشارة  
 يفهم، وحسبه ذلك الآن. أمّا عن المستقبل فقلبه  
 يحدّثه بأنّ هذه الفتاة لن تذهب من حياته كأنتها شيء لم  
 يكن. ومن يعلم؟ إنّ الجسارة لا تنقصه، بل لعلّ  
 عيبه أنّه جسور أكثر ممّا ينبغي. واستسلم لتيّار أفكاره،  
 حتّى انتبه إلى السيّارة وهي ترقى الطريق الملتوي  
 الصاعد إلى هضبة الأهرام. ونزلا عند سفح الهرم  
 الأكبر وهو يقول:

- الحفائر وراء أبو الهول بفراسخ معدودات.  
 وسارا سيرًا غير يسير، وجعلت أقدامهما تنغرس في  
 الرمال وتقلع بقوّة. وكان الوقت أصيلًا، والجوّ باردًا،  
 ولكنّ الساء صفت، وأشرقت الشمس دون حجاب.  
 بدت ملابسها في وضوح النهار غير ذات أناقة أو جمال،  
 فقلقت، وقال لنفسه ساخرًا: «لعلّها تسأل نفسها لماذا لا  
 يرتدي حضرة السفير معطفًا؟». وبعد مسير ثلاث ساعة  
 لاحت منطقة الحفائر تحيط بها الأسلاك الشائكة،  
 فتمتم محجوب:  
 - وصلنا.

واقترّب الشاب من الخفير وأرسله بورقة إلى مفتش  
 المنطقة، وعاد الرجل وأذن لها بالدخول، فدخلت، ثمّ  
 قابلها المفتش وهو شابّ دون الثلاثين، وكان من  
 أصحاب محجوب، فرحّب بها وقال لها معتذرًا:

وهي) من دم واحد، وكما يقولون «فالدّم يحنّ»، ليس  
 شيء بمستحيل. أمّا لو صدق حدسه فسترى أشياء  
 لذيدة كما تحبّ! . . والسائق؟! . . لا يهمّ . . فهو لا  
 يستطيع أن يتصوّر الثراء والعفاف في كائن بشريّ  
 معًا، ولا شكّ أنّ هؤلاء السائقين مدرّبون على  
 التفاوضي . . ! أجل . . أجل . . أو فما الداعي إذا  
 لمجيئها منفردة؟!، إنّ أجمل حكمة هي التي تقول:  
 «إذا خلا رجل بامرأة كان الشيطان ثالثهما» فأين هذا  
 الشيطان ليجنّو بين يديه، ويلثم قدميه؟ طالما كان  
 للشيطان تابعا ومريداً أفلا يجزيه الشيطان عطفًا  
 بإخلاص؟! . . واستردّ بصره من الخارج، وشعر برغبة  
 إلى جرّها إلى الحديث، فسألها:

- والآنسة في الجامعة؟

فهزّت رأسها نفيًا وقالت مبتسمة:

- كليّة بنات الأشراف.

فقال بسرور:

- جميل . . جميل جدًا . .

وسألته تحيّة:

- ماذا تنوي أن تعمل بعد الليسانس؟

وبغته السؤال. إنّ أقرانه يتحدّثون عن المستقبل  
 بحزن ويأس والسابقون منهم يقبعون وراء المكاتب في  
 الوزارات ويروّحون بالشهادة على وجوه أحرقتها حرارة  
 الدرجة الثامنة . . ولكنّه بجسارته المعهودة تخلّص من  
 ارتباكها. وقال بثقة ويقين معًا، وإن كان يعلم أنّه من  
 الكاذبين:

- عليّ أن أختار بين طريقتين، فإمّا الانخراط في  
 السلك السياسي، وإمّا التحضير للدكتوراه فالتدريس  
 في الجامعة . .

فقال مبتسمة:

- جميل . .

لماذا استعملت تعبيره الخاصّ؟ . . أتسخر منه  
 الشيطانة أم تجهل هذه الأمور؟ . . وأراد أن يسيرها  
 فسألها:

- أيهما تفضّلين!

- أنا؟ . . هذا شأن يعنيك . .

- فلنشاهد الصور، انظري إلى ألوانها الزاهية . .  
وبدأ بالحائط القريب من المدخل، وقد حلّ بصور  
تمثّل صاحب المقبرة وعلى يساره زوجته، بينها أطفال،  
ويحيط بهم جميعاً خدم وحشم، وعلى الحائط الذي يليه  
شاهدا منظر حقل مترامي الأطراف، تحرّثه محاريث  
تجرّها الشيران. ووقف هنا وهناك فلأحون عرايا.  
وتحوّلت تحية من المنظر بلا ريث، وانتقلت إلى الحائط  
الثالث. وأدرك محجوب أنّها مرّت خجلة من صور  
العرايا، وتفحص الصور بعينيه الجاحظتين فجرت على  
شفتيه ابتسامة خبيثة، واضطرب مجرى دمه، وقوي  
شعوره بأنّها منفردان. ولم يتحوّل عن منظر الحقل،  
ولا حول عينيه عن صور العرايا، حتّى ملأت عليه  
نفسه تلك الحقيقة الرائعة وهي أنّها منفردان أمام  
العرايا. وخيّل إليه من إدمان النظر، أنّ الصور  
تتجسّم لعينيه، وأنّ الحياة تدبّ فيها، والدماء تتدفّق  
في عروقها، فتكتسي بشرتها بذاك اللون الخمرى ذي  
الوهج، وتلتمع في محاجرها نظرات خاطفة. ثمّ  
تشرّب أعناقها نحو. الفتاة الهاربة، مورّدة الخدين  
من الخجل. وخفق فؤاده بعنف والتهبت جوارحه من  
قوة العاطفة، وعبثاً حاول أن يملك زمام نفسه. وذكر  
مجيئها بمفردها، وحديثها في السيارة، ورقة حاشيتها،  
وانفرادها معاً، ثمّ وجودها في هذه المقبرة تغشاها  
وحشة الأجيال، فخال الثمرة دانية القطوف، وعنف  
هياجه حتّى صار وحشاً فاقد العقل والإرادة. وازدرد  
ريقه بصوت غريب وعينه ثابتان على العرايا وإن باتا  
لا يريان شيئاً:

- هلاً نظرت إلى هذا الحقل الحافل . .  
فقلت باقتضاب وبلهجة ناطقة بالملل:  
- ليس به ما يستحقّ الرؤية . .  
فعطف رأسه وقال بصوت كالهمس:  
- لشدّ ما أنت ملولة يا آنسة.

ودنا منها خطوة فحاذاهما، وجعل ينظر معها إلى  
صورة خادم تعجن، وانحنى قليلاً كأنما ليعاين جزءاً  
من الصورة، فلامس كتفها وعناها، ثمّ اعتدل ونظر  
في عينها وقال بصوت متهدّج:

- سترين الأماكن المسموح بزيارتها، وهي التي تمّ  
الكشف عنها، ولكني لن أرافقكإ إليها لأنّ مشغول  
جداً، ولا أظنكإ في حاجة إلى دليل (وهنا هزّ محجوب  
رأسه موافقاً حسناً. هاكإ معبد الشمس وهو تابع  
للمعبد القديم المعروف بمعبد أبي الهول، وإلى جانبه  
الجزء الخلفي لمقبرة الأمير سنفر. . .

وقال محجوب لنفسه: «قضى الله لحكمة يعلمها أن  
نظّل اليوم منفردين. وإذا كانت حكمة الله كلّها على  
هذا المنوال فأنا من المؤمنين!»، وأخذ كنزه النفيس إلى  
معبد الشمس. وهبط أدراجاً صنعت حديثاً، فوجدا  
نفسيهما في بهو أرضه من الصوّان، وعلى جانبيه صفّان  
من الأعمدة، ولا سقف له ولم يكن به شيء يروع أو  
يثير العجب، فألقت الفتاة على ما حولها نظرة تنطق  
بعدم الاكتراث، ولم يكن محجوب أقلّ خيبة منها،  
ولكنّه تعمّد أن يكتر من شأن رحلته فقال:

- انظري إلى هذه الأعمدة وكيف قاومت الدهور!  
فابتسمت كالهزّة وقالت:

- وماذا كان عليها لو أنّها اندثرت؟

فأشار إلى النقوش على الأعمدة وقال:

- لو كنّا نقرأ الهيروغليفية لعرفنا أموراً تستثير  
الإعجاب والدهشة.

- حقاً!

- بكلّ تأكيد، ألم تُلِمّي بتاريخ الفراعنة؟!

فهزّت رأسها نفياً. وبذلك انتهت زيارة الأثر  
الأول. وفيها هما يدنوان من المقبرة وراء المعبد سألته  
تحية:

- ألا توجد آثار أخرى غير هذه المقبرة؟

وأحسّ ما وراء التساؤل من ملل، فارتبك وقال:

- توجد آثار كثيرة ولكن لم يصرّح بزيارتها . .

وهبط أدراجاً فوجدا نفسيهما في حجرة صغيرة  
مستطيلة، تحلّى جدرانها بالنقوش والصور، ولا يكاد  
يعلو سقفها كثيراً على طول الهامة، وألقيا على المكان  
نظرة عامّة، ثمّ تعلّق الشابّ بالصور، فقال بصوت  
خافت:

اللباقة والغزل، ولو أنه اصطنع معها التريث والأناة  
لربما فاز بها. تَبَّأ للشهوة الجامحة. لقد ضيَّعت عليه  
فرصة سانحة. وبلغا السَّيَّارة، وقالت تحية بلهجة أمره  
دون أن تنظر إليه:  
- مكانك.

وصعدت إلى السَّيَّارة، وأغلقت الباب، وأمرت  
السائق بالمسير. وأتبعها عينيه حتى هبطت تحت مستوى  
البصر وغابت عن ناظره تاركة إيَّاه وحيداً عند سفح  
الهرم. ولبت هنيهة مكانه - كما أمرته - واجماً - ثم هزَّ  
منكبَّيه، وأخذت روح الاستهانة تعاوده حتى أوشك أن  
يضحك من نفسه، ونظر إلى الهرم طويلاً، ثم غمغم  
ساخراً: «إنَّ أربعين قرناً تنظر إلى مأساتي من فوق هذا  
الهرم!». ثم غلبته موجة غضب مفاجئة - فاحمرَّ وجهه  
الشاحب، واضطربت أرنبة أنفه، فودَّ لو يستطيع أن  
يقذف القاهرة بأحجار الأهرام الهائلة، وتحرَّكت قدماه  
وما يزال يأكله الغضب. علام الحزن؟.. ما هي إلا  
أشئ!.. ولن تزيد على فتاته - جامعة الأعقاب -  
شيئاً!.. أجل. بيدَّ أنه أضاع فرصة، وخسر تحية  
وأباها إلى الأبد! وتذكَّر لحظة، ثم غمغم وهو يهزُّ  
كفيه استهانة: طظ.

- ١٨ -

وجاءت فترة استقرار نسبياً.  
تناسى محبوب إخفاقه وتوتَّب للعمل فقابل رئيس  
تحرير «النجمة» وكلفه الرجل بترجمة بعض المختارات  
نظير خمسين قرشاً في الشهر، فصار دخله مائة وخمسين  
قرشاً، واستطاع أن يتقي به ويلات الموت جوعاً وأن  
يجعل الحياة محتملة على آية حال. وانبرى للعمل  
يوافله ليلاً ونهاراً، ما بين دراسته الجامعية وعمله  
الصحفي البسيط. وخلت حياته من الفراغ فندر  
تفكيره في نفسه، واجتراره الهموم، ومضت أيام كاملة  
لا يكوِّر فيها قبضته غضباً أو يهتف ساخطاً ساخراً  
قائلاً: طظ. أجل كانت توجد أوقات غيظ ما منها  
بد، إذا تهيأ لتناول طعامه الحقيق مثلاً، أو رأى عليَّ طه  
بجسمه الرياضي وابتسامته السعيدة، أو ذكر طرقه

- ألم يعجبك شيء؟  
فضحكت ضحكة رقيقة وقالت بصراحة:  
- الحقُّ أننا لم نجد ما يستحقُّ عناء الرحلة..  
فقال محجوب بصوته المتهذِّج وعينه تثقبان عينيها:  
- ولكن المكان جميل وهادئ..

وانتهت إلى تهذِّج صوته، وشعرت بحدَّة نظرتة  
النارية، فاختلج بصرها، ونظرت إلى الأرض، ثم  
قطبت في حيرة وقالت:  
- أن لنا أن نذهب..

فهزَّ رأسه، وهمَّ أن يقول شيئاً، ولكن أعياه  
القول، فأمسك بيدها، ولكتَّها سحبت يدها بسرعة،  
وألقت عليه نظرة إنكار، فلم يُبالها، واستردَّ يدها  
بقوَّة، وقال وصفحة وجهه تموج بعاصفة: «دعينا نمكث  
قليلاً». .. وتملكه شيطان الشهوة، فجذبها نحوه  
بعنف، وأحاطها بذراعيه، وأهوى إليها بضم يحترق إلى  
التهامها. ولكتَّها صدته بيمينها، وباعدت رأسها عنه،  
ولاح في وجهها الجميل الغضب، وصاحت به صوتاً  
رنَّ رنيناً مزعجاً في المقبرة الصامتة:

- أجننت!.. دعني.. اترك يدي..

فاستصرخها قائلاً يكاد يجنُّ من العذاب:

- لا تغضبي... أرجوك... تعالي... تعالي إلى

صدري..

ولكتَّها تخلَّصت من ذراعيه بقوَّة جنونية لا تدري  
كيف أتتها، وصاحت بعزم وقسوة:

- مكانك.. إياك أن تلمسني.. إياك أن تعترض

سبيلي..

وانجَّهت نحو الباب، فتنحَّى لها، وتبعها مطرقاً،  
صامتاً، مثقلاً بشعور الخزي والخجل. وسارا صامتتين  
يقطعان الطريق الذي جاء منه صديقين سعيدين،  
وقد اكتسى وجهها الجميل بلون الغضب القاني،  
وارتفع رأسها كبرياء وصلفاً، ولم يذُر كيف يصلح من  
خطئه، وكلَّما طال الصمت يشس وغلب على أمره،  
حتى تساءل نادماً: أما كان ينبغي أن يمدَّ جبل الصبر؟  
وقال لنفسه متأسِّفاً: الظاهر أنَّ فتاة مثل تحية لا تؤخذ  
كما تؤخذ جامعة الأعقاب.. لعلَّه لم يوفِّها حقَّها من

بالأمس كنت طالبًا وصحافيًا، فالآن أنفّرخ لعملتي في الصحافة». ولم يكن مأمون رضوان يدري إن كان يبعث إلى فرنسا أم يبقى في مصر، ولكن هدفه بقي واحدًا في الحالتين، وهو الإسلام، وقد تساءل مرة قائلاً: «ألا يمكن أن نبدأ كفاحنا الحقيقي في جمعية الشبان المسلمين؟ فنظّم الإسلام من غبار الوثائق، ونردّ إليه روحه الفتيّة، ونشر منها دعوة لا تلبث أن تشمل الشرق العربيّ جميعًا ثم بلاد المسلمين!». أما عليّ ظه فلم يكن ذا هدف واضح، ولكن اختلطت عليه الوسائل. كان مهتمًا للاشتغال بالسياسة، ولكن السياسة كما يعرفها هو لا كما يعرفها الناس. ولو وجد حزبًا ذا مبادئ اجتماعية لا يشترك فيه بلا تردّد، ولكن أين هذا الحزب؟.. فهل ينتظر حتى تنشأ الأحزاب الاجتماعية ثم يشترك فيها، أم يأخذ هو في الدعوة إليها منذ الآن؟ لا شك أن الانتظار أسهل، وأحكم، إذ ما جدوى الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعيّ في بلد لا يشغله شاغل عن الدستور والمعاهدة، ولعلّه من الخير أن ينتظر قليلًا ليستكمل عدّته من العلم والمعرفة، وغير ذلك، فلم ينظ أمله في الوظيفة، ولا كان يرفضها لو أتت له.

محجوب عبد الدائم وحده أدركه الجزع: الإسلام، السياسة، الإصلاح الاجتماعيّ، كلّ أولئك مسائل لا يكثر لها، أما شغله الشاغل فهو اتقاء الموت جوعًا، أو هو وظيفة توفّر له الرغيف، وإذا أخفق في الحصول على وظيفة فالجوع لن يتهدّه وحده هذه المرة، ولكن يتهدّد والديه معه، وهو لا يشفق عليها بقدر ما يشفق من مضايقتها له، فما العمل؟.. كان في الحقيقة بلا معين، والحكومة لا يدخلها أحد بلا معين. وتفكّر طويلًا، ولكنّه لم يفعل شيئًا إلا أن كتب لوالده كتابًا قال فيه: إنّه بصدد البحث عن وظيفة، وإنّه يرجو أن يتمكّن قريبًا من تأدية واجبه نحو أسرته؛ وشرح له الصعاب التي تعرّضه. وفي ذلك الوقت رشّح أستاذ الفلسفة الفرنسيّ مأمون رضوان لبعثة السوربون، ووصّى بتعيين عليّ ظه في المكتبة ليتهيأ له جوّ حسن لتحضير رسالته. سمع محجوب بهذه

الأبواب التماسًا لبضعة قروش، ولكن فيما عدا ذلك سارت الحياة سيرًا هونًا محتملًا.

وولّى مارس بجوّه اللطيف ورياحه الطيبة وسنائه الآخذة في خلع أردية الشتاء لاستقبال حرارة الربيع وشذاه، وتبعه على الأثر إبريل بشمس المزهوة - شأن كلّ حديث نعمة - ورياحه المغيرة وجوّه الأصفر الكدر. وجاءه في أوّل مايو كتاب والده الشهريّ المعهود قال له فيه: إنّه أرسل إليه آخر جنيه يستطيع الاستغناء عنه، ودعا له بالتوفيق والنجاح، ثم قال له: إنّه سينتظر من الآن فصاعدًا معونته التي بات في أشدّ الحاجة إليها، ويشره بأنه سيستطيع إن شاء الله أن يتحرّك قريبًا، وربما أمكنه المشي متوكّئًا. لم يكن في الرسالة شيء لم يسبق الاتفاق عليه، بيدّ أنّه لم يستطع مدافعة الغيظ الذي هاجمه، وعاودته ذكريات الليالي السود، ليالي الجوع والهذيان وعاد يقول عن والديه لو كانا لكنت، ولو كانا لكنت..

ثمّ كان الامتحان في أوّل مايو، وظهرت النتيجة قبل الثلث الأخير منه، ونجح أصحاب الأربعة الذين تزامنوا أربعة أعوام كاملة. ولم يكن الامتحان - بالنسبة لمحجوب - مجرّد امتحان مدرسيّ. كانت في الواقع الفرصة الوحيدة والأخيرة كي يجني ثمار كفاح خمسة عشر عامًا، فسّر سرورًا مضاعفًا، وتنهّد ارتياحًا من الأعياق. ولكن سرور الطالب المتخرّج بالنجاح سرور قصير المدى، بل هو سرور لا يُجاوز ليلة ظهور النتيجة، فإذا أدركه الصباح غشيه بهموم من نوع جديد، هموم شابّ يطرح عنه رداء التلمذة ليلقى منفردًا - خصوصًا إذا كان حاله كحال محجوب - ذلك الجبار المقنّع المشتمل على جميع فرص السعادة وجميع عثرات الشقاء الذي يسمّونه المستقبل. ومضى أصحاب يجتمعون كلّ مساء تقريبًا بنادي الجامعة، وكانت تترامى إليهم أخبار الزملاء ذوي الحسب والنسب، تَمّن تفتح لهم أبواب الحكومة بقدرة قادر، وتناولوا مستقبلهم بالكلام والنقد، متفائلين أو متشائمين، واعتاد أحمد بدير أن يقول باطمئنان: «لن يتغيّر مجرى حياتي، فلن أبحث عن مهنة جديدة،

الأبناء، وقارن بين حظّه وحظّ زميله.. غداً ينتقل مأمون ربيب أحقر قرية في الغربية إلى باريس.. وغداً يطمئن عليّ إلى كرسيه في المكتبة فيحضّر الماجستير ويعقد على إحسان!.. مرحى.. مرحى.. وماذا هو فاعل؟.. هل تعود أيام فبراير السود؟. وذهب لمقابلة عليّ طه في المكتبة، وقد مرّ على تعيينه أسبوع، وكان يتوقّع أن يجده فرحاً مسروراً، وقابله الشابّ بابتسامته المعهودة، فلم يقرأ في وجهه ذلك السرور الذي توقّعه، بل خال أنه يرى مكانه فتوراً لم يتعوّده صاحبه، وعجب لذلك أيما عجب، وغمضت عليه أسبابه، حتّى حسب أنّ الشابّ يداري فرحه بهذا المظهر الفاتر. وتجاذبا الحديث طويلاً، وأعرب له عن نيّته في عدم الاستمرار في الوظيفة، قال:

- هذه فترة انتظار وتفكير ريثما أجد سبيلاً للاشتغال بالحياة العامة.. وربّما اخترت الصحافة في الوقت المناسب..

وذكر محجوب عمله في النجمة وما يدرّ عليه من رزق واسع! فجرت على شفّته ابتسامة ساخرة، وعاد عليّ طه يقول:

- إني أتميّاً لكتابة موضوع عن توزيع الثروة في مصر..

وضاق محجوب صدرًا بأمال صاحبه، وسأله صراحة عمّا إذا كان في الإمكان أن يجد وظيفة في المكتبة؟ ومضى به الشابّ إلى موظّف المستخدمين يستفتيانه، وكان الرجل صريحًا جدًّا، فأمسك بيد محجوب وقال له بحدّة:

- اسمع يا بنيّ: تناسّ مؤهلاتك، ولا تُضغِ ثمن طلب الاستخدام، المسألة لا تعدو كلمة واحدة ولا كلمة غيرها: هل لديك شفيح؟ أنت قريب أحد ثمن ييدهم الأمر؟ أتستطيع أن تطلب يد كريمة أحد من رجال الدولة؟ إن أجبت بنعم فمبارك مقدّمًا، وإن أجبت بكلّا فلتنوّل وجهك وجهة أخرى..

- ١٩ -

ورأى عن حكمة أن يزور الإخشيدي في بيته، لأنّ حجرتة بالوزارة لا يتهيأ لها الجوّ الهادئ، فمضى إلى المنيرة حيث يقطن الأستاذ في شقّة بشارع السيّد المفضال، واختار يوم الجمعة صباحًا ليضمن وجوده.

ورأى عن حكمة أن يزور الإخشيدي في بيته، لأنّ حجرتة بالوزارة لا يتهيأ لها الجوّ الهادئ، فمضى إلى المنيرة حيث يقطن الأستاذ في شقّة بشارع السيّد المفضال، واختار يوم الجمعة صباحًا ليضمن وجوده.

ورأى عن حكمة أن يزور الإخشيدي في بيته، لأنّ حجرتة بالوزارة لا يتهيأ لها الجوّ الهادئ، فمضى إلى المنيرة حيث يقطن الأستاذ في شقّة بشارع السيّد المفضال، واختار يوم الجمعة صباحًا ليضمن وجوده.

ورأى عن حكمة أن يزور الإخشيدي في بيته، لأنّ حجرتة بالوزارة لا يتهيأ لها الجوّ الهادئ، فمضى إلى المنيرة حيث يقطن الأستاذ في شقّة بشارع السيّد المفضال، واختار يوم الجمعة صباحًا ليضمن وجوده.

ورأى عن حكمة أن يزور الإخشيدي في بيته، لأنّ حجرتة بالوزارة لا يتهيأ لها الجوّ الهادئ، فمضى إلى المنيرة حيث يقطن الأستاذ في شقّة بشارع السيّد المفضال، واختار يوم الجمعة صباحًا ليضمن وجوده.

ورأى عن حكمة أن يزور الإخشيدي في بيته، لأنّ حجرتة بالوزارة لا يتهيأ لها الجوّ الهادئ، فمضى إلى المنيرة حيث يقطن الأستاذ في شقّة بشارع السيّد المفضال، واختار يوم الجمعة صباحًا ليضمن وجوده.



وإن لم تدلّ عيناه على شيء، وقال بهدوء:  
- لا توجد وظائف خالية عندنا الآن.  
فلاح اليأس في وجه الشاب وتساءل:  
- أما من فائدة ترجى؟

- لا داعي لليأس المطلق، ليس عندنا وظائف،  
ولكن توجد في الدولة وظائف كثيرة، ويمكن أن أدلك  
على سبيل الخير.

ولم يجد في قوله ما يبعث على الأمل، ولكنه لم ير  
بداً من أن يقول:

- شكراً لك يا بك، شكراً لك.

فنظر إليه الإخشيدى نظرة غامضة قوية وقال:  
- أرجو أن تكون رجلاً عملياً، وأن تحسن فهم  
الدنيا، وأن تعلم أن كل فائدة بثمن.. لست أسألك  
شيئاً لنفسى، فما أنا إلا دليل.

- عفواً، عفواً.. أستغفر الله..

فابتسم الإخشيدى وقال:

- إذا أخذت بقولي فهنالك أناس قادرين  
يستطيعون أن ينفعوا أمثالك!

وسكت الإخشيدى لحظات ثم استردك:

- هناك مثلاً عبد العزيز بك رضوان.. ألم تسمع  
عنه؟!

- بلى.. أظنه من رجال الأعمال المعروفين.

- هو ذلك.. وله كلمة نافذة في العهد الحاضر..  
ودائرة اختصاصه وزارة الداخلية.

فسأله الشاب متحيراً:

- ومن لي بمعونته؟

- الطريق ميسور، ولكن ينبغي أن تعلم أنه يأخذ  
ممن يعينه نصف مرتبه لمدة عامين بضمها!

وهال الثمن الشاب المعدم، ونظر إلى صاحبه  
بخوف، ثم سأله بعد تردد:

- أليس يوجد من هو أيسر شرطاً؟

فقال الإخشيدى فوراً، كأنه نادى يقرأ ثبثاً:

- المطربة المعروفة الأنسة دؤلت..

فلاحت الدهشة في وجه الشاب الشاحب، فلم

واستقبله الأستاذ في حجرة استقبال صغيرة أنيقة، وكان  
يقيم في القاهرة بمفرده ومعه طاهية.. وأدرك الأستاذ  
الباعث على الزيارة بدهاءة، ولكنه ترك القادم يفصح  
عن رغبته، دون مبالاة، وقال محجوب:

- معذرة عن مجيئي إلى البيت، فإني أعلم أن  
عملك بالوزارة لا يسمح لك بسماع الأحاديث  
الخاصة.

فقال الإخشيدى ببرود:

- الواقع أنني لا أترك العمل إلا فترة قصيرة يوم  
الجمعة!

وفطن محجوب إلى ما في إجابته من مغزى، ولكنه  
تغاضى عنه بجسارته المعهودة، وقال:  
- حصلت على الليسانس.

فابتسم الإخشيدى ابتسامة تشجيع فاترة، وتمتم  
قائلاً:

- مبارك..

فشكره الشاب بحماس وقال:

- يا سالم بك، أنت جار قديم، وزميل قديم،  
وأستاذنا في العلم والوطنية على السواء، ولن أنسى ما  
حييت أن توصيتك لدى رئيس تحرير النجمة أنقذت  
حياتي ومستقبلي من الضياع. لهذا أقصد إليك كبير  
الرجاء، يا سعادة البك الشهادة بغير شفاعة أرخص  
من ورق اللحم، فهل أمل أن تلحقني بوظيفة ما؟

أصغى الإخشيدى بلا تأثر، لأنه تعود سماع هذه  
الخطب الحارة. وكان يحتقر الشاب ويستهن به لفقره  
وعوزة، فلم يتحمس لمساعدته. وكان يوجد بالوزارة  
وظيفتان خاليتان، ولكنه وعد شخصاً إحداهما، وتقبل  
نظير الأخرى هدية فاخرة، وقد يصير محجوب ذا فائدة  
يوماً ما، ولكن العاجلة حير من الآجلة. وجعل  
محجوب يرمقه بعينين تنطقان بالخوف والرجاء، ويشعر  
أنه بات تحت رحمة إنسان لا يراعي إلا مصلحته  
الذاتية. ولما وجد منه صمتاً قال بصوت مؤثر:

- إني أملتك وكفى.

فأشعل الإخشيدى سيجارة، وهز رأسه كالآسف

إتھا صاحبة نفوذ واسع يمتد إلى وزارات كثيرة،  
وأحزاب كثيرة.

وكان يرمي إلى استغلال الشاب في الدعاية لها،  
بعد أن يقدمه كأحد تابعيه الذين يأتمرون بأمره،  
فقال:

- ستقيم السيدة نيروز حفلة خيرية يوم الأحد  
القادم بدار «الضريرات» فاحضر الحفلة وسأقدمك  
للسيدة؟ واكتب عن الحفلة وصاحبها، ولنتنظر،  
ولنتنظر.

- أبلغني هذا ما أريد؟

- ربما توقّف هذا على قلمك!.. . . عليك أن تتابع  
تذكرة بخمسين قرشاً؛ لأنك لست صحافياً محترفاً،  
وربما عرفت فيما بعد أنّ هذا المبلغ الزهيد أجلّ فائدة  
من ستين جنيهاً تؤديها للآنسة دولت.. . . فهلّم دون  
تردد.

وعلى جسارته لم تؤاذه شجاعته على أن يستلف منه  
ثمان التذكرة، فنهض قائماً وصافحه شاكرًا وغادر  
الحجرة.

- ٢٠ -

خسون قرشاً! مبلغ زهيد حقاً، ولكن كيف  
يحصل عليه؟ حقاً إنه يدخر مكتبه وكتبه ليتنفع بثمانها  
في الشهر الذي يسبق أول مرتب إليه - ترى هل  
ينتظر يوماً حقاً هذا المرتب؟ - فمن يعطيه ثمن  
التذكرة؟.. . . مأمون رضوان ارتحل إلى طنطا ليودّع  
أسرته قبل السفر إلى أوربا، فلم يبقَ إلا عليّ ظه. ولا  
بدّ تما ليس منه بدّ.

وذهب إلى مكتبة الجامعة صباح السبت، واستقبله  
عليّ بالابتسامة المعهودة، ولكن محجوب أدرك من أول  
نظرة أنّ صاحبه حزين! ليس هذا عليّ ظه الذي  
يعرفه، انظفاً نور عينيه البهيج، وهمدت روحه المتوتّبة  
الحية، وكلّ هذا حقيق بأن يوليه سروراً لو وجده في  
ظروف غير هذه. أما اليوم فهو يشفق من أن يلقي  
هذا الحزن عثرة في سبيل الغرض الذي تجسّم من

بباله الآخر واستدرك:

- منطقة نفوذها السكك الحديدية ووزارة الحربية  
وبعض الدوائر الكبرى.. . .  
وأخذ الإخشيدى نفساً عميقاً من سيجارته،  
واستطرد قائلاً:

- والأسعار كما يأتي: الدرجة الثامنة ثلاثون جنيهاً،  
والسابعة أربعون، والسادسة مائة جنيه. والدفع فوراً.  
وتنهّد محجوب يائساً، ثمّ تفكّر قليلاً وقال:

- أظنّ شرط عبد العزيز بك رضوان أرفق، فإنّي لا  
أملك ممّا تطلبه المطربة مليياً، ولكنّي أستطيع أن أتنازل  
عن نصف مرتبي إذا صار لي مرتب، فكيف أتصل  
به؟

- ليس الآن.. . . ليس قبل شهر ونصف، بعد عودته  
من أداء فريضة الحجّ.. . .

تبّاً له! ولكنّ الجوع لن يُبقي عليه حتّى يعود  
الحاجّ. وقال بصوت خافت وهو يخشى أن يضيق به  
صاحبه ذرعاً:

- الانتظار معناه الجوع.. . . فما عسى أن أصنع؟

فقال الإخشيدى ضاحكاً لأول مرّة:

- لست بالفتى الأمرد، ولا أملك بالقاتنة اللعوب،

فما عسى أن أصنع أنا؟!

وساد الصمت، ويات في حكم المقرّر أن ينهي  
الإخشيدى المقابلة، لولا أن خطر له خاطر. وتفكّر  
سريعاً ثمّ قال لنفسه إنّ استفادة محجوب محتملة، أمّا  
استفادته هو - إذا حقّق هذا الخاطر - فمؤكّدة! ثمّ  
قال:

- هنالك السيدة إكرام نيروز.

- منشئة جمعية «الضريرات»؟

- نعم.

- ولكنّها مثرية جدّاً، ويضرب بثرانها المثل.. . .

- نعم.. . . نعم.. . . السيدة لا تطلب مالاً، ولكنّها  
مغرمة بالشهرة والثناء. ويمكن أن أقدمها إليك في  
إحدى المناسبات، وعليك بعد ذلك بقلمك ومجلّة  
النجمة، فإذا وُفقت إلى رضاها ضمنت مستقبلك،

يصدّق، ولكنّه الحقيقة دون زيادة، كيف حدث هذا؟! بدأت تتغيّر! وكان التغيّر طفيفاً بادئ الأمر، ولكنّه لم يتجفّ عن قلبي اليقظ الساهر. رأيت في عينيها نظرة قلقه حائرة، تناوبها الشرود وفترت ابتسامتها، ومضت تتجافى عن حديث الحبّ، وتتقي ذكر آمالنا وعهودنا. فأخذت نفسي بالصبر عهداً عرفت فيه مرارة الحيرة وعذاب الشكّ، ولكن دون جدوى فلم يتغيّر الحال، وكاشفتها بوساومي، وقلت لها ما أجدر حبّنا بأن يكون هباءً إذا طوت دوني سرّها! ولكنّها أهمتني بالمبالغة واعتذرت عن تغيّرها بتوعك مزاجها فتضاعف عذابي وألمي.. كيف أصدق أنّ حبّاً كحبّنا يموت فجأةً وبغير نذير؟ وجددت بها، فصارت اللقيا جحيماً، ثمّ انقطعت عني، أتصدّق؟ لقد جننت، فرصتها في كلّ مكان، وراسلتها، وثابرت على مطاردتها بعناد، فجاءت لمقابلتي، جاءت تتعزّز بالحزن والخجل، فصحت بها أنّ تحوّلها سيورثني الجنون.

وأمسك الشابّ، وكان محبوب يتابعه بحواسّ مرهفة، ويوليه اهتماماً كاد ينسيه غرضه من الزيارة، وتظاهر بالتأثر الشديد ليشجّع صاحبه على الاسترسال، فقال عليّ:

- قلت لها إنّ تحوّلها سيورثني الجنون، فقالت لي إنّ لقاءنا أورثها الجنون بالفعل، وقالت لي إنّ آمالنا مقضيّ عليها بالفناء، فينبغي أن نعالج حزننا بالحكمة وأن نرضى بالنهاية المحتومة. هل أرضى بالشقاء دون دفاع؟! أفرط في سعادتي دون سؤال؟! قالت لي إنّها رغبة والديها، وإنّها يشست من إقناعهما، وإنّها لم تدعّ وسيلة، وضرعت إليّ في النهاية أن نفترق وألا أضاعف لها العذاب.

ونظر الشابّ إلى محبوب طويللاً، حتّى أفاق قليلاً من سكرة الحديث، فتورّد وجهه وقال:

- لماذا أطيل عليك؟!.. لقد انتهى كلّ شيء: تحطّمت آمالي. إنّ دراسة الحكمة لا تغني عني شيئاً.

وعجب محبوب آيماً عجب: لماذا يرفض عمّ شحاته تركي بائع السجائر الأستاذ عليّ طه؟ أيراه غير أهل لنسبه!.. أم يطمع الرجل أن تتمّ كريمته دراستها.

أجله هذه الزيارة! وتعامى عمّا قرأه في وجه صاحبه وسأله:

- أين بلغ بك موضوع بحثك؟  
فنفخ عليّ طه ضجرًا وقال بيأس ملموس:  
- لا أدري، إنّ الآن مهيض الجناح.  
فقطّب محبوب متظاهراً بالإشفاق، وقال وهو يلعن في سرّه نحسه الملازم:

- كفى الله الشرّ، ماذا تقول؟  
وكان عليّ عصبيّ المزاج، لا يكاد يطوي سرّاً فقال:

- كما ترى.. الأمر يتعلّق بإحسان!  
وكأنّ ماء بارداً رشّ على وجهه، فثار اهتمامه، وغمغم متسائلاً:  
- خطيبتك!  
فتنهّد عليّ وقال بانكسار وحسرة:  
- خطيبتي!

فازدادت دهشة محبوب وقال بلهجة من يودّ معرفة كلّ شيء:  
- لا أفهم شيئاً..

وتردّد عليّ ثانية، أيوح بسرّه؟.. وكان بطبعه غير كتم، وكان محبوب من أصحابه الذين أفضى إليهم بقصّة حبه، وكان إلى هذا وذاك في أشدّ الحاجة إلى الترويح عن نفسه، فقال بصوت أبان عن تأثره العميق ويأسه:

- ولا أنا، لشدّ ما أنا ذاهل حائر، ولشدّ ما أسائل نفسي، ما الذي حدث؟! ما البواعث الخفيّة الأسيّفة التي تنفث سمومها في الظلام؟.. كانت الحياة تسير سيراً جميلاً. كنّا متحابين ونزداد على الأيام حبّاً. وكنا متفاهمين ونزداد على الأيام تفاهماً. عرفنا ماضينا وأحببناه. وخبرنا حاضرنا ورضينا به، وأمّلنا مستقبلنا وانتظرناه، وتتابع اللقاء، وتمّت الألفة، ورسخت المودّة..

وسكت عليّ لحظة، وعينا صاحبه لا تفارقان وجهه المتجهّم، ثمّ اندفع يقول مسحوراً بحرارة الحديث:  
- ما الذي بثّ الفساد في حياتنا؟. إنّ شيء لا

وأخذ أهبه. استحم، وكوى البدلة والقميص والطربوش، ولَّع الحذاء، وحلق ذقنه ورجل شعره، فبدأ شخصاً جديداً، وإن لم يزايله الهزال ولا الشحوب.

ذهب إلى دار جمعية الضريرات مبكراً. ووجدها داراً كبيرة، أنيقة، تحيط بها حديقة غناء وارقة الظلال، فسار إلى بهو عظيم مستطيل، يتصدَّره مسرح كبير، وقد تراصت به صفوف المقاعد الخضر، وعلى الجانبين أبواب الشرفات المطلَّة على الحديقة. ولم يكن سبقه إلى المكان إلا نفر قليل فاتخذ مجلسه هادئاً، ومضى يتفحص المكان بعينه الساخرتين، ويتساءل: ترى هل يمكن حقاً أن تنتهي به رحلته في هذه الدار إلى الحكومة؟! وكان تيار القادمين لا ينقطع، وكان في استقبالهم جماعة من الأوانس الحور. وبعد ثلث ساعة من جلوسه تكاثرت عددهم، وتزاحموا نساء ورجالاً. في أمبي الثياب وفاخر الحلل، فشاغ الحسن في كل موضع، وتطابير في الجَوْ شذا العطور، وزاغ بصر محجوب، وترددت عيناه الجاحظتان بين الوجوه الصبيحة، والنحور المتألقة، والظهور العالية، والصدور الناهدة. وجرى دمه بحيوية فائضة، وسرى القلق في أعصابه. وعجب لهله الدنيا الباهرة، أين كانت خافية؟.. هذه الثياب الفاخرة، وتلك الحلي النفيسة. إن واحدة منها تكفي للإنفاق على طلبة الجامعة جميعاً. وهؤلاء النسوة، ما أكثرهن وما أجملهن ولكن من المؤسف حقاً أن كل امرأة يحوم حولها رجل أو أكثر. وأكثرهن يتكلمن الفرنسية بطلاقة، وهن المسلمات الطوالم!. كأن الفرنسية لغة الدار الرسمية، ترى كيف يتفاهن مع الضريرات؟! واجتاحته موجة من السخرية مفعمة حقداً، لا لغيرة على لغة البلاد، ولكن تلمساً لأسباب الكراهية. وتساءل أين صاحب السعادة ابن الست أم سالم؟ وأرسل بصره ناحية المدخل فصادف مجيء سيِّدة باهرة المنظر، عرفها من النظرة الأولى، فذكر القناطر لعهد خلا، وذكر مهندس القناطر الشاب وزوجه الحسناء، أجل كانت حرم

لتنفق على أسرته؟! ثم خطر له خاطر فسأل صاحبه: - ألا يجوز أن مثرياً كبيراً طمع في الفتاة فأراد أبوها أن يزوجه لها؟!

فرفع علي حاجبيه حيرة ولم ينس بكلمة. وكان محجوب قد ذكر غرضه الأول من هذه الزيارة، فأراد أن يمهد له، وكان اعتراف علي قد أحدث في نفسه لذة كبيرة، فسالت نفسه نشاطاً وجوراً، ولكنّه قال لصاحبه بلسان الواعظ:

- لا يجمل بك على أية حال أن تستسلم للحزن، والحق أقول إنه مهما يكن السبب الحقيقي لهذه القطيعة فلا شك في تبعه فتاتك، فهبها كشيء لم يكن، وأودع العلة والمعلول سلّة المهملات..

فقال علي بحزن:

- لم يلتئم الجرح بعد!

- هذا جزء من يهيم بنظرتك في الحب، ألا ترى أن الكلاب تعالج الحب بطريقة أدعى إلى السعادة والراحة؟.. نحن المسئولون عن شقائنا دائماً..

فلازم علي الصمت، واستطرد الواعظ:

- النسيان.. النسيان.. أترضى أن تكون من المجانين الذين يُفسد الحب حياتهم؟

وساد الصمت. وفي تلك اللحظة أضحى سبب قوي مما كان يغض علي طه إليه، فلم يعد يمقته كما كان. خفت وطأة البغضاء، ومضى يقول لنفسه: ما يضيره لو فقد إحسان؟. فلا يزال ذا وظيفة وشباب وجمال! إحسان التي طالما أصلته ناراً، فمن الراحة ألا يفوز بها منافسه وإن فاز بها ثالث غيرهما!. ثم نهض قائماً، متوتباً للهجوم على غرضه، فمال نحو صاحبه وهو يصافحه، وقال بصوت لا يكاد يسمع:

- أستاذ علي.. أخوك في حاجة إلى خمسين قرشاً حتى آخر الشهر؟

ودس علي يده في جيبه ومدّها إليه بما يريد، فتناولها محجوب قائلاً:

- شكراً لك.. شكراً لك أيها الصديق الكريم.

وغادر المكتبة راضياً، وتساءل وهو ينتف حاجبه الأيسر: متى يمتلئ جيبى بنقود الحكومة؟!

فتلقته برزاقته من يالفة، وحتت رأسها تحية للمعجبين، وبسطت بين يديها ورقة. ونظر محجوب إليها طويلاً، ثم سمع أحمد بدير يقول بصوت منخفض:  
- السيدة إكرام نيروز منشئة الدار..  
أجل. عرف ذلك بدهاءة، تُرى أي دور ستلعبه في حياته؟

واستدرك أحمد بدير قائلاً:

- إنها عجوز ولكنّها مغرمة بالشباب!

وأدرك أنّ أحمد بدير لن يمك - كعادته - وسرّ لذلك أيّما سرور، لأنّه من المحق أن يقتحم الإنسان دنيا جديدة بغير دليل. أمّا السيدة إكرام نيروز فراحت تلقي كلمة الافتتاح بصوت هادئ متّزن جميل. رحبت بالحاضرين، وأثنت على عواطف الخير التي تعمر صدورهم، ثمّ تكلمت عن جمعية الضريرات وهدفها السامي. ألقت كلمتها بالعريّة، فلم تكذ تنجو كلمة من خطأ نحويّ ولحن. وتبادل الصحابان الابتسام، وقال أحمد:

- لا تحزن فالدار خالية تمّن قد يفتن إلى الخطأ..

فقال محجوب كالمعتد:

- مغفور لها الخطأ، أليست تخطب بلغة أجنبيّة؟

ثمّ شاهد الحاضرون فصلًا من مسرحيّة لموليير. وغتّت مدام تارد أغنية فرنسيّة عالميّة، وتركت في النفوس أبلغ الأثر، ثمّ دعي الجميع إلى بهو آخر مستدير، أعدّ للرقص، فتصدّرته فرقة موسيقيّة إيطاليّة، ورصّت إلى جوانبه الموائد، وعزفت الموسيقى، ورقص الراقصون: ودارت الكئوس مترعات. ووقف الصديقان عند مدخل إحدى الشرفات يشاهدان الرقص ويتحدّثان. كان محجوب يرى الرقص لأوّل مرّة، فأثار دهشته وإعجابه، رأى الصدور تكاد تلمس الصدور، والأذرع تحيط بالخصور، فعجب كيف يتمالك هؤلاء أنفسهم! وتمنّى لو كان من الراقصين. وتفحص الوجوه بعينه الجاحظتين القلقتين، وهمس لنفسه: «المال. المال هو السيادة وهو القوّة، هو كلّ شيء في الدنيا!» وعثرت عيناه بندي ناهد تكاد حلمته تثقب الفستان الأبيض

حمديس بك دون غيرها، وقد جاء وراءها البك نفسه، وتبعته تحية وفاضل! وعلق بصره بالأسرة وهي تمضي إلى مقاعدها من الصّف الأوّل، وتورد وجهه الشاحب، وعادت إلى ذاكرته رحلة الأهرام، فخال أنّه يسمع صفقة باب السيّارة وهو يغلق دونه!.. وقرض أسنانه وشعر برغبة جهنميّة إلى البطش بهذه الفتاة الأنيقة المتعجرفة!.. أه لو تأبّطت ذراعها حسناء من هؤلاء الحسان فسار بها أمام أسرة «قريبه»! تلك الأسرة الكريمة التي تجسّمت المجيء إلى هذا البهو في سبيل الإحسان والرحمة! ينبغي أن يسود بلا قيد ولا شرط، فلا ضمير ولا خلق، ولكن متى يجلس معهم في الصفوف الأماميّة! في لباس السهرة الفاخر لا في بدلة الصحافة هذه!!؟. وقيل أن يفيق من أفكاره رأى عن بُعد الأستاذ سالم الإخشيد يثّق طريقه إلى الأمام في مشيته المتهلّة، ووزانته المعهودة، كأنّ البهو لا يحوي سواه.. وكان يجي برأسه كثيرًا من الطبقة العالية نساء ورجالًا، فظّل يتابعه بناظره حتّى جلس، وقد ملأه إعجابًا وحسدًا. هذه هي الحياة الحقّة، الحياة الممتعة، الحياة التي ترضي الغرائز جميعًا. الإخشيد مثله الأعلى. ونعم المثل الأعلى هو. وشعر عند ذاك بيّد توضع على كتفه، فالتفت إلى يمينه فرأى الأستاذ أحمد بدير يجلس في المقعد الملاصق، فتصافحا بحرارة، وسأل محجوب قائلاً:

- ما الذي جاء بك يا أستاذ؟

فنظر إليه الشاب نظرة كأنّما يقول له ما الذي جاء بك أنت؟.

وأجابه كالدهاش:

- عملي!.. أليست مندوب الجريدة؟

فقال محجوب:

- وأنا مندوب مجلّة النجمة!

وضحكا معًا. وهمّ أحمد بدير أن يسأل صاحبه عمّا إذا كان ينوي الاشتغال بالصحافة، لولا أن رفعت الستارة، وبدت على المسرح سيّدة جليّة، ذات جيّن وضّاح، ووجه مستدير مهيب، لم يذهب كلّ جماله على اقترابها من الستين، وقوبلت بتصفيق حادّ متواصل،

موقفنا هذا عناء ما بعده عناء: كنت إخال الناس جميعاً وكأن لا عمل لهم إلا تفحصي من الرأس إلى القدم. وأنت؟

فذكر محجوب ملايسه، ووجهه الذابل الشاحب، فتصاعد الدم إلى خدييه، ولكن سرعان ما استعدى جسارته واستهانتة فقال بصوت هادئ:  
- في موقفنا هذا يداخطني شعور بأن رجل يجول بين ماشية!

ولم يكذ يتّم كلامه حتى وجد نفسه أمام حمديس بك، وجهاً لوجه. وخفق قلبه بعنف. ونظر إليه نظرة حاول ما استطاع أن ينقيها من أي الخوف والاضطراب، وتساءل ترى كيف يواجهني؟.. ما عسى أن يقول؟ ما عسى أن يفعل؟.. أما حمديس بك فقد عرفه، ولاحت في وجهه ابتسامة، ومد له يده قائلاً:

- كيف حالك يا محجوب؟

وتصافحوا، واقتربا بسلام!.. وتولتته الدهشة.. إذن أخفت تحية الأمر!.. ولم يذُر له هذا بخلد.. وتنبه إلى أحمد بدير يسأله للمرة الثانية:

- أتعرف حمديس بك؟

فأجابه بزهو:

- طبعاً.. طبعاً. ابن عمّ والدني!

- وكيف لم تحدّثنا عن هذه القرابة العظيمة؟

فأجابه محجوب بنفس اللهجة، وكان لا يزال متأثراً بسرور النجاة:

- طظ!..

وهبط الأدرج إلى الحديقة، ومضت عيناه تبحثان عن سالم الإخشيدى، ومتى يقدّمه إلى السيّدة؟.. وهل من فائدة ترجى؟.. ومرّ بجماعات النساء والرجال، وشاهد نخبة من الرجال المعروفين، منهم المتحفّظون، ومنهم من أطلقوا لأنفسهم العنان. ولفت نظره شخص غريب المنظر، ضخم الجسم في غير تناسق، مكرّش، كأنه مادة حيوانية لم تسوّ بعد، يمشي منفرج الساقين كأنه ذو داء. بيّد أنه بدا أثيراً محبوباً مكرّماً، يحدث العظام بغير كلفة، ويمازحهم ويعلو

الشّفاف، فحمي دمه، ورفع بصره ليرى وجه صاحبتّه، فرأى عجوزاً دميمة على فرط تهتكها، فلنكز صاحبه ولفته إلى السيّدة هامساً:

- كيف يكون هذا الثدي لهذه العجوز؟

فألقي أحمد بدير على المرأة نظرة شاملة: وابتسم كالساخر، ثمّ قال:

- وكيف تكون هذه الحفلة الخيرية في حانة؟!؟

فقطّب محجوب غاضباً، أو متظاهراً بالغضب وقال:

- لتذهب الضريرات إلى الجحيم.. الحانة خير

وأبقى!

وجال ببصره مرّة أخرى فرأى تحية حمديس! رآها تراقص شاباً جميلاً مفتول العضلات، له طول مأمون رضوان، ومتانة بنيان عليّ طه: فشعر أنه - الشاب - يستطيع أن يقبره بضربة واحدة. وتجهّم وجهه، وسأل أحمد بدير عنه، فقال الشاب:

- وكيل نيابة واحد أبطال التنس المعدودين..

وتنهّد محجوب. ولو أمكنه - في تلك اللحظة - أن يصير عظيماً ولو بجريمة ترمي به إلى جبال المشنقة لما تردّد! ما الذي منع من أن يكون أحد هؤلاء الشبان؟! الدنيا جميعاً القوى الكؤوبية التي خلقت التاريخ، وصنعت الطبقات، وقسمت الحظّ، وجعلت عبد الدائم أفندي أباه، والقناطر مسقط رأسه. وهنا سمع أحمد بدير يهمس إليه متعجباً: «انظر إلى الشرفة» وأدار رأسه إلى داخل الشرفة: فرأى سيّدة تكاد تخفي وجهها بمروحة من ريش النعام، وعلى يدها ينحني رجل متقدّم في السنّ، فلما استوى واقفاً، عرفه من الصورة التي تنشرها له الجرائد من آنٍ لآخر، قال أحمد بدير:

- هذه حرم أنيس بك إبراهيم، والباشا من المعجيين بها، ويقال إنّها تسعى لمنح زوجها الباشوية! وكفّت الموسيقى، وهرع كثيرون إلى الشرفات والحديقة، فتحوّل الشبان إلى الشرفة، دخلاً معاً، قال أحمد بدير:

- في أول عهدي بحياة المجتمعات كان يكلفني

جميعاً رقصة فاتنة التصوير، دقيقة التعبير، أخذت بمجامع القلوب، حتى همس أحمد بدير بأغنية سيد درويش «دا بأف مين اللي يألَس على بنت مصر بأنه وش» وصَفَّق الجمهور للراقصات بحماس وإعجاب.

وأعلن بعد ذلك عن مسابقة الجمال، فسرت في الحاضرين هزة شوق واهتمام، وشملهم سرور عجيب. وظهرت على المسرح هيئة المحكمين. كانت المسابقة أمتع ما في السهرة، بل كانت المشهد الوحيد الذي أجمع الحاضرون على الاهتمام به. وقد تفحص أحمد بدير المحكمين بإمعان. ثم جرت على شفتيه ابتسامة خفيفة ساخرة، وأبرز من جيبه بطاقة كتب عليها كلمة أو كلمتين وطواها حتى صارت كالعويد، ودسها في جيب محبوب وهو يقول:

- دع هذه البطاقة حيث هي حتى تعلن النتيجة، ثم ابسطها تجد اسم ملكة الجمال!

فسأله محبوب بدهشة:

- وكيف عرفته؟

- صه.. انتباه!

وتركز انتباه الجميع في مكان واحد، ودعا الداعي أولى المسابقات، فطلعت في سماء المسرح كالكوكب النير في بهاء وأناقة. وكانت ترفل في ثوب من الحرير الأبيض، وتبسم ابتسامة توحى بالهدوء واللفظ، بيد أنها أخفقت في إخفاء ارتباكها، وقال أحمد بدير بأسف:

- في أوربًا تبدو المسابقات عرايا! أما نحن فنفتح بالحكم على الظواهر..

فتساءل محبوب ساخراً كعادته:

- ولماذا لا يختارون المحكمين من المطلعين؟!

وحلقت الأعين، وأمسك كثيرون بالنظارات المكبرة، وأثبت البعض ملاحظاتهم في مذكرات. واستمرَّ العرض والفحص بلا سأم ولا ملال. وتتابعت الوجوه كالأقمار. ثم اختفت هيئة المحكمين للمداولة فتصاعد اللغظ، وعلا النقاش، وتراهن كثيرون. وعادت اللجنة بعد قليل وأعلنت اسم الفائزة: أنسة هدى حيدر، فصَفَّق الجميع، وصَفَّق والدها في مقدّمة

صوته بينهم بغير مبالاة، ويقهقه عاليًا. وعجب محبوب لشأنه، وسأل صاحبه عنه قائلاً:

- ومن هذا أيها العارف بأمر الناس؟

فضحك أحمد بدير وقال:

- كيف لا تعرفه؟.. عزوز ضارم. كان يومًا موظفًا محترمًا، ثم اضطرَّ إلى الاستقالة لأسباب خلقية، فاشتغل بالأعمال الحرّة، وعرفه أناس من ذوي النفوذ، فأعيد إلى الخدمة وسار قُدّمًا.. ولكنّه لم يهجر أعماله الحرّة!

- وكيف يجمع بين الاثنين؟

- عمله الحرّ شقته الأنيقة، فيها مائدة للقمار، وفيها

الحسان الكواعب الحور!..

وتفكّر محبوب مليًا، وانقبض صدره، وتكدّر صفوه، كيف يتاح له التفوق في مثل هذا المجتمع؟! إنهم يعملون بمبادئه بغير حاجة إلى تفلسف، ولن يمتاز دونهم باستهتار أو جرأة. فما الفائدة؟! أليس من الأفضل أن ينقلب مصلحًا كمامون رضوان أو كعليّ ظه؟! وقطع أنكاره ظهور شابّ كالقمر، ممشوق القوام، بديع الحسن، ناعم البشرة، فاتن العينين، أخذ الملامح، لامع الشعر، يخطر كالغزال نافثًا سحر الأنوثة والذكورة معًا. فما تمالك أن تتمم قائلاً:

- لله ما أجمله!.. أتعرفه؟

فقال أحمد بدير مبتسمًا:

- أحمد مدحت. أشهر من نار على علم، يدعونه

بحقّ كوكب الشرق!

- موظّف؟!

- بينك مصر. متخرّج في الحقوق منذ عام. مرتّب

ثلاثون جنيهاً.

- ثلاثون جنيهاً! ومن كان شفيعه؟

فضحك بدير قائلاً:

- هو شفيع نفسه يا أحمق!

ورنّ جرس يدعو المبعثرين في جوانب الحديقة إلى بهو التمثيل. فعادوا جميعًا وأخذوا مجالسهم بهدوء ونظام. ورفعت الستارة بعد قليل عن مجموعة من بنات الطبقة الراقية في أردية فرعونية رائعة، ورقصن

٤٧١ القاهرة الجديدة

- إني فخور بالجيل الجديد.. (وأتمت بالفرنسية)  
فقد طفح الإناء بالماء القذر، ولا بد من تطهيره وملئه  
من جديد..

فقال محبوب بالفرنسية:

- هذا حق يا سيدي..

وكان الإخشيدي يقوم لها بدعاية في بعض الصحف  
إما بنفسه أو بواسطة بعض أصدقائه: فرجا أن تضيف  
ما عسى أن يؤديه محبوب إلى أفضاله السابقة. وألقت  
السيدة على الشاب أسئلة تتعلق بثقافته وتخصّصه  
وأماله، فأجاب محبوب بلباقة، وجرى الحديث مجرى  
جديداً، فاستأذن الإخشيدي وصاحبه، وغادر المكان  
وهو يقول له مودّعاً:

- الشيء الكثير يتوقّف على قلمك..

حقاً؟.. أتتحقق أمله رهن بمقاله عن حفلة  
اليوم؟.. وعاد إلى الجيزة متفكراً تستأثر به الأحلام.  
وأرق تلك الليلة كما كان يؤرّقه الجوع في ليالي فبراير،  
تاه في وادي الأحلام والآمال، ثم ذكر طويلاً السهرة  
التي عاش فيها نصف الليل كلّ: جمال الرفاهية،  
ومشاهد النعيم، ومجالي الحسن، وروعة العشق،  
وجنون الإباحية، تلك الحياة الباهرة التي تذوب روحه  
شوقاً إليها..

- ٢٢ -

وعند ضحى اليوم الثاني كان يقطع حجرتة الصغيرة  
ذهاباً وجيئة مفكراً في المقال الخطير. ماذا يقول؟ كيف  
يبدأ؟ وبِمَ يحتم؟ ثم ركّز ذهنه في حصر النقاط الهامة:  
ثم هداه منطقته إلى طريقة لبقة في كشف النقاط  
الخطيرة، فبسط صفحة، وشرطها نصفين بخط رأسي،  
وجعل لكل شطر عنواناً:

الجميع. وأبرز محبوب البطاقة من جيبه، وبسطها،  
فوجد فيها اسم الفائزة «هدى حيدر» بخط واضح،  
فلاحت الدهشة في وجهه وسأل رفيقه:

- ما معنى هذا؟

فابتسم أحمد بدير فخوراً بفراسته وحسن اطلاعه  
على البواطن، ورغب أن يترك صاحبه لحيرته، ولكن  
الأخر ألح عليه، فلم ير بداً من إسكاته، فقال  
بصوت لا أثر للفخر فيه:

- عرفته بطريق المصادفة! رأيت الفائزة منذ يومين  
مع الأعضاء الصحافيين من لجنة التحكيم عند سفح  
الهرم، أيدعشك هذا؟!!

وكره محبوب عبد الدائم أن يدعش حقاً، فتالك  
نفسه، وقال بضجر:

- كلاً لا يدعشني شيء. اختيار الموظفين تزيف،  
رسو العطاءات تزيف، الانتخابات نفسها تزيف،  
فلماذا لا يكون انتخاب ملكة الجمال تزيفاً؟

\* \* \*

وأوشك الجمع أن يفضّ، فذكر محبوب غرضه:  
ورأى الأستاذ سالم الإخشيدي يتّجه نحو أحد  
الأبواب، فودّع صاحبه ومضى نحوه. وكان الأستاذ قد  
نسيه تماماً، فتصافحا، وسارا معاً إلى الباب المقصود،  
ودخلا حجرة كبيرة فاخرة الأثاث جلست السيدة نيروز  
في صدارتها مع نفر قليل من أصحابها. وأهاب  
محبوب بجسارته أن يخونه الارتباك. واقترب مع  
صاحبه من السيدة الجليلة، وانحنى الإخشيدي على  
يدها مسلماً، وقدمه إليها بصوته الرزين الهادئ:  
«الأستاذ محبوب عبد الدائم، مندوب النجمة!، من  
خريجي الجامعة المعجيين بما أحدثت عصمتك من  
نهضة رائعة». وانحنى لها محبوب فمدّت له يدها  
قائلة:



- | الحقيقة                                       | ما ينبغي أن يكتب                               |
|---|--|
| ١ - إكرام نيروز كريمة رجل من صنائع الاحتلال.  | ١ - أسرة إكرام نيروز وعراقته في الوطنية.       |
| ٢ - غرامها بالشبان.                           | ٢ - زوج وفيّة وأمّ بارّة.                      |
| ٣ - تفوّقها في الفرنسية وعجزها في العربية.    | ٣ - اغترافها من الثقافتين العربيّة والفرنسيّة. |
| ٤ - دار الضريبات حانة.                        | ٤ - مشروعاتها الخيريّة.                        |
| ٥ - مدعوّوها على مثالها.                      | ٥ - مدعوّوها على مثالها.                       |
| ٦ - المدعوّون يهتمّون بكلّ شيء إلاّ الضريبات. | ٦ - عاطفة الخير.                               |

يعهد مثله من قبل. وأمر الساعي ألا يأذن لأحد حتّى يأمره. وجلس محبوب على كذب منه، فالتفت إليه الرجل بوجهه المثلث الهادئ، ولكن كان الهدوء هذه المرّة قناعاً يخفي انفعالات عارمة، وقال مبتسماً:

- دعوتك لأمر خاصّ بمستقبلك!

هي الكلمة المرجوة!.. لن يضيع السرور سدى..  
وغلبه الانفعال فقال بصوت متهدج:

- لم أفرغ من المقال بعد!

- دع المقال الآن، وانس إكرام نيروز. سنحت فرصة أجلّ فائدة، كالثمرة الدانية تروم من يقطفها..

فتساءلت عيناه المحملقتان، وقال وهو يزدرد ريقه:

- بعونك أقطفها!

فترتّب الإخشيدى متفرّساً في وجهه بدهاء، لم يلاحظ الآخر - لم يلاحظ شيئاً - ثمّ قال:

- وجدت وظيفة.

وساد صمت وقد تورّد الوجه الشاحب، فاستدرك الإخشيدى:

- درجة سادسة!

- سادسة!!

- سكرتير.

فتساءل لاهئاً وهو لا يصدّق أذنيه:

- سكرتير من؟

فأشعل الإخشيدى سيجارة، غير راحم لهفة صاحبه، وقال متغافلاً عن سؤاله:

هكذا استخرج نقط الموضوع الخطير، ثمّ جلس إلى مكتبه يتهيأ للكتابة، ولكنّه لم يكد يمسك بالقلم حتّى سمع طرّقاً على باب حجّرته - لأوّل مرّة منذ انتقاله من دار الطلبة - فنهض منزعجاً ساخطاً وفتح الباب. رأى جسماً ضخماً يملأ عليه الفراغ، فتذكّره وخفق قلبه خفقة مروّعة، كان ساعي سالم الإخشيدى دون غيره. ورفع عينيه إلى الرجل في تساؤل ولهفة، فقال الرجل مبتسماً ولكن بصوت غليظ:

- سعادة البك يريدك على أن تقابله الآن.

- سالم بك؟

- نعم!

- أين؟

- في مكتبه بالوزارة!

ثمّ قصّ عليه الرجل كيف قصد إلى دار الطلبة كما أمره سيّده، وكيف وصف له البواب مسكنه الجديد. ولكنّ محبوب لم يسمع شيئاً، كان يرتدي ثيابه بسرعة وهو يقول لنفسه: ماذا هنالك؟!.. أيّمكن..؟! ولكنّ بهذه السرعة..! إنه لسحر مبيّن! هذه المرأة إمبراطورة.. بل شيطانة.. بل إلهة.. آه.. لشدّ ما أخاف أن تكون الدعوة لسبب آخر فيضيع هذا السرور الجنونيّ سدى!.. ولكن لأيّ سبب يدعوه إن لم يكن لهذا؟!..

وذهب إلى الوزارة فبلغها في منتصف الثانية عشرة، وقصد إلى حجرة الإخشيدى، فاستقبله هذا بلطف لم

٤٧٣ القاهرة الجديدة

فتنهّد محجوب، وواتته جسارته المعهودة فقال  
بتسليم:

- إذا قبلت . .

فابتسم الإخشيدى ابتسامة مأكرة وقال:

- بداية حسنة ولكنّها ليست كلّ شيء .

ماذا يريد الشيطان؟ . . ليس الأمر كما حسب أول  
وهلة. ليس الزواج كلّ شيء، فإذا تحوي «كلّ شيء»  
هذه؟ . . وسمعه يقول بصوته البغيض:

- ولكنّي متفائل بجسارتك وبسرعة بتكّ في الأمور،  
الوظيفة في مكتبنا هذا، وكنت شاغلها لأسابيع خلت  
وظيفة سكرتير قاسم بك فهمي .

يا للعجب. أيصدّق هذا؟. أيمكن حقًا أن يجود  
الدهر بكلّ هذه السعادة؟. ولماذا يختاره الإخشيدى  
وما يعهده ذا مروءة أو أرحميّة؟ إنّه يطالبه - نظير هذه  
الوظيفة - بالزواج، فأبى زواج هذا؟. أجل أيّ زواج  
هذا. . . وأخفى حيرته وقال بسرور:

- يا لها من سعادة كالحلم. جزاك الله عنيّ خيرًا .

فابتسم الإخشيدى وقال وقد ازداد اطمئنًا  
وجسأة:

- دعني أتكلّم عن الزوجة .

فأحدث لفظ «الزوجة» في نفس الشابّ هزّة،  
وتطلّع إلى الإخشيدى بعينين متسائلتين كأنّهما تسألانه:  
«من هي؟ . . ما صورتها؟ . . ما معنى زواجي بها؟»  
فقال الإخشيدى:

- فتاة كريمة من «دائرة» قاسم بك فهمي .

دائرة. وتساءل الشابّ بارتياح:

- قريته؟

- قاربت الحقيقة. . . هي من معارفه!

فتغابى محجوب وتساءل مزردًا ريقه:

- معرفة جوار، صداقة والدين؟

فقال الإخشيدى ببساطة واستهانة:

- قاربت الحقيقة، سعادته صديقها هي بالذات!

وبدت الحقيقة سافرة. وأدرك ما يراد به. وعرف  
ثمن الوظيفة الفاخرة. إنّ الإخشيدى لا يرسل  
الساعي في طلبه حبًا في سواد عينيه، ولكنّ ليستغلّ

- الفرصة الجميلة كنز لمن يبتليها، حسرة للمتردّد.  
أتذكر كيف كان فيضان المسيسيّ من سنوات بركة  
على قطن بلادنا البائر؟

فاحترق الشابّ لهفة وقال بعزم أكيد:

- محال أن أتردّد يا سعادة البك .

فسرّ الإخشيدى لتلهّفه، واطمأنّت نفسه القلقة  
بعض الشيء، ثمّ قال:

- سبق أن أفهمتك أنّك يمكن أن تأخذ إذا رضيت  
أن تعطي!

أن تعطي؟! ماذا يملك لكي يعطي؟ . . وغصّ  
بخيبة لم يتوقّعها، فانطفأ بريق عينيه، وقال بصوت  
كبير متسائلًا:

- ولكن . . ولكن كيف أعطي؟ .

- ليس المال بالعملة الوحيدة المطلوبة في سوق  
الفرص «وتنهّد محجوب بصوت مسموع» ومن سجايا  
الإنسان ما لا يقوم بمال. المسألة لا تعدو هذا: أنّت  
جسور ذكيّ حقيق بالطيّبات، أم أنت تَمَنّ تلقي بهم  
الأوهام على شاطئ الحياة فتطوهم النعال كالتراب؟ .

فلاحت الحيرة في العينين الجاحظتين، حتّى خلغ  
الشابّ طربوشه ومسح على شعره المفلفل، ثمّ لبسه  
بسرعة، وقال:

- أرجو أن أكون عند حسن ظنّك . .

- لهذا دعوتك، وما خابت فراستي قطّ .

ونظر إلى محجوب بعينه المستديرتين وسأله:

- أتقبل أن تتزوّج؟

فتولّته الدهشة. لم يخطر له الزواج على بال، فلم  
ينبس بكلمة. وكان الإخشيدى لا يزال مصوّنًا إليه  
عينيه. فقال بلهجة ساخرة:

- جاء دوري لاستحاثك .

- ألا يمكن أن أعطى مهلة للتفكير؟

فهزّ الإخشيدى منكبيه استهانة وقال:

- ظننتك أشدّ رغبة. لماذا أنتظر؟ يوجد ألف

عروس وعروس ولا بدّ من اختيار واحد اليوم . .

- اليوم؟ .

- بل الساعة .

كلّ هذه الأشياء، فينبغي أن يختار دون تردّد. التردّد معناه أنّه لا يزال غير أهل لفلسفته الجسور. تبا له. أينسي ليالي الجوع؟ أينسي الفول المدمس؟ أينسي التخيّط في شوارع القاهرة شحاذًا متسولًا؟. عليّ طه في المكتبة ومأمون رضوان في طريق باريس ويتدرد؟! حمديس بك لا يكلف نفسه مجالسته خمس دقائق ويتدرد؟! ونحيّة - وهنا تميّز غيظًا - أغلقت باب السيارة في وجهه ويتدرد؟! وتنف حاجبه الأيسر، ورفع عينيه إلى صاحبه وسأله:

- من هي؟ أريد أن أعرف كلّ شيء؟

فقال الإخشيدى:

- ستعرف كلّ شيء في حينه، ولن تكون من الآسفين.

فرفع محجوب حاجبه استهانه وقال:

- ليكن. فمتى يكون التعيين؟

- ٢٣ -

فتنهّد سالم الإخشيدى بارتياح، وقال وهو ينهض قائمًا:

- تعال أقدمك إلى البك.

وتبعه على الفور بأذلاً جهده لضبط عواطفه. ودخلا حجرة فاخرة، رأى في صدرها مكتبًا كبيرًا يجلس إليه البك. واقتربا من المكتب في احترام حتى كادا يلمساه. ورأى الإخشيدى يتنازل مرّة واحدة عن جلاله، وينحني على يد البك في خشوع، ففعل مثله، ولمّا اعتدل في وقفته ألقى على الجالس نظرة خاطفة. كان في الأربعين، معتدل القامة، جميل المحيّا، أنيق الملبس والهندام، صغير الشارب جميله، يدلّ مظهره على أنّه إمام من أئمة مدرسة الغزل. وقد قدّمه الإخشيدى إليه، وأثنى عليه، فرحّب به في تحفّظ مقصود، وسأله:

- هل أنت من متخرّجي هذا العام؟

فأجاب محجوب بالإيجاب، فقال له البك:

- أرجو أن تكون عند حسن ظنّ الأستاذ الإخشيدى بك.

ثمّ مدّ له يده إيدانًا بانتهاء المقابلة! وقد تعمد أن يجعلها مقابلة رسميّة حتى لا يلعب الغرور برأس

بؤسه. وإنّه ليمقت الإخشيدى ولكن ليس هذا بيت القصيد. لقد تضرّج وجهه بالاحمرار، وأحسّ الحرارة تسري في رأسه، فجعل يستصرخ ما جُبل عليه من جسارة وفجور. أجل ما الذي ينجله؟.. ما الذي يؤله؟.. أيؤمن بالزواج؟. أيؤمن بالعقّة؟. أيشعر بإهانة في تصريح صاحبه؟. إنّ الحياة تنبري لامتحان فلسفته، لتثبت بالتجربة المحسوسة إن كانت سفسطة وجدلاً أو عقيدة وعملاً، فيا أيها الاضطراب زل، ويا أيها الغضب اسكت، وليتحدّث عن الزوجة الساقطة كما لو كان يتحدّث عن درجة حرارة الجوّ في البرازيل. فدعا استهانه وسخريته، وسأل صاحبه:

- عذراء؟!

فقال الإخشيدى مبتسماً:

- كانت!

ولاذ بالصمت هنيهة، وكان الوجه الشاحب لا يزال متورّداً. واستدرك الإخشيدى:

- لا تحسبنّ عظمة الرجال بمعصومين، والبك جاذ في إصلاح خطئه. فإذا شاطرته مقصده النبيل، ظفرت برضاه، وهيأت لنفسك مستقبلاً حسناً. ومثل هذا العمل يتطلّب قلباً كبيراً وعقلاً واسعاً، وثقافة عميقة، أما إذا تناولت الأمور بمعيار العوامّ فهذا فراق بيني وبينك، ولا توهمنّ أنّي أجري وراءك، فالذين يرضون بما يعرض عليك لا حصر لهم، بيد أنّي أؤثر أن تعمل معي أنت في هذا المكتب لما أعهدك فيك من الذكاء والإخلاص. ثمّ إنّنا جيرة من قديم، ودرجة سادسة كنز.!

إنّه يدرك البواعث الخلفيّة التي جعلت الإخشيدى يرسل إليه ساعيه. إنّه يروم خدمة مولاه واكتساب رضاه. ولعلّه إن لم يظفر بزوج طيب للفتاة التي اعتدى البك عليها اضطرّ أن يقدم نفسه كبشاً للتضحية. هذا واضح ومفهوم. ولكن هناك حقائق أخرى أولى بها أن تدكر. هنالك وظيفة سكرتير، وهنالك الدرجة السادسة، أفيجوز أن يضحّي بها؟ ولماذا؟. أيشعر بما يدعونه غيرة على العرّض؟.. حاشاه. أيصلّدق فيما يسمّونه الشرف؟.. تبا له. لقد قال كلمته الأخيرة في

- لا تكثر لهذا...  
فتساءل الآخر بانزعاج:  
- كيف يمكن هذا!  
- أنت كثير الأسئلة، قليل الصبر. اعلم يا أستاذ  
أن البك قد اكرت هذه الشقة لمدة عام!  
فتبلبل فكر الشاب، وسأل بمكر:  
- لو ترك لي الخيار لاخترت مسكنًا مصريًا.  
وابتسم الإخشيدى ابتسامة دلت على احتقاره لكر  
صاحبه، وقال باستهانة:  
- المساكن الإفرنجية ينعدم فيها التطفل، فإذا رأى  
البك أن يزورك، زارك في أمن من المتطفلين.  
وصوب بصره نحو المتكلم فوجده يتظاهر بالنظر في  
بعض الأوراق وشعر مرة أخرى بالدم يتصاعد إلى  
رأسه، وخفق قلبه بعنف، وذكر- لا يدري كيف-  
زميله أحمد بدير وحفلة السيدة إكرام نيروز، وتخيّل  
نفسه جالسًا في الحفلة، وصاحبه الصحافي يومئ إليه  
خفية من بعيد ويحدّث! دائيًا الناس، الناس دائيًا..  
أترك الناس يحطمون سعادته؟  
أيها يفضل؟ أن يكون من المجدودين وليقل أحمد  
بدير ما يشاء، أم يكون من البائسين ولا يجد الصحافي  
ما يقوله عنه؟... وقطب غاضبًا، ألا يزال  
مترددًا؟.. كيف نسي «ظط» العزيزة؟ يا له من جبان  
حقير. واشتد غضبه. ثم نظر إلى صاحبه وقال بحدة:  
- ليكن...  
فقال الإخشيدى:  
- سأنتظرك عصر اليوم.

وفيا هو يغادر حجرة المدير وقع نظره على حجرة  
تقابلها كتب على لافتتها «السكرتير الخاص» فخفق  
فؤاده. ومضى إلى الخارج. وجعل يحدث نفسه: قرنان  
في الرأس، يراها الجاهل عارًا، وأراها حلية نفيسة.  
قرنان في الرأس لا يؤذيان. أما الجوع... سأكون أيّ  
شيء، ولكن لن أكون أحق أبدًا. أحق من يرفض  
وظيفة غضبًا لما يسمونه كرامة. أحق من يقتل نفسه في  
سبيل ما يسمونه وطنًا. أحق من يضيع على نفسه  
لذة لأيّ وهم من الأوهام التي ابتدعتها الإنسانية. كلّ

الشاب، وعاد إلى حجرة الإخشيدى، ورآه محبوب  
مختلًا فخورًا، فامتلاً حنقًا عليه، ولكن حنقه لم يدم  
طويلاً، لأنه - رغم كل شيء - كان راضيًا، وسأل  
بأدب:

- متى يتمّ التعيين؟  
- هذا عليّ هين. ستكتب اليوم مذكرة تعيينك،  
فجهز مسوغات التعيين، ويتمّ كل شيء إن شاء الله في  
بجر أيام. أما الآن فدعنا ننجز الأمر الآخر...  
(وسكت لحظات) تكرم بالحضور إلى بيتي عصر  
اليوم...  
فتساءل محبوب بدهشة:

- لماذا؟  
فقال الآخر بهدوء:  
- لتعقد زواجك.  
فقال محبوب بانزعاج:  
- أليس من الأفضل أن تؤجل هذا إلى ما بعد إتمام  
التعيين؟

- وله؟  
فقال الشاب مبتسمًا:  
- حتى أتريش...  
- أستاذ محبوب خير البر عاجله، سيدفع لك بمبلغ  
محترم تستعين به على الزواج حتى تقبض أول مرتب،  
ولن يكلفك الزواج شيئًا، شقة العروس في انتظارك،  
وما عليك إلا تجهيد ملابسك!

فاستولت الدهشة على الشاب الذي لم يكن يتصوّر  
أنّ كل شيء مهيا على هذا الوجه. كانت المصيدة مجهزة  
تنتظر فأرًا. ووقع الفأر. ترى أيها غسل أم سم؟  
- ألا تعطيني مهلة، أسبوعًا؟  
- العقد اليوم ليظمن قلب والدي العروس، أما  
الزفاف فبعد التعيين.

فتهدّ محبوب مستسلمًا، وسأله:  
- وأين شقة... العريس...؟  
- شارع ناجي، عمارة شليخ شقة رقم ٤.  
فقال الشاب بدهشة:  
- هذا حيّ إفرنجي، إيجاره مرتفع بغير شك!

أخلاقها وأحوالها؟! قلبه يحدّثه بأنّها جميلة وإلاّ ما جذبت شخصاً كقاسم بك. ولكن لا شكّ كذلك في أنّها فقيرة كما يدلّ اختياره زوجاً لها، والفتاة الغنيّة لا يعوقها عن الزواج عائق. والشرف قيد لا يغلّ إلاّ أعناق الفقراء. ترى ماذا تحبّي له هذه الحياة الزوجيّة؟ كيف يكون شعوره نحو زوجه غداً؟ وكيف يكون شعورها نحوه؟ وما هي حقيقة الرابطة التي ستربطها معاً؟! وكيف يستقبل البك إذا جاء لزيارته! يا لها من حياة، ويا لها من تجربة. غداً تمتحن فلسفته وقوّته. إنّه يسير نحو هدفه لا يلوي على شيء. ولا يستطيع عقله الآن أن يجد حلاًّ لجميع المشكلات التي ينطوي عليها الغد. ولكنّه إذا واجهها فسيعرف كيف يقهرها، وينتصر عليها كما انتصر على كلّ عقبة في ماضيه. وداخله شعور بالثقة والزهو والخيلاء، فسار بقدمين ثابتين وانتهى إلى بيت الإخشيدى، وفتح له الرجل بنفسه، ثمّ مضى به إلى حجرة نومه وسأله:

- أنت مستعدّ؟

فقال محبوب وهو يتبسّم ليستبقي ثقته بنفسه:

- كما ترى يا بك.

ونظر إلى الإخشيدى فلم ير ما اضطرّه قديماً إلى إجلاله، وشعر في أعماقه برغبة في تحدّيه والاستهانة به. قال الرجل:

- سيأتي المأذون عمّا قليل...

فابتسم محبوب وقال بغرابة:

- المأذون!

فقال الإخشيدى مبتسماً أيضاً:

- سندخل دنيا يا عمّ. والآن دعني أقدمك إلى

العروس والديها.

وتبع الإخشيدى خافق الفؤاد، تلوح في عينيه نظرة تطلّع وما يشبه الخجل والتردد، وكان لا يكفّ عن دعاء جراته وقوته، ويرسل ناظره لرؤية حياته ومستقبله... وسبقه الإخشيدى إلى الدخول وهو يقول:

- هاكم عضواً جديداً في أسر تكم المحترمة...

ودخل وراءه، فوقع عيناه على وجه غريب، رأى

هذا حقّ وجميل. يبدّ أيّ منفعل هائج. لماذا؟! ذلك أنّ العقل لا ينفرد بتوجيه سلوكنا. وبينما يحدث العقل حكمة، يخلف الشعور حماقة. فعلى الحكمة أن تمحق الحماقة وليكن لي أسوة حسنة في الإخشيدى، ذلك الأريب؛ ظفر بوظيفته لأنّه خائن، ورقّي لأنّه قواد. فيالئى الأمام... إلى الأمام.

وكور قبضة يمينه ولوح بها، وحثّ خطاه وقد انبث من عينيه الجاحظتين نور خاطف...

- ٢٤ -

وغادر حجرته عصرًا بعد أن ارتدى بدلة بعناية وأخذ حظه من التأتق والزينة! ومضى إلى طريق المنيرة إلى بيت الإخشيدى. لبث طوال يومه متفكراً. وكان يقطع تفكيره بالتعجب. ثمّ يقول لنفسه وكأنّه لا يصدّق «سأنزوّج اليوم». وكانت الورقة التي يثبت بها نقط الموضوع الخاصّ بحفلة جمعية الضريبات لا تزال على مكتبه! فكيف قطعت الأمور هذا الشوط البعيد؟! تفتّحت أبواب الوظيفة وها هو ذاهب لأداء الثمن، الزواج؟! لا ينبغي أن يدع اسماً يهوله، فما هو إلاّ اسم!.. وكثير ممّا نحسبه حقائق أو قيماً ما هي إلاّ أسماء. هو عادة اجتماعيّة. وفي بعض البلاد يتعدّد الأزواج كما تتعدّد الزوجات في بلاد أخرى، وقد يباح الزنا في بلاد، وكانت الإباحيّة قانوناً في بعض المجتمعات. فليس هناك قانون مطلق للزواج، وليتحلّ بما أثير عنه من شجاعة وجسارة. هكذا مضى بمحادث نفسه ثمّ ذكر في طريقه والدیه!.. وانقبض صدره على رغمه. وفرق. وتفضّد جيئنه عرفاً. تمثّلت له والدته التي تؤمن بأنّه لا يخطئ أبداً. وتمثّل له والده الريفى، بطيبته وتقواه وغيرته. إنّه يتزوّد دون علمها. ولا يدري متى يعلنان، ولكن هل يمتل أن يعلمنا بالحقيقة، لا فلسفته ولا أعصابه بمسّطبعة أن تجعله يواجه مثل هذا التحدي!.. إنّ ذكرى والديه شبح مخيف فليطرده عن مخيلته. ما أحوجه الآن إلى صفاء الذهن وحضور البديهة ورباطة الجأش. أليست عروسه في انتظاره؟!.. يا لها من حقيقة بالخيال أشبه. ترى من عروسه؟.. ما صورتها؟ ما أسرتها؟ ما

إحسان شحاته، إحسان شحاته تركي دون غيرها، والتقت عيناها. .

- ٢٥ -

كانت إحسان شحاته دون غيرها. ولكن غير الفتاة الطاهرة التي أحبها عليّ ظه فتعاهدا على الحب والزواج. حدث تاريخ جديد، بدأ بنظرة عين ثم أعقبتها أمور. حدث ذلك وهي عائدة عصرًا من المدرسة، عند رأس شارع رشاد باشا فيما يلي شارع الجزيرة، أمام القصر المعروف بالفيلاء الخضراء. ولكم مرّت بهذه الفيلا ذهابًا وإيابًا منذ أعوام، ولكن في ذلك اليوم وقعت عليها عينان جميلتان خبيرتان، مغرمتان بكلّ حسن صبيح وشعرت الفتاة بالنظرة الثاقبة فلم يُجَلُّ وقعها من أثر. رأت رجلًا جليل الشأن، إن لم يكن باشا فهو بك، أنيق المنظر، جميل المحيّا، ذا شارب صغير فاتن، يكتنفه جلال وجمال على دقّة جسمه وميله إلى القصر نوعًا. ولعلّ ذلك وحده ما جعلها تلتفت إلى الوراء بعد أن ابتعدت أذرعًا، فوجدته مصوَّبًا نحوها عينين أحسّت - في حياء - نفاذها وحرارتها!. كانت الفيلا ملكًا لمدير شركة إيطاليّ، باعها إلى هذا البك منذ أشهر، وقيل يومئذ إنه موظّف خطير، وتوه البعض باسمه، ولكنّها نسبت ذلك جميعه. وما بلغت دارها الباهتة حتّى كادت تنسى البك ونظرته. في عصر اليوم الثاني - وعند عودتها من المدرسة أيضًا - رأته بموقف الأمس. التهمتها العينان الجميلتان وهي مقبلة نحوه، وتبعها بعد أن جازته. وتساءلت ترى هل وجد ذلك الوقت مصادفة كالأمس أم أنه انتظر اليوم على عمد؟! وسارت دون أن تلتفت وراءها، وإن ظلّ ذهنها متفكّرًا. وعند منتصف الطريق شعرت بدنوّ سيّارة من الطوار الذي تمشي عليه، فعطفت رأسها إلى يسارها فأرأت سيّارة تكاد توازيها، سيّارة رائعة كأنها فيلاً متحرّكة، ولمحت وراء نافذتها عيني البك ترسلان إليها بنظرة غريبة، فيها ابتسام مستتر، وإعجاب ظاهر، وفجر فاضح. وبطوّت حركة السيّارة حتّى سارت تسابيرها، فتولّأها

الحياء والارتباك، وحثّت خطاها، وابتعدت داخل الطوار. ولمّا اقتربت من دار الطلبة اندفعت السيّارة بسرعة ودارت إلى طريق الجامعة، واختفت عن الأنظار. قطع الشكّ، فهذا غزل. وخالط فؤادها شعور بالسرور والخيلاء، وغلبتها خفة ودلال ورثتها عن أمها فترنّمت بصوت خفيض بأغنية: «التاكسي على الباب مستتيني» ثمّ قالت لنفسها: «ليس تاكسي، ولكنّها سيّارة ولا سيّارات عابدين!». بيد أنّه كان شعورًا بريئًا أحدثه زهو الصبا. أمّا الرجل العظيم الجميل فلم يمك، بل تمادى في غزله يومًا بعد يوم. فلم ترّ بدأ من الاستياء والتجهم له وقالت له عيناها: «هذا سلوك لا يليق». ولكنّه لم يأبه لإندارها. ويومًا رأت إلى جانبه في السيّارة شخصًا جديدًا مثلث الوجه مستدير العينين، ثمّ استمرت المطاردة وعنفت، حتّى باتت الفتاة في حيرة. كانت تحبّ عليّ ظه فأرأت أنّ من المنطق أن تنتهي هذه المطاردة الملحّة. ومن ناحية أخرى لم يترك البك الجميل في نفسها أثرًا سيئًا، وعلى العكس من ذلك أبهج نفسها ولوعه ونظرة عينيه الجذّابتين. وقالت لنفسها متألمة: إنه على كهولته أجل من عليّ وأروع منظرًا، ولولا أنّ قلبي قال كلمته لما دريت كيف أصدّه عن صاحب السيّارة العظيم!. وجعلت تتساءل مغيظة: هل أروعوي؟ متى يغيب عن ناظري؟ متى يبعد عن سبيلي؟! ولكن هل كانت صادقة في تساؤلها؟ أو لأيّ درجة كانت صادقة؟ فلم تجد لذلك جوابًا صريحًا. باتت في حيرة من أمر نفسها. وراحت تقول لنفسها كالمعتدّة.. إن كانت تسرّ لمطاردته.. فما ذلك إلّا إرضاء لغرورها الأنثويّ وتأثّرًا بمقامه الكبير. وما تدري يومًا إلّا وأبواها يقول لها بلهجة ذات معنى - وكانت راجعة من المدرسة - «الم تنوي إلى رشكك بعد؟!». واضطرب فؤادها، وتورّدت وجنتاها. هل يعلم الرجل بما يحدث في شارع رشاد باشا؟! ربّاه، أدائها هو بالمصاد لها؟! ونظرت إليه نظرة المتسائلة المتجاهلة، فقال وكانت أمها لحقت به: «رجل لا يقلّ مقامًا عن وزير وأعظم جاهًا وثروة، ألا ترين سيّارته؟، ألا ترين قصره؟. فإذا تريدن؟!»،

كانت إحسان شحاته دون غيرها. ولكن غير الفتاة الطاهرة التي أحبها عليّ ظه فتعاهدا على الحب والزواج. حدث تاريخ جديد، بدأ بنظرة عين ثم أعقبتها أمور. حدث ذلك وهي عائدة عصرًا من المدرسة، عند رأس شارع رشاد باشا فيما يلي شارع الجزيرة، أمام القصر المعروف بالفيلاء الخضراء. ولكم مرّت بهذه الفيلا ذهابًا وإيابًا منذ أعوام، ولكن في ذلك اليوم وقعت عليها عينان جميلتان خبيرتان، مغرمتان بكلّ حسن صبيح وشعرت الفتاة بالنظرة الثاقبة فلم يُجَلُّ وقعها من أثر. رأت رجلًا جليل الشأن، إن لم يكن باشا فهو بك، أنيق المنظر، جميل المحيّا، ذا شارب صغير فاتن، يكتنفه جلال وجمال على دقّة جسمه وميله إلى القصر نوعًا. ولعلّ ذلك وحده ما جعلها تلتفت إلى الوراء بعد أن ابتعدت أذرعًا، فوجدته مصوَّبًا نحوها عينين أحسّت - في حياء - نفاذها وحرارتها!. كانت الفيلا ملكًا لمدير شركة إيطاليّ، باعها إلى هذا البك منذ أشهر، وقيل يومئذ إنه موظّف خطير، وتوه البعض باسمه، ولكنّها نسبت ذلك جميعه. وما بلغت دارها الباهتة حتّى كادت تنسى البك ونظرته. في عصر اليوم الثاني - وعند عودتها من المدرسة أيضًا - رأته بموقف الأمس. التهمتها العينان الجميلتان وهي مقبلة نحوه، وتبعها بعد أن جازته. وتساءلت ترى هل وجد ذلك الوقت مصادفة كالأمس أم أنه انتظر اليوم على عمد؟! وسارت دون أن تلتفت وراءها، وإن ظلّ ذهنها متفكّرًا. وعند منتصف الطريق شعرت بدنوّ سيّارة من الطوار الذي تمشي عليه، فعطفت رأسها إلى يسارها فأرأت سيّارة تكاد توازيها، سيّارة رائعة كأنها فيلاً متحرّكة، ولمحت وراء نافذتها عيني البك ترسلان إليها بنظرة غريبة، فيها ابتسام مستتر، وإعجاب ظاهر، وفجر فاضح. وبطوّت حركة السيّارة حتّى سارت تسابيرها، فتولّأها

عليّ، ولكنّي أحبّ إخوتي كذلك. ولا يجوز أن يذهب إخوتي ضحيةً لأنائيّتي. لذلك - لا شيء آخر - ينبغي أن أذن لأبي. أنا لا أحبّ البك، ولا أحبّ الجاه، والله يعلم بذلك!». وهكذا صعدت إلى السيارة التي ظلت تطاردها بعناد وإصرار. كانت السيارة سحرًا، وكان صاحبها ساحرًا كذلك. كان عليّ طه عاشقًا وناقداً في آن واحد، يحبّ ولُكته ينقد ويعلم ويرشد أيضًا، أما البك فرجل فاتن، منظره جميل، وكلامه لذيذ، ودعاياته جنون وفتون، كانت عيناه بأعين المنومين أشبه، وكان إذا نظر في عينيها الجميلتين وعاطاها الحديث شعرت بتخدير عامّ واستسلام حالم. وجزى الله صبر المعلم شحاته تركي خيرًا، فجاءته يومًا سيارة شيكورييل وأفرغت حمولتها من الثياب الفاخرة! وحركت أم إحسان رأسها على طريقة العوالم وغنت: «حود من هنا وتعال عندنا»، ولاح السرور في عيني إحسان وهي تقلّبها في ألوان الحرير لتختار ما يروقها، وهكذا بدأ تاريخ جديد. ثم كانت نزهة الهرم بعد ذلك بأسابيع. انطلقت السيارة بالبك الجليل، إلى يمينه فلقه قمر تبعث الجنون، والحق أنّ إحسان بعد أن تريتشت وأخذت زينتها وصار شيكورييل ومدمام جريكور الحياطة في خدمتها أصبحت، على حدّ قول البك، جنونًا رسميًا. في ذلك اليوم بيّت أمر. تعطلت السيارة في الطريق فتركها الركابان. وقال البك إنّ له فيلاً على مقربة من المكان واقترح أن يستريح فيها حتّى يتمّ إصلاح السيارة. ومضيا إلى فيلاً جميلة تحيط بها حديقة غناء. ثم قال البك إنّها وقد شرفت بيته الخلوّيّ فينبغي أن يحتفل بزيارتها الميمونة. وأمر خادما فهبّت لها مائدة من التفاح والشمبانيا. وقشّر لها تفاحة وقدم لها كأسا من الشمبانيا وهو يقول لها إنّها شراب غير مسكر ولذيذ. كان الوقت أصيلاً والحياة في أطيب أحوالها. كانت النافذة تشرف على خضرة يانعة يتيه فيها البصر، والسماء موزدة الوجنات بحمرة الشفق، والحدأة تويّ مودعة ضاربة بجناحيها، ووسائد الكرسيّ الكبير تلتقاها وكأنتها تضمّمها بحنو، وقداها منغرسين في

فسألته الفتاة بحدّة: «ماذا يريد هو؟» فقال المعلم شحاته تركي بصوت غليظ أخافها على غير عادته: «يريد بك خيرًا، ويريد بنا خيرًا، يريد الله أن يرفعك إلى طبقة السادة وأن يزقّق إخوتك الجياع.. كلمني مدير مكتبه الذي أعرفه منذ عهد تلمذته. سيتزوج منك. نعم. لم لا؟. أنت جميلة، وأنا رجل من صلب كريم. لعن الله الزمن. فحتّام تلوي بوزك؟. افتحي عينيك. أبوك يستغيث بك. وأمك تستغيث بك. وإخوتك يستصرخونك!». واستفاض الحديث. واشتركت فيه أمها. في تلك الليلة لم يغمض لها جفن حتّى مطلع الفجر. قضت الليلة تتقلّب على جنبها وتفكر. وعند عصر اليوم الثاني، في الموعد المعهود، اقتربت السيارة منها وفتح الباب. وتردّدت قليلاً ثمّ صعدت إليها..

كيف وقع هذا؟! ألم تكن تحبّ عليّ طه؟ بلى كانت. ولُكته ليس الحبّ الذي يعمي ويصمّ ليس الحبّ الذي يصمد للتجارب الشديدة والمغريات العنيفة. كانت تحبّ الجاه كذلك وتكره الفقر. كانت تثنّ تحت حمل أسرته الثقيل. كانت الفيلاً منظرًا بديعًا، والسيارة كنزًا نفيسًا، والبك إلهًا من آله الذهب والسلطان. لقد قاومت أوّل مرّة الشابّ الحقوقيّ لأنّها كانت أوّل مرّة. ثمّ راح والداها لا يسكتان عن الإلحاح، وقد جعلها منذ التجربة الأولى في حلّ من كلّ استهتار، بل جعلها عصمتها بيدها، ولولا عليّ لهوت وانتهت من زمن بعيد. بيد أنّها لم تُردّ فيما بينها وبين نفسها أن تعترف بضعفها. تجاذبتها في ليلتها المسهّدة عهود كثيرة وعواطف متباينة. تردّدت بين البك وعليّ طه. بين زوج اليوم وزوج الغد البعيد، بين الراحة والتعب، بين حياة الدعة والاطمئنان وحياة الكدّ والكفاح، بين عيش رغيد لها ولأسرتها وحياة مغالبة لفقر لا يغلب وضنك لا يزول. ثمّ اختارت دامعة العينين، خافقة الفؤاد. وأوهمت نفسها أنّها تضعّي بسعادتها في سبيل الآخرين، وأنّ الليل استقبلها فتاة معدّبة، وطلع عليها شهيدة من الشهداء. قالت لنفسها: «إني أحبّ

خافضة العينين، بوجه كالجمان. كانت تريد أن تسدل على الماضي ستارًا كثيفًا، وأن تفرّ منه إلى الأبد، فرمى بها الحظّ بين يدي واحد من صميم ذلك الماضي، وكأنّه - الحظّ - لم يشبع بها تنكيلاً! وأراد الإخشيدي أن يعالج توترَ الجوّ بالحديث، ولكنّ محبوب لم يُلقِ إليه بالألّ. وكيف له بأن يفعل ثانية عن العجيبة المائلة أمامه؟! هذه إحسان شحاته بلحمها ودمها!. أهذا سرّ مأساة عليّ ظه؟! يا عجبًا، كيف غوت؟! كيف استولى البك عليها؟! كانت ثقة عليّ بها عمياء!.. أهكذا تقع إحسان؟!.. أما هو فلا يعرف الثقة العمياء أبدًا، ومع ذلك قلم يذهب به سوء الظنّ يومًا إلى التنبؤ بما وقع!.. انتهت إحسان التي أحبها عليّ طه، وانتهى ذلك الحبّ القديم، وها هي إحسان أخرى جديدة تمدّ إليه يدًا ليرتبطا بميثاق الزواج... إحسان التي طالما تمنّاها معذبًا محسورًا!. أفليست الحقيقة أغرب من الخيال؟ وتنبّه إلى صوت الإخشيدي يقول له معاتبًا:

- أما تستفيق؟

فنظر إليه بعينين ذاهلتين وتمتم قائلًا:

- إنّي أعجب لهُذه المصادفة.

فسأله الإخشيدي مبتسمًا:

- كيف ترى هُذه المصادفة؟

فقال محبوب بلا تردّد:

- مصادفة سعيدة بلا جدال!

وجعل الإخشيدي يتكلّم عن المصادفة متفلسفًا، وقالت أمّ إحسان كلمة أو كلمتين، وظنّ عمّ شحاته أنّه أحاط بالموضوع حين قال: إنّ المصادفة من صنع الله وبأمره سبحانه. ولكن بالرغم من هذا كلّ ظلّ العروسان غارقين في أفكارهما، وغلب الوجوم والارتباك على جوّ الجلسة. ثمّ رنّ الجرس، فنهض الإخشيدي ظافرًا بالخلاص من التوتّر الشائع حوله، ومضى إلى الخارج وهو يقول:

- لعلّه المأذون يا سادة..

وخفتت القلوب جميعًا، ثمّ دخل الحجره شيخ يتبعه الإخشيدي، وسلّم على الحاضرين، ثمّ دعا الله

سجادة وثيرة. وبعثت الشمبانيا الدفء في العقل، والعقل إذا أحسّ دفئًا تهيّأت له قوّة سحرية يحوّل بها عالم المحسوس إلى عالم أطياف روحية، خالٍ من الخوف والهّم والأحزان. وتساعد همس محبوب أشهى من نفثات الأماني ونقرت على معصمها أصابع مسحورة، تدغدغ حواسّها وتحمل دمها رسائل الاستفزاز، ونفذت أنفاس حارّة متردّدة كشكّات الإبر من جيب فستانها إلى ثغرة صدرها وما بين ثدييها. وجعلت تدافع بساعدين مخذولتين، حتّى يثست، فضمّت بها.

\* \* \*

ونطقت عيناها بالفزع والارتباك والحياء، فقال لها البك بلهجة مطمئنة:

- لا تحسبي أنّي غدرت بك. إنّ مستقبلك أمانة بين يديّ والله على ما أقول شهيد..

- ٢٦ -

التقت عيناها - محبوب وإحسان - في صمت وذهول. وذكر كلاهما صاحبه فتولّته الدهشة والانزعاج واضطرب أيّما اضطراب، ذكرها محبوب فكاد يفقد رشاده. وذكرته إحسان فتولّأها الدهول، وذكرت عليّ طه، ودار الطلبة، والماضي الذي توّد أن تفرّ منه فرازًا. ونظر محبوب فيما حوله فرأى عمّ شحاته تركي في معطف جديد، وسيّدة بدينة أدرك أنّها زوجته. وفتن الإخشيدي إلى ارتباك الجماعة، فقال مبتسمًا:

- لعلّكم لا تحتاجون إلى تعارف..

فقال عمّ شحاته:

- محبوب أفندي جارنا منذ أربع سنوات..

ولم يكن الإخشيدي يجهل هذا - وهو ما جعله يحرص على ألاّ يعرف أحد الطرفين بالآخر قبل مفاجأة اللقاء - قال:

- مصادفة جميلة، والناس تقول: «اللي تعرفه أحسن

من اللي ما تعرفوش» سلّم واجلس يا أستاذ محبوب.

وأفاق الشابّ من ذهوله، فاقترب من آله الجدد

وسلّم عليهم واحدًا واحدًا، ومدّت له إحسان يدها،



يوضّها بزوجها: فلماذا لا يوجد أناس على شاكلته؟ وقد وجد بالفعل واحد، وها هو يجلس إلى جانبها كزوجها، وإنّما لتذكره، وتذكر كيف صدّت هواه حين كانت تملك الصدّ عن هواه. وخالطها شعور نحوه بالاحتقار، ولكنّها لم تتماذّ فيه، وقالت لنفسها تمتعضة: ألسنتُ مثله أو أضلُّ سبيلًا؟! كلانا باع نفسه للجاه والمال.

أجل، صارا زوجين..

- ٢٧ -

وقعت التجربة إذاً وتلقّتها فلسفته بساعدين شديدين، إلا أنّ نفسه لم تخلّ من قلق. بيد أنّ هذا القلق لم يقعه عن العمل بل على العكس جعله أشدّ رغبة فيه، فلم يتسّ غرضه لحظة واحدة، ولم يَضْعُ ثانية بلا نشاط، وكأتمّ وجد في العمل ملهاة عن وساوسه. راح يعدّ مسوّغات تعينه، وكانت أعجبها شأنًا بأنّه «حسن السير والسلوك»، ووقع عليها الإخشيدى وزميل له ممّا جعل محبوب يقول ساخراً: «من يشهد للعروس؟؟».

وتسلّم عشرين جنيتها ليستعين بها على إصلاح شأنه فأخذ الأوراق ذاهلاً لأنّه لم يكن رأى شيئاً كهذا من قبل. وجعل يعبث بها باهتمام، ويتفرّس فيها بغرابة وإنكار. هذا ثمن القرنين اللذين يجليّ بها رأسه، كلّ قرن بعشرة جنيتها! ورأى على إحدى الورقات صورة الفلاح، فجرت على فمه ابتسامة خفيفة، وذكر أباه طريح الفراش، المهّدّ بالجوع، وتساءل لماذا لم يَصُوروا أحد الباشوات؟.. أو العلم التركي؟! وقال لنفسه ساخراً: إنّ هذه الصورة شبيهة بأمضائه على عقد الزواج. ومضى بجيبه المتنفخ إلى الخياط وابتاع قماشاً لبدلتين، فأدرك الرجل أنّ الطالب صار موقّفاً، ولم يكن فضل له سوى بدلة واحدة في مدى أربع سنوات الدراسة. ثمّ ذهب إلى الموسكي، واشترى بيجامتين، وقمصاناً، وفانلات وجوارب، وحذاء وطربوشاً، كما ينبغي لعروس! وحزم ثيابه الجديدة في

أن يجعل محضره مباركاً. وجلس الشيخ إلى نضد، شمّر عن ساعديه، وأخذ في عمله البسيط الخطير. وجرت يده المغطّاة بالشعر الغزير على القرطاس، وتابعه عمّ شحاته والإخشيدى، أمّا محبوب فقطّب قليلاً وأخذ بصره ليركّز انتباهه ويطرّد أفكاره، وخفضت إحسان عينيها الساجيتين وقد امتقع لونها. وجاءت الدقيقة الفاصلة، فالتفت المأذون إلى محبوب عبد الدائم وقال له: «كرّر ما أقوله: الآن قبلت زواج الستّ إحسان كريمة السيّد شحاته تركي، البكر البالغ الرشيد إلخ..». وكرّر محبوب قوله بنبرات هادئة، وصوت واضح، لم يعتوره اضطراب حتّى نطقه كلمة «البكر» بيد أنّها وقعت من مسمعه موقعاً غريباً أثار الإخشيدى حين سأله عن العروس: عذراء؟! فأجاب الفاجر باستهانة: كانت؟!.. أجل كانت، فلماذا لا يكتب المأذون: التي كانت البكر؟! تزوير في أوراق رسمية!.. زواجه تزوير، حياته تزوير، الدنيا كلّها تزوير..

ومضى المأذون يلقي الخطبة: الحمد لله الذي أحلّ النكاح وحرّم السفاح. واستمرّ في محفوظاته واستمرّ محبوب في تأملاته. وقال لنفسه: ولكنّ البك حرّم النكاح وأحلّ السفاح!، وجاراه هو على اعتقاده فوقّ على عقد نكاح في الواقع هو عقد سفاح! وصارا زوجين أمام الله والناس!.. واسترق الشاب إلى عروسه نظرة فرأى عينيها محمّرتين تندران بالدموع، فقال لنفسه ساخراً: أوّل الغيث قطر. وتبولدت التهاني، ودارت أكواب الشربات. كان زواجاً غريباً، شعر كلّ من شارك فيه بأنّه يؤدّي واجباً ثقيلاً يؤدّ الفراغ منه في أقصر وقت: ارتاح الوالدان دون أن يستخفّهما فرح أو سرور، وغرق العروسان في وجوم وتفكّر، وغلبها شعور بالقلق والحجل. قد عجبت إحسان في أوّل الأمر، حين علمت أنّه يراد تزويجها، وتساءلت حيرى: أين الذي يرضى بعروس مثلها؟ ثمّ ذكرت والدها المحترم فلم تستبعد شيئاً؟ والدها الذي تعامى عن سقوطها، والذي وصّاه بعشيقها ولم

له بما قد يصله من خطابات باسمه، وكان يفكر وقت ذلك في والديه. ولعلها كانت أول مرة يذكرهما بلا سخط أو تدمر أو غضب، وقد بات في نيته أن يرسل لوالده جنهين كل شهر، بل يزيدهما إلى ثلاثة إن أمكن.

أما غداً، فصباحاً يذهب إلى الوزارة، ومساء يأخذ عروسه إلى عشها الجديد.

- ٢٨ -

واستيقظ مبكراً، ومضى إلى الوزارة، وانتظر الإخشيدى في حجرته، وجاء المدير عند تمام التاسعة، فتصافحا بمودة ظاهرة، وشربا القهوة معاً، وقال له الإخشيدى وهو يهيم مكتبه:

- لا شيء يصدق! أتعلم أن أكثرية طلبات الإعفاء من المصروفات مقدّمة من ذوي اليسار؟ ولم يكن محجوب - في ذلك الوقت على الأقل - ليهتمّ بأمثال هذه الأمور، ولكنه لم يردّ من التظاهر بالدهشة، وقال:

- شيء لا يصدق حقاً.. وكيف يسوّغون التماساتهم؟  
وقال الإخشيدى:

- لا حاجة ماسة إلى التسوية، حسب أحدهم أن يفقه ضاحكاً، وأن يقول لقاسم بك: «ألا يكفيننا هبوط أسعار القطن؟» ثم مزاح فمداعبة فموافقة!  
ثم جعل كعادته يتهمّ من أحوال البلد وتصرفات كبار الموظفين وصغارهم، فلم يسلم من لسانه سوى قاسم بك، ولعلّ ذلك إلى حين.. والتفت إلى محجوب قائلاً:

- لا تنس أن عملك يحتاج إلى لباقة وحسن تصرف للأمر. (ثم غلبه طبعه في التهوين من شأن الغير وأعمالهم) فقال: هو سهل في ذاته، بل هو لعب. لا يحتاج بطبيعة الحال إلى فلسفة أو علم، ولكن إلى لباقة..

فقال محجوب باهتمام:

حقيبة كبيرة وقد تورّد وجهه سروراً وحياء. وألقى على حجرته الصغيرة نظرة شامتة، وذكر ليالي فبراير البشعة، ودكان الفول بميدان الجيزة، تبا لهاتيك الأيام السود. لن تعود أبداً مهما كان الثمن!.. ينبغي أن يتورّد هذا الإهاب الشاحب، وأن يمتلئ ما بين هذا الجلد وهذا العظم، وأن يصفو هذا الذكاء الجبار، وأن يهلك شبح الجوع المقيت. إن النعامة لكي تعيش جعلت رقبتها كالثعبان طولاً، والأسد لكي يعيش جعل قبضته كالقنبلة فتكاً، والحرباء لكي تعيش اصطنعت كل لون. وهذا ما فعله هو على اختلاف الوسائل! أجل، وليكن طموحه لا نهائياً، وطموحه لا حد له، فقد عرّم ثمناً باهظاً ويجب أن يكون الجزاء كالعمل. وتفكر ملياً، ثم وصّى نفسه قائلاً: الحذر؟ ليفعل ما يشاء، ولكن لا يجوز أن يقول إلا ما يشاء الناس. وقد فطن إلى هذه الحقيقة منذ البدء، فإذا امتلح الفضيلة بكلمة أو كلمتين لم يُعَدَم من يسبغ عليه لقب الفاضل، أما إذا صارحها العداة فسيتقلب عليه الناس جميعاً وعلى رأسهم الملوّثون. وليكن له أسوة في الإخشيدى الذي يُرى في كل حفلة خيرية!.. بل لماذا لا يفكر جدّياً في الاشتراك في بعض الجمعيات الخيرية؟! ثم ذكر زواجه! وعاد يتساءل كيف هان عليّ ظه على إحسان؟ كيف زلت قدمها؟! وما عسى أن يفعل عليّ إذا علم غداً أنّ إحسان صارت زوجه؟ سيسقط في يده، ويتشتت ذهنه حيرة، ولا يصدق أنه - محجوب - كان سبب شقائه، فإذا لم يجد بداً من التسليم بهذه الحقيقة الغريبة اتهمه حاقداً نائراً بكلّ حسنة ودناءة وغدر ذميم. ليكن. فليتهمه كيف شاء، وليحقد عليه ما وسعه الحقد. بيد أنه ذكر دينه الذي لم يقضه، الخمسين قرشاً، فصدق عزمه على ردّها إليه في يومه، وكره أن يواجهه بنفسه لشعوره بذنبه، فأرسلها بالبريد. وارتاح لذلك أيما ارتياح، وشعر بأنّه قطع آخر خيط يربطه بعليّ طه، وأنه لا يجوز له بعد الآن أن يعبا بما يتوهمه الآخر أو بما يحسه أو بما قد يفعله. ودعا البواب وكلفه ببيع أثاث حجرته، ووعد بالتنازل عن ثلث ثمنه نظير أن يحتفظ

الرجال الأقوياء، إنهم لا يعرفون المستحيل. أم تكون إحسان خدعة كبرى جازت على المصلح الاجتماعي الأحمق، وما هي إلا... لا بد أن يعرف الحقيقة. وغادرا حجرة البك، وسار به الإخشيدى إلى حجرة «السكرتير الخاص» وقد قام ببابها ساع طاعن في السن، وكانت حجرة مستطيلة اصطفت على جانبيها المقاعد الجلديّة وتصدرها مكتب كبير. قال الإخشيدى:

- أستودعك الله، سأبلغ المستخدمين أنك تسلمت عملك اليوم.

وكان الإخشيدى يقول لنفسه: أما كان الأحكم أن يلحق الشابّ بوظيفة بعيدة عن المكتب؟ فليس مما يرتاح إليه أن يوجد في نفس المكتب شخص له هذه العلاقة الوثيقة بالبك! ولكن ماذا كان بيده أن يفعل؟ كانت الحالة حرجة، والبك مضطرباً خائفاً، والوظيفة خالية، ولو لم يعثر على محبوب لربما كان هو الزوج ولعلّ الأيام تثبت أنّ الشابّ أهل لصنيعه! وترك محبوب وحده في الحجرة، استخفّه سرور عجب كاد يرقص له. وجلس على الكرسيّ المتحرك ضاحك الثغر، ووضع يده على سّاعة التليفون، ولم يكن استعمل التليفون قطّ! وجعل يحرك الكرسيّ ذات اليمين وذات الشمال. موظّف خطير بغير شكّ. وغداً يمتلئ بطنه باللحوم والفواكه. ثباً للفلاسفة الذين يقولون: إنّ السعادة في البساطة، أليست أمراض البطنة بخير من عذاب الجوع؟

واليوم والغد، أما الماضي فسحقاً له..

\* \* \*

ولبت ساعة وحيداً حتى ضاق بوحده، ورغب أن يفعل شيئاً أيّاً كان. فضغط على زرّ الجرس، وفتح الباب وجاء الساعي العجوز وقال بأدب: «أفندم يا سعادة البك». وتورد وجهه! ووقعت الرتبة الجديدة من أذنيه موقعاً موسيقياً مطرباً، وإن تظاهر بعدم المبالاة، ثمّ قال باقتضاب: «قهوة» وما كاد الباب يغلق مرّة أخرى حتى رنّ جرس التليفون، فرنت أوتار قلبه،

- أرجو أن أنتفع بإرشادك..  
- يسرني أن أجد مساعداً مخلصاً لي، ولذلك احتفظت لك بهذه الوظيفة على كثرة المتقاتلين عليها، ولذلك أيضاً ينبغي أن نكون يداً واحدة لأنّ أعداءنا كثيرون. لا يعرّئك ما تلقى من بشاشة. فالعادة أنّ الموظّفين يقبلون على صاحب السلطان ما أقبلت الدنيا عليه، فإذا أقلّ نجمه فأكرمهم من يدبر عنه دون أن ينشب فيه أظفاره: فلنكن يداً واحدة.

وتحدّث الإخشيدى طويلاً على غير عادته. وفكّر محجوب طويلاً فيما يدعو إليه الآخر من أن يكونا يداً واحدة، فقال مخاطباً صاحبه في سرّه: وقعت في شرّ منك، وساقك الحظّ إلى مساعد من طينتك، يفهم الإخلاص كما تفهمه، ولكلّ شيء آفة من جنسه، وليست منزلي عند البك دون منزلتك، فإذا كنت مهرّجه أو قواده فأنا زوج عشيقته.

وجاء الساعي الضخم وأعلن حضور قاسم بك، فنهض الإخشيدى واصطحب محجوب إلى حجّرتة، وصافحها البك بسرور، وهتأ الشابّ على تسلّمه العمل، وقال له برقة:

- أرجو لك التوفيق، والمستقبل الباهر..

ومضى الإخشيدى يعرض عليه بعض الأوراق، أما محجوب فوقف انتباهه عند «المستقبل الباهر». يقولون: «يا بحث من كان النقيب خاله» والنقيب أقرب إليه من خاله! واختلس من البك نظرات، ليملاً عينيه من الرجل الذي صاد إحسان، وأفقدتها رثدها. نظر إليه بغرابة كأنما ينقب عن سرّه السحريّ، أ يوجد في محاسنه؟ أم جاهه؟ أم في مكان اكتشفته إحسان لحسن حظّها أم لسوء حظّها! أعجب بهؤلاء الرجال ذوي السلطان إنهم يأتون الكبائر باستهانة، ويتجاهلون ما يسمّيه السّدج ورطة أو مشكلة، ويخلقون الحلّ اليسير للأمر في غمضة عين، وكان هو الحلّ اليسير!.. كيف غوت إحسان؟ سيظلّ متحيراً حتى يعرف الحقيقة. ليس عليّ طه دون البك جمالاً، وهو يفوقه بشبابه. فكيف غوت؟.. ولو كانت تزوّجت لقال أثرته لماله، ولكنّها.. ربّاه.. ثباً لهؤلاء

٤٨٣ القاهرة الجديدة

يكن يراهم إلا من بعيد، فسلم عليه، واستأذن له، ودعاه إلى مقابلة البك. وعلى رغم تظاهره بالهدوء كان يكتفم بعنف انفعال السرور والفرح. ومضى نهار العمل في حركة دائبة ونشاط متصل وسرور لا مزيد عليه. وبهذا النشاط غير المتقطع نسي أفكاره وساوسه، فارتاح باطنه وهو لا يدري، وغادر الوزارة معافئ كآتما ينهض من نوم عميق.

وكان غير الفتى الذي جاء الصبح ساعياً، فقد عرف بكوات وباشوات، وتقف فنّ التليفون. ودعي «محبوب بك» عشرات المرّات، فكان أعظم ثقة وخيلاء، بل أوشكت أن تتغير مشيته ونظرة عينيه. وذكر- في نشوة المجد المباغت- قريبه أحمد بك حمديس، فودّ لو يأتي يوماً لمقابلة قاسم بك ليجيء حجرته مستأذناً، فأبى دهشة تتولاه! وكيف يتصافحان تصافح الأنداد ثم يقصّ ما رأى على أسرته فسمع تحية، وتعلم أنّها أغلقت باب سيارتها دون فتى ذي نباهة ومجد!.. ولكم يودّ أن تراه تحية مع زوجته الحسنة! فزوجه تفوقها حسناً وفتنة، وإنه ليودّ أن يتفرّس في وجهها وهي تنظر شزرًا إلى زوجته وقد أدركت مدى حسنها الفتان!

صبرًا صبرًا، إن الحياة بدأت تبسم...

- ٢٩ -

وفي ذلك اليوم نفسه ذهب محبوب عبد الدائم إلى الإخشيدى - كوعد سابق - ومضى به الرجل إلى الشقة ليسلمها له، وحمل محبوب معه حقيبة ثيابه وكتبه القلائل وأعطاه الإخشيدى مفتاح الشقة وهو يقول:  
- الشقة - وما تحوي - لكما إلا صوانًا صغيرًا في حجرة النوم.

أدرك محبوب أنّ الصوان خاصّ بقاسم بك فهمي، وتورّد وجهه، وشعر محبوب برغبة قويّة في أن يركله بما أوتي من قوّة! وقال الإخشيدى:

- يحسن أن يجدد العقد باسمك.

- أهو الآن باسم قاسم بك؟

ورفع السّاعة بقلق ووضعها على أذنه، ثمّ قال بصوت هيب:

- أفندم.

- سكرتير قاسم بك فهمي؟

- نعم يا فندم.

- البك موجود؟

- نعم يا فندم.

- دعني أكلّمه... قل له محمّد رشاد.

وظنّ أنّه ينبغي أن يذهب إلى حجرة البك ليخبره، فأعاد السّاعة إلى موضعها الأوّل - فأقفل السّكة وهو لا يدري - ومضى إلى حجرة البك وقال باحترام:

- محمّد رشاد... بك، يريد أن يكلمّ سعادتك.

- خله يدخل..

- إنّه يتكلمّ في التليفون.

فسأله البك بدهشة:

- ولماذا لم تحوّل السّكة إليّ..؟

فلم يجر جوابًا ولاح في وجهه الارتباك على غير عادته، فضحك البك وقال:

- حوّل السّكة عليّ، استعمل الموصل في مثل هذه الأحوال.

وغادر الحجرة مرتبًا، وقد أدرك أنّه أخطأ. كيف تحوّل السّكة؟. وأي شيء هذا الموصل؟ وعاد إلى مكتبه ورفع السّاعة إلى أذنه فسمع نقيًا متصلًا فقال:

- يا سعادة البك...

فلم يجبه أحد مع معاودة الدعاء، ولم يسمع إلاّ النقي المستمرّ، فاشتدّ ارتبائه، وخاف أن يكون قد ارتكب خطأ جديدًا، وليث ممتعضًا. ما كان يعلم أنّ للتليفون ثقافة خاصّة ينبغي أن يعلمها، ودعا الساعي على مضمض ليلقنه سرّ التليفون. ودون بعض الملاحظات على ورقة كي لا ينسى ما يجب ذكره في المستقبل. ثمّ دبّت الحياة في الحجرة فتوارد عليها أناس مختلفون من طبقات متباينة يستأذنون في مقابلة قاسم بك فهمي، فاستقبلهم دون ارتباك، وعاونته جسارته الطبيعية على تمالك أعصابه، والظهور بمظهر الرزانة والثبات. واستقبل أحد الباشوات المعروفين، الذين لم

فقال الإخشيدى ببرود:

- باسمي أنا... .

فأحسَّ محجوب ارتياحاً وسأله:

- وكم إيجار الشقة؟

- عشرة جنيهات!

فابتسم محجوب قائلاً:

- ما يعادل ماهيتي تقريباً... .

- سيؤديها البك، كما سيؤدي عنك أجرة

الطاهية... . وغير ذلك... .

ودارا معاً في الشقة دورة استكشافية، وكانت على صغرها آية في جمال البناء ونفاسة الأثاث. فتولته الدهشة، وأدرك أنه يرى كثيراً من قطع الأثاث لأول مرة، ولم يدر لها أسماء. كانت الشقة مكونة من ثلاث حجرات وصالة، فعلى يمين الداخل تقع حجرة الاستقبال، وهي تفتح على دهليز يؤدي إلى صالة معدة للجلوس وبها جهاز الراديو، وعلى جانبها الأيمن بابان، أحدهما لحجرة النوم، والآخر لحجرة السفارة، ولحجرتي النوم والسفرة شرفة طويلة واحدة تطل على شارع ناجي. وذكر في موقفه بسرعة بيت القناطر، ودار الطلبة، وحجرة السطح بعمارة شارع جركرس. أدرك في موقفه ذلك أن الحقائق قد تفوق الأحلام سحرًا وجمالاً. والواقع أن مادة الأحلام مستمدة في العادة من محسوسات الحالم ومدركاته، وها هو ذا يرى أدوات ترف لأول مرة في حياته، لم تكن من محسوساته ولا من مدركاته! الفرق بين هذا البيت وبيت القناطر هو الفرق بين إحسان وجامعة الأعقاب، كلتاها امرأة، أجل، ولكن شتان بين هذه وتلك. ونسي في تلك اللحظة ما كان يقوله لنفسه دائماً من أنه لا يوجد ثمة فرق بين امرأة وامرأة، وأن إحسان وتحيّة وجامعة الأعقاب كلهنّ سواء!.. .

وقال له الإخشيدى وهو يودعه:

- غداً مساء تجد عروسك في انتظارك!

وذهب الرجل والشاب يرمقه شزراً.

وعند أصيل اليوم الثاني انطلق إلى الجيزة، وذكر في

الحال عليّ ظه. تُرى في أيّ موقع يقيم؟ كان يعلم أنه

في الجيزة ولكنّه جهل عنوانه. فهل ما يزال الشاب مقيماً على عهدته واهتماماته بالفتاة؟ أيدعوه هواه إلى ربوعها وهل غما إليه خبر زواجها؟ أيمن أن يلتقي به وهي متأبطة ذراعه؟ ساوره قلق، وإن كان لا يبالي شيئاً، بل ودّ في تلك اللحظة لو يلقاه عليّ ويعلم كلّ شيء. ومضى إلى بيت عمّ شحاته تركي، فوجد الأسرة في انتظاره - ما عدا إحسان - فأيقن أنّ تعليقات الإخشيدى سبقته إلى آله الكرام. وكان الجميع - عمّ شحاته وزوجه والأبناء الستة الصغار - يرفلون في الثياب الجديدة الناطقة بكرم قاسم بك وحده! وسلمّ وسلّموا بحرارة، فقَبَله عمّ شحاته في جبينه، وقَبَل يد حماه، وداعب الصغار وقَبَل أصغرهم في خديّه. وفي جلسته أنعم نظره في الوجوه تتطّلع إليه، فأقرّ لتوّه بأنّ بيت عروسه حافل بالحسن. أبوها حسن القسات، وأمّها حسناء، وإخوتها لآئى مثورة. وقال لنفسه إنّ الجمال سلاح نافع حقاً في يد الفقير. واستفاض الحديث، وساهم فيه الشاب كما ينبغي وإن ودّ لو يغادر البيت في أقرب وقت، وتكلّم عمّ شحاته عن دار الطلبة، وعن الطالب محجوب عبد الدائم المهذب المجتهد، وكيف أنه لم يكن من عملائه لأنّه لا يدخّن، وكيف أنّه - عمّ شحاته - يحترم الطلبة الذين لا يدخّنون وإن (وقد ضحك عند ذلك) لم ينتفع باستقامتهم، وقال إنّه لم يجي حفلاً لعرس ابنته لأنّ الزوج الطيب هو الفرح الحقيقي، وإنّه لم يدع أحداً من أقربائه وآله - وهم ريفيون - حتّى لا يجسّمهم مشقة السفر. وغلب على ظنّ محجوب أنّ الرجل يكذب كما يكذب المولعون بالفخر الزائف، ولكنّه ذكر والديه بامتعاض، وقال إنّه طير نباً زواجه إلى والديه، ولولا أنّ أباه - وهو مزارع ذو شأن - بالقناطر وهو مريض، لشهد يومه وباركه بنفسه. وتحدّثت أمّ إحسان عن أبنائها، وعن إحسان خاصّة، وأدرك محجوب من حديث حماه، من لهجتها، وحركات رقبته وحاجبيها وعينيها أنّها امرأة ذات دلال وأنوثة ودعابة ومكر - وكان يجهل تاريخها بشارع محمّد عليّ - وقد سأله عن وظيفته، واقترحت عليه أن تقرأ كفه، وتنبأت له بذرّة

العروسين، وقد نسيا في شدة الزغاريد نفسيهما فابتسما في بشاشة وحياء، وظلاً ينظران إلى الواقفات بالباب حتى جاوزت السيارة دار الطلبة إلى شارع رشاد باشا.

- ٣٠ -

وأراد أن يتكلم، ولكنه لم يدر ماذا يقول، وكان كلما طال صمته طال حصره، فعدل عن رغبته وهو كظيم. وتفحصها بعناية. رآها تنظر إلى الطريق من النافذة، مولية إياه مؤخر رأسها. ولم يشك في أن أعيناً كثيرة في الطريق ستفحص عليه هذا الحسن البديع الذي يستأثر به. وسرّ لذلك أيما سرور. ليت آل حمديس يروونه في جلسته هذه، وخصوصاً تحية حمديس!.. وخطر له في تلك اللحظة - وقد اطمأن إلى أن تحية تكتمت فضيحتة - أن يمضي يوماً إلى زيارة قريبه العظيم ليقدم له عروسه كما جرت العادة. وداعب هذا الخاطر فؤاده حتى أسكره. وكانت لا تزال عاطفة رأسها إلى الخارج، فألقى بنظره الجائع إلى جسمها اللدن، فجرى على الجيد فالمنكب فالثدي الناهد ثم الخاصرة الخميصة وأخيراً الفخذ اللفاء. وتنهّد من أعماق صدره، وقال لنفسه: ما أشدّ جوعه، واضطرام دمه. ووقف التاكسي أمام عمارة شليخر، ونزل ونزل مستندة إلى يده، وسارا إلى المصعد، ودخلا الشقة يتبعهما البواب بالحقيبة. ودلها على حجرة النوم فتقدّمت إليها وردّت الباب! ووقف متردداً: ثم تراجع إلى مقعد في الصالة وارتمى عليه. لم يرتج أول وهلة لإغلاق الباب، وذكر باب السيارة في الهرم! ولكنه سرعان ما أقام العذر بالارتباك الذي يحدثه الموقف بيد أنه لم ينتج من مرارة طبعه الساخر فقال لنفسه: يا له من حياء هو بالأبكار السادجات أولى! ثم قطب وتساءل: ترى ماذا تحيي له حياته الجديدة؟ أسعادة أم شقاء؟! إنه لا يطمع أن تنظر إليه كزوج بالمعنى المقهوم لأنه هو نفسه لا يستطيع أن ينظر إليها هذه النظرة وحتّم أن تراه في قرارة نفسها قوآداً، كما يراها في قرارة نفسه عاهرة. فهل يمكن أن يسعد قواد وعاهرة معاً؟؟ هذه هي مسألته دون زيادة ولا نقصان. إنه لا

صالحة ومركز حكوميّ ممتاز، وكان محجوب يتكلم ويستمع، ويسترق النظر إلى باب الحجرة الموارب، وعينه تتساءلان «حتّام الانتظار؟». وأخيراً جاءت إحسان. جاءت في ثوب العرس الأبيض الشفاف، وقد عقصت شعرها وجعلته على هيئة عمامة، فتجلى سواده اللامع وأكسب بشرتها صفاء، وجاء في صحبتها نسوة أربع، - قيل إنهنّ قريبات أمها - ولكنه لم يلق بالآ إلى أحد، جذب حسنهما عينيه فأطاح باستهتاره المعهود، حتى تمشت شرارة الكهرباء في صدره، وقرض على أسنانه، والتفت عيناهما وهما يسلمان، فامتلاً بالسحر الجاري في لحظيهما، وشعر بأنه ثمل يترنح، وعاودته ذكريات عذابه القديم، ومآسي شهوته المضطربة، فلم يصدّق - على استهاتته وجسارته - أنها صارت ملكاً له، أو حتى ملكاً له على المشاع كما يقولون. وذكر الشريك، وكيف سبقه، فتأم، وعاود النظر إلى الجسد البصّ الذي يشفّ عنه فستان العرس الأبيض وما يزداد إلا تألماً. وكان عمّ شحاته قد هيأ للحاضرين عشاء فاخراً كلّفه ثمناً غالياً، فدعاهم إلى المائدة، ونهضوا تسبقهم ضجة الصبيان. وكانت أم إحسان على مرحها مستاءة في أعماقها، وكانت تودّ من كل قلبها أن تحتفل بيوم إحسان السعيد، وأن تجعل منه يوم سرور للحيّ جميعاً، ولكنّ الإخشيد صارحها بأن محجوب أعجز من أن يحقّق لها رغبته، وكانت تعلم أنّ زوجها أعجز من زوج كريمته، فطوت نفسها على رغبته الخائفة: وقد أكلوا مريئاً وعاودوا إلى جلستهم هائنين، ولم يكن يوجد ثمّة داعٍ إلى بقاء العروسين، فنهضا يودعان الحاضرين. وجيء بتاكسي حملت إليه ثياب العروس في حقيبة كبيرة، وأخذ محجوب إحسان من يدها وسار بها وسط نصف دائرة من المودعين، وهبط السلم على مهل، وكان أم إحسان قد نفذ صبرها فأطلقت زغرودة رنت بين الحيطان رنيناً نفاذاً، خفق له فؤاد الفتى، وارتجّ جفناه. وتلقّت النسوة تلك الزغرودة كما يتلقّى الجنود علامة الهجوم، فأطلقن الزغاريد، تتجاوب أصداؤها، ويشتدّ صفيها المتقطع يهتزّ له صدور الحسان. واحتوى التاكسي

للزواج، فالزواج يكون مقدّمة للحب، والمعاشرة كفيلة بمزج النفوس وتوحيد الآمال... أليس كذلك؟؟

فتحرّكت شفاتها كأنما لتتكلم، ثمّ جمدتا ارتباكًا، وارتسمت عليهما شبه ابتسامة. وازداد حماسًا فقال:  
- ستدركين معنى قولي هذا، وستعملين على تحقيقه، لتعمَلنّ معًا على تحقيقه، وسنرى..

وقال لنفسه: إنّ النساء لا يعشن بلا حبّ - حقيقة تعلمها من القراءة - فهي لا شكّ تحبّ، ولكن من المحبوب المجدود؟!.. حسيبه يومًا عليّ طه، ثمّ ظنّه قاسم بك فهمي، وقد يكون المال دون غيره، فعلى هذه الحقيقة تتوقّف سعادته. وقد يكون صادقًا في قوله لها «ولعلّك تجدين وحشة؟» فالحقيقة أنّها كانت تجد هذه الوحشة، وقد أدرك ذلك من أوّل نظرة، بل أدرك أنّه لو أعتقها هذه الليلة لكان ذلك أدنى إلى التهذيب والرفقة، ولكنّه نبذ هذا الخاطر، موقنًا أنّ الحيوان الهائج في باطنه لا يعرف التسوية ولا التأجيل؛ ولا يقدر على انتظار مهها كان الثمن. ثمّ كفّ عن التفكير وقد عاودته جسارته الطبيعية:

- هلمّي ندخل... -

وأمسك بمعصمها برفق ونهض، فنهضت طائعة، ثمّ أحاط خصرها بذراعه، ودخلا معًا..

- ٣١ -

وفتح عينيه في الصباح الباكر فوقعنا على مرآة الصوان الفاخر، فرأى صورته وإلى جانبه يرقد الكنز النفيس. وارتفق ساعديه، ثمّ ثبتّ عينيه وقد غمرته ذكريات الليل التي لم تُنمّح آثارها من نفسه وجسده وكانت لا تزال مستغرقة في النوم مبعثرة الخصلات على الوسادة الحريريّة، ما أجمل صفاء هذه البشرة، ما أعمق سواد هذا الشعر، واهتزّ صدره طربًا فهوى بشفتيه الممتلئين على خدّها الأسيل..

ومضى الأسبوع الأوّل من هذه الحياة الجديدة، وقد أقبل ينهل من الشراب العذب المبدول بشرائه

يروم من حياته الزوجيّة معني اجتماعيًا، ولا ذرّيّة صالحة، ولا احترامًا متبادلًا، كلّ ما يريده رغبة متبادلة، ميل يعادل ميله، شهوة بشهوة، وحسبه هذا من زواج هو وسيلة لا غاية، إنّهُ يروم حبًّا بلا غيره، يرد ماءها الحين بعد الحين، دون قلق أو فكر أو همّ. وتوكله أوّلًا وأخيرًا على نفسه الجسور التي حطمت القيود ومزقت الأغلال. كان يفكّر ونظره عالق بالباب المغلق. أينتظر حتّى يفتح؟ وإذا ظلّ مغلقًا، فهل يلبث مكانه حتّى الصباح؟ ونهض قائمًا، ودنا من الباب ونقره بخفّة، فلم يجبه صوت ولا حركة، فأدار الأكرة ودفعه. وجد الظلام يوشك أن يبتلع الحجره إلّا نورًا خافتًا من ناحية الشرفة، فأدرك أنّها في الشرفة، تستجمّ، فمضى إليها في خطى رقيقة، وراها جالسة في ناحية مسندة ذراعها إلى حافّتها ملقبة بنظرها إلى الطريق. ولم تُبدي حركة لدخوله، فوقف ينعم فيها النظر على ضوء مصباح الشرفة، ثمّ قال:

- فعلت خيرًا بدخولك الشرفة، فهذه الليلة من ليالي يوليّه الحارّة؟

فحولت رأسها إليه، وقالت بعد تردّد:

- أجل هذه ليلة حارّة..

سرّ لمبادلتها إيّاه الحديث، فأثى بمقعد، وجلس عليه على كئيب منها، وألقى عليها نظرة، فراعته صورتها، وحرقة تكوين جسمها البديع المشتهى، وذكر أنّه سيتمّتع بهذا الجسد الفاتن هذه الليلة، بل هذه الساعة، فجرت جنونه، وأسكرته هذه الحقيقة الماثلة بين يديه، كأنّه يكتشفها لأول مرّة. ولم تعد تحتمل عرامة نظرتة فأطرقت، فمدّ يده إلى ذقنها، ورفع رأسها إليه، وهو يقول بصوت متهلّج:

- دعيني أطلع وجهك الجميل... -

والتقت عيناها لحظة، فامتلا حماسًا وقال بحرارة:  
- تألفت حياتنا بمعجزة. وما كنت أحسب قبل اليوم أنّ المصادفة تلعب هذا الدور الخطير في حياة الإنسان، فما أحقّها أن تسخر من منطقنا ومن سنن الوجود جميعًا، ولعلّك تجدين وحشة، ولكنك ستغلّبين بذكائك وثقاقتك. وكما أنّ الحبّ يكون مقدّمة

عنايتها، فلتستمتع باللذة، ولتستأثر بالقوة، ولتتفق عن سعة، ولتغمر أسرتها بكل خير عميم، وبذلك وحده لا تذهب التضحية عبثاً، وزوجها أولى الجميع بتفكيرها، لقد همت بأن تحترقه أكثر من مرة، ولكن لماذا؟؟ لأنه..؟ ولكنّها هي أيضاً..؟؟ فلا تعيره ولا يعبرها؟. بل هنالك وجه آخر يقرب بينهما، فهو فيما يبدو ضحية مثلها للعوز والطعم. وكلاهما ضحية لشراً واحد فما أجدرهما بالتصافي والتعاون. كان كلاهما يعالج همومه بالحكمة، ويحاول ما استطاع أن ينفي عن نفسه نوازع الشقاء. وأطردت الحياة في لذة بيتها الشراب والرغبة في السعادة. وكان محبوب أقدر منها على التغلب على أمثال هذه الهموم لاستهانتها المعروفة، أما هي فكانت حديثة عهد بالشذوذ، فربما تولتها الكتابة إذا خلعت إلى نفسها، وربما وجدت حينئذ إلى الآمال المشرقة الأولى في الحب والحياة الشريفة، مثلها مثل النازح إلى بلد غريب إذا احتواه بيته الجديد في أول ليلته، ولكنها كانت تتغلب على مرضها - والحنين مرض - بتلك الواقعية التي اشتهرت بها النساء، وتلك الرغبة الصادقة في طيب الحياة. ولهذا السبب سألها محبوب يوماً - من أيام الأسبوع الأول - وهو يقرصها في خدها:

- أنت سعيدة؟

أجابته من فورها:

- نعم، والحمد لله..

فقال لها الشاب بسرور:

- الحياة أمامنا منبسطة، والفرص دانية، فلتب بين

الأزهار، ولتجن الثمار..

فقال مبتسمة عن درها النضيد:

- نثب.. ونجني.

- لا تصدّقي الحكم الجامدة التي يعرفون بها

السعادة. السعادة ليست في الحياة، وجميع ظروف

الحياة لديها سواء، هي حقاً في الإرادة فمن يردها

إرادة تأت طوعاً أو كرهاً..

فحدجته بنظرة متفكرة بعينيها السوداوين

البيديتين، فقال بحذر وتواضع:

جنونية، وسرعان ما أدرك منذ اللحظة الأولى أنّ لذته - لذتها - لن تتم إلا بشيء جديد ضروري جداً كي ينسى هو ما ينبغي أن ينساه، وكي تنسى هي ما يحسن أن تنساه، فيصفو الجو، ويستمتع بحياتهما أجمل استمتاع. وجرب بالفعل ذلك الشيء الضروري الذي سمع عنه كثيراً: الشراب! وقليل منه كفاهما، ولكنه نفعهما نفعاً سحرياً، بفضلها وجدها تذوب رقة، وتنفث سحراً، وسكن بين ذراعها يرشف من طيبات رزقه. كانت الحياة في ظاهرها ثملة باللذة مخمورة بالشهوة أما في الأعماق فاضطربت تيارات خفية. فلم يفتأ محبوب يتساءل عن عليّ ظه وقاسم فهمي وقلب إحسان. وربما ثار شكّه، وراح يؤنب نفسه ويعتقها، ويقول إنه الحمق ولا شيء غيره، الذي يوسوس له فيوقظه من لذته ليصلي نار الفكر. وحاول مرّات أن يعوذ بسخريته، وجعل يوصي نفسه قائلاً: «اقتل الشك، امحُ الكرامة من قاموسك، احذر الغيرة، أفرغ شهوتك، توبّ للطموح، واذكر أنّ ما أنت فيه هو الامتحان الأول والأخير لفلسفتك، فقل الآن طظ، قلها بلسانك وبقلبك وبيرادتك..».

ولم تخلُ إحسان كذلك من خواطر تضطرب في أعماقها. عرفت أخيراً المصير واستقرّ بها المستقر. أسدل الستار على أحلام الحياة الأولى، وخاب الرجاء فيما طمعت فيه من أن تصير زوجاً للبك العظيم. ووجدت نفسها ربة هذا البيت العجيب الذي يتنازعه صاحبان. لم تعد تقول لا. فما خوف الغريق من البلبل؟؟ ورأت من الحكمة أن تنظر فيما بين يديها. إنّ القلب الذي أيقظه عليّ ظه اندثر وذهب. والأمن الذي لوّح لها به قاسم فهمي خاب وانطفأ. فلم يبق لها إلا تلك الغريزة الحيوانية التي أطلقها والدها من عقابها منذ البدء. ربما حنت إلى عليّ ظه أو حقدت على قاسم بك أو عافت نفسها محبوب عبد الدائم، ولكنها لم تسمح لإحدى هذه المشاعر بالتهادي والتضخم، ومالت بمزاجها وبالذوافع التي تحيط بها إلى الاستسلام التام. ما من فائدة ترجى من التحسر على ماضٍ لن يعود، وأولى بها أن تولي الحاضر والمستقبل



- إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون . . !

فقلت بهدوء:

- لا داعي لهذا . . (وهنا ذكرت شطر بيت للممتني)

فقلت. كل مكان ينبت العز طيب . .

فأخذ يدها في يده كأنه يعاها، تريت قليلاً، ثم

قال وقد غير لهجته:

- وثمة شيء آخر، لا ينبغي أن نعيش في عزلة.

لنقتحم الحياة العريضة ولنأخذ من مظاهرها بأوفى

نصيب.

كان يريد أن يتمتع بحياته الاجتماعية على أكمل

وجه، وأن يقدم مظاهرها الكاذبة التي يكبرها الناس

جميعاً، واشتدت إليها حاجته ليخفي بها ما في حياته

من شذوذ. ولذلك فكر جدياً أن يذهب وعروسه إلى

آل حمديس، ليبرئ جرحاً قديماً، وليشبع شهوته إلى

الظهور، ولكن ألا توجد ثمة عقبة حقيقية؟؟

- ٣٢ -

ولم يتش عن رغبته الجريئة، وأراد أن يجعل منها

أولى خطاه في غزو المجتمع الراقي. ورأى عن حكمة

أن يهد للزيارة بمحادثة حمديس بك بالتليفون،

وسيعلم من إجابته إن كانت حكاية الهرم قد بلغت أم

أن الفتاة الأرية أخفتها عنهم. وحادثة، ووجد منه

خطاباً رقيقاً، فأخبره بزواجه، وكاشفه برغبته في تقديم

زوجه إليه فترحب بها البك أيما ترحيب. وهرع

محبوب إلى زوجه وقال لها بسرور وخيلاء:

- دعيني أقدمك إلى أقربائي العظام . .

وعند عصر اليوم العاشر من حياته في البيت الجديد

أخذ أهبتها للزيارة الخطيرة. فارتدت إحسان ثوباً

جميلاً من ثيابها الجديدة، وتجلت صورتها الفاتنة، وتياً

سحرها باجتماع الشعر الأسود الفاحم والبشرة العاجية

الصفافية والشفيتين الورديتين وبدا الشاب في منظر

حسن قد أخذ يستعيد عافيته ورونقه. واستقلأ تاكسي

إلى الزمالك. لم تكن إحسان تخلو من قلق ووحشة،

أما محبوب فكان يتسم ابتسامة هادئة مطمئنة كأنه

ذاهب إلى بيته الذي شب وترعرع فيه. وقد عبرا

الحديقة إلى سلاملك الاستقبال، وهما على تلك الحال،

فما راعهما إلا منظر الأسرة الكريمة في انتظارهما عند

مدخل السلاملك. وقفوا الأربعة صفاً: أحمد بك

حمديس، حرمه، تحية، فاضل. وسر محبوب لنجاح

الاستقبال، وقد اطمأن إلى نجاحه من قبل لما هو

معهود في النساء كافة من الميل إلى تفحص بنات

جنسهن ونقدهن، وتبادلوا التحية والسلام، ولم تحف

عن عينيه الجاحظتين الأثر الذي أحدثته زوجه في

المستقبلين، فأحسن ارتياحاً وغبطة. وجلسوا، وما زالوا

يتبادلون ألفاظ الترحيب والمجاملة، وجعلت عيناه

القلقتان تدوران في جميع الأنحاء وتفرس في الوجوه.

ووجد نفسه وهو لا يدري يقارن بين زوجه الحساء

وتحية حمديس. إن لتحية جمالها، ولها إلى جمالها سمت

أناقة ورفعة، ولكن هيهات أن تبلغ مدى هذا الحسن

الرائع. إن زوجه أجل من تحية، بل أجل من أم تحية

في صباها، وأعينهم لا تنكر هذا ولا تماري فيه.

وطرب لذلك أيما طرب وقال لنفسه بشهامة: «لقد

هزمت في المقبرة يوم الرحلة وتم لي الانتقام اليوم».

وأراد أن يعرفهم بزوجه كما ينبغي، فقال بجسارته

المعهودة وهو يشير إلى فتاته:

- إحسان كريمة شحاته بك تركي من كبار تجار

الدخان. ألا تعرفه يا سعادة البك؟

وتورد وجه إحسان، وأطرت لتخفي ارتباكها. أما

أحمد بك حمديس فزوى ما بين حاجبيه باحثاً في

ذاكرته، ثم قال بلهجة الاعتذار:

- لا أذكر للأسف (والتفت إلى إحسان). لنا عظيم

الشرف!

فقال الشاب ضاحكاً وهو يشير إلى زوجه مرة

أخرى:

- زميلة قديمة، عرفت في الجامعة . .

فابتسم البك وابتسمت زوجه، وابتسمت إحسان

أيضاً وقد هالها اندفاع محبوب، ولم تدر أين يقف.

وكان فاضل ينظر إلى العروس بفتور، أما تحية فلم

تحول عنها عينين ثاقبتين، وقد فطنت بيداهنها إلى

البواعث الحقيقية التي أغرت الشاب بهذه الزيارة،

- وكيف القناطر؟  
- جميلة كمهدك بها..  
- يا عجبًا، لم نعاودها منذ فارقتها..  
وسأله أحمد بك مبتسماً:  
- هل تقضيان شهر العسل في القاهرة؟  
فسرَّ محجوب بالسؤال لأنه فتح له أبواباً للحديث، فقال:

- عملي كسكرتير لقاسم بك فهمي لا يدع لي فراغاً في الوقت الحاضر...!  
وهنا قالت تحية لتشرح للشاب أسباب وجودهم في القاهرة في يولييه إذا كانت غابت عنه:

- والذي يقوم عادة بإجازته في أغسطس فנסافر جميعاً إلى أوروبا..! ثم غيّرت لهجتها وسألته باهتمام:  
- ألم تأخذ إحسان هانم إلى حفريات الجامعة؟  
واضطرب فؤاده، وجرى بصره بحذر على وجوه الجالسين، فوجدهم مبتسمين لا تدلّ وجوههم على شيء مما أثاره الخوف في نفسه من سوء الظنّ فتتهد ارتياحاً وقال وقد تمالك نفسه:

- كلاً..  
ثم قال بخبث:  
- سنذهب بلا شكّ عندما نتابع سيارة قريباً..  
فقالت بخبث أيضاً:  
- المشي في الرحلات ألدّ..

وسأله حمديس بك عن قاسم بك فهمي، وقال له إنه كان زميله في البعثة، ووعده أن يوصيه به خيراً. وضايقته هذه الصلة التي لم يتوقعها، ماذا يحدث لو وقف حمديس بك على سرّ زواجه؟؟ وشعر بيد تلجئة تقبض على قلبه. ولما كانت الزيارة للتعارف فأحبّ ألا تطول أكثر ممّا طالت، ونهض مستأذناً في الانصراف..

\* \* \*

وفي طريق العودة قالت له إحسان وهي تنفخ:  
- أعود بالله منك..  
فقهقه ضاحكاً، وقال بسخرية:  
- كوني جسورة. الكذب كلام كالصدق سواء بسواء إلا أنه ذو فوائد.

فازدادت له احتقاراً وتحمي في نظراتها إلى العروس الاستهانة والسخرية. وراحت حرم حمديس بك تتحدّث عن فتيات الجامعة، فقالت:  
- إن الجامعة تمهيد للوظيفة، وإنها لذلك اختارت لتحية سبيلاً آخر، (وسألت العروس):  
- ألم تخامرك فكرة التوظف وأنت تلتحقين بالجامعة؟  
وكانت إحسان برمة بالحديث، مشفقة من مغبة الكذب، ولكتّها لم ترّ بدءاً من الإجابة فقالت:  
- بلى يا هانم، ولكن كلّ شيء قسمة ونصيب كما يقولون.

فسألته تحية بمكر:  
- ألم تأسفي لتغيّر مجرى حياتك؟  
وابتسموا جميعاً، وضحك محجوب كأنما راقته دعابتها وقال:

- سامعني الله. كانت إحسان طالبة بارعة، وطالما أثارته إعجاب المسيو ليشو أستاذ الفلسفة بذكائها، وقد اعترض طويلاً على انقطاعها عن المدرسة..  
ونظر إلى تحية ليرى ما ترك من أثر في عينيها، فوجدها تنظر إليه باحتقار وسخرية، فلم يغضب، بل سرّ سروراً خفياً. ودخل عند ذاك خادم نوبيّ بالمرطبات. فشربوا هنيئاً وسادت فترة سكون كالاستراحة.

وطرقت حرم حمديس بك الحديث مرّة أخرى، فنادت الذكريات البعيدة، وذكرت الغلام الصغير الذي يطالها الآن زوجاً رشيداً ورب أسرة ناشئة، وتكلّمت عن الزمن وسرعه العجيبة، ثم سألت الشاب قائلة:

- كيف حال والديك؟

- الحمد لله.

أجاب محجوب بسرعة، وسرعان ما انقبض صدره، نسألته السيّد مرّة أخرى:

- ألم يحضرا زفافك؟

- لم يمكنها ذلك لمرض والدي..

فدعت السيّد للرجل بالشفاء واستدركت سائلة أيضاً:

- وإذا انكشفتنا؟؟

فقال بضجر:

- وإذا.. وإذا.. دائمًا وإذا.. إذا هذه حرف خيبة  
إذا دخل على جملة ذهب بفائدتها وثبط همّة الفاعل، لا  
تقولي وإذا..

فضحكت إحسان وقالت:

- حرم البك قريبك سيّدة لطيفة!

فاختلس إليها نظرة مآكرة وقال بخبث وشيطنة:

- ونحمة؟.. يا لها من فتاة كاملة!

فصمتت لا تدري ما تقول. ثم غمغمت:

- أجل..

وكان يلحظها بخبث. وسرّ سرورًا كبيرًا. وعاد إلى  
الشقة يخامره شعور الظافر المتصر. وظلّ ذاك المساء  
مغتبطًا حتى ناداه جرس التليفون، وما وضع السماعة  
على أذنه حتى تجهم وجهه وفتّر حماسه، كأنما ألقي  
على لهيب قلبه الفرح الراقص ماء بارد. كان المتكلم  
سالم الإخشيدى، وقد أخبره أنّ البك سيزور الشقة  
مساء الغد..

- ٣٣ -

ما لجرح بميت إيلام.

جعل يردّد هذا الشعر قبيل مساء اليوم الثاني وهو  
يتأهب لمغادرة البيت ثمّ تساءل متى يموت جرحه إذا؟!  
كان عظيم الثقة بنفسه وبفلسفته، ولكنّه شعر في  
اضطرابه وألمه بأنّ الفلسفة إذا خرجت من الدماغ إلى  
دنيا الحقائق قد يحدث لها ما يحدث للقديفة إذا  
انطلقت من المدفع: تتفجّر وتتناثر. حاول أن يستعيد  
رباطة جأشه وبروده. حاول أن يقول «ظظ» ولكنّه  
أخفق، أو أخفق مؤقتًا على حدّ تعبيره. وجعل يتساءل  
تُرى هل علمت؟. ثمّ نظر إلى التليفون فرجّح أن  
يكون طيرٌ إليها النبا السعيد! فالتليفون هو القواد الثاني  
في هذه الشقة؟ تُرى ما حقيقة شعورها؟! أمسرورة  
هي بذاك اللقاء المرتقب؟؟.. أنتتظر على لهفة أم بغير  
مبالاة؟؟.. أمحظّم هذا الرأس الجميل كما تحظّم جوزة

الهند ليرى ما فيه؟؟ وتلوت حية الغيرة في قلبه نافثة  
سمها القتال، وغادر البيت. وسار في شارع ناجي على  
غير هدئ، وقصارى ما يطمح إليه أن يمسك زمام  
عقله، أو أن يثوب إلى رشده. ووجد نفسه أمام حانة  
«لاروز» فمال إليها بلا تردّد، كأنها هي هدفه  
المطلوب، وكان طلابّ الجعة يتقاطرون عليها فراؤا  
من جوّ يوليو القائظ، متهافتين على الجزء التابع لها من  
الطوار، ولكنّه كره الازدحام، وانتبذ مكانًا داخلها،  
فلم يلقّ حوله إلاّ شابًا يجلس إلى مائدة غير بعيدة  
منفردًا بكأسه، وقبل فوات خمس دقائق على جلوسه  
كان يرفع الكأس إلى شفثيه الممتلئين، ويفرغها حتى  
الثالثة، ثمّ صقّ يطلب أخرى. شرب بشرافة لا عهد  
له بها، وإن كان يوجد في حانة لأول مرة في حياته.  
وما انفكّ عقله متفكرًا مشغولًا لا يغيب به عمّا حوله.  
ولم يكن غضبه لاضطرابه بأقلّ من اضطراب نفسه،  
كبر عليه أن يأسى على معنى تافه من المعاني التي ثار  
عليها وكفر بها. أغضبه حقًا لعرضه؟؟. وما  
عرضه؟؟. ألم يتحرّر من هاتيك الأغلال جميعًا؟؟ كلاً  
إنه لا يغضب لعرضه. ولا عرضه بالشيء الذي  
يستحقّ الغضب، ولكنّه يعاني الغيرة. وتفكّر مليًا، ثمّ  
عاد يحدث نفسه: هل الغيرة طبيعية أو تقليد اجتماعي  
كالعرض؟؟. بل صفة طبيعية بلا مرأ. إنّ الحيوان  
يعاني لأواءها كالإنسان سواء بسواء، فنحن نغار ما  
دعنا نحبّ، وما دعنا نرى أنفسنا جديرين بأن نحبّ  
كذلك. هكذا حدّث نفسه ولكنّه لم يقتنع كلّ  
الاقتناع، ولا ارتاح الارتياح كلّ، بقي في النفس  
شيء. ألا ترى أنّ هذه الغيرة توشك أن تفسد عليه  
جميع ما أفاد من فلسفته وتحرّره؟؟. إنه ينتقد ويحلّل  
ويحظّم، ولكن وراء ذلك تنخايل لعينيه أشباح خفيفة:  
سيارة تقف أمام عبارة شليختر، ينزل منها البك  
الأنيق، المصعد، الجرس، باب الشقة يفتح، مساء  
الخير أيها العروس.. جاء زوجك الطبيعي، ثم..  
كيف تلقاه؟. في نفس الحجره وعلى نفس  
الفراش... وصقّ بشدّة يطلب كأسًا جديدة ولاحت  
منه عند ذاك التفاتة إلى الشاب المنفرد بكأسه-

- وكيفما أحببت...!
- ولذَه الاقتراح، فطرح التفكير طهرتًا، وراح يقول وقد احمرت عيناه الجاحظتان من الشراب:
- أنا في الحجرة والكبش في الحقل..
- كتب محمد الدرس..
- اعمل لدنياك كأنك تموت غدًا، واعمل لآخرتك كأنك تعيش أبدًا.
- ولكنتك لن تعيش أبدًا، وربما لم تعيش حتى مطلع الصباح، لأنك تفرط في الشراب..
- إذا نطلب كأسًا أخرى..
- غلامٌ يدلّ امتلاء الحانات بالواردين؟
- يدلّ على أنّ دستور ١٩٢٣ أفضل من دستور ١٩٣٠.
- أتحسب أنّ دستور ١٩٢٣ يعود؟
- أين هو الآن؟
- في ضريح سعد مع جثث الفراعنة.
- فليحفظوه هنالك حتى نستحقّه.
- هل أنت وفديّ؟
- كلاً... أنا حنبلي!
- وأيّ فرق بين الاثنين؟
- الحنبليّ ينقض وضوءه خيال الكلب.
- والوفديّ؟
- ينقض وضوءه خيال الظل.
- إذا أنت حرّ دستوريّ!
- أنا؟.. أنا في الحقل..!
- أنت كبش إذا ذو قرنين!
- واضطرب محبوب، وهبت، وكأنّه يستيقظ من هذيانه على مطرقة، وحجج صاحبه بنظرة ملتبهية، لكن وجده يتسم منشرج الصدر، متأهبًا لتلقي كل ما يقذفه به، فحمل نفسه على السرور حملًا، وسأل الشاب الغريب:
- خبّري. أحتقّ أنّ القواد في نعيم؟
- وتضاحك الشاب، ورأى محبوب يرمي في الموقد حطبًا، فرغب أن يعاونه وقال:
- حالك خير دليل!

بكتوسه - فوجده يحدّق فيه بدهشة وسرور، فقد راقبه الشاب منذ حضوره، وراح ينظر إلى اضطرابه وحركاته غير الإرادية، ويتساءل عمّا يقلقه، ولكن في سرور ولذّة شأن المنتشي الثمل. ولمّا التقت عيناهما ابتسم فابتسم له محبوب والسكرارى سريعو التعارف إلى بعض، وإن كانت مودّتهم سطحية، فتبدلت التحية، وبدا الشاب الغريب وكأنّه يلوذ بصاحبه من وحدته التي جعلها السكر أفضح من أن تحتمل، وعاذ به محبوب من أفكاره وآلامه فدعاه إلى مائدته، وسرعان ما جلسا وجها لوجه، شابين ثملين لا يقينان لشيء وزنًا. وتعارفا. ثمّ قال الشاب الغريب:

- رأيتك آخذًا في حديث عنيف مع نفسك، فوددت لو حملت عنك بعض هذا العناء..

فضحك محبوب ضحكة عالية جدًا دلّت على انفلات الزمام من يده، وسأله:

- أحقًا كنت أحداث نفسي؟

- أجل. وكنت محتدًا.. بل حانقًا..

وكان لا بدّ أن يتكلّم، لأنّه دعا بمتكلّم، ولأنّه أراد أن يروّج عن نفسه، ولم يجد في ذلك من بأس، فحالته وحالة صاحبه أدتتا بحديث أهوج ماجن لا يعرف الحدود. سأله:

- ومتى يحدث الإنسان نفسه؟

- في أحوال نادرة..

- اضرب مثلاً.

- في السرور الفائض والحزن البالغ أو في حالات لا هي إلى السرور الفائض ولا الحزن البالغ!

- وماذا يبقى من الحالات غير ما ذكرت؟؟

- الحالات التي يحدث الإنسان فيها غيره..

فقال محبوب متحيرًا وهو يقبض على كأسه:

- لا أكاد أفهم شيئًا..

- ولا أنا! في مجلس الأانس، كسا في مجلس النواب، ليس بالمهمّ أن تفهم ما يقال، ولكن المهمّ أن تتكلّم.

- كيفما اتّفق؟؟

فلسفته إذا شاء بلا تردّد ولا تفكّر ولا انفعال. وقد أدرك في تلك اللحظة أنّ فلسفته والخمر كليهما من جوهر واحد! . وعاد إلى البيت، ودخل الحجر، كان كلّ شيء هادئًا ساكنًا، وهي مستغرقة في نوم عميق. ووقف في وسط الحجر يحدّق في وجهها بعينين محمّرتين ذابلتين ولبث واقفًا حتّى خال الأرض تدور به. وخطر له خاطر فسّر به دون أن يتدبّره، ونفذه بأسرع ممّا خطر له. دنا من الفراش، ثمّ ارتمى عليها بجسمه كلّه كأنه يلعب حركة سويدية. واستيقظت إحسان فزعة، وفرت من فيها صرخة، وحلقت في وجهه بعينين مرتعبتين، ثمّ دفعته بعيدًا عنها وقد أخذت تدرك حقيقة الحال. دفعته بغضب وحقن، وصاحت به:

- أنت سكران.. كدت تقتلني.. ابعده..

فجعل ينظر إليها بذهول مألّف عينيه من وجهها الساخط الغاضب، ثمّ ابتسم، ابتسم ابتسامة لا معنى لها، أو ابتسم سرورًا بما أحدث فيها من ألم وغضب. وزاد حقها وتضاعف، وقالت بحدّة:

- كسرت أضلعي بجنونك، فابعد عني.. أنت سكران، لا تنمّ في هذه الحجر..

وظلّ الابتسام مرتسمًا على شفّته، ثمّ فرت من فيه ضحكة خفيفة، ولمّا تضاعف غضبها أغرق في الضحك حتّى زلزل كيانه..

- ٣٤ -

في صباح اليوم الثاني استيقظ في ساعة متأخرة، ونهض متعبًا مصدّع الرأس، وكان نام ليلته على الشيزلنج، فنظر في الفراش بعينين خائفتين، ولكنّه وجده خاليًا، وتذكّر ليلة الأمس، فهالته الذكرى، ثمّ هزّ منكبيه استهانة ومضى خارجًا، والتقى بها في الصالة فطالعتة بوجه مقطب فارتبك حينًا، وابتسم غاضبًا من بصره، وسألها بلهجة لطيفة:

- لا زلت غاضبة؟

فقالت بحدّة:

- السكر يجعل منك وحشًا مجنونًا، لا تسكر أبدًا،

فضحك محبوب ضحكة عالية ارتج لها المكان وقال:

- حدّثني بما لك من خبرة عن أنواع القيادة.

- قيادة عمياء لا يدري بها ضحيّتها، من النوع الذي ابتلي به زوج عشيقتي...  
- واحد.

- وقيادة يعلم بها الزوج ويتجاهلها إيثارًا للسلامة، وهي موضة منتشرة في بعض الأوساط.  
- اثنان.

- وقيادة يختارها الزوج للذة أو لفائدة. هل أنت متزوج؟

فعاوده الضحك، وأغرق فيه ليخفي توتر أعصابه، ثمّ قال بحقد خفي:

- يوجد نوع رابع يجمع ميزات الثلاثة معًا وهو وقف عليك: كنت أول الأمر تجهل ما أنت مبتلى به، ثمّ تكشّف لك فتجاهلته إيثارًا للسلامة، ثمّ تعودته فاستلذذته.

وأغرقا في الضحك معًا. ثمّ قال الشاب الغريب بلهجة ظاهرها الجدّ وباطنها المزاح:

- الواقع أنّ القيادة من أعقد مشكلات الزواج في العصر الحديث.

- الحقيقة أنّ الزواج من أعقد مشكلات القيادة..  
- صدقت، ألا ترى كيف يضرب الشبان عن الزواج؟؟ ولكنهم يشتركون في الأسر من منازلهم..  
- الانتساب ألذّ بلا تكاليف..

وهذا طويلاً، بلا ملل ولا تعب حتّى أوشك الليل أن ينتصف..

\* \* \*

وطاب له أن يجبط في الشوارع على غير هدّى قبل أن يعود إلى البيت. وغمغم كالمترنم: «أنا في الحجر والكيش في الحقل» ثمّ راح يقول: «أنا في الحانة والبك في الحجر» ولكنّه كان في منتهى النشوة والسرور، فارتفعت حرارة غبطته لدرجة تذوب فيها جميع الأحزان. وبدا له وكأنّ شيئًا لا الدنيا لا يساوي مثقال ذرة من الكآبة، وآتته قدرة يمكنه أن يحقّق بها

بفتهم الذي تحفصصوا فيه، ولم يرتح محجوب إلى التهوين من شأن الوظائف الإدارية، وقال لصاحبه: إنها تنفرد بمجد ليس لمهنة التعليم منه نصيب. وكان مأمون يفهم المجد على نحو آخر، ولكنها أدليا بأرائهما في يسر وتسامح وجرّ الحديث بعض الشئون الخاصة فاعترف مأمون أنه جاء إلى القاهرة لأسباب تتعلق بزواجه. وعندئذ أخبره محجوب بأنه تزوّج! وهنأه الشاب مرة أخرى، ودعا له بالتوفيق، ثم قال:

- قابلت صديقنا عليّ طه أمس ومكثت معه مدة طويلة...

وخفق قلب محجوب لهذا الانتقال المفاجئ، وساوره القلق، ترى هل أدى الحديث إلى عليّ طه كيفما أتفق؟ أم علم عليّ بزواجه وحذث به مأمون؟ لم يكن من الممكن أن يظّل زواجه سرّاً، وكان حتّى أن يعلم به عليّ طه يوماً ما، ولكن كيف انتهى إليه؟ وكيف فسّره؟ ونظر إلى مأمون، فالتقت عيناهما، وقرأ في العينين السوداوين الصافيتين الارتباك والريب، فلم يعد يخالجه الشكّ، أنّ عيني مأمون مرآة صافية لا تعرف المكر ولا الخداع، وهما تسألانه بلسان فصيح: «أحقاً ما يقال؟ هل خنت صديقك حقاً؟». ولم يجد فائدة من حمل صديقه على البدء بالسؤال، فقال متسائلاً:

- وكيف حاله؟

فقال مأمون برزانه:

- على ما يرام..

وساد الصمت برهة، وأطرق محجوب. لقد صدق حدسه ما في ذلك شكّ. ولكن لأيّ مدى عرفت الحقيقة؟. إنّ الذين يعرفون الحقيقة - آل إحسان والبهك والإخشيدي - لا يمكن أن ييوجوا بها لمخلوق، لأنّ البوح بها ضارّ بهم. ولو عرف مأمون الحقيقة لأبى أن يزوره، فليس من طبعه أن يتظاهر باحترام شخص يراه أهلاً لاحتقاره، وهو ما جاءه إلّا لسمع دفاعه عن تهمة صديقه - تهمة الخيانة فقط لا تهمة الزواج من فتاة صفاتها كيت وكيت طمعاً في وظيفة - هذا هو الحقّ المين. وقد ارتاح لمنطقه فلم يكن يعبا بحزن عليّ، ولا

شرب كأس.. كأسين كما نفع شئ محتمل، أما أن تعود بعد انتصاف الليل ثملاً تترنح وتسلك مثل ذاك السلوك الشائن فشيء لا يحتمل..

وانتقلا إلى حجرة السفارة، وتناولوا فطورهما، في سكون بادئ الأمر، ثم تبادلوا بعض الكلمات، وغادرا الحجرة في حالة طيبة. وذهب إلى الوزارة قبيل الظهر، وكان البك قد سافر إلى الإسكندرية ذلك اليوم يمضي بضعة أيام في بولكى. فجلس في حجرتة يطالع الجرائد، وبعد مضيّ برهة وجيزة استقبل زائراً لم يتوقع حضوره، فتح الباب، فرفع رأسه عن الجريدة، فرأى مأمون رضوان قادماً نحوه، ولاحت الدهشة في وجهه، ثم نهض هائثاً باثناً، وتصافح الصحابان بحرارة، وجلس مأمون وهو يقول:

- مبارك.. مبارك..

فأدرك محجوب أنه يهنئه على الوظيفة، وسرّ لذلك أيما سرور، وقال:

- الله يبارك فيك، حسبتك في طنطا..

- عدت من يومين لشئون خاصة، وقابلت ليلة عودتي الأستاذ أحمد بدير في نادي الجامعة فأنبأني بتعيينك، وسررت لذلك سروراً عظيماً..

أحمد بدير.. انقبض صدره لذكر هذا الاسم الخطير، وتساءل في نفسه: ترى ماذا يعلم هذا الصحافي المحيط بفضائح المجتمع؟.. ماذا قال لمأمون رضوان؟. وحده صاحبه بنظرة عميقة، ولكنّه وجده هادئاً صافي النظر كالعهد به، يشفّ منظره عن باطن نقيّ ظاهر لا تقربه أخبار السوء. واصطنع ابتسامة وقال متسائلاً:

- وكيف حال الأستاذ؟.. لم أقبله منذ عهد ليس بالقصير، ولم يأت لتهنئتي.

فابتسم مأمون وقال:

- غابت عنك أشياء، لقد نشر خبر تعيينك - كما قال لي - في جريدته، وهو يعتبرك مديناً له بالشكر. وتحدّثنا عن البعثة، والوظائف الإدارية والفنية، ومهنة التدريس في الجامعة والمدارس الثانوية، وانتقد مأمون النظام الجائر الذي يحرم المتخصصين الاشتغال

هو يعباً برأي مأمون فيه. ونظر إلى زائره بجسارته  
المعهودة وسأله:

- ماذا يسوؤه؟

ولم يَدْرِ مأمون ماذا يقول، فعَضَّ على شفته مرتبِّكًا  
ولاذ بالصمت. فضحك محبوب ضحكة فاترة كأنه  
يجيب نفسه:

- زواجي.

فتساءل مأمون بلهفة:

- هل حقًا...؟

فقال محبوب باقتضاب:

- تزوّجت حقًا من جارتنا القديمة إحسان شحاته  
تركبي..

فلاحت في وجه الآخر دهشة ممزوجة بانزعاج،  
فابتسم محبوب وقال:

- ولكّني لم أتِ نكراً..

وقصّ عليه كيف فترت العلاقة بين عليّ وإحسان  
حتى انقطعت، وأكد له أنه لم يتقدّم لطلب يدها إلا  
بعد ذلك.

وسأله مأمون بصراحته المعروفة:

- لست مسئولاً عن فتور العلاقة وانقطاعها؟

فقال له محبوب بلهجة التأكيد:

- مطلقاً.

وانتهت الزيارة عقب ذلك. وشعر محبوب وهو  
يصفح مأمون أنّ الشاب يودّعه الوداع الأخير، وما إن  
سمع صفقة الباب وهو يغلق حتى بصق باحتقار  
وغضب، وغمغم بحقد شديد «طظ».

- ٣٥ -

واستلقى بعد الغداء في فراشه دون أن يغمض له  
جفن. ونامت هي كالعادة إلى جانبه فجعل يستمع إلى  
تنفّسها المنتظم الذي ألفه. ثم استسلم لتيار أفكاره  
العارم الذي حرّمه لذّة النوم. اليوم هجره مأمون،  
وبالأمس هجر هو عليّ طه، فانقطعت صلته بأقرب  
الناس إليه.

ولم تكن الصداقة يوماً بالشيء الذي يحرص عليه،  
ولكنّه يشعر بالغرابة والوحدة، وبأنّه في وادٍ والدنيا كلّها  
في وادٍ. أجل لم يَرَعْ صداقة إنسان، ولكن أكثر من  
إنسان رعى صداقته فهياً له شعور الأُنس بالناس. أمّا  
الآن فالخيوط الواهية التي تصله بالناس تنقصف واحداً  
إثر واحد، ويهوي هو إلى وحدة عميقة. ومن قبل  
كانت غرابة آرائه سبباً فيما يعتره الحين بعد الحين من  
شعور الوحشة، فلما جازف بتحقيق بعض آرائه  
تضاعف شعور الوحشة، وأحسّ أنه في وادٍ والدنيا  
كلّها في وادٍ، وتساءل في جزع: كيف يطرد سحائب  
الوحشة عن صدره؟.. ليس في عالمه فرد واحد يودّه.  
هؤلاء الموظفون الذين يتصل بهم لا يقرون إلا نوعاً  
من الزمالة الإجبارية. وسالم الإخشيدى لا يبالي شيئاً  
غير منفعتة. فأين يجد الدواء؟. وألقى ببصره إلى  
جانبه فرأى الوجه النائم، وسمع التنفّس المنتظم.  
أجل، هي العزاء، وهي السلوى، خلاصة ما بقي له  
من دنياه، ولو ظفر بها ما اشتكى شيئاً. وحقيقة قلقه  
اليوم ليست ناجمة عن قطعة مأمون له، بقدر ما هي  
ناجمة عن تذكّر عليّ طه وهواه. غدا قلبه فريسة  
للغيرة، ولم يعد يؤمن بأنّ الأمر مجرد رفع الصيام عن  
خزانة البخار كما كان يحلو له أن يقول كلّما سئل عن  
الحبّ أو المرأة. كان شعوره بالحاجة إلى زوجة عنيفاً  
قويّاً، فلعلّه كان نتيجة للشعور بالوحشة، أو لعلّه كان  
سبباً فيه. ولم يكن - حتى في حالته تلك - يؤمن بالحبّ  
كما عرفه عليّ طه. ولم يعرّج ببصره إلى السماء قط، ولا  
حلم بالمثال والأوهام. بيّد أنه شعر بحاجته إلى الفتاة  
كقوّة مستبّدة غشوم. لا تقع بمجرد بلوغ الجسد،  
ولكنّها تطمع في أن تستبدّ كذلك برغبته وميوله وهواه،  
فتكون رغبة متبادلة، وحينئذ متبادلاً، وبغير ذلك لا  
يمكن أن يشعر بأنّه بدّد الوحشة وفاز بالعزاء. هذه  
القوّة المستبّدة الغشوم تهزأ بالعقول الراجحة والنفوس  
المتعجرفة والفلسفات الساخرة. وابتسم ابتسامة  
المتهكّم وجعل يقول تّباً لهذه الغيرة الحقيرة.. ما  
جدوى غرور هذه الحياة إذا كانت الدنيا تفقد طعمها  
لمجرد إغضائة من هذا الحيوان اللطيف.. ولم تُخَفِّ

- التكاشف في حالتنا لا يقدر بضمن. ينبغي أن يفهم كل منا صاحبه لنستطيع أن نتعاون على ما فيه سعادة حياتنا المشتركة، اذكري دائماً أننا شريكان، وأن كل شيء ما خلا هذه الشركة زائل..

فأخذت آخر رشفة من فنجان القهوة وأعادته إلى نضد بينها دون أن تنبس بكلمة أو تبدي رغبة في الكلام. فاستطرد متسائلاً بجرأته:

- لماذا فعلت ما فعلت..؟

فاحمر وجهها وقالت بحدة:

- ولماذا قبلت؟..

فقال بسرعة وبلهجة لينة توحى بالاعتذار:

- أنا لا أحاسبك، ولكنني أريد أن أفهم..

لماذا؟.. ألم..؟

وأغلق فمه مرغماً وقد تورّد وجهه، ثم استدرك قائلاً:

- عليّ ظه..؟

وطعنته وبسرعة اللهجة الحادة الغاضبة:

- لا محلّ لذكره..

فسألها بصوت خافت:

- وقاسم بك..؟

وقطّبت، وجعلت تقرض ظفرها بانفعال، ثم قالت بحدة:

- حملني على معرفته ما حملك على قبول هذا الزواج..

وأحس ارتياحاً لهذا الجواب، وقال بلين:

- لا تغضبي. أنا لا أحاسبك كما قلت لك، بيد أنّي أريد أن أعرف، ألا.. أعني هل..، أعني قلبك، أجل قلبك!..

- قلبي!.. إن هذا التكاشف لن ينتهي بشيء، أو هو لن ينتهي بخير. قلبي؟!.. عمّ تتساءل؟!..

السنا... سعادة!

- بلي.. بلي..

قال ذلك بسرعة، وتفكّر ملياً. ثم سألهما بجرأة عجيبة:

- وإذا منعك عن البك؟..

عنه حقيقة مشاعره الجديدة. لقد قبل الزواج بادئ الأمر على أنه مساومة نفعية، وأراد أن يتغلّب على وضعه الشاذّ بحرّيته المطلقة وطموحه اللانهائي، ولكنّه يطمع الآن في أكثر من جسد زوجته، يطمع في عواطفها ولو أنّ حظّه كان جمعه بغير إحسان - الفتاة التي أحبّها قديماً - لربّما كان الحال غير الحال. أمّا إحسان فلا يملك إلا أن يحبّها؛ وقد تكدر صفوه بهذه الافكار. رأى فيها نذيراً يهدّد كيانه وحياته، وقال لنفسه محزوناً: عسى أن تكون آثار مرض وقتي أحدثته الوحشة المخيفة.

\* \* \*

وحين العصر جلسا معاً في الشرفة يشربان القهوة. ولم يكن انقطع عن أفكاره لحظة واحدة حتى بدا تعباً قلقاً. وجعل يتفرّس في وجهها بعينه الجاحظتين حتى لاحظت ذلك، كما لاحظت تعبها وقلقه وحدثت أسباب ذلك، وظنّت أنّها ترجع جميعاً لليلة أمس. فلم تنبس بكلمة، ولكنّها ألقت عليه نظرة متسائلة. وأراد هو أن يشرح لها حالته فقال:

- لم أنم ظهرًا..

فسألته وهي تتظاهر بعدم المبالاة:

- وآله؟..

ولكنّه لم يجب سؤالها، وشعر بقوة تدفعه إلى اقتحام الغموض الذي يغشاه ويحيره، فثبّت عليها عينيه وقال:

- أنت سرّ يجب أن أعرفه..

فلاحت الدهشة في وجهها الجميل الذي لم يكن أفاق تمامًا من أثر النعاس. وتمتعت:

- سرًا.

- أجل. يجدر بنا أن نتكاشف.

- نتكاشف!..

فلم يعبا بدهشتها وحسبها تظاهراً، ثم قال:

- حياتك تثير في النفس أسئلة محيرة..

فأغضت دون أن تتكلّم وبدا على وجهها الوجوم، ولكنّ قوّة مها بلغت من الشدّة لم تكن لتثنيه عمّا اعترّم، فقال:



ففضخت باستياء، وقالت:

- أطيع زوجي . .

وشعر بما في إجابتها من تهكم فأدماه جرح عميق، وتساءل عما جناه من تحقيقه الجريء . فوجد نفسه حيث بدأ في حيرة وقلق، وأدرك أنّ عليّ طه لا يزال مبعث غضبه وحققه . . «لا محلّ لذكره» ما معنى هذا، وقد قالتها بغضب!

غضب لحالة التدهور العامّة التي انتابته، لماذا لا يقاتل هذه العواطف الخبيثة حتّى يقتلها؟ أيستسلم لما يستسلم له الحمقى من بني آدم؟! . . فلتحبّ عليّ طه أو فلتحبّ قاسم بك. وليأتِ البك كلّ ليلة إذا أراد، وليلقين كلّ ذلك بما هو فوق طاقة البشر من الاستهانة والعبث. هذه هي مسأله بلا زيادة ولا نقصان. يتبدّ أنّ طموحه لا يجوز أن يقف عند حدّ: لكلّ داء دواء، ودواء العزلة التي يعانيها المجد والخمر! يُسطق عليه فينبغي أن يسطو على الناس! . وغداً يلتمس بيوت الفجور ويعشق النساء ألواناً! . فإذا انكشف سرّ زوجه يوماً طمع أن يقال: إنّ زوجها أفسدها باستهتاره، وإنه شابّ فاجر لا شيء آخر! . وتنهّد في شبه ارتياح لما انتهى إليه تفكيره، غير أنّه لم يطمئنّ إلى الارتياح طويلاً. ذكر - متجهّماً - أنّه يخاف الناس دائئاً، وأنّه يخافهم أكثر ممّا يبغي، وأنّه يخافهم على الخصوص خلاف ما تقضي به فلسفته، ففيمّ التخبّط والحيرة؟! ومتى يبلغ بحياته أقصى الكمال الذي ينشد؟ . .

- ٣٦ -

ولم يعد لمثل ذلك الحديث مرّة أخرى، وبذل قصاراه في تجنّب ما يعكر الصفو ويلبلب الخاطر. وكان إذا قاتل عن سعادته قاتل بعنف ويأس غير مُبقي على شيء. وإذا كانت الحياة الزوجية لم تُنحّ له، فقد قام بدوره خير قيام، كما يقوم الممثل بدوره خير قيام حتّى لينسى نفسه فيضحك حقّاً ويبكي حقّاً. ظهر أمام الناس كزوجين سعيدين، فلم تعوز أحدهما الرغبة في التوفيق والتلهّف على السعادة، أمّا حين يشعران جفوة

أو برودة فكأس أو كأسان يصلحان ما يوشك أن يفسد. وقد صدق عزمه على أن يشغل وقته كلّ بحياته الجديدة حتّى لا تجد الوسوس فرجة إلى قلبه. وكانت وظيفته تستغرق جلّ نهاره، ففكّر أن يقتحم الحياة الاجتماعية التي بدأها بزيارة آل حمديس - ليشغل ما يبقى من وقته، وليجني من متع مظاهرها ما تجود به على مثله. وحدث في ذلك إحسان، وانتهز فرصة سانحة يوماً فقال لها:

- عرفت جماعة من صفوة الموظفين الشباب وبعض الأعيان وقد دعاني أحدهم - دعانا معاً - إلى حفل سيقميه لعيد ميلاد ابنه، فقبلت الدعوة بسرور. . ! فرفعت عينها الدعجاوين ولم تُدرِ ماذا تقول، فعاد يقول بحماس:

- لا ينبغي أن نقبّع في دارنا، انظري إلى الإخشيدى كيف يعرف وجوه المجتمع العالي جميعاً، وكيف تدعم هاتيك الصلات بنيان حياته وأسس مستقبله؟

وكانت في أعياقها تنوق إلى التسليّة والعزاء والسرور، وترغب في أن ترى وأن تعرف وأن تتناسى، فرحبت بالاقتراح، وقالت وقد سبقها ابتسامتها إلى الموافقة:

- لنذهب . .

فسرّ الشابّ، كان يهوى دائئاً أن تشاركه اهتمامه وآماله. وكان يشعر دائئاً بغريزته بأنّه إن نجح في جذبها إلى محيط أطعمه فقد ضمن فوزاً عظيماً. لذلك سرّ، وقال:

- إنّ مقتحم هذه الحياة البديعة كالرحالة الجسور لا يمكن أن يعود خالي اليدين . . وإنّ لي من وظيفتي مركزاً ممتازاً، وإنّ لك من جمالك لمكانة سامية . . وذهبا معاً إلى حفل الميلاذ. وأحدثت إحساناً بجهاها الفاتن أثراً بالغاً واستعان محجوب بجسارته على تمثيل دوره، ولم يعجز عن خلق الفرصة المناسبة لإعلان قرابته بأحمد بك حمديس. وعاد وقد ظفرت إحساناً بإعجاب شابّ وجيه يدعى عليّ عفت، وقد دعاها الشابّ بعد يومين إلى بنوار بمسرح الفانتريو . .

وجلس بفضل جمالها ولباسها. تلك حياة، أما القبور في البيت تنتظر أحد رجلها فهو فوق ما تحتمل. بيد أنها رغم كل ذلك ما انفكت تشعر بفراغ وملل شأن فتاة خلا من الحب قلبها. لم تكن تحب البك، ولم يعد لسحره العجيب من سلطان عليها، والأرجح أن سحره زال مذ أنست صدره. ولعلها انطوت له عن موجدة وحقده، إلا أنها حرصت عليه حتى لا تذهب «تضحيتها» هباء. وكانت فتاة ذات طبيعة عملية فأودعت الماضي مدارج النسيان، وولته ظهرها، غير عابئة بغمزه على قلبها الحين بعد الحين! فالماضي الموتي ورمزه الجميل - علي طه - شيئا لا يعودان. وركزت اهتمامها في زوجها، فهو شريك حياتها، وهو قرين حاضرها ومستقبلها، وقد استأدته الحياة - مثلها - تضحية فظيعة! وإنه ليهدف - مثلها أيضا - إلى غاية واحدة، ثم إنه بعد هذا وذاك شاب يمكن أن يحب، وأن يهب الحياة الزوجية السعيدة، فكانت تشجع محاولاته في سبيل سعادتها المشتركة، تشاربه وتبادلته القبلات وترجو أن ينتهي التمثيل بحياة حقيقية، ولو كان مزاج إحسان حيوانيا بحثا لبلغت ما تحب من سعادة، ولكن ما زال قلبها مشوقا إلى حنان ومودة لا يجدهما فيما تتيح لها حياتها من لذة وترف. لذلك ما انفكت تشعر بفراغ وملل، وكلما ألح عليها هذا الشعور تبادت في التهالك على حياة المرح والترف حتى فاقت زوجها في طموحه.

وكانت تغادر بيتها عادة كل صباح عقب خروج زوجها إلى عمله، إذ كانت تضمحل للبيت نفورا جعلها أعجز من أن تستطيع البقاء فيه بمفردها. وكانت المحال التجارية الكبرى هدفها المختار، تنتقل بين معارضها، وتضرب في طرقاتها المزدحمة، وربما ابتاعت حاجة مما يلزمها، غير ملقية بالآ إلى الشبان الذين قد يتعرضون لمغازلتها. وما حاجتها إلى رجل جديد وفي بيتها رجلا؟. . . فضلا عن ذلك فقلبها كان يحذنها دائما بأنها ستألف زوجها يوما ما وتحبه وتخلص من حيرتها جميعا. أما إذا تمكّن منها الملل وأدركتها السامة فربما خرجت عن حكمتها، وذكرت مثالب حياتها -

وتقصت الأيام الباقية من يوليه في حياة مرحلة حارة، فارتادا السينما والصالات الصيفيّة. ودعي هو إلى البودينجا وجروبي وصولت. وأفضى بسروره يوما إلى الإخشيدى، فقال وهو يمط بوزه استهانة: - الطبقة العالية الآن خارج القطر. وستعود الحياة الحقيقيّة إلى القاهرة في أواسط أكتوبر. .

وقد هاله الأمر، ولكنّه قنع بمعارفه الجدد، ولعلهم أن يكونوا أدنى إليه - أو لعله أن يكون أدنى إليهم - من أولئك السائحين في بطون القارّات الحيّة. بيد أن أمرا واحدا أزعجه، هو تكاليف هذه الحياة المرحّة الممتعة. هذه الحياة تفرض عليه العناية بلباسه كالنساء سواء بسواء، وأن يقتني الأنواع النفيسة، ويختار الألوان الجميلة، مع ملاحظة الوفرة حتى لا تقع العين الناقدة على شيء واحد مرتين، ولم يلق بين أولئك الشبان من يتحدّث عن العروبة، ولا من يناقش الاشتراكية أو أجست كونت. ومن بينهم جامعيون كثيرون ولكنهم متأقلمون، فلا كلمة واحدة تذكر بحدائق الأورمان أو دار الطلبة. ووجد نفسه يهوي إلى التدخين ومشاهدة ألعاب القمار.

ولكن كيف يواجه هذه الحياة بمرتبّه الصغير؟! . . . أجل إن قاسم بك يقوم بنفقات البيت والزوجة! ولكن تبقى وجوه إنفاقه هو، وهي تتسع يوما بعد يوم وتتوسع ساعة بعد ساعة! وقد تفكّر في ذلك طويلا ثم قال لنفسه: «أمثالي يرتقون سريعا في الحكومة، فلا يجوز أن أتخلّف عنهم!».

\* \* \*

وطابت حياة المجتمع لإحسان. استهوتها بما فيها من تسلية ومرح وفرص للظهور والمباهاة واستشارات للإعجاب. وجذبت اهتمامها نحو أمور جديدة فبنت في حياتها روح العناية والحساس، وأنقذتها من تأمل حياتها - ماضيها وحاضرها ومستقبلها - والاستسلام للفكر. سرورها ما صادفها من نجاح ووداد. وكان قاسم بك فهمي مغرما بها غراما جنونيا ملك عليه نفسه، فجرى وراء هواها غير عابئ بمركزه أو أسرته أو أبنائه. وأنفق عليها عن سعة حتى صارت زينة كل

طويلاً، فلم تلبث أن اقتنعت بما فيه من حكمة وبعد نظر..

### - ٣٧ -

وجاء أول أغسطس، وقبض أول مرتب له من الحكومة، وهو مرتب لم يكن ليحلم به أيام الجوع، فمن عجب حقاً أنه لم يسر به! . توزعت المطامع وتعددت رغائبه فباتت حياته كالنار لا تشبع ولا تقنع. وذكّره المرتب بالديه اللذين ينتظران على لطفة نصيبهما من مرتبه، لا شك أن مكافأة والده نفذت، ولعله يبيع الآن أثاث البيت كما فعل هو في فبراير الماضي، وسيعجز حتى عن أداء إيجارة المسكن، وربما وجد والدها نفسيهما بلا مأوى وبلا طعام. ما عسى أن يفعل؟

كان حكيمًا بلا ريب حين قرّر أن يخفي عن والده تعيينه، وقد احتاط للأمر فرجا الإخشيدى ألا يذيع الخبر في القناطر حتى لا يعلم به أحد قبل الوقت المناسب، ولكن متى يجيء الوقت المناسب؟. إن مرتبه لا يفي بتكاليف هذه الحياة الراقية، فهو يدرك قصوره عن الظهور كما ينبغي، فإذا تنازل لوالديه عن جنهين أو ثلاثة اختل ميزانه وافتضح أمره وانهارت آماله! فكيف يواجه هذه الصعاب؟! وتولاه الغضب. كان دأبه الغضب إذا تحير أو ارتبك، كأنما يعتقد في قرارة نفسه أن لا شيء يستحق الخيرة أو الارتباك، ولكن ذكر على رغمه والديه، وتماثلت له صورتها، أبوه على فراش المرض - ولم تحرك هذه الصورة نفسه إلا بقدر يسير - وصورة أمه بعينها الضعيفتين وصمتها الرهيب وإيمانها العميق به ومستقبله، وقد حاول أن يهرب منها أو يطردها عن مخيلته فلم يفلح، فأجمع على أن يقهر ما توقظه في نفسه من عاطفة بقوة وصرامة. لم يكن حبه والديه دافعه الأول إلى التفكير فيهما، ولكن شعوره بالتبعية نحوهما كان الدافع، وفظن إلى هذه الحقيقة منذ البدء، فكانت من أسباب مضاعفة غضبه. ألا يزال يعلق بنفسه شيء من الأوهام؟. ما النبوة؟

والديها وزلتها وحياتها الراهنة - فاجتاحها موجة تمرّد ثائرة وحدّتها نفسها بالجرى وراء اللذة حتى قرارة بؤرتها، ولكنّها لم تفعل. كما أنّها لم تتخذ قراراً نهائياً كما فعل محبوب في مثل ظروفها تلك. كانت تتسكع كلّ صباح كالمتعطلين وربما استقلت الترام أو الأوتوبس إلى بعض النواحي النائية ذهاباً وإياباً. وعلمت يوماً أنّ إحدى صديقاتها ستنتقل يوماً مع زوجها إلى مفوضيّة روما؛ فأثر فيها الخبر تأثيراً عجبياً، وتمنّت لو تستطيع أن تجوب بلدان الأرض جميعاً. فما أجدر مثل هذه الحياة الشيطنة أن تُنسى كلّ ذي همّ همّ، وأن تسدل على تفاهة الحياة ستاراً كثيفاً. وقالت لمحبوب وكان قد علم الخبر:

- ما أمتع أن يسافر الإنسان إلى روما. !  
فسألها بدهشة:

- هل ترغيبين في السفر حقاً؟

- أجل.. لم لا؟

فقال وقد ابتسمت شفته:

- واللبك؟

- عسى أن يكرمني بهذه الخدمة فيما بعد..

وأدرك ما تعنيه بقولها «فيما بعد»، فهزّ كتفيه وقال:

- إذا فتر هواه يوماً فلن يفعل شيئاً مطلقاً..

والتقت عيناها في نظرة ذات معنى، وأراد أن

يستغل الفرصة السانحة أبعده استغلال فقال:

- إنه الآن يدعّن لرغباتك فلا تفلتنّ من بين يديك

هذه الفرصة الجميلة. الفرصة السعيدة لا تسرح في

عمر مرتين: تناسي هذه الرغبة الفجائية في السفر فهي

رغبة خيالية، واعلمي أنك إذا فقدت حبه يوماً

فستلقي الحياة عابسة متجهمة. إذا لم نحسن الاستفادة

من ظروفنا فنسضطرّ غداً إلى مغادرة حيناً هذا إلى حيّ

فقير. وليخلقن المجتمع الراقى أبوابه في وجوهنا،

ولنكونن أضحوكة المتندرين، فينبغي أن نحاط

للمستقبل البعيد..

وتفكّر في كلامه قليلاً فوجد أنّه يتكلّم كما يتكلّم

القوادون يسر وبغير مبالاة. وسرّ لمقدرته، وعدّها فوراً

مبيئاً لفلسفته وإرادته. وتفكّرت إحسان في كلامه

٤٩٩ القاهرة الجديدة

- إنه شابٌ جسور مثاليّ، فسرعان ما ضاق ذرعًا بمكتبة الجامعة، وأتفق مع بعض زملائنا على إصدار مجلة أسبوعية للدعوة إلى الإصلاح الاجتماعيّ . .

- والماجستير؟

فقال أحمد بدير:

- قال لي: لِنَدْعُ البحث للباحثين، ولنركّز همّنا فيما هو أجلّ، وليكن جهادنا كلّه لمصر وكيف نُحوّل من أمة عبيد إلى أمة من الأحرار . .

فتفكّر محجوب عبد الدائم مليًا دون أن يبدو على وجهه شيء، ثمّ قال:

- الواقع أنّ الأستاذ عليّ طه ذو طبيعة عمليّة، فهو لا يصلح للتفكير العلميّ النظريّ . .

فلحظه الصحفيّ بنظرة حاذة، وقال:

- هذا لا يعيبه. الطبيعتان على اختلافهما جليلتان. والحقّ أنّ صديقنا شابّ مخلص متحمّس، ولقد ركل الحياة المطمئنة ليدعو إلى مثله العليا على ما في ذلك من مشقّة وخطورة، فليست مبادئ صاحبنا بالمبادئ التي يأمن معها الصحفيّ على نفسه، وربّما تعرّض لسفاهة السفهاء، وتهمّج الجهلاء المتعصّبين، وربّما سيق إلى ما هو أخطر من ذلك جميعًا، ما عسى أن ينتظر من يدعو إلى الإيمان بالعلم والمجتمع والاشتراكية؟

ولم يجب محجوب، ولكنّه تساءل:

- وهل صدرت المجلّة؟

- تصدر في أوائل هذا الشهر.

فقال محجوب بعد تردّد:

- وكيف جاء بالمال اللازم لمثل هذا المشروع؟

- أعطاه والده مائة جنيه . .

فتساءل محجوب كالساخر:

- وهل يؤمن ذلك الوالد الموسر بالاشتراكية؟

فضحك بدير وقال:

- لعلّ الرجل يعدّ مشروع المجلّة عملاً تجاريًا،

فأعانه بما في وسعه وهو وشأنه بعد ذلك . .

فهزّ محجوب رأسه وقال بلهجة لا تخلو من

الاحتقار:

- طالما حدّثنا عليّ طه في دار الطلبة عن مبادئه،

أليست عادة سخيّة لاحقة بظاهرة الأسرة؟ بلى، وسيكفر بها كما كفر بأخواتها من قبل، ولن يراعي إلا ذاته ومجده ولذّته . . وتساءل لماذا يعيشان؟ وما فائدتهما في هذه الحياة؟ وما معنى الحياة لهما؟ لماذا لا يموتان فيستريحان ويُرجمان؟ الرّ بالوالدين شرّ إذا عاق سعادة الابن، بل كلّ ما يعوق سعادة الفرد شرّ. هذا واضح بيّن، وهو يؤمن به إيمانًا عميقًا، ولكن ماذا هو فاعل؟ أيقطع كلّ صلة له بالقناطر ويترك والديه يلاقيان مصيرهما وحدهما؟ وكيف يدبّر لهما النقود التي يحتاجان إليها؟ الواقع أنّه لا يستطيع الإنفاق عليها. والظاهر أنّه لا يستطيع كذلك أن ينساهما!

\* \* \*

وظلّ مغتمًا متفكّرًا حتّى غادر الوزارة، ولم يكن بثّ في الأمر برأي وإن كان شعوره بأنانيّته لا يغلب. وعند شارع قصر العيني التقى بالأستاذ أحمد بدير خارجًا من إدارة الجريدة، وتصافحا بحرارة، وما لبث أن عاوده شعور الخوف الذي يتتابه كلّما ذكر هذا الصديق المخيف. ومشيًا جنبًا إلى جنب يتحدّثان كمعادتهما القديمة في طريق الجامعة وحديقة الأورمان. وسأله الشابّ الصحفيّ عن حاله وعن عمله وعن قاسم بك، وحدّثه عن مشاقّ حياته الصحافيّة. وكأنّما أراد محجوب أن يجامله فقال:

- الصحافة فنّ خطير، والوظيفة الحكوميّة بالنسبة إليها هو ولعب . .

فقال أحمد بدير بسرور:

- صدقت أيّها الصديق العزيز، ولذلك فإنّه يدهشني أن يزهد شابّ مثلنا في العمل الحكوميّ ويهجر وظيفة محترمة ليجاهد في ميدان الصحافة . .

فلاح التساؤل في وجه محجوب وتمتم:

- حقًا؟!

- أجل. هو صديقنا الأستاذ عليّ طه . .

وقلقت عيناه الجاحظتان، ولاحت فيهما نظرة متجهّمة، ثمّ داراها بالدهشة وقال متعجّبًا:

- عليّ طه!

فقال أحمد بدير:

فاضطرب محجوب، وذكر أن قاسم بك فهمي من رجال العهد الحاضر المعروفين وتساءل:

- والإنجليز؟

فمطّ الشاب بوزة وقال:

- قلبّ المندوب السامي قلبّ..

وافترق الشابان: وأتجه محجوب إلى شارع سليمان باشا متجهًا مكتئبًا. ولكن أنقذه هذا الاضطراب الجديد من الحيرة التي لازمته منذ قبض مرتبه، ولم يعد إزاء الخطر المائل يتردد في الحكم على والديه، فكاننا أولى ضحايا الأزمة السياسيّة..

- ٣٨ -

ونقل الخبر إلى زوجه، فكان حديثها على المائدة، وفي الشرفة، وتساءلا معًا: هل يبقى قاسم فهمي أو يذهب بذهاب الحكم؟. وكان البك من رجال العهد القائم المعروفين بعداوتهم الحزبيّة، فلم يكن ثمة أمل في بقائه إذا استقالت الوزارة، وقال محجوب:

- إذا أحيل البك إلى المعاش نقلت حتّى إلى وظيفة مخمورة - إن لم يقذف بي إلى أقاصي الريف - وفقدت آمالي البعيدة إن لم أفقد وظيفتي نفسها..

أكان كافح ما كافح ليحني هذه النهاية المحزنة؟! أهذه خاتمة الجسارة والمغامرة والاستهانة بكلّ شيء؟.. لقد امتلأ غمًا وكمدًا، وجعل ينظر إلى زوجه بعينين مظلمتين لا تريان شيئًا. ولم تكن إحسان دونه غمًا أو كمدًا. فكُرت مثله فيها يمكن أن يتكشف عنه الغد، وتحايل لعينيها المصير المنتظر. لم يَعْنها كثيرًا فقدان الآمال البعيدة، ولكن كَرَبها تزعزع الطمأنينة الحاضرة. هل تحرم هذه الحياة الناعمة الراعدة؟.. هل ينضب النبع الذي يروي أسرتها العطشى؟ لتجد نفسها يومًا في إحدى مدن الريف ربّة لبيت باهت تقف حياتها على خدمته ورعاية صاحبه؟. هذه الخواطر بالأحلام المزعجة أشبه. ولم تدر كيف تواجهها غدًا إذا صارت حقائق واقعة! ولكن الظاهر أنّ الخبر كان سابقًا لأوانه، ولم يجدا صدّى في الجرائد التي عكفا على قراءتها بعناية. وأكد لها كثيرون من

والحديث لون من ألوان السمر الجميل. أمّا أن يهجر الإنسان عمله، ويتخذ من الحديث عن مبادئه عملاً قد يؤدي به إلى غيابات السجون فسلك أقلّ ما يقال فيه إنّه جنون، وما صاحبنا بمجنون، فكيف فعل هذا؟.. انظر إلى صاحبنا مأمون رضوان! وكيف حدّثنا طويلًا عن الإسلام؟.. ثمّ انظر إليه وقد جمع لسفر إلى باريس ليتأهل لوظيفة الأستاذيّة العظيمة.. هذا شابّ حكيم..

فقال بدير بسرعة وبلهجة تمتّ عن الدهشة:

- مأمون رضوان شابّ مخلص أيضًا. وأؤكد لك أنه سيتمّ تعلّمه بتفوق كالعهد به، وأنه سيكون إمامًا من أئمّة المسلمين هذا أمر لا شكّ فيه..

- أو فيه شكّ كبير..

فهزّ بدير منكبيه، ولكنّه لم يجادل صاحبه لأنّها كانا اقتربا من ميدان الإسماعيليّة حيث يتبغى أن يفارقه، واكتفى بأن قال:

- لقد عقد الأستاذ مأمون بالأمس زواجه، وسيسافر الزوجان إلى الخارج في نهاية هذا الشهر..

ها هي ذي الخطوط الأولى لهذه الحيات المتناثرة ترسم في صحيفة الدنيا الواسعة، ولا يدري أحد كيف تصير في الغد القريب أو البعيد، ولا ماذا ينتظر أصحابها من حظوظ ومقادير، وكلّ ما يدريه أنّ حياة أيّ منهم يمكن أن يذيعها راوية كأحد بدير إلّا حياته، فإنّها إذا ذاعت على حقيقتها اعتبرت فضيحة! وما يعنيه ذلك في كثير أو قليل، ولكن ينبغي أن يخاف سوء العاقبة، كما ينبغي لعاقل يعيش بين حمقى ومجانين! ولم يستطع أن يستشعر الطمأنينة، ولا أن يستهن بالكآبة التي تولّته. ومن عجب أنّه وعليّ طه نقيضان، ومع ذلك فلا يبعد أن يقذف بهما المجتمع إلى أعماق السجون غير مفرّق بين عابده والكافر به!.. وبلغا الميدان. وسمعا باعة الجرائد ينادون عليها منوهين باجتماع حزب الحكومة. وتذكّر الأستاذ بدير أمرًا فقال وهو يصفاح صاحبه مودّعًا:

- على فكرة. لقد فقد رئيس الحكومة عطف

السراي!

## ٥٠١ القاهرة الجديدة

وعاودته الرغبة في تعذيبه فسأله متجاهلاً:

- ماذا يخيفك؟

فأتسعت عينا الشابّ الجاحظتان دهشة ورفع حاجبيه، ثمّ قال:

- ما أجل أسوان في أغسطس!

فهزّ الإخشيدى كتفيه استهانة وقال:

- كلّ مكان ينبت العزّ طيب.

- الإشاعات صادقة إذن...

فصمت الإخشيدى لحظة منقّباً عن إجابة لا

تكشف جهله غداً أو بعد غد، ثمّ قال:

- لا يعلم أحد حتى هذه اللحظة، أمّا بعد ذلك فالسياسة مجنونة..

وعاد إلى حجرته مغيطاً محنقاً يقول لنفسه: «ابن

الستّ أمّ سالم يريد أن يوهمني بأنّه سياسيّ داهية، تبا له!».

وعند الظهر ملأت الوزارة إشاعة بأنّ الوزارة قدّمت استقالتها بالفعل، وقال قائل: إنّهُ أتصل ببولكلي بالتليفون فأكد له الخبر. وعمّت الموظّفين حركة عنيفة لا تظهر إلّا إيّان الاستقالات، فانطلقوا في الردهات يتحدّثون بأصوات مرتفعة عن الوزراء الجدد. واضطرب الشابّ أيّما اضطراب ولاح في عينيه الوجوم. وجاءه الساعي وأخبره بأنّ قاسم بك غادر الوزارة، فاتّصل بالإخشيدى بالتليفون وسأله عن الجهة التي ذهب إليها البك، فأجابه بأنّه لا يدري. وخاطب- بالتليفون- جمهرة من صحبه في الوزارات المختلفة وتلقّى الإجابات: ماذا عندك من الأخبار يا فلان؟- الحالة حرجة، ما أخسر الأخبار يا أستاذ؟ قطران، هل من جديد يا فلان؟- ضربوا الأعور على عينه، أسمعت الإشاعات الغريبة يا عزيزي؟ عن الوزارة؟ إلى الجحيم يا سيّدي! وهكذا حتى أيقن أنّ الوزارة في النزح الأخير. ورنّ جرس تليفونه، وإذا بالمتكلّم إحسان زوجه فأوجس خيفة:

- هل جاءك النبأ؟

- الوزارة؟

الأصدقاء أنّه لم يشن الأوان بعد. وتتابع أيام أغسطس في هدوء حتى ألفا الطمأنينة مرّة أخرى، بل عاد محبوب يذكر والديه ويتساءل عما ينبغي أن يصنع بها. وكان هذه المرّة ذا عزيمة صادقة فكتب خطاباً لأبيه يعرب له عن أسفه لعجزه عن معاونته، وذكر له أنّه لا يني عن البحث عن عمل، ووعده بفرج قريب، وقال لنفسه، يسكنّ خاطرهما: إنّ الرجل يستطيع أن يصبر شهراً آخر أو شهرين حتى يدركه بالمعونة في ظروف أنسب؟.. ولكنّ الطمأنينة لم تدم. ويُعث الخبر الذي أعلنه أحمد بدير أوّل الشهر من جديد. وتطايّرت الإشاعات حتى ملأت الجوّ. وبات الأفق ينذر بشرّ مستطير. وعاد الزوجان إلى أفكارهما، وساورتها المخاوف. وقد قابل محبوب مديره سالم الإخشيدى في مكتبه يوماً ليسأله عما هنالك؟ ووجده كما عهدته دائماً هادئاً رزيناً. ولكنّه لم يتأثر بهدوئه ولا برزاقته لأنّه يعلم حقّ العلم أنّه لا يخرج عنها حتى في أخرج الأوقات. ورفع إليه الرجل عينيه المستديرتين متسائلاً، فسأله الشابّ وقد ظلّ واقفاً:

- ما حقيقة هذه الإشاعات التي تتناقلها الألسن؟ فسأله الإخشيدى بصوت لم يفقد آية رنة من رنات الرياسة:

- آية إشاعات؟

- سقوط الوزارة. ماذا وراء الأكمة؟.

فابتسم الإخشيدى وقال:

- وراء الأكمة ما وراءها!.

- هل حقاً يمكن أن يزول هذا العهد؟

فقال الإخشيدى وقد تمكّنته رغبة عابثة في تعذيبه:

- كلّ شيء زائل..

فملاه بروده حقناً وغيطاً حتى اضطّرّ إلى مداراتها بالابتسام وقال:

- سعادتك تعلم أشياء وأشياء بلا ريب..

وأبت عليه نفسه أن يقول إنّهُ لا يعلم شيئاً، فابتسم ابتسامة غامضة وقال بثقة:

- انتظر. إنّ غداً لناظره قريب..

- أما من كلمة مطمئنة؟

- نعم. استقالت..
- كيف علمت هذا؟..
- ملحق الجرائد..
- إذا..
- إني أكلمك لأطمئنك.
- كيف؟.. هذا كلام غير معقول..
- بل معقول جداً. سأحدثك بالتفصيل عند عودتك، اعلم الآن أن البك قال لي إن الوزارة ستتغير، أما العهد فباقي كما كان..
- أمأكدة أنت؟
- ولدي أخبار تسرك غير هذه ستعلمها حين عودتك..
- وأغلقت التليفون فنهض الشاب من فوره وغادر الحجرة. وفي الطريق سمع باعة الصحف ينادون بأعلى أصواتهم على استقالة الوزارة، وأنس الاهتمام والسرور يجريان مع الهواء في كل مكان. ذهب الطاغية، غار سقك الدماء. وانفك حبل الاستبداد عن أعناق المصريين أو كاد. لم يشاركه أحد سروره، ولولا ما بشرته به زوجه لانتحب باكياً. ووجد إحسان في انتظاره، فاستقبلته بابتسامة عذبة، وأقبلت عليه تحذته بما عندها من أخبار، وأعدت على مسمعيه ما قالته في التليفون، ثم سألته:
- أتدري من وزيرك الجديد؟
- فسألها متعجباً:
- من؟
- قاسم بك فهمي..
- رمقها بنظرة ذاهلة وقد تورّد وجهه، وسألها:
- أقال لك هذا؟
- أجل..
- غمره شعور ارتياح وسرور، ولكنه لم يطمئن به طويلاً، وما لبث أن تنف حاجبه الأيسر وهو يقول:
- وزيراً... ليته ظل كما كان!.. الوزارة تقليد لا تخليد، فمن لنا غداً؟..
- ولكن ربه لم يؤثر فيها، فقد خالت أن الوزارة آلت إليها هي، وقالت بإنكار:
- إنه الوزير، ألا تفهم؟..
- بلى يا عزيزتي، هي فرصة سعيدة، بيد أن الوزارة قصيرة الأجل كالأحلام السعيدة، وميستحيل غداً أو بعد غد، ونجد أنفسنا بلا نصير، أو تحت رحمة أعداء لا يرحمون...!
- فلم تخر جواباً، ومضت تنتقل إليها عدوى القلق حتى لعنته في سرها. وجعل الشاب يزن الأمور واحتمالاتها بفكر سريع نافذ ثم قال:
- هذه هي فرصتنا الأخيرة، فإما نحسن انتهازها فنحن في عيشة راضية، وإما ندعها تفلت من أيدينا فالعاقبة الهوان.
- والتقت عيناهما، وأدركت ما يرمي إليه، ولكنها انتظرت حتى يفصح عن رأيه. واستدرك محبوب قائلاً:
- إذا استقال ونحن في مركز «معقول» فلن نأسف على ذهابه..!
- واستأنف الكلام بعد صمت قليل:
- ينبغي أن ألحق بمكتبه..
- سكرتيراً له؟
- فهز رأسه كأنه يقول: «هذا لا طائل تحته» واستدرك:
- سكرتيره درجة سادسة فلا فائدة فيها، أما مدير مكتبه فدرجة رابعة!
- أيمكن القفز من السادسة إلى الرابعة؟
- يمكن ترقيتي إلى الخامسة خصماً على الرابعة، وفي الكادر تأويلات تتسع لكل شيء، فما رأيك؟
- وعضت على شفتيها لتخفي ابتسامة خيلاء، وكانت تدرك أن أية درجة يرقى إليها فكأنما ترقى إليها هي، ولم يداخلها شك في أن الدرجة الرابعة المرجوة تستطيع أن تحتفظ لها بمستوى الحياة الذي تتمتع به الآن، فبادلته شعوره بإخلاص، وتمتمت قائلة بصوت خفيض:
- لا أظنه يرفض لي رجاء...!
- فقال بحماس وإيمان:

٥٠٣ القاهرة الجديدة

إلى مكتبه الذي يوشك أن يهجره، وقد بدا لعينيه حقيراً، ولكنه لم يكن أول المبكرين. فتح الباب وبدأ عند عتبة الأستاذ سالم الإخشيدى . . وانقبض صدره انقباضاً لم يَبْدُ على وجهه بطبيعة الحال، ووقف مبتسماً يستقبل القادم وهو يتساءل في نفسه ما الذي دعاه إلى التنازل عن كبريائه والقدم إلى مكتبه؟! ومد له يده بسرور وهو يقول:

- أهلاً بسعادة البك. تفضّل بالجلوس! .

وجلسا معاً. وجاد الإخشيدى بابتسامته من ابتساماته النادرة، وتكلّم كلاماً عاماً عن الوزارة الجديدة، والبك الذي يتتظر أن يخلف قاسم بك ثمّ قال بهدونه المعهود:

- لديّ ما أحبّ أن أكاشفك به، وقد أمرت ساعيك بأن لا يأذن لأحد بالدخول . .

وحدس الشاب ما يريد قوله، وأحسن استيائه وحقناً، ولكنه قال بلهجته الدالّة على الترحيب والسرور:

- حسناً فعلت، وهأنذا رهن أمرك . .

فصوّب الإخشيدى نحوه عينيه المستديرتين وقال:

- الأمر جدّ خطير ما دام يتعلّق بمستقبلنا، وسنجنى من ورائه نفعاً مؤكّداً متبادلاً. ولكنّي أحبّ أن أسألك سؤالاً قبل كلّ شيء: ألم تجدني صديقاً مخلصاً؟

- بل خير الأصدقاء جميعاً . .

قال محبوب ذلك وهو يعجب لهذه اللهجة اللينة اللطيفة التي لم يتعود الإخشيدى الكلام بمثلها من قبل. أين الأمر والنهي والزرجر؟ أين البرود والتعالي؟ وقد شعر في أعياقه بدبيب الحنق والسخرية، ثمّ استمع إليه وهو يقول:

- شكراً لك. صداقتنا هذه كثر نفيس. وبفضلها

نستطيع أن نقتحم الصعاب يداً واحدة . . .

- نطقك بالحكمة كعادتك يا بك . . .

وجعل يقول في سرّه: تكلم عن الصداقة كيف شاء لك الخداع. فأننا أعرفك كما تعرف نفسك أيها الشيطان الماكر. وحسبي أن أعرف نفسي كي أعرفك حقّ المعرفة، ولكلّ شيء آفة من جنسه! .

- همتك، همتك يا بطلّة! فعلى نتيجة سعيك يتوقّف مصيرنا.

وفي صباح اليوم الثاني تناول الأهرام باهتمام، ونظر في الصفحة الأولى، فجرى بصره على عمود من الصور، صور الوزراء الجدد. ووجد في وسطه مبتغاه، صورة قاسم بك فهمي، فاستقرّت عليها عيناه، وتنهّد من الأعياق. تُرى هل يتحقّق هذا الأمل! . . هل تستطيع قبلة أو رنوة أو تنهّد أن تنقله من حال إلى حال، وأن تدفعه من طبقة إلى طبقة؟

- ٣٩ -

ومضت أيام قلائل وجعل الوزير الجديد إقامته في القاهرة - لا في بولكي - لحالة ربو يعانها منذ سنوات. وفي اليوم الرابع لتولّي الوزارة علم محبوب أنّه قد استقرّ الرأي على اختياره لوظيفة مدير المكتب. استقبلته إحسان بابتسامه وقالت بخيلاء «مبارك . .» فاهتزّ فؤاده سروراً، واضطرب اضطراب المفاجأة كأنّه لم يركّز كلّ اهتمامه في هذا الأمل طوال الأيام الأربعة الماضية. صار الأمل حقيقة رائعة. وسيصبح من كبار الموظفين. ليست الدرجة الخامسة بالحظّ الذي يستهان به، فما بالك إذا كانت خطوة قصيرة إلى الرابعة؟! وتخايلت الرابعة لعينيه مرسومة بالفضاء واضحة، ثمّ تحوّلت إلى صور ذهنيّة على هيئة كرسيّ كبير، وأحاط بالكرسيّ سعاة، ومثل أمامه خلق كثيرون من جميع الطبقات. ولم يَر نفسه وهو يتخيّل هذا المجد والآل سخر منه كعادته، فقد قطّب متكبراً وألقى على ما أمامه نظرة مرتفعة من رأس شامخ. ولذّ له في تلك الساعة أن يقرّ صفحات الماضي القريب: ليالي فبراير، دكان الفول بميدان الجزيرة، رحلة الأهرام، تردده بين الجزيرة وشارع الفسطاط والإخشيدى مأسداً يده بالسؤال، زواجه، ثمّ هذه النهاية! . . . ولاح له رأسه المغمم جسارة وفلسفة كمصباح يهدي سواء السبيل، فطاب نفساً، وفرك يديه حبوراً.

وذهب إلى الوزارة مبكراً في اليوم الثاني. وجلس



- ألا ترى يا سالم بك أن هذا معناه رفض شرف  
آثري به الوزير؟!  
فرمقه الإخشيدي بنظرة غريبة كأنها تقول له: «يا  
بن اللثيمة!». ولكنه حافظ على هدوئه بقدرة عجيبة،  
وصمت برهه، وقد همّ بمراجعته، وأوشك أن يرسم  
ابتسامة من ابتساماته، وانتظمت على لسانه عبارات  
لطيفة، وكاد يذكر كلامًا عن الصداقة والتعاون،  
ولكن إرادته منعت ذلك كله، فظل صامتًا جامد  
الوجه والنظرة، واكتفى بأن تساءل بلهجة لا تدل على  
شيء:

- أهذا رأيك؟!

فقال محجوب بغير مبالاة وقد تلبّسه شيطانه:

- أجل. ألا تشاركني رأيي؟!

فتمتم الإخشيدي وهو يحول عنه عينيه:

- معقول. لك حق. أشكرك. مبارك!

وغادر الحجرة بخطاه الوثيدة وقد عاوده كبرياؤه.  
وارتفق محجوب مكتبه متفكرًا!! سبق أن خسر عليّ  
طه ومأمون رضوان وكان ينسى سريعًا. أما هذه المرة  
فقد ساوره الخوف، وقد ثار بخوفه، وكوّر قبضته  
غاضبًا، وكأنما أراد أن يتناسى همه فنهض قائمًا، وغادر  
الحجرة إلى إدارة المستخدمين ليطلع بنفسه على مذكرة  
نديه...

- ٤٠ -

واحتلّ الأستاذ محجوب عبد الدائم - أو محجوب  
بك عبد الدائم من الآن فصاعدًا - حجرة مدير مكتب  
الوزير. ووفد عليه كبار موظفي الوزارة مهنتين. فكان  
يومًا عظيمًا ومجدًا مشهورًا. وهنأه البعض بالدرجة  
الرابعة «مقدمًا» كأنها باتت أمرًا مفروغًا منه! أما سالم  
الإخشيدي فلم يهتبه. وأعلن بذلك عداوته صراحة.  
وقد ذاع خبر في الوزارة بأن الإخشيدي سينقل إلى  
الخارجية وبأنه سيرقى هناك إلى الرابعة. فلم يغب عنه  
المصدر الذي خرج منه الخبر، ولكنه لم يستبعد  
صحته، لأنه كان يعلم بصلات الرجل بكبار رجال  
الدولة، وقد قال لنفسه: «الإخشيدي قويّ بلا

وحدجه الإخشيدي بنظرة ثاقبة وقال:  
- علمت أن مذكرة تكتب لندبك مديرًا لمكتب  
الوزير...؟  
هذه هي النقطة الجوهرية. أريد أن يتنازل له عن  
الوظيفة!!.. يا له من أحمق. كيف غاب عنه أنه  
تلميذه!.. إن الدين والأخلاق والتقاليد لم تستطع أن  
تحول بينه وبين هذه الوظيفة، فهل يظن أن «صداقته»  
تنجح فيها أخفقت فيه جميع القوى! قال بهدوء:  
- أجل. علمت ذلك بالأمس فقط...  
فقال الإخشيدي:

- إن ذلك يسرني بقدر ما يسرك، بيد أنني أحب أن  
ألفت نظرك إلى أن درجة مدير مكتب رابعة وأنت في  
السادسة، فإذا وجدت درجة خامسة خالية فقد بلغت  
مرادك. خذ وظيفتي ودع لي وظيفتك الجديدة يتحقق  
أملنا جميعًا.

وتساءل محجوب في سره أعني هو أم يتغابي؟! فلم  
يدرك أنه يطمع في الرابعة نفسها؟ وهب القفز إلى  
الرابعة تعذر عليه فهل من شك في أنه يفضل أن يكونا  
في الخامسة معًا عن أن يمهد له سبل التفوق عليه؟  
ونظر إليه متظاهرًا بالاهتمام وتساءل:

- ومادا تريدني على أن أفعل؟

فقال الإخشيدي:

- صارح الوزير بأنك قانع بوظيفتي..

وجاءت الدقيقة الفاصلة! وكان يدرك بلا ريب  
أن أسطورة الصداقة التي تغنيا بها معًا رهينة بكلمة  
واحدة، فتردد قائلاً، وذكر أن عداوة الإخشيدي شيء  
لا يستهان به فليس الرجل بعليّ طه أو مأمون رضوان  
الذين لهما من شرفها وازع. هذا رجل - مثله - بلا  
خلق ولا مبدأ، وهو يعرف كل شيء، فسادا  
يصنع؟!... وتفكر مليًا. قال إن سره سيعرف يومًا  
بلا ريب، إن لم يكن عرفه بالفعل أمثال أحمد بدير،  
وماذا نال تهكم بدير من أبطال حفلة جمعية  
الضريرات؟!... طظ؟!.. كلاً ثم لا ينبغي أن  
يتردد، وليذهب الإخشيدي وصداقته إلى الجحيم!  
واجتاحته عاصفة استهانة، فقال:

جدال، ولولا زوجي ما تغلّبت عليه وكان اليوم في مكاني هذا... . ودخله سرور. فإذا نقل الإخشيدى حقًا خلا له الجوّ وصار رجل الوزير الأوّل، كما صارت زوجته من قبل امرأة الوزير الأولى؟. سرّ لذلك بلا ريب، بيّد أنّ سروره لم يدم طويلًا. عاد يفكر في غضب الإخشيدى وانتقامه وفيما عسى أن ينجم عن هذا وذاك. وسرعان ما أدركته روح الاستهانة فاستردّ مرحة وجعل يقول لنفسه: إنّ الناس يحبّون المظاهر ويخدعون بالرياء، فإذا اضطرّ للدفاع عن نفسه عاطاهم ما يشتهون من تظاهر ورياء، ولو بلغ به الأمر أن يشترك في جمعيّة الشبان المسلمين مثلًا! ففظظ في كلّ شيء إلا الناس، على الأقلّ في العلانية. ولكنّه لم ينته عند ذلك من الإخشيدى وغضبه، خطر له خاطر أزعجه أيّما إزعاج وقد عجب كيف أنّه لم يخطر له من قبل؟ الإخشيدى جار قديم من القناطر ألا يجوز أن تبلغ به الرغبة في الانتقام أن يفشي سرّه بطريقة ما إلى والديه؟ ازدرد ريقه بصعوبة وقد علت وجهه صفرة باهتة، وجعل ينتفح حاجبه متفكرًا مغتّبًا. وليث متفكرًا مغتّبًا حتّى كبر عليه أن يذهب سروره - يوم مجده - صحبة وساوس قد لا يكون لها أثر من الحقيقة، فنفخ مغيطًا محققًا، وكوّر قبضته غاضبًا، وقال لنفسه: قضى الأمر، وكان ما كان، فليكن ما يكون. وبعيد جدًّا أن يبلغ الإخشيدى حقيقة زواجه فإنّه هو أيضًا يعرف عنه حقائق ليست دون زواجه خطورة. ثمّ إنّ الإخشيدى أحكم من أن يفشي سرًّا يتعرّض به لغضب قاسم بك، ولكنّه من ناحية أخرى ينبغي أن يتوقّع أن يعلم أبوه بنبا تعيينه فيحسن به أن يدبّر للرجل ما يقيم أوده ويصون كرامته. وأراد أن يطرد همّه، فبسط ورقة على مكتبه، ورسم رقم مرتبه الجديد: ٢٥ جنيتها؟ وثبّت عليه عينيه الجاحظتين حتّى ابتسمت أساريه. سيقبضه أول أكتوبر، وما أول أكتوبر بعيد، فهل يمكن أن يتصوّر ذلك بائع الفول بميدان الجزيرة؟. بل مأمون رضوان نفسه لن يزيد مرتبه بعد عودته من البعثة - بعد ثمانية أعوام - على مرتبه هذا! نجت طظ

نجاحًا باهرًا! وقد ارتاح لذلك ارتياحًا عزّاه عن كلّ ما لاقى من ألم ونصب وقلق وأحزان. وسرّ سرورًا خالصًا ببراءته من ذلك المرض الوهمي الخبيث الذي يسمّونه الضمير أو الندم. حقًا خاف أحيانًا الناس، وعذبته الغيرة أحيانًا أخرى، ولكن هذا شيء والندم شيء آخر. كان كفره بالقيم والمجتمع كاملًا باهرًا، وإنه ليؤمن بأنّه سيظلّ قويًا حرًا، ما امتدّ به العمر؛ وإنه لن يلين أو يضعف إذا أقعده مرض أو ردّ إلى أرذل العمر، وما أجمل أن يستهين بالموت - إذا حضره الموت - وأن يرمق العدم بعين التسليم بالواقع دون فزع إلى قوّة وهميّة أو إله باطل. هذا هو انتصار العقل الحرّ على الغرائز العمياء والأوهام الباطلة! وتذكّر قاسم بك فهمي والإخشيدى وعشرات ممن أتصل بهم في حياته الجديدة، كلّ أولئك يبدون كأنهم من مدرسته. كلاً. إنّه يرفض ذلك رفضًا متعجرفًا! أولئك يفعلون الشرّ وهم يعرفون أنّه شرّ، ومنهم من يفعله وهو لا يميّز الخير من الشرّ، ومنهم من لا يحتمل نفسه مشقّة التفكير بتأثًا، ومنهم من يفعله وهو يؤمن بالخير. هو غير هؤلاء جميعًا. إنّه ينكر الخير والشرّ معًا. ويكفر بالمجتمع الذي صنعها، ويؤمن بنفسه فقط: يوجد لذيذ ومؤلم، ونافع وضارّ، أمّا خير وشرّ فمحصّ وهم باطل. وربّ قائل يقول: ولو آمن كلّ بهذا لهلك الناس جميعًا. هذا حقّ لا جدال فيه. ولكنّه ليس أحقّ كي يدعو لرأيه هذا. إنّه يحتفظ به لنفسه، وإذا قال تكلم غيره، فرزق أمثاله من الأحرار على الحمقى من المؤمنين! والمجتمع متسامح مع أمثاله إذا أحسنوا التحقّي، فالمجتمع لا يعنيه إلا أن يحافظ على ذاته، ويعادي في ذلك حتّى عشاقه الذين ينشدون له الكمال أمثال: عليّ طه ومأمون رضوان. فهو كالمرأة المغرورة إذا آنست من عاشق انتقادًا نبذته، ولذلك فنصيب هؤلاء التعب والكفاح وربّما السجن!

طابت الحياة إذا. ثمّ ذكر أمرًا فاستدرك قائلًا: وإلا شيئًا واحدًا، هي إحسان! أو هي تلك العاطفة المستبذّة التي لا تقع بغير الحبّ. وأين الحبّ؟ الفتاة تشاركه آماله، وتحسن معاشرته، ولكنّه يشعر بأنّها

فضحك عفت وقد أشفق من أن تفلت من يده  
الفرصة السانحة وقال:

- لا شك أن وظيفتك الكبيرة قد بثت في نفسك  
شيئاً من الشيوخوخة فبت ترجف من الجؤ اللطيف..!  
وكان هذا «المدح في قالب الذم» جديرًا بأن يلد  
محجوب في ظروف أخرى، ولكنّه لم يستطع أن يتذوّقه  
في رعبه، وقال بحميّة:

- الدنيا واسعة، اختاروا أيّ مكان تحبّون، أمّا  
القناطر..

واعترض عليه كثيرون فضاعت بقيّة كلامه، ولم يدر  
كيف يقنعهم ويحوّهم عن رأيهم، ولبت حيسال  
احتجاجهم مقهورًا، بينما راح عفت يقول:

- ليس ثمة فائدة ترجى من الاعتراض، والأوّل  
بك أن تصغي إليّ... سينتظر اليخت عند قصر النيل  
في الساعة التي تتفقون عليها.. أطعمة جافّة  
لطيفة... زجاجة ويسكي لكلّ ثلاثة... دعوني  
أحصيكم...

وعلا ضجيج الاستحسان، وشاركتهم إحسان  
سرورهم، وجعل محجوب يقبّ عينيه في وجوههم  
حائرًا وعلى شفّته ابتسامة لا معنى لها. لن يجد من  
رحلة القناطر مهربًا، سيقطع حدائقها ذهابًا وإيابًا في  
ضوء القمر، أليس من المحتمل أن يلقي أحدًا من  
أهلها الذين يعرفونه؟.. بلى، هذا محتمل، ويحسن به  
والحال كذلك ألا يبرح اليخت متحلًا عذرًا، أجل لن  
يستطيع مقاومة العريبيين العنيدين، فليذهب إذا لم  
يكن من الذهاب بدّ، والحدائق على آية حال بعيدة  
عن المحطّة، بعيدة عن البيت البائس الباهت...

- ٤١ -

ومضت أيام تمتّع فيها بوظيفته الخطيرة متعة صافية.  
وقد شعر جميع الذين يتصلون به من الموظّفين - صغارًا  
وكبارًا - بأنه موظّف متعجرف ينبغي أن تؤدّي إليه  
حقوقه كاملة، ولا يعفو عن زلل ولا يتكلّم إلّا أمرًا.  
وكان كلّها لان الموظّفون - ولا بدّ أن يلينوا - تمادى

تؤدّي واجبًا بإخلاص. إنّه كالموظّف الذي يجب  
الوظيفة دون عمله بالذات. أو هو لا يحبّه ولا يكرهه.  
ارتبط مصيرها بمصيره، هي تحبّ الحياة كما يحبّها،  
وتهوى الترف كما يهواه، ولكن ينقصه شيء كي يكمل  
هذا الامتزاج حقًا، شيء يروعه افتقاده حتّى في تلك  
الأوقات التي يدوان فيها سعيدين ثمّلين، والشفّة  
على الشفّة والصدر ملتصق بالصدر. وليس هذا  
بالشيء الذي يهون وإن قال عنه - في غمرة اليأس -  
ظفر. بل إنّه ليحدث في نفسه ثورة شبيهة بتلك الثورة  
التي أحدثها الجوع من قبل. ولذلك فكّر جدّيًا في أن  
يسطو كما يُسطى عليه، بل عابثه فكرة اكتراء حجرة  
وتأثيثها استعدادًا للطوارئ، ومن يدري؟.. فلا يبعد  
أن يقصد إليها غدًا أو بعد غد ذوو الحاجات، وكما  
أعطى ينبغي أن يأخذ!

\* \* \*

وعند مساء ذلك اليوم - يوم مجده - وفد الأصدقاء  
على الشقّة الأنيقة بعمارة شليخ ليقدّموا التهانّي لزوج  
مدير المكتب، وجرى الحديث في مرح وسرور، وقد  
اقترح البعض أن يحتفلوا جميعًا بترقية محجوب. وقال  
أحدهم مخاطبًا إحسان:

- في يوم الخميس القادم يتصف الشهر العربيّ،  
ويتربّع البدر في كبد السماء، وتمسي القناطر قبلة  
الواردين، فما رأيك في رحلة قمرية؟.. (وهنا لحظ  
عفت بطرف خفيّ واستدرك غامرًا بعينيه) وعفت بك  
يملك يحنًا صغيرًا جميلًا...!؟

وسرّ عفت سرورًا كبيرًا، وكان إعجابه بإحسان  
يزداد يومًا بعد يوم. وقال بسرعة دلّت على حماسة  
للقبول:

- اليخت وصاحبه رهن أمركم!

ومّا سمع اسم القناطر حتّى سرت في جسده  
فشعريرة باردة، وكان يعلم أنّ حماس الصباح ليس  
لشخصه هو، فقال معترضًا:

- هذه النزهة القمرية لا توافق جوّ سبتمبر الرطب  
البارد..

وجلّس الأصدقاء على المقاعد متقابلين، وراحوا يسمرون في جوّ لطيف رطيب. وجعل محبوب يردّد ناظره بين الوجوه المشرقة والقامات الهيف فبهره الشباب والجمال ورأى زوجه بعيداً عنه في هالة من الإعجاب والمعجبين، فذكر أيام كان يطالها عن بعد من نافذة حجرته بدار الطلبة يبدّ أنه رآها الآن أبيه ما تكون جمالاً وسحرًا، واستشعر الهوة العميقة التي تفصل بينهما! وجرت أمام مخيلته صور سريعة مضطربة، فرأى عليّ ظه - في حالتي سروره وحزنه - وعمّ شحاته تركي، والوزير، وسالم الإخشيدى، ومخدعه بعمارة شليخرا. ووجد نفسه يتساءل أيفضل لو كانت إحسان له قلباً وجسداً في بيت زوجي هادي «شريف» ولو كان موظفًا صغيرًا بلا مجد؟! ولم يجد الجواب حاضرًا، أجل كان طموحه قويًا كعاطفته، بل لعلّ طموحه أقوى. ولكن ما جدوى المفاضلة؟!، وألقى بنظره إلى النيل يتسلّى، ثم رفع بصره إلى البدر الآخذ في الصعود والصفاء، كلّما امتدّت ظلمة الليل أدكت توره وبهائه، ولكنّه لم يكن من الذين تفتنهم الطبيعة بحاسنها، وكان يلدّ له أن يقول: إنّ الهيام بالطبيعة مفسدة للعقل، ومصدر منذ الأزل لجهالات لا نزال نرسف في أغلالها. وذكر صاحبه مأمون رضوان وكيف كان يستيقظ في الفجر للصلاة والعبادة، وكيف كان يقَلّب وجهه بين النجوم الساهرة ويتلو: «والليل إذا يغشى»، «والساء والطارق» بصوت حنان، وعينه الصافيتان تلمعان لمعان النجوم الزاهرة. ولكن هل يوجد بين هؤلاء الشبان والشواب من يعشق الطبيعة؟!، وألقى عليهم نظرة شاملة فوجدهم في شغل عن الدنيا بأنفسهم.

وسمع آنسة فيفي تتساءل في إغراء:

- لماذا لا نرقص...!

فقال عليّ عفت من فوره:

- ارقصوا إذا شئتم، ولكن هل ترقصون بلا

موسيقى؟

فقال أحمد عاصم:

- أبشروا لقد أحضرت معي موسيقى اليد.

وطغى، واستلذّ تماديه وطغيانه، حتّى ودّ في أحابين لو يمضي يومه كلّه في الوزارة أمرًا زاجرًا...!

وجاء يوم الخميس، موعد النزهة. فغادر الزوجان بيتهما ومضيا في طريق قصر النيل، وقالت إحسان بتأنّف وهما يقطعان طريقهما:

- لعلّك الوحيد في الجماعة الذي لا يملك سيارة...!

فضحك محبوب قائلاً:

- في التآني السلامة...!

ولكن ملاحظتها حملته على أن ينادي على تاكسي فيستقلّانه على قرب المسافة. وذكر لهجتها المتأنّفة فقال لنفسه ساخرًا: «عيب كبير ألا يكون لكريمة عمّ شحاته تركي سيارة خاصة!»، ثم ذكر الأعباء التي تواجهها بها الحياة الجديدة كرهبته في اكتراء حجرة وتأنيثها، واقتطاع بضعة جنيهات من ماهيته لوالده، وغير هذه وتلك من وجوه الترف والإنفاق، فهاله الأمر. وحدّث نفسه قائلاً: «سأظلّ ما حييت فقيرًا إلى المال!». وبلغا مرسى اليخت بعد قليل. فغادرا التاكسي وأقبلوا نحو الأصدقاء المنتظرين وقد غشي الظلام الآفاق. واستقبلا استقبالًا جميلًا، وتقدّم عفت بك من الزوجين وصافحهما، وأعطى ذراعه لإحسان فتأبّطته وسارا في الطبيعة إلى اليخت. ولم يكن محبوب يحبّ صاحب اليخت، وقد بدأ يخامرهم النفور نحوه منذ لبيّ دعوته إلى الفانتازيو. قرأ في عينيه الجميلتين أي الإعجاب بزوجه فامتعض وتميّز من الغيظ، ورمق شعره الأحمر وبشرته البيضاء وجسمه الرياضي بعين المقت والغضب...

وكان اليخت صغيرًا، ولكنّه جميل أنيق. وكان مكوّنًا من طابقين، بالأوّل المقصورات، والثاني سطح مسوّر اصططفت به المقاعد الوثيرة على هيئة دائرة، وفي المقدّمة منه امتدّت الموائد حافلة بما لذّ وطاب. وقد أمر عفت بك بالإبحار فرفعت المرساة، وأبحر اليخت ميمًا شطر الشمال، في هداية نور القمر البهيج وسط الأفق الشرقيّ صاعدًا من وراء النخيل. هكذا بدأت الرحلة...

النيل المتموجة فتقاذفته ونثرته كاللؤلؤ يخطف الأبصار.  
وتساءل البعض:

- متى نفتح البوفيه؟

فرد عليه قرين:

- ليس قبل أن يرسو اليخت إلى شاطئ الحديقة يا  
جائع؟

فقال آخر:

- هل لكم في لعب الورق؟

ولكن اعترض كثيرون على الاقتراح أن يلهمهم عن  
صفرهم، وعادوا إلى السمر، واثبه محبوب من  
أفكاره على صوت الأستاذ حسني شوكت وهو يقول:

- كيف لا يكون أمرًا خطيرًا؟! .. إن نجاح الحزب  
النازي في الوصول إلى الحكم أمر جد خطير.

فقال أحمد عاصم:

- ولكن شخص الرئيس هندنبرج حقيق بأن يتلع  
هتلر.

- انظر إلى الأفق، ألا ترى أنّ هتلر في عنفوان  
الشباب والرئيس في نهاية العمر؟

- إذا سيتمخّض الغد عن حرب ضروس ..

- كلام معقول، بيد أنّ فرنسا لا تتريث حتى  
تستعيد ألمانيا قوتها وتتجمّع للانقضاض عليها،  
وهناك حلقة محكمة حول ألمانيا من البلدان الموالية  
لفرنسا كبولندا وتشيكوسلوفاكيا والبلقان، ولا تنس أنّ  
إيطاليا العظيمة تعدّ نفسها حامية النمسا، فما هو إلا  
أن تصافح هذه البلدان، وربما انضمّت إليها روسيا  
فتضيق الحلقة الفولاذية رويدًا رويدًا حتى تخنق ألمانيا  
في النهاية وتقضي عليها القضاء الأخير.

- وإنجلترا؟ .. هل تنغاضي عن خنق ألمانيا؟

- ولم لا؟

- إنجلترا أمكر من أن تترك فرنسا - أو غيرها -  
تسيطر على القارة الأوربية.

أصغى محبوب إلى الحديث باهتمام، وكان على  
اطّلاعه الواسع على السياسة الداخلية عظيم الجهل  
بالسياسة العالمية، فاقترح على نفسه أن يُعنى بمعرفة  
الأخبار الخارجية حتى لا يفوته الكلام فيها إذا لزم

وتصاعدت أصوات الاستحسان، ودارت العيون  
تتصيد الأحباب، وتناول أحمد عاصم آله ولعب بها  
وهو يتمايل على مقعده مع أنغامها الراقصة، ونهض  
الجميع للرقص إلا إحسان ومحبوب اللذين يجهلانه  
وعفّت بك الذي أثار أن يجلس إليهما. وجعلوا  
يشاهدون الراقصين في صمت وإعجاب. ثم أعلن  
عفّت بك إنكاره لجهلها بالرقص، وقال لإحسان:

- سأعلمك الرقص، فإنه لا يجوز أن تجهليه، .. ما  
رأيك؟

فتمتعت وعيناها لا تفارقان الراقصين:

- لا أدري ..

- غريب من يجهل الرقص في الحفلة الرائعة، أليس  
هذا رأيك يا محبوب بك؟

فشعر محبوب بالخطر المحدق به، وأراد أن يزوغ  
منه، فقال بعدم اكتراث:

- لا أظن ..

فضحك عفّت ضحكة عالية وقال:

- يا لها من أسرة من صميم القرن التاسع عشر ..

وضحكت إحسان لضحكها وقالت:

- قد نتلمذ لك يومًا ما ..

فلاح الحماس في وجه الشاب وقال بسرور فياض:

- في أيّ وقت تشائين ..

ولازم محبوب الصمت متظاهرًا بالاهتمام بمراقبة  
الراقصين، وهو يكظم حنقه وثورته. إنّ الشاب  
الأحق التباه بجماله يتحفّز للانقضاض على عرضه،  
وإنه لفاعل إذا وجد غرة، ولكن هيهات أن ينهزه  
فرصة، فليس لأحق مثله أن يُنبت في رأسه قرنًا  
جديدًا، .. لقد وهب رأسه للقرون الذهبية، قرون  
المجد والسلطان. ولكن ترى هل تستجيب لغزله؟  
هل تلين هذه الفتاة الغامضة الفاتنة؟ وأحسن أنياب  
الغيرة السامة تنهش صدره.

ورقص الراقصون حتى أدرك أحمد عاصم التعب -  
أو الملل - فكفّ عن اللعب، وانفرط عقد المتجاذبين،  
فعادوا إلى جلستهم الأولى مشرقة وجوههم بالابتسام.  
وكان البدر قد علا في السماء وانسكب نوره إلى مياه

متفق - أنا ووالدي - على أن أنجع سياسة مع الفلاح هي: السوط.

وضحك الحاضرون - من الجنسين - ضحكًا عاليًا. وابتسم محبوب يداري هزيمته، وقد أفرخ روعه، وارتاح إلى تفرّده بالدفاع عن «القومية المصرية»، وقال لنفسه: «إنّ بدلة التشريفة الحقيقية هي ثوب الرياء فلا يفوتني ذلك!» وتساءل ساخرًا: تُرى كيف يصلح عليّ طه هذا الشعب الكريم؟ وكيف يحقّق مثله العليا؟ ومضى الوقت واليخت يشقّ الأمواج وكأنّه يسبح في النور السنيّ، واتبه محبوب مرّة ثالثة على قول شابّ: - . . فما من شكّ أنّ الزوجة أجبرت الباشا زوجها على الإقامة في فندق إبقاءً على سائق السيارة.

فسألته إحدى الفتيات باهتمام:

- وهل حقًا خيّرهما الباشا بين بقائه هو أو السائق؟

- نعم.

- وماذا كان جوابها؟

- السائق. . . ؟

ولبت يلتقط الأحاديث من هنا وهناك، طورًا في يقظة وانتباه، وطورًا شاردًا ذاهلاً، حتى لاحت الحدائق ساهرة في ضوء القمر كأعذب الأحلام. ونهض الصحاب مهتمين. ثمّ دعاهم عفت بك إلى البوفيه.

- ٤٢ -

استبقوا إلى الموائد، واتخذوا مجالسهم، وأترعت الكئوس، وملأ عفت كأس إحسان، وكانت أول مرّة تشرب في جماعة، فقالت بصوت خفيض:

- حسيّ كأس واحدة.

فقال الشابّ ضاحكًا:

- هلاّ تلقّعت بخمار التقوى وذهبت إلى «السيدة» للوعظ والإرشاد؟! ثمّ همس في أذنها:

- انظري إلى حكمت، إنّها تشرب زجاجة كاملة دون أن يبوح لسانها ببيّر. وراة إحسان الجميع ينظرون إليها لتبدأ بافتتاح

الأمر، وتظاهر بتأمل القمر والغياب عمّا حوله حتى لا يلاحظ أحد صمته. فغاب حقًا عن الحديث دقائق، ولمّا عاد بوعيه إلى الجلوس، وجد الحديث قد طرق الأحوال الداخليّة دون أن يدري كيف. وسمع بعضهم يقول:

- أما مصر فيستطيع أيّ حاكم أن يستبدّ بها دون كبير خطر.

- الواقع أنّ أيّ نظام من أنظمة الحكم يستحيل ديكتاتوريّة إذا طُبّق في مصر.

- هذا وطن «ضربك شرف يا أفندينا» . . .

وقال أحمد عاصم بلهجة اليقين:

- لن نظفر مصر باستقلالها أبدًا . . .

- استبدّت بها عادة الحكم الأجنبيّ!

فضحك عفت وقال:

- وما حاجة مصر إلى الاستقلال؟ أما الزعماء

فيتعاركون على الحكم، وأما الشعب فغير أهل للاستقلال.

ووجد محبوب الفرصة سانحة ليقول قولاً «أخلاقيًا» وليُحدث لنفسه سمعة إيجابية، الأمر الذي أجمع على تحقيقه حين فُكّر في الاشتراك في جمعيّة الإخوان المسلمين، فقال مبتسماً:

- ألا يسوؤك أن تقول هذا القول عن قومك . . . !

فضحك عفت مرّة أخرى وقال بصوت مرتفع:

- لا تجري في عروقي نقطة دم مصريّة واحدة.

وأحدث قوله عاصفة من الضحك، أما محبوب فتضاعف مقته له، لا غضبًا لوظيفته، ولكن ثورة لكبريائه، وذكر خطبة رثانة ألقاها والد عفت في مجلس الشيوخ فظنّ أنّه قبض على عنق الشابّ، وقال بلهجة الظافر:

- فما قولك في خطبة الباشا والبدك في مجلس

الشيوخ، عند مناقشة الميزانيّة، التي دافع بها عن الفلاح دفاعًا وطنيًا مجيدًا؟! فقهقه عفت وقال كالمساخر:

- هذا في مجلس الشيوخ، أما في البيت فكلانا

وقال شوكت مرّة أخرى:  
- إن أعجب مقامرة شاهدتها في حياتي كانت مقامرة  
شاب بعشيقته!  
فلاح الاهتمام في وجوه الجميع وسأله كثيرون:  
- حقاً؟.. وكيف كان ذلك؟  
فأجاب الشاب الشمل قائلاً:

- إنه صديق حميم، وقد اصطحب يوماً عشيقته إلى نادٍ  
خاص من أندية القمار، فخسر جميع نقوده، وكانت  
الخمرة قد لعبت برءوس الجميع فاقترح عليه سكران أن  
يقامر بعشيقته على كل خسارته، فإمّا استردّ نقوده وإمّا  
خسر عشيقته، فقبل الاقتراح وقامر عليه وخسر  
عشيقته..

- وهل رضيت المرأة؟!  
- كانت في حالة سكر بيّن، وقد انتقلت ملكيتها إلى  
الرابح، أو- وهو الأصحّ- انتقلت ملكيته إليها.  
- من عسى أن يكون ذلك الصديق؟  
- أمّا هذا فلا، لأن أحد الطرفين موجود بيننا.  
وتبادلت الأعين نظرات الإنكار، وابتسمت الثغور  
في ريب، ولاح الفضول في جميع الوجوه خاصة النساء،  
وسألت إحسان عفت بك:

- من هذا المقامر يا تُرى؟  
فسرّ الشاب بسؤالها وفسره على هواه، ثمّ قال:  
- لا يدري ذلك إلا الأستاذ شوكت، ولعله لا يدريه  
أيضاً.

- أيعجبك هذا النوع من القمار؟  
فقال كالساخط:

- أنا لا أقامر بمن أحبّ..  
وأدركت أنّها تكلمت أكثر ممّا ينبغي، وأجمعت على  
ألا تشرب غير كأسها الثالثة، ودارت رءوس ورءوس،  
فتشاحن زوجان علانية وتبادلا السباب، وكاد الأستاذ  
حسني شوكت يفقد صوابه، وانتشى بحجوب عبد الدائم  
ولعبت الخمرة بعقله فتناسى همومه وأكبّ على الحديث  
والضحك.

ولمّا فرغت الصحف والزجاجات هتف بهم عفت  
قائلاً:

الحفل، فرفعت كأسها في شيء من الارتباك، فارتفعت  
الأيدي بالكئوس، وهتفوا جميعاً باسم مدير المكتب،  
ثمّ أفرغوا كئوسهم حتّى الثالثة. وسرعان ما مرّقت  
السكاكين اللحوم، ثمّ التقطتها الشوكات وسلّمتها إلى  
الأفواه النهمّة، وتحوّل المقصف إلى ميدان، دارت به  
معركة بالغة في عنفها، بالغة في لذتها، وتعدّدت  
ضحايها من الأطعمة والأشربة. وتنبّهت إحسان إلى  
أنّ عفت بك يتعمّد أن يلمسها وهو يميل نحوها ليملاً  
كأسها، وأنّ حذاءه مسّ حذاءها أكثر من مرّة، ولكنّها  
لم تشجعه. وأكل محبوب وشرب بنّهم، لا طلباً للذة،  
ولكن هرباً من مشاعره، لأنّه ما انفك يفكر في البيت  
القائم أمام المحطة منذ رسا اليخت إلى شاطئ  
الحديقة، تولّاه شعور بالكآبة والخوف لم يستطع منه  
فكاًكاً، تُرى ماذا يفعل والده في هذه اللحظة؟، ألا  
يزال والده طريح الفراش؟ وما عسى أن تفعل أمّه؟..  
هل نفدت النقود؟.. هل باعا بعض الأثاث القديم؟  
ألا يحتاجان لشيء من فُتات هذه المائدة؟.. كيف  
يتخلّص من شعور الضيق والكآبة؟! من له بمن يخضع  
شعوره لقسوة عقله الحرّ؟! وقد أفرط في الشراب، وثرثر  
بغير حساب، ولم يألُ جهداً في الهرب من باطنه،  
والارتقاء بين أيدي المحيطين به واختلط الحديث أيّما  
اختلاط، وسأل سائل جماعة المتزوجين: هل حقّق  
الزواج أحلامهم؟ وتبادل الأزواج نظرات الحيرة وضجّوا  
صاحكين. وسأل آخر عن أمتع ما في الزواج؟ فقال  
شاب متزوج: إنّه الحبّ، وقال آخر: إنّه الخلاص من  
الحبّ!، وقال ثالث: إنّه تحديد النسل!، وأجاب  
محبوب في سرّه: «بل هو القرن الذهبي!» وقال حسني  
شوكت بلا مناسبة:

- خسرت في الأسبوع الماضي خمسة عشر جنيتها.  
فقال له خطيبته:  
- البقية في الأسبوع القادم!  
وقال أحمد عاصم:  
- يقولون إنّ سيّ الحظّ في القمار سعيد في الحبّ.  
فقال فتاة مبتسمة:  
- ذلك لأنّ سيّ الحظّ في القمار لا يعرف الغشّ!

يكون إلا صورة من هذا الرجل، ولن يخطو خطوة بغير عصا يتوكأ عليها. وتفكر ملياً ثم قال لنفسه: ولا يعد إذا تحطمت وسائله أن يرفع سلّة تين ويسرح بها! ومن يدرية فلعله يسرح الآن بسلّة تين في موضع ما من البلد؟ وألقى بطرفه ناحية المحطة وهو يمشي كالترنح وقد انقبض صدره انقباضاً شديداً. لم يعد يشارك الرفاق لهوهم وسرورهم، وولى عنه الصفاء والسرور، وغلبه القلق والحزن والخوف. كان مجيئه خطأ كبيراً، ولكن هل كان تخلفه يغيّر من واقع الأمر شيئاً؟.. إذا كان تقدير أبيه صادقاً فقد مضى عليه الآن ثلاثة أشهر وهو بلا عون، فإذا صنع بنفسه وبأمه..؟ وكيف واجه عبوس الحياة في عجزه ومرضه؟! ثلاثة أشهر أو يزيد: يونيه ويوليه وأغسطس، وهذا الأسبوع من سبتمبر، أي ذلك الزمن الذي ذاق فيه حلاوة العيش وطيب الحياة، وثقل رأسه، وخذت نشوته مخلفة خازناً مصدعاً، وخاتته جرائته التي تستهين بكلّ شيء، حتى تساءل فرغاً: أهذه يقظة ما يسمونه بالضمير؟ أبعد تلك الثورة المدمرة التي شملت حياته الجامعية كلّها، وبعد مواجهة التجربة الخطيرة ثلاثة أشهر كاملة والظفر بالنجاح المطلق، يجد نفسه في هذه الحالة الزرية من الجبن والألم؟ وكوّر قبضته بعنف، ورفض بعناد أن يعترف بضعته وخوفه، أو بأنّ الذي يثّر في صدره ضمير، أو بأنه لا يزال يتأثر بعاطفة البنوة، رفض ذلك رفضاً عنيداً مغيظاً، وقال يعزّي نفسه ويشجعها: إنّ هو إلا الخوف من فضيحة قد تهدد مركزه الاجتماعي، إته لا يأسى على والديه ولكنّه يخاف أن يدفعهما البؤس إلى إزعاج حياته وتكدير صفو مجده. وموعدهما أول أكتوبر فإذا تسلّم ماهيته الجديدة اشترى طمأنينته ببضعة جنيهات يرسلها إلى أبيه وانتهى من هذا العذاب. وردّد هذا الرأي في نفسه وأكد له تأكيداً شديداً، وحاول أن يستعيد شجاعته وطربه. ولما عاوده شعوره بما حوله وجد نفسه يخطب منفرداً، فنظر فيما حوله ذاهلاً فلم يجد إلا الأستاذ أحمد عاصم، وسأله عن الرفاق، فهزّ كفيه قائلاً: «لا أدري» فأدرك أنّه ضلّ الجميع. وشعر بتعب، وغثيان مباغت، ثم انقلب يقيء..! وأخذ صاحبه من يده إلى اليخت،

- هلموا إلى الحديقة..

وردّدوا قوله: «إلى الحديقة.. إلى الحديقة» ومضوا أزواجاً وأفراداً. وأراد محبوب أن يتخلف في اليخت كما كان اعتزم، وتنحى جانباً، بالرغم من سكره الشديد، ولكن لاحظ منه نظرة فرأى زوجه متأبطة ذراع عفت بك في مقدّمة الراحلين، فهاج دمه، وقرض أسنانه بحنق، وعثر به بعض الإخوان فتأبط ذراعه ودعاه إلى المسير معه، فلم يقاوم، ونسي عزمه وخاوفه. وكانت الحديقة تموج بجماعات المرتادين نساء ورجالاً، بين سائرين يتضحكون، وجالسين يأكلون ويشربون، وهؤلاء وأولئك يفتشون المرح في كلّ مكان، وقد ألقت بينهم جميعاً دواعي الغبطة وأواصر الشباب والسرور وحبّ الفكاهة والمزاح، فاشتبكوا في الحديث على غير سابق معرفة، وتراشقوا بالنكات بغير استئذان، صاعدين هضبة معشوشبة أو هابطين مسيلاً بين الزهور، معتممين بخميلة من اللبلاب والياسمين أو عابرين قنطرة على جدول يسيل بلجين القمر، والبدر يطلّ عليهم من علياء السماء في موكبه الأبدى تحفّ به الكواكب والنجوم، غامراً الدنيا بنوره البهيم، وطابت النفوس وصفت، فراح ذوو الأصوات الجميلة يسجعون الأغاني. وانطلق العازفون يستنطقون الأوتار. وكان أصحاب اليخت يمضون في الماشي باعثن ضجيجاً صاخباً، وكان الأستاذ حسني شوكت يعربد بلا مبالاة، فلفت نحوهم الأبصار. وسار محبوب إلى يمينا زوجه وعفت بك إلى جوارها. وقد بلغ به السكر. وكان يتكلم ويضحك ولكنّه كان متغيّظاً على الفتى الذي يلازم زوجه كظّلها، وعلى سكره ومرحه لم يستطع أن ينسى أنّه في القناطر، في بلده، على كثر من والديه البائسين، فجعل ينظر فيما حوله بحذر، ويقاوم جهده شعور القلق الذي يساوره. وفكر أكثر من مرّة أن يقفل إلى اليخت، ولكنّه ظلّ مستسلماً لتيار الرفاق. وحدث أن أوقفهم حسني شوكت عند بائع تين ليبائع منه، وكان البائع عجوزاً يتوكأ على عصا من كبر وعجز، تذكّر محبوب أباه في غمضة عين، وجدّوا في طريقهم وصورة الرجل لا تفارقه، فأبوه إذا قدر له أن يترك الفراش فلن



- دعني من فضلك .. دعني ..  
ثم اربد وجهها وعبس، فقرأ فيه الجذ والنفور،  
وتورد وجهه خجلاً، وأرخى ذراعيه، ونهض واجماً  
دون أن ينبس بكلمة. وفتح الباب حتى غادرت  
المقصورة، ثم دلها على مكان زوجها وعاد أدراجه.  
ووجدت محجوب نائماً أو كالنائم، وكان في حالة إعياء  
شديد وقد علت وجهه صفرة شديدة ..

\*\*\*

ورسا اليخت إلى قصر النيل حوالى الساعة الثانية  
صباحاً. وعاد الزوجان إلى عمارة شليخر في سيارة أحمد  
عاصم، وكان محجوب أفاق قليلاً ولكنّه لبث متعباً  
منهوك القوى، وما اعتور روحه وحالته المعنوية كان  
أدهى وأمر. تركت نكسة السكر في روحه آثارها  
فانقبض صدره، وخذت نشوته، وامتعضت نفسه،  
وأحسّ الدنيا بحواسّ المريض، وغابت إحسان قليلاً  
وجاءته بفنجان قهوة، وجلست قبالة على الشيزلنج،  
قالت له:

- أفرطت في الشراب ..  
فأحنى رأسه بالإيجاب وإن ذكر الأسباب الأخرى  
التي كذرت صفوه وقال بسخط:

- لقد قبلت الدعوة إلى هذه الرحلة على غير  
إرادتي ..

فقالت تدافع عن الرحلة:  
- وما ذنب الرحلة؟ .. كانت رحلة جميلة طيبة ..  
فقال بحدة:

- يا له من صفيق سي عفت بك هذا!  
فابتسمت إحسان، وتردّدت ملياً، ثم غمغمت:  
- انتهى .. أوقفته عند حدّه.

فنبّت عليها عينيّه الجاحظتين الذابلتين المحمرّتين  
متسائلاً، فأوجزت له ما حدث ولكنّه أبى إلا أن  
تسهب ولا تترك كبيرة ولا صغيرة، فروت له الحادثة  
بحذافيرها، حتى انفجر قائلاً:

- صفيق .. وقح، ولكنك أحسنت كلّ الإحسان،  
يا لهم من أرذال جميعاً! ..  
وأتقدت عيناه، بيد أنّه تساءل بأيّ حقّ يعيب أيّ

وهناك مضى به إلى مقصورة، فاستلقى على أريكة وراح  
في سبات. ولم يدر كم لبث، ولكنّه كان يرى في مخيلته  
دائماً بائع التين حتى خاله أباه بالذات. وقد قهره الشقاء  
على ذلّ السؤال.

- ٤٣ -

وعادوا إلى اليخت وقد نال منهم التعب ويحّت  
منهم الأصوات. وأبحر اليخت قبل منتصف الليل  
بقليل. وسألت إحسان عن زوجها فأخبرها أحمد  
عاصم بأنّه نائم في مقصورة، ودعاها لاصطحابها إليه،  
ولكن عفت تطوّع بالمسير بين يديها، وهبط معاً إلى  
باطن اليخت، وتقدّمتها في ردهة جانبية إلى باب  
مقصورة وفتحها وأوسع لها فدخلت وتبعها على الأثر  
وردّ الباب، ووجدت المقصورة خالية، وطالعتها في  
وسطها صورة لعلّي عفت على نضد، فتحوّلت إلى  
الوراء فرأت صاحبها يقف وراء الباب يتسم إليها  
بعينين تنطقان بالهيام والظفر، فأدركت أنّه استدرجها  
إلى مقصورته، وخامرها الخوف فسألته متجاهلة  
مقاصده:

- أين محجوب ..؟

فقال والابتسامة لا تزال على شفّته، وقد  
احمرّت عيناه الجميلتان من أثر الحمار:  
- سنذهب إليه بعد استراحة قصيرة ..

فسألته بلهجة رزينة:

- لماذا أتيت بي إلى هنا؟

كانت ثقته بنفسه لا حدّ لها، فكان جوابه أن جثا  
على ركبتيه عند قدميها وأحاط ساقها بذراعيه وضّمّها  
إلى صدره، وقال لها رافعاً إليها وجهه:

- لا تسأليني يا إحسان، أنت تعرفين كلّ شيء،  
والكلام في مثل حالتي تحصيل حاصل، ألم يتكلم قلبي  
منذ أول لقاء بيننا؟ ألم يصرخ هذه الليلة حتى خفت  
أن تصلّك نجواه آذان الحافّين بنا! ..!

وتولّاهما الاضطراب والاستياء، وأمسكت بساعديه  
لتفكّ السلسلة التي تطوّقها، ودفعته بعنف، وصاحت  
به بصوت خشن، غاضب:

٥١٣ القاهرة الجديدة

فغمغم وقد ابتسم ابتسامة دلت على الخجل والارتباك:

- عال.. شكراً لك..

وارتدى ثيابه وانطلق إلى الخارج، ومضى إلى حديقة صولت حيث اجتمع بعض الزملاء من الموظفين، وشرب كوبة من عصير الليمون، وليث ساعة بينهم يتحادثون هوناً، ثم غادر المكان، تاركاً قدميه للطريق ينقله من شارع إلى شارع مستسلماً للذلة المشي. فذكر الليلة الماضية فعبس وجهه، وهاله ما بثته في نفسه من مشاعر الألم واليأس، وما أشاعته فيها من أفكار سود وخواطر ضعف واستكانة. وتولاه خجل لما اعتوره من خور في الجسم والنفس، وقال لنفسه: «لقد ظفرت حتى الآن بفضل حرّية عقلي وقوة إرادتي وتلك الحكمة العالية: طظ.. فلا يجوز أن أفرط في كنز من كنوزي الغالية!.. أجل، هنالك وظيفة سامية وطموح وجاه وحر ونباء ومال وطعام وترف، فكيف يسمح بأن ينغص عليه هذه اللذات أب مثلول، وخواطر مرض، وغيره جنونية؟! وسرعان ما استردّ نشاطه وحيويته، وعقليته الصارمة الساخرة، واستقبل الحياة مرة أخرى بجسارته المعهودة وطموحه الذي لا يعرف الحدود. وبدا كلّ شيء كأنما يسير في مجراه الطبيعي، وكأنّ الحياة ستظلّ مذعنة لمنطقه أبد الدهر. وجاء يوم السبت وقد انتصف سبتمبر، فأثبتت له حوادثه أنه إذا كان يستطيع أن يتحكّم في نفسه فإنه أعجز من أن يدعي القدرة على التحكّم في الحوادث..

كان السبت يوم قاسم بك فهمي، وكان محجوب يغادر الشقة في تمام الساعة مساءً ليهيئ للرجل الخلوة المنشودة. ولكن كانت الساعة السادسة حين رنّ الجرس، ولم يكن الشاب يتوقّع قدوم أحد في تلك الساعة، فذلف إلى الردهة الخارجيّة ليرى القادم، وفتحت الطاهية الباب فرآه كما أراد. لم يصدّق عينيه، وجعل يحمليق بذهول جنوني. رأى أباه، أباه دون غيره من البشر، وقد وقف الرجل على عتبة الباب متوكّئاً على عصاه، ملقياً إليه ببصر جامد مكفهراً. سمر كلاهما في مكانه. وجمدت عيناهما لا تتحولان. وكابد

إنسان في هذه الدنيا وهو ما هو رأياً وفعلأ؟.. وقال وكأنه يجيب نفسه:

- نستغفل الناس إذا شئنا، ولكن لا نسمح لمخلوق بأن يستغفلنا.

فتفكرت في قوله وعلى شفيتها ابتسامة غامضة، وعاد يفكر في والديه فصدقت نيته. على مدّ يد المعونة إليهما حتى ينفذ عن حياته أيّ ظلّ للكدر، ثم عجب كيف أنّ تغيراً هيئاً في الجسم قد يُذهب بهجة الدنيا في غمضة عين، ويُحيل لذاتها وصفاءها ألماً وكدرًا يزهران النفس. واقترحت عليه إحسان أن ينام، ولكنّه أراد أن يرتاح قليلاً بمكانه من المقعد، فمضت هي إلى الفراش. وعاد يتساءل ماذا يحدث لو لازمه هذا التغيّر فدأب على تناول الحياة بحواسّ المرض والامتعاظ؟! واقشعرّ بدنه!.. ولم يجد سوى جواب واحد: الانتحار! هكذا قد يقضي على نفسه من كرس نفسه للانانية! ومع ذلك يوجد في هذه الدنيا أناس يؤثرون التعب والأهوال على السلامة، كصاحبه القديم عليّ ظه، ولا يمكن أن يسلم مخلوق بأنّه ليس لهم لذاتهم الخاصّة بهم في نضالهم وكفاحهم، فأية لذّة هذه؟! أحقاً للإيثار لذّة كلذّة الأثرة؟ إنه يجمل هذه اللذّة ويحتقرها. وتمثّل له عليّ ظه بوجهه الجميل وحماسه المتقد، وذكر عهد دار الطلبة ومأمون رضوان، فتحوّل رأسه وهو لا يدري إلى الفراش، ورزّت عيناه إلى إحسان وقد غطّت في سبات عميق. فبادت له الذكريات في إطار من الدهشة والأحلام..

- ٤٤ -

واستيقظ في ضحى اليوم الثاني - الجمعة - وعادته في الحال ذكريات الليلة الماضية مقرونة بإحساساتها المحزنة. وغادر الفراش بهمة متوّبة، واستحمّ بالماء البارد لينعش جسمه ونفسه، وعاد إلى الصالة، فالتقى بزوجه، وقد سأله برقة:

- كيف أنت الآن؟

زوجها، ولكنها لم تتردّد عن القيام بواجبها، فاقتربت من القادم ومدّت له يدها باحترام ودعته إلى الجلوس. وكان محجوب يرى ما يقع أمامه بعينه الذاهلتين، ولكنه كان انتقل من ذهول سلبّي إلى ذهول إيجابّي، فجعل يستصرخ إرادته وعقله ليتشلاه من ورطته وأخذ يفيق من وقع المباغنة فلم يرتخ لوجود زوجته، وأوما لها إمضاء خفيّة بالانسحاب، فلم تلبث أن تراجعت بلطف. وتوتّب بجامع. قوته ليمتلك زمام الموقف ويستردّ عقله وإرادته، وأعانه على ذلك الخطر الذي يتهدّده باقتراب موعد الوزير. أجل ينبغي أن يخفي أباه عن عيني القادم عمّا قليل ويعالج أمره في خلوة وهدوء، هو أبوه على آية حال وليس شيطاناً ولا قضاء وقدرًا، وقال له بصوت رقيق ليّن:

- تفضّل معي يا أبيّ..

وأعطاه ذراعه، فلم يرفض الرجل، وأدرك أنّه يريد أن يحادثه على انفراد، فنهض بمعونته، وسار به محجوب إلى حجرة الاستقبال على يمين الداخل، ثمّ أغلق الباب، وكان عقله لا يني عن التفكير: ما الذي دلّه على مسكنه؟ ما الذي جاء به؟ وهل من المصادفات أن يجيء في يوم الوزير وقبل مواعده بقليل، وشمّ في الجوّ رائحة مؤامرة ننته، وتحايل لعينه شبح الإخشيدى بوجهه المثلث وعينه المستديرتين، فسرت في جسده رعدة، وامتلات نفسه حنقًا وكراهية. ترى هل أفشى سرّه كلّ؟.. ربّه أيّ كارثة ترصده؟.. ولكن كلّ.. أبوه لا يعلم بسرّه الخطير، ولأ ما استطاع - وهو الريفيّ الغيور - أن يتمالك أعصابه، ولكنّ البغيض جاء به في الوقت المناسب لعلّه أن يكتشف الحقيقة بنفسه لتكون الصدمة أضعف، وتفصّد جيّنه عرقًا باردًا..

وصوّب الرجل نحوه نظرة ملتبهة وقال:

- لماذا تقف أمامي هكذا؟، لماذا لا ترحب بي؟..

وكيف لا تهتني بالشفاء؟

وسكت الرجل الغاضب حتّى تمالك أنفاسه ثمّ استدرك بلهجة ساخرة قاسية:

- لشّد ما ألني ما علمت من فقرك وبؤسك وسعيك

محجوب في تلك اللحظة الرهيبة شعورًا بالخوف والقنوط والمزيمّة لم يشعر بمثله من قبل، ثمّ مزق الأب السكون الأليم فقال بصوت ضعيف ولكنه واضح ينمّ عن الألم والتهكّم المرير:

- ألم تعرفني بعد.. لماذا لا تهرع إلى استقبالي؟!

وأفاق الشاب من ذهوله فاقترب من أبيه في خطى متهالكة ومدّ إليه يده، ولكنّ الرجل تجاهلها. فقال محجوب بارتباك وتلعثم:

- تفضّل يا والدي.. تفضّل..

فتحرّك الرجل متوكّنًا على عصاه يسير في خطوات ثقيلة، وقد تقوّس ظهره، وتهدّم بنيانه، وجعل يتفحص الأثاث والجدران بعين ملؤها الإعجاب الهازئ، ويقول:

- ما شاء الله.. ما شاء الله.. لشّد ما تعاني يا بنيّ

مرارة البؤس والفقرا؟!

فاشتدّ ارتباك محجوب وحصر، فما استطاع أن ينبس بكلمة، ها هو ذا والده يملأ الشقّة بالفزع وعمّا قليل يأتي قاسم بك، حقيقتان لا يدري كيف يمكن أن يجتمعا، ومع ذلك فهما واقعتان لا محالة وإن أشفق من التفكير في عقابهما. ترى كيف يذكر غدًا هذا اليوم الخطير؟! أيدكره كما يذكر مازقًا خطيرًا نجا منه بأعجوبة؟. أم يذكره يومًا أسود انهارت فيه آماله جميعًا؟، ولم يستطع في انفعاله الأوّل أن يحسن التفكير ولا التدبير. وفتح عند ذلك باب حجرة النوم وبرزت منه إحسان، وعلّنه بعثها للخروج ما سمعت من صوت وحركة غير عادية، فعجبت لوجود الشيخ الغريب، وألقت على هيئته الرثّة نظرة إنكار. وحولّ عبد الدائم أفندي إليها رأسه، فلاححت على شفّيته ابتسامة حزينة، وقال بغير مبالاة ملتفتًا إلى ابنه:

- زوجتك؟! (ثمّ حولّ رأسه إليها) أهلاً بزواج

ابني، أنا هموك يا عروس!؟.

وحدجت إحسان في وجه زوجها فهالها جموده وارتباكها وكأبته، وأنست في عينيه نظرة منكسرة لم تراها من قبل، فلم تشكّ في صدق الرجل، ولم تكن تعلم شيئًا عمّا بين الرجلين ممّا يستوجب الموقف الذي يقفه

## ٥١٥ القاهرة الجديدة

إلى وظيفتي منذ شهرين وكنت مُعدماً فكان عليّ أن أهيئ نفسي بالمظهر اللائق، وإلا ضيّعت على نفسي فرصة لا تسنح في حياة مرتين، فاقترضت مبلغاً كبيراً ما زلت مديناً به، هكذا فزت بالوظيفة ولكن لا زلت أكابد الارتباك والفاقة، هذه هي الحقيقة.

فهزّ الرجل رأسه في ريبة وقال بامتعاض:  
- إنك تُعنى أكثر مما ينبغي بالمظهر اللائق، والمسكن الأنيق، والمآدب الفاخرة! ..

فأدرك محجوب أنّ الإخشيد وُقّي وشايته حقها، وقال وهو يغالب عواطف الحنق والغضب:  
- هذه المظاهر وإن بدت كمالية إلا أنّها من ضرورات وظيفتي ..

- وهل من ضرورات هذه الوظيفة المجيدة أن نتصور جوعاً؟! ..

فقال الشاب وهو يبذل جهد المستميت ليداري غضبه وحنقه:

- كلاً يا أبي. لقد أثبتت لك عن حسن مقصدي فلا تتبسط همّتي بنقمتك ودعني أتمّ بنجاحي ..  
- أحسبه لا يتمّ إلا بقتلنا ..  
- بل سيتمّ بما فيه سعادتنا جميعاً ..

وسكت عبد الدائم أفندي ملياً وهو يرنو إليه بنظرة مليئة بالريبة وسوء الظنّ، ثمّ قال متسائلاً:

- إذا كانت هذه حالتك فكيف تزوّجت؟! .. لماذا لم تزوّج الزواج إلى ميسرة؟! وكيف تتزوّج دون إخبارنا فضلاً عن الرجوع إلى رأينا؟! ..

وارتاح محجوب لتساؤل والده هذا الذي أكّد له جهله بالسّر الخطير، وقال بصوت خفيض:

- كانت الزيجة ثمن الوظيفة كما يحدث في أيامنا هذه كثيراً، لقد صاهرت أسرة محترمة تمّت إلى الوزير بصلة القرين وكانت الزيجة من أسباب ارتبائي، ولعلّك أحطت الآن بالظروف القاسية التي اكتنفت حياتي في الشهرين الماضيين.

بيد أنّ الرجل لم يكن مطمئناً، واشتدّت بالشاب حالة التوتر والاستياء، وشعر كلاهما بأنّ لديه ما يقوله، ولكن جرس الباب الخارجي رنّ بخته، وفتح

عبثاً في سبيل الحصول على وظيفة، فحفزني ذلك على ترك أمك وحدها في القناطر، والحضور بنفسي لمواساتك، أعانك الله يا مسكين! ..

واستطاع محجوب أن يتكلّم بعد أن أغلق الباب واطمأنّ بعض الاطمئنان:

- أبي .. لا تهكّم بي .. أنا أعلم أنّي أستحقّ غضبك ولكن دعني أشرح لك ما التبس عليك فهمه، والحكم لك ..

- وهل من حاجة إلى الشرح يا بني؟! .. حسبي أن أنظر فيما حوّلني لأدرك في أيّ شقاء تعيش! ..

فعضّ محجوب على شفتيه وقال:

- أبي .. ، والله ما غفلت عنك قطّ، والله ما سنحت فرصة لمساعدتك فأهملتها، ولكن ظروف قاسية رغم هذه المظاهر الخداعة، لذلك لم يزّبح لي جنب، وما كان ليقرّر لي قرار قبل أن أطمئنّ عليك وعلى والدي ..

فاشتدّ اكفهار وجه الشيخ وقال بحدة وحنق:

- ظروفك قاسية أيها الابن البار؟! .. ماذا تنتظر حتى تفضّل علينا بجنهين؟ أنتتظر الوزارة؟!، إنّني أعجب كيف طابت لك الحياة وأنت تعلم أنّ والديك يعانيان الفاقة والجوع والتشريد! لقد استصرختك باكياً ولكتّني علمت فيما بعد أنّي خاطبت ضميراً ميتاً. تركتنا للعجز والفقر حتى بعنا أثاث بيتنا، وها أنت تنعم بالوظيفة العالية، والماهية الكبيرة، والمسكن الوثير، ولكتّك لا تجد في ذلك كلّهُ إلا ظروفاً قاسية لا تسمح لك بأن تقذنا من التسوّل، أليس كذلك أيها الشاب الهمام؟ ..

امتقع وجه محجوب حتى حاكى وجوه الموتى، شعر كالمختنق الذي ينتفض ويقتل عبثاً لاستنشاق نفس واحد. ولم يكن كلام أبيه قد حرّك قلبه ولكنّه أربكه وكربّه وأوقعه في ضيق شديد، فقال:

- لشدّ ما يؤلّني كلامك يا والدي، أصغر إليّ، سأكاشفك بالحقيقة وأصلح خطي، وأكفر عمّا تتهمني به من عُقوق. يعلم الله أنّي كنت سأزفّ إليك أبناء توفيتي وأمدّك بالمعونة أول الشهر القادم، لقد وفّقت

وشعر محجوب بضجر، وضاق بالرجل الذي لولا وجوده لم يكن في المأزق الذي هو فيه، وتوثب للردّ عليه، ولكنّ الجرس دقّ مؤذناً بقادم جديد، فوجب قلب محجوب وجيباً مؤلماً. من يكون الطارق؟ هل من جديد؟! وفتحت الطاهية ثمّ سُمع صوت يتكلّم بحدّة، فتميّز الشابّ غيظاً ومضى إلى باب الحجرّة وفتحه، فرأى سيّدة تزيج الطاهية من طريقها وتدخل في حالة هياج عصبيّ شديد، كانت السيّدة أرسقراطية المظهر، أنيقة الزيّ، فتولّته الدهشة والانزعاج، ثمّ ارتاع ودُعر وأعيا عليه القول، ورأته المرأة فأقبلت نحوه بهيئة متعجرفة، تقلدح عيناها شرراً، حتّى وقفت أمامه. وسألته بازدياء:

- أنت المدعوّ محجوب عبد الدائم؟

وكان محجوب في حالة جعلته مهياً للذعر والتشاؤم، وحدّثته نفسه المضطربة بأنّه ضحيّة مؤامرة غادرة، أبوه أداة من أدواتها القتّالة، وغلبه القنوط، وأيقن أنّ مجده بات معلقاً بخيط وشيك الانقصاص. نظر إلى المرأة يأنكار وقال بصوت منخفض مشفقاً من صوتها المرتفع الذي يصكّ أذني أبيه:

- نعم يا سيّدتي أنا هو . .

فعبست حانقة ولوت شفيتها اشمئزاً وقالت بلهجة قاسية:

- هلاًّ دلّلتني على الحجرّة التي ينفرد فيها زوجي بالسيّدة المصون زوجك؟

نفذت الكلام إلى قلبه فشقه شطرين، وخارت قواه، وأوشك أن يذهل عمّا حوله، وتحولت المرأة عنه كالجنونة إلى باب المخدع، وأدارت الأكرة، ولكنّها وجدت الباب مغلقاً، فدقته براحة يدها بشدّة صائحة بغضب جنونيّ:

- افتح الباب، افتح أيّها الرجل والوزير الخطير، لقد برح الخفاء ورأيتك بعيني داخلاً هذا الماخور. -  
افتح وإلاّ حطّمت الباب.

وبلغ اليأس بالشابّ نهايته، فوقف مكانه لا يُبدي حراكاً، وكأنّه يرى فاجعة خطيرة لا تعنيه ولا يطاق لها مصيره، وكأنّه كبر عليه أن يصدّق أنّ مجده الذي حشد

الباب ثمّ أغلق: وسمعا وقع أقدام ثقيلة في الدهليز يعرفها محجوب حقّ المعرفة . .

- ٤٥ -

وخفق قلبه بعنف، وسرت في جوارحه رعدة خوف لم يجد عليها من سلطان، وتحاللت لعينه مرّة أخرى صورة الإخشيد البغيضة. تُرى كيف تنتهي هذه الليلة؟ أيدكرها في المستقبل وهو يضحك أم وهو يبكي؟ . وسمع أبوه وقع أقدام القادم فسأله:

- هل كنت تنتظر ضيفاً؟

فقال بلا تردّد وهو يتظاهر بالهدوء:

- نعم . . هذا حي جاء لزيارة كريمته . .

- ألا تذهب للقاءه؟

فتلجج لحظات ثمّ قال بحزم:

- كلاً، ستجد زوجي عذراً تتحلّه لغيابي،

وسأقتّمك إليه في وقت آخر . . !

وساد الصمت، وقد شعر الشيخ بأنّ ابنه يتأفف من تقديمه إلى حميه فنكس ذقنه في سكون وحزن. وجلس محجوب قريباً من الباب يحاول جهده أن يضبط عواطفه، واختلس من والده نظرات غاضبة تنمّ عن حنقه وحقده. ينبغي أن تنتهي الليلة بسلام. أحسن في باطنه بأنّه إذا انتهت الليلة بسلام فقد نجا بحياته وآماله إلى الأبد. ولكنّ ما الذي يدعوه إلى الخوف؟! قد بلغ الوزير المكان الذي يريده بسلام، وتمتّ حالة والده على أنّه يجهل سرّه الخطير، فما عليه إلاّ أن يأخذ نفسه بالصبر والانتظار حتّى يذهب البك - كما جاء - بسلام. بيّد أنّه لبث - على رغم ما تبسّر به الحوادث - قلقاً مغتّباً. وزاد من توتر أعصابه أنّ والده عاد يقول بنبراته الدالّة على الإنكار والمرارة:

- لو كان قلبك حنوناً يا بنيّ لاستهان بضرورات الوظيفة التي تعنّدر بها، ولشقّ عليك أن تترك والديك يتصوّران جوّعاً. وأعجب لوالدتك ما برحت تدفع عنك جاهدة الظنون، ونبذت ما نُقل إلينا عنك، وقالت لي: «سبّدي لك الأيام آتي أعرف بابننا منك» فليتها جاءت معي لترى بعينها . . !

بتسوية الخلاف. لقد فاض الإناء، فلا تفاهم بعد اليوم، ولأنتم من انتقاماً يكون الدهر عظة لأمثالك من المستهترين.

ومضت المرأة نحو الباب الخارجي، والبك في أعقابها، وذهبا معاً.

\* \* \*

وتتم محجوب بصوت مبحوح:

- انتهى كل شيء.

أعجبت بها من حقيقة! أيجف ذاك الكفاح الجبار ولما يتسلم ماهيته الجديدة؟.

أصاب الحظوظ كالأعمار بالسكنة القلبية؟!

وقطع عليه تفكيره صوت أبيه وهو يسأل محزوناً:

- ما معنى هذا يا بني؟.

وكان هذه الجملة نطأ ألقى على صدره الملتهب، فالتفت نحوه هائجاً تقدح عيناه شرراً، وقال بحق وحقد:

- انتهى كل شيء، انتهت الوظيفة والماهية. هلمّ تسوّل معاً..

وارتسمت في عيني الرجل الذابلتين نظرة زائغة ذاهلة، وبدا في حيرة قتالة وكرب عظيم. لم يصدق ما رأت عيناه ولا ما سمعت أذناه. كابد الألم الممض والغضب المختنق. ولولا ما آتس من قنوط ابنه وهذيانه لانفجر بركانه. لم تنته الوظيفة والماهية فحسب، ولكن ابنه نفسه انتهى، ولم يعد ذا مال ولا ولد وسيقول لامرأته إذا عاد إلى بلده: لا تسألني عن محجوب، فقد انتهى محجوب وغدا ذكرى من الذكريات. وشعر عند ذلك بإعياء وخور، وبأنه يسقط إن لم يطمئن إلى مجلس، فولى الشاب ظهره، وعاد أدراجه في خطوات ثقيلة، متوتكاً على عصاه يكاد يقع على وجهه.

وارتمى محجوب على مقعده في الصالة، مرتفقاً يد المقعد، مسنداً رأسه إلى راحته. وكان السكون شاملاً كأنه بيت مهجور، وكل شيء بموضعه كأن أموراً خطيرة لم تنقلب رأساً على عقب. هل تستطيع روحه الثائرة أن تصمد لهذا الشلال العارم من الحظ العائر؟!!

له ما حشد من قوة وفكر، وبني عليه ما بنى من آمال، يمكن أن يصير في بعض الدقيقة أثراً بعد عين. وشعر بوالده يقترب منه ويسأله بصوته الذي بات يمقته مقناً:

- ماذا هنالك؟.. ماذا تقول هذه السيدة؟

ولكن لم يكلف الشاب نفسه مشونة الردّ عليه، وكأنه لم يسمع قوله، فلم يعد يُباله، ولم تكف المرأة عن دق الباب، وصاحت حانقة:

- إني أندرك بأنك إذا لم تفتح الباب طوعاً فتحته كرهاً بقوة الشرطة.

فاستجمع محجوب قواه المشتتة ودنا من السيدة، وقال لها بصوت يتم على الرجاء:

- سيدي..

ولكنها لم تتركه يتم كلامه، فتحوّلت إليه ولطمته على وجهه بشدة وغلّ، وصاحت به:

- لا تنبس بكلمة أيها القواد الخسيس..

فترجع محجوب مروّعاً إلى موقف أبيه وهو لا يدري به. وانفتح عند ذلك الباب وبرز منه قاسم بك فهمي ثم أغلقه وراءه، وسمع صرير المفتاح من الداخل، وكان الرجل يحاول أن يتظاهر بالثبات، ولكن ارتباكاً كان أعظم مما تنفع فيه الأدارة، وقال لزوجته بسرعة:

- هلمّي معي إلى الخارج من فضلك..

فصاحت به وقد جئت غضباً:

- افتح هذا الباب، لا بدّ من فتحه.

فقال لها بصوت خفيض:

- خفضي من صوتك يا هانم.. هذا لا يليق بك.. فصاحت به بتهكم:

- حدّثني عمّا يليق وعمّا لا يليق يا معالي البك. هل من اللائق يا تُرى أن أضبطك في مخدع زوج هذا القواد الصفيق!، وهل يسرك أن يطلع ابنك وابنتك على سيرتك المحمودة؟!

- كفى.. كفى، هلمّي معي ولتسوّن خلافنا في بيتنا.

وحاول أن يمسك بساعدها، ولكنها نترت ساعدها من يده باحتقار وصاحت به:

- سأغادر هذا البيت الملوّث، ولكن لا تُمنّ نفسك

على خلاف عاداتها - عمّا يكتّه فؤاده من اليأس والاستسلام.

- ٤٦ -

اجتمع الرفاق الثلاثة - عليّ طه وأحمد بدير ومأمون رضوان - بإدارة مجلّة النور الحديد التي يصدرها عليّ طه وكان مأمون رضوان يكثر من احتياجه بصاحبيه ليتزوّد منها قبل سفره الوشيك. ولم يكن للناس من حديث في تلك الأيام إلا حديث الفضيحة الكبرى التي لاكتها الألسن في كلّ مكان. قيل: إنّ حرم قاسم بك فهمي همت بشر بيان في الصحف عن الأسباب التي أدت إلى طلاقها من زوجها. وقيل: إنّ بعض الجهات تدخّلت في الأمر وأقنعتها بالعدول عمّا كانت أجمعت عليه وانتهت المسألة باستقالة الوزير، وسحب مذكرة ترقية مدير مكتبه من مجلس الوزراء ونقله إلى أسوان. استبعدت الفضيحة من أعمدة الصحف ولكنّها لم تعد تخفى على أحد. وقد خاض فيها الرفاق بأسف شديد، لأنّهم لم ينسوا زميلهم القديم، ولا نسوا عهد الزمالة والخيرة بالجامعة ودار الطلبة. وكان عليّ طه أشدّهم ألمًا، ولكنّه لبث ألبًا دفينًا يعتلج مع بواعثه الباطنة. وقد قال أحمد بدير:

- أتذكرون أحاديث صاحبنا البائس المستهتر؟  
أتذكرون طظ المشهورة؟ . . لطالما حسبت ذلك لغثًا  
وسخرية وفكاهة لا شأن لها بالعقيدة والعمل . .  
فقال مأمون رضوان بنبرات تنمّ عن الأسى:  
- إذا تزعزع إيمان الإنسان بالله غدا صيدًا سهلًا  
لكلّ شرّ.

فابتسم عليّ طه على حزنه وشجنه، وقال:  
- اسمح لي أن أحتجّ على هذا الاتهام!  
فقال مأمون رضوان مستدرّكًا:  
- أنت لك إيمانك الخاصّ وإن كنت أراه دون  
الكفاية . . !  
وابتسم عيناه النجلاوان وتساءل قبل أن ينبس  
أحد بكلمة:

هل يمكن أن ينبري لمواجهة هذه الأزمة الخطيرة بدرعه  
المعهود: طظ؟ وما الحيلة إذا لم يستطع؟ . . ما عسى  
أن يصنع أنايّ مثله، لا يهّمه في الدنيا شيء إلا نفسه،  
إذا تألّب الشقاء على سعادته؟ أمامه سبيل واحد هو  
الموت! . . تبا لحظّه! كيف انتهى مجده بهذه السرعة  
الجسويّة؟! ألا تكتظّ الدنيا بأمثاله من المغامرين الذين  
تترفّق بهم حتى النهاية؟! وتنبّه من تأملاته على وقع  
أقدام خفيفة، فرفع رأسه المثلث فرأى إحسان أمامه  
تظالعه بوجه تعلوه صفرة الموت. التقت عيناهما في  
صمت أليم وكانّ كلاهما يقول لصاحبه: «أهدّه نهاية  
الكفاح والتعب!».

وخرجت عن صمتها أخيرًا فسألته بنبرات  
متضعضة:

- هل ذهبوا؟

فأجابها في مثل نبراتها:

- أجل . . كما ترين.

فتردّدت هنيهة ثمّ سألت:

- ما عسى أن ينتظرنا؟

وكيف يدري هو! يتدّ أنّه هزّ رأسه وقد اخذت  
يسراه تشدّ حاجبه، وقال:

- لا أعلم الغيب. يُحتمل حدوث أيّ شيء، ولكن  
لا مفرّ من التشاؤم، فالأمر المؤكّد أنّ أحلامنا تبدّدت.  
هذه هي الحقيقة.

وساد صمت ثقيل. ولاحت في عينيها نظرة غائبة،  
وجعلت تستحضر من الماضي ما أودعته من ذكريات،  
ذكرت أمالها وكيف خابت واحدًا بعد آخر، فاعتلج  
بصدرها الألم والحسرة حتى اغرورقت عيناها، وأغرق  
محجوب في أفكاره مرّة أخرى، ولكنّه لم يستشعر الندم  
ولا أقرّ بالخطأ، كلاً ولا عدل عن رأي، وراح يتساءل  
هل يتكشّف الغد عن حياة جديدة أو لم يبقّ له إلا  
الموت!؟ يتدّ أنّه غلب على أمره هذه المرّة فاستسلم  
للأس والقنوط، وغشيت عينيه سحابة مظلمة،  
وحاول جهده أن يهيب بروحه المتمرّدة، وغمغم  
بصوت لا يكاد يُسمع هامسًا: «طظ» ولكنّها نمت -

- دغنا من عمر. إن مجتمعا يستطيع أن يهضم هذا الوزير وأمثاله إذا أساغه بشيء من النسيان. وسوف يقبع عامًا أو عامين أو أكثر من نادي محمد علي، وعسى أن تخرجه غدا المظاهرات الوطنية عن عزلته وتحمله كالأبطال إلى الوزارة مرة أخرى، فيعيد سيرته الأولى، أو يلعب دورًا جديدًا، ومن يعيش يرة.

فقال مأمون رضوان ممتعضًا:

- حقيقة المسألة أتى أرى الخير متعلقًا بجواهر الروح، وتربانه، أو يراه الأستاذ تابعا للريغيف. فإذا حسن توزيع الريغيف محق الشر.!

فقال علي بلهجة لم تخل من حدة:

- إنني لا أوافق على هذا الوضع للمسألة، وإنك لتعلم بأنني أهيم بلذات الروح. وليس المجتمع الذي نحلم به بخال من الشر، فلا خير في مجتمع يخلو من نقص يحث على الكمال، ولكن المجتمع الذي نحلم به يحو شروا تراها في وضعنا الحالي ضربا من القضاء والقدر.

وهنا ضحك أحمد بدير ضحكا عاليًا وقال:

- لماذا تتعجلان المعركة ولما يازف موعدها؟!

وابتسم الرفاق، الأصدقاء الأعداء وتبادلوا نظرة ذات معنى، وكأتم يتساءلون معًا: «ماذا تحمي لنا أيها الغد؟!..»

- ترى أنصيرُ في المستقبل عدوين لدودين؟

فقهقه أحمد بدير ضاحكًا وقال:

- لا شك في هذا. ستهاجمك هذه المجلة التي تباركها الآن بتمنياتك وستتهمك غدا بالرجعية والجمود، وستتهم أنت صاحبها - صديقك - بالزيغ والكفر والإباحية، ومن يعيش يرة!

وابتسم الأصدقاء الأعداء. ثم قال مأمون رضوان

بثقة وإيمان:

- مأساة اليوم هي مأساة الزيغ!

فهز عليّ ظه رأسه في شك وقال:

- كم في المؤمنين من أوغاد. فليست الحقيقة ما ترى. وصاحبنا البائس وحش وفريسة معًا، فلا تنس نصيب المجتمع من جريرته. وهنالك مئات من المؤمنين يشقى الملايين لإسعادهم، فليست جريمتهم دون جريمة صاحبنا التعس. فالمجتمع الذي نعيش فيه يغري بالجريمة، بيد أنه يحمي طائفة المجرمين الأقوياء وينهال على الضعفاء. أحب أن أسألكما: هل يكفي أن يستقيل ذلك الوزير؟

فقال مأمون رضوان:

- ما كان عمر بن الخطاب يتردد عن رجه!

فقال أحمد بدير ساخرًا:



خاتمة الخليلي

استجلاء جديد، واستقبال تغيير: مرقد جديد ومنظر جديد وجو جديد وجيران جدد، فلعلّ الطالع أن يتبدّل، ولعلّ الحظّ أن يتجدّد، ولعلّ مشاعر خامدة أن تنفض عن صفحتها غبار الجمود وتبعث فيها الحياة واليقظة من جديد. هذه لذّة الاستطلاع ولذّة المقامرة ولذّة الجري وراء الأمل، بل هي لذّة استعلاء خفيّة ناشئة من انتقاله إلى حيّ دون حيّ القديم منزلة وعلماً. ولم يكن رأى المسكن الجديد بعد، إذ بوشر نقل الأثاث منذ الصباح الباكر وهو في وزارته، وما هو ذا يقصد إليه كما وصف له. وجعل يقول لنفسه: إنّه مسكن مؤقت وإنّه ينبغي أن يهتمّ له مدة الحرب ويعدّها يأتي الفرج. وهل كان في الإمكان خير ممّا كان؟ وهل من الحكمة أن يلبثوا في الحيّ القديم على مرأى ومسمع من الموت المخيف؟. مضى يذرع الطوار لأنه لم يكن يهتمّ بالجمود طويلاً، وكأنّما سُويت أعضابه من قلق، وكان يدخّن سيجارة بعجلة دلّت على انشغاله، فبدأ في اضطراب حركته وقلق مظهره وشذوذ هندامه كهلاً متعباً ضيق الصدر تلوح في عينيه نظرة شاردة تغيب بصاحبها عمّا حوله، كان يدنو من ختام الأربعين، غريباً أن يسترعي الانتباه بنحافة قامته وطولها واضطراب ملابسه اضطراباً يستدرّ الرثاء، والواقع أنّ تكسّر بنظونه وانحسار ذراعي الجاكّة عن رسغيه، وتلبّد العرق على حرف طربوشه، وتقبّض القميص ورثاة رباط الرقبة، وصلعته البيضاء، وسعي المشيب إلى قداله وفوديه، كلّ أولئك أوهم بتكبير سنّه، وفيما عدا ذلك فوجهه نحيل مستطيل، شاحب اللون، ذو رأس صغير مستطيل ينحدر انحداراً خفيفاً إلى جهة تميل إلى الضيق، يحدها حاجبان مستقيمان خفيفان متباعدان، يُظللان عينين بالغتين في امتدادهما وضيقهما، فهما تكادان أن غملاً صفحة الوجه الضيقة، فإذا ضيقها ليحدّ بصره أو

انتصفت الساعة الثانية من مساء يوم من سبتمبر سنة ١٩٤١، موعد انصراف الدواوين، حين تنطلق جماعات الموظّفين من أبواب الوزارات كالفيضان العارم، وقد نهكها الجوع والملل، ثمّ تنتشر في الأرض تطاردها أشعة الشمس الموقدة. انطلق أحمد عاكف - الموظّف بالأشغال - مع المنطلقين. وكان من عادته أن يتخذ سبيله في مثل تلك الساعة من كلّ يوم إلى السكاكيني، أمّا اليوم فوجهته تتغيّر فتصير الأزهر لأوّل مرّة. حدث هذا التغيّر بعد إقامة في السكاكيني طويلة امتدّت أعواماً مديدة، واستغرقت عقوداً من العمر كاملة، وادّخرت ما شاءت من ذكريات الصبا والشباب والكهولة. وأعجب شيء أنّه لم يفصل بين التفكير في الانتقال وحدثه إلاّ أيام معدودات؛ كانوا مطمئنين إلى مسكنهم القديم، يخال إليهم أنّهم لن يفارقوه مدى العمر، وما هي إلاّ عشية أو صباحها حتى صرخت الحناجر: «تبّاً لهذا الحيّ المخيف» وغلب الخوف والجزع، ولم تعد ثمة فائدة ترجى من مراجعة الأنفس المدعورة، وإذا بالبيت القديم يضحى ذكرى الأمس الدابر، وإذا بالبيت الجديد في خان الخليلي حقيقة اليوم والغد، فحقّق لأحمد عاكف أن يقول متعجباً: «سبحان الذي يغيّر ولا يتغيّر!». كان الرجل من أمر هذا الانتقال المفاجئ في حيرة. كان قلبه ينازعه إلى المقام القديم الحبيب، ويمتلئ حسرة كلّما ذكر أنّه قذف به إلى حيّ بلديّ عتيق، إلاّ أنّه لم ينس ما خامره من شعور الارتياح حين علم أنّه ابتعد عن جحيم ينذر بالهلاك ألبين، ولعلّه أن ينعم الليلة بأوّل رقاد آمن بعد تلك الليلة الشيطانية التي زلزلت أفئدة القاهرة زلزلاً شديداً. وبين الحزن والتعزّي، والأسى والتأسّي، مضى يذرع الطوار في انتظار ترام يوصله إلى ميدان الملكة فريدة، وقد ابتلّ جبينه عرقاً، وكانت الحال لا تخلو من لذّة طريفة، ذلك أنّه مقبل على

اليوم؟.. انظر إلى هذا الممر، سر به إلى ثاني عطفة إلى يمينك فتصير في شارع إبراهيم باشا، ثم إلى ثالث باب إلى يسارك فتجد العمارة رقم «٧».

فشكره وانطلق إلى الممر مغمغماً «ثاني عطفة إلى اليمين».. حسناً ها هي ذي.. وها هو ثالث باب إلى اليسار، العمارة رقم «٧». وترث قليلاً ليلقي نظرة على ما حوله. كان الشارع طويلاً في ضيق، تقوم على جانبيه عمارات مربعة القوائم تصل بينها ممرات جانبية تقاطع الشارع الأصلي، وتزحم جوانب الممرات والشارع نفسه بالخوانيت؛ فحانوت ساعاتي وخطاط وآخر للشاي ورابع للسجاد وخامس رقاء وسادس للتحف وسابع وثامن إلخ إلخ. وتقع هنا وهناك مقاهٍ لا يزيد حجم الواحدة على حجم حانوت. وقد لزم البوابون أبواب العارات بوجوه كالقطران وعائم كالخليب وأعين حاملة كأنما خدّرتها الروائح العطرية وذرات البخور الهائمة في الفضاء، والجوّ متلفع بغلالة سمراء كأنّ الحيّ في مكان لا تشرق عليه الشمس، وذلك أنّ سماءه في نواحٍ كثيرة منها محجوبة بشرفات توصل ما بين العمارات، وقد جلس الصنّاع أمام الخوانيت يكبّون على فنونهم في صبر وأناة ويبدعون آيات بيّنة من أفانين الصناعة، فالحيّ العتيق ما يزال يحتفظ باليد البشرية بقديم سمعتها في المهارة والإبداع، وقد صمد للحضارة الحديثة يلقي سرعتها الجنونية بحكمته الهادئة وآليتها المعقدة، بفنّه البسيط وواقعيتها الصارمة، بخياله الخالم ونورها الوهاج بسموته الناعسة. قلبٌ فيها حوله طرفاً حائراً وتساءل هل يستطيع أن يحفظ هذا الحيّ الجديد كما كان يحفظ حيّه القديم؟! وهل يمكن أن يشقّ سبيله يوماً وسط هذا التيه تقوده قدماءه وقد انشغل بما ينشغل به من أمور دنياه؟.. ثم اقتحم الباب مغمغماً: «بسم الله الرحمن الرحيم» وارتقى درجات سلّم حلزونيّ إلى الطابق الثاني حيث عثر بالشقة رقم «١٢». وابتسمت أساريره لرؤية الرقم كأنه قديم عهد به وآس إليه في وحشته، ودقّ الجرس، فانفتح الباب، وظهرت أمّه على عتبة تلوح في ثغرها ابتسامة ترحيب، وأوسعت له

ليّقي شعاع الشمس بدتا مغمضتين واختفى لونها العسليّ العميق، وقد تساقطت أهدابها واحمرت أشجارها احمراراً خفيفاً؛ يتوسطهما أنف دقيق وفم رشيق الشفتين وذقن صغير مدبّب. ومن عجب أنه عدّ يوماً تمنّ يُعنون بحسن هندامهم وأناقتهم، وبدا إذ ذاك في صورة مقبولة، ولكنّ اليأس والحرص وما اعتراه بعد ذلك من داء التشبّه بالمفكرين نزع به عن آية عناية بنفسه أو بلباسه.

استقلّ الترام رقم «١٥» وقد افترت شفتاه عن ابتسامة ساخرة كشفت عن أسنان مصفرة من فعل التدخين. ومن ميدان الملكة فريدة أخذ الترام رقم «١٩». وقد ارتكب خطأ سهواً، فرمى بحكم العادة بالتذكرة التي قطعها في الترام الأوّل وكانت توصله إلى الأزهر، واضطرّ أن يقطع تذكرة جديدة ضاحكاً من نفسه في غيظ، وآله حرصه على تفاهة الغرم. والحقّ أنّه تعود منذ زمن بعيد أن يكون ربّ أسرة، وإن بقي لحدّ الآن أعزب، بيّد أنّه لا ينفق مليّاً بغير تملل، فحرصه ليس من العنف بحيث يغله عن الإنفاق، ولكنّه لا يعفيه أبداً من التألم كلما وجب الإنفاق.

وانتهى إلى ميدان الأزهر، وأنجّه إلى خان الخليلي يتسّمّت هدفه الجديد، فعبّر عطفة ضيقة إلى الحيّ المنشود، حيث رأى عن كنب العمارات الجديدة تمتدّ ذات اليمين وذات الشمال، تفصل بينها طرقات وممرات لا تحصى، فكأنّها ثكنات هائلة يضلّ فيها البصر. وشاهد فيها حوله مقاهي عامرة ودكاكين متباينة - ما بين دكان طعمية ودكان تحف وجواهر - ورأى تيارات من الخلق لا تنقطع، ما بين معتم ومطرّش ومقبّع، وملأت أذنيه أصوات وهتافات ونداءات حقيقة بأن تثير أعصاباً قلقة كأعصابه؛ فتولّاه الارتباك واضطربت حواسه، ولم يدر أيّان يسير، فدنا من بواب نوبيّ اقتعد كرسياً على كنب من أحد الأبواب وحيّاه ثمّ سأله قائلاً:

- من أين الطريق إلى العمارة رقم «٧» من فضلك؟

فنهض البواب بأدب وقال مستعيّناً بالإشارة:

- لعلك تسأل عن الشقة رقم «١٢» التي سكنت

## خان الخليلي ٥٢٥

الحجرة التي تواجه باب الشقة الخارجي وقالت له: «حجرتك»، أما حجرنا الردهة فقد أعدت أولهما لنوم والديه، وقالت أمه عن الأخرى: «سنحتفظ فيها بأثاث أخيك ونتركها خالية على ذمته» ومضى الرجل إلى حجرة والده فرأى الشيخ مقتعداً سريره تلوح في عينيه نظرة هدوء واستسلام. وكان عاكف أفندي أحمد - كانه - طويلاً نحيفاً ذا لحية كثة بيضاء، وقد وضع على عينيه عوينات غليظة بعثت في نظره الذابلة بريقاً خداعاً، وقد حدج ابنه بحذر وريبة وتوثب لردّ العدوان إذا حدثت الرجل نفسه بالتهكم بسبب النقل إلى البيت الجديد، وحيّاه أحمد وقال له:

- مبارك يا أبتى!

فقال الشيخ بهدوء:

- الله يبارك فيك، كلّ شيء بأمره!

فهزّ أحمد رأسه وقال:

- ولكننا بالغنا في خوفنا مبالغة تنكبّت بنا عن جادة الصواب. ألا ترى يا أبتى أنّ ما بين السكاكيني وخان الخليلي أدقّ من أن يدركه الطيّار المحلّق في السماء؟!.

فقال الأب بحزم:

- هذا الحيّ في حمى الحسين رضوان الله عليه، وهو حيّ الدين والمساجد، والألمان أعقل من أن يضربوا قلب الإسلام وهم يخطبون ودّ المسلمين؟.

فابتسم أحمد وقال:

- وإذا ضرب خطأ كما ضرب السكاكيني خطأ من

قبل؟!.

فقال الرجل وقد ضاق صدره:

- لا تجادل في الحق، إني متفائل بهذا المكان خيراً، وأمك به راضية، وإن كانت ثرثرة لا تعرف الحمد والشكر، وأنت نفسك مطمئن راضٍ، ولكنك تدعي حكمة زائفة، وتظاهر بشجاعة كاذبة، هلمّ فاخلع ثيابك ودعنا نتناول غداءنا!.

فابتسم أحمد وتراجع إلى حجرتة وهو يقول لنفسه:

«صدق أبي» وألقى على حجرتة نظرة فاحصة فوجدها قد وسعت أثاثه تحت ضغط محا ما كان لها من تناسق؛ فعلى الشمال الفراش، وعلى اليمين صوان الملابس،

مستضحكة وهي تقول: «أرأيت إلى هذه الدنيا العجيبة!» فجاز الباب وهو يقول مبتسماً: «مبارك عليك البيت الجديد!». فضحكت عن أسنان مصفرة لأنّها كانت مولعة بالتدخين كابنها وقالت بلهجة المعتذر:

- قُصارى ما وسعنا اليوم أن نفرش حجرتك وحجرتنا... وكان يوماً مُتعباً حقاً، ولقد كسرت قائمة أحد الكراسي على ما بذلنا من حرص، وتقتشر مسند سريرك في بعض المواضع..

ووجد أحمد نفسه في صالة صغيرة مزدحمة بأحزمة المتاع والمقاعد وقطع الأثاث، وضعت السفارة في وسطها وحملت بالآنية ولفات الأبسطة، وكان بها بابان على يمين الداخل وفي مواجهته، فنظر فيما حوله في صمت، أما الأم فراحت تقول:

- الله يعلم أنّي لم أذق للراحة طعمًا في يومي هذا، فيا لشقاء الأم التي لم تنجب أنثى تستعين بها عند الحاجة، ولقد هربت أنت إلى وزارتك وقبع أبوك في حجرتة كعادته، ولم يتورّع - غفر الله له - أن سألني منذ هنيهة عمّا هيأت لكم من طعام؟ كأنما يسأل ساحرة تقدر على كلّ شيء؟ ولكن من حسن الحظّ أنّ حيننا الجديد غنيّ بمأكولاته السوقية، ولقد أرسلت الخادم لتبتاع لنا طعامية وسلطة وباذنجاناً..

فتحلّب ريق أحمد لسماح اسم الطعامية ولاح الرضاء في بريق عينيه، ثمّ سأل أمه:

- وهل ارتاح أبي واطمأنّ؟

فابتسمت المرأة ابتسامة لطيفة دلّت على أنّ بلوغها الخامسة والخمسين لم يفقدها كلّ ما كان لها من دلال أنثويّ، وقالت:

- ارتاح واطمأنّ والحمد لله وعسى أن يصدق رأيه، ولكنّ الشقة صغيرة والحجرات ضيّقات، فحشرنا الأثاث فيها حشراً واللي انكتب على الجبين لازم تشوفه العين!.

وجعل يصغي إلى أمه ويتفحص ما حوله، فرأى ردهة تمتد على يسار القادم، على يمينها تقع حجرتان، وفي الناحية المقابلة المطبخ والحمام. وقد أشارت أمه إلى

من الوقت متسعًا، فما لبث أن سمع نقرأ على الباب  
وصوت أمه يدعو قائلًا:

- الطعمية جاهزة يا سعادة البيك..

فأغلق النافذتين وخلع بذلته، ثم ارتدى جلبابه  
وطاقيته، وهو يدعو ربه قائلًا: «اللَّهُمَّ اجعله سَكَنًا  
مباركًا» إلا أنه - في نفس اللحظة وقبل أن يفارق  
الحجرة - جاءه صوت أجش من الطريق يصيح  
غاضبًا: «الله يجرب بيتك ويجرق قلبك يابن..» فردَّ  
صوت آخر بأقبح مما قذف به، مما دلَّ على أن اثنين  
يتقاذفان بالسباب كعادة أهل البلد، فامتعض الكهل  
ولعنهما ساحطًا وغمغم قائلًا: «أعوذ بالله من الشؤم  
والتشاؤم»، ثم غادر الحجرة..

- ٢ -

وأكل اللذ طعمية ذاقها في حياته، وأطراها بغير  
تحفظ، فسَرَ أبوه وعدَّ ذلك الإطراء إطراءً للحَيِّ  
الجديد، فقال بحماس كبير:

- أنت لا تدري عن حيِّ الحسين شيئًا، فها هنا اللذ  
طعمية وأشهى فول مدس، وأطعم كباب وأحسن  
نيفة وأمتع كوارع وأنفس لحمه رأس، هنا الشاي  
المنعم النظير والقهوة النادرة المثال، هنا نهار دائم  
وحياة متصلة ليلاً ونهارًا.. هنا ابن بنت رسول الله  
وكفى به جازًا ومُجبرًا!.

ورجع بعد الغداء إلى حجرته، واستلقى على  
الفراش ينشد قسطًا من الراحة، وقد أقرَّ فيما بينه وبين  
نفسه بأنَّ دواعي سروره بالحَيِّ الجديد لا تقلُّ عن  
بواعث ضيقه به. وقلَّب عينيه في أنحاء الحجرة حتى  
استقرَّتْ على أكداس الكتب المتراسة على كتب من  
المكتبة لم يُبَيِّها لها التنظيم بعد، فثبَّت عليها بصره في  
ارتياح وسخرية، هذه كتبه المحبوبة، وجميعها باللغة  
العربية؛ لأنه - على عهد الدراسة - لم يصب تفوقًا في  
الإنجليزية فأهملها مضطرًا بعد ذلك وأنسيها أو كاد،  
وأكثر من ثلثها كتب مدرسية في الجغرافيا والتاريخ  
 والرياضة والعلوم، وبها عدد لا بأس به من مراجع  
القانون ومثله من كتب المنفلوطي والمويلحي وشوقي

تليه المكتبة كدست على كتب منها الكتب، وكان بها  
نافذتان فرغب أن يلقي نظرة عجل من كلِّ منهما،  
فدلف من اليمنى وفتحها، وكانت تطلُّ على الطريق  
الذي جاء منه، ومنها استطاع أن يتبين معالم الحيِّ من  
عُلِّ، فرأى أنَّ العمارات شيدت على أضلاع مربع كبير  
المساحة، وأقيمت في ساحة المربع التي تحيط بها  
العمارات مربعات صغيرة من الحوانيت تلتفُّ بها  
الممرات الضيقة، فكانت نوافذ العمارات وشرفاتها  
الأمامية تطلُّ على أسطح الحوانيت، وتأخذ نصيبها من  
الهواء والشمس، ولا يجلب عنها بقية العمارات  
حجاب، فكان الناظر من إحدى النوافذ الأمامية يرى  
مربعًا كبيرًا من العمارات ينظر هو من نقطة في أحد  
أضلاعها، ويرى في أسفله مربعات كثيرة من أسطح  
الحوانيت، تخترقها شبكة معقدة من الممرات  
والطرق، ورأى فيها وراء ذلك مئذنة الحسين في  
علوها السامق تُبارك ما حولها. فارتاح الرجل لانطلاق  
الفضاء أمامه لأنَّ أخوف ما كان يخافه أن ينظر فلا  
يرى إلا جدرانًا صماء، ثم تحوَّل إلى النافذة الأخرى  
التي تواجه باب الحجرة وفتحها فرأى منظرًا مختلفًا،  
ففي أسفل طريق ضيق يوصل إلى خان الخليلي القديم  
مغلقة حوانيته فبدا مهجورًا، وعلى الجانب الآخر من  
الطريق جانب من عمارة تواجهه نوافذها وشرفاتها عن  
قرب، ثم تبين له أنَّ سطحي العمارتين متصلان في  
أكثر من نقطة وأنَّ أطباقهما المتقابلة متصلة كذلك  
بالشرفات مما جعله يحسب أنَّها عمارة واحدة ذات  
جناحين، وفي الطرف الأيسر من الطريق يبدأ خان  
الخليلي القديم، وقد رآه الرجل من نافذته أسطحًا  
بالية، ونوافذ متداعية، وأسقفًا من القماش والأخشاب  
تُظَلُّ الطرق المتشابكة، وفيها وراء ذلك تملأ الفضاء  
المأذن والقباب وقمم الجوامع وأسوارها، تعرض جميعًا  
صورة من الجوّ للقاهرة المعزّية. وكان يرى ذلك المنظر  
لأول مرة، فأكبره على نفوره من الحيِّ الجديد، ومضى  
يسرَّح الطرف في مشاهدته الغريبة المترامية، وهي  
مشاهد حقيقة بأن تدهش عينين لم تألفا غير الورق،  
ولا عهد لهما بآيات الطبيعة أو الآثار، على أنه لم يجد

وحافظ ومطران، ومجموعة من الكتب الأزهرية الصفراء في الدين والمنطق تاه بصفرتها عجباً واعتبرها آية العلم العسير الذي لا ينفذ إلى حقائقه إلا الأفلون، وهي لا تخلو كذلك من بعض مؤلفات المعاصرين التي يعدّ اقتناءها تفضلاً منه. هذه هي مكتبته المحبوبة أو هي جلّ حياته جميعاً. كان قارئاً نهياً لا تروي له غلّة، وقد أدمن على القراءة إدماناً قاتلاً، وأكبّ عليها عشرين عاماً كاملة من عام ١٩٢١ - تاريخ حصوله على البكالوريا - إلى عام ١٩٤١، فاستغرقت حياته الباطنة والظاهرة، وتركزت فيها مشاعره ونواذعه وآماله جميعاً، بيد أنّها امتازت منذ البدء بخصائص لم تفارقها مدى العشرين عاماً، وهي أنّها قراءة عاقمة لا تعرف التخصص ولا العمق، نزاعة إلى المعارف القديمة، سريعة مضطربة، ولعلّ السبب في عدم تركيزها ما كان من اضطراره إلى الانقطاع عن الدراسة بعد البكالوريا، ممّا لم يبيح له فرصة منظّمة للتخصص.

وكان لذلك الانقطاع آثار بالغة في حياته الاجتماعية والنفسية، لم ينبج من شرّها مدى الحياة، أما سببه فهو أنّ أباه أحيل على المعاش في ذلك الوقت - وكان يشارف الأربعين - لإضاعته عهدة مصلحة ياهماله، وتطاوله على المحققين الإداريين، فأجبر أحمد عاكف على قطع حياته الدراسية والالتحاق بوظيفة صغيرة لينفق على أسرته المحطّمة ويربي أخويه الصغيرين اللذين مات أحدهما، وصار الثاني موظفاً بينك مصر.

وكان أحمد طالباً مجتهداً طموحاً واسع الآمال، رغب من أول الأمر في دراسة القانون، وطمع في أن تنتهي به دراسته إلى مثل ما انتهت بسعد زغلول نفسه؛ وطوّحت به الأحلام والأمان، فلما أجبر على الانقطاع عن الدراسة أصابت آماله طعنة قتالة دامية، ترنّح من هولها، واجتاحتها ثورة عنيفة جنونية حطّمت كيانه، فامتلات نفسه مرارة وكمدًا. ووَقَرَ في أعماقه أنّه شهيد مضطهد، وعبقريّة مقبورة، وضحية مظلومة للحظّ العاثر. وما انفكّ بعد ذلك يرثي عبقريته الشهيدة ويحتفل بذكرها لمناسبة وغير مناسبة، ويشكو حظّه

العاثر ويعدّد آثامه، حتّى انقلبت شكواه فصارت هوساً مرصياً، واعتاد زملاؤه أن يسمعه وهو يقول بصوته المتهدج: «لو أتممت دراستي - وكان نجاحي مضموناً - لكنك الآن كئيّنا وكئيّنا!» أو يقول متحسراً: «إني أدنو الآن من الأربعين، فتصوّر يا صاح لو أنّ الحياة سارت كما ينبغي، فلم يعترض مجراها الحظّ العاثر، أما كنت أكون محامياً قديماً يعترّ بخدمة في القضاء تناهز العشرين عاماً؟! . وماذا كان ينتظر من رجل في مثل جدي في غضون عشرين عاماً؟!» وربّما قال متأثماً: «فانتنا ظلماً أخصب فترة في تاريخ مصر، تلك الفترة التي تستهين باعتبارات السنّ والجاه الموروث، ويقفر فيها الشبان إلى كراسي الوزارة!». ولم يكن يفوته تتبّع خطى المتفوقين من أقران المدرسة الذين واصلوا دراستهم، وليس نادراً أن يرفع رأسه عن جريدة بين يديه، ويقول بإنكار: «أتعرفون فلاناً الذين يقولون عنه ويعيدون؟. . زاملني عهد الدراسة فضلاً فضلاً، وكان تلميذاً خاملاً لا يطمع أن يدركني يوماً ما؟» أو يهتف متهكماً: «يا ألطف الله؟. . وكيل وزارة؟. . ذلك الغلام القدر الذي لم يكن يعي ممّا يلقي عليه شيئاً؟! هي الدنيا!» ثم يروح محدثاً إخوانه بأي نبوغ المدرسيّ، وما تتبأ له به المدرسون. هكذا تلوّث عواطفه بتمرد نائر وسخط خبيث وكبرياء حق، واعتداد كاذب بمواهبه، ممّا جعل حياته عذاباً متصلاً وشقاء مقيماً. ثم وجدت هذه العبقرية المزعومة نفسها مهملة في الدرجة الثامنة بمحفوظات وزارة الأشغال، ولكنّها لم تسكن، ولم تستسلم، ولم تياس، ومضت تلتمس السبل إلى تحطيم الأغلال، وشقّ الطريق إلى الحرّية، والمجد والسلطان، وكابدت التجارب، وتوثبت بمحاولة تلو المحاولة. وقد فكّر أول ما فكّر في التحضير - من بيته - لشهادة القانون، فهو العلم الذي انجذبت إليه آماله من بادئ الأمر، ولم يكن عن الشهادة محيد، لأنّ المحاماة لم تعد اجتهاداً كما كانت على عهد سعد والهلباوي، فسراح يقتني الكتب القانونية، ويستعير المذكرات، وأكبّ على الدراسة عاماً مدرسياً كاملاً تقدّم في نهايته إلى الامتحان، ولكنّه

وكان لذلك الانقطاع آثار بالغة في حياته الاجتماعية والنفسية، لم ينبج من شرّها مدى الحياة، أما سببه فهو أنّ أباه أحيل على المعاش في ذلك الوقت - وكان يشارف الأربعين - لإضاعته عهدة مصلحة ياهماله، وتطاوله على المحققين الإداريين، فأجبر أحمد عاكف على قطع حياته الدراسية والالتحاق بوظيفة صغيرة لينفق على أسرته المحطّمة ويربي أخويه الصغيرين اللذين مات أحدهما، وصار الثاني موظفاً بينك مصر.

وكان أحمد طالباً مجتهداً طموحاً واسع الآمال، رغب من أول الأمر في دراسة القانون، وطمع في أن تنتهي به دراسته إلى مثل ما انتهت بسعد زغلول نفسه؛ وطوّحت به الأحلام والأمان، فلما أجبر على الانقطاع عن الدراسة أصابت آماله طعنة قتالة دامية، ترنّح من هولها، واجتاحتها ثورة عنيفة جنونية حطّمت كيانه، فامتلات نفسه مرارة وكمدًا. ووَقَرَ في أعماقه أنّه شهيد مضطهد، وعبقريّة مقبورة، وضحية مظلومة للحظّ العاثر. وما انفكّ بعد ذلك يرثي عبقريته الشهيدة ويحتفل بذكرها لمناسبة وغير مناسبة، ويشكو حظّه

الذي يجعل من صاحبه عالماً بعيد الغُور. وضاع عام ثابن زادت فيه المكتبة صنفاً جديداً من كتب العلم، ثم تساءل متعباً متحيراً: تُرى لأي شيء خلقت مواهبه على وجه التحقيق...؟ لا شك أنه لم يعرف نفسه بعد، ولو عرف نفسه لحفظ وقتاً - أحق به أن يحفظ - من الضياع هدراً بغير ثمرة. فما حقيقة ميوله؟ لقد انتهى من القانون والعلوم ولكن ليس القانون والعلوم بكل شيء. هنالك ما يضارعها جلالاً وجمالاً فما سرّ ولعه بشوقي والمفلوطي؟ ما طربه للبيان الساحر؟ ألا يجوز أن يكون استعداده الحق للأدب؟ وأجمل به من فن لا يستوجب التمرس به شهادة ولا دراسة مدرسية. فما عليه إلا أن يقرأ كما قرأ شوقي وحافظ ومطران من قبل. وما عثم أن استقبلت مكتبته ضيوفاً جديداً من أزاهر الشعر والنثر أكب عليها بشغف وحماس بلغ حدّ الغضب؛ ووقع في رحلاته على قول ابن خلدون: «سمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول فنّ الأدب وأركانها أربعة دواوين وهي: كتاب الكامل للمبرد، وأدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبي عليّ القالي البغدادي. وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع منها» فتتهد كأنما وقع على كنز واقتنى الأركان الأربعة، وقرأها جميعاً بما طبع عليه من حماس وسرعة، فلما أن فرغ منها تساءل مسروراً: «هل صرت الآن أديباً؟»، وأمسك بالقلم وصدقت عزيمته على أن يكتب، وكتب موضوعاً سماه: «على شاطئ النيل» أفرغ فيه فنه وإلهامه؛ وأرسله بالبريد إلى إحدى المجلات، ومضى يتخيّل ما عسى أن يستقبله به القراء من الإكبار والإعجاب، وكيف أنه قد يكون أول درجات الشهرة والمجد، وحسبه هذا فما يطمع في أجر غير المجد الأدبي. وظهرت المجلة وفتش عن مقاله فما وجد له أثراً، ففتر حماسه وتعترت أمانيه في الخجل، ولكنّه لم ييأس فناجى نفسه يستنظرها أسبوعاً آخر، ومضت أسابيع دون أن تتاح للمقال فرصة الظهور. لقد قرأ أركان الأدب الأربعة التي يعدّ ما سواها تبنها لها وفروعاً منها، فهو أديب بحكم ابن خلدون، وما أدراك ما ابن

سقط في مادتين. وطمع كبرياؤه طعنة نجلاء، وأحرج أمام الذين تتبّعوا أبناء عبقرته باهتمام، وجعل يعتذر عن إخفاقه بوظيفته، وبإدعاء مرض وهمي أقعده عن مواصلة الدرس، ولم يثن عن ادعاء المرض بعد ذلك على سبيل الاحتياط والحذر. وخاف أن يجرب الامتحان مرّة أخرى، وأشفق من تعريض عبقرته للتجارب الظاهرة التي يطلع الناس على نتائجها فإلى العلم الحرّ، وبإعلان احتقاره للامتحانات والشهادات، ثم أقنع نفسه بأن إخفاقه في امتحان القانون جاء نتيجة لعدم استعداده له - لا لتقصير أو لقلّة كفاية، وعدل عند ذلك عن دراسته ليجد المجال الطبيعي الذي خلقت له عبقرته الشهيدة، وهكذا خسر عامّاً وربحت مكتبته عددًا لا يستهان به من كتب القانون. ثم فكّر في تكريس حياته للعلم، وتخيّر بين الأبحاث النظرية والاختراعات العلمية أيها يختار؟ ثم ألق عن فكرة الاختراع بحجة أن البلد خالٍ من المصانع والمعامل، وهي ميادين التجارب، ومهبط الوحي الإبداعي، وركّز أماله في العلم النظري، وطمع في أن يكتشف نظرية يوماً يغيّر بها آفاق العلم الحديث، ويقفز إلى سماء الخلود بين نيوتن وأينشتين. وتوثبت به الهمة، فراح يبتاع ما وقعت عليه يده من ملخصات الطبيعة والكيمياء، ويطالعها باهتمام وشغف. وبعد دراسة عام طويل وجد نفسه حثّ بدأ لم يتقدّم خطوة نحو هدفه البعيد، ثم اقتنع بأن التعمق في العلم يتطلب دراسة تحضيرية لم تُتخّ له.

وغلّبه الجزع وكثيراً ما يغلبه، فيئس من الدراسة العلمية النظرية، وسوّغ بأسه نفسه بأن البحث النظري ليس دون الاختراع حاجة إلى المعامل ومعاهد الأبحاث، وأن جوّ مصر بصفة عامّة لم يتهيأ بعد للعلم، ولم يجد ضرورة للاعتذار هذه المرّة عن إخفاقه للغير، لأنّه كان تعلم أن يخفي أهدافه عن الناس جميعاً، بيد أن ذلك لم يمنعه من أن يذيع بين الزملاء والصحاب أنه يكسّر وقت فراغه للمعرفة والاطلاع. المعرفة الحرّة التي تسمو على الدراسة المدرسية والشهادات الحكومية، والاطلاع العميق

## خان الخليلي ٥٢٩

أكون عظيمًا في مصر ما عجزت.. ولكن قاتل الله الكرامة! وحرق الغضب نفسه حتى تركها شعلة من لهب غير مقدس وحطامًا من رماد، ولكن الحياة لا تحتمل الغضب في كل حين، فما من معدى عن سويغات راحة وإن تكن راحة القنوط، فكان يستريح إلى اليأس كلما لجج به الغضب أو الحقد، وفي تلك السويغات كان يقول لنفسه: ألا ما جدوى العناد في هذه الدنيا؟.. إذا كنا نموت كالسوائم وننتن فلماذا نفكر كالملائكة؟.. هبني ملأت الدنيا مؤلفات ومخترعات فهل تحترمني ديدان القبر أو تلهمني كما التهمت جثتي ريبًا وسكينة؟؟.. الدنيا أكاذيب وأباطيل وما المجد إلا رأس الأكاذيب والأباطيل. وسلم نفسه إلى عزلة عقلية وقلبية مريرة. يش من الحياة فهرب منها، ولكنه خال وهو يدبر عنها يائسًا عاجزًا، أنه يزهد فيها متعالياً متكبّرًا ولذلك لم يهجر عادة القراءة، لأن الكتب تهيئ للإنسان الحياة التي يهواها، فتعالى بحياة الكتب على حياة الدنيا، وظفر منها بيلسم لآلام كبرائه، واستعار ما بها من قوة، فخالها قوة ذاتية، وكان أفكارها أفكاره وسيطرتها سيطرته وخلودها خلوده، وقد عدل - بعد إخفاقه المتواصل - عن القراءة المنظمة المحددة الهدف، واندفع يقرأ ما تقع عليه يده، وعُني عناية خاصة بالكتب الصفراء لأنها في نظره عسيرة وعزيزة المنال، وانكب على القراءة بسرعة وشراهة وأعصاب متوترة فلم يتمتع بقراءة مجدية ولا نافعة، وأصابه سوء هضم عقلي، فكان يعرف أشياء وأشياء ولكنه لم يتقن شيئًا أبدًا، ولم يتعود عقله التفكير مطلقًا ولكن كانت الكتب تفكر له وتتأمل بدلاً منه. ولم يكن يعنيه التفكير ولا التأمل وإنما كان همه الحقيقي أن يحدث الغد بما قرأ بالأمس، وأن يحاضر زملاء من الموظفين والصحاب - بلهجة الفيلسوف المعلم - فيما وعته الذاكرة وحفظته، ولذلك ساء موظفو المحفوظات بالأشغال «الفيلسوف» فسر بالتسمية وإن كان ما بها من التوقير يعادل ما بها من التحقير. ولم يكن للفيلسوف رأي يستقر عليه لأنه كان يقرأ ولا يفكر، وعسى أن ينسى اليوم ما قاله بالأمس القريب، وعسى

خلدون؟. فكيف لم ينشر مقاله؟. هل أهمل القوم نشره لأن كاتبه غير معروف؟ أو لأنه لم يستشفح إليهم بشفيح؟ أو تراهم عجزوا عن فهمه؟!.. وفكر في أن يذهب إلى المجلة بنفسه ليقف على حقيقة الأمر، ولكنه لم يستطع لأن خجله كان يقف له بالمرصاد دائمًا. ثم تناسى آثار الصدمة الأولى وكتب مقالًا ثانيًا عن العدالة فلم يكن حظّه أحسن من الأول، فكتب ثالثًا عن «جناية الفقر على النبوغ» فلم يكن خيرًا من سابقه. وتوثب للكتابة بعناد وإصرار من ناط بها أمله الأخير فحطمت محاولاته جميعًا على صخرة الإهمال الباردة، وأعاد كتابة أكثرها وأرسلها إلى مجلات مختلفة، فلم يجد بينها من ترحم أمله المذب، وتنقذه من هاوية القنوط. وكان آخر مقال كتبه عن «تفاهة الأدب» فضاع كما ضاع إخوته. وانكسر عن محاولاته محطّم النفس مطعون الفؤاد. لقد تأمر عليه سوء الحظ - عدوه القديم - وخبث طوايا النفوس ولؤم الطباع. فلم يساوره شك في قيمة مقالاته الأدبية، بل ظنّها خيرًا مما بدأ به المنفلوطي نفسه وما يتيه به كثير من المعاصرين ولكنه سوء النية وفساد الطوية!.. وتبددت الأحلام جميعًا. ألا ما أضيّق العيش وما أظلمه!. ورمى بالقلم، وتضاعف ما به من حقد وتمرد وألم، ويش أخيرًا من المجد والسلطان، وامتلات نفسه سخطًا وغضبًا على الدنيا والناس، والعظمة والعطاء خاصة!. وما العظمة؟.. أو ما العظمة كما تعرفها مصر؟.. أجاب على ذلك بكلمة واحدة: «الظروف المواتية»، بل قال عن سعد نفسه على حبه: «لقد مهّد له صهره سبيل النجاح، ولولا صهره ما كان سعدًا الذي نعرفه». وكان يردّد كثيرًا: «إن الوظائف الكبرى في مصر وراثية» أو يقول: «إذا أردت التفوق في مجتمعنا فعليك بالفحة والكذب والرياء، ولا تنس نصيبك من الغباء والجهل» أو يقول ساخرًا: «ما هؤلاء الأدباء الذين يملثون الصحف والمجلات؟. أمن الأدب الحق أن تستعين على البروز فيه بالسياسة والحزبية؟، وهل يعجز عن بلوغ ما بلغوا من مجد كاذب إلا كريم؟»، أو يقول محتدًا غاضبًا: «والله لو أردت أن



حبل أمنه وأرهقت أعصابه وصرعه الخوف والوهم فتلقفه المرض وأوشك أن يسلمه للجنون أو الموت! ولم يرَ بدءاً من العدول عن سعيه والنزول عن أطعامه فأعاد الكتب إلى صاحبها ويشس من المجد للمرّة الأخيرة بعد أن جرّب جميع السبل والمسالك المفضية إليه. وجعل يتساءل في حزن بالغ: ماذا بي؟ هل حلّ فيّ روح نجس؟، لماذا أصرع دائماً إذ لا يفصل بيني وبين ما أريد سوى ذراع؟!. وسقط تحت أنقاض المحاولات الفاشلة والآمال الخائبة والأوهام الضائعة؟! . وأطرد مجرى الأيام وتقدّم به العمر وشعوره العميق بالظلم لا يسكن ولا يهدأ، بل جعل يجد لآله لذة غامضة، وكان يتوهم حدوث الظلم بداعٍ وبغير داعٍ ويتلقّى ما يُقضى به عليه من ألمٍ ممتزج بتلك اللذة الخفيّة. وعسى أن يتساءل متحدّياً ساخراً: أليس جليلاً أن ينهض العالم جميعه لمقاتلة إنسان فرد؟! . . . أليس ممّا يطيب به الغرور أن يتوفّر له سوء الحظّ ذلك التوفّر الذي إن دلّ على شيء فعلى الحسد والخوف؟! . بل فقد قُضي لحكمة سلفت أن يكون الشقاء نصيب العقول الفذّة في هذه الدنيا .

وقد كان لالتداذه بالألم هذا أثر في توجيه ميوله السياسيّة المتقلّبة، فمال دائماً إلى الحزب المغلوب على أمره بصرف النظر عن مبادئه السياسيّة، وسرعان ما يتمثّل نفسه في موقف زعيمه يتلقّى ما يتلقّى من ضروب الاضطهاد والاعتداء وينوء بما ينوء به من ألوان التبعات والواجبات، يجد في هذا وذاك ألماً لا حصر له ولذّة لا شبهة فيها.

والواقع أنّ خلقه هذا لم يكن اتّفاقاً ولا تحت تأثير الإخفاق فحسب ولكن له أصول بعيدة ترجع إلى عهد نشأته الأولى، حين كان الأوّل لوالديه، فدرج على الرعاية والحبّ والتدليل، ولكنّه كان - كذلك - الطفل الذي ادّخره حظّه لكي ينهض بأعباء أسرة محطّمة وهو دون العشرين، فلم تتلطف معه الدنيا - فضلاً عن أنّ تدلّله - ساعة واحدة! . .

★ ★ ★

أن يقول غداً ما يناقض قوله جميعاً. وهو سبّاق إلى رأي ما دام فيه رضاء لكبريائه وغروره وولعه بالظهور، فلّهج بالمعارضة واللجاج، فإذا قال محدّثه يمين قال شمال، وإن قال أبيض قال أسود، ثمّ يندفع في النقاش بعنف واحتداد وضيق صدر حتّى ليوشك أن يأخذ بتلابيب مُناظره! وليس يعني هذا حتّى أنّه غيبيّ، والحقيقة أنّه كان عاديّ الذكاء.

فلم يهبط عقله إلى البلادة والغباء ولم يعلّ للنبوغ فضلاً عن العبقرية، ولكن خدعه عن حقيقة نفسه طموحه للمجد وهيامه بالعبقرية فضلّ ضلالاً بعيداً. وزاد من أسباب تعاسته ما فطر عليه من حساسية مرهفة مضطربة فقتلت فيه روح الصبر والمثابرة، والتأمّل والتفكير، فصار دماغه وعاء لخليط من معارف شتى بدلاً من أن يكون رأساً مفكراً، ولا شك أنّ الأرق الذي مرض به نصف عام من حياته كان من جملة الأسباب التي عقم بها عقله، وقد أشفى به على الجنون والموت، وسهر الليالي ذاهلاً أو هادياً، ثمّ أدركته رحمة الله فتعافى بعد يأس. ويرجع السبب المباشر لمرضه إلى تجربة خطيرة خاض غمارها غير حافل بعواقبها، ذلك أنّه كان يؤمن بالسحر ولا يشكّ فيها يلقي على سمعه من أساطير، وعثر يوماً بموظف قديم راسخ الاعتقاد في السحر والشياطين فأقبل عليه بشغف واهتمام، وبعد أن توطلدت الصداقة بين الاثنين أعاره الرجل بعض كتب قديمة عن السحر وتحضير الشياطين ككتاب خاتم سليمان، والقمقم، ويا أسيادي. وطار بها الشابّ سروراً وعدّها أجلّ ما بلغته يده من زبد العلم والحقيقة، وعكف عليها بحماس ويقين يحلّ رموزها ويفقه أسرارها، ويتحرّق شوقاً إلى وقت يُتاح له فيه السيطرة على القوى الكونية والاستئثار بمفاتيح المعرفة والقوة والسلطان! . أوشك أن يُجِنّ لهفة وأن يذوب هيماً. متى يدين له عرش النفوذ اللانهائيّ فيأخذ ما يشاء ويدع ما يشاء، ويعبث بمن يشاء، فيرفع ويخفض ويغني ويفقر ويحيي ويميت؟ ولكن لم تحتمل أعصابه الجهاد طويلاً ولا قدر على قضاء الليالي الطوال مختلياً بأرواح الشياطين فاضطرب

واختفى شعاع الشمس المنعكس على زجاج النافذة العليا من العمارات التي تواجه نافذته، فأدرك أنّ الشمس تغيب وراء قباب القاهرة المُعزّبة بالجهة الخلفيّة، وصعد بصره إلى مشهدة الحسين السامقة تنطلق بجلال في غلالة من ظلال المغيب فهزّت مشاعره وأيقظت قلبه. ثم ارتفق حافة النافذة يردّد ناظره ما بين أسطح الدكاكين التي تتوسط العمارات، والنوافذ والشرفات المطلّة من واجهات المباني، والممرّات المتقاطعة، رأى نوافذ مغلقة وأخرى شبه مفتوحة وشرفات تسعى فيها ربّات البيوت يجمعن الغسيل أو يملأن القلّل، وقد أوشك الطريق أن يخلو من الصبية كأنّما أفرعها دنو الليل، وكان يرغب أن ينطلق إلى الخارج ليرى عن كثب مشاهد الحيّ الجديد، ويكتشف طرقاته ومسالكه، ولكن غلبه التعب على رغبته لما بذل من جهد في تنظيم مكتبته، هذا إلى تعوّده لزوم البيت حتّى ندر أن يفارقه بعد عودته من الوزارة، فأجلّ تنفيذ رغبته. وترك النافذة فتربّع على شلّة - وهي جلسته المختارة إذا تبيّأ للقراءة - واستخرج من المكتبة كتاباً يقرأ فيه حتّى يأزف ميعاد النوم.

وكان والده في تلك الأثناء يتربّع على سجّادة الصلاة والمصحف بين يديه يتلو ما تيسر منه في صوت مسموع، غير منتبه إلى أخطاء القراءة العديدة التي يتتابع عثوره بها. كان عاكف أفندي أحمد في السّتين من عمره، وقد أرسل لحيّة بيضاء أكسبت وجهه النحيل وقارًا، وفرض على نفسه عزلة قاسية عقب إحالته على المعاش وهو في أواسط العمر ومشرق الآمال، وبدا كأنه كرّس حياته للعبادة وتلاوة القرآن، ولم يكن يفارق البيت إلّا فترات متباعدة للتريّض المنفرد أو زيارة الأضرحة. وربّما كان لعسره الماليّ - إذ لم يجاوز معاشه ستّة جنيهات - الأثر الأوّل فيما اتّخذ في حياته من نظام، ولكنّه رضي أخيراً عن طيب خاطر بحياته وألفها بل وأحبّها أيضًا شاكراً حامداً. وكانت أسمى أيّام حياته وأملها تلك التي أعقبت إحالته على

لبث مستلقياً في الفراش دون أن يغمض له جفن، وجعل يقلّب عينيه في سقف الحجره وجدرانها وأرضها، وتساءل قلقاً: تُرى هل تطيب له الحياة في هذا الحيّ العجيب؟! ونازعه الحنين إلى شارع قمر وحيّ السكاكيني والبيت القديم، وعلى أنّه لم يفارقه كذلك ذاك الشعور المشرق بالأمل الوضاء بالتطلع، ثم ملأت البيت حركةً متصلة وأتاه صوّتا أمّه والخادم فأدرك أنّها يستأنفان نشاطهما لفرش الشقّة وإعداد الحجرات. وتصاعدت إليه من الطريق ضجّة مزعجة وضوضاء فظيعة فأنكرها وأصغى إليها بانتباه فتيّن له أنّها أصوات أطفال يلعبون ويغنون، وكأنّه ضاق برقاده ذرعاً فنهض إلى النافذة المطلّة على العمارات وفتحها وراح ينظر منها إلى الطريق، فرأى جماعات من الصبيان والبنات يملئون الطريق متصايحين متضاحكين وقد انقسموا فرقاً أكبّ كلّ فريق على رياضة، فبدا الطريق وكأنّه نادٍ رياضيّ ساذج فهذه جماعة تلعب بالحديد وتلهب الأكتف بالطرّة، وهذه جماعة تلعب بالبلّ، وتلك عصابة تحجل وتلك أخرى تتصارع، واقترعت الصغار الطوار يرقصون ويغنون ويصفقون. اضطربت الأرض وضجّ الجوّ وثار الغبار فأيقن أنّ الآ قيلولته منذ اليوم! وسمع أناشيد عجيبة «يا عمّ يا جمال..» و«يا أولاد حارتنا توت توت» و«الجبّل ده علي يا عمّي» إلخ إلخ. فحار بين الدهشة والحنق والسرور! ثمّ تصاعد صوت جهّوريّ أجشّ غليظ النبرات يصيح كالرعذ القاصف «ملعون أبو الدنيا!» وكرّر صياحه بصوت منغوم على إيقاع كُفّين شديتين!.. وكان الصوت صاعداً على الأرجح من دكّان تحت النافذة مباشرة ولكن من داخلها فلم يستطع رؤية ذلك الذي يتغنى بسبّ الدنيا ولكنّه لم يتمالك نفسه فأغرق في الضحك حتّى تورّد وجهه الشاحب، وشارب بعنقه من النافذة فاستطاع أن يرى لافتة الدكّان وقد نقش عليها بخط جميل «نونو الخطاط».. تُرى هل يكتب الرجل لوحات في سبّ الدنيا ويبيعها المتذمّرين والساخطين؟.. ألا ما أجدر أن يتتاع منها ما يشفي غليله!..

والتجميل، مشهورة بخفة الروح والدعابة اللطيفة والنادرة الحلوة، لا تضاهيها امرأة في قدرتها على أن تألف وتؤلف، فكثرت صريجاتها، وتعددت البيوت التي تزورها وتستزيرها، واستقبلها النسوة والأوانس بالسرور والغبطة شأن أعضاء الأسرة ولذلك لم تتأثر بالضائقة التي نزلت ببيتها، فلما انقبضت يد بعلمها عنها انبسط لها أيادي الصديقات الحبيبات بالهدايا، فحافظت على مستواها المعهود من الأناقة والتجميل. وكانت لها على زوجها دالة، فمسحت عن صدره الحزن بلطفها ودعابتها وتفاؤلها، وكانت تقول له ضاحكة: «لقد انتهيت يا عاكف أفندي من الحكومة فافرغ لي!»، أو تداعب لحيته قائلة: «من أجل الورد ينسقي العليق!»، ولكن كان صدرها يضيق إذا رأت بعلمها مكباً على القرآن، وبكرها عاكفاً على مكتبه، فتصيح بهما: «هلاً علمتاني القراءة لأجاور معكما؟!». ولشد ما أحنقها أحمد بإهماله نفسه، فكانت تروّج على خديها كأنما تلمطمها وتهتف مؤنبة: «كبرت أمك وجعلت سمعتها كالطين!.. هاك الكواء فما لبذلتك مسترخية متقبضة؟!.. وهاك الحلاق فما لذقتك غضراً؟!.. والدنيا بالأفراح حافلة، فما انزواؤك بين الكتب الصفراء؟! كيف تركت رأسك يصلع وقدالك يشيب؟!.. كبرتني.. كبرتني.. كبرتني!..» فكان أحمد يبتسم إليها ساخراً ويغیظها قائلاً: «الطمي كيف شئت ألسنت في الأربعين؟!» فيهوها التصريح بالحقيقة الفظيعة، وتنهره قائلة: «اخرس قطع لسانك الطويل.. هل رأيت الدنيا قبل اليوم ابناً يدعي عمر أمه؟!».

ومع ذلك فلم تخل حياتها من الحزن، كانت مريضة، أو هكذا توهمت، ولكن لم يأس على مرضها أحد ممن حولها، وقد اقتنعت على مر السنين بأن عليها أسبأداً، وبأن لا شفاء لها إلا بالزار، وطالما توسلت إلى بعلمها ليسمح لها بإقامة حفلة زار، ولكن الرجل لم يضع إلى توسلاتها. واستقبح أحمد الفكرة وإن لم يساوره شك في وجود العفاريت، وكان قريب عهد - وقتذاك - بالتجربة التي أوشكت أن تنتهي بجنونه،

المعاش، فقد انقطع مورد رزقه أو كاد، وتهددت الفاقة أسرته البائسة، وأجبر على اعتزال العمل والنشاط، وأقصي عن الوظيفة وجاهها، وهب كالمجنون للذود عن كيانه، فسعى واستشفع بكل شفيع، ولكن ذهبت مساعيه أدراج الرياح. قدم العريضة تلو العريضة، والالتماس وراء الالتماس دون جدوى أو رجاء، حتى علم أخيراً بالحقيقة المحزنة وهي أن باب الحكومة قد أغلق دونه إلى الأبد. وكان في الحقيقة طاهر اليد إلا أنه ثبت إهماله وجاء تطاوله على المحققين فزاد الطين بلة، ثم لم يسكت بعد ذلك عن شكوى الظلم والظالمين، واستنزال اللعنات عليهم أجمعين، وراح تحت تأثير الغضب والحق واليأس يتهمم بالحكومة والموظفين، ويقول إنه أحيل على المعاش لأنه أبى أن تمس كرامته، وأن الوظيفة أضيق من أن تتسع لإنسان يحترم نفسه، ويعد أن كان ينكر تطاوله على هيئة المحققين، جعل يفاخر به ويبالغ فيه، ولم يعد له حديث سواه، فصار ضحكة المتغامزين، وفقد عطف الصحاب والأقارب، وحافظ بادئ الأمر على صلته بالناس، فتردد على قهوة فيتا بغمرة يلاعب بعض الصحاب الزد، ولكن خلّقه ساء بعد فاجعته، فأصبح ضيق الصدر سريع الغضب، فاحتد يوماً على لاعب فانفجر الآخر هائجاً وصاح به: «يا طريد الحكومة!» فلم تطأ قدمه قهوة بعد ذلك، وانزوى بعيداً عن الناس والدنيا، واختار العبادة ملاذاً وسكناً، ولم يعد للماضي أثر في نفسه، وسارع بالشفاء إليه نهوض ابنه أحمد بأعباء الأسرة، وكان الابن قد ورث عن أبيه تبعته ومرضه!

على أنه لا ينبغي أن نهمل عاملاً هاماً في شفاء الأب، وهو الأم. حوت منذ البدء مزايا لا يستهان بها في حساب السعادة العائلية، فتمتعت بنصيب موفور من الحسن الذي رمقته القاهرة على أيام شبابها بعين الإكبار والإعجاب، وما زالت - وقد شارفت الخامسة والخمسين - على وسامة وقسامة، وولع بالصبغ والألوان، وذوق في الأزياء، وما زالت لحيمة جسيمة وإن اعتورها الاسترخاء، خبيرة بوصفات السمن

## خان الخليلي ٥٣٣

كانت الدنيا نائمة - تلك الليلة المفزعة - يستقبل ليها هزيعه الأخير وكما تعودت القاهرة في مثل تلك الساعة من الليل أطلقت صفارات الإنذار نعيها المتقطع الذمير، فاستيقظت الأسرة ونهض أحمد لإطفاء المصباح الساهر في الصالة الخارجية ثم عاد إلى رقادته ليغط في النوم مرة أخرى شأنه كل ليلة، إذ لم تعرف القاهرة قبل تلك الليلة إلا الغارات الاستكشافية ولم تسمع سوى طلقات المدافع المضادة للطائرات، ولكنه لم يسكن إلى النوم، وراح يرهف أذنيه رافعاً رأسه عن الوسادة في دهشة وانزعاج، فقد سمع بوضوح أزيز طائرات، ما في ذلك من شك، اتصل وقعه لا يغيب ولا يبين، بل جعل يزيد وضوحاً ويعلو شدة فضاخ به صدرًا وامتلاً منه رعباً، ولكن خاطراً طمأنه بعض الاطمئنان، فلم يفصل بين سكوت الصقارة وسباع الأزيز إلا دقيقة أو بعض دقيقة وهي مدة غير كافية بطبيعة الحال لوصول الطائرات المعادية حيث يسبق الإنذار وصول الطائرات بربع ساعة على الأقل، فبات مرجحاً أن تكون الطائرات إنجليزية حلفت للمطاردة. وانتظر أن ينقطع الأزيز ولكنه اتصل اتصالاً مرهقاً للأعصاب وكأن الطائرات اختارت بيتهم مركزاً تدور من حوله، ونهض ثانية وغادر الحجرة يتلمس طريقه في الظلام إلى حجرة والديه وقال عند الباب بصوت مسموع: «هل أنتما مستيقظان؟» فجاء صوت أمه قائلاً: «لم نم بعد، أما تسمع شيئاً؟» فأجاب أحمد: «بلى أزيز طائرات.. وقد سمعته عقب الإنذار مباشرة!» فقال والده: «الأغلب أن تكون إنجليزية» فقال أحمد: «لعلها»، وطمأنه اتفاق الظن بينه وبين أبيه فعاد إلى حجرته، وقبل أن يمسن جنبه الفراش أضاءت الحجرة المظلمة بنور عجيب أت من الفضاء أعقبه صفير مبجوح انتهى بانفجار شديد دوى في سماء القاهرة دويًا شديدًا مزعجًا، فانتفض رعبًا وتولاه فزع جنوني وفزع نحو الباب لا يلوي على شيء، وضاعف من رعبه أن الحجرة لم تزل مضاعة بذلك النور الوهاج الذي اخترق نوافذها من الخارج داعيًا القذائف إلى أهدافها،

فيست المرأة من استمالتها، وقنعت بشهود حفلات الزار إذا اتفقت في بيوت الصديقات، حتى قال أحد يومًا متعجبًا: «حقاً إن أسرتنا ضحية الشيطان.. ألم يُعمر والذي بتحد للكلب حقير من الموظفين ففقد وظيفته؟!.. وألم يحضني على تعلم السحر فأشفيت على الجنون؟! وما هو ذا يركب أمي ويهني لها خرابنا!».

ولكن الله سلم، فقد غلب مرح الست دؤلت - أم أحمد - على حزنها، كما غلبت الحناء على وميض الشيب بمفرقتها..

★ ★ ★

لم يستطع أحمد أن يركز انتباهه في القراءة لما أحدثته تغير المكان في نفسه من اليقظة والقلق، فمضى في مطالعة فاترة متقطعة ومضى من الليل ساعة فسكنت ضوضاء النهار، ولكن لتحل محلها ضوضاء أشد وأفظع سرعان ما جعلت الحي جميعه كمسرح من مسارح روض الفرج الشعبية. أما مصدرها فالقهاوي العديدة المنتشرة في جوانب الحي، فالراديو يذيع أناشيده وأحاديثه بقوة وعنفة فكأنه يذيع في كل شقة، والنذل لا يكفون عن النداء والطلب في أصوات ممطوطة ملحنة «واحد سادة.. شاي أخضر..» . تعميرة على الجوزة.. وشيشة جي..» . ودق قطع النرد والدمينو وأصوات اللاعبين! فخال نفسه في طريق مزدحم بالمارة لا في شقة، وعجب كيف يحتمل أهل الحي ضوضاءه أو كيف يغمض لهم جفن؟!.

ولم يزل ملازمًا الشلثة حتى بلغت الساعة التاسعة فقام لينام، وأطفأ المصباح وركد على الفراش بعد أن أحكم غلق النافذتين، ولكن الضوضاء لم تزل تملأ حجرته وتدوي في أذنه، فذكر سكون السكاكيني في مثل هذه الساعة من اليوم وتأسف من الأعياق، ثم لعن الغارات التي أجبرتهم على هجر مسكنهم القديم الهادئ، فاستثار ذكرى تلك الليلة الجهنمية التي زلزلت القاهرة زلزالاً خفيفاً، وملأت الذكرى شعوره وضاعف من تأثيرها جثوم الليل حتى لم يعد يحس من ضوضاء الطريق ركزًا ولا همسًا.

بل انفجرت قذيفة خال القوم الفزعون أنها انفجرت في صدورهم ورءوسهم، فرفعوا أيديهم كأنما ليتقوا بها السقف إذا انهار عليهم، واشتد الصراخ والدعاء وجرى اسم الله على كل لسان، وقوي شعور مفرج بأن القذيفة الثانية ستسقط على رؤوسهم!، وهوت القذيفة التالية!.. رباه هل يمكن أن ينسى ذلك الصغير المبحوح - صغير الموت - وهو يهبط عليهم لا مهرب منه ولا مفر؟.. وكيف تقلقت العمارة وطققت النوافذ قبل أن تبلغ القذيفة الأرض!.. ثم كيف دوى الانفجار فصك الأسماع وصم الأذان ورج الأبخاخ ومزق الأعصاب وخنق الأنفاس!.. لقد تقوست الظهر في انتظار المقدور.. وقبض اليأس القلوب.. وتعجلت النفوس النهاية مختارة الموت على انتظاره.. أجل لم يعد بينهم وبين الموت إلا قذيفة لعلها تغادر في تلك اللحظة مكمنا من الطيارة.. ولكن القذيفة - وهنا ابتسم ابتسامة حزينة - لم تسقط!.. أو سقطت بعيداً، فقد ابتعد الضرب سريعاً كما جاء سريعاً، لم يجئهم الموت كما أوهمهم.. أراهم وجهه ولكن لم يُذقهم طعمه.. أو أجل ذلك لليلة أخرى، فباعد الضرب، ثم خفت عن ذي قبل، وبات متقطعاً ثم انقطع فلم يعد يُسمع إلا طلقات المدافع، ثم ساد السكوت!.. واسترد العساء أنفاسهم، وتبادلوا نظرات الشك والرجاء، وانفكت عقد ألسنتهم فهذوا كالمجانين، ومضت ربع ساعة رهيبة ثم انطلقت صفارات الأمان!.. يا رحمة الله!.. هل ذهب الموت حقاً؟.. هل يدركهم نور الصباح؟.. ودبت الحركة وأضيت الأنوار وانطلق أناس إلى الخارج وجاء آخرون من الجهات القريبة، وانتقلت روايات، قالوا العباسية خراب.. أما مصر الجديدة فقل عليها السلام، وقصر النيل أمست أثرًا بعد عين، ومخازن الترام دمّرت وجُثت العمال أكوام!..

وصعدوا إلى شقتهم ينغم صدورهم سرور عصبي، سرور من نجا من الموت وعقابيل الخوف لم تزل ناشبة في صدره، ومضوا بقيّة الليل أيقاظًا يتكلمون. وفي نهار اليوم الثاني بدا الحي وكأنه أزمع الهجرة، وتتابعت

وتتابعت الانفجارات الشديدة واختلط تفجرها بذلك الصغير المبحوح الممسوت، فارتجت الأرض ارتجاجاً وزلزل البيت زلزلاً، ولم ينقطع الضرب لحظة واحدة وبدا كأن السماء ستظل تقذف الأرض بهاتيك الرجوم الشيطانية في ذلك العناد الشيطاني الجبار. ووجد والديه في الصالة، الأب معتمداً ذراع الأم يوشك أن يسقط صريع الفزع والإرهاق، فهرع إليهما وتأبط ذراع والده وصاح بهما «هلمّا إلى نخب العمارة» ومضوا مسرعين تتقدمهم الخادم، وتساءل بصوت متهدج مضطرب: «ما هذا النور؟ هل شب حريق في الخارج؟» فقال أحمد وهو يعالج أنفاسه المضطربة ويتبين مواقع قدميه من السلم: «هي مصابيح المغنسيوم التي قرأنا عنها في الجرائد» فقال الرجل: «ربنا يطفئ بنا». وكان السلم مكتظاً بالهالطين الداعين الله من قلوبهم الواجفة، وكلما حدث انفجار ارتجت الجدران وتعالى صراخ يصم الأذان وصوت النسوة وأغول الأطفال. وانطفأ نور المغنسيوم فجأة والضرب في عفوانه والموت في حومانه فساد الظلام، وحدث هرج ومرج فزلت أقدام وعثر أناس وزاد الفزع والارتباك، ثم بلغوا نخب العمارة - البدروم - بعد جهد جهيد - وكان مضاء بمصباح خافت، مغطاة نوافذه بستائر كثيفة سوداء، واعتمد سقفه على عمود أقبية قامت على عمود حديدية رأسيّة، ووضعت حول جدرانه أكياس من الرمل، وعلى ضوء المصباح الخافت لاح وجوه تعلوها صفرة الموت، جاحظة عيونها مرتجفة أوصالها، هاذية ألسنتها، ووقفوا ثلاثتهم متقاربين يذوبون لطفة أن يكف الضرب لحظة واحدة فيأخذوا أنفاسهم ويبلوا ريقهم، ولكن الضرب اشتد وبدا من اشتدادات الانفجارات أنه أخذ يقترب منهم!.. وهنا حرك ساقيه في الفراش فزعاً من هول الذكري وهو يغمغم: «تبا لها من ليلة!» وتهد من أعماق صدره وفتح جفنيه، فعادت ضوء الحي إلى وعيه، وذكر أنه رقد لينام لا ليستذكر آلام أفضع ليلة في حياته، ولكن هيهات... لقد هجمت عليه الذكري بقوة لا تقاوم، أجل، أخذ الضرب يقترب،

## خان الخليلي ٥٣٥

حُب الحياة، ولكم يقتلنا الخوف، ومع ذلك فالموت لا يرحم، وبالتفكير فيه يبدو أيّ جليل تافهاً. كم حَلّ نفسه ما لا طاقة لها به من الحزن والغضب. . فقيم كان ذلك؟. وسمع عند ذلك الراديو يذيع السلام الملكيّ، فأدرك أنّ ساعتين مضتا في أرق وقلق فجزع وراح ينشد النوم بمطاردة الأفكار، ولُكّته لم يظفر بأفكاره وبالعكس ظفرت هي به فغمره سيل الذكريات الزاخر، فذكر كيف اقترح على والديه أن يسافرا إلى أخيه الأصغر في أسيوط - مقرّ عمله - فيبتعدا عن الخطر حقاً، وكيف قالت له أمّه: «بل نبقى إلى جوارك فأما أن نعيش معاً وإمّا. .» ثمّ استضحكت مستعينة بالله! . ماذا كان يفعل لو وافقها على السفر؟. . كان أسهل الحلول أن ينزل في بنسيون، والحقّ أنّه رَحِبَ بالفكرة في أعماقه لأنّه يروم التغيير وهو لا يدري، وكيف لا يروم التغيير أعزب قضى أربعين عاماً في بيت واحد يكابد حياة رتيبة لا فرق بين يوم منها وبين عام ترهقها عزلة وحشية؟! . . فمهما أَلَفَ هذه الحياة وتعودها لا بدّ أن تنزع به النفس - ولو في خفاء - إلى التغيير. . والتغيير الكامل! . . إلّا أنّه لم يستسلم هذه المرّة طويلاً إلى أفكاره فقد طرقت أنفه رائحة غريبة أوقفت تيار أحلامه! . . ذابت في خيشومه فجأة كأنما حملتها إليه هبة نسيم كان من قبل راقداً، ونَبِهَه إليها أنّه كان يشمّها لأول مرّة في حياته، وتخيّر كيف يصفها، فما كانت رديئة ولا كانت زكيّة، ولكن تطيب بها النفس، وفيها هدوء وعمق، وإلّا فما نفاذها إلى قرارة الإحساس؟! . . وما كانت تنقطع إلّا لتعود. . فهل بخور يحترق في مثل هذه الساعة من الليل؟! أم يكون لهذا الحيّ الغريب أنفاس تتردّد في أعماق السكون؟! . .

وغاب به التفكير في الرائحة الغريبة عن أفكاره فتهدأ للنوم وهو لا يدري. . وما لبث أن استرق الكرى خطاه إلى جفنيه فأخذ بمعاقدهما. .

- ٤ -

وعند الساعة السابعة من صباح اليوم الثاني كان

عربات النقل تحمل المتاع الضروريّ إلى الأحياء التي حسب الناس أنّها آمنة أو إلى القرى المتاخمة للعاصمة حتّى خلّت عبارات من ساكنيها، وضاعفت مناظر الهجرة من خوف الأسرة خصوصاً الأب الذي تضعف قلبه الضعيف من عنف الغارة، فنشأت في رأسه فكرة الهجرة مع المهاجرين، وإذا كان من المتأثرين بدعاية المخور الإسلاميّة فقد اعتقد اعتقاداً راسخاً في أنّ حياً دينياً كحيّ الحسين لا يمكن أن يقصده المغيرون بسوء، فجذّ في البحث عن مسكن فيه، فاهتدى إلى هذه الشقّة، وكان النقل. . وإنّ يتسّ لا ينسى اليوم الذي أعقب ليلة الغارة، فلم يكن للقاهرة حديث إلّا حديث الليلة الماضية، واستفاض الناس في الكلام بأعصاب متوتّرة ونفوس قلقة، وضحكوا جميعاً ضحكاً فيه سرور النجاة وتوتّر الخوف، وشعر أحمد بدنوّ الموت دنوّاً جعله يحسّ تردّد أنفاسه على وجهه، بل هنالك ما هو أفظع من الموت نفسه، كأنّ يُلقَى به على قارعة الطريق مقطّع الأوصال أو مشطور الرأس، وربّما ألحِقَ بعد ذلك بذوي العاهات المستديمة، أو كأنّ ينجو من الموت ويدكّ البيت بمن فيه فيجد نفسه وأسرته بلا مأوى وبلا أثاث وبلا لباس! . وجعل يدعو ربّه ويستشفع بنبيّه، فالحياة محبوبة ولو كانت خائبة بائسة، وأعجب من هذا أنّه مال إلى الترفيه عن نفسه وتبيئة السرور لها ما أمكن، فغلب حرصه الطبيعيّ وابتاع لدى عودته إلى البيت صندوق بسكوت بالشيكولاتة وهو طالما اشتتهه نفسه وحرصها إيّاه حرصاً على القليل من النقود التي تعود أنّ يودعها صندوق التوفير كلّ شهر، ولكن عندما أتى المساء غشي القلوب همّ وكآبة، وبات الكلّ في ذعر عظيم، ولم يغمض لإنسان جفن، وتيقّظت ذكريات الليلة المفترسة، واختلّت الحواسّ، فصار كلّ نفيّر صفارة إنذار، وكلّ صفقة باب انفجار قنبلة، وكلّ خشخشة أزيز طائرة. . ؟ وما هم أولاء قد انتقلوا فهل تطمئنّ قلوبهم حقاً؟! العبارات حديثة البناء متينة، ولها نخباً يضرب بقوّة المثل وهذا جوار الحسين. . ولكن ألم تدكّ حصون وتخرب جوامع؟! آه لكم يعدّبنا

وسرعان ما خمدت نشوة التأثير بالعينين، وفتّر حماس الحنين إلى الأبوة، واجتاح صدره انفعال عنيف قاتم شأنه إذا اقترب من أنثى أو اقتربت أنثى منه، ذلك أنه يحب النساء حبّ كهل محروم، ويخافهنّ خوف غريب خجول، وعمقتهنّ ممت عاجز بائس. فأية أنثى جميلة ترك في وجدانه انفعالاً شديداً، يضرب في أعماقه الحبّ والخوف والمقت. وقد كان لنشأته الأولى أكبر الأثر في تكييف طبيعته الشاذة، فخضعت طفولته لصرامة أبيه وتدليل أمه، صرامة ترى القهر عنوان الحنان، وتدليل محبة ومغرم لو ترك الأمر له ما علمه الميثي خوفاً عليه من العنار. فنشأ على الخوف والدلال، يخاف أباه والناس والدنيا، ويأوي من خوفه إلى ظلّ أمه الحنون، فتنهض بما كان ينبغي أن ينهض به وحده. فبلغ الأربعين ولم يزل طفلاً، يخاف الدنيا ويأس لأقلّ إخفاق، وينكص لدى أول صدمة، وما له من سلاح سوى سلاحه القديم البكاء أو تعذيب النفس، ولكن لم يعد يجدي هذا السلاح، لأنّ الدنيا ليست أمه الحنون، فلن ترقّ له إذا امتنع عن الطعام ولن ترحمه إذا بكى، بل أعرضت عنه بغير مبالاة، وتركته يعم في العزلة ويمتدّ العذاب، فهل يصدّق الوالدان أنّ ذلك الكهل الأصلع الخائب قد ذهب ضحيتها؟! .

ومع ذلك كلّ سجّل قلبه تاريخاً في حياة القلوب. سطر أولى كلماته وهو في السنة الأولى من المدرسة الثانوية، وما يعنينا من سرده إلاّ دلالاته على طبعه. كان غلاماً ناضراً متأنقاً، ولعلّه ورث الأناقة من والدته، فجذب إليه يهودية صغيرة حسنة من بنات الجيران!. فأحد عاكف - كما ترى - كان يوماً ما جذاباً!. كانت تلعب في طريقه وترقب مرجعه من المدرسة في نافذتها، ولا تضنّ على عينيه بملاحظتها ودلال أنوثتها فأصّلت وجدانه نيراناً ولكنّها لم تستطع أن تبعث في قلبه الجسارة أو الشجاعة. ألهمت قلبه وجداً ولكنّ قصارى ما كانت تدفعه إليه شجاعته أن يرمقها بلحاظ مغرم وجلّ سرعان ما يرتدّ أمام نظرتها وهو كليل، ولكنّه على رغم خجله طارحها الغرام

جالساً إلى السفرة يتناول فطوره الذي يتكوّن عادة من فنجان قهوة وسيجارة ولقحات مع قطعة من الجبن أو قليل من الزيتون. وغادر الشقة فصار في الردهة الخارجيّة التي تفصل بين الشقق، وقبل أن يبلغ السلم سمع وقع قدمين خفيفتين وراءه فنظر خلفه فرأى فتاة في أولى سني الشباب مرتدية مريلة مدرسيّة زرقاء ومتأبّطة حقيبة الكتب، وقد التقت عيناهما لحظة خاطفة ثمّ أعاد رأسه وقد تولّاه ارتباك، والارتباك طبيعته إذا التقت عيناه بعيني أنثى!. ولم يدّر هل الأليق أن يسبقها إلى الطريق أو أن يتنحّى لها جانباً فزاد ارتبائه وتورّد وجهه الشاحب وبدا فيلسوف إدارة المحفوظات بوزارة الأشغال كالطفل الغرير يتعثر حياءً وخجلاً!. . . وتوقفت الفتاة كالدهشة وانتقلت إليها عدوى ارتبائه، فلم يجد بداً من أن يتنحّى جانباً وهو يهمس بصوت لا يكاد يسمع: «تفضلي!». فمضت الفتاة إلى حال سبيلها وتبعها متثاقلاً متسائلاً أأصاب يا تُرى أم أخطأ؟. . . وبم حدّثت نفسها عن تردده وارتبائه؟! . . . وعند باب العمارة أيقظه صوت جهوري من أفكاره يصيح «ملعون أبو الدنيا» فالتفت إلى يسراه فرأى نونو - كما ظنّ - يفتح دكانه، فسرى عنه وابتسمت أساريره وغمغم «يا فتاح يا عليم!» ثمّ سار في طريقه والفتاة على بعد منه غير بعيد حتى بلغت السكّة الجديدة فانعطفت إلى يسارها ومضت نحو الدراسة وواصل هو مسيره إلى محطة الترام. ولم يكن رأى من وجهها سوى عينيها. استقرت عليهما عيناه لحظة حين التفاتته إليها. عينان نجلاوان ذواتا مُقلتين صافيتين وحدقتين عسليّتين، وبدتا لغزارة أهدابها مكحلتين، تقطران خفةً وجاذبيةً، فحرّكتنا مشاعره. وكانت الفتاة تتخطى عتبة الشباب اليافع فلا يمكن أن يجاوز عمرها السادسة عشرة، بينما هو في الأربعين، فأكثر من عشرين عاماً تفصل بينها! ولو أنّه تزوّج في الرابعة والعشرين - وهي سنّ زواج معقول - لكان من المحتمل أن يكون أباً لفتاة في مثل عمرها ونضارتها!. وأخذ مجلسه من الترام وهو ما زال يتصوّر تلك الأبوة التي لم تتحقّق.

## خان الخليلي ٥٣٧

بأصبعه في الهواء تاء مربوطة! فضحكت بسرور وقالت: «الآن اعترفت بما تريد ولن أضنّ به عليك!» ثم أدنت منه وجهها وقد أياسها خجله الشديد من الانتظار فأخذ قبله مضت عقود من العمر كاملة وهو يحترق توقاً إلى مثلها. وهكذا كان دائئاً: إحساساً عنيقاً وخجلاً موثناً. وكان يحلوا لتلك اليهودية الحسنة أن تداعبه بالسخرية من قسرات وجهه، فأمن بسخريتها، واستقبح وجهه أكثر ممّا ينبغي، ووجد سبباً جديداً يقوّي به خجله الطبيعي فتضاعف، ولو أمكن رجلاً أن يسدل على وجهه نقاباً لكان ذلك الرجل، وكان ذلك من بواعث المبالغة في تأنقه حيناً التي انقلبت فصارت إهمالاً زريئاً حين أدركه اليأس..

واختفت اليهودية الحسنة من حياته فجأة، فما هو إلا أن خطبها شاب من بني جنسها حتى هجرت لعبتها لتستقبل حياة الجد، غير عابئة بالجرح الدامي الذي أحدثته في قلب غضّ. بيد أنّ القلوب الغضة سريعاً ما تندمل جروحها. وفي الفترة النهائية من المرحلة الثانوية دانت أسباب الجوار أيضاً بينه وبين صبيّة حسنة هي صغرى بنات أرملة من صديقات والدته، فألقت بينها المودة وتشجيع الأيمن اللتين ما برحتا تدعوانها بالعروسين. ولم يكن ذلك الحب الثاني كالأول الذي كان أول يقظة لقلب مفطور على الإحساس، ولكن حوت الصبيّة مزايا نادرة من راحة العقل ومثانة الخلق ممّا جعل ضياعها من بين يديه خسارة كبيرة أسف عليها أكثر الأسف. وكثيراً ما كان يحدث نفسه قائلاً: إنه لو تزوّج من فتاته كما أرادت أمه وأمها لتمتّع بحياة زوجية سعيدة قليلة الأشباه. ولكن عقب حصوله على البكالوريا حلّت الكارثة بأسرته فأحيل أبوه إلى المعاش ودُفع به هو إلى مواجهة الشدة فانتزع من نعيم الآمال ورمي به إلى جحيم اليأس، وأصبح حيناً على الفتاة إذا أرادت أن تبقى عليه أن تنتظر عشرة أعوام ريثما ينتهي من تربية أخيه. والظاهر أنّ أمها لم تشجّع التضحية المطلوبة لما فيها من انتظار طويل، وغلبت حكمة الفتاة - نفسها - على عاطفتها فانقطعت الأسباب وتبددت الأحلام، وكفر أحمد

صراحة بفضل جسارتها هي. كانت جسوراً لعوباً لا يردعها عن هواها رادع، فاستطاعت أن تعالج حياءه بجسارتها، وتبعته ذات أصيل حتى أدركته ثم نادته فالتفت إليها بوجه كالجان، فابتسمت إليه ابتسامة لطيفة فأجابها بابتسامة مقتضية في حياء وخفر فقالت له «هلمّ نتمشّي في شارع عباس!» فأطاع دون أن ينبس بكلمة وسارا جنباً إلى جنب والشمس تتقدّمهما نحو المغرب، وتعمّدت أن تدنو منه وأن تلامسه في رفق فجعل يتعد كائنات يخاف أن تحسب أنه المتعمد وهو يدوب شوقاً إلى اللمس الذي بجانبه، ثم تأبّطت يمناه وهي تضحك ضحكة لم تحلّ من الارتباك، فطرفت عيناه ونظر فيما حوله يخوف فسألته في دعابة: «أتخاف؟!» فقال بصوت رقيق: «أخاف أن يرانا أحد من بيتك!» فهزّت كتفها استهانة وقالت: «لا تُبالِ هذا» فلاح في عينيه نظرة عجب فاستدركت متسائلة «أما تزال خائفاً؟!» فقال بعد تردّد «أخاف أن يرانا أحد من بيتنا» فأغرقت في الضحك وعرجت به إلى بستان وهي تخمغم: «نحن الآن في أمن من الرقباء!» وتمشياً في سكون والشمس تذوب في الشفق، وظلال المغرب تمتد في الأفق فتجعل منه سرادقاً قائماً لاستقبال الليل الزاحف، ثم قالت الفتاة الجريئة لتحتال على حيائه: «حلمت حلمًا يا له من حلم؟!» فقال وقد أخذ يأنس بها: «خيرًا إن شاء الله» فقالت «حلمت أنك قابلتني وقلت لي أريد... ثم ذكرت كلمة لن أعطيها لك حتى تقولها بنفسك، فحزرت ما هي؟!» فاشتد عليه الارتباك وقال بلسان ملعثم: «لا أدري» فقالت بصوت عذب «بل تدري وتداري... قل!» فحلف لها بسذاجة أنه لا يدري، فقالت: «لا فائدة من الكذب علي... أولي بك أن تتذكر... كلمة أول حروفها ق!» فصمت وقد خفق قلبه واضطربت أنفاسه فقالت: «والحرف الثاني ب!» فلزم صمته وغضّ بصره فاستطردت تقول: والثالث ل... قل ما الحرف الأخير!» فابتسم مرتبكا ولكنّه لم يدر كيف يتكلم، فقرصته في ذراعه وهمست في أذنه «إذا لم تخرج عن صمتك فلن أكلمك أبداً!» وفعل التهديد فعلة فرسم



فإذا كان لم يستطع أن يجذب إليه بنياً طوال هذا الدهر فما ذلك إلا لأنه عاطل من جاذبية الجنس.. وهكذا عانى وهم نقيصة الجنس كما عانى نقيصة الدمامة من قبل..

ولمّا أتم أخوه رشدي دراسته وحصل على بكالوريوس كلية التجارة وتوظف ببنك مصر منذ عامين - وكان أخوه الآخر قد توفي منذ أمد بعيد - شعر بحق بأن مهمته قد انتهت بل وكلفت بالنجاح، وساوره أمل - وهل ينعدم من الحياة الأمل؟ - أن يراود السعادة، فقد يظفر بالسعادة وإن يشق بأساً نهائياً من الجاه والسلطان، وسعى إلى أن يخطف كريمة أحد التجار المقيمين في غمرة، ولكن والدها رده رداً جميلاً. وعلم الكهل أنّ أمها قالت عنه «إنّ مرتبة صغير وعمره كبير!». وترنح من هول الضربة التي هوت على كبريائه، وثار ثورة عنيفة، وكبر عليه - وهو العبقري الذي حشد الكون ما به من سوء حظ لمكافحة عبقرته - كبر عليه أن ترفضه أنثى من بنات حواء، بل أن ترفضه خاصة لأنه حقير!.. أيقال عنه حقير؟! فمن العظيم إذن؟!.. وكور قبضته متوعداً الدنيا بالويل والثبور والشرر يتطاير من عينيه. بالأمس هجرته حبيته لأنه صغير لا ترجى منه فائدة، واليوم ترفضه فتاة لأنه كبير لا ترجى منه فائدة، فمتى كان ذا فائدة؟!.. أذهب العمر هباء؟!.. أضاع المجد وعزّت السعادة وانتهى كل شيء؟!.. وصار دأبه بعد ذلك ذم النساء ورميهن بكل نقيصة، فهن حيوانات مكرة ومكرهن سيئ قوامه الطمع والكذب والتفاهة، إنهن أجساد بلا روح، إنهن مصدر آلام الإنسان وويلات البشرية، وما أخذهن بظاهر العلم والفن إلا خدعة يختفين وراءها ريشاً يوقعن في شباكهن الضحايا، ولولا شهوة خبيثة ألقيت في غرائزنا ما ظفرن برجاء ولا مودة.. وهن.. وهن.. وكثيراً ما يقول لزملائه «شرعت لنفسي - والحمد لله - ألا أتزوج على كثرة ما واتني الفرص، لأنّي أبى أن ينتهيني حيوان قدر لا روح له ولا عقل!» لقد جعل منه عجزه عن النجاح عدواً للعالم، فجعل منه عجزه عن المرأة عدواً

بالحب وبالمرأة كما كفر بالدنيا جميعاً. فالحب الذي ثمل به قلبه بين يدي اليهودية وهم ضالّ، أو مرض ملازم للمراهقة كتوعك التسنين للطفل. وقد قضت مرارة الحقيقة بالعقاب الصارم على من يركن لعهد امرأة.. سواء أكانت كخطيته عقلاً وفضلاً أو كاليهودية التي علقت ما شاء لها الهوى ثم هجرته كما يهجر الإنسان حجرته، في فندق بميدان المحطة..

وانقضت بعد ذلك عشرون عاماً من حياته وقلبه من الحياة خواء يكابد مرارة عيشة فقيرة فقيرة مترعة بالهموم مثقلة بالتبعات ضيقة بالأمل. ولو سكنت نائوته لأمكنه أن يجد في حياته من لذات التضحية والقيام بالواجب ما يعزّيه عن خيبة آماله جميعاً، ولكن غضبه لم يسكت وحدته لم تلبّ فلم يزل ساخطاً متبرماً حاقداً، لأنّ إنساناً ألف أن يكون المعبود الذي يُقدّم على مذبحه القربان لا يحتمل أن يصير كبش التضحية. وشغل بأحزانه وتبعاته وعزلته عن الحياة فكأنما رمى بقلبه - الذي لبث طوال أربعة أعوام كفيثارة دائمة التريم - إلى بئر آسنة فاختنق وعاش بلا أمل بلا حبيب، وبلا قلب، لا يأنس بالحياة ولا يدرك معنى أفراحها، فدفعه القنوط من النجاح إلى العزلة، ودفعه القنوط من الحب إلى البغاء. وكأنه لم يحفّه ما اعتنق من سوء ظنّ بالمرأة فالقى به سوء حظّه بين يدي الأوثنة النعسة المشوّهة ليزداد إيماناً بعقيدته المريضة. فاقنع نفسه - بسوء نيّة - بأنّ المرأة الحقيقية هي البغي!.. فهي المرأة الحقيقية وقد جلت عن وجهها قناع الرياء، فلم تعد تشعر بضرورة ادعاء الحب والوفاء والطهر. على أنّ البغي قد نالت من نفسه أكثر من ذلك فقد أودت بالبقية الباقية من ثقته بجدارته كرجل، إذ أنه اعتقد أنّ البغي إذا أحبّت رجلاً فإنما تحبه لما يجذبها فيه من فحولته وجاذبيته الطبيعية بصرف النظر عن اعتبار القيم الاجتماعية وظروف التربي والجوار، فمضى أن تكون اليهودية أحبّته لأنّها لم تنظر بسواه، أو أنّ خطيته أحبّته لدواعي الجوار وإحساء الأمهات. أمّا البغي فلا تختار حبيباً من بين عشرات الرجال الذين يترددون عليها لداعٍ من هذه الدواعي،

## خان الخليلي ٥٣٩

الآخر تردده في وجهه، فقال بصوته الجهوري الحشن:  
- حلفت بالحسين - إن لم تكن قاصداً غاية  
تستوجب العجلة - إلا ما شرفتنا . . يا ولد يا جابر  
هات شيئاً . . وهات نارجيله! . .

وقبل أحمد - بسرور يعادل تردده - الدعوة شاكراً،  
ومضى إلى الكرسي بينا غاب المعلم لحظة ثم عاد  
بكرسي آخر وجلسا متقابلين . كانت دكان الخطاط مثل  
بقية الدكاكين حجياً وأناق، وقد غصت باللافات  
الجميلة، وتوسطتها طاولة رصت عليها قنينات الألوان  
والاقلام والمساطر، وأسندت إلى إحدى قوائمها لافتة  
كبيرة كتب في أعلاها بالألوان الزاهية «محل بقالة خان  
جعفر» وتحت ذلك العنوان لاح اسم صاحب البقالة  
مرسومًا بالرصاص لم يلون بعد . وكان الرجل يرتدي  
جلباباً ومعطفاً أبيض وطاقيّة . في الخمسين أو نحو  
ذلك، زرع القامة متين البنيان، كبير الوجه والرأس  
واضح القسمات، يمتاز وجهه بصدغين وفم واسع،  
وشفتين ممثلتين، ولون قمحي مشرب بحمرة . وقد  
جلس وهو يقول:

- محسوبك نونو الخطاط .

فرجع أحمد يده إلى رأسه وقال:

- تشرفنا يا معلم، محسوبك أحمد عاكف بوزارة  
الأشغال!

وكان لا يحب ذكر وظيفته إرضاء لكبريائه، فكانت  
لحظات التعارف لحظات تعذيب، بيد أنه لم يتألم هذه  
المرّة كعادته لإيقانه بما يكتنه أمثال المعلم نونو للموظفين  
من احترام . وقد رفع الرجل يديه إلى رأسه احتراماً ثم  
ابتسم ابتسامة لطيفة، وقال بما طبع عليه من صراحة:  
- أنتم شرفتم حيناً يا سادة ولكن هل جئتم حقاً إلى  
هنا خوفاً من الغارات؟

وعجب أحمد عاكف كيف عرف سبب هجرتهم ولما  
يخص عليهم في الحية الجديد سوى ليلة واحدة!  
فحدج الرجل بنظرة إنكار وتساءل:

- من قال لك ذلك؟

فقال المعلم ببساطة:

- الحوذني الذي نقل أئاثكم، الناس جميعاً تهاجر

للمرأة! . . ولكن أعماقه اضطربت بالرغبة والعاطفة  
المنهومة المحرومة.

إن انفعاله لامرأة عابرة - كما حدث اليوم - حقيق  
بإهاجة أعماقه وسرعان ما يذكر تاريخه القديم الحديث  
مع المرأة فيثور، ويساوره ذاك الشعور العميق الطافح  
بالحب والخوف والمقت . .!

- ٥ -

وعاد ظهرًا إلى الحية الجديد، وغمغم مبتسماً وهو  
يدنو منه: «ثاني عطفة على اليمين ثم ثالث باب على  
اليسار!»، وذكر وهو يرتقي السلم الحلزوني فتاة  
الصباح ذات الوجه الأسمر والعينين العسلتين  
النجلاوين، تُرى هل يراها مرّة أخرى؟ . . وفي آية  
شقة وفي أيّ طابق من هذه العمارة تقيم؟! ولبت في  
البيت - وقد أكملت أمه فرشته وتنظيمه - حتى العصر،  
ثم بدا له أن يجول في طرقات الحية الجديد مستطلعاً  
ومستكشفاً، فارتدى ملبسه وانطلق إلى الخارج .  
وترث قليلاً أمام باب العمارة، وجعل ينظر فيها حوله  
كأنما ليختار ناحية يبدأ منها استكشافه . ولكنّه قبل أن  
يجمع على رأي شعر بشخص يدنو منه فالتفت إليه  
فراى الرجل الذي حسب صباح اليوم أنه المعلم نونو،  
وقد أقبل بخطوات ثقيلة مبتسماً ابتسامة ترحاب  
وسرور، ومدّ له راحة غليظة كخفّ الجمل وقال:

- أهلاً وسهلاً بالجار الجديد! . . ويا ألف نهار  
أبيض!

وسلم الجار الجديد . . ولم يكن يتوقع تلك المفاجأة  
من صاحب «ملعون أبو الدنيا!»، وقال وقد ابتسمت  
أساريه:

- أهلاً وسهلاً بك يا معلم! . .

فأشار المعلم إلى كرسي موضوع أمام دكانه وقال  
والابتسامة لا تفارق شفثيه الغليظتين:

- شرفنا بالجلوس دقيقة . . دا يوم سعيد!

وتردد أحمد - لا لأنّ فبول دعوة المعلم يناقض  
الغرض الذي خرج من أجله - ولكن لأنّ طبعه النافر  
لا يستسيغ مثل هذه الدعوة الكريمة بغير تردد، وقرأ

هذه الأيام!

فقال أحمد عاكف يدافع عن «شجاعة» أسرته:  
- الواقع أنّ أحياءنا المعرّضة للخطر كادت تخلو،  
وقد حملنا مرض والدي بالقلب وخوفنا عليه على هجر  
بيتنا القديم آسفين!

وعند ذاك جاء غلام المعلّم بالشاي والنارجيلة،  
فوضع النارجيلة أمام المعلّم، ثمّ أتى بكرسيّ من  
الدكان وضعه أمام الضيف ووضع الإبريق عليه.  
وعزم على ضيفه أن يحسو الشاي وأقبل على النارجيلة  
بلذّة وشهوة، وأخذ نفساً طويلاً روى به غلّة خيشومه  
ثمّ استدرك قائلاً:

- حسن أن يلتمس الإنسان سبيل الطمأنينة وإن  
كان العمر واحداً والربّ واحداً والمكتوب حتماً تشوفه  
العين. إني يا عاكف أفندي من المتوكّلين على الله، وما  
عرفت حتّى الآن طريق المخبأ. أيّ مخبأ يا سعادة  
البيك؟! . هل يستطيع نونو أن يراوغ القدر، أو  
يؤجل قضاء الله؟! . ألم تسمع صالح عبد الحيّ وهو  
ينغيّ «نصيبك في الحياة لازم بصيبك»؟! . تبيد أنّي  
أدعو الله أن يكفيننا شرّ الأيام، وأعود فأقول إنّ حظنا  
حلو، فلولا حكمة بعض الناس ما فزنا بهذا الحوار  
السعيد!

ولاحظ أحمد أنّ كلام الرجل حوى أوله سخرية  
به - وإن كانت سخرية غير مقصودة - بينما حوى آخره  
ما يستوجب الشكر! . . فابتسم قائلاً:

- شكراً يا معلّم، فلطالما قال لنا الحكماء إنّ حيّ  
الحسين آمن! . .

فأخذ الرجل نفساً عميقاً ثمّ زفره سحابة من  
الدخان كثيفة وقال:

- صدّقوا ثمّ صدّقوا، إنّني حيّ مبارك محبوب، مكّرم  
من أجل صاحبه، وسوف ترى فيما يقبل من الأيام  
أنّك لن تستطيع السلو عنه أو الزهد فيه، وسوف  
يدعوك شيء من الأعماق إليه . . تفضّل خذ نفساً من  
النارجيلة . .

فشكره أحمد معتذراً، وكان يحسّي الشاي بلذّة  
مصغياً لصاحبه، وكأنّما أراد أن يجاريه في التدخين

ولكن على طريقتة فاستخرج سيجارة من علبته  
وأشعلها مبتسماً. وقد أحسّ نحو محدّته بارتياح لما  
وجده فيه من غرابة لم يعهدها في أحد من الناس قبله،  
وأعجبت به بساطته وصرافته وقوّته، وأهمّ من هذا جميعه  
أنّه شعر نحوه باستعلاء تملّقى غروره المعذبّ فمال إليه .  
أمّا المعلّم نونو فاستدرك قائلاً:

- لماذا ترغب عن النارجيلة؟! إنّ هي إلا سيجارة  
بماء، أو دخان مكّرم مطهّر، وفوق ذلك فلحضرتها  
سلطنة، وقرقرتها موسيقى، وفي شكلها «سكس  
أبيل» .

فلم يملك عاكف نفسه من الضحك فأرسل ضحكة  
رفيعة ضاعت في جلجلة ضحكة المعلّم التي تصاعدت  
كخوار عالٍ متّصل انتهى بسعال متقطع استمرّ حتّى  
انقطع نفسه، ثمّ قال وأسأريه ما تزال ضاحكة:

- أتحمس أنّ البلديّ جاهل؟!، ألم تعلم أنّ زوّار  
هذا الحيّ من الإنجليز أضعاف أضعاف أمثالهم من  
أولاد العرب؟! . . ودين الحسين وربّ الحسين لتسرّن  
بحيّنا سروراً لا مزيد عليه، وليكن جواراً سعيداً وآبائنا  
سعيدة رغم هتلر وموسوليني! . .

- بإذن الله . . إن شاء الله!

وقال المعلّم بلغة الإغراء:

- وفينا أفنديّة محترمون كحضرتك!

فقال أحمد بسرعة:

- أستغفر الله يا معلّم، أستغفر الله . .

- والحسين وجّهه . . بل إنّ جلّ أصدقائي أفنديّة  
من خيرة هذا الحيّ، فالعبارات الجديدة جذبت أسراً  
طيّبة كثيرة، يوجد هنا كلّ ما تريد . . القهوة والراديو  
واللطف والنارجيلة، بل هنا متّسع كمرضية الله  
ومعصيته على السواء!

فضحك أحمد قائلاً:

- أعوذ بالله من معصية الله! .

فحلق المعلّم في وجهه، ثمّ قال مستدرّكاً  
بصرافته الغريبة كأنّه يعرفه منذ سنين طويلة لا منذ  
دقائق:

- المرضية والمعصية كالنهار والليل لا ينفصلان،

## خان الخليلي ٥٤١

والفقر راكب عدوي، ثم تُفرج، فيطلب منا عمل وأقبض مقدم الأتعاب، افرّخ يا نونو، اشكر الله يا نونو، خذي يا زينب اشترى لحمه وأنت يا حسن هات فجلاً، اجري يا عائشة ابتاعي بطيخة. املا بطنك يا نونو، كلوا يا أبناء نونو، واشكرن يا زوجات نونو.

ولفت سمع أحد قوله «زوجات نونو» فتساءل تُرى كم زوجة يضمّ حريم نونو؟!.. وهل يحذّثه بأسراره الداخلية بمثل صراحته هذه عن فلسفته العامة؟!.. ولم يجد سبيلاً إلى غرضه إلا بالحيلة، فسأله:

- كان الله في العون، الظاهر أنّ أسرتك كبيرة..

فقال الرجل ببساطة:

- أحد عشر كوكباً، وأربع سموس.

- ثم أشار إلى نفسه وكمل قائلاً:

- وقمر واحد!

فتردد عاكف لحظات، ثم قال:

- أزواج أربع؟

- كما شاء الله..

- وإن خفتم ألا تعدلوا؟!..

- ومن قال عني إني ظالم؟

- وهل تستأجر تبعاً لذلك بيوتاً أربعة؟

- بل شقة واحدة كشقة حضرتك، مكوّنة من

حجرات أربع في كلّ حجرة أم وأبناؤها!

فلاحت الدهشة في وجه الرجل ونظر إلى محدّثه

بإنكار، فضحك المعلّم ضحكته العظيمة بفخار،

وقال:

- ما الداعي للدهشة يا أحمد أفندي؟

فأتت أحمد جراءة ليست من طبعه، وسأله:

- لماذا لم تقنع بواحدة؟

- واحدة؟!.. أنا خطاط، والنساء كالخطّ أنواع لا

يُغني نوع عن نوع، فهذه نسخ، وتلك رقعة، وثالثة

ثلث، ورابعة فارسيّ، أنا لا أؤخذ إلا الله.

- ولكن أليس الأربع بأكثر ممّا ينبغي!

- ليتهنّ كفيني، أنا والحمد لله أكفي مدينة من

النساء، أنا المعلّم نونو والأجر على الله!

وفوقها مغفرة الله ورحمته.. أحنّبي أنت؟!!

- كلاً.. كلاً..

- تعجّبي!

- ولكن كيف يتسع هذا الحيّ لمعصية الله؟

- أوه.. يا ما تحت الساهي دواهي.. فصبراً حتّى

يأتيك اليقين، ومع ذلك فليس الذنب بذنب حيناً،

الذنب ذنب الأحياء الأخرى، لقد ضاقت بالفساد،

فصدّرت ما يزيد عن حاجتها إلينا، على حدّ قول

الراديو عن التجارة العالميّة. هنا نحن نصدّر الموادّ

الأوليّة والأحياء الأخرى نوردها مصنوعة، فمن بعض

أطراف هذا الحيّ تصدّر الخادّات فتحولها الأحياء

الأخرى إلى غايات، في هذه الحرب قلبت الدنيا رأساً

على عقب، تصوّر يا إنسان أتي سمعت بالأمس بنت

بائعة فجّل تدعو أختها فتقول «تعال يا دارلنج»!..

وضحك أحمد بسرور، وانبسط وانشرح صدره،

وقال وغرضه الأول أن يستدرج محدّثه إلى الكلام:

- حيّكم طاهر يا معلّم رغم هذا كلّه، فالفساد

هناك فوق ما يصدّره العقل!..

- اللهم احفظنا. إلا أنه من الحكمة ألا تُركب الهمّ

أنفسنا، دع الهموم واضحك واعبد الله، الدنيا دنيا

الله، والفعل فعله، والأمر أمره، والنهاية له. فعلامّ

التفكير والحزن؟!.. ملعون أبو الدنيا!..

- هذا شعارك المحبوب يا معلّم طالما صعّد إلى

حجرتي ترديدك له.

- أجل ملعون أبو الدنيا، هذا شعار الاستهانة لا

اللعن أو السبّ. ولكن هل تستطيع أن تلعبنا بالفعل

كما تلعبنا باللسان؟ هل تستطيع أن تستهين بها

وتضحك منها إذا أفقرت؟ وإذا أعرتك؟، وإذا

كرّبتك؟، وإذا أجاعتك؟، صدّقتي أنّ الدنيا كالمراة

تدبر عمّن يجثو بين يديها، وتقبل على من يضرها

ويلعبها، فسياسي مع الدنيا ومع النساء واحدة،

واتكالي من قبل ومن بعد على الله سبحانه، وربّ يوم

يستدبر لئلا يفتح الله علينا بليم، ولا يدري أحد ماذا

يأكل العيال وما أملك ثمن النارجيلة، فما أزال آخذاً

في الغناء واللعن والتكيت، وكانّ العيال عيال جاري

بنفي أو إثبات، فقال نونو ضاحكاً:

- عوفيت.. عوفيت!

وبلغ المعلم نونو من نفسه ما لم يبلغه سواه، فأحدث فيها يقظة عنيفة، كأن شيئاً يناقضه قوة وصحة وابتساماً، وإقبالاً على الحياة، وفوراً وسعادة، فأعجب به إعجاباً استمدّه من عجزه عن مجاراته، وحقد عليه لتفوقه وسعادته، إلا أنه كان حقداً خفيفاً لا يقاس بما أحدثه في نفسه من شعور بالاستعلاء، فغلب ميله إليه حقدّه عليه، واستثار فيه رغبة جديدة للاختلاط به وبحيه العجيب.

وعندما استأذن في الانصراف، قال له المعلم:

- عليك بقهوة الزهرة هي قهوة صغيرة، ولكنّها تجمع أفنديّة هذا الحيّ المحترمين، وستعرف فيها الصفوة من جيرانك، هلاً حضرت هذا المساء؟! ..  
فقال أحمد وهو يودّعه:

- إن لم يكن هذا المساء، فمساء الغد إن شاء الله .  
وسلم عليه شاكرًا، ثم مضى إلى ما كان بسبيله من اكتشاف أنحاء الحيّ الجديد..

- ٦ -

وعند مساء اليوم الثاني غادر العمارة ووجهته قهوة الزهرة، فوجدها عند مدخل شارع محمد عليّ الكبير، وهو السابق لشارع إبراهيم باشا. وكانت في حجم الدكان ذات مدخلين أحدهما على شارع محمد عليّ والثاني على الممرّ الطويل الذي يؤدي إلى السكّة الجديدة. وقد وجد في الحيّ من أمثال هذه القهوة عشرات حتى قدر قهوات الحيّ بمعدل قهوة لكلّ عشرة من السكّان. وأقبل على القهوة متمهلاً متردداً لأنه لم يتعود ارتياد المقاهي ولا ألف جوّها. وما كاد يعبر بابها حتى رأى المعلم نونو يتوسط جماعة من الأفنديّة بينهم واحد من أهل البلد. وراه المعلم فنهض قائماً مبتسماً وقال بصوته الجهوريّ الحشن:

- أهلاً وسهلاً تفضّل يا أحمد أفندي! ..

فاقترب منه بقامته الطويلة النحيفة تلوح على شفّيته ابتسامة ارتباك وحياء، ماداً يده بالسلام، فتلقاها

- وكيف تجمعهم في شقّة واحدة! . ألم تعلم بما يقال عن غير النساء؟

فهزّ المعلم منكبيه العريضين استهانة وبصق على الأرض، ثم قال:

- هل تصدق ما يقال عن النساء وغيرهنّ ومكرهنّ؟! . كلّ أولئك سجايا خلقها ضعف الرجل. المرأة في الأصل عجينة طريّة، وعليك أن تشكّلها كما تشاء، واعلم أنّها حيوان ناقص العقل والدين فكملّها بأمرين: بالسياسة والعصا! فما من واحدة من نسائي إلا مطمئنة إلى أنّها الأثيرة المفضّلة، وما من واحدة استوجبت أكثر من علقه واحدة، ولن تجد مثل بيتي سعادة وهدوءاً، ولا مثل زوجاتي حشمة وتنافساً في إرضائي ولذلك لم يجرؤن على مغاضبي حين علمن بأنّ لي خليلية! ..

فصاح أحمد عاكف:

- خليلية!

- سبحان الله ربّي!، ما لك تدهش لأنّته الأشياء؟!، أقول إنّ طعميّة البيت لذيدة، ولكن ما رأيك في طعميّة السوق؟

- وهل ترضى زوجاتك عن خليلتك؟

- الرضا يساوي التعمّد على الرضا، وأنت برجولتك تستطيع أن تحمل المرأة على ما تريد فتعمل ما تشاء، وتؤمن بما تشاء، والرجل القوي لا يلجأ إلى الطلاق إلا إذا وافق هواه.

فابتسم أحمد وقال:

- عوفيت يا معلّم! ..

وأخذ المعلم أنفاساً متتابعة، ثمّ سأله ضيفه:

- هل أنت متزوج يا أحمد أفندي؟

فأجاب بافتضاب وقد امتعضت نفسه:

- كلاً..

- ولا واحدة؟

- ولا نصف واحدة.

فضحك الرجل، وقال بصراحته المعهودة:

- أنت بغير شكّ نطاط كبير! ..

فابتسم أحمد ابتسامة غامضة، ولم يعرض لقوله

### خان الخليبي ٥٤٣

وجبه نعومة وفي نظرة عينيه براءة، أما كمال خليل فرجل تلوح في عينيه الرزانة، كبير العناية بهندامه وأناقته، معتدل القامة يميل للبدانة، وكان أحفل القوم استقبالاً للجار الجديد. ثم تحوّل إلى أحمد راشد باهتمام خاص، فوجده شاباً في ريعان الشباب، مستدير الوجه ممتلئ كبير الرأس تكاد تحفي صفحة وجهه نظارة سوداء عميقة السواد. أثار هذا الشاب اهتمامه لأنه محام، والمحامي رجل متعلم، والمحاماة مهنة طمع فيها أول عهده بالأمال وعجز عنها وإن لم يقرّ بعجزه قط. فما يزال يحقد على المحامي حقه على الأديب والعالم، وقد اعتاد أن يشعر نحو الواحد منهم كما يشعر الرجل نحو آخر تزوج من فتاة يحبها، فوجد فيه عدواً وتوتّب للانقضاض عليه. ولم يبق من الجماعة إلا المعلم عباس شفة، وهو شاب ذو سحنة زنجية توحى ملامحه الغليظة الدميمة بالدناءة والوضاعة، قد ارتدى جلباباً فضفاضاً وشبشباً وترك رأسه بلا غطاء فانتفش شعره المقلقل وزاده دمامة وقبحاً ويدا شيئاً حقيراً لا ينقصه سوى لباس السجن!. واحتلت الجماعة على صغرهما أكثر من ثلث القهوة، وجلس القهوجي إلى صندوق الماركات على كتب منها وكأته. لاشترائه في أحاديثها - واحد منها! وبينما أقبل المعلم نونو وكمال خليل أفندي على أحمد عاكف أيما إقبال ناير سليمان عتة على جموده وتجهمه كأنما نسيه نسياناً تاماً! أما الأستاذ أحمد راشد فجعل ينصت إلى حديث يذيعه الراديو. . .

ووجه كمال خليل الخطاب إلى عاكف قائلاً:

- علمنا أنّ حضرتك آت من السكاكيني!

فحنى أحمد رأسه قائلاً:

- أجل يا أستاذ!

فسأله الرجل باهتمام:

- أحقاً لم ينج من بيوت الحي إلا عدد قليل؟

فضحك أحمد قائلاً:

- الحقيقة أنّه لم يهدم سوى بيت واحد.

- يا للناس من الإشاعات!.. فماذا فعلت تلك

الفرقة الهائلة التي خلناها في بيوتنا؟

براحته الغليظة، ثم التفت إلى الجماعة قائلاً:

- جارنا الجديد أحمد أفندي عاكف الموظف بوزارة الأشغال.

فنهض الرجال نهضة واحدة في لطف واحترام زاد من ارتبائه وحيائه، ومضى يسلم عليهم واحداً فواحداً والمعلم يقدمهم قائلاً:

- سليمان بك عتة مفتش بالتعليم الأوتّي، سيد أفندي عارف بالمساحة، كمال أفندي خليل بالمساحة أيضاً، الأستاذ أحمد راشد المحامي، المعلم عباس شفة من الأعيان.

وأوسعوا له مكاناً بينهم ورحبوا به أيما ترحيب، فأخذ يأنس بهم وينفض عن نفسه الارتباك والحياء. وما لبث أن ساوره شعور سعيد بالعزة والاستعلاء أحسن إخفائه بابتسامة حلوة ونظرة حيية.

لم يخامره شك قط في تفوقه على هؤلاء الناس من جميع الاعتبار والوجوه، فهو من أهل السكاكيني وهم من أبناء الدراسة أو الجمالية!، وهو المفكر والعقل الكامل وهم لا شيء من هذا جميعه. بل خال أنّ وجوده بينهم تعطف جميل وتواضع محبوب، بيد أنّه تساءل متحيراً ترى كيف السبيل إلى تفهيم هذه الجماعة حقيقة قدره واطلاعهم على مزاياه العقلية والثقافية؟..

كيف يقنعهم بعظمتهم ويدعوهم إلى احترامه!.. لا شك أنّ ذلك آت لا ريب فيه إذا اتصّلت المودة وتكرّر اللقاء. فلا عليه من تأخيره جلسة أو اثنتين!. وتقلّب

بصره بين الوجوه الجديدة يعاينها باهتمام. فهذا سليمان عتة المفتش رجل في الخمسين أو يزيد، قبيح الوجه

لحدّ الازدراء، قميء ذو احديداب، يذكرك وجهه بالقرد في انحدار جبهته وبروز وجنتيه واستدارة عينيه

وصغرهما وكبر فكّيه وفطس أنفه، إلا أنّه حرم من خفة القرد ونشاطه، فبدا وجهه ثقيلاً جامداً متجهماً كأنّه

سيؤخذ بجريرة قبحه، أما أجمل ما فيه فمبسحة قهرمانية لعبت أنامل يمينه بحباتها، ومن عجب أنّ

صورته على فبحها لم تُبجّ مقته ولكتّها استثارت هزه وسخريته، والمدعو سيد عارف كهل في مثل سنّه على

وجه التقريب، صغير الحجم رقيق الأعضاء، لبشرة

خاصة وأن لشهادته الحكومية - ليسانسيه القانون - مكانة يدين لها الجهلاء والسذج، فخاف أن يمتاز عليه، فوثب للنضال، وأجمع على معارضته بأي ثمن، فقال:

- ليس القديم من البقاع مجرد قذارة، فهو ذكرى قد تكون أجل من حقائق الواقع، فتبعث في النفوس فضائل شتى! . . . إن القاهرة التي تريد أن تحوها من الوجود هي القاهرة المعززة ذات المجد الموثل. أين منها هذه القاهرة الجديدة المستعبدة؟

ووقع هذا الكلام من نفوس القوم موقعاً حسناً قرأه في أعينهم، فسرّ به، وأراد أن يهتبل الفرصة ليعلن عن علمه فقال:

- معذرة يا أستاذ أحمد فقد قرأت عن تاريخنا مجلدات جعلت تعلقني به أمراً مقضياً!  
فقال سيّد عارف:

- الظاهر أن أحمد أفندي من عشاق التاريخ! فسرّ أحمد بما هيأه كلام الرجل من فرصة أطيب للحديث عن معارفه، فقال مبتسماً:  
- الواقع آني لا أعشق التاريخ أكثر من غيره من فروع المعرفة، والحقيقة آني أنفقت أكثر من عشرين عاماً في تحصيل المعارف المختلفة!

فولاه القوم نظرات دلّت على الاهتمام، وفسرّ هو ذلك الاهتمام بأنه إكبار فرقص قلبه طرباً، ولكم ودّ لو يستطيع أن ينفذ إلى عيني أحمد راشد خلال عويناته السود ليقراها. وقد سأله كمال خليل:

- ولماذا تدرس هذه المعارف يا «أستاذ»؟! أمخصر لشهادة ما؟

وعلى قدر سروره بلقب أستاذ غصّ ببقية السؤال فقال باستكبار:

- آية شهادة تستوجب هذه الدراسة الطويلة الشاملة؟! . . . ما الشهادة إلا لعبة يستبق إليها الشبان، أما دراستي فلا غاية لها إلا العلم الحق، وربما مهّدت بها يوماً إلى التأليف المنتج.

فسأله أحمد راشد وعلى ثغره ابتسامة أحفقتة:

- ما معنى أن الشهادة لعبة؟

- كانت فرقة في الهواء!.

فتحوّل الأستاذ أحمد راشد عن الراديو - مما دلّ على أنه لم يستغرق كلّ انتباهه - وسأل الجار الجديد:

- وهل سقط طوربيد حقاً ولم ينفجر؟

فقال أحمد وقد شعر بسرور لتحوّل الشاب إليه:

- وقيل طوربيدان ولكن أحيط بهما وعالجهما الخبراء.

فقال أحمد راشد:

- من لنا بذلك الخبير الكندي الذي قرأنا عنه في أنباء الحرب؟. يقال إنه أنقذ أحياء كاملة في لندن! . .

فتساءل سيّد عارف كالمتهكّم وكان من محبّي الألمان:

- أما تزال توجد أحياء كاملة في لندن؟

فابتسم أحمد راشد وقال عاكف:

- صاحبنا من أنصار الألمان!

وضحك المعلّم نونو قائلاً مكملاً قول المحامي:

- لأسباب طبيّة! . .

وتورّد وجه سيّد عارف، ولكن المعلّم نونو لم يرمحه فأرسل ضحكته العظيمة مرّة أخرى وقال:

- يحسب أن الطبّ الألمانيّ يستطيع أن يعيد الشباب! . .

وقطب سيّد عارف جيّنه مستاء، والظاهر أنه كبر عليه أن يصارح بمثل هذا الكلام أمام رجل ما زال جديداً في جماعتهم، وأدرك أحمد عاكف أن وراء ملاحظة نونو ما وراءها، ولكنّه لم يبيد على وجهه أنه سمع شيئاً، وأراد نونو أن يستدرك هفوته فراح يحدث الضيف عن الحيّ الجديد مثنياً عليه بما يعلم حتى علّق أحمد راشد على كلامه قائلاً:

- هذا الحيّ هو القاهرة القديمة، فهو بقايا متداعية حقيقة بأن تهزّ الخيال وتوقظ الحنان وتثير الرثاء، فإذا نظرت إليها بعين العقل لم ترَ إلا قذارة تقتضينا المحافظة عليها التضحية بالبشر، وما أجدر أن تحوها لتتيح للناس التمتع بالحياة الصحيّة السعيدة! . .

وتنبّه أحمد إلى ما في قول صاحبه من جدّة عسى أن تنزله من القوم منزلة المحدث الماهر والمفكر الذكيّ،

## خان الخليلي ٥٤٥

الصورة وترميه بأطيايف الزمان والمكان حتى خال أنه ظفر بها أو كاد، ثم لا تلبث أن تبتلع الأطيايف في ظلمة عميقة، وتراجع بالصورة عن الوعي المشوق، فيعود الغموض والإبهام والحيرة إلى ما كانت عليه. ورغب أخيراً أن يُعرض عن تذكر شيء ليست معرفته بالمطلب الهام، ولكن الحقيقة أن ذاكرته لم تُعد الشيء الوحيد الذي يجتره ويلج عليه!، الحقيقة أن رغبة صادقة أو شعوراً عميقاً راح ينزع بقلبه إلى العينين النجلوين ونظرتها الحلوة الساذجة!! فكلمها اختلس نظرة استتار في أعماقه حنائاً ووداداً وانجذاباً!! وتملكته الحيرة. وتولاه الحياء، وحذر أعين الجلوس حذر مريب مذنب!! فأطرق ممسكاً بعروة الكوب وقلبه شديد الخفقان. وأبى خياله أن يفارق الغلام، فعلق وجهه وتمثل نظرة عينيه، ودار قلبه عطفاً ووداداً وهياماً. وهمت عيناه أن تحونا إرادته ولكنّه شدّ عليها بخوف وغضب، وتساءل متحيراً عتاً دهاه!؟. . . بيد أن المعلم نونو انتشله من خلوته النفسية المحيرة فسأله:

- ألا تحب أن تتسلى بلعب شيء؟

فنظر إليه كمن تنبه من سبات بغتة وقال ببساطة:

- لا أدري عن الألعاب شيئاً!

فضحك كمال خليل قائلاً:

- إليك الأستاذ أحمد راشد قريباً وشيهاً في ذلك،

فتسامرا معاً ريثما تلعب ساعة. . .

ثم التفت الرجل إلى ابنه، وقال له:

- هلم إلى البيت يا محمد.

فخفق قلب عاكف، وأرسل نحوه ناظره، فتبعه وهو يسير بخطى لطيفة حتى غييه الباب. فعاد يقول لنفسه متحسراً: «هلاً ذكرت متى عرفت هذا الغلام؟». وكانت الجماعة قد انقسمت فريقين، فلعب المعلم نونو وكمال خليل الدومينو، ولعب سليمان عتة وسيد عارف النرد. أما عباس شفة فترجح بكرسيه إلى مجلس المعلم «الفهوجي»، وتحنى أحمد راشد ليوسع للاعبين، فصار جنب أحمد عاكف. وشعر الرجل باقترابه فتغير شعوره العجيب وتوئب مرة أخرى للنضال والعراك. وذهب الهيام وجاء الغضب

فقال أحمد كاظمًا حنقه:

- الشهادة ليست دليل العلم!

- أهي دليل الجهل؟

فأخذ غيظه يفور حتى أجهده أن يكتمه، ثم

استدرك قائلاً:

- أعني أن الشهادة هي الدليل على أن شيئاً حفظ

بعض المواد بضع سنين، والعلم الحق شيء غير هذا

البته!

فابتسم أحمد راشد ابتسامة غامضة وأمسك عن

الجدل، وكان يعطف على رأي محدثه في الشهادات.

بل إنه لم يغيب عنه الحدة التي يسوق بها رأيه، مما جعله

يميل إلى فرض احتمال وجود أسباب أخرى لذلك الرأي

غير التي أعلنها. ورحب أحمد عاكف بصمته لأنه

يرجح كفته عليه أمام «العوام» الذين يجالسونها!

وساد الصمت برهة، وجعل المعلم نونو يفرغ الشاي

في أكواب الجلوس. ودار عاكف يبصره في المكان،

فلاحظ لأول مرة أن غلاماً يجلس على كرسي جنب

كمال خليل أفندي، ولم يدر أكان موجوداً قبل مجيئه أم

أنه جاء في أثناء اشتغاله بالحديث، ولكنه أيقن من

أول وهلة أنه ابنه، كيشابه لا تحفى عن النظر العابر،

وتركه بصره إلى غيره ولكنه عاد إليه سريعاً، فقد

استوقف انتباهه «شيء» في وجه الغلام لم يدر ما هو

على وجه التحقيق. ولم يستطع أن يرمي إليه بطرفه

طويلاً، فجعل يجلس من وجهه نظرات حائرة من

وراء كوب الشاي وهو يجتسي منه رشفة بعد أخرى.

ما الذي جذب انتباهه إلى ذلك الوجه فكاد أن ينسى

آثار المعركة التي خاض غارها؟! لعلّه شعور غامض

بأنه رآه من قبل، بأنه رأى هاتين العينين الواسعتين

ونظراتها الحلوة الساذجة. ومثل هذا الشعور لا يريح

صاحبه حتى يتضح الغامض من الذكريات على ضوء

التذكر والعرفان، وإن كان في الغالب لا يفيد شيئاً ذا

بال. ولذلك ألح عليه هذا السؤال «أين رأيت هذا

الوجه؟ ومتى كان ذلك؟ في السكاكيني؟. . . في

الترام؟. . . في الوزارة؟». وردت ذاكرته على عناده

والحاحه بعث ساخر معذب، فجعلت تُدني إلى وعيه



سكونها. وقد كنت بادئ الأمر ألقاها متجهًا متكدرًا  
يائسًا، أما الآن فتراني أكتب مرافعاتي وأراجع موادَّ  
القانون هادئًا مطمئنًا وسط هذا الدوي الذي لا  
ينقطع. ألا ترى أنَّ العادة أمضى سلاح نواجه به غير  
الدهر؟! .

فهز رأسه موافقًا، وقال كأنه يستكثر أن ينفرد الآخر  
ولو بهذا القول المبتذل:

- ولذلك قال ابن المعتز:

إنَّ للمكروه لذعة همَّ فإذا دام على المرء هانا  
فابتسم أحمد راشد ابتسامته الغامضة. وكان لا  
يحفظ الشعر ويحقققر الاستشهاد به فتساءل في رفق:  
- أنت يا أستاذ عاكف من الذين يستشهدون

بالشعر؟

فتساءل عاكف بإنكار:

- وماذا ترى في ذلك؟

- لا شيء البتة إلا أنني أعلم أنَّ الناس عادة لا  
يعدلون بالشعر القديم شعرًا حديثًا، مما يوجب أن  
يكثر استشهادهم - إذا أرادوا أن يستشهدوا بشعر -  
بالقديم، وأنا أكره النظر إلى الماضي!

- لا أكاد أفهم!

- أريد أن أقول إنني أكره الاستشهاد بالشعر لأنني  
أكره الرجوع إلى الماضي. أريد أن أعيش في الحال  
وللمستقبل وحسبي ما في الماضي من حكماء هم أهل  
للإرشاد والتوجيه!

وكان أحمد عاكف على عكس صاحبه يحسب أنَّ  
الماضي انطوى على العظمة الحقيقية، أو أنه لم يعرف  
غير بعض نماذج العظمة الماضية ولا يدري شيئًا عن  
عظمة «عصرنا» فثارت ثائرتة وقال منكراً:

- وفيهم إنكار عظمة الغابرين وفيهم الأنبياء  
والرسل!

- لعصرنا رسله كذلك!

وأوشك الرجل أن يعلن دهشته ولكنَّه كان أحرص  
من أن يُبدي - في حديث - دهشته إلا إذا أوجب ذلك  
جهل محدثه - لا علمه طبعًا - فتساءل في هدوء:

- ومن رسل العصر الحاضر؟

والحقدا! . . . والتفت الشاب نحوه قائلاً برقة:

- كيف حالك يا أستاذ؟! لا تحسبن أنني قديم عهد  
بخان الخليلي لقد سبقتك إلى هنا بشهرين!  
فابتسم عاكف مسرورًا بتوَدُّد الآخر إليه، وقال  
كالمسائل:

- الغارات أيضًا؟! .

- تقريبًا! . . . الواقع أنَّ مسكننا القديم في حلوان  
أخلي لأغراض عسكرية فرأيت أن أنتقل إلى القاهرة  
قريبًا من مكان عملي، ووجدت مشقة في البحث عن  
شقة خالية حتى أرشدني صديق إلى هنا!  
فقال أحمد عاكف وقد أخفض صوته:

- يا له من حيٍّ مزعج!

- أجل! . . . ولكنَّه مسلٌّ وغريب وحافل بالفنون  
والشاذج البشرية المدهشة. انظر إلى الفهوجي الذي  
يحدِّثه عباس شفة، انظر إلى عينيه الذاهلتين! . . . إنه  
يزدرد نصف درهم من الأفيون كلَّ أربع ساعات،  
ويمضي في عمله كالحالم لا يفيق أو بالأحرى لا يرغب  
أن يفيق.

- وهل تطيب الحياة على هذا النحو؟! .

- لا أدري! . . . المؤكَّد فقط أنَّ اليقظة التي نحبُّها  
ونستزيد منها بالقهوة والشاي بمقتها الرجل وكثيرون  
أمثاله: وتراه إذا أُجبر بسبب ما على البقاء فيها مدة،  
مثنائًا، دامع العينين، شرس الخلق، ولا تسكن  
ثائرتة، ويصفو مزاجه حتى يغيب عن الوجود، ويميم  
في عوالم الدهول: أهي لذة عصبية تكتسب  
بالعادة؟! . . . أم سعادة وهمية تهرب إليها النفس من  
شقاء الواقع؟! . علم هذا عند المعلم نفسه!

إنَّه يخاف شقاء الواقع، كواحد من هؤلاء المدمنين،  
ويهرب منه أيضًا لاثدًا بعزلته وبكتبه، فهل هو أسعد  
حاليًا منهم؟! . ورغب عن الاسترسال في ذلك  
الموضوع، فسأل محدثه وقد غير لهجته:

- هل أستطيع أن أكبَّ على دراستي في مثل هذه  
الضوضاء؟

- ولم لا؟! . الضوضاء قوية حقًا، ولكنَّ العادة  
أقوى، وسوف تألف الضوضاء حتى ليزعجك

## خان الخليلي ٥٤٧ هـ

يستشف ما وراء النظارة السوداء لرأى نظرة احتقار  
تورث الجنون. وغمغم الشاب:

- يا للسداجة!

وكان عاكف قرأ فلسفة إخوان الصفا الدينية فرغب  
أن يلخصها في كلمات لمحدثه البغيض ليدفع عن نفسه  
تهمة الأخذ برأي العوام في الدين من ناحية وليغمض  
على صاحبه كما غمض عليه، فقال:

- إن في الدين ظاهراً حسياً للعوام وجوهراً عقلياً  
للمفكرين، فهناك حقائق لا يضيّق المثقف بالإيمان بها  
مثل الله والناموس الإلهي والعقل الفعّال!  
فهزّ الشاب منكبيه استهانة وقال:

- إن العلماء المعاصرين يعلمون بما في الذرة من  
عناصر، وبما وراء عالمنا الشمسي من ملايين العوالم،  
فأين الله، وما أساطير الديانات؟! وما جدوى التفكير  
في مسائل لا يمكن أن تحلّ، وبين أيدينا مسائل لا  
حصر لها يمكن أن تحلّ وينبغي أن نجد لها حلاً؟

ثم ابتسم الشاب ابتسامة سريعة وقال وقد غير  
لهجته المتدققة:

- لا يجوز أن نُشرك ثالثاً من جماعتنا في هذا  
الحديث!

- طبعاً... طبعاً يا أستاذ، ولكن لا تنس أن أول  
العلم كفر دائماً...

وقطع عليهما الحديث ارتفاع صوت سليمان عتّة  
بالغضب، والظاهر أن ملاحظه سيّد عارف أغاظه بهذره  
فتهيج القرد وصاح به:

- إن الله الذي سلبك قواك عادل حكيم!

وذكر أحمد عاكف ما قيل عن سيّد عارف منذ ساعة  
فنظر إلى أحمد راشد مبتسماً فردّ الشاب على ابتسامته  
بابتسامة ذات معنى وقال:

- صاحبنا يجرب الأقراص ويعقد بها رجاء صادقاً!  
ولفت انتباهها جماعة من لابسى الجلابيب أحاطوا  
بمائدة عند مدخل القهوة ومضى كلّ منهم يعدّ رزمة  
ضحمة من الأوراق المائيّة، وكان منظراً يستدعي  
الدهشة لما فيه من أوجه التناقض، فقال أحمد عاكف:  
- لعلمهم من أغنياء الحرب!

- أضرب مثلاً بهذين العبقرين: فرويد وكارل  
ماركس!

وشعر بيد تضغط على عنقه فتكتم أنفاسه، بل شعر  
بجرح عميق في كرامته، لأنه لم يسمع قبل الآن بهذين  
الاسمين، وأضرمر لصاحبه غضباً جنونياً. ولكن لم  
يسعه إظهار جهله فهزّ رأسه هزة العارف العالم  
وتساءل:

- أتراهما يضارعان العباقرة الأولين؟

وكان سرور المحامي الشاب بعثوره على إنسان  
مثقّف لا يعادله سرور فرغب في المناظرة رغبة قويّة،  
وأذن كرسيه إلى كرسي صاحبه حتّى لم يعد يفصل بينهما  
شيء وقال بصوت لا يسمعه سواه:

- لقد هيأت فلسفة فرويد للفرد فرص النجاة من  
أمراض الحياة الجنسيّة التي تلعب في حياتنا الدور  
الجوهري. ونهج له كارل ماركس سبل التحرّر من  
الشفاء الاجتماعي، أليس كذلك؟

وخفق فؤاد الكهل الحاقد الغاضب، ولم يدر هذه  
المرة كيف يعارض فضلاً على أن ينتصر، فراغ عن  
مواجهته إلى التحايل عليه فقال بهدوء وصدوره يغلي:

- مهلاً.. مهلاً يا أستاذ، لقد كنّا مثلك  
متحمسين، ولكن تقدّم العمر ومداومة الفكر حقيقان  
بإلزام الإنسان حدّاً من الاعتدال.

فقال أحمد راشد بلهجة لم تحلّ من حدة:

- ولكيّ أحسن التفكير فيما أطلع عليه؟

- بغير شكّ إلا أنك شابّ وستكسب بالعمر حكمة  
حقيقيّة، ألم تسمعهم يقولون «أكبر منك بيوم يعرف  
أكثر منك بسنة!»

- مثل قديم أيضاً!

- وحكيم!

- لا حكمة في الماضي!

- ربّاه!

- لو وجدت في الماضي حكمة حقيقيّة لما صار ماضياً  
قطاً!

- وديننا؟

فرجع الشابّ حاجبيه دهشة، ولو استطاع عاكف أن

فقال الآخر موافقًا:

- ٧ -

ونفض في الصباح المبكر نشيطًا، ففتح النافذة وأطلّ منها على الحيّ العجيب فوجد الحيّ يتمطى مستيقظًا فالدكاكين ترفع أبوابها ونوافذ الشقق تُفتح على مصاريعها وباعة اللبن والصحف ينطلقون إلى الطرق المتشابكة مُنادين بغير انقطاع. وجذب انتباهه قديم جماعات من «مشايخ» المعاهد الأوليّة الغلمان يسرون زرافات نحو معاهدهم في جيب سوداء وعمم بيضاء فذكّروه «بالفشار» في المقل وأنصت إليهم مستلذًا وهم يرتلون معًا «هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا» وجعل رأسه يروح معهم ويحيى حتى ختموها «بُدخل من يشاء في رحمة والظالمين أعدّ لهم عذابًا أليمًا» فذكر لتوه أحمد راشد المحامي فهو من الذين أعدّ لهم العذاب الأليم!.. وإنه به لحقيق!

وعند عصر ذاك اليوم وقد جلس وأمه في الصالة يشربان القهوة قالت له المرأة بسرور:

- زارني اليوم نساء الحيّ من الجيران للترحيب بي والتعرّف إليّ كما جرت العادة..

فابتسم أحمد الذي يقدر سرور أمه بمعرفة الناس وولعها بالزيارة وقال لها:

- هنيئًا لك!..

فضحكت وهي تتناول منه سيجارة، ثمّ أشعلتها وهي تقول:

- فيهنّ نساء لطيفات سيملان غربتنا حرارة وجبورًا!..

- لعلّك أن تنسي بهنّ الصديقات القديمات من نساء السكاكيني والظاهر والعباسية!..

فكبر عليها قوله وصاحت به:

- أينسى الكريم أحبابه؟!.. هنّ روحي وحياتي، ولن يفرّق بيننا البعد مهما امتدّ وطال..

- ونساء الحيّ من أيّ نوع هنّ؟

فقالت المرأة باهتمام وبلهجة من ينبري للدفاع:

- لسنّ من السفلة ولا من العجبر كما ظننت،

- سيهجرون طبقة ويلحقون بأخرى!

- إنّ الحرب ترفع كثيرين من السفلة!

- السفلة!.. هذا صحيح ولكن لا يوجد حدّ فاصل بين السفلة والطبقة العالية، فأرستقراطيّو اليوم كانوا سفلة الأمس. ألا تعلم أنّ رعاغ الغزاة انتهبوا في الماضي أراضيها بحكم الغزوة؟!.. وها هم أولاء يكوّنون طبقة عالية نمتعة بالجاه والسؤدد والامتيازات التي لا حصر لها.

ولأوّل مرّة يميل إلى موافقته دون نزوع إلى المعارضة، فقال:

- هذا رأيي!

فاستدرك الشاب قائلاً:

- ويرى كارل ماركس أنّ العمّال سيظفرون بالنصر النهائي فيصير العالم طبقة واحدة ممتعة بالضرورات الحيويّة والكيمات الإنسانية، هذه هي الاشتراكية!

ولزما الصمت كأنما أجهدهما التعب، فجعل عاكف يفكر متألّمًا: يا لها من آراء!.. فرويد وماركس، الذرّات وملايين العوالم، الاشتراكية! واختلس منه نظرات ملتبهة بالحقد والكراهية والحنق. فما كان يظنّ قطّ أنّه سيعثّر في خان الخليلي على من يتحدّى ثقافته، ويجبره على التسليم بأنّ فوق كلّ ذي علم عليهما!.. أفلا يظفر بالراحة في هذه الدنيا؟!..

وعند ذاك خلع الشاب نظارته ليمسح عينيه بمنديله فاكتشف أنّ عينه اليسرى زجاجيّة!، ودهش أوّل وهلة، ثمّ غمره شعور بالارتياح خبيث، لأنّه وجد في عوره وجهًا للاستعلاء عليه أيّا كان هذا الوجه!..

ولبث فترة قصيرة، ثمّ غادر القهوة عائداً إلى البيت هائج النفس نائر الكرامة، ولحسن حظّه ذكر فجأة الغلام!.. وسرعان ما تغيّرت حاله ورقت على حواسّه الملتهبة نسمة رطبية أذهبت رياح الحقد والغضب، وتمثّلت لخياله العينان النجلوان، والنظرة الفاتنة، فتتهّد متحيرًا، وهمس لفؤاده «سأراه حتّى مرّة أخرى!».

- يا خبر! ..  
- لا فائدة من الاعتراض، وإيّاك وتكذيب  
الكذب!. وأنا أكبرك بثلاثة عشر عامًا، فأنا في  
الخامسة والأربعين.

- هل ولدتي وأنت طفلة؟  
- الأثني تلد في الثانية عشرة من عمرها!  
- هذه أخت وليست بأم!  
- صدقت فالولد الأكبر أخو والديه، أما أخوك  
فوكيل بنك مصر بأسويط!

فهزّ الرجل رأسه عجبًا وقال:  
- كيف تؤاتيك الجرأة على تزييف حقائق لن تخفي  
طويلاً عن أعين الجار، ولا بدّ أن تنكشف حقيقتها  
يومًا ما؟  
فقالت ببساطة:

- غدًا تولّف العشرة بين قلوبنا ونعرف الحقيقة  
رويدًا رويدًا بلا سخرية ولا تعيير، ولو آتني قلت  
الحقيقة بغير زيادة، لما صدّقني كما لا يصدّقني الآن،  
ولانتقصن من رأس المال بدلًا من أن يتقصن من  
الفائدة!

- يا لكنّ من كاذبات لا يشقّ لهنّ غبار!  
- وماذا عليك من هذا؟! طوي لكذب غايته  
الرفعة والفخر. إنّ كذب النساء بلسم لجراح دامية،  
متّعك الله بعروس تعاطيك أجمل الكذب وأشهأه!  
فضحك الكهل على امتعاضه لذكر العروس وكرّر  
قوله السابق قائلاً:

- يا لكنّ من كاذبات لا يشقّ لهنّ غبار!  
ولحظته غامزة بعينيها وسألته:  
- وأنتم يا بنيّ ألا تكذبون؟  
وصمت قليلاً، لا لأنّ الجواب غائب، ولكنّ لأنّه  
تفكّر قليلاً فيما تنوء به حياته من ألوان الكذب، ثمّ  
قال:

- نكذب، ولكنّ في أمور أجل!  
- عسى أن يكون تافهًا عندنا ما هو جليل عندكم،  
ولكن هل تعدّ العمر والفخر بالجاه والسؤدد أمورًا  
تافهة؟

وبعض الظنّ إثم، وكان بين اللائي زرنني زوج  
موظّف بالمساحة يُدعى كمال خليل، وزوج آخر  
بالمساحة أيضًا يدعى سيّد عارف، وجاءتني أيضًا زوج  
صاحب مقهى الزهرة وشقيقته، والزوجة امرأة طيبة  
القلب، أمّا شقيقة زوجها فينطلق في عينيها المكر  
والشرّ، وإن سترت ذلك كلّه بغلالة شفّافة من الرقّة  
والابتسام!

- داريها هي وأمثالها باللطف، فإنّه إن يبلغها شيء  
عنك من وراء وراء كشفت وجهها علينا!

- لا سمح الله يا بنيّ، أمّا أعجب ما صادفت اليوم  
فهو أنّ السّت توحيدة حرّم كمال أفندي خليل - وهي  
جسيمة كالمحمل أو كأمك أيام شبابه - صديقة  
قديمة.. عرفتها في دكان بهلة العطار بالتريجة..

- وأنتا تسعيان معًا إلى وصفات السمن!  
- هو ذلك.. وتبادلنا التحيّة هناك مرّات، ولكنّنا لم  
نتقدّم وراء ذلك في سبيل التعارف!

- ها هي ذي الأيام تعارف بينكما!  
ثمّ ذكر أنّ هذه السيّدّة أمّ الغلام محمّد.. ولم  
يكن ذكره في نهاره إلّا حين جاء ذكر أمّه، فعجب  
كيف نسيه طوال ذلك الزمن، وقد كان قبل عشرين  
ساعة ملء القلب والخيال!. ولكنّ أمّه لم تدعه لأفكاره  
فضحكت ضحكة عالية وقالت:

- وأخذنا في كذب النساء طويلاً وكذب النساء  
لذيذ، فهذه أبوها فقيه كبير يتبارك الناس بتقبيل يديه،  
وتلك كريمة تاجر واسع الثروة، والثالثة قريبة مدير  
حسابات الداخليّة، والرابعة مرضت مرضًا أنفقت على  
علاجه عشرات الجنيهات!

وضحكا معًا، ثمّ سألهما الكهل وما زال ضاحكًا:  
- وكيف كان كذبك؟

فقالت وهي تمجدجه بنظرة ضاحكة:  
- يسيرًا لا تثرّب عليه يوم الحساب، فأبوك أحيل  
على المعاش منذ زمن يسير، وكان مفتشًا بالأوقاف،  
وأما أبي - جدّك - فكان تاجرًا وأنت يا نور عيني رئيس  
قلم بوزارة الأشغال، ولك من العمر اثنان وثلاثون  
عامًا لا غير فتذكّر!.

الحسان! ألم تبذ يده امرأة - ليست بحال الجمال عينه -  
قائلة: إن عمره كبير؟! . وأراد أن يتخيل صورة كريمة  
العطار، فذكر فجأة وهو لا يدري السمراء الحسناء  
ذات العينين النجلاوين التي التقى بها في الردهة  
الخارجية! فانقبض صدره وسأل أمه:  
- هل يقيم العطار في عمارتنا؟

فقالت:

- كلاً بل يسكن في بيت القاضي!

فتنهّد ارتياحاً!، ثمّ تساءل تُرى لأيّ أسرة تنتمي  
الفتاة؟ وما لبث أن كتم صيحة كادت تفلت من  
شفتيه!! . . . فقد ذكر في تلك اللحظة عيني الغلام  
محمد، وذكر أين رأها أول مرة في وجه السمراء  
الحسنة في الردهة الخارجية! . . . وهذا ما حاول تذكره  
فعمز عليه ساعتئذ وأضناه! فالغلام شقيق الفتاة بغير  
شك، وخفق فؤاده، ولكنّه شعر بارتياح عميق وسرور  
لذيذ وانجابت وساوسه وحيرته وخجله! . وكان سروره  
باكتشافه من القوّة بحيث لم يعد يُلقى بالأل إلى حديث  
أمه!، فما زالت تتكلم وما زال يتيه في أحلامه . .

- ٨ -

وعندما أتى المساء مضى إلى الزهرة، ولم يمض دون  
تردد، فإنّ ارتياح المقاهي حدث جديد عليه لم يتعوده  
ولم يألفه، وكان حرصه على عزله الثقافية يعادل تباهيه  
بها، فلولا ما يدعوه إلى هناك من مصاولة أحمد راشد  
والظهور على الآخرين ما وجد خروجه على عزله أمراً  
ميسوراً. ولم يلتق في الزهرة بأحد راشد؛ وسأل عنه  
فقيل له إنّه كثيراً ما يمنعه العمل عن الحضور إلى  
القهوة. على أنّ الجلسة لم تُصِر - رغم ذلك - فاترة،  
وأحيائها المعلم نونو والمعلم زفته «القهوجي» بظرفها  
الجميل. وتكلم أحمد عاكف كثيراً وضحك طويلاً،  
وقد أخذ يستهويه الأجتاع بالناس أو بالظرفاء من  
الناس خاصّة. ويجد في الأناج بهم ما يجد التّعب  
المنهوك أسلم جنبه للرقاد. وعاد إلى البيت في العاشرة،  
فحكف على المطالعة زهاء الساعتين وأطيان الحياة  
الجديدة تراقص أمام عينيه بين السطور - وما عهد قطّ

- كذب الرجال جليل كالرجولة نفسها! . فأين أنتنّ  
من كذب التجار والساسة ورجال الدين؟! . كذب  
الرجال مخور هذه الحياة الجليّة التي تشاهدين آثارها في  
معترك الحكومة والبرلمان والمصانع والمعاهد، بل هو  
محور هذه الحرب الهائلة التي رمت بنا إلى هذا الحيّ  
الغريب.

وعلم أنّها لم تفهم من قوله إلّا أقله، فسّر لذلك  
سروراً مضاعفاً، ثمّ ذكر أمراً فسألها:

- ألم تزرك زوجة من حريم المعلم نونو؟

- ملعون أبو الدنيا؟! . . . لقد حدّثني بسيرته  
طويلاً، ولكنّ الرجل يحرم على أزواجه الخروج أو  
النظر من النوافذ، وربما انقضى العام في إثر العام وهنّ  
قابعات في دارهنّ راضيات قانعات!

- حقيق بمن يتغنى بلعن الدنيا ألا يأمن إليها!

- والله يا بنيّ المرأة مظلومة كالدينا، ولكن ما علينا  
من هذا فهل سمعت بشخص يدعى سليمان عتّة؟  
- المفتش؟

- تدعوه توحيدة هانم بالقرء!

ولعلّ قولها هذا أول صدق تقع فيه!

- وقالت عنه ضاحكة إنّه يفكر في الزواج!

- وأيّة فتاة ترضى بهذا القرد العجوز بعلاً؟

- كثيرات لا حصر لهنّ، فالمال نصف الجمال على  
الأقلّ، فالفتاة هي التي تتصيّده وتجدّ في طلبه حتّى لا  
يفوتها الزواج منه قبل الخامسة والخمسين . .  
فسألها ضاحكاً:

- وهل ينتهي الرجل عند هذه السنّ؟

- لا قدر الله، ولكنّها لا تستحقّ في معاشه إذا  
تزوّجت منه بعدها.

- فهي ترغب في الزواج منه وتراهن على موته!

فمن عسى أن تكون هذه العروس الحكيمة؟

- قالت الستّ توحيدة هانم إنّها كريمة يوسف بهلة  
العطار، وإنّها الجمال عينه، فقد جمعت الحسن من  
طريقه: الطبيعي والصناعي!

فتمتّل أحمد عاكف صورة القرد العجوز باشمئزاز،  
وعجب كيف يحظى بما لا يطمع هو فيه من إقبال

## خان الخليلي ٥٥١

الخوف أزل الأمر فلم ينفخ الاجتماع ولا النور ولا صلابة الجدران في تلطيف حدته، ومضت فترة انتظار مؤلة نطقت فيها الأعين بعذاب الصدور، ونظر أبوه في ساعته ثم غمغم قائلاً:

- الساعة الثانية صباحاً.. نفس ميعاد الليلة الفظيعة!

وكان أحمد يعاني ما يعانيه أبوه وأكثر، ولكنه قال بلهجة هادئة ما استطاع:

- كان الضرب خطأ فلن يتكرر إن شاء الله!

ومضت الدقائق متتابعة والسكون مطبق، وطالت فترة السكون فأخذ الأمن يتسرب إلى الجوانب الخافتة، وشاع الهمس والكلام، وعلا ضحك كثير، ثم طمان القوم بعضهم بعضاً، ونظر أحمد في الوجوه القريبة منه فوجدها غريبة وقد استبقوا إلى الحديث في جلبة، قال رجل منهم:

- لن يبلغ الأذى مهبط رأس الحسين.

فقال له الآخر:

- قل إن شاء الله!

- كل شيء بمشيئة الله.

- وهتلر ينطوي على احترام عميق للبقاع الإسلامية!

- بل يقال إنه يبطن الإيمان بالإسلام!

- ليس هذا عليه ببعيد، ألم يقل الشيخ لبيب النقيّ النقيّ إنه رأى فيما يرى يرى النائم عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه يقلده سيف الإسلام؟!

- فكيف ضربت القاهرة في منتصف هذا الشهر؟

- ضربت السكاكيني وهو حيّ غالبية سكانه من اليهود!

- تُرى ماذا ينتظر الأمم الإسلامية على يديه؟

- سوف يعيد - بعد فروغه من الحرب - إلى الإسلام مجده الأول، وينشئ من الأمم الإسلامية اتحاداً كبيراً، ثم يوثق بينه وبين ألمانيا بعهد الصداقة والتحالف!

- لذلك يؤيده الله في حروبه!

- وما كان لينصره لولا جميل طويته، وإنما لكل

امريء ما نوى!

الاستغراق في القراءة - ثم نهض إلى فراشه وراح في النوم. ولم يذّر أطلال به النوم أو قصر، ولكنه استيقظ على صوت منكر لم يتبّه إلى حقيقته في الثانية الأولى من استيقاظه، ثم أدرك كنهه فخفق قلبه خفقة فزعة، وقفز إلى أرض الحجر بسرعة جنونية، وتحسّس شبيهه بقدميه فوضعها فيه ثم اندفع إلى الصالة الخارجية فالتقى بشبحي والديه تتقدّمهما الخادم الصغيرة، وسأله أبوه بصوت متهدّج:

- هل تعرف الطريق إلى المخبأ؟

فأجابت الخادم عنه بسرعة:

- أنا أعرفه يا سيدي..

وسبقت الأسرة إلى الباب في ظلمة حالكة، وخرجوا جميعاً إلى الردهة الخارجية متحسّسين الحائط إلى السلم الخلزوني، وهناك بلغت آذانهم جلبة اليقظة التي شملت الدور جميعاً، ومزّق السكون صفقات الأبواب وهي تغلق، ووقع أقدام المهرولين على السلم، وتصاعد أصواتهم بالكلام والضحكات العصبية. وهبطت القافلة مهتدية إلى الدرايزين تخوض بحار الظلمات، ويسوقها الخوف والفرع، وفي الطريق أرشدتهم أشباح السكّان وأصواتهم إلى الطريق فلم يحتاجوا إلى الاستدلال بخادمهم، وكانت الطرقات المسقوفة تبدو كداخل البيوت مظلمة، أما الآخر فيخفف شعاع النجوم الشاحب من شدة ظلمتها. وعاد بهم الخوف إلى ذكريات تلك الليلة الجهتمية فانقبضت صدورهم وجعلوا يقلّبون وجوههم في السماء كلّها لاحت لهم. ثم بلغوا مدخل المخبأ في تيار من القوم غير منقطع، وهبطوا مع سلّمه في باطن الأرض حتى وجدوا أنفسهم في مكان متسع بهر أعينهم - المخدرة بالظلام - بمصابيح الكهربية القوية، وكان سقفه وجدرانه ترك في نفس المشاهد أثراً عميقاً بصلابتها وشدة مراسها، وقد التصقت بجوانبه مقاعد خشبية مستطيلة، وبعثرت في وسطه كثبان من الرمل. ومضت الأسرة إلى أحد الأركان واتخذت مجالسها وتفرّق القاعدون إلى الأركان والمقاعد، ووقف خلق كثيرون وسط المخبأ ممن ضاقت عنهم المقاعد. وشاع

الفاضلة الحقيقة بتطهير المجتمع من نقائصه والنفس من أوامها، الحقيقة ببلوغ السعادة الحقّة، إنّ سعادة نونو لا تفضّل شقاءنا - نحن دعاة العلم والإصلاح - إلاّ كما يمكن أن يفضل الموت براحتة المزعومة نعمة الحياة بمتاعها وكفاحها!

ولم يجد عاكف من نفسه لتؤثر أعصابه بجوّ المخبأ قوّة يتوثّب بها للنضال والمعارضة فقال مبتسماً:

- ألا ترى أنّه ينعم الآن بفضل سعادته العمياء بركاد لذيذ بينما نشقى نحن جميعاً برطوبة الليل؟ فضحك الشابّ وكان أمّلك لجنانه من الآخر وقال:

- لا شكّ أنّه ينعم الآن بركاد لذيذ لا شريك له فيه إلاّ معشوقة الأزواج!

فبدا على وجه عاكف ما يشهد له بأنّه لم يفهم شيئاً، فابتسم المحامي واستدرك قائلاً:

- ألم تسمع عنها بعد؟! .. إنّها امرأة هائلة، وظيفتها الرسمية «زوج عبّاس شفة»، أما تذكره؟ .. أمّا بيتها فيستقبل كلّ مساء جمهرة أرباب البيوت بهذا الحيّ، فسّاها المعلّم زفنة القهوجي «معشوقة الأزواج»! فلاح في وجه عاكف الاهتمام الذي يثيره هذا الحديث، وتساءل:

- أتعني...؟! .

- نعم .

- وعبّاس شفة؟! .

- زوج رسميّ، زوج وجد في الزوجيّة مهنة ومرترقاً!

- ألذلك تحفون به على حقارته وقبحه؟

- أنّه عزيز ذو مقام عظيم!!

وتمثّل عاكف وجه الرجل الدنيء وشعره المنفوش باحتقار شديد، وتحركّ في تلك اللحظة الشابّ فتحركّ معه، يسيران في بطء شديد مستعرضين الجلوس والواقفين، حتّى رأيا سيّد عارف جالساً إلى جوار حسناء نصف واضعة على حجرها طفلاً، فغمغم الشابّ:

- صاحبنا سيّد عارف وحرمه! .

استمع الكهل إلى المتحاورين بلذّة وإنكار، وكانت غالبيتهم من أهل البلد ولكنّه لم يكن يتصوّر أن تبلغ بهم سداجة التفكير هذا الحدّ من الأوهام! .. أو أن تؤثّر فيهم الدعاية - إن كان هناك دعاية - هذا التأثير المضحك، ولكنّه لم ينكر على حوارهم لذّته وفكاهته غير المقصودة، وما كان ليحرم نفسه من متعته لولا أن وقع بصره اتفاقاً على غريمه الأستاذ أحد راشد متمسّياً على كئيب منه، فنهض إليه فوراً فتصافحا ثمّ قال له عاكف:

- لم نركّ اليوم .

فقال الشابّ ذو المنظار الأسود:

- شغلت بدراسة قضية!

واستثار القول غيرته فلم ينبس بكلمة وراح المحامي يقول ملقياً نظرة شاملة على ما حوله:

- رأيت جميع الإخوان هنا معنا إلاّ المعلّم نونو طبيعاً!

فابتسم عاكف قائلاً:

- أعجبّ به من رجل غريب الأطوار!

- يتلخّص في الكلمات الآتية «ملعون أبو الدنيا» .

- هذا شعاره أو قلّ إنّه نشيده .

- ما كان أجدره أن يُعيي الموت لولا قضاء الهرم .

- هو الإيمان!

- إنّهُ يشعر بالله شعوراً عميقاً، ومحسبه في كلّ مكان

يحمله ويتوكّل عليه بكلّ قلبه، ويطمئنّ كلّ الاطمئنان

إلى أنّه لن يتخلّى عنه، وتراه يلتمّ بالمعصية دون أدنى

شكّ في غفرانه ورحمته .

فتنهّد عاكف وقال:

- هذا رجل سعيد كما علمت!

فهزّ الشابّ رأسه بما يشبه الاحتقار وقال:

- سعادة عجباوات، سعادة الجهل والإيمان

الأعمى، السعادة التي يعيش الطغاة بفضل تملكها

رقاب البلهاء، ومن المضحك أن تجد هذه السعادة

الحمقاء من يأسى عليها بين الحكماء؟! فتشّ عن

السعادة الحقّة على ضوء العلم والعرفان، فإذا وجدت

مكانها قلّماً وسخطاً وشقاء فتلك آيات الحياة الإنسانيّة

## خان الخليلي ٥٥٣

كحال خليل وأسرته! ورمى عاكف نحوه بناظره باهتمام شديد فرأى سيّدة مفرطة في السمن، والغلام عمّمد في بيجامة، والفتاة السمراء ذات العينين النجلوين الساذجتين، رأى جهرة ما جعله الشوق يلتمسه في غير موضعه، وجاءت الحقيقة مطابقة لما سرّ باكتشافه منذ ساعات معدودات، ولم يسعه إدامة النظر فردّ الطرف متملّيًا ممتلئًا، ثمّ سمع أحمد راشد يقول بصوت خافت:

- كحال خليل وأسرته!

فسأله:

- أهذه الفتاة كريمته؟

- نعم. له عمّمد ونوال وفتاة كبرى متزوجة!

واختلس منها نظرات ليملاً عينيه من النظرة الساذجة تقطر خفة. وكانت ملتفة في معطف شتويّ وقد أرسلت شعرها الأسود في ضفيرة غليظة، ومضت تتأهب مرسلّة نظرة ناعسة، ورأها كحال خليل فأقبل نحوها مبتسماً ووقفوا معاً يتحدثون، وأدرك عاكف أنّ إقبال الرجل عليهم لا بدّ ملفت أعين أسرته إليهم وأنه لا يبعد أن تفحصه العينان النجلوان - إن لم تكونا تفحصته بالفعل - في جلبابه الفضفاض، وطاقيته البيضاء، فتورد وجهه حياءً وقلقاً وتساءل تُرى هل تذكره؟.. ولم يطل المطال بوقوفهم معاً فانطلقت صفارة الأمان ودبّت في المخبأ حركة عاتمة شاملة، فحيا عاكف صاحبيه ومضى إلى والديه، وانتهره أبوه قائلاً بحدة:

- أنتخلى عنّا ساعة الضرب وتهرع نحونا عند

الأمان؟

فقالت أمّه ضاحكة:

- الله معنا في جميع الأوقات!

واندسوا في التيّار المتّجه نحو الباب يسرون في بطء شديد حتّى ارتقوا السلم إلى الطريق، وعادوا إلى عمارتهم وقد أضاء الطرقات ما انبعث إليها من نور النوافذ، وصعدوا إلى شقتهم في جمع من السكّان عرف أحمد صوت كحال خليل بين أصواتهم. وسارع الرجل إلى فراشه يراود النوم كرهة أخرى، ولكن فرّقت بينهما

فسأله عاكف باهتمام واستحياء:

- وحرمه؟! وكيف تزوج؟!

- كما يتزوج الناس، وهو رجل عاديّ لولا حالة طارئة غير ميئوس منها، ورجاؤه كبير في الأقراص الألمانية، ولنّ..

ولم يتمّ أحمد راشد كلامه فقد قطعه دويّ طلقه شديدة، تابعتها طلقات متقاربة، وارتجف عاكف وخال أنّ جسمه كلّه ارتجف فخاف أن يكون غريمه قد اطلع على رجفته. وساد سكون عميق وحرارت في العيون نظرة قلق وخوف، وقال أناس: «هذه طلقات مدافع مضادة» يطمثون أنفسهم ويطمثنون الآخرين، ولكنّ الكلام - أيّا كانت مقاصده - أحدث في النفوس القلقة المنصتة جزعاً وحنقاً، وجاء رجل من الخارج مهرولاً وقال وهو يلهث: «السماء ملأى بالأنوار الكاشفة؟» فاشتدّ الخوف بالأفتدة، ثمّ سمعت طلقات أخرى بعيدة استمرت فترة وجيزة قبل أن يطبق السكون مرّة أخرى، وطالت فترة السكون وامتدّت فعادت الطمأنينة إلى النفوس، وتعالى الهمس ثمّ ضجّ المكان بالكلام:

- لن تعاد مأساة الضرب الأعمى..

- لقد اعتذر راديو برلين عن غارة منتصف سبتمبر!

- كانت غارة إيطالية فالألمان لا يخطئون!

فابتسم أحمد راشد - استطاع أن يتسم ثانية - وقال لصاحبه:

- أرايت إلى هؤلاء المتعصبين للألمان؟!..

وأنت؟!.. هل أنت كهؤلاء؟

وكان عاكف يتلذذ - كعادته - بمشاركة المغلوبين عواطفهم، ولمّا كانت الغلبة للألمان في ذلك الوقت فقد قال بغير تردّد:

- كلاً.. إني مع الحلفاء قلباً وقالباً، وأنت؟!!

فسوى المنظار الأسود على عينيه وقال:

- لي أمل واحد: أن يتنصر الروس ويحرّروا الدنيا من الأغلال والأوهام!

وابتعدا قليلاً عن جماعة المتحدّثين فرأيا في نهاية الجناح الآخر من المخبأ على عيين الداخل - صاحبهما



نعومة أظافره، وأشفق - كما أشفق دائماً - من أن يُعرض عن يده إذا امتدّت له بطلب بعد أن صار أكبر اعتماده عليه، فسكت مرتباً متحيراً حتى قال عاكف أفندي أحمد الأب:

- حسبنا قليل من الصنوبر والزبيب لضرورتها في الحشو، ونصف لفة قمر الدين لتغيير الريق، ولنقنع من الكنافة بمرة واحدة، ومن القطائف - وهذه لا تقلى في السمن - بمرتين، وليس هذا عليك بكثير. فهاله الأمر، وأيقن أنه سيفتق في هذا الشهر ما اعتاد توفيره كل شهر من النقود القلائل، ربّما أجبر على سحب مبلغ آخر من صندوق التوفير، الأمر الذي يتغص عليه صفوه، ثم ذكر شيئاً آخر لا يقل خطورة عن الكنافة والنقل فقال:

- واللحوم؟!

فقال أمّه بما لها عليه من دالة:

- سمحت الحكومة ببيع اللحوم طوال الشهر الكريم، وما ذلك إلا لأنّ قطعة اللحم حقيقة بأن تسند قلب الصائم المتهالك! فقال أحمد معترضاً:

- ولكنّ ميزانيتنا أصغر من أن تقوم بابتياح رطل لحم كلّ يوم مع الحاجيات الأخرى! فقال الوالد مستعياً بقليل من الدهاء:

- صدقت والأفضل أن نمتنع عن اللحوم مرة كلّ ثلاثة أيام!

وانشغلت الأمّ في الأيام الباقية بتهيئة المطبخ، وتبييض الأواني وتخزين ما تيسر من النقل والسكر والبصل والتوابل. وكان لمقدم رمضان في نفسها فرحة وسرور، ولو أنّها لم تؤدّ فريضة الصيام إلا منذ سنوات قلائل، إذ إنّ شهر المطبخ كما أنّه شهر الصيام - أو لأنّه شهر الصيام -، وأجل من هذا أنّه شهر الليالي الساهرة والزيارات الممتعة، حيث تُدار الأحاديث على قزقة اللبّ والجوز والفسق. ومن حسن الحظّ أنّ رمضان وافق ذلك العام شهر أكتوبر، وهو شهر معتدل، وغالبًا ما يصفو جوّه ويطيب فيلذّ فيه السهر حتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر.

طويلاً صورة ذات العينين النجلاوين والنظرة الحلوة..

- ٩ -

واقترب رمضان فلم يعد يفصل بين هلاله وبين الطلوع سوى أيام قلائل. ولكن رمضان لا يأتي على غرة أبداً، وتسببه عادة أهبة تليق بمكانته المقدّسة، ولم تغفل أمّ أحمد عن ذلك - وكانت في الواقع المسئولة الأولى عن جلال الشهر وجماله - فجعلت منه يوماً حديث الأسرة قائلة: إنّ شهر له حقوقه كما له واجباته. وكان قولها موجّهاً لأحمد فأدرك مغزاه وقال مدافعاً عن نفسه:

- رمضان له حقوقه ما في ذلك في شكّ ولكن الحرب ضرورة قاسية جارت على جميع الحقوق! فقلت الأمّ بلهجة دلّت على عدم الارتياح:

- لا قطع الله لنا من عادة!

فاستيقظ بُخله وقال بشيء من الحدة:

- ليْمُضِر رمضان كما مضى غيره من الشهور، وسنعوّض ما فاتنا منه فيما يقبل من أيام السلم!

- والنقل والكنافة والقطائف؟!

ووقعت هذه الأشياء من نفسه موقعاً ساحراً - على استيائه - لا لاشتهائها فحسب، ولكن لما دعت من ذكريات الشهر المحبوب وعهود الصبا خاصّة، يتدّ أنّ الذكريات الحنونة لم تغن عن حقيقة الغلاء الواقعة ولم تلتطف من حدة حرصه، فقال بلهجة حازمة رغم تحرك الحنان في قلبه:

- لنُدع الكماليّات في ظروفنا الحاضرة القاسية ولنُدع الله الكريم أن يعيننا على ضرورات الحياة.

وأصغى الوالد باهتمام إلى أقوال ابنه وإن تظاهر بعدم الاكتراث، ومال إلى تأييد الأمّ فيما تقول ولكن شجاعته لم تُواته، فلما صاغ الابن رأيه في تلك اللهجة الحازمة، قال الوالد بصوت هادئ:

- ولا تتغلّل يدك إلى عنقك ولا تبسطها كلّ البسط. وأدرك أحمد أنّ أباه من حزب أمّه، ولم يسعه أن يواجهه بمثل صراحتة في مخاطبة أمّه، لتعوده مهابته منذ

## خان الخليلي ٥٥٥

- لا تتعبوا أنفسكم في التفكير فلنا في سهرات رمضان الماضية أسوة: نحن نجيء إلى قهوتنا بعد الفطار ونسمر بها حتى منتصف الليل ثم نتنقل إلى «هناك» لنصل سهرتنا بالسحور.

وتنبه أحمد إلى «هناك» هذه وتساءل ترى هل يستيحيون المنكر في شهر التوبة؟! على أن سبيله كان واضحاً فسيلبث بينهم ما لبثوا في المقهى ثم يعود إلى بيته فيطالع حتى السحور وهكذا حتى يتم الشهر.

- ١٠ -

وفي اليوم الأول من الصيام كابد أحمد عاكف تعباً مرهقاً، فشق عليه ألا يشرب قهوته ويدخن سيجارته على الريق، ومضى إلى الوزارة متوجع الرأس متثائباً، وغالب تعب مغالبة يائسة حتى دمعت عيناه من التثاؤب واسترخت جفونه. وذكر أن أحمد راشد وأمثاله لا يعانون تعباً ولا حرماناً فسره أن يحتقره ويتعالى عليه.

وعاد إلى البيت ظهراً وقد نهكه التعب، فاستلقى على فراشه وراح في نوم عميق صحا منه قبل الفطار بساعة واحدة. وذهب إلى الحمام فرطب وجهه وأطرافه، وفي طريق عودته رأى والده في حجرته مرتباً على سجادة الصلاة يقرأ في الكتاب، فمر به ساكناً، وعطف رأسه إلى المطبخ فرأى أمه مشتمرة عن ساعديها، ودعاه المطبخ إلى الوقوف بعض الوقت عند عتبه، فأجال بصره فيه متشماً فطاف بطبق كبير حفل بمواد السلطة من بقدونس وجرجير وجزر وبصل وطماطم، خضرة يانعة وحمرة فاقعة، فانشرح صدره وتخلب ريقه، وانتقل إلى سلطانية الفول فلم يستطع صبراً وزايل مكانه. وفي الصالة مرّ بالسفرة وقد هيئت فوضع على ركن منها العيش وفرقت أمام كراسيها أكواب الماء وتوسطها طبق ملآن بالفجل، فهرع إلى حجرته وأغلق الباب. وكان أبقى الأهرام بغير قراءة ليتسلى بمطالعتة في الساعة الأخيرة المعروفة بشدتها وثقلها فأكب عليه حتى فرغ منه، ونظر في الساعة فعلم أنه لا يزال عليه أن ينتظر نصف ساعة أخرى!.. وتجهّم وجهه، ثم لم يرَ بدءاً من فتح النافذة المشرقة على العمارات ليقطع

وجاء مساء الرؤية، وانتظر الناس بعد الغروب يتساءلون، وعند العشيّ أضاعت مئذنة الحسين إيداناً بشهود الرؤية. وقد اجتزأوا بالإضاءة عن إطلاق المدافع لظروف الطوارئ. وأزّينت المئذنة بعقود المصابيح مرسلة على العالمين ضياء لالاء، فطاف بالحيّ وما حوله جماعات مهلّلة هاتفة «صيام صيام كما أمر قاضي الإسلام» فقابلتها الغلمان بالهتاف والبنات بالزغاريد، وشاع السرور في الحيّ كأنما حمله الهواء الساري، فلم يملك أحمد عاكف أن يقول:

- أين من رمضان شارع قمر هذا الرمضان

البهيج؟!!

فابتسم الوالد وقال:

- وماذا رأيت مما رأيت يا غلام؟!.. أشهدت رمضان في حيناً الجديد هنا قبل اندلاع الحرب؟!.. إنه النور والسرور، إنه الليل المنار اليقظان، إنه الليل العامر بالهتاف والمنشدين واللهو البريء، وفي أيام الفتوة والصحة كنت أسري قبل السحور في جمع من الإخوان من السكاكيني إلى حيناً هذا نتسحر كوارع ولحم الرأس وندخن البوري في مقهى الحسين ونستمع إلى أذان الشيخ عليّ محمود ثم نعود مع الصباح الباكر..

فسأله أحمد:

- متى كان ذلك؟

فقال الرجل بلا جهد:

- وأنت في العاشرة!

آه.. تلك الأيام العذاب، أيام السرور والمرح والتدليل، لقد اتفق له ولوالده عهد واحد يبكيانه معاً. ومضى أحمد ذاك المساء - كعادته الجديدة - إلى مقهى الزهرة. وقد استسلم لهذه العادة الجديدة التي استأثرت بنصف الوقت المخصص للمطالعة، ووجد في العاشرة لذة ليست دون لذة القراءة والعزلة.

واجتمع بالصحاب الذين أخذ يألفهم ويألفونه، ودار الحديث عن سهرات رمضان وكيف يقضونها. فقال عباس شفة - زوج معشوقة الأزواج - بصوته البهيج:

قد نهضت لتذهب إلى الداخل، وخال أنه لمح على وجهها بشير ابتسامة وهي تتحوّل لتدخل. وعاد إلى النافذة الأخرى متسائلاً ما معنى هذه الابتسامة؟.. لماذا ابتسمت الصبيّة؟ هل تسخر من صلته؟.. أو تضحك من نظرتة الوجلة الخجول؟.. أم تعجب لما حسبه غزل كهل في سنّ أبيها؟. إي والله في سنّ أبيها؟.. فلو تيسر له الزواج في إبانة لأنجب فتاة في مثل سنّها، ولمّا أمكن أن تبعت مثل تلك النظرة في أطرافه ما بعثت من ارتباك واضطراب وحياء، ولكن قضي أن يفقد جنانه لدى أيّ صبيّة، وأن تستثير جوعه وحياءه أبرأ النظرات! وابتسم ابتسامة يأس وخجل فافترت شفته عن أسنان صفرا! ودوى المدفع، وتصايح الأطفال فعجب كيف انقضت نصف الساعة بغير تفكير في الجوع أو العطش، وهتف المؤذّن بصوته الجميل «الله أكبر.. الله أكبر» فأجاب أحمد بصوت مسموع «لا إله إلا الله». ثمّ تحوّل عن النافذة ذاهباً إلى الصلاة. والتأم جمع ثلاثتهم حول السفرة، ثمّ غيروا ريقهم على عصير قمر الدين حتّى رووا ظمأهم، وأتت الأمّ بطبق الفول المدسّ فأقبلوا عليه بنهم شديد وتركوه أبيض من غير سوء، فقال الأب وهو يعتصر بقليل من الماء:

- أظنّ الأوفى أن نؤخّر الفول حتّى نصيب من أنواع الطعام الأخرى وإلا امتلأنا به وحده.  
فقلت الأمّ ضاحكة:

- هذا ما تقوله كلّ عام ولكنك لا تذكره إلا عقب الفراغ من الفول؟

ولكن لم يزل في البطون متّسع فجيء باللوييا والفلفل المحشو واللحم المحمرّ وتعاونت الأيدي والأعين والأسنان في عزم وسكون. ولم يكن الطعام الشيء الوحيد الذي يلدّ أحمد، فهناك خواطر سارة زحمت رأسه الصغير الأصلع، حدّت من شهوة الطعام نفسها، من هذه الخواطر: أنّ الفتاة جارّته، وأنّ شقّتها تشرف على شقّته، فاللقاء منتظر، والتقاء العينين مرتقب، والتفاعل محتمل، والانفعال مؤكّد. ومن يدري بعد ذلك ماذا يحدث؟ سيرمي بالقلب في

الوقت بالنظر، ورأى المعلم نونو يعلق دكانه وأطفاله ينتظرونه يكادون يسدّون الطريق سدّاً، ثمّ مضى يحمّون به ويتعلّق الصغار بساقيه ويصيحون جميعاً في جلبة تحسده عليها محطّة الإذاعة. وقد أوشك الطريق أن يخلو إلا من باعة الزبّادى، وشاهد شعاع الشمس الأخير يتقلّص عن أسوار العمارات التي تواجهه من وراء مربّع الحوانيت العظيم، والنوافذ المفتوحة تعلن عن السّفرة الحافلة، وعلى الشرفات انتصبت القلّل لتبرد وانثرت أطباق الحُشاف المكّلة بغللات بيض، وأتى الهواء بروائح الثقليّة ونشيش المقلّيات فتاه في دنيا الطعام الساحرة.. ثمّ تحوّل عن هذه النافذة إلى النافذة الأخرى المطلّة من جنب على خان الخليلى القديم ففتحها وارتفق حافتها، ورمى بطرفه إلى الحيّ القديم فوجده صامتاً ساكناً تلوح قباه المعزّية كأنّها تسجد تحيّة للشمس الموليّة، وكان يواجه نافذته عن قريب جناح العمارة الأيسر بنوافذ مغلقة، ولكنّه سمع حركة خفيفة هتّت من عل، فرفع بصره فرأى شرفة الجيران- التي تواجه نافذته ولكن في الطابق الأعلى من العمارة- ورأى في الشرفة فتاة مكّبة على تطريز شال انسحب ذيله على حجرها وهي جالسة على كرسيّ ملتفة الساقين، وعرفها من أوّل نظرة- حتّى قبل أن ترفع إليه عينها- فاهتز صدره، فما كان يحسب أنّ شقّة كمال خليل في هذا الجناح الذي يواجهه، ولا أنّ فتاته دانية إلى هذا الحدّ، فشرع بارتياح وسرور. ورفعت الفتاة عينها إليه ثمّ ردتّها بسرعة إلى إربتها فنظر في العينين العسلّيتين النجلّاوين لثالث مرّة، وفي تلك اللحظة الخاطفة من التقاء العيون اضطرب قلبه وغلبه الارتباك وتولّاه الحياء فتورّد وجهه الشاحب واختلج جفناه ولم يدّر ماذا يصنع ولا كيف يتخلّص من موقفه. ونكس رأسه الأصلع وهو يودّ لو يختفي من النافذة ريثما يأخذ أنفاسه، تُرى هل عادت إلى النظر إليه؟.. هل ترنو الآن إلى صلته؟.. وشعر بأنّ موضع نظرها من رأسه يشتعل كما تشتعل الورقة تحت أشعة الشمس المتجمّعة في بؤرة. ومضى وقت طويل أو قصير حتّى تنبّه على طقطقة الكرسيّ فرفع رأسه فرآها

## خان الخليلي ٥٥٧

تفضّل أن تكون: عبّاس شفة أم سيّد عارف؟!

فضحك نونو ضحكته العظيمة وقال:

- لا خُيِّرْتُ بين أن أكون أحدكما قطاً!

فقال سيّد عارف بإيمان:

- سبحان من يُجِبي العظام وهي رميم، وغدا تردّ

الأقراص كيد الحاسدين إلى نحرهم!

فضحك عبّاس شفة ضحكة داعرة وقال:

- وقتذاك نهتّى أنفسنا؟!

ونهاهم سليمان عتّة عن الإلمام بمثل ذلك الهذر

علائية في شهر رمضان، ولم يكن صادقاً في نبيه لهم

ولا غاضباً حقاً للشهر الكريم، ولكن «قافية»

الأقراص أمست مملولة منذ دهر طويل، فيس من أن

يأتي قائل بجديد. ثمّ راح كمال خليل يحدث عن ليالي

رمضان منذ أقلّ من ربع قرن، قبل أن تغمر موجة

الاستهتار التقاليد الدينيّة المؤثّلة، وكيف كانت بيوت

السراة تظّل مفتوحة طوال الليل تستقبل القاصدين،

وتستقرئ مشاهير المقرئين حتّى مطلع الفجر، وقال إنّ

بيتهم القديم - بيت أبيه - كان ضمن تلك البيوت

العامة، وتساءل أحمد عاكف: ترى هل يصدق الرجل

فيما يقول أم يقتصّ أثر زوجه اللحيمة؟! . وتسامروا

ساعة طويلة حتّى تعبت ألسنتهم فأمسكوا عن السمر

وأخذوا في اللعب. ووجد أحمد عاكف نفسه منفرداً

بالمحامي الشاب، فأدرك أن جاءت نوبة النضال

والتحدّي، ولحظه بطرف لم يعلن عمّا يضطرم في باطنه

من الموجدة والمقت. وقبل أن ينبس أحدهم بكلمة مرّ

بالمقهى جماعة من الصبيان والبنات ملوّحين بالمصابيح

هاتفين بأناشيد رمضان سائلين «العادة» من النكل

والملايم فأتبعهم المحامي ناظره حتّى اختفوا،

وابتعدت أصواتهم الرفيعة، ثمّ التفت إلى صاحبه قائلاً

بلهجة مُرّة:

- نحن شعب من الشخّاذين.

فأدار أحمد عاكف رأسه إليه كالمبتسم، وقد بات

يوجس خيفة من الاشتباك معه في الحديث، وإن

تظاهر بالاستهانة، وتوتّب للانقضاض والتحدّي.

واستطرد أحمد راشد قائلاً بنفس اللهجة:

بحر لجّي يعلو به أمل ويسفل به فنوط، ويذهب به

رجاء ويحيء به ياس، ويخيفه أفق مظلم ويطمئنه

شاطئ آمن، فما يدري أين المستقرّ ولا أيّان المنتهى،

وحسبه من السرور يقظة دبّت في قلب موات، وليقظة

القلوب فرحة وإن أدّى الإنسان ثمنها من دمه وراحة

باله، وهل ينكر أنّ قلبه جمد من البرد ويرم بالنوم

وضاق بالراحة؟ فما هي ذي يقظة تدبّ، وتبشّر

الشرقة بدوامها، ما عُباها؟ ما غايتها؟ لا يبالي في

سروره الراهن ما ينطوي عليه غده، فليشرق الأفق أو

فليغرب، وليتسم الحظّ أو فليتنجهم، فيحسبه أنّ قلبه

صحا، وأنّه منذ أيّام ينتفض في اضطراب، ويضطرب

في سرور، ويسرّ في حيرة، ويتحيرّ في رجاء، ويرجو في

خوف، ويخاف في لذّة. هذه هي الحياة، والحياة أجمل

من الموت، مهما كابد الحيّ من تعب ووَجْد الميت من

راحة. . .

## - ١١ -

وغادر البيت قبل العشاء إلى «الزهرة» فاجتمع

بالصحاب، وراحوا يتسامرون ويحتسون الشاي ودار

الحديث حول الصيام، وكيف أنّ كثيرين - من أهل

القاهرة خاصّة - لا يؤدّون فريضته لأوْهي الأسباب.

وشهر سيّد عارف بالمعلّم زفته وعبّاس شفة فقال

ضاحكاً:

- قد يستطيعان أن يمتنعا عن الطعام والشراب، أمّا

«الكيف» فأمر يهون دونه الدين!

فقال عبّاس شفة متهكّماً:

- ألا تفضّل أن تصير «رجلاً» مثلنا، ولو قارفت

المعاصي؟؟

فاصطنع سيّد عارف لهجته قائلاً:

- دائي له دواء أمّا داؤك يا سيّد الأزواج فلا دواء

له؟!

فهرّ عبّاس شفة منكبيه وقال دون أن يتلعثم أو

يتورّد وجهه:

- لا تعترني ولا أعترك!

- بل نحتكم إلى المعلّم نونو. يا معلّم نونو أيّهما

كالمنطق والتصوّف والأدب! ثمّ ذكر عنف الشابّ في حديثه وثقته برأيه فثارت كبرياؤه، وغلبته على أمره، فقال بحدّة:

- لو أنّ الفلاح يستحقّ أكثر ممّا هو متاح له لناله، والحقّ لمن يقدر عليه، وما عدا ذلك فهراء في هراء! وثبتّ الشابّ نظارته على عينيه بحركة عصبيّة، وقال بلهجة غريبة:

- أنت من أتباع نيتشه يا أستاذ!؟

ربّاه ومن نيتشه هذا؟.. ألاّ يمكن أن يوجد رأي - ولو كان من وحي الغضب والحق - من غير قائل سابق من الحكماء الذين يجهلهم كلّ الجهل؟.. وكيف يجب الشيطان البغيض؟!.. هداه عقله إلى سبيل واحد، رأى أنّه يخلّصه من الفخاخ التي ينصبها له عدوّه، فقال وقد غير لهجته، وخفّف من شدّته:

- إنك يا أستاذ راشد تدفعني إلى أحاديث ليست بذى بال!

- حياتك ليست بذى بال!؟

- دع الفلاح إلى نفسه أو إلى من يعنيه أمره. ألم تقرأ شيئاً عن أرسطو؟.. ألم تلمّ بفلسفة إخوان الصفا الدينيّة؟.. ألم تتفكّر شتّى المعارف الروحيّة؟؟

فلاح الانزعاج في وجه الشابّ وقال:

- إنّ مثلنا مثل ربّان السفينة تمخر عباب مضيق نائر تهبّ عليه ربح زعزع عاصفة، فيفور زخاره ويصطخب ركابه، فتعلو السفينة وتسفل وتميل ذات اليمين وذات الشمال، مضطربة البنيان مزلزلة الأركان، فهل يجوز للربّان - وتلك حال السفينة - أن يولي آلة القيادة ظهره ليرمي بطرّفه إلى الأفق متأملاً ومنشداً!؟. نحن نجتاز الآن مضيق الموت تكتنفا الألام من كلّ جانب. فلنأخذ من الألام ذخيرة لتأمّلاتنا. حقّاً إنّ للأبراج العاجيّة لذاتها، ولكنّ ينبغي أن نقاوم أنانيتنا إلى حين.

- فأنت، في سبيل أن تنقذ البائسين من وهدة الحيوانيّة، تضعي بإنسانيّة المثقّفين وتقتل أرواحهم!

- قلت إلى حين. . ألم ترّ إلى فترة الحرب وكيف تحوّل العلماء - وهم أشرف الخلق - إلى نوع من المجرمين!

- شعب من الشحاذين وحفنة من أصحاب الملايين. فليس يتاح للشعب غير العمل الرضيع أو امتهان الشحاذة، والعمل الرضيع لا يغني عن الشحاذة!

فهزّ أحمد عاكف رأسه ونظر لمحدّته نظرة لا معنى لها ولاذ بالصمت والصمت في مثل حاله مأمون العواقب. فهو يغنيه عن خوض ما ليس له به علم، ويهيئ جواً آمناً لاهتبال الفرص السانحة. أمّا صاحبه فاستدرك يقول:

- ليس يوجد شرّ من نظام يقضي إلى أناس بالانحدار إلى مستوى الحيوان الأعجم.

ولست أدري كيف تطيب الحياة لقوم عقلاء وهم يعلمون أنّ غالبيّة قومهم جياع لا يدخل بطونهم ما يقيم أودهم، جهلاء لا ترتفع عقولهم عن أدمغة الدوابّ، مرضى تستوطن الجراثيم أجسادهم الهزيلة. ألم يخطر لهم أن ينادوا بمبدأ المساواة بين الفلاحين والحيوانات مثلاً؟ فإنّ للحيوان على سادة الريف حقّاً في الغذاء والمأوى والصحة لا مرأى فيه، ولم يُقرّ بمثله للفلاح!

ولم يعد يستطيع كبح شهوة المعارضة، وكبر عليه أن يستمرّ الشابّ في محاضراته وأن يقنع هو بالإنصات كالتلاميذ فقال:

- إذا كان للفلاح حقّ فلماذا لا يطالب به؟

فقال المحامي بحدّة:

- الفلاح مضغوط تحت المستوى الأدنى للإنسانيّة، فلا يمكن أن يطالب بشيء، ولكنّ خليق بكلّ إنسان أهل لشرف الإنسانيّة أن يمدّ يده ليرفع عن كاهله المتهالك هذا الضغط، وقديماً حارب الرقّ الأحرار لا العبيد!

وتنازعت الكهل عواطف جاءت متناقضة. فجانب من نفسه ارتاح لما يقول الشابّ، فلو اعتدل ميزان العدالة في هذا الوطن ما عاقه عن إتمام تعليمه عائق، ولبلغ ما يشتهي من الشرف في الحياة. واحترق جانب آخر اهتمامه الحماسيّ بالمشكلات الاجتماعيّة، ورأى أنّها دون ما ينبغي أن يفكر فيه «المثقّف» من أمور العقل

- بل أريد أن أكتب كتابًا أيضًا! .  
 - هذا أنكى وأمر، هل أنت صحفي؟  
 - هُنيي أجبت بالإيجاب؟  
 - مستحيل .  
 - وليّمه؟  
 - أنت ابن ناس طيّبين!  
 فضحك أحمد ضحكة قذفت بحقن الليل خارج صدره وقال:  
 - ولكنّي سأكتب كتابًا . .  
 - الكتب في الدنيا أكثر من بني آدم . ألم تَر إلى مكتبة الخليلي تحت الكلوب المصري؟! . . فيها كتب - يا دين محمد - لو صفت جنبًا إلى جنب لكاثرت طلبة الأزهر، فهل تبذل ما تبذل من جهد لتضيف إليها كتابًا جديدًا؟!  
 نعم . . نعم . . فلكلّ كتاب فائدته . .  
 - إليك هواية لطيفة لن تقتضيك جهدًا . .  
 - ما عسى أن تكون؟ . .  
 - أما تعرفها؟ . حزر . .  
 - لا علم لي يا معلّم . .  
 - يدعونها تسلية رمضان وفرحة الزمان . .  
 - فما اسمها؟  
 - في الأصل من التراب ولكن مرعاها فوق السحاب .  
 - عجبًا .  
 - واردها إمّا في الليمان أو على كرسيّ السلطان!  
 - ليس في الدنيا شيء كهذا . . .  
 - يهاها الفقير والوزير . . .  
 - لحدّ هذا؟!  
 - عزاء الحزنان وشرب الفرحان!  
 - ما أشوقني إلى معرفتها!  
 - قدّ النبقه وتنفع في كلّ زنفه .  
 - هذا سحر!  
 - أحضروها من بلاد الفيل تحفة لأهل النيل! . .  
 - هل تجدّ فيما تقول؟  
 - ألم تسمع عن الحشيش؟!

- ومع ذلك فلك نصيبك من التأملات البعيدة كالفلك والذرة!  
 فضحك أحمد راشد - لأوّل مرّة - بصوت مرتفع فلفت إليه جماعة اللاعبين وجعل المعلّم نونو يقول له:  
 - إن ضحكتم فأعلمونا!  
 فسكت المتحاوران حتّى شغل عنهم اللاعبون ثمّ قال المحامي:  
 - لا غنى عن التسلّح بالعلم للمكافح الحقّ، لا للاستغراق في تأملاته ولكن لتحرير النفس من أصفاد الأوهام والترّهات، فكما أنقذنا الديانات من الوثنيّة ينبغي أن ينقذنا العلم من الديانات!!  
 وهنا احتدّ سليمان بك عتّة كعادته إذا خسر «عشرة» واشتبك معه سيّد عارف في مصاولة لاذعة لم تلبث أن انتظمت جميع المتوثّين من أهل المجون فانقطع حديث رمضان الأوّل .

\* \* \*

وعند منتصف الثانية عشرة نهض أحمد عاكف يريد الانصراف فقام معه المعلّم نونو وهو يقول:  
 - سأذهب إلى البيت لأحضر معظفي لأنّ الجوّ تشتدّ برودته عند الفجر .  
 ومضيا معًا . وفي الطريق سأل المعلّم صاحبه:  
 - لماذا لا تمدّ السهرة حتّى السحور؟  
 فقال الكهل بلهجة فاترة:  
 - إني أمضي الوقت ما بين الساعة الثانية عشرة وما بين السحور في القراءة!  
 - أنقرأ كتابًا؟  
 - أجل . وما يقرأ غير الكتب؟!  
 - وفيّم هذا التعب؟  
 فابتسم أحمد عاكف وقال:  
 - هواية يا معلّم نونو!  
 - ولكنّ هواية ينبغي أن تكون ذات فائدة ما: فهل تطيل الكتب العمر؟! تدفع المرض؟! تمنع المقدور؟! تُجنّب الشقاء؟! تملأ الجيب؟!  
 فقال أحمد وما زال يبتسم وقد عاوده شعور الاستعلاء والسرور:

يتأتى الشعور بجذته مرة أخرى. وفيه رأى الفتاة التي رغب صادقاً أن يشاطرها حياته وأخفق، وها هو ذا رمضان من جديد، وها هو ذا قلبه يفيض عن صفحته الضباب البارد القاتم ليستقبل شعاعاً دافئاً منعشاً، وكان عقله من العقول التي ترى دائئاً وراء المصادفات حكمة تدقّ على الألباب، فإذا رأى غيره من المصادفة مجرد حادثة لا معنى لها، التمس هو فيها حكمة خفية، لذلك نظر أمامه حالماً وقد غاب بصره، وارتفع حاجباه الخفيفان المتباعدان، وفغر فاه، وغمغم في حيرة وسرور «ماذا وراءك يا رمضان؟!»

- ١٢ -

وعند أصيل اليوم الثاني نهض نشيطاً إلى المرأة ليحلق ذقنه، وكان يحلقها عادة مرتين في الأسبوع، ولا يبالي أن يبدو للناس وذقنه نابته، فعزم على الإقلاع عن عادته هذه، وأن يحلق ذقنه يوماً بعد يوم من الآن فصاعداً.

ولمّا فرغ ارتدى جلباباً نظيفاً وطاقيّة ناصعة البياض - مجرباً ليخفي صلته - ثمّ جلس على حافة الفراش يرمق النافذة بعينين متردّتين، ليست المسألة مجرد حلق ذقن أو لبس طاقيّة بضاء، إنّما ينبغي أن يسأل نفسه عن معنى هذه اللهفة ومغزى هذا التغيّر. هل ينطلق بغير تفكير أو تروّ؟ ماذا يريد على وجه التحقيق؟ فعسى ما يكون اليوم لعباً يكون غداً جدّاً. وما ينبغي له أن ينسى حظّه العاثر وتاريخه المحزن، أفلا يحسن به أن يترك النافذة مغلقة، وأن يتفادى ما يندر به فتحها؟ على أنّ الحياة لا تنصت لمثل هذا المنطق، ولا تكاد تتأثر بحكمته ومخاوفه، فقد أحرقه الظمأ والهبتة اللهفة، ونهض مرة أخرى يلوح في وجهه العزم ودلف من النافذة ثمّ فتحها، وارتفق حافئها وعيناه إلى أسفل، ثمّ مضى يرفعها ببطء وحذر حتى بلغت أرض الشرفة، فرأى قوائم الكرسيّ وحاشية الشال - الذي كانت تطرزه مساء الأمس - مدلاة بينها، ثمّ غلبه خجله فأطرق كالأطفال! ولبت مطرّقاً وهو

وارتاع الكهل لوقع الكلمة، فضحك المعلم وقال يغويه:

- تعال طاوعني، الحياة ملأى بما هو الذّ من الكتب..

وأغراه حبّ الاستطلاع بأن يسأله:

- أين؟

- المكان تحت أمرك إذا وافقت وشرفتنا.

- ألا تخاف الشرطة؟

- أعرف كيف أتقي شرّها!.. فإذا قلت؟..

فابتسم أحمد وقال له:

- لا شأن لي بهذه الهواية الساحرة. شكراً لك يا معلّم.

\*\*\*

ولمّا خلا إلى نفسه في حجرته تناسى حديث نونو وظرفه، ولاحظ لعينيه صورة أحمد راشد بكأبتها وحماسها وعنف حركاتها، فاستشارت حنقه وغروره ومقته، وتساءل محزوناً كيف غابت عنه دنيا المعرفة الحديثة؟ وكيف يستكمل ما فاتته منها؟! ومتى يحاضر في فرويد وماركس كما يستطيع أن يحاضر في إخوان الصفا وابن ميمون؟! وفكر في هذه الأمور طويلاً فلم يستطع أن يصفو للمطالعة ولا أن يركّز ذهنه فيها، ولكنّه ظلّ عاكفاً على كتابه لا يحوّل عنه رأسه لأنّ عكوفه على الكتاب - ولو في حال شروده - يقنعه بأنّ يومه لم يمض بغير ثقافة يتزوّد منها، الأمر الذي يحرص عليه كلّ الحرص. وانسلّ الوقت وما تزال كبرياؤه تتجرّع غصص العذاب، ثمّ خطرت على قلبه فكرة، هفت على قلبه كنسمة رطبية لطيفة فأتلجت صدره القاتر بالحنق والغضب، فصفا وطاب، وابتسمت أساريره. كم كانت تكون الحياة سعيدة محبوبة لو أنّ ما يلقاه من حظّ ونصيب، ومصادفات واتفاقات، وأناس وأخلاق، كان في مثل هاتين العينين التجلاوين يقطران سداجة وخفة؟! ثمّ ذكر - فيما يشبه الدهشة - أنّ شهر رمضان ذو صلة قديمة بقلبه، ففي شهر رمضان خفق قلبه خفقة الحبّ الأولى، وهي - كروية نور الدنيا لأول مرة - إحساس عجيب لا

## خان الخليلي ٥٦١

نوال! وجعل ينظر إليهما بدهشة وارتباك وقد خفق صدره بما بغته من سرور، ثم انتبه إلى نفسه فتنحى عن سييلهما قائلاً متلعثماً:  
- تفضّلا .

ودعا أمه لتلقي الزائرتين، وذهب لا يلوي على شيء، وأدركت أم نوال ارتباكها، ولم تكن تتصوّر أنّ رجلاً في سنّه يرتبك ارتباكها، ويبدو عليه ما بدا من الحياء لمحض أنّه قابل امرأتين. وهبط أحد السلم نشوان لأنه يذكر جيّداً - كما أكّد لشكوكه التي لا تنتهي - أنّ فتاته ابتسمت إليه وهو يستقبلها ابتسامه خفيفة برّاقة، لعلّها ابتسمت ابتسامه الضيف لمن يستقبله، أو ابتسامه الارتباك والحياء، أو لعلّها جادت بالابتسامه للرجل، جزاء حرصه ومثابرتة على التطلع إليها بعينه كلّ غروب أسبوعاً كاملاً أو يزيد، فمهما كان الباعث فهي ابتسامه حلوة، تلهّف قلبه على مثلها عشرين عاماً. ورغب عن الذهاب توّاً للمقهى ليتيح لنفسه فرصة للتأمل، وكان من الذين يستحبّون المشي إذا شغلهم شاغل من الفكر. فحثّ خطاه إلى السكّنة الجديدة، وسار معها مبتهّجاً مسروراً، وتمتّع ما شاء بالسرور في صفاء ورضا، وما كان غراً ولا حسن الحظّ بالدنيا - وكيف يكون ذلك بعد ما لاقى من سوء الحظّ وعثاره؟! - ولكنّه أراد السرور ساعة ولو خدع نفسه وغالط رأيه، وأراد أيضاً أن يسرّ حظه بعين جديدة ليرى أين هو من أمانيه المكبوتة، وليرى إن كان في الإمكان أن يعاود التجربة من جديد. فقد بدا له أنّه أصبح حرّاً بعد أن أدّى واجبه كاملاً، ألم يتلقّ عن والده العيب عند اندحاره؟، ألم ينهض بأمرته المهذّدة بالشقاء؟ ألم يكفل أخاه حتّى صار رجلاً؟ فما عليه من حرج بعد ذلك إذا شغل بسعادته مخلفاً أعباءه لشقيقه الأصغر، ولا يكره ذلك أحد من ذويه، فهل في العمر متسع؟! . . . وتمادى في التأمل والتخيّل بحجّه شعور السرور والظفر الذي غمره منذ حين، فقال إنّه يملك في صندوق توفير البريد مبلغاً لا بأس به في ذاته، وإن عدّ تافهاً إذا قيس إلى مدّة خدمته الطويلة، وأمّا عن شكله فليس ممّا يعيب الرجل ألا يكون جميلاً وإنّه

يشعر بعينيها تثقبان رأسه. وخاف أن تذهب الفرصة قبل أن يتملّى برؤيتها، فرفع رأسه متعلّباً على حياته، فرأى الكرسيّ خاليًا والشال موضوعاً عليه! تُرى أكانت موجودة حين فتح النافذة ودعاها إلى الذهاب داعٍ؟ أم غابت قبل ذلك؟، ومهما يكن من أمر فقد أحسّ امتعاضاً وفتراً حاسمة، وخاف - أكثر من قبل - أن يغيب اليوم دون أن يراها، ولم تكن احتمالات رؤيتها في الغد لتسيه خسارة اليوم، فقد تهّباً بكلّ عناية لتراه في أحسن صورة ممكنة، ولن تكون ذقنه ولا طاقيته ولا جلبابه غداً كما هي اليوم، وإذن فهذا رجاء خاب، وذلك تعب ضاع، وأطرق مرّة أخرى كاليانس، إلّا أنّه سمع - في اللحظات الأخيرة قبل المدفع - حركة خفيفة في الشرفة، فرفع رأسه بسرعة فرأى الفتاة مقبلة، ثمّ رآها تنحني على الكرسيّ لتأخذ الشال فالتقت عيناهما لحظة، ثمّ استوت قائمة فولته ظهرها وجرت إلى الداخل. وما طمع في أكثر من ذلك، ولو أنّها أدامت النظر إليه لأربكته وأوقعته في الحيرة والحياء، أمّا وقد خطفت بصرها بمثل السرعة التي خطفت بها روحه، فقد أولته الجميل دون عناء أو مشقّة. ثمّ صارت بعد ذلك ساعة الغروب تلك معقد الرجاء وبسمة ألمني، هي خلاصة اليوم وهدفه ومعناه، حسبه أن يملا عينيه من معاني السذاجة والخفّة تسكيبها عيناها النجلوان، وأن يدخّر منها لبقية يومه ما يشيع فيها السرور والأحلام. وتواترت أصيلاً بعد أصيل، والتقت العينان يوماً بعد يوم، فألف منظرها المحبوب ولعلّها ألفت منظره، بيد أنّه لبث على خجله وارتباكها يطالعهما - إذا جاءت اللحظة السعيدة - بنظرة تفيض بإحساس الجّد والرزانة والوجلّ كأنّما يتحقّر صاحبها للفرار! . ووضحت صورتها في مخيلته بعينيها النجلوانين ذواتي الصفاء والسذاجة والخفّة، عينان تنطق نظراتها بالتساؤل والاستسلام، إلّا أنّ خفتها تضيء عليها غلالة من الفطنة والحرارة.

وكان ذات مساء يغادر حجرته - بعد العشاء - إلى المقهى . فدقّ جرس الباب الخارجيّ وهو يقترب منه، ففتح الباب بنفسه، فرأى أمامه الستّ توحيدة وكرميتها



فاستطرد سيّد عارف غير ملقٍ بالأى إلى قوله :  
- وستخرّ إنجلترا المتعجرفة صريعة قبل أن تفيق  
من هول الضربة .

فسأله أحمد راشد :

- كيف تغزو ألمانيا إنجلترا وجنودها مشتبكة في ذلك  
الصراع المخيف في روسيا؟

- أعدّ الفوهرر جيشًا خاصًا لغزو إنجلترا، وأرجّح  
أن تسقط إنجلترا قبل روسيا إن لم تسقط معًا!  
فقال أحمد راشد :

- الظاهر أنّك تجهل حقيقة روسيا، روسيا  
الاشتراكية غير روسيا القيصرية، الشعب الاشتراكيّ  
كتلة من الصلب والإيمان والعزيمة، وهو ربّما تفهقر  
ربّما يأخذ أنفاسه، ولكنّه لن يلقي السلاح أبدًا، ولن  
يسلم لدواعي الهزيمة . .

- والمخزن رقم ١٣؟!

فقال المعلّم نونو وهو يفرك كفيه :

- هُذا مخزن الأقراص التي تريدها . .

وسأله أحمد عاكف :

- لماذا لا يستعمل هُذا المخزن إن صحّ ما يقال  
عنه؟

- رحمة بالإنسانية، الفوهرر لن يلجأ إلى استعمال  
مخزنه المخيف إلا إذا يئس من النصر بالفنّ الحربيّ  
المعتاد لا قدر الله!

وهنا صفّق المعلّم نونو للنادل أن يحضر الدومينو  
وهو يقول كمّن ضاق صدره بالحديث :

- . ملعون أبو هؤلاء وهؤلاء، فلا الألمان أمنا ولا  
الإنجليز أبونا، وليذهب بهم الشيطان جميعًا إلى  
الجحيم . .

وفصل المعلّم نونو بصيحته بين السمر واللعب، وما  
لبث عاكف أن وجد نفسه - كالعادة - منفردًا  
بالمحامي . ورغب عن الحديث، وحدّثه نفسه  
بالرجوع إلى البيت حيث توجد الآن نوال وأمها . .  
ولكن ما عسى أن يفعل هناك إلا أن يجبس نفسه في  
حجرته؟ . . وإنه لفي حديثه مع نفسه إذ سمع  
المحامي يقول للغلام محمّد بلهجة الأمر :

ليستطيع بالعناية - كما فعل اليوم - أن يبدو مقبولًا على  
نحول وجهه وشحوبه وصلعته . ويا حُبّذا لو فصل  
بذلة جديدة، وابتاع طربوشًا غير طربوشه الباهت  
المتقبّض . يئد أنّه كهل! فهو في الأربعين والصبيّة دون  
العشرين! وفارق العمر حاجز لا تقتحمه إلا المعجزات  
فمن أين له بالمعجزات؟! وانقبض صدره لأوّل مرّة  
منذ فتح باب الشقّة للزائرتين، وذكر شكّه في جاذبيّته  
الجنسيّة، فتجهّم وجهه وأفاق من نشوة السرور وتمثّلت  
لعينيه - في ظلمة الطريق - صورة الفتاة الباسمة،  
فغمغم قائلاً: «يا لها من غرّة جاهلة!»، إلا أنّ شيئًا  
واحدًا لم يخطر له ببال، وهو أن يتطوّع بمدّ يده إلى  
الحياة التي دبّت في قلبه فيخنقها لوادًا بطمأنينة الموت،  
فليتركها تنبض وترعرع وليتظر المخنّب وراء حجاب  
الغيب، وهو لن يكون بحال أسوأ ممّا عركته به الأيام .  
وخطر له وهو راجع أن يتساءل هل الحبّ شيء غير ما  
يعاني؟ . . هل هو شيء غير هُذا الشوق الغامض النابع  
من الحنايا؟ . . هل هو شيء غير هُذا الحنين الذي تزفر  
أنفاسه عصير القلب والكبد؟ . . هل هو شيء غير هُذا  
الفرح السهاويّ تطرب له النفس والدنيا جميعًا؟ . . هل  
هو شيء غير هُذا الألم المشفق من الإخفاق والعودة إلى  
الوحدة والوحشة؟ . . هل هو شيء غير أن تسكن تلك  
الصورة الساذجة اللطيفة هُذا الصدر فتصير زاد  
أحلامه ومبعث آماله وآلامه؟ . . بل هو الحبّ، وإنه  
به لخبير!

وعاد إلى الزهرة فوجد الصحاب يتسامرون  
ويحتسون الشاي، ورأى الغلام محمّد جالسًا جنب  
والده يقلّب في المكان عينيه النجلوين، فسرّ لمراه -  
وهو سفير هواه - وانجذبت نحوه روحه - واتخذ مجلسه  
المعتاد جنب الأستاذ أحمد راشد، وراح ينصت لسيد  
عارف الذي كان يقول بحماس :

- وسينتهز الألمان فرصة ضباب الخريف الكثيف  
ويهبطون على شواطئ إنجلترا وينهون الحرب!  
فتساءل كمال خليل ضاحكًا، وفي هدوء لا يهيج  
الأعصاب :

- كما هبط هيس؟!!

خان الخليلي ٥٦٣

غزلاً ماهراً ورجلاً جذاباً، ولكن هيهات أن يبلغ ما يشاء، وليس أمامه إلا أن يحتقر الغزل ويعت المرأة ويستمرى العزلة الوحشية!

وتحجب أن يشتبك في حديث مع الشاب البغيض، وتصنع الإنصات للراديو ليصرفه عن محادثته، فمضى الوقت وهما صامتان، والسكون قائم إلا أن يمزقه احتداد سليمان عتة إذا استناره سيد عارف. وأوردته أفكاره المحمومة - في صمته - مناهل سامة استقى منها خياله المحزون، فاستسلم لأمانى شيطانية مرعبة، تفتى في صمته غارة جنونية تقذف القاهرة بالحمم فتندك مبانيها وتملك بنيتها فلا يبقى منها إلا خرائب وآثار، وشخصان حيّان لا غير، هو وهي!! هنالك تصفو له بلا خوف ولا بأس ولا غيرة ولا جهدا... وتمثلت لعينه المظلمتين القاهرة المهذمة المحطمة، والشخصان الشريدان، يفرغ أحدهما إلى الآخر لا تذاً بجناحه ساكناً إلى ذراعيه، والآخر سعيد - على ما يكتفه من الخراب - بصاحبه، متلذذاً بانفراده به، انبعثت هذه الأمتية الغريبة من صدره وهو يفور بشعور طاغٍ بالاضطهاد والقهر والعذاب.

- ١٣ -

ولمّا خلا إلى نفسه في حجرته بعد منتصف الليل - تساءل تمتعضاً ألا يحسن به أن يقلع عن عادة فتح النافذة، وأن يغلق قلبه دون العاطفة الجديدة التي يسير الألم بين يديها؟ أليس الموت مع السلامة خيراً من حياة القلق والعذاب؟ بيد أنه تناسى مخاوفه في اليوم التالي وما بعده وصار بين النافذة والشفرة ميعاد يتجدد كل أصيل. ولم يعد شك في أنّ الفتاة أدركت أنّ جارها الجديد يتعمد الظهور في النافذة - أصيل كل يوم - ليعت إليها بتلك النظرة الحية الرجل. ترى كيف تحدّثها نفسها عنه؟ أهزأ بشكله؟ أتضحك من كهولته؟ أم باتت تضيق بخجله وجهوده؟ فمن عجب أن تتواتر الأيام وما يزال حريصاً على ميعاده مترقباً لساعته ثم لا يستطيع شيئاً إلا أن يرسل هذه النظرة

- يا محمد أن لك أن ترجع إلى البيت لتذاكر! ونهض الغلام قائماً، وقد علت شفتيه ابتسامة دلت على ارتبائه، وغادر المقهى وثباً!، وعجب أحمد عاكف للهجة الشاب الأمرة وإذعان الغلام لها، فلم تكن لهجة الناصح ولا المتودد إلى الأب.. وأحسن الشاب بعجب الرجل فقال:

- البنات يتفوقن على الصبيان بدرجة تدعو للدهشة، فشقيقة الغلام مجتهدة مطيعة، أما هو فيتجرع دروسه كالعلقم ويعتل على التهرب منها بالعلل!

كيف يتكلم الأعور عن الفتاة بهذه الحرّية؟ وخطر له خاطر انقبض له صدره فسأله:

- هل تعطيهما دروساً خصوصية؟

فحنى الشاب رأسه بالإيجاب!، وامتعض الآخر امتعاضاً شديداً جعله يتكلف الابتسام حتى لا يبدو على وجهه أثر من إحساسه. أيجلس هذا «الأعور» من فتاته مجلس الأستاذ المعلم؟ أيلقنها الدرس ويأمرها بحفظه وربما تصنع الجد فانتهرها؟.. ألا ينفرد بها أحياناً؟.. لم ينظر إليها مرة بغير عين الأستاذ؟. كيف تراه هي؟.. إنه شاب مثقف ذو مستقبل حسن، ولن يضره شكله المتجهّم ولا عينه الزجاجية، بل لن يعدّ - أي عاكف - خيراً منه بحال إن لم يعدّ أسوأ درجات - على الأقل في نظر العوام والأمتين - فهل يولي الأدبار ولمّا تبدأ المعركة؟، وما كان في مثل هذه المعركة تمّ تملكهم روح الإقدام والمنافسة، وعلى العكس من ذلك تراه ينكمش ويسلم ساقيه للريح حياء واستكباراً وجبناً.. ولن يزال في كلّ شدة يلتمس التدلّل الذي نشأ في أحضانه فإذا أخطأه - ولا بدّ أن يخطئه - انطوى على نفسه دامي القلب مجرّاً آلامه مكياً التهم لسوء الحظ الذي يلاحقه! ولو كان دور الذكر في الغزل أن يطارد لا أن يطارد وأن يطالب لا أن يطالب لكان الأمر وطاب له الغرام، أما والأمر غير ذلك أو عكس ذلك - أما والأمر يستوجب رجولة ولباقة وجسارة فكيف يطمع في الظفر؟ ولو أنّ السجايا زهن مشيئة الإنسان لنزل عن ثقافته ومواهبه العقلية - المزعومة - لقاء أن يصير

فماذا يسألها؟.. أن تجيبه؟.. أن تقابله؟.. بل هناك ما هو أهم من كل ذلك. ما الذي يدعوه إلى الظن بأنها ستحسن استقبال رسالته؟. من يدريه أنها لا تمزقها وتقذف بها في وجهه.. أو يغلبها السخط فتفضح سره وتشهر بكرامته؟.. وعقله التردد بعد أن كاد يمك بالقلم فتراجع لانثاءً بالسلامة. على أن النافذة لبثت على ولائها للشرفة. وأوفت كلتها بعد لم يرتبطا به. فتلاقت العيون حتى تألفت وتعارفت، وتجادبت الأرواح دون أن يعوق تجاذبها الصمت أو الحياء، وبات يظن - لما يطالع في نظرتها من العطف والصفاء - أنه ظلم الأستاذ أحمد راشد بأفكاره وعواطفه، وأن الشاب - المشغول بالاشتراكية ومحو العقائد البالية - لا يفزع للغزل والحب، فذاق رحيق الأمل صافيًا، ثم أدناه الحظ من الأمل والثقة بمصادفة: إذ شغله أبوه عصر يوم من أيام رمضان الأخيرة فمضى الأصيل دون أن يستطيع الظهور في مواعده من النافذة، وانتظر في اليوم التالي بصبر نافذ ولكنّه وجد الشرفة مغلقة!.. وانتظر عبثًا أن تفتح وأن تبدو بها فتاته ولكن على غير جدوى!.. وظن أنه عاقها عن الظهور مثل الذي عاقه بالأمس، لولا أن عثر بشبحها وراء خصاص باب الشرفة!.. فلم يشك في أنها تعمّدت إغلاق الشرفة دونه كما فعل هو بالنافذة في أمسه ومعنى هذا - إن صدق حدسه - أنها أحست غيابه أمس. بل لعلها استاءت منه وأضمرت ساعتها عقابه وما هي ذي تحقّق إرادتها، ومال إلى تصديق ظنّه، ولكنّه لم يجد للعقاب ألها، وعلى العكس شعر له بلذّة لا عهد له بها، فطرب طربًا استخفه وجعله يفرق بأصابعه ويذهب ويحيى في الغرفة ذاهلاً عمًا حوله. وفي اليوم التالي أقبل على النافذة بروح جديد ممتلئ ثقة وأملًا، ف شعر بوجودها قبل أن يرفع إليها عينيه المستطيلتين، وكان عزم أن يرمقها بنظرة استفهام وعتاب كأنما يسألها «لماذا اختفيت أمس؟»، فالآن جاء وقت التنفيذ!.. رفع رأسه الصغير فالتقت العينان! ونادى شجاعته ليرفع حاجبيه ويمرّك رأسه مستفهمًا مفكرًا، أجمع عزيمته كمن يتوتّب لإلقاء نفسه إلى

الخائفة ما إن تلقيت بنظرها حتى تردّ في خفر وقد اختلجت الأجنان، وما انفك شبح أحمد راشد يطارده ويزعجه، وما انفك يسائل نفسه الغيور أما ترشقه الفتاة أيضًا بمثل هذه النظرة الحلوة أم تدخر له ما هو أجل وأفتن؟! بيد أن لحظات الأصيل السعيدة كانت تتشله دائئًا من هاوية الشكّ والقنوط. وجعل يهدئ روعه ويقول لنفسه إنّه لو كانت تهوى الشاب البغيض لما منحتة نظرتها الحنون مساء بعد مساء، فعاوده الأمل وراجع الرجاء. ولكن لم يكن طبيعيًا أن يقنع بهذه النظرة، وأدرك أنه ينبغي أن يخطو خطوة جديدة، ولكن هل يستطيع؟ هل يستطيع أن يهجم على الحياة لحظة كما استطاع أن يهرب منها عشرين عامًا كاملة؟ هلاً أدام إليها النظر حتى تطرق هي حياء ولو مرة!.. هلاً حيّاهما بابتسامة؟ وتحيل أنه يديم إليها نظره ثم تحيل أنه يتسم لها فتورّد وجهه واضطرب اضطرابًا عنيفًا وغلبه الحياء والعجز على أمره! ربّاه أمجفل الكهولة من الطفولة؟.. أتفرّ الأربعون من السادسة عشرة؟ لكم حسب فيما مضى أن الخجل داء يزول مع تقادم العهد ولكنّه تشبّث بطبعه حتى أدركه داء جديد هو داء الكهولة، فلماذا يخلق الله قومًا مثله لا يقدرّون على الحياة؟!.. والتمس في يأسه سبيلًا جديدًا فقال لنفسه إن الذين يخافون النظر والابتسام يستطيعون بلا شك أن يكتبوا، فلماذا لا يجرب وسيلة الكتابة إليها؟. وراقه هذا الخاطر وفكر فيه تفكيرًا جدّيًا، فالأمر لا يقتضيه إلا أن يكتب كلمات في ورقة ثم يطويها بعناية ويرمي بها إلى الشرفة، هذا حسن. فكيف يبدأ خطابه؟ أيقول مثلًا حبيبي نوال.. هذا تصوير وقح. عزيزتي نوال؟.. ما يزال ذكر الاسم وقاحة. عزيزتي فحسب، فهذا ألين بأدبه، ثم ماذا؟.. إن الرسائل تبدأ عادة بالتحيات، فليكتب لها تحية وسلامًا، ثم ماذا؟.. هل يصارحها بحبه؟.. كلاً هذا ما ينبغي أن يختم به، وإذا بدأ فليبدأ بالإعجاب والثناء، ولكن كيف ينشئ عباراته؟.. وكيف يتخبر ألفاظه؟.. أي الأساليب يعجبها؟ وأي الألفاظ يحسن وقعها من نفسها؟.. وهبه فرغ من حلّ هذه المشكلات جميعًا

## خان الخليلي ٥٦٥

الحيوانية، فكيف سامت الحسنة نفسها قبول يد هذا القرد الدميم؟! . ولن يكون احتياهما زواجاً ولكنّه جريمة مزدوجة تعدّ من ناحية سرقة ومن الأخرى اغتصاباً، ولن يزال جاهلها فاضحاً لقبحه، وقبحه فاضحاً لجشعها..

ثمّ ابتسم ابتسامة خفيفة واستدرك قائلاً:

- لا يمكن أن تقرّف هذه الجريمة في ظلّ الاشتراكية!

وهنا علا صوت رجل يقول متذمّراً:

- ألم يقولوا إنّ الألمان لن يُغيروا على مصر في شهر الصيام؟

فتحول إليه سيّد عارف وقال:

- ولكنّ الإنجليز يغيرون على طرابلس وهي بلاد مسلمين كذلك!

ثمّ قال لصاحبه بلهجة اليقين:

- الإنجليز لا يضربون طرابلس لفائدة حربية ولكن ليحبوا الألمان على ضرب القاهرة!

ولم يُعنّ أحمد بالمناقشة لأنّه كان يتلقّى رنوة ساجية من بين الجموع الغافلة، ولكنّه لم يهنا بها طويلاً فإنّ صوتاً غليظاً صاح بقوة: «صه.. أزيز طيارة!» وساد على الأثر صمت شامل وأرهفت الأذان حتى صاح صوت آخر: «كلّ.. هذه سيّارة الشرطة» فقال الأوّل: «بل أزيز طيارة.. اسمع!» وأنصتوا جميعاً فترامى إلى الأذان أزيز طيارة حقاً يهبط من جوّ سحيق، فاضطرب قلب أحمد وتحوّل بصره نحو والديه فرأى أمّه مصوّبة عينيها نحو سقف المخبأ وأباه مطرّقاً، ثمّ سمعوا طلقة مدفع مضادّ بعيدة تلتها طلقات كثيرة متقطّعة. وسكت الضرب لحظة ثمّ عاد أشدّ ممّا كان، واتّصلت الطلقات واختلطت، فانتشر الذعر وثرثرت الألسنة في هذيان، وقال واحد من الخائفين الذين يستجدون الظمأنينة: «هَذَا الضرب في المأظنة مؤكّد..» فارتاح كثيرون إلى تأكيده وأمنوا على قوله بغير وعي. وذهب إلى والديه وسأل أباه، وإن كان في مثل حاله من الذعر والاضطراب: «كيف الحال يا أبتى؟» فأجابه الرجل بصوت متهدّج: «ربّنا موجوده

حوض السباحة لأوّل مرّة، ودفع نفسه للقفز، ولكنّه جمّد لحظة أكثر ممّا ينبغي فانتهز عقله الفرصة ورمى في طريقه بخاطر من خواطر الشكّ والخوف فخاف أن يعثر به فاستطارت إرادته وانتثر عزمه وجفل متراجعاً! . وفي تلك الليلة أنّب نفسه تأنيباً قاسياً، وطرق صلته بشيء من الحذّة وصاح غاضباً: «أما من ذرّة رجولة!!» وهكذا أحبّها. أحبّها لعينيتها النجلاوين ونظرتهما اللطيفة الساذجة وخفة روحها. أحبّها لأنّ أحلامه - والأحلام هي الفنّ الوحيد الذي أتقنه في دنياه - أبت أن تغيبها ساعة عنه، ولأنّه جائع - جائع في الأربعين - والجوع من بواعث الأحلام!..

- ١٤ -

ثمّ كانت ليلة القدر من الشهر المبارك فاحتفلت بها الأسرة احتفالاً بدا في الدجاجة المحمّرة التي ازدانت بها سفرة الإفطار وصينية الكنافة، وعند العشاء راحت الستّ دولت تدعو لبعلمها بالصحة ولولديها بطول العمر والسعادة، أمّا عاكف أفندي - الأب - فذهب إلى مسجد سيّدنا الحسين لشهود احتفال رابطة القراء بالليلة المفضّلة، فكانت ليلة سعيدة؛ وقبل أن يأووا إلى أسرّتهم قبيل الفجر أطلقت صفارات الإنذار فارتدوا معافطهم وهرعوا بين جموع السكّان إلى المخبأ الذي باتوا يعرفون طريقه بغير حاجة إلى إرشاد الخادم، وامتزج انزعاج أحمد بسرور خفيّ لأنّ المخبأ يدينه من نوال ويمتّع ناظره باجتلاء مخبأها المحبوب. ورأى في المخبأ أحمد راشد وسيّد عارف واقفين يتحدّثان فانضمّ إليهما - وكان موقفهما قريباً من الركن المرموق - وما إن رآه المحامي حتّى قال له:

- أما سمعت ما يقول سيّد أفندي؟، يقول إنّ

خطوبة سليمان عتّة لكريمة العطار تمّت اليوم!

فقال سيّد عارف مبتسماً:

- نعم يا سيّدي.. فرح «ميمون».

وعاد أحمد راشد يقول بحذّة:

- انظر إلى المال كيف يستدلّ الحسن! إنّ أقبح ما في عالمنا هو خنوع الفضائل والقيم السامية للضرورات

معدودة، فأتسع ما يفصل بينهما من مسافة حتى باتت قريبة من مدخل العمارة، وغلّ الحياء والارتباك إرادته فجعل يتلفت خلفه كأنه يدعو والديه إلى اللحاق به لينقذاه من ورطته، وعبثًا حاول أن يقاوم حياؤه أو ارتبائه أو أن يجمع إرادته على اللحاق بها فأدركه القادمون وما يزال موزع الفؤاد بين الخوف والرغبة، ثم اخفت الفتاة داخل العمارة، وانتهى الخوف والتردد والرغبة والأمل!، ثم سار مع والديه يعالج في صمت حسرة اليمّة منترعة من صميم الضلوع، وطفق ينظر إلى السلم - وهم يرتقونه - بأسف ذاكراً أنه لو قهر خوفه لانفرد بها فيه - على أنه سأل نفسه «ماذا كنت أقول لها؟» . . هبة كان تشجع وحيائها وردت هي تحيته بابتسامة أو كلمة أو إيماءة - بصرف النظر عن أن التحية في ذاتها مشكلة فلم يكن يدري ما الأوفق أن يقول: صباح الخير. . سعيدة. . السلام عليك الخ - هبه حياها وردت تحيته فإذا كان يقول بعد ذلك؟! . . أبصمت حتى يفترقا عند شقته؟ أم ماذا يقول العاشقون في أمثال هذا الموقف؟. ألا ما أكثر العاشقين! . ولشد ما يتهامون ويتناجون في الطرق والمركبات فكيف فقد النطق بلغتهم المحبوبة؟. . وعاد إلى حجرته ممتلئاً أسفاً، يتد أنه كان على هذا فرحاً مسروراً، بل كان ثملاً بنشوة سرور لم تعهد القلوب اللذ منه، فمهما يكن من أمر نفسه فلا يمكن أن ينسى أنها رمته بنظرة نداء - وهي من معجزات السرور في شريعة العاطفة - وهي خليقة بأن يسر لها سروراً خالصاً لا شأن له بحيائه ولا بحسرتها!، ولاحت منه نظرة إلى النافذة - وقد غدا يدعوها نافذة نوال - فحنّ قلبه المنتشي إلى أن يرسل بنظرة إلى الشرفة، ففتح النافذة ورفع رأسه فرأى لعجبه بابها مفتوحاً ومصباح الحجر مضاء والفتاة واقفة على عتبة الباب! . . ما الذي دعاها إلى باب الشرفة في تلك الساعة من الفجر؟. . وكان يرى شبحاً من غير أن يميّز معارف وجهها لوجود المصباح وراءها، وكذلك كان مصباح حجرته فأيقن أنها لا ترى سوى شبحه - وشجعه ذلك على الثبات والتحديق فيها - ولم يمتد به الوقوف طويلاً

واستمر إطلاق المدافع وتعددت مصادره، وجعل سيد عارف - على أثر كل طلقة مدفع - يذكر اسم الناحية التي أطلق منها كأنه الخبير العليم فيقول: «مدفع العباسية. . الماظة. . بولاقي. . وهذا مدفع القلعة الخ الخ» ولما انطلق مدفع بعنف فاق ما سبقه شدة قال الرجل: «هذا مدفع الماني ابتاعته الحكومة من ألمانيا قبل الحرب!». ولكن أخذ كثيرون يضيّقون بالمتكلمين وينتهروهم فاشتد اللغظ، ثم جاءت لحظات أخرى عنف فيها إطلاق المدافع واتصل اتصالاً غيظاً فارتجت الأعصاب ووجبت القلوب. تلك لحظات قصار ولكن يقاس زمانها الثقيل بتردد الأنفاس وخفقان القلوب فكأن المرء يحمل الدهر على عاتقيه، ثم خف عنف الإطلاق رويداً، ثم لم يعد يُسمع إلا في ناحية واحدة، ثم سكت آخر مدفع وأخلف السكون، ولم يذر أحد هل يستأنف الإطلاق أو انتهت عقوبة الليلة، إلا أن الأنفاس أخذت تسترد من الراحة ما تبل به جوانح احترقت أو كادت. ومضت فترة وجيزة في سكون ثم انطلقت صفارات الأمان، فهض القوم متشهدين، وأرسل أحمد عاكف ناظره إلى هدفه المنشود فالتقيا بنظرة جادت بها له، فسر بها سروراً مسح عن صدره الضيق آثار القلق والخوف، ورآها تسبق أسرتها نحو باب المخبأ حتى إذا بلغته عطفت رأسها نحوه ورمته بنظرة ذات معانٍ ثم ارتقت السلم على عجل، فشرع الرجل - بقلبه الجدلان - أنها تدعوه إلى اللحاق بها، وللأعين كما للفرائز لغة سرّية صامتة، فتولاه التردد والحياء، إلا أن مروقها إلى الخارج بث فيه شجاعة وقتية تغلب بها على تردده وحيائه فأتمجه نحو الباب سابقاً والديه والخدام، وارتقى السلم متسائلاً ترى هل يجدها أمام الباب؟ وما عسى أن يقول أو يفعل؟ ولكنّه رأى شبحها قد ابتعد عن مدخل المخبأ أذرعاً في طريق البيت، ولم يكن في الطريق غيرهما فهما أول اثنين غادرا المخبأ، فإذا أوسع خطاه أدركها في أقل من الثانية وأمكنته أن يسايرها شارع إبراهيم باشا، وأن يرتقيا معاً - منفردين - سلم العمارة. تخيل ذلك بسرعة ولكنّه لم يكس يد يدي حراكاً، أو تحرك بالأحرى خطوات

## خان الخليلي ٥٦٧

المركز الرئيسي بالقاهرة وسيستلم عمله الجديد بعد عطلة العيد مباشرة!

وسرّ الوالدان سرورًا كبيرًا وقالت الستّ دولت:  
- سنستقبل عيدين. لهفي على الغلام العزيز، كيف  
قضى ذاك العام في أسيوط؟  
فابتسم أحمد قائلاً:

- ادعي الله أن يكون تعود حياة غير التي أدمن  
عليها في القاهرة من قبل!

ثمّ أوى الكهل إلى حجرته وخلع ملابسه واستلقى  
على الفراش كعادته ليقيّل حتّى الأصيل أو حتّى ميعاد  
الحبّ - كما ينبغي أن يُسمّى منذ اليوم - فشغله  
الخطاب ردحًا من الزمن عن النوم وعن إحساسات  
اليوم السعيدة، وامتألت نفسه بذكريات شقيقه  
الأصغر.

يندر أن يستثير إنسان من العواطف المتباينة ما  
استثاره رشدي عاكف في صدره أخيه الأكبر من علل  
السخط ودواعي الحبّ. فإنّه طالما استوجب سخطه  
منذ أجبره واجب كفالتة على التضحية بمسقبله  
(وعبقريته!)، ثمّ أسخطه في فتوّته بتكالبه على  
الشهوات وإقامته على اللذات وإعراضه عن النصح.  
ولكنّه من ناحية أخرى أحبّه أكثر من أيّ شيء في  
الدنيا. أحبّه لأنّ الشابّ آثره بحبّ فاق ما يكنّه  
لوالديه من الحبّ والإجلال، وذكر له دائماً رعايته  
وكفالتة أجل الذكر، وأحبّه لأنّه صنعه بيديه. غنّاه  
بروحه وربّاه بماله فكان الشقيق الأكبر وكان الوالد  
الحنون، تمتّع بطفولته ورعى صباه ووجّه تعليمه ثمّ عدّ  
نجاحه بعد ذلك - بعد تعب ولأيّ وعثرات - ثمرة  
كفاحه، ومفخرة جهاده، ومذكّرًا دائماً بتضحياته.  
وفضلاً عن هذا جميعه، كان الشابّ ذا شخصيّة خليقة  
بأنّ تحبّ، كان لطيفًا خفيًا مرحًا، ورث عن أمّه تلك  
المقدرة التي تفتح له القلوب بغير جهد ولا تكلف، لما  
طبع عليه - كلاهما - من الجمال والصفاء والوفاء وحبّ  
العشرة والألفة. ولكنّ وأسفاه أحطاه الاعتدال  
والرزانة والحكمة، وجرّت الحياة في أعصابه زاخرة  
جامعة، فاستأدته غرائزه الجهد الجهد، ودفعته قفزًا

حتّى فجأته بأسعد مفاجأة جادت بها حياته: فأومات له  
برأسها تحية!.. وغمره الدهول، ولكنّه لم يغلب على  
أمره هذه المرّة فحنى رأسه ردًا على تحيتها!..  
وتراجعت الفتاة مسرعة حياء وأغلقت باب الشرفة -  
وهو ينظر - ثمّ أطفأ النور، وليث الكهل بموقفه مدّة  
من الزمن لا يدرى فيها، ولا يدري بنفسه، ثمّ أغلق  
النافذة، وجثا على ركبتيه واضعًا راحتيه على صدره،  
وهمس بصوت منخفض «اللهمّ حمدًا وشكرًا!»،...

## - ١٥ -

واستيقظ في صباح اليوم الثاني متعبًا لأنّ السرور -  
كالحزن - عدوّ للنوم قديم. بيدّ أنّه استهان بتعبه لنشوة  
صدره وفرحة قلبه، وهل ظفر بمثل ذلك الصباح  
السعيد منذ عشرين عامًا؟. فغادر البيت منشرح  
الصدر، بسّام الثغر، خفّاق الشباب النضير، بعد أن  
أصبح أخيرًا من الزمرة التي طالما رمقها بعين الحسد  
والغيرة. زمرة المحيّين المحبوبين!، وصفا فؤاده داك  
الصباح فلم تهشه آفة من آفات البغضاء، واستراح -  
ولو إلى حين - من أطياف إخفاقه الجائمة في ظلمة  
ذكرياته كالخفافيش، فلم يتوتّب لجدال ولا تحفّز  
لمعارضة ولا تشاجر مع أحد من الموظّفين، وغمرت  
مستنقع المرارة الأسن المستقرّ في أعماقه موجة راقصة  
من الجبور.

وعند عودته ظهرًا وجد خطابًا في انتظاره، عرف  
خطّ صاحبه من أوّل نظرة ألقاها على الظرف، وهو  
خطّ صغير جميل يشبه خطّه من جميع الوجوه،  
فابتسمت أساريه، وفضّ الخطاب ثمّ قرأه حتّى فرغ  
وقال:

- سيأتي رشدي أخي صباح نهار الوقفة.

فاستقبل الوالدان الخبر أجمل استقبال، وإن كانا  
يعلمان من قبل - بالبداية - أنّ الشابّ لا بدّ أن يمضي  
إجازة العيد في القاهرة إلاّ أنّ الخطاب حوى أنباء أجمل  
مما توقّع الوالدان فاستدرك أحمد يقول:

- ويقول رشدي إنّه صدر أمر بنقله من أسيوط إلى

ثم انتهت تلك الحياة بمعجزة، أجل انتهت بمعجزة والبيكالوريوس، ثم دعا أحمد على أن يقول متهكماً: «هكذا يحصل الطالب على الشهادة التي تفضل الحكومة حاملها على أمثالي؟!» يئد أنه تنفس الصعداء، وأيقن أن مهمته قد انتهت، ولم يعد يشغل نفسه - أكثر مما ينبغي - باستهتار الفتى بعد أن صار المسئول الأول عن حياة نفسه، فصفا بينها الجو، وعاد الحب الذي لا تشوبه شائبة كما كانا من قبل - على عهد طفولة رشدي وصباه - بل رفعت الكلفة بينها فربما قصّ الفتى على شقيقه المحبوب ما يلقي من تجارب الهوى والحب. وكانت له في الهوى أهواء، وفي العشق فنون فعرف الحب الأثم والحب الطاهر! وتقلب في مظانّ السوء كما جرى وراء الحسان في السبل والميادين. وضمّ «ألبومه» صوراً لفتيات حسان وقعن عليها بخطوطهنّ القلقة اللطيفة تلك العبارة الغريبة: «إلى خطيبي العزيز رشدي!» - ولم يكن يقصد العذارى بسوء، ولا كان يسبغ الغدر بيسر وسهولة. وحقيقة الحال أنه كان يقع سريعاً فريسة لعواطفه المشبوبة، فليس أيسر من أن يصير عاشقاً، بل وعاشقاً بصدق وإخلاص، ولكن في الساعة التي هو فيها، فلم يحلف كذباً قط، ولكنّه حنت بأيمانه مرّات!

فحدث كثيراً - في هيجان العاطفة - أن بذل وعده صادقاً مخلصاً فكانت خطوبة! ثم لم يدم ذلك إلا ريثما تهدأ العاطفة أو يجذّ النوى أو يحدث أمر ما؛ فلم تعرف حياته الهدوء ولا السكينة ولا الراحة، وباتت مرعى خصيباً للشهوات والملاذ، فنالت منه حتى أعبته ونهكته، فتحف وهزل وصار - على حدّ تعبير والدته - كالعود. وكان أحمد - الذي يحبّه ويشفق عليه - يرمقه بعينين قلقين ويقول له: «ارحم نفسك» فيجيبه بمرحه المألوف «يرحمنا الله وإياكم!». منذ عام انتدبه البنك للعمل في فرع أسبوط فسرّ أهله - على أسفهم وحزنهم - وتعلّقوا بأمل واحد أن يعتاد الفتى في المقام الجديد - مقام غربته - حياة معتدلة غير حياته الأولى تردّ عليه بعض صحته، وتمسك عليه بعض نقوده،

ووثباً بغير رادع. وقد كان منذ البدء جسوراً مقتحماً متمرساً بالحياة. ذلك أنّ الذي وكل برعايته، أخاه، ظلّ دائماً مصقّداً بأغلال التدلّل والخوف، فمال إلى الاعتماد على الطفل الذي يربّيه - فيمن يعتمد عليه - في قضاء حاجاته، وابتياح لوازمه واستعارة كتبه، فاكسب الصبيّ خبرة بالدنيا واعتماداً على النفس وجسارة ورجولة، وصارت حاجة راعيه إليه لا تقلّ عن حاجته هو إلى راعيه. ولكنّه عرف الدنيا وجمال فيها بغير المبادئ الحقيقية بأن تعصمه من زلّاتها، فمئذ أن أحيل عاكف أفندي على المعاش انطوى على نفسه تاركاً أمر أسرته لابنه وزوجه، ولم يجد رشدي في هذين العزيزين الحزم الذي يرشده ويعصمه، فضلّ السبيل وتخبّط على غير هدى، ولولا دماثة خلقه، ورقة طبعه، لربّما جاوز مفاصد الشهوات إلى مهالك الجرائم...

ولكم بشرت حياته المدرسية - في عهدها الأول والثاني - بالنجاح، حتى قال أحمد عاكف إن أخاه ورث عنه بعض صفاته العقلية! ولكنّ الحال تغير بعد أن صار طالباً بكلية التجارة. هنالك اعتوره الفساد. فانجذب نحو زمرة من الشبان ولهجوا جميعاً بمعاقره الخمر ولعب القمار والتخبّط في بؤر التهتك، واندفع مع التيار في جنون. فاستدان مرّات، وأهمل حياته الدراسية حتى أوشك أن يفسد ما بينه وبين شقيقه، ثم بلغ ذروة جنونه حين فكّر جدّياً أن يقطع حياته الجامعية ليتوفّر على تعلّم الموسيقى والاشتغال بالغناء - لا لشيء - إلا لما بلغه من بوهيمية المغنين وحظهم من ولع النساء، وما عهدّه في نفسه من رخامة الصوت وحلاوته. ونقد صبر أحمد عاكف فأنذره بالكفّ عن الإنفاق عليه إذا لم يمسك عمّا هو آخذ فيه من المجون والاستهتار، وبلغ منه الغضب أحياناً أن شعر بأنّه يمقته مقتاً، بل حقد عليه أخذه بأسباب حياة يعجز هو عن الأخذ بأسبابها، ويتلهف حسرة على ألوان منها! ورغم ذلك كلّه لم تنقطع صلوات المودة بين الشقيقين بفضل مواهب الأصغر، فكان إذا شدّ أخوه أرخى، وإذا قطب ابتسم، وإذا سبّ ولعن تضاحك وقبّل يده أو لثم كفته، وإذا كور له قبضته مازحه في أدب ولين.

## خان الخليلي ٥٦٩

الحير والبركة. . أنتناسى أنه جاءت نوبتك لتدلل  
أمك؟ ولن أشقّ عليك يا زين الرجال فنحن نرضى  
بالقليل إكرامًا لك!

وعلم أنها لن تياس أبدا! ولن نبي حتى تظفر  
بسؤالها فتأوه قائلًا:

- أف . . . أف . . .

- أف لعيد بغير كعك. أنتقبل العيد بلا كعك  
وأنت رجلنا؟!

- الكعك فرحة الأطفال.

- والرجال والنساء، والعيد عيد الناس جميعًا. ألم تر  
إلى أبيك كيف جهّز نفسه بعباءة جديدة يصلي بها  
العيد؟. . وكيف ابتعت أنت بدلة وطربوشًا وحذاء  
مباركة عليك باسم الرحمن؟. . أما سروري أنا بالعيد  
ففي العجن والنقش ورشّ السكر والحشو بالعجميّة.

\* \* \*

وفي الصباح الباكر من يوم الوقفة أخذ سمته إلى  
محطة مصر ليكون في انتظار الشاب القادم. وكان الجوّ  
رطبًا ولُكته محتمل البرودة فجلس على أريكة على  
«رصيف الصعيد» ولم يبقَ على قدوم القطار سوى  
دقائق. وتولّاه ما يتولّاه عادة من القلق إذا وجد  
بمحضر القطار المردة فرأها تنفث الدخان وتطلق الصفير  
الحاد. ولم يكن استقلّ قطارًا قط ولا غادر حدود  
القاهرة، ولا هزّته رغبة في يوم ما إلى الارتحال  
والسفر، فتحيل السجن أخفّ على نفسه من الإقامة في  
بلد نازح. ولا شك أنّ جفوله من ملاقاته العالم  
الخارجي هو الذي بتّ في روحه كراهية الأسفار،  
ولُكته كان يفسّر تلك الكراهية - كعادته في تفسير كلّ  
ما له شأن بسلوكه وطباعه - بأنها سجيّة المفكر الذي  
يحبّ المعنويّات ويزهد في المحسوسات، ألم يعش أبو  
العلاء رهين المحبسين؟. وخفّف من غلواء قلقه  
سروره بمقدم رشدي، شقيقه وابنه! وما ينتظر من  
معونته على النهوض بالتبعات الملقاة على عاتقه وحده،  
وما يحدّثه محضره من ألوان التسلية والبهجة. وما لبث  
أن رأى الرعوس تتطلّع نحو الجنوب، والنشاط والحركة  
يشملان المكان فنظر مع الناظرين فرأى القطار قادمًا

ولذلك تلقّوا خبر نقله إلى القاهرة بسرور ورجاء،  
ينطويان على إشفاق. . .

- ١٦ -

ولم يبق من رمضان إلا ثلاثة أيّام. وأسف أحد على  
اقتراب نهاية الشهر المكرّم، وهل ينسى فضله  
ورحمته؟. . وهل ينسى موعد الأصيل منه حيث ولّى  
عثار حظّه ووحشة قلبه مع شمس الغاربة؟ ويات  
يسائل نفسه تُرى أين يكون الموعد غدًا وماذا تخيّل  
الأيّام؟. أما السّتّ دولت فنشطت هي والخدم لتعدّوا  
حجرة الشابّ القادم من أسيوط. وكانت الحجرة تلي  
حجرة الوالدين، وتطلّ نافذتها الوحيدة على الطريق  
المؤدّي إلى خان الخليلي القديم - كإحدى نافذتي حجرة  
أحمد - فكنست الحجرة وغسلت ثمّ فرشت وباتت  
تنتظر القادم في أجمل صورة. ثمّ أخذت المرأة أهبتها  
لخوض غمار معركة موسيقيّة - لغزو ابنها أحمد كالمعتاد -  
لمناسبة حلول عيد الفطر أو عيد الكعك كما يملو لها أن  
تسميه، فانتهزت فرصة انفرادها بالرجل بعد الإفطار  
وراحت تودّع رمضان بكلام طيّب مترخمة على عهده  
وختمت كلامها قائلة:

- لم يبقَ إلاّ يومان، ويات الإنسان يشمّ رائحة  
الكعك الطيّبة في الجوّ!

وكان يتوقّع مثل ذلك الكلام، ويعلم أنّ المعركة  
آتية لا ريب فيها، وأنه مغلوب على أمره مهما قال  
وتشكّى، ولُكته لم يتعوّد أن يضحيّ بقرش قبل أن  
يربح ضميره بالدفاع عنه فقال متذمّرًا:

- في مثل هذا الزمان لا يتشمّ الناس رائحة  
الكعك، ولُكنّهم يسألون الله السّتر، وأن يبسرّ لهم  
ضرورات الحياة. أما أنت يا نينة فلن تزالي متلهّفة على  
الكاليات النافهة غير راحة جيبى، يا هوه ارحموا من  
في الأرض يرحمك من في السماء!

فحدّثته بنظرة تأنيب وإغراء، ثمّ أرعشت حاجبيها  
المزججين في ابتسام وقالت:

- آه منك آه. لكم تغضب على أمك بغير سبب  
كأنها غير التي أحببتك ودلّلتك. أتدعي الفقر وأنت



- لم أنس نصيبي وأنا في أسبوط فابتعت لها حلينا عاجية وطباقاً فاخرة وبخوراً لطيفاً أرجو أن يوافق «أسيادها» (وضحك ضحكة عالية)... وأبي؟.. كيف حاله؟

- كعهدك به.. عبادة في البيت، وزيارات لبيوت الله، وما قد أدنتنا الظروف من سيدنا الحسين فطوبى له!

فقال رشدي مبتسماً:

- لَكُمْ أدهشني انتقالكم إلى الحسين!

وهنا بلغنا فناء المحطة ريثما استقلنا عربة، ونقد الشاب الخيال أجرته ثم سارت العربة سيرتها الثملة المريحة تحترق ميدان المحطة التراموي الأطراف فأجال الشاب فيه عينيه العسلتين الجميلتين، فتخاطفت السيارات والعربات والترامات والمارة ناظرية، فنقر بإصبعه على جبهته وقال:

- يكاد رأسي يدور، وكأني أرى الترام والمترو لأول مرة. أتذكر نادرة الريفني الذي جاء مصر لأول مرة فلما أشرف على هذا الميدان ريع وفزع، ثم تراجع إلى القطار وهو يقول متأسفاً: «جئت متأخراً فاهل البلد يرتحلون!».

فضحك أحمد الذي تلذذ فكاهة الشاب ونوادره وبساطته. ومن حسن الحظ أن رشدي لم يكن «جامعياً» بالمعنى العميق - فلا يطرق موضوعات العلم ولا يذكر اصطلاحاته - وإلا لوجد فيه نوعاً من «أحمد راشد»، وأجل من هذا أن الشاب كان من المخدوعين في ثقافة أخيه فظنه عالماً متفهماً وأمس بعقله كما يؤمن به الآخر. أما أحمد فسر بإيمان شقيقه به، ورأى فيه رمزاً حياً لإيمان الجامعة المصرية بعقريته العاصمية! قال الشاب بحماس:

- القاهرة نعمة من نعم الله، هي الدنيا والدين، الليل والنهار، الجحيم والجنة، والغرب والشرق. كان النقل معجزة!

- لا بد أنك ضقت ذرعاً بأسبوط!

- كما ينبغي أن أضيق ذرعاً بأي مكان غير القاهرة! فتفحصه بنظرة ثاقبة وقال:

متمهلاً، وما عثم أن ذاع ضجيج فاهتزت له جوانح الأرض، وملاً منظره الأعين. وأخذ يقترب رويداً رويداً وقد امتلأت نوافذ عرباته بالرءوس المتطلعة حتى وقف شاغلاً الرصيف الطويل وهرع نحوه المنتظرون. وجرت عينا الكهل على النوافذ وهو يزحم المتدافعين حوله حتى ظفر بضالته في مقدمة عربة من عربات الدرجة الثانية، وكان الشاب القادم يعطي حقيته لأحد الخمالين، فهتف أحمد باسمه ولوح له بيده وهو يدنو من العربة. فالتفت الشاب إليه، ثم قفز إلى الأرض فصار تلقاء شقيقه. وسلم الأخوان بحرارة، وشد أحمد على ذراع الشاب قائلاً:

- حمدًا لله على السلامة. كيف حالك يا رجل!؟

فقال الشاب بسرور وقد تورّد وجهه المتعب من وعناء السفر:

- الحمد لله يا أخي.. كيف أنت؟.. كيف

الوالدان؟

وسارا جنباً لجنب نحو الخارج يعلوهما البشر. كانا ذوي طول واحد ونحافة متشابهة، ولا يخطئ الناظر إليهما أنّهما شقيقان على ذبول الأكبر ونضارة الأصغر، فملاحمها متقاربة. إلا أنّها بلغت في وجه رشدي مداها من الحسن، وحال بينها وبين ذلك في وجه الآخر إماماً انحراف أو تجهّم أو إعياء. فلرشدي أيضاً ذاك الوجه الطويل النحيل ولكن ليس له خدّاً أحمد الذابلان، وسمرتة - وإن اعتورها شحوب - صافية يجري فيها ماء الشباب، وعيناه مستطيلتان متباعدتان إلا أنّ حدقتاهما أوسع، ونظراتها أنفذ، والتماعها خاطف يدل على حدة المزاج وروح الفكاهة والجلسارة. سارا متكاتفين، وسرعان ما شعرا بديب الرغبة في الكلام يتحرك في أعماقها شأن المتقابلين بعد فراق طويل، فلم يدريا ماذا يتركان وماذا يأخذان. ثم اهتدى الشاب إلى حديث فسأل أنحاه:

- قبل كل شيء كيف حال نينة؟

- كما تحب أن تكون. وما زالت تجري وراء رغبات الأطفال دون مبالاة بإرهاقي، فتقدم يا بطل وخذ نصيبك!

## خان الخليلي ٥٧١

- والعفاريت عقيدة وإن لم يتفق لي رؤية أحدها  
على طول عهدي بالطرقات المقفرة في الهزيع الأخير من  
الليل.

- الإنسان هو شرّ العفاريت. انظر إلى الحرب!  
فضحك رشدي، وذكرته الحرب بأمر الانتقال من  
السكاكيني، فقال:

- هكذا أجبرنا الإنسان العفريت على هجر حينا  
القديم، يا عجبا. . ألا تعلم يا أخي بأنه لم يسبق لي  
أن رأيت خان الخليلي هذا!

فتبّه ذكر «خان الخليلي» في قلب الكهل سرورا  
عميقا، وهزّ نفسه حنانا فقال:  
- ستراه صباح مساء!

- أكان الحال خطيرا لحدّ أوجب الهجرة؟  
- نعم كان. وحسب كثيرون أنّ الغارات ستستمرّ  
بوحشية تودي بالقاهرة كما أودت بلندن وروتردام  
ووارسو، ولكنّ الله سلّم. وكان الوالد في إعياء خطير  
فلدنا بالفرار!

فهزّ الشاب رأسه أسفا، ولاحت منه التفاتة إلى  
الطريق فرأى ميدان الملكة فريدة والعربة تعبر جناحه  
إلى شارع الأزهر! فدعا منظره مواعيد غرام لا تنسى،  
هفتّ على قلبه كما تنسّم ريح على جمرات ناعمة،  
فابتسمت أساريه وهزّه الطرب. ثمّ استطرد متسائلا:  
- وكيف وجدتم المقام الجديد؟

لو طرح عليه هذا السؤال قبل لما وسعه الكلام دما  
وقدحا، أما الآن!!

- انتظر حتّى تراه بنفسك يا رشدي، وستألفه ولو  
بعد حين.

- والجيران؟  
- أوه. . . غالبيتهم من أهل البلد ولكنّ كثيرين من  
سكان العمارات الجديدة من طبقتنا!

- وهل وجدت فيه مكانا صالحا للتفكير والدراسة؟  
فسره السؤال، كما ينبغي أن يسره كلّ ما يذكره بأنه  
«مفكر». وقال:

- يقول المثل «البس لكلّ حال لبوسها» ولذلك  
تجدني أفضل أن أمضي أول الليل في القهوة مع بعض

- السجن مفيد لأمتالك، ومع ذلك فأني لا أرى  
أي الراحة في وجهك!

فابتسم الشاب عن أسنان بيضاء منتظمة وقال  
كالساحر:

- إذا اجتمع موظفان في بلدة كانت مائدة القمار  
ثالثها!  
فتتبدّ أجد قائلا:

- أفضي أن تُحرم من نعمة النوم أبدا؟!  
- نعمة النوم؟! . . النوم في الحقيقة نعمة! . . إنه

اختلاس جزء طويل لا يقوم بمال من حياتنا القصيرة!  
- أنت لا تدري ممّا تقول شيئا!  
- أنت يا أخي رجل حكيم، وأنا شاب مجنون،

وهذه هي فلسفة المجانين.  
- إذا ستعود إلى . . .

- يا بئذ تعالي! . . . قابلت في أسيوط رجلا مولعا  
بالضحك كان يقول إنّ غذاء الصحة الحقيقي هو  
المرح، فإذا صحّ ذلك فالعريضة من أنفس الفيتامينات!  
- وإذا لم يصحّ؟!

- فلندعُ الله أن يكون صحيحا. ولكن قل لي متى  
كنت سمينا؟!

- أنت تعلم أنّي لا أكف عن التفكير والدراسة!  
- هذا حقّ. وربما كانت النحافة - أيضا - طبيعة في  
أسرتنا!

- ووالدتك؟!  
فضحك رشدي حتّى بدت نواجذه، وخلع طربوشه

عن شعر لامع ينشّق وسطه عن مفرق أبيض جميل،  
وقال وقد رقق الحنان نبراته:

- ولكنّها صناعة العطار! كم شاقّتي رؤيتها! أما  
تزال تذكر الزار؟  
فقال أحمد بتأقّف:

- كفت عن ذكره صراحة، ولكنّها ربّما شكّت -  
عرضا - قسوة من حالوا بينها وبينه!  
- أمنا لطيفة كالملائكة لأنّها لا تغضب، ولا أكاد

أذكرها إلّا راضية أو ضاحكة.  
فابتسم أحمد، واستطرد رشدي:

بعد قضاء سهرته بينهم - على قطع طريق طويل إلى هذا الحيّ ثمّ التخبّط في طرقاته ليلاً وهو ثمل! ونفخ من الغيظ، ووطن نفسه على حمل آله على العودة إلى بيتهم القديم أو إلى آخر قريب منه مهما كلفه ذلك. ثمّ فتح حقييته واستخرج ما فيها، ومضى يهيم صوان ملبسه مترنماً - كعادته - بإحدى أغنيات عبد الوهاب، وغير ملبسه ثمّ غادر الحجرة إلى الحتام - وهو يواجه الحجرة على الناحية الأخرى من الردهة الطويلة الضيقة - فاستحمّ بالماء البارد ليزيل عن نفسه غبار السفر ونصبه، وعاد إلى حجرته أجمل منظراً وأطيب نفساً، وأغلق الباب وراءه - ليعلو صوته بالغناء إذا أراد - وفتح النافذة ودهن شعره بالفزلين وسرّحه بعناية فائقة، وتعطر بعطر البنفسج الأثير لديه فصار في أحسن حال. وانجذب نحو النافذة فدفق منها ليرى على أيّ منظر تطلّ. فرأى الممرّ الضيق في أسفل يؤدي إلى خان الخليلي القديم، واعترض مدى بصره فيما يواجه جناح العمارة الثاني، فضاقت صدره وخال أنّه رُمي به إلى أعماق سجن. أين من هذه النافذة نافذة حجرته بشارع قمر المشرفة على ميدان السكاكيني حيث لا تغيب عن عين الناظر أسراب طباء اليهود، وتهدّ محزوناً، ثمّ أجال بصره في ما حوله، فانجذب البصر نحو نافذة تقابل نافذته من عل - على جناح العمارة المواجهة له - انفتحت على مصراعيها، وظهر فيها وجه فتاة، وجه حسن تزينه عينان تقطران خفة وسداجة، فالتقت عيناها، وفي نظرة إنكار من ناحيتها ونظرة تفحص - تفحص الصائد لصيد اعترضه - من ناحيته، ثمّ شقّ عليها تفحصه الثاقب فخفضت بصرها وتراجعت في استحياء فابتسم ابتساماً رقيقة وانبسبت أسارير وجهه متأثراً بملاحة محياها وتحير نظرتها العذبة، ولم يزايل مكانه ولا حول عينيه عن النافذة منتظراً عودتها، لأنّه من الطبيعي - في نظره - أن تحاول معاودة النظر إلى جارها الجديد ذي النظر العارم بغير تردد ولا حياء. ولبت على حاله من النظر والانتظار تحدوه رغبة وصبر وعناد، حتّى ظهر رأس الفتاة مرّة أخرى في حذر، فالتقت العينان خطفًا، ثمّ

الصحاب الجدد حتّى إذا كفّ الراديو أو سكنت الضوضاء عدت إلى حجرة الدراسة! فضحك رشدي قائلاً:  
- أعرفت أخيراً الطريق إلى المقاهي؟  
فقال الأخ مبتسماً:  
- تلك مقتضيات المقام الجديد!  
ووقفت العربية عند مدخل خان الخليلي، فغادرها الرجلان وتبعهما الحوذني حاملاً الحقيبة. ولما ولجا التيه قال أحمد:  
- انتبه جيّداً إلى ما يحيط بك، واحفظ المسارب عن ظهر قلب وإلا ضللت في معارجها!  
واقتربا من العمارة، ورأى أحمد أمّه تطلّ من نافذة حجرته فلكرز شقيقه في ذراعه مشيراً إلى النافذة، فرفع الشاب رأسه فوجد أمّه وقد عصبت رأسها بمنديل بيّ وأخذت زيتها كأنما هي عروس تتصدى لعريسها، وما إن التقت عيناها حتّى فتحت له ذراعيها لتدعوه إلى حضنها. وقبل فوات دقيقة كان بين ذراعيها البصّتين في عناق حاز.

- ١٧ -

وجلسوا جميعاً حول المائدة - وقد جاء أبوه أيضاً ولثم الفتى ظاهر يده - وأخذوا بأسباب الحديث في شوق ولذّة، فتكلّم الشاب عن أسبوط وأهلها والغربة والحنين إلى الأهل والوطن، وتكلّم الأب عن الغارة والمشاعل التي أسقطتها الطائرات، وحدثته أمّه عن جاراتها والمعلّم نونو وأزواجه الأربع، ثمّ لاحظت المرأة أنّ وزنه لم يزد رطلاً واحداً، وانتقلت إلى الكعك فبشّرته بأنّه سيأكل كعكاً لذيذاً لن يذوق مثله أحد في مصر جيّعا، ثمّ سارت أخيراً بين يديه إلى حجرته. وعندما خلا الشاب إلى نفسه لم يعد يحاول إخفاء استيائه فلاحت أماراته في وجهه الجميل، وقد انقبض صدره منذ رسم الخطوة الأولى على عتبة خان الخليلي، فلمّا دخل الشقة هاله ضيقها، وأيقن أنّه لن يطمئنّ له جانب في هذا المقام الجديد، وضاعف من سخطه أنّ أصحابه جميعاً في السكاكيني وما حوله وأنّه سيرغم -

تراجعت الفتاة فيها يشبه الضجر، فضحك ضحكة

خافتة وتحولت عن النافذة مبتسماً راضياً، ثم جلس على كرسي مكتبه الصغير مغمغماً «هذا أول شيء حسن نصادفه في حيننا البائس!» وتفكر قليلاً وهو يتقر بأصابه على مكتبه وقال لنفسه «هي جارتنا بغير شك... وحجرتها جارة لحجرتي!» واستدعى صورتها فأقر لها بالحسن والخفة، وسر بها سرور إنسان بشيء نفيس صارت ملكيته إليه. وكان في الحب ذا ثقة بنفسه لا حد لها، ثقة مرجعها السير من فوز إلى فوز، وبطانتها صبر طويل وإرادة لا تلين ولباقة في الطبع والصنعة، فربما صبر - دون أن يكف عن الإلحاح والسعي والمطاردة - يوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر وعاماً - إن شئت - بعد عام حتى يظفر ببغيته. ومن أقواله الماثورة في الغزل «لا يجوز لمن يتصدى للحب أن يعرقل (جهاده) بالحياء أو بالجزع أو بالخوف، أنس كرامتك إذا كنت في أثر امرأة. لا تغضب إذا عنتك ولا تحزن إذا سبتك، فالتعنيف والسب من وقود الحب. وإذا ضربتك امرأة على خدك الأيسر فأدِر لها خدك الأيمن وأنت السيد في النهاية!» وقد حمله الهوى يوماً على مغازلة فتاة شמוש ذات صون وإباء فلما أن طال به المطال دون لين من جانبها أو ميل قال لها بهدوء «أنا رذل سمج بارد لحوح، هيهات أن تقصيني نظرات التأديب أو كلمات التأنيب، كلاً ولا الضرب ولا الشرطة، وسأرغمك على تكليمي اليوم أو غداً أو بعد عام أو بعد قرن، فاختصري الطريق ما دامت النهاية محتومة!» هكذا كان. وقد جلس متفكراً يسائل نفسه: ترى أي نوع من الحسان هي؟.. أجسورة مستهتره يشق على المغرم ترويضها؟ أم محنكة مجربة يستحيل اللعب بها؟.. أم ساذجة حيية تجشم الصبر محبها؟. وما من شك في أن خان الخليلي يندو محتملاً لطيفاً بفضل هذه الأنثى وشبيهاها. ثم وضع راحتيه حول قذاله كمن ينوي الصلاة وتمتم قائلاً: «بسم الله الرحمن الرحيم، نويت الحب، والله المستعان!».

واعترم الحب حقاً، ولكنه لم يدر له بخلد أي طعنة وجهها - باعتزاه - إلى سعادة شقيقه الأكبر الذي يحبه

- ١٨ -

وأسلم جسده للرقاد بعد ليلة شاقة - قضاها في القطار - فلم يترك النوم فيها جفنيه إلا لماماً. واستيقظ من نومه العميق عند منتصف الرابعة مساءً، فجلس في الفراش متاثباً مفتحاً عينيه - لأول مرة منذ عام - على نور القاهرة الضاحك. تذكر أمر نقله من أسبوط فطاب نفساً واستلذ الذكر. وكانت تغشى الحجرة سمرة قائمة فنهض إلى النافذة وفتحها، وذكر لتوه الفتاة السمراء المليحة، فصعد بصره إلى نافذتها، ولكنه وجدها مغلقة، فغادر الحجرة إلى الخارج وكان أبوه نائماً، وأمه تنظف السمك تهينة لقلبه، فوقف على عتبة المطبخ يحادثها قليلاً، ثم مضى إلى حجرة أخيه. وكان الكهل واقفاً وراء النافذة فلما شعر بمجيء أخيه تحول عنها بسرعة - ولم يدر الآخر كم كلفه ذلك - وتلقاه بابتسامة حلوة، ثم جلسا معاً، أحمد على الشلثة ورشدي على الكرسي.

وتحادثا حديث أخوين متحابين جمع بينهما اللقاء بعد أن كانا شتيتين. ذكر رشدي ما علم قديماً من رغبة شقيقه في التأليف فسأله:

- ألم تشرع في التأليف يا أخي؟

فوخزه السؤال، ولكنه لم يعي بالجواب فقال:

- رأسي مترع بالمعارف، فأيتها اختار وأتيا أذع! والحقيقة أنني لو أردت التأليف فني وسعي أن أملاً مكتبة كاملة؟. ولكن ما الداعي لمثل هذا الجهد؟.. هل هل يستأهل هذا الشعب التأليف بمعناه الحق؟.. هل يمكن أن يرضيه؟ ألا إنهم رعا يعرون رعاغاً!

فقال رشدي وكان يؤمن بما يقول أخوه دائماً:

- خسارة أن تضع أفكارك القيمة!

فقال أحمد وكان يؤمن كذلك بما يقول، كأنه نسي ما يدور بينه وبين أحمد راشد من نقاش:

- أنا من السابقين لزمهم، فلا يرجي لي أي تفاهم

مع الناس، فلكل شيء في الدنيا عيوب حتى التعمق في العلم!

استبدادًا نسأهم الوقت والواجب والمستقبل. فالقهار تسلية مخيفة ولذّة أليمة وشهوة مجنونة. هو معاينة الغيب، ومراودة الحظّ، وطرق باب المجهول، ودغدغة غرائز الخوف والهجوم والتطلع والمجازفة والطمع. ثمّ إنّه بعد ذلك صدّي لذكّ الشعور - شعور كفاحنا اليوميّ - المستمدّ ممّا نبذله من قوّة وتقدير في معالجة الحياة، وما نخاطب به الأقدار المسيطرة علينا، وما نرجوه من الحظّ والظروف الملائمة لنا، وما يتعاقبنا من الظفر والخسران. ولَكَمْ تَمَّتْ في أحيان كثيرة لو لم يفارق المائدة طوال عمره!. ومن عجب أنّه ما من مرّة فصل عن المائدة - في ختام ليلة متعبة مرهقة - إلّا وتَمَّتْ لو يتوب الله عليه، فإذا أزف الميعاد في اليوم الثاني هرع إلى الكازينو لا يلوي على شيء. وهكذا تَمَكَّن الداء العضال منهم جميعًا وانقلب القتاتلون للوقت ضحايا! وصار واحدًا من المقامرين في عبادة الحظّ والخضوع للطيرة، فرمّا قال لنفسه وهو بهمّ بفتح النافذة في الصباح: «إذا لقيت عددًا زوجيًا من السابله فالحظّ معي أما إذا كان فرديًا فالיום خسارة!» أو ربّما حدث نفسه وهو ماض إلى مائدة الإفطار: «إذا وجد فوّلًا بسمن فاليوم رايح أو فوّلًا بزيت فالיום خاسرا». وانقطع تيار الذكريات عندما غادر الترام، ثمّ استقلّ الترام رقم ١٠، فجرى به في الطرق المؤدّية إلى حيّه القديم، فاستثار حنانه، ولمّا شارف السكاكيني شعر بألم نبيل ووجد شريف يقرضان في شغاف قلبه، وغادر الترام وأنجبه إلى الكازينو، وفي المكان المعهود من الحديقة رأى الأصدقاء - أو رأى أشباحهم لأنّ الإظلام كان تامًا - فأدرك أنّه وصل في الوقت المناسب - قبل أن يذهبوا إلى هبو اللعب - وأخذ يقترب منهم مبتسمًا حتّى صار في وسطهم، فعرفوه وصاحوا معًا:

- رشدي عاكف؟ أهلاً بقلب الأسد!

وسرّ بسماح لقبه العزيز - وقد عرف به بين اللاعبين لكثرة مجازفاته - وتعانقوا عنانًا حارًا. وكانوا جميعًا - مثله - في منتصف العقد الثالث، منهم من زامله في المدرسة أو من نشأ معه في السكاكيني، وكانوا جميعًا في المجون والإباحيّة والعريضة شخصًا واحدًا. قال أحدهم:

- ولكن هل ترضى يا أخي أن يضيع هذا الجهد العظيم بلا أثر يتفجع به الناس؟!.

فسرّ الكهل بكلامه سرورًا عوّضه عن ترك النافذة منذ حين، وقال:

- منّ يعلم يا رشدي؟ فعسى أن أعدل عن استهائتي يومًا ما!

ولبنا يتحدّثان حتّى انطلق آخر مدفع إفطار، ثمّ جمعتهم مائدة رمضان الأخيرة فقدمت صحاف السمك التقليديّ وأكلوا هنيئًا وشربوا مرثيًا. وبعد شرب القهوة مباشرة ارتدى رشدي بدلته وغادر البيت لا يلوي على شيء. وقد أراد أن يصل إلى كازينو غمرة في الوقت المناسب، أو بمعنى آخر يبلغه قبل أن يتحلّق أصحابه - وهم يجتمعون بالكازينو كلّ مساء للشراب ولعب الورق - المائدة الخضراء وفي التعجيل حكمة لا تخفى على من كان مثله، فليس من شأنه أن يجد مكانًا حول المائدة فحسب، ولكنّ اللاعبين - كذلك - إذا انهمكوا في اللعب لم يحفلوا باستقبال قادم ولو كان قدومه بعد فراق عام كامل! وأجمل ما يجودون به تحيّة مقتضبة وعيونهم لا تفارق الورق، فإذا اضطروا إلى قطع اللعب لمجاملة قاسرة فويل للقادم من لعن ضائرتهم وسخط سرائرهم. وفضلاً عن هذا فالداخل على لاعبين - أثناء لعبهم - يعدّ يمينًا على الفائزين وشوّمًا على الخاسرين، فلن يخلو الحال قطّ من أن يجد فريقًا يرمقه شزرًا. وقد اكتسب بعض إخوانه - بسوء المصادفات - سمعة سيّئة، منهم محامٍ شابّ يقول عنه الصحاب إنّه إذا وجد بمقربة من لاعبين خسروا جميعًا ولم يربح أحدًا!! والمقامرون شديدي الحساسيّة، كثيرو الوسواس، يؤمنون بالطيرة ويعبدون الحظّ. وقد استقلّ ترام الأزهر والذكري ترجع به إلى زمان تلقينه مبادئ المقامرة. كان ذلك وهو في أولى سني دراسته بكلّيّة التجارة، فدعي إلى اللعب على أنّه تسلية بريئة للفراغ. ثمّ رُئي أن يراهنوا على ملاليم، لا لمطمع في ربح، لأنّ المليم عملة تافهة، ولكن لتأريث الحماس وبعث الاهتمام، وسرعان ما صعدت الأرقام حتّى أتت على ما في جيوبهم جميعًا، واستبدّت بهم شهوة اللعب

## خان الخليلي ٥٧٥

- ترهّن يرفلن في الحرير فإذا اعترضت سبيل  
إحدهنّ رمتك بنظرة شزراء وقالت لك بلهجة  
اسكتلنديّة صميمة:

Behave like a gentleman, please,

- الخادّات يا سيّد رشدي، سقيًا لعهودهنّ،  
هجرن المطابخ إلى الكباريات!  
- كانت الحرب فرصة طيبة لاكتشاف مواهبهنّ  
الفيّة!

قال رشدي - كالمحتبر - مبتسمًا:

- والعمل؟! . . . هل نشرع في الزواج؟!  
- إذا طالت الحرب، وازدادت الحال سوءًا على  
سوء، فلن يبقى أعزب. غير أنا وأنت!  
- يا إخواني لقد ظلمتم بعض اليهوديات وبعض  
الخوانم، والحقيقة أنّهنّ هالهنّ ما رأين من عدم اشتراك  
الأمّة في الحرب فساهمن في قضية الحلفاء بأعراضهنّ!  
- وبذلك صارت المرأة أعلى من السهاد!  
- بل أعزّ من الفحم!  
- وغدًا إذا وضعت الحرب أوزارها، فماذا يفعلن؟!  
- تصير المرأة أرخص من اليابانية!  
- ويصير العشق بالجملة، فيصيد الشاب في ليلة  
واحدة ثلاث نساء - مثلًا - واحدة للقبل وأخرى  
للتجوى وثالثة للمداعبة إلخ . . .  
- إلا إذا تدخّلت الحكومة في سوقهنّ للمحافظة على  
الأسعار!

وضحك رشدي ضحك إنسان حرم شهود هذا  
المجلس عامًا بغير نقصان. ولبثوا يشربون ويتسامرون  
حتّى وافت التاسعة فنهضوا إلى بهو اللعب المحبوب.  
في تلك الليلة ربح رشدي مبلغًا كبيرًا - أو هكذا يعدّ  
بينهم - فبلغ ربحه في منتصف الثانية عشرة، ثلاثة  
جنيهات، وأضاف إليها ثلاثين قرشًا حين شارفت  
الثانية عشرة - وهو موعد انتهاء السهر - ثمّ انفضّوا من  
حول المائدة. وبدأ اللعب فرحًا مسرورًا، لأنه ممّن تقرأ  
سرايرهم على صفحات وجوههم. وجعل يترنّم  
بصوت حنون كالمناجاة، ولم يمك عن الترنّم حتّى  
حين صاح به أحد الخاسرين: واصمت يا أخي

- أهكذا لا نراك إلاّ مع العيد وقد كُنّا لا نفترق ليل  
نهار!

فقال رشدي ضاحكًا وهو يتخذ مجلسه:  
- ستراني منذ الليلة كلّ يوم، أو منذ اليوم كلّ ليلة  
على الأصحّ!  
فسأله آخر:  
- وكيف كان ذلك؟  
- صدر أمر بنقلي إلى القاهرة!  
- ولن ترجع إلى أسيوط؟  
- لا.  
- الله لا يرجعك!  
وسأله ثالث:

- وكيف سلوت عن المائدة عامًا طويلًا؟! . . . لكم  
أوحشتنا نقودك!  
- لأسيوط موائدها، أمّا عن الأخرى فالشوق  
متبادل!

ودار الحديث عن أسيوط، حتّى سألهم بلهفة:  
- كيف تسهرون هذه الليلة؟  
- كالليلالي التي سبقتها، سننتقل عمّا قريب إلى البهو  
الداخليّ . . .  
- هذا جميل، ولكنّ ماذا تقولون في كاسيّ كونيك أو  
ثلاثة؟

- أو أربعة أو خمسة؟  
- أو ستّة أو سبعة؟  
ولكنّ واحدًا منهم قال مقترحًا:  
- العيد غدًا فلنؤجّل السكر إلى غد!  
- لا نؤجّل عمل اليوم إلى غد!  
وسأله سائل:  
- وكيف الفسق في أسيوط؟  
فقال رشدي:  
- أمّا عن هذا فلا، هناك عفة بالإكراه!  
- الحال هنا بات قريبًا من الريف، فجنود الحلفاء  
يلتهمون اللّحوم والفاكهة والنساء!  
وقال آخر:  
- واليهوديات عرفن أخيرًا مزايا اللغة الإنجليزيّة!

ضعيفاً كإرادته سواء بسواء، فالمقامر المدمن يلقي الخسارة عادة بهدوء ولن يعدو الأمر في نظره التسليم في يومه وعقد الرجاء بغده. وتبته إلى طول الطريق وقذارته فتأوه مغيطاً محنقاً. ولما بلغ مدخل خان الخليلي ذكر وصف شقيقه للطريق «ثاني ممر على اليمين وثالث باب على اليسار» وتلمس سبيله في الظلمة حتى انتهى إلى العمارة، ومضى إلى حجرته بأقدام خفيفة وأضاء المصباح، وما إن وقعت عيناه على النافذة المغلقة حتى تذكر النافذة التي تشرف عليها من عل، وجاد نغره بأول ابتسامة صادقة منذ منتصف الليل، وطاف بمخيلته الوجه الأسمر المليح، فتأتى عن هموم الليلة جميعاً، وتمتم قائلًا: «إذا كان سوء الحظ مؤلماً فحسبه غير منكور» وغير ملبسه، ودلف من مكتبه فاستخرج من أحد أدراجة كشكول مذكراته، جلس ليدون خاطرة، قبل النوم . . . .

- ١٩ -

وكان الأب أول المستيقظين، فتوضأ، ثم غادر البيت حين الفجر ميمًا المسجد لصلاة العيد. فاستقبل أول نسمة من نسبات اليوم الجديد، ورأى الفجر الجميل يضحّ بعجموع القاصدين، يخوضون أمواجه البنفسجية الخالدة مسبحين بحمد الله العليّ. وكان أحمد ثاني المستيقظين، فنهض نشيطًا حبورًا، وحلق ذقنه بعناية، وارتدى جليابًا جديدًا وطاقيّة جديدة. ثم وافته أمه إلى حجرته وقد مسّطت شعرها وأخذت زيتنها، فقبل يدها، وقبل خدّها، وقبلت خديّه، ودعت المرأة للأسرة بالعمر المديد والسعادة والرفاهية، ومضيا معًا إلى الصلاة وجلسا جنبًا إلى جنب يتحدثان ويتنظران بقية الأسرة، من انطلق منها يتنغي مرضاة الله، ومن يغط في نومه غطيًا. وعاد الأب بعد مشرق الشمس بقليل، فدخل عليهم يرفل في عباءته الفضفاضة، وما يزال يبسم ويجوقل. فمثلا بين يديه، ولثمت الزوجة يده، وفعل أحمد مثلها. فهتأهما الرجل بالعيد، وجلسوا جميعًا وهو يقول:

فصوتك يهيج أعصابي! . وعلى أثر انطلاقهم في الطريق اقترح أحدهم قائلًا:

- ما رأيكم في أن نكمل اللعب في بيتنا؟

فقالوا في صوت واحد:

- هو كذلك!

فسأل المقترح رشدي قائلًا:

- وأنت؟

فقال الشاب ضاحكًا:

- أوافق تحت شرط أن تطلقوا لي حرّية الغناء!

ومضوا إلى بيت الداعي في شارع أبو خوذة، وهيتوا المائدة، واستأنفوا اللعب بهم لا يشبع. ودفنت الحجرة المغلقة النوافذ بأنفاسهم، والتهب الكحول بأفئدتهم، فتصبّوا عرقًا، وعندما دقت الساعة الثانية بعد منتصف الليل قال بعضهم:

- حسبكم لعبًا وإلا قضينا نهار العيد الأوّل نائمين!

فكفوا عن اللعب، وقد خسر رشدي ربحه جميعًا

وثلاثين قرشًا أخرى!

وقال له أحدهم متهكّمًا:

- كيف لم تتمتع بما منحناك من حرّية الغناء!؟

وضحكوا جميعًا، فدارى بكياسته غضبه وجاراهم في ضحكهم. وودّعهم عند ذلك ومضى إلى العباسية، وقد انقطعت المواصلات جميعًا، مدبجًا من طريق الحسينية، ووجد الطريق خاليًا والسكون مطبّقًا والظلام جائئًا. وكان جسده ساخنًا مبتلًا بالعرق وحلقه يابسًا، فاضطدم برطوبة كثيفة يزفرها الخريف بغزارة - خاصة - في الهزيع الأخير من الليل. وما غتم أن سرت في أطرافه قشعريرة باردة، ولسعت البرودة صدره، وزكم منخره. وكانت ليلة السرار وقد احلولك غبشها، وضاعف من غلظه انتشار سحاب دثر النجوم الساهرة، فلاحت المنازل القديمة على جانبي الطريق كأشباح جالسة القرفصاء ذاهبة في سبات عميق. وجعل يحدث نفسه: أما كان الأجر أن يعتذر عن عدم المضيّ معهم إلى البيت؟ ولكن هيهات أن يلهم الحكمة يومًا ما! بيد أن أسفه كان

## خان الخليلي ٥٧٧

والدقيق دقيق والكعك كعك!  
وأدرك رشدي ما ترمي إليه والدته فقال بلباقته  
المعهودة:

- كعكنا لذيذ فلا يدع لنا حاجة للتحسّر على سواه؟  
وتفرّقوا في الحجرات. وعاد أحمد عاكف إلى حجرتة  
وكان قلب الكهل يخفق بروح الشباب النشوان، بل  
كان كذلك منذ كاتفتته بتحيّة الوداد ليلة القدر فلم  
تغب عن مخيلته قط صورة شبّحها الرقيق وهي تجود  
بإيماءة السلام، ولا أخذت بعد ذلك العواطف التي  
بعثتها تلك الإيماءة الساحرة. فرح الكهل، واستخفّه  
الطرب، وهباً له مرحة وطربه أنّه سيستردّ شبابه الريان  
فيخضّر غصنه الباهت ويجري فيه ماء الحياة الدافق،  
ويسودّ فوداه، وتغشى صلعتة لمة قينانة، وتغزّر  
أهداب عينيه فتكحلّ أشفارها المشرّبة بالاحمرار بيّد أنّه  
لم تقع عليها عيناه منذ تلك اللحظة السعيدة، وتغيّبت  
عن موعدها المألوف المحبوب، فلم يشكّ في أنّه  
الحجل الذي يتشجّع بالظلمة ويفرّ من ضوء النهار،  
فدرّت أضلعه حنّاناً وعطفاً - ومن أدري به منه بأهوال  
الحجل - وسرّ سروراً كبيراً إذ وجد أخيراً من يستتر  
عنه - هو - حياءً! ولكن هذا صباح العيد وقلبه يجدّته  
نأتها لن تبخل عليه بنظرة تسرّ الروح وتحيي الأمل.  
وها هو يرفع رأسه فبرى الشرفه مفتوحة على مصراعها  
والشمس تغمرها فيشي لألاؤها بالوجه الذي أطلّ  
منها، ولبت ينتظر مجيلاً بصره في الحيّ الفرحان  
بالعيد. وقد بثّ روح العيد في كلّ شيء قرأها في  
الألوان وتسمعها في الجوّ وتشمّها في الهواء، وغدا ذلك  
التيه - الذي تحدّه العمارات - يرقص فرحاً ويغني طرباً  
ويبعث بحرارة اللذات. جرى الأطفال هنا وهناك  
بشبابهم المزركشة ذوات الألوان الفاقعة، وتطايرت  
وراءها الضفائر والشرائط، وهفت الزمّارات،  
وفرقت قنابل السلام ولاكت الأفواه الحلوى  
والنعناع، وملأت الأناشيد والأغاني الأسماع، واكتظت  
المقاهي بأهل المدن والريف، فازدهت الأرض عيداً  
والسماء. وتصفّحت عيناه المناظر والوجوه بعقل  
غائب، حتّى جوزي على صبره أجمل الجزاء، فرأى

- كلّ عام وأنتم بخير. ربّنا يجعله عيداً سعيداً لنا  
وللمسلمين كافّة.

ورمى ببصره الذابل إلى آخر حجرة في الشقّة وقال  
كالمتهكّم:

- هل استيقظ الغلام أو أنّه لم ينم بعد؟!

فبادرت المرأة للدفاع - كعادتها - قائلة:

- تأخّر الغلام أمس لأنّه لقي إخوانه بعد فراق  
عام، ولأنّه عاد بطبيعة الحال ماشياً على قدميه.

على أنّه لم يطل بهم الانتظار، فانفتح باب الحجرة  
الأخيرة ومرق منه الشاب إلى الحام الذي يقابله،  
وأقبل نحوهم - قبل مضي ربع ساعة - يخبط في بيجامته  
وقد سرح شعره الأسود، وتعطر بشذا البنفسج، وبدا  
وجهه مائلاً للشحوب إلا أنّه يقطر منه حسن الشباب  
ورواؤه، وتألّق ثغره بابتسامة حلوة لا يضيء بمثلها في  
الأسرة إلا ثغر والدته الطروب. وتجاهل الشاب ما  
ينطوي عليه والده من الانتقاد فاقرب منه، وانحنى  
على يده، وقبلها باحترام، وانثنى إلى والدته فقبل يدها  
وخدّها، ثمّ لثم جبين شقيقه، وبسطت الأمّ راحتها  
وقالت ضاحكة:

- عيديّتي يا سادة وكلّ عام وأنتم بخيراً!

وقد تعود كلّ منهم أن يعطيها نصف جنبة عيدية.  
فكانت تفرح بعيديّتها فرح الأطفال، بل تنفقها كما  
ينفقها الأطفال، فتبتاع ما تشتهييه نفسها من  
الشيكولاتة والملبس.

ثمّ أحضرت فطار العيد - كعكاً وحلياً - فأقبلوا  
عليه في غبطة. والصائم يشعر عادة بغرابة وإنكار  
وحذر وهو يتناول أول لقمة صباح العيد، ثمّ يصيب  
من طعامه جذلاً مسروراً، فليس أجمل وقعاً في النفس  
من لحظة سعيدة بين واجب قامت بحقه وتصبرت على  
أدائه وبين تمتّعها بلذّة الجزاء وراحة الضمير. وتناولوا  
الكعك بأناملهم، وقضموه بلذّة حتّى رسم دوائر من  
السكر حول أفواههم، ثمّ أساغوه بالحليب، وما زالوا  
حتّى شبّعوا، وقالت الأمّ بلهجة أسيفة، تكلفتها  
لستوهبهم الثناء والإطراء:

- يا حسرتاه على أيام السلم حين السلم حين السمن سمن



السابلة وقد انحدرت من الدراسة والعربات الكازو غاصّة بالعلمان والبنات يغثون ويرقصون ويطنلون، قلبت في مكانه عيناً على الشارع المائج تنظر في ابتسام وعيناً على الممرّ ترقّب في رجاء. وكان خبيراً بأمشال ذلك الموقف فلم يساوره الجزع، بيّد أنّ الحال لم يقتضيه صبراً طويلاً فما عمّم أن رأى فتاته تبدو في أوّل الممرّ يسير لصقها غلام عظيم الشبه بها. فتشغل عن النظر إليها بإشعال سيجارة وهو لا يشكّ في أنّها تراه، ولكن هل أدركت يا ترى أنّه ينتظرها؟ ثمّ تبعها عن بعد قريب في طريقها إلى الأزهر فراها جملة لأوّل مرّة وبدت في السادسة عشرة على أكبر تقدير، متوسطة القوام رشيقّة اللفات، بيّد أنّ وجهها أجل ما فيها حقاً، وأجل ما في وجهها عيناها النجلوان. ولم يستطع أن ينعم النظر لأنّها بلغت المحطة مسرعة وصعدت إلى حجرة السيّدات ومعها أخوها - على الأرجح - فاستقلّ الترام وراء الحجرة مباشرة ليتمكّن من رصد نزولها، وتحركّ الترام وهو لا يدري أين تنتهي به المطاردة! وجعل يحدث نفسه: شابّة صغيرة، وجهها ٧,٥ على ١٠ وجسمها ٦,٥ على ١٠، سنعلم بعد حين أيسيرة هي أم عسيرة، وهل تلهو بالحبّ أم تحلم بخاتم الخطوبة؟ سنعلم كلّ شيء في حينه، ولكنّها إذا كانت من الحالمات بالخاتم فسينغدو الأمر شاقاً وربّما مضجراً أيضاً، على أنّه ينبغي أن نركّز اهتمامنا في شيء واحد قبل أيّ شيء وهو أن نستدرجها إلى الكلام ونلنّر ما يكون! ووصل الترام إلى ميدان الملكة فريدة فغادره جميعاً - هي وأخوها أوّلاً ثمّ هو - ولاحت منها التفاتة على الطوار فرأته على بعد ذراع منها يديم إليها نظراته الجسورة الثاقبة، فحوّلت عنه وجهها، وتظاهرت بالانهك في محادثة الغلام، ولم يخالجه شكّ هذه المرّة في أنّها أدركت أنّه يتابعها عن عمد. ثمّ رأهما يستقلّان أوّل ترام قادم - وكان ترام الجيزة - فصعد إليه بغير تردّد متسائلاً: «ترى هل يقصدان إلى قريب في الجيزة ليعيدا عليه؟» وقرّر في تلك اللحظة أن يببها اليوم جميعاً عن طيب خاطر ولكنّها غادرا المركبة عند محطة عماد الدين، فغادرا

فتاته تبرز من باب الشرفة في أبهى حلل، فصعد إلى وجهها الأسمر الجميل ناظره. وتشجّع على غير مألوفه فلم يُطرق، وابتسم وفؤاده يغلي من شدّة الخفقان، وأحسّ رأسه إحناء خفيفة، وكانت تنو إليه بعينها النجلوين، فابتسمت ابتسامة حلوة ردّاً على تحيته، ولم تحوّل عينيها عن عينيها فتولاه الاضطراب والحياء وأوشك أن يفقد شجاعته، ولكنّها ابتسمت إليه مرّة أخرى وتراجعت في خفة حتى اختفت عن ناظره، فتهدّ يارتياح وسرور. ومثاه الأمل أن يراها مرّة أخرى فيفوز بابتسامة ثالثة ولكنّ خادماً جاء متعجلاً وأغلق باب الشرفة، فشمع بخيبة وأسف. ثمّ ابتعد عن النافذة، وكانت الساعة تقرب من التاسعة فذكر أنّه على موعد مع الصحاب في الزهرة - صار أخيراً من أصحاب المواعيد في القهوات - فارتدى ملابسه الجديدة - البدلة والطربوش والحذاء والقميص - ونظر إلى صورته في المرآة فأعجبته جدّته وأناقته وذكر أيام شبابه الغابر - قبل أن يعبس له الزمان - حين عرف دهرًا بالأناقة! وغادر البيت جذلاً طروبًا، فسار متمهلاً ثملاً بخمر الأمل والأحلام، يسائل نفسه في حيرة الفرحان: «وماذا بعد الابتسام؟... ماذا بعد يا دهر؟!»

- ٢٠ -

ورجع رشدي إلى حجرته، فأشعل سيجارة وراح يدخنها وراء النافذة مصوّباً بصره نحو النافذة المرموقة، متوقفاً بين آن وآخر أن يلمح جارته الحسناء. وصدقه الأمل فلاحت الفتاة في النافذة بفسانها الجديد وعلى كتفها معطف رماديّ، إلّا أنّها تراجعت في غير إبطاء كأنّها تفرّ من نظراته الثاقبة. ولمح الشاب المعطف فخطر له أنّها متهيّئة للخروج، فدلف إلى المشجب بغير تردّد وأخذ في ارتداء ملابسه. وغادر البيت بعد دقائق معدودات وسأل نفسه أين يحسن أن ينتظر؟... وذكر لتوّه الممرّ الضيق الموصل بالسكّة الجديدة، وسار نحوه مسرعاً، ثمّ توقف، عند موضع اتّصاله بالطريق، على الطوار. وكان الشارع يضطرب بتيارات

## خان الخليلي ٥٧٩

مسروراً وقد أيقن أنها ذاهبان إلى سينما. وعبروا الطريق إلى شارع عماد الدين، الاثنان أولاً وهو في أثرهما متحفراً لما يشبه الابتسام أو لتضمين نظرتيه ما يريد من المعاني إذا هي التفتت وراءها، ولكتها مضت لا تلوي على شيء ممسكة بيد الغلام الذي هرول ليسير في حذائها، وجعل لا يحول عينيه عن ظهرها وساقها، ويتبين حال مشيتها ومواقع قدميها، فوجد من السرور برويتها من وراء مثلما وجد لرؤيتها من أمام، وأعطى صورتها الخلفية جملة ٨ على ١٠، وتهد عند ذلك متذكراً وجوهاً أبي الحسن أن تُنسى وقال لنفسه: «حقاً فشا الحسن في مصر هذا الزمان الحديث». ولما بلغوا ريت التفتت وراءها فرأت عينيه محدقتين بها فاستردت عينيهما بسرعة - وفوجئ فلم يسعه أن يضمّن نظرتيه شيئاً - وحثت خطاها في اتجاه استوديو مصر، وأسف على ما فاتته من حديث العيون ولكتته سرّ بالسينما التي اختارتها فتاته - لأنها كانت تعرض فيلم دنائير - وأدرك أنّ هذه المطاردة أتاحت له لذتين عزيزتين. وأراد أن يجلس جنبها في الصالة فعمل على أن يقف وراءها مباشرة في الصف الممتد أمام شبّاك التذاكر ليمكّن من اختيار مقعد لصق مقعدها، بينما تنحى الغلام جانباً ينتظر متفرّجاً على الصور، وصار منها على قيد خطوة. فخال أنفاسه تمسّ ضميرتها. فاستثار قربها من صدره إحساساً شبيهاً بما تسثيره رائحة زكية عميقة، وتتبع أمثلتها وهي تختار مقعدين لها ولشقيقها على رسم الصالة، فرأى إلى يمين الكرسيين مقعداً شاغراً وإلى يسارهما ثلاثة، وتساءل تُرى إلى أيّ ناحية تجلس الفتاة؟. وأجرى في سرّه على الناحيتين القرعة المعروفة: «حطة يا بطة يا ذقن القطة عمي حسن... إلخ». فرست «حدها» على المقعد الأيمن فاختره فيها يشبه الاطمئنان. وتحول عن الشبّاك وأجال بصره فيها حوله فلم يجد للفتاة ولا لشقيقها أثراً، بيّد أنّه لم ينزعج فالتذكرة في يده، وهي خليفة بأن توصله إليها مهما ضلّ عنها، ولا يدري كيف ذكّره هذا - قوّة التذكرة - بعقد الزواج وقداسته وسحره فاهترّ صدره الرقيق، ودخل السينما منفعللاً. ومضى به الدليل إلى

- ٢١ -

ومعدت نوال إلى البيت وقد بلغ منها التأثر، راحت تسائل نفسها: ما لهذا الفتى الجسور لا يكف عن مطاردتها مذ وقعت عليها عيناه غداة الوقفة؟ جاوزت نوال في ذلك الوقت السادسة عشرة بقليل.

معنى ولا تجد له طعمًا مثل قوله لها مرة: «يُحِيلُ إِلَى أُنْكَ لا تُحَيِّنُ العلم كما يجب وإن لم ينقصك الاجتهاد أو حسن الفهم فأحبيته كما تُحَيِّنُ الحياة فهو منها بمثابة العقل من شخص الإنسان، وينبغي أن يتغذى به عقلك ويتمثله كما يتغذى جسمك بالطعام ويتمثله. أين الشوق إلى أسرار الوجود؟. أين اللفتة على المعرفة؟. لا يجوز أن يتخلف قلب المرأة عن قلب الرجل في طريق العرفان والمجهول..» وفي مرة أخرى سألتها: «علام نويت بعد البكالوريا؟. أما عرفت بعد العلم الذي ترغبين في دراسته في الجامعة؟» وهالتهها كلمة «الجامعة». أيمتد بها عهد الدراسة حتى الجامعة؟! وأجابته باقتضاب: «لا أدري». فقال لها الشاب ممتعضًا: «أما زلت عند موقفك السليمي من العلم؟!» ولم تفتن إلى أنه يريد أن يصوغها على المثال الذي يحب فحسبت أنه يحتقرها ويزدرها فاشتدت منه جفولاً.

ثم جاء أحمد عاكف الجديد. وقالت الأنبياء إنه أعزب. وشعرت بمزيد الغبطة والسرور أن عينيه تسترقان إليها النظر فتحرك قلبها نحوه كما تتحرك الراحتان نحو مجمرة في ليلة شديدة البرد والزمهرير. وقالت لنفسها: إنه رجل جاوز حدود الشباب. ولكنّه ما يزال في عنفوان الكهولة. ولا بد أن يكون موظفًا محترمًا لأنه غالبًا ما يصير الموظف - في مثل عمره - محترمًا وأيًا كان فلن يسعها أن تغضي عن نظراته الحية التي يرسلها إليها في أدب وتردد، ولا أن تجد لذلك من معنى غير الوداد، وإلا فقيم يثابر على الانتظار والنظر أصيلاً بعد أصيل؟! على أنها تساءلت في حيرة: لماذا لا يخطو خطوة جديدة؟. هلا ابتسم إليها؟. هلا أوماً بتحية؟! تُرى هل يعقل الحياء الرجال كما يعقل النساء؟!.. وإذا كان هذا شأنه فلماذا لا يخاطب أباهها في الأمر؟ أو لماذا لا يكلف أمه بمهمة خطبتها؟! وكانت نوال حية وفي حاجة إلى من يطاردها، فأوقعها حظها على كهل في أشد الحاجة إلى من تطارده! إلا أن شجاعته لم تحبها - خاصة بعد أن يست من شجاعته - فبدأته بالتحية من شرفها وتلقّت رده

وكانت ذات حسن يستحق الإعجاب. وتحلّ حسنها بميزتين لا يُستهان بهما: السذاجة والخفة ولكن آية سذاجة، وآية خفة؟ السذاجة التي توحى بها بساطة الجمال، والتي تظالمها في الحدقة الصافية الواسعة - في غير مبالغة - والنظرة المستقيمة، بيد أنها ليست سذاجة الغفلة أو البلاءة. وخفة تنبثق من أناقة الملامح ولطف الروح، فلا هي إلى الطيش والرعونة تنتسب، ولا من حدة الذكاء وبراعته تستمد. وهي سمراء، وكثيرًا ما تقول أمها إن السمرة روح الجمال ومصدر الخفة، ولكنها كانت في الحقيقة من عشاق اللون الأبيض. ولذلك أخذت تعالج نحافة ابتها بعقاقير السمن لاعتقادها بأن السمن يكسب البشرة إشراقًا. وقد تقدّمت الفتاة في دراستها الثانوية تقدّمًا يبشر بالنجاح، ولكنها انضمت في الواقع إلى قافلة العلم، وليس العلم ما تشدد، ولا المدرسة بالماوى الذي يهفو إليه فؤادها، فأحلامها لا تفارق البيت، ولن تزال تعدّ أمها أستاذتها الأولى تتلقّى عنها فنون الحياة المنزلية من طهي وحياكة وتطريز، وما رأت في العلم يومًا إلا زينة تحلّي بها أنوثتها وحلية تُغلي من مهرها. فتركزت حياتها في هدف واحد: القلب أو البيت أو الزواج. أليست أول دعاء دعيت به «العروس»!.. وأنه لأجل دعاء، وأنها لتلهف على أن تكونه، وترقب حظها في صبر ورجاء. ولذلك قدست الزواج قبل أهليتها له بدهر طويل، وأحبّت «الرجل» وهو أمل مجهول وعاطفة غامضة. فكانت ثمرة ناضجة دانية القطوف ترصد من يجنيها. وكان الأستاذ أحمد راشد المحامي أول رجل - من غير محارمها - يتصل بها عن كسب لإعطائها الدروس. وتلقته منذ أول مقابلة باستحياء، ورمقته بعين ملؤها التطلع والرجاء، فلم يتمثل لعينيها «أستاذًا» بقدر ما تمثل لها رجلًا ولأن قلبها وأوشكت الحياة تنبض به. بيد أن الشاب المحامي كان صارمًا رزينًا أكثر مما ينبغي، وعجزت كل العجز عن أن تقرأ عواطفه الحقيقية وراء عويناته السوداء. ولما تعقب تهاوتها بالتأنيب بدا لعينيها مكفهرًا خيفًا فجفلت منه وخاب رجاؤها فيه. وكثيرًا ما كان يحذنها بكلام لا تفقه له

## خان الخليلي ٥٨١

على تسرعها ببذل التحية للآخر، ولكن هل كانت تعلم الغيب؟ وقلق ضميرها فلم تجد لطاجن العيد ولا، لسمكه طعمًا!..

\*\*\*

وغادرت الشقة عصرًا بقصد زيارة حرم سيد أفندي عارف، وخطر لها أن تصعد إلى السطح - قبل القيام بالزيارة - لتجول جولة فيه مسرحة الطرف بين المآذن والقباب، وقد صار السطح نزهتها بعد أن تعذر عليها مشاركة البنات لعبهن في الطرقات. ودارت مع السور على مهل متصفححة المناظر مقلبة وجهها في الأفاق، وشعرت فجأة بداع يدعوها إلى النظر نحو مدخل السطح، فما راعها إلا أن تراه هنالك يملأ طول فراغ الباب وينظر نحوها في هدوء وفي عينيه الجميلتين شبه ابتسام! . واضطرب قلبها لمراه اضطرابه عنيفة زلزلت صدرها الصغير، وشعرت بخوف وقلق، ثم استعادت رباطة جأشها موقنة بأن الموقف أخرج من أن تلقاه بالحياء فحسب، وتعلقت عينها وهما تنظران إليه بالإنكار والذهول.

- ٢٢ -

ثم حوّلت عنه عينها، وولّته ظهرها، وألقت بصرها إلى الأفق البعيد دون أن ترى شيئًا، وقال لها عقلها إنه ينبغي أن تزايل المكان إذا أرادت ولكتها لم تحرك ساكنًا، وأهاب بها شعور باطني بأن تتجاهل وجوده، وبألا تعجل بذهابها، فلبثت هي لا تريم، وتولّاه إحساس بالحياء والقلق. وتنهّد رشدي ارتياحًا لما رآه من تفضيلها البقاء على الرحيل، وقال لنفسه جدلاً: «أصاب سنّ الشص مرمها، ولكن ينبغي معالجة البلطية بحكمة ومهارة!». وكان علم بصعودها إلى السطح اتفاقًا، إذ كان ينظر إلى نافذة حجرتها المغلقة بأسف فلاحته منه التفاتة على سور السطح، فصادف ذلك مرورها به وكان انتهى من ارتداء ملابسه استعدادًا للخروج إلى سهرته، فحملته جسارته وحسن انتهازه للفرص إلى الصعود إلى السطح من فوره، ولمّا اطمأن إلى بقائها تفحص المكان بهدوء

الجميل، وحذّتها قلبها بأنّ الأمل المرموق قد بات قريب المنال... .

ولدى الضحى من نهار الوقفة طالعتها وجه جديد من نفس الشقة، بل من الحجرة التي تواجه حجرة نومها، وأدركت من النظرة الأولى أنّ الشاب الجديد أخو صاحبها الكهل، ولكن أين كان قبل اليوم؟.. وما باله يرميها بتلك النظرة القوية الجسورة التي دعت الدم من جميع أطرافها إلى خديها وحلتها على الفرار؟! يا له من شاب نضير جمّ المحاسن جذاب المنظر! ويا لها من نظرة ثاقبة ترعش القلب!، ولكن يا ترى أهذا شأنه مع كلّ حسناء؟.. أم جذبه إلى وجهها شيء لا عهد له به؟.. وهل يقيم في هذه الحجرة فيراها صباح مساء أم يختفي فجأة كما ظهر فجأة.. وقال لها قلبها إنّ مثل هذا الشاب خير من ذاك الكهل بغير جدال، ولكن الكهل لم يعد غريبًا، فينبها وبينه تحية متبادلة، وهو المفضل إذا طلب يدها، وما ينبغي أن تنسى أنّ بينها عهدًا صامتًا لا يلبث أن يصير - إن شاء الله - زميرًا وطبلاً وثرثيات لألاءة ورملاً فاقعًا يسر الناظرين؛ وفي صباح العيد ارتدت ملابسه الجديدة، ودعاها قلبها إلى الظهور بالشرف ليراه الكهل في أبيض حال وأجل منظر، ووجدته في النافذة في أحسن صورة ممكنة، فذكرها جلبابه وطاقيته بأبيها، وتبادلا التحية، ثم عادت إلى حجرتها، ونازعتها مشاعرها إلى إلقاء نظرة على النافذة الأخرى، فوجدت الشاب الجميل وكأنه ينتظرها، فتراجعت أمام نظراته العارمة، وحسبت أنّه لن يتخطى بجسارته نافذتها، فما راعها إلا أن تجده بانتظارها في السكة الجديدة! وتساءلت في الترام ترى هل تبعها أم أنّه وهم ما رأت؟.. ولكنها علمت بعد حين أنّه يتعقبها عامدًا، وأنّه يمتن لا ينتنون عن غاية، ومن عجب أنّه نسي وجودها في السينا بترنيم أم كلثوم!، أما هي فلبثت تشعر بوجوده على كئيب منها طوال الوقت!، وعادت إلى البيت ثملة بسرور لا عهد لقلبها بمثله وقالت لنفسها ضاحكة: «لو أنّ جميع الشبان في مثل عناده ما بقيت فتاة واحدة بغير زواج؟» ووجدت قلبها يؤنبها

- إليك عن سبيلي! .. واخجلتاه لسلك الجار! ..  
 - هل يعيب الجار أن يتودد إلى جارتته الحسناء!  
 - أجل ..  
 - وإذا أجبره حسننا على أن يتودد إليها فمن الملموم؟  
 - لا تستدرجني إلى الكلام، وإياك وأن تعترض سبيلي ..

ولكنه اعترض سبيلها غير مبالٍ تحذيرها، فتملّكها الخوف واندفعت نحو الباب مارقة من تحت ذراعها، فلم يسعه اللحاق بها. ونزلت على عجل خافقة الفؤاد ومضت نحو شقة سيد عارف. لم تكن غضبي ولا مستاءة، بل كانت أبعد خلق الله عن الغضب أو الاستياء، وجلست في الشرفة تنتظر ربة البيت فلم تفارق مخيلتها صورة محياه الجميل، ولا غاب عن سمعها رجوع صوته الحنون. وجعلت تستذكر أحاديث أتربها في المدرسة عن جيل الشبان ورسائل الغرام ونوادير الغزل، ثم تساءلت ترى هل تدي بدلها منذ الغد في حديث الحب الذي لا يمل؟ .. ولكن أي أنواع من الشبان يكون؟! . ونزل رشدي بعد قليل مبتسماً مسروراً. ولم يكن قلبه قد استشعر عاطفة صادقة بعد، فكأنما كان يقوم بتمثيل دور محبوب، بيد أنه كان كذلك من أولئك الممثلين الصادقين الذين يندمجون بتمثيل أدوارهم اندماجاً يوري القلب ويقدم شره فإذا هم ضاحكون أو باكون. ثم انطلق إلى الكازينو بشهية متفتحة للسرور والشراب والطرب ..

- ٢٣ -

ومضت أيام العيد فلم تقع عينا أحمد عاكف عليها مرة أخرى، وحسب أنها في شغل بالعيد وملاهيه فدعا لها قلبه بالسرور، وكان كل مطمعه أن تراه في البدة الجديدة التي فصلها خاصة إكراماً لها، فقال لنفسه: إن البدة لا تبلى في أيام وسوف تراه يوماً ما حتماً وهو يرقل فيها. وشغل هو كذلك بعطلة العيد وإن كان أنفقها جميعاً في قهوة الزهرة بين الصحاب، ما عدا سليمان بك عته الذي سافر ليعيد في قريته، ومن عجب حقاً ألا يكون قد ظفر بصديق منهم على دوام

حتى أدرك خلوه، ثم سار متمهلاً إلى موقف قريب منها، ولم تكن تخونه الجراة الجنونية، ولكن أثر معها الأناة لما عهدت بها من حياء، ورأى على السور - في موقع وسط بينه وبينها - عموداً خشبياً شد إليه حبل الغسيل، ووقعت عليه يمامة، فرفع رأسه إلى اليمامة وقال بصوت خافت وهو يلحظ الفتاة بطرفه: «مساء الخير يا يمامتي!» ورأها تلحظ اليمامة بطرف خفي فابتسم واستدرك: «ما أجل سمرك! السمرة حلوة الجمال وروح الخفة، هلاً سمعت بأغنية السمرة: يا أسمر اللون حياتي الأسمراني؟ وأنصت الفتاة إليه - وإن تظاهرت بعدم المبالاة - بأذنين مرهفتين، وطاب لها صوته، فابتسمت ابتسامة باطنية لم ترسمها شفتاها، ثم غلبها الحياء فابتعدت خطوتين وأشاحت عنه بوجهها، وجعل هو يقول محدثاً اليمامة: «كيف لا تردّين تحيّي؟ .. كيف تعرضين عني؟ .. بل كيف اندست القسوة إلى هذا الحسن الرقيق؟!». وتساءلت أما ينبغي أن غضبي إلى حال سبيلها؟ ألا تخاف أن يصعد البواب أو بعض السكان إلى السطح فيريه من موقفها ما يريه؟ أيها من يشد قدميها إلى الأرض؟! واستدرك رشدي قائلاً: «ألا تعلمين يا يمامة أنني جارك؟ .. وأن السماء الرحيمة لن تستطيع أن تعيك بعد اليوم عني؟ وأني سأكون دائماً حيث تكونين!». وعظفت نوال رأسها قليلاً كأنما لترى اليمامة فوجدتها قد طارت! وألفته ينظر نحوها بجسارته المعهودة، ولم تعد تجدي مخاطبة اليمامة، فقال لها هدهو:

- سعيدة ..

فأشاحت عنه بوجهها مرة أخرى، وحركت قدميها ببطء شديد نحو الباب، فدنا منها جزعاً وقال:

- ألا تردّين عليّ؟

فلم تنبس بكلمة وقد تورّد خذاها واختلج جفناها، فاقترب منها أكثر من قبل وقال:

- أما تجودين بكلمة واحدة؟ .. كلمة واحدة، لتكون عدلاً إن شئت، بل لتكون نهرًا!

ولكنها حثت خطاها فهمم باعتراض سبيلها فقالت له بحدة مصطنعة:

## خان الخليلي ٥٨٣

من رؤساء الأقلام؟.. ألا تقول الستّ توحيدة - أم نوال - إن عمره كبير ومرتبّه صغير؟! . . . وعضّ عند ذلك على شفته، وعاوده شعور الأسى واليأس: وأوشك أن يثور به الغضب، وأن يقول كما قال مرّة في مثل هذه المناسبة: «إنّ الدنيا جميعاً لا تساوي زنتها قذارة إذا سوّلت نفس لصاحبها أن يستهين بي؟». ولكنّ توبّبه لتجربة حظّه لم يدعه يستسلم لجنون الغضب، فطرد عن فكره خواطر اليأس، واستعاد سروره ودواعي الأمل والسعادة من حياته الجديدة.

وانقضت أيام العيد الثلاثة وهو يفكر التفكير الذي يسبق العمل مباشرة، وجاء يوم الجمعة الأوّل بعد العيد ولما يحقّق شيئاً من أفكاره، بيّد أنّه رآها صباح ذلك اليوم لأول مرّة، بعد مرّة أوّل أيام العيد، وسرّ فؤاده المشوق. كان اليوم من أيام نوفمبر الأولى، والجوّ رقيق منعش تسري في تضاعيفه من آن لأن هبات نسيم بارد، والسماء تغشاها غلالة من سحب ناصع البياض ينضح بنور الشمس المتوهج، ففتح النافذة - نافذة نوال - ورفع رأسه، وما يدري إلّا وقتاته تطلّ عليه كالأمل النضير والحلم السعيد، وحيّاه بابتسامة وإيماءة، فردّت تحيّة مبتسمة، ولكنّ عشق ابتسامتها، ولبت بملأ عينيه عن سمرتها الصافية. وخطر له وقدّك أن يحاول تفهيمها بالإشارة - وعلى قدر المستطاع - أنّه يوشك أن يحدث والدها بشأنها، ولكنّها سبقته فأنامت رأسها على راحتها كأنّها تقول له إنّها ترغب أن تنام، وأشارت على رأسها وقطبت ثمّ لوت شفيتها تعني أنّ رأسها موجه، ثمّ حنت له رأسها وتراجعت موليّة. وأسف على فوات الفرصة، ولكنّ تصميمه تضاعف، وأراد أن يدخّن سيجارة فوجد علبة السجائر فارغة، فمضى إلى حجرة رشدي ليأخذ منه سيجارة، وكان الباب موارباً فدفعه بهدوء ودخل، ورأى شقيقه مرتفقاً النافذة شاخصاً إلى أعلى، مستغرقاً حتّى إنّ بلغ نصف الحجره قبل أن يتبّه الشابّ لمجيئه، فاستطاع أن يرى من موقفه النافذة الأخرى التي يتطلّع إليها أخوه، وأن يلمح حال توسطه الحجره

العشرة والصحة، وذلك لأنّه كان يتطلّب في الصديق سجيّتين لا تجتمعان: أن يدين له - هو - بالتفوق والأستاذيّة، وأن يكون مثقفاً - ولو لحدّ ما - ليتمتّع بصداقته، ولكنّه غالباً ما يجد نفسه بين اثنين: واحد عامّي - أو في حكم العوامّ - يعجب بشخصه ويؤمن بعقليّته، وآخر مثقف لا يدعن لمشيّته ويمجّده جدل المعتدّ بنفسه المتحدّي غيره، ولعلّه أن يحبّ الأوّل كما يمقت الثاني، ولكن لا هذا ولا ذاك بالصديق المنشود. وقد أحبّ المعلّم نونو، وكمال خليل، وسيد عارف، ومقت أحمد راشد، ولكنّه ظلّ بغير صديق، أو كان شقيقه رشدي الصديق الوحيد في دنياه المحبوبة. . .

مضت إذا أيام العيد دون أن تقع عليها عيناه. ولكنّه لم يكفّ لحظة عن التفكير فيها، ولا انقطع عن إدامة النظر في ما جدّ في حياته من أمور. ألم تحدث عاطفة، ويستيقظ قلب، ويتسم أمل؟! ألم تحدث عاطفتان، ويستيقظ قلبان، ويتسم أملان؟! لقد أحبّ بعد أن حُرّم من الحبّ زهاء ثلاثين عامًا، وأحبّ بقلب آذن شبابه بوداع، فهو يستمسك بالحبّ كأخر أمل مُرَجّى في سعادة الدنيا، وجاء الحبّ عفواً بعد أن أشفى على اليأس، ورجّع فؤاده النغم القديم فتياً ندياً عذباً كأنّه بعث من جديد. فوجب أن يفكر في أمره، ويقبل على تدبير شأنه. ومضت أيام العيد وهو مشغول بالتفكير والتدبير، فهذّي الحياة تمسح عن جبينها ما ألف من تقطيعها، وتجوّد له بفرصة سعيدة ليعاود تجريب حظّه، فلن يحجم ولن يتردّد، وأراد أن يكون أعظم صراحة مع نفسه فغمغم في وحدته: «الزواج! أجل، ولكنّه في الأربعين وهي دون العشرين، فهو في سنّ أبيها، ولكن ما وجه الإنكار في ذلك؟.. ألم تعلن له بميلها إليه - وقد خفق فؤاده للذكرى - ألم يختره قلبها؟.. وأما صديقه كمال خليل فيرجّح أن يرحّب بيده، وإنّ لم يتخلّ الأمر من دهشة، وتخيّل أنّ القوم راخوا يتحرّون عنه فعلموا أنّه (في الأربعين، كاتب بحفوظات الأشغال، درجة ثامنة - فهو من المنسيّين في الحكومة كما أنّه من المنسيّين في الدنيا - مرتّب خمسة عشر جنيتها!) ألا ينزعج كمال خليل الذي يحسب أنّه

ضحايها؟ أم أنها تلقى ما هو خليق بها من التردّد والألم؟ أكانت تلعب بها؟ أم يمكن أن تنكشف تلك النظرة الساذجة عن مكر سنّ وخبث وعِر؟ ولماذا إذاً بادلته التحيّة منذ دقائق؟ أهو الحياء والحرص أو أنه المكر والحيلة؟»

أما الشابّ فلا يدري من الأمر شيئاً، إنه بريء من دمه، ولعلّ أنه رآها فراقته فغازلها كعادته فاستأهلها فهوته، بنظرة وإشارة نسيته، وهل خطره أكبر من ذلك؟! نسيت الكهل الأصلع الفاني، فلا يلومن إلا نفسه، ألم يكن له في ما اكتسب من معرفة بحظّه وسوء ظنّه بديناه، وبالمرأة خاصّة، ما يجرز به نفسه من غوائل الأمل ومضات السعادة والكواذب؟ ونهض قائماً وقد اشتدّ شحوب وجهه ولاحت في عينيه نظرة حزن عميق ويأس سحيق، وجعل يذرع الحجره جيئة وذهاباً ما بين الفراش والمكتبة حتّى عراه دُوار فعاد إلى مجلسه من الفراش، وراح يتساءل: أيرضى أن يستبقا - هو وأخوه - في مضمار منافسة واحد؟ ونار كبرياؤه وشمخ بأنفه، مُحال أن يتنازل لمنافسة إنسان، فالمنافسة الحقّة لا تثور إلا بين أكفاء! ومحال كذلك أن يطلع شقيقه على سرّه فكبرياؤه تأبى عليه أن يستجدي السعادة أو يستوهب الحبّ. وخليق بمن كان مثله أن يترقّع عن هذه الصغائر - الحبّ والفتاة والظافر بها - فهو أكبر من هذا جميعه، ولكن ما بال الألم لا يرحم كبيراً؟!، لماذا لا يعرف هذا الألم القَتال قدره فيتوارى؟!، كيف تلسع الغيرة قلبه بمثل شوكة العقرب؟. وإلام يثنّ ويتوجّع!، الحقيقة أنه مدّ يده ليجلو عروسه فتكشّف له قناعها الموشى عن ججمة ميت! ورأى بعين خياله صورتها المزدوجة، هو بشبابه الريان وهي بعينيها النجلوين، فوجد ألماً وإباء وعجرفة قاسية، تُرى لماذا يحول رشدي دائماً بينه وبين سعادته وما أحبّ إنساناً مثله قطّ؟ فهو الذي أجبره - قبل عشرين عاماً - على التضحية بمستقبله ليوقف حياته على تربيته، وما هو الآن يجني ثمرة سعادته ويدوس أمله المنشود بقدم غليظة! واستولى عليه الغضب وتقيّحت نفسه بالسخط والحق، ونار

رأس نوال - دون غيرها - وهو يرتدّ بسرعة البرق! وانتبه رشدي إلى مجيء شقيقه - باختفاء الفتاة الذي هو بالفرار أشبه - فالتفت ورائه، ثمّ ابتسم للقادم بترحاب وبوغت أحمد مباغطة عنيفة منكرة كانت أعنف وقتاً عليه من انفجار القنابل ليلة الغارة، فزلزلت صدره - الذي جاء به مثلجاً مطمئناً - قلقلة جنوبيّة صدّعت كما ينصدع السحاب بشاراة البرق القويّة الخاطفة، ولكن لم يغيب عنه تحوّل الشابّ إليه، فأغضى بصره - ببداهة الغريزة وسرعتها - ليخفي عينيه، وأهاب بقوّته الكامنة ليحافظ على هدوء مظهره، وتكلّف ابتسامه، ثمّ نظر إلى الشابّ الذي أقبل نحوه مبتسماً ابتسامته الحلوة البريئة وقال بهدوء:

- سيجارة من فضلك! -

واستخرج رشدي علبة سجائره من جيب بيجامته وفتحها وقدمها لأخيه، فتناول الرجل سيجارة شاكرًا، وحيّاه برفع يده إلى جبينه، ثمّ قفل راجعاً.

- ٢٤ -

وردّ باب حجرته وهو لا يكاد يرى شيئاً من الذهول، ورمى بالسيجارة إلى فراشه، ثمّ اقترب من النافذة ورفع رأسه فرأى الشرفة كما تركتها مفتوحة وخالية، ثمّ أطرق مقطباً وأغلق النافذة بشدّة طقق لها الزجاج، وعاد إلى الفراش وجلس على حافّته مغمغماً: «غاب عني أنّ هناك نافذة تطلّ مثل نافذتي على هذه الشرفة، حقّاً غاب عني ذلك!»، وكأنّ دمه استحال نفضاً عمد قلبه بالسنة من لهيب. ألم يرها وهي ترتدّ فزعة لدى ظهوره؟، فهل غير الشعور بالإثم أفزعها؟ أو ما الذي دعاها إلى النافذة بعد أن أوهمته أنّها ذاهبة لتنام؟ فليس وراء ذلك كلّه سوى معنيّ خبيث يتخايل خلقه البشع خلف خداع الأمال الباطلة، ومن عجب أنّه لم يمض على حضور شقيقه إلا عشرة أيام، ففي أيام معدودات تغيّر كلّ شيء - وشعر عند ذلك بصفعة - فكفر قلبه بهواه، وصارت ابتسامه الترحاب خدعة رياء، تُرى كيف تحدث هذه الانقلابات؟ أتقع في يسر وهواة كأنها لا تعرك

دنيا، لم تعقم فحسب، ولكن تورث الألم والضنى؟!.. لماذا وجدت في هذه الدنيا؟ أما من نهاية لهذا الألم الممض وذاك الملل المسقم؟.. ثم ماذا أجدي عليك هذا العقل؟ وماذا أفدت من المعرفة؟ حلفتك بهذه الآلام جميعاً إلا ما أغلقت الكتاب إلى الأبد وحرقت هذه المكتبة العاتية، ولخبر لك أن تدمن على مخدر يذهل العقل عن الوجود حتى يتدارك الدهول الأكبر. الحياة مأساة والدنيا مسرح ممل، ومن عجب أن الرواية مفعجة ولكن الممثلين مهرجون، من عجب أن المغزى مخزن، لا لأنه مخزن في ذاته ولكن لأنه أريد به الجذب فأحدث الهزل، ولما كنا لا نستطيع في الغالب أن نضحك من إخفاق آمالنا فإننا نبكي عليها فتخدعنا الدموع عن الحقيقة، ونتوهم أن الرواية مأساة والحقيقة أنها مهزلة كبرى! وصمت قليلاً متفكراً، متجهماً الوجه، منقبض الصدر، ثم نهض قائماً في وثبة عنيفة وقال بشيء من الحدة: «إلى الكهف المظلم، كهف الوحدة والوحشة، إلى القبر البارد، قبر اليأس والقنوط، لقد ركلتني الدنيا وهي الدنية ولأرُكَلُها وأنا المتعالي، إن الخصي أزهّد حيوان في المرأة فإذا استأصلت من نفسي كوادب الآمال سُدت باليأس الدنيا جميعاً، فإلى كهف الوحشة نتزوّد من ظلمته غشاوة تحجب عن أعيننا خدع الحياة!!».

والتفت بعنف نحو النافذة - نافذة نوال - التي أغلقها منذ حين وقال بغضب:

- غلقاً إلى الأبد.. غلقاً إلى الأبد!

- ٢٥ -

ورأى أن يذهب - كعادته صباح الجمعة - إلى الزهرة، ووجد حزنه حافزاً يدعو للذهاب إلى هناك ابتغاء الوسيلة إلى التسلي عن حظه. وأخذ يرتدي بذلته الجديدة وقد ذكر كيف فضلها ولماذا تكلف ثمنها فنفخ من الغيظ والحنق. وغادر الشقة. ولدى نزوله السلم تذكر الصباح الأول له في العبرة وكيف التفت وراءه فرأى عيني نوال لأول مرة، فكيف يمكن اتقاء الشقاء المقدر ما دام يبدو في حلال آمال مشرقة وألوان ناضرة؟ على أنه لم يرغب عنه أن ما يعانيه من أحاسيس

بركانه في عنف ودوي، ولكن الكراهية لم تجد سبيلاً إلى نفسه، لم يكره أخاه لحظة واحدة، حتى وهو فريسة الثورة في عنفوانها. إن حبه له أصيب بنوبة وقتية أفقدته وعيه، فأغمي عليه ولكنه لم يميت، بل لا يشعر نحوها - وهي الخليفة بالانتهام - بكراهية أو مقت، وإن بدا سخطه كأنه لا نهاية له. ثم خمدت ثورته بسرعة عجيبة تدعو للدهشة حقاً، فولت أحاسيس الغضب والسخط والعجرفة، مخلفة وراءها حزنًا عميقاً لا يتزحزح ويأساً خانقاً لا يريم وخيبة متغلغلة لا تؤذن برحيل، وحين عاودته ذكريات الأمس السعيدة، لم يتحسر عليها ولم يأسف، ولكنه شعر بهوان وخجل؟.

وأنشأ يقول بصوت خافت حزين وكأنه يتحدث نفسه: «برح الخفاء ولا مفر من الحقيقة، أنت رجل سيئ الحظ، بل هذا قول دون الواقع بكثير، فالحق أن الدهر نصبك هدفاً لسهام الخيبة والإخفاق، ووكلك بك قوة شيطانية فظيعة تلقف من سبيلك كل فرصة سانحة أو مصادفة سعيدة إذا أنت تحسب أنه لم يعد بينك وبين الرجاء إلا كلمة تقال أو راحة تبسط، وما تكاد أن تمدّ حجرك لتلقي ثمرة دانية حتى ينقضّ عليها طائر الشؤم الكاسر، فيلتقطها بمنقاره ويطيّر بها، وتوشك أن تصعد قمة هرم من المحاولات فيندكّ عاليه سافله ويلقي بك إلى غور سحيق. آفاقك تلتمع ببروق الآمال الكاذبة وموضعك من الأرض مظلم عابس، هل يوجد في الدنيا إنسان مبتلى بمثل عناد حظك العاثر!! الناس يمتنون الخطي باسمي الثغور ما بين ممّع بصحته، وهانئ بأسرته، وراضٍ بمكانته، وسعيد بماله، فأين أنت من هؤلاء جميعاً؟!

لا صحّة ولا أسرة ولا مكانة ولا مال!، في البدء قصم ظهره عثار أبيك، وبدد آمالك حدبك على شقيقك ثم أعقم مواهبك العقلية ببيتك الجاهلة؟، ماذا يتبقى لك من أحلام دنياك؟، ذهب الشباب فلم ينبج حتى ذكرى جميلة تنفياً ظلّها في هجيرة العمر، وها هي الكهولة تطعن بك في ما وراء مشارف الشيخوخة، فكيف تحتمل هذه الحياة العقيمة؟ إن الرجل ليطلق الزوجة الوفيّة إذا عقم، ففيم احتمالك



نونو ثلاثاً، أما سيد عارف فتساءل:  
 - وأم كلثوم وعبد الوهاب؟  
 فقال أحمد عاكف وقد اختلس من خصمه نظرة  
 أخرى:  
 - عظيمان في ما يرددان من وحي القديم تافهان في  
 ما عداه!  
 فقال سيد عارف:  
 - أم كلثوم عظيمة ولو نادى ريان فجل!  
 فقال أحمد عاكف:  
 - أما صوتها فلا خلاف عليه ولكن حديثنا عن  
 الغناء من الناحية الفنيّة!  
 فقال كمال خليل:  
 - الأستاذ أحمد راشد يعجب بالغناء الحديث بل  
 وأشاد بالموسيقى الإفرنجيّة!  
 والظاهر أنّ الشاب المحامي كان راغباً عن الجدل  
 فقال بغير اكتراث:  
 - رأيي في الغناء رأي غير خبير، والحق أنّي قليل  
 الاهتمام بالغناء!  
 وأبى المعلم نونو إلا أن يناقش رأيه، فقال بصوته  
 العريض الأجرس:  
 - يا إخواننا، أمّة محمّد ما تزال بخير. هل سمعتم  
 ولو مرّة إنجليزيّاً - وهم بين ظهرانينا أكثر من نصف  
 قرن - يغني يا ليل يا عين؟!. والحقيقة أنّ من يفضّل  
 أغنية إفرنجيّة كمن يشتهي لحم الخنزير مثلاً!  
 وكان المعلم زفته قليل الكلام لانشغاله في الغالب  
 بعمله، ولكنّ الموضوع استقرّ اهتمامه فقال بصوت  
 دلّت مخارجه على أنّ صاحبه قد فقد ثنيتيه على الأقلّ:  
 - اسمعوا القول الفصل: أجمل ما تسمع الأذن سي  
 عبده إذا غنّى يا ليل وعلّي محمود إذا أدنّ الفجر، وأمّ  
 كلثوم في إمتى الهوى. وما عدا هؤلاء فحشيش  
 مغشوش بتراب!  
 وأشفق أحمد عاكف من أن يتغيّر موضوع الحديث  
 من غير أن يتفلسف فقال:  
 - إنّ الإعجاب بالحديث من الغناء أو بالموسيقى  
 الإفرنجيّة وحي من تقليد المحكومين للحاكمين كما

الأم والاضطهاد والظلم لا يخلو من لذة، لذة دفينه  
 غامضة لا تكاد تفصح عن ذاتها. وسار في الطريق  
 بقدمين متشاقتين متفكرًا في ما يجلبه إعراض بنت قاصر  
 على كهل عاقل حكيم من الحزن واليأس فهاله الأمر  
 وكبر عليه، وجعل يقول لنفسه كالساحر: «واجزيّاه،  
 كيف أمكن هذا؟!». بنت مقمّطة تفعل بي كلّ  
 هذا!؟ كيف سمّت بي إلى نضرة النعيم ثمّ ردّني إلى  
 أسفل الجحيم! وما جدوى الحكمة إذا عبث بها  
 جراثيم الشهوة هذا العبث المُرّري؟! ألم يكن من  
 الأفضل - غفرانك اللهم - أن نخلق خيرًا من هذا؟.  
 وإذا كانت الدنيا جميعًا تسمي ظلامًا وبيابًا لمحض أنّ  
 جرثومة - تنقض الوضوء - استاءت أو أخفق لها أمل،  
 أفليس من الحكمة أن نبول على الدنيا وما فيها؟!.  
 ثمّ انقطع عن حديث نفسه لدى وصوله إلى القهوة،  
 ووجد الصحاب جميعًا قد سبقوه إلى هناك - إلا سليلان  
 بك عتّة الذي لم يعد بعد من بلدته - ووجد معهم  
 المعلم نونو وكان من عادته أن يغلق دكانه يوم الجمعة  
 من الساعة العاشرة إلى ما بعد صلاة الجمعة. أمّا  
 عباس شفة فأخذ مجلسه المعهود جنب المعلم زفته غير  
 بعيدين عن حلقة الصحاب وكان الراديو يذيع بعض  
 الأسطوانات بينما أخذ الرجال في الحديث. وأراد كمال  
 خليل أن يُشرك القادم في الحديث فقال له متسائلًا:  
 - وما رأي الأستاذ أحمد عاكف في الغناء، أيفضّل  
 القديم أم الحديث؟!  
 وبل الشجوي من الخليلي! ولكن ألم يجئهم ملتئمًا  
 العزاء في لغوهم؟! بل. وإذا فليدل بدلوه وليكوّنن  
 من الشاكرين، وكان مغرمًا بالغناء - وهل تلد أمّه إلا  
 مغرمًا بالغناء؟ - إلا أنّه يفضّل القديم وما يتبع طريقته  
 من الحديث بحكم العادة وبوحي النشأة الأولى. فقد  
 سمع أغنيات القيان وأسطوانات منيرة وعبد الحّي  
 والمينلاوي فاختلست نظرة من خصمه أحمد راشد المخبّاة  
 معارفه وراء نظارته السوداء، ثمّ قال:  
 - الغناء القديم هو الطرب الذي يأسر نفوسنا بغير  
 عناء!  
 فصاح المعلم زفته بسرور «الله أكبر» وصفّق المعلم

يقول ابن خلدون!

ولم يخرج أحمد راشد عن صمته، ولم يستثره هجوم أحمد عاكف، فوقف الحديث عن الغناء عند ذلك الحد. ثم تحوّل مجراه إلى سليمان بك عتّة بغير رابطة تداع بعد أن لاحظ كمال خليل أنّ الرجل تأخر بالبلد أكثر من المعتاد، فقال سيّد عارف متضحكًا:

- أراحنا الله أسبوعين من وقاحة خلقه.

فقال عباس شفة بإنكار:

- عمّا قريب يصير عروسًا يا هو!

فاستدرك سيّد عارف قائلاً بأسف:

- أما العروس كريمة يوسف بهلة فوالله ما رأت عيني أجمل منها قط!

- فتساءل أحمد عاكف:

- أما يُدرك صاحبكم أنّه لولا الطمع في ماله ما رضي

به أحد زوجًا؟!!

فقال عباس شفة:

- بغير شك. فلا شباب ولا جمال ولا أخلاق! وامتعض أحمد من هذا الوصف، وشعر بأنّه ينطبق عليه من أكثر من وجه، لا شباب ولا جمال ولا أخلاق. وأضاف عليها من عنده «ولا مال!». ثمّ أطرق هنيهة غارقًا في الكتابة التي كان انتشله منها لغو الحديث. وخاف أن يستأثر به الحزن فحاض الحديث مرّة أخرى متسائلًا:

- وما الذي يحمله على الاستسلام لطمع الطامعين؟

وهنا التفت أحمد راشد نحوه وقال بلهجة ساخرة قلّ أن يصطنعها في حديثه:

- وما الداعي إلى العجب في ذلك؟ أليس المال كالشباب والجمال من المزايا التي تحبّب الرجل إلى المرأة؟ لعلّ المال أن يكون أبقى على الدهر من الآخرين! وسرعان ما أفلح الشاب عن السخرية وقال بلهجته الجديّة:

- إنّ شيخًا في سنّ عتّة بك لا يطمع في الحبّ الذي يستأثر به الشباب، لكنّه إذا ضمّ إليه عروسًا نفيسة أرضى بها غريزة الحبّ المضمحلّة، وغريزة الملكيّة المسيطرة.

فقال عباس شفة:

- الشباب يتنقل بالعدوى، فالشيخ خليق بأن يكتسب من عروسه روحًا من نضارة الشباب، فلا يبعد والحال كذلك أن يتحوّل البيك في القريب العاجل من قرد إلى حمار مثلاً!

فتساءل المعلّم زفته:

- هل نفهم من هذا أنّ أصله قرد؟!!

ولم يوافق المعلّم نونو على التهكم بالشيخوخة بطبيعة الحال فقال:

- العبرة في السنّ بالصحة لا بالسنين، فأبي تزوّج في الستين وخلف وهاكم سيّد عارف أفندي على سبيل المثال (وضحك ضحكته المجلجلة) فماذا صنع له شبابه؟ وضحك الجميع - وعاكف معهم - بما جعل سيّد عارف يقول:

- لا تضحك يا معلّم نونو فعنّا قريب يتغيّر الحال،

وقد علمت بأقراص جيّدة تجرّب، وسترى!

ولم يستطع أحمد عاكف أن يوليهم انتباهه أكثر من ذلك، فكان كالسايح الذي تخور قواه وتوهى مقاومته فيغوص تحت سطح الماء. فلم يذّر كيف انتقل بهم الحديث إلى أخبار الحرب، ولا كيف راح سيّد عارف يعدّد انتصارات الألمان في روسيا، ويذكر بالفخار سقوط فيازما وبريانسك وأوريل وأوديسا وخركوف، واقتحام شبه جزيرة القرم. ثمّ نهض المعلّم نونو للذهاب إلى المسجد لصلاة الجمعة، فاستأذن الكهل وانصرف معه راجعًا إلى البيت. ووقف في الصالة هنيهة متسائلًا تُرى أما يزال رشدي ملازمًا حجرتي؟. وسار في الدهليز متمهلاً حتّى دنا من باب الحجرة فشَم رائحة التدخين النافذة من خصاصة الباب، ثمّ قفل راجعًا إلى حجرتي. لأوّل مرّة يمضي رشدي يوم عطلته في البيت! بل الأوفق أن يقول يوم عطلتهما، والمرجّح أنّه لم يفارق حجرتي وأتتها لم تزايل النافذة، والله يعلم كم تحمّيات تبودلت، وكم من بسات ومضت، وكم من آمال أشرقت. وخلع ملابسه وارتنى الجلباب والطاقيّة، وجلس على الثلثة القريبة من المكتبة. كان مترعًا بالكآبة، ولكن خلا قلبه من الغيرة - أو الغيرة السافرة على الأقلّ - وقال لنفسه إنّ

وما يدري إلا ونفسه تسكب حناناً للحياة الزوجية غافلة عن هواجسها السالفة! فبدا له أن العدد اثنين هو العدد المقدس. ليس العدد الواحد بالمقدس كما يقول الفيثاغوريون ولكنّه الاثنان: الإنسان يفقد نفسه في الجماعة، ويفرق في الكآبة في الوحدة، ولكنّه يجدها عند اليقظة، فالتكاشف الصريح، والحب العميق، والألفة المترجحة، وفرحة القلب بالقلب، والطمأنينة اللانهائية لذات عميقة لا تحدث إلا بين اثنين. وكم ملّ من الكآبة، وضجر من الوحشة، وكره الفراغ، وهذه نفسه تنازع مشوقة متلهفة إلى الحب والحنان والألفة والمودة. أين ثغر يبسم إليه مشرقاً بالعطف؟ أين قلب يرجع خفقان قلبه خفقة خفقة؟ أين صدر يرضع منه قطرات الطمأنينة ويعهد إليه بطويته؟ وبلغ منه القهر منتهاه فتراجع إلى الفراش محسوراً وهو يحرك رأسه بعنف، كأنما ليصد عنه أحاسيس الحزن والخور، وليستردّ حقه وصرامته وغضبه وإيمانه الوحشي بالوحدة والمعجزة والتعالي عن العواطف البشرية. وقد تبرد الغيرة، وتحمد العاطفة، أما ما يمَسّ كبرياءه فيحدث حتماً فرحة لا تندمل، وكيف تندمل وكلما التأمت قشرها غروره الأعمى؟! ولذلك جعل يقول قارصاً أسنانه: «ينبغي أن تترك - الفتاة - أنني تنازلت عنها بغير مبالاة البتة!».

- ٢٦ -

واستيقظ غداة السبت متعباً بعد ليلة مسهدة، فهو يؤدي ثمن اليقظة التي فرح بها قلبه، وإن كانت يقظة قصيرة، وأياً ما كان فما دام النسيان يكمن وراء الأحزان فالعزاء مُرَجِيٌّ، أين اليهودية الحسنة وحبها المثالي؟! فالزمان يسحب ذبول النسيان على الماضي ويبلغ الذكريات، ولكن لا ريب أنه ممّا تطيب به نفسه ألا يعبا شيئاً، أو أن يتظاهر بذلك على الأقل، وأن يريها أنه لم يكذب يشعر بأن فتاة هجرته. ومضى إلى الحمام فوجد باب حجرة شقيقه موارباً، ولمحه يستكمل ارتداء ملبسه - وقد عجب لذلك لأن الشاب يستيقظ عادة متأخراً عنه - بل رآه رافعاً رأسه إلى النافذة الأخرى، فتقبض قلبه كأنما أصابته شكة إبرة، وأسلم

ما يحدث في الناحية الأخرى من الشقة هو أطفال غير حقيقين باهتمامه، أهذا شعور وقتي؟ لا يدري، ولكن خيل إليه أنه شفي. وتساءل كيف حدث هذا بمثل هذه السرعة؟ أكانت عاطفته سطحية توهم أنها الحب؟ واستراح إلى شعوره، ومدّ يده إلى المكتبة واستخرج كتاب مقاصد الفلاسفة للإمام الغزالي، فهذا أحقّ بتفكيره، وهو من الكنوز التي لا يدري أحمد راشد عنها شيئاً، وفتح الكتاب عن فصل الإلهيات، وحاول مطالعة مقدّمة تقسيم العلوم، ولكنّه أدرك بعد برهة قصيرة أنه يبذل من الجهد في تركيز انتباهه ما لا يدع له بعد ذلك لذة متابعة القراءة، فأغلق الكتاب وأعاد إلى مكانه وقال إنه لا بأس من أن يعفي عقله اليوم مكافأة له على الجهد - أي ما كان هذا الجهد - الذي بذله في سبيل النسيان. كانت عاطفة نافهة، بل كيف كان يمكن أن تسعده تلك الفتاة وهو على ما هو عليه من عقل ومعرفة، وهي على ما هي عليه من بساطة وسذاجة؟! حقاً أنقذه شقيقه من ورطة كادت تؤدي به. ومنذ الآن ينبغي أن يفتح عينيه، وأن يقلع بصفة نهائية عن التفكير في الزواج، وهيهات أن يجد امرأة كفاء له!! بيد أن الخيانة ذميمة شوهاء، ألم تغالزه؟ ألم ترّض به حبيباً؟ فكيف تغيّرت بمثل هذه السرعة التي لا تصدق؟ ولكن هل خلق الله أفبح منظراً من فتاة ذات وجهين؟ أ شفي والله ونسي، ولكن ما أتفه الدنيا إذا كانت القلوب تنقلب في غمضة عين!! وقطع عليه أفكاره المحمومة صوت دوى يصيح: «ملعون أبو الدنيا»، فأدرك أن المعلم قد عاد من صلاة الجمعة إلى دكانه، ونهض مسروراً بالتخلص من أفكاره إلى النافذة المطلّة على الحي الجديد ففتحها، ووقف وراءها يسرح الطرف في مناظر الحي التي ألفها وملها، ليتهم ما غادروا السكاكيني، بل وجد نفسه يتمنى في أعماقه لو أنّ أخاه لم ينقل من أسبوط! فلولم يحضر لما عكّر صفوه معكّر. وما لبث أن تألم لتمنيّه هذا غاية الألم، إنه يحبه ما في ذلك من شك، ولا يمكن أن يفرح حبه لأخيه وابنه وربيه. ولكن الغريب المنكر أنه يحبه ويكره وجوده معاً؟ لو لم ينقل إلى القاهرة لكان - أحمد - الآن في عداد الحاططين.

## خان الخليلي ٥٨٩

بالحكمة: «دع بواعث هذا الحزن العميق لا تستحضرها إلى وعيك، اقدف بها إلى هاوية النسيان، وإذا كانت القراءة لم ترشدك إلى الحكمة بعد فخذها من شخص سعيد كالعلم نونوه!». وتمثل نونو لعينيه بصحته ومرحه فتأوه من الأعماق: لماذا يحمل نفسه ما لا طاقة لها به من الكآبة كأنه الثور الذي يقولون إنه يحمل الكرة على قرنه؟! كيف جهل فن السعادة هذا الجهل المزري؟ ولماذا لا يقصد الضاحكين ويسترشد بهم إلى طريق الضحك والسرور؟ ينبغي أن يفوز فؤاده الكبير بحظه من السعادة لأنه من العبث أن تمضي الحياة هكذا في كآبة وحزن. وردد هذه الخواطر حتى بلغ ميدان الملكة فريدة واستقل الترام مكتظاً فاضطر أن يقف بين الواقفين مضغوطة وكان يمقت الزحمة بطبعه فثارت نفسه بعد هدوء قليل، وخطر له خاطر غريب مخيف، فتمنى لو كان من الممكن أن تخلو الدنيا من بني آدم! ولم يدر إن كانت وقفته هي التي أوحث إليه بذلك الخاطر المخيف أم أن هناك بواعث أخرى. فقد تمنى من قبل أو تحيل أنه يتمنى لو تقفر القاهرة إثر غارة! فحجل من خواطره الجهنمية التي تحلم أحياناً بالتدمير المخيف لغاية تافهة كأن يستأثر بفتاة دون شريك ولا منافس!. على أنه عاد يقول لنفسه متأثراً: أليس الغدر ذمياً كالدمار!؟

- ٢٧ -

خرج رشدي عاكف مبكراً على غير عادته، ودون أن يتناول فطوره، يدفعه ما هو خليق بتغيير العادات وتأخير الفطور. ولما انتهى إلى السكة الجديدة رأى الفتاة على بعد قريب صاعدة طريق الدراسة إلى الطريق الصحراوي المؤدي إلى العباسية، فتباطأ قليلاً حتى اتسعت المسافة بينهما ثم تبعها عن بعد، وكانت على علم سابق باتباعه لها - كما أنذرها به بالإشارة في النافذة - وكانت أيضاً على رضى بذلك أخفى أكثره الدلال والحياء، وفضح أقله - وكان به الكفاية - الابتسام أو مغالبة الابتسام. وكان الزمن المتاح لرشدي قصيراً حقاً، ولكن زمنه من ذهب وماس،

رأسه للماء البارد طويلاً لينعش أعصابه المحطمة، ثم عاد إلى حجرته وارتدى بذلته، وخرج إلى السفارة ليحسو قهوته ويدخن سيجارته ويتناول لقمته البسيطة، وكان وطن النفس على لقاء الشاب بما يعهده من الأنس به مستعيناً بما طبع عليه من مداراة ما يعتلج بنفسه. وأقبل رشدي مرتدياً البذلة والطربوش وابتسم إليه ابتسامته المحبوبة فقال:

- صباح الخير.

- صباح النور.

وعجب أحمد من لبسه الطربوش إذ كان يفطر عادة عاري الرأس فسأله:

- لماذا عجلت بلبس الطربوش؟

فقال رشدي والابتسامة لا تفارق شفثيه:

- سأتناول فطوري في الخارج لأن لدي أعمالاً مستعجلة.

- وما الذي دعا إلى هذه العجلة؟

- إنجاز بعض الأعمال المتعلقة بوظيفتي!

وحياه الشاب - كما حيا والدته التي كانت تعد الطعام - ومضى بقوامه الرشيق وابتسامته المشرقة. ولم يصدق أحمد أسطورة «بعض الأعمال» فارتاب فيها لأول وهلة، وبدا له كاليقين أن رشدي بكّر في الاستيقاظ على غير عادته بالخروج من البيت ليلتقي بنوال في مكان ما من طريق المدرسة. هذا ما حدسه قلبه المحزون، فهل اتفقا على ذلك حقاً؟. وذكر ممتعضاً كيف لبث مرتبكاً جامداً - مدة علاقته بها - لا يدري ماذا يفعل؟ أما هذا الشاب الجسور فليس في مذهبه بين التحية واللقاء سوى غمضة عين. وأعجب بجسارته حقاً كما أعجب به بخاطر أمام عينيه بشبابه الريان وقده المشوق منذ دقيقتين، إلا أنه إعجاب انطوى على احتقار النفس والتمرد فلم يجل من حق وغضب. فكان كمن يسبح بخلود الخالق وهو يرثي فناء المخلوق. وبعد قليل لبس طربوشه وغادر الشقة، ومال إلى قطع شارع الأزهر مشياً على الأقدام تخفيفاً عن أعصابه المتوترة، فالتزم الطوار الأيسر وحث خطاه، وقال لنفسه بصوت كالهمس ليوحى إليها

الصافيتين فابتسمتا وهي لا تدري، ثم حاذاها حتى  
أوشك أن يلامسها، وقال بركة:

- صباح الخير..

فقال رأسها إليه قليلاً ولحظته بطرف متردد وقالت  
بصوت خافت:

- صباح الخير.

وكانت متأبطة حقيبتها كعادتها فقال مبتسماً:

- أتأذنين لي أن أحمل عنك هذه الحقيبة؟

فابتسمت بدورها وقالت:

- كلاً، لا داعي لذلك، فهي خفيفة على كبرها،  
ولا ضرر من حملها البتة.

- لا بد أن تثقل على يدين رقيقتين كيديك!

- بل يداي ثقيلان عليها، لا تعودني على الترف من  
فضلك!

فضحك بسرور صادق وقال:

- أليس مما ينجل حقاً أن أسير طليق اليدين وأنت

تحملين هذه الحقيبة الكبيرة؟!

وأخذ الارتباك يزايدها ويحل محلّه الأناقة، فسألته  
معرضة:

- ولماذا تنجل؟ إنّي أحملها كلّ يوم بكرة وعشيّاً!

- الظاهر أنك تخافين أن أخطفها!

- لبتك تقدر على هذا حقاً، فإنّها تحوي واجبات  
ثقيلة أخفّها الحساب!

فضحك مرّة أخرى وقال:

- لعن الله علماً يثقل عليك!

فابتسمت متشجّعة وقالت:

- أتلعن العلم إكراماً لي حقاً. أم لعداوة قديمة؟!

- بل إكراماً لك وإن لم ينجّل الحال من عداوات

قديمة، تُرى ما أحبّ العلوم إليك؟

- التاريخ واللغات!

وكان على عكسها يحبّ العلوم والرياضة، ولكنّه

أبدى سروراً طافحاً وصاح بعزم:

- أتفقنا والحمد لله!

فعبّبت لسروره وسألته:

فلم يكفّ منذ مقابلة السطح - بل منذ رآها أوّل مرّة -  
عن رصدها ومولاتها بالمطاردة والغزل حاشداً لتصيدها  
هباته جميعاً من أفانين الشباب والحسن والدعابة  
والصبر، حتى ظنّته قطعة من النافذة. ولم يشكّ الفتى  
في ظفّره من بادئ الأمر، ولا شكّت هي فيه!، أو فما  
معنى مجيئها إلى النافذة كأنّهما على موعد، واستسلامها  
لنظراته، وتصديها لبسماته وإشاراته!! فإن كان هناك  
ظلّ من الشكّ فقد مسحته ابتسامتها الأخيرة وقضي  
الأمر!، على أنّها لم تستسلم بغير تردد، بل كانت  
خائفة مما تنزع بها النفس إليه، وكانت تلوح لها صورة  
الأخر - أحمد - فيتولّأها الخجل ويساورها القلق. إلّا  
أنّها رأت عيوبه واضحة على ضوء الوجه الجديد  
المشرق، فتساءلت لماذا يلوح الخوف في عينيه دائماً؟  
لماذا يبدو كالفأر ما إن يسمع حساً حتى يفرّ إلى  
جحره؟! إلّا يظلّ جامداً لا يتحرّك ولا يفعل شيئاً!  
وإنّها لتعلّى مثل حياته فتحتاج بطبيعة الحال إلى جسور  
يقترح حياءها، فلم تجد فيه طلبتها أو أنّها أدركت  
ذلك حين وجدت طلبتها الحقيقية. هذا إلى بؤن  
شاسع بين شباب نضير وكهولة ذابلة، وجمال صبيح  
وخلقة قلقة غامضة، ومرح باسم وكأبة موحشة،  
والحق أنّها مالت إلى أحمد لأنّه كان الرجل الموجود، أمّا  
رشدي فحرّك قلبها المشبوب وأهاج عاطفتها. وهكذا  
جازت صبره بابتسامته، وهكذا كتبت بهذه الابتسامه  
أوّل كلمة في القصّة الجديدة.

صعدا طريق الدراسة، وانعطفوا إلى الطريق  
الصحراوي - هي سابقة وهو لاحق - كان الصباح ندياً  
رطيباً مائلاً إلى البرودة يعابته نسيم رقيق يهبّ بأنفاس  
نوفمبر التي تنعي الأزاهر إلى المحبين، أمّا السماء  
فسيّمتها محمّل سحاباً ناصعاً، يتصل حيناً، ثمّ يتفرّق  
في المشرق فيحدث بحيرات ثلجيّة تنضح شطّانها  
بالشعاع الصاعد من الأفق فتتوهج أهدابها وتخطف  
الأبصار. منظر تظمئنّ النفوس إليه إلّا نفسين تفاننا  
معاً! وقد أوسع خطاه بعد المنحنى فأدركها، وشعرت  
الفتاة بوقع خطاه تقترب منها فلم تعطف رأسها إليه،  
ولكنّ أثر اقترابه بلغ خديها فتوردت، وعينها الكبيرتين

## خان الحليلي ٥٩١

صلة روحية عسيّة أن تصير الحبّ نفسه! ليس يقولون إنّ الأرواح تتخاطب بغير إحساس البتّة؟! فنظرة واحدة تبلغ بالروح فوق ما تريد.. أمّا الحبّ الذي تلده الأيام وتنبهه المعاشرة فمرجعه على الغالب العادة أو المنفعة، أو غيرهما من القيم التي لا تُدرك إلاّ بالروية والإمهال، فماذا ترين؟

فتردّدت هنيهة ثمّ سألته كالمختيرة:

- أتقول إنّه لا يوجد... (ولم تنطق بكلمة الحبّ) إلاّ من أوّل نظرة!  
فأدرك أنّه ثرثر أكثر ممّا ينبغي، وخاف معبّة تفسير كلامه فقال باهتمام:

- كلّاً ليس هذا ما أعنيه، وإنّما أعني أنّ النظرة الأولى خليقة بالدلالة على الغاية التي عسى أن تهدف إليها العاطفة.

فضحكت ضحكة رقيقة وقالت:

- فلسفتك عسيرة، فلا هي من التاريخ ولا هي من اللغات!

واستغرق الشابّ ضاحكاً بسرور أخذ بمجامع قلبه، وودّ في تلك اللحظة لو يستطيع تقبيل القم الصغير الذي تسيل جوانبه بهذه الحلاوة المشتهية، وقال:

- بل هي أسهل من التاريخ أو اللغات لأنّها فلسفة الفطرة الصادقة وأصدق دليل على ما أقول أننا التقينا بوحيها ولن نفرق إلى الأبد إن شاء الله.

وكانا قد بلغا عند ذلك منتصف الطريق، فلاحتا على يسارهما طلائع مدينة القبور خاشعة تحت كآبتها الأبدية، ينبعث من قوائمها هدوء شامل عميق، وصمت غخيم ثقيل، فرمقتها بعينها النجلاوين، ثمّ قالت لتداري الخجل الذي سغره حديثه المطرب:

- قضي عليّ أن أستصبح كلّ يوم برؤية هذه القبور، فيا له من منظر لا يسر!

وتساءل الشابّ عمّا اضطرّها إلى قطع هذا الطريق الطويل مشياً على الأقدام في الذهاب إلى العباسية وفي الإياب منها، ولماذا لا تستقلّ الترام عن طريق الخليج، ثمّ ابتده الحقيقة فأدرك أنّها ترضى بهذا التعب - أو

- وما عبرة السرور لذلك؟

فقال بلباقته المعهودة.

- كيف غاب عنك هذا يا عزيزتي؟ ألم يكن ذلك الاتفاق في الميول العقلية أصلاً وبشيراً باتّصافنا «الروحي» الذي نلتقي عنده الآن؟

فتوزّد وجهها وطرقت عيناها - وهي عادت إذا تولاها الحياة - ولم تنبس بكلمة، فسألها ياغراء:

- ألا توافقيني على رأيي؟

فلازمت الصمت، أو لازمها الصمت على الأرجح، وعاد يقول برفق:

- هل أجد في صمتك جوابي المرغبي؟

ولحظها، فخالها بتبسم، فخامرته الحساس وقال بصوت خافت:

- عرفت ذلك من أوّل نظرة!

فلم تتمالك أن قالت وفي عينيها ابتسامة صريحة:

- أوّل نظرة!

- أجل.

- شيء لا يصدّق!

- ألا تؤمنين بالنظرة الأولى؟

- ألا تغالي؟.. أحقّ ما يقال عن النظرة الأولى؟ فقال بحماس تألقت له عيناها العسلتان الجميلتان:

- هو الحقّ الذي لا مرأى فيه!

فقالت وقد غيرت لهجتها:

- نحن لم نتعارف بعد!!

فأدرك أنّها تحاول الإفلات من الطوق الذهبيّ الذي طوّق جيدها به، ولكنّه لم يمكّنها من ماربها وقال:

- لا تغيبني عن الحديث، سنتعارف حتّى بعد حين، أو سنتمّ تعارفنا فلم يبقّ منه إلاّ اسمي. ولكنّي أريد أن أقول إنّه إذا لم يكن حبّ (وتعمّد أن يذكر هذا اللفظ كأنّما جاء عفواً) من أوّل نظرة فلا حبّ على الإطلاق!

وتعوّذت بالصمت مرّة أخرى وهو يلحظها مبتسماً، ثمّ استدرك:

- لا أعني أنّ الحبّ يحدث حتّى من أوّل نظرة، ولكنّ النظرة الأولى تكفي لاكتشاف من تربطهم بنا

لشيء من هذا ولكنّها قالت مستوصية بشيء من الشجاعة:

- ولكنّا لم نتعارف بعد!  
- ألسنا جيراناً!  
- بلى، ولكنّي لا أعرف اسمك.  
- ساعلك الله. اسمي رشدي. رشدي عاكف!  
- كيف يسيئك هذا وأنت تجهل اسمي أيضاً؟  
- معاذ الله!  
- أعرفته من أوّل نظرة أيضاً؟  
فضحك رشدي بسرور، وحتى رأسه أن نَعَمْ، فسألته:

- فما اسمي؟  
- إحسان!  
فضحكت بصوت مسموع وقالت بإنكار:  
- أهكذا تختلق الأسماء!  
- بل هو اسمك!  
- أخطأت يا سيّدي ولعلّك زُمتَ غيري فارجع بسلام!  
- ولكنّي سمعت والدتي تتحدّث عن والدتك مرّة فتدعوها «ستّ أمّ إحسان».  
- فحسبت أنّ إحسان هي أنا!!  
- نعم...  
فضحكت مرّة أخرى حتّى تورّد وجهها الأسمر وقالت:

- هذا اسم أخي الكبرى، وقد تزوّجت منذ عامين!  
فابتسم رشدي كالخجل وقال:  
- لا تؤاخذيني، فما اسمك إذا؟  
- نوال...  
- عاشت الأسماء!  
فتردّدت لحظة ثمّ رمقته بنظرة ماكرة وتساءلت:  
- أنت تلميذ؟  
- نعم بمدرسة العباسيّة للبنات.  
- موظّف إذا؟  
- بينك مصر!

رضي لها به أبوها - توفيراً لنفقاتها، فكمال خليل أفندي يُعتبر من صغار الموظّفين، وتمنّ يكافحون بعزيمة صادقة - في ظروف دقيقة - للنهوض بأسرهم، وذكر أنّ أسرته اجتازت يوماً مثل هذه الشدّة وعلى رأسها شقيقه المحبوب يذود عنها البأساء بصبر وجلد، فتندى قلبه عطفاً ومحبةً وتقديراً، ثمّ قال لها مبتسماً:

- لن تريها بعد اليوم!  
فرمته بنظرة إنكار وتساءلت:  
- كيف؟ هل أسير معصوية العينين؟  
- بل سيشغلنا الحديث عن النظر إليها!  
فضحكت ضحكة رقيقة وقد أدركت ما يعنيه، وقالت:

- ولكنّه سفر شاقّ لن تحتمله طويلاً، خصوصاً والشتاء قريب!  
- سنرى!  
وأوغلا في السير فلم يعودا يريان إلاّ صحراء على اليمين وقبوراً على الشمال. ومرّاً بطريق يشقّ القبور ويمتدّ غرباً، فأشار رشدي إلى مقبرة خشبيّة ذات فناء صغير، تقع على جانب الطريق الأيمن ثالثة المقابر وقال:

- مقبرتنا!  
فنظرت الفتاة إلى حيث يشير فرأت المقبرة الصغيرة وقالت باسمه:  
- فلنقرأ إذن الفاتحة!  
فقرأ الفاتحة معاً، ثمّ قال رشدي:  
- هنا يرقد الأجداد، وآخرهم جدّاي لوالدي، وأخي الصغير.

- ومتى توفّي أخوك هذا؟  
- من زمن بعيد ونحن بعد أطفال!  
وطرحا القبور وحديثها وراء ظهرهما، واستعدادا للصفاء والسرور، دون التفات إلى وجه التناقض الساخر ما بين حديث الحبّ وحديث القبر، ولا كدراً صفوهما بأن يتساءلا مثلاً عمّا يتبقّى لهما من عمر يقضيانه في الدنيا، أو عمّا ينتظر حياتهما من أحداث قبل أن يرقدا في تلك المقبرة أو في أخت لها، لم يلتفتا

## خان الخليلي ٥٩٣

اليأس النهائية، وما برحت تتقاذف قلبه أحاسيس الحب والخيبة، والأنفة والغيرة، وحبّه رشدي ونفوره منه، فتحرّج بينها لا يقرّ له قرار حتى أوشك أن ينفجر رأسه الصغير. وبعد العصر بقليل اقتحم رشدي عليه وحدته! ولم يكن في ذلك غرابة فرفع إليه رأسه مبتسماً باذلاً جهده ألا يلوح في وجهه وجوم أو سهوم. فحيّاه الشابّ بابتسامته الحلوة وقدم له سيجارة وقال بسرور وبلهجة المعتذر معاً:

- لا تؤاخذني على إزعاجك ولكنني أرتّب إليك خبراً ساراً.

فخفق فؤاد أحمد وقال:

- خير إن شاء الله!

- أخبرني صديق من الموظفين أنّ الحكومة تفكّر في إنصاف الموظفين المنسيين.

فقال أحمد بارتياح لم يذّر الآخر بواعثه الحقيقية:

- بشّر الله بالخير!

- إنّ بقاء رجل مثلك عشرين عاماً في الدرجة الثامنة ظلم قبيح وسيئة ذميمة.

فهزّ أحمد منكبيه بغير مبالاة وقال:

- أنت تعلم أنّي لا أعبأ الدرجة ولا الوظيفة شيئاً. وتحادثنا ملياً، ثمّ انصرف رشدي كيلاً يضيع وقت أخيه الثمين... وتفكّر الرجل بعد انصرافه في ما يساوره نحوه من نفور فامتعض، وتألّم فؤاده غاية الألم، وهل ينسى أنّه أحبّه مذ كان في المهدي؟ وهل يجهل أنّ الشابّ يحبّه حباً لا يجبه والديه؟!

وهرع إلى الزهرة قبيل المغرب مرتاحاً إلى مغادرة البيت، وجالس الصحاب ساعيتين ملقياً بنفسه في تيار الحديث لائثاً بشجونه من نفسه وأفكاره، ثمّ تراجع إلى البيت وكان رشدي ما يزال في الخارج - طبعاً - يسهر ليلته في الكازينو، فكان فتاته استأثرت بالوقت القصير - من الظهر للمغرب - الذي كان يخلد فيه إلى الراحة وجعلت من يومه وحدة متصلة من اليقظة والتعب. وألقى الرجل على النافذة - التي عاهد نفسه ألا تفتح أثناء وجوده بالبيت - نظرة غاضبة، وتساءل وهو يخلع ملابسه ترى ألم تلاحظ تغيّبه عن النافذة؟.

فابتسمت قائلة:

- أما أنا فموظفة بوزارة المعارف!

وضحكا معاً. ثمّ رأيا أنّهما يشارفان العباسية، فأدرك رشدي أنّ أول لقاء لحيته الجديد يؤذن بالانتهاء، أما هي فقالت:

- حبّيك هذا فينبغي أن نفرقها هنا.

فتوقفا عن السير، وأخذ راحتها في يده، وضغط عليها بحنو وهو يقول:

- مع السلامة وإلى اللقاء غدًا صباحًا.

فحيّته بإحناءة من رأسها وغمغمت:

- إلى اللقاء...

وحثّت الخطى، ولبث هو بمكانه يتبعها مقلتيه في سرور ونشوة محدّثاً نفسه: «كانت في البدء متعترّة بحياتها، ثمّ أنست بي فصارت ألطف من نسمة عيقة، طاهرة خفيفة والله، وقاها الله شرّ الشياطين جميعاً بما فيهم شيطاني أنا».

وكان شأنه المعهود أن يغازل ثمّ يتعارف ثمّ يحبّ، وقد عاد ذلك الصباح وهو ينصت في صمت الطريق إلى أول خفقة لقلبه ترجع مطلع لحن الهوى. أما نوال فانحدرت في طريق المدرسة وهي تقول لنفسها: «ما الطفه، ما أجمله، ما أعذب حديثه، فآه لو تصدق الأحلام!».

ولاحظ أحمد عاكف ما طرأ على شقيقه الأصغر من تغيّر بعين متيقّظة. رآه بعد ظهر ذلك اليوم - يوم السبت - نشوان بالسرور، فكأنما بات من سروره في سكرة ذاهلة، ورآه يغيّر عاداته من النوم ما بين الظهر والمغرب - موعد انطلاقه إلى السكاكيني - فيقبل ساعة واحدة ثمّ يستيقظ مثل الجفنين فيمشط شعره ويتعطر ويتصدّى للنافذة المحبوبة!، ولبث الكهل في حجرتة يطالع أو يحاول المطالعة ريثما يأزف موعد ذهابه إلى القهوة - تلك العادة الجديدة على حياته - وقد ركّز آماله جميعاً في النسيان المرتقب، ينتظره صابراً كما ينتظر



الجهنمية عن الغارة المدمرة فارتجف قلبه ورفع رأسه إلى سقف المخبأ داعياً في سره: «اللهم رحمتك يا أرحم الراحمين» ثم وقع بصره على كمال خليل وسيد عارف واقفين على كذب من مجلس أسرة أولهما يحدثان شقيقه!! فتولته الدهشة، كيف تعرّف الشابّ بهما؟ ومتى حدث ذلك؟ وهل رمى الشابّ من وراء ذلك إلى غرض معين؟!.. حقاً إنّه شابّ جسور يعجز خياله - هو - عن مجازاة أفعاله! وخامره نحوه شعور بالإعجاب ممتزجاً بالحنق، بيد أنه انقطع عن التهادي في مشاعره لدوي انفجار انتشر فجأة فملاً الأسراع، وانطلقت وراءه طلقات المدافع المضادة بسرعة فائقة، فحلّق الخوف فوق القلوب الواجفة كحدأة منهومة تنفضّ على أفراخ مذعورة، ولم يتكرّر الانفجار ولكن استمرت طلقات المدافع المضادة فترة وجيزة. ثم عاد السكون إلى نصابه، فأخذ القوم أنفاسهم، ومضت ربع ساعة أخرى ثم انطلقت صفارة الأمان. وفتش أحمد على أخيه فلم يجده، وكان الناس يخرجون أفواجا، فخطر له خاطر أعاد له ذكريات قديمة، فبحث عيناه عن أسرة كمال خليل فأراها قريبة من مجلسها تنتظر أن يخفّ التزاحم على باب المخبأ إلا أنه لم ير نوال! وذكر ليلة دعتة إلى اللحاق بها وكيف تردّد وجبن! أما رشدي فلا يمكن أن يتردّد أو يجبن!..

- ٢٩ -

وأطرد مجرى الحياة، فتوطدت أسباب الصداقة بين رشدي وكمال خليل على حدّثة عهدهما بالتعارف، وتفاوت ما بين عمريهما، بفضل لباقة الشابّ وكياسته، ودعاه الرجل إلى قهوة الزهرة فلبّى دعوته وجالس صحاب شقيقه - والكهل بينهم - ونال إعجابهم بما طبع عليه من دماثة الخلق وإشراق الوجه.

وطاب له المجلس فنوى أن يعاوده بين الحين والحين، ثم دعاه الرجل إلى زيارة بيته فمضى إليه فرحاً مسروراً، وتوثقت عرى المودة بينهما، واكتسب الشابّ ثقة الرجل لحدّ أن قدّمه إلى زوجته وكريمته، ورفع الحجاب بينه وبين أسرته، وهي خطوة لم يتوقّعها

الم يُربّها من الأمر ما ينبغي أن يربّيها؟ لكمّ يوّد لو تعلم باحتقاره غدرها، فكبرياؤه ما تزال جريحة تنزف، ونفسه مكتوبة بنار حامية.

ونام قبل مواعده لصدود نفسه عن القراءة، ثم استيقظ على صفارة الإنذار، فنهض مسرعاً وارتدى معطفه وغادر الحجرة فالتقى بوالديه في الصالة، وكانت أمه قلقة لأنّ رشدي لم يكن عاد من سهرته وجعلت تتساءل عن المكان المحتمل وجوده فيه وتدعو الله أن يقيه السوء، وفي الطريق وجدوا الجوّ بارداً رطباً فقال والده: «ما يتظرنا في الشتاء أدهى وأمره ومضوا إلى المخبأ واتخذوا أماكنهم المعهودة. ونظر الأب في ساعته فوجدها الثانية بعد منتصف الليل، فقال باستياء وتهكّم:

- أليس الأرحم برشدي أن يبيت في الخارج حتى لا يكلف نفسه مشقة الرجوع إلى البيت في مثل هذه الساعة؟

وحذّث أحمد نفسه باستراق النظر! ولكنّه رأى رشدي يهبط أدراج المخبأ متعجلاً ويدور بعينه في المكان باحثاً عنهم، ولما عثر بهم أتجه نحوهم مبتسماً متشجّماً بيّقة حمياً الشراب على مواجعتهم - ومواجهة أبيه خاصّة - وحيّاهم ثم قال لأحمد:

- أطلقت صفارة الإنذار ونحن في الجمالية فعدوت في الظلام كالشياطين!

فاتنهره أبوه قاتلاً:

- أنت كالشياطين بنير جدال، ألا تريد أن تخفّف من غلوائك في هذا الوقت العصيب!

ولم يتجاسر أحمد على استراق النظر في حضرة الشابّ! ولكنّ رشدي ضاق بالجلوس ذرعاً فقام يتمشّى في المخبأ، وأطلق الكهل لعينه العنان فانطلقت نظرتها القلقة إلى الركن البعيد حيث تجلس أسرة كمال خليل، ورأها، كانت جالسة جنب أمها مطرقة، فرأى جانب وجهها الأيمن. هل رأته يا تُرى؟.. ألا تزال تحسب أنّه مجهول أمرها؟، أم تعانٍ شيئاً من القلق والعداب؟، أم أنّه المقضيّ عليه بالقلق والعداب وحده؟!.. وطافت برأسه في تلك اللحظة تمّياتة

الحكيمة!.

وفات رشدي طور اللعب، فهو يبدأ بمعاينة الغزل ولكنّه ينتهي دائماً بالحبّ الحقيقي! فأحبّ نوال واستمرت لها في قلبه عاطفة صادقة. أليست بجارة النافذة المحبوبة، ورفيقة طريق الجبل المكلمة هامته بالسحاب الرقيق، وتلميذته المغرمة يطارحها الهوى على مائدة الحساب والجبر والهندسة، وجليسته في السينما صباح الجمّع؟.. علق الهوى على قلبين طريين، ولصق نفسين تواقيتين للحبّ والسعادة. وصارت حياته نشاطاً متصلاً يشقّ على الجسد والأعصاب، فهو إمّا مكبّ على عمله في المصرف أو هائم في غرامياته، أو ساهر في كازينو غمرة، فلم يخلد إلى الراحة إلا في الهزيع الأخير من الليل. فلم يتشله حبّه من داء المقامرة أو معاقرة الشراب ولا حتى من الحبّ الفاجر وعالج هاتيك اللذات في يسر، وأنسته العادة أنّها خطايا فأنس بها بلا تردد، ولم يتخيّل أنّ الحياة حياة بغيرها، فعبد الورق والكأس والحبّ، وعسى أن يهوله ما تستوجهه هذه الحياة من مال ومشفقة فيقول متأسياً: «غداً أودّع حتماً كلّ شيء إذا تزوّجت!». .

وكان حريّاً أن يفكر في نسيان ذلك العبث ليأخذ أهفته للزواج إن كان من الصادقين، ولكن هوّن عليه الأمر أنّه أودع المصرف يوماً مبلغ خمسين جنيهاً ربحتها من السباق، ففي بحر عام واحد يستطيع أن يقتصد من مرتبته ما لو أضافه إلى ذلك المبلغ لقام بنفقات الزواج، ولكن متى يبدأ هذا العام؟ هذا ما كان يؤجّل التفكير فيه، مستسلماً لتيّار الشهوات العارم، فلم يتعوّد قطّ أن يروّض من جماع شهوته، أو أن يحدّ من رغباته، أو أن يشدّ من إرادته، إلاّ أنّه تردّد أخيراً متحيراً، عينا على الحياة التي يلتي نداءها، وعينا على الفتاة التي يهواها. . . .

- ٣٠ -

وانصرم شهر نوفمبر، فاشتدّ البرد اشتداداً لم تعهده القاهرة إلاّ في النادر، وأصيب رشدي عاكف

رشدي قطّ، ولا دار له بخلد أن تتخذها أسرة بحبيّ الحسين خاصّة حيث تسود روح المحافظة، بل إنّ أسرته لتعتبر من هذه الناحية أشدّ محافظة على خلوها من الفتيات، فما يجروّ هو ولا أخوه - فضلاً عن أبيه - على أن يقدّما رجلاً غريباً إلى أمهما. على أنّه سرّ بذلك سروراً لا يدانيه سرور، وسعد بتلك الثقة الغالية، واصطبغ تفكيره بلون الجّد فاستشعر الرزانة والتبعة، وتبع ذلك أن حلّ رشدي محلّ الأستاذ أحمد راشد المحامي في التدريس لنوال ومحمد. ولما اتصل نبأ ذلك بالأخ الأكبر عقدت الدهشة لسانه، ولم يدر كيف حدث ولا كيف أمكن أن يحدث، فأخوه صار كأنه عضو في أسرة الجيران، ولو أنّه وطّن النفس يوماً على أن يبلغ هذه المنزلة التي بلغها رشدي في أيام ما كفته عشرون عاماً، ولكمّ رفقته بعين الإعجاب المقرون بالحسد، ولكنّه نجح في التظاهر بالجهل المطبق، فأسبل جفنيه على القذى كما أغلق النافذة على الآمه، واستسلم للصبر الذي استمرّاه لطول ما عاناه. أمّا الأمّ فلم يغب عنها شيء من بادئ الأمر، فلم يكن رشدي من الذين يُعنون بإخفاء أسرارهم. كان يلازم نافذته إذا وُجد بالبيت، وهرع إلى بيت الجيران في ساعات الدروس، وكان يغشى روحه هيّان بدت آثاره في عنايته المتضاعفة بأناقته، وفي الحنان الذي اكتسبه صوته وهو يغني، وفي خروجه الباكر كلّ صباح الذي لم يعد تخفي حقيقته على أحد، بل ما من شكّ أنّ أسرة الجيران نفسها باتت تعلم من أمره ما تعلم، لم تعتقد عليه من الأمل ما يثلج صدرها بالسعادة، لم يغب شيء من هذا عن الستّ دولت، وشاورت قلبها فيه فلم تجد منه إباء ولا نفوراً، وكان من عاداتها أن تقول أحياناً كالمحتسرة: «متى يا ربّ أفرح بالعرائس كالأمهات السعيدات؟!». ولكن هل نوال جديرة بابنها؟! لم لا؟! هي عروس حسناء متعلّمة، من أسرة طيبة، ووالدها موظّف، فكلّ شيء مناسب، اللهمّ إلاّ خاطرًا واحدًا أحزنها وأكربها، أيجوز أن يتزوّد رشدي قبل أحد؟! ولكن ما حيلتها؟! فلتنتظر ما تلد الأيام من أحداث تقضي بها مشيئة الله

يحببى وأنا أحبّه. ولكن كيف يغفل عما يشور بنفسه أحياناً من الغضب والثورة؟.. وكيف ينسى أنه تمنى لو أنّ الشاب لم ينقل إلى القاهرة؟.. بل كيف ينسى أنه تمنى لحظة لو تخلو الدنيا من الناس والشباب فيها طبعاً؟! فهذه الخواطر وغيرها كانت ترهقه بالحزن وترديه في الوسوس. وفي آخر ليلة من ليالي اشتداد الحمى على الشاب، حلم أحمد حلمًا غريبًا. وكان نام بعد جهد ناصب من عذاب الفكر، فرأى في ما يرى النائم أنّه جالس على فراشه مرسلًا الطرف إلى شرفة نوال في إشفاق ورجاء، فما يدري إلا ورشدي يقعد على كرسيّ بينه وبين النافذة مبتسمًا ابتسامته اللطيفة، فشعر باستحياء وحول ناظره عن الشرفة إلى وجه أخيه، وأراد رشدي أن يسري عنه بتظاهرة بأنه لم يفتن لشيء فلم يفلح، ثمّ رآه يتنفخ رويدًا رويدًا حتّى صار ككرة ضخمة فأنسته الدهشة ما كان فيه من استحياء، ثمّ أخذ منه العجب كلّ ما أخذ حتّى لم يتمالك نفسه من الصراخ إذ رأى شقيقه - وهو كالكرة الضخمة - يرتفع ببطء طائرًا كأنما يلتمس سبيلًا إلى الفضاء خللّ النافذة، ولكنّ النافذة ضاقت عنه فانحشر بين جانبيها وحجب عن عينه النور، وزايلته الدهشة وحلّ محلّها الرعب، ولكنّ الفتى، جعل يضحك منه كالساخر بصوت مزعج أثار أعصابه فتولّاه الغضب، وظنّ الشابّ يسخر منه بخدعة فنهز ولكنه لم يعبا به واستمرّ في ضحكه الساخر، ففرغ أحمد إلى مكتبه وأنّ بريشته وغرسها في بطنه فانقصفت فيها، واندفع من البطن بخار ملأ الحجرة بالغبار فأخذ جسم الفتى يتقلص بسرعة حتّى عاد إلى حجمه الطبيعيّ ثمّ سقط عند قدميه، وجعل يتلوى كالسليم، وبعض من الألم قوائم الكرسيّ ويصرخ صراخًا موجعًا ويسعل حتّى تبحظ عيناه ويسيل من محجرهما الدم، وهلع فؤاد أحمد وأطبق عليه رعب يضني ويميت، ثمّ... ثمّ استيقظ عند ذلك، وأدرك أنّه كان يحلم، ربّه، تُبّا للأحلام، وما كاد يفيق من هول الرؤيا حتّى بلغ مسمعيه صوت كالآنين يأتيه من عقب باب المغلق، فأرهب السمع فتبين له أنّه صوت أخيه وأنه حقًا يتأوّه

بالإنفلونزا، ولعلّها أصابته أثناء عودته إلى خان الخليلى في الهزيع الأخير من الليل، ولم يكن يعبا بوعكات البرد مكتفياً ببلع أقراص الأسبرين إذا اشتدّ عليه وجع الرأس، فزاول نشاطه المهود لا يعبا بشيء، إلا أنّ حالة المرض اشتدّت عليه في اليوم الثاني في المصرف فتناوبته قشعريرة، ثمّ شملته رعشة حتّى اصططكت أسنانه، وعراه خور أظلمت منه عيناه فغادر المصرف واستقلّ تاكسي إلى البيت، وركد في إعياء شديد، ومنحه طبيب المصرف أسبوعًا، واشتدّت الحالة، وتدهورت صحته بسرعة مخيفة، وغيره هزال فبدا كإنسان لازمه المرض شهرًا طويلًا؛ وأدرك أحمد أنّ أخاه فقد مناعته الأولى التي طلما قاوم بها التوعكات فلم يملك أن قال له:

- صرت كالخيال، لأنّ جسمك لم يعد يقاوم لما تكلفه به ممّا ليس في وسعه.

وكان الفتى معتادًا أمثال هذه الملاحظة من أخيه، فابتسم ابتسامه شاحبة وقال:

- هذا عارض من أعراض البرد وسوف يزول!

فقال أحمد باستياء:

- ولكنّه ما كان يتمكّن منك لولا تفريطك في

صحتك!

ولم يكن شيء يعدل به عن الدفاع عن سيرته المحبوبة فقال:

- ألا ترى أنّي لا أسهر وحدي! وأنّ صحبي جميعًا كالغزال صحّة وعافية!، ولكنّها أعراض البرد وسوف تزول بإذن الله.

وكان يعلم أنّه يستमित في الدفاع عن حياته لحدّ اللجاج والمكابرة فانكسر عن لومه، وكان يعود كثيرًا، ويواسيه ويشجعه، وبالغ في ذلك مبالغة مردّها إلى ما بات يساوره نحوه من امتعاض ونفور. فكأنّه كان يغطّي المشاعر التي تمجّله وتمزّنه بالمبالغة في إظهار العطف والمحافظة على مظاهر الحبّ، وكثيرًا ما كان يحدث نفسه بصوت مسموع قائلاً: «إني أحبّه كعهدي دائمًا، وما يستحقّ منّي غير هذا الحبّ، ولو أنّه علم بطويّتي ما أقدم على ما أقدم عليه فهو بريء، وهو

## خان الخليلي ٥٩٧

فقال الشاب الشكور المحب:  
- وهل داخلي في ذاك شك؟!  
ولكنه لم يُعَنِّ بِاتِّبَاعِ الإرشاد الذي لا يداخله فيه  
شك، وفي صباح اليوم التالي رآه أحمد يستجمع  
لخروجه الباكر، فتولته الدهشة وقال بإنكار:  
- ماذا أنت فاعل؟

فقال بشيء من الارتباك:  
- إلى المصرف.  
- وما الموجب للعجلة؟  
فعدل الفتى عن المداراة وقال بصراحة محزنة:  
- أخي، لا أكتفك أن البيت يُسقمني!  
وعلم أحمد بما يغريه حتمًا بالاستهانة بصحته،  
فانقبض صدره وأخفى بصره في فنجان القهوة، ومضى  
الآخر إلى سيبه، وأرادت الأم - وكانت جالسة إلى  
السفرة - أن تحفّف من وقع ما خلفه الشاب لنصح  
أخيه فقالت تعتذر عن سلوكه:  
- شفاء أخيك في الدنيا الواسعة لا في البيت، فلا  
تؤاخذه!

ولمّا لم ينبس بكلمة ظنّته غاضبًا فقالت تستوهبه  
ابتسامه:  
- أليس هو ابن أمه؟ ومن شابه أمه فما ظلم، ألا  
ترى ليّ كيف يركبني الهمّ إذا لزم البيت وجعل بيني  
وبين زيارات الأحباب! - فكلانا عدوّ البيت. .  
وضحكت ضحكها الرئانة فابتسم الكهل ابتسامه  
لا لون لها. وما كان شيءٌ يُبثني الشاب عن حياته  
المحبوبة، فارتمى مرّة أخرى بين أحضان الحبّ والقهار  
والشراب والتدخين والنساء! استردّ نشاطه المعهود  
ولكنه لم يستردّ صحته، فلم يزايله الهزال، واشتدّ لون  
وجهه شحوبًا وبدا وكأنه بقي من مرضه شيء لا  
يفارقه، وإذا كان أحمد منشغلًا بنصحه كان الشاب  
منشغلًا بالتفكير في أمور أخرى، فدخل على أخيه  
عصر يوم - قبل موعد خروج الرجل إلى القهوة بقليل -  
حيّاه بابتسامته المطيعة وقال:

- هل تأذن لي بالتحدّث إليك قليلًا؟  
- فرجع أحمد رأسه إليه وقال:

ويتوجّع، فقفز من فراشه وانتعل شبّبه ومضى على  
عجل إلى حجرته. وهناك وجد الشاب يتأوه وأمّه إلى  
جانبه تدلّك ظهره بينما يجلس الأب على كرسيّ قريبًا من  
الفراش، فتساءل أحمد مرّوعًا:  
- ماذا به؟

فألمت أمّه:  
- لا تنزعج يا بنيّ، إنّه ألم الحمّى وهي تفارق  
البدن!

وتنبّه رشدي إلى مجيء أحمد فكظّم ألمه قليلًا وقال  
متأسفًا:

- واخجلتاه! - أزعجت منامكم جميعًا. .

ولكنهم شجّعوه ودعوا له، وجلس أحمد جنب أمّه،  
وأخذ راحة شقيقه بين راحتيه وراح يلدكها بحنوّ،  
وكأنه يكفّر بذلك عن إساءته إليه في الحلم، ومضت  
ساعة مؤلمة لم يكن عناء الأسرة فيها دون عناء  
المريض، فلبشوا إلى جانب فراشه حتّى مطلع  
الفجر. . .

## - ٣١ -

ويرأ رشدي بما ألمّ به، وغادر فراش المرض، ولم  
يكن هيئًا عليه أن يلزم الفراش أسبوعًا كاملًا وهو  
الذي لا تطيب له الحياة إلّا في تجارب اللهب واللعب  
واللذات، ولذلك هاله أن ينصحه أخوه بالبقاء في  
البيت والإخلاد إلى الراحة ريثما يستردّ قوته، فضحك  
كعادته وقال كالأسف:

- حسبي أن ضاع من العمر أسبوع هدرًا!

فاحتدّ الذي ضاع عمره كلّ وقال:

- أحذرك الاندفاع في ما أنت آخذ فيه، فإنك  
تستحلّ شبابك للعدم كأنه معين لا ينفذ، ولا تعبأ  
أبدًا أن تنال حقك من الراحة، فأبي جنون هذا الذي  
تطيع؟!

ولس رشدي في لهجة أخيه غيرته على صحته،  
فابتسم ممتنًا وقال:

- دمت من أخ كريم، متّعني الله بقلبه الكبير.

- إنّي أرشدك لما فيه صلاحك!

النطق بالحكم عليه، ولكنّه لاذ بكبريائه وقال بهدوئه:

- وفّقك الله لما فيه سعادتك .

- شكراً لك يا أخي .

- بيّد أنّي أريد أن أسألك سؤالاً على سبيل الاحتياط، فهل زوّدت بالمعلومات الضروريّة عن الأسرة التي ستصبح واحداً منها؟

- خبرت الأسرة عن كُتب، وعرفت الفتاة معرفة شخصيّة!

ونكأ تصرّيمه جرحه فضعاف مجهوده ليحافظ على هدوئه الظاهريّ، وقال:

- أدّرك بأنّه إذا أعلن الخبر فالنكوص عنه يكون فضيحة!

فضحك رشدي قائلاً بثقة:

- انتهى التقلّب واستقرّ الرأي!

- هل فاتحت أحداً بهذا الشأن؟

- كلّاً فيما عداها هي!

فخفق فؤاده خفقة عنيقة، وشرع خياله في استحضار صورة انفردهما معاً، وتهامسها بهذا الشأن الخطير الجميل، ثمّ قطع تحيّله بقوة، وقال بنبرات تنطق بالرضى:

- على بركة الله . . .

- إذا أكمل إليك تبليغ والدي بالأمر، ومن ثمّ تأخذ في الخطوات المتّبعة .

فترتّب أحمد قليلاً ثمّ قال:

- سأخبر أبي، أمّا الخطوات الأخرى فتحت شرطاً - سمعاً وطاعة . .

- ألاّ نشرع فيها قبل أن تستردّ صحتك، وتستعيد وزنك السابق للمرض على الأقلّ!

فقال رشدي ضاحكاً:

- هذا عليّ هيّن، ولن يطول انتظارنا .

ثمّ نهض قائماً وهو يقول:

- أشكر لك والعُقبى لك (ثمّ غير لهجته كمن تذكّر شيئاً جديداً) . . على فكرة! لماذا لا تفكّر أنت أيضاً في

الزواج، أما كان ينبغي أن أبارك لك قبل أن تبارك لي؟!

- تفضّل يا رشدي!

وقرأ في وجهه الجميل الشاحب أمارات الرزانة والاهتمام على غير عادته، فعجب لأمره، وتساءل عمّا دعا السادر اللاهي إلى الجذّ والاهتمام. وذكر أنّه لم يره في مثل تلك الحالة إلاّ السويغات الحرجة التي تلقى فيها أبناء سقوطه في بعض الامتحانات على عهد دراسته. وساوره القلق ورفع حاجبيه الخفيفين متسائلاً، فقعد رشدي على الكرسيّ وقال:

- أريد أن أجدّ في الأمر فليست الحياة كلّها لعباً!

ولو أنّه سمع كلامه هذا في غير الظروف التي يعانها لما تمالك أن يضحك ويقهقه، ولكنّ صدره انقبض، وحسّ قليلاً ما الشابّ ماضٍ إلى خوضه، فقال بهدوء:

- الحياة ليست كلّها لعباً. هذا حقّ . . .

فقال الشابّ:

- أنت مرجعي عند المشورة، وقد جئتك سائلاً هل توافق على زواجي؟! .

فاضطرب صدره كما لو كان بوغت بالقول مباغثة لم تدرّ له بخلد، ولكنّه لم يسمح لوجهه بالإفصاح عن كاتبه، وتظاهر بالدهشة البريئة، بل وبالسرور، وقال:

- أجنّت تتحدّث أخيراً عن الزواج! مرحى مرحى!

فضحك رشدي بسرور وقال:

- هي الحقيقة يا أخي، فهل يسرك ذلك؟

- يسرّني طبعاً، لعلّنا سررنا بشيء واحد معاً لأوّل مرّة!

وتبع ذلك صمت، وأدرك أحمد أنّه من الطبيعيّ أن يسأل عن العروس، وكان يرجو أن يفتح الآخر الحديث بغير حاجة إلى سؤاله، ولكنّه لازم الصمت، فلم يجد مناصاً من أن يزدرد ريقه ويقول متسائلاً:

- وهل اهتديت إلى بنت الحلال؟

فاعتدل الشابّ في جلسته وقال:

- أجل يا أخي، كريمة جارنا الطيّب كمال خليل أفندي صديقي وصديقك!

ولم يقلح ما سلف من تأهب في تحمّل الطعنة إلاّ قليلاً، فياس المتهم من النجاة لا يهون على نفسه وقع

فصقَّ الرجل بسرور وصاح به:

- هداك الله أخيراً!

فقال بصوت خافت:

- ولكتي في هذا الأمر أجهل من دابة!

فقال المعلم بزهو وخيلاء:

- اجعلني دليلك، وأياً ما كان فهذا الأمر أسهل من

كتبك وأجل فائدة!

وعادا معاً يجبطان في الممرات الملتوية يشملهما ظلام

دامس، ودخلا عمارة وارتيقا السلم إلى الطابق

الثالث، وضغط الرجل زرّ الجرس الكهربائي وهو

يقول:

- إذا جئت بمفردك وأردت أن يفتحوا لك فأنتك أن

تضغط الزرّ خمس دفعات متتابعات ثم تذكر كلمة

السّر التي سأقولها الآن.

وسمعا صوت عباس شفة يسأل عن القادم فقال

المعلم:

- ملعون أبو الدنيا!

وفتح الباب ودخل أحمد بقلب هيّاب وتبعه المعلم،

وعبرا صالة إلى حجرة واسعة مزدحمة بالجالسين مضاءة

بنور أزرق هادئ كنور الفجر العليل، ينبعث من

مصباح ملفوف بغلالة زرقاء، فالتجهت الأنظار نحو

القادمين، واستقرت على الجديد حتى تعثر بالارتباك

والحياء. وقد تربّعا على شلت تراصت على صورة

دائرة، ووضع في وسطها «العدد» كالمجمرة والحوزة

والطباقي. فتبادلا التحية مع الحاضرين وجلسا جنباً إلى

جنب، واستطاع أحمد أن يلقي نظرة عامّة على المكان،

ويرى إخوان قهوة الزهرة - في ما عدا أحمد راشد - بين

الموجودين. ثم استرعى صدر المكان انتباهه حيث

جلست امرأة «هائلة» على شلثة ضخمة، وإتھا لهائلة

حقاً، ففي جلستها كانت تطاول شخصاً قائماً، عريضة

المنكبين، طويلة الجيد، مستديرة الوجه في امتلاء

وضخامة، واضحة القسما، يراوح لونها بين المصري

والحبشي، أما شعرها فكستنائي مجعد شد إلى ضفيرة

غليظة قصيرة، وأعجب ما في وجهها عينان كبيرتان

بارزتان بروزاً لا يبلغ القبح، لنظرتها حدّة ولحورهما

أبصاره بما حال بينه وبين التفكير في الزواج! . .

الفتى لا يدري تماماً يقول شيئاً، ولذلك فهو يرميه بسهام

مسمومة في غفلة وصفاء! وقد امتعض لتساوله، ونحاله

لسان القدر يتهكم من شقائه بعد أن قضى به عليه،

وقال كالمتهكم:

- مضى زمن الزواج!

- مضى!؟

- دع هذا يا رشدي، فأنت تعلم آني امرؤ مشغول!

والله لم يجعل لأمري من قلبين في جوفه!

ومضى الشاب يهز رأسه أسفاً، وأطرق الرجل،

ولاحت في عينيه نظرة حزن عميق، واستسلام للقدر

والياس، سيتولى - هو - أمر زواج الشاب، فلا مناص

من أن يحبك كفته بيديه، وفي ذلك ما فيه من ضروب

الآلم وفيه كذلك ما فيه من ألوان اللذة والعزاء. لن

يخلو على الأقل من تلك اللذة الغامضة التي تؤلف بينه

وبين الألم كما تؤلف بين الفراشة والنور، وفيه لذة

الاستسلام إلى القضاء القهار، وفيه لذة التكفير عن

مشاعره الباطنية التي لم يرتح إليها، وفيه أخيراً لذة

لكبرياته الجريح . .

### - ٣٢ -

وارتدى على أثر ذلك ملابسه، ومضى إلى الزهرة

وقد فارقه ذلك الشعور بالأسف الذي كان يخامره كلما

هم بالخروج عن عادة وحدته، واشترك في أحاديث

الصحاب أكثر من ذي قبل - إذ كان جلّ حوارهم مع

أحمد راشد وحده - واستسلم للضحك طويلاً على غير

عادته. وخطر له فجأة أن يشاركهم سهرتهم الأخرى

التي سمع عنها دون أن يشهدا. وبدا له الخاطر مغرباً

فمال إليه بكلّ قلبه، بيد أنه تردّد كالحائف ولم يدّر

كيف يقدم نفسه، ولم يغادره هذا الخاطر حتى نهض

القوم للذهاب إلى حال سبيلهم، وكان من عادة نونو

أن يمضي إلى بيته أولاً ومن ثم يلحق بالصحاب في

ندوتهم، فاتخذ منه رفيقاً، وأتته شجاعته في الطريق

فقال باستحياء:

- يا معلّم، هلّا اصطحبتي إلى الإخوان؟

التساع، ويوحى منظرها بالهيبه لضخامتها وقوتها، وبالشهوة لأمارات الحيوانات البادية في ملاحظها، والإغراء المنعكس عن خلعتها. وقد وضعت على كتفها شالاً مجملاً منمنماً جعلت تتفرس في وجهه بعينها القادحتين.

وأدرك أحمد عاكف أنها عليّات الفائزة التي يدعونها بمعشوقة الأزواج، وقد جلس زوجها عباس شفة إلى يمينها بينما جلس إلى يسارها المعلم زفتة القهوجي. وسفر المعلم نونو بين الرجل وبينها بالتعارف فمدت له راحتها المخضبة بالحناء ورخت به. وحدج المعلم زفتة بنظرة تأنيب وقال له متضحكاً:

- وأخيراً عرفت أن الله حق؟ لكم أنفقت من عمر في حجرتك وعلام ذلك التعذيب؟؟! لا أنت متزوج ولا أنت رجل عجوز، ولكنه ظلم الإنسان لنفسه!

فقال المعلم نونو يزكي صاحبه ويعتذر عن «غفلته»:

- يا إخواني، إن نظري لا يجيب وفراسي تصدقني دائماً، وقد اقتنعت من أول نظرة بأن صاحبنا أحمد أفندي «ابن حظ» ولكن أضلته الظروف عن منهله العذب حيناً وأنا لهادوه بإذن الله!

وخاف كمال خليل أن يضيّق صاحبه - الذي جدت دواعٍ جديدة تحمله على إرضائه - بكثرة المداعبات فقال:

- الأستاذ أحمد عاكف يا سادة رجل مطلع، ولكن لا ضير من أن يأخذ حظاً من السرور، فالحياة لا يمكن أن تكون عناء متصلاً.

فلوح المعلم زفتة بيده كالساخط وقال:

- ولماذا نقضي على أنفسنا، ومحض اختيارنا، بعناء متصل أو منفصل؟! الأستاذ موظف ذو مقام، فإذا يوجب عليه أن يقرأ كالتلاميذ من غير مؤاخنة؟! عاهدنا على ألاّ تغيب عنا ليلة بعد اليوم!

فابتسم أحمد المرئبك، وزاد من ارتياكه أن قالت عليّات الفائزة تخاطب زفتة وهي تلحظ الكهل:

- رويداً يا معلم، كيف يعاهدك على ذلك وقد لا

يطيب بنا نفساً؟!!

فتورد وجه أحمد وقال مسرعاً:

- العفو يا هانم!..

وكانوا يدعونها عادة بسّ عليّات فوقعت... .

«هانم» من آذانهم موقعاً غريباً، أما السّت فقالت:

- أهلاً بك في كلّ وقت.

وكان عباس شفة مكباً على تعبته «الكراسي» ثمّ رصّ الجمرات على كرسيّ منها، ورگبها على الجوزة وقدمها إلى السّت. واستقرت عينا أحمد على الجوزة في اهتمام مشوب بقلق وإشفاق، ثمّ مال نحو نونو، وهمس في أذنه:

- ألاّ يحقّ لي أن أخاف هذه الجوزة؟

فعاتبه المعلم قائلاً بصوت منخفض:

- إذا خفتها أنت فماذا يفعل أبناؤنا؟

وتوسّط عباس شفة الدائرة، وجعل يدير الجوزة من رجل إلى رجل، مقترباً منه، حتّى بلغت المعلم نونو، فوضع الغاب في فيه وأخذ نفساً طويلاً، اتّصلت قرقوته حتّى ملأت الأسعاع، وزفره من خيشومه قطعاً من سحاب داكن!، وأخيراً رأى الغاب يدنو من شفّته والأنظار تتحوّل إليه، فأطبقها عليه وأخذ نفساً قصيراً كالخائف ونونو يهتف به: «شدّ... شدّ» ثمّ قال له بلهجة الأمر: «ازدرد الدخان!» فازدرد ثمّ زفره بسرعة وقد شعر كأنّ يداً تكتم أنفاسه، ثمّ سعل سعلة اضطرب لها جسمه النحيل ودمعت عيناه، وكان نونو يرقبه بقلق فسأله لِمَا أفاق:

- كيف الحال؟

فقال وهو يتنهد:

- أولى بي أن أبدأ بأخذ أنفاس خفيفة، ألا ترى

أنك مدرّس قاسٍ يا معلم؟!!

فقهقه المعلم قائلاً:

- كما تشاء ففي التآني السلامة!

ودار عباس شفة بالجوزة خمس مرّات متعاقبة، وتساعد الدخان من كلّ جانب وانعقد سحّباً، وشمّ أحمد رائحة غريبة أثارت ذكرى قديمة، ذكرى رائحة تشابه هذه الرائحة، بل هي نفسها دون غيرها، فأين

## خان الخليلي ٦٠١

- الهدوء... يا هو!... للغرزة آدابها!..  
 ولاحت الدهشة في وجه كمال خليل فسأله باهتمام:  
 - وما آداب الغرزة؟!  
 فقال القرد باستياء:  
 - هذه الضجة خليقة بالحانات حيث يفقد  
 السكارى عقولهم. الغرز على عكس ذلك جديرة  
 بالهدوء والصمت، فالخشيش سلطان يوجب على  
 مواليه الخشوع والسكون، بالهدوء والصمت يبلغ  
 التخدير مداه فيصفو المزاج وتثال على الخيال الأحلام  
 فيظفر الإنسان بمشكلات يومه ومتاعبه ويحسن التفكير  
 فيها وحلها واحدة بعد أخرى!  
 - ولكننا نجى هنا لننسى المشكلات والمتاعب لا  
 لنفكر فيها!  
 - بس الرأي، إن الهروب من المتاعب لا يذهبها  
 ولكنه يُنسي عذابها إلى حين كي تعود أظفح مما كانت،  
 حكمة الخشيش تهينا ثقة نواجه بها المتاعب بقلب قادر  
 على الاستهانة وتهوين خطبها فتذوب في بالوعة النسيان  
 وتمحي من الوجود!..  
 فقال سيّد عارف ضاحكًا:  
 - فليس هذا بكرسيّ خشيش، ولكنه كرسّي  
 الاعتراف!  
 وقال المعلم زفته:  
 - صدقت، هذا خشيش القسيس! وصدق من قال  
 يا جحا عدّ غنمك؟!  
 ثم قال المعلم نونو مستنكرًا وموجّهًا خطابه لسليان  
 بك:  
 - وكيف يلزم الصمت من خلا من المتاعب؟  
 - وهي يخلو من المتاعب إلا حيوان!  
 - فكيف شعرت بها؟  
 فأجابه سيّد عارف:  
 - لعله مالك الحزين!  
 ونهض عباس شفة بشعره المنتفش كالشيطان  
 فدارت الجوزة دورتها الثانية، ومحت القرقرة لغط  
 الحديث، وأخذ أحمد أنفاسًا أشدّ من المرّة الأولى  
 مستوصيًا بشجاعة لا عهد له بها، وبرغبة قويّة في

شمها ومتى؟! ولم يطلّ به عذاب التذكّر، فذكر أول  
 لياليه بخان الخليلي، ليلة التسهيد إذ تسرّبت هذه  
 الرائحة الغريبة العميقة إلى حجرتة فحيرته، فلم تكن  
 إلا رائحة هذا المخدّر العجيب المخيف، ولعلها  
 انطلقت لينتد من هذه الحجرة نفسها أو من ذلك الحيّ  
 العجيب الذي لا يعد أن تكون جميع الأنفاس المتردّة  
 في جوّه من هذه الأنفاس. وسرّ للذكر وارتاح إليها أيما  
 ارتياح لأنّ التخدير كان قد أخذ يسري في أعصابه  
 المتوتّرة فيلينا، فابتسمت أساريه. وعاد عباس شفة  
 إلى مجلسه يستريح قليلًا، بينما مضى المعلم زفته في تعبئة  
 الكراسي من جديد استعدادًا للدورة الثانية وقالت  
 الستّ عليّات الفائزة:

- أما هتاتم سيّد عارف أفندي!  
 فالتفت إليها القوم، وقال نونو:  
 - خير إن شاء الله!  
 فقالت المرأة الهائلة مبتسمة:  
 - أرشده طبيب ماهر إلى أقراص جديدة وأكد له  
 أنّها مضمونة النجاح!  
 فعلا ضحك الجميع - أصحاب قهوة الزهرة  
 والآخرين - وقال المعلم نونو موجّهًا خطابه لسيّد  
 أفندي:  
 - أمنية قلبي أن أراك يومًا مثلنا!  
 فقال سيّد عارف كالمحتدّ:  
 - هذا يدلّ على سوء نيتك!  
 وسألوه عن الأقراص الجديدة، ولكنه أبي أن يذكر  
 عنها شيئًا خشية أن تصيبها نفس!  
 فقال المعلم زفته:

- إنما الأعمال بالنيّات!

وكان كثيرًا ما يستشهد في أحاديثه بالحكم والأمثال  
 أو الأحاديث الشريفة كيفما اتفق دون مبالاة بمطابقتها  
 لمقتضى الحال، ودون أن يفطن إلى شدوذ الاستشهاد  
 عن معنى كلامه، على أنّه لم يكن يتنبّه إلى غفلته تلك  
 إلا قلّة من الحاضرين!، وضاق سليمان بك عتّة  
 بالصجيج ذرعًا واشتدّ وجهه القبيح كآبة فقال بحنق  
 وعنف كعادته إذا استاء أو غضب:



فتخطى محيط دائرة الجلوس وهروا نحو الباب متعجلاً وهو يقول:

- الأقراص نجحت..

وغاب عن الأنظار في لمح البصر، فانفجر القوم ضاحكين، وتساءل كمال خليل وهو يسعل:

- هل حقاً ما يقول؟!!

فقال سليمان عتّة بسخرية:

- دعاية كاذبة كدعاية أصحابه الألمان..

فقال نونو:

- سنعلم الحقيقة بعد تسعة أشهر!

فقال عليّات الفائزة:

- علم هذا عليّ هين!..

وواصلوا المزاح حتى قام عباس شفة ممسكاً بالجوزة فكان نذير الصمت، وفي هذه الدورة أدخل أحمد لتخدير غريب - وكان طول الوقت صامتاً راغباً عن الكلام أو عاجزاً عنه - وشعر بأن إرادته فقدت سلطانها على أعضائه، وقد أراد أن يجرّك ذراعيه ليطمئن إلى أنه ما زال متالكاً زمامه، ولكن شعوراً عميقاً قوياً أغراه بالعدول عن التجربة، وهياً له أنه لا يوجد في الدنيا جميعاً ما يستحقّ التعب أو الحركة، وأن الرقاد والاستسلام والرضا خير ما تجود به الدنيا، ورأى القوم خلل نفثات الدخان فخالهم أشباح دنيا غريبة أو سگان كوكب آخر، ولا يدري كيف ملأه ذلك الإحساس بالغرابة، فلذ له أن يضحك، فضحك ضحكة طويلة واهنة شابة مطلعها التأوه وحاسي ختامها قرقرة الجوزة، فما تمالك الجالسون أن ضجّوا ضاحكين! وانتبه لضحكهم رغم ذهوله، فاعتدل في جلسته ليستعيد - ما أمكن - شيئاً من يقظته، وحدث عند ذلك شيء عجيب. حدث أن نهضت عليّات الفائزة قائمة، استطال ذلك الجسم الهائل في الفضاء، وامتدّ طولاً وعرضاً فملاً الأعين، وكانت مرتدية روبا شدّ إلى جسمها ليبرز مخاسن مقاطعه، ثم تحرك موكبها العظيم فسارت قابضة براحتها على طرف شالها فلاح ساعدها مخفياً وراء الأساور الذهبية، ولما مرّت أمامه ارتاع الكهل على ذهوله، رأى الروب يتسع بعد

الذهول، وقد أعجبه فلسفة سليمان عتّة على مقته له، فحاول أن يعالج حزنه العميق الذي أورده هذا المكان الخائق على طريقته لعله أن يبرأ، لكنّه تسلّط عليه التخدير فنقلت جفونه واحمرّت عيناه ومال عنقه قليلاً، ثم ساوره خوف مفاجئ فأدنى رأسه من أذن المعلم نونو وسأله:

- ألا يُجنّح علينا من الشرطة؟.. هب شرطياً

تسلّل إلى الباب وقال ملعون أبو الدنيا!!

فضحك نونو وقال:

- نقول له ملعون أبوك!.

وبعد انتهاء الدورة جلس عباس شفة جنب زوجته الهائلة مرّة أخرى وتحركت الألسن من جديد.

فقال المعلم زفة القهوجي وهو لا يمك عن العمل:

- أبشركم يا إخوان بأن هتلر - حين يفتح الله له مصر - سيلغي أمر منع الحشيش ويمنع شرب الويسكي الإنجليزي!

فقال المعلم نونو:

- هتلر رجل حكيم ولا يداخلني شك أن الفضل الأوّل في مهارة خططه راجع للحشيش!

فسأله كمال خليل أفندي:

- وكيف أوصله إليه عباس شفة؟

فقال نونو بلهجة جدّية:

- لا حاجة به إلى عباس شفة، فالمخزن رقم ١٣

ملآن بالحشيش النقي!

ثم هزّ المعلم رأسه كالأسف وقال بحسرة ظاهرة:

- ألم تسمعوا بما يقال من أن اليابانيين ينشرون

المخدّرات بين الأمم التي يغزونها!

فقال المعلم زفة بنفس اللهجة:

- ليت الإنجليز كانوا حشاشين!

- ضاعت خمسون عاماً من الاحتلال هدرًا!

وهنا نهض سيّد عارف بغتة وقد ارتسم على وجهه

آي الاهتمام الشديد، ولبس طربوشه كأنما يتأهب

لمغادرة المكان، فعجب القوم له وسألته الستّ عليّات:

- إلى أين يا أخانا؟

## خان الخليلي ٦٠٣

كلاً يا ستّ.. زواج ابني سنفر هو السبب، أردت أن يتمّ في هدوء مراعاة للظروف، وتأتي إلا أن تزفّه القيان، فقالت لي بوقاحة: مالك عليّ وعلى أبنائي حرام، أما هناك فحلال!

فقالت الستّ عليّات ضاحكة:

- هناك هذه هي أنا!

فاستدرك الرجل يقول مغيظاً متأسفاً:

- وقالت لي وهي تشدّ أطراف بقجة ثيابها:

«سأذكرك دائماً بأنك الرجل الذي لم يسعدني يوماً واحداً من حياتي!.. اسمعوا يا هوه.. لهذا كلام تقوله عشيرة ثلاثين عامًا؟!»

فقالت عليّات بلهجة الانتقاد المرّ:

- تبا لها، وارحنا لشبابك الذي أنفقته عليها، اصغ

إليّ يا معلّم، كذّ لها وتزوّج من غيرها..!

فهزّ الرجل رأسه وقد ارتسمت شبه ابتسامة على

شفتيه ثمّ قال مغمغماً:

- وهل تبقت في العمر ذخيرة؟

- استغفر الله يا معلّم، أنت قدّ الدنيا!

فقال المعلّم نونو متحمّساً للفكرة:

- نعم الرأي. إنه لا يؤدّب المرأة إلاّ الزواج بغيرها،

وربّنا أمر الزواج من أربع!.

- استغفر الله العظيم، لم يأمر الله بذلك ولكنّه

أباحه على أن نعدل!

- ومن قال لك اظلم؟

- صلّوا على النبيّ، أنا رجل عجوز وما من فائدة

ترجى!

- تزوّج على بركة الأقراص الجديدة التي اكتشفها

سيّد عارف أخيراً!

وهنا قال المعلّم زفتة متمّياً الحديث الذي قطعه

المعلّم شمبكي بشكواه العائليّة:

- واقتنوا خاصّة السجاجيد الفارسيّة، فالذهب ربّما

انخفض سعره، وكذلك النحاس، أمّا السجاجيد

الفارسيّة فتزيد نفاسة مع الزمن، المرأة القديمة لا

تساوي مليّاً أمّا السجادة..

وعاجلته الستّ بلطمة على صدره فصاح:

خاصرتها ليكتنف عجيزة لم يرّ مثلها في حياته، ربّانة ناهضة مترججة تبرز فوق الفخذين كالمشربية، فما صدّق عينيه، ولاحظ المعلّم نونو دهشته فقال له هامساً:

- انتبه فالستّ تطلعك على السرّ الذي أشقى أزواج

الحيّ، ما هذه بعجيزة ولكنها كنز!.

فقال أحمد بصوت لا يكاد يسمع:

- هذا شيء فوق ما يتصوّره العقل!

- وأكثر من هذا أنّها تحوي فضيلتين لا تجتمعان،

فهي من ناحية كالكرة المنفوخة صلابة، ومن ناحية

أخرى تسوخ فيها الأصابع ليّناً!

- هذه لغز!

- نسأل الله السلامة!.

فقال الكهل وهو لا يدري:

- آمين..

وكان عبّاس شفة يسترق إليهما النظر فسأل المعلّم

نونو متكلّفاً لهجة الوعيد:

- فيمّ تتحدّثان؟

فضحك المعلّم ضحكته المجلجلة وقال:

- نتأمر على أنفس أثاث البيت!.

وكفّوا عن الكلام فسمع صوت المعلّم زفتة وهو

يتحدّث في الجانب الآخر من الحلقة يقول لبعض

المستمعين الأعراب بلهجة الناصح:

- ثلاثة أشياء أشير عليكم بالإكثار من اقتنائها:

الذهب والنحاس والسجاد الفارسيّ فقيمتها ثابتة،

تبيعونها وقت الشدّة أو تتفعلون بها في تجهيز

البنات..

فقال رجل معهم يدعى المعلّم شمبكي:

- تبا للبنات وللأزواج وللأمّهات!..

فأوما عبّاس شفة إلى المتحدّث وقال:

- أما علمتم بأنّ حرم المعلّم شمبكي هجرت بيته

غاضبة؟!

فتأسّف الحاضرون، وهنا عادت الستّ عليّات إلى

جلسنها فسمعت العبارة الأخيرة وقالت:

- لماذا يا معلّم؟ أرجو ألاّ أكون السبب!..!

- الضرس الباقي وقع . . .

فقالت له :

- يا حشاش يا مجنون نحن نتكلم في الزواج، فما دخل السجّاد؟!

- لا تغضبي يا ستّ فالصبر مفتاح الفرج، وما دمت ترغين في حمل المعلم شمبكي على الزواج مرة أخرى فساقصّ عليه نادرة تغريه بالزواج (والتفت شمبكي) واستمرّ يقول: عاد شيخ إلى بيته بعد سهرة طويلة فرأى زوجته نائمة على فراشها، وكانت تتيه عليه إدلالاً بحسبها حتّى كفّرت عن سيئاته، فمرّ بها إلى فراشه وهو يقول بصوت منخفض: «الفتنة نائمة!» فما كان منها إلا أن أمسكت بطرف الجبّة وهي تقول: «لعن الله من أيقظها!».

وشعر أحد عند ذاك باختناق ولم يعد يجتمل جوّ الحجرة، ونفذ صبره، فنهض قائماً كالمترنّج، وجذبت حركته الأنظار، فسأله المعلم نونو:

- إلى أين؟!

فقال بصوت لا يكاد يسمع:

- حسبي هذا!

- هذه نهاية البداية!، وما يزال أماننا القافية والغناء والذهول الحقيقي . . .

ولكنّ الرجل أصرّ على الاعتذار، وتحرك في بطنه وتناقل، فقال المعلم زفته:

- أأراصك نجحت أنت أيضاً؟!

وغادر الشقّة؛ وأمسك بالدرابزين ونزل متناقلاً وما زال يهبط ثمّ يهبط حتّى خال السلم مفضياً إلى مركز الأرض، ولكنّه انتهى إلى الطريق وخطب راجعاً إلى حجرته بعد أن قام بأخطر رحلة في حياته، وكانت الساعة تقرب من الثانية فخلع ملابسه في إعياء، وأطفأ النور واستلقى على الفراش. ولم يسارع إليه النوع كما توقع، وتبين له أنّ تحت جفنيه يقظة قلقة حائرة، وشعر بقلبه يطلق خفقات سريعة قويّة مضطربة خالها تشيل الغطاء ومخّطه، وتزاحمت الصور بمخيّلتها فالتبست وغرقت في غموض، إلاّ صورة واحدة غلبت ما عداها، تلك المرأة الهائلة، فهل

يلتمس وصلها كالأخرين؟ ولكن مهلاً، ماذا يفعل بها، إنّها إذا احتضنته صغر وضؤل وصار كالبرغوث في إبط الفيل، كلاً ما تلك بامرأة، إنّ هي إلاّ رمز لدنيا الشهوة الساخنة التي انغرست قدمها في تساطعها وحملت عيناه في عباها، وتضاعفت ضربات قلبه فجفت ريقه، وتنبّها له أنّه يهوي من عل في فضاء لا نهائيّ ففزع جالساً في فراشه، وداخله شعور بالخوف واليأس . . . ولبت حتّى مطلع الفجر يعاني آلاماً فظيعة، جسميّة ونفسية . . .

- ٣٣ -

ولم يفكر بعد ذلك في معاودة المغامرة. ولم يجد فيه دفاع المعلم نونو وتأكيديه أنّ ما حدث له إنّما كان مرجعه إلى أنّه لم يطعم حلواً بعد التدخين مباشرة، فأعرض عن إغراء الرجل وقال لنفسه يتأتى كعادته: «الظاهر أنّ الطبائع العقلية ليست بذات استعداد للتمتّع بهذه الشهوات». على أنّه لن يمسي بحاجة إلى هذا المخدر كي ينسى شجونته، فعنداً إذا تمّ زواج شقيقه من الفتاة برأ هو ونسي. بيد أنّ رشدي ما زال يجبّط في سبيله على غير هدّى، ولم يخفّف من غلواء عبثه واستهتاره، فلم يستردّ عافيته بل وساءت حالته، ولم يعد يخفي على عين إنسان هزاله، واستحال شحوب وجهه صفرة، وجعل يتناوبه سعال شديد ثمّ فترت شهوته للطعام. فهال أحمد أمره، وقال له بلهجة حازمة:

- كأنك لإهمالك صحّتك قد عدلت عن أمالك! لماذا لم تأخذ نفسك بالاستقامة حتّى تستردّ صحّتك؟ لذلك استعصى شفاؤك من مرضك الأوّل وأصابك هذا السعال الشديد، وما ينبغي لك بعد اليوم أن تعاود السهر أو الشراب، فإذا أنت فاعل؟!

ولم يكابر رشدي كعادته، لأنّ وطأة السعال كانت شديدة عليه، فقال بتسليم ليس من دأبه:

- سمعاً وطاعة!

قال المغرم بتعذيب نفسه:

## خان الحليلي ٦٠٥

الهزيل، فاقترب منه حتى صار لصقه، ومدّ يده ليرتّب على منكبه فلاحته منه التفاتة إلى الحوض فرأى بقعة حمراء!.. فتصلّبت يده وخفق فؤاده خفقة انخلع لها صدره وهتف بصوت مهتدج:

- ربّاه!..

ثمّ نظر نحو شقيقه في ارتباك، وكان كفّ عن السعال ولكنّه لم يزل في غيبوبة منه، يعلو صدره وينخفض، ويتنفس بصعوبة، وقد احمرت عيناه، فنرتّب الرجل حتى استعاد الفتى أنفاسه، وقال بلهفة منزعجاً وهو يشير إلى البقعة الحمراء:

- ما هذا يا رشدي؟!

فرفع إليه الفتى عينين كئيبتين وقال بصوته المبحوح:

- هذا دم!

- ربّاه!

فتجلّى الحزن في عيني الشابّ، ثمّ أفلت منه زمام نفسه فاغرورقت عيناه، وقال بصوت لا يكاد يسمع:

- أصبت وانتهيت!

فقال أحمد وكأنّه يتوسّل إليه:

- لا تقلّ هذا!.

فقال الشابّ بقنوط:

- هي الحقيقة يا أخي!

وفتح أحمد الصنوبر ليغسل الحوض، وتأبّط ذراع الشابّ، وسار به إلى حجرته - حجرة الشابّ - ومضى إلى النافذة فأغلقها، وجلس رشدي على الفراش فأقن الآخر بكرسيّ وجلس أمامه، ثمّ سأله بعد أن ازدد ريقه:

- ماذا تقول يا رشدي؟ صارحني بكلّ شيء!..

فقال الشابّ بهدوء:

- ذهبت أخيراً إلى طبيب فقال لي إنّ بالرئة اليسرى

مبادئ سلّ!

- ٣٤ -

والحقيقة أنّه ظلّ يعاني آلاماً بارحة منذ منتصف ديسمبر، وحدث أن اشتدّت عليه نوبة السعال في

- تعجّل الشفاء يا رشدي قبل أن يستنجزك وعندك أهل الفتاة!

وأبدى الشابّ المريض عزيمة صادقة، فانقطع عن كازينو غمرة، ولم يغادر البيت مساءً إلاّ لإعطاء تلميذه الدرس الخصوصيّ - وهو واجب يستعذبه قلبه ولا يعدل به لذّة - ولأوّل مرّة مذ فارق صباه حاول أن يأوي إلى فراشه في الساعة العاشرة، ثمّ دعا أحمد إلى الإعجاب المطلق بصنع الحبّ الساحر. إلاّ أنّ الشابّ لم يضحّ برحلة الصباح عن طريق الجبل على ما يقاسيه فيها من شدّة البرد القارص! لأنّها كانت متعة قلبه وزاد أحلامه. وصبر على تلك الحياة المستقيمة أياماً دون أن يطرأ على حالته ما يبشّر بالشفاء. بل نال السعال من حنجرته فاحشوشنت وُبِحّ أخيراً صوته، فتعذّر عليه ترديد أغانيه المحبوبة. وكان عيد الأضحى قد أصبح على الأبواب، وأخذت له الأسرة أهبتها ككلّ عام، فجيء بكبش التضحية وشدّ من عنقه إلى نافذة المطبخ حيث لم يجدوا له مكاناً سواه في الشقّة، ومضت الستّ دولت تصنع الرقاق. وقد تشكّى أحمد - كعادته - ارتفاع ثمن الخراف، وقال إنّه ربّما تعذّر عليهم ابتاع كبش في العام القادم، فهال أمّه القول وقالت له ضاحكة:

- ابصق هذه النية وطهر فاك الشريف!

وجاء العيد في الأيام الأوائل من يناير سنة ١٩٤٢، واستقبلته الأسرة - والحَيّ جميعاً - بالبشر والفرح، وحفلت المائدة باللحوم أشكالاّ وألواناً. ومن عجب أنّ رشدي لم يخرج عن نظامه الجديد في العيد، والحقّ أنّ إعياءه لم يمكّنه من إشباع رغباته، أمّا أحمد فأمضى عطلة العيد في قهوة الزهرة، ولكنّه لم يذعن لإغراء المعلّم نونو فخاب سعي الرجل لاستدراجه مرّة أخرى إلى بيت عليّات الفائزة، وهل يمكن أن ينسى ختام تلك الليلة الجهنميّة؟ ثمّ كان صباح اليوم الرابع من أيام العيد. وفي ذلك الصباح حدث ما جعل أحمد يذكره على الدوام، وقد استيقظ في منتصف التاسعة ومضى إلى الحمام كعادته، فوجد رشدي مكبّاً على الحوض يسعل سعالاً شديداً يضطرب له جسمه

وأسهب الشاب في وصف السعال وآلامه وعمّا فقد من وزنه، فقاطعه الدكتور متسائلاً:

- ومتى بُحَّ صوتك؟

فأجاب الشاب:

- منذ أسبوع على الأقل.

فأمره أن يعرّي نصفه الأعلى، فقام الشاب، وأخذ في فكّ رباط رقبته ثمّ خلع السترة والقميص والفانلة، وتصدّى للطبيب نضواً مهزولاً، ووضع الرجل السّاعة على أذنه وجعل يتلقّى بها آثار نقر سبّابته على الصدر والظهر. ولاحظ رشدي أنّه كرّر ذلك كثيراً على موضع في أعلى النصف الأيسر من الصدر، وطلب إليه أن يرتدي ملابسه، ثمّ سأله:

- هل بصقت دمّاً؟

فانخلع قلب الشاب، وترثت قليلاً، ثمّ قال بصوت منخفض:

- نعم... لاحظت ذلك مرّتين أو ثلاثاً!

فجاء الطبيب بقئينة زرقاء وأمره أن يتنحج بشدّة ويصقّ فيها، ثمّ مضت فترة وجيزة ورشدي منتصب القامة، ثقيل الأنفاس كمن ينتظر النطق بالحكم، وقال الدكتور:

- إنّي أشكّ في وجود حالة ما في الرئة اليسرى، وليس من الحكمة الجزم بشيء الآن، ولكن اذهب توتاً إلى الدكتور (. . .) ليصوّر صدرك بالأشعة وعد إليّ بالنتيجة.

وحذّره من أن يشقّ على نفسه بأيّ مجهود، ولكنّ رشدي لم يبرح موقفه وقد تجهمّ وجهه وغشيت كآبة ثقيلة. فاستطرد الدكتور قائلاً:

- عسى أن أكون مخطئاً! ولكن حتّى لو صحّ ظنّي فالإصابة بسيطة.

ومضى إلى الدكتور الآخر لتصويره بالأشعة، وانتظر أيّاماً يعاني ألماً نفسية مروّعة إلى جانب آلام السعال. ولم يكن في الحقيقة مطبوعاً على الخوف أو الوسواس والاهوام، ولكنّه وجد نفسه فجأة نحت رحمة أفئك الأمراض، وأثر فيه اسم المرض تأثيراً بالغاً. ثمّ رجع إلى الدكتور الأوّل ومعه صورة الأشعة، وفحصها

المصرف مرّة فاستخرج منديله ليصقّ فيه فما روعه إلّا أن بصقّ فيه دمّاً! ورمق البصقة الدامية بنظرة ذعر وارتجاع، ثمّ دسّ المندبل في جيبه خشية افتضاح أمره. وغادر المصرف إلى عيادة طبيب اختصاصيّ في الأمراض الصدرية، وجلس بين المنتظرين يقَلّب بصره الزائغ في الوجوه الشاحبة والأجسام الهزيلة ويسعل مع الساعلين، واستولى عليه القلق والانزعاج، وتساءل هل يقع فريسة لذاك المرض الخطير الذي تقشعرّ لذكره الأبدان؟، وكان سمع مرّة صاحباً يقول إنّ السّل داء لا براء منه، فذكر قوله خافق الفؤاد. ولم يكن سبق أن أصيب بمرض عضال، فأشفق من أن يكون ذلك الداء الوبيل أولى تجاربه القاسية. واشتدّ به القلق في جلسته حتّى تهياً له أن يقتحم حجرة الكشف، ولكنّه تصبّر حتّى جاء دوره فدخلها يقاوم جاهداً اضطرابه وانزعاجه. وألقى على أركان الحجرة نظرة عجلى خطفت العدد والآلات وأخيراً الطبيب العاكف على حوض صغير يغسل يديه، ثمّ انتظر واقفاً، وجفّف الدكتور يديه والثفت نحوه. كان قصيراً نحيفاً دقيق الأعضاء، إلّا أنّه كبير الرأس أصلعه، واسع العينين جاحظ الحدقتين، حادّ النظرة؛ فحيّاه الشاب برفع يده إلى رأسه، فقال له الرجل بصوت رفيع:

- أهلاً وسهلاً. تفضّل بالجلوس.

فجلس رشدي على مقعد كبير، ودلف الدكتور من مكتب أنيق وجلس أيضاً وراءه واستخرج كراسية ضخمة وفتحها وسأل الشاب عن اسمه وصناعته وعمره ورشدي يجيب. ثمّ حدّجه بنظرة الاستفهام التقليديّة فأشار رشدي إلى صدره قائلاً:

- أريد أن أكشف على صدري.

وما كاد يتمّ قوله حتّى انتابه سعال عنيف، فانتظر الدكتور حتّى أمسك واستردّ أنفاسه وسأله:

- هل أصابك برد؟ متى؟ . . .

- أصبت بالإنفلونزا منذ أكثر من أسبوعين، وكانت حادة، والظاهر أنّي استأنفت عملي قبل أن أبرأ تماماً، فلم يفارقني الإعياء، ثمّ كان هذا السعال العنيف فتدهورت صحّتي . . .

## خان الخليلي ٦٠٧

- وإذا تعذّر عليّ الانتقال إلى المصحّة؟  
 فهزّ منكبيه تارة أخرى وقال:  
 - هنالك ينبغي لك مضاعفة العناية في البيت،  
 خصوصاً الراحة والغذاء، فإنّك أن تفارق فراشك،  
 وسأصف لك العلاج الطيّب.  
 وفي أثناء انشغال الدكتور بكتابة «الروشته» خطر  
 له - أي الشاب - خاطر هامّ، فتردّد لحظة ثمّ قال  
 متسائلاً:  
 - ثمّة سؤال آخر: هل يمكن.. أعني متى يمكن أن  
 يتزوَّج من كان مريضاً مثلي؟!  
 فابتسم الطبيب لأوّل مرّة ثمّ قال:  
 - أرجو بالعناية أن تبرأ بعد ستّة أشهر، ومن  
 الضروريّ بعد ذلك أن تبقى عامّاً كاملاً تحت  
 الاختبار، ويا حبّذا لو صبرت نصف عامٍ آخر...!  
 ونصحته مرّة أخرى بالانتقال إلى المصحّة إذا وسعه  
 ذلك، ثمّ وصّاه - إذا لم يسعه الانتقال - بزيارته من  
 حينٍ لآخر. وعاد رشدي بنوء بكمده وكربه، وكان  
 كلّ شيء يبدو كحلّم مزعج، وامتلأت أذناه بل دنياه  
 جميعاً بذلك اللفظ المرعب «السل»، فهل يصلّق ما  
 يقوله الناس، أو يطمئنّ بما قاله الدكتور؟ وهل قرّر  
 الدكتور - بما قال - الحقيقة أو أراد أن يُفْرخ روعه؟  
 ولكنّه صارحه أيضاً أنّه كان من ضحايا المرض، ولا  
 يجد مسوّغاً لتكذيبه. أجل إنّ ستّة أشهر زمن طويل،  
 فليتحلّ بجميل الصبر وليتوكّل على الله. ولو كان حرّاً  
 يفعل ما يشاء لفضّل الاستشفاء في المصحّة، ولكن  
 دون ذلك فقدان وظيفته، وحببيته!.. فما العمل؟!  
 إنّ صحّته مهتّدة، صحّته التي لم يقدرها حقّ قدرها  
 إلّا الساعة. فلم يذكر أوقات العافية والنشاط متحمّساً  
 متأوّهاً قبل اليوم، ولا سبق إلى ظنّه أنّ الصحّة شيء  
 يزول أو يتغيّر. ولكن ما قيمة الصحّة إذا فقد عمله؟  
 وما جدواها إذا حيل بينه وبين الفتاة التي شغف بها  
 حبّاً؟ فمن الحكمة ألاّ يبرح البيت، وأن يتعهّد نفسه  
 بالعناية والدواء دون أن يطلع أحد على سرّه. وبذلك  
 يستردّ صحّته محتفظاً بسرّه ووظيفته وحببيته. هكذا  
 تسلسلت أفكاره، ويسّر له الاقتناع بها أنّ قواه كانت

الرجل بعناية ثمّ تحوّل إليه قائلاً:  
 - كظنّي تماماً!.. سمّه خدشاً خفيفاً أو قذارة  
 سطحية إن شئت.  
 وغاض الأمل، ولاح القنوط في العينين العسلّيتين  
 وهما ترمقان صورة الأشعة بنظرة ساهمة لا تفقه شيئاً.  
 خدش خفيف أو قذارة سطحية!.. هل تُضحّي الحياة  
 رهينة بهاتيك الترافه!  
 وقال للدكتور بصوت حزين:  
 - فلنسمّه بما تشاء، فهل يعني هذا إلّا أنّه سلّ لا  
 يرجي له شفاء؟!  
 فحدجه الدكتور بنظرة استنكار وقال بصوته  
 الرفيع:  
 - لا يهولُك هذا الاسم، واطرح جانباً المخاوف  
 التي لا أساس لها من الحقّ أو العلم، واعلم أنّ  
 حالتك مضمونة الشفاء إذا أتبع ما أنا موصيك به..  
 وأمسك قليلاً كالمفكر، فقال الشابّ بإشفاق:  
 - يقولون إنّ هذا الداء لا شفاء منه!  
 فهزّ الرجل منكبيه باستهانة وقال:  
 - انبذ هذه الآراء، واعلم أنّي كنت يوماً من  
 ضحاياه، بيدّ أنّه يلزمك الغذاء الجيّد جدّاً والراحة  
 التامة والهواء الجافّ النقيّ، وكلّ أولئك متوقّرف في  
 المصحّة، فإلى حلوان دون تردّد.  
 - وكم يستغرق العلاج من الزمن؟  
 - ستّة أشهر على أكثر تقدير!  
 فانقبض صدر الشابّ، وأيقن أنّ هذه المدّة تقضي  
 عليه حتّى يفقد وظيفته، وغدّاً إذا ذاعت الحقيقة وعلم  
 بها «الجيران» فقدّ فئاته كذلك! فنصر من اقتراح  
 المصحّة، وقال للدكتور:  
 - وإذا كانت هذه الشروط متوقّرة في البيت؟  
 - أين تقطن؟  
 - في خان الخليلي...  
 - هذا مكان رطب فيما أعلم، والمصحّة خير مأوى  
 لك، ولا تنسّ العناية الطبيّة هنالك!  
 وقويّ أمله في أن يستشفى في البيت دون أن يعلم  
 بسرّه إنسان فيطمئنّ على وظيفته وفتاته، فقال:

عزمت عليه .  
فساور رشدي القلق، ورمق أخاه بحذر وهو  
يقول:  
- سأنفذ وصايا الدكتور بطبيعة الحال، وقد أوصاني  
بالراحة والتغذية الحسنة وبعض الحقن!  
فبدأ على وجه الرجل كأنه لم يقتنع بما سمع وقال:  
- ولكنّ المصابين بهذا المرض يقصدون عادة إلى  
المصحّة!

فكذب رشدي مرّة أخرى قائلاً:  
- لم يجد الدكتور ضرورة للمصحّة!  
فلاح الأمل في نظرة الكهل الواجم وقال:  
- لعلّها إصابة تافهة يا رشدي!  
- أجل . . أجل . . هذا ما أكّده لي!  
- عسى ألا تطول إجازتك!  
فعاد القلق يساوره، وقال بصوت منخفض:  
- ولكني لن أطلب إجازة!  
فانزعج الرجل وقال بإنكار:  
- فكيف يتمّ استشفائك؟! . . إياك وأن تستهتر  
بالمرض مهما قيل عن بساطة الإصابة وحسبك استهتاراً  
يا رشدي!

- معاذ الله أن أستهين بحياتي يا أخي، وسترى  
بنفسك منذ اليوم أنّي سأخذ نفسي بالراحة المطلقة في  
ما عدا أوقات العمل، وسأعوض ما أبذله من قواي  
لعملي بالغذاء المختار والأدوية المقيّوة. أمّا طلب إجازة  
مرضيّة فمخاطرة بوظيفتي ومستقبلي!

- ألا تغالي في تقديرك؟!  
- كلاً يا أخي، فإذا عرف طبيب المصرف مرضي  
استحال عليّ العودة إلى العمل قبل الشفاء التام، وقد  
يقتضي ذلك زمنًا طويلاً لا آمن معه أن أفضل من  
وظيفتي! بل الفصل محتوم في تلك الحال نظرًا لما منحته  
من إجازات مرضيّة هنا وفي أسبوت من قبل . . .  
فنجّه وجه الكهل واشتدّ عليه الضيق، ثمّ قال  
بتألّم:

- ربّاه! . الصحّة فوق الوظيفة، كيف يتاح لك  
الشفاء وأنت جاهد في عمالك!

وما تزال متماسكة، وقدرته على النشاط والحركة  
متوقّرة. وشرع في العلاج منطويًا على سرّه حتّى شاءت  
المصادفة أن تُطلع أخاه عليه، فرح الخفاء! والواقع أنّه  
لم يأسف لذلك كثيرًا، لا لأنّ أخاه قطعة من نفسه  
فحسب، ولكن لأنّ صدره بات يتصدّع بسرّه الخطير،  
فوجد في البوح لشقيقه ارتياحًا وسلامًا، فأفضى إليه  
بكلّ آلامه، ما عدا ما يتعلّق منها بالمصحّة مستوصيًا  
بالحذر. . . .

### - ٣٥ -

وأصغى الكهل إليه في صمت وذهول وحزن  
عميق، وزابله الحالة المضطربة التي كانت تعتور  
مشاعره نحو أخيه فتسبغ عليها ألوانًا متضادّة من الميل  
والنفور، فلم يعد يشعر نحوه بغير شعور واحد لا  
يقاوم، ودزّت حناياه له حبًّا خالصًا وإشفاقًا شديدًا  
وحزنًا مبرّحًا.

بيد أنّ ذكرى خطرت من الماضي القريب الأسيف،  
ولكنّه ذبّها عن مخيلته بقسوة خجلًا نائرًا وامتلاً صدره  
حنفًا على الفتاة التي استأرتها!

وانتهى رشدي من قصّته فتبادلا نظرة أسي وحزن  
وكآبة.

ثمّ قال أحمد:

- هذا أمر الله، لن نياس من رحمته، فينبغي أن  
نصدّق الطبيب فيما يقول فليس العهد بالأطباء أن  
يكذبوا رحمة بمرضاهم. فالإصابة إذن بسيطة ولكن  
ينبغي أن نحتد لها كلّ ما في وسعنا من عناية  
وحكمة، وإن كان يدهشني أنّك لم تفض إلى بالحقيقة  
في وقتها. . .!

فقال الشاب بسرعة وإن خالف الواقع:

- عرفت الحقيقة قبيل العيد مباشرة فلم أرد أن  
أزعج أحدًا، ولكني كنت أتحين الوقت الذي أفضي  
إليك بالأمر وحده!

فقال أحمد بحزن شديد:

- هي إرادة الله، فلنصبر على حكمه حتّى يمنّ علينا  
بالشفاء، وهو أرحم بنا من أنفسنا، والآن فأخبرني عمّا

## خان الخليلي ٦٠٩

أسرة فتاته فيهم بمرضه. وتأثر لذلك غاية التأثر، وتغلغل الحزن في أعماق قلبه، بيد أنه خشي أن يكون الشاب قد شقَّ على نفسه بالاستمرار في عمله - على مرضه - ليبدو أمام الفتاة وأسرتهما كالسليم المعافي، خشي أن يؤدي نفسه في سبيل حرصه على الفتاة، فاستجمع شجاعته وقال بصوت كالمهمس:

- رشدي إذا كنت ترغب عن طلب الإجازة كي يبقى الأمر سرًا، فيمكن أن نختلق سببًا نعتل به على طلب الإجازة غير هذا المرض!  
ولكن رشدي هز رأسه بحدة وقال بلهجة دلَّت على البرم:

- لا تُعدَّ إلى ما انتهينا منه!

فسكت أحمد، ثم نهض بعد فترة وجيزة وهو يقول:  
- تشدد وكن رجلًا كعهدي بك دائمًا، واعلم أنَّ الشفاء رهن بإرادتك، حفظك الله ورعاك.

ورجع إلى حجرته محزونًا صبَّ الدمد، وقد ستار الداء الخطير مخاوفه فاهتزَّ فؤاده عطفًا على شقيقه المحبوب، نسي في تلك الساعة أنه كان الآلة التي طعن الغدر بها اماله، أو أنه الشخص الذي جرح كبرياءه وداس غروره، وراه على حقيقته الأخ المحبوب الذي نشأ بين ذراعيه وغدَّى عواطف الأبوة من نفسه عشرين عامًا، ولما حانت منه التفاتة إلى النافذة المغلقة التي سماها يومًا بنافذة نوال تحوَّل عنها كالغاضب، وأبى قلبه أن يذكر الفتاة كأنَّ استدعاءها إلى رأسه جريمة لا تغفر في حقَّ الشاب المريض، فينبغي أن تقطع هذه الكارثة المحزنة ما تخلف من أسباب الذكريات، وقال لنفسه:  
«ذاك شيء انتهى وانقضى، والتأسف عليه وخز لعواطف الحب التي يكتنُّها قلبي لشقيقي» وكان يتكلم بحدة دلَّت على السخط والاستياء، والحقَّ أنه كان ساحطًا على نفسه، فلم يُنسَ أمنيته الأثمة أن تبيد القاهرة، ولا حلمه المخيف الذي استيقظ منه على تأوهات الشاب ليلة اشتداد الحمى عليه، رباه أي شيطان مقبوت في أعماقه ينفث هاتيك الأخيبة!..

- ٣٦ -

وتوثب رشدي عاكف بحماس لمقاومة مرضه

فقال رشدي برجاء وانفعال:

- لقد استأذنت الدكتور في ذلك فأذن لي، وهو أدري، وسيتمَّ الشفاء بإذن الله بغير ضياع مستقبلي، وبغير «فضيحة».

فاشتدَّ التأثر بأحمد وقال مستنكرًا:

- فضيحة!.. ليس في الأمر فضيحة، هذا بلاء من الله، وكلَّ إنسان عرضة للأمراض إلَّا من أمر الله له بالسلامة، ولكنِّي أخاف..  
- لا تخف، وادعُ لي ربك، وستجد مني ما يطمئن خاطرِكَ!

فسكت أحمد مغلوبًا على أمره. وتهدَّ الشاب بارتياح، وراح يحدث أخاه بما سوف يتخذ من تدابير الوقاية، فقال له: إنَّه سيحضر حامض فنيك لتطهير الحمام والحوض كلَّ صباح، وإنَّه سيقتني أواني خاصَّة لطعامه وشرابه متعللاً بأنَّها هدية من شخص عزيز، وأنصت الرجل إليه بانتباه. ولأول مرَّة خامره الخوف والقلق، وخشي العدوى، وكان بطبعه هيبًا موسوسًا. أما رشدي فكان يتحفَّز لضراعة جديدة لا تقلَّ خطرًا في نظره عمَّا سواها إن لم تزد، فقال:

- وهنالك يا أخي أمر عظيم الأهميَّة أرجو أن ترعاه بالعناية التي أرعاه بها، وهو أن يبقى ما دار بيننا سرًا دفينًا..

فدهش أحمد، وذكر ما قاله منذ لحظات من أنه سيقتني أواني خاصَّة متعللاً بأنَّها هدية، فغمغم قائلاً:  
- ووالدانا؟!

فقال رشدي بحزم:

- لا ينبغي أن يعلم بشيء، فلا داعي لإزعاجها،

ثم إنَّ فرع أمي كفيلا باقتضاح السر!

فارتبك الرجل، وأيقن أنه مقبل على حياة مؤلمة غريبة، فتهدَّ قائلاً:

- يدك الأمر يا رشدي، فإذا توثبت للشفاء حقًا يمكن أن يظلَّ السرُّ سرًا، أمّا..

- لا تخف لم تعد الاستهانة ممكنة بعد اليوم..

وأدرك بسهولة ما يحمل الشاب على إخفاء مرضه حتى عن والديه، فإنَّه ليخاف أن ينمو الخبر إلى مسامع



سمع مسرّات الحياة - مسرّات حياته - تناغيه بهمساتها الساحرة كتغاريذ البلابل في الصباح الباكر، فذكر في وحدته الإخوان وكازينو غمرة والليالي الصاخبة. فتخايلت لعينيه وجوههم المرحّة، ورنت في أذنيه أصدااء ضحكاتهم المجلجلة، ودعاؤهم له بقلب الأسد، كنيته التي يجبّها ويضطرب لها ويخاف عليها عوادي النسيان. يا لهم من إخوان لا تطيب الحياة إلّا بهم، ما أظرفهم وما أطفهم!، وهل يمكن أن ينسى كيف انثالوا على السؤال عنه بالتليفون في المصرف حين انقطع عنهم؟!، أين أنت يا عمّ رشدي؟، ما هذه الغيبة الطويلة؟، لقد كنت في أسبوط أقرب إلينا منك وأنت في القاهرة! إلّا يبقى كسرسيّ قلب الأسد شاغراً؟، أوحشتنا نقودك!. ولكنّ ضاحكهم ودافعهم واعتذر لهم بمشاغل هامة!، وأهاجه الحنين إلى الصحاب واستفزّه الشوق إلى المرح، واستهامته اللهفة على اللذات، وجعل يقول لنفسه هل في لقاء ليلة حرج؟! هل تقتل سهرة أو تميت؟!، والحق أنّ هيامه بالحياة لم يفتّر بسبب الداء، بل بالأرجح أنّه غدا أرهف حساً وأعنف نشاطاً وأضرم حباً وولعاً، ثمّ استحرّ الإغراء فانعدم التردّد، ووجد لخلاصه من عذاب الحيرة ارتياحاً فراح يدندن بصوت رخيم وما اقدرش أنساك!، ولم يكن ترتمّ بغناء منذ شهر ونصف. وعندما أتى المساء تلقّع بمعطفه وأحكم الكوفيّة حول عنقه ومضى إلى السكاكيني، وما إن لاحت لعينيه حلبة كازينو غمرة حتّى هتف من أعماق الفؤاد «أهلاً وسهلاً ومرحباً». وتلقّاه الإخوان بالسرور، فاستسلم لتيّارهم الجارف، وأخذوا في الحديث الماخن كعادتهم طويلاً، ثمّ انتقلوا إلى البهو الداخليّ يدخّنون ويشربون ويقامرون، وخاف أن يمتنع عن لذة فيثير الظنون، ورغب من ناحية أخرى أن يتناسى - في يقظة الأمل - أنّه يطوي في رثته اليسرى ما تقشعرّ الأبدان لذكر اسمه، فدخّن بسرور وشرب كأسين من الكونياك بعثا الدفء إلى جسده البارد، وقامر أيضاً وإن تردّد قليلاً لأنّ تكاليف الدواء أرهقت ميزانيته، ولكنّ الحظّ ابتسم فربح زهاء الجنيهين،

الخطير، وواظب على تناول ما أشار به الدكتور من الحقن والأدوية، وخصّ نفسه - فوق طعام البيت المعتاد - بأغذية ملحوظة الفائدة كاللبن والبيض والعسل والكبد والحمام، وأنفق في ذلك عن سعة، وكان يُطلع أخاه على خطى كفاحه أوّلاً بأول ليطمئنّ فؤاده المحبّ. ومضى شهر يناير جميعه ببرده القارص على حال تبسّر بالخير. ففقع من يومه بساعة سرور واحدة يمضيها بين تلميذيه المحبوبين، ثمّ لا تأتي الساعة العاشرة مساءً حتّى يكون قد راح في نوم هادئ عميق. وزايلت البحة صوته وخفّ السعال فأوشك أن يزول، وراعه ذلك وأيقن فرحاً جديلاً أنّه يتماثل للشفاء، ولكنّ هزاله لم يزل ولونه لم يستردّ. وكان يزور الطبيب كلّ عشرة أيام فوالاه بالنصح ووضّاه بمضاعفة العناية.

وقد كانت أيام المرض الأولى سوداً؛ فوقع فريسة للأوهام والمخاوف، وخامرته شعور مفزع بالقنوط، وتبيّأ له أنّ حياته تؤذّن بالوداع، حياته التي يكنّ لها حباً لا يكتفه لها أحد من بنيتها المخلصين، كلّما ذكر أنّه في القاهرة حيثما كان ينبغي أن يكون في حلوان، وأنّه في عمل بينما كان ينبغي أن يكون في إجازة، اشتدّ خوفه وفزع، يبيد أنّ أولئك الانفعاليين لا يعرفون التردّد في ما تدعو إليه أهواؤهم، ويتخذون من عقولهم ما يتخذة الأثم من المحامي الماهر، فاستطاع أن يقنع نفسه - حتّى في ساعات خوفه - بوجاهة الرأي الذي ارتآه ونفّذه. ولما زايلت صوته البحة وسكت فيه السعال أو كاد، غمره الارتياح، واستردّ ثقته بنفسه، وشعوره بالأمان وتعلّقه بالأمل، وتساقطت الطمأنينة على فؤاده المروّع قطرات من السكينة والرحمة. ولم يمضِ على ذلك أمد طويل حتّى عاوده شعوره بالجمسارة ونزوعه إلى الاستهتار، وألحّ عليه حبه العميق لمسرّات الحياة، فلم يعد المرض وخطره شغله الشاغل. ورمى صبره وقوة إرادته بعين الإعجاب، وذكر شهر يناير - الذي أذعن فيه لما عاهد عليه نفسه أمام أخيه - بالدهشة والإكبار، وكأنّه لا يصدّق أنّه استطاع حقاً أن ينزوي ويستقيم شهراً كاملاً. ومن فرجة الأمل الباسم

## خان الخليلي ٦١١

- حُشْبِكَ تَعَبًا وَحُسْبِي أَلْمًا فَلَا تَبْكِي، لَا بَكَيْتْ  
أَبَدًا، وَلَنْ أَزِيدَكَ فَالِلهِ وَحْدَهُ كَفِيلٌ بَأَنَّ يَلْهَمُكَ  
الصَّوَابَ، إِنَّ قَلْبِي يَخَافُ عَلَيْكَ وَيَدْعُو لَكَ فَاَمْضِ  
إِلَى فِرَاشِكَ وَأَتَى اللهُ فِي صَحَّتِكَ!  
وجعل يتساءل منزعًا تُرى هل يستعيد الشاب  
سيرته الأولى من الاستهانة بالرغم من مرضه الخطير؟!

- ٣٧ -

واستقبلت الدنيا أيام فبراير الأولى مشفقة من رياحه  
العاصفة وزوابعه الباردة المزججة، وقد تَلَفَعَتِ السَّيَاءُ  
بأردية ثقيلة داكنة من السحاب الجون، فأَمَسَتْ  
الأرض كَفَرخٍ فِي بِيضَةٍ، تَرَقَّبَ الرِّبِيعَ لِتَشَقَّ حِجَابِ  
الظلماء عن بهجة النور وعبير الأزاهر، وظلَّ رَشْدِي  
جسدًا مهزولًا في قرارته ضرام لا يجمد من العواطف  
والأحاسيس وفي قلبه تمرّد نائر على الأغلال التي صَفَدَهُ  
بها المرض الخطير. وكان الطبيب أعاد عليه الكشف  
أخبرًا وقال له إِنَّ حَالَةَ الصِّدْرِ لَمْ تَتَحَسَّنْ! فحباب  
أمله، وتَنَغَّصَ عَلَيْهِ سروره السابق بشفاء صوته  
وسعاله، لقد صبر طويلًا، وهجر الحياة التي يعشقها،  
وكان يَرجو ويأمل، فمَتَى تَتَحَسَّنْ إِذَا، والأدهى من  
ذَلِكَ أَنَّ الطَّيِّبَ الحَّ عَليهِ أَنْ يَجِدَ سَبِيلًا إِلَى حُلُوانِ،  
فهل أيسر الرجل من أن يسعى الشفاء إليه في  
القاهرة؟! وما جدوى العذاب والصبر إذا؟ وفضلًا عن  
هذا فأخوه لا يخفي عنه عدم ارتياحه لهزاله وشحوبه،  
فبات ساخطًا متبرِّمًا.

وكان ذات مساء يلقي درسًا على تلميذته، فكَلَفَتْ  
نوال أخاها أن يحضر كوبًا من الماء، ولَمَّا خَلا لَهَا  
المكان قالت للشاب بسرعة متسائلة: «ألا تستطيع أن  
تقابلني صباحًا كما كنت تفعل؟.. ولو مرّة واحدة!»  
فخفق قلبه خفقة السرور وقال دون تردّد، متعاميًا عن  
العقبات جميعًا: «غدا صباحًا!». ثم ذكر أخاه الذي  
صار سجانًا فقال لنفسه: «إنه سلّم بضرورة خروجي  
صباحًا الساعة الثامنة، فما يضيره لو قدّمت الميعاد ثلاثة  
أرباع ساعة؟». ونهض مبكرًا في اليوم الثاني، وتناول  
فظوره الدسم، ورصد أخاه حتّى دخل الحتام فانطلق

وأب مسرورًا وإن شعر بحرارة تلتهم أنسجته،  
وأجهده المشي في الجوّ القارص، وبلغ البيت في حالة  
مضعضة من الإعياء، وما إن أغلق الباب في هدوء  
حتّى انفتح باب حجرة أحمد ولاح الرجل وراءه،  
فدعاه إلى حجرته، ومضى إليها مرتبًا يمشي على  
استحياء، وهتف به أخوه:

- ماذا فعلت؟.. هل جنتت؟.. أهذا ما أتفقنا

عليه؟!

فلاذ بالصمت وقد ارتسمت على شفّته شبه ابتسامة  
تدلّ على الارتياح والرحج فاستدرك أحمد:

- هذا فوق التصديق، وما دريت به حتّى نبا بي  
الفراش، وظلّ نومي خفيفًا قلقلًا حتّى أيقظتني صفقة  
الباب، أهذا ما أتفقنا عليه؟

وخرج رشدي عن صمته بأن قال بصوت  
منخفض:

- أنت تعلم يا أخي أنّي حافظت على الاتّفاق شهرًا  
كاملًا، ثمّ نازعتني نفسي أن أروّح عنها قليلًا..

- هذا كلام إنسان يجهل الحقيقة أو يتجاهلها، ألا  
تعلم أنّ استهتار ليلة واحدة يهدر ما بنيت في شهر  
كامل؟!

- ولكيّ في الواقع أشعر بتحسن كبير!

فقال أحمد بحذّة:

- أنت تخدع نفسك، وتقسو عليها بجهلك،  
وتركك حرًا خطأ كبير، ولو كان الدكتور يعلم بما  
فطرت عليه من استهتار لحتم عليك أن تنتقل إلى  
المصحة غداة الكشف عليك.

فتجلّى الحزن في عيني الشاب، وتكدّر صفوه، وكان  
الجهد قد أعياه، فقال كالمعاتب:

- لا تكن قاسيًا على غير عهدك.

- ها أنت ذا لا تفرّق بين الحنان والقسوة، فتدعوني  
قاسيًا جزاء قلقي وسهادي وإشفاقي، فلکم تقسو على  
نفسك وعلى!

واشتدّ بالشاب الإعياء والتأثر، فاغرورقت عيناه،  
تمّا أسكت غضب أحمد وحوّله إلى إشفاق وتألم وعدم  
ارتياح، فوضع يده على كتف الشاب وقال بهدوء:

شكري وقولي لها إني طامع في المزيد من النحافة . .  
وقطبت فجأة كأنما ذكرت أمرًا ذا خطر وقالت  
بلهجة التعنيف:

- على فكرة يا ماکر! . . مجلوك أحيانًا ونحن حول  
مائدة الدرس أن تداعب قدمي بقدمك متجاهلاً أن  
قدميك متعلتان وقدمي عاريتان! .

فضحك رشدي، وقد تورّد وجهه، وقال:

- نفسي فداء لقدميك العزيزين!

ومرًا عند ذاك بالقهوة المعروفة بنادي الصحراء،  
فقال له وهي تومئ إلى النادل وكان يتناول فطوره:

- ألم تدر أن هذا النادل الخبيث فطن إلى تواعدنا  
كلّ صباح؟! فلما رأي أسير وحدي الآيام الماضية جعل  
يصفق بيديه كلما مررت به ويقول وكأنه يحدث نفسه:  
«أين أليفك يا بلبل؟ . . كلّ الأحبة اثنين اثنين!» . .  
ربّاه! . . لكمّ تولّاي الحياء حتى كدت يُغسي عليّ!

واسترسلا في الضحك مرّة أخرى وكانا يقتربان من  
منعطف الطريق الذي توجد على جانبيه مقبرة عاكف  
الخشبيّة، ولمحها الفتاة فقالت:

- أنتم مدنون لي بمائة رحمة على الأقلّ، لأنّ أفرأ  
الفاتحة لمفبرتكم كلّ صباح!

فقال لها منبسها:

- أنت با نوال رحمة للجدّ وعدادب للحفيد!

ثمّ امدّ بصره إلى المقبرة فسرعان ما خطر له خاطر  
خيف كأنه شيطان انشقت عنه أرض الموق، هل  
يجري القضاء غدا بأن تقرأ فاتته - وهي اخذة طريقها  
هذا - الفاتحة على روحه هو؟! وانقبض صدره، ثمّ  
استرق إلى وجهها الأسمر نظرة غريبة، فشعر بأنّها كلّ  
أمله في الوجود، وبأنه إذا جاز لشيء أن يسخر من  
الموت ويستهيّن بمخاوفه فهو أنّحاد قلسين متفانين،  
ووجد دافعا قويًا يدعوه إلى التعلّق بها، وضمّمها إلى  
قلبه، بل إلى شغاف قلبه إذا أمكن. ولاحت منها  
الفتاة إليه فطالعت نظرته الحاملة، فلاح في وجهها  
الجدّ، وسالته:

- لماذا تنظر إليّ هكذا؟

فقال بصوت متهدّج:

إلى الخارج كالهارب، ورأى في المرّ المفضي إلى السكّة  
الجديدة حبيته تسبقه بخطاها الخفيفة مرتدية معطفها  
الرماديّ، متأبطه حقيبتها، فطرب قلبه طربا أنساه  
شجونه، ثمّ صعد في أثرها طريق الدراسة، فذكر  
كيف كان يصعد هذا الطريق في أعقابها صحيحًا معاقً  
صافي أديم الفؤاد، وتنهد من أعماق فؤاده متحسّرًا  
مغمغمًا: «ما أنفس كنز الصّحة!» . ورفع بصره إلى  
جبل المقطم وقد أطلقت السحب على قمته، وكانت  
السماء تذكره دائما برّبّه، فدعا الله أن يأخذ بيده!

ولحق بها بعد المنعطف، وأخذ ينهاها بيسراه،  
فعطفت رأسها نحوه وعلى تغرها ابتسامه، وقالت  
تداعبه بلهجة لم تخلّ من عتاب:

- أهانّ عليك طريقنا هذا أيّها الغادر؟

فهزّ رأسه متأسفًا وتمتم:

- لعن الله البرد!

- كان ينبغي أن تبرأ منذ أمد طويل، فما هذا  
التلكؤ؟!

فامتعض قلبًا وقال:

- أجل، وما بقي فهو هين . . والحقّ أنّ إهمالي هو  
المسئول الأوّل!

وكانت تعلم طبعًا أنّه انقطع عن لقاء الصباح  
بسبب السعال، فلما زابله السعال تشجّعت ودعته إلى  
مرافقتها سواقًا إلى الانفراد به، وقد اختلست نظرة من  
وجهه الشاحب النحيل وقالت له:

- ألا تدري ماذا تقول عنك نينة؟

فخفق فؤاده، وختبي أن يسمع تلميحا لبقًا إلى  
مسألة «الخطوبة» وسألها:

- ماذا تقول يا تُرى؟

- قالت لي ضاحكه: ما بال أستاذك نحيفا  
كالخيال؟! . . هلاّ تقبلّ منّي وصفة للسمن؟!

وضحكت نوال ضحكة رقيقة، فجاراها في  
ضحكها، ليجاري شعورا بالحزن غشي صدره،  
وساوره القلق، ولكنّه لم يرّ بدًا من أن يقول بلهجة  
تكلف بها السرور:

- وما حاجتي إلى السمن والنحافة موضه؟! أبلغنيها

## خان الحليلي ٦١٣

الضعيفة مرعى خصيئنا للهواجس والأحزان، فصار مرض شقيقه - منذ اللحظة الأولى - شغله الشاغل وهمه اللازم وشوكة سامه في جانب طمأنينته وامتد خوفه إلى نواح أخرى حتى ألقى به في النهاية في مواجهة مشكلة من أدق المشكلات الخلقية، لم تكن لتخطر له على بال. فلم يغيب عن ذهنه أن شقيقه يلتقي بالفتاة كل صباح، وربما انفرد بها مساء وهو يجلس منها مجلس الأستاذ، فإذا أغراه الهوى - شأن المحبين - بقبله، أفلا تتعرض الفتاة لأذى بعيد الغور؟! ألا يدرك رسدي خطورة الأمر؟!... ألا يجد من ضميره وازعاً؟! ولكن كيف بمن يستهين بحياته أن يعرف حياة الآخرين قيمة؟! . وتفكر في الأمر طويلاً، متكدرًا مغتًا، لا يدري كيف ينقذ من الهلاك فتاة بريئة، وبدت حيرته ذات بواعث أخلاقية صافية، ولم بداخله شك في أنها كذلك ولا كانت تخلو في الواقع من شعور أخلاقي عميق، ولكنه لم ير ما عداها على نزوعه الطبيعي إلى تفحص نفسه، أو أن العين في أحيان كثيرة لا يرى إلا ما تحب أن تراه، فتكدر واعتّم، وأفضى به الكدر والغم إلى حيرة شديدة، فلا هو يستطيع أن ينمي الحقيقة إلى كمال خليل لأنّ خيانة أخيه الحبيب جريمة نكراء لا يمكن أن يجترحها، ولا هو يستطيع أن بكاشف الشاب بمخاوفه أن يصيب مقتلًا من نفسه الحساسة الرقيقة، وعذبه القلق والتردد والإشفاق، ولم يكن أندا ذا عزيمة أو إرادة، فنكص على عقبيه بملب حائر وفكر مشتب، وظلت المخاوف تطارده، وتلج على ضميره حتى بلغ منه الإعياء والكلال، فتساءل في يأس وفنوط: «أليست غيبوبة المعلم زفة خيرًا من هذه الحياة؟!».

- ٣٨ -

وزادت حال رسدي سوءًا، فاشتد هزاله وشحوبه، ولكنه بدا مستهترًا سادرًا كأن الأمر لا يعنيه، ولم يعد يقنع برحلات الصباح في طريق الجبل فكان كلما نازعه الشوق إلى كازينو غمرة انطلق إلى الإخوان يعربد

- لأني أحبك يا بوال... لقد أدركت - وأنا أنظر إلى القبور على ضوء عينيك - معنى القول إن الحياة الحب، وقالت لي القبور إن كل ساعة نرضى بأن تفرق بيننا جريمة عقابها ظلمة القبر، وسمعت صوتًا يهف بي: الله ما أحقكم تضنون بالتافه من الأشياء عن العيب وتعثون جزافا بنعمة الحياة!..

فتورد خداه وأضاءت عينها الصافيتان بنور الوجد، فلم يعودا (هو وهي) يشعران بهبات الهواء البارد المنفخ من الصحراء، وشد على راحتها وسارا صامتين. ومضى بسؤال ترى كيف يسوغ أن يمسك عن ذكر «الخطبة» بعد كل ما قال! وكانت تتوقع من ناحيتها أن يطرق الموضوع المحبوب قبل كل خطوة تخطوها، ولكنه لزم الصمت حتى شارفا نهاية الطريق، وتودعا ثم افترقا، فبطوت حركته وهو يتابع مسيرها بنظرة استجمعت في حنانها جميع ما في قلبه من حب ووجد وحزن، حتى انعطفت مع الطريق إلى العباسية، وأخذ في طريفه إلى محطة الترام، وعند ذلك فحسب شعر بالإعياء واضطراب الأنفاس ودوار يوشك أن يصبر غثابنا..

\* \* \*

ولذلك لم يقته أن يحدث أخاه عن الخطبة وعمّا عسى أن يحدثه إمساكلهم عن فتح موضوعها من سوء الظن في نفوس أهل العتاة، ولكن أخاه - وكان غاضبا لعودته إلى الخروج المبكر - لم يوافق على مفاتحة كمال خليل أفندي بهذا الشأن قبل الشفاء الكامل، فقال للشاب:

- اعتل بما تشاء من المعاذير فأنت أستاذ في اللبابة، ولكن لا يجوز أن تتكلم رسميًا قبل أن تشفى تمامًا إن شاء الله، سيكون إعلان الخطوبة مكافأة الشفاء فأرنا همتك!

وعجز الرجل عن إقناعه بالعدول عن الخروج الباكر والتعرض لأذى البرد، فأيس منه وسلم إلى الله سائلًا إياه اللطف والرحمة، وكان ممن يشقون بالأم الأقرين، فتجد الأوهام والمخاوف من صدورهم

الحالة إلى استشارة الطبيب، فاقترح أحمد أن يدعو إلى البيت ولكنّ رشدي اختار أن يذهباً إليه معاً، فارتدى بذلته بمساعدة أمه، وقد اتسعت عليه أيما اتساع، واستقلّاً عربية إلى عيادة الطبيب، وصحبه أحمد إلى حجرة الكشف، ولمّا وقع بصر الطبيب، ولم يكن رآه من أسبوعين، قال بصوته الرفيع وهو يتظاهر بالابتسام:

- ماذا فعلت بنفسك؟

فابتسم رشدي ابتسامة باهتة وتمتم قائلاً:

- السعال وضعف شديداً!

وأجرى الدكتور الفحص، فساد الصمت برهة غير قصيرة، ثمّ قال بعد الانتهاء:

- كلمة واحدة لا أزيد عليها: المصحّة! . . .

فتجهّم الوجه المصفرّ، وتساءل صاحبه بصوت خافت:

- هل زادت الحالة سوءاً؟

فرفع الرجل حاجبيه وقال:

- هي الحقيقة، ولا شكّ أنّك لم تتبع نصحي، ولكن لا داعي للخوف إذا بادرت بالذهاب إلى حلوان. سافر اليوم إن أمكن، وستجدني هناك إلى جانبك! . . .

وسأله أحمد:

- هل تطول إقامته في حلوان؟

فقال الرجل:

- علم هذا عند الله، ولست متشائماً، ولكن لا يجوز الإبطاء!

ورجعا إلى البيت فوجدا الوالدين ينتظران فارغين الصبر، وبادر الوالد أحمد قائلاً:

- ماذا به؟

وعلم أحمد أنّ الكذب لن يجدي فقال واجماً، وباقتضاب ذي مغزى:

- المصحّة!

وساد الصمت، واحمرّت عينا الستّ دولت منذرة بالبكاء، وتمتم الوالد:

معهم حتّى مطلع الفجر. وكان أحمد يقول له مبكّناً: «أتروم الانتحار؟!». والحقّ أنّه انحدر في سبيل الانتحار بلا قصد، وعجز عن مقاومة ميله الطبيعيّ للذّات، وأذعن للحساسيّة المرهفة الجديدة التي أحدثها المرض في نفسه، وحجب العاقبة عن عينيه طبيعته الجسور المتفائلة، فلم يفقد الأمل قطّ، أو لم يفقده إلاّ لحظات عابرة، وظلّ على عهد من الجسارة والاستهانة والابتسام. ولكنّه فوجئ بعودة السعال بل عاد أعنف ممّا كان في أسوأ حالاته، ثمّ تابعت عليه نوباته، وتلوّث بصاقه مرّة أخرى بالدم، ولقتت نوبات السعال الموظّفين إليه في المصرف، فساورتهم الشكوك، وأمسى عمله عديم الجدوى، وتنبّه الوالدان للخطر الذي يهدّد ابنتها ونصحها له بالانقطاع عن عمله حتّى يسترّد صحته، ولكنّه بالرغم من ذلك كلّ ظلّ يكافح متعلّقاً في جنون بمظاهر الأصحاء المعافين. ولم يستطع أحمد صبراً فدعاه يوماً إلى حجّته وقال له بحزم:

- إلأم تتغاضى عن خطورة الحال؟

فسأله الشابّ في استسلام لم يتوقّعه:

- بيم تشير عليّ؟

- لا يجوز بعد اليوم أن تواصل عملك فضلاً عن السهر والعريضة!

- وإذا انفصح سرّي؟!

قال أحمد بتأثر شديد:

- ليس المرض بالفضيحة، وللضرورة أحكام!

فأطرق رشدي وقد خارت عزيمته وتنهّد من فؤاد مكلوم قائلاً:

- الأمر لله! . . .

ونجم استسلامه المفاجئ عن الإعياء - لا الاقتناع - ولذلك ما كاد يقرّر طبيب المصرف سبب مرضه الحقيقيّ ويمنحه أولى إجازاته المرضيّة حتّى خارت قواه، ورقد على الفراش صريع الضعف والسعال، وأخفى أحمد الحقيقة عن والديه، ولكنّ الحالة اشتدّت اشتداداً مخيفاً، ورأت الأمّ البصاق الداميّ وعلم به الوالد، ففزعا فزعاً شديداً، وروّع قلباهما الضعيفان. ودعت

## خان الخليلي ٦١٥

بالنحافة هو الذي أدى به إلى المرض، وتعهّدت له ضاحكة، بأن تتولّى تسمينه بعد الشفاء، ولم تُدرِ نوال ماذا تقول على مسمع من الوالدتين، ولم يستطع الشاب أن يديم إليها النظر، ولكنّ عينيه التقتا بعينيها في لمحات خاطفة فتجاوبت رسائل الحبّ والشكر والحزن الصامته، وسرّ رشدي بالزيارة سرورًا لم يشعر بمثله منذ استسلم للرقاد. وبعد خروج المرأة وابنتها أعرب لأمّه عن خوفه من افتضاح حقيقة مرضه، ولكنّ المرأة المحزونة طمأنته قائلة إنّ مرضه سرّ مطويّ في صدور محبّيه.

وفي صباح اليوم الأوّل من مارس حملت عربية الشقيقين إلى محطّة باب اللوق وكان دعاء الأب آخر ما سمع رشدي في البيت، وكانت دموع الأمّ آخر ما رأى، وفي الطريق قال الشاب لشقيقه:

- إذا طالّت مدّة التداوي فصلت من عملي حتّمًا!  
فقال له أحمد بثقة:

- وحتى لو حدث هذا - لا قدر الله - فعودتك إلى عملك مرّة أخرى أمر يسير، ولا تشغل نفسك بغير الشفاء!

ثمّ انتقلا إلى الديزل، فانطلقت بهما في طريق حلوان، وجلسا جنبًا إلى جنب، وكان أحمد صامتًا يلوح في وجهه النحيل الهمّ والفكر، وكان رشدي يسعل من حين لآخر. وعجب أحمد لسوء الحظّ الذي يلاحق أسرته، فقد فقدت غلامًا. وها هو رشدي يصاب بالداء الخطير، أمّا هو فقد نصبه الدهر هدفًا للعثرات والإخفاق! ولو وقع الدهر به فدية لكفاه ولكتّه لا يقنع! واختلس من الشابّ نظرة فهاله هزاه، وضمور رقبته، وذبول عينيه، وغياب النظرة اللامعة الساخرة منها، فتنهّد وقال لنفسه متحسّرًا «ربّاه.. متى تنكشف الغمّة؟.. متى أفتح عينيّ فلا أجد من هذا الشقاء المائل إلّا أطيايف ذكريات منقضية!». ونظر إلى الخارج خلّل زجاج النافذة فجرت أمام ناظره الأبنية والفيّلات في حشد طويل، ثمّ انسابت القاطرة بين حقول ممتدّة من النضرة والخضرة والمناظر الريفية الفاتنة، ثمّ أقبلت الصحراء اللانهائية الجرداء يحفّ

- ربّنا يلفظ بنا!..

فقال أحمد متصنّعًا السكينة:

- ليس هناك ما يدعو للقلق، ولكن لا محيد عن المصحّة!

وكان رشدي لا يزال نافرًا من المصحّة ولكتّه لا يجرؤ على قول «لا» بعد ما صار إليه حاله، فدعا أخاه إلى جانبه وقال له بتوسّل وعلى مسمع من أمّه:

- لتكن المصحّة إذا شئت، ولكن..

وأوما إلى النافذة، واستدرك:

- ولكن لا أحبّ أن يعرفوا الحقيقة!

فاشتدّ التأثر بالرجل، وخفق فؤاده بحزن عميق، وقال:

- لا تخفّ... من السهل أن نقول إنك مصاب بماء في الرئة أوجب سفرك إلى المصحّة!

فساءل رشدي محزونًا:

- وهل يجوز هذا عليهم؟

فقال أحمد:

- إنّ التداوي من ماء الرئة يستدعي زمنًا طويلًا، ومهما يكن من أمر فالعناية بصحتك أولى بالاهتمام ممّا عداها...

## - ٣٩ -

ولم يضع أحمد وقتًا، فقام بالإجراءات المتبعة لإلحاق شقيقه بالمصحّة، مستعينًا بتوصية من الطبيب الداوي، ووجد أنّ سريرًا سيخلى في أوّل مارس لانتهاء مدّة علاج صاحبه، فقرّر انتقال رشدي من ذلك التاريخ، وفي المدّة القصيرة التي سبقت السفر عانت الأسرة ألمًا برحاء، وكان رشدي يكابد من السعال عذابًا مضمنيًا وسهادًا متقطّعًا. وغرق الوالدان في حزن ذاهل، وتكدّر صفوهما، ولاحت في أعينها نظرة واجمة امتزج فيها الرجاء بالخوف. ووقع أحمد فريسة لهواجسه، فانقلبت حياته غمًا وجزعًا، وعاد كمال أفندي خليل الشابّ وأكد له أنّ «ماء الرئة» لا خطر منه البتّة مع العناية! ثمّ زارته الستّ توحيدة ونوال - ولم يكن أحمد بالبيت - وقالت له إنّ غرامه

ووجف قلبه . وظلّ وهو آخذ في الطريق إلى المحطة يعاود النظر وراء ظهره إلى بناء المصحّة الشاهق ويتمتم بالدعاء .

وفي مساء ذلك اليوم باتت أسرة عاكف في وجوم وكآبة وقد لاحت في عيني الأب نظرة شاردة، وبكت الأم حتّى دميت عيناها، وحاول أحمد أن يخفّف عنها بحديث الرجاء والامل، ولكنّه كان في الحقيقة في حاجة إلى من يخفّف عنه . .

- ٤٠ -

وانتظرت الأسرة يوم الجمعة - يوم الزيارة إلى المصحّة - بصبر فارغ، وقرّ رأي كمال خليل أفندي على أن يصحبهم هو وأسرته، وأخذت الأسرتان للزيارة أهبتها فابتاع أحمد لأخيه صندوق بسكوت بالشيكولاتة، وأعدت الستّ توحيدة - والده نوال - له كعكًا عرفت بإتقان صنعته. وعند الضحى ذهبوا جميعًا - الرجال الثلاثة والسيدات نوال - إلى محطة باب اللوق، واستقلّوا قاطرة الديزل، وجلسوا متقابلين، الرجال في ناحية والنساء في الأخرى، وبذلك وجد أحمد نوال جالسة لقاءه!، وتجنّب، منذ اللحظة الأولى، أن ينظر إليها، ولم يكن رآها منذ ذلك اليوم الذي كشف له عمّا كشف، بيد أنّ وجودها على بعد قدم منه أيقظ الذكريات وحرك الأشجان، وخاف مغتبه الاستسلام للخواطر فتشاغل بالحديث مع كمال خليل تارة، وبقراءة الأهرام تارة أخرى، والواقع أنّه لم ينتجج إلاّ في تجنّب النظر إليها، ولكنّه غلب على أمره إزاء سيل خواطره الجارف، وأتى له أن ينسى أمله الخائب! أو سخطه المرّ القديم على شقيقه! أو مرض شقيقه الذي جعل من سخطه القديم عليه جرحًا في ضميره لا يلتئم! وهل ينسى أنّه خاف يومًا على الفتاة من العدوى! وأنّه حام حول اتهام شقيقه بتعريض حياتها للهلاك؟ كلّ أولئك الآم جعلت من حياته مرتعًا للنار، حتّى صدّق قوله لنفسه مرّة «لقد أصيب رشدي في صدره وأصبت أنا في عقلي!». ثمّ تساءل ترى ماذا يحظر لها من الأفكار حين يقع بصرها على شخصه

بأفقها الجبل الشامخ . فاستثار تتابع المشاهد ما بين أبنية وحقول وصحراء جرداء عاطفة كئيبة في صدره، فامتلاً شجنًا وأسى .

وبلغت القاطرة حلوان، فتركا القاطرة وقد نهكت الرحلة الشابّ المريض، واستقلّا عربة إلى المصحّة، وسارت بهما تنهادى في طريق مقفر. وتراءت لهما المصحّة فوق سفح الجبل كقلعة هائلة، فرنا إليها الشقيقتان بقلبين خافقين، وقال أحمد:

- الفاتحة إن ربنا يأخذ بيدك ويمنّ عليك بالشفاء ويخرجك من هذا المكان مجبور الخاطر . .

وانتهيا إلى المصحّة، واستقلّا المصعد إلى الطابق الثالث، ودلتها ممّوضة على الحجرة التي يقصدانها، وكان بالحجرة سريران، يرقد على أحدهما شابّ في مثل سنّ رشدي وفي مثل هزاله وصفوته فتبادلوا التحية باسمين. واستراح رشدي حتّى استردّ أنفاسه، ثمّ غيرّ ملابسه بمعونة شقيقه، واستلقى على الفراش، وجلس أحمد أمامه على كرسيّ مريح، وأومأ الرجل إلى الشابّ المريض الغريب، وقال مخاطبًا شقيقه:

- ستجد في صاحبك خير رفيق، فتعاونوا على قتل الوقت وتبديد وحشة الوحدة، حتّى يأذن الله لكما بالخروج سالمين غانمين!

ومضى يتحدّث مع شقيقه حينًا، ومع صاحب السرير المجاور حينًا آخر - وقد علم أنّ اسمه أنيس بشارة وأنّه طالب في السنة النهائية بكلّيّة الهندسة - والظاهر أنّ الرحلة أعبت رشدي فاعتراه تعب شديد، واستلقى في خورّ وخمود، ومكث أحمد معها حتّى اطمأنّ على الشابّ، ثمّ نهض لينصرف، وقد شعر وهو يضغط على راحة الشابّ مودّعًا بدمعة تتحرك في مجرى الدموع من قلبه، فقرض على أسنانه ليمنعها من الصعود إلى محجريه، وغادر الحجرة. وخال في الخارج أنّه رأى عيني الشابّ كالمنذرتين بالبكاء وهو يسلمّ عليه، فنازع قلبه إلى العودة إليه مرّة أخرى، ولكنّه قاوم عاطفته ومضى في سبيله، واخترق دهاليز طويلة تفتح عليها أبواب عنابر المرضى، ورأى الأشباح الأدميّة في الثياب البيض الفضفاضة، فاقشعرّ بدنه

## خان الخليلي ٦١٧

فابتسم الشاب إليها - وإلى نوال بالتالي لأنها كانت لصقها - ثم قال موجّها الخطاب لأحمد:  
- كانت الليالي الثلاث الماضيه شديده الوطأة عليّ، اضطرب فيها نومي وتقطع، واشتدّ عليّ الألم، ولم يكفّ عني . .

ولم يتمّ جملته، فأدرك أخوه أنّه أمسك حذرًا عن ذكر «السعال»، فأيقن في تلك اللحظة أنّ اصطحابهم أسرة كمال خليل - على ما فيه من سرور - كان خطأ كبيرًا، ولكنّه أراد أن يشجع الشاب فقال:

- على رأي تيزتك فهذا شأن المرض أوّل عهده، وستجتاز هذه الشدة بعون الله، وتخرج منها سالمًا!  
ولكنّ رشدي قال بلهجة دلّت على التوسّل:  
- أليس الأفضل أن أعود إلى بيتنا؟

ورأى أحمد أمّه تهتمّ بالموافقة على رغبته فبادر بقوله:  
- ساعك الله! بل قل إنك لن تبرح حجرتك حتى تستردّ صحتك وفتوتك، ثمّ تغفل إلى القاهرة مشيًا على الأقدام! ومن حسن الحظّ أنّي أراك متحسنًا محسنًا محسوسًا . .

وقال كمال خليل يساهم في تلك الكذبة المفيدة:  
- أجل يا رشدي أفندي أنت . . اليوم أحسن حالًا بلا شك!  
وحدّت الأمّ بصرها لعلها تصدق ما يقولان، بينا راح أبوه يقول بصوته الهادئ المنكسر:  
- الصبر . . الصبر يا رشدي، وربّنا يراعاك ويأخذ بيدك! . .

فسكت رشدي، ولكن على رغبته، ولم يغب ذلك عن أخيه الذي يحسن فهمه، وكان يعلم أنّه لا يقتنع بغير رأي نفسه، ولا يعمل إلاّ بمشورتها، فأيقن أنّه إذا كره المصحّة فلن يصبر عليها، ولن تعود عليه إقامته فيها بنفع يذكر، وازداد حزنًا على حزن، واسترعت انتباهه حركة آتية من السرير الآخر، فنظر إليه، ورأى زميل أخيه جالسًا في فراشه، فتولّاه الخجل لأنّه نسي - في غمرة حزنه - أن يجيّه، فقال له وهو يرفع يده له بالتحية:

- كيف حالك يا أنيس أفندي؟ . . لا تؤاخذنا! . .

امامها؟! هل يثير ألسنا؟! حجلًا؟! ألا يجوز أن تأسف أن لحقت العلة بحبيبيها متعامية عن هذا الكهل؟! ولو فعلت ما تجاوزت القصد ولا حادت عن الإنصاف، فما فائدة حياته؟ وما وجه الانتفاع بصحته؟ ووجد لتوه ذلك الشعور بالاضطهاد، المؤلم اللذيذ معًا، وحقيقة أخرى لم تغب عنه، وهي أنّه مرتاح إلى وجودها رغم تجنّب النظر إليها، لماذا يا ترى؟ هل يرغب أن يمتحن قدرته على النسيان والتأسي؟! أو يريد أن يشبع رغبته القديمة في أن يريها قوته على تجاهلها والترفع عنها؟! ثمّ أفاق لنفسه قليلًا، فكبر عليه أن تكون تلك خواطره وهو ماضٍ لعيادة العزيز المريض! وبلغ منه الألم حدًا تمخى لو كانت الجراحة تستطيع بتر الفاسد من النفس، كما تبتّر الفاسد من الأعضاء!

وانتهت الرحلة، وساروا في الطريق وأبصارهم عالقة بالمصحّة، وقوي أمل أحمد أن يجد الشاب أحسن حالًا - وإن لم يمض في المصحّة سوى ثلاثة أيام - لإخلاصه الإجماعي إلى الراحة ووجوده في الجوّ الموافق. وتقدّمهم جميعًا نحو الحجره، وسبقته عيناه إلى السرير، كان رشدي راقداً، وقد شعر بحضورهم، ولكنّه لم يجرّك ساكنًا، إلاّ ابتسامه خفيفة باهته ارتسمت على شفّتيه الذابلتين وهو يتلقّى تحيّات القادمين الذين أحاطوا بفراشه. وخاب أمل الرجل، وزوّج لما رأى من تدهور الشاب، فلم يشكّ أنّ حالته ساءت عمّا كانت عليه يوم أتى به. وحرار في تفسير ذلك وانقبض صدره. وجلس الزوّار، ووضع البسكوت والكعك على خوان قريب من السرير، ولمّا رآهما رشدي قال بصوت ضعيف:

- أنا لا أكاد أتناول طعامًا . . لا شهية ألبتة . .  
فسألته أمّه بقلق وهي تتفحصه بعينين حاولت ألاّ يلوح فيهما شيء من الانزعاج المستولي عليها:  
- ألا يعجبك طعام المصحّة يا رشدي؟!  
- الطعام جيّد، ولكنّي فقدت شهيتي!  
فقالت السّت توحيدة:

- لا تحفّ فهذا شأن المرض أوّل عهده، وغدًا نلتهم الطعام التهامًا بفضل هذا الهواء الجافّ.



الستهم بالدعاء، وغادروا الحجر، وكانت الست  
دولت آخر من غادرها بعد أن قبّلت الشاب في خديه  
وجبينه، وفي الطريق لم تعد تملك أعصابها فامتلات  
عينها بالدموع. وكانت نوال تعالج دمعة لا تدري  
كيف تخفيها. وظلّ أحمد منقبض الصدر حتى أوى إلى  
حجرته، ومضى يعلّل نفسه بالأمل ويقول إنه سيجده  
في الزيارة القادمة أحسن حالاً حتّى ممّا وجده اليوم.  
ربّاه... متى يردّ إلى ما كان عليه من القوّة والنشاط  
والنضارة؟! متى يعاود سمعه تغريده الخنون ودعايته  
اللطيفة وضحكته الرنّانة؟!

ونامت أسرة عاكف تلك الليلة على حزن وكمد  
كنومها ليلة الفراق!.

ثمّ استيقظوا جميعاً في الهزيع الأخير من الليل على  
رنين الجرس... وجلس أحمد في الفراش مرهف  
الأذنين، فسمع الرنين متصلاً كأنه يصرخ في  
الغافلين. وانقضّ عليه خاطر جعل قلبه يرجف كإبرة  
الجرس فقفز من الفراش وجرى إلى الخارج، التقى  
بوالديه في الصالة وهما يكادان أن يعدوا عدواً نحو  
الباب. ولم ينس أحدهم فقد تولّاهم استسلام يائس  
للأقدار، ودلف أحمد من الباب مزدرباً ريقه وأضاء  
المصباح الخارجيّ وفتح الباب، ونظر في الردهة  
الخارجية فلم تقع عيناه على إنسان، وكان الرنين لا  
يزال متصلاً... والتفت الرجل إلى والديه مندهشاً  
مغمغماً: «لا أحد في الخارج». واقترّب من «بطارية  
الجرس»، ورفع غطاءها وفصل بين الأسلاك فسكت  
الجرس المزعج! وأغلق الباب والدموع توشك أن تطفر  
من عينيه، وتبادلوا جميعاً نظرات حائرات، ثمّ هتف  
الأب قائلاً:

- أعود بالله من الشيطان الرجيم!

وقالت الأم وهي تتنهد من أعماق قلبها:

- أليس الأوفى أن نأتي برشدي ما دامت هذه  
رغبتة؟

فقال أحمد وقد وشى صوته باضطراب نفسه:

- يا شيخة وحدي الله...!

فضحك الشاب قائلاً:

- العفو يا بك، الظاهر أنّ رشدي يرغب في  
هجرنا!

فقال رشدي متأسفاً:

- لكم أزعجت نومك!

فقال الشاب مبتسماً:

- لا داعي للأسف على ذلك، فسهر الليل لا  
يضايقي بتاتاً.

فابتسم أحمد وقال:

- الظاهر أنّك من عشاق الليل كرشدي!

- نطقت بالصواب يا سيدي، وها نحن أولاء  
يعلمنا الدهر أنّه ينبغي أن نقلع عمّا كنّا نعشق... .

ودعوا لهما بالشفاء، ونهضت أمّ أحمد إلى الخوان،  
وأنت بصندوق البسكوت، ووضعته إلى جانب رشدي  
وفي تناول يده، وقالت برجاء:

- هلاً تناولت واحدة يا رشدي؟!

ولكنّه هزّ رأسه على المخذة وقال بسرعة وبلهجة  
حازمة:

- ليس الآن... في ما بعد!

فأخذت المرأة الصندوق أسيفة حزينة وإن كانت  
تغالب عواطفها مغالبة صادقة ناجحة، ولم تنس - حتى  
في تلك الساعة - واجبات اللياقة، فدلفت من سرير  
أنيس بشارة وقدمت له بعض البسكوت. وكان أحمد  
يتفحص أخاه بعينين كئيبتين، فإذا أرسل الشاب إليه  
بطرفه تبسم مدارياً حزنه. وقد هاله ذبول أخيه،  
واصفار لونه، وخوره، وأمارات التعب التي تعتوره.  
هاله أن يراه مستسلماً للرقاد، سجيناً، وما كانت الدنيا  
تسعه حركة واضطراباً وهواً. وحُيّل إليه أنّه يقرأ في  
نظرة عينيه حيرة وقلقاً، إلى ما بها من ألم واستسلام،  
فأوحيا إليه أنّ الشاب ينطوي على شيء يريد أن يفضي  
به إليه وقوي شعوره بذلك حتى خطر له أن ينفرد به  
دقائق بعد انصراف عوّاده، ولكنّه خاف أن يضرع إليه  
أن يعيده إلى البيت، فعدل عن رأيه، وجعل يكوّر له  
قبضة يده متشجّعاً متظاهراً بالمزاح والاطمئنان... .

وآذن الوقت بالعودة، فسلموا بحرارة، ولهجت

مكروش دائئاً... فلا شكّ أتّي في طريق النهاية، لا شكّ في ذلك مطلقاً، إتّي أكتب إليك ودموعي تنهمر فتخفي عن ناظريّ الألفاظ التي أنعي بها نفسي إليك، وكلّما ذكرتكُم غلبني البكاء...

هذه هي الحالة، فأستحلفك بالله يا أخي إلا ما وافقت على عودتي إليكم لأقضي بينكم أيّامي الأخيرة حتّى يوافيني الأجل... فلا تُعرض عن توسّلاتي هذه المرّة، وأكرّر أسفي لإيلاكم ولكن ما حيلتي؟! .. وعليك ألاّ تخبر والديّ بالحقيقة، والسلام عليكم ورحمة الله.

أخوك المخلص

رشدي

قرأ الخطاب ذاهلاً، وأعاد قراءة كثير من عباراته أكثر من مرّة، وشعر عند الانتهاء من قراءته بدوار، وإنكار، وغرابة، ولكنّه لم يرفع عنه ناظره حتّى يستعيد رباطة جأشه، فيواجه أمّه بشيء من السكينة يمكّنه من الكذب عليها، واستطاع بفضل تفكيره في أمّه، ووجودها على كذب منه، أن ينسى نفسه إلى حين فيمتلك أعصابه، ثمّ نظر إلى والديه فرأهما ينتظران كلمته بعينين معدّبتين كمن ينتظر - غير معصوب العينين - إطلاق النار عليه، فتكلّم قائلاً متصنّعاً لهجة السخط والتبرّم:

- رشدي يلحّ في العودة إلى البيت، فماذا دهاه؟!!

فسألته الأمّ بلهفة:

- ولكنّه بخير!!

- بخير والحمد لله إلاّ أنّه كاره للمصحّة!

- أعده إليّ يا أحمد، فلا فائدة ترجى من تركه في المصحّة على رغمه.

فنهض أحمد وهو يقول:

- سأسافر اليوم إلى حلوان وآتي به..

وأعطى الخطاب إلى والده ومضى إلى حجرتة وأمّه في أثره.

وسافر إلى حلوان دون تردّد أو تأخير، وظلّ طوال الطريق مشتّت الفكر موزّع الفؤاد مضطرب النفس،

- ٤١ -

وعند عصر يوم الأحد وكان أحمد مجتمعاً بوالديه يجتسون قهوة العصر، جاء البريد بكتاب ما إن رأى الظرف حتّى تتم بغرابة:

- هذا خطّ رشدي..

وتنبّه الوالدان، وتابعت عيناهما يد الرجل وهو يفحص الغلاف. وقد كتب الخطاب بالقلم الرصاص، ويخطّ رديء - على غير عهد صاحب الخطاب - وكان به ما يأتي:

٨ - ٣ - ١٩٤٢

أخي العزيز:

تحياتي إليك وإلى والديّ، أكتب كتابي هذا وقد مضى على انتصاف الليل ساعتان.. ولا تدهش يا أخي فقد حرمت نعمة النوم إلى الأبد وما عاد لأيّ منوم من تأثير فيّ. تصوّر أتّي تناولت بالأمس جرعة من منوم معروف، فلمّا لم تُجد شيئاً عاطاني الدكتور برشامة مخدّرة وبشرني بنوم ثقيل، وما هو الليل يتصف وتمضي على انتصافه ساعتان وأنا متيقّظ مسهّد، ولا نهاية لعذابي بل لا أزال جالساً لأنّ الرقاد - أو ضغط ظهري على حشيتة الفراش - يهيج السعال الذي اشتدّت نوباته عليّ، فلا معدى لي عن الجلوس في فراشي، وقصارى ما يمكن عمله لتهيئة الراحة أن أكرس مخدّة وأضعها على حجري ثمّ أسند رأسي إليها...

أخي:

يؤسفني أن أولئك أو أحزنك، ولكنّها الحقيقة المرّة، ولا حيلة لي فيها، ولا مفرّ من أن أفضي إليك بالحقيقة فانت ملاذي أوّلاً وأخيراً، فاعلم يا أخي أنّي أطلعت على نتيجة الأشعة التي صوّرت صدري غداة وصولي إلى المصحّة، وقد كشفت إصابة جديدة في الرئة اليمنى، أمّا اليسرى فقد حفرت الإصابة القديمة لي كهفًا في حجم نصف الريال، والحالة العامّة خطيرة، وإليك تقرير الطبيب النوبتجي: «عدم قابليّة للأكل مطلقاً، عدم النوم مطلقاً، سعال نظيف، ونفّس

وعاد إلى أخيه، وحزم متاعه، وعجز رشدي عن خلع بيجامته وارتداء البذلة، فاكفَى بلبس الروب، وجاءوا بتقالة لحمه إلى المصعد. وسار أنيس بشارة في وداعه حتى الباب الخارجي للمصحة، وشدّ على يده بحرارة، ودعا له مخلصاً بالشفاء والصحة. ورأى أحمد شقيقه يستسلم لأيدي حامله بلا حول وبلا قوة وقد زاغ بصره، وبدا للعين هزاله، فذكر نضارته وحسنه، ورشاقته ونشاطه وفكاهته وغناؤه، ثم لم يملك أن يعضّ على شفته متوجّعاً متحسراً وقد شعر بقلبه ينتحب في أعماق صدره.

#### - ٤٢ -

ووجدوا في انتظارهما في البيت الوالدين وأسرّة كمال خليل أفندي. وكانت الستّ توحيدة ونوال جاءتا لزيارة أم الشاب المريض، فلمّا علمتا بأنّ شقيقه سافر ليأتي به لبثا في انتظار وصوله. وأحدث ظهور رشدي أثراً عميقاً في النفوس فلم يحاول أحد إخفاء انزعاجه. ولكنّ الشاب لم يتدبّر عليه أنّه أدرك شيئاً ممّا حوله، أو أنّه فطن إلى وجود أحد. وأجلس على فراشه وصدره يعلو وينخفض، مغمض العينين، والأعين محدّقة به. وقد انعقدت الألسنة، واصفرّ وجه الستّ دولت، وجلست وراء ظهره لتسنده بصدرها المضطرب. وفتح رشدي عينيه بعد برهة وأجالها في الحجرة والوجوه، فلاح فيها نور العرفان واليقظة، وارتسمت على شفّته شبه ابتسامة خفيفة، وقال بصوت متهدّج خفيض كأنّما يتصاعد من أعماق صدره:

- الحمد لله... الحمد لله... أنا مسرور بعودتي إلى حجرتي..

فدعا له الجميع، وكثرت الستّ توحيدة الدعاء، فابتسم الشاب وقال:

- سأشفى هنا بإذن الله.. لا تبرحي مكانك يا نينة!..

فقبلته المرأة في منكبها وقالت:

- لن أبرحه يا رشدي - بإذن الله - إن قلبي لا يمكن أن يكذبني!.

ولأوّل مرّة - منذ أمد بعيد - يفكّر في الموت كحقيقة ماثلة يطالع معالمها الرهيبة ويستشعر آثارها العميقة من الألم والخوف والقنوط، وتحيل المقبرة النائية التي ابتلعت شقيقه الأصغر، فخالها نفض عن ثغرها تراب الأرض وتفغر فاهها لابتلاع رشدي الحبيب الذي لا يدري كيف تكون الدنيا بدونها!، وكان كلّما قصرت المسافة بينه وبين المصحة اشتدّ انقباض صدره، وثقلت وطأة الخوف على قلبه. ربّاه!.. كيف يجده الآن؟! وما فعل السهاد به؟! وغادر القطار على عجل والشمس تميل نحو المغرب. وأخذ العربية إلى المصحة، تمّ صعد إلى الطابق الثالث لا يلوي إلى شيء، واشتدّت ضربات قلبه وهو يقترب من الحجرة، ودخلها وقد تركّز وعيه في الفراش أمامه. رأى رشدي أمامه. رأى رشدي كما وصف نفسه في رسالته جالساً في فراشه مسند الرأس إلى مخدّة منكسرة على حجره! وازدرد ريقه وهتف به:

- رشدي!

فرفع الشاب رأسه عن المخدّة بسرعة، وطلّح أخاه بوجهه الضامر الشاحب، وصدره المضطرب، وسرعان ما لاح السرور في عينيه، وقال بصوت متهدّج:

- أجبث؟!.. خذني.. خذني.

فقال أحمد ليدخل الطمأنينة على نفسه:

- لهذا جئت يا رشدي..

ثم التفت إلى أنيس بشارة فحيّاه فردّ الشاب بحبّه وقال بلهجة جدّية دلّت على تأثره:

- مسكين رشدي! إنّه لا يدوق للنوم طعمها، وكانت ليلته الماضية شديدة فظيعة! الأوفق حقاً أن يمضي هذا الأسبوع في البيت، على أن يعود إلى المصحة في ما بعد!

فأوماً أحمد برأسه موافقاً وسأل الشاب:

- أنتدري ما هي إجراءات الاستئذان لخروجه؟

فقال أنيس بنفس اللهجة الجدّية:

- اسع إلى الطبيب بلا إبطاء!

ولم يلقُ الرجل صعوبة ما، بل ساوره الخوف والقلق لسرعة موافقة الطبيب على طلبه.

## خان الخليلي ٦٢١

- سأحتاج إلى ممرضة لحقني بالكالسيوم يوميًا بعد يوم.. .

فقال أحمد:

- سأوصي الصيدلي بإحضار واحدة والاتفاق معها... ويحسن بك أن تسكت كي لا تشق على نفسك، وربنا يركك ويحفظك.. .

تناول الشاب جرعة من النوم، فاسترخت أعصابه - وقد نال منه أرق الليالي السابقة - وأخلد للنوم، إلا أن السعال انتابه مرّات فسوّق نومه شرّ مُمزّق... .

### - ٤٣ -

وجاءت أيام شدة ألم. فغرق الشاب المريض في غمرة العذاب، وتقطع قلب الأم الذي يسند ظهره المهزول، واستبدّ به الأرق فلم يغمض له جفن - مع تناوله النوم - إلا ساعات معدودات في الهزيع الأخير من الليل، وكثيرًا ما أدركه الصباح وهو قاعد في فراشه وقد حطّم السعال أضلعه، وصدفت نفسه عن الطعام، فإذا تجلّد وتناول لقيات تقبّأها في نوبات السعال واجتاحته بعنف فما إن تسكت عنه واحدة إلا وقد أشفى نفسه على الانقطاع، وأندرت عروق عنقه بالانفجار، وسالت عيناه دمًا. فظنّ به الهلاك وأيست من شفائه القلوب. إلا أنه بدا وكأته يجتاز مفازة الهلاك بسلام، لا لتحسن طراً عليه، ولكن لأنّ الأيام تابعت وهو يقاوم ويجالّد دون أن يسقط، ثم مضت تحفّ ثورة السعال، وتتظلم ساعات نومه، وتقبّل معدته القليل من الطعام، واستطاع أخيراً أن يرقد على جنبه. وأذن كلّ أولئك بتحسّن قريب في صحته، ولكن مضى مارس جميعًا وهو على حاله من الضعف والإعياء. لم يكن بسطيع مفارقة الفراش بتاتًا، وهزل هزالًا محزنًا حتى لم يعد في بُرده سوى جلد ذابل وعظم معروق. وبعث منظر ساقبه الشعريرة في النفوس، وضمر وجهه، وتقلّص خداه، وغارت عيناه، وعلت محيّا صفرة باهتة، وبدا رأسه أكبر من الواقع وعقه رفيعًا يكاد أن ينقصف من حمله. ولاحت في عينيه نظرة عميقة متجهمة تدلّ على التصبّر والتجلّد، والتألم

والتقت عيناه بعيني نوال مرّات، وتلقّى في كلّ مرّة ابسامة حلوة ضمّنتها عينها ما تكّنه جوانحها من الدعاء والرجاء والإشفاق. وتنحى أحمد جانبًا دون أن تفارق عيناه وجه شقيقه، وكلّما طالع في عينيه نظرتها الذابلة ارتعش كيانه وقال لنفسه: «اللهم رحمتك!». وقال عاكف أفندي أحمد - الأب - عن حكمة:

- الأوفى أن نتركه حتى يسترّد أنفاسه ويستريح!

فخرجوا جميعًا ما عدا أمه. وانصرفت الزائرتان. وخلا أحمد إلى نفسه في حجرته قليلًا. ولكن لم يستطع صبرًا فعاد إلى حجرة الشاب، ووجد رشدي لا يزال فرحًا بالعودة ويحادث أمه قائلاً بصوته المتهذّب الخافت:

- لشدّ ما يطمئنّ قلبي فرحًا وسرورًا، ولشدّ ما ألمني جوّ المصحّة الموحش، لم أذق فيها النوم ولا الطعام، ورأيت مريضًا ينزف حتى غرق في دمه، ومروا بحجرتنا حاملين مريضًا آخر إلى حجرة «العزلة» حيث يودعون المرضى المُشفين على النهاية.. . ومن المؤسف حقًا أنّ سوء حالتي ألم زميلي أنيس شارة، ويغلب على ظنيّ أنه استثار مخاوفه فجعل يبكي حزنًا وفرقًا. الآن عاودتني الطمأنينة.. .

وحول ناظره إلى أحمد، وسكت قليلًا وصدّره يعلو وينخفض ثم استطرد:

- أتعبتك كثيرًا يا أخي، معذرة. لا تجبّد عليّ لعصيانتي نصحك، أعدك بأنّي سأرعى منذ اليوم صحّتي، وآتي لن أخالف لك نصيحة، وإذا منّ الله عليّ بالشفاء فلن أستهيّن يوميًا بحياتي.

فعضّ أحمد على نواجذه ليحبس دموعه الهائجة، وقال مبتسمًا:

- لا محلّ للوم يا رشدي، فكلّ شيء بأمر الله، وغدًا ستردّ إلى صحّتك بأمر الله، وستذكر هذه المحنة كما يذكر المستيقظ وطأة الكابوس... .

فابتسم الشاب إلى أخيه ارتياحًا لقوله، وسأله أن يذني الخوان من فراشه وأن يضع عليه زجاجات الدواء. وأتى أحمد بالخوان، وجعله في متناول يد الشاب، ورضّ علبه الكالسيوم، وحقّ النوم، والكارومين. فشكره رشدي، ثم قال:

المتعجلين.

ومن عجيب أنه لم يتس قلبه!، فالمرض لا يحو الحب، ربّما لم يعد يضطرب به دمه، ولكنّه يحسّه بروحه ويخفق به قلبه، ولنكم ترفّ عليه الذكريات فتضيء مخيلته بنور وهّاج، وتدندن أذنيه كسجع الألحان، فيستيقظ قلبه كزهرة نفخ الربيع فيها من روحه، وتتخايل لعينه بروق البسات وطريرق الصحراء والعينان النجلوان، وتطنّ في مسمعيه العهود والمواثيق. تُرى ما مصير كلّ أولئك؟.. ماذا يخبئ له الغيب؟.. هل يمكن أن يعود الشباب والقوّة والأمل والحبّ؟.. هل يمكن أن يسعى كسابق عهده متبخترًا في رشاقة وخيلاء؟.. وأن يضحك ملء قلبه دون أن يهيج سعالًا قتالًا؟.. وأن يذهب رأسه ويجيء بالترنيم والتجويد؟.. وأن يراه الإخوان فيتصايحوا «جاء قلب الأسد؟».. وأن يشبك ذراعه بذراع نوال فيقطعها معًا طريق الجبل وغلالة الضباب تخفيها عن الأعين؟.. هل ما يزال نَمّة أمل في أن يبتاع خاتم الخطوبة ويزفّ كالعرانس؟.. وكانت نوال تعود مع والديها، فيتبادلان نظرات خاطفة مشوّقة لم يشعر بوقدتها إلّا هما، ربّاه لماذا لا يتركانها وحدهما ولو لحظة؟ إنّه يذوب شوقًا إلى كلمة وداد ترطب حرارة فؤاده المحموم. وهكذا مضى شهر مارس. ولما جاء إبريل تغيرّ الحال، فلم يعد يرى نوال! مضى أسبوع دون أن تزوره وانتصف الشهر فلم تحضر، وعاده والداها بمفرديهما، وانتهى إبريل دون أن يراها أو تراه! عاده إخوان قهوة الزهرة وأسرهم وأصحاب السكاكيني وجهور من الأقارب والجيران القدماء، فالبيت لا يفرغ حتّى يمتلئ، إلّا نوال، اختفت من حياته فجأة كأنّها لم تكن حقيقة محسوسة وأملًا مشوّقًا! ولا شكّ أنّ والديه وشقيقه يشاركونه ألمه وإنكاره ولكنهم لا يفصحون عن مشاعرهم رافعة به، وأبى عليه كبرياؤه أن يسأل والديها، لماذا انقطعت نوال عن زيارته؟ هل عرفوا حقيقة دائه وأيسوا منه؟ هل منعها من عيادته الخوف من العدوى؟.. هل أمسى شرًا وأدى بعد أن كان حبيبًا محبوبًا؟.. أكذب الحبّ وعده؟!.

والاستسلام، فلم تزل تعذبّ أحمد حتّى أضنته، كان يطالعها في عينيه كلّما عاده فلا تمحى من ذاكرته أبدًا، وكانت تحمل فؤاده المرهف جميع ما تنطق به من التأمّ والتصبر. كانت تترك في قلبه جروحًا لا تندمل، كان يطلع منها على عوالم الألم والمرض واليأس. ربّاه لنكمّ قطعت فؤاده وقتت كبده، ولكم أهاجت مجاري دموعه.

وفي مرّة دخل حجرته فوجده قد استوى جالسًا في الفراش، وأدلى ساقيه إلى الأرض، ولم تكن أمّه في الحجره، فخاف أن يكون ذلك مقدّمة لمحاولات تشقّ عليه، فقال له بتوسّل:

- أليس الأوفق أن تلمز الرقاد!

ففاضت من عينيه نظرة التأمّ العميقة، وحلّت محلّها نظرة جزع وبرم وقال بلهجة لم تخلّ من حدّة.

- أخي. ألا ترى كيف تمضي الأيام وأنا بمكاني هذا لا أبدي حراكًا! هكذا ألقى على الفراش بلا حول ولا قوّة، طوال النهار وأكثر من نصف الليل، حتّى يغلبني ذهول المخدر الذي نسّميه نومًا!.. أوّاه، ما أضيق الحياة!.. لقد سئمت هذا الفراش، وضقت به ذرعًا.

فلم يذرّ الآخر ماذا يقول، وألقت اللهجة الشاكية على روحه غبارًا من الكدر، فقال برقة:

- صبرًا يا رشدي، وما وراء الصبر إلّا الفرج!..

ولا معدى عن الصبر أيضًا. كان يعتصر غصص الزمن الثقيل بقراءة الجرائد والمجلاّت، والحديث إلى أمّه. ولم تكن تفارقه إلّا للضرورة. وأبيه وشقيقه. وكان على ألمه وملله قد نجا من ساعات اليأس القاتل التي أوحّت إليه مرّة بالرسالة التي بعثها من المصحّة إلى شقيقه، نجا من اليأس، وعأوده الأمل في الحياة، والرجاء في الشفاء، ولكنّ الألم الذي رسم في عينيه تلك النظرة العميقة المتجهّمة لفته حقيقة الشقاء التي ينطوي عليها قلب الدنيا، فذاق العذاب، وشعر بأنفاس الموت الباردة تتردّد على وجهه، والأرجح أنّ الحياة تحمّص على أن يعرفها أبناؤها جميعًا، إلّا أنّها تقطر حقيقتها على المعمرين وتسكبها في أفواه

خان الخليلي ٦٢٣

الرجل على الحقيقة، وحزن كمال خليل حزناً بالغاً، لأنه أحبّ رشدي حباً صادقاً، ووجد فيه خير زوج يمكن أن يرجوه لابنته. وهوى الخبر على الستّ توحيدة كالصاعقة، وخيّب أملها في سعادة نوال، وخلا الرجل بزوجه وقال لها متجهّماً:

- ماذا ترين؟

فلاذت المرأة بالصمت إشفافاً من الجهر بالحقّ المؤلم، فقال كمال أفندي:

- لا أظنّ أنّ رشدي بناجٍ من مرضه الخطير!

فقالت المرأة بامتعاض:

- ربّنا يلطف به..

- وحتى لو كتب الله له النجاة فلن يصلح للحياة

الزوجيّة..

- فماذا ترى أنت؟

- أرى طبعاً أن أصون صحّة ابنتي، فهي شباب

غضّ، ودخولها حجرتة كما حدث مرّات استهتار شديد

الخطورة سمّي العاقبة، فينبغي أن تعرف الحقيقة حتى

لا تعيش على الأوهام أو تتعرّض لعدوى مرض خبيث

ندرت النجاة منه..

فقالت المرأة بلهجة دلّت على الأسف والاستسلام:

- الأمر لله!

ودعّوا بنوال، وجاءت الفتاة غافلة عمّا يضممرانه

لها، وكان ينبعث من عينيها نظرة وديعة تلوح فيها

الكآبة، فطلب الرجل إليها أن تجلس قبالة على كرسيّ

ثمّ راح يقول بصوت رزين:

- نوال، دعوتك لأفضي إليك بسرّ هامّ، وعهدي

بك فتاة عاقلة، والسلوك الحكيم هو ما أتوقّعه منك

دائماً، فاعلمي أنّ جارنا العزيز رشدي أفندي مريض

مريضاً خطيراً أفظع ممّا يقولون..

فاصفرّ وجه الفتاة، ونفذت لهجة والدها إلى قلبها

فانقبض خوفاً، وتساءلت بإشفاق:

- أيّ مرض يا أبيّ؟

- يؤسفني أن أصارحك أنّ الشابّ مصاب بالسلّ،

وهو مرض كما تعلمين فظيع، ورحمة الله واسعة، بيدّ

وجعل يجترّ آلامه في صمت، حتى ضاق بها فقال يوماً لأحمد وقد خلت لها الحجرة..

- ألم ترّ كيف انقطعت عن زيارتي؟

عرف أحد من يعينها بقوله، وتظاهر بعدم الاكتراث وقال:

- حذارٍ من الفكر! أنت في نضال من أجل الصحة فلا تضعف مقاومتك بنفسك!

فاستطرد قائلاً وكأنّه لم يعب ما قال الرجل:

- أشبع شيء في هذه الدنيا جفاء صديق بغير ذنب،

أو أن يكون ذنبه أنّ الصحة جفته!

- لا تبال شيئاً ولا تستسلم للأفكار السودا!

فتمتم الشابّ بصوت حزين:

- لن أبالي شيئاً ولكنّ الخيانة قبيحة!

وسرت في الرجل رعدة لأنّه ذكر أنّه فاه يوماً بمثل

هذه الجملة، وقال يداري عواطفه:

- حسبك قلوبنا فهي تحبّك ولا تحفوك أبداً:

فابتسم رشدي وقال:

- لا أدري متى حفظت هذين البيتين:

ما لي أرى الأبصار بي جافية

لم تلتفت منّي إلى ناحية

لا ينظر الناس إلى المبتلى

وأما الناس مع العافية

فقطب أحد تألماً وهتف به:

- أترغب أن تقتلني عمّاً وكمدًا!

فقال بأسف صادق:

- معاذ الله، أنت أحبّ إليّ من الشفاء!

وعاد أحمد إلى حجرتة وهو يقول لنفسه محزوناً:

«ربّاه.. كيف جفته وقد راح صحّيّة لها؟!».

- ٤٤ -

والحقيقة أنّ كمال خليل أخذ يساوره الشكّ في ما

قالوا عن مرض الشابّ، وما لبث أن أفضى بشكّه إلى

امراته. ولكي يقطع الشكّ باليقين زار صديقاً له في

بنك مصر وسأله عن حقيقة مرض رشدي، فأطلعه

- لا خيبت لي رجاء أبدا .  
وما إن غييه الباب حتى أحذقت في وحه أمها  
وهتفت بها :

- كيف يكون هذا يا أماه؟!

فقال المرأة بحزن واستسلام :

- لا معدى عنه يا نوال! ..

فقال بصوت مهتدج مرتعش :

- كيف لا أعوده .. كيف أتجنبه؟ . هل يقوم خوف  
الإنسان على نفسه عذرا مقبولا لهجر أصدقائه في  
أوقات محتتهم؟! ، وما جدوى الصداقة والمروءة في هذه  
الدنيا؟!

ولم تتم حديثها فخنقتها العبرات ، وأوشكت الأم أن  
تتأثر لها ، ولكنها تداركت عواطفها أن ترق لها فندفع  
بها إلى الهلاك . فقالت بلهجة لا تدل على ذات  
نفسها :

- وما جدوى أن يصاب إنسان بداء وبيل من أجل  
صديق لن يبتفع بمرضه فنبلا؟! إن أباك حريص على  
صون شبائك الغض وله الحق في ذلك كل الحق .

- أواه يا أماه! . ولكني إذا ضللت نفسي بهذا الغدر  
القيح فلن أنتفع بها . ليس المرض بالشر الوحيد في  
هذه الدنيا ، فالغدر شر من المرض ، ماذا يظن بى؟ بل  
كيف أدفع عن نفسي أمامه وأمام الناس؟

- تقولين إن أباك أخبرك على الامتناع عن عيادته ،  
فعلى أبيك التبعة وعليك الطاعة ، ولن يجادلك إنسان  
في حق والد على ابنته .

- ما أفساك يا أماه! .. ساموت كمدا ..

- أفضل ألف مرة أن يلعني الناس على أن ألقى  
بقلدة كبدي إلى التهلكة! ..

فقال الفناة وما تزال عينها تسحان دمعا ساخنا  
حتى سدت خياشبهها ، تغارت نبرات صوتها :

- سيمفتني ويحتفري ، وغدا إذا برى؟! .

وخنقتها العبرات مرة أخرى ، فقالت الأم وهي  
تنهد :

- هذا هو حظك فما حيلتنا؟! . بيد أنك ما زلت  
على عتبة الشباب ، والقرص أمامك كثيرة ، والله قادر

أن على الإنسان واجبا نحو نفسه لا يجوز أن يفرط فيه  
أو يستهين به لأي داعٍ منها جل شأنه ، فلندع لصديقنا  
العزیز بالشفاء ، ولنذكر قوله تعالى : ﴿ولا تُلْقُوا  
بأيديكم إلى التهلكة﴾ .

السل! .. يا رب السماوات! .. ماذا يقول  
أبوها؟! .. هل أضحي رشدي العزیز شيئا واجبا  
اجتنابه؟! هل أرى حقا ذلك الداء الخطير إلى صدره  
الحنون؟! .. هل ضاعت الآمال وتبددت الأحلام؟! .  
ورددت بين والديها نظرة حائرة تستحق الرثاء ،  
فأدرت أمها ما تعاني من ألم أجبرها وجود أبيها على  
مداراته ، فقالت :

- الله عالم بشدة حزننا وأسفنا ، وهو القادر على جبر  
كسرتنا ، ولكن صدق والدك يا نوال ، فحدائنه سنك  
تجعلك صيدا سهلا لعدوى هذا الداء ، فدعينا نحن  
نقم بالواجب عنا وعنك ، ولنندع له جميعا بالسلامة  
والشفاء إنه سميع مجيب . . .

وجعل أبوها يتعرس في وجهها من تحت حاجبيه ،  
ويقرأ ما تظهر وما تبطن ، ثم قال مستطردا :

- الآن أدركت ولا تنك الباعث الذي دعانا إلى  
مخاطبتك في هذا الشأن ، ولا شك أنك تفدرين رأيي  
حق قدره ، فانا أبوك وأخاف عليك أكثر مما تخافين على  
نفسك ، لهذا أقول لك إنه لا يجوز بعد اليوم أن  
تعودي المريض العزیز ، ولا عليك من هذا ، ولن  
بلومك عله إنسان عاقل منصف ، وبمها يكن من الأمر  
فما أبالي كلام الناس ولا أقيم للومهم وزنا إذا جاء  
محالما للعقل ، فما رأيك؟!

لم تكن تلك من الجسار . . . تستطيع معه أن  
تصارحه بما بدور في خلدها ، وذلك له من المهابة في  
نفسها ما يمنعها من مشافهته بما جالف رأيه ، فلاذت  
بالصمت حتى استحثها على الجواب ، فقالت بصوت  
خفيض :

- أمرك مطاع يا أبتى! ..

ولم يكن يطمع في أكثر من هذا ، وخاف إن أطل  
الحوار أن يسحعها على الإفصاح عن حقيقة مشاعرهما ،  
فنهض قائما كالقمتع المرتاح ، وقال :

ولم يعد رشدي إلى ذكر نوال، وعجب أحمد لصمته وتساءل أيعاني آلامه وحده أم يتناسى باستهانة واحتقار، ودعا له مخلصاً - وهو المبتلى - بالنسيان وراحة القلب. ولم يكن من الممكن استكناه باطن الشاب من حياه، لجمود ملاحظه وتجهّم نظرة عينيه العميقة الحزينة وملازمته حالاً من الكآبة لا تكاد تزيله، فظلّ أحمد متحيراً مشفقاً. وشاركه الوالدان حيرته وإشفاقه، ولم يكن الأمر يعينهم من ناحيته العاطفية، ولكنهم خافوه على الصحّة المتهالكة التي تجاهد في سبيل الحياة، خصوصاً وأنّ مضيّ الأيام قد بعث في النفوس الأمل بعد أن أوشكت أن تفسى على اليأس، ولو سألت على بواعث الاستبشار لما وجدت غير كرور الأيام وتعود الحال، أمّا رشدي فلبث عاجزاً عن مغادرة الفراش، ونضو هزال يستثير الذعر والإشفاق، وظلّ لونه مصفرّاً مشرباً بزرقه، ولم يخفّ عنه السعال إلا قليلاً.

وفي النصف الأوّل من مايو جاءه طبيب المصرف، ليعيد الكشف عليه وليجدّد له الإجازة حسبما يرى، وفحصه الرجل فحصاً سطحياً ثمّ قال:

- أظنك تعلم أنّ إجازتك القانونيّة تنتهي في ٣٠ مايو سنة ١٩٤٢!

أجل كان يعلم ذلك، ولكنّه كان كأنه يسمع به لأول مرّة، فقال بصوت خفيض:

- حقّاً؟! .. نعم .. أعلم ذلك ..

فقال الطبيب بغير مبالاة:

- فأيامك الباقية من الإجازة منتهية لا محالة قبل الشفاء بزمن طويل، وعليه فلا مناص من فصلك من خدمة البنك ابتداء من ٣١ مايو سنة ١٩٤٢.

وكان صوت الدكتور يقع من مسمعه موقّعاً غريباً، فتساءل بصوت أشدّ ضعفاً:

- ألا يوجد ثمة أمل في الشفاء قبل انقضاء المدة الباقية من أجازتي؟

فقال الطبيب السؤال وقال بإنكار:

- هل تتصوّر أنّه من المستطاع أن تبرأ وتستردّ قوتك ووزنك الطبيعيّ فتستأنف عملك في بحر عشرين

على جبر خاطرك، فلندعه أن يصون للشابّ المسكين شبابه وأن يعوّضك عنه خيراً! ..

فهتفت بها منتحبة:

- ما أقساك! .. ما أقساك! ..

وفرت إلى حجرتها، وكان الوقت مساء، فدلقت من الشباك عمرة العينين ورمت ببصرها إلى النافذة المحبوبة، وكانت النافذة مغلقة ينبعث من خصائصها نور خافت. وتمثّل لها راقداً على جنبه تلوح من عينيه تلك النظرة الحزينة المتجهمة ثمّ تمثّل لها وهو يسعل ذلك السعال القتال الوحشيّ: لهفي عليك يا حبيبي. وأسفي على رقادك بلا حول وبلا قوة. ونظرتك التي تتمّ عن أظفح الآلام البشريّة؟ أين نضارتك؟ أين شبابك؟ أين حديثك؟ أين آمالك؟ بل أين نضارتنا؟ أين شبابتنا؟ أين حديثنا؟ أين آمالنا؟ ربّاه ما أتعس حظي .. وما أحلك دنياي! ..

وارتمت على مفعد تكفكف دمعها وتنتهد من الاعماق، وأوهنها التأثر فانطلقت خواطرها بلا ضابط، مرّت حياتها مع رشدي أمام ناظرها في مثل لمح البصر فأيقنت أنّها فتاة تعيسة الحظ. ولم يغب عنها ما في حديث والديها عن مرض الشابّ من يأس وقنوط، فتولّاهما الذعر، وما كانت تعرف عن الموت إلا لفظه، فكيف وقد تمثّل لها وحسناً كاسراً يتوّب للانفضاض على قلبها؟ ربّاه! ويأمراتها نالاً تعودة! ومجولان بينها وبينه بعزيمة لا تعرف الرحمة! وتجهّم وجهها الباكي وشعرت برعدة تسري في أطرافها، فتحسّست راحتها صدرها! .. شعرت في أعماقها بأنّها تخاف المرض قدر ما تخافه على حبيبها! الرقاد، والسعال، والهزال، والعداب، ثمّ أحسّت تعاسة وقنوطاً وحزناً وخوفاً، ومزّفتها الحيرة إرباً إرباً بين حبيبها وصحّتها وسعادتها! ربّاه. ألم تكن تحيا في دعه وطمأنينة وأمل مشرف؟! فما الذي أوجب هذا الشفاء وهذه التعاسة؟!

ولدى عصر اليوم التالي عادت من المدرسة فوجدتهم قد نقلوا حجرتها إلى حجرة أخرى بعيداً عن نافذته، وأنّه حيل بينها وبين رؤية ذلك البصيص من النور. . .



جهولة، فغابت أمه عن ناظريه وراح يقول وكأنه يحدث نفسه:

- ما أظع المرض!.. حقاً إن ألمه لشديد، وعذابه لمروّع، يجعل القسوة عجزاً، والشباب شيخوخة، والأمل قنوطاً يقعد الناهض، ويعطل العامل، ويقبح الحبيب. أضساع مستقبلي، وأطفأ نوري، وأوهن عظامي، وأفقر يدي، اللهم اكفهم شرّ المرض.. اللهم اكفهم شرّ المرض..

وانفلت زمام المرأة من بين يديها فأجهشت في البكاء، وقالت بصوتها الباكي:

- هلاً رحمتي يا رشدي!  
فقال بحدة:

- الله لا يريد أن يرحمنا..

وبعد ظهر ذاك اليوم - وبعد عودة الوالد من مسجد الحسين وأحمد من الوزارة - حدث الرجلان رشدي حديثاً طويلاً يهونان به من أثر ما وقع، ويؤملانه خيراً منه، حتى بدا في النهاية أنه يعيرهما أذناً واعية ويتأسى بما يقولان. ورأى أحمد أن نفقات التداوي ستضحي، بل أضحت بالفعل، أكثر مما تتحمّله نقود الشاب التي انكشمت إلى ربع مرتب وستنقطع بعد حين، وأنه لن يغني عنه ما عسى أن يعينه من مرتبه المثقل، فقال له:

- رشدي، أنت الآن خير حالاً مما كنت في الماضي القريب، وأظنك تحتل البقاء في المصحّة، أفلا يحسن بك أن تنتقل إليها لتظفر بجوّ وعناية، لا يتوافران لك ها هنا..؟

فقال الشاب وقد اشفّر بدنه لتذكّر المصحّة وعهدها:

- ليس في طوقي الآن أن أعود إلى الدرجة الثانية، ومحال أن أرضى بالانتقال إلى عنابر الدرجة الثالثة.

- أليست عنابر الدرجة الثالثة بخير من حجرتك هذه هواء ودواء؟

فهزّ رأسه الذي بدا كبيراً جداً بالنسبة إلى عنقه الرفيع وقال:

- الحياة هناك فظيعة، وأحوال المرضى مخيفة، كفاك الله شرّ المرض..

يوماً؟! هذا محال. أمامك عام استشفاء على أقلّ تقدير..

فسهم رشدي كالشارد، ثم أطرق كئيهاً محزوناً، أما الدكتور فأعطاه «استشارة» نصّ بها على انتهاء إجازته في ٣٠ مايو سنة ١٩٤٢، إذا لم يعد إلى عمله قبل ذلك، وقال له بلهجة دلّت على أنه يريد الانصراف سريعاً:

- وقع من فضلك بإمضائك على هذه الاستشارة للعلم..

وذكر أخاه أحمد كأنه يستغيث به في تلك الساعة الحرجة!.. وردّد عينيه بين الطبيب وبين الورقة فلم يغب عن ناظريه ما بالرجل من نفاذ الصبر، فعراه الارتباك وتناول قلمه ووقع بإمضائه بيد مرتعشة. وغادر الدكتور الحجرة فجاءت أمه متطلّعة إليه بوجهها الذي نال منه الإعياء والهّم كلّ منال، فقال لها بصوت مبسوح منتهج:

- وقّعت اليوم بإمضائي على أمر فصلي من عملي! فحقق قلب المرأة خفقة عنيفة، بيّدت أنها تداركت نفسها فلم تستسلم لعواطفها أن تضاعف من أشجانها، وقالت باستهانة:

- أهذا ما جعلك تتكلّم بهذه اللهجة الحزينة؟! يا بني، إن الله أكرمنا بإنقاذك من الخطر الداهم فلا ينبغي أن نغفل عن ذكره وشكره، وليهنّ بعد ذلك كلّ شيء، فلا يجزئك الأمر، فإنك إن فقدت عمك اليوم واجده غداً إن شاء الله..

ولكنّه قال بالصوت المنتهج المبسوح نفسه وكأنه لم يع شيئاً مما قالت:

- قضي الأمر وخسرت وظيفتي، وضاع الماضي والمستقبل..

فقال المرأة وهي تعضّ على نواجذها دافعة دموعها:

- رشدي لا تأس ولا تحزن، وغداً تنكشف الغمّة بأمر الله ورحمته، فتردّ إلى وظيفتك أو إلى خير منها، والله لتبسّمن بعد عبوس ولتصدّقن قلبي..

ولكنّه لم يكن يصغي إليها، وتاهت عيناه في آفاق

خان الخليلي ٦٢٧

حرّمت عليك النوم والطعام وسوّدت آيامك، وهأنذا  
أعدّبتك بهذياني، فاللهم غفرانك.

- ٤٦ -

واستيقظ في صباح اليوم الثاني أهدأ نفساً وأهدأ  
قلباً. ولما جاء أحمد يصبح عليه طلب إليه أن يعيره  
القرآن. وأتى الرجل بالكتاب الشريف فتناوله الشاب  
بسرور، وسأله:

- أليس من الحرام أن ألمسه ولما أستحتم منذ  
أشهر؟! فقال له مبتسماً:

- عذرك مقبول عند الله . .

ومضى يقرأ الكتاب، ولولا خوف السعال، لتلاه  
بصوته العذب. ووجد في القراءة لذة وسلاماً،  
واطمأن بذكر الله قلبه، ونسي به الحنين إلى الماضي  
السعيد، والحسرة على ما فات منه، والندم على ما فرط  
منه فيه، بل نسي به التوجع الدائم لما صار إليه حاله،  
والياس من الشفاء الذي قبض قلبه منذ أمس،  
والخوف من النهاية التي تتخيل لعينيه، وفرّ أخيراً من  
آلامه وخوافه لاثناً بالاستسلام والتسليم والصبر  
والتوكل على الله. ووجد ارتياحاً في الإذعان المطمئن  
إلى إرادة الله وقضائه، ورأى تلك الإرادة الشاملة التي  
تحيط بماضيه ومستقبله فاستسلم إليها أمنأ مطمئناً كما  
يستسلم إلى صدر أمه إثر نوبة السعال. ومرت أيام  
وهو هادئ رزين، صابر متصبر، بائس مسالم، لا يثور  
ولا يغضب، لا يشكو ولا يتذمر، ولا يتمرد ولا  
يسخر. وفي المرات القلائل التي أطلقت فيها زمّارات  
الإنداز لم يفارق الشقة منهم أحد، فكانوا يتحسسون  
طريقهم إلى حجرته في الظلماء، ويلتقون حوله بقلوب  
خافقة وأعصاب متوترة. واطرد الزمان في هدوء حتى  
وقع حادث هام! كان مايو قد انتصف، والوقت  
أصيلاً، والأب قد انتقل كعادته إلى مسجد الحسين  
لصلاة المغرب، وجلس أحمد في حجرة الشاب بمحاذته  
بوجود والدتها، فدقّ الجرس وفتح الباب، واقتربت  
أقدام خفيفة، ثم دخلت الحجرة امرأتان: الست

فلم يزد أحد كلمة واحدة، وعند المساء، وكان  
رشدي وأمّه كعادتهما يراوحان بين الحديث وبين سماع  
الراديو المترامي إليهما من المقاهي المحيطة، قدّم المذيع  
طيبه الذي كشف عليه أوّل مرّة - إلى الجمهور . . .  
يلقي عليكم محاضراته الأولى عن السلّ، فارتعشت أمّه  
لسماع الاسم الذي يقض مضجعهما، أمّا رشدي فانتبه  
بعناية وأرهف أذنيه، ولم يكونا وحدهما اللذان يرهقان  
أذنيهما في تلك الساعة، فالأب في حجرته رفع رأسه  
عن القرآن ومال برأسه نحو النافذة، وغاب أحمد عن  
حديث الصحاب في الزهرة ليلقي بانتباهه كلّ إلى  
الراديو خافق الفؤاد. وتكلّم الدكتور عن تاريخ كشف  
ميكروب المرض، والأدوار التي يمرّ بها، ووصف كلّ  
دور بإسهاب، ثمّ تكلم عن مسألة زواج الناجين من  
الداء، وما ينبغي أن ينتظره أصحاب كلّ دور من  
أعوام، واقترح في النهاية أن تنشئ الحكومة للناجين من  
الدور الثالث قرى في صحراء حلوان تكون بمثابة  
معازل يقضون فيها شطراً من أعمارهم أو العمر كلّ.  
أصغت الأسرة متفرقة إلى المحاضرة، فأخفت الأم  
عينها الدامعتين، وتهدّ الأب وعاد إلى كتابه، أمّا أحمد  
فبكى قلبه وهو يتظاهر بالسرور بما يقول المعلم نونو.  
ولازم رشدي الصمت، ومضى يستعيد ما سمع،  
فغمّرت فجأة ذكريات حياته، الشباب الطروب واللهو  
العابث والحبّ الساحر، وصور سريعة متراحة من  
الوجوه والأماكن والربوع، فتأكل صدره حسرة،  
وهوى من ربوة الأمل إلى هاوية القنوط، ونسي وجود  
أمّه فهتف يائساً: «رباه إذا كانت مشيتك قد قضت  
بأن ينتهي بهذا الداء أجلي، فأسألك الرحمة بالتعجيل  
به». وارتاعت أمّه، ونظرت إليه بعتاب وهي تقول:

- رشدي! . .

فنظر إليها مبتسماً ابتسامة حزينة وقال بلهجة  
تهكمية:

- الغالب أنك لن تفرحي بعرضي كما تودين!

ولما رآها تمهش في البكاء، غلبه التأثر، فوجم . .

وقال بأسف:

- معذرة يا أمّاه . . لشدّ ما أقسو عليك يا مسكينة.

- بعد الشرّ.. بعد الشرّ. كلّ شدّة إلى انتهاء تسير..

ولكنّه بسط راحتيه على صدره وقال بحدّة:

- إلا هذه الشدّة، فلا انتهاء لها حتّى تقضي على الحياة..

- مرضك يا رشدي أفندي ليس بالخطير، وستبرأ قريباً بإذن الله..

فهزّ منكبيه استهانة، وعاد يقول بحدّة وراحته على صدره:

- أيّ مرض تعنين؟! .. ها هنا سلّ!، أما سمعت به؟! .. سلّ سلّ، إنّه يأكل صدري، ويسيل مع ربيقي دماً.. إنّه مرض خطير فظيع، شديد العدوى، فحذار..!

واشتدّ به التأثير، وغلبه الانفعال، فضرعت إليه أمّه أن يسكت، ورجت الضيفتين أن يصحباها إلى حجرة الاستقبال معتذرة عن حدّة الشابّ بمرضه. ولمّا خلت الحجرة إلا من الشقيقتين، قال أحد بحزن:

- ليتك لم تستسلم للغضب!

ولكنّه قال له بانفعال شديد:

- والله ما تستحقّ إشفاقك يا أخي!، إنّ الخيانة قبيحة، وهذه الفتاة هي سبب الكارثة التي حلّت بي كما تعلم يا أخي، لولاها لتداركت خطر المرض ودفعت الأذى عن حياتي، ولكنّ تعلّقي بها هيأ لي مداراة المرض حتّى انتهيت إلى ما ترى...

واستوى جالساً وقال وما يزال منفعلاً:

- لماذا خاطرت المرأة العجوز باصطحابها إليّ؟..

المرأة الماكرة ترمي بنظرها إلى بعيد، فترى الشفاء محتملاً كالموت، وتأخذ الخيطة لكلّ احتمال، ولكنّي يا أخي لن أفكر في الزواج، وإذا كتب الله لي الشفاء فسوف أتعهد بنياني المتهالك بالعناية الواجبة، فعلى أحسن الفروض لن يبقى من عمري إلا شيخوخة حقيقة بالرعاية الحكيمة. أخي: لي في المصرف مقدار من النقود كنت أدخرته لزواجي فسأستردّه وأشدّ الرجال إلى حلوان، وهناك أضع نفسي تحت رحمة المقادير حتّى يقضي الله أمراً كان مفعولاً. غدًا اسحب

توحيدة ونوال! وحدثت دهشة لاحت أماراتها في الأعين، وخفق قلب الشقيقتين بعنف. لماذا جاءت نوال بعد هذا الغياب الطويل؟! وإنّ ظهورها مرّة أخرى خليق بأن ينكأ الجرح الذي أوشك أن يندمل. ونهض أحمد وتنحّى جانباً حتّى ارتفق النافذة، ورفع رشدي عينين أحاطت بهما هالتان زرقاوان، ونطقت عيناه بالإنكار، ثمّ زابله الدهشة وحلّ محلّها امتعاض شديد فتغنص عليه هدوؤه البديع. وحدثته الستّ توحيدة بلهجة المرحّة، وأكدت له أنّه يتحسّن تحسّناً محسوساً، أمّا نوال فرنت إليه بعينين مروعتين وقد أزعها ما صار إليه من الهزال والضعف، وغلبت على أمرها فلم تدرِ ماذا تقول. ولم تزد على أن قالت بصوت لا يكاد يسمع: «كيف حالك؟!»، ولم يرغب في الردّ عليها فاكتمى بأن رفع ذقنه وبسط راحتيه كأنّه يقول لها «كما ترين!»، ولم يعد يخفي على أحد أنّ الشابّ تغبّر، وأنّه اعتراه اضطراب واستياء، وأنّه يعاني ألماً باطنياً حاداً. وأرادت الستّ توحيدة بلباقتها أن تخفّف من توتّر الجوّ فراحت تتحدّث وتضحك وتستثير الضحك ما وسعتها الحيلة، تمّ قالت:

- أبيض يا رشدي أفندي! رأيتك في الحلم حاملاً أنقلاً عابراً بها قنطرة طويلة، فبلغت نهايتها بسلام، وتفسيره أنك ستبرأ عمّا قريب إن شاء الله..

فقال رشدي بلهجة لم تخلّ من خشونة:

- فسّر الدكتور قبلك هذا الحلم فأكد لي أنّ لن

أفارق فراشي قبل عام طويل؟

فقال المرأة بلهجة عتاب:

- ساخك الله يا رشدي أفندي، هكذا أنت متطيّر دائماً.. (وأومات إلى ابنتها واستأنفت الكلام) هذه نوال جاءت لترك، وما منعها عنك إلا انشغالها بدروسها، ومرضها في الأيام الأخيرة، وستؤدّي الامتحان في نهاية هذا الشهر!.

فقال الشابّ بلا تردّد:

- نفس التاريخ الذي أفصل فيه من عملي..

فاصفرّ وجه نوال التي أدركت حقيقة غضبه،

وبادرت المرأة تقول بامتعاض:

## خان الخليلي ٦٢٩

متسعتين مكتحلتين بهالتين سوداوين، وارتسمت على الحدقتين نظرة غريبة، غير نظرة الحزن الأولى، كأنها ترمي إلى شيء لا تراه العين. وجاء أحمد يجالسه ساعة العصر قبل أن يمضي إلى قهوة الزهرة، فقال له رشدي:

- أذهب إلى الزهرة؟! .. سلامي إلى الصحاب، لكم يشوقني أن أسهر ليلة في السكاكيني بين إخواني. فقال أحمد بتأثر:

- ستبرأ إن شاء الله وتعود إلى إخوانك ولياليك! فقال الشاب بانكسار:

- هل يمكن أن أبرأ حقاً؟! .. انظر إلى ساقتي! هل تعودان مرة أخرى إلى هيئة السيقان البشرية؟! - وما يكون هذا في قدرة الله العظيمة؟ فهز رأسه، ثم قال لأخيه بلهجة الناصح الأمين على غير مألوفه:

- ازرع صحتك دائماً بعين اليقظة ولا تهانوا بها أبداً..

ثم أطرق لحظة قصيرة واستدرك قائلاً وقد تغيرت نبرات صوته:

- المرض كالمرأة يلتهم الشباب ويبدد الآمال.. وتساءل أحمد ما بال أخيه يتكلم هكذا؟! .. ونظر إليه بانكسار، فاستدرك الآخر:

- وميكروبه يعمل في الخفاء حتى إذا تمكّن من فريسته قضى عليها.

- رشدي! .. ماذا تقول؟ .. أجلو لك الحق قبل الفراق، فعي ألا أراك بعد اليوم.

فقال الرجل بانزعاج:

- كيف لا أراك يا رشدي؟

فتنبه قليلاً وقال كأنما عاودته سخريته المرة:

- ليس من المحتمل أن يذهب صبرك فتعاف المرض أو تتشغل بدروسك فتتساقط في حلوان؟! فهتف به أحمد متأثراً:

- ساعحك الله.. ساعحك الله..

فحدجه بنظرته الغريبة الغائبة وسأله:

لي النقود بنفسك، وابتع لي ثياباً ولوازم، وسأكون بالمصححة قبل نهاية هذا الشهر، وعلى الله الجبر... .

## - ٤٧ -

وفي ضحى اليوم الثاني - الجمعة - نفذ أحمد مشيئة أخيه، فاستردّ وديعته من المصرف وابتاع له بيجامتين وثياباً داخلية وبعض اللوازم الثانوية، وعاد إلى البيت ظهراً مسروراً بما قرّر رأي المريض عليه من الانتقال إلى حلوان، ولما دخل حجرة الشاب رآه يدخن سيجارة، فانزعج انزعاجاً شديداً، وكان أقلع عن التدخين منذ ظهور المرض، فارتبك لمراى القادم، وابتسم ابتسامة ارتباك وخجل. وهتف به أحمد وقد نسي المشتريات الجديدة:

- من أعطاك هذه السيجارة؟! .. ماذا تفعل بنفسك؟! ..

وألقي على أمه نظرة ملؤها الاتهام، فقالت المرأة تدافع عن نفسها:

- ألح عليّ يا أحمد ولم ينفع اعتراضى، فما سكت حتى فاز بطلبته..

وقال رشدي دون أن يترك السيجارة:

- لا تؤاخذني يا أخي.. نازعتني نفسي إلى التدخين فجأة فلم أستطع مقاومتها.

فقال أحمد بامتعاض شديد:

- ولكن هذا هو الجنون عينه!

فقال الشاب كالمعتذر:

- سيجارة واحدة لا تؤذي، لكنّ هي لذيدة! دعني اخذ أنفاسها في طمأنينة..

ودخن سيجارته في سرور عجيب، ثم قال:

- لا تغضب يا أخي فهي آخر سيجارة، والآن هات ما عندك من الثياب الجديدة..

وبعد الغداء بقليل اعتراه إعياء شديد ولم يطمئن إلى الاضطجاع، فجلس في الفراش ماداً ساقه مسنداً ظهره إلى وسادة منكسرة، فبدأ ساقه كحظين، واشتدّ اصفرار وجهه وشابته زرقة خفيفة، ولاحت عيناه

الخارج يساوره قلق وخوف، وقبل أن يخطو خطوتين في الدهليز المفضي إلى حجرة رشدي انفتح باب الحجرة بقوة وبدت أمه على عتبه وقد رفعت ذراعيها فوق رأسها كمن يستغيث، ثم هوت على خديها تلتطمهما بعنف وجنون.

- ٤٨ -

وكان يوماً فظيماً مروّعاً، سارت قافلته في هول من الألم والعذاب والشجن. وإن أحمد ليذكره ساعة ساعة لأن ذكرياته السود حفرت في فؤاده كما حفرت في فؤادي الوالدين البائسين. فساعة دخوله الحجرة: سار متثاقلاً بقلب كسير وعين مذعورة لما ينتظر أن تراه، ومدّ بصره نحو الفراش فرأى رشدي راقدًا وقد سجّته أمه بالغطاء ووالده واقفاً على كذب منه دامع العينين منكس الرأس، فاقترب من الفراش وحسر طرف الغطاء فرآه كالنائم لم يتغير منه هيئة ولا لون، وهل ترك المرض للموت شيئاً يغيره؟! وانحنى عليه فلثم جبينه البارد ثم أعاد الغطاء كما كان، واستسلم ليكاء غزير تجمّعت أبخرته في قلبه يوماً بعد يوم تنفثها الآلام حتى تكاثفت في برودة الموت فسحّت دمماً فيّاضاً. وموقفه في حانوت بالغوريّة: يتناح كفنًا، ويذكر ما ابتاع له بالأمس من ثياب الدنيا. انتقى له أجل الألوان لما عهدته فيه من حبّ الأناقة وجعل ينظر إلى يدي البائع، وهو يقيس القماش ويقطعه ثم يلفّه، بإنكار وذهول.

ثم ذهبه إلى مركز الصلحة لاستخراج تصريح بالدفن. سأله موظف بعدم اكتراث: «اسم المتوفّي؟» فأجابته وهو يودّ ألا يسمع صوت نفسه: «رشدي عاكف» ثم قال لنفسه بذهول: «رشدي عاكف مات! أفضّح بها من حقيقة» وسأله باللهجة الباردة نفسها: «عمره؟» فأجابته «ستة وعشرون عاماً» فسأله «المرض؟» فسأله والغضب يضطرب في جوانحه، وهل ينسى ما فعل بالشاب المنكود؟ هل يمكن أن ينسى منظر الساقين والعنق؟ لون البشرة؟.. قسوة السعال؟. ثم تسلّم الورقة التي لا يمكن أن يغيب رشدي في باطن

- لماذا لا يجرقون المرضى فيرمحهم ويسترجموا منهم؟ فصاح به الرجل:

- رشدي! كيف تتكلّم؟!!

فلزم الصمت لحظة قصيرة، ثم قال بأسف:

- لعن الله المرض، الله يكفيكم شرّ المرض!..

وانزعج أحمد انزعاجاً كبيراً، وعادت أمه بالقهوة

فاحتسى قهوته في سكون، وخاف أن يعود الشاب إلى

كلامه المزعج، ولكنّه لم ينبس بكلمة، فارتاح ارتياحاً

خفيفاً، وحسب أنّه استردّ حالته الطبيعيّة. وجعل

يسترق إليه النظر، فهاله تراخيه، ولون وجهه، ومنظر

ساقيه. وحذث نفسه متأثراً: أهذا أنت يا رشدي؟!!

تبّاً للمرض!!

وذهب الرجل إلى القهوة متأخراً عن مواعده، وكان

يجد فيها بعض الراحة لأعصابه المتوتّرة، ونفسه

المحزونة، فمكث بها حتى منتصف العاشرة، ثم عاد

إلى البيت، ومزّ بحجرة أخيه، فوجد له قد تعاطى النوم

واضطجع في طلاب النوم، ولكنّه لم يكن نام بعد فردّ

تحية القادم قائلاً:

- مساء الخير.. هل عدت؟

فقال أحمد وهو يتفحصه بعينه:

- أجل.. كيف حالك؟

- الحمد لله.. كيف شاي الزهرة؟

- كعهديك به.

فقال بصوت لم يكده يسمع:

- هنيئاً!..

وتركه لينام ومضى إلى حجّته، وخلع ملابسه.

كان منقبض الصدر متوتّر الأعصاب. وترامت إلى أنفه

رائحة نتنة فازداد صدره انقباضاً وأعصابه توتّراً، ترى

هل للهواجس التي تضطرب بها أعماق النفس رائحة

تشم؟! وحاول أن يغيب عن أفكاره ساعة بالقراءة.

ثم نهض لينام. فلم يغمض له جفن حتى مضت ساعة

طويلة من الأفكار والوساوس، واستيقظ في الصباح

الباكر على حركة في البيت فتنبّهت حواسه، ونظر في

الساعة فوجدها الخامسة. فتساءل ما الذي أيقظهم في

هذا الوقت المبكّر؟! وغادر الفراش، وانطلق إلى

## خان الخليلي ٦٣١

رشدي ملفوقاً في الكفن الذي اختاره له بنفسه، وأطبقت عليه الأيدي، وغابوا به في جوف الأرض، ثم صعدوا بعد قليل من دونه، وبلا رحمة حثوا عليه التراب، فاخفى في القبر في دقائق معدودات، واستوى بالأرض، ونضحوا الماء عليه كأن غلته لم تُرو بعد، وهكذا غاب عزيز وانتهت حياة! بين انتباهة عين القبر وغمضتها يغيب حبيب إلى الأبد فلا تغني عنه الدموع ولا الحشرات. ورجعوا جميعاً وقلوبهم شتى، الحكمة التي أوجبت بالأمس أن يكون رشدي محبوباً توجب اليوم أن يصير نسيّاً منسياً. البيت كئيب، والوالدان ذاهلان، وقد كُوم رياش حجرة الراحل وأغلق بابها. ولتأوى عند منتصف الليل إلى حجرته، انثالت عليه الفكر، حتى تنبه إلى شيء في الجوّ. يا عجبا ما زالت الرائحة الكريهة تزكم أنفه. رائحة الموت المخيفة؟ وفي صباح اليوم الثاني وجد أنها ما تزال تنبعث في الجوّ، فتهدأ له أنها ربما كانت متصاعدة من الممرّ المفضي إلى خان الخليلي القديم، ففتح النافذة ونظر منها، فرأى على الطوار كلباً ميتاً وقد انتفخ بطنه وتشتتت أطرافه، فصار كالقربة، وأكب عليه الذباب. وأدام النظر قليلاً، ثم تحوّل عن النافذة بفؤاد مكلوم وقد امتلأت عيناه بالدموع.

ثم كانت أيام قاسية مرّة. أمّا عاكف أنندي الأب فقد راح يداوي بالإيمان جرّحاً دامياً، وأمّا الأم فقد ذهلت في حزنها عن كلّ شيء حتى الإيمان، بل قالت تخاطب ربّها في وقدة الألم: «ما ضرّ دنياك لو تركت لي ابني!» ثم قالت لزوجها بحدّة: «هذا حيّ شؤم، جثته على كره منّي وما أحببته قطّ، وفيه مرض ابني وفيه قضي. فدعنا نهجره بغير أسف!» ثم انثنت إلى أحمد قائلة: «إذا أردت أن ترحم أمك حقاً فابحث لنا عن مقام جديد». كرهت الحيّ وأهله جميعاً. وضاق أحمد به صدرًا كذلك، ولكن كيف السبيل إلى سكن جديد والقاهرة قد ناءت بسكّانها! ولم يألُ جهداً فوضى زملاءه جميعاً بالبحث عن مسكن في أيّ موقع من القاهرة، بل جعل يروض حزنه الأليم بالاضطراب في الشوارع القريبة والبعيدة بحجّة البحث عن مسكن

الأرض إلى الأبد إلا بها ومضى شاكرًا!! وقد أحدث عدم اكتراث الموظّف والدكتور ثورة في صدره على وشائج الإنسانيّة جميعاً، كيف يُلقى الموت بعدم اكتراث وهو أفظع حدث في الدنيا؟! هل يمرّ يوم دون أن يُرى نعش محمولاً على الأعناق؟!، فكيف يمرّون به مرّ الكرام كأنّ الأمر لا يعينهم؟! كيف لا يرى كلّ فرد نفسه محمولاً على هذا النعش!؟

ثم مرتزقة الموت، جاءوا تباعاً يحملون أدوات الغسل والنعش، برّاقة أعينهم، قويّة سواعدهم، يكتمون وراء عبارات الرثاء المصطنع سرور التاجر بالربح المرتقب، فلم يروا في جثمان رشدي العزيز إلا سلعة.

ثم النعش يتهدى على الأعناق في حلّة الشباب البيضاء، وملأ عينيه منه وهو يسير في انحرافه المعروف تتبدله الأيدي والمناكب، ووضع الطربوش عليه مستويًا وكان صاحبه يُميله إلى اليمين فيوشك أن يمسّ حاجبيه فعل المختال بشبابه المدلّ بجهاله، لله ما أوفى أصحابه، لقد بكوا حتى احمرت أعينهم، وبكى كمال خليل أنندي، أمّا أحمد راشد فقد جمد وجهه ولم يُبّن ولم يرتح أحمد لمنظره ولا لوجوده بين المشيعين، كذلك تجنّب النظر إلى المعلم نونو الذي أيقن أنه لا يمكن أن يشاركه عاطفة لما طبع عليه من استهانة بالأحزان وابتسام للكروب، وسار الأب وراء النعش مباشرة في حزن حفظ الإيمان عليه وقاره، وبلغ التأثر بأحد متناه حين بلغت الجنّازة طريق الجبل، الذي يعلم من أمره ما يعلم، الطريق الذي شهد رشدي عاشقًا صباحًا بعد صباح، والذي جرى فيه الفتى وراء هواه مستهينًا بمرضه الخطير، فاشترى قلبه بصدرة، ثم خسر الاثنين معًا. ربّاه هل يشهد الطريق على خيانة الرفيق؟.. هل يفضي إليه بأنّ التي رأى الفتى المسكين يتتحر من أجل حبّها خافت عدواه ونبذته نبذ النواة؟! ثم بدت المقبرة في ثوب قشيب!. فرشت أرضها بالرممل، واصطفت عند مدخلها الكراسي، ودار بها السقاة، وفخر القبر فاه كأنه يتأهب ضجرًا من المأساة المعادة، ووضع النعش على الأرض وكشف الغطاء، ورفع

وخفق قلبه لذكر الاسم، وأمسكت يده عن فك  
رباط الرقبة، وسألها مندهشاً:  
- ولماذا جاءت؟  
فقالت الأم:

- قابلتني في ارتباك شديد، وما إن التقت عينانا  
حتى انتحبت باكية، وقالت لي بصوت متقطع ونبرات  
مختنقة: «أنا أعلم بسخطك عليّ، بل بسخطكم عليّ،  
ولكم العذر، ولكنّي مظلومة، والله يا تيزة، منعوني من  
زيارته، وحالوا بيني وبين رؤيته، وفرضوا عليّ رقابة  
شديدة، وأبوا أن يصغوا إلى توسلاتي أو يرحموا  
دموعي، وما كنت لأفعل هذا بنفسني أبداً، ومع ذلك  
لم أذعن ولم آيس حتى اضطرت أمي تحت ضغطي  
الشديد أن تصطحبني معها في غياب أبي، فجننا معاً  
ذاك اليوم الذي لا أنساه ولن أنساه ما امتدّ بي عمر.  
أه يا تيزة!، ألقى عليّ يومئذ نظرة واحدة، تنطق  
بالاحتقار والزراية فقطعت قلبي المكلم البريء.  
أدرت أنه ناقم عليّ، كاره لي، لكنّ تألمت، ولكنّ  
أتألم.. ولكنّه سيعلم الحقيقة يوماً ما، ويعلم أنّي ما  
بغيت عليه ولا خنت عهده..».

أصغى أحمد إليها بفؤاد خافق وصدر هائج جيّاش،  
ثمّ سأها:

- أقول الحقّ يا تُرى؟

فتفكرت المرأة قليلاً ثمّ قالت على مهل:

- سمعتها تتكلم بإخلاص، ولا أدري لماذا تحمّل  
نفسها عناء الكذب بعد أن انتهى كلّ شيء، فيغلب  
على ظني أنّها صادقة، بيد أنّ مقتي تضاعف لأهلها  
الدون.

وخلع الرجل ملابسه متفكراً، وقد مال إلى تصديق  
الفتاة كأمه، وارتاح لذلك، ولكنّ وأسفاه قضى  
رشدي نحيبه يائساً من حبه يأسه من الشفاء! فيا لها  
من حبيبين تعيسين الميت منها والحي!. وأهاجته  
الذكريات فاستشارت أحزانه ومضى يقول لنفسه:  
«اللهمّ غفرانك، ألم يكن الأوفق أن تختارني وتعفو عن  
أخي؟ فحياتي الخائبة لا تستحقّ الوجود، وحياته  
الناجحة كانت أهلاً للدوام، اللهمّ غفرانك!» وأحسن

خالٍ. وقد لاحظ المعلم نونو سهومه وكأبته فأكثر من  
ممازحته وجذبه إلى أحاديثهم حتى دعاه مرّة إلى بيت  
الستّ عليّات، ولكنّ الكهل أبى وظلّ مغتبر الجيين.

- ٤٩ -

وتلا وقت حافل بالأحداث الحربيّة الهائلة،  
فانسحب الجيش الثامن من جسر الفرسان، وفي  
النصف الثاني من يونيو سقطت طبرق في يد الألمان،  
وتهاشم الناس بخطر الغزو. وتناول الصحاب، في  
الزهرة، الأخبار بتعليقاتهم المعتادة، فقال سيّد عارف  
بسرور:

- لن يقف زحف رومل هذه المرّة..

فسأله الأستاذ أحمد راشد بلهجة المتهمّ:

- يا من تحبّون الألمان، هل تحسبون أنّهم إذا دخلوا  
مصر يدخلون بسلام، أو أنّ دون ذلك حرباً ضرورياً  
تقتلع كلّ قائم؟!!

فأجابه المعلم زفته باستهانة:

- وماذا لنا في البلد ممّا يُخاف عليه؟! فليحزن السادة  
الذين لا يعرفون أنّ الدنيا فانية!.

وقال المعلم نونو:

- لا أملك إلاّ روحي وأرواح أبنائي وهي جميعاً  
ملك الله تعالى ولا سبيل لرومل عليها إلاّ بأمره، وقد  
وقّت لها آجالها قبل أن يخلق رومل بملايين السنين!..

ثمّ ضحك نونو ضحكته المجلجلة واستدرك قائلاً:

- نذرت إلى الله، لو جاء رومل وأنا على قيد  
الحياة، لأدعوته إلى سهرة بيت الستّ عليّات، ليشهد  
أنّ المدفع المصريّ فوق المدفع الألمانيّ..

وجعل أحمد ينتقل إلى والديه ما يقوله الناس،  
ويحدّثها بأخطار الغزو وما يتوقّعه الكثيرون من اشتداد  
الغارات الجويّة، وكأنّما أراد أن يلهيها عن حزنهما ولو  
بإثارة مخاوفهما!

وعاد أحمد ذات مساء إلى البيت، وكان انقضى على  
وفاة رشدي أربعة أسابيع فوجد أمه بانتظاره، وبادرت  
قائلة:

- زارتني نوال بعد عصر اليوم!

ويجيش بالعاطفة:

الاثنين ١٢ من يناير سنة ١٩٤٢:

«رباه! أنا من اليوم وحتى يشاء الله شخص غريب، في صدره أذى للناس، أنفاسه تهدد العباد، برج متداعٍ من الميكروبات الفتاكة، لعبت لعبة خطيرة كيلا تضيع نوال من يدي، اللقاء مبدول، ولكن حذارٍ، نوال محرمة عليك، محال لمسها! قبلتها التي كانت شفاء للنفس حرام حرام، لشد ما تنكرني وتعجب لشأني ولعلها تسائل نفسها ما له لا يتهز فرصة خلو الطريق كما كان يفعل؟ هل شبع من شفتي؟ أترى فتر حبه؟.. كلاً يا حبيبي لم يشبع من شفتيك ولا فتر حبه، ولكنّه يجاف عليك، ويصون فاك من الهلاك المين، ليس الذنب ذنبي، فقلبي كعهديك به ولكنّ دونه صدرًا عتس فيه عدو شرير أخافه عليك وأعيدك منه..».

أغلق أحمد الكراسية، وجعل يذرع الحجره وكأنه يترنج من شدة الصدمة، ثم ارتعى على الفراش وهو يصكّ جبينه براحته ويهتف: «رباه! لكم ظلمته.. ولكم اتهمته بالباطل!»، وأحسن كما لو أنّ منشأً ينشر قلبه فأناً أنيماً موجعاً..

- ٥٠ -

وتصرمت الأيام الباقية من يونيو، وجاء يوليو بقيظه الفائر..

وظلت الكآبة ناشرة رداءها على البيت الثاكل، ولم تفر همة أحمد عاكف في التنقيب عن مسكن جديد، رحمة بوالدته، ولأنه هو أيضاً، ضاق بالحلي صدرًا. وقد خلقت الصدمة في أعصابه الرقيقة آثاراً عميقة، فعاوده بعض أرقه القديم، وتلبسته حال من القلق النفسي بات معها سريع الانفعال، سريع التأثر، كثير المخاوف مستسلماً للحزن. وألقت في صدره الجياش أحزان الماضي والحاضر، وتوجس خيفة مما يجتبه المستقبل ومما عسى أن يبلده من الأحزان والآلام، وقال لنفسه، وهو يذكر والديه: إن سعادتنا بأحبائنا اليوم مرتهنة بالدموع التي نسكبها على فراقهم غداً، وطفق

في تلك اللحظة داعياً باطنياً يدعوهُ إلى ارتياد حجره الفقيد المغلقة، وكانت نفسه نازعته إلى ذلك مرّات ثم يعدل إشفاقاً، أمّا هذه المرّة فلم يستطع أن يغفل عن نداء الداعي، وهزه الشوق والحزن، وما عتم أن مضى إليها والسكون شامل وقد أخلد والداه إلى النوم. وكما اقترب من بابها انقبض صدره وفاض به الحزن. ثم أدار الأكرة، وعبر مدخلها متساقلاً، وأضاء المصباح الكهربائي، وألقى على الحجره المهجورة نظرة شاردة، وقد ملأت رائحة التراب أنفه، فرأى كوماً من الأثاث ومكتباً تراكم عليه الغبار فأحاله، وكلّ شيء يدلّ على الوداع. رباه لماذا ولج هذه الحجره وما جفت دموعه بعد؟! وأجال عينيه بها في حزن بالغ فجذبها درج المكتب الأوسط، فذكر أنّ هذا الدرج يحوي مذكرات رشدي و«اليوم» صورته!، وأملى عليه قلبه أن يحتفظ بها في حجرته ما دام الأثاث عرضة للبيع اليوم أو غداً، ففتح الدرج واستخرج كراسية المذكرات والألبوم، ونفخ عنها الغبار، ثم ألقى على الحجره نظرة وداع وغادرها كأنما ما جاء إلا ليأخذ الألبوم والمذكرات. ووضعها على مكتبه، وطفق يديم النظر إليهما باهتمام وحزن. وفتح الألبوم عن أولى صحائفه، فرأى صورة كبيرة لرشدي تمثله واقفاً ويدها في جيبي بنطلونه، ما أجمله وما أنضره!.. وسرعان ما طرقت ذاكرته صورة الكلب الميت الذي كدّر جوّه يومين كاملين! فتأكلت نفسه حسرات! ولم تمض في استعراض الصحائف احتراماً لأسرارها، وتناول كراسية المذكرات دون أن تحدّته نفسه بالتطقل على مكنونها، يتد أنه لم يقاوم رغبة في فر صفحاتها الأخيرة، فجرى بصره على بعض رؤوس النبذ التي تكوّن خاتمة المذكرات.. فقرأ «حبّ جديد».. «طريق الجبل».. «حديث غرام».. «آمالنا» حتى مرّ بصره بهذا العنوان «القبلة القاتلة!» فخفق فؤاده بعنف شديد، ما معنى هذا العنوان؟!.. ألم يرتده في بعض هواجس حزنه يوماً؟! وكان مؤرّخاً في ١٢ يناير سنة ١٩٤٢ أي أول عهده بالمرض، فلم تكن ثمة قوّة تستطيع أن تعدل به عن قراءته فقرأ وصدره يضطرب



يردّد بيت أبي العلاء:

ومَن لم تبيّته الخطوب فبأنه  
سيصبحه من حادث الدهر صابح  
فلم تكن أعصابه مما يعين على تحمّل غير الدهر  
وآلام الحياة، وأوشك أن يقع فريسة لمرضه القديم،  
ولذلك صدقت رغبته في هجر الحيّ. وفي ذلك الوقت  
كثُر إطلاق صفارات الإنذار ليلاً ونهاراً ولكن لم  
تضرب المدينة كما حدث في سبتمبر، ثمّ تحرّجت الحالة  
الحربيّة بتوالي تقدّم قوّات البحور، فعبرت الحدود  
المصريّة، وتوغّلت فيها، حتّى جاوزت مرسى مطروح  
التي كانت تعدّ أهمّ خطّ دفاعيّ عن مصر، ثمّ  
استولت على فوكة والضبعة، وبلغ التحرّج منتهاه  
بتقدّم القوّات المعادية إلى العلمين!.. تخالفت  
الإسكندريّة لأعين الغزاة وتهاشم الناس بأنّ  
الضرورات الحربيّة تنذر بتحويل الوطن إلى خرائب  
تتعق فيها البوم، ومستنقعات يرعاها البعوض.

وفي مساء اليوم الذي بلغت فيه قوّات المحور  
العلمين اجتمع الصحاب بقهوة الزهرة كعادتهم،  
فتلاقوا بالبشر والسرور، وملأوا الجوّ برنين  
ضحكاتهم، لم يفكر أحد منهم في الهجرة أو في تخزين  
بعض الموادّ الغذائيّة، ولا شغل أحد نفسه بتقدير  
الحالة التي تنشأ عن الغزو والحرب في المدن، أو كانوا  
يتمثّلون هذه الحالة مازحين ضاحكين كأنّ الأمر لا  
يعنيهم، ولسان حالهم يقول: «الأمر لله وليحدث لنا  
ما يحدث للناس جميعاً!» ولم يختلف أحمد عاكف عنهم  
في شيء، بيدّ أنّه وجد في الاجتماع بهم - ذلك اليوم -  
لذّة مضاعفة، كأنّه وجد في مجتمعهم الصغير ملاذاً من  
القلق العامّ الذي أخذ يساور النفوس، لم يتخلّ قلبه من  
خوف وقلق ولم يتخلّ من سرور، كان يفكر في ما يحتمل  
أن يحدث فينبض صدره، ثمّ تتمثّل له تلك الحالة  
التي يختلط فيها الحابل بالنابل وتحمي التبعات وتنهار  
القيم فيجد في أعماقه شعوراً بلذّة خفيّة تعكسها  
أعصابه المتوتّرة، كأنّ ذلك الغزو المرتقب سيبيد في ما  
يبيد أحزانه وآلامه، وسيمحو في ما يمحو من آثار  
الماضي آثار ماضيه..

قال سيّد عارف بلهجة المتنبّث بما يقول:

- اسمعوا آخر الأخبار.. قسم رومل جيشه  
جنّاحين، وجّه الأوّل نحو الإسكندرية وهبط بالثاني  
صوب الفيوم..

وقال أحمد راشد:

- سمعت أنّ الإسكندرية تضرب بالقنابل من الجوّ  
ومن البرّ حتّى هجرها أهلها إلى دمنهور.

- هل انتهى الإنجليز حقّاً؟

- إنهم يحرقون أوراقهم ويرحلون نساءهم!

- متى يبلغ الألمان القاهرة؟

- غداً أو بعد غد..

- إلّا إذا ساروا بجيشهم المظفر شرقاً إلى  
السويس...

- سمعت من ثقة أنّ جنود الباراشوت يهبطون  
جماعات في الحقول...

وتساءل المعلّم نونو:

- ما عسى أن يفعل أحدكم لو هبط عليه جنديّ من  
أولئك الجنود وأمره أن يدلّه على موقع حربيّ...؟!

فأجابه سيّد عارف فوراً:

- أمضي به إلى شقّة سليمان بك عتّة وأقول له:

«هاك السفير البريطانيّ!»

فهتف به سليمان بك محنقاً:

- أولى بك أن تستوهبه بعض الأقراص لمرضك!

وقال المعلّم زفتة:

- أمّا أنا فأسوقه إلى شقّة عبّاس شفة وأريه أضخم  
«طابية» في مصر...

فقال أحمد عاكف داهشاً:

- أليس لهذا المزاح من نهاية؟! ألا تعلمون بأننا  
مهتدون بهجر ديارنا وربّما قذفوا بنا إلى بعض القرى  
القدرة!

فصاح نونو:

- ما أحلاها عيشة الفلاح!

فسأل أحمد راشد:

- ألا تخافون الموت؟!

فقال المعلّم زفتة:

## خان الخليلي ٦٣٥

أتها نظل باكية إلى الأبد؟! ألم يضحك هو مرّات سواء في الوزارة أم في القهوة؟! .. ألم يجبر الابتسام على شفتي أمه نفسها في بعض الأحيان؟! فلماذا لا تضحك نوال؟ وماذا يُغضب من ضحكها؟! حقاً إنّه النسيان، ذلك الدواء المرّ الذي يعقب العزاء ويستوجب الحسرة، العزاء عن الآمنا والحسرة على أنفسنا. نقول نسياناً والحمد لله وهي ستّة الحياة! وتهدّ من الأعماق. ثمّ خطر له خاطر ليس بالجديد عليه، ولكنّه كان يروغ منه، يشفق من مواجهته، بيّد أنّه قال لنفسه هذه المرّة: «حتّام أهرب وأتجاهل؟! ألا يخلق بي أن أواجه الحقيقة وأمعن النظر! أما زلت أحبّ نوال؟ لماذا يخفق فؤادي لمراها ولذكراها؟».

وتفكّر مليّاً - وهو أخذ في مشيه المتمهل - ثمّ حدّث نفسه مرّة أخرى وقد تورّد وجهه الشاحب خجلاً كأنّما اطّلع على سرّه الناس جميعاً: «حبّ، فوقه غضب، فوقه حزن، فوقه ذكرى مروّعة. فلكي أخلص إلى هذا الحبّ ينبغي أن أدوس كرامتي وذكري أخي وهو المحال... بيني وبين الحبّ أخي وكبريائي، والحياة أهون من أن أمتهن في سبيلها هُذين العزيزين!». كلّ هذا حقّ فهو يحبّ نوال، ولم يزياله حبّها أبداً وإن حجبت الألام كثيراً، ولكن محال أن يعترف لهذا الحبّ بغاية، فدون ذلك ما هو أقوى من الحبّ نفسه، ولكنّ حتّام يمكث على كئيب من النار وهو محموم؟!!

- ٥١ -

وفي أواخر أغسطس اهتدى أحمد عاكف إلى شقّة خالية بضاحية الزيتون، في بيت يملكه موظّف بإدارة الحسابات بالأشغال ممّن كانوا يعلمون برغبته الملحّة في الانتقال، وكان يسكنها موظّف اضطرّ إلى فسخ عقدها لنقله إلى إحدى البلدان، فدعا صاحب البيت أحمد وحدّثه بشأنها وتمّ الاتفاق بينهما سريعاً على أن يتمّ الانتقال في أوّل سبتمبر موعد إخلالها. وسرّت الأسرة بقرب الرحيل عن خان الخليلي وذكرياته السود، على رغم أنّها ترحل عنه مهيبضة الجناح، وقد ألمّ بالأب ضغط دم نغص عليه عزلته، ونال الحزن من الأمّ

- أعطني عمراً وارمني على رومل!

وقال المعلّم نونو باهتمام مصطنع:

- الحقّ في ما قال أحمد أفندي، الألمان شياطين، وهم إذا هجموا على بلد انتشروا في كلّ مكان، وتحفّوا في كلّ زيّ، فلا يبعد أن نرى غداً ألماناً معتمين أو في ملاءات لفت... والله إنّي أخاف أن أفتح الصنبور لأنوّصاً فيخرج لي مع الماء غوّاص ألمانّي.

وبغته أطلقت صفارات الإنذار!!

كانت الساعة السابعة مساءً، فهبّوا جميعاً قائمين واختفت البسات من وجوههم، وهرعوا إلى طريق المخبأ. وخاف كثيرون أن تحدث غارة عنيفة مدمّرة كالتي تسبق الهجوم، وذكروا الإسكندرية والسويس وبورسعيد، بل ذكروا وارسو وروتردام؟. وبعد دقائق قلائل عجّ المخبأ باللاجئين. وجلس أحمد مع والديه وقد شمل الجميع قلق وخوف، وكأنّ الأمّ قد كبر عليها ذلك الحرص على الحياة منها فدمعت عينها. ومرّ ثلث ساعة في دعر واضطراب وانتظار هو التعذيب عينه، ثمّ انطلقت صفارة الأمان! ودهش الناس، ثمّ لاح في أعينهم السرور والارتياح، وهتف بعضهم: «استكشاف... استكشاف!» وهتف آخرون: «اقتربت الطيارة من حدود منطقة القاهرة ثمّ عادت وغيّرت اتجاهها!». وتحركّ التيّار صوب باب المخبأ، وخرج مع الخارجين، وعلى بعد قريب من مدخل المخبأ رأى نوال متأبّطة ذراع شقيقها الصغير محمّداً. والاثنان يضحكان ويوسعان الخطى نحو العمارة! خفق قلبه لمراها كما تعود أن يخفق لمراها أو لذكراها، وظلّ هنيهة يتبعها مقلّتيه حتّى غيّبها المنعطف، ثمّ انقبض صدره ورائت عليه كآبة، وأحنقه ضحكها وأغضبه فكأنّه فاجأها متلبّسة بجريمة نكراء! وبلغ منه التآثر مبلغاً لم يستطع معه العودة إلى القهوة قبل أن يروح عن نفسه قليلاً بالمشي، فمضى إلى شارع الأزهر على مهل، وأخذت نفسه تسكن وتهدأ، حتّى عاودته حالته العادية بأسرع ممّا كان ينتظر، بل أنحى على نفسه باللائمة لغضبه، وأنكره. ما الذي أوجب غضبه؟! ماذا أثار نائوته؟!، أوضحكها؟! يا عجبا! هل حسب

وعند عصر ذلك اليوم وفدت نسوة العمارة لتوديع الأسرة الراحلة، وكان أحمد لا يزال في حجرتة، وجاء فيمن جاء منهمن الستّ توحيدة ونوال، وجلسن جميعاً في الصالة الخارجية لأنها المكان الوحيد في البيت الذي كان صالحاً للجلوس وقتذاك. ولبثت الستّ توحيدة ونوال بعد انصراف الزائرات. وجاء موعد ذهاب أحمد إلى القهوة ليودّع صحابه، فلم يجد بداً من المرور أمام الزائرتين، ولكنّ السيّدة نهضت قائمة عند ظهوره ومدّت له يدها وهي تقول:

- كيف أنت يا أحمد أفندي؟

فسلم عليها في ارتبائه المعهود وهو يقول بصوت خفيض:

- الحمد لله يا سيّدي، شكراً لك.

ونهضت نوال لهوض أمها، فتحوّل إليها ماداً يده كذلك، والتقت يدها لأول مرّة، فسرت في بدنه رعشة، فلم ينبس بكلمة، ولم يرفع عينيه. .

وقالت السيّدة:

- ما زلت أعتمد لوالدتك عن سلوكنا، ولعلك تقيم لنا العذر يا أحمد أفندي، ووالله لقد كان المرحوم عزيزاً علينا أثيراً لدينا وربّنا يعلم. . .

فقال الرجل المرتبك المضطرب:

- كلنا نقيم لكم العذر، وللضرورة أحكام يا سيّدي. . .

ودارت المرأة بلباقة حول الموضوع، وشكرت أحمد لأدبه وحسن تقديره للأمور. ثمّ استأذن الرجل في الانصراف وسلم على السيّدة ومدّ يده لنوال مرّة أخرى، وفي هذه المرّة، واليدان مجتمعتان، خطف من وجهها نظرة بعينيه الخجولتين، ثمّ أنّجه نحو الباب. كانت أوّل مرّة تلتقي العينان عن قرب، ولم يكن نظر فيها منذ مداعبات النافذة والشرفة على عهد الأمل الأوّل، فخال أنّه طالع فيها ما كان يطالع من صفاء وحنان وتطلّع، فدقّ قلبه وهو يحثّ خطاه وطرفت عيناه في هياج عصبيّ. ربّما كان موقف الوداع هو المسئول وحده عن كلّ ذلك، فالوداع يستثير حتى عطف أولئك الذين لا يعطفون في غيره من المواقف،

فأصابها بالهزال وأغاض مرحها وألبسها ثوب الكبر، بيّد أنّ أحمد - على حزنه - رأى في الأفق نجوماً تحفّق. تحدّثوا في تلك الأيام عن إنصاف المنسيين من الموظّفين، وباتت الدرجة السابعة قريبة المنال، وكان دائماً يستهين بالموظّفة والموظّفين، ولكنّه سرّ في باطنه بالترقيّة المنتظرة، وسرّه أيضاً أنّه سيصير رئيساً على أربعة غير ساعي بريد الوارد، ونوى صادقاً أن يجعل من عهد «رئاسته» فتحاً جديداً في حياة الإدارة الحكوميّة يضرب فيها المثل الأعلى للرئيس «العالم الحكيم»، ثمّ من يدري بعد ذلك بما يجتبه الغيب؟ فأمامه في الحكومة خدمة طويلة تناهز العشرين عاماً، وعسى أن يرقي درجات أخرى؟ وعسى أن تحسن الحكومة الاختيار ولو أخيراً!!، وليس هذا كلّ شيء، فقد حدث أن اصطحب أمه إلى المسكن الجديد ليعايناه، وهناك دعاها صاحب البيت إلى شقّته فاحتسى معه القهوة في حجرة الاستقبال، ودعت والدته إلى حريم الرجل، وعند عودتها معاً أثنت أمه على زوج صاحبه وشقيقته، وقالت عن الأخيرة: إنّها أرملة في الخامسة والثلاثين على أدب وجمال. ونشط خياله! أرملة في الخامسة والثلاثين على أدب وجمال يحويها بيت واحد وهو أعزب في الأربعين، وزميل شقيقها، ولا فارق في السنّ من ناحيته ينقر، ولا شباب غضّ من ناحيتها تته به عليه. والظاهر أنّ الحياة لا تريح من الأمل، هل يعلم الغيب كلّه إلّا الله؟، بيّد أنّ هذه الأحلام لا تتفق ورباط رقبته الأسود! ربّاه!، ما لأحلامه تحلّق في غير حياء؟ ولا يبعد في تلك اللحظة أن تكون نوال تسترق النظر إلى أحمد راشد مثلاً. وهكذا تسير قافلة الأحياء لا تلوي على شيء كأنّها لم تفقد بالأمس القريب من كان يحلّ منها بالمكان الرموق. حياة صتّاء قاسية كالتراب، ولكنّها تُبث الأمل كما يُبث التراب الزهرة اليانعة. حزن أحمد حزناً شديداً، ولكن لم يكن من الأمل مفرّ. وأخذوا للرحيل أهبّتهم، فلُفّت الأبسطة، وفكّت السدوايب والأسرة، وجمعت الأواني والكتب وقطع الأثاث، واعترم السير غداً. . .

## خان الخليلي ٦٣٧

يمتته كالأستاذ أحمد راشد، وعجب لقلبه الذي يأسف على ترك أي شيء - وإن طال برمه به - ساعة الوداع. ثم عاودوا حديث الحرب كعادتهم، وذكروا توقّف الهجوم الألمانيّ عند العلمين.

وكان من رأي أحمد راشد أنّ المحور خسر موقعة مصر، أمّا سيّد عارف فقال بلهجة اليقين: إنّ هتلر أمر رومل بالتوقّف ليجنّب مصر - قلب الإسلام النابض - ويلات الغزو، وإنّه لولا رحمة الفوهرر لكان الألمان في القاهرة منذ شهر. ولبث بينهم مستمتعاً بسمهرهم ومزاحهم حتّى انتصفت العاشرة فودّعهم الوداع الأخير، وسلّم عليهم واحدًا واحدًا، وتقبّل تحياتهم شاكراً. ثمّ قفل إلى البيت...

وفتح النافذة وأطلّ على الحيّ. كان البدر - بدر نصف شعبان - يتألّق بنوره السنيّ في سماء أغسطس الصافية، والنجوم من حوله تزهر باسمايت في إشفاق كأنّما يرثي لإدلاله بشبابه الذي علمت منذ الأزل أنّه لا يدوم. وقد اكتسى الحيّ بغلالة فضيّة بدّدت وحشة الليل، وأضفت على الأركان والممرات سحراً.

الليلة نصف شعبان، ودعاء شعبان يتصاعد من النوافذ القريبة، وذاك صوت غلام يهتف بصوته الرفيع: «اللّهم يا ذا المنّ ولا يُمنُّ عليه يا ذا الجلال والإكرام» والأسرة تردّد الدعاء وراءه. بينهم صامت وحدها وتساءل عمّا عسى أن يتوجّه به من دعاء إلى ربّه؟.. وتفكّر ملياً، ثمّ رفع رأسه إلى البدر المنير، وبسط راحتيه، وغمغم بخشوع: «اللّهم يا خالق الخلق، ومدبّر كلّ شيء، تعمّده برحمتك الواسعة، وأسكنه فسيح جنّاتك، وأهيمّ والديه الحزينين الصبر والسلوان، وأنزل على قلبي السكينة والسلام، واكتب لي في ما يستقبل من الأيام عزاء عمّا سلف (وهنا وضع يده على قلبه) فلشدّ ما تحمّل هذا القلب من ألم، ولشدّ ما تجرّع من خيبة!».

هل يذكر يوم أقبل على هذا الحيّ وفي النفس شوق إلى التغيير؟ لقد حدث التغيير وأحدث دمعاً وحسرة، وما هو ذا رمضان مقبل فيا للذكرى! أيذكر كيف استقبل رمضان الماضي؟ أيذكر موقفه من النافذة

وهكذا اعتذر لضميره، بسيكلوجيّة الوداع هذه، عن انفعاله وتأثره وخطفه النظرة، خاصّة حين خطرت على فؤاده ذكرى رشدي ولاحت لعينه صورته المحبوبة وكأنتها تبتسم إليه في عتاب، وراح يحادثها بلهجة حزينة مؤثّرة: «معذرة يا رشدي، إنّه الوداع وأنت أعلم بالوداع، وإنّه الألم وأنت أخبر بالألم، ولن نجد متى بعد الآن ما يستحقّ عتابك». وبلغ قهوة الزهرة، والله وحده يعلم متى يتاح له أن يغشى قهوة أخرى، واستقبله الصحاب استقبالاً حافلاً يليق باللقاء الأخير، وأمسكوا عمّا كانوا آخذين فيه من أسباب الحديث ليفرغوا لوداع الجار العزيز، وقال له المعلّم نونو متسائلاً:

- أتسانا يا تُرى!؟

فقال أحمد وهو لا يدري إن كان يصدق في قوله أو يكذب:

- معاذ الله يا معلّم!

وقال المعلّم زفة:

- ولكنّ الزيتون هذه بلدة بعيدة لا يبلغها طالبها إلاّ بالقطار!

فقال أحمد مبتسماً:

- ما كان لقطار أن يمنع صاحباً عن صحبه!

ثمّ قال عباس شفة وهو يرفع حاجبيه كمن يذكر أمراً هاماً:

- أنا أعرف الزيتون كما أعرف خان الخليلي. مضى زمن كنت أسافر إليها مرّة على الأقلّ في كلّ أسبوع فأرجع بأحسن أنواع الخشيش.

فابتسم أحمد متسائلاً:

- فهل أرجو أن أراك كثيراً؟

فقال عباس شفة بلهجة دلّت على الأسف الشديد:

- تلك أيام خلت؛ لقد زجّوا بالتاجر في السجن ومات فيه.

وأعربوا جميعاً عن أسفهم لفراقه، وأثنوا على أسرته أجلّ الثناء، وترحموا على فقيدها، حتّى سليمان عتّة نفسه قال كلمة طيبة. وفاض قلب أحمد بمودّتهم في تلك الساعة، سواء من يجبه منهم كالمعلّم نونو أم من

## ٦٣٨ خان الخليلي

الأخرى في انتظار أذان المغرب وكيف رفع البصر  
 فرأى؟! .  
 وجرى أمام ناظره التاريخ الذي كتبه الليالي  
 متابعات حتى هذه الليلة بمداد الأمل والحبّ والألم  
 والحزن.

وهذه الليلة الأخيرة. وغداً بيت في دار جديدة، في  
 حيّ جديد، مولياً الماضي ظهره . .  
 الماضي بما أحدث من أمل وما خيب من رجاء . .  
 فالوداع يا خان الخليلي . .

زُقَاتُ السُّدُورِ

- ١ -

كريم . حسن الختام يا رب . كل شيء بأمره . مساء الخير يا جماعة . تفضلوا جاء وقت السمير . اصح يا عم كامل واغلق الدكان . غير يا سنقر ماء الجوز . أطفئ الفرن يا جعدة . الفص كبس على قلبي . إذا كنا نذوق أهوال الظلام والغارات منذ سنوات خمس فهذا من شر أنفسنا .

بيد أن دكانين - دكان عم كامل بائع البسبوسة على يمين المدخل وصالون الحلو على يساره - يظللان مفتوحين إلى ما بعد الغروب بقليل . ومن عادة عم كامل أن يقتعد كرسيًا على عتبة دكانه - أو حقه على الأصح - يغط في نومه والمذبة في حجره ، لا يصحو إلا إذا ناداه زبون أو داعبه عباس الحلو الحلاق . هو كتلة بشرية جسيمة ، ينحسر جلبابه عن ساقين كقربتين ، وتندلى خلفه عجيذة كالثقب ، مركزها على الكرسي ومحيطها في الهواء ، ذو بطن كالبرميل ، وصدر يكاد يتكور ثدياه ، لا ترى له رقبة ، فبين الكتفين وجه مستدير متفخ محتقن بالدم ، أخفى انتفاخه معالم قسماته . فلا تكاد ترى في صفحته لا سمات ولا خطوط ولا أنف ولا عينان ، وقمة ذلك كله رأس أصلع صغير لا يمتاز عن لون بشرته البيضاء المحمرة . لا يزال يلهث ويشخر كأنه قطع شوطًا غدوًا ، ولا ينتهي من بيع قطعة بسبوسة حتى يغلبه النعاس . قالوا له مرآت ستموت بغتة ، وسيقتلك الشحم الضاغط على قلبك ، وراح يقول ذلك مع القائلين ، ولكن ماذا يضيره الموت وحياته نوم متصل؟!

أما صالون الحلو فدكان صغير ، يُعد في الزقاق أنيقًا ، ذو مرآة ومقعد غير أدوات الفن . وصاحبه شاب متوسط القامة ، ميال للبدانة ، بيضاوي الوجه ، بارز

تنطق شواهد كثيرة بأن زقاق المدق كان من تحف العهود الغابرة ، وأنه تألق يومًا في تاريخ القاهرة المعززة كالكوكب الدرّي . أيّ قاهرة أعني؟ . . الفاطمية؟ . . المماليك؟ السلاطين؟ ، علم ذلك عند الله وعند علماء الآثار ، ولكنّه على أية حال أثر ، وأثر نفيس . كيف لا وطريقه المبلى بصفائح الحجارة ينحدر مباشرة إلى الصناديق ، تلك العطفة التاريخية ، وقهوته المعروفة بقهوة كرشة تزدان جدرانها بتهاويل الأرابيسك ، هذا إلى قدم بادٍ ، وتهلم وتخلخل ، وروائح قوية من طبّ الزمان القديم الذي صار مع مرور الزمن عطاره اليوم والغد . . . !

ومع أن هذا الزقاق يكاد يعيش في شبه عزلة عما يخلق به من مسارب الدنيا ، إلا أنه على رغم ذلك يضحّ بحياته الخاصة ، حياة تتصل في أعماقها بجذور الحياة الشاملة ، وتحفظ - إلى ذلك - بقدر من أسرار العالم المنطوي .

\* \* \*

أذنت الشمس بالمغيب ، والتفت زقاق المدق في غلالة سمراء من شفق الغروب ، زاد من سمرتها عمقًا أنه منحصر بين جدران ثلاثة كالمصيدة له باب على الصناديق ، ثم يصعد صعودًا في غير انتظام ، تحف بجانب منه دكان وقهوة وفرن ، وتحف بالجانب الآخر دكان ووكالة ، ثم ينتهي سريعًا - كما انتهى مجده الغابر - بيتين متلاصقين ، يتكون كلاهما من طوابق ثلاثة .

سكنت حياة النهار ، وسرى ديبب حياة المساء . همسة هنا وهممة هناك : يا رب يا معين . يا رزاق يا

عيناه الذابلتان الملهبتان على صبي القهوة سنقر في انتظار وقلق. ولمّا طال انتظاره، ولس تجاهل الغلام له، خرج عن صمته قائلاً بصوت غليظ:

- القهوة يا سنقر..!

والتفت الغلام نحوه قليلاً، ثمّ ولّاه ظهره بعد تردّد دون أن ينس بكلمة، ضارباً عن طلبه صفحاً. وأدرك المعجوز إهمال الغلام له، ولم يكن يتوقّع غير ذلك. ولكن جاءت نجدة من السماء، إذ دخل في تلك اللحظة رجل وقد سمع هتاف المعجوز ولاحظ إهمال الصبيّ، فقال للغلام بلهجة الأمر:

- هات قهوة الشاعر يا ولد..

وحدج الشاعر القادم بنظرة امتنان، وقال بلهجة لم تخل من أسى:

- شكراً لله يا دكتور بوشي..

فسلم الدكتور عليه، وجلس قريباً منه. وكان الدكتور يرتدي جلباباً وطاقيّة وقبّاباً! هو دكتور أسنان، إلاّ أنّه أخذ فنّه من الحياة بغير حاجة إلى ممارسة الطبّ أو آية مدرسة أخرى. اشتغل في بدء حياته تمورجياً لطبيب أسنان في الجماليّة، ففقه فنّه بحذقه وبرع فيه! وقد اشتهر بوصفاته المفيدة، وإن كان يفضل الخلع غالباً كأحسن علاج. ورتباً كان خلع الضرس في عيادته المتقلّة أليماً موجعاً، إلاّ أنّه رخيص، بقرش للفقراء وقرشين للأغنياء (أغنياء المدقّ طبعا)، فإذا حدث نزيف - وليس هذا بالأمر النادر - اعتُبر عادة من عند الله؛ وترك منعه أيضاً لله! وقد ركب للمعلّم كرشة صاحب القهوة طقماً ذهبياً بجنيهين بغير زيادة. وهو يُدعى في الزقاق والأحياء القريبة بالدكتور، ولعلّه أوّل طبيب يأخذ لقبه من مرضاه.

جاء سنقر بالقهوة للشاعر كما أمر الدكتور، فتناول الرجل القدح وأذناه من فمه وهو ينفخ ليطرد حرارته، وراح يرشف منه رشقات متتابعات حتّى أتى عليه، ثمّ نحاه جانباً. وذكر عند ذلك فحسب سوء سلوك صبيّ القهوة معه، فحدج بنظرة شزاء وتمتم ساخطاً:

- قليل الأدب..

ثمّ تناول الربابة يجرب أوتارها، متحامياً نظرات

العينين، ذو شعر مرجّل ضارب للصفرة على سمره بشرته، يرتدي بدلة، ولا يفوته لبس المريلة اقتداء بكبار الأسطوات!

لبث هذان الشخصان في دكّانيتها في حين أخذت الوكالة الكبيرة المجاورة للمصالون تغلق أبوابها وينصرف عمّالها، وكان آخر من غادرها السيّد سليم علوان، يرفل في جيبته وقفطانه، فاتّجه صوب الحانطور الذي ينتظره على باب الزقاق، وصعد إليه في وقار، وملاً مقعده بجسمه المكتنز يتقدّمه شاريان شركسيان. ودقّ الحوذنيّ الجرس بقدمه فرنّ بقوة، وانحدرت العربية ذات الحصان الواحد إلى الغوريّة في طريقها إلى الحلميّة. وأغلق البيتان في الصدر نوافذهما اتقاء البرد، ولاحت أنوار المصابيح وراء خصاصها، وكاد المدقّ يغرق في الصمت، لولا أن مضت قهوة كرشة ترسل أنوارها من مصابيح كهربائية، عثّش الذباب بأسلاكها، وراح يؤمّها السّمّار. هي حجرة مربعة الشكل، في حكم البالية، ولكتّنها على عفائها تزدان جدرانها بالأرابيسك، فليس لها من مطارح المجد إلاّ تاريخها، وعدّة أرائك تحيط بها. وعند مدخلها كان يكبّ عامل على تركيب مذياع نصف عمّر بجدارها.

وتفرّق نفر قليل بين مقاعدها يدخّنون الجوز ويشربون الشاي. وعلى كتب من المدخل ترّبع على الأريكة رجل في الخمسين يرتدي جلباباً ذا بنية موصول بها رباط رقبة ممّا يلبسه الأندليّة ويضع على عينيه المضعضتين نظارة ذهبية ثمينة! وقد خلع قبّابه على الأرض عند موضع قدميه، وجلس جامداً كالتمثال، صامتاً كالأموات، لا يلتفت يمنة ولا يسرة، كأنه في دنيا وحده. ثمّ أقبل على القهوة عجوز مهتمّ، لم يترك له الدهر عضواً سالتاً، يجزّه غلام بيسراه، ويحمل تحت إبط يمناه ربابة وكتاباً. فسلم الشيخ على الحاضرين، وسار من فوره إلى الأريكة الوسطى في صدر المكان، واعتلاها بمعونة الغلام، ثمّ صعد الغلام إلى جانبه، ووضع بينها الربابة والكتاب. وأخذ الرجل يهنيّ نفسه، وهو يتفرّس في وجوه الحاضرين كأنما ليمتحن أثر حضوره في نفوسهم، ثمّ استقرّت



## زقاق المدق ٦٤٣

إلى سردها من جديد. والناس في آيأماننا هذه لا يريدون الشاعر، وطالما طالبوني بالراديو، وما هو ذا الراديو يرُكِّب، فدعنا ورزقك على الله . . .

فاكفهر وجه الشاعر، وذكر محسورًا أنّ قهوة «كرشة» آخر ما تبقى له من القهوات، أو من أسباب الرزق في دنياه، بعد جأه عريض قديم. وبالأمس القريب استغنت عنه كذلك قهوة القلعة. عمر طويل ورزق منقطع، فماذا يفعل بحياته؟! وما جدوى تلقين ابنه البائس هذا الفن وقد بار وكسد؟! وماذا يجيء له المستقبل وماذا يضمّر لغلامه؟! اشتد به القنوط، وضاعف قنوطه ما لاح في وجه المعلم من الجزع والإصرار، فقال:

- رويدك يا معلم كرشة، إنّ للهلاليّ لجيدة لا تزول، ولا يَغني عنها الراديو أبدًا . . .

ولكنّ المعلم قال بلهجة قاطعة:

- هذا قولك، ولكنّه قول لا يقرّه الزبائن فلا تخرب

بيتي. لقد تغيّر كلّ شيء!

فقال الشاعر في قنوط:

- ألم تستمع الأجيال بلا ملل إلى هذه القصص من عهد النبيّ عليه الصلاة والسلام؟

فضرب المعلم كرشة على صندوق المركات بقوة وصاح به:

- قلت لقد تغيّر كلّ شيء!

وتحرّك عند ذلك - لأول مرة - الرجل الجامد الداهل - ذو الجلباب والبنيقة ورباط الرقبة والنظارة الذهبية فصعد بصره إلى سقف القهوة، وتنهّد من الأعماق حتّى خال المستمعون أنّه يزفر فتات كبده، وقال بصوت كالمناجاة:

- آه تغيّر كلّ شيء. أجل كلّ شيء يا ستي! كلّ شيء تغيّر إلّا قلبي فهو يحبّ آل البيت عامر . . .

وطامن رأسه ببطء، وهو يحركه ذات اليمين وذات اليسار، في حركات أخذت في الضيق رويدًا رويدًا حتّى عاد إلى موضعه الأوّل من الجمود، وغرق مرّة أخرى في غيبوبة. ولم يلتفت إليه أحد من اعتاد أحواله إلّا الشاعر فقد توجّه إليه كالمستغيث وقال له برجاء:

الغضب الّتي أطلقها عليه سنقر، وراح يعزف مَطلَعًا، لبثت قهوة كرشة تسمعه كلّ مساء عشرين عامًا أو يزيد من حياتها، وأخذ جسمه المهزول يهتزّ مع الربابة، ثمّ تتحنج وبصق ويسمل، ثمّ صاح بصوته الغليظ:

أول ما نبتدي اليوم نصليّ على النبيّ.

نبيّ عربيّ صفوة ولد عدنان.

يقول أبو سعدة الزناتيّ . . .

وقاطعه صوت أجشّ دخل صاحبه القهوة عند ذلك يقول:

- هس! . . . ولا كلمة أخرى.

فرغ بصره الذابل عن الربابة فرأى المعلم كرشة، بجسمه الطويل النحيل ووجهه الضارب للسواد وعينيه المظلمتين النائمتين، فنظر إليه واجمًا. وتردّد قليلاً كأنه لا يصدّق ما سمعت أذناه. وأراد أن يتجاهل شرّه، فاستدرك منشدًا:

يقول أبو سعدة الزناتيّ . . .

ولكنّ المعلم صاح به مغنيًا محنقًا:

- بالقوة تنشد؟! . . . انتهى . . . انتهى! ألم أندرك من

أسبوع مضى؟!

فلاح الاستياء في وجه الشاعر، وقال بلهجة ملوّه العتاب:

- أراك تكثر من «الكيف»، ثمّ لا تجد من ضحية

سواي!

فصاح المعلم في غضب وحنق:

- رأسي صاح يا مخرف، وأنا أعلم ما أريد أنحسب أتي آذن لك بالإنشاد في قهوتي إذا ما سلقنتي بلسانك القدر؟!!

فخفّف الشاعر من لهجته مستوهبًا عطف الرجل

الغاضب، وراح يقول:

- هذه قهوتي أيضًا. ألسنت شاعرها لعشرين عامًا خلون؟!!

فقال المعلم كرشة وهو يتخذ مجلسه المعتاد وراء صندوق الماركات:

- عرفنا القصص جميعًا وحفظناها، ولا حاجة بنا

- يا شيخ درويش أيرضيك هذا؟

ولكنه لم يخرج من غيبوته ولم ينبس بكلمة. وهنا قدم شخص جديد تعلقت به الأنظار في إجلال ومودة، وردوا تحيته بأحسن منها. كان السيد رضوان الحسيني ذا طلعة مهيبه، تمتد طولاً وعرضاً، وتنطوي عباءته الفضفاضة السوداء على جسم ضخم، يلوح منه وجه كبير أبيض مشرب بحمرة، ذو لحية صهباء، يشع النور من غرة جبينه، وتقطر صفحته بهاء وسباحة وإيماناً. سار متمهلاً خافض الرأس، وعلى شفثيه ابتسامة تشي بحبه للناس وللدنيا جميعاً، واختار مجلسه على المقعد التالي لأريكة الشاعر. وسرعان ما رحب به الشاعر وبثه شكواه. ومنحه السيد أذنه عن طيب خاطر وهو يعلم بما يكرهه، وكان حاول مراراً أن يثني المعلم «كرشة» عمّا اعترمه من الاستغناء عنه دون جدوى. ولما انتهى الشاعر من شكواه طيب خاطره، ووعده بأن يبحث لغلامه عن عمل يرتزق منه، ثم غمر كفه بما جادت به نفسه وهو يهمس في أذنه «كلنا أبناء آدم، فإذا ألحت عليك الحاجة فاقصد أخاك، والرزق رزق الله والفضل فضله». وزاد وجهه الجميل بعد هذا القول تألقاً، شأن الكريم الفاضل يحب الخير ويصنعه، ويزداد بصنعه رضاً وجمالاً. كان يحرص دائماً على ألا يفوته يوم من حياته دون صنع جميل، أو ينقلب إلى بيته ملوماً محسوراً. وأنه ليبدو لحبه الحيزر ولساحته كما لو كان من الموسرين المثقلين بالمال والمتاع، وإن كان في الواقع لا يملك إلا البيت الآمن من الزقاق وبضعة أقدنة بالمرج. وقد وجد فيه سگان بيته - المعلم كرشة في الطابق الثالث، وعم كامل والحلو في الطابق الأول - مالكا طيب القلب والمعاملة، حتى إنه تنازل عن حقه في الزيادة التي قررها الأمر العسكري الخاص بالسكن فيما يتعلّق بالطابق الأول رحمة بساكنيه البسيطين، فكان رحمة حيث حلّ وحيث يقيم. وقد كانت حياته - وبخاصة في مدارجها الأولى - مرتعاً للخيبة والألم. فانتهى عهد طلبه العلم بالأزهر إلى الفشل، وقطع بين أروقتة شوطاً طويلاً من عمره دون أن يظفر بالعالمية، وابتلي - إلى ذلك - بفقد الأبناء

فلم يبق له ولد على كثرة ما خلّف من الأطفال. ذاق مرارة الخيبة حتى أترع قلبه باليأس أو كاد، وتجرّع غصص الألم حتى تخايل لعينيه شبح الجزع والبرم، وانطوى على نفسه طويلاً في ظلمة غاشية. ومن ذجنة الأحزان أخرجه الإيمان إلى نور الحب، فلم يعد يعرف قلبه كرباً ولا همّاً. انقلب حباً شاملاً وخيراً عميقاً وصبراً جميلاً. وطأ أحزان الدنيا بنعليه، وطار بقلبه إلى السماء، وأفرغ حبه على الناس جميعاً، وكان كلما نكد الزمان عتناً ازداد صبراً وحباً، رآه الناس يوماً يشيع ابناً من أبنائه إلى مقرّه الأخير وهو يتلو القرآن مشرق الوجه، فأحاطوا به مواسين معزين، لكنّه ابتسم لهم، وأشار إلى السماء وهو يقول: «أعطى وأخذ، كل شيء بأمره وكل شيء له، والحزن كفر» فكان هو العزاء. ولذلك قال عنه الدكتور بوشي: «إذا كنت مريضاً فاللس السيد الحسيني يأتك الشفاء. وإذا كنت يائساً فطالع نور غرته يدركك الرجاء، أو محزوناً فاستمع إليه يبادرك الهناء». وكان وجهه صورة من نفسه، فهو الجمال الجليل في أبهى صورته.

أما الشاعر فقد رضي بعض الرضا، ووجد شيئاً من العزاء، وتزحزح تاركاً الأريكة، وتبعه الغلام وهو يلتمّ الرباة والكتاب. وشدّ الرجل على يد السيد رضوان الحسيني، وحيّا الجلوس متجاهلاً المعلم كرشة، ثم ألقى نظرة ازدرأ على المذيع الذي كاد العامل يفرغ من تشيته، وأعطى يده للغلام فجرّه إلى الخارج، وغابا عن الأنظار. ودبت الحياة مرة أخرى في الشيخ درويش، فأدار رأسه نحو الجهة التي اختفى فيها الذهابان، وتآوه قائلاً:

- ذهب الشاعر وجاء المذيع. هذه سنة الله في خلقه. وقدّمنا ذكرت في التاريخ وهو ما يسمّى بالإنجليزية (History) وتهجيتها . . (history).

وقبل أن يختم تهجئة الكلمة جاء عم كامل وعباس الحلو بعد أن أغلقا دكانيهما. ظهر الحلو أولاً، وقد غسل وجهه ورجل شعره الضارب للصفرة، وتبعه عم كامل يتبختر كالمحمل، ويقتلع قدميه من الأرض اقتلاعاً. وسلّمها على الحاضرين، وجلسا جنباً لجنب،

## زقاق المدق ٦٤٥

بكفئك قبل أن يتمتع بك. ستكون طعاماً مريئاً للدد، فيرعى في لحمك الهشّ مثل البسبوسة فيسمن وتصير الدودة كالضفدعة. ومعناها بالإنجليزي (Frog) وتهجيتها (frog).

وصدق عمّ كامل، ومضى يسأل الحلو عن نوع الكفن ولونه وعدد أدراجة، ثم دعا له طويلاً، وانبط وحمد الله. وارتفع عند ذلك صوت فتى آتياً من الطريق يقول:

- مساء الخير.

وأجبه صاحبه إلى بيت السيد رضوان الحسيني. كان القادم حسين كرشة ابن المعلم كرشة صاحب القهوة. فتى في العشرين في مثل لون أبيه الضارب إلى السواد، ولكنّه مشوق القوام، تدلّ ملامحه الدقيقة على الخدق والفتوة والنشاط، كان يرتدي قميصاً من الصوف الأزرق وينطوئاً خاكياً وقبعة وحذاء ثقيلًا، تلوح على سياه مظاهر نعمة المشتغلين بالجيش البريطاني. وكان ذلك ميعاد عودته من «الأرنس» كما يسمونه، فرمقه الكثيرون بعين الإعجاب والحسد، ودعاه صديقه الحلو إلى القهوة، ولكنّه شكره ومضى إلى حال سبيله.

\* \* \*

ساد الظلام الزقاق إلا ما ينبعث من مصابيح القهوة فيرسم على رقعة من الأرض مرتباً من نور تنكسر بعض أضلعه على جدار الوكالة. ومضت الأنوار الباهتة وراء خصائص نوافذ البيتين تنطفئ واحداً في إثر واحد. وأكب سهار القهوة على الدومينو والكومي، إلا الشيخ درويش فقد أغرق في ذهوله، وعمّ كامل مال رأسه على ثدييه وراح في سبات. وظلّ سنقر على نشاطه، يحمل الطلبات ويرمي بالماركات في الصندوق، والمعلم «كرشة» يتابعه بعينين ثقيلتين وهو يستشعر في خمول ذوبان الفصّ في جوفه ويستنيم إلى سلطنة لذينة. وتقدّمت جحافل الليل، فغادر السيد رضوان الحسيني القهوة إلى بيته. وتبعه بعد قليل الدكتور بوشي إلى شقته في الدور الأول من البيت الثاني. ثمّ لحق بهما الحلو وعمّ كامل. وأخذت المقاعد تخلو تباعاً، حتّى انتصف الليل فلم يبق بالقهوة إلا

وطلبا الشاي، ولم يكونا يجلان بمكان حتّى يملاّه ثرثرة. قال عباس الحلو:

- يا قوم اسمعوا: شكّا إليّ صديقي عمّ كامل قال إنّه عرضة للموت في آية لحظة، وإنه إذا مات فلن يترك ما يدفن به...

فقال بعض الحاضرين متهكّياً:

- أمة محمد بخير.

وقال البعض الآخر:

- إنّ له لتركة من البسبوسة تكفي لدفن أمة بأسرها.

وضحك الدكتور بوشي وخاطب عمّ كامل قائلاً:  
- لا تفتأ تذكر الموت. وتالله لتدفننا جميعاً بيدك...

فقال عمّ كامل بصوت بريء كالأطفال:

- أتق الله يا شيخ أنا رجل مسكين...

واستطرد عباس الحلو قائلاً:

- يا قوم: عزّت عليّ شكاة عمّ كامل، ولبسبوسته فضل علينا جميعاً غير منكور. فابتعت له كفنًا احتياطياً، واحتفظت به في مكان حرير لساعة لا مفرّ منها، (والفتت إلى عمّ كامل قائلاً) هذا سرّ أخفيته عنك، وها أنا أعلنه على الملأ ليكونوا عليّ شهوداً.

فأبدى الكثيرون عن اغتباطهم، متصنعين الخد، ليجوز الكلام على عمّ كامل المشهور بسرعة تصديقه، وأثنوا على مروءة الحلو وكرمه، وقالوا: إنّ هذا صنيع خليق به نحو الرجل الذي يجبه ويساكنه شقة واحدة، ويشاطره العيش كأنه من لحمه ودمه. حتّى السيد رضوان الحسيني ابتسم راضياً، ممّا جعل عمّ كامل ينظر إلى الشابّ في سداجة ودهشة ويقول متسائلاً:

- أحقّ ما تقول يا عباس!؟

فقال الدكتور بوشي:

- لا يداخلك الشكّ يا عمّ كامل. لقد علمت بما يقول صاحبك، ورأيت الكفن بعينيّ رأسي، وهو كفن قيم وددت لو يكون لي مثله..

وتحرّك الشيخ درويش للمرة الثالثة فقال:

- حظّ سعيد. الكفن سترة الآخرة. يا كامل تمّتع

خصمه بالإنجليزية، فإذا اعترض الرجل على استعمال لغة أجنبية دون موجب، صاح به في ازدراء شديد «تعلم أولاً ثم خاطبني!». وكانت أنباء شجاره وعناقه تتصل برؤسائه أولاً فأول، وكانوا يتسامحون معه، عطفًا عليه من ناحية، وتحامياً لشره من ناحية أخرى، ولذلك اطردت حياته دون عقاب يذكر إلا بعض الإنذارات، وخُصم يوم أو يومين. ولكنّه ازداد بمرور الأيام صلفاً، حتى تراءى له يوماً أن يحرّر خطاباته المصلحية باللغة الإنجليزية ففعل. وكان يقول في تسويغ ذلك إنه موظف فتي لا كغيره من الكتاب. وتعطل عمله مما دعا مديره لمعاملته بالحزم والقسوة، ولكنّ المقدّر كان أسرع من حزم المدير، فطلب الرجل يوماً مقابلة وكيل الوزارة، ودخل درويش أفندي - كما كان وقتذاك - حجرة الوكيل في تؤدة ووقار، وحيّاه تحية النذل، وبادره قائلاً بثقة ويقين:

- يا سعادة الوكيل لقد اختار الله رجّله.

فطلب إليه الوكيل أن يفصح عمّا يريد، فاستدرك قائلاً بوقار وجلال:

- أنا رسول الله إليك بكادر جديد.

هكذا خُتمت حياته بالأوقاف. وهكذا قُطعت صلته بالهيئة الاجتماعية التي كان واحداً منها. هجر أهله وإخوانه ومعارفه إلى دنيا الله كما يسمّيها، ولم يستبق من آثار الماضي شيئاً إلا نظارته الذهبية. ومضى في عالمه الجديد بلا صديق ولا مال ولا مأوى. ودلّت حياته على أنّ بعض الناس يستطيعون أن يعيشوا في هذه الدنيا المتقيحة بمرارة الكفاح بلا مأوى ولا مال ولا معين، ثم لا يجدون همّاً ولا كرباً ولا حاجة. لا جاع يوماً ولا تعرّى ولا شرد. وانتقل إلى حال من السلام والطمأنينة والغبطة لا عهد له بها. وإذا كان قد فقد بيته فالدنيا جميعاً صارت بيتاً له، وإذا كان قد خُرم مرتبه فالتعلّق بالمال قد انقطع عنه، وإذا كان قد خسر الأهل والأصدقاء فالناس جميعاً انقلبوا له أهلاً. يبيل الجلباب فيأتيه جلباب جديد، ويتمزّق رباط الرقبة فيجيئه رباط جديد، ولا يحلّ مكاناً حتى يرحب به ناسه. وبحسبه أن يفتقده المعلم كرشة نفسه - على

ثلاثة: المعلم والصبيّ والشيخ درويش. وجاء نفر من المعلمين أقران المعلم «كرشة». وصعدوا جميعاً إلى حجرة خشبية على سطح بيت السيّد رضوان، وتحلّقوا المجرمة، وبدعوا سهرة جديدة لا تنتهي حتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، وخاطب سقر الشيخ درويش قائلاً برقة:

- انتصف الليل يا شيخ درويش...

فانتبه الشيخ إلى صوته، وخلع نظارته بهدوء وجلاها بطرف جلبابه، ثم لبسها من جديد وسوّى رباط رقبته ونهض قائماً واضعاً قدميه في القباب وغادر القهوة دون أن ينس بكلمة، يخرق السكون بضربات قبابه على بلاط الزقاق. كان السكون شاملاً، والظلمة ثقيلة، والطرق والدروب خالية مقفرة، فترك لقدميه مقوده، حيث لا دار له ولا غاية، وغاب في الظلمة.

\*\*\*

كان الشيخ درويش على عهد شبابه مدرّساً في إحدى مدارس الأوقاف، بل كان مدرّس لغة إنجليزية! وقد عُرف بالاجتهاد والنشاط، وأضعفه الحظّ أيضاً فكان ربّ أسرة سعيدة. ولما أن انضمت مدارس الأوقاف إلى وزارة المعارف، سُويت حالته ككثيرين من زملائه غير ذوي المؤهلات العالية، فاستحال كاتباً بالأوقاف، ونزل من الدرجة السادسة إلى الثامنة، وعُدّل مرتبه على هذا الأساس. كان من الطبيعي أن يجزن الرجل لمصيره حزناً عميقاً وثار ثورة جامحة ما وسعته الثورة، يعلنها حيناً، ويكتمها - مفسوراً مغلوباً على أمره - أحياناً. ولقد سعى كلّ مسعى، وقدم الالتماسات، واستشفع الرؤساء، وشكا الحال وكثرة العيال، دون جدوى. ثمّ سلّم للقنوط بعد أن تحطمت أعصابه أو كادت. واشتهر أمره في الوزارة كموظف كثير التبرّم والشكوى، عظيم اللجاج والعناد، سريع التأثر، لا يكاد يمضي يوم من حياته دون شجار أو اصطدام، كبير الاعتداد بنفسه والتحدّي للآخرين. وكان إذا شجر بينه وبين آخر خلاف - وكثيراً ما يحدث - تعالى استكباراً، وخاطب

## زقاق المنق ٦٤٧

قبلتين، وجلسنا جنباً لجنب، وأم حميدة تقول:  
 - أهلاً... أهلاً... زارنا النبي يا ست سنية.  
 كانت أم حميدة ربة ممتلئة في الستين، ولكتها  
 معافاة قوية، جاحظة العينين، مجدورة الخدين، ذات  
 صوت غليظ قوي النبرات، فإذا تحدت فكأنها تزعق،  
 وهو سلاحها الأول فيما يشجر بينها وبين الجارات من  
 نزال. ولم تكن مرتاحة للزيارة بطبيعة الحال، لأن  
 زيارة تقوم بها صاحبة الملك أمر قد تسوء عواقبه، وقد  
 ينذر بالخطر. ولكتها وطنت النفس على أن تلبس لكل  
 حال لبوسها، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وإتها على  
 كلتا الحاليتين لقادرة. وكانت بحكم وظيفتها - خاطبة  
 وبلاثة - عميقة الملاحظة كثيرة الكلام. بل كانت لساناً  
 لا يكف ولا يُسك، ولا يكاد تفوته شاردة أو واردة  
 عن شخص من شخوص الحي أو بيت من بيوته،  
 فهي مؤرخة راوية لأخبار السوء - على الغالب -  
 ومعجم للمنكرات. وأرادت كعادتها أن تتسلى بالكلام  
 فراحت ترحب بالضييفة، وتطنب في الثناء عليها،  
 وتروي لها نتفاً من أبناء الزقاق والأخبار المجاورة: أما  
 علمت بفضيحة المعلم كرشة الجديدة؟ هي كسابقاتها،  
 وقد أتصل الخبر بزوجه فتعاركت معه ومزقت جيبته.  
 وحسنية القرانة ضربت زوجها جمعة أمس حتى بض  
 الدم من جيبته. والسيد رضوان الحسيني الطيب الورع  
 زجر زوجه زجراً شديداً، لماذا يعاملها هذه المعاملة -  
 وهو الرجل الطيب - إن لم تكن شريرة خبيثة! الدكتور  
 البوشي احتك بفتاة صغيرة في المخبأ في آخر غارة  
 وضربه رجل محترم. كريمة الماوردي تاجر الخشب فرت  
 مع خادمها وبلغ أبوها القسم. طابونة الكفراوي تبيع  
 عيشاً مخلوط سرّاً، ألخ ألخ.

أصغت الست سنية عفيفي بأذن غير واعية لأنها  
 كانت مشغولة بالأمر الذي جاءت من أجله. وقد  
 صدقت نيتها على أن تطرق الموضوع الذي طال  
 اختباره بنفسها معها كلفها الأمر. بيد أنها نازعت المرأة  
 الحديث حتى تهتأ لها فرصة مواتية. وقد تهتأت هذه  
 الفرصة حين سألتها أم حميدة قائلة:

- وكيف الحال يا ست سنية؟

ذهوله - إذا غاب عن القهوة يوماً. ومع ذلك فلم يكن  
 يأتي شيئاً مما يعتقد فيه العامة من المعجزات والحوارق  
 وقراءة الغيب. فهو إما ذاهل صامت، أو مرسل القول  
 كما يحب لا يدري أتى يكون موقعه من النفوس. بيد  
 أنه رجل محبوب مبارك، يستبشر الجميع بوجوده بينهم  
 خيراً، ويقولون عنه إنه ولي من أولياء الله الصالحين،  
 يأتيه الوحي باللغتين العربية والإنجليزية.

- ٢ -

نظرت إلى المرأة بعين غير ناقدة، أو بالأحرى بعين  
 تتلمس مواضع الرضا، فعمست المرأة وجهها نحيلاً  
 مستطيلاً فعل الزواق بخديه وحاجبيه وعينيه وشفتيه  
 الأعاجيب. وجعلت تعطفه يمنة، وتعطفه يسرة،  
 وأصابعها تنسق ضفيرتها، مغممة بصوت لا يكاد  
 يُسمع «لا بأس، جميل، وأيم الله جميل». والحق أن  
 هذا الوجه قد طالع الدنيا ما يقارب الخمسين عاماً،  
 والدنيا لا تدع وجهاً سالمًا نصف قرن من الزمان. أما  
 جسمها فنحيل، أو جاف كما تصفه نسوة الزقاق، وأما  
 الصدر فامسح، بيد أن فستاناً حسناً يستره. هذه هي  
 الست سنية عفيفي صاحبة البيت الثاني بالزقاق، حيث  
 يسكن الدكتور بوشي طابقه الأول، وفي ذلك اليوم  
 كانت تأخذ أهبثها لزيارة الشقة الوسطى التي تقيم بها  
 أم حميدة. ولم يكن من عاداتها الإكثار من زيارة أحد،  
 وربما لم تكن تدخل هذه الشقة إلا أول كل شهر  
 لتحصيل الأجرة، إلا أن باعاً جديداً دب في أعماق  
 نفسها جعل زيارة أم حميدة من الواجبات الهامة.  
 وهكذا غادرت شقتها، ونزلت السلام، متممة برجاء  
 «اللهم حقق الآمال» ودقت بكفها المعروفة ففتحت لها  
 حميدة. واستقبلتها بابتسامة الاستقبال المتصنعة،  
 وقادتها إلى حجرة الضيوف، ثم ذهبت تدعو أمها.  
 كانت الحجرة صغيرة، بها كنبتان من الطراز القديم  
 متقابلتين، وفي الوسط خوان باهت عليه نافضة  
 سجائر، وأما أرضها فمفروشة بحصيرة. ولم يطل  
 بالمرأة الانتظار، فسرعان ما جاءت أم حميدة مهرولة  
 وقد غيرت جلباب البيت، فسلمنا بشوق، وتبادلنا

فعبست قليلاً وقالت:

. - الحقّ أنّي تعب! يا ستّ أمّ حميدة.

فرفعت أمّ حميدة حاجبيها كالمنزعجة وقالت:

- تعب! كفى الله الشرّ!

وأمسكت ستّ سنيّة ريشاً تضع حميدة - وكانت دخلت الحجر في هذه اللحظة - صينيّة القهوة على الخوان وتعود من حيث أتت، ثمّ قالت بامتعاض:

- تعب يا ستّ أمّ حميدة. أليس من المتعب تحصيل أجور الدكاكين؟ تصوّري وقوف امرأة مثلي أمام رجل غريب تطالبه بالأجرة. . .

وقد خفق قلب أمّ حميدة لسيرة الأجور ولكتّها قالت بنبرات أسيفة:

- صدقت يا ستّي. كان الله في عونك.

ولم تفتها ملاحظة هامة فتساءلت: لماذا تكثّر المرأة من ترداد هذه الشكوى؟ وذكرت أنّها أعادتها على سمعها مرّات! بل ذكرت أنّ هذه ثاني أو ثالث مرّة تزورها في غير أوّل الشهر. وخطر لها خاطر عجيب دهشت له بحكم وظيفتها، وكانت في أمثال هذه المسائل خاصّة ذات فراسة لا تجارى، فصمّمت أن تسبر الزائرة من وراء وراء، فقالت بخبث:

- هذه إحدى شرور الوحدة. أنت امرأة وحيدة يا ستّ سنيّة. في البيت وحدك، وفي الطريق وحدك، وفي «الفراش» وحدك، ألا قطعت الوحدة. . .

وسرّت الستّ سنيّة بحديث المرأة الذي كأنه يلّتي خواطرها، وقالت وهي تخفي سرورها به:

- وما عسى أن أصنع؟ أقاري ذو أسر، وأنا لا أرتاح إلّا في بيتي. والحمد لله الذي أغنانني عن الناس جميعاً. . .

وكانت أمّ حميدة تلحظها بمكر، فقالت فاتحة آخر الأبواب:

- الحمد لله ألف مرّة، ولكن بالله خبريني لماذا قضيت على نفسك بالعزوبة هذا الدهر الطويل. . .!

فخفق فؤاد الستّ سنيّة، ووجدت نفسها وجّها

لوجه حيال ما تريد، ولكتّها تنهّدت بإنكار وقالت بتأفف متكلف:

- حسبي ما ذقت من مرارة الزواج. . .!

كانت الستّ سنيّة عفيفي قد تزوّجت في شبابها من صاحب دكّان روائح عطريّة، ولكنه كان زواجاً لم يصادفه التوفيق، فأساء الرجل معاملتها، وأشقى حياتها، ونهب مالها، ثمّ تركها أرملة منذ عشرة أعوام. وليت أرملة طوال تلك الأعوام لأنّها - على حدّ قولها - كرهت حياتها الزوجيّة.

ولم يكن هذا القول مجرّد كذب تداري به إهمال الجنس الآخر لها، فقد كرهت الحياة الزوجيّة حقّاً، وفرحت باسترداد حرّيّتها وأمنها، وظلّت على نفورها من الزواج وفرحها بحرّيّتها عهداً طويلاً، ثمّ أنسيت تلك العاطفة بمرور الزمن ولم تكن تتردّد عن تجربة حظّها من جديد لو تقدّم لطلب يدها طالب. وجعلت تراود الأمل حيناً بعد حين، حتّى طال به الأمد، فغلبها القنوط، وصرفت نفسها عن مراودة الآمال الكواذب، ووطّنت النفس على الرضا بحياتها كما هي. ولما كان من الضروريّ أن يوجد في حياة الإنسان شيء تنعقد حوله آماله، شيء يقرّر لحياته قيمة ولو وهميّة أو سخيفة، فقد وجدت ضالّتها كذلك. ومن حسن الطالع أنّها لم تكن ممّا ينتقص امرأة عازبة مثلها، فأولعت بالقهوة والسجائر واكتناز الأوراق الماليّة الجديدة. وقد كانت في الأصل تميل قليلاً نحو الحرص، وكانت من العملاء القدماء لصندوق التوفير، فجاءت الهواية الجديدة تؤكّد ذلك الميل القديم وتقويه وتقوى به. وكانت تحتفظ بالأوراق الجديدة في صندوق عاجي صغير أخفته في أعماق صوان ملابسها، ووزّعها رزماً من ذوات الخمس والعشر، تتسلّى بمشاهدتها ومعاودة عدّها وترتيبها. ولما كانت الأوراق خرساء لا كالنقود المعدنيّة فقد أمنت الأخطار، ولم يدر بها أحد من شطّار المدقّ على شدّة حساسيّتهم. وجدت في حياتها الماليّة عزاء. وانتحلت منها اعتذاراً لعزوبتها، وقالت لنفسها إنّ أيّ زوج خليق بأن ينهب أموالها كما فعل الزوج المرحوم، وبأن يضيّع عليها في

## زقاق المدق ٦٤٩

فارتاحت الست، ولكتها كانت لا تزال مصرّة على تمثيل دور من يُساق إلى قبول الزواج بلا تعمد ولا رغبة، فتساءلت بعد تردّد:

- ألا يعيبي أن أقدم على الزواج الآن بعد ذلك العهد الطويل من العزوبة؟

فخاطبت أم حميدة نفسها قائلة: «لماذا قصدتني إذا يا مرة؟». ثمّ خاطبت الستّ قائلة:

- كيف يعيبك ما هو شرع وحقّ! أنت ستّ عاقلة شريفة، والكلّ يشهد لك بذلك. والزواج نصف الدين يا حبيبتى، وربّنا شرّعه حكمة، وأمر به النبيّ عليه الصلاة والسلام..

فقالت سنّية بإيمان:

- صلّى الله عليه وسلّم.

- كيف لا يا حبيبتى! نبيّ عربيّ ومحّبّ عبيده!

وكان وجه الستّ سنّية قد تورّد تحت قناع الأحمر، وثلث فؤادها سرورًا، فقالت وهي تستخرج سيجارتين من علبتها:

- ومن يرضى بالزواج منّي؟

فتنت أم حميدة سبابة يسراها، ولصقتها بحاجبها، وقالت باستنكار:

- ألف رجل ورجل.

فضحكت الستّ بمجامع قلبها وقالت:

- رجل واحد يكفي..

فقالت حميدة بيقين:

- الرجال جميعًا يحبّون الزواج في أعماقهم. ولا يكاد يشكر الزواج إلّا المتزوّجون. وكم من رجل عازب راغب عن الزواج، ما إن أقول له: «عندي عروس لك!» حتّى تدبّ في عينيه اليقظة، ويغلبه الابتسام، ويسألني في لطفة لا تخفى: «حقًا.. من!.. من؟». الرجل يريد المرأة ولو أقعده الكساح، وهذه حكمة ربّنا.

فهزّت الستّ سنّية رأسها في ارتياح وقالت:

- جلّت حكمته!

- نعم يا ستّ سنّية، لذلك خلق الله الدنيا. كان في وسعه أن يملأها رجالًا فحسب، أو نساء فحسب،

غمضة عين ثمرة الأعوام الطوال، ومع ذلك فما كاد يتسرّب إلى قلبها الإجماع بفكرة الزواج حتّى تناست الأعدار والمخاوف جميعًا. وكانت أم حميدة المسئولة عن هذا التحوّل العجيب، سواء عن قصد أو عن غير قصد، بما قصّته عليها مرّة من تزويجها لأرملة عجوز. ففكرت في الأمر على أنّه ممكن التحقيق، وسرعان ما استولى على إرادتها، فتدافعت إلى طاعته لا تلوي على شيء. ظنّت يومًا أنّها نسيت الزواج. فإذا بالزواج أملها المنشود الذي لا يغني عنه شيء من مال أو قهوة أو سجائر أو أوراق مالّية جديدة. وجعلت تتساءل في جزع كيف ضاع ذاك العمر هباء؟ كيف قطعت عشرة أعوام حتّى شارفت الخمسين وحيدة؟! وقالت إنّ هذا هو الجنون، وحملت زوجها المرحوم تبعته، وصمّمت على أن تكفّر عنه اليوم قبل الغد إن أمكن.

وأصغت الخاطبة إلى تأفّفها المتصنّع بفطنة واستهانة وقالت لنفسها: «لا يجوز عليّ مكرك يا مرّة». ثمّ خاطبتها بلهجة تنمّ عن لوم:

- لا تغالي يا ستّ سنّية. إذا كان حظّك الأوّل قد خاب فالزيجات السعيدة تملأ المشرق والمغرب..

فقالت الستّ سنّية وهي تعيد قدح القهوة إلى الصينية شاكرة:

- لا ينبغي لعامل أن يعاند الحظّ إذا تجهم.

فاعترضتها أم حميدة قائلة:

- ما هذا الكلام يا ستّ العاقلات! كفاك وحدة كفاك.

فدقّت المرأة صدرها الأمسح بباطن يسراها وقالت بإنكار مصطنع:

- يا خبر. أتريدين الناس على أن يرموني بالجنون؟!

- أيّ أناس تعين؟ إنّ أكبر منك يتزوّجن كلّ يوم.

فتضايقت من «أكبر منك» وقالت بصوت منخفض:

- لست من الكبر كما تظنّين.. لعن الله الهّم.

- ما قصدت هذا يا ستّ سنّية. وما أشكّ في أنّك

ما زلت في حدود الشباب، ولكنه الهّم الذي تلتحفين به مختارة.

- أقول له سيّدة نُصّف، ولا ولد لها ولا حماة، أدب  
وكمال، صاحبة دكانين بالحمزاوي وبيت ذي طابقين  
بالمدق ..

فابتسمت الستّ وقالت تصحّح لها ما حسبته  
هفوة:

- بل ذلك ثلاثة طوابق.

ولكنّ الأخرى قالت معترضة:

- اثنان فحسب، لأنّ الطابق الثالث الذي أسكنه

لن تقبضي إيجاره مدى حياتي!

فقالست ستّ سنّية في سرور:

- لك عيناى يا ستّ أمّ حميدة!

- سلمت عيناك. ربّنا بيّئ ما فيه الخير.

فهزّت رأسها الأخرى كالمتعجّبة وقالت:

- يا للعجب! جئتكم لمجرد الزيارة فانظري كيف

انتهى بنا الحديث؟ وكيف أغسارك في حكم

المتزوجات؟!

فجارتها أمّ حميدة في ضحكها كالمتعجّبة أيضًا، وإن

راحت تقول لنفسها: «يا مرة احتشمتي، أحسّين أنّ

مكرك يجوز عليّ؟!» ثمّ قالت:

- إرادة ربّنا! ليس كلّ شيء بأمره؟!

وعادت الستّ سنّية عفيفي إلى شقّتها مسرورة

فرحة، بيد أنّها حدثت نفسها قائلة: «إيجار شقّة مدى

الحياة! يا لها من امرأة جشعة».

- ٣ -

ودخلت حميدة الحجره عقب مغادرة الستّ سنّية

لها. كانت تمشط شعرها الأسود تفوح منه رائحة

الكيروسين. فنظرت أمّ حميدة إلى الشعر الفاحم

اللامع تكاد تجاوز ذؤاباته المسترسلة ركبتى الفتاة،

وقالت بأسف:

- واحسرتاه كيف تدعين القمل يرعى هذا الشعر

الجميل!

فبرقت عينان سوداوان مكحلّتان بأهدابٍ وُطّف،

ولاحت فيهما نظرة حادة صارمة، وقالت الفتاة بحدّة:

- قمل!؟ والنبيّ ما وجد المشط إلاّ قملتين اثنتين!

ولكن خلق الله الذكر والأنثى، ومنحنا العقل كي  
نفهم مراده، فلا محيد عن الزواج.

فابتسمت الستّ سنّية عفيفي وقالت برقة:

- كلامك كالسكر يا ستّ أمّ حميدة!

- حلّى الله دنياك، وأنس قلبك بالزواج الكامل.

فتشجعت الستّ وقالت:

- إن شاء الله، وبفضلك.

- أنا امرأة - بحمد الله - مباركة. زيجاتي لا انفصام

لها. ياما عمّرت بيوتًا، وأنجبت أطفالًا، وأسعدت

قلوبًا. فليكن اعتيادك على الله وعليّ ..

- جزاؤك لن يقدر بمال.

فقالست أمّ حميدة في سرّها: «لا .. لا يا مرة، ينبغي

أن يقدر بمال، وبمال كثير. هلمّي إلى صندوق التوفير

وأعطيني، وكفالك تقشيرًا ..» ثمّ قالت بلهجة رزينة

شأن رجال الأعمال إذا فرغوا من المقدمات وطرقوا

الهامّ من الأمور:

- أظنك تفضّلين رجلًا متقدّمًا في السنّ؟!

لم تدّر الأخرى بماذا تجيب. لم تكن تطمع في الزواج

من شابّ، ولا كان الشابّ بالزوج الذي يناسبها،

ولكنها لم تترجح إلى «متقدّم في السنّ» هذه، وكان تدرّج

الحديث قد خلطها بأمّ حميدة فآنست إليها،

واستطاعت أن تقول وهي تضحك لتداري ارتباكها:

- أصوم وأفطر على بصلة!

فضحكت أمّ حميدة ضحكة عالية رنت رنينًا

مزعجًا، وازدادت اطمئنًا إلى نفاسة الصفة التي هي

بصددها عقدها، ثمّ قالت بخبث:

- صدقت يا ستّ. والحقّ أنّ التجارب دلّتني على

أنّ أسعد الزيجات ما كبرت الزوجة فيها الزوج، ولكم

يناسبك رجل في الثلاثين أو يزيد قليلًا.

فتساءلت المرأة في قلق:

- وهل يوافق؟

- يوافق ويوافق! أنت سيّدة جميلة وغنيّة!

- سلمت من كلّ سوء!

فقالست أمّ حميدة وقد لبس وجهها المجدور هيئة الجدّ

والاهتمام:



## زقاق المدق ٦٥١

- هل جئت؟  
 - أجل جئت، ولكن تخفي..  
 فنفخت الفتاة وهي تقول:  
 - أتعبتني!  
 فأرعشت المرأة حاجبها وقالت وهي تغمز بعينها:  
 - صاحبك تروم الزواج!  
 فتولت الفتاة الدهشة وقالت:  
 - الزواج!  
 - أجل. وتريد شاباً. أسفي عليك من شابة عائرة  
 الحظ لا تجد من يطلب يدها!  
 فحجتها الفتاة بنظرة شزاء وقالت وهي تضفر  
 شعرها:  
 - بل أجد كثيرين، ولكنك خاطبة فاشلة تريدين أن  
 تداري فشلك. وماذا بي ممّا يعيب؟ ولكنك كما قلت  
 امرأة فاشلة، يصدق عليك المثل القائل «باب النجار  
 مخلع»..  
 فابتسمت أم حميدة قائلة:  
 - إذا تزوجت السّت سنية عفيفي فلا يصح لامرأة  
 أن تياس..  
 ولكن الفتاة رمتها بنظرة غاضبة وقالت بحدة:  
 - لست أجري وراء الزواج، ولكنّه يجري ورائي  
 أنا، وسأنبذه كثيراً..  
 - طبعاً! أميرة بنت أمراء!  
 فتغاضت الفتاة عن سخريه أمها وقالت بنفس  
 اللهجة الحادة:  
 - أفي هذا الزقاق أحد يستحق الاعتبار؟  
 ولم تكن الأم في الواقع يداخلها خوف على الفتاة  
 من البوار، ولا تشك في جمالها، ولكنها كانت كثيراً ما  
 تثور بعجبها وغرورها. فقالت باستياء:  
 - لا تسلقي الزقاق بلسانك، إنّ أهله سادة الدنيا!  
 - سادة دنياك أنت. كلهم كعدمهم، اللهم إلا  
 واحداً به رمق جعلتموه أخي!  
 وكانت تعني حسين كرشة أختها بالرضاعة، فهال  
 أمها الأمر وقالت بلهجة انتقاد واستياء:  
 - كيف تقولين هذا؟ ما جعلناه أختاً، وما غلك أن

- أنسيت يوم مشطتك من أسبوعين وهرست لك  
 عشرين قملة؟  
 فقالت بغير مبالاة:  
 - كان مضي على رأسي شهران بلا غسل..  
 ثم اشتد ساعدها في التمشيط وهي تجلس جنب  
 أمها. كانت في العشرين، متوسطة القامة، رشيقة  
 القوام، نحاسية البشرة، يميل وجهها للطول، في نقاء  
 ورواء، وأميز ما يميزها عينا سوداوان جميلتان، لها  
 حور بديع فاتن، ولكنها إذا أطبقت شفيتها الرقيقتين  
 وحذت بصرها تلبستها حالة من القوة والصرامة لا  
 عهد للنساء بها! وقد كان غضبها دائماً ممّا لا يستهان به  
 حتى في زقاق المدق نفسه. وأمها على ما اشتهرت به  
 من القوة تتحاماها ما استطاعت. قالت لها يوماً وهما  
 تتسبان: «لن يلم الله شعئك برجل، فأبي رجل يرضى  
 بأن يضم إلى صدره جرة موقدة!». وكانت تقول في  
 مرات أخرى: إنّ جنوناً لا شك فيه يتاب ابنها حين  
 الغضب، وسمتها لذلك الخمسين باسم الرياح  
 المعروفة. ومع ذلك كانت تحبها كثيراً وإن كانت في  
 الحقيقة أمها بالتبني. كانت الأم الحقيقية شريكة لها في  
 الأتجار بالمفتحة والموعات، ثم شاطرتها شقتها بالزقاق في  
 ظروف سيئة، وأخيراً ماتت بين يديها تاركة طفلتها في  
 سن الرضاع، فتبنتها أم حميدة، وعهدت بها إلى زوج  
 المعلم كرشة القهوجي فأرضعتها مع ابنها حسين  
 كرشة، فهي. أخته بالرضاعة.  
 مضت تمشط شعرها الفاحم منتظرة كالعادة أن  
 تعلق أمها على الزيارة والزائرة، ولما طال الصمت  
 قالت الفتاة:  
 - طالت الزيارة، فيم كئنا نتحدثان؟  
 فضحكت أمها في سخريه وتمتت:  
 - تخفي!  
 فقالت الفتاة وقد اشتد اهتمامها:  
 - طلبت رفع الإيجار.  
 - لو فعلت لخرجت محمولة على أيدي رجال  
 الإسعاف، ولكنها طلبت خفضه؟  
 فصاحت حميدة:

الزقاق؟! ولماذا كانت أمك هذه المرأة التي لا تميّز بين  
التبر والتراب؟!

ثمّ دلفت من النافذة الوحيدة في الحجرة التي تطلّ  
على الزقاق، ومدّت يديها إلى مصراعها المفتوحين  
وجذبتهم حتى لم يعد يفرج بينهما إلا مقدار قيراطين من  
الفراغ، وارتفعت النافذة ملقبة ببصرها إلى الزقاق،  
متقلّة به من مكان إلى مكان، قائلة وكأنّما تخاطب  
نفسها في سخرية:

- مرحبًا يا زقاق الهنا والسعادة. دمت ودام أهلك  
الأجلاء. يا لحسن هذا المنظر، ويا لجمال هؤلاء  
الناس. ماذا أرى؟! هذه حسنة الفرانة جالسة على  
عثة الفرن كالزكية عينًا على الأرغفة وعينًا على جمعة  
زوجها، والرجل يشتغل غخافة أن تنهال عليه لكلماتها  
وركلماتها. وهذا المعلم كرشة القهوجي متطامن الرأس  
كالنائم وما هو بالنائم. وعمّ كامل يغطّ في نومه،  
والذباب يرقص على صينية البسبوسة بلا رقيب. آه.  
وهذا عباس الخلو يسترق النظر إلى النافذة في جمال  
ودلال، ولعلّه لا يشكّ في أنّ هذه النظرة سترميني عند  
قدمه أسيرة لهواه، أدركوني يا هوه قبل التلف. أمّا هذا  
فالسيد سليم علوان صاحب الوكالة، رفع عينيه يا أمّاه  
وغضبها، ثمّ رفعها ثانية،.. قلنا الأولى مصادفة،  
والثانية يا سليم بك؟! ربّاه هذه نظرة ثالثة! ماذا  
تريد يا رجل يا عجوز يا قليل الحياء؟!.. مصادفة كلّ  
يوم في مثل هذه الساعة؟! ليتك لم تكن زوجًا وأبًا إذا  
لبادلتك نظرة بنظرة، ولقلت لك أهلاً وسهلاً ومرحبًا.  
هذا كلّ شيء، هذا هو الزقاق فلماذا لا تهمل حميدة  
شعرها حتى يقمل؟!.. أوه... ها هو ذا الشيخ  
درويش قادمًا يضرب الأرض بقبّابه...

وهنا قاطعتها أمّها في سخرية:

- ما أحقّ الشيخ درويش أن يكون زوجًا لك!  
فلم تلتفت إليها، ورقصت لها عجيزتها وهي  
تقول:  
- يا له من رجل مقتدر. يقول إنّه أنفق في حبّ  
السيدة زينب مائة ألف، فهل يبخل بعشرة آلاف؟!!

نصنع أختًا ولا أختًا، ولكنّه أحوك بالرضاعة كما أمر  
الله..

فغلبتها روح المجنون وقالت عابثة:  
- ألا يجوز أن يكون قد رضع من ثدي ورضعت أنا  
من الآخر?  
فلكمتها أمّها في ظهرها وصاحت بها:  
- قاتلك الله..

فغمغمت الفتاة بازدياء:

- زقاق العدم!  
- أنت تستحقّين موظفًا قدّ الدنيا!  
فتساءلت بتحدّ:  
- هل الموظف إله?  
فتهدّت الأمّ قائلة:  
- آه لو تخفّفين من غلوائك...!  
فقلّدت لهجة أمّها قائلة:  
- آه لو تنصّفين ولو مرّة في العمر!  
- آكلة شاربة ثمّ لا تشكرين. أتذكرين كيف  
أطلقت عليّ لسانك الطويل بسبب جلباب!  
فقال حميدة بدهشة:

- وهل الجلباب شيء يهون؟!... ما قيمة هذه  
الدنيا بغير الملابس الحديدية؟! ألا ترين أنّ الأولى  
بالبفاعة التي لا تجد ما تترين به من جميل الثياب أن  
تدفن حيّة؟!!

ثمّ امتلأ صوتها أسفًا وهي تقول مستدركة:  
- آه لو رأيت بنات المشغل! آه لو رأيت اليهوديات  
العاملات! كلهنّ يرفلن في الثياب الجميلة. أجل ما  
قيمة الدنيا إذا لم نرتدّ ما نحبّ?!  
فقال الأمّ باستياء:

- أفقدتك مراقبة فتيات المشغل واليهوديات عقلك،  
وهيهات أن يهدأ لك بال..

فلم تعبأ قولها وكانت انتهت من تضفير شعرها.  
فاستخرجت من جيبتها امرأة صغيرة، ثبّتها على مسند  
الكنبة، ثمّ وقفت أمامها منحنية قليلاً لترى صورتها،  
ثمّ غمغمت بلهجة تنمّ عن الإعجاب:

- آه يا خسارتك يا حميدة! لماذا توجدنين في هذا

## زقاق المتق ٦٥٣

عليه الشكر والدعاء، ولكن ما قولك في أن تنزل لي  
عنه الآن. ؟

فتعجب عباس الحلو الذي كاد ينسى الكفن كما  
تُنسى عادة الأكاذيب، وسأله:

- وماذا تريد أن تفعل به؟!

فقال الرجل بصوته الرفيع الذي يحاكي أصوات  
الغلمان:

- أنتفع بثمانه! ألا تسمع ما يقال عن ارتفاع أثمان  
الأقمشة؟

فضحك الحلو وقال:

- أنت رجل ماهر على رغم ما تتظاهر به من  
سذاجة. بالأمس شكوت أنك لن تجد ما تكفن به بعد  
موتك، فلما أعددت لك الكفن تريد أن تنتفع بثمانه!  
ولكن هيهات أن تنال ما تريد، لقد ابتعت الكفن  
لأكرم به جنتك بعد عمر طويل إن شاء الله. .

فابتسم عم كامل في ارتباك وقال:

- هب أن العمر قد امتد بي حتى تعود الحالة إلى ما  
كانت عليه قبل الحرب، ألا تكون قد خسرتنا ثمن  
الكفن الغالي؟!

- وهبك تموت غداً؟!

فقطب عم كامل وقال:

- لا قدر الله!

فقهره الحلو ضاحكاً وقال:

- عبناً تحاول أن تثنيي عما اعترمت. سيبقى الكفن  
في حرز حريز حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً. .

وعاوده الضحك فضحك طويلاً حتى شاطره الرجل  
ضحكه. ثم قال الشاب معاتباً:

- يا لك من رجل لا ترجى منه فائدة! هل  
استفدت منك ملياً واحداً في حياتي؟! مطلقاً. ذنك  
جرداء لا تنبت، وكذلك شاربك. رأسك أصلع.  
وليس بهذه الدنيا الواسعة التي تدعوها جسمك شعرة  
واحدة أنتفع بحلقها. ساعك الله. .

فابتسم عم كامل قائلاً:

- جسم نظيف طاهر لن يشق على أحد غسله. .

وقطع عليها الحديث صوت يشبه العواء، فنظرا إلى

ثم تراجعت فجأة كأنها ملّت موقفها، وعادت إلى  
المرأة ملقية إليها نظراً فاحصاً، وتهدت وهي تقول:  
- يا خسارتك يا حميدة. . .

## - ٤ -

في الثلث الأول من النهار يكتنف الزقاق جو رطب  
بارد ظليل، لا تزوره الشمس إلا حين تشارف كبد  
السماء فتخطي الحصار المضروب حوله. بيد أن  
النشاط يدب في الأركان منذ الصباح الباكر، يفتحه  
سنقر صبي القهوة فيهنئ المقاعد ويشعل الوابور، ثم  
يتوافد عمال الوكالة أزواجاً وأفراداً، ثم يلوح جعدة  
حاملاً خشبة العجين، حتى عم كامل نفسه يشغل في  
هذه الساعة بفتح الدكان وتناول الإفطار عن النعاس!  
وكان عم كامل وعباس الحلو يتناولان إفطارهما معاً،  
فتوضع بينهما صينية عليها طبق المدمس والبصل  
الأخضر والخيار المخلل. وكان مزاجهما في الأكل  
مختلفين، فالحلو سريع يلتهم رغيته في دقائق  
معدودات، أما عم كامل فبطيء يمضغ اللقمة في أناة  
حتى يكاد يذبيها في فمه، وكثيراً ما يقول: إن الطعام  
المفيد يهضم في الفم أولاً، ولذلك فالحلو ينتهي من  
طعامه، ثم من احتساء الشاي وتدخين الجوزة،  
والآخر ما يزال يمضغ ويقضم البصل، ولذلك أيضاً  
فلكي يأمن تعدّي الحلو على نصيبه يشقّ الفول بلقمة  
شطرين ولا يسمح للشاب بتجاوز حده! وعم كامل -  
رغم جسامته وضخامته - لا يُعدّ أكله وإن كان يلتهم  
الحلوى بشراهة. وهو حلواني ماهر، ولكنه لا يفرغ ما  
يتمتع به من فنّ إلا في الطلبات الخاصة التي يوصي  
عليها أمثال السيد سليم علوان والسيد رضوان  
الحسيني والمعلم كرشة. وطار في ذلك صيته حتى جاوز  
المدقّ إلى الصنادقية والغورية والصاغة. ولكن رزقه  
على قد عيشته البسيطة دون زيادة، فلم يكن كاذباً  
حين شكّا إلى عباس الحلو أنهم لن يجدوا بعد وفاته ما  
يدفونونه به. وقد قال - ذلك الصباح - مخاطباً الحلو بعد  
أن فرغ من طعامها:

- قلت إنك ابتعت لي كفنًا، وهو صنيع تستحقّ

الفرائض، لا عن استهتار ولكن عن كسل، وما زال يحافظ على صلاة الجمعة وصوم رمضان. ولم يكن من النادر أن يتحرّش به صاحبه حسين كرشة، ولكنّه كان إذا شدّ صاحبه أرخى، فلم تصله قبضته القاسية قطّ. وعُرف إلى ذلك بالقناعة والرضا، حتّى إنّه واصل عمله «صبيّاً» عشرة أعوام كاملة ولم يفتح دكانه الصغير إلا منذ خمسة أعوام، ومنذ ذلك التاريخ وهو يحسب أنّه نال أرفع ما يطمح إليه: وقد ملأت هذه الروح القنوعة الراضية نفسه، فنطقت بها عيناه البارزتان الهادئتان، وجسمه البدين، وطابع المرح الذي لا يفارقه. أمّا حسن كرشة فكان من شطّار الزقاق، مشتهراً بالنشاط والحذق والجرأة، بل هو معتدّ أئيم إذا دعا الداعي. وقد اشتغل بادئ أمره في قهوة أبيه، ولكنّها لم يتفقا، فهجرها وعمل بدكان الدراجات، ولبث بها حتّى اندلع لهيب الحرب فالتحق بخدمة العسكرية البريطانيّة، وبلغت يومئذ بها ثلاثين قرشاً. نظير ثلاثة قروش في عمله الأوّل - غير ما يسميه «أكل العيش» بحبّ حقّة اليد» فارتفعت حاله، وامتلاً جيبه. ورفقه عن نفسه بحماس فائر لا يعترف بالحدود فتمتّع بالثياب الجديدة، وغشي المطاعم، وأكثر من أكل اللحوم التي هي في حسابانه طعام المحظوظين، وارتاد السينات والملاهي، وعافر الخمر، ورافق النساء، وربّما أخذته نشوة كرم فدعا رفاقه إلى سطح البيت حيث يقدّم لهم الطعام والنيذ والحشيش. وفي نشوة من نشواته - كما يحكى عنه - قال لبعض مدعوّيه: «في بلاد الإنجليز يسمّون من كان مثلي في بحبوحه العيش باللاج (Large) وليّما كان مثله لا يعدم حاسدين فقد دعوه بحسين كرشة اللاج، ثمّ حُرّفت فيما بعد إلى حسين كرشة الجراج».

أمسك عبّاس الحلو بالماكينه وأقبل على رأس صاحبه بهمة ونشاط، يصلح من أطرافها، دون مساس بالشعر المفلفل الذي يكاد يقف من فظاظته وخشونته. ولم يكن يخلو من شعور بالحزن يساوره كلّما التقى بذلك الصديق القديم. أجل ما زال صديقين، ولكنّ الحياة تغيّرت بطبيعة الحال، فلم يعد حسين كرشة

داخل الزقاق فرأيا المعلّمة حسنيّة الفرّانة تنهال على زوجها جعدة بالشبشب، والرجل يتقهقر أمامها لا يملك لها دفْعاً، وصراخه يعلو حتّى طبّق الأفاق، فضحك الرجلان وصاح عبّاس الحلو مخاطباً المرأة:  
- العفو والرحمة يا معلّمة . .

ولكنّ المرأة لم تمسك حتّى ارتقى جعدة عند قدميها باكياً مستعظفاً. ولبث عبّاس ضاحكاً وهو يقول لعمّ كامل:

- ما أخلق جسمك بهذا الشبشب حتّى يذوب شحمه!

وظهر عند ذاك حسين كرشة قادماً من البيت في سرّواله وقميصه وقبّعته. كان ينظر في ساعة معصمه، تيّاهاً فخوراً، وعيناه الصغيرتان الحاذقتان تمتلئان زهواً. وقد حيّا صديقه الحلاق، ومضى إلى الكرسيّ داخل الصالون وجلس عليه ليحلق شعره في يوم عطلته. وقد نشأ الصديقان معاً في زقاق المدقّ، كما رأيا نور الدنيا في بيت واحد، بيت السيّد رضوان الحسيني، بيد أنّ عبّاس الحلو رأى هذا النور الدنيويّ قبل صاحبه بثلاثة أعوام. وكان الحلو في ذلك الوقت يعيش في حضانة والديه، قبل أن يعرفه عمّ كامل ويشاطره شقّته بخمسة عشر عاماً. وقد قطع الصديقان الطفولة والصبا معاً. وأخى بينهما الحبّ والمودّة، وظلّا على صداقتهما حتّى بعد أن فرّق بينهما العمل، فاشتغل عبّاس صبيّ حلاق بالسكّة الجديدة، وعمل حسين صبيّاً في دكان دراجات بالجماليّة. وقد تباينت أخلاقهما منذ البدء، ولكنّ لعلّ تباينها هذا كان من أهمّ الأسباب التي أبقت على صداقتهما ومودّتهما. كان عبّاس الحلو - ولا يزال - شخصاً وديعاً، دمث الأخلاق، طيّب القلب، ميّلاً بطبعه إلى المهادنة والمصالحة والتسامح، أقصى ما يطمح إليه من فنون اللهو للعب السلميّ، أو ارتياد القهوة لتدخين الجوزة ولعب الكومي، مع نفور من اللجاج والشجار، ودراية في اتّقائهما بالابتسامه الحلوة و«الله يسامحك يا عمّ». وكان يحافظ على صلواته وصومه، ولا تفوته صلاة الجمعة في سيّدنا الحسين. أجل أهمل الآن بعض هذه

## زقاق المذق ٦٥٥

يا حمار أن القروذ في حديقة الحيوان تعيش جماعات في أقفاص. وهي كبيرة الشبه بالإنسان في صورته وسوء أدبه، تراها تتغازل وتتحاب في علانية مكشوفة، فإذا سقت الفتاة إلى هنالك تفتحت لي الأبواب!

فتمتم الحلو وهو يكب على عمله:

- دنيا!

- النساء علم واسع لا تحذقه بمجرد شعرك الرجل.  
فضحك الحلو ونظر إلى شعره في المرأة، وقال بصوت منكسر:

- أنا رجل مسكين!

فحجج صورته في المرأة بنظرة حادة وتساءل متهكماً:  
- وحميدة؟! -

فخفق قلب الحلو بعنف لأنه لم يكن يتوقع سماع هذا الاسم المحبوب، وتمثلت لعينيه صورتها، فتورد وجهه، وغمغم وهو لا يدري:

- حميدة...!

- أجل حميدة بنت أم حميدة!

ولاذ الحلاق بالصمت وقد لاح في وجهه الارتباك، وراح الآخر يقول بحدة:

- يا لك من رجل خامل معدوم الحياة. عينك نائمتان، دكانك نائم، حياتك نوم وخنول. أعياني إبقاظك يا ميت. أتحسب أن هذه الحياة خليقة بتحقيق آمالك؟! هيهات، ولن ترزقك مهما سمعت بأكثر من لقمتهك.

فلاح التفكير في العينين الهادئتين وقال متكدرًا بعض الكدر:

- الخيرة فيما اختاره الله...

فقال الشاب ساخراً:

- عم كامل، قهوة كرشة، الجوزة، الكومي؟! -

فقال الحلو في حيرة:

- لماذا تهزأ بهذه الحياة؟

- أهي حياة حقاً؟.. هذا الزقاق لا يجوي إلا موتاً. وما دمت فيه فلن تحتاج يوماً للدفن. عليك رحمة الله.

فسأله الحلو بعد تردد وإن كان يدري ما الآخر قائله:

يواظب على قضاء سهراته بقهوة أبيه كما كان يفعل في الأيام الخالية، مما دعا إلى ندرة اجتماع الصديقين. ولم يجل الأمر من عاطفة حسد تخامر فؤاد الحلاق كلما ذكر الهوة الواسعة التي تفصل بينهما. بيد أنه في حسده - كما هو في حياته - وديع عاقل لا يتهور ولا يتورط في خطأ، فلم ينل صاحبه بلفظ سوء، وكأنه يغبطه ولا يحسده، وربما قال لنفسه معزياً: «سوف تنتهي الحرب يوماً، ويعود حسين إلى الزقاق معدماً كما خرج منه».

وجعل حسين كرشة - بثثرته المعهودة - يتحدث صاحبه عن حياة «الأورنس» والعامل والمرتببات والسرقات وما يحدث بينه وبين الإنجليز من نوادر ومداعبات! وعمّا يكنه الجنود لشخصه من الحب والإعجاب، قال:

- قال لي الأونباشي جوليان مرة إني لا أفترق عن الإنجليز إلا في اللون!.. وكثيراً ما نصحني بالاعتصام، ولكن الساعد (وهناك حرك ساعده في زهو الذي يربح النقود في أثناء الحرب خليق بأن يربح أضعافها في زمان السلم. ومتى تظن الحرب تنتهي؟! لا يغرنك هزيمة الطليان فأولئك لا حساب لهم في الحرب، ولسوف يحارب هتلر عشرين عاماً! والأونباشي جوليان من المعجبين بشجاعتي، ويتق في ثقة عمياء، وبفضل هذه الثقة يسرحني في تجارته الواسعة من تبغ وسجائر وشوك وسكاكين وملاءات أسرة وجوارب وأحذية!.. دنيا!

فتمتم عباس الحلو متفكراً:

- دنيا!

فألقي حسين على صورته في المرأة نظرة متفحصية وقال:

- أتدري أين أذهب الآن؟.. إلى حديقة الحيوان. أو تدري مع من؟.. مع بنت كالقشدة والشهد (وقبل الهواء قبلة ذات وسوسة) وسأنطلق بها هناك إلى أقفاص القروذ.

وقهقه عاليًا ثم استدرك:

- أراهن على أنك تتساءل: لماذا القروذ؟ وهذا طبيعي من إنسان مثلك لم ير إلا قرد القرداتي. فاعلم

- وماذا تريدني على أن أفعل؟

فصاح به الفتى:

- طالما أخبرتكَ. طالما نصحتكَ. اخلع رداء هذه الحياة القذرة الحقيرة. أغلق هذا الدكان. اهجر هذا الزقاق. أرح عينيك من جنة عمّ كامل. وعليك بالجيش الإنجليزي. الجيش الإنجليزي كنز لا يفنى. هو كنز الحسن البصري، ليست هذه الحرب بنقمة كما يقول الجهلاء، ولكنّها نعمة النعم، لقد بعثها ربنا لينتشلنا من وهدة الشقاء والعوز. على الرحب والسعة ألف غارة وغارة ما دامت تقذفنا بالذهب. ألم أنصحك بالاتحاق بالجيش؟ وما زلت أقول لك إن الفرصة سانحة. حقًا هزمت إيطاليا ولكنّ ألمانيا باقية، ووراءها اليابان، وسوف تطول الحرب عشرين عامًا. أقول لك للمرة الأخيرة إنّه توجد أماكن شاغرة في التل الكبير. سافر!

واستيقظ خيال الحلوى واضطربت عواطفه حتّى وجد صعوبة في امتلاك عنانه وإتقان عمله. لم يكن ذلك نتيجة لكلام حسين الراهن فحسب ولكنّه نتيجة لإلحاحه المتواصل كلّما قابله. كان بطبعه قنوعًا، عزوفًا عن الحركة، هيبًا لكلّ جديد، مبغضًا للأسفار ولو ترك وشأنه ما اختار عن المدقّ بديلاً، ولو لبث فيه مدى الحياة لما ملّه ولا فتر حبه له. ولكنّ طموحه صحا بعد سبات، وكان كلّها دبّت فيه الحياة امتزج في نفسه بصورة حميدة، أو لعلّ حميدة هي التي أيقظته وبعثته بعثًا جديدًا، فكان طموحه وصورتها المحبوبة شيئًا واحدًا لا يتجزأ. وعلى رغم هذا كله خاف أن يبوّج بذات نفسه، وكأنّما أراد أن يفسح لنفسه وقتًا للتدبّر والتفكير، فقال متظاهرًا بالإحجام والإباء:

- السفر ابن كلب!

فضرب حسين الأرض بقدمه وصاح به:

- أنت ابن ستين كلبًا. السفر خير من زقاق المدقّ، وخير من عمّ كامل؟ سافر وتوكّل على الله. أنت لم تولد بعد. ماذا أكلت؟ ماذا شربت؟ ماذا لبست؟ ماذا رأيت؟ صدّقني أنّك لم تولد بعد. . .

فقال عباس متأسفًا:

- من المحزن أنّي لم أولد غنيًا.

- من المحزن أنّك لم تولد بنتًا! لو ولدت بنتًا لكنت من بنات الدقة القديمة، حياتك في البيت وللبيت، لا سينها ولا حديقة الحيوان، حتّى ولا الموسكي الذي ترتاده حميدة في العصارى. .

فضاعف ذكر هذا الاسم من ارتباكها، وآله أن ينطق به صاحبه مستهينًا ساخرًا كأنّه لفظ تافه لا يثير مكانم القلوب، وقال مدافعًا عن فتاته:

- أختك حميدة فتاة كريمة الأخلاق، ولا يعيبها أن تروّج نفسها بالمشي في الموسكي.

- أجل ولكنّها فتاة طموح ما في ذلك من شكّ، ولن تحظى بها حتّى تغتبر ما بنفسك. . .

وعاوده قلبه الخفقان العنيف، والتهب وجهه احمرارًا، وذابت نفسه وجدًا وقلقًا وانفعالًا. وكان انتهى من حلق رأس الشابّ، فراح يمشطه دون أن ينبس بكلمة، وفكره لا يستريح من اضطرابه. ثمّ نهض حسين كرشة وأعطاه نقوده. وقبل أن يغادر الدكان اكتشف أنّه نسي منديله فرجع مسرعًا إلى البيت. وجعل يتابعه بعينه من موقفه، فلاح لعينه مرحةً نشيطًا سعيدًا، وكأنّه يرى فيه هذه الصفات لأول مرة. «لن تحظى بها حتّى تغتبر ما بنفسك».

صدق حسين بلا ريب، إنّه يعيش عيشة الكفاف، ولا يكاد يتمتّع كدح يومه عن رزق ذلك اليوم، فإذا أراد أن يبني عشّه في هذه الأيام العسيرة فلا معدى عن فتح جديد. إلامّ يقنع بالأحلام والتمنّي وهو قابع هامد مغلول اليد والإرادة؟ لماذا لا يجربّ حظّه ويقتحم سبيله كما يفعل الآخرون؟! «فتاة طموح» هكذا يقول حسين، وإن كان هو لا يدري شيئًا على وجه التحقيق، وربّما كان حسين أدرى بها، لأنّه - عباس - اعتاد أن يراها بعين الحبّ الحاملة الخالقة. وإذا كانت فتاته طموحًا فلا معدى له عن أن يكون طموحًا كذلك. ولعلّ حسين يحسب غداً - وقد ابتسم لهذا الخاطر - أنّه أيقظه من سباته وخلقه خلقًا جديدًا، ولكنّه يعلم دون الناس جميعًا أنّه لولا ذلك الشخص المحبوب ما استطاع شيء أن ينزعه من قناعته الوديعه

## زقاق المنق ٦٥٧

بحسن قوامها الرشيق، وتصوّر عجيزتها الملمومة أحسن تصوير، وتبرز ثدييها الكاعين، وتكشف عن نصف ساقها المدملجتين، ثم تنحسر في أعلاها عن مفرق شعرها الأسود ووجهها البرنزيّ الفاتن القسيات، وكانت تتعمّد ألاّ تلوي على شيء فتتحدّر من الصنادقيّة إلى الغوريّة ثم إلى السكّة الجديدة فالموسكي. . . حتى إذا غابت عن الأعين الثاقبة علت شفيتها ابتسامة، وراحت تنهب الطريق الزاخر العامر بعينيها الجميلتين. هي فتاة مقطوعة النسب، معدمة اليد، ولكتّها لم تفقد قطّ روح الثقة والاطمئنان. ربّما كان لحسنها الملحوظ الفضل في بثّ هذه الروح القويّة في طواياها، ولكنّ حسنها لم يكن صاحب الفضل وحده، كانت بطبعها قويّة، لا يخلدّها الشعور بالقوّة لحظة من حياتها. وكانت عيناها الجميلتان تنطقان أحياناً بهذا الشعور نطقاً يذهب بجهالها في رأي البعض ويضاعفه في رأي البعض الآخر. فلم تفتأ أسيرة لإحساس عنيف يتلّهب على الغلبة والقهر، يتبدّى في حرصها على فتنة الرجال، كما يتبدّى في محاولتها التحكم في أمّها، ويتعرّى في أسوأ مظاهره في ما يشتجر بينها وبين نسوة الزقاق من شغب وسباب وعراك، حتى أبغضنها جميعاً، ورمينها بكلّ سوء. وربّما كان من أغرب ما رُميت به أنّها تبغض الأطفال، وأنّها بالتالي متوحّشة محرومة من نعمة الأنوثة، وهذا ما جعل امرأة العلّم كرشة القهوجيّ - أمّها بالرضاعة - تتمنّى على الله أن تراها أمّاً تُرضع الأطفال في كنف زوج جبار يبيتها بالضرب ويصحبها بالضرب! مضت في سبيلها مستمتعة بنزهتها اليومية، مردّدة الطرف في معارض المتاجر المتعاقبة. كانت تهوى مشاهدة المعروضات النفيسة من الثياب والآنية، فتثير في نفسها الطمّوح التلهّف على القوّة والسيطرة أحلاماً ساحرة. ولذلك تركّزت عبادتها للقوّة في حبّ المال على اعتبار أنّه المفتاح السحريّ للعالم، المسخر لجميع قواها المذخورة. فجُلّ ما كانت تعرفه عن نفسها أنّها تحلم بالمال، المال الذي يأتي بالثياب ويكلّم ما تشتهي الأنفس. وعسى أن تساءل: أيّمكن يا ترى أن تبلغ

المستلّمة. وشعر عبّاس في هذه اللحظة الفاصلة من حياته بقوّة الحبّ وسلطانه وسحره العجيب. ولعلّه أحسن - إحساساً غامضاً لا يرتقي لمرتبة الوعي والفكر - بقدرته الحبّ على الخلق والتعمير، فموضع الحبّ من نفوسنا هو مهبط الخلق والإبداع والتجديد. ولذلك خلق الله الإنسان محبّاً، وترك مهمّة تعمير الوجود أمانة في رعاية الحبّ. وقد تساءل الفتى في وجده وانفعاله لماذا لا يسافر؟ ألم يعيش في هذا الزقاق حوالي ربع قرن من الزمان؟ فماذا أفاده؟ إنّه زقاق لا يعدل بين أهله، ولا يجزيهم على قدر حبّهم له. وربّما ابتسم لمن يتجهّمه وتجهّم لمن يتسم له، فهو يقترّ عليه الرزق تقتيراً، ويغدقه على السيّد سليم غدقاً، وعلى كلب منه تتكدّس رزم الأوراق الماليّة حتى ليكاد يشمّ عرفها الساحر، في حين أنّ راحته لا تقبض إلاّ على ثمن الرغيف، فليكن سفر، وليتغيّر وجه الحياة.

جرى فكره هذا الشوط البعيد، ولبث واقفاً أمام دكانه ينظر إلى عمّ كامل وقد مضى يغطّ غطيّاً والمذبة في حجره، ثمّ سمع وقع أقدام خفيفة آتياً من أعلى الزقاق، فتحوّل إليه فرأى حسين كرشة عائداً في خطوات واسعة. واستمرّ به الانفعال والقلق، ونظر إليه كما ينظر المقامر إلى كرة الروليت الدائرة، حتى حاذاه وأوشك أن يفوته، فوضع يده على كتفه وقال له بقوّة وعزم:

- حسين، أريد أن أحدثك في أمر هامّ. . .

- ٥ -

العصر. . .

عاد الزقاق رويداً رويداً إلى عالم الظلال: والتفتّ حميدة في ملاءتها، ومضت تستمع إلى دقات شبشبها على السلم في طريقها إلى الخارج. وقطعت الزقاق في عناية بمشيتها وهيئتها لأنها تعلم أنّ أعياناً أربعاً تتبعها متفحّصة ثاقبة، عينيّ السيّد سليم علوان صاحب الوكالة، وعينيّ عبّاس الحلو الحلّاق. ولم تكن تفاهة ثيابها لتغيب عنها، فستان من الدمور وملاءة قديمة باهتة وشبشب رقّ نعلاه، بيد أنّها تلفّ الملاءة لفّة تشي

عينها تزوغان من التحديق في الرجال، والرابعة كآتها نسيت أيام كان القمل يزحف على رقبتها كالنمل؟ كان هذا اللقاء بلا ريب من بواعث تمردها الدائم، ولكنّه كان كذلك أكبر تسلية لها في يومها الطويل المفعم تبرّماً وعراگاً. ولذلك قالت يوماً لأمها وهي تنتهد:

- حياة اليهوديات هي الحياة حقاً!

فانزعجت أمها وقالت:

- إنك من نبع أبالسة ودمي بريء منك . .

فقال الفتاة إمعاناً في إغاضتها:

- ألا يجوز أن أكون من صلب باشوات ولو عن

سبيل الحرام؟!!

فهزت المرأة رأسها وقالت ساخرة:

- رحم الله أباك بائع الدوم بمرجوش . .

سارت وسط صويجاتها تياها بجماها، مدرعة بلسانها الطويل، يلذها أنّ الأعين تمرّ بهنّ مرّ الكرام وتستقرّ عليها دونهنّ. ولما انتصف الموسكي أو كاد لاحت منها التفاتة إلى الطريق فرأت عباس الحلوي سير متأخراً عنهنّ قليلاً وعيناه تلحظانها بتلك النظرة المألوفة، وتساءلت عمّا دعاه إلى ترك دكانه في هذه الساعة على غير عادة. هل تبعها عمدًا؟ ألم يعد يقنع برسائل النظر؟ كان على فقره متأقفاً كأكثرية أهل فته، فلم يضايقها ظهوره. وقالت لنفسها إنّ آية واحدة من صاحباتها لا تطمع في زوج خير منه، وكانت تجد نحوه شعورًا غريبًا معقدًا، فهو من ناحية الشاب الوحيد في الزقاق الذي يصلح لها زوجًا، وهي من ناحية أخرى تحلم بزواج على مثال الماقل الغني الذي حظيت به جاريتها في الصنادقية فهي لا تحبّه ولا تمنّاه، وفي الوقت نفسه لا تقطعه، ولعلها تسرها نظراته المشوقة! وكان من عاداتها أن توصل الفتيات حتّى نهاية الدراسة ثمّ تعود بمفردها إلى الزقاق، فسارت بينهنّ وهي تسرق النظر. فلم تعد تشكّ في أنّه يتبعها عامدًا، وأنّه ينوي أن يخرج عن صمته أخيرًا. ولم تحطّ ظنونها فما كادت تودّع آخر الفتيات وتدور على عقبيها حتّى انحدر نحوها من الطوار، في خطوات مضطربة ووجهه ينطق بالانفعال، وقاربها حتّى حاذها، ثمّ قال

يومًا ما تتمنى؟! لم تكن الحقائق لتغيب عنها، ومع ذلك فهي لا تنسى قصة فتاة من بنات الصنادقية، كانت فقيرة في الأصل مثلها، ثمّ أسعفها الحظّ بزواج ثريّ من المقاولين فانتشلها من وهدتها، ونقلها من حال إلى حال. فإذا يمنع القصة أن تتكرّر، والحظّ أن يتسم مرتين في هذا الحيّ؟! ليست دون صاحبها جمالاً، والحظّ الذي لعب دوره في حياة الأخرى يستطيع أن يعيده مرّات ومرّات دون عناء أو خسارة. بيد أنّ هذا الطموح كان يضطرب في دنيا ضيقة تنتهي عند حدود ميدان الملكة فريدة، لا يدري عمّا وراءها شيئاً، ولا عمّا تحويه هذه الدنيا الواسعة من أناس وحظوظ، ولا كم منهم يلقي خيراً وسعداً، وكم منهم يتردّد مثلها حائرًا لا يعلم لنفسه مرسى. فعلى كتب من هذه المنطقة رأّت صويجاتها من عاملات المشغل قادمات، فهرعت نحوهنّ وقد تخلّصت من جميع أفكارها وابتسمت أساريرها، وسرعان ما سلّمن وأخذن في تافه الأحاديث، وهي تتفحص وجوههنّ وثيابهنّ بأعين ناقدة، ذاهبة نفسها حشرات على ما يتمنن به من حرّية وجاه. أولئك فتيات صغيرات من أهل الدراسة، خرجن بحكم ظروفهنّ الخاصّة البائسة وظروف الحرب عامّة عن تقاليدهنّ الموروثة. واشتغلن بالمحالّ العامّة مقتديات باليهوديات. ذهبن إليها مكدودات هزيلات فقيرات، وسرعان ما أدركهنّ تبدّل وتغيّر في ربح قصير من الزمن، شعبن بعد جوع، وكسبن بعد عري، وامتلأن بعد هزال، ومضبن على أثر اليهوديات في العناية بالمظهر وتكأف الرشاقة، ومنهنّ من يרטن بكلمات، ولا يتورّعن عن تآبط الأذرع والتخبّط في الشوارع الغرامية. تعلّمن شيئاً واقتحمن الحياة. أمّا هي فقد فوّت عليها عمرها وجهلها ما يمرح فيه من فرص. وها هي تتمسح بهنّ والحسرة ملء حناياها، غابطة حياتهنّ المرفهة وثيابهنّ المزركشة وجويهنّ العامرة. كانت تضاحكهنّ في صفاء كاذب والحسد يأكل قلبها، ثمّ لا ترّدّد عن نهشهنّ - ولو على سبيل الدعابة الساخرة - لأقلّ هفوة، فهذه فستانها قصير معدوم الحياء، وهذه ذوقها سقيم، وتلك



## زقاق المدق ٦٥٩

فقلت بسخرية:

- ما أطهر كلامك..!

فقال عباس بلهفة وشت بإشفاقه من اقتراب الميدان المأهول:

- طاهر النية وسيدنا الحسين. لا تسرعى هكذا يا حميدة. ميلي بنا إلى شارع الأزهر. أريد أن أقول لك كلمة هامة. ينبغي أن تصغي إليّ. أنت تعلمين ولا شك بما أريد أن أقوله. ألا تعلمين؟ ألا تشعرين؟ قلب المؤمن دليله..

فقلت كالغاضبة:

- لقد تجاوزت حدك. كلاً.. كلاً.. دعني..

- حميدة.. أنا أريد أن.. أنا أريدك..

- يا للعار! دعني وإلا فضحتني أمام الخلق..

وكانا قد بلغنا ميدان الحسين، فمرقت من جانبه إلى الطوار الأيسر وحثت خطاها على عجل، ثم انعطفت إلى الغورية وهي تبسم ابتسامة خفيفة. كانت تعلم ما لها في الزقاق، وقد قرأت في عينيه البارزتين أي الحب كما قرأتها مراراً من نافذتها في الماضي القريب، ولكن هل حرك ذلك جميعه قلبها الجحود؟ أما حالته المألوية التي تعلم عنها الشيء الكثير فلا يمكن أن تحرك فيها ساكناً، وأما شخصه فوديع تنم عيناه عن القناعة والخضوع، مما يجعله خليقاً بأن يرتاح إليه فؤاده المغموم بالسيطرة، بيد أنها وجدت نحوه - رغم ذلك - نفوراً لم تدر له سبباً. ماذا تريد إذاً؟ ومن يرضيها إذا لم يرضها هذا الفتى الوديع الطيب؟! لم تهتد لجواب بطبيعة الحال، وقد عزت نفورها منه إلى فقره والظاهر أن حبها السيطرة كان تابعاً لحبها العراك لا العكس، فلم تهش للمسالمة، ولم تفرح بظفر هين سهل المنال. وكان قلبها ما يزال في غفوته لم يستب بعد رغبته، فملأها شعورها المبهم الغامض حيرة وقلقاً.

ونكص عباس الحلو عن ملاحظتها خيفة الأعين، فترجع مغمم الفؤاد خيبة وحسرة، ولكنه كان أبعد ما يكون عن اليأس. قال لنفسه وهو يسير متمهلاً غافلاً عما حوله: إنها بادلته الكلام طويلاً. ولو قصدت صدّه

بصوت متهدج:

- مساء الخير يا حميدة..

فالتفت نحوه كالمنزعجة وكأنها بوغت بظهوره مباغته، ثم قطبت وأوسعت خطاها دون أن تنبس بكلمة، فتورد وجهه. ولكنه عاد يقول بصوت ينم عن العتاب:

- مساء الخير يا حميدة.

وخافت إن هي لازمت الصمت مع هذا الخطو الخيث أن ينتهيا إلى الميدان المأهول قبل أن يقول ما يريد، وكانت راغبة في ساعه، فقلت في لهجة تنطق بالاستياء:

- يا للعار! جار وتفعل كالغريب!

فقال عباس بلهفة:

- بل جار حقاً، ولا أفعل كالغريب، أحرام على الجار أن يتكلم؟

فقلت عابسة:

- نعم، الجار يحمي جارته، لا أن يهاجمها..

فقال الشاب بصدق حاز:

- أنا جار أعلم واجبات الجار. ولم يخطر ببالي قط أن أهاجمك - لا سمح الله - بيد أنني أريد أن أحدثك، ولا عيب أن يحدث الجار جارته..

- كيف تقول هذا؟! ليس من العيب أن تتعرض لي في الطريق، وتعرضني للفضيحة..

فهاهنا قولها. وقال بأسف:

- الفضيحة؟.. معاذ الله يا حميدة. صدري طاهر، ولا يكرن لك إلا الطهر وحياة الحسين. وستعلمين أن كل شيء سينتهي بما أمر به الله لا بالفضيحة، فأصغي إليّ قليلاً، أريد أن أحدثك عن أمر هام. ميلي بنا إلى شارع الأزهر بعيداً عن أعين الذين يعرفوننا..

فقلت باستياء متصنع:

- بعيداً عن أعين الناس؟! ما شاء الله..! دمت

من جار طيب حقاً!

وكان قد تشجع بمناعتها إياه الحديث فقال بحرارة:

- ما ذنب الجار؟!.. أيموت قبل أن يروح بذات نفسه!

ينبئ سنقر عن طيته، مرتدياً عباءته السوداء، متوكفاً على عصاه العجرا، ينقل على مهل خطواته الثقيلة! ولا تكاد تدل عيناه المظلمتان المختفيتان تقريباً وراء جفنيه الغليظين على أنه يحسن رؤية طريقه، وكان قلبه يخفق! والقلب يخفق ولو شارف صاحبه الخمسين، ومن عجب أن المعلم كرشة قد عاش عمره في أحضان الحياة الشاذة، حتى خال لطول تمرغه في ترابها أنها الحياة الطبيعية. هو تاجر مخدرات اعتاد العمل تحت جنح الظلام، وهو طريد الحياة الطبيعية وفريسة الشذوذ، واستسلامه لشهواته لا حد له ولا ندم عليه ولا توبة تنتظر عنه. بل إنه ليطلم الحكومة في تعقبها لأمثاله، ويلعن الناس الذين جعلوا من شهوته الأخرى مثاراً للازدراء والاحتقار، فيقول عن الحكومة: «إنها تحلل الخمر التي حرّمها الله، وتحرم الحشيش الذي أباحه! وترعى الحانات الناشرة للسموم، في حين تكبس (الغرز) وهي طبّ النفوس والعقول». وربما هزّ رأسه أسفاً وقال: «ماله الحشيش!»! «راحة للعقل وتحلية للحياة وفوق هذا وذاك فهو مدرّ للسل!»! وأما شهوته الأخرى فيقول بقحته المعهودة: «لكم دينكم ولي دين!» ولكنّ إيلافه شهواته لا يمنع من أن يخفق قلبه كلّ مطلع هوى جديد. وقد سار متمهلاً في الغورية ومستسلماً لخواطره، يتساءل والأمل ملء فؤاده: «ماذا يا ترى وراءك أيها المساء؟» وعلى رغم انهياكه في خواطره كان يحسّ بالدكاكين على الصقّين إحساساً غامضاً، ويردّ بين الفينة والفينة تحيّات بعض أصحابها من معارفه. وكان يسيء الظنّ بهذه التحيّات وأمثالها، ولا يدري إن كانت لمحض السلام أم أنّ وراءها من الغمز واللمز. فالناس لا يُريحون ولا يستريحون، وينلقفون المثالب بأفواه نهمة جشعة. ولطالما قالوا فيه وأعادوا، فماذا أفادهم التشهير؟ لا شيء! وكأنه وُلع بتحديثهم فراح يجهر بما كان يسره، وهكذا مضى في سبيله حتى اقترب من آخر دكان على يساره فيها يلي الأزهر، فاشتدّ خفقان قلبه وتناسى تحيّات الناس التي أثارت سوء ظنه، وانبعث من عينيه المنطفئتين نور خافت شريـر.

ونبذه ما منعها ولا أعيثها الحيلة، فهي لا تكرهه، ولعلها تتدلّل شأن الفتيات جميعاً، ولعله الحياء الذي جعلها تقطع عليه سبيل التودّد بالفرار. فكان أبعد الناس عن اليأس، بل راح يستسلم لمغازلة الأمل وتوتّب للكثرة التالية. وقد سكر قلبه برحيق نشوة ساحرة لم يكن له عهد بمثلها من قبل. كان محباً صادقاً ملتهب العاطفة، وكان يشعر حيال نظرتها النافذة الجميلة بخضوع كليّ، ولذّة لا حدّ لها، وحبّ لا يبيد. أجل كان كأمثاله من الفتيان مولعاً بالنساء عامّة، ولكنّه كان كالحمام يخلّق في السماء ويطوّف بأطرافها ثمّ يقع في النهاية على برجه مليئاً صغير صاحبه، فهي دون النساء جميعاً أمله المنشود. أجل لم تعد مخاطرته خائبة، وتفتحت له أكمال الأحلام عن زهر الآمال، فعاد متشياً مسروراً بحبه وبشبابه. ولما عرّج إلى الصناديق صادف الشيخ درويش قادماً من ناحية الحسين، فالتقيا عند مطلع الزقاق، وأقبل على الشيخ يريد أن يصفحه تبرّكاً، ولكنّ الشيخ أشار نحوه بسبابته مخدّراً، وخلق في وجهه بعينه الدابلتين وراء نظارته الذهبية وقال:

- لا تمش بلا طربوش! احذر أن تعرّي رأسك في مثل هذا الجو، في مثل هذه الدنيا. فمخّ الفتى يتبخّر ويظير، وهذا أمر معروف في المأساة ومعناه بالإنجليزية Tragedy وتهجيتها tragedy.

- ٦ -

وكان المعلم كرشة قد شغل بأمر هام، ومن النادر أن ينصرم عام من حياته دون أن يشغل نفسه بمثل هذا الأمر، على ما يسببه له من الكدر والتنغيص، بيد أنه كان رجلاً مسلوب الإرادة، لم يترك له الحشيش من إرادته نفعاً. ومع ذلك كان على خلاف الأكثرية من تجار هذا الصنف في حكم الفقراء، لا لأنّ تجارته غير نافقة، ولكن لأنه كان مبذراً - في غير بيته - يبعثر ما يربحه، وينثر المال بلا حساب، جارياً وراء شهواته، خصوصاً هذا الداء الوبيل. وعندما أذنت الشمس للمغيب غادر القهوة دون أن

## زقاق المدق ٦٦١

وغادر الدكان بعد أداء الثمن منفعلًا كما دخله. واتجه نحو شارع الأزهر، ثم عبره مهرولًا إلى الناحية الأخرى، ووقف لصق شجرة في مقابل الدكان مستظلًا بالظلمة الآخذة في الانتشار. وقف يداً متوكئة على العصا ويدًا قابضة على الليفة، وعينه لا تتحولان عن الدكان من بعيد. كان الشاب بموقفه حين دخل الدكان وقد شبك ذراعيه على صدره، فجعل ينظر نحوه، لا يكاد يرى منه إلا صورة غامضة المعالم، ولكن ذاكته وخياله أسعفاه بما لم يسعفه به البصر الكليل. وراح يقول لنفسه: «أدرك المراد بلا ريب!» ثم ذكر كيف كان رقيقًا لطيفًا مؤدبًا. ورجعت أذناه صوته وهو يغمغم: «مبارك» فأتلج صدره وتمتد من الأعماق. لبث في مكانه سوية مضطربًا بالقلق والتوتر، حتى رأى الدكان يغلق أبوابه، وقد افترق عنده الشيخ العجوز الذي أتجه صوب الصاغة، والشاب الذي سار نحو شارع الأزهر. وابتعد المعلم عن الشجرة رويدًا رويدًا، وسار في الأتجاه الذي يتسمته الشاب. فرآه هذا بعد أن عبر ثلثي الطريق ولكنه لم يبيد اهتمامًا، وأوشك أن يمر به دون اكتراث لولا أن دنا منه المعلم وقال برقة:

- مساء الخير يا بني.

فنظر الشاب وقد ثمت عيناه عن ابتسامة خفيفة وتمتم:

- مساء الخير يا سيدي.

فسأله بمحض الرغبة في مجادته الحديث:

- أغلقت الدكان؟

ولاحظ الشاب أن الرجل يتناقل كأنما يدعوه إلى التريث، ولكنه ثابر على مشيته وهو يقول:

- أجل يا سيدي ..

فاضطر الرجل إلى مسابرة، فسارا معًا على الطوار والمعلم لا يحول عنه رأسه، ثم قال:

- ساعات عملك طويلة، كان الله في عونك ..

فتفخ الشاب قائلاً:

- ما الحيلة؟ أكل العيش يحب التعب ..!

فسر المعلم بإقبال الفتى على محادثته، واستبشر خيرًا

وراح يدنو منه بفيه الفاغر وشفته المتدلّية، وجاز عتبه. دكان صغير يجلس في صدره شيخ عجوز وراء مكتب صغير، ويستند إلى أحد رفوفه المكدسة بالبضائع بائع متسربل بالشباب اليافع. ما إن رأى القادم حتى استقام ظهره، وتلقاه بابتسامة البائع اللبق. وارتفع الجفنان الثقيلان لأول مرة، واستقرت العينان على الشاب، ثم حيا برقة. وردّ الشاب التحية في لطف، وقد أدرك لأول وهلة أنه يرى هذا الرجل للمرة الثالثة في ثلاثة أيام متتابعات. وقد تساءل: لماذا لا يتاع ما يريد مرة واحدة؟! وقال المعلم:

- أربي ما عندك من جوارب ..

فأحضر الشاب أنواعًا منها وبسطها على «طاولة» المحلّ، وأخذ المعلم يتفحصها وهو يخالس النظر إلى وجه الشاب، والشاب لا يخفي أمره عليه، وقد دارى ابتسامة كادت ترسم على ثغره. وتعمد أن يطيل الفحص والتقصي، ثم قال للشاب بصوت منخفض:

- لا تؤاخذني يا بني فبصري ضعيف، هلاً اخترت لي لونًا مناسبًا بذوقك الجميل ..

وسكت لحظات يتفرّس في وجهه، ثم أردف وهو يرسم ابتسامة على شفته المتدلّية:

- كوجهك الجميل ..

فأراه الشاب الجميل نوعًا متجاهلاً إطرأه، فاستدرك الرجل قائلاً:

- لفت لي ستّة ..

وتريث حتى مضى الشاب يلف الجوارب، ثم قال:

- الأفضل أن تلف لي اثني عشر .. أنا رجل لا

ينقصني المال والحمد لله!!

ولفت الشاب له ما أراد صامتًا، ثم غمغم وهو يناوله الليفة:

- مبارك ..

فابتسم المعلم كرشة، أو بمعنى آخر انفرج فمه انفراجه آلية قصيرة يرافقها اضطراب خفيف في جفنيه، وقال بخبث:

- شكرًا لك يا بني (ثم بصوت خفيض) الحمد لله!

- برقته وقال:
- رزقك الله بتعبك يا بني..
- أشكر لك يا سيدي..
- فقال الرجل بحماسة:
- تعب كلها الحياة حقاً، ولكن من النادر جداً أن ينال التعب الجزاء الذي يستحقه، فما أكثر العاملين المظلومين في هذه الدنيا..
- فشدّ هذا الكلام على وتر حساس في قلب الفتى وقال بتبرّم:
- صدقت يا سيدي، ما أكثر العاملين المظلومين في هذه الدنيا..!
- الصبر مفتاح الفرج. أجل ما أكثر المظلومين، ومعنى هذا بالحرف الواحد ما أكثر الظالمين. ولكن من لطف الله أن الدنيا لا تخلو من رُحماء كذلك..
- فتساءل الفتى:
- أين هؤلاء الرُحماء؟
- وكاد يجيبه: «ها أنذا واحداً منهم»، ولكنّه أمسك عن ذلك، وقال بلهجة العاتب:
- لا تكن متشاكماً يا بني فأمّة محمّد بخير، (ثمّ غير لهجته قائلاً) علام تُسرع؟ أمستعجل أنت؟؟
- ينبغي أن أذهب إلى البيت لأغيّر ملابسِي..
- فسأله باهتمام:
- وبعد ذلك؟
- أنطلق للقهوة.
- آية قهوة؟
- قهوة رمضان.
- فابتسم المعلّم ابتسامته الآليّة حتّى لمعت أسنانه الذهبية في الظلمة، وتساءل في إغراء:
- لماذا لا تشرف قهوتنا؟
- آية قهوة يا سيدي..؟
- فاخشوشن صوت المعلّم وهو يقول:
- قهوة كرشة بالمدقّ، محسوبك المعلّم كرشة!
- فقال الفتى بامتنان:
- تشرفنا يا معلّم، هذه قهوة ذائعة الصيت..
- فسرّ المعلّم، وسأله بلهجة تشي بالرجاء:
- أتأتي؟
- إن شاء الله..
- فقال المعلّم كمّن نغد صبره:
- كلّ شيء بمشيئة الله. ولكن أتتوي الحضور حقاً أم تقول ذلك تملّصاً منّي؟
- فضحك الشابّ ضحكة رقيقة وقال:
- بل أتوي الحضور حقاً..
- الليلة إذا!
- ولمّا لم ينس الفتى بكلمة، قال الآخر بتوكيد وقلبه يرقص طرباً:
- لا بدّ..
- فغمغم الشابّ:
- بإذن الله..!
- فتنهّد الرجل بصوت مسموع ثمّ سأله:
- أين تقيم؟
- عطفة الوكالة..
- نحن جيران تقريباً. متزوج؟
- كلاً.. مع أهلي..
- فقال برقة:
- أنت ابن ناس طيبين كما يبدو لي. الإناء الطيب ينضح ماء طيباً. وينبغي أن ترعى مستقبلك بعين الاهتمام. إذ لا يجوز أن تبقى مدى العمر عاملاً بسيطاً في دكان..
- فلاح الاهتمام والطموح في الوجه الجميل، وتساءل الشابّ في خبث:
- وهل لثلي أن يطمع في أكثر من هذا؟!؟
- فقال المعلّم كرشة باستهانة:
- هل ضاقت «بنا» الخيل! ألم يكن جميع الكبار صغاراً!
- بلى كانوا، ولكن ليس من المحتّم أن ينقلب الصغير كبيراً..
- فأردف المعلّم يتمّ كلام الفتى:
- إلّا إذا صادفه التوفيق! فلنذكر هذا اليوم الذي تعارفنا فيه على أنّه توفيق عظيم. أنتظرك الليلة؟!؟
- فتردّد الفتى قليلاً، ثمّ قال مبتسماً:

## زقاق المدق ٦٦٣

الجلال؟ فعالج الأمور بالحسنى، ولا تتمرد على صنع الخالق. لكل حالة من حالات الحياة جمالها وطعمها، بيد أن مرارة النفس الأتقارة بالسوء تفسد الطعوم الشهية. صدقتي إن للألم غبطته واليأس لذته وللموت عظته، فكل شيء جميل وكل شيء لذيذ! كيف نضجر وللساء هذه الزرقه، وللأرض هذه الخضرة، وللورد هذا الشذا، وللقلب هذه القدرة العجيبة على الحب، وللروح هذه الطاقة اللانهائية على الإيمان. كيف نضجر وفي الدنيا من نحبهم، ومن نعجب بهم، ومن يحبوننا، ومن يعجبون بنا. استعد بالله من الشيطان الرجيم ولا تقل مللت..

وحسا حسوة من قدح القرفة، ثم أردف وكأته يعبر عن خلجات ضميره:

- أما المصائب فلنصمد لها بالحب، وسنقهرها به. الحب أشفى علاج. وفي منطاي المصائب تكمن السعادة كفضوص الماس في بطون المناجم الصخرية، فلنلقن أنفسنا حكمة الحب.

كان وجهه الأبيض الوردى يفيض بشراً ونوراً، تحيط به لحية الصهباء إحاطة الهالة بالقمير. وكان كل شيء حوله يلوح بالقياس إلى طمأنينته الراسخة قلماً مضطرباً. وكان نور عينيه صافياً نقياً ينطق بالإيمان والخير والحب والترفع عن الأعراض. ربما قيل إنه رجل خسر الجاه يوم أخفق في دراسته الأزهرية، وأنه آيس من خلود الدنيا حين ثكل الأبناء، ففزعت نفسه إلى تعويض خسرانها الفادح بالاستيلاء على القلوب بالحب والجود! ولكن كم من المصابين مثله من سلك سبيله، وكم منهم من سقط فريسة الجنون، وكم منهم من صب جام غضبه على الدنيا والدين؟! ومهما يكن من أمر نفسه الخافية فما من شك في إخلاصه، كان مؤمناً صادقاً، ومحباً صادقاً، وجواذاً صادقاً، ومن عجب أن يكون هذا الرجل - الذي طار صيته في الخير والحب والجود كل مطار - حازماً حاسماً وعلى فظاظه وحرص في بيته! ربما قيل إنه وقد آيس من كل سلطان حقيقي في هذه الدنيا يفرض سطوته على المخلوق الوحيد الذي يدع لإرادته، ألا وهو زوجته! وأنه

- لا يأبى الكرامة إلا لثيم..!

وتصافحاً عند بوابة المتولي، ثم رجع المعلم يخبط في الظلماء. صحا الرجل الداهل وسرى في صدره دفاء السرور. ولم يكن يستيقظ من دنيا النسيان التي يخط فيها إلا إذا لطمته موجة عنيفة من شهواته الخبيثة، ومر في طريقه بالدكان المغلق فألقى عليه نظرة طويلة تفيض بالشوق. وعاد إلى الزقاق وقد أغلقت دكاكينه، وكانت تشمله الظلمة لولا النور المنبعث من القهوة. وكان جو القهوة - على خلاف الجو البارد في الخارج - دفتاً يحفظ حرارته دخان الجوز وأنفاس السمار ووهج «النسبة»، وقد ترتب الحاضرون على الأرائك يتحدثون ويمتسون الشاي والقهوة، والراديو يذيع ما في جوفه فلا يلقى إلا الإعراض والإهمال كأنه خطيب نقيل يخطب صمًا، ودار سنقر كالنحلة لا يسكن ولا يكف عن الصياح. واتفق عند حضوره أن كان عم كامل يسأل أصحابه أن يُقنعوا عباس الحلو بالنزول عن الكفن المحتفظ له به، ولكنهم أبوا عليه ذلك وأنكروا عرضه، وقال له الدكتور البوشي:

- لا تفرط في كسوة الآخرة. إن الإنسان ليعيش كثيرًا في دنياه عارياً، أما عتبة القبر فلا يمكن أن يجوزها عارياً مهما كان فقره...

وتكرّر الرجاء من ناحية الرجل الساذج فاصطدم كل مرة بالفرض والسخرية، حتى كف الرجل يائساً. وراح الحلو بعد ذلك يعلن للإخوان ما اعتزم من العمل في الجيش البريطاني، ويستمع إلى آرائهم ونصائحهم، وقد اجتمعت كلمتهم على الموافقة على مشروعه، وتمنوا له النجاح والثراء. وكان السيد رضوان الحسيني منهمكاً في حديث طويل من أحاديثه المليئة بالوعظ والإرشاد، وقد مال على محدثه وأنشأ يقول:

- ... فلا تقل مللت! الملل كفر. الملل مرض يعتور الإيمان. وهل معناه إلا الضيق بالحياة! ولكن الحياة نعمة الله سبحانه وتعالى، فكيف لمؤمن أن يملأها أو يضيق بها! ستقول ضقت بكيت وكيت، فأسألك من أين جاءت كيت وكيت هذه؟ أليس من الله ذي

- آه يا ستّ. الحبّ يساوي الملايين.. أنفقت في حبك يا ستّ مائة ألف جنيه، وإنه لقدر زهيد... وأخيراً رأى الدكتور بوشي المعلم كرشة يحقّق باهتمام شديد في مطلع الزقاق، ورآه يستوي جالساً وقد ابتسمت أساريره، فنظر إلى مدخل القهوة مترقباً، وما لبث أن طالعه وجه الشابّ، وقد ألقى على السّمّار نظرة المتردّد من عينيه الساجيتين... .

- ٧ -

تقع الفرن فيما يلي قهوة كرشة، لصق بيت الستّ سنيّة عفيفي. بناء مربع على وجه التقريب، غير منتظم الأضلاع، تحتلّ الفرن جانبه الأيسر، وتشغل الرفوف جدرانها: وتقوم مصطبة فيما بين الفرن والمدخل ينام عليها صاحبها الدار: المعلّمة حسنيّة وزوجها جعدة. وتكاد الظلمة تطبق على المكان ليل نهار لولا الضوء المنبعث من فوهة الفرن. وفي الجدار المواجه للمدخل يُرى باب خشبيّ قصير يُفتح على خرابة، تسطع فيها رائحة تراب وقذارة، إذ ليس بها إلا كوة في الجدار المواجه للمدخل تطلّ على فناء بيت قديم. وعلى بعد ذراع من الكوة، وعلى رفّ ممتدّ، مصباح يشتعل، يلقي على المكان ضوءاً خفيفاً يفضح أرضه المترية المغطاة بأنواع لا يحصيها العدّ من القاذورات المتنوعة، كأنها مزبلة. أما الرف الذي يحمل المصباح فطويل ممتدّ بطول الجدار قد رُصّت عليه زجاجات كبيرة وصغيرة وأدوات مختلفة وأربطة كثيرة، كأنه رفّ صيدليّ لولا قذارته النادرة. وعلى الأرض - تحت الكوة مباشرة - كان يوجد شيء مكوم لا يفترق عن أرض المكان قذارة ولوناً ورائحة لولا أعضاء ولحم ودم تهبه الحقّ - على رغم كلّ شيء - في لقب إنسان؟ ذلك هو زبطة مستاجر هذه الخرابة من المعلّمة حسنيّة الفرّانة. وحسبه أن يُرى مرّة واحدة كيلا يُنسى بعد ذلك أبداً، لبساطته المتناهية، فهو جسد نحيل أسود وجلباب أسود، سواد فوقه سواد، لولا فرجتان يلّمع فيهما بياض مخيف هما العينان. ولم يكن زبطة - على ذلك - زنجياً، بل إنه مصريّ أسمر اللون في الأصل، ولكنّ

يُشبع شهوته الجائعة للنفوذ والسلطان باصطناع الحزم والمهابة معها. ولكن ينبغي ألا تُسقط من حساب التقدير تقاليد الزمان والمكان، وما تسنّه البيئة لسياسة المرأة وفلسفتها، وما تراه أكثرية أهل طبقته من وجوب معاملة المرأة كالطفل تحقيقاً لسعادتها هي نفسها قبل كلّ شيء. على أن زوجه نفسها لم يكن لديها ما تشكوه نحوه، ولولا الجروح التي تركها الأبناء تذكّاراً خالداً في قلبها، لغدّت نفسها امرأة سعيدة، فخوراً بزوجها وحياتها.

أما المعلّم كرشة فكان حاضراً غائباً، لم يطمئنّ به المجلس لحظة واحدة، وعانى مرارة الانتظار في صمت كئيب. وكلّما مرّت دقائق لوى عنقه واشرابّ به نحو مطلع الزقاق، ثمّ يعود إلى صندوق الماركات متصبّراً متجلّداً قائلاً لنفسه: «سيأتي حتماً، سيأتي كما أتى إخوان له من قبل...». وتمثّل له وجهه، ثمّ نظر إلى الكرسيّ القائم بينه وبين أريكة الشيخ درويش فرآه بعين الخيال يطمئنّ إليه، لم يكن فيما سلف ليجرؤ على دعوة أحد أمثال هذا الشابّ إلى قهوته تسيراً أو حياءً، ثمّ افتضح أمره، وذاعت فضيحته، فكشف وجهه وارتاد الإثم جهازاً. وكان يقع بينه وبين زوجه من المآسي ما يبقى حديثاً فاضحاً تتناقله الألسن، ويتلقّفه بشغف أمثال الدكتور بوشي وأمّ حميدة، ولكنّه لم يعبا شيئاً. وما تكاد النار تحمد إلى حين حتّى يصبّ عليها نطقاً بسوء سيرته فيضرمها إضراماً، وكأنّه وجد أخيراً في الجهر لذة فلهج بها. وهكذا جلس قلماً لا تعرف السكنية سبيلاً إلى نفسه الملوثة، كأنه يجلس على مشواة، يكاد ينبري عنقه من كثرة لئيه، حتّى لاحظ الدكتور بوشي اضطرابه وقال للحلو في خبث:

- هذه علامات الساعة!

وهنا خرج الشيخ درويش عن صمته فجأة، وأنشد يقول:

حننت إلى ربّنا ونفسك باعدت

مزارك من ربّنا وشعباكما معا

فما حسن أن تأتي الأمر طائعا

وتجزع إن داعي الصباية أسمعنا

## زقاق المدق ٦٦٥

كامل في دنيا الرجال! وكان من أهم الأسباب التي دعت أهل الزقاق إلى تجنبه رائحته المنتنة، فلم يكن الماء يعرف سبيلاً إلى وجهه أو جسده. وقد أثر وحشة العزلة على الاستحمام! وبادل الناس مقماً بمقت عن طيب خاطر، فكان يرقص طرباً إذا قرع مسمعيه صوات على ميت، ويقول وكأنه يخاطب الميت: «جاء دورك لتذوق التراب الذي يؤذيك لونه ورائحته على جسدي!». وربما قطع وقت فراغه الطويل في تخيل صنوف التعذيب التي يتمناها للناس واجداً في ذلك لذّة لا تعادها لذّة، يتصوّر جعدة الفران هدفاً لعشرات الفؤوس تضربه حتى تتركه كتلة مهشمة كلّها نقوب!.. أو يتخيّل السيّد سليم علوان وقد استلقى على الأرض ووابور الزلزل يروح عليه ويجيء ودمه يجري نحو الصناديق.. أو يتمثل له السيّد رضوان الحسيني تجرّه الأيدي من لحيته الصهباء نحو الفرن الملتهبة ثم يستخرجونه منها زكية من الفحم.. أو يرى المعلم كرشة مطروحة تحت عجلات الترام يمزق أوصاله ثم يلمون أشلاءه في مقطف ما يستحقّ الناس. وكان إذا باشر عمله وأخذ في صنع العاهة لطالها، اشتدّ عليه في قسوة مقصودة مستخفياً وراء سرّ المهنة، حتى إذا نذت التأوهات عن فريسته لمعت عيناه المخيفتان بنور جنوني. ومع ذلك كان الشحاذون أحبّ البشر إلى نفسه، وتمتّى كثيراً لو كان الشحاذون أكثرية أهل الأرض.

هكذا جلس زبطة غارقاً في أخيلته يتربّب وقت العمل. وعندما انتصف الليل أو كاد نهض قائماً، ونفخ المصباح فانظفاً وساد ظلام ثقيل. ثمّ تلمّس طريقه إلى الباب وفتحته في هدوء بالغ، ثمّ اخترق الفرن إلى الزقاق. والتقى في سبيله بالشيخ درويش يغادر القهوة، وكثيراً ما يلتقيان في منتصف الليالي دون أن يتبادلا كلمة واحدة، ولذلك كان للشيخ حظّ موفور في محكمة التفتيش التي ينصبها زبطة في خياله للبشر. وانعطف صانع العاهات إلى سيّدنا الحسين في خطوات قصيرة وثيدة، وكان يقترب في سيره من جدران البيوت على رغم الظلمة الحالكة - كانت بعض

القذارة الملبّدة بعرق العمر كوّنت على جسّته طبقة سوداء. كذلك جلبابه لم يكن في البدء أسود، ولكنّ السواد مصير كلّ شيء في هذه الخرابة. وهو لا يكاد يمتّ بسبب للزقاق الذي يعيش فيه، فلا يزور ولا يزار، لا نفع فيه لأحد ولا نفع في أحد له، اللهمّ إلاّ الدكتور بوشي، والآباء الذين يستعينون بصورته على تخويف أطفالهم. وأما صناعته فمعروفة لدى الجميع، وهي صناعة تحوّل له لقب دكتور وإن لم يتّخذة إكراماً لبوشي. كان يصنع العاهات، ليست هذه العاهات الطبيعيّة المعروفة، ولكن عاهات صناعيّة من نوع جديد. يقصده الراغبون في احتراف الشحاذة، فبفتّه العجيب - الذي يحشد أدواته على الرفّ - يصنع لكلّ ما يوافق جسمه من العاهات. يجيئون صحاحاً ويغادرونه عمياناً وكسحاناً وأحداباً وقعساناً ومبتوري الأذرع أو الأرجل. وقد اكتسب البراعة في فنّه من تجارب الحياة التي صادفته، وعلى رأسها جميعاً اشتغاله عهداً طويلاً في شرك متجول، ولاتّصاله بأوساط الشحاذين - اتّصلاً يرجع عهده إلى صباه حين كان يعيش في كنف والدين شحاذين - فكّر في تطبيق فنّ «الماكياج» الذي تلقّته في الشرك على بعض الشحاذين، في بادئ الأمر على سبيل الهواية، ثمّ على سبيل الاحتراف حين ضاقت به أوجه العيش. ومن مشاقّ عمله أنّه يبدأ في الليل، أو عند منتصف الليل على الأصحّ، ولكنّها مشقة غدت بالعادة مألوفة ميسرة، أمّا في أثناء النهار فلا يكاد يفارق الخرابة بحال، يجلس القرفصاء يأكل أو يدخن، أو يتسلّى بالتجسّس على الفران والفرّانة، ولكم كان يلدّه أن يسترق السمع لما يدور بينها من حديث، أو أن يشاهد من ثقب الباب انهبال المرأة بالضرب على زوجها صباح مساء، حتى إذا أتى الليل رأهما وقد شملها الصفاء وقد أقبلت المعلمة على زوجها القرد تمازحه وتبسطه السمر. وكان زبطة يمقت جعدة ويحتقره ويستقبح وجهه! وفضلاً عن ذلك كلّه كان يحسده على ما حباه الله به من زوج «كاملة الجسم» أو على حدّ تعبيره «امرأة بقري!». وكان كثيراً ما يقول عنها إنّها في دنيا النساء تقابل عمّ

تحتة يجلس رجال ثلاثة. ودلف الرجل بينهم في هدوء لأن وجودهم لم يدهشه ولم يزعجه، وعينهم بعينه البراقين فعرف منهم الدكتور بوشي. ووقفوا له جميعاً، وقال له الدكتور بوشي بعد أن حيّاه تحية طيبة:

- هاك رجلين مسكينين يستشفعان بي إليك . .

فتظاهر زبطة بعدم المبالاة، وقال متظاهراً بالملل:

- في مثل هذه الساعة يا دكتور؟!

فوضع الدكتور يده على كتفه وقال له:

- الليل ستار وربنا أمر بالستر!

فقال زبطة وهو ينفخ:

- ولكني متعب الآن . .!

فقال البوشي برجاء:

- لا رددت لي يدًا.

وراح الرجلان يضرعان ويدعوان له، فتظاهر بإذعان مرعّباً، ووضع الطعام والتبغ على الرف ووقف حيالهما متفرساً في أناة وهدوء، ثم ثبتت عيناه على أطولهما، كان عملاقاً قوياً فدهش زبطة لمنظره وسأله:

- أنت بغل بلا زيادة ولا نقصان، فلماذا تروم

احتراف الشحاذة؟!

فقال الرجل بصوت منكسر:

- لم أفلح في عمل أبداً، حاولت أعمالاً كثيرة، حتى الشحاذة نفسها، ولكن لم يقدر لي التوفيق، حظي

أسود، وعقلي وسخ لا أفهم شيئاً ولا أتقن شيئاً . .

فقال زبطة بحقد:

- كان ينبغي إذاً أن تولد غنياً . .

ولم يفتن الرجل لمرماه، وراح يستعطفه بتصنّع

البكاء قائلاً بصوت كالخوار:

- أخفقت في كل شيء، حتى الشحاذة لم تجذب لي

رحيماً واحداً. كل الناس يقولون أنت قوي ويجب أن

تشتغل، هذا إذا لم يشتموني وينهروني، لا أدري لماذا!

فقال زبطة وهو يدلك رأسه:

- يا سلام، حتى هذا لا تدركه.

- الله يخليك ويجبر بخاطرك . .

وكان زبطة لا يكف عن فحصه متفكراً، فقال

بحزم وهو يغمز أعضاءه:

قيود الإضاءة ما تزال موجودة - فلا يراه المقبل في الطريق حتى يصطدم بعينه البراقين يلمعان في الظلام لمعان القطعة المعدنية في حزام الشرطي. وفي الطريق، بداخله شعور بالانتعاش والزهو والسرور، فهو لا يشقه إلا حين يكاد ينقطع إلا من الشحاذين الذين يدينون له بالسيادة المطلقة. وشقّ ميدان الحسين منعطفاً صوب الباب الأخضر فبلغ القبر القديم، وجعل يردد عينيه المخيفتين بين أكوام الشحاذين على جانبيه، فمأله الارتياح . . . ارتياح السيد إلى قوته، وارتياح التاجر يرى بين يديه السلع النافقة. ودنا من أقرب الشحاذين إليه، وكان جالساً القرفصاء معتمداً رأسه على ركبتيه ويغظ غطيظاً، فوقف حياله لحظة متفرساً كأنما يسبر نومه هل هو نوم حقيقة أو تظاهر بالنوم، ثم ركله في رأسه الأشعث، فانتبه الرجل من نومه - غير مذعور - كأنما أيقظته أنامل ناعمة، ورفع رأسه متناقلاً وهو يحكّ جنبه وظهره بأظافره، فوقع بصره على الشيخ المشرف عليه، وحملق فيه لحظة، فغرفه - على عماه - لأول وهلة. وتنهّد الرجل فندّ عن صدره صوت كالوحوحة، ثم دسّ يده في صدره واستخرج ملياً غمر به كفّ الرجل. وانتقل زبطة إلى من يليه، ثم إلى من يليهما، حتى إذا فرغ من جناح القبر جميعاً أتجه نحو الجناح الآخر، ثم مضى إلى الأزقة والحواري المحيطة بالجامع الكبير لا يفلت منه شحاذ واحد. ولم يكن إكبابه على تحصيل يوميته لينسيه واجب رعاية العاهات التي صنعها، وربما سأل هذا أو ذلك «كيف عمالك يا فلان؟» أو «كيف كساحك يا فلان؟» فيجيبونه «الحمد لله . . الحمد لله». ثم دار حول المسجد من الناحية الأخرى وابتاع في طريقه رغيفاً وحلاوة طحينية وتبغاً ورجع إلى الزقاق. كان الصمت شاملاً يقطعه بين آونة وأخرى ضحكة أو سعلة ساقطة من أعلى بيت السيد رضوان الحسيني حيث تجتمع غرزة المعلم كرشة. وجاز الرجل عتبة الفرن في هدوء بالغ أن يوقظ الزوجين، ودفع بابه الخشبي في حذر وردّه في سكون . . لم تكن المزبلة مظلمة كما غادرها، ولم تكن خالية. كان المصباح مشتعلًا، وعلى الأرض



## زقاق المنق ٦٦٧

- هذا من فضل ربّي .  
فهزّ زبطة رأسه وقال ببطء :  
- العمليّة دقيقة وخطيرة . ودعني أسألك عن أسوأ  
الاحتمالات ، هبك فقدت بصرك حقيقة عن خطأ أو  
إهمال فهذا تفعل ؟  
فتردّد الرجل لحظة ، ثمّ قال بغير مبالاة :  
- نعمة من الله ! وهل أفدت من بصري شيئاً حتّى  
أسف على ضياعه ؟  
فقال زبطة بارتياح :  
- بهذا القلب تستطيع أن تواجه الدنيا حقاً .  
- بإذن الله يا سيّدي . ستكون روحي ملك يدك .  
سأنزّل لك عن نصف ما يجود به المحسنون . .  
- هذا كلام لا يجوز عليّ ، حسبي مليمين غير أجر  
العمليّة ، وإني أعرف كيف أستخلص حقّي إذا سؤلت  
لك نفسك الماطلة . .  
وهنا قال البوشي محذّراً :  
- لم تذكر نصيبك من الخبز .  
فاستدرك زبطة قائلاً :  
- طبعاً . طبعاً . . والآن فلنشرع في العمل ، العمليّة  
شاقّة ، ولسوف نمتحن قوّة احتمالك ، فاکتم الألم ما  
استطعت إلى ذلك سيّلاً .  
وتصوّر ما سوف يكابده هذا الجسم الهزيل من  
هرس يديه القاسيتين ، فارتسمت على شفّته الباهتتين  
ابتسامة شيطانيّة . .

- ٨ -

كانت الوكالة مثار ضجيج لا ينقطع في الزقاق طول  
النهار . عمّال كثيرون لا يكفّون عن العمل فيها عدا فترة  
الغداء القصيرة ، وسيل من البضائع الواردة والصادرة  
يطرد في تنابح متواصل ، وعدد من سيّارات العمل  
الضخمة يجمعج أزيزها فيطبق على الصنادقيّة وما  
يتاخها من الغوريّة والأزهر ، وتيار زاخر من الزبائن  
والعملاء . هي وكالة عطارة بالجملة والتجزئة ، وليس

- أنت قويّ حقاً . أعضاؤك سليمة . إني أعجب  
ماذا تأكل ؟  
- الخبز إذا وُجد ولا شيء غيره .  
- هذا جسم شيطانيّ بلا ريب . ترى ماذا تكون لو  
أكلت كما تأكل حيوانات الله التي يؤثرها بخيره  
ونعمته ؟!  
فقال الرجل ببساطة :  
- لا أدري . .  
- طبعاً طبعاً . . أنت لا تدري شيئاً ، فهمنا هذا ،  
وخير ما فعلت ، فلو كنت تدري لانقلبت واحداً منّا .  
اسمع يا هذا لا فائدة ترجى من تشويه أعضائك . . .  
ولاح الانقباض في الوجه الثور ، وأوشك أن يتباكي  
كزّة أخرى لولا أن بادره زبطة قائلاً :  
- عسير أن أكرس لك رجلاً أو ذراعاً ، ومهما صنعت  
بك فلن تستثير عطف أحد . إنّ البغال أمثالك يُثيرون  
الحقن أينما يملّون . ولكن لا تيأس (كان الدكتور بوشي  
ينتظر هذه العبارة بصبر نافذ) فهناك طرق شتى ،  
أعلمك فنّ العتّه مثلاً . وأنت لا ينقصك منه شيء ذو  
بال ، أجل العتّه ، وأحفظك بعضاً من مدائح  
الرسول . . .  
فتهلّل وجه الرجل ودعا له كثيراً ، حتّى قاطعه زبطة  
متسائلاً :  
- لماذا لم تشتغل قطّاع طرق ؟  
فقال الرجل بانكسار :  
- أنا رجل طيّب مسكين ، لا أقصد إنساناً بسوء ،  
وأحبّ آل البيت .

فقال زبطة باحتقار :

- أتبدءوني أنا بهذه البوليتيكا . . ؟

ثمّ التفت إلى الرجل الآخر ، كان قصيراً هزلياً ،  
فقال زبطة بارتياح :

- استعداد طيّب . .

فابتسمت أسارير الرجل وقال ممتناً شاكراً :

- الحمد لله كثيراً . . .

- خلقت لتكون أعمى مقعداً .

فقال الرجل بسرور :

ونفاسة أثاث وكثرة خدم وحشم. وفضلاً عن ذلك فقد انتقل عقب زواجه من البيت القديم بالجمالية إلى قصر منيف بالحلمية، فترعرع الأبناء في وسط جديد منقطع الأسباب ببيئة التجار وأوساطهم، وسط يضمر بلا ريب نوعاً من الاحتقار للمهن الحرة جميعاً، فتعلقوا بمثل عليا جديدة. بحكم معيشتهم ووسطهم وعلى غير علم من والدهم المشغول بعمله وحياته. وحين جدّ الجدّ تمردوا على نصحه وأبوا الالتحاق بمدرسة التجارة أن تكون فخاً لهم، وشقوا سبلهم إلى الحقوق والطب، فهم قاضٍ ومحامٍ بأقلام القضايا وطبيب بقصر العيني. ومع ذلك كانت الحياة سعيدة، وقد بدت آثارها الطيبة في جسمه البدين المتين، ووجهه الممتلئ المورّد، وحيويته الشابة المتوّبة سعادة منشؤها أنّ كلّ شيء في موضعه المأمول، تجارة رابحة، صحّة جيّدة، أسرة سعيدة، أبناء موفّقون قد عرف كلّ منهم وجهته واطمأن إليها. وكان له غير هؤلاء الأبناء بنات أربع، تزوّجن جميعاً وبارك الله في زيجاتهنّ. فبدا كلّ شيء باسماً منبسّطاً لولا ما يتنابه بين الحين والحين من التفكير في مصير الوكالة والتجارة. وبكروار الأيام تنبّه الأبناء إلى متاعب الأب، ولكنهم قدروها من ناحية أخرى، فساورهم خوف أن يفلت الزمام يوماً من يد والدهم. أو أن يتركها لهم بغتة فلا يدرون ماذا يصنعون. وكان أن اقترح عليه أحدهم - محمد سليم علوان القاضي أن يصفّي تجارته ليتفرّغ لحقه المشروع من الراحة بعد ذلك النضال الطويل. بيد أنّ السيّد لم يغب عنه حقيقة مخاوفه، واستاء استياء لم يحاول إخفاءه، فقال له «أتريد أن ترثني حياً!» ودهمه قوله هذا وهاله، لأنّه وإخوته يجيئون أباهم حباً صادقاً، فلم يعد أحد منهم إلى طرّق هذا الموضوع الخطير. ولكن لم ينته الأمر عند هذا الحدّ فراحوا يقولون - واثقين من عدم استفزاز غضبه هذه المرّة - إنّ شراء أرض أو تشييد عمارات أفضل بلا ريب من كنز الأموال في المصارف. ووظن إلى بواعث هذا القول الحقيقيّة بعقله الذي يحسن إدراك مسائل المال وما يتفرّغ عنها، فهو يعلم حقّ العلم أنّ التجارة التي تدرّ المال بلا حساب

من شكّ في أنّ انقطاع الوارد من الهند بسبب الحرب قد أحدث في سوقها أثراً ملحوظاً، ولكنّ الوكالة على رغم ذلك حافظت على سمعتها ومركزها، كما ضاعفت ظروف الحرب من نشاطها وأرباحها. وفضلاً عن هذا وذاك فقد أغرت ظروف الحرب السيّد سليم بالألتجار بموادّ لم يكن يلقي إليها بالأ كالشاي، فغامر في السوق السوداء، وريح أرباحاً طائلة. وكان السيّد سليم علوان يجلس إلى مكتبه الضخم في نهاية الردهة الموصلة إلى فناء الوكالة الداخليّ التي تحمق به المخازن، وهو مركز وسط يستطيع أن يشرف منه على داخل الوكالة وخارجها، ويسرّ له مراقبة العمّال والحمالين والزبائن جميعاً. لذلك كلّ فضل هذا المركز على الانفراد في حجرة كما يفعل أقرانه من كبار التجار، ولأنّ التاجر الحقّ - على حدّ تعبيره - ينبغي أن يكون مفتوح العينين دائماً. وكان الرجل في الواقع من النماذج العمليّة الموقّعة، خبيراً في مهنته، قادراً على النهوض بأعبائها. ولم يكن من حديثي النعمة الذين أنجبهم الحرب، لأنّه على حدّ تعبيره أيضاً «تاجر ابن تاجر»، بيد أنّه لم يكن في البدء معدوداً من الأغنياء، ثمّ خاضت تجارته غمار الحرب الأولى وخرجت ظافرة، وأدركتها هذه الحرب فأثقلت موازينها حتّى أتحمتها بالثراء. على أنّ الرجل لم يخل من الهموم، وبحسبه أن يناضل في الميدان وحده بلا معين ولا نصير. أجل كان ما يتمتّع به من صحّة جيّدة وحيويّة فائضة خليقاً بأنّه يهون عليه همومه، ولكن لم يكن بدّ من التفكير في الغد، القريب أو البعيد، إذا انصرف العمر أو كاد، وافتقدت الوكالة من يديرها. فمن المؤسف حقاً أنّ أحدًا من أبنائه الثلاثة لم يقع له في خاطر أن يتقدّم لمعاونة أبيه في عمله، وكانوا جميعاً سواء في الإعراض عن التجارة، وضاعت محاولاته في تنيهم عن إعراضهم كلّها سدى، فلم يجد مناصاً - على بلوغه الخمسين - من النهوض بالأمر كلّ. وليس من شكّ في أنّه كان المسئول عن هذا الختام المرهق، فقد كان على رغم عقلية التجاريّة - جواداً كريماً، أو كان كذلك على الأقلّ في بيته وبين أهله، فكان بيته كالفصور جمال بناء

للبرلمان فستغرق الانتخابات آلافًا من أموالك دون جدوى ثمناً لكسبي غير مضمون، وهل البرلمان في بلادنا إلا كمريض بالقلب تهدده السكتة في آية لحظة! ثم أي حزب تختار؟ إذا اخترت حزباً غير الوفد أضعفت مكانتك في الوسط الذي تعمل فيه، وإذا اخترت الوفد لم تأمن رئيس وزارة كصديقي باشا يجعل تجارتك هسيماً تذروه الرياح.

وتأثر السيد بقول ابنه، وكان يتق في أبنائه «المتعلمين» ثقة كبيرة، وزاده انحيازاً إلى طرح السياسة جانباً جهله التأم بشئونها، وبروده حيالها، فلم يكن يعلم من أمورها إلا أسماء ورث حبها أو بغضها عن عهد سعد زغلول.

واقترح عليه البعض أن يتبرع بقدر من المال لمشروع من المشروعات الخيرية لعله أن يجزى عليه بالرتبة. ولم يرقه الاقتراح من بادئ الأمر، لأن غريزة التجارة الكامنة فيه تنفر نفوراً طبيعياً من البذل والعتاء، ولا يتعارض هذا مع كرمه المعروف، لأنه في الواقع كان كرمًا لنفسه وبيته، على أنه لم يقطع بالرفض، فما زالت الرتبة مغرية محبوبة، وما زال يطمع فيها ويريدها. وقد أدرك أنها تقتضيه قدرًا من المال لا يقل عن الخمسة الآلاف جنيه، فما عسى أن يصنع؟ لم يبت برأي قاطع، وإن قال لأبنائه «كلًا» بيد أنه أضاف الرتبة إلى همومه الأخرى القائمة بلا فض كإدارة الوكالة وشراء العقار، تاركًا أمر الجميع للمستقبل وللظروف.

\* \* \*

ومهما يكن من أمر هذه المهموم فهي ليست بالخطر الذي يتغص صفو الحياة وخصوصاً حياة رجل يستغرقه العمل نهائياً، والغريزة ليلًا. والحق أنه إذا شغله العمل لم يعد يفكر في شيء سواه، وقد جلس إلى مكتبه مركزاً انتباهه كله في كلام ممسار يهودي، مستجمعاً يقطته، مستحضرًا حذره، يعجب لرقه محدثه ولطفه، حتى ليحسبه الجاهل صديقاً ودوداً، وهو في الحقيقة غمر يتوثب، يَمَسْكُنُ وَيَمَسْكُنُ حتى يتمكن، والويل لمن يتمكن منه. وقد علمته التجارب

قد تتلعه أيضًا في ساعة نحس واحدة، وأن التاجر الذي يجتاط للمستقبل بشراء عقار مثلاً حقيق إذا وقعت هذه الساعة - خاصة إذا سجل ما ابتاع من عقار باسم أبنائه مثلاً أو زوجه - أن يخرج من شدته ببعض المال، وعسى أن يكون مالاً كثيرًا، لا صفر اليدين. وهو إلى ذلك يعرف حق المعرفة سير تجار كبار تم ربحوا أموالاً طائلة، وانتهوا إلى الإفلاس والفقر المدقع، أو إلى شر من ذلك كالانتحار أو الموت كمدًا. أجل إنه يعلم ذلك كله، ويعلم أن أبنائه على حق في ما يريدون، ولعل التفكير في هذا الذي يريدون لم يكن جديدًا عليه، ولكن هل تسمح ظروف الحرب بالشروع في مثل هذا العمل؟! كلًا، هذا بين بلا ريب. وإذا فليؤجل إلى حين، وليطو في نفسه حتى يتيسر تحقيقه ولم يكذب بحسب أنه فرغ من هذا المهم حتى اقترح عليه ابنه القاضي أيضًا أن يسعى للحصول على رتبة البكوية. قال له: كيف لا تكون بيكًا والبلد ملأى ببيكوات وباشوات دونك مالاً وجاهًا ومقامًا.

وسره هذا الإطراء. وكان في الحق - وعلى خلاف التجار الحصفاء - مغرمًا بالجاء والجلال، ولكنه تساءل في سداجة عن السبيل إلى التماس هذه الرتبة، وغدا الأمر شغل الأسرة الشاغل، وتحمسوا له جميعًا وإن اختلفوا في الوسيلة. فاقترح البعض عليه أن يشتغل بالسياسة وأن يدي فيها بدلوه! حقًا كان السيد سليم علوان لا يكاد يفقه شيئًا - فيما عدا التجارة - من أمور الدنيا، ولا تكاد تسمو آراؤه أو معتقداته على آراء ومعتقدات عباس الحلو مثلاً، فكان مثله يضرع خاشعًا إلى ضريح الحسين، وكان مثله يبجل الشيخ درويش ويتبرك به. كان بإيجاز معدة قوية وجبة زاهية. بيد أن السياسة لا تحتاج في كثير من الأحيان إلى أكثر من هذا، وقد مضى يفكر في الأمر تفكيرًا قويًا، لولا أن اعترضه ابنه المحامي - عارف سليم علوان - فقال له محدثًا:

- السياسة حقيقة بأن تحرب بيتنا وتلتهم تجارتنا. ستجد نفسك ملزمًا بالإنفاق على الحزب أضعاف ما تنفق على نفسك وأهلك وتجارتك. وعسى أن ترشح

تغير على ليايه، وعاد باللائمة بادئ الأمر على العامل الذي يهين الوصفة. فلما أن أبرأ الرجل ذمته داخله الشك في الفرانة، واكتشف السرقة بغير صعوبة، فدعا الفرانة ووبخها، وعدل عن إرسال الصينية إلى فرنسا، مستبدلاً بها الفرن الإفرنجي بالسكة الحديدية. وبدأ السر ينكشف ويذيع فعملت به أم حميدة، وكان في ذلك الكفاية كل الكفاية، فسرعان ما أحاط به أهل الزقاق جميعاً، وراحوا يتلقون الصينية بالغمز واللمز. وأدرك السيد غاضباً أن سره قد افترس، ولكنه لم يعبا ذلك طويلاً! أجل. قطع أكثر عمره في الزقاق، ولكنه لم يكن يوماً من أهله، ولم يعمل لواحد منهم حساباً، ولولا السيد رضوان الحسيني والشيخ درويش لما عني برفع يده تحية. وكادت الصينية تصبح في وقت من الأوقات موضحة الزقاق جميعاً، ولولا تكاليفها الباهظة لما سلاها أحد. فجزبها المعلم كرشة والدكتور بوشي، حتى السيد رضوان الحسيني ذاقها بعد أن تأكد أنها لا تحوي مادة يحرمها الشرع الخيف! أما السيد سليم فكان يواظب عليها إلا فيما ندر، والواقع أنه كان يضطرب من الحياة في مضطرب ضيق، نهاره نهب للوكالة، وليله خالٍ مما يتسلل به أمثاله من الناس، فلا قهوة ولا نادٍ ولا ملهى، ولا شيء مطلقاً إلا زوجته، ولذلك تفنن في مسراته الزوجية تفنناً شديداً عن جادة الاعتدال.

\*\*\*

وقد استيقظ قبيل العصر فتوضأ وصلى، وارتدى قفطانه وجبته، وعاد إلى مكتبه فوجد قدح الشاي الثاني مهياً، فاحتساه بتلذذ وهو يتجشأ جشأت مبعجة يدوي صداها في الفناء الداخلي، وأقبل على عمله بنفس الهمة التي استقبله بها في الصباح ولكنه كان يبدو في فترات وكأن قلماً يتابه. كان يتلفت نحو الزقاق، وكان ينظر في ساعته الذهبية الضخمة، وكان يعبت بأنفه على غير شعور منه. وعندما ارتفع ضوء الشمس إلى أعلا الجدار الأيسر للزقاق، أدار مقعده اللولبي وجعل وجهه للطريق ومرّت دقائق ثقيلة لم تتحول فيها عيناه عن الطريق. ثم أرفه السمع ولعت عيناه لوقع

أن هذا الخواجا وأمثاله أعداء ما من صداقتهم بد، أو أنه - على حدّ تعبيره - شيطان مفيد. وكان يساومه بصفقة شاي مضمونة الريح غزيرته، فجعل السيد يفتل شاربه الضخم ويتجشأ شأنه إذا استغرقه التفكير الخطير! وحاول الخواجا بعد أن فرغ من الشاي أن يعرض عليه شراء عقار صالح - وكان على علم برغبته في الشراء - ولكن السيد كان قد صمم على تأجيل الشروع في ذلك إلى ما بعد الحرب، وأبى أن يصغي إليه، فغادر الرجل الوكالة قانعاً بصفقة واحدة. وجاء غير هذا الخواجا آخرون. وواصل السيد العمل بما عُرف عنه من مقدرة وهمّة. وعند منتصف النهار نهض للغداء، وكان يتناول غداءه في حجرة أنيقة أعدّها فرائشاً للمقيل. وكان غداؤه يتكوّن عادة من خضر وبطاطس وصينية فريك. ولما انتهى من طعامه مضى إلى الفراش يستجم ساعة أو ساعتين. وفي أثناء ذلك تسكن حركة الوكالة، فيسود السكون الزقاق جميعاً. وكان لصينية الفريك قصة يعرفها أهل الزقاق جميعاً. هي طعام ووصفة في آن واحد، وقد برع في تهيتها أحد عماله المقربين، فظلت حقيقتها سراً بينهما لولا أنه لا يؤمن على سرّ في زقاق المدق. هي صينية فريك محشوّ بالحام، ومخلوط بقدر من مسحوق جوزة الطيب، يلتهمها في الغداء، ويمتسي بعدها شيئاً مرتين أو ثلاث مرّات، قدحاً كلّ ساعتين، فتحدث مفعولها ليلاً، ويستمر تأثيرها الساحر ساعتين كاملتين في بهجة خالصة! وقد ظلت الصينية سراً لا يدريه إلا الرجلان والمعلمة حسنة الفرانة. وكان أهل الزقاق يرونها فيحسبون أنها غداء خالص، فيقول البعض: «بالهنا والشفا» ويغمغم البعض: «يطفحها سماً بإذن الله!». ثم لعب الطمع يوماً بقلب المعلمة حسنة، فسوّلت لها نفسها أن تجرب هذه الوصفة في زوجها جعدة الفران، واختلست من الصينية قطعة موفورة ملأت فراغها بفريك خالص. ودأبت منذ ذلك اليوم على اختلاس نصيبها مطمئنة إلى غفلة السيد، مدفوعة بما أسفرت عنه التجربة من نجاح ملحوظ! بيد أن السيد سليم لم يغفل عن الأمر طويلاً، ولاحظ بسهولة ما طرأ من

## زقاق المدق ٦٧١

شيشب على أحجار الطريق المنحدر، ثم مرّت حميدة أمام باب الوكالة في ثوانٍ معدودات، وقتل شاربيه بعناية، ودار بكرسيه إلى المكتب وقد لاح في عينه السرور، وإن وجد شعورًا بعدم الارتياح! من العسير أن يقنع بهدوء الرؤية الخاطفة بعد ساعة كاملة من الانتظار والقلق والشوق. ولم يكن يتاح له رؤيتها في غير هذا الوقت إلا من قبيل استراق النظر إلى نافذتها في أوقات نادرة كلما جازف بالظهور أمام الوكالة كأنما يريح أعصابه بالمشي. كان شديد الحذر بطبيعة الحال صونًا لمنزله وكرامته، فهو السيد سليم، وهي فتاة مسكينة، والزقاق زخار بالألسن الحداد والأعين المتطفلة. وتوقف عن العمل وجعل ينقر المكتب بسبائته متفكرًا. أجل، هي مسكينة وفقيرة ولكن الرغبة لا ترحم وأسفاه، والنفس آتارة بالسوء! مسكينة وفقيرة ولكن وجهها البرنزي ونظرة عينها وقدها المشوق، كل أولئك مزايا تستهين حقًا بفوارق الطبقات! وما جدوى المكابرة؟ إنه يهوى العينين الفاتنتين والوجه المليح، والجسم الذي يقطر إغراء، وهذه العجيزة الأنيقة التي تزري بورع الشيخ. إنها أنفَس من وارد الهند جميعًا. ولقد عرفها منذ كانت صبيبة صغيرة تتردد على الوكالة لابتياح ما تحتاجه أمها من الحنّاء وموادّ المفتحة والمغات. رأى ثديها وهما نبتان ثمّ وهما دومتان، حتى استوتا رمانتين. وعابن عجيزتها وهي أساس أملس لم ينهض عليه بناء، ثمّ وهي تكوّر رقيق يتمطى به النضج، وأخيرًا وهي كرة تنضح أنافة وأنوثة. وراح الرجل يحضن إعجابه المترعرع حتى أفرخ في النهاية رغبة عازمة. إنه يعلم ذلك، ولم يعد يحاول إنكاره. ولطالما قال لنفسه: وليتها كانت أرملة كالتست سنّية عفيفي! لو كانت أرملة لوجد لنفسه مخرجًا. أمّا وهي عذراء فينبغي أن يطيل التفكير في أمره. وتساءل كما اعتاد أن يتساءل: ماذا يروم؟ وذكر وهو لا يدري زوجه وأسرته. كانت زوجته امرأة فاضلة، تتحلّى بكلّ ما يحبّ الرجل من أنوثة وأمومة وإخلاص ومهارة فائقة في شؤون البيت، وكانت على شبابها مليحة ولوذاً. فهو لا يأخذ عليها

نقيصة واحدة، وفضلاً عن ذلك كلّ كانت من أسرة كريمة تتفوق عليه كثيرًا في الأصل والمحتد. وهو يقرّ بفضلها جميعًا، ويضمّر لها وذاً صادقاً، ولا يضايقه إلا أنها استوفت شبابها وحيويتها، فقصرت عن مجاراته، وعمجزت عن احتياله، فبدا بالقياس إليها - وبسبب حيويته الحارقة - شابًا نهبًا لا يجد فيها ما يشتهيه من متاع! والحقّ أنّه لا يدري إن كان ذلك ما علّقه بحميدة، أم أنّ هواه ما جعله يستشعر هذا الفراغ الأليم! ومهما يكن الأمر فقد أحسّ رغبة لا تقاوم إلى دم جديد! وقال لنفسه صراحة: «ما لي أحترم على نفسي ما أحلّ الله لها!». على أنّه كان رجلًا محترمًا، حريصًا جدًّا على أن يقرّ له كلّ إنسان بالاحترام، ويكرهه غاية الكره أن يكون مضغّة الأفواه. كان من الذين يعملون للناس وأرائهم كلّ حساب، وكان يقول مع القائلين: «كلّ ما يعجبك والبسّ ما يعجب الناس!». وإنّه ليأكل صينيّة الفريك، أمّا حميدة...! ربه! لو كانت من أسرة كريمة ما تردّد لحظة في طلب يدها. ولكن كيف تصير حميدة ضرة للسيدة عفت؟! وكيف تصيح أمّ حميدة الخاطبة حماته كما كانت يومًا المرحومة ألفت هانم؟! وعلى أيّ وجه تكون حميدة امرأة أب لمحمد سليم القاضي وعارف سليم المحامي والدكتور حسن سليم؟! وهناك أمور أخرى - لا تقلّ عن هذه خطورة - ينبغي تقديرها حقّ قدرها. هنالك بيت جديد لا بدّ - في هذه الحالة - أن يتهبّ، ونفقات جديدة ربّما ضاعفت من نفقاته القديمة، وورثة جدد خليقون أن يمزقوا وحدة أسرته المتهاكمة، وأن يلوثوا صفحتها الناصعة بالعداوة والبغضاء. وفي سبيل أيّ شيء كلّ هذه المتاعب؟... ميل رجل - بل زوج أب - في الخمسين لفتاة في العشرين! لم يغب عنه شيء من هذا، لأنّه رجل لا يفوته بحال تقدير المتاعب التي تتصلّ بالمال وأحوال المعيشة. ومضى يراجع نفسه حائرًا مترددًا لا يقرّ له قرار. وباتت هذه العاطفة إحدى الهموم المعلقة في حياته، وانتظمتها سلسلة مشاكله التي لم تفضّ كإدارة الوكالة ومستقبلها، وشراء العقار وتشييد العمارات، ورتبة البكوية، بيد أنّها كانت

أشدّ إلحاحًا وأبعث شجنًا.

كان ذهنه يستعرض جميع هذه الخواطر إذا خلا إلى نفسه ومدّ له حبل التفكير، أما إذا خطرت حميدة أمام عينيه، أو لاحت لهما في النافذة، فلم يكن يفكر إلا في أمر واحد...

### - ٩ -

أصبحت أم حسين - امرأة المعلم كرشة - في همّ مقيم. فانقطاع عادة مألوفة لا يمكن أن يمرّ دون تساؤل، خصوصًا إذا كان انقطاعها في الماضي يقترن دائمًا بشرّ مستطير. وقد قطع المعلم كرشة عادة محبوبة لا يصحّ أن تقطع لغير سبب خطير، فراح يمضي سهرته الليلية بعيدًا عن البيت، بعد أن كان يدعو رفاقه المدمنين إلى حجرة السطح كلّ منتصف ليل فيمتدّ بهم السهر حتّى مطلع الفجر. وطافت بالمرأة الذكريات المحزنة فعاودها الألم الذي ينغص عليها صفو الحياة. ما الذي يدعوها إلى قضاء الليل خارج داره؟ أيكون ذلك السبب القديم؟ ذاك الداء الويل؟ سيقول الفاجر إنّه مجرد تغيير يراد به دفع الملل، أو الانتقال لمكان أوفق لفصل الشتاء، ولكن هيهات تهضم نفسها أمثال هذه المعاذير الكاذبة، وإتّها لتعلم من أمر نفسه ما يعلمه الناس جميعًا. لذلك أصبحت المرأة في همّ مقيم، وباتت تتحرّق على فعل شيء حاسم مهما كانت عواقبه. وكانت امرأة قويّة - على دنوّها من الخمسين - لا تنقصها أسباب الجراءة التي تجاوز الحدّ في كثير من الأحيان. وكانت من نسوة الزقاق المشتهرات بالبأس - كحسنيّة القرانة وأمّ حميدة - واشتهرت بوجه خاصّ لما يقع بينها وبين زوجها من دواعي الملاحاة بسبب شدوذ سلوك الرجل! كما اشتهرت بأنفها الكبير الغليظ الأفتس. وكانت زوجًا ولودًا، أنجبت بناتًا ستًا وذكرًا واحدًا هو حسين كرشة وجميع بناتها متزوّجات، وجميعهنّ يميّز حياة زوجيّة مقلقة، لا تخلو من نكد وإن كانت تسير ولا تنقطع. وقد حدثت لصغراهنّ مأساة كانت حديث الزقاق يومًا، إذ اختفت بغتة في عامها الأوّل من الزواج، ثمّ

ضبطت في بيت عامل ببولاق، وانتهى بها وبه المطاف إلى السجن. كانت مأساة الفتاة كرتًا شديدًا للأسرة، ولكنّها لم تكن المأساة الوحيدة التي ابتليت بها، فللمعلم نفسه مأساة قديمة جديدة لا يعرف لها انتهاء. وكانت أمّ حسين تعرف السبيل إلى معرفة ما خفي عليها من الأمر، فراحت تستخبر عمّ كامل وتستنطق سنقر صبيّ القهوة حتّى علمت بالشابّ الذي أخذ يتردّد في عهده الأخير على القهوة فيحتفي به المعلم كلّ احتفاء ويقدم له الشاي بنفسه! وأخذت تراقب القهوة خفية حتّى رأت الشابّ بنفسها وشاهدت مجلسه إلى عين المعلم، ولست احتفائه به. وجرّ جنونها ونكأ الجديد القديم من جروحها، فباتت ليلة جهنميّة، وأصبحت على شرّ حال وأسوأ نفس. ولم يكن رأيها قد استقرّ على حال، كانت تغلي غليانًا ولكنها لا تدري أيّ سبيل تسلك. ولطالما جرّبت العراك فيما سلف دون جدوى ولم تكن تتردّد عن إعادة الكرة، بيد أنّها تريثت قليلًا - لا تأفّف منه - ولكن دفعًا لشهامة الشامتين. وكان حسين كرشة يتهيأ للخروج إلى عمله فقصده هائجة النفس نائرتها، وقالت له بانفعال شديد:

- يا بنيّ أما علمت أنّ أباك يعدّ لنا فضيحة جديدة؟

وأدرك حسين لتوّه ما تعنيه! فلا يمكن أن يعني قولها إلاّ معنى واحدًا معروفًا مشهورًا. وامتلأ حنقًا، واتقدت عيناه الصغيرتان فتطاير منها الشرر. ما بال هذه الحياة لا تكاد تعفيه يومًا من المتاعب والفضائح. ولم تكن دواعي السخط لتنقصه حتّى بدون هذه الفضائح. كان برّما بكلّ شيء ممّا حوله. ولعلّ برمه هذا الذي دفعه إلى الارتقاء بين أحضان الجيش البريطانيّ. ثمّ ضاعفت حياته الجديدة من سخطه بدل أن تسكّنه وتطامنه، فزاق بأله وبيته وبالزقاق جميعًا. وجاء أخيرًا قول أمّه نفظًا على لهيب، فقال غاضبًا:

- ماذا تريدن؟ وما حيلتي في هذا كلّ! لقد تدخلت فيما سلف وحاولت الإصلاح، فكاد يبلغ بنا الحال أن نتعارك وأن نتضارب، فهل تريدنني على أن

## زقاق المدق ٦٧٣

والغضب، ولكنها لم ترد أن تبادره بالغضب، فقالت وهي تغالب انفعالها:

- تفضل بالدخول يا معلم.

وتساءل المعلم كرشة لماذا لا تتكلم إذا كان لديها حقاً ما تريد أن تقوله ثم سأها بخشونة:

- ماذا تريدين؟ .. انظقي!

يا له من رجل نافذ الصبر! يقطع الليالي الطوال خارج البيت دون ملل، ولكنه يضيق ذرعاً بحديث دقيقتين معها. ومع ذلك فهو رجلها أمام الله والناس، وأبو أبنائها جميعاً، ومن عجب أنها لم تستطع - على إساءته إليها - أن تبغضه أو تهمل شأنه. فهو رجلها وسيدها الذي لا تني عن الاستئثار به، واسترداده كلياً مد الإثم بدأ لاختطافه. بل إنها لفخور به حقاً، فخور بفحولته ومكانته في الزقاق وسيطرته على المعلمين من أقرانه، ولولا هذه النقيصة المنكرة لما وجدت له مريضاً في الدنيا. ها هو يستجيب لداعي الشيطان، ويود لو أعتفه من حديثها لينطلق إليه من توه! واشتد بها الغيظ فقالت بحدة:

- ادخل أولاً. . لماذا تقف على العتبة كالأغراب؟!

فنفخ المعلم مغيظاً محنقاً، وجاز العتبة إلى الدهليز برماً ساخطاً وهو يتساءل بصوته الأجنس:

- ماذا وراءك؟

قالت وهي ترد الباب:

- استرح قليلاً. . لدي كلمة قصيرة. . .

ونظر إليها مستريباً! ماذا تريد المرأة؟ هل تعترض

سبيله مرة أخرى؟! وصاح بها:

- تكلمي لماذا تضيعين الوقت سدى؟

فسألته بحق:

- أمتعجل أنت يا معلم؟

- أتجهلين هذا؟

- ما الذي يدعو لهذه العجلة؟

فازدادت ريبته، وامتلاً صدره حقناً، وتساءل لإمّ يحتمل هذه المرأة؟ كانت عواطفه نحوها مضطربة متناقضة. كان يكرهها حيناً ويحبها حيناً آخر. ولكن كانت الكراهية تغلب عليه إذا جرّه الإثم إلى هاويته،

أمسك بتلابيب أبي؟!

لم يكن يعنيه الإثم في ذاته، ولكن كان يغيظه ما يثيره حولهم من فضيحة وجرسة، وما يشعله في البيت من نيران السباب والشتم والعراك. أما الإثم ذاته فلم يكن يهّمه على الإطلاق، بل إنه حين تناهى إليه خبره أول مرة هزّ منكبيه استهانة وقال دون مبالاة «إنه رجل والرجل لا يعيبه شيء!». ثم سخط مع الساخطين ونقم على والده، حين وجد أسرته مضغة الأفواه ونادرة المتندرّين. وكانت علاقته بأبيه في الأصل متوترة، ذلك التوتّر الذي ينشأ عادة من تصادم طبيعتين متشابهتين، فكلاهما فظ شرس غضوب، ثم جاء هذا الإثم فضاعف من أسباب شقاقها حتى أصبحتا كعدوين، يتحاربان حيناً، ويتهادنان حيناً، ولا يسكت عنها السخط أبداً.

ولم تدرِ أمّ حسين ماذا تقول، ولكنها لم تراجعها أن تكون السبب في إلقاء عداوة جديدة بين الابن وأبيه. وتركته يغادر الشقة وهو يهدر غاضباً شامخاً، وقطعت نهارها على أسوأ حال. ولم تكن تدعن للهزيمة على كثرة ما عركها الزمن بالتعاسة والمهانة، فصدقت عزيمتها على تأديب الرجل الأثم ولو عرضها ذلك لشهامة الشامتين. بيد أنها رأت أن تقدّم إنذارها بين يدي بأسها، فانتظرت حتى انتصف الليل، وتفرّق السمار، وتأهب زوجها لإغلاق القهوة، ثم نادته من النافذة! فصعد الرجل رأسه منزعجاً وعلا صوته متسائلاً:

- ماذا تريدين يا أمّ حسين؟

فجاءه صوتها يقول:

- اصعد يا معلم لأمر هام. . .

وأوما المعلم لفتاه أن ينتظر حيث هو، وراح يرتقي السلالم متثاقلاً، ووقف على عتبة باب شقته لاهثاً، ثم سأها بصوته الغليظ:

- ماذا تريدين؟ أما كنت تستطيعين الانتظار حتى

الصباح؟

رأته المرأة وقد تسمرت قدمها بالعتبة لا يريد أن يزايلها كأنه يتحاشى أن يحرق حرمة بيت غريب، فتميّزت غيظاً، وحذجته بعينين عمّرتين من السهر

- ويزيد الأمر وبالأ إذا توثبت المرأة للانقضاء عليه .  
 وكان يتمنى في قرارة نفسه لو كانت امرأته «عاقلة»  
 فتركه وشأنه . ومن عجب أنه كان يرى نفسه على حقّ  
 دائماً، ويعجب لاعتراضها سبيله بلا مبرر! أليس من  
 حقه أن يفعل ما يشاء؟ وأليس من واجبها أن تطيع،  
 وأن ترضى ما دامت حاجاتها مقضية ورزقها موفوراً؟!  
 وقد أمست من ضرورات حياته، كالنوم والحشيش  
 والبيت بخيرها وبشرها، فلم يفكر جاداً في التخلص  
 منها، ولو أراد ما منعه مانع، ولكنها كانت تملأ فراغاً،  
 وتقوم على العناية بأمره، ويريدها - على أية حال -  
 زوجاً له! ولكنه تساءل على رغم هذا كله - في حقه -  
 إلامّ يحتمل هذه المرأة؟ وصاح بها:  
 - لا تكوني حمقاء وتكلمي أو دعيني أذهب لحال  
 سبيلي. . . .  
 سألته باستياء وحنق:  
 - ألا تجد قولاً أفضل من هذا تخاطبني به؟  
 فزجر المعلم قائلاً:  
 - الآن علمت أنه ليس لديك ما تقولينه: والأفضل  
 أن تنامي شأن النساء العاقلات. . . .  
 - ليتك تنام أيضاً شأن الرجال العقلاء!  
 فضرب المعلم كفاً بكفّ وصاح:  
 - كيف لي بالنوم في هذه الساعة؟  
 - فلماذا خلق الله الليل؟  
 فقال الرجل بدهشة وغيظ:  
 - ومتى كنت أنام الليل؟ هل أنا مريض يا مره؟!  
 فقالت بلهجة ذات معنى خاصّ علمت أنه سيدركه  
 من فوره:  
 - تبّ إلى الله يا معلّم وادعُ الله يقبل التوبة ولو  
 جاءت متأخرة!  
 وأدرك ما تريد، وقطع الشكّ باليقين، ولكنه قال  
 متجاهلاً وهو يتميّر غيظاً:  
 - ما في السهر من ذنب يتوب الإنسان عنه .  
 فزادها تجاهله لها حنقاً وقالت:  
 - تبّ عن الليل وعمّا في الليل. . . !  
 فقال المعلم بخبث:  
 - أتريدني أن أهجر حياتي!  
 فصاحت به وقد غلبها الغضب:  
 - حياتك!  
 فقال بخبث:  
 - أجل. الحشيش حياتي!  
 فتطير الشرر من عينيها وهي تقول وقد حدّثتها  
 نفسها بأن تصكّ خذيه السوداوين:  
 - والحشيش الآخر؟!  
 فقال متهكّماً:  
 - أنا لا أحرق إلاّ صنفاً واحداً.  
 - أنت لا تحرق إلاّ في مكانك  
 المعتاد من السطح!  
 - ولماذا لا أسهر حيث يروقي السهر؟ على السطح،  
 في المحافظة، في قسم الجمالّة؟ ما شأنك أنت؟  
 - لماذا غيرت مكان سهرتك؟  
 فصعد الرجل رأسه وصاح:  
 - اللهمّ فاشهد. أعفيتني حتى الآن من محاكم  
 الحكومة ونصبت لي محكمة دائمة في بيتي (ثمّ طامن  
 رأسه كزة أخرى واستدرك) ألا فاعلمي أنّ بيتنا قد  
 أصبح مشبوهاً. والمخبرون يجوسون حوله.  
 فسألته بسخرية مُرّة:  
 - ترى هل هذا الشابّ المتهكّك من بين هؤلاء  
 المخبرين الذين أطاروك عن عشك.  
 آه، صار التلميح تصریحاً واربدّ وجهه الضارب  
 للسواد، وسألها بصوت ينمّ عن الضجر:  
 - أيّ شابّ هذا؟  
 - الفاجر الذي تقدّم له الشاي بنفسك كأنك رُدّدت  
 صبياً كسنقرا!  
 - ما في ذلك من عيب، فالمعلّم يخدم زبائنه  
 كالصبيّ سواء بسواء.  
 فسألته متهكّمة بصوت متهدّج من الغضب:  
 - لماذا لا تخدم عمّ كامل مثلاً؟ لماذا لا تخدم إلاّ  
 الفاجر؟  
 - الحكمة توجب خدمة الزبائن الجدد!



- امرأة مجنونة خرفة . .

فصرخت وراءه:

- هل نفذ صبرك حقًا؟ . . أتشفق عليه من طول  
الانتظار؟ . . سترى عاقبة فجرك يا داعر . . ؟  
وأغلق المعلم الباب بعنف، فرئت صفقته رنيًا  
مدويًا مرق سكون الليل، وجعلت أم حسين تكوّر  
يدها في غضب وحنق، وقد امتلأت نفسها رغبة في  
الانتقام.

- ١٠ -

ألقي عبّاس الحلو على صورته في المرآة نظرة  
فاحصة ناقدة حتى لاحت في عينيه البارزتين نظرة  
ارتياح: وكان قد رَجَل شعره بأناة، ونفض الغبار عن  
بدلته بعناية، ثم دلف من باب دكانه ووقف ينتظر.  
هي ساعة الأصيل المحبوبة، والساء صافية عميقة  
الزرق، والجو ملطف بدفء طارئ جادت به الطبيعة  
غَبَ رذاذ أتصل يومًا كاملًا، وقد اغتسلت أرض  
الزقاق التي لا تستحم إلا مرتين أو ثلاثًا في العام،  
وظلّت بعض منخفضة الصنادقيّة مغمورة بالماء ملبّدة  
بالطين. وكان عمّ كامل داخل دكانه الصغير يوم على  
كرسيه، فأشرق وجه الحلو بإبتسامة لطيفة، وما لبث  
أن دبّ الوجد في أعماقه فراح يدندن بصوت  
منخفض:

هلبت يا قلبي على طول الزمن ترتاح  
وتنول وصال اللي تهوى، وفيه ترتاح  
مصير جروحك على طول الزمن تبرى  
ويجيك السطب. لا تعلم ولا تدري  
مثل سمعناه منقول عن ذوي الخبرة  
الصبر يا مبتلي، جعلوه للفرج مفتاح  
وفتح عمّ كامل عينيه وتئاب، ثم نظر إلى الشاب  
الواقف على باب دكانه، فضحك هذا وعبر الطريق  
إليه وقرصه في ثديه الهش، وقال بسرور:  
- عشقنا وستضحك لنا الدنيا . .  
فتهدّ عمّ كامل وقال بصوته الرفيع:  
- مبارك يا عمّ، ولكن هل سلّمنتي الكفن قبل أن

- الكلام سهل على من يريده، ولكن فعلك فاضح

فاجر.

فأوما إليها بيده منذرًا وهو يقول:

- أمسكي لسانك يا مجنونة.

- الناس جميعًا يكبرون فيعقلون . .

فقرض أسنانه وسبّ ولعن، ولكتها لم تباله  
واستطردت تقول:

- أناس يكبرون فيعقلون، أما أنت فكلما كبرت قلّ  
عقلك.

- خرفت يا مره! خرفت حياة الحسين! عليه

العوض!

فصاحت بصوت غليظ مرتعش النبرات:

- الرجال أمثالك يستأهلون العذاب. هلاً كفيتنا

شرّ الفضائح! هلاً كفيتنا ذلّ الشهاتة!

- عليه العوض! عليه العوض!

وغلّبها اليأس والغضب فصاحت به منذرة:

- اليوم تسمعي أربعة جدران، غداً تسمعي الحارة  
كلها؟

فرفع جفنيه الثقيلين وسألها بقوة:

- تهدديني؟!

- أهددك، وأهدد أهلك! أنت تعرف من أنا!

- يبدو أنّي سأهشم هذا الرأس الخرف!

- هي . . هي، والله ما ترك الحشيش والفجر قوة في

ساعديك، والله ما تستطيع أن ترفع يداً! . . انتهيت،

انتهيت يا معلّم . .

- انتهيت بفضلك. وهل يُنهي الرجال إلا

النساء . . . !

- أسفي على من دون النساء جميعًا!

- له؟ . . . خلّفت بناتًا ستًا ورَجُلًا . . غير حالات

الإجهاض والسقط.

فصاحت في غضب جنوني:

- ألا تستحي من ذكر الأبناء؟ ألا يزجرك ذلك عمّا

تردّي فيه من الفجور!

فضرب الجدار بقبضته، وتحوّل عن موقفه متجهًا

نحو الباب، وهو يقول:

تبيعه لتحصل على المهر!

فضحك عباس الحلو ضحكة عالية، وغادر الزقاق متمهلاً. كان يرتدي بدلته الرمادية، وهي الوحيدة أيضاً، وكان قد قلبها منذ عام، ثم رفاً الرقاء بعض أطرافها، ولكنه كان يعنى بتنظيفها وكّيها، فبدا - على نحو ما - أنيقاً! وكان يضطرم حماسة ونشوة وشجاعة، ويضطرب هذا الضيق الشديد الذي يسبق عادة البوح بمكنون الفؤاد. كان في تلك الفترة يجيا بالحَبِّ، للحَبِّ، ويدور بجناحيه الملائكيين في سماء السرور. وكان حبه عاطفة رقيقة ورغبة صادقة وشهوة جائعة، يهوى الثدين كما يهوى العينين ويلتمس وراء الثدين حرارة الجسد، كما يلمس في العينين نشوة غامضة ساحرة. وقد سرّ سرور الظفر يوم تعرّض للفتاة في الدراسة، وصوّر له خياله إعراضها كما لو كان ذلك الإعراض السليمي الذي تلبّي به النساء نداء الهوى. واستأثرت به النشوة أيّاماً، ثم مضت حماسته تفرّ ونشوته تجبو، لا لجديد جدّ، ولكن لتيقظ الشكّ وفعله. وراح يتساءل لماذا يظنّ الإعراض دلالاً؟؟ ولم لا يكون إعراضاً حقاً!! ألأنها صدّته في غير قسوة ولا فظاظه؟ ولكن هل يتوقّع الإنسان من جارة العمر أقلّ من هذه المجاملة؟. حقاً لقد غالى في سروره، وإتّاه لنشوة كاذبة. بيد أنه لم ينكص على عقبيه، وكان كلما لسهه الشكّ اندفع في سبيله ذائداً عن سعادته. كان عند الضحى يبرز أمام دكانه فيراها إذ تفتح النوافذ لتشمس الشقّة، وفي المساء يجلس بكرسيه على عتبة القهوة تحت نافذتها، يدخنّ الجوزة، ويخطف النظرة تلو النظرة من الشبّاك المغلق يجثم وراء خصاصه الشبح المحبوب. ولم يقنع بهذا فتعرّض لها مرّة ثانية في الدراسة، ولكنها صدّته كما صدّته أوّل مرّة، وأعاد الكرة فأفلتت منه أيضاً. ولكنه رجع وقد عاوده الأمل وأظله الفرح والسرور. وقال لنفسه إنّ السعادة مهية له ولا تقتضيه إلا مزيداً من الشجاعة والصبر. وهكذا انطلق هذه المرّة متمكناً شجاعة وثقة وهياماً، ورأى حميدة وصوبجياتها قادمات فانتحى جانباً حتى مررن به، ثم تبعهنّ متمهلاً. وقد لاحظ أنّ أعين البنات يتقبّنه

بخبث مريب فداخله سرور وزهو، وتابع سيره حتى انفرط عقدهنّ عند نهاية الدراسة، فحثّ خطاه حتى صار منها على مرمى ذراع، وابتسم إليها ابتسامة رقيقة متعّرة بالارتباك، وغمغم بتحيته المحفوظة:  
- مساء الخير يا حميدة..

كانت تنتظره بلا ريب، ولكنها كانت في حيرة من أمر نفسها. لم تكن تحبه ولم تكن تكرهه، ولعلّ كونه الفتى الوحيد الذي يصلح لها في الزقاق هو ما جعلها تشفق من قطعه أو صدّه بحزم وفظاظه. فأغضت عن تعرّضه لسبيلها مرّة أخرى، مكثفة بزجر لينّ، وإفلات لطيف، ولو شاءت أن تصعقه لصعقته، وكانت على رغم تجربتها المحدودة في الحياة تشعر بالفارق الكبير بين هذا الفتى الوديع وبين طموحها النهم الذي يضره نزوعها الغريزيّ إلى القوّة والجموح والسيطرة والعراك! حقاً كانت تهيّج جنوناً إذا قرأت في نظرة عين معنى للتحديّ أو الثقة، ولكن لم تبعثها إلى الرضا هذه النظرة الودية الطيبة التي تلوح دوماً في عينيّ الحلو، وتولّاهها شعور بالحيرة والقلق لترددها بين الحرص عليه بوصفه الفتى الصالح لها في الزقاق، والنفور منه لا ينهض على أسباب واضحة يُطمأنّ إليها. فلا ميل صريح ولا نفور صريح. ولولا إيمانها بالزواج كنهاية طبيعية محتومة لما تردّدت في نبذه والقسوة عليه. لذلك أحبّت مجاراته، وسر غوره، واستخراج مكنون لسانه، لعلها تجد في ذلك كلّه أو في بعضه مخرباً لها من حيرتها المؤسمة. وخاف الفتى أن يمتدّ صمتها حتى ينطوي الطريق، فغمغم كالضارع:  
- مساء الخير..

وانبسط وجهها البرنزيّ الجميل، وتمهّلت في مشيتها وهي تنفخ في ضجر مصطنع قائلة:

- ماذا تريد!

ولح انبساط وجهها فلم يعبا بضجرها، وقال بأمل ورجاء:

- ميلي بنا إلى شارع الأزهر فهو طريق مأمون والظلام وشيك..

وعدلت صامتة عن طريق الدراسة إلى الأزهر،

## زقاق المتَّق ٦٧٧

بانتباهها، ولكنّها لم تدرِ ماذا تقول فلاذت بالصمت،  
وتشجّع الفتى فاستدرك قائلاً في انفعال:

- لا تعدّي عليّ الدقائق ولا تلقي عليّ هذا السؤال  
الغريب. تسأليني يا حميدة عما أريد، أتجهلين حقاً ما  
أريد قوله؟! لماذا أنعرّض لك في الطريق؟ لماذا أتبع  
عينيّ ظلّك حيث تكونين؟ لك ما تشائين يا حميدة. ألم  
تقرئي شيئاً في عينيّ؟ يقولون إنّ قلب المؤمن دليله؟  
فماذا علمت؟ أسألي نفسك. أسألي أهل الزقاق جميعاً،  
كلّهم يعرفون.

وقطبت الفتاة وتمتمت وهي لا تدري:

- فضحتني...!

فهاهنا قولها، وهتف متأثراً:

- لا فضيحة في حياتنا وما أكنّ لك إلاّ الخير، وهذا  
الحسين يشهد قولي ويعلم بسريري. أنا أحبّك، ولطالما  
أحببتك، أحبّك أكثر ممّا تحبّك أمك، وأحلف لك على  
صدقتي بالحسين، وجدّد الحسين وربّ الحسين..

وشعرت بسرور ولذّة، ودخلها زهو تملّق نزوعها  
الجامح إلى القسوة والسيطرة. والحقّ أنّ كلمات الحبّ  
الحاّزة خليقة بأن تطرب الأذان ولو لم ترجع القلوب  
أنغامها، فهي كالأفاويه للنفس المسدودة! بيد أنّ  
خيالها وثب وثبة قويّة عبر بها قنطرة الحاضر إلى  
المستقبل، فتساءلت ترى كيف تكون حياتها في كنفه لو  
صدقت الأيام أملة؟ إنّه فقير، رزقه كفاف يومه،  
ولسوف يأخذها من الطابق الثاني لبيت الستّ سيّئة  
عفيفي إلى الطابق الأرضيّ في بيت السيّد رضوان  
الحسيني. وأحسن ما يمكن أن تجهّزها أمها فراش  
نصف عمر وكنبة وعدد من الأواني النحاسيّة. ولا  
يذخر لها بعد ذلك إلاّ الكنس والطبخ والغسل  
والإرضاع. وربّما قطعت طريقها حافية في جلباب  
مرّقع. وريعت كأنّها أطلعت على مشهد مخيف. وتحركّ  
في أعماقها هيامها المفرط بالثياب، وتيقظ ذلك النور  
الوحيّ من الأطفال الذي تعيّر بها به نسوة الزقاق.  
وعاودتها حيرتها المعبّدة، فلم تدرِ أصابت أم أخطأت  
في مطاوعتها له وسيرها معه. وكان عبّاس ينعم إليها  
النظر في افتتان وهيام وأمل، فأول صمتها وتفكيرها

فتبعها وهو يكاد يخرج من جلده فرحاً. ورجع رأسها  
صدى هذه الكلمات «طريق مأمون.. الظلام  
وشيك»، فأدركت أنّها تقارف فعلاً تحاذر عليه أعين  
الرقباء، وابتسمت بجانب ثغرها في تحدّ! كانت  
«الأخلاق» أهون شيء على نفسها المتمرّدة، وقد نشأت  
في جوّ لا يكاد يتفياً ظلّها، أو يتقيّد بأغلاها. وزادها  
استهانة طبع جموح وأمّ مهملة قليلاً ما تستكنّ في  
بيتها، فانطلقت على سجيّتها تخاصم هذه وتعاكس تلك  
فلا تعمل لشيء حساباً، ولا تقيم لفضيلة وزناً. وأمّا  
عبّاس الحلو فقد لحق بها، وسار لصقها وهو يقول  
بصوت ينمّ عن الفرح والسرور:

- دمت من فتاة كريمة..!

ولكنّها قالت له في شبه ضجر:

- ماذا تريد منّي؟

فقال الفتى وهو يتهاك أنفاسه المضطربة:

- الصبر طيب يا حميدة، تلطّفي معي ولا تكوني  
قاسية عليّ..

فعطفت نحوه رأسها وهي تغطّيه بطرف ملاءتها  
وقالت بحلّة:

- هلاً قلت لي ماذا تريد!

- الصبر طيب.. أريد.. أريد كلّ شيء طيب..  
فقالت بتأقّف:

- لا تريد أن تقول شيئاً، ونحن نجدّد في السير  
فنبعد عن طريقنا، والوقت يمضي، وأنا لا أستطيع أن  
أناخر عن موعد عودتي..

فأشفق من ضياع الوقت وقال بلهفة:

- سنعود في وقت قريب فلا تخافي ولا تجزعي.

وسنجد عدراً نتحلينه لأملك، إنك تفكرين كثيراً في  
الدقائق أمّا أنا فأفكر في العمر كلّ، في حياتنا جميعاً،  
هذا هو شغلي الشاغل. ألا تصدّقيني؟ إنّه جلّ  
تفكيرني وهمي وحياة الحسين الذي يبارك هذا الحيّ  
الطاهر..!

كان يتكلّم في بساطة وصدق فشعرت بحرارة  
حديثه، ووجدت لذّة في الإصغاء إليه، وإن لم يتحرّك  
قلبها الجامد، فتناست حيرتها المعبّدة، وألقت إليه

جاءًا فقد حَقَّق لها كثيرًا مما تصبو إليه نفسها. وإن  
نفسًا كنفسها مهما تناهى بها التمرد والجموح حرية بأن  
يروضها المال ويستأنسها. وغمغم عباس معاتبًا:  
- ألا تريدان أن تدعي لي؟

فقال بصوت خافت وقع من أذنيه موقعًا جميلًا  
وإن كان صوتها نقطة ضعف في جملها:  
- الله يوقى خطاك..

فتنهَّد مسرورًا وقال:  
- آمين. استجب لها يا رب. ستبسم لنا الدنيا بإذن  
الله. ارضي أنتِ عليّ ترض الدنيا جميعًا.. أنا لا  
أسألك شيئًا إلا الرضا.

وأخذت تخرج من حيرتها رويدًا رويدًا، فقد  
وجدت في الظلمة التي كانت تتخبط فيها بصيص  
نور. نور الذهب اللامع. وإذا كان شخصه لا  
يرضيها، ولا يجرك أنوثتها، فعسى أن يبرز منه هذا  
الضوء اللامع الذي يستهويها، ويلبّي نزوعها الصارخ  
إلى القوة والجاه. وهو بعد هذا كله - وقبل هذا أيضًا -  
الفتى الوحيد الصالح في الزقاق! أجل، هذا حق لا  
ريب فيه. وقد خامرها شعور بالارتياح، وأنصت إليه  
وهو يقول:

- ألا تسمعيني يا حميدة؟ أنا لا أسألك إلا الرضا!  
فارتسمت على شفيتها الرقيقتين ابتسامة، وغمغمت:  
- وفقك الله..

فعاد يقول في ابتهاج:  
- ليس من الضروري أن ننتظر حتى نهاية  
الحرب!... سنكون أسعد مخلوقين في الزقاق..  
وقطبت في تقزز، ونذت عنها هذه الكلمة بلا  
وعي، وفي ازدراء شديد:  
- زقاق المدق!

فنظر إليها في ارتباك ولم يجزؤ على الدفاع عن الزقاق  
الذي يحبه ويؤثره على الدنيا جميعًا. وتساءل منزعجًا:  
ترى هل تزدري هذا الزقاق الطيب كأخيها حسن؟  
حقًا لقد رضعا من ثدي واحد! وأراد أن يحو ما تركه  
فيها من أثر سيء فقال:

على هواه، وقال لها بصوت ينبعث من أعماق فؤاده:  
- لماذا تصمتين يا حميدة!.. كلمة واحدة تشفي  
الفؤاد وتغيّر الدنيا. كلمة واحدة تكفييني. تكلمي يا  
حميدة. اخرجي عن هذا الصمت...  
ولكنها لم تنبس بكلمة، وظلّت فريسة للحيرة،  
فاستطرد عباس قائلًا:

- كلمة واحدة تملأ روحي أملًا وسعادة. لعلك لا  
تدرين ما فعله حبك بي! إنه يبعث في روحي جديدة لا  
عهد لي بها! إنه يخلقني خلقًا جديدًا، ويدفعني لاحتحام  
الدنيا غير هياب. أما علمت هذا؟.. لقد استيقظتُ  
من سباتي، وغدًا تربني شخصًا جديدًا...  
ماذا يعني؟ وانعطف رأسها كالمسائل. فانشرح  
صدره لاهتمامها وقال بحماسة وفخار:

- أجل. توكلت على الله وسأجرب حظي  
كالآخرين. سألتحق بخدمة الجيش البريطاني، وعسى  
أن يصادفني من التوفيق ما صادف أخاك حسين.  
فلاح الاهتمام في عينيها وسألته على غير وعي منها:  
- حقًا.. متى يكون ذلك؟

كان يؤثر بلا شك أن تحدّثه حديثًا آخر، وأن  
يلمس انفعالها قبل أن يستثير اهتمامها. أن يسمع هذه  
الكلمة العذبة التي تذوب نفسه شوقًا لساعها، ولكنه  
ظنّ هذا الاهتمام قناعًا نسجه الحياء ليستر به عاطفة  
مشبوبة كعاطفته تهاب البوح بسرّها. واهتز صدره  
فرحًا، وقال مفترّ الثغر:

- عمّا قريب أسافر إلى التلّ الكبير، وسأشتغل بادئ  
الأمر بيوميّة مقدارها خمسة وعشرون قرشًا، وقد أكد  
لي جميع الذين استشرتهم في الأمر أنّ هذا المقدار قليل  
من كثير مما يصيب جميع المشتغلين في الجيش.  
وسأجعل همّي في أن أوفر من يوميّتي أقصى ما أستطيع  
توفيره، حتى إذا عدت إلى هنا عقب انتهاء الحرب -  
وهي بعيدة كما يقولون - فتحت صالونًا جديدًا في  
السكّة الجديدة أو شارع الأزهر، واستقبلت حياة  
رغيدة ناعم بها.. معًا.. إن شاء الله. ادعي لي يا  
حميدة...  
هذا شيء جديد لم يخطر لها ببال. وإذا كان الفتى

## زقاق المذق ٦٧٩

واستحسنا الخطى حتى بلغنا الغورية في دقائق، وافترقا عندها، فالت هي إليها، وأنجبه هو نحو الأزهر ليعود إلى الزقاق عن طريق الحسين. . .

- ١١ -

«اللهم عفوك ورحمتك».

نطقت الست أم حسين بهذه العبارة وهي ماضية إلى مسكن السيد رضوان الحسيني. كانت تسأل الله العفو والرحمة في يأس وغيظ وحنق مما تعانيه. أعياها إصلاح زوجها وعجزت عن رده، فلم تر بداً في النهاية من مقابلة السيد رضوان، لعله أن يفلح هو- بصلاحه وهيبته - فيما أخفقت هي فيه. ولم يكن سبق أن فاتحت السيد في مثل هذا الأمر الفظيخ، ولكن يأسها من ناحية، وإشفاقها من شماتة الأعداء إذا جاهر بالخصومة والطعان من ناحية أخرى، دفعها إلى طرق هذا الباب الصالح الآمن لعل وعسى! وفي البيت استقبلتها حرم السيد رضوان فجلسا معاً بعض الوقت. وحرم السيد في منتصف الحلقة الخامسة من عمرها، وهي حلقة يعتز بها نساء كثيرات، ويعتبرها الغاية من النضج الأنثوي، ولكن المرأة كانت مهزولة مهذمة، تلوح في جسمها وروحها آثار السهم التي سددها إليها الدهر حين انتزع من بين ذراعيها أطفالها طفلاً بعد طفل. وكانت لذلك تضي على بيتها الساكن روحاً من الحزن والكآبة لم يجد إيمان السيد العميق في تبديد غشاوته. وكانت تبدو، في هزالها وحزنها، صورة مناقضة لصورة زوجها القوي المشرق المطمئن البسام. كانت امرأة ضعيفة فلم يقلها إيمانها - على رسوخه - من عثرتها المظنية. وكانت أم حسين تعلم بأمرها، فأقبلت تشكو بثها، وهما بقلب مطمئن إلى أنه سيجد أذنًا صاغية تستميلها الشكوى والأحزان. ثم استأذنت في مقابلة السيد رضوان فغابت المرأة لحظات ثم رجعت تدعوها إلى لقائه، وقادتها إلى حجرته.

وكان السيد يجلس على فروة مسبحة، المجرمة أمامه، وإبريق الشاي على يمينه. كانت حجرته الخاصة

- نختار المكان الذي نحين. هاك الدراسة والجمالية وبيت القاضي، اختاري بيتك حيثما تشائين! وتنبهت لقوله في حيرة، وأدركت أنها تكلمت أكثر مما ينبغي، وأن لسانها خانها بلا وعي منها، فعضت على شفتها، ثم قالت بإنكار:  
- بيتي؟! أي بيت تعني؟! ما شأني أنا في هذا الأمر! فهتف بها في عتاب:

- كيف تقولين هذا القول؟ ألم يكفك ما عانيت من عذاب؟ ألا تدرين أي بيت أعني؟ ساحك الله يا حميدة. أعني البيت الذي سنختاره معاً، بل الذي تختارينه أنت وحدك، لأنه بيتك أنت دون الناس جميعاً. وإني أهاجر في سبيل هذا البيت كما علمت. ولقد دعوت لي بالتوفيق، فلا مفر من الحقيقة السعيدة الرائعة. إتفقنا يا حميدة وانتهى الأمر.

هل اتفقنا حقاً؟ أجل اتفقنا! ولولا ذلك ما رضيت بالسير معه ومنازعته الحديث والخوض في أحلام المستقبل. وماذا يضيرها من ذلك؟ أليس هو فتاها على أي حال؟ ومع ذلك ساورها شعور بالقلق والتردد. أحقاً أصبحت فتاة أخرى لا تكاد تملك من أمر نفسها شيئاً وأحسست عند ذاك يده تتلمس راحتها وتقبض عليها وتضي على أناملها الباردة حرارة ودفناً. أنتزعتها منه وتقول له «كللاً... لا شأن لي في هذا الأمر!»؟ ولكنها لم تفعل شيئاً، ولم تنبس بكلمة، ومضيا معاً وراحتها في كفه الساخنة. وشعرت بأصابعه تشد عليها بحنان، وسمعتة يقول:

- سنتقابل دوماً.. أليس كذلك؟

وأبت أن تنبس بكلمة، ففنع بلغة الصمت وقال مرة أخرى:

- سنتقابل كثيراً، ونزن أمورنا جميعاً. ثم أقابل أمك.. لا بد من الاتفاق معها قبل السفر.

وانتزعت راحتها من يده وهي تصيح في جزع:

- سرقنا الوقت، وابتعدنا كثيراً.. هلم إلى العودة..

ودارا على عقبيها معاً وهو يضحك ضحكة سعيدة رجعت بعض أصداء السعادة التي يجيش بها قلبه.

لم تكن المرأة تعرف التردد، ولا كان الحياء من أسباب ضعفها في يوم من الأيام، بل هي امرأة على قدر كبير من الشراسة والوقاحة، ولم تكن امرأة تفوقها مراساً في الزقاق كلّه إلا حسنة الفرانة، لذلك قالت للسيد بصوتها الغليظ:

- يا سيد رضوان، أنت الخير والبركة، وأنت رجل زقاقنا الفاضل، لذلك قصدتك أسألك المعونة في شدتي، وأشكو إليك الرجل الفاجر زوجي . . .

وعلا صوتها في آخر كلامها واخشوشن، فابتسم السيد مرة أخرى، وقال بصوت لا يخلو من رنة الأسف:

- هاتي ما عندك يا ست أم حسين. إتي مصغ إليك . . .

فتنهت المرأة وقالت:

- الله يرفع قدرك يا زين الرجال: الرجل يا سي السيد لا يكتشم ولا يرعوي. وكلما حسبت أنه قد تاب عن غيّه طلع عليّ بفضيحة جديدة. إنه رجل فاجر لا يردّه عن شهوة لا سنّ ولا زوجة ولا أبناء. ولعلك علمت بأمر هذا الشاب الرقيق الذي يوافيه كلّ ليلة إلى القهوة؟! هذه هي فضيحتنا الجديدة . . .

ولاحت في العينين الصافيتين سياء الكدر، وأطرق متفكراً مغتماً. اغتمّ الرجل الذي عجز ألم النكل المبرح عن أن ينال من صفاء نفسه، لبث صامتاً ساكناً، يتعوذ قلبه من الشيطان وعبه. واتخذت المرأة من حزنه مبرراً قوياً لغضبها فانفعلت، وهدرت قائلة بنبرات فظيعة:

- فضحنا الرجل المتهتك. ووالله لولا عشرة العمر والأبناء لهجرت بيته لغير رجعة أبداً. أيرضيك هذا العار يا سي السيد؟! أيرضيك هذا السلوك الشائن؟! لقد نصحته فلم ينتصح، وأنذرته فلم يرعوي، فلم أجد سبيلاً إلّاك. وما كنت أحب أن ألقى على سمعك الطاهر هذه الأنباء المخجلة، ولكن لا حيلة لي، وأنت سيد الحيّ جميعاً، وزجّله الفاضل، وأمرك مطاع، فلعلك بالغ منه ما لم يبلغه كلامي ولا كلام الناس جميعاً، حتى إذا تبين لي أنّ نصحك لا يجدي كان لي

صغيرة أنيقة، تحق بأركانها الكنبات، ويغطي أرضها سجّاد شيرازي، تقوم في وسطها مائدة مستديرة رصّت عليها الكتب الصفر، ويتدلّى فوقها من السقف مصباح غازي كبير. وكان السيد يرتدي جلباباً رمادياً فضفاضاً، وطاقيّة صوفيّة سوداء يضيء تحتها وجهه الأبيض المشرب بالحمرة كالبدر المنير. في هذه الحجرة كان يخلو إلى نفسه كثيراً، قارئاً أو مسبّحاً أو متأملاً. وفيها كان يجتمع بأصدقائه من العلماء والصوفيين وأئمة الأذكار يتذكرون الأخبار ويروون الأحاديث ويناقشون ما يعرض لهم من الآراء، ولم يكن السيد رضوان معدوداً من العلماء المتفهمين في الدين، ولا من الأذكياء الأفاضل، ولا من أولئك الذين يجهلون أقدارهم فيضعونها من حيث يريدون أن يرفعوها فوق طاقتها، ولكنّه كان مؤمناً صادقاً، وورعاً تقياً، يستأسر نفوس العلماء بقلبه الكبير وصدرة المسحاح وخلقه القويم وعطفه وحنانه ورحمته، فكان بحق من أولياء الله الصالحين.

وقد استقبل أم حسين واقفاً، غاضباً بصره، فأقبلت عليه في ملاءتها مبرقة، وسلمت عليه بيد ملتفة بطرف الملاة كيلا تنقض وضوءه، ورحب بها الرجل قائلاً:

- أهلاً وسهلاً بجارتنا الفاضلة . . .

ودعاها إلى الجلوس فجلست على الكنبه قبالتها، وتربّع الرجل على الفروة وراحت أم حسين تدعوله: - الله يكرمك يا حضرة السيد ويطيل عمرك بحقّ جاه المصطفى . . .

وكان يحدس ما حملها على مقابلته، فلم يسألها عن صحّة المعلّم زوجها كما تقضي بذلك آداب الضيافة! وكان يعلم كالآخرين بسيرة المعلّم كرشة، وتناهى إليه ما قام بين الرجل وزوجه من شقاق وشجار في ظروف سابقة مماثلة . . . فأيقن أنه أتحم في هذا النزاع المتجدد على غير إرادة. وسلّم للأمر الواقع، وتلقاه بصدرة الراحب كما يتلقّى غيره مما يكره، وابتسم ابتساماً لطيفة وقال يشجّعها على الكلام:

- خير إن شاء الله .

## زقاق الملقّ ٦٨١

وانحنى على يده مسلماً. ورخّب به السيّد رضوان ودعاه للجلوس، فجلس الرجل في المكان الذي كانت تجلس فيه زوجه قبل هنيهة، وملاً له قدحاً من الشاي. كان المعلم آمناً مطمئناً لا يتوجّس خيفة، ولا يدري شيئاً عمّا دعا السيّد إلى استدعائه. والحقّ أنّ من بلغ مبلغه من الذهول والشroud خليق بأن يفقد كلّ قدرة على التوجّس والحيطه والحدس. وقد قرأ السيّد في عينيه نصف الغمضتين الطمأنينة فقال له بهدوء مبتسماً:

- شرفت دارنا يا معلّم.

فرفع المعلّم يديه إلى عمامته وقال:

- شرف الله قدرك يا سي السيّد.

فقال السيّد:

- لا تؤاخذني على دعوتك في أثناء عملك، فقد رأيت أن أحداثك في أمر هامّ كما يتحدث الإخوان، ولم أجد لذلك مكاناً أنسب من البيت.

فأحنى المعلّم رأسه وقال بأدب جمّ:

- إني طوع أمرك يا سي السيّد. . .

وخاف السيّد الاسترسال في المجاملات فيضيع الوقت سدى، وتطول مدّة غياب المعلّم عن عمله، فأراد أن يخوض الموضوع بلا تردّد، ولم تكن تنقصه الشجاعة ولا تعوزه الصراحة، فقال بلهجة جدّية:

- أحبّ أن أحدثك كما يتحدث الإخوان، أو كما

ينبغي أن يتحدث الإخوان إذا كان رائدهم المودة

والإخلاص. والأخ المخلص من إذا رأى أخاً له يهوي

تلقاه بذراعيه، أو وجده يتعترّ أقاله من عثرته، أو

حسبه في حاجة إلى النصيح محضه النصيحة. . .

وفترت حماسة المعلّم، وأدرك في تلك اللحظة

فحسب أنّه وقع في فخّ، فلاحته في عينيه المظلمتين

نظرة ارتياب، وتمتم في ارتباك وهو لا يدري ماذا

يقول:

- نطقتم بالحقّ يا سي السيّد. . .

ولم يخفّ على السيّد شيء من ارتياكه وارتياجه، فقال

بلهجة جدّية أيضاً لطفتها نظرتة الوديعه الصافية:

- أخي، سأصارك بما في نفسي فلا تؤاخذني على

معه شأن آخر. أجل إني أداري اليوم غضبي، ولكّني إذا يثست من صلاحه فسأشبّ النار في الزقاق جميعاً وأجعل من جسده النجس حطاماً لها. . .!

فحدجها السيّد بنظرة عتاب وقال لها بهدوء المألوف:

- أفرخي روعك يا ستّ أمّ حسين، ووحدني الله،

ولا تغلّبي الغضب على نفسك. أنت ستّ طيّبة!

والكلّ يشهد لك بالفضل! فلا تجعلي من نفسك

وزوجك نادرة تلوكها الألسن. الزوجة الطيّبة غطاء

محكم يستر ما أمر الله به أن يستر، عودي إلى دارك

آمنة مطمئنة، ودعي لي هذا الأمر، والله المستعان. . .

فقال المرأة وهي تتالك انفعالها:

- الله بكرمك، الله يسعدك، الله يشرف قدرك.

أنت يا سيدي الملاذ والمأوى، وسأدع هذا الأمر بين

يديك وأنتظر، وربنا بيني وبين هذا الرجل الفاجر. . .

وسكّن الرجل خاطرهما بما وسعه من كلم طيب،

وكان كلّما ذكر كلمة طيبة دعت له المرأة وانهاالت

بالشثائم على زوجها وراحت تسرد عليه طرفاً من

فضائحه. حتّى أوشك صبر الرجل أن ينفدا ثمّ ودّعها

مكرّمة وهو يتهدّ من الأعماق! وعاود جلسته متفكّراً.

كان يتمنّى بلا شكّ لو لم يُقحم في هذا الأمر، أما وقد

وقع المحذور فلا معدى عن إنجاز وعده. ونادى

خادمه، وأمره أن يدعو إليه المعلّم كرشّة، فمضى

الغلام على عجل. وانتظر ساكناً، وذكر أنّه يدعو

لحجرته - لأول مرّة - فاسقاً، فلم يدخلها قبل ذلك إلاّ

الفقهاء والصوفيّون. وتهدّ من الأعماق ثمّ قال لنفسه:

«إنّ من يهدي فاسقاً خير ممن يجالس مؤمناً». ولكن

هل يبلغ هداية الرجل حقاً؟ وهزّ رأسه الكبير.

واستشهد بقوله تعالى «إنك لا تهدي من أحببت ولكنّ

الله يهدي من يشاء». ومضى يتعجّب من غواية

الشیطان للإنسان، وكيف يشدّ به عن فطرة الله

السوية. ثمّ قطع عليه حبل تأملاته دخول خادمه معلناً

حضور المعلّم، فأذن له، ونهض لاستقباله. وجاء

المعلّم كرشّة بجسمه الطويل النحيل، وألقى على

السيّد من تحت جفنيه الثقيلين نظرة تجلّة واحترام،

الخير. ما فائدة النكران؟ الجميع يعرفون والجميع يتكلمون. وهذا لعمرى ما ألني أشدَّ الألم، ألني أن أجدك مضغَّة الأفواه..

فغلب المعلِّم الغضب، وضرب فخذَه بقبضة قاسية، وقال بصوت أجشَّ تطايرت فظاظته مع نثار ريقه:

- ما بال الناس لا يريجون ولا يستريحون! أحقَّ تراهم يتكلمون يا سيِّد السيِّد؟ هكذا هم أبداً منذ خلق الله الأرض ومن عليها. إنهم يخوضون في الأعراض لا لقبح يستقبحون، ولكن ليتقصوا إخوانهم. ولولم يجدوا نقيضة لخلقها خلقاً ثم خاضوا فيها، أمحسبهم يتهامون تأففاً وازدراءً؟ كلاً والله. إنَّه لحسد يأكل قلوبهم أكلاً...؟

وهال السيِّد هذا الرأي، فقال له دهشاً:

- يا له من رأي خاسر! أمحسب أن هذا الفعل الشائن ممَّا تُحسد عليه؟

فتهااتف ضاحكاً وقال بحقد:

- لا تشكَّ في قولي يا سيِّد رضوان! إنهم طغمة هالكة. وليس الخير من رجع في نفوسهم (وأدرك عند ذلك أنَّه سلَّم بالتهمة وكاد يدافع عنها فاستدرك) ألا تدري من هذا الشاب؟ إنَّه شاب مسكين أداري يؤسه بالإحسان!!

فضجر السيِّد من مراوغته، وحججه بنظرة كأنما يقول له «أيجوز هذا القول!» ثم قال:

- يا معلِّم كرشة، الغالب أنك لا تفهمني. أنا لا أحاكمك ولا أعيرك، فكلانا فقير إلى رحمة الله وعفوه ولكن لا نحاول النكران. إذا كان هذا الشاب مسكيناً فدعه لخالفه والدنيا ملأى بالمحتاجين إن أحببت إحساناً؟

- ولماذا لا يكون إحساني لهذا الشاب؟ يؤسفني أنك لا تصدِّقني وأنا رجل بريء.

ونظر السيِّد إلى الوجه المشرب بالسواد في استياء مكتوم، وقال بتؤدة:

- هذا شاب رقيق سئى السمعة، ولقد أخطأت في محاولة خداعي، وكان الأخلق بك أن تقدِّر نصحي،

صراحة، فما استحقَّ الموجدة من كان هدفه الإصلاح وبعائه المودة والإخلاص. والحقُّ يا أخي أتى رأيت في بعض سلوكك ما ساءني، وما لا أعدّه خليقاً بك..

وقطب المعلِّم كرشة منزعجاً، وجعل يخاطب السيِّد في سرِّه قائلاً «ما لك أنت ولهذا!». ثم قال متصنعاً الدهشة:

- أساءك سلوكي حقاً يا سيِّد السيِّد؟!.. معاذ الله..

ولم يعبا السيِّد دهشته المتصنعة واستدرك قائلاً:

- إنَّ الشيطان ليجد أبواب الشباب مفتحة فيلجها خفية وعلانية ويعيث فساداً، ومع ذلك فنحن لا نتسامح مع الشباب مفتح الأبواب، ونلزمه أن يغلق أبوابه في وجه الشيطان، فإذا يكون الحال مع الشيوخ الذين وهبهم العمر مفاتيح العصمة؟ ماذا يكون الحال لو رأيناهم يفتحون أبوابهم طواعية ويدعون الشيطان بأنفسهم؟!.. هذا ما ساءني يا معلِّم كرشة..

شباب شيوخ! أبواب مفاتيح! شيطان شياطين! لماذا لا يريح نفسه ويدع الناس يستريحون؟! وهز رأسه حيرة، ثم قال بصوت منخفض:

- لا أفهم شيئاً يا سيِّد رضوان..

وحججه السيِّد بنظرة ذات معنى وسأله بلهجة لا تخلو من عتاب:

- حقاً؟!

فغمغم المعلِّم وقد بدأ يستشعر البرم والخوف:

- حقاً..

- فقال السيِّد رضوان بحزم:

- حسبك تعلم ما أعني. والحقُّ أتى أعني هذا الشاب الرقيق.

وسدَّت المنافذ في وجهه، فاحتدم الغيظ في نفسه، ولكنَّه كالفأر الواقع في المصيدة جعل يتخبَّط وراء المنافذ المسدودة، فساءل بصوت ينم عن الهزيمة:

- أيَّ شاب يا سيِّد السيِّد؟

فقال السيِّد بلهجة ودیعة متحامياً إثارته:

- أنت تعرفه يا معلِّم. وإني لم أفاتحك بأمره لأسيء إليك أو أخجلك، معاذ الله، ولكن لأرشدك لما فيه



## زقاق المدق ٦٨٣

- كتآ يا سبي السيد . أصرع إليك أن تدع هذا الأمر حتى يأمر الله بالهداية .  
فتعجب السيد من عناده الوقح ، وتساءل متفرزاً :  
- ألا ينجلك هذا الحرص على هذا الفعل الشائن؟!  
ونفض المعلم قائماً وقد ضاق صدره بالسيد ووعظه ، وهو يقول :  
- إن الإنسان ليقارف أفعالاً كثيرة شائنة ، وهذا واحد منها ، فادع لي بالهداية ، ولا تغضب علي ، وتقبل عذري وأسفي . ماذا يملك الإنسان من أمر نفسه؟  
فابتسم السيد ابتسامة حزينة ، وقال وهو ينفض قائماً كذلك :  
- يملك كل شيء لو أراد ، ولكنتك لن تفقه معنى لقولي ، فالأمر لله .  
ومد له يده قائلاً :  
- مع السلامة .  
وغادر المعلم كرشة البيت مقطباً مدممًا ، يسب الناس والزقاق والسيد رضوان .

- ١٢ -

وانتظرت أم حسين متصبرة متجلدة يوماً ويومين . كانت تقف وراء خصاص النافذة المطلّة على القهوة ترقب مقدم الشاب ، فتراه قادماً يخطر ثم تراه مرة أخرى - عند انتصاف الليل - وزوجها منصرفين صوب الغوريّة ! ابيضت عينها من المقت والغضب ، وتساءلت يا ترى هل ذهبت نصيحة السيد رضوان هباء؟ وزارت السيد مرة أخرى ، فهز رأسه أسفاً وقال لها «دعيه لحاله حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً» ، فرجعت إلى شقتها تغلي غلياناً ، وتتوعد شراً . لم تعد تقيم وزناً لشهامة الشامتين ، وانتظرت بالنافذة حتى أتى الليل وقدم الشاب ، فتلقفت بملاءتها وغادرت الشقة كالمجنونة ، ونزلت السلام وثباً فكانت أمام القهوة في دقيقة واحدة . كانت الدكاكين قد أغلقت وأوى أهل الزقاق إلى القهوة كعادتهم كل ليلة ، وكان المعلم كرشة مكباً على صندوق الماركات في شبه نعاس فلم ينتبه

وتواجهني صادقاً صريحاً .  
وأدرك المعلم أنّ السيد قد استاء وإن لم يلح الاستياء في وجهه ، فلاذ بالصمت كاظمًا غيظه ، وأخذ يفكر في الانصراف . ولكنّ السيد استدرك قائلاً :  
- إني أدعوك لما فيه صلاحك وصلاح بيتك ، ولست يائساً من جذبك للخير . اهجر هذا الشاب إنه رجس من عمل الشيطان . وثب إلى ربك إنه غفور رحيم . لو كنت من الصالحين لكنت الآن من الموسرين ، ولكنتك تريح كثيراً وتخسر في بالوعة الرجس كثيراً ، وتبقى على الأيام فقيراً معدماً . فماذا قلت؟  
وعدل المعلم عن المكابرة بصفة نهائية ، وخاطب نفسه قائلاً إنه حرّ يفعل ما يشاء ، وليس لأحد من سلطان عليه ولو كان السيد رضوان الحسيني نفسه ! ولكنه لم يفكر لحظة واحدة في إغضاب السيد ولا تحدّيه ، فأطبق جفنيه على عينيه المظلمتين ، وقال بصوت منكر :

- هذا أمر الله !

فلاح الانزعاج في الوجه الصبيح وقال بحدّة :

- بل أمر الشيطان ! حرام عليك يا شيخ .

فغمغم المعلم قائلاً :

- لما يأمر الله بالهدى !

- لا تطع الشيطان يهدك الله لما فيه صلاحك .

اهجر هذا الشاب أو دعني أصرفه بسلام . . .

فانزعج المعلم وغلبه الجزع ، ولم يعد يستطيع مداراة عواطفه فقال بحزم :

- كتآ يا سبي السيد ، لا تفعل . . .

فرمقه الرجل بنظرة استياء وازدراء ، وقال بصوت ينم عن الأسى :

- رأيت كيف تؤثر الغواية على الهداية؟! !

- ربنا الهادي؟

وتولاه اليأس من هدايته ، فقال متضجراً :

- أقول لك للمرّة الأخيرة اهجره أو دعني أصرفه

بسلام . . .

فقال المعلم بعناد وهو يتزحزح إلى طرف الكنبه كأنما يهيم بالنهوض :

فتحت وأطلت منها الرؤوس تستطلع ما هنالك .  
وأهاج الغضب المعلم كرشة، ورأى فتاه يتضوّر  
ملتويًا، محاولًا عبثًا أن يخلص عنقه من قبضة المرأة  
القوية، فاندفع نحوها نائراً وهو يرغي زبداً  
كالفحول، وشدّ على ساعدي امرأته صائحاً في  
وجهها:

- اتركه يا مره وكفى فضيحة!

وأجبرت المرأة تحت ضغط زوجها على ترك غريمها  
وقد سقطت ملاءتها عند قدميها، فجنّ جنونها، وتعالى  
صراخها، وأمسكت بتلابيب المعلم وهي تصيح:  
- أنضربني يا فاجر دفاعاً عن رفيقك! اشهدوا يا  
ناس على الرجل الفاجر!

وانتهز الشاب فرصة إفلاته فتطاير خارج القهوة،  
وعدا لا يلوي على شيء. واستمرت المعركة بين المعلم  
وزوجته، هي تشدّ على تلابيبه، وهو يحاول دفعها  
والتخلص منها، حتى نهض إليهما السيد رضوان  
الحسيني وخلّص بينهما. وتلقّعت المرأة بملاءتها وهي  
تلثث، وصرخت بصوت كادت تتصدّع له أركان  
القهوة:

- يا حسّاش، يا مذهول، يا وسخ، يا بن السّتين،  
يا أبا الخمسة وجدّ العشرين، يا عرة، يا رطل،  
سفخص على وجهك الأسود...

فحدجها المعلم بنظرة قاسية وهو ينتفض من  
الانفعال، وصاح بها:

- لي لسانك يا مره، وسدي هذا المرحاض الذي  
يقذفنا بوسخه!

اقطع لسانك، ما مرحاض إلا أنت، يا خرع، يا  
مفضوح، يا ظلّ العيال..

فلوح لها بقبضته وهو يقول:

- تحرفين كعادتك. كيف سوّلت لك نفسك  
الاعتداء على زبائن القهوة؟

فضحكت المرأة ضحكة مروعة وقالت بسخرية  
مريرة:

- زبائن القهوة؟! العفوا! ما قصدت زبائن القهوة  
بسوء، ولكنني اعتديت على زبون المعلم الخصوصي!

لحضورها. واستقرّ بصرها الزائف على الشاب وهو  
يرشف الشاي من قدح في يده، فاقتربت منه مازة أمام  
المعلم الذي لم يرفع بصره إليها، وضربت القدح  
بكفّها فاندلق على حجر الشاب الذي قام فرغاً  
صارخاً! وصاحت به بصوت كالرعد:

- تشرب شايًا يا بن العاهرة!

وأحدقت الأعين بالمرأة سواء من يعرفها من أهل  
الزقاق أو من لا يعرفها من بقية الجلوس. والتفت  
نحوها المعلم كرشة كأنه يستيقظ بصبّ دلو ماء على  
وجهه. وهمّ بالوقوف، ولكنّ المرأة دفعته في صدره،  
وهي تصرخ في وجهه وقد أخرجها الغضب عن  
وعياها:

- إناك وأن تتحرّك يا فاجر (والتفتت نحو الشاب  
واستدركت) ماذا أفزعك يا شاطر؟ يا مرة في ثياب  
رجل، هلاً أخبرني عمّا يدعوك إلى المجيء هنا؟!  
ووقف المعلم كرشة وراء الصندوق وقد أجم  
الغضب لسانه، واريّد وجهه، ولكنها صاحت في  
وجهه:

- إن حدّثتك نفسك بالدفاع عن رفيقك هُشمت  
عظّمك أمام الناس.

واندفعت نحو الشاب الذي تقهقر حتى التصق  
بالشيخ درويش وهي تصيح:

- أتريد أن تحرب بيتي يا ربيع يا بن الرقعاء!

فقال لها الشاب مرتعداً:

- من أنت يا ستي، ماذا فعلت حتى...

- من أنا؟ ألا تعرفني؟!... أنا ضرتك...

وانهالت عليه ضرباً، فسقط طربوشه، وسال الدم  
من أنفه. ثم قبضت على ربطة رقبته وشدّت عليها  
بعنف حتى اختنق صوته. وقد ذهل الجلوس، وحلقوا  
فيما يقع أمامهم بأعين دهشة، ولكنّ قلوبهم رقصت  
جدلاً، ومثوا أنفسهم برؤية منظر بهيج مسلّ. في حين  
دعا صراخ أمّ حسين المعلمة حسنة الفرانة فجاءت  
مهرولة يتبعها زوجها جعدة فاغراً فاه. ثمّ ظهر بعد  
قليل زبطة صانع العاهات، ولكنّه وقف بعيداً كأنه  
شيطان انشقت عنه الأرض. ولم تلبث نوافذ البيت أن

## زقاق المَنَقِّ ٦٨٥

- أنا في الأصل مجرم قاتل . وجميع هذا الحيّ عرفني مجرمًا يرتوي بالدماء . أنا مجرم ، أنا ابن كلب ، أنا وحش ، ولكيّ أستاهل كلّ إهانة لآتي تبت بمحض إرادتي عن الشرّ . (ورفع رأسه) انتظريني يا مره يا وسخة ، ستلقين الليلة كرشة الزمان الأول . .

وصقّق السيّد رضوان بيديه وهو يتربّع على الأريكة وخاطب المعلّم قائلاً :

- وحّد الله يا معلّم كرشة . نريد أن نشرب الشاي

في هدوء!

ومال البوشي على أذن عباس الحلو وهمس قائلاً :

- لا بدّ أن نصلح بينهما .

فسأله الحلو بخبث :

- بين من ومن ؟

فكتم الدكتور ضحكة فخرجت من أنفه ريحًا كالفتحيج ، وقال :

- أنظنته يعود إلى القهوة وقد حصل ما حصل ؟

فمطّ الحلو بوزه وقال :

- إن لم يعد هو جاء غيره!

ثمّ شمل القهوة جوّها المألوف ، وعاد القوم إلى ما كانوا فيه من لعب وسمر ، وكادت تُنسى المعركة وتذهب آثارها ، لولا أن هاج المعلّم كرشة مرّة أخرى ، وصاح مرعدًا كالوحوش الضارية :

- لا لا . . لا يمكن أن أذعن لإرادة امرأة . أنا رجل ، حرّ ، أفعل ما أشاء ، لتترك البيت إذا شاءت ، ولتتسكّع مع الشحاذين ، أنا مجرم . . . أنا من أكلي لحوم البشر .

ورفع الشيخ درويش رأسه بغتة وقال دون أن يلتفت نحو المعلّم :

- يا معلّم ، امرأتك قويّة ، فيها من الرجولة ما يعوز الكثيرين من الرجال ، هي ذكر وليست بأنثى ، فلماذا لا تحبّها؟

وصوّب المعلّم نحوه عينين ناريتين وصاح في وجهه :

- اقطع لسانك!

وصاح أكثر من واحد من الجالسين :

وتدخّل السيّد رضوان مرّة أخرى ، وطلب من المرأة أن تمسك ، وأن تعود إلى بيتها ، ولكتّها قالت وقد غيّرت نبرات صوتها بجهد شديد :

- لن أعود إلى بيت الفاسق ما حييت . . .

فألحّ عليها ، وتطوّع عمّ كامل لمعاونته ، فقال لها بصوته الرفيع الملائكيّ :

- عودي إلى بيتك يا ستّ أمّ حسين . عودي ووحدني الله واسمعي كلام السيّد رضوان . .

وحال السيّد بينها وبين مغادرة الزقاق ، ولم يتركها حتّى رجعت إلى البيت مظهرة السنخ والتمدّم .

واختفى عند ذاك زيتة ، وانسحبت حسنيّة القرّانة يسبقها زوجها ، وقد لكمته في ظهره وهي تقول له :

- لا تفتأ تندب حظّك وتقول ما لي أضرب من دون الرجال جميعًا! أرايت كيف يُضرب أسياذك وأسياذ من خلّفوك! . .!

وخلّفت جعجعة المعركة صمّتا ثقيلاً . وتبادلت اللحاظ نظرات ساخرة تشي بالخبث والسرور ، وكان أشدّ الحاضرين سرورًا وارتياحًا الدكتور بوشي ، وهو الذي هرّ رأسه أسفًا وقال في نبرات حزينة :

- لا حول ولا قوّة إلّا بالله ، اللّهمّ أصلح الحال . . .

وكان المعلّم «كرشة» لا يزال ملازمًا مكانه - الذي باشر فيه المعركة - فتنبه إلى فرار فتاه ، وقطّب في عناد ، وبدا أنّه يريد اللحاق به ، ولكنّ السيّد رضوان - وكان غير بعيد عنه - وضع يده على كتفه وقال بهدوء :

- اقعد يا معلّم واسترح . . .

فنفخ مغيظًا محنقًا ، وتراجع متناقلاً وهو يخاطب نفسه في حقد شديد :

- لبؤة ، فاجرة ، ولكنّ الحقّ عليّ ، أنا أستاهل أكثر من هذا ، مغفل من لا يبيت امرأته بالعصا . .

وعلا صوت عمّ كامل وهو يقول :

- وحّدوا الله يا هو . .

وارتمى المعلّم كرشة على مقعده . ثمّ أخذه الغضب كرهة أخرى ، فنارت نائرتة ، وراح يضرب جبهته بكفّ غليظة قاسية صائحًا :

ثمّ دنا موعد سفره فرأى أن يخطو الخطوات الحاسمة - واختار الدكتور بوشي - الذي تيسر له مهنته التردد على بيوت الزقاق - سفيراً له لدى أم حميدة . وسرت المرأة بالشاب الذي تراه الصالح الوحيد لابنتها في الزقاق، وكانت تعدّه دائماً «صاحب صالون وقد الدنيا»، ولكنها خافت شماس ابنتها المتمردة، وظنّت أنّها مقبلة على معركة طاحنة، فما أدهشها بعد ذلك إلا أن تتلقّى الفتاة الخبر برضا وتسليم ممّا جعلها تهزّ رأسها وتقول:

- هذا فعل النافذة وراء ظهره!

وكلف الحلو عمّ كامل بصنع صينيّة بسبوسة فاخرة وإرسالها لأم حميدة، واستأذن في مقابلتها، ومضى إليها مصحوباً بعمّ كامل شريكه في بيته وحياته، وقد وجد عمّ كامل صعوبة شديدة في ارتقاء السلم وجعل يتوقف كلّ درجتين لاهثاً متوكّناً على الدرابزين حتى قال للحلو عند أول «بسطة»:

- هلاًّ أجّلت الخطبة حين عودتك من الجيش؟

ورحبت بها أم حميدة . وجلس ثلاثتهم يتبادلون طيب المجاملات، حتى قال عمّ كامل:

- هذا عباس الحلو ابن زقاقنا، وابنك، وابني، يطلب إليك يد حميدة . .

فابتسمت المرأة وقالت:

- أهلاًّ بالحلو الذي هو حلو، ستكون ابنتي عنده وكأنتها لم تفارقني . .

وتحدّث عمّ كامل عن الحلو وأخلاقه، وعن الستّ أم حميدة وأخلاقها، ثمّ قال:

- سيغادرنا الفتى فتح الله عليه، وقريباً تتحسنّ حاله فيتمّ له ولنا المراد بإذنه تعالى . .

ودعت أم حميدة له، ثمّ داعبت عمّ كامل قائلة:

- وأنت يا عمّ كامل متى تنوي وتتوكّل على الله! فضحك عمّ كامل حتى صار وجهه كالطماطم في إبانها، ومسح على كرشه المحيط وقال:

- دون ذلك هذا الحصن المنيع . .!

وقرأوا الفاتحة وشربوا الشربات . .

ثمّ كان بعد ذلك بيومين اللقاء الأخير بالأزهر.

- حتى الشيخ درويش!

وولاه المعلم ظهره صامتاً، وراح الشيخ درويش يقول - هذا شرّ قديم، يسمّونه في الإنجليزيّة Homosexuality وتهجيتها homosexuality ولكنه ليس بالحبّ. الحبّ الحقيقي لآل البيت. تعالي يا حبيبي . . تعالي يا ستّ . . أنا عاجز يا أمّ العواجز . .

- ١٣ -

كانت مقابلة الأزهر فتحاً جديداً في حياة عباس الحلو. عهد الحبّ، شعلة وهاجة تضطرم في الفؤاد، نشوة سحر تُسكر العقل، شهوة تصهر الأعصاب. كان مرحاً مختالاً مزهواً، كأنه فارس لا يشقّ له غبار، أو ثمل قد أمن عوادي الخبار. وتقابلا بعد ذلك مرّات، فلم يملأ الحديث عن مستقبلها. أجل بات مستقبلها واحداً، ولم تنكر حميدة ذلك، لا في حضوره ولا في غيابه! ولكن تساءلت: ترى هل تظفر واحدة من صومجاناتها بنات المشغل بخير منه؟ . . وتعمّدت أن تسيّر معه وقت ظهورهنّ، وجعلت تسترق النظر إلى أعينهنّ الفاحصة وكأنتها ارتاحت إلى ما تركه فيهنّ من أثر. وقد سألتها يوماً عن الشابّ «الذي رأيته معها» فقالت:

- خطيبي . . صاحب صالون حلاقة!

وقالت لنفسها إنّ آية واحدة منهنّ لتعدّ نفسها سعيدة إذا خطبها صبيّ قهوة أو صبيّ حدّاد، وهذا صاحب دكان، أو سطى. وأفندي أيضاً! كانت مشغولة أبداً بالموازنة والاختبار والتفكير، فلم تنجذب إلى الدنيا السحرية التي يهيم في ساواتها. بيد أنّه كان يبلغ بها التأثير في لحظات منتهاه، فكأنتها كانت - في تلك اللحظات - محبة حقاً. وفي إحدى هذه اللحظات استوهبها قبله. فلم تقل لا ولم تقل نعم. أرادت أن تذوق هذه القبلة التي سمعت عنها كثيراً وتغنّت بها كثيراً. ونظر هو محاذراً يراقب المازّة، وتحسّس ثغرها في ظلمة المساء. ثمّ وضع شفّتيه على شفّتيها وهو يرتعد، وغمرتها أنفاسه الملتهبة، فسالت على نحرها وطرفت عينها.

## زقاق المَدَقِّ ٦٨٧

باسمه . ولكِنِّي وأسفاه لا أستطيع أن أهَيِّ لك الحياة  
التي ترضينها، فلم أجد عن السفر مذهباً . وربّنا يأخذ  
بيدي، ويجمعنا على أهنا حال . . .

فقلت حميدة بتأثر شديد:

- سادعو لك بالتوفيق، وسأزور سيّدنا الحسين  
وأسأله أن يرعاك ويكتب لك النجاح . والصبر طيّب،  
والحركة بركة . .

فتنهّد من الأعياق وقال:

- أجل الحركة بركة، ولكن يا ويلي من بلد لا أجد  
لك فيه ظللاً . .

فغمغمت برقة:

- لن تكون هكذا وحدك . . .

فالتفت نحوها وقد سكر بقولها، ورفع يدها حتّى  
مسّت قلبه، وهمس:

- حقّاً؟!

فابتسمت ابتسامة عذبة لاحت لعينيه الغائمتين على  
الضوء المنبعث من بعض الدكاكين . وغاب في تلك  
اللحظة عن كلّ شيء ما عدا وجهها المحبوب، وسالت  
هذه الكلمات من بين شفّتيه:

- ما أجملك، ما أرقك، ما أعذبك! هذا هو  
الحبّ . إنّه عذب جميل يا حميدة، الدنيا من غيره لا  
تساوي مليئاً واحداً . .

ولم تدرِ ماذا تقول فتعوّذت بالصمت، وجرت كلماته  
متناغمة في أذنيها، فأخذتها نشوة الطرب، وودّت ألا  
يسكت أبداً . وكانت حرارة العاطفة قد أذهلته عن  
وعيه فراح يقول:

- هذا هو الحبّ . هو كلّ ما لنا . فيه الكفاية وفوق  
الكفاية . هو في القرب السرور . وفي البعد العزاء،  
وفي الحياة حياة فوق الحياة . .

وسكت لحظة متنهّداً، ثمّ استطرّد:

- أسافر باسمه، ويفضله أعود وقد ربحت كثيراً . .

فتمتت وهي لا تدري:

- كثيراً إن شاء الله . .

- بإذن الله، وببركة الحسين . وسوف يحسبك جميع  
أولئك الفتيات .

ساروا واجمين . والحلو يشعر بدموعه تدقّ أبواب صدره  
لتجد سبيلاً إلى مجاري عينيه . وقد سأله:

- هل تغيب طويلاً؟

فقال الشابّ بصوت رقيق حزين:

- ربّما امتدّت خدمتي عامّاً أو عامين ولكن لن  
تفوتني فرصة مناسبة للحضور . .

فغمغمت قائلة، وكانت تجد نحوه في تلك اللحظة  
ودّاً عميقاً:

- يا له من زمن!

فابتهج قلبه - على أساه - لهذه العبارة التي تنمّ عن  
الجزع، وقال منفعلاً:

- هذا آخر لقاء قبل السفر، والله وحده يدري متى  
يكون اللقاء التالي . وإنّي لفي حيرة يا حميدة ما بين  
الحزن والسرور . أجدني محزوناً لأنّي مبتعد عنك، ثمّ  
أجدني مسروراً لأنّ هذا الطريق الطويل الذي اخترت  
هو الطريق الوحيد المفضي إليك . ولكِنِّي سأترك قلبي  
ورائي في الزقاق، فتصوّري رجلاً مهاجراً بلا قلب،  
رمى به السفر إلى بلد ناءٍ، وأبى قلبه أن يسافر معه .  
وغداً في التلّ الكبير، وعند مطلع كلّ صباح، سأفتقد  
النافذة المحبوبة التي كنت أراك تكنسين حافتها، أو  
تمشطين شعرك وراء فرجة مصراعها، وهيهات أن  
أجد لها أثراً . ولقاؤنا في الموسكي والأزهر ماذا يبقى لي  
منه؟ أوّاه يا حميدة، هذا ما يتقطّع له قلبي . دعيني  
أخذ منك كلّ ما أستطيع أخذه . ضعي راحتك في  
يدي، وشدّي على يدي كما أشدّ على يدك . الله ما  
أطيب مسك، إنّه يرعش قلبي، إنّه قلب كبير بين  
يديك، يا عزيزة، يا حبيبة، يا روح قلبي يا حميدة . ما  
أجمل اسمك، كأنّي إذا نطقت به أستحلب سكرًا . .

واستنامت الفتاة إلى كلامه المتدفّق الحارّ، فلانت  
نظرة عينيه، وغمغمت قائلة:

- أنت الذي اخترت السفر . .

فقال بصوت كالنواح:

- أنت السبب يا حميدة . أنت أنت السبب . أنا والله  
أحبّ زقاقنا، وأحمد الله على ما يرزقني به من كفاف .  
وما أحبّ أن أنأى عن الحسين الذي أقوم وأقعد

فابتسمت في سرور قائلة:

- آه... ما أمتع هذا!

وانطوى الطريق وهما لا يشعران، فضحكا معاً في فرح، ثم دارا على عقبيهما. وأحسن في العودة أن اللقاء يقترب من نهايته، فعاودته أفكار الوداع والفرق، وخبث كثيراً نشوته، واعتوره الشجن. وعند انتصاف الطريق سألتها بلهفة:

- أين أودعك؟

وأدركت ما يعنيه، وقلقت شفتاها، فقالت متسائلة:

- هنا؟!

ولكنه اعترض قائلاً:

- لا أستطيع أن أخطف الوداع خطفاً...

- أين تريد إذا؟

- اسبقيني على البيت وانتظريني على السلم...

وحثت خطاها، وسار هو متمهلاً فيبلغ الزقاق وقد أغلقت دكاكينه، واتجه نحو بيت الست سنية عفيفي لا يلوي على شيء. وارتقى السلم محاذراً في ظلمة دامسة، كأنما أنفاسه، يبدأ على الدرايزين، ويبدأ تتحسن الظلام. وعند «البسطة» الثانية لمست أنامله طرف الملاءة. فحفق قلبه باعثاً الشوق الحبيس في أطرافه، وقبض على ذراعها، واقترب منها في رفق، وأحاطها بذراعيه، ثم ضمها إلى صدره بقوة عتيفة تنطلق من صدر حنون مشوق، وهوى إليها بفمه، فوقع على أنفها، ثم هبط على شفتيها، وكانتا منفرجتين لاستقباله، وأخذته سنة من ذهول الحب لم يستيقظ منها حتى تخلّصت من ذراعيه بلطف، ومضت مصعدة وهو يهمس وراءها «مع السلامة». لم يبلغ بها الانفعال يوماً ما بلغه هذا المساء على السلم. حيث في دقيقة قصيرة حياة طويلة مفعمة بالإحساس والعاطفة والحرارة. وحسبت أن حياتها قد ارتبطت به إلى الأبد.

\* \* \*

وزار عباس الحلو أم حميدة، تلك الليلة، مودعاً..

ثم مضى إلى القهوة ومعه صديقه حسين كرشة ليمضي آخر سهرة فيها قبل سفره. وكان حسين يبدو مسروراً

ظافراً لانتصار رأيه، وجعل يقول لصاحبه بصوته الذي ينم عن التحدي لسبب ولغير ما سبب:

- ودّع هذه الحياة القذرة واستمتع بالحياة الحقيقية...

فابتسم الحلو صامتاً، وقد أخفى عن صاحبه الكتابة القابضة على قلبه لفراق الزقاق الذي يحبه، والفتاة التي يهيم بها. وجلس بين رفاقه يعاني أشواقه المكتومة، ويتلقى كلمات التوديع وما تحمل من جميل الدعاء. وقد باركه السيد رضوان الحسيني. ودعا له طويلاً، وقال له ناصحاً:

- اقتصد ما يفيض عن حاجتك من مرتبك، واحذر الإسراف والخمر ولحم الخنزير، ولا تنس أنك من المدق، وأتتك إلى المدق راجع...

وقال له الدكتور بوشي ضاحكاً:

- ستعود إلينا إن شاء الله من الموسرين، ولا بدّ عند ذلك من خلع أسنانك المسومة هذه وتركيب طقم ذهبي يليق بالمقام...

فابتسم الحلو، وكان يشعر نحو الدكتور بامتنان، لأنه هو الذي أسفر بينه وبين أم حميدة، ولأنه هو أيضاً الذي باع له أدوات صالونه بثمان لا بأس به كي ينتفع به في سفره. وكان عمّ كامل واجماً ساهماً، يحزّ الفراق الوشيك في فؤاده، ولا يدري كيف يلقي غداً الوحشة والوحدة، بعد أن يذهب الشاب الذي شاطره العيش أعواماً طويلة، والذي أحبه كأنه فلذة كبده. وكان كلما أثنى أحد على الحلو أو توجّع لفراقه اغرورقت عيناه حتى ضحكوا منه جميعاً.

وقرأ الشيخ درويش على رأسه آية الكرسي وقال له:

- أصبحت الآن من المتطوعين في الجيوش البريطانية، وإذا أظهرت بسالة فليس بعيداً أن يُقطعك ملك الإنجليز مملكة صغيرة ينصبك عليها نائب ملك، ومعناها بالإنجليزية Viceroy وتهجيتها Viceroy...

\* \* \*

وفي الصباح الباكر غادر الحلو البيت حاملاً بقجة

## زقاق الملقّ ٦٨٩

ولم يكن في وسعها أن تلزم الصمت طويلاً حيال هياج أحد. فنقد صبرها الرقيق وصاحت به بصوت دلّ على أنّ صوته متوارث عنها:

- ما لك؟! ما لك يا بن اللثيم.

فقال الشابّ بازدرأ:

- لا بدّ من هجر هذا الزقاق.

فحدجته بحقن، وانتهرته قائلة:

- أجننت يا بن المجنون!

فشبك ذراعيه على صدره وقال:

- بل ثبتّ إلى رشدي بعد جنون طويل. افهميني جيّداً، فلست ألقى القول على عواهنه، ولكيّ أعني ما أقول، ولقد جمعت ثيابي في البقجة ولم يبق إلا أن أستودعك الله. بيت قدر. زقاق نتن، أناس بهائم!

وحدجته بنظرة متفحّصة لتقرأ عينيه، فخبّلها عزمه المتوثّب وصاحت به:

- ماذا تقول؟

فعاد يقول وكأنّه يخاطب نفسه:

- بيت قدر، زقاق نتن، أناس بهائم..

فهزّت رأسها ساخرة وقالت:

- مرحباً بك يا بن الأماثل! يا بن كرشة باشا!

- كرشة قطران. كرشة المشبوه. أف أف، ألم تعلمي بأنّ فضيحتنا زكمت الأنوف جميعاً؟! .. يغمزونني في كلّ مكان. يقولون هربت أخته مع واحد، وسيهرب أبوه مع واحد آخر! وضرب الأرض بقدمه حتّى ططقت زجاج النافذة وصرخ غاضباً:

- ماذا يضطرّني إلى البقاء في هذه الحياة؟ ساحل ثيابي وأذهب إلى غير رجعة.

وضربت المرأة صدرها بيدها وقالت:

- جننت والله. أورتك الحشّاش جنونه. ولكيّ سأدعوه ليردّك إلى عقلك.

فصاح حسين باستهانة:

- ادعيه. نادي أبي، نادي الحسين نفسه. أنا ذاهب.. ذاهب.. ذاهب.. ذاهب..

ولمّا وجدته المرأة جاداً معانداً، ذهبت إلى حجرته

ثيابه، كان الجوّ بارداً شديد الرطوبة، ولم يكن أحد من أهل الزقاق قد استيقظ إلاّ الفرّانة وسنقر صبيّ القهوة، ورفع الشابّ رأسه إلى النافذة المحبوبة فوجدها مغلقة، فودّعها بنظرة عطف وحنان أذابت الطلّ على خصاصها. وسار متمهلاً مطرقاً حتّى بلغ باب دكانه فألقى عليها نظرة أخرى متنهّداً، وعلّق بصره بلافتة ثبتت على الباب قد كتب عليها بخطّ كبير «لا يجار» فانقبض صدره وأوشكت عيناه أن تدمعا... .

وحثّ خطاه كأنّما ليفرّ من عواطفه، فما إن ترك الزقاق وراء ظهره حتّى شعر بأنّ قلبه يفارقه إليه... .

## - ١٤ -

كان حسين كرشة الذي أغرى عبّاس الحلو بالخدمة في الجيش البريطانيّ. ولمّا أن سافر الشابّ إلى التلّ الكبير، وخلا منه الزقاق - حتّى دكانه اكتراها حلاق عجوز - جنّ حسين جنوناً واجتاحته ثورة عنيفة تفور مقتاً للزقاق وأهله. أجل كان من زمن بعيد يعلن كراهيته للزقاق وأهله، ويتطلّع لحياة جديدة، ولكنّه لم يستين سبيله، ولم يعزم عزيمة صادقة على تحقيق أحلامه، حتّى ذهب الحلو، فجنّ جنونه. وكأنّما كبر عليه أن يجدد الحلو حياته وينأى بنفسه عن الزقاق القذر، وهو باقٍ فيه لا يدري كيف يتخلّص منه، فأجمع عزمه على تجديد حياته مهما كلفه الأمر. وبمظاظته المعهودة قال لأمّه يوماً وقد امتلأ بعزمه حتّى فاض عنه:

- أصغني إليّ، لقد عزمت عزماً لا رجعة فيه، فهذه حياة لا تطاق ولا داعي مطلقاً لتحملها قسراً!

وكانت المرأة آفة سخطة، معتادة سماع سبابه للزقاق وأهله، وكانت تراه - كأبيه - سفيهاً لا يصحّ أن تحثفي هذيانه، فسكتت عنه وهي تغمغم:

- اللّهمّ تب عليّ من هذه الحياة!

ولكنّ حسين عاد يقول وقد تطاير الشرر من عينيه الصغيرتين واربد وجهه الضارب للسواد:

- هذه الحياة لا تطاق، ولن أحتملها بعد اليوم... .

- الله يساعحك. أنا مجنونة بنت مجانين فدعنا من هذا، واسأله عما خالط عقله؟!  
 وحده ابنه بنظرة قاسية وسأله بصوت كالزئير وقد تناثر ريقه:  
 - ما لك لا تتكلم يا بن القديمة! هل تروم حقاً مغادرتنا؟

وكان الفتى يتحامي أباه عادة، ولا يصطدم به إلا إذا ضاقت به السبل. ولكنه كان قد عزم عزمًا صادقًا على نبذ ماضيه مهما كلفه الأمر، فلم يتردد ولم يتراجع، خصوصًا وأنه كان يرى مسألة إقامته في البيت أو مغادرته من صميم حقه الذي لا ينازعه فيه منازع، فقال بهدوء وعزم معًا:

- نعم يا أبي..!

فسأله الرجل وهو يعاني خناق غيظه:

- ولماذا؟

فتفكر الشاب قليلاً ثم قال:

- أريد أن أحيا حياة أخرى...

فقبض الرجل على ذقنه، وهز رأسه ساخراً وقال:  
 - فهمت.. فهمت. تريد حياة أخرى تناسب المقام! لأنّ كلباً مثلك نشأ محروماً جائعاً، يجنّ إذا امتلأ جيبه. وأنت الآن صاحب قرش إنجليزي، فمن الطبيعي أن تتراد حياة أخرى، تليق بمقامك العالي يا بن قنصل الأوز!

فكظم حسين غيظه وقال:

- لم أكن كلباً جائعاً قط، لأنّي نشأت في بيتك، وبيتك لم يعرف الجوع أبداً والحمد لله. وكلّ ما في الأمر أنني أريد أن أغير حياتي، وهذا حقي لا مراء فيه، ولا داعي مطلقاً لغضبك وسخطك.

ولم يفهم المعلم مراده، كان الشاب يتمتع بحريّة مطلقة، فلا يُسأل عما يفعل، فلماذا يريد أن ينشئ لنفسه بيتاً خاصاً؟ وكان المعلم، على رغم ما يقوم بينهما من أسباب الشقاق والملاحاة والخصام، يحبّه. ولكنه حبّ لم يظفر قطّ بالجور الذي يستطيع أن يتنفّس فيه، وغشيته دائماً غواشي الغيظ والحنق والسباب، ولطالما نسي كثيراً أنّه يحبّ ابنه الوحيد. وحتى في هذه

فرأت البقجة متفخخة بالثياب كما قال، فتولاها القنوط، وصممت على إحضار أبيه مهما تكن العواقب. كان حسين عزاءها الوحيد في حياتها، ولم تكن تتصوّر أن يهجر البيت ويتركها كالوحيدة، ولم تستطع مغالبة قنوطها، وأرسلت في طلب أبيه وهي تصيح نادبة حظّها «علام يجسدوننا؟... على خيبتنا القويّة!.. على فضائحتنا!.. على شقائنا!». وجاء المعلم كرشة بعد قليل مكشراً عن أنيابه، وانتهرها قائلاً:

- ماذا تريدان؟ فضيحة جديدة؟ زبون جديد رأيتني أقدم له الشاي!

فقال المرأة ملوّحة بيدها كالنادبة:

- فضيحة ابنك! أدركه قبل أن يهجرنا، فقد ضاق بنا ذرعاً!

فضرب المعلم كفّاً بكفّ وقال وهو يهزّ رأسه مغيظاً محنقاً:

- أمن أجل هذا أترك عملي يا هوه!.. أمن أجل هذا أصعد مائة درجة؟ أه يا أولاد الكلب، لماذا تعاقب الحكومة على قتل أمثالكم؟!

وجعل يردد بصره بين الأمّ وابنها واستطرد قائلاً:  
 - ربّنا ابتلاني بكما ليقتصّ منّي. ما هذا الذي تقول أمك؟

ولزم حسين الصمت. وراحت أمّه تقول بهدوء ما وسعها الصبر:

- هدئي روعك يا معلّم، فهذه ساعة تحتاج لحكمتك لا لغضبك. لقد جمع ثيابه في بقجة، ونوى مغادرتنا.

فسدّد نحوه نظرة حقد وغضب، وهو بين مصدّق ومكذّب، وقال كالمسائل:

- جنت يا بن القديمة!

وكانت أعصاب المرأة متوتّرة فلم تملك أن صاحت به:

- دعوتك لتعقله لا لتشتمني..

فالتفت نحوها غاضباً وهو يقول:

- لولا جنونك الموروث لما شبّ ابنك مجنوناً..



## زقاق المذق ٦٩١

- بنت ناس طيبين .  
 - ولماذا لا تزوج بنت كلب كما فعل أبوك؟!  
 فتأوتت أم حسين قائلة:  
 - الله يرحك يا أبي كنت فقيها وقورا .  
 فالتفت نحوها بوجهه المربد وقال:  
 - فقيه! . . كان قارئ قبور، يتلو السورة بمليمين!  
 فقالت المرأة متوجعة:  
 - كان يحفظ كلام الله وكفى . . .  
 تحول عنها المعلم واقترب خطوات فصار من ابنه  
 على بعد ذراع، وسأله بصوت مخيف:  
 - حسنا كلاما، فليس لدي من وقت أضيعه بين  
 مجانين . أتريد حقا أن تترك هذا البيت؟!  
 فلم حسين أطراف شجاعته وقال باقتضاب:  
 - نعم .  
 فأدام المعلم النظر إليه مليا، ثم ثارت ثائرتة بغتة،  
 فضربه براحته على وجهه . ولم يستطع الفتى أن يتفادى  
 الضربة العنيفة فتلقاها بحنق جنوني، وابتعد عن  
 الرجل وهو يصيح:  
 - لا تضربني، لا تمسني، لن تراني بعد اليوم .  
 وهجم الرجل عليه فحالت دونه المرأة القانطة،  
 وتلقت لكياته على صدرها ووجهها، حتى كفت الرجل  
 وهو يصرخ:  
 - اغرب عني بوجهك الأسود ولا تعد أبدا .  
 سأفرض أنك متٌ واندلقت في الجحيم .  
 جرى الفتى إلى حجرته، وتناول البقجة، ونزل  
 السلم وثبا، وقطع الزقاق لا يلوي على شيء، وقبل أن  
 يعدل إلى الصناديق بصق عليه . وهتف بصوت  
 مرتعش من الحنق:  
 - غر . . انجحر، لعنة الله عليك وعلى أهلك .

- ١٥ -

سمعت الست سنينة عفيفي طرقا على الباب،  
 ففتحته، فرأت في فرح لا يوصف - وجه أم حميدة  
 يطالعاها بصفحة المجدورة، وهتفت من الأعماق:  
 - أهلا وسهلا بالحبيبة .

الساعة والفتى ينذره بهجره غاب حبه وإشفاقه تحت  
 ستار الغضب والحنق، وتمثل له الأمر تحديا وعراكا .  
 ولذلك سأله في تهكم مر:

- نقودك في جيبي، تنفقها كما تشاء وينعم بها  
 الخبازون والحشاشون والقوادون، هل سالناك مليا؟  
 - أبدا . . أبدا أنا لا أشكو هذا مطلقا . .  
 فتساءل المعلم بنفس اللهجة المرة:  
 - أمك الجشعة ذات العينين اللتين لا يشبعهما إلا  
 التراب، هل أخذت منك مليا؟  
 فقطب حسين ضميرا وقال:  
 - قلت إني لا أشكو هذا . كل ما في الأمر أتي أريد  
 حياة غير هذه الحياة . إن كثيرين من زملائي يقطنون  
 في بيوت فيها الكهرباء!

- الكهرباء!! أمن أجل الكهرباء تترك بيتك؟! . .  
 الحمد لله على أن أمك بفضائحها قد جعلت بيتنا أحمى  
 من الكهرباء . .

وهنا خرجت المرأة عن صمتها مولولة:  
 - مظلومة والله يا ربّي ظلم الحسن والحسين . . .  
 واستدرك حسين قائلا:  
 - إن زملائي جميعا يحيون حياة جديدة، وقد انقلبوا  
 جميعا جنتلمان كما يقول الإنجليز .  
 فغفر المعلم فاه، فانفجرت شفتاه الغليظتان عن  
 أسنانه الذهبية وقال:

- ماذا تقول؟  
 فلزم الفتى الصمت مقطبًا، واستدرك المعلم:  
 - جلمان؟! . . ما هذا؟! . . صنف حشيش جديد؟!  
 فقال حسين متذمرا:  
 - أعني رجلا نظيفا . . !  
 - ولكنك وسخ، فكيف تريد أن تكون نظيفا . . يا

جلمان!

وضاق حسين بتهكم أبيه فقال منفعلًا:  
 - أبي، أريد أن أحيا حياة جديدة، هذا كل ما  
 هنالك، وسأتزوج من بنت ناس!  
 - بنت جلمان!

- الشيء بالشيء يذكر. اعلمي أي حاضرة اليوم لأخطبك يا عروس!  
وخفق فؤادها بعنف. وذكرت كيف حدّثها قلبها بأن زيارة اليوم خطيرة، وبأن المرأة تطوي صدرها على سرّ تضمن به إلى حين. وتورد وجهها، وجرى في عوده الذابل ماء شباب، ولكتها تمالكت نفسها وقالت في حياء مصطنع:

- واخجلتاه! ماذا تقولين يا ستّ أم حميدة!  
فقالَت المرأة وقد افتّر ثغرها عن ابتسامه ظفر وارتيح:

- أقول إنّي حاضرة لأخطبك يا ستّ الناس!  
- حقًا! يا له من أمر خطيرا أجل أذكر ما تمّ الاتفاق عليه، ولكن لا يسعني إلا أن أضطرب، وأن أخجل أيضًا، واخجلتاه!

فجارتها أم حميدة في تمثيلها وقالت محتجّة:  
- حاشا الله أن تخجلي لغير ما عيب أو نقيصة، ولكنك تزوجين على شرع الله وستّة الرسول...  
فتنهّدت الستّ سنّيّة، تنهّد من يُدفع إلى التسليم على غير إرادته، وقد رنّ قول الأخرى لها «ستّزّوجين» رنينًا حلواً محبوبًا في أذنيها. أمّا أم حميدة فقد أخذت نفسًا طويلًا من سيجارتها، وهزّت رأسها هزّة الثقة والاطمئنان وقالت:  
- موظّف...

ودهشت الستّ سنّيّة، ونظرت إلى محدّثتها بعينين لا تكادان تصدّقان. موظّف!! إنّ الموظّف فاكهة محرّمة على زقاق المدقّ! وتساءلت قائلة:

- موظّف؟

- أي نعم موظّف!

- في الحكومة؟!

- في الحكومة!

وسكتت أم حميدة هنيهة لتستمع بظفرها، ثمّ استطردت:

- في الحكومة، وفي قسم البوليس بالذات...!

فازداد عجب الستّ وقالت متسائلة:

- وماذا يوجد في القسم غير الضابط والعساكر؟!

وتعانقتا عناقًا حارًّا - أو هكذا بدا على الأقل - وقادتها إلى حجرة الاستقبال وهي تأمر الخادم بصنع القهوة، وجلستا على كنبه متلاصقتين، واستخرجت من علبة سيجارتين، وجعلتا تدخّنان في انبساط وسرور. وكانت الستّ سنّيّة تكابد آلام الترقّب والانتظار مذ وعدت أم حميدة بالبحث لها عن زوج. ومن عجب أنّها صبرت على العزوبة أعوامًا طويلاً ولكتها لم تستطع مع فترة الانتظار - على قصرها - صبرًا. واعتادت في هذه الفترة أن تتردّد على زيارة أم حميدة دون انقطاع طويل، والمرأة لا يخفى عليها من أمرها شيء، وما انفكت تعدّها وتمنّيها، حتّى أيقنت الستّ سنّيّة أنّ المرأة تسوّف وتماطل حتّى تظفر منها بأكبر نفع مرجوّ. ومع ذلك كانت معها جّوادة كريمة، فأعفتها من دفع إيجار الشقّة، وتنازلت لها عن عدد من كيونات الكيروسين، ونصيبها من الأقمشة الشعبيّة، غير صينيّة بسبوسة كلّفت عمّ كامل بصنعها لها. ثمّ أذنتها المرأة بخطبة عباس الحلولا بابتها حميدة! وتظاهرت الستّ سنّيّة بالسرور، ولكنّ الخبر وقع من نفسها موقعًا مقلّقًا، وتساءلت ترى هل تضطرّ إلى المساهمة في تجهيز الفتاة لعرسها قبل أن تجهز نفسها؟! هكذا تنازعها الخوف من أم حميدة والتودّد إليها طوال فترة الانتظار. وقد جلست لصقها تسترق إليها النظر بين آونة وأخرى متسائلة عمّا عسى تتمخّض عنه زيارتها هذه: وعود وأمانيّ كالعادة أم البشرى التي يتلهّف قلبها عليها؟! وراحت تداري اضطرابها بشجون الحديث، فكانت - على غير المألوف - المحدّثة وأمّ حميدة المنصّته. تكلمت عن فضيحة المعلّم كرشة، ومغادرة ابنه حسين لبيته، وانتقدت أمّ حسين في تصرّفاتنا الفاضحة التي تحاول بها تقويم سلوك زوجها الشاذّ، ثمّ تدرّج الحديث إلى عباس الحلولا، فأثنت عليه قائلة:

- أنعمّ به من شابّ طيّب! سيفتح الله عليه ويرزقه، ويمكّنه من تهيئة الحياة السعيدة لعروسه التي نستأهل كلّ خير.

وابتسمت أم حميدة عند ذلك وقالت:

## زقاق المدق ٦٩٣

فضحكت الست ضحكة عصبية وصاحت:  
 - ساحك الله يا ست أم حميدة، ما لي أنا والأطفال!  
 - ربك قادر على كل شيء...  
 - نحمده ونشكر فضله على أي حال.  
 - أما عمره فثلاثون عامًا..  
 فصاحت الست في إنكار:  
 - رباه! أكبره بعشرة أعوام!  
 ولم يخف على المرأة أنها تناست عشرة أعوام من  
 عمرها، ولكنها قالت في لهجة تتم عن العتاب:  
 - لا زلت شابة يا ست سنية! ومع ذلك فقد  
 صارحته بأنك في الأربعين ووافق مسرورًا..  
 - أرضي حقًا؟!.. ما اسمه؟!..  
 - أحمد أفندي طلبة من أهل الخرنفش. وابن الحاج  
 طلبة عيسى صاحب المقلة بأم الغلام، أسرة طيبة  
 تنحدر من صلب سيدنا الحسين..  
 - أسرة طيبة حقًا، وأنا شريفة أيضًا كما تعلمين يا  
 ست أم حميدة..  
 - أعلم هذا يا حبيبي. وهو لا يتحرى إلا الأخلاق  
 الطيبة، ولولا هذا لتزوج من عهد طويل، ولكنه  
 يزدري بنات اليوم وينقم عليهن قلة الحياء. ولما أن  
 حدثته عن أخلاقك واحتشامك، وقلت له إنك سيده  
 شريفة وصاحبة قرش، سرّ سرورًا لا مزيد عليه، وقال  
 لي هذه طلبتي، بيد أنه سألي شيئًا واحدًا لا يخرج عن  
 حدود الأدب، وهو أن يرى صورتك!  
 فتورد الوجه النحيل، وقالت بإشفاق:  
 - والله ما صورت منذ أمد بعيد..  
 - أليس لديك صورة قديمة؟  
 فأومات الست إلى صورة على منضدة وسط الحجرة  
 دون أن تنبس بكلمة، فانحنت المرأة قليلًا وتناولتها  
 بيدها ونظرت فيها متفحصًا. كانت صورة يرجع  
 تاريخها إلى ما قبل ستة أعوام، وكانت صاحبها  
 وقتذاك على شيء من الامتلاء والحياة، فردت المرأة  
 بصرها بين الصورة والأصل، ثم قالت جازمة:  
 - طبق الأصل، كأنها صورت بالأمس القريب...  
 فتهدج صوت المرأة وهي تقول:

فرمقتها المرأة بنظرة عارف لجاهل وقالت:  
 - يوجد موظفون أيضًا. اسأليني أنا. أنا أعرف  
 الحكومة والوظائف والدرجات والعلاوات. هذه مهنتي  
 يا ست!  
 فقالت الست سنية بدهشة يخالطها سرور لا  
 يصدق:

- هو أفندي إذا!!

- أفندي بستره وينطلون وطربوش وحذاء!  
 - الله يشرف قدرك يا ست أم حميدة.  
 - إني أختار الطيب للطيب، وأعرف لكل إنسان  
 قدره. ولو كان في أقل من الدرجة التاسعة ما وقع  
 اختياري عليه..

فتمتت الست سنية متسائلة:

- الدرجة التاسعة؟

- الحكومة درجات. ولكل موظف درجة. والتاسعة  
 إحدى هذه الدرجات. ولكنها درجة ولا كل الدرجات  
 يا حبيبي!

فقالت الست وعيناها تتألقان سرورًا:

- دمت من صديقة محبة عزيزة!

فاستدركت أم حميدة تقول بصوتها الواشي بالظفر  
 والثقة:

- يجلس إلى مكتب كبير، تتكدس عليه الملفات  
 والأوراق للسقف والقهوة داخلة خارجة، هذا يرجوه  
 وهذا يسأله، وهو ينهر هذا ويشتم ذاك، العساكر  
 تحييه، والضباط تحترمه..

فابتسمت الست سنية، ولاحت في عينيها نظرة

أحلام، وواصلت أم حميدة الحديث قائلة:

- مرتبه عشرة جنيهات لا تنقص مئتيًا.

وصدقتها الست سنية فهتفت قائلة:

- عشرة جنيهات!

فقالت المرأة ببساطة:

- هذا قليل من كثير، وما مرتب الموظف إلا بعض  
 رزقه، وبالحدق والشطارة يستطيع أن يربح أضعافه،  
 ولا تنسي علاوة الغلاء، وعلاوة الزواج، ثم علاوة  
 الأطفال.

- الله يجلي دنياك . . .

وأودعت جيبيها الصورة بإطارها، وأشعلت سيجارة أخرى قُدمت لها، ثم قالت بلهجة رزينة:

- ولقد تحدّثنا طويلاً فعرفت أموراً عمّا في مرجوه . . .

ولحظتها السّت بنظرة حذرة لأوّل مرّة، وانتظرت أن تواصل حديثها فلمّا أن طال الصمت، سألتها مبتسمة ابتسامة باهتة:

- ترى ماذا في مرجوه؟

أتجهل حقّاً أم تظنّه يريد الزواج منها حبّاً في سواد عينيها؟ واغتاظت المرأة قليلاً، بيد أنّها قالت بهدوء وبصوت منخفض قليلاً:

- أظنّ ليس لديك مانع من إعداد جهازك بنفسك . . ؟

وفهمت السّت سنّيّة المقصود لأوّل وهلة، فالرجل لا يريد أن يدفع صداقاً، ويرغب ولا شكّ في أن يترك لها وحدها عبء الجهاز، ولم يكن ذلك ليغيب عنها من أوّل الأمر، منذ عمّلتها الرغبة في الزواج. وسبق أن كُحِت أم حميدة إلى هذا في ثنايا أحاديثها فلم تفكّر قطّ في الاعتراض عليها. فقالت بلهجة تنمّ عن التسليم:

- ربّنا المعين.

فابتسمت أم حميدة وقالت:

- نسأل الله التوفيق والسعادة . . .

ونفضت المرأة تريد الانصراف، فتعانقتا عناقاً حارّاً، وسارت السّت في تسوديعها حتّى الباب الخارجيّ، ووقفت مرتففة الدرايزين وأمّ حميدة تنزل السلم إلى شقّتها، وقبل أن تغيب عن ناظرها هتفت بها:

- مع ألف سلامة. قبلي عني حميدة . . .

ثمّ عادت إلى حجرتها بقلب فتيّ، ابتعث حرارته الأمل الجديد. وجلست تستعيد ما قالت أمّ حميدة جملة جملة وكلمة كلمة. كانت السّت سنّيّة على شيء من الحرص ولكنه ليس الحرص الذي يقف عثرة في سبيل سعادتها. أجل فطالما آنس المال وحدثها، سواء ذلك الذي تحفظه في صندوق التوفير أو هذا الذي تتملّاه

رزماً جديدة بديعة في صندوقها العاجيّ، ولكن لا هذا ولا ذاك بمُعْنٍ عن الرجل الخطير الذي سيصبح بإذن الله بعلاً لها. ولكن هل تعجبه الصورة؟ وتورد وجهها حتّى أحسّت بحرارة دمها تلمح جيبيها. ونهضت إلى المرأة تعانين صورتها وجعلت تحرك وجهها بمنة ويسرة حتّى تراءى لعينيها أحسن الأوضاع فثبته عليه، وأنعمت في الصورة النظر، ولاح في وجهها شيء من الرضا، وغمغمت برجاء «ربّنا يستر». ثمّ عادت إلى جلستها وهي تقول «المال يغطّي العيوب» ألم تقل له المرأة إنّها صاحبة قرش؟! وإنّها لكذلك. وليست الخمسون بسنّ اليأس، فلا يزال أمامها عشرة أعوام، وكم من امرأة في السّتين تستطيع أن تتمتع بالسعادة إذا كفّها الله شرّ الأمراض. والزواج كفيل بريّ العود الذابل، وبعث الجسد الخامد. هكذا سرحت مع أفكارها الوردية حتّى اعترض تيارها الصافي زبد متلبّد، فقَطبت فجأة، وتساءلت مغيظة: ترى ماذا يقول الناس غداً؟ أه، إنّها تعرفهم حقّ المعرفة، وستكون أمّ حميدة نفسها في طليعة المتقولين. سيقولون لقد جنّت السّت سنّيّة، ويقولون امرأة في الخمسين تتزوّج من ابن في الثلاثين، وسوف يتحدّثون طويلاً عن المال الذي يصلح ما أفسد الدهر، وربّما قالوا غير هذا وذاك كثيراً ممّا لا يخطر لها ببال. فليقولوا ما شاء لهم القول. وهل كانوا أعتقوها من شرّ ألسنتهم وهي أرملة؟! وهزّت السّت كتفيها استهانة، ثمّ دعت ربّها من الأعماق قائلة:

- اللّهمّ احفظني من شرّ العين . . .

ثمّ خطر لها خاطر سرعان ما رجّبت به، وصدقت نيّتها على تنفيذه، وهو أن تذهب إلى الشّيخة رباح بالباب الأخضر تستقرئها الطالع، وتستوهبها بعض الرقي، فما أحوجها في حالتها هذه إلى حجاب مفيد أو بخور نافع.

- ماذا أرى؟! إنّك لرجل وقور!

قال زبطة ذلك وهو يتفرّس وجه رجل عجوز

## زقاق المدق ٦٩٥

فقال الرجل بأدب جمّ:  
 - لا تؤاخذني يا سيدي، إنّ الله غفور رحيم...  
 وسكت الغضب عن زيطة، وحجج الرجل بنظرة  
 حادة، ثمّ قال بصوت لم تسمع منه بعض آثار الحدة:  
 - قلت إنّ الوقار أنفس عاهة...  
 - كيف يا سيدي؟  
 - الوقار كفيّل بأن يكتب لك النجاح كشحاذ نادر  
 المثال.

- الوقار يا سيدي؟!  
 فمدّ زيطة يده إلى كوز على الرفّ، واستخرج منه  
 نصف سيجارة، ثمّ أعاده إلى موضعه، وأشعلها من  
 قهوة زجاجة المصباح، وأخذ نفساً طويلاً وهو يضيّق  
 عينيه البرّاقيتين، وقال بهدوء:  
 - ليست العاهة بمطلبك. بل أنت في حاجة إلى  
 مزيد من التحسين والتجميل. اغسل جلبابك جيّداً،  
 واحصل بأية طريقة على طربوش نصف عمر، وامش  
 بقامتك المعتدلة هذه في خشوع وأدب، واقترّب في  
 إشفاق من رؤاد المقاهي، ثمّ قف في حياء، ومدّ يدك  
 في تألم دون أن تنبس بكلمة. وتكلّم بعينيك، ألا  
 تعرف لغة الأعين؟.. ستحدّق فيك العيون بدهشة،  
 سيقولون عزيز قوم ذلّ، ويقولون محال أن يكون هذا  
 من أولئك الشحاذين المحترفين. أفهمت الآن ما  
 أريد؟ ستريح بوقارك أضعاف ما يربحه الآخرون  
 بعاهاتهم...

وأمره أن يقوم بتجربة لدوره الجديد، ووقف يراقبه  
 مدخّناً سيجارته، وتفكّر قليلاً ثمّ قال مقطّباً:  
 - ربّما سوّلت لك نفسك أن تأكل أجري بحجّة أنّي  
 لم أصنع لك عاهة تستحقّ الأجر، وأنت حرّ تفعل ما  
 تشاء، على شرط أن تولي وجهك وجهة غير حيّ  
 الحسين العامر.

فتعوذ الرجل في إنكار وقال متألّماً:  
 - حاشاي أن أخون صاحب الفضل عليّ...  
 وانتهت المقابلة عند ذلك، فسار زيطة بين يدي  
 الرجل ليدلّه على الطريق، ووصله حتّى الباب  
 الخارجيّ للفرن، وفي أثناء عودته لاحظ أنّ المعلّمة

منتصب القامة، يمثل بين يديه في خضوع واستكانة...  
 كان رثّ الجلباب، نحيل الجسد، ولكنّه ذو مظهر  
 وقور كما قال صانع العاهات، كبير الرأس أبيض  
 الشعر، مستطيل الوجه، له عينان هادئتان خاشعتان،  
 كأنّه لوقاره وطول قامته واعتدالها من رجال الجيش  
 المتقاعد. وراح زيطة يتفحصه بدهشة وأناة على  
 ضوء المصباح الخافت، ثمّ عاد يقول:  
 - إنّك لرجل وقور، أترغب في امتهان الشحاذة  
 حقّاً؟!  
 فقال الرجل بصوت هادئ النبرات:  
 - أنا شحاذ بالفعل ولكنّي غير موفق...  
 فتنحنح زيطة، وبصق على الأرض، ومسح شفثيه  
 بكمّ جلبابه الأسود، وقال:

- إنّك أرقّ من أن تحتل أيّ ضغط شديد على  
 أعضائك. والحقّ أنّه لا يصحّ التقدّم لانتخاذ عاهة  
 كاذبة بعد العشرين، فالعاهة الكاذبة والصادقة سواء  
 فيما تقتضيه من عناء! وكلّما كان العظم طرّاً ضيّق  
 الشحاذ عاهة في حكم المستديّة حقّاً، وأنت شيخ كبير  
 على عتبة الفناء فما عسى أن أصنع بك؟  
 ومضى يفكّر. وكان إذا اعتراه الفكر فغر فاه  
 وأرعرش لسانه فلاح في فمه كراس أفعى. ثمّ ومضت  
 عيناه البرّاقتان بغتة وصاح:

- الوقار أنفس عاهة!

فسأله الرجل متحيراً:

- ماذا تعني يا أستاذ؟!  
 فانكفأ وجه زيطة غضباً وصاح به محتداً:

- أستاذ؟! أسمعتني أقرأ على القبور؟

فدهم غضبه الرجل، وبسط راحتيه مستعظفاً وقال  
 بصوت منكسر:

- معاذ الله... ما قصدت إلاّ تبجيلك...  
 فبصق زيطة مرّتين وقال منفعلاً في زهو وعجب:

- إنّ عملي ليعجز أعظم أطباء البلد لو حاولوه. ألا  
 تعلم أنّ إحداث عاهة كاذبة أشقّ من إحداث عاهة  
 حقيقة ألف مرّة؟.. إنّ عاهة حقيقة لا تستقصيني  
 أكثر من أن أبصق على وجهك...  
 فقال الرجل بصوت هادئ النبرات:  
 - أنا شحاذ بالفعل ولكنّي غير موفق...  
 فتنحنح زيطة، وبصق على الأرض، ومسح شفثيه  
 بكمّ جلبابه الأسود، وقال:

وصراخ وعواء. وهو لا يفتأ يحرق بعض الأرغفة في أثناء خبزها، أو يسرق البعض الآخر ليلتهمه خفية فيما بين الوجبات، أو يتعاطى بسبوسة بنصف قرش من أجر الخبز الذي يحصله من البيوت، ولا يتورع عن ارتكاب هذه الجرائم يوماً بعد يوم، دون توفيق في طمس معالمها، ولا قدرة على منع عقوباتها الصارمة. وكان زيتة يعجب لخنوع الرجل وجبنه وعنته. وأعجب من هذا أنه - زيتة - كان يستقبه ويهزأ بصورته! كان جعدة طويل القامة لحد مفراط، طويل الذراعين، ممطوط الفك الأسفل، غائر العينين، غليظ الشفتين. ولطالما حقد عليه زيتة تمتعه بهذه الزوجة الهائلة التي يرمقها بعين الإعجاب والرغبة، ولذلك مقته واحتقره، وتمنى لو يستطيع قذفه داخل الفرن مع العجين والصواني. ولذلك أيضاً سره أن يجد في غياب الحيوان فرصة ليجالس المعلمة قليلاً، فجلس ومد ساقه، غير عابئ بما يحدثه جلوسه من دهشة وإنكار. ولم تتردد المعلمة حسنة بجرأتها المعهودة أن سألته بجفاء بصوت غليظ:

- ما لك جلست هكذا؟

فقال زيتة لنفسه «اللهم ارفع غضبك ومقتك عني» ثم قال لها بلطف وتودد:

- أنا ضيف يا معلمة، والضيف لا يهان...

فقال بتقرّز:

- ولماذا لا تنجح وترنجني من وجهك؟

فقال زيتة برقة مبتسماً عن أنيابه الوحشية:

- لا يمكن أن يقضي الإنسان حياته كلها بين الشحاذين والقاذورات والديدان، ولا مفر من أن يتطلع لمنظر أبهج وأناس أفضل. فانتهرته بعنف قائلة:

- يعني لا مفر من أن يؤدي الناس بمنظرة الكريه ورائحته الخبيثة... أف... أف... انجح وأغلق الباب وراءك!

فقال زيتة بخبث:

- ومع ذلك فعسى أن توجد مناظر أفظع وروائح أخبث.

حسنة مترتبة على حصيرة بمفردها، وليس لعدة من أثر، وكان من عادته إذا التقى بها أن يخلق سبباً لمبادلته كلمة أو كلمتين، توددًا إليها، وإفصاحًا عن إعجابها الكمين، فقال لها:

- أرايت هذا الرجل؟

فقال المعلمة حسنة بغير مبالاة:

- طالب عاهة، أليس كذلك؟

فضحك زيتة وراح يقص عليها قصته، والمرأة تضحك وتلعنه على شيطنته ثم أتجه نحو الباب الخشبي القصير الذي يؤدي إلى مأواه، وتردد على عتبة لحظة ثم سألتها:

- أين جعدة؟

فأجابته المرأة:

- في الحمام..

وظن الرجل لأول وهلة أنها تسخر منه لقذارته المعروفة، فرمقها بحذر ولكنه وجدها جادة. فأدرك أن جعدة قد ذهب إلى حمام الجالية، وهو ما يفعله مرتين في العام، وأنه لن يعود قبل منتصف الليل على وجه التقريب. فحدثه نفسه بأن يجالس المعلمة قليلاً، متشجعاً بما أثارته قصته من سرور. وجلس على عتبة بابه مستنداً إلى مصراع الباب ماداً ساقه كعمودين رقيقين من الفصح، غير عابئ بما أحدثه جلوسه من دهشة وإنكار لاحت آياتها في عينيها. وكانت المرأة تعامله كما يعامله بقية أهل الزقاق، غير كلمات يتبادلانها في ذهابه أو إيباه، بوصفها مالكة مأواه. ولم تكن تشك في أن علاقته بها تنقطع عند هذا الحد، ولم يدّر لها بخلد أنه يطلع على الكثير من دخائل حياتها ودقائقها. ولكن مخلوقاً كزيتة لا يعدم أن يجد منفذاً في الجدار بينه وبين الفرن يطلع منه على ما يروي غلته المتطقلة، وأحلامه البهيمية. فصار وكأته واحد من هذه الأسرة، يشهد عملها وراحتها، ويلذّه بوجه خاص أن يرى المعلمة وهي تكيل الضرب لبعليها لأقل هفوة. وما أكثر هفوات جعدة التي يقع فيها كل يوم ويعاقب عليها كل يوم، حتى بات الضرب من غذائه اليومي، يتلقاه تارة في تصبر وتجلد، وتارة في بكاء

على لكمة تما يصيبه . .

فقال زيطة حانقًا:

- لعلّ الضرب شرف لا أدركه . . .

- شرف لا تطمح إليه يا عشير الديدان .

وتفكر زيطة مليًا، ترى هل تطيب لها معاشره هذا الحيوان حقًا؟ وقد طالما طرح هذا السؤال على نفسه، ولكنّه كان يأبى أن يصدّق هذا. إنّ المرأة لا تملك أن تقول غير ما قالت، ولكنّها تبطن شيئًا آخر بلا جدال. ورمق بنياتها الضخم المكتنز بعين نارّية فازداد إباء وعنادًا. ونشط خياله بارعًا مجنونًا فصور له المستقبل في ألوان زاهية. وأوحى له خلوّ المكان بتخيّلات محمومة، فلمعت عيناه المخيفتان. أمّا حسنيّة الفرّانة فقد استلذت غيرته، ولم يقلقها انفراجه بها لعظيم ثقتهما بقوّتهما. فقالت في تهكّم:

- حتّى أنت يا تراب الأرض . . استخراج جسمك من التراب الذي يغطّيه أولًا، ثمّ كلّم الناس بعد ذلك.

لبست المرأة غاضبة. ولو كانت غاضبة حقًا لما دارت غضبها ولصفتها بوحشيتها. إنّها تمازحه ولا شكّ، فلا يجوز أن تفلت الفرصة من يديه. قال:

- أنت لا تفرّقين يا معلّمة ما بين التراب والتبر.

فقالت المرأة بتحدّ:

- هل تستطيع أن تنكر أنّك من طين؟

فهزّ منكبيه استهانة وقال ببساطة:

- كلّنا طين . . .

فقالت المرأة ساخرة:

- خسئت! إنّك طين على طين وقذارة على قذارة. ولذلك لا عمل لك إلّا تشويه البشر، كأنك تنبعث إلى ذلك برغبة شيطانية في النزول بالبشر إلى مستواك القذر.

فتضاحك زيطة وما يزداد إلّا أملًا، وقال:

- ولكنّي أحسن الناس ولا أقبحهم. ألا ترى أنّ الشحاذ بغير العاهة لا يساوي مليّيًا، حتّى إذا ما صنعتها له ساوى ثقله ذهبًا؟! والرجل يقوم بشمّه لا بصورته. أمّا أخونا جعله فلا ثمن ولا صورة . . .

وأدركت المعلّمة أنّه يُلمح إلى زوجها، فارتدّ وجهها وقالت بلهجة تنمّ عن الوعيد:

- ماذا تعني يا أبا الديدان!؟

فقال الرجل ولم تكن تعوزه الجرأة:

- أخونا الفاضل جعله . . .

فصاحت به بصوت مخيف:

- حذار يا ابن اللثيمة. لو بلغتك يديّ شطرتك اثنين . . .

ولم يتعام الرجل عن الخطر المائل أمامه فقال مستعطفًا:

- قلت إنّني ضيف يا معلّمة، والضيف لا يهان. ثمّ إنّني لم أعرض بجعدة إلّا بعد أن ثبت لي ازدرأوك له، وانهالك عليه بالضرب لاتفه الأسباب.

- جعدة هذا ظفره برقبتك!

فقال زيطة محتجًا:

- ظفرك أنت بالف رقبة كرقبتي، أمّا جعدة . . .

- أحسب أنّك خير من جعدة!؟

فلاح الانزعاج في وجه زيطة وفجر فاه دهشة، لا لأنّه في حسابانه - خير من جعدة فحسب، ولكن لأنّه كان يعتقد أنّ مجرد مقارنته به سبّه لا تغتفر، فأين هذا الحيوان الأعجم من شخص مقتدر مثله، يُعدّ بحقّ ملكًا على دنيا برمتها أيًا كانت هذه الدنيا؟ وسألها بدهشة:

- ماذا ترى أنت يا معلّمة؟

فقالت حسنيّة بتحدّ وازدراء:

- أرى أنّ ظفره برقبتك . . .

- هذا الحيوان . . .؟

فهتفت بصوت فظّ:

- هذا رجل ولا كلّ الرجال يا وجه العفريت . . .

- هذا المخلوق الذي تعاملينه كما تعامل الكلاب الضالّة؟

وأدركت المرأة في كلامه حنقًا وغيره، فراقها ذلك على انفعالها، وعدلت عن ضربه بعد أن حدّثتها نفسها به، وراحت تقول كأنّما لتضاعف حنقه وغيرته:

- هذا شيء لا تفهمه، وما أجدر أن تموت حسرة

أبلغ حافة الطوار المطلّة على الطريق، وكانت توجد تحت المكان المختار ثغرة في الأرض يركد فيها ماء من مطر أو رشّ أو دابة، يتكتل الطين في قعرها، وعلى سطحها يغني الذباب، وعلى شطآنها تتجمّع نفاضة الطريق. منظر ساحر يأخذ بالألباب. ماؤها مطيّن، وساحلها زبالة متعدّدة ألوانها. قشر طهاطم ونفاية مقدونس وتراب وطين، والذباب يحوم حولها ويقع عليها، فكنت أرفع جفنيّ الثقيلين بالذباب، وأسرح طرفي في ذاك المصيف الطروب، والدنيا لا تسعني فرحاً..

فهتفت المعلّمة ساخرة:

- يا بختك.. يا حظك..

ولّذه سرورها وإقبالها على حديثه، فقال متشجّعاً:  
- هذا سرّ ولعي بما يسمونه ظلمًا بالقاذورات، والإنسان خليق بأن يالف أيّ شيء مهما شدّ وغرب، ولذلك أخاف عليك أن تألفي ذاك الحيوان.

- أتعود أيضًا إلى هذا؟

فقال وقد أعمته الشهوة وأصمته:

- طبعًا. لا قبيل لإنسان ياغفال الحقّ..

- الظاهر أنك زهدت في الدنيا.

- لقد ذقت الرحمة مرّة كما قلت لك في المهد.

ثمّ أوماً بيده إلى المذبذبة التي تسكنها واستدرك:

- وقلبي يحدّثني بأنّ لي حظًا أن أذوقها مرّة أخرى في ماواي هذا.

وأوماً برأسه إلى الداخل كأنه يقول لها: «هلّمي»  
فتميّزت المرأة غيظًا، وأحنقت جراته، فصاحت في وجهه:

- حذار يا بن الشيطان.

فقال بصوت متهدّج:

- كيف لابن الشيطان أن يجذر غواية أبيه؟

- إذا هسّمت عظمك؟

- من يعلم.. ربّما استلذّ ذلك أيضًا..

ونفض الرجل بغتته، وتراجع قليلاً متقهقرًا، كان يظنّ أنّه بلغ مناه، وأنّ المعلّمة أصبحت طوع يمينه، وقد تلبّسته حال جنونيّة جعلته ينتفض انتفاضًا. وثبتت

فمجزرت المرأة بصوت ملؤه الوعيد:

- أتعود إلى هذا الحديث مرّة أخرى!؟

فتعامى عن وعيدها، وتجاهل الموضوع الذي طرفه متعمّدًا، وتخطّاه قائلًا:

- ومع ذلك فجميع زبائني من الشحاذين المحترفين، فماذا تريدني على أن أفعل بهم؟.. أكنت تريدني أن أحلّهم وأزيّنهم وأسرحهم في الطرقات لغواية المحسنين؟!؟

- يا لك من شيطان! لسان شيطان، وصورة شيطان.

فتنهّد بصوت مسموع، وقال باستكائة المستعطف:

- كنت مع ذلك ملكًا في يوم ما..

فهزّت رأسها متسائلة في سخرية:

- ملكًا من الأسياد والعمّالين؟

فقال بلهجة الاستكائة والاستعطف نفسه:

- بل من البشر أنفسهم. وأيّ واحد منّا تستقبله الدنيا كملك من الملوك، ثمّ يصير بعد ذلك ما يشاء له نحسه. وهذا خداع حكيم من الحياة، وإلا فلو أنّها أفصحت لنا عمّا في ضميرها منذ اللحظة الأولى لأبينا أن نفارق الأرحام..!

- ما شاء الله يا بن الدائخة!

فاستدرك زبطة في حماسة وسرور:

- وهكذا كنت يومًا ما مولودًا سعيدًا، تلقّفته الأيدي بالسرور، وحاطته العناية والرحمة، فهل تشكّين بعد ذلك أنّي كنت ملكًا؟

- أبدًا يا مولانا..

وأسكرته حرارة الحديث ولذّة الأمل، فمضى قائلًا:

- وكان مولدي يميّأ وبركة أيضًا. ذلك أنّ والديّ

كانا شحاذين محترفين، وكانا يكثران طفلًا تحمله أمي في أثناء تجوالهما. فلما أن رزقها الله بي أغناهما عن أطفال الناس، وفرحا بي فرحًا عظيمًا.

فلم تملك حسنيّة أن ضحكت ضحكة مجلجلة، فأزداد حماسة وحرارة، وقال مواصلاً حديثه:

- آه من ذكريات طفولتي السعيدة! لا زلت أذكر مستراحي من الطوار. كنت أزحف على أربع حتّى



## زقاق المدق ٦٩٩

الهوى. لقد غلبه الهوى على أمره، وتسرب إلى أعماق نفسه فتشبعت به جذور تفكيره وإرادته، وهانت عليه الصعاب التي كانت تعترض أحلامه، وقال لنفسه متبرماً: «لقد انتهت زوجي كامرأة، ولست من الرجال الذين ينزلون إلى الفسق في مثل هذه السن، ولا داعي مطلقاً للرضا بالعذاب والغم. لقد يسر الله لنا فلماذا نعسر على أنفسنا؟!». وهكذا انتهى إلى رأي لا عدول عنه، وأجمع على تحقيق رغبته. ولذلك دعا أم حميدة إلى الجلوس على كنب منه معتزماً بمفاتها بالأمر الخطير. وليث السيد متخوفاً من الكلام قليلاً لا لأن تردداً ساوره، ولكن لأنه لم يكن من اليسير أن ينزل عن مرتبة العالية دفعة واحدة ويخلط نفسه بامرأة كأم حميدة. وتصادف في تلك اللحظة أن دخل عامل حاملاً صينية الفريك المشهورة، فرأتها أم حميدة وجرت على شفتيها شبه ابتسامة لم يفته ملاحظتها، وابتهل هذه الفرصة ورأى أن يجعلها فاتحة حديثه، وتنامى تزمته ووقاره وقال لها بلهجة تتم عن السخط:

- لكم تكذربي هذه الصينية!

وخافت أم حميدة أن يكون قد رأى ابتسامتها فقالت بعجلة:

- لماذا كفى الله الشر؟

فقال السيد باللهجة نفسها:

- لكم تحدث لي من متاعب..

فتساءلت المرأة وهي لا تدري ما يعنيه:

- لماذا يا سيدنا البك؟

فقال السيد سليم بهدوء منشجعاً بأنه يجادل خاطبة:

- لا يرضى عنها الطرف الآخر..

فدهشت أم حميدة، وذكرت كيف تحلب ريق أهل الزقاق يوماً على قطعة من هذه الصينية، وها هي ذي امرأة زاهدة لا ترضى عنها! وقالت المرأة لنفسها: «يعطي الحلقة لمن ليس له أذنان». ثم غمغمت مبتسمة، وبلا حياء:

- هذا شيء عجيب!

فهز السيد رأسه متأسفاً. وكانت زوجته لا ترهب

عيناه على عيني المرأة في ذهول وبهيمة. ثم مد يديه بفتة إلى طرف جلبابه وخلعه بسرعة فائقة، وتجرّد عارياً. وهبت المعلمة لحظات، ثم امتدت يدها إلى كوز غير بعيد، وقذفته به بسرعة وقوة، فأصاب بطنه، وندت عنه آهة كالخوار، وسقط يتلوى...

## - ١٧ -

كان السيد سليم علوان جالساً كعادته إلى مكتبه بالوكالة حين جاءت أم حميدة لابتياح بعض اللوازم. وكان الرجل يستقبلها إذا جاءته بلطف، ولكنه لم يقنع هذه المرة بذلك، فدعاها إلى الجلوس على كرسي قريب منه وكلف أحد العمال باستحضار ما تريد من ألوان العطارة. ونال هذا العطف من أم حميدة فلهجت بشكره والدعاء له. والحق أن هذا العطف لم يكن احتمالاً، ولكن السيد كان قد نوى أمراً لا رجوع فيه لأنه من العسير أن يعيش الإنسان موزع النفس مضطرب الإرادة لا يقدر له قرار. وقد ساءه كثيراً أن يرى ساء حياته غائمة بالمشكلات المعلقة التي تستوجب الحل ثم لا يجد الإرادة التي تحلها. فهؤلاء الأبناء لا يخفى عليه قلقهم، وهذه الأموال المكدسة لا يدري متى يتاح له استغلالها خصوصاً وقد أرجف المرجفون باحتمال هبوط قيمتها النقدية بعد الحرب، ورتبة البيكوية كلما ظن أنه حسم أمرها وانتهى منه عادت تلح عليه كأنها دمل كامن، وعلاقته بزوجه وهمة الناشئ من ذبول شبابها ونضوب حيويتها، وأخيراً.. وليس أخيراً.. هذه العاطفة التي يعانيتها ويلقى من اضطرامها ما يلقي من أشواق وآلام. لبث بين هذه الهموم متحيراً، ثم رأى أن يفضّ إحداها بعزم ورغبة ولكنه انساق في الاختيار مع هواه وهو لا يدري، فارتأى أن يسكن هذه العاطفة الغشوم، وتركز اهتمامه في ذلك، حتى لكأنه بالانتهاء منها إنما ينتهي من همومه جميعاً. ولكنه لم يكن بالغافل عن العواقب، ولم يكن ليغيب عنه أنه بصدد مشكلة يعقب فضها المزعوم مشكلات جديدة لا تقل خطراً عن سابقتها. ولكنه

- لا داعي للبحث والتعب. إن من أريد في بيتك أنت!

واتسعت عينا المرأة دهشة وتمتمت بلا وعي:

- في بيتي أنا!!

فقال السيد وقد سرته دهشة المرأة:

- أجل في بيتك أنت دون سواك. ومن لحمك

ودمك أعني كريمك حميدة..!

ولم تصدق المرأة أذنيها، وتولّاهما الدهول. أجل

كانت تعلم - عن طريق حميدة نفسها - أن السيد يتبعها

أينما ذهبت عينين برّاقتين، ولكنّ الإعجاب شيء

والزواج شيء آخر. فمن عسى أن يصدق أن السيد

سليم علوان صاحب الوكالة يطلب يد حميدة؟!.

وقالت المرأة بصوت مضطرب:

- لسنا قدّ المقام يا سي السيد!

فقال الرجل برقة:

- إنك سيّدة طيّبة، وقد أعجبتني كريمك وكفى.

ألا يكون الناس أهلاً للخبر إلا إذا كانوا أغنياء؟ وما

حاجتي للمال وعندي منه ما فوق الكفاية!

وأصغت إليه والدهشة لا تفارقها. ثمّ ذكرت فجأة

أمراً غاب عنها حتىّ هذه اللحظة. ذكرت أنّ حميدة

مخطوبة، وقد نذت عنها «آهة» كالمترجمة، حملت

السيد على أن يسألها قائلاً:

- ما لك؟

فقالت المرأة باضطراب:

- ربّاه، نسيت يا سي السيد أن أقول لك إنّ حميدة

مخطوبة! خطبها عباس الحلو قبل سفره إلى التلّ

الكبير...!

فانكفأ وجه الرجل، واصفرّ وجهه غضباً، وقال

بحدة وكأنه ينطق باسم حشرة قذرة:

- عباس الحلو..!

فقالت المرأة بعجلة وهوجة:

- ربّاه لقد قرأنا الفاتحة!

فقطّب السيد سليم قائلاً في غضب وازدراء:

- ذاك الحلاق الشحاذ..

فقالت أمّ حميدة كالمعتدرة:

بالصينيّة من بادئ الأمر وهي بعد شابة في ريعان

الشباب. كانت ذات فطرة سليمة تنفر من الشذوذ عن

الطبيعة، ولكنها تحمّلت ما كانت تعدّه إرهاباً إكراماً

لزوجها النهم، وإشفاقاً من تكدير صفوه. ومع ذلك لم

ترتد عن نصحه بالعدول عن أمر في المداومة عليه

خطر وأبى خطر على صحته. ولمّا أن تقدّم بها العمر

قلّ صبرها، وتضاعف إحساسها بالأمر، وبدا تذمرها

صريحاً، حتىّ كانت تهجر بيت الزوجيّة إلى بيوت

أبنائها، زيارة في الظاهر وهروباً في الحقيقة. وضاق بها

السيد ذرعاً، ورمأها بالبرود والنضوب، وتكدر

صفوها، وتنغصّ عيشها، دون أن يعدل عن هواه،

أو يعطف على ضعفها اللعوس. وقد اتّخذ نشوزها -

هكذا دعاه - حجة له في هواه وفيها يرتاد من حياة

زوجيّة جديدة!

هز السيد رأسه متأسفاً وقال بلغة لا يخفى مرماها

عن مثل أمّ حميدة:

- لقد أنذرتها بالزواج من أخرى. وإني لفاعل بإذن

الله..

ونار اهتمام المرأة، وتحركت غريزة العمل في باطنها،

وحدجته بنظرة التاجر إلى زبون نادر الوجود، ولكنها

قالت بشيء من الارتباب:

- لهذا الحدّ يا سي السيد!؟

فقال الرجل باهتمام جدّي:

- لقد انتظرتك طويلاً، وكنت على وشك أن أرسل

في طلبك. فما رأيك؟

فتنهّدت المرأة وقد غلبها سرور لا يوصف. وقد

قالت فيما بعد إنّها ذهبت بتناع حنّاء فعثرت على كنز.

ثمّ نظرت إليه مبتسمة وقالت:

- يا سي السيد أنت رجل قدّ الدنيا، ومثلك في

الرجال قليل، وبأحظّ من تكون نصيبك، وأنا رهن

إشارتك، فعندي البكر والثيب، والشابة والنصف،

الغنيّة والفقيرة. اختر ما تشاء..

وفتل السيد شاربيه الغليظين، واعتراه شيء من

الارتباك، قليلاً ثمّ مال نحوها، وقال بصوت

منخفض، وعلى فمه ابتسامة:

## زقاق المذق ٧٠١

حلاق قدر لا يساوي مليًا، ومع ذلك فهو يزحمه في حلبة واحدة. وبصق على الأرض بازدرء كأنما البصقة هي الحلو نفسه. وخال أنه يسمع طنين المرجفين إذ يخوضون في هذا الأمر بما يحلو لهم من تهكم وسخرية. ستقول زوجه إنه خطف ابنة ماشطة من صالون حلاق بالمدق! أجل ستقول زوجه وتعيد، وسيقول الناس ويتفنون في القول، وسيتناهى ذلك كله إلى أبنائه وبناته وأصدقائه وأعدائه. تفكر في ذلك جميعه، بيد أن التراجع لم يخطر له ببال فقد انتهت المعركة قبل اليوم، ومدّ يده بالفعل، وتوكل على الله. ومضى يفتل شاربته بأناة، وهز رأسه استهانة، وقد ملكت الرغبة الجائعة عليه نفسه، وهوت عليه القيل والقال. وهل كفّ الناس عنه السنهم من قبل؟ ألم يجعلوا من صينية الفريك أسطورة يتناقولونها؟ فليقولوا ما بدا لهم، وليفعل ما بدا له، وسيظلّ بلا ريب سيّد الجميع الذي يشقّ سبيله بين هامات متطامنة. أما أسرته فتروته كفيلة بإرضاء أفرادها جميعًا، ولن يسلبهم زواجه الجديد أكثر مما كانت تسلبهم إياه رتبة البكورية فيما لو سعى إليها: وانفثا غضبه، وانبسط أساريره، وارتاح إلى تفكيره ارتياحًا عظيمًا. ينبغي أن يذكر دائمًا أنه إنسان من لحم ودم، وإلا أغفل حقّ نفسه، وقدمها لقمة سائغة للهموم تزدردها. ما جدوى ثروته الطائلة إذا ذهبت نفسه حشرات على رغبة تحقيقتها بيده؟ أو ترك قلبه يحترق بالشوق إلى جسد بشري رهن إشارة منه؟!

- ١٨ -

ومضت أم حميدة مهرولة إلى شقتها، وفي هذا الشوط القصير- ما بين الوكالة والشقة- ثمل خيالها بأحلام عراض. ووجدت حميدة واقفة وسط الحجرة تمشط شعرها، فتفحصتها بعينين ثاقبتين كأنها تراها لأول مرة، أو كأنها تعاین الأنثى التي خبلت رجلاً له وقار السيّد سليم علوان وسنه وثروته. ووجدت المرأة عاطفة تشبه الحسد. كانت تؤمن بلا شك بأن كل قرش يجلبه هذا الزواج المرتقب للفتاة سيكون لها

- قال إنه سيشتغل في الجيش، ليجمع ثروة، وسافر بعد أن قرأنا الفاتحة...

وازداد غضب السيّد لانزلاقه بغتة - مع الحلو- إلى مضمار واحد، وقال بحدة:  
- أيجسب هذا الأحمق أن الجيش نعيم يدوم! ولكتي أعجب لما جعلك تذكّرين هذه «الحكاية»!  
فقال المرأة معتذرة:

- لقد ذكرتها فجأة، هذا كل ما في الأمر. ما كنت نحلم بهذا الشرف الرفيع، ولذلك لم يكن لديّ حيلة في رفض يده! لا تؤاخذني يا سي السيّد. إن مثلك إذا طلب أمرًا. ما كنت نحلم بهذا الشرف الرفيع، فلا تؤاخذني. سأذهب الآن وأعود إليك في الحال: لا تغضب عليّ، لماذا غضبت هكذا؟  
وبسط السيّد وجهه. وذكر أنه غضب حقًا أكثر مما ينبغي، كأنما الحلو هو المعتدي لا المعتدى عليه. ولكتته قال:

- ألا يحقّ لي أن أغضب؟  
ثم توقّف بغتة كأنه تذكّر أمرًا أريد له وجهه وسألها منزعجًا:

- وهل وافقت الفتاة؟ أعني هل تريده؟

فقال المرأة بسرعة:

- لا شأن لابنتي بهذا الأمر! وما حدث لا يعدو أن جاءني الحلو يومًا مصحوبًا بعمّ كامل ثم قرأنا الفاتحة.  
فقال السيّد:

- غريب والله أمر هؤلاء الشبان! لا يكاد يجد الواحد منهم لقمته، ولكتته لا يجد بأسًا من أن يتزوج ويخلف ويترحم الحارة أولادًا يلتقطون رزقهم من الزبالة، لنس هذه الحكاية.

- نعم الرأي يا سي السيّد... سأذهب الآن، وسأعود دون إبطاء، وربنا المستعان.

ونهضت المرأة واقفة، وانحنت على يده مسلمة، ثم تناولت لفافة الخنّاء، وكان العامل قد وضعها على المكتب، ومضت إلى حال سبيلها...

ولبت السيّد متغيرًا، متجهّم الوجه، تنطق نظرة عينيه الحادة بالنزفة والغضب... أولى الخطى عثارا!

فأضاء وجه الفتاة نورًا، وغمغمت لا تدري من الدهشة والسرور:

- يا خبر أسود!

- يا خبر أبيض، يا خبر مثل اللبن والقشدة. لم أكن لأصدّق لولا أنّه حادثني بنفسه.

غرزت الفتاة المشط في شعرها، وهرعت إلى أمّها وارتمت إلى جانبها، وسألتها وهي تشدّ على كتفها:

- ماذا قال لك؟ خبّرني بكلّ ما قال، كلمة كلمة.

وانصتت إلى المرأة بانتباه عميق وهي تروي قصّتها.

وخفق قلبها خفقانًا متواصلًا، وتورد وجهها، وتألقت

عينها بشرًا وسرورًا. هذه هي الثروة التي تحلم بها، هذا هو الجاه الذي تهيم به. وإتّها من حبّ الجاه لفي

مرض، وإنّ الشغف بالقوّة لغريزة جائعة في باطنها،

فهل يتاح لها شفاء أو ارتواء إلاّ بالثروة؟ لم تكن تدري

دواء لهذا التشوّف الأليم يضطرم في أعماقها إلاّ الثراء

الكبير، فهو الجاه العريض، وهو القوّة الشاملة، وهو

بالتالي السعادة الكاملة. كانت في سرورها المبالغت

كمحارب أعزل عثرت يده بسلاح مصادفة في أشدّ

المواقف حرجًا. كانت كطائر مقصوص الجناحين يسفّ

في يأس وقتنوط على رغم محاولاته الفاشلة، ثمّ نبت له

ريش بمعجزة تدقّ على الأفهام. من محاولاته الفاشلة

تحليق يسمو به إلى قنن الجبال. وكانت أمّها تنظر إليها

بلحظ خفيّ فسألتها:

- ماذا ترين؟

لم تدري أمّ حميدة ماذا تقول، ولكتّها كانت مشمّرة

للمعارضة أيّا كان رأي الفتاة. فإذا قالت السيّد قالت

والحلو؟ وإذا قالت الحلو قالت أوّفقّرط في السيّد! أمّا

حميدة فقالت بإنكار شديد:

- ماذا أرى؟!!

- أجل ماذا ترين، فليس الأمر ممّا يسهل الفصل

فيه، أنسيت أنّك مخطوبة؟! . . . وأيّ قرأت الفاتحة مع

الحلو؟

فلاحت في عيني الفتاة نظرة حادة غشت جمالها،

وقالت في انزعاج وازدراء:

- الحلو!!

نصفه، وأنّ كلّ نعيم ستذوقه ستحظى هي بنصيبها

الموفور منه، ومع ذلك لم تخل من هذا الإحساس

الغريب الذي خالط سرورها وأطاعها! وقالت لنفسها

«أكان القدر حقًا يدخر هذه السعادة لهذه الفتاة التي لا

تعرف لنفسها أبًا ولا أمًّا» وتساءلت في عجب «ألم

يسمع السيّد صوتها المخيف وهي تزعق في وجوه

الجيران؟ ألم يشهد معركة من معاركها؟ يا ويل الرجال

من لحم النساء!» ثمّ قالت لها دون أن تحوّل عنها

عينها:

- مولودة في ليلة القدر والحسين!

فأمسكت حميدة عن تمشيط شعرها الأسود اللامع،

وسألتها ضاحكة:

- له؟ ماذا ورايك؟ هل من جديد؟!!

فخلعت المرأة ملاءتها وطرحتها على الكنبه، ثمّ

قالت بهدوء وهي تتفرّس وجهها لتمتحن أثر كلامها

فيه:

- عروس جديد!

فلاح في العينين السوداوين اهتمام ويقظة تخالطها

دهشة، وتساءلت الفتاة:

- أتقولين حقًا؟

- عروس كبير المقام، يتمنّع عن الأحلام يا بنت

الكلب. .

فخفق قلب حميدة بقوّة، وتألقت عيناها حتّى بدا

حورهما ساطعًا وتساءلت:

- من عساه يكون؟

- حمّني؟!!

فتساءلت الفتاة بلهفة وإن ساورتها الظنون:

- من؟

فقالت أمّ حميدة وهي تهزّ رأسها وترعش حاجبها:

- السيّد سليم علوان على «سنّ ورمح»!

فشدّت قبضتها على المشط حتّى كادت تنفذ أسنانه

في راحتها، وهتفت:

- سليم علوان صاحب الوكالة؟!!

- صاحب الوكالة، وصاحب الأموال التي لا يفنيها

المحيط!

## زقاق المنق ٧٠٣

والخلو من مجرد بنت إلى فتاة مخطوبة، فلم يعد في وسع أم حسين أن تمسك بسوالفها وتقول لها شامتة: «أحلق هذا لو خطبك إنسان». بيد أنها كانت تنام على فوهة بركان. ولم تذق بادئ الأمر الطمانينة الكاملة، ووجدت في النفس شيئاً يضطرب يرتاد متنفساً. حقاً لَوَّح عَبَّاسُ الخلو لطموحها العنيف ببعض الزاد، ولَكِنَّ الخلو نفسه ليس بالرجل الذي تريد، وقد حيرها أمره مذ أَوَّل لقاء. ولم تكن تدري كيف يكون رَجُلها على وجه التحقيق. وَلَكِنَّ الخلو لم يقبض على ملاك قلبها على آية حال. ومع ذلك فلم تستسلم لمخاوفها بغير مقاومة، فجعلت تقول لعلَّ المعاشرة تهَيِّئ لها حياة لم تكن تحلم بها قط. ثم لم تكف عن التفكير، والتفكير فضيلة ذات حدّين، فتساءلت ترى ما هذه السعادة التي يَمَنِّيها بها؟ ألا تكون مغالية في أحلامها؟ يقول الفتى إنه سيعود بثروة، وإنه سيفتح صالوناً في الموسكي، ولكن هل يضمن لها هذا حياة أرغد من حياتها الراهنة؟ وهل هذا حقاً ما تطمح إليه نفسها المجنونة؟؟ وضاعف هذا التفكير من حيرتها، وقوي شعورها بأنَّ الشاب ليس رجلها المرصوق، وباتت تدرك أنَّ نفورها منه أشدَّ من أن تلتطفه المعاشرة. ولكن ما عسى أن تفعل؟ ألم ترتبط به إلى الأبد. . . ربِّها، لماذا لم تتعلَّم حرفة كأولئك الفتيات من صوحيباتها؟ أمَّا لو كانت صاحبة حرفة لأمكنها أن تنتظر حتى تزوج كما تشاء، أو لما تزوجت على الإطلاق! وأخذت حماسها تفر، وشعورها يجمد، وعادت إلى ما كانت عليه قبل أن تهزَّها المقابلات وتغزَّها الآمال. هكذا كانت حين طلب السيّد سليم يدها، وهكذا نبذت خطيبها الأوَّل بغير تردّد، ولكن بعد أن كانت نبذته في قلبها منذ أمد طويل. . .

ولم يطل المطال بغياب الأم، فعادت من بيت السيّد رضوان بوجه تلوح فيه أمارات الجدِّ، وقالت وهي تخلع ملاءتها:

- لم يوافق السيّد أبداً. . .

ثم قصّت عليها ما دار بينها وبين السيّد رضوان، وكيف قال لها وهو بصدد المقارنة بين الرجلين إنَّ الخلو

وعجبت أمها لسرعتها الفائقة في البتِّ في مثل هذا الأمر الخطير، وكأنَّ الخلو لم يكن قط، وعساودها شعورها القديم بأنَّ ابنتها فتاة شاذة مخيفة، والحقَّ أنَّ المرأة لم يداخلها شكٌ جدِّي في النهاية المحتمومة، ولَكِنَّها كانت تريد أن تبلغها بعد لأي. . . كانت ترغب أن تتردّد الفتاة فتتطوِّع هي إلى إقناعها بالقبول، لا أن تلفظ اسم الخلو بمثل هذا الازدراء الغريب. واستدركت تقول بلهجة تنم عن الانتقاد:

- أجل الخلو، أنسيت أنه خطيبك؟! ترى كلاً لم تنس، ولكن سيان التذكُّر والنسيان، ترى هل تعترض أمها حقاً؟ وحدجتها بنظرة نافذة، فأيقنت أنها كاذبة في انتقادها، وهزّت منكبيها استهانة، وقالت باستخفاف واحتقار:

- ذبحة. . .

- ماذا يقول الناس عننا؟

- دعيهم يقولون ما بدا لهم. . .

- ساستشير السيّد رضوان الحسيني.

فجفلت الفتاة من هذا الاسم واعترضت قائلة:

- ما شأنه في أمر يخصني وحدي؟

- نحن أسرة لا رَجُل لها، فهو رجلنا. . .

ولم تطق المرأة انتظاراً فنهضت واففة، وتلقّعت بملاءتها، وغادرت الحجرة وهي تقول: «لأ سأشاوره وأعود ترواً». وشيئتها الفتاة بنظرة غيظ. ثم تنهت إلى أنها لم تتمَّ تمشيط شعرها، فمضت تمسّطه بحركات آليّة وعيناها شاخصتان إلى دنيا الأحلام الزاهرة. ثم نهضت دالفة من النافذة وجعلت تنظر خلال خصاصها إلى الوكالة الكبرى ساعة، وعادت إلى جلستها.

لم يكن تحوُّها عن عَبَّاس الخلو بغير تمهيد كما ظنّت أمها، أجل لقد حسبت حيناً أنها وصلت - راضية - أسبابها بأسبابه إلى الأبد، فمحتته شفتيها يقبلها بما أوتي من شغف وحب، وجاذبته حديث المستقبل كأنه مستقبلها معاً، ووعدته أن تزور الحسين لتدعو له، وزارته بالفعل ودعت له - ولم تكن تزوره إلا لتستعديه على عدوة عقب شجار - وانتظرت على أمل أن تظفر بهذه السعادة المرموقة، وفضلاً عن ذلك فقد رفعها

- الفاتحة ذنبها كبير.  
فصاحت باستهانة:  
- بلّيتها واشربي ماءها!  
فضربت المرأة صدرها وقالت:  
- آه يا بنت الثعبان!  
ولاحظت حميدة بوادر الإذعان تلوح في عيني أمها،  
فقالت ضاحكة:  
- تزوّجيه أنت..  
فضربت المرأة كفاً بكفت وهي تغالب الضحك، ثم  
قالت بسخرية:  
- من حقك أن تبغي صينيّة البسبوسة بصينيّة  
الفريك...  
فنظرت إليها بتحدّ وقالت بغیظ:  
- بل رفضت شاباً واخترت شيخاً...  
فضحكت أم حميدة ضحكة مجلجلة وتمتمت «الدهن  
في العتاقى»، وتربعت على الكنبه في سرور وقد تنامت  
معارضتها الكاذبة، واستخرجت سيجارة من علبة  
سجائرها وأشعلتها، وراحت تدخن بلذّة لم تشعر بمثلاها  
من زمن بعيد، فنظرت حميدة إليها بغیظ وقالت:  
- تالله لقد فرحت بالعروس الجديد أضعاف  
سروري، ولكتها المكابرة والمعاندة والرغبة في إغاظتي  
ساحك الله..  
فحدجتها أمها بنظرة عميقة، وقالت بلهجة ذات  
معنى:  
- إذا تزوّج رجل مثل السيّد سليم من فتاة، فهو في  
الواقع إنّما يتزوّج من أهلها جميعاً، كالنيل إذا فاض  
أغرق البلاد. أفهمت؟.. أم تحسبين أن تزفّي إلى  
قصرك الجديد وأبقى أنا هنا تحت رحمة الستّ سنيّة  
عفيفي وأمثالها من المحسنين؟!..  
قهقهت حميدة وقد بدأت تضفر شعرها، وقالت  
بكبرياء مصطنع:  
- تحت رحمة الستّ سنيّة عفيفي، والستّ حميدة  
هانم...  
- طبعاً... طبعاً يا لقيطة الطوار، يا بنسة  
المجهول...  
شابّ والسيّد سليم شيخ، وإنّ الخلو من طبقتها  
والسيّد من طبقة أخرى، وإنّ زواج رجل كالسيّد من  
فتاة مثل ابنتها لا بدّ محدث متاعب ومشكلات لا يبعد  
أن يصيب الفتاة بعض من رشاشها، وكيف ختم  
حديثه بقوله «الخلو شابّ طيب وقد هاجر في سبيل  
الرزق طامحاً لهذا الزواج، فهو رجُلها المفضل، وما  
عليك إلا أن تنتظري فإذا عاد خائباً لا قدر الله كان  
من حقك بلا جدال أن تزوّجيه بمن تختارين».  
وأصغت الفتاة إليها والشرر يتطاير من عينيها، ثم  
صاحت بصوت جافّ فضح الغضب قبحه:  
- السيّد رضوان وليّ من أولياء الله، أو هذا ما يجب  
أن يتظاهر به أمام الناس، فإذا قال رأياً لم يبال  
مصلحة الناس في سبيل اكتساب الأولياء أمثاله،  
فسعادتي لا تهتمّ في كثير أو قليل، ولعلّه تأثر بقراءة  
الفاتحة كما ينبغي لرجل يرسل لحيته مترين، فلا تسألني  
السيّد عن زواجي وسليه إن شئت عن تفسير آية أو  
سورة...! أنا والله لو كان طيباً كما تزعمون لما رزاه  
الله في أبنائه جميعاً..!  
وارتاعت المرأة، وقالت لها بإنكار وألم:  
- أهذا كلام يقال عن أكرم الناس وأفضلهم؟  
فصاحت الفتاة بحدّة وقد أنذرت حالتها بشرّ  
مستطير:  
- هو فاضل إن أردت، ووليّ من أولياء الله إن  
شئت، ونبيّ أيضاً إن أحببت، ولكنّه لن يقف حجر  
عثرة في سبيل سعادتي..  
وتألّت المرأة للإهانة التي لحقت السيّد، لا دفاعاً  
عن رأيه الذي كانت لا توافق عليه في باطنها، ومع  
ذلك قالت مدفوعة برغبة في إغائة الفتاة والانتقام من  
سوء خلقها:  
- ولكنك مخطوبة..  
فضحكت حميدة ساخرة وقالت:  
- إنّ الفتاة حرّة حتّى يعقد عليها، وليس بيننا وبينه  
إلا كلام وصينيّة بسبوسة..!  
- والفاتحة؟  
- المسامح كريم...  
- الفاتحة ذنبها كبير.  
فصاحت باستهانة:  
- بلّيتها واشربي ماءها!  
فضربت المرأة صدرها وقالت:  
- آه يا بنت الثعبان!  
ولاحظت حميدة بوادر الإذعان تلوح في عيني أمها،  
فقالت ضاحكة:  
- تزوّجيه أنت..  
فضربت المرأة كفاً بكفت وهي تغالب الضحك، ثم  
قالت بسخرية:  
- من حقك أن تبغي صينيّة البسبوسة بصينيّة  
الفريك...  
فنظرت إليها بتحدّ وقالت بغیظ:  
- بل رفضت شاباً واخترت شيخاً...  
فضحكت أم حميدة ضحكة مجلجلة وتمتمت «الدهن  
في العتاقى»، وتربعت على الكنبه في سرور وقد تنامت  
معارضتها الكاذبة، واستخرجت سيجارة من علبة  
سجائرها وأشعلتها، وراحت تدخن بلذّة لم تشعر بمثلاها  
من زمن بعيد، فنظرت حميدة إليها بغیظ وقالت:  
- تالله لقد فرحت بالعروس الجديد أضعاف  
سروري، ولكتها المكابرة والمعاندة والرغبة في إغاظتي  
ساحك الله..  
فحدجتها أمها بنظرة عميقة، وقالت بلهجة ذات  
معنى:  
- إذا تزوّج رجل مثل السيّد سليم من فتاة، فهو في  
الواقع إنّما يتزوّج من أهلها جميعاً، كالنيل إذا فاض  
أغرق البلاد. أفهمت؟.. أم تحسبين أن تزفّي إلى  
قصرك الجديد وأبقى أنا هنا تحت رحمة الستّ سنيّة  
عفيفي وأمثالها من المحسنين؟!..  
قهقهت حميدة وقد بدأت تضفر شعرها، وقالت  
بكبرياء مصطنع:  
- تحت رحمة الستّ سنيّة عفيفي، والستّ حميدة  
هانم...  
- طبعاً... طبعاً يا لقيطة الطوار، يا بنسة  
المجهول...

## زقاق المدق ٧٠٥

وقد توقع يوماً صاحباً مرهقاً. ومضى السرادق يتكوّن جزءاً جزءاً، فنصبت الأعمدة، ووُصلت بالطنب ومُدت عليها الستائر، وفُرشت الأرض بالرمل، وضُفّت المقاعد على جانبي ممر ضيق يفضي إلى مسرح أقيم في الداخل عالياً، ورُكبت مكبرات الصوت على مفارق الطريق بين الحسين والغورية، وأجل من هذا كله أن تُرك مدخل السرادق بلا حاجز من ستار أو ظلّة مما يبرّس أهل المدق بأنهم سيشاركون في الحفلة من منازلهم، وفي أعلى المسرح عُلفت صورة كبرى لرئيس الحكومة، وألصقت بها من تحت صورة المرشّح فرحات الذي تعرفه أكثرية أهل الحيّ لأنه كان تاجراً بالنحاسين. ودار فتیان بإعلانات وجعلوا يلصقونها بالجدران وقد سَطّر عليها بألوان زاهية:

انتخبوا نائبكم الحرّ إبراهيم فرحات

على مبادئ سعد الأصليّة

زهق عهد الظلم والعري

وجاء عهد العدل والكساء

وأرادوا أن يلصقوا إعلاناً بدكّان عمّ كامل، ولكنّ الرجل الذي ترك غياب عبّاس الحلو في نفسه أسوأ الأثر تصدّى لهم ساخطاً وهو يقول:

- ليس هنا يا أولاد الحلال، هذا شؤم يقطع الرزق..

فقال له أحدهم ضاحكاً:

- بل تجلب الرزق. وإذا رأها حضرة المرشّح اليوم ابتاع بسبوستك بالجملة، وأعطاك الثمن مضاعفاً وعليه قبلة.

وانتهى العمل عند منتصف النهار، وعاود المكان هدوءه المعهود، واستمرّ هذا حتّى العصر حين جاء السيّد إبراهيم فرحات في هالة من حاشيته لبعائين الأمور بنفسه، وكان الرجل لا يقبض يده عن الإنفاق، إلّا أنّه كان كذلك تاجرًا لا يفوته الاطلاع على دقائق ميزانيته حتّى لا يجوز عليه ما لا ينبغي أن يجوز. وقد تقدّم القوم بجسمه البدين القصير، يرفل في جبّته وقفطانه، ويقلّب فيها حوله وجهها أسمر كرويًا ذا عينين ساذجتين. كانت مشيته تنمّ عن الزهو

فاسترسلت الفتاة في ضحكها وقالت:  
- مجهول مجهول.. كم من أب معروف لا يساوي شيئاً..

\*\*\*

وعند ضحى الغد ذهبت أمّ حميدة إلى الوكالة سعيدة رخيّة البال، لتقرأ الفاتحة مرّة أخرى. ولكنّها لم تجد السيّد سليم بمجلسه المعهود، واستعلمت عنه، فقيل لها إنّه تخلف عن الحضور اليوم، فرجعت إلى البيت غير مرتاحة وقد تولّاهما الجزع، ولتّما أن انتصف النهار ذاع نبأ في الزقاق بأنّ السيّد سليم علوان أصيب ليلة أمس بذبحة صدرية، وأنّه في فراشه بين الحياة والموت! وقد عمّ الأسف الزقاق كله، أمّا بيت أمّ حميدة فقد سقط عليه النبا كالصاعقة..

- ١٩ -

واستيقظ الزقاق ذات صباح على صخب وضوضاء. ورأى أهله رجالاً يقيمون سرادقاً على أرض خراب بالصنادقيّة فيما يواجه زقاق المدق. وانزعج عمّ كامل وظنّه سرادق ميت فهتف بصوته الرفيع «إنّا لله وإنّا إليه راجعون، يا فتّاح يا عليم يا ربّ» ونادى غلاماً من عرض الطريق وسأله عن شخص المتوقّف، ولكنّ الغلام قال له ضاحكاً:

- ليس السرادق ميت، ولكنّها حفلة انتخابيّة!

فهزّ عمّ كامل رأسه وغمغم «سعد وعدلي مرّة أخرى!» وكان الرجل لا يدري شيئاً على الإطلاق عن عالم السياسة، إن هو إلّا اسم أو اسمان يحفظهما دون أن يفقه لهما معنى. أجل إنّهُ يعلّق في صدر محلّه صورة كبرى لمصطفى النحاس. ولكن كان ذلك لأنّ عبّاس الحلو ابتاع يوماً صورتين للزعيم ثبت إحداهما في الصالون وأهدى الأخرى لصاحبه، ولم ير الرجل في تثبيتها بدكّانه من بأس، خصوصاً وأنّه يعلم أنّ هذه الصورة وأمثالها من تقاليد الدكاكين؟ ففي دكّان الطعميّة بالصنادقيّة صورتان لسعد زغلول ومصطفى النحاس وفي قهوة كرشة صورة للخديوي عبّاس. وراح الرجل يرمق العمّال العاكفين على عملهم بإنكار

- نحن جميعاً أبناء حيّ واحد، وكلنا إخوان..!

والحقّ أنّ السيّد فرحات جاء القهوة خصيصاً لاسترضاء المعلّم كرشة، ذلك أنّه كان قد استدعاه قبل ذلك بأيّام ليستميله إلى جانبه فيضمن صوته وأصوات من يلوذ به من المعلّمين وعمّالهم، وقدم له خمسة عشر جنيهاً مقدّم أتعاب ولكنّ المعلّم كرشة أبى أن يمّسها محتجاً بأنّه ليس دون الفوّال - صاحب قهوة الدراسة والذي ذاع أنّه أخذ عشرين جنيهاً - منزلة، وما زال به حتّى حمله على قبول المبلغ واعداً إيّاه بالمزيد. ثمّ افترقا والسيّد مشفق من انقلاب المعلّم عليه: والواقع أنّ المعلّم كرشة لم يخلُ من غضب على «محدث السياسة» هذا على حدّ قوله، وأضمر له شرّ النوايا إذا هو لم يبادر إلى إصلاح خطئه. وكان المعلّم كرشة يتيقظ - على غلبة الدهول عليه - في المواسم السياسيّة. وقد اكتسب في شبابه شهرة في عالم السياسة تضارع ما اشتهر به بعد ذلك في الأمور الأخرى! فاشترك في ثورة سنة ١٩١٩ اشتراكاً فعلياً عنيفاً، وقد نسب إليه الحريق الكبير الذي التهم الشركة التجاريّة اليهوديّة للسجاير بميدان الحسين، وكان من أبطال المعارك العنيفة التي دارت بين الثوّار من ناحية وبين الأرمن واليهود من ناحية أخرى. ولمّا أن خمدت الثورة الدمويّة وجد فيها جدّ من معارك انتخابيّة ميداناً جديداً على ضيقه لنشاطه وحماسه، فبذل في انتخابات سنة ١٩٢٤ جهداً مشكوراً، وصمد ببطولة لمخربات انتخابات سنة ١٩٢٥ - ولو أنّه قيل وقتذاك أنّه قبل رشوة مرشّح الحكومة ولكنّه أعطى صوته لمرشّح الوفد - وأراد أن يلعب الدور نفسه في انتخابات صدقي - فيأخذ النقود ويقاطع الانتخابات - ولكنّ عيون الحكومة راقبتّه يوم المعركة، وحملته مع غيره في لوري إلى مركز الانتخاب فخرج على إرادة الوفد مرغماً لأوّل مرّة. وكان عام ١٩٣٦ آخر عهده بالسياسة، فطلّقها بعد ذلك وتزوّج التجارة، ورصد الانتخابات فيما تلا ذلك من عهود كما يرصد الأسواق النافقة، وانقلب نصيراً لمن «يدفع أكثر». وجعل يعتذر عن مروقه بما طرأ على الحياة السياسيّة من فساد، قائلاً أنّه

والثقة، وعينه تنطقان بالطيبة والسذاجة، ومظهره عامّة يشي بأنّ بطنه أهمّ كثيراً من رأسه. وقد أحدث ظهوره اهتماماً كبيراً في الزقاق وما يحيط به لا لأنهم اعتبروه عروس الليلة، وأملاوا من وراء «زفته» خيراً كثيراً، خصوصاً وأنهم لم يفيقوا بعد من الصدمة التي دهمتهم في الانتخابات السابقة بفوز مرشّح الدائرة بالتركيّة! ثمّ جاءت على أثره جماعات من الغلمان تسير وراء أفنديّ مرّدة هتافات عالية، كان يصيح بصوت كالرعد «من نائبا؟». فيجيبونه بصوت واحد «إبراهيم فرحات» فيهتف ثانياً «من ابن الدائرة؟» فيهتفون «إبراهيم فرحات» وهكذا، وهكذا، حتّى امتلأ بهم الطريق، وتسرب منهم كثيرون إلى السرادق. وجعل المرشّح يرّد الهتافات برفع يديه إلى رأسه، ثمّ اتّجه نحو الزقاق تتبعه بطانته وجلّها من رافعي الأثقال بنادي الدراسة الرياضي. واقترب من الحلاق العجوز الذي حلّ محلّ الحلو ومدّ له يده وهو يقول «السلام عليك يا أخا العرب». فانحنى الرجل على يده في استحياء وترحيب، وتحولّ عنه إلى عمّ كامل قائلاً: «لا تتجسّم مشقة النهوض، حلقتك بالحسين إلّا ما لزمته مكانك. كيف حالك.. الله أكبر.. الله أكبر، هذه بسبوسة فريدة، وسيعرف الناس جميعاً قدرها هذه الليلة». وتقدّم مسلماً على كلّ من لاقاه، حتّى انتهى إلى قهوة كرشة، فحيا المعلّم، وجلس ودعا رفاقه للجلوس، واستبق إلى القهوة كثيرون حتّى جعدة الفران وزبيطة صانع العاهات. وردّد المرشّح نظره بين الحاضرين في سرور، ثمّ قال مخاطباً المعلّم كرشة:

- قدّم الشاي للجميع..

وابتسم تحيةً لكلمات الشكر التي تناثرت عليه من كلّ حذب وصوب ثمّ التفت صوب المعلّم قائلاً:

- أرجو أن تقوم القهوة بتقديم ما يحتاجه السرادق

من الطلبات..

- فقال المعلّم كرشة بشيء من الفتور:

- نحن في الخدمة يا سيّ سيّد..

ولم يغب عن المرشّح فتوره، فقال برقة:



## زقاق المدقّ ٧٠٧

فتعالت الأصوات في وقت واحد تقول:  
 - معاذ الله يا سيّد فرحات. أنت ابن خطننا .  
 فابتسم الرجل مطمئنًا وأنشأ يقول:  
 - إني كما تعلمون مستقلّ، ولكنّي أستظلّ بمبادئ  
 سعد الحقيقيّة. وماذا أفدنا من الأحزاب؟ ألا تسمعون  
 مهاتراتهم؟ إنهم مثل (كاد يقول أبناء الحوارى، ثمّ  
 ذكر أنّه يخاطب بعضًا من هؤلاء الأبناء فتدارك نفسه  
 قائلاً): دعونا من ضُرب الأمثال. لقد اخترت  
 الاستقلال عن الأحزاب حتّى لا يمنعني مانع من قول  
 الحقّ، ولن أكون عبداً لوزير أو زعيم، وسأذكر في  
 البرلمان إذا وفّقنا الله للنجاح أنّي إنّما أتكلّم باسم أبناء  
 المدقّ والغوريّة والصنادقيّة. ولقد ولى عهد الثرثرة  
 والنفاق، وهاكم عهداً يشغله شيء عن أموركم  
 العاجلة، كزيادة الأقمشة الشعبيّة والسكر،  
 والكبروسين، والزيت، وعدم خلط الرغيف،  
 وتخفيض أسعار اللحوم... .  
 وسأله سائل باهتمام شديد:  
 - هل حقّاً تتوقّر هذه الضروريات غداً؟  
 فقال الرجل بثقة ويقين:  
 - بغير جدال. وهذا سرّ الانقلاب الحاضر. كنت  
 أمس أزور رئيس الحكومة (ثمّ ذكر أنّه قال إنّهُ مستقلّ  
 فاستدرك قائلاً) وهو يستقبل المرشّحين على اختلاف  
 ألوانهم، فأكد لنا أنّ عهده هو عهد الكساء والغذاء.  
 وازدرد ريقه، ثمّ استطرد:  
 - سترون العجب العجاب. ولا تنسوا الحلوان إذا  
 فزت في الانتخابات.  
 فسأل الدكتور بوشي:  
 - الحلوان بعد ظهور النتيجة؟  
 فالتفت السيّد نحوه وقال وقد داخله شيء من  
 القلق:  
 - وقبل ظهور النتيجة أيضاً.  
 فخرج الشيخ درويش من ذهوله وصمته وقال:  
 - كالصداق له مقدّم ومؤخّر. إلّا أنت يا ستّ  
 السّتات فلا صداق لك، لأنّ حبّك روحي من السماء.  
 فتحوّل السيّد إلى الشيخ منزعجاً، ولكنّه سرعان ما

إذا كان المال غاية المتنازدين في ميدان الحكم فلا ضير  
 أن يكون كذلك غاية الناخبين المساكين! وفضلاً عن  
 هذا وذاك فقد لحقه الفساد هو نفسه، وغلبه الدهول،  
 وركبته الشهوات، ولم يبق في روحه من الثورات  
 القديمة إلّا ذكرى غامضة ربّما كَرَّ إليها الخيال فأشاد بها  
 متباهياً في بعض ساعات الصفاء حول المجرمة، ولكنّه  
 نبذ في قلبه جميع قيم الحياة الشريفة، ولم يعد يعبا شيئاً  
 من بعد ذلك إلّا «الكيف» و«الهوى»، وما عدا ذلك  
 «اردم» على حدّ قوله. لم يعد يكره أحدًا، لا اليهود ولا  
 الأرمن ولا الإنجليز أنفسهم. ولم يعد يحبّ أحدًا  
 كذلك، ولذلك كان من العجيب حقّاً أن تدبّ فيه  
 حماسة مفاجئة في هذه الحرب فيتعصّب للألمان، وأن  
 يتساءل - في هذه الأيام خاصّة - عن موقف هتلر،  
 أحقيقة قد أصبح مهذّبًا، وألّا يجمل بالروس أن  
 يسارعوا شاكرين لقبول ما يعرض عليهم من صلح  
 منفرد؟! ولكنّ إعجابه بهتلر كان يتعقد حول ما يذيع  
 عن بأسه وبطشه ليس إلّا، فكان يعدّه شيخ فتوّات  
 الدنيا، ويتمنّى له النصر كما تمنّاه طويلاً لعنّته وأبي  
 زيد. بيد أنّه ظلّ محافظًا على خطره في ميدان  
 الانتخابات، لأنّه كان زعيم العلّمين الذين يتحلّقون  
 مجمرته كلّ ليلة ومنّ يتبعهم من فعلة وصبيان  
 وبطانات، ولذلك حرص السيّد إبراهيم فرحات على  
 استرضائه، ونزل عن ساعة طويلة من وقته الثمين  
 يقطعها في قهوته متودّدًا مستعطفًا.  
 وكان يسرق إليه النظر، فمال على أذنه وسأله  
 بصوت خافت:  
 - أراض أنت يا معلّم؟  
 فتدلّت شفّته عن ابتسامة، وقال في شيء من  
 التحفّظ:  
 - الحمد لله، أنت الخير والبركة يا سي السيّد...  
 فهمس في أذنه:  
 - سأعوّضك عمّا فاتك خيرًا كثيرًا...  
 وانبسّطت أساريره وهو يقلّب عينيه في وجوه  
 الحاضرين، ثمّ قال برقة ورجاء:  
 - إن شاء الله لن نخبّوا لنا أملاً... .

أقوى من جميع المكيفات، يسري في العروق كالتيار الكهربائي، اطلب علبة عيئة من موزع الإعلان، الثمن ٣٠ مليمًا يا بلاش.

سعادتك بـ ٣٠ مليمًا، والمحّل مستعدّ للاستماع للملاحظات الجمهور.

وضّح المكان بالضحك مرّة أخرى، وارتبك المرشّح قليلاً، وتطوّع أحد بطانته بالتسرية عنه فصاح:  
- هذا فال حسن.

ثمّ مال على أذنه وهمس قائلاً:

- هلمّ بنا، أماننا أحياء وأحياء.

فنهض الرجل وهو يقول:

- نستودعكم الله، إلى لقاء قريب إن شاء الله، اللهمّ حقّق الآمال.

وحدج الشيخ درويش بنظرة رقيقة وقال له وهو يهيم بمغادرة القهوة:

- يا سيّدنا الشيخ ادعُ لي.

فخرج الشيخ درويش عن صمته قائلاً وقد بسط ذراعيه:

- الله يخرب بيتك..!

وما آذنت الشمس بالمغيب حتّى كان السرادق قد ضاق عن القاصدين وتناقل الحاضرون أنّ سياسياً كبيراً سيلقي خطاباً هاماً. وذاع أنّ شعراء وزجالين سيتبارون على المسرح. ولم يطل الانتظار فارتقى المسرح قارئ وتلا ما تيسّر من الذكر الحكيم. وأعقبته فرقة موسيقية من شيوخ مهذّمين مهلهلي الثياب فعزفوا النشيد الوطني، وكان لإذاعة المكبرات لموسيقاهم أثر واضح في دعوة الغلمان والصبية من الأزقة والحواري حتّى سدّوا الصناديق سداً. وتعالى الهتاف والضوضاء. وانتهى النشيد دون أن يرح رجال الفرقة أماكنهم، حتّى ظنّ أنّ الخطباء سيلقون خطبهم على أنغام الموسيقى. ثمّ كانت المفاجأة السارة إذ دقّ بعضهم أرض المسرح حتّى شمل الصمت الجمع المحتشد، ثمّ بدأ مونولوجت معروف في لباسه البلديّ، فما كادت تراه الأعين المحدّقة حتّى جنّ جنونهم فرحاً وسروراً، وراحوا يهلّلون ويصفّقون، وقال المونولوجت وتفتّن.

أدرك حين وقع بصره على زيه - الجلباب ورباط الرقبة والنظارة الذهبية - أنّه من أولياء الله الصالحين. فارتسمت ابتسامة على وجهه الكرويّ وقال برقة:

- أهلاً وسهلاً بسيّدنا الشيخ..

ولكنّ الشيخ درويش لم يجبه بكلمة واستغرق في ذهوله. ثمّ انبرى أحد تابعي المرشّح قائلاً:

- لكم ما تريدون، ولنا القسم بكتاب الله، وبالطلاق..

فقال أكثر من صوت:

- وجب...

وأخذ السيّد فرحات يسأل الحاضرين عن تذاكرهم الانتخابية، ولما أن سأل عمّ كامل أجابه:

- ليس لي تذكرة، ولم أشارك في أيّ انتخاب على الإطلاق..

فسأله المرشّح:

- ابن مسقط رأسك؟

فقال بغير مبالاة:

- لا أدري...

وضّح الجلوس بالضحك، وشاركهم السيّد فرحات، ولكنّه غمغم دون يأس:

- سأسوي هذه المسألة البسيطة مع شيخ الحارة.

وجاء فتى بجلباب، حاملاً مجموعة من الإعلانات الصغيرة، فانتهاز فرصة امتلاء القهوة بالجلوس وراح يفرّق فيهم إعلاناته، وظنّ كثيرون أنّها إعلانات انتخابية، فأقبلوا عليها باحتفاء مجاملة للسيّد المرشّح، وتناول السيّد فرحات إعلاناً وقرأه فإذا فيه:

حياتك الزوجية ينقصها شيء.

عليك باستعمال عنبر السنطوري.

عنبر السنطوري

مركب بطريقة علمية خالية من المواد السامة محلّل بمعرفة وزارة الصحة رقم ١٢٨ وهو منعش ومفرش ويعيدك من الشيخوخة إلى الصبا في خمسين دقيقة.

طريقة الاستعمال:

خذ منه قدر القمحة على كباية شاي حلو كثير، فتجد عندك النشاط. ومقدار ربع الحقّ دفعة واحدة

## زقاق المدقّ ٧٠٩

تنعم باستغراقها الأوّل، وظلّ شعورها منتبهاً إلى العينين العارمتين، وجعلت حدقتها تملان ناحية اليسار، وساورها شكّ وقلق، فالتفت مرّة أخرى فالتفت بالعينين تفرّسان فيها بالفحة نفسها، وقد تمّتا - إلى ذلك - عن ابتسامه غريبة. ولم تتمالك نفسها فأعدت رأسها إلى موضعه الأوّل في شيء من الحدة وقد ملأها الحنق. أحققتها هذه الابتسامه الغريبة لأنها أفصحت عن ثقة وتحذّ لا حدّ لها، فهيجت موضع الالتهاب والانفجار من نفسها الشرسة المتفجّرة، وشعرت برغبة جامحة أن تنشب أظافرها في شيء ما، في رقبته لو أمكن مثلاً! وصمّمت على أن تهمله على نفورها من هذه الطريقة السليبيّة في العراك، وإن ظلّ شعورها قوياً بعينيه الوقحتين! ونغص عليها سرورها، وركبتها روح الشرّ التي تلبّسها بسرعة جنونيّة. وكأنّ صاحب العينين لم يقنع بما فعل، أو كأنه لا يبالي هذه النار التي شبّها، فراح يشقّ طريقه إلى موضع في طريق بصرها الشاخص إلى السراق متعمّداً بلا شكّ أن يعترض سيلها، ووقف هناك مولياً إيّاها ظهره. كان طويل القامة، نحيفاً عريض المنكين، حاسر الرأس، غزير الشعر، مرتدياً بدلة ذات لون ضارب للاخضرار، متأنّقا في ملبسه ومظهره، فلاح غريباً في هذا الوسط الذي يكتنفه، وسرعان ما أنستها الدهشة ما تروّلاها من حنق وتوحّش. هذا أفندي وجيه، وأين من زقاقها الأفنديّة؟! ترى هل يعاود النظر وسط هذا الزحام...

ولكن لم يكن شيء ليردعه فما عتمّ أن التفت وراءه مرسلًا نحوها نظراً عارماً. وكان وجهه نحيلاً مستطيلاً، لوزي العينين، كثيف الحاجبين، تنطق نظرة عينيه بالحدق والفحة. ولم يكتف بهذا التفرّس على الملال فصوّب فيها نظره، وصعد من شبّتها المنجرد إلى شعرها، حتّى انساق وهي لا تدري إلى النظر إلى عينيه كأنما لتسر بما تركه تفحصه من أثر، فالتفت عيناها، ولاحت في عينيه هذه النظرة المثيرة الوقحة الواشيه بما يتبه به من ثقة وتحذّ وظفر، فتناست دهشتها، وعاودها الحنق والغبط والرغبة في العراك،

ورقصت امرأة شبه عارية وهي تهتف المرّة تلو المرّة: «السيد إبراهيم فرحات.. ألف مرّة.. ألف مرّة». وجعل الرجل المشرف على المكبرات يصيح في المدياع (السيد إبراهيم فرحات أحسن نائب. ميكروفون بهلول أحسن ميكروفون). واتّصل الغناء بالرقص والهاثاف، وانقلب الحيّ جميعاً إلى مولد.

ولما عادت حميدة من مشوارها المعهود وجدت الحفلة في إيّان ازدهارها وسرورها. وكانت تظنّ كأهل الزقاق كافة أنّها ستكون حفلة هتاف وخطب (بالنحو) على حدّ تعبيرهم. وما إن رأت المنظر البهيج حتّى شملها السرور وتلّفتت بمئة ويسرة باحثة عن مكان تشاهد منه حفلة الطرب والرقص التي نادراً ما ترى مثلها في حياتها. ومضت تشقّ طريقها بصعوبة بين الغلمان والبنات حتّى بلغت مدخل المدقّ، واقتربت من جدار الصالون، وارقت حجراً منغرساً لصق الحائط، وتطلّعت باهتمام وسرور إلى السراق.

كان الغلمان والبنات يكتنّفنها من كلّ جانب، ووقفت نسوة كثيرات يقبضن على أيدي أطفالهنّ أو يحملنهم على أكتافهنّ. واختلط الغناء بالهاثاف بالحديث بالصياح بالضحك بالعويل. واستولى المنظر الخلاب على لبّها فانجذبت روحها إليه، والتمع السرور في عينها الغاتنتين، وفهما المفترّ عن ابتسامه لؤلؤيّة. وكانت متلّفة بملاءتها فلا يبذو منها إلّا وجهها البرنزيّ، وأسفل ساقها، وما انحسر عنه طرف الملاءة من مضمّ شعرها الفاحم. ورقص قلبها سروراً، وتنبّت حواسّها جميعاً، وجرى دمها حارّاً دافقاً، سرّها المونولوجست سروراً لم تشعر بمثله من قبل، حتّى شعورها المرّ القارص نحو الراقصة لم يستطع أن يفسده عليها. وظلّت مستغرقة في ما ترى غير ملقية بالأل إلى هبوط الظلام حتّى أحسّت شيئاً ما يجذب عينها نحو اليسار، كأنه نداء يدعو حواسّها إليه، أو ذلك الشعور الذي يقلقنا إذا أحدقت فينا عينان ولبّته على رغبتها فتحوّلت عن المونولوجست عاطفة رأسها إلى يسارها فالتفت عيناها بعينين تفرّسان فيها بقوة وقحة! ولبنا مقدار ثانية ثمّ عادتا إلى هدفها، ولكنّها لم تستطع أن

وجدت في هاتين العينين ما لم تجد عند أحد من قبل، وقراءتها بوضوح على ضوء نفسها الغاضبة المتعطشة للعراك. وبدا الرجل وكأنّ شيئاً لا يمكن أن يقفه عند حدّ فتحرك مصعّداً في الزقاق بقدمين ثابتين حتّى خيل إليها أنّه قادم إلى البيت. ثمّ مال إلى قهوة كرشة، واختار مجلساً ما بين المعلّم كرشة وأريكة الشيخ درويش حيث كان يجلس عبّاس الحلوي في الآيام الخوالي مستطعاً إلى شبحها وراء الخصاص. خطا بجلوسه هذه خطوة جريئة. ولكنّها لم تتراجع، لبثت بموقفها مرسلّة عينها إلى المسرح وإن كانت لا تكاد تدري بما يدور عليه، شاعرة بصره يصوّب نحوها من آونة لأخرى في ومضات متقطّعة كالكشف الكهربيّ... ولم يفارق الرجل مكانه حتّى انتهت الحفلة وأغلقت النافذة.

وما انفكّت حميدة تذكر هذه الليلة فيما أعقب ذلك من ليالي وعهود...

- ٢٠ -

ولم ينقطع بعد تلك الليلة عن زقاق المدقّ، فكان يجيء عند العصر ويتخذ مجلسه المختار، ويقطع وقته بتدخين النارجيلة واحتساء الشاي. وقد أحدث ظهوره الطارئ - بوجاهته وأناقته - دهشة في القهوة، ولكن سرعان ما سحبت العادة عليها ذبول الإهمال، فليس من الخوارق أن يقصد أفندي مثله قهوة مفتوحة لكل طارق. بيد أنّه أتعب المعلّم كرشة بما كان يقدم عند الحساب من أوراق نقدية ضخمة لا تقبل في كثير من الأحيان عن الجنيه، كما أنّه أسر سنقر بما كان ينفحه من بقشيش لا عهد له به من قبل. وراقبت حميدة مجيئه يوماً بعد يوم بعين متفتّحة ونفس متوتّبة. ولكنّها أحجمت بادئ الأمر عن خروجها إلى فسحتها اليومية لرقّة ثيابها وتفاهتها، حتّى ضاقت بالبيت ضيقاً شديداً. ثمّ أغضبها إحجامها وعدّته نوعاً من الجبن لا يسيغه طبعها الجريء، وعزّ عليها أن يقضي مخلوق عليها بالتزام شيء تستكرهه، فنشبت معركة جديدة في صدرها الذي لا يستریح من المعارك. وقد رأته

فغلا دماها غلياناً، وهمت أن تشتمه علانية. همت أكثر من مرّة، ولكنّها لم تفعل، وتولّاهما قلق وانفعال وضائق بوقفتهما، فنزلت عن الحجر، ومرقت إلى الزقاق مندفعة على عجل، فقطعته في ثوان. وعندما اجتازت عتبة البيت شعرت برغبة في الالتفات إلى وراء، ولكنّه تمثّل لعينها في وقفته مرسلّاً عينه في وقاحة وثقة وقد ازدادت ابتسامته افتضاحاً، فرغبت عن رغبتها، وارتقت السلم متعجّلة حانقة تلوم نفسها على تساهلها معه وتفريطها في تأديبه. وأتمّجت نحو حجرة النوم وخلعت ملاءتها، ثمّ دلفت من النافذة المغلقة، ونظرت إلى الطريق من خلال خصاصها، وبحثت عنها عن ضالتها حتّى استقرّتا عليه عند مدخل الزقاق، وكان يرمق النوافذ المطلّة على الزقاق باهتمام وقد فارقت عينه ابتسامة الثقة والتحدّي وحلّ محلّها احتفال وتطلّع. وسرها مظهره الجديد فانفتحت حنقها، ولبثت بموقفها تستلذّ حيرته، وتنتقم لغيظها وحنقها. أفندي وجيه ما في ذلك من شكّ، وغير السابقين بلا جدال، وقد أعجبهت وإلاً ففيم هذا الاهتمام الشديد. وأمّا نظرة عينه فقاتلها الله من نظرة تستوجب أعنف عراك!.. ففيم هذه الثقة التي لا حدّ لها؟ أيحسب نفسه بطل الأبطال أو أمير الأمراء؟ وخالط ارتياحها حنق، ووجدت رغبة غامضة إلى العنف والتحدّي. ولكنّه بدأ ييأس من النوافذ، وأعياه البحث عنها، وخافت أن ينصرف عن تطلّعه ويغيب في الزحام. وتردّدت لحظة، ثمّ أدارت الأكرة، وفرّجت ما بين مصراع النافذة عن زيق ووقفت وراءه كأنما لتشاهد الحفلة. كان مولياً الزقاق ظهره، ولكنّها كانت مطمئنة إلى أنّه سيعاود البحث والفحص والاستقصاء. وقد فعل، فتلفّت رأسه مرّة أخرى وتردّد بين النوافذ، حتّى علق بالزيق فأضاءت صفحة وجهه، ولبث لحظات كالرتاب، ثمّ.. ثمّ ارتسمت على شفّته الابتسامة الوقحة، وردّ إليه مظهر التيه والخيلاء بأفطع مما كان وأدركت أنّها انزلت إلى خطأ لا يُغتفر بظهورها وثار تائرها واستولى عليها الحنق والغیظ، ووجدت في ابتسامته تحدّيًا يدعوها للنزال!

## زقاق المدق ٧١١

من الرجال. القوّة والمال والعراك! ولم تكن تدرك مشاعرها بوضوح وجلاء، أو تدري حاجات نفسها المتتوية، فتحترت بين انجذابها إليه، وبين رغبتها المضطربة في الأخذ بتلابيبه، ثم وجدت في الانطلاق مهرباً من سجنها وحيرتها معاً، وفي فسحة الطريق مجالاً تسبر فيه نفسها وغرائزها. في الطريق يجوز أن يتعرّض لها، فتتاح لها فرصة أن تتحدّاه كما تحدّاهَا، وأن تنفّس عن غضبها وحقتها، وأن تلبّي هذا النداء الخفيّ الذي يهيب بها إلى النزال والعراك... والانجذاب!

\* \* \*

وفي عصر يوم من تلك الأيام، أخذت زيتها، والتحتف ملاءتها وغادرت الشقة لا تعباً شيئاً في الوجود. وانتهت إلى الطريق في أقلّ من دقيقة، ثم قطعت الزقاق لا تلوي على شيء. وخطر لها خاطر وهي تميل إلى الصناديق، ألا يحقّ له أن يظنّ بخرجتها هذه الظنون؟ ألا تزعم له نفسه المغرورة أنها غادرت بيتها عمداً لتلقاه في الطريق! خصوصاً وأنه لا يدري شيئاً عن نزهتها اليومية المعتادة، وقد جاء أياماً فلم يرها يوماً تغادر البيت. فسيبها على الأثر، ويتعرّض لها في الطريق وقد أبت أن تقيم وزناً لظنونه، ورحبت بما عسى أن يدفعه إليه الغرور، وتوثبت للقائه بنفس تتحرّق على التحديّ والعراك متوقّعة إيّاه بأن تمحو عن شفتيه هذه الابتسامة الظافرة السخيفة. وبلغت في سيرها الرئيد السكّة الجديدة، فتخيّلت وقد نهض من جلسته بالقهوة وغادرها متعجلاً حتى لا يضلّها. ولعلّه ينحدر الآن بخطواته الواسعة إلى الغوريّة، ولعلّه يفتش عنها بعينيه المتفرّستين الجسوريتين. إننا تكاد تراه بظهرها وهو يهرول بجسمه الطويل، بينما لا تكاد ترى عينها ما يضطرب به الطريق من أناس وسيارات وعربات. ترى هل أدرك بصره ما خرج في ابتغائه؟.. وهل عاودته الابتسامة المتحدّية الظافرة؟.. قاتله الله من حيوان يجهل ما ينتظره! فلتواصل السير دون أن تلتفت إلى الوراء، حذار من الالتفات، فالتفاتة واحدة شرّ من الهزيمة. إنه وقح جريء، ولعلّه لا يفصلها الآن سوى خطوات. ترى ماذا هو فاعل! أيقنع بتأثيرها

الأوراق النقدية التي كان يتعمّد تقديمها لسنقر تحت بصرها، وفضنت بطبيعة الحال إلى دلالتها. وربما كانت هذه لغة ساقطة في غير هذا المكان، أما في زقاق المدقّ فهي لغة بليغة لا يجيب لها أثر، ومع أنّ الرجل كان شديد الحرص على ألا يبدو منه ما يتنبّه أحدًا إلى الباعث الحقيقيّ لغشيانه القهوة، إلاّ أنّه كان لا يعلم فرصة فيسترق النظر إلى خصائص النافذة، أو يضع ميسم النارجيلة على فيه زاماً شفّته كأنه يقبله ثم يرسل الدخان إلى علّ كأنما يرسل القبله في الهواء إلى شبحها الجاثم وراء النافذة. وكانت ترى ذلك باهتمام، وتساورها أحاسيس متباينة لا تخلو من لذة ولا تخلو من حنق. وقد حدّثتها نفسها بأن تنطلق إلى نزهتها ملقبة بمخاوفها تحت نعلها، وأن تلقّاه إذا سوّلت له نفسه التعرّض لها - الأمر الذي لا يداخلها فيه أدنى شكّ - بما تعهده في نفسها من قحة حقيقة بأن تهزم قحته شرّ هزيمة، وأن تسلقه بلسانها سلماً لا ينسأه مدى الحياة. وإنه لأعدل جزاء على زهوه الكاذب، وابتسامته الظافرة، وتحديّ الوقح. تبا له، ما الذي يدعوه لهذا التظاهر بالغلبة والقهر؟! لا ارتاح لها بال حتى تمرّغ أنفه في الرغام، ولكن آه لو كانت تملك ملاءة حسنة أو شيشياً جديداً!...

وقد اعترض سبيل حياتها وهي تعاني اليأس المرير، إذ سقط السيد سليم علوان بين حيّ وميت بعد أن منّاها يوماً وبعض يوم بالحياة العريضة التي تهيم بها، وبعد أن نبذت من أحلامها عبّاس الحلو ولفظته. وعلمت بعد ذلك أنه لم يعد ثمة أمل في ذلك الزواج المأمول، فرذت على رغامها خطيبة للحلو وقد ازدادت له مقتاً ونفوراً. وأبت أن تسلّم بسوء حظها، وراحت تنتهر أمها، وتتهمها بأنّها حسدتها وطمعت في مال الرجل فخيب الله أمالها. على هذه الحال لاح الرجل الجديد في أفق حياتها. وقد بعث ظهوره في نفسها ثورة عارمة جارفة استثارت كوامن غرائزها جميعاً. أغضبها زهوه، وأحنقها تحديّ، وأغرّتها وجاهته، وأيقظتها فحولته وجماله. جذبتها نحوه قوّة خفية من غرائزها المطمورة، ووجدت فيه ما لم تجتمع لسواه ممن عرفت

وتصاعد الدم إلى وجهها ورأسها، وهولت إلى البيت لا تكاد ترى ما بين يديها، وارقت السلم ذاهلة من الخجل - ولو أنّ الخجل ليس من سجايها - وما كادت الحجرة تحتويها حتى انفجرت براكينها واستولى عليها غضب جنونيّ، فطرحت الملاءة على الأرض وارتمت على الكنبه. لمن إذا يجيء القهوة كلّ مساء؟ وكيف يسترق إليها النظر بعينه الفاجرتين؟.. ولن يرسم تلك القبلة الخفية في الهواء؟!.. وتناوبت قلبها مشاعر الخيبة والحيرة والخجل والغضب. ثمّ انثالت عليها الفِكر والخواطر: أيمن الآ يوجد ارتباط بين مجيئه كلّ مساء وبين أفكارها، وأن ليست هذه الأفكار إلّا أوهامًا وأحلامًا كاذبة؟.. أم إنّه تعمّد أن يهملها اليوم تأديبًا لها وتعذيبًا فهو يعبث بها عبث القويّ بالضعيف؟!.. أتتهض إلى القلّة وتقذف بها فتحطم رأسه وتروي غلّة الحنق والانتقام؟! واستولى عليها شعور ممضّ بالامتعاض لم تشعر بمثله من قبل، حتّى لقد تساءلت في حيرة عمّا أصابها. بيد أنّها لم تكن تجهل ما كانت تريد. كانت تريد بلا شكّ أن يتبعها وأن يتعرّض لها في الطريق.

ثمّ ماذا؟ ثمّ تقذفه بحمم الغضب، والحنق والوعيد. لماذا؟ تحدّثًا لثقتة بنفسه وزهوه وابتسامته الواشيه بالظفر. كانت ابتسامه الظفر أصل البلاء كلّه، فأدرت مغزاه بعقلها وغريزتها وروحها وجسمها. هي ابتسامه الصراع والعراك! وإنّما على مساجلتها لقادرة، لا بل إنّها لم تخلق إلّا لتلقّي هذه الابتسامه ومثيلاتها فتجيب عليها. كانت تناسى على فوات معركة طالما ترقيتها بلهفة وشغف. وكانت في أعماقها تتحرّق إلى أن تقيس قوتها بقوة هذا الرجل ذي الفحول والجاه والخيلاء. هكذا تيقّظت في عنف وشدة، وانبتت في نفسها روح اللهفة والتمرد والعراك والشوق..

لبثت على الكنبه فريسة هياجها الوحشيّ، ثمّ تلفتت إلى النافذة ترمقها شزرًا. وجعلت تترجّح حتّى صارت وراءها، ثمّ أرسلت بناظرها من خلال الخصاص، ترى ولا ترى، ملتفعة بالعمه التي غشيت

كالكلب؟ أم يسبقها قليلًا ليربها نفسه؟ أم يحاذيها ويأخذ في مخاطبتها؟ وواصلت السير متنبّهة قلقه مترقبة متوتبة تتوقّع في كلّ خطوة جديدًا وتتفحص عينها جميع الذين يلحقون بها من المارة، وتنصت بيقظة للأقدام التي تتحرّك وراءها. أرهاقها الانتظار والتربص والتوتّب، وكادت تراود إرادتها في التلفت. بيد أنّها استعادت عنادها وفظاظتها وسارت لا تلوي على شيء، فما تدري إلّا وصويجاتها من بنات المشغل يقبلن نحوها غير بعيدات، فخرجت من غيبوتها، وارتمت على شفتيها ابتسامه، ثمّ سلّمت، ودارت على عقبيها تسير وسطهنّ، وهنّ يسألنها عن سرّ غيابها أيّامًا على غير عادة واعتلت بالمرض وهي تعابن الطريق لترى موقعه منه. ومضت تنازعهنّ الحديث والمزاح وعيناها تردّدان من طوار لطوار، ترى في أيّ مكان يزوي؟ لعلّه يراها من حيث لا تراه، ومهما يكن من أمر فقد أفلتت من يديها فرصة تأديبه اليوم. كانت ترجو أن يتعرّض لها بخيلائه فتزفر عليه غضبها وترعد فرائصه، ولكنّه نجا من مغالبها. ولكن أين يكون؟ أيمن أن يكون متأخرًا عنهنّ إلى الوراء؟ ولم تستطع أن تقاوم رغبتها في التلفت هذه المرّة. فالتفتت، وفحصت الطريق بصبر حدّ، ولكنّه لم يكن هناك، لا إلى الورا ولا إلى الأمام ولا إلى اليمين ولا إلى اليسار! لعلّه تأخر قليلًا في الإفلات من القهوة فأصلّتها، وعلّه يتخبّط الآن في الطريق لا يدري مكانها! وسرعان ما فترت حماسها وخمد نشاطها. وعندما انتهت إلى الدراسة خطر لها أنّه ربّما بدا لها هنا فجأة كما بدا يومًا عبّاس الحلو وتجدّد الأمل، ونشطت الحماسه فودّعت آخر صويجاتها، وعادت متمهله تقلّب عينيها في جنبات الطريق، ولكنّه كان خاليًا أو كان خاليًا ممّن تبتغي. وقطعت ما تبقى منه بقلب كسير!.. تنوء بهزيمة نكراء. وصعدت مع أرض الزقاق، وأجهت عينها إلى القهوة، وأخذ المعلم كرشه يبدو لها شيئًا فشيئًا ابتداء من طرف عبائه فكشفه الأيسر حتّى رأسه المتطامن، ثمّ.. ربّاه ما هذا؟!.. إنه لم يبرح مكانه، قابضًا على خرطوم نارجيلته!.. وخفق قلبها بعنف،

## زقاق المدق ٧١٣

- لقد نُحِطت قبلها ولكنّها ستزوّج قبلك . .  
 وأثارها قولها فقالت بحدّة وخيلاء:  
 - إنّ خطيبي مشغول بإعداد مستقبل باهر .  
 تباهت بالخلو على رغمها، ثمّ ذكرت متحسرة  
 السيّد سليم علوان - قتله الله ككلّ شيء غير ذي نفع -  
 فتنزى قلبها ألماً. وتولّاهما الوجوم بقية الطريق.  
 شعرت بأنّ الحياة تعاندها وتكيد لها، والحياة هي  
 العدو الوحيد الذي لا تدري كيف تأخذ بتلابيه.  
 وسارت في رفقة الفتيات حتّى آخر الدراسة. ثمّ  
 ودّعت أخراهن ودارت على عقبيها لتعود من حيث  
 أتت. وعلى بعد أذرع رأتها - رجلاً دون غيره - واقفاً  
 على الطوار كالمُنْتَظِر! وثبتت بصرها عليه لحظات تحت  
 تأثير المفاجأة التي دهمتها، واعتراها شيء من الارتباك  
 عضّت عليه أصابع الندم بعد فوات الفرصة، ثمّ  
 واصلت السير في شبه ذهول. لم تكن مستعدة لهذا  
 اللقاء، ولم يعد بداخلها شكّ في أنّه كان يتأثرها طوال  
 هذا الوقت. وهكذا يحكم هو التدبير في هدوء،  
 ويدمها هي في كلّ مرّة الارتباك والذهول. وأخذت  
 تنادي قواها المبعثرة وتستعدي وحشيتها، وقد ألمها أشدّ  
 الألم أنّها لم تجد زيتها كما ينبغي، وأحدث لها ذلك غير  
 قليل من القلق. كان الجوّ متخشّعاً تحت سمرة  
 المغيب، والمكان كالمقفر، وكان الرجل يتظر دنوها في  
 هدوء، بوجه وديع لا أثر فيه لنظرة التحدي ولا  
 لابتسامة الظفر، فلمّا حادثه خاطبها بصوت منخفض  
 قائلاً:

- من يتحمّل مرارة الصبر يبلغ . . .  
 ولم تسمع تتمة عبارته لأنّه غمغمها، فحدجته بنظرة  
 حادة، ولم تنبس بكلمة، وسارت لحال سيلها،  
 فسايرها وهو يقول بصوته الهادئ العميق:  
 - أهلاً وسهلاً. كدت أجنّ بالأمس لأني لم أستطع  
 الجري وراعيك حذر العيون. وكنت أنتظر مثل تلك  
 الخرجة صابراً يوماً بعد يوم، فلمّا جاءت الفرصة دون  
 أن أستطيع انتهازها كدت أجنّ . . .  
 إنّهُ يطالها بوجه وديع، غير الوجه الذي أهاجها،  
 فلا تحدي ولا ظفر، وكلامه أشبه بالشكوى والتوجّع

الحجرة. رآته في جلسته الهادئة، يدخن النارجيلة في  
 طمأنينة وسلام، تلوح في عينيه الثقة بالنفس والحدق،  
 وكأنّه يعيش في عالم وحده منقطع عمّا حوله، وقد خلا  
 وجهه من آثار هذه الابتسامة الثيرة. ها هو هادئ  
 مطمئنّ بينا هي تشتعل ناراً. وتفرّست فيه بقوة وحنى  
 وما تزداد إلا انفعالاً وحيرة. وظلّت ملازمة مكانها حتّى  
 نادتها أمّها لتناول العشاء فغادرت الحجرة. وقطعت  
 ليلة مملّة مضنية، ونهاراً كثيباً، وانتظرت عصر اليوم  
 الثاني في قلق متواصل. لم يكن بداخلها شكّ في مجيئه  
 في الأيام الماضية. أمّا اليوم فباتت تترقب فلقه شاردة  
 النفس. وراحت تراقب ضوء الشمس وهو ينحسر عن  
 أرض الزقاق ويرقى وثيداً جدار القهوة. ومن عجب  
 أن خامرها الخوف من عدم مجيئه، ولعلّها ابتدعت  
 ذلك بغريزة المحارب المشاكس وكَيْدِه. وجاء مواعده  
 دون أن يبدو له أثر، وتصرّمت دقائق، فمن المؤكّد أنّه  
 لا يحضر اليوم. بيد أنّ هذا التخلف قد حقّق ظنّها،  
 فأدركت أنّه تغيب متعمداً: وارتسمت ابتسامة على  
 شفيتها وتهدت من الأعماق ارتياحاً. لم يكن من شيء  
 واضح يدعو للارتياح حقاً، ولكنّ غريزتها أسرت إليها  
 بأنّه إذا كان اليوم قد تخلف عن الحضور متعمداً فلا  
 شكّ أنّه بالأمس تعمد كذلك ألا يطاردها، فليس ثمة  
 إهمال أو عدم مبالاة، لا بل على العكس من ذلك فإنّه  
 يخوض غمار المعركة بمهارة وحدق، وإنّه لصامد في  
 الميدان حتّى في هذه الساعة التي لا يُرى له أثر فيها.  
 وارتاحت إلى سرار غريزتها، واطمأنت إليه، وتوثبت  
 للنضال بعزم جديد. ونبا بها المكوث في البيت فتلقّعت  
 بملاءتها وغادرت البيت دون أن تعنى بزيبتها كما اعتنت  
 بها أمس. ولفح الهواء البارد في الطريق وجهها  
 فأنعشها، وذكرها انتعاشها بما قاست يومها من قلق  
 وفكر، فغمغمت ساخطة «يا لي من مجنونة! . . كيف  
 جسّمت نفسي هذا العذاب؟! ألا فليزدرده الموت!  
 واستحّثت خطاها حتّى التقت بصويجباتها. ثمّ عادت  
 معهنّ. وقد أندرنا بأنهنّ سيفقدن قريباً إحداهنّ التي  
 ستزوّج من زنفل صبيّ دكان طعميّة سيدهم. وقالت  
 إحدى الفتيات:

- الأصل أن تتبع الحساء أينما سارت. هذه هي القاعدة. فإذا ما سارت ولم يتبعها أحد فهذا هو الشذوذ الموجب للإنكار حقاً، أو بمعنى آخر إذا سرت ولم يتبعك أحد فهذا إيذان بقرب القيامة..

ومرّت عند ذاك بعطفه العوارجة حيث يقيم بعض صويجاتها فتمنّت أن يرينها وهذا الأفندي يغازلها! ولاح لها ميدان المسجد غير بعيد فانتهرته قائلة:

- ابتعد.. هذا حيّ يعرفني!

وكان يتفحصها بنظر ثاقب، فأيقن أنّها تجاذبه الحديث وهي لا تدري، أو وهي تدري، فارتسمت على شفثيه ابتسامة لو رأتها لأعدت إلى رأسها ذكريات وحشيّة وقال لها:

- لا هذا الحيّ حيّك، ولا هؤلاء الناس أهلك!

أنت شيء آخر، إنك ها هنا غريبة..!

فأمّن قلبها على قوله، وسرّت به سروراً لم تشعر بمثله لقول قبله. واستدرك الرجل قائلاً كالساخط:

- كيف تسيرين بملاءتك بين هؤلاء الفتيات!.. أين هنّ منك؟ أميرة في ملاءة ورعيّة ترفل في الثياب الجديدة..

فقالت بحدّة:

- ما لك أنت ولهذا؟ ابتعد..

فقال محتجاً:

- لن أبتعد أبداً..

فسألته بحدّة:

- ماذا تريد؟

فقال بجرأة عجيبة:

- أريدك أنت، ولا شيء غيرك..

- ذبحة..

- ساعك الله. لماذا تغضبين؟.. ألسنت في الدنيا

لتؤخذني؟.. وإني لأخذك..

ومرّاً في طريقهما ببعض الدكاكين، فنهرته قائلة:

- لا تحطّ خطوة واحدة، وإلا..

فقال مبتسماً:

- الضرب..

ونخفق قلبها، وتألقت عيناها، فقالت:

والاعتذار، وهي إنّما توثّبت لغير هذا فما عسى أن تصنع الآن؟ أهمل شأنه وتمحّت خطاها فبنتهي كلّ شيء؟ تستطيع أن تفعل هذا لو أردت. ولكنّها لم تجد مشجّعاً من قلبها، وكأّتها تنتظر هذا اللقاء منذ اليوم الأوّل بشعور امرأة ليس الحياء من سجاياها.

وكان الرجل من ناحيته يمثّل دوره بمهارة، ويحك أكلوبة ماكرة، فلم يكن خوفه الذي أقعده أمس عن تعقبها، ولكنّه استوحى غريزته اليقظة وخبرته الفائقة فأوحى إليه بأن القعود في حالته خير من العجلة، كما أوحى إليه اليوم بأنّ يتلّم بهذا القناع الزائف من الأدب والوداعة. وعاد يقول لها برقة:

- تمهلي قليلاً.. عندي..

فالتفتت إليه وقاطعته بحدّة:

- كيف سوّلت لك نفسك أن تخاطبني!.. أتعرفني

يا هذا؟!

فقال بأدبه الزائف:

- كيف لا؟.. نحن أصدقاء قدماء.. وقد رأيتك

في الأيام الماضية أكثر ممّا رآك الجيران في أعوام طوال.

وفكرت فيك أكثر ممّا فكر ألصق الناس بك مدى

عمره، فكيف لا أعرفك بعد هذا كلّه؟!

تكلم برقة ولكن بلا تلعثم ولا تهذج.. وازدادت

هي تعلّقاً بكلامه ورغبة في مساجلته. وتولّأها شعور

بالاستهانة، هو السلاح الوحيد الذي تستطيع أن

تشهره في وجه عناد الحياة. بيد أنّها لم ترد الخروج على

«سنّة التصنّع والتمثيل»، فقالت بحدّة وهي تحرص

على ألا يعلو صوتها فيفضح جرسه الخشن:

- لماذا تتبعني؟

فابتسم الرجل وقال بدهشة:

- لماذا أتبعك؟.. لماذا أهمل أعمالي وألزم القهوة

تحت نافذتك؟ لماذا أهجر الدنيا جميعاً مقيماً بزقاق

المدق؟.. ولماذا انتظرت هذا الزمان الطويل؟!

فقطّبت وقالت بازدياء:

- لست أسالك حتّى تجيبني بهذه السخافات، ولكنّي

أنكر عليك أن تتبعني وتخاطبني.

فقال بلهجة جديدة تنمّ عن الثقة واللباقة:



## زقاق المذق ٧١٥

الستّ سنّية عفيفي، ولا يفتأ يشهر ببخلها في كلّ زمان ومكان. وقد شنّع عليها يوماً فقال إنّها تفكّر في بناء حجرة خشبية على سطح بيتها لتقيم فيها وتزجر شقّتها. وضاعف حقه عليها أنّه لم يقدر - ولو مرّة واحدة - على الإفلات من أداء أجرة شقّتها إليها. إذ كانت المرأة تستعين بالسيد رضوان الحسيني إذا خرج الأمر. فلم يُسرّ الرجل بهذه الدعوة، ودقّ الباب وهو يتعوّذ قائلاً «لطفك يا دافع البلاء». وفتحت له الستّ بنفسها، وكانت ملتفة بخمار، ودعته إلى حجرة الاستقبال ودخل الرجل وجلس. ولحقت به الخادم بالقهوة فشرب، ثمّ قالت له الستّ:

- دعوتك يا دكتور لتكشف على أسناني..

ولاح الاهتمام في عينيّ الرجل، واستولى عليه السرور لهذه المفاجأة التي لم يتوقّعها قطّ، وشعر نحو الستّ بمودة لأوّل مرّة في حياته وسألها:

- وهل وجدت ألمًا لا سمح الله..

فقالت الستّ سنّية:

- كلاً والحمد لله، ولكنّي فقدت بعض الضروس والأسنان ونغض البعض الآخر..

وتضاعف سرور الدكتور، وذكر ما تهاوس به أهل الزقاق من أنّ الستّ ستغدو عمّا قريب عروسًا، فلعب الطمع بقلبه وقال:

- الأوفى أن تركّبي طقمًا جديدًا..

فقالت الستّ:

- هذا ما فكّرت فيه، ولكن هل يلزم وقت طويل

لذلك؟

فنهض الرجل واقفًا واقرب منها وهو يقول:

- افتحي فمك..

فغمرت المرأة فاهها، وتفحصه الرجل بعينين ضيّقتين، ولم يجد به إلاّ أسنانًا معدودات، فدهش، وأحسّ ببعض الخيبة، ولكنّه حذر أن يهون من خطورة عمله، فقال في تودة:

- يلزمنا بضعة أيام لاقتراع هذه الأسنان، ولكن ربّما اضطررنا إلى الانتظار سنّة أشهر قبل تركيب الطقم حتّى تجفّ اللثة وتأخذ راحتها.

- صدقت.

فقال وهو يبتسم ابتسامة خبيثة:

- سنرى. سأتركك الآن على رغمي، ولكنّي سأنتظر كلّ يوم.. لن أعود إلى القهوة حتّى لا أثير الشبهات في الزقاق، ولكنّي سأنتظر كلّ يوم، مع سلامة الله يا أجل من حملت الأرض..

واصلت السير وقد انبسطت أسارير وجهها ولاح فيه البشر والسرور والغرور «أنت شيء آخر».. أجل، وماذا قال أيضًا؟ «إنك ها هنا غريبة».. «الست في الدنيا لتؤخذي؟.. وإني لأخذك».. وماذا قال أيضًا؟ «الضرب».. «داخلتها لذّة جنونيّة، وسرور وحشيّ، فقطعت الطريق لا تكاد ترى شيئًا. ولما أوت إلى غرفتها واستردّت أنفاسها، ذكرت في عجب وزهو أنّها استطاعت أن تسائر رجلًا غريبًا وتحادثه بلا حياء ولا ارتباك!.. وأنها تستطيع أن تفعل ما تشاء بلا تردد، وغمرتها موجة عارمة من الاستهانة والاستهتار حتّى أفلتت منها ضحكة عالية. ثمّ ذكرت ما كانت عقدت العزم عليه من الأخذ بتلابيبه!.. فاستولى عليها الوجوم لحظة قصيرة، ثمّ جعلت تعتذر لنفسها بأنّه لم يلقها بذاك الوجه الصفيق المتحدّي، لا بل راح يحدثها حديثًا رقيقًا مؤدّبًا، لا عن وداعة طبيعيّة، فقلّبها يحدثها بأنّه غمر يتحين فرصة للوثوب، فلتنتظر.. لتنتظر حتّى يتكشف عن حقيقته، وهنالكَ!؟!

وعاودتها لذّتها الجنونيّة وسرورها الوحشيّ..

## - ٢١ -

كان الدكتور بوشي يهّم بمغادرة شقّته حين جاءته خادمة الستّ سنّية عفيفي تدعوه لمقابلة سيّدتها. وعبس وجه الدكتور وتساءل في إنكار «ماذا تريد المرأة!؟.. زيادة إيجار؟! ولكنّه سرعان ما نفى هذا الظنّ عن خاطره، لأنّ الستّ سنّية لا تستطيع أن تتحدّى القوانين العسكريّة التي تحدّد أجور المساكن في أثناء الحرب. وغادر شقّته وارتمى السّلم متجهّم الوجه. كان الدكتور بوشي - كعادة السكّان - يستقل

الأطباء الذين يتاجرون بفنهم ولكننا وأسفاه قوم سيئو الحظ.

وتجاذبا الثمن الذي اقترحه، هو يحاول أن يستمسك به، وهي تروم خفضه حتى تمّ الاتفاق على ثمانية جنيهات، وغادر الدكتور الشقة وهو يلعن في سرّه العجوز المتصاية.

وكانت الستّ سنّة عفيفي، تلك الأيام، تلقى الحياة بوجه جديد، كما كانت الحياة تطالعهما بوجه جديد كذلك. بات الأمل السعيد قاب قوسين أو أدنى، وأصبحت الوحدة ضيقاً ضعيف الظلّ يأخذ أهته للرحيل، وأوشكت البرودة الجاثمة في روحها أن تذوب وتجري ماء دافئاً. بيد أنّ السعادة لا تنهل بغير ثمن، ويغير ثمن فادح أيضاً. ولقد عرفت هذا الثمن الفادح في ترددها على محالّ الأثاث بشارع الأزهر، ومعارض الثياب بالموسكي. ومضت تنفق ممّا اكتنزت ذاك الدهر الطويل، بل وتنفق بغير حساب. وكانت أمّ حميدة لا تكاد تفارقها في حلّها وترحالها، وأثبتت لها بمهارتها الفائقة، وبما تقدّم لها من معونة في كلّ خطوة تحطوها، أنّها كنز نفيس لا يقدر بثمن، وإن كان باهظ التكاليف في الوقت نفسه. ولم تقبض عنها يدها معلّلة نفسها بوشك انتهاء هذه المحنة. على أنّ الأثاث والثياب لم تكن كلّ شيء، ولم يكن بيت العروس الشيء الوحيد الذي يستوجب التجديد، وإنّما كانت العروس نفسها تستوجب الرعاية والعناية والترميم، وقد قالت يوماً لأمّ حميدة وهي تضحك في غير قليل من الارتباك:

- يا ستّ أمّ حميدة. ألا ترين أنّ الهموم قد أشعلت الشيب في سوالي؟!

فقالّت أمّ حميدة التي كانت تعلم أنّ الهموم بريئة ممّا ترميها به:

- نداوي الهموم بالصبغة، وهل توجد ثمة امرأة لا تصبغ شعرها في زماننا هذا؟

فضحكت المرأة بسرور وقالت:

- بورك فيك يا ستّ النساء كلّهنّ. ترى ماذا كنت أفعل بحياتي لولاك أنت؟

ورفعت المرأة حاجبيها المزججين في انزعاج، وكانت تتوقّع أن تزفّ إلى بعلها في بحر شهرين أو ثلاثة على الأكثر، وقالت بجزع:

- لا.. لا، أريد عملاً سريعاً، لا يتأخّر عن شهر بحال..

فقال الرجل بمكر وخبث:

- شهر يا ستّ سنّة؟.. مستحيل..؟

فقالّت المرأة باستياء:

- إذن مع السلامة..؟

فترتّ الرجل قليلاً ثمّ قال:

- هنالك سبيل واحد إن شئت..

فأدرت أنّ الرجل يحاورها بمكر التاجر الخبيث، وامتلأت حقناً عليه ولكتها دارت حنقها لحاجتها إليه، وسألته:

- أن أركّب لك طقمًا ذهبياً، فهذا يمكن تركيبه عقب الخلع مباشرة..

وانقبض قلبها خوفاً، وراحت تفكّر في تكاليف الطقم الذهبي. وكادت تنبذ اقتراح الرجل لولا أن تذكّرت العروس المرتقب، إذ كيف يمكن أن تلقّي عروسها هذا الغم الخرب؟ كيف تؤايتها شجاعتهما على الابتسام إليه؟ وكان من المعروف لدى أهل الزقاق جيعاً أنّ أسعار الدكتور بوشي هيّنة، وأنه يستبضع طقومه من هنا وهناك بمهارة ويبيعهما بأبخس الأثمان، فلا يُسأل من أين يأتي بها، وبحسبهم رخصتها. ولكنّ الطقم الذهبي - على رغم هذه الحقائق جميعاً - شيء له خطره، فلذلك تحوّفت المرأة التي ألقت الحرص، وسألته بغير احتفال شأن المستهين باقتراحه:

- وكم يكلفني الطقم؟

فقال الدكتور الذي لم يخدع باستخفافها الظاهري:

- عشرة جنيهات؟

وانزعجت المرأة التي تجهل الأثمان الحقيقية للطقوم الذهبية ورّدّت قوله في إنكار:

- عشرة جنيهات!

وتميّز الرجل غيظاً وقال:

- إنّ ثمنه لا يقلّ عن خمسين جنيهاً عند أولئك

## زقاق المنق ٧١٧

وكان الخوذّي قد زايل مقعده وهرع إلى باب العربة ليعين سيّده على النزول، واعتمد السيّد على ذراعه، ثمّ ظهر جسمه مقوسًا، ووقف أخيرًا على الأرض يصلح هندامه. حجبه المرض في أواسط الشتاء، وأعادته الشفاء في أوائل الربيع، وقد غمرت برودة الشتاء القارصة موجة لطيفة من الدفء رقصت لها الدنيا طربًا. ولكن أيّ شفاء هذا؟! لقد عاد السيّد رجلاً آخر. اختفى الكرش الذي كان يشقّ الجبّة والفظطان وتقعّر الوجه المتلئ الدمويّ فبرزت وجنتاه وغار خداه ولوّح الشحوب بشرته، وخبا نور العينين فقلقت فيها نظرة شاردة ذابلة تحت جبين عابس. ولم يتبيّن عمّ كامل بادئ الأمر ما طرأ على السيّد من تغير لضعف بصره حتّى إذا اقترب منه ولاحظ ذبوله تولّاه الانزعاج، وانحنى على يده كأنّما ليخفي انزعاجه، وصاح بصوته الرفيع:

- حمدًا لله على السلامة يا سيّدي. ذا يوم أبيض. والله والحسين ما يساوي الزقاق من غيرك قشرة بصلة...

فقال له السيّد سليم وهو يستردّ يده:

- بورك فيك يا عمّ كامل...

وسار متمهلاً متوكّئًا على عصاه، يتأثره الخوذّي عن كذب، ويتبعه عمّ كامل مترنحًا كالقيل. والظاهر أنّ رنين الجرس قد أعلن حضوره، فسرعان ما ازدحم باب الوكالة بالعمّال، وأقبل من القهوة المعلّم كرشة والدكتور بوشي، وأحاط به الجميع مهلّلين داعين، ولكنّ الخوذّي علا صوته وهو يقول:

- افسحوا للسيّد من فضلكم، دعوه يجلس أولاً ثمّ

سَلّموا...

وأفسحت له اللّمة، فواصل مسيره عابسًا، وفوّاده يغلي حنقًا وغيظًا، وقد ودّ لو لم تقع عيناه على وجه من هذه الوجوه. وما كاد يطمئنّ به مجلسه وراء المكتب حتّى أقبل عمّال الوكالة يستبقون، فلم يجد بدءًا من أن يسلمهم يده يقبلونها واحدًا بعد آخر، تأذّبًا من لمس شفاههم، مخاطبًا نفسه: «يا لكم من كذّابين مرّائين!... أنتم والله أصل هذا البلاء!». وتفرّق

وترثت قليلًا، ثمّ مسحت على صدرها وقالت:  
- ربّاه هل يرضي هذا الجسد الجاف عروسك الشاب؟... ولا أئداء ولا أرداف ولا شيء مما يجذب الرجال!

فقالّت أمّ حميدة:

- لا تستقلّي نفسك، ألم تعلمي بأنّ النحافة موضحة وآية موضحة! ومع ذلك فإن شئت صنعت لك أقراصًا عجبية تسمّنك في وقت قصير... وهزّت أمّ حميدة وجهها المجدور بفخار واستدركت قائلة:

- لا تخافي شيئًا ما دامت أمّ حميدة معك. أمّ حميدة مفتاح سحريّ تفتح له جميع الأبواب المغلقة، وغدًا تلمسين قدرتي في الحّمّ إذا حوانا معًا!

وهكذا كرت أيام الاستعداد في نشاط وتعب وسرور وأمل، وصنع شعر وتخصير عقاقير. وخلع أسنان مثرمة وتركيب أسنان ذهبية، وبين يدي ذلك كلّه نقود تنفق. تغلّبت على عادة الحرص، وطرحت معبودها الأصفر عند قدمي الغد المرموق، وفي سبيل هذا الغد المرتقب زارت الحسين ونذرت له ما تيسر من مال وثريد للفقراء الذين يمدقون بجامعه، كما نذرت للشعراني أربعين شمعة.

وقد نال العجب من أمّ حميدة كلّ منال وهي تلحظ هذا التغيّر الكبير الذي قلب السّت سنّة رأسًا على عقب، فجعلت تضرب كفًا بكفّ وتقول لنفسها:

- هل يستاهل الرجال كلّ هذا العناء؟! جلّت حكمتك يا ربّ فأنت الذي قضيت على النساء أن يعبدن الرجال!...

استيقظ عمّ كامل من إغفائه المزمّنة على رنين جرس، ففتح عينيه، وأنصت قليلًا، ثمّ اشرب بعنقه حتّى برز رأسه من الدكّان، فرأى حنطورًا معروفًا يقف أمام الزقاق، فنهض في عناء وهو يقول بسرور ودهشة: «ربّاه، هل عاد السيّد سليم علوان حقًا؟».

حضورهم، مطابقًا بين أقوالهم وبين المدوّن في الدفاتر، وكامل أفندي صابر متجهّم لا يخطر له الاحتجاج على بال. ولم تكن المراجعة بالشيء الوحيد الذي يتابعه بأفكاره، فكان ينوء صامتًا بأمر تحريم التدخين الذي استصبح به على غرّة، وهو أمر لم يحرم عليه التدخين في الوكالة فحسب، ولكنّه أضاع عليه في الوقت نفسه ما كان يتفضّل السيّد بتقديمه له من سجائر كوتاريللي الفاخرة. وقد رمق الرجل المكبّ على الدفاتر بنظرات غريبة، وقال لنفسه متكدرًا ساخطًا «ربّاه. لشّد ما تغرّب الرجل، هذا شخص غريب لا يعرفه!» وعجب لشاربه الذي احتفظ به رغم هذا التغيّر بضخامته وفخامته في وجه طمست سياته ومعالمه وعفى عليها المرض الخطير فكأنّه نخلة سامقة في صحراء جرداء. . . وأخرجه الحق والاستياء عن طوره فقال مخاطبًا نفسه «من يدري؟. . . لعله يستأهل ما نزل به، إنّ الله لا يظلم أحدًا». وانتهى السيّد من المراجعة في زهاء ثلاث ساعات، فردّ الدفاتر إلى الوكيل، وهو يمدّجه بنظرة غريبة، نظرة مراجع لم يعثر على ما يريبه، ومع ذلك فلا يخلو من الريب. وجعل يخاطب نفسه قائلاً: «سأعود المراجعة مرّة أخرى لا بل مرّات، حتّى أكتشف عمّا تبطن هذه الدفاتر، كلّهم كلاب. . . بيد أنّهم أخذوا عن الكلاب نجاستها، وزهدوا في أمانتها!» ثمّ خاطب الوكيل قائلاً:

- لا تنس ما نبهتك إليه يا كامل أفندي: رائحة التدخين والماء الدافئ.

وجاء بعد ذلك بعض العملاء من الخواجات فهتأوه بالسلامة، ثمّ خاضوا فيما لديهم من الأعمال، وقد أراد بعضهم أن يؤجّل عمله تحفيّفًا عنه، ولكنّه قال باستياء:

- لو كنت عاجزًا عن العمل ما جئت الوكالة. . . وما كاد يخلو إلى نفسه حتّى استبدّت به أفكاره الناقمة المتوترة، فراح يصبّ غضبه - كديده في هذه الأيام الأخيرة - على الناس أجمعين. ولطالما قال عنهم إنهم حسدوه، وإنهم نفسوا عليه الصحة والوكالة والخطور وصينيّة الفريك، فلعنهم من أعماق الفؤاد.

العمّال فجاء المعلّم كرشة وشدّ على يده وهو يقول:  
- مرحبًا بسيّد الحيّ جميعًا. . . ألف حمد الله على السلامة. . .

فشكره السيّد. أمّا الدكتور بوشي فقد قبّل يده وقال له بلهجة خطابيّة:

- اليوم يحقّ لنا الفرح، واليوم تطمئنّ جنوينا، واليوم يتحقّق لنا الدعاء. . .

فشكره أيضًا مداريًا تأفّفه، لأنّه كان يستكره وجهه الصغير المستدير، ولما أن خلا المكان تنهّد من صدر ضعيف وقال بصوت لا يكاد يسمع: «كلاب. . . كلّهم كلاب. . . عضوني بعيونهم الحاسدة!» وراح يطارد أشباحهم في مخيلته لينقي صدره ممّا استثاره من حنق وغيظ وتأثر، ولم يُترك لخلوته طويلًا، فجاءه كامل أفندي إبراهيم وكيله ومثل بين يديه، وسرعان ما نسي بمجيئه كلّ شيء إلاّ الحساب والمراجعة، وقال له باقتضاب:

- الدفاتر. . .

وهمّ الرجل بالتحرك ولكنّه استوقفه فجأة كأنما تذكر أمرًا هامًا، وقال له بلهجة أمرة:

- نبه الجميع إلى أنّي من الآن فصاعدًا، لا أحبّ رائحة تدخين (كان التدخين قد حُرّم عليه بأمر الطبيب)، وخبّر إسماعيل بأنّي إذا طلبت إليه ماء أن يبيّئ لي قدحًا نصفه ماء عاديّ والنصف الآخر ماء دافئ. التدخين في الوكالة ممنوع منعا باتًا، والدفاتر بسرعة.

وذهب الوكيل لإبلاغ الأوامر الجديدة، متذمّرًا في باطنه لأنّه كان من مدمني التدخين. ثمّ عاد بعد قليل حاملًا الدفاتر، ولم يغب عنه ما ترك المرض في طبع السيّد من تغيّر وتبدّل، فركبه الهمّ، وأيقن أنّه مقبل على حساب عسير. وجلس كامل أفندي قبالة السيّد، وفتح الدفتر الأوّل، وبسطه بين يديه، فبدأت المراجعة، كان السيّد في عمله محيطًا ماهرًا لا تفوته فائتة وإن دقت، فأكبّ على مراجعة الدفاتر دفترًا دفترًا بهمة لا تكفّ ولا تملّ، غير راحم نفسه المتهالكة، وقد اتّصل في أثناء ذلك ببعض عملائه متحقّقًا من مواعيد

## زقاق المنق ٧١٩

على رغمه. أما روحه، فتعلقت بأهداب الحياة في فزع وجزع، حتى سحت عيناه دمعا مدرازا ونطقت نظرتها بالاستصراخ والاستغاثة، ولكن كان في الأجل بقية، فجاز طور الخطر، وبلغ برّ النقاهاة. ورجع إلى أحضان الحياة رويدا رويدا، ومثى نفسه باسترداد صحته وعافيته وسابق سيرته. ولكن تحذيرات الطبيب ووصاياه اهتمت أمنيته، وقضت على أمه، ولم تُبقي له من الحياة إلا على شيء يسير. أجل. أجل، نجا من الموت، ولكنه انقلب شخصًا جديدًا ذا جسم رقيق وروح مريض. ويكرور الأيام استقبل مرض روحه فصار ضجرًا وتمردًا وكراهية وعبوسًا. وقد عجب لهذه العثرة التي اعترضت سبيل حظّه، وتساءل بأيّ ذنب أخذه الله سبحانه؟ وكان ذا ضمير من هذه الضائر الراضية التي تقيم الأعدار لأصحابها وتحسن مسالكهم، وتغضي عن أخطائهم، وكان يجب الحياة حبًا جماً، فتمتع بماله وتمتع به آله، والتمز - فيها يظن - حدود الله، فاطمأن بذلك إلى الحياة اطمئنانًا عميقًا، حتى انتبه منه على هذه الهزّة العنيفة التي ذهبت بصحته، وأوشكت أن تذهب بعقله. ما ذنبه؟ ... لا ذنب له، ولكنهم الناس غرماؤه، وهم الذين أوردوه بحسدهم هذا العطب الأبدي! وهكذا أمر من نفسه ما كان حلوا، وارتسم على جبينه عبوس لا يريم. والحق أنّ ما فقد الرجل من صحته لم يكن سوى شيء يسير بالقياس إلى ما فقد من أعصابه.

وقد تساءل وهو جالس إلى مكتبه في الوكالة: أحقًا لم يبق له من الحياة إلا أن يقبع في هذا المكان ويراجع الدفاتر؟! وتراءى له وجه الحياة أشدّ تجهيًا من وجهه. وجد كالتمثال، ومضى وقت لا يدره وهو غارق في أفكاره، حتى سمع حسًا عند مدخل الوكالة، فالتفت نحوه فرأى أمّ حميلة مقبلة بوجهها المجذور. ولاحق في عينيه نظرة غريبة، فسلم، وأنصت بربح انتباه إلى دعاء المرأة وترجيبيها، وقد شغلته الذكريات القديمة عما عداها.

أليس من العجيب أن ينسى حميلة كأنها شيء لم يكن؟! لقد طافت به ذكراها في نقهه مرّات، ومرّت به

وكثيرًا ما كان يردّد هذه الظنون في أثناء مرضه، ولم تنجُ زوجه نفسها من شرّ ظنونه، فحجدها يومًا بنظرة شزراء، وهي تجلس إلى جانب فراشه وقال لها بصوت يتهدج ضعفًا وسخطًا:

- وأنت يا ستّ لك نصيبك من هذا، فطالما دوختني بقولك إنّ أيام الصينية انتهت، وكأنك تفسين عليّ صحتي، فالآن كلّ شيء انتهى فقري عينًا. . . وقد تأثرت المرأة لقوله واستعبرت طويلًا، ولكنه لم يرق لها، ولم يلن من حدّته واستدرك يقول مغنيًا محنًا:

- حسدوني... حسدوني حتى زوجتي وأمّ ابنائي قد حسدتني...!

ولكن إذا كان زمام الحكمة قد أفلت من يديه، فقد كان الموت قبل ذلك تخايل لعينيه غير بعيد. وإن ينس لا ينسى تلك الساعة المروعة المزلزلة ساعة الأزمة. كان يتهيأ للهجوع حين أحسّ بنغصة تصدع لها صدره. وشعوره بحاجة ماسّة إلى تنفس عميق ولكن عجز عن الشهيق والزفير، وكان كلّها عاود المحاولة حرّه الألم وقطعه الوجع، حتى استسلم في قنوط وعذاب مريرين. وجاء الطبيب وتجرّع العقاقير، ولكنه لبث أيامًا يراوح بين يقظة الحياة وغيوبة الموت. وكان إذا رفع جفنيه المتعبين الثقيلين رأى ببصر زائع زوجته وبناته وأبناءه محققين به، محمّرة أعينهم من البكاء. وهوى إلى تلك الحالة الغريبة التي يفقد الإنسان فيها كلّ إرادة على جسده وعقله فيلوح له العالم سحابة دكناء من ذكريات غامضة متقطعة لا تين ولا تكاد تربط بينها رابطة.

وفي اللحظات القليلة التي استردّ فيها شيئًا من وعيه يتساءل في رجفة باردة «هل أموت؟! أموت وحواله الأهل جميعًا؟! ولكن الإنسان لا يفارق الدنيا عادة إلا منتزعا من أيدي أحبائه، فماذا أقاد الأموات تعلق أحبائه بهم؟! ورغب ساعتش أن يدعوا الله وأن يتشهد، فخانه ضعفه، وتصاعد الدعاء والشهادة حركة باطنية ابتل بها ريقه الجاف. ولم يُنسه إيمانه - على رسوخه - أهوال تلك الساعة، فاستسلم جسمه

- حمدًا لله على السلامة... السلام عليكم يا أخي... .

فالتفت نحو مصدر الصوت فرأى السيّد رضوان الحسيني مقبلًا، بجسمه الطويل العريض، ووجهه المشرق المتألّق، فانبسّطت أساريره لأول مرّة وهمّ بالوقوف، ولكنّ السيّد بادره بوضع راحته على منكبه وهو يقول:

- حلّفتك بالحسين ألا ما جلست.. .

وتصافحا بحرارة. وكان السيّد رضوان قد زار قصر الرجل مرّات في أثناء مرضه. ولمّا لم يمكنه مقابلته بعث له بتحيّاته ودعواته. وجلس السيّد على مقعد قريب وراحا يتحدّثان في رقة ومودة. قال السيّد سليم علوان بتأثر شديد:

- نجوت بأعجوبة.. .!

فقال السيّد رضوان بصوت عميق هادئ:

- الحمد لله ربّ العالمين. نجوت بأعجوبة، وتعيش بأعجوبة. إنّ استمرار المرء ثانية واحدة من الزمان يحتاج لمعجزة ضخمة من القدرة الإلهية، فعمر أيّ إنسان فإنّ سلسلة من المعجزات الإلهية، وما بالك بأعمار الناس جميعًا، وحيوات الكائنات جميعًا؟! فلنشكر الله بكرة وأصيلًا، آناء الليل وأطراف النهار، وما أتفه شكرنا حيال هذه النعم الربّانية.

وأصغى إليه في جمود. ثمّ تمتم قائلاً بضجر:

- المرض شرّ قبيح.

فابتسم السيّد رضوان وقال:

- ربّما كان كذلك في ذاته، ولكنّه من ناحية أخرى

امتحان إلهي، وهو من هذه الناحية خير.

ولم يرتح الرجل لهذه الفلسفة، وحنق بغتة على قائلها، فضاع الأثر الطيب الذي أحدثه بجيئه، ولكنّه لم يستسلم لانفعاله على غير عادته أخيرًا وقال بلغة وشت بتدّمّره:

- ماذا فعلت حتّى ينزل بي هذا العقاب؟... . ألا

ترى أنّي فقدت صحتي إلى الأبد.. .

فعبث السيّد بلحيته الجميلة، وقال بشيء من المعاتبة:

دون أن تترك أثرًا. لم يأسف عليها بمثل ما طمح إليها، ثمّ أنسيها بعد ذلك كأنّها شيء لم يكن، أو كأنّها كانت نقطة في دم الصّحة الذي كان يجري في عروقه، فلمّا أن غاب ونضب تطايرت في الهواء. وغابت من عينيه النظرة الغربية التي رسمتها الذكريات، وعاد بصره إلى جموده، فشكر للمرأة حضورها لتنهّشه ودعاها للجلوس. ووجد مضايقة في حضورها كادت تنقلب كراهية، وتساءل عمّا دعاها للمجيء حقًا، أهو التنهّة الخالصة لوجه الله أم الاطمئنان على ما سبق منه من رغبة؟! ولكنّ المرأة لم تكن عند سوء ظنّه، لأنّها كانت آيست منه منذ أمد بعيد. ومع ذلك قال لها وكأنّه يعتذر:

- أردنا.. . وأراد الله.. .

فأدركت المرأة مقصده وقالت بعجلة:

- لا عليك من هذا يا سي السيّد، وما نسأل الله إلاّ

الصّحة والعافية.

وسلمت المرأة مرّة أخرى وغادرت الوكالة وقد تركته أسوأ حالًا وأشدّ انقباضًا، وقد حدث عند ذلك أن انزلق شوال حنّاء من بين يدي عامل، فاشتدّ به الغضب، وانتهره بقسوة صائخًا:

- ستغلق عمّا قريب الوكالة أبوابها، فابحشوا عن

مرتزق جديد.. .!

ولبت برهة ينتفض من شدّة الغضب والتأثر. وكانّ هذا الغضب ذكره بما اقترحه عليه أبناؤه أخيرًا من تصفية أعماله والخلود للراحة، فتضاعف غضبه وهياجه. وجعل يقول لنفسه إنّها ليست راحته التي يتتغون، ولكنّه المال، ألم يقترحوا عليه الاقتراح نفسه سابقًا وهو في عنفوان قوّته؟!.. . فالمال طلبتهم، لا صحّته ولا راحته. ونسي في غضبه أنّه - هو نفسه - كبر عليه أن تنحصر آماله في العمل في الوكالة، وألّا يجد لذّة في الحياة إلاّ إرهاب النفس في جمع مال لا يستطيع أن يتمتّع به، ولكنّه العناد الذي أولع به أخيرًا، وسوء ظنّه بالناس جميعًا الذي لم ينج أولاده أنفسهم وزوجه من بعض آثاره.. . وقبل أن يفيق من حمّى الغضب والهياج سمع صوتًا جهيرًا يقول في عمق وحنان معًا:

## زقاق المدق ٧٢١

عند مدخلها شايكًا يديه وراء ظهره. كانت الشمس تعلقو كبد السماء، والجو دافئًا مشرقًا. وقد بدا الزقاق كالمقفر في تلك الساعة من الظهيرة، اللهم إلا الشيخ درويش الذي جلس أمام القهوة يتشمس. فلبث السيد مليًا، ثم تلفت - بحكم عادة قديمة - نحو النافذة، فوجدها مفتوحة خالية، وكأنه ضاق بموقفه فرجع إلى مجلسه متجهًا عابسًا. . .

- ٢٣ -

«... لن أعود إلى القهوة. حتى لا أنسب الشبهات.»، هذا ما قاله لها عند افتراقهما، وقد ذكرته حميدة في صباح اليوم التالي لمقابلة الدراسة، ذكرته بخيال حيّ يقظ سعيد. وتساءلت أتذهب للقاءه اليوم؟ فأجاب قلبها «نعم» دون خفاء. ولكنها قالت بعناد: «كلًا... يجب أن يعود إلى القهوة أولاً»، وامتنعت عن الخروج في موعدها المألوف، وقبعت وراء النافذة تنتظر ما يكون. وانصرفت ساعة المغيب، وأطبق الليل ناشراً جناحيه، وعند ذلك أقبل الرجل من أسفل الزقاق مصوبًا عينيه نحو الزيق الذي انفرج عنه خصائص النافذة تلوح في وجهه ابتسامة تتم عن التسليم، وجلس على كرسيه المختار. وشعرت وهي ترقبه بهجة الانتصار، ولذة الانتقام لعذابها يوم أعيها العثور عليه في الموسيقى. والتقت عيناهما طويلًا - دون أن تغضي أو ترتد عن موقفها - فازداد ظلّ ابتسامته امتدادًا، ووشى وجهها بابتسامة وهي لا تدري. ماذا يبغى يا نرى؟ وبدا لها هذا السؤال غريبًا، إذ لا تدري لمثل إلحاحه في طلبها إلا معنى واحدًا، سعى إليه من قبل عباس الحلو، وطمح إليه السيد سليم علوان قبل أن يحطمه الدهر، فلماذا لا يكون غاية هذا الأفندي الوجيه؟! أو لم يقل لها: «ألسيت في الدنيا لتؤخذني؟... وإني لأجذك...؟!» فما عسى أن يعني هذا إن لم يعن الزواج؟! ولم يعق أحلامها عائق، لثمة شعورها بقوتها وثقتها بنفسها بل وغرورها الجمامح. وجعلت تنظر إليه من وراء خصائصها المنفرج، وتتلقي نظراته المسترقة باطمئنان

- أين يقع علمنا الضحل من هذه الحكمة الباهرة؟ حقًا إنك رجل طيب، بار، كريم، قوام على الفرائض، ولكن الله امتحن عبده أيوب وهو نبي، فلا تأس ولا تحزن، وأبشر بالإيمان خيرًا... ولكن الرجل زاد انفعاله، وقال بحدّة:  
- أرايت إلى المعلم كرشة كيف يحتفظ بصحة البغال؟

- إنك بمرضك خير منه بصحته وعافيته..

وغلبه الغضب، فرمق محدثه بنظرة ملتهبة وقال:

- إنك محدث في سكينه وطمانينه، وتعظ في ورع وتقوى، ولكنك لم تذق بعض ما ذقت، ولم تحسر شيئًا مما خسرت.

وتطامن رأس السيد حتى ختم الرجل خطابه، ثم رفع رأسه وعلى شفثيه ابتسامته الحلوة، وحدجه بنظرة عميقة من عينيه الصافيتين، وسرعان ما استكن غضبه وقر انفعاله، وكأنه يذكر لأول مرة، أنه يخاطب أكبر مُصاب من عباد الله. وطرفت عيناه، وتورد وجهه الشاحب قليلًا، ثم قال بصوت ضعيف:

- اعذرني يا أخي، إني تعب مرهق..

فقال السيد ولم تفارق الابتسامة شفثيه:

- لا عليك من هذا. قواك الله وسلمك. اذكر الله كثيرًا فبذكر الله تطمئن القلوب، ولا تدع الأسي يغلب عليك إيمانك أبدًا، فالسعادة الحقة ترتد عنّا على قدر ما نرتد عن إيماننا.

فقبض الرجل على ذقنه بشدة وقال بحق:

- حسدوني. نفسوا عليّ المال والجاه. حسدوني يا

سيد رضوان!

- الحسد شرّ من المرض. وإنه لمن المحزن حقًا. إن الذين ينفسون على إخوانهم حظهم من المتاع الفاني كثيرون. لا تأس، ولا تحزن، وسلم إلى الله ربك الرحيم الغفور..

وتحادثا طويلًا، ثم ودعه السيد رضوان وانصرف، ولبث الرجل هنيهة كاهدئ، ثم أخذ يعود رويدًا رويدًا إلى عبوسه وتجهّمه، ونبا به القعود طويلًا، فنهض قائمًا، ومشى متمهلًا إلى باب الوكالة، ووقف

اثنين فإمّا غضب وفضيحة وجرسه ثمّ قطعة، وإمّا استسلام تستكرهه لأنّه فُرض عليها فرضاً مقهراً، فامتلات حنقاً، وهمست بصوت منخفض متهدج من الغضب:

- كيف تجرؤ على هذا؟ .. دع يدي بسرعة ..  
فأجابها بهدوء وهو يمشي إلى جانبها كأنّهما صديقان ينطلقان معاً:

- حلمك .. حلمك، لا كلفة بين الأصدقاء ..  
فقالت وهي تتميّر غيظاً:  
- الناس .. الطريق ..  
فاستعطفها بابتسامة قائلاً:

- لا تبالي أناس هذا الطريق، فهم مجانين المال، ولا يرون إلا ما في رءوسهم من حسابات. هلأ ملت إلى دكان صائغ فانتقي منه حلية تليق بحسبك ..؟  
فاشتدّ غيظها لعدم مبالاته وقالت بوعيد:

- أنتظاهر بأنك لا تعباً شيئاً؟

فقال بهدوء والابتسامة لا تفارق شفثيه:

- لست أقصد إثارتك، ولكنّي انتظرتك لتتمشّي معاً، فقيم غضبك؟

فقالت بقوة:

- إني أمقت هذا التهجم فاحذر أن تُخرجني عن وعيي.

وطالع نذر الشرّ في وجهها فسأها في رجاء:

- أتعديني بأن نسير معاً؟

فهتفت به:

- لا أعد شيئاً .. دع يدي ..

فأطلق يدها دون أن يتعد عنها، وقال لها متملّقاً:

- يا لك من جبارة عنيدة. هاك يدك، ولكننا لن نفترق، أليس كذلك؟

وتهدت في غيظ، ونظرت إليه شزراً وهي تقول:

- يا لك من سمج مغرورا .

فتقبّل الشتيمة بابتسامة وصمت، وسارا جنباً لجنب

دون أن يتعد عنه، وذكرت كيف تربّصت له بالأمس القريب لتمثّل به في هذا الطريق، ولكنّها الآن لا تفكر في هذا وحسبها أنّها أجبرته على إطلاق يدها، بل لعلّه

وثبات وبلا تردّد. وحادثتها عيناه حديثاً عميقاً يعي اللسان والحواسّ جميعاً، فتردّد صداه في أعماق نفسها محرّكاً غرائزها. ولعلّها وجدت هذا الشعور العميق الصادق - وهي لا تدري - يوم التقت عيناهما أول مرة، يوم حدجها بنظرته العارمة المتحدية، وابتسم إليها تلك الابتسامة الظاهرة، فانجذبت إليه كما تنجذب إلى المعترك المستعر. والحق أنّها عرفت قدراً من نفسها على ضوء عينيه، فلم تعد الضالّة في متاهة الحياة، ولم تعد الحائرة إلى نظرة عباس الحلو الوديعة وثروة السيد علوان الطائلة، ولكنّها شعرت بأنّ هذا الرجل طلبتها، وأنّ ما يستثيره في صدرها .. الانفعال والإعجاب والاستفزاز هو لذتها التي تُجذب إليها بفطرتها، كما تجذب إبرة البوصلة إلى القطب، وأنّه رجل من غير الخثالة التي يستعبد الفقر والحاجة كما يشهد بذلك مظهره وأوراقه المائيّة. وراحت ترنو إليه بعينين متألّقتين تذكيان ضياء من وجد وتؤبّب، ولم تبرح مكانها حتّى غادر القهوة وهو يودّعها بابتسامة خفيفة، فاتبعته ناظرها وهي تقول وكأنّها تتوعده «غداً».

وفي عصر الغد غادرت البيت بقلب ملؤه الشوق والتحدّي والهيام بالحياة. وما كادت تخرج من الصناديق حتّى رأت أنه عن بعد واقفاً عند ملتقى الغوريّة بالسكّة الجديدة، فلاحت في عينها لمعة خاطفة، وانبعث في صدرها شعور غامض غريب، وهو مزيج من السرور والرغبة الوحشية في القتال! وقدّرت أنّه سيتبعها في الذهاب والإياب حتّى يخلو لها الجوّ في الدراسة. فسارت على مهل دون أن يخالجها شعور بالاضطراب أو الحياء، واقتربت منه كأنّها لا تراه، ولكن حدث - وهي تمرّ به - ما لم يقع لها في حسابان، فقد سار معها ومدّ يده بجرأة لا توصف فقبض على راحتها، وقال لها بهدوء متجاهلاً المارّة والواقفين:

- مساء الخير يا عزيزتي ..

أخذت على غرّة، فحاولت أن تستردّ يدها ولكنّها لم تفلح، وخافت إن أعادت الكرّة أن تستلفت الأنظار، فاستولى عليها الارتباك والغيظ، ووجدت نفسها بين



## زقاق المَنَق ٧٢٣

وتورّد وجهها، وخیل إليها أنّها تصغي إلى قلبها يتحدث، وقبست عيناها جذوة من قلبها المستعر حماسًا وعاطفة، واستدرك بثقة ويقين:

- هذا حُسن خليق بالنجوم . . .

وابتهلت هذه الفرصة لتبادل الحديث، فعطفت نحوه رأسها مبتسمة بجرأتها الفطرية، وتساءلت وهي لا تدري ما يعنيه:

- النجوم؟!؟

فابتسم إليها ابتسامة حلوة وقال:

- نعم. ألا تذهبن إلى السينما؟ . . . يدعون الحسناوات من الممثلات بالنجوم.

وكانت تذهب إلى سينما أولمبيا مع أمّها في فترات متباعدة لمشاهدة بعض الأفلام المصرية، فأدركت ما يعنيه، وغمر شعورها سرور راقص لاحت آثاره الوردية في خديها وساد الصمت خطوات ثم سألتها برقة:

- ترى ما اسمك؟

فقال بلا تردّد:

- حميدة . . .

فقال مبتسمًا:

- أما الذي سحرت لبه ففرج إبراهيم. في مثل حالتنا يكون الاسم آخر ما يعرف، وهو يعرف عادة بعد أن يكون الشخصان قد أيقنا أنّها واحد، أليس كذلك يا ستّ الملاح؟

ليتها تتقن الكلام كما تتقن السبّ والعراك مثلًا! إنّه يحسن الحديث ولكنها عاجزة عن مجاراته، وقد ضايقها ذلك، ولم تقنع بالدور السليبي الذي يلدّ بنات جنسها، وتشوّقت بفطرتها إلى شيء آخر، غير الانتظار والسكوت والحياء. ولما كان الإفصاح عن هذا الشعور الغامض غير ميسور، فقد ساورها قلق وانفعال، وحدجته بنظرة ثابتة. وزاد من أسباب انفعالها أن انتهى الطريق، فشارفا ميدان الملكة فريدة على غير شعور بالوقت، ولم تر بدأً من أن تقول وهي تدفن حسرتها في أعماقها:

- الآن نعود.

لو حاول استردادها مرّة أخرى لما مانعت، وهل كانت غادرت بيتها وفي عقلها شيء غير لقائه؟! . . . فضلاً عن هذا كلّ فقد ساءها أن يبدو أشدّ طمأنينة وجسارة منها فسارت إلى جانبه غير عابئة بالسابلية، متخيّلة ما سيحدثه منظره في نفوس فتيات المشغل من الدهشة المقرونة بالحسد، وسرعان ما عاود قلبها الشوق والاستهانة والرغبة الجاححة في الحياة والمغامرة. . . وراح الرجل يقول:

- إني أعتذر عمّا بدر مني من خشونة، ولكن ما حيلتي في عنادك؟! تعمّدت تعذيبي، وما أستحقّ إلاّ عطفك جزاء ما أكرّ لك من عاطفة صادقة وما أبذل في سبيلك من عناء متّصل . . .

ما عسى أن تقول له؟ إنّها ترغب أن تخاطبه، وأن تبادل الحديث، ولكنها لا تدري كيف، خصوصاً وأنّ آخر ما نطقت به كان نهرًا وشتيمة، وقطع عليها تفكيرها أن رأّت صويحاتها مقبلات غير بعيدات، فقلت بارتياح كاذب:

- صاحباتي! . . .!

ونظر الرجل فيما أمامه فرأى الفتيات وقد ركّزن عليه نظرات متفحّصة. وعادت تقول بلهجة تنمّ عن التأنيب، وهي تداري سرورها:

- فضحتني! . . .!

فقال بازدياء، وإن سرّه أن تلازم جانبه، وأن تخاطبه خطاب الرفيق للرفيق:

- لا عليك منهنّ . . . فلا تباليهنّ . . .

واقتربت الفتيات، فبادلتهم نظرات ذات معانٍ، وهي تذكر بعض ما قصصن عليها من مغامرات، ثمّ مررن بهما متضاحكات متهامسات. وعاد الرجل يقول في خبث ودهاء:

- هؤلاء صاحباتك؟! . . . كلاً، لا أنت منهنّ ولا هنّ منك، ولكنّي أعجب كيف يتمتّعن بحريّتهنّ بينما تقبعين أنت في البيت. وكيف يرفلن في الثياب الزاهية بينما تتحفين أنت في هذه الملاعة السوداء! كيف حدث هذا يا مليحة؟! . . . أهو الحظّ؟ ولكن يا لك من صابرة متجلّدة!؟ . . .!

فقال بإنكار:

- نعود!

- هذه نهاية الطريق .

فقال محتجاً:

- ولكنّ الدنيا لا تنتهي بانتهاء الموسيقى . لماذا لا

نجول في الميدان!

فقالت على رغمها:

- لا أريد أن أتأخّر عن موعد عودتي، أن تقلق

أمي . .

فقال بإغراء:

- إذا شئت ركبنا تاكس فيقطع بنا مسافة طويلة في

دقائق معدودات .

تاكس! رتت الكلمة في أذنيها رنيناً عجيباً . ولم

تكن ركبت في حياتها إلا العربية الكارو . ومضت ثوانٍ

قبل أن تفيق من سحر الكلمة العجيبة، بيد أنّ الأمر

لا يخلو من اعتبار آخر وهو ركوب التاكس مع رجل

غريب، إلا أنّها وجدت في هذا الاعتبار داعياً للهجوم

لا للكوص، وتولّاه نزع طاغٍ إلى المغامرة، كأنما

لقيت فيه ترويحاً عن ذاك الشعور القلق المكتوم الذي

أعيها الإفصاح عنه قبل ذاك بقليل، ولم تكن تدري

أنّ بها مثل هذه الطاقة على الاستهتار والمغامرة حتّى

ليتعذّر القول أيّها كان أشدّ استحواداً على مشاعرها في

تلك اللحظة: الرجل الذي حرّك أعياقها أم المغامرة

ذاتها، ولعلّها كانا الاثنين معاً . ولاحت منها نظرة إليه

فرائته ينظر إليها بإغراء وعلى شفّيته ظلّ الابتسامة التي

طلما أهاجتها، فتغيّر شعورها وقالت:

- لا أريد أن أتأخّر . .

فشعر بخيبة وقال متأسّفاً:

- أتحافين . . ؟

فازداد شعورها حدّة وقالت بتحدّ:

- لست أخاف شيئاً . .

فأضاء وجهه، وكأنّه عرف أشياء وأشياء، وقال

بسرور:

- سأدعو تاكس . .

وكفّت عن المعارضة، وثبتت عيناها على التاكس

وهو يقترب من موقفها حتّى وقف قبالتها، وفتح

الباب لها، فانحنت قليلاً خافقة الفؤاد وهي تقبض

على مساك ملاءتها، وصعدت إليه . وتبعها الرجل وهو

يقول لنفسه بارتياح «وَقَرْنَا تعب يومين أو ثلاثة أيام» .

ثمّ سمعته وهو يقول للسائق «شارع شريف

باشا . . .» . شريف باشا، لا المدقّ ولا الصنادقيّة ولا

الغوريّة ولا حتّى الموسيقى، شريف باشا! . . ولكن

لماذا عيّن هذا الشارع بالذات؟! . . وسألته:

- أين تقصد؟

فقال، وكان كتفه يمّس كتفها:

- نجول قليلاً ثمّ نعود . . .

وتحرّك التاكس فتناست كلّ شيء إلى حين، حتّى

ذلك الرجل الذي يكاد يلتصق بها . وقلقت عيناها بين

الأنوار التي تتخطفها، فلاححت لها الدنيا الجديدة خلال

زجاج النافذة باهرة ضاحكة . وانتقلت حركة التاكس

إلى جسمها وروحها، فانبعثت في نفسها نشوة مطربة،

وتهبّ لها أنّها تطير طيراناً، وتخلّق في سماء الدنيا، وكأنّ

وجدانها من البهجة يسجع شادياً متجاوباً مع انسياب

الحركة وتمجّد المناظر والأنوار، حتّى تألّقت عيناها

بوميض مشرق، وافتّر نغرها عن إشراق وذهول .

وجرى التاكس في خفّة، يخوض خضماً من العربات

والسيّارات والترام والناس، وجرى معه خيالها،

فاستحرّ حماسها، وسكرت مشاعرها، ورقص قلبها

ودمها وخواطرها . ثمّ أفادت إفاقة مباغثة على صوته

يمس في أذنها قائلاً: «انظري إلى الحسان كيف يرفلن

في نياهنّ النورانيّة» . . . أجل . . . إنهنّ يتمايلن مبعثرات

كالكواكب المنيرة . . . ما أجملهنّ، ما أبدعهنّ! وذكرت

عند ذلك فحسب ملاءتها وشيشيها فانقبض قلبها،

واستيقظت من نشوتها كما يستيقظ الحالم من حلمه

السعيد على لدغة عقرب . وعضّت على شفّتها في

امتعاض، ثمّ تملّكتها مرّة أخرى روح التمرد والثورة

والعراك! وتنبّهت إلى أنّه التصق بها وهي لا تدري،

فأخذت تستشعر مسّه الذي انتشر في حواسها، وحي

به قلبها، فهفّت إليه بقوة فوق إرادتها . ورنّا إليها

بلحظ كأنما يستطلع ميولها، ثمّ تناول راحتها بلطف

## زقاق المدق ٧٢٥

خوض غمار هذه المعركة. وهل كان في وسعها أن تدعى إلى النزال ثم تعرض عن الداعي؟! لم يكن الذي يستفزها غضب للفضيلة أو الخلق أو الحياء فهذه جميعها اعتبارات لم تألف الغضب لها أو الغيرة عليها، ولكنه غضبٌ لكبريائها وشعورها الطاغية بقوتها ورغبتها الجنونية في الملاحة والعراك، ولم تخل أيضاً من جنون المغامرة الذي قذف بها إلى التاكس! وجعل الرجل ينعم إليها النظر وهو يقول لنفسه في تفكير وسخرية معاً: «محبوبي من النوع الخطر الذي يفرع باللمس فيستوجب العناء الشديد والترويض الماهر»، ثم قال لها برجاء ورقة:

- أرجو أن أقدم لك قدحاً من الليمون..  
ورمته بنظرة قاسية متحدية، ثم غمغمت:  
- لك ما تشاء..

وفتح الباب مسروراً، وانزلق إلى الطريق، وتبعته على الأثر باستهانة وجرأة، ووقفت تنفخ المكان والرجل يدفع الأجرة للسائق. وجرت خواطرها إلى الزقاق الذي خرجت منه اليوم، وعجبت للمغامرات التي اقتحمتها غير هيابة حتى انتهت إلى هذه العمارة الهائلة! من يصلق هذا؟! وما عسى أن يقول السيد رضوان الحسيني مثلاً لو رآها تمرق إلى هذه العمارة؟ وارتسمت ابتسامة على شفيتها، وداخلها شعور غريب بأن هذا اليوم هو أسعد أيام حياتها على الإطلاق.

وهرع الرجل إليها، وأخذ يدها، فدخلا العمارة معاً. وارتقيا سلماً عريضاً إلى أول طابق، ثم سارا في ردهة طويلة إلى باب شقة على يمين القادم واستخرج من جيبه مفتاحاً عاليج به الباب وهو يقول لنفسه بارتياح «اكتسبت يوماً أو يومين آخرين!»، ثم دفع الباب وأوسع لها، فدخلت ودخل وراءها، ثم أغلقه. وجدت نفسها في دهليز طويل يعترض الداخل تحديق به الحجرات من الجانبين، ويضيئه مصباح كهربائي قوي الإشعاع. ولم تكن الشقة خالية، فضلاً عن المصباح الذي كان مضاء قبل مجيئها ترامت إلى أذنيها أصوات من وراء الأبواب المغلقة، كلام وزعق وغناء! وأتجه فرج إبراهيم إلى الباب قبالة المدخل ودفعه،

وجعلها بين راحتيه، وتشجع باستسلامها فهوى بغمه إليها. وكأنها أرادت أن تتقيه فألقت برأسها إلى الوراء قليلاً، ولكنه لم يجد في ذلك رادعاً كافياً فطع شفثيه على شفثيتها وسرت في أعماقها رعدة، وشعرت برغبة جنونية تدعوها إلى أن تعض شفثيه حتى تدميها!... رغبة جنونية حقاً، ركبها كما يركبها عفريت العراك، ولكنه ارتد عنها قبل أن تنفذها! ولبثت شعلة الجنون متأججة في صدرها تهب بها إلى أن ترتمي على صدره وتنشب أظافرها في رقبتة، حتى أنقذه منها صوته وهو يقول برقة:

- هذا شارع شريف باشا... وهذا بيتي على بعد خطوات، ألا تحبين أن تريه؟!  
والفتت متوترة الأعصاب إلى حيث تومئ سببته فرأت عمارات تناطح السحاب لم تدر أيتها يعني. وأمر السائق بالوقوف أمام واحدة منها، وقال لها:  
- في هذه العمارة...

ورأت عمارة ضخمة سامقة ذات مدخل أوسع من زقاق المدق، ثم ارتد عنها طرفها في حيرتها، ثم سألت بصوت منخفض:

- في أي طابق..؟

فقال مبتسماً:

- الأول. لن تتجشمي مشقة إذا تفضلت بزيارتها...

فرمته بنظرة حادة متقدمة فاستدرك قائلاً:

- ما أسرع غضبك!.. ومع ذلك دعيني أسألك ما وجه العيب في ذلك؟ لم أزرك دوماً منذ وقعت عليك عينا فلماذا لا تردين الزيارة ولو مرة واحدة؟

ماذا يريد الرجل؟.. أحمده نفسه بأنه وقع على صيد سهل؟.. أطمعته القبلية التي استسلمت لها فيما هو أجمل وأخطر؟ هل أعماه غروره وشعوره بالظفر؟!.. وهل هذا مال الحب الذي أفقدها وعيها؟! واشتعل الغضب بقلبها، وتوثبت جميع قواها للضلال والتحدّي، وتمتت لو تطاوعها نفسها على السير معه إلى حيث يريد، لترى من نفسها ما يجهل، ولترد إليه صوابه. أجل، دعاها شعورها المتمرد الجامح إلى

وجذبها برقة وهو يقول:

- هلمّي نجلس على الكنبه .

ولم تمنع فنهضت قائمة إلى حيث جلسا جنبًا لجنب على كنبه كبيرة . وكانت تتقاسمها في تلك اللحظة مشاعر الميل إلى الرجل الذي تحبه وأحاسيس التحدي للرجل الذي قد تمنّيه نفسه بأنه قادر على الضحك على ذقنها . واقترب الرجل منها رويدًا حتى لاصقها، ثم أحاط خاصرتها بذراعه، وهي مستسلمة ساكنة لا تدري متى يحق لها المقاومة، ومدّ يدها إلى ذقنها فرفع ثغرها إليه وهوى بضمه متمهلاً كأنه ظمان يكرع من جدول، حتى التقت الشفاه . وطال التقاؤهما كأنما أخذتها سنة من الغرام . وأما هو فكان يستجمع حرارته وقوته في شفثيه لينفذ بها إلى ما يريد، أما هي فكانت تسكر وتشمل، إلا أن توتئها أفسد عليها رقية السحر التي تحرق شفثيتها فظلت متنبهة متربصة . وأحسّت يده تسترخي عن خاصرتها، وترتفع إلى منكبها، ثم تهفو الملاءة عنه، فحقق فؤادها بعنف، وتصلب عنقها مبتعدًا عنه، وأعادت الملاءة بحركة عصبية إلى موضعها وهي تقول بحفاء:

- كلاً . . .

ونظر إليها بدهشة فوجدها تطالعه بنظرة جامدة تنطق بالإباء والعدا والتحدي، فابتسم متبالمًا وهو يقول لنفسه «هي كما ظننت متعبة، بل متعبة جدًا» . ثم خاطبها قائلاً بصوت منخفض:

- لا تؤاخذيني يا عزيزتي فقد نسيت نفسي . . .

وأدارت وجهها عنه لتخفي ابتسامه ارتسمت على شفثيتها سرورًا بالظفر، ولكن ذلك لم يطل أمده فقد وقع بصرها أتفأقًا على يده فأدركت لأول وهلة الفارق الكبير بين يده الجميلة ويدها الخشنة، وتولّأها الحياء ثم قالت له باستياء:

- لماذا جئت بي إلى هنا؟ . . . هذا شيء سخيف!

فقال معترضًا بحماس:

- هذا أجمل شيء فعلته في حياتي . . . لماذا

تستوحشين من بيتي! أليس هو بالتالي بيتك أيضًا؟!

ولاحت منه نظرة إلى شعرها وقد انحسرت عنه

ودعاها للدخول، فانتقلت إلى حجرة متوسطة، مؤنثة بمقاعد جلدية ما بين كراسي وكنبات، تتوسطها سجادة مرتبة مزركشة وفي الصدر منها مرآة مصقولة تناطح السقف، وتهض على منضدة مستطيلة مذهبة الأرجل، وقد طالع الرجل نظرة الدهشة الحائرة في عينيها بسرور وقال لها بلطف:

- اخلي ملاءتك وتفضلي بالجلوس . . .

فاقتعدت كرسياً دون أن تخلع ملاءتها وقد ارتاح جسمها إلى مسنده ومقعده الطريين، وتمتمت بلهجة تنم عن التحذير:

- ينبغي ألا أتأخّر . . .

فمضى إلى مائدة أنيقة وسط الحجرة قام عليها «ترموث» وفضّ سدّادته وأفرغ منه في قدحين (شراب الليمون المثلوج)، وقدم لها قدحًا وهو يقول:

- سيعود بك التاكس في دقائق . . .

وشرباً معاً حتى رويًا، ثم أعاد القدحين إلى المائدة، وفي أثناء ذلك استرقت إليه نظرات فاحصة، سبرت بها جسمه الفارع الرشيق . وثبتت عيناها غير قليل على يده فراعها جمالها وجاذبيتها، كانت جميلة التكوين، رشيقته، سبطة الأنامل، توحى بالقوة والجمال معاً، فانها منها تأثير عجيب لم تجده لغير نظرتيه من قبل . وجعل يطيل النظر إليها مبتسماً ابتسامه رقيقة كأنما يطمئنها ويشجعها، ولكنّها لم يداخلها ظلّ من الخوف وإن توتّرت أعصابها قليلاً من الحذر والتوجس والتوتّب، وذكرت الأصوات التي سمعتها حال دخولها الشقة، فعجبت كيف نسيتهما، وسألته:

- ما هذه الضوضاء في الشقة؟

فأجابها قائلاً وكان لا يزال واقفاً قبالتها:

- بعض الأهل وسوف تعرفينهم في الوقت

المناسب . . . لماذا لم تخلعي ملاءتك؟

وكانت ظنّته يقيم بمفرده حين دعاها إلى بيته، فعجبت كيف يقودها إلى بيت ماهول . وتجاهلت سؤاله الأخير، ولبتت ترنو إليه بسكينة وتحذ، ولم يعاود سؤاله، ولكنه اقترب منها حتى مسّ حداؤه شبشبها، ومال نحوها قليلاً ثم مدّ يده إلى يدها فشدّ عليها،

## زقاق المنق ٧٢٧

نضير في مقبرة مليئة بالعظام النخرة. ألم تري إلى  
الحسان يرفلن في الثياب الفاخرة؟ وإنك لتفوقين  
جمالاً وفتنة، فكيف لا تخطرين مثلهن في المطارف  
والحلي؟.. إن الله أرسلني إليك لأردّ إلى جوهرك  
النفيس حقّه المسلوب. وعلى ذلك أقول إن هذا بيتك  
وكفى... .

ولعبت كلماته بقلبها كما تلعب أنامل العازف بأوتار  
الكمان، فخدر شعورها، وتقارب جفناها، ولاحت في  
عينها نظرة حاملة. ولكنّها تساءلت ماذا يعني يا  
تري؟... هذا حقاً ما يهفو إليه فؤادها، فما السبيل  
إلى تحقيق الأحلام وتقريب المنى؟.. لماذا لا يفصح عمّا  
يريد ويصرّح بما ينوي؟.. إنه يعبر أروع تعبير عن  
أمالها وأحلامها ورغباتها، إنّه ينطق بلسانها الخفيّ  
ويشي بأعماقها جميعاً، إنّه يجلو الغامض الخفيّ ويحسم  
المعروف حتّى لكأنتا تراه رؤية العين، إلّا شيئاً واحداً  
لم يمسه صراحة، ولم يقتحم السبيل إليه، فما حكمة  
التردد يا تري؟! ونظرت إليه بعينيها الجميلتين  
الجسوريتين وسألته:

.. ماذا تعني؟

فشعر الرجل بأنّه ينتقل إلى مرحلة خطيرة من  
مراحل خطته المرسومة، ورمائها بنظرة منوم بارع ثمّ  
قال بصوت خافت:

.. أعني أن تبقي في البيت اللائق بك، وأن تتمتعني  
بأسعد ما تجود به الحياة.. .

وضحكت ضحكة قصيرة في ارتباك وحيرة وتمتمت:

.. لا أفهم شيئاً.. .

فمسح على مفرق شعرها بحنان، متعوّداً بالصمت  
رئياً يرتّب أفكاره ثمّ قال:

.. لعلك تساءلين كيف يريدني على أن أبقى في  
بيته؟!.. فأذني لي أن أسألك بدوري لماذا تعودين إلى  
المدق؟.. ألتتظري هناك شأن الفتيات البائسات حتّى  
يتعطف رجل من مخلوقات الزقاق فيتزوّجك ويلتئم  
حسنك النضير وشبابك الغضّ ثمّ يتركك لفي في  
الزبالة؟! لست أحادث فتاة بلهاء تذهب بها كلمة  
فارغة ونحيء بها أخرى، ولكنّي أعلم علم اليقين أنّك

الملاءة، فأذني رأسه ولثمه قائلاً:

.. الله ما أجمل شعرك!.. إنّه أجمل شعر رأيت في  
حياتي.

قال ذلك صادقاً رغم رائحة الغاز التي ذابت في  
أنفه، فلذّها إطرأؤه بيد أنّها سألته:

.. إلأم نبقى هنا؟

.. حتّى يتمّ التعارف بيننا، فلدينا بلا ريب أشياء  
وأشياء ينبغي أن نقولها، أخائفة أنت؟.. محال!..  
أراك لا تخافين شيئاً!

فغلبها السرور حتّى اشتهدت أن تقبله، ورنق  
الصفاء في صدرها. وكان يتفرّس في وجهها فقال  
لنفسه «الآن فهمتك يا ابنة اللبوة!» ثمّ قال لها بصوت  
تنتفض نبراته حرارة:

.. لقد اختارك قلبي، وقلبي لا يكذبني، ومن  
يجمعها الحب لا يفرّقها شيء، فأنت لي وأنا لك... .  
وأذني وجهه منها كالمستأذن، فمالت بعنقها نحوه  
فالتقيا في قبلة عنيفة، واستشعر ضغط شفيتها الساحر  
على شفثيه يكاد يعصرهما، فهمس في أذنها:

.. محبوبتي... محبوبتي... .

وزفرت من الأعماق، ثمّ اعتدلت في جلستها لتستردّ  
أنفاسها. وراح يقول برقة بالغة في صوت كالهمس:  
.. هنا مكانك، وهذا بيتك، بل هنا «وأوماً إلى  
صدره» ماواك... فضحكت ضحكة قصيرة وقالت:  
.. أراك تذكّرني بأنّه ينبغي أن أعود الآن إلى  
البيت... .

وكان في الواقع يستلهم خطّة مرسومة من قبل،  
فقال بإنكار:

.. أيّ بيت تعنين؟.. بيت الزقاق!.. آه، ليتك  
تسكين عن ذكر ذلك الحيّ جميعاً. ماذا يعجبك في هذا  
الزقاق؟ لماذا تعودين إليه؟!  
فضحكت الفتاة قائلة:

.. كيف تسألني عن هذا؟! أليس هو بيتي وأهلي؟!  
فقال بازدياء:

.. لا البيت بيتك، ولا الأهل أهلك. إنك من طينة  
أخرى يا محبوبتي، ومن الكفر أن يعيش جسم حيّ

شابة قليلة الأشباه، جمالك فتان، ومع ذلك فهو مزية واحدة بين مزايا عديدة تكاد تغطي عليه. أنت الجسارة نفسها، ومثلك إذا أراد شيئاً يقول له كن فيكون...

وانكفاً لونها، وجددت قسماتها، فقالت بحدة:

- هذا دعابة لا تجوز علي!.. بدأت مازحاً، وانتهيت وكأنك جاد..!

- دعابة؟!.. لا والله، لا وحقّ قدرك عندي. أنا لا أداعب حين الجدّ خاصة شخصاً مثلك ملأني تقديراً واحتراماً وحباً. وإذا صلق حدسي فأنت قلب كبير يستهين بكلّ شيء في سبيل سعادته، ولا يمكن أن تقف في سبيله عقبة. إنّي أريد شريكاً في حياتي، وإنك لشريكي دون الناس جميعاً...

فهتفت به في انفعال شديد:

- أيّ شريك؟!.. إذا كنت تجد حقاً فإذا تريد؟!.. الطريق بين. فإذا أردت...

وكادت تقول «أن تتزوّجني» ولكنها أمسكت، وسدّدت نحوه نظرات حادة مريبة، فلم يفته مرادها، واستشعر سخرية باطنه، ولكنه واصل سيره حيث لم تعد ثمة فائدة ترجى من التراجع، فقال بحماس تمثيلي:

- أريد شريكاً محبوباً نفتحم معاً حياة النور والثروة والجاه والسعادة، لا حياة البيت التعسة والحبل والولادة والقذارة، حياة النجوم اللاتي حدّثتك عنهنّ..

وفتحت فاهها منزعجة، ثم انبعث من عينيها نور مخيف، واصفرت غضباً وحنقاً، وغلبها الهياج فصاحت به وقد استقام ظهرها:

- تدعوني للفساد!.. يا لك من مفسد أثيم...

هكذا هدرت في غضبها وإن كان غضبها للمفاجأة التي دهمتها والخبية التي أدركتها أكثر منه للفساد الذي لم تعتد أن تثور له!

وتبسّم الرجل كالهزئ وقال:

- إنّي رجل...

ولكنّها قاطعته صارخة مدفوعة بطبعها الحامي:

- لست رجلاً، بل أنت قواد..

فضحك ضحكة عالية وقال وما يزال يضحك:

- أليس القواد رجلاً أيضاً؟!.. بلى... وهو

رجل - وحقّ جمالك الفتان - ولا كلّ الرجال. وهل

تجدين عند الرجل العادي غير وجع الدماغ؟! أما القواد فهو سمسار السعادة في هذه الدنيا! ولكن لا تنسي أنّي محبّك كذلك. لا تدعي الغضب يحطم حُبنا.

إنّي أدعوك للسعادة والحبّ والجاه. ولو كنت فتاة بلهاء لخادعتك، ولكنّي قدّرتك فأثرت معك الصراحة والحقّ. إنّ كليتنا من معدن واحد، خلقنا الله للحبّ والتعاون، فإذا اجتمعنا اجتمع لنا الحبّ والمال والجاه، وإذا افترقنا للشقاء والفقر والذلّ، أو افترق أحدنا - على الأقلّ - لذلك...

ولم تتحوّل عنه عيناها، وراحت تتساءل في ذهول كيف تمخّض عن هذا؟! ولبت صدرها يجيش بالهياج والانفعال، ومن عجب أنّها ثارت به ووجدت عليه وتغيّظت منه، ولكنها لم تحتقره، ولم تنفك عن حبه لحظة واحدة! لا بل لم تنس - حتّى في عنفوان هياجها - أنّها تصارع الرجل الذي لقنها الحبّ وثبته في أعماقها. وأرهقها الانفعال فنهضت قائمة في حركة عنيفة وقالت في سخط وغيظ:

- لست كما تظنّ...

فنتهد بصوت مسموع متكلفاً الحزن، وإن لم تخنه ثقته شأن رجال الأعمال، وقال بصوت أسف:

- لا أكاد أصدّق أنّي انخدعت بك. ربّاه!

أتصبحين يوماً من عرائس المدق؟! حبل وولادة، وحبل وولادة، إرضاع أطفال على الأرصفة، ذباب وبصارة وفول، ذبول وترهل؟!.. كلّاً، كلّاً... لا

أريد أن أصدّق هذا...

فصاحت به غير متألّكة نفسها:

- كفى...

وانطلقت نحو الباب فنهض مسرعاً، ولحق بها وهو يقول برقة «رويدك»، ولكنه لم يعترضها ففتح لها الباب، وخرجها معاً. جاءت سعيدة غير هيّابة، وذهبت مهيضة ذاهلة. ووقفاً أمام الباب الخارجيّ حتّى جاءها

## زقاق المذق ٧٢٩

تستلقي عليها. ولم تكد تمضي دقائق حتى راحت الأم في نوم عميق، وملأت الحجرة شخصياً. وليثت حميدة محمقة في النافذة المغلقة وقد نضح خصاصها بنور القهوة المتصاعد. استحضرت ذاكرتها حوادث يومها العجيب فلم يفتها منه حركة أو سكنة أو كلمة، وعاش في خيالها مرة أخرى، وذكرت ما وقع فيه من مغامرات جريئة لا يكاد يصدقها العقل، فشعرت على رغم قلقها الراهن بسرور غير خافٍ، سرور الزهو والفخار والجنون الكامن في غرائزها. ولم تنس مع ذلك أنها قالت عن ذلك الرجل وهي راجعة إلى زقاقها «يا ليتني لم أراه». ولكنه كان قول لسان لم يجد له صدى في قلبها. والحق أنها عرفت من نفسها في ذلك اليوم ما لم تستطع معرفته مدى عمرها. وكأن هذا الرجل قد اعترض سبيلها لتجلبو ما خفي من ذاتها ويسطه لناظرها كمرآة مصقولة. بيد أنها قالت له «كلًا» وهي تفارقه، وربما لم يكن لها عن هذا القول مذهب، ولكن ما معناه على وجه التحقيق؟! أليس معناه أن تقبع في بيتها مترقبة عودة عباس الحلوة؟! رباه، لم يعد للحلو مكان في نفسها. انحى أثره، وتبدد زجع صدهاء. وليس الحلوة في الواقع إلا هذا الزواج الثعس، وما يعقبه من حبل وولادة وإرضاع على الأرصفة وذباب، إلى آخر هذه الصورة البشعة الممقوتة. أجل. لم يكن لعاطفة الأمومة نبع يتفجر في نفسها شأن الفتيات من أترابها، ولم تكن نسوة الزقاق بمجنونات عليها فيما رميتها من قسوة وشذوذ، فإذا تبغى إذا؟!... وخفق قلبها خفقانًا متتابعًا فعضت على شفيتها حتى كادت تدميها. إنها لتعلم ما تبغى، وبما تهفو إليه نفسها، كان يجري قبل اليوم في شعورها متقلقلًا بين النور والظلمة، ولكنه شق اليوم غشاوة الغموض وأسفر جليًا لا لبس فيه ولا إبهام. ومن عجب أنها لم تعان - في سهادها - تردًا خطيرًا فيما ينبغي أن تختار من سبيل، ولم تشعر كثيرًا بوطأة التجاذب بين ماضيها وحاضرها، أو بين ما في حياتها من خير وما يتصدى لها من شر، بل الحق أنها اختارت سبيلها بالفعل وهي لا تدري، ووقع اختيارها عليه

غلام بتاكس ودخله كل من باب، ومضى بهما مسرعًا. ابتلعها أفكارها فغابت عن الدنيا، وجعل يسترق إليها النظر صامتًا دون أن يجد حكمة في خرق الصمت المخيم. وانطوى الطريق على هذا الحال حتى بلغ التاكس منتصف الموسيقى، فأمر السائق بالوقوف، وتبتهت على صوته فألقت بصرها إلى الخارج ثم تزحزحت قليلًا استعدادًا للنزول، فوضع يده على أكرة الباب ليفتحه لها، ولكنه تريت قليلًا، ثم مال نحوها فلثم منكبها وهو يقول:

- سأنتظرك غدًا...

فابتعدت عن الباب وهي تقول باقتضاب وحدة:

- كلًا...

فقال ويده تدير الأكرة:

- سأنتظرك يا محبوبتي... وستعودين إلي...

ثم قال لها وهي تغادر التاكس:

- لا تنسي الغد، سنبدا حياة جديدة رائعة...

أحبك... أحبك أكثر من الحياة نفسها...

وراح يرقبها وهي تتعد متعجلة، وقد ارتسمت على شفيتها ابتسامة ساخرة وقال لنفسه «مليحة بلا أدنى شك، وهيئات أن يكذبني ظني، فهي موهوبة بالفطرة... هي عاهرة بالسليقة... وسوف تكون نادرة المثال...»

- ٢٤ -

سألتها أمها:

- لماذا تأخرت...؟

فأجابتها بلا مبالاة:

- دعني زينب إلى بيتها فذهبت معها.

فبشرتها المرأة بأنها سيشهدان عرس الست سنية عفيفي عمًا قريب، وأخبرتها أن الست ستهدي إليها فستانًا لحضور الزفاف، فتظاهرت حميدة بالسرور، وجلست تصغي إلى ثرثرة أمها ساعة طويلة، ثم تناولتا عشاءهما وأوتا إلى حجرة النوم، وكانت حميدة تنام على كنبه قديمة، أما أمها فتفرش حشيتة على أرض الغرفة

وازع إلا ما يعوق المنحدر إلى الهاوية من دفاق الحصار. ثم انتقل ثيار أفكارها فجأة إلى أمها، فالتفت نحوها وقد ملأ أذنيها شخيرها الذي كان غاب عنها ساعة طويلة، فتصوّرتها في غدها وقد طال انتظارها لها حتى أشفت على اليأس. وذكرت كيف أحببت المرأة حباً صادقاً لم يترك في قلبها إحساساً - وإن قلّ - بالحرمان من الأمومة، وكيف أحببتا هي أيضاً على كثرة ما شجر بينهما من نزاع وشقاق، وكأنما خافت أحاسيس العطف التي أخذت تدبّ في نفسها فزفرت بقوة وضجر وقالت لنفسها: «لا أب لي ولا أم، وليس لي في الدنيا سواه»، وولت الماضي كشحها، ولم تعد تفكر إلا في الغد وما عسى أن يتكشف عنه ثم أمضتها السهاد، وشعرت بحرارته تصهر جفونها ودماعها، فتمتت أن ينقذها النوم من عذابه وأن تغمض عينيها فلا تفتحها إلا على نور الصباح. وأهابت بإرادتها أن تنس عن رأسها ما ينثال عليه من خواطر، فنجحت في طردها إلى حين، ولكنها تنبّهت إلى الأصوات المتصاعدة من قهوة كرشة، ووقعت من نفسها موقناً مثيراً فراحت تلعبها وتتهمها بتطير النوم من عينيها. وجعلت تنصت إليها على رغمها، وتسبّ مخدّتها في حنق وغضب. «يا سنقر غبّر ماء النرجيلة». هذا صوت الفاجر الحشاش كرشة. «يا سيدي ربك يعدها» وهذا عمّ كامل الحيوان الأعجم. «ولو. كل شيء له أصل». هذا الأعمش القدر الدكتور بوشي. وتمثّل لها حبيبها - على غرة - بمجلسه المختار ما بين المعلم كرشة والشيخ درويش، وتمخّلت وهو يشير إليها بقبلاته فخفق فؤداها، ثم استحضرت ذاكرتها صورة العمارة الهائلة، والحجرة الرائعة، وسرعان ما طنّ صوته في أذنيها وهو يهمس قائلاً: «ستعودين إليّ..». ربّاه! متى يرحمها النوم؟ «السلام عليكم يا إخوان». هذا صوت السيّد رضوان الحسيني الذي أشار على أمها برفض يد السيّد علوان قبل أن يهتصره المرض، ترى ماذا يقول عنها غداً إذا تناهى إليه الخبر؟ ليقبل ما يشاء، لعنة الله على الحيّ جميعاً! وانقلب الأرق صداعاً وسقماً، ومضت تتقلب على جنبيها وبطنها

وهي بين يدي ذلك الرجل، في بيته! كان لسانها يهدر غضباً وأعماقها ترقص طرباً، كان وجهها يرتد ويعبس وأحلامها تنفس وتمرح!.. وفوق هذا كلّها فإيتها لم تمقته لحظة واحدة، لا بل لم تحتقره قطّ وكان - كما لم يزل - حياتها ومجدها وقوتها وسعادتها! لم يثر حنقها إلا إدلالة بثقتها وهو يقول لها «ستعودين إليّ»!

أجل. ستعود، ولكنه ينبغي أن يؤدّي ثمن هذه الثقة الوقحة غالباً. فليس حبها عبادة وخضوعاً، ولكنه معركة يخدم أوارها ويتطير شررها. طالما اختنقت في هذا البيت، وهذا الزقاق، وهيهات أن يعاقها عائق بعد اليوم عن الانطلاق إلى النور والجاه والسلطان، وهل من سبيل إلى الإفلات من ريقة الماضي إلا عن يد هذا الرجل الذي أوقد في خيالها نارا؟ ولكنها لن تهرع إليه في خشوع وإذعان هاتفة «إني عبد يدك فافعل بي ما تشاء» لأنها لا تعرف هذا الحب. كذلك لن تنطلق إليه كالرصاصة صارخة «إني سيّدتك فتخشع بين يدي». فما أزهدها في الحب الناعم أو الحبيب الخرج. ولكنها ستذهب إليه وقلبها مشحون بالآمال والرغبات، ولسان حالها يقول: «إني قادمة بقوّتي فلاقني بقوّتك، ولتتناطح إلى الأبد في سعادة تجلّ عن الوصف، ثم متعني بما منيتني به من جاه وسعادة». لقد وضح السبيل بفضله هو، وهيهات أن تفرط فيه ولو اشترته بحياتها.

ومع ذلك فلم تخلّ ليلتها من أفكار نغصت عليها عزمتها بعض التغيص، تساءلت «ترى ماذا يقولون عني غداً؟» وجاءها الجواب في كلمة واحدة: عاهرة! وتقبّص قلبها حتى جفّ ريقها وذكرت كيف تلاحت مرّة مع واحدة من صومجباتها بنات المشغل فسبّتها صارخة «يا ربيبة الشوارع.. يا عاهرة!». معيرة إياها بالعمل كالرجال والتسكع في الشوارع. فما عسى أن يقال عنها هي؟!.. وداخلها الحزن والأسى، فتململت في رقادها جزعاً وضيقاً. ولكن شيباً في الوجود لم يكن ليثنيها عمّا اعتزمت، أو يلوي بها عمّا اختارت، فقد اعتزمت بقوة أعماقها، واختارت بمجامع قلبها، فكانت تنحدر إلى مصيرها المحتوم لا يعوقها من



## زقاق المدق ٧٣١

تبعثها النظرات كآتتها الشعلات يبعثها حَكْ أعواد الثقاب .

ومن عجب أنها وقفت حيال ذلك كَلَّه جامدة باردة لا يندى صدرها بعطف أو مودَّة لا للزقاق ولا لأهله .

وكانت أسباب الجوار والصدافقة مقطوعة ما بينها وبين غالبية نسوة الحيِّ كأمِّ حسين - أمها بالرضاعة -

والفرانة، حتَّى امرأة السيِّد رضوان الحسيني لم تسلم من لسانها، فقد بلغها يوماً أنها وصفتها ببذاءة

اللسان، فترنَّصت بها حتَّى رأتها يوماً على سطح بيتها تنشر الغسيل فصعدت إلى السطح وثبًا - وكان

السطحان متلاصقين - واقتربت من السور وجعلت تعرِّض المرأة قائلة بتهكُّم وازدراء «أسفي عليك يا

حميدة من فتاة بدئية اللسان، غير جديرة بمعاشرة الهوانم من ستات المدقِّ بنات الباشوات!» ولكن المرأة

آثرت السلامة، وتعوّذت بالصمت. وقد ثبتت عيناها غير قليل على الوكالة فذكرت كيف طلب السيِّد سليم

علوان يدها، وكيف ثملت بأحلام الثراء يوماً وبعض يوم! لكم احترقت حسرة على ضياع هذا الرجل من

يدها! ولكن شتان بين رجل ورجل!.. فإذا كان سليم علوان قد حرَّك - بثروته - جانباً من قلبها، فهذا

الذي حرَّك قلبها كلُّه حتَّى كاد يقتلعه. وعادت عيناها إلى دكان الحلاق فذكرت عبّاس الحلوى، وتساءلت ترى

ماذا يفعل إذا رجع يوماً من مهجره فلم يعثر لها على أثر؟! وذكرت وداعه الأخير على السلم بقلب متحجّر

وعجبت كيف منحته شفيتها يقبها؟! ثم ولّت النافذة ظهرها ومضت إلى الكنية أشدَّ ما تكون عزماً

وتصميماً. ورجعت أمها إلى البيت ظهرًا، فتناولتا غذاءهما معاً. وقالت لها المرأة في أثناء الطعام: «لديّ

زيجة مهمّة، إذا وقفت فيها، فتح الله علينا» فاستفسرت عن هذه الزيجة المرجوة بفتور، ولم تكذ

تلقي لما قالت بالأ، وكثيراً ما كانت تقول مثل ذلك ثم يتمخض الرجاء عن بضع جنهات وأكلة لحم! أو أكلة

لحم فحسب بالنسبة لها. ولما أن اضطجعت أمها لتنام قليلاً، تربّعت هي على الكنية وراحت تطيل إليها النظر. هذا يوم الوداع، وربما لن تقع عليها عيناها

وظهرها، ومضى الليل بطيئاً ثقيلاً مرهقاً مضنيّاً. يزيده هولاً خطورة الغد المرتقب. وقيل الفجر بقليل غشيها

نوم ثقيل استيقظت منه عند الضحى. وبادرها الصحو بأفكارها جملة كأنما سبقتها إلى اليقظة بوقت طويل،

ولكن لم يساورها التردّد وتساءلت في جزع: متى يأتي الغيب! وقالت لنفسها إنها الآن زائرة عابرة في المدقِّ

لا هي منه ولا هو منها كما قال الحبيب. ونهضت كعادتها ففتحت النافذة، وطوت حشية أمها وكومتها في

ركن الحجر، ثم كنست الشقّة، ومسحت الردهة الخارجيّة، وتناولت فطورها على انفراد لأنَّ أمها كانت

قد غادرت البيت إلى شئونها التي لا تنتهي، ثم مضت إلى المطبخ فوجدت عدساً في طبق تركته أمها لتطبخه

غداً ليومها، فعكفت على تنقيته وغسله، وأوقدت الكانون وخاطبت نفسها بصوت مرتفع قائلة «هذه

آخر طبخة في هذا البيت، وربما كانت آخر طبخة في حياتي... ترى متى أكل العدس مرّة أخرى؟!». ولم

تكن تستكره العدس ولكنها كانت تعلم أنّه غذاء الفقراء وشعار مائدتهم. كذلك لم تكن تعلم شيئاً عن

طعام الأغنياء إلاّ أنّه لحم ولحم ولحم. وأنشأ خيالها ينعم بتصور غذاء المستقبل وكسائه وزينته حتَّى

انبسطت أساريرها وقطر وجهها بشاشة حاملة. وغادرت المطبخ عند الظهر فدخلت الحمام تستحم، ثم

مشطت شعرها بأناة وعناية وجدلته ضفيرة غليظة طويلة أرسلتها وراء ظهرها حتَّى مسّت أهدابها أسفل

فخذها. وارتدت خير ما لديها من ثياب، ولكنها استاءت من مظهر ملابسها الداخليّة البالي، فتورّدت

وجهها البرنزيّ وعجبت كيف تزفّ إليه في مثل هذه الثياب، وارتدت وجهها وهاج صدرها، فصمّمت على

الآن تسلم إليه حتَّى تستبدل بهذه الثياب الرقيقة أخرى جديدة زاهية. وطاب لها هذا الرأي، وصادف من

نفسها - التي تأبى الهوى إلاّ في حومة العراك والعداء - هوى ولذّة. ثم وقفت في النافذة تلقي على حيها

نظرات الوداع. وجعل بصرها يتردّد بين معالمة بغير توقّف: الفرن، قهوة كرشة، دكان عمّ كامل، دكان الحلاق، الوكالة، بيت السيِّد الحسيني، والذكريات

- إلى الأزهر، فلا يرانا أحد... .  
 وشقاً طريقهما متباعدين، وسارا في شارع الأزهر في صمت ثقيل، وقد أدركت أنّها أعلنت - بالكلمة التي نطقت بها - تسليمها النهائي. وبلغا ميدان الملكة فريدة دون أن يخرجوا من صمتهما الثقيل. ولم تعد تدري أين تتجه فوقفت، وسمعت في اللحظة التالية ينادي التاكس، وجاءت السيارة ففتح لها الباب، ورفعت قدمها لتصعد إليها، ففصلت هذه الحركة بين حياتين! وما كادت السيارة تنطلق بها حتى قال بصوت متهذج وبمهارة فائقة:

- الله وحده يعلم كم تعذبت يا حميدة!... لم أنم من ليلتي ساعة واحدة. أنت لا تدرين يا عزيزتي ما الحب. ولكنّي اليوم سعيد، بل أكاد أجزّ من الفرح. ربّاه كيف أصدّق عيني؟! شكراً يا محبوبتي شكراً. والله لأجعلنّ من السعادة أنهرًا تجري تحت قدميك.. ما أجمل الماس حول هذا الجيد! (ومسّ جيدها برقّة).. ما أروع الذهب في هذا الساعد! (وقبل ساعدها).. ما أفتن الراج في هاتين الشفتين! (وهوى برأسه ليقبل ثغرها ولكنّها تحامته فلثمّ خدّها).. يا لك من فاتنة نافرة!..  
 واستراح قليلاً ثمّ استدرك قائلاً وعلى شفثيه ابتسامة:

- ودعي الآن عهد التعب، فلن تطالعك الحياة بكدر بعد اليوم!... حتى ندياك سيحملها عنك رافع من الحرير..!

ورضيت بالاستساع لهذا الكلام دون تنمّر أو احتداد، وإن توردت وجنتها، واستسلم جسمها للسيارة المندفعة التي تهرب بها من الماضي كلّه. وانتهى التاكس إلى العمارة التي صارت مأواها، فغادراه، ومضيا مسرعين إلى الشقّة، وكانت كما وجدتها بالأمس ضابجة بالأصوات المنبعثة من الأبواب، ثمّ دخلا الحجره الرائعة. وقال ضاحكًا:

- اخلعي الملاءة لنحرقها معًا.

فغمغمت تقول وقد تورد وجهها:

- لم أحضر ملابسي...

بعد الآن. ولأول مرّة عراها الضعف فدرت حناياها عطفًا للمرأة التي أوتها وتبنتها وأحبّتها ولم تعرف سواها أمّا، وتمنّت لو تستطيع أن تقبلها قبله الوداع. وجاءت ساعة الأصيل فتلقّعت بملاءتها وانتعلت شبيشها. وكانت يداها ترتعشان انفعالاً واضطراباً، وقلبها يخفق بشدّة. ولم يكن بدّ من أن تفارق أمّها بغير وداع، فامتعضت، ثمّ رأتها آمنة لا تدري شيئاً عمّا يجيئه لها الغد فازداد امتعاضها. وحمّ الرحيل فألقت عليها نظرة طويلة ثمّ قالت وهي تمّ بالمسير:

- فكّ بعافية...

فقال لها المرأة وهي تشعل سيجارة:

- مع السلامة.. لا تتأخري...

وغادرت البيت تلوح في وجهها أمارات الجذّ والاهتمام، وقطعت المدقّ لأخر مرّة لا تلوي على شيء، وسارت من الصنادقيّة إلى الغوريّة، ثمّ انعطفت صوب السكّة الجديدة وتقدّمت في خطوات متمهّلة. وأرسلت بصرها بعد تردّد وإشفاق.. فرأته بموقف الأمس ينتظر!.. التهب خدّها واجتاحتها موجة صاحبة من التمرد والغضب وودت من أعماقها أن تتأر من ظفّره هذا نأراً يردّ عليها بعض سكينتها. وغضت بصرها، ثمّ نساءلت أتراه يتسم الآن تلك الابتسامة الوقحة؟!.. ورفعت عينيها بنرفزة، ولكنّها وجدته هادئاً جاداً رزيناً يلوح في عينيه اللوزيتين الرجاء والاهتمام فانثأ هياجها قليلاً. ومرّت به وهي تتوقّع أن يخاطبها، أو أن يأخذ يدها كما فعل بالأمس، ولكنّه تجاهلها، وتريث قليلاً حتى غيّبها المنعطف، ثمّ تبعها متمهّلاً، فأدركت أنّه بات أشدّ حذرًا، وأعظم شعورًا بخطورة الأمر. وسارت حتى أوشكت السكّة الجديدة أن تنتهي، ثمّ توقفت بغتة كأنما ذكرت شيئاً جديداً، وانفتلت راجعة، فتبعها قلماً وهمس لها متسائلاً:

- ماذا أرجعك؟

فتردّدت قليلاً ثمّ قالت وقد سامها النطق عناء:

- بنات المشغل..

فقال بارتياح:

## زقاق المدق ٧٣٣

رضوان الحسيني دون أن يلتفت ناحية القهوة، ودخل البيت يتبعه رفيقاه. ثم رقاوا السلالم حتى الطابق الثالث، ودق الفتى باب الشقة وقد ازداد وجهه تجمهاً، فسمع وقع أقدام تقترب، ثم فتح الباب وبدت أمه وراءه تقول بصوتها الخشن «من؟»، ولم تعرف الشبح المائل أمامها لشدة الظلمة. فقال حسين بصوت منخفض:

- حسين!

وهتفت المرأة وهي لا تكاد تصدق أذنيها:

- حسين!... ابني!!

وهرعت إليه، وأمسكت بذراعيه، وقبلته، وهي تقول بحرارة:

- عدت يا بني!... الحمد لله الذي أنابك إلى رشذك وحماك من وسوسة الشيطان، ادخل بيتك (وضحكت في انفعال). ادخل يا غادر... لكم أقضضت مضطجعي. وقطعت قلبي...

ودخل الشاب مستسلماً لسيدها، دون أن يخفّ تجهمه، وكأنّ استقباليها الحار لم يكده يجدي شيئاً في تفريج كربته، ولما أن همت برّد الباب حال بينها وبينه قائلاً وهو يوسع للفتاة وللفتى:

- معي أناس. ادخلي يا سيّدة، ادخل يا عبده. هذه زوجي يا أمي، وهذا شقيقها..

وهبت المرأة، ولاحت في عينيها دهشة لا تخلو من انزعاج، وراحت تنظر إلى القادمين بذهول، ثم تنبّهت إلى اليد المبسوطة للسلام فتهاكت عواطفها وسلّمت وهي تخاطب ابنها بلا وعي تقريباً:

- تزوّجت يا حسين!.. أهلاً بك يا عروس.. تزوّجت يا حسين دون أن تخبرنا؟!.. كيف رضيت أن تزوّق في غياب والديك وهما على قيد الحياة؟! فقال حسين بامتعاض:

- الشيطان شاطر!.. كنت غاضباً نائراً ساخطاً.. وكلّ شيء قسمة ونصيب!

وانزعجت المرأة المصباح من الحائط، وتقدّمتهم إلى حجرة الاستقبال، ووضعتهم على حافة النافذة المغلقة، ووقفت تتفرّس في وجه زوج ابنها، وقد قالت الفتاة

فصاح بسرور:

- حسناً فعلت... لا نريد شيئاً من الماضي.

وأجلسها على مقعد وراح يقطع الحجر جثة وذهاباً، ثم اتجه نحو باب أنيق إلى يمين المرأة العالية، ودفعه عن مخدع وثير وهو يقول:

- حجرتنا...!

ولكنّها قالت بسرعة وحدة:

- كلاً... كلاً... سأنام هنا...!

فحدجها بنظرة ثاقبة، ثم قال بلهجة تنم عن التسليم:

- بل تنامين في الداخل وأنام أنا هنا...!

وكانت تصمّم في نفسها على ألا تؤخذ كالمأشية، وألا تسلّم حتى تشبع رغبتها في العناد والإباء، والظاهر أنّ رغبتها هذه لم تغب عن مكره، لأنّه دارى ابتسامه ساخرة، وتظاهر بالإذعان والتسليم، ثم قال لها بسرور وفخار:

- بالأمس يا عزيزتي دعوتني بالقواد، فاسمحي لي بأن أقدم لك نفسي على حقيقتها: محبّك ناظر مدرسة، وستعلمين كلّ شيء في حينه...!

- ٢٥ -

قال حسين كرشة لنفسه وهو يقترب من زقاق المدق: «هذا وقت اجتماعهم في القهوة، وسيروني جميعاً بلا أدنى شك، وسيخبرون أبي بمقدمي إذا عمي هو عنه». كان الليل قد أرخى سدوله، فأغلقت دكاكين المدق. وخيم عليها السكون، وضجّت قهوة كرشة وحدها بالسّار. كان الفتى يسير بخطوات ثقيلة، منقبض الصدر، متجهّم الوجه، يتبعه على الأثر فتى في مثل سنّه وفتاة في مقتبل العمر. وكان حسين يرتدي قميصاً وبنطلوناً، ويحمل في يمينه حقيبة كبيرة، وكذلك كان الفتى الذي يتبعه، أما الفتاة فرفلت في فستان أنيق - بلا معطف ولا ملاءة - وقد بدت في مشيتها ذات وسامة ورشاقة وإن لم تخل من ابتذال يشي بطبقتهما. واتجه حسين صوب بيت السيّد

بصوت أسيف:

- أحزننا والله غيابكم، ولكن ما باليد حيلة... .

وأبدى شقيقها كذلك أسفه، فابتسمت المرأة، ولم تكن أفاق بعد من دهشتها، وتمتمت:

- أهلاً بكم جميعاً.

ثم التفتت صوب ابنها وقد هالها تجهمه وجموده، وذكرت لأول مرة أن فمه لم ينفرج عن كلمة طيبة واحدة منذ حضوره، فقالت بعتاب:

- هكذا تذكّرنا أخيراً... .

فهزّ حسين رأسه بكآبة وقال باقتضاب:

- استغفروا عني... .

فقالت المرأة بإنكار وقد داخلتها خيبة جديدة:

- استغفروا عنك؟! أعني أنك عاطل الآن؟! وقيل أن يفتح فمه قرع آذانهم دقّ عنيف على الباب، فبادلت المرأة وابنها نظرة ذات معنى، ثم غادرت الحجرة فلحق بها الشاب بعد أن أغلق الباب وراءه، وقال لها في الردهة الخارجيّة:

- هذا أبي بلا ريب... .

فقالت له بقلق:

- أظنّ هذا، هل رآك... أعني رآكم وأنتم قادمون؟

ولكنّ الفتى لم يجيبها، وتقدّم من الباب وفتحه، فدخل المعلم كرشة مندفعاً، وما إن رأى ابنه حتّى قال وعينه تحمّران، وضباب الغضب يغشى وجهه:

- أهذا أنت؟!... قالوا لي ذلك فلم أصدق... .

لماذا عدت؟! فقال حسين بصوت منخفض:

- يوجد في البيت غرباء، هلّم إلى حجرتك نتكلّم... .

ومضى الشابّ مسرعاً إلى حجرة أبيه، فتبعه المعلم مزججراً، ولحقت بها المرأة، ثمّ أشعلت المصباح وهي تقول لزوجها في رجاء وتحذير:

- في الحجرة الأخرى زوج ابنك وشقيقها... .

وارتفع جفنا الرجل الثقيلان في ذهول وهتف:

- ماذا تقولين يا مرة؟! أتزوجت حقاً؟

واستاء حسين من أمّه لأنّها ألقت عليه الخبر دون تمهيد، ولم ير بدأ من أن يقول:

- نعم يا أبتى تزوّجت... .

وسكت المعلم دقيقة وهو يقرض أسنانه بحنق وغیظ، ولكنّه لم يفكر لحظة في معاتبه ابنه على الزواج بدون علمه، لأنّ المعاتبه في نظره حال من المودّة، وصمّم في اللحظة التالية على إهمال هذا الخبر كأنه لم يسمعه، وقال بغیظ وحقد:

- هذا شيء لا يعنيني البتّة. ولكن دعني أسألك لماذا عدت إلى بيتي؟!.. لماذا أريتني وجهك بعد أن أراحني الله منه؟

فلاذ حسين بالصمت، ونكس ذقنه عابساً، وانبرت المرأة تقول باستعطاف:

- استغفروا عنه يا معلّم.

ونقم الشابّ على أمّه تسرعها للمرّة الثانية. أما المعلّم فقد ازداد حنقاً وصاح بصوته الغليظ - كما جعل المرأة تغلق الباب - قائلاً:

- استغفروا عنك؟!.. ما شاء الله!.. وهل بيتي تكية؟!.. ألم تنبذنا يا همّام؟!.. ألم تعصني بنابك يا بن الكلب؟!.. فلماذا تعود الآن؟!.. أغرب عن وجهي. عد إلى الحياة النظيفة والماء والكهرباء... .

هيا... .

فقالت أمّ حسين برقة:

- هدئي روعك يا معلّم وصلّ على النبي... .

فلوّح لها الرجل بقبضته منذراً وصاح بها:

- تدافعين عنه يا بنت الأبالسة؟!.. كلّكم جنس شياطين يستأهل جلد السياط وعذاب النار. ماذا تريدان يا أمّ الشرّ كلّه؟!.. أتريديني على أن آويه وأهله؟!.. هل قالوا لك إني قواد يأتي رزقي من يمين وشمال بغير تعب ولا جهد؟!.. ألا فاعلموا بأنّ الشرطة تحوم حولنا، وبالأمس قبضوا على أربعة من رفاقي، وغدكم أسود بإذن الله... .

فاستوصت المرأة بالصبر وقالت برقة لا عهد لها بها:

- صلّ على النبي يا معلّم ووحد الله.

فصاح بفظاظة:

## زقاق المنقّ ٧٣٥

يقبل إنّه مات) تاركًا شيخ المغفلين صفر اليدين.  
 والبك شقيق السّت؟  
 - الحال من بعضه.  
 - عال... عال... البركة في أبيك. هيتي لهم  
 البيت يا ستّ أمّ حسين ولو أنه حقير لا يليق بالمقام،  
 ولكّي سأتدارك ذلك بإدخال الماء والكهرباء، وربّما  
 ابتعت حنطور السيّد علوان ليكون تحت تصرفكم...  
 فنفض حين قائلًا:  
 - حسبك يا أبي... حسبك...  
 فنظر إليه كالمعتد وقال بسخرية:  
 - لا تؤاخذني. أثقلت عليك؟.. مزاج رقيق، عزّ  
 وجاه، ارحوا عزيز قوم بال. احتشم يا معلّم كرشة  
 ولا تحدّث السادة إلّا بحديث السادة. تفضّل بخلع  
 ملابسك. أما أنت يا ستّ أمّ حسين فافتحي الكتر في  
 المرحاض وعيّي للبيك حتّى يترشّ وينبسط...  
 ولم ينس حسين بكلمة وهو كظيم، فمرّت العاصفة  
 بسلام، وراحت المرأة تناجي نفسها: «يا ساتر استر».  
 وكان المعلّم - على حنقه وسخريته - أبعد ما يكون عن  
 طرده، بل لعلّه حتّى في تلك الساعة الحامية لم يخل من  
 ارتياح لعودته، وسرور بزواجه، لذلك كفّ عمّا كان  
 أخذًا فيه، وغمغم قائلًا:  
 - الأمر لله، ربّنا يتوب عليّ منكم.  
 ثمّ سأل الشابّ مستدرّكًا:  
 - ماذا أعددت للمستقبل؟  
 فقال الشابّ وقد شعر بأنّه اجتاز محنته:  
 - سأجد عملاً إن شاء الله، ولا يزال لديّ حلّي  
 زوجي.  
 فانتبهت أمّه إلى كلمة «حلّي» باهتمام وسألته بغير  
 وعي:  
 - هل كنت ابتعتها لها؟  
 فقال حسين:  
 - أهديت إليها البعض واشترى لها شقيقها البعض  
 الآخر.  
 والتفت نحو أبيه مستطردًا:  
 - سوف أجد عملاً. وسيبحث عبده نسيبي عن

- سليه عمّا جاء به؟  
 فقالت برجاء واستعطاف:  
 - ابنا أرعن مجنون، غواه الشيطان فأصلّه، وليس  
 له الآن من ملجأ سواك...  
 فقال المعلّم كرشة بحنق وسخرية:  
 - صدقت يا أمّ السوء. ليس له من ملجأ سواي.  
 سواي أنا الذي يسبّ حين السراء ويلجأ إليه حين  
 الضراء!  
 ثمّ تفحص حسين بنظرة قاسية وسألّه باحتقار  
 وسخرية:  
 - لماذا استغنوا عنك؟  
 وتنهّدت الأمّ من الأعياق لأنّها أدركت بغيريتها أنّ  
 هذا السؤال - على لهجته المريّة - إيذان بالتفاهم  
 المنشود. أمّا حسين فقد قال بصوت منخفض وهو  
 يعاني مرارة القهر:  
 - استغنوا عن كثيرين غيري... يقولون إنّ الحرب  
 وشيكة الانتهاء...  
 - انتهت الحرب في الميدان وستبدأ في بيتي أنا...  
 ولماذا لم تذهب إلى أهل زوجك؟  
 فقال الشابّ بغضاضة:  
 - ليس لها إلّا شقيقها...  
 - ولماذا لم تلجأ إليه؟  
 - استغنوا عنه أيضًا...  
 فضحك هازئًا وقال:  
 - أهلاً.. أهلاً.. وطبيعي أنّك لم تجد ملجأ لهذه  
 الأسرة الكريمة التي أناخ عليها الدهر إلّا بيتي ذا  
 الحجرتين!... مرحى. مرحى... ألم توفّر مالاً؟  
 فقال الشابّ باقتضاب وهو يتنهّد:  
 - كلّ...  
 - أحسنت. عشت عيشة الملوك، كهرباء وماء  
 وصلاة، ثمّ عدت أخيرًا كما بدأت شحاذًا...  
 فقال حسين بانفعال:  
 - قالوا إنّ الحرب لن تنتهي، وإنّ هتلر سيقاوم  
 عشرات السنين ثمّ يهجم بعد ذلك...  
 - ولكنّه لم يهجم، واختفى (حتّى في تلك اللحظة لم

فقلت المره دون أن تحاول إخفاء لهجتها الواشية  
بالشهاة:

- خرجت أول أمس كعادتها كل عصر، ولكنّها لم  
تعد. ودارت أمّها على بيوت الجيران والمعارف تفتش  
عنها دون جدوى. وذهبت إلى قسم الجماليّة وقصر  
العيني ولا حياة لمن تنادي.

- ماذا حدث للبت يا ترى؟

فهزت أمّ حسين رأسها في ارتياب وقالت بيقين:  
- هربت وحياتك!. . غواها رجل فأكل نخبها وطار  
بها. كانت جميلة ولكنّها لم تكن طيبة قط.

- ٢٦ -

فتحت عينين محمّرتين من أثر النوم، فرأنا سقفاً  
أبيض، ناصع البياض، يتدلّى من وسطه مصباح  
كهربيائيّ بارع الرنق في كرة كبيرة حمراء من البلّور  
الشفّاف. امتلأ بصرها دهشة، ولكن لم يدم ذلك  
سوى ثانية واحدة، ثمّ تدافعت إلى رأسها ذكريات  
الليلة الماضية، وذكريات الحياة الجديدة. وأنجّه ناظرها  
نحو الباب فألفته مغلقاً، ثمّ رأت على خوان قريب من  
السرير مفتاح الباب بحيث تركته بالأمس. نفذت  
إرادتها فنامت وحدها، وقضى ليلته وحده في الحجرة  
الخارجية، وافترّ ثغرها عن ابتسامه. وأزاحت عن  
صدرها الغطاء الوثير، فبدا فستانها مستخدماً خجلاً  
فيها يغمر، من مخمل وحرير. ما أعمق الهوة التي  
تفصل ما بينها وبين الماضي! وكانت النوافذ مغلقة  
تنضح بوهج الشمس، فينير جوّ الحجرة بضوء شاحب  
خفيف، فاستدلّت على الضحى ببياتته، ولكنّها لم  
تدهش لاستيقاظها المتأخّر، فقد أرقها السهاد حتى  
قبيل الفجر، وسمعت نقرأ خفياً على الباب، فتلفتت  
صوبه في انزعاج، وحمد بصرها عليه دون أن تأتي  
حركة أو تنطق بحرف، ثمّ غادرت الفراش، ودلفت  
إلى التواليت، ووقفت بين مراياه متحيّرة مبهوتة. وعاد  
النقر في قوّة ملموسة فهتفت:

- من؟

وجاءها صوته العميق وهو يقول:

عمل أيضاً، وعلى آية حال فهو لن يقيم بيننا إلا أياماً.  
وانتهزت المرأة فرصة الهدوء الذي أعقب الزوينة  
فقال لزوجها:

- تعال يا معلّم سلّم على أهل ابنك.

ولحظت ابنا بطرف خفيّ وغمزت بعينها، فقال  
الشابّ بغضاضة من يستكره التودّد بطبعه:

- هلاً أكرمتي حيال أهلي؟

وتردّد الرجل لحظة ثمّ قال بامتعاض:

- كيف تريدني على الاعتراف بهذا الزواج الذي لم  
أباركه؟!

ولمّا لم يسمع من مجيب، نهض متأقفاً، ففتحت  
المرأة الباب وتقدّمته، وانتقلوا إلى الحجرة الأخرى  
جميعاً، وسلّموا، ورحّب المعلّم بزواج ابنة وشقيقها.  
انطوت الصدور عمّا بها أمّا الوجوه فقد أشرقت  
بالترحاب والمجاملة. وكان المعلّم كرشة قد سلّم بالأمر  
الواقع، ولكنّه لبث قلقاً لا يدري أخطأ بتسليمه أم  
أصاب، ولم تُصَف نفسه من موجدة واستياء. ثمّ  
انتبهت عيناه النائمات في أثناء الحديث إلى شقيق الفتاة  
فتفحصه بعناية، وما عتّم أن تولّاه اهتمام مفاجئ أنساه  
قلقه وموجدته واستيائه!. . كان شاباً يافعاً وسيم  
الطلعة خفيف الظلّ، فجعل يحاوره ويرنو إليه بطرف  
يقظ. وطابت نفسه وصفت، وسرت في أعماقه هزة  
سرور وحماس، فتفتّح قلبه للأسرة الجديدة، ورحّب  
بها مرّة أخرى ولكن بشعور جديد، وسأل ابنه بلطف:

- أليس لك أثاث يا حسين؟

فقال حسين:

- غرفة نوم مكوّمه عند الجيران.

فقال المعلّم بلهجة أمرة:

- اذهب وأحضر عفشك. . .!

\* \* \*

وخلا حسين إلى أمّه، وجلسا يتحدّثان ويدبران  
أمورهما، وفي ختام الحديث صاحت به فجأة:  
- ألم تعلم بما حدث؟! . . . اختفت حميدة.  
فلاحت الدهشة في وجه الشابّ وسألها:  
- كيف؟

## زقاق المدق ٧٣٧

قد انقطعت إلى الأبد، فلماذا تُبقي على اسمها؟! .. بل ليثها تستطيع أن تستبدل يديها يدين جديدتين جميلتين كيديه هو، وأن تستعوض عن صوتها - الذي تستغلظ نبراته العالية حتى الفظاظة والقبح - صوتًا رقيقًا رخيماً، ولكن ما باله اختار هذا الاسم الغريب؟! .. ولم تملك أن قالت باستنكار:

- هذا اسم غريب، لا معنى له ..

فقال ضاحكًا:

- اسم جميل. ومن جماله ألا معنى له. فالاسم الذي لا معنى له يحوي المعاني كلها. بل هو من الأسماء الأثرية التي تسحر ألباب الإنجليز والأمريكان، ويسهل النطق به على ألسنتهم المعوجة ..

فجالت في عينيها نظرة حيرى، تشي بالارتباب وتتخفّز للعناد والانقضااض، فابتسم بركة واستدرك يقول:

- تيتي العزيزة .. رويدك، ستعلمين كل شيء في حينه. ألم تعلمي بأنك ستصيرين غداً سيّدة باهرة الجمال بعيدة الصيت؟! .. هذه هي معجزة هذا البيت. أم حسبت أن السماء تمطر ذهبًا وماسًا؟! .. كلاً يا عزيزتي، إنَّ السماء في أيامنا هذه لا تمطر إلا شظايا والألآن خذي أهيتك لاستقبال الحياطة. ولكن معذرة لقد ذكرت أمراً هاماً ذكرت أنه ينبغي أن أصحبك لزيارة مدرستي - أنا ناظر يا محبوبتي ولست قوَّادًا كما دعوتني بالأمس - فالتحفي بهذا الروب وانتعلي هذا الشبشب ..

وذهب إلى التواليت فأق بزجاجة زرقاء كروية يتصل بقم معدني فيها أنبوبة من المطاط الأحمر، وسدّد فوهتها نحو وجهها وجعل يضغط على الأنبوبة فيميج في صفحة وجهها سائلًا زكيّ الشذا، وقد ارتعشت بادئ الأمر شاهقة، ثم استنامت إلى طيها في دهشة وارتياح. وألبسها الروب بنفسه، وجاءها بشبشبه فانتعلته، ثم تأبط ذراعها ومضى بها إلى الحجر الأخرى، ثم إلى الردهة الخارجيّة. وسارا معًا متجهين صوب أول باب إلى اليمين وهو يقول لها محذراً:

- إيّاك وأن تبدي خجلة أو خائفة .. إني أعلم

- صباح الخير .. هلاً فتحت الباب؟

ونظرت إلى المرأة فرأت شعرها متشعثًا، وعينيها حممرتين، وجفنيها ثقيلين، .. رباه .. أليس نمة ما تغسل به وجهها؟! ألا ينتظر حتى تنهت لاستقباله؟! وعاد ينقر الباب جزعًا، ولكنها لم تلتج إليه بالألأ، وذكرت قلقها يوم اعترض سبيلها في الدراسة أول مرة فلقيته وقد نسيت أن تأخذ زيتها، وهي تكون اليوم أشدّ قلقًا بلا ريب! ورات زجاجات الروائح العطرية منضودة على التواليت، ولكنها كانت تراها لأول مرة في حياتها، فلم تهتد إلى وجه الانتفاع بها في مأزقها. ثم تناولت مشطًا عاجيًا وسوّت شعرها في عجلة ولهوجة، ومسحت بطرف فستانها وجهها، وألقت على المرأة نظرة أخرى، وتهتدت في قلق وغيظ، ثم أخذت المفتاح وسارت نحو الباب، وكأما ضاقت بإشفاقها، فرفعت منكبها استهانة وفتحت الباب. التقيا وجهًا لوجه وقد ابتسم إليها ابتسامة لطيفة وقال بركة بالغة:

- صباح النور يا تيتي! .. لماذا أهملتي كل هذا الوقت! .. أتريدين مواصلة النهار بالليل بعيدًا عني؟! فابتعدت عنه دون أن تنبس بكلمة، ولكنه تأثرها والابتسامة لا تفارق شفثيه، ثم سألها:

- لماذا لا تتكلمين يا تيتي؟! ..

تيتي!! أاسم تدليل هذا يا تسي؟! .. ولكن أمها كانت تدعوها «حمدم» إذا أرادت أن تدللها، فما تيتي هذا؟! .. ورمقته بنظرة إنكار وغمغمت:

- تيتي!

فقال وهو يتناول راحتيها بين يديه ويشبعهما تقبيلًا:

- هذا اسمك الجديد، فاحفظيه عن ظهر قلب، وانسي حميدة فلم يعد لها وجود! .. ليس الاسم يا محبوبتي بالشيء النافه لا يقام له وزن، هو بالحري كل شيء وما الدنيا - لو تعلمين - إلا أسماء ..

وعلمت أنه لم يعد اسمها - كسابها البالية، شيئًا ينبغي انتزاعه وإيداعه مقابر النسيان، ولم تر في ذلك من بأس، فلا يجوز أن تنادى في شريف باشا بما كانت تنادى به في المدق، وفضلًا عن هذا فهي تشعر شعورًا عميقًا لا يخلو من وسواس وقلق - بأن أسباب الماضي

يكن في نية سوسو أن يرقص ولكنه رغب أن يجيى  
القادمة المستجدة تحية راقصة على سبيل المثال، والتفت  
نحو إبراهيم فرج متسائلاً:

- تلميذة جديدة..؟

فالتفت هذا بدوره إلى تيتي وقال:

- أظنّ هذا..

- ألم ترقص فيها سلف؟

- كلاً.

فابتسم سوسو مسروراً وقال:

- هذا أفضل يا سي فرج. إذا كانت تجهل الرقص  
فهي عجيبة طرية أصورها كيفما أشاء، أما أولئك  
اللاتي يتعلمن الرقص على غير أصوله فما أشقّ  
تعليمهنّ.

ونظر إلى تيتي، وثنى رقبته يمنة ويسرة وقال بصوت

فاضح:

- أم تحسبين الرقص لعباً يا أبلتي؟!.. العفو يا  
حبيبتى.. هذا فنّ الفنون، وأستاذه له الجنة ونعيمها  
بغير حساب جزاء ما يتجسّم من عناء أو مشقة..  
انظري..

وأرعى خصره بغتة في سرعة عجيبة، ثم أمسك  
وهو يرمقها بعجب وتيه، وسألها باستعطاف:

- هلاً انتزعت هذا الروب لأطلع على جسمك.

ولكنّ فرج عاجله قائلاً:

- ليس الآن.. ليس الآن.

فمطّ سوسو بوزه متأسفاً وسألها:

- أتحجلين مني يا تيتي.. أنا أختك سوسو!.. ألم  
يعجبك رقصي؟

وكانت تدافع جاهلة شعوراً بالضيق والارتباك،  
وتحاول في إصرار وعناد أن تبدو باردة هادئة مستهينة  
بل راضية، فابتسمت وقالت:

- رقصك بديع جداً يا سوسو..

فصنق سوسو بيديه حبوراً وقال:

- دمت من فتاة كريمة. الحياة فانية يا تيتي، وأجمل  
ما فيها كلمة حلوة، وهل دام شيء لإنسان؟..  
الواحد منا يشتري حقّ الفازلين ولا يدري أيكون

أنتك جسورة لا تهابين شيئاً..

وأثابها تحذيره إلى رشادها، فحدجته بنظرة حادة،  
ورفعت رأسها في استهانة، فابتسم قائلاً:

- هذا أول فصل في المدرسة.. فصل الرقص

العربي..

وفتح الباب ودخلا. رأت حجرة متوسطة، جميلة  
البناء، ذات أرض خشبية لامعة، تكاد تخلو من  
الأثاث اللهم إلا عددًا من المقاعد نصّدت في جناحها  
الأيسر، ومشجباً كبيراً في ركنها الأقصى، وقد جلست  
فتاتان على مقعدين متجاورين، ووقف في الوسط فتى  
في جلباب أبيض حريري مهفّف محزماً بزّار. اتجهت  
الرؤوس نحو القادمين، وجرت على الثغور بسّات  
التحية، فقال فرج إبراهيم بلهجة قوية تنم عن السيادة  
حقاً:

- صباح الخير.. هذه صديقتي تيتي..

وحنّت الفتاتان رأسيهما تحية، ثم قال الفتى بصوت

متكسر مخنث:

- أهلاً يا أبله..

وردّت تيتي التحية في شيء من الارتباك وهي تطيل  
النظر إلى الفتى الغريب. كان - على غير ما يبدو - في  
نهاية العقد الثالث، وضيق الملامح أحول العينين،  
يزين وجهه بزواق نسائي من كحل وحمرة وبودرة،  
ويلمّع شعره الجعد بالفازلين. فابتسم فرج إبراهيم  
وقال يعرفه لها:

- سوسو معلم الرقص..

وكأنما أراد سوسو أن يقدم لها نفسه بطريقته

الخاصة، فأشار إلى الفتاتين المتجاورتين غامزاً بعينه،

فراحتا تصفّقان على «الواحدة»، وانساب الأستاذ

راقصاً كالأفغوان، في خفة وليونة يثيران الدهشة، حتى

خالته جسماً بلا عظام ولا مفاصل، أو أنه قطعة من

مطاط مكهرب. كان كلّ ما فيه يرتعش بلا توقّف.

ردفاه.. وسطه.. صدره.. رقبته.. حاجباه. وكان

يلقي بنظرة متكسرة متضعضة. مبتسماً ابتسامه فاجرة

عن أسنان ذهبية. ثم اهتزّهزة عنيفة ختم بها ارتعاشه

الفتي، واستقام ظهره فكفّت الفتاتان عن التوقيع. لم



## زقاق المذق ٧٣٩

كأنها لم تشعر بمقدمها، وجعلت تنظر إليهما في هدوء واستهتار وقد افترّ ثغرها عن ابتسامة رقيقة كأنها تحييهما أو تحييه هو بالأحرى. وعند ذلك قرعت أذنيها أصوات، فتلفتت يمنة ويسرة وأدركت أنّ الحجرّة معمورة بالأدميين. رأت إلى يسار الداخل صفًا من المقاعد مشغولاً نصفها بفتيات حسان أنصاف عرايا أو على وشك التعري!... ورأت على كتب من المرأة العارية رجلًا في بدلة أنيقة قابضًا يمينه على مؤثر قد ركّز سنانه على مقدّم حذائه، ولاحظ فرج إبراهيم دهشنا، فرغب أن يسري عنها، فقال لها:

- هذا الفصل لتعليم مبادئ اللغة الإنجليزية...!  
فحدجته بنظرة إنكار كأنها تقول له «لا أفهم شيئًا»  
فأشار لها بالتمهل ثمّ وجه خطابه للرجل القابض على المؤثر وقال:

- استمرّ في درسك يا أستاذ...

فقال الرجل بصوت يدلّ على الطاعة:

- هذه حصّة تسميع.

ورفع المؤثر بخفّة ولمس بسنانه شعر العارية، فنطقت المرأة بلفظ غريب «هير»، فأنزله إلى جبينها فهتفت «فرنّت»، وانتقل إلى الحاجب فالعين ثمّ الفم، وشرّق وغرّب، وصعد وصبّ، وهي تجيب على أسئلته الصامتة بكلمات غريبة، لم تسمعها حميدة من قبل، وازدادت الفتاة دهشة وانزعاجًا، وتساءلت كيف تبدو هذه المرأة عارية حيال هذا الجمع، وكيف ينظر فرج إلى هذا الجسم المتجرد بهذه البساطة!... وغلى دمها، والتهب خدّاه، وألقت عليه نظرة سريعة فرأته يهزّ رأسه راضيًا عن التلميذة الذكيّة، ويتمتم «برافو... برافو...» ثمّ خاطب الرجل قائلاً:

- أرنى شيئًا من الغزل...

فنحى الرجل المؤثر جانبًا، وأقل على المرأة مخاطبًا في لهجة إنجليزية وعاطفه المرأة قولًا بقول، فتراطنا دقائق بلا تلعم أو تردد، حتّى صاح فرج إبراهيم:

- عظيم... عظيم... والأخريات؟

وأشار إلى الفتيات الجالسات، فقال الأستاذ:

- في طريق التحسّن!... وإني أقول لهنّ دائمًا إنّ

لشعره أم لشعر ورثته!

\*\*\*

وغادرا الحجرّة - أو الفصل - إلى الردهة، فمضى بها إلى الحجرّة التي تليها، وشعر بعينيها تلحظانه ولكنّه تجاهلها عن حكمة، حتّى بلغا الباب فعمغم قائلاً:  
- فصل الرقص الغربي...

فتبعته صامتة. كانت تعلم أنّ النكوص قد بات مستحيلًا، وأنّ الماضي قد عبّاه الحاضر، فلم تر بدًّا من الاستسلام للمقادير، وتساءلت هل تبلغ حقًا السعادة المنشودة؟ وجدت هذه الحجرّة في بنائها وصورتها كسابقتها إلا أنّها حجرّة حيّة متحرّكة صاحبة. كان الحاكي يبعث لحنًا غريبًا تلقّته أذنها في دهشة وإنكار، وكان قوم يرقصون أزواجًا، قوام كلّ زوج فتاتان، وقد انتحى شاب أنيق البيزة جانبًا وهو يراقبهنّ بعناية، ويوليهنّ بملاحظات، وتبادل الرجلان التحيّة، وواصل الراقصات رقصهنّ وهنّ يتفحصن حميدة بنظرات ناقبة نافذة. ودارت عيناها بالمرقص والراقصات فعجبت لثياهنّ البديعة وزيتهنّ البارعة، وسرعان ما تناست هواجسها، واستولى عليها انفعال عارم، فعانت شعورًا مؤلمًا بالضعّة، ثمّ استفزّها إحساس حادّ بالحماس والتوتّب. ولاحظت منها التفاتة إلى رَجُلها فوجدته محافظًا على هدوئه ووزانته، تلوح في عينيه نظرة متعالية تنطق بالسيادة والقوّة. والتفت نحوها فجأة كأنما جذبته عيناها، فانبسطلت أساريه، ومال نحوها قليلًا متسائلًا:

- أيعجبك ما ترين؟

فقالت ببساطة وهي تقاوم انفعالها:

- جدًّا...

- أيّ الرقصين تفضّلين؟

فابتسمت ولم تجب. ولبتا قليلًا صامتين، ثمّ غادرا الحجرّة، وأنجها نحو باب ثالث وقد تجلّ الاهتمام في وجهها. وما كاد يدفع الباب حتّى حلفت في دهشة وذهول. رأت في وسط الحجرّة امرأة عارية منتصبّة القامة. وظلّت ثواني لا تحوّل بصرها عنها فلم تر شيئًا سواها. ومن عجب أنّ المرأة العارية بقيت بموقفها

توتر أعصابها. واقترب منها، وأخذ راحتها بين يديه، وضغط عليها بحنو وهو يقول:

- أنت أسعد حظ جادت به الحياة عليّ... ما أفنتك...! ما أجلك!

وحدق في عينيها بإمعان وافتتان، ورفع يديها - وهما مضمومتان - إلى فمه، وراح يقبل أطراف أناملها زوجًا زوجًا، وهي مستسلمة ليديه تجد لكل لثمة من شفته تكهربًا في أعصابها، حتى تندت عيناها برقّة وهيام. وندّ عنها نفس حارّ في شبه تهتّد، فأحاطها بذراعيه، وضمّها إلى صدره رويدًا حتى شعر بمسّ ثديها لقلبه، ندي بكر ناهد يكاد لصلابته ينغرس في صدره، وراح يسمح على ظهرها براحتيه صعودًا وهبوطًا، ووجهها مدفون في صدره، ثمّ همس «فمك» فرفعت رأسها ببطء وقد انفرجت شفتاها قليلاً، فطبع شفثيه على شفثيتها في قبلة طويلة جدًّا، فأطبقت جفنيها كأنما أخذتها سنة من نعاس. وحملها بيسر فصارت بين ذراعيه كطفل رضيع، وسار بها متمهلاً نحو الفراش، وقد هزّ ساقيه المعلقتين هزّة أطاحت بالششب، ثمّ أنامها، ولبث مائلًا عليها معتمدًا على راحته، منعماً النظر في وجهها المورّد. وفتحت عينيها فالتفتا بعينيه، فابتسم إليها ابتسامة رقيقة ولكنّها ظلّت ترنو إليه بنظرة ساجية. وكان في الحقّ متألّكاً لأعصابه رغم تظاهره بعكس ذلك، وكان فكره أنشط من قلبه، وكان قد أجمع رأيه على خطّة لا يجيد عنها، فاستوى واقفاً وهو يغالب ابتسامة مأكرة، وقال بلهجة من ينزع نفسه عن هواها:

- مهلاً... مهلاً... إن الضابط الأمريكي يدفع خمسين جنيهاً عن طيب خاطر ثمناً لعذراء!

التفتت إليه داهشة. وسرعان ما غابت من عينيها النظرة الفاترة، وحلّ محلّها نظرة صارمة قاسية قاذحة. ونهضت جالسة في الفراش، ثمّ انزلت إلى الأرض بسرعة فائقة فانتصبت حياله كالحية الهائجة، وثارت بها غريزتها العنيفة فرفعت يدها وهوت بها على خدّه بقوة وقسوة وتجاوبت أركان الحجره زينها. ولبث ثواني جامداً ثمّ تمدّد جانب من فمه الأيسر في ابتسامة

الكلام لا يحصل بالحفظ، ولكنّه يُكتسب بالتجربة، فالخانات والنسيونات هي دور العلم الحقيقيّة، وما هذا الدرس إلّا تثبيت للمعلومات المهوشة... .

فقال فرج وهو ينظر إلى فتاته:

- صدقت... صدقت... .

وحياّه بإيماءة من رأسه، وتأبّط ذراع حميدة وانفصلا عن المكان معاً، وقطعا الردهة الطويلة مرّة أخرى صوب حجرتهما. كان وجهها جامداً، وفمها مطبقاً، وعيناها تتّان عن الشرود والحيرة، وكانت تتلمّس سبباً للانفجار، لا لهدف ترمي إليه، ولكن للترويح عن صدرها الهائج المضطرب. ولازم الرجل الصمت حتى حواهما المخدع، ثمّ قال بلطف:

- يسرني أن أطلعك على مدرستي، وأنك فتشت فصولها بنفسك. ربّما تراءت لك ذات برنامج عسير شاقّ؛ ولكنك رأيت بعينك تلميذاتها البارعات، وجميعهنّ بغير استثناء دونك ذكاء وجمالاً... .

فرمقته بنظرة عناد وتحذّ وسألته ببرودة:

- أتريدني على أن أفعل مثلهنّ... ؟

فابتسم في رقّة، وقال بمكر ودهاء:

- لا سلطان لأحد عليك ولا رادّ لقضائك، وأنت وحدك صاحبة الأمر والنهي. ولكنّ واجبي أن أوضح لك العالم، والخيرة لك. والحقّ أنّه لمن حسن الحظّ أنّي وجدت رفيقاً لبيباً تكفيه الإشارة، قد حباه الله جمالاً وهمة وبهاء. فإذا سعيت إلى استثارة حماسك اليوم فعسى أن تسعي أنت غداً إلى استثارتي. إنّي أعرفك حقّ المعرفة، وأقرأ قلبك كصفحة مبسوطة، وما أنا ذا أقول لك عن عقيدة ويقين إنك ستقبلين على تعلّم الرقص والإنجليزية، وإتقان كلّ شيء في أقصر فترة من الزمن. ولقد أتبع معك سبيل الصراحة من بادئ الأمر وتجنّبت الكذب والخداع، لأنّي أحببتك حباً صادقاً، ولأنّي أيقنت من أوّل لحظة بأنك لا تغلين ولا تخدعين، فافعلي ما تشائين يا محبوبتي. جرّبي الرقص أو انبديه، استهتري أو عقي، ابقِي أو عودي، فلا قبل لي بك على جميع الأحوال.

ولم يذهب خطابه سدى، فقد سرّى عنها، وخفّ

## زقاق المذق ٧٤١

أخذًا فيه وهو يسأله مستوثقًا:  
 - ألا يمكن أن تضلّ الطريق في الظلام؟  
 - كلاً... كنت في أثناء سير الجنازة متنبهاً يقظاً  
 فحفظت علامات الطريق، وفضلاً عن هذا فهو طريق  
 معروف لكلينا، وطالما قطعناه معاً في الظلام  
 الدامس..  
 وأدواتك؟  
 - في مكان حريز أمام الجامع...  
 - وهل المقبرة مكشوفة أم مسقوفة؟  
 - عند المدخل حجرة مسقوفة ولكنّ القبر في فناء  
 مكشوف..

فسأله بلهجة لم تخل من تهكم:  
 - أكنت تعرف المرحوم؟  
 - معرفة بسيطة. كان بائع دقيق في المبيضة.  
 - أطقم كامل أم بضع أسنان فقط؟..  
 - طقم كامل..  
 - ألا تخشى أن يكون أهله قد انتزعوا الطقم من  
 فمه قبل دفنه؟  
 - كلاً. إن أهل البلد أهل تقوى، وهيهات أن  
 يفعلوا ذلك..

فقال زيطة وهو يهز رأسه أسفاً:  
 - مضى زمن والناس يودعون القبر حليّ موتاهم.  
 فتتهدّ الدكتور قائلاً:  
 - أين متنا ذلك الزمن!  
 وبلغا الجماليّة في ظلمة حالكة وصمت مخيم، ومرّا  
 في طريقهما بشرطيين ثمّ أخذوا يقتربان من باب النصر،  
 واستخرج زيطة من جيبه نصف سيجارة وأشعلها  
 وراح يدخن بشغف. وقد فزع الدكتور بوشي من ضوء  
 عود الثقاب وقال لصاحبه بنرفزة:  
 - بس ما اخترت هذا الوقت للتدخين..!  
 ولكنّ زيطة لم يأبه ومضى يقول وكأنّه يخاطب  
 نفسه:

- لا فائدة ترجى من الأحياء، وقليل من الموتى ذو  
 نفع..!  
 ومرقا معاً من باب النصر، ومالا إلى اليمين يقطعان

هازئة. وبسرعة تفرق الفكر رفع كفه ولطمها على  
 خدّها الأيمن بقوة متناهية، ثمّ رفع يسراه - قبل أن  
 تفيق من اللطمة الأولى - وصلك بها خدّها الأيسر بشدّة  
 بالغة! اصفرّ وجهها، وسرت ارتعاشة في شفيتها،  
 وانتفض جسمها انتفاضة حيوانية، فارغمت على  
 صدره، وأنشبت أناملها المتقبضة في عنقه. وتلقّى  
 الرجل هذه الهجمة بسكينة، ولم يحاول مدافعتها بل  
 أحاطها بذراعيه وشدّها عليها حتّى كاد يهرسها، ومضت  
 أصابعها تلين، ثمّ ارتدت عن عنقه، وتحسّست منكيه  
 وعلقت بهما، ورفعت إليه وجهها قانيًا وثغراً مرتعشاً  
 مشوقاً..

## - ٢٧ -

نشر الظلام رواقه على الزقاق وأطبق على جنباته  
 سكون عميق، حتّى قهوة كرشة أغلقت أبوابها وتفرّق  
 سيارها. وفي هذا الهزيع من الليل مرق من باب الفرن  
 شبح زيطة، صانع العاهات، ينطلق إلى تجواله الليليّ.  
 قطع الرجل أرض الزقاق إلى الصناديقية، وعرج إلى  
 اليسار متّجهاً صوب الحسين، فكاد يصطدم بشبح  
 قادم في منتصف الطريق، وما لبث أن تنوّر وجهه على  
 ضوء النجوم الشاحب فهتف به:

- الدكتور البوشي!.. من أين أنت قادم؟

فأجابه الدكتور بعجلة ولهفة:

- كنت ماضياً إليك..

- أعندك طلاب عاهات؟

فقال الدكتور بصوت كالهمس:

- عندي ما هو أهمّ، لقد توفّي عمّ عبد الحميد  
 الطالبي!

فأضاعت عينا زيطة في العتمة وسأله باهتمام:

- متى توفّي؟... وهل دفن؟

- دفن مساء اليوم.

- أعرفت مقبرته؟

- فيما بين باب النصر وطريق الجليل.

وتأبّط زيطة ذراعه وسار به في الطريق الذي كان

متمسًا طريقه في ظلام دامس ليس به من بارقة نور إلا ما تشعه النجوم، وجعل يعدّ الأسوار حتى بلغ خامسها، وألقى على ما حوله نظرة لصر، ثم جلس القرفصاء. لم تعثر عيناه بشيء يريه ولم يبلغ أذنه حس، ولكنّ القلق لم يزايله، واشتدّ جزعه. وبعد قليل رأى شبح زيطة على مدى أذرع منه، فنهض في حذر، وعابن الرجل السور ثم قال همسًا:

- تقوس حتى أصعد على ظهرك.

وتقوس الدكتور معتمدًا راحته على ركبتيه، ورفى الرجل ظهره، وتحسّس الجدار حتى قبض على حافته، ثم تسوّره بمهارة وخفّة، ورمى بالفأس ولفافة الشمعة إلى داخل الفناء، ثم مدّ يده إلى الدكتور حتى التقت بيده، وأعانه على تسلّق الحائط حتى تسّمه، وهويًا معًا. وتوقفا عند أصل السور يستريحان، والتقط زيطة في أثناء ذلك الفأس واللفافة. وكانت أعينها قد اعتادت الظلام واستأنست بنور النجوم الخافت، فأيا الفناء في شيء من الوضوح، وقبرين متجاورين ينهضان على كئيب من موقفهما، وفي نهاية الفناء يقوم الباب المطلّ على الطريق الذي جاء منه، وعلى جانبيها حجرتان. وسأل زيطة وهو يومئ إلى القبرين:

- أيّهما؟

فأجابه بصوت يكاد ينجس في حلقه:

- على يمينك..

ودنا زيطة من القبر بلا تردّد، يتبعه بوشي مرتجف الأوصال، وحتى قامته متحسّسًا أرض المنزل فوجدها طرية نديّة ما تزال، فأعمل فيها فأسه بحذر وهوادة مكومًا الثرى بين رجليه المنفرجتين. وثابر على العمل الذي لم يكن جديدًا بالنسبة إليه حتى كشف عن السلايم التي تسقف منزل القبر، وشمر طرف جلبابه وجدله وعقده حول وسطه، وأقبل على طرف السلمة الأولى، ورفعها شادًا على عضلاته حتى انتصبت قائمة، وأخذ ينمها بمعونة البوشي حتى طرحها أرضًا. وفعل مثل ذلك بالسلمة الثانية. واكتفى بالثغرة التي فتحتها حيث يمكن أن ينزل منها هو وصاحبه، ومضى إليها ونزل الأدراج وهو يقول للدكتور مغمغمًا

طريقًا ضيقًا تحفّ به المقابر من الناحيتين، ويرين عليه صمت رهيب وكآبة شاملة. وقال زيطة عند نهاية الثلث الأول من الطريق «هاك المسجد» فتلفت بوشي فيما حوله، وتنصّت قليلاً في حذر، ثم اقترب من الجامع متحامياً إحداث أيّ صوت، وتحسّس الأرض لصق جداره فيما يلي مدخله حتى عثر بحجر كبير، ثم أزاحه عن موضعه بيديه، واستخرج من نقرة تحته فأسًا صغيرة ولفافة تحوي شمعة، وعاد إلى صاحبه، فاستطردا في مسيرهما وهو يقول همسًا «تقع المقبرة فيما قبل الطريق الصحراويّ بخمس مقابر». وجدّا في السير وعينا الدكتور تتطلّعان إلى المقابر على يسار الطريق، وقلبه يدقّ بعنف، ثم تناقل بغتة وهو يمس «هذه المقبرة» ولكنّه لم يقف، بل حتّ صاحبه على السير وهو يقول:

- سور المقبرة المطلّ على هذا الطريق عال، والطريق نفسه غير مأمون، فالأفضل أن ندور حول المقابر من ناحية الصحراء، ثم نتسوّر المقبرة من ناحيتها الخلفيّة حيث يوجد القبر في الفضاء المكشوف...

ولم يبد زيطة اعتراضًا، فتقدّما في صمت حتى انتهيا إلى طريق الصحراء، واقترح زيطة أن يجلسا على الطوار قليلاً ريثما يراقبان الطريق، وجلسا جنبًا لجنب، وراحا يراقبان المكان بأربع أعين. كان الظلام شاملاً، والمكان مقفراً، وفيما وراءهما تنتثر القبور فتشغل مساحة من الأرض لا يحيط بها البصر. ومع أنّ هذه المخاطر لم تكن الأولى من نوعها إلا أنّ الدكتور بوشي لم يستطع أن يتمالك أعصابه أو يسيطر على دقات قلبه المضطرب، فلبث يحملق في الظلماء، فؤاده خافق، وريقه جاف، وأعصابه متوتّرة، في حين جلس زيطة جامدًا، رابط الجأش، لا يبالي شيئًا. ولما اطمأنّ إلى خلّو الطريق قال للدكتور:

- دع الأدوات واسبقني إلى سور المقبرة الخلفيّة، وانتظرنى هنالك..

ونهض الدكتور على كره، وتسلّل بين القبور مائلًا نحو الأسوار الخلفيّة للمقابر، وسار لصق الجدران

## زقاق المدق ٧٤٣

ولم يتناه إلى الزقاق نبأ القبض على الدكتور بوشي  
وزيطة في مقبرة الطالبية إلا عند عصر اليوم التالي.  
وفشا الخبر وعُرف أسبابه، وتناقله القوم في دهشة  
وانزعاج. وما إن علمت به الستُ سنّية عفيفي حتى  
استحوذ عليها الفزع وولولت صارخة، وانتزعت  
طقمها الذهبي ورمته به، وأخذت تلمطم خديها في  
حالة عصبية شديدة، ثم سقطت مغمى عليها. وكان  
زوجها في الحمام، فلما أن قرع أذنيه صراخها أخذ  
الرعب فارتدى جلبابه على جسده المبلول وهرع إليها  
لا يلوي على شيء.

- ٢٨ -

كان عمّ كامل جالساً على كرسية على عتبة الدكان،  
مائلًا رأسه على صدره، غارقاً في النعاس، والمنشأة في  
حجره. ثم استيقظ على ديبب شيء على صلعته  
فتحرّكت يده حركة آلية ليطرده ما ظنّه حشرة، ولكنّها  
وقعت على كفّ آدمية، فقبض عليها ساخطاً، وتأوّه  
متذمّراً، ورفع رأسه ليردّ ذاك المداعب الثقيل الذي  
ايقظه من نعاسه اللذيذ، فوقعت عيناه على عباس  
الحلو. . . لم يكده يصدّق عينيه، فحملق فيه مشدوهاً،  
ثم اشتدّ احمرار وجهه المنفوخ فرحاً، وهمّ بالنهوض،  
ولكنّ الشاب لم يمكّنه من ذلك، واحتضنه بذراعيه  
فتعانقا عناقاً حارّاً، والحلويهتف به متأثراً:

- كيف حالك يا عمّ كامل؟

فيجيبه الرجل في لفة وسرور:

- كيف أنت يا عباس. . . أهلاً وسهلاً ومرحباً. . .

لشدّ ما أوحشتني يا عكروت!

وقف الحلوي بين يديه مبتسماً، والآخر يتطلّع إليه  
بعينين شيقيتين. وكان يرتدي قميصاً أبيض وبنطلوناً  
رمادياً، وقد حسر رأسه ورجل شعره فبدأ أنيقاً حسن  
المنظر موفور الصحة موزّد الوجه، فرمقه عمّ كامل  
بإعجاب وقال بصوته الرفيع:

- ما شاء الله أنت رائع يا جوني!

فضحك عباس الحلوي ضحكة رنانة صاعدة من

قلب جذل وقال:

«اتبعتي». فتبعه منقبض الصدر مقشعرّ البدن. وكان  
الدكتور يجلس - في مثل هذا الظرف - على الدرجات  
الوسطى، ويشعل الشمعة ويثبتها في الدرجة السفلى،  
ثم يغمض عينيه ويدفنها بين ركبتيه. وكان يدخل  
القبور على كره، وطالما ناشد زيطة الرحمة أن يعنيه من  
دخول القبر، ولكنّ الآخر أبى أن يؤدّي له هذه الخدمة  
إلا إذا شارك في جميع خطواتها، مستلداً في أعماقه  
تعذبه. وقد اشتعلت ذبالة الشمعة فأضاءت القبر،  
وألقى زيطة نظرة متحجّرة على الجثث المدرجة في  
أكفانها مطروحة في تتابع وتوازٍ حتى غيابات القبر،  
يرمز نظامها إلى تسلسل التاريخ وأطراد الزمن، وينطق  
صمتها الرهيب بالفناء الأبدي. ولكنّها لم ترجع في  
صدر زيطة أيّ صدى، فسرعان ما استردّ نظrote  
المتحجّرة وثبتها على الكفن الجديد عند بدء القبر.  
وجلس القرفصاء، ثم كشف عن رأس الجثة بيدين  
باردتين، وحسر الشفتين، وعالج بأصابعه الطقم حتى  
انتزعه، وأودعه جيبه وقد تلوّث أنامله. ثم غطّى  
الرأس كما كان، وتحوّل عن الجثة إلى الباب، فرأى  
الدكتور دافئاً رأسه بين ركبتيه والشمعة في أسفل  
الدرج تزهّر، فرماه بنظرة ساخرة وغمغم في ازدياء  
«أضح!» فرفع الدكتور رأسه مرتعداً، ومال نحو  
الشمعة فتناولها ونفخها فاطفاها، ورقى السلم في  
عجلة كأنه يفرّ. ورقى زيطة الدرج كذلك، ولكنّه  
قبل أن يبرز من الثغرة صكّت أذنيه صرخة داوية،  
وسمع الدكتور يصيح بصوت كالعواء «في عرضكم!»  
تسمّرت قدماه، ثم تراجع نازلاً الأدراج وهو لا يدري  
ما يفعل وقد أثلجت أطرافه، وما زال يتراجع حتى  
داس كعبه الجثة، فتقدّم خطوة ووقف متسمّراً لا يجد  
مهرباً. وخطر له أن يرقد بين الجثث، ولكنّه قبل أن  
يأتي حركة واحدة غمره نور وهاج أغلق جفنيه قسراً،  
وسمع صوتاً شديداً يصيح به في لهجة صعيدية:

- اصعد. وإلا أطلقت عليك النار. . .

وطوته اليأس فاستسلم، ورقى الدرج كما أمر، وقد

نسي الطقم الذهبي في جيبه.

\* \* \*

دق قلبه بعنف! ذكر عند ذاك حميدة! . . . ولكم ذكر هذا الموقف فيما تلا ذلك من أيام متعجباً من نسيان ما كان ينبغي أن يذكره لأول وهلة! ولكنّ الحلو لم ينتبه لتغيره، وسرعان ما شغل بآماله وأفراحه فتراجع خطوتين قائلًا:

- أستودعك الله إلى حين . . .

وأشفق الرجل أن يدهمه الخبر على حين غرة فسأله بلهجة:

- أين تقصد؟

فقال الحلو وهو يهيم بالمسير:

- إلى القهوة أسلم على من بقي من الصحاب . . . فأتكأ عمّ كامل على ركبتيه وقام جاهداً، وتبعه متبخترًا. وكان الوقت عصرًا فلم يجدا بالقهوة من أصحابها إلا المعلم كرشة والشيخ درويش. فسلم عباس على المعلم الذي لاقاه بترحيب، وشدّ على يد الشيخ درويش. فرمقه الشيخ بنظرة باسمه من وراء نظارته ولم ينبس بكلمة. وكان عمّ كامل يعاني انقباضًا ثقيلًا، وحزنًا مريزًا، ولا يدري كيف يفاتحه بالنبا الأليم، فقال له برجاء:

- هلاً عدت معي إلى الدكان قليلاً . . . ؟

ووقف عباس مترددًا بين رجاء صاحبه وبين الزيارة المشودة التي انتظرها جزعًا بضعة شهور، ولكن لم يهن عليه عمّ كامل، ولم يجد بأسًا في المكوث معه فترة قصيرة من الوقت، فرجع معه إلى دكانه مداريًا برمه بابتسامة لطيفة، وجلسا في الداخل جنبًا لجنب، وهو يقول بسرور:

- الحياة في التلّ الكبير حياة عظيمة، عمل متواصل، وربح موفور. إنّي لا أبعثر نقودي قانعًا بعيشة متواضعة لا تكاد تختلف عن عيشة الزقاق. حتّى الحشيش لم أذقه إلا مرّات معدودات مع أنّه هنالك كالماء والهواء. وقد ابتعت هذا . . . انظر يا عمّ كامل العقبى لك . . .

واستخرج من جيب بنطلونه علبة صغيرة وفتحها، فبان بداخلها عقد ذهبيّ مركّب من سلسلة وقلب رقيق، ثمّ استطرد وعينه البارزتان تلمعان بسرور:

- ثنك يو . . . لن يرطن الشيخ درويش بالإنجليزية وحده بعد اليوم!

وأجال الشابّ عينيه في الزقاق المحبوب، فوقعتا على دكانه القديم، ورأى صاحبه الجديد مكبًا على حلق ذقن زبون، فرنا إلى الدكان رنوة حنان وتحيّة. ثمّ طار بصره إلى النافذة فوجدها مغلقة كما كانت حين قدومه، فتساءل ترى أي في الدار أم في الخارج؟ وما عسى أن تفعل إذا فتحت الباب فوجدت أنّه الطارق؟ سوف تحمق في وجهه بدهشة وذهول، فيملاً عينيه من حسنها الباهر! هذا يوم أغرّ من الأيام المعدودة في العمر. وانتبه إلى صوت عمّ كامل وهو يقول متسائلًا:

- أتركت عملك؟

- كلاً، ولكنّي أخذت إجازة قصيرة.

- ألم تدر بما حصل لصاحبك حسين كرشة؟ هجر أباه، وتزوّج، ثمّ استغنوا عنه فعاد إلى بيته يجرّ وراءه زوجته وشقيقها.

فلاح الأسف في وجه الحلو وقال:

- يا لسوء الحظّ . . . ! إنهم يستغنون عن العمّال كثيرًا في هذه الأيام. وكيف استقبله المعلم كرشة؟

فمطّ عمّ كامل بوزه وقال:

- لا يفتأ شاكيًا متبرّمًا، أمّا الفتى وأهله فيقيمون في الدار.

وسكت الرجل نصف دقيقة ثمّ قال متعجبًا كأنما ذكر أمرًا هامًا:

- أما علمت بأنّ الدكتور بوشي وزیطة مسجونان؟! ثمّ قصّ عليه كيف قبض عليها في قبر الطالبی متلبسین بجريمة سرقة طقمه الذهبيّ. وقد وجم الحلو وجومًا شديدًا. ولم يكن يستبعد أن يرتكب زیطة أشنع الجرائم، ولكنّه عجب للدكتور بوشي كيف سوّلت له نفسه اقتراف هذه الجريمة النكراء . . . وذكر كيف طلب إليه أن يرتكب له طقمًا حين عودته من التلّ الكبير، فالتوت شفثاه امتعاضًا وتقزّرًا.

واستدرك عمّ كامل يقول:

- وقد تزوّجت الستّ سنّية عفيفي . . .

وكاد يقول له «العقبى لك» ولكنّه أمسك فجأة وقد

فقال عمّ كامل بأسى:

- شدّ حيلك يا عباس. يعلم الله أنّي حزين  
أسيف، وأني حملت همك من أول الأمر، ولكن ما  
باليد حيلة. اختفت حميدة، ولم يدر أحد عنها شيئاً.  
خرجت يوماً كعادتها كلّ عصر ولكنّها لم تعد. فتشوا  
عنها في مظانّها جميعاً دون جدوى. بلّغنا قسم الجماليّة،  
وبحثنا في قصر العيني، ولكن لم نعث لها على أثر.

لاح في وجهه سهوم، وليث حيناً جامداً صامتاً، لا  
يتكلّم ولا يتحرّك ولا يطرف. لا مذهب ولا مهرب.

ألم يتبنّى قلبه بالفاجعة؟ بلى، وها هو يصدقه. يا  
عجباً.. ماذا يقول الرجل؟.. اختفت حميدة؟..

وهل يخفي البشر كما تخفي إبرة أو قطعة من النقود؟!

لو أنّه قال ماتت أو تزوّجت لأمكن أن يجد اضطرابه

مدى أو نهاية، فاليأس على آية حال أروح من الشكّ

والخيرة والعذاب. ولكن ما عسى أن يفعل الآن؟!

بات اليأس نعمة لا يطمع فيها بحال. وخرج من  
جموده فحأة، فاستعرت نفسه هياجاً وارتعشت أطرافه،

وحدج الرجل بعينين محمّرتين وصاح به:

- اختفت حميدة!.. وماذا فعلتم؟.. بلّغتم قسم

الجماليّة وبحثتم في قصر العيني؟.. جزاكم الله كلّ

خير، ثمّ ماذا؟.. عدتم إلى أعمالكم كأنّ شيئاً لم

يكن!.. يا لطف الله!.. انتهى كلّ شيء، فرجعت

أنت إلى دكانك وراحت أمّها تطرق أبواب العرائس،

وانتهت حميدة، وانتهيت أنا أيضاً. ماذا تقول يا رجل؟

خبرني عمّا تعلم؟ ماذا تعرف من أمر اختفائها؟..

كيف اختفت؟ ومتى وقع ذلك؟!

استحوذ الاضطراب على عمّ كامل لما بدر من

صاحبه من حلة وغضب، وقال بصوته الحزين:

- مضى على اختفائها زهاء شهرين يا بني. كان

حادثاً مروّعاً مفرّغاً ارتجّت له القلوب. والله يعلم أننا

لم نأل جهداً في البحث والاستفسار، ولكن ما باليد  
حيلة!  
فضرب عباس كفّاً على كفّ، وقد احتقن الدم  
بوجهه، وازدادت عيناه جحوظاً، وقال وكأنّه يخاطب  
نفسه:

- شبكة حميدة. أما علمت؟!.. سأكتب الكتاب

في إجازتي هذه..

وتوقّع أن يقول الرجل شيئاً، ولكنّ عمّ كامل لاذ

بصمت ثقيل وغضّ بصره كأنّه يخفيه، فنظر إليه

الشابّ باهتمام، ولأوّل مرّة رأى ما ينطق به وجهه من

وجوم واكفهرار. ولم يكن عمّ كامل من الذين يفلحون

في إخفاء ما يعتمل في أنفسهم، فلاح باطنه عارياً في

وجهه. وسرعان ما قطّب الحلو وساوره الفلق، فأغلق

العلبة وأعادها إلى جيبه، وأنعم في صاحبه النظر

فداخله خوف انقبض له قلبه. وأشفق على قلبه الجذل

الجبور أن تطفئ جذوته خيبة لا يدرها ولا يتوقّعها.

أشفق من ذلك إشفاقاً أليماً موجعاً، ولكنّ نذر الكدر

تخالفت لعينيه في وجه الرجل المرتبك الواجم، ولم

يستطع مع جموده صبراً، فسأله بارتياب:

- ما لك يا عمّ كامل؟.. لست كعهدي بك. ما

الذي غيرك؟.. لماذا لا تنظر إليّ؟!

فرفع الرجل وجهه إليه ببطء، وطالعه بعينين

مظلمتين محزونتين، وفتح فمه ليتكلّم، ولكنّ لسانه

خان فلم يطاوعه وبلغ الجزع بعباس مدا، وتنبّأ قلبه

بالفاجعة، فشعر بالقنوط يطفئ أضواء فرجه، ويخمد

أنفاس أمله، فهتف بحزم قائلاً:

- ماذا وراءك يا عمّ؟ ما الذي تريد أن تقوله؟

عندك ما تقوله بلا ريب، بل في ضميرك أشياء

وأشياء، فلا تقتلني بتردّدك. حميدة؟!.. أي والله

حميدة!.. قل ما تشاء. لا تعذبني بسكوتك. هات ما

عندك دفعة واحدة.

فازدرد ريقه، وقال بصوت لا يكاد يسمع:

- ليست موجودة! لم تعد هنا اختفت. لا يدري

أحد عنها شيئاً.

أنصت إليه بذهول وفزع، ونقشت الكلمات في

وعيه كلمة كلمة، ولكن غشي فهمه ضباب وغبار،

وكأنّما انتقل فجأة إلى دنيا المحمومين، فقال بصوت

متهدّج:

- لست أفهم شيئاً. ماذا قلت! لم تعد هنا،

اختفت؟! ماذا تعني؟

هذه القلّة من الناس الذين ينزعون بفطرتهم إلى إقامة المعاذير لغيرهم، واختيار أخفّ التأويلات لأفطع الفعال. ولم يغيّر الحبّ من طبعه هذا، بل لعلّه رسّخه وقوّاه، فلم تظفر منه وسوسة الغيرة وهممة الشكّ بأذن مرهفة. وقد أحبّ حميدة حبًّا شديدًا باركته فطرته الطيبة بثقة وطمأنينة. وآمن - إلى هذا كلّه - بأنّ فتاته أكمل فتاة في الدنيا التي لم ير منها شيئًا يذكر. فلم يداخله شكّ فيها، أو أنّ طيف الشكّ الذي لاح له لم يجد في قلبه مرتعًا يعيث فيه. وقد ذهب لمقابلة أمّها ذلك اليوم، ولكنّها لم ترو له غلّة، وأعدت عليه ما قصّه عمّ كامل بصوت مختنق بالعبرات. وزعمت له أنّ الفتاة كانت لا تفتأ تذكره وتترقب عودته بصبر فارغ فضاعت بكذبها أحزانه، وغادرها كما جاءها كسير الفؤاد مبلبل الفكر معذب النفس. وغادر الزقاق تسوقه قدماه الثقيلتان، وقد زعفر الأصيل هامة النهار، تلك الساعة التي اعتاد - في الأيام الخوالي - أن يرى فيها مطلعها المحبوب إذا خرجت لنزهتها اليومية. وقطع الطريق ذاهلاً عمّا حوله، فتمثّلت لعينيه بجسمها الملقوف في الملاء السوداء وعينها النجلارين المحبويتين، وهوّت على قلبه ذكرى الوداع الأخير على البسطة، فتنهّد من الأعياق، ونفخ محزونًا قانطًا. ترى أين هي الآن؟.. ماذا تصنع؟ وماذا صنع الله بها؟.. أتعيش على ظهر الأرض أم ترقد في قبر من قبور الصدقة؟.. ربّاه.. كيف تحجّر قلبه طوال ذلك العهد فلا استشفّ ريبة ولا شام نذيرًا!.. كيف استنم إلى طمأنينة الأحلام ولذّة المنى فأكبّ على العمل غافلاً عمّا يجتبه له الغد؟! وأيقظه الزحام من ذهوله فتنه إلى الطريق، هذا الموسكي طريقها المختار بأناسه ودكاكينه، كلّ شيء فيه باقٍ على حاله، إلّا هي، اختفت كأن لم تملأ الدنيا بهاء بالأمس. وألمّت به رغبة في البكاء، ولكنّه لم يستسلم لها هذه المرّة. لقد أراحه البكاء على صدر عمّ كامل، وأرخصي توتّر أعصابه، وتركه لحزن عميق هادئ، فيجدد به الآن أن يتساءل عمّا هو فاعل، أي دور على الأقسام وقصر العيني... ولكن ما جدوى ذلك؟ أيدوخ في شوارع

- زهاء شهرين!.. ربّاه.. هذا تاريخ قديم. لا أمل في العثور عليها. ماتت؟.. غرقت؟.. خُطفت؟.. من لي بأن أدري؟.. خبرني بما يقول الناس؟

فقال عمّ كامل وهو يرمقه بحزن وحنان:

- ظلّوا ظنونًا كثيرة، ثمّ رجّحوا أنّها ذهبت ضحية لحادث، أمّا الآن فلا يذكرون شيئًا..

فهتف الشابّ متأوّهًا:

- طبعًا.. طبعًا.. فلا هي ابنة لأحد منهم، ولا قريبة أحد، حتّى أمّها ليست بأمّها. ترى ماذا حدث لها؟.. كنت في هذين الشهرين أسعد الناس أحلامًا. رأيت كيف يحلم إنسان بالسعادة إذ الشقاء يترقّب يقظته ساخرًا هازئًا طويًا مصيره بيديه القاسيتين؟!.. ولعلّي كنت أنعم بلذيذ السمر بينما كانت تنهرس تحت عجلة، أو تتخبط في قعر النيل.. شهران يا حميدة! لا حول ولا قوّة إلّا بالله.

ونفض قائمًا ضاربًا الأرض بقدمه، ثمّ قال بامتعاض:

- أستودعك الله.

فسأله بلهفة:

- علام نويت؟

فقال بفتور:

- سأقابل أمّها...

وذكر وهو يدلّف من باب الدكان متناقلًا كيف جاء يكاد يطير من جلده فرحًا، وكيف يذهب محطّمًا مهبطًا. فعصّ على شفّته، وتسمّرت قدماه وقد بلغ منه الأسى منتهاه، وتحوّل نحو صاحبه فرآه ينظر إليه بعينين مغرورتين بالدمع، ففقد جنانه وهرع نحوه بلا وعي، وارتمى على صدره في قنوط، ونشج منتحبًا باكياً كالأطفال...

ألم يداخله شكّ في حقيقة اختفائها؟.. ألم يساوره ما يساور المحيّين من ارتياب وسوء ظنّ في مثل حالته؟ الحقّ أنّ طيف شكّ قد لاح بخاطره ولكنّه لم يلقِ إليه بالأفتبّد. كان بطبعه شديد الثقة، يجود بالظنّ الحسن بغير حساب. كان طيب القلب جدًّا، ومن



## زقاق المذق ٧٤٧

ونال منظره من الفتيات فاخفتت من أعينهن نظرات  
خبیثة ساخرة، وتكلمن الرزانه، وقالت محدثه برفقه:

- نعم يا سيدي .

- واخبرت أمها بذلك؟

- نعم . . .

وشكرهن بكلمة، وسار في طريقه. ولم يداخله  
شك في أتهن سيجعلن منه حديهن بقية الطريق،  
ولعلهن يضحكن كثيرا من الفتى المغفل الذي هاجر  
إلى التل الكبير ليجمع ثروة لمحبيته، فأثرت عليه آخر  
وفرت معه. يا له من مغفل حقًا! ولعل أهل حيه  
جميعًا قد لغطوا بغفلته. وقد رحه عم كامل فأخفى  
عنه الحقيقة، كما أخفتها أم حميدة، وهل كان بوسعها  
أن يفعل غير ما فعلًا؟ وخاطب نفسه ولما يفق من  
ذهوله قائلاً: «هذا ما حدثني به قلبي لأول وهلة». ولم  
يكن صادقًا في قوله، لأن الشك لم يلتم به إلا الإمامة  
خفيفة، ولكن لم يعد يذكر في محنته غير هذه الإمامة  
الخفيفة من الشك، بيد أنه تآه في اللحظة التالية  
وتساءل وهو يبسط أصابعه ويقبضها في حركات  
تشنجية: «رباه كيف أعقل هذا! أهربت حميدة حقًا  
مع رجل؟! من يصدق هذا؟!». لم تمت إذن، ولم  
يعرض لها حادث، ولقد أخطأوا خطأ كبيرًا في البحث  
عنها في الأقسام وقصر العيني، وغاب عنهم أنها تنام  
سعيدة رخيّة البال بين ذراعي الرجل الذي خطفها.  
ولكنها وعدته ومته، أفكانت تخادعه؟. أم توهمت  
خطأ أنها تميل إليه. كيف عرفت ذلك الأفندي؟ ومتى  
أحبته؟ وأي جرأة شيطانية أغرتها بالفرار معه! . كان  
متمتع اللون، بارد الأطراف، تلوح في عينيه نظرة  
ساهرة قائمة، وتبرق فيها من أن لأن لمحة خاطفة تغدح  
شرًا. خطر له خاطر فصعد رأسه إلى الدور على  
جانبي الطريق، ينظر إلى نوافذها ويتساءل: في أي دار  
ترقد لصق رجلها الآن؟ انقشع غبار الحيرة، وحل محله  
غضب ناروي ومقت نهم، وتقبض قلبه وتلوي تحت  
ضغط يدي الغيرة القاسيتين، غير أن شعوره بالخيبة-  
الناشئة من ذهاب الأمل وتمرغ المعبود في التراب- كان  
أفزع من الغيرة نفسها. إن الغرور والكبرياء وقود

القاهرة مناديا باسمها؟ يطرق أبواب البيوت بابًا بابًا؟  
الله ما أعجزه وما أعجز حيلته! إذن هل يعود إلى التل  
الكبير متناسيًا ما وراء ظهره؟ ولكن لماذا يعود؟ لماذا  
يصر على تحميل نفسه آلام الغربة؟ لماذا يكذب ويكدهج  
ويجمع النقود؟ الحياة بغير حميدة عبء ثقيل لا طائل  
تحت. غاضت في قلبه مشاعرها جميعًا إلا فتورًا يزهق  
الأنفاس وخمودًا يقتل الإحساس، وهوى إلى هذه  
الحالة المضنية التي تبدو فيها الحياة فراغًا كثيبًا يحدق به  
سد هائل من القنوط. كان يعيش على الفطرة لا  
يدري شيئًا عمًا وراءها. مخلصًا لقوانين الحياة الأوليّة،  
فوجد في الحب جوهر حياته وخلودها فلما أن فقده  
فقد الأسباب التي تصله بالحياة، وتردى مزعزعًا كبرة  
هائمة في الفضاء. ولولا أن الحياة- التي تجرع غصص  
الآلام- تتفنن في إغراء بنينا بالتعلق بها حتى في أحلك  
أوقاتها، لختم عمره وقضى. ولكنته مضى في سبيله  
حائرًا قد ضل هدفه، بل شعر في تلك اللحظة أنه  
ضله إلى الأبد. بيد أنه ما زال معلقًا بخيط يدق على  
وعيه ولمح في عرض الطريق بنات المشغل العائدات فما  
يدري إلا وهو يتجه نحوهن ويعترض سبيلهن، فوقفن  
داهشات وقد تذكرنه في غير مشقة، وقال لمن بلا أدن  
تردد:

- مساء الخير يا بنات، لا تؤاخذني، ألا تذكرن

صاحبتك حميدة؟

فقالن إحداهن:

- نذكرها جميعًا! . ونذكر كيف اختفت فجأة فلم

نراها منذ ذلك اليوم!

فسأل بصوت ينطق بالأسى:

- ألا تدرين شيئًا عن اختفائها؟

فقالن أخرى وقد لاحت في عينها نظرة ماكرة:

- لا ندري شيئًا على وجه اليقين. إلا ما قلته لأمها

حين جاءتني يوم اختفائها تسأل عنها، من أننا رأيناها

مرات بصحبة أفندي يسيران معًا في الموسكي . .

وحملق في وجه محدثته بذهول وقد ارتعش جانب

فيه، وسألها:

- رأيتها بصحبة أفندي!؟!

يضنيه، وكأنها تعهدت بالقضاء عليه، فسامتة تفكيرًا متواصلًا في الموت حتى صار الموت شغله الشاغل. ولم يكن الرجل في الأصل بالضعيف الإيمان ولا كان بالرعديد الجبان، ولكن تهافت أعصابه أنساه آداب الإيمان وألوى بشجاعته. وما انفك يفكر في ساعة الاحتضار. وقد ذاق بعض مرارتها في إبان مرضه. ويستذكر ذكرياته عنها عمن حضرهم الموت من أقاربه، ذاك الرقاد المستسلم الأليم، وصعود الصدر وهبوطه، وهذه الحشرة المتقطعة، وإطلام المقتلين، وبين هذا وذاك تتزع الحياة من الأعماق والأطراف، وتودع الروح الجسد. أفيق كل هذا في سر؟ إن الإنسان ليجن إذا انتزع ظفروه، فكيف يكون إذا انتزعت روحه وحياته؟! ولا يدري إلا المحتضر نفسه حقيقة هذا الألم، فما تستطيع أن تلمس غير آثار الاحتضار الظاهرة، أما صداها في الروح ورجعها في الجسد، فير الميت الذي ينطوي عليه صدره، ويقبر معه في جدته، وآخر ذكرياته عن آلام الدنيا في أفضع حالاتها وأبشعها، ولو أنه أتيج لميت أن ينطق عن عذاب احتضاره لما نعم إنسان بساعة صفو واحدة في الحياة، ولما ت الناس ذعرًا قبل أن تدركهم النهاية. وطالما تمنى أن يسلكه الله في زمرة المحظوظين ممن يموتون بالسكينة القلبية. ما أسعدهم بين الأحياء والأموات على السواء، إنهم ليموتون وهم يتكلمون أو يأكلون، أو حين يقومون أو يقعون، كأنهم يمكرون بالاحتضار فيتحيون منه غفلة ثم ينسلون خفية إلى باب الأبدية!.. ولكنه في شبه يأس من هذه الميتة السعيدة، وقد ضرب له أبوه - وجده من قبل - مثل الميتة التي يشعر قلبه بالتهافت الفزع بأنها ستجري عليه، احتضار طويل يغشى نصف يوم ونزع شديد تشيب له الولدان. من كان يصدق أن السيد سليم علوان - الرجل القوي السعيد - سيمسي فريسة لهذه الأفكار والمخاوف؟... هكذا كان، ولم يكن الاحتضار بفزع الوحيد، فقد انجذبت أفكاره المحمومة نحو ضجعة الموت نفسها، فأطال فيها التفكير والتفلسف على طريقته! وصور له خياله وثقافته

للغيرة يؤرثان ليهيها. ولم يكن حظه منها ملحوظًا، ولكنه كان شديد الأمل كبير الأحلام، فلذوي أمه وتبدد حلمه، وانفجرت نفسه غضبًا. وأفاده الغضب من حيث لا يدري، فاستنقذه من ذاك الحزن الصامت الثقيل، وعلمه بالانتقام يومًا ولو على سبيل البصق والازدراء. والواقع أن فكرة الانتقام استحوذت على مشاعره في تلك الساعة الجهتية من الغضب والقهر، فتمنى أن يتمكن من طعن قلبها الغادر بمدية حادة. الآن يستطيع أن يدرك سر مواظبتها على الخروج في العصارى، فقد كانت تنطلق عارضة نفسها على ذئاب الطرق! ولكنها جنت بغير شك، جنت بهذا الأفندي، وإلا لما أثرت العهر معه على الزواج به! وعرض على شفته ألمًا لهذا الحاطر. وانتقل راجعًا قد ضاق ذرعًا بالمثي والوحدة. وتحسست يده علية العقد في جيبه، فانطلقت من فمه ضحكة جافة ساخرة كأنما صرخة غضب في رداء ضحكة. ليته يستطيع أن يشنقها بسلسلة هذا العقد الذهبية! وذكر كيف وقف في دكان الصايغ يقلب عينيه بين الحلبي وقلبه يكاد يقفز من صدره جلدًا وسرورًا، وهفت الذكري على قلبه كالنسيم الواني إلا أنها التقت بوهج قلب مضطرم فانقلب النسيم حرورًا... .

- ٢٩ -

ما إن وقّع السيد سليم علوان على العقد المبسوط على المكتب حتى شدّ الخواجا الجالس قبالة على يده وقال له:

- مبارك عليك يا سليم بك. هذه ثروة طائلة... . وعلق بصر السيد بالخواجا وهو يمضي في سبيله حتى تواری وراء باب الوكالة، صفقة رابحة. وبحسبه أنه تخلص من مخزون الشاي الذي اشتراه الخواجا جملة فريج الكثير وأمن شر المخاوف، خصوصًا وأن صحته لم تعد تطيق أهوال السوق السوداء. بيد أنه قال لنفسه ساخطًا متبرمًا «ثروة طائلة ولكنها ملعونة، لقد حلت اللعنة بكل شيء في دنياي». والحق أنه لم يبق من السيد القديم إلا شيخ هزيل، وكانت أعصابه أشد ما

## زقاق المنق ٧٤٩

بشاشة لم تحاول إخفاءها «إنها صنيّة الفريك والعياذ بالله». ويومًا قال له عمّ كامل عن قصد حسن وتيّة سليمة:

- هلاّ امرتني يا سي السيد أن أصنع لك صنيّة بسبوسة مخصوصة يرّد عليك ثوب العافية بإذن الله!  
ولكنّ السيد غضب غضبًا شديدًا وانفجر صائحًا فيه:

- إليك عني أيها الغراب. أجننت يا أعمى القلب والبصيرة!... إن أمثالك فقط من البهائم تبقى لهم أعدتهم سليمة حتىّ الق...

ولم يعد بعدها عمّ كامل إلى التعرّض له بخير أو بشرّ.

أما زوجه فباتت رمية سهلة لغضبه وسخطه، ولم يفتأ يلقي على حسدها المزعوم له تبعة ما حصل له في جسمه وعقله، وكان ينتهرها قائلاً:

- لشدّ ما نغمت على صحتي وعافيتي، حتىّ تحطمت بين يديك، فهنيئًا لك الراحة يا أفعى...

واشتدّ به سوء الظنّ، حتىّ ارتاب يومًا أن يكون غما إليها عزمه على الزواج من حميدة، لأنّ أمثال هذه الأمور تنصدّي لها أعين كثيرة قتراها في خفية من صاحبها، وتطوّع ألسنة كثيرة لإذاعتها وإيصالها لصاحب الشأن، ولم يستبعد عند ذلك أن تكون المرأة قد انتقمت منه بأن عملت له «عملًا» هو الذي أودى بصحته وعقله!... ولم يكن في حالة تسمح له بأن يزن ما يعرض له من فكر بميزان العقل ولا أن يسبرها بمسبار الحكمة، فسرعان ما انقلبت الريبة يقينًا. فتميّز غيظًا، وامتلأ حنقًا، وتوتّب للانتقام. اشتطّ في معاملتها، ودأب على سبّها ونهرها، ولكتّها قابلت قسوته بالامتثال والصبر والأدب، فلم يُجْجِه شططه، ولبث يتحرّق إلى إثارتها، وإخراجها من التعوّد بالصمت والصبر إلى الأخذ بأسباب التشكي والتذمّر وذرّف الدموع، فقال لها مرّة بجفاء وازدراء:

- لقد مللت عشرتك، ولا أخفي عنك أيّ شارع في الزواج، سوف أجرب حظي مرّة أخرى...

وصدّقت المرأة، فتصدّع بنيان رزانتها المتماسك،

التوارثة عن الأجيال، أنّ بعض شعوره سيلازمه بعد الموت، ليس يقولون إنّ عيني الميت تريان من يحدّقون به من الأهل؟... فحتم أن يرى الموت جهرة، وأن يشعر بالنهاية الأبدية وهي تشملها، وأن تتصل حواسه بظلمة القبر ووحشته وغربته وهياكله وعظامه وأكفانه بل بضيقه واختناقه، وما يحتمل أن يتردّد في النفس من أشواق وحنين وحبّ للدنيا وأهلها!... تمثّل ذلك كلّه بصدر منقبض وقلب متشجّج وأطراف باردة وجبين يتصدّع عرقًا، ولم ينس ما وراء ذلك من يعث ونشور وحساب وعذاب، أوّاه... ما أبعد الشقّة بين الموت والجنّة!...

لذلك تعلق بأهداب الحياة بقوة الخوف واليأس، على رغم أنّها حياة عاطلة من أسباب النعيم، فلم تترك له دورًا يلعبه في مسرحها إلاّ المراجعة وعقد الصفقات، ودأب عقب نقاهته على استشارة طبيبه، فأكد له الطبيب شفاءه من الذبحة وآثارها ولكنّه نصحه بالحدز والاعتدال. وشكا إليه عدّة مرّات ما يعاني من سهاد وهواجس فأشار عليه باستشارة أخصائيّ في الأعصاب ومن ثمّ مضى يتردّد بين الأخصائيّين في الأعصاب والقلب والصدر والرأس، وتفتح له باب المرض عن عالم لا يقلّ عن علمنا اتّسع رقعة وازدحامًا بالسكّان من الجراثيم والأعراض الخفيّة. ومن عجب أنّه لم يكن يؤمن لا بالطبّ ولا بالأطباء، ولكنّه آمن بها في اضطرابه، ولعلّ إيمانه هذا كان من بين أعراض المرض الذي ألمّ بأعصابه!...

في هذا الجحيم من الهواجس كادت تنحصر حياته، وفي أوقات عمله، وأوقات السلام التي تصفو فيها نفسه وتنقى من غمّ الهواجس كان كأنه يتفرّغ لإفساد علاقاته بالمحيطين به من البشر، فهو إمّا في حرب مع نفسه وإمّا في حرب مع الناس. وأدرك عمّال الوكالة من بادئ الأمر أنّ سيدهم قد استحال شخصًا شاذًا ملعونًا، فترك الوكيل وظيفته بعد خدمة طويلة استمرت ربع قرن من حياته، وبقي من بقي من العمّال على مضض وتوجّس واستكراه. وقال عنه أهل الزقاق إنّ بين العقل والجنون، وقالت حسنيّة الفرّانة

- نتركه وشأنه حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولاً .  
 بيد أن المحامي قال بشيء من الحزم مستدركاً :  
 - اللهم إلا إذا شرع في الزواج حقاً، فأشد ما  
 نتخذه من احتياط أهون من أن نتركه هملاً بين أيدي  
 الطامعين .

\* \* \*

وكان اختفاء حميدة حدثاً فظيماً في حياته . ومع أنه  
 لم يعد إلى ذكرها - منذ مرضه - فتخلّفت عن تيار  
 شعوره، إلا أن خبر اختفائها أثار اهتمامه وجزعه،  
 فتتبع بقلق بحث الباحثين عنها . ولما تناهى إليه ما  
 تهاوس به اللاغظون من أنها فزت مع رجل مجهول،  
 انزعج انزعاجاً شديداً، وثار غضبه ذلك اليوم فلم  
 يجرؤ أحد على الدنو منه، فرجع مع المغيّب إلى بيته  
 مهتّم الأعصاب، وأصابه صداع شديد أرقه حتى  
 مطلع الفجر . وحنق على الفتاة الهاربة حنقاً كبيراً،  
 وتآكل قلبه حقداً وغضباً، وتمنى أن يراها يوماً متدلّية  
 من مشنقة، مندلفة اللسان، جاحظة العينين . ولما  
 علم بعودة عبّاس الحلو من التلّ الكبير سكن روعه  
 لغير ما سبب واضح، ودفعته رغبة لا تقاوم إلى  
 استدعاء الشاب، وقربه، ولاطفه في الحديث وسأله  
 عن أحوال معيشته، متجنباً ذكر الفتاة، فسّر الشاب  
 بعطفه، وشكر له حذبه، وأقبل على الحديث في  
 استفاضة من استنام إلى لطفه، والسيد يسترق إليه  
 النظر من عينيه الغائرتين . . وفي الأيام الأولى التي  
 أعقبت فرار حميدة وقع حادث - ربّما كان في ذاته تافهاً -  
 ولكنّه ممّا يؤرّخ به في زقاق المدقّ . كان السيد سليم  
 علوان متّجهاً نحو الوكالة في ضحوة من النهار فالتقى  
 بالشيخ درويش ذاهباً لبعض شأنه . وكان السيد - في  
 عهده الأوّل - من محبيّ الشيخ درويش، وكثيراً ما  
 تعاهده بالبرّ والإحسان والهدايا، ولكنّه أغفله في مرضه  
 وأهمله وكأنّه لم يعد يشعر له بوجود . ولما التقيا على  
 كذب من باب الوكالة هتف الشيخ درويش وكأنّه  
 يخاطب نفسه :

- اختفت حميدة . .

فبهت السيد، وظنّه يعنيه بقوله، فما تمالك أن صاح به :

وفزعت إلى أبنائها فباحث لهم بما تلقاه على يديه من  
 سوء القول والفعل . وهاهم الأمر، ودهمهم الخطب،  
 فأيقنوا أنّ أباهم ينزلق إلى مهوى وخيم العواقب،  
 وزاروه واقترحوا عليه - إبقاء على صحته - أن يصفي  
 تجارته ويفرغ للراحة والعناية بنفسه . وفتن الرجل إلى  
 ما يساورهم من خوف غير جديد عليه، فغضب غضبة  
 هائجة، وعنفهم بفظاظة لا عهد لهم بها، وخاطبهم  
 بحلّة قاتلاً :

- حياتي ملك لي أصرّفها كيفما أشاء، وسأبقى عاملاً  
 ما راق لي العمل فاعفوني من نصحك المفضل .

وضحك منهكاً ثم استدرك وهو يقلب في وجوههم  
 عينيه الذابلتين :

- ألم تحدّثكم أمكم عمّا اعتزمت من الزواج مرّة  
 أخرى؟ . . هو الحقّ . لقد شرعت أمكم في قتلي،  
 فسأوي إلى كنف امرأة جديدة على شيء من الرحمة،  
 وإذا تضاعف عددكم بهذا الزواج فثروني كفيلة بإشباع  
 أطعاعكم جميعاً . .

وأندرهم بأنّه سيقبض يده عنهم، وأنّ على كلّ  
 منهم أن يعتمد في حياته على موارده الخاصّة . قال  
 بسخط وغضب :

- إني كما ترون لا أكاد أذوق غير مرّ الدواء، فلا  
 يصحّ أن يتمتّع الآخرون بمالي .

قال كبيرهم :

- كيف تخاطبنا بهذه اللهجة المرّة ونحن أبناؤك  
 البررة؟

فقال السيد ساخراً :

- بل أبناء أمكم .

ونفذ وعيده فلم يعد يحمل شيء من طرفه إلى بيوت  
 أبنائه، وحرم مطبخ سراياه من الأنواع الفاخرة التي  
 اشتهر بها، والتي حُرمت عليه هو بعد مرضه، ليشاركه  
 الجميع - خصوصاً زوجه - فيما فرض عليه . ولهج  
 بحديث الزواج المزعوم حين وجد السهم النافذ الذي  
 تحطمت دونه ما تدرع به زوجه من صبر وأناة . وتشاور  
 أبنائه فيما بينهم، وقد ألفاهم الخطب قلباً واحداً في  
 التوجّع لأبيهم، والإخلاص له في محنته، وقال كبيرهم :

## زقاق المدق ٧٥١

حالته من المرض حريّ بأن يزدلف إلى الله لا أن يُغضب ولياً من أوليائه. وطوى كبريائه، ونهض قائماً، وغادر الوكالة متوجّهاً إلى قهوة كرشة. وقصد الشيخ الباكي غير عابئ بالأنظار التي سدّدت نحوه في دهشة، ووضع يده على منكبه برفق، وقال بلهجة تنمّ عن الاعتذار والأسف:

- يا شيخ درويش.. سامحني.

- ٣٠ -

كان عباس الحلو يجلس مخبئاً في شقّة عمّ كامل حين دقّ الباب بعنف، فنهض إليه وفتحته فرأى حسين كرشة مرتدياً القميص والبنطلون، تبرق عيناه الصغيرتان كعادته، ثمّ بادره قائلاً:

- كيف لم تقابلني وهذا ثاني يوم لك في المدقّ؟! كيف حالك؟

فمدّ له الحلو يده متبسماً ابتسامة باهتة وقال:

- كيف أنت يا حسين؟.. لا تؤاخذي فمتعب أخاك لا ناس ولا مهيل. هلمّ نسير معاً.

وخرجا معاً. وكان عباس الحلو قد قضى ليلته مسهّداً، وقطع النهار متفكّراً، فسار مصدّع الرأس، مثقل الجفون. لم يكذب يقى من ثورة الأمس أثر، سكت الغضب الجنونيّ، وبرد الهياج الحامي، وتلاشت خواطر الانتقام الدمويّ، على حين رسب في قرارة نفسه حزن عميق ويأس مدلمّ، وبمعنى آخر تخلّصت نفسه ممّا لا تطيقه من ألوان الانفعال، مسلّمة بكليّتها للحزن واليأس. وقال له حسين متسائلاً:

- أما علمت بأنّي كنت هجرت بيتنا عقب سفرك مباشرة؟

- حقاً؟

- وتزوّجت، وأخذت بأسباب حياة رائعة..

فقال الحلو وهو يكسب صوته شيئاً من الاهتمام الذي لا يجده:

- حمداً لله.. مبارك.. عال.. عال..

وكانا بلغا الغوريّة، فضرب حسين الأرض بقدمه وصاح بحدّة:

- ما لي أنا ولهذا!

ولكنّ الشيخ درويش واصل خطابه قائلاً:

- ولم تخف فحسب، ولكنّها هربت، ولم تهرب فحسب. ولكنّها هربت مع رجل؛ ويسمّون ذلك في الإنجليزيّة Elopement وتهجيتها... c. وقبل أن يتمّ الرجل تهجية الكلمة انفجر السيّد صارخاً:

- إنّه ليوم شؤم إذ أصبحت على وجهك يا مجنون،

اغرب عن وجهي عليك لعنة الله..

وجد الشيخ في مكانه، تسمر في الأرض، ولاحت في عينيه نظرة طفل مذعور إذا لوح له شخص بعضاً مهذّداً، ثمّ أعول باكياً. ومضى السيّد لطيفته، ولبت الشيخ درويش بموقفه باكياً، وعلا صوته فصار أشبه بالصراخ، حتّى أهاب نواحه بالمعلّم كرشة وعمّ كامل والحلاق العجوز فهرعوا إليه متسائلين، وقادوه إلى القهوة، وأجلسوه على أريكته وهم يطيبون خاطره ويسكّنون روعه. وطلب له المعلّم كرشة قدحاً من الماء، وربّت عمّ كامل على كتفه قائلاً بتوجّع:

- وحد الله يا شيخ درويش، اللّهمّ اكفنا سوء.. بكاء الشيخ نذير غير محمود العواقب.. اللّهمّ لطفك.

ولكنّ الشيخ ازداد بكاء وعويلاً، فاضطربت أنفاسه، وارتجفت أوصاله، وأطبقت شفّته في توتّر وتشجّج، وراح يشدّ ربطة رقبته بعنف، ويضرب الأرض بقبّاقبه. وفتحت نوافذ الدور وأطلّت الرؤوس في دهشة وانزعاج، وجاءت حسنيّة الفرّانة. وشقّ النحيب طريقه إلى مسمعي السيّد سليم علوان في الوكالة، فأنصت إليه غاضباً حانقاً، وظلّ ينصت إليه هائجاً، وجعل يتساءل متى يمسك عن العويل؟..

وعبئاً حاول أن يعيب بانتباهه عنه، فكأنّه كان يلحّ في مطاردته والتضييق عليه، حتّى خيّل إليه أنّ الدنيا جميعاً تبكي وتوح. وسكت غضبه وسكن هياجه، ولكن ما طفق البكاء يرعش أوتار قلبه فترنّ في إسفاق وألم. ليته شكّم غضبه ولم يتهر الشيخ الوليّ!.. ليته لم يصادفه في طريقه! وما كان ضرّه لو أغضى عنه ومرّ به مرّ الكرام! وتأوّه نادماً، ومضى يقول: إنّ الإنسان في مثل

إلى نصر، يركب الطيارات والدبّابات، يهاجم ويقتل  
ويسبي النساء الفارات، ويذل له المال عن سخاء،  
فيسكر ويعربد فوق القانون. هذه هي الحياة. ألا  
تتمنى أن تكون جندياً؟

الحق أن ركبتيه كانتا تتخلخلان إذا سمع صفارة  
الإنذار، وكان من رواد المخبأ المواطنين فكيف يتمنى  
أن يكون جندياً من المحاربين؟ بيد أنه تمنى صادقاً لو  
كان خلق جندياً فظاً متعظشاً للدماء فيسهل عليه  
الانتقام ممن آذوه وبددوا حلمه في السعادة والحياة  
الريغة! وقال بلهجته الفاترة:

- من لا يتمنى ذلك؟!

وانتبه إلى الطريق، فازدحم برأسه الخواطر، رباه.  
كيف للزمان أن يحو ذكريات هذا الطريق من  
صدره؟!، إن أرضه لا تزال تحمل آثار قدميها  
اللطيفتين، وإن هواءه لا يبرح معبأ بأنفاسها  
المحبوبة، وكأنه يراها رؤية العين وهي تخطر بقوامها  
المعتدل المشوق، أتى له أن يطمع في نسيان هذا  
كله؟! وقطب متغيظاً على نفسه لجودها بهذا الحنان لغير  
أهله، وأطبق فمه فلاح وجهه صارماً قاسياً، وعادته  
لفحة من ثورة الأمس، ينبغي أن ينبذ من ينبذه، وأن  
يطرح من يخنونه، وألأ يحرق أضلعه حزناً. ولا حتى  
غضباً. على من يرقد ناعماً بين أحضان غريم له. ثبأ  
للقلب من صاحب خئون، دسيسة على الروح  
والجسم، يجب من لا يجتبهما، ويجرص على من يفرط  
فيهما، فيسيم صاحبه الخسف والهوان. واستيقظ عند  
ذاك على صوت حسين الصاحب وهو يلكره هاتفاً:

- حارة اليهود.

وأوقفه بيده عن السير متسائلاً:

- ألا تعرف حانة فيتا؟.. ألم تدمن الخمر في التلّ

الكبير؟

فأجابه عباس قائلاً باقتضاب:

- كلاً..

- كيف عاشرت الإنجليز ولم تشرب الخمر؟ يا لك

من خسروف تعس.. الخمر شراب منعش ومفيد

للمخ، تعال..

- بل زفت وهباب!.. استغنوا عني فعدت إلى  
الزقاق على رغمي، وأنت هل استغنوا عنك أيضاً؟  
فأجابه الشاب بفتور:

- كلاً.. ولكنني مُنحت إجازة قصيرة.

فأكلت الغيرة قلبه، وضحك ضحكة باردة ثم

قال:

- أنا الذي دفعتك إلى العمل دفعاً وأنت تمنع، وما

أنت ذا تنعم به على حين أتسكح أنا متعظلاً.

وكان عباس من أدرى الناس بما تنطوي عليه طبيعة

صاحبه من غلّ وشرّ فقال بانكسار:

- نهايتنا قريية على أية حال، هذا ما يؤكّدونه لنا.

فارتاح حسين قليلاً، ثم استدرك يقول بصوت

أسيف:

- كيف انتهت الحرب بهذه السرعة؟! من كان

يصدّق هذا؟!

فهزّ الحلو رأسه دون أن ينس بكلمة. سيان عنده

أن تستمرّ الحرب أو تنتهي، وأن يبقى في عمله أو

يفصل منه، إنه لا يبالي شيئاً على الإطلاق. وكاد

يضعه حديث صاحبه، إلا أنه ألفاه أخفّ من الوحدة

والفكر، ومن ناحية أخرى تحمّله. كما اعتاد أن

يتحمّله. دفعاً لشره. واستطرد حسين قائلاً:

- كيف انتهت بهذه السرعة!.. كان الأمل معقوداً

بهتلر أن يطيلها إلى ما لا نهاية، ولكن أنهاها حنّنا

الأسود.

- صدقت..

فصاح حسين بشدة:

- نحن تعساء. بلد تعيس وأناس تعساء.. أليس

من المحزن ألا نذوق شيئاً من السعادة إلا إذا تطاحن

العالم كله في حرب دامية؟! فلا يرحمنا في هذه الدنيا

إلا الشيطان!

وأمسك قليلاً وهما يشقان طريقاً بين سابلة السكة

الجديدة، وقد أخذ ستار الظلام في الانتشار، ثم قال

متنهّداً في حسرة:

- لشدّ ما تمّيت أن أكون جندياً محارباً! تصوّر حياة

جنديّ باسل، يخوض غمار الحرب، ويتقل من نصر

## زقاق المدقّ ٧٥٣

سيدي، لا أنت في الزيادة ولا في النقصان، صحتك.  
ورفع كأسه بكأسه، ثم أفرغه في جوفه بغير مبالاة،  
ورفع عباس كأسه وكرع منه كربة، ثم أبعده عن فيه  
متقرّزاً، وقد شعر كأنّ لساناً من لهب اندلع في حلقه،  
فتقبّض وجهه وكأنّه لعبة من المطاط ضغطته أصابع  
طفل، وقال متأقفاً:

- فظيع. مُرّ. حامي.

فتضاحك حسين ساخراً، شاعراً بزهو واستعلاء  
وقال بازدراء:

- تشجّع يا طفل، الحياة أمرٌ من هذا الشراب،  
وأوخم عاقبة..

ورفع كأسه ووضع حافته بين شفثيه وهو يقول  
«اشرب حتى لا يندلق على قميصك» فتجرّعه الآخر  
حتى الثمالة. ونفخ متقرّزاً، ثم أحسّ حرارة في بطنه،  
سرت بسرعة عجيبة ناشرة وهجها في جوفه، فشغل  
بالانتباه إليها عن تفززه، وتتبع أثرها وهو يندفع مع  
دمه، ويجري في عروقه، حتى إذا بلغ رأسه خفت وطأة  
الدنيا عليه قليلاً، وقال حسين بسخرية:

- اكتف اليوم بكأسين ولا تزد..

وطلب كأساً أخرى لنفسه وراح يقول:

- أقيم الآن مع أبي ومع زوجي وشقيقها، ولكنّ  
نسيبي وجد عملاً في الترسانة وسفارقنا اليوم أو غداً.  
ويقترح أبي عليّ أن أشرف على القهوة نظير ثلاثة  
جنيهات في الشهر، وبمعنى آخر أشتغل من الفجر حتى  
نصف الليل بثلاثة جنيهات.. ولكن ماذا تقول  
لحشّاش مجنون؟!.. وهكذا ترى أنّ الدنيا تناصيني  
العداء، وتستفزّ غضبي ومقتي، وليس عندي إلا  
جواب واحد: فإمّا الحياة التي طابت لنا وإمّا حرقنا  
الدنيا ومَن عليها..

فسأله عباس، وكان أخذ يستشعر راحة وجدها  
عجيبة لذيدة بالنسبة لما تعناه طوال يومه من همّ وفكر:

- ألم توفّر مالاً؟..

فقال حسين بحدّة وسخط:

- ولا مليوناً! كنت أسكن شقة نظيفة بالوايلية، فيها  
الكهرباء والماء، وكان عندي خادم صغيرة تقول لي

وتأبّط ذراعه ومال به إلى حارة اليهود وكانت فينا  
تقع على بعد يسير من مدخلها، على جانبها الأيسر،  
وهي أشبه بدكان، متوسطة، مربعة الشكل، تمتد في  
جانبها الأيمن طاولة ذات سطح رخاميّ يتفض وراءها  
الخواججا فينا، وقد ثبت في الجدار خلفه رفّ طويل  
صُفّت عليه الزجاجات، وقامت في نهايته من الداخل  
براميل ضخمة، وعلى سطح الطاولة وضعت جفان  
الترمس والأفداح، ازدحم حولها الشاربون من أهل  
البلد، حوذية وعمّال وآخرون حفاة ونصف عراة  
كالشحاذين إن كان الشحاذون يسكرون. وبقي من  
الحانة غير ذلك موضع اتّسع لبعض المناضد الخشبية.  
فجلس إليها أعيان السوقه والعاجزون عن الوقوف  
لكبر أو لسكر شديد. ورأى حسين مائدة شاعرة في  
نهاية الحانة فقاد صاحبه إليها، وجلسا حولها. وقلّب  
عبّاس عينيه في المكان الصاخب المدوّي في صمت  
وقلق، حتى استقرّتا على غلام في الرابعة عشرة قصير  
مفرط في البدانة، مطين الوجه والجلباب، حافي  
القدمين، يزحم الشاربين ويكرع من قلدح مترع،  
ويتهايل رأسه سكرًا، فأتسعت عيناه دهشة ولفت  
حسين إليه، ولكنّ هذا لوى بوزه استهانة وقال  
بسخرية:

- هذا عوكل بائع الجرائد. يبيع الجرائد في النهار  
ويسكر في الليل. غلام ولكن قلّ في الرجال مثله.  
أرأيت يا غشيم!

ومال برأسه نحوه قليلاً وقال:

- كأس النبيذ بقرش ونصف لدة للمتعتلين أمثالي.  
منذ شهر كنت أشرب الويسكي في بار فنش ولكتها  
الدنيا القلب، معلهش يا زهر!

وطلب كأسين، فجاء بهما الخواججا ووضعها على  
المائدة ومعها طبق ترمس. ونظر عبّاس إلى كأسه بقلق  
وقال مشفقاً من لسان صاحبه إشفاقه من الإقدام على  
التجربة الجديدة:

- يقولون إنّها مؤذية!

فقبض حسين على قدحه وهو يقول بسخرية:

- تخاف على نفسك؟! خلّها تقتلك.. في داهية يا

وتناهى الانفعال بالشابّ فقال بغير وعي:  
 - ترى ماذا تفعل الآن؟!  
 فضحك حسين ساخراً وأجابه:  
 - تفعل ما عسى أن تفعله آية امرأة فرّت مع  
 رجل..  
 - أنت تهزأ بالمي.  
 - أملك سخيف، خبّرني متى علمت بفرارها؟...  
 مساء أمس!... كان ينبغي أن تكون نسيتها  
 الآن..

وهنا أحدث عوكل - الغلام الشريب بائع الجرائد -  
 حركة لفتت إليه أنظار الجلوس، وكان استوفى شربه  
 ومضى ثملاً مترنحاً حتى إذا بلغ عتبة الحانة نظر فيما  
 حوله بعينين زائغتين ورأسه يميل إلى الورا في عظمة  
 وسلطنة وصاح بلسان ملتو:  
 - أنا عوكل شاطر الشطار وسيد الرجال، أسكر  
 وأنبسط، وها أنا ذاهب إلى عشيقتي، فهل لأحد منكم  
 اعتراض؟... أهرام، مصري، البعكوكة...  
 واختفى الغلام تاركاً وراءه عاصفة من الضحك،  
 أمّا حسين كرشة فقد عبس غاضباً، ولاح الشرّ في  
 عينيه، وبصق بصفة طارت إلى الموضع الذي كان به  
 الغلام، وأخذ يسبّ ويلعن. كانت أقلّ إشارة من  
 تحدّ - وهو على سبيل المزاح - كافية لإشعال غضبه  
 وإهاجة روح الاعتداء الكامنة فيه، ولو كان الغلام  
 بمتناول يده للكمه أو ركله أو أخذ بتلابيه. والتفت إلى  
 عباس - وكان يتجرّع كأسه الثانية - وقال بحدة وكأنه  
 نسي ما كانا أخذين فيه من أسباب الحديث:  
 - هذه حياة وليست لعبة خشبيّة، يجب أن  
 نعيش.. ألا تفهم؟

ولم ينتبه عباس إليه، كان يخاطب نفسه قائلاً: «لن  
 تعود حميدة، اختفت من حياتي إلى الأبد، وماذا تجدي  
 عودتها؟ ولكن سأبصق على وجهها إذا التقيت بها  
 يوماً، هذا أشدّ من القتل. أمّا ذاك الأفندي فالويل له  
 مني، سأدقّ عنقه...»

واستدرك حسين قائلاً:  
 - هجرت المدقّ فأعادني الشيطان إليه، سأضرم به

بكلّ احترام «يا سيدي»، وكنت أرتاد السينما والفرقة  
 القومية، ربحت كثيراً، وضيعت كثيراً، وهذه هي  
 الحياة. إنّ أعمارنا ذاهبة فلماذا تبقى النقود؟ بيد أنّ  
 النقود ينبغي أن تساير العمر حتى نهايته، وإلا فالويل  
 لمصر إذا لم تساير النقود الأعمار. ليس لديّ الآن إلا  
 قليل من الجنيهات غير حلّي زوجي..  
 وصفق طالباً كأساً ثالثة ثمّ قال بإشفاق:  
 - والأدهى من ذلك أنّ زوجي تقيّات في الأسبوع  
 الماضي...  
 فقال عباس متظاهراً بالاهتمام:

- لا بأس عليها.  
 - لا بأس ولا زفت، هذه أمارات الحبّ، كما تقول  
 أمي، وكأنّ الجنين غثت نفسه تقزّراً من الحياة التي  
 تنتظره فأعدى أمه.  
 ولم يطق عباس أن يتابعه بالإصغاء لسرعته  
 وطوحته، ولم يعد يهتمّ بذلك، وانتابته كآبة فجائيّة بعد  
 أن نعم ساعة بالراحة، ولاحظ الآخر شروده وسهومه  
 فقال باستياء:

- ما لك؟.. إنك لا تصغي إليّ..  
 فقال عباس بصوت حزين:  
 - اطلب لي كأساً أخرى..  
 وحقق حسين مشيئته بسرور، ورنّا إليه بنظر مريب  
 ثمّ قال:  
 - أنت متكدر وأنا أعلم بسبب كدرك..  
 فحقق فؤاد الشابّ وقال بعجلة:  
 - لا شيء مطلقاً. هات ما عندك إني مصغٍ  
 إليك..

ولكنّه لم يباله وقال بلهجة لم تخل من احتقار:  
 - حميدة..

فاشتدّ وجيب قلبه، وكأنه تجرّع كأساً ثالثة، فهاج  
 دمه وسرى إليه الوجد والحزن والغضب، فقال بصوت  
 متهدّج:

- أجل حميدة، هربت، خطفها رجل، عار وشقاء!  
 - لا تحزن كثيراً كالحمقى، وهل طابت حياة من لم  
 نفرّ عنهم نساؤهم؟!  
 نفرّ عنهم نساؤهم!؟



لعل الساعة الوحيدة التي داومت عليها من حياتها الغابرة هي انطلاقها إلى الخارج في الأصيل من كل يوم. ولكنها الآن تطيل الوقوف أمام المرأة المصقولة، أصلها ثابت في الحوض الذهبي وفرعها سامق في سماء الغرفة. وكانت قد فرغت من ارتداء ملابسها وأخذت زينتها، فبدت امرأة جديدة كأنما ولدت في أحضان النضارة، ونمت وترعرعت في مطارف الجاه والنعيم. على الرأس عمامة بيضاء مرتفعة في تقوس كالخوذة، عقص تحتها شعرها المدهون العبق، الخدان والشفتان مصبوغتان بالحمرة على خلاف بقية الوجه خلا من الأصباغ، بعد تجربة طويلة دلت على أن بشرتها البرنزية أفتن للجنود الحلفاء وأحب إليهم، الأشفار مكحلة والأهداب مدهونة مفصلة تهدف إلى عمل أطرافها الحريرية، وعلى الجفون ظلال بنفسج مقطرة من نسائم الفجر، هلالان مزججان خطتها يد ماهرة مكان الحاجبين، سلسلتان من البلاتين ذات نبتين من اللؤلؤ تتدليان من الأذنين، غير ساعة ذهبية في معصمها وهلال منغرس في مقدم العمامة. فستان أبيض يشق أعلاه عن قميص وردى وتنضح حاشيته بسمرة فخذها، جورب رمادي من الحرير الخالص لبسته لا شيء إلا غلوثمنه، وقد تطاير شدا عبق من تحت إبطها وراحتها وعنقها. فلشد ما تغير كل شيء!

\*\*\*

ولقد اختارت سبيلها من بادئ الأمر بمحض إرادتها، وبعد تجربة وعناء، تكشفت لها أفقه عن أفراح وضياء وخيبة مريرة، فوقفت على قمة الامتحان تردد عينيها بين اليمين والشمال متلهفة...

علمت من أول يوم ما يراد بها، فشارت غاضبة هائجة، لا لتكسر إرادة عشيقها الحديدية، ولكن استسلاماً لداعي عجزتها وإشباعاً لغريزتها المتعطشة للعراك، ثم أذعنت بعد ذلك وكأنتا تدعن بمحض مشيئتها. وأدركت بوضوح وبفضل بلاغة فرج إبراهيم، أنها لكي تتمرغ في التبر ينبغي أن تتمرغ في التراب، فلم تبال شيئاً. وفتحت صدرها للحياة

النار، هذه خير وسيلة للتحرر منه..

فقال عباس بأسى:

- زقاقنا لطيف، وما طمعت يوماً في أكثر من حياة طيبة فيه...

- إنك خروف! وحلال أن تُنحر في عيد الأضحى. علام تبكي؟ إنك عامل وفي جييك نقود، ولتجمعن غداً بتفتيرك مالا وفيراً فإذا تشكو؟

فقال عباس بلهجة تشققت عن الاستياء:

- إنك أكثر مني شكوى، وعمرك ما حدثت الله.. فحدجه الشاب بنظرة قاسية أثابته إلى رشده وجعلته يستدرك قائلًا بلين:

- لا عليك من هذا، لكم دينكم ولي دين..

فقهقه حسين بصوت ارتجت له الحانة، وقال وقد أخذت الحمرة تلعب برأسه:

- خير لي أن أشتغل حماراً من أن أشتغل مكان أبي في القهوة، الريح هنا موفور، وفضلاً عن هذا فالخمر مبدولة للخمار بغير حساب...

فابتسم عباس ابتسامة فاترة وقد بات أشد حذراً في مخاطبة صاحبه الليناميقي، وكان ديبب الخمر يسري في أعصابه، ولكنه بدل أن ينسى شجوه تركزت خواطره فيه. وصاح حسين مرة أخرى:

- فكرة رائعة!.. سأجنس بالجنسية الإنجليزية، في بلاد الإنجليز الكل سواسية، لا فرق بين الباشا وابن الزبال. فلا يبعد أن يصير ابن القهوجي رئيس وزارة...

وانبعثت نشوة مباغته في دم الخلو فقال بحماس:

- فكرة طيبة!.. سأجنس أيضاً بالجنسية الإنجليزية...

ولكن حسين لوى شفتيه ازدراء وقال بسخرية:

- مستحيل، أنت خرع، فالأنسب أن تتخذ الجنسية الإيطالية، ومهما يكن من أمر فسافر على سفينة واحدة... قم بنا.

ونفضا واقفين، وأديا حسابهما، وغادرا الحانة والخلو يتسائل:

- أين نذهب الآن؟

الآن قابعة في بيت، دائبة على القيام بدور الزوجة والخدام والأم وغير ذلك من الواجبات التي تدري الآن عن تجربة ويقين أنّها لم تُخلق لها. فَلَيْلُ ما أبرعه وما أفضنه وما أبعد نظره! ومع ذلك أقول حذار! . . إِيَّاكَ أن تتصوّرها امرأة شهوانية، تستحوذ عليها شهوة طاغية. هي أبعد ما تكون عن ذلك! والحق أنّ شذوذها لا يكمن في قوّة شهوتها. لم تكن من هذه الطائفة من النساء اللاتي تستأثرهنّ الشهوة وتستذهنّ فيجدنّ بكلّ غالٍ في سبيل إرضائها، كانت تلهّف بروحها وجسمها على الظهور والسطوة والعراك، وكانت - حتى بين ذراعي الرجل الذي محضته الحبّ - تلمس أنامل الحبّ خلل اللكيمات والصفعات، وقد باتت شاعرة بهذا الشذوذ في عواطفها، أو هذا النقص في طبيعتها، وكان ذلك من دواعي تماديا واستهتارها، بيد أنّه كان ذلك من أسباب تعلقها بعشيقها، وعن هذا التعلّق نجمت الخيبة المريرة التي منيت بها.

\* \* \*

كانت تجرّ خواطر هذه الخيبة وهي ماثلة أمام المرآة تأخذ زيتنها، ثمّ طرق أذنيها وقع خطاه - ذلك الرجل - رأت صورته في المرآة وهو يقتحم عليها الغرفة بوجه جامد رزين كأنه لم يكن ذاك العاشق الوهّان، فتحدّجّ بصرها وتشتجّ قلبها. لم يعد الرجل الذي عرفته من قبل، وهذه هي الخيبة المريرة ولو طال به العهد لربّما هان الخطب بعض الشيء، ولكنّه دهمها في نشوة الأيام الأولى، فلم تنعم بحبّه خالصاً في لذة وسعادة وحلم وخيال وهناء وأمل، إلّا زهاء عشرة أيّام! ثمّ غلب المدرّب فيه على العاشق، ومضى يتكشّف رويداً عن التاجر، ذلك الرجل القاسي الفظّ الذي يتجرّجّ بالأعراض. والواقع أنّ قلبه لم يعرف الحبّ قطّ، ولعلّه من الغريب أن تقوم حياته على هذه العاطفة التي لم تحرك فؤاده أبداً. كانت طريقته إذا أوقع فريسة في شباكه أن يمثّل معها دور العاشق - وهو ما أتقنه بطول الممارسة وأسعفته عليه فحولته - حتى إذا استنامت إليه تمتّع بها فترة قصيرة، ومن ثمّ يطمئنّ إلى سيطرته عليها بما يبعثه فيها من تعلق به وما يكبلها به

الجديدة بحساس وسرور وهمّة، حتى صدق عليها عشيقها يوم وصلها بالتاكس إلى حيّها من أنّها «عاهرة بالفطرة!» وتجلّت مواهبها فبرعت في فترة قصيرة في أصول الزينة والتبرّج وإن سخروا أوّل الأمر من سوء ذوقها، فكانت سريعة التعلّم محسنة للتقليد، ولكنّها سيّئة الاختيار لألوان ثيابها وفي ميلها إلى الخليّ تبدّل ملموس. ولو كان تُرك الأمر على ما تشتهي وتحبّ لتبدّت وكاتبها «عالمه» في زواقتها الفاقع وجليها التي تكاد تغطي جسمها. وفيها عدا ذلك فقد تعلّمت الرقص بنوعيه، ودلّت على مهارة في تعلّم المبادئ الجنسيّة للغة الإنجليزيّة. ولم يكن النجاح الذي جاءها يجرّ أذياله بمستغرب، فتهافت عليها الجنود وتساقت عليها أوراق النقود، وانتظمت في سلك الدعارة لؤلؤة منعدمة النظير. وبدا لها أنّها فازت بكلّ شيء، وأنّها لم تخسر شيئاً، فلم تكن في عهدها الأوّل بالساذجة فتأسى للخدعة التي أطاحت بها، ولم تكن بالفتاة الطيبة فتذهب نفسها حسرات على ما فقدت من أمل في الحياة الطيبة، ولم تكن بالفاضلة حقاً فتبكي على شرفها المثلوم، ولم تشدها إلى ذلك الماضي ذكرى حسنة يهفو إليها الفؤاد فانغمرت في حاضرها المحبوب لا تلوي على شيء. وعلى العكس من ذلك كانت غالبية اللقيات اللاتي يضطربن في مضارها. فمنهنّ جماعة يتطاحن في قلوبهنّ الأسمى والطمع والشقاء واليأس. ومنهنّ بانسات يشقن ليقمن أود أسرات جائعات. ومنهنّ تعيسات يخفين تحت شفاههنّ المصبوغة قلوباً دامية، ونفوساً حنّانة إلى الحياة الفاضلة أمّا هي فقد طابت بحياتها نفساً، وأذكت عيناها الفاتتان ضياء الزهو والحريّة والرضا والفرح، ألم تتحقّق أحلامها؟ بلى الثياب والخليّ والذهب والرجال المتهافتون آيات على ذلك، ناهيك بهذه السطوة السحرية التي دان لها المعجبون. أفمن الغريب بعد ذلك أن يلوح المدقّ كما يلوح السجن للأبّ القليل؟ ولقد ذكرت يوماً كيف أسفت فيما مضى على رغبة عشيقها عن الزواج منها. وتساءلت أكانت تفضّل حقاً أن تتزوّج؟ وجاءها الجواب بالنفي بلا تردّد. ولو تحقّق ذلك الزواج لكانت

## زقاق المدق ٧٥٧

فتهدج صوتها غضبًا وهي تقول:

- أهكذا مجلو لك أن تخاطبني الآن؟!؟

فتظاهر بالملل وقال:

- أوه.. . أعود مرة أخرى إلى هذا الحديث الممجوج؟!؟ «تخاطبني بهذه اللهجة».. . «أنت لا تحبني».. . «لو كنت تحبني لما اعتبرتني مجرد سلعة».. . ما جدوى هذا الكلام؟.. . ألا أكون عاشقًا إلا إذا رددت صباح مساء «أنا عاشق»؟.. . ألا أكون محبًا إلا إذا بادرتك كلما التقينا «أحبك»؟.. . ألا يكون حب إذا شغلنا بحديث الحب عن عملنا وواجباتنا؟.. . أحب أن يكون عقلك كبيرًا كغضبك، وأن تركز حياتك - كما أكرس حياتي - لعملنا العظيم، وأن تجعله فوق الحب نفسه وفوق كل شيء.. .

وأصغت إليه بوجه مصفر من الغضب. هذا كلام بارد فاتر، هذه مراوغة لا أثر فيها لعاطفة ولقد بليت مثل هذا الكلام من قبل، وكادت تألفه مذ آنت منه الفتور. وإنما لتذكر كيف بدأ الماكر بنقدها متعمدًا، فكان يفحص يديها بعناية، ويحتمها على المزيد من الاهتمام بها قائلاً: «أطيلي أظافرك واصبغها بالنيكور.. . يدك نقطة ضعف في جمالك!» وقال لها مرة أخرى متشقيًا وقد طال بينها الجدول: «حذار، هذه نقطة ضعف أخرى ما فطنت لها من قبل، صوتك يا عزيزتي.. . ازعقي إذا شئت من الضم لا من الحنجرة، فهذا صوت خشن فظ، ولو أهملناه بلا تهذيب وترهيف فظع، ولعله أن يذكر السامع بالمدق ولو كنت في عماد الدين!» هكذا تكلم الفاجرا.. . لشد ما ألمها قوله وأذل قلبها الفخور. وظل يصطنع معها المراوغة والملاينة كلما طرقت حديث الحب، ولكنه بمرور الأيام أسقط من تمثيله حتى هذه الملاينة الكاذبة، وربما قال لها في ملل «الحب لعب ونحن جادون!» أو قال بغير مبالاة «هلمي إلى العمل.. . الحب كلام فارغ» تبأ له، لشد ما ملأ وعاء خيالها بالذكريات الأليمة! وقد حدجته بنظرة قاسية وقالت بحدة:

- كلامك هذا لا يجوز عليّ، لماذا تذكّرني دائمًا بالعمل؟!؟ الأهمية عنه أنا؟!؟ إنك لتعلم أيّ أفوق

من قيود ماليّة، ثم بما يتهددها عادة من رقابة القانون!.. . فإذا تمّ له سعيه بدا على حقيقته، وتمخض العاشق عن تاجر الأعراض. ولقد عزت حميدة فتور عاطفته إلى الجوّ المشيع بأنفاس النساء الذي يعيش فيه، فانقلبت ولا هم لها إلا الاستئثار به، وصار همها هذا شغلها الشاغل الذي نغص عليها صفوها، فباتت فريسة للحب والغيرة والغضب. واستحوذت عليها هذه المشاعر جميعًا وهي تنظر إلى صورته التي تطالعها على صفحة المرأة، فتحجّر بصرها وتوثبت إرادتها وتوترت أعصابها. أما هو فقال بلهجة سريعة مظاهرًا بالعجلة:

- انتهيت يا عزيزتي.. .؟

ولكنها لم تعبا به، وتعمدت ألا تجيبه استكراهًا لما يبدي من ملاحظات عن «العمل» وتذكّرت بحسرة عهدًا لم يكن يحدّثها إلا عن الحب والإعجاب، الآن لا تنفرج شفتاه إلا عن العمل أو الريح!.. . والآن لا تستطيع عنه فكأنًا بحكم هذا العمل، وبطغيان عواطفها نفسها. وإن الغضب ليملاً صدرها، ولكن ماذا يجدي هذا الغضب؟!.. . لقد فقدت حرّيتها التي استباححت في سبيلها كل منكر. وإنما ليدخلها شعور بالقوة والسيادة ما دامت في الطريق أو الحانة. حتى إذا رآته أو ذكرته حلّ محلّ هذا الشعور الباهر إحساس بالأسر والذلّ. ولو اطمأنت إلى قلبه لكان كلّ عسير، فذلّ الحب في أعماقه ظفر، أما والحال غير ذلك فما تدري إلا الجنون مهربًا من حيرتها، وكان فرج إبراهيم يعلم بما يختلج في صدرها، ولكنه كان يريد على أن يعتاد جفوته لتحسن التسليم بالقطيعة المرتقبة. ولو كانت امرأة أخرى لكان عليه هجرها بغير عناء، ولكنه أثر أن يجرعها كأس القنوط نقطة فنقطة، واستوصى بالصبر والأناة شهرًا طويلًا، حتى بات متأهبًا للضربة الحاسمة، قال بلهجته العارية عن العاطفة:

- هيّا يا عزيزتي فالوقت من ذهب.

فصرفت وجهها إليه بعنف وقالت بحدة:

- هلا أقلعت عن هذه العبارات السمجة؟!؟

- هلا أقلعت أنت يا عزيزتي عن الإجابات الجافّة!

ما جال بخاطره طويلاً ولو ضاعت ثمرة الليلة، وقهقهه ضاحكاً في غيظ وسخرية وقال هازئاً:

- نعم الرأي! أحسنت يا عزيزي، نتزوج ونعيش كما يعيش الشرفاء. إبراهيم فرج وحرمة وأبناؤهما ليتمتد! ولكن خبريني ما هو الزواج؟.. لقد أنسيته كما أنسيت الآداب الشريفة جميعاً، أو دعيني أتذكر قليلاً... زواج؟! شيء خطير فيها أذكر يتضمن رجلاً وامرأة ومأذوناً ووثيقة دينية وطقوساً كثيرة،.. متى عرفت هذا كله يا إبراهيم؟.. في الكتاب أو المدرسة؟! ولكن لا أدري أما تزال هذه العادة متبعة أم قد أفلح الناس عنها!.. خبريني يا عزيزي ألا يزال الناس يتزوجون؟

وارتعشت أطرافها غضباً، وأفعم قلبها بأساً وغمّاً، ونظرت إليه فإذا به مبتسماً هازئاً سادراً فجنّ جنونها وارتمت عليه ناشبة أظافرها في عنقه؛ ولم تفجؤه حركتها المباغثة فتلقاها بسكينته، وقبض على ساعديها وفرّج بينها ثم تخلّص منها والابتسامه الهازئة لا تفارق شفتيه، فاشتدّ حنقها وغضبها، ورفعت يدها بسرعة خاطفة وصفعته بكلّ ما أوتيت من قوة وعصبيّة. وغاضت ابتسامته ولاحت في عينيه نظرة وعيد وشرّ، فردّت عليها بنظرة جريئة متحدية، وانتظرت شوب العاصفة بجزع وتلهّف، وكادت تنسى أسباب آلامها في لذّة العراك المرتقبة، ومتمّها أحلامها الهستيرية بختام سعيد لهذا النضال البهيميّ. ولكنّه كان من ناحية أخرى يقدر عواقب الاستسلام للغضب، ولا يغيب عنه أنّ دفع العدوان بالعدوان سيوثق الرباط الذي يروم نقضه، ويزيد من تعلقها به، فضبط نفسه، وكبح جماح غضبه، وصمّم على أن يكشفها بالقطيعة السافرة وذلك بالانسحاب من المعركة دون دفاع، فتراجع خطوة، وانفتل أفلاً وهو يقول بهدوء:

- هلمّي إلى العمل يا عزيزي... .

ولم تكذ تصدّق عينها، وألقت على الباب الذي غيّه نظرة ساهمة رتق بها القنوط. وأدركت سرّ تفهقره بغريزتها فاستشفّ قلبها الحقيقة المفجعة. وتقلقل صدرها برغبة حارة مباحثة في قتله! انفجرت في

الأخريات وأبرع عليهنّ، وإنك لتربح من كدّي أضعاف ما تربح من كثيرات مجتمعات، فاهجر هذا الحديث المعاد الممجوج، وخبرني صراحة فقد ضقت باللفّ والدوران. أما زلت تحبّني؟!

وحادثته نفسه بأن يقذفها بالجواب القاطع! ألم يمهد له بما فيه الكفاية؟.. ونشط فكره في سرعة وقلو وعينه اللوزيتان لا تتحوّلان عن وجهها الغاضب، ولكنّه تردّد وآثر السلامة ولو إلى حين، فقال يداريها:

- عدنا كما توقّعت إلى الحديث القديم... .

فانفجرت صارخة:

- أجيني صراحة. أحسبني أموت أسى لو حرمتني من نعمة حبّك؟

ليس الوقت مناسباً. لعلّه لو جابهته بهذا السؤال على أثر إيابها من الخارج، أو في الصباح - حين يتسع الوقت للملاحة والشجار - لكان أجابها كما يشاء، أما الآن فالجواب الصريح حرّي بإضاعة ثمرة اليوم هباءً فلذلك ابتسم ابتسامه باردة وقال بهدوء:

- أحبّك يا عزيزي... .

أبجح بكلمة الحبّ إذا نذت عن فم مملول، كالصقّة! استحوذ عليها القهر، وشعرت في قهرها بأنّها لا تتأبى عن هوان وإنّ جلّ لو ضمن أن يعيده إلى أحضانها! وأحسّت لحظة أن حبّه مطلب تهون من أجله الحياة، ولكنّها كانت لحظة عابرة سرعان ما أفاقت من غشيانها، ثمّ امتلأ قلبها ضغينة، فاقتربت منه خطوات وعيناها تلمعان لمعان الماس الناشب في عمامتها، وقالت مصمّمة على أن تشقّ طريق التحديّ حتّى نهايته:

- تحبّني حقّاً؟ إذن فلنتزوج.

ونظت عيناه بالدهشة، ونظر إليها بين مصدّق ومكذّب، ولم تكن تعني ما قالت ولكنها أرادت سبر أغواره، فقال لها:

- وهل يغيّر الزواج من أمرنا شيئاً؟

- أجل. لتتزوج، ولنهجر هذه الحياة.

ونفذ صبره، وتولّدت في صدره عزمة صادقة، أن يحسم الأمر بما يقتضيه من صراحة وقسوة، وأن يحقّق

## زقاق المدقّ ٧٥٩

عن بطن فخذيهما، واستخرجت من حقيبتها علبة سجائر، وأشعلت سيجارة، وراحت تدخن بشغف غير عابثة بالأنظار التي تتخاطف ما انجلى من لحمها...

وغرقت في خضمّ الفكر. هيهات أن يبرأ قلبها من أوجاعه، ومع ذلك فهيهات أن تسترخي يدها القابضة على حبل الحياة. وتعرّزت بأمال كثيرة ومسرّات مرتقبة، ولكن لم يجز لها في خاطر أنّها قد تستجدّ حباً ينسبها هذا الحبّ الخائب لأنّها كانت حاقدة على الحبّ، ولأنّ الإنسان - إذ يفقد جوهرة الحبّ اللامعة - لا يتصوّر أنّه سيسعد بالعثور عليها مرّة أخرى. وانتهت إلى الطريق فإذا بالعربة تدور في محيط الأوبرا، ولححت في دورانها عن بعد ميدان الملكة فريدة، فطار الخيال بها إلى الموسكي والسكّة الجديدة والصناديق والمدقّ، ولاحت لعينها أخلاط أطياف نساء ورجالاً، وتساءلت: ترى هل يعرفها أحد من هؤلاء إذا رآها في هذا الزيّ؟.. أيستطيع أحدهم أن يستشّف حميلة وراء تبيّ؟! وماذا تبالي؟! لا أب لها ولا أم! وتفخت دخان سيجارتها في استهانة ورمت بالعقب. وأخذت تتسلّى بمشاهدة الطريق حتّى رجعت العربة إلى شارع شريف، وانجّبت نحو الحانة التي تفصدها، وفي تلك اللحظة قرع أذنيها صوت كأنما انشقّ عنه قبر هانف «حميدة» فالتفتت نحوه وقد تمكّكها الذعر، فرأت عبّاس الحلو على بعد ذراع منها لاهثاً..

- ٣٢ -

وهتفت وهي لا تدري:

- عبّاس...

كان الفتى يلهث مبهوراً بعد أن ركض شوطاً كبيراً وراء العربة من ميدان الأوبرا، وقد اندفع لا يلوي على شيء، يصطدم بالكتل البشرية، لا يعتاقه ما ناله من دفع، ولا يشنيه ما لحقه من شتم ولعن. وكان قبل ذلك يسير متأنّباً ذراع حسين كرشة، يتخبّطان على غير هدى - عقب مغادرتها لحانة فيتا - حتّى انتهى بهما التخطّط إلى ميدان الأوبرا، فالتقى بصبر حسين بالعربة

صدرها بقوة أسرة لا كأمينة الضعيف الحاقد، ولكنّ رغبة فتاكة شعرت بأنّها في نطاق طاقتها. لقد عرفت جوانب كثيرة من نفسها على ضوء هذا الرجل وما هو يتمّ صنائعه فيكشف عن أخطر هذه الجوانب جميعاً. ولكن أيرضيها حقاً أن تبيع الحياة من أجل الفتك به؟ إنّها استهانت بكلّ شيء في سبيل الحياة، أما الاستهانة بالحياة نفسها..؟! وانقبض صدرها، واستحوذ عليها قلق مفعم بالنفور، وبقيت رغبتها في الانتقام تنلّقى ويندلع لهيها. ينبغي أن تغادر البيت أوّلاً، وفي الخارج مهرب من جحيم الفكر، ومجال للأناة والتدبير وسارت متناقلة صوب الباب، فدارت على عقبيها كأنما لتلقي عليها نظرات الوداع. تنزى قلبها في صدرها في تلك اللحظة الفاصلة، ربّاه.. كيف انتهى كلّ شيء بهذه السرعة؟!.. هذه المرأة كم بدت على صفحتها فرحة مستبشرة، وهذا السرير الوثير مهد الغرام والأحلام، وعلى هذا الديوان كانت تجلس بين يديه تصغي إلى إرشاداته بين العناق والقبل، وهذا الخوان يحمل صورتها معاً في ثياب السهرة! ثمّ ولّت الذكريات ظهرها وفرت من الحجرة. وفي الطريق لفحها الهواء الدافئ فتسّمته في إعياء، وأخذت في سبيلها وهي تقول لنفسها «لن أعدم طريقة للفتك به!» كم يكون هذا شافياً على شرط ألاّ تدفع حياتها ثمناً له، لم تخلق الحياة للتضحية، الحياة فوق كلّ شيء، بل فوق الحبّ نفسه. حقاً بات الحبّ ندباً عميقاً في سويداء قلبها، ولكنّها ليست المرأة التي يفنيها الحبّ، بها جرح عميق، ولكنّ الجريح يعيش وهو ينزف، بل يستطيع أن يتمتّع بحياة عريضة فيها الذهب والسرور والسطوة والعراك. هكذا لاقت خبيتها. ورأت عربة فأشارت إلى الحوذني وركبت، واستشعرت حاجة ملحة إلى مزيد من الراحة والهواء فقالت له:

- إلى ميدان الأوبرا أوّلاً، ثمّ عد من شارع فؤاد الأول. واحدة واحدة من فضلك.

وجلست وسط المقعد مائلة بظهرها إلى الوراء، واضعة رجلها على رجل، فانحسر الفستان الحريريّ

هتفت باسمه فَقَدَ البقيّة من وعيه وتبعها إلى الخانوت كالسائر في نومه. وأخذ يفيق رويدًا رويدًا من الإعياء والجهد والانفعال، وراح بصره يعاين المرأة الواقفة حياله بلباسها الجديد وزيتها الغربية متلمّسًا عبثًا أن يجد فيها موضعًا للفتاة التي أحبّها، فارتدّ البصر كليلاً، وتجرّع قلبه غصص اليأس المرير. لم تكن بساطة قلبه من البلاهة بحيث لا يدرك حقيقة ما يرى، ولقد أجبرته الشائعات في المذقّ على تصديق أمر فظيع، ولكنّ الشائعات بلا ريب كانت دون الحقيقة المائلة لعينيه وامتلاً قلبه المقهور شعورًا بتفاهة الحياة وعبثها، بيد أنّ غضبه الذي أصلاه نارًا حامية في ليله ونهاره، لم ينفجر، فكان أبعد ما يكون عن البطش بها أو حتّى البصق عليها. وجعلت حميدة تنظر إليه في ارتباك وحيرة، واستشعر قلبها خوفًا حيال هذا الأثر من الماضي الذي تتحاماها، ولكنّه لم يجرّك بها عطفًا أو ندمًا، بل استثار ازدراءها ومقتها فلعلت في سرّها شؤم الحظّ الذي رمى به في طريقها. واشتدّ الصمت على أعصابها، ولم يعد في الوسع احتمالها، فقال الحلو بصوت مبجوح متهدّج:

- حميدة! أهذا أنت؟ ربّاه كيف أصدق عيني؟! . .  
كيف هجرت بيتك وأمك وانقلبت إلى هذه الحال؟!  
وأجابته في ارتباك غير خافٍ:  
- لا تسألني عن شيء، فليس عندي ما أقوله،  
وهذا قضاء الله الذي لا يردّ.

وأحدث ارتباكها وقولها المستكين عكس المنتظر. فاستفزّ غضبه وأثارا حنقه، فعلا صوته مزيجًا حتّى ملأ الخانوت:

- كاذبة فاجرة. . . أغواك فاجر مثلك ففررت معه.  
وتركت وراءك في حيّك أسوأ الذكري، وها هو الفجر  
السافر يطالعني في وجهك وتبرّجك الفاضح. . .  
واستفزّ هذا الغضب المفاجئ شراستها الطبيعية  
فغضبت غضبة عنيفة مسحت عن صدرها ما اعتوره  
من ارتباك وخوف، وضاعفها ما احتملته في يومها من  
حنق وخيبة، فارتدّ وجهها وصرخت في جنون:  
- صه. . . لا تزعق كالمجانين، أحسبت أنك

التي تحمل حميدة، ورأى الجالسة بداخلها، فلم يعرفها وأرعش حاجبيه استحسانًا وهو يلفت صاحبه إليها. ونظر عبّاس إلى العربية المقبلة عليهما في طوافهما بالميدان، وعلق بصره بالفتاة الغائبة في أفكارها ولم يستطع أن يستردّ عينيه، جذبها بقوة سحرية شيء في الوجه، وفي القوام، شيء كالشبه، أو هو شبه رقيق يحسّه القلب قبل أن تحسّه العينان، وتمشّت في مفاصله رعدة انقلب بعدها من سكره الخفيف صاحبًا، وهتف القلب «هي؟»، وكانت العربية قد ولّته ظهرها مبتعدة نحو حديقة الأزبكية، فلم يألُ عدوًا وراءها بلا تدبّر ولا تفكير وصاحبه يزعم وراءه معربدًا صاحبًا، وعاقته حركة المرور برهة عند مطلع شارع فؤاد الأوّل ولكنّ عينيه لم تتحوّلًا عن العربية، ثمّ استأنف العدو جاهدًا لا تكاد تسعفه قدرته إلّا قليلًا، حتّى أدركها وهي توشك أن تدخل الحانة فناداها. ولما أن التفتت إليه وهتفت باسمه قطع الشكّ باليقين، وأدركت حواسه ما سبق القلب إليه، فوقف حيالها لاهثًا مبهورًا لا يدري كيف يصدّق عينيه. وغلبتها الدهشة والانزعاج أوّل وهلة واستحوذ عليها الانفعال، ثمّ شعرت بهرج موقنّها وأشفتت من فضول المتسكّعين، فتهاكت مشاعرها. وأشارت إليه ومضت في عجلة إلى عطفة سابقة للحانة - وهو يتبعها - ودخلت أوّل باب إلى يسارها وكان خانوت أزهار. وحيثها بائعة الزهور - التي عرفتها بحكم ترددها على المكان - فردّت تحيتها وسارت به إلى نهاية الخانوت متحامية مواقع الأنظار. وأدركت بائعة الزهور أنّها تريد أن تخلي بصاحبها فمضت إلى مقعدها وراء معرض الزهور وجلست بغير مبالاة كأنّ أحدًا لم يقتحم عليها خانوتها. وقفا وجهًا لوجه، يلفّه الانفعال والحيرة وترتعش أطرافه تأثرًا. ما الذي دعاه إلى هذا العدو القاتل؟! ماذا يروم من هذا اللقاء المعتصب! وجد نفسه في تلك اللحظة عريًا من كلّ رأي أو عزم. ولقد كانت ذكريات الشرّ الذي هصر أماله - في أثناء عدوه - تذرّ على عينيه غبارًا فتكاد تحجب عنه الطريق، ولكنّه لم يبيّت رأيًا أو يستجدّ عزمًا، فركض ركضًا آليًا لا يتبيّن له غاية، حتّى إذا

## زقاق المدق ٧٦١

إنسان الكرب بالغضب والزجر. أنسي، واحترني كما  
تشاء، واتركني بسلام..

ما هذه بفتاته، أين منها حميدة التي أحبها وأحبته؟  
يا عجباً؟ ألم تحبه حقاً؟ ألم تلصق شفتيها بشفتيه على  
بسطة السلم؟ ألم تدع له يوم الوداع وتعدده باستشفاع  
الحسين لإجابة الدعاء؟... فمن تكون هذه الفتاة؟؟  
ألا تستشعر ندماً؟ ألم تلثا إثارة من حنان قديم؟  
وأوشك أن يغضب مرة أخرى لولا إشفاقه من  
غضبها، فتهدت تهتد المغيظ المهور وقال:

- إنك تحيريني، وكلما أصغيت إليك تضاعفت  
حيرتي، لقد عدت بالأمس من التل الكبير فدهمني  
الخبر الأسود على غرة، أتعلمين ماذا دعاني لهذه  
العودة؟!.. (وأبرز علبة القلادة وأراها إناها)...  
عدت بهذه هدية لك، وكان في نيتي أن أعقد عليك  
قبل أن أرجع إلى البلد..

وألقت على العلبة نظرة صامتة. وفي أثناء ذلك  
وقعت عيناه على الهلال الماسي والقرط اللؤلؤي  
فتراجعت يده بالعلبة إلى جيبه، وتناهى به الضيق  
فسألها بحدة:

- ألا تأسفين على هذه النهاية؟!  
ولمعت عينها بخاظر غامض بآ في نفسها يقظة  
محمومة، فقالت بلهجة حزن مصطنعة:  
- أنت لا تدري كم آني شقية!

فأتسعت عيناه في دهشة وريبة، وقال بآلم بالغ:  
- يا للشقاء يا حميدة!... لماذا أصحخت لنداء  
الشیطان؟... كيف هانت عليك حياتك  
الشريفة؟... كيف نبذت الحياة الطيبة والأمل  
المرتقب من أجل (وهنا تشرح صوته)... مجرم آثم  
وشيطان رجيم؟!... هذه جريمة لا تغتفر...

وكانت حمى ذلك الخاطر لا تزال تلهم أفكارها،  
فقالت بلهجتها الأسيقة الجديدة:

- إني أؤدّي ثمنها من لحمي ودمي...  
وازدادت دهشته، وخالطها ارتياح غامض سروراً  
بالشقاء المزعوم الذي اعترفت به، ولكنّها لم تنكسر عن  
حدّتها اعتباطاً، كانت أفكارها تتوارد بسرعة جنونية في

تحوّفي بصراخك؟! ماذا تريد مني يا هذا؟ لا حق لك  
عليّ فاغرب عن وجهي...

وخبا غضبه قبل أن تتمّ كلامها! قهر غضبها غضبه  
فأماته في صدره وكأنه كان يشعله الماء وتطفئه النار.  
وحملق في وجهها ذاهلاً وغمغم بصوت مرتعش  
النبرات:

- كيف سوّلت لك نفسك أن تقولي هذا  
القول؟... ألسنت... ألم تكوني خطيبي؟  
وتشقت بهزيمته، وارتاحت إلى غضبتها التي  
أسعفتها في الوقت المناسب وقالت بتملل:

- أيّ فائدة تجني من ذكر الماضي الآن؟ لقد مضى  
وانقضى...  
فقال متحيراً متوجّعاً:

- أجل مضى وانقضى، ولكنّي في حيرة من أمري  
وأمرك، ألم تقبلي يدي؟... ألم أهاجر إلى ذاك البلد  
البعيد من أجل سعادتنا معاً؟!  
لم تعد تشعر نحوه بارتباك أو حرج، وتساءلت في  
جزع: متى يُمسك عن هذا؟ متى يفهم؟ متى يرحل؟  
ثمّ قالت بلهجة لا تخلو من برم:

- أردت شيئاً وأرادت الأقدار سواه..  
ولم يرغب عنه تمللها ولكنّه بات أشدّ تشبّثاً بالكلام  
والاستفسار، واستمدّ من سكوت غضبها شجاعة فراح  
يقول بآس:

- ماذا صنعت بنفسك؟ كيف انقلبت إلى هذا  
المصير الأسود؟... أيّ شؤم أعمى بصيرتك؟... ومن  
يكون (وهنا استغلظ صوته) ذلك المجرم الذي خطفك  
من حياتك الطاهرة وطرحك في مزبلة الدعارة؟...  
واكفهرّ وجهها، وتناهى بها الجزع، وقالت بلهجة  
تشبي بالملل:

- هذه حياتي، هذه النهاية التي لا مهرب منها،  
نحن الآن غريبان وكلانا ينكر صاحبه، لم يعد بوسعي  
الرجوع، ولن تستطيع مها قلت أن تغير من الواقع  
شيئاً، وحذار أن تغلظ لي القول فلست على حال  
أملك معها الساحة أو العفو، وإني لأقرّ بعجز حيال  
حظّي ومصيري، ولكنّي لا أحتمل أن يضاعف لي

عظمه! أجل، لا أستطيع أن أنسى أنك فررت معه، ولا أنّهم رأوك تسيرين في صحبته، فلا أمل من أن نجتمع مرة أخرى، لقد فقدت حميدة التي أحبتها إلى الأبد، ولكن يجب أن يشقى المجرم بما أشقى علينا خبّرتني أين أجده؟

فقلت وعقلها في تفكيره أسرع من لسانها في نطقه: - لا سبيل لك عليه اليوم، ولكن تعال يوم الأحد ظهرًا إذا شئت فتجده في الحانة عند أول هذه العطفة، ولن تجد مصرّيًا سواه فيها، فإذا التبس عليك الأمر أشرت إليه بعيني. . . ولكن ماذا تنوي أن تفعل به؟ نطقت بالعبارة الأخيرة بلهجة تنم عن الإشفاق عليه من العواقب، ولكنّه أجاب في جنون الغضب واليأس قائلاً:

- سأحطّم رأس القوّاد الوضع . . . وتساءلت وعيناها تتفرّسان في وجهه: أيستطيع الحلو أن يقتل؟! . . .

ولم يرغب الجواب عن فراستها، ولكنّها أملت أن يثير من حوله فضيحة تسوقه إلى يد القانون، فتنتقم منه وتخلص من أسره. وارتاحت إلى أفكارها بلا تدبّر أو نقد، بيد أنّها لم تخلّ من رغبة صادقة في ألا يصيب الحلو شرّ فادح من مخاطرته، وتمنّت على الله أن ينتقم لها من غريمها دون أن يذهب ضحيةً لفعله! . . . ولذلك قالت تحدّره:

- لا تبلغنّ بك الرغبة في الانتقام منه حدّ الاستهانة بحياتك! اضربه . . . افضحه . . . جرّه إلى القسم فيكون فيه القضاء عليه وعلى جرائمه . . . ولكنّه لم يكن يصغي إليها، وكان يقول وكأنّه كان يخاطب نفسه:

- لا يصحّ أن نشقى بلا ثمن. انتهت حميدة، وانتهى عبّاس، فكيف يروح القوّاد آمنًا ضاحكًا من تعاستنا؟ لأدقنّ عنقه ولأكتنمّن أنفاسه، (ثمّ علا صوته موجّهًا إليها الخطاب): وأنت يا حميدة ماذا تصنعين بحياتك إذا نحيبت عن سبيلك هذا الشيطان؟ وخافت على نفسها ما عسى أن يؤدّي إليه هذا السؤال، وأشفقت من أن يتطرّق إلى مسارب نفسه

إلهام شيطانيّ، خطر لها أن تحرّضه على الرجل الذي هرس قلبها بقسوة وسخرية، وأملت أن تجعله أداة انتقامها وهي بآمن من عوادي الشقاء، ورقت نظرة عينها وهي تقول بصوت ضعيف:

- لست إلاّ شقيّة يا عبّاس. لا تؤاخذني على سوء قولي فقد أقدني الشقاء وعيي. إنكم جميعًا تروني عاهرة فاجرة. والحقّ أنّي شقيّة بائسة، خدعني الشيطان الرجيم كما دعوته بحقّ، لا أدري كيف أذعنت إليه، ومع ذلك فلست أنتحل نفسي عذرًا، ولا أطمع أن أسالك العفو، فإنّي أعلم أنّي مذنبه، وما أنذا أدفع ثمن جريرتي الكراء. اعف عن غضبي الذي أهجته كلماتك العادلة، وابغضني واحترمني ما شاءت لك نفسك الطاهرة الكريمة، واشمت بي فلست في حاضري إلاّ العوبة رخيصة في يد من لا يرحم، يطلقني في الطرق ويستغلّ شفائي بعد أن استلبني أعزّ ما أملك. إنّي أمقته، أمقته بكلّ ما في من شقاء ومهانة هما من غرسه، ولكن هيهات أن أجد لي منه مهربًا. . .

أذهله حديثها الشاكي عن نفسه، وراعته نظرة الشقاء تغشى عينها، فبني المرأة المتنمّرة التي كادت تفتك به منذ برهة قصيرة، وأهابت به رجولته أن يغضب، فزجر صائحًا:

- يا للشقاء يا حميدة، إنك شقيّة، وإنّي شقيّ، كلانا شقيّ بفعل هذا المجرم. أجل، لا أستطيع أن أنسى أنّك أخطأت خطأً أثيمًا، وأنّ هذا الخطأ يحول بيننا إلى الأبد، ولكن بينا يشقى كلانا بهذا الخطأ، إذا بالمجرم الأوّل مطمئنّ سعيد كأنما يسعد بشقائنا، فلا كانت الحياة إذا أنا لم أحطّم رأسه!

وشعرت بالارتياح فنكست بصرها قبل أن يفضحها، وكانت سرعة انزلاقه إلى شباكها فوق مطعمها، وارتاحت بصفة خاصّة إلى قوله: «هذا الخطأ يحول بيننا إلى الأبد» فأمن قلبها أن يجرحه الانفعال إلى حدّ العفو عنها، والسعي لاستردادها، وما كانت تحلم بهذا كلّ. أمّا الحلو فاستدرك يقول عابسًا راغبًا:

- لا ارتاح لي بال قبل أن أحطّم رأسه وأهشم



## زقاق المنق ٧٦٣

أركان الغرفة حول خطّ متموّج من دخان البخور يتصاعد من المجرمة، ورووا نفاً من أخبار الحجّ شملت المعاصرين والغابرين، واستشهدوا بالكثير المأثور من الأحاديث الشريفة والأشعار الجميلة. ورتل ذو صوت رخيم بعض ما تيسر من آي الذكر الحكيم، ثمّ أنصتوا جميعاً إلى فيض من كلام السيّد رضوان أفصح به فؤاده عمّا يكته من رقة وطيبة . . .

وكان أحد الأصفاء قد قال له:

- سفر سعيد وعوّد حميد . . .

فأشرقت في وجه السيّد ابتسامة وضاء كسته جمالاً

على جمال، وقال بصوته الحنان:

- أخي لا تذكرني بالعود. إنّ من يقصد بيت الله وفي قلبه خاطر من خواطر الحنين إلى الوطن حقيق بأن يبطل الله ثوابه ويحبّ دعاءه وينفذ سعاده. سأذكر العودة حقاً إذا فصلت عن مهبط الوحي في طريقي إلى مصر، وأعني بها العودة إلى الحجّ مرّة ثانية إذا أذن الرحمن وأعان. من لي بمن يقرني ما تبقى من العمر في البقاع الطاهرة، أمسي وأصبح فلا أرى إلا أرضاً تطامنت يوماً للمس أقدام الرسول، وهواء خفت بتضاعيفه أجنحة الملائكة، ومغاني أصغت للوحي الكريم يهبط من السماء إلى الأرض فيرتفع بأهل الأرض إلى السماء، هنالك لا يطوف بالخيال إلا ذكريات الخلود، ولا يخفق الفؤاد إلا بحبّ الله، هنالك الدواء والشفاء. أخي . . . أموت شوقاً إلى استطلاع أفق مكة، واستجلاء سهاواتها، والإنصات إلى همس الزمان بأركانها، والسير في منابها، والانزواء في معابدها، وإرواء الغلّة من زمزمها، واستقبال الطريق الذي مهّده الرسول بهجرته فتبعته الأقوام من ثلاثمائة وألف عام ولا يزالون، وتلوج الفؤاد بزيارة القبر النبويّ والصلاة في الروضة الشريفة، وإنّ بقلبي من مكنون الهيام ما يقصر الزمان عن بثّه، ولديّ من فرص الزلفى والسعادة ما يعجز العقل عن تصوّره. أراني يا إخوان ضارباً في شعاب مكة تالياً الآيات كما أنزلت أول مرّة. كأنما أسمع درساً للذات العليّة، أيّ سرور! . . . وأراني ساجداً في الروضة متخيلاً الوجه

ضعفه القديم، فقالت بحزم وهدوء:

- انقطع ما بيني وبين العالم القديم، ولكنّي سأبيع ما عندي من حليّ وأجد لنفسني عملاً شريفاً في مكان بعيد . . .

وصمت صمتاً طويلاً متفكراً محزوناً، فعانت في صمته من القلق ألواناً، حتّى طامن من رأسه، وقال بصوت لا يكاد يسمع:

- لا يستطيع قلبي أن يعفو. لا يستطيع، لا يستطيع . . . ولكن لا تعجّلي بالاختفاء مرّة أخرى حتّى نرى كيف ينتهي هذا الأمر . . .

ووجدت في لهجته ما ينذر بالساحة والعفو والاستسلام فلمعت عينها في حذر وقلق، وآثرت في أعماق قلبها النائرة أن يهلك هو وغريمها على أن يعود إليها فاتحاً ذراعيه، بيد أنّها لا تستطيع أن تفصح له عمّا يدور بخلدّها، ولن يشقّ عليها الاختفاء إذا شاءته، وإذا تمّ لها الانتقام الذي تلهّف عليه فما أيسر أن تشدّ الرحال إلى الإسكندرية التي حدّتها عنها إبراهيم فرج كثيراً، وهناك تصفو لها الحياة وتطيب في حرّية لا يحدها قيد، وفي أمن من المتطفّلين، ولذلك لم تجد بأساً في أن تقول له بمثل لهجته الرقيقة:

- لك ما تشاء يا عباس . . .

وكان قلبه يعاني مرارة الشقاء والقنوط والتحقّر للانتقام، ولكنّه ما انفكّ ينبض بالحيرة والعطف . . .

- ٣٣ -

كان يوم وداع وسرور، فدبّت في قلوب الزقاق عاطفة واحدة، ذلك أنّ للسيّد رضوان الحسيني منزلة رفيعة في القلوب جميعاً على السواء. كان السيّد قد استخار الله في أداء فريضة الحجّ هذا العام فأخاره، وعلم الجميع أنّه يسافر عصر اليوم بمشيئة الرحمن إلى السويس في طريقه إلى الأراضي المقدّسة. وامتلاً بيته بالمودّعين من أصدقاء العمر وإخوان الصفاء . . . وحقّوا به في الحجرة القديمة الوديعّة التي طالما أصغت جدرانها إلى سرهم الورع اللطيف عامّاً بعد عام. واستفاض حديث الحجّ، واثرت ذكرياته. ولهجت بها الألسن في

موضع البلاء لتختبرني وها أنا ذا أجوز امتحانك ثابت الإيمان، ملهها حكمتك، «فَاللَّهُمَّ شُكْرًا» وسار ديدني إذا أصابني مصيبة أن ألهج من أعماق قلبي بالشكر والرضا، كيف لا والله يَخَصُّني بالامتحان والعناية، وكلما عبرت محنة إلى برّ السلام والإيمان ازددت إدراكًا لما في مقاديره من حكمة وما فيها بالتالي من خير، وما تستحقّ بعد ذلك من شكر وسرور، وهكذا وصلت المصائب ما بيني وبين حكمته على دوام لا ينقطع، حتى خلعتي طفلًا مدللًا في ملكوته يقسو عليّ لأزدجر، ويخوفني بعبوس مصطنع ليضعف سروري بالأنس الحقيقيّ الدائم، وإنّ الحبيب ليسر محبوبه بالصدّ حينًا، وإن عرف المحبوب أنّ الصدّ مكر محبّ لا هجر قال، تضاعف حبّه وسروره. فما عدوت أن قر في اعتقادي أنّ المصابين في هذه الدنيا هم أحباب الله وأوليّائه، خصّهم بحبّ مقنع، ورصدهم غير بعيد، ليرى إن كانوا حقًا أهلًا لحبه ورحمته. . فالحمد لله كثيرًا، بفضلته عزّيت من حسبوا أنّي أهل للعزاء. .

ومسح على صدره الواسع ببشر وانشراح وهو يجد من إلحاح التعبير عن مكنون صدره ما يجده المغنيّ إذا سكر بحلاوة الطرب وتاه في سلطنة الفنّ، فاستدرك يقول بحرارة ووجد:

- يذهب أناس إلى أنّ هذه المصائب وأمثالها ممّا يتبلّ به الأبرياء عنوان عدالة انتقاميّة لا يفتن لحكمتها عامّة الناس. وتراهم يقولون إنّه لو تفكّر الأب الثاقل مثلاً لوجد أنّ ثكله جزاء ذنب اقترفه هو أو أحد آبائه الأولين، ولكن لعمرى إنّ الله أعدل وأرحم من أن يأخذ البريء بالذنب. وتراهم يستشهدون على صواب رأيهم بما وصف الله به نفسه من أنّه عزيز ذو انتقام، ولكنّي أقول يا سادة أنّ الله تعالى غنيّ عن الانتقام، وأنّه إنّما أضاف هذه الصفة لذاته لينبّه الإنسان إلى احتذائها، وقد سبقت إرادته بالألّا تستقيم أمور هذه الدنيا إلّا بالثواب والعقاب، أما ذاته العزيزة الجليلة فسنتها الحكمة الربانيّة والرحمة الإلهيّة. ولو أنّي اكتشفت تحت مصائبي عقابًا أستحقّه، أو وجدت وراء جثث أبنائي جزاء أستأهله، لا اعتبرت حقًا، ولا زدجرت

الحبيب كما يتراءى في المنام، أيّ سعادة! . . . وأراني متخضّعًا لقاء المقام مستغفرًا فأبيّ طمأنينة! وأراني واردًا زمزم أبلّ جوارح الشوق بندى الشفاعة فأبيّ سلام! أخي لا تذكّرني بالعودة وادعُ الله معي أن يحقّق لي المنيّ. .

فقال له صاحبه:

- حقّق الله مناك ومتّعك بطول العمر والعافية. فضمّ السيّد راحته المبسوطة على لحيته وقد تألّقت عيناه بسرور وهيام وراح يقول:

- نعم الدعاء، والحقّ أنّ حبيّ الآخرة لا يدفعني إلى الزهد في الدنيا أو التملّص من الحياة، لطلالما لمستم بأنفسكم حبيّ الحياة والسرور بها، كيف لا وهي من خلق الرحمن؟ خلقها الله وملأها بالعبر والأفراح فمن شاء فليتفكّر ومن شاء فليشكر، ولذلك أحبّها، أحبّ ألوانها وأصواتها، وليلها ونهارها، ومسراتها وآلامها، وإقبالها وإدبارها، وما يدبّ على ظهرها من حيّ أو يقيم عليه من جماد، هي خير خالص، وما الشرّ إلّا عجز مرضيّ عن إدراك الخير في بعض جوانبه الخافية، فيظنّ العاجز المريض بدنيا الله الظنون، لذلك أقول لكم إنّ حبّ الحياة نصف العبادة وحبّ الآخرة نصفها الآخر، ولذلك يهولني ما تنوء به الدنيا من دموع وأنات وسخط وغضب وغلّ وسخيمة، وما تبثلي به فوق هذا كلّه من ذمّ المرضى العاجزين. أكانوا يؤثرون لو لم تخلق حياتنا؟ أكانوا يحبّون لو لم تخرج من العدم؟ أتسوّ لهم نفوسهم الاعتراض على الحكمة الإلهيّة؟ وما أبرئ نفسي، فلقد ملكني الحزن مرّة على اقتطاع فلذة من كبدي، وتساءلت في غمرة الحزن والألم لماذا لم يُبقِ الله على طفلي حتى يتمتّع بحظّه من الحياة والسعادة، ثمّ شاء الله أن يهديني، فقلت لنفسي اليس هو- عزّ وجلّ- الذي خلقه، فلماذا لا يستردّه وقتها يشاء! ولو أراد الله له الحياة للبت في هذه الدنيا حتى يشاء الله، ولكنّه استردّه لحكمة اقتضتها مشيئته، فهو لا يفعل شيئًا إلّا لحكمة، والحكمة خير، فقد أراد ربّي به وبني خيرا، وسرعان ما غلبني السرور بإدراك حكمته على حزني، ولسان قلبي يقول: ربّي لقد وضععتي

## زقاق المدق ٧٦٥

المتورّد، حتّى استحوذ عليّ الخجل وغلبي استعبار،  
وقلت لنفسي معتفًا متقرّرًا ماذا فعلت - وقد أتاني الله  
خيرًا كثيرًا - لدفع البلاء أو التخفيف من وقعه، ألم أترك  
الشیطان يعبث بأهل جيرتي وأنا ذاهل عنه بسروري  
وطمأنيتي؟ ألا يكون الإنسان الطيب بتقاعده عونًا  
للشیطان من حيث لا يدري؟ . . واستصرخني الضمير  
المعذب أن ألتي النداء القديم، وأن أشدّ الرجال إلى  
أرض التوبة مستغفرًا، حتّى إذا شاء الله لي أن أعود  
عدت بقلب طاهر، وجعلت من قلبي ولساني ويدي  
أعوانًا للخير في مملكة الله الواسعة. . .  
ودعا له الإخوان بصدق وحرارة، وواصلوا الحديث  
في سرور وحبور.

\* \* \*

وأبى السيد رضوان بعد أن ودّع بيته إلا أن يزور  
قهوة كرشة مودعًا فاقنعد مجلسه محوّلًا بالمعلم «كرشة»  
وعمّ كامل والشيخ درويش وعبّاس الخلو وحسين  
كرشة. وجاءت المعلّمة حسنيّة الفرّانة فقّبلت يده  
وحملته السلام أمانة، وقد قال لهم السيد:  
- الحجّ فريضة على من استطاع إليه سبيلاً، يؤدّيها  
عن نفسه وعمّن يقعد بهم الأعذار من الصادقين.  
فقال له عمّ كامل بصوت الأطفال:  
- صححتك السلامة في الحّل والترحال، وعسى ألا  
تنسى أن تحيئنا بسبحة من المدينة المتورّة. .  
فابتسم السيد وقال:

- لن أكون كمّن وهبك كفتًا ثمّ ضحك عليك.  
وضحك عمّ كامل وكاد يعود إلى هذا الموضوع  
القديم لولا أن رأى وجه عبّاس الواجم فأمسك. وقد  
أثار السيد هذه الذكرى متعمّدًا ليدخل منها إلى نفس  
الشابّ التعس مدخلًا لطيفًا، والتفت إليه بحنان  
وقال:

- يا عبّاس أصغِ إليّ كما ينبغي لشابّ شهد له جميع  
أهل الزقاق بالعقل واللفظ، عد إلى التلّ الكبير في  
أول فرصة، بل اليوم إن سمعت وأطعت. وأعمل بما  
أوتيت من همّة، واقتصد من النقود ما تشقّ به حياة  
جديدة إن شاء الله، وإيّاك وأن تلقي برأسك في خضمّ

حقًا، ولكن كان يبقى في النفس ضنى وفي العين دموع،  
ربّما هتف قلبي المحترق: ضعيف أذنب وبريء هلك،  
فكيف العفو والرحمة؟! فأين هذا من مصيبة تستشفّ  
الحكمة والخير والسرور!

وأثار رأيه اعتراضات كثيرة، فتمسك البعض  
بالتّص، وأول البعض التفسير، وردّ آخرون الانتقام إلى  
الرحمة. وكان كثيرون أقوى منه عارضة وأوسع علمًا  
ولكنّه لم يكن مهينًا للجدل، كان متفتّحًا فحسب للتعبير  
عما يضطرم في فؤاده من الحبّ والسرور، فجعل يتسم  
براءة الطفل، متورّد الوجه متألقّ العينين، وراح يقول  
بصوت رفته الهيام فكان أندى من مناجاة العاشقين:

- معذرة يا سادة فأني أحبّ الحياة، بل أحبّ نفسي،  
لا كذات تتعلّق بي، ولكن كفلذة من قلب البشريّة،  
ونبض من الحياة، وخلق للصانع الأجلّ، وتجربة  
للحكمة الإلهيّة، وأحبّ الناس جميعًا حتى المجرمين  
الشائهيّن. أليسوا يرمزون إلى عناء الحياة الممضّ في  
سبيل الكمال؟. . أليسوا ظلمة تلقي عتمتها على بهاء  
الخير ضياء، ذروني أبح لكم بسرّ دفين، أو تعلمون ما  
الذي بعثني إلى الحجّ هذا العام؟

وصمت السيد هنيهة وعيناه الصافيتان تسطعان بنور  
بهيج، ثمّ قال يجيب نظرات الاستطلاع التي عكستها  
الأعين:

- لا أنكر أنّ الحجّ أمنية طالما نازعني الفؤاد إليها،  
ولكنّ قضت إرادة الله أن أوّجلها عامًا بعد عام، حتّى  
حسبتي قد بتّ أوتر الشوق إلى الحبيب على الحبيب  
نفسه، ولأشواق العبادات لذّة كقضائها. ثمّ كان من  
أمر زقاقنا ما تعلمون، فشدّ الشيطان على أعين رجّلين  
وفتاة من جيراننا، أمّا الرجلان فقادهما إلى قبر ينشأه  
وغادرهما في السجن. وأمّا الفتاة فاستدرجها إلى هاوية  
الشهوات وغاص بها في حمأة الرذيلة. هناك زلزل قلبي  
زلزالًا شديدًا تصدّعت له أضلعي. ولا أكنتمكم يا سادة  
أنّ شعورًا بالذنب داخلي لأنّ أحد الرجلين كان يقنات  
على الفتات، وقد نبش القبر لعلّه يجد بين عظامه النخرة  
لقمة يستسيغها، كالكلب الضالّ يلتقط رزقه من أكوام  
الزبالة. فلشدّ ما ذكرني جوعه بجسمي المكتنز ووجهي

حالته ما يعلم الجميع، فأبى أن يغادر الحيّ قبل أن يودّعه. وكأثما شعر الآخر بخبطه في هذه اللحظة فاعتراه ارتباك، إلا أن السيّد احتواه بين ذراعيه وقبله ودعا له طويلاً، ولبث عنده ملياً، ثم قال وهو ينهض قائلاً:

- لندعُ الله أن نحجّ معاً في عامنا القادم.

فغمغم السيّد سليم وهو لا يعني ما يقول:

- إن شاء الله.

وتعانقا مرّة أخرى، ورجع السيّد إلى أصحابه، ومضوا جميعاً إلى مطلع الزقاق حيث كانت تنتظره عربة محمّلة بالحقائب، فصافح الرجل مودّعيه بحرارة وركب هو وقريباه، وانحدرت العربة صوب الغوريّة تتعلّق بها العين، ثم مالت إلى الأهر.

- ٣٤ -

قال عمّ كامل لعبّاس الحلو:

- ليس وراء نصيح السيّد رضوان مذهب لناصح، فاجمع شتات نفسك وتوكل على الله وسافر، وسوف أنتظرك طال الزمن أو قصر، وستعود بإذن الله ظافراً وتكون على رأس حلاقي هذا الحيّ جميعاً.

وكان الحلو يجلس على كرسيّ أمام دكان البسبوسة غير بعيد من عمّ كامل ينصت إلى صاحبه دون أن ينبس بكلمة، ولم يكن باح لأحد بسرّه الجديد، وقد همّ حين نصحه السيّد رضوان الحسيني بالإفصاح عمّا يشغل كاهله، ولكنّه تردّد لحظة فوجّه السيّد خطابه إلى حسين كرشة، وسرعان ما عدل عمّا قام بنفسه. ولم تضع نصيحة السيّد رضوان هباء فتفكّر فيها ملياً، بيد أن يوم الأحد استحوذ على الشطر الأكبر من أفكاره وكان مضى على اللقاء الغريب في حانوت الورد ليلة ونهار، فقلّب وجوه الفكر في هدوء وأناة وعرف في النهاية أنّه لا يزال يحبّ الفتاة، وإن كانت أسبابها قد انقطعت إلى الأبد، وأنّ رغبته في الانتقام من غريمه لا تقاوم، وقد أنصت إلى كلام عمّ كامل صامتاً، ثمّ تنهّد من الأعماق، تنهّد إنسان تعسّ كبلته الأقدار بأغلال الشقاء، ووضعت على شفا جرف هاوٍ من الدمار.

الفكر، أو أن تهن عزيمتك لقاء اليأس والغضب، ولا تحسبنّ ما اعترضك من سوء الحظّ هو ختام ما قدّر لك في الحياة. إنك بعدُ شابّ في نهاية الحلقة الثانية من عمرك، وما تلقاه من ألم ليس إلاّ بعض ما يصيب الإنسان في حياته، وكأنّه ما ينتاب الطفل من أوجاع التسنين والحصبة ولقهما، فإذا صمدت له بشجاعة جزته رجلاً خليقاً بالرجولة، وذكرته فيما يقبل من حلقات العمر ببسمة الظافر وتآسي المؤمن. انهض مستوصياً بالصبر متعوّداً بالإيمان، واسع إلى رزقك، ولتتهنأ بسرور المؤمن إذا أدرك أنّ الله قد اختاره لمصافّ المصابين من أوليائه.

ولم يجر عبّاس جواباً، ولكنّه كما رأى عيني السيّد لا تتحولان عنه، ابتسم فيما يشبه الاقتناع والرضا، وغمغم بلا وعي تقريباً:

- سيمضي كلّ شيء كأن لم يكن.

فابتسم السيّد، والفتت نحو حسين كرشة وهو يقول:

- أهلاً بشاطر زقاقنا! سادعو الله لك الهداية في أرض مستجابة الدعاء، ولأجدنك إن شاء الله حين عودتي محتلاً مكان أبيك كما يريد لك، ونعم ما أراد، وطوبى للمعلّم الصغير الجديد.

وهنا خرج الشيخ درويش عن صمته وقال مطرّقاً:  
- يا سيّد رضوان، اذكّرني إذا أحرمت، وذكّر أهل البيت بأنّ محبّهم تليّف وشغفه الغرام، وأنّه أضاع ما يملك من مال وعتاد على حبّ لا تنفع له غلّة، واشكّ إليهم خاصّة ما يلقي من ستّ الستات.

\*\*\*

وغادر السيّد رضوان القهوة يحفّ به الصحاب، ولقد لحق به من البيت قريبان اعتزما السفر معه حتّى السويس، ومال السيّد إلى الوكالة فوجد السيّد سليم علوان مكباً على بعض دفاتره، فابتسم قائلاً:

- تأذن الرحيل فدعني أعانقك.

ورفع الرجل وجهه الذابل في دهشة، وكان علم ببعاد الرحيل دون أن يحرك ساكناً. ولكنّ السيّد رضوان لم يلق بالأل إلى إهماله، وكان يعلم من سوء

## زقاق المتَّق ٧٦٧

بشعوره، ولعلّه خاف العدول عنه لأنّ في هذا العدول قطعاً حاسماً لهذا الخيط الواهي الذي وصله بحميده أمس، وقد أبى أن يصدّق أنّه يستطيع العفو عمّا سلف، وقال وكرّر القول - بداع وبلا داع - إنّ أسبابها قد انقطعت إلى الأبد، ولكنّ هذا الإلحاح في القول نفسه أخفى رغبة - لعلّه لم يدرها في استردادها ووصل ما انقطع من وشائجها! فكان نزوعه إلى الانتقام ظلّاً لتعلّقه بالمرأة التي يحبّها ولا يطيق هجرها. وبهذا القلب الحائر قطع الطريق ودخل حانة فيتا. وكان حسين كرشة يجلسه يكرع من النيذ الأحمر ولما تلعب الخمر برأسه، فمضى إليه وحيّاه تحية مقتضبة، وقال برجاء حاز:

- حسبك ما شربت فأني أريدك لأمر هامّ.. هلمّ معي.

ورفع حسين حاجبيه منكراً، وكأنّما كبر عليه أن يعكّر القادم صفوه، ولكنّ عبّاس - وقد أذهله الهمّ عن وعيه - أمسك بذراعه وشده حتّى أقامه وهو يقول:

- إني في ميسس الحاجة إليك.

فنفخ الشابّ مستاء، ودفع ما عليه، وغادر الحانة برفقة صاحبه، وقد أصرّ عبّاس على انتزاعه من الحانة أن يغلبه السكر فلا يتنفع بمشورته. ولتّما صار في الموسكي قال وكأنّما يزيج كابوساً عن صدره:

- وجدت حميدة يا حسين..

فلاح الاهتمام في العينين الصغيرتين وسأله:

- أين؟

- ألا تذكر امرأة العربية التي عدوت وراءها أمس وسألتي عنها اليوم دون أن تظفر منّي بجواب شافٍ؟ هي حميدة دون غيرها..

فصاح الشابّ بدهشة وسخرية:

- أسكران أنت؟! ماذا قلت؟

فقال عبّاس بلهجة جدّية شديدة التأثر:

- صدّقني فيما قلت، هذه المرأة هي حميدة بلحمها ودمها، وقد عرفتها من أوّل نظرة فركضت وراء عربتها كما رأيت، حتّى أدركتها وحادثتها.

فتساءل حسين في دهشة وإنكار:

وسأله عمّ كامل بقلق:

- خبرني عمّا اعترمت؟!!

فنهض الشابّ قائماً وهو يقول:

- سامكث هنا بضعة أيامٍ آخر، على الأقلّ حتّى يوم

الأحد، ثمّ أتوكّل على الله.

فقال عمّ كامل في إشفاق:

- ليس السلوان بالطلب العسير إذا نشدته صادقاً.

فقال الشابّ وهو يغادر موضعه:

- صدقت!.. السلام عليكم.

ومضى وفي نيّته أن يقصد حانة فيتا، حيث يظنّ أنّ حسين كرشة قد سبقه إليها عقب توديع السيّد رضوان مباشرة. وظلّ فكره فريسة للأفكار القلقة، وقلبه نهياً

للعواطف المضطربة. إنّه ينتظر يوم الأحد، وما يوم

الأحد ببعيد، ولكن ما عسى أن يصنع إذا حان

الحين؟! أيمضي إلى الموعد حاملاً خنجراً ليغمده في

قلب غريمه؟ لعلّ هذا ما يتحرّق إليه بكلّ ما يتملّئ به

قلبه من غضب وحقد وشقاء، ولكن هل يسعه

ارتكاب الجريمة؟ هل تطيق يده تسديد الضربة

القاتلة؟! وهزّ رأسه في شكّ وكمد وحقد. إنّه أبعد ما

يكون عن العنف والإجرام، وهذا ماضيه يشهد له

بالوداعة والمسالمة، فما عسى أن يصنع إذا جاء يوم

الأحد! وتضاعفت رغبته في لقاء حسين كرشة ليقصّ

عليه قصة حميدة ويسأله المشورة والعون! بل العون

قبل سواه، لأنّه يبدو عاجزاً بغير هذا العون. وفي هذه

الحال من الإقرار بالعجز عاودته نصيحة السيّد رضوان

الحسيني «.. عد إلى التلّ الكبير في أوّل فرصة، بل

اليوم إن سمعت وأطعت،.. إيّاك وأن تلقي برأسك

في خضمّ الفكر أو أن تنهن عزيمتك لقاء اليأس

والغضب..» استحضر كلام السيّد الذي أوشك أن

ينساه، أجل، لماذا لا يطوي الماضي بأحزانه وينطلق في

شجاعة وصبر في طريق السلوان والعمل؟ لماذا يحتمل

نفسه ما لا طاقة لها به، لماذا يعرض حياته لأهوال

أخفّها السجن؟ وارتاح إلى أفكاره الجديدة ولكن دون

أن يقطع برأي حاسم، ولم تزل نفسه تنازعه إلى

الانتقام، ولعلّ الانتقام لم يكن وحده الذي يستبدّ

هو بالنسبة إلينا اعتداءً مشيناً يستوجب الانتقام؟!

فصاح حسين بحدّة:

- أنت أحمق، ولست تغضب لكرامتك كما تتوهم،  
ولكن نيران الغيرة تلتهم قلبك الخرع، ولو أنّ حميدة  
رضيت بأن تعود إليك لطرت بها فرحاً. كيف لقيتها يا  
رطل؟! نازعتها الحديث والشكاة؟! مرحى. مرحى.  
حييت من رجل همّام!.. لماذا لم تقتلها؟!.. لو كنت  
مكانك ورمت المصادفات إلى يديّ بالمرأة التي خانتني  
لخنقتها بلا تردّد، ثمّ ذبحت عشيقها. واختفيت عن  
الأنظار؟!.. هذا هو ما كان يجب أن تفعله يا رطل.  
وتلبّست وجهه الضارب للسواد صورة شيطانية،  
فاستدرك مزجراً:

- لست أقول هذا متزهّياً، فالحقّ أنّ هذا الرجل  
ينبغي أن يدفع ثمن اعتدائه غالياً، وليدفعته غالياً،  
وسنمضي معاً في الموعد المضروب ونوسعه ضرباً، ثمّ  
نرصده بمظانّة جميعاً ونوالي ضربه ولو اقتضى الحال أن  
نحشد له جيشاً من الأعوان، ولا نكفّ عنه حتّى  
يفتدي نفسه بمبلغ كبير من المال، وبذلك نتقم  
ونستفيد معاً.!

وسرّ عباس بهذه النتيجة غير المتوقّعة، وقال  
بحماس:

- نعم الرأي هو.. حقاً أنت رجل الملّات..!  
وسرّه الثناء، ومضى يفكر في تنفيذ خطّته مدفوعاً  
بغضب لكرامته، وميله الطبيعيّ إلى العدوان، وطمعه  
في الحصول على مبلغ من النقود، ثمّ غمغم بصوت  
ملكه النذير «ما يوم الأحد ببعيدا» وبلغا عند ذاك  
ميدان الملكة فريدة فتوقّف عن المسير وهو يقول:

- عد بنا إلى حانة فيتا..!

ولكنّ الآخر تشبّث بذراعه وهو يقول:

- أليس من الأفضل أن نمضي إلى الحانة التي سنلقاه  
بها يوم الأحد لتعرف الطريق بنفسك؟  
وتردّد حسين لحظات، ثمّ سار معه كما أراد وقد  
حقّاً الخطأ. وكانت الشمس قد مالت للمغرب، ولم  
يكذب يبقّى من نورها إلّا ظلال خفيفة، وشمل السماء  
ذلك الهدوء الخالم الذي تخلّد إليه إذا تراءت لها طلائع

- كيف تريدني على أن أكذب عني؟!!

فتنهّد الحلو بأسى، وراح يروي له ما دار بينهما من  
حديث دون أن يخفي عنه شيئاً، والآخر يصغي إليه  
باهتمام شديد، حتّى ختم حديثه قائلاً:  
- هذا ما أردت أن أطلعك عليه، ولقد تردّت  
حميدة في الهاوية ولا نجاة لها، ولكنني لن أترك المجرم  
الأثيم بغير عقاب.

وحدجه حسين بنظرة طويلة احتار في تفسيرها،  
وكان الفتى بطبعه مستهتراً قليل الاكتراث، فأفاق من  
دهشته بأسرع ممّا قدّر صاحبه، ثمّ قال بازدراء:

- حميدة هي المجرمة الأصليّة، ألم تفرّ معه؟!.. ألم  
تستسلم له؟!.. أمّا هو فماذا نؤاخذه به؟!.. فتاة  
أعجبتة فغواها. ووجدتها سهلة فنال منها وطره، وأراد  
أن يستغلّها فسرّحها في الحانات، هذا لعمرى رجل  
حاذق، وبودّي لو أفعل مثله حتّى تنجاب عني هذه  
الأزمة التي أكابدها. حميدة هي المجرمة يا صاح.  
وكان عبّاس يحسن فهم صاحبه، فلم يداخله شكّ  
في أنّه لا يتورّع عن شيء ممّا ارتكبه غريمه، ولذلك  
تحامى عن حكمة ذمّ الرجل في سلوكه أو خلقه،  
وعمد إلى إثارة نخوته من سبيل آخر فقال:

- ولكن ألا ترى أنّ هذا الرجل قد اعتدى على  
كرامتنا بما يستوجب تأديبه؟

ولم يغب عنه قوله «كرامتنا» وأدرك أنّه يشير إلى  
الأخوة التي تربطه بحميدة، وذكره لتوّه شقيقته  
المطروحة في السجن بسبب فضيحة مماثلة، فاستشاط  
غضباً وحنقاً وزأر صائحاً:

- هذا شأن لا يعنيني، ولتذهب حميدة إلى  
الشيطان.

ولكنّه لم يكن صادقاً كلّ الصدق في ما قال، ولو كان  
لقي ذلك الرجل وقتذاك لوثب عليه كالنمر وأنشب فيه  
مخالبه، ولكنّ الحلو خدع بقوله فصّدقه وقال له بلهجة  
لا تخلو من عتاب:

- ألا يُغضبك أن يعتدي رجل على بنت من زقاقنا  
هذا الاعتداء المنكر؟ أسلم لك بأنّ حميدة مجرمة حقاً،  
وأنّ عمل الرجل في ذاته لا غبار عليه، ولكن أليس

## زقاق المدق ٧٦٩

- حميدة... .

وفزعت الفتاة مستوية على الكرسي، وحملت في وجهه بعينين ملتهبين، وغلبتها الدهشة ثواني، ثم ثابت إلى رشدها وقد هالها ما يتهددها به حمقه من الفضيحة، فصاحت به بصوت خشن فظ جعله العضب كالزئير:

- لا تبق هنا لحظة واحدة... اغرب عن وجهي... .

وفعلت به غضبتها وصراخها فعل النفط بالنار فجن جنونه، واختفى من نفسه ما طبع عليه من تهيب وتردد، ووجد أخيراً ما عاناه في الأيام الثلاثة الماضية من قهر وعذاب وقنوط ثقياً في مرجل نفسه، فانطلق منه صارخاً، مصقراً مجنوناً، ولمح إلى يساره بعض زجاجات الجعة الفارغة على طاولة الحانة، فتناول واحدة وهو لا يدري ما يفعل وقذفها صوبها بكل ما يملك من قوة وغضب وقنوط، في سرعة خاطفة لم يستطع أن يمنعها أحد. لا من الجنود ولا من عمال الحانة، فأصابت الزجاجاة وجهها، وتفجّر الدم غزيراً من أنفها وفمها وذقنها، وانمزج بالأدهنة والمساحيق وسال على عنقها وستانها. واختلط صراخها بزئير السكارى الهائجين، وانقضّ عليه الغاضبون كالوحوش الكواسر، وتطايرت اللكيمات والركلات والزجاجات... .

ووقف حسين كرشة على باب الحانة يرى صاحبه تتقاذفه الأيدي والأرجل وهو كالكرة لا يملك للقضاء دفعاً. وكلما تلقى ضربة هتف صارخاً: «يا حسين... يا حسين»، ولكنّ الفتى الذي لم ينكص عن خوض معركة في حياته لبث متسماً لا يدري كيف يشقّ سبيله إلى صاحبه وسط أولئك الجنود الكواسر الفاتكين، وتملكه الغضب، واشتعلت بصدرة ثورة جائحة، وأخذ يتلفّت يمناً ويسرة علّه يجد آلة حادة أو عصاً أو سكيناً وبقي مقهوراً مغلوباً على أمره، وقد مضى السابله يتجمعون عند مدخل الحانة متطلّعين للمعركة بأعين فزعة وأيدٍ مغلولة... .

الظلام. واشتعلت مصابيح الطريق وأطرد سبل السابله لا يعثون اختلاف الليل والنهار. ودوى سطح الأرض على غير انقطاع، فمن جمجمة الترام إلى أزيز السيارات، ومن نداء الباعة إلى نفخ الزمّارات غير همهمة البشر، فكأنّهما بخروجهما من المدقّ إلى هذا الطريق قد انتقلا من المنام إلى يقظة صاخبة. وارتاح عبّاس الحلو وانقضت الحيرة التي غشيتة طويلاً فعرف سبيله بفضل صاحبه الجريء القوي، أمّا حميدة فقد ترك أمرها معلّقاً للظروف المجهولة تفصل فيه بما تشاء، ولم يستطع أن يبت فيه برأي، أو أنّه أشفق من البتّ فيه برأي حاسم. وقد خطر له لحظة أن يفتح صاحبه ببعض خواطره ولكنّه ما كاد يجتلس إلى وجهه الأسود نظرة حتّى غاص الكلام في حلقة فلم ينبس بكلمة. وواصل السير حتّى بلغا موقف الأمس الذي لا ينسى فلكر عبّاس صاحبه وهو يقول:

- هاك دكان الأزهار الذي حادثها فيه.

ونظر حسين إلى الدكان الذي يشير إليه صامتاً، ثمّ سأله باهتمام:

- وأين الحانة؟

فأوما له إلى باب غير بعيد وهو يغمغم «ها هي ذي»، وراحا يقتربان على مهل وحسين كرشة يتفحص المكان وما يحيط به بعينه الصغيرتين الحادثتين. ونظر عبّاس الحلو إلى داخل الحانة وهما يمرّان بها ف جذب عينيه منظر غريب. ندّت عنه شهقة، وتصلّبت عضلات وجهه، ثمّ جرت الحوادث سريعة قبل أن يفقه لها حسين كرشة معنى. رأى حميدة في جلسة شادة بين نفر من الجنود، كانت تجلس على كرسيّ وإلى ورائها جنديّ واقفاً يسقيها خمراً من كأس في يده، ينحني عليها قليلاً وتميل هي برأسها إليه وقد مدّت ساقها على حجر آخر يجلس قبالتها، وحفّ بهم آخرون يشربون ويعربدون. بهت الفتى وتسمّر في موقفه، ونسي ما كان علمه من مهنتها، وكأنّ الخطب يدهمه على غير علم به، وطمس الدم الفائر بصيرته، فلم يعد يعرف غريباً له في دنياه سواها، واندفع إلى الحانة كالمجنون وصاح بصوت كالرعد:

وكان حسين ينظر فيما أمامه بعينين شاردين فقال بصوت أجشّ:

- قُتل عبّاس الحلّو! قتله الإنجليز! ..

وازدد الفتى ريقه ثمّ أعاد على أبيه ما حدّثه به عبّاس وهما يسيران في الموسكي قبيل مغيب أمس، وقال بصوت حادّ مضطرب:

- وقد مضى بي ليريني الحانة التي وعدته إيّاها الفتاة الشريرة، وأنا لنمرّ بابها إذ رأى العاهرة تعربد في جمع من الجنود، ففقد وعيه واندفع إلى داخل الحانة ورمها بزجاجة في وجهها قبل أن أتنبّه لقصدته، وهاج الجنود وانقضّوا عليه عشرات وعشرات وأوسعوه ضرباً حتّى سقط بينهم لا حراك به.

وكوّر قبضته وقرض أسنانه قائلاً بغضب:

- يا للشيطان! ما كان بوسعي أن أخفّ إلى نجدته! .. حالت دون ذلك جموع الجنود الكثيفة التي سدّت الباب سدّاً... آه لو بلغت يدي عنق جنديّ من أولئك الملاحين..

وكان هذا ما يجرّ فؤاده حرّاً، وما يشبّ في صدره نار الغضب من غير انقطاع، حتّى لقد انقلب إلى الزقاق يكاد يستخفي من الخزي والعار، أمّا المعلّم كرشة فقد ضرب كفاً بكفّ وقال:

- لا حول ولا قوّة إلاّ بالله، وماذا فعلتم به؟

- جاءت الشرطة بعد نفاذ القضاء، وضربوا حول الحانة حصاراً. وما عسى أن يفيد الحصار؟ وحملوا جثته إلى قصر العيني، ونقلوا العاهرة إلى الإسعاف..

فسأل المعلّم باهتمام:

- وهل قُتلت؟ ..

فأجاب الشابّ والحقد يأكل رأسه:

- لا أظنّ... لا أظنّ الضربة كانت قاتلة...!

ضاع الفتى هدراً.

- والإنجليز؟

فقال الشابّ بلهجة أسيفة:

- تركناهم والشرطة تحيط بهم. ولكنّ من ذا

يستطيع أن ينال منهم حقّاً؟

فضرب المعلّم كفاً بكفّ مرّة أخرى وقال:

أضياء الصباح بجنبات الزقاق. وألقت الشمس شعاعاً من أشعتها على أعلى جدران الوكالة ودكّان الحلاق. وغدا سنقر صبيّ القهوة فملاً دلّوا ورشّ الأرض. وكان المدقّ يقلب صفحة من صفحات حياته الرتيبة، وأهله يستقبلون الصباح بهتافتهم المحفوظة.

وفي هذه الساعة الباكرة ينشط عمّ كامل على غير عادته فيقف أمام صبيّة البسوسة يحفّ به صبية المدرسة الإلزامية ويمتلئ جيبه بالملايم، وفي مواجهته أكبّ الحلاق العجوز على المواسي يشحذها، ومضى جعدة الفران يحمل العجين من البيوت، وأقبل العمّال على الوكالة يفتحون أبوابها ومخازنها ومخروقون السكون المخيمّ بجلبتهم التي لا تنقطع طوال النهار، بينما ترتبّع المعلّم كرشة وراء صندوق الماركات في جلسة حاملة يقضم شيئاً بشنّيته ويلوكة في فمه ثمّ يعنصره بقدح من القهوة، وقد جلس على كتب منه الشيخ درويش في صمت وغيوبة. وفي هذه الساعة الباكرة أيضاً تلوح الستّ سنّية عفيفي في نافذتها، تشيّع زوجها الشابّ وهو يغادر الزقاق في طريقه إلى القسم. هكذا تطرد الحياة في المدقّ على وتيرة واحدة إلاّ أن يقلقها اختفاء فتاة من فتيات أو ابتلاع السجن لرجل من رجاله، لكن سرعان ما تنداح هذه الفقاعات في بحيرته الهادئة أو الراكدة، فلا يكاد يأتي المساء حتّى يجرّ النسيان ذبوله على ما جاء به الصباح. أضياء الصبح والزقاق يستقبل هذه الحياة الهادئة المطمئنة، ولما أن أقبل الضحى جاء حسين كرشة مكفهراً الوجه ملتهب الجفون من عدم النوم ليلة كاملة يضرب الأرض بخطوات ثقّال، فمضى إلى مجلس أبيه وارتمى على كرسيّ لقاءه، وهو يقول بصوت غليظ دون تحيّة أو سلام:

- قُتل عبّاس الحلّو يا أبي...!

وكان المعلّم قد أوشك أن يتهره لقضائه الليل

خارج البيت، فلم ينبس بكلمة، وحلق في وجهه

بعينين ذاهلتين، ولبت لحظات جامداً ساهماً كأنه لم

يفهم ما ألقى على سمعه، ثمّ سأل بانزعاج شديد:

- ماذا قلت؟



## زقاق المدق ٧٧١

كان من تطرُّع عمِّ كامل ينقل أثنائه ومعذاته الطيبة إلى شقته، وقيل في تفسير هذا إنَّ عمِّ كامل أثر إشراك الدكتور في مسكنه على الوحدة التي لم يألُفها، ولم يعاتبه أحد في ذلك، بل لعلهم عدَّوها له من المكرمات، لأنَّ السجن لم يكن ممَّا يشين المرء في المدقِّ.

وتحدَّثوا في تلك الأيام عن اتصال أمِّ حميدة بابنتها التي دخلت في طور النقاهاة والشفاء، وعمِّا تحلم به المرأة من جني بعض ثمار هذا الكتر المترع. ثمَّ ثار اهتمام الزقاق فجأة حين سكنت أسرة أحد القضايين شقة الدكتور بوشي، وكانت مكوَّنة من القصاب وزوجه وسبعة من الأطفال وفتاة حسناء. قال حسين كرشة عنها إنَّها كفلقة القمر. ولكن عندما اقترب موعد عودة الحاج رضوان الحسيني من الأقطار الحجازية لم يعد يفكر أحد إلا في هذا اليوم الموعود، وقد علقت الثريات والأعلام وفرشت أرض الزقاق بالرمل، ومثى الجميع نفوسهم بليلة فرح وسرور تدوم ذكرها على الأيام.

ويومًا رأى الشيخ درويش عمِّ كامل وهو يمازح الحلاق العجوز، فهتف وهو يرفع رأسه إلى سقف القهوة:

وما سمى الإنسان إلا لنسيه  
ولا القلب إلا أنه يتقلب

فتجهم وجه عمِّ كامل، وانظفأ لونه، واغرورقت عيناه. ولكنَّ الشيخ درويش هزَّ منكبيه استهانة، وقال وعيناه لا تزالان شاخصتين إلى السقف:

من مات عشقًا فليمت كمدًا  
لا خير في عشق بلا موت

ثمَّ وحوح متنهَّدًا واستدرك قائلاً:

- يا ستَّ الستات.. يا قاضية الحاجات..  
الرحمة.. الرحمة يا آل البيت، والله لأصبرنَّ ما  
حييت، أليس لكلِّ شيء نهاية؟.. بلى لكلِّ شيء  
نهاية... ومعناه بالإنجليزية end وتهجيتها... end.

- إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، وهل علم أهل الفتى بالخبر الأسود؟ اذهب إلى خاله عمِّ حسن القبائبي بالخرنفش وآذنه بموته. والله يفعل ما يريد.

ونفض حسين يغالب تعب وإعياءه وغادر القهوة. وذاع الخبر، وأعاد المعلم كرشة القصة التي رواها ابنه مرَّات ومرَّات على السائلين، فتناقلتها الألسن، وزادت عليها ما شاء لها الهوى، وجاء عمِّ كامل القهوة مترنحًا وقد دهمه الخبر فصعقه وارتمى على أريكة وراح يبكي بكاء مرًا وينتحب كالأطفال، ولا يكاد يصدِّق أنَّ الفتى - الذي أعدَّ له كفتًا - لم يعد من الأحياء. ونمى الخبر إلى أمِّ حميدة فغادرت البيت مولولة حتى قال بعض من رآها إنَّها «تبكي على القاتل لا القاتل!» وكان أشدَّ الناس تأثرًا السيّد سليم علوان، لا حزنًا على الفقيد، ولكن فرغًا من الموت الذي اقتحم عليه الزقاق فأثار مخاوفه وضاعف آلامه، فعاودته أفكاره السوداء، وتصوراته المريضة، وأخيلة الاحتضار والموت والقبر التي نهكت أعصابه. واستحوذ عليه القلق فقامت قيامته ونبا به مجلسه، وجعل يروح ويحيى في الوكالة، أو يخرج إلى الزقاق فيلقي نظرة زائغة على الدكان الذي كان دكان الحلو أعوامًا طويلاً. وكان أعفى نفسه - لشدة الحرارة - من شرب الماء الدافئ. فأمر العامل المكلف بخدمته بأن يدقُّ له ماء للشرب كما كان يفعل في الشتاء، وقضى تلك الساعة نهبًا للخوف والقلق وبكاء عمِّ كامل يصكِّ مسامعه صكًا..

\*\*\*

وانداحت هذه الفقاعة أيضًا كسوابقها، واستوصى المدقِّ بفضيلته الخالدة في النسيان وعدم الاكتراث، وظلَّ كدأبه يبكي صباحًا - إذا عرض له البكاء - ويقهقه ضاحكًا عند المساء. وفيما بين هذا وذاك تصرَّ الأبواب والنوافذ وهي تفتح ثمَّ تصرَّ ككرة أخرى وهي تغلق. ولم يحدث في هذه الفترة أمر ذو بال. اللهمَّ إلا ما كان من إصرار الستِّ سنية عفيفي على إخلاء الشقة التي كان يقطنها الدكتور بوشي قبل سجنه، وما